وفيات الأعيان

ابن خلكان

إبراهيم النخعي

أبو عمران، وأبو عمار، إبراهيم بن يزيد بن الأسود بن عمرو بن ربيعة بن حارثة بن سعد بن مالك بن النخع، الفقيه، الكوفي، النخعي؛ أحد الأئمة المشاهير، تابعي رأى عائشة رضي الله عنها ودخل عليها، و لم يثبت له منها سماع وكان إبراهيم إذا طلبه إنسان لا يحب أن يلقاه خرجت الخادم فقالت اطلبه في المسجد؛ وقال آخر: كنا إذا خرجنا من عند إبراهيم يقول: إن سئلتم عني فقولوا لا ندري أين هو، فإنكم إذا خرجتم لا تدرون أين أكون. توفي سنة ست وقيل خمس وتسعين للهجرة، وله تسع وأربعون سنة، وقيل: ثمان وخمسون سنة، والأول أصح. ولما حضرته الوفاة جزع جزعاً شديداً، فقيل له في ذلك، فقال: وأي خطر أعظم مما أنا فيه؟ إنما أتوقع رسولاً يأتي علي من ربي إما بالجنة، وإما بالنار، والله لوددت أنها تلجلج في حلقي إلى يوم القيامة.

وأمه مليكة بنت يزيد بن قيس النخعية، أخت الأسود بن يزيد النخعي، فهو خاله رضي الله عنه.

ونسبته إلى النخع – بفتح النون والخاء المعجمة وبعدها عين مهملة – وهي قبيلة كبيرة من مذحج باليمن. واسم النخع جسر بن عمرو بن علة بن خالد ابن مالك بن أدد، وإنما قيل له النخع لأنه انتخع من قومه: أي بعد عنهم، وخرج منهم خلق كثير، وقيل في نسبه غير هذا، هذا هو الصحيح، نقلته من جمهرة النسب لابن الكلبي.

أبو ثور صاحب الشافعي

أبو ثور إبراهيم بن خالد بن أبي اليمان الكلبي الفقيه البغدادي صاحب الإمام الشافعي رضي الله عنه وناقل الأقوال القديمة عنه؛ وكان أحد الفقهاء الأعلام والثقات المأمونين في الدين، له الكتب المصنفة في الأحكام جمع فيها بين الحديث والفقه، وكان أول اشتغاله بمذهب أهل الرأي حتى قدم الشافعي العراق فاختلف إليه واتبعه ورفض مذهبه الأول، و لم يزل على ذلك إلى أن توفي لثلاث بقين من صفر سنة ست وأربعين ومائتين ببغداد، ودفن بمقبرة باب الكناس، رحمه الله تعالى. وقال أحمد بن حنبل: هو عندي في مسلاخ سفيان الثوري، أعرفه بالسنة منذ خمسين سنة.

أبو إسحاق المروزي

أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن إسحاق المروزي الفقيه الشافعي؛ إمام عصره في الفتوى والتدريس، أخذ الفقه عن أبي العباس بن سريج وبرع فيه، وانتهت إليه الرياسة بالعراق بعد ابن سريج، وصنف كتباً كثيرة، وشرح مختصر المزني، وأقام ببغداد دهراً طويلاً يدرس ويفتي، وأنجب من أصحابه خلق كثير، وإليه ينسب درب المروزي ببغداد الذي في قطيعة الربيع.

ثم ارتحل إلى مصر في أواخر عمره فأدركه أجله بها فتوفي لتسع خلون من رجب سنة أربعين وثلثمائة، ودفن بالقرب من تربة الإمام الشافعي، رضي الله عنه؛ وقيل: إنه توفي بعد العتمة من ليلة السبت لإحدى عشرة ليلة خلت من رجب من السنة المذكورة وذكره الخطيب في تاريخه.

والمروزي – بفتح الميم وسكون الراء وفتح الواو وبعدها زاء معجمة – نسبة إلى مرو الشاهجان، وهي إحدى كراسي خراسان أربع مدن: هذه، ونيسابور، وهراة وبلخ. إنما قيل لها مروالشاهجان لتتميز عن مرو الروذ، والشاهجان: لفظ عجمي، تفسيره روح الملك، فالشاه: الملك، والجان: الروح، وعادتهم أن يقدموا ذكر المضاف إليه على المضاف، ومرو هذه بناها الإسكندر ذو القرنين، وهي سرير الملك بخراسان، وزادوا في النسبة إليها زاء كما قالوا في النسبة إلى الري: رازي، وإلى إصطخر: إصطخرزي، على إحدى النسبتين، إلا أن هذه الزيادة تختص ببني آدم عند أكثر أهل العلم بالنسب، ماعدا ذلك لا يزاد فيه الزاء، فيقال: فلان المروزي والثوب وغيره من المتاع مروي – بسكون الراء – وقيل: إنه يقال في الجميع بزيادة الزاء، ولا فرق بينهما، وهو من باب تغيير النسب، وسيأتي في ترجمة القاضي أبي حامد أحمد بن عامر المروروذي الفقيه الشافعي بقية الكلام على هذين البلدين، إن شاء الله تعالى.

الأستاذ الإسفراييني

أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن مهران الإسفراييني الملقب بركن الدين، الفقيه الشافعي المتكلم الأصولي؛ ذكره الحاكم أبو عبد الله، وقال: أخذ عن الكلام والأصول عامة شيوخ نيسابور، وأقر له بالعلم أهل العراق، وخراسان، وله التصانيف الجليلة، منها: كتابه الكبير الذي سماه جامع الحلى في أصول الدين والرد على الملحدين رأيته في خمسة مجلدات، وغير ذلك من المصنفات، وأخذ عنه القاضي أبو الطيب الطبري أصول الفقه بإسفراين وبنيت له المدرسة المشهورة بنيسابور، وذكره أبو الحسن عبد الغافر الفارسي، في سياق تاريخ نيسابور، فقال في حقه: أحد من بلغ حد الاجتهاد من العلماء لتبحره في العلوم واستجماعه شرائط الإمامة، وكان طراز ناحية الشرق، وكان يقول: أشتهي أن أموت بنيسابور حتى يصلي علي جميع أهل نيسابور فتوفي بها يوم عاشوراء، سنة ثماني عشرة وأربعمائة، ثم نقلوه إلى إسفراين، ودفن في مشهده، رحمة الله تعالى. واختلف إلى مجلسه أبو القاسم القشيري، وأكثر الحافظ أبو بكر البيهقي الرواية عنه في تصانيفه وغيره من المصنفين، رحمهم الله أجمعين، وسمع بخراسان أبا بكر الإسماعيلي، وبالعراق أبا محمد دعلج بن أحمد السجزي وأقرانهما، وسيأتي الكلام على إسفراين في ترجمة الشيخ أبي أحمد بن محمد الإسفراييني.

أبو اسحاق الشيرازي

الشيخ أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف، الشيرازي، الفيروزأبادي الملقب جمال الدين؛ سكن بغداد، وتفقه على جماعة من الأعيان منهم أبو أحمد عبد الوهاب بن محمد بن أمين وأبو عبد الله محمد بن عبد الله البيضاوي وأبو القاسم منصور بن عمر الكرخي وغيرهم وصحب القاضي أبا الطيب الطبري كثيراً، وانتفع به، وناب عنه في مجلسه، ورتبه معيداً في حلقته، وصار إمام وقته ببغداد، ولما بنى نظام الملك مدرسته ببغداد، ساله أن يتولاها، فلم يفعل، فولاها لأبي نصر ابن الصباغ صاحب الشامل مدة يسيرة، ثم أجاب إلى ذلك فتولاها، و لم يزل بها إلى أن مات، وقد بسطت القول في ذلك في ترجمة الشيخ أبي نصر عبد السيد بن الصباغ، صاحب الشامل، فليطلب منه. وسمع الحديث من أبي بكر أحمد بن محمد بن أحمد بن غالب الخوارزمي البرقاني الحافظ وأبي علي الحسن بن أحمد بن إبراهيم بن شاذان البزار وأبي الفرج محمد بن عبد الله الخرجوشي الشيرازى وغيرهم. وصنف التصانيف المباركة المفيدة، منها: المهذب في المذهب، والتنبيه في الفقه، واللمع وشرحها في أصول الفقه، والنكت في الخلاف، والتبصرة، والمعونة، والتلخيص، في الجدل، وغير ذلك، وانتفع به خلق كثير.

وله الشعر الحسن، فمنه:

سألت الناس عن خلٍ وفيٍ ... فقالوا ما إلى هذا سبيل
تمسك إن ظفرت بذيل حر ... فإن الحر في الدنيا قليل

وقال الشيخ أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشي الآتي ذكره إن شاء الله تعالى: كان ببغداد شاعراً مفلق، يقال له عاصم، فقال يمدح الشيخ أبا إسحاق قدس الله سره:

تراه من الذكاء نحيف جسمٍ ... عليه من توقده دليل
إذا كان الفتى ضخم المعالي ... فليس يضره الجسم النحيل

وكان في غاية من الورع والتشدد في الدين، ومحاسنه أكثر من أن تحصر.

ولد في سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة بفيروزاباذ، وتوفي ليلة الأحد، الحادي والعشرين من جمادى الآخرة، قاله السمعاني في الذيل، وقيل: في جمادى الأولى، قاله السمعاني أيضا، سنة ست وسبعين وأربعمائة، ببغداد، ودفن من الغد بباب أبرز، رحمة الله.

ورثاه أبو القاسم ابن ناقياء، واسمه عبد الله، وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى، بقوله:

أجرى المدامع بالدم المهراق | خطب أقام قيامة الآماق
ما لليالي لاتؤلف شملها | بعد ابن بجدتها أبي إسحاق
إن قيل مات فلم يمت من ذكره | حي على مر الليالي باقي

وذكره محب الدين النجار في تاريخ بغداد، فقال في حقه: إمام أصحاب الشافعي، ومن انتشر فضله في البلاد، وفاق أهل زمانه بالعلم والزهد، وأكثر علماء الأمصار من تلامذته. ولد بفير وزاباذ، بلدة بفارس، ونشأ بها، ودخل شيراز، وقرأ بها الفقه على أبي عبد الله البيضاوي، وعلى أبي أحمد عبد الوهاب بن رامين، ثم دخل البصرة وقرأ على الجوزي، ودخل بغداد في شوال سنة خمس عشرة وأربعمائة وقرأ على أبي الطيب الطبري، ومولده في سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة.

وقال أبو عبد الله الحميدي: سألته عن مولده، فذكر دلائل دلت علىسنة ست وتسعين، قال: ورحلت في طلب العلم إلى شيراز، في سنة عشر وأربعمائة، وقيل: إن مولده في سنة خمس وتسعين، والله أعلم.

وجلس أصحابه للعزاء بالمدرسة النظامية، ولما انقضى العزاء رتب مؤيد الملك بن نظام الملك أبا سعد المتولي مكانه، ولما بلغ الخبر نظام الملك كتب بإنكار ذلك، وقال: كان من الواجب أن تغلق المدرسة سنة لأجله، وزرى على من تولى موضعه، وأمرأن يدرس الشيخ أبو نصر عبد السيد بن الصباغ في مكانه، رحمهم الله تعالى.

وفير وزاباذ –بكسر الفاء وسكون الياء المثناة من تحت وضم الراء المهملة وبعد الواو الساكنة زاء مفتوحة معجمة وبعد الألف باء موحدة وبعدالألف ذال معجمه – بلدة بفارس، ويقال: هي مدينة جور، قاله الحافظ أبو سعد ابن السمعاني في كتابه الأنساب، وقال غيره: هي بفتح الفاء، والله أعلم.

ابراهيم بن أدهم

أبوإسحاق إبراهيم بن منصور بن زيد بن جابر العجلي ويقال التميمي؛ أصله من بلخ وكان من أولاد الملوك، روى عن جماعة من التابعين كأبي إسحاق السبيعي وأبي حازم وقتادة ومالك بن دينار والأعمش وأبان، واشتغل بالزهد عن الرواية وكان يكون بالكوفة ثم بالشام؛ مر به يوماً بريد وهو ينطر كرماً فقال: ناولني من هذا العنب، فقال: ما أذن لي صاحبه، فقلب السوط وجعل يقنع رأسه، فطأطأ إبراهيم رأسه وقال: اضرب رأساً طال ما قد عصىالله، قال: فانخذل ومضى.

وقال شقيق البلخي: قال لي إبراهيم أخبرني عما أنت عليه، فقلت: إذا رزقت أكلت وإذا منعت صبرت، قال: هكذا تعمل كلاب بلخ عندنا. قلت له: فكيف تعمل أنت؟ قال: إذا رزقت آثرت وإذا منعت شكرت.

وكان إبراهيم في البحر وهبت ريح واضطربت السفن وبكى الناس فقيل لبعضهم: هذا إبراهيم بن أدهم لو سألته أن يدعو الله، وكان قائما في ناحية من السفينة ملفوف رأسه، فدنا إليه وقال: يا أبا إسحاق، ماترى ما فيه الناس؟ فرفع رأسه وقال: اللهم قد أريتنا قدرتك فأرنا رحمتك، فهدأت السفن.

قال رجل لبشر بن الحارث: إني أحب أن أسلك طريق إبراهيم بن أدهم، قال: لا تقوى، قال: و لم؟ قال: لأن إبراهيم بن أدهم عمل و لم يقل وأنت قلت و لم تعمل.

قال أبو سليمان الداراني: صلى إبراهيم خمس عشرة صلاة بوضوء واحد، وتوفي سنة140في الجزيرة وحمل إلى صور فدفن هناك، رحمه الله تعالى ونفعنا ببركاته، إنه على مايشاء قدير.

العراقي الخطيب

أبو إسحاق إبراهيم بن منصور بن المسلم، الفقيه الشافعي المصري المعروف بالعراقي، الخطيب بجامع مصر؛ كان فقيهاً فاضلاً، وشرح كتاب المهذب، تصنيف الشيخ أبي إسحاق الشيرازي - رحمة الله تعالى - في عشرة أجزاء شرحاً جيداً، و لم يكن من العراق، وإنما سافر إلى بغداد، واشتغل بها مدة، فنسب إليها لإقامته بها تلك المدة، وعاد إلى مصر وتولى الخطابة بجامعها العتيق والإمامة به والتصدر، و لم يزل على الخطابة والإمامة به والإفادة إلى حين وفاته ومضى على سداد وأمر جميل. قرأ ببغداد الفقه على أبي بكر محمد بن الحسين الأرموي، وكان من أصحاب الشيخ أبي إسحاق الشيرازي، وعلى أبي الحسن محمد بن المبارك بن الخل البغدادي، وتفقه ببلده على القاضي أبي المعالي مجلي بن جميع الآتي ذكره إن شاء الله تعالى، وكان في بغداد يعرف بالمصري، فلما رجع إلى مصر قيل له: العراقي، والله أعلم.

وقد روي عن الخطيب أبي إسحاق المذكور أنه كان يقول: أنشدني شيخنا ابن الخل المذكور ببغداد، و لم يسم قائلاً:

في زخرف القول تزيين لباطله ... والحق قد يعتريه سوء تعبير

تقول هذا مجاج النحل تمدحه ... وإن ذممت تقل قيء الزنابير

مدحاً وذماً وما جاوزت وصفهما ... حسن البيان يري الظلماء كالنور

وكانت ولادته بمصر، سنة عشر وخمسمائة، وتوفي يوم الخميس الحادي والعشرين من جمادى الأولى، سنة ست وتسعين وخمسمائة بمصر، ودفن بسفح المقطم، رحمة الله تعالى.

والمسلم: بضم الميم وتشديد اللام.

وكان له ولد فاضل، نبيل القدر، اسمه أبو محمد عبد الحكم، ولي الخطابة بجامع مصر بعد وفاة والده، وكانت له خطب جيدة، وشعر لطيف.

فمن شعره في العماد ابن جبريل، المعروف بابن أخي العلم - وكان صاحب ديوان بيت المال بمصر، وكان قد وقع فانكسرت يده - قوله:

إن العماد بن جبريل أخي علمٍ ... له يد أصبحت مذمومة الأُثر

تأخر القطع عنها وهي سارقة ... فجاءها الكسر يستقصي عن الخبر

وله غير ذلك أشعار نادرة، ثم وجدت هذين البيتين في ديوان جعفر بن شمس الخلافة الآتي ذكره؛ والله أعلم.

ومن شعر عبد الحكم المذكور في رجل وجب عليه القتل، فرماه المستوفي للقصاص بسهم فأصاب كبده فقتله، فقال عبد الحكم:

أخرجت من كبد القوس ابنها فغدت ... تئن والأم قد تحنو على الولد

وما درت أنه لما رميت به ... ما سار من كبد إلا إلى كبد

قلت: البيت الأول من هذين البيتين مأخوذ من قول بعض المغاربة:

لا غرو من جزعي لبينهم ... يوم النوى وأنا أخوالهم

فالقوس من خشب تئن إذا ... ما كلفوها فرقة السهم

والبيت الثاني مأخوذ من قول الفقيه عمارة اليمني، الآتي ذكره إن شاء الله تعالى، في قصيدته الميمية التي ذكرنا هناك، وقد قدم من مكة - شرفها الله تعالى - إلى الديار المصرية، وامتدح بها مليكها يومئذ، - وهو الفائز عيسى بن الظافر العبيدي، ووزيره الصالح طلائع بن رزيك، وكلاهما مذكوران في هذا التاريخ، فقال من جملة القصيدة، يمدح العيس التي حملته إلى مصر:

ورحن من كعبة البطحاء والحرم ... وفداً إلى كعبة المعروف والكرم

فهل درى البيت أني بعد فرقته ... ما سرت من حرم إلا إلى حرم

ومن شعر عبد الحكم أيضا:

قامت تطالبني بلؤلؤ نحرها	لما رأت عيني تجود بدرها
وتبسمت عجباً فقلت لصاحبي	هذا الذي اتهمت به في ثغرها

قلت: وهذا المعنى مأخوذ من قول أبي الحسن علي بن عطية المعروف بابن الزقاق الأندلسي البلنسي:

وشادن طاف بالكؤوس ضحىً	فحثها والصباح قد وضحا
والروض يبدي لنا شقائقه	وآسه العنبري قد نفحا
قلت :وأين الأقاح؟ قال لنا:	أودعته ثغر من سقى القدحا
فظل ساقي المدآم يجحد ما	قال، فلما تبسم افتضحا

وكان الوزير صفي الدين أبو محمد عبد الله بن علي المعروف بابن شكر وزيرالملك العادل بن أيوب بمصر، قد عزل عبد الحكم المذكور عن خطابة جامع مصر، فكتب إليه:

فلأي بابٍ غير بابك أرجع	وبأي جود غير جودك أطمع
سدت علي مسالكي ومذاهبي	إلا إليك فدلني ما أصنع
فكأنما الأبواب بابك وحده	وكأنما أنت الخليقة أجمع

قلت: والبيت الأخير مأخوذ من قول السلامي الشاعر المشهور، وهو:

فبشرت آمالي بملكٍ هو الورى	ودار هي الدنيا ويوم هو الدهر

وسيأتي ذكرها في ترجمة عضد الدولة بن بويه في حرف الفاء، إن شاء الله تعالى.

ولعبد الحكم المذكور يستجلي زوجته:

سترت وجهها بكف عليه	شبك النقش وهي تجلى عروسا
قلت لم يغن عنك سترك شيئاً	ومتى غطت الشباك الشموسا؟

وله أيضاً:

ومأدبة بتنا بها في لذاذة	يخيل لي أنا على الماء نوم
فمن فوقنا الأفلاك والفلك تحتنا	ففي تلك أقمار وفي تيك أنجم

وله أيضاً:

ومأدبة لتنا بها في لذاذة	يخيل لي أنا على الماء نوم
فمن فوقنا الأفلاك والفلك تحتنا	ففي تلك أقمار وفي تيك أنجم

وله أيضا:

على مهل ففي الأحوال ريث	أتخشى أن تضام وأنت ليث

بمصر إن أقمت فأنت نيل | وإن سرت الشآم فأنت غيث

وكانت ولادته ليلة الأحد تاسع عشر جمادى الآخرة سنة ثلاث وستين وخمسمائة.

وتوفي سحرة الثامن والعشرين من شعبان سنة ثلاث عشرة وستمائة، بمصر، ودفن من الغد بسفح المقطم، رحمة الله تعالى عليه.

وأنشدني ولده شيئاً كثيراً من شعره، وطريقته فيه لطيفة.

وأما العماد المذكور فهو أبو عبد الله محمد بن أبي الأمانة جبريل بن المغيرة بن سلطان بن نعمة، وكان فاضلاً مشهوراً بكثرة الأمانة فيما يتولاه، وتقلب في الخدم الديوانية بمصر والإسكندرية، وكانت ولادته سنة ثمان وخمسين وخمسمائة، وتوفي في خامس شعبان سنة سبع وثلاثين وستمائة بالقاهرة، رحمة الله تعالى.

ابن عسكر الموصلي

أبو إسحاق إبراهيم بن نصر بن عسكر، الملقب ظهير الدين، قاضي السلامية، الفقيه الشافعي الموصلي؛ ذكره ابن الدبيثي في تاريخه، فقال: أبو إسحاق من أهل الموصل، تفقه على القاضي أبي عبد الله الحسين بن نصر بن خميس الموصلي، بالموصل، وسمع منه، قدم بغداد وسمع بها من جماعة، وعاد إلى بلده، وتولى قضاء السلامية إحدى قرى الموصل، وروى بإربل عن أبي البركات عبد الرحمن بن محمد الأنباري النحوي شيئاً من مصنفاته. سمع منه ببغداد، وسمع منه جماعة من أهلها. انتهى كلامه.

وكان فقيهاً فاضلاً أصله من العراق من السندية، تفقه بالمدرسة النظامية ببغداد وسمع الحديث ورواه. وتولى القضاء بالسلامية – وهي بلدة بأعمال الموصل – وطالت مدته بها. وغلب عليه النظم، ونظمه رائق. فمن شعره:

لاتنسبوني يا ثقاتي إلى | غدر فليس الغدر من شيمتي

أقسمت بالذاهب من عيشنا | وبا لمسرآت التي ولت

أني على عهدكم لم أحل | وعقدة الميثاق ما حلت

ومن شعره أيضا:

جود الكريم إذا ما كان عن عدة | وقد تأخر لم يسلم من الكدر

إن السحائب لا تجدي بوارقها | نفعاً إذا هي لم تمطر على الأثر

وما طل الوعد مذموم وإن سمحت | يداه من بعد طول المطل بالبدر

يا دوحة الجود لاعتب على رجل | يهزها وهو محتاج إلى الثمر

وكان بالبوازيج – وهي بليدة بالقرب من السلامية – زاوية لجماعة من الفقراء اسم شيخهم مكي، فعمل فيهم:

ألا قل لمكي قول النصوح | فحق النصيحة أن تستمع

متى سمع الناس في دينهم | بأن الغنا سنة تتبع؟

وأن يأكل المرء أكل البعير | ويرقص في الجمع حتى يقع

ولو كان طاوي الحشا جائعا | لما دار من طرب واستمع

وقالوا سكرنا بحب الإله | وما أسكر القوم إلا القصع

كذاك الحمير إذا أخصبت ينقزها ريها و الشبع

ذكره أبو البركات ابن المستوفي في تاريخ إربل، وأثنى عليه، وأورد له مقاطيع عديدة ومكاتبات جرت بينهما. وذكره العماد الكاتب في الخريد فقال: شاب فاضل، ومن شعره قوله:

أقول له صلني فيصرف وجهه كأني أدعوه لفعل محرم

فإن كان خوف الإثم يكره وصلتي فمن أعظم الآثام قتلة مسلم

توفي يوم الخميس ثالث شهر ربيع الآخر سنة عشر وستمائة بالسلامية، رحمه الله تعالى.

وكان له ولد اجتمعت به في حلب، وأنشدني من شعره وشعرأبيه كثيراً، وكان شعره جيداً، ويقع له المعاني الحسنة.

والسلامية: بفتح السين المهملة وتشديد اللام وبعد الميم ياء مثناة من تحتها ثم هاء، وهي بليدة على شط الموصل من الجانب الشرقي أسفل الموصل، بينهما مسافة يوم، فالموصل في الجانب الغربي. وقد خربت السلامية القديمة التي كان الظهير قاضيها، وأنشئت بالقرب منها بليدة أخرى وسموها السلامية أيضا.

ابراهيم بن المهدي

أبو إسحاق إبراهيم بن المهدي بن المنصور أبي جعفر بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب الهاشمي، أخو هارون الرشيد؛ كانت له اليد الطولى في الغناء والضرب بالملاهي وحسن المنادمة، وكان أسود اللون لأن أمه كانت جارية سوداء، واسمها شكلة – بفتح الشين المعجمة وكسرها، وسكون الكاف، وبعد اللام هاء –وكان مع سواده عظيم الجثة، ولهذا قيل له التنين، وكان وافر الفضل، غزير الأدب، واسع النفس، سخي الكف، و لم ير في أولاد الخلفاء قبله أفصح منه لساناً، ولا أحسن منه شعراً، بويع له بالخلافة ببغداد بعد المائتين والمأمون يومئذ بخراسان، وقصته مشهورة، وأقام خليفة بها مقدار سنتين، وذكر الطبري في تاريخه أن أيام إبراهيم بن المهدي كانت سنة واحد عشر شهراً واثني عشر يوماً.

وكان سبب خلع المأمون وبيعة إبراهيم بن المهدي أن المأمون لما كان بخراسان جعل ولي عهده علي بن موسى الرضا الآتي ذكره في حرف العين إن شاء الله تعالى، فشق ذلك على العباسيين ببغداد خوفاً من انتقال الأمر عنهم إلى العلويين فبايعوا إبراهيم بن المهدي المذكور، وهوعم المأمون، ولقبوه المبارك. وقيل سموه المرضي، وكانت مبايعته يوم الثلاثاء لخمس بقين من ذي الحجة سنة إحدى ومائتين ببغداد، بايعه العباسيون في الباطن ثم بايعه أهل بغداد في أول يوم من المحرم سنة اثنتين ومائتين، وخلعوا المأمون، فلما كان يوم الجمعة لخمس خلون من المحرم أظهروا ذلك، وصعد إبراهيم المنبر، وكان المأمون لما بايع علي بن موسى الرضا بولاية العهد أمر الناس بترك لباس السواد الذي هو شعار بني العباس، وأمرهم بلباس الخضرة، فعز ذلك على بني العباس أيضاً، وكان من جملة الأسباب التي نقموها على المأمون، ثم أعاد لبس السواد يوم الخميس لليلة بقيت من ذي القعدة سنة سبع ومائتين لسبب اقتضى ذلك، ذكره الطبري في تاريخه فلما توجه المأمون من خراسان إلى بغداد خاف إبراهيم على نفسه، فاستخفى، وكان استخفاؤه ليلة الأربعاء لثلاث عشرة ليلة بقيت من ذي الحجة سنة ثلاث ومائتين، وذلك بعد أمور يطول شرحها، ولايحتمل هذا المختصر ذكرها، ثم دخل المأمون بغداد يوم السبت لأربع عشرة ليلة بقيت من صفر سنة أربع ومائتين، ولما استخفى إبراهيم عمل فيه دعبل الخزاعي:

نعر ابن شكلة بالعراق وأهله فهفا إليه كل أطلس مائق

إن كان، إبراهيم مضطلعاً بها فلتصلحن من بعده لمخارق

ولتصلحن من بعد ذاك لزلزل ولتصلحن من بعده للمارق

أنى يكون وليس ذاك بكائن يرث الخلافة فاسق عن فاسق

ومخارق: بضم الميم وفتح الخاء المعجمة، وزلزل: بضم الزاءين المعجمتين، والمارق: هؤلاء الثلاثة كانوا مغنين في ذلك العصر.

وأخبار إبراهيم طويلة شهيرة.

وقال إبراهيم: قال لي المأمون، وقد دخلت عليه بعد العفو عني: أنت الخليفة الأسود، فقلت: يا أمير المؤمنين، أنا الذي مننت عليه بالعفو، وقد قال عبد بني الحسحاس:

أشعار عبد بني الحسحاس قمن له عند الفخار مقام الأصل والورق

إن كنت عبداً فنفسي حرة كرما أو أسود الخلق إني أبيض الخلق

فقال لي: ياعم أخرجك الهزل إلى الجد، وأنشد يقول:

ليس يزرى السواد بالرجل الشه م ولا بالفتى الأديب الأريب

إن يكن لسواد فيك نصيب فبياض الأخلاق منك نصيبي

قلت: وقد نظم بعض المتأخرين، وهو الأعز وأبو الفتوح نصر الله بن قلاقس الإسكندري – وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى في حرف النون – هذا المعنى وزاد فيه وأحسن كل الإحسان، وهو قوله:

رب سوداء وهي بيضاء فعل حسد المسك عندها الكافور

مثل حب العيون يحسبه النا س سواداً وإنما هو نور

وجلس المعتصم يوماً – وقد تولى الخلافة بعد المأمون – وعن يمينه العباس بن المأمون، وعن يساره إبراهيم بن المهدي، فجعل إبراهيم يقلب خاتماً في يده، فقال له العباس: ياعم ماهذا الخاتم؟ فقال: خاتم رهنته في أيام أبيك فما فككته إلا في أيام أمير المؤمنين، فقال له العباس: والله لئن لم تشكر أبي على حقن دمك مع عظيم جرمك لاتشكر أمير المؤمنين على فك خاتمك، فأفحمه.

وهذا إبراهيم في حديثه طول كثير أورده أرباب التواريخ في كتبهم، لكن اختصرته، ونبهت على المقصود منه، وقد استوفى الطبرى وغيره الكلام فيه.

ولما ظفر المأمون بإبراهيم شاور فيه أحمد بن أبي خلد الأحول الوزير، فقال: يا أمير المؤمنين، إن قتلته فلك نظراء، وإن عفوت عنه فما لك نظير.

وكانت ولادته غرة ذي القعدة سنة اثنتين وستين ومائة، وتوفي يوم الجمعة لتسع خلون من شهر رمضان سنة أربع وعشرين ومائتين بسر من رأى، وصلى عليه ابن أخيه المعتصم، رحمه الله تعالى.

وسر من رأى فيها ست لغات حكاها الجوهري في كتاب الصحاح في فصل رأى، وهن: سر من رأى – بضم السين المهملة وفتحها – وسر من راء – بضم السين وفتحها وتقديم الألف على الهمزة في اللغتين – وساء من رأى، وسامرا، واستعمله البحتري ممدوداً في قوله: ونصبته علماً بسامراء ولا أعلم هل هي لغة شائعة أو استعمله كذلك ضرورة.

وسر من رأى: مدينة بالعراق، بناها المعتصم في سنة عشرين ومائتين وفيها السرداب الذي ينتظر الإمامية خروج الإمام منه، وسيأتي ذكره في حرف الميم في المحمدين إن شاء الله تعالى.

ابراهيم النديم الموصلي

أبو إسحاق إبراهيم بن ماهان – ويقال له أيضا: ميمون – بن بهمن بن نسك، التميمي بالولاء، الأرجاني، المعروف بالنديم، الموصلي: ولم يكن من الموصل، وإنما سافر إليها وأقام بها مدة، فنسب إليها، هكذا ذكره أبو الفرج الأصبهاني في كتاب الأغاني.

وهو من بيت كبير في العجم. وانتقل والده ماهان إلى الكوفة وأقام بها.

وأول خليفة سمعه المهدي بن المنصور، و لم يكن في زمانه مثله في الغناء واختراع الألحان وكان إذا غنى إبراهيم، وضرب له منصور المعروف بزلزل، اهتزلهما المجلس، وكان إبراهيم زوج أخت زلزل المذكور، وأخباره ومجالسه مشهورة.

وحكي أن هارون الرشيد كان يهوى جاريته ماردة هوى شديداً، فتغاضبا مرة ودام بينهما الغضب، فأمر جعفر البرمكي العباس بن الأحنف أن يعمل في ذلك شيئا، فعمل:

راجع أحبتك الذين هجرتهم | إن المتيم قلما يتجنب
إن التجنب إن تطاول منكما | دب السلو له فعز المطلب

وأمر إبراهيم الموصلي فغنى به الرشيد، فلما سمعه بادر إلى ماردة فترضاها، فسألت عن السبب في ذلك، فقيل لها، فأمرت لكل واحد من العباس وإبراهيم بعشرة آلاف درهم، وسألت الرشيد أن يكافئهما، فأمر لهما بأربعين ألف درهم.

وكان هارون قد حبس إبراهيم في المطبق، فأخبر سلم الخاسر أبا العتاهية بذلك، فأنشده:

سلم يا سلم ليس دونك سر | حبس الموصلي فالعيش مر
ما استطاب اللذات مذ غاب في المط | بق رأس اللذات في الناس حر
ترك الموصلي من خلق الله | جمعا وعيشهم مقشعر
حبس اللهو والسرور فما في ال | أرض شيء يلهى به ويسر

ولد إبراهيم المذكور بالكوفة سنة خمس وعشرين ومائة، وتوفي ببغداد سنة ثمان وثمانين ومائة بعلة القولنج، وقيل: سنة ثلاث عشرة ومائتين، والأول أصح، رحمة الله تعالى. وفي ترجمة العباس بن الأحنف خبر وفاته أيضاً فلينظر فيها، وقيل: مات إبراهيم الموصلي وأبو العتاهية الشاعر وأبو عمرو الشيباني النحوي في سنة ثلاث عشرة ومائتين في يوم واحد ببغداد، وإن أباه مات وهوصغير فكفله بنو تميم وربوه، ونشأ فيهم فنسب إليهم، والله أعلم.

وسيأتي ذكر ولده إسحاق.

وأرجان: بتشديد الراء المهملة، حكاه الجوهري والحازمي، وهي مذكرة في ترجمة أحمد الأرجاني.

ابراهيم الصولي

إبراهيم بن العباس بن محمد بن صول تكين الصولي، الشاعر المشهور؛ كان أحد الشعراء المجيدين، وله ديوان شعر كله نخب، وهو صغير، ومن رقيق شعره:

دنت بأناس عن تناءٍ زيارة | وشط بليلى عن دنو مزارها
وإن مقيمات بمنعرج اللوى | لأقرب من ليلى وهاتيك دارها

وله نثر بديع، فمن ذلك ماكتبه عن أمير المؤمنين، إلى بعض البغاة الخارجين يتهددهم ويتوعدهم، وهو أما بعد، فإن لأمير المؤمنين أناة، فإن لم تغن عقب بعدها وعيداً، فإن لم يغن أغنت عزائمه، والسلام وهذا الكلام مع وجازته في غاية الإبداع، فإنه ينشأ منه بيت شعر له أوله:

أناة فإن لم تغن عقب بعدها | وعيداً فإن لم يغن أغنت عزائمه

وكان يقول: ما اتكلت في مكاتبتي قط إلا على ما يجلبه خاطري ويجيش به صدري، إلا قولي: وصار ما يحرزهم يبرزهم، وما كان يعقلهم يعتقلهم، وقولي في رسالة أخرى: فأنزلوه من معقل إلى عقال، وبدلوه آجالاً من آمال فإني ألممت بقولي آجالا من آمال بقول مسلم بن الوليد الأنصاري، المعروف بصريع الغواني، وهو:

موف على مهج في يوم ذي رهج ... كأنه أجل يسعى إلى أمل

وفي المعقل والعقال بقول أبي تمام:

فإن باشر الإصحار فالبيض والقنا ... قراه، وأحواض المنايا مناهله

وإن يبن حيطانا عليه فإنما ... أولئك عقالاته لامعاقله

وإلا فأعلمه بأنك ساخط ... عليه فإن الخوف لاشك قاتله

وهو ابن أخت العباس بن الأحنف الحنفي الشاعر المشهور.

ونسبته إلى جده صول المذكور، وكان أحد ملوك جرجان، وأسلم على يد يزيد بن المهلب بن أبي صفرة، وقال الحافظ أبو القاسم حمزة بن يوسف السهمي في تاريخ جرجان: الصولي جرجاني الأصل، وصول من بعض ضياع جرجان، ويقال لها جول، وهو عم والد أبي بكر محمد بن يحيى بن عبد الله بن العباس الصولي، صاحب كتاب الوزراء وغيره من المصنفات، فإنهما يجتمعان في العباس المذكور.

وقد ذكره أبو عبد الله محمد بن داود بن الجراح في كتاب الورقة فقال: إبراهيم بن العباس بن محمد بن صول، بغدادى أصله من خراسان، يكنى أبا إسحاق، أشعر نظرائه الكتاب وأرقهم لساناً، وأشعاره قصار ثلاثة أبيات ونحوها إلى العشرة، وهو أنعت الناس للزمان وأهله غير مدافع، وأصله تركي، وكان صول وفيروز وأخوين ملكا جرجان، تركيان، تمجسا وصارا أشباه الفرس، فلما حضر يزيد بن المهلب بن أبي صفرة جرجان أمنهما، فلم يزل صول معه، وأسلم على يده حتى قتل معه يوم العقر.

وكان أبو عمارة محمد بن صول أحد جلة الدعاة، وقتله عبد الله بن علي العباسي، عم السفاح والمنصور، لما خلع مع مقاتل بن حكيم العكي وغيره. واتصل إبراهيم وأخوه عبد الله بذي الرياستين الفضل بن سهل، ثم تنقل في أعمال السلطان ودواوينه إلى أن توفي وهو يتقلد ديوان الضياع والنفقات بسر من رأى للنصف من شعبان سنة ثلاث وأربعين ومائتين.

قال دعبل بن علي الخزاعي: لو تكسب إبراهيم بن العباس بالشعر لتركنا في غير شيء، هذا آخر ما نقلته من كتاب الورقة.

وقد وقفت على ديوانه، ونقلت منه أشياء، منها قوله، وهذان البيتان يوجدان في ديوان مسلم بن الوليد الأنصارى، والله أعلم:

لايمنعنك خفض العيش في دعة ... نزوع نفس إلى أهل وأوطان

تلقى بكل بلاد إن حللت بها ... أهلاً بأهل وجيراناً بجيران

وله – ويقال: إنه ماردده‍ما من نزلت به نازلة إلا فرج الله تعالى عنه –:

ولرب نازلة يضيق بها الفتى ... ذرعاً وعند الله منها المخرج

ضاقت فلما استحكمت حلقاتها ... فرجت وكان يظنها لاتفرج

ومن شعره:

أولى البرية طراً أن تواسيه ... عند السرور الذي واسك في الحزن

إن الكرام إذا ما أسهلوا ذكروا ... من كان يألفهم في المنزل الخشن

وله – ويقال: إنه كتبها إلى محمد بن عبد الملك الزيات، وزير المعتصم –:

وكنت أخي بإخاء الزمان فلما نباصرت حرباعوانا

وكنت أذم إليك الزمان فأصبحت منك أذم الزمانا

وكنت أعدك للنائبات فها أنا أطلب منك الأمانا

وله أيضاً:

كنت السواد لمقلتي فبكى عليك الناظر

من شاء بعدك فليمت فعليك كنت أحاذر

وأورد له أبو تمام الطائي في كتاب الحماسة في باب النسيب:

ونبئت ليلى أرسلت بشفاعة إلي، فهلا نفس ليلى شفيعها

أألكرم من ليلى علي فتبتغي به الجاه أم كنت امرءاً لاأطيعها

وله كل مقطوع بديع، والاختصارأولى بالمختصر.

وسيأتي ذكر ابن أخيه بن يحيى الصولي في المحمدين، إن شاء الله تعالى.

توفي إبراهيم الصولي المذكور منتصف شعبان سنة ثلاث وأربعين ومائتين بسر من رأى، رحمه الله تعالى.

نفوطيه

أبو عبد الله إبراهيم بن محمد بن عرفة بن سليمان بن المغيرة بن حبيب بن المهلب ابن أبي صفرة الأزدي، الملقب نفوطيه النحوي الواسطي؛ له التصانيف الحسان في الآداب، وكان عالماً بارعاً، ولد سنة أربع وأربعين ومائتين، وقيل: سنة خمسين ومائتين بواسط وسكن بغداد. وتوفي في صفر سنة ثلاث وعشرين وثلثمائة يوم الأربعاء، لست خلون منه، بعد طلوع الشمس بساعة. وقيل؛ توفي سنة أربع وعشرين وهو ابن مجاهد المقرىء ببغداد، والله أعلم، ودفن ثاني يوم بباب الكوفة، رحمه الله تعالى.

قال ابن خالويه: ليس في العلماء من اسمه إبراهيم وكنيته أبو عبد الله سوى نفوطويه.

ومن شعره ما ذكره أبو علي القالي في كتاب الأمالي:

قلبي عليك أرق من خديكا وقواي أوهى من قوى جفنيكا

لم لاترق لمن يعذب نفسه ظلماً وبعطفه هواه عليكا

وفيه يقول أبو عبد الله محمد بن زيد بن علي بن الحسين الواسطي المتكلم المشهور، صاحب الإمامة وكتاب إعجاز القرآن الكريم في نظمه وغيرهما:

من سره أن لايرى فاسقاً فليجتهد أن لايرى نفطويه

أحرقه الله بنصف اسمه وصير الباقي صراخاً عليه

وتوفي أبو عبد الله محمد المذكور سنة سبع – وقيل: سنة ست – وثلثمائة رحمة الله تعالى.

حكى عبد العزيز بن الفضل قال: خرج القاضي أبو العباس أحمد بن عمر بن سريج، وأبو بكر محمد بن داود الظاهري، وأبو عبد الله نفطويه إلى وليمة دعوا لها، فأفضى بهم الطريق إلى مكان ضيق، فأراد كل واحد منهم صاحبه أن يتقدم عليه، فقال ابن سريج: ضيق الطريق يورث سوء الأدب، وقال ابن داود: لكنه يعرف مقادير الرجال، فقال نفطويه: إذا استحكمت المودة بطلت التكاليف.

ونفطويه – بكسر النون وفتحها والكسر أفصح والفاء ساكنة – قال أبو منصور الثعالبي في أوائل كتاب لطائف المعارف: إنه لقب نفطويه لدمامته وأدمته تشبيها له بالنفط، وهذا اللقب على مثال سيبويه، لأنه كان ينسب في النحو إليه، ويجري على طريقته، ويدرس كتابه، والكلام في ضبط نفطويه ونظائره كالكلام على سيبويه، وهو مذكور في ترجمته، واسمه عمرو، فليكشف منه.

أبو اسحاق الزجاج

أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن السرى بن سهل الزجاج النحوي؛ كان من أهل العلم بالأدب والدين المتين، وصنف كتاباً في معاني القرآن وله كتاب الأمالي، وكتاب مافسر من جامع المنطق، وكتاب الاشتقاق، وكتاب العروض، وكتاب القوافي وكتاب الفرق، وكتاب خلق الإنسان، وكتاب خلق الفرس، وكتاب مختصر في النحو، وكتاب فعلت وأفعلت، وكتاب ماينصرف ومالاينصرف، وكتاب شرح أبيات سيبويه، وكتاب النوادر، وكتاب الأنواء، وغير ذلك.

وأخذ الأدب عن المبرد وثعلب، رحمهما الله تعالى، وكان يخرط الزجاج، ثم تركه واشتغل بالأدب، فنسب إليه. روى أبو سليمان الخطابي عن أحمد بن الحسين الفرائضي قال: كان أصحاب المبرد إذا اجتمعوا واستأذنوا يخرج الآذن فيقول: إن كان فيكم أبو إسحاق الزجاج وإلا انصرفوا، فحضروا مرة و لم يكن الزجاج معهم؛ فقال لهم ذلك فانصرفوا، وثبت رجل منهم يقال له عثمان، فقال للآذن: قل لأبي العباس: انصرف القوم كلهم إلا عثمان فإنه لم ينصرف، فعاد إليه الآذن وأخبره، فقال: قل له إن عثمان إذا كان نكرة انصرف، ونحن لانعرفك فانصرف راشدا. واختص بصحبة الوزير عبيد الله ابن سليمان بن وهب، وعلم ولده القاسم الأدب، ولما استوزر القاسم بن عبيد الله أفاد بطريقة مالآ جزيلاً.

وحكى الشيخ أبو علي الفارسي النحوي قال: دخلت مع شيخنا أبي إسحاق الزجاج على القاسم بن عبيد الله الوزير فورد إليه الخادم فساره بسراستبشر له، ثم نهض، فلم يكن بأسرع من أن عاد وفي وجهه أثر الوجوم، فسأله شيخنا عن ذلك لأنس كان بينهما، فقال له: كانت تختلف إلينا جارية لإحدى القينات فسمتها أن تبيعني إياها، فامتنعت من ذلك، ثم أشار عليها أحد من ينصحها بأن تهديها إلي رجاء أن أضاعف لها ثمنها، فلما جاءت أعلمني الخادم بذلك، فنهضت مستبشراً لافتضاضها فوجدتها قد حاضت، فكان مني ما ترى، فأخذ شيخنا الدواة من بين يديه، وكتب:

فارس ماض بحربته	حاذق بالطعن في الظلم
رام أن يدمي فريسته	فاتقته من دمٍ بدم

قلت: وسيأتي في ترجمة بوران بنت الحسن بن سهل ذكر هذين البيتين على صورة أخرى، فيما جرى لها مع المأمون، والله أعلم بالصواب، ويحتمل أن تكون قضية المأمون مع بوران هي الأصل، وأن الزجاج تمثل بالبيتين لما جرى للوزير هذه القضية، والله أعلم.

توفي يوم الجمعة تاسع عشر جمادى الآخرة سنة عشر – وقيل: سنة إحدى عشرة، وقيل: سنة ست عشرة – وثلثمائة، ببغداد، رحمة الله تعالى، وقد أناف على ثمانين سنة.

وإليه ينسب أبو القاسم عبد الرحمن الزجاجي صاحب كتاب الجمل في النحو، لأنه كان تلميذه، كما سيأتي إن شاء الله تعالى في ترجمته، رحمه الله؛ وعنه أخذ أبو علي الفارسي أيضاً.

الأفليلي

أبو القاسم إبراهيم بن زكرياء بن مفرج بن يحيى بن زياد بن عبد الله بن خالد بن سعد بن أبي وقاص القرشي الزهري المعروف بالإفليلي من أهل قرطبة؛ كان من أئمة النحو واللغة، وله معرفة تامة بالكلام على معاني الشعر، وشرح ديوان المتنبي شرحاً جيداً، وهو مشهور، وروى عن أبي بكرمحمد بن الحسن الزبيدي كتاب الأمالي لأبي علي القالي، وكان متصدراً بالأندلس لإقراء الأدب، وولي الوزارة للمكتفي بالله بالأندلس، وكان حافظاً

للأشعار ذاكراً للأخباروأيام الناس، وكان عنده من أشعار أهل بلاده قطعة صالحة، وكان أشد الناس انتقادا للكلام، صادق اللهجة، حسن الغيب، صافي الضمير، عني بكتب جمة كالغريب المصنف، والألفاظ، وغيرهما.

وكانت ولادته في شوال سنة اثنتين وخمسين وثلثمائة، وتوفي في آخر الساعة الحادية عشرة من يوم السبت ثالث عشر ذي القعدة سنة إحدى وأربعين وأربعمائة ودفن يوم الأحد بعد العصر في صحن مسجد خرب عند باب عامر بقرطبة، رحمة الله تعالى.

والإفليلي – بكسر الهمزة وسكون الفاء وكسر اللام وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدهالام ثانية – هذه النسبة إلى الإفليل، وهي قرية بالشام كان أصله منها.

الصابىء صاحب الرسائل

أبو إسحاق إبراهيم بن هلال بن إبراهيم بن زهرون بن حبون الحراني الصابىء، صاحب الرسائل المشهورة والنظم البديع؛ كان كاتب الإنشاء ببغداد عن الخليفة وعن عز الدولة بختيار بن معز الدولة بن بويه الديلمي الآتي ذكره إن شاء الله تعالى، وتقلد ديوان الرسائل سنة تسع وأربعين وثلثمائة، وكانت تصدر عنه مكاتبات إلى عضد الدولة بن بويه بما يؤلمه، فحقد عليه، فلما قتل عز الدولة وملك عضد الدولة بغداد اعتقله في سنة سبع وستين وثلثمائة، وعزم على إلقائه تحت أيدي الفيلة، فشفعوا فيه، ثم أطلقه في سنة إحدى وسبعين، وكان قد أمره أن يصنع له كتاباً في أخبار الدولة الديلمية، فعمل الكتاب التاجي فقيل لعضد الدولة: إن صديقا للصابىء دخل عليه فرآه في شغل شاغل من التعليق والتسويد والتبيض فسأله عما يعمل، فقال: أباطيل أنمقها، وأكاذيب ألفقها، فحركت ساكنه وهيجت حقده، و لم يزل مبعدا في أيامه. وكان متشددا في دينه، وجهد عليه عز الدولة أن يسلم فلم يفعل. وكان يصوم شهر رمضان مع المسلمين، ويحفظ القرآن الكريم أحسن حفظ، وكان يستعمله في رسائله، وكان له عبد أسود اسمه يمن، وكان يهواه، وله فيه المعاني البديعة، فمن جملة ماذكره له الثعالبي في كتاب الغلمان، قوله: قد قال يمن وهو أسود للذي ببياضه استعلى علو الخاتن

مافخر وجهك بالبياض؟ وهل ترى أن قد أفدت به مزيد محاسن؟
ولو أن مني فيه خالاً زانه ولوأن منه في خالاً شانني

قلت: ومعنى البيت الثالث ينظر إلى قول ابن الرومي من جملة أبيات في جاريته السوداء، وهوقوله:

وبعض ما فضل السواد به والحق ذو سلم وذو نفق
أن لايعيب السواد حلكته وقد يعاب البياض بالبهق

وهي أبيات مشهورة أحسن فيها كل الإحسان.

وذكر له الثعالبي فيه أيضاً:

لك وجه كأن يمناي خطت ه بلفظ تمله آمالي
فيه معنى من البدور ولكن نفضت صبغها عليه الليالي
لم يشنك السواد بل زدت حسناً إنما يلبس السواد الموالي
فبما لي أفديك إن لم تكن لي وبروحي أفديك إن كنت مالي

وله كل شيْ حسن، من المنظوم والمنثور.

وتوفي يوم الاثنين – وقيل: يوم الخميس – لاثنتي عشرة ليلة خلت من شوال سنة أربع وثمانين وثلثمائة، ببغداد، وعمره إحدى وسبعون سنة.

وذكر أبو الفرج محمد بن إسحاق الوراق المعروف بابن أبي يعقوب النديم البغدادي في كتابه الفهرست، أن الصابىء المذكور ولد سنة نيف وعشرين

وثلثمائة وتوفي قبل سنة ثمانين وثلثمائة ودفن بالشونيزي.

ورثاه الشريف الرضي بقصيدته الدالية المشهورة التي أولها:

أرأيت من حملوا على الأعواد؟ — أرأيت كيف خبا ضياء النادي؟

وعاتبه الناس في ذلك لكونه شريفاً يرثي صابئاً، فقال: إنما رثيت فضله.

وزهرون: بفتح الزاي المعجمة وسكون الهاء وضم الراء المهملة وبعد الواو نون.

وحبون: بفتح الحاء المهملة وتشديد الباء الموحدة وبعد الواو نون.

والصابىء: بهمزة آخره. وقد اختلفوا في هذه النسبة، فقيل: إنها إلى صابىء بن متوشلح بن إدريس عليه السلام، وكان على الحنيفية الأولى. وقيل: إلى صابىء بن ماري، وكان في عصر الخليل عليه السلام، وقيل: الصابىء عند العرب من خرج عن دين قومه، ولذلك كانت قريش تسمي رسول الله، صلى الله عليه وسلم، صابئا لخروجه عن دين قومه، والله أعلم.

الحصري صاحب زهر الآدب

أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن تميم، المعروف بالحصري، القيرواني الشاعر المشهور، وله ديوان شعر، وكتاب زهر الآداب وثمر الألباب جمع فيه كل غريبة في ثلاثة أجزاء، وكتاب المصون في سر الهوى المكنون في مجلد واحد فيه ملح وآداب. ذكره ابن رشيق في كتابه الأنموذج، وحكى شيئاً من أخباره وأحواله، وأنشد جملة من أشعاره، وقال: كان شبان القيروان يجتمعون عنده، ويأخذون عنه، ورأس عندهم، وشرف لديهم، وسارت تأليفاته وانثالت عليه الصلات من الجهات، واورد من شعره:

إني أحبك حباً ليس يبلغه — فهم، ولاينتهي وصفي إلى صفته

أقصى نهاية علمي فيه معرفتي — بالعجز مني عن إدراك معرفته

وأورد له أبو الحسن علي بن بسام صاحب كتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة بيتين في ضمن حكاية، وهما:

أورد قلبي الردى — لام عذارٍ بدا

أسود كالكفر في — أبيض مثل الهدى

وهو ابن أبي الحسن علي الحصري الشاعر، وستأتي ترجمته في حرف العين.

توفي أبو إسحاق المذكور بالقيروان سنة ثلاث عشرة وأربعمائة، وقال ابن بسام في الذخيرة: بلغني أنه توفي سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة، والأول أصح، رحمه الله تعالى.

وذكر القاضي الرشيد بن الزبير في كتاب الجنان في الجزء الأول في ترجمة أبي الحسن علي بن عبد العزيز المعروف بالفكيك أن الحصري المذكور ألف كتاب زهر الآداب في سنة خمسين وأربعمائة، وهذا يدل على صحة ما قاله ابن بسام، والله أعلم.

والحصري – بضم الحاء المهملة وسكون الصاد المهملة وبعدها راء مهملة – نسبة إلى عمل الحصر أو بيعها.

والقيروان – بفتح القاف وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح الراء المهملة وبعد الواوألف ونون – مدينة بإفريقية، بناها عقبة بن عامر الصحابي، رضي الله عنه.

وإفريقية سميت باسم إفريقين بن قيس بن صيفي الحميري، وهو الذي افتتح إفريقية، وسميت به، وقتل ملكها جرجير، ويومئذ سميت البربر، قال لهم: ما أكثر بربرتكم، ويقال: إفريقس، والله أعلم.

والقيروان في اللغة: القافلة، وهوفارسي معرب، يقال: إن قافلة نزلت بذلك المكان، ثم بنيت المدينة في موضعها فسميت باسمها، وهو اسم للجيش أيضا، وقال ابن القطاع اللغوي: القيروان بفتح الراء الجيش، وبضمها القافلة، نقله عن بعضهم، والله أعلم.

ابن خفاجة الأندلسي

أبو إسحاق إبراهيم بن أبي الفتح بن عبد الله بن خفاجة الأندلسي الشاعر؛ ذكره ابن بسام في الذخيرة وأثنى عليه، وقال: كان مقيماً بشرق الأندلس و لم يتعرض لاستماحة ملوك طوائفها مع تهافتهم على أهل الأدب، وله ديوان شعر أحسن فيه كل الإحسان، ومن شعره في عشية أنس، وقد أبدع فيه:

وعشي أنس أضجعتني نشوة ... فيه تمهد مضجعي وتدمث

خلعت علي به الأراكة ظلها ... والغصن يصغي والحمام يحدث

والشمس تجنح للغروب مريضة ... والرعد يرقي والغمامة تنفث

وله أيضاً، وهو معنى حسن:

ما للعذار كأن وجهك قبلة ... قد خط فيه من الدجى محرابا

وأرى الشباب وكان ليس بخاشع ... قد خر فيه راكعاً وأنابا

ولقد علمت بكون ثغرك بارقاً ... أن سوف يزجي للعذار سحابا

وله أيضاً:

أقوى محل من شبابك آهل ... فوقفت أندب منه رسماً عافيا

مثل العذار هناك نؤياً داثراً ... واسودت الخيلان فيه أثافيا

وقد أخذ بعض المتأخرين –وهو العماد أبو علي بن عبد النور اللزبي نزيل الموصل، وهو المذكور في ترجمة الشيخ كمال الدين موسى بن يونس – هذا المعنى فقال:

ومعقرب الصدغين خلت عذاره ... نؤياً أثافي رسمه الخيلان

فوقفت أبكيه بعيني عروة ... أسفاً عليه كأنه غيلان

ولد أبو إسحاق المذكور بجزيرة شقر من أعمال بلنسية من بلاد الأندلس في سنة خمسين وأربعمائة، وتوفي بها سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة، لأربع بقين من شوال يوم الأحد.

وشقر – بضم الشين المثلثة وسكون القاف والراء المهملة – وهي بليدة بين شاطبة وبلنسبة، وإنما قيل لها جزيرة لأن الماء محيط بها.

وبلنسية – بفتح الباء الموحدة وفتح اللام وسكون النون وكسر السين المهملة وفتح الياء المثناة من تحتها.

والأندلس – بفتح الهمزة وسكون النون وفتح الدال المهملة وضم اللام والسين المهملة – وهي جزيرة متصلة بالبر الطويل، والبر الطويل متصل بالقسطنطينية العظمى، وإنما قيل للأندلس جزيرة لأن البحر محيط بها من جهاتها إلاالجهة الشمالية، وهي مثلثة الشكل، فالركن الشرقي منها متصل بجبل يسلك منه إلى فرنجة، ولولاه لاختلط البحران. وحكي أن أول من عمرها بعد الطوفان أندلس بن يافث بن نوح عليه السلام، فسميت باسمه.

ابراهيم الغزي الشاعر

أبو إسحاق إبراهيم بن يحيى بن عثمان بن محمد الكلبي الأشهبي، وقال ابن النجار في تاريخ بغداد: هو إبراهيم بن عثمان بن عباس بن محمدابن عمر بن عبد الله الأشهبي، الكلبي، الغزي الشاعر المشهور.

شاعر محسن، ذكره الحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق، فقال: دخل دمشق وسمع بها من الفقيه نصر المقدسي، سنة إحدى وثمانين وأربعمائة، ورحل إلى بغداد وأقام بالمدرسة النظامية سنين كثيرة، ومدح ورثى غير واحد من المدرسين بها وغيرهم، ثم رحل إلى خراسان وامتدح بها جماعة من رؤسائها، وانتشر شعره هناك، وذكر له عدة مقاطيع من الشعر، وأثنى عليه. انتهى كلام الحافظ.

وله ديوان شعر اختاره لنفسه، وذكر في خطبته أنه ألف بيت.

وذكره العماد الكاتب في الخريدة، وأثنى عليه، وقال: إنه جاب البلاد وتغرب، وأكثر النقل والحركات، وتغلغل في أقطار خراسان وكرمان، ولقي الناس، ومدح ناصر الدين مكرم بن العلاء وزير كرمان بقصيدته البائية التي يقول فيها، ولقد أبدع فيه:

حملنا من الأيام ما لا نطيقه　　كما حمل العظم الكسير العصائبا

ومنها في قصر الليل، وهو معنى لطيف:

وليل رجونا أن يدب عذاره　　فما اختط حتى صار بالفجر شائبا

وهي قصيدة طويلة.

ومن جيد شعره المشهور:

قالوا هجرت الشعر، قلت ضرورة　　باب الدواعي والبواعث مغلق

خلت الديار فلا كريم يرتجى　　منه النوال ولا مليح يعشق

ومن العجائب أنه لا يشترى　　ويخان فيه مع الكساد ويسرق

ومن شعره، وفيه صناعة مليحة:

وخز الأسنة والخضوع لناقص　　أمران في ذوق النهى مران

والرأي أن يختار فيما دونه ال　　مران وخز أسنة المران

ومن شعره أيضاً:

من آلة الدست لم يعط الوزير سوى　　تحريك لحيته في حال إيماء

إن الوزير ولا أزر يشد به　　مثل العروض له بحر بلا ماء

وله أيضاً:

وجف الناس حتى لو بكينا　　تعذر ما يبل به الجفون

فما يندى لممدوح بنان　　ولا يندى لمهجو جبين

وله في القصائد المطولات كل بديع.

ومن شعره أيضاً وهو مما تستملحه الأدباء وتستظرفه قوله من جملة قصيدة:

إشارة منك تغنيني وأحسن ما　　رد السلام غداة البين بالعنم

حتى إذا طاح عنها المرط من دهش　　وانحل بالضم سلك العقد في الظلم

تبسمت فأضاء الليل فالتقطت　　حبات منتثر في ضوء منتظم

والبيت الأخير منها ينظر إلى قول الشريف الرضي، من جملة قصيدة:

وبات بارق ذاك الثغر يوضح لي　　مواقع اللثم في داج من الظلم

وقد ألم به بعض البغاددة في مواليا على اصطلاحهم، فإنهم ما يتقيدون بالإعراب فيه، بل يأتون به كيفما اتفق، وهو:

ظفرت ليلة بليلى ظفرة المجنون وقلت وافى لحظي طالع ميمون

تبسمت فأضاء اللؤلؤ المكنون صار الدجى كالضحى فاستيقظ الواشون

والأصل في هذا المعنى بيت أبي الطمحان القيني، وهو قوله:

أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم دجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه

وهذا البيت من جملة أبيات، وهي:

وإني من القوم الذين هم هم إذا مات منهم سيد قام صاحبه

نجوم سماء كلما غاب كوكب بدا كوكب تأوي إليه كواكبه

أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم دجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه

ويقال: إن هذا البيت أمدح بيت قيل في الجاهلية، وقيل: هو أكذب بيت قيل.

وما زال منهم حيث كانوا مسود تسير المنايا حيث سارت كتائبه

وهذا أبو الطمحان هو: حنظلة بن الشرقي، من شعراء الجاهلية.

ولد الغزي المذكور بغزة، وبها قبر هاشم جد النبي صلى الله عليه وسلم، سنة إحدى وأربعين وأربعمائة وتوفي سنة أربع وعشرين وخمسمائة مابين مرو وبلخ، من بلاد خراسان، ونقل إلى بلخ ودفن بها، ونقل عنه أنه كان يقول لما حضرته الوفاة: أرجو أن يغفر الله لي لثلاثة أشياء: كوني من بلد الإمام الشافعي، وأني شيخ كبير، وأني غريب، رحمه الله تعالى وحقق رجاءه.

وغزة – بفتح الغين وتشديد الزاء المعجمتين وبعدها هاء – وهي البليدة المعروفة في الساحل الشامي، وقد يقع هذا الكتاب في يد من يكون بعيداعن بلادنا، ولا يعرف أين تقع هذه البليدة، ويتشوق إلى معرفة ذلك، فأقول: هي من أعمال فلسطين، على البحر الشامي، بالقرب من عسقلان، وهي في أوائل بلاد الشام من جهة الديار المصرية، وهي إحدى الرحلتين المذكورتين في كتاب الله العزيز في قوله تعالى: رحلة الشتاء والصيف وأتفق أرباب التفسير أن رحلة الصيف بلاد الشام، ورحلة الشتاء بلاد اليمن، وقد كانت قريش في متاجرها تأتي إلى الشام في فصل الصيف لأجل طيبة بلادها في هذا الفصل، وتأتي اليمن في فصل الشتاء، لأنها بلاد حارة لاتستطيع الدخول إليها في فصل الصيف، وقال أبو محمد عبد الملك بن هشام، في أوائل سيرة رسول الله، صلى الله عليه وسلم: أول من سن الرحلتين لقريش رحلة الشتاء والصيف هاشم جد النبي، صلى الله عليه وسلم، ثم ذكر بعد هذا بقليل: قال ابن إسحاق: ثم هلك هاشم بن عبد مناف بغزة، من أرض الشام، تاجراً ثم قال بعد هذا بقليل: وقال مطرود بن كعب الخزاعي يبكي بني عبد مناف جميعا، وذكر القصيدة، ومن جملتها:

وهاشم في ضريح وسط بلقعةٍ تسفي الرياح عليه بين غزات

قال أهل العلم باللغة: إنما قال غزات، وهي غزة واحدة، كأنه سمى كل ناحية منها باسم البلدة، وجمعها على غزات، وصارت من ذلك الوقت تعرف بغزة هاشم، لأن قبره بها، لكنه غير ظاهر ولا يعرف، ولقد سألت عنه لما اجتزت بها، فلم يكن عندهم منه علم. ولما توجه أبو نواس الشاعر المشهور من بغداد إلى مصر ليمدح الخصيب بن عبد الحميد، صاحب ديوان الخراج بمصر، ذكر المنازل التي في طريقه، فقال:

طوالب بالركبان غزة هاشمٍ وبالفرما من حاجهن شعور

وفي بيت أبي نواس لفظتان تحتاجان إلى التفسير، إحداهما: الفرما وهي – بفتح الفاء والراء – المدينة العظمى التي كانت كرسي الديار المصرية في زمن إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، ومن قراها أم العرب التي منها هاجر أم إسماعيل بن الخليل عليهما السلام، والفرما في اول الرمل: بين السائح والقصير، المترلة المعروفة على يسار المتوجه إلى الشام من مصر، على ساحل البحر، رأيتها وقد خربت، و لم يبق منها سوى الآثار، وموضعها تل عال.

ومن الاتفاق الغريب: أن إسماعيل أبو العرب، وأمه من أم العرب: القرية المذكورة؛ واللفظ الثاني قوله في آخر البيت شقور بضم الشين المعجمة والقاف – ويقال بفتح الشين أيضاً، والضم أصح – لأن الشقور بالضم بمعنى الأمور اللاصقة بالقلب المهمة، الواحد شقر، والله أعلم.

ابن قرقول

أبو إسحاق إبراهيم بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الله بن باديس بن القائد الحمزى، المعروف بابن قرقول صاحب كتاب مطالع الأنوار الذي وضعه على مثال كتاب مشارق الأنوار للقاضي عياض.

كان من الأفاضل، وصحب جماعة من علماء الأندلس، و لم أقف على شيء من أحواله سوى هذا القدر، وكانت ولادته بالمرية من بلاد الأندلس، في صفر سنة خمس وخمسمائة، وتوفي بمدينة فاس يوم الجمعة أول وقت العصرسادس شوال سنة تسع وستين وخمسمائة، وكان قد صلى الجمعة في الجامع، فلما حضرته الوفاة تلا سورة الإخلاص، وجعل يكررها بسرعة، ثم تشهد ثلاث مرات، وسقط على وجهه ساجداً فوقع ميتاً، رحمة الله تعالى.

وقرقول: بضم القافين، وسكون الراء المهملة بينهما، وبعد الواو لام والمرية – بفتح الميم وكسر الراء المهملة وتشديد الياء المثناة من تحتها، وبعدها هاء – وهي مدينة كبيرة بالأندلس على شاطىء البحر، من مراسي المراكب.

وفاس – بالفاء والسين المهملة – وهي مدينة عظيمة بالمغرب بالقرب من سبتة.

ونسبته الحمزي – بفتح الحاء المهملة وبعد الميم الساكنة زاء معجمة – إلى حمزة آشير –بمد الهمزة وكسر الشين المثلثة وسكون الياء المثناة من تحتها، وبعدها راء مهملة –وحمزة هي بليدة بإفريقية، مابين بجاية وقلعة بني حماد، كذا ذكر لي جماعة من أهل تلك البلاد، وآشير مذكورة في ترجمة زيري بن مناد – الآتي ذكره إن شاء الله تعالى –.

أحمد بن حنبل

الإمام أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد بن إدريس بن عبد الله بن حيان بن عبد الله بن أنس بن عوف بن قاسط بن مازن بن شيبان ابن ذهل بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل بن قاسط بن هنب بن أفصي بن دعمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان، الشيباني، المروزي الأصل. هذا هو الصحيح في نسبه، وقيل: إنه من بني مازن بن ذهل بن شيبان بن ثعلبة بن عكابة، وهو غلط، لأنه من بني شيبان بن ذهل لا من بني ذهل بن شيبان، وذهل بن ثعلبة المذكور هو عم ذهل بن شيبان، فليعلم ذلك والله أعلم.

وخرجت أمه من مرو وهي حامل به، فولدته في بغداد، في شهر ربيع الأول سنة أربع وستين ومائة، وقيل: إنه ولد بمرو وحمل إلى بغداد وهو رضيع. وكان إمام المحدثين، صنف كتابه المسند، وجمع فيه من الحديث ما لم يتفق لغيره، وقيل: إنه كان يحفظ ألف ألف حديث، وكان من أصحاب الإمام الشافعي – رضي الله تعالى عنهما – وخواصه، و لم يزل مصاحبه إلى أن ارتحل الشافعي إلى مصر، وقال في حقه: خرجت من بغداد وما خلفت بها أتقى ولا أفقه من ابن حنبل، ودعي إلى القول بخلق القرآن أيام المعتصم وكان أمياً لايقرأ ولا يكتب فقال أحمد: أنا رجل علمت علما و لم أعلم فيه بهذا، فأحضر له الفقهاء والقضاة فناظروه فلم يجب، فضرب وحبس وهو مصر على الامتناع، وكان ضربه في العشر الأخير من شهر رمضان، سنة عشرين ومائتين وكانت مدة حبسه إلى أن خلي عنه ثمانية وعشرين يوماً وبقي إلى أن مات المعتصم فلما ولي الواثق منعه من الخروج من داره إلى أن أخرجه المتوكل وخلع عليه وأكرمه ورفع المحنة في خلق القرآن. وكان حسن الوجه، ربعة يخضب بالحناء خضبا ليس بالقاني، في لحيته شعرات سود.

أخذ عنه الحديث جماعة من الأماثل، منهم محمد بن اسماعيل البخاري، ومسلم بن الحجاج النيسابوري، و لم يكن في آخر عصره مثله في العلم والورع.

توفي ضحوة نهار الجمعة، لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول، وقيل: بل لثلاث عشرة ليلة بقين من الشهر المذكور، وقيل: من ربيع الآخر، سنة إحدى وأربعين ومائتين ببغداد، ودفن بمقبرة باب حرب، وباب حرب منسوب إلى حرب بن عبد الله، أحد أصحاب أبي جعفر المنصور، وإلى حرب هذا تنسب المحلة المعروفة بالحربية، وقبر أحمد بن حنبل مشهور بها يزار، رحمه الله تعالى. وحزر من حضر جنازته من الرجال، فكانوا ثمانمائة ألف، ومن النساء ستين ألفا، وقيل: إنه أسلم يوم مات عشرون ألفاً من النصارى واليهود والمجوس.

وذكر أبو الفرج بن الجوزي في كتابه الذي صنفه في أخبار بشر بن الحارث الحافي رضي الله عنه في الباب السادس والأربعين ما صورته: حدث إبراهيم الحربي قال: رأيت بشر بن الحارث الحافي في المنام كأنه خارج من باب مسجد الرصافة وفي كمه شيء يتحرك، فقلت: مافعل الله بك؟ فقال: غفرلي وأكرمني، فقلت: ماهذا الذي في كمك؟ قال: قدم علينا البارحة روح أحمد بن حنبل فنثر عليه الدر والياقوت، فهذا مما التقطت، قلت: فما فعل يحيى بن معين وأحمد بن حنبل؟ قال: تركتهما وقد زارا رب العالمين ووضعت لهما الموائد، قلت: فلم لم تأكل معهما أنت؟ قال: قد عرف هوان الطعام علي فأباحني النظر إلى وجهه الكريم.

وفي أجداده حيان – بفتح الحاء المهملة وتشديدالياء المثناة من تحتها، وبعد الألف نون، وبقية الأجداد لاحاجة إلى ضبط أسمائهم لشهرتها وكثرتها، ولولا خوف الإطالة لقيدتها.

ورأيت في نسبه اختلافاً، وهذا أصح الطرق التي وجدتها.

وكان له ولدان عالمان، وهما صالح وعبد الله، فأما صالح فتقدمت وفاته في شهر رمضان سنة ست وستين ومائتين، وكان قاضي أصبهان فمات بها، ومولده في سنة ثلاث ومائتين، وأما عبد الله فإنه بقي إلى سنة تسعين ومائتين، وتوفي يوم الأحد لثمان بقين من جمادى الأولى – وقيل: الآخرة – وله سبع وسبعون سنة، وكنيته أبو عبد الرحمن، وبه كان يكنى الإمام أحمد، رحمهم الله أجمعين.

ابن سريج

أبو العباس أحمد بن عمر بن سريج، الفقيه الشافعي؛ قال الشيخ أبو إسحاق الشيرازي في حقه في كتاب الطبقات: كان من عظماء الشافعيين، وأئمة المسلمين، وكان يقال له: الباز الأشهب، ولي القضاء بشيراز، وكان يفضل على جميع أصحاب الإمام الشافعي، حتى على المزني، وإن فهرست كتبه كانت تشتمل على أربعمائة مصنف، وقام بنصرة مذهب الشافعي ورد على المخالفين، وفرع على كتب محمد بن الحسن الحنفي.

وكان الشيخ أبو حامد الإسفرايني يقول: نحن نجري مع أبي العباس في ظواهر الفقه دون دقائقه، وأخذ الفقه عن أبي القاسم الأنماطي، وعنه أخذ فقهاء الإسلام، ومنه انتشر مذهب الشافعي في أكثر الآفاق.

وكان يناظر أبا بكر محمد بن داود الظاهري، وحكي أنه قال له أبو بكر يوماً أنت تقول بالظاهر، فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره، فمن يعمل نصف مثقال؟ فسكت محمد طويلا، فقال له أبو العباس لم لاتجيب؟ فقال أبلعني ريقي، فقال له أبو العباس: أبلعتك دجلة، وقال له يوماً: أمهلني ساعة، فقال: أمهلتك من الساعة إلى أن تقوم الساعة، وقال له يوماً: أكلمك من الرجل فتجيبني من الرأس، فقال له: هكذا البقر، إذا حفيت أظلافها دهنت قرونها.

وكان يقال له في عصره: إن الله بعث عمر بن عبد العزيز على رأس المائة من الهجرة، أظهر كل سنة وأمات كل بدعه، ومن الله تعالى على رأس المائتين بالإمام الشافعي حتى أظهر السنة وأخفى البدعة، ومن الله تعالى بك على رأس الثلثمائة حتى قويت كل سنة وضعفت كل بدعة، وكان له مع فضائله نظم حسن.

وتوفي لخمس بقين من جمادى الأولى سنة ست وثلثمائة، وقيل: يوم الاثنين الخامس والعشرين من شهر ربيع الأول ببغداد، ودفن في حجرته بسويقة غالب بالجانب الغربي بالقرب من محلة الكرخ، وعمره سبع وخمسون سنة وستة أشهر، رحمه الله تعالى. وقبره ظاهر في موضعه يزار، ولم يبق عنده عمارة ولا قبر، بل هو منفرد هناك.

رأى أبو العباس المذكور في مرضه الذي مات فيه كأن القيامة قد قامت وإذا الجبار سبحانه يقول: أين العلماء؟ فجاءوا؛ فقال: ماذا عملتم في ما عملتم؟ فقالوا: يارب قصرنا وأسأنا، فأعاد السؤال كأنه لم يرضى به، وأراد جوابا آخر، فقلت: أما أنا فليس في صحيفتي الشرك وقد وعدت أن تغفر ما دونه، فقال: اذهبوا فقد غفرت لكم؛ ومات بعد ذلك بثلاثة أيام، رحمه الله تعالى.

وكان جده سريج رجلاً مشهوراً بالصلاح الوافر – وهو بضم السين المهملة وفتح الراء المهملة وسكون الياء المثناة من تحتها والجيم – ورأيت في بعض

الأجزاء أنه كان أعجمياً لايعرف بالعربية شيئاً، وأنه رأى الباري سبحانه وتعالى في النوم وحادثه وقال له في الآخر: ياسريج طلب كن، فقال: ياخدا سر بسر، قالها ثلاثا، وهذا لفظ عجمي معناه بالعربية: ياسريج اطلب، فقال: يارب رأس برأس، كما يقال: رضيت أن أخلص رأسا برأس، ثم وجدت في تاريخ بغداد أن صاحب المنام المذكورهو سريج بن يونس بن إبراهيم بن الحارث المروزي الزاهد العابد صاحب الكرامات، وكانت وفاته في شهر ربيع الأول سنة خمس وثلاثين ومائتين ببغداد، رحمه الله تعالى، ورأيت بالمنام جزءا منفردا متصل السماع بالإسناد إلى سريج المذكور، والقول الأول كنت سمعته من بعض المشايخ. والله أعلم.

ابن القاص

أبو العباس أحمدبن أبي أحمد المعروف بابن القاص، الطبري، الفقيه الشافعي؛ كان إمام وقته في طبرستان، وأخذ الفقه عن ابن سريج المقدم ذكره، وصنف كتباً كثيرة: منها التلخيص، وأدب القاضي، والمواقيت والمفتاح، وغير ذلك، وقد شرح التلخيص أبو عبد الله الختن، والشيخ أبو علي السنجي، وهو كتاب صغير ذكره الإمام في النهاية في مواضع، وكذلك الغزالي، وجميع تصانيفه صغيرة الحجم كثيرة الفائدة، وكان يعظ الناس، فانتهى في بعض أسفاره إلى طرسوس، وقيل: إنه تولى بها القضاء، فعقد له مجلس وعظ، وأدركته رقة وخشية وروعة من ذكر الله تعالى، فخر مغشيا عليه، ومات سنة خمس وثلاثين وثلثمائة، وقيل: سنة ست وثلاثين، رحمة الله تعالى.

وعرف والده بالقاص لأنه كان يقص الأخبار والآثار.

وطبرستان – بفتح الطاء المهملة وفتح الباء الموحدة وفتح الراء المهملة وسكون السين المهملة وفتح التاء المثناة من فوقها وبعد الألف نون – وهو إقليم متسع ببلاد العجم يجاور خراسان. وله كرسيان: سارية وآمل، وهومنيع بالأودية والحصون.

وطرسوس – بفتح الطاء والراء المهملتين، وضم السين المهملة، وبعد الواو سين مهملة – وهي مدينة في الثغور الرومية عند المصيصة وأذنة، وبها قبر المأمون بن هارون الرشيد، وقد جاء ذكرها في كتاب المهذب، والوسيط، في باب الوقف.

المروروذي

القاضي أبو حامد أحمد بن عامر بن بشر بن حامد المروروذي، الفقيه الشافعي، أخذ الفقه عن أبي إسحاق المروزي، وصنف الجامع في المذهب، وشرح مختصر المزني، وصنف في أصول الفقه، وكان إماما لايشق غباره، ونزل البصرة ودرس بها، وعنه أخذ فقهاء البصرة.

وقال أبو حيان التوحيدي: سمعت أبا حامد المروروذي يقول: ليس ينبغي أن يحمد الإنسان على شرف الأب ولا يذم عليه، كما لا يمدح الطويل على طوله، ولا يذم القبيح على قبحه. وتوفي سنة اثنتين وستين وثلثمائة، رحمه الله تعالى.

ونسبته إلى مرورروذ – بفتح الميم وسكون الراء المهملة وفتح الواو وتشديد الراء المهملة المضمومة، وبعد الواو ذال معجمة – وهي مدينة مبنية على نهر، وهي أشهر مدن خراسان بينها وبين مرو الشاهجان أربعون فرسخاً، والنهر يقال له بالعجمية الروذ – بضم الراء، وسكون الواو، وبعدها ذال معجمة –وهاتان المدينتان هما المروان وقد جاء ذكرهما في الشعر كثيراً، أضيفت إحداهما إلى الشاهجان وهي العظمى، والنسبة إليها مروزي، والثانية إلى النهر المذكور، ليحصل الفرق بينهما، والنسبة إليها مروروذي ومروزي أيضاً، قاله السمعاني، وهي من فتوح الأحنف بن قيس، ومذكورة في ترجمته، وكان على مقدمة الجيش الذي كان أميره عبد الله بن عامر، وهو الذي سيره إليها، ومعنى الشاهجان روح الملك، وإنما أطلت الكلام في هذا لئلايقع الالتباس على أحد بين البلدين فيقع الخطأ عند ذلك.

ابن القطان

أبو الحسين أحمد بن أحمد بن محمد بن أحمد المعروف بابن القطان البغدادي الفقيه الشافعي؛ كان من كبار أئمة الصحاب، أخذ الفقه عن ابن سريج، ثم من بعده عن أبي إسحاق المروزي، ودرس ببغداد، وأخذ عنه العلماء، وله مصنفات كثيرة؛ وكانت الرحلة إليه بالعراق مع أبي القاسم الداركي، فلما

توفي الداركي استقل بالرياسة. وذكره الشيخ أبو إسحاق في الطبقات وقال: مات سنة تسع وخمسين وثلثمائة، رحمة الله تعالى، وزاد الخطيب: في جمادى الأولى، وقال: هو من كبراء الشافعيين، وله مصنفات في أصول الفقه وفروعه، وذكر بناء بغداد في شذور العقود سنة ست وأربعين ومائة.

الطحاوي

أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك الأزدي الطحاوي، الفقيه الحنفي؛ انتهت إليه رياسة أصحاب أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه بمصر، وكان شافعي المذهب يقرأ على المزني، فقال له يوماً: والله لاجاء منك شيء، فغضب أبو جعفر من ذلك، وانتقل إلى أبي جعفر ابن أبي عمران الحنفي، واشتغل عليه، فلما صنف مختصره قال: رحم الله أبا إبراهيم – يعني المزني – لو كان حياً لكفر عن يمينه.

وذكر أبو يعلى الخليلي في كتاب الإرشاد في ترجمة المزني أن الطحاوى المذكور كان ابن أخت المزني، وأن محمد بن أحمد الشروطي قال: قلت للطحاوي: لم خالفت خالك واخترت مذهب أبي حنيفة؟ فقال: لأني كنت أرى خالي يديم النظر في كتب أبي حنيفة، فلذلك انتقلت إليه، وصنف كتباً مفيدة منها أحكام القرآن، واختلاف العلماء، ومعاني الآثار، والشروط، وله تاريخ كبير، وغير ذلك.

وذكره القضاعي في كتاب الخطط فقال: كان قد أدرك المزني وعامة طبقته، وبرع في علم الشروط، وكان قد استكتبه أبو عبيد الله محمد بن عبدة القاضي وكان صعلوكاً فأغناه، وكان أبو عبيد الله سمحاً جواداً، ثم عدله أبو عبيد علي بن الحسين بن حرب القاضي عقيب القضية التي جرت لمنصور الفقيه مع أبي عبيد، وذلك في سنة ست وثلثمائة، وكان الشهود يتعسفون عليه بالعدالة لئلا تجتمع له رياسة العلم وقبول الشهادة، وكان جماعة من الشهود قد جاوروا بمكة في هذه السنة فاغتنم أبو عبيد غيبتهم وعدل أبا جعفر المذكور بشهادة أبي القاسم المأمون وأبي بكر بن سقلاب.

وكانت ولادته سنة ثمان وثلاثين ومائتين، وقال أبو سعد السمعاني: ولد سنة تسع وعشرين ومائتين، وهو الصحيح، وزاد غيره فقال: ليلة الأحد لعشرخلون من ربيع الأول، وتوفي سنة إحدى وعشرين وثلثمائة، ليلة الخميس مستهل ذي القعدة بمصر ودفن بالقرافة، وقبره مشهور بها، وله ذكر في ترجمة الفقيه منصور بن إسماعيل الضرير، فينظر هناك، وتوفي والده سنة أربع وستين ومائتين، رحمه الله تعالى.

ونسبته إلى طحا – بفتح الطاء والحاء المهملتين، وبعدهما ألف – وهي قرية بصعيد مصر، وإلى الأزد – بفتح الهمزة وسكون الزاء المعجمة وبالدال المهملة – وهي قبيلة مشهورة من قبائل اليمن.

أبو حامد الإسفراييني

الشيخ أبو حامد أحمد بن أبي طاهر محمد بن أحمد الإسفراييني، الفقيه الشافعي؛ انتهت إليه رياسة الدنيا والدين ببغداد، وكان يحضر مجلسه أكثر من ثلثمائة فقيه، وعلق على مختصر المزني تعاليق، وطبق الأرض بالأصحاب، وله في المذهب التعليقة الكبرى، وكتاب البستان، وهو صغير، وذكر فيه غرائب، وأخذ الفقه عن ابي الحسن بن المرزبان، ثم عن أبي القاسم الداركي، واتفق أهل عصره على تفضيله وتقديمه في جودة النظر.

وقال الخطيب في تاريخ بغداد: إن أبا حامد حدث بشيء يسير عن عبد الله بن عدي وأبي بكر الإسماعيلي وإبراهيم بن محمد بن عبدل الإسفراييني وغيرهم، وكان ثقة، ورأيته غير مرة، وحضرت تدريسه في مسجد عبد الله ابن المبارك، وهوالمسجد الذي في صدر قطيعة الربيع، وسمعت من يذكر أنه كان يحضر درسه سبعمائة متفقه، وكان الناس يقولون: لورآه الشافعي لفرح به.

وحكى الشيخ أبو إسحاق في الطبقات أن أبا الحسين القدوري الحنفي كان يعظمه ويفضله على كل أحد، وأن الوزير أبا القاسم علي بن الحسين حكى له عن القدوري أنه قال: أبو حامد عندي أفقه وانظر من الشافعي، قال الشيخ: فقلت له: هذا القول من القدوري حمله عليه اعتقاده في الشيخ أبي حامد وتعصبه بالحنفية على الشافعي رضي الله عنه، ولايلتفت إليه، فإن أباحامد ومن هو اعلم منه وأقدم على بعد من تلك الطبقة، وما مثل الشافعي ومثل من بعده إلا كما قال الشاعر:

نزلوا بمكة في قبائل نوفل ... ونزلت بالبيداء أبعد منزل

وروي عنه انه كان يقول: ما قمت من مجلس النظر قط فندمت على معنى ينبغي أن يذكر فلم اذكره، وروي أنه قابله بعض الفقهاء في مجلس المناظرة بما لا يليق، ثم أتاه في الليل معتذرا إليه، فأنشده يقول:

جفاء جرى جهرا لدى الناس وانبسط   وعذر أتى سرا فأكد ما فرط
ومن ظن أن يمحو جلي جفائه   خفي اعتذار فهو في أعظم الغلط

وكانت ولادته سنة أربع وأربعين وثلثمائة، وقدم بغداد في سنة ثلاث وستين وثلثمائة، وقال الخطيب: سنة أربع وستين، ودرس الفقه بها من سنة سبعين إلى أن توفي ليلة السبت لاحدى عشرة ليلة بقيت من شوال سنة ست وأربعمائة ببغداد، ودفن من الغد في داره ثم نقل إلى باب حرب في سنة عشر وأربعمائة، رحمه الله تعالى.

قال الخطيب: وصليت على جنازته في الصحراء وراء جسر أبي الدن.

وكان الإمام في الصلاة عليه أباعبد الله بن المهتدى خطيب جامع المنصور، وكان يوماً مشهوداً بكثرة الناس وعظم الحزن وشدة البكاء.

ونسبته إلى إسفراين - بكسر الهمزة وسكون السين المهملة وفتح الفاء والراء المهملة وكسر الياء المثناة من تحتها، وبعدها نون - وهي بلدة بخراسان بنواحي نيسابور، على منتصف الطريق إلى جرجان.

والبيت الذي تمثل به الشيخ أبو إسحاق له ثان، وهو:

حذرا عليها من مقالة كاشح   ذرب اللسان يقول ما لم أفعل

أبو الحسن المحاملي

أبو الحسن أحمد بن محمد بن احمد بن القاسم بن إسماعيل بن محمد بن إسماعيل ابن سعيد بن أبان الضبي المحاملي الفقيه الشافعي؛ أخذ الفقه عن الشيخ أبي حامد الإسفراييني، وله عنه تعليقة انسب إليه، ورزق من الذكاء وحسن الفهم ما أربى على أقرانه، وبرع في الفقه، ودرس في حياة شيخه أبي حامد وبعده، وسمع الحديث من محمد بن المظفر وطبقته، ورحل به أبوه إلى الكوفة وسمعه بها، وصنف في المذهب المجموع وهو كتاب كبير، والمقنع وهو مجلد واحد، واللباب وهو صغير، والأوسط. وصنف في الخلاف كثيراً، ودرس ببغداد، ذكره الخطيب في تاريخه.

توفي يوم الأربعاء لتسع بقين من شهر ربيع الآخر سنة خمس عشرة وأربعمائة، رحمه الله تعالى، وكانت ولادته سنة ثمان وستين وثلثمائة.

والضبي - بفتح الضاد المعجمة، وتشديد الباء الموحدة - نسبة إلى قبيلة كبيرة مشهورة.

والمحاملي - بفتح الميم والحاء المهملة وكسر الميم الثانية واللام - ونسبته إلى المحامل التي يحمل عليها الناس في السفر.

أبو بكر البيهقي

أبو بكر احمد بن الحسين بن علي بن عبد الله بن موسى البيهقي الخسروجردي الفقيه الشافعي الحافظ الكبير المشهور، وأحد زمانه وفرد أقرانه في الفنون، من كبار أصحاب الحاكم أبي عبد الله ابن البيع في الحديث، ثم الزائد عليه في أنواع العلوم؛ أخذ الفقه عن أبي الفتح ناصر بن محمد العمري المروزي، غلب عليه الحديث، واشتهربه، ورحل في طلبه إلى العراق والجبال والحجاز، وسمع بخراسان من علماء عصره وكذلك ببقية البلاد التي انتهى إليها، وشرع في التصنيف فصنف فيه كثيراً حتى قيل: تبلغ تصانيفه ألف جزء، وهو أول من جمع نصوص الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه، في عشر مجلدات، ومن مشهور مصنفاته السنن الكبير السنن الصغير ودلائل النبوة، والسنن، والآثار وشعب الايمان، ومناقب الشافعي المطلبي ومناقب أحمد بن حنبل وغير ذلك. وكان قانعاً من الدنيا بالقليل، وقال إمام الحرمين في حقه: مامن شافعي المذهب إلا وللشافعي عليه منة، إلا أحمد البيهقي فإن له على الشافعي منة، وكان من أكثر الناس نصراً لمذهب الشافعي وطلب إلى نيسابور لنشر العلم فأجاب وانتقل إليها، وكان على سيرة السلف، وأخذ عنه الحديث جماعة من العيان، منهم زاهر الشحامي ومحمد الفراوي وعبد المنعم القشيري وغيرهم.

وكان مولده في شعبان سنة اربع وثمانين وثلثمائة، وتوفي في العاشر من جمادى الأولى سنة ثمان وخمسين وأربعمائة، بنيسابور، ونقل إلى بيهق، رحمه الله تعالى.

ونسبته إلى بيهق – بفتح الباء الموحدة وسكون الياء المثناة من تحتها، وبعد الهاء المفتوحة قاف – وهي قرى مجتمعة بنواحي نيسابور على عشرين فرسخا منها، وخسر وجرد من قراها، وهي بضم الخاء المعجمة.

النسائي

ابو عبد الرحمن أحمد بن علي بن شعيب بن علي بن سنان بن بحر النسائي، الحافظ؛ كان إمام أهل عصره في الحديث، وله كتاب السنن، وسكن بمصر وانتشرت بها تصانيفه، وأخذ عنه الناس.

قال محمد بن إسحاق الأصبهاني: سمعت مشايخنا بمصر يقولون: إن أبا عبد الرحمن فارق مصر في آخر عمره، وخرج إلى دمشق، فسئل عن معاوية وماروي من فضائله، فقال: أما يرضى معاوية أن يخرج رأساً برأس، حتى يفضل؟ وفي رواية أخرى: ما أعرف له فضيلة إلا لا أشبع الله بطنك. وكان يتشيع، فمازالوا يدفعون في حضنه حتى أخرجوه من المسجد، وفي روية أخرى: يدفعون في خصبيه وداسوه، ثم حمل إلى الرملة فمات بها.

وقال الحافظ أبو الحسن الدارقطني: لما امتحن النسائي بدمشق، قال: احملوني إلى مكة، فحمل إليها فتوفي بها، وهو مدفون بين الصفا والمروة. وكانت وفاته في شعبان من سنة ثلاث وثلثمائة.

وقال الحافظ أبو نعيم الأصبهاني: لما داسوه بدمشق مات بسبب ذلك الدوس، وهو منقول، قال: وكان قد صنف كتاب الخصائص في فضل علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأهل البيت، وأكثر رواياته فيه عن أحمد بن حنبل، رحمه الله تعالى. فقيل له: ألا تصنف كتاباً في فضائل الصحابة رضي الله عنهم، فقال: دخلت دمشق والمنحرف عن علي رضي الله عنه كثير، فأردت أن يهديهم الله تعالى بهذا الكتاب، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً، وكان موصوفاً بكثرة الجماع.

قال الحافظ أبو القاسم المعروف بابن عساكر الدمشقي: كان له أربع زوجات يقسم لهن وسراري، وقال الدار قطني: امتحن بدمشق، فأدرك الشهادة، رحمه الله تعالى.

وتوفي يوم الاثنين، لثلاث عشرة ليلة خلت من صفر، سنة ثلاث وثلثمائة بمكة، حرسها الله تعالى، وقيل: بالرملة من أرض فلسطين.

وقال أبو سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس، صاحب تاريخ مصر، في تاريخه: إن أباعبد الرحمن النسائي قدم مصر قديماً، وكان إماما في الحديث، ثقة ثبتا حافظا، وكان خروجه من مصر في ذي القعدة، سنة اثنتين وثلثمائة.

ورأيت بخطي في مسوداتي أن مولده بنسأ في سنة خمس عشرة، وقيل: أربع عشرة ومائتين، والله تعالى أعلم.

ونسبته إلى نسأ – بفتح النون وفتح السين المهملة وبعدهاهمزة – وهي مدينة بخراسان خرج منها جماعة من الأعيان.

القدوري

أبو الحسين أحمد بن محمد بن احمد بن جعفر بن حمدان الفقيه الحنفي، المعروف بالقدوري؛ انتهت إليه رياسة الحنفية بالعراق. وكان حسن العبارة في النظر. وسمع الحديث، وروى عنه أبو بكر الخطيب صاحب التاريخ، وصنف في مذهبه المختصر المشهور وغيره. وكان يناظر الشيخ أبا حامد الإسفراييني الفقيه الشافعي، وقد تقدم ذكره في ترجمة أبي حامد وما بالغ في حقه.

وكانت ولادته سنة اثنتين وستين وثلثمائة، وتوفي يوم الأحد الخامس من رجب سنة ثمان وعشرين وأربعمائة ببغداد. ودفن من يومه بداره في درب أبي خلف ثم نقل إلى تربة في شارع المنصور، ودفن هناك بجنب أبي بكر الخوارزمي الفقيه الحنفي، رحمهما الله تعالى.

ونسبته بضم القاف والدال المهملة وسكون الواو وبعدها راء مهملة إلى القدور التي هي جمع قدر. ولا أعلم سبب نسبته إليها، بل هكذا ذكره السمعاني في كتاب الأنساب.

الثعلبي

أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري المفسر المشهور؛ كان أوحد زمانه في علم التفسير، وصنف التفسير الكبير الذي فاق غيره من التفاسير. وله كتاب العرائس في قصص الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم، وغير ذلك. ذكره السمعاني وقال: يقال له: الثعلبي والثعالبي، وهو لقب له وليس بنسب، قاله بعض العلماء.

وقال أبو القاسم القشيري: رأيت رب العزة عز وجل في المنام وهو يخاطبني وأخاطبه، فكان في أثناء ذلك أن قال الرب تعالى اسمه: أقبل الرجل الصالح، فالتفت فإذا أحمد الثعالبي مقبل.

وذكره عبد الغافر بن إسماعيل الفارسي في كتاب سياق تاريخ نيسابور وأثنى عليه، وقال: هو صحيح النقل موثوق به. حدث عن أبي طاهر ابن خزيمة والإمام أبي بكر ابن مهران المقرىء، وكان كثير الحديث كثير الشيوخ.

توفي سنة سبع وعشرين وأربعمائة، وقال غيره: توفي في المحرم سنة سبع وعشرين وأربعمائة. وقال غيره: توفي يوم الأربعاء لسبع بقين من المحرم سنة سبع وثلاثين وأربعمائة، رحمة الله تعالى.

والثعلبي – بفتح الثاء المثلثة وسكون العين المهملة وبعد اللام المفتوحة باء موحدة، والنيسابوري – بفتح النون وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح السين المهملة، وبعد الألف باء موحدة مضمومة، وبعد الواو الساكنة راء – هذه النسبة إلى نيسابور. وهي من احسن مدن خراسان، وأعظمها وأجمعها للخيرات، وإنما قيل لها: نيسابور لأن سابور ذا الأكتاف أحد ملوك الفرس المتأخرة لما وصل إلى مكانها أعجبه، وكان مقصبة، فقال: يصلح أن يكون ههنا مدينة، وأمر بقطع القصب وبنى المدينة، فقيل لها نيسابور. والني: القصب بالعجمي، هكذا قاله السمعاني في كتاب الأنساب.

ابن أبي دواد

أبو عبد الله أحمد بن أبي دواد فرج بن جرير بن مالك بن عبد الله بن عباد ابن سلام بن مالك بن عبد هند بن لخم بن مالك بن قنص بن منعة بن برجان بن دوس ابن الديل بن أمية بن حذافة بن زهر بن إياد بن نزار بن معد بن عدنان الإيادي القاضي؛ كان معروفاً بالمروءة والعصبية، وله مع المعتصم في ذلك أخبار مأثورة، ذكره أبو عبيد الله المرزباني في كتاب المرشد في أخبار المتكلمين فقال: قيل: إن أصلهم من قرية بقنسرين، واتجر أبوه إلى الشام، وأخرجه معه وهو حدث فنشأ أحمد في طلب العلم وخاصة الفقه والكلام، حتى بلغ ما بلغ، وصحب هياج بن العلاء السلمي، وكان من أصحاب واصل بن عطاء، فصار إلى الاعتزال.

قال أبو العيناء: مارأيت رئيسا قط أفصح ولا أنطق من ابن أبي دواد، وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلي: سمعت ابن أبي دواد في مجلس المعتصم وهو يقول: إني لأمتنع من تكليم الخلفاء بحضرة محمد بن عبد الملك الزيات الوزير في حاجة كراهة أن أعلمه ذلك، ومخافة أن أعلمه التأتي لها؛ وهو أول من افتتح الكلام مع الخلفاء، وكانوا لايبدؤهم أحد حتى يبدؤوه، وقال أبو العيناء: كان ابن ابي دواد شاعراً مجيداً فصيحاً بليغاً.

وقال المرزباني: وقد ذكره دعبل بن علي الخزاعي في كتابه الذي جمع فيه أسماء الشعراء وروى له أبياتاًحساناً، وكان يقول: ثلاثة ينبغي أن يبجلوا وتعرف أقدارهم: العلماء وولاة العدل والإخوان، فمن استخف بالعلماء أهلك دينه، ومن استخف بالولاة أهلك دنياه، ومن استخف بالإخوان أهلك مروءته.

وقال إبراهيم بن الحسن: كنا عند المأمون فذكروا من بايع من الأنصار ليلة العقبة، فاختلفوا في ذلك، ودخل ابن أبي دواد فعدهم واحدا واحدا بأسمائهم وكناهم وأنسابهم، فقال المأمون: إذا استجلس الناس فاضلا فمثل أحمد، فقال أحمد: بل إذا جالس العالم خليفة فمثل أمير المؤمنين الذي يفهم عنه، ويكون أعلم بما يقوله منه. ومن كلام أحمد: ليس بكامل من لم يحمل وليه على منبر ولو أنه حارس، وعدوه على جذع ولو أنه وزير.

وقال أبو العيناء: كان الأفشين يحسد أبا دلف القاسم بن عيسى العجلي للعربية والشجاعة، فاحتال عليه حتى شهد عليه بجناية وقتل، فأخذه ببعض أسبابه، فجلس له وأحضره وأحضر السياف ليقتله، وبلغ ابن أبي دواد الخبر، فركب في وقته مع من حضر من عدوله، فدخل على الافشين وقد جيء بأبي دلف ليقتل، فوقف ثم قال: إني رسول أمير المؤمنين إليك، وقد أمرك أن لا تحدث في القاسم بن عيسى حدثاً حتى تسلمه إلي، ثم التفت إلى

العدول، وقال: اشهدوا أني قد أديت الرسالة إليه عن أمير المؤمنين والقاسم حي معافى، فقالوا: قد شهدنا، وخرج، فلم يقدر الافشين عليه، وصار ابن أبي دواد إلى المعتصم من وقته، وقال: ياأميرالمؤمنين، قد أديت عنك رسالة لم تقلها لي، ما أعتد بعمل خير خيراً منها، وإني لأرجو لك الجنة بها، ثم أخبره الخبر، فصوب رأيه ووجه من أحضر القسم فأطلقه ووهب له وعنف الافشين فيما عزم عليه.

وكان المعتصم قد اشتد غيظه على محمد بن الجهم البرمكي، فأمر بضرب عنقه، فلما رأى ابن أبي دواد ذلك، وأنه لاحيلة له فيه، وقد شد برأسه وأقيم في النطع وهز له السيف، قال ابن أبي دواد للمعتصم: وكيف تأخذ ماله إذا قتلته؟ قال: ومن يحول بيني وبينه؟ قال: يأبى الله تعالى ذلك، ويأباه رسوله صلى الله عليه وسلم، ويأباه عدل أمير المؤمنين، فإن المال للوارث إذا قتلته حتى تقيم البينة على ما فعله، وأمره باستخراج ما اختانه أقرب عليك وهو حي، فقال: احبسوه حتى يناظر، فتأخر أمره على مال حمله، وخلص محمد.

وحدث الجاحظ أن المعتصم غضب على رجل من أهل الجزيرة الفراتية وأحضر السيف والنطع، فقال له المعتصم: فعلت وصنعت، وأمر بضرب عنقه فقال له ابن أبي دواد: يا أمير المؤمنين، سبق السيف العدل، فتأن في أمره فإنه مظلوم، قال: فسكن قليلاً، قال ابن أبي دواد: وغمرني البول فلم أقدر على حبسه، وعلمت أني إن قمت قتل الرجل، فجعلت ثيابي تحتي وبلت فيها حتى خلصت الرجل، قال: فلما قمت نظر المعتصم إلى ثيابي رطبة، فقال: يا أبا عبد الله كان تحتك ماء؟ فقلت: لا يا أمير المؤمنين، ولكنه كان كذا وكذا، فضحك المعتصم ودعا لي، وقال: أحسنت بارك الله عليك، وخلع عليه وأمر له بمائة ألف درهم.

وقال أحمد بن عبد الرحمن الكلبي: ابن أبي دواد روح كله من قرنه إلى قدمه، وقال لازون بن إسماعيل: ما رأيت أحداً قط أطوع لأحد من المعتصم لابن أبي دواد، وكان يسأل الشيء اليسير فيمتنع منه، ثم يدخل ابن أبي دواد فيكلمه في أهله وفي أهل الثغور وفي الحرمين وفي أقاصي أهل المشرق والمغرب، فيجيبه إلى كل مايريد، ولقد كلمه يوما في مقدار ألف ألف درهم ليحفر بها نهراً في أقاصي خراسان، فقال له: وما علي من هذا النهر؟ فقال: ياأمير المؤمنين، إن الله تعالى يسألك عن النظر في أمر أقصى رعيتك كما يسألك عن النظر في أمر أدناها، ولم يزل يرفق به حتى أطلقها.

وقال الحسين بن الضحاك الشاعر المشهور لبعض المتكلمين: ابن ابي دواد عندنا لا يحسن اللغة وعندكم لا يحسن الكلام وعند الفقهاء لا يحسن الفقه، وهو عند المعتصم يعرف هذا كله.

وكان ابتداء اتصال ابن أبي دواد بالمأمون أنه قال: كنت أحضر مجلس القاضي يحيى بن أكثم مع الفقهاء، فإني عنده يوماً إذ جاءه رسول المأمون فقال له: يقول لك أمير المؤمنين: انتقل إلينا وجميع من معك من أصحابك، فلم يحب أن أحضر معه، ولم يستطع أن يؤخرني، فحضرت مع القوم، وتكلمنا بحضرة المأمون فأقبل المأمون ينظر إلي إذا شرعت في الكلام ويتفهم ما أقول ويستحسنه، ثم قال لي: من تكون؟ فانتسبت له، فقال: ما أخرك عنا؟ فكرهت أن أحيل على يحيى، فقلت: حبسة القدر وبلوغ الكتاب اجله، فقال: لا أعلمن ما كان لنا من مجلس إلا حضرته، فقلت: نعم يا أمير المؤمنين، ثم اتصل الأمر.

وقيل: قدم يحيى بن أكثم قاضياً على البصرة من خراسان من قبل المأمون في آخر سنة اثنتين ومائتين وهو حدث سنه نيف وعشرون سنة، فاستصحب جماعة من أهل العلم والمروءات منهم ابن أبي دواد، فلما قدم المأمون بغداد في سنة أربع ومائتين قال ليحيى: اختر لي من أصحابك جماعة يجالسونني ويكثرون الدخول إلي، فاختار منهم عشرين فيهم ابن أبي دواد، فكثرواعلى المأمون، فقال: اختر منهم، فاختار عشرة فيهم ابن أبي دواد، ثم قال: اختر منهم، فاختار خمسة فيهم ابن أبي دواد، واتصل أمره، وأسند المأمون وصيته عند الموت إلى أخيه المعتصم، وقال فيها: وأبو عبد الله أحمد بن أبي دواد لا يفارقك الشركة في المشورة في كل أمرك، فإنه موضع ذلك، ولاتتخذن بعدي وزيراً.

ولما ولي المعتصم الخلافة جعل ابن أبي دواد قاضي القضاة، وعزل يحيى بن أكثم، وخص به أحمد حتى كان لا يفعل فعلاً باطناً ولا ظاهراً إلا برأيه، وامتحن ابن أبي دواد الإمام أحمد بن حنبل، وألزمه بالقول بخلق القرآن الكريم، وذلك في شهر رمضان سنة عشرين ومائتين. ولما مات المعتصم وتولى بعده ولده الواثق بالله حسنت حال ابن أبي دواد عنده، ولما مات الواثق بالله وتولى أخوه المتوكل فلج ابن أبي دواد في أول خلافته وذهب شقه الأيمن، فقلد المتوكل ولده محمد بن احمد القضاء مكانه، ثم عزل محمد بن احمد عن المظالم في سنة ست وثلاثين ومائتين، وقلد يحيى بن أكثم.

وكان الواثق قد أمر أن لا يرى أحد من الناس محمد بن عبد الملك الزيات الوزير إلاقام له، فكان ابن أبي دواد إذا رآه قام واستقبل القبلة يصلي، فقال ابن الزيات:

صلى الضحى لما استفاد عداوتي وأراه ينسك بعدها ويصوم

لا تعد من عداوة مسمومة تركتك تقعد تارة وتقوم

ومدحه جماعة من شعراء عصره؛ قال علي الرازي: رأيت أبا تمام الطائي عند ابن أبي دود ومعه رجل ينشد عنه قصيدة منها:

لقد انست مساوىء كل دهرٍ محاسن أحمد بن أبي دواد

وما سافرت في الآفاق إلا ومن جدواك راحلتي وزادي

فقال له ابن ابي دواد: هذا المعنى تفردت به أو أخذته؟ فقال: هو لي وقد ألممت فيه بقول أبي نواس:

وإن جرت الألفاظ منا بمدحة لغيرك إنساناً فأنت الذي تعني

ودخل أبو تمام عليه يوماً، وقد طالت أيامه في الوقوف ببابه ولا يصل إليه، فعتب عليه مع بعض أصحابه، فقال له ابن ابي دواد: أحسبك عاتبا يا أبا تمام، فقال: إنما يعتب علىواحد وأنت الناس جميعا فكيف يعتب عليك! فقال له: من أين لك هذا يا أبا تمام؟ فقال: من قول الحاذق – يعني أبانواس – في الفضل بن الربيه:

وليس لله بمستتكر أن يجمع العالم في واحد

ولما ولي ابن أبي دواد المظالم قال أبو تمام قصيدة يتظلم إليه، من جملتها قوله

إذا أنت ضيعت القريض وأهله فلاعجب إن ضيعته الأعاجم

فقد هز عطفيه القريض ترفعاً بعدلك مذ صارت إليك المظالم

ولولا خلال سنها الشعر ما درى بغاة العلى من أين تؤتى المكارم

قلت: ومدحه أبو تمام ايضا بقصيدته التي أولها:

أرأيت أي سوالف وخدود عنت لنا بين اللوى فزرود

وما ألطف قوله فيها:

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود

لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود

ومدحه مروان بن أبي الجنوب بقوله:

لقد حازت نزار كل مجد ومكرمة على رغم الأعادي

فقل للفاخرين على نزار ومنهم خندف وبنو إياد

رسول الله والخلفاء منا ومنا أحمد بن أبي دواد

وليس كمثلهم في غير قومي بموجود إلى يوم التنادي

نبي مرسل وولاة عهد ومهدي إلى الخيرات هادي

ولما سمع هذا الشعرأبو هفان المهزمي قال:

فقل للفاخرين على نزار وهم في الأرض سادات العباد

رسول الله والخلفاء منا ونبرأ من دعي بني إياد

وما منا إياد إن أقرت بدعوة أحمد بن أبي دواد

فقال ابن أبي دواد: مابلغ مني احد مابلغ مني هذا الغلام المهزمي، لولا أني أكره أن أنبه عليه لعاقبته عقابا لم يعاقب أحد بمثله، جاء إلى منقبة كانت لي فنقضها عروة عروة.

وكان ابن أبي دواد كثيراً ما ينشد، ولم يذكرأهما له أو لغيره:

ما أنت بالسبب الضعيف، وإنما نجح الأمور بقوة الأسباب

فاليوم حاجتنا إليك، إنما يدعى الطبيب لشدة الأوصاب

وذكر غير المرزباني عن أبي العيناء أن المعتصم غضب على خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني – قلت: وسيأتي ذكره في ترجمة أبيه إن شاء الله تعالى – وأشخصه من ولايته لعجز لحقه في مال طلب من أسباب غير ذلك، فجلس المعتصم لعقوبته، وكان قد طرح نفسه على القاضي أحمد، فتكلم فيه فلم يجبه المعتصم، فلما جلس لعقوبته حضر القاضي أحمد فجلس دون مجلسه، فقال له المعتصم: يا أبا عبد الله، جلست في غير مجلسك، فقال: ماينبغي لي أن أجلس إلا دون مجلسي هذا، فقال له: وكيف؟ قال: لأن الناس يزعمون أنه ليس موضعي موضع من يشفع في رجل فيشفع، قال: فارجع إلى مجلسك، قال: مشفعاً أو غير مشفع؟ قال: بل مشفعا، فارتفع إلى مجلسه، ثم قال: إن الناس لايعلمون رضى أمير المؤمنين عنه إن لم يخلع عليه، فأمر بالخلع عليه، فقال: يا أمير المؤمنين، وقد استحق هو وأصحابه رزق ستت أشهر لا بد ان يقبضوها، وإن أمرت لهم بها في هذا الوقت قامت مقام الصلة، فقال: قد أمرت بها، فخرج خالد وعليه الخلع والمال بين يديه، وإن الناس في الطرق ينتظرون الايقاع به، فصاح به رجل: الحمد الله على خلاصك يا سيد العرب، فقال له: اسكت، سيد العرب والله احمد بن أبي دواد.

وكان بينه وبين الوزير ابن الزيات منافسات وشحناء، حتى إن شخصاً كان يصحب القاضي المذكور ويختص بقضاء حوائجه منعه الوزير المذكور من الترداد إليه، فبلغ ذلك القاضي، فجاء إلى الوزير وقال له: والله ما أجيئك متكثراً بك من قلة، ولامتعزراً بك من ذلة، ولكن أمير المؤمنين رتبك مرتبة أوجبت لقاءك، فان لقيناك فله، وإن تأخرنا عنك فلك، ثم نهض من عنده.

وكان فيه من المكارم والمحامد مايستغرق الوصف.

وهجا بعض الشعراء الوزير ابن الزيات بقصيدة عدد أبياها سبعون بيتاً فبلغ خبرها القاضي أحمد، فقال:

أحسن من سبعين بيتاً هجا جمعك معناهن في بيت

ما أحوج الملك إلى مطرة تغسل عنه وضر الزيت

فبلغ ابن الزيات ذلك، ويقال: إن بعض أجداد القاضي أحمد كان يبيع القار، فقال:

يا ذا الذي يطمع في هجونا عرضت بي نفسك للموت

الزيت لايزري بأحسابنا أحسابنا معروفة البيت

قيرتم الملك فلم ننقه حتى غسلنا القار بالزيت

وأصابه الفالج لست خلون من جمادى الآخرة سنة ثلاث وثلاثين ومائتين بعد موت عدوه الوزير المذكور بمائة يوم وأيام، وقيل: بخمسين يوماً، وقيل: بسبعة وأربعين يوماً، وسيأتي تاريخ وفاة الوزير في حرف الميم.

ولما حصل له الفالج ولي موضعه ولده أبو الوليد محمد، ولم تكن طريقته مرضية، وكثر ذاموه وقل شاكروه، حتى عمل فيه إبراهيم بن العباس الصولي المقدم ذكره قبل هذا:

عفت مساو تبدت منك واضحة ... على محاسن أبقاها أبوك لكا
فقد تقدمت أبناء الكرام به ... كما تقدم آباء اللئام بكا

ولعمري لقد بالغ في طرفي المدح والذم، وهو معنى بديع.

واستمر على مظالم العسكر والقضاء إلى سنة سبع وثلاثين ومائتين، فسخط المتوكل على القاضي أحمد المذكور وولده محمد، وأمر بالتوكيل على ضياعه، لخمس بقين من صفر من السنة المذكورة، وصرفه عن المظالم، ثم صرفه عن القضاء يوم الخميس لخمس خلون من شهر ربيع الأول من السنة، وأخذ من الولد مائة ألف وعشرين ألف دينار، وجوهراً بأربعين ألف دينار، وسيره إلى بغداد من سر من رأى، وفوض القضاء إلى القاضي يحيى بن أكثم الصيفي – وسيأتي ذكره في حرف الياء إن شاء الله تعالى – ولما شهد على ابن أبي دواد حين غضب عليه الخليفة بضياعه المأخوذة منه في الجناية حضر المجلس خلق كثير من الشهود وغيرهم، فقام رجل من الشهود – وكان القاضي منحرفا عنه في أيامه – فقال: تشهدنا عليك بما في هذا الكتاب؟ فقال القاضي: لست هناك، وقال للباقين: اشهدوا علي، فجلس الرجل بخزي، وتعجب الناس من ثبوت القاضي وقوة قلبه في تلك الحال.

وتوفي القاضي أحمد المذكور بمرضه الفالج في المحرم سنة أربعين ومائتين، ونقل عنه أنه قال: ولدت بالبصرة سنة ستين ومائة، وقيل: إنه كان أسن من القاضي يحيى بن أكثم بنحو عشرين سنة، وهو يخالف ما ذكرته في ترجمة يحيى، لكن كتبته على ما وجدته، والله أعلم بالصواب. وتوفي ولده محمد قبله بعشرين يوماً في ذي الحجة رحمهما الله تعالى.

وقد ذكر المرزباني في كتابه المذكور اختلافا كثيرا في تاريخ وفاته وموت ابنه، فأحببت ذكر جميع ما قاله؛ قال: ولى المتوكل ابنه أبا الوليد محمدابن أحمد القضاء والمظالم بالعسكر مكان أبيه، ثم عزله عنها يوم الأربعاء لعشر بقين من صفر سنة أربعين ومائتين، ووكل بضياعه وضياع أبيه، ثم صولح على ألف ألف دينار، ومات أبو الوليد محمد بن أحمد ببغداد في ذي القعدة سنة أربعين ومائتين، ومات أبوه أحمد بعده بعشرين يوما، وذكر الصولي أن سخط المتوكل على ابن أبي دواد كان في سنة سبع وثلاثين، ثم ذكر المرزباني بعد هذا أن القاضي أحمد مات في المحرم سنة أربعين، ومات ابنه قبله بعشرين يوما، وقيل: مات ابنه في آخر سنة تسع وثلاثين، وكان موتهما ببغداد، وقيل: مات ابنه في ذي الحجة سنة تسع وثلاثين، ومات أبوه يوم السبت لسبع بقين من المحرم سنة أربعين، وكان بين موتهما شهر أو نحوه، والله أعلم بالصواب في ذلك كله.

وقال أبو بكر ابن دريد: كان ابن أبي دواد مؤالفا لأهل الأدب من أي بلد كانوا، وكان قد ضم منهم جماعة يعولهم ويمونهم، فلما مات حضر ببابه جماعة منهم وقالوا: يدفن من كان ساقة الكرم وتاريخ الأدب ولا يتكلم فيه؟ إن هذا وهن وتقصير، فلما طلع سريره قام إليه ثلاثة منهم فقال أحدهم:

اليوم مات نظام الملك واللسن ... ومات من كان يستعدى على الزمن
وأظلمت سبل الآداب إذ حجبت ... شمس المكارم في غيم من الكفن

وتقدم الثاني فقال:

ترك المنابر والسرير تواضعاً ... وله منابر لو يشا وسرير
ولغيره يجبي الخراج، وإنما ... يجبى إليه محامد وأجور

وتقدم الثالث فقال:

وليس فتيق المسك ريح حنوطه ولكنه ذاك الثناء المخلف

وليس صرير النعش ما تسمعونه ولكنه أصلاب قوم تقصف

وقال أبو بكر الجرجاني: سمعت أبا العيناء الضرير يقول: ما رأيت في الدنيا أقوم على أدب من ابن أبي دواد، ما خرجت من عنده يوماً قط فقال: يا غلام خذ بيده، بل قال: ياغلام اخرج معه، فكنت أتقد هذه الكلمة عليه، فلا يخل بها، ولا أسمعها من غيره.

وعلى الجملة فقد طالت هذه الترجمة، وإنما محاسنه كانت كثيرة، رحمه الله تعالى.

ودواد: بضم الدال المهملة وفتح الواو وبعد الألف دال ثانية مهملة.

والإيادي – بكسر الهمزة وفتح الياء المثناة من تحتها وبعد الألف دال مهملة – نسبة إلى إياد بن نزار بن معد بن عدنان.

الحافظ أبو نعيم

أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني الحافظ المشهور صاحب كتاب حلية الأولياء؛ كان من الأعلام المحدثين، وأكابر الحفاظ الثقات، أخذ عن الأفاضل، وأخذوا عنه، وانتفعوا به، وكتابه الحلية من أحسن الكتب، وله كتاب تاريخ أصبهان نقلت منه في ترجمة والده عبد الله نسبته على هذه الصورة، وذكر أن جده مهران أسلم، إشارة إلى أنه أول من أسلم من اجداده، وأنه مولى عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه – وسيأتي ذكر عبد الله بن معاوية، إن شاء الله تعالى – وذكر أن والده توفي في رجب سنة خمس وستين وثلثمائة، ودفن عند جده من قبل أمه.

ولد في رجب سنة ست وثلاثين وثلثمائة، وقيل: أربع وثلاثين، وتوفي في صفر، وقيل: يوم الاثنين الحادي والعشرين من المحرم سنة ثلاثين وأربعمائة بأصبهان، رحمه الله تعالى.

واصبهان – بكسر الهمزة وفتحها وسكون الصاد المهملة وفتح الباء الموحدة، ويقال بالفاء أيضاً وفتح الهاء بعد الألف نون – وهي من أشهر بلاد الجبال، وإنما قيل لها هذا الاسم لأنها تسمى بالعجمية: سباهان وسبا: العسكر، وهان: الجمع. وكانت جموع عساكر الأكاسرة تجتمع إذا وقعت لهم واقعة في هذا الموضع، مثل عسكر فارس وكرمان والأهواز وغيرها، فعرب فقيل: اصبهان، وبناها إسكندر ذو القرنين، هكذا ذكره السمعاني.

الخطيب البغدادي

الحافظ أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي بن ثابت البغدادي، المعروف بالخطيب، صاحب تاريخ بغداد وغيره من المصنفات؛ كان من الحفاظ المتقنين العلماء المتبحرين، ولو لم يكن له سوى التاريخ لكفاه، فانه يدل على اطلاع عظيم، وصنف قريباً من مائة مصنف، وفضله أشهر من أن يوصف وأخذ الفقه عن أبي الحسن المحاملي والقاضي أبي الطيب الطبري وغيرهما، وكان فقيها فغلب عليه الحديث والتاريخ.

ولد في جمادى الآخرة سنة اثنتين وتسعين وثلثمائة، يوم الخميس لست بقين من الشهر، وتوفي يوم الاثنين سابع ذي الحجة سنة ثلاث وستين وأربعمائة ببغداد، رحمه الله تعالى، وقال السمعاني: توفي في شوال، وسمعت أن الشيخ أبا إسحاق الشيرازي رحمه الله تعالى كان من جملة من حمل نعشه، لأنه انتفع به كثيراً، وكان يراجعه في تصانيفه، والعجب أنه كان في وقته حافظ المشرق، وأبو عمر يوسف بن عبد البر – صاحب كتاب الاستيعاب – حافظ المغرب، وماتا في سنة واحدة – كما سيأتي في حرف الياء إن شاء الله تعالى –.

وذكر محب الدين بن النجار في تاريخ بغداد أن أبا البركات إسماعيل بن أبي سعد الصوفي قال: إن الشيخ أبا بكر ابن زهراء الصوفي كان قد أعد لنفسه قبراً إلى جانب قبر بشر الحافي، رحمه الله تعالى، وكان يمضي إليه في كل أسبوع مرة وينام فيه ويقرأ فيه القرآن كله، فلما مات أبو بكر الخطيب – وكان قد أوصى أن يدفن إلى جانب قبر بشر – جاء أصحاب الحديث إلى أبي بكر بن زهراء، وسألوه أن يدفن الخطيب في القبر الذي كان قد أعده لنفسه وأن يؤثره به، فامتنع من ذلك امتناعاً شديداً، وقال: موضع قد أعددته لنفسي منذ سنين يؤخذ مني! فلما رأوا ذلك جاءوا إلى والدي الشيخ أبي سعد وذكروا له ذلك، فأحضر الشيخ أبا بكر ابن زهراء وقال له: أنا لا أقول لك أعطهم القبر، ولكن أقول لك: لوأن بشراً الحافي في الأحياء وأنت

إلى جانبه فجاء أبو بكر الخطيب يقعد دونك، أكان يحسن بك أن تقعد أعلى منه؟ قال: لا، بل كنت أقوم وأجلسه مكاني، قال: فهكذا ينبغي أن يكون الساعة، قال: فطاب قلب الشيخ أبي بكر وأذن لهم في دفنه، فدفنوه إلى جانبه بباب حرب. وكان قد تصدق بجميع ماله، وهو مائتا دينار، فرقها على أرباب الحديث والفقهاء والفقراء في مرضه، وأوصى أن يتصدق عنه بجميع ماعليه من الثياب، ووقف جميع كتبه على المسلمين، و لم يكن له عقب، وصنف أكثر من ستين كتاباً، وكان الشيخ أبو إسحاق الشيرازي أحد من حمل جنازته، وقيل: إنه ولد سنة إحدى وتسعين وثلثمائة، والله أعلم، ورؤيت له منامات صالحة بعد موته، وكان قد انتهى إليه علم الحديث وحفظه في وقته؛ هذا آخر ما نقلته من كتاب ابن النجار.

الراوندي

أبو الحسين أحمد بن يحيى بن إسحاق الراوندي، العالم المشهور؛ له مقالة في علم الكلام، وكان من الفضلاء في عصره، وله من الكتب المصنفة نحو من مائة وأربعة عشر كتاباً، منها كتاب فضيحة المعتزل وكتاب التاج وكتاب الزمرد وكتاب القصب وغير ذلك. وله مجالس ومناظرات مع جماعة من علماء الكلام، وقد انفرد بمذاهب نقلها أهل الكلام عنه في كتبهم.

توفي سنة خمس وأربعين ومائتين برحبة مالك بن طوق التغلبي، وقيل: ببغداد، وتقديرعمره أربعون سنة، وذكر في البيتان أنه توفي سنة خمسين، والله أعلم، رحمه الله تعالى.

ونسبته إلى رواند – بفتح الراء والواو وبينهما ألف وسكون النون وبعدها دال مهملة – وهي قرية من قرى قاسان بنواحي أصبهان. وراوند أيضاً ناحية ظاهر نيسابور.

وقاسان: بالسين المهملة، وهي غير قاشان – بالشين المعجمة – المجاورة لقم.

وهذه رواند التي ذكرها أبو تمام الطائي في كتاب الحماسة في باب المراثي، فقال: ذكروا أن رجلين من بني أسد خرجا إلى أصبهان فآخيا دهقانا بها في موضع يقال له رواند وخزاق، ونادماه، فمات أحدهما وغير الآخر والدهقان ينادمان قبره: يشربان كأسين ويصبان على قبره كأساً، ثم مات الدهقان، فكان الأسدي الغابر ينادم قبريهما ويترنم بهذا الشعر:

خليلي هبا طالما قد رقدتما ... أجد كما لاتقضيان كراكما

أمن طول نوم لاتجيبان داعياً ... كأن الذي يسقي المدام سقاكما

ألم تعلما مالي براوند كلها ... ولايخزاق من صديق سواكما

أقيم على قبريكما لست بارحاً ... طوال الليالي أو يجيبب صداكما

وأبكيكما حتى الممات، ومماالذي ... يرد على ذي لوعة إن بكاكما

فلوجعلت نفس لنفس وقاية ... لجدت بنفسي أن تكون فداكما

أصب على قبريكما من مدامة ... فإلا تنالاها ترو ثراكما

وخزاق – يضم الخاء المعجمة وبعدها زاي وبعد الألف قاف – قرية أخرى مجاورة لها، والله أعلم بالصواب.

الهروي

أبو عبيد أحمد بن محمد بن محمد بن أبي عبيد العبدي المؤدب الهروي الفاشاني صاحب كتاب الغريب؛ هذا هو المنقول في نسبه، ورأيت على ظهر كتابه الغريبين أنه أحمد بن محمد بن عبد الرحمن، والله أعلم.

كان من العلماء الأكابر، وماقصر في كتابه المذكور، و لم أقف على شيء من أخباره لأذكره سوى أنه كان يصحب أبا منصور الأزهري اللغوي،

وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى، وعليه اشتغل وبه انتفع وتخرج، وكتابه المذكور جمع فيه بين تفسير غريب القرآن الكريم والحديث النبوي، وسار في الآفاق، وهو من الكتب النافعة.

وقيل: إنه كان يحب البذلة ويتناول في الخلوة، ويعاشر أهل الدب في مجالس اللذة والطرب، عفا الله عنه وعنا. وأشار الباخرزي في ترجمة بعض أدباء خراسان إلى شيء من ذلك، والله أعلم.

وكانت وفاته في رجب سنة إحدى وأربعمائة، رحمه الله تعالى.

والهروي - بفتح الهاء والراء - نسبة إلى هراة وهي إحدى مدن خراسان الكبار فتحها الأحنف بن قيس صلحا من قبل عبد الله بن عامر.

والفاشاني - بفتح الفاء وبعد الألف شين معجمة وبعد الألف الثانيةنون - نسبة إلى فاشان، وهير قرية من قرى هراة، ويقال لها باشان - بالباء الموحدة أيضاً - ذكره السمعاني، وقد تقدم في الذي قبله ذكر قاسان وقاشان، وهذه الأسماء الأربعة يقع بينها الاشتباه، وهي على هذه الصورة ولا لبس بعد هذا.

الخوافي

أبو المظفر أحمد بن محمد بن المظفر الخوافي الفقيه الشافعي؛ كان أنظر أهل زمانه، تفقه على إمام الحرمين الجويني، وصار أوجه تلامذته، ولي القضاء بطوس ونواحيها، وكان مشهورا بين العلماء بحسن المناظرة وإفحام الخصوم وكان رفيق أبي حامد الغزالي في الاشتغال، ورزق الغزالي السعادة في تصانيفه، والخوافي السعادة في مناظراته. وتوفي سنة خمسمائة بطوس، رحمه الله تعالى.

ونسبته إلى خواف - بفتح الخاء المعجمة وبعد الواو المفتوحة ألف وبعد الألف فاء - وهي ناحية من نواحي نيسابور كثيرة القرى.

اخو الغزالي

أبو الفتاح أحمد بن محمد بن أحمد الطوسي الغزالي الملقب مجد الدين أخو الإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي الفقيه الشافعي؛ كان واعظا مليح الوعظ حسن المنظر صاحب كرامات وإشارات، وكان من الفقهاء، غير أنه مال إلى الوعظ فغلب عليه، ودرس بالمدرسة النظامية نيابة عن أخيه أبي حامد لما ترك التدريس زهادة فيه، واختصر كتاب أخيه أبي حامد المسمى بإحياء علوم الدين في مجلد مجلد واحد وسماه لباب الإحياء، وله تصنيف آخر سماه الذخيرة في علم البصيرة. وطاف البلاد وخدم الصوفية بنفسه، وكان مائلاً إلى الانقطاع والعزلة.

وذكره ابن النجار في تاريخ بغداد فقال: كان قد قرأ القارىء بحضرته ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم - الآية فقال: شرفهم بياء الإضافة إلى نفسه بقولة ياعبادي، ثم أنشد يقول:

وهان علي اللوم في جنب حبها ... وقول العادي إنه لخليع

أصم إذا نوديت باسمي، وإننيإذا قيل لي يا عبدها لسميع

قلت: ومثل هذا قول بعضهم:

لا تدعي إلا بيا عبدها ... فإنه اشرف أسمائي

وتوفي أحمد بقزوين في سنة عشرين وخمسمائة، رحمه الله تعالى.

والطوسي - بضم الطاء المهملة وسكون الواو وبالسين المهملة - نسبة إلى طوس، وهي ناحية بخراسان تشتمل على مدينتين تسمى إحاهما طابران: بفتح الطاء المهملة وبعد اللف باء موحدة ثم راء مفتوحة وبعد الألفا لثانية نون، والأخرى نوقان: بفتح النون وسكون الواو وفتح القاف وبعد الألف نون، ولهما مايزيد على ألف قرية.

والغزالي - بفتح الغين المعجمة وتشديد الزاي المعجمة وبعد الألف لام - هذه النسبة إلى الغزال، على عادة أهل خوارزم وجرجان فانهم ينسبون إلى

القصار القصاري، وإلى العطار العطاري، وقيل: إن الزاي مخففة نسبة إلى غزالة وهي قرية من قرى طوس، وهو خلاف المشهور، ولكن هكذا قاله السمعاني في كتاب الأنساب، والله أعلم.

وقزوين – بفتح القاف وسكون الزاي المعجمة وكسر الواو وسكون الياء المثناة من تحتها، وبعدها نون – وهي مدينة كبيرة في عراق العجم عند قلاع الإسماعيلية.

ابن برهان

أبو الفتح أحمد بن علي بن محمد الوكيل المعروف بابن برهان الفقيه الشافعي؛ كان متبحراً في الأصول والفروع والمتفق والمختلف، تفقه على أبي حامد الغزالي وأبي بكر الشاشي والكيا أبي الحسن الخراسي، وصار ماهراً في فنونه، وصنف كتاب الوجيز في أصول الفقه. ولي التدريس بالمدرسة النظامية ببغداد دون الشهر، مات سنة عشرين وخمسمائة ببغداد دون رحمه الله تعالى.

وبرهان: بفتح الباء الموحدة وسكون الراء وبعد الهاء ألف ونون.

النحاس النحوي

أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادي النحاس، النحوي المصري؛ كان من الفضلاء، وله تصانيف مفيدة منها: تفسير القرآن الكريم وكتاب إعراب القرآن وكتاب الناسخ والمنسوخ وكتاب في النحو اسمه التفاحة وكتاب في الاشتاق، وتفسير أبيات سيبويه، و لم يسبق إلى مثله، وكتاب الكافي في النحو، وكتاب المعاني وفسر عشرة دواوين وأملاها، وكتاب الوقف والابتداء صغرى وكبرى، وكتاب في شرح المعلقات السبع، وكتاب طبقات الشعراء وغير ذلك، وروى عن أبي عبد الرحمن النسائي، وأخذ النحو عن ابي الحسن علي بن سليمان الأخفش النحوي، وأبي إسحاق الزجاج، وابن الأنباري، ونفطويه، وأعيان أدباء العراق، وكان قد رحل إليهم من مصر. وكانت فيه خساسة وتقتير على نفسه، وإذا وهب عمامة قطعها ثلاث عمائم بخلاً وشحاً، وكان يلي شراء حوائجه بنفسه ويتحامل فيها على أهل معرفته، ومع هذا فكان للناس رغبة كبيرة في االأخذ عنه، فنفع وأفاد وأخذ عنه خلق كثير.

وتوفي بمصر يوم السبت لخمس خلون من ذي الحجة سنة ثمان وثلاثين وثلثمائة، وقيل: سنة سع وثلاثين، رحمه الله تعالى؛ وكان سبب وفاته أنه جلس على درج المقياس علىشاطىء النيل، وهو في أيام زيادته، وهو يقطع بالعروض شيئاً من الشعر، فقال بعض العوام: هذا يسحر النيل حتى لايزيد فتغلو الأسعار، فدفعه برجله في النيل، فلم يوقف له على خبر.

والنحاس – بفتح النون والحاء المشددة المهملة وبعد الألف سن مهملة – هذه النسبة إلى من يعمل النحاس، وأهل مصر يقولون لمن يعمل الأواني الصفرية النحاس.

العبدي النحوي

أبو طالب أحمد بن بكر بن بقية العبدي النحوي؛ كان فاضلاً ماهراً، وشرح كتاب الايضاح في النحو لأبي علي الفارسي وأحسن فيه، و لم أطلع على شيء من أحواله حتى أذكره، سوى أنه قرأ النحو على أبي سعيد السيرافي وأبي الحسن الرماني وأبي علي الفارسي.

وتوفي في سنة ست وأربعمائة في شهر رمضان لعشر بقين منه يوم الخميس، رحمه الله تعالى.

والعبدي – بفتح العين المهملة وسكون الباء الموحدة وبعدها دال مهملة – هذه النسبة إلى عبد القيس بن أفصى بن دعمي، وهي قبيلة كبيرة مشهورة.

ابن أبي سهل

أبو العباس أحمد بن محمد بن عبد الكريم أبي سهل الكاتب صاحب كتاب الخراج؛ توفي سنة سبعين ومائتين، رحمه الله تعالى، و لم أعلم من حاله شيئاً حتى أذكره، وكتابه مشهور، وما ذكرته إلا لأجل كتابه، فقد يتشوف الواقف عليه إلى معرفة زمانه.

ثعلب النحوي

أبو العباس أحمد بن يحيى بن زيد بن سيار النحوي الشيباني بالولاء المعروف بثعلب؛ ولاؤه لمعن بن زائد الشيباني – الآتي ذكره في حرف الميم، وإن شاء الله تعالى – كان إمام الكوفيين في النحو واللغة، سمع ابن العرابي والزبيربن بكار وروى عنه الخفش الأصغر وأبو بكر ابن الانباري وأبو عمر الزاهد وغيرهم، وكان ثقة حجة صالحاً مشهوراً بالحفظ وصدق اللهجة والمعرفة بالعربية ورواية الشعر القديم، مقدماً عند الشيوخ منذ هو حدث، وكان ابن الأعرابي إذا شك في شيء قال له: ما تقول يا أبا العباس في هذا؟ ثقة بغزارة حفظه.

وكان يقول: ابتدأت في طلب العربية واللغة في سنة ست عشرة ومائتين، ونظرت في"حدود" الفراء وسني ثماني عشرة سنة، وبلغت خمسا وعشرين سنة وما بقيت علي مسألة للفراء إلا وأنا أحفظها.

وقال أبو بكر ابن مجاهد المقرى: قال لي ثعلب: يا أبا بكر، اشتغل أصحاب القرآن بالقرآن ففازوا، واشتغل أصحاب الحديث بالحديث ففازوا، واشتغلة أصحاب الفقه بالفقه ففازوا، واشغل ة أنا بزيد وعمرو، فليت شعري ماذا يكون حالي في الآخرة؟ فانصرفت من عنده، فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم تلك الليلة في المنام، فقال لي: أقرىء أبا العباس عن السلام وقل له: أنت صاحب العلم المستطيل، قال أبو عبد الله الروذباري العبد الصالح: أراد أن الكلام به يكمل، والخطاب به يجمل، وأن جميع العلوم مفتقرة إليه.

وقال أبو عمر الزاهد المعروف بالمطرز: كنت في مجلس أبي العباس ثعلب فسأله سائل عن شيء فقال: لاأدري، فقال له: أتقول لا أدري وإليك تضرب أكباد الإبل، وإليك الرحلة من كل بلد؟ فقال له أبو العباس: لوكان لأمك بعدد مالاأدري بعر لاستغنت.

وصنف كتاب الفصيح وهو صغير الحجم كثير الفائدة، وكان له شعر، وقال أبوبكر ابن القاسم الأنباري في بعض أماليه: أنشدني ثعلب، ولا أدري هل هي له أو لغيره:

إذا كنت قوت النفس ثم هجرتها ... فكم تلبث النفس التي أنت قوتها
ستبقى بقاء الضب في الماء أو كما ... يعيش ببيداء المهامة حوتها

قال ابن الأنباري: وزادنا أبو الحسن ابن البراء فيها:

أغرك مني أن تصبرت جاهداً ... وفي النفس مني منك ماسيميتها
فلو كان مابي بالصخور لهدها ... وبالريح ما هبت وطال خفوتها
فصبراً لعل الله يجمع بيننا ... فأشكو هموماً منك فيك لقيتها

وولد في سنة مائتين لشهرين مضيا منها، قاله ابن القراب في تاريخه، وقيل: سنة أربع ومائتين، وقيل: إحدى ومائتين، والذي يدل على انه ولد في سنة مائتين انه قال: رأيت المأمون لما قدم من خراسان في سنة أربع ومائتين وقد خرج من باب الحديد يريد الرصافة والناس صفان، فحملني أبي على يده وقال: هذا المأمون، وهذه سنة أربع، فحفظت ذلك عنه إلى الساعة وكان سني تقديرا يومئذ أربع سنين.

وتوفي يوم السبت لثلاث عشرة ليلة بقيت من جمادى الاولى، وقيل: لعشر خلون منها سنة إحدى وتسعين ومائتين ببغداد، ودفن بمقبرة باب الشام، رحمه الله تعالى، وكان سبب وفاته أنه خرج من الجامع يوم الجمعة بعد العصر، وكان قد لحقه صمم لايسمع إلا بعد تعب، وكان في يده كتاب ينظر فيه في الطريق فصدمته فرس فألقته في هوة، فأخرج منها وهو كالمختلط، فحمل إلى مترله على تلك الحال وهو يتأوه من رأسه، فمات ثاني يوم.

وجده سيار: بفتح السين المهملة وتشديد الياء المثناة من تحتها وبعد اللف راء مهملة.

والشيباني – بفتح الشين المثلثة وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح الباء الموحدة وبعد الألف نون – نسبة إلى شيبان: حي من بكر بن وائل، وهما شيبانان: أحدهما سيبان بن ثعلبة بن عكابة، والآخر شيبان بن ذهل بن ثعلبة ابن عكابة، وشيبان الأعلى عم شيبان الأسفل.

ومن تصانيفه كتاب المصون واختلاف النحوين ومعاني القرآن وماتلحن فيه العامة والقراءات ومعاني الشعر والتصغير وما ينصرف وما لا ينصرف وما يجرى وما لا يجرى والشواذ والأمثال والإيمان والوقف والابتداء والأفاظ والهجاء والمجالس والأوسط وإعراب القرآن والمسائل وحد النحو وغير ذلك.

الحافظ السلفي

الحافظ أبو طاهر أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد إبراهيم سلفة الأصبهاني الملقب صدر الدين؛ أحد الحفاظ المكثرين، رحل في طلب الحديث ولقي أعيان المشايخ وكان شافعي المذهب، ورد بغداد، واشتغل بها على الكيا أبي الحسن علي الهراسي في الفقه وعلى الخطيب أبي زكيريا يحيى بن علي التبريزي اللغوي باللغة. وروى عن أبي محمد جعفر بن السراج وغيره من الأئمة الأمائل، وجاب البلاد وطاف الآفاق، ودخل ثغر الاسكندرية سنة إجدى عشرة وخمسمائة في ذي القعدة، وكان قدومه إليه في البحر من مدينة صور، وأقام به، وقصده الناس من الأماكن البعيدة، وسمعوا عليه وانتفعوا به، ولم يكن في آخر عمره في عصره مثله، وبنى له العادل أبو الحسن علي بن السلار، وزير الظافر العبيدي صاحب مصر، في سنة ست وأربعين وخمسمائة مدرسة بالثغر المذكور وفوضها إليه، وهي معروفة به إلى الآن، وأدركت جماعة من أصحابه بالشام والديار المصرية، وسمعت عليهم وأجازوني. وكان قد كتب الكثير، ونقلت من خطة فوائد جمة، ومن جملة ما نقلت من خطه لأبي عبد الله محمد بن عبد الجبار الأندلسي من قصيدة:

لولا اشتغالي بالأمير ومدحه | لأطلت في ذاك الغزال تغزلي

لكن أوصاف الجلال عذبن لي | فتركت أوصاف الجمال بمعزل

ونقلت من خطه أيضا لبثينة صاحبة جميل ترثيه:

وإن سلوي عن جميل لساعة | من الدهر ما حانت ولا حان حينها

سواء علينا يا جميل بن معمر | إذا مت بأساء الحياة ولينها

وكان كثيراً ما ينشد:

قالوا نفوس الدار سكانها | وأنتم عندي نفوس النفوس

وأمياله وتعاليقه كثيرة، والاختصار بالمختصر أولى.

وكانت ولادته سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة تقريباً بأصبهان، وتوفي ضحوة نهار الجمعة – وقيل: ليلة الجمعة – خامس شهر ربيع الآخر سنة ست وسبعين وخمسمائة بثغر الاسكندرية، ودفن في وعلة، وهي مقبرة داخل السور عند الباب الخضر فيها جماعة من الصالحين كالطرطوشي وغيره.

ووعلة: بفتح الواو وسكون العين المهملة وبعدها لام ثم هاء، ويقال: إن هذه المقبرة منسوبة إلى عبد الرحمن بن وعلة السبئي المصري، صاحب ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، وقيل غير ذلك، رحمه الله تعالى.

قلت: وجدت العلماء المحدثين بالديار المصرية، من جملتهم: الحافظ زكي الدين أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوي المنذري، محدث مصر في زمانه، يقولون في مولد الحافظ السفلي هذه المقالة. ثم وجدت في كتاب زهر الرياض المفصح عن المقاصد والأغراض، تأليف الشيخ جمال الدين أبي القاسم عبد الرحمن ابن أبي الفضل عبد المجيد بن إسماعيل بن حفص الصفراوي الاسكندري، أن الحافظ أبا طاهر السفلي المذكور – وهوشيخه – كان يقول: مولدي بالتخمين، لاباليقين، سنة ثمان وسبعين، فيكون مبلغ عمره على مقتضى ذلك ثمانياً وتسعين سنة، هذا آخر كلام الصفراوي المذكور. ورأيت في تاريخ الحافظ محب الدين محمد بن محمود المعروف بابن النجار البغدادي ما يدل على صحة ما قاله الصفراوي، فإنه قال: قال عبد الغني المقدسي: سألت الحافظ السفلي عن مولده، فقال: أنا أذكر قتل نظام الملك في سنة خمس وثمانين وأربعمائة، وكان لي من العمر حدود عشر سنين

قلت: ولو كان مولده على ما يقوله أهل مصر أنه في سنة اثنتين وسبعين ما كان يقول أذكر قتل الملك في سنة خمس وثمانين وأربعمائة، فانه على مايقولون قد كان عمره ثلاث عشرة سنة، أو أربع عشرة سنة، ولم تجر العادة أن من يكون في هذا السن يقول: أنا أذكر القضية الفلانية، وإنما يقول ذلك من يكون عمره تقديراً أربع سنين أو خمس سنين أو ستاً، فقد ظهر بهذا أن قول الصفراوي أقرب إلى الصحة، وهو تلميذه، وقد سمع منه أنه قال:

مولدي في سنة ثمان وسبعين، وليس الصفراوي ممن يشك في قوله، ولا يرتاد في صحته، مع أننا ماعلمنا أن أحداً منذ ثلثمائة سنة إلى الآن بلغ المائة فضلاً عن أنه زاد عيها، سوى القاضي أبي الطيب طاهر بن عبد الله الطبري، فإنه عاش مائة سنة وسنتين – كما سيأتي في ترجمته إن شاء الله تعالى –. ونسبته إلى جده إبراهيم سلفة – بكسر السين المهملة وفتح اللام والفاء وفي آخره الهاء – وهو لفظ عجمي، ومعناه بالعربي ثلاث شفاه، لأن شفته الواحدة كانت مشقوقة، فصارت مثل شفتين غير الأخرى الأصلية، والأصل فيه سلبه بالباء، فأبدلت بالفاء.

شرف الدين ابن منعة

أبو الفضل أحمد ابن الشيخ العلامة كمال الدين أبي الفتح موسى ابن الشيخ رضي الدين أبي الفضل يونس بن محمد بن منعة بن مالك بن محمد بن سعد بن سعيد بن عاصم بن عائد بن كعب بن قس بن إبراهيم الإربلي الأصل، من بيت الرياسة والفضل والمقدمين بإربل، الفقيه الشافع الملقب شرف الدين؛ كان إماماً كبيراً فاضلاً عاقلاً حسن السمت جميل المنظر. شرح كتاب التنبيه في الفقه وأجاد شرحه، واختصر إحياء علوم الدين للإمام الغزالي مختصرين: كبيراً وصغيراً، وكان يلقي في جملة دروسه من كتاب الإحياء درساً حفظاً، وكان كثيرالمحفوظات غزير المادة، وهو من بيت العلم – وسيأتي ذكر أبيه وعمه وجده، رحمهم الله تعالى، في مواضعهم –ونسج على منوال والده في التفنن في العلوم، وتخرج عليه جماعة كبيرة، وتولى التدريس بمدرسة الملك المعظم مظفر الدين بن زين الدين صاحب إربل، رحمه الله تعالى، بمدينة إربل بعد والدي رحمه الله تعالى، وكان وصله إليها من الموصل في أوائل شوال سنة عشر وستمائة، وكانت وفاة الوالد ليلة الاثنين الثاني والعشرين من شعبان من السنة المذكورة.

و كنت أحضر دروسه وأنا صغير، وما سمعت أحدا يلقي الدروس مثله، و لم يزل على ذلك إلى أن حج، ثم عاد وأقام قليلاً، ثم انتقل إلى الموصل في سنة سبع عشرة وستمائة، وفوضت إليه المدرسة القاهرية، وأقام بها ملازماً لاشتغال والإفادة إلى أن توفي يوم الإثنين الرابع والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وعشرين وستمائة.

وكانت ولادته أيضاً بالموصل سنة خمس وسبعين وخمسمائة، رحمه الله تعالى.

ولقد كان من محاسن الوجود، وما أذكره إلا وتصغر الدنيا في عيني، ولقد أفكرت فيه مرة فقلت: هذا الرجل عاش مدة خلافة الإمام الناصر لدين الله أبي العباس أحمد فإنه ولي الخلافة في سنة خمس وسبعين وخمسمائة، وهي السنه التي ولد فيها شرف الدين المذكور، وماتا في سنة واحدة، وكان مبدأ شروعه في شرح التنبيه بإربل، واستعار منا نسخة التنبيه عليها حواش مفيدة بخط بعض الأفاضل، ورأيته بعد ذلك وقد نقل الحواشي كلها في شرحه.

و الفاضل الذي كانت النسخة والحواشي بخطه هو الشيخ رضي الدين أبو داود سليمان بن المظفر بن غانم بن عبد الكريم الجيلي الشافعي المفتي بالمدرسة النظامية ببغداد وكان من أكابر فضلاء عصره، وصنف كتاباً في الفقه يدخل في خمس عشرة مجلدة، وعرضت عليه المناصب فلم يفعل، وكان متديناً. وتوفي يوم الإربعاء لثلاث خلون من شهر ربيع الأول من سنة إحدى وثلاثين وستمائة، ودفن بالشونيزية، وكان قد نيف على ستين سنة، رحمه الله تعالى، وكان قدومه بغداد من بلاده للاشتغال بعد سنة ثمانين وخمسمائة.

رجعنا إلى الأول: وكان اشتغال شرف الدين المذكور على أبيه بالموصل و لم يتغرب لأجل الاشتغال، وكان الفقهاء يقولون: نعجب منه كيف اشتغل في وطنه وبين أهله وفي عزه واشتغاله بالدنيا، وخرج منه وما خرج، ولو شرعت في وصف محاسنه لأطلت، وفي هذا القدر كفاية.

ابن عبد ربه

أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه بن حبيب بن حدير بن سالم، القرطبي مولى هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكيم الأموي، كان من العلماء المكثرين من المحفوظات والاطلاع على أخبار الناس، وصنف كتابه "العقد"و هو من الكتب الممتعة حوى من كل شيء، وله ديوان شعر جيد، ومن شعره:

يا ذا الذي خط العذار بوجهه ... خطين هاجا لوعة وبلابلا
ما صح عندي أن لحظك صارم ... حتى لبست بعارضيك حمائلا

وله في هذا المعنى وقيل: إنهما لأبي طاهر الكاتب، وقيل: لأبي الفضل محمد بن عبد الواحد البغدادي:

ومعذر نقش العذار بمسكه — خدا له بدم القلوب مضرجا
لما تيقن أن عضب جفونه — من نرجس جعل النجاد بنفسجا

و أخذه البهاء أسعد السنجاري، فقال من جملة قصيدة:

يا سيف مقلته كملت ملاحة — ما كنت قبل عذاره بحمائل

و له أيضاً:

ودعتني بزفرة واعتناق — ثم قالت متى يكون التلاقي
وبدت لي فأشرق الصبح منها — بين تلك الجيوب والأطواق
يا سقيم الجفون من غير سقمٍ — بين عينيك مصرع العشاق
إن يوم الفراق أفظع يومٍ — ليتني مت قبل يوم الفراق

و له أيضاً:

إن الغواني إن رأينك طاوياً — برد الشباب طوين عنك وصالا
و إذا دعونك عمهن فإنه — نسب يزيدك عندهن خبالاً

و له من جملة قصيدة طويلة في المنذر بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن هشام بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان الحكمي أحد ملوك الأندلس من بني أمية:

بالمنذر بن محمدٍ — شرفت بلاد الأندلس
فالطير فيها ساكن — والوحش فيها قد أنس

قال الوزير المغربي في كتاب أدب الخواص: وقد روي أن هذه القصيدة شقت عند انتشارها على أبي تميم معد المعز لدين الله، وساءه ما تضمنته من الكذب والتمويه، إلى أن عارضها شاعره الإيادي التونسي بقصيدته التي أولها:

ربع لزينب قد درس — و اعتاض من نطق خرس

و هذا الشاعر هو أبو الحسن علي بن محمد الإيادي التونسي.

ولابن عبد ربه:

نعق الغراب فقلت: أكذب طائرٍ — إن لم يصدقه رغاء بعير

و فيه التفات إلى قول بعضهم:

لهن الوجى لم كن عونا على النوى — و لا زال منها ظالع وحسير
و ما الشؤم في نعق الغراب ونعيه — و ما الشؤم إلا ناقة وبعير

و له غير ذلك كل معنى مليح.

و كانت ولادته في عاشر رمضان سنة ست وأربعين ومائتين، وتوفي يوم الأحد ثامن عشر جمادى الأولى سنة ثمان وعشرين وثلثمائة، ودفن يوم الإثنين في مقبرة بني العباس بقرطبة، وكان قد أصابه الفالج قبل ذلك بأعوام، رحمه الله تعالى.

و القرطبي – بضم القاف وسكون الراء المهمله وضم الطاء المهمله وفي آخرها الباء الوحدة – هذه النسبة إلى قرطبة، وهي مدينة كبيرة من بلاد الأندلس وهي دار مملكتها.

و حدير الذي هو أحد أجداده: بضم الحاء المهمله وفتح الدال المهمله وسكون الياء المثناة من تحتها والراء آخر الحروف.

أبو العلاء المعري

أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان بن محمد بن سليمان بن داود بن المطهر بن زياد بن ربيعة بن أنوربن أسحم بن أرقم بن النعمان بن عدي بن غطفان بن عمر بن بريح بن جديمة بن تيم الله ابن أسد بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن إلحاف بن قصناعة التنوخي المعري للغوي الشاعر؛ كان متضلعاً من فنون الأدب، قرأ النحو واللغة على أبيه بالمعرة، وعلى محمد بن عبد الله بن سعد النحوي بحلب، وله التصانيف الكثيرة المشهورة والرسائل المأثورة، وله من النظم لزوم ما لايلزم وهو كبير يقع في خمسة أجزاء أوما يقاربها، وله سقط الزند أيضاً، وشرحه بنفسه، وسماه ضوء السقط، وبلغني أن له كتباً سماه الأيك والغصون وهو المعروف بالهمزة والردف يقارب المائة جزء في الأدب أيضاً، وحكى لي من وقف على المجلد الأول بعد المائة من كتاب الهمزة والردف وقال: لا أعلم ما كان يعوزه بعد هذا المجلد. وكان علامة عصره.

وأخذ عنه أبو القاسم علي بن المحسن التنوخي، والخطيب أبو زكريا التبريزي وغيرهما.

وكانت ولادته يوم الجمعة عند مغيب الشمس لثلاث بقين من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وستين وثلثمائة بالمعرة، وعمي من الجدري أول صسنة سبع وستين، غشى يمنى عينيه بياض وذهبت اليسرى جملة، قال الحافظ السلفي: أخبرني أبو محمد عبد الله بن الوليد بن غريب الإيادي أنه دخل مع عمه على أبي العلاء يزوره، فرآه قاعداً على سجادة لبد وهو شيخ، قال: فدعا لي ومسح على رأسي وكنت صبيا، قال: وكأني أنظر إليه الساعة وإلى عينيه غحداهما نادرة والأخرى غائرة جدا، وهو مجدر الوجه، نحيف الجسم.

ولما فرغ من تصنيف كتاب اللامع العزيزي في شرح شعر المتنبي وقرىء عليه أخذ الجماعة في وصفه فقال أبو العلاء: كأنما نظر المتنبي إلي بلحظ الغيب حيث يقول:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي ... وأسمعت كلماتي من به صمم

واختصر ديوان أبي تمام وشرحه وسماه ذكرى حبيب وديوان البحتري وسماه عبث الوليد وديوان المتنبي وسماه معجز أحمد وتكلم على غريب أشعارهم ومعانيها ومآخذهم من غيرهم وما أخذ عليهم، وتولى الانتصار لهم والنقد في بعض المواضع عليهم، والتوجيه في أماكن لخطئهم.

ودخل بغداد سنة ثمان وتسعين وثلثمائة، ودخلها ثانية سنة تسع وتسعين، وأقام بها سنة وسبعة أشهر، ثم رجع إلى المعرة ولزم مترله، وشرع في التصنيف وأخذ عنه الناس، وسار إليه الطلبة من الآفاق، وكاتبه العلماء والوزراءوأهل الأقدار، وسمى نفسه رهين المحبسين للزومه مترله ولذهاب عينيه، ومكث مدة خمس وأربعين سنة لا يأكل اللحم تديناً لأنه كان يرى رأي الحكماء المتقدمين وهم لايأكلونه كي لايذبحوا الحيوان ففيه تعذيب له وهم لايرون الإيلام في جميع الحيوانات.

وعمل الشعر وهو ابن إحدى عشرة سنة، ومن شعره في اللزوم قوله:

لاتطلبن بآلةٍ لك رتبةً ... قلم البليغ بغير جد مغزل

سكن السماكان السماء كلاهما ... هذا له رمح وهذا أعزل

وتوفي يوم الجمعة ثالث – وقيل: ثاني – شهر ربيع الأول، وقيل: ثالث عشره، سنة تسع وأربعين واربعمائة بالمعرة، وبلغني أنه اوصى أن يكتب على قبره هذا البيت:

هذا جناه أبي علي ... وما جنيبت على أحد

وهو أيضا متعلق باعتقاد الحكماء، فالهم يقولون: إيجاد الولد وإخراجه إلى هذا العالم جناية عليه، لأنه يتعرض للحوادث والآفات.

وكان مرضه ثلاثة أيام، ومات في اليوم الرابع، ولم يكن عنده غير بني عمه فقال لهم في اليوم الثالث: اكتبوا عني، فتناولوا الدوي والأقلام، فأملى عليهم غير الصواب، فقال القاضي أبو محمد عبد الله التنوخي: أحسن الله عزاءكم في الشيخ فإنه ميت؛ فمات ثاني يوم. ولماتوفي رثاه تلميذه أبو الحسن علي بن همام بقوله:

إن كنت لم ترق الدماء زهادة ... فلقد أرقت اليوم من جفني دماً

سيرت ذكرك في البلاد كأنه ... مسك فسامعة يضمخ أو فما

وأرى الحجيج إذا أرادوا ليلة ... ذكراك أخرج فدية من أحرما

وقد أشار في البيت الأول إلى ما كان يعتقده ويتدين به من عدم الذبح كما تقدم ذكره.

وقبره في ساحة من دوار اهله، وعلى الساحة باب صغير قديم، وهو على غاية ما يكون من الإهمال وترك القيام بمصالحه، وأهله لايحتفلون به.

والتنوخي – بفتح التاء المثناة من فوقها وضم النون المخففة وبعد الواو خاء معجمة – وهذه النسبة إلى تنوخ، وهواسم لعدة قبائل اجتمعوا قديماً بالبحرين، وتحالفوا على التناصر، وأقاموا هناك فسموا تنوخاً. والتنوخ: الإقامة، وهذه القبيلة إحدى القبائل الثلاث التي هي نصارى العرب، وهم: بهراء، وتنوخ، وتغلب.

والمعري – بفتح الخميم والعين المهملة وتشديد الراء – وهذه النسبة إلى معرة النعمان، وهي: بلدة صغيرة بالشام بالقرب من حماة وشيزر، وهي منسوبة إلى النعمان بن بشير الأنصاري، رضي الله تعالى عنه، فإنه تديرها، فنسبت إليه، وأخذها الفرنج من المسلمين في محرم سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة ولم تزل بأيدي الفرنج من يومئذ إلى أن فتحها عماد الدين زنكي بن آق سنقر الآتي ذكره إن شاء الله تعالى سنة تسع وعشرين وخمسمائة، ومن على أهلها بأملاكهم.

ابن شهيد

أبو عامر أحمد بن أبي مروان عبد الملك بن مروان بن ذي الوزارتين الأعلى أحمد بن عبد الملك بن عمر بن محمد بن عيسى بن شهيد الأشجعي الأندلسي القرطبي؛ هو من ولد الوضاح بن رزاح الذي كان مع الضحاك بن قيس الفهري يوم مرج راهط، ذكره ابن بسام في كتاب الذخيرة، وبالغ في الثناء عليه، وأورد له طرفاً وافراً من الرسائل والنظم والوقائع. وكان من أعلم أهل الأندلس، متفنناً بارعاً في فنونه، وبينه وبين ابن حزم الظاهري مكاتبات وماعبات، وله التصانيف الغربية البديعة، منها كتاب كشف الدك وإيضاح الشك، ومنها التوابع والزوابع، ومنها حانوت عطار، وغير ذلك. وكان فيه مع هذه الفضائل كرم مفرط، وله في ذلك حكايات ونوادر ومن محاسن شعره من جملة قصيد:

وتدري سباع الطير أن كماته ... إذا لقيت صيد الكماة سباع

تطير جياعاً فوقه وتردها ... ظباه إلى الأوكار وهي شباع

وإن كان هذا معنى مطروقاً، وقد سبقه إليه جماعة من الشعراء في الجاهلية والإسلام، لكنه أحسن في سبكه وتلطف في أخذه.

ومن رقيق شعره وظريفه قوله:

ولما تملأ من سكره ... ونام ونامت عيون العسس

دنوت إليه على بعده ... دنو رفق درى ما التمس

أدب إليه دبيب الكرى ... واسمو إليه سمو النفس

وبت به ليلتي ناعماً إلى أن تبسم ثغر الغلس
أقبل منه بياض الطلى وأرشف منه سواد اللعس

وما ألطف قول أبي منصور علي بن الحسن المعروف بصردر في هذا المعنى، وهو قوله:

وحي طرقناه على غير موعد فما إن وجدنا عند نارهم هدى
وما غفلت أحراسهم غير أننا سقطنا عليهم مثلما يسقط الندى

وقد استعمل هذا المعنى جماعة من الشعراء، والأصل فيه قول امرىءالقيس:

سموت إليها بعدما نام أهلها سمو حباب الماء حالاً على حال

ومعظم شعره فائق.

وكانت ولادته سنة اثنتين وثمانين وثلثمائة، وتوفي ضحى نهارالجمعة سلخ جمادى الأولى سنة ست وعشرين وأربعمائة، بقرطبة. ودفن ثاني يوم في مقبرة أم سلمة، رحمه الله تعالى.

وأبوه عبد الملك مذكور في كتاب الصلة.

وشهيد: بضم الشين المثلثة وفتح الهاء وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها دال مهملة.

والأشجعي – بفتح الهمزة وسكون الشين المثلثة وفتح الجيم وبعدها عين مهملة – هذه النسبة إلى أشجع بن ريث بن غطفان، وهي قبيلة كبيرة.

ابن فارس

أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء بن محمد بن حبيب الرازي اللغوي؛ كان إماماً في علوم شتى، وخصوصاً اللغة فإنه أتقنها، وألف كتابه المجمل في اللغة، وهو على اختصاره جمع شيئاً كثيراً، وله كتاب حلية الفقهاء، وله رسائل أنيقة، ومسائل في اللغة، ويعايي بها الفقهاء، ومنه اقتبس الحريري صاحب المقامات الآتي ذكره إن شاء الله تعالى ذلك الأسلوب، ووضع المسائل الفقهية في المقامة الطيبة، وهي مائة مسألة. وكان مقيماً بهمذان، وعليه اشتغل بديع الزمان الهمذاني صاحب المقامات – الآتي ذكره إن شاء الله تعالى – وله أشعار جيدة، فمنها قوله:

مرت بنا هيفاء مجدولة تركية تنمى لتركي
ترنو بطرف فاترٍ فاتنٍ أضعف من حجة نحوي

وله أيضاً:

اسمع مقالة ناصح جمع النصيحة والمقه
إياك واحذر أن تبي ت من الثقات على ثقه

وله أيضاً:

إذا كنت في حاجة مرسلاً وأنت بها كلف مغرم
فأرسل حكيماً ولا توصه وذاك الحكيم هو الدرهم

وله أيضاً:

سقى همذان الغيث، لست بقائل سوى ذا، وفي الأحشاء نار تضرم
ومالي لا أصفي الدعاء لبلدة أفدت بها نسيان ما كنت أعلم

نسيت الذي أحسنته غير أنني مدين وما في جوف بيتي درهم

وله أشعار كثيرة حسنة.

توفي سنة تسعين وثلثمائة – رحمه الله تعالى – بالري، ودفن مقابل مشهد القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني. وقيل: إنه توفي في صفر سنة خمس وسبعين وثلثمائة بالمحمدية، والأول أشهر.

والرازي – بفتح الراء المهملة وبعد الألف زاي –هذه نسبة إلى الري، وهي من مشاهير بلاد الديلم، والزاي زائدة فيها كما زادوها في المروزي عند النسبة إلى مرو الشاهجان.

ومن شعره أيضاً:

وقالوا كيف حالك قلت خير تقضى حاجة وتفوت حاج

إذا ازدحمت هموم الصدر قلنا عسى يوماً يكون لهاانفراج

نديمي هرتي، وأنيس نفسي دفاتر لي، ومعشوقي السراج

أبو الطيب المتنبي

أبو الطيب أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي الكندي الكوفي المعروف بالمتنبي الشاعر المشهور، وقيل: هو أحمد بن الحسين بن مرة بن عبد الجبار، والله أعلم.

هو من أهل الكوفة، وقدم الشام في صباه وجال في أقطاره، واشتغل بفنون الأدب ومهر فيها، وكان من الكثيرين من نقل اللغة والمطلعين على غريبها وحوشيها، ولا يسأل عن شيء إلا واستشهد فيه بكلام العرب من النظم والنثر، حتى قيل: إن الشيخ أبا علي الفارسي، صاحب الإيضاح والتكملة، قال له يوماً: كم لنا من الجموع على وزن فعلي: فطالعت كتب اللغة ثلاث ليال علي أن أجد لهذين الجمعين ثالثاً، فلم أجد. وحسبك من يقول في حقه أبو علي هذه المقالة. وحجلى: جمع حجل، وهو: الطائر الذي يسمى القبج.

والظربي: جمع ظربان – على مثال قطران – وهي دويبة منتنة الرائحة.

وأما شعره فهو في النهاية، ولا حاجة إلى ذكر شيء منه لشهرته، لكن الشيخ تاج الدين الكندي رحمه الله كان يروي له بيتين لايوجدان في ديوانه وكانت روايته لهما بالإسناد الصحيح المتصل به، فأحببت ذكرهما لغرابتهما، وهما:

أبيعين مفتقر إليك نظرتني فأهنتني وقد فتني من حالق

لست الملوم أنا الملوم لأنني أنزلت آمالي بغير الخالق

ولما كان بمصر مرض، وكان له صديق يغشاه في علته، فلما أبل أنقطع عنه، فكتب إليه: وصلتني وصلك الله معتلاً، وقطعتني مبلاً، فإن رأيت أن لاتحبب العلة إلي، ولا تكدر الصحة علي، فعلت إن شاء الله تعالى.

والناس في شعره على طبقات: فمنهم من يرجحه على ابي تمام ومن بعده، ومنهم من يرجح أبا تمام عليه، وقال أبو العباس أحمد بن محمد النامي الشاعر الآتي ذكره عقيب هذا: كان قد بقي من الشعر زاوية دخلها المتنبي، وكنت أشتهي أن أكون قد سبقته إلى معنيين قالهما ماسبق إليهما، أحدهما قوله:

رماني الدهر بالأرزاء حتى فؤادي في غشاء من نبال

فصرت إذا أصابتني سهام تكسرت النصال على النصال

والآخر قوله:

في جحفل ستر العيون غباره   فكأنما يبصرن بالآذان

واعتنى العلماء بديوانهفشرحوه، وقال لي أحد المشايخ الذين أخذت عنهم: وقفت له على أكثر من أربعين شرحاً ما بين مطولات ومختصرات، و لم يفعل هذا بديوان غيره، ولاشك أنه كان رجلاً مسعوداً، ورزق في شعره السعادة التامة.

وإنما قيل له المتنبي لأنه ادعى النبوة في بادية السماوة، وتبعه خلق كثير من بني كلب وغيرهم فخرج إليه لؤلؤ أمير حمص نائب الإخشيدية فأسره وتفرق أصحابه وحبسه طويلاً ثم استتابه وأطلقه، وقيل غير ذلك، وهذا أصح، وقيل: إنه قال: أنا أول من تنبأ بالشعر.

ثم التحق بالمير سيف الدولة بن حمدان في سنة سبع وثلاثين وثلثمائة، ثم فارقه ودخل مصر سنة ست وأربعين وثلثمائة، ومدح كافوراً الإخشيدي وأنوجور ابن الإخشيد، وكان يقف بين يدي كافور وفي رجليه خفان وفي وسط سيف ومنطقة ويركب بحاجبين من مماليكه وهما بالسيوف والمناطق، ولما لم يرضه هجاه وفارقه ليلة عيد النحر سنة خمسين وثلثمائة، ووجه كافور خلفه رواحل إلى جهات شتى فلم يلحق، وكان كافور وعده بولاية بعض أعماله، فلما رأى تعاليه في شعره وسموه بنفسه خافه، وعوتب فيه فقال: ياقوم، من ادعى النبوة بعد محمد صلى الله عليه وسلم، أما يدعي المملكة مع كافور؟ فحسبكم.

قال أبو الفتح ابن جني النحوي: كنت قرأت ديوان أبي الطيب المتنبي عليه، فقرأت عليه قوله في كافور القصيدة التي أولها:

أغالب فيك الشوق والشوق أغلب   وأعجب من ذا الهجر والوصل أعجب

حتى بلغت إلى قوله:

ألا ليت شعري هل أقول قصيدة   ولا اشتكي فيها ولاأتعتب

وبي ما يذود الشعر عني أقله   ولكن قلبي يا ابنة القوم قلب

فقلت له: يعز عليي، كيف يكون هذا الشعر في ممدوح غير سيف الدولة؟ فقال: حذرناه وأنذرناه فما نفع، ألست القائل فيه:

أخا الجود، أعط الناس ما أنت مالك   ولاتعطين الناس ما أناقائل

فهو الذي أعطاني كافوراً بسوء تدبيره وقلة تمييزه.

وكان لسيف الدولة مجلس يحضره العلماء كل ليلة فيتكلمون بحضرته، فوقعبين المتنبي وبين ابن خالويه النحوي كلام، فوثب ابن خالويه على المتنبي فضرب وجهه بمفتاح كان معه، فشجه وخرج ودمه يسيل على ثيابه، فغضب وخر إلى مصر وامتدح كافوراً.

ثم رحل عنه وقصد بلاد فارس، ومدح عضد الدولة بن بويه الديلمي، فأجزل جائزته، ولما رجع من عنده قاصداً إلى بغداد ثم إلى الكوفة في شعبان لثمان خلون منه عرض له فاتك بن أبي الجهل الأسدي في عدة من اصحابه، وكان مع المتنبي أيضاً جماعة من أصحابه، فقاتلوهم، فقتل المتنبي وابنه محمد وغلامه مفلح بالقرب من النعمانية، في موضع يقال له الصافية، وقيل حيال الصافية، من الجانب الغربي من سواد بغداد عند دير العاقول بينهمامسافة ميلين.

وذكر ابن رشيق في كتاب العمدة في باب منافع الشعر ومضاره أن أبا الطيب لما فر حين رأى الغلبة قال له غلامه: لايتحدث الناس عنك بالفرار أبدا وأنت القائل:

فالخيل والليل والبيداء تعرفني   والحرب والضرب والقرطاس والقلم

فكر راجعاً حتى قتل، وكان سبب قتله هذا البيت، وذلك يوم الأربعاء ليست بقين – وقيل: لثلاث بقين، وقيل: لليلتين بقيتا – من شهر رمضان سنة أربع وخمسين وثلثمائة، وقيل: إن قتله كان يوم الاثنين لثمان بقين من شهر رمضان، وقيل: لخمس بقين من شهر رمضان من السنة المذكورة.

ومولده في سنة ثلاث وثلثمائة بالكوفة في محلة تسمى كندة فنسب إليها، وليس هو من كندة التي هي قبيلة، بل هو جعفي القبيلة – بضم الجيم

وسكون العين المهملة وبعدها فاء – وهو جعفي بن سعد العشيرة بن مذحج، واسمه مالك بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان، وإنما قيل له سعد العشيرة لأنه كان يركب – فيما قيل – في ثلثمائة من ولده وولد ولده، فإذا قيل له: من هؤلاء؟ قال: عشيرتي، مخافة العين عليهم.
ويقال: إن أبا المتنبي كان سقاء بالكوفة، ثم انتقل إلى الشام بولده، ونشأ ولده بالشام، وإلى هذا أشار بعض الشعراء في هجو المتنبي حيث قال:

أي فضل لشاعر يطلب الفض ... ل من الناس بكرة وعشيا

عاش حيناً يبيع في الكوفة الما ... ء، وحيناً يبيع ماء المحيا

وسيأتي في حرف الحاء نظير هذا المعنى لابن المعذل في أبي تمام حبيبن أوس الشاعر المشهور.
ولما قتل المتنبي رثاه أبو القاسم المظفر بن علي الطبسي بقوله:

لارعى الله سرب هذا الزمان ... إذ دهانا في مثل ذاك اللسان

مارأى الناس ثاني المتنبي ... أي ثان يرى لبكر الزمان

كان من نفسه الكبيرة فيجي ... ش وفي كبرياء ذي سلطان

هو في شعره نبي، ولكن ... ظهرت معجزاته في المعاني

والطبسي – بفتح الطاء المهملة والباء الموحدة وبعدها سبن مهملة – هذه النسبة إلى مدينة في البرية بين نيسابور وإصبهان وكرمان يقال لها طبس.
ويحكى أن المعتمد بن عباد اللخمي صاحب قرطبة وإشبيلية أنشد يوماً في مجلسه بيت المتنبي، وهو من جملة قصيدته المشهورة:

إذا ظفرت منك العيون بنظرة ... أثاب بها معيي المطي ورازمه

وجعل يردده استحساناً له، وفي مجلسه أبو محمد عبد الجليل بن وهبون الأندلسي، فأنشد ارتجالاً:

لئن جاد شعر ابن الحسين فإنما ... تجيد العطايا واللها تفتح اللها

تنبأ عجبا بالقريض ولو درى ... بأنك تروي شعره لتألها

وذكر الإفليلي أن المتنبي أنشد سيف الدولة بن حمدان في الميدان قصيدته التي أولها:

لكل امرىء من دهره ما تعودا ... وعادات سيف الدولة الطعن في العدا

فلما عاد سيف الدولة إلى داره استعاده إياها، فأنشدها قاعداً، فقال بعض الحاضرين – يريد أن يكيد أبا الطيب – لو أنشدها قائماً لأسمع، فإن أكثر الناس لايسمعون، فقال أبو الطيب: أما سمعت أولها:

لكل امرىء من دهره ماتعودا

وهذا من مستحسن الأجولة، وبالجملة فسمو نفسه وعلو همته وأخباره وما جرياته كثيرة، والاختصار أولى.
واسم ولده محسد: بضم الميم وفتح الحاء المهملة والسين المهملة المشددة وبعدها دال مهملة.

النامي الشاعر

أبو العباس أحمد بن محمد الدارمي المصيصي المعروف بالنامي الشاعر المشهور؛ كان من الشعراء المفلقين، ومن فحولة شعراء عصره، وخواص مداح سيف الدولة بن حمدان، وكان عنده تلو أبي الطيب المتنبي في المنزلة والرتبة، وكان فاضلاً أديباً بارعاً عارفاً باللغة والأدب، وله أمال أملاها بحلب روى فيها عن ابي الحسن علي بن سليمان الأخفش وابن در ستويه وأبي عبد الله الكرماني وأبي بكر الصولي وإبراهيم بن عبد الرحمن العروضي وأبيه محمد

المصيصي، وروى عنه أبو القاسم الحسين بن علي بن أبي أسامة الحلبي وأخوه أبو الحسين أحمد وأبو الفرج الببغاء وأبو الخطاب ابن عون الحريرى وأبو بكر الخالدي والقاضي أبو طاهر صالح بن جعفر الهاشمي.

ومن محاسن شعره قوله فيه من جملة قصيدة:

أمير العلا إن العوالي كواسب ... علاءك في الدنيا وفي جنة الخلد

يمر عليك الحول، سيفك في الطلى ... وطرفك مابين الشكيمةو اللبد

ويمضي عليك الدهر، فعلك للعلا ... وقولك للتقوى وكفك للرفد

ومن شعره أيضاً:

أحقاً أن قاتلتي زرود ... وأن عهودها تلك العهود

وقفت وقد فقدت الصبرحتى ... تبين موقفي أني الفقيد

فشكت في عذالي فقالوا ... لرسم الدار أيكما العميد

وله مع المتنبي وقائع ومعارضات في الأناشيد.

وحكى أبو الخطاب ابن عون الحريري النحوي الشاعرأنه دخل على أبي العباس النامي قال: فوجدته جالساً ورأسه كالثغامة بياضاً وفيه شعرة واحد سوداء، فقلت له: ياسيدي في رأسك شعرة سوداء، فقال: نعم، هذه بقية شبابي وأنا أفرح بها ولي فيها شعر، فقلت: أنشدنيه، فأنشدني:

رأيت في الرأس شعرة بقيت ... سوداء تهوى العيون رؤيتها

فقلت للبيض إذ تروعها ... بالله ألا رحمت غربتها

فقل لبث الوداء في وطن ... تكون فيه البيضاء ضرتها

ثم قال: بأبا الخطاب بيضاء واحدة تروع ألف سوداء، فكيف حال سوداء بين ألف بيضاء؟! ومن شعره – وينسب إلى الوزير أبي محمد المهلبي، وليس الأمر كذلك –:

أتاني في قميص اللاذ يسعى ... عدو لي يلقب بالحبيب

وقد عبث الشراب بمقلتيه ... فصير خده كسنا اللهيب

فقلت له بما استحسنت هذا ... لقد أقبلت في زي عجيب

أحمرة وجنتيك كستك هذا ... أم انت صبغته بدم القالوب؟

فقال الراح أهدت لي قميصاً ... كلون الشمس في شفق المغيب

فثوبي والمدام ولون خدي ... قريب من قريب من قريب

وتوفي سنة تسع وتسعين وثلثمائة، وقيل: سنة سبعين أو إحدى وسبعين، بحلب، وعمره تسعون سنة، رحمه الله تعالى.

والدارمي – بفتح الدال المهملة وبعد اللف راء مكسورة ثم ميم – هذهالنسبة إلى دارم بن مالك، بطن كبير من تميم.

والمصيصي – بكسر الميم والصاد المهملة المشددة وسكون الياء المثناة من تحتها، وبعدها صاد ثانية مهملة – هذه النسبةإلى المصيصة، وهي مدينة على ساحل البحر الرومي تجاور طرطوس والسيس وتلك النواحي، بناها صالح بن علي عم أبي جعفر المنصور في سنة أربعين ومائة بأمر المنصور.

بديع الزمان الهمذاني

أبو الفضل أحمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد الهمذاني، الحافظ المعروف ببديع الزمان؛ صاحب الرسائل الرائقة، والمقامات الفائقة، وعلى منواله نسج الحريري مقاماته واحتذى حذوه واقتفى أثره، واعترف في خطبته بفضله، وأنه الذي أرشده إلى سلوك ذلك المنهج، وهو أحد الفضلاء الفصحاء، روى عن أبي الحسين احمد بن فارس صاحب"المجمل"في اللغة وعن غيره، وله الرسائل البديعة والنظم المليح، وسكن هراة من بلاد خراسان.

فمن رسائله: الماء إذا طال مكثه، ظهر خبثه. وإذا سكن متنه، تحرك نتنه. وكذلك الضيف يسمج لقاؤه، إذا طال ثواؤه، ويثقل ظله، إذا انتهى محله. والسلام.

ومن رسائله: حضرته التي هي كعبة المحتاج، لاكعبة الحجاج. ومشعر الكرم، لا مشعر الحرم. ومنى الضيف، لا منى الخيف. وقبلة الصلات، لاقبلة الصلاة.

وله من تعزية: الموت خطب قد عظم حتى هان، ومس قد خشن حتى لان. والدنيا قد تنكرت حتى صار الموت اخف خطوبها، وجنت حتى صار أصغر ذنوبها. فلتنظر يمنة، هل ترى إلا محنة؟ ثم انظر يسرة هل ترى إلا حسرة؟.

ومن شعره من جملة قصيدة طويلة:

وكاد يحكيك صوب الغيث منسكباً ... لو كان طلق المحيا يمطر الذهبا

والدهر لولم يخن، والشمس لو نطقت ... والليث لو لم يصد والبحر لوعذا

ومن شعره في ذم همذان، ثم وجدتهما لأبي العلاء محمد بن علي بن حسول الهمذاني:

همذان لي بلد أقول بفضله ... لكنه من أقبح البلدان

صبيانه في القبح مثل شيوخه ... وشيوخه في العقل كالصبيان

وله كل معنى مليح حسن من نظم ونثر.

وكانت وفاته سنة ثمان وتسعين وثلثمائة مسموماً بمدينة هراة، رحمه الله تعالى.

ثم وجدت في آخر رسائله التي جمعها الحاكم أبو سعيد عبد الرحمن بن محمد بن دوست ما مثاله: هذا آخر الرسائل، وتوفي رحمة الله تعالى بهراة يوم الجمعة الحادي عشر من جمادى الآخرة سنة ثمان وتسعين وثلثمائة؛ قال الحاكم المذكور: وسمعت الثقات يحكون أنه مات من السكتة وعجل دفنه، فأفاق في قبره وسمع صوته بالليل، وأنه نبش عنه فوجدوه قد قبض على لحيته ومات من هول القبر.

ابن طباطبا

أبو القاسم أحمد بن إسماعيل بن إبراهيم طباطبا بن إسماعيل بن إبراهيم ابن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، الشريف الحسني الرسي المصري؛ كان نقيب الطالبين بمصر، وكان من أكابر رؤسائها، وله شعر مليح في الزهد والغزل وغير ذلك، وذكره أبو منصور الثعالبي في كتاب اليتيمة وذكر له مقاطيع، ومن جملة ما أورد له قوله:

خليلي إني للثريا لحاسد ... وإني على ريب الزمان لواجد

أيبقي جميعاً شملها وهي ستة ... وأفقد من أحببته وهو واحد

وأورد له أيضاً، وذكرها في أوائل الكتاب لذي القرنين بن حمدان، قوله:

قالت لطيف خيال زارني ومضى ... بالله صفه ولا تنقص ولا تزد

فقال أبصرته لو مات من ظمإ ... وقلت قف عن ورود الماء لم يرد

قالت صدقت الوفا في الحب عادته يا برد ذلك الذي قالت على كبدي

وله غير هذا أشياء حسنة.

ومن شعره المنسوب إليه في طول الليل، وهو معنى غريب:

كأن نجوم الليل سارت نهارها فوافت عشاء وهي أنضاء أسفار
وقد خيمت كي يستريح ركابها فلا فلك جارو لا كوكب ساري

ثم وجدت هذين البيتين في ديوان أبي الحسن ابن طباطبا من جملة قصيدة طويلة.

ونقلت من ديوان أبي الحسن المذكور من جملة أبيات:

بانوا وأبقوا في حشاي لبينهم وجداً إذا ظعن الخليط أقاما
لله أيام السرور كأنما كانت لسرعة مرها أحلاما
لودام عيش رحمةً لأ خي هوًى لأ قام لي ذاك السرور وداما
ياعيشنا المفقود خذ من عمرنا عاماً ورد من الصبا أياما

ولا أدري من هذا أبو الحسن، ولا وجه النسبة بينه وبين أبي القاسم المذكور، والله أعلم.

وذكره الأمير المختار المعروف بالمسبحي في تاريخ مصر وقال: توفي في سنة خمس وأربعين وثلثمائة، رحمه الله تعالى؛ وزاد غيره: ليلة الثلاثاء لخمس بقين من شعبان، ودفن في مقبرتهم خلف المصلى الجديد بمصر، وعمره أربع وستون سنة.

وطباطبا – بفتح الطاءين المهملتين والباءين الموحدتين – وهو لقب جده إبراهيم، وإنما قيل له ذلك لأنه كان يلثغ فيجعل القاف طاء، وطلب يوماً ثيابه، فقال له غلامه: أجيء بدراعة؟ فقال: لا، طباطبا، يرد قبا قبا، فبقي عليه لقباً، واشتهر به.

والرسي: بفتح الراء والسين المشددة المهملة، قال ابن السمعاني: هذه نسبة إلى بطن من بطون السادة العلوية.

أبو الرقعمق

أبو حامد أحمد بن محمد الأنطاكي المنبور بأبي الرقعمق الشاعر المشهور؛ ذكره الثعالبي في اليتيمة فقال في حقه: هو نادرة الزمان، وجملة الإحسان، وممن تصرف بالشعر في أنواع الجد والهزل، وأحرز قصب الفضل، وهو أحد المداح المجيدين، والشعراء المحسنين، وهو بالشام كابن حجاج بالعراق.

فمن غرر محاسنه قوله يمدح أبا الفرج يعقوب بن كلس وزير العزيز بن المعز العبيدي صاحب مصر، وسيأتي ذكرهما إن شاء الله تعالى:

قد سمعنا مقاله واعتذاره وأقلناه ذنبه وعثاره
والمعاني لمن عنيت ولكن بك عرضت فاسمعي ياجاره
من تراديه أنه أبد الده ر تراه محللاً أزراره
عالم أنه عذاب من الل ه متاح لأعين النظاره
هتك الله ستره فلكم هت ك من ذي تستر أستاره
سحرتني ألحاظه وكذا ك ل مليح ألحاظه سحاره
ماعلى مؤثر التباعد والإع راض لو آثر الرضى والزياره

وعلى أنني وإن كان قد ع ذب بالهجر مؤثر إيثاره

لم أزل لاعدمته من حبيب أشتهي قربه وآبى نفاره

ومن مديحها:

لم يدع لي العزيز في سائر الأر ض عدواً إلا وأخمد ناره

كل يوم له على نوب الده ر وكر الخطوب بالبذل غاره

ذو يد شأنها الفرامن البخ ل وفي حومة الندى كراره

هي فلت عن العزيز عداه بالعطايا وكثرت أنصاره

هكذا كل فاضل يده تم سي وتضحي نفاعة ضراره

فاستجره فليس يأمن إلا من تفيا ظلاله واستجاره

وإذا ما رأيته كطرقاً يع مل فيما يريده أفكاره

لم يدع بالذكاء والذهن شيئاً في ضمير الغيوب إلا أثاره

لاولا موضعاً من الأرض إلا كان بالرأي مدركاً أقطاره

زاده الله بسطة زكفاه خوفة من زمانه وحذاره

وأكثر شعره جيد، وهو على أسلوب شعر صريع الدلاء القصار البصري.

وأقام بمصر زماناً طويلاً، ومعظم شعره في ملوكها ورؤسائها، ومدح بها المعز أبا تميم معد بن المنصور بن القائم بن المهدي عبد الله، وولده العزيز، والحاكم بن العزيز، والقائد جوهراً، والوزير أبا الفرج ابن كلس، وغيرهم من أعيانها، وكل هؤلاء الممدوحين سيأتي ذكرهم في تراجمهم إن شاء الله تعالى.

وذكره الأمير المختار المسبحي في تاريخ مصر وقال: توفي سنة تسع وتسعين وثلثمائة، وزاد غيره: في يوم الجمعة لثمان بقين من شهر رمضان، وقيل: في شهر ربيع الآخر، رحمه الله تعالى؛ وأظنه توفي بمصر.

والأنطاكي – بفتح الهمزة وسكون النون وفتح الطاء المهملة وبعد الألف كاف – هذه النسبة إلى أنطاكية وهي مدينة بالشام بالقرب من حلب.

والرقعمق – بفتح الراء والقاف وسكون العين المهملة وفتح الميم وبعدها قاف – وهو لقب عليه.

جحظة البرمكي

أبو الحسن أحمد بن جعفر بن موسى بن يحيى بن خالد بن برمك المعروف بجحظة البرمكي النديم؛ كان فاضلاً صاحب فنون وأخبار ونجوم ونوادر ومنادمة، وقد جمع أبو نصر ابن المرزبان أخباره وأشعاره، وكان من ظرفاء عصره، وهو من ذرية البرامكة، وله الأشعار الرائقة، فمن شعره قوله:

أنا ابن أناس مول الناس جودهم فأضحوا حديثاً للنوال المشهر

فلم يخل من إحسانهم لفظ مخبر ولم يخل من تقريظهم بطن دفتر

وله أيضاً:

فقلت لها بخلت علي يقظى فجودي في المنام لمستهام

فقالت لي وصرت تنام أيضا وتطمع أن أزورك في المنام

وله أيضاً:

أصبحت بين معاشرٍ هجروا الندى وتقبلوا الأخلاق من أسلافهم

قوم أحاول نيلهم فكأنما حاولت نتف الشعر من آنافهم

هات اسقنيها بالكبير وغنني ذهب الذين يعاش في أكنافهم

وله أيضاً:

يا أيها الركب الذي ن فراقهم إحدى البليه

وصيكم الصب المقي م بقلبه خير الوصيه

وله أيضاً:

وقائلة لي كيف حالك بعدنا أفي ثوب مثرٍ أنت أم ثوب مقتر

فقلت لها لاتسأليني فإنني أروح وأغدو في حرامٍ مقتر

وله ديوان شعر أكثره جيد، وقضاياه مشهورة، ومن أبياته السائرة قوله:

ورق الجو حتى قيل هذا عتاب بين جحظة والزمان

ولابن الرومي فيه، وكان مشوه الخلق:

نبئت جحظة يستعير جحوظه من فيل شطرنج ومن سرطان

وارحمتا لمناديه تحملوا ألم العيون للذة الآذان

وتوفي سنة ست وعشرين وثلثمائة، وقيل: سنة أربع وعشرين، بواسط، وقيل: حمل تابوته من واسط إلى بغداد، رحمه الله تعالى.

وجحظة – بفتح الجيم وسكون الحاء المهملة وفتح الظاء المعجمة وبعدها هاء – وهو لقب عليه لقبه به عبد الله بن المعتز.

قال الخطيب: وكانت ولادته في شعبان سنة أربع وعشرين ومائتين. وله ذكر في تاريخ بغداد، وفي كتاب الأغاني.

ابن دراج القسطلي

أبو عمر أحمد بن محمد بن العاصي بن أحمد بن سليمان بن عيسى بن دراج الأندلسي القسطلي الشاعر الكاتب؛ كان كاتب المنصور بن أبي عامر وشاعره، وهو معدود في تاريخ الأندلس من جملة الشعراء المجيدين والعلماء المتقدمين، ذكره أبو منصور الثعالبي في يتيمة الدهر، وقال في حقه: كان بصقع الأندلس كالمتنبي بصقع الشام، وهو احد الشعراء الفحول، وكان يجيد ما ينظم ويقول، واورد له أشعاراً حسنةً، وذكره أبو الحسن ابن بسام في كتاب الذخيرة، وساق طرفاً من رسائله ونظمه، ونقلت من ديوانه – وهو جزءان – أن المنصور بن أبي عامر أمره أن يعارض قصيدة أبي نواس الحكمي التي مدح بها الخطيب بن عبد الحميد صاحب الخراج بمصر التي أولها:

أجارة بيتينا أبوك غيور وميسور ما يرجى لديك عسير

فعارضها بقصيدة بليغة، من جملتها:

ألم تعلمي أن الثواء هو التوى وأن بيوت العاجزين قبور

تخوفني طول السفار، وإنه ... لتقبيل كف العامري سفير
دعيني أرد ماء المفاوز آجناً ... إلى حيث ماء المكرمات نمير
فإن خطيرات المهالك ضمن ... لراكبها أن الجزاء خطير

ومنها في وصف وداعه لزوجته وولده الصغير:

ولما تدانت للوداع وقد هفا ... بصبري منها أنة وزفير
تناشدني عهد المودة والهوى ... وفي المهد مبغوم النداء صغير
عيي بمرجوع الخطاب ولحظه ... بموقع أهواء النفوس خبير
تبوأ ممنوع القلوب ومهدت ... له أذرع محفوفة ونحور
فكل مفداة الترائب مرضع ... وكل محياة المحاسن ظير
عصيت شفيع النفس فيه وقادني ... رواح لتدآب السرى وبكور
وطار جناح البين بي وهفت بها ... جوانح من ذعر الفراق تطير
لئن ودعت مني غيوراً فإنني ... على عزمتي من شجوها لغيور
ولو شاهدتني والهواجر تلتظي ... علي ورقراق السراب يمور
أسلط حر الهاجرات إذا سطا ... على حر وجهي والأصيل هجير
وأستنشق النكباء وهي لوافح ... وأستوطىء الرمضاء وهي تفور
وللموت في عين الجبان تلون ... وللذعر في سمع الجريء صفير
لبان لها أني من البين جازع ... وأني على مضى الخطوب صبور
أمير على غول التنائف ماله ... إذا ريع إلا المشرفي وزير
ولو بصرت بي والسرى جل عزمتي ... وجرسي لجنان الفلاة سمير
وأعتسف الموماة في غسق الدجى ... وللأسد في غيل الغياض زئير
وقد حومت زهر النجوم كأنها ... كواكب في خضر الحدائق حور
ودارت نجوم القطب حتى كأنها ... كؤوس مها والى بهن مدير
وقد خيلت طرق المجرة انها ... على مفرق الليل البهيم قتير
وثاقب عزمي والظلام مروع ... وقد غضن أجفان النجوم فتور

لقد أيقنت أن المنى طوع همتي ... وأني بعطف العامري جدير

وهي طويلة، وفي هذا القدر منها كفاية. وإذا قد ذكرت هذه القصيدة فينبغي أن أذكر شيئاً من قصيدة أبي نواس التي وازنها أبو عمر؛ وكان أبو نواس قد خرج من بغداد قاصداً مصر ليمدح أبا نصر الخطيب بن عبد الحميد صاحب ديوان الخراج بها، فأنشده هذه القصيدة، وذكر المنازل التي مر عليها في طريقه، وقد ذكرت منها بيتاً في ترجمة ابي إسحاق إبراهيم بن عثمان الغزي، ولا حاجة إلى ذكر جميعها فإنها طويلة، ولكن أذكر الذي أختاره منها، فمن ذلك:

تقول التي من بيتها خفف محملي — عزيز علينا أن نراك تسير

أما دون مصر للغنى متطلب — بلى إن أسباب الغنى لكثير

فقلت لها واستعجلتها بوادر — جرت فجرى من جريهن غدير

ذريني أكثر حاسديك برحلةٍ — إلى بلدة فيها الخطيب أمير

إذا لم تزر أرض الخصيب ركابنا — فأي فتى بعد الخطيب تزور

فما جازه جود ولا حل دونه — ولكن يصير الجود حيث يصير

فتى يشتري حسن الثناء بماله — ويعلم أن الدائرات تدور

ومنها أيضاً:

فمن كان أمسى جاهلاً بمقالتي — فإن أمير المؤمنين خبير

ومازلت توليه النصيحة يافعاً — إلى أن بدا في العارضين قتير

إذا هاله أمر فإما كفيته — وإما عليه بالكفي تشير

ثم شرع من ههنا في ذكر المنازل، ثم قال في أواخرها:

زها بالخصيب السيف والرمح في الوغى — وفي السلم يزهو منبر وسرير

جواد إذا الأيدي قبضن عن الندى — ومن دون عورات النساء غيور

فإني جدير إن بلغتك للغنى — وأنت لما أملت منك جدير

فإن تولني منك الجميل فأهله — وإلا فإني عاذر وشكور

ثم مدحه بعد هذه بعدة قصائد، ويقال إنه لما عاد إلى بغداد مدح الخليفة، فقيل له: وأي شيء تقول فينا بعد أن قلت في بعض نوابنا:

إذا لم تزر أرض الخصيب ركابنا

البيتان المذكوران؛ فأطرق ساعة ثم رفع رأسه وأنشد يقول:

إذا نحن أثنينا عليك بصالح — فأنت كما نثني وفوق الذي نثني

وإن جرت الألفاظ منا بمدحةٍ — لغيرك إنساناً فأنت الذي نعني

ومن شعرأبي عمر المذكور من جملة ابيات:

إن كان واديك ممنوعاً فموعدنا — وادي الكرى فلعلي فيه ألقاك

وقد ألم في هذا البيت بقول الآخر:

هل سبيل إلى لقائك بالجز ع فإن الحمى كثير الوشاة

وكانت ولادته في المحرم سنة سبع وأربعين وثلثمائة، وتوفي ليلة الأحد لأربع عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة سنة إحدى وعشرين وأربعمائة،

ودراج – بفتح الدال المهملة وفتح الراء المشددة وبعد اللف جيم – وهو اسم جده.

والقسطلي – بفتح القاف وسكون السين المهملة وفتح الطاء المهملة وتشديد اللام – هذه النسبة إلى قسطله، وهي مدينة بالأندلس يقال لها قسطلة دراج، ولا أعلم أهي منسوبة إلى جده دراج المذكور أم إلى غيره، والله سبحانه أعلم.

ابن زيدون

أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن احمد بن غالب بن زيدون المخزومي الندلسيالقرطبي الشاعر المشهور؛ قال ابن بسام صاحب الذخيرة في حقه: كان أبو الوليد غاية منثور ومنظوم، وخاتمة شعراء بني مخزوم. أخذ من حر الأيام حراً، وفاق الأنام طراً، وصرف السلطان نفعاً وضراً، ووسع البيان نظماً ونثراً. إلى اديب ليس للبحر تدفقه، ولا للبدر تألقه. وشعر ليس للسحر بيانه، ولا للنجوم الزهر اقترانه. وحظ من النثر غريب المياني، شعري الألفاظ والمعاني. وكان من أبناء وجوه الفقهاء بقرطبة، وبرع أدبه، وجاد شعره، وعلا شأنه، وانطلق لسانه. ثم انتقل عن قرطبة إلى المعتضد عباد صاحب إشبيلية في سنة إحدى وأربعين وأربعمائة، فجعله من خواصه: يجالسه في خلواته، ويركن إلى إشاراته. وكان معه في صورة وزير. وذكر له شيئاً كثيراً من الرسائل والنظم، فمن ذلك قوله:

بيني وبينك ما لو شئت لم يضع سر إذا ذاعت الأسرار لم يذع

يا بائعاً حظه مني، ولو بذلت لي الحياة بحظي منه لم أبع

يكفيك أنك إن حملت قلبي ما لا تستطيع قلوب الناس يستطع

ته أحتمل واستطل أصبر وعز أهن وول أقبل وقل أسمع ومر أطع

ومن شعره أيضاً:

ودع الصبر محب ودعك ذائع من سرع ما استودعك

يقرع السن على أن لم يكن زاد في تلك الخطا إذ شيعك

يا أخا البدر سناء وسناً حفظ الله زماناً أطلعك

إن يطل بعدك ليلي فلكم بت أشكو قصر الليل معك

وله القصائد الطنانة، ولولا خوف الإطالة لذكرت بعضها.

ومن بديع قلائده قصيدته النونية التي منها:

نكاد حين تناجيكم ضمائرنا يقضي علينا الأسى لولا تأسينا

حالت لبعدك أيامنا فغدت سودا وكانت بكم بيضاً ليالينا

بالأمس كناوما يخشى تفرقنا واليوم نحن وما يرجى تلاقينا

وهي طويلة، وكل أبياهما نخب، والتطويل يخرج بنا عن المقصود.

وكانت وفاته في صدر رجب سنة ثلاث وستين وأربعمائة بمدينة إشبيلية، رحمه الله تعالى، ودفن بها.

وذكر ابن بشكوال في كتاب الصلة أباه وأثنى عليه، وقال: كان يكنى أبا بكر. وتوفي بالبيرة سنة خمس وأربعمائة، وسيق إلى قرطبة فدفن بها يوم الاثنين لست خلون من شهر ربيع الآخر من السنة. وكانت ولادته سنة أربع وخمسين وثلثمائة. وكان يخضب بالسواد، رحمه الله تعالى وكان لأبي الوليد المذور ابن يقال له أبو بكر، وتولى وزارة المعتمد بن عباد، وقتل يوم أخذ يوسف بن تاشفين قرطبة من ابن عباد المذكور لما استولى على مملكته، كما سيشرح بعد هذا في ترجمة المعتمد وابن ناشفين إن شاء الله تعالى، وذلك يوم الأربعاء ثاني صفر سنة أربع وثمانين وأربعمائة، وكان قتله بقرطبة.

وزيدون: بفتح الزاي وسكون الياء المثناة من تحتها وضم الدال المهملة وعدها واو ونون.

واما القرطبي فقد تقدم الكلام في ضبطه فلا حاجة إلى إعادته، وذلك في ترجمة أحمد بن عبد ربه، مصنف كتاب العقد، وأخذها الفرنج من المسلمين في شوال سنة ثلاث وثلاثين وستمائة.

ابن الأبار الخولاني

أبو جعفر أحمد بن محمد الخولاني الأندلسي الإشبيلي المعروف بابن الأبار الشاعر المشهور؛ كان من شعراء المعتضد عباد بن محمد اللخمي صاحب إشبيلية، المجيدين في فنونه، وكان عالماً فجمع وصنف، وله في صناعة النظم فضل لايرد، وإحسان لايعد، فمن محاسن شعره قوله:

لم تدر ما خلدت عيناك في خلدي … من الغرام ولا ما كابدت كبدي

أفديه من زائر رام الدنو فلم … يسطعه من غرق في الدمع متقد

خاف العيون فوافاني على عجل … معطلا جيده إلا من الجيد

عاطيته الكأس فاستحيت مدامتها … من ذاك الشنب لعسول والبرد

حتى إذا غازلت أجفانه سنة … وصيرته بيد الصهباء طوع يدي

أردت توسيده خدي وقل له … فقال :كفك عندي أفضل الوسد

فبات في حرم لاغدر يذعره … وبت ظمآن لم أصدر ولم ارد

بدر ألم وبدر التم ممتحق … والأفق محلولك الأرجاء من حسد

تحير الليل منه أين مطلعه … أما درى الليل أن البدر في عضدي

وله أبيات ثابتة في المجموع الكبير بخطي في الكراس المنقول بالإسكندرية وله على هذا الأسلوب مقاطيع ملاح، وله ديوان شعر، وذكره ابن بسام في الذخيرة.

وتوفي سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة، رحمه الله تعالى.

والأبار: بفتح الهمزة وتشديد الباء الموحدة وبعد الألف راء.

والخولاني – بفتح الخاء المعجمة وسكون الواو وبعد اللام ألف ونون – هذه النسبة إلى خولان بن عمرو، وهي قبيلة كبيرة نزلت الشام.

والإشبيلي: نسبة إلى إشبيلية – بكسر الهمزة وسكون الشين المثلثة وكسر الباء الموحة وسكون الياء المثناة من تحتها وكسر اللام وفتح الياء تحتها نقطتان وبعدها هاء – وهي من اعظم بلا الأندلس.

المنازي الكاتب

أبو نصر احمد بن يوسف السليكي المنازي الكاتب؛ كان من أعيان الفضلاء وأماثل الشعراء، وزرلأ بي نصر أحمد بن مروان الكردي، صاحب ميافارقين وديار بكر – وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى –. وكان فاضلاً شاعراً كافياً، وترسل إلى القسطنطينية مراراً، وجمع كتباً كثيرة ثم وقفها على

جامع ميافارقين وجامع آمد، وهي إلى الآن موجودة بخزائن الجامعين، ومعروفة بكتب المنازي. وكان قد اجتمع بأبي العلاء المعري بمعرة النعمان، فشكا أبو العلاء إليه حاله، وأنه منقطع عن الناس وهم يؤذنه، فقال: مالهم ولك وقد تركت لهم الدنيا والآخرة؟ فقال أبو العلاء: والآخرة أيضاً؟! وجعل يكررها، ويتألم لذلك، وأطرق فلم يكلمه إلى أن قام، وكان قد اجتاز في بعض أسفاره بوادي بزاعا فأعجبه حسنه وما هو عليه، فعمل فيه هذه الأبيات:

وقانا لفحه الرمضاء واد — وقاه مضاعف النبت العميم

نزلنا دوحه فحنا علينا — حنو المرضعات على الفطيم

وأرشفنا على ظمإ زلالاً — ألذ من المدامة للنديم

يراعي الشمس أنى قابلته — فيحجبها ويأذن للنسيم

تروع حصاه حالية العذارى — فتلمس جانب العقد النظيم

وهذه الأبيات بديعة في بابها.

وذكره أبو المعالي الحظيري في كتاب زينة الدهر وأورد له شيئاً من شعره، فمما أورد له قوله:

ولي غلام طال في دقة — كخط إقليدس لاعرض له

وقد تناهى علقله خفة — فصار كالنقطة لاجزء له

ويوجد له بأيدي الناس مقاطيع. وأما ديوانه فعزيز الوجود، وبلغني أن القاضي الفاضل – رحمه الله تعالى – أوصى بعض الأدباء السفارة أن يحصل له ديوانه، فسأل عنه في البلاد التي انتهى إيها فلم يقع له على خبر، فكتب إلى القاضي الفاضل كتاباً يخبره بعدم قدرته عليه، وفيه أبيات من جملتها عجز بيت وهو:

وأقفرمن شعر المنازي المنازل

وكانت وفاته سنة سبع وثلاثين وأربعمائة، رحمه الله تعالى.

والمنازي – بفتح الميم والنون، وبعد اللف زاي – هذه النسبة إلى مناز جرد – بزيادة جيم مكسورة وبعدها راء ساكنة ثم دال مهملة – وهي مدينة عند خرت برت، وهي غير مناز كرد القلعة من أعمال خلاط – وسيأتي ذكرها في ترجمة تقي الدين عمر صاحب حماة –.

وخرت برت: هي حصن زياد المشهور.

وبزاعا – بضم الباء الموحدة وفتح الزاي وبعد الألف عين مهملة ثم ألف – وهي قرية كبيرة مابين حلب ومنبج في نصف الطريق.

ابن الخياط الدمشقي

أبو عبد الله أحمد بن محمد بن علي بن يحيى بن صدقة التغلبي المعروف بابن الخياط الشاعر الدمشقي الكاتب؛ كان من الشعراء المجيدين، طاف البلاد، وامتدح الناس، ودخل بلاد العجم وامتدح بها، ولما اجتمع بأبي الفتيان ابن حيوس الشاعر المشهور بحلب وعرض عليه شعره قال: قد نعاني هذا الشاب إلى نفسي، فقلما نشأ ذو صناعة ومهر فيها إلا وكان دليلاً على موت الشيخ منأ بناء جنسه، ودخل مرة إلى حلب وهو رقيق الحال لا يقدر علىشيء، فكتب إلى ابن حيوس المذكور يستمنحه شيئا من بره بهذين البيتين:

لم يبق عندي ما يباع بحبة — وكفاك علما منظري عن مخبري

إلا بقية ماء وجه صنتها — عن أن تباع وأين أين المشتري

فلما وقف عليهما ابن حيوس قال: لو قال وأنت نعم المشتري لكان أحسن.

ولا حاجة إلى ذكر شيء من شعره لشهرة ديوانه، ولو لم يكن له إلا قصيدته البائية التي أولها:

خذا من صبا نجد أماناً لقلبه — فقد كاد رياها يطير بلبه

لكفاه، وأكثر قصائده غرر، وتتمة هذه القصيدة:

وإياكما ذاك النسيم فإنه — متى هب كان الوجد أيسر خطبه
خليلي لو أحببتما لعلمتما — محل الهوى من مغرم القلب صبه
تذكر والذكرى تشوق وذو الهوى — يتوق ومن يعلق به الحب يصبه
غرام على يأس الهوى ورجائه — وشوق على بعد المزار وقربه
وفي الركب مطوي الضلوع على جوى — متى يدعه داعي الغرام يلبه
إذا خطرت من جانب الرمل نفحة — تضمن منها داؤه دون صحبة
ومحتجب بين الأسنة معرض — وفي القلب من غراضه مثل حجبه

أغار إذا آنست في الحي أنة — حذراً وخوفاً أن تكون لحبه

وهي طويلة فنقتصر منها على هذا القدر.

ومن شعره أيضا قوله:

سلوا سيف الحاظه الممتشق — أعند القلوب دم للحق
أما من معين ولا عاذر — إذا عنف الشوق يوما رفق
تجلى لنا صارم المقلتي — ن مضنى الموشح والمنتطق
من الترك ما سهمه إذ رمى — بأفتك من طرفه إذ رمق
وليلة وافيته زائراً — سمير السهاد ضجيع القلق
دعتني المخافة من فتكه — إليه، وكم مقدم من فرق
وقد راضت الكأس أخلاقه — ووقر بالسكر منه النزق
وحق العناق فقبلته — شهي المقبل والمعتنق
وبت أخالج فكري به — أزور طراً أم خيال طرق
أفكر في الهجر كيف انقضى — وأعجب للوصل كيف اتفق
وللحب ماعز مني وهان — وللحسن ما جل منه ودق

ويعجبني من شعره بيتان من جملة قصيدة، وهما في غاية الرقة:

وبالجزع حي كلما عن ذكرهم أمات الهوى مني فؤاداً وأحياه
تمنيتهم بالرقمتين ودارهم بوادي الغضا يا بعد ما أتمناه

ومن شعره أيضاً يعتب على أهله وأصحابه:

يا من بمجتمع الشطين إن عصفت بكم رياحي فقد قدمت أعذاري
لاتنكرن رحيلي عن دياركم ليس الكريم على ضيم بصبار

وله أيضاً:

أتظنني لا أستط يع أحيل عنك الدهر ودي
من ظن أن لابد من ه فإن منه ألف بد

وكانت ولادته سنة خمسين وأربعمائة بدشق، وتوفي بها في حاي عشر شهر رمضان سنة سبع عشرة وخمسمائة، رحمه الله تعالى، وقيل: إنه مات في سابع عشر شهر رمضان، والول أصح.

الميداني

ابو الفضل أحمد بن محمد بن احمد بن إبراهيم الميداني النيسابوري الأديب، كان فاضلاً عارفاً باللغة، اختص بصحبة أبي الحسن الواحدي صاحب التفسير، ثم قرأ على غيره، وأتقن فن العربية خصوصاً اللغة وأمثال العرب، وله فيها التصانيف المفيدة، منها كتاب الأمثال المنسوب إليه و لم يعمل مثله في بابه، وكتاب السامي في الأسامي وهو جيد في بابه، وكان قد سمع الحديث ورواه، وكان ينشد كثيراً واظنهما له:

تنفس صبح الشيب في ليل عارضي فقلت عساه يكتفي بعذاري
فلما فشا عاتبته فأجابني أيا هل ترى صبحاً بغير نهار

وتوفي يوم الأربعاء الخامس والعشرين من شهر رمضان سنة ثماني عشرة وخمسمائة بنيسابور، ودفن على باب ميدان زياد.

والميداني – بفتح الميم وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح الدال المهملة وبعد الألف نون – هذه النسبة إلى ميدان زياد بن عبد الرحمن، وهي محلة في نيسابورز وابنه أبو سعد سعيد بن أحمد كان أيضاً فاضلاً ديناً، وله كتاب الأسماء في الأسماء، وتوفي سنة تسع وثلاثين وخمسمائة، رحمه الله تعالى.

ابن الخازن الكاتب

أبو الفضل أحمد بن محمد بن الفضل بن عبد الخالق المعروف بابن الخازن، الكاتب الشاعر الدينوري الصل البغدادي المولد والوفاة؛ كان فاضلاً نادرة في الخط أوحد وقته فيه، وهو والد ابي الفتح نصر الله الكاتب المشهور، كتب من المقامات نسخاً كثيرة وهي موجودة بأيدي الناس، واعتني بجمع شعر والده فجمع منه ديواناً، وهو شعر جيد حسن السبك جميل المقاصد، فمن ذلك قوله، وهو من المعاني البديعة:

من يستقم يحرم مناه، ومن يزغ يختص بالإسعاف والتكين
انظر إلى الألف استقام ففاته عجم وفاز به اعوجاج النون

وله أيضاً:

من لي بأسمر حجبوه بمثله في لونه والقد والعسلان
من رامه فليدرع صبراً على طرف السنان وطرفه الوسنان
راح الصبا تثنيه لا ريح الصبا سكران بي من حبه سكران

طرف كطرف جامح مرحمتي أرسلت فضل عنانه عناني

وله أيضاك:

أيا عالم الأسرار إنك عالم بضعف اصطباري عن مداراة خلقه

ففتر غرامي فيه تفتير لحظه وأحسن عزائي فيه تحسين خلقه

فحمل الرواسي دون ما أنا حامل بقلبي المعنى من تكاليف عشقه

وكتب إلى الحكيم أبي القاسم الهوازي، وقد فصده فآلمه:

رحم الإله مجدلين سليمهم من ساعديك مبضع بالمبضع

فعصائب تأتيهم بمصائب نشرت فتطوي أذرعاً في الأذرع

أفصدتهم بالله أم أقصدتهم وخزاً بأطراف الرماح الشرع

دست المباضع أم كنانة أسهم أم ذو الفقار مع البطين الأنزع

غرراً بنفسي إن لقيتك بعدها ياعنتر العبسي غير مدرع

وكان الحكيم المذكور قد أضافه يوماً وزاد في خدمته، وكان في داره بستان وحمام فأدخله إليهما، فعمل أبو الفضل المذكور:

وافيت منزله فلم أرحاجباً إلا تلقاني بسن ضاحك

والبشر فيوجه الغلام أمارة لمقدمات حياء وجه المالك

ودخلت جنته وزرت جحيمه فشكرت رضواناً ورأفة مالك

ثم إني وجدت هذه الأبيات للحكيم أبي القاسم هبة الله بن الحسين بن علي الأهوازي الطبيب الأصبهاني، ذكرها العماد الكاتب في الخريدة له، وقال: توفي سنة نيف وخمسين وخمسمائة، وذكرها في ترجمة أبي الفضل ابن الخازن المذكور، والله أعلم لمن هي منهما.

ومن شعره أيضاً – أعني ابن الخازن –:

وأهيف ينميه إلى العرب لفظه وناظره الفتان يعزي إلى الهند

تجرعت كأس الصبر من رقبائه لساعة وصل منه أحلى من الشهد

وهادنت أعماماً له وخؤولةً سوى واحد منهم غيور على الخد

كنقطة مسك أودعت جلنارة رأيت بها غرس البنفسج في الورد

وكان أبو بكر الخوارزمي يروي لمعاً من شعره كقوله في وصف العيار، وذكر أنه لم يسمع في معناه أملح منه وهو: إن هذا العيار ألبس عطفي عسلياً وديني التوحيد وله أيضاً:

وافى خيالك فاستعارت مقلتي من أعين الرقباء غمض مروع

ما استكملت شفتاي لثم مسلمٍ منه ولا كفاي ضم مودع

وأظنهم فطنوا فكل قائل لو لم يزره خيالها لم يهجع

فانصاع يسرق نفسه فكأنما طلع الصباح بها وإن لم يطلع

وجل شعره مشتمل على معان حسان.

وكانت وفاته في صفر سنة ثماني عشرة وخمسمائة، وعمره سبع وأربعون سنة، وقال الحافظ ابن الخوري في كتابه المنتظم: توفي سنة اثنتيي عشرة وخمسمائة، والله أعلم، رحمه الله تعالى.

وكان ولده أبو الفتح نصر الله المذكور حياً في سنة خمس وسبعين وخمسمائة و لم أقف على تاريخ وفاته.

ناصح الدين الأرجاني

أبو بكر أحمد بن محمد بن الحسين الأرجاني الملقب ناصح الدين؛ – كان قاضي تستر وعسكر مكرم –، وله شعر رائق في نهاية الحسن، ذكره العماد الكاتب الأصبهاني في كتاب الخريدة فقال: كان الأرجاني في عنفوان عمره بالمدرسة النظامية بأصبهان، وشعره من آخر عهد نظام الملك، منذ سنة نيف وثمانين وأربعمائة، إلى آخرعهده، وهو سنة أربع وأربعين وخمسمائة، و لم يزل نائب القاضي بعسكر مكرم، وهو مبجل مكرم، وشعره كثير والذي جمع منه لا يكون عشره، ولما وافيت عسكر مكرم سنة تسع وأربعين وخمسمائة لقيت بها ولده محمداً رئيس الدين أعارني إضبارة كبيرة من شعر والده.

منبت شجرته أرجان، وموطن أسرته تستر وعسكر مكرم من خوزستان، وهو وإن كان في العجم مولده، فمن العرب محتده، سلفه القديم من الأنصار، لم يسمح بنظيره سالف الأعصار، أوسي الأس خزرجيه، قسي النطق إياديه، فارسي القلم وفارس ميدانه، وسلمان برهانه، من أبناء فارس الذين نالوا العلم المتعلق بالثريا، جمع بين العذوبة والطيب في الري والريا. انتهى كلام العماد.

قلت: ونقلت من ديوانه أنه كان ينوب في القضاء ببلاد خوزستان، تارة بتستر وتارة بعسكر مكرم، مرة عن قاضيها ناصر الدين أبي محمد عبد القاهر بن محمد، ومن بعده عن عماد الدين أبي العلاء رجاء، وفي ذلك يقول:

ومن النوائب أنني في مثل هذا الشغل نائب

ومن العجائب أن لي صبراً على هذي العجائب

وكان فقيهاً شاعراً، وفي ذلك يقول:

أنا أشعر الفقهاء غير مدافعٍ في العصر، أو أنا أفقه الشعراء

شعري إذا ماقلت دونه الورى بالطبع لا بتكلف الإلقاء

كالصوت في قلل الجبال إذا علا للسمع هاج تجاوب الأصداء

ومن شعره أيضاً:

شاروِ سواك إذا نابتك نائبة يوماً وإن كانت من أهل المشورات

فالعين تلقى كفاحاً مادنا ونأى ولا ترى نفسها إلا بمرآة

ماجبت آفاق البلاد مطوفاً إلا وانتم في الورى متطلبي

سعيي إليكم في الحقيقة، والذي تجدون عنكم فهو سعي الدهر بي

أنحوكم ويرد وجهي القهقرى عنكم فسيري مثل سير الكوكب

فالقصد نحو المشرق الأقصى لكم والسير رأي العين نحو المغرب

ومن شعره أيضاً ما كتبه إلى بعض الرؤساء يعتب عليه لعدم سؤاله عنه وقد انقطع عنه مدة:

نفسي فداؤك أيهذا الصاحب يامن هواه علي فرض واجب

لم طال تقصيري وما عاتبتني فأنا الغداة مقصر ومعاتب

ومن الدليل على ملالك أنني قد غبت أياماً ومالي طالب

وإذا رأيت العبد يهرب ثم لم يطلب فمولى العبد منه هارب

وله أيضاً، وهومعنى غريب:

رثى لي وقد ساويته في نحوله خيالي لما لم يكن لي راحم

فدلس بي حتى طرقت مكانه وأوهمت إلفي أنه بي حالم

وبتنا ولم يشعر بنا الناس ليلة أنا ساهر في جفنه وهو نائم

وله من قصيدة وأجاد فيها:

تأمل تحت ذاك الصدغ خالاً لتعلم كم خبايا في الزوايا

وله أيضاً:

شبت أنا والتحى حبيبي وبان عني وبنت عنه

وأبيض ذاك السواد مني وأسود ذاك البياض منه

وله أيضاً:

سأل الفضا عنه وأصغى للصدى كيما يجيب فقال مثل مقاله

ناداه أين ترى محط رحاله فأجاب أين ترى محط رحاله

وله أيضاً:

لو كنت أجهل ما علمت لسرني جهلي كما قد ساءني ما أعلم

كالصعو يرتع في الرياض، وإنما حبس الهزار لأنه يترنم

ومثله قول بعضهم:

يقصد أهل الفضل دون الورى مصائب الدنيا وآفاتها

كالطير لا يحبس من بينها إلا التي تطرب أصواتها

وهذا ينظر إلى قول الغزي أبي إسحاق المقدم ذكره من جملة قصيدة طويلة:

لا غرو أن تجني علي فضائلي سبب احتراق المندلي دخانه

ونقتصر على هذه المقاطيع من شعره، ولا حاجة إلى ذكر شيء من قصائده المطولات خوفاً من الإطالة.

وله أيضاً:

أحب المرء ظاهره جميل لصاحبه وباطنه سليم
مودته تدوم لكل هول وهل كل مودته تدوم

وهذا البيت – أعني الثاني منهما – يقرأ معكوساً، ويوجد في ديوان الغزي المذكور أيضاً، والله أعلم.

وله ديوان شعر فيه كل معنى لطيف.

ومولده سنة ستين وأربعمائة، وتوفي في شهر ربيع الأول سنة أربع وأربعين وخمسمائة بمدينة تستر، رحمه الله تعالى، وقيل بعسكر مكرم.

والأرجاني – بفتح الهمزة وتشديد الراء المهملة وفتح الجيم وبعد الألف نون – هذه النسبة إلى أرجان، وهي من كور الهواز من بلاد خوزستان، وأكثر الناس يقولون: إنها بالراء المخففة، واستعملها المتنبي في شعره مخففة في قوله:

أرجان أيتهاالجياد، فإنه عزمي الذي يذر الوشيج مكسرا

وحكاها الجوهري في الصحاح، والحازمي في كتابه الذي سماه ما اتفق لفظه وافترق مسماه بتشديد الراء.

وتستر – بضم التاء المثناة من فوقها وسكون السين المهملة وفتح التاء الثانية وبعدها راء – مدينة مشهورة بخوزستان، والعامة تسميها ششتر.

وعسكر مكرم –قد اختلفوا في مكرم، فأكثر العلماء على أنه مكرم اخو مطرف بن سيدان بن عقيلة بن ذكوان بن حيان بن الخرزق بن عيلان بن حاوة بن معن بن مالك بن أعصر بن سعد بن قيس بن عيلان بن مضر بن نزار ابن معد بن عدنان، هكذا نسبه استخرجته على هذه الصورة من كتاب الجمهرة لابن الكلبي، وليس في نسبه باهلة، ومكرم المذكور يعرف بمكرم الباهلي الحاوي، والله اعلم. وقيل: هو مكرم أحد بني جعونة العامري. وقيل: هو مكرم مولى الحجاج بن يوسف الثقفي، نزله لمحاربة خرزاد ابن بارس فسمي بذلك.

وخوزستان – بضم الخاء المعجمة وبعد الواو زاي ثم سين مهملة – وهوإقليم متسع بين البصرة وفارس.

ابن منير الطرابلسي

أبو الحسين أحمد بن منير بن أحمد بن مفلح الطرابلسي الملقب مهذب الدين عين الزمان الشاعر المشهور؛ له ديوان شعر، وكان أبوه ينشد الأشعار، ويغني في أسواق طرابلس، ونشأ أبو الحسين المذكور، وحفظ القرآن الكريم وتعلم اللغة والأدب، وقال الشعر، وقدم دمشق فسكنها، وكان رافضياً كثير الهجاء خبيث اللسان، ولما كثر منه ذلك سجنه بوري بن أتابك طغتكين صاحب دمشق مدة وعزم على قطع لسانه، ثم شفعوا فيه فنفاه، وكان بينه وبين أبي عبد الله محمد بن نصر بن صغير المعروف بابن القيسراني مكاتبات وأجوبة ومهاجاة، وكانا مقيمين بحلب ومتنافسين في صناعتهما كما جرت عادة المتماثلين.

ومن شعره من جملة قصيدة:

وإذا الكريم رأى الخمول نزيله في منزل فالحزم أن يترحلا
سفها لحلمك أن رضيت بمشربٍ رنق ورزق الله قد ملأ الملا
ساهمت عيسك مر عيشك قاعداً أفلا فليت بهن ناصية الفلا
فارق ترق كالسيف سل فبان في متنيه ما أخفى القراب وأخملا
لاتحسبن ذهاب نفسك ميتةً ما الموت إلا أن تعيش مذللاً
للقفر لا للفقر هبها إنما مغناك ما أغناك أن تتوسلا
لاترضى من دنياك مأأدناك من دنس وكن طيفاً جلا ثم انجلى

وصل الهجير بهجر قوم كلما أمطرتهم شهداً جنوا لك حنظلا

من غادر خبثت مغارس وده فإذا محضت له الوفاة تأولا

لله علمي بالزمان وأهله ذنب الفضيلة عندهم أن تكملا

طبعوا على لؤم الطباع فخيرهم إن قلت قال وإن سكت تقولا

أنا من إذا ما الدهر هم بخفضه سامته همته السماك الأعزلا

واعٍ خطاب الخطب وهو مجمجم راعٍ أكل العيس من عدم الكلا

زعم كمنبلج الصباح وراءه عزم كحد السيف صادف مقتلا

ومن محاسن شعره القصيدة التي أولها:

من ركب البدر في صدر الرديني وموه السحر في حد اليماني

وأنزل النير الأعلى إلى فلك مداره في القباء الخسرواني

طرف رنا أم قراب سل صارمه وأغيد ماس أم أعطاف خطي

أذلني بعد عز والهوى أبداً يستعبد الليث للظبي الكناسي

ومنها أيضاً:

أما وذائب مسكٍ من ذوائبه على أعالي القضيب الخيزراني

ومايجن عقيقي الشفاه من ال ريق الرحيقي والثغر الجماني

لو قيل للبدر من في الأرض تحسده إذا تجلس لقال ابن الفلاني

أربى علي بشتى من محاسنه تألفت بين مسموع ومرئي

إباء فارس في لين الشآم مع الظ رف العراقي والنطق الحجازي

وما المدامة بالألباب أفتك من فصاحة البدو في ألفاظ تركي

وله أيضاً:

أنكرت مقلته سفك دمي وعلى وجنته فاعترفت

لاتخالوا خاله في خده قطرة من دم جفني نطفت

ذاك من نار فؤادي جذوة فيه ساخت وانطفت ثم طفت

وله من جملة قصدة:

لاتغالطني فما تخ فى علامات المريب

أين ذاك البشر يامو لاي من هذا القطوب؟

ونقلت من خط الشيخ الحافظ المحدث زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي المنذري المصري رحمه الله تعالى قال: حكى لي أبو المجد قاضي السويداء، قال: كان بالشام شاعران ابن منير وابن القيسراني، وكان ابن منير كثيراً ما يبكت ابن القيسراني بأنه ما صحب أحدا إلا نكب، فاتفق أن أتابك عماد الدين زنكي صاحب الشام غناه مغن على قلعة جعبر، وهو يحاصرها، قول الشاعر:

ويلي من المعرض الغضبان إذ نقل ال   واشي إليه حديثا كله زور

سلمت فازور يزوي قوس حاجبه   كأنني كأس خمر وهو مخمور

فاستحسنها زنكي، وقال: لمن هذه؟ فقيل: لابن منير، وهو بحلب، فكتب إلى والي حلب يسيره إليه سريعاً، فسيره، فليلة وصل ابن منير قتل أتابك زنكي – قلت: وسيأتي شرح الحال في ذلك على التفصيل في ترجمة زنكي إن شاء الله تعالى – قال: فأخذ أسد الدين شيركوه، صاحب حمص، نور الدين محمود بن زنكي وعسكر الشام وعاد بهم إلى حلب، وأخذ زين الدين علي ولد مظفر الدين صاحب إربل عساكر بلاد الشرق وعاد بهم إلى الموصل، وإلى سيف الدين غازي بن زنكي وملكه الموصل، فلما دخل ابن منير إلى حلب صحبة العسكر، قال له ابن القيسراني: هذه بجميع ما كانت تبكتني به! قلت: ولابن القيسراني المذكور في ابن منير، وكان قد هجاه:

ابن منير هجوت مني   حبراً أفاد الورى صوابه

ولم تضيق بذاك صدري   فإن لي أسوة الصحابه

أشعاره لطيفة فائقة.

وكانت ولادته سنة ثلاث وسبعين وأربعمائة بطرابلس، وكانت وفاته في جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمسمائة بحلب، ودفن في جبل جوشن، بقرب المشهد الذي هناك، رحمه الله تعالى.

وزرت قبره ورأيت عليه مكتوبا:

من زار قبري فليكن مرقناً   أن الذي أقاه يلقاه

فيرحم الله امرءا زارني   وقال لي: يرحمك الله

وذكره الحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق، فقال في ترجمته: حدث الخطيب السديد أبو محمد عبد القاهر بن عبد العزيز خطيب حماة، قال: رأيت أبا الحسين ابن منير الشاعر في النوم بعد موته، وأنا على قرنة بستان مرتفعة، فسألته عن حاله وقلت له: اصعد إلي، فقال: ما أقدر من رائحتي، فقلت: تشرب الخمر؟ فقال: شراً من الخمر ياخطيب، فقلت له: ماهو؟ فقال: تدري ماجرى علي من هذه القصائد التي قلتها في مثالب الناس؟ فقلت له: ماجرى عليك منها؟ فقال: لساني قد طال وثخن حتى صار مد البصر، وكلما قرأت قصيدة منها قد صارت كلابا تتعلق في لساني، وأبصرته حافياً عليه ثياب رثة إلى غاية، وسمعت قارئا يقرأ من فوقه لهم من فوقهم ظلل من النار – الآية ثم انتبهت مرعوبا.

قلت: ثم وجدت في ديوان أبي الحكم عبيد الله الآتي ذكره أن ابن منير توفي بدمشق سنة سبع وأربعين، ورثاه بأبيات تدل على أنه مات بدمشق منها وهي هزلية على عادته في ذلك:

أتوا به فوق أعواد تسير به   وغسلوه بشطي نهر قلوط

وأسخنوا الماء في قدر مرصصة   وأشعلوا تحته عيدان بلوط

وعلى هذا التقدير فيحتاج إلى الجمع بين هذين الكلامين، فعساه أن يكون قد مات بدمشق قم نقل إلى حلب فدفن بها، والله أعلم.

ومنير: بضم الميم وكسر النون وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها راء.

ومفلح: بضم الميم وسكون الفاء وكسر اللام وبعدها حاء مهملة.

والطرابلسي - بفتح الطاء المهملة والراء وبعد الألف باء موحدة مضمونة ثم سين مهملة - هذه النسبة إلى طرابلس، وهي مدينة بساحل الشام قريبة من بعلبك، وقد تزاد الهمزة إلى أولها فيقال أطرابلس، وأخذها الفرنج سنة ثلاث وخمسمائة، وصاحبها يومئذ أبو علي عمار بن محمد بن عمار، بعد أن حوصرت سبع سنين، والشرح في ذلك يطول.

وجوشن: بفتح الجيم وسكون الواو وفتح الشين المثلثة ثم نون جبل بحلب.

القاضي الرشيد ابن الزبير

القاضي الرشيد أبو الحسين أحمد ابن القاضي الرشيد أبي الحسن علي ابن القاضي الرشيد أبي إسحاق إبراهيم بن محمد بن الحسين بن الزبير الغساني الأسواني؛ كان من أهل الفضل والنباهة والرياسة، صنف كتاب جنان الجنان ورياض الأذهان وذكر فيه جماعة من مشاهير الفضلاء، وله ديوان شعر، ولأخيه القاضي المهذب أبي محمد الحسن ديوان شعر أيضاً، وكان مجيدين في نظمهما ونثرهما.

ومن شعر القاضي المهذب - وهو معنى لطيف غريب - من جملة قصيدة بديعة:

وترى المجرة والنجوم كأنما ... تسقي الرياض بجدول ملآن

لو لم تكن نهراً لما عامت بها ... أبداً نجوم الحوت والسرطان

وله أيضا من جملة قصيدة:

ومالي إلى ماءٍ سوى النيل غلة ... ولو أنه، أستغفر الله، زمزم

وله كل معنى حسن، وأول شعر قاله سنة ست وعشرين وخمسمائة. وذكره العماد الكاتب في كتاب السيل والذيل وهو أشعر من الرشيد، والرشيد أعلم منه في سائر العلوم، وتوفي بالقاهرة سنة إحدى وستين وخمسمائة في رجب، رحمه الله تعالى.

وأما القاضي الرشيد فقد ذكره الحافظ أبو الطاهر السلفي - رحمه الله تعالى - في بعض تعاليقه، وقال: ولي النظر بثغر الإسكندرية في الدواوين السلطانية بغير اختياره في سنة تسع وخمسين وخمسمائة، ثم قتل ظلماً وعدواناً في المحرم سنة ثلاث وستين وخمسمائة، رحمه الله تعالى؛ وذكره العماد أيضاً في كتاب السيل والذيل الذي ديل به علىالخريدة فقال: الخضم الزاخر، والبحر العباب، ذكرته في الخريدة وأخاه المهذب، قتله شاور ظلماً لميله إلى أسد الدين شيركوه في سنة ثلاث وستين وخمسمائة، كان أسود الجلدة، وسيد البلدة، أوحد عصره في علم الهندسة والرياضات، والعلوم الشرعيات، والآداب الشعريات، ومما أنشدني له الأمير عضد الدولة أبو الفوارس مرهف بن أسامة بن منقذ، وذكر أنه سمعها منه:

جلت لدي الرزايا بل جلت هممي ... وهل يضر جلاء الصارم الذكر

غيري يغيره عن حسن شيمته ... صرف الزمان وما ياتي من الغير

لو كانت النار للياقوت محرقة ... لكان يشتبه الياقوت بالحجر

ولا تظن خفاء النجم من صغرٍ ... فالذنب في ذاك محمول على البصر

قلت: وهذا البيت مأخوذ من قول أبي العلاء المعري في قصيدته الطويلة المشهورة، فإنه القائل فيها:

والنجم تستصغر الأبصار رؤيته ... والذنب للطرف لا للنجم في الصغر

وأورد له العماد الكاتب في الجزيرة أيضاً قوله في الكامل بن شاور:

إذا مانبت بالحر دار يودها ... ولم يرتحل عنها فليس بذي حزم

وهب بها صبأ ألم يدر أنه ... سيزعجه منها الحمام على رغم

وقال العماد: أنشدني محمد بن عيسى اليمني ببغداد سنة إحدى وخمسين، قال: أنشدني القاضي الرشيد باليمن لنفسه في رجل:

لئن خاب ظني بعدما ظننت بأني قد ظفرت بمنصف

فإنك قد قلدتني كل منةٍ ملكت بها شكري لدى كل موقف

وكان الرشيد أسود اللون، وفيه يقول أبو الفتح محمود بن قادوس الكاتب الشاعر يهجوه:

ياشبه لقمان بلا حكمةٍ وخاسراً في العلم لا راسخاً

سلخت أشعار الورى كلها فصرت تدعى الأسود السالخا

وفيه أيضاً كما يغلب على ظني هذا:

إن قلت من نار خلق ت وفقت كل الناس فهما

قلنا صدقت فما الذي أضناك حتى صرت فحما

وكان الرشيد سافر إلى اليمن رسولاً، ومدح جماعة من ملوكها، وممن مدحه منهم علي بن حاتم الهمداني قال فيه:

لئن أجدبت أرض الصعيد وأقحطوا فلست أنال القحط في أرض قحطان

ومذ كفلت لي مأرب بمآربي فلست علىأسوان يوماً بأسوان

وإن جهلت حقي زعانف خندفٍ فقد عرفت فضلي غطارف همدان

فحسده الداعي في عدن على ذلك، فكتب بالأبيات إلى صاحب مصر، فكانت سبب الغضب عليه، فأمسكه وأنفذه إليه مقيداً مجرداً، وأخذ جميع موجوده، فأقام باليمن مدة ثم رجع إلى مصر، فقتله شاور كما ذكرناه، وكتب إليه الجليس بن الحباب:

ثروة المكرمات بعدك فقر ومحل العلا ببعدك قفر

بك تجلى إذا حللت الدياجي وتمر الأيام حيث تمر

أذنب الدهر في مسيرك ذنباً ليس منه سوى إيا بك عذر

والغساني – بفتح الغين المعجمة والسين المهملة وبعد الألف نون – هذه النسبة إلى غسان وهي قبيلة كبيرة من الأزد شربوا من ماء غسان، وهو باليمن فسموا به.

والأسواني – بضم الهمزة وسكون السين المهملة وفتح الواو وبعد الألف نون – هذه النسبة إلى أسوان، وهي بلدة بصعيد مصر، قال السمعاني: هي بفتح الهمزة، والصحيح الضم، هكذا قال لي الشيخ الحافظ زكي الدين أبو محمد عبد العظيم المنذري حافظ مصر، نفعنا الله به آمين.

أحمد القطرسي النفيس

أبو العباس أحمد بين أبي القاسم عبد الغني بن أحمد بن عبد الرحمن بن خلف بن مسلم اللخمي المالكي القطرسي، المنعوت بالنفيس؛ كان من الأدباء، وله ديوان شعر أجاد فيه، ونقلت منه قصيدة يمدح بها الأمير شجاع الدين جلدك التقوي، المعروف بوالي دمياط، أولها:

قل للحبيب أطلت صدك وجعلت قتلي فيك وكدك

إن شئت أن أسلو فرد علي قلبي فهو عندك

أخلفت حتى في زيا رتنا بطيف منك وعدك
وأنا عليك كما عهد وإن نقضت علي عهدك
أحرقت ياثغر الحبي ب حشاي لما ذقت بردك
وشهدت اني ظالم لما طلبت إليك شهدك
أتظن غصن البان يع جبني وقد عاينت قدك؟
أم يخدع التفاح أل حاظي وقد شاهدت خدك
أم خلت آس عذارك ال منشوق يحمي منك وردك
لا والذي جعل الهوى مولاي حتى صرت عبدك
يا قلب من لا نت معا طفه علينا ما أشدك
أتظنني جلد الهوى أو أن لي عزمات جلدك

وهي قصيدة جيدة، ونقتصر منها على هذا القدر خوف الإطالة.

زجاب النفيس المذكور البلاد، ومدح الناس، واستجدى بشعره.

وذكره العماد الكاتب في الخريدة، فقال: فقيه مالكي المذهب، له يد في علوم الوائل والدب، ومن شعره قوله:

يسر بالعيد أقوام لهم سعة من الثراء، وأما المقترن فلا
هل سرني وثيابي فيه قوم سبا أو راقني وعلى رأسي به ابن جلا

يعني قوم سبأ مزقناهم كل ممزق، وابن جلا ماله عمامة، يشير إلى قول الشاعر سحيم بن وثيل الرباحي:

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني

وذكره العماد أيضاً في كتاب السيل فقال: كان من الفقهاء بمصر، وقد رأيت القاضي الفاضل يثني عليه، ووجدت له قصيدة كتبها من مصر إليه ونقلت من ديوانه أيضاً:

يا راحلا وجميل الصبر يتبعه هل من سبيل إلى لقياك يتفق
ما أنصفتك جفوني وهي دامية ولا وفى لك قلبي وهو محترق

ومن شعره أيضاً في الأمير فخر الدين إسماعيل بن ثعلب:

مدحت الجعفري فما أثابت يداه فظن مدحي للثواب
وما كان احتساب الأجر فيه على كذب المدائح في الحساب

ومن شعره أيضاً:

يأبى العذار المستدير بوجهه وكمال بهجة حسنه المنعوت
فكانما هو صولجان زمرد متلقف كرة من الياقوت

وله في كأس سقطت وهو معنى بديع:

ما سقطت كاسك من علة لكن يد الفضل بتبديدها
هيهات ان تحفظها راحة ما حفظت قط سوى جودها

وله:

فؤادي إليك شديد الظما وعيني تشكو لك الحاجبا
فرتب لي الأذن سهلاً لديك فإني أرضى به راتباً

وكتب إلى القاضي الأسعد بن عثمان يستدعيه من جملة ابيات:

صر إلينا على البراق وإلا جاءك العتب بعد فوت المراد

وصار إليه وأنشده ارتجالاً:

قد اجبت لنداء يا داعي ال مجد ولو كنت موثقاً في صفاد
فودادي يصونني عن عتاب وبراقي عزيمتي في الوداد

وله في مغن اسمه حسام ويعرف بالأقرع وهي من الشعر المختار:

وفتيان تملكت الحميا أزمة امرهم ملك الأمير

أرادوا من حسام أن يغني ليطربهم وذاك من الغرور
فقلت لهم متى بالله غنى حسام قط في زمن السرور

ومن شعره أيضاً:

لاتسأل اليوم عن حالي وعن خبري دهت فؤادي دواهي الحسن والقدر
أصبحت قد ضل قلبي في هوى قمر فأعجب لمن ضل بين الشمس والقمر

وله أيضا وكتب بهما إلى بعض أصدقائه يعاتبه:

إن مسني من جنابٍ كنت أعهد لي فيه النعيم تكاليف من الشظف
فالشمس والبدر حسبي أسوة بهما وربما كسفا في البيت والشرف

ومن شعره يصف دير القصير أولها:

قصرنا على دير القصير ركابنا ليالي قضاها السرور قصارا
محل يريك النيل والروض والمها ويدني من النجم البعيد مزارا
وتهدي إلأى أبصارنا وقلوبنا بغير عناء قوة وقدارا

ويقتصر من شعره على هذا القدر.

وكان جده يقال له قطرس وتوفي في الرابع والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وستمائة بمدينة قوص، وقد ناهز سبعين سنة من عمره، رحمه الله تعالى.

واللخمي – بفتح اللام وسكون الخاء المعجمة وبعدها ميم – هذه النمسبة إلى لخم بن عدي، واسمه مالك، وهو أخو جذام، واسم جذام عمر بن عدي، وكانا قد تشاجرا فلخم عمرو مالكا – أي لطمه – فضرب مالك عمرا بمدية فجذم يده – أي قطعها – فسمي مالك لخما، وسمي عمرو جذاماً لهذا السبب.

والقطرسي – بضم القاف وسكون الطاء المهملة وضم الراء وبعدها سين مهملة – هذه النسبة كشفت عنها كثيراً و لم اقف لها على حقيقة، غير انه كان من أهل مصر، ثم أخبرني بهاء الدين زهير بن محمد الكاتب الشاعر – الآتي ذكره إن شاء الله تعالى – أن هذه النسبة إلى جده قطرس، وكان صاحبه، وروى عنه شيئا من شعره.

وجلدك: أبو المظفر عتيق تقي الدين عمر، صاحب حماة – الآتي ذكره إن شاء الله تعالى – وكان ديناً فاضلاً. ومات في الثامن والعشرين من شعبان سنة ثمان وعشرين وستمائة بالقاهرة، وقد ناهز ثمانين سنة، وله شعر، وروى عن الحافظ السلفي وغيره، ومن جملة ما روى بهاء الدين زهير من شعره في غلام يتعلم على الهندسة والهيئة:

وذي هيئة يزهو بوجه مهندس ... أموت به كل يوم وأبعث
محيط بأشكال الملاحة وجهه ... كأن به إقليدساً يتحدث
فعارضه خط استواء وخاله ... به نقطة والصدغ شكل مثلث

وتنسب هذه اليات إلى أبي جعفر العلوي المصري، والله أعلم.

ابن الرشيد

أبو العباس أحمد بن هارون الرشيد بن المهدي بن المنصور الهاشمي المعروف بالسبتي؛ كان عبداً صالحاً، ترك الدنيا في حياة أبيه مع القدرة، ولم يتعلق بشيء من أمورها، وأبوه خليفة الدنيا، وآثرالانقطاع والعزلة، وإنما قيل له السبتي لأنه كان يتكسب بيده في يوم السبت شيئاً ينفقه في بقية الأسبوع، ويتفرغ للاشتغال بالعبادة، فعرف بهذه النسبة، ولم يزل على هذه الحال إلى أن توفي سنة أربع وثمانين ومائة قبل موت أبيه، رحمهما الله تعالى؛ وأخباره مشهورة، فلا حاجة إلى التطويل فيها، وذكره ابن الجوزي في شذور العقود وفي صفوة الصفوة وهو مذكور في كتاب التوابين وفي المنتظم أيضا.

ابن العريف

أبو العباس أحمد بن محمد بن موسى بن عطاء الله الصنهاجي الأندلسي المريي المعروف بابن العريف؛ كان من كبار الصالحين والولياء المتورعين، وله المناقب المشهورة، وله كتاب المجالس وغيره من الكتب المتعلقة بطريق القوم، وله نظم حسن في طرقهم أيضاً، ومن شعره:

شدوا المطي وقد نالوا المنى بمنى ... وكلهم بأليم الشوق قد باحا
سارت ركائبهم تندى روائحها ... طيبا بما طاب ذاك الوفد أشباحاً
نسيم قبر النبي المصطفى لهم ... روح إذا شربوا من ذكره راحا
يا واصلين إلى المختار من مضرٍ ... زرتم جسوما وزرنا نحن أرواحا
إنا أقمنا على عذرٍ وعن قدر ... ومن أقام على عذرٍ كمن راحا

وبينه وبين القاضي عياض بن موسى اليحصبي مكاتبات حسنة، وكانت عنده مشاركة في أشياء من العلوم، وعنتية بالقراءات وجمع الروايات واهتمام بطرقها وحملتها، وكان العباد وأهل الزهد يألفونه ويحمدون صحبته.

وحكى بعض المشايخ الفضلاء أنه رأى بخطه فصلا في حق أبي محمد علي بن أحمد المعروف بابن حزم الظاهري الأندلسي، وقال فيه: كان لسان ابن

حزم المذكور وسيف الحجاج بن يوسف شقيقين، وإنما قال ذلك لأن ابن حزم كان كثير الوقوع في الئمة المتقدمين والمتاخرين، لم يكد يسلم منه أحد. ومولده يوم الأحد بعد طلوع الفجر ثاني جمادى الأولى سنة إحدى وثمانين وأربعمائة.

وكانت وفاة ابن العريف المذكور سنة ست وثلاثين وخمسمائة بمراكش، رحمه الله تعالى، ليلة الجمعة أول الليل، ودفن يوم الجمعة الثالث والعشرين من صفر، وقد كان سعي به إلى صاحب مراكش، فأحضره إليها فمات، واحتفل الناس بجنازته وظهرت له كرامات، فندم على استدعائه؛ وصاحب مراكش الذي استدعاه هو علي بن يوسف بن ناشفين – الآتي ذكره في ترجمة ابيه يوسف إن شاء الله تعالى –.

والمريي: هذه النسبة إلى المرية، وهي بفتح الميم وكسر الراء وتشديد الياء المثناة من تحتها وبعدها هاء، وهي مدينة عظيمة بالأندلس.

ابن الحطيئة اللخمي

أبو العباس أحمد بن عبد الله بن احمد بن هشام بن الحطيئة اللخمي الفاسي؛ كان من مشاهير الصلحاء وأعيانهم، وكان مع صلاحه فيه فضيلة ومعرفة بالأدب، وكان رأساً في القراءات السبع، ونسخ بخطه كثيرا من كتب الأدب وغيرها، وكان جيد الخط، حسن الضبط، والكتب التي توجد بخطه مرغووب فيها للتبرك بها ولإتقانها.

ومولده في الساعة الثامنة من يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة سنة ثمان وسبعين وأربعمائة بمدينة فاس، وانتقل إلى الديار المصرية، ولأهلها فيهاعتقاد كبير لما رأوه من صلاحه، وكان قد حج ودخل الشام، واستوطن خارج مصر في جامع راشدة، وكان لا يقبل لأحد شيئا ولا يرتزق على الإقراء، واتفق بمصر مجاعة شديدة فمشى إليه أجلاء المصريين وسألوه قبول شيء فامتنع، وكان عدلاً بزازاً في القاهرة، فتزوجها وسأل أن تكون أمها عندها، فأذن في ذلك، وكان قصدهم تخفيف العائلة عنه، وبقي منفردا ينسخ ويأكل من نسخه وكان يعرض عليه المال فلا يقبل منه شيئا؛ قيل: جاء بعض التجاربمئزر أسود صوف وحلف عليه به، فقال: اجعله على ذلك الوتد، فأقام ثلاثين سنة موضعه. لم يزل بالشرق إلى نوبة مصر المشهورة وحريقها فنزل في دويرة بها.

وتوفي في أواخر المحرم سنة ستين وخمسمائة بمصر، ودفن في القرافة الصغرى وقبره يزار بها، وزرته ليلا فوجدت عنده أنسا كثيرا، رحمه الله تعالى.

وكان يقول: أدرجت سعادة الإسلام في أكفان عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أشار إلى الإسلام لم يزل في أيامه في نمو وازدياد، وشرع بعده في التضعضع والاضطراب.

وذكر في كتاب الدول المنقطعة في ترجمة أبي الميمون عبد المجيد صاحب مصر أن الناس أقاموا بلا قاض ثلاثة أشهرفي سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة ثم اختير في ذي القعدة أبو العباس ابن الحطيئة، فاشترط أن لا يقضي بمذهب الدولة فلم يمكن من ذلك، وتولى غيره، والله تعالى أعلم.

والحطيئة: بضم الحاء المهملة وفتح الطاء المهملة وسكون الياء المثناة من تحتها وبعد الهمزة هاء.

والفاسي – بفتح الفاء وبعد الألف سين مهملة – هذه النسبة إلى فاس وهي مدينة كبيرة بالمغرب بالقرب من سبتة خرج منها جماعة من العلماء.

ابن الرفاعي

أبو العباس أحمد بن أبي الحسن علي بن أبي العباس أحمد المعروف بابن الرافاعي؛ كان رجلاً صالحاً فقيها شافعي المذهب، أصله من العرب، وسكن في البطائح بقرية يقال لها: أم عبيدة، وانضم إليه خلق عظيم من الفقراء، وأحسنوا الاعتقاد فيه وتبعوه. والطائفة المعروفة بالرفاعية والبطائحية من الفقراء منسوبة إليه، ولأتباعه أحوال عجيبة: من أكل الحيات وهي حية، والنزول في النانير وهي تتضرم بالنار فيطفئونها، ويقال: إنهم في بلادهم يركبون الأسود، ومثل هذا وأشباهه، ولهم مواسم يجتمع عندهم من الفقراء عالم لايعد ولا يحصى، ويقومون بكفاية الكل. ولم يكن له عقب، وإنما العقب لأخيه، وأولاده يتوارثون المشيخة والولاية على تلك الناحية إلى الآن، وأمورهم مشهورة مستفيضة، فلا حاجة إلى الإطالة فيها.

وكان للشيخ أحمد – مع ماكان عليه من الاشتغال بعبادته – شعر، فمنه على ما قيل:

إذا جن ليلي هام قلبي بذكركم ... أنوح كما ناح الحمام المطوف

وفوقي سحاب يمطر الهم والأسى | وتحتي بحار بالأسى تتدفق
سلوا أم عمرو كيف بات أسيرها | تفك الأسارى دونه وهو موثق
فلا هو مقتول ففي القتل راحة | ولا هو ممنون عليه فيطلق

ولم يزل على تلك الحال إلى أن توفي يوم الخمسين الثاني والعشرين من جمادى الأولى سنة ثمان وسبعين وخمسمائة بأم عبيدة، وهو في عشر السبعين، رحمه الله تعالى.

والرفاعي – بكسرالراء وفتح الفاء وبعد الألف عين مهملة – هذه النسبة إلى رجل من العرب، يقال له رفاعة، هكذا نقلته من خط بعض أهل بيته.

وأم عبيدة: بفتح العين المهملة وكسر الباء الموحدة وسكون الياء المثناة من تحتها وبعد الدال المهملة المفتوحة هاء.

والبطائح – بفتح الباء الموحدة والطاء المهملة وبعد الألف ياء مثناة من تحتها ثم حاء مهملة – وهي عدة قرى مجتمعة في وسط الماء بين واسط والبصرة، ولها شهرة بالعراق.

أحمد بن طولون

الأمير أبو العباس أحمد بن طولون، صاحب الديار المصرية والشامية والثغور؛ كان المعتز بالله قد ولاه مصر، ثم استولى على دمشق والشام أجمع وانطاكية والثغور في مدة استغال الموفق أبي أحمد طلحة بن المتوكل، وكان نائبا عن أخيه المعتمد على الله الخليفة وهو والد المعتضد بالله، بحرب صاحب الزنج.

وكان أحمد عادلاً جواداً شجاعاً متواضعاً حسن السيرة صادق الفراسة، يباشر الأمور بنفسه ويعمر البلاد ويتفقد أحوال رعاياه ويحب أهل العلم، وكانت له مائدة يحضرها كل يوم الخاص والعام، وكان له ألف دينار في كل شهر للصدقة، فأتاه وكيله يوماً فقال: إني تأتيني المرأة وعليها الإزار وفي يدها خاتم الذهب فتطلب مني، أفأ عطيها؟ فقال له: من مد يده إليك فأعطه. وكان – مع ذلك كله – طائش السيف، قال القضاعي: يقال إنه أحصي من قتلهابن طولون صبراً ومن مات في حبشه فكان عددهم ثمانية عشر ألفا. وكان يحفظ القرآن الكريم، ورزق حسن الصوت، وكان من أدرس الناس القرآن، وبنى الجامع المنسوب إليه الذي بين القاهرة ومصر في سنة تسع وخمسين ومائتين، وهذه الزيادة حكاها الفرغاني في تارخه، وذكر القضاعي في كتاب الخطط أنه شرع في عمارته سنة أربع وستين ومائتين، وفرغ منه في سنة ست وستين ومائتين، والله أعلم، وأنفق على عمارته مائة ألف وعشرين ألف دينارعلى ما حكاه أحمد بن يوسف مؤلف سيرته. وكان أبوه مملوكاً أهداه نوح بن أسد الساماني عامل بخارى إلى المأمون في جملة رقيق حمله إليه في سنة مائتين، ومات طولون في سنة أربعين ومائتين. وكانت ولادة ولده أحمد بسامرا في الثالث والعشرين من شهر رمضان سنة عشرين ومائتين، ويقال إن طولون تبناه ولم يكن ابنه، ودخل مصر لتسع – وقيل: لسبع – بقين من شهر رمضان سنة أربع وخمسين ومائتين، وقيل: يوم الاثنين لخمس بقين منه.

وتوفي بها في ليلة الأحد لعشر بقين – وقال الفرغاني: لعشر خلون – من ذي القعدة سنة سبعين ومائتين بزلق الأمعاء، رحمه الله تعالى. وزرت قبره في تربة عتيقة بالقرب من الباب المجاور للقلعة على طريق المتوجه إلى القرافة الصغرى بسفح المقطم.

وطولون: بضم الطاء المهملة وسكون الواو وضم اللام وسكون الواو وبعدها نون، وهو اسم تركي.

والساماني – بفتح السين المهملة وبعد الألف ميم مفتوحة وبعد الألف الثانية نون – هذه النسبة إلى سامام، وهو جد الملوك السامانية بما وراء النهر وخراسان.

وسامرا – بفتح السين المهملة وبعد الألف ميم مفتوحة ثم رارء مشددة وبعدها ألف – مدينة كبيرة بناها المعتصم في سنة عشرين ومائتين بالعاق فوق بغداد، وحكى فيها الجوهري في كتاب الصحاح ست لغات في فصل رأى وهذه اللغة إحدى تلك الست، وليس هذا موضع استقصاء الست، وقد ذكرهما في ترجمة إبراهيم بن المهدي.

معز الدولة ابن بويه

أبو الحسين أحمد بن بي شجاع بويه بن فناخسر وبن تمام بن كوهي بن شيرزيل الأصغر ابن شيركوه بن شيرزيل الأكبر ابن شيران شاه بن شيرفنه بن شستان شاه ين سسن فرو بن شروذيل بن سناد بن بهرام جور الملك بن يزد جردين بن هرمز كرمانشاه بن سابور ذي الأكتاف، وبقية النسب معروفة في ملوك بني ساسان فلا حاجة إلى الإطالة.

وأبة الحسين المذكور يلقب معز الدولة، وهم ثلاثة إخوة، وسيأتي ذكر الجميع، وهو عم عضد الدولة وأحد ملوك الديلم، وكان صاحب العراق والأهواز وكان يقال له الأقطع لأنه كان مقطوع اليد اليسرى وبعض أصابع اليمنى، وسبب ذلك أنه كان في مبدأ عمره وحداثة سنه تبعاً لأخيه عماد الدولة، وكان قد توجه إلى كرمان بإشارة أخويه عماد الدولة وركن الدولة، فلما وصلها سمع به صاحبها فتركها ورحل إلى سجستان من غير حرب، فملكها معز الدولة، وكان بتلك الأعمال طائفة من الأكراد قد تغلبوا عليها، وكانوا يحملون لصاحب كرمان في كل سنة شيئاً من المال بشرط أن لايطأوا بساطه، فلما وصل معز الدولة سير إليه رئيس القوم وأخذ عهوده ومواثيقه بإجرائهم على عادتهم، ففعل ذلك، ثم أشار عليه كاتبه بنقض العهد وأن يسري إليهم على غفلة ويأخذ أموالهم وذخائرهم، ففعل معز الدولة ذلك، وقصدهم في الليلفي طريق متوعرة، فأحسوا به فقعدوا له على مضيق، فلما وصل إليهم بعسكره ثاروا عليهم من جميع الجوانب، فقتلوا وأسروا، ولم يفلت منهم إلا اليسير، ووقع بمعز الدولة ضربات كثيرة، وطاحت يده اليسرى وبعض أصابع يده اليمنى، وأثخن بالضرب في رأسه وسائر جسده، وسقط بين القتلى، ثم سلم بعد ذلك، وشرح ذلك يطول، وكان وصوله إلى بغداد من جهة الأهواز، فدخلها متملكا يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى سنة أربع وثلاثين وثلثمائة، في خلافة المستكفي، وملكها بلا كلفة.

وذكر أبو الفرج ابن الجوزي في كتاب شذور العقود أن معز الدولة المذكور كان في أول أمره يحمل الحطب على رأسه، ثم ملك هو وإخوته البلاد وآل أمرهم إلى ماآل، وكان معز الدولة أصغر الإخوة الثلاثة، وكانت مدة لمكه العراق إحدى وعشرين سنة وأحد عشر شهراً.

وتوفي يوم الاثنين سابع عشر ربيع الآخر سنة ست وخمسين وثلثمائة ببغداد، ودفن في داره، ثم نقل إلى مشهد بني له في مقابر قريش. ومولده في سنة ثلاث وثلثمائة، رحمه الله تعالى.

ولما حضره الموت أعتق مماليكه وتصدق بأكثر ماله، ورد كثيراً من المظالم.

قال أبو الحسين أحمد العلوي: بينا أنا في داري على دجلة بمشرعة القصب في ليلة ذات غيم ورعد وبرق، سمعت صوت هاتف يقول:

لما بلغت أبا الحسين مراد نفسك في الطلب
وأمنت من حدث الليالي واحتجبت عن النوب
مدت إليك يد الردى وأخذت من بيت الذهب

قال: فإذا بمعز الدولة قد توفي في تلك الليلة.

ولما توفي ملك موضعه ولده عز الدولة أبو المنصور بختيار، وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى.

وبويه: بضم الباء الموحدة وفتح الواو وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها هاء ساكنة.

وفناخسرو: بفتح الفاء وتشديد النون وبعد اللف خاء معجمة مضمومة ثم سين مهملة ساكنة ثم راء مضمومة وبعدها واو.

وتمام: بفتح التاء المثناة من فوقها وبعدها ميم مخففة مفتوحة وبعد الألف ميم.

ولولا خوف التطويل لقيدت بقية الأجداد، وقد ضبطته بخطي، فمن نقله فلينقله على هذه الصورة فهو صحيح، وسيأتي ذكر أخويه عماد الدولة علي وركن الدولة حسن.

نصر الدولة ابن مروان الكردي

أبو نصر أحمد بن مروان بن دوستك، الكردي الحميدي الملقب نصر الدولة صاحب ميافارقين وديار بكر؛ ملك البلاد بعد أن قتل أخوه أبو سعيد منصور ابن مروان في قلعة الهتاخ ليلة الخميس خامس جمادى الولى سنة إحدى وأربعمائة، وكان رجلاً مسعوداً عالي الهمة حسن السياسة كثير الحزم، قضى من اللذات وبلغ من السعادة ما يقصر الوصف عن شرحه.

وحكى ابن الأزرق الفارقي في تاريخه أنه لم ينقل أن نصر الدولة المذكور صادرأحدا في أيامه، سوى شخص واحد، وقص قصته ولا حاجة إلى ذكرها، وأنه لم تفته صلاة الصبح عن وقتها مع انهماكه في اللذات، وأنه كان له ثلثمائة وستون جارية يخلو كل ليلة من ليالي السنة بواحدة، فلا تعود النوبة إليها إلا في مثل تلك الليلة من العام الثاني، وأنه قسم أوقاته: فمنها ما ينظر فيه في مصالح دولته، ومنها ما يتوفر فيه على لذاته والاجتماع بأهله وألزامه، وخلف أولاداً كثيرة، وقصده شعراء عصره ومدحوه وخلدوا مدائحه في دواوينهم.

ومن جملة سعاداته أنه وزر له وزيران كانا وزيري خليفتين: أحدهما أبو القاسم الحسين بن علي العروف بابن المغربي صاحب ديوان الشعر والرسائل والتصانيف المشهورة، وكان وزير خليفة مصر وأنفصل عنه، وقدم على الأمير أبي نصر المذكور فوزر له مرتين، والآخر فخر الدولة أبو نصر بن جهير، كان وزيره ثم انتقل إلى وزارة بغداد – وسيأتي ذكرهما إن شاء الله تعالى –.

و لم يزل على سعادته وقضاء أوطاره إلى أن توفي في التاسع والعشرين من شوال سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة، ودفن بجامع المحدثة، وقيل: في القصر بالسد لي، ثم نقل إلى القبة المعروفة بهم الملاصقة لجامع المحدثة.

وعاش سبعا وسبعين سنة، وكانت إمارته اثنتين وخمسين سنة، وقيل اثنتين وأربعين سنة، رحمه الله تعالى.

وميافا رقين مشهورة فلاحاجة إلى ضبطها.

والمحدثة – بضم الميم وسكرن الحاء المهملة وفتح الدال المهملة وبعدها ناء مثلثة – رباط بظاهر ميافارقين.

والسدلي – بكسر السين المهملة والدال المهملة وبعدها لام مشددة مكسورة أيضا – قبة في القصر مبينة على ثلاث دعائم، وهو لفظ عجمي معناه ثلاث قوائم.

وملك بعده ابنه نظام الدين أبو القاسم نصر.

المستعلي الفاطمي

أبو لقاسم أحمد المنعوت بالمستعلي ابن المستنصر بن الظاهر بن الحاكم بن العزيزابن المعزبن المنصور بن القائم بن المهدي عبيد الله، وستأتي تتمة النسب عند ذكر المهدي في حرف العين وكيفية الاختلاف فيه، إن شاء الله تعالى.

ولي الأمر بعد أبيه المستنصر بالديار المصرية والشامية، وفي أيامه اختلت دولتهم، وضعف أمرهم، وانقطعت من أكثر مدن الشام دعوتهم، وانقسمت البلاد الشامية بين الأتراك والفرنج – خذلهم الله تعالى – فإنهم دخلوا الشام ونزلوا على انطاكية في ذي القعدة سنة تسعين وأربعمائة، ثم تسلموها في سادس عشر رجب سنة إحدى وتسعين، وأخذوا معرة النعمان في سنة اثنتين وتسعين وأخذوا البيت المقدس في شعبان سنة اثنتين وتسعين أيضاً، وكان الفرنج قد أقاموا عليه نيفاً وأربعين يوماً قبل أخذه، وكان أخذهم له ضحى يوم الجمعة، وقتل فيه من المسلمين خلق كثير في مدة أسبوع، وقتل في الأقصى ما يزيد على سبعين ألفاً، وأخذوا من عند الصخرة من أواني الذهب والفضة مالا يضبطه الوصف، وانزعج المسلمون في جميع بلاد الإسلام بسبب أخذه غاية الانزعاج – وسيأتي ذكر طرف من هذه الواقعة في ترجمة الأفضل ابن أمير الجيوش في حرف الشين إن شاء الله تعالى –. وكان الأفضل شاهنشاه المنعوت بأمير الجيوش قد تسلمه من سكمان بن أرتق في يوم الجمعة لخمس بقين من شهر رمضان سنة إحدى وتسعين، وقيل: في شعبان سنة تسع وثمانين، والله أعلم بالصواب، وولي فيه من قبله فلم يكن لمن فيه طاقة بالفرنج فتسلموه منه، ولو كان في يد الأرتقية لكان أصلح للمسلمين، ثم استولى الفرنج على كثير من بلاد الساحل في أيامه، فملكوا حيفا في شوال سنة ثلاث وتسعين، وقيساربة في سنة أربع وتسعين. و لم يكن للمستعلي مع الأفضل حكم، وفي أيامه هرب أخوه نزار إلى الإسكندرية، ونزار هو الأكبر وهو جد أصحاب الدعوة بقلعة الأ موت ولك القلاع وكان من أمره ما قد شهر، والشرح يطول.

وكانت ولادة المستعلي لعشر ليال بقين من المحرم سنة تسع وستين وأربعمائة بالقاهرة، وبويع في يوم عيد غدير خم، وهو الثامن عشر من ذي الحجة سنة سبع وثمانين وأربعمائة، وتوفي بمصر يوم الثلاثاء لثلاث عشرة ليلة بقيت من صفر سنة خمس وتسعين وأربعمائة، رحمه الله تعالى، وله من العمر ثمان وعشرون سنة وأيام، فكانت مدة ولايته سبع سنين وكسراً؛ وتولى بعده ولده أبو علي المنصور الملقب بالآمر، وله من الهمر خمس سنين وشهر وأربعة أيام، و لم يكن في من تسمى بالخلافة قط أصغر منه ومن المستنصر، وكان المستنصر أكبر من هذا، و لم يقدر يركب وحده الفرس. وقام بتدبير دولته الأفضل ابن أمير الجيوش أحسن قيام إلى أن قتل في التاريخ المذكور في بابه في حرف الشين

عماد الدين ابن المشطوب

أبو العباس أحمد ابن الأمير سيف الدين أبي الحسن علي بن أحمدبن أبي الهيجاء ابن عبد الله بن أبي الخليل ابن مرزبان الهكاري المعروف بابن المشطوب الملقب عماد الدين، والمشطوب لقب والده، وإنما قيل له ذلك لشطبة كانت بوجهه؛ كان أميراً كبيراً وافر الحرمة عند الملوك، معدوداً بينهم مثل واحد منهم، وكان عالي الهمة غزيرة الجود واسع الكرم شجاعاً أبي النفس تهابه الملوك وله وقائع مشهورة في الخروج عليهم، ولا حاجة إلى ذكرها.

وكان من أمراء الدولة الصلاحية، فإن والده لما توفي وكانت نابلس إقطاعاً له أرصد منها السلطان صلاح الدين رحمه الله تعالى الثلث لمصالح بيت المقدس وأقطع ولده عماد الدين المذكور باقيها. وجده أبو الهيجاء كان صاحب العمادية وعدة قلاع من بلاد الهكارية.

و لم يزل قائم الجاه والحرمة إلى أن صدر منه في سنة دمياط ما قد شهر، وقد شرحت ذلك في ترجمة الملك الكامل، فانفصل عن الديار المصرية، وآلت حاله إلى أن حوصر في شهر بيع الآخر بتل يعفور القلعة التي بين الموصل وسنجار، والقصة مشهورة، فراسله الأمير بدر الدين لؤلؤ أتابك صاحب الموصل و لم يزل يخدعه ويطمنه إلى أن أدعن للانقياد، وحلف له على ذلك، فانتقل إلى الموصل، وأقام بها قليلاً، ثم قبض عليه، وذلك في سنة سبع عشرة وستمائة وأرسله إلى الملك الأشرف مظفر الدين ابن الملك العادل. وإنما قبض عليه تقريباً إلى قلبه، فإن خروجه في هذه الدفعة كان عليه، فاعتقله الملك الأشرف في قلعة حران، وضيق عليه تضييقا شديدا، من الحديد الثقيل في رجليه والخشب في يديه، وحصل في رأسه ولحيته وثيابه من القمل شيء كثير على ماقيل، وكنت أسمع بذلك في وقته وأنا صغير، وبلغني أن بعض من كان متعلقاً بخدمته كتب في ذلك الوقت إلى الملك الأشرف دوبيت في معناه وهو:

يامن بدوام سعده دار فلك ... ما أنت من الملوك بل أنت ملك

مملوكك ابن المشطوب في السجن هلك ... أطلقه فإن الأمر لله ولك

ومكث على تلك الحال إلى أن توفي في الاعتقال في شهر ربيع الآخر سنة تسع عشرة وستمائة، وبنت له ابنته قبة على باب مدينة رأس عين، ونقلته من حران إليها ودفنته بها، رحمه الله تعالى؛ ورأيت قبره هناك.

ولما كان في السجن كتب إليه بعض الأدباء دوبيت، وهو:

يا أحمد مازلت عماداً للدين ... يا أشجع من أمسك رمحاً بيمين

لا تأس إذا حصلت في سجنهم ... ها يوسف قد أقام في السجن سنين

وهذا مأخوذ من قول البحتري من جملة أبيات:

أما في رسول الله يوسف أسوة ... لمثلك محبوساً على الظلم والإفك

أقام جميل الصبر في السجن برهة ... فآل به الصبر الجميل إلى الملك

وكانت ولادة الأمير عماد الدين في سنة خمس وسبعين وخمسمائة تقديراً.

ورأيت في بعض رسائل القاضي الفاضل أن الأمير سيف الدين أبا الحسن علي ابن أحمد الهكاري المعروف بالمشطوب كتب إلى الملك الناصر صلاح

الدين يخبره بولادة ولده عماد الدين أبي العباس أحمد، وأن عنده امرأة أخرى حاملاً، فكتب القاضي الفاضل جوابه"وصل كتاب الأمير دالاً على الخبر بالولدين، الحال على التوفيق، والسائر كتب الله سلامته في الطريق، فسررنا بالغرة الطالعة من لثامها، وتوقعنا المسرة بالثمرة الباقية في أكمامها.

وأما والده سيف الدين المشطوب فإن السلطان صلاح الدين كان قد رتبه في عكا لما خاف عليها من الفرنج، هو بهاء الدين قراقوش – الآتي ذكره إن شاء الله تعالى – و لم يزل بها حتى حاصرها الفرنج بها وأخذوها. ولما خلص منها وصل إلى السلطان وهو بالقدس، يوم الخميس مستهل جمادى الآخرة سنة ثمان وثمانين وخمسمائة. قال ابن شداد: دخل على السلطان بغته، وعنده أخوه الملك العادل، فنهض إليه واعتنقه، وسر به سروراً عظيماً، وأخلى المكان وتحث معه طويلاً.

وكانت وفاة سيف الدين يوم الخميس السادس والعشرين من شوال سنة ثمان وثمانين وخمسمائة بنابلس، رحمه الله تعالى؛ هكذا ذكره العماد الكاتب الأصبهاني في كتاب البرق الشامي. وقال بهاء الدينبن شداد في كتابه سيرة صلاح الدين إنه نزفي يوم الاحد الثالث والعشرين من شوال من السنة المذكورة بالقدس الشريف، ودفن في داره بعد أن صلي عليه بالمسجد الأقصى.

و لم يكن في أمراء الدولة الصلاحية أحد يضاهيه ولا يدانيه في المتزلة وعلو المرتبة، وكانوا يسمونه الأمير الكبير، وكان ذلك علماً عليه عندهم لايشاركه فيه غيره، ورأيت بخط القاضي الفاضل"ورد الخبر بوفاة الأمير سيف الدين المشطوب، أمير الأكراد وكبيرهم. وكانت وفاته يوم الأحد الثاني والعشرين من شوال من السنة المذكورة بالقدس، وخبزه يوم وفاته بنابلس وغيرها ثلثمائة ألف دينار، وكان بين خلاصه من أسره وحضور أجله دون مائة يوم.

فسبحان الحي الذي لا يموت، وهدم به بنيان قوم، والدهر قاض ما عليه لوم.

قلت: وقوله وهدم به بنيان قوم هذا الكلام حل فيه بيت الحماسةوهو:

فما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدما

وهذا البيت من جملة مرثية عبدة بن الطبيب التي رثى بها قيس بن عاصم التميمي الذي قدم من البادية على النبي صلى الله عليه وسلم في وقد بني تميم في سنة تسع للهجرة، وأسلم، وقال النبي صلى الله عليه وسلم في حقه: هذا سيد أهل الوبر، وكان عاقلاً مشهوراً بالحلم والسودد، وهذا البيت لأهل العربية في إعرابه كلام ليس هذا موضع ذكره، وقد ذكره أبو تمام الطائي في باب المراثي من جملة ثلاثة ابيات، وهي:

عليك سلام الله قيس بن عاصم ورحمته ما شاء أن يترحما

تحية من غادرته غرض الردى إذا زار عن شحط بلادك سلما

فما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدما

وهذا قيس أول من وأد البنات في الجاهلية للغيرة والأنفة من النكاح، وتبعه الناس في ذلك إلى أن أبطله الإسلام.

وأما الأمير بدر الدين لؤلؤ المذكور، فإنه توفي يوم الجمعة ثالث شعبان سنة سبع وخمسين وستمائة بقلعة الموصل، ودفن بها في مشهد هناك، وعمره مقدار ثمانين سنة، رحمه الله تعالى.

صلاح الدين الإربلي

أبو العباس أحمد بن عبد السيد بن شعبان بن محمد بن جابر بن قحطان الإربلي الملقب صلاح الدين، وهو من بيت كبير بإربل؛ وكان حاجباً عن الملك المعظم مظفر الدين بن زين الدين صاحب إربل، فتغير عليه واعتقله مدة، فلما أفرج عنه خرج منها قاصداً بلاد الشام في سنة ثلاث وستمائة صحبة الملك القاهر بهاء الدين أيوب ابن الملك العادل، فاتصل بخدمة الملك المغيث ابن الملك العادل، وكان قد عرفه من إربل، وحسنت حاله عنده، فلما توفي المغيث انتقل الصلاح إلأى الديار المصرية، وخدم الملك الكامل، فعظمت مترلته عنده، ووصل منه إلى ما لم يصل إليه غيره، واختص به في خلواته وجعله أميراً.

وكان الصلاح ذا فضيلة تامة ومشاركات حسنة. بلغني أنه كان يحفظ الخلاصة في الفقه للإمام الغزالي، وله نظم حسن ودوبيت رائق، وبه تقدم عند الملوك.

ثم إن الملك الكامل تغير عليه واعتقله في المحرم سنة ثماني عشرة وستمائة وهو بالمنصورة في قبالة الفرنج، ويره إلى قلعة القاهرة، ولم يزل في الاعتقال مضيقا عليه على هذه الحال إلى شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وعشرين وستمائة، فعمل الصلاح دوبيت وأملاه على بعض القيان، فغناه عند الملك الكامل، فاستحسنه وسأله: لمن هذا؟ فقال: للصلاح، فأمر بالإفراج عنه، والدوبيت المذكور:

ما أمر تجنبيك على الصب خفي — أفنيت زماني بالأسى والأسف

ماذا غضب بقدر ذنبي ولقد — بالغت وما أردت إلا تلفي

وقيل: إن الدوبيت الذي كان سبب خلاصه قوله:

اصنع ماشئت انت أنت المحبوب — مالي ذنب، بلى كما قلت ذنوب

هل تسمح بالوصال في ليلتنا — تجلو صدأ القلب وتعفو وأتوب

فلما خرج عادت مكانته عنده إلى أحسن مما كانت عليه.

وكان الملك الكامل قد تغير على بعض إخوته – وهو الملك الفائز سابق الدين إبراهيم ابن الملك العادل – فدخل على الصلاح وسأله أن يصلح أمره مع أخيه الملك الكامل، فكتب الصلاح إليه:

إلى ساحل الشام في سنة ست وعشرين وستمائة بعث الملك الكامل الصلاح إليه رسولاً، فلما قرر القواعد واستحلفه كتب إلى الملك الكامل

زعم الزعيم الأنبرور بأنه — سلم يدوم لنا على أقواله

شرب اليمين فإن تعرض ناكثاً — فليأكلن لذاك لحم شماله

ومن شعره أيضاً:

وإذا رأيت بنيك فاعلم أنهم — قطعوا إليك مسافة الآجال

وصل البنون إلى محل أبيهم — وتجهز الآباء للترحال

وأنشدني بعض أصحابنا له:

يوم القيامة فيه ما سمعت به — من كل هول فكن منه على حذر

يكفيك من هوله أن لست تبلغه — إلا إذا ذقت طعم الموت في السفر

وكتب إليه شرف الدين ابن عنين الشاعر الدمشقي كتابناً من دمشق إلى الديار المصرية، قال لي صاحبنا عفيف الدين أبو الحسن علي بن عدلان النحوي المترجم الموصلي: إن هذا الكتاب كان على يده، وتضمن الوصية عليه، وفي أوله:

أبثك ما لقيت من الليالي — فقد قصت نوائبها جناحي

وكيف يفيق من عنت الرزايا مريض ما يرى وجه الصلاح

وللصلاح المذكور ديوان شعر وديوان دوبيت، وما زال وافر الحرمة عالي المترلة عنده وعند الملوك. فلما قصد الملك الكامل بلاد الروم وهو في الخدمة مرض في المعسكر بالقرب من السويداء، فحمل إلى الرها، فمات قبل دخولها في الخامس والعشرين من ذي الحجة سنة إحدى وثلاثين وستمائة ودفن بظاهرها، وقيل: مات يوم السبت العشرين من ذي الحجة ودفن بظاهر الرها بمقبرة باب حران، ثم نقله ولده من هناك إلى الديار المصرية، فدفنه في تربة هناك بالقرافة الصغرى في آخر شعبان سنة سبع وثلاثين وستمائة، وكنت يومئذ بالقاهرة.

وكان تقدير عمره يوم وفاته ستين سنة، رحمه الله تعالى؛ ثم وقفت على تاريخ مولده في شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة بإربل.

والإربلي – بكسر الهمزة وسكون الراء وكسر الباء الموحدة وبعدها لام – هذه النسبة إلى إربل، وهي مدينة كبيرة بالقرب من الموصل، من جهتها الشرقية.

ابن عبد الحميد الجرجاني

أبو العباس أحمد بن أبي نصر الخصيب بن عبد الحميد بن الضحاك الجرجاني الأصل؛ كل وزير المستنصر بالله، ونفاه المستعين إلى جزيرة أقريطش بجريرة صدرت منه سنة 48 وكان ينسب إلى الطيش والتهور، وله في ذلك أخبار؛ وكان قد ركب يوماً فوقف له متظلم وشكا حاله فأخرج رجله من الركاب وزج المتكلم في فؤاده فقتله، فتحدث الناس بذلك فقال بعض الشعراء في ذلك الزمان هذين البيتين:

قل للخليفة بابن عم محمد أشكل وزيرك إنه ركال

أشكله عن ركل الرجال وإن ترد مالاً فعند وزيرك الأموال

يقال: ركله إذا رفسه، وأبوه الخصيب ممدوح أبي نواس الحكي، كان سبب توليته أن الرشيد قرأ يوماً في المصحف فانتهى إلى قوله تعالى: أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتي، الآية فقال: لعنه الله ما كان أرقعه، ادعى الربوبية بملك مصر، والله لأولينها أخس خدمي، فولاها الخصيب وكان على وضوئه. ولأبي نواس فيه قصيدتاه الرائيتان وكان قد قصده بهما إلى مصر وهو أميرها، وما أحسن قوله في إحداهما:

تقول التي من بيتها خف مركبي عزيز علينا أن نراك تسير

أما دون مصر للغنى متطلب بلى إن أسباب الغنى لكثير

فقلت لها واستعجلتها بوادر جرت فجرى من جريهن عبير

دعيني أكثر حاسديك برحلةٍ إلى بلدٍ فيه الخصيب أمير

وهي طويلة وأجازه عليها جائزة سنية.

وكانت وفاة أحمد المذكور سنة 265وكان نفيه إلى أقريطش في سنة248. وأقريطش جزيرة ببلاد المغرب خرج منها جماعة من العلماء وأخذها الفرنج سنة350.

عزيز الدين المستوفي

أبو نصر أحمد بن حامد بن محمد بن عبد الله بن علي بن محمود بن هبة الله بن أله الأصبهاني الملقب عزيز الدين المستوفي عم العماد الكاتب الأصبهاني، وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى.

كان العزيز المذكور رئيسا كبير القدر، ولي المناصب العلية في الدولة السلجوقية، و لم يزل مقدماً فيها، قصده بنو الحاجات، ومدحه الشعراء، وأحسن جوائزهم. وفيه يقول أبو محمد الحسن بن أحمد بن جكينا البغدادي الشاعر المشهور من جملة قصيدة:

أميلو بنا نحو العراق ركابكم لنكتال من مال العزيز بصاعه

وللقاضي أبي بكر أحمد بن محمد الأرجاني المقدم ذكره فيه مدائح، والأبيات البائية المذكورة في ترجمته هي من جملة قصيدة طويلة يمدح بها عزيز الدين المذكور، وكان ابن أخيه العماد يفتخر به كثيراً، وقد ذكره في أكثر تواليفه، وكان في آخر أمره متولي الخزانة للسلطان محمود بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي.

وكان السلطان محمود المذكور زوج بنت عمه السلطان سنجر بن ملكشاه، فماتت عنده فطالبه عمه بما خرج معها في جهازها من انواع التحف والغرائب التي لا توجد في خزائن الملوك، فجحدها محمود، وخاف من عزيز الدين ان يشهد بما وصل صحبتها لأنه كان مطلعاً عليه من جهة الخزانة، فقبض عليه وسيرة إلى قلعة تكريت، وكانت القلعة له إذ ذاك، فحبسه بها ثم قتله بعد ذلك في أوائل سنة خمس وعشرين وخمسمائة، رحمه الله تعالى.

وذكر ابن أخيه العماد الكاتب في كتاب "الخريدة" أن مولده بأصبهان سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة، وقتله سنة ست وعشرين وخمسمائة بتكريت، وكان قبضه ببغداد، وذكر العماد الكاتب أنه لما قتل كان الميران نجم الدين أيوب أبو السلطان صلاح الدين واخوه أسد الدين شيركو في القلعة المذكورة متوليي أمورها وأنهما دافعا عنه فما أجدى الدفاع.

وأله – بفتح الهمزة وضم اللام وسكون الهاء – لفظة عجمية معناها بالعربية العقاب، وق تقدم الكلام في ضبط اصبهان فلا حاجة إلى الإعادة.

ابو العباس القسطلاني

الشيخ أبو العباس أحمد بن علي القسطلاني صحب الشيخ أباعبد الله القرشي وانتفع به وتمت عليه بركته وروى عنه وجمع جميع كلامه وما كان يصدر عنه في مجلد كبير ووقفت عليه ونقلت منه ما مثاله: قال أبو العباس أحمد بن علي القسطلاني رحمه الله في ذي الحجة سنة عشر وستمائة سمعت الشيخ أبا عبد الله القرشي يقول: كنت عند الشيخ أبي إسحاق إبراهيم بن طريف حاضراً فأتى ليه إنسان فسأله: هل يجوز للإنسان أن يعقد على نفسه عقداً لا يحله إلا بنيل مطلوبه؟ فقال الشيخ: نعم، واستدل بحديث أبي لبابة الأنصاري في قصة بني النضير، وقوله صلى الله عليه وسلم: أما أنه لو أتاني لاستغفرت له ولكن إذا فعل ذلك بنفسه، فدعوه حتى يحكم الله فيه؛ قال: فسمعت هذه المسألة وعقدت على نفسي أنني لاأتناول شيئا إلا بإظهار قدره فمكثت ثلاثة أيام وكنت إذذاك أعمل في الحانوت صناعتي، فبينا أنا جالس على الكرسي إذ ظهر لي شخص بيده شيء في إناء فقال لي: اصبر إلى العشاء تاكل من هذا، ثم غاب عني، فبينا أنا في وردي بين العشاءين إذ انشق الجدار وظهرت لي حوراء بيدها ذلك الإناء الذي كان بيد ذلك الشخص فيه شيء يشبه العسل، فتقدمت إلي وألعقتني منه ثلاثا فصعقت وغشي علي ثم أفقت وقد ذهبت فلم يطب لي بعد ذلك طعام، وأشربت في قلبي تلك الصورة فما استحسنت بعدها شخصا ولا كنت أتمكن من سماع كلام الخلق.

أرتق

أرتق بن اكسب جد الملوك الأرتقية؛ هو رجل من التركمان تغلب على حلوان والجبل ثم سار إلى الشام مفارقا لفخر الدولة أبي نصر محمد بن جهير خائفا من السلطان محمد بن ملكشاه، وذلك في سنة ثمان أوتسع واربعين وأربعمائة، وملك القدس من جهة تاج الدولة تتش السلجوقي الآتي ذكره إن شاء الله تعالى، ولما توفي أرتق في التاريخ المذكور فيه تولاه بعده ولداه سكمان وإيلغازي ابنا أرتق، و لم يزالا به حتى قصدهما الأفضل شاهنشاه أمير الجيوش الآتي ذكره إن شاء الله تعالى من مصر بالعساكر، واخذه منهما في شوال سنة إحدى وتسعين وأربعمائة، وتوجها إلى بلاد الجزيرة الفراتية وملكا ديار بكر.

وصاحب قلعة ماردين الآن من أولاده، وملك ولده نجم الدين إيلغازي مدينة ماردين سنة إحدى وخمسمائة، وكان ولاه السلطان محمد شحنكية بغداد، وتوفي سكمان بن أرتق بعلة الخوانيق في طريق الفرات بين طرابلس والقدس، سنة ثمان وتسعين وأربعمائة.

وكان أرتق رجلا شهما ذا عزمة وسعادة وجد واجتهاد. وتوفي سنة أربع وثمانين وأربعمائة، رحمه الله تعالى.

وهو بضم الهمزة وسكون الراء وضم التاء المثناة من فوقها وبعدها قاف.

وأكسب: بفتح الهمزة وسكون الكاف وفتح السين المهملة وبعدها باء موحدة. وقيل: هو أكسك – بالكاف بد الباء – والله أعلم.

أرسلان البساسيري

أبو الحارث أرسلان بن عبد الله البساسيري التركي مقدم الأترك ببغداد، يقال: إنه كان مملوك بهاء الدولة بن عضد الدولة بن بويه، والله أعلم؛ وهو الذي خرج على الإمام القائم بأمر الله ببغداد، وكان قد قدمه على جميع التراك، وقلده الأمور بأسرها، وخطب له على منابر العراق وخوزستان فعظم أمرهوهابته الملوك، ثم خرج على الإمام القائم وأخرجه من بغداد، وخطب للمستنصر العبيدي صاحب مصر، فراح الإمام القائم إلى أمير العرب محيي الدين أبي الحارث مهارش بن المجلي العقيلي صاحب الحديثة وعانة فآواه وقام بجميع ما يحتاج إليه مدة سنة كاملة حتى جاء طغر لبك السلجوقي المذكور بعد هذا وقاتل البساسيري المذكور وقتله وعاد القائم إلى بغداد، وكان دخوله إليها في مثل اليوم الذي خرج منها بعد حول كامل، وكان ذلك من غرائب الاتفاق وقصته مشهورة، وقتله عسكر السلطان طغر لبك السلجوقي ببغداد يوم الخميس خامس عشر ذي الحجة، وقال ابن العظيمي: يوم الثلاثاء حادي عشر ذي الحجة سنة إحدى وخمسين وأربعمائة وطيقف برأسه في بغداد وصلب قبالة باب النوبي.

والبساسيري - بفتح الباء الموحدة والسين المهملة وبعد اللف سين مهملة مكسورة ثم ياء ساكنة مثناة من تحتها وبعدها راء - هذه النسبة إلى بلدة بفارس يقال لها بسا، والعربية فسا، والنسبة إلها بالعربي فسوي، ومنها الشيخ أبو علي الفارسي النحوي صاحب الإيضاح، ويقال له قسوي أيضا، وأهل فارس يقولون في النسبة إليها: البساسيري، وهي نسبة شاذة على خلاف الأصل، وكان سيد أرسلان المذكور من بسافنسب المملوك إليه، واشتهر بالبساسيري، هكذا ذكره السمعاني نقلاً عن الديب أبي العباس احمد بن علي ابن بابه القاشي، وفي هذه اللفظة زيادة ليست في الأصل.

ومات الأمير مهارش بن المجلس في صفر سنة تسع وتسعين وأربعمائة وقد ناهز ثمانين سنة، وهو مهارش بن المجلي بن عليث بن قبان بن شعب بن المقلد بن جعفر بن عمرو بن المهنا، وبقية نسبة ستأتي في ترجمة المقلد بن المسبب، إن شاء الله تعالى.

الملك العادل أتابك

أبو الحارث أرسلان شاه بن عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي بن آق سنقر صاحب الموصل المعروف بأتابك الملقب الملك العادل نور الدين، وسيأتي ذكر جماعة من أهل بيته إن شاء الله تعالى، كل واحد في حرفة.

ملك نور الدين المذكور الموصل بعد وفاة أبيه في التاريخ المذكور هناك، وكان ملكا شهما عارفا بالأمور، وانتقل إلى مذهب الشافعي رضي الله عنه، ولم يكن في بيته شافعي سواه، وبنى مدرسة الشافعية بالموصل قل أن توجد مدرسة في حسنها.

وتوفي ليلة الأحد التاسع والعشرين من رجيب سنة سبع وستمائة في شبارة بالشط ظاهرالموصل - والشبارة عندهم هي الحراقة بمصر - وكتم موته حتى دخل به إلى دار السلطنة بالموصل. ودفن في تربته التي بمدرسته المذكورة، رحمه الله تعالى.

وخلف ولدين هما الملك القاهر عز الدين مسعود، والملك المنصور عماد الدين زنكي. وهما مذكوران في ترجمة جدهما عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي فليطلب منه إن شاء الله تعالى، وقام بالمملكة بعده ولده الملك القاهر كما هومشروح هناك، وهو أستاذ الأمير بدر الدين أبي الفضائل لؤلؤ الذي تغلب على الموصل وملكها في سنة ثلاثين وستمائة في أواخر شهر رمضان، وكان قبل نائبا بها ثم استقل. وهو المذكور في ترجمة عماد الدين بن المشطوب.

أزهر السمان

أبو بكر أزهر بن سعد السمان الباهلي بالولاء البصري؛ روى الحديث عن حميد الطويل، وروى عنه أهل العراق، كان يصحب أبا جعفر المنصور قبل أن يلي الخلافة، فلما وليها جاءه أزهر مهنئا، فحجبه المنصور فترصد له يوم جلوسه العام وسلم عليه، فقال له المنصور: ما جاء بك؟ قال: جئت مهنئا بالأمر، فقال المنصور: أعطوه ألف دينار، وقولو له: قد قضيت وظيفة الهناء، فلاتعد إلي، فمضى وعاد في قابل، فحجبه فدخل عليه في مثل ذلك المجلس وسلم عليه، فقال له: ما جاء بك؟ فقال له: سمعت أنك مرضت فجئتك عائدا، فقال: أعطوه ألف دينار وقولوا له: قد قضيت وظيفة العيادة فلا تعد

إلي، فإني قليل الأمراض. فمضى وعاد في قابل، فقال له في مثل ذلك المجلس: ماجاء بك؟ فقال: سمعت منك دعاء مستجابا فجئت لأتعلمه منك، فقال له: ياهذا، إنه غير مستجاب، إني في كل سنة أدعو الله به أن لاتاتيني وأنت تأتي. وله وقائع وحكايات مشهورة. وكانت ولادته سنة إحدى عشرة ومائة. وتوفي سنة ثلاث ومائتين، وقيل: سبع ومائتين، رحمه الله تعالى.

وأزهر – بفتح الهمزة وسكون الزاي وفتح الهاء وبعدها راء – وهو اسم علم.

والسمان – بفتح السين المهملة وتشديد الميم وبعد الألف نون – هذه النسبة إلى بيع السمن وحمله.

والبصري – بفتح الباء الموحدة وكسرها وسكون الصاد المهملة وبعدها راء – هذه النسبة إلى البصرة، وهي من أشهر مدن العراق وهي إسلامية، بناها عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – في سنة أربع عشرة للهجرة على يد عتبةى ابن غزوان، رضي الله عنه. قال ابن قتيبة في كتاب أدب الكاتب في باب ما تغير من أسماء البلاد البصرة: الحجارة الرخوة فإن حذفوا الهاء قالوا: البصر – بكسر الباء – وإنما اجازوا في النسب بصري لذلك، والبصر أيضاً: الحجارة الرخوة، قاله في الصحاح.

أسامة بن منقذ

أقبو المظفر أسامة بن مرشد بن علي مقلد بن نصر بن منقذ الكناني الكلبي الشيزري الملقب مؤيد الدولة مجد الدين، من اكابر بني منقذ أصحاب قلعة شيزر وعلمائهم وشجعائهم، له تصانيف عديدة في فنون الأدب.

ذكره أبو البركات ابن المستوفي في تاريخ إربل وأثنى عليه وعده في جملة من ورد عليه وأورد له مقاطيع من شعره.

وذكره العماد الكاتب في الخريدة وقال بعد الثناء عليه: سكن دمشق ثم نبت به كما تنبو الدار بالكريم، فانتقل إلى مصر فبقي بها مؤمراً مشاراً إليه بالتعظيم إلى أيام الصالح بن رزيك. ثم عاد إلى الشام وسكن دمشق، ثم رماه الزمان إلى حصن كيفا، فأقام به حتى ملك السلطان صلاح الدين – رحمه الله تعالى – دمشق، فاستدعاه وهو شيخ قد جاوز الثمانين.

وقال غير العماد: إن قدومه مصر كان في أيام الظافر بن الحافظ والوزير يومئذ العادل بن السلار، فأحسن إليه وعمل عليه حتى قتل حسبما هو مشروح في ترجمته.

قلت: ثم وجدت جزءا كتبه بخطه للرشيد بن الزبير حتى يلحقه بكتاب الجنان، وكتب عليه أنه كتبه بمصر سنة إحدى وأربعين وخمسمائة، فيكون قد دخل مصر في أيامه وأقام بها حتى قتل العادل بن السلار، إذ لا خلاف أنه حضر هناك وقت قتله.

وله ديوان شعر في جزأين موجود في أيدي الناس ورأيته بخطه. ونقلت منه قوله:

لاتستعر جلداً على هجرانهم	فقواك تضعف من صدود دائم
واعلم بأنك إن رجعت إليهم	طوعاً وإلا عدت عودة راغم

ونقلت منه في ابن طليب المصري، وقد احترقت داره:

انظر إلى الأيام كيف تسوقنا	قسراً إلى الإقرار بالأقدار
ما أوقد ابن طليب قط بداره	ناراً وكان خرابها بالنار

ومما يناسب هذه الواقعة أن الوجيه ابن صورة المصري دلال الكتب كانت له بمصر دار موصوفة بالحسن فاحترقت، فعمل نشء الملك أبو الحسن علي ابن مفرج المعروف بابن المنجم المعري الأصل المصري الدار والوفاة:

أقول وقد عاينت دار ابن صورة	وللنار فيها مارج يتضرم
كذا كل مال أصله من مهاوش	فعما قليل في نهابر يعدم
وما هو إلا كافر طال عمره	فجاءته لما استبطأته جهنم

والبيت الثاني مأخوذ من قوله صلى الله عليه وسلم من أصاب مالاً من مهاوش أذهبه الله في نهابر، والمهاوش: الحرام، والنهابر: المهالك.

والوجيه المذكور: هو أبو الفتوح ناصر بن أبي الحسن علي بن خلف الأنصاري المعروف بابن صورة، وكان سمساراً في الكتب بمصر، وله في ذلك حظ كبير، وكان يجلس في دهليز داره لذلك، ويجتمع عنده في يومي الأحد والأربعاء أعيان الرؤساء والفضلاء ويعرض عليهم الكتب التي تباع، ولا يزالون عنده إلى انقضاء وقت السوق، فلما مات السلفي سار إلى الإسكندرية لبيع كتبه، ومات في السادس عشر من شهر ربيع الآخر سنة سبع وستمائة بمصر ودفن بقرافتها، رحمه الله تعالى.

ولابن منقذ من قطعة يصف ضعفه:

فاعجب لضعف يدي عن حملها قلما ... من بعد حطم القنا في لبة الأسد

ونقلت من ديوانه أيضاً أبياتاً كتبها إلى أبيه مرشد جوابا عن ابيات كتبها أبوه إليه، وهي:

وما أشكو تلون أهل ودي ... ولو أجدت شكيتهم شكوت
مللت عتابهم ويئست منهم ... فما أرجوهم فيمن رجوت
إذا أدمت قوارصهم فؤادي ... كظمت على أذاهم وانطويت
ورحت عليهم طلق المحيا ... كأني ما سمعت ولا رأيت
تجنوا لي ذنوباً ما جنتها ... يداي ولا أمرت ولانهيت
ولا والله ما أضمرت غدراً ... كما قد أظهروه ولا نويت
ويوم الحشر موعدنا وتبدو ... صحيفة ماجنوه وما جنيت

وله بيتان في هذا الروي والوزن كتبهما في صدر كتاب إلى بعض أهل بيته في غاية الرقة والحسن، وهما:

شكا ألم الفراق الناس قبلي ... وروع بالنوى حي وميت
وأما مثل ما ضمت ضلوعي ... فإني ما سمعت ولا رأيت

والشيء بلشيء يذكر، أنشدني الأديب أبو الحسين يحيى بن عبد العظيم المعروف بالجزار المصري لنفسه في بعض أدباء مصر، وكان شيخاً كبيراً، وظهر عليه جرب فالتطخ بالكبريت، قال: فلما بلغني ذلك كتبت إليه:

أيها السيد الأديب دعاءً ... من محب خال من التنكيت
أنت شيخ وقد قربت من النا ... رفكيف ادهنت بالكبريت

ونقلت من خط الأمير أبي المظفر أسامة بن منقذ المذكور لنفسه، وقد قلع ضرسه، وقال: عملتهما ونحن بظاهر خلاط، وهو معنى غريب ويصلح أن يكون لغزاً في الضرس:

وصاحب لا أمل الدهر صحبته ... يشقى لنفعي ويسعى سعي مجتهد
لم ألقه مذ تصاحبنا فحين بدا ... لناظري افترقنا فرقة الأبد

قال العماد الكاتب: وكنت أتمنى أبداً لقياه وأشيم على البعد حياه حتى لقيته في صفر سنة إحدى وسبعين وسألته عن مولده، فقال: يوم الأحد السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثمان وثمانين وأربعمائة. قلت: بقلعة شيزر. وتوفي ليلة الثلاثاء الثالث والعشرين من شهر رمضان سنة اربع وثمانين

وخمسمائة بدمشق، رحمه الله تعالى؛ ودفن من الغد شرقي جبل قاسيون ودخلت تربته وهي على جانب نهر يزيد الشمالي، وقرأت عنده شيئا من القرآن وترحمت عليه.

وتوفي والده أبو أسامة مرشد سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة، رحمه الله تعالى.

وشيزر – بفتح الشين المثلثة وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها زاي مفتوحة ثم راء – قلعة بالقرب من حماة وهي معروفة بهم، وسيأتي ذكرها في حرف العين عند ذكر جده علي بن مقلد، إن شاء الله تعالى.

ابن راهويه

أبو يعقوب إسحاق بن أبي الحسن إبراهيم بن مخلد بن إبراهيم بن عبد الله ابن مطر بن عبيد الله بن غالب بن عبد الوارث بن عبيد الله بن عطية بن مرة بن كعب بن همام بن أسد بن مرة بن عمرو بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم ابن مرة الحنظلي المروزي المعروف بابن راهوية؛ جمع بين الحديث والفقه والورع، وكان احد أئمة الإسلام، ذكره الدارقطني فيمن روى عن الشافعي رضي الله عنه، وعدة البيهقي في أصحاب الشافعي، وكان قد ناظر الشافعي في مسألة جواز بيع دور مكة، وقد استوفى الشيخ فخر الدين الرازي صورة ذلك المجلس الذي جرى بينهما في كتابه الذي سماه مناقب الإمام الشافعي رضي الله عنه فلما عرف فضله نسخ كتبه وجمع مصنفاته بمصر.

قال أحمد بن حنبل رضي الله عنه: إسحاق عندنا إمام من ائمة المسلمين، وما عبر الجسر أفقه من إسحاق، وقال إسحاق: أحفظ سبعين ألف حديث، وأذاكر بمائة ألف حديث، وما سمعت شيئاً قط إلا حفظته، ولا حفظت شيئا قط فنسيته، وله مسند مشهور، وكان قد رحل إلى الحجاز والعراق واليمن والشام، وسمع من سفيان بن عيينة ومن في طبقته، وسمع منه البخاري ومسلم والترمذي.

وكانت ولادته سنة إحدى وستين، وقيل: سنة ثلاث وستين، وقيل: سنة ست وستين ومائة، وسكن في آخر عمره نيسابور، وتوفي بها ليلة الخميس النصف من شعبان – وقيل: الأحد، وقيل: السبت – سنة ثمان، وقيل: سنة ثلاثين ومائتين، وقيل: سنة ثلاثين ومائتين، رحمه الله تعالى.

وراهويه – بفتح الراء وبعد الألف هاء ساكنة ثم واو مفتوحة وبعدها ياء مثناة من تحتها ساكنة وبعدها هاء ساكنة – لقب أبيه أبي الحسن إبراهيم، وإنما لقب بذلك لآنه ولد في طريق مكة، والطريق بالفارسية"راه"و"ويه"معناه وجد، فكأنه وجد في الطريق، وقيل فيه أيضا"راهويه"بضم الهاء وسكون الواو وفتح الياء، وقال إسحاق المذكور: قال لي عبد الله بن طاهر أمير خراسان: لم قيل لك ابن راهويه؟ وما معنى هذا؟ وهل تكره أن يقال لك هذا؟ قلت: اعلم أيها الأمير أن أبي ولد في الطريق فقالت المراوزة راهويه لأنه ولد في الطريق، وكان أبي يكره هذا، وأما أنا فلست أكره ذلك.

ومخلد: بفتح الميم وسكون الخاء المعجمة وفتح اللام وبعدها دال مهملة.

والحنظلي – بفتح الحاء المهملة وسكون النون وفتح الظاء المعجمة وبعدها لام – هذه النسبة إلى حنظلة بن مالك، ينسب إليه بطن من تميم.

والمزوزي: قد تقدم القول فيه في المروروذي.

ابن مرار الشيباني

أبو عمرو إسحاق بن مرار الشيباني النحوي اللغوي؛ هو من رمادة الكوفة ونزل إلى بغداد، وهو من الموالي، وجاور شيبان للتأديب فيها فنسب إليها، وكان من الأئمة الأعلام في فنونه، وهي: اللغة والشعر، وكان كثير الحديث كثير السماع ثقةً، وهو عند الخاصة من أهل العلم والرواية مشهور معروف. والذي قصر به عند العامة من أهل العلم أنه كان مشتهر بشرب النبيذ.

وأخذ عنه جماعة كبار، منهم: الإمام أحمد بن حنبل وأبو عبيد القاسم بن سلام ويعقوب بن للسكيت صاحب إصلاح المنطق، وقال في حقه: عاش مائة وثماني عشرة سنة، وكان يكتب بيده إلى أن مات، وكان ربما استعارالكتاب مني وأنا إذ ذاك صبي آخذ عنه وأكتب من كتبه.

وقال ابن كامل: مات إسحاق بن مرار في اليوم الذي مات فيه أبو العتاهية وإبراهيم النديم الموصلي سنة ثلاث عشرة ومائتين ببغداد. وقال غيره: بل توفي سنة ست ومائتين، وعمره مائة وعشر سنين، وهو الأصح، رحمه الله تعالى.

وله من التصانيف كتاب الخيل، وكتاب اللغات وهو المعروف بالجيم ويعرف أيضا بكتاب الحروف، وكتاب النوادرالكبير ثلاث نسخ، وكتاب غريب الحديث، وكتاب النخلة، وكتاب الإبل وكتاب خلق الإنسان. وكان قد قرأ دواوين الشعراء على المفضل الضبي. وكان الغالب عليه النوادر وحفظ الغريب وأراجيز العرب. قال ولده عمرو: لما جمع أبي أشعارالعرب ودونها كانت نيفا وثمانين قبيلة، وكان كلما عمل منها قبيلة واخرجها إلى الناس كتب مصحفاً وجعله بمسجد الكوفة، حتى كتب نيفاً وثمانين مصحفاً بخطه.

ومرار – بكسر الميم وبعدها راءان بينهما ألف –. والشيباني: قد تقدم القول فيه.

وقيل: توفي يوم الشعانين سنة عشر، والله أعلم.

اسحاق الموصلي

أبو محمد إسحاق بن إبراهيم بن ماهان بن بهمن بن نسك التميمي بالولاء الأرجاني الأصل المعروف بابن النديم الموصلي، وقد سبق ذكر أبيه والكلام في نسبته ونسبه فأغنى عن الإعادة؛ كان من ندماء الخلفاء وله الظرف المشهور والخلاعة والغناء اللذان تفرد بهما. وكان من العلماء باللغة والأشعار وأخبار الشعراء وأيام الناس، وروى عنه مصعب بن عبد الله الزبيري والزبير ابن بكار وغيرهما. وكان له يد طولى في الحديث والفقه وعلم الكلام.

قال محمد بن عطية العطوي الشاعر: كنت في مجلس القاضي يحيى بن أكثم، فوافى إسحاق بن إبراهيم الموصلي، وأخذ يناظر أهل الكلام حتى انتصف منهم، ثم تكلم في الفقه، فأحسن وقاس واحتج، وتكلم في الشعر واللغة، ففاق من حضر، ثم أقبل على القاضي يحيى فقال له: أعز الله القاضي! أفي شيء مما ناظرت فيه وحكيته نقص أو مطعن؟ قال: لا، قال: فما بالي أقوم بسائر هذه العلوم قيام أهلها وانسب إلى فن واحد قد اقتصر الناس عليه؟ يعني الغناء. قال العطوي: فالتفت إلي القاضي يحيى وقال لي: الجواب في هذا عليك، وكان العطوي من أهل الجدل، فقال القاضي يحيى: نعم، أعز الله القاضي! الجواب علي. ثم أقبل على إسحاق فقال: يا أبا محمد، انت كالفراء والخفش في النحو؟ فقال: لا، فقال: فأنت في اللغة ومعرفة الشعر مالأصمعي وأبي عبيدة؟ قال: لا، قال: فأنت في علم الكلام كأبي الهذيل العلاف والنظام ابلخي؟ قال: لا، قال: فأنت في الفقه كالقاضي؟ واشار إلى القاضي يحيى، قال: لا، قال: فأنت في قول الشعر كأبي العتاهية وأبي نواس؟ قال: لا، قال فمن ههنا نسبت إلى مانسبت إليه لأنه لا نظير لك فيه، وأنت في غيره دون رؤساء أهله، فضحك وقام وانصرف. فقال القاضي يحيى العطوي: لقد وفيت الحجة حقها، وفيها ظلم قليل لإسحاق، وغنه ممن يقل في الزمان نظيره.

وذكر صاحبنا عماد الدين أبو المجد إسماعيل بن باطيش الموصلي في كتابه الذي سماه التمييز والفصل: أن إسحاق بن إبراهيم الموصلي كان مليح المحاورة والنادرة، ظريفاً فاضلاً، كتب الحديث عن سفيان بن عينية ومالك بن أنس وهشيم بن بشير وأبي معاوية الضرير، وأخذ الدب عن الأصمعي وأبي عبيدة، وبرع في علم الغناء فغلب عليه ونسب إليه.

وكان الخلفاء يكرمونه ويقربونه، وكان المأمون يقول: لولا ما سبق لإسحاق على ألسنة الناس واشتهر بالغناء لوليته القضاء، فإنه أولى وأعف وأصدق وأكثر ديناً وامانة من هؤلاء القضاة، ولكنه اشتهر بالغناء وغلب على جميع علومه، مع أنه أصغرها عنده، ولم يكن له فيه نظير.

وله نظم جيد ديوان شعر، فمن شعره ما كتبه إلى هارون الرشيد:

وآمرة بالبخل قلت لها اقصري فليس إلى ما تأمرين سبيل
أرى الناس خلان الجواد ولا أرى بخيلاً له في العالمين خليل
وإني رأيت البخل يزري بأهله فأكرمت نفسي أن يقال بخيل
ومن خير حالات الفتى لو علمته إذا نال شيئاً ان يكون ينيل
عطائي عطاء المكثرين تكرما وما لي كما قد تعلمين قليل

وكيف أخاف الفقر أو أحرم الغنى ورأي أمير المؤمنين جميل

وكان كثير الكتب، حتى قال أبو العباس ثعلب: رأيت لإسحاق الموصلي ألف جزء من لغات العرب، وكلها بسماعه. وما رأيت اللغة في مترل أحد قط أكثر منها في مترل إسحاق ثم مترل ابن الأعرابي.

ونقلت من حكاياته أنه قال: كان لنا جار يعرف بأبي حفص، وينبز باللوطي، فمرض جار له فعاده، فقال له: كيف تجدك؟ إنما تعرفني؟ فقال له المريض بصوت ضعيف: بلى، أنت ابو حفص اللوطي، فقال له: تجاوزت حد المعرفة، لارفع الله جنبك.

وكان المعتصم يقول: ماغناني إسحاق بن غبراهيم قط إلا خيل لي أنه قد زيد في ملكي.

وأخباره كثيرة، وكان قد عمي في أواخر عمره قبل موته بسنتين.

ومولده في سنة خمسين ومائة، وهي السنة التي ولد فيها امام الشافعي، رضي الله عنه، كما سيأتي في موضعه إن شاء الله تعالى.

وتوفي في شهر رمضان سنة خمس وثلاثين ومائتين بعلة الذرب، وقيل: في شوال سنة ست وثلاثين، والأول أشهر، وقيل: توفي يوم الخميس بعد الظهر لخمس خلون من ذي الحجة سنة ست وثلاثينن رحمه الله تعالى.

ورثاه بعض أصحابه بقوله:

أصبح اللهو تحت عفر التراب ثاوياً في محلة الحباب

إذا مضى الموصلي وانقرض الأن س ومجت مشاهد الأطراب

بكت الملهيات حزنا عليه وبكاه الهوى وصفو الشراب

وبكت آلة المجالس حتى رحم العود عبرة المضراب

وقيل: إن هذه المرثية في أبيه إبراهيم، والصحيح الأول.

اسحاق بن حنين

أبو يعقوب إسحاق بن حنين بن إسحاق العبادي، الطبيب المشهور؛ كان أوحد عصره في علم الطب، وكان يلحق بأبيه في النقل، وفي معرفته باللغات وفصاحته فيها. وكان يعرب كتب الحكة التي بلغة اليونانيين إلى اللغة العربية كما كان يفعل أبوه، إلا أن الذي يوجد من تعريبه في كتب الحكمة من كلام أرسطاطاليس وغيره أكثر مما يوجد من تعريبه لكتب الطب، وكان قد خدم من الخلفاء والرؤساء من خدمه أبوه، ثم انقطع إلى القاسم بن عبيد الله وزير الإمام المعتضد بالله، واختص به، حتى إن الوزير المذكور كان يطلعه على أسراره، ويفضي إليه بما يكتمه عن غيره.

وذكر ابن بطلان في كتاب دعوة الأطباء أن الوزير المذكور بلغه ان إسحاق المذكور استعمل دواء مسهلاً، فأحب مداعبته، فكتب إليه:

أبن لي كيف أمسيت وما كان من الحال

وكم سارت بك الناق ة نحو المنزل الخالي

فكتب إليه جوابه:

بخير بت مسروراً رخي البال والحال

فأما السير والناق ة والمرتبع الخالي

فإجلالك أنساني ه ياغاية آمالي

وكنت قد وقفت في كتاب الكنايات على مثل هذه القضية، فذكر أن الأول كتب البيتين الأولين وأن الثاني كتب الجواب:

كتبت إليك والنعلان ما إن — أقلهما من المشي العنيف

فإن رمت الجواب إلي فاكتب — على العنوان يوصل في الكنيف

وله ولأبيه المصنفات المفيدة في الطب – وسيأتي ذكر أبيه إن شاء الله تعالى – ولحقه الفالج في آخر عمره.

وكانت وفاته في شهر ربيع الآخر سنة ثمان وتسعين، وقيل: تسع وتسعين ومائتين.

والعبادي – بكسر العين المهملة وفتح الباء الموحدة وبعد اللف دال مهملة – هذه النسبة إلى عباد الحيرة، وهم عدة بطون من قبائل شتى نزلوا الحيرة وكانوا نصارى ينسب إليهم خلق كثير، منهم عدي بن زيد العبادي الشاعر المشهور وغيره، قال الثعلبي في تفسيره في سورة المؤمنين في قوله تعالى فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون أي مطيعون متذللون، والعرب تسمي كل من دان الملك عابدا له، ومن ذلك قيل لأهل الحيرة العباد، لأنهم كانو أهل طاعة لملوك العجم.

والحيرة – بكسر الحاء المهملة وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح الراء وبعدها هاء – وهي مدينة قديمة كانت لبني المنذر ومن تقدمهم من ملوك العرب مثل عمرو بن عدي اللخمي، وهو جد بني المنذر ومن بعده من أبنائه، وكانت من قبل عمرو لخاله الأبرش الأزدي صااحب الزباء، وخربت الحيرة، وبنيت الكوفة في الإسلام على ظهرها في سنة سبع عشرة للهجرة، بناها عمر ابن الخطاب – رضي الله عنه – على يد سعد بن ابي وقاص، رضي الله عنه.

الميهني

أبو الفتح أسعد بن ابي نصر ابن لبي الفضل الميهني، الفقيه الشافعي الملقب مجد الدين؛ كان إماماً مبرزاً في الفقه والخلاف، وله فيه تعليقة مشهورة، تفقه بمرو ثم رحل إلى غرنة واشتهر بتلك الديار وشاع فضله، وقد مدحه الغزي المقدم ذكره، ثم ورد إلى بغداد وفوض إليه تدريس المدرسة النظامية ببغداد مرتين فا لأولى في سنة سبع وخمسمائة، ثم عزل في ثامن عشر شعبان سنة ثلاث عشرة، والمرة الثانية في سنة سبع عشرة في شعبان، وخرج إلى العسكر في ذي القعدة من السننة، وتولى غيره مكانه، واشتغل عليه الناس وانتفعوا به وبطريقته الخلافية، وذكره الحافظ أبو سعد السمعاني في الذيل وقال: قدم علينا من جهة السلطان محمود السلجوقي رسولاً إلى مرو، ثم توجه رسولاً من بغداد إلى همذان فتوفي بها سنة سبع وعشرين وخمسمائة، رحمه الله تعالى، قال السمعاني في الذيل: سمعت أبا بكر محمد بن علي بن عمر الخطيب يقول: سمعت فقيهاً من أهل قزوين – وكان يخدم الإمام أسعد في آخر عمره بهمذان – قال: كنا في بيت وقت أن قرب أجله فقال لنا: اخرجوا من ههنا، فخرجنا، فوقفت على الباب وتسمعت فسمعته يلطم وجهه ويقول: يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله، وجعل يبكي ويلطم وجهه ويردد هذه الكلمة إلى أن مات، رحمه الله تعالى؛ ذكر لي هذا أو معناه فإني كتبته من حفظي.

والميهني – بكسر الميم وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح الهاء والنون – وهذه النسبة إلى ميهنة، وهي قرية من قرى خابران وهي ناحية بين سرخس وأبيورد من إقليم خراسان.

منتجب الدين العجلي

أبو الفتوح أسعد بن أبي الفضائل محمود بن خلف بن أحمد بن محمد العجلي الأصبهاني الملقب منتجب الدين الفقيه الشافعي الواعظ؛ كان من الفقهاء الفضلاء الموصوفين بالعلم والزهد مشهوراً بالعبادة والنسك والقناعة لايأكل إلا من كسب يده، وكان يورق ويبيع ما يتقوت به، وسمع ببلده الحديث على أم إبراهيم فاطمة بنت عبد الله الجوزدانية، والحافظ أبي القاسم إسماعيل بن محمد ابن الفضل وأبي الوفاء غانم بن أحمد بن الحسن الجلودي وأبي الفضل عبد الرحيم ابن أحمد بن محمد البغدادي وأبي المطهر القاسم بن الفضل بن عبد الواحد الصيدلاني وغيرهم، وقدم بغداد وسمع بها من ابي الفتح محمد بن عبد الباقي بن سلمان المعروف بابن البطي في سنة سبع وخمسين وخمسمائة وغيره. وله إجازة حدث بها من أبي القاسم زاهر بن طاهر الشحامي وأبي الفتح إسماعيل بن الفضل الإخشيد وأبي المبارك عبد العزيز بن محمد الزدي وغيرهم، وعاد إلى بلده وتبحر ومهر واشتهر، وصنف عدة

تصانيف، فمن ذلك شرح مشكلات الوجيز والوسيط للغزالي تكلم في المواضع المشكلة من الكتابين ونقل من الكتب المبسوطة عليهما، وله كتاب"تتمة التتمة"لأبي سعد المتولي وعليه كان الاعتماد في الفتوى بأصبهان. وكان مولده في أحد الربيعين سنة خمس أو أربع عشرة وخمسمائة بأصبهان. وتوفي بها في ليلة الخميس الثاني والعشرين من صفر سنة ستمائة، رحمه الله تعالى.

والعجلي – بكسر العين المهملة وسكون الجيم وبعدها لام – هذه النسبة إلى عجل بن لجيم، وهي قبيلة كبيرة مشهورة من بني ربيعة الفرس، ولجيم – بضم اللام وفتح الجيم وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها ميم – وهو عجل ابن لجيم بن صعب بن علي بن بكر بن وائل، قال أبو عبيدة: كان عجل بن لجيم يعد في الحمقى بين العرب، وكان له فرس جواد، فقيل له: إن لكل فرس جواد اسما فما اسم فرسك؟ فقال: لم أسمه بعد، فقيل له: فسمه، ففقأ إحدى عينيه وقال: قد سميته الأعور. وفيه قال بعض شعراء العرب:

رمتني بنو عجل بداء أبيهم ... وهل أحد في الناس أحمق من عجل

أليس أبوهم عارعين جواده ... فسارت به الأمثال في الناس بالجهل

يقال: عار العين – بالعين المهملة – إذا فقأها.

الأسعد ابن مماتي

القاضي الأسعد أبو المكارم أسعد بن الخطير أبي سعيد مهذب بن مينا بن زكريا بن أبي قدامة ابن أبي مليح مماتي المصري الكاتب الساعر؛ كان ناظر الدواوين بالديار المصرية، وفيه فضائل، وله مصنفات عديدة ونظم سيرة السلطان صلاح الدين رحمه الله تعالى، ونظم كتاب كليلة ودمنة، وله ديوان شعر رأيته بخط ولده ونقلت منه مقاطيع، فمن ذلك قوله:

تعاتبني وتنهى عن أمرٍ ... سبيل الناس أن ينهوك عنها

أتقدر أن تكون كمثل عيني ... وحقك ما علي أضر منها

وله في شخص ثقيل رآه بدمشق:

حكى نهرين ما في الأر ... ض من يحكيهما أبدا

حكى في خلقه ثورى ... وفي أخلاقه بردى

وقد أخذ ابن مماتي معنى بيته هذين من قول بعضهم:

ضاهى ابن بشران مدينة جلق ... فكلاهما يوم الفخار فريد

ألفاظه بردى، وصورة خلقه ... ثورى، ونقص العقل من يزيد

وله من جملة قصيدة طويلة:

لنيرانه في الليل أي تحرقٍ ... على الضيف إن أبطا وأي تلهب

وما ضر من يعشو إلى ضوء ناره ... إذا هو لم ينزل بآل المهلب

وله في غلام نحوي:

وأهيف أحدث لي نحوه ... تعجباً يعرب عن ظرفه

علامة التأنيث في لفظه ... وأحرف العلة في طرفه

ومن شعره ثلاثة أبيات مذكورة في ترجمة يحيى بن نزار المنبجي في حرف الياء، وفي شعره أشياء حسنة.
وذكره العماد الصبهاني في كتاب"الخريدة"وأورد له عدة مقاطيع، ثم أعقبه بذكر أبيه الخطير، وذكر كثيرا من شعره، فمن ذلك قوله في كتمان السر وبالغ فيه:

وأكتم السر حتى عن إعادته — إلى المسر بهمن غير نسيان
وذاك أن لساني ليس يعلمه — سمعي بسر الذي قد كان ناجاني

وقال: لقيته بالقاهرة متولي ديوان جيش الملك الناصر، وكان هو وجماعته نصارى فأسلموا في ابتداء الملك الصلاحي.

وللمهذب ابن الخيمي في الأسعد ابن مماتي المذكور يهجوه:

وحديث الإسلام واهي الحديث — باسم الثغر عن ضمير خبيث
لو رأى بعض شعره سيبويه — زاده في علامة للتانيث

وكان الحافظ أبو الخطاب ابن دحية المعروف بذي النسبين، رحمه الله تعالى، عند وصوله إلى مدينة إربل، ورأى اهتمام سلطانها الملك المعظم مظفر الين ابن زين الدين، رحمه الله تعالى، بعمل مولد النبي صلى الله عليه وسلم، حسبما هو مشروح في حرف الكاف من هذا الكتاب عند ذكر اسمه، صنف له كتابا سماه التوير في مدح السراج المنير، وفي آخر الكتاب قصيدة طويلة مدح بها مظفر الدين، أولها:

لولا الوشاة وهم — أعداؤنا ما وهموا

وقرأ الكتاب والقصيدة عليه، وسمعنا نحن الكتاب على مظفر الدين في شعبان سنة ست وعشرين وستمائة والقصيدة فيه، ثم بعد ذلك ريت هذه القصيدة بعينها في مجموعة منسوبة إلى الأسعد ابن مماتي المذكور، فقلت: لعل الناقل غلط، ثم بعد ذلك رأيتها في ديوان الأسعد بكمالها، مدح بها السلطان الملك الكامل، رحمه الله تعالى، فقوي الظن. ثم إني رأيت أبا البركات ابن المستوفي قد ذكر هذه القصيدة في تاريخ إربل عند ذكر ابن دحية، وقال: سألته عن معنى قوله فيها:

يفديه من عطا جما — دى كفه المحرم

فما أحار جوابا، فقلت: لعله مثل قول بعضهم:

تسمى بأسماء الشهور فكفه — جمادى وما ضمت عليه المحرم

قال: فتبسم وقال: هذا أردت، فلما وقفت على هذا ترجح عندي أن القصيدة للأسعد المذكور، فإنها لو كانت لأبي الخطاب لما توقف في الجواب، وأيضاً فإن إنشاد القصيدة لصاحب إربل كان في سنة ست وستمائة. والأسعد المذكور توفي في هذه السنة كما سيأتي، وهو مقيم بحلب لاتعلق له بالدولة العادلية، وبالجملة فالله أعلم لمن هي منهما.
وكان الأسعد المذكور قد خاف على نفسه من الوزير صفي الدين بن شكر، فهرب من مصر مستخفيا وقصد مدينة حلب لائذا بجناب السلطان الملك الظاهر، رحمه الله تعالى، وأقام بها حتى توفي في سلخ جمادى الأولى سنة ست وستمائة يوم الأحد، وعمره اثنتان وستون سنة، رحمه الله تعالى، ودفن في المقبرة المعروفة بالمقام على جانب الطريق بالقرب من مشهد الشيخ علي الهروي.
وتوفي أبوه الخطير في يوم الأربعاء سادس شهر رمضان من سنة سبع وسبعين وخمسمائة.
وميناء: بكسر الميم وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح النون وبعدها ألف.
ومماتي – بفتح الميمين والثانية منهما مشددة وبعد الألف تاء مثناة من فوقها وهي مكسورة وبعدها ياء مثناة من تحتها – وهو لقب أبي مليح المذكور وكان نصرانياً، وإنما قيل له مماتي لأنه وقع في مصر غلاء عظيم، وكان كثير الصدقة والإطعام، وخصوصاً لصغار المسلمين، فكانوا إذا رأوه ناداه كل

واحد منهم مماتي، فاشتهر به، هكذا اخبرني الشيخ الحافظ زكي الدين أبو محمد عبد العظيم المنذري، نفع الله به، ثم انشدني عقيب هذا القول مرثية فيه وقال: أظن هذين البيتين لأبي طاهر لان مكنسة المغربي، وهما:

طويت سماء المكرما ... ت وكورت شمس المديح

من ذا أؤمل أو أرجي ... بعد موت أبي المليح

ثم كشفت عنهما فوجدهما له، فيه مدائح أيضاً وكان أبو الطاهر ابن مكنسة خصيصاً بأبي مليح مماتي جد الأسعد المذكور؛ وكان في بستانه المعروف بظاهر مصر، مجاور جامع راشدة الحاكمي، منظرته المعروفة بالنزهة ولها البئر الموصوف ماؤها بشدة البرد والحلاوة في الصيف حتى إن صاحب قصر الحكمة كان ينفذ من يأخذ من مائها لشربه، وفيها يقول ابن مكنسة من جملة قصيدة يمدحه بها ويصف المنظرة:

ومن عجائبها البئر التي انفردت ... بالقر في الحر والأمواه تضطرم

كأنما ماؤها في كل هاجرة ... ريق الحبيب عقيب الهجر وهي فم

البهاء السنجاري

أبو السعادات أسعد بن يحيى بن موسى بن منصور بن عبد العزيز بن وهب ابن هبان بن سوار بن عبد الله بن رفيع بن ربيعة بن هبان السلمي السنجاري الفقيه الشافعي الشعار المنعوت بالبهاء؛ كان فقيهاً، وتكلم في الخلاف، إلا أنه غلب عليه الشعر وأجاد فيه واشتهر به وخدم به الملوك وأخذ جوائزهم، وطاف البلاد ومدح الكابر، وشعره كثير في أيدي الناس، يتجد قصائد ومقاطيع، و لم أقف له على ديوان و لم أدر هل دون شعره أم لا، ثم وجدت له في خزانة كتب التربة الأشرفية بدمشق ديواناً في مجلد كبير.

ومن شعره من جملة قصيدة مدح بها القاضي كمال الدين ابن الشهرزوري:

وهواك ما خطر السلو بباله ... ولأنت أعلم في الغرام بحاله

ومتى وشى واش إليك بأنه ... سالٍ هواك فذاك من عذاله

أوليس للكلف المعنى شاه ... من حاله يغنيك عن تسآله

جددت ثوب سقامه، وهتكت ستر غرامه، وصرمت حبل وصاله

أفزلة سبقت له أم خلة ... مألوفة من تيهه ولدلاله

ياللعجائب من أسير دأبه ... يفدي الطليق بنفسه وبماله

بأبي وأمي نابل بلحاظه ... لا تتقي بالدرع حد نباله

ريان من ماء الشبيبة والصبا ... شرقت معاطفه بطيب زلاله

تسري النواظر في مراكب حسنه ... فتكاد تغرق في بحار جماله

فكفاه عين كماله في نفسه ... وكفى كمال الدين عين كماله

كتب العذار على صحيفة خده ... نوناً وأعجمها بنقطة خاله

فسواد طرته كليل صدوده ... وبياض غرته كيوم وصاله

ولولا خوف الإطالة لذكرتها جميعها. وهذا القدر هو المشهور له، وقد أضافوا إليها بيتين، ولا أتحققهما فتركتهما.

وله أيضاً من جملة قصيدة:

ومهفهف حلو الشمائل فاتر ... الألحاظ فيه طاعة وعقوق

وقف الرحيق على مراشف ثغره ... فجرى به من خده راووق

سدت محاسنه على عشاقه ... سبل السلو فما إليه طريق

وله من قصيدة أخرى:

هبت نسيمات الصبا سحرةً ... ففاح منها العنبر الأشهب

فقلت إذ مرت بوادي الغضا ... من أين هذا النفس الطيب

وكان قد جاءنا ونحن في بلادنا في سنة ثلاث وعشرين وستمائة الشيخ جمال الدين أبو المظفر عبد الرحمن بن محمد المعروف بابن السنينيرة الواسطي، وكان من أعيان شعراء عصره، ونزل عندنا بالمدرسة المظفرية، وكان قد طاف البلاد ومدح الملوك وأجازوه الجوائز السنية، وإذا قعد حضر عنده كل من له عناية بالأدب، وتجري بينهم محاضرات ومذكرات لطيفة، وكان قد طعن في السن، فقال يوماً: رافقني البهاء السنجاري في بعض الأسفار من سنجار إلى رأس عين، أو قال: من رأس عين إلى سنجار، فترلنا في الطريق في مكان وكان له غلام اسمه إبراهيم، وكان يأنس به، فأبعد عنا الغلام فقام يطلبه فناداه: يا إبراهيم ياإبراهيم مراراً فلم يسمع نداءه لبعده عنا، وكان ذلك الموضه له صدى، فكلما قال: ياإبراهيم أجابه الصدى: ياإبراهيم، فقعد ساعة ثم أنشدني:

بنفسي حبيب جار وهو مجاور ... بعيد عن الأبصار وهو قريب

يجيب صدى الوادي إذا ما دعوته ... على أنه صخر وليس يجيب

وكان للبهاء السنجاري صاحب، وبينهما مودة أكيدة واجتماع كثير، ثم جرى بينهما في بعض الأيام عتاب وانقطع ذلك الصاحب عنه، فسير إليه يعتبه لانقطاعه، فكتب إليه بيتي الحريري اللذين ذكرهما في المقامة الخامسة عشرة وهما:

لاتزر من تحب في كل شهر ... غير يوم ولا تزده عليه

فاجتلاء الهلال في الشهر يوم ... ثم لا تنظر العيون إليه

فكتب إليه البهاء من نظمه:

إذا حققت من خلٍ وداداً ... فزره ولا تخف منه ملالاً

وكن كالشمس تطلع كل يومٍ ... ولا تك في زيارته هلالاً

وله، وهما من شعره السائر:

لله أيامي على رامة ... وطيب أوقاتي على حاجر

تكاد للسرعة في مرها ... أولها يعثر بالآخر

وله من قصيدة في وصف الخمر، وهو معنى مليح:

كادت تطير وقد طرنا بها طرباً ... لولا الشباك التي صيغت من الحبب

وذكره عماد الدين الأصبهاني الكاتب في كتاب السيل والذيل وقال:

ومن العجائب أنني	في لج بحر الجود راكب
وأموت من ظمأٍ ول	كن عادة البحر العجائب

وله أشياء حسنة.

وكانت ولادته سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة، وتوفي في أوائل سنة اثنتين وعشرين وستمائة بسنجار، رحمه الله تعالى.

المزني صاحب الشافعي

أبو إبراهيم إسماعيل بن يحيى بن إسماعيل بن عمرو بن إسحاق المزني صاحب الإمام الشافعي رضي الله عنه؛ هو من أهل مصر، وكان زاهداً عالماً مجتهداً محجاجاً غواصا على المعاني الدقيقة، وهو غمام الشافعيين واعرفهم بطرقه وفتاويه وما ينقله عنه، صنف كتباً كثيرة في مذهب الإمام الشافعي، منها الجامع الصغير ومختصر المختصر والمنثور والمسائل المعتبرة والترغيب في العلم وكتاب الوثائق وغير ذلك، وقال الشافعي رضي الله عنه في حقه: المزني ناصر مذهبي. وكان إذا فرغ من مسألة وأودعها مختصره قام إلى المحراب وصلى ركعتين شكرا لله تعالى. وقال أبو العباس أحمد بن سريج: يخرج مختصر المزني من الدنيا عذراء لم تفض، وهو أصل الكتب المصنفة في مذهب الشافعي رضي الله عنه، وعلى مثاله رتبوا ولكلامه فسروا وشرحوا.

ولما ولي القاضي بكار بن قتيبة الآتي ذكره إن شاء الله تعالى القضاء بمصروجاءها من بغداد، وكان حنفي المذهب، توقع الاجتماع بالمزني مدة، فلم يتفق له، فاجتمعا يوماً في صلاة جنازة فاقل القاضي بكار لأحد أصحابه: سل المزني شيئاً حتى أسمع كلامه، فقال له ذلك الشخص: يا أبا إبراهيم،، قد جاء في الأحاديث تحريم النبيذ وجاء تحليله أيضاً، فلم قد متم التحريم على التحليل؟ فقال المزني: لم يذهب أحد من العلماء إلى ان النبيذ كان حراما في الجاهلية ثم حلل، ووقع الاتفاق على انه كان حلالاً، فهذا يعضد صحة الأحاديث بالتحريم، فاستحسن ذلك منه، وهذا من الدلة القاطعة. وكان في غاية الورع، وبلغ من احتياطه أنه كان يشرب في جميع فصول السنة من كوز نحاس، فقيل له في ذلك، فقال: بلغني أنهم يستعملون السرجين في الكيزان، والنار لا تطهرها.

وقيل إنه كان إذا فاتته الصلاة في جماعة صلى منفرداً خمساً وعشرين صلاة استراكا لفضيلة الجماعة، مستنداً في ذلك إلى قوله صلى الله عليه وسلم صلاة الجماعة أفضل من صلاة أحدكم وحده بخمس وعشرين درجة.

وكان من الزهد على طريقة صعبة شديدة، وكان مجاب الدعوة، و لم يكن أحد من أصحاب الشافعي يحدث نفسه في شيء من الأشياء بالتقديم عليه، وهوالذي تولى غسل الإمام الشافعي، وقيل: كان معه أيضاً حينئذ الربيع.

وذكره ابن يونس في اريخه وسماه، وجعل مكان اسم جده إسحاق مسلماً، ثم قال: صاحب الشافعي، وذكر وفاته كما تقدم، وقال: كانت له عبادة وفضل، ثقة في الحديث، لايختلف فيه حاذق من أهل الفقه، وكان أحد الزهاد في الدنيا وكان من خير خلق الله عز وجل، ومناقبه كثيرة.

وتوفي لست بقين من شهر رمضان سنة أربع وستين ومائتين بمصر، ودفن بالقرب من تربة الإمام الشافعي، رضي الله عنه، بالقرافة الصغرى بسفح المقطم، رحمه الله تعالى، وزرت قبره هناك.

وذكر ابن زولاق في تاريخه الصغير أنه عاش تسعاً وثمانين سنة، وصلى عليه الربيع بن سليمان المؤذن المرادي.

والمزني – بضم الميم وفتح الزاي وبعدها نون – هذه النسبة إلى مزينة بنت كلب، وهي قبيلة كبيرة مشهورة.

أبو العتاهية

أبو إسحاق إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان العتري بالولاء، العيني المعروف بأبي العتاهية الشاعر المشهور؛ مولده بعين التمر، وهي بليدة بالحجاز قرب المدينة، وقيل: إنها من أعمال سقي الفرات، وقال ياقوت الحموي في كتابه المشترك إنها قرب الأنبار، والله أعلم.

ونشأ بالكوفة وسكن بغداد، وكان يبيع الجرار فقيل له: الجرار، واشتهر بمحبة عتبة جارية الإمام المهدي، وأكثر نسيبه فيها فمن ذلك قوله:

أعلمت عتبة أنني	منها على شرفٍ مطل

وشكوت ما ألقى إلي ... ها والمدامع تستهل
حتى إذا برمت بما ... أشكو كما يشكو الأقل
قالت :فأي الناس يع ... لم ماتقول؟ فقلت: كل

وكتب مرة إلى المهدي وعرض بطلبها منه:

نفسي بشيء من الدنيا معلقة ... الله والقائم المهدي يكفيها
إني لأيأس منها ثم يطمعني ... فيها احتقارك للدنيا وما فيها

وقال أبو العباس المبرد في كتاب الكامل: إن أبا العتاهية كان قد استأذن في أن يطلق له أن يهدي إلى أمير المؤمنين في النيروز والمهرجان، فأهدى له في أحدهما برنية ضخمة فيها ثوب ناعم مطيب قد كتب على حواشيه هذين البيتين المقدم ذكرهما، فهم بدفع عتبة إليه، فجزعت، وقالت: يا أمير المؤمنين، حرمتي وخدمتي، أتدفعني إلى رجل قبيح المنظر بائع جرار ومتكسب بالسعر؟ فأعفاها وقال: املأوا له البرنية مالاً، فقال للكتاب: أمر لي بدنانير، وقالوا: ما ندفع إليك ذاك، ولكن إن شئت أعطيناك دراهم إلى أن يفصح بما أراد، فاختلف في ذلك حولاً، فقالت عتبة: لو كان عاشقاً كما يزعم لم يكن يختلف منذ حول في التمييز بين الدراهيم والدنانير، وقد أعض عن ذكري صفحا.

ومن مديحه:

إني أمنت من الزمان وصرفه ... لما علقت من المير حبالا
لويستطيع الناس من إجلاله ... تخذوا له حر الخدود نعالا
إن المطايا تسشتكيك لأنها ... قطعت إليك سباباً ورمالا
فإذا وردن بنا وردن خفائفاً ... وغذا صدرن بنا صدرن ثقالا

وهذه الأبيات قالها في عمر بن العلاء، فأعطاه سبعين ألفا، وخلع عليه حتى لا يقدر أن يوم، فغار الشعراء من ذلك، فجمعهم ثم قال: يامعشر الشعراء عجباً لكم! ما أشد حسدكم بعضكم بعضاً! أحدكم يأتينا ليمدحنا بقصيدة يشبب فيها بصديقته بخمسين بيتا، فما يبلغنا حتى تذهب لذاذة مدحه ورونق شعره، وقد أتانا أبو العتاهية فشب بابيات يسيرة، ثم قال، وانشد الأبيات المذكورة: فما لكم منه تغارون؟ وكان أبو العتاهية لما مدحه بهذه الأبيات تأخر عنه بره قليلاً فكتب إليه بستبطئه:

أصابت علينا جودك العين ياعمر ... فنحن لها نبغي التمائم والنشر
سنرقبك بالأشعار حتى تملها ... وإن لم تفق منها رقيناك بالسور

قال أشجع السلمي الشاعر المشهور: أذن الخليفة المهدي للناس في الدخول عليه فدخلنا، فأمرنا بالجلوس، فاتفق أن جلس بجنبي بشار بن برد وسكت المهدي فسكت الناس، فسمع بشار حساً فقال لي: من هذا؟ فقلت: أبو العتاهية، فقال: أتراه ينشد في هذا المحفل؟ فقلت: أحسبه سيفعل، فقال: فأمره المهدي أن ينشد، فأنشد:

ألا ما لسيدتي مالها ... أدلت فأحمل إدلالها

قال: فنخسني بشار بمرفقه وقال: ويحك! أرأيت أجسر من هذا؟ ينشد مثل هذا الشعر في مثل هذا الموضع، حتى بلغ إلى قوله:

أتته الخلافة منقادةً ... إليه تجرر أذيالها
فلم تك تصلح إلا له ... ولم يك يصلح إلا لها

ولو رامها أحد غيره لزلزلت الأرض زلزالها

ولو لم تطعه بنات القلوب لما قبل الله اعمالها

فقال لي بشار: انظر ويحك يا أشجع، هل طار الخليفة عن عرشه؟ قال أشجع: فوالله ما انصرف أحد عن هذا المجلس بجائزة غير أبي العتاهية.

وله في الزهد أشعار كثيرة، وهو من مقدمي المولدين في طبقة بشار وأبي نواس وتلك الطائفة، وشعره كثير.

وكانت ولادته في سنة ثلاثين ومائة، وتوفي يوم الاثنين لثمان أو ثلاث خلون من جمادى الآخرة سنة إحدى عشرة، وقيل: ثلاث عشرة ومائتين ببغداد، وقبره على نهر عيسى قبالة قنطرة الزياتين، رحمه الله تعالى.

ولما حضرته الوفاة قال: أشتهي أن يجيء مخارق المغني ويغني عند رأسي، والبيتان له من جملة أبيات:

إذا ما انقضت عني من الدهر مدتي فإن عزاء الباكيات قليل

سيعرض عن ذكري وتنسى مودتي ويحدث بعدي للخليل خليل

وأوصى أن يكتب على قبه هذا ابيت :

إن عيشاً يكون آخره المو ت لعيش معجل التنغيص

ويحكى أنه لقي يوماً أبا نواس فقال له: كم تعمل في يومك من الشعر؟ فقال له: البيت والبيتين، فقال أبوالعتاهية: لكنني أعمل المائة والمائتين في اليوم، فقال أبو نواس لأنك تعمل مثل قولك:

ياعتب مالي ولك ياليتني لم أرك

ولو أردت مثل هذا الألف والألفين لقدرت عليه، وأنا أعمل مثل قولي:

من كف ذات حر في زي ذي ذكر لها محبان: لوطي، وزناء

ولو أردت مثل هذا لأعجزك الدهر.

ومن لطيف شعره قوله:

ولقد صبوت إليك حتى صار من فرط التصابي

يجد الجليس إذا دنا ريح التصابي في ثيابي

وحكاياته كثيرة.

ومن شعره في عتبة جارية المهدي:

يا إخوتي إن الهوى قاتلي فيسروا الأكفان من عاجل

ولا تلوموا في اتباع الهوى فإنني في شغل شاغل

ويقول فيها:

عيني على عتبة منهلة بدمعها المنكب السائل

يا من رأى قبلي قتيلاً بكى من شدة الوجد على القاتل

بسطت كفي نحوكم سائلاً ماذا تردون على السائل

إن لم تنيلوه، فقولوا له قولاً جميلاً بدل النائل
أو كنتم العام على عسرة منه فمنوه إلى القابل

وحكى صاعد اللغوي في كتاب الفصوص: أن أبا العتاهية زار يوماً بشار بن برد، فقال له أبو العتاهية: إني لأستحسن قولك اعتذاراً من البكاء، إذ تقول:

كم من صديق لي أسا رقه البكاء من الحياء
وإذا تفطن لامني فأقول ما بي من بكاء
لكن ذهبت لأرتدي فطرفت عيني بالرداء

فقال له: أيها الشيخ، ما غرفته إلا من بحرك، ولا نحته إلا من قدحك، وأنت السابق حيث تقول:

وقالوا قد بكيت فقلت كلا وهل يبكي من الجزع الجليد
ولكن قد أصاب سواد عيني عويد قذى له طرف حديد
فقالوا ما لد معهما سواء أكلتا ملتيك أصاب عود

قال صاعد: وتقدمهما إلى هذا المعنى الحطيئة حيث يقول:

إذا ما العين فاض الدمع منها أقول بها قذى وهو البكاء

وكان أبو العتاهية ترك قول الشعر، فحكى قال: لما امتنعت من قوله أمر المهدي بحبسي في سجن الجرائم، فلما دخلته دهشت ورأيت منظراً هالني، فطلبت موضعاً آوي فيه، فإذا أنا بكهل حسن البزة والوجه عليه سيما الخير فقصدته، وجلست من غير سلام عليه لما أنا فيه من الجزع والحيرة والفكر، فمكثت كذلك ملياً، وإذا الرجل ينشد:

تعودت مس الضر حتى ألفته وأسلمني حسن العزاء إلى الصبر
وصيرني يأسي من الناس واثقاً بحسن صنيع الله من حيث لاأدري

قال: فاستحسنت البيتين وتبركت بهما، وثاب إلي عقلي، فقلت له: تفضل – أعزك الله – علي بإعادتهما، فقال: يا إسماعيل، ويحك ما أسوأ أدبك وأقل عقلك ومروءتك، دخلت فلم تسلم علي تسليم المسلم على المسلم، ولا سألتني مسألة الوارد على المقيم، حتى سمعت مني بيتين من الشعر الذي لم يجعل الله تعالى فيك خيراً ولا أدباً ولا معاشاً غيره، طفقت تستنشدني مبتدئاً كأن بيننا أنساً وسالف مودة توجب بسط القبض، ولم تذكر ما كان منك، ولا اعتذرت عما بدا من إساءة أدبك، فقلت: اعذرني متفضلاً، فدون ما أنا فيه يدهش، قال: وفيم أنت؟ تركت الشعر الذي هو جاهك عندهم وسببك إليهم، ولا بد أن تقوله فتطلق، وأنا يدعى الساعة بي، فأطلب بعيسى بن زيد ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن دللت عليه لقيت الله تعالى بدمه، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم خصمي فيه، وإلا قتلت، فأنا أولى بالحيرة منك، وها أنت ترى صبري واحتسابي، فقلت: يكفيك الله عز وجل وخجلت منه، فقال: لا أجمع عليك التوبيخ والمنع، اسمع البيتين، ثم أعادهما علي مراراً حتى حفظتهما، ثم دعي به وبي. فقلت له: من أنت أعزك الله عز وجل؟ قال: أنا حاضر صاحب عيسى بن زيد، فأدخلنا على المهدي، فلما وقفنا بين يديه قال الرجل: أين عيسى بن زيد؟ قال: وما يدريني أين عيسى ابن زيد؟ تطلبته فهرب منك في البلاد وحبستني، فمن أين أقف على خبره؟ قال له: متى كان متوارياً؟ وأين آخر عهدك به؟ وعند من لقيته؟ قال: ما لقيته منذ توارى، ولا عرفت له خبراً! قال: والله لتدلن عليه، او لأضربن عنقك الساعة، فقال: اصنع ما بدا لك، فوالله ما ادلك على ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم، والقى الله تعالى ورسوله عليه السلام بدمه، ولو كان بين ثوبي وجلدي ما كشفت لك عنه، قال: اضربوا عنقه، فأمر

به فضربت عنقه، ثم دعا بي فقال: أتقول الشعر، أو أحقك به؟ قلت: بل أقول، قال: أطلقوه، فأطلقت.

وقد روى القاضي أبو علي التنوخي في البيتين المذكورين زيادة بيت ثالث، وهو:

إذا أنا لم أقنع من الدهر بالذي تكرهت من طال عتبي على الدهر

وحكايات ابي العتاهية كثيرة.

والعتري – بفتح العين المهملة والنون وبعدها زاي – هذه النسبة إلى عترة ابن أسد بن ربيعة والعيني – بفتح العين المهملة وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها نون – هذه النسبة إلى عين التمر البلدة المذكورة في الأول.

أبو علي القالي

أبو علي إسماعيل بن القاسم بن عيذون بن هارون بن عيسى بن محمد بي سلمان القالي اللغوي، جده سلمان مولى عبد الملك بن مروان الأموي؛ كان أحفظ أهل زمانه للغة والشعر ونحو البصريين. أخذ الأدب عن أبي بكر ابن دريد الأزدي وأبي الأنباري ونفطويه وابن درستويه وغيرهم. وأخذ عنه أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي الأندلسي صاحب مختصر العين، وله التواليف الملا؛، منها: كتاب الأمالي وكتاب البارع في اللغة، بناه على حروف المعجم، وهو يشتمل على خمسة آلاف ورقة، وكتاب المقصور والمدود وكتاب في الإبل ونتاجها وكتاب في حلي الإنسان والخيل وشياتها وكتاب فعلت وأفعلت وكتاب مقاتل الفرسان وكتاب شرح فيه القصائد المعلقات، وغير ذلك، وطاف البلاد، وسافر إلى بغداد في سنة ثلاث وثلثمائة، وأقام بالموصل لسماع الحديث من أبي يعلى الموصلي. ودخل بغدادفي سنة خمس وثلثمائة، وأقام بها إلى سنة ثمان وعشرين وثلثمائة، وكتب بها الحديث، ثم خرج من بغداد قاصداً الأندلس.

ودخل قرطبة لثلاث بقين من شعبان سنة ثلاثين وثلثمائة واستوطنها، وأملى كتابه الأمالي بها، وأكثر كتبه بها وضعها بها، ولم يزل بها، ومدحه يوسف بن هارون الرمادي المذكورفي حرف الياء من هذا الكتاب بقصيدة بديعة ذكرت بعضها هناك فليطلب منه.

وتوفي القالي بقرطبة في شهر ربيع الآخر، وقيل: جمادى الأولى، سنة ست وخمسين وثلثمائة ليلة السبت لست خلون من الشهر المذكور، وصلى عليه أبو عبد الله الجبيري. ودفن بمقبرة متعة ظاهر قرطبة، رحمه الله تعالى، ومولده في سنة ثمان وثمانين ومائتين في جمادى الآخرة بمنازجرد من ديار بكر، وقد تقدم الكلام عليها في ترجمة أحمد بن يوسف المنازي. وإنما قيل له القالي لأنه سافر إلى بغدادمع أهل قالي قلا فبقي عليه الاسم.

وعيذون: بفتح العين المهملة وسكون الياء المثناة من تحتها وضم الذال المعجمة وبعد الواو نون.

والقالي – نسبة إلى قالي قلا – بفتح القاف وبعد الألف لام مكسورة ثم ياء مثناة من تحتها ثم قاف بعدها لام ألف – وهي من أعمال ديار بكر، كذا قاله السمعاني، ورأيت في تاريخ السلجوقية تأليف عماد الدين الكاتب الأصبهاني: أن قالي قلا هي أرزن الروم، والله أعلم.

وذكر البلاذري في كتاب البلدان وجميع فتوح الإسلام في فتوح أرمينية ما مثاله: وقد كانت امور الروم تشعبت في بعض الأزمنة، فكانوا كملوك الطوائف، فملك أرمينياقس رجل منهم، ثم مات فملكتها بعده امرأته وكانت تسمى قالي، فبنت مدينة قالي قلا، وسمتها قالي قاله، ومعنى ذلك إحسان قالي، وصورت على باب من أبوابها، فعربت العرب قالي قاله، فقالوا: قالي قلا.

الصاحب ابن عباد

الصاحب أبو القاسم إسماعيل بن أبي الحسن عباد بن العباس بن عباد بن احمد ابن إدريس الطالقاني؛ كان نادرة الدهر وأعجوبة العصر في فضائله ومكارمه وكرمهأ وأخذ الأدب عن أبي الحسين أحمد بن فارس اللغوي صاحب كتاب"الجمل"في اللغة، وأخذ عن ابي الفضل ابن العميد، وغيرهما.

وقال أبو منصور الثعالبي في كتابه اليتيمة في حقه: ليست تحضرني عبارة أرضاها للإفصاح عن علو محله في العلم والأدب، وجلالة شأنه في الجود والكرم، وفرده بالغيات في المحاسن، وجمعه أشتات المفاخر، لأن همة قولي تنخفض عن بلوغ أدنى فضائله ومعاليه، وجهد وصفي يقصر عن أيسر فواضله ومساعيه.

ثم شرع في شرح بعض محاسنه وطرف من أحواله.
وقال أبو بكر الخوارزمي في حقه: الصاحب نشأ من الوزراة في حجرها، ودب ودرج من وكرها، ورضع أفاويق درها، وورثها عن آبائه كما قال أبو سعيد الرستمي في حقه:

ورث الوزارة كابراً عن كابرٍ … موصلة الإسناد بالإسناد
يروي عن العباس عباد وزا … رته وإسماعيل عن عباد

وهو أول من لقب بالصاحب من الوزراء لأنه كان يصحب أبا الفضل ابن العميد، فقيل له: صاحب ابن العميد، ثم أطلق عليه هذا اللقب لما تولى الوزارة وبقي علماً عليه. وذكر الصابىء في كتاب التاجي أنه إنما قيل له الصاحب لأنه صحب مؤيد الدولة بن بويه منذ الصبا وسماه الصاحب، فاستمر عليه هذا اللقب واشتهر به، ثم سمي به كل من ولي الوزارة بعده.
وكان أولاً وزير مؤيد الدولة أبي منصور بويه بن ركن الدولة بن بويه الديلمي تولى وزارته بعد أبي الفتح علي بن أبي الفضل ابن العميد المذكور في ترجمة أبيه محمد، فلما توفي مؤيد الدولة في شعبان سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة بجرجان استولى على مملكته أخوه فخر الدولة أبو الحسن علي، فأقر الصاحب على وزارته، وكان مبجلاً عنده ومعظماً نافذ المر. وأنشده أبو القاسم الزعفراني يوما أبياتا نونية من جملتها:

أيا من عطاياه تهدي الغنى … إلى راحتي من نأى أو دنا
كسوت المقيمين والزائرين … كسا لم نخل مثلها ممكنا
وحاشية الدار يمشون في … صنوف من الخز إلا أنا

فقال الصاحب: قرأت في أخبار معن بن زائدة الشيباني أن رجلاً قال له: احملني أيها الأمير، فأمر له بناقة وفرس وبغل وحمار وجارية، ثم قال: لوعلمت أن الله سبحانه وتعالى خلق مركوبا غير هذا لحملتك عليه، وقد أمرنا لك من الخزبجية وقميص وعمامة ودراعة وسراويل ومنديل ومطرف ورداء وكساء وجورب وكيس، ولو علمنا لباسا آخر يتخذ من الخز لأعطيناكه.
واجتمع عنده من الشعراء ما لم يجتمع عند غيره، ومدحوه بغرر المدائح. وكان حسن الجوبة سريعها، رفع الضرابون من دار الضرب إليه رقعة في مظلمة مترجمة بالضرابين، فوقع تحتها في حديد بارد. وكتب بعضهم إليه ورقة أغار فيها على رسائله وسرق جملة من ألفاظه فوقع فيها هذه بضاعتنا ردت إلينا. وحبس بعض عماله في مكان ضيق بجواره، ثم صعد السطح يوماً فاطلع عليه فرآه فناداه المحبوس بأعلى صوته فاطلع فرآه في سواء الجحيم فقال الصاحب اخسأوا فيها ولا تكلمون ونوادره كثيرة.

وصنف في اللغة كتاباً سماه المحيط وهو في سبع مجلدات، رتبه على حروف المعجم، كثر فيه الألفاظ وقلل الشواهد فاشتمل من اللغة على جزء متوفر، وكتاب الكافي في الرسائل وكتاب الأعياد وفضائل النيروز وكتاب الإمامة يذكر فيه فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه ويثبت إمامة من تقدمه، وكتاب الوزراء وكتاب الكشف عن مساوئ شعر المتنبي وكتاب أسماء الله تعالى وصفاته وله رسائل بديعة ونظم جيد، فمنه قوله:

وشادن جماله … تقصر عنه صفتي
أهوى لتقبيل يدي … فقلت قبل شفتي

وله في رقة الخمر:

رق الزجاج ورقت الخمر … وتشابها فتشاكل المر
فكأنما خمر ولا قدح … وكأنما قدح ولا خمر

وله يرثي كثير بن أحمد الوزير وكنيته أبو علي:

يقولون لي أودى كثير بن أحمدٍ وذلك مرزوء علي جليل

فقلت دعوني والعلا تبكه معا فمثل كثير في الرجال قليل

وحكى أبو الحسين محمد بن الحسين الفارسي النحوي أن نوح بن منصور أحد ملوك بني سامان كتب إليه ورقة في السر يستدعيه ليفوض إليه وزارته وتدبير أمر مملكته، فكان من جملة أعذاره إليه أنه يحتاج لنقل كتبه خاصة إلى أربعمائة جمل، فما الظن بما يليق بها من التجمل.

وفي هذت القدر من اخباره كفاية.

وكان مولده لأربع عشرة ليلة بقيت من ذي القعدة سن ست وعشرين وثلثمائة بإصطخر، وقيل: بالطالقان، وتوفي ليلة الجمعة الرابع والعشرين من صفر سنة خمس وثمانين وثلثمائة بالري، ثم نقل إلى أصبهان، رحمه االه تعالى، ودفن في قبة بمحلة تعرف بباب دزيه، وهي عامرة إلى الآن، وأولاد بنته يتعاهدونها بالتبيض.

قال أبو القاسم بن أبي العلاء الشاعر الأصبهاني: رأيت في المنام قائلا يقول لي: لم لم ترث الصاحب مع فضلك وشعرك؟ فقلت: ألجمتني كثرة محاسنه فلم أدر بم أبدأ منها، وقد خفت أن أقصر وقد ظن بي الاستيفاء لها، فقال: أجز ما أقوله، فقلت: قل، فقال: ثوى الجود والكافي معاً في حفيرة فقلت: ليأنس كل منهما بأخيه فقال: هما اصطحبا حيين ثم تعانقا فقلت: ضجيعين في لحدٍ بباب دزيه فقال: إذا ارتحل الثاوون عن مستقرهم فقلت: أقاما إلى يوم القايامة فيه ذكر هذا البياسي فيحماسته.

ورأيت في أخباره أنه لم يسعد أحد بعد وفاته كما كان في حياته غير الصاحب فإنه لما توفي أغلقت له مدينة الري واجتمع الناس على باب قصره ينتظرون خروج جنازته، وحضر مخدومه فخر الدولة المذكور أولا وسائر القواد وقد غيروا لباسهم، فلما خرج نعشه من الباب صاح الناس بأجمعهم صيحة واحدة وقبلوا الأرض، ومشى فخر الدولة أمام الجنازة مع الناس وقعد للعزاء أياماً.

ورثاه أبو سعيد الرستمي بقوله:

أبعد ابن عباد يهش إلى السرى أخو أمل أو يستماح جواد

أبى الله إلا يموتا بموته فما لهما حتى المعاد معاد

وتوفي والده أبو الحسن عباد بن العباس في سنة أربع – أو خمس – وثلاثين وثلثمائة، رحمه الله تعالى؛ وكان وزير ركن الدولة بن بويه، وهو والد فخر الدولة المذكور، ووالد عضد الدولة فناخسرو ممدوح المتنبي.

وتوفي فخر الدولة في شعبان سنة سبع وثمانين وثلثمائة، رحمه الله تعالى، ومولده في سنة إحدى وأربعين وثلثمائة.

والطالقاني – بفتح الطاء المهملة وبعد الألف لام مفتوحة ثم قاف وبعد الألف الثانية نون – هذه النسبة إلى الطالقان، وهو اسم لمدينتين: إحداهما بخراسان والأخرى من أعمال قزوين، والصاحب المذكور أصله من طالقان قزوين، لا طالقان خراسان.

أبو الطاهر الرقسطي

أبو الطاهر إسماعيل بن خلف بن سعيد بن عمران الأنصاري المقرئ النحوي الأندلسي السرقسطي؛ كان إماماً في علوم الآداب ومتقنا لفن القراءات، وصنف كتاب العنوان في القراءات، وعمدة الناس في الاشتغال بهذا الشأن عليه، واختصر كتاب الحجة لأبي علي الفارسي، وذكره أبو القاسم ابن بشكوال في كتاب الصلة، وأثنى عليه، وعدد فضائله. و لم يزل على اشتغاله وانتفاع الناس به إلى أن توفي يوم الحد مستهل المحرم سنة خمس وخمسين وأربعمائة رحمه الله تعالى.

والسرقسطي – بفتح السين المهملة والراء وضم القاف وسكون السين الثانية وبعدها طاء مهملة – هذه النسبة إلى مدينة في شرق الأندلس يقال لهاسرقسطة من أحسن البلاد، وخرج منها جماعة من العلماء وغيرهم، وأخذهاالفرنج من المسلمين في سنة اثنتي عشرة وخمسائة.

المنصور العبيدي

أبو الطاهر إسماعيل الملقب المنصور بن القائم بن المهدي صاحب إفريقية، وستأتي بقية نسبة عند ذكر جده المهدي في حرف العين إن شاء الله تعالى. وقد تقدم ذكر المستعلي، وهو من أحفاده.

بويع المنصور يوم وفاة أبيه القائم – على ما سيأتي في ترجمته في حرف الميم –؛ وكان بليغاً فصيحاً يرتجل الخطب، وذكر أبو جعفر أحمد بن محمد المرووذي قال: خرجت مع المنصور يوم هزم أبا يزيد، فسايرته وبيده رمحان، فسقط أحدهما مرارا فمسحته وناولته إياه، وتفاءلت له، فأنشدته:

فألقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عيناً بالإياب المسافر

فقال: ألا قلت ماهو خير من هذا وأصدق وأوحينا إلى موسى أن ألقى عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون، فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون، فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين فقلت: يا مولانا أنت ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قلت ما عندك من العلم.

قلت: ومن أحسن ما جاء في ذلك ما ذكره التيمي في سيرة الحجاج بن يوسف قال: أمر عبد الملك بن مروان أن يعمل باب بيت المقدس ويكتب عليه اسمه، وسأله الحجاج أن يعمل له باباً، فأذن له، فاتفق أن صاعقة وقعت فاحترق منها باب عبد الملك وبقي باب الحجاج، فعظم ذلك على عبد الملك، فكتب الحجاج إليه يلغني أن ناراً نزلت من السماء فأحرقت باب أمير المؤمنين و لم تحرق باب الحجاج، وما مثلنا في ذلك إلا كمثل ابني آدم إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما و لم يقبل من الآخر فسري عنه لما وقف عليه.

وكان أبوه قد ولاه محاربة أبي يزيد الخارج عليه، وكان هذا أبو يزيد مخلد ابن كيداد رجلا من الإباضية يظهر التزهد وأنه إنما قام غضباً لله تعالى، ولا يركب غير حمار، ولا يلبس إلا الصوف، وله مع القائم والد المنصور وقائع كثيرة، وملك جميع مدن القيروان، و لم يبق للقائم إلا المهدية، فأناخ عليها أبو يزيد وحاصرها فهلك القائم في الحصار، ثم تولى المنصور فاستمر على محاربته واخفى موت أبيه، وصابر الحصار حتى رجع أبو يزيد عن المهدية، ونزل على سوسة وحاصرها، فخرج المنصور من المهدية ولقيه على سوسة فهزمه، ووالى عليه الهزائم إلى أن سره يوم الأحد لخمس بقين من المحرم سنة ست وثلاثين وثلثمائة، فمات بعد أسره بأربعة أيام من جراح كانت به، فأمر بسلخه وحشا جلده قطناً وصلبه وبنى مدينته في موضع الوقعة وسماها المنصورية، واستوطنها.

وكان المنصور شجاعاً رابط الجأش، بليغا يرتجل الخطبة؛ وخرج في شهر رمضان سنة إحدى وأربعين من المنصورية إلى مدينة جلولاء ليتنزه بها ومعه حظيته قضيب، وكان مغرماً بها، فأمطر الله سبحانه وتعالى عليهم بردا كثيراً وسلط عليهم ريحا عظيمة، فخرج منها إلى المنصورية، فاشتد عليه البرد فأوهن جسمه، ومات أكثر من معه، ووصل إلى المنصورية فاعتل بها فمات يوم الجمعة آخر شوال سنة إحدى وأربعين وثلثمائة، وكان سبب علته أنه لما وصل المنصورية أراد أن يدخل الحمام، فنهاه طبيبه إسحاق بن سليمان الإسرائيلي، فلم يقبل منه، ودخل الحمام ففنيت الحرارة الغريزية منه ولازمه السهر، فأقبل إسحاق يعالجه والسهر باق على حاله، فاشتد ذلك على المنصور، فقال لبعض الخدم: أما بالقيروان طبيب يخلصني من هذا الداء؟ فقالوا له ههنا شاب قد نشأ يقال له إبراهيم، فأمر بإحضاره، فحضر فعرفه حاله وشكا إليه مابه، فجمع له أشياء منومة، وجعلت في قنينة على النار وكلفه شمها فلما أدمن شمها نام، وخرج إبراهيم مسروراً بما فعل، وجاء إسحاق فطلب الدخول عليه فقالوا له: هو نائم، فقال: إن كان قد صنع له شيء ينام منه فقد مات، فدخلوا عليه فوجدوه ميتاً، فأرادوا قتل إبراهيم، فقال إسحاق: ماله ذنب، إنما داواه بما ذكره الأطباء، غير أنه جهل أصل المرض وما عرفتموه، وذلك أني كنت أعالجه وأنظر في تقوية الحرارة الغريزية، وبها يكون النوم، فلما عولج بما يطفئها علمت أنه قد مات.

ودفن بالمهدية، ومولده بالقيروان في سنة اثنتين، وقيل: إحدى وثلثمائة، وكانت مدة لمكه سبع سنين وستة أيام، رحمه الله تعالى.

وإفريقية – بكسر الهمزة وسكون الفاء وكسر الراء وسكون الياء المثناة من تحتها وكسر القاف وبعدها ياء معجمة باثنتين من تحتها، وهي مفتوحة وبعدها هاء – إقليم عظيم من بلاد المغرب، فتح في خلافة عثمان بن عفان، رضي الله عنه، وكرسي مملكته القيروان، واليوم كرسيها تونس.

الطافر العبيدي

أبو المنصور إسماعيل الملقب الظافر ابن الحافظ محمد بن المستنصر بن الطاهربن الحاكم بن العزيز بن المعز بن المنصور بن القائم بن المهدي وقد تقدم ذكر جده المنصور قبله. بويع الظافر يوم مات أبوه بوصية أبيه، وكان أصغر أولاد ابيه سناً، وكان كثير اللهو واللعب والتفر بالجواري واستماع الأغاني، وكان يأنس إلى نصر بن عباس، وكان عباس وزيره – وسيأتي ذكره في ترجمة العادل علي بن السلار إن شاء الله تعالى – فاستدعاه إلى دار أبيه ليلاً سراً بحيث لم يعلم به أحد وكانت تلك الدار هي المعروفة بدار يونس وهي الآن المدرسة الحنفية المعروفة بالسيوفية، فقتله بها وأخفى قتله وقضيته مشهورة، وكان ذلك في منتصف المرحم سنة تسع وأربعين وخمسمائة، رحمه الله تعالى؛ وقيل: ليلة الخميس سلخ المحرم من السنة المذكورة ومولده بالقاهرة يوم الأحد منتصف شهر ربيع الآخر، وفي: الأول، سنة سبع وعشرين وخمسائة.

وكان من أحسن الناس صورة، ولما قتله نصر حضر إلى أبيه عباس وأعلمه بذلك من ليلته، وكان أبوه قد أمره بقتله لأن نصراً كان في غاية الجمال، وكان الناس يتهمونه به، فقال له أبوه: إنك أتلفت عرضك بصحبة الظافر، وتحدث الناس في أمركما، فاقتله حتى تسلم من هذه التهمة فقتله، فلما كان صباح تلك الليلة حضر عباس إلى باب القصر وطلب الحضور عند الظافر في شغل مهم، فطلبه الخدم في المواضع التي جرت عادته بالمبيت فيها فلم يوجد، فقيل له: ما نعلم أين هو، فنزل عن مركوبه ودخل القصر بمن معه ممن يثق إليهم وقال للخدم: أخرجوا إلي أخوي مولانا، فأخرجوا له جبريل ويوسف ابني الحافظ فسألهما عنه فقالا: سل ولدك عنه فغنه أعلم به منا، فأمر بضرب رقابهما وقال: هذان قتلاه. هذه خلاصة هذه القضية، وقد بسطت القول فيها في ترجمة الفائز عيسى بن الظافر المذكور، والله أعلم.

والجامع الظافري الذي بالقاهرة داخل باب زويلة منسوب إليه، وهو الذي عمره ووقف عليه شيئاً كثيراً على ما يقال.

أشهب تلميذ مالك

أبو عمرو أشهب بن عبد العزيز بن داود بن إبراهيم القيسي ثم الجعدي الفقيه المالكي المصري؛ تفقه على الإمام مالك، رضي الله عنه، ثم على المدنيين والمصريين.

قال الإمام الشافعي، رضي الله عنه: ما رأيت أفقه من أشهب لولا طيش فيه، وكانت المنافسة بينه وبين ابن القاسم، وانتهت الرياسة إليه بمصر بعد ابن القاسم.

وكانت ولادته مصر سنة خمسين ومائة، وقال أبو جعفر ابن الجزار في تاريخه: ولد سنة أربعين ومائة، توفي سنة أربع ومائتين بعد الشافعي بشهر، وقيل: بثمانية عشر يوماً. وكانت وفاة الشافعي، رضي الله عنه، في سلخ رجب من السنة المذكورة، وكانت وفاته بمصر ودفن بالقرافة الصغرى، وزرت قبره وهو مجاور قبر ابن القاسم، رحمه الله تعالى.

ويقال: إن اسمه مسكين، وأشهب لقب عليه، والأول أصح.

وكان ثقة فيما روى عن مالك، رضي الله عنه، وقال أبو عبد الله القضاعي في كتاب خطط مصر: كان لأشهب رياسة في البلد، ومال جزيل، وكان من أنظر أصحاب مالك، رضي الله عنه، قال الشافعي رحمه الله تعالى: ما نظرت أحداً من المصريين مثله لولا طيش فيه، و لم يدرك الشافعي رحمه الله تعالى بمصر من أصحاب مالك، رضي الله عنه، سوى اشهب وابن عبد الحكم.

وقال ابن عبد الحكم: سمعت أشهب يدعو على الشافعي بالموت، فذكرت ذلك للشافعي فقال متمثلا:

تمنى رجال أن أموت وإن أمت ... فتلك سبيل لست فيها بأوحد

فقل للذي يبغي خلاف الذي مضى ... تزود لأخرى غيرها فكأن قد

قال: فمات الشافعي، فاشترى أشهب من تركته عبداً، ثم مات اشهب فاشتريت أنا ذلك العبد من تركة أشهب.

وذكره ابن يونس في تاريخه فقال: أشهب القيسي ثم العامري من بني جعدة، يكنى أباعمرو أحد فقهاء مصر وذوي رأيها. ولد سنة أربعين ومائة وتوفي

يوم السبت لثمان بقين من شعبان سنة أربع ومائتين، وكان يخضب عنفقته.

وقال محمد بن عاصم المعافري: رأيت في المنام كأن قائلاً يقول: يا محمد، فأجبته، فقال:

ذهب الذين يقال عند فراقهم ... ليت البلاد بأهلها تتصدع

قال: وكان أشهب مريضاً، فقلت: ما أخوفني أن يموت أشهب، فمات في مرضه ذلك، والله أعلم.

أصبغ المالكي

أبو عبد الله أصبغ بن الفرج بن سعيد بن نافع الفقيه المالك المصري؛ تفقه بابن القاسم وابن وهب وأشهب. وقال عبد الملك بن الماجشون في حقه: ما أخرجت مصر مثل أصبغ، قيل له: ولا ابن القاسم؟ قال: ولا ابن القاسم. وكان كاتب ابن وهب، وجده نافع عتيق عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي والي مصر.

حكى عون بن عبد الله قال، قال لي أصبغ: سمعت من أبيك كلاماً نفعني الله تعالى به وهو: لأن يخطئ الإمام في العفو خير من أن يخطئفي العقوبة.

وتوفي يوم الأحد لأربع بقين من شوال سنة خمس وعشرين ومائتين، وقيل: سنة ست وعشرين، وقيل: سنة عشرين، رحمه الله تعالى.

وأصبغ: بفتح الهمزة وسكون الصاد المهملة وفتح الباء الموحدة وبعدها غين معجمة.

آق سنقر الحاجب

أبو سعيد آق سنقر بن عبد الله الملقب قسيم الدولة المعروف بالحاجب، جد البيت الأنابكي أصحاب الموصل، وهو والد عماد الدين زنكي بن آق سنقر - الآتي ذكره إن شاء الله تعالى -؛ كان مملوك السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي، هو وبزان، صاحب الرها، ولما ملك تاج الدولة تتش ابن ألب أرسلان السلجوقي مدينة حلب في سنة478 استناب فيها آتى سنقرالمذكور واعتمد عليه لأنه مملوك أخيه، فعصى عليه، فقصده تاج الدولة وهو صاحب دمشق يومئذ فخرج لقتاله وجرى بينهما مصاف وحرب شديدة انجلت عن قتل آق سنقر المذكور وذلك في جمادى الأولى سنة سبع وثمانين وأربعمائة ودفن بالمدرسة المعروفة بالزجاجية داخل حلب، رحمه الله تعالى.

ورأيت عند قبره خلقاً كثيراً يجتمعون كل يوم جمعة لقراءة القرآن الكريم، وقالوا: إن لهم على ذلك وقفاً عظيماً يفرق عليهم، ولا أعلم من الذي وقفه، ثم إني وجدت الذي وقفه ولد ولده: نور الدين محمود - الأتي ذكره إن شاء الله تعالى - وسيأتي في ترجمة تاج الدولة تتش خبر آق سنقر المذكور على خلاف هذه الواقعة، والله أعلم بالصواب.

والزجاجية: بناها أبو الربيع سليمان بن عبد الجبار بن أرتق صاحب حلب وكان أولاً مدفوناً بقرنبيا، فلما ملك ولده عماد الدين زنكي حلب نقله إلى المدرسة ودلاه من سور البلد، وكان قتل آق سنقر على قرية يقال لها رويان بالقرب من سبعين من أعمال حلب، ذكره ياقوت الحموي.

أق سنقر البرسقي

أبو سعيد آق سنقر البرسقي الغازي، الملقب قسيم الدولة سيف الدين؛ صاحب الموصل والرحبة وتلك النواحي، ملكها بعد أسباسلار مودود، وكان مودود بها وببلاد الشام من جهة السلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي - الآتي ذكره إن شاء الله تعالى - فقتل مودود بجامع دمشق يوم الجمعة ثاني عشر شهر ربيع الآخر سنة سبع وخمسمائة، وكان قد وثب عليه جماعة من الباطنية فقتلوه، وآق سنقر يومئذ شحنة بغداد، كان ولاه إياها السطان محمد المذكور في سنة ثمان وتسعين وأربعمائة لما استقرت له السلطنة بعد موت أخيه بر كياروق، وفي سنة تسع وتسعين وجهه السلطان محمد لمحاصرة تكريت وكان بها كيقباذ ابن هزاراسب الديلمي المنسوب إلى الباطنية، فأصعد آق سنقر إليه في رجب من السنة المذكورة وحاصره إلى محرم من سنة خمسمائة، فلما كاد أن يأخذها أصعد إليه سيف الدولة صدقة فتسلمها، وانحدر كيقباذ صحبته ومعه أمواله وذخائره، فلما وصل إلى الحلة مات كيقباذ، فلما وصل خبر قتل مودودتقدم السلطان محمد إلى آق سنقر بالتجهيز إلى الموصل والاستعداد لقتال الفرنج بالشام، فوصل إلى الموصل وملكها وغزا، ودفع الفرنج عن حلب وقد ضايقوها بالحصار، ثم عاد إلى الموصل وأقام بها إلى أن قتل.

وهو من كبراء الدولة السلجوقية وله شهرة كبيرة بينهم. قتلته الباطنية بجامع الموصل يوم الجمعة التاسع من ذي القعدة سنة عشرين وخمسمائة، وذكر ابن الجوزي في تاريخه أن الباطنية قتلته في مقصورة الجامع بالموصل سنة تسع عشرة وخمسمائة، وقال العماد: سنة عشرين، وذكر أنهم جلسوا له في الجامع بزي الصوفية، فلما انفتل من صلاته قاموا إليه وأثخنوه جراحا في ذي القعدة، وذلك لأنه كان تصدى لاستئصال شأفتهم وتتبعهم وقتل منهم عصبة كبيرة، رحمه الله تعالى.

وتولى ولده عز الدين مسعود موضعه، ثم توفي يوم الثلاثاء الثاني والعشرينمن جمادى الآخرة سنة إحدى وعشرين وخمسمائة، رحمه الله تعالى؛ وملك بعده عماد الدين زنكي بن آق سنقر المذكور قبله – كما سيأتي في حرف الزاي إن شاء الله تعالى –.

والبرسقي – بضم الباء الموحدة وسكون الراء وضم السين المهملة وبعدها قاف – ولا أعلم هذه النسبة إلى أي شيء هي ولم يذكرها السمعاني ثم إني وجدت نسبته بعد هذا إلى برسق، وكان من مماليك السلطان طغرلبك أبي طالب محمد – الآتي ذكره إن شاء الله تعالى – وتقدم في الدولة السلجوقية، وكان من الأمراء المشار إليهم فيها، المعدودين من أعيانهم.

أبو الصلت الأندلسي

أبو الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت الأندلسي الداني؛ كان فاضلاً في علوم الآداب، صنف كتابه الذي سماه الحديقة على أسلوب يتيمة الدهر للثعالبي، وكان عارفاً بفن الحكمة، فكان يقال له: الأديب الحكيم، وكان ماهراً في علوم الأوائل، وانتقل من الأندلس وسكن ثغر الإسكندرية، وذكره العماد الكاتب في الخريدة وأثنى عليه وذكر شيئاً من نظمه، ومن جملة ما ذكر له قوله لمن جاد عليه قبل مدحه:

لا غرو أن سبقي يداك مدائحي ... فتدفقت جدواك مثل إنائها
يكسى القضيب ولم يحن إثماره ... وتطوق الورقاء قبل غنائها

ولأبي جعفر الجزار البظرني في ابن عباد:

وما زلت أجني منك والدهر ممحل ... ولا ثمر يجنى ولا زرع يحصد
ثمار أياد دانياتٍ قطوفها ... لأغصانها ظل علي ممدد
يرى جارياً ماء المكارم تحتها ... وأطيار شكري فوقهن تغرد

ولأبي الصلت المذكور:

إذا كان أصلي من تراب فكلها ... بلادي وكل العالمين أقاربي
ولا بد لي أن أسأل العيس حاجةً ... تشق على شم الذرى والغوارب

ولم أر هذين البيتين في ديوانه، وأورد له أيضاً:

وقائلة ما بال مثلك خاملاً ... أأنت ضعيف الرأي أم أنت عاجز
فقلت لها ذنبي إلى القوم أنني ... لما لم يحوزوه من المجد حائز
وما فاتني شيء سوى الحظ وحده ... وأما المعالي فهي عندي غرائز

ولا وجدت هذا المقطوع أيضاً في ديوانه، والله أعلم، وله أيضا:

جد بقلبي وعبث ... ثم مضى وما اكترث
واحربا من شادن ... في عقد الصبر نفث

يقتل من شاء بعي — نيه ومن شاء بعث
فأي ود لم يخن — وأي عهد ما نكث

وله أيضاً:

دب العذار بخده ثم انثنى — عن لثم مبسمه البرود الأشنب
لاغرو أن خشي الردى في لثمه — فالريق سم قاتل للعقرب

ومن شعره أيضاً:

ومهفهفٍ شركت محاسن وجهه — ما مجه في الكأس من إبريقه
ففعالها من مقلتيه ولونها — من وجنتيه وطعمها من ريقه

أخذ هذا المعنى من ابن حبوس حيث يقول:

وممنطق يغني بلحظ جفونه — عن كأسه الملأى وعن إبريقه
فعل المدام ولونها ومذاقها — في مقلتيه ووجنتيه وريقه

وأورد له أيضاً في كتاب الخريدة في ترجمة الحسن بن أبي الشخباء العسقلاني:

عجبت من طرفك في ضعفه — كيف يصيد البطل الأصيدا
يفعل فينا وهو في غمده — ما يفعل السيف إذا جردا

وشعره كثير وجيد، وكان قد انتقل في آخر الوقت إلى المهدية وتوفي بها يوم الاثنين مستهل سنة تسع وعشرين وخمسمائة، وقيل: في عاشر المحرم سنة ثمان وعشرين. وقال العماد في الخريدة: أعطاني القاضي الفاضل كتاب الحديقة وفي آخرها مكتوب: إنه توفي يوم الاثنين ثاني عشر المحرم سنة ست وأربعين وخمسمائة، رحمه الله تعالى، والصحيح هو الأول، فإن أكثر الناس عليه، وهو الذي ذكره الرشيد بن الزبيرفي الجنان، ومات بالمهدية، ودفن بالمنستير –وسيأتي ذكرها في ترجمة الشيخ هبة الله البوصيري إن شاء الله تعالى، ونظم ابياتا، وأوصى أن تكتب على قبره، وهي آخر شيء قاله، وهي:

سكنتك يادار الفناء مصدقاً — بأني إلى دار البقاء أصير
وأعظم مافي الأمر أني صائر — إلى عادل في الحكم ليس يجوز
فيا ليت شعري كيف ألقاه عندها — وزادي قليل والذنوب كثير
فإن أك مجزياً بذنبي فإنني — بشر عقاب المذنبين جدير
وإن يك عفو منه عني ورحمة — فثم نعيم دائم وسرور

ولما اشتد مرض موته قال لولده عبد العزيز:

عبد العزيز، خليفتي — رب السماء عليك بعدي
أنا قد عهدت إليك ما — تدريه فاحفظ فيه عهدي
فلئن عملت به فإن — ك لا تزال حليف رشد

ولئن نكثت لقد ضلل ت وقد نصحتك حسب جهدي

ثم وجدت في مجموع لبعض المغاربة ان أبا الصلت المذكور مولده في دانية مدنية من بلاد الأندلس في قران سنة ستين وأربعمائة، وأخذ العلم عن جماعة من أهل الأندلس، كأبي الوليد الوقشي قاضي دانية وغيره، وقدم الإسكندرية مع أمه في يوم عيد الأضحى من سنة تسع وثمانين وأربعمائة، ونفاه الأفضل شاهنشاه من مصر في سنة خمس وخمسمائة، وتردد بالإسكندرية إلى أن سافر في سنة ست وخمسمائة فحل بالمهدية، ونزل من صاحبها علي بن يحيى بن تميم ابن المعز بن باديس مترلة جليلة، وولد له بها ولد سماه عبد العزيز، وكان شاعراً ماهراً، له في الشطرنج يد بيضاء، وتوفي هذا الولد ببجاية في سنة ست وأربعين وخمسمائة.

قلت: وهو الذي غلط فيه العماد الكاتب فيما نقله عن القاضي الفاضل واعتقد أن أباه مات في هذا التاريخ.

وصنف أمية وهو في اعتقال الأفضل بمصر رسالة العمل بالأصطرلاب، وكتاب الوجيز في علم الهيئة، وكتاب الأدوية المفردة وكتاباً في المنطق سماه تقويم الذهن وكتاباً سماه الانتصار في الرد على علي بن رضوان في رده على حنين بن إسحاق في مسائله، ولما صنف الوجيز للأفضل عرضه على منجمه أبي عبد الله الحلبي، فلما وقف عليه قال له: هذا الكتاب لاينتفع به المبتدي ويستغني عنه المنتهي.

وله من أبيات:

كيف لاتبلى غلائله وهو بدر وهي كتان

وإنما قال هذا لأن الكتان إذا تركوه في ضوء القمر بلي. وكان مرضه الاستسقاء، والله أعلم.

القاضي اياس

أبو وائلة إياس بن معاوية بن قرة بن إياس بن هلال بن رباب بن عبيد بن سوأة بن سارية بن ذبيان بن سليم بن أوس بن مزينة المزني؛ وهو السن البليغ والألمعي المصيب، والمعدود مثلاً في الذكاء والفطنة، ورأسا لأهل الفصاحة والرجاحة. كان صادقا الظن لطيفاً في الأمور، مشهوراً بفرط الذكاء، وبه يضرب المثل في الذكاء، وإياه عنى الحريري في المقامات بقوله في المقامة السابعة: فإذا أمعيتي ألمعية ابن عباس، وفراستي فراسة إياس، وكان عمر بن عبد العزيز قد ولاه قضاء البصرة. وكان لإياس جد أبيه صحبة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقيل لمعاوية بن قرة والد إياس: كيف ابنك لك؟ فقال: نعم الابن، كفاني أمر دنياي وفرغني لآخرتي.

وكان إياس أحد العقلاء الفضلاء الدهاة.

ويحكى من فطنته أنه كان في موضع فحدث فيه ما أوجب الخوف، وهناك ثلاث نسوة لايعر فهن، فقال: هذه ينبغي أن تكون حاملاً، وهذه مرضعاً، وهذه عذراء، فكشف عن ذلك فكان كما تفرس، فقيل له: من أين لك هذا؟ فقال: عند الخوف لايضع الإنسان يده إلا على أعز ما له ويخاف عليه، ورأيت الحامل قد وضعت يدها على جوفها، فاستدللت بذلك على حملها، ورأيت المرضع قد وصعت يدها على ثديها، فعلمت أنها مرضع، والعذراء وضعت يدها على فرجها، فعلمت أنها بكر.

وسمع إياس بن معاوية يهودياً يقول: ما أحمق المسلمين، يزعمون أن أهل الجنة يأكلون ولا يحدثون، فقال له إياس: أفكل ما تأكله تحدثه؟ قال: لا، لأن الله تعالى يجعله غذاء، قال فلم تنكر أن الله تعالى يجعل كل ما يأكله أهل الجنة غذاء؟ ونظر يوماً إلى آجرة بالرحبة وهو بمدينة واسط، فقال: تحت هذه الآجرة دابة، فترعوا الآجرة فإذا تحتها حية منطوية، فسألوه عن ذلك فقال: إني مابين الآجرتين ندياً من بين جميع تلك الرحبة، فعلمت أن تحتها شيئاً يتنفس.

ومر يوماً بمكان فقال: أسمع صوت كلب غريب، فقيل له: كيف عرفت ذلك؟ قال: بخضوع صوته وشدة نباح غيره من الكلاب، فكشفوا عن ذلك فإذا كلب غريب مربوط والكلاب تنبحه.

ونظر يوماً إلى صدع في الأرض فقال: في هذا الصدع دابة، فنظروا فإذا فيه دابة، فسألوه عنه فقال: إن الأرض لاتتصدع إلا عن دابة أو نبات.

قال الجاحظ: إذا نظر الإنسان إلى موضع منفتح في أرض مستوية فيتأمله فإن رآه يتصدع في تميل وكان تفتحه مستوياً علم أنها كمأة، وإن خلط في التصدع والحركة علم أنها دابة.

وله في هذا الباب من الفراسة أشياء غريبة كثيرة، ولولا خوف الإطالة لبسطت القول في ذلك، وبعض العلماء قد جمع جزءا كبيرا من اخباره.

وكتب عمر بن عبد العزيز الأموي – رضي الله عنه – في أيام خلافته إلى نائبه بالعراق وهو عدي بن أرطاة ان اجمع بين إياس بن معاوية والقاسم بن ربيعة الحرشي فول قضاء البصرة أنفذهما، فجمع بينهما، فقال له إياس: أيها الأمير سل عني وعن القاسم فقيهي المصر الحسن البصري ومحمد بين سيرين، وكان القاسم يأتيهما وإياس لا يأتيهما، فعلم القاسم أنه إن سألهما اشارا به، فقال له: لا تسأل عني ولا عنه، فوالله الذي لاإله إلا هو إن إياس بن معاوية أفقه مني وأعلم بالقضاء فإن كنت كاذباً فما يحل لك أن توليني وأنا كاذب، وإن كنت صادقا فينبغي لك أن تقبل قولي، فقال له إياس: إنك جئت برجل أوقفته على شفير جهنم فنجى نفسه منها بيمين كاذبة يستغفر الله منها وينجو مما يخاف، فقال عدي بن أرطاة: أما إذ فهمتها فأنت لها، واستقضاه.

وروي عن إياس أنه قال: ما غلبني أحد قط سوى رجل واحد، وذلك أني كنت في مجلس القضاء بالبصرة، فدخل علي رجل شهد عندي أن البستان الفلاني – وذكر حدوده – هو ملك فلان، فقلت له: كم عدد شجره؟ فسكت ثم قال: منذ كم يحكم سيدنا القاضي في هذا المجلس؟ فقلت: منذ كذا، فقال: كم عدد خشب سقفه؟ فقلت له: الحق معك، وأجزت شهادته.

وكان يوماً في برية فأعوزهم الماء، فسمع نباح كلب فقال: هذا على رأس بئر، فاستقروا النباح فوجدوه كما قال، فقيل له في ذلك فقال: لأني سمعت الصوت كالذي يخرج من بئر. وكان له في ذلك غرائب.

وقال أبو إسحاق ابن حفص: رأى إياس في المنام أنه لا يدرك النحر، فخرج إلى ضيعة له بعبدسى – وعبدس: قرية من أعمال دست ميسان يسن البصرة وخوزستان – فتوفي بها في سنة اثنتين وعشرين ومائة، وقال غيره: سنة إحدى وعشرين، وعمره ست وسبعون سنة.

وقال إياس في العام الذي توفي فيه: رأيت في المنام كاني وأبي على فرسين فجريا معا فلم أسبقه و لم يسبقني، وعاش أبي ستا وسبعين سنة وأنا فيها، فلما كان آخر لياليه قال: أتدرون أي ليلة هذه؟ ليلة أستكمل فيها عمر أبي، ونام فأصبح ميتاً، وكانت وفاة أبيه معاولة في سنة ثمانين للهجرة، رحمه الله تعالى.

وإياس: بكسر الهمزة، وقرة: بضم القاف، ومزينة: قد تقدم القول عليها.

وتراءى هلال شهر رمضان جماعة فيهم أنس بن مالك رضي الله عنه وقد قارب المائة، فقال أنس: قد رأيته، هو ذاك، وجعل يشير إليه فلا يرونه، ونظر إياس إلى أنس وإذا شعرة من حاجبه قد انثنت، فمسحها إياس وسواها بحاجبه، ثم قال له: يا أبا حمزة، أرنا موضع الهلال، فجعل ينظر ويقول ما أراه.

ابن القرية

أبو سليمان أيوب بن زيد بن قيس بن زرارة بن سلمة بن جشم بن مالك بن عمرو بن عامر بن زيد مناة بن عامر بن سعد بن الخزرج بن تيم الله بن النمر بن قاسط بن هنب بن أفصى بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد ابن عدنان المعروف بابن القرية الهلالي، والقرية: جدته، واسمها جماعة بنت جشم بن ربيعة بن زيد مناة بن عوف بن سعد بن الخزرج – وتمام النسب مذكور في أول الترجمة –؛ كان أعرابياً أمياً، وهو معدود من جملة خطباء العرب المشهورين بالفصاحة والبلاغة، وكان قد أصابته السنة، فقدم عين التمر وعليهاعامل للحجاج بن يوسف، وكان العامل يغدي كل يوم ويعشي، فوقف ابن القرية ببابه فرأى الناس يدخلون فقال: أين يدخل هؤلاء؟ فقالوا: إلى طعام الأمير، فدخل فتغدى وقال: أكل يوم يصنع الأمير ما أرى؟ فقيل: نعم، فكان يأتي كل يوم بابه للغداء والعشاء، إلى أن ورد كتاب من الحجاج على العامل، وهو عربي غريب لا يدري ما هو، فأخر لذلك طعامه، فجاء ابن القرية فلم يرالعامل يتغدى، فقال: ما بال الأمير اليوم لا يأكل ولا يطعم؟ فقالوا: اغتم لكتاب ورد عليه من الحجاج عربي غريب لايدري ما هو، قال: ليقرئني الأمير الكتاب وأنا أفسره إن شاء الله تعالى، وكان خطيباً لسناً بليغاً، فذكر ذلك نلوالي فدعا به فلما قرئ عليه الكتاب عرف الكلام وفسره للوالي حتى عرفه جميع ما فيه فقال له: أفتقدر على جوابه؟ قال: لست أقرأولا أكتب ولكن أقعد عند كاتب يكتب ما أمليه،

ففعل، فكتب جواب الكتاب، فلما قرئ الكتاب على الحجاج رأى كلاما عربيا غريبا، فعلم أنه ليس من كلام كتاب الخراج، فدعا برسائل عامل عين التمر فنظر فيها فإذا هي ليست ككتاب ابن القرية، فكتب الحجاج إلى العامل أما بعد، فقد أتاني كتابك بعيداً من جوابك بمنطق غيرك، فإذا نظرت في كتابي هذا فلا تضعه من يدك حتى تبعث إلي بالرجل الذي صدر لك الكتاب، والسلام.

قال: فقرأ العامل الكتاب على ابن القرية وقال له: تتوجه نحوه؟ فقال: أقلني، قال: لا بأس عليك، وأمر له بكسوة ونفقة وحمله إلى الحجاج.

فلما دخل عليه قال: أيوب، قال: اسم نبي وأظنك أمياً تحاول البلاغة ولا يستصعب عليك المقال، وأمر له بنزل ومنزل، فلم يزل يزداد به عجبا حتى أوفده على عبد الملك بن مروان، فلما خلع عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندي الطاعة بسجستان وهي واقعة مشهورة بعثه الحجاج إليه رسولاً، فلما دخل عليه قال له: لتقومن خطيباً ولتخلعن عبد الملك ولتسبن الحجاج أو لأضربن عنقك، قال: أيها الأمير إنما أنا رسول، قال: هو ما أقول لك، فقالم وخطب وخلع عبد الملك وشتم الحجاج، وأقام هنالك.

فلما انصرف ابن الأشعث مهزوماً كتب الحجاج إلى عماله بالري وأصبهان وما يليهما يأمرهم أن لا يمر بهم أحد من فل ابن الأشعث إلا بعثوا به أسيرا إليه، واخذ ابن القرية فيمن أخذ، فلما أدخل على الحجاج قال: أخبرني عما أسالك عنه، قال: سلني عما شئت، قال: أخبرني عن أهل العراق، قال: أعلم الناس بحق وباطل، قال: فأهل الحجاز، قال: أسرع الناس إلى فتنة وأعجزهم فيها، قال: فأهل الشام، قال: أطوع الناس لخلفائهم، قال: فأهل مصر، قال: عبيد من غلب، قال: فأهل البحيرين، قال: نبيط استعربوا، قال: فأهل عمان، قال: عرب استنبطوا، قال: فأهل الموصل، قال: أشجع فرسان وأقتل للأقران، قال: فأهل اليمن، قال: أهل سمع وطاعة ولزوم للجماعة، قال: فأهل اليمامة، قال: أهل جفاء، واختلاف أهواء، وأصبرعند اللقاء، قال: فاهل بأس شديد، وشر عتيد، وزيف كثير، وقرى يسير، قال: أخبرني عن العرب، قال: سلني، قال: قريش، أطواها رماحاً، وأكرمها صباحاً، قال: فبنو سليم، قال: أعظمها مجالس، وأكرمها محابس، قال: فثقيف، قال: أكرمها جدوداً، وأكثرها وفوداً، قال: فبنو زبيد، قال: ألزمها للرايات، وأدركها للترات، قال: فقضاعة، قال: أعظمها اخطاراً، وأكرمها نجاراً، وأبعدها آثاراً، قال: فالأنصار، قال: أثبتها مقاماً، وأحسنها إسلاماً، وأكرمها أياماً، قال: فتميم، قال أظهرها جلداً، وأثراها عدداً، قال: فبكر بن وائل، قال: أثبتها صفوفاً، وأحدها سيوفاً، قال: فعبد القيس، قال: أسبقها إلى الغايات، وأصبرها تحت الرايات، قال: فبنو أسد، قال: أهل عدد وجلد، وعسر ونكد، قال: فلخم، قال: ملوك، وفيهم نوك، قال: فجذام، قال: يوقدون الحرب ويسعرونها، ويلقحونها ثم يمرونها، قال: فبنو الحارث، قال: رعاة للقديم، وحماة عن الريم، قال: فعك، قال: ليوث حاهدة، في قلوب فاسدة، قال: فتغلب، قال: يصدقون إذا لقوا ضرباً، ويسعرون للأعداء حراباً، قال: فغسان، قال: أكرم العرب أسحاباً، وأثبتها أنساباً، قال: فأي العرب في الجاهلية كانت أمنع من أن تضام؟ قال: قريش، كانوا أهل رهوة لا يستطاع ارتقاؤها، وهضبة لا يرام انتراؤها، في بلدة حمس الله ذمارها، ومنع جارها، قال: فأخبرني عن مآثر العرب في الجاهلية، قال: كانت العرب تقول حمير أرباب الملك وكندة لباب الملوك ومذحج أهل الطعان وهمدان أحلاس الخيل والأزد آساد الناس، قال: فأخبرني عن الأرضين، قال: سلني، قال: الهند، قال: بحرها در وجبلها ياقوت وشجرها عو وورقها عطر وأهلها طغام كقطع الحمام، قال: فخراسان، قال: مؤها جامد، وعدوها جاحد، قال: فعمان، قال: حرها شديد، وصيدها عتيد، قال: فالبحرين، قال: كناسة بين المصرين، قال: فاليمن، قال: أصل العرب، واهل البيتات والحسب، قال: فمكة، قال: رجالها علماء جفاة، ونساؤها كساة عراة، قال: فالمدينة، قال: رسخ العلم فيها وظهر منها، قال: فالبصرة، قال: شتاؤها جليد، وحرها شديد، وماؤها ملح، وحربها صلح، قال: فالكوفة، قال: ارتفعت عن حر البحر وسلفت عن برد الشام، فطاب ليلها وكثر خيرها، قال: فواسط، قال: جنة بين حماة وكنة، قال: وما حماها وكنتها؟ قال: البصرة والكوفة تحسدانها وماضرها ودجلة والزاب يتجاريان بإفاضة الخير عليها، قال: فالشام، قال: عروس بين نسوة جلوس، قال: ثكلتك أمك يا ابن القرية! لولا اتباعك لأهل العراق وقد كنت أنهاك عنهم أن تتبعهم فتأخذ من نفاقهم، ثم دعا بالسيف وأومأ إلى السياف أن أمسك، فقال ابن القرية: ثلاث كلمات أصلح الله الأمير كأنهن ركب وقوف يكن مثلا بعدي، قال: هات، قال: لكل جواد كبوة ولكل صارم نبوة ولكل حليم هفوة، قال الحجاج: ليس هذا وقت المزاح، ياغلام أوجب جرحه، فضرب عنقه.

وقيل: إنه لما أراد قتله قال له: العرب تزعم أن لكل شيء آفة، قال: صدقت العرب، أصلح الله الأمير! قال: فما آفة الحلم؟ قال: الغضب، قال: فما آفة العقل؟ قال: العجب، قال: فما آفة العلم؟ قال: النسيان، قال: فما آفة السخاء؟ قال: المن عند البلاء، قال: فما آفة الكرام؟ قال: مجاورة اللئام، قال: فما آفة الشجاعة؟ قال: البغي، قال: فما آفة العبادة؟ قال: الفترة، قال: فما آفة الذهن؟ قال: حديث النفس، قال: فما آفة الحديث؟ قال: الكذب، قال: فما آفة المال؟ قال: سوء التدبير، قال: فما آفة الكامل من الرجال؟ قال: العدم، قال: فما آفة الحجاج بن يوسف؟ قال: أصلح الله المير، لاآفة لمن كرم حسبه وطاب نسبه وزكا فرعه، قال: امتلأت شقاقاً، وأظهرت نفاقاً؛ اضربوا عنقه، فلما رآه قتيلاً ندم.

نقلت هذا كله من كتاب اللفيف، وإنما أطلت الكلام فيه لأنه كان متصلاً فما أمكن قطعه.

وسأله بعض العلماء عن حد الدهاء فقال: هو تجرع الغصة وتوقع الفرصة.

ومن كلامه في صفة العي: التنحنح من غير داء، والتثاؤب من غير ريبة، والإكباب في الأرض من غير علة.

وكان قتله في سنة أربع وثمانين لهجرة، حمه الله تعالى.

وهذا ابن القرية هو الذي تذكره النحاة في أمثالها فيقولون: ابن القرية زمان الحجاج.

وذكر أبو الأصبهاني في كتاب الأغاني في ترجمة مجنون ليلى بعد أن استوفى أخباره فقال: وقد قيل إن ثلاثة أشخاص شاعت أخبارهم، واشتهرت أسماؤهم، ولا حقيقة لهم ولا وجود في الدنيا، وهم: مجنون ليلى، وابن القرية – يعني هذا المذكور –، وابن أبي العقب الذي تنسب إله الملاحم، واسمه يحيى بن عبد الله بن أبي العقب، والله أعلم.

والقرية – بكسر القاف وتشديد الراء وتشديد الياء المثناة من تحتهاوبعدها هاء – وهي أم جشم بن مالك بن عمرو، وكان عمرو المذكور قد تزوجها فلما مات تزوجها ابنه مالك فأولدها جشم بن مالك المذكور، والقرية في اللغة: الحوصلة، وبها سميت المرأة، قال أهل العلم بالنساب: لما تزوج مالك ابن عمرو المذكور القرية – واسمها جماعة، كما تقدم في أول الترجمة – أولدها جشم جد أيوب ابن القرية المذكور، وكليباً، وهو جد العباس بن عبد المطلب، رضي الله عنه، عم رسول الله عليه وسلم من جهة أمه، فإن أمه نتيلة – بضم النون – وقيل: نتلة بفتحها، بنتحباب بن كليب بن ملك المذكور، فالعباس رضي الله عنه من أولاد القرية بهذا الاعتبار.

وذكر ابن قتيبة في كتاب المعارف أن ابن القرية هلالي، وأنه من بني هلال بن ربيعة بن زيد مناة بن عامر.

وذكر ابن الكلبي أنه من بني مالك بن عمرو بن زيد مناة، فما يجتمع هلال ومالك إلا في زيد مناة، وليس هلال في عمود نسبة، والله تعالى أعلم.

والهلالي – بكسر الهاء – نسبة إلى هلال بن ربيعة بن زيد مناة، بطن من النمر بن قاسط، وفي العرب أيضاً: هلال بن عامر بن صعصعة، قبيلة أخرى، وقد ذكر ابن الكلبي في كتاب جمهرة النسب هذين النسبين وصورة النكاح بينهما فيؤخذ منه.

أيوب والد السلطان صلاح الدين

أبو الشكر أيوب بن شاذي بن مروان الملقب الملك الأفضل نجم الدين والد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، وسيأتي في ترجمة ولده صلاح الدين تتمة نسبة وصورة الاختلاف فيه، فينظر هناك، ولا حاجة إلى الإطالة بذكره ههنا.

قال بعض المؤرخين: كان شاذي بن مروان من أهل دوين ومن أبناء أعيانها والمعتبرين بها، وكان له صاحب يقال له: جمال الدولة المجاهد بهروز – قلت: وهو المذكور في ترجمة صلاح الدين يوسف بن أيوب – قال: وكان من أظرف الناس وألطفهم وأخبرهم بتدبير الأمور، وكان بينهما من الاتحاد كما بين الأخوين، فجرت لبهروز قضية في دوين، فخرج منها حياء وحشمة، وذلك أنه اتهم بزوجة بعض الأمراء بدوين، فأخذه صاحبها فخصاه، فلما مثل به لم يقدر على الإقامة بالبلد، وقصد خدمة أحد الملوك السلجوقية، وهو السلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه، الآتي ذكره إن شاء الله تعالى، واتصل باللالا الذي لأولاده، فوجده لطيفاً كافياً في جميع الأمور، فتقدم عنده وتميز، وفوض أحواله إليه، وجعله يركب مع أولاد السلطان مسعود إذا كان له شغل، فرآه السلطان يوما مع أولاده، فأنكر على اللال، فقال له: إنه خادم، وأثنى عليه وشكر دينه وعفافه ومعرفته، ثم صار يسيره إلى السلطان في الأشغال، فخفف على قلبه، ولعب معه بالشطرنج والنرد فحظي عنده، واتفق موت اللال، فجعله السلطان مكانه، وأرصده لمهامه،

وسلم إليه أولاده، وسار ذكره في تلك النواحي، فسير إلى شاذي يستدعيه من بلده ليشاهد ما صار إليه من النعمة، واليقاسمه فيما خوله الله تعالى، وليعلم أنه ما نسبه، فلما وصل إليه بالغ في إكرامه والإنعام عليه.

واتفق أن السلطان رأى أن يوجه المجاهد المذكور إلى بغداد والياً عليها ونائباً عنه بها، وكذا كانت عادة الملوك السلجوقية في بغداد يسيرون إليها النواب، فاستصحب معه شاذي المذكور، فسار هو واولاده صحبته، وأعطى السلطان لبهروز قلعة تكريت، فلم يجد من يثق إليه في أمرها سوى شاذي المذكور، فأرسله إليها، فمضى وأقام بها مدة وتوفي بها، فولى مكانه ولده نجم الدين أيوب المذكور، فنهض في أمرها، وشكره بهروز وأحسن إليه، وكان أكبر سناً من أخيه أسد الدين شيركوه، الآتي ذكره إن شاء الله تعالى.

قلت: وهذا الكلام بينه وبين الآتي ذكره في ترجمة صلاح الدين بعض الاختلاف، والله أعلم بالصواب، ولا شك أنه يحصل المقصود من مجموع الكلامين، فلينظر هناك أيضاً، وذكرت في تلك الترجمة أيضاً سبب المعرفة بين عماد الدين زنكي صاحب الموصل، وبين نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه، فلا حاجة إلى ذكره هنا.

ثم اتفق أن بعض الحرم خرجت من قلعة تكريت لقضاء حاجة، وعادت فعبرت على نجم الدين أيوب وأخيه أسد الدين شيركوه وهي تبكر، فسألاها عن سبب بكائها، فقالت: أنا داخلة في الباب الذي للقلعة، فتعرض إلي الإسفهسلار، فقام شيركوه وتناول الحربة التي تكون للإسفهسلار وضربه بها فقتله، فأمسكه أخوه نجم الدين أيوب واعتقله، وكتب إلى بهروز وعرفه صورة الحال ليفعل فيه ما يراه، فوصل إليه جوابه لأبيكما علي حق، وبيني وبينه مودة متاكدة، ما يمكنني أن أكافئكما بحالة سيئة تصدر مني في حقكما، ولكن أشتهي منكما أن تتركا خدمتي، وتخرجا من بلدي، وتطلبا الرزق حيث شئتما. فلما وصلهما الجواب ما أمكنهما المقام بتكريت، فخرجا منها ووصلا إلى الموصل، فأحسن إليهما الأتابك عماد الدين زنكي لما كان تقدم لهما عنده، وزارد في إكرامهما والإنعام عليهما، وأقطعهما إقطاعاً حسناً، ثم لما ملك الأتابك قلعة بعلبك استخلف بها نجم الدين أيوب، وهذا كله مذكور في ترجمة ولده صلاح الدين، وإن اختلفت العبارة، ورأيت في بعلبك خانقاه للصوفية يقال لها النجمية، وهي منسوبة إليه، عمرها في مدة إقامته بها، وكان رجلاً مباركاً كثير الصلاح، مائلاً إلى أهل الخير حسن النية، جميل الطوية.

وفي أوائل ترجمة صلاح الدين طرف من أخبار والده نجم الدين أيوب، وكيف رتبه زنكي في بعلبك، وما جرى له بعد ذلك من الانتقال إلى دمشق، فأغنى عن شرحه ههنا.

ولما توجه أخوه اسد الدين شيركوه إلى مصر لإنجاد شاور – على ما اشرحه في ترجمتيهما إن شاء الله تعالى – كان نجم الدين أيوب مقيماً بدمشق في خدمة نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله تعالى، ولما تولى صلاح الدين ولده وزارة الديار المصرية في أيام العاضد صاحب مصر، استدعى أباه من الشام، فجهزه نورالدين وأرسله إليه ودخل القاهرة لست بقين من رجب سنة خمس وستين وخمسمائة، وخرج العاضد للقائه إكراماً لولده صلاح الدين يوسف، وسلك معه ولده صلاح الدين من الأدب ماهو اللائق بمثله، وعرض عليه الأمر كله فأبى وقال: يا ولدي، ما اختارك الله تعالى لهذا الأمر إلا وأنت أهل له، ولا ينبغي أن تغير موضع السعادة، و لم يزل عنده حتى استقل صلاح الدين بمملكة البلاد كما هو مذكور في ترجمته.

ثم خرج صلاح الدين إلى الكرك ليحاصرها وأبوه بالقاهرة، فركب يوماً ليسير على عادة الحند، فخرج من باب النصر أحد أبواب القاهرة، فشب به فرسه فألقاه في وسط المحجة، وذلك في يوم الاثنين ثامن عشر ذي الحجة من سنة ثمان وستين وخمسمائة، فحمل إلى داره، وبقي متألما إلى أن توفي يوم الأربعاء السابع والعشرين من الشهر المذكور، هكذا ذكره جماعة من المؤرخين، منهم عماد الدين الكاتب الأصبهاني، لكنه قال: إن وفاته كانت يوم الثلاثاء.

ورأيت في تاريخ كمال الدين بن العديم فصلا نقله من تعليق العضد مرهف بن أسامة بن منقذ، قال: إنه توفي يوم الاثنين الثامن عشر من ذي الحجة.

قلت: ظاهر الحال أن العضد ما اوقعه في هذا الوهم إلا أنه اعتقد أنه توفي في اليوم الذي سقط فيه عن فرسه، فان هذا التاريخ هو تاريخ سقوطه عن الفرس لا تاريخ وفاته، والله أعلم.

ولما مات دفن إلى جاب أخيه أسد الدين شيركوه في بيت بالدار السلطانية ثم نقلا بعد سنين إلى المدينة الشريفة النبوية، على ساكنها أفضل الصلاة

والسلام.

ورأيت في تاريخ القاضي الفاضل الذي رتبه على الأيام وهو بخطه، يذكر فيه ما يتجدد في كل يوم، فقال: وفي يوم الخميس رابع صفر سنة ثمانين وخمسمائة وصل كتاب بدر الأسدي – يعني من المدينة – يخبر بوصول تابوتي الأميرين: نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه، واستقرارهما بتربتهما مجاورين الحجرة المقدسة النبوية، نفعهما الله تعالى بمجاورتها.

ولما عاد صلاح الدين من الكرك إلى الديار المصرية بلغة الخبر في الطريق فشق عليه حيث لم يحضره، وكتب إلى ابن أخيه عز الدين فروخ شاه بن شاهانشاه بن أيوب، صاحب بعلبك، كتاباً بخط القاضي الفاضل يعزيه عن جده نجم الدين أيوب المذكور.

ومن جملة فصوله: المصاب بالمولى الدارج، غفر الله ذنبه، وسقى بالرحمة تربه، ما عظمت به اللوعة، واشتدت به الروعة، وتضاعفت لغيبتنا عن مشهده الحسرة، فاستنجدنا بالصبر فأبى وأنجدت العبرة، فياله فقيدا فقدنا عليه العزاء، وهانت بعده الأرزاء، وانتثر شمل البركة بفقده، فهي بعد الاجتماع أجزاء:

وتخطفته يد الردى في غيبتي ... هبني حضرت فكنت ماذا أصنع

ورثاه الفقيد عمارة اليمني – الآتي ذكره إن شاء الله تعالى – بقصيدة طويلةأجاد في أكثرها، وأولها:

هي الصدمة الأولى فمن بان صبره ... على هول ملقاه تضاعف أجره

وقال ابن أبي الطي الأديب الحلبي في تاريخه الكبير: كان مولد نجم الدين أيوب ببلد سجستان، وقيل: إنه ولد بجبل جور وربي ببلد الموصل، ولم يوافقه على ذلك أحد، بل انفرد به، وإنما نبهت عليه كيلا يقف عليه من لا يعرف هذا الفن فيظن أنه صواب، وليس المر كذلك، بل الصحيح هو الذي ذكرته أولا.

وشاذي – بالشين المعجمة وبعد الألف ذال معجمة مكسورة وبعدها باء مثناة من تحتها – وهذا الاسم عجمي، ومعناه بالعربي فرحان.

ودوين – بضم الدال المهملة وكسر الواو وبعدها ياء مثناة من تحتها ساكنة ثم نون – وهي بلدة في أواخر إقليم أذربيجان من جهة الشمال تجاور بلاد الكرج، وينسب إليها الدويني والدوني أيضاً، بفتح الواو، والله أعلم.

قلت: والمسجد والحوض اللذان بظاهر القاهرة، خارج باب النصر، عمارة نجم الدين أيوب أيضاً، ورأيت تاريخ بناء الحوض في الحجر المركب أعلاه في سنة ست وستين وخمسمائة، رحمه الله تعالى وقدس الله روحه.

أيوب والد السلطان صلاح الدين

أبو الشكر أيوب بن شاذي بن مروان الملقب الملك الأفضل نجم الدين والد السلطان صلاح الدين يوسف؛ كان في أول أمره متسلماً قلعة تكريت هو وأخوه أسد الدين شيركوه يديران أحوالها وينظران في أمورها، وتوفي والدهما شاذي بها، وهناك قبره ظاهر معروف، وولد له بها السلطان صلاح الدين، ومولده هو بمدينة دوين من أعمال أذربيجان قم انتقل إلى الموصل وأقام بها مدة، ثم اتصل بخدمة نور الدين محمود بن زنكي صاحب الشام، وكان مقبلاً عليه مكرماً له، ولما وزر ولده صلاح الدين للعاضد صاحب مصر وذلك في سنة أربع وستين وخمسمائة كما هو مشهور توجه إليه والده نجم الدين من الشام ودخل القاهرة لست بقين من رجب سنة خمس وستين وخمسمائة وخرج العاضد للقائه وسلك صلاح الدين معه من الأدب ما جرت به العادة، وألبسه الأمر كله فأبى أن يلبسه وقال: يا ولدي ما اختارك الله لهذا الأمر إلا وأنت كفؤ له، ولاينبغي أن تغير موضع السعادة، فحكمه في الخزائن كلها وكان كريما يطلق فلا يرد.

ولم يزل عنده حتى استقل صلاح الدين بملك الديار المصرية في اوائل المحرم سنة سبع وستين كما سيأتي في ترجمته في حروف الياء، فخرج نجم الدين يوماً من باب النصر أحد أبواب القاهرة فشب به فرسه فألقاه في وسط اللجة وذلك يوم الاثنين ثامن عشر ذي الحجة سنة568، وحمل إلى داره وبقي متألما إلى أن توفي يوم الأربعاء السابع والعشرين من الشهرالمذكور، ودفن عند قبر أخيه أسد الدين شيركوه رحمه الله تعالى، ثم بعد ذلك نقلاً إلى مدينة

رسول الله صلى الله عليه وسلم ودفنا هناك؛ ولما توفي كان السلطان صلاح الدين غائبا في غزوة الكرك وهي أول غزواته فبلغه الخبر وهو راجع في الطريق، فشق عليه حيث لم يحضر.

ولقد كان رجلاً مباركاً كثير الصلاح مائلاً إلى أهل الخير حسن النية جميل الطوية لايتوسط إلا بالخير وظهرت ثمرة بركته وحسن اعتقاده في أولاده، ورأيت بمدينة بعلبك خانقاه لطيفة حسنة الوصف يقال لها النجمية وهي منسوبة إليه، وسألت أهل البلد عن سبب بنائها هناك فقالوا: كانت بعلبك إقطاعه يوم ذاك. والمسجد والحوض اللذان بظاهر القاهرة خارج باب النصر عمارته أيضا، ورأيت تاريخ بناء الحوض في الحجر المركب أعلاه في سنة66.

ولما مات رثاه الفقيه عمارة اليمني بقصيدة طويلة أولها:

هي الصدمة الأولى فمن بان صبره   على هول ملقاه تضاعف أجره

وقال ابن أبي الطي الأديب الحلبي في تاريخه الكبير: مولد نجم الدين أيوب ببلد سجستان وقيل إنه ولد بجبل جودوربي ببلد الموصل و لم يوافقه على ذلك أحد بل انفرد به وإنما نبهت عليه الخ.

باديس الصنهاجي

أبو مناد باديس بن المنصور بن بلكين بن زيري بن مناد الحميري الصنهاجي والد المعز بن باديس الآتي ذكره إن شاء الله تعالى، وبقية نسبة مذكور في حرف التاء عند ذكر حفيده الأمير تميم؛ كان باديس المذكور يتولى مملكة إفريقية نيابة عن الحاكم العبيدي المدعي الخلافة بمصر، ولقبه الحاكم نصير الدولة، وكانت ولايته بعد أبيه المنصور، وتوفي أبوه يوم الخميس لثلاث خلون من شهر ربيع الأول سنة ست وثمانين وثلثمائة، بقصره الكبير خارج مدينة صبرة، ودفن فيه ثاني يوم.

وكان باديس المذكور ملكا كبيرا، حازم الرأي، شديد البأس، إذا هز رمحاً كسره.

ومولده ليلة الأحد لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر الأول سنة أربع وسبعين وثلثمائة بآشير، المذكور في ترجمة إبراهيم بن قرقول، و لم يزل على ولايته وأموره جارية على الشداد، ولما كان يوم الثلاثاء التاسع والعشرون من ذي القعدة سنة ست وأربعمائة أمر جنوده بالعرض، فعرضوا بين يديه وهو في قبة السلام جالس إلى وقت الظهر، وسره حسن عسكره وأبهجه زيهم وما كانوا عليه، وانصرف إلى قصره، ثم ركب عشية ذلك النهار في أجمل مركوب، ولعب الجيش بين يديه، ثم رجع إلى قصره شديد السرور بما رآه من كمال حاله، وقدم السماط بين يديه فأكل مع خاصته وحاضري مائدته، ثم انصرفوا عنه وقد رأوا من سروره ما لم يروه منه قط، فلما مضى مقدار نصف الليل من ليلة الأربعاء سلخ ذي القعدة سنة ست وأربعمائة قضى نحبه، رحمه الله تعالى، فأخفوا امره ورتبوا أخاه كرامت ابن المنصور ظاهر، حتى وصلوا إلى ولده المعز فولوه، وتم له الأمر.

وذكر في كتاب الدول المنقطعة أن سبب موته أنه قصد طرابلس، و لم يزل على قرب منها عازماً على قتالها، وحلف أن لا يرحل عنها حتى يعيدها فدنا للزراعة لسبب اقتضى ذلك تركت شرحه لطوله، قال: فاجتمع أهل البلد عند ذلك إلى المؤدب محرز وقالوا: ياولي الله، قد بلغك ما قاله باديس، فادع الله أن يزيل عنا بأسه، فرفع يديه إلى السماء وقال: يارب باديس اكفنا باديس، فهلك في ليلته بالذبحة، والله أعلم.

والصنهاجي – بضم الصاد المهملة وكسرها وسكون النون وفتح الهاء وبعد الألف جيم – هذه النسبة إلى صنهاجة، وهي قبيلة مشهورة من حمير، وهي بالمغرب، وقال ابن دريد: صنهاجة بضم الصاد لا يجوز غير ذلك، وأجاز غيره الكسر، والله أعلم، وضبط أسماء أجداده سيأتي إن شاء الله تعالى.

عز الدولة البويهي بختيار

أبو منصور بختيار الملقب عز الدولة بن معز الدولة أبي الحسين أحمد بن بويه الديلمي، وقد تقدم ذكر أبيه وتتمة نسبة فلا حاجة إلى إعادته.

ولي عز الدولة مملكة أبيه يوم موته في تارخه المذكور هناك، وتزوج الامام الطائع ابنته شاهزمان على صداق مبلغة مائة ألف دينار، وخطب خطبة العقد القاضي أبو بكر ابن قريعة – الآتي ذكره في حرف الميم إن شاء الله تعالى – وذلك في سنة أربع وستين وثلثمائة.

وكان عز الدولة ملكاً سرياً، شديد القوى، يمسك الثور العظيم بقرنيه فيصرعه، وكان متوسعاً في الإخراجات والكلف والقايم بالوظائف، حكى بشر الشمعي ببغداد قال: سئلنا عند دخول عضد الدولة بن بويه وهو ابن عم عز الدولة المذكور إلى بغداد لما ملكها بعد قله عن الدولة عن وظيفة الشمع الموقد بين يدي عز الدولة، فقلنا: كانت وظيفة وزيره أبي الطاهر محمد بن بقية ألف من كل شهر، فلم يعاودوا التقصي استكثارا لذلك - وستأتي ترجمة الوزير المذكور في حرف الميم إن شاء الله تعالى -.

وكان بين عز الدولة وابن عمه عضد الدولة منافسات في الممالك أدت إلى التنازع، وأفضت إلى التصاف والمحاربة، فالتقيا يوم الأربعاء ثامن عشر شوال سنة سبع وستين وثلثمائة، فقتل عز الدولة في المصاف، وكان عمره ستا وثلاثين سنة، وحمل رأسه في طست ووضع بين يدي عضد الدولة، فلما رآه وضع منديله على عينيه وبكى، رحمهما الله تعالى، وسيأتي ذكر عضد الدولة إن شاء الله تعالى.

بركياروق السلجوقي

أبو المظفر بركياروق الملقب ركن الدين ابن السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق الملقب شهاب الدولة مجد الملك، أحد الملوك السلجوقية - وسيأتي ذكر جماعة منهم إن شاء الله تعالى -؛ ولي المملكة بعد موت أبيه، وكان أبوه قد ملك ما لم يملك غيره على ما سيأتي في موضعه إن شاء الله تعالى، ودخل سمرقند وبخارى وغزا بلاد ما وراء النهر، وكان أخوه السلطان سنجر - المذكور في حرف السين إن شاء الله تعالى - نائبه على خراسان، وفي محاربته قتل عمه تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان - كما سيأتي عند ذكره في حرف التاء إن شاء الله تعالى - وكان مسعوداً، عالي الهمة، لم يكن فيه عيب سوى ملازمته للشراب، والإدمان عليه.

ومولده في سنة أربع وسبعين وأربعمائة، وتوفي في الثاني عشر من شهر ربيع الآخر، وقيل: الأول، سنة ثمان وتسعين وأربعمائة ببروجرد وأقام في السلطنة اثنتي عشرة سنة وأشهراً، رحمه الله تعالى.

وبركياروق: بفتح الباء الموحدة وسكون الراء والكاف وفتح الياء المثناة من تحتها وبعد الألف راء مضمومة وواو ساكنة وقاف.

وبروجرد - بضم الباء الموحدة والراء وسكون الواو وكسر الجيم وسكون الراء وبعدها دال مهملة - بلدة على ثمانية عشر فرسخا من همدان.

بركات الخشوعي الرفاء

أبو الطاهر بركات ابن الشيخ أبي إسحاق إبراهيم ابن الشيخ أبي الفضل طاهر ابن بركات بن إبراهيم بن علي بن محمد بن أحمد بن العباس بن هاشم الخشوعي الدمشقي الجيروني القرشي الرفاء الأنماطي؛ كان له سماعات عالية وإجازات تفرد بها وألحق الأصاغر بالأكابر، فإنه انفرد في آخر عمره بالسماع والإجازة من أبي محمد هبة الله بن احمد بن الأكفاني، وانفرد بالإجازة من أبي محمد القاسم الحريري البصري صاحب المقامات، أجازة في سنة اثنتي عشرة وخمسمائة من البصرة، وهو من بيت الحديث، حدث هو وأبوه وجده، وسئل أبوه: لم سموا الخشوعيين؟ فقال: كان جدنا الأعلى يؤم بالناس، فتوفي في المحراب، فسمي الخشوعي نسبة إلى الخشوع.

وكان مولد أبي الطاهر المذكور بدمشق في رجب سنة عشر وخمسمائة، وتوفي ليلة السابع والعشرين من صفر سنة ثمان وتسعين وخمسمائة بدمشق، ودفن من الغد بباب الفراديس على والده، رحمهما الله تعالى، وهو آخر من روى بالإجازة عن الحريري.

والفرشي - بضم الفاء وسكون الراء وبعدها شين مثلثة - نسبة إلى بيع الفرس. والأنماطي: الذي يبيع الفرش أيضاً. والرفاء: معروف.

واجتمعت بجماعة من أصحاب أبي الطاهر المذكور، وسمعت عليهم وأجازوني، ولقيت ولده بالديار المصرية، وكان يتردد إلي في كثير من الأوقات وأجازني جميع مسموعاته وإجازاته من أبيه.

برجوان خادم العزيز

الأستاذ أبو الفتوح برجوان الذي ينسب إليه حارة برجوان بالقاهرة؛ كان من خدام العزيز صاحب مصر ومدبري دولته، وكان نافذ الأمرمطاعاً، نظر في أيام الحاكم في ديار مصر والحجاز والشام والمغرب وأعمال الحضرة، وذلك في سنة ثمان وثمانين وثلثمائة - وسيأتي في ترجمة العزيز نزار طرف من

خبره إن شاء الله تعالى – وكان أسود.

وقتل عشية يوم الخميس السادس والعشرين من شهر ربيع الآخر، وقيل: بل قتل يوم الخميس منتصف جمادى الأولى سنة تسعين وثلثمائة في القصر بالقاهرة بأمر الحاكم، ضربه أبو الفضل ريدان الصقلبي صاحب المظلة في جوفه بسكين فمات من ذلك.

وذكر ابن الصيرفي الكاتب المصري في أخبار وزراء مصر أن برجوان نظر في أمور المملكة في شهر رمضان من سنة سبع وثمانين وثلثمائة، ولما قتل خلف ألف سراويل دبيقي بألف تكة حرير، ومن الملابس والفرش والآلات والكتب والطرائف مالا يحصى كثرة، والله أعلم.

وريدان المذكور هو الذي تنسب إليه الريدانية خارج باب الفتوح أحد أبواب القاهرة.

ولما قتل برجوان رد الحاكم النظر في جميع ما كان بيده إلى قائد القواد أبي عبد الله الحسين ابن القائد جوهر – وسيأتي ذكره في ترجمة أبيه إن شاء الله تعالى -؛ ثم قتل الحاكم ريدان المذكور في أوائل سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة، وكان المباشر لقتله مسعود الصقلبي صاحب السيف، رحمهم الله تعالى.

وبرجوان: بفتح الباء الموحدة وسكون الراء وفتح الجيم والواو وبعد الألف نون.

وريدان – بفتح الراء وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح الدال المهملة وبعد الألف نون – هكذا وجدته مقيدا بخط بعض الفضلاء.

والصقلبي – بفتح الصاد المهملة وسكون القاف وبعد اللام المفتوحة باء موحدة – هذه النسبة إلى الصقالبة، وهم جنس من الناس يجلب منهم الخدام.

بشار بن برد

أبو معاذ بشار بن برد بن يرجوخ العقيلي بالولاء الضرير الشاعر المشهور؛ ذكر له أبو الفرج الأصبهاني في كتاب الأغاني ستة وعشرين جدا أسماؤهم أعجمية، أضربت عن ذكرها لطولها واستجامها وربما يقع فيها التصحيف والتحريف، فإنه لم يضبط شيئاً منها، فلا حاجة إلى الاطالة فيها بلا فائدة، وذكر من أحواله وأموره فصولا كثيرة.

وهو بصري قدم بغداد، وكان يلقب بالمرعث، وأصله من طخارستان من سبي المهلب بن أبي صفرة، ويقال: إن بشاراً ولد على الرق أيضا، وأعتقته امرأة عقيلية فنسب إليها، وكان أكمة ولد أعمى، جاحظ الحديقتين، قد تغشاهما لحم أحمر. وكان ضخماً عظيم الخلق والوجه مجدراً طويلاً، وهو في أول مرتبة المحدثين من الشعراء المجيدين فيه، فمن شعرهفي المشورة، وهو من أحسن شيء قيل في ذلك:

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن ... بحزم نصيح أو نصاحة حازم

ولا تجعل الشورى عليك غضاضة ... فريش الخوافي تابع للقوادم

وما خير كف أمسك الغل أختها ... وما خير سيف لم يؤيد بقائم

وله البيت السائر المشهور، وهو:

هل تعلمين وراء الحب منزلة ... تدني إليك فإن الحب أقصاني

ومن شعره، وهو أغزل بيت قاله المولدون:

أنا والله أشتهي سحر عيني ... ك وأخشى مصارع العشاق

ومن شعره أيضاً:

ياقوم أذني لبعض الحي عاشقة ... والأذن تعشق قبل العين أحيانا

قالوا بمن لا ترى تهذي فقلت لهم ... الأذن كالعين توفي القلب ما كانا

أخذ معنى البيت الأول لأب حفص عمر المعروف بابن الشحنة الموصلي من جملة قصيدة عدد أبياتها مائة وثلاثة عشر بيتاً يمدح بها السلطان صلاح الدين، رحمه الله تعالى، فقال:

وإني امرؤ أحببتكم لمكارم — سمعت بها والأذن كالعين تعشق

وشعر بشار كثير سائر، فنقتصر منه على هذا القدر.

وكان يمدح المهدي بن المنصور أمير المؤمنين، ورمي عنده بالزندقة، فأمر بضربه فضرب سبعين سوطاً، فمات من ذلك في البطيحة بالقرب من البصرة، فجاء بعض أهله فحمله إلى البصرة ودفنه بها، وذلك في سنة سبع، وقيل: ثمان وستين ومائة، وقد نيف على تسعين سنة، رحمه الله تعالى.

ويروى عنه أنه كان يفضل النار على الأرض، ويصوب رأي إبليس في امتناعه من السجود لآدم صلوات الله عليه وسلامه، وينسب إليه من الشعر في تفضيل النار على الأرض قوله:

الأرض مظلمة، والنار مشرقة — والنار معبودة مذ كانت النار

وقد روي أنه فتشت كتبه فلم يصب فيها شيء مما كان يرمى به، وأصيب له كتاب فيه إني أردت هجاء آل سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس – رضي الله عنهم – فذكرت قرابتهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمسكت عنهم والله أعلم بحاله.

وقال الطبري في تارخه: كان سبب قتل المهدي لبشار أن المهدي ولى صالح بن داود أخا يعقوب بن داود وزير المهدي ولايةً، فهجاه بشار بقوله ليعقوب:

هم حملوا فوق المنابر صالحاً — أخاك فضجت من أخيك المنابر

فبلغ يعقوب هجاؤه، فدخل على المهدي وقال له: إن بشارا هجاك، قال: ويلك، ماذا قال؟ قال: يعفيني أمير المؤمنين من إنشادذلك، فقال: لابد، فأنشده:

خليفة يزني بعماته — يلعب بالدبوق والصولجان

أبدلنا الله به غيره — ودس موسى في حر الخيزران

فطلبه المهدي، فخاف يعقوب أن يدخل عليه فيمدحه فيعفو عنه، فوجه إليه من ألقاه في البطيحة.

ويرجوخ: بفتح الياء المثناة من تحتها وسكون الراء وضم الجيم وبعد الواو الساكنة خاء معجمة.

والعقيلي – بضم العين المهملة وفتح القاف وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها لام – هذه النسبة إلى عقيل بن كعب، وهي قبيلة كبيرة.

والمرعث – بضم الميم وفتح الراء وتشديد العين المهملة المفتوحة وعدها ثاء مثلثة –وهو الذي في أذنه رعاث، والرعاث القرطة، واحدها رعثة، وهي القرط، قلب بذلك لأنه كان مرعثاً في صغره، ورعثات الديك المتدلي أسفل حنكه، والرعث: الاسترسال والتساقط، وكأن اسم القرطة اشتق منه، وقيل في تلقيبه بذلك غير هذا، وهذا أصح.

وطخارستان –بضم الطاء المهملة وفتح الخاء المعجمة وبعد الألف راء مضمومة وبعدها سين ساكنة مهملة ثم تاء مثناة من فوقها وبعد الألف نون – وهي ناحية كبيرة مشتملة على بلدان وراء نهر بلخ على جيحون خرج منها جماعة من العلماء.

بشر الحافي

أبو نصر بشر بن الحارث بن عبد الرحمن بن عطاء بن هلال بن ماهان بن عبد الله، وكان اسم عبد الله بعبور، وأسلم على يد علي أبي طالب رضي الله عنه، المروزي المعروف بالحافي، أحد رجال الطريقة رضي الله عنهم؛ كان من كبار الصالحين، وأعيان الأتقياء المتورعين، أصله من مرو من قرية من قراها يقال لها مابرسام، وسكن بغداد، وكان من أولاد الرؤساء والكتاب.

وسبب توبته أنه أصاب في الطريق ورقة وفيها اسم الله تعالى مكتوب، وقد وطئتها الأقدام، فأخذها واشترى بدراهم كانت معه غاليةً فطيب بها الورقة وجعلها في شق حائط، فرأى في النوم كأن قائلاً يقول له: يابشر، طيبت اسمي لأطيبن اسمك في الدنيا والآخرة، فلما تنبه من نومه تاب.

ويحكى أنه أتى باب المعافى بن عمران، فدق عليه الحلقة، فقيل: من؟ فقال: بشر الحافي، فقالت بنت من داخل الدار: لو اشتريت نعلا بدانقين لذهب

عنك اسم الحافي.

وإنما لقب بالحافي لأنه جاء إلى إسكاف يطلب منه شسعاً لإحدى نعليه، وكان قد انقطع، فقال الإسكاف: ما أكثر كلفتكم على الناس! فألقى النعل من يده والأخرى من رجله، وحلف لا يلبس نعلاً بعدها.

وقيل لبشر: بأي شيء تأكل الخبز؟ فقال: أذكر العافية فأجعلها إداماً.

ومن دعائه: اللهم إن كنت شهرتني في الدنيا لتفضحني في الآخرة فاسلبه عني. ومن كلامه: عقوبة العالم في الدنيا أن يعمى بصر قلبه. وقال: من طلب الدنيا فليتهيأ للذل. وقال بعضهم: سمعت بشراً يقول لأصحاب الحديث: أدوا زكاة هذا الحديث، قالوا: وما زكاته؟ قال: اعملوا من كل مائتي حديث بخمسة أحاديث. وروى عنه سري السقطي وجماعة من الصالحين، رضي الله تعالى عنهم. قال الجوهري: سمعت بشر بن الحارث يقول في جنازة أخته: إن العبد اذا قصر في طاعة الله سلبه الله من يؤنسه. وقال بشر: كنت في طلب صديق لي ثلاثين سنة فلم أظفر به، فمررت في بعض الجبال بأقوام مرضىوزمني وعمي وبكم، فسألتهم، فقالوا: في هذا الكهف رجل يمسح عليهم بيديه فيبرأون بإذن الله تعالى وبركة دعائه، قال: فقعدت أنتظر فخرج شيخ عليه جبة صوف فلمسهم ودعا لهم، فكانوا يبرأون من عللهم بمشيئة الله تعالى؛ قال: فأخذت ذيله فاقل: حل عني ياسري، يراك تأنس بغيره فتسقط من عينه، ثم تركني ومضى.

وكان مولده سنة خمسين ومائة، وتوفي في شهر ربيع الآخر سنة ست وعشرين، وقيل: سبع وعشرين ومائتين، وقيل: يوم الأربعاء عاشر المحرم، وقيل: في رمضان بمدينة بغداد، وقيل: بمرو، رحمه الله تعالى.

وكان لبشر ثلاث أخوات، وهن مضغة، ومخة، وزبدة، وكن زاهدات عابدات ورعات، وأكبرهن مضغة ماتت قبل موت أخيها بشر، فحزن عليها بشر حزناً شديداً، وبكى بكاء كثيراً، فقيل له في ذلك، فقال: قرأت في بعض الكتب أن العبد إذا قصر في خدة ربه سلبه أنيسه، وهذه أختي مضغة كانت أنيستي في الدنيا.

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: دخلت امرأة على أبي فقالت له: يا أبا عبد الله، إني امرأة أغزل في الليل على ضوء السراج، وربما طفىء السراج فأغزل على ضوء القمر، فهل علي أن أبين غزل السراج من غزل القمر؟ فقال لها أبي: إن كان عندك بينهما فرق فعليك أن تبيني ذلك، فقالت له: يا أبا عبد الله أنين المريض هل هو شكوى؟ فقال لها: إني أرجو أن لا يكون شكوى، ولكن هو اشتكاء إلى الله تعالى، ثم انصرفت؛ قال عبد الله: فقال لي أبي: يا بني ما سمعت إنساناً قط يسأل عن مثل ما سألت هذه المرأة، اتبعها؛ قال عبد الله: فتبعتها إلى أن دخلت دار بشر الحافي، فعرفت أنها أخت بشر، فأتيت أبي فقلت له: إن المرأة أخت بشر الحافي، فقال أبي: هذا والله هو الصحيح، محال أن تكون هذه المرأة إلا أخت بشر الحافي.

وقال عبد الله أيضاً: جاءت مخة أخت بشر الحافي إلى أبي فقالت: يا أبا عبد الله، رأس مالي دانقان أشتري بهما قطنا فأغزله وأبيعه بنصف درهم، فأنفق دانقاً من الجمعة إلى الجمعة، وقد مر الطائف ليلة وعه مشعل فاغتنمت ضوء المشعل وغزلت طاقين في ضوئه، فعلمت أن الله سبحانه وتعالى في مطالبة، فخلصني من هذا خلصك الله تعالى، فقال أبي: تخرجين الدانقين ثم تبقين بلا رأس مال حتى يعوضك الله خيرا منه؛ قال عبد الله: فقلت لأبي: لو قلت لها حتى تخرج رأس مالها، فقال: يابني سؤالها لا يتحمل التأويل، فمن هذه المرأة؟ فقلت هي مخة أخت بشر الحافي، فقال أبي: من ههنا أتيت.

وقال بشر الحافي: تعلمت الزهد من اختي فإنها كانت تجتهد أن لا تأكل ما لمخلوق فيه صنع.

بشر المريسي

أبو عبد الرحمن بشر بن غياث بن أبي كريمة المريسي الفقيه الحنفي المتكلم؛ هو من موالي زيد بن الخطاب، رضي الله عنه.

أخذ الفقه عن القاضي أبي يوسف الحنفي، إلا أنه استغل بالكلام، وجرد القول بخلق القرآن، وحكي عنه في ذلك أقوال شنيعة، وكان مرجئاً، وإليه تنسب الطائفة المريسية من المرجئة، وكان يقول: إن السجود للشمس والقمر ليس بكفر، ولكنه علامة الكفر. وكان يناظر الإمام الشافعي رضي الله عنه، وكان لا يعرف النحو ويلحن لحناً فاحشاً، وروى الحديث عن حماد ابن سلمة وسفيان بن عيينة وأبي يوسف القاضي وغيرهم، رحمهم الله تعالى.

ويقال: إن أباه كان يهودياً صياغاً بالكوفة، وذكر ابن أبي عون الكاتب في كتاب"الأجوبة"أن أم بشر المريسي شهدت عند بعض القضاة فجعلت تلقن امرأة معها الشهادة، فقال الخصم للقاضي: ما تراها تلقنها، قالت له: يا جاهل إن الله تعالى يقول أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى – الآية قال عمارة بن وثيمة: أخبرني عبد الله بن إسماعيل بن عياش قال: كتب بشر المريسي إلى رجل يستقرض منه شيئا فكتب إليه الرجل: الدخل قليل والدين ثقيل والمال مكذوب عليه، فكتب إليه بشر: إن كنت كاذباً فجعلك الله صادقا، وإن كنت معتذراً بباطل فجعلك الله معتذراً بحق.

وقال القاسم بن إسماعيل: قال لي الجاحظ: قال بشر المريسي وقد سئل عن رجل فقال: هو على أحسن حال واهنئوها، فضحك الناس من لحنه، فقال قالسم التمار: ماهذا إلا صواباً مثل قول ابن هرمة وهو:

ان سليمى و الله يكلؤها — ضنت بشيء ما كان يرزؤها

قال: فشغل الناس عن لحن المريسي بتفسير القاسم.

وتوفي في ذي الحجة سنة ثماني عشرة، وقيل: تسع عشرة ومائتين، ببغداد.

والمريسي – بفتح الميم وكرس الراء وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها سين مهملة – هذه النسبة إلى مريس وهي قرية بمصر، هكذا ذكره الوزير أبو سعد في كتاب النتف والطرف، وسمعت أهل مصر يقولون: إن المريس جنس من السودان بين بلاد النوبة وأسوان من ديار مصر وكأنهم جنس من النوبة، وبلادهم متاخمة لبلاد أسوان، وتأتيهم في الشتاء ريح باردة من ناحية الجنوب يسمونها المريسي، ويزعمون أنها تأتي من تلك الجهة، والله أعلم، ثم إني رأيت بخط من يعتني بهذا الفن أنه كان يسكن في بغداد بدرب المريس فنسب إليه، قال: وهوبين نهر الدجاج ونهر البزازين، قلت: والمريس في بغداد هو الخبز الرقاق يمرس بالسمن والتمر كما يصنعه أهل مصر بالعسل بدل التمر، وهو الذي يسمونه البسيسة.

القاضي بكار بن قتيبة

القاضي أبو بكرة بكار بن قتيبة بن أبي برذعة بن عبيد الله بن بشر بن عبيد الله بن أبي بكرة نفيع بن الحارث بن كلدة الثقفي صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ كان حنفي المذهب، وتولى القضاء بمصر سنة ثمان – أوتسع – وأربعين ومائتين، وقيل: قدمها متوليا قضاءها من قبل المتوكل يوم الجمعة لثمان خلون من جمادى الآخرة سنة ست وأربعين ومائتين، وظهر من حسن سيرته وجميل طريقته ما هو مشهور، وله مع أحمد بن طولون صاحب مصر وقائع مذكورة، وكان يدفع له كل سنة ألف دينار خارجا عن المقرر له، فيتركها بختمها ولايتصرف فيها، فلما دعاه إلى خلع الموفق بن المتوكل – وهو والد المعتضد – من ولاية العهد امتع القاضي بكار من ذلك، والقضية مشهورة، فاعتقله أحمد، ثم طالبه بجملة المبلغ الذي كان يأخذه كل سنة، فحمله إليه بختمه، وكان ثمانية عشر كيساً، فاستحيا أحمد منه، وكان يظن أنه أخرجها وأنه يعجز عن القيام بها فلهذا طالبه، ولما اعتقله أمره أن يسلم القضاء إلى محمد بن شاذان الجوهري، ففعل، وجعله كالخليفة له، وبقي مسجوناً مدة سنين، ووقفه للناس مراراً كثيرة، وكان يحدث في السجن من طاق فيه لأن أصحاب الحديث شكوا إلى ابن طولون انقطاع إسماع الحديث من بكار وسألوه أن يأذن له في الحديث ففعل، وكان يحدث على ما ذكرناه. وكان القاضي بكار أحد البكائين التالين الكتاب الله عزوجل، وكان إذا فرغ من الحكم خلا بنفسه وعرض عليها قصص جميع من تقدم إليه وما حكم به وبكى، وكان يخاطب نفسه ويقول: يا بكار، تقدم إليك رجلان في كذا، وتقدم إليك خصمان في كذا، وحكمت بكذا، فما يكون جوابك غداً؟ وكان يكثر الوعظ للخصوم إذا أراد اليمين، ويتلو عليهم قوله تعالى إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً – إلى آخر الآية، وكان يحاسب أمناءه في كل وقت، ويسأل عن الشهود في كل وقت.

وكانت ولادته بالبصرة سنة اثنتين وثمانين ومائة، وتوفي وهو باق على القضاء مسجونا يوم الخميس لست خلون من ذي الحجة سنة سبعين ومائتين بمصر، وبقيت مصر بعده بلا قاض ثلاث سنين، وقبره بالقرب من قبر الشريف ابن طبطبا وقبره مشهور هناك عند مصلى بني مسكين على الطريق تحت الكوم بينه وبين الطريق المذكور معروف باستجابة الدعاء عنده.

وقيل: كانت ولايته القضاء سنة ست وأربعين ومائتين، وهو الأصح وقيل: سنة خمس وأربعين، رحمه الله تعالى.

القاضي بكار بن قتيبة

القاضي أبو بكر بكار بن قتيبة بن أسد بن عبد الله بن بشر بن أبي بكرة بن نفيع بن كلدة الثقفي بن الحارث مولى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ حدث عن أبي دواد الطيالسي وغيره، وكان أحد الفقهاء على مذهب أبي حنيفة رضي الله عنه، أخذ الفقه عن هلال بن يحيى بالبصرة وولي قضاء مصر أربعاً وعشرين سنة وستة أشهر وستة عشر يوماً.

وكان من البكائين التالين لكتاب الله عز وجل، وكان يكثر الوعظ للخصوم ويتلو عليهم إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً اولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم – هذا مع كل حالف، فمنهم من يرجع عن اليمين؛ وكان يحاسب أمناءه في كل شهر ويسأل عن الشهود.

قال أبو حاتم ابن أخي بكار: قدم على عمي رجل من البصرة له علم وزهادة ونسك فأكرمه وقربة وأدناه، وذكر أنه كان معه في المكتب، فمضت به الأيام فجاء في شهادة ومعه شاهدان من شهود مصر فردياً عند عمي فما قبل شهادته، فقلت لعمي: هذا رجل زاهد وأنت تعرفه، قال: يا ابن أخي ما رددت شهادته إلا أنه كنا صغاراً وكنا على مائدة عليها أرز وفيه حلوى فنقبت الأرز بإصبعي فاقل لي: أخرقتها لتغرق أهلها فقلت له: أتهزأ بكتاب الله تعالى على الطعام؟ ثم أمسكت عن كلامه مدة، وما أقدر على قبوله وأنا أذكر ذلك منه.

و لم يزل على القضاء إلى أن جرى بينه وبين أحمد بن طولون ما جرى وذلك ان المعتمد على الله تعالى ابن جعفر المتوكل لما ولي الخلافة عقد لأخيه أبي أحمد ولقبه الموفق وأقبل المعتمد على لذاته واشتغل عن الرعية، فغلب على الأ مر وقام به أحسن قيام وأتمه، فسار المعتمد في جمادى الآخرة سنة سبع وستين ومائتين يريد مصر بمكاتبة جرت بينه وبين أحمد بن طولون لما كان ابن طولون بدمشق، فلما بلغ الموفق ذلك وهو في قتال صاحب الزنج أنفذ غسكراً عليه إسحاق بن كنداج، فرد المعتد وسلمه إلى صاعد بين مخلد وحجر عليه، فكتب ابن طولون أن الموفق نكث بيعة المعتمد وأمر بجمع القضاة والفقهاء والأشراف وسيرهم إلى دمشق فاجتمعوا بها، وخلع الموفق لأن الفقهاء أفتوا بخلعه إلابكار ابن قيبة فقال له: أنت أوردت علي كتاباً من المعتمد ان الموفق ولي عهده فأورد علي كتابا منه بخلعه، فقال: هو الآن مغلوب مقهور، وأنا أحبسك حتى يرد كتابه، فقيده وحبسه واسترجع منه ما كان دفعه إليه من جوائزه، وولى أحمد بن طولون محمد بن شاذان الجوهري. و لم يزل بكار محبوساً إلى أن اعتل أحمد ابن طولون سننة سبع ومائتين، ولما مات قيل لبكار: انصرف إلى مترلك، فقال: الدار بأجرة وقد صلحت لي، فأقام وجاء أصحاب الدار يطلبون أجرة ما مضى فقال بكار: على مذهبي الغاصب لا أجرة عليه ولكن أدفع لكم في المستقبل وليس علي فيما مضى أجرة لأني كنت مغصوباً على نفسي؛ ومات العباس بن أحمد ابن طولون بعده باثنتي عشرة ليلة ومات بكار بعده بأربعين يوما وسنه تسع وثمانون سنة، وصلى عليه ابن أخيه محمد بن لا لحسين بن قتيبة، وعاش بعد عمه عشر سنين ودفن بمصر عند مصلى بني مسكين رحمه الله تعالى قريباً من قبر الشريف ابن طبا طبا، وقبره مشهور هناك على الطريق تحت الكوم بينه وبين الطريق المذكور، معروف باستجابة الدعاء عنده.

أبو بكر المخزومي

أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمرابن مخزوم القرشي المخزومي، أحد الفقهاء السبعة بالمدينة، وكنيته اسمه – وعادة المؤرخين أن يذكروا من كنيته إسمه في الحرف الموافق لأول المضاف إليه، والمضاف إليه ههنا بكر لهذا ذكرنته في الباء، ومن المؤرخين من يفرد للكنى بابا –؛ وكان أبو بكر المذكور من سادات التابعين، وكان يسمى راهب قريش، وأبوه الحارث أخو أبي جهل بن هشام من جلة الصحابة، رضي الله عنهم.

ومولده في خلافة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه؛ وتوفي سنة أربع وتسعين للهجرة رحمه الله تعالى، وهذه السنة تسمى سنة الفقهاء، وإنما سميت بذلك لأنه مات فيها جماعة منهم.

وهؤلاء الفقهاء السبعة كانوا بالمدينة في عصر واحد، وعنهم انتشر العلم والفتيا في الدنيا – ويأتي ذكر كل واحد منهم في حرفه، وننبه عليه في موضعه إن شاء الله تعالى – وقد جمعهم بعض العلماء في بيتين، فقال:

ألا كل من لايقتدي بأئمةٍ فقسمته ضيزى عن الحق خارجه

فخذهم عبيد الله عروة قاسمٍ سعيد سليمان أبو بكر خارجة

ولولا كثرة حاجة فقهاء زماننا إلى معرفتهم لما ذكرتهم، لأن في شهرتهم غنية عن ذكرهم في هذا المختصر، وإنما قيل لهم الفقهاء السبعة وخصوا بهذه التسمية لأن الفتوى بعد الصحابة رضوان الله عليهم صارت إليهم، وشهروا بها وقد كان في عصرهم جماعة من العلماء التابعين مثل سالم بن عبد الله بن عمر رضي الله عنه وأمثاله، ولكن الفتوى لم تكن إلا لهؤلاء السبعة، هكذا قاله الحافظ السلفي.

المازني النحوي

أبو عثمان بكر بن محمد بن عثمان – وقيل: بقية، وقيل: عدي – بن حبيب المازني البصري النحوي؛ كان إمام عصره في النحو والأدب، وأخذ الأدب عن أبي عبيدة والأصمعي وأبي الأنصاري وغيرهم، وأخذ عنه أبو العباس المبرد وبه انتفع وله عنه روايات كثيرة، وله من التصانيف كتاب ما تلحن في العامة وكتاب التصريف وكتاب العروض وكتاب القوافي وكتاب الديباج عللاً خلاف كتاب أبي عبيدة.

قال أبو جعفر الطحاوي الحنفي المصري: سمعت القاضي بكار بن قتيبة، قاضي مصر، يقول: ما رأيت نحوياً قط يشبه الفقهاء إلا حيان بن هرمة والمازني، يعني أبا عثمان المذكور، وكان في غاية الورع.

ومما رواه المبرد أن بعض أهل الذمة قصده ليقرأ عليه كتاب سيبويه وبذل له مائة دينار في تدريسه إياه، فامتنع أبو عثمان من ذلك، قال: فقلت له: جعلت فداك، أترد هذه المنفعة مع فاقتك وشدة إضاقتك؟ فقال: إن هذا الكتاب يشتمل على ثلثمائة وكذا وكذا آية من كتاب الله عز وجل، ولست أرى أن أمكن منها ذمياً غيرة على كتاب الله وحمية له؛ قال: فاتفق أن غنت جارية بحضرة الواثق بقول العرجي:

أظلوم إن مصابكم رجلاً أهدى السلام تحية ظلم

فاختلف من كان بالحضرة في إعراب رجلاً، فمنهم من نصبه وجعله اسم إن، ومنهم من رفعه على أنه خبرها، والجارية مصرة على أن شيخها أباعثمان المازني لقنها إياه بالنصب، فأمر الواثق بإشخاصه.

قال أبو عثمان: فلما مثلت بين يديه قال: ممن الرجل؟ قلت: من بني مازن، قال: أي الموازن؟ أمازن تميم، أم مازن قيس، أم مازن ربيعة؟ قلت: من مازن ربيعة، فكلمني بكلام قومي، وقال: باسمك؟ لأنهم يقلبون الميم باء والباء ميماً، قال: فكرهت أن أجيبه على لغة قومي كيلا أواجهه بالمكر، فقلت: بكر يا أمير المؤمنين، ففطن لما قصدته، وأعجب به، قم قال: ماتقول في قول الشاعر:

أظلوم إن مصابك رجلاً

أترفع رجلاً أم تنصبه؟ فقلت: بل الوجه النصب يا أمير المؤمنين، فقال: و لم ذلك؟ فقلت: إن مصابكم مصدر بمعنى إصابتكم، فأخذ اليزيدي في معارضتي، فقلت: هو بمنزلة قولك إن ضربك زيداً ظلم فالرجل مفعول مصابكم وهو منصوب به والدليل عليه أن الكلام معلق إلى أن تقول ظلم فيتم، فاستحسنه الواثق وقال: هل لك من ولد؟ قلت: نعم بنية ياأمير المؤمنين، قال: ما قالت لك عند مسيرك؟ فقلت: طافت حولي وأنشدت وهي تبكي قول الأعشى:

أيا أبتا لاترم عندنا فإنا بخير إذا لم ترم

أرانا إذا أضمرتك البلا د تجفى وتقطع منا الرحم

قال: فما قلت لها؟ قال: قلت لها ما قال جرير لابنته:

ثقي بالله ليس له شريك ومن عند الخليفة بالنجاح

قال: على النجاح، إن شاء الله تعالى، ثم أمر لي بألف دينار، وردني مكرماً، قال المبرد: فلما عاد إلى البصرة قال لي: كيف رأيت يا أبا العباس؟ رددنا لله مائة فعوضنا ألفا.

وكان أبو عثمان مع علمه بالنحو متسعاً في الرواية؛ قال أبو القاسم الكوكبي: حدثني العتري قال: أنشد رجل أبا عثمان المازني شعراً له وقال: كيف تراه؟ قال: أراك قد عملت عملاً بإخراج هذا من صدرك لأنك لو تركته لأورثك السل.

وروى المبرد عنه أيضاً قال: قرأ علي رجل كتاب سيبويه في مدة طويلة، فلما بلغ آخره قال لي: أما أنت فجزاك الله خيرا، وأما أنا فما فهمت منه حرفاً.

وتوفي أبوعثمان المازني المذكور في سنة تسع وأربعين ومائتين، وقيل: ثمان وأربعين، وقيل: ست وثلاثين ومائتين بالبصرة، رحمه الله تعالى.

بلكين جد باديس

أبو الفتوح بلكين بن زيري بن مناد الحميري الصنهاجي؛ وهو جد باديس المقدم ذكره، ويسمى أيضاً يوسف، لكن بلكين أشهر، وهو الذي استخلفه المعز بن المنصور العبيدي على إفريقية عند توجهه إلى الديار المصرية، وكان استخلافه إياه يوم الأربعاء لسبع بقين من ذي الحجة سنة إحدى وستين وثلثمائة، وأمر الناس بالسمع والطاعة له، وسلم إليه البلاد، وخرجت العمال وجباة الأموال باسمه، وأوصاه المعز بأمور كثيرة، وأكد عليه في فعلها، ثم قال: إن نسيت ما أوصيتك به فلا تنس ثلاثة أشياء: إياك أن ترفع الجباية عن أهل البادية، والسيف عن البربر، ولا تول أحداً من إخوتك وبني عمك، فإنهم يرون أنهم أحق بهذا الأمر منك، وافعل مع أهل الحاضرة خيراً، وفارقه على ذلك، وعاد من وداعه، وتصرف في الولاية.

و لم يزل حسن السيرة، تام النظر في مصالح دولته ورعيته إلى أن توفي يوم الأحد لسبع بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وسبعين، بموضع يقال له: واركلان مجاور إفريقية، وكانت علته القولنج، وقيل: خرجت في يده بثرة فمات منها، رحمه الله تعالى.

وكان له أربعمائة حظية، حتى قيل: إن البشائر وفدت عليه في يوم واحد بولادة سبعة عشر ولدا.

وبلكين: بضم الباء الموحدة واللام وتشديد الكاف المكسورة وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها نون.

وزيري: بكسر الزاي وسكون الياء المثناة من تحتها وكسر الراء وبعدها ياء.

وبقية نسبه وضبط نسبته وألفاظه مذكور في حرف التاء عند ذكر حفيده الأمير تميم بن المعز بن باديس، رحمهم الله تعالى.

وأما واركلان: فهو بفتح الواو وبعد الألف راء مفتوحة أيضا ثم كلف ساكنة وبعد اللام ألف نون.

بوران

بوران بنت الحسن بن سهل، وسيأتي خبر أبيها إن شاء الله تعالى؛ ويقال: إن اسمها خديجة، وبوران لقب، والأول أشهر.

وكان المأمون قد تزوجها لمكان أبيها منه، واحتفل أبوها بأمرها، وعمل من الولائم والأفراح ما لم يعهد مثله في عصر من الأعصار، وكان ذلك بفم الصلح وانتهى أمره إلى أن نثر على الهاشميين والقواد والكتاب والوجوه بنادق مسك فيها رقاع بأسماء ضياع وأسماء جوار وصفات دواب وغير ذلك، فكانت البندقة إذا وقعت في يد الرجل فتحها، فيقرأ ما في الرقعة، فإذا علم مافيها مضى إلى الوكيل المرصد لذلك فيدفعها إليه ويتسلم ما فيها سواء كان ضيعة أو ملكا آخر أو فرسا أو جارية أو مملوكاً.

ثم نثر بعد ذلك على سائر الناس الدنانير والدراهم ونوافج المسك وبيض العنبر، وأنفق على المأمون وقواده وجميع أصحابه وسائر من كان معه من أجناده واتباعه، وكانوا خلقاً لا يحصى، حتى على الجمالين والمكاربة والملاحين وكل من ضمه عسكره، فلم يكن في العسكر من يشتري شيئاً لنفسه ولا لدوابه.

وذكر الطبري في تاريخه أن المأمون أقام عند الحسن تسعة عشر يوماً، يعد له في كل يوم ولجميع من معه ما يحتاج إليه، وكان مبلغ النفقة عليهم خمسين ألف ألف درهم، وأمر له المأمون عند منصرفه بعشرة آلاف ألف درهم، وأقطعه فم الصلح، فجلس الحسن وفرق المال على قواده وأصحابه وحشمه، ثم قال: بعد هذا خرج المأمون نحو الحسن لثمان خلون من شهر رمضان، ورحل من فم الصلح لسبع بقين من شوال سنة عشر ومائتين، وهلك حميد بن عبد الحميد يوم الفطر من هذه السنة، وقال غيره: وفرش للمأمون حصير منسوج بالذهب، فلما وقف عليه نثرت على قدميه لآلىء كثيرة، فلما

رأى تساقط الآلىء المختلفة على الحصير المنسوج بالذهب قال: قاتل الله أبا نواس! كأنه شاهد هذه الحال حين قال في صفة الخمر والحباب الذي يعلوها عند المزاج:

كأن صغرى وكبرى من فواقعها   حصباء در على أرض من الذهب

وقد غلطوا أبا نواس في هذا البيت، وليس هذا موضع إبانة الغلط.

واطلق له المأمون خراج فارس وكور الأهواز مدة سنة، وقالت الشعراء والخطباء في ذلك فأطنبوا ومما يستظرف فيه قول محمد بن حازم الباهلي

بارك الله للحسن   ولبوران في الختن

يا ابن هارون قد ظفر   ت ولكن ببنت من

فلما نمي هذا الشعر إلى المأمون قال: والله ما ندري خيراً أراد أم شراً.

وقال الطبري أيضا: دخل المأمون على بوران الليلة الثالثة من وصوله إلى فم الصلح، فلما جلس معها نثرت عليهما جدتها ألف درة كانت في صينية ذهب، فأمر المأمون أن تجمع وسألها عن عدد الدر كم هو، فقالت: ألف حبة، فوضعها في حجرها وقال لها: هذه نحلتك، وسلي حوائجك، فقالت لها جدتها: كلمي يدك فقد أمرك، فسألته الرضى عن إبراهيم بن المهدي – قلت: وقد تقدم ذكره – فقال: قد فعلت، وأوقدوا في تلك الليلة شمعة عنبر وزنها أربعون منا في تور من ذهب، فأنكر المأمون ذلك عليهم وقال: هذا سرف.

وقال غير الطبري: لما طب المأمون الدخول عليها دافعوه لعذؤر بها، فلم يندفع، فلما زفت إليه وجدها حائضا فتركها، فلما قعد للناس من الغد دخل عليه أحمد بن يوسف الكاتب وقال: يا أمير المؤمنين، هناك الله بما أخذت من الأمر باليمن والبركة، وشدة الحركة، والظفر بالمعركة، فأنشده المأمون:

فارس ماض بحربته   صادق بالطعن في الظلم

رام أن يدمي فريسته   فاتقته من دم بدم

يعرض بحيضها وهو من أحسن الكنايات، حكى ذلك أبو العباس الجرجاني في كتاب الكنايات، وقد رويت هذه القصة على غير هذا الوجه، والله أعلم بالصواب.

وجرى هذا كله في شهر رمضان سنة عشر ومائتين، وعقد عليها في سنة اثنتين ومائتين، وتوفي المأمون وهي في صحبته، وكانت وفاته يوم الخميس لثلاث عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ثماني عشرة ومائتين، وبقيت بعده إلى أن توفيت يوم الثلاثاء لثلاث بقين من شهر بيع الأول سنة إحدى وسبعين ومائتين وعمرا ثمانون سنة، لأن مولدها ليلة الاثنين لليلتين خلتا من صفر سنة اثنتين وتسعين ومائة وكانت وفاتها ببغداد، ويقال: إنها دفنت في قبة مقابلة مقصورة جامع السلطان وإنها باقية إلى الآن، رحمها الله تعالى.

وفم الصلح – بفتح الفاء وبعدها ميم وكسر الصاد المهملة وبعد اللام الساكنة حاء مهملة – وهي بلدة على دجلة قريبة من واسط، كذا ذكره السمعاني. وقال العماد الكاتب في الخريدة: الصلح نهر كبير، يأخذ من دجلة بأعلى واسط عليه نواح كثيرة، وقد علا النهر وآل أمر تلك المواضع إلى الخراب.

قلت: والعماد بذلك أخبر من السمعاني، لأنه أقام بواسط زمانا طويلا، متولي الديوان بها.

تاج الملوك بوري

تاج الملوك أبة سعيد بوري بن أيوب بن شاذي بن مروان الملقب مجد الدين، قد تقدم ذكر أبيه، وهو أخو السلطان صلاح الدين، رحمه الله تعالى؛ وكان أصغر أولاد أبيه، وكانت فيه فضيلة، وله ديوان شعر فيه الغث والسمين لكنه بالنسبة إلى مثله جيد؛ نقلت من ديوانه في أحد مماليكه وقد أقبل من جهة المغرب راكباً فرساً أشهب قوله:

أقبل من أعشقه راكباً من جانب الغرب على أشهب
فقلت :سبحانك ياذا العلا أشرقت الشمس من المغرب

ومما يناسب ذلك قول ابن طلحة الصقلي:

أيتها النفس إليه اذهبي فحبه المشهور من مذهبي
مفضض الثغر له نقطة مسكية في خده المذهب
أيأسني التوبة من حبه طلوعه شمسا من المغرب

ولأحمد بن عثمان الأندلسي:

لما رأيت شعاع خدك ذا متهللاً كتهلل البرق
سبحت من عجب وقلت متى لشمس تطلع من سوى الشرق

وأورد له العماد الكاتب في كتاب الخريدة:

يا حياتي حين يرض ومماتي حين يسخط
آه من ورد على خد يك بالمسك منقط
بين أجفانك سلطا ن على ضعفي مسلط
قد تصبرت وإن بر حبي الشوق وأفرط
فلعل الدهر يوماً بالتلاقي منك بغلط

واورد له أيضا:

أيا حامل الرمح الشبيه بقده وياشهرا سيفاً حكى لحظه عضبا
ضع الرمح واغمد ما سللت فربما قتلت وما حاولت طعناً ولا ضربا

وذكر له غير ذلك أيضا، وله أشياء حسنة.

وكانت ولادته في ذي الحجة سنة ست وخمسين وخمسمائة، وتوفي يوم الخميس الثالث والعشرين من صفر سنة تسع وسبعين وخمسمائة، على مدينة حلب من جراحة أصابته عليها لما حاصرها أخوه السلطان صلاح الدين، رحمه الله تعالى، وأصابته الجراحة يوم نزولهم عليها، وهو السادس عشر من المرحم من السنة المذكورة، وكانت الجراحة طعنة في ركبته.

قال العماد الأصبهاني في البرق الشامي: إن صلاح الدين كان قد أعد لعماد الدين صاحب حلب ضيافة في المخيم بعد الصلح وقبل دخوله البلد، فبينما هو جلس على السماط وعماد الدين إلى جانبه ونحن في أغبط عيش وأتم سروروإذ جاء الحاجب إلى صلاح الدين وأسر إليه بموت أخيه، فلم يتغير عن حالته وأمر بتجهيزه ودفنه سراً، وأعطى الضيافة حقها إلى آخرها، ويقال: إن صلاح الدين كان يقول: ما أخذنا حلب رخيصة بقتل تاج الملوك.

وبوري – بضم الباء الموحدة وسكون الواو وكسر الراء وبعدها ياء مثناة من تحتها – وهو لفظ تركي معناه بالعربية ذئب، انتهى، والله تعالى أعلم.

تتش السلجوقي

تاج الدولة أبو سعيد تتش بن ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق ابن دقاق السلجوقي؛ كان صاحب البلاد الشرقية، فلما حاصر أمير الجيوش بدر الجمالي مدينة دمشق من جهة صاحب مصر – وكان صاحب دمشق يومئذ أتسز بن أوق بن الخوارزمي التركي – سير أتسز المذكور إلى تتش فاستنجد به فأنجده وسار إليه بنفسه، فلما وصل إلى دمشق خرج إليه أتسز، فقبض عليه تتش وقتله واستولى على مملكته وذلك في سنة إحدى وسبعين وأربعمائة لإحدى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الآخر، وكان قد ملك دمشق في ذي القعدة سنة ثمان وستين وأربعمائة، ورأيت في بعض التواريخ أن ذلك كان في سنة اثنتين وسبعين، والله أعلم. ثم ملك حلب بعد ذلك في سنة ثمان وسبعين وأربعمائة كما تقدم في ترجمة آق سنقر، واستولى على البلاد الشامية، ثم جرى بينه وبين ابن أخيه بر كياروق المقدم ذكره منافرات ومشاجرات أدت إلى المحاربة، فتوجه إليه وتصافا بالقرب من مدينة الري في يوم الأحد سابع عشر صفر سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، فانكسر تتش المذكور، وقتل في المعركة ذلك النهار، ومولده في شهر رمضان سنة ثمان وخمسين وأربعمائة.

وخلف ولدين: أحدهما فخر الملوك رضوان، والآخر شمس الملوك أبو نصر دقاق، فاستقل رضوان بمملكة حلب، ودقاق بمملكة دمشق، وتوفي رضوان في سلخ جمادى الأولى سنة سبع وخمسمائة، ومن نوابه أخذ الفرنج أنطاكية في سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة، وتوفي دقاق في ثامن عشر شهر رمضان سنة سبع وتسعين وأربعمائة، ودفن في مسجد بحكر الفهادين بظاهر دمشق الذي على نهر بردى، وكان قد حصل له مرض متطاول، وقيل: إن أمه سمته في عنقود عنب.

فلما مات قام بالملك ظهير الدين أبو منصور طغتكين، وكان أتابكه وتزوج أمه في حياة أبيه، زوجه إياها وهو عتيق تتش رحمهم الله تعالى، وأولاد الملك رضوان المقيمون بظاهر حلب هم أولاد رضوان المذكور. ولم يزل ظهير الدين طغتكين مالك دمشق إلى أن توفي يوم السبت لثمان خلون من صفر سنة اثنتين وعشرين وخمسائة.

وتولى الأمر بعده ولده تاج للملوك أبو سعيد بوري، إلى أن توفي يوم الاثنين الحادي والعشرين من رجب سنة ست وعشرين وخمسمائة من جراحة أصابته من الباطنية.

وتولى بعده ولده شمس الملوك إسماعيل إلى أن قتل يوم الأربعاء رابع عشر شهر ربيع الآخر سنة تسع وعشرين وخمسمائة، قتلته أمه خاتون زمرد بنت جاولي.

وأجلست أخاه شهاب الدين أبا القاسم محمود بن بوري، فتولى الأمر بعده بدمشق إلى أن قتل ليلة الجمعة الثالث والعشرين من شوال سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة، قتله غلامه التغش ويوسف الخادم والفراش الخركاوي.

وصبيحة قتله وصل أخوه جمال الدين محمد بن بوري من بعلبك وكان صاحبها، فملك دمشق وأقام بها إلى أن توفي ليلة الجمعة ثامن من شعبان سنة أربع وثلاثين وخمسمائة.

وتولى بعده مملكة دمشق ولده مجير الدين أبق بن محمد بن بوري بن طغتكين، إلى أن نزل عليها نور الدين محمود بن زنكي في التاريخ الآتي ذكره في ترجمته إن شاء الله تعالى وأخذها منه، وعرضه عنها حمص فأقام بها يسيرا ثم انتقل إلى بالس التي على الفرات بأمر نور الدين، وأقام بها مدة ثم توجه إلى بغداد وأقبل عليه الامام المقتفي، ولا أعلم متى مات. ولما كان بدمشق كان مدبر دولته معين الدين أنز بن عبد الله مملوك جده طغتكين، وهو الذي ينسب إليه قصر معين الدين ببلاد الغور من أعمال دمشق، وتوفي معين الدين المذكور في ليلة الثالث والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة أربع وأربعين وخمسائة وهو الذي تزوج نور الدين محمود ابنته ثم تزوجها من بعده السلطان صلاح الدين رحمهم الله أجمعين. وله بدمشق مدرسة، ثم وجدت تاريخ وفاة مجير الدين أبق فذكرتها في ترجمة نور الدين محمود – الآتي ذكره إن شاء الله تعالى –.

تقية الصورية

أم علي تقية بنت أبي الفرج غيث بن علي بن عبد السلام بن محمد بن جعفر السلمي الأرمنازي الصوري، وهي أم تاج الين أبي الحسن علي بن فاضل بن سعد الله بن الحسن بن علي بن الحسين بن يحيى بن محمد بن إبراهيم بن موسى بن محمد بن صمدون الصوري الأصل.

كانت فاضلة، ولها شعر جيد، قصائد ومقاطيع، وصحبت الحافظ أبا الطاهر أحمد بن محمد السلفي الأصبهاني - رحمه الله تعالى - زمانا بثغرالإسكندرية المحروس، وذكرها في بعض تعاليقه الإسكندرية المحروس، وذكرها في بعض تعاليقه، وأثنى عليها وكتب بخطه: عثرت في منزل سكناي، فانجرح أخمصي، فشقت وليدة في الدار خرقة من خمارها وعصبته، فأنشدت تقية المذكورة في الحال لنفسها تقول:

لو وجدت السبيل جدت نجدي ... عوضاً عن خمار تلك الوليدة
كيف لي أن أقبل اليوم رجلاً ... سلكت دهرها الطريق الحميدة

نظرت في هذا المعنى إلى قول هارون بن يحيى المنجم:

كيف نال العثار من لم يزل من ... ه مقيماً في كل خطب جسيم
أو ترقى الآذى إلى قدم لم ... تخط إلا إلى مقام كريم

ولها غير ذلك أشياء حسنة.

وحكى لي الحافظ زكي الدين أبو محمد عبد العظيم المنذري رحمه الله أن تقية المذكورة نظمت قصيدة تمدح بها الملك المظفر تقي الدين عمر ابن أخي السلطان صلاح الدين رحمهما الله تعالى، وكانت القصيدة خمرية، ووصفت آلة المجلس وما يتعلق بالخمر، فلما وقف عليها قال: الشيخة تعرف هذه الأحوال من زمن صباها، فبلغها ذلك، فنظمت قصيدة أخرى حربية ووصفت الحرب وما يتعلق بها أحسن وصف، ثم سيرت إليه تقول: علمي بهذا كعلمي بهذا، وكان قصدها براءة ساحتها مما نسبها إليه.

وكانت قد سألت الشيخ الامام العالم أبا الطاهر اسماعيل بن عوف الزهريعن الشعر، فقال: هو كلام إن تكلمت بحسن فهو لك وإن تكلمت بشر فهو عليك.

وكانت ولادتها في صفر سنة خمس وخمسمائة بدمشق، ورأيت بخط الحافظ السفلي أنها ولدت في المحرم من السنة المذكورة، وتوفيت في أوائل شوال سنة تسع وسبعين وخمسائة، رحمها الله تعالى.

توفي والدها أبو الفرج المذكور في أواخر سنة تسع وخمسائة، وقيل: في صفر، وكان ثقة، رحمة الله تعالى. وتوفي جدها علي بن عبد السلام ضحى يوم الأحد تاسع ربيع الآخر سنة ثمان وسبعين وأربعمائة بصور. وتوفي ولدها أبو الحسن علي المذكور في الخامس عشر من صفر سنة ثلاث وستمائة بثغر الإسكندرية عن سن عالية، وهو صوري الأصل مصري الدار، وكان فاضلاً في النحو والقراءات حسن الخط والضبط لما يكتبه. وكان مولد أبيه فاضل المذكور في شوال سنة تسعين وأربعمائة بدمشق، هكذا نقلته من خط الحافظ السلفي، وتوفي في أول شهر ربيع الأول سنة ثمان وستين وخمسائة بالإسكندرية، وكنيته أبو محمد، نقلت وفاته من خط ولده أبي الحسن علي المذكور.

والأرمنازي - بفتح الهمزة وسكون الراء وفتح الميم والنون وبعد الألف زاي - هذه النسبة إلى أرمناز، وهي قرية من أعمال دمشق، وقيل: من أعمال أنطاكية، والأول أصح، وذكر ابن السمعاني أنها من أعمال حلب، وقال لي من رأى أرمناز: إن بينها وبين عزار من أعمال حلب أقل من ميل من جانبها الغربي.

والصوري - بضم الصاد المهملة وسكون الواو وبعدها راء - هذه النسبة إلى مدينة صور، وهي من ساحل الشام، وهي الآن بيد الفرنج، خذلهم الله تعالى، استولوا عليها في سنة ثماني عشرة وخمسائة، يسر الله فتحها على أيدي المسلمين، آمين.

أبو غالب التياني

أبو غالب تمام بن غالب بن عمر اللغوي المعروف بالتياني من أهل قرطبة سكن مرسية؛ كان إماماً في اللغة وثقة في إيرادها، مذكوراً بالديانة والفقه والورع، وله كتاب مشهور جمعة في اللغة لم يؤلف مثله اختصارا وإكثارا، وله قصة تدل على دينه مع علمه، حكى ابن الفرضي أن الأمير أبا الجيش مجاهد بن عبد الله العامري وجه إلى أبي غالب المذكور أيام غلبته على مرسية، وأبو غالب ساكن بها، ألف دينار على أن يزيد في ترجمة هذا الكتاب مما

ألفه أبو غالب لأبي الجيش مجاهد، فرد الدنانير وقال: والله لو بذلت لي الدنيا على ذلك لم أفعله، ولا استجزت الكذب، فإني لم أؤلفه لك خاصة، ولكن للناس عامة؛ فاعجب لهمة هذا الرئيس وعلوها، واعجب لنفس هذا العالم ونزاهتها. وقال ابن حيان: كان أبو غالب هذا مقدما في علم اللسان مسلمة له اللغة، وله كتاب جامع في اللغة سماه"تلقيح العين" جم الإفادة.

وتوفي بالمرية في إحدى الجماد يين سنة ست وثلاثين وأربعمائة، رحمه الله تعالى؛ وأخذ اللغة عن أبيه وعن أبي بكر الزبيدي وغيرهما.

والتياني: أظنه منسوبا إلى التين وبيعه، والله أعلم.

تميم بن المعز الفاطمي

أبو علي تميم بن المعز بن المنصور بن القائم بن المهدي؛ كان أبوه صاحب الديار المصرية والمغرب، وهو الذي بنى القاهرة المعزية – وسيأتي ذكره في حرف الميم إن شاء الله تعالى – وقد تقدم ذكر جماعة من أهل بيته – وسيأتي ذكر الباقين إن شاء الله تعالى –؛ وكن تميم المذكور فاضلاً شاعراً ماهراً لطيفاً ظريفاً، و لم يل المملكة لأن ولاية العهد كانت لأخيه العزيز فوليها بعد أبيه، والعزيز أيضاً أشعار جيدة وقد ذكرهما أبو منصور الثعالبي في اليتيمة، وأورد لهما كثيراً من المقاطيع، فمن شعر تميم المذكور:

ما بان عذري فيه حتى عذراً ... ومشى الدجى في خده فتحيرا
همت تقلبه عقارب صدغه ... فاستل ناظره عليها خنجرا
والله لولا أن يقال تغيراً ... وصباو إن كان التصابي أجدرا
لأعدت تفاح الخدود بنفسجا ... لثما وكافور الترائب عنبرا

وله أيضاً:

أما والذي لا يملك الأمر غيره ... ومن هو بالسر المكتم أعلم
لئن كان كتمان المصائب مؤلماً ... لإعلانها عندي أشد وآلم
وبي كل ما يبكي العيون أقله ... وإن كنت منه دائما أتبسم

وأورد له صاحب اليتيمة:

وما أم خشفٍ ظل يوماً وليلة ... ببلقعة بيداء ظمآن صاديا
تهيم فلا تدري إلى أين تنتهي ... مولهة حيرى تجوب الفيافيا
أضر بها حر الهجير فلم تجد ... لغلتها من بارد الماء شافيا
فلما دنت من خشفها انعطفت له ... فألفته ملهوف الجوانح طاويا
بأوجع مني يوم شدت حملهم ... ونادى منادي الحي أن لا تلاقيا

وأورد له أبو الصلت أمية بن عبد العزيز في كتابه الحديقة:

يوم لنا في النيل مختصر ... ولكل يوم مسرة قصر
والسفن تصعد كالخيول بنا ... فيه وجيش الماء ينحدر
فكأنما أمواجه عكن ... وكأنما داراته سرر

ومن شعره أيضاً رحمه الله تعالى:

اشرب على غيم كصبغ الدجى ... أضحك وجه الأرض لما بكى

وانظر لماء النيل في مدة ... كأنما صندل أومسكا

وكان قد وصل إلى عبد الله بن محمد الكاتب بيتان قيلا في وصف النيل فجمع شعراء إفريقية وأمرهم أن يقولوا في معناهما وقافيتهما فلم يأتوا بطائل وهما هذان البيتان:

شربنا على النيل لما بدا ... بموجٍ يزيد ولا ينقص

كأن تكاثف أمواجه ... معاطف جاريةٍ ترقص

وأحسبهما للأمير تميم أو لبعض شعراء مصر، وذلك أن تميماً ركب في النيل ليلة متنزها فمر ببعض الطاقات المشرفة على النيل، وجاريةٍ تغني هذا الصوت:

نبهت ندماني بدجلة موهنا ... والبدر في أفق السماء معلق

والبدر يضحك وجهه في وجهها ... والماء يرقص حولها ويصفق

فاستحسنه وطرب عليه وما زال يستعيدها فيه ويشرب عليه حتى انصرف وهو لا يعقل سكراً فلما أصبح عارضهما بالبيتين الأولين ومن المنسوب إليه أيضاً:

وكما يمل الدهر من إعطائه ... فكذا ملآلته من الحرمان

وأشعاره كلها حسنة.

وكانت وفاته في ذي القعدة سنة أربع وسبعين وثلثمائة بمصر، رحمه الله تعالى، هكذا قال صاحب الدول المنقطعة وزاد العتقي في تاريخه أنه توفي يوم الثلاثاء مع زوال الشمس لثلاث عشرة ليلة خلت من الشهر المذكور، وأن أخاه العزيز نزار بن المعز حضر الصلاة عليه في بستانه، وغسله القاضي محمد بن النعمان وكفنه في ستين ثوباً، وأخرجه من البستان مع المغرب وصلى عليه بالقرافة، وحمله إلى القصر فدفنه بالحجرة التي فيها قبر أبيه المعز. وقال محمد بن عبد الملك الهمداني في كتابه الذي سماه المعارف المتأخرة: إنه توفي سنة خمس وسبعين، والله أعلم. وقال غيرهما: إنه ولد سنة سبع وثلاثين وثلثمائة.

تميم بن المعز الصنهاجي

أبو يحيى تميم بن المعز بن باديس بن المنصور بن بلكين بن زيري بن مناد ابن منقوش بن زناك بن زيد الأصغر بن واشفال بن وزغفي بن سري بن وتلكيابن سليمان بن الحارث بن عدي الأصغر، وهو المثنى، بن المسور بن يحصب بن زيد الغوث الأصغر بن سعد وهو عبد الله بن عوف بن عدي بن مالك بن زيد بن سدد بن زرعة، وهوحمير الأصغر، بن سبأ الأصغر بن كعب بن زيد بن سهل بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جشم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن حيدان بن قطن بن عوف بن عريب بن زهير بن أيمن بن الهميسع بن عمرو بن حمير وهو العرنجج بن سبأ الأكبر بن يشجب بن يعرب ابن قحطان بن عابر وهو هود عليه السلام ابن شالخ بن إرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام، هكذا قاله العماد في الخريدة، الحميري الصنهاجي.

ملك إفريقية وما والاها بعد أبيه المعز، وكان حسن السيرة، محمود الآثار، محباً للعلماء، معظماً لأرباب الفضائل، حتى قصدته الشعراء من الآفاق على بعد الدار كابن السراج الصوري وأنظاره، وجده المثنى بن المسور أول من دخل منهم إلى افريقية.

ولأبي علي الحسن بن رشيق القيرواني فيه مدائح، فمن ذلك قوله:

أصح وأعلى ماسمعناه في الندى ... من الخبر المأثور منذ قديم

أحاديث ترويها السيول عن الحيا عن البحر عن كف الأمير تميم

وللأمير تميم المذكور أشعار حسنة، فمن ذلك قوله:

إن نظرت مقلتي لمقلتها تعلم مما أريد نجواه

كأنها في الفؤاد ناظره تكشف أسراره وفحواه

وله أيضا:

سل المطر العام الذي عم أرضكم أجاء بمقدار الذي فاض من دمعي

إذا كنت مطبوعاً على الصد والجفا فمن أين لي صبر فأجعله طبعي

وله أيضاً:

وخمر قد شربت على وجوه إذا وصفت تجل عن القايس

خدود مثل ورد في ثغور كدر في شعور مثل آس

وذكره العماد الكاتب في كتاب السيل، وأورد له:

فكرت في نار الجحيم وحرها يا ويلتاه ولات حين مناص

فدعوت ربي أن خير وسيلني يوم المعاد شهادة الإخلاص

وأشعاره وفضائله كثيرة، وكان يجيز الجوائز السنية، ويعطي العطاء الجزيل، وفي أيام ولايته اجتاز المهدي محمد بن تومرت – الأتي ذكره إن شاء الله تعالى – بإفريقية عند عوده من بلاد المشرق، وأظهر بها الانكار على من رآه خارجاً عن سنن الشريعة، ومن هناك توجه إلى مراكش وكان منه ما اشتهر.

وكانت ولادة الأمير تميم المذكور بالمنصورية التي تسمى صبرة من بلاد إفريقية يوم الاثنين ثالث عشر رجب سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة، وفوض إليه أبوه ولاية المهدية في صفر سنة خمس وأربعين، ولم يزل بها إلى أن توفي والده في رابع شعبان سنة أربع وخمسين وأربعمائة كما سيأتي في ترجمته إن شاء الله تعالى، فاستبد بالملك، ولم يزل إلى أن توفي ليلة السبت منتصف رجب سنة إحدى وخمسمائة، ودفن في قصره، ثم نقل إلى قصر السيدة بالمنستير، رحمه الله تعالى.

وخلف من البنين أكثر من مائة، ومن البنات ستين، على ما ذكر حفيده أبو محمد عبد العزيز بن شداد ابن الأمير تميم المذكور في كتاب أخبار القيروان رحمه الله تعالى.

وقد تقدم ضبط بعض أجداده والباقي يطول ضبطه وقد قيدته بخطي، فمن أراد نقله فلينقله على هذه الصورة فإني نقلته من خط بعض الفضلاء.

والصنهاجي: قد تقدم الكلام فيه.

والمنستير: يأتي ذكرها في حرف الهاء إن شاء الله تعالى في ترجمة البوصيري.

توران شاه

الملك المعظم شمس الدولة توران شاه بن أيوب بن شاذي بن مروان الملقب فخر الدين، وقد تقدم ذكر أبيه وأخيه تاج الملوك، وهو أخو السلطان صلاح الدين رحمه الله تعالى، وكان أكبر منه؛ وكان السلطان يكثر الثناء عليه ويرجحه على نفسه، وبلغه أن باليمن إنساناً يسمى عبد النبي بن مهدي يزعم أنه ينتشر ملكه حتى يملك الأرض كلها، وكان قد ملك كثيراً من بلادها واستولى على حصونها وخطب لنفسه، وكان السلطان قد ثبتت قواعده

وقوي عسكره، فجهز أخاه شمس الدولة المذكور بجيش اختاره، وتوجه إليها من الديار المصرية في أثناء رجب سنة تسع وستين وخمسمائة، فمضى إليها، وفتح الله على يديه، وقتل الخارجي الذي كان فيها، وملك معظمها، وأعطى وأغنى خلقاً كثيراً، وكان كريماً أريحياً، ثم إنه عاد من اليمن والسلطان على حصار حلب، فوصل إلى دمشق في ذي الحجة سنة إحدى وسبعين، ولما رجع السلطان من الحصار وتوجه إلى الديار المصرية استخلفه بدمشق، فأقام بها مدة ثم انتقل إلى مصر.

وذكر ابن شداد في سيرة صلاح الدين أنه توفي يوم الخميس مستهل صفر، وقال في موضع آخر من السيرة أيضاً: خامس صفر سنة ست وسبعين وخمسمائة، بثغر الاسكندرية المحروس، ونقلته أخته شقيقته ست الشام بنت أيوب إلى دمشق ودفنته في مدرستها التي أنشأتها بظاهر دمشق، فهناك قبره وقبرها وقبر ولدها حسام الدين عمر بن لاجين وقبر زوجها ناصر الدين أبي عبد الله محمد بن أسد الدين شيركوه صاحب حمص، وكانت تزوجته بعد لاجين، رحمهم الله أجمعين.

وكانت وفاة حسام الدين المذكور ليلة الجمعة تاسع عشر شهر رمضان سنة سبع وثمانين وخمسمائة، وهذا حسام الدين المذكور هو سيد شبل الدولة كافورين عبد الله الحسامي الخادم صاحب المدرسة والخانقاه الشلبية اللتين في ظاهر دمشق على طريق جبل قاسون، ولهما شهرة في مكانهما. وله أوقاف كثيرة ومعروف نافع في الدنيا والآخرة، وكانت وفاته في رجب سنة ثلاث وعشرين وستمائة، ودفن في تربته المجاورة لمدرسته المذكورة.

وسيأتي ذكر ناصر الدين محمد بن شيركوه في ترجمة أبيه في حرف الشين إن شاء الله تعالى.

وتوفيت ست الشام المذكورة في سادس عشر ذي القعدة سنة ست عشرة وستمائة.

وبعد الفراغ من هذه الترجمة وجدت بخط بعض الفضلاء ممن له عناية بهذا الفن زيادة على ماذكرته ههنا، فتركت ما هو مذكور في هذا المكان وأتيت بتلك الزيادة، فقال: لما تمهدت بلاد اليمن لشمس الدولة واستقامت له أمورها كره المقام بها لكونه تربية بلاد الشام، وهي كثيرة الخير، واليمن بلاد مجدبة من ذلك كله، فكتب إلى أخيه صلاح الدين يستقبل منها ويسأله الإذن له في العود إلى الشام، ويشكو حاله وما يقاسيه من عدم المرافق التي يحتاج إليها، فأرسل إليه صلاح الدين رسولاً مضمون رسالته ترغيبه في الإقامة وأنها كثيرة الأحوال ومملكة كبيرة، فلما سمع الرسالة قال لمتولي خزانته: أحضر لنا ألف دينار، فأحضرها، فقال لأستاذ داره والرسول حاضر عنده: أرسل هذا الكيس إلى السوق يشترون لنا بما فيه قطعة ثلج، فقال أستاذ الدار: يا مولانا، هذه بلاد اليمن من أين يكون فيها ثلج؟ فقال: دعهم يشترون بها طبق مشمش لوزير، فقال: من أين يوجد هذا النوع ههنا؟ فجعل يعدد عليه جميع أنواع فواكه دمشق وأستاذ الدار يظهر التعجب من كلامه، وكلما قال له عن نوع يقول له: يا مولانا من أين يوجد هذا ههنا؟ فلما استوفى الكلام إلى آخره قال للرسول: ليت شعري ماذا أصنع بهذه الأموال إذا لم أنتفع بها في ملاذي وشهواتي؟ فإن المال. لايؤكل بعينه، بل الفائدة فيه أن يتوصل به الانسان إلى بلوغ أغراضه. فعاد الرسول إلى صلاح الدين وأخبره بما جرى، فأذن له في المجيء.

وكان القاضي الفاضل يكتب إليه الرسائل الفائقة، ويودعها شرح الأشواق، فمن ذلك أبيات مشهورة ذكرها في ضمن كتاب، وهي:

لاتضجرن مما أتيت فإنه	صدر لأسرار الصبابة ينفث
أما فراقك واللقاء فإن ذا	منه أموت وذاك منه أبعث
حلف الزمان على تفرق شملنا	فمتى يرق لنا الزمان ويحنث؟
كم يلبث الجسم الذي ما نفسه	فيه ولا أنفاسه كم يلبث
حول المضاجع كتبكم فكأنني	ملسوعكم وهي الرقاة النفث

ولما وصل إلى دمشق في التاريخ المقدم ذكره ناب عن أخيه صلاح الدين بها لما عاد صلاح الدين إلى الديار المصرية، ثم انتقل إلى الديار المصرية في سنة أربع وسبعين وخمسمائة، وكان أخوه صلاح الدين قد سيره في سنة ثمان وستين وخمسمائة إلى بلاد النوبة ليفتحها قبل سفره إلى اليمن، فلما وصل إليها وجدها لا تساوي المشقة فتركها ورجع، وقد غنم شيئاً كثيراً من الرقيق، وكانت له من أخيه إقطاعات، ونوابه باليمن يجبيون له الأموال، ومات وعليه من الديون مائتا ألف دينار، فقضاها عنه صلاح الدين.

وحكى صاحبنا الشيخ مهذب الدين أبو طالب محمد بن علي المعروف بابن الخيمي الحلبي نزيل مصر الأديب الفاضل، قال: رأيت في النوم شمس الدولة توران شاه بن أيوب وهو ميت، فمدحته بأبيات وهو في القبر، فلف كفنه ورماه إلي وأنشدني:

لا تستقلن معروفاً سمحت به ... ميتاً فأمسيت منه عارياً بدني
ولا تظنن جودي شابه بخل ... من بعد بذلي ملك الشام واليمن
إني خرجت من الدنيا وليس معي ... من كل ما ملكت كفي سوى كفني

ولما كان في اليمن استناب في زبيد سيف الدولة أبا الميمون المبارك بين منقذ الآتي ذكره في حرف الميم إن شاء الله تعالى.

وتوران – بضم التاء المثناة من فوقها وسكون الواو وبعدها راء ثم بعد الألف نون – وهو لفظ أعجمي، وشاه – بالشين المعجمة – هو الملك باللغة العجمية، ومعناه ملك المشرق، وإنما قيل للمشرق توران لأنه بلاد الترك، والعجم يسمون الترك تركان، ثم حرفوه فقالوا: توران، والله أعلم.

ثابت بن قرة

أبو الحسن ثابت بن قرة بن هارون – ويقال زهرون – بن ثابت بن كرايا ابن إبراهيم بن كرايا بن مارينوس بن مالاجريوس الحاسب الحكيم الحراني؛ كان في مبدإ أمره صيرفياً بحران، ثم انتقل إلى بغداد واشتغل بعلوم الأوائل فمهر فيها، وبرع في الطب.

وكان الغالب عليه الفلسفة، وله تآليف كثيرة في فنون من العلم مقدار عشرين تأليفا، وأخذ كتاب إقليدس الذي عربه حنين بن إسحاق العبادي فهذبه ونقحه وأوضح منه ما كان مستعجماً، وكان من أعيان عصره في الفضائل، وجرى بينه وبين أهل مذهبه أشياء أنكروها عليه في المذهب، فرافعوه إلى رئيسهم فأنكر عليه مقالته ومنعه من دخول الهيكل، فتاب ورجع عن ذلك، ثم عاد بعد مدة إلى تلم المقالة، فمنعوه من الدخول إلى المجمع، فخرج من حران ونزل كفر توثا، وأقام بها مدة إلى أن قدم محمد ابن موسى من بلاد الروم راجعا إلى بغداد، فاجتمع به فرآه فاضلا فصيحا، فاستصحبه إلى بغداد وأنزله في داره، ووصله بالخليفة فأدخله في جملة المنجمين، فسكن بغداد وأولد الأولاد وعقبه بها إلى الآن.

وكفر توثا – بفتح الكاف وسكون الفاء وفتح الراء وضم التاء المثناة من فوقها وسكون الواو وبعدها ثاء مثلثة – وهي قرية كبيرة بالجزيرة الفراتية بالقرب من دارا.

وكانت ولادته سنة إحدى وعشرين ومائتين، وتوفي يوم الخميس السادس والعشرين من صفر سنة ثمان وثمانين ومائتين.

وكان صابئي النحلة.

وله ولد يسمى إبراهيم بلغ رتبة أبيه في الفضل، وكان من حذاق الأطباء ومقدمي أهل زمانه في صناعة الطب، وعالج مرة السري الرفاءالشاعر فأصاب العافية، فعمل فيه، وهو من أحسن ماقيل في طبيب:

هل للعليل سوى ابن قره شافي ... بعد الإله، وهل له من كافي؟
أحيا لنا رسم الفلاسفة الذي ... أودى، وأوضح رسم طب عافي
فكأنه عيسى بن مريم ناطقاً ... يهب الحياة بأيسر الأوصاف
مثلت له قارورتي فرأى بها ... ما اكتن بين جوانحي وشغافي
يبدو له الداء الخفي كما بدا ... للعين رضراض الغدير الصافي

وله فيه أيضاً:

برز إبراهيم في علمه ... فراح يدعى وارث العلم

أوضح نهج الطب في معشر ... ما زال فيهم دارس الرسم
كأنه من لطف أفكاره ... يجول بين الدم واللحم
إن غضبت روح على جسمها ... أصلح بين الروح والجسم

ومن حفدة ثابت المذكور أبو الحسن ثابت بن سنان بن ثابت بن قرة، وكان صابئي النحلة أيضاً، وكان ببغداد في أيام معز الدولة بن بويه المقدم ذكره، وكان طبيباً عالماً نبيلاً يقرأ عليه كتب بقراط وجالينوس، وكان فكاكاً للمعاني، وكان قد سلك مسلك جده ثابت في نظره في الطب والفلسفة الهندسة وجميع الصناعات الرياضية للقدماء؛ وله تصنيف في التاريخ أحسن فيه، وقد قيل: إن الأبيات المذكورة أولا من نظم السري الرفاء إنما عملها فيه، والله أعلم.

والحراني: نسبة إلى حران، وهي مدينة مشهورة بالجزيرة.

ذكر ابن جرير الطبري – رحمه الله تعالى – في تاريخه أن هاران عم إبراهيم الخليل – عليه الصلاة والسلام – عمرها فسميت باسمه فقيل: هران، ثم إنها عربت فقيل: حران، وهاران المذكور: أبو سارة، زوجة إبراهيم، عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام.

وكان لإبراهيم – عليه الصلاة والسلام – أخ يسمى هاران أيضاً، وهو أبو لوط عليه السلام، وقال الجوهري في كتاب"الصحاح": وحران اسم بلد، والنسبة إليه حرناني على غير قياس، والقياس: حراني، على ما عليه العامة.

ذو النون المصري

أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم – وقيل: الفيض بن إبراهيم – المصري المعروف بذي النون، الصالح المشهور، أحد رجال الطريقة؛ كان أوحد وقته علماً وورعاً وحالاً وأدباً، وهو معدود في جملة من روى الموطأ عن الامام مالك رضي الله عنه؛ وذكر ابن يونس عنه في تاريخه أنه كان حكيماً فصيحاً، وكان أبوه نوبيا، وقيل: من أهل إخيم، مولى لقريش.

وسئل عن سبب توبته فقال: خرجت من مصر إلى بعض القرى، فنمت في الطريق في بعض الصحارى، ففتحت عيني فإذا أنا بقنبرة عمياء سقطت من وكرها على الأرض، فانشقت الأرض فخرجت منها سكرجتان: إحداهما ذهب والأخرى فضة، وفي إحادهما سمسم وفي الاخرى مساء، فجعلت تأكل من هذا وتشرب من هذا، فقلت: حسبي، قد تبت، ولزمت الباب إلى أن قبلني.

وكان قد سعوا به إلى المتوكل فاستحضره من مصر، فلما دخل عليه وعظه، فبكى المتوكل ورده مكرماً؛ وكان المتوكل إذا ذكر أهل الورع بين يديه يبكي ويقول: إذا ذكر أهل الورع فحي هلا بذي النون. وكان رجلاً نحيفاً تعلوه حمرة، ليس بأبيض اللحية، وشيخه في الطريقة شقران العابد.

ومن كلامه: إذا صحت المناجاة بالقلوب استراحت الجوارح.

وقال إسحاق بن إبراهيم السرخسي بمكة: سمعت ذا النون وفي يده الغل وفي رجليه القيد وهو يساق إلى المطبق والناس يبكون حوله وهو يقول: هذا من مواهب الله تعالى ومن عطاياه، وكل فعاله عذب حسن طيب، ثم أنشد:

لك من قلبي المكان المصون ... كل لوم علي فيك يهون
لك عزم بأن أكون قتيلاً ... فيك والصبر عنك مالا يكون

ووقفت في بعض المجاميع على شيء من أخبار ذي النون المصري، رحمه الله تعالى، فقال: إن بعض الفقراء من الناس تلامذته فارقه من مصر وقدم بغداد فحضر بها سماعاً، فلما طاب القوم وتواجدوا قام ذلك الفقير ودار واستمع، ثم صرخ ووقع، فحركوه فوجدوه ميتا، فوصل خبره إلى شيخه ذي النون فقال لأصحابه: تجهزوا حتى نمشي إلى بغداد، فلما فرغوا من أشغالهم خرجوا إليها فقدموا عليها، وساعة قدومهم البلد قال الشيخ ائتوني بذلك المغني، فأحضروه إليه، فسأله عن قضية ذلك الفقير، فقص عليه قصته. فقال له: مبارك؛ ثم شرع هو وجماعته في الغناء، فعند ابتدائه فيه صرخ الشيخ على ذلك المغني فوقع ميتا، فقال الشيخ: قيل بقتيل، أخذنا ثأر صاحبنا؛ ثم أخذ في التجهيز والرجوع إلى الديار المصرية، ولم يلبث ببغداد بل عاد من فوره.

قلت: وقد جرى في زمني شيء من هذا يليق أن أحكيه ههنا، وذلك أنه كان عندنا بمدينة إربل مغن موصوف بالحذق والإجادة في صنعة الغناء يقال له: الشجاع جبريل بن الأواني، فحضر سماعاً قبل سنة عشرين وستمائة، فإنني أذكر الواقعة وأنا صغير، وأهلي وغيرهم يتحدثون بها في وقتها، فغنى الشجاع المذكور القصيدة الطنانة البديعة التي لسبط ابن التعاويذي – الآتي ذكره في حرف الميم في المحمد ين إن شاء الله تعالى – وأولها:

سقاك سار من الموسمي هتان ... ولا رقت للغوادي فيك أجفان

إلى أن وصل إلى قوله منها:

ولي إلى البان من رمل الحمى وطر ... فاليوم لا الرمل يصبيني ولا البان

وما عسى يدرك المشتاق من وطر ... إذا بكى الربع والأحباب قد بانوا

كانوا معاني المغاني، والمنازل أم ... وات إذا لم يكن فيهن سكان

لله كم قمرت لبي بجوك أق ... مار وكم غازلتني فيك غزلان

وليلة بات يجلو الراح من يده ... فيها أغن خفيف الروح جذلان

خال من الهم في خلخاله حرج ... فقلبه فارغ والقلب ملآن

يذكي الجوى بارد من ثغره شبم ... ويوقظ الوجد طرف منه وسنان

إن يمسى ريان من ماء الشباب فلي ... قلب إلى ريقه المعسول ظمآن

بين السيوف وعينيه مشاركة ... من أجلها قيل للآغماد أجفان

فلما انتهى إلى هذا البيت قام بعض الحاضرين وقال له: يا شجاع، وأعد ما قلته، فأعاده مرتين أو ثلاثاً وذلك الشيخ متواجد، ثم صرخ صرخة هائلة ووقع، فظنوه قد أغمي عليه، فافتقدوه بعد أن انقطع حسه فوجدوه قد مات، فقال الشجاع: هكذا جرى في سماعي مرة أخرى، فإنه مات فيه شخص آخر.

وهذه القصيدة من غرر القصائد، وهي طويلة مدح بها الامام الناصر لين الله أبا العباس أحمد بن المستضيء أمير المؤمنين العباسي في يوم عيد الفطر من سنة إحدى وثمانين وخمسائة، والله أعلم.

ومحاسن الشيخ ذي النون كثيرة.

وتوفي في ذي القعدة سنة خمس وأربعين – وقيل: ست وأربعين، وقيل: ثمان وأربعين ومائتين – رضي الله عنه بمصر، ودفن بالقرافة الصغرى، على قبره مشهد مبني، وفي المشهد أيضاً قبور جماعة من الصالحين رضي الله عنهم وزرته غير مرة.

وثوبان: بفتح الثاء المثلثة وسكون الواو وفتح الباء الموحدة وبعد الألف نون.

جرير الشاعر

أبو حزرة جرير بن عطية بن الخطفى، واسمه حذيفة، والخطفى لقبه، ابن بدر بن سلمة بن عوف بن كليب بن يربوع بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة ابن تميم بن مر التميمي الشاعر المشهور؛ كان من فحول شعراء الإسلام، وكانت بينه وبين الفرزدق مهاجاة ونقائض، وهو أشعر من الفرزدق عند أكثر أهل العلم بهذا الشأن، وأجمعت العلماء على أنه ليس في شعراء الإسلام مثل ثلاثة: جرير والفرزدق والأخطل. قال محمد بن سلام: سمعت يونس يقول: ما شهدت مشهداً قط وذكر فيه جرير والفرزدق فاجتمع أهل المجلس على أحدهما.

وقال أيضا: الفرزدق أشعر خاصة وجرير أشعر عامة؛ ويقال: إن بيوت الشعر أربعة: فخر ومديح وهجاء ونسيب، وفي الأربعة فاق جرير غيره، فالفخر قوله:

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلهم غضابا

والمديح قوله:

أستم خير من ركب المطايا واندى العالمين بطون راح

والهجاء قوله:

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا

والنسيب قوله:

إن العيون التي في طرفها حور قتتلننا ثم لم يحين قتلانا

يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به وهن أضعف خلق الله أركانا

وحكى أبو عبيدة معمر بن المثنى – الآتي ذكره إن شاء اله تعالى – قال: التقى جرير والفرزدق بمنى وهما حاجان، فقال الفرزدق لجرير:

فإنك لاقٍ بالمشاعر من منى فخاراً فخبرني بمن أنت فاخر

فقال له جرير: لبيك اللهم لبيك! قال أبو عبيدة: فكان أصحابنا يستحسنون هذا الجواب من جرير ويعجبون به.

وحكى أبو عبيدة أيضاً: خرج جرير والفرزدق مرتدفين على ناقة إلى هشام ابن عبد الملك الأموي، وهو يومئذ بالرصافة، فترل جرير لقضاء حاجته، فجعلت الناقة تتلفت فضربها الفرزدق وقال:

إلام تلفتين وأنت تحتي وخير الناس كلهم أمامي

متى تردي الرصافة تستريحي من التهجير والدبر الدوامي

ثم قال: الآن يجيئني جرير فأنشده هذين البيتين فيقول:

تلفت أنها تحت ابن قينٍ إلى الكيرين والفاس الكهام

متى ترد الرصافة تخز فيها كخزيك في المواسم كل عام

قال: فجاء جرلاير والفرزدق يضحك، فقال: ما يضحكك يا أبا فراس؟ فأنشده البيتين الأولين، فأنشده جرير البيتين الآخرين، فقال الفرزدق: والله لقد قلت هذا، فقال جرير: أما علمت أن شيطاننا واحد؟ وذكر المبرد في الكامل أن الفرزدق أنشد قول جرير:

ترى برصاً بأسفل أسكتيها كعنفقة الفرزدق حين شابا

فلما أنشد النصف الول من البيت ضرب الفرزدق يده على عنفقته توقعاً لعجز البيت.

وحكى أبو عبيدة قال: كان جرير مع حسن تشبيبه عفيفاً، وكان الفرزدق فاسقا، وكان يقول: ما أحوجه إلى صلابة شعري وأحوجني إلى رقة شعره.

وحكى أبو عبيدة أيضاً قال: رأت أم جرير في نومها وهي حامل به كاهلا ولدت حبلاً من شعر أسود، فلما وقع منها جعل يترو فيقع في عنق هذا فيخنقه، حتى فعل ذلك برجال كثيرة، فانتبهت مرعوبة، فأولت الرؤيا، فقيل لها: تلدين غلاما شاعراً ذا شر وشدة شكيمة وبلاء على الناس، فما ولدته سمته جريراً باسم الحبل الذي رأت أنه خرج منها، والجرير الحبل.

وذكر أبو الفرج الأصبهاني في كتاب الأغاني في ترجمة جرير المذكور أن رجلاً قال لجرير: من أشعر الناس؟ قال له: قم حتى أعرفك الجواب، فأخذ بيده وجاء به إلى أبيه عطية وقد أخذ عترا له فاعتقلها وجعل يمص ضرعها فصاح به: اخرج يا أيت، فخرج شيخ دميم رث الهيئة وقد سال لبن العتر على لحيته، فقال: أترى هذا؟ قال: نعم، قال: أوتعرفه؟ قال: لا قال: هذا أبي، أفتدري لم كان يشرب من ضرع العتر؟ قلت: لا، قال: مخافة أن يسمع

صوت الحلب فيطلب منه لبن، ثم قال: أشعر الناس من فاخر بمثل هذا الأب ثمانين شاعراً وقارعهم به فغلبهم جميعاً.
وحكى صاحب الجليس والأنيس في كتابه عن محمد بن حبيب عن عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير أنه قيل له: ما كان أبوك صانعاً حيث يقول:

لو كنت أعلم أن آخر عهدهم ... يوم الرحيل فعلت ما لم أفعل

فقال: كان يقلع عينيه ولا يرى مظعن أحبابه.
وقال في الأغاني أيضاً: قال مسعود بن بشر لابن مناذر بمكة: من أشعر الناس؟ قال: من إذا شئت لعب، ومن إذا شئت جد، فاذا لعب أطمعك لعبه فيه، وإذا رمته بعد عليك، وإذا جد فيما قصد له آيسك من نفسه، قال: مثل من؟ قال: مثل جرير حيث يقول إذا لعب:

إن الذين غدوا بلبك غادروا ... وشلا بعينك لايزال معينا
غيض من عبراتهن وقلن لي ... ماذا لقيت من الهوى ولقينا

ثم قال حين جد:

إن الذي حرم المكارم تغلباً ... جعل النبوة والخلافة فينا
مضر أبي وأبو الملوك فهل لكم ... يا خزر تغلب من أب كأبينا
هذا ابن عمي في دمشق خليفة ... لو شئت ساقكم إلي قطينا

قال: فلما بلغ عبد الملك بن مروان قوله قال: مازاد ابن المراغة على أن جعلني شرطياً له، أما إنه لو قال او شاء ساقكم إلي قطينا لسقتهم إليه كما قال،
قلت: وهذه الأبيات هجا بها جرير الأخطل التغلبي الشاعر المشهور.
وقوله فيها جعل النبوة والخلافة فينا إنما قال ذلك لأن جريرا تميمي النسب، وتميم ترجع إلى مضر بن نزار بن معد بن عدنان جد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فالنبوة والخلافة وبنو تميم يرجعون إلى مضر.
وقوله يا خزر تغلب خزر – بضم الخاء المعجمة وسكون الزاي وبعدها راء – وهو جمع أخزر مثل أحمر وحمير وأصفر وصفر وأسود وسود، وكل ما كان من هذا الباب، والأخزر: الذي عينيه ضيق وصفر، وهذا وصف العجم، فكأنه نسبه إلى المعجم وأخرجه عن العرب، وهذا عند العرب من النقائص الشنيعة.
وقوله هذا ابن عمي في دمشق خليفة يريد به عبد الملك بن مروان الأموي، لأنه كان في عصره.
والقطين – بفتح القاف – الخدم والتباع.
وقول عبد الملك مازاد ابن المراغة هو بفتح الميم وبعدها راء وبعد اللف غين معجمة وهاء، وهذا لقب لأم جرير هجاء به الأخطل المذكور، ونسبها إلى أن الرجال يتمرغون عليها، ونستغفر الله تعالى من ذكر مثل هذا، لكن شرح الواقعة أحوج إلى ذلك.
ومن أخبار جرير أنه دخل على عبد الملك بن مروان فأنشده قصيدة أولها:

أتصحو أم فؤادك غير صاحي ... عشية هم صحبك بالرواح
تقول العاذلات علاك شيب ... أهذا الشيب بمنعني مزاحي
تعزت أم حزرة قم قالت ... رأيت الموردين ذوي لقاح

ثقي بالله ليس له شريك ... ومن عند الخليفة بالنجاح
سأشكر إن رددت إلي ريشي ... وانبت القوادم في جناحي

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

قال جرير: فلما انتهيت إلى هذا البيت كان عبد الملك متكئا فاستوى جالساً وقال: من مدحنا منكم فليمدحنا بمثل هذا أو فليسكت، ثم التفت إلي وقال: يا جرير، أترى أم حزرة يرويها مائة ناقة من نعم بمني كلب؟ قلت: يا أمير المؤمنين، إن لم تروها فلا أرواها الله تعالى، قال: فأمر لي بها كلها سود الحدق، قلت: يا أمير المؤمنين، نحن مشايخ وليس بأحدنا فضل عن راحلته، والإبل أباق، فلو أمرت لي بالرعاء، فأمر لي بثمانية، وكان بين يديه صحاف من الذهب وبيده قضيب، فقلت: ياأمير المؤمنين، والمحلب؟ وأشرت إلى إحدى الصحاف فنبذها إلي بالقضيب وقال: خذها لا نفعتك، وإلى هذه القضية أشار جرير بقوله:

أعطو هيدة تحدوها ثمانية ما في عطائهم من ولا سرف

قلت: هنيدة – بضم الهاء على صورة التصغير – اسم علم على المائة، وأكثر علماء الأدب يقولون: لا يجوز إدخال اللف واللام عليها، وبعضهم يجيز ذلك، قال أبو الفتح بن أبي حصينة السلمي الحلبي الشاعر المشهور من جملة قصيدة:

أيها القلب لم يدع لك فيوص ل العذارى نصف الهنيدة عذرا

يعني خمسين سنة التي هي نصف المائة، والله أعلم.

ولما مات الرزدق وبلغ خبره جريراً بكى وقال: أما والله إني لأعلم أني قليل البقاء بعده، ولقد كان نجماً واحداً وكل واحد منا مشغول بصاحبه، وقلما مات ضد أو صديق إلا وتبعه صاحبه، وكذلك كان. وتوفي في سنة عشر ومائة، وفيها مات الفرزدق كما سيأتي في موضعه إن شاء الله تعالى.

وقال أبو الفرج ابن الجوزي: كانت وفاة جرير في سنة إحدى عشرة ومائة، وقال ابن قتيبة في كتاب المعارف: إن أمه حملت به سبعة أشهر، وفي ترجمة الفرزدق طرف من خبر موته فلينظر هناك إن شاء الله تعالى. وكانت وفاته باليمامة، وعمر نيفا وثمانين سنة.

وحزرة: بفتح الحاء المهملة وسكون الزاي وفتح الراء وبعدها هاء.

والخطفى: بفتح الخاء المعجمة والطاء المهملة والفاء وبعدها ياء – وقد تقدم الكلام في أنه لقب عليه، والله أعلم.

جعفر الصادق

أبو عبد الله جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنهم أجمعين؛ أحد الأئمة الاثني عشر على مذهب الإمامية، وكان من سادات أهل البيت ولقب بالصادق لصدقه في مقالته وفضله أشهر من أن يذكر، وله كلام في صنعة الكيمياء والزجر والفأل، وكان تلميذه أبو موسى جابر بن حيان الصوفي الطرسوسي قد ألف كتاباً يشتمل على ألف ورقة تتضمن رسائل جعفر الصادق وهي خمسمائة رسالة.

وكانت ولادته سنة ثمانين للهجرة، وهي سنة سبيل الجحاف، وقيل: بل ولد يوم الثلاثاء قبل طلوع الشمس ثامن شهر رمضان سنة ثلاث وثمانين.

وتوفي في شوال سنة ثمان وأربعين ومائة بالمدينة، ودفن بالبقيع في قبر فيه أبوه محمد الباقر وجده علي زين العابدين وعم جده الحسن بن علي، رضي الله عنهم أجمعين، فلله دره من قبر ما أكرمه وأشرفه.

وأمه أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، رضي الله عنهم أجمعين.

وسيأتي ذكر الأئمة الاثنى عشر – رضي الله عنهم – كل واحد في موضعه إن شاء الله تعالى.

وحكى كشاجم في كتاب المصايد والمطارد أن جعفراً المذكور سأل أبا حنيفة – رضي الله عنهما – فقال: ما تقول في محرم كسر رباعية ظبي؟ فقال: يا ابن رسول الله، ما أعلم ما فيه، فقال له: أنت تتداهى ولا تعلم أن الظبي لا يكون له رباعية وهو ثني أبدا.

جعفر البرمكي

أبو الفضل جعفر بن يحيى بن خال بن برمك بن جاماس بن يشتاسف البرمكي وزير هارون الرشيد؛ كان من علو القدر ونفاذ الأمر وبعد الهمة وعظم المحل وجلالة المترلة عند هارون الرشيد بحالة انفرد بها، ولم يشارك فيها، وكان سمح الأخلاق طلق الوجه ظاهر البشر، وأما جوده وسخاؤه وبذله وعطاؤه فكان أشهر من أن يذكر، وكان من ذوي الفصاحة والمشهورين باللسن والبلاغة، ويقال: إنه وقع ليلة بحضرة هارون الرشيد زيادة على ألف توقيع، ولم يخرج في شيء منها عن موجب الفقه، وكان أبوه ضمه إلى القاضي أبي يوسف الحنفي حتى علمه وفقهه، وذكره ابن القادسي في كتاب أخبار الوزراء.

واعتذر رجل إليه فقال له جعفر: قد أغناك الله بالعذر منا عن الاعتذار إلينا، وأغنانا بالمودة لك عن سوء الظن بك؛ ووقع إلى بعض عماله وقد شكي منه: قد كثر شاكوك وقل شاكروك، فإما اعتدلت وإما اعتزلت.

ومما ينسب إليه من الفطنة أنه بلغه أن الرشيد مغموم لأن منجماً يهودياً زعم أنه يموت في تلك السنة، يعني الرشيد، وأن اليهودي في يده، فركب جعفر إلى الرشيد فرآه شديد الغم، فقال لليهودي: أنت تزعم أن أمير المؤمنين يموت إلى كذا وكذا يوماً؟ قال: نعم، قال: وأنت كم عمرك؟ قال: كذا وكذا، أمداً طويلاً، فقال الرشيد: اقتله حتى تعلم أنه كذب في أمدك كما كذب في أمده، فقتله وذهب ما كان بالرشيد من الغم، وشكره على ذلك، وأمر بصلب اليهودي، فقال أشجع السلمي في ذلك:

سل الراكب الموفي على الجذع هل رأى ... لراكبه نجماً بدا غير أعور

ولو كان نجم مخبراً عن منيةٍ ... لأخبره عن رأسه المتحير

يعرفنا موت الإمام كأنه ... يعرفنا أنباء كسرى وقيصر

أتخبر عن نحسٍ لغيرك شؤمه ... ونجمك بادي الشر يا شر مخبر

ومضى دم المنجم هدراً بحمقه.

وكان جعفر من الكرم وسعة العطايا كما هو مشهور، ويقال: إنه لما حج اجتاز في طريقه بالعقيق، وكانت سنة مجدبة، فاعرضته امرأة من بني كلاب وأنشدته:

إني مررت على العقيق وأهله ... يشكون من مطر الربيع نزورا

ما ضرهم إذا جعفر جار لهم ... أن لا يكون ربيعهم ممطورا

فأجزل لها العطاء.

قلت: والبيت الثاني مأخوذ من قول الضاحك بن عقيل الخفاجي من جملة أبيات:

ولو جاورتنا العام سمراء لم نبل ... على جدبنا أن لا يصوب ربيع

لله دره، فما أحلى هذه الحشوة وهي قوله على جدبنا، وأهل البيان يسمون هذا النوع حشو اللوزينج.

وحكى ابن الصابىء في كتاب الأماثل والأعيان عن إسحاق النديم الموصلي عن إبراهيم بن المهدي قال: خلا جعفر بن يحيى يوماً في داره، وحضر ندماؤه وكنت فيهم، فلبس الحرير وتضمخ بالخلوق وفعل بنا مثله، وأمر بأن يحجب عنه كل أحد إلا عبد الملك بن بحران قهرمانه، فسمع الحاجب عبد الملك دون ابن بحران، وعرف عبد الملك بن صالح الهاشمي مقام جعفر ابن يحيى في داره، فركب إليه، فأرسل الحاجب أن قد حضر عبد الملك فقال: أدخله، وعنده أنه ابن بحران، فما راعتنا إلا دخول عبد الملك بن صالح في سواده ورصافيته، فأربد وجه جعفر، وكان ابن صالح لا يشرب النبيذ، وكان الرشيد دعاه إليه فامتنع، فلما رأى عبد الملكحالة جعفر دعا غلامه فناوله سواده وقلنسوته ووافى باب المجلس الذي كنا فيه، وسلم وقال: أشركونا في

أمركم، وافعلوا بنا فعلكم بأنفسكم، فجاءه خادم فألبسه حريرة واستدعى بطعام فأكل وبنبيذ فأتي برطل منه فشربه ثم قال لجعفر: والله ما شربته قبل اليوم، فليخفف عني، فأمر أن يجعل بين يديه باطية يشرب منها ما يشاء. وتضمخ بالخلوق ونادمنا أحسن منادمة، وكان كلما فعل شيئاً من هذا سري عن جعفر، فلما أراد الانصراف قال له جعفر: اذكر حوائجك فإني ما أستطيع مقابلة ما كان منك، قال: إن في قلب أمير المؤمنين موجودة علي فتخرجها من قلبه وتعيد إلى جميل رأيه في، قال: قد رضي عنك أمير المؤمنين وزال ما عنده منك، فقال: وعلي أربعة آلاف ألف درهم ديناً، قال: تقضى عنك، وإنها لحاضرة، ولكن كونها من أمير المؤمنين أشرف بك وأدل على حسن ما عنده لك، قال: وإبراهيم ابني أحب أن أرفع قدره بصهر من ولد الخلافة، قال: قد زوجه أمير المؤمنين العالية ابنته، قال: وأوثر التنبيه على موضعه برفع لواء على رأسه، قال: قد ولاه أمير المؤمنين مصر، وخرج عبد الملك ونحن متعجبون من قول جعفر وإقدامه على مثله من غير استئذان فيه، وركبنا من الغد إلى باب الرشيد، ودخل جعفر وقفنا، فما كان بأسرع من أن دعي بأبي يوسف القاضي ومحمد بن الحسن وإبراهيم بن عبد الملك، و لم يكن بأسرع من خروج إبراهيم والخلع عليه واللواء بين يديه وقد عقد له على العالية بنت الرشيد وحملت إليه ومعها المال إلى مترل عبد الملك بن صالح، خرج جعفر فتقدم إلينا باتباعه إلى مترله، وصرنا معه، فقال: أظن قلوبكم تعلقت بأول أمر عبد الملك فأحببتم على آخره، قلنا: هو كذلك، قال: وقفت بين يدي أمير المؤمنين وعرفته ما كان من أمر عبد الملك من ابتدائه إلى انتهائه، وهو يقول: أحسن أحسن، ثم قال: فما صنعت معه؟ فعرفته ما كان من قولي له، فاستصوبه وأمضاه، وكان ما رأيتم، ثم قال إبراهيم بن المهدي: فو الله ما أدري أيهم أعجب فعلاً: عبد الملك في شربه النبيذ ولباسه ماليس من لبسه وكان رجلاً ذا جد وتعفف ووقار وناموس، أو إقدام جعفر على الرشيد بما أقدم، أو إمضاء الرشيد ما حكم به جعفر عليه.

وحكي أنه كان عنده أبو عبيد الثقفي فقصدته خنفساء، فأمر جعفر بإزلتها، فقال أبو عبيد: دعوها عسى يأتين بقصدها لي خير، فإنهم يزعمون ذلك، فأمر له جعفر بألف دينار وقال: نحقق زعمهم، وأمر بتنحيتها، ثم قصدته ثانياً فأمر له بألف دينار أخرى.

وحكي ابن القادسي في أخبار الوزراء أن جعفراً اشترى جارية بأربعين ألف دينار، فقالت لبائعها: اذكر ما عاهدتني عليه أنك لا تأكل لي ثمناً فبكى مولاها وقال: اشهدوا أنها حرة وقد تزوجتها، فوهب له جعفر المال و لم يأخذ منه شيئاً، وأخبار كرمه كثيرة، وكان أبلغ أهل بيته.

وأول من وزر من آل برمك خالد بن برمك لأبي العباس عبد الله السفاح بعد قتل أبي سلمة حفص الخلال - كما سيأتي في ترجمته في حرف الحاء إن شاء الله تعالى - و لم يزل خالد على وزارته حتى توفي السفاح يوم الأحد لثلاث عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة ست وثلاثين ومائة، وتولي أخوه أبو جعفر عبد الله المنصور الخلافة في اليوم المذكور، فأقر خالداً على وزارته، فبقي سنة وشهوراً. وكان أبو أيوب المرياني قد غلب على المنصور فاحتال على خالد بأن ذكر للمنصور تغلب الأكراد على فارس، وأن لا يكفيه أمرها سوى خالد فندبه إليها، فلما بعد خالد عن الحضرة استبد أبو أيوب بالأمر. وكانت وفاة خالد سنة ثلاث وستين ومائة، ذكره ابن القادسي، وقال ابن عساكر في تاريخ دمشق: ولد خالد في سنة تسعين للهجرة، وتوفي سنة خمس وستين ومائة، والله أعلم.

وكان جعفر متمكناً عند الرشيد، غالباً على أمره، واصلاً منه، وبلغ من علو المرتبة عنده ما لم يبلغه سواه، حتى إن الرشيد اتخذ ثوباً له زيقان، فكان يلبسه هو وجعفر جملة، و لم يكن للرشيد صبر عنه، وكان الرشيد أيضاً شديد المحبة لأخته ابنة المهدي، وهي من أعز النساء عليه، ولا يقدر على مفارقتها، فكان متى غاب أحد من جعفر والعباسة لا يتم له سرور، فقال: يا جعفر، إنه لا يتم لي سرور إلا بك وبالعباسة، وإني سأزوجها منك ليحل لكما أن تجتمعا، ولكن إياكما أن تجتمعا وأنا دونكما، فتزوجها على هذا الشرط.

ثم تغير الرشيد عليه وعلى البرامكة كلهم آخر الأمر ونكبهم وقتل جعفراً واعتقل أخاه الفضل وأباه يحيى إلى أن ماتا - كما سيأتي في ترجمتها إن شاء الله تعالى -.

وقد اختلف أهل التاريخ في سبب تغير الرشيد عليهم: فمنهم من ذهب إلى أن الرشيد لما زوج أخته العباسة من جعفر على الشرط المذكور بقيا مدة على تلك الحالة، ثم اتفق أن أحبت العباسة جعفراً وراودته، فأبى وخاف، فلما أعيتها الحيلة عدلت إلى الخديعة فبعثت إلى عتابة أم جعفر أن أرسليني إلى جعفر كأني جارية من جواريك اللاتي ترسلين إليه، وكانت أمه ترسل إليه كل يوم جمعة جارية بكر عذراء، وكان لا يطأ الجارية حتى يأخذ شيئاً

من النبيذ، فأبت عليها أم جعفر، فقالت: لئن لم تفعلي لأذكرن لأخي خاطبتني بكيت وكيت، ولئن اشتملت من ابنك على ولد ليكونن لكم الشرف، وما عسى أخي يفعل لو علم أمرنا؟ فأجابتها أم جعفر وجعلت تعد ابنها أن ستهدي إليه جارية عندها حسناء من هيئتها ومن صفتها كيت وكيت، وهو يطالبها بالعدة المرة بعد المرة، فلما علمت أنه قد اشتاق إليها أرسلت إلى العباسة أن تهيئي الليلة، ففعلت العباسة وأدخلت على جعفر، وكان لم يتثبت صورتها لأنه لم يكن يراها إلا عند الرشيد، وكان لا يرفع طرفه إليها مخافة، فلما قضى منها وطره قالت له: كيف رأيت خديعة بنات الملوك؟ فقال: وأي بنت ملك أنت؟ فقالت: أنا مولاتك العباسة، فطار السكر من رأسه، وذهب إلى أمه فقال: يا أماه بعتني والله رخيصاً، واشتملت العباسة منه على ولد، ولما ولدته وكلت به غلاماً اسمه رياش، وحاضنة يقال لها برة، ولما خافت ظهور الأمر بعثتهم إلى مكة.

وكان يحيى بن خالد ينظر إلى قصر الرشيد وحرمه، ويغلق أبواب القصر وينصرف بالمفاتيح معه، حتى ضيق على حرم الرشيد، فشكته زبيدة إلى الرشيد، فقال له: يا أبت - وكان يدعوه كذلك - ما لزبيدة تشكوك؟ فقال: أمتهم أنا في حرمك يا أمير المؤمنين؟ قال: لا، قال: فلا تقبل قولها في، وازداد يحيى عليها غلظة وتشديداً، فقالت زبيدة للرشيد مرة أخرى في شكوى يحيى، فقال الرشيد لها: يحيى عندى غير متهم في حرمي، فقالت: فلم لم يحفظ ابنه مما ارتكبه؟ قال: وما هو؟ فخبرته بخبر العباسة، قال: وهل على هذا دليل؟ قالت: وأي دليل أدل من الولد؟ قال: وأين هو؟ قالت: كان هنا، فلما خافت ظهوره وجهت به إلى مكة، قال: وعلم بذا سواك؟ قالت: ليس بالقصر جارية إلا وعلمت به، فسكت عنها، وأظهر إرادة الحج، فخرج له ومعه جعفر، فكتبت العباسة إلى الخادم والداية بالخروج بالصبي إلى اليمن، ووصل الرشيد مكة، فوكل من يثق به بالبحث عن أمر الصبي حتى وجده صحيحاً، فأضمر السوء للبرامكة.

ذكره ابن بدررون في شرح قصيدة ابن عبدون التي رثى بها بني الأفطس والتي أولها:

الدهر يفجع بعد العين بالأثر	فما البكاء على الأشباح والصور

أورده عند شرحه لقول ابن عبدون من جملة هذه القصيدة:

وأشرقت جعفراً والفضل يرمقه	والشيخ يحيى بريق الصارم الذكر

ولأبي نواس أبيات تدل على طرف من الواقعة التي ذكرها ابن بدرون، والأبيات:

ألا قل لأمين الل	ه وابن القادة الساسه
إذا ما ناكث سر	ك أن تفقده راسه
فلا تقتله بالسيف	وزوجه بعباسه

وذكر غيره أن الرشيد سلم إليه أبا جعفر يحيى بن عبد الله بن الحسين الخارج عليه، وحبسه عنده، فدعا به يحيى إليه وقال له: أتق الله يا جعفر في أمري، ولا تتعرض أن يكون خصمك جدي محمد صلى الله عليه وسلم، فو الله ما أحدثت حدثاً، فرق له جعفر وقال: اذهب حيث شئت من البلاد، فقال: إني أخاف أن أوخذ فأرد، فبعث معه من أوصله إلى مأمنه، وبلغ الخبر الرشيد فدعا به وطاوله الحديث وقال: يا جعفر، ما فعل يحيى؟ قال: بحاله، قال: بحياتي، فوجم وأحجم وقال: لا وحياتك، أطلقته حيث علمت أن لا سوء عنده، فقال: نعم الفعل، وما عدوت ما في نفسي، فلما نهض جعفر أتبعه بصره وقال: قتلني الله إن لم أقتلك.

وقيل: سئل سعيد بن سالم عن جناية البرامكة الموجبه لغضب الرشيد فقال: والله ما كان منهم ما يوجب بعض علم الرشيد بهم، ولكن طالت أيامهم وكل طويل مملول، والله لقد استطال الناس الذين هم خير الناس أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه وما رأوا مثلها عدلاً وأمنا وسعة أموال وفتوح، وأيام عثمان رضى الله عنه حتى قتلوهما، ورأى الرشيد مع ذلك أنس النعمة بهم، وكثرة حمد الناس لهم، ورميهم بآمالهم دونه، والملوك تتنافس بأقل من هذا، فتعنت عليهم، وتجنى وطلب مساويهم، ووقع منهم بعض الإدلال، خاصة جعفر والفضل، دون يحيى، فإنه كان أحكم خبرة وأكثر ممارسة

للأمور، ولاذ من أعدائهم بالرشيد، كالفضل بن الربيع وغيره، فستروا المحاسن وأظهروا القبائح، حتى كان ما كان، وكان الرشيد بعد ذلك إذا ذكروا عنده بسوء أنشد يقول:

أقلوا عليهم لا أبا لأبيكم — من اللوم أو سدوا المكان الذي سدوا

وقيل: السبب أنه رفعت إلى الرشيد قصة لم يعرف رافعها فيها:

قل لأمين الله في أرضه — ومن إليه الحل والعقد
هذا ابن يحيى قد غدا مالكاً — مثلك، ما بينكما حد
أمرك مردود إلى أمره — وأمره ليس له رد
وقد بنى الدار التي ما بنى ال — فرس لها مثلاً ولا الهند
الدر والياقوت حصباؤها — وتربها العنبر والند
ونحن نخشى أنه وارث — ملكك إن غيبك اللحد
ولن يباهي العبد أربابه — إلا إذا ما بطر العبد

فلما وقف الرشيد عليها أضمر له السوء. وكان من الأسباب أيضاً ما تعده العامة سيئاً، وهو أقوى الأسباب، ما سمع من يحي بن خالد وهو يقول، وقد تعلق بأستار الكعبة في حجته: اللهم إن ذنوبي جمة عظيمة لا يحصيها غيرك، اللهم إن كنت تعاقبني لذلك فاجعل عقوبتي في الدنيا وإن احاط ذلك بسمعي وبصري ومالي وولدي حتى تبلغ رضاك، ولا تجعل عقوبتي في الآخرة، فاستجاب له. وقد رثتهم الشعراء بمرات كثيرة وذكرت أيامهم، فما استحسن من مراثيهم قول اشجع السلمي من أبيات:

كأن أيامهم من حسن بهجتها — مواسم الحج والأعياد والجمع .

وحكي ابن بدرون أن عليه بنت المهدي قالت للرشيد بعد إيقاعه بالبرامكة: يا سيدي، ما رأيت لك يوم سرور تام منذ قتلت جعفراً، فلأي شيئ قتلته؟ فقال لها: يا حياتي لو علمت أن قميصي يعلم السبب في ذلك لمزقته.
وكان تقل الرشيد لجعفر بموضع يقال له العمر، من أعمال الأنبار، في يوم السبت سلخ المحرم – وقيل: مستهل صفر – سنة سبع وثمانين ومائة.

وذكر الطبري في تارخه أن الرشيد لما حج سنة ست وثمانين ومائة، ومعه البرامكة، وقفل راجها من مكة وافق الحيرة في المحرم سنة سبع وثمانين ومائة فأقام في قصر عون العبادي أياما، ثم شخص في السفن حتى نزل العمر الذي بناحية الأنبار، فلما كان ليلة السبت سلخ المحرم أرسل أبا هاشم مسروراًالخادم وعه أبو عصمة حماد بن سالم في جماعة من الجند فأطافوا بجعفر، ودخل عليه سمرور وعنده ابن بختيشوع الطبيب وأبو زكا المغني الأعمى الكلواذاني وهو في لهوه، فاخرجه إخراجا عنيفاً يقوده، حتى أتى به متزل الرشيد فحبسه وقيده بقيد حمار، وأخبر الرشيد بمجيئه، فأمر الرشيد بضرب عنقه واستوفى حديثه هناك.
وقال الواقدي: نزل الرشيد العمر بناحية الأنبار في سنة سبع وثمانين منصرفاً من مكة، وغضب على البرامكة، وقتل جعفرا فيأول يوم من صفر، وصلبه على الجسر ببغداد، وجعل رأسه على الجسر وفي الجانب الآخر جسده. وقال غيره: صلبه على الجسر مستقبل الصراة، رحمه الله تعالى.
وقال السندي بن شاهك: كنت ليلة نائماً في غرفة الشرطة بالجانب الغربي، فرأيت في منامي جعفر بن يحيى واقفا بإزائي، وعليه ثوب مصبوغ بالعصفر، وهوينشد:

كأن لك يكن بين الحجون إلى الصفا — أنيس ولم يسمر بمكة سارم

بلى نحن كنا أهلها فأبادنا صروف الليالي والجدود العواثر

فانتبهت فزعاً، وقصصتها على أحد خواصي فقال: أضغاث أحلام، وليس كل ما يراه الإنسان يجب أن يفسر، وعاودت مضجعي، فلم تنل عيني غمضاً حتى سمعت صيحة الرابطة والشرط وقعقعة لجم البريد ودق باب الغرفة، فامرت بفتحها، فصعد سلام الأبرش الخادم، وكان الرشيد يوجهه في المهمات، فانزعجت وأرعدت مفاصلي، وظننت أنه أمر في بأمر، فجلس إلى جانبي وأعطاني كتاباً ففضضته، وإذا فيه يا سندي، هذا كتابناً بخطنا مختوم بالخاتم الذي في يدنا، وموصله سلام الأبرش، فماذا قرأته فقبل أن تضعه من يدك فامض إلى دار يحيى بن خالد – لا حاطة الله – وسلام معك حتى تقبض عليه، وتوقره حديداً، وتحمله إلى الحبس في مدينة المنصور المعروف بحبس الزنادقة، وتقدم إلى بادام بن عبد الله خليفتك بالمصير إلى الفضل ابنه مع ركوبك إلى دار يحيى، وقبل انتشار الخبر، وأن تفعل به مثل ما تقدم به إليك في يحيى، وأن تحمله أيضاً إلى حبس الزنادقة، ثم بث بعد فراغك من أمر هذين أصحابك في القبض على أولاد يحيى وأولاد إخوته وقراباته. وسرد صورة الإيقاع بهم ابن بدرون أيضاً سرداً فيه فوائد زائدة على هذا المذكور، فأحببت إيراده مختصرا ههنا؛ قال عقيب كلامه المتقدم: ثم دعا السندي بن شاهك فأمره بالمضي إلى بغداد والتوكل بالبرامكة وكتابهم وقراباتهم، وأن يكون ذلك سراً، ففعل السندي ذلك، وكان الرشيد بالأنبار بموضع يقال له العمر، ومعه جعفر، وكان جعفر بمنزله، وقد دعا أبا زكار وجواريه ونصب الستائر وابو زكار يغنيه:

مايريد الناس منا مات ينام الناس منا

إنما همهم أن يظهروا ما قد دفنا

ودعا الرشيد ياسراً غلامه وقال: قد انتخبتك لمر لم أر له محمداً ولا عبد الله ولا القاسم، فحقق ظني، واحذر أن تخالف فتهلك، فقال: لو أمرتني بقتل نفسي لفعلت، فقال: اذهب إلى جعفر بن يحيى وجئني برأسه الساعة، فوجم لا يحير جواباً، فقال له: مالك ويلك؟ قال: الأمر عظيم، وددت أني مت قبل وقتي هذا، فقال: امضى لأمري، فمضى حتى دخل على جعفر وأبو زكار يغنيه:

فلا تبعد فكل فتى سيأتي عليه الموت يطرق أو يغادي

وكل ذخيرة لابد يوماً وإن بقيت تصير إلى نفاد

ولو فوديت من حدث الليالي فديتك بالطريف وبالتلاد

فقال له: يا ياسر، سررتني بإقبالك وسؤتني بدخولك من غير إذن، فقال: الأمر أكبر من ذلك، قد أمرني أمير المؤمنين بكذا وكذا، فأقبل جعفر يقبل قدمي ياسر وقال: دعني أدخل وأوصي، قال لا سبيل إلى الدخول، ولكن أوصى بما شئت، قال: لي عليك حق، ولا تقدر على مكافأتي إلا الساعة، قال: تجدني سريعاً إلا فيما يخالف أمير المؤمنين، قال: فارجع وأعلمه بقتلي، فإنندم كانت حياتي على يدك، وإلا أنفذت أمره في، قال: لا أقدر، قال: فأسير معك إلى مضربه وأسمع كلامه ومراجعتك، فإن أصر فعلت، قال: أما هذا فنعم، وسار الى مضرب الرشيد فلما سمع حسه قال له: ما وراءك؟ فذكر له قول جعفر، فقال له: يا ماص هن امه، والله لئن راجعتني للأ قدمنك قبله، فرجع فقتله وجاء برأسه، فلما وضعه بين يديه اقبل عليه ملياً ثم قال: ياياسر، جئني بفلان وفلان، فلما أتاه بهما قال لهما: اضربا عنق ياسر، فلا أقدر أرى قاتل جعفر؛ انتهى كلامه في هذا الفصل.
وذكر في كتابه قال: لما فهم جعفر من الرشيد الإعراض عند حجه معه ووصل إلى الحيرة ركب جعفر إلى كنيسة بها لأمر، فوجد فيها حجرا عليه كتابة لاتفهم، فأحضر تراجمة الخط وجعله فألا من الرشيد لما يخافه ويرجوه، فقرىء فإذا فيه:

إن بني المنذر عام انقضوا بحيث شاد البيعة الراهب

أضحوا ولا يرحوهم راغب يوماً ولا يرهبهم راهب

تنفخ بالمسك ذفاريهم والعنبر الورد له قاطب

فأصبحوا أكلا لدود الثرى وانقطع المطلوب والطالب

فحزن جعفر وقال: ذهب والله أمرنا.

قال الأصمعي: وجه إلي الرشيد بعد قتله جعفراً، فجئت فقال: أبيات أردت أن تسمعها، فقلت: إذا شاء أمير المؤمنين، فأنشدني:

لو أن جعفر خاف أسباب الردى لنجا به منها طمر ملجم
ولكان من حذر المنية حيث لا يرجو اللحاق به العقاب القشعم
لكنه لما أتاه يومه لم يدفع الحدثان عنه منجم

فعلمت أنها له فقلت: إنها أحسن أبيات في معناها، فقال: إلحق الآن بأهلك يا ابن قريب إن شئت.

وحكي أن جعفراً في آخر أيامه أراد الركوب إلى دار الرشيد، فدعا بالاصطرلاب ليختار وقتاً وهو في داره على دجلة، فمر رجل في سفينة وهو لا يراه ولا يدري ما يصنع والرجل ينشد:

يدبر بالنجوم وليس يدري ورب النجم يفعل ما يريد

فضرب بالاصطرلاب الأرض وركب.

ويحكى أنه رؤي على باب قصر علي بن عيسى بن ماهان بخراسان صبيحة الليلة التي قتل فيها جعفر كتاب بقلم جليل:

إن المساكين بني برمك صب عليهم غير الدهر
إن لنا في أمرهم عبرة فليعتبر ساكن ذا القصر

ولما بلغ سفيان بن عيينة خبر جعفر وقتله وما نزل بالبرامكة حول وجهه إلى القبلة وقال: اللهم إنه كان قد كفاني مؤنة الدنيا فاكفه مؤنة الآخرة.

ولما قتل أكثر الشعراء في رثاء آله، فقال الرقاشي من أبيات:

هدأ الخالون من شجوي فناموا وعيني لا يلائمها منام
وما سهرت لأني مستهام إذا أرق المحب المستهام
ولكن الحوادث أرقتني فلي سهر لا إذا هجد النيام
أصبت بسادة كانوا نجوماً بهم نسقى إذا انقطع الغمام
على المعروف والدنيا جميعاً لدولة آل برمك السلام
فلم أر قبل قتلك يا ابن يحيى حساما فله السيف الحسام
أما والله لولا خوف واش وعين للخليفة لا تنام
لطفنا حول جذعك واستلمنا كما للناس بالحجر استلام

وقال أيضاً يرثيه وأخاه الفضل:

الا إن سيفا برمكيا مهندا أصيب بسيف هاشمي مهند
فقل للعطايا بعد فضل تعطلي وقل للرزايا كل يوم تجددي

وقال دعبل بن علي الخزاعي:

ولما رأيت السيف صبح جعفرا ونادى مناد للخليفة في يحيى

بكيت على الدنيا وأيقنت أنما قصارى الفتى فيها مفارقة الدنيا

وما هي إلا دولة بعد دولة تخول ذا نعمى وتعقب ذا بلوى

إذا نزلت هذا منازل رفعة من الملك حطت ذا إلى غاية سفلى

وقال صالح بن طريف فيهم:

يا بني برمك واهاً لكم ولأيامكم المقتبله

كانت الدنيا عروساً بكم وهي اليوم ثكول أرمله

ولولا خوف الإطالة لأوردت طرفاً كبيراً من أقوال الشعراء فيهم مديحاً ورثاء.

وقد طالت هذه الترجمة، ولكن شرح الحال وتوالى الكلام أحوج إليه.

ومن أعجب ما يؤرخ من تقلبات الدنيا بأهلها ما حكاه محمد بن غسان بن عبد الرحمن الهاشمي صاحب صلاة الكوفة، قال: دخلت علىوالدتي في يوم نحر، فوجدت عندها امرأة برزة في ثياب رثة، فقالت لي والدتي: أتعرف هذه؟ قلت: لا، قالت: هذه أم جعفر البرمكي، فأقبلت عليها بوجهي وأكرمتها، وتحادثنا ومانا ثم قلت: يا أمه، ما أعجب ما رأيت! فقالت: لقد أتى علي يا بني عيد مثل هذا وعلى رأسي أربعمائة وصيفة، وإني لأعد ابني عاقاً لي، ولقد أتى علي يا بني هذا العيد وما منأي إلا جلدا شاتين أفترش أحدهما وألتحف الآخر، قال: فدفعت إليها خمسمائة درهم، فكادت تموت فرحاً بها، ولم تزل تختلف إلينا حتى فرق الموت بيننا.

والعمر – بضم العين المهملة وسكون الميم وبعدها راء –هكذا وجدته مضبوطاً في نسخة مقروءة مضبوطة، وقال أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري في كتاب معجم ما استعجم: قلاية العمر والعمر عندهم الدير، والله أعلم.

جعفر البرمكي

أبو الفضل جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك البرمكي وزير هارون الرشيد؛ كان من الكرم وسعة العطاء كما قد اشتهر، ويقال إنه لما حج...العطاء.

ولم يبلغ أحد من الوزراء منزلة بلغها من الرشيد؛ قال إبراهيم: قال لي جعفر بن يحيى يوماً: إني استأذنت أمير المؤمنين في الخلوة غداً فهل أنت مساعدي؟ فقلت: جعلت فداك، انا أسعد بمساعدتك وأسر بمحادثتك، قال: فبكر إلي بكور الغراب؛ قال: فأتيته عند الفحجر فوجدت الشمعة بين يديه وهو ينتظرني للميعاد، فصلينا ثم أفضنا في الحديث، ثم قدم إلينا الطعام فأكلنا فلما غسلنا أيدينا جعلت علينا ثياب المنادمة وبخرنا وطيبنا ثم ضمخنا بالخلوق، ومدت الستارة، وظللنا بأنعم يوم مر بنا، ثم إنه ذكر حاجة فدعا الحاجب وقال: إذا أتى عبد الملك فأذن له – يعني قهرماناً له؛ فاتفق ان جاء عبد الملك ابن صالح عم الرشيد وهو من جلالة القدر والامتناع من منادمة أمير المؤمنين على أمر جليل، وكان الرشيد قد اجتهد أن يشرب معه قدحا فليم يقدر عليه رفعا لنفسه، فلما رفع لستر وطلع علينا سقط ما في أيدينا وعلمنا أن الحاجب قد غلط بينه وبين عبد الملك القهرمان، فأعظم جعفر ذاك وارتاع له، ثم ثام إليه إجلالاً، فلما نظر إلينا على تلك الحال دعا غلامه فدفع إليه سيفه وسواده وعمامته ثم قال: اصنعوا بناماصنعتم بأنفسكم؛ ثم قال: اصنعوا بنا ما صنعتم بانفسكم؛ قال: فجاء الغلمان فطرحوا عليه ثياباً وخلقوه ودعا بالطعام فطعم وشرب ثلاثاً، ثم قال: لتخفف عني فإنه شيء والله ما شربته قط، فتهلل وجه جعفر وفرح، ثم التفت إليه فقال: جعلت فداك، قد تطولت وتفضلت وساعدت فهل من حاجة تبلغ إليها مقدرتي وتحيط بها نعمتي فأقضيها مكافأة لما صنعت؟ قال: بلى إن في قلب أمير المؤمنين علي هنة فاسأله الرضى عني، فقال له جعفر: قد رضي أمير المؤمنين عنك، ثم قال: وعلي عشرة آلاف دينار، فقال: هي لك حاضرة من مالي ولك من مال أمير المؤمنين ضعفها، ثم قال: وابني إبراهيم أحب أن اشد ظهره بصهر من أمير المؤمنين، قال: وقد زوجه أمير المؤمنين ابنته العالية، قال: وأحب أن تخفق عليه الألوية، قال: قد ولاه أمير المؤمنين مصر. فانصرف بعد الملك ابن صالح،

قال إبراهيم بن المهدي: فبقيت متعجباً من إقدامه على أمير المؤمنينمن غير استئذان وقلت: عسى أن يجيبه فيما سأل من الرضى والمال والولاية، فمتى أطلق لجعفر أو لغيره تزويج بناته؟

فلما كان من الغد بكرت إلى باب الرشيد لأرى ما يكون، فدخل جعفر فلم يلبث أن دعا بأبي يوسف القاضي وإبراهيم بن عبد الملك بن صالح، فخرج إبراهيم وقد عقد نكاحه بالعالية بنت الرشيد وعقد له على مصر والرايات بين يديه وحملت البدر إلى مترل عبد الملك بن صالح، وخرج جعفر فأشار إلينا، فلما صرنا إلى مترله التفت إلينا فقال: تعلقت قلوبكم بحديث عبد الملك فأحببتم علم آخره: لما دخلت على أمير المؤمنين ومثلت بين يديه قال: كيف كان يومك ياجعفر؟ فقصصت عليه حتى بلغت إلى دخول عبد الملك بن صالح، وكان متكئاً فاستوى جالساً وقال: ايه لله أبوك! فقلت: سألني في رضاك يا أمير المؤمنين، قال: نعم فبم أجبته؟ قلت: رضي أمير المؤمنين عنك، قال: قد أجزت، ثم ماذا؟ قلت: وذكر أن عليه عشرة آلاف دينار، قال: فبم أجبته؟ قلت: وقد قضاها أمير المؤمنين عنك، قال: قد قضيت، ثم ماذا؟ قال: قد رغب أن يشد أمير المؤمنين ظهر ولده إبراهيم بصهر منه، قال: فبم أجبته؟ قلت: قد زوجه أمبير المؤمنين ابنته العالية، قال: قد أمضيت ذلك، ثم ماذا لله أبوكظ قلت: واحب أن تخفق الألوية على رأسه، قال: فبم أجبته؟ قلت: قد ولاه أمير المؤمنين مصر، قال: قد وليت، فأحضر إبراهيم والقضاة والفقهاء فحضروا وتم له جميع ذلك من ساعته؛ قال ابراهيم بن المهدي: فوالله ما ادري أيهم أكرم وأعجب فعلا، ما ابتدأه عبد الملك من المساعدة وشرب الخمر و لم يكن شربها قط، ولبسه ما لبس من ثياب المنادمة وكان رجل جد، أم إقدام جعفرعلى الرشيد بما أقدم، وأم إمضاء الرشيد جميع ما حكم به جعفر عليه.

وركب يوما الرشيد وجعفر يسايره، وقد بعث علي بن عيسى بهدايا خراسان بعد ولاية الفضل، فقال الرشيد لجعفر: أين كانت هذه أيام أخيك؟ قال: في منازل أربابها.

وبلغ الرشيد أن يهودياً ينجم بحكم في عمره ويقرب وقتاً، فأحضره وسأله عما قال فقال: استدللت من النجوم بكذا وكذا، ودخل جعفر فرأى غم الرشيد فقال له: أتحب أن يخرج هذا من صدرك؟ قال: نعم، قال: سله عن عمره فإنه بالمعرفة به أولى به من غيره، قال: فسأله عن ذلك فقال: هو كذا وكذا، فقال جعفر: اضرب الآن عنقه لتعلم خطأه في عمرك وعمره.

فيحكى ان الرشيد تغير عليه في آخر الأمر وكان سبب ذلك أن الرشيد كان لايصبر عن جعفر وعن أخته هباسة بنت المهدي وكان يحضرهما إذا جلس للشرب فقال لجعفر: أزوجكما ليحل لك النظر غليها ولا تقربها فإني لا أطبق الصبر عنكما، فأجابه إلى ذلك، فزوجها منه، وكانا يحضران معه ثم يقوم عنهما وهما شابان، فجامعها جعفر فحملت منه فولدت له غلاما، فخاف الرشيد فسير به مع حواضن إلى مكة، واعطته الجواهر والنفقات. ثم إن عباسة وقع بينها وبين بعض جواريها شر، فأنهت أمرها إلى الرشيد، فحج هارون سنة186 وبحث عن الأمر فعلمه، وكان جعفر يصنع للرشيد طعاماً بعسفان إذا حج، فصنع ذلك الطعام ودعاه فلم يحضر عنده، وكان ذلك أول تغير أمرهم.

وقيل كان سبب ذلك...من أمره ما كان.

وقيل من الأسباب أن جعفراً بنى داراً غرم عليها عشرين ألف درهم فرفع ذلك إلى الرشيد وقيل: هذه غرامة في دار فما ظنك بنفقاته وصلاته وغير ذلك؟ فاستعظمه.

وحكي أن جعفر بن يحيى لما عزم على الانتقال إلى قصره هذا جمع المنجمين لاختيار وقت ينتقل فيه اليه فاختاروا له وقتا من الليل، فلما حضر الوقت خرج على حمار من الموضع الذي كان مترله إلى قصره والطرق خالية والناس هادئون، فلما صار إلى سوق يحيى رأى رجلاً قائما وهو يقول:

يدبر بالنجوم وليس يدري ورب النجم يفعل ما يريد

فاستوحش ووقف ودعا بالرجل فقال له: أعد علي ما قلت، فأعاده فقال: ما أردت بهذا؟ فقال: ما أردت به معنى من المعاني، لكنه شيء عرض لي وجاء على لساني فيهذا الوقت، فأمر له بدنانير ومضى لوجهه وقد تنغض عليه سروره.

وكان من الأسباب أيضا......فاستجيب به.

قال علماء السير: لما انصرف الرشيد عن الحج سنة187 وقيل 188، أرسل الرشيد مسرورا الخادم ومعه جماعة من الجند ليلا وعنده بختيشوع المتطبب وأبو زكار المغني وهويغني: فلا تبعد......

قال مسرور: فقلت له: يا أبا الفضل الذي جئت له هو والله ذاك، قد طرقك الأمر، أجب أمير المؤمنين، فوقع على رجلي يقبلها وقال: حتى أدخل فأوصي، فقلت: فأما الدخول فلا سبيل إليه وأما الوصية فاصنع ما شئت، فأوصى بما أراد وأعتق مما ليكه، وأتتني رسل الرشيد تستحثني، فمضيت إليه وأعلمته وهو في فراشه، فقال: ائتني برأسه، فأتيت جعفراً فأخبرته فقال: الله أكبر فراجعه، فعدت أراجعه، فلما سمع حسي قال: يا ماص بظر أمه، ائتني برأسه، فرجعت إليه وأخبرته فقال: وأمره، فرجعت فحذفني بعمود كان في يده وقال: نفيت من المهدي ان لم تأتني برأسه لأقتلنك، قال: فخرجت فقتلته وحملت رأسه إليه، وكان قتله ليلة السبت أول ليلة من صفر بالأنبار وهوابن سبع وثلاثين سنة، ثم أمر بنصب رأسه على الجسر وتقطيع يديه وصلب كل قطعة على جسر، فلم يزل كذلك حتى مر عليه الرشيد حين خروجه إلى خراسان فقال: ينبغي أن يحرق هنا، فأحرق، ووجه الرشيد من ليلته إلى الرقة في قبض أمرائهم وما كان من رقيقهم ومواليهم وحشمهم.

وحكي عن الأصمعي أنه قال: لما قتل الرشيد جعفر بن يحيى أرسل إلي ليلاً فراعني وأعجلني الرسل فزادوا في وجلي، فصرت إليه، فلما مثلت بين يديه أومأ إلي بالجلوس فجلست، ثم قال: لو أن جعفر...الخ.

ثم قال: إلحق بأهاك يا ابن قريب، فنهضت و لم أحر جوابا، وفكرت فلم أعرف لما كان منه معنى إلا أنه أراد أن يسمعني شعره فأحكيه.

ولما نكبوا قال الرقاشي:

الان استرحنا واسترحت ركابنا ... وأمسك من يجدي ومن كان يجتدي

فقل للمطايا قد أمنت من السرى ... وطي الفيافي فدفداً بعد فدفد

وقل للمنايا قد ظفرت بجعفر ... ولن تظفري من بعده بمسود

وقل للعطايا بعد فضل تعطلي ... وقل للرزاياكل يوم تجددي

ودونك سيفا برمكياً مهنداً ... أصيب بسيف هاشمي مهند

وله أيضا في جعفر:

أما والله لولا خوف واش...الخ .

ووقع جعفر في قصة رجل شكا بعض عماله: قد كثر شاكوك وقل شاكروك، فإما عدلت وإما اعتزلت. ورأى رجلاً في الشمس فقال: أفي الشمس؟ قال: أطلب الظل، قال: لأولينك ولاية يطول فيها ظلك. وفضائله كثيرة رحمه الله تعالى.

جعفر بن حنزابة

أبو الفضل جعفر بن الفضل بن جعفر بن محمد بن موسى بن الحسن بن الفرات المعروف بابن حترابة؛ كان وزير بني الإخشيد بمصر مدة إمارة كافور، ثم استقل كافور بملك مصر واستمر على وزارته، ولما توفي كافور استقل بالوزارة وتدبير المملكة لأحمد بن علي بن الإخشيد بالديار المصرية والشامية، وقبض على جماعة من أرباب الدولة بعد موت كافور وصادرهم، وقبض على يعقوب بن كلس وزير العزيز العبيدي – الآتي ذكره – وصادره على أربعة آلاف دينار وخمسمائة وأخذها منه، ثم أخذه من يده أبو جعفر مسلم بن عبيد الله الشريف الحسيني، واستتر عنده، ثم هرب مستتراً إلى بلاد المغرب؛ و لم يقدر ابن الفرات على رضى الكافورية والإخشيدية والأتراك والعساكر، و لم تحمل إليه أموال الضمانات، وطلبوا منه مالاً يقدر عليه، واضطرب عليه الأمر فاستتر مرتين ونهبت دوره ودور بعض أصحابه، ثم قدم إلى مصر أبو محمد الحسين بن عبيد الله بن طغج صاحب الرملة فقبض على الوزير المذكور وصادره وعذبه واستوزر عوضه كاتبه الحسن بن جابر الرياحي، ثم أطلق الوزير جعفر بوساطة الشريف أبي جعفر الحسيني، وسلم إليه الحسين أمر مصر وسار عنها إلى الشام مستهل ربيع الآخر سنة ثمان وخمسين وثلثمائة.

وكان عالماً محباً للعلماء، وحدث عن محمد بن هارون الحضرمي وطبقته من البغداديين، وعن محمد بن سعيد البرجمي الحمصي، ومحمد بن جعفر

الخرائطي، والحسن بن أحمد بن بسطام، والحسن بن أحمد الداركي، ومحمد بن عمارة بن حمزة الأصبهاني، وكان يذكر أنه سمع من عبد الله بن محمد البغوي مجلساً، و لم يكن عنده، فكان يقول: من جاءني به أغنيته، وكان يملي الحديث بمصر وهو وزير، وقصده الأفاضل من البلدان الشاسعة، وبسببه سار الحافظ أبو الحسن علي المعروف بالدار قطني من العراق إلى الديار المصرية، وكان يريد أن يصنف مسنداً فلم يزل الدار قطني عنده حتى فرغ من تأليفه، وله تواليف في أسماء ارجال والأنساب وغير ذلك.

وذكر الخطيب أبو زكريا التبريزي في شحه ديوان المتنبي أن المتنبي لما قصد مصر ومدح كافوراً مدح الوزير أبا الفضل المذكور بقصيدته الرائية التي أولها:

بادك هواك صبرت أو لم تصبرا

وجعلها موسومة باسمه، فتكون إحدى القوافي جعفرا، وكان قد نظم قوله في هذه القصيدة:

صغت السوار لأي كف بشرت ... بابن العميد وأي عبد كبرا

بشرت بابن الفرات فلما لم يرضه صرفها عنه و لم ينشده إياه، فلما توجه إلى عضد الدولة قص أرجان وبها أبو الفضل ابن العميد وزير ركن الدولة بن بويه والد عضد الدولة – وسيأتي ذكرهم إن شاء الله تعالى – فحول القصيدة إليه ومدحه بها وبغيرها، وهي من غرر القصائد.

وذكر الخطيب أيضاً في الشرح أن قول المتنبي في القصيدة المقصورة التي يذكر فيها مسيره إلى الكوفة ويصف متزلاً متزلاً ويهجو كافوراً:

وماذا بمصر من المضحكات ... ولكنه ضحك كالبكا

بها نبطي من أهل السواد ... يدرس أنساب أهل الفلا

وأسود مشفره نصفه ... يقال له أنت بدر الدجى

وشعر مدحت به الكركد ... ن بين القريض وبين الرقى

فما كان ذلك مدحا له ... ولكنه كان هجو الورى

إن المراد بالنبطي أبو الفضل المذكور، والأسود كافور، وبالجملة فهذا القدر ما غض منه، فما زالت الأشراف تهجى وتمدح.

وأنشد أبو اسحاق إبراهيم بن عبد الله النجيرمي بديها في الوزير أبي الفضل المذكور وقد دعا له داع فلحن في قوله: أدام الله أيامك، بخفض أيامك المنصوبة:

لاغرو أن لحن الداعي لسيدنا ... وغص من دهشة بالعي والبهر

فمثل هيبته حالت جلالتها ... بين البليغ وبين النطق بالحصر

وإن يكن الأيام عن دهش ... في موضع النصب أو من قلة البصر

فقد تفاءلت في هذا لسيدنا ... والفأل نأثره عن سيد البشر

بأن أيامه خفض بلا نصب ... وأن دولته صفو بلا كدر

وذكر الوزير أبو القاسم المغربي في كتاب"أدب الخواص": كنت أحادث الوزير أبا الفضل جعفرا المذكور وأجاريه شعر المتنبي، فيظهر من تفضيله زيادة تنبه على ما في نفسه خوفاً أن يرى بصورة من ثناه الغضب الخاص عن قول الصدق في الحكم العام، وذلك لأجل الهجاء الذي عرض له به المتنبي.

وكانت ولادته ثلاث خلون من ذي الحجة سنة ثمان وثلثمائة، وتوفي يوم الأحد ثالث عشر صفر، وقيل: في شهر ربيع الأول سنة إحدى وتسعين

وثلثمائة بمصر، رحمه الله تعالى، وصلى عليه القاضي حسين بن محمد بين النعمان، ودفن في القرافة الصغرى، وتربته بها مشهورة.
وحترابة – بكسر الحاء المهملة وسكون النون وفتح الزاي وبعد الألف باء موحدة مفتوحة ثم هاء – وهي أم أبيه الفضل بن جعفر، هكذا ذكره ثابت بن قرة في تاريخه، والخزابة في اللغة: المرأة القصيرة الغليظة.
وذكره الحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق، وأورد من شعره قوله:

من أخمل النفس أحياها وروحها ولم يبت طاويا منها على ضجر
إن الرياح إذا استدت عواصفها فليس ترمي سوى العالي من الشجر

وقال: كان كثير الإحسان إلى أهل الحرمين، واشترى بالمدينة داراً بالقرب من المسجد ليس بيتها وبين الضريح النبوي – على ساكنه أفضل الصلاة والسلام – سوى جدار واحد، وأوصى أن يدفن فيها، وقرر مع الأشراف ذلك، ولما مات حمل تابوته من مصر إلى الحرمين، وخرجت الأشراف إلى لقائه وفاء بما أحسن إليهم، فحجوا به وطافوا ووقفوا بعرفة ثم ردوه إلة المدينة ودفنوه بالدار المذكورة، وهذا خلاف ما ذكرته أولا، والله أعلم بالصواب، غير أني رأيت التربة المذكورة بالقرافة وعليها مكتوب هذه تربة أبي الفضل جعفر بن الفرات ثم إني رأيت بخط أبي القاسم ابن الصوفي أنه دفن في مجلس داره الكبرى ثم نقل إلى المدينة.

المتوكل على الله

أبو الفضل جعفر بن المعتصم بن الرشيد بن المدي، وأمه تركية واسمها شجاع، بويع له لست بقين من ذي الحجة سنة232، وقتل ليلة الأربعاء لثلاث خلون من شوال سنة247وله إحدى وأربعون سنة، ودفن في القصر الجعفري، وهو قصر ابتناه بسر من رأى. وقال الدولابي في تاريخه: أنه دفن هو والفتح بن خاقان وزيره و لم يصل عليهما، فكانت خلافته أربع عشرة سنة وتسعة أشهر وتسعة أيام.
وقتل المتوكل محمد ولده المنتصر بالله بسرمن رأى وهو على خلوة مع وزيره، فابتدره باغر التركي بسيف، فقام وزيره الفتح بن خاقان في وجهه ووجوه القوم، فاعتوره القوم بسيوفهم فقتلوهما معا وقطعوهما حتى اختلطت لحومهما فدفنا معا، على ما قيل. وكان السبب في قتله على ماحكي أنه قدم المعتز على المتصر، والمنتصر أسن منه، وكان يتوعده وسبه ويسب أمه ويأمر الذين يحضرون مجلسه من أهل السخف بسبه، فسعى في قتله ووجد الفرصة في تلك الليلة. وكان من الاتفاق العجيب أن المتوكل كان قد أهدي له سيف قاطع لا يكون مثله، فعرض على جميع حاشيته وكل يتمناه فقال المتوكل: لا يصلح هذا السيف إلا لساعد باغر، ووهبه له دون غيرة، فاتفق أنه أول داخل عليه فضربه به فقطع حبل عاتقه وكان ما ذكرنا من أمره.
وحكى علي بن يحيى بن المنجم قال: كنت أقرأ على المتوكل قبل قتله بأيام كتب الملاحم فوقف على موضع فيه أن الخليفة العاشر يقتل في مجلسه، فتوقفت عن قراءته فقال: ما لك؟ فقلت: خير، قال: لا بد أن تقرأه فقرأته وحدت عن ذكر الخلفاء فقال: ليت شعري من هذا الشقي المقتول؟ وكان مربوعاً أسمر خفيف شعر العارضين، رفع المحنة في الدين، وأخرج أحمد بن حنبل كما ذكرنا من الحبس وخلع عليه.

وكان بالدينور شيخ يتشيع ويميل إلى مذهب الإمامة، وكان له أصحاب يجتمعون إليه ويأخذون عنه ويدرسون عنده، يقال له بشر الجعاب، فرفع صاحب الخبر بالدينور إلى المتوكل أن بالدينور رجلاً رافضياً يحضره جماعة من الرافضة ويتدارسون الرفض ويسبون الصحابة ويشتمون السلف، فلما وقف المتوكل على كتابه أمر وزيره عبيد الله بن يحيى بالكتاب إلى عامله على الدينور بإشخاص بشر هذا والفرقة التي تجالسه، فكتب عبيد الله بن يحيى بذلك، فلما وصل إلى العامل كتابه – وكان صديقا لبشر الجعاب حسن المصافاة له شديد الإشفاق عليه – همه ذلك وسق عليه فاستدعى بشرا واقرأه ما كوتب به في أمره وأمر أصحابه، فقالله بشر: عندي في هذا رأي إن استعملته كنت غير مستبطإ فيما أمرت به وكنت بمنجاة مما أنت خائف علي منه، قال: وما هو؟ قال: بالدينور شيخ خفاف اسمه بشر ومن الممكن المتيسر أن تجعل مكان الجعاب الخفاف وليس بمحفوظ عنده ما نسبت إليه من الحرفة والصناعة، فسر العامل بقوله وهمد إلى العين من الجعاب فغير عينها وغير استواء خطها وانبساطه ووصل الباء بما صارت به فاء؛ فكان أخبرع

عن بشر الخفاف أنه أبله في غاية البله والغفلة وأنه هزأة عند أهل بلده وضحكة، وذلك أن أهل سواد البلد يأخذون من الخفاف التامة والمقطوعة بنسيئة ويعدونه بأثمانها عند حصول الغلة، فإذا حصلت وحازوا ما لهم منها ما طلوه بدينه ولووه بحقه واعتلوا بأنواع الباطل عليه، فإذا انقضى وقت السادر ودنا الشتاء واحتاجوا إلى الخفاف وما جرى مجراها، وافوا بشرا هذا واعتذروا إليه وخدعوه وابتدروا يعدونه الوفاء ويؤكدون مواعيدهم بالأيمان الكاذبة والمعاهدة الباطلة، ويضمنون له أداء الديون الماضية والمستأنفة، فيحسن ظنه بهم وسكونه ويستلم اليهم ويستأنف إعطاءهم من الخفاف وغيرها ما يريدونه، فإذا حضرت الغلة أجروه على العادة وحملوه على ما تقدم من السنة ثم لايزالون على هذه الوتيرة من أخذ سلعة في وقت حاجتهم ودفعه عن حقه في إبان غلاتهم فلا يتنبه من رقدته ولا يفيق من سكرته؛ فانفذ صاحب الخبر كتابه واشار بتقدم الخفاف أمام القوم والإقبال عليه بالمخاطبة وتخصيصه بالمسألة ساكناً إلى أنه من ركاكته وفهاهته بما يضحك الحاضرين ويحسم الاشتغال بالبحث عن هذه القصة، ويتخلص من هذه الثلاثة؛ فلما ورد كتاب صاحب الخبر أعلم عبيد الله بن يحيى المتوكل به وبحضور القوم، فأمر أن يجلس ويستحضرهم ويخاطبهم فيما حكي عنهم، وأمر فعلق بينه وبينهم سلبية ليقف على ما يجري ويسمعه ويشاهده، ففعل ذلك، وجلس عبيد الله واستدعى المحضرين، فقدموا إليه يقدمهم بشر الخفاف، فلما جلسوا أقبل عبيد الله على بشر فقال له: أنت بشر الخفاف؟ فقال: نعم، فسكنت نفوس الحاضرين معه إلى تمام هذه الحيلة وإتمام هذه المدالسة وجواز هذه المغالطة، فقال له: إنه رفع إلى أمير المؤمنين من أرمكم شيء أنكره فأمر بالكشف عنه وسؤالكم بعد إحضاركم عن حقيقته، فقال له بشر: نحن حاضرون فما الذي تأمرنا به؟ قال: بلغ أمير المؤمنين أنه يجتمع اليك قوم فيخوضون معك في الترفض وشتم الصحابة، فقال بشر: ما أعرف من هذا شيئاً، قال: قد أمرت بامتحانكم والفحص عن مذاهبكم، فقال: ماتقول في السلف؟ فقال: لعن الله السلف، فقال له عبيد الله: ويلك أتدري ما تقول؟ قال: نعم لعن الله السلف، فخرج خادم من بين يدي المتوكل فقال لعبيد الله: يقول لك أمير المؤمنين: سله الثالثة فإن أقام على هذا فاضرب عنقه، فقل له: إني سائلك هذه المرة فإن لم تتب وترجع عما قلت أمرت بقتلك، فما تقول الآن في السلف؟ فقال: لعن الله السلف، قد خرب بيتي وأبطل معيشتي وأتلف مالي وأفقرني وأهلك عيالي، قال: وكيف؟ قال: أنا رجل أسلف الأكرة وأهل الدستان الخفاف والتمسكات على ان يوفوني الثمن مما يحصل من غلاتهم، فأصير اليهم عند حصول الغلة في بيادرهم، فغذا أحرزوا الغلات دفعوني عن حقي وامتنعوا من توفيتي مالي، ثم يعودون عند دخول الشتاء فيعتذرون إلية ويحلفون بالله لا يعاودون مطلي وظلمي، فإنهم يؤدون إلي المتقدم والمتأخر من مالي، فأجيبهم إلى ما يلتمسونه وأعطيهم ما يطلبونه، فإذا جاء وقت الغلة عادوا إلى مثل ما كانوا عليه من ظلمي وكسر ماليفقد اختلت حالي وافتقرت عيالي؛ قال: فسمع ضحك عال من وراء السبيبة، وخرج الخادم فقال: استحلل هؤلاء القوم وخل

سبيلهم؛ فقالوا: يا أمير المؤمنين في حل وسعة، فصرفهم فلما توسطوا صحن الدار قال بعض الحاضرين: هؤلاء قوم مجان محتالون وصاحب الخبر مسقط لا يكتب إلا بما يعلمه ويثق بصحته، وينبغي أن يستقصى الفحص عن هذا والنظر فيه، فأمر بردهم، فلما أمروا بالرجوع قال بعض الجماعة التابعة لبعض: ليس هذا من ذلك الذي تقدم فينبغي أن تتولى الكلام نحن وسنلك طريق الجد والديانة، فرجعوا فأمروا بالجلوس، ثم أقبل عبيد الله على القوم فقال: إن الذي كتب في أمركم ليس ممن تقدم على الكتب بما لايقبله علما ويحيط به خبراً وقد أخذ أمير المؤمنين باستئناف امتحانكم وانعام التفتيش عن أمركم، فقالوا: افعل ما أمرت به، فقال: من خير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قلنا: علي بن أبي طالب، فقال الخادم بين يديه: قد سمعت ما قالوا، فأخبر أمير المؤمنين به، فمضى ثم عاد فقال: يقول لكم أمير المؤمنين هذا مذهبي، فقلنا: الحمد لله الذي وفق أمير المؤمنين في دينه ووفقنا لاتباعه وموافقته على مذهبه، ثم قال لهم: ماتقولون في أبي بكر رضي الله عنه؟ فقالوا: رحمة الله على ابي بكر نقول فيه خيراً، قال: فما تقولون في عمر؟ قلنا: رحمة الله عليه ولا نحبه، قال: و لم؟ قلنا: للأنه أخرج مولانا العباس من الشورى، قال: فسمعنا من وراء السبيبة ضحكاً أعلى من الضحك الأول ثم أتى الخادم فقال لعبيد الله عن المتوكل: أتبعهم صلة فقد لزمتهم في طريقهم مؤونة واصرفهم، فقالوا: نحن في غنى وفي المسلمين من هو أحق بهذه الصلة وإليها أحوج، وانصرفوا.

وذكر أبو عبد اله حمدون قال: قال لي الحسين بن الضحاك: ضربني الرشيد في خلافته لصحبتي إياه ثم ضربني الأمين لمماثلتي ابنه عبد الله ثم ضربني المأمون لميلي إلى محمد ثم ضربني المعتصم لمودة كانت بيني وبين العباس بن المأمون ثم ضربني الواثق لشيء بلغه من ذهابي إلى المتوكل، وكل ذلك يجري مجرى الولع والتحذير لي، ثم أحضرني المتوكل وأمر شفيعا أن يولع بي، فتغاضب المتوكل علي، فقلت: يا أمير المؤمنين إن كنت تضربني كما ضربني

آباؤك فاعلم أن آخر ضرب ضربته كان بسببك، فضحك وقال: بل أصونك وأكرمك.
وقال المتوكل يوما لمن حضره: ما أرى أحسن من وصيف الصغير، يعني خادمه، فجعل كل يصفه غير بغا الكبير فال: يا بغا ما سكوتك؟ اما تحب وصيفا؟ قال: لا، قال: و لم؟ قال: لأني أحيب من يحبك ولا أحب من يحبه.

ودخل أبو العيناء على المتوكل فقال له: بلغني عنك بذاء، قال: إن يكن البذاء صفة المحسن بإحسانه والميء بإساءته فقد مدح الله وذم قال نعم العبد إنه أواب وقال عز وجل هماز مشاء بنميم مناع للخير معتد أثيم عتل بعد ذلك زنيم فذمه حتى قذفه، وأما أن أكون كالعقرب التي تسلع النبي والذمي بطبع لا يميز فقد أعاذ الله عبدك من ذلك، وقد قال الشاعر:

إذا أنا بالمعروف لم أثن صادقاً ولم أشتم الجبس اللئيم المذمما
ففيم عرفت الشر والخير باسمه وشق لي الله المسامع والفما

ولما أسلم نجاح بن سلمة إلى موسى بن عبد الملك الأصبهاني ليؤدي ما عليه من الأموال عاقبه فتلف في مطالبته، فحضر يوماً عند المتوكل فقال له: ما عندك من خبر نجاح بن سلمة؟ قال: ما قال الله فوكزه موسى فقضي عليه، فاتصل ذلك بموسى فلقي الوزير عبيد الله بن يحيى بن خاقان فقال: أيها الوزير أردت قتلي فلم تجد لذلك سبيلاً إلا بإدخال أبي العيناء إلى أمير المؤمنين وعداوته لي، فعاتب عبيد الله أبا العيناء في ذلك فقال: والله ما استعذبت الوقيعة فيه حتى ذممت سيرته لك، فأمسك عنه. ثم دخل بعد ذلك أبو العيناء على المتوكل فقال: كيف كنت بعدي؟ فقال: في أحوال مختلفة خيرها رؤيتك وشرها غيبتك، فقال: قد والله استقتك، قال إنما يشتاق العبد لأنه يتعذر عليه لقاء مولاه وأما السيد فمتى أراد عبيده دعاه، فقال له المتوكل: من أسخى من رأيت؟ قال: ابن أبي دواد، قال المتوكل: تأتي إلى رجل قد رفضته فتنسبه إلى السخاء قال: إن الصدق يا أمير المؤمنين على موضع من المواضع أنفق منه على مجلسك وإن الناس يغلطون فيمن ينسبونه إلى الجود لأن سخاء البرامكة منسوب إلى الرشد، وسخاء الفضل والحسن بن سهل منسوب إلى المأمون، وجود اب أبي دواد منسوب إلى المعتصم، وإذا نسب الفتح وعبيد الله إلى السخاء فذاك سخاؤك ياأمير المؤمنين، قال: صدقت فمن أبخل من رأيت؟ قال: موسى بن عبد الملك، قال: وما رأيت من بخله؟ قال: رأيته يحرم القريب كما يحرم الغريب، ويعتذر من الإحسان كما يعتذر من الإساءة، فقال له: قد وقعت فيه عندي وقعتين وما أحب ذلك، فالقه واعتذر إليه ولا يعلم أني وجهت بك، قال: يا أمير المؤمنين من يسكته بحضرة ألف؟ قال: لن تخاف على الاحتراس من الخوف، فسار إلى موسى واعتذر كل واحد منهما إلى صاحبه، وافترقا إلى صلح، فلقيه بالجعفري فقال: يا أبا عبد الله قد اصطلحنا فمالك لا تأتينا؟ قال أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس ما أرانا إلا كما كنا أولاً.
وكان المتوكل قد غضب على عبادة ونفاه إلى الموصل وكان عبادة من أطيب الناس وأخفهم روحا وأحضرهم نادرة، وكان أبوه من طباخي المأمون وكان معه، فخرج حاذقا بالطبيخ ثم مات أبوه ونحب. حكى أبو حازم الفقيه، وقد جرى ذكر عبادة، قال: ما كان أطرفه، قيل: وكيف؟ قال: لما حصل بالموصل تبعه غرماؤه وطلبوه وقدموه إلى علي بن إبراهيم العمري وهو قاضي الموصل فحلف لواحد ثم لآخر ثم لآخر، فقال له علي بن إبراهيم: ويحك ترى هؤلاء كلهم قد اجتمعوا على ظلمك؟ فاتق الله وارجع إلى نفسك، فإن كانت عسرة بإزائها نظرة، فقال: صدقت فديتك ليس كلهم ادعى الكذب ولا كلهم ادعى الصدق، ولكني دفعت بالله ما لا أطيق. وقيل له وقد مات زوج أخته: ماورثت أختك من زوجها؟ قال: أربعة أشهر وعشراً.
وحكى علي بن الجهم قال: لما أفضت الخلافة إلى المتوكل أهدى إليه ابن طاهر من خراسان هدية جليلة فيها جوار فيهن جارية يقال لها محبوبة قد نشأت بالطائف وبرعت في الأدب وأجادت قول الشعر وحذقت الغناء وقربت من قلب المتوكل وغلبت عليه فكانت لا تفارق مجلسه، فوجد عليها مرة فهجرها أياما، وبكرت عليه فقال: ياعلي قلت: لبيك يا أمير المؤمنين، قال رأيت الليلة في منامي كأني رضيت عن محبوبة وصالحتها وصالحتني، قلت: خيراً يا أمير المؤمنين أقر الله عينك وسرك، إنما هي عبدتك والرضى والسخط بيدك، فو الله أنا لفي ذلك إذ جاءت وصيفة فقالت: يا أمير المؤمنين سمعت صوت عود من حجرة محبوبة، فقال: قم بنا ياعلي ننظر ما تصنع، فنهضنا حتى أتينا حجرتها فإذا هي تضرب العود وتغني:

أدور في القصر لاأرى أحداً | أشكو إليه ولا يكلمني
كأنني قد أتيت معصيةً | ليس لها توبة تخلصني

فهل شفيع لنا إلى ملكٍ | قد زارني في الكرى وصالحني
حتى إذاما الصباح لاح لنا | عاد إلى هجره فصارمني

قال: فصاح أمير المؤمنين وصحت معه، فسمعت فتلقته وأكبت على قدميه تقبلهما، فقال: ما هذا؟ قالت: يا مولاي رأيت في ليلتي كأنك رضيت عني فتعللت بما سمعت، قال: وأنا والله رأيت مثل ذلك، فقال لي: يا علي رأيت أعجب من هذا كيف اتفق؟ ورجعنا إلى الموضع الذي كنا فيه ودعا بالجلساء والمغنين واصطبح وما زالت تغنيه الأبيات يومه ذلك؛ قال: وزادت حظوة عنده حتى كان من أمره ما كان، فتفرق جواريه وصارت نحبوبه إلى وصيف الكبير فما زالت حزينة باكية، فدعاها يوما وأمرها أن تغني فاستعفته وجيء بعود فوضع في حجرها فغنت.

أي عيش يلذ لي | لاأرى فيه جعفرا
كل من كان في ضنى وسقام فقد برا
غير محبوبة التي | لو ترى الموت يشترى
لاشترته بما حوته يداها لتقبرا

ولبست السواد والصوف وما زالت تبكيه وترثيه حتى ماتت، رحمها الله تعالى.

ابن السراج

أبو محمد جعفر بن أحمد بن الحسين بن أحمد بن جعفر السراج المعروف بالقاري البغدادي؛ كان حافظ عصره، وعلامة زمانه، وله التصانيف العجيبة، منها كتاب مصارع العشاق وغيره، حدث عن أبي علي بن شاذان، وأبي القاسم ابن شاهين، والخلال، والرمكي، والقزويني، وابن غيلان، وغيرهم، وأخذ عنه خلق كثير، وروى عنه الحافظ أبو طاهر السلفي رحمه الله تعالى، وكان يفتخر بروايته مع أنه لقي أعيان ذلك الزمان وأخذ عنهم وله شعر حسن، فمنه

بان الخليط فادمعي | وجدا عليهم تستهل
وحدا بهم حادي الفرا | ق عن المنازل فاستقلوا
قل للذين ترحلوا | عن ناظري والقلب حلوا
ودمي بلا حرم أتي | ت غداة بينهم استحلوا
ما ضرهم لو أنهلوا | من ماء وصلهم وعلوا

ومن شعره أيضاً رحمه الله تعالى:

وعدت بأن تزوري كل شهر | فزوري قد تقضى الشهر زوري
وشقة بيننا نهر المعلى | إلى البلد المسمى شهرزور
وأشهر هجرك المحتوم حق | ولكن شهر وصلك شهر زور

وأورد له العماد الكاتب الأصبهاني في كتاب الخريدة:

ومدعٍ شرخ شبابٍ وقد عممه الشيب على وفرته

يخضب بالوشمة عثنونه يكفيه أن يكذب في لحيته

وله غير ذلك نظم جيد.

وكانت ولادته إما في أواخر سنة سبع عشرة وأربعمائة أو أوائل سنة ثماني عشرة وأربعمائة، وذكر الشريف أبو المعمر المبارك بن أحمد بن عبد العزيزالأنصاري في كتاب وفيات الشيوخ أن مولده سنة ست عشرة ببغداد، وتوفي بها ليلة الأحد الحادي والعشرين من صفر سنة خمسمائة، ودفن بباب أبرز

أبو معشر المنجم

أبو معشر جعفر بن محمد بن عمر البلخي المنجم المشهور؛ كان إمام وقته في فنه، وله التصانيف المفيدة في علم النجامة، منها المدخل ووالزيج والألوف وغير ذلك، وكانت له إصابات عجيبة.

رأيت في بعض المجاميع أنه كان متصلا بخدمة بعض الملوك، وأن ذلك الملك طلب رجلاً من اتباعه وأكابر دولته ليعاقبه بسبب جريمة صدرت منه، فاستخفى، وعلم أن أبا معشر يدل عليه بالطرائق التي يستخرج بها الخبايا والأشياء الكامنة، فأراد أن يعمل شيئاً لايهتدي إليه ويبعد عنه حسه فأخذ طستاً وجعل فيه دماً وجعل في الدم هاون ذهب، وقعد على الا هاون أياماً، وتطلب الملك ذلك الرجل وبالغ في التطلب، فلما عجز عنه أحضر أبا معشر وقال له: تعرفني موضعه بما جرت عادتك به، فعمل المسألة التي يستخرج بها الخبايا، وسكت زمانا حائرا، فقال له الملك: ماسبب سكوتك وحيرتك؟ قال: أرى شيئا عجيباً، فقال: وما هو؟ قال: أرى الرجل المطلوب على جبل من ذهب والجبل في بحر من دم، ولا أعلم في العالم موضعاً من البلاد على هذه الصفة، فقال له: أعد نظرك وغير المسألة وجدد أخذ الطالع، ففعل ثم قال: ما أراه إلا كما ذ كرت، وهذا شيء ما وقع لي مثله، فلما أيس الملك من القدرة عليه بهذا الطريق أيضاً نادى في البلد بالأمان للرجل ولمن أخفاه، وأظهر من ذلك ما وثق به، فلما اطمأن الرجل ظهر وحضر بين يدي الملك، فسأله عن الموضع الذي كان فيه، فأخبره بما اعتمده، فاعجبه حسن احتياله في إخفاء نفسه، ولطافة أبي معشر في استخراجه.

وله غير ذلك من الإصابات.

وكانت وفاته في سنة اثنتين وسبعين ومائتين، رحمه الله تعالى.

والبلخي – بفتح الباء الموحدة وسكون اللام وبعدها خاء معجمة – هذه النسبة إلى بلخ، وهي مدينة عظيمة من بلاد خراسان فتحها الأحنف بن قيس التميمي في خلافة عثمان رضي الله عنه، وهذا الاحنف هو الذي يضرب به المثل في الحلم، وسيأتي ذكره في حرف الضاد إن شاء الله تعالى.

جعفر الأندلسي ممدوح ابن هانىء

أبو علي جعفر بن علي بن أحمد بن حمدان الأندلسي صاحب المسيلة وأمير الزاب من أعمال إفريقية؛ كان سمحاً كثير العطاء مؤثراً لأهل العلم، ولأبي القاسم محمد بن هانىء الأندلسي فيه من المدائح الفائقة ما يجاوز حسنها حد الوصف، وهو القائل فيه:

المدنفان من البرية كلها جسمي وطرف بابلي أحور

والمشرقات النيرات ثلاثة الشمس والقمر المنير وجعفر

وأما القصائد الطوال فلا حاجة إلى ذكر شيء منها.

وكان أبوه علي قد بنى المسيلة، وهي معروفة بهم إلى الآن، وكان بينه وبين زيري بن مناد جد المعز بن باديس إحن ومشاجرات أفضت إلى القتال، فتواقعا وجرت بينهما معركة عظيمة، فقتل زيري فيها ثم قام ولده بلكين – المقدم ذكره في حرف الباء – مقام أبيه، واستظهر على جعفر المذكور،

فعلم أنه ليس له به طاقة، فترك بلاده ومملكته وهر إلى الأندلس، فقتل بها في سنة أربع وستين وثلثمائة، رحمه الله تعالى، وشرح حديثه يطول وهذا القدر خلاصته والمسيلة – بفتح الميم وكسر السين المهملة وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها لام مفتوحة ثم هاء ساكنة – وهي مدينة من أعمال الزاب.

والزاب – بفتح الزاي وبعد الألف باء موحدة – كورة بإفريقية، وقدتقدم ذكر إفريقية.

ابن فلاح الكتامي

أبو علي جعفر بن فلاح الكتامي؛ كان أحد قواد المعز أبي تميم معد بن المنصور العبيدي صاحب إفريقية، وجهزه مع القائد جوهر – الآتي ذكره – لما توجه لفتح الديار المصرية، فلما أخذ مصر بعثه جوهر إلى الشام، فغلب على الرملة في ذي الحجة سنة ثمان وخمسين وثلثمائة ثم غلب على دمشق فملكها في المحرم سنة تسع وخمسين بعد أن قاتل أهلها، ثم أقام بها إلى سنة ستين ونزل إلى الدكة فوق نهر يزيد بظاهر دمشق، فقصده الحسن بن أحمد القرمطي المعروف بالأعصم، فخرج إليه جعفر المذكور وهو عليل فظفر به القرمطي فقتله وقتل من أصحابه خلقا كثيرا، وذلك في يوم الخميس لست خلون من ذي القعدة سنة ستين وثلثمائة، رحمه الله تعالى.

وقال بعضهم: قرأت على باب قصر القائد جعفر بن فلاح المذكور بعد قتله مكتوبا:

يا منزلاً عبث الزمان بأهله ... فأبادهم بتفرق لا يجمع

أين الذين عهدتهم بكمرة ... كان الزمان بهم يضر وينفع

وكان جعفر المذكور رئيساً جليل القدرممدوحاً، وفيه يقول أبو القاسم محمد بن هانىء الأندلسي الشاعر المشهور:

كانت مساءلة الركبان تخبرني ... عن جعفر بن فلاح أطيب الخبر

حتى التقينا فلا والله ماسمعت ... أذني بأحسن مما قد رأى بصري

والناس يروون هذين البيتين لأبي تمام في القاضي أحمد بن أبي دواد، وهوغلط، لأن البيتين ليسا لأبي تمام، وهم يروونهما عن أحمد بن دواد وهو ليس بابن دواد، بل ابن أبي دواد، ولو قال ذلك لما استقام الوزن.

ابن شمس الخلافة

أبو الفضل جعفر بن شمس الخلافة أبي عبد الله محمد بن شمس الخلافة مختار الأفضل الملقب مجد الملك الشاعر المشهور؛ كان فاضلاً حسن الخط، وكتب كثيراً، وخطه مرغوب فيه لحسنه وضبطه، وله تواليفجمع فيها أشياء لطيفة دلت على جودة اختياره، وله ديوان شعر أجاد فيه، نقلت من خطه لنفسه:

هي شدة يأتي الرخاء عقيبها ... وأسى يبشر بالسرور العاجل

وإذا نظرت فإن بؤساً زائلاً ... للمرء خير من نعيم زائل

وله أيضا في الوزير ابن شكر، وهو الصفي أبو محمد عبد الله بن علي، عرف بابن شكر، وزير الملك الكامل رحمهما الله تعالى:

مدحتك ألسنة الأنام مخافةً ... وتشاهدت لك بالثناء الأحسن

أترى الزمان مؤخرا في مدتي ... حتى أعيش إلى انطلاق الألسن

هكذا أنشدنيهما بعض الأدباء المصريين، ثم وجدتهما في مجموع عتيق و لم يسم قائلهما، وطريقته في الشعر حسنة.

وله أيضا:

أعطوإن فاتك الثراء ودع ... سبيل من ضن وهو مقتدر

فكم غني بالناس عنه غنى   وكم فقير إليه يفتقر

وله أيضاً:

كفي وعرضي إذا ما   سألت عن أخباري

هذا من الكاس كاسٍ   وذا من العار عاري

وكانت ولادته في المحرم سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة، وتوفي في الثاني عشر من المحرم سنة اثنتين وعشرين وستمائة بالموضع المعروف بالكوم الأحمر ظاهر مصر، رحمه الله تعالى.

والأفضلي – بفتح الهمزة وسكون الفاء وفتح الضاد المعجمة وبعدها لام – هذه النسبة إلى الأفضل أمير الجيوش بمصر.

وتوفي والده في ذي الحجة سنة تسع وستين وخمسمائة، ومولده سنة عشرين وخمسمائة.

جعبر القشيري

الأمير جعبر بن سابق القشيري الملقب سابق الدين الذي تنسب إليه قلعة جعبر؛ لم أقف على شيء من أحواله سوى أنه كان قد أسن وعمي، وكان له ولدان يقطعان الطريق ويخيفان السبيل، و لم يزل على ذلك والقلعة بيده حتى أخذها منه السلطان ملك شاه بن ألب أرسلان السلجوقي الآتي ذكره، ثم قتل بعد ذلك في أوائل سنة أربع وستين وأربعمائة، رحمه الله تعالى. هكذا وجدته في بعض التواريخ وفي نفسي منه شيء، فإن السلطان ملك شاه ما ملك إلا بعد قتل أبيه ألب أرسلان، وأبوه قتل في سنة خمس وستين وأربعمائة – كما سيأتي في موضعه إن شاء الله تعالى – إلا إن كان قد تغلب على القلعة في حياة أبيه وهو نائبه، أو يكون تاريخ وفاة جعبر غلطا، وقد نبهت عليه لئلا يتوهم من يقف عليه أن الغلط كان مني، أو أنه مر بي و لم أتنبه له، فاعلم ذلك.

ثم إني بعد هذا حققت هذا الأمر، فوجدته أن ملك شاه السلجوقي لما توجه إلى حلب ليأخذها اجتازبهذه القلعة، وقتل جعبرا المذكور لما بلغه عنه من الفساد وأخذ القلعة، وقتل جعبرا المذكور لما بلغه عنه من الفساد وأخذ القلعةمنه وسار إلى حلب وذلك في سنة تسع وسبعين وأربعمائة، ويقال لهذه القلعة: الدو سرية، وهي منسوبة إلى دوسر غلام النعمان بن المنذر ملك الحيرة، وكان قد تركه على أفواه الشام، فبنى هذه القلعة فنسبت إليه.

والجعبر في اللغة: القصير الغليظ، وهو بفتح الجيم وسكون العين المهملة وبعدها باء موحدة مفتوحة ثم راء.

نصير الدين جقر

أبو سعيد جقر بن يعقوب الهمذاني الملقب نصير الدين؛ كان نائب عماد الدين زنكي صاحب الجزيرة الفراتية والموصل والشام، استنابه عنه بالموصل، وكان جباراً عسوفاً سفاكاً للدماء مستحلاً للآموال، قيل: إنه لما أحكم عمارة سور الموصل أعجبه إحكامه، فناداه مجنون نداء عاثل: هل تقدر أن تعمل سوراً يسد طريق القضاء النازل؟ وفي ولايته قصد الإمام المسترشد حصار الموصل، فنازلها وضايقها مدة، وكان جقر المذكور قد حصنها وحفر خنادقها فقاتل الخليفة ورجع عنها و لم ينل منها مقصوده، وذلك في شهر رمضان سنة سبع وعشرين وخمسمائة، وكان بالموصل فروخ شاه ابن السلطان محمود السلجوقي المعروف بالخفاجي.

وذكر ابن الأثير في تاريخ دولة بني أتابك أن الخفاجي صاحب هذه الواقعة هو ألب أرسلان بن محمود بن محمد لتربية عماد الدين زنكي أتابك – ولذلك سمي أتابك، فإنه اللالا الذي يربي أولاد الملوك، فالأتا بالتركية هو الأب، وبك هو الأمير، فأتابك مركب من هذين المعنيين – وكان جقر يعارضه ويعانده في مقاصده، فلما توجه عماد الدين زنكي لمحاصرة قلعة البيرة قرر الخفاجي مع جماعة من أتباعه أن يقتلوا جقر، فحضر يوماً إلى باب الدارللسلام فنهضوا إليه فقتلوه وذلك في الثامن، وقيل: يوم الخميس التاسع من ذي القعدة سنة تسع وثلاثين وخمسمائة، ولى عماد الدين زنكي موضع جقر زين الدين علي بن بكتكين والد مظفر الدين صاحب إربل، فأحسن السيرة وعدل في الرعية، وكان رجلاً صالحاً، رحمه الله تعالى.

ولما عاد زنكي إلى الموصل استصفى أموال جقر واستخرج ذخائره وصادر أهله وأقاربه، وكان جقر قد ولى بالموصل رجلاً ظالماً يسمى بالقزويني، فسار سيرة قبيحة وكثر شكوى الناس منه، فعزله وجعل مكانه عمر بن شكلة فأساء في السيرة أيضا فعمل في ذلك أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن محمد بن شقاقا الموصلي المتوفي سنة ثلاث وثلاثين وخمسائة:

يا نصير الدين يا جقر ... ألف قزويني ولا عمر

لو رماه الله في سقر ... لاشتكت من ظلمه سقر

وجقر: بفتح الجيم والقاف وبعدهما راء، وهو اسم أعجمي وأظنه كان مملوكا

جميل بثينة

أبو عمر وجميل بن عبد الله بن معمر بن صباح – بضم الصاد المهملة – ابن ظبيان بن حن – بضم الحاء المهملة وتشديد النون – ابن ربيعة بن حرام بن صبة ابن عبد بن كثير بن عذرة بن سعد بن هديم بن زيد بن ليث بن سود بن أسلم ابن الحاف بن قضاعة الشاعر المشهور؛ صاحب بثينة أحد عشاق العرب، عشقها وعو غلام، لما كبر خطبها فرد عنها فقال الشعر فيها، وكان يأتيها سراً ومنزلهما وادي القرى، وديوان شعره مشهور فلا حاجة إلى ذكر شيء منه.

ذكره الحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق وقال: قيل له: لو قرأت القرآن كا أعود عليك من الشعر، فقال: هذا أنس بن مالك رضي الله عنه أخبرني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن من الشعر لحكمة.

وجميل وبثينة كلاهما من بني عذرة، وكانت بثينة تكنى أم عبد الملك، والجمال والعشق في بني عذرة كثير؛ قيل لأعرابي من العذريين: ما بال قلوبكم كأنها قلوب طير تنماث كما ينماث الملح في الماء؟ أما تتجلدون؟ فقال: إنا ننظر إلى محاجر أعين لا تنظرون إليها، وقيل لآخر: ممن أنت؟ فقال: أنا من قوم إذا أحبوا ماتوا، فقالت جارية سمعته: هذا عذري ورب الكعبة.

وذكر صاحب اغاني أن كثير عزة كان راوية جيمل، وجميل كان راوية هدبة بن خشرم وهدبة راويةالحطيئة، والحطيئة راوية زهير بن أبي سلمى وابنه كعب بن زهير.

ومن شعر جميل من جملة أبيات

وخبرتماني أن تيماء منزل ... لليلى إذا ما الصيف ألقى المراسيا

فهذي شهور الصيف عنا قد انقضت ... فما النوى ترمي بليلى المراميا

ومن الناس من يدخل هذه الأبيات في قصيدة مجنون ليلى، وليست له وتيماء خاصة: مترل لبني عذرة، وفي هذه القصيدة يقول جميل:

وما زلتم يابثن حتى لو انني ... من الشوق استبكي الحمام بكى ليا

ومازادني الواشون إلا صبابة ... ولا كثرة الناهين إلا تماديا

وما أحدث النأي المفرق بيننا ... سلوا ولا طول الليالي تقاليا

ألم تعلمي ياعذبة الريق أنني ... أظل إذا لم ألق وجهك صاديا

لقد خفن ان ألقى المنية بغتة ... وفي النفس حاجات إليك كما هيا

وكان كثير عزة يقول: جميل والله أشعر العرب حيث يقول:

وخبرتماني أن تيماء منزل ... لليلى إذا ما الصيف ألقى المراسيا

ومن شعره:

إني لأحفظ سركم ويسرني لو تعلمين بصالح أن تذكري

ويكون يوم لا أرى لك مرسلا أو نلتقي فيه علي كأشهر

ياليتني أقلى المنية بغتة إن كان يوم لقائكم لم يقدر

ومنها:

يهواك ماعشت الفؤاد وإن أمت يتبع صداي صداك بين الأقبر

ومنها:

إني إليك بما وعدت لناظر نظر الفقير إلى الغي المكثر

يقضي الديون وليس ينجز موعداً هذا الغريم لنا وليس بمعسر

ما أنت والوعد الذي تعدينني إلا كبرق سحابة لم تمطر

زمن شعره من جملة قصيدة:

إذا قلت ما بي يا بثينة قاتلي من الوجد قالت ثابت ويزيد

وإن قلت ردي بعض عقلي أعش به بثينة قالت ذاك منك بعيد

ومن شعره أيضاً:

وإني لأرضى من بثينة بالذي لواستيقن الواشي لقرت بلابله

بلا وبألا أستطيع وبالمنى وبالأمل المرجو قد خاب آمله

و بالنظرة العجلى وبالحول تنقضي أوآخره لا نلتقي وأوائله

وله أيضاً:

وإني لأستحيي من الناس أن أرى رديفاً لوصل أو علي رديف

وأشرب رنقا منك بعد مودة وأرضى بوصل منك وهو ضعيف

وإني للماء المخالط للقذى إذا كثرت وراده لعيوف

وله م أبيات أيضاً

بعيد على من ليس يطلب حاجةً وأما على ذي حاجة فقريب

بثينة قالت يا جميل أربتني فقلت كلانا يابثين مريب

وأريبنا من لا يؤدي أمانة ولا يحفظ الأسرار حين يغيب

وقال كثير عزة: لقيني مرة جميل بثينة فقال: من أين أقبلت؟ فقلت: من عند أبي الحبيبة، يعني بثينة، فقال: وإلى أين تمضي؟ قلت إلى الحبيبة، يعني عزة، فقال: لا بد أن ترجع عودك على بدئك فتتخذ لي موعداً من بثينة، فقلت: عهدي بها الساعة، وأنا أستحيي أن أرجع، فقال لابد من ذلك، فقلت: متى عهدك ببثينة؟ فقال: من أول الصيف، وقعت سحابة بأسفل وادي الدوم فخرجت ومعها جارية لها تغسل ثيابا، فلما أبصرتني أنكرلاتني، فضربت يدها إلى الثوب في الماء بالتحفت به، وعرفتني الجاريةفأعادت الثوب إلى الماء، وتحدثنا ساعة حتى غابت الشمس، فسألتها الموعد فقالت: أهلي سائرون، ولا

لقيتها بعد ذلك، ولا وجدت أحدا آمنه فأرسله إليها، فقال له كثير: فهل لك أن آتي الحي فأتعرض بأبيات شعر أذكر فيها هذه العلامة إن لم أقدر على الخوة بها؟ قال: وذاك الصواب، فخرج كثير حتى أناخ بهم، فقال له أبوها: ماردك يا ابن أخي؟ قال: قلت أبياتاعرضت فأحببت أن أعرضها عليك، قال: هاتها، فأنشدته وبثينة تسمع::

فقلت لها ياعز أرسل صاحبي — إليك رسولاً والرسول موكل
بأن تجعلي بيني وبينك موعداً — وأن تأمريني بالذي فيه أفعل
آخرى عهدي منك يوم لقيتني — بأسفل وادي الدوم والثوب يغسل

قال: فضربت بثينة جانب خدرها وقالت: أخسأ اخسأ، فقال لها أبوها: مهيم يابثينة؟ فقالت كلب يأتينا إذا نوم الناس من وراء الرابية، ثم قالت للجارية: ابغينا من الدومات حطبا لنذبح لكثير شاة ونشويها له، فقال كثير: أنا أعجل من ذلك، وراح إلى جميل فأخبره، فقال جميل: الموعد الدومات.

وخرجت بثينة وصواحبها إلى الدومات، وجاء جميل وكثير إليهن، فما برحوا حتى برق الصبح، فكان كثير يقول: مارأيت مجلسا قط أحسن من ذلك المجلس، ولا مثل علم أحدهما بضمير الأخر، ما أدري أيهما كان أفهم.

وقال الحافظ أبو القاسم المعروف بابن عساكر في تاريخه الكبير: قال أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري: أنشدني أبي هذه الأبيات لجميل بن معمرقال: وتروى لغيره أيضاً، وهي:

مازلت أبغي الحي أتبع فلهم — حتى دفعت إلى ربيبة هودج
فدنوت مختفيا ألم بيتها — حتى ولجت إلى خفي المولج
فتناولت رأسي لتعرف مسه — بمخضب الأطراف غير مشنج
قالت :وعيش أخي ونعمة والدي — لأنبهن القوم إن لم تخرج
فخرجت خيفة قولها فتبسمت — فعلمت أن يمينها لم تلجج
فلثمت فاهاً آخذاً بقرونها — شرب النزيف ببرد ماء الحشرج

قال هارون بن عبد الله القاضي: قدم جميل بن معمر مصر على عبد العزيز ابن مروان ممتدحاً له، فأذن له وسمع مدائحه وأحسن جائزته، وسأله عن حبه بثينة فذكر وجدا كثيراً، فوعده فيأمرها وأمره بالمقام وأمر له بمنزل وما يصلحه، فما أقام إلا قليلاً حتى مات هناك في سنة اثنتين وثمانين.

وذكر الزبير بن بكار عن عباس بن سهل الساعدي قال: بينا أنا بالشام إذ لقيني رجل من أصحابي فقال: هل لك في جميل فإنه يعتل نعوده؟ فدخلناعليه وهو يجود بنفسه، فنظر إلي وقال: يا ابن سهل، ما تقول في رجل لم يشرب الخمر قط ولم يزن ولم يقتل النفس ولم يسرق يشهد أن ىإله إلا الله؟ قلت: أظنه قد نجا وأرجوا له الجنة، فمن هذا الرجل؟ قال: أنا، قلت له: والله ما أحسبك سلمت وأنت تشبب منذ عشرين سنة ببثينة، قال: لا نالتني شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم وإني لفي أول يوم من أيام الآخرة وآخر يوم من أيام الدنيا إن كنت وضعت يدي عليها لريبة، فما برحنا حتى مات.

وقال محمد بن أحمد بن جعفر الأهوازي: مرض جميل بمصر مرضه الذي مات فيه، رحمه الله تعالى، فدخل عيه العباس بن سهل الساعدي، وذكر هذه الحكاية، والله أعلم بالصواب.

وذكرفي الأغاني عن الأصمعي قال: حدثني رجل شهد جميلاً لما حضرته الوفاة بمصر أنه دعا به فقال له: هل لك أن أعطك كل ما أخلفه على أن تفعل شيئاً أعهده إليك؟ قال: فقلت: اللهم نعم، فقال: إذا أنامت فخذ حلتي هذه واعزلها جانباً، وكل شيء سواها لك، وارحل إلى رهط بثينة، فإذا صرت إليهم فارتحل ناقتي هذه وركبها، ثم ألبس حلتي هذه واشققها، ثم اعل على شرف وصح بهذه الأبيات وخلاك ذم:

صرخ النعي وما كنى بجميل وثوى بمصر ثواء غير قفول

ولقد أجر البرد في وادي القرى نشوان بين مزارع وتخيل

قومي بثينة فاند بي بعويل وابكي خليلك دون كل خليل

قال: ففعلت ما أمرني به جميل، فما استتمت الأبيات حتى برزت بثينة كأنها بدر قد بدا في دجنة وهي تتثنى في مرطها حتى أتتني وقالت: يا هذا، والله إن كنت صادقا لقد قتلتني، وإن كنت كاذبا لقد فضحتني، قلت: والله ما أنا إلا صادق، وأخرجت حلته، فلما رأتها صاحت بأعلى صوتها وصكت وجهها، واجتمع نساء الحي يبكين معها ويندبنه حتى صعقت. فمكثت مغشيا عليها ساعة ثم قامت وهي تقول:

وإن سلوي عن جميل لساعة من الدهر ما حانت ولاحان حينها

سواء علينا يا جميل بن معمر إذا مت بأساء الحياة ولينها

وقد تقدم ذكر هذين البيتين في ترجمة الحافظ أبي طاهر أحمد السلفي، قال الرجل: فما رأيت أكثر باكياً ولا باكية من يومئذ.

جنادة الهوري

أبو أسامة جنادة بن محمد اللغوي الأزدي الهروي؛ كان مكثرا من حفظ اللغة ونقلها، عارفاً بوحشيها ومستعملها، لم يكن في زمنه مثله في فنه، وكان بينه وبين الحافظ عبد الغني بن سعيد المصري وأبي الحسن علي بن سليمان المرىء النحوي الأنطاكي مؤانسة واتحاد كثير، وكانوا يجتمعون في دار العلم وتجري بينهم مذاكرت ومفاوضات في الآداب، ولم يزل ذلك دأبهم حتى قتل الحاكم صاحب مصر أبا أسامة جنادة وأبا الحسن المقرئ الأنطاكي المذكورين في يوم واحد، وهو في ذي القعدة سنة تسع وتسعين وثلثمائة، رحمهما الله تعالى، واستتر بسبب قتلهما الحافظ عبد الغني المذكور خوفاً على نفسه من مثل ذلك، حكى ذلك الأمير المختار المعروف بالمسبحي في تاريخه.

والهروي – بفتح الها والراء وبعدها واو وياء – هذه النسبة إلى هراة وهي من أعظم مدن خراسان.

وجنادة – بضم الجيم وفتح النون وبعد الألف دال مهملة مفتوحة ثم هاء ساكنة.

الجنيد الصوفي

أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد الخزاز القواريري، الزاهد المشهور؛ أصله من نهاوند، ومولده ومنشؤه العراق، وكان شيخ وقته وفريد عصره، وكلامه في الحقيقة مشهور مدون، وتفقه على أبي ثور صاحب الإمام الشافعي رضي اله عنهما، وقيل: بل كان فقيها على مذهب سفيان الثوري رضي الله عنه. وصحب خاله السري السقطي والحارث المحاسبي وغيرهما من جلة المشايخ رضي الله عنهم. وصحبه أبو العباس ابن سريج الفقيه الشافعي، وكان إذا تكلم في الأصول والفروع بكلام أعجب الحاضرين فيقول لهم: أتدرون من أين لي هذا؟ هذا من بركة مجالستي أبا القاسم الجنيد، وسئل الجنيد عن العارف فقال: من نطق عن سرك وأنت ساكت، وكان يقول: مذهبنا هذا مقيد بالأصول والكتاب والسنة. وحضر الجنيد موضعا فيه قوم يتواجدون على سماع يسمعونه وهو مطرق، فقيل له: أبا لاقاسم، مانراك تتحرك! فقال وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب، صنع الله ورئي يوماً وفي يده سبحة، فقيل له: أنت مع شرفك تأخذ في يدك سبحة؟ فقال: طريق وصلت به إلى ربي لا أفارقه.

وقال الجنيد: قال لي خالي سري السقطي: تكلم على الناس، وكان في قلبي حشمة من الكلام على الناس، فإني كنت أتهم نفسي في استحقاقي ذلك، فرأيت ليلة في المنام رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت ليلة جمعة، فقال لي: تكلم على الناس، فانتبهت، وأتيت باب السري قبل أن أصبح، فدققت الباب فقال لي: لم تصدقنا حتى قيل لك، فقعدت في غد الناس بالجامع وانتشر في الناس أن الجنيد قعد يتكلم على الناس، فوقف علي غلام نصراني متنكراً وقال: أيها الشيخ، مامعنى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينور الله؟ فأطرقت ثم رفعت رأسي وقلت: أسلم فقد حان وقت إسلامك، فأسلم الغلام.

وقال الشيخ الجنيد: ما انتفعت بشيء انتفاعي بأبيات سمعتها، قيل له: وماهي؟ قال: مررت بدرب القراطيس فسمعت جارية تغني من دار فأنصت لها فسمعتها تقول:

إذا فعلت أهى الهجر لي حلل البلى	تقولين لولا الهجر لم يطب الحب
وإن قلت هذا القلب أرحقه الهوى	تقولي بنيران الهوى شرف القلب
وإن قلت ما أذنبت قلت مجيبة	حياتك ذنب لايقاس به ذنب

فصعقت وصحت، فبينما أنا كذلك إذا بصاحب الدار قد خرج فقال: ما هذا ياسيدي؟ فقلت له: مما سمعت، فقال: أشهدك أنها هبة من يلك، فقلت: قد قبلتها وهي حرة لوجه الله تعالى، ثم زوجتها لبعض أصحابنا بالرباط فولدت له ولداً نبيلاً، ونشأ أحسن نشوء، وحج على قدميه ثلاثين حجة على الوحدة.

وآثاره كثيرة مشهورة.

وتوفي يوم السبت – وكان نيروز الخليفة – سنة سبع وتسعين ومائتين، وقيل: سنة ثمان وتسعين آخر ساعة من نهار الجمعة ببغداد، ودفن يوم السبت بالشونيزية عند خاله سري السقطي، رضي الله عنهما. وكان عند موته – رحمه الله تعالى – قد ختم القرآن الكريم ثم ابتدأ في القرة فقرأ سبعين آية، ثم مات. قال محمد بن إبراهيم: رأيت الجنيد في المنام فقلت له: ما فعل الله بك؟ قال: طاحت تلك الإشارات وغابت تلك العبارات وفنيت تلك العلوم ونفدت تلك الرسوم وما نفعنا إلا ركعات كنا نركعها في الأسحار وإنما قيل له الخزار لأنه كان يعمل الخز، وإنما قيل له القواريري لأن أباه كان قواريرياً.

والخزار: بفتح الخاء المعجمة وتشديد الزاي وبعد الألف زاي ثانية.

والقواريري: بفتح القاف والواو وبعد الألف راء مكسورة ثم ياء مثناة من تحتها ساكنة وبعدها راء ثانية.

ونهاوند – بفتح النون وقال السمعاني: بضم النونوفتح الهاء وبعد الألف واو مفتوحة ثم نون ساكنة وبعدها دال مهملة – وهي مدينة من بلاد الجبل، قيل: إن نوحا عليه السلام بناها، وكان اسمها نوح أوند، ومعنى أوند بنى فعربوها فقالوا: نهاوند.

والشونيزية – بضم الشين المعجمة وسكون الواو وكسر النون وسكون الياء المثناة من تحتها وفي آخرها زاي – وهي مقبرة مشهورة ببغداد بها قبور جماعة من المشايخ، رضي الله عنهم، بالجانب الغربي.

جوهر الصقلي

القائد أبو الحسن جوهر بن عبد الله، المعروف بالكاتب، الرومي؛ كان من موالي المعز بن المنصور بن القمائم بن المهدي صاحب إفريقية، وجهزه إلى الديار المصرية ليأخذها بعد موت الأستاذ كافور الإخشيدي، وسير معه العساكر، وهو المقدم، وكان رحيله من إفريقية يوم السبت رابع عشر شهر ربيع الأول سنة ثمان وخمسين وثلثمائة، وتسلم مصر يوم يوم الثلاثاء لآثنتي عشرة ليلة بقيت من شعبان من السنة المذكورة، وصعد المنبر خطيبا بها يوم الجمعة لعشر بقين من شعبان ودعا لمولاه المعز، فأقيمت الدعوة للمعز في الجامع العتيق، وسار جوهر إلى جامع ابن طولون وأمر بأن يؤذن فيه بحي على خير العمل وهو أول ما أذن؛ ثم أذن بعده بالجامع العتيق وجهر في الصلاة ببسم الله الرحمن الرحيم. ولما استقر جوهر بمصر شرع في بناء القاهرة وسير عسكراً إلى دمشق وغزاها فملكها. ووصلت البشارة إلى مولاه المعز بأخذ البلاد وهو بإفريقية في نصف شهر رمضان المعظم من السنة المذكورة، ويدعوه إلى المسير ليه، ففرح فرحاً شديداً، ومدحه الشعراء فمن ذلك محمد بن هانىء الأندلسي من قصيدة:

يقول بنو العباس قد فتحت مصر	فقل لبني العباس قد قضي الأمر
وقد جاوز الإسكندرية جوهر	تطالعه البشرى ويقدمه النصر

وأقام بها حتى وصل إليه مولاه المعز وهو نافذ الأمر، واستمر على علو منزلته وارتفاع درجته متولياً للأمور إلى يوم الجمعة سابع عشر المحرم سنة أربع وستين، فعزله المعز عن دواوين مصر وجباية أموالها والنظر في أحوالها، وكان محسناً إلى الناس، إلى أن توفي يوم الخميس لعشر بقين من ذي القعدة سنة إحدى وثمانين وثلثمائة، رحمه الله تعالى، وكانت وفاته بمصر، و لم يبق بها شاعر إلا رثاه وذكر مآثره.

وكان سبب إنفاذ ملاه المعزله إلى مصر أن كافوراً الإخشيدي الخادم – الآتي ذكره في حرف الكاف – لما توفي استقر الرأي بين أهل الدولة أن تكون الولاية أحمد بن علي بن الإخشيد، وكان صغير السن، على أن يخلفه ابن عم أبيه أبو محمد الحسين بن عبد الله بن طغج، وعلى أن تدبير الرجال والجيش إلى شمول الإخشيدي، وتدبير الأموال إلى أبي الفضل جعفر بن الفرات الوزير، وذلك يوم الثلاثاء لعشر بقين من جمادى الولى سنة سبع وخمسين وثلثمائة، ودعي لأحمد بن علي بن الإخشيد على المنابر بمصر وأعمالها والشامات والحرمين، وبعده للحسين بن عبد الله، ثم إن الجند اضطربوا لقلة الأموال وعدم الإتفاق فيهم – كما ذكرناه في ترجمة جعفر بن الفرات المقدم ذكره – فكتب جماعة من وجوههم إلى المعز بإفريقية يطلبون منه إنفاذ العساكر ليسلموا له مصر، فامر القائد جوهراً المذكور بالتجهز إلى الديار المصرية، واتفق أن جوهرا مرض مرضاً شديداً أيس منه فيه، وعاده مولاه المعز فقال: هذا لا يموت، وستفتح مصر على يديه، واتفق إبلاله من المرض، وقد جهز له كل ما يحتاج إليه من المال والسلاح والرجال، فبرز بالعساكر في موضع ياقل له الرقادة ومعه أكثر من مائة ألف فارس، ومعه أكثر من ألف ومائتي صندوق من المال، وكان المعز يخرج إليه كل يوم ويخلو به ويوصيه، ثم تقدم إليه با لمسير وخرج لوداعه، فوقف جوهر بين يديه والمعز مككئاً على فرسه يحدثه سرا زمانا، ثم قال لأولاده: انزلوا لوداعه، فنزلوا عن خيولهم، ونزل أهل الدولة لنزولهم، ثم قبل جوهر يد المعز وحافر فرسه، فقال له: اركب، فركب وسار بالعساكر، ولما رجع المعز إلى قصره أنفذ لجوهر ملبوسه وكل ما كان عليه سوى خاتمه وسراويله، وكتب المعز إلى عبده أفلح صاحب برقة أن يترجل للقائد جوهر ويقبل يده عند لقائه، فبذل أفلح مائة ألف دينار على أن يعفى من ذلك، فلم يعف، وفعل ما أمر به عند لقائه لجوهر.

ووصل الخبر إلى مصر بوصولهم، فاضطرب أهلها، واتفقوا مع الوزير جعفر بن الفرات على المراسلة في الصلح وطلب الأمان وتقرير أملاك أهل البلد عليهم، وسألوا أبا جعفر مسلم بن عبد الله الحسيني أن يكون سفيرهم فأجابهم، وشرط أن يكون معه جماعة من أهل البلد، وكتب الوزير معهم أيضا بما يريد، وتوجهوا نحو القائد جوهر يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ثمان وخمسين وثلثمائة، وكان جوهر قد نزل في تروجة – وهي قرية القرب من الاسكندرية – فوصل إليه الشريف بمن معه وأدى إليه الرسالة، فأجابه إلى ما التمسوه، وكتب له جوهر عهدا بما طلبوه، واضطرب البلد اضطراباً شديداً، وأخذت الإخشيدية والكافورية وجماعة من العسكر الأهبة للقتال، وستروا ما في دورهم وأخرجوا مضاربهم ورجعوا عن الصلح، وبلغ ذلك جوهرا فرحل إليهم، وكان الشريف قد وصل بالعهد والأمان في سابع شعبان، فركب إليه الوزير والناس واجتمع عند الجند فقرأ عليهم العهد، وأوصل إلى كل واحد جواب كتابه بما أراد من الإقطاع والمال والولاية، واوصل إلى الوزير جواب كتابه وقد خوطب فيه بالوزير، فجرى فصل طويل في المشاجرة والامتناع، وتفرقوا عن غير رضى، وقدمواعليهم نحريراً الشوبزاني، وسلموا عليه بالإمارة، وتهيأوا للقتال، وساروا العساكر نحو الجيزة ونزلوا بها وحفظوا الجسور.

ووصل القائد جوهر إلى الجيزة، وابتدئ بالقتال في الحادي عشر من شعبان، وأسرت رجال وأخذت خيل، ومضى جوهر إلى منية الصيادين، وأخذ المخاضة بمنية شلقان، واستأمن إلى جوهر جماعة من العسكر في المراكب وجعل أهل مصر على المخاضة من يحفظها، فلما رأى ذلك جوهر قال لجعفر بن فلاح: لهذا اليوم أرادك المعز، فعبر عريانا في سراويل وهو في مركب ومعه الرجال خوضا حتى خرجوا إليهم، ووقع القتال، فقتل خلق كثير من الإخشيدية وأتباعهم، وانهزمت الجماعة في الليل، ودخلوا مصر وأخذوا من دورهم ماقدروا عليه وانهزموا وخرج حرمهم مشاة ودخلن على الشريف أبي جعفر في مكاتبة القائد باعادة الأمان، فكتب إليه يهنئه بالفتح ويسأله إعادة الأمان، وجلس الناس عنده ينتظرون الجواب، فعاد إليه بأمانهم، وحضر رسوله ومعه بند أبيض وطاف على الناس يؤمنهم ويمنع من النهب، فهدأ البلد وفتحت الأسواق وسكن الناس كأن لم تكن فتنة.

فلما كان آخر النهار ورد رسوله إلى أبي جعفر بأن تعمل على لقائي يوم الثلاثاء لسبع عشرة ليلة تخلو من شعبان بجماعة الأشراف والعلماء ووجوه البلد، فانصرفوا متأهبين لذلك، ثم خرجوا ومعهم الوزير جغفر وجماعة الأعيان إلى الجيزة، والتقوا بالقائد، ونادى مناد: يترل الناس كلهم إلا الشريف

والوزير، فترلوا وسلموا عليه واحداً واحداً، والوزير عن شماله والشريف عن يمينه، ولما فرغوا من السلام ابتدأوا في دخول البلد، فدخلوا من زوال الشمس وعليهم السلاح والعدد، ودخل جوهر بعد العصر وطبوله. وبنوده بين يديه، وعليه ثوب ديباج مثقل، وتحته فرس أصفر، وشق مصر، ونزل في مناخه موضع القاهرة اليوم، واختط موضع القاهرة.

ولما أصبح المصريون حضروا إلى القائد للهناء، فوجدوه قد حفر أساس القصر في الليل، وكان فيه زورات جائت غير معتدلة فلم تعجبه، قم قال: حفرت في ساعة سعيدة فلآ أغيرها، وأقام عسكره يدخل إلى البلد سبعة أيام أولها الثلاثاء المذكور، وبادر جوهر بالكتاب إلى مولاه المعز يبشره بالفتح وأنفذ إليه رؤوس القتلى في الوقعة، وقطع خطبة بني العباس عن منابر الديار المصرية، وكذلك اسمهم من على السكة، وعرض عن ذلك باسم مولاه المعز، وأزال الشعار الأسود، وألبس الخطباء الثياب البيض، وجعل يجلس بنفسه في كل يوم سبت للمظالم بحضرة الوزير والقاضي وجماعة من أكابر الفقهاء.

وفي يوم الجمعة الثامن من ذي القعدة أمر جوهر بالزيادة عقيب الخطبة اللهم صل على محمد المصطفى، وعلى علي المرتضى، وعلى فاطمة البتول، وعلى الحسين سبطي الرسول، الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، واللهم صل على الأئمة الطاهرين آباء أمير المؤمنين.

وفي يوم الجمعة ثامن عشر ربيع الآخر سنة تسع وخمسين صلى القائد في جامع ابن طولون بعسكر كثير، وخطب عبد السميع بن عمر العباسي الخطيب، وذكر أهل البيت وفضائلهم، رضي الله عنهم، ودعا للقائد، وجهر القراءة ببسم الله الرحمن الرحيم، وقرأ سورة الجمعة والمنافقين في الصلاة، وأذن بحي على خير العمل وهو أول من أذن به بمصر، ثم أذن به في سائر المساجد، وقنت الخطيب في صلاة الجمعة.

وفي جمادى الأولى من السنة أذنوا في جامع مصر العتيق بحي على خير العمل وسر القائد جوهر بذلك، وكتب إلى المعز وبشره بذلك، ولما دعا الخطيب على المنبر للقائد جوهر أنكر عليه وقال: ليس هذا رسم موالينا.

وشرع في عمارة الجامع بالقاهرة، وفرغ من بنائه في السابع من شهررمضان سنة إحدى وستين، وجمع فيه الجمعة.

قلت: وأظن هذا الجامع هو المعروف بالأزهر بالقرب من باب البرقية، بينه وبين باب النصر، مشهور بالحاكم الآتي ذكره.

وأقام جوهر مستقلاً بتدبير مملكة مصر قبل وصول مولاه المعز إليها أربع سنين وعشرين يوما، ولما وصل المعز إلى القاهرة – كما هو في ترجمته – خرج جوهر من القصر إلى لقائه، ولم يخرج معه شيئاً من آلته سوى ما كان عليه من الثياب، ثم لم يعد إليه، ونزل في داره بالقاهرة، وسيأتي أيضاً طرف من خبره في ترجمة مولاه المعز، إن شاء الله تعالى.

وكان ولده الحسين قائد القواد للحاكم صاحب مصر، وكان قد خاف على نفسه من الحاكم، فهرب هو وولده وصهره القاضي عبد العزيز بن النعمان، وكان زوج أخته، فأرسل الحاكم من ردهم وطيب قلوبهم وآنسهم مدة مديدة ثم حضروا إلى القصر بالقاهرة للخدمة، فتقدم الحاكم إلى راشد الحقيقي – وكان سيف النقمة – فاستصحب عشرة من الغلمان الأتراك، وقتلوا الحسين وولده وصهره القاضي، وأحضروا رأسيهما إلى بين يدي الحاكم، وكان قتلهم في سنة إحدى وأربعمائة، رحمهم الله تعالى، وقد تقدم خبر الحسين في ترجمة برجوان.

جهاركس الصلاحي

أبو المنصور جهاركس بن عبد الله الناصري الصلاحي الملقب فخر الدين؛ كان من كبراء أمراء الدولة الصلاحية، وكان كريما نبيل القدر عالي الهمة، بنى بالقاهرة القيسارية الكبرى المنسوبة إليه، رأيت جماعة من التجار الذين طافوا البلاد يقولون: لم نر في شيء من البلاد مثلها في حسنها وعظمها وإحكام بنائها، وبنى بأعلاها مسجدا كبيرا وربعا معلقا؛ وتوفي في بعض شهور سنة ثمان وستمائة بدمشق، ودفن في جبل الصالحية، وتربته مشهورة هناك، رحمه الله تعالى.

وجهاركس – بكسر الجيم وفتح الهاء وبعد الألف راء ثم كاف مفتوحة ثم سين مهملة – وعناه بالعربي أربعة أنفس، وهو لفظ عجمي معربه أستار والأستارأربع أواقي، وهو معروف به.

وفيات الأعيان

أبو تمام

أبو تمام حبيب بن أوس بن الحارث بن قيس بن الأشج بن يحيى بن مروان بن مر بن سعد بن كاهل بن عمرو بن عدي بن عمرو بن الغوث بن طيىء– واسمه جلهمه–بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن يشجب ابن يعرب بن قحطان الشاعر المشهور؛ وذكر أبو القاسم الحسن بن بشر بن يحيى الآمدي في كتاب الموازنة بن الطائيين ما صورته: والذي عند أكثر الناس في نسب أبي تمام: أن أباه كان نصرانياً من أهل جاسم، قرية من قرى دمشق، يقال له: تدوس العطار، فجعلوه أوساً، وقد لفقت له نسبة إلى طيىء، وليس فيمن ذكر فيها من الآباء من اسمه مسعود، وهذا باطل ممن عمله، ولو كان نسبه صحيحاً لما جاز أن يلحق طيئاً بعشرة آباء.

قلت: وذكر الآمدي هذا في قول أبي تمام:

إن كان مسعود سقى ... أطلالهم سبل الشؤون فلست من مسعود

وقد سقط في النسب بين قيس ودفاقة ستة آباء.

وقول أبي تمام: فلست من مسعود، لا يدل على أن مسعوداً من آبائه بل هذا كما يقال: ما أنا من فلان ولا فلان مني، يريدون به البعد منه والأتفة، ومن هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم: "ولد الزنا ليس منا"، و "علي مني وأنا منه".

وقد ساق الخطيب أبو بكر في تاريخ بغداد نسبه، وفيه تغيير يسير.

وقال الصولي: قال قوم: إن أبا تمام هو حبيب بن تدوس النصراني، فغير، فصار أوساً.

كان أوحد عصره في ديباجة لفظه ونصاعة شعره وحسن أسلوبه، وله كتاب الحماسة التي دلت على غزارة فضله وإتقان معرفته بحسن اختياره، وله مجموع آخر مسماه فحول الشعراء، جمع فيه بين طائفة كبيرة من شعراء الجاهلية والمخضرمين والإسلاميين، وله كتاب الاختيارات من شعر الشعراء، وكان له من المحفوظ ما لا يلحقه فيه غيره، قيل إنه كان يحفظ أربع عشرة ألف أرجوزة للعرب غير القصائد والمقاطيع، ومدح الخلفاء وأخذ جوائزهم، وجاب البلاد، وقصد البصرة وبها عبد الصمد بن المعذل الشاعر، فلما سمع بوصوله–وكان في جماعة غلمانه وأتباعه–فخاف من قدومه أن يميل الناس إليه ويعرضوا عنه، فكتب إليه قبل دخوله البلد:

أنت بين اثنتين تبرز للنا ... س وكلتاهما بوجه مذال

لست تنفك راجياً لوصال ... من حبيب أو طالباً لنوال

أي ماء يبقى لوجهك هذا ... بين ذل الهوى وذل السؤال

فلما وقف على الأبيات أضرب عن مقصده ورجع، وقال: قد شغل هذا ما يليه فلا حاجة لنا فيه. وقد ذكرت نظير هذه الأبيات في ترجمة المتنبي في حرف الهمزة.

ولما قال ابن المعذل هذه الأبيات في أبي تمام، كتبها ودفعها إلى وراق كان هو وأبو تمام يجلسان إليه ولا يعرف أحدهما الآخر، وأمر أن تدفع إلى أبي تمام، فلما وافى أبو تمام وقرأها قلبها وكتب:

أفي تنظم قول الزور والفند ... وأنت أنقص من لا شيء في العدد

أشرجت قلبك من غيظ على حنق ... كأنها حركات الروح في الجسد

أقدمت ويلك من هجوى على خطر ... كالعير يقدم من خوف على الأسد

وحضر عبد الصمد، فلما قرأ البيت الأول وقال: ما أحسن علمه بالجدل، أوجب زيادة ونقصاناً على معدوم، ولما نظر إلى البيت الثاني قال: الإشراج من عمل الفراشين ولا مدخل له ههنا، فلما قرأ البيت الثالث عض على شفته وقال: قتل.

وقال الصولي: قد ذكر ذلك أبو الفتح محمود بن الحسين المعروف بكشاجم في كتاب المصايد والمطاردة، عند قوله فيه: وأغفل الجاحظ في باب ذكر انقياد بعض المأكولات لبعض الآكلات ذكر الحمار الذي يرمي بنفسه على الأسد إذا شم ريحه.

ولما أنشد أبو تمام دلف العجلي قصيدته البائية المشهورة التي أولها:

على مثلها من أربع وملاعب | أذيلت مصونات الدموع السواكب

استحسنها وأعطاه خمسين ألف درهم وقال له: والله إنها لدون شعرك، ثم قال له: والله ما مثل هذا القول في الحسن إلا ما رثيت به محمد بن حميد الطوسي، فقال أبو تمام: وأي ذلك أراد الأمير؟ قال: قصيدتك الرائية التي أولها:

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر | فليس لعين لم يفض ماؤها عذر

وددت والله أنها لك في، فقال: بل أفدي الأمير بنفسي وأهلي وأكون المقدم قبله، فقال: إنه لم يمت من رثي بهذا الشعر.

وقال العلماء: خرج من قبيلة طيىء ثلاثة، كل واحد مجدي في بابه: حاتم الطائي في جوده، وداود بن نصير الطائي في زهده، وأبو تمام حبيب بن أوس في شعره.

وأخباره كثيرة ورأيت الناس مطبقين على أنه مدح الخليفة بقصيدته السينية، فلما انتهى فيها إلى قوله:

إقدام عمرو في سماحة حاتم | في حلم أحنف في ذكاء إياس

قال له الوزير: أتشبه أمير المؤمنين بأجلاف العرب؟ فأطرق ساعة، ثم رفع رأسه وأنشد:

لا تنكروا ضربي له من دونه | مثلاً شروداً في الندى والباس

فالله قد ضرب الأقل لنوره | مثلاً من المشكاة والنبراس

فقال الوزير للخليفة: أي شيء طلبه فأعطه، فإنه لا يعيش أكثر من أربعين يوماً، لأنه قد ظهر في عينيه الدم من شدة الفكر، وصاحب هذا لا يعيش إلا هذا القدر، فقال له الخليفة: ما تشتهي؟ قال: أريد الموصل، فأعطاه إياها، فتوجه إليها، وبقي هذه المدة ومات؛ وهذه القصة لا صحة لها أصلاً.

وقد ذكر أبو بكر الصولي في كتاب أخبار أبي تمام، أنه لما أنشد هذه القصيدة لأحمد بن المعتصم وانتهى إلى قوله: إقدام عمرو – البيت المذكور – قال له أبو يوسف يعقوب بن الصباح الكندي الفيلسوف، وكان حاضراً: الأمير فوق من وصفت، فأطرق قليلاً ثم زاد البيتين الآخرين، ولما أخذت القصيدة من يده لم يجدوا فيها هذين البيتين، فعجبوا من سرعته وفطنته.

ولما خرج قال أبو يوسف، وكان فيلسوف العرب: هذا الفتى يموت قريباً. ثم قال بعد ذلك: وقد روي هذا على خلاف ما ذكرته، وليس بشيء، والصحيح هو هذا.

وقد تتبعتها وحققت صورة ولايته للموصل، فلم أجد سوى أن الحسن ابن وهب ولاه بريد الموصل، فأقام بها أقل من سنتين ثم مات بها. والذي يدل على أن القضية ليست صحيحة أن هذه القصيدة ما هي في أحد من الخلفاء، بل مدح بها أحمد بن المعتصم، وقيل أحمد بن المأمون، و لم يل واحد منهما الخلافة، والحيص بيص ذكر في رقاعة السبع اللاتي كتبها إلى الامام المسترشد يطلب منه بايعقوبا أن الموصل كانت إجازة لشاعر طائي، فإما أنه بنى الأمر على ما قاله الناس من غير تحقيق، أو قصد أن يجعل هذا ذريعة لحصول بايعقوبا له، والله أعلم وتابعه في الغلط ابن دحية في كتاب النبراس وذكر الصولي أن أبا تمام لما مدح محمد بن عبد الملك الزيات الوزير بقصيدته التي منها قوله:

ديمة سمحة القياد سكوب | مستغيث بها الثرى المكروب

لو سعت بقعة لإعظام أخرى | لسعى نحوها المكان الجديب

قال له ابن الزيات: يا أبا تمام، إنك لتحلي شعرك من جواهر لفظك وبديع معانيك ما يزيد حسناً على بهي الجواهر في أجياد الكواعب، وما يدخر لك شيء من جزيل المكافأة إلا ويقصر عن شعرك في الموازاة. وكان بحضرته فيلسوف، فقال له: إن هذا الفتى يموت شاباً، فقيل له: ومن أين حكمت عليه بذلك؟ فقال: رايت فيه من الحدة والذكاء والفطنة مع لطافة الحس وجودة الخاطر ما علمت به أن النفس الروحانية تأكل جسمه كما يأكل السيف المهند غمده، وكذا كان، لأنه مات وقد نيف على ثلاثين سنة.

قلت: وهذا يخالف ما سيأتي في تاريخ مولده ووفاته بعد هذا إن شاء الله تعالى.

و لم يزل شعره غير مرتب حتى جمعه أبو بكر الصولي، ورتبه على الحروف، ثم جمعه علي بن حمزة الأصبهاني، و لم يرتبه على الحروف، بل على الأنواع.

وكانت ولادة أبي تمام سنة تسعين ومائة، وقيل: سنة ثمان وثمانين ومائة، وقيل: سنة اثنتين وسبعين ومائة بجاسم، وهي قوية من بلد الجيدور من أعمال دمشق بين دمشق وطبرية، ونشأ بمصر، قيل إنه كان يسقي الناس ماء بالجرة في جامع مصر، وقيل كان يخدم حائكاً ويعمل عنده بدمشق وكان أبوه خماراً بها، وكان أبو تمام أسمر طويلاً فصيحاً حلو الكلام فيه تمتمة يسيرة ثم اشتغل وتنقل إلى أن صار منه ما صار.

وتوفي بالموصل–على ما تقدم–في سنة إحدى وثلاثين ومائتين، وقيل إنه توفي في ذي القعدة، وقيل في جمادى الأولى سنة ثمان وعشرين، وقيل تسع وعشرين ومائتين، وقيل في المحرم سنة اثنتين وثلاثين ومائتين، رحمه الله تعالى قال البحتري: وبنى عليه أبو نهشل ابن حميد الطوسي قبة، قلبت: ورأيت قبره بالموصل خارج باب الميدان، على حافة الخندق، والعامة تقول: هذا قبر تمام الشاعر.

وحكى لي الشيخ عفيف الدين أبو الحسن علي بن عدلان الموصلي النحوي المترجم، قال: سألت شرف الدين أبا المحاسن محمد بن عنين الشاعر–الآتي ذكره في هذا الكتاب في حرف الميم إن شاء الله تعالى–عن معنى قوله:

سقى الله دوح الغوطتين ولا ارتوت … من الموصل الحدباء إلا قبورها

لم حرمها وخص قبورها؟ فقال: لأجل أبي تمام.

وهذا البيت من قصيدة لابن عنين المذكور يمدح بها السلطان الملك المعظم شرف الدين عيسى ابن الملك العادل بن أيوب–وسيأتي ذكره في حرف العين إن شاء الله تعالى–أولها:

أشاقك من عليا دمشق قصورها … وولدان أرض النيربين وحورها

وهي من أحسن قصائده ورثاه الحسن بن وهب بقوله:

فجع القريض بخاتم الشعراء … وغدير روضتها حبيب الطائي

ماتا معاً فتجاوروا في حفرة … وكذاك كانا قبل في الأحياء

وقيل: إن هذين البيتين لديك من رثى بهما أبا تمام، والله أعلم.

ورثاه الحسن أيضاً بقوله من قصيدة:

سقى بالموصل القبر الغريبا … سحائب ينتحبن له نحيبا

إذا أظللنه أظللن فيه … شعيب المزن يتبعها شعيبا

ولطمن البروق به خدوداً … وشققن الرعود به جيوبا

فإن تراب ذاك القبر يحوي … حبيباً كان يدعى لي حبيبا

ورثاه محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم بقوله وهو يومئذ وزير، وقيل إنهما لأبي الزبرقان عبد الله بن الزبرقان الكاتب مولى بني أمية:

نبأ أتى من أعظم الأنباء ... لما ألم مقلقل الأحشاء

قالوا حبيب قد نوى فأجبتهم ... ناشدتكم لا تجعلوه الطائي

ولأبي تمام المذكور:

لو يعلم الركن من قد جاء يلثمه ... لظل يلثم منه موطئ القدم

وللبحتري أيضاً في هذا المعنى:

ولو أن مشتاقاً تكلف فوق ما ... في وسعه لسعى إليك المنبر

ولما سار المأمون إلى بلاد الشام يريد غزو الروم مدحه أبو تمام بقصيدتين فلم يجد من يوصلهما إليه وذلك قبل قدوم أبي تمام العراق، ثم صار إلى العراق في خلافة المعتصم، فمن ذلك قوله في المأمون قصيدة قال فيها:

ثم انبرت أيام عجر أردفت ... نحوي أسى فكأنها أعوام

ثم انقضت تلك السنون وأهلها ... فكأنها وكأنهم أحلام

فأخذها حتى بلغ فيها:

اتضعضعت عبرات عينك أن دعت ... ورقاء حين تضعضع الإظلام

لا تشجين لها فإن بكاءها ... ضحك وإن بكاءك استغرام

هن الحمام فإن كسرت عيافة ... من حائهن فإنهن حمام

حكي عن يموت بن المزرع قال: كان أحمد بن المدبر إذا مدحه شاعر ولم يرض شعره أمر غلمانه أن يمضوا به إلى المسجد فلا يفارقوه أو يصلي مائة ركعة، فكان هذا دأبه؛ قال: فتحاماه الشعراء غلا الأفراد المجيدون فأتاه أبو عبد الله الحسين بن عبد السلام المصري المعروف بالجعل فاستأذنه في النشيد فقال له: عرفت الشرط؟ قال: نعم، فأنشده:

أردنا في أبي حسن مديحاً ... كما بالمدح تنتجع الولاة

فقلنا أكرم الثقلين طراً ... ومن كفيه دجلة والفرات

فقالوا يقبل المدحات لكن ... جوايزه عليهن الصلاة

فقلت لهم وما يغني عيالي ... صلاتي إنما الشأن الزكاة

فيأمرني بكسر الصاد منه ... فتصبح لي الصلاة هي الصلات

فضحك ابن المدبر وقال: من أين أخذت هذا ومن أين وقع لك؟ فقال: أخذته من قول أبي تمام:

هن الحمام فإن كسرت عيافة

قال: فأعجبه صدقه ووصله ومن قصيدته الأخرى التي مدح بها المأمون التي أولها:

كشف الغطاء فأوقدي أو أخمدي

ويقول فيها:

أولي أمة أحمد ما أحمد ... بمضيع ما أوليت أمة أحمد

أما الهدى فقد اقتدحت بزنده — للعالمين فويل من لا يهتدي

حدث الصولي عن محمد بن يحيى قال: حدثني يحيى بن علي قال: كان محمد ابن القاسم بن مهرويه يقدم دعبلاً على أبي تمام، فقلت له: بأي شيء قلمته؟ فلم يأت بمقنع، فجعلت أنشده محاسنهما فإذا محاسن أبي تمام أكثر وأطرز وإذا عيوب دعبل أعظم وافحش، فأقام على رأيه وتعصبه لدعبل فقلت:

يا أبا جعفر أتحكم في الشع — ر وما فيك آلة الحكام

إن نقد الدينار إلا على الص — رف صعب فكيف نقد الكلام

قد رأيناك ليس تفرق في الأش — عار بين الأرواح والأجسام

إنما يعرف العتيق من المح — دث قين في وقت عرض الحسام

لا تقس دعبلاً إذن بحبيب — ليس خف البعير مثل السنام

قال عبد الله بن المعتز: جاءني محمد بن يزيد النحوي فجرى ذكر أبي تمام فلم يوفه حقه، فقال له رجل من الكتاب كان في المجلس، ما رأيت أحداً أحفظ لشعر أبي تمام منه: يا أبا العباس، ضع يدك على من شئت من الشعراء ثم انظر أيحسن أن يقول مثل ما قاله أبو تمام لأبي المغيث موسى بن إبراهيم الرافقي يعتذر إليه:

لعمري لقد أقوت مغانيكم بعدي — ومحت كما محت وشائع من برد

وأنجدتم من بعد إتهام داركم — فيا دمع أنجدني على ساكني نجد

ثم مر فيها حتى بلغ إلى قوله في الاعتذار:

أتاني مع الركبان ظن ظننته — لففت له رأسي حياءً من المجد

كريم متى أمدحه والورى — معي ومتى ما لمته لمته وحدي

حدث الصولي قال: كان أبو تمام إذا كلمه إنسان أجابه قبل انقضاء كلامه كأنه قد علم ما يقول فاعد جوابه، فقال له رجل: يا أبا تمام لم لا تقول من الشعر ما يعرف؟ فقال: وأنت لم لا تعرف من الشعر ما يقال؟ فأفحمه. وكان الذي قال له هذا أبو سعيد الضرير بخراسان، وكان هذا من علماء الناس وكان متصلاً بالطاهرية.

قال علي بن محمد بن عبد الكريم: لما صار إلينا أبو تمام مقدمه من مصر عمل قصيدته التي أولها:

أرامة كنت مألف كل ريم

فاتصل خبرها بعتبة بن عصيم الذي يهجوه أبو تمام، وهو كلبي من قضاعة، وكان أديباً شاعراً، فأحب أن يسمع هذه القصيدة من أبي تمام فقال لمن حضر: ايتوني به، فجاءوا به فأنشده إياها، فلما فرغ قال: أحسنت يا غلام على صغر سنك، فسكت أبو تمام وقال: يا عم أنشدني من شعرك، فأنشده قصيدة، فلما فرغ قال: يا عم ما أحسنت على كبر سنك، فقال عتبة لبني عبد الكريم: أخرجوا هذا من بلدنا فليس يصلح أن يقيم في بلدنا.

قال الصولي: ومن باب الجود قول أبي تمام:

بيمن أبي إسحاق طالت يد الهوى — وقامت قناة الدين واشتد كاهله

هو البحر من أي النواحي أتيته — فلجته المعروف والجود ساحله

تعود بسط الكف حتى لو أنه دعاها لقبض لم تجبه أنامله

وللبحتري في هذا المعنى:

لا يتعب النائل المبذول همته وكيف يتعب عين الناظر النظر

وهذان البيتان لا غاية وراءهما.

قال ابن أبي داود لأبي تمام: إن لك أبياتاً أنشدتها فلو قلتها زاهداً أو معتبراً أو حاثاً على طاعة الله تعالى لكنت قد أحسنت وبالغت، فأنشدنيها، قال: ما هي؟ قال: التي قافيتها: فأدخلها. فأنشده:

ما لي أرى الحجرة الفيحاء مقفلة عني وقد طال ما استفتحت مقفلها

كأنها جنة الفردوس معرضة وليس لي عمل زاك فأدخلها

حدث الصولي قال: دخل أبو تمام على أحمد بن أبي داود فقال له: ما أحسن هذا فمن أين أخذته؟ قال: من قول الحاذق في الفضل بن الربيع:

وليس لله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

وحدث الصولي عن الحسن بن وهب قال: لما أدخل المازيار على المعتصم وكان عليه شديد الغيظ قيل له: لا تعجل عليه فإن عنده أمولاً جمة، فأنشد بيت أبي تمام:

إن الأسود أسود الغاب همتها يوم الكريهة في المسلوب لا السلب

ثم قتله؛ وكذلك جمال الدين بن رشيق أفتى ببيت المتنبي في النصراني الذي سب رسول الله صلى الله عليه وسلم أول ما ولي الملك الصالح مصر وهو:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

فعمل بمقتضاه.

وحدث علي بن يحيى بن علي بن مهدي قال: كان المنجمون حكموا لما خرج المعتصم إلى الروم بأنه لا يرجع من وجهه، فلما فتح ما فتح وخرب عمورية في شهر رمضان سنة 223 وانصرف سالماً، قال أبو تمام:

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

بيض الصفائح لا سود الصحائف في متونهن جلاء الشك والريب

والعلم في شهب الأرماح لامعة بين الخميسين لا في السبعة الشهب

وقيل إنه كرر إنشاد هذه القصيدة ثلاثة أيام فقال له المعتصم: لم تجلو علينا عجوزك؟ قال: حتى أستوفي مهرها يا أمير المؤمنين، فأمر له بمائة وسبعين ألف درهم عن كل بيت منها ألف.

قال الحسن بن وهب: دخل أبو تمام على محمد بن عبد الملك الزيات فأنشده قصيدته التي أولها:

لهان علينا أن نقول وتفعلا

فلما بلغ إلى قوله:

ووالله لا آتيك غلا فريضة وآتي جميع العالمين تنفلا

وليس امرءاً في الناس كنت سلاحه عشية يلقى الحادثات بأعزلا

فقال: أما والله ما أحب بمدحك مدح غيرك لتجويدك وإبداعك ولكن تنقص مدحك ببذلك له لغير مستحقه، فقال: لسان العذر معقول وإن كان فصيحاً، ومر في القصيدة فأمر له بخمسة آلاف درهم وكتب إليه بعد ذلك:

رأيتك سهل البيع سمحاً وإنما — يغالي إذا ما ضن بالشيء بايعه

فأما الذي هانت بضائع بيعه — فيوشك أن تبقى عليه بضايعه

فأجابه أبو تمام:

أبا جعفر إن كنت أصبحت تاجراً — أساهل في بيعي له من أبايعه

فقد كنت قبلي شاعراً تاجراً به — تساهل من عادت عليك منافعه

قال الصولي: لما كلم خالد بن يزيد ابن أبي دواد في أمر أبي تمام قال أبو تمام يشكره:

لأشكرنك إن لم أوت من أجلي — شكراً يوافيك عني آخر الأبد

وإن توردت من بحر البحور ندى — فلم أنل منه إلا غرفة بيدي

قال محمد بن يزيد النحوي: خرج أبو تمام إلى خالد بن يزيد وهو بأرمينية فامتدحه فأمر له بعشرة آلاف درهم ونفقة لسفره وأمره أن لا يقيم إن كان عازماً على الخروج، فودعه ومضت عليه أيام فركب يزيد ليتصيد فرآه تحت شجرة وقدامه زكرة فيها نبيذ وغلام بيده طنبور فقال: حبيب؟ قال: خادمك وعبدك، فقال له: ما فعل المال؟ فقال:

علمني جودك السماح فما — أبقيت شيئاً لدي من صلتك

ما مر شهر حتى سمحت به — كأن لي قدرة كمقدرتك

تنفق في اليوم بالهبات وفي — الساعة ما تجتبيه في سنتك

فلست أدري من أين تنفق لو — لا أن ربي يمد في هبتك

فأمر له بعشرة آلاف درهم أخرى فأخذها وانصرف.

ولأبي تمام وقد اعتل الياس صاحب عبد الله بن طاهر: فإن يكن وصب قاسيت سورته. فالورد حلف لليث الغابة الأضم

إن الرياح إذا ما أعصفت قصفت — عيدان نجد ولم يعبأن بالرتم

بنات نعش ونعش لا كسوف لها — والشمس والبدر منها الدهر في الرقم

فليهنك الأجر والنعمى التي سبغت — حتى جلت صدأ الصمصامة الخذم

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت — ويبتلي الله بعض القوم بالنعم

قال محمد بن هبيرة النحوي: حجب أبو تمام عن إسحاق بن إبراهيم المصعبي فقال:

يا أيها الملك المرجو نائله — وجوده لمراعي جوده كتب

ليس الحجاب بمقص عنك آمله — إن السماء ترجى حين تحتجب

وقيل لأبي تمام: قد هجاك مخلد الموصلي فلو هجوته، قال: الهجاء يرفع منه إذ ليس هو شاعراً؛ لو كان شاعراً لم يكن من الموصل، يعني أن الموصل لا يخرج منها شاعر، وكان مخلد قد هجاه بقوله:

يان نبي الله في الشع ر ويا عيسى بن مريم

أنت من أشعر خلق الل ه ما لم تتكلم

وكان لأبي تمام حبسة إذا تكلم. قرأت في كتاب المستنير، أن أبا تمام والخثعمي اجتمعا في مجلس أنس، فقام أبو تمام إلى الخلاء فقال له الخثعمي: ندخلك؟ قال: نعم وأخرجك، فتعجب الحاضرون من هذا الابتداء البديع والجواب العجيب.

وكان لأبي تمام صديق قليل البضاعة في الشرب يسكر من قدحين، فكتب إليه يوماً يدعوه: إن رأيت أن تنام عندنا فافعل.

ودخل على جعفر بن سليمان يعزيه بأخيه محمد بن سليمان وقد كان جزع عليه جزعاً عظيماً، فقال جعفر حين رآه: إن يكن عند أحد فرج فعند حبيب، فلما سلم قال: أيها الأمير التمس ثواب الله بحسن الجزاء والتسليم الأمر الله، واذكر مصيبتك في نفسك تنسك مصيبتك في غيرك والسلام.

ومحاسن حبيب كثيرة.

وجاسم: بفتح الجيم وبعد الألف سين مهملة مكسورة ثم ميم.

وأما النسب فهو مشهور فلا حاجة إلى ضبطه.

والجيدور-بفتح الجيم وسكون الياء المثناة من تحتها وضم الدال المهملة وسكون الواو وبعدها راء-وهو إقليم من عمل دمشق يجاور الجولان.

والطائي: منسوب إلى طيىء القبيلة المشهورة، وهذه النسبة على خلاف القياس، فإن قياسها طيئي لكن باب النسب يحتمل التغيير، كما قالوا في النسبة إلى الدهر دهري وإلى سهل سهلي-بضم أولهما-وكذلك غيرهما.

حاتم الأصم

حاتم بن عنوان الأصم من أهل بلخ؛ كان أوحد من عرف بالزهد والتقلل واشتهر بالورع والتقشف، وله كلام يدون في الزهد والحكم. واسند الحديث عن شقيق البلخي وشداد بن حكيم البلخي أيضاً، وروى عنه حمدان بن ذي النون ومحمد بن فارس البلخيان. وقدم حاتم بغداد في ايام أبي عبد الله أحمد بن حنبل واجتمع معه؛ قيل لما دخل حاتم بغداد في ايام أبي عبد الله أحمد بن حنبل اجتمع إليه أهل بغداد فقالوا: يا ابا عبد الرحمن، أنت رجل أعجمي وليس يكفك أحد إلا قطعته لأي معنى؟ فقال حاتم: معي ثلاث خصال بها أظهر علي خصمي، قالوا: أي شيء هي؟ قال: أفرح إذا أصاب خصمي، وأحزن له إذا أخطأ، وأحفض نفسي لا تتجاهل عليه، فبلغ ذلك أحمد بن حنبل، فقال: سبحان الله ما أعقله من رجل! وقال أبو جعفر الهروي: كنت مع حاتم كرة وقد أراد الحج، فلما وصل إلى بغداد قال: يا أبا جعفر، أحب أن ألقى أحمد بن حنبل، فسألنا عن مترله ومضينا إليه فطرقت عليه الباب فلما خرج قلت: يا أبا عبد الله أخوك حاتم؛ قال: فسلم عليه ورحب به وقال بعد بشاشته به: أخبرني يا حاتم فيم أتخلص من الناس؟ قال: يا أبا عبد الله في ثلاث خصال، قال: وما هي؟قال: أن تعطيهم مالك ولا تأخذ من مالهم شيئاً؛ قال: وتقضي حقوقهم ولا تستقضي منهم حقاً؛ قال: وتحمل مكروههم ولا تكره واحداً منهم على شيء؛ قال: فأطرق احمد ينكت بإصبعه الأرض ثم رفع رأسه وقال: يا حاتم، إنها لشديدة، فقال له حاتم: وليتك تسلم وليتك تسلم وليتك تسلم.

وقال رجل لحاتم: على أي شيء بنيت أمرك؟ قال: على أربع خصال: على أن لا أخرج من الدنيا حتى أستكمل رزقي وعلى أن رزقي لا يأكله غيري، وعلى أن أجلي لا أدري متى هو، وعلى أن لا أغيب عن الله طرفة عين، وقال: لو أن صاحب خبر جلس إليك ليكتب كلامك لاحترزت منه، وكلامك يعرض على الله فلا تحارز منه.

وقال رجل لحاتم الأصم: بلغني أنك تجوز المفاوز من غير زاد، فقال حاتم: بل أجوزها بالزاد وإنما زادي فيها أربعة أشياء، قال: وما هي؟ قال: أرى الدنيا كلها ملكاً لله، وأرى الخلق كلهم عباد الله وعياله، والأسباب والأرزاق بيد الله، وأرى قضاء الله نافذاً في كل أرض لله؛ فقال له الرجل: نعم الزاد زادك يا حاتم؛ أنت تجوز به مفاوز الآخرة.

وقال حاتم: جعلت على نفسي إن قدمت مكة أن أطوف حتى أنقطع، وأصلي حتى أنقطع، وأتصدق بجميع ما معي، فلما قدمت مكة صليت حتى

انقطعت وطفت كذلك فقويت على هاتين الخصلتين و لم أقوى على الأخرى؛ قال: كنت أخرج من هاهنا ويجيء من هاهنا.
وقال حاتم: وقع الثلج ببلخ فمكثت في بيت ثلاثة ومعي أصحابي فقلت: يخبرني كل رجل منكم بهمته؛ قال: فأخبروني فإذا ليس فيهم أحد لا يريد إلا ان يتوب من تلك الهمة؛ قال: فقالوا لي: همتك أنت يا أبا عبد الرحمن، قال: قلت: ما همتي إلا شفقة على إنسان يريد أن يحمل رزقي في هذا الطين؛ قال: وإذا رجل قد جاء ومعه جراب خبز وقد زلق فابتلت ثيابه بطين، وقال: ياأبا عبد الرحمن، خذ هذا الخبز.
قال حاتم: خرجت في سفر ومعي زاد فنفد زادي في وسط البرية فكان قلبي في السفر والحضر واحداً.
قيل لحاتم: من أين تأكل؟ فقال: "ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون".
وقال: لي اربع نسوة وتسعة من الأولاد، فما طمع الشيطان أن يوسوس غلي في شيء من أرزاقهم.
وقال حاتم: لقينا الترك فكان بيننا جولة فرماني تركي بوهق فأقلبني عن فرسي ونزل عن دابته وقعد على صدري وأخذ بلحيتي هذه الوافرة وأخرج من خفه سكيناً ليذبحني بها، فوحق سيدي ما كان قلبي عنده ولا عند سكينة إنما كان قلبي عند سيدي فأنظر ماذا يترل به القضاء، فقلت: يا سيدي قضيت علي أن يذبحني هذا فملى الرأس والعين أنا لك وملكك. فبينما أنا أخاطب سيدي وهو قاعد على صدري آخذ بلحيتين إذ رماه المسلمون بسهم فما اخطأ حلقه، فسقط عني فقمت أنا إليه وأخذت السكين من يده وذبحته، فما هو إلا أن تكون قلوبكم عند السيد حتى تروا من عجائب لطفه ما لم تروا من الآباء والأمهات.
وقال أبو بكر الوراق: حاتم الأصم لقمان هذه الأمة؛ قيل: جاءت امرأة فسالت حاتماً عن مسألة، فاتفق أن خرج منها في تلك الحالة صوت فخجلت، فقال لها حاتم: ارفعي صوتك، وأرى من نفسه أنه أصم، فسرت المرأة بذلك وقالت: لم يسمع الصوت، فغلب عليه اسم الصمم.

وجاء إليه رجل فقال: يا أبا عبد الرحمن أي شيء رأس الزهد ووسط الزهد وآخر الزهد؟ فقال حاتم: رأس الزهد الثقة بالله ووسطه الصبر وآخره الخلاص؛ رحمه الله تعالى.

الحجاج بن يوسف

أبو محمد الحجاج بن يوسف بن الحكم بن أبي عقيل بن مسعود بن عامر بن معتب ابن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن قسي– وهو ثقيف – ذكره ابن الكلبي في جمهرة النسب، وقال: فولد منبه بن النبيت قسياً، وهو ثقيف فيما يقال والله أعلم، فمن ينسب ثقيفاً إلى إياد فهذا هو نسبهم، ومن نسبهم إلى قيس فيقول: قسي بن منبه بن بكر بن هوازن، ويقولون: كانت أم قسي أميمة بنت سعد بن هذيل عند منبه بن النبيت، فتزوجها منبه بن بكر، بجاءت بقسي معها من الإيادي والله أعلم الثقفي عامل عبد الملك بن مروان على العراق وخراسان، فلما توفي عبد الملك وتولى الوليد أبقاه على ما بيده.
وقال المسعودي في كتاب مروج الذهب: إن أم الحجاج الفارعة بنت همام بن عروة بن مسعود الثقفي، كانت تحت الحارث بن كلدة الثقفي الطائفي حكيم العرب، فدخل عليها مرة سحراً فوجدها تتخلل، فبعث إليها بطلاقها، فقالت: لم بعثت إلي بطلاقي؟ هل لشيء رابك مني؟ قال: نعم، دخلت عليك في السحر وأنت تتخللين، فإن كنت بادرت الغداء فأنت شرهة، وإن كنت بت والطعام بين أسنانك فأنت قذرة، فقالت: كل ذلك لم يكن، لكني تخللت من شظايا السواك؛ فتزوجها بعده يوسف بن أبي عقيل الثقفي، فولدت له الحجاج مشوهاً لا دبر له، فنقب عن دبره، وأبى أن يقبل ثدي أمه أو غيرها، فأعياهم أمره، فيقال: إن الشيطان تصور لهم في صورة الحارث بن كلدة المقدم ذكره، فقال: ما خبركم؟ قالوا: بني ولد ليوسف من الفارعة، وقد أبى أن يقبل ثدي أمه، فقال: اذبحوا جدياً أسود وأولغوه دمه، فإذا كان في اليوم الثاني فافعلوا به كذلك، فإذا كان اليوم الثالث فاذبحوا له تيساً أسود وأولغوه دمه، ثم اذبحوا له أسود سالخاً فأولغوه دمه، واطلوا به وجهه، فإنه يقبل الثدي في اليوم الرابع، قال: ففعلوا به ذلك؛ فكان لا يصبر عن سفك الدماء لما كان منه في أول أمره؛ وكان الحجاج يخبر عن نفسه أن أكبر لذاته سفك الدماء وارتكاب أمور لا يقدم عليها غيره.
وذكر ابن عبد ربه في العقد أن الفارعة المذكورة كانت زوجة المغيرة ابن شعبة، وانه هو الذي طلقها لأجل الحكاية المذكورة في التخلل؛ وذكر أيضاً أن الحجاج وأباه كان يعلمان الصبيان بالطائف، ثم لحق الحجاج بروح بن زنباع الجذامي وزير عبد الملك بن مروان، فكان في عديد شرطته إلى أن

رآى عبد الملك انحلال عسكره وأن الناس لايرحلون برحيله ولايتزلون بتزوله، فشكا ذلك إلى روح بن زنباع، فقال له: إن في شرطتي رجلاً لو قلده أمير المؤمنين أمر عسكره لأرحل الناس برحيله وأنزلهم بتزوله يقال له الحجاج ابن يوسف، قال: فإنا قد قلدناه ذلك، فكان لا يقدر أحد أن يتخلف عن الرحيل والتزول إلا أعوان روح بن زنباع، فوقف عليهم يوماً وقد أرحل الناس وهم على طعام يأكلون فقال لهم: ما منعكم أن ترحلوا برحيل أمير المؤمنين؟ قالوا له: انزل يا ابن اللخناء فكل معنا، قال لهم: هيهات، ذهب ما هنالك، ثم أمر بهم فجلدوا بالسياط وطوفهم في العسكر وأمر بفساطيط روح فأحرقت بالنار، فدخل روح على عبد الملك باكياً، وقال: يا أمير المؤمنين، إن الحجاج الذي كان في شرطتي ضرب غلماني وأحرق فساطيطي، قال: علي به، فلما دخل عليه قال له: ما حملك على ما فعلت؟ قال: أنا ما فعلت، قال: ومن فعل؟ قال: أنت فعلت، إنما يدي يدك، وسوطي سوطك، وما على أمير المؤمنين أن يخلف لروح عوض الفسطاط فسطاطين، وعوض الغلام غلامين ولا يكسرني فيما قدمني له، فأخلف لروح ما ذهب له، وتقدم الحجاج في مترلته، وكان ذلك أول ما عرف من كفايته.

وكان للحجاج في القتل وسفك الدماء والعقوبات غرائب لم يسمع بمثلها، ويقال: إن زياد ابن أبيه أراد أن يتشبه بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في ضبط الأمور والحزم والصرامة وإقامة السياسات إلا أنه أسرف وتجاوز الحد، وأراد الحجاج أن يتشبه بزياد فأهلك ودمر.

وخطب يوماً فقال في أثناء كلامه: أيها الناس، إن الصبر عن محارم الله أيسر من الصبر على عذاب الله، فقام إليه رجل فقال: ويحك يا حجاج، ما أصفق وجهك وأقل حياءك! فأمر به فحبس، فلما نزل عن المنبر دعا به فقال له: لقد اجترأت علي، فقال له: أتجترئ على الله فلا ننكره، ونجترئ عليك فتنكره؟ فخلى سبيله.

وذكر أبو الفرج ابن الجوزي في كتابه تلقيح فهوم أهل الأثر أن الفارعة أم الحجاج هي المتمنية، ولما تمنت كانت تحت المغيرة بن شعبة، وقص قصتها، ونذكرها مختصرة، وهي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه طاف ليلة في المدينة فسمع امرأة تنشه في خدرها:

هل من سبيل إلى خمر فأشربها — أم من سبيل إلى نصر بن حجاج

فقال عمر رضي الله عنه: لا أرى معي في المدينة رجلاً تهتف به العوائق في خدورهن؛ علي بنصر بن حجاج، فأتي به، فإذا هو أحسن الناس وجباً وأحسنهم شعراً، فقال عمر رضي الله عنه: عزيمة من أمير المؤمنين لتأخذن من شعرك، فأخذ من شعره فخرج له وجنتان كأنهما شقتا قمر، فقال: اعتم، فاعتم ففتن الناس بعينيه، فقال عمر رضي الله عنه: والله لا تساكنني ببلدة أنا فيها، قال: يا أمير المؤمنين، ما ذنبي؟ قال: هو ما أقول لك، وسيره إلى البصرة؛ هذه خلاصة القصة، وبقيتها لا حاجة إلى ذكره.

ونصر المذكور ابن حجاج بن علاط السلمي، وأبوه صحابي رضي الله عنه، وقيل: إن المتمنية هي جدة الحجاج أم أبيه، وهي كنانية.

وحكى أبو أحمد العسكري في كتاب التصحيف أن الناس غبروا يقرؤون في مصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه نيفاً واربعين سنة إلى أيام عبد الملك بن مروان، ثم كثر التصحيف وانتشر بالعراق، ففزع الحجاج بن يوسف الثقفي إلى كتابه وسألهم أن يضعوا لهذه الحروف المشتبهة علامات، فيقال: إن نصر بن عاصم قام بذلك فوضع النقط أفراداً وأزواجاً وخالف بين أماكنها، فغبر الناس بذلك زماناً لا يكتبون إلا منقوطاً، فكان مع استعمال النقط أيضاً يقع التصحيف، فأحدثوا الإعجام، فكانوا يتبعون النقط الإعجام، فإذا أغفل الاستقصاء عن الكلمة فلم توف حقوقها اعترى التصحيف، فالتمسوا حيلة، فلم يقدروا فيها إلا على الأخذ من أفواه الرجال بالتلقين. حكى القاضي أبو الفرج المعافى في كتاب الجليس والأنيس قال: لما أراد الحجاج بن يوسف الخروج من البصرة إلى مكة شرفها الله تعالى: خطب الناس فقال: يا أهل البصرة، إني أريد الخروج إلى مكة، وقد استخلفت عليكم محمد ابني وأوصيته فيكم بخلاف ما أوصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأنصار، فإنه أوصى أن يقيل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم، ألا وإني قد أوصيته فيكم أن لا يقبل من محسنكم ولا يتجاوز عن مسيئكم؛ إلا وإنكم قائلون بعدي كلمة ليس يمنعكم من إظهارها إلا الخوف: لا أحسن الله له الصحابة، واني معجل لكم الجواب: لا أحسن الله عليكم الخلافة. قال أبو العباس المبرد في إسناد ذكره آخره عبد الملك بن عمير الليثي قال: بينا نحن في المسجد الجامع بالكوفة وأهل الكوفة يومئذ ذوو حال حسنة يخرج الرجل منهم في العشرة والعشرين من مواليه إذ أتانا آت فقال: هذا الحجاج ابن يوسف قد قدم أميراً على العراق، فإذا به قد دخل المسجد متعمماً بعمامة غطى بها أكثر وجهه متقلداً سيفاً متنكباً قوساً

يؤم المنبر، فقام الناس نحوه حتى صعد المنبر فمكث ساعة لا يتكلم، فقال الناس بعضهم لبعض: قبح الله بني أمية حيث تستعمل مثل هذا على العراق، قال عمير بن ضابئ البرجمي: ألا أحصبه لكم؟ فقالوا: أمهل حتى ننظر، فلما رأى عيون الناس إليه حسر اللثام عن فيه ونهض فقال:

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني

ثم قال: والله يا أهل الكوفة والعراق إني لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها وإني لصاحبها، وكأني أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى، وإن أمير المؤمنين نثر كنانته فعجم عيدانها فوجدني أمرها عوداً وأصلبها مكسراً، فرماكم بي لأنكم طال ما أوضعتم في الفتنة واضطجعتم في مراقد الضلال، والله لأحزمنكم حزم السلمة ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل، فإنكم لكأهل "قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون". والله إني ما أقول إلا وفيت ولا أهم إلا أمضيت ولا أخلق إلا فريت، وإن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطياتكم وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة، وإني أقسم بالله لا أجد رجلاً تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا ضربت عنقه؛ يا غلام اقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين إلى من بالكوفة من المسلمين، سلام عليكم، فلم يقل أحد شيئاً، فقال الحجاج: اكفف يا غلام، ثم أقبل على الناس فقال: يسلم عليكم أمير المؤمنين فلم تردوا عليه شيئاً؟ هذا أدب ابن نهية، أما والله لأؤدبنكم غير هذا الأدب أو لتستقيمن، اقرأ عليهم يا غلام كتاب أمير المؤمنين، فلما بلغ إلى قوله: سلام عليكم، لم يبق أحد في المسجد إلا قال: وعلى أمير المؤمنين السلام، ثم نزل فوضع للناس أعطياتهم فجعلوا يأخذون حتى أتاه شيخ يرعش كبراً فقال: أيها الأمير إني من الضعف على ما ترى ولي ابن هو أقوى على الأسفار مني أفتقبله بدلاً مني؟ فقال الحجاج: نفعل أيها الشيخ، فلما ولى قال له قائل: اتدري من هذا أيها الأمير؟ قال: لا، قال: هذا عمير بن ضابئ البرجمي الذي يقول أبوه في عثمان بن عفان:

هممت ولم أفعل وكدت وليتني تركت على عثمان تبكي حلائله

ودخل هذا الشيخ على عثمان مقتولاً فوطئ بطنه فكسر ضلعين من أضلاعه؛ فقال: ردوه، فلما رد قال له الحجاج: أيها الشيخ هلا بعثت إلى أمير المؤمنين عثمان رحمه الله تعالى بديلاً يوم الدار؛ إن في قتلك أيها الشيخ لصلاحاً للمسلمين، يا حرسي اضربن عنقه؛ فجعل الرجل يضيق عليه أمره فيرتحل ويأمر وليه أن يلحقه بزاده، ففي ذلك يقول عبد الله بن الزبير الأسدي:

تجهز فإما أن تزور ابن ضابئ عميراً وإما أن تزور المهلبا

وكان من قصة عمير بن ضابئ أن أباه ضابئ بن الحارث البرجمي وجب عليه حبس عند عثمان بن عفان رضي الله عنه وأدب، وذلك أنه كان استعار كلباً من قوم فأعاروه إياه ثم طلبوه منه وكان فحاشاً فرمى أمهم به، فقال في بعض كلامه:

فأمكم لا تتركوها وكلبكم فإن عقوق الوالدات كبير

فاضطغن على عثمان رضي الله عنه ما فعل، فلما دعي ليؤدب شد سكيناً في ساقه ليقتل بها عثمان رحمه الله فعثر عليه فأحسن أدبه، ففي ذلك يقول: هممت و لم أفعل. ولما أسرف الحجاج في قتل أسارى دير الجماجم وإعطاء الأموال، بلغ ذلك عبد الملك فكتب إليه: أما بعد، فقد بلغ أمير المؤمنين سرفك في الدماء وتبذير الأموال ولا يحتمل أمير المؤمنين هاتين لأحد من الناس، وقد حكم عليك في الدماء في الخطإ بالدية وفي العمد بالقود وفي الأموال بردها إلى موضعها ثم العمل فيها برأيه، وإنما أمير المؤمنين أمين الله وسيان عنده منع حق وإعطاء باطل، فإن كنت أردت الناس لك فما أغناهم عنك وغن كنت أردتهم لنفسك فما أغناك عنهم، وسيأتيك من أمير المؤمنين لين وشدة، فلا يؤنسنك إلا الطاعة ولا يوحشنك إلا المعصية، وظن بأمير المؤمنين كل شيء إلا احتمالك على الخطأ، وإذا أعطاك الله الظفر بقوم فلا تقتلن جانحاً ولا أسيراً؛ وكتب في أسفل كتابه:

إذا أنت لم تترك أموراً كرهتها طلبت رضاي بالذي أنت طالبه
وتخشى الذي يخشاه مثلك هارباً إلي فما قد ضيع الدر حالبه

وإن تر مني غفلة قرشية فيا ربما قد غص بالماء شاربه
وإن تر مني وثبة أموية فهذا وهذا كله أنا صاحبه
فلا تأمنني والحوادث جمة فإنك مجزى بالذي أنت كاسبه
ولا تعد ما يأتيك مني وإن تعد يقوم بها يوم عليك نوادبه
ولا ترفعن للناس حقاً علمته ولا تغضبن، فاللين للناس جانبه

فأجابه الحجاج: أما بعد، فقد أتاني كتاب أمير المؤمنين يذكر فيه سرفي في الدماء وتبذيري للأموال، ولعمري ما بلغت في عقوبة أهل المعصية ما هم أهله وما قضيت في أهل الطاعة ما استحقوه، فإن كان قتلي أولئك العصاة سرفاً وإعطائي أولئك المطيعين تبذيراً فليسوغني أمير المؤمنين ما سلف وليحد لي حداً أنتهي إليه إن شاء الله تعالى، ولا قوة إلا بالله، ووالله ما سلبت نعمة إلا بكفرها ولا تمت إلا بشكرها، ولا أصبت القوم خطأ فأديهم ولا ظلمتهم فأقاد بهم، ولا أعطيت إلا لك ولا قتلت إلا فيك، وأما ما أتاني من أمريك فأبينهما عزة أعظمها محنة، وقد عبأت للعزة الجلاد وللمحنة الصبر؛ وكتب في أسفل كتابه:

إذا أنا لم أبغ رضاك وأتقي ذاك فيومي لا تزول كواكبه
وما لامرىء بعد الخليفة جنة تقيه من الأمر الذي هو كاسبه
أسالم من سالمت من ذي هوادة ومن لم تسالمه فإني محاربه
إذا قارف الحجاج منك خطيئة فقامت عليه في الصباح نواديه
إذا أنا لم أدن الشفيق لصنعه وأقص الذي تسري إلي عقاربه
فقف لي على حد الرضى لاأجوزه مدىالدهر حتى يرجع الدرحالبه
وإلا فدعني والأمور فإنني شفيق رقيق أهلته تجاربه

فلما قرأ عبد الملك كتابه قال: خاف أبو محمد صولتي ولن أعود إلى ما يكره.

وذكر حماد الراوية أن الحجاج سهر ليلة بالكوفة فقال لحرسه: ايتني بمحدث من المسجد، فأتاه بسبرة بن الجعد، فدخل وسلم بلسان ذلق وقلب شديد، فقال له الحجاج: ممن الرجل؟ قال: من بني شيبان، قال: ما اسمك؟ قال: سبرة بن الجعد، قال: يا سبرة، قرأت القرآن؟ قال: قد جمعته في صدري، فإن عملت به فقد حفظته وإن خالفته فقد ضيعته، فاتخذه الحجاج سميراً، فما كان يتطلب شيئاً من الحديث إلا وجد عنده منه. وكان يرى رأي الخوارج، وكان من أصحاب قطري بن الفجاءة المزني التميمي، والفجاءة أمه، وكانت من بني شيبان، وإنما هو رجل من تميم. وكان قطري يومئذ يحارب المهلب، فبلغ قطرياً ما كان من سبرة مع الحجاج، فكتب إليه من جملة قصيدة:

لشتان ما بين ابن جعد وبيننا

فلما قرأ كتابه بكى وركب فرسه واخذ سلاحه ولحق بقطري؛ وطلبه الحجاج فلم يقدر عليه و لم يرع الحجاج إلا وكتاب فيه شعر قطري الذي كان كتب به إليه وفي أسفل الكتاب أبيات من جملتها:

فمن مبلغ الحجاج أن سميره قلى كل دين غير دين الخوارج

فطرح الكتاب إلى عنبسة بن سعيد وقال: هذا من سميري الشيباني وهو خارجي ولا نعلم به.

قال القاضي أبو الرفج المعافى: حدث العتبي قال: كانت امرأة من الخوارج يقال لها فراشة، وكانت ذات نية في رأي الخوارج تجهز أصحاب البصائر و لم يظفر بها، وكان الحجاج يدعو الله أن يمكنه منها أو من بعض من جهزته فراشه، فمكث ما شاء الله ثم جيء برجل فقيل له: هذا ممن جهزته فراشة، فخر ساجداً ثم رفع رأسه فقال: يا عدو الله، قال: أنت أولى بها يا حجاج، قال: أين فراشة؟ قال: مرت تطير منذ ثلاث، قال: أين تطير؟ قال: ما بين السماء والأرض، قال: أعن تلك سألتك عليك لعنة الله؟ قال: عن تلك أخبرتك عليك غضب الله، قال: سألتك عن المرأة التي جهزتك وأصحابك، قال: وما تصنع بها؟ قال: أضرب عنقها، قال: ويلك يا حجاج ما أجهلك، أدلك وأنت عدو الله على من هو ولي الله؟ لقد ضللت إذن وما أنا من المهتدين، قال: فما رأيك في أمير المؤمنين عبد الملك؟ قال: على ذلك الفاسق لعنة الله ولعنة اللاعنين، قال: و لم، لا أم لك؟ قال: إنه أخطأ خطيئة طبقت ما بين السماء والأرض، قال: وما هي؟ قال: استعماله إياك على رقاب المسلمين، فقال لجلسائه: ما رأيكم فيه؟ قالوا: نرى أن تقتله قتلة لم يقتل مثلها أحد، قال: ويحك يا حجاج، جلساء أخيك أحسن مجالسة من جلسائك، قال: وأي أخوي تريد؟ قال: فرعون حين شاور في موسى فقالوا: أرجئه وأخاه، وأشار هؤلاء عليه بقتلي، قال: فهل جمعت القرآن؟ قال: ما كان مفرقاً فأجمعه، قال: أقرأته ظاهراً؟ قال: معاذ الله بل قرأته وأنا أنظر إليه، قال: فكيف تراك تلقى الله إن قتلتك؟ قال: ألقاه بعملي وتلقاه بدمي، قال: إذن أعجلك إلى النار، قال: لو علمت أن ذلك إليك أحسنت عبادتك واتقيت عذابك و لم أبغ خلافك ومناقضتك، قال: إني قاتلك، قال: إذن أخاصمك لأن الحكم يومئذ إلى غيرك، قال: نقمعك عن الكلام السيء؛ يا حرسي اضرب عنقه، واومأ إلى السياف الا تقتله، فجعل يأتيه من بين يديه ومن خلفه ويروعه بالسيف، فلما طال ذلك رشح جبينه، قال: جزعت من الموت يا عدو الله؟ قال: لا يا فاسق ولكن أبطأت علي بما فيه راحمة؛ قال: يا حرسي، أوجب جرحه، فلما أحسن بالسيف قال: لا إله إلا الله، والله لقد أتمها ورأسه في الأرض.

وقال القاضي: لما حمل الأسري إلى الحجاج وهو حينئذ بواسطة القصب قبل أن يبني مدينة واسط قال لحاجبه: قدم إلي سيدهم فيروز بن الحصين، فقال: له الحجاج: أبا عثمان ما أخرجك مع هؤلاء؟ قال: فتنة عمت الناس، فقال: اكتب لي أموالك، قال: ثم ماذا؟ قال: اكتبها أولاً، قال: ثم أنا آمن على دمي؟ قال: اكتبها ثم أنظر، قال: اكتب يا غلام، ألف ألفي الف، حتى ذكر مالاً كثيراً، فقال الحجاج: أين هي وعند من هي؟ قال: لا والله لا جمعت بين مالي ودمي، فأمر الحجاج فعذب بأنواع العذاب، وكان من جملة ما عذب به أن يشد عليه القصب الفارسي المشقوق ثم يجر حتى يجرح جسده ثم ينضح عليه الخل والملح؛ فلما أحس بالموت قال: إن الناس لا تشكن أني قتلت ولي ودائع وأموال عند الناس لا تؤدى إليكم أبداً، فأظهروني للناس ليعلموا أني حي فيؤدوا المال، فأخرج قصاح في الناس: من عرفني فقد عرفني؛ أنا فيروز، إن لي عند أقوام مالاً فمن كان لي عنده شيء فهو له وهو منه في حل فلا يؤدين أحد منه درهماً، ليبلغ الشاهد الغائب؛ فأمر به الحجاج فقتل.

وجلس الحجاج يوماً لقتل أصحاب عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس، فقام رجل منهم فقال: أصلح الله عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس، قال: سبك عبد الرحمن يوماً فرددت عليه، فقال: من يعلم ذلك؟ قال: أنشد الله رجلاً سمع ذلك إلا شهد به، فقام رجل من الأسرى فقال: قد كان ذاك أيها الأمير، قال: خلوا عنه، ثم قال للشاهد: فما منعك أن تنكر كما أنكر؟ قال: لقديم بغضي إياك، قال: ولنخل عنه لصدقه.

قال أبو الحسن المدائني: لما ظفر الحجاج بأصحاب ابن الأشعث، جلس لضرب أعناقهم عامة النهار، فأتي آخرهم برجل من بني تميم قال له: والله يا حجاج لئن كنا قد اسأنا في الذنب لما أحسنت في العقوبة، فقال الحجاج: أف لهذه الجيف أما فيها رجل يحسن مثل هذا؟ وعفا عنه.

ولما حضر الشعبي بين يدي الحجاج سلم بالإمرة ثم قال: أيها الأمير، إن الناس قد أمروني أن أعتذر إليك لغير ما يعلم الله أنه الحق، وايم الله لا أقول في هذا المقام إلا حقاً، قد والله خرجنا عليك واجتهدنا كل الجهد فما ألونا فما كنا بالفجرة الأقوياء ولا البررة الأتقياء، ولقد نصرك الله علينا وظفرك بنا، فإن سطوت فبذنوبنا وما جرت إلينا أيدينا، وإن عفوت عنا فبحلمك وبعد الحجة لك علينا، فقال له الحجاج: أنت والله أحب إلي ممن يدخل علي يقطر سيفه من دمائنا ثم يقول ما فعلت وما شهدت؛ قد أمنت عندنا يا شعبي، فانصرف.

وقال الشعبي: سمعت الحجاج تكلم بكلام ما سبقه إليه أحد، يقول: أما بعد، فإن الله كتب على الدنيا الفناء وعلى الآخرة البقاء، فلا فناء لما كتب عليه البقاء، ولا بقاء لما كتب عليه الفناء، فلا يغرنك شاهد الدنيا عن غائب الآخرة واقهروا طول الأمل بقصر الأجل.

وكان إبراهيم النخعي هارباً من الحجاج مدة أيامه ثم ظهر بعده فقيل له: أين كنت؟ قال: بحيث يقول الشاعر:

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى — وصوت إنسان فكدت أطير

وذكر الحسن بن محمد بن هلال الصابئ أن الحجاج انفرد يوماً عن عسكره فمر برجل يسقي ضيعة له، فقال له: كيف حالكم مع أميركم؟ فقال: لعنه الله، المبيد المبير الحقود، عجل الله الانتقام منه، فقال له: تعرفني؟ قال: لا والله، قال: أنا الحجاج، فرأى الرجل أن دمه قد طاح فرفع عصاً كانت معه وقال: أتعرفني؟ أنا أبو ثور المجنون، وهذا يوم صرعي، وأزبد وأرغى وهاج وأراد أن يضرب رأسه بالعصا، فضحك منه وانصرف.

وكان الحجاج كثيراً ما يسأل القراء، فدخل عليه يوماً رجل فقال له: ما قبل قوله تعالى: "أمن هو قانت آناء الليل". فقال: "قل تمتع بكفرك قليلاً إنك من أصحاب النار"، قال: فما سأل أحداً بعدها.

وخطب في يوم جمعة فأطال الخطبة، فقام إليه رجل فقال: إن الوقت لا ينتظرك والرب لا يعذرك، فأمر به إلى الحبس، فأتاه آل الرجل فقالوا: إنه مجنون، فقال: إن أقر على نفسه بما ذكرتم خليت سبيله، فقال الرجل: لا والله لا أزعم أنه ابتلاني وقد عافاني.

وممن هرب من الحجاج محمد بن عبد الله بن نمير الثقفي، وكان يشبب بزينب بنت يوسف أخت الحجاج وهو الذي يقول:

تضوع مسكاً بطن نعمان أن مشت — به زينب في نسوة عطرات

فلما أتي به الحجاج قال: والله أيها الأمير إن قلت إلا خيراً، إنما قلت:

يخضبن أطراف البنان من التقى — ويخرجن شطرا الليل معتجرات

قال: فأخبرني عن قولك:

ولما رأت ركب النميري أعرضت — وكن من أن يلقينه حذرات

ما كنتم؟ قال: كنت على حمار هزيل ومعي صاحب على اتان مثله، فعفا عنه.

ولما قتل الحجاج عبد الله بن الزبير ارتجت مكة بالبكاء والعويل، فأمر الحجاج بالناس فجمعوا إلى المسجد ثم صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا أهل مكة، بلغني بكاؤكم واستفظاعكم قتل عبد الله بن الزبير، ألا وإن ابن الزبير كان من أحبار هذه الأمة حتى رغب في الخلافة ونازع فيها أهلها وخلع طاعة الله واستكن إلى حرم الله، ولو كان شيء مانعاً للقضاء لمنعت آدم حرمة الجنة لأن الله تعالى خلقه بيده ونفخ فيه من روحه واسجد له ملائكته وإباحة جنته، فلما كان منه ما كان أخرجه من الجنة بخطيئته، وآدم أكرم على الله من ابن الزبير، والجنة أعظم حرمة من الكعبة، فاذكروا الله يذكركم، ونزل.

قال مالك بن دينار: ربما سمعت الحجاج يذكر ما صنع به أهل العراق وما صنع بهم فوقع في نفسي أنهم يظلمونه لبيانه وحسن تخلصه للحجج.

قال القاضي المعافى بن زكريا في كتاب الجليس والأنيس: حدث الزبير ابن بكار عن الزهري قال: لما ولي الحجاج بن يوسف الحرمين بعد قتل عبد الله ابن الزبير استحضر إبراهيم بن طلحة بن عبيد الله وقربه في المترلة، فلم يزل على حاله عنده حتى خرج إلى عبد الملك زائراً له فرج معه فعادله لا يترك في بره وإجلاله وتعظيمه شيئاً، فلما حضر باب عبد الملك حضر به معه، فلما دخل على عبد الملك لم يبدأ بشيء بعد السلام إلا أن قال: قدمت عليك يا أمير المؤمنين برجل الحجاز لم أدع له والله فيها نظيراً في كمال المروءة والأدب والرئاسة والديانة والستر وحسن المذهب والطاعة والنصيحة مع القرابة ووجوب الحق، إبراهيم ابن طلحة بن عبيد الله، وقد أحضرته بابك ليسهل عليه إذنك وتلقاه ببشرك وتفعل به ما يفعل بمثله ممن كانت مذاهبه، فقال عبد الملك: ذكرتنا حقاً واجباً ورحماً قريبة؛ يا غلام ايذن لإبراهيم بن طلحة، فلما دخل قربه حتى أجلسه على فراشه ثم قال له: يا ابن طلحة إن أبا محمد أذكرنا ما لم نزل نعرفك به من الفضل والأدب وحسن المذهب مع قرابة الرحم ووجوب الحق، فلا تدعن حاجة من خاص أمرك ولا عامه إلا

ذكرها، قال: يا أمير المؤمنين، إن أولى الأمور أن تفتح بها الحوائج وترجى به الزلف ما كان لله عز وجل رضى ولحق نبيه صلى الله عليه وسلم أداء ولك فيه ولجماعة المسلمين نصيحة، وأن عندي نصيحة لا أجد أبداً من ذكرها ولا يكون البوح بها إلا وأنا خال فأخلني ترد عليك نصيحتي، قال: دون أبي محمد؟ قال: نعم، قال: قم يا حجاج، فلما جاوز الستر قال: قل يا ابن طلحة نصيحتك، قال: الله يا أمير المؤمنين، قال: الله، قال: إنك عمدت إلى الحجاج مع تغطرسه وتعجرفه وبعده عن الحق وركونه إلى الباطل فوليته الحرمين وفيهما من فيهما وبهما من بهما من المهاجرين والأنصار والموالي المنتسبة الأخيار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبناء الصحابة يسومهم الخسف ويقودهم العسف ويحكم فيهم بغير السنة ويطؤهم بطغام من أهل الشام ورعاع لا روية لهم في إقامة حق ولا إزاحة باطل، ثم ظننت أن ذلك فيما بينك وبين الله ينجيك وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم يخلصك إذا جاثاك للخصومة في أمته؟ أما والله لا تنجو هناك إلا بحجة تضمن لك النجاة فأبق على نفسك أو دع، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، فاستوى عبد الملك جالساً وكان متكئاً فقال: كذبت لعمر الله ومنت ولؤمت فيما جئت به، قد ظن بك الحجاج ما لم يجده فيك وربما ظن الخير لغير أهله، قم فأنت الكاذب المائن الحاسد، قال: فقمت والله ما أبصر طريقاً؛ فلما خلفت الستر لحقني لاحق من قبله فقال للحاجب: احبس هذا الرجل وأدخل أبا محمد الحجاج، فلبثت ملياً وأنا لا أشك أنهما في أمري، ثم خرج الآذن فقال: قم يا ابن طلحة فادخل، فلما كشف لي الستر لقيني الحجاج وأنا داخل وهو خارج، فاعتنقني وقبل ما بين عيني ثم قال: إذا جزى الله المتآخيين بفضل تواصلهما فجزاك الله أفضل ما جزى به أخاً، فو الله لئن سلمت لك لأرفعن ناظرك ولأعلين كعبك ولأتبعن الرجال غبار قدميك، قال: فقلت: يهزأ بي، فلما وصلت إلى عبد الملك أدناني حتى أجلسني في مجلسي الأول ثم قال: يا ابن طلحة لعل أحداً من الناس شاركك في نصيحتك، قال: قلت: لا والله ولا أعلم أحداً كان أظهر عندي معروفاً ولا أوضح يداً من الحجاج، ولو كنت محابياً أحداً بديني لكان هو ولكني آثرت الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم والمسلمين، ولو أردت الدنيا لكان لي في الحجاج أمل، فقال: قد علمت ذلك، وقد أزلت الحجاج عن الحرمين لما كرهت من ولايته عليهما وأعلمته أنك استنزلتني له عنهما استصغاراً ووليته العراقين لما هناك من الأمور التي لا يرحضها إلا مثله وأعلمته أنك استدعيتني إلى التولية له عليهما استزادة له ليلزمه من ذمامك ما يؤدي به عني عليك أجر نصيحتك، فاخرج معه فإنك غير ذام صحبته مع تقريظه إياك ويدك عنده، قال: فخرجت على هذه الجملة.

وروي عن محمد بن المنتشر بن الأجدع الهمداني قال: دفع إلي الحجاج ازارمرد ابن الهربذ وأمرني أن استخرج منه وأغلظ عليه، فلما انطلقت به قال لي: يا محمد إن لك شرفاً وديناً وإني لا أعطي على القسر شيئاً وارفق بي، قال ففعلت، فأدى إليّ في أسبوع خمسمائة ألف؛ قال: فبلغ ذلك الحجاج فأغضبه فانتزعه من يدي ودفعه إلى رجل كان يتولى له العذاب فدق يديه ورجليه فلم يعطهم شيئاً؛ قال محمد بن المنتشر: فإني لأمر يوماً في السوق فإذا به معروضاً على حمار مدقوق اليدين والرجلين، فخفت الحجاج إن أتيته وتذممت فملت إليه فقال لي: إنك وليت مني ما ولي هؤلاء فأحسبت وإنهم صنعوا بي ما ترى و لم أعطهم شيئاً، وها هنا خمسمائة ألف درهم عند فلان فخذها فهي لك، قال: فقلت: ما كنت لآخذ منك على معروفي أجراً ولا لأرزأك على هذه الحال شيئاً، قال: فأما إذا أتيت فاستمع أحدثك؛ حدثني بعض أهل دينك عن نبيك صلى الله عليه وسلم قال: إذا رضي الله عن قوم أمطرهم المطر في حينه، وجعل الماء عند سمحائهم واستعمل عليهم خيارهم، وإذا سخط عليهم استعمل عليهم شرارهم، وجعل المال عند بخلائهم وأمطرهم المطر في غير حينه؛ قال: فانصرفت فما وضعت ثوبي حتى أتاني رسول الحجاج فأمرني بالمصير إليه، فألفيته جالساً على فرشه والسيف منتضى بين يديه، فقال: ادن، فدنوت شيئاً، ثم قال: ادن، فدنوت شيئاً، ثم صاح الثالثة: ادن لا أبا لك، فقلت: والله ما بي إلى الدنو من حاجة وفي يد الأمير ما أرى، فأضحك الله سنه وأغمد عني سيفه فقال لي: اجلس، ما كان من حديث الأمس؟ فقلت: والله أيها الأمير ما غششتك منذ استنصحتني ولا كذبتك منذ استخبرتني ولا خنتك منذ ائتمنتني، ثم حدثته الحديث، فلما صرت إلى ذكر الرجل الذي عنده المال أعرض عني بوجهه وأومأ إلي بيده ثم قال: لا تتمه، ثم قال: إن للخبيث نفساً وقد سمع الأحاديث.

ويقال: كان الحجاج إذا استغرب ضاحكاً وإلى بين الاستغفار، وإذا صعد المنبر تلفع بمطرفه ثم تكلم رويداً فلا يكاد يسمع ثم يتزيد في الكلام حتى يخرج يده من مطرفه ويزجر الزجرة فيفزع بها من في أقصى المسجد؛ وكان يطعم كل يوم على ألف مائدة ثريد وطرف من شواء وسمكة طرية ويطاف

به في محفة على تلك الموائد ليتفقد أمور الناس، وعلى كل مائدة عشرة، ثم يقول: يا أهل الشام اكسروا الخبز لئلا يعود عليكم؛ وكان له ساقيان أحدهما يسقي الماء والعسل والآخر يسقي اللبن.

ولما دخل الحجاج إلى مكة اعتذر إلى أهلها لقلة ما وصلهم به، فقال قائل منهم: إنا والله لا نعذرك وأنت أمير العراقين وابن عظيم القريتين، وذلك أن عروة بن مسعود ولده من قبل أمه، والقريتان مكة والطائف.

أمر الحجاج ابن القرية أن يأتي هند بنت أسماء فيطلقها بكلمتين ويمتعها بعشرة آلاف درهم، فأتاها فقال لها: إن الحجاج يقول لك كنت فبنت، وهذه عشرة آلاف درهم متعة لك، فقالت: قل له فما حمدنا وبنا فما ندمنا، وهذه الدراهم مشاركتك إياي بطلاقي. ووفد الحجاج على الوليد بن عبد الملك في خلافته فوجده في بعض نزهه فاستقبله، فلما رآه ترجل له وقبل يده وجعل يمشي وعليه درع وكنانة وقوس عربية، فقال له الوليد: اركب أبا محمد، فقال: يا أمير المؤمنين دعني أستكثر من الجهاد في خدمتك فإن ابن الزبير وابن الأشعث شغلاني عنه، فعزم عليه الوليد حتى ركب. ودخل الوليد داره فتغلل في غلالة ثم أذن للحجاج فدخل في حالة تلك وأطال الجلوس عنده إذ جاءت جارية فساررته وانصرفت، فقال الوليد للحجاج: أتدري ما هذا أبا محمد؟ قال: لا والله، قال: بعثت ابنة عمي أم البنين بنت عبد العزيز تقول: ما مجالستك هذا الأعرابي المستلئم في السلاح وأنت في غلالة، فأرسل إليها إنه الحجاج، فراعها ذلك وقالت: والله ما أحب أن يخلو بك وقد قتل الخلق، فقال الحجاج: يا أمير المؤمنين دع عنك مفاكهة النساء بزخرف القول، فإنما المرأة ريحانة وليست بقهرمانة، فلا تطلعهن على سرك ولا مكايدة عدوك ولا تطمعهن في غير أنفسهن ولا تشغلهن بأكثر من زينتهن وإياك ومشاورتهن، وأكثر من ذلك. ثم نهض الحجاج فخرج ودخل الوليد على أم البنين فأخبرها بمقالة الحجاج فقالت: أحب أن تأمره غداً بالتسليم علي، أفعل. فلما غدا الحجاج على الوليد قال له: يا أبا محمد صر إلى أم البنين فسلم عليها، فقال: اعفني من ذلك يا أمير المؤمنين، قال: لابد منه؛ فمضى الحجاج إليها فحجبته طويلاً ثم أذنت له وتركته قائماً و لم تأذن له في الجلوس ثم قالت: إيه يا حجاج، أنت الممتن على أمير المؤمنين بقتل ابن الزبير وابن الأشعث؟ أما والله لولا أن الله علم أنك أهون خليقته ما ابتلاك برمي الكعبة وقتل ابن ذات النطاقين؛ فأما ابن الأشعث فقد والله وإلى عليك الهزائم حتى لذت بأمير المؤمنين عبد الملك فأغاثك بأهل الشام وأنت في أضيق من القرن فأظلتك رماحهم ولطالما نفض نساء أمير المؤمنين المسك عن غدائرهن وبعنه في الأسواق حتى أخرج في أرزاق البعوث إليك، ولولا ذلك لكنت أذل من البقعة، وأما ما أشرت به على أمير المؤمنين من ترك لذاته والامتناع عن بلوغ أوطاره من نسائه فإنه غير قابل منك ولا مصغ إلى نصيحتك، فإن كن يفرجن عن مثلك فما أولاه بالقبول منك؛ ثم قالت لجواريها: أخرجوه عني، فدخل على الوليد من فوره فقال: يا أبا محمد، ما كنت فيه؟ قال: والله يا أمير المؤمنين ما سكتت حتى كان بطن الأرض أحب إلي من ظهرها، فضحك الوليد حتى فحص برجليه ثم قال: يا أبا محمد أنها ابنة عبد العزيز.

وقيل أن أم البنين المذكورة كانت تهوى وضاح اليمن الشاعر، وكان جميلاً، وكانت ترسل إليه فيدخل إليها ويقيم عندها، وإذا خافت وارته في صندوق عندها وأقفلت عليه؛ وهو القائل:

حتام نكتم حزننا حتاما ... وعلام نستبقي الدموع علاما
يا رب أمتعني بطول بقائها ... واجبر بها الأرمال والأيتاما
قد أصبحت أم البنين مريضة ... تخشى ونشفق أن يكون حماما

فدخل الخادم إليها مفاجأة فرأى وضاحاً عندها فأدخلته الصندوق وأقفلت عليه، فطلب منها الخادم حجراً نفيساً كان يعرف عندها فمنعته إياه بخلاً به، فمضى وأخبر الوليد بالحال، فقالت له: كذبت يا ابن الفاعلة، ثم جاء الوليد إلى أم البنين فدخل وهي جالسة في ذلك البيت تمشط رأسها، وكان الخادم قد وصف له الصندوق، فجلس الوليد فوقه ثم قال: يا أم البنين ما أحب هذا البيت إليك دون البيوت، فلم اخترته؟ قالت: لأنه مجمع حوائجي كلها فأنا أتناولها منه من قريب، فقال: هبي لي صندوقاً من هذه الصناديق، فقالت: كلها بحكمك يا أمير المؤمنين، فقال: إنما أريد واحداً منها، فقالت:

خذ أيها شئت، فقال: هذا الصندوق الذي تحتي، فقالت غيره أحب إليك منه فإن لي فيه أشياء أحتاج إليها، فقال: ما أريد سواه، فقالت: خذه، فدعا بالخدم وأمرهم بحمله حتى انتهى إلى مجلس فوضعه فيه ثم دعا عبيداً له عجماً وأمرهم بحفر بئر في المجلس فحفرت إلى الماء، ثم دعا بالصندوق فوضعه على شفير البئر ودنا منه وقال: يا صاحب الصندوق إنه بلغنا شيء إن كان حقاً فقد دفناك ودفنا ذكرك إلى آخر الدهر، وإن كان باطلاً فإنما دفنا الخشب وما أهون ذلك. ثم قذف به في البئر وهيل عليه التراب وسويت الأرض ورد البساط عليه، فما رؤي الوضاح بعد ذلك اليوم ولا أبصرت أم البنين في وجه الوليد غضباً حتى فرق الموت بينهما.

وقيل: حضر بساط الحجاج رجل تعين عليه القتل وحضر أهل القود بحضوره، فلما فرض النطع وسل السيف اتفق أن ملأ عينه في حالة تلك فرأى بريق السيف ولمعان برق فاستنظر ثم أنشد مرتجلاً:

تألق البرق من نجد فقلت له ... يا أيها البرق إني عنك مشغول
يكفيك ما قد ترى من ثائر حنق ... في كفه كصبيب الماء مسلول

فلما رأى الحجاج ما كان من حضوره ذهنه وجودة شعره عطف عليه إشفاقاً له وعرض على طالبيه أن يؤدي عنه ديته، فجلعوا يأبون وجعل يتولج في تحليل القصة ويتدرج في تنفيس الدية حتى بذل لهم دية ملك، فلما أبوا وعتوا قال لحرسه: فكوا قيده وخلوا سبيله فإن من لم ينس أحبته في هذا المقام لجدير أن لا يقتل.

وقيل: أخذ الحجاج أعرابياً سرق فأمر بضربه فضرب، فكلما ضربه بالسوط قال: اللهم شكراً، فأتاه ابن عم له وقال: والله ما دعا الأمير إلى التمادي في ضربك إلا لكثرة شكرك لأن الله تعالى يقول: "ولئن شكرتم لأزيدنكم". فأمر بإطلاقه.

وحدث محمد بن القاسم الأنباري عن المدائني عن مولى لعنبسة بن سعيد بن العاص قال: كنت أدخل مع عنبسة إذا دخل على الحجاج، فدخل يوماً ودخلت معه وليس عند الحجاج أحد غير عنبسة فقعدت، فجيء الحجاج بطبق رطب فأخذ الخادم منه شيئاً فجاءني به، ثم جيء بطبق آخر فأتاني الخادم منه بشيء، ثم جيء بطبق آخر حتى كثرت الأطباق، وجعل لا يأتون بشيء إلا جاءني منه بشيء حتى ظننت أن ما بين يدي أكثر مما عندهم؛ ثم جاء الحاجب فقال: امرأة بالباب، فقال الحجاج: أدخلها، فدخلت، فلما رآها الحجاج طأطأ رأسه حتى ظننت أن ذقنه قد أصاب الأرض، فجاءت حتى قعدت بين يديه، فنظرت فإذا امرأة حسنة الخلق ومعها جاريتان لها فإذا هي ليلى الأخيلية، فسألها الحجاج عن نسبها فانتسبت له، فقال لها: يا ليلى ما الذي أتى بك؟ قالت: إخلاف النجوم وقلة الغيوم وكلب البرد وشدة الجهد وكنت لنا بعد الله الرفد، فقال لها: صفي لنا الفجاج، فقالت: الفجاج مغبرة والأرض مقشعرة والمبرك معتل وذو العيال مختل والهالك للقل والناس مسنتون، رحمة الله يرجون، قد أصابتنا سنون مجحفة مبلطة لم تدع لنا هبعاً ولا ربعاً ولا عافطة ولا نافطة، أذهبت الأموال ومزقت الرجال وأهلكت العيال؛ ثم قالت: إني قلت في الأمير قولاً، قال: هاتي، فأنشأت تقول:

أحجاج لا يفلل سلاحك إنما ال ... منايا بكف الله حيث يراها
أحجاج لا تعطي العداة مناهم ... ولا الله يعطي للعداة مناها
إذا نزل الحجاج أرضاً مريضة ... تتبع أقصى دائها فشفاها
شفاها من الداء العضال الذي بها ... غلام إذا هز القناة سقاها
سقاها فرواها بشرب سجاله ... دماء رجال حيث مال حشاها
إذا سمع الحجاج ذكر كتيبة ... أعد لها قبل النزول قراها

أعد لها مسمومة فارسية ... بأيدي رجال يحلبون صراها

فما ولد الأبكار والعون مثله ... ببحر ولا أرض يجف ثراها

قال: فلما قالت هذا البيت قال الحجاج: قاتلها الله، والله ما أصاب صفتي شاعر منذ دخلت العراق غيرها، ثم التفت إلى عنبسة بن سعيد فقال: والله إني لأعد للأمر عسى أن لا يكون أبداً، ثم التفت إليها فقال: حسبك ويحك، ثم قال: يا فلان، اذهب بها إلى فلان فقل له: اقطع لسانها، فأمر بإحضار حجام، فقالت: ثكلتك أمك، أما سمعت ما قال؟ إنما أمرك بقطع لساني بالبر والصلة، فبعث إليه فاستشاط الحجاج غضباً وهم بقطع لسانه فقال: اردها، فلما دخلت عليه قالت: كاد والله أيها الأمير يقطع مقولي، ثم أنشأت تقول:

حجاج أنت الذي ما فوقه أحد ... إلا الخليفة والمستغفر الصمد

حجاج أنت شهاب الحرب إن لقحت ... وأنت للناس نور في الدجى يقد

ثم أقبل الحجاج على جلسائه فقال: أتدرون من هذه؟ قالوا: لا والله أيها الأمير، إلا أننا لم نر امرأة قط أفصح منها لساناً ولا أحسن محاورة ولا أملح وجهاً ولا أرصن شعراً منها، قال: هذه ليلى الأخيلية التي مات توبة الخفاجي من حبها، ثم التفت إليها فقال: أنشدينا يا ليلى بعض ما قال فيك توبة، فقالت: نعم أيها الأمير؛ هو الذي يقول:

حمامة بطن الواديين ترنمي ... سقاك من الغر الغوادي مطيرها

أبيني لنا لا زال ريشك ناعماً ... ولا زلت في خضراء غض نضيرها

وكنت إذا ما جئت ليلى تبرقعت ... فقد رابني منها الغداة سفورها

يقول رجال: لا يضيرك بأيها ... بلى، كل ما شف النفوس يضيرها

بلى قد يضير العين أن تكثر البكا ... ويمنع منها نومها وسرورها

وقد زعمت ليلى بأني فاجر ... لنفسي تقاها أو عليها فجورها

فقال الحجاج: يا ليلى ما رابه من سفورك؟ قالت: أيها الأمير كان يلم بي كثيراً فأرسل إلي: آتيك، ففطن الحي به فترصدوا له، فلما أتاني سفرت، فعلم أن ذلك لشر فلم يزد على التسليم والرجوع، فقال: لله درك هل رأيت منه شيئاً تكرهينه؟ قالت: لا والذي أسأله أن يصلحك، غير أنه قال لي مرة قولاً ظننت أنه قد خضع لبعض الأمر فأنشأت أقول:

وذي حاجة قلنا له لا تبح بها ... فليس إليها ما حييت سبيل

لنا صاحب لا ينبغي أن نخونه ... وأنت لأخرى صاحب وخليل

لا والله الذي أسأله أن يصلحك ما رأيت منه شيئاً حتى فرق الموت بيننا؛ قال: ثم مه؟ قالت: ثم لم يلبث أن خرج في غزاة فأوصى ابن عمه: إذا أتيت الحاضر من بني عبادة فناد بأعلى صوتك:

عفا الله عنها هل أبيتن ليلة ... من الدهر لا يسري إلي خيالها

فخرجت وأنا أقول:

وعنه عفا ربي وأحسن حاله ... فعز علينا حاجة لا ينالها

قال: ثم مه؟ قالت: ثم لم يلبث ان مات، فأتى ناعيه؛ قال: فأنشدينا بعض مراثيك فيه، فأنشدته:

لتبك العذارى من خفاجة نسوة ... بماء شؤون العبرة المتحدر

قال: فأنشدينا قولك فيه:

كأن فتى الفتيان توبة، لم ينخ قلائص يفحصن الحصى بالكراكر

فأنشدته، فلما فرغت من القصيدة قال محصن الفقعسي–وكان من جلساء الحجاج–: من هذا الذي يقال هذا فيه؟ فو الله إني لأظنها كاذبة، فنظرت إليه ثم قالت: والله أيها الأمير إن هذا القائل لو رأى توبة لسره ألا يكون في داره عذراء إلا وهي حامل منه، فقال الحجاج: هذا وأبيك الجواب وقد كنت عنه غنياً؛ ثم قال لها: سلي يا ليلى تعطي، قالت: أعط فمثلك أعطى فأحسن، قال: لك عشرون، قالت: زد فمثلك زاد فأجمل، قال: لك أربعون، قالت: زد فمثلك زاد فأفضل، قال: لك ستون، قالت: زد فمثلك زاد فأكمل، قال: لك ثمانون، قالت: زد فمثلك زاد فتمم، قال: لك مائة واعلمي يا ليلى أنها غنم، قالت: معاذ الله أيها الأمير، أنت أجود جوداً وأمجد مجداً وأورى زنداً من أن تجعلها غنماً، قال: فما هي ويحك يا ليلى؟ قالت: مائة ناقة برعائها، فأمر لها بها، ثم قال: ألك حاجة بعدها؟ قالت: نعم أيها الأمير، تدفع غلي النابغة الجعدي في قيد، قال: قد فعلت، وقد كان يهجوها وتهجوه، فبلغ ذلك النابغة فخرج هارباً عائذاً بعبد الملك بن مروان فاتبعته إلى الشام فهرب إلى قتيبة بن مسلم بخراسان فاتبعته على البريد بكتاب الحجاج إلى قتيبة فماتت بقومس، وقيل بحلوان.

وكان الحجاج إذا سمع بنوح في دار هدمها، فلما مات ابنه وأخوه حن إلى النوح، وكان يعجبه أن يسمعه، وكان كثيراً ما يتمثل بهذا البيت:

هل ابنك إلا ابن من الناس فاصبري فلن يرجع الموتى جنين المآتم

وكان يتمثل بهذا البيت أيضاً وهو:

فإن تحتسب تؤجر وإن تبكه تكن كباكية لم يحي ميتاً بكاؤها

وبالجملة فأخبار الحجاج كثيرة، وشرحها يطول. وهو الذي بنى مدينة واسط وكان شروعه في بنائها في سنة أربع وثمانين للهجرة وفرغ منها في سنة ست وثمانين، وإنما سماها واسط لأنها بين البصرة والكوفة فكأنها توسطت بين هذين المصرين؛ وذكر ابن الجوزي في كتاب شذور العقود المرتب على السنين أنه فرغ من بنائها في سنة ثمان وسبعين، وكان قد ابتدأ من سنة خمس وسبعين، والله أعلم.

ولما حضرته الوفاة أحضر منجماً فقال له: هل ترى في علمك ملكاً يموت؟ قال: نعم، ولست هو، فقال: وكيف ذلك؟ قال المنجم: لأن الذي يموت اسمه كليب، فقال الحجاج: أنا هو والله، بذلك كانت سمتني أمي، فأوصى عند ذلك.

ويشبه هذا قول الداعي علي بن محمد بن علي الصليحي –وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى–وهو الذي كان داعياً باليمن وملك البلاد اليمنية كلها وقهر ملوكها، حتى قدر الله انقضاء مدته، فخرج من صنعاء إلى مكة على عزم الحج في سنة ثلاث وسبعين وأربعمائة، حتى إذا كان بالمهجم ونزل بظاهرها بضيعة يقال لها أم الدهيم وبئر أم معبد أدركه فيها على حين غفلة سعيد بن نجاح الأحول الذي كان أبوه صاحب تهامة، وقتله الصليحي واخذ مملكته، وهرب منه أولاده سعيد المذكور وإخوته، وكان سعيد في قل ممن تابعه حتى دخل مخيم الصليحي، والناس يعتقدون أنه من جملة العسكر وحواشيه، فلم يشعر بأمرهم إلا عبد الله بن محمد أخو الصليحي، فركب وقال لأخيه: يا مولانا اركب، فهو والله الأحول بن نجاح، والعدد الذي جاءنا به كتاب أسعد بن شهاب البارحة من زبيد، فقال الصليحي لأخيه: طب نفساً فإني لا أموت إلا بالدهيم وبئر أم معبد، معتقداً أنها أم معبد الخزاعية التي نزل بها رسول الله صلى الله عليه وسلم حين هاجر ومعه أبو بكر–وهي بين مكة والمدينة مما يلي مكة بالقرب من الجحفة–فقال له بعض أصحابه: قاتل عن نفسك، فو الله هذا هو بئر الدهيم بن عيسى، وهذا المسجد موضع خيمة أم معبد بن الحارث العبسي، فأدركه لما سمع ذلك زمع اليأس من الحياة، فلم يرم مكانه، وقتل لوقته هو وأخوه وأهله، وملك سعيد الأحول عسكره وملكه.

وهذا سعيد الأحول هو أخو الملك جياش المشهور الفاضل، وأبوه نجاح الملك كان عبداً لمرجان الملك، وكان عبداً لحسين بن سلامة مولى الأستاذ رشد الحبشي، وكان الحسين ورشد قبله كل منهما هو صاحب الأمر والملك في المعنى وفي الصورة كالوزير عن آخر ملوك بني زياد باليمن وهو طفل من أولاد أبي الجيش إسحاق بن إبراهيم بن محمد بن زياد يقال له عبد الله، وقيل إبراهيم، وقيل زياد، وهو الذي انقرضت دولتهم به على يد عبد يقال له

قيس مولى مرجان المذكور، وسببه أن الطفل المذكور لما مات أبوه أبو الجيش كفله مولاه مرجان المذكور وعمة للطفل، وكان لمرجان عبدان أحدهما نجاح أبو سعيد والآخر قيس، فغلبا على أمره، وكان قيس يحكم بالحضرة ونجاح يتولى أعمال الكدراء والمهجم وأعمالاً أخرى غيرها، ووقع التنافس بين قيس ونجاح على وزارة الحضرة، وكان قيس غشوماً ظالماً ونجاح رؤوفاً عادلاً، فاتهم قيس عمة ابن زياد بالميل عليه إلى نجاح، فقبض عليها وعلى ابن أخيها مرجان ملاه لأجل شكوى قيس إليه منهما وسلمهما إلى قيس، فبنى عليهما حائطين، وهما قائمان بالحياة يناشدانه الله أن لا يفعل، فهلكا سنة سبع وأربعمائة، ونمي ذلك إلى نجاح، فسار للأخذ بثأرهما، وحارب قيساً وجرت بينهما أمور أسفرت عن ظفر نجاح بقيس وملكه الحضرة. وقتل قيس في بعض الوقائع على باب زبيد، ولما فتح نجاح زبيد وهي حضرة الملك يومئذ في سنة اثنتي عشرة وأربعمائة، قال لمرجان مولاه: ما فعل مواليك ومواليناً؟ قال: هم في ذلك الحائط، فأخرجهما وصلى عليهما ودفنهما في مشهد بناه لهما وجعل مرجاناً موضعهما، وبنى عليه الحائط حتى هلك.

ومات نجاح المذكور بالسم بحيلة تمت عليه مع جارية أهداها له الصليحي المذكور في الكدراء سنة اثنتين وخمسين وأربعمائة. ولما مات نجاح كتب للصليحي في سنة ثلاث وخمسين إلى المستنصر صاحب مصر يسأمره في إظهار الدعوة لهم فأمره فخرج وكان منه ما كان، والله أعلم.

وكان الحجاج ينشد في مرض موته هذين البيتين، وهما لعبيد بن سفيان العكلي:

يا رب قد حلف الأعداء واجتهدوا	أيمانهم أنني من ساكني النار
أيحلفون على عمياء ويحهم	ما ظنهم بقديم العفو غفار

وكتب إلى الوليد بن عبد الملك كتاباً يخبره فيه بمرضه، وكتب في آخره:

إذا ما لقيت الله عني راضياً	فإن سرور النفس فيما هنالك
فحسبي حياة الله من كل ميت	وحسبي بقاء الله من كل هالك
لقد ذاق هذا الموت من كان قبلنا	ونحن نذوق الموت من بعد ذلك

وكان مرضه بالأكلة وقعت في بطنه، ودعا بالطبيب لينظر إليها، فأخذ لحما وعلقه في خيط وسرحه في حلقه وتركه ساعة ثم أخرجه وقد لصق به دود كثير. وسلط الله تعالى عليه الزمهرير، فكانت الكوانين تجعل حوله مملوءة ناراً وتدنى منه حتى تحرق جلده وهو لا يحس بها؛ وشكا ما يجده إلى الحسن البصري ر فقال له: قد كنت نهيتك ألا تتعرض إلى الصالحين فلججت، فقال له: يا حسن، لا أسألك أن تسال الله أن يفرج عني، ولكني أسألك أن تسأله أن يعجل قبض روحي ولا يطيل عذابي، فبكى الحسن بكاء شديداً. وأقام الحجاج على هذه الحالة بهذه العلة خمسة عشر يوماً، وتوفي في شهر رمضان، وقيل في شوال سنة خمس وتسعين للهجرة وعمره ثلاث، وقيل أربع وخمسون سنة، وهو الأصح.

وقال الطبري في تاريخه الكبير: توفي الحجاج يوم الجمعة لتسع بقين من شهر رمضان سنة خمس وتسعين، وقال غير الطبري: لما جاء موت الحجاج إلى حسن البصري سجد لله تعالى شكراً، وقال: اللهم إنك قد أمته فأمت عنا سنته.

وكانت وفاته بمدينة واسط ودفن بها، وعفي قبره وأجري عليه الماء، رحمه الله تعالى وسامحه.

وكان قد رأى في منامه أن عينيه قلعتا، وكانت تحته هند بنت المهلب بن أبي صفرة الأزدي–وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى–وهند بنت أسماء بن خارجة، فطلق الهندين اعتقاداً منه أن رؤياه تتأول بهما، فلم يلبث أن جاءه نعي أخيه محمد من اليمن في اليوم الذي مات فيه ابنه محمد، فقال: والله هذا تأويل رؤياي، محمد ومحمد في يوم واحد، إنا لله وإنا إليه راجعون، ثم قال: من يقول شعراً يسليني به؟ فقال الفرزدق:

إن الرزية لا رزية مثلها	فقدان مثل محمد ومحمد
ملكان قد خلت المنابر منهما	أخذ الحمام عليهما بالمرصد

وكانت وفاة أخيه محمد لليال خلت من رجب سنة إحدى وتسعين للهجرة، وهو والي اليمن، فكتب الوليد بن عبد الملك إلى الحجاج يعزيه، فكتب الحجاج جوابه: يا أمير المؤمنين، ما التقيت أنا ومحمد منذ كذا وكذا سنة إلا عاماً واحداً، وما غاب عني غيبة أنا لقرب اللقاء فيها أرجى من غيبته هذه في دار لا يتفرق فيها مؤمنان.

ومعتب: بضم الميم وفتح العين المهملة وتشديد التاء المثناة من فوقها وكسرها وبعدها الباء الموحدة.

والثقفي – بفتح الثاء المثلثة والقاف وبعدها الفاء – هذه النسبة إلى ثقيف، وهي قبيلة كبيرة مشهورة بالطائف.

حجاج بن أرطاة

حجاج بن أرطاة أبو أرطاة النخعي الكوفي، سمع عطاء بن أبي رباح وغيره، وروى عنه الثوري وشعبة وحماد بن زيد وهشيم وابن المبارك وزيد بن هارون، وكان من حفاظ الحديث ومن الفقهاء، واستفتي وهو ابن ست عشرة سنة، وولي القضاء بالبصرة إلا أنه كان مدلساً عمن لم يلقه فيرسل تارة عن مجاهد وتارة عن الزهري و لم يلقهما. قال أبو العباس المبرد في الكامل وغيره: وخبرت أن قاصاً كان يكثر الحديث عن هرم بن حيان، فاتفق هرم معه مرة في المسجد وهو يقول: حدثنا هرم بن حيان، فقال له: يا هذا أتعرفني؟ أنا هرم بن حيان ما حدثتك من هذا بشيء قط، قال له القاص: وهذا من عجائبك أيضاً؛ إنه ليصلي معنا في مسجدنا خمسة عشر رجلاً اسم كل رجل منهم هرم بن حيان، فكيف توهمت أنه ليس في الدنيا هرم بن حيان غيرك؟ ويقرب من هذا أنه كان في الرقة قاص يكنى أبا عقيل يكثر من التحدث عن بني إسرائيل فنظن به الكذب، فقال له يوماً الحجاج بن حنتمة: ما كان اسم بقرة بني إسرائيل؟ قال: حنتمة، فقال له رجل من ولد أبي موسى الأشعري: في أي الكتب وجدت هذا؟ قال: في كتاب عمرو بن العاص؛ انتهى كلام المبرد.

وكان الحجاج بن أرطاة المذكور مع المنصور في وقت بناء مدينته وتولى خطها ونصب قبلة مسجدها، وهو أول من ولي القضاء لبني العباس بالبصرة، وكان فيه تيه كثير خارج عن الحد؛ جاء يوماً إلى حلقة البتي فجلس في عرض الحلقة، فقيل له: ارتفع إلى الصدر، فقال: أنا صدر حيث كنت؛ وقال أبو يوسف: كان الحجاج بن أرطاة لا يشهد جمعة ولا جماعة ويقول: أكره مزاحمة الأنذال.

وقال عبد الملك بن عبد الحميد: حدثني أبي غير مرة قال: مكث الحجاج ابن أرطاة يتعيش من غزل أمة له كذا وكذا سنة، وكأنه قال ستين سنة، ثم أخرجه أبو جعفر المنصور مع ابنه المهدي إلى خراسان فقدم بسبعين مملوكاً. وقال: ربما رأيته–يعني الحجاج– يضع يده على رأسه ويقول: قتلني حب الشرف.

وكان حجاج بن أرطاة يقع في أبي حنيفة رضي الله عنه ويقول: إن أبا حنيفة لا يعقل لله عقلة. وكان في اصحاب أبي جعفر وضمه إلى المهدي فلم يزل معه حتى توفي في سنة خمسين ومائة بالري، رحمه الله تعالى، والمهدي بها يومئذ في خلافة أبي جعفر. وكان ضعيفاً في الحدث.

ابن مسكين

أبو عمر الحارث بن مسكين المصري مولى محمد بن زياد بن عبد العزيز بن مروان؛ رأى الليث بن سعد وسأله وسمع سفيان بن عيينة الهلالي وعبد الرحمن ابن القاسم العتقي وعبد الله بن وهب القرشي وروى عنه كافة المصريين. وكان فقيهاً على مذهب مالك بن أنس رضي الله عنه، وكان ثقة في الحديث ثبتاً، حمله المأمون إلى بغداد في ايام المحنة وسجنه لأنه لم يجب إلى القول بخلق القرآن، فلم يزل ببغداد محبوساً إلى أن ولي جعفر المتوكل فأطلقه وأطلق جميع من كان في السجن.

حدث الحارث ببغداد ورجع إلى مصر وكتب إليه المتوكل بعهده على قضاء مصر فلم يزل يتولاه من سنة سبع وثلاثين ومائتين إلى أن صرف في سنة خمس وأربعين. ولما خرج الحارث من بغداد إلى مصر اغتنم عليه أبو علي ابن الجوري غماً شديداً، فكتب إلى سعدان بن يزيد وهو مقيم بمصر يشكو ما نزل به من غم لفقد الحارث بن مسكين، وكان كتب في أسفل كتابه:

من كان يسليه نأي عن أخي ثقة ... فإنني غير سال آخر الأبد

ففرقت بيننا الأقدار واضطربت ... بالوجد والشوق نار الحزن في الكبد

فأجابه سعدان بن يزيد:

أيها الشاكي إلينا وحشة — من حبيب نأيه عنه بعد

حسبك الله أنيساً فبه — يأنس المرء إذا المرء سعد

كل أنس بسواه زائل — وأنيس الله في عز الأبد

وكانت ولادة الحارث بن مسكين في سنة أربع وخمسين ومائة، وتوفي لثلاث بقين من ربيع الأول سنة خمسين ومائتين، وصلى عليه يزيد بن عبد الله–أمير كان على مصر–وكبر عليه خمساً، رحمه الله تعالى.

المحاسبي

أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي البصري الأصل الزاهد المشهور؛ أحد رجال الحقيقة، وهو ممن اجتمع له علم الظاهر والباطن، وله كتب في الزهد والأصول وكتاب الرعاية له، وكان قد ورث من أبيه سبعين ألف درهم، فلم يأخذ منها شيئاً، قيل: لأن أباه كان يقول بالقدر، فرأى من الورع أن لا يأخذ ميراثه، وقال: صحت الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لا يتوارث أهل ملتين شتى"، ومات وهو محتاج إلى درهم.

ويحكى عنه أنه كان إذا مد يده إلى طعام فيه شبهة تحرك على إصبعه عرق، فكان يمتنع منه. وسئل عن العقل ما هو، فقال: نور الغريزة مع التجارب، يزيد ويقوى بالعلم والحلم. وكان يقول: فقدنا ثلاثة أشياء: حسن الوجه مع الصيانة، وحسن القول مع الأمانة، وحسن الإخاء مع الوفاء.

وتوفي في سنة ثلاث وأربعين ومائتين، رحمه الله تعالى.

والمحاسبي: بضم الميم وفتح الحاء المهملة وبعد الألف سين مهملة مكسورة وبعدها باء موحدة. قال السمعاني: وعرف بهذه النسبة، لأنه كان يحاسب نفسه، وقال: كان أحمد بن حنبل رضي الله عنه يكرهه لنظره في علم الكلام وتصنيفه فيه، وهجره فاستخفى من العامة، فلما مات لم يصل عليه إلا أربعة نفر. وله مع الجنيد بن محمد حكايات مشهورة.

أبو فراس ابن حمدان

أبو فراس الحارث بن أبي العلاء سعيد بن حمدان بن حمدون الحمداني ابن عم ناصر الدولة وسيف الدولة ابني حمدان–وسيأتي تتمة نسبه عند ذكرهما إن شاء الله تعالى–؛ قال الثعالبي في وصفه: كان فرد دهره، وشمس عصره، أدباً وفضلاً، وكرماً ومجداً، وبلاغة وبراعة، وفروسية وشجاعة، وشعره مشهور سائر، بين الحسن والجودة والسهولة والجزالة والعذوبة والفخامة والحلاوة، ومعه رواء الطبع وسمة الظرف وعزة الملك، ولم تجتمع هذه الخلال قبله إلا في شعر عبد الله بن المعتز. وأبو فراس يعد اشعر منه عند أهل الصنعة ونقدة الكلام. وكان الصاحب بن عباد يقول: بدئ الشعر بملك وختم بملك، يعني امرأ القيس وأبا فراس. وكان المتنبي يشهد له بالتقدم والتبريز ويتحامى جانبه فلا ينبري لمباراته ولا يجترئ على مجاراته، وإنما لم يمدحه ومدح من دونه من آل حمدان تهيباً له وإجلالاً، لا إغفالاً وإخلالاً. وكان سيف الدولة يعجب جداً بمحاسن أبي فراس ويميزه بالإكرام على سائر قومه ويستصحبه في غزواته وستخلفه في أعماله.

وكانت الروم قد أسرته في بعض وقائعها، وهو جريح قد أصابه سهم بقي نصله في فخذه، ونقلته إلى خرشنة، ثم منها قسطنطينية، وذلك في سنة ثمان. وأربعين وثلثمائة، وفداه سيف الدولة في سنة خمس وخمسين.

قلت: هكذا قال أبو الحسن علي بن الزراد الديلمي، وقد نسبوه في ذلك إلى الغلط، وقالوا: أسر أبو فراس مرتين، فالمرة الأولى بمغارة الكحل في سنة ثمان وأربعين وثلثمائة، وما تعدوا به خرشنة، وهي قلعة ببلاد الروم والفرات يجري من تحتها، وفيها يقال: إنه ركب فرسه وركضه برجله، فأهوى به من أعلى الحصن إلى الفرات، والله أعلم، والمرة الثانية أسره الروم على منبج في شوال سنة إحدى وخمسين، وحملوه إلى قسطنطينية. وأقام في الأسر أربع سنين، وله في السر أشعار كثيرة مثبتة في ديوانه. وكانت مدينة منبج إقطاعاً له، ومن شعره:

قد كنت عدتي التي أسطو بها ويدي إذا اشتد الزمان وساعدي
فرميت منك بضد ما أملته والمرء يشرق بالزلال البارد
فصبرت كالولد التقي لبره أغضى على ألم لضرب الوالد

وله أيضاً:

أساء فزادته الإساءة حظوة حبيب على ما كان منه حبيب
يعد علي الواشيان ذنوبه ومن أين للوجه الجميل ذنوب

وله أيضاً:

سكرت من لحظه لا من مدامته ومال بالنوم عن عيني تمايله
فما السلاف دهتني بل سوالفه ولا الشمول ازدهتني بل شمائله

ألوى بعزمي أصداغ لوين له وغال قلبي بما تحوي غلائله

ومحاسن شعره كثيرة.

وقتل في واقعة جرت بينه وبين موالي أسرته في سنة سبع وخمسين وثلثمائة.

ورأيت في ديوانه أنه لم احضرته الوفاة كان ينشد مخاطباً ابنته:

أبنيتي لا تجزعي كل الأنام إلى ذهاب
نوحي علي بحسرة من خلف سترك والحجاب
قولي إذا كلمتني فعييت عن رد الجواب
زين الشباب ابو فرا س لم يمتع بالشباب

وهذا يدل على أنه لم يقتل، أو يكون قد جرح وتأخر هوته، ثم مات من الجراحةوقيل إن هذا الشعر قاله وهو أسير في أيدي الروم، وكان قد جرح ثم أسر ثم خلص من الأسر، فداه سيف الدولة مع من فودي من أسرى المسلمين.

قال ابن خالويه: لما مات سيف الدولة عزم أبو فراس على التغلب على حمص، فاتصل خبره بأبي المعالي بن سيف الدولة وغلام أبيه قرغويه، فأنفذ إليه من قاتله، فأخذ وقد ضرب ضربات فمات في الطريق.

وقرأت في بعض التعاليق: أن أبا فراس قتل يوم الأربعاء لثمان خلون من شهر ربيع الآخر سنة سبع وخمسين وثلثمائة، في ضيعة تعرف بصدد.

وذكر ثابت بن سنان الصابئ في تاريخه، قال: في يوم السبت لليلتين خلتا من جمادى الأولى من سنة سبع وخمسين وثلثمائة، جرت حرب بين أبي فراس، وكان مقيماً بحمص، وبين أبي المعالي بن سيف الدولة، واستظهر عليه أبو المعالي وقتله في الحرب وأخذ رأسه وبقيت جثته مطروحة في البرية إلى أن جاءه بعض الأعراب فكفنه ودفنه.

قال غيره: وكان أبو فراس خال أبي المعالي، وقلعت أمه سخينة عينها لما بلغها وفاته، وقيل إنها لطمت وجهها فقلعت عينها. وقيل لما قتله قرغويه لم يعلم به أبو المعالي، فما بلغه الخبر شق عليه.

ويقال: إن مولده كان في سنة عشرين وثلثمائة، والله أعلم. وقيل: سنة إحدى وعشرين.

وقتل أبوه سعيد في رجب سنة ثلاث وعشرين وثلثمائة، قتله ابن أخيه ناصر الدولة بالموصل، عصر مذاكيره حتى مات لقصة يطول شرحها، وحاصلها

أنه شرع في ضمان الموصل وديار ربيعة من جهة الراضي بالله، ففعل ذلك سراً، ومضى إليها في خمسين غلاماً، فقبض ناصر الدولة عليه حين وصل إليها ثم قتله، فأنكر ذلك الراضي حين بلغه، رحمهم الله تعالى.

وحكى ابن خالويه أيضاً قال: كتب أبو فراس إلى سيف الدولة وقد شخص من حضرته إلى منزله بمنبج كتاباً صدره: كتابي أطال الله بقاء مولانا من المنزل وقد وردته ورود السالم الغانم مثقل الظهر والظهر وفراً وشكراً، فاستحسن سيف الدولة بلاغته ووصف براعته، وبلغ ذلك أبا فراس فكتب إليه:

هل للفصاحة والسما ... حة والعلا عني محيد
إذ أنت سيدي الذي ... ربيتني وأبي سعيد
في كل يوم أستفي ... د من العلاء وأستزيد
ويزيد في إذا رأي ... تك للندى خلق جديد

وكان سيف الدولة قلما ينشط لمجلس الأنس لاشتغاله عنه بتدبير الجيوش وملابسة الخطوب وممارسة الحروب، فوافت حضرته إحدى المحسنات من قيان بغداد، فتاقت نفس أبي فراس إلى سماعها و لم ير أن يبدأ باستدعائها قبل سيف الدولة، فكتب إليه يستحثه على استحضارها:

محلك الجوزاء أو أرفع ... وصدرك الدهناء أو أوسع
وقلبك الرحب الذي لم يزل ... للجد والهزل به موضع
رفه بقرع العود سيفاً غدا ... قرع العوالي جل ما يسمع

فبلغت هذه الأبيات الوزير المهلبي فأمر القيان والقوالين بتحفظها وتلحينها، وصار لا يشرب إلا عليها.

وأهدى الناس إلى سيف الدولة فأكثروا، فكتب إليه أبو فراس:

نفسي فداؤك قد بعث ... ت بعهدتي بيد الرسول
أهديت نفسي إنما يه ... دى الجليل إلى الجليل
وجعلت ما ملكت يدي ... صلة المبشر بالقبول

وعزم سيف الدولة على غزو واستخلاف أبي فراس على الشام فكتب إليه قصيدة منها:

قالوا المسير فهز الرمح عامله ... وارتاح في جفنه الصمصامة الخذم
حقاً لقد ساءني أمر ذكرت له ... لولا فراقك لم يوجد له ألم
لا تشغلن بأمر الشام تحرسه ... إن الشآم على من حله حرم

وإن للثغر سوراً من مهابته ... صخوره من أعادي أهله القمم
لا يحرمني سيف الدين صحبته ... فهي الحياة التي تحيا بها النسم
وما اعترضت عليه في أوامره ... لكن سألت ومن عاداته نعم

وكتب إليه يعزيه:

لابد من فقد ومن فاقد ... هيهات ما في الناس من خالد

كن المعزى لا المعزى به إن كان لابد من الواحد

وله أيضاً:

المرء نصب مصايب ما تنقضي حتى يوارى جسمه في رمسه
فمؤجل يلقى الردى في أهله ومعجل يلقى الردى في نفسه

وله أيضاً وقد سمع حمامة تنوح بقربه على شجرة عالية وهو في الأسر فقال:

أقول وقد ناحت بقربي حمامة أيا جارتا هل بات حالك حالي
معاذ الهوى ما ذقت طارقة النوى ولا خطرت منك الهموم ببال
أتحمل محزون الفؤاد قوادم على غصن نائي المسافة عالي
أيا جارتا ما أنصف الدهر بيننا تعالي أقاسمك الهموم تعالي
تعالي تري روحا لدي ضعيفة تردد في جسم يعذب بالي
أيضحك مأسور وتبكي طليقة ويسكت محزون ويندب سالي
لقد كنت أولى منك بالدمع مقلة ولكن دمعي في الحوادث غالي

وخرشنة–بفتح ا لخاء المعجمة وسكون الراء وفتح الشين المثلثة والنون–وهي بلدة بالشام على الساحل، وهي للروم.

وقسطنطينية–بضم القاف وسكون السين المهملة وفتح الطاء المهملة وسكون النون وكسر الطاء المهملة وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها نون–من أعظم مدائن الروم بناها قسطنطين، وهو أول من تنصر من ملوك الروم.

حرملة

أبو حفص وأبو عبد الله حرملة بن يحيى بن عبد الله بن حرملة بن عمران بن قراد مولى سلمة بن مخرمة التجيبي الزميلي المصري صاحب الإمام الشافعي رضي الله عنه؛ كان أكثر أصحابه اختلافاً إليه واقتباساً منه، وكان حافظاً للحديث، وصنف المبسوط والمختصر. وروى عنه مسلم بن الحجاج فأكثر في صحيحه من ذكره روى عن محمد بن وهب المصري وغيره، ومولده في سنة ست وستين ومائة، وتوفي ليلة الخميس لتسع بقين من شوال سنة ثلاث وأربعين ومائتين بمصر، وقيل أربع وأربعين، رحمه الله تعالى.

والتجيبي–بضم التاء المثناة من فوقها وكسر الجيم وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها باء موحدة–هذه النسبة إلى تجيب، وهو اسم امرأة نسبة إليها أولادها.

وقراد–بضم القاف وفتح الراء المهملة وبعد الألف دال مهملة.

والزميلي–بضم الزاي وفتح الميم وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها لام–هذه النسبة إلى بني زميل، وهو بطن من تجيب.

وتوفي حرملة بن عمران، جد حرملة المذكور، في صفر سنة ستين ومائة، ومولده سنة ثمانين للهجرة، رحمه الله تعالى.

الحسن بن علي بن أبي طالب

أو بمحمد الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأمه فاطمة صلوات الله عليها بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ بويع له يوم مات أبوه رضي الله عنه، وكان أشبه الناس برسول الله صلى الله عليه وسلم، وأقام بالكوفة إلى شهر ربيع الأول سنة إحدى وأربعين، وقتل عبد الرحمن بن ملجم، يقال إنه ضربه بالسيف فاتقاه بيده فندرت وقتله، ثم سار إلى معاوية فالتقيا بمسكن من أرض الكوفة، فاصطلحا وسلم إليه الأمر وبايعه لخمس بقين من شهر ربيع الأول، ويقال إنه أعطاه خمس آلاف درهم ورجع إلى المدينة، وقال قوم انه صالحه بأذرح في جمادى الأولى وأخذ مائة ألف دينار،

روى ذلك كله الدولابي. وكانت خلافته ستة أشهر وخمسة أيام؛ روى الشعبي قال: أنا شهدت خطبة الحسن-يعني حين سلم الأمر إلى معاوية-: قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد، إن أكيس الكيس التقى وأحمق الحمق الفجور، وإن هذا الأمر الذي اختلفت فيه أنا ومعاوية إنما هو حق لامرئ كان أحق بحقه مني أو حق لي تركته لمعاوية إرادة لصالح الأمة وحقنا لدمائهم، وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين.

روى سفينة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: الخلافة بعدي ثلاثون عاماً ثم تكون ملكاً أو ملوكاً. وكان آخر ولاية الحسن رضي الله عنه تمام ثلاثين سنة وثلاثة عشر يوماً من أول خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه. و لم يزل الحسن بالمدينة إلى أن مات بها في شهر ربيع الأول سنة تسع وأربعين وله سبع وأربعون سنة، وقيل مات سنة خمسين، وهو أشبه بالصواب، وصلى عليه سعيد بن العاص ودفن بالبقيع، ويقال إنه دفن مع أمه صلوات الله عليها. وقال القتبي: يقال ان امرأته جعدة بنت الأشعث سمته ومكث شهرين، وأنه ليرفع من تحته كل يوم كذا وكذا طست من دم. وكان يقول: سقيت السم مراراً ما أصابني ما أصابني في هذه المرة. وخلف عليها رجل من قريش فأولدها غلاماً، فكان الصبيان يقولون له: يا ابن مسمة الأزواج.

ولما كتب مروان إلى معاوية بشكاته كتب إليه أن أقبل المطي إلي بخبر الحسن؛ ولما بلغه موته سمع تكبيراً من الحضر، فكبر أهل الشام لذلك التكبير فقالت فاخته زوجة معاوية: أقر الله عينك يا أمير المؤمنين، ما الذي كبرت له؟ قال: مات الحسن، قالت: أعلى موت ابن فاطمة تكبر؟ قال: والله ما كبرت شماتة بموته ولكن استراح قلبي. وكان ابن عباس بالشام، فدخل عليه فقال: يا ابن عباس، هل تدري ما حدث في أهل بيتك؟ قال: لا أدري ما حدث إلا أني أراك مستبشراً وقد بلغني تكبيرك وسجودك، قال: مات الحسن، قال: إنا لله، يرحم الله أبا محمد، ثلاثاً؛ ثم قال: والله يا معاوية لا تسد حفرته حفرتك ولا يزيد نقص عمره في يومك، وإن كنا أصبنا بالحسن لقد أصبنا بإمام المتقين وخاتم النبيين، فسكن الله تلك العبرة وجبر تلك المصيبة وكان الله الخلف علينا من بعده.

وكان أوصى لأخيه الإمام الحسين: إذا أنا مت فادفني مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إن وجدت إلى ذلك سبيلاً، وإن منعوك فادفني ببقيع الغرقد، فلبس الحسين ومواليه السلاح وخرجوا ليدفنوه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخرج مروان بن الحكم في بني أمية فمنعوهم من ذلك.

وقيل: لما احتضر الحسن رضي الله عنه قال: أخرجوني إلى الصحراء لعلي أنظر في ملكوت السموات، يعني الآيات؛ فلما أخرج قال: اللهم إني أحتسب نفسي عندك فإنها أعز الأنفس علي، فكان مما صنع الله له أنه احتسب نفسه.

ومن طريف أخباره ما ذكره أبو العباس المبرد أن مروان بن الحكم قال يوماً: إني مشغوف ببغلة الحسن، فقال له ابن أبي عتيق: إن دفعتها إليك أتقضي لي ثلاثين حاجة؟ قال: نعم، قال: فإذا اجتمع الناس عندك العشية فإني آخذ في مآثر قريش ثم أمسك عن الحسن، فلمني على ذلك؛ فلما أخذ القوم مجالسهم أفاض في أولية قريش؛ قال له مروان: ألا تذكر أولية أبي محمد وله في هذا ما ليس لأحد؟ قال: إنما كنا في ذكر الأشراف ولو كنا في ذكر الأنبياء لقدمنا ما لأبي محمد؛ فلما خرج ليركب تبعه ابن أبي عتيق فقال له الحسن وتبسم: ألك حاجة؟ قال: نعم، البغلة، فترل عنها ودفعها إليه.

وذكر ابن عائشة أن رجلاً من أهل الشام قال: دخلت المدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام فرأيت رجلاً راكباً على بغلة لم أر أحسن وجهاً ولا سمتاً ولا ثوباً ولا دابة منه، فمال قلبي إليه فسألت عنه فقيل: هذا الحسن بن علي ابن أبي طالب، فامتلأ قلبي له بغضاً وحسدت علياً أن يكون له ابن مثله، فصرت إليه وقلت له: أأنت ابن علي بن أبي طالب؟ قال: أنا ابنه، قلت: فعل بك وبأبيك-أسبهما؛ فلما انقضى كلامي قال لي: أحسبك غريباً؟ قلت: أجل، قال: مل بنا، فإن احتجت إلى مترل أنزلناك أو إلى مال آسيناك أو إلى حاجة عاوناك؛ قال: فانصرفت عنه وما على الأرض أحب ألي منه وما فكرت فيما صنع وصنعت إلا شكرته وخزيت نفسي.

وحكى صاحب العقد قال: بينا معاوية جالس في أصحابه إذ قيل له: الحسن بالباب، فقال معاوية: إنه إن دخل علينا أفسد ما نحن فيه، فقال له مروان بن الحكم: ايذن له فإني أسأله عما ليس عنده فيه جواب، قال معاوية: لا تفعل فإنهم قوم ألهموا الكلام، وأذن له، فلما دخل وجلس قال له مروان: أسرع الشيب إلى شاربك يا حسن، إن ذلك من الخوف، قال الحسن: ليس كما بلغك ولكنا معشر بني هاشم طيبة أفواهنا، عذبة شفاهنا، فنساؤنا

يقبلن علينا بأنفاسهن وقبلهن، وأنتم معشر بني أمية فيكم بخر شديد، فنساؤكم يصرفن أفواههن وأنفاسهن عنكم إلى أصداغكم، فإنما يشيب منكم موضع العذار من أجل ذلك؛ قال مروان: أما إن فيكم يا بني هاشم خصلة سوء، قال: ما هي؟ قال: الغلمة، قال: أجل، نزعت الغلمة من نسائنا ووضعت في رجالنا ونزعت الغلمة من رجالكم ووضعت في نسائكم، فما قام لأموية إلا هاشمي؛ فغضب معاوية وقال: قد كنت أخبرتكم فأبيتم حتى سمعتم ما أظلم عليكم بيتكم وافسد مجلسكم؛ فخرج الحسن رضوان الله عليه وهو يقول:

ومارست هذا الدهر خمسين حجة ... وخمساً أرجي قابلاً بعد قابل

فما أنا في الدنيا بلغت جسيمها ... ولا في الذي أهوى كدحت بطائل

وقد أشرعت في المنايا أكفها ... وأيقنت أني رهن موت معاجل

قال الحسن رضي الله عنه لحبيب بن مسلمة الفهري: رب مسير لك في غير طاعة الله، قال: أما مسيري إلى أبيك فلا، قال: بلى، ولكنك أطعت معاوية على دنيا قليلة، فلئن كان قام بك في دنياك لقد قعد بك في آخرتك، فلو كنت إذ فعلت شراً قلت خيراً كنت كما قال الله تعالى: "خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئا". ولكنك كما قال الله تعالى: "كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون".

وقيل: دار بين الحسن والحسين كلام فتقاطعا فقيل للحسين: لو أتيت أخاك فهو أكبر سناً منك، فقال: إن الفضل للمبتدئ وأنا أكره أن يكون لي الفضل على أخي، فبلغ ذلك الحسن فأتاه.

وكان الحسن إذا فرغ من الوضوء تغير لونه، فقيل له في ذلك فقال: حق على من أراد أن يدخل على ذي العرض أن يتغير لونه.

الحسن البصري

أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن يسار البصري؛ كان من سادات التابعين وكبرائهم، وجمع كل فن من علم وزهد وورع وعبادة. وأوبه مولى زيد بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه، وأمه خيرة مولاة أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم، وربما غابت في حاجة فيبكي فتعطيه أم سلمة، رضي الله عنها، ثديها تعلله به إلى أن تجيء أمه، فدر عليه ثديها فشربه، فيرون أن تلك الحكمة والفصاحة من بركة ذلك.

قال أبو عمرو بن العلاء: ما رأيت أفصح من الحسن البصري ومن الحجاج ابن يوسف الثقفي، فقيل له: فأيهما كان أفصح؟ قال: الحسن.

ونشأ الحسن بوادي القرى، وكان من أجمل أهل البصرة، حتى سقط عن دابته فحدث بأنفه ما حدث.

وحكى الأصمعي عن أبيه قال: ما رأيت أعرض زنداً من الحسن، كان عرضه شبراً.

وكان الحسن يقص في الحج، فمر به علي بن الحسين عليهما السلام، فقال له: يا شيخ أترضى نفسك للموت؟ قال: لا، قال: فلله في أرضه معاد غير هذا البيت؟ قال: لا، قال: فثم دار للعمل غير هذه الدار؟ قال: لا، قال: فعملك للحساب؟ قال: لا، قال: فلم تشغل الناس عن طواف البيت؟ قال: فما قص الحسن بعدها.

وقيل إن رجلاً أتى الحسن فقال: يا أبا سعيد إني حلفت بالطلاق ان الحجاج في النار فما تقول؟ اقيم مع امرأتي أم أعتزلها؟ فقال له: قد كان الحجاج فاجراً فاسقاً وما أدري ما أقول لك، إن رحمة الله وسعت كل شيء؛ وإن الرجل أتى محمد بن سيرين فأخبره بما حلف فرد عليه شبيهاً بما قاله الحسن؛ وإنه أتى عمرو بن عبيد فقال له: أقم مع زوجتك فإن الله تعالى إن غفر للحجاج لم يضرك الزنا، ذكر ذلك المختار في تاريخه.

وكان في جنازة وفيها نوائح ومعه رجل فهم الرجل بالرجوع فقال له الحسن: يا أخي إن كنت كلما رأيت قبيحاً تركت له حسناً أسرع ذلك في دينك.

وقيل له: ألا ترى كثرة الوباء؟ فقال: انفق ممسك واقلع مذنب، واتعظ جاحد.

ونظر إلى جنازة قد ازدحم الناس عليها فقال: مالكم تزدحمون؟ ها تلك هي ساريته في المسجد، اقعدوا تحتها حتى تكونوا مثله؛ وحدث الحسن بحديث فقال له رجل: يا أبار سعيد عن من؟ فقال: وما تصنع بعمن؟ أما أنت فقد نالتك موعظته وقامت عليك حجته؛ وقال له رجل: أنا أزهد منك وأفصح،

قال أما أفصح فلا، قال: فخذ علي كلمة واحدة، قال: هذه؛ وقال لفرقد بن يعقوب: بلغني أنك لا تأكل الفالوذج، فقال: يا أبا سعيد أخاف ألا اؤدي شكره، قال الحسن: يا لكع هل تقدر تؤدي شكر الماء البارد الذي تشربه؟ وقيل للحسن: إن فلاناً اغتابك، فبعث إليه طبق حلوى وقال: بلغني أنك أهديت إلي حسناتك فكافأتك؛ وقريب من هذا قول سفيان بن الحسين، قال: كنت جالساً عند إياس بن معاوية فنلت من إنسان فقال: هل غزوت العام الترك والروم و لم يسلم منك أخوك المسلم؟ وسمع رجلاً يشكو عليه إلى آخر فقال: أما إنك تشكو من يرحمك إلى من لا يرحمك.

ومن كلامه: ما رأيت يقيناً لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه إلا الموت. ولما ولي عمر بن هبيرة الفزاري العراق وأضيفت إليه خراسان، وذلك في أيام يزيد بن عبد الملك، استدعى الحسن البصري ومحمد بن سيرين والشعبي وذلك في سنة ثلاث ومائة فقال لهم: إن يزيد خليفة الله استخلفه على عباده، وأخذ عليهم الميثاق بطاعته، وأخذ عهدنا بالسمع والطاعة، وقد ولاني ما ترون فيكتب إلي بالأمر من أمره فأقلده ما تقلده من ذلك الأمر، فما ترون؟ فقال ابن سيرين والشعبي قولاً فيه تقية، فقال ابن هبيرة: ما تقول يا حسن؟ فقال: يا ابن هبيرة خف الله في يزيد ولا تخف يزيد في الله، إن الله يمنعك من يزيد، وإن يزيد لا يمنعك من الله، وأوشك أن يبعث إليك ملكاً فيزيلك عن سريرك ويخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك، ثم لا ينجيك إلا عملك؛ يا ابن هبيرة إن تعص ا لله فإنما جعل الله هذا السلطان ناصراً لدين الله وعباده فلا تركبن دين الله وعباده بسلطان الله، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق؛ فأجازهم ابن هبيرة وأضعف جائزة الحسن، فقال الشعبي لابن سيرين: سفسفنا له فسفسف لنا.

ورأى الحسن يوماً رجلاً وسيماً حسن الهيئة، فسأل عنه فقيل: إنه يسخر للملوك ويحبونه، فقال: لله أبوه، ما رأيت أحداً طلب الدنيا بما يشبهها إلا هذا.

وكانت أمه تقص للنساء، ودخل عليها يوماً وفي يدها كراثة تأكلها، فقال لها: يا أماه، ألقي هذه البقلة الخبيثة من يدك، فقالت: يا بني إنك شيخ قد كبرت وخرفت، فقال: يا أماه، أينا أكبر؟ وأكثر كلامه حكم وبلاغة. وكان أبوه من سبي ميسان، وهو صقع بالعراق.

ومولد الحسن لسنتين بقيتا من خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالمدينة، ويقال إنه ولد على الرق، وتوفي بالبصرة مستهل رجب سنة عشر ومائة، رضي الله عنه، وكانت جنازته مشهودة؛ قال حميد الطويل: توفي الحسن عشية الخميس، وأصبحنا يوم الجمعة ففرغنا من أمره، وحملناه بعد صلاة الجمعة، ودفناه فتبع الناس كلهم جنازته واشتغلوا به، فلم تقم صلاة العصر بالجامع، ولا أعلم أنها تركت منذ كان الإسلام إلا يومئذ، لأنهم تبعوا كلهم الجنازة حتى لم يبق بالمسجد من يصلي العصر.

وأغمي على الحسن عند موته، ثم أفاق فقال: لقد نبهتموني من جنات وعيون ومقام كريم.

وقال رجل قبل موت الحسن لابن سيرين: رأيت كأن طائراً أخذ أحسن حصاة بالمسجد، فقال: إن صدقت رؤياك مات الحسن، فلم يكن إلا قليلاً حتى مات الحسن.

و لم يشهد ابن سيرين جنازته لشيء كان بينهما، ثم توفي بعده بمائة يوم، كما سيأتي في موضعه إن شاء الله تعالى.

وميسان–بفتح الميم وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح السين المهملة وبعد الألف نون–قال السمعاني: هي بليدة بأسفل البصرة.

الزعفراني

أبو علي الحسن بن محمد بن الصباح الزعفراني صاحب الإمام الشافعي رضي الله عنه؛ برع في الفقه والحديث وصنف فيهما كتباً، وسار ذكره في الآفاق، ولزم الشافعي حتى تبحر، وكان يقول: أصحاب الأحاديث كانوا رقوداً حتى أيقظهم الشافعي، وما حمل أحد محبرة إلا وللشافعي عليه منة.

وكان يتولى قراءة كتب الشافعي عليه، وسمع من سفيان بن عيينة ومن في طبقته مثل وكيع ابن الجراح وعمرو بن الهيثم ويزيد بن هارون وغيرهم، وهو أحد رواة الأقوال القديمة عن الشافعي رضي الله عنه، ورواتها أربعة: هو وأبو ثور وأحمد بن حنبل والكرابيسي، ورواة الأقوال الجديدة ستة: المزني والربيع بن سليمان الجيزي والربيع بن سليمان المرادي والبويطي وحرملة ويونس بن عبد الأعلى – وقد تقدم ذكر بعضهم والباقي سيأتي ذكره إن شاء الله تعالى – وروى عنه البخاري في صحيحه وابو داود السجستاني والترمذي وغيرهم.

وتوفي سلخ شعبان – وقال ابن قانع: في شهر رمضان – سنة ستين ومائتين، وذكر السمعاني في كتاب الأنساب أنه توفي في شهر ربيع الآخر سنة تسع

وأربعين ومائتين، رحمه الله تعالى.

والزعفراني – بفتح الزاي وسكون العين المهملة وفتح الفا والراء وبعد الألف نون – هذه النسبة إلى الزعفرانية، وهي قرية بقرب بعداد، والمحلة التي ببغداد تسمى درب الزعفران منسوبة إلى هذا الإمام لأنه أقام بها. قال الشيخ أبو إسحاق الشيرازي في طبقات الفقهاء: وفيه مسجد الشافعي رضي الله عنه، وهو المسجد الذي كنت أدرس فيه بدرب الزعفراني، ولله الحمد والمنة.

أبو سعيد الإصطخري

أبو سعيد الحسن بن أحمد بن يزيد بن عيسى بن الفضل الإصطخري الفقيه الشافعي؛ كان من نظراء أبي العباس ابن سريج وأقران أبي علي ابن أبي هريرة، وله مصنفات حسنة في الفقه منها كتاب الأقضية، وكان قاضي قم، وتولى حسبة بغداد، وكان ورعاً متقللاً، واستقضاه المقتدر على سجستان فسار إليها فنظر في مناكحاتهم فوجد معظمها على غير اعتبار الولي، فأنكرها وأبطلها عن آخرها.

وكانت ولادته في سنة أربع وأربعين ومائتين، وتوفي في جمادى الآخرة يوم الجمعة ثاني عشرة، وقيل رابع عشرة، وقيل مات في شعبان سنة ثمان وعشرين وثلثمائة، رحمه الله تعالى.

والإصطخري–بكسر الهمزة وسكون الصاد المهملة وفتح الطاء المهملة وسكون الخاء المعجمة وبعدها راء–هذه النسبة إلى إصطخر، وهي من بلاد فارس، خرج منها جماعة من العلماء رحمهم الله تعالى، وقد قالوا في النسبة إلى إصطخر إصطخرزي أيضاً بزيادة الزاي، كما زادوها في النسبة إلى مرو والري فقالوا مروزي ورازي.

أبو علي ابن أبي هريرة

أبو علي الحسن بن الحسين بن أبي هريرة الفقيه الشافعي؛ أخذ الفقه عن أبي العباس ابن سريج وأبي إسحاق المروزي، وشرح مختصر المزني وعلق عنه الشرح أبو علي الطبري، وله مسائل في الفروع، ودرس ببغداد وتخرج عليه خلق كثير، وانتهت إليه إمامة العراقيين، وكان معظماً عند السلاطين والرعايا إلى أن توفي في رجب سنة خمس وأربعين وثلثمائة، رحمه الله تعالى.

أبو علي الطبري

أبو علي الحسن بن القاسم الطبري الفقيه الشافعي؛ أخذ الفقه عن أبي علي ابن أبي هريرة المقدم ذكره، وعلق عنه التعليقة المشهورة المنسوبة إليه، وسكن ببغداد ودرس بها بعد أستاذه أبي علي المذكور، وصنف كتاب المحرر في النظر، وهو أول كتاب صنف في الخلاف المجرد، وصنف أيضاً كتاب الافصاح في الفقه، وكتاب العدة وهو كبير يدخل في عشرة أجزاء، وصنف كتاباً في الجدل، وكتاباً في أصول الفقه. وتوفي ببغداد سنة خمس وثلثمائة، رحمه الله تعالى.

والطبري–بفتح الطاء المهملة والباء الموحدة وبعدها راء–هذه النسبة إلى طبرستان–بفتح الطاء المهملة والباء الموحدة وبعدها راء والسين المهملة الساكنة والتاء المثناة من فوقها المفتوحة وبعد الألف نون–وهي ولاية كبيرة تشتمل على بلاد كثيرة أكبرها آمل، خرج منها جماعة من العلماء، والنسبة إلى طبرية الشام طبراني – على ما سيأتي في موضعه إن شاء الله تعالى – ورأيت في عدة كتب من طبقات الفقهاء أن اسمه الحسن كما هو هاهنا، ورأيت الخطيب في تاريخ بغداد قد عده في جملة من اسمه الحسين والله أعلم بالصواب.

أبو علي الفارقي

أبو علي الحسن بن إبراهيم بن علي بن برهون الفارقي الفقيه الشافعي؛ كان مبدأ اشتغاله بميافارقين على أبي عبد الله محمد الكازروني، فلما توفي انتقل إلى بغداد واشتغل على الشيخ أبي إسحاق الشيرازي صاحب المهذب وعلى أبي نصر ابن الصباغ صاحب الشامل، وتولى القضاء بمدينة واسط.

حكى الحافظ أبو طاهر السلفي، رحمه الله تعالى، قال: سألت الحافظ أبا الكرم خميس بن علي بن أحمد الحوزي بواسط عن جماعة منهم القاضي أبو علي الفارقي المذكور، فقال: هو متقدم في الفقه، وقضى بواسط بعد أبي تغلب فظهر من عقله وعدله وحسن سيرته ما زاد على الظن به. وسمع

الحديث من الخطيب أبي بكر ومن في طبقته، وكان زاهداً متورعاً. له كتاب الفوائد على المهذب وعنه أخذ القاضي أبو سعد عبد الله بن أبي عصرون – كما سيأتي في ترجمته إن شاء الله تعالى – وكان يلازم ذكر الدرس من الشامل إلى أن توفي. وكانت وفاته يوم الأربعاء الثاني والعشرين من المحرم سنة ثمان وعشرين وخمسمائة بواسط؛ ومولده سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة بميافارقين في شهر ربيع الآخر؛ ودفن في مدرسته، رحمه الله تعالى.

وبرهون: بفتح الباء الموحدة وسكون الراء وضم الهاء وبعد الواو الساكنة نون؛ والفارقي: معروف فلا حاجة إلى ضبطه.

السيرافي

أبو سعيد الحسن بن عبد الله المرزبان السيرافي النحوي المعروف بالقاضي؛ سكن بغداد وتولى القضاء بها نيابة عن أبي محمد ابن معروف، وكان من أعلم الناس بنحو البصريين، وشرح كتاب سيبويه فأجاد فيه، وله كتاب الفات الوصل والقطع، وكتاب أخبار النحويين البصريين، وكتاب الوقف والابتداء، وكتاب صنعة الشعر والبلاغة، وشرح مقصورة ابن دريد، وقرأ القرآن الكريم على أبي بكر ابن مجاهد، واللغة على ابن دريد، والنحو على أبي بكر ابن السراج النحوي، وكان الناس يشتغلون عليه بعدة فنون: القرآن الكريم والقراءات وعلوم القرآن والنحو واللغة والفقه والفرائض والحساب والكلام والشعر والعروض والقوافي. وكان نزهاً عفيفاً جميل الأمر حسن الأخلاق، وكان معتزلياً، ولم يظهر منه شيء، وكان لا يأكل إلا من كسب يده، ينسخ ويأكل منه، وكان أبوه مجوسياً اسمه بهزاد فأسلم فسماه ابنه أبو سعيد المذكور عبد الله، وكان كثيراً ما ينشد في مجالسه:

اسكن إلى سكن تسر به ... ذهب الزمان وأنت منفرد

ترجو غداً وغد كحاملة ... في الحي لا يدرون ما تلد

وكان بينه وبين أبي الفرج الأصبهاني صاحب كتاب الأغاني ما جرت العادة بمثله بين الفضلاء من التنافس، فعمل فيه أبو الفرج:

لست صدراً ولا قرأت على صد ... ر ولا علمك البكي بشاف

لعن الله كل نحو وشعر ... وعروض يجيء من سيراف

وتوفي يوم الاثنين ثاني رجب سنة ثمان وستين وثلثمائة ببغداد، وعمره أربع وثمانون سنة، ودفن بمقبرة الخيزران، رحمه الله تعالى، وقيل أنه توفي سنة أربع وستين، وقيل سنة خمس وستين، والصحيح هو الأول والله أعلم.

وقال ولده أبو محمد يوسف: أصل أبي من سيراف، وبها ولد وبها ابتدأ بطلب العلم، وخرج منها قبل العشرين ومضى إلى عمان وتفقه بها، ثم عاد إلى سيراف، ومضى إلى عسكر مكرم فأقام بها عند أبي محمد ابن عمر المتكلم، وكان يقدمه ويفضله على جميع أصحابه، ودخل بغداد، وخلف القاضي أبا محمد ابن معروف على قضاء الجانب الشرقي ثم الجانبين.

والسيرافي–بكسر السين المهملة وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح الراء وبعد الألف فاء–هذه النسبة إلى مدينة سيراف، وهي من بلاد فارس على ساحل البحر مما يلي كرمان، خرج منها جماعة من العلماء، رحمهم الله تعالى؛ وسيأتي في ترجمة ولده يوسف تتمة الكلام على سيراف، إن شاء الله تعالى.

أبو علي الفارسي

أبو علي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار بن محمد بن سليمان بن أبان الفارسي النحوي؛ ولد بمدينة فسا واشتغل ببغداد، ودخل إليها سنة سبع وثلثمائة، وكان إمام وقته في علم النحو، ودار البلاد، وأقام بحلب عند سيف الدولة بن حمدان مدة، وكان قدومه عليه في سنة إحدى وأربعين وثلثمائة، وجرت بينه وبين أبي الطيب المتنبي مجالس، ثم انتقل إلى بلاد فارس وصحب عضد الدولة ابن بويه وتقدم عنده وعلت مترلته حتى قال عضد الدولة: أنا غلام أبي علي الفسوي في النحو، وصنف له كتاب الإيضاح، والتكملة في النحو، وقصته فيه مشهورة.

ويحكى أنه كان يوماً في ميدان شيراز يساير عضد الدولة، فقال له: لم انتصب المستثنى في قولنا: قام القوم إلا زيداً؟ فقال الشيخ: بفعل مقدر، فقال

لهك كيف تقديره؟ فقال: أستثني زيداً، فقال له عضد الدولة: هلا رفعته وقدرت الفعل امتنع زيد؟ فانقطع الشيخ، وقال له: هذا الجواب ميداني. ثم إنه لما رجع إلى مترله وضع في ذلك كلاماً حسناً وحمله إليه فاستحسنه، وذكر في كتاب الإيضاح أنه انتصب بالفعل المتقدم بتقوية إلا.

وحكى أبو القاسم ابن أحمد الأندلسي قال: جرى ذكر الشعر بحضرة أبي علي وأنا حاضر، فقال: إني لأغبطكم على قول الشعر، فإن خاطري لا يوافقني على قوله مع تحقيقي العلوم التي هي من مواده، فقال له رجل: فما قلت قط شيئاً منه؟ قال: ما أعلم أن لي شعراً إلا ثلاثة أبيات في الشيب، وهي قولي:

خضبت الشيب لما كان عيباً ... وخضب الشيب أولى أن يعابا
ولم أخضب مخافة هجر خل ... ولا عيباً خشيت ولا عتابا
ولكن المشيب بدا ذميماً ... فصيرت الخضاب له عقابا

ويقال إن السبب في استشهاده في باب كان من كتاب الإيضاح ببيت أبي تمام الطائي وهو قوله:

من كان مرعى عزمه وهمومه ... روض الأماني لم يزل مهزولا

لم يكن ذلك لأن أبا تمام ممن يستشهد بشعره، لكن عضد الدولة كان يحب هذا البيت وينشده كثيراً، فلهذا استشهد به في كتابه.

ومن تصانيفه كتاب التذكرة وهو كبير، وكتاب المقصور والممدود، وكتاب الحجة في القراءات، وكتاب الإغفال فيما أغفله الزجاج من المعاني، وكتاب العوامل المائة وكتاب المسائل الحلبيات وكتاب المسائل البغداديات وكتاب المسائل الشيرازيات وكتاب المسائل القصريات وكتاب المسائل العسكرية وكتاب المسائل البصرية وكتاب المسائل المجلسيات وغير ذلك.

وكنت رأيت في المنام في سنة ثمان وأربعين وستمائة وأنا يومئذ بمدينة القاهرة كأنني قد خرجت إلى قليوب ودخلت إلى مشهد بها فوجدته شعثاً، وهو عمارة قديمة، ورأيت به ثلاثة أشخاص مقيمين مجاورين، فسألتهم عن المشهد وأنا متعجب لحسن بنائه وإتقان تشييده: ترى هذا عمارة من؟ فقالوا: لا نعلم، ثم قال أحدهم: إن الشيخ أبا علي الفارسي جاور في هذا المشهد سنين عديدة، وتفاوضنا في حديثه، فقال: وله مع فضائله شعر حسن، فقلت: ما وقفت له على شعر، فقال: أنا أنشدك من شعره، ثم أنشد بصوت رقيق طيب إلى غاية ثلاثة أبيات، فاستيقظت في أثر الإنشاد ولذة صوته في سمعي، وعلق على خاطري منها البيت الأخير وهو:

الناس في الخير لا يرضون عن أحد ... فكيف ظنك سيموا الشر أو ساموا

وبالجملة فهو أشهر من أن يذكر فضله ويعدد، وكان متهماً بالاعتزال. وكانت ولادته في سنة ثمان وثمانين ومائتين. وتوفي يوم الأحد لسبع عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الآخر، وقيل ربيع الأول، سنة سبع وسبعين وثلثمائة رحمه الله تعالى ببغداد، ودفن بالشونيزي.

والفارسي: لا حاجة إلى ضبطه لشهرته.

ويقال له أيضاً ابو علي الفسوي–بفتح الفاء والسين المهملة وبعدها واو–هذه النسبة إلى مدينة فسا من أعمال فارس، وقد تقدم ذكرها في ترجمة البساسيري.

وقليوب–بفتح القاف وسكون اللام وضم الياء المثناة من تحتها وسكون الواو وبعدها باء موحدة–وهي بليدة صغيرة بينها وبين القاهرة مقدار فرسخين أو ثلاثة ذات بساتين كثيرة.

أبو أحمد العسكري

أبو أحمد بن عبد الله بن سعيد العسكري؛ أحد الأئمة في الآداب والحفظ، وهو صاحب أخبار ونوادر، وله رواية متسعة، وله التصانيف المفيدة: منها كتاب التصحيف الذي جمع فيه فأوعب وغير ذلك، وكان الصاحب بن عباد يود الاجتماع به ولا يجد إليه سبيلاً، فقال لمخدومه مؤيد الدولة بن بويه:

إن عسكر مكرم قد اختلت أحوالها، وأحتاج إلى كشفها بنفسي، فأذن له في ذلك، فلما أتاها توقع أن يزوره أبو أحمد المذكور فلم يزره، فكتب الصاحب إليه:

ولما أبيتم أن تزوروا وقلتم ... ضعفنا فلم نقدر على الوخدان

أتيناكم من بعد أرض نزوركم ... وكم منزل بكر لنا وعوان

نسائلكم هل من قرى لنزيلكم ... بملء جفون لا بملء جفان

وكتب مع هذه الأبيات شيئاً من النثر، فجاوبه أبو أحمد عن النثر بنثر مثله، وعن هذه الأبيات بالبيت المشهور، وهو:

أهم بأمر الحزم لو أستطيعه ... وقد حيل بين العير والنزوان

فلما وقف الصاحب على الجواب عجب عن اتفاق هذا البيت له، وقال: والله لو علمت أنه يقع له هذا البيت لما كتبت إليه على هذا الروي.

وهذا البيت لصخر بن عمرو بن الشريد أخي الخنساء، وهو من جملة أبيات مشهورة، وكان صخر المذكور قد حضر محاربة بني أسد، فطعنه ربيعة ابن ثور الأسدي فأدخل بعض حلقات الدرع في جنبه. وبقي مدة حول في اشد ما يكون من المرض، وامه وزوجته سليمى تمرضانه، فضجرت زوجته منه، فمرت بها امرأة فسألتها عن حاله، فقالت: لا هو حي فيرجى، ولا ميت فينسى، فسمعها صخر فأنشد:

أرى أم صخر لا تمل عيادتي ... وملت سليمى موضعي ومكاني

وما كنت أخشى أن أكون جنازة ... عليك، ومن يغتر بالحدثان

لعمري لقد نبهت من كان نائماً ... وأسمعت من كانت له أذنان

وأي امرئ ساوى بأم حليلة ... فلا عاش إلا في شقاً وهوان

أهم بأمر الحزم لو أستطيعه ... وقد حيل بين العير والنزوان

فللموت خير من حياة كأنها ... معرس يعسوب برأس سنان

وكانت ولادته يوم الخميس لست عشرة ليلة خلت من شوال سنة ثلاث وتسعين ومائتين، وتوفي يوم الجمعة لسبع خلون من ذي الحجة سنة اثنتين وثمانين وثلثمائة، رحمه الله تعالى.

وأخذ عن أبي بكر ابن دريد؛ وله من التصانيف كتاب المختلف والمؤتلف وكتاب علم المنطق وكتاب الحكم والأمثال وكتاب الزواجر وغير ذلك.

والعسكري – بفتح العين المهملة وشكون السين المهملة وفتح الكاف وبعدها راء – هذه النسبة إلى عدة مواضع، فأشهرها عسكر مكرم، وهي مدينة من كور الأهواز، ومكرم الذي تنسب إليه مكرم الباهلي، وهو أول من اختطها فنسبت إليه، وأبو أحمد المذكور من هذه المدينة، وسيأتي العسكري منسوباً إلى شيء آخر إن شاءالله تعالى.

ابن رشيق القيروان

أبو علي الحسن بن رشيق المعروف بالقيرواني؛ أحد الأفاضل البلغاء، له التصانيف المليحة منها: كتاب العمدة في معرفة صناعة الشعر ونقده وعيوبه، وكتاب الأنموذج والرسائل الفائقة والنظم الجيد.

قال ابن بسام في كتاب الذخيرة: بلغني أنه ولد بالمسيلة وتأدب بها قليلاً، ثم ارتحل إلى القيروان سنة ست وأربعمائة. وقال غيره: ولد بالمهدية سنة تسعين وثلثمائة،، وأبوه مملوك رومي من موالي الأزد، وتوفي سنة ثلاث وستين وأربعمائة. وكانت صنعة أبيه في بلدة – وهي المحمدية – الصياغة، فعلمه أبوه صنعته، وقرأ الأدب بالمحمدية، وقال الشعر، وتاقت نفسه إلى التزيد منه وملاقاة أهل الأدب، فرحل إلى القيروان واشتهر بها ومدح صاحبها واتصل بخدمته، و لم يزل بها إلى أن هاجم العرب القيروان وقتلوا أهلها وأخربوها، فانتقل إلى جزيرة صقلية، واقام بمازر إلى أن مات.

ورأيت بخط بعض الفضلاء أنه توفي سنة ست وخمسين وأربعمائة بمازر، والأول أصح، رحمه الله تعالى، وهي قرية بجزيرة صقلية–وسيأتي ذكرها في ترجمة المازري إن شاء الله تعالى – وقيل إنه توفي ليلة السبت غرة ذي القعدة سنة ست وخمسين وأربعمائة بمازر –، والله أعلم.

وكانت بينه وبين ابن شرف القيروان وقائع وماجريات وهما أديبا بلاد المغرب وشاعراها. وكان ابن شرف أعور؛ قيل: مر يوماً وبيده كتاب فقال له ابن رشيق: ما في كتابك؟ قال: الدريدية، يعرض بقول ابن دريد فيها:

والعبد لا يردعه إلا العصا

يشير إلى أنه مولى، فقال له ابن رشيق:

أما أبي فرشيق لست أنكره ... قل لي أبوك وصوره من الخشب

ومن شعره أيضاً وقد غاب المعز بن باديس عن حضرته وكان العيد ماطراً:

تجهم العيد وانهلت بوادره ... وكنت أعهد منه البشر والضحكا

كأنه جاء يطوي الأرض من بعد ... شوقاً إليك فلما لم يجدك بكى

وقال أيضاً وقد أمره المعز بوصف أترجة مصبعة كانت بين يديه بديهاً:

أترجة سبطة الأطراف ناعمة ... تلقى العيون بحسن غير منحوس

كأنها بسطت كفاً لخالقها ... تدعو بطول بقاء لابن باديس

ومن شعره أيضاً:

لو اورقت من دم الأبطال سمر قنا ... لأورقت عنده سمر القنا الذبل

إذا توجه في أولى كتائبه ... لم تفرق العين بين السهل والجبل

فالجيش ينفض حوليه أسنته ... نفض العقاب جناحيها من البلل

هذا البيت من فرائده وهو ملتقط من قول أبي صخر الهذلي:

وإني لتعروني لذكرك فترة ... كما انتفض العصفور بلله القطر

ولابن رشيق المذكور رحمه الله تعالى:

ومن حسنات الدهر عندي ليلة ... من العلم لم تترك لأيامها ذنبا

خلونا بها ننفي الكرى عن جفوننا ... بلؤلؤة مملوءة ذهباً سكبا

وملنا لتقبيل الخدود ولثمها ... مميل جياع الطير تلتقط الحبا

ومن شعره أيضاً:

صنم من الكافور بات معانقي ... في حلتين تعفف وتكرم

فكرت ليلة وصله في صده ... فجرت بقايا أدمعي كالعندم

فطفقت أمسح ناظري في نحره ... إذ شيمة الكافور إمساك الدم

ومن شعره رحمه الله:

قالوا رأينا فلاناً ليس يوجعه ... ما يوجع الناس من هجو به قذفا

فقلت لو أنه حي لأوجعه ... لكنه مات من جهل وما عرفا

وما هجوت فلاناً غير تجربة ... وذو الرماية لا يستشعر الهدفا

ومن شعره:

أحب أخي وإن أعرضت عنه ... وقيل على مسامعه كلامي

ولي في وجهه تقطيب راض ... كما قطبت في وجه المدام

ورب تقطب من غير بغض ... وبغض كامن تحت ابتسام

ومن شعره:

يا رب لا اقوى على دفع الأذى ... وبك استعنت على الضعيف الموذي

ما لي بعثت إلي ألف بعوضة ... وبعثت واحدة إلى نمروذ؟

ومن شعره على ما حكاه ابن بسام في "الذخيرة":

أسلمني حب سليمانكم ... إلى هوى أيسره القتل

قالت لنا جند ملاحاته ... لما بدا ما قالت النمل

قوموا ادخلوا مسكنكم قبل أن ... تحطمك أعينه النجل

وله وقد كبر وضعف مشيه، وهو معنى غريب:

إذا ما خففت كعهد الصبا ... أبت ذلك الخمس والأربعونا

وما ثقلت كبراً وطأتي ... ولكن أجر ورائي السنينا

وله أيضاً:

وقائلة ما ذا الشحوب وذا الضنى ... فقلت لها قول المشوق المتيم

هواك أتاني وهو ضيف أعزه ... فأطعمته لحمي واسقيته دمي

ومن تصانيفه أيضاً: قراضة الذهب، وهو لطيف الجرم كبير الفائدة، وله كتاب الشذوذ في اللغة، يذكر فيه كل كلمة جاءت شاذة في بابها. وكتاب طراز الأدب وكتاب الممادح والمذام وكتاب متفق التصحيف وكتاب تحرير الموازنة وكتاب الاتصال وكتاب المن والفداء وكتاب غريب الأوصاف التشبيهات لما انفرد به المحدثون وكتاب أرواح الكتب وكتاب شعراء الكتاب وكتاب المعونة في الرخص والضرورات وكتاب الرياحين وكتاب صدق المدائح وكتاب الأسماء المعربة وكتاب إثبات المنازعة وكتاب معالم التاريخ وكتاب التوسع في مضايق القول وكتاب الحيلة والاحتراس. وكانت بينه وبين أبي عبد الله محمد بن أبي سعيد بن أحمد المعروف بابن شرف القيرواني وقائع وماجريات يطول شرحها، وقصدنا الاختصار.

ورشيق: بفتح الراء وكسر الشين المعجمة وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها قاف.

والمسيلة: قد تقدم ذكرها فلا حاجة إلى إعادته.

ابن أبي الشخباء

الشيخ المجيد أبو علي الحسن بن عبد الصمد بن أبي الشخباء العسقلاني صاحب الخطب المشهور والرسائل المحبرة؛ كان من فرسان النثر، وله فيه اليد الطولى. ويقال: إن القاضي الفاضل، رحمه الله تعالى، كان جل اعتماده على حفظ كلامه وإنه كان يستحضر أكثره. وذكره عماد الدين الأصبهاني في الخريدة فقال: المجيد مجيد كنعته، قادر على ابتداع الكلام ونحته، له الخطب البديعة والملح الصنيعة، وذكره ابن بسام في الذخيرة وسرد له جملة من الرسائل، وذكر هذا المقطوع من نظمه، وهو من بعض قصيد:

ما زال يختار الزمان ملوكه ... حتى أصاب المصطفى المتخيرا
قل للألى ساسوا الورى وتقدموا ... قدما هلموا شاهدوا المتأخرا
تجدوه أوسع في السياسة منكم ... صدراً وأحمد في العواقب مصدرا
إن كان رأي شاوروه أحنفاً ... أو كان بأس نازلوه عنترا
قد صام والحسنات ملء كتابه ... وعلى مثال صيامه قد أفطر
ولقد تخوفك العدو بجهده ... لو كان يقدر أن يرد مقدرا
إن أنت لم تبعث إليه ضمراً ... جرداً بعثت إليه كيداً مضمرا
يسري ما حملت رجال أبيضاً ... فيه ولا ادرعت كماة أسمرا
خطروا إليك فخاطروا بنفوسهم ... وأمرت سيفك فيهم أن يخطرا
عجبوا لحلمك أن تحول سطوة ... وزلال خلقك كيف عاد مكدرا
لا تعجبوا من رقة وقساوة ... فالنار تقدم من قضيب أخضرا

وقد اقتصرت منها على هذا القدر خوفاً من التطويل.

ومن المنسوب إلى ابن أبي الشخباء أيضاً قوله:

يا سيف نصري والمهند يانع ... وربيع أرضي والسحاب مصاف
أخلاقك الغر النميرة ما لها ... حملت قذى الواشين وهي سلاف
والإفك في مرآة رأيك ما له ... يخفى وأنت الجوهر الشفاف

ورأيت في ديوانه البيتين المشهورين:

حجاب وإعجاب وفرط تصلف ... ومد يد نحو العلا بتكلف
ولو كان هذا من وراء كفاية ... عذرنا ولكن من وراء تخلف

ومن شعره أيضاً:

يجود بالماء غيث السحب منقطعاً ... وغيث كفك بالأموال متصل
جاري نداك ولم يظفر ببغيته ... فحمرة البرق في حافاته خجل

ومن شعره:

ومهفهف علق السقام بطرفه وسرى فخيم في معاقد خصره

مزقت أثواب الظلام بثغره ثم انثنيت أحوكها من شعره

وذكر أنه توفي مقتولاً بخزانة البنود، وهي سجب بمدينة القاهرة المعزية، سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة، رحمه الله تعالى.

والشخباء: بفتح الشين المثلثة وسكون الخاء المعجمة وبعد الباء الموحدة ألف ممدودة.

والعسقلاني: نسبة إلى مدينة عسقلان وهي مشهورة على الساحل.

ابن زولاق

أبو محمد الحسن بن إبراهيم بن الحسين بن الحسن بن علي بن خالد بن راشد بن عبد الله بن سليمان بن زولاق الليثي مولاهم المصري، كان فاضلاص في التاريخ، وله فيه مصنف جيد، وله كتاب في خطط مصر استقصى فيه، وكتاب "أخبار قضاة مصر" جعله ذيلاص على كتاب أبي عمر محمد بن يوسف بن يعقوب الكندي الذي ألفه في أخبار قضاة مصر وانتهى فيه إلى سنة ست وأربعين ومائتين، فكمله ابن زولاق المذكور، وابتدأ بذكر القاضي بكار بن قتيبة، وختمه بذكر محمد بن النعمان، وتكلم على أحواله إلى رجب سنة ست وثمانين وثلثمائة؛ وكان جده الحسن بن علي من العلماء المشاهير.

وكانت وفاته–أعني أبا محمد–يوم الثلاثاء الخامس والعشرين من ذي القعدة سنة سبع وثمانين وثلثمائة، رحمه الله تعالى.

ورأيت في كتابه لذي صنفه في أخبار قضاة مصر، في ترجمة القاضي أبي عبيد، أن الفقيه منصور بن إسماعيل الضرير توفي في جمادى الأولى سنة ست وثلثمائة، ثم قال: قبل مولدي بثلاثة أشهر، فعلى هذا التقدير تكون ولادة ابن زولاق المذكور في شعبان سنة ست وثلثمائة. وروى عن الطحاوي.

وزولاق: بضم الزاي وسكون الواو وبعد اللام ألف قاف.

والليثي–بفتح اللام وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها ثاء مثلثة–هذه النسبة إلى ليث بن كنانة، وهي قبيلة كبيرة.

قال ابن يونس المصري: هو ليثي بالولاء.

ملك النحاة

أبو نزار الحسن بن أبي الحسن صافي بن عبد الله بن نزار بن أبي الحسن النحوي المعروف بملك النحاة؛ ذكره العماد الكاتب في "الخريدة" فقال: كان من الفضلاء المبرزين، وحكى ما جرى بينهما من المكاتبات بدمشق، وبرع في النحو حتى صار أنحى أهل طبقته، وكان فهماً فصيحاً ذكياً إلا أنه كان عنده عجب بنفسه وتيه، لقب نفه ملك النحاة، وكان يسخط على من يخاطبه بغير ذلك. وخرج عن بغداد بعد العشرين وخمسمائة، وسكن واسط مدة، وأخذ عنه جماعة من أهلها أدباً كثيراً، واتفقوا على فضله ومعرفته.

وذكره ابو البركات ابن المستوفي في "تاريخ إربل" فقال: ورد إربل وتوجه إلى بغداد سومع بها الحديث، وقرأ مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه وأصول الدين على أبي عبد الله القيرواني، والخلاف على أسعد الميهني، وأصول الفقه على أبي الفتح ابن برهان صاحب "الوجيز" و"الوسيط" في أصول الفقه، وقرأ النحو على الفصيحي، وكان الفصيحي قد قرأ على عبد القاهر الجرجاني صاحب "الجمل الصغرى ". ثم سافر إلى خراسان وكرمان وغزنة، ثم رحل إلى الشام واستوطن دمشق، وتوفي بها يوم الثلاثاء ثامن شوال، ودفن يوم الأربعاء تاسعه سنة ثمان وستين وخمسمائة وقد ناهز الثمانين، ودفن بمقبرة باب الصغير، رحمه الله تعالى.

ثم ظفرت بمولده في سنة تسع وثمانين وأربعمائة، بالجانب الغربي من بغدادبشارع دار الرقيق.

وله مصنفات كثيرة في الفقه والأصلين والنحو، وله ديوان شعر، ومدح النبي صلى الله عليه وسلم بقصيدة، ومن شعره:

سلوت بحمد الله عنها فأصبحت دواعي الهوى من نحوها لا أجيبها

على أنني لا شامت إن أصابها ... بلاء، ولا راض بواش يعيبها

وله أشياء حسنة، وكان مجموع فضائل.

أبو محمد العسكري

أبو محمد الحسن بن علي بن محمد بن علي بن موسى الرضا بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم؛ أحد الأئمة الاثني عشر على اعتقاد الإمامية، وهو والد المنتظر صاحب السرداب ويعرف بالعسكري، وأبوه علي يعرف أيضاً بهذه النسبة-وسيأتي ذكره وذكر بقية الأئمة إن شاء الله تعالى-.

وكانت ولادة الحسن المذكور يوم الخميس في بعض شهور سنة إحدى وثلاثين ومائتين وقيل سادس شهر ربيع الأول، وقيل الآخر، سنة اثنتين وثلاثين ومائتين. وتوفي يوم الجمعة، وقيل يوم الأربعاء لثماني ليال خلون من شهر ربيع الأول، وقيل جمادى الأولى سنة ستين ومائتين بسر من رأى، ودفن بجنب قبر أبيه، رحمهما الله تعالى.

والعسكري-بفتح العين المهملة وسكون السين المهملة وفتح الكاف وبعدها راء-هذه النسبة إلى سر من رأى. ولما بناها المعتصم وانتقل إليها بعسكره قيل لها العسكر، وإنما نسب الحسن المذكور إليها لأن المتوكل أشخص أباه عليا إليها وأقام بها عشرين سنة وتسعة أشهر، فنسب هو وولده إليها.

أبو نواس

أبو علي الحسن بن هانئ بن عبد الأول بن الصباح المعروف بأبي نواس الحكمي الشاعر المشهور؛ كان جده مولى الجراح بن عبد الله الحكمي والي خراسان، ونسبته إليه.

ذكر محمد بن داود بن الجراح في كتاب "الورقة" أن أبا نواس ولد بالبصرة ونشأ بها، ثم خرج إلى الكوفة مع والبة بن الحباب، ثم صار إلى بغداد. وقال غيره: إنه ولد بالأهواز ونقل منها وعمره سنتان. وأمه أهوازية اسمها جلبان، وكان أبوه من جند مروان بن محمد، آخر ملوك بني أمية، وكان من أهل دمشق، وانتقل إلى الأهواز للرباط فتزوج جلبان وأولدها عدة أولاد منهم: أبو نواس وأبو معاذ؛ فأما أبو نواس فأسلمته أمه إلى بعض العطارين، فرآه أبو أسامة والبة بن الحباب، فاستحلاه، فقال له: إني أرى فيك مخايل، أرى لك أن لا تضيعها، وستقول الشعر، فاصحبني أخرجك، فقال لهك ومن أنت؟ فقال: أنا أبو أسامة والبة بن الحباب، فقال: نعم، أنا والله في طلبك، ولقد أردت الخروج إلى الكوفة بسبب لآخذ عنك وأسمع منك شعرك؛ فصار أبو نواس معه وقدم به بغداد، فكان أول ما قاله من الشعر، وهو صبي:

حامل الهوى تعب ... يستخفه الطرب

إن بكى يحق له ... ليس ما به لعب

تضحكين لاهية ... والمحب ينتحب

تعجبين من سقمي ... صحتي هي العجب

وهي أبيات مشهورة.

وروى أن الخصيب صاحب ديوان الخراج بمصر سأل أبا نواس عن نسبه فقال: أغناني أدبي عن نسبي، فأمسك عنه.

وقال إسماعيل بن لوبخت: ما رأيت قط أوسع علماً من أبي نواس، ولا أحفظ منه مع قلة كتبه، ولقد فتشنا منزله بعد موته فما وجدنا له إلا قمطراً فيه جزاز مشتمل على غريب ونحو لا غير.

وهو في الطبقة الأولى من المولدين، وشعره عشرة أنواع، وهو مجيد في العشرة، وقد اعتنى بجمع شعره جماعة من الفضلاء: منهم أبو بكر الصولي وعلي بن حمزة وإبراهيم بن أحمد بن محمد الطبري المعروف بتوزون، فلهذا يوجد ديوانه مختلفاً، ومع شهرة ديوانه لا حاجة إلى ذكر شيء منه.

وكان أبو نواس قوي البديهة والارتجال؛ روي أن الخصيب قال له مرة وهو بالمسجد الجامع: أنت غير مدافع في الشعر ولكنك لا تخطب، فقام من فوره فقال مرتجلاً:

نحلتكم يا أهل مصر نصيحتي ... ألا فخذوا من ناصح بنصيب
رماكم أمير المؤمنين بحية ... أكول لحيات البلاد شروب
فإن يك باقي إثم فرعون فيكم ... فإن عصا موسى بكف خصيب

ثم التفت إليه وقال: والله لا يأتي بمثلها خطيب مصقع فكيف رأيت؟ فاعتذر إليه وحلف: ما كنت إلا مازحاً.

ورأيت في بعض الكتب أن المأمون كان يقول: لو وصفت الدنيا نفسها لما وصفت بمثل قول أبي نواس:

ألا كل حي هالك وابن هالك ... وذو نسب في الهالكين عريق
إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت ... له عن عدو في ثياب صديق

والبيت الأول ينظر إلى قول امرئ القيس:

فبعض اللوم عاذلتي فإني ... سيكفيني التجارب وانتسابي
إلى عرق الثرى وشجت عروقي ... وهذا الموت يسلبني شبابي

وقد سبق في ترجمة الحسن البصري نظير هذا المعنى.

وما أحسن ظنه بربه عز وجل حيث يقول:

تكثر ما استطعت من الخطايا ... إذا كان القدوم على كريم

وقال وهي من رواية أخرى:

تكثر ما استطعت من الخطايا ... فإنك بالغ ربا غفورا
ستبصر إن وردت عليه عفواً ... وتلقى سيداً ملكاً كبيرا
تعض ندامة كفيك مما ... تركت مخافة النار السرورا

وهذا من أحسن المعاني وأغربها؛ وأخباره كثيرة.

ومن شعره الفائق المشهور قصيدته الميمية التي حسده عليها أبو تمام حبيب المقدم ذكره ووازنها بقوله:

دمن ألم بها فقال سلام ... كم حل عقدة صبره الإلمام

وأول قصيدة أبي نواس المشار إليها، وهي مما مدح به الأمين محمد بن هارون الرشيد أيام خلافته:

يا دار ما صنعت بك الأيام ... لم يبق فيك بشاشة تستام

يقول من جملتها في صفة ناقته:

وتجشمت بي هول كل تنوفة ... هوجاء فيها جرأة إقدام
تذر المطي وراءها فكأنها ... صف تقدمهن وهي إمام

وإذا المطي بنا بلغن محمداً فظهورهن على الرجال حرام

وهذا البيت له حكاية سيأتي ذكرها في ترجمة ذي الرمة غيلان الشاعر المشهور.

وقد أذكرني هذا البيت واقعة جرت لي مع صاحبنا جمال الدين محمود ابن عبد الله الإربلي الأديب المجيد في صناعة الألحان وغير ذلك، فإنه جاءني إلى مجلس الحكم العزيز بالقاهرة المحروسة في بعض شهور سنة خمس وأربعين وستمائة وقعد عندي ساعة، وكان الناس يزدحمون لكثرة أشغالهم حينئذ، ثم نهض وخرج، فلم أشعر إلا وقد حضر غلامه وعلى يده رقعة مكتوب فيها هذه الأبيات:

يا أيها المولى الذي بوجوده أبدت محاسنها لنا الأيام

إني حججت إلى مقامك حجة ال أشواق لا ما يوجب الإسلام

وأنخت بالحرم الشريف مطيتي فتسربت واستاقها الأقوام

فظللت أنشد عند نشداني لها بيتاً لمن هو في القريض إمام

"وإذا المطي بنا بلغن محمداً فظهورهن على الرجال حرام"

فوقفت عليها وقلت لغلامه: ما الخبر؟ فذكر أنه لما قام من عندي وجد مداسة قد سرق، فاستحسنت منه هذا التضمين. والعرب يشبهون النعل بالراحلة، وقد جاء هذا في شعر المتقدمين والمتأخرين، واستعمله المتنبي في مواضع من شعره.

ثم جاءني من بعد جمال الدين المذكور، وجرى ذكر هذه الأبيات، فقلت له: ولكن أنا اسمي أحمد، لا محمد، فقال: علمت ذلك، ولكن أحمد ومحمد سواء، وهذا التضمين حسن ولو كان الاسم أي شيء كان.

وكان محمد الأمين المقدم ذكره قد سخط على أبي نواس لقضية جرت له معه، فتهدده بالقتل وحبسه، فكتب إليه من السجن:

بك أستجير من الردى متعوذاً من سطو باسك

وحياة رأسك لا أعو ذ لمثلها، وحياة رأسك

من ذا يكون أبا نوا سك إن قتلت أبا نواسك

وله معه وقائع كثيرة.

حدث أحمد بن معاوية الباهلي عن عطاء الملك قال: دخلنا المسجد الجامع فإذا على السارية–مكتوب بخط جليل–التي إليها أبو عبيدة يجلس:

صلى الإله على لوط وشيعته أبا عبيدة قل بالله آمينا

قال: فقال لي أبو عبيدة: امحه، قلت: لا أناله، فركع وارتفعت على ظهره حتى محوته فقلت: لم يبق إلا الطاء، فقال: الطامة في الطاء، فمحوتها، فلما جلس قال: والله ما أتهم بهذا إلا الخبيث الماجن المتهتك–يعني أبا نواس–؛ قال: فبلغ قوله أبا نواس، فحلف أنه لم يفعل ذلك، فقبل يمينه.

وكان أبو عبيدة يحب أبا نواس ويقدمه لظرفه وأدبه، وكان أبو نواس يتعلم من أبي عبيدة ويشنأ الأصمعي ويهجوه، فقيل له: ما تقول في الأصمعي؟ فقال: بلبل في قفص؛ قيل: فما تقول في خلف الأحمر؟ قال: جمع العلم وفهمه؛ قيل: فما تقول في أبي عبيدة؟ قال: ذاك أديم طوي على علم.

وكان بمصر رجل يعرف بالحسن بن عمر الأجهري يقول الشعر الضعيف، وكان ناقص العقل، فقيل له: إن أردت أن يعلو شأنك في الشعر فاهج أبا نواس، فأتاه وهو جالس في المجلس والناس حوله فأنشده:

ألا قل للنواسي الض عيف الحال والقدر

خبرنا منك أحوالاً فلم نحمدك في الخبر

وما روعت بالمنظ ... ر ولكن رعت بالكدر

قال: وكان هذا الشاعر من أوحش الناس صورة، فنظر إليه أبو نواس وقال: بم أهجوك وبأي شيء أصفك وقد سبقني الله تعالى إلى توحش منظرك وتقبيح مخبرك؟ وهل أكون إن قلت شيئاً إلا سارقاً من ربي ومتكلفاً على ما قد كفاني؟ فقال له بعض من معه: اهجه على حال لا نقول إنه أفحمك، فقال من وزن شعره:

بما أهجوك لا أدري ... لساني فيك لا يجري

إذا فكرت في هجو ... ك أبقيت على شعري

قال: فقاموا على أبي نواس فقبلوا رأسه وصفقوا الأيدي جهرا.

حدث الصولي عن عبد الله بن محمد بن حفص قال: غلست يوماً إلى المسجد فإذا بأبي نواس يكلم امرأة عند باب المسجد، وكنت أعرفه في مجالس الحديث والآداب، فقلت له: مثلك يقف هذا الموقف بحق أو باطل فاعتذر ثم كتب إلي ذلك اليوم هذه الأبيات:

إن التي أبصرتها ... سحراً تكلمني رسول

دست إلي رسالة ... كادت لها نفسي تزول

من واضح الخدين يق ... صر خطوه ردف ثقيل

متنكب قوس الصبا ... يرمي وليس له رسيل

فلو أن أذنك عندنا ... حتى تسمع ما تقول

لرأيت ما استقبحت من ... أمري لديك هو الجميل

وحكى الصولي عن إسماعيل بن نصر أخي محمد بن نصر الذي يقول فيه أبو نواس من جملة قصيد:

فصلى هذه في وقت هذي ... فكل صلاته أبداً قضاء

وذاك محمد تفديه نفسي ... وحق له وقل له الفداء

قال: رأيت أبا نواس وقد صلى الظهر وقام يتطوع فقلت له: ما بدا لك في هذا؟ قال: ليصعد إلى السماء اليوم خبر ظريف.

حكى الصولي عن أبي العتاهية قال: لقيت أبا نواس في المسجد الجامع فعذلته وقلت له: أما آن لك أن ترعوي؟ أما حان لك أن تزدجر؟ فرفع رأسه إلي وقال:

أتراني يا عتاهي ... تاركاً تلك الملاهي

أتراني مفسداً بالنس ... ك عند القوم جاهي

قال: فلما ألححت عليه بالعذل أنشأ يقول:

لن ترجع الأنفس عن غيها ... ما لم يكن منها لها زاجر

قال: فوددت اني قلت هذا البيت بكل شيء قلته.

وقال أبو العتاهية: قد قلت عشرين ألف بيت في الزهد وددت أن لي مكانها الأبيات الثلاثة التي قالها أبو نواس وهي:

يا نواسي توقر ... وتعز وتصبر

إن يكن ساءك دهر فلما سرك أكثر

يا كبير الذنب عفو الله عن ذنبك أكبر

وأشيع عن أبي نواس أنه رجع عما كان عليه من البطالة وشرب الخمر وزهد في اللذات، فاجتمع أصحابه وأقبلوا عليه يهنئونه بذلك، فوضع بين يديه باطية وجعل لا يدخل عليه أحد يهنئه إلا شرب بين يديه رطلاً وأنشد:

قالوا نزعت ولما يعلموا وطري في كل أغيد ساجي الطرف مياس

كيف النزوع وقلبي قد تقسمه لحظ العيون وقرع السن بالكاس

قال محمد بن نافع: كان أبو نواس لي صديقاً، فوقع بيني وبينه هجرة في آخر عمره، ثم بلغتني وفاته فتضاعف علي الحزن؛ فبينا أنا بين النائم واليقظان إذا رأيته فقلت: أبا نواس؟ قال: لات حين كنية، قلت: الحسن بن هانئ؟ قال: نعم، قلت: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي بأبيات قلتها في علتي قبل موتي وهي تحت الوسادة؛ فأتيت أهله فلما رأوني أجهشوا بالبكاء فقلت لهم: قال أخي شعراً قبل موته، قالوا: لا نعلم إلا أنه دعا بدواة وقرطاس وكتب شيئاً لا ندري ما هو، قلت: ايذنوا لي أدخل؛ قال: فدخلت إلى مرقده فإذا ثيابه لم تحرك بعد، فرفعت وسادة فلم أر شيئاً ثم رفعت أخرى فإذا أنا برقعة فيها مكتوب:

يا رب إن عظمت ذنوبي كثرة فلقد علمت بأن عفوك أعظم

إن كان لا يدعوك إلا محسن فمن الذي يرجو ويدعو المجرم

أدعوك رب كما أمرت تضرعاً فإذا رددت يذي فمن ذا يرحم

ما لي إليك وسيلة إلا الرجا وجميل عفوك ثم أني مسلم

وقد سبق في ترجمة أبي عرم أحمد بن دراج القسطلي ذكر بعض قصيدة أبي نواس الرائية.

وذكره الخطيب أبو بكر في "تاريخ بغداد" وقال: ولد في سنة خمس وأربعين وقيل سنة ست وثلاثين ومائة، وتفي في سنة خمس، وقيل ست، وقيل ثمان وتسعين ومائة ببغداد، ودفن في مقابر الشونيزي، رحمه الله تعالى.

وإنما قيل له أبو نواس لذؤابتين كانتا له تنوسان على عاتقيه.

والحكمي–بفتح الحاء المهملة والكاف وبعدها ميم– هذه النسبة إلى الحكم بن سعد الشعيرة، قبيلة كبيرة باليمن منها الجراح بن عبد الله الحكمي، وكان أمير خراسان، وقد تقدم أن أبا نواس من مواليه فنسب إليه. وقد تقدم الكلام على سعد العشيرة في ترجمة المتنبي في حرف الهمزة.

وأما الصولي فتأتي ترجمته في المحمدين، وعلي بن حمزة لم أقف له على ترجمة. وتوزون أخذ الأدب عن أبي عمر الزاهد وبرع فيه، وكان يسكن بغداد، وتوفي في جمادى الأولى سنة خمس وخمسين وثلثمائة، رحمه الله تعالى.

ابن وكيع التنيسي

أبو محمد الحسن بن علي بن أحمد بن محمد بن خلف بن حيان بن صدقة بن زياد الضبي المعروف بابن وكيع التنيسي الشاعر المشهور؛ أصله من بغداد ومولده بتنيس. ذكره أبو منصور الثعالبي في "يتيمة الدهر"، وقال في حقه: "شاعر بارع، وعالم جامع، قد برع على أهل زمانه، فلم يتقدمه أحد في أوانه، وله كل بديعة تسحر الأوهام، وتستعبد الأفهام"، وذكر مزدوجته المربعة، وهي من جيد النظم، وأورد له غيرها، وله ديوان شعر جيد، وله كتاب بين فيه سرقات ابي الطيب المتنبي سماه "المنصف"، وكان في لسانه عجمة، ويقال له العاطس، ومن شعره:

سلا عن حبك القلب المشوق فما يصبو إليك ولا يتوق

جفاؤك كان عنك لنا عزاء وقد يسلي عن الولد العقوق

وله أيضاً:

كأنها في الكؤوس إذ جليت من عسجد رق لونه وصفا
أغضبها الماء حين مازجها وأزبدت في كؤوسها أنفا
در حباب يود مبصره لو كان يوماً لأذله شنفا

وله أيضاً:

إن كان قد بعد اللقاء فودنا دان، ونحن على النوى أحباب
كم قاطع للوصل يؤمن وده ومواصل بوداده يرتاب

وله أيضاً:

لقد شمت بقلبي لا فرج الله عنه
كم لمته في هواه فقال لابد منه

ولقد ألم به بعضهم فقال:

لا رعى الله عزمة ضمنت لي سلوة القلب والتصبر عنه
ما وفت غير ساعة ثم عادت مثل قلبي تقول لابد منه

ومثله قول أسامة بن منقذ الشيزري المقدم ذكره:

لا تستعر جلداً عن هجرانهم فقواك تضعف عن صدود دائم
واعلم بأنك إن رجعت إليهم طوعاً، وغلا عدت عودة راغم

وقال بعض الفقهاء: أنشدت الشيخ مرتضى الدين أبا الفتح نصر بن محمد بن مقلد القضاعي الشيزري المدرس كان بتربة الإمام الشافعي رضي الله عنه بالقرافة لابن وكيع المذكور:

لقد قنعت همتي بالخمول وصدت عن الرتب العالية
وما جهلت طيب طعم العلا ولكنها تؤثر العافية

فأنشدني لنفسه على البديهة:

بقدر الصعود يكون الهبوط فإياك والرتب العالية
وكن في مكان إذا ما سقطت تقوم ورجلاك في عافية

وله أيضاً-أعني ابن وكيع -:

أبصره عاذلي عليه ولم يكن قبل ذا رآه
فقال لي لو هويت هذا ما لامك الناس في هواه
قل لي إلى من عدلت عنه فليس أهل الهوى سواه

فظل من حيث ليس يدري يأمر بالحب من نهاه

وكنت أنشدت هذه الأبيات لصاحبنا الفقيه شهاب الدين محمد ولد الشيخ تقي الدين عبد المنعم المعروف بالخيمي فأنشدني لنفسه في المعنى:

لو رأى وجه حبيبي عاذلي لتفاصلنا على وجه جميل

وهذا البيت من جملة أبيات، ولقد أجاد فيه وأحسن في التورية وله كل معنى حسن.

وكانت وفاة ابن وكيع المذكور يوم الثلاثاء لسبع بقين من جمادى الأولى سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة بمدينة تنيس، ودفن في المقبرة الكبرى في القبة التي بنية له بها، رحمه الله تعالى.

ووكيع -بفتح الواو وكسر الكاف وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها عين مهملة-وهو لقب جده أبي بكر محمد بن خلف، وكان نائباً في الحكم بالأهواز لعبدان الجواليقي. وكان فاضلاً نبيلاً فصيحاً من أهل القرآن والفقه والنحو والسير وأيام الناس وأخبارهم، وله مصنفات كثيرة، فمنها: كتاب "الطريق" وكتاب "الشريف" وكتاب "عدد آي القرآن والاختلاف فيه" وكتاب "الرمي والنضال" وكتاب "المكاييل والموازين" وغير ذلك، وله شعر كشعر العلماء. وتوفي يوم الأحد لست بقين من شهر ربيع الأول سنة ست وثلثمائة ببغداد.

وقال ابن قانع: توفي عبدان الأهوازي سنة سبع وثلثمائة بعسكر مكرم، رحمه الله تعالى.

والتنيسي-بكسر التاء المثناة من فوقها وكسر النون المشددة وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها سين مهملة-نسبة إلى تنيس مدينة بديار مصر بالقرب من دمياط، بناها تنيس بن حام بن نوح عليه السلام فسميت باسمه.

وتوفي المرتضى الشيزري المذكور في سنة ثمان وتسعين وخمسمائة بمصر، ودفن بسفح المقطم، رحمه الله تعالى.

ابن العلاف الشاعر

أبو بكر الحسن بن علي بن أحمد بن بشار بن زياد المعروف بابن العلاف الضرير النهرواني الشاعر المشهور؛ كان من الشعراء المجيدين، وحدث عن أبي عمر الدوري المقرئ وحميد بن مشعدة البصري ونصر بن علي الجهضمي ومحمد بن إسماعيل الحساني، وروى عنه عبد الله بن الحسن بن النحاس وأبو الحسن الخراجي القاضي وابو حفص ابن شاهين وغيرهم، وكان ينادم الإمام المعتضد بالله.

وقال: بت ليلة في دار المعتضد مع جماعة من ندمائه، فأتانا خادم ليلاً فقال: أمير المؤمنين يقول: أرقت الليلة بعد انصرافكم فقلت:

ولما انتبهنا للخيال الذي سرى إذا الدار قفر والمزار بعيد

وقد أرتج علي تمامه، فمن أجازه بما يوافق غرضي أمرت له بجائزة، قال: فأرتج على الجماعة وكلهم شاعر فاضل، فابتدرت وقلت:

فقلت لعيني عاودي النوم واهجعي لعل خيالاً طارقاً سيعود

فرجع الخادم إليه ثم عاد فقال: أمير المؤمنين يقول: قد أحسنت، وقد أمر لك بجائزة.

وكان لأبي بكر المذكور هر يأنس به، وكان يدخل أبراج الحمام التي لجيرانه ويأكل فراخها، وكثر ذلك منه، فأمسكه أربابها فذبحوه، فرثاه بهذه القصيدة وقد قيل: إنه رثى بها عبد الله بن المعتز-الآتي ذكره إن شاء الله تعالى-وخشي من الإمام المقتدر أن يتظاهر بها لأنه هو الذي قتله، فنسبها إلى الهر وعرض به في ابيات منها، وكانت بينهما صحبة أكيدة.

وذكر محمد بن عبد الملك الهمداني في تاريخه الصغير الذي سماه "المعارف المتأخرة" في ترجمة الوزير أبي الحسن علي بن الفرات ما مثاله: قال الصاحب أبو القاسم ابن عباد: أنشدني أبو الحسن ابن أبي بكر العلاف وهو الأكول المقدم في الأكل في مجالس الرؤساء والملوك قصائد أبيه في الهر، وقال: إنما كنى بالهر عن المحسن بن الفرات أيام محنته لأنه لم يجسر أن يذكره ويرثيه.

قلت أنا: وهذا المحسن ولد الوزير المذكور، وسيأتي خبر ذلك في ترجمة أبيه أبي الحسن علي بن محمد بن الفرات إن شاء الله تعالى.

وذكر صاعد اللغوي في كتاب "الفصوص" قال: حدثني أبو الحسن المرزباني قال: هويت جارية لعلي بن عيسى غلاماً لأبي بكر ابن العلاف الضرير، ففطن بهما فقتلا جميعاً وسلخا وحشيت جلودهما تبناً، فقال أبو بكر مولاه هذه القصيدة يرثيه بها وكنى عنه بالهر، والله أعلم.

وهي من أحسن الشعر وأبدعه، وعددها خمسة وستون بيتاً، وطولها يمنع من الإتيان بجميعها فنأتي بمحاسنها، وفيها أبيات مشتملة على حكم فنأتي بها، وأولها:

يا هر فارقتنا ولم تعد — وكنت عندي بمنزل الولد
فكيف ننفك عن هواك وقد — كنت لنا عدة من العدد
تطرد عنا الأذى وتحرسنا — بالغيب من حية ومن جرد
وتخرج الفأر من مكامنها — ما بين مفتوحها إلى السدد
يلقاك في البيت منهم مدد — وأنت تلقاهم بلا مدد
لا عدد كان منك متفلتاً — منهم ولا واحد من العدد
لا ترهب الصيف عند هاجرة — ولا تهاب الشتاء في الجمد
وكان يجري ولا سداد لهم — أمرك في بيتنا على سدد
حتى اعتقدت الأذى لجيرتنا — ولم تكن للأذى بمعتقد
وحمت حول الردى بظلمهم — ومن يحم حول حوضه يرد
وكان قلبي عليك مرتعداً — وأنت تنساب غير مرتعد
تدخل برج الحمام متئداً — وتبلغ الفرخ غير متئد
وتطرح الريش في الطريق لهم — وتبلغ اللحم بلع مزدرد
أطعمك الغي لحمها فرأى — قتلك أربابها من الرشد
حتى إذا داوموك واجتهدوا — وساعد النصر كيد مجتهد
كادوك دهراً فما وقعت وكم — أفلت من كيدهم ولم تكد
فحين أخفرت وانهمكت وكا — شفت وأسرفت غير مقتصد
صادوك غيظاً عليك وانتقموا — منك وزادوا ومن يصد يصد
ثم شفوا بالحديد أنفسهم — منك ولم يرعووا على أحد

ومنها:

فلم تزل للحمام مرتصداً — حتى سقيت الحمام بالرصد

لم يرحموا صوتك الضعيف كما — لم ترث منها لصوتها الغرد

أذاقك الموت ربهن كما		أذقت أفراخه يداً بيد

ومنها:

كأن حبلاً حوى بجودته		جيدك للخنق كان ممن مسد
كأن عيني تراك مضطرباً		فيه وفي فيك رغوة الزبد
وقد طلبت الخلاص منه فلم		تقدر على حيلة ولم تجد
فجدت بالنفس والبخيل بها		أنت ومن لم يجد بها يجد
فما سمعنا بمثل موتك إذ		مت ولا مثل عيشك النكد
عشت حريصاً يقوده طمع		ومت ذا قاتل بلا قود

ومنها:

يا من لذيذ الفراخ أوقعه		ويحك هلا قنعت بالغدد
ألم تخف وثبة الزمان كما وثبت في البرج وثبة الأسد
عاقبة الظلم لا تنام وإن		تأخرت مدة من المدد
أردت أن تأكل الفراخ ولا		يأكلك الدهر أكل مضطهد
هذا بعيد من القياس وما		أعزه في الدنو والبعد
لا بارك الله في الطعام إذا		كان هلاك النفوس في المعد
كم دخلت لقمة حشاشره		فأخرجت روحه من الجسد
ما كان أغناك عن تسورك ال		برج ولو كان جنة الخلد
قد كنت في نعمة وفي دعة		من العزيز المهيمن الصمد
تأكل من فأر بيتنا رغداً		واين بالشاكرين للرغد
وكنت بددت شملهم زمناً		فاجتمعوا بعد ذلك البدد
فلم يبقوا لنا على سبد		في جوف أبياتنا ولا لبد
وفرغوا قعرها وما تركوا		ما علقته يد على وتد
وفتتوا الخبز في السلال فكم		تفتتت للعيال من كبد
ومزقوا من ثيابنا جدداً		فكلنا في المصائب الجدد

ونقتصر من هذه القصيدة على هذا القدر فهو زبدتها.

وكانت وفاته سنة ثماني عشرة، وقيل تسع عشرة وثلثمائة، وعمره مائة سنة، رحمه الله تعالى.

والنهرواني -بفتح النون وسكون الهاء وفتح الراء والواو وبعد الألف نون- هذه النسبة إلى النهروان، وهي بليدة قديمة بالقرب من بغداد، وقال السمعاني: هي بضم الراء، وليس بصحيح.

أبو الجوائز الواسطي

أبو الجوائز الحسن بن علي بن محمد بن باري الكاتب الواسطي؛ كان من الفضلاء، سكن بغداد دهراً طويلاً، وذكره الخطيب في تاريخه فقال: وعلقت عنه أخباراً وحكايات وأناشيد وأمالي عن ابن شكرة الهاشمي وغيره، ولم يكن ثقة، فإنه ذكر لي أنه من ابن سكرة وكان يصغر عن ذلك. وكان أديباً شاعراً حسن الشعر في المديح والأوصاف وغير ذلك، فمما أنشدنيه لنفسه قوله:

دع الناس طراً واصرف الود عنهم ... إذا كنت في أخلاقهم لا تسامح
ولا تبغ من دهر تظاهر رنقه ... صفاء بنيه فالطباع جوامح
وشيئان معدومان في الأرض: درهم ... حلال وخل في الحقيقة ناصح

انتهى قول الخطيب.

وله تواليف حسان وخط جيد وأشعار رائقة، وقفت له على مقاطيع كثيرة ولم أر له ديواناً ولا أعلم هل دون شعره أم لا. ومن أشعاره السائرة قوله:

براني الهوى بري المدى وأذابني ... صدودك حتى صرت أمحل من أمس
فلست أرى حتى أراك وإنما ... يبين هبار الذر في ألق الشمس

ومن شعره:

أقول وجرس الحلي يمنع وصلها ... وقد عاد ذاك القرب وهو بعاد
هبي كل ذي نطق يغار عليكم ... فكيف يغار الحلي وهو جماد

ومن شعره أيضاً وفيه لزوم ما لا يلزم:

واحزني من قولها ... خان عهودي ولها
وحق من صيرني ... وقفاً عليها ولها
ما خطرت بخاطري ... إلا كستني ولها

وكانت وفاته سنة ستين وأربعمائة، رحمه الله تعالى. وقال الخطيب: سمعت أبا الجوائز يقول: ولدت في سنة اثنتين وثمانين وثلثمائة، وغاب عني خبره في سنة ستين وأربعمائة، انتهى كلام الخطيب.

قلت: وقد صح أن وفاته كانت في سنة ستين كما ذكرته أولاً، والله أعلم، وإن كان الخطيب لم يصرح به بل اقتصر على انقطاع خبره لا غير.

العلم الشاتاني

أبو علي الحسن بن سعيد بن عبد الله بن بندار بن إبراهيم الشاتاني الملقب علم الدين؛ كان فقيهاً غلب عليه الشعر وأجاد فيه واشتهر به، وكان قد ترك بلده ونزل الموصل واستوطنها، وكان يتردد منها إلى بغداد، وكان الوزير أبو المظفر ابن هبيرة كثير الإقبال عليه والإكرام له.

وذكره العماد الكاتب في "الخريدة" وأثنى عليه وأورد له أشعاراً، وقال: مدح صلاح الدين بقصيدة أولها:

أرى النصر معقوداً برايتك الصفرا ... فسر وافتح الدنيا فأنت بها أحرى

ومنها:

يمينك فيها اليمن واليسر في اليسرى فبشرى لمن يرجو الندى بهما بشرى

وكان مولده في سنة عشر وخمسمائة وتوفي في شعبان سنة تسع وتسعين وخمسمائة بالموصل، رحمه الله تعالى.

وذكره ابن الدبيثي في ذيله، وأثنى عليه.

وشاتان–بفتح الشين المعجمة وبعد الألف تاء مثناة من فوقها وبعد الألف الثانية نون–وهي بلد بنواحي ديار بكر.

ناصر الدولة ابن حمدان

أبو محمد الحسن الملقب ناصر الدولة ابن أبي الهيجاء عبد الله بن حمدان بن حمدون ابن الحارث بن لقمان بن راشد بن المثنى بن رافع بن الحارث بن غطيف بن محربة بن حارثة بن مالك بن عبيد بن عدي بن أسامة بن مالك بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب، التغلبي؛ كان صاحب الموصل وما والاها، وتنقلت به الأحوال تارات إلى أن ملك الموصل بعد أن كان نائباً بها عن أبيه، ثم لقبه الخليفة المتقي لله "ناصر الدولة" وذلك في مستهل شعبان سنة ثلاثين وثلثمائة، ولقب أخاه "سيف الدولة" في ذلك اليوم أيضاً، وعظم شأنهما. وكان الخليفة المكتفي بالله قد ولى أباهما عبد الله بن حمدان الموصل وأعمالها في سنة اثنتين وتسعين ومائتين، فسار إليها ودخلها في أول سنة ثلاث وتسعين ومائتين، وكان ناصر الدولة أكبر سناً من أخيه سيف الدولة وأقدم منزلة عند الخلفاء، وكان كثير التأدب معه؛ وجرت بينهما يوماً وحشة، فكتب إليه سيف الدولة:

لست أجفو وإن جفيت ولا أت رك حقاً علي في كل حال

إنما أنت والد والأب الجا في يجازى بالصبر والإحتمال

حكى هلال بن المحسن عن معز الدولة ابن بويه وكان منازلاً لناصر الدولة أبي محمد بن حمدان، فجاءه غلام فقال: إن اغتلت ابن حمدان وقتلته ما يكون لي عليك؟ قال: اقتراحك؛ ووعده وعداً ملأ به صدره، فمضى واختلط بعكسر ناصر الدولة وتوصل إلى أن عرف موضع منامه ليلاً من خيمته، ثم جاء وقد اشتمل على دشنة فدخل الخيمة من تحت الطنب وقد تفرق الناس ونام الحراس فوجد ناصر الدولة نائماً على سرير وفي جانب الخيمة شمعة وعلى بعد منه جماعة، فتأمل موضع رأسه من رجليه ثم أطفأ الشمعة لئلا يصيح إذا جرحه فينذر به ويؤخذ، وجاءه يريد الموضع الذي فيه رأسه، فاتفق أن ناصر الدولة تقلب من جنب إلى جنب فزال عن المكان وجاء الغلام يريد موضعه فغرز الدشنة غرزاً استقصى فيه وظن أنه قد بلغ المراد، فأحسن ناصر الدولة بعدوه فانتبه فرأى الشمعة وقد أطفئت وأطناب الخيمة مرفوعة، فصاح بالغلمان فبادروا وجاءوا بضوء وشاهدوا الصورة فجزع، وأمر بالزيادة في الاحتراس ولم يعلم كيف جرى الأمر، وعاد الرجل فأخبر معز الدولة أنه قد قتل ناصر الدولة فلم يعطه ما وعده به لكنه أطلق له شيئاً وقال لأبي جعفر الصيمري: من يقدم على الملوك مثل إقدام هذا لا يجوز استبقاؤه فضلاً أن يوثق بمكانه، وما الذي يؤمننا أن يبذل لأعدائنا مثل ما بذل لنا؟ فأرحني منه كيف شئت، فأخذه الصيمري فغرقه.

وكتب إليه مرة أخرى وذكرها الثعالبي في "اليتيمة":

رضيت لك العليا وقد كنتب أهلها وقلت لهم بيني وبين أخي فرق

ولم يك بي عنها نكول وإنما تجافيت عن حقي فتم لك الحق

ولا بد لي من أن أكون مصلياً إذا كنت أرضى أن يكون لك السبق

وأورد له أيضاً قوله:

قد جرى في دمعه دمه فإلى كم أنت تظلمه

رد عنه الطرف منك فقد خرقته منك أسهمه

وكان ناصر الدولة شديد المحبة لأخيه سيف الدولة، فلما توفي سيف الدولة–في التاريخ الآتي ذكره في ترجمته إن شاء الله تعالى–تغيرت أحوال ناصر الدولة وساءت أخلاقه وضعف عقله، إلى أن لم يبق له حرمة عند أولاده وجماعته، فقبض عليه ولده أبو تغلب فضل الله الملقب عدة الدولة المعروف بالغضنفر بمدينة الموصل باتفاق من إخوته، وسيره إلى قلعة أردمشت في حصن السلامة، وذكر شيخنا ابن الأثير في تاريخه أن هذه القلعة هي التي تسمى الآن قلعة كواشي، وذلك في يوم الثلاثاء الرابع والعشرين من جمادى الأولى سنة ست وخمسين وثلثمائة، و لم يزل محبوساً بها إلى أن توفي يوم الجمعة وقت العصر ثاني عشر شهر ربيع الأول سنة ثمان وخمسين وثلثمائة، ونقل إلى الموصل ودفن بتل توبة شرقي الموصل؛ وقيل إنه توفي سنة سبع وخمسين.
وقال محمد بن عبد الملك الهمذاني في كتاب "عنوان السير" في آخر ترجمة ناصر الدولة ما مثاله: و لم يزل–يعني ناصر الدولة–مستولياً على ديار الموصل وغيرها حتى قبض عليه ابنه الغضنفر في سنة ست وخمسين وثلثمائة، وكانت إمارته هناك اثنتين وثلاثين سنة، وتوفي يوم الجمعة الثاني عشر من شهر ربيع الأول سنة سبع وخمسين وثلثمائة، رحمه الله تعالى، وقتل أبوه ببغداد وهو يدافع عن الإمام القاهر بالله–وقصته مشهورة–لثلاث عشرة ليلة بقيت من المحرم سنة سبع عشرة وثلثمائة، رحمه الله تعالى.
وأما الغضنفر بن ناصر الدولة فإنه جرت له مع عضد الدولة ابن بويه لما ملك بغداد بعد قتله بختيار ابن عمه المقدم ذكره–وقد كان معه في الواقعة التي قتل فيها–قضايا يطول شرحها، وحاصلها أن عضد الدولة قصده بالموصل فهرب منه إلى الشام ونزل بظاهر دمشق، والمستولي عليها قسام العيار، فكتب إلى العزيز بن المعز صاحب مصر يسأله تولية الشام، فأجابه إلى ذلك ظاهراً ومنعه باطناً. فتوجه إلى الرملة في المحرم سنة سبع وستين، وبها المفرج بن الجراح البدوي الطائي، فهري منه ثم جمع له جموعاً وعاد إليه، فالتقيا على بابها في يوم الاثنين لليلة خلت من صفر من السنة، فانهزم أصحابه وأسر وقتل يوم الثلاثاء ثاني صفر المذكور، ومولده يوم الثلاثاء لإحدى عشرة ليلة خلت من ذي القعدة سنة ثمان وعشرين وثلثمائة.
ونقلت نسبهم على هذه الصورة من كتاب "أدب الخواص" للوزير أبي القاسم الحسين ابن المغربي، وقال محمد بن أحمد الأسدي النسابة: اسم تغلب دثار، وإنما سمي تغلب لأن أباه وائلاً قصدته اليمن في داره لتسبي أهله، فصرخ في أهله وعشيرته، فنصر على اليمن، وكان تغلب طفلاً، فتبرك به وقال: هذا تغلب، فسمي به.

ركن الدولة ابن بويه

أبو علي الحسن بن بويه بن فناخسرو الديلمي الملقب ركن الدولة؛ وقد تقدمت تتمة نسبه في حرف الهمزة عند ذكر أخيه معز الدولة أحمد. وكان ركن الدولة المذكور صاحب أصبهان والري وهمذان وجميع عراق العجم، وهو والد عضد الدولة فناخسرو ومؤيد الدولة أبي منصور بويه وفخر ا لدولة أبي الحسن علي، وكان ملكاً جليل القدر عالي الهمة، وكان أبو الفضل ابن العميد–الآتي ذكره إن شاء الله تعالى–وزيره، ولما توفي استوزر ولده أبا الفتح علياً؛ وكان الصاحب بن عباد وزير ولده مؤيد الدولة، ولما توفي وزر لفخر الدولة–وقد تقدم ذلك في حرف الهمزة في ترجمة الصاحب–.
وكان مسعوداً ورزق السعادة في أولاده الثلاثة، وقسم عليهم الممالك فقاموا بها أحسن قيام. وكان ركن الدولة المذكور أوسط الأخوة الثلاثة، وهم عماد الدولة أبو الحسن علي وركن الدولة المذكور ومعز الدولة أبو الحسين أحمد–وقد سبق ذكره–وكان عماد الدولة أكبرهم، ومعز الدولة أصغرهم.

ولما كان في سنة 339 سار الخراسانيون منصور بن قراتكين ومن معه إلى الري، وكان ركن الدولة ببلاد فارس، فلما وصل جرت بينه وبينهم حروب عدة، وضاقت الميرة على الطائفتين وذبحوا دوابهم، ولو أمكن ركن الدولة الانهزام لفعل، فاستشار وزيره أبا الفضل ابن العميد في بعض الليالي في الهرب، فقال: لا ملجأ لك إلا إلى الله تعالى، فانو للمسلمين خيراً وصمم العزم على حسن السيرة والإحسان فإن الحيل البشرية كلها تقطعت بنا وإن انهزمنا تبعونا وأهلكونا وهم أكثر منا فلا يفلت منا أحد، فقال له: قد سبقتك إلى هذا، فلما كان ثلث الليل الأخير أتاهم الخبر أن منصوراً وعسكره قد عادوا إلى الري وتركوا خيامهم، وكان سبب ذلك أن الميرة والعلوفة ضاقت عليهم أيضاً إلا أن الديلم كانوا يصبرون ويقتنعون بالقليل من الطعام

وكان الخراسانية بالضد منهم.

وحكى أبو الفضل ابن العميد قال: استدعاني ركن الدولة تلك الليلة في الثلث الأخير وقال لي: قد رأيت الساعة في منامي كأني على دابتي فيروز وقد انهزم عدونا وأنت تسير إلى جانبي وقد جاءنا الفرج من حيث لا نحتسب فمددت عيني فرأيت على الأرض خاتماً فأخذته وإذا فصه من فيروز فجعلته في إصبعي فتبركت به وانتبهت وقد أيقنت بالظفر، فإن الفيروزج معناه الظفر، وكذلك لقب الدابة فيروز، قال ابن العميد: فأتانا الخبر والبشارة بأن العدو قد رحل فما صدقنا حتى تواردت الأخبار، فركبنا ولا نعرف سبب هزيمتهم، وسرنا حذرين من كمين، وسرت إلى جانب ركن الدولة وهو على فرسه فيروز، فصاح ركن الدولة لغلام بين يديه: ناولني ذلك الخاتم، فأخذ خاتماً من الأرض فناوله إياه فإذا هو من فيروزج فجعله في إصبعه وقال: هذا تأويل رؤياي، وهذا الخاتم الذي رأيت من ساعة، وهذا من أحسن ما يحكى وأعجبه.

وكان ركن الدولة يقول: مثل خراسان في صعوبة فتحها ونزارة دخلها كابن آوى: يصعب صيده ولا يحصل خيره؛ وهو معنى قول الشاعر:

إن ابن آوى لشديد المقتنص ... هو إذا ما صيد ريح في قفص

وتوفي ركن الدولة ليلة السبت لاثنتي عشرة ليلة بقيت من المحرم سنة ست وستين وثلثمائة بالري، ودفن في مشهده. ومولده تقديراً في سنة أربع وثمانين ومائتين، قاله أبو إسحاق الصابئ، وملك أربعاً وأربعين سنة وشهراً وتسعة أيام، وتوى بعده ولده مؤيد الدولة، رحمه الله تعالى.

الحسن بن سهل

أبو محمد الحسن بن سهل بن عبد الله السرخسي؛ تولى وزارة المأمون بعد أخيه ذي الرياستين الفضل وحظي عنده، وقد تقدم في حرف الباء ذكر ابنته بوران وصورة زواجها من المأمون والكلفة التي احتفل بها والدها الحسن فلا حاجة إلى إعادتها. وكان المأمون قد ولاه جميع البلاد التي فتحها طاهر بن الحسين–وقد ذكرته في ترجمته–وكان عالي الهمة كثير العطاء للشعراء وغيرهم، وقصده بعض الشعراء وأنشده:

تقول خليلتي لما رأتني ... أشد مطيتي من بعد حل

أبعد الفضل ترتحل المطايا ... فقلت نعم إلى الحسن بن سهل

فأجزل عطيته. وخرج مع المأمون يوماً يشيعه، فلما عزم على مفارقته قال له المأمون: يا أبا محمد، الك حاجة؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين تحفظ علي من قلبك ما لا أستطيع حفظه إلا بك. وقال بعضهم: حضرت مجلس ا لحسن ابن سهل وقد كتب لرجل كتاب شفاعة، فجعل الرجل يشكره، فقال الحسن: يا هذا، علام تشكرنا؟ إنا نرى الشفاعات زكاة مروءاتنا ثم أنشأ يقول:

فرضت علي زكاة ما ملكت يدي ... وزكاة جاهي أن أعين وأشفعا

فإذا ملكت فجد فإن لم تستطيع ... فاجهد بوسعك كله أن تنفعا

قال الحاكي: وحضرته يوماً وهو يملي كتاب شفاعة، فكتب في آخره: إنه بلغني أن الرجل يسأل عن فضل جاهه يوم القيامة، كما يسأل عن فضل ماله. وقال لبنيه: يا بني تعلموا النطق، فإن فضل الإنسان على سائر البهائم به، وكلما كنتم بالنطق أحذق كنتم بالإنسانية أحق.

وكان سهل والد الحسن المذكور يتقهرم ليحيى بن خالد بن برمك، وضم يحيى الحسن والفضل ابني سهل إلى ابنيه الفضل وجعفر يكونان معهما، فضم جعفر بن سهل إلى المأمون وهو ولي عهد فغلب عليه و لم يزل معه إلى أن قتل بخراسان، فكتب المأمون إلى الحسب بن سهل وهو ببغداد يعزيه بأخيه ويعلمه أنه قد استوزره وأجراه مجراه، فلم يكن أحد من بني هاشم ولا من القواد يخالف للحسن أمراً ولا يخرج له من طاعة، إلى أن بايع المأمون لعلي بن موسى الرضا بالعهد، فغضب بنو العباس وخلعوا المأمون وبايعوا إبراهيم بن المهدي، فحاربه الحسن بن سهل، فضعف عنه، فانحدر الحسن إلى فم الصلح فأقام به، ووجه من فم الصلح من حارب إبراهيم، فضعف أمر إبراهيم واستتر، وقد تقدم ذكر ذلك. ثم دخل المأمون بغداد وكتب إلى الحسن بن سهل فقدم عليه، فزاد المأمون في كرامته وتشريفه عند تسليمه عليه وذلك في سنة أربع ومائتين.

قال ثعلب: قيل للحسن وقد كثر عطاؤه على اختلال حاله: ليس في السرف خير، فقال: بل ليس في الخير سرف. فرد اللفظ واستوفى المعنى.
ودخل على الحسن أعرابي مدحه بشعر استحسنه، فلما فرغ منه قال له الحسن: احلس واحتكم، وهو يظن أن الأعرابي صغير الهمة؛ فقال: ألف ناقة، فوجم الحسن و لم تكن في وسعه يومئذ، وكره أن يفتضح، فأطرق إطراقة ثم قال: يا أعرابي، ليس بلدنا بلد إبل ولكن كما قال امرؤ القيس:

إذا ما لم تكن إبلاً فمعزى ... كأن قرون جلتها العصي

قال: قد رضيت، قال: فالحق يحيى بن خاقان يعطك ألف شاة، فصار إلى يحيى فأعطاه عن كل شاة ديناراً.
وكتب الحسن بن سهل إلى الحسن بن وهب وقد اصطبح في يوم غنيم لم يمطر: أما ترى تكافؤ الطمع واليأس في يومنا هذا بقرب المطر وبعده كأنه قول كثير:

وإني وتهيامي بعزة بعدما ... تخليت مما بيننا وتخلت

لكالمرتجي ظل الغمامة كلما ... تبوأ منها للمقيل اضمحلت

وأمنيتي إلا في لقائك، ورقعتي هذه الأبيات، وقد أدرت زجاجات أخذت من عقلي و لم تتحيفه، وبعثت نشاطاً حركني على الكتاب إليك، فرأيك في إمطاري سروراً بسار خبرك، إذ حرمت السرور بالمطر في هذا اليوم، موفقاً إن شاء الله تعالى. فأجابه الحسن بن وهب: وصل كتاب الأمير أيده الله ويدي عاملة وفمي طاعم، فلذلك تأخر الجواب قليلاً، وقد رأيت تكافؤ إحسان هذا اليوم وإساءته وما استحق ذماً لأنه إن أشمس حكى ضيائك وحسنك، وإن أمطر أشبه سخاءك وجودك، وإن أغام فلم يشمس و لم يمطر فقد أشبه طيب ظلك ولذة فنائك؛ وسؤال الأمير أيده الله عني نعمة من الله أعفي بها آثار الزمان المسيء، وأنا كما يحب الأمير، صرف الله الحوادث عنه وعن حظي منه.
ووقع الحسن بن سهل في رقعة: وقد أمرنا لك بشيء هو دون قدرك إلى استحقاق وفوق الكفاية مع الاقتصار.
وتعرض إليه رجل فقال له: من أنت؟ قال: أنا الذي أحسنت إلي عام كذا، فقال: مرحباً بمن توسل إلينا بنا.
وافتعل رجل على الحسن كتاباً إلى إبراهيم الرازي–وكان أمير الأهواز– فقال له: والله لئن كنت صادقاً فما في ملكي ما يفي بحق الوزير، وإن كنت مفتعلاً فما في قدرتي ما يفي بعقوبتك، فحبسه وبعث يستعلم أمر الكتاب، وبلغ ذلك الحسن فأمر أن يكتب إليه: أما كان في صغير ما أنعمنا به عليك ما تصدق به مخلية رجل توسل بنا إن كان مبطلاً فكيف وهو محق؟ وكان الحسن بن سهل يقول: عجبت لمن يرجو من فوقه كيف يحرم من دونه.
ونظر يوماً إلى رجل في مجلسه يعبس في كأسه فقال: ما أنصفتها: تضحك في وجهك وتعبس في وجهها.
وكان يقول: من أدمن شم النرجس في الشتاء أمن البرسام في الصيف.
و لم يزل على وزارة المأمون إلى أن ثارت عليه المرة السوداء، وكان سببها كثرة جزعه على أخيه الفضل لما قتل–وسيأتي خبره في حرف الفاء إن شاء الله تعالى–واستولت عليه حتى حبس في بيته ومنعته من التصرف. وذكر الطبري في تاريخه أن الحسن بن سهل في سنة ثلاث ومائتين غلبت عليه السوداء، وكان سببها أنه مرض مرضاً شديداً فهاج به من مرضه تغير عقله حتى شد في الحديد وحبس في بيت، فاستوزر المأمون أحمد بن أبي خالد.
وكانت وفاته سنة ست وثلاثين في مستهل ذي الحجة، وقيل خمس وثلاثين ومائتين، بمدينة سرخس، رحمه الله تعالى. ومدحه يوسف الجوهري بقوله:

لو أن عين زهير عاينت حسناً ... وكيف يصنع في أمواله الكرم

إذا لقال زهير حين يبصره ... هذا الجواد على العلات، لا هرم

قلت: وحديث زهير وهرم بن سنان مذكور في آخر هذا الكتاب في ترجمة يحيى بن عيسى المعروف بابن مطروح فليكشف منه؛ وللحسن بن سهل في ترجمة أبي بكر محمد الخوارزمي الشاعر ذكر فلينظر هناك.
والسرخسي–بفتح السين والراء المهملتين وسكون الخاء المعجمة وبعدها سين مهملة–هذه النسبة إلى سرخس وهي من بلاد خراسان.

الوزير المهلبي

أبو محمد الحسن بن محمد بن هارون بن إبراهيم بن عبد الله بن يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة الأزدي المهلبي الوزير؛ كان وزير معز الدولة أبي الحسين أحمد بن بويه الديلمي–المقدم ذكره في حرف الهمزة–تولى وزارته يوم الاثنين لثلاث بقين من جمادى الأولى سنة تسع وثلاثين وثلثمائة. وكان من ارتفاع القدر واتساع الصدر وعلو الهمة وفيض الكف على ما هو مشهور به، وكان غاية في الأدب والمحبة لأهله. وكان قبل اتصاله بمعز الدولة في شدة عظيمة من الضرورة والضائقة، وكان قد سافر مرة ولقي في سفره مشقة صعبة واشتهى اللحم فلم يقدر عليه فقال ارتجالاً:

ألا موت يباع فأشتريه فهذا العيش ما لا خير فيه
ألا موت لذيذ الطعم يأتي يخلصني من العيش الكريه
إذا أبصرت قبراً من بعيد وددت لو أنني مما يليه
ألا رحم المهيمن نفس حر تصدق بالوفاة على أخيه

وكان معه رفيق يقال له: ابو عبد الله الصوفي، وقيل أبو الحسين العسقلاني، فلما سمع الأبيات اشترى له بدرهم لحماً وطبخه وأطعمه، وتفارقا. وتنقلت بالمهلبي الأحوال، وتولى الوزارة ببغداد لمعز الدولة المذكور، وضاقت الحال برفيقه في السفر الذي اشترى له اللحم، وبلغه وزارة المهلبي فقصده وكتب إليه:

ألا قل للوزير فدته نفسي مقالة مذكر ما قد نسيه
أتذكر إذ تقول لنضك عيش "ألا موت يباع فأشتريه"

فلما وقف عليه تذكره وهزته أريحية الكرم، فأمر له في الحال بسبعمائة درهم ووقع في رقعته "مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء" ثم دعا به فخلع عليه وقلده عملاً يرتفق به.

ولما ولي المهلبي الوزارة بعد تلك الإضاقة عمل:

رق الزمان لفاقتي ورثى لطول تحرقي
فأنالني ما أرتجيه وحاد عماه أتقى
فلأطفحن عما أتا ه من الذنوب السبق
حتى جنايته بما صنع المشيب بمفرقي

وله أيضاً:

قال لي من أحب والبين قد ج د وفي مهجتي لهيب الحريق
ما الذي في الطريق تصنع بعدي قلت أبكي عليك طول الطريق

ومن المنسوب إليه في وقت الإضاقة من الشعر ما كتبه إلى بعض الرؤساء، وقيل إنهما لأبي نواس:

ولو أني استزدتك فوق ما بي من البلوى لأعوزك المزيد
ولو عرضت على الموتى حياة بعيش مثل عيشي لم يريدوا

وقال أبو إسحاق الصابئ صاحب الرسائل: كنت يوماً عند الوزير المهلبي فأخذ ورقة وكتب، فقلت بديها:

له يد برعت جوداً بنائلها ومنطق دره في الطرس ينتثر

فحاتم كامن في بطن راحته وفي أناملها سحبان مستتر

وكان لمعز الدولة مملوك تركي في غاية الجمال، يدعى تكين الجامدار، وكان شديد المحبة له، فبعث سرية لمحاربة بعض بني حمدان وجعل المملوك المذكور مقدم الجيش، وكان الوزير المهلبي يستحسنه ويرى أنه من أهل الهوى لا مدد الوغى، فعمل فيه:

طفل يرق الماء في وجناته ويرف عوده

ويكاد من شبه العذا رى فيه أن تبدو نهوده

ناطوا بمعقد خصره سيفاً ومنطقة تؤوده

جعلوه قائد عسكر ضاع الرعيل ومن يقوده

وكذا كان، فإنه ما أنجح في تلك الحركة، وكانت الكرة عليهم.

ومن شعره النادر في الرقة قوله:

تصارمت الأجفان لما صرمتني فما نلتقي إلا على عبرة تجري

ومحاسن الوزير المهلبي كثيرة.

وكانت ولادته ليلة الثلاثاء لأربع بقين من المحرم سنة إحدى وتسعين ومائتين بالبصرة. وتوفي يوم السبت لثلاث بقين من شعبان سنة اثنتين وخمسين وثلثمائة في طريق واسط، وحمل إلى بغداد، فوصل إليها ليلة الأربعاء لخمس خلون من شهر رمضان من السنة المذكورة، ودفن في مقابر قريش في مقبرة النوبختية، رحمه الله تعالى.

والمهلبي–بضم الميم وفتح الهاء وتشديد اللام المفتوحة وبعدها باء موحدة–هذه النسبة إلى المهلب المذكور أولاً، وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى.

ولما مات الوزير المذكور رثاه أبو عبد الله الحسين بن الحجاج الشاعر المشهور –وسيأتي ذكره–بقوله:

يا معشر الشعراء دعوة موجع لا يرتجى فرج السلو لديه

عزوا القوافي بالوزير فإنها تبكي دماً بعد الدموع عليه

مات الذي أمسى الثناء وراءه والعفو عفو الله بين يديه

هدم الزمان بموته الحصن الذي كنا نفر من الزمان إليه

فليعلمن بنو بويه أنه فجعت به أيام آل بويه

الوزير نظام الملك

أبو علي الحسن بن علي بن إسحاق بن العباس الملقب نظام الملك قوام الدين الطوسي؛ ذكر السمعاني، في كتاب "الأنساب" في ترجمة الراذ كان، أنها بليدة صغيرة بنواحي طوس، قيل إن نظام الملك كان في نواحيها، وكان من أولاد الدهاقين، واشتغل بالحديث والفقه، ثم اتصل بخدمة علي بن شاذان المعتمد عليه بمدينة بلخ–وكان يكتب له–فكان يصادره في كل سنة، فهرس منه وقصد داود بن ميكائيل بن سلجوق، والد السلطان ألب أرسلان فظهر له منه النصح والمحبة، فسلمه إلى ولده ألب أرسلان وقال له: اتخذه والداً ولا تخالفه فيما يشير به، فلما ملك ألب أرسلان–كما سيأتي في موضعه من حرف الميم إن شاء الله تعالى–دبر أمره فأحسن التدبير، وبقي في خدمته عشر سنين، فلما مات ألب أرسلان وازدحم أولاده على الملك وطد المملكة لولده ملك شاه فصار الأمر كله لنظام الملك، وليس للسلطان إلا التخت والصيد، وأقام على هذا عشرين سنة.

ودخل على الإمام المقتدى بالله، فأذن له في الجلوس بين يديه، وقال له: يا حسن، رضي الله عنك برضاء أمير المؤمنين عنك.

وكان مجلسه عامراً بالفقهاء والصوفية، وكان كثير الإنعام على الصوفية، وسئل عن سبب ذلك فقال: أتاني صوفي وأنا في خدمة بعض الأمراء فوعظني وقال: اخدم من تنفعك خدمته ولا تشتغل بمن تأكله الكلاب غداً، فلم أعلم معنى قوله، فشرب ذلك الأمير من الغد إلى الليل وكانت له كلاب كالسباع تفترس الغرباء بالليل، فغلبه السكر فخرج وحده فلم تعرفه الكلاب فمزقته، فعلمت أن الرجل كوشف بذلك، فأنا أخدم الصوفية لعلي أظفر بمثل ذلك.

وكان إذا سمع الأذان أمسك عن جميع ما هو فيه. وكان إذا قدم عليه إمام الحرمين أبو المعالي وأبو القاسم القشيري صاحب الرسالة بالغ في إكرامهما وأجلسهما في مسنده. وبنى المدارس والربط والمساجد في البلاد، وهو أول من أنشأ المدارس فأقتدى به الناس. وشرع في عمارة مدرسته ببغداد سنة سبع وخمسين وأربعمائة، وفي سنة تسع وخمسين جمع الناس على طبقاتهم ليدرس بها الشيخ أبو إسحاق الشيرازي، رحمه الله تعالى، فلم يحضر، فذكر الدرس أبو نصر ابن الصباغ، صاحب "الشامل"، عشرين يوماً، ثم جلس الشيخ أبو إسحاق بعد ذلك. وهذا الفصل قد استقصيته في ترجمة أبي نصر عبد السيد بن الصباغ صاحب "الشامل" فلينظر هناك. وكان الشيخ أبو إسحاق إذا حضر وقت الصلاة خرج منها وصلى في بعض المساجد، وكان يقول: بلغني أن أكثر آلاتها غصب.

وسمع نظام الملك الحديث وأسمعه، وكان يقول: إني لأعلم أني لست أهلاً لذلك، ولكني أريد أربط نفسي في قطار النقلة لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ويروى له من الشعر قوله:

بعد الثمانين ليس قوه | قد ذهبت شره الصبوه
كأنني والعصا بكفي | موسى ولكن بلا نبوه

وقيل: إن هذين البيتين لأبي الحسن محمد بن أبي الصقر الواسطي-وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى-.

ويروى له أيضاً-أعني نظام الملك-:

تقوس بعد طول العمر ظهري | وداستني الليالي أي دوس
فأمشي والعصا تمشي أمامي | كأن قوامها وتر بقوس

وكانت ولادة نظام الملك يوم الجمعة الحادي والعشرين من ذي القعدة سنة ثمان وأربعمائة بنوقان، إحدى مدينتي طوس، وتوجه صحبة ملك شاه إلى أصبهان، فلما كانت ليلة السبت عاشر شهر رمضان سنة خمس وثمانين وأربعمائة أفطر وركب في محفته، فلما بلغ إلى قرية قريبة من نهاوند يقال لها سحنة، قال: هذا الموضع قتل فيه خلق كثير من الصحابةزمن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنهم أجمعين، فطوبى لمن كان معهم، فاعترضه في تلك الليلة صبي ديلمي على هيئة الصوفية معه قصة، فدعا له وسأله تناولها، فمد يده ليأخذها فضربه بسكين في فؤاده، فحمل إلى مضربه فمات، وقتل القاتل في الحال بعد أن هرب، فعثر في طنب خيمة فوقع، وركب السلطان إلى معسكره، فسكنهم وعزاهم، وحمل إلى أصبهان ودفن بها.

وقيل: إن السلطان دس عليه من قتله فإنه سئم طول حياته، واستكثر ما بيده من الاقطاعات، و لم يعش السلطان بعده سوى خمس وثلاثين يوماً، فرحمه الله تعالى لقد كان من حسنات الدهر.

ورثاه شبل الدولة أبو الهيجاء مقاتل بن عطية بن مقاتل البكري-الآتي ذكره إن شاء الله تعالى-وكان ختنه فإن نظام الملك زوجه ابنته-فقال:

كان الوزير نظام الملك لؤلؤة | نفيسة صاغها الرحمن من شرف
عزت فلم تعرف الأيام قيمتها | فردها غيرة منه إلى الصدف

وقد قيل: إنه قتل بسبب تاج الملك أبي الغنائم المرزبان بن خسروفيروز المعروف بابن دارست، فإنه كان عدو نظام الملك، وكان كبير المترلة عند مخدومه ملك شاه، فلما قتل رتبه موضعه في الوزارة، ثم إن غلمان نظام الملك وثبوا عليه فقتلوه وقطعوه إرباً إرباً في ليلة الثلاثاء ثاني عشر المحرم من سنة ست وثمانين وأربعمائة، وعمره سبع وأربعون سنة، وهو الذي بنى على قبر الشيخ أبي إسحاق الشيرازي، رحمه الله تعالى.

فخر الكتاب الجويني

أبو علي الحسن بن علي بن إبراهيم الملقب فخر الكتاب الجويني الأصل البغدادي الكاتب المشهور؛ كتب كثيراً، ونسخ كتباً توجد في أيدي الناس بأوفر الأثمان لجودة خطها ورغبتهم فيه، وذكره العماد الكاتب في "الخريدة" وبالغ في الثناء عليه، وقال: كان من ندماء أتابك زنكي بالشام، وأقام بعده عند ولده نور الدين محمود في ظل الإكرام، ثم سافر إلى مصر في أيام ابن رزيك، وتوطن بها إلى هذه الأيام، وليس بمصر الآن من يكتب مثله، وأورد له مقطوع شعر كتبه إلى القاضي الفاضل، ولولا أنه طويل لذكرته.

وتوفي سنة أربع وثمانين، وقيل: ست وثمانين وخمسمائة، بالقاهرة، رحمه الله تعالى.

والجويني–بضم الجيم وفتح الواو وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها نون–هذه النسبة إلى جوين، وهي ناحية كبيرة من نواحي نيسابور، ينسب إليها جماعة كثيرة من العلماء.

وكان كثيراً ما ينشد لبعض العراقيين:

يندم المرء على ما فاته ... من لبانات إذا لم يقضها
وتراه فرحاً مستبشراً ... بالتي أمضى كأن لم يمضها
إنها عندي وأحلام الكرى ... لقريب بعضها من بعضها

الكرابيسي صاحب الشافعي

أبو علي الحسين بن علي بن يزيد الكرابيسي البغدادي؛ صاحب الإمام الشافعي، رضي الله عنهما، وأشهرهم بانتياب مجلسه وأحفظهم لمذهبه، وله تصانيف كثيرة في أصول الفقه وفروعه. وكان متكلماً عارفاً بالحديث، وصنف أيضاً في الجرح والتعديل وغيره، وأخذ عنه الفقه خلق كثير.

وتوفي سنة خمس وأربعين، وقيل: سنة ثمان وأربعين ومائتين، وهو أشبه بالصواب، رحمه الله تعالى.

والكرابيسي–بفتح الكاف والراء وبعد الألف باء موحدة مكسورة ثم ياء مثناة من تحتها ساكنة وبعدها سين مهملة–هذه النسبة إلى الكرابيس، وهي الثياب الغليظة، واحدها كرباس–بكسر الكاف–وهو لفظ فارسي عرب وكان أبو علي المذكور يبيعها فنسب إليها.

ابن خيران

أبو علي الحسين بن صالح بن خيران الفقيه الشافعي؛ كان من جلة الفقهاء المتورعين وأفاضل الشيوخ، وعرض عليه القضاء ببغداد في خلافة المقتدر فلم يفعل، فوكل الوزير أبو الحسن علي بن عيسى بداره مترسماً، فخوطب في ذلك فقال: إنما قصدت ذلك ليقال كان في زماننا من وكل بداره ليتقلد القضاء فلم يفعل، وكان يعاتب أبا العباس ابن سريج على توليته، ويقول: هذا الأمر لم يكن فينا، وإنما كان في أصحاب أبي حنيفة، رضي الله عنه.

ومثل هذا: دعا عثمان رضي الله عنه عبد الله بن عمر فقال: اذهب، كن قاضياً. قال: أو تعفيني يا أمير المؤمنين؟ قال: لا، اذهب كن قاضياً، قال: لا تعجل يا أمير المؤمنين، ألم تسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "من عاذ بالله فقد عاذ بمعاذ؟" قال: بلى، قال: فإني أعوذ بالله أن أكون قاضياً، قال: وما يمنعك من ذلك وأبوك كان يقضي بين الناس؟ قال: يمنعني قول النبي صلى الله عليه وسلم "من كان قاضياً بين المسلمين فقضى بجهل فهو في النار، ومن كان قاضياً بحق أو بعدل سأل أن ينفلت كفافاً، فما أرجو من القضاء بعد هذا؟".

وكانت وفاته يوم الثلاثاء لثلاث عشرة ليلة بقيت من ذي الحجة سنة عشرين وثلثمائة، قاله أبو العلاء ابن العسكري، وقال الحافظ أبو الحسن الدار

قطني: توفي في حدود سنة عشر وثلثمائة، وصوبه الحافظ أبو بكر الخطيب في ذلك، وقال: وهم أبو العلاء العسكري، رحمه الله تعالى.
وخيران: بفتح الخاء المعجمة وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح الراء وبعد الألف نون.

القاضي حسين

أبو علي الحسين بن محمد بن أحمد المروودي الفقيه الشافعي المعروف بالقاضي صاحب التعليقة في الفقه؛ كان إماماً كبيراً صاحب وجوه غريبة في المذهب، وكلما قال إمام الحرمين في كتاب "نهاية المطلب" والغزالي في "الوسيط والبسيط": "وقال القاضي" فهو المراد بالذكر لا سواه. أخذ الفقه عن أبي بكر القفال المروزي–الآتي ذكره إن شاء الله تعالى في العبادلة–وصنف في الأصول والفروع والخلاف، ولم يزل يحكم بين الناس ويدرس ويفتي، وأخذ عنه الفقه جماعة من الأعيان، منهم أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي صاحب كتاب "التهذيب" وكتاب "شرح السنة" وغيرهما.
وتوفي في سنة اثنتين وستين وأربعمائة بمرووذ، رحمه الله تعالى.
وقد تقدم الكلام على مرووذ في حرف الهمزة.

أبو علي السنجي

أبو علي الحسين بن شعيب بن محمد السنجي الفقيه الشافعي؛ أحد الأئمة المتقنين، أخذ الفقه بخراسان عن أبي بكر عبد الله القفال المروزي هو والقاضي حسين الذي تقدم ذكره والشيخ أبو محمد الجويني والد إمام الحرمين–وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى–وشرح الفروع التي لأبي بكر ابن الحداد المصري شرحاً لم يقاربه فيه أحد، مع كثرة شروحها، فإن القفال شيخه شرحها، والقاضي أبو الطيب الطبري شرحها، وغيرهما، وشرح أيضاً كتاب "التلخيص" لأبي العباس ابن القاص شرحاً كبيراً، وهو قليل الوجود، وله كتاب "المجموع" وقد نقل منه أبو حامد الغزالي في كتاب "الوسيط" وهو أول من جمع بين طريقتي العراق وخراسان، وكان فقيه أهل مرو في عصره.
وكان يقال في عصره: الأئمة بخراسان ثلاثة: مكثر محقق ومقل محقق ومكثر غير محقق، فالمكثر المحقق أبو علي السنجي والمقل المحقق أبو محمد الجويني والمكثر غير المحقق ناصر المروزي.
وكانت وفاته في سنة نيف وثلاثين وأربعمائة، رحمه الله تعالى.
والسنجي–بكسر السين المهملة وسكون النون وبعدها جيم–نسبة إلى سنج، وهي قرية كبيرة من قرى مرو.

الفراء البغوي

أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد، المعروف بالفراء، البغوي الملقب ظهير الدين الفقيه الشافعي المحدث المفسر؛ كان بحراً في العلوم، وأخذ الفقيه عن القاضي حسين بن محمد–كما تقدم في ترجمته–وصف في تفسير كلام الله تعالى، وأوضح المشكلات من قول النبي صلى الله عليه وسلم، وروى الحديث ودرس، وكان لا يلقي الدرس إلا على الطهارة، وصنف كتباً كثيرة، منها كتاب "التهذيب" في الفقه، وكتاب "شرح السنة" في الحديث، و"معالم التنزيل" في تفسير القرآن الكريم، وكتاب "المصابيح" و"الجمع بين الصحيحين" وغير ذلك.
توفي في شوال سنة عشر وخمسمائة بمرووذ، ودفن عند شيخه القاضي حسين بمقبرة الطالقان، وقبره مشهور هنالك، رحمه الله تعالى.

ورأيت في كتاب "الفوائد السفرية" التي جمعها الشيخ الحافظ زكي الدين عبد العظيم المنذري أنه توفي في سنة ست عشرة وخمسمائة، ومن خطه نقلت هذا، والله أعلم. ونقلت عنه أيضاً أنه ماتت له زوجة فلم يأخذ من ميراثها شيئاً، وأنه كان يأكل الخبز البحت، فعذل في ذلك، فصار يأكل الخبز مع الزبيب.
والفراء: نسبة إلى عمل الفراء وبيعها.
والبغوي–بفتح الباء الموحدة والغين المعجمة وبعدها واو–هذه النسبة إلى بلدة بخراسان بين مرو وهراة يقال لها بغ وبغشور بفتح الباء الموحدة وسكون الغين المعجمة وضم الشين وبعدها واو ساكنة ثم راء–وهذه النسبة شاذة على خلاف الأصل، هكذا قال السمعاني في كتاب "الأنساب".

الحليمي

أبو عبد الله الحسين بن الحسن بن محمد بن حليم الفقيه الشافعي المعروف بالحليمي الجرجاني؛ ولد بجرجان سنة ثمان وثلاثين وثلثمائة، وحمل إلى بخاري، وكتب الحديث عن أبي بكر محمد بن أحمد بن حبيب وغيره، وتفقه على أبي بكر الأودني وأبي بكر القفال، ثم صار إماماً معظماً مرجوعاً إليه بما وراء النهر، وله في المذهب وجوه حسنة، وحدث بنيسابور وروى عنه الحافظ الحاكم وغيره.

وتوفي في جمادى الأولى-وقيل في شهر ربيع الأول-سنة ثلاث وأربعمائة، رحمه الله تعالى، ونسبته إلى جده حليم المذكور.

الوني الحاسب

أبو عبد الله الحسين بن محمد الوني الفرضي الحاسب؛ كان إماماً في الفرائض وله فيها تصانيف كبيرة مليحة أجاد فيها، وسمع الحديث من أصحاب أبي علي الصفار وغيرهم، وسمع منه أبو حكيم عبد الله بن إبراهيم الخبري صاحب "التخليص" في الحساب والخطيب التبريزي وغيرهما، وهو شيخ الخبري في علم الحساب والفرائض، وانتفع به وبكتبه خلق كثير.

وتوفي شهيداً ببغداد في ذي الحجة سنة إحدى وخمسين وأربعمائة في فتنة البساسيري المقدم ذكره.

والوني-بفتح الواو وتشديد النون-هذه النسبة إلى ون، وهي قرية من أعمال قهستان أظنه منها.

ابن خميس الكعبي

أبو عبد الله الحسين بن نصر بن محمد بن الحسين بن القاسم بن خميس بن عامر المعروف بابن خميس الكعبي الموصلي الجهني الملقب تاج الإسلام مجد الدين الفقيه الشافعي؛ أخذ الفقه عن أبي حامد الغزالي ببغداد وعن غيره، وولي القضاء برحبة مالك بن طوق، ثم رجع إلى الموصل وسكنها، وصنف كتباً كثيرة، منها "مناقب البرار" على أسلوب رسالة القشيري، ومنها "مناسك الحج" و"أخبار المنامات".

ذكره الحافظ أبو سعد السمعاني في تاريخه، وأثنى عليه.

وكان يروي عن أبي إسحاق إبراهيم بن عثمان الكلبي الغزي الشاعر-المقدم ذكره-في وزير عميد الدولة ابن جهير، قوله:

من آلة الدست لم يؤت الوزير....... البيتين

وخميس جدة الأعلى.

وتوفي في شهر ربيع الاخر سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة، رحمه الله تعالى.

والجهني-بضم الجيم وفتح الهاء وبعدها نون-هذه النسبة إلى جهينة، وهي قرية قريبة من الموصل تجاور القرية التي فيها العين المعروفة بعين القيارة التي ينفع الاستحمام بمائها من الفالج والرياح الباردة، وهي مشهورة، وهما في بر الموصل أسفل من الموصل، وجهينة أقرب من عين القيارة؛ والجهني أيضاً نسبة إلى جهينة وهي قبيلة كبيرة من قضاعة.

والكعبي-بفتح الكاف وسكون العين المهملة وبعدها باء موحدة-هذه النسبة إلى بني كعب، وهم أربع قبائل ينسب إليها، ولا أعلم المذكور إلى أيها ينتسب.

والموصلي معروف.

الحلاج

أبو مغيث الحسين بن منصور الحلاج الزاهد المشهور؛ هو من أهل البيضاء وهي بلدة بفارس، ونشأ بواسط والعراق، وصحب أبا القاسم الجنيد وغيره، والناس في أمره مختلفون: فمنهم من يبالغ في تعظيمه، ومنهم من يكفر. ورأيت في كتاب "مسكاة الأنوار" تأليف أبي حامد الغزالي فصلاً طويلاً في حاله، وقد اعتذر عن الألفاظ التي كانت تصدر عنه مثل قوله "أنا الحق" وقوله "ما في الجبة إلا الله" وهذه الإطلاقات التي ينبو السمع عنها وعن ذكرها وحملها كلها على محامل حسنة، وأولها، وقال: هذا من فرط المحبة وشدة الوجد، وجعل هذا مثل قول القائل:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا — نحن روحان حللنا بدنا

فإذا أبصرتني أبصرته — وإذا أبصرته أبصرتنا

وكان ابتداء حاله على ما ذكره عز الدين ابن الأثير في تاريخه أنه كان يظهر الزهد والتصوف والكرامات ويخرج للناس فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء ويمد يده إلى الهواء ويعيدها مملوءة دراهم عليها مكتوب: قل هو الله أحد، ويسميها دراهم القدرة، ويخبر الناس بما يأكلون وما يصنعون في بيوتهم، ويتكلم بما في ضمائر الناس، فافتتن به خلق كثير واعتقدوا فيه الحلول؛ وبالجملة فإن الناس اختلفوا فيه اختلافهم في المسيح عليه السلام، فمن قائل إنه حل فيه جزء إلهي ويدعي فيه الربوبية، ومن قائل إنه ولي الله تعالى وأن الذي يظهر منه من جملة كرامات الصالحين، ومن قائل أنه ممخرق ومستغش وشاعر كذاب ومتكهن والجن تطيعه فتأتيه بالفاكهة بغير أوانها.

وكان قدم من خراسان إلى العراق وسار إلى مكة فأقام بها سنة في الحجر لا يستظل تحت سقف شتاء ولا صيفاً، وكان يصوم الدهر فإذا جاء العشاء أحضر له الخادم كوز ماء وقرصاً فيشربه ويعض من القرص ثلاث عضات من جوانبه ويترك الباقي ولا يأكل شيئاً آخر النهار. وكان شيخ الصوفية بمكة عبد الله المغربي يأخذ أصحابه إلى زيارة الحلاج فلم يجده في الحجر وقيل قد صعد إلى جبل أبي قبيس، فصعد إليه فرآه على صخرة حافياً مكشوف الرأس والعرق يجري منه إلى الأرض، فاخذ أصحابه وعاد و لم يكلمه وقال: هذا يتصبر ويتقوى على قضاء الله وسوف يبتليه الله بما يعجز عنه صبره وقدرته؛ وعاد الحسين إلى بغداد. انتهى كلام ابن الأثير.

وكان في سنة 299 ادعى للناس أنه إله وأنه يقول بحلول اللاهوت في الأشراف من الناس، وانتشر له في الحاشية ذكر عظيم، ووقع بينه وبين الشبلي وغيره من مشايخ الصوفية، فبعث به المقتدر إلى عيسى ليناظره، فأحضر مجلسه وخاطبه خطاباً فيه غلظة، فحكي انه تقدم إليه وقال له فيما بينه وبينه: قف من حيث انتهيت ولا تزد علي شيئاً وإلا خسفت الأرض من تحتك، وكلاماً في هذا المعنى، فتهيب عيسى مناظرته واستعفى منها فنقل في سنة 309 إلى حامد بن العباس الوزير، فحدث غلام لحامد كان موكلاً بالحلاج قال: دخلت عليه يوماً ومعي الطبق الذي عادتي أن أقدمه إليه كل يوم، فوجدته قد ملأ البيت بنفسه وهو من سقفه إلى أرضه وجوانبه ليس فيه موضع، فهالني ما رأيت منه ورميت الطبق من يدي وهربت؛ وحم هذا الغلام من هول ما رأى وبقي مدة محموماً، فكذبه حامد وشتمه وقال: ابعد عني؛ وكان دخوله إلى بغداد مشهراً على جمل وحبس في دار المقتدر، وأفتى العلماء بإباحة دمه.

وكان الحلاج قد أنفذ أحد أصحابه إلى بلد من بلدان الجبل ووافقه على حيلة يعملها، فخرج الرجل فأقام عندهم سنتين يظهر النسك والعبادة وقراءة القرآن والصوم، فغلب على البلد حتى إذا تمكن أظهر أنه عمي فكان يقاد إلى مسجده ويتعامى في كل أحد شهوراً، ثم أظهر أنه زمن فكان يحبو ويحمل إلى المسجد النبي صلى الله عليه وسلم في النوم يقول أنه يطرق هذا البلد عبد صالح مجاب الدعوة تكون عافيتك على يديه ودعائه، فاطلبوا لي كل من يجتاز من الفقراء أو من الصوفية لعل الله تعالى أن يفرج عني، فتعلقت النفوس لورود العبد الصالح، ومضى الجل الذي بينه وبين الحلاج فقدم البلد ولبس الثياب الصوف الرقاق وتفرد في الجامع فقال الأعمى: احملوني إليه، فلما حصل عنده وعلم أنه الحلاج قال له: يا عبد الله رأيت في النوم كذا وكذا فادع الله تعالى لي، فقال: ومن أنا وما تحكي؟ ثم دعا له ومسح يده عليه فقام مبصراً صحيحاً، فانقلب البلد وكثر الناس على الحلاج، فتركهم وخرج من البلد وأقام المتعافي المبرأ مما فيه شهوراً ثم قال لهم: إن من حق الله عندي ورده جوارحي علي أن أنفرد بالعبادة انفراداً أكثر من هذا، وان يكون مقامي في الغز، وقد عملت على الخروج إلى طرسوس، فمن كانت له حاجة يحملها، فأخرج هذا ألف درهم وقال: اغز بهذه عني، واخرج هذا مائة دينار وقال: اخرج بها غزاة من هناك، وأعطاه كل أحد شيئاً فاجتمع له ألوف دنانير ودراهم، فلحق بالحلاج وقاسمه عليها.

وكان قد جرى منه كلام في مجلس حامد وزير المقتدر بحضرة القاضي أبي عمر وقد قرئ عليه رقعة بخطه أن الإنسان إذا أراد الحج و لم يمكنه أفرد في داره شيئاً لا يلحقه نجاسة ولا يدخله أحد ومنع من يطرقه فإذا حضرت أيام الحج طاف حوله طوافه بالبيت الحرام، فإذا انقضى ذلك وقضى من

المناسك ما يقضي بمكة مثله جمع ثلاثين يتيماً وعمل لهم ما يمكنه من الطعام وأحضرهم إلى ذلك البيت وقدم إليهم ذلك الطعام وتولى خدمتهم بنفسه، فإذا أكلوا وغسلوا أيديهم كسا كل واحد منهم قميصاً ودفع إليه سبة دراهم أو ثلاثة، فإذا فعل ذلك قام له قيام الحج، فلما فرغ منها التفت إليه أبو عمر القاضي وقال له: من أين لك هذا؟ قال: من كتاب "الإخلاص" للحسن البصري، فقال له أبو عمر: كذبت يا حلاج، اللهم قد سمعنا كتاب "الإخلاص" للحسن بمكة وليس فيه شيء مما ذكرت الخ.

ومن الشعر المنسوب إليه على اصطلاحهم وإشاراتهم قوله:

لا كنت إن كنت أدري كيف كنت، ولا لا كنت إن كنت أدري كيف لم أكن

وقوله أيضاً على هذا الاصطلاح:

ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له إياك إياك أن تبتل بالماء

وغير ذلك مما يجري هذا المجرى وينبني على هذا الأسلوب.

وقال أبو بكر ابن ثواية القصري: سمعت الحسين بن منصور وهو على الخشبة يقول:

طلبت المستقر بكل أرض فلم أر لي بأرض مستقرا

أطعت مطامعي فاستعبدتني ولو أني قنعت لكنت حرا

والبيت الذي قبل قوله:

لا كنت إن كنت أدري...

أرسلت تسأل عني كيف كنت وما لاقيت بعدك من هم ومن حزن

وقيل: إن بعضهم كتب إلى أبي القاسم سمنون بن حمزة الزاهد يسأله عن حاله، فكتب إليه هذين البيتين، والله أعلم.

وبالجملة فحديثه طويل وقصته مشهورة والله يتولى السرائر.

وكان جده مجوسياً وصحب هو أبا القاسم الجنيد ومن في طبقته، وأفتى أكثر علماء عصرة بإباحة دمه.

ويقال: إن أبا العباس ابن سريج كان إذا سئل عنه يقول: هذا رجل خفي عني حاله، وما أقول فيه شيئاً. وكان قد جرى منه كلام في مجلس حامد بن العباس وزير الإمام المقتدر بحضرة القاضي أبي عمر، فأفتى بحل دمه وكتب خطه بذلك وكتب معه من حضر المجلس من الفقهاء، فقال لهم الحلاج: ظهري حمى ودمي حرام، وما يحل لكم أن تتأولوا علي بما يبيحه، وأنا اعتقادي الإسلام ومذهبي السنة وتفضيل الأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين وبقية العشرة من الصحابة، رضوان الله عليهم أجمعين، ولي كتب في السنة موجودة في الوراقين فالله الله في دمي، ولم يتزل يردد هذا القول وهم يكتبون خطوطهم إلى أن استكملوا ما احتاجوا إليه ونهضوا من المجلس، وحمل الحلاج إلى السجن.

وكتب الوزير إلى المقتدر يخبره بما جرى في المجلس وسير الفتوى، فعاد جواب المقتدر بأن القضاة إذا كانوا قد أفتوا بقتله فليسلم إلى صاحب الشرطة، وليتقدم إليه بضربه ألف سوط، فإن مات من الضرب وإلا ضربه ألف سوط أخرى؛ ثم تضرب عنقه، فسلمه الوزير إلى الشرطي وقال له ما رسم به المقتدر، وقال: إن لم يتلف بالضرب فتقطع يده ثم رجله ثم يده ثم رجله ثم تحز رقبته وتحرق جثته، وإن خدعك وقال لك: أنا أجري الفرات ودجلة ذهباً وفضة، فلا تقبل ذلك منه ولا ترفع العقوبة عنه، فتسلمه الشرطي ليلاً، وأصبح يوم الثلاثاء لسبع بقين، وقيل لست بقين من ذي القعدة، سنة تسع وثلثمائة، فأخرجه عند باب الطاق، واجتمع من العامة خلق كثير لا يحصى عددهم، وضربه الجلاد ألف سوط، ولم يتأوه بل قال للشرطي لما بلغ ستمائة: ادع بي إليك، فإن لك عندي نصيحة تعدل فتح قسطنطينية، فقال له: قد قيل لي عنك إنك تقول هذا واكثر منه وليس إلى أن أرفع الضرب عنك سبيل، فلما فرغ ضربه قطع أطرافه الأربعة، ثم حز رأسه وأحرق جثته، ولما صارت رماداً ألقاها في دجلة، ونصب الرأس ببغداد على الجسر، وجعل أصحابه يعدون أنفسهم برجوعه بعد أربعين يوماً.

واتفق أن زادت دجلة في تلك السنة زيادة وافرة، فادعى أصحابه أن ذلك بسبب إلقاء رماده فيها. وادعى بعض أصحابه أنه لم يقتل، وإنما ألقى شبهه على عدو له.

وادعى بعضهم أنه رآه في ذلك اليوم بعد الذي عاينوه من الحال التي جرت عليه وهو راكب على حمار في طريق النهروان وقال لهم: لعلكم مثل هؤلاء النفر الذين ظنوا أني هو المضروب والمقتول؛ ومن شعره المنسوب إليه:

متى سهرت عيني لغيرك أو بكت	فلا بلغت ما أملت وتمنت
وإن أضمرت نفسي سواك فلا رعت	بأرض المنى من وجنتيك وجنت

وشرح حاله فيه طول، وفيما ذكرناه كفاية.

والحلاج: بفتح الحاء المهملة وتشديد اللام وبعدها ألف ثم جيم. وإنما لقب بذلك لأنه جلس على حانوت حلاج واستقضاه شغلاً، فقال الحلاج: أنا مشتغل بالحلج، فقال له: امض في شغلي حتى أحلج عنك، فمضى الحلاج وتركه، فلما عاد رأى قطنه جميعه محلوجاً. وقيل إنه كان يتكلم قبل أن ينسب إليه على الأسرار ويخبر عنها، فسمي بذلك حلاج الأسرار.

والبيضاء: بفتح الباء الموحدة وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح الضاد المعجمة وبعدها همزة ممدودة.

قلت: وبعد الفراغ من هذه الترجمة، وجدت في كتاب "الشامل" في أصول الدين، تصنيف الشيخ العلامة إمام الحرمين أبي المعالي عبد الملك ابن الشيخ أبي محمد الجويني رحمهما الله تعالى–الآتي ذكره إن شاء الله تعالى–فصلاً ينبغي ذكره ههنا والتنبيه على الوهم الذي وقع فيه، فإنه قال، وقد ذكر طائفة من الأثبات الثقات: إن هؤلاء الثلاثة تواصوا على قلب الدولة، والتعرض لإفساد المملكة، واستعطاف القلوب واستمالتها، وارتاد كل واحد منهم قطراً: أما الجنابي فأكناف الأحساء، وابن المقفع توغل في أطراف بلاد الترك، وارتاد الحلاج قطر بغداد، فحكم عليه صاحباه بالهلكة والقصور عن درك الأمنية لبعد أهل العراق عن الانخداع؛ هذا آخر كلام إمام الحرمين، رحمه الله.

قلتك وهذا كلام لا يستقيم عند أرباب التواريخ، لعدم اجتماع الثلاثة المذكورين في وقت واحد: أما الحلاج والجنابي فيمكن اجتماعهما لأنهما كانا في عصر واحد، ولكن لا أعلم هل اجتمعا أم لا. والمراد بالجنابي هو أبو طاهر سليمان بن أبي سعيد الحسن بن بهرام القرمطي، رئيس القرامطة وحديثهم وحروبهم وخروجهم على الخلفاء والملوك مشهور فلا حاجة إلى الإطالة بشرحه في هذا المكان، بل إن يسر الله تعالى تحرير التاريخ الكبير، فسأذكر فيه حديثهم مستوفى، إن شاء الله تعالى.

وبعد أن جرى ذكرهم، فينبغي أن نذكر منه فصلاً مختصراً ههنا، حتى لا يخلو هذا الكتاب من حديثهم، فأقول: إن شيخنا عز الدين أبا الحسن علي بن محمد المعروف بابن الأثير ذكر في تاريخه الكبير الذي سماه "الكامل" أول أمرهم، وأطال الحديث فيه، وشرح في كل سنة ما كان يجري لهم فيها، فاخترت ههنا شيئاً من ذلك طلباً للإيجاز.

وأول ما شرع فيه في سنة ثمان وسبعين ومائتين، فقال: في هذه السنة تحرك قوم بسواد الكوفة يعرفون بالقرامطة، ثم بسط القول في ابتداء أمرهم، وحاصله: أن رجلاً أظهر العبادة والزهد والتقشف، وكان يسف الخوص ويأكل من كسبه وكان يدعو الناس إلى إمام من أهل البيت، رضي الله عنهم؛ وأقام على ذلك مدة، فاستجاب له خلق كثير، وجرت له أحوال أوجبت له حسن الاعتقاد فيه، وانتشر ذكرهم بسواد الكوفة. ثم قال شيخنا ابن الأثير بعد هذا في سنة ست وثمانين ومائتين: وفي هذه السنة ظهر رجل من القرامطة يعرف بأبي سعيد الجنابي بالبحرين، واجتمع إليه جماعة من الأعراب والقرامطة وقوي أمره، فقتل من حوله من أهل تلك القرى. وكان أبو سعيد المذكور يبيع للناس الطعام، ويحسب لهم بيعهم، ثم عظم أمرهم وقربوا من نواحي البصرة، فجهز إليهم الخليفة المعتضد بالله جيشاً يقاتلهم مقدمة العباس بن عمرو الغنوي، فتواقعوا وقعة شديدة، وانهزم أصحاب العباس واسر العباس، وكان ذلك في آخر شعبان سنة سبع وثمانين فيما بين البصرة والبحرين. وقتل أبو سعيد الأسري وأحرقهم، واستبقى العياس ثم أطلقه بعد أيام وقال له: امض إلى صاحبك وعرفه ما رأيت، فدخل بغداد في شهر رمضان من السنة، وحضر بين يدي المعتضد فخلع عليه.

ثم إن القرامطة دخلوا بلاد الشام في سنة تسع وثمانين ومائتين، وجرت بين الطائفتين وقعات يطول شرحها.

ثم قتل أبو سعيد المذكور في سنة إحدى وثلثمائة، قتله خادم له في الحمام وقام مقامه ولده أبو طاهر سليمان بن أبي سعيد، ولما قتل أبو سعيد كان قد استولى على هجر والقطيف والطائف وسائر بلاد البحرين.

وفي سنة إحدى عشرة وثلثمائة في شهرربيع الآخر منها، قصد أبو طاهر وعسكره البصرة وملكوها بغير قتال، بل صعدوا إليها ليلاً بسلالم الشعر، فلما حصلوا بها واحسوا بهم ثاروا إليهم فقتلوا متولي البلاد ووضعوا السيف في الناس فهربوا منهم، وأقام أبو طاهر سبعة عشر يوماً يحمل منها الأموال، ثم عاد إلى بلده، ولم يزالوا يعيشون في البلاد ويكثرون فيها الفساد من القتل والسبي والنهب والحريق إلى سنة سبع عشرة وثلثمائة، فحج الناس فيها، وسلموا في طريقهم.

ثم وافاهم أبو طاهر القرمطي بمكة يوم التروية، فنهبوا أموال الحجاج وقتلوهم حتى في المسجد الحرام وفي البيت نفسه؛ وقلع الحجر الأسود وأنفذه إلى هجر، فخرج إليه أمير مكة في جماعة من الأشراف فقاتلوه فقتلهم أجمعين وقلع باب الكعبة، واصعد رجلاً ليقلع الميزاب فسقط فمات، وطرح القتلى في بئر زمزم ودفن الباقين في المسجد الحرام من غير كفن ولا غسل ولا صلاة على أحد منهم. وأخذ كسوة البيت فقسمها بين أصحابه، ونهب دور أهل مكة، فلما بلغ ذلك المهدي عبيد الله صاحب إفريقية -الآتي ذكره إن شاء الله تعالى- كتب إليه ينكر عليه ذلك ويلومه ويلعنه ويقيم عليه القيامة، ويقول له: حققت على شيعتنا ودعاة دولتنا الكفر واسم الإلحاد بما قد فعلت، فإن لم ترد على أهل مكة وعلى الحجاج وغيرهم ما قد أخذت منهم، وترد الحجر الأسود إلى مكانه وترد كسوة الكعبة، فأنا بريء منك في الدنيا والآخرة. فلما وصله هذا الكتاب أعاد الحجر، واستعاد ما أمكنه من أموال أهل مكة فرده. ثم ذكر شيخنا ابن الأثير في سنة تسع وثلاثين وثلثمائة أن القرامطة ردوا الحجر إلى مكة وقالوا: أخذناه بأمر وأعدناه بأمر. وكان بجكم التركي أمير بغداد والعراق قد بذل لهم في رده خمسين ألف دينار فلم يردوه، وردوه الآن. وقال غير شيخنا: إنهم ردوه إلى مكانه من الكعبة المعظمة لخمس خلون من ذي القعدة، وقيل من ذي الحجة من السنة، في خلافة المطيع لله، وإنه لما أخذوه تفسخ تحته ثلاثة جمال قوية من ثقله، وحملوه لما أعادوه على جمل واحد ضعيف فوصل به سالماً.

قلت: وهذا الذي ذكره شيخنا -من كتاب المهدي إلى القرمطي في معنى الحجر، وأنه رده لذلك- لا يستقيم، لأن المهدي توفي سنة اثنتين وعشرين وثلثمائة، وكان رد الحجر في سنة تسع وثلاثين، فقد ردوه بعد موته بسبع عشرة سنة، والله أعلم.

ثم قال شيخنا عقيب هذا: ولما أرادوا رده حملوه إلى الكوفة، وعلقوه بجامعها حتى رآه الناس، ثم حملوه إلى مكة، وكان مكثه عندهم اثنتين وعشرين سنة.

قلت: وقد ذكر غير شيخنا أن الذي رده هو ابن سنبر، وكان من خواص أبي سعيد.

ثم ذكر شيخنا في سنة ستين وثلثمائة أن القرامطة وصلوا إلى دمشق فملكوها وقتلوا جعفر بن فلاح نائب المصريين -وقد سبق في ترجمة جعفر المذكور طرف من خبر هذه القضية- ثم بلغ عسكر القرامطة إلى عين شمس، وهي على باب القاهرة، وظهروا عليهم، ثم انتصر أهل مصر عليهم فرجعوا عنهم.

قلت: وعلى الجملة فالذي فعلوه في الإسلام لم يفعله أحد قبلهم ولا بعدهم من المسلمين، وقد ملكوا كثيراً من بلاد العراق والحجاز وبلاد الشرق والشام إلى باب مصر، ولما أخذوا الحجر تركوه عندهم في هجر، وقتل أبو طاهر المذكور في سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة.

والقرمطي: بكسر القاف وسكون الراء وكسر الميم وبعدها طاء مهملة؛ والقرمطة في اللغة تقارب الشيء بعضه من بعض، يقال: خط مقرمط، ومشي مقرمط، إذا كان كذلك. وكان أبو سعيد المذكور قصيراً مجتمع الخلق أسمر كريه المنظر، فلذلك قيل له قرمطي. وقد ذكر القاضي أبو بكر الباقلاني فصلاً طويلاً من أحوالهم في كتاب "كشف أسرار الباطنية".

وأما الجنابي: فإنه بفتح الجيم وتشديد النون وبعد الألف باء موحدة، وهذه النسبة إلى جنابة، وهي بلدة من أعمال فارس متصلة بالبحرين عند سيراف، والقرامطة منها، فنسبوا إليها.

والأحساء-بفتح الهمزة وسكون الحاء المهملة وبعدها سين مهملة ثم همزة ممدودة-وهي كورة في تلك الناحية، فيها بلاد كثيرة منها جنابة المذكورة وهجر والقطيف-وهي بفتح القاف وكسر الطاء المهملة وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها فاء-وغير ذلك من البلاد؛ والأحساء: جمع حسي-بكسر الحاء وسكون السين المهملة-والحسي: ماء تنشفه الأرض من الرمل، فإذا صار إلى صلابة أمسكته فتحفر العرب عنه الرمل فتستخرجه. ولما كانت هذه الأرض كثيرة الأحساء سميت بهذا الاسم، وصار علماً عليها لا تعرف إلا به.

وأما البحرين فقد قال الجوهري في كتاب "الصحاح": البحرين بلد، والنسبة إليه بحراني، وقال الأزهري: إنما ثنوا البحرين لأن في ناحية قراها بحيرة على باب الأحساء وقرى هجر بينها وبين البحر الأخضر الأعظم عشرة فراسخ، وقدرت البحيرة ثلاثة أميال في مثلها، ولا يغيض ماؤها، وهو راكد زعاق، وهذه النواحي كلها بلاد العرب، وهي وراء البصرة تتصل بأطراف الحجاز وهي على ساحل البحر المتصل باليمن والهند، بالقرب من جزيرة قيس ابن عميرة وهي التي تسميها العامة كيش، وهي في وسط البحر بين عمان وبلاد فارس، وفي تلك الناحية أيضاً رامهرمز وغيرها من البلاد، والله أعلم.

وأما ابن المقفع فهو عبد الله ابن المقفع الكاتب المشهور بالبلاغة، صاحب الرسائل البديعة، وهو من أهل فارس، وكان مجوسياً فأسلم على يد عيسى بن علي عم السفاح والمنصور الخليفتين الأولين من خلفاء بني العباس، ثم كتب له واختص به. ومن كلامه "شربت من الخطب ريا، و لم أضبط لها رويا، فغاضت ثم فاضت، فلا هي هي نظاما، وليست غيرها كلاما". وقال الهيثم ابن عدي: جاء ابن المقفع إلى عيسى بن علي فقال له: قد دخل الإسلام في قلبي، وأريد أن أسلم على يدك، فقال له عيسى: ليكن ذلك بمحضر من القواد ووجوه الناس، فإذا كان الغد فاحضر؛ ثم حضر طعام عيسى عشية ذلك اليوم، فجلس ابن المقفع يأكل ويزمزم على عادة المجوس، فقال له عيسى: أتزمزم وأنت على عزم الإسلام؟ فقال: أكره أن أبيت على غير دين، فلما أصبح أسلم على يده.

وكان ابن المقفع مع فضله يتهم بالزندقة، فحكى الجاحظ أن ابن المقفع ومطيع بن إياس ويحيى بن زياد كانوا يتهمون في دينهم؛ قال بعضهم: فكيف نسي الجاحظ نفسه؟ وكان المهدي بن المنصور الخليفة يقول: ما وجدت كتاب زندقة إلا وأصله ابن المقفع؛ وقال الأصمعي: صنف ابن المقفع المصنفات الحسان منها "الدرة اليتيمة" التي لم يصنف في فنها مثلها؛ وقال الأصمعي: قيل لابن المقفع: من أدبك؟ فقال: نفسي، إذا رأيت من غيري حسناً أتيته وإن رأيت قبيحاً أبيته. واجتمع ابن المقفع بالخليل بن أحمد صاحب العروض، فلما افترقا قيل للخليل: كيف رايته؟ فقال: علمه أكثر من عقله، وقيل لابن المقفع: كيف رأيت الخليل؟ فقال: عقله أكثر من علمه. ويقال: إن ابن المقفع هو الذي وضع كتاب "كليلة ودمنة"، وقيل: إنه لم يضعه وإنما كان باللغة الفارسية فعربه ونقله إلى العربية، وإن الكلام الذي في أول هذا الكتاب من كلامه. وكان ابن المقفع يعبث بسفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب بن أبي صفرة أمير البصرة وينال من أمه ولا يسميه إلا بابن المغتلمة، وكثر ذلك منه، فقدم سليمان وعيسى ابنا علي البصرة-وهما عما المنصور-ليكتبا أماناً لأخيهما عبد الله بن علي من المصور، وكان عبد الله المذكور قد خرج على ابن أخيه المنصور وطلب الخلافة لنفسه، فأرسل إليه المنصور جيشاً مقدمه أبو مسلم الخراساني، فانتصر أبو مسلم عليه. وهرب عبد الله بن علي إلى أخويه سليمان وعيسى، واستتر عندهما خوفاً على نفسه من المنصور، فتوسطا له عند المنصور ليرضى عنه، ولا يؤاخذه بما جرى منه، فقبل شفاعتهما، واتفقوا على أن يكتب له أمان من المنصور، وهذه الواقعة مشهورة في كتب التواريخ. وقد أتيت منها في هذا المكان بما تدعو الحاجة إليه لينبني الكلام بعضه على بعض. فلما أتيا البصرة قالا لعبد الله ابن المقفع: اكتبه أنت وبالغ في التأكيد كي لا يقتله المنصور. وقد ذكرت أن ابن المقفع كان كاتباً لعيسى بن علي، فكتب ابن المقفع الأمان وشدد فيه حتى قال في جملة فصوله: "ومتى غدر أمير المؤمنين بعمه عبد الله بن علي، فنساؤه طوالق، ودوابه حبس، وعبيده أحرار، والمسلمون في حل من بيعته".

وكان ابن المقفع يتنوق في الشروط فلما وقف عليه المنصور عظم ذلك عليه، وقال: من كتب هذا؟ فقالوا له: رجل يقال له عبد الله ابن المقفع يكتب لأعمامك، فكتب إلى سفيان متولي البصرة المقدم ذكره يأمره بقتله، وكان سفيان شديد الحنق عليه للسبب الذي تقدم ذكره، فاستأذن ابن المقفع يوماً على سفيان، فأخر إذنه حتى خرج من كان عنده، ثم أذن له فدخل، فعدل به إلى حجرة فقتل فيها.

وقال المدائني: لما دخل ابن المقفع على سفيان، قال له: أتذكر ما كنت تقول في أمي؟ فقال: أنشدك الله أيها الأمير في نفسي، فقال: أمي مغتلمة إن لم

أقتلك قتلة لم يقتل بها أحد، وأمر بتنور فسجر، ثم أمر بابن المقفع فقطعت أطرافه عضواً عضواً، وهو يلقيها في التنور، وهو ينظر، حتى أتى على جميع جسده، ثم أطبق عليه التنور، وقال: ليس علي في المثلة بك حرج لأنك زنديق وقد أفسدت الناس.

وسأل سليمان وعيسى عنه فقيل: إنه دخل دار سفيان سليماً ولم يخرج منها، فخاصماه إلى المنصور، وأحضراه إليه مقيداً، وحضر الشهود الذين شاهدوه وقد دخل داره ولم يخرج، فأقاموا الشهادة عند المنصور، فقال لهم المنصور: أنا أنظر في هذا الأمر، ثم قال لهم: أرأيتم إن قتلت سفيان به ثم خرج ابن المقفع من هذا البيت–وأشار إلى باب خلفه–وخاطبكم ما تروني صانعاً بكم؟ أأقتلكم بسفيان؟! فرجعوا كلهم عن الشهادة، وأضرب عيسى وسليمان عن ذكره، وعلموا أن قتله كان برضا المنصور. ويقال: إنه عاش ستاً وثلاثين سنة.

وذكر الهيثم بن عدي أن ابن المقفع كان يستخف بسفيان كثيراً، وكان أنف سفيان كبيراً، فكان إذا دخل عليه قال: السلام عليكما، يعني نفسه وأنفه؛ وقال له يوماً: ما تقول في شخص مات وخلف زوجاً وزوجة؟ يسخر به على رؤوس الناس، وقال سفيان يوماً: ما ندمت على سكوت قط، فقال له ابن المقفع: الخرس زين لك فكيف تندم عليه؟! وكان سفيان يقول: والله لأقطعنه إرباً إرباً وعينه تنظر، وعزم على أن يغتاله، فجاءه كتاب المنصور بقتله فقتله.

وقال البلادري: لما قدم عيسى بن علي البصرة في أمر أخيه عبد الله بن علي قال لابن المقفع: اذهب إلى سفيان في أمر كذا وكذا، فقال: ابعث إليه غيري، فإني أخاف منه، فقال: اذهب فأنت في أماني، فذهب إليه ففعل به ما ذكرناه، وقيل: إنه ألقاه في بئر المخرج وردم عليه الحجارة، وقيل أدخله حماماً وأغلق عليه بابه فاختنق.

قلت: ذكر صاحبنا شمس الدين أبو المظفر يوسف الواعظ سبط الشيخ جمال الدين أبي الفرج ابن الجوزي الواعظ المشهور في تاريخه الكبير الذي سماه "مرآة الزمان" أخبار ابن المقفع وما جرى له وقتله في سنة خمس وأربعين ومائة، ومن عادته أن يذكر كل واقعة في السنة التي كانت فيها، فيدل على أن قتله كان في السنة المذكورة، وفي كلام عمر بن شبه في كتاب "أخبار البصرة" ما يدل على أن ذلك كان في سنة اثنتين وأربعين ومائة أو ثلاث وأربعين.

ولا خلاف في أن سليمان بن علي المقدم ذكره مات في سنة اثنتين وأربعين ومائة، وقد ذكرنا أنه قام مع أخيه عيسى بن علي في طلب ثأر ابن المقفع، فيدل أيضاً على أنه قتل في هذه السنة، والله أعلم.

وابن المقفع له شعر، وهو مذكور في كتاب "الحماسة"، وسيأتي في ترجمة أبي عمرو ابن العلاء المقرئ له مرثية فيه. وقد قيل: إنها لولده محمد بن عبد الله ابن المقفع على ما ذكرته هناك من الخلاف، فلينظر فيه. وكيفما كان، فإن تاريخ قتله لم يكن بعد سنة خمس وأربعين ومائة وإنما كان فيها أو فيما قبلها، وإذا كان كذلك، فكيف يتصور أن يجتمع بالحلاج والجنابي–كما ذكره إمام الحرمين رحمه الله تعالى–ومن ها هنا حصل الغلط، وايضاً فإن ابن المقفع لم يفارق العراق، فكيف يقول: إنه توغل في بلاد الترك، وإنما كان مقيماً بالبصرة ويتردد في بلاد العراق، ولم تكن بغداد موجودة في زمنه، فإن المنصور أنشأها في مدة خلافته: فاختطها في سنة أربعين ومائة، واستتم بناءها ونزلها في سنة ست وأربعين، وفي سنة تسع وأربعين تم جميع بنائها، وهي بغداد القديمة التي كانت بالجانب الغربي على دجلة، وهي بين الفرات ودجلة كما جاء في الحديث المروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه تنشأ مدينة في هذا المكان، وهذا الحديث هو الذي ذكره الخطيب أبو بكر البغدادي في أول تاريخه الكبير وقد غاب عني الآن لفظه فلهذا لم أذكره. وبغداد في هذا الزمان هي الجديدة التي في الجانب الشرقي وفيها دور الخلفاء، وهي قاعدة الملك في هذا الوقت، وكان السفاح وأخوه المنصور قد نزلا بالكوفة، ثم بنى السفاح بليدة عن الأنبار سماها الهائمية، فانتقلا إليها، ثم انتقلا إلى الأنبار، وبها مت السفاح وقبره ظاهر بها، وأقام المنصور على ذلك إلى أن بنى بغداد فانتقل إليها.

والمقفع–بضم الميم وفتح القاف وتشديد الفاء وفتحها وبعدها عين مهملة–واسمه داوديه، وكان الحجاج بن يوسف الثقفي في أيام ولايته العراق وبلاد فارس قد ولاه خراج فارس فمد يده وأخذ الأموال، فعذبه فتقفعت يده فقيل له المقفع، وقيل: بل ولاه خالد بن عبد الله القسري–الآتي ذكره إن شاء الله تعالى–وعذبه يوسف بن عمر الثقفي الآتي ذكره لما تولى العراق بعد خالد، والله أعلم أي ذلك كان.

وقال ابن مكي في كتاب "تثقيف اللسان" ويقولون: ابن المقفع والصواب ابن المقفع-بكسر الفاء-لأن أباه كان يعمل القفاع ويبيعها.
قلت: والقفاع بكسر القاف جمع قفعة بفتح القاف، وهي شيء يعمل من الخوص شبيه الزبيل لكنه بغير عروة، والقول الأول هو المشهور بين العلماء، وهو فتح الفاء.
قلت: ولما وقفت على كلام إمام الحرمين-رحمه الله تعالى-و لم يمكن أن يكون ابن المقفع أحد الثلاثة المذكورين قلت: لعله أراد المقنع الخراساني الذي ادعى الربوبية، وأظهر القمر-كما شرحته في ترجمته بعد هذا في حرف العين- فإن اسمه عطاء، ويكون الناسخ قد حرف كلام إمام الحرمين فأراد أن يكتب المقنع فكتب المقفع فإنه يقرب منه في الخط. فيكون الغلط والتحريف من الناسخ لا من الإمام، ثم أفكرت في أنه لا يستقيم أيضاً، لأن المقنع الخراساني قتل نفسه بالسم في سنة ثلاث وستين ومائة-كما ذكرناه في ترجمته-فما أدرك الحلاج والجنابي أيضاً.

وإذا أردنا تصحيح هذا القول وأن ثلاثة اجتمعوا واتفقوا على الصورة التي ذكرها إمام الحرمين فما يمكن أن يكون الثالث إلا ابن الشلمغاني، فإنه كان في عصر ا لحلاج والجنابي، وأموره كلها مبنية على التمويهات، وقد ذكره جماعة من أرباب التاريخ، فقال شيخنا عز الدين بن الأثير في تاريخه الكبير في سنة اثنتين وعشرين وثلثمائة فصلاً طويلاً اختصرته، وهو: وفي هذه السنة قتل أبو جعفر محمد بن علي الشلمغاني المعروف بابن ابي العزاقر، وسبب ذلك أنه أحدث مذهباً غالياً في التشيع والتناسخ وحلول الإلهية فيه، إلى غير ذلك مما يحكيه، وأظهر ذلك من فعله أبو القاسم الحسين بن روح الذي تسميه الأمامية "الباب" فطلب ابن الشلمغاني فاستتر وهرب إلى الموصل وأقام سنين، ثم انحدر إلى بغداد وظهر عنه أنه يدعي الربوبية، وقيل: إنه تبعه على ذلك الحسين بن القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب الذي وزر للمقتدر بالله وابنا بسطام وإبراهيم بن أحمد بن أبي عون وغيرهم، وطلبوا في أيام وزارة ابن مقلة للمقتدر فلم يوجدوا، فلما كان في شوال سنة اثنتين وعشرين وثلثمائة ظهر ابن الشلمغاني، فقبض عليه ابن مقلة وحبسه وكبس داره، فوجد فيها رقاعاً وكتباً ممن يدعي أنه على مذهبه يخاطبونه بما لا يخاطب به البشر بعضهم بعضاً، فعرضت على ابن الشلمغاني فأقر أنها خطوطهم وأنكر مذهبه، واظهر الإسلام، وتبرأ مما يقال فيه. وأحضر ابن أبي عون وابن عبدوس معه عند الخليفة، فأمر بصفعه فامتنعا، فلما أكرها مد ابن عبدوس يده فصفعه، وأما ابن أبي عون فإنه مد يده إلى لحيته ورأسه، وارتعدت يده وقبل لحية ابن الشلمغاني ورأسه وقال: إلهي وسيدي ورازقي، فقال له الخليفة الراضي بالله: قد زعمت أنك لا تدعي الإلهية فما هذا؟ فقال: وما علي من قول ابن أبي عون؟ والله يعلم أنني ما قلت له إنني إله قط، فقال ابن عبدوس: إنه لم يدع إلهية، إنما ادعى أنه الباب إلى الإمام المنتظر، ثم أحضروا مرات ومعهم الفقهاء والقضاة، وفي آخر الأمر أفتى الفقهاء بإباحة دمه، فأحرق بالنار في ذي القعدة من سنة اثنتين وعشرين وثلثمائة.
وذكره محب الدين بن النجار في "تاريخ بغداد" في ترجمة ابن أبي عون المذكور وقال: إن ابن أبي عون ضربت عنقه بعد أن ضرب بالسياط ضرباً مبرحاً لمتابعته ابن الشلمغاني، وصلب ثم أحرق بالنار، وذلك في يوم الثلاثاء لليلة خلت من ذي القعدة من السنة المذكورة.
قلت: وابن أبي عون هو صاحب التصانيف المليحة منها "التشبيهات" و"الأجوبة المسكتة" وغير ذلك، وكان من أعيان الكتاب.
والشلمغاني-بفتح الشين المعجمة وسكون اللام وبعدها ميم ثم غين معجمة وبعد الألف نون-هذه النسبة إلى شلمغان، وهي قرية بنواحي واسط، وقد ذكره السمعاني في كتاب "الأنساب" أيضاً، والله أعلم.

ابن سينا

الرئيس أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا الحكيم المشهور؛ كان أبوه من أهل بلخ، وانتقل منها إلى بخارى، وكان من العمال الكفاة، وتولى العمل بقرية من ضياع بخارى يقال لها خرميثنا من أمهات قراها، وولد الرئيس أبو علي وكذلك أخوه بها، واسم أمه ستارة وهي من قرية يقال لها أفسنة بالقرب من خرميثنا. ولما ولد أبو علي كان الطالع السرطان درجة شرف المشتري والقمر على شرف درجته والزهرة على درجة شرفها وسهم السعادة في تسع من السرطان وسهم الغيب في أول السرطان مع سهيل والشعرى اليمانية. ثم انتقلوا إلى بخارى، وتنقل الرئيس بعد ذلك في البلاد، واشتغل بالعلوم وحصل الفنون، ولما بلغ عشر سنين من عمره كان قد أتقن علم القرآن العزيز والأدب وحفظ أشياء من أصول الدين وحساب الهندسة

والجبر والمقابلة، ثم توجه نحوهم الحكيم أبو عبد الله الناتلي، فأنزله أبو الرئيس أبي علي عنده، فابتدأ أبو علي يقرأ عليه كتاب إيساغوجي واحكم عليه علم المنطق وإقليدس والمجسطي وفاقه أضعافاً كثيرة، حتى أوضح له منها رموزاً وفهمه إشكالات لم يكن للناتلي يد بها، وكان مع ذلك يختلف في الفقه إلى إسماعيل الزاهد، يقرأ ويبحث ويناظر، ولما توجه الناتلي نحو خوارزم شاه مأمون بن محمد اشتغل أبو علي بتحصيل العلوم كالطبيعي والإلهي وغير ذلك، ونظر في النصوص والشروح وفتح الله عليه أبواب العلوم، ثم رغب بعد ذلك في علم الطب وتأمل الكتب المصنفة فيه، وعالج تأدباً لا تكسباً، وعلمه حتى فاق فيه الأوائل والأواخر في أقل مدة وأصبح فيه عديم القرين فقيد المثل، واختلف إليه فضلاء هذا الفن وكبراؤه يقرؤون عليه أنواعه والمعالجات المقتبسة من التجربة، وسنه إذ ذاك نحو ست عشرة سنة. وفي مدة اشتغاله لم ينم ليلة واحدة بكمالها ولا اشتغل في النهار بسوى المطالعة، وكان إذا أشكلت عليه مسألة توضأ وقصد المسجد الجامع، وصلى ودعا الله عز وجل أن يسهلها عليه ويفتح مغلقها له.

وذكر عند الأمير نوح بن نصر الساماني صاحب خراسان في مرض مرضه فأحضره وعالجه حتى برئ واتصل به وقرب منه، ودخل إلى دار كتبه وكانت عديمة المثل، فيها من كل فن من الكتب المشهورة بأيدي الناس وغيرها مما لا يوجد في سواها ولا سمع باسمه فضلاً عن معرفته، فظفر أبو علي فيها بكتب من علم الأوائل وغيرها وحصل نخب فوائدها واطلع على أكثر علومها، واتفق بعد ذلك احتراق تلك الخزانة، فتنفرد أبو علي بما حصله من علومها، وكان يقال: إن أبا علي توصل إلى إحراقها لينفرد بمعرفة ما حصله منها وينسبه إلى نفسه.

و لم يستكمل ثماني عشرة سنة من عمره إلا وقد فرغ من تحصيل العلوم بأسرها التي عاناها، وتوفي أبوه وسن أبي علي اثنتان وعشرون سنة، وكان يتصرف هو ووالده في الأحوال ويتقلدان للسلطان الأعمال.

ولما اضطربت أمور الدولة السامانية خرج أبو علي من بخارى إلى كركانج، وهي قصبة خوارزم، واختلف إلى خوارزم شاه علي بن مأمون بن محمد، وكان أبو علي على زي الفقهاء ويلبس الطيلسان، فقرروا له في كل شهر ما يقوم به، ثم انتقل إلى نسا وأبيورد وطوس وغيرها من البلاد، وكان يقصد حضرة الأمير شمس المعالي قابوس بن وشمكير في أثناء هذه الحال، فلما أخذ قابوس وحبس في بعض القلاع حتى مات-كما سيأتي شرحه في ترجمته في حرف القاف من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى-ذهب أبو علي إلى دهستان ومرض بها مرضاً صعباً، وعاد إلى جرجان، وصنف بها الكتاب الأوسط-ولهذا يقال له "الأوسط الجرجاني"-واتصل به الفقيه أبو عبيد الجوزجاني، واسمه عبد الواحد، ثم انتقل إلى الري واتصل بالدولة، ثم إلى قزوين ثم إلى همذان، وتولى الوزارة لشمس الدولة، ثم تشوش العسكر عليه، فأغاروا على داره ونهبوها وقبضوا عليه وسألوا شمس الدولة قتله فامتنع، ثم أطلق فتوارى، ثم مرض شمس الدولة بالقولنج فأحضره لمداواته واعتذر إليه وأعاده وزيراً، ثم مات شمس الدولة وتولى تاج الدولة فلم يستوزره، فتوجه إلى أصبهان وبها علاء الدولة أبو جعفر ابن كاكويه، فأحسن إليه.

وكان أبو علي قوي المزاج، وتغلب عليه قوة الجماع حتى أنهكته ملازمته وأضعفته و لم يكن يداوي مزاجه، وعرض له قولنج، فحقن نفسه في يوم واحد ثماني مرات فقرح بعض أمعائه وظهر له سحج، واتفق سفره مع علاء الدولة، فحصل له الصرع الحادث عقيب القولنج، فأمر باتخاذ دانقين من كرفس في جملة ما يحقن به، فجعل الطبيب الذي يعالجه فيه خمسة دراهم منه، فازداد السحج به من حدة الكرفس فطرح بعض غلمانه في بعض أدويته شيئاً كبيراً من الأفيون، وكان سببه أن غلمانه خانوه في شيء، فخافوا عاقبة أمره عند برئه؛ وكان مذ حصل له الألم يتحامل ويجلس مرة بعد أخرى ولا يحتمي ويجامع، فكان يمرض أسبوعاً ويصلح أسبوعاً، ثم قصد علاء الدولة همذان من أصبهان ومعه الرئيس أبو علي، فحصل له القولنج في الطريق ووصل إلى همذان وقد ضعف جداً وأشرفت قوته على السقوط، فأهمل المداواة وقال: المدبر الذي في بدني قد عجز عن تدبيره فلا تنفعني المعالجة، ثم اغتسل وتاب وتصدق بما معه على الفقراء، ورد المظالم على من عرفه وأعتق مماليكه وجعل يختم في كل ثلاثة أيام ختمة، ثم مات في التاريخ الذي يأتي في آخر ترجمته إن شاء الله تعالى.

وكان نادرة عصره في علمه وذكائه وتصانيفه، وصنف كتاب "الشفاء" في الحكمة، و"النجاة" و"الإشارات" و"القانون" وغير ذلك مما يقارب مائة مصنف ما بين مطول ومختصر ورسالة في فنون شتى، وله رسائل بديعة: منها رسالة "حي بن يقظان" ورسالة "سلامان وابسال" ورسالة "الطير"

وغيرها، وانتفع الناس بكتبه، وهو أحد فلاسفة المسلمين.

وله شعر، فمن ذلك قوله في النفس:

هبطت إليك من المحل الأرفع ... ورقاء ذات تعزز وتمنع
محجوبة عن كل مقلة عارف ... وهي التي سفرت فلم تتبرقف
وصلت على كره إليك وربما ... كرهت فراقك وهي ذات تفجع
أنفت وما ألفت فلما واصلت ... ألف مجاورة الخراب البلقع
وأظنها نسيت عهوداً بالحمى ... ومنازلاً بفراقها لم تقنع
حتى إذا اتصلت بهاء هبوطها ... من ميم مركزها بذات الأجرع
علقت بها ثاء الثقيل فأصبحت ... بين المعالم والطلول الخضع
تبكي وقد نسيت عهوداً بالحمى ... بمدامع تهمي ولما تقلع
حتى إذا قرب المسير إلى الحمى ... ودنا الرحيل إلى الفضاء الأوسع
وغدت تغرد فوق ذروة شاهق ... والعلم يرفع كل من لم يرفع
وتعود عالمة بكل خفية ... في العالمين فخرقها لم يرقع
فهبوطها إذ كان ضربة لازم ... لتكون سامعة لما لم تسمع
فلأي شيء أهبطت من شاهق ... سام إلى قعر الحضيض الأوضع
إن كان أهبطها الإله لحكمه ... طويت عن الفطن اللبيب الأروع
إذ عاقها الشرك الكثيف فصدها ... قفص عن الأوج الفسيح الأربع
فكأنها برق تألق بالحمى ... ثم انطوى فكأنه لم يلمع

ومن المنسوب إليه أيضاً، ولا أتحققه، قوله:

اجعل غذاءك كل يوم مرة ... واحذر طعاماً قل هضم طعام
واحفظ منيك ما استطعت فإنه ... ماء الحياة يراق في الأرحام

وينسب إليه البيتان اللذان ذكرهما الشهرستاني في أول كتاب "نهاية الأقدام" وهما:

لقد طفت في تلك المعاهد كلها ... وسيرت طرفي بين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعاً كف حائر ... على ذقن أو قارعاً سن نادم

ومن شعره أيضاً:

هذب النفس بالعلوم لترقى ... فترى الكل فهي للكل بيت
إنما النفس كالزجاجة والعل ... م سراج وحكمة الله زيت

فهي إن أشرقت فإنك حي وهي إن أظلمت فإنك ميت

وفضائله كثيرة ومشهورة.

وكانت ولادته في سنة سبعين وثلثمائة في شهر صفر، وتوفي بهمذان يوم الجمعة من شهر رمضان سنة ثمان وعشرين وأربعمائة ودفن بها. وحكى شيخنا عز الدين أبو الحسن علي بن الأثير في تاريخه الكبير أنه توفي بأصبهان، والأول أشهر، رحمه الله تعالى.

وكان الشيخ كما الدين بن يونس رحمه الله تعالى يقول: إن مخدومه سخط عليه واعتقله، ومات في السجن، وكان ينشد:

رأيت ابن سينا يعادي الرجال وفي السجن مات أخس الممات

فلم يشف ما نابه بالشفا ولم ينج من موته بالنجاة

وسينا: بكسر السين المهملة وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح النون وبعدها ألف ممدودة.

الخليع الشاعر

أبو علي الحسين بن الضحاك بن ياسر الشاعر البصري المعروف بالخليع، مولى لولد سلمان بن ربيعة الباهلي الصحابي رضي الله عنه، وأصله من خراسان؛ وهو شاعر ماجن مطبوع حسن الافتنان في ضروب الشعر وأنواعه، واتصل في مجالسه الخلفاء إلى ما لم يتصل إليه إلا إسحاق بن إبراهيم النديم الموصلي، فإنه قاربه في ذلك أو ساواه، وأول من صحب منهم الأمين محمد بن هارون الرشيد، وكان اتصاله به في سنة ثمان وتسعين ومائة وهي السنة التي قتل فيها الأمين، و لم يزل مع الخلفاء بعده إلى أيام المستعين، ما عدا المأمون، فإنه لم يدخل عليه و لم يختلط به وذلك لأنه رثى الأمين فقال:

هلا بقيت لسد فاقتنا أبداً وكان لغيرك التلف

وقد كان فيك لمن مضى خلف فاليوم أعوز بعدك الخلف

فلما ورد المأمون بغداد أمر أن يكتب من يصلح لمنادمته من أهل الأدب فأثبت له قوم وذكر فيهم الحسين بن الضحاك فقال: أليس القائل: وكان لغيرك التلف؟ والله لا أرى وجهه على الطريق؛ فلم يحظ في أيام المأمون بشيء.

وقد كان وقت خدمته للمتوكل ضعف كبراً فكتب إليه يستعفيه من الخدمة بأبيات:

أسلفت أسلافك من خدمتي في مدتي إحدى وستينا

وكنت ابن عشرين وخمس وقد وفيت بضعاً وثمانينا

إني لمعروف بضعف القوى وإن تجلدت أحايينا

فإن تحملت على كبرتي خدمة أبناء الثلاثينا

هدت قواي ووهت أعظمي وصرت في العلة عزونا

وعزون هذا كان نديماً للمعتصم ثم للمتوكل.

وهو في الطبقة الأولى من الشعراء المجيدية وبينه وبين أبي نواس ماجريات لطيفة ووقائع حلوة. وسمي بالخليع لكثرة مجونه وخلاعته. ذكره ابن المنجم في كتابه "البارع" وأبو الفرج الأصبهاني في "الأغاني" وكل منهما أورد طرفاً من محاسن شعره، فمن ذلك قوله:

صل بخدي تلق عجيبا من معان يحار فيها الضمير

فبخديك للربيع رياض وبخدي للدموع غدير

وله أيضاً:

أيا من طرفه سحر ... ويا من ريقه خمر
تجاسرت فكاشف ... ك لما غلب الصبر
وما أحسن في مثل ... ك أن ينتهك الستر
فإن عنفني الناس ... ففي وجهك لي عذر

وله:

لا وحبيك لا أصا ... فح بالدمع مدمعا
من بكى شجوه استرا ... ح وإن كان موجعا
كبدي ف يهواك أس ... قم من أن تقطعا
لم تدع صورة الضنى ... في السقم موضعا

وذكر في كتاب "الأغاني" أن هذه الأبيات أوردها أبو العباس ثعلب النحوي–المقدم ذكره–للخليع المذكور وقال: ما بقي من يحسن أن يقول مثل هذا:

وله:

إذا خنتم بالغيب عهدي فمالكم ... تدلون إدلال المقيم على العهد
صلوا وافعلوا فعل المدل بوصله ... وإلا فصدوا وافعلوا فعل ذي الصد

وله من قصيدة:

سقى الله عصراً لم أبت فيه ليلة ... من الدهر إلا من حبيب على وعد

وذكر أبو عبد الله ابن حمدون عن الحسين بن الضحاك قال: كان يألفني فتى من أهل الشام عجيب الخلقة والشكل غليظ جلف جاف، فكنت أحتمل ذلك منه وكان حظي التعجبن منه، وكان يأتيني بكتب عشقية له ما رأيت كتبا أحلى منها ولا أظرف ولا أشكل من معانيها، ويسألني أن أجيب عنها فأجهد نفسي في الجوابات وأصرف عنايتي إليها على علمي أن الشامي بجهله لا يميز بين الخطإ والصواب، ولا يفرق بين الابتداء والجواب، فلما طال ذلك علي حسدته وتنبهت على إفساد حاله عندها فسألته عن اسمها فقال: بصبص، فكتبت إليها عنه في جواب كتاب منها كان جاءني به:

أرقصني حبنك يا بصبص ... والحب يا سيدتي يرقص

أرمصت أجفاني لطول البكا ... فما لأجفانك لا ترمص
أوحشني وجهك كذاك الذي ... كأنه من حسنه عصعص

قال: فجاءني بعد ذلك فقال: يا أبا علي ما كان ذنبي إليك وما أردت بما صنعت بي؟ فقلت له: وما ذاك عافاك الله؟ فقال: ما هو إلا أن وصل إليها ذلك الكتاب حتى بعثت إلي: إني مشتاقة إليك والكتاب لا ينوب عن الرؤية، فتعالى إلى الروشن الذي بالقرب من بابنا، فقف بحياله حتى أراك؛ فتزينت بأحسن ما قدرت عليه وصرت إلى الموضع، فبينا أنا واقف أنتظر مكلماً لي أو مشيراً إلي وإذا شيء قد صب علي فملأني من فرقي إلى قدمي فأفسد ثيابي وسرجي وصبري وجميع ما علي ودابتي في نهاية السواد والنتن والقذر، وإذا هو ماء قد خلط ببول وسواد وسرجين، وانصرفت بخزى وكان ما مر بي من الصبيان وسائر من مررت به من الطتر والضحك والصياح أعظم مما جرى علي ولحقني من أهلي ومن مترلي، وشر من ذلك وأعظم من كل ما

ذكرت أن رسلها انقطعت عني جملة، قال: فجعلت أعتذر إليه وأقول: إن الآفة أنها لم تفهم الشعر لجودته، وأنا أحمد الله على ما ناله وأسر بالشماتة به.

حدث محمد بن جعفر بن قدامة عن محمد بن عبد الملك قال: كنا في مجلس ومعنا الحسين بن الضحاك ونحن على شراب وعندنا مغنية فعبث الخليع بالمغنية وجمشها فصاحت بالحسين واستخفت به، فأنشأ الخليع يقول:

لها في خدها عكن — وثلثا وجهها ذقن
وأسنان كريش البط — بين أصولها عفن

قال: فضحكنا وبكت المغنية حتى قلنا إنها عميت وما انتفعنا بها بقية يومنا؛ وشاع هذان البيتان فكسدت من أجلهما، وكانت إذا حضرت في مجلس أنشدوا البيتين فتجن؛ ثم إنها هربت من سر من رأى فما عرفنا لها بعد ذلك خبراً.

حدث الصولي عن أحمد بن حمدون قال: أمر المتوكل بأن ينادمه الحسين بن الضحاك ويلازمه فلم يطق ذلك لكبر سنه، فقيل له: هو يطيق الذهاب إلى القرى والمواخير فيشرب فيها ويعجز عن خدمتك، فبلغه ذلك؛ قال ابن حمدون: فدفع إلي أبياتاً فأوصلتها إلى المتوكل وهي قوله:

أما في ثمانين وفيتها — عذير وإن أنا لم أعتذر
فكيف وقد جزتها صاعداً — مع الصاعدين بتسع أخر
وقد رفع الله أقلامه — عن ابن ثمانين دون البشر
سوى من أصر على فتنة — وألحد في دينه أو كفر
وإني لمنأسراء الإله — في الأرض نصب صروف القدر
فإن يقض لي عملاً صالحاً — أناب وإن يقض سوءاً غفر
وقد بسط الله لي عذره — فمن ذا يلوم إذا ما عذر
وما للحسود وأشياعه — وكذب بالوحي إلا حجر

قال ابن حمدون: فلما أوصلتها شفعتها بكلام أعتذر وأقول: لو أطاق خدمة أمير المؤمنين لكان أسعد بها، فقال المتوكل: صدقت، خذ له عشرة آلاف درهم فاحملها إليه، فأخذتها وحملته.

حدث أبو العيناء قال: حج الحسين بن الضحاك فمر في منصرفه على موضع يعرف بالقريتين، وإذا جارية كأنها القمر في ليلة التم تتطلع من تحت ثيابها وتنظر إلى حرها ثم تضربه بيدها وهي تقول: ما أضيعني وأضيعك، فأنشأ الحسين يقول:

مررت بالقريتين منصرفاً — من حيث يقضي ذوو الهوى النسكا
إذا فتاة كأنها قمر — للتم لما توسط الفلكا
واضعة كفها على حرها — تقول واضيعتي وضيعتكا

قال: فلما سمعت قوله ضحكت وغطت وجهها وقالت: وافضيحتاه وقد سمعت ما قلت! وقال الحسين بن الضحاك: كنت جالساً في داري في يوم شات وقد أفطر المأمون وأمر الناس بالإفطار فجاءتني رقعة الحسن بن رجاء يقول فيها:

هززتك للصبوح وقد نهاني — أمير المؤمنين عن الصيام
وعندي من قيان الكرخ عشر — يطيب بها مصافحة المدام

ومن أمثالهن إذا انتشينا ترانا نجتني ثمر الحرام

فكن أنت الجواب فليس شيء أحب إلي من حذف الكلام

فوردت رقعته وقد أرسل إلى محمد بن الحارث غلاماً له نظيف الوجه ومعه ثلاثة غلمان حسان، ومعه رقعة منشورة قد ختم أسفلها مثل المناشير فيها:

سر على اسم الله يا أحسن من غصن لجين

في ثلاث من بني الروم إلى دار حسين

فاسخص الكهل إلى مولاك يا قرة عيني

أره العنف إن استعصى وطالبه بدين

ودع اللفظ وكلمه بغمز الحاجبين

واحذر الرجعة من وجهك في خفي حنين

قال: فمضيت مع غلمان محمد بن الحارث وتركت الحسن.

وكانت وفاته سنة خمسين ومائتين وقد قارب مائة سنة، رحمه الله تعالى. وقال الخطيب في "تاريخ بغداد"، يقال: إنه ولد في سنة اثنتين وستين ومائة.

ابن الحجاج الشاعر

أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن محمد بن جعفر بن محمد بن الحجاج؛ الكاتب الشاعر المشهور ذو المجون والخلاعة والسخف في شعره، كان فرد زمانه في فنه، فإنه لم يسبق إلى تلك الطريقة، مع عذوبة الألفاظ وسلامة شعره من التكلف، ومدح الملوك والأمراء والوزراء والرؤساء، وديوانه كبير، أكثر ما يوجد في عشر مجلدات، والغالب عليه الهزل، وله في الجد أيضاً أشياء حسنة.

وتولى حسبة بغداد وأقام بها مدة، ويقال: إنه عزل بأبي سعيد الإصطخري ا لفقيه الشافعي، وله في عزله أبيات مشهورة لا حاجة إلى إثباتها ها هنا.

ويقال: إنه في الشعر في درجة امرئ القيس، وإنه لم يكن بينهما مثلهما لأن كل واحد منهما مخترع طريقة.

وقد أفرد أبو الحسن الموسوي المعروف بالرضي من شعره في المديح والغزل وغيرهما ما جانب السخف، وكان شعراً متخيراً حسناً جيداً ومن جيد شعره وجده هذه الأبيات:

يا صاحبي استيقظا من رقدة تزري على عقل اللبيب الأكيس

هذي المجرة والنجوم كأنها نهر تدفق في حديقة نرجس

وأرى الصبا قد غلست بنسيمها فعلام شرب الراح غير مغلس

قوما اسقياني قهوة رومية من عهد قيصر دنها لم يمس

صرفا تضيف إذا تسلط حكمها موت العقول إلى حياة الأنفس

وأورد له أيضاً:

نمت بسري في الهوى أدمعي ودلت الواشي على موضعي

يا معشر العشاق إن كنتم مثلي وفي حالي فموتوا معي

وأورد له أيضاً:

يا من إليها من ظلمها الهرب ردي فؤادي فقل ما يجب
ردي حياتي إن كنت منصفة ثم إليك الرضا أو الغضب
طلبت قلبي فلم أفتك به سبحان من لا يفوته الطلب

ومن شعره:

قال قوم لزمت حضرة حمد وتجنبت سائر الرؤساء
قلت ما قاله الذي أحرز المع نى قديماً قبلي من الشعراء
"يسقط الطير حيث يلتقط الحب وتغشى منازل الكرماء"

وهذا البيت الثالث لبشار بن برد، وقد ضمنه شعره.

وأورد له ايضاً في الورد:

جنى في البستان لي وردة أحسن من إنجازه وعدي
وقال والوردة في كفه من قدح أذكى من الند
اشرب هنيئاً لك يا عاشقي ريقي من كفي على خدي

ودعي ابن الحجاج إلى دعوة وتأخر عنه الطعام قليلاً فقال:

يا ذاهباً في داره جائياً بغير معنى وبلا فائدة
قد جن أضيافك من جوعهم فاقرأ عليهم سورة المائدة

ومثل هذا ما ذكره أبو الفرج الأصبهاني في كتاب "الأغاني" قال: دعانا أبو محمد ابن الشاب يوماً ودعا جحظة البرمكي وأطال حبس الطعام جداً، وجاع جحظة فأخذ دواة وقرطاساً وكتب:

ما لي وللشاب وأولاده لا قدس الوالد والوالده
قد حفظوا القرآن واستعملوا ما فيه إلا سورة المائدة

ورمى بها إلي فقرأتها ودفعتها إلى ابن الشاب فقرأها ووثب مسرعاً وقدم الطعام وأكلنا وانصرفنا وقطعة جحظة بعد ذلك، فكان يجهد جهده في أن يجيبه فلا يفعل، فإذا عاتبناه قال: حتى يحفظ تلك السورة.

وكانت وفاة ابن الحجاج يوم الثلاثاء السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة إحدى وتسعين وثلثمائة بالنيل، وحمل إلى بغداد، رحمه الله تعالى، ودفن عند مشهد موسى بن جعفر، رضي الله عنه. وأوصى أن يدفن عند رجليه، وأن يكتب على قبره "وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد".

وكان من كبار الشعراء الشيعة، ورآه بعد موته بعض أصحابه في المنام، فسأله عن حاله، فأنشد:

أفسد سوء مذهبي في الشعر حسن مذهبي
وحملي الجد على ظهر حصان اللعب
لم يرض مولاي علي سبي لأصحاب النبي
وقال لي ويحك يا أحمق لم لم تتب

من سب قوم من رجا آلاءهم لم يخب
رمت الرضا جهلاً بما أصلاك نار اللهب

ورثاه الشريف الرضي بقصيدة من جملتها:

نعوه على حسن ظني به فلله ماذا نعي الناعيان
رضيع ولاء له شعبة من القلب مثل رضيع اللبان
وما كنت أحسب أن الزمان يفل مضارب ذاك اللسان
بكيتك للشرد السائرات تعنق ألفاظها بالمعاني
ليبك الزمان طويلاً عليك فقد كنت خفة روح الزمان

والنيل–بكسر النون وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها لام–وهي بلدة على الفرات بين بغداد والكوفة خرج منها جماعة من العلماء وغيرهم، والأصل فيه نهر حفرة الحجاد بن يوسف في هذا المكان ومخرجه من الفرات وسماه باسم نيل مصر، وعليه قرى كثيرة.

الوزير المغربي

أبو القاسم الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن محمد بن يوسف بن بحر بن بهرام ابن المرزبان بن ماهان بن باذان بن ساسان بن الحرون بن بلاش بن جاماس ابن فيروز بن يزدجر بن بهرام جور المعروف بالوزير المغربي؛ ورأي جماعة من أهل الأدب يقولون: إن أبا علي هارون بن عبد العزيز الأوارجي الذي مدحه المتنبي بقصيدته التي أولها:

أمن ازديارك في الدجى الرقباء إذ حيث كنت من الظلام ضياء

خاله، ثم إني كشفت عنه فوجدت المذكور خال أبيه، وأما هو فأمه بنت محمد بن إبراهيم بن جعفر النعماني، ذكره في "أدب الخواص". وكانت وفاة الأوارجي المذكور في جمادى الأولى سنة أربع وأربعين وثلثمائة.

والوزير أبو القاسم المغربي المذكور هو صاحب الديوان: الشعر والنثر، وله "مختصر إصلاح المنطق" وكتاب "الإيناس"، وهو مع صغر حجمه كثير الفائدة ويدل على كثرة اطلاعه، وكتاب "أدب الخواص" وكتاب "المأثور في ملح الخدور" وغير ذلك.

وجدت في بعض المجاميع ما صورته: وجد بخط والد الوزير المعروف بالمغربي على ظهر "مختصر إصلاح المنطق" الذي اختصره ولده الوزير ما مثاله: "ولد–لسمه الله تعالى، وبلغه مبالغ الصالحين–أول وقت طلوع الفجر من ليلة صباحها يوم الأحد الثالث عشر من ذي الحجة سنة سبعين وثلثمائة، واستظهر القرآن العزيز وعدة من الكتب المجردة في النحو واللغة ونحو خمسة عشر ألف بيت من مختار الشعر القديم، ونظم الشعر وتصرف في النثر وبلغ من الخط إلى ما يقصر عن نظراؤه، ومن حساب المولد والجبر والمقابلة إلى ما يستقل بدونه الكاتب، وذلك كله قبل استكماله أربع عشرة سنة. واختصر هذا الكتاب، فتناهى في اختصاره وأوفى على جميع فوائده حتى لم يفته شيء من ألفاظه، وغير من أبوابه ما أوجب التدبير تغييره للحاجة إلى الاختصار، وجمع كل نوع إلى ما يليق به. ثم ذكرت له نظمه بعد اختصاره فابتدأ به، وعمل منه عدة أوراق في ليلة، وكان جميع ذلك قبل استكماله سبع عشرة سنة، وأرغب إلى الله سبحانه في بقائه ودوام سلامته". انتهى كلام والده.

ومن شعر الوزير المذكور:

أقول لها والعيس تحدج للسرى أعدي لفقدي ما استطعت من الصبر
سأنفق ريعان الشبيبة آنفاً على طلب العلياء أو طلب الأجر
أليس من الخسران أن لياليا تمر بلا نفع وتحسب من عمري

ومن شعره أيضاً:

أرى الناس في الدنيا كراع تنكرت ... مراعيه حتى ليس فيهن مرتع

فماء بلا مرعى ومرعى بغير ما ... وحيث ترى ماء ومرعى فمسبع

وله في غلام حسن الوجه حلق شعره:

حلقوا شعره ليكسوه قبحا ... غيرة منهم عليه وشحا

كان صبحاً عليه ليل بهيم ... فمحوا ليله وابقوه صبحا

ومن شعره أيضاً:

إني أبثك عن حدي ... ثي والحديث له شجون

غيرت موضع مرقدي ... ليلاً ففارقني السكون

قل لي فأول ليلة ... في القبر كيف ترى أكون

ولما ولد للوزرير المذكور ولده أبو يحيى عبد الحميد كتب إليه أبو عبد الله محمد بن أحمد صاحب ديوان الجيش بمصر أبياتاً منها:

قد أطلع الفأل منه معنى ... يدركه العالم الذكي

رأيت جد الفتى علياً ... فقلت جد الفتى علي

وكان الوزير المذكور من الدهاة العارفين وكان خبيث الباطن، إذا دخل عليه الفقيه سأله عن النحو وإذا دخل عليه النحوي سأله عن الفقه والفرائض.

ولما قتل الحاكم صاحب مصر أباه وعمه وأخويه، وهرب الوزير وصل إلى الرملة، واجتمع بصاحبها المتغلب عليها حسان بن مفرج بن دغفل بن الجراح الطائي وبنيه وبني عمه، وأفسد نياهم على الحاكم صاحب مصر المذكور.

ثم توجه إلى الحجاز، وأطمع صاحب مكة في الحاكم ومملكة الديار المصرية، وعمل في ذلك عملاً قلق الحاكم بسببه وخاف على ملكه، وقصته في ذلك طويلة إلى أن أرضى الحاكم بني الجراح ببذل الأموال لهم، واستمالهم إليه.

وكان صاحب مكة–وهو أبو الفتح الحسن بن جعفر العلوي–قد استدعوه ووصل إليهم وبايعوه بالخلافة ولقبوه بالرشيد بتدبير أبي القاسم المذكور، فلم يزل الحاكم يعمل الحيل حتى استمال بني الجراح إليه، وانتقض أمر أبي الفتوح وهرب إلى مكة.

وقصد الوزير أبو القاسم العراق هارباً من الحاكم ومفارقاً لبني الجراح، وقصد فخر الملك أبا غالب ابن خلف الوزير، ورفع خبره إلى الإمام القادر بالله فاقمه أنه ورد لإفساد الدولة العباسية، وراسل فخر الملك في إبعاده، فاعتذر عنه فخر الملك وقام في أمره. واتفق انحدار فخر الملك من بغداد إلى واسط، فأخذ أبا القاسم في جملته، وأقام معه بواسط على جملة من الرعاية، إلى أن توفي فخر الملك مقتولاً، وشرع الوزير أبو القاسم في استعطاف قلب الإمام القادر بالله والتنصل مما نبذل به، حتى صلح له بعض الصلاح، وعاد إلى بغداد وأقام قليلاً، ثم أصعد إلى الموصل.

واتفق موت أبي الحسن ابن أبي الوزير كاتب معتمد الدولة أبي المنيع قرواش أمير بني عقيل، فتقلد كتابته موضعه، ثم شرع أبو القاسم يسعى في وزارة الملك مشرف الدولة البويهي، ولم يزل يعمل السعي إلى أن قبض على الوزير مؤيد الملك أبي علي، فكوتب الوزير أبو القاسم بالحضور من الموصل إلى الحضرة، وقلد الوزارة من غير خلع ولا لقب ولا مفارقة الدراعة، وأقام كذلك حتى جرى من الأحوال ما أوجب مفارقة مشرف الدولة بغداد، فخرج معه منها وقصدا أبا سنان غريب بن محمد بن مقن ونزلا عليه وأقاما بأوانا. وبينا هو على ذلك إذ عرض له إشقاق من مخدومه مشرف الدولة دعاه إلى مفارقته، فانتقل بعد ذلك إلى أبي المنيع قرواش بالموصل، وأقام عنده، ثم تجدد من سوء رأي الإمام القادر فيه ما ألجأته الضرورة بسبب ما كوتب به

قرواش وغريب في معناه إلى مفارقته والإبعاد عنه، وقصد أبا نصر ابن مروان بميافارقين وأقام عنده على سبيل الضيافة إلى أن توفي، وقيل: إنه لما توجه إلى ديار بكر وزر لسلطانها أحمد بن مروان المقدم ذكره، فأقام عنده إلى أن توفي في ثالث عشر شهر رمضان سنة ثماني عشرة وأربعمائة، وقيل: ثمان وعشرين، والأول أصح، وكانت وفاته بميافارقين، وحمل إلى الكوفة بوصية منه، وله في ذلك حديث يطول شرحه، ودفن بها في تربة مجاورة لمشهد الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأوصى أن يكتب على قبره:

كنت في سفرة الغواية والجه ... ل مقيماً فحان مني قدوم

تبت من كل مأثم فعسى يم ... حى بهذا الحديث ذاك القديم

بعد خمس وأربعين، لقد ما ... طلت، إلا أن الغريم كريم

وكان قتل أبيه وعمه وأخويه في الثالث من ذي القعدة سنة أربعمائة، رحمهم الله تعالى.

ورأيت في بغض المجاميع أنه لم يكن مغربياً، وإنما أحد أجداده، وهو أبو الحسن علي بن محمد كانت له ولاية في الجانب الغربي ببغداد، وكان يقال له: المغربي، فأطلق عليهم هذه النسبة، ولقد رأيت خلقاً كثيراً يقولون هذه المقالة، ثم بعد ذلك نظرت في كتابه الذي سماه "أدب الخواص" فوجدت في أوله "وقد قال المتنبي: وإخواننا المغاربة يسمونه المتنبه، فأحسنوا":

أتى الزمان بنوه في شبيبته ... فسرهم وأتيناه على الهرم

فهذا يدل على أنه مغربي حقيقة لا كما قالوه، والله أعلم. ثم أعاد هذا القول بعينه لما ذكر النابغة الجعدي وشعره وأنشد عنده قول المتنبي:

وفي الجسم نفس لا تشيب بشيبه ... ولو أن ما في الوجه منه حراب

ونقلت نسبه المذكور في الأول من خط أبي القاسم علي بن منجب بن سليمان المعروف بابن الصيرفي المصري صاحب الرسائل، وذكر أنه منقول من خط الوزير المذكور، والله أعلم بصحته.

ابن خالويه

أبو عبد الهل الحسين بن أحمد بن خالويه النحوي اللغوي؛ أصله من همذان ولكنه دخل بغداد وأدرك جلة العلماء بها مثل أبي بكر ابن الأنباري وابن مجاهد المقرئ وأبي عمر الزاهد وابن دريد، وقرأ على أبي سعيد السيرافي، وانتقل إلى الشام واستوطن حلب، وصار بها أحد أفراد الدهر في كل قسم من أقسام الأدب، وكانت إليه الرحلة من الآفاق، وآل حمدان يكرمونه ويدرسون عليه ويقتبسون منه. وهو القائل: دخلت يوماً على سيف الدولة بن حمدان فلما مثلت بين يديه قال لي: اقعد، و لم يقل اجلس، فتبينت بذلك اعتلاقه بأهداب الأدب، واطلاعه على أسرار كلام العرب، وإنما قال ابن خالويه هذا لأن المختار عند أهل الأدب أن يقال للقائم: اقعد، وللنائم أو الساجد: اجلس، وعلله بعضهم بأن القعود هو الانتقال من العلو إلى السفل، ولهذا قيل لمن أصيب برجله مقعد، والجلوس هو الانتقال من السفل إلى العلو، ولهذا قيل لنجد: جلسا لارتفاعها، وقيل لمن أتاها: جالس، وقد جلس، ومنه قول مروان بن الحكم لما كان والياً بالمدينة يخاطب الفرزدق:

قل للفرزدق والسفاهة كاسمها ... إن كنت تارك ما أمرتك فاجلس

أي: اقصد الجلسا، وهي نجد. وهذا البيت من جملة أبيات ولها قصة طويلة، وهذا كله وإن جاء في غير موضعه لكن الكلام شجون.

ولابن خالويه المذكور كتاب كبير في الأدب سماه "كتاب ليس" وهو يدل على اطلاع عظيم، فإن مبنى الكتاب من أوله إلى آخره على أنه ليس في كلام العرب كذا وليس كذا، وله كتاب لطيف سماه "الآل" وذكر في أوله أن الآل ينقسم إلى خمسة وعشرين قسماً، وما أقصر فيه، وذكر فيه الأئمة الاثني عشر وتواريخ مواليدهم ووفياتهم وأمهاتهم، والذي دعاه إلى ذكرهم أنه قال في جملة أقسام الآل "وآل محمد بنو هاشم". وله كتاب "الاشتقاق" وكتاب "الجمل" في النحو، وكتاب "القراءات" وكتاب "إعراب ثلاثين سورة من الكتاب العزيز" وكتاب "المقصور والممدود" وكتاب "المذكر

والمؤنث" وكتاب "الألفات" وكتاب "شرح المقصورة لابن دريد" وكتاب "الأسد"، وغير ذلك.
ولابن خالويه مع أبي الطيب المتنبي مجالس ومباحث عند سيف الدولة، ولولا خوف الاطالة لذكرت شيئاً منها.
وله شعر حسن، فمنه قوله على ما نقله الثعالبي في كتاب "اليتيمة":

إذا لم يكن صدر المجالس سيد فلا خير فيمن صدرته المجالس
وكم قائل: ما لي رأيتك راجلاً فقلت له: من أجل أنك فارس

وخالويه: بفتح الخاء الموحدة وبعد الألف لام مفتوحة وواو مفتوحة أيضاً وبعدها ياء مثناة من تحتها ساكنة ثم هاء ساكنة.
وكانت وفاة ابن خالويه في سنة سبعين وثلثمائة بحلب، رحمه الله تعالى.

أبو علي الجياني

أبو علي الحسين بن محمد بن أحمد الغساني الجياني الأندلسي المحدث؛ كان إماماً في الحديث والأدب، وله كتاب مفيد سماه "تقييد المهمل" ضبط فيه كل لفظ يقع فيه اللبس من رجال الصحيحين، وما أقصر فيه، وهو في جزأين، وكان من جهابذه المحدثين، وكبار العلماء المسندين، وكان حسن الخط جيد الضبط، وكان له معرفة بالغريب والشعر والأنساب، وكان يجلس في جامع قرطبة ويسمع منه أعيانها، و لم أقف على شيء من أخباره حتى أذكر طرفاً منها.
وكانت ولادته في المحرم سنة سبع وعشرين وأربعمائة، وطلب الحديث سنة أربع وأربعين، وتوفي ليلة الجمعة لاثنتي عشرة ليلة خلت من شعبان سنة ثمان وتسعين وأربعمائة، رحمه الله تعالى.
والجياني–بفتح الجيم وتشديد الياء المثناة من تحتها وبعد الألف نون–هذه النسبة إلى جيان، وهي مدينة كبيرة بالأندلس، وبأعمال الري قرية يقال لها جيان أيضاً.
والغساني: قد تقدم الكلام عليه.

البارع الدباس

أبو عبد الله الحسين بن محمد بن عبد الوهاب بن أحمد بن محمد بن الحسين بن عبيد الله بن القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب الوزير الحارثي من بني الحارث ابن كعب بن عمرو الدباس البدري المنعوت بالبارع الشاعر المشهور الأديب النديم البغدادي؛ كان نحوياً لغوياً مقرئاً حسن المعرفة بصنوف الآداب، وأفاد خلقاً كثيراً، خصوصاً بإقراء القرآن الكريم.
وهو من بيت الوزارة، فإن جده القاسم كان وزير المعتضد والمكتفي بعده وهو الذي سم ابن الرومي الشاعر–كما سيأتي ذكره في ترجمته إن شاء الله تعالى–وعبيد الله كان وزيراً أيضاً، وسليمان بن وهب الوزير تغني شهرته عن ذكره–وستأتي ترجمته إن شاء الله تعالى–.
والبارع المذكور من أرباب الفضائل، وله مصنفات حسان وتواليف غريبة، وديوان شعر جيد، وكان بينه وبين الشريف أبي يعلى ابن الهبارية مداعبات لطيفة، فإنهما كانا رفيقين ومتحدين في الصحبة، فاتفق أن البارع المذكور تعلق بخدمة بعض الأمراء، وحج، فلما عاد حضر الشريف إليه مراراً فلم يجده، فكتب إليه قصيدة طويلة دالية يعاتبه فيها إلى أنه تغير عليه بسبب الخدمة، وأولها:

يا ابن ودي وأين مني ابن ودي غيرت طرفه الرياسة بعدي

ولولا ما أودعها من السخف والفحش لذكرتها، فكتب إليه البارع المذكور جوابها، وأطال فيها، وضمنها أيضاً شيئاً من الفحش، وأولها:

وصلت رقعة الشريف أبي يع لى فحلت محل لقياه عندي
فتلقيتها بأهلاً وسهلاً ثم ألصقتها بطرفي وخدي

وفضضت الختام عنها فما ظن ك بالصاب إذ يشاب بشهد
بين حلو من العتاب ومر هو أولى به وهزل وجد
وتجن علي من غير جرم بملام يكاد يحرق جلدي
يدعي أنني حجبت وقد زا ر مراراً، حاشاه من قبح رد
ثم دع ذا، ما للرياسة والحج أبن لي من حل أنف وعقد
فماذا علمت بالله أني قد تنكرت أو تغير عهدي
من تراني: أعامل أم وزي لأمير أم عارض للجند
أنا إلا ذاك الخليع الذي تع رف أرضى ولو بجرة دردي
وإذا صح لي مليح فذاك ال يوم عيدي وصاحب الدست عبدي
أتراني لو كنت في النار مع ها مان أنساك في جنان الخلد
أو لو أني عصبت بالتاج أسلو ك ولو كنت عانياً في القد
أنا أضعاف ما عهدت على العه د وإن كنت لا تجازي بود

ومنها:

أم لأني من سائر النا س بفرد بين الأكارم فرد
صان وجهي عن اللئام وأولا ني جميلاً منه إلى غير حد
فتعففت واقتنعت بتدفي ع زماني وقلت إني وحدي
لا لأني أنفت مع ذا من الكد يه، أين الكرام حتى أكدي

ونقتصر من هذه القصيدة على هذه الأبيات، ففيها سخف لا يليق ذكره وغيره مما لا حاجة إليه.

ومن شعره أيضا:

أفنيت ماء الوجه من طول ما أسأل من لا ماء في وجهه
أنهي إليه شرح حالي الذي يا ليتني مت ولم أنهه
فلم ينلني كرما رفده ولم أكد أسلم من جبهه
والموت من دهر نحاريره ممتدة الأيدي إلى بلهه

وأورد له الحظيري في كتاب "زينة الدهر" وذكر أنه نقلها من خطه وذكر أنه قال هذه القصيدة بمكة في سنة 472

ذكر الأحباب والوطنا والهوى والإلف والسكنا
فبكى شجواً وحق له مدنف بالشوق حلف ضنى
أبعدت مرمى يد رجمت من خراسان به اليمنا

خلست من بين أضلعه بالنوى قلباً له ضمنا
من لمشتاق يميله ذات سجع ميلت فننا
كلما هاج الهديل به طرباً هاجت له شجنا
لم تعرض بالحنين بمن مسعد إلا وقال أنا
لك يا ورقاء أسوة من لم تذيقي جفنه الوسنا

بك أنسي مثل أنسك بي فتعالي نبد ما كمنا
نتشاكى ما نجن إذا نحت شجواً صحت واحزنا
غير أني منك أعدل إن عاد سري في الهوى علنا
أنا لا أنت البعيد هوى أنا لا أنت الغريب هنا
أنا فرد يا حمام وها أنت والإلف القرين ثنا
أنصفونا يا بني حسن ليس هذا منكم حسنا
كم أحلت محرماتكم بالعيون النجل أنفسنا
نحن وفد الله عندكم ما لكم جيرانه ولنا
لم يجرنا منكم حرم من أتاه خائفاً أمنا

وكانت ولادته في العاشر من صفر سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة ببغداد. وتوفي يوم الثلاثاء سابع عشر جمادى الآخرة، وقيل الأولى، سنة أربع وعشرين وخمسمائة، وكان قد عمي في آخر عمره، رحمه الله تعالى.

والدباس-بفتح الدال المهملة وتشديد الباء الموحدة وبعد الألف سين مهملة-وهذا يقال لمن يعمل الدبس أو يبيعه.

والبدري-بفتح الباء الموحدة وسطون الدال المهملة وبعدها راء-هذه النسبة إلى البدرية، وهي محلة ببغداد المحروسة وكان البارع المذكور يسكنها فنسب إليها.

الطغرائي

السيد فخر الكتاب أبو إسماعيل الحسين بن علي بن محمد بن عبد الصمد الملقب مؤيد الدين الأصبهاني المنشئ المعروف بالطغرائي؛ كان غزير الفضل لطيف الطبع، فاق أهل عصره بصنعة النظم والنثر.

ذكره أبو سعد ابن السمعاني في نسبة المنشئ من كتاب "الأنساب"، وأثنى عليه، وأورد قطعة من شعره في صفة الشمعة، وذكر أنه قتل في سنة خمس عشرة وخمسمائة.

والطغرائي المذكور له ديوان شعر جيد، ومن محاسن شعره قصيدته المعروفة بلامية العجم، وكان عملها ببغداد في سنة خمس وخمسمائة يصف حاله ويشكو زمانه، وهي التي أولها:

أصالة الرأي صانتني عن الخطل وحلية الفضل زانتني لدى العطل

مجدي أخيراً ومجدي أولاً شرع   والشمس رأد الضحى كالشمس في الطفل
فيم الإقامة بالزوراء لا سكني   بها ولا ناقتي فيها ولا جملي
ناء عن الأهل صفر الكف منفرد   كالسيف عري متناه عن الخلل
فلا صديق إليه مشتكى حزني   ولا أنيس إليه منتهى جذلي
طال اغترابي حتى حن راحلتي   ورحلها وقرى العسالة الذبل
وضج من لغب نضوي وعج لما   يلقى ركابي ولج الركب في عذلي
أريد بسطة كف أستعين بها   على قضاء حقوق للعلا قبلي
والدهر يعكس آمالي ويقنعني   من الغنيمة بعد الكد بالقفل
وذي شطاط كصدر الرمح معتقل   بمثله غير هياب ولا وكل
حلو الفكاهة مر الجد قد مزجت   بشدة البأس منه رقة الغزل
طردت سرح الكرى عن ورد مقلته   والليل أغرى سوام النوم بالمقل
والركب ميل على اكوار من طرب   صاح وآخر من خمر الهوى ثمل
فقلت أدعوك للجلى لتنصرني   وأنت تخذلني في الحادث الجلل
تنام عيني وعين النجم ساهرة   وتستحيل وصبغ الليل لم يحل
فهل تعين على غي هممت به   والغي يزجر أحياناً عن الفشل
إني أريد طروق الحي من إضم   وقد حماه رماة من بين ثعل
يحمون بالبيض والسمر اللدان به   سود الغدائر حمر الحلي والحلل
فسر بنا في ذمام الليل معتسفاً   فنفحة الطيب تهدينا إلى الحلل
فالحب حيث العدا والأسد رابضة   حول الكناس لها غاب من الأسل
نؤم ناشئة بالجزع قد سقيت   نصالها بمياه الغنج والكحل
قد زاد طيب أحاديث الكرام بها   ما بالكرائم من جبن ومن بخل
تبيت نار الهوى منهن في كبد   حرى ونار القرى منهم على قلل

يقتلن أنضاء حب لا حراك بها   وينحرون كرام الخيل والإبل
يشفى لديغ العوالي في بيوتهم   بنهلة من غدير الخمر والعسل
لعل إلمامة بالجزع ثانية   يدب منها نسيم البرء في عللي

لا أكره الطعنة النجلاء قد شفعت   برشقة من نبال الأعين النجل

ولا أهاب الصفاح البيض تسعدني   باللمح من خلل الأستار والكلل

ولا أخل بغزلان تغازلني   ول دهتني أسود الغيل بالغيل

حب السلامة يثني هم صاحبه   عن المعالي ويغري المرء بالكسل

فإن جنحت إليه فاتخذ نفقاً   في الأرض أو سلماً في الجو واعتزل

ودع غمار العلا للمقدمين على   ركوبها واقتنع منهن بالبلل

رضى الذليل بخفض العيش مسكنة   والعز تحت رسيم الأينق الذلل

فادرأبها في نحور البيد حافلة   معارضات مثاني اللجم بالجدل

إن العلا حدثتني وهي صادقة   فيما تحدث أن العز في النقل

لو أن في شرف المأوى بلوغ منى   لم تبرح الشمس يوماً دارة الحمل

أهبت بالحظ لو ناديت مستمعاً   والحظ عني بالجهال في شغل

لعله إن بدا فضلي ونقصهم   لعينه نام عنهم أو تنبه لي

أعلل النفس بالآمال أرقبها   ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل

لم أرض بالعيش والأيام مقبلة   فكيف أرضى وقد ولت على عجل

غالى بنفسي عرفاني بقيمتها   فصنتها عن رخيص القدر مبتذل

وعادة النصل أن يزهى بجوهره   وليس يعمل إلا في يدي بطل

ما كنت أوثر أن يمتد بي زمني   حتى أرى دولة الأوغاد والسفل

تقدمتني أناس كان شوطهم   وراء خطوي إذ أمشي على مهل

هذا جزاء امرئ أقرانه درجوا   من قبله فتمنى فسحة الأجل

وإن علاني من دوني فلا عجب   لي أسوة بانحطاط الشمس عن زحل

فاصبر لها غير محتال ولا ضجر   في حادث الدهر ما يغني عن الحيل

أعدى عدوك أدنى من وثقت به   فحاذر الناس واصحبهم على دخل

وحسن ظنك بالأيام معجزة   فظن شراً وكن منها على وجل

غاض الوفاء وفاض الغدر وانفرجت   مسافة الخلف بين القول العمل

وشان صدقك عند الناس كذبهم   وهل يطابق معوج بمعتدل

إن كان ينجع شيء في ثبابهم   على العهود فسبق السيف للعذل

يا وراداً سؤر عيش كله كدر أنفقت صفوك في أيامك الأول
فيم اقتحامك لج البحر تركبه وأنت يكفيك منه مصة الوشل
ملك القناعة لا يخشى عليه ولا يحتاج فيه إلى الأنصار والحول
ترجو البقاء بدار لا ثبات لها فهل سمعت بظل غير منتقل
ويا خبيراً على الأسرار مطلعاً أصمت ففي الصمت منجاة من الزلل
قد رشحوك لأمر لو فطنت له فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

ومن رقيق شعره قوله:

يا قلب مالك والهوى من بعد ما طاب السلو وأقصر العشاق
أو ما بدا لك في الإفاقة والألى نازعتهم كأس الغرام أفاقوا
مرض النسيم وصح والداء الذي تشكوه لا يرجى له إفراق
وهذا خفوق البرق والقلب الذي تطوى عليه أضالعي خفاق

وله أيضاً:

أجما البكا يا مقلتي فإننا على موعد للبين لا شك واقع
إذا جمع العشاق موعدهم غداً فواخجلتا إن لم تعني مدامعي

ومن شعره:

ولا غرو إن أهديت من فيض بره إليه قليلاً ليس يعتده نزرا
فإني رأيت الغيم يحمل ماءه من البحر غمراً ثم يهدي له قطرا

ومن شعره:

لا تحقرن الرأي وهو موافق حكم الصواب وإن بدا من ناقص
فالدر وهو أجل شيء يقتنى ما حط رتبته هوان الغائص

وله أيضاً:

أخاك أخاك فهو أجل ذخر إذا نابتك نايبة الزمان
وإن رابت إساءته فهبها لما فيه من الشيم الحسان
تريد مهذباً لا غش فيه وهل عود يفوح بلا دخان

ومن شعره:

ما فلان: إلا كجيفة ميت والضرورات أحوجتنا إليه
فمن اضطر غير باغ ولا عا د فلا إثم في الكتاب عليه

وله من أبيات:

لا غرو إن حزت المروءة والتقى	والدين والدنيا لم تتصدع
إن النواظر والقلوب صغيرة	تحوي الكبيرة وليس بالمستبدع

وله:

جامل أخاك إذا استربت بوده	وانظر به عقب الزمان يعاد
فإن استمر على الفساد فخله	فالعضو يقطع للفساد الزائد

وذكره أبو المعالي الحظيري في كتاب "زينة الدهر" وذكر له مقاطيع، وذكره أبو البركات ابن المستوفي في "تاريخ إربل" وقال: إنه ولي الوزارة بمدينة إربل مدة، وذكر العماد الكاتب في كتاب "نصرة الفترة وعصرة الفطرة"-وهو تاريخ الدولة السلجوقية-أن الطغرائي المذكور كان ينعت بالأستاذ، وكان وزير السلطان مسعود بن محمد السلجوقي بالموصل، وأنه لما جرى المصاف بينه وبين أخيه السلطان محمود بالقرب من همذان وكانت النصرة لمحمود، فأول من أخذ الأستاذ أبو إسماعيل وزير مسعود، فأخبر به وزير محمود، وهو الكمال نظام الدين أو طالب علي بن أحمد بن حرب السميرمي، فقال الشهاب أسعد-وكان طغرائياً في ذلك الوقت نيابة عن النصير الكاتب-: هذا الرجل ملحد، يعني الأستاذ، فقال وزير محمود: من يكن ملحداً يقتل، فقتل ظلماً.

وقد كانوا خافوا منه، ولا قبل عليه لفضله، فاعتدوا قتله بهذه الحجة، وكانت هذه الواقعة سنة ثلاث عشرة وخمسمائة، وقيل إنه قتل سنة أربع عشرة، وقيل ثماني عشرة، وقد جاوز ستين سنة، وفي شعره ما يدل على أنه بلغ سبعاً وخمسين سنة لأنه قال وقد جاءه مولود:

هذا الصغير الذي وافى على كبري	اقر عيني ولكن زاد في فكري
سبع وخمسون لو مرت على حجر	لبان تأثيرها في صفحة الحجر

والله تعالى أعلم بما عاش بعد ذلك، رحمه الله تعالى.

وقتل الكمال السميرمي الوزير المذكور يوم الثلاثاء سلخ صفر سنة ست عشرة وخمسمائة في السوق ببغداد عند المدرسة النظامية، وقيل: قتله عبد أسود كان للطغرائي المذكور، لأنه قتل أستاذه.

والطغرائي-بضم الطاء المهملة وسكون الغين المعجمة وفتح الراء وبعدها الف مقصورة-هذه النسبة إلى من يكتب الطغري، وهي الطرة التي تكتب في أعلى الكتب فوق البسملة بالقلم الغليظ، ومضمونها نعوت الملك الذي صدر الكتاب عنه، وهي لفظة أعجمية.

والسميرمي-بضم السين المهملة وفتح الميم وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها راء ثم ميم-هذه النسبة إلى سميرم، وهي بلدة بين أصبهان وشيراز، وهي آخر حدود أصبهان.

أبو الفوارس ابن الخازن

أبو الفوارس الحسين بن علي بن الحسين المعروف بابن الخازن الكاتب؛ كان فريد عصره في الكتابة، وكتب ما لم يكتبه أحد، فإنه كتب فيما كتب خمسمائة نسخة من كتاب الله العزيز ما بين ربعة وجامع، وله شعر حسن، فمن ذلك قوله:

عنت الدنيا لطالبها	واستراح الزاهد الفطن
كل ملك نال زخرفتها	حسبه مما حوى كفن
يقتني مالاً ويتركه	في كلا الحالين مفتتن
أملي كوني على ثقة	من لقاء الله مرتهن

أكره الدنيا وكيف بها | والذي تسخو به وسن
لم تدم قبلي على أحد | فلماذا الهم والحزن

قال محمد بن أبي الفضل الهمذاني المؤرخ في "ذيل تجاب الأمم" لمسكويه: توفيابن الخازن المذكور في ذي الحجة سنة اثنتين وخمسمائة فجأة، رحمه الله تعالى. وقال الشريف أبو العمر المبارك بن أحمد الأنصاري: توفي ليلة الثلاثاء، ودفن من الغد، وهو اليوم السادس والعشرون من الشهر المذكور.

أبو عبد الله الشيعي

أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا المعروف بالشيعي القائم بدعوة عبيد الله المهدي جد ملوك مصر؛ وقصته في القيام بالغرب مشهورة، وله بذلك سيرة مسطورة، وسيأتي في حرف العين عند ذكر المهدي عبيد الله طرف من أخباره إن شاء الله تعالى.

وأبو عبد الله المذكور من أهل صنعاء اليمن، وكان من الرجال الدهاة الخبيرين بما يصنعون، فإنه دخل إفريقية وحيداً بلا مال ولا رجال، ولم يزل يسعى إلى أن ملكها، وهرب ملكها أبو مضر زيادة الله آخر ملوك بني الأغلب منه إلى بلاد المشرق وهلك هناك، وحديثه يطول.

ولما مهد القواعد للمهدي ووطد له البلاد وأقبل المهدي من المشرق، وعجز عن الوصول إلى أبي عبد الله المذكور، وتوجه إلى سجلماسة، وأحس به صاحبها اليسع آخر ملوك بني مدرار، فأمسكه واعتقله، ومضى إليه أبو عبد الله وأخرجه من الاعتقال وفوض إليه أمر المملكة–اجتمع به أخوه أبو العباس أحمد، وكان هو الأكبر، أعني أحمد، وندمه على ما فعل، وقال له: تكون أنت صاحب البلاد والمستقل بأمورها وتسلمها إلى غيرك وتبقى من جملة الأتباع، وكرر عليه القول، فندم أبو عبد الله على ما صنع واضمر الغدر، واستشعر منهما المهدي، فدس عليهما من قتلهما في ساعة واحدة، وذلك في منتصف جمادى الآخرة سنة ثمان وتسعين ومائتين بمدينة رقادة بين القصرين، رحمهما الله تعالى.

والشيعي–بكسر الشين المعجمة وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها عين مهملة–هذه النسبة إلى من يتولى شيعة الإمام علي بن أبي طالب، رضي الله عنه.

ورقادة–بفتح الراء وتشديد القاف وبعد الألف دال مهملة وبعد الدال هاء ساكنة–مدينة من أعمال القيروان من بلاد إفريقية.

وأما زيادة الله فقد ذكره الحافظ ابن عساكر في "تاريخ دمشق" فقال: هو أبو مضر زيادة الله بن عبد الله بن إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب ابن إبراهيم بن سالم بن عقال بن خفاجة، وهو زيادة الله الأصغر، آخر ملوك بني الأغلب بإفريقية، التميمي، وقال: قدم دمشق سنة اثنتين وثلثمائة مجتازاً إلى بغداد حين غلب على ملكه بإفريقية، ثم قال في آخر الترجمة: بلغني أن زيادة الله توفي بالرملة في سنة أربع وثلثمائة في جمادى الأولى منها، ودفن بالرملة، فساخ قبره فسقف عليه وترك مكانه، وهو من ولد الأغلب بن عمرو المازني البصري، وكان الرشيد ولى عمراً المغرب بعد أن مات إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنهم، فما زال بالمغرب إلى أن توفي وخلف ولده الأغلب ثم أولاده إلى أن صار الأمر إلى زيادة الله هذا.

انتهى ما ذكره ابن عساكر.

وفي ترجمة أبي القاسم علي بن القطاع اللغوي هذا النسب، وبينهما اختلاف قليل، لكني نقلته على ما وجدته في الموضعين.

وقال غير ابن عساكر: توفي أبو مضر زيادة الله بن محمد بن إبراهيم بن الأغلب بالرقة، وحمل تابوته إلى القدس الشريف، ودفن بها في سنة ست وتسعين ومائتين، وكانت مدة مملكته إلى أن خرج عن القيروان خمس سنين وتسعة أشهر وخمسة عشر يوماً. وكان سبب خروجه من القيروان أن أبا عبد الله الشيعي المذكور لما هزم إبراهيم بن الأغلب، بلغ الخبر زيادة الله المذكور فشد أمواله وأخذ خواص حرمه وخرج من رقادة ليلاً، وبعد خروجه بويع إبراهيم بن الأغلب. وكانت مملكة بني الأغلب مائتي سنة واثنتي عشرة سنة وخمسة أشهر وأربعة عشر يوماً، والشرح في ذلك يطول فاختصرته.

حسان التنوخي

أبو ليلى حسان بن سنان بن أوفى بن عوف التنوخي وهو جد إسحاق بن البهلول؛ سمع أنس بن مالك رضي الله عنه؛ روى عنه ابن ابنه إسحاق، وقال أبو حاتم محمد بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن البهلول: قال جدي إسحاق عن جدي حسان قال: خرجت في وفد من أهل الأنبار إلى الحجاج إلى واسط نتظلم إليه من عامله علينا الرقيل، فدخلنا ديوانه فرأيت شيخاً والناس حوله يكتبون عنه، فسألت عنه فقيل لي: أنس بن مالك، فوقفت عليه فقال لي: من أين؟ فقلت: من الأنبار، جئنا إلى الأمير نتظلم إليه، فقال لي: بارك الله فيك، فقلت: حدثني بشيء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم يا خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: سمعته يقول: مر بالمعروف وأنه عن المنكر ما استطعت؛ وأعجلني أصحابي فلم أسمع منه غير هذا الحديث؛ قال أبو حاتم وكان إسحاق يقول: أرجو أن أكون ممن سبقت فيه دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: طوبى لمن رآني ولمن رأى من رآني. وكان من بركة دعاء أنس لحسان أنه عاش مائة سنة وعشرين سنة، وخرج من أولاده جماعة فقهاء وقضاة ورؤساء وصلحاء وكتاب وزهاد؛ ولد حسان سنة ستين من الهجرة، وتوفي سنة 180 رحمه الله تعالى وكان أحياناً يكنى أبا العلاء ولد بالأنبار على النصرانية وكانت دينه ودين آبائه وكانت له حين أسلم ابنه بالغة فأقامت على النصرانية فلما حضرتها الوفاة أوصت لدير تنوخ بالأنبار؛ وكان حسان يتكلم ويقرأ ويكتب بالفارسية والسريانية والعربية ولحق الدولتين، فلما قلد أبو العباس السفاح ربيعة الرأي قضاء الأنبار، أتي بكتب مكتوبة بالفارسية فلم يحسن أن يقرأها، فطلب رجلاً ثقة ديناً يحسن قراءتها فدل على حسان بن سنان فجيء به فكان يقرأ له الكتب الفارسية، فلما اختبره رضي مذهبه واستكتبه على جميع أمره.

أبو سلمة الخلال

أبو سلمة حفص بن سليمان الخلال الهمداني مولى السبيع وزير أبي العباس السفاح أول خلفاء بني العباس؛ وأبو سلمة أول من وقع عليه اسم الوزير، وشهر بالوزارة في دولة بني العباس و لم يكن من قبله يعرف بهذا النعت، لا في دولة بني أمية ولا في غيرها من الدول. وكان السفاح يأنس به، لأنه كان ذا مفاكهة حسنة وممتعاً في حديثه، أديباً، عالماً بالسياسة والتدبير، وكان ذا يسار ويعالج الصرف بالكوفة، وأنفق أموالاً كثيرة في إقامة دولة بني العباس، وصار إلى خراسان في هذا المعنى، وأبو مسلم الخراساني يومئذ تابع له في هذا الأمر، وكان يدعو إلى بيعة إبراهيم الإمام أخي السفاح، فلما قتله مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية بحران وانقلبت الدعوة إلى السفاح، توهموا من أبي سلمة المذكور أنه مال إلى العلويين، فلما ولي السفاح واستوزره بقي في نفسه منه شيء، فيقال: إن السفاح سير إلى أبي مسلم وهو بخراسان يعرفه بفساد نية أبي سلمة ويحرضه على قتله، ويقال: إن أبا مسلم لم اطلع على ذلك كتب إلى السفاح وعرفه بحاله وحسن له قتله، فلم يفعل، وقال: هذا الرجل بذل ماله في خدمتنا ونصحنا، وقد صدرت منه هذه الزلة، فنحن نغتفرها له.

فلما رأى أبو مسلم امتناعه من ذلك سير جماعة كمنوا له ليلاً، وكانت عادته أن يسمر عند السفاح، فلما خرج من عنده وهو في مدينته بالأنبار و لم يكن معه أحد وثبوا عليه وخبطوه بأسيافهم، وأصبح الناس يقولون: قتلته الخوارج، وكان قتله بعد خلافة السفاح بأربعة أشهر، وولي السفاح الخلافة ليلة الجمعة ثالث عشر شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وثلاثين ومائة. ولما سمع السفاح بقتله أنشد:

إلى النار فليذهب ومن كان مثله ... على أي شيء فاتنا منه نأسف

وذكر في كتاب "أخبار الوزراء" أن قتله كان في رجب سنة اثنتين وثلاثين ومائة.

وكان أبو سلعة يقال له: وزير آل محمد، فلما قتل عمل في ذلك سليمان ابن المهاجر البجلي:

إن المساءة قد تسر وربما ... كان السرور بما كرهت جديرا

إن الوزير وزير آل محمد ... أودى فمن يشناك كان وزيرا

و لم يكن خلالاً، وإنما كان مترله بالكوفة في حارة الخلالين، فكان يجلس عندهم لقرب داره منهم، فسمي خلالاً.

والهمداني–بفتح الهاء وسكون الميم وفتح الدال المهملة وبعد الألف نون–وهذه النسبة إلى همدان، وهي قبيلة عظيمة باليمن.

والسبيع: يذكر في حرف العين عند ذكر أبي إسحاق السبيعي إن شاء الله تعالى.

وقد اختلف أرباب اللغة في اشتقاق الوزارة على قولين: أحدهما أنها من الوزر–بكسر الواو–وهو الحمل، وكأن الوزير قد حمل عن السلطان الثقل، وهذا قول ابن قتيبة، والثاني: أنها من الوزر–بفتح الواو والزاي–وهو الجبل الذي يعتصم به لينجى به من الهلاك، وكذلك الوزير معناه الذي يعتمد عليه الخليفة أو السلطان ويلتجئ إلى رأيه، وهذا قول أبي إسحاق الزجاج، والله أعلم.

حفص بن غياث القاضي

أبو عمرو بن غياث بن طلق بن معاوية بن مالك بن الحارث بن ثعلبة ابن عامر بن ربيعة بن جشم بن وهبيل بن سعد بن مالك بن النخع بن مذحج النخعي الكوفي؛ سمح عبد الله بن عمر العمري وهشام بن عمرو وإسماعيل بن أبي خالد وأبا إسحاق الشيباني والأعمش وخلقاً سواهم؛ روى عنه ابنه عمر وأبو نعيم الفضل بن دكين وعفان بن مسلمة وأحمد بن حنبل ويحيى بن معين وعامة الكوفيين. ولي القضاء ببغداد وحدث بها ثم عزل وولي قضاء الكوفة؛ قال حميد بن الربيع: لما جيء بعبد الله بن إدريس وحفص بن غياث ووكيع ابن الجراح إلى أمير المؤمنين هارون الرشيد ليوليهم القضاء دخلوا عليه، فأما ابن إدريس فقال: السلام عليكم، وطرح نفسه كأنه مفلوج، فقال هارون: خذوا بيد الشيخ، لا فضل في هذا؛ وأما وكيع فقال: والله يا أمير المؤمنين ما أتصرف بها منذ سنة، ووضع إصبعه على عينه، وعنى إصبعه، فأعفاه؛ وأما حفص بن غياث فقال: لولا غلبة الدين والعيال ما وليت.

وكان حفص المذكور لما قربوا من بغداد طرى خضابه فالتفت ابن إدريس إلى وكيع فقال: أما هذا فقد قبل.

وقال حفص وهو قاض على الشرقية لرجل يسأل عن مسائل القضاء: لعلك تريد أن تكون قاضياً؟ لأن يدخل الرجل إصبعه في عينه فيقلعها فيرمي بها خير له من أن يكون قاضياً.

وكان حفص يقول: لو رأيت أني اسر بما أنا فيه هلكت.

قال عمرو بن حفص بن غياث: لما حضرت أبي الوفاة أغمي عليه، فبكيت عند رأسه فأفاق فقال: ما يبكيك؟ قلت: أبكي لفراقك ولما دخلت فيه من هذا الأمر، يعني القضاء، فقال لابنه: يا بني ما حللت سراويلي على حرام قط ولا جلس بين يدي خصمان فباليت على من توجه الحكم بينهما.

وقال الخطيب: كان حفص بن غياث المذكور جالساً في الشرقية للقضاء، فأرسلإليه الخليفة يدعوه، فقال لرسوله: حتى أفرغ من أمر الخصوم، إذ كنت أجيراً لهم، وأصير إلى أمير ا لمؤمنين؛ ولم يقم حتى تفرق الخصوم.

وقال غنام بن حفص: مرض أبي خمسة عشر يوماً، فدفع إلي مائة درهم وقال: امض بها إلى العامل وقل له هذه رزق خمسة عشر يوماً لم أحكم فيها بين المسلمين لاحظ لي فيها.

وقال: باع رجل من أهل خراسان جمالاً بثلاثين ألف درهم من مرزبان المجوسي وكيل أم جعفر فمطله ثمنها وحبسه عن سفره، وطال ذلك على الرجل، فأتى بعض أصحاب حفص بن غياث فشاوره فقال له: اذهب إليه فقل له: أعطني ألف درهم وأحيل عليك ببقية المال وأخرج إلى خراسان، فإذا فعلت هذا فأخبرني حتى أشير عليك؛ ففعل الرجل وأتى مرزبان فأعطاه ألف درهم فرجع إلى الرجل فأخبره فقال: عد إليه فقل له: إذا ركبت غداً فطريقك على القاضي تحضر، وأوكل رجلاً بالقبض على المال واخرج فإذا جلس إلى القاضي فادع عليه بما بقي لك من المال، فإذا أقر حبسه القاضي وأخذت مالك. فرجع إلى مرزبان فسأله فقال: انتظرني بباب القاضي؛ فلما ركب من الغد وثب إليه الرجل وقال: إن رأيت أن تترك إلي القاضي حتى أوكل بقبض المال وأخرج، فنزل مرزبان إلى حفص المذكور فقال الرجل: أصلح الله القاضي، لي على هذا الرجل تسعة وعشرون ألف درهم، فقال حفص: ما تقول يا مجوسي؟ قال: صدق، أصلح الله القاضي، فقال القاضي: ما تقول يا رجل فقد أقر لك، فقال: يعطيني مالي، فأقبل حفص على المجوسي فقال: ما تقول؟ فقال: هذا المال على السيدة، فقال: أنت أحمق تقر ثم تقول على السيدة؟ ما تقول يا رجل؟ قال: أصلح الله القاضي إن أعطاني مالي وإلا حبسته، قال حفص: ما تقول يا مجوسي؟ قال: المال على السيدة، فقال حفص: خذوا بيده إلى الحبس؛ فلما حبس بلغ الخبر أم جعفر فغضبت وبعثت إلى السندي: وجه إلى المرزبان، وكانت القضاة تحبس الغرماء في مجلس الشرط، فأخرجه. وبلغ الخبر حفصاً فقال: أحبس أنا ويخرج السندي؟ لا جلست مجلسي هذا أو يرد مرزبان إلى الحبس، فجاء السندي إلى أم جعفر فقال: الله الله في، إنه حفص ابن غياث وأخاف من أمير

المؤمنين أ، يقول لي: بأمر من أخرجته؟ رديه إلى الحبس، وأنا أكلم حفصاً في أمره؛ فرجع مرزبان إلى الحبس فقالت أم جعفر لهارون: قاضيك هذا أحمق، حبس وكيلي واستخف به، فمره لا ينظر في الحكم وتولي أمره أبا يوسف، فأمر لها بالكتاب وبلغ حفصاً الخبر فقال: أحضري شهوداً حتى أسجل لك على المجوسي؛ وجلس حفص وسجل على المجوسي بالمال، وورد كتاب هارون مع خادم فقال: هذا كتاب أمير المؤمنين، فقال: مكانك؛ نحن في شيء حتى نفرغ منه، فقال: كتاب أمير المؤمنين، فقال: انظر ما يقال لك، فلما فرغ حفص من السجل أخذ الكتاب من الخادم فقرأه فقال: اقرأ على أمير المؤمنين السلام وقل له إن كتابه ورد وقد أنفذت الحكم، فقال الخادم: قد عرفت ما صنعت، أبيت أن تأخذ كتاب أمير المؤمنين حتى تفرغ مما تريد؛ والله لأخبرن أمير المؤمنين بما فعلت! فقال حفص: قل له ما أحببت، فجاء الخادم فأخبر هارون فضحك وقال للحاجب: مر لحفص بثلاثين ألف درهم، فركب يحيى بن خالد فاستقبل حفصاً منصرفاً من مجلس القضاء فقال: أيها القاضي قد سررت أمير المؤمنين وأمر لك بثلاثين ألف درهم فما السبب؟ فقال: تمم الله سرور أمير المؤمنين وأحسن حفظه وكلاءته ما زدت على ما أفعل كل يوم، سجلت على مرزبان المجوسي بما وجب عليه؛ قال يحيى بن خالد: فمن هذا سر أمير المؤمنين، فقال حفص: الحمد لله كثيراً، فقالت أم جعفر لهارون: لا أنا ولا أنت إلا أن تعزل حفصاً، فأبى عليها، ثم ألحت عليه فعزله عن الشرقية وولاء قضاء الكوفة، فمكث عليها ثلاث عشرة سنة.

وكان أبو يوسف لما ولي حفص القضاء قال لأصحابه: تعالوا نكتب نوادر حفص، فلما وردت أحكامه وقضاياه على أبي يوسف قال له أصحابه: أين النوادر التي زعمت بكتبها؟ قال: ويحكم إن حفصاً أراد الله فوفقه.

وقال حفص: والله ما وليت القضاء حتى حلت لي الميتة.

ومات رحمه الله ولم يخلف درهماً وخلف عليه تسعمائة درهم ديناً.

وكان يقال: ختم القضاء بحفص بن غياث.

وقال الحسين بن المغيرة: رأى بعض الصالحين كأن زورقاً غرق بين الجسرين وفيه عشرون قاضياً، فما نجا منهم إلا ثلاثة على سوءاقم: حفص بن غياث والقاسم بن معن وشريك.

وقال يحيى بن معين: جميع ما حدث به حفص بن غياث ببغداد والكوفة إنما هو من حفظه، لم يخرج كتاباً؛ كتبوا عنه ثلاثة آلاف وأربعة آلاف حديث من حفظه.

قال عبيد الله بن صالح العجلي: حدثني أبي قال: حفص بن غياث ثقة مأمون فقيه وكان على قضاء الكوفة، وكان وكيع ربما يسأل عن الشيء فيقول: اذهبوا إلى قاضينا فاسألوه، وكان شيخاً عفيفاً مسلماً.

ولد حفص بن غياث سنة سبع عشرة ومائة ومات سنة أربع وتسعين ومائة في العشر من ذي الحجة، وقيل مات سنة ست وتسعين ومائة، رحمه الله تعالى.

الحكم بن عبدل

الحكم بن عبدل بن جبلة بن عمرو بن ثعلبة بن عقال بن بلال بن سعد بن حبال الأسدي؛ شاعر مجيد مقدم في طبقته هجاء خبيث اللسان من شعراء الدولة الأموية، وكان أعرج أحدب، ومترله ومنشؤه الكوفة.

حدث العتبي قال: كان الحكم بن عبدل الشاعر الأسدي أعرج لا تفارقه العصا فترك الوقوف بأبواب الملوك، وكان يكتب على عصاه حاجته ويبعث بها مع رسوله فلا يحبس له رسول ولا تؤخر له حاجة، فقال في ذلك يحيى بن نوفل:

عصا حكم في الدار أول داخل ... ونحن على الأبواب نقصى ونحجب
وكانت عصا موسى لفرعون آية ... وهذي لعمر الله أدهى وأعجب
تطاع فلا تعصى ويحذر سخطها ... ويرغب في المرضاة منها ويرهب

قال: فشاعت هذه الأبيات وضحك الناس منها، فكان ابن عبدل بعد ذلك يقول ليحيى: يا ابن الزانية ما أردت من عصاي حتى صيرتها ضحكة، واجتنب أن يكتب عليها كما كان يفعل وكاتب الناس بحوائجه في الرقاع.

وكان للحكم بن عبدل صديق أعمى يقال له أبو علية، وكان ابن عبدل قد أقعد، فخرجا ليلة من مترلهما إلى مترل بعض أخوانهما والحكم يحمل وأبو علية يقاد، فلقيهما صاحب العسس بالكوفة فأخذهما فحبسهما، فلما استقرا في الحبس نظر الحكم إلى عصا أبي علية موضوعة إلى جانب عصاه فضحك وأنشأ يقول:

حبسي وحبس أبي علي من أعاجيب الزمان

أعمى يقاد ومقعد لا الرجل ولا اليدان

هذا بلا بصر هناك وبي يخب الحاملان

يا من رأى ضب الفلاة قرين حوت في مكان

طرفي وطرف أبي علي دهرنا متوافقان

من يقتحم بجواده ... فجوادنا عكازتان

طرفان لا علفاهما ... بشرى ولا يتصاولان

هبني وإياه الحريق ... أكان يسطع بالدخان

وكان اسم أبي علية يحيى، فقال الحكم فيه أيضاً:

أقول ليحيى ليلة السجن سادراً ... ونومي به نوم الأسير المقيد

أعني على رعي النجوم ولحظها ... أعنك على تحبير شعر مقصد

ففي حالتينا عبرة وتفكر ... وأعجب منها حبس أعمى ومقعد

كلانا إذا العكاز فارق كفه ... يخر صريعاً بل على الوجه يسجد

فعكازه يهدي إلى السبل اكمهاً ... وأخرى مقام الرجل قامت مع اليد

قال: وولي الشرطة بالكوفة رجل أعرج ثم ولي الإمارة آخر أعرج وخرج ابن عبدل–وكان أعرج–فلقي سائلاً أعرج قد تعرض للأمير يسأله فقال ابن عبدل للسائل:

ألق العصا ودع التحامل والتمس ... عملاص فهذي دولة العرجان

لأميرنا وأمير شرطتنا معاً ... يا قومنا لكليهما رجلان

فإذا يكون أميرنا ووزيره ... وأنا فإن الرابع الشيطان

فبلغت أبياته ذلك الأمير فبعث له مائتي درهم وسأله أن يكف عنه.

وقيل: قدم الحكم بن عبدل واسطاً على ابن هبيرة وكان بخيلاً، فأقبل حتى وقف بين يديه فقال:

أتيتك في أمر من آمر عشيرتي ... وأعلى الأمور المفظعات جسيمها

فإن قلت لي في حاجتي أنا فاعل ... فقد ثلجت نفسي وولت همومها

قال: أنا فاعل إن اقتصدت فما حاجتك؟ قال: غرم لزمنا، قال: كم هو؟ قال: أربعة آلاف درهم، قال: نحن مناصفوها، قال: أصلح الله الأمير، أتخاف علي التخمة إن أتممتها؟ قال: أكره أن أعود الناس هذه العادة، قال: فأعطني جميعها سراً وامنعني جميعها ظاهراً حتى تعود الناس المنع وإلا فالضرر واقع عليك إن عودتهم نصف ما يطلبون، فضحك ابن هبيرة وقال: ما عندنا غير ما بذلناه لك، فجثا بين يديه، وقال: امرأتي طالق إن أخذت أقل من أربعة آلاف درهم أو انصرفت وأنا غضبان، فقال: اعطوه إياها قبحه الله فإنه ما علمت حلاف مهين، فأخذها وانصرف.

وقيل لما وقع الطاعون بالكوفة ومات منهم بنو زر بن حبيش العامري صاحب علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكانوا ظرفاء وبنو عم لهم، فقال الحكم بن عبدل الغاضري يرثيهم:

أبعد بني زر وبعد ابن جندل ... وعمرو أرجي لذة العيش في خفض

مضوا وبقينا نأمل العيش بعدهم ... ألا إن من يبقى على إثر من يمضي

حدث الأصمعي قال: كانت امرأة موسرة بالكوفة وكانت لها على الناس ديون، فاستعانت بابن عبدل في دينها، وقالت: إني امرأة ليس لي زوج، وجعلت تعرض بأنها تزوجه نفسها، فقام ابن عبد في دينها حتى استوفته فلما طالبها بالوفاء كتبت إليه:

سيخطبك الذي حاولت مني ... فقطع حبل وصلك من حبالي

كما أخطاك معروف ابن بشر ... وكنت تعد ذلك راس مال

وكان ابن عبدل أتى ابن بشر بالكوفة فسأله فقال: أخمسمائة أحب إليك العام أم ألف في قابل؟ فقال: ألف في قابل، فلما أتاه قال: ألف أحب إليك أم ألفان في قابل؟ قال: فلم يزل ذلك دابه حتى مات ابن بشر وما أعطاه شيئاً.

قال: ودخل ابن عبدل على عبد الملك بن مروان بن بشر فقال: ما أحدثت بعدي؟ قال: خطبت امرأة من قومي فردت علي جواب رسالتي بيتي شعر، ما أجود ما ذكرت بنفسك، وأمر له بألفي درهم.

ومثل هذا قال عبد الملك بن مروان لرجل: ما مالك؟ قال: ما أكف به وجهي وأعود منه على صديقي، قال لقد لطفت في المسألة، وأمر له بمال.

وقريب من هذا قال قيس بن سعد لعجوز: كيف حالك؟ قالت: ما في بيتي جرذ، فقال: ما ألطف ما سألت! لأملأن بيتك جرذاناً، وأمر لها بمال.

وشخص الحكم بن عبدل مع عمر بن هبيرة إلى واسط فشكا إليه الضيقة فوهب له جارية من جواريه فواثبها ليلة صارت إليه فنكحها تسعة أو عشرة طلقاً واحداً، فلما أصبحت قالت له: جعلت فداك من أي الناس أنت؟ قال: امرؤ من أهل الشام، قالت: بهذا العمل غلبتم أهل العراق في حربكم.

حماد بن أبي حنيفة

أبو إسماعيل حماد ابن الإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت؛ كان على مذهب أبيه، رضي الله تعالى عنه، وكان من الصلاح والخير على قدم عظيم، ولما توفي أبوه كانت عنده ودائع كثيرة من ذهب وفضة وغير ذلك وأربابها غائبون وفيهم أيتام، فحملها ابنه حماد المذكور إلى القاضي ليتسلمها منه، فقال له القاضي: ما نقبلها منك ولا نخرجها عن يدك فإنك أهل لها وموضعها، فقال حما للقاضي: زنها واقبضها حتى تبرأ منها ذمة أبي حنيفة، ثم افعل ما بدا لك، ففعل القاضي ذلك وبقي في وزنها أياماً، فلما كمل وزنها استتر حماد فلم يظهر حتى دفعها إلى غيره.

وكان ابنه إسماعيل قاضي البصرة وعزل عنها بالقاضي يحيى بن أكثم ورأيت في كتاب "أخبار أبي حنيفة" أن القاضي يحيى بن أكثم لما وصل إلى البصرة وعزم إسماعيل بن حماد على السفر شيعه القاضي يحيى بن أكثر فكان الناس يدعون لإسماعيل ويقولون له: عففت عن أموالنا ودمائنا، فيقول إسماعيل: وعن أبنائكم، وكان يعرض بما يتهم به القاضي يحيى بن أكثم. وقال إسماعيل المذكور: كان لنا جار طحان رافضي، وكان له بغلان سمى أحدهما أبا بكر والآخر عمر، فرمحه ذات ليلة أحد البغلين فقتله، فأخبر جدي أبو حنيفة به، فقال: انظروا فإني إخال أن البغل الذي سماه عمر هو الذي رمحه،

فنظروا، فكان كما قال.

وكانت وفاة حماد المذكور في ذي القعدة سنة ست وسبعين ومائة، رحمه الله تعالى، وسيأتي ذكر والده إن شاء الله تعالى.

حماد الراوية

أبو القاسم حماد بن أبي ليلى سابور–وقيل ميسرة–بن المبارك بن عبيد الديلمي الكوفي مولى بني بكر بن وائل المعروف بالراوية، وقال ابن قتيبة في كتاب "المعارف" وفي كتاب "طبقات الشعراء": إنه مولى مكنف بن زيد الخيل الطائي الصحابي رضي الله عنه؛ كان من أعلم الناس بأيام العرب وأخبارها وأشعارها وأنسابها ولغاتها، وهو الذي جمع السبع الطوال فيما ذكره أبو جعفر النحاس، وكانت ملوك بني أمية تقدمه وتؤثره وتستزيره، فيفد عليهم وينال منهم ويسألونه عن أيام العرب وعلومها.

وقال له الوليد بن يزيد الأمويبوماً وقد حضر مجلسه: بم استحققت هذا الاسم فقيل لك الراوية؟ فقال: بأني أروي لكل شاعر تعرفه يا أمير المؤمنين أو سمعت به، ثم أروي لأكثر منهم ممن تعترف أنك لا تعرفه ولا سمعت به، ثم لا ينشدني أحد شعراً قديماً ومحدثاً إلا ميزت القديم من المحدث، فقال له: فكم مقدار ما تحفظ من الشعر؟ فقال: كثير، ولكني أنشدك على كل حرف من حروف المعجم مائة قصيدة كبيرة سوى المقطعات من شعراء الجاهلية دون شعراء الإسلام، قال: سأمتحنك في هذا، وأمره بالإنشاد، فأنشد حتى ضجر الوليد، ثم وكل به من استحلفه أن يصدقه عنه ويستوفي عليه، فأنشده ألفين وتسعمائة قصيدة للجاهلية، وأخبر الوليد بذلك، فأمر له بمائة ألف درهم.

قال الطرماح: أنشدت حماداً الراوية قصيدة لي ستين بيتاً فسكت ساعة ثم قال: أهذه لك؟ قلت: نعم، قال: ليس الأمر كذلك، ثم ردها علي كلها وزيادة عشرين بيتاً زادها في وقته.

دخل مطيع بن إياس ويحيى بن زياد على حماد الراوية فإذا سراجه على ثلاث قصبات قد جمع أعلاهن وأسفلهن بطين، فقال له يحيى: يا حماد، إنك لمترف متبذل بحر المتاع، وقال له مطيع: ألا تبيع هذه المنارة وتشتري بأقل ثمناً منها منارة تزيل بها عذرك وتنفق علينا وعلى نفسك الباقي وتتسع؟ وقال له يحيى: ما أحسن ظنك به! ومن أين له هذه المنارة؟ هذه وديعة أو عارية، وقال مطيع: إنه لعظيم الأمانة عند الناس، قال يحيى: وعلى عظم أمانته فما أجهل من يخرج هذه من داره ويأمن عليها غيره، قال مطيع: ما أظنها عارية ولا وديعة ولكني أظنها مرهونة عنده على مال وإلا فمن يخرج هذه من بيته؟ فقال حماد: يرهنها من يدخلكما على بيته ليلقى عليها من أنواع المداعبة، وهل عند أحد من المال ما يرهن؟.

وذكر أبو محمد الحريري صاحب كتاب "المقامات" في كتابه "درة الغواص" ما مثاله: قال حماد الراوية: كان انقطاعي إلى يزيد بن عبد الملك بن مروان في خلافته، وكان أخوه هشام يجفوني لذلك، فلما مات يزيد وتولى هشام خفته ومكثت في بيتي سنة لا أخرج إلا إلى من أثق إليه من إخواني سراً، فلما أسمع أحداً ذكرني في السنة أمنت، فخرجت أصلي الجمعة، وصليت في جامع الرصافة الجمعة، فإذا شرطيان قد وقفا علي وقالا: يا حماد، أجب الأمير يوسف بن عمر الثقفي–وكان والياً على العراق–فقلت في نفسي: من هذا كنت أخاف، ثم قلت لهما: هل لكما أن تدعاني حتى آتي أهلي فأودعهم وداع من لا يرجع إليهم أبداً ثم أصير معكما؟ فقالا: ما إلى ذلك سبيل، فاستسلمت في أيديهما، ثم صرت إلى يوسف بن عمر وهو في الإيوان الأحمر، فسلمت عليه فرد علي السلام ورمى إلي كتاباً فيه "بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله هشام أمير المؤمنين إلى يوسف بن عمر؛ أما بعد، فإذا قرأت كتابي هذا فابعث إلى حماد الراوية من يأتيك به من غير ترويع، وادفع له خمسمائة دينار وجملاً مهرياً يسير عليه اثنتي عشرة ليلة إلى دمشق". فأخذت الدنانير، ونظرت فإذا جمل هرحول، فركبته وسرت حتى وافيت دمشق في اثنتي عشرة ليلة، فترلت على باب هشام واستأذنت فأذن لي، فدخلت عليه في دار قوراء مفروشة بالرخام وبين كل رخامتين قضيب ذهب وهشام جالس على طنفسة حمراء وعليه ثياب حمر من الخز وقد تضمخ بالمسك والعنبر، فسلمت عليه، فرد علي السلام واستدناني فدنوت حتى قبلت رجله، فإذا جاريتان لم أر مثلهما قط في أذن كل جارية حلقتان فيهما لؤلؤتان تتقدان، فقال: كيف أنت يا حماد؟ وكيف حالك؟ فقلت: بخير يا أمير المؤمنين، فقال: أتدري فيم بعثت إليك؟ قلت: لا، قال: بعثت بسبب بيت خطر ببالي لا أعرف قائله، قلت: وما هو؟ قال:

ودعوا بالصبوح يوماً فجاءت قينة في يمينها إبريق

فقلت: يقوله عدي بن زيد العبادي في قصيدة، قال: أنشدنيها، فأنشدته:

بكر العاذلون في وضح الصب ح يقولون لي اما تستفيق

ويلومون فيك يا ابنة عبد الل ه والقلب عندكم موهوق

لست أدري إذا أكثروا العذل فيه أعدو يلومني، أم صديق

قال حماد: فانتهيت فيها إلى قوله:

ودعوا بالصبوح يوماً فجاءت قينة في يمينها إبريق

قدمته على عقار كعين ال ديك صفى سلافها الراووق

مزة قبل مزجها فإذا ما مزجت لذ طعمها من يذوق

وطفا فوقها فقاقيع كاليا قوت حمر يزينها التصفيق

ثم كان المزاج ماء سحاب لا صرى آجن ولا مطروق

قال: فطرب هشام، ثم قال: أحسنت يا حماد–وفي هذه الحكاية زيادة فإنه قال: اسقيه يا جارية، فسقتني، وهذا ليس بصحيح، فإن هشاماً لم يكن يشرب، فلا حاجة إلى ذكر تلك الزيادة–ثم قال: يا حماد، سل حاجتك، فقلت: كائنة ما كانت؟ قال: نعم، قلت: إحدى الجاريتين، قال: هما جميعاً لك بما عليهما وما لهما، وأنزله في داره، ثم نقله من غد إلى مترل أعده له، فوجد فيه الجاريتين وما لهما وكل ما يحتاج إليه، وأقام عنده مدة، ووصله بمائة ألف درهم. قال حماد: فسرت وأنا أيسر خلق الله إلى الكوفة فقلت:

أنت الذي تنزل الأيام منزلها وتنقل الدهر من حال إلى حال

وما مددت مدى طرف إلى أحد إلا قضيت بأرزاق وآجال

تروم شحاً فتمسي البيض وتستهل فتبكي أعين المال

قلت: هكذا ساق الحريري هذه الحكاية، وما يمكن أن تكون هذه الواقعة مع يوسف بن عمر الثقفي لأنه لم يكن والياً بالعراق في التاريخ المذكور بل كان متوليه خالد بن الله القسري–الآتي ذكره إن شاء الله تعالى–حسبما يقتضيه تاريخ ولايته وانفصاله وولاية يوسف بن عمر في ترجمته أيضاً.

وأخبار حماد ونوادره كثيرة.

وكانت وفاته سنة خمس وخمسين ومائة، ومولده في سنة خمس وتسعين للهجرة. وقيل إنه توفي في خلافة المهدي، وتولى المهدي الخلافة يوم السبت لست خلون من ذي الحجة سنة ثمان وخمسين ومائة، وتوفي ليلة الخميس لسبع بقين من المحرم سنة تسع وستين ومائة بقربة يقال لها الرذ، من أعمال ما سبذان، وفي ذلك يقول مروان بن أبي حفصة:

وأكرم قبر بعد محمد نبي الهدى قبر بما سبذان

عجبت لأيد هالك الترب فوقه ضحى كيف لم ترجع بغير بنان

ولما مات حماد الراوية رثاه أبو يحيى محمد بن كناسة، وهو لقبه، واسمه عبد الأعلى بن عبد الله بن خليفة بن نضلة بن أنيف بن مازن بن ذويبة بن أسامة ابن نصر بن قعين، يقوله:

لو كان ينجي من الردى حذر — نجاك مما أصابك الحذر

يرحمك الله من أخي ثقة — لم يك في صفو وده كدر

فهكذا يفسد الزمان ويف — نى العلم فيه ويدرس الأثر

وكان حماد المذكور قليل البضاعة من العربية، قيل إنه حفظ القرآن الكريم من المصحف، فصحف في نيف وثلاثين حرفاً، رحمه الله تعالى.

حماد عجرد

أبو عمرو–وقيل أبو يحيى–حماد بن عمر بن يونس بن كليب الكوفي–وقيل الواسطي–مولى بني سوأة بن عامر بن صعصعة المعروف بعجرد الشاعر المشهور؛ هو من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، و لم يشتهر إلا في العباسية، ونادم الوليد بن يزيد الأموي، وقدم بغداد في أيام المهدي، وقال علي بن الجعد: قدم علينا في أيام المهدي هؤلاء القوم: حماد عجرد ومطيع بن إياس الكناني ويحيى بن زياد، فترلوا بالقرب منا فكانوا لا يطاقون خبثاً ومجانة. وهو من الشعراء المجيدين، وبينه وبين بشار بن برد أهاج فاحشة، وله في بشار كل معنى غريب، ولولا فحشها لذكرت شيئاً منها، وكان بشار يضج منه، وقال بشار في حماد:

إذا جئته في الحي أغلق بابه — فلم تلقه إلا و أنت كمين

فقل لأبي يحيى متى تبلغ العلا — وفي كل معروف عليك يمين

وفيه يقول بشار أيضاً:

نعم الفتى لو كان يعبد ربه — ويقيم وقت صلاته حماد

و ابيض من شرب المدامة وجهه — وبياضه يوم الحساب سو اد

وكان يبري النبل، وقيل إن أباه كان يبري النبل، وإنه هو لم يتعاط شيئاً من الصنائع. وكان ماجناً ظريفاً خليعاً متهماً في دينه بالزندقة؛ يحكى أنه كانت بينه وبين أحد الأئمة الكبار–وما يليق التصريح بذكر اسمه –مودة، ثم تقاطعا، بلغه عنه أنه يتنقصه، فكتب إليه:

إن كان نسكك لا يتم — بغير شتمي و انتقاصي

فاقعد وقسم بي كيف شئ — ت مع الأداني و الأقاصي

فلطالما زكيتي — و أنا المصر على المعاصي

أيام نأخذها ونعط — ي في أباريق الرصاص

ومن شعره أيضاً:

فأقسمت لو أصبحت في قبضة الهوى — لأقصرت عن لومي وأطنبت في عذري

ولكن بلائي منك أنك ناصح — وأنك لا تدري بأنك لا تدري

وذكر ابن قتيبة في كتاب "طبقات الشعراء" قال: كان في الكوفة ثلاثة يقال لهم الحمادون: حماد عجرد وحماد الراوية وحماد بن الزبرقان النحوي، وكانوا يتعاشرون وكانوا كلهم يرمون بالزندقة.

وقيل إن حماد عجرد أهدى إلى مطيع بن إياس غلاماً وكتب معه: قد أهديت إليك من يتعلم عليه كظم الغيظ.

ولما أقعد حماد عجرد لتأديب ولد الأمين قال بشار بن برد:

قل للأمين جزاك الله صالحة لا تجمع الدهر بين السخل والذيب

فالسخل يعلم أن الذئب آكله والذئب يعلم ما في السخل من طيب

وقال أيضاً:

يا أبا الفضل لا تنم وقع الذئب في الغنم

إن حماد عجرد شيخ سوء قد اغتلم

بين فخذيه حربه في غلاف من الأدم

إن رأى ثم غفلة محج الميم في القلم

فشاعت الأبيات، فأمر الأمين أن يخرج حماد.

ومن شعر حماد عجرد:

إن الكريم ليخفي عنك عسرته حتى تراه غنياً وهو مجهود

وللبخيل على أمواله علل زرق العيون عليها أوجه سود

إذا تكرهت أن تعطي القليل ولم تقدر على سعة لم يظهر الجود

بث النوال ولا يمنعك قلته فكل ما سد فقراً فهو محمود

وأشعاره وأخباره مشهورة وتوفي في سنة إحدى وستين ومائة، رحمه الله تعالى. وقيل: كان من أهل واسط، وقتله محمد بن سليمان بن علي عامل البصرة بظاهر الكوفة على الزندقة في سنة خمس وخمسين ومائة، وقيل: خرج من الأهواز يريد البصرة، فمات في طريقه، فدفن على تل هناك، وقيل: مات سنة ثمان وستين ومائة.

ولما قتل المهدي بشار بن برد المقدم ذكره بالبطيحة، حمل ودفن على حماد عجرد، فمر على قبريهما أبو هشام الباهلي، فكتب عليهما:

قد اتبع الأعمى قفا عجرد فأصبحا جارين في دار

صارا جميعاً في يدي مالك في النار، والكافر في النار

قالت بقاع الأرض لا مرحباً بقرب حماد وبشار

وعجرد–بفتح العين المهملة وسكون الجيم وفتح الراء وبعدها دال مهملة–وهو لقب عليه، وإنما قيل له ذلك لأنه مر به أعرابي وهو غلام يلعب مع الصبيان في يوم شديد البرد وهو عريان، فقال له: لقد تعجردت يا غلام، والمتعجرد: المتعري.

والمخضرم–بضم الميم وفتح الخاء المعجمة وسكون الضاد المعجمة وفتح الراء وبعدها ميم–أصل هذه اللفظة أن تطلق على الشاعر الذي أدرك الجاهلية والإسلام مثل لبيد والنابغة الجعدي وغيرهما، ثم توسع فيها حتى صارت تطلق على من أدرك دولتين، وسمع في ذلك أيضاً محضرم بالحاء المهملة وسمع بكسر الراء أيضاً.

أبو سليمان الخطابي

أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي؛ كان فقيهاً أديباً محدثاً له التصانيف البديعة منها "غريب الحديث" و"معالم السنن في شرح سنن أبي داود" و"أعلام السنن في شرح البخاري" وكتاب "الشحاح" وكتاب "شأن الدعاء" وكتاب "إصلاح غلط المحدثين" وغير ذلك.

سمع بالعراق أبا علي الصفار وأبا جعفر الرزاز وغيرهما، وروى عنه الحاكم أبو عبد الله ابن البيع النيسابوري وعبد الغفار بن محمد الفارسي وأبو القاسم عبد الوهاب بن أبي سهل الخطابي وغيرهم، وذكره صاحب "يتيمة الدهر"، وأنشد له:

وما غمة الإنسان في شقة النوى ... ولكنها والله في عدم الشكل

وإني غريب بين بست وأهلها ... وإن كان فيها أسرتي وبها أهلي

وأنشد له أيضاً:

شر السباع العوادي دونه وزر ... والناس شرهم ما دونه وزر

كم معشر سلموا لم يؤذهم سبع ... وما ترى بشراً لم يؤذه بشر

وأنشد له أيضاً:

فسامح ولا تستوف حقك كله ... وأبق فلم يستقص قط كريم

ولا تغل في شيء من الأمر واقتصد ... كلا طرفي قصد الأمور ذميم

وذكر له أشياء غير ذلك. وكان يشبه في عصره بأبي عبيد القاسم بن سلام علماً وأدباً وزهداً وورعاً وتدريساً وتأليفاً. وكانت وفاته في شهر ربيع الأول سنة ثمان وثمانين وثلثمائة بمدينة بست، رحمه الله تعالى.

والخطابي–بفتح الخاء المعجمة وتشديد الطاء المهملة وبعد الألف باء موحدة–وهذه النسبة إلى جده الخطاب المذكور، وقيل إنه من ذرية زيد بن الخطاب، رضي الله تعالى عنه، فنسب إليه، والله أعلم.

والبستي–بضم الباء الموحدة وسكون السين المهملة وبعدها تاء مثناة من فوقها–هذه النسبة إلى بست، وهي مدينة من بلاد كابل بين هراة وغزنة كثيرة الأشجار والأنهار.

وقد سمع في اسم أبي سليمان حمد المذكور أحمد أيضاً–بإثبات الهمزة–والصحيح الأول؛ قال الحاكم أبو عبد الله محمد بن البيع: سألت أبا القاسم المظفر ابن طاهر بن محمد البستي الفقيه عن اسم أبي سليمان الخطابي أحمد أو حمد فإن بعض الناس يقول أحمد، فقال: سمعته يقول: اسمي الذي سميت به حمد، ولكن الناس كتبوا أحمد، فتركته عليه. وقال أبو القاسم المذكور: أنشدنا أبو سليمان لنفسه:

ما دمت حياً فدار الناس كلهم ... فإنما أنت في دار المداراة

من يدر داري ومن لم يدر سوف يرى ... عما قليل نديماً للندامات

حمزة الزيات

أبو عمار حمزة بن حبيب بن عمارة بن إسماعيل الكوفي المعروف بالزيات، مولى آل عكرمة بن ربعي التيمي؛ كان أحد القراء السبعة، وعنه أخذ أبو الحسن الكسائي القراءة، وأخذ هو عن الأعمش، وإنما قيل له "الزيات" لأنه كان يجلب الزيت من الكوفة إلى حلوان ويجلب من حلوان الجبن والجوز إلى الكوفة، فعرف به.

وتوفي سنة ست وخمسين ومائة بحلوان وله ست وسبعون سنة، رحمه الله تعالى.

وحلوان–بضم الحاء المهملة وسكون اللام وفتح الواو وبعد الألف نون–وهي مدينة في أواخر سواد العراق مما يلي بلاد الجبل.

وربعي: بكسر الراء وسكون الباء الموحدة وكسر العين المهملة وتشديد الياء.

حنين بن إسحاق

أبو زيد حنين بن إسحاق العبادي الطبيب المشهور؛ كان إمام وقته في صناعة الطب، وكان يعرف لغة اليونانيين معرفة تامة وهو الذي عرب كتاب أقليدس ونقله من لغة اليونان إلى اللغة العربية، وجاء ثابت بن قرة المقدم ذكره فنقحه وهذبه، وكذلك كتاب المجسطي، وأكثر كتب الحكماء والأطباء فإنها كانت كلها بلغة اليونان فعربت، وكان حنين المذكور أشد الجماعة اعتناء بتعريبها، وعرب غيره أيضاً بعض الكتب، ولولا ذلك التعريف لما انتفع أحد بتلك الكتب لعدم المعرفة بلسان اليونان، لا جرم كل كتاب لم يعربوه باق على حاله ولا ينتفع به إلا من عرف تلك اللغة. وكان المأمون مغرماً بتعريبها وتحريرها وإصلاحها، ومن قبله جعفر البرمكي وجماعة من أهل بيته أيضاً اعتنوا بها، لكن عناية المأمون كانت أتم وأوفر. ولحنين المذكور في الطب مصنفات مفيدة كثيرة-وقد تقدم ذكر ولده إسحاق في حرف الهمزة-؛ ورأيت في كتاب "أخبار الأطباء" أن حنيناً المذكور كان في كل يوم عند نزوله من الركوب يدخل الحمام فيصب عليه الماء، ويخرج فيلتف في قطيفة، ويشرب قدح شراب ويأكل كعكة، ويتكئ حتى ينشف عرقه، وربما نام، ثم يقوم ويتبخر ويقدم له طعامه وهو فروج كبير مسمن قد طبخ زيرباجاً ورغيف وزنه مائتا درهم فيحسو من المرقة ويأكل الفروج والخبز وينام، فإذا انتبه شرب أربعة أرطال شراباً عتيقاً، فإذا اشتهى الفاكهة الرطبة أكل التفاح الشامي والسفرجل، وكان ذلك دأبه إلى أن مات يوم الثلاثاء لست خلون من صفر سنة ستين ومائتين.

وقد سبق في ترجمة ولده نسبة العبادي إلى أي شيء هي.

واليونانيون كانوا حكماء متقدمين على الإسلام، وهم من أولاد يونان بن يافث ابن نوح عليه السلام، وهو بضم الياء المثناة من تحتها وسكون الواو وبين النونين ألف.

ابن حيان صاحب المقتبس

أبو مروان حيان بن خلف بن حسين بن حيان بن محمد بن حيان بن وهب بن حيان مولى الأمير عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان؛ هو من أهل قرطبة، وله كتاب "المقتبس في تاريخ الأندلس" في عشر مجلدات، وكتاب "المتين" في تاريخها أيضاً في ستين مجلداً.

ذكره أبو علي الغساني فقال: كان عالي السن قوي المعرفة متبحراً في الآداب بارعاً فيها، صاحب لواء التاريخ بالأندلس، أفصح الناس فيه وأحسنهم نظماً له، لزم الشيخ أبا عمرو ابن أبي الحباب النحوي صاحب أبي علي القالي وأبا العلاء صاعد بن الحسن الربعي البغدادي، وأخذ عنه كتابه المسمى ب "الفصوص" وسمع الحديث. وسمعته يقول: التهنئة بعد ثلاث استخفاف بالمودة، والتعزية بعد ثلاث إغراء بالمصيبة.

وتوفي يوم الأحد لثلاث بقين من شهر ربيع الأول سنة تسع وستين وأربعمائة ودفن من يومه بعد العصر بمقبرة الربض. ومولده سنة سبع وسبعين وثلثمائة.

ووصفه الغساني بالصدق فيما حكاه في تاريخه. وأخبر أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عون قال: كان ابن حيان فصيحاً في كلامه، بليغاً فيما يكتبه بيده، وكان لا يتعمد كذباً فيما يحكيه في تاريخه من القصص والأخبار، قال: ورأيته في النوم بعد وفاته مقبلاً إلي، فقمت إليه وسلم علي وتبسم في سلامه، فقلت له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي، فقلت له: فالتاريخ الذي صنفت ندمت عليه؟ قال: أما والله لقد ندمت عليه، إلا أن الله عز وجل بلطفه عفا عني وغفر لي.

وذكره أبو عبد الله الحميدي في "جذوة المقتبس" وابن بشكوال في "الصلة" رحمهم الله تعالى أجمعين.

حرف الخاء

خارجة بن زيد

أبو زيد خارجة بن زيد بن ثابت الأنصاري أحد الفقهاء السبعة بالمدينة؛-وقد تقدم ذكر أبي بكر ابن عبد الرحمن في حرف الباء، وذكرت في ترجمته البيتين الجامعين لأسماء الفقهاء السبعة-وكان خارجة المذكور تابعياً جليل القدر، أدرك زمان عثمان بن عفان، رضي الله عنه، وأبوه زيد بن ثابت رضي الله عنه من أكابر الصحابة. وفي حقه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أفرضكم زيد".

توفي خارجة سنة تسع وتسعين للهجرة، وقيل سنة مائة، رضي الله عنه، بالمدينة.
وذكر محمد بن سعد كاتب الواقدي في "الطبقات" أن خارجة قال: رأيت في المنام كأني بنيت سبعين درجة، فلما فرغت منها تدهورت، وهذه السنة لي سبعون سنة قد أكملتها؛ قال: فمات فيها. وروى عنه الزهري، رحمهما الله تعالى.

خالد بن يزيد بن معاوية

أبو هاشم خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الأموي؛ كان من أعلم قريش بفنون العلم، وله كلام في صناعة الكيمياء والطب، وكان بصيراً بهذين العلمين متقناً لهما، وله رسائل دالة على معرفته وبراعته، وأخذ الصناعة عن رجل من الرهبان يقال له مريانس الراهب الرومي، وله فيها ثلاث رسائل تضمنت إحداهن ما جرى له مع مريانس الراهب المذكور، وصورة تعلمه منه، والرموز التي أشار إليها، وله فيها أشعار كثيرة مطولات ومقاطيع دالة على حسن تصرفه وسعة علمه. وله شعر جيد فمنه:

تجول خلاخيل النساء، ولا أرى | لرملة خلخالاً يجول ولا قلبا
فلا تكثروا فيها الملام فإنني | تخيرتها منهم زبيرية قلبا
أحب بني العوام من أجل حبها | ومن أجلها أحببت أخوالها كلبا

وهي طويلة، ولها قصة مع عبد الملك بن مروان أضربنا عن ذكرها لشهرتها.
وكان له أخر يسمى عبد الله، فجاءه يوماً وقال: إن الوليد بن عبد الملك يعبث بي ويحتقرني، فدخل خالد على عبد الملك والوليد عنده، فقال: يا أمير المؤمنين، الوليد ابن أمير المؤمنين قد احتقر ابن عمه عبد الله واستصغره، وعبد الملك مطرق فرفع رأسه وقال: " إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون "النمل. فقال خالد:: "وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً" الاسراء: " قال: عبد الملك: أفي عبد الله تكلمني؟ والله لقد دخل علي فما أقام لسانه لحناً، فقال خالد: أفعلى الوليد تعول؟ فقال عبد الملك: إن كان الوليد يلحن فإن أخاه سليمان، فقال خالد: وإن كان عبد الله يلحن فإن أخاه خالد، فقال له الوليد: اسكت يا خالد، فو الله ما تعد في العير ولا في النفير، فقال خالد: اسمع يا أمير المؤمنين، ثم أقبل على الوليد فقال: ويحك! ومن العير والنفير غيري؟ جدي أبو سفيان صاحب العير، وجدي عتبة بن ربيعة صاحب النفير، ولكن لو قلت: غنيمات وحبيلات والطائف ورحم الله عثمان، لقلنا صدقت.

وهذا الموضع يحتاج إلى تفسير، فقوله "العير" فهي عير قريش التي أقبل بها أبو سفيان من الشام، فخرج إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة ليغنموها، فبلغ الخبر أهل مكة فخرجوا ليدفعوا عن العير، وكان مقدم القوم عتبة بن ربيعة، فلما وصلوا إلى المسلمين كانت وقعة بدر، وكل واحد من أبي سفيان وعتبة جد خالد المذكور، أما أبو سفيان فمن جهة أبيه، وأما عتبة فلأن ابنته هند أم معاوية جد خالد.
وقوله "غنيمات وحبيلات–إلى آخر كلامه" فإنه أشار إلى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نفى الحكم بن أبي العاص وكان جد عبد الملك المذكور إلى الطائف كان يرعى الغنم ويأوي إلى حبيلة وهي الكرمة، ولم يزل كذلك حتى ولي عثمان بن عفان رضي الله عنه الخلافة فرده، وكان الحكم عمه، ويقال: إن عثمان رضي الله عنه كان قد أذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم في رده متى أفضى الأمر إليه.
وأخبار خالد كثيرة، وفي هذا القدر منها كفاية. وكانت وفاته سنة خمس وثمانين للهجرة، رحمه الله تعالى.

خالد بن عبد الله القسري

أبو يزيد وأبو الهيثم خالد بن عبد الله بن يزيد بن أسد بن كرز البجلي ثم القسري؛ ذكره هشام بن الكلبي في كتاب "جمهرة النسب"، فقال: هو خالد بن عبد الله بن يزيد بن كرز بن عامر بن عبد الله بن عبد شمس ابن غمغمة بن جرير بن شق بن صعب بن يشكر بن رهم بن أفرك بن أفصى بن نذير بن قسر، وهو مالك، بن عبقر بن أنمار بن أراش بن عمرو بن الغوث بن نبث بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب ابن قحطان،

قال ابن ماكولا: يقال القسري والقصري.

كان أمير العراقين من جهة هشام بن عبد الملك الأموي، ولي مكة سنة تسع وثمانين للهجرة، وأمه نصراينه، وكان لجده يزيد صحبة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان خالد معدوداً من جملة خطباء العرب المشهورين بالفصاحة والبلاغة، وكان جواداً كثير العطاء، دخل عليه شاعر يوم جلوسه للشعراء وقد مدحه ببيتين، فلما رأى اتساع الشعراء في القول استصغر ما قال، فسكت حتى انصرفوا، فقال له خالد: ما حاجتك؟ فقال: مدحت الأمير ببيتين، فلما سمعت قول الشعراء احتقرت بيتي، فقال: ما هما؟ فأنشده:

تبرعت لي بالجود حتى نعشتني	وأعطيتني حتى حسبتك تلعب
فأنت الندى وابن الندى وأبو الندى	حليف الندى ما للندى عنك مذهب

فقال: ما حاجتك؟ فقال: علي دين، فأمر بقضائه وأعطاه مثله.

وحكى عبد الملك بن قريب الأصمعي قال: دخل أعرابي على خالد القسري فقال: قد امتدحتك ببيتين ولست أنشدكما إلا بعشرة آلاف درهم وخادم، قال: قل، فأنشأ يقول:

لزمت "نعم" حتى كأنك لم تكن	سمعت من الأشياء شيئاً سوى نعم
وأنكرت" لا" حتى كأنك لم تكن	سمعت بها في سالف الدهر والأمم

فقال: أعطه يا غلام عشرة آلاف درهم وخادماً، فتسلمها؛ ودخل عليه أعرابي فقال: قد قلت شعراً، وأنشأ يقول:

أخالد إني لم أزرك لحاجة	سوى أنني عاف وأنت جواد
أخالد إن الأجر والحمد حاجتي	فأيهما تأتي وأنت عماد

فقال له خالد: سل يا أعرابي؛ قال، وجعلت المسألة إلي أصلح الله الأمير؟ قال: نعم، قال: مائة ألف درهم، قال: أكثرت يا أعرابي، قال: فأحطك؟ قال: نعم، قال: قد حططتك تسعين ألفاً، قال له خالد: يا أعرابي لا أدري من أي أمريك أعجب، فقال: أصلح الله الأمير، أنت جعلت المسألة إلي فسألتك على قدرك وما تستحقه في نفسك، فلما سألتني أن أحط حططت على قدري وما استأهله في نفسي، فقال له خالد: والله يا أعرابي لا تغلبني؛ يا غلام أعطه مائة ألف درهم، فدفعها إليه.

وكتب إليه هشام بن عبد الملك: "بلغني أن رجلاً قام إليك فقال: إن الله جواد وأنت جواد، وإن الله كريم وأنت كريم، حتى عد عشر خصال، ووالله لئن لم تخرج من هذا لأستحلن دمك"؛ فكتب إليه خالد: "نعم يا أمير المؤمنين قام إلي فلان فقال: الله كريم يحب الكريم، فأنا أحبك لحب الله إياك، ولكن أشد من هذا مقام ابن شقي البجلي إلى أمير المؤمنين فقال: خليفتك أحب إليك أم رسولك؟ فقلت: بل خليفتي، فقال: أنت خليفة الله ومحمد رسول الله" والله لقتل رجل من بجيلة أهون على الخاصة والعامة من كفر أمير المؤمنين، هكذا ذكره الطبري في تاريخه.

وكان خالد يتهم في دينه، وبنى لأمه كنيسة تتعبد فيها، وفي ذلك يقول الفرزدق يهجوه:

ألا قبح الرحمن ظهر مطيئة	أتتنا تهادى من دمشق بخالد
وكيف يؤم الناس من كانت أمه	تدين بأن الله ليس بواحد
بنى بيعة فيها الصليب لأمه	ويهدم من بغض منار المساجد

ثم إن هشاماً عزل خالداًعن العراقين في جمادى الأولى سنة عشرين ومائة، وذكر الطبري في تاريخه أن هشام بن عبد الملك عزل عمر بن هبيرة عن العراق وولاه خالداص في شوال سنة خمس ومائة، ثم عزله وولى يوسف بن عمر الثقفي–وهو ابن عم الحجاج–وكان سبب عزل خالد أن امرأة أتته

فقالت: أصلح الله الأمير! إني امرأة مسلمة، وإن عاملك فلاناً المجوسي وثب علي فأكرهني على الفجور وغصبني نفسي، فقال لها: كيف وجدت قلفته؟ فكتب بذلك حسان النبطي إلى هشام، وعند هشام يومئذ رسول يوسف بن عمر، وقد كان يوسف وجهه إليه من اليمن في بعض حاجته فاحتبسه هشام عنده يوماً، حتى إذا جنه الليل دعا به فكتب معه إلى يوسف بولاية العراق ومحاسبة خالد وعماله، وأمره أن يستخلف ابنه الصلت على اليمن، فخرج يوسف في نفر يسير، فسار من صنعاء إلى الكوفة على الرحال في سبع عشرة مرحلة حتى قدم الكوفة سحراً، ثم اخذ خالداً وعماله وحبسه وحاسبه وعذبه، ثم قتله في أيام الوليد بن يزيد، قيل: إنه وضع قدميه بين خشبتين وعصرهما حتى انقصفا، ثم رفع الخشبتين إلى ساقيه وعصرهما حتى انقصفا، ثم إلى وركيه، ثم إلى صلبه، فلما انقصف صلبه مات وهو في ذلك كله لا يتأوه ولا ينطق، وكان ذلك في المحرم سنة ست وعشرين، وقيل في ذي القعدة سنة خمس وعشرين ومائة بالحيرة، ودفن في ناحية منها ليلاً، رحمه الله تعالى.

والحيرة بينها وبين الكوفة فرسخ، كانت منزل آل النعمان بن المنذر ولما كان خالد في سجن يوسف مدحه أبو الشغب العبسي بهذه الأبيات، وهي في "كتاب الحماسة":

ألا إن خير الناس حياً وميتاً ... أسير ثقيف عندهم في السلاسل

لعمري لئن عمرتهم السجن خالداً ... وأوطأتموه وطأة المتثاقل

لقد كان نهاضاً بكل ملمة ... ومعطي اللها غمراً كثير النوافل

وقد كان يبني المكرمات لقومه ... ويعطي اللها في كل حق وباطل

فإن تسجنوا القسري لا تسجنوا اسمه ... ولا تسجنوا معروفه في القبائل

وكان يوسف جعل على خالد في كل يوم حمل مال معلوم، إن لم يقم به في يومه عذبه، فلما مدحه أبو الشغب بهذه الأبيات وأوصلها إليه كان قد حصل في قسط يومه سبعين ألف درهم، فأنفذها له، وقال: اعذرني فقد ترى ما أنا فيه، فردها أبو الشغب وقال: لم أمدحك لمال وأنت على هذه الحال، ولكن لمعروفك وإفضالك، فأنفذها إليه ثانياً وأقسم عليه ليأخذنها فأخذها، وبلغ ذلك يوسف فدعاه وقال: ما حملك على فعلك، ألم تخش العذاب؟ فقال: لأن أموت عذاباً أسهل علي من كفي بذلي، لا سيما على من مدحني.

وذكر أبو الفرج الاصبهاني أن خالداً كان من ولد شق الكاهن، وهو خالد بن عبد الله بن أسد بن يزيد بن كرز، وذكر أن كرزاً كان دعياً، وأنه كان من اليهود، فجنى جناية فهرب إلى بجيلة فانتسب فيهم، ويقال: كان عبداً لعبد القيس، وهو ابن عامر ذي الرقعة، وسمي بذي الرقعة لأنه كان أعور يغطي عينه برقعة، وذو الرقعة هو ابن عبد شمس بن جوين بن شق الكاهن بن صعب؛ انتهى كلام أبي الفرج.

قلت أنا: كان شق المذكور ابن خالة سطيح الكاهن الذي بشر بالنبي صلى الله عليه وسلم، وقصته في تأويل الرؤيا في ذلك مشهورة، وهي مستوفاة في السيرة، وكان شق وسطيح من أعاجيب الدنيا، أما سطيح فكان جسداً ملقى لا جوارح له، وكان وجهه في صدره ولم يكن له رأس ولا عنق، وكان لا يقدر على الجلوس، إلا أنه إذا غضب انتفخ فجلس، وكان شق نصف إنسان، ولذلك قيل له شق، أي شق إنسان، فكانت له يد واحدة ورجل واحدة وعين واحدة وفتح عليهما في الكهانة ما هو مشهور عنهما، وكانت ولادتهما في يوم واحد، وفي ذلك اليوم توفيت طريفة ابنة الخير الحميرية الكاهنة زوجة عمرو مزيقيا بن عامر ماء السماء، ولما ولدا دعت بكل واحد منهما وتفلت في فيه، وزعمت أنه سيخلفها في علمها وكهانتها، ثم ماتت من ساعتها ودفنت بالجحفة، وعاش كل واحد من شق وسطيح ستمائة سنة.

وكرز: بضم الكاف وسكون الراء وبعدها زاي.

والقسري–بفتح القاف وسكون السين المهملة وبعدها راء–هذه النسبة إلى قسر بن عبقر، وهي بطن من بجيلة.

خالد المهلبي

أبو الهيثم خالد بن خداش بن عجلان المهلبي مولى آل المهلب بن أبي صفرة؛ من أهل البصرة، سكن بغداد وحدث بها عن مالك بن أنس والمغيرة بن عبد الرحمن ومهدي بن ميمون وحماد بن زيد وغيرهم وروى عنه أحمد بن حنبل وأحمد بن إبراهيم الدورقي وحاتم بن الليث الجوهري وغيرهم قال محمد بن المثنى: انصرفت مع بشر بن الحارث في يوم أضحى من المصلى، فلقي خالد بن خداش المحدث، فسلم عليه فقصر بشر في السلام، فقال خالد: بيني وبينك مودة أكثر من ستين سنة فما تغيرت عليك فما هذا التغير؟ قال بشر: ما ها هنا تغيير ولا تقصير ولكن هذا يوم تستحب فيه الهدايا وما عندي من عرض الدنيا شيء أهدي لك وقد روي في الحديث أن المسلمين إذا التقيا كان أكثرهما ثواباً أبشهما بصاحبه فتركتك لتكون أفضل ثواباً مني؛ مات خالد بن خداش في سنة ثلاث وعشرين ومائتين في جمادى الآخرة، رحمه الله تعالى.

خالد التميمي

أبو الهيثم خالد بن يزيد بن الهيثم التميمي الخراساني؛ كان أحد كتاب الجيش ببغداد وله شعر مدون وشعره كله في الغزل؛ حكى أبو الحسن البرمكي قال: كنا جلوساً على باب عبد الصمد بن المعذل بن علي ومعنا رجل ينشدنا أشعار عبد الصمد، إذ أقبل خالد بن يزيد الكاتب فجلس إلينا فقال: فيم كنتم؟ فقلنا بجهلنا: هذا ينشدنا شيئاً من أشعار عبد الصمد، فالتفت إليه خالد فقال: يا فتى من ذا الذي يقول:

تناسيت ما أوعيت سمعك يا سمعي ... كأنك بعد الضر خال من النفع

ثم قال: يا فتى هل أحسن عبد الصمد أن يجعل للسمع سمعاً؟ فقال: لا، ثم أنشد:

لئن كان أضحى فوق خديه روضة ... فإن على خدي غديراً من الدمع

ثم نهض، فقال لنا المنشد: من هذا؟ فقلنا: خالد الكاتب، فعدا خلفه وانقطعت نعله وانقلبت محبرته حتى كتب البيتين؛ ومن شعر خالد المذكور:

هبك الخليفة حين ير ... كب في مواكبه وجنده

أو هبك كنت وزيره ... أو هبك كنت ولي عهده

هل كنت تقدر أن تزي ... د المبتلى بك فوق جهده

وقال ثعلب: ما أحد من الشعراء تكلم في الليل إلا قارب إلا خالد الكاتب فإنه أبدع في قوله:

رقدت فلم ترث للساهر ... وليل المحب بلا آخر

ولم تدر بعد ذهاب الرقاد ... ما صنع الدمع بالناظر

فإنه لم يجعل لليل آخراً، وقيل لخالد: من أين قلت في قصيدتك "وليل المحب بلا آخر"؟ فقال: وقفت على باب وعليه سائل مكفوف وهو يقول: الليل والنهار علي سواء، فأخذت هذا منه.

وذكر ميمون بن حماه قال: دخلت يوماً على أبي عبد الله ابن الأعرابي فقلت له: أسمعت من شعر هذا الغليم شيئاً؟ قال: من هو؟ قلت: خالد بن يزيد، فقال: لا وإني لأحب ذلك، فصاح به فجاء حتى وقف عليه، فقلت: أنشد أبا عبد الله من شعرك، فقال: إنما أقول في شجون نفسي ولا أمدح ولا أهجو، فقلت: أنشده، فأنشده:

أقول للسقم عد إلى بدني ... شوقاً لشيء يكون من سببك

فقال ابن الأعرابي: حسبك يا غلام فقد خيل لي أن الرقة قد جمعت لك في هذا البيت .

قال جحظة: حدثني خالد بن يزيد الكاتب قال: لم اشعر إلا ورسول إبراهيم ابن المهدي قد وافاني، فدخلت إليه فقال: أنشدني شيئاً من شعرك، فأنشدته:

رأت منه عيني منظرين كما رأت ... من البدر والشمس المضيئة بالأرض
عشية حياني بورد كأنه ... خدود أضيفت بعضهن إلى بعض
وناولني كأساً كأن حبابها ... دموعي لما صد عن مقلتي غمضي
وراح وفعل الراح في حركاته ... كفعل نسيم الريح في الغصن الغض

فزحف حتى صار في ثلثي المصلى ثم قال: يا بني شبه الناس الخدود بالورد وشبهت أنت الورد بالخدود، ثم قال: زدني، فأنشدته:

عاتبت نفسي في هوا ... ك فلم أجدها تقبل
وأجبت داعيها إلي ... ك ولم أطع من يعذل
لا والذي جعل الوجو ... ه لحسن وجهك تمثل
لا قلت إن الصب ... ر عنك من التصابي أجمل

فزحف حتى صار خارج المصلى، ثم قال: زدني، فأنشدته:

ظفر الحب بقلب دنف ... بك والسقم بجسيم ناحل
وبكى العاذل من رحمته ... فبكائي لبكاء العاذل

فصاح وقال: يا بليق كم معك من العين؟ قال: ستمائة وخمسون ديناراً، فقال: اقسمها بيني وبينه واجعل الكسر للغلام كاملاً.

وذكر أحمد بن صدقة المغني قال: اجتزت بخالد الكاتب يوماً فقلت له: اعمل لي أبياتاً أغني بها أمير المؤمنين-يعني المأمون-فقال: وأي حظ لي في ذلك؟ تأخذ الجائزة وأحصل أنا على الإثم، فحلف له أنه إن وصله بشيء قاسمه إياه فقال لي: أنت أنذل من ذلك ولكن ذكره بي فلعله أن يصلني بشيء، قلت: أفعل، فأنشدني:

تقول سلا فمن المدنف ... ومن عينه أبداً تذرف
ومن قلبه قلق خائف ... عليك وأحشاؤه ترجف

فحفظت الشعر وعملت فيه لحناً وحضرنا عند أمير المؤمنين من الغد وكان بينه وبين بعض حظاياه هجرة فوجهت إليه بتفاحة عليها مكتوب بالغالية: يا سيدي سلوت، وابتدأت أغني بشعر خالد، فلما غنيته إياه انقلبت عيناه ودارتا في رأسه وظهر الغضب في وجهه وقال: لكم على حرمي أصحاب أخبار!! فقمت إعظاماً لما شهدت منه وقلت: أعيذ أمير المؤمنين بالله أن يظن بعبد من عبيده هذا الظن وأنزه داره أن يكون لأحد عليها صاحب خبر، قال: فمن أين عرفت خبري مع جاريتي حتى غنيت في معنى ما بيننا؟ فحدثته حديثي مع خالد، فلما انتهيت إلى قوله: أنت أنذل من ذلك فقال: أشهد أنك كذلك، وأسفر وجهه وقال: ما أعجب هذا الاتفاقّ وأمر لي بخمسة آلاف درهم ولخالد بمثلها.

وقال بعض من كان يحضر مجلس أبي العباس المبرد: كنا نختلف إليه فإذا كان في آخر المجلس أملى علينا من طرف الأخبار وملح الأشعار ما نرتاح إلى حفظه، فأنشدنا يوماً مرثية زياد الأعجم في المغيرة بن المهلب وهي:

إن السماحة والمروة والندى ... قبر بمرو على الطريق الواضح
فإذا مررت بقبره فاعقر به ... كوم الهجان وكل طرف سابح
وانضح جوانب قبره بدمائها ... فلقد يكون أخادم وذبائح
مات المغيرة بعد طول تعرض ... للموت بين أسنة وصفائح

قال: فخرجت من عنده وأنا أدير بها لساني لأحفظها، فإذا بشيخ قد خرج من خربة وفي يده حجر، فهم أن يرميني به، فتترست منه بالمحبرة والدفتر، فقال: ماذا تقول؟ أتشتمني؟ قلت: اللهم لا، ولكني كنت عند أستاذنا أبي العباس المبرد فأنشدنا مرثية زياد الأعجم في المغيرة بن المهلب، فقال: إيه إيه أنشدني ما أنشدكم باردكم لا مبردكم، فأنشدته الأبيات فقال: والله ما جود الراثي ولا أنصف المرثي ولا أحسن الراوي، قلت: فما عساه أن يقول؟ قال: كان يقول:

احملاني إن لم يكن لكما عق ... ر إلى جنب قبره فاعقراني

وانضحا من دمي عليه فقد ... كان دمي من نداه لو تعلمان

قال: فقلت: هل رأيت أحداً واسى أحداً بنفسه؟ قال: نعم، هذا الفتح ابن خاقان طرح نفسه على المتوكل حتى خلط لحمه بلحمه ودمه بدمه، ثم تركني وولى؛ قال: فلما عدت إلى المبرد قصصت عليه القصة فقال: أتعرفه؟ قلت: لا، قال: ذلك خالد الكاتب تأخذه السوداء في ايام الباذنجان.

وقيل كبر خالد الكاتب حتى دق عظمه ورق جلده فوسوس؛ قال بعضهم: فرأيته ببغداد والصبيان يتبعونه ويصيحون به: يا بارد يا بارد، فأسند ظهره إلى قصر المعتصم وقال لهم: كيف أكون بارداً وأنا الذي أقول:

بكى عاذلي من رحمتي فرحمته ... وكم مثله من مسعد ومعين

ورقت دموع العين حتى كأنها ... دموع دموعي لا دموع جفوني

وحكى أبو الحسن علي بن محمد بن مقلة قال: حدثني أبي عن عمه قال: اجتاز بن خالد الكاتب وأنا على باب داري بسر من رأى والصبيان حوله يولعون به، فجاء إلي وسألني صرفهم عنه ففعلت وأدخلته داري فقلت له: ما تشتهي تأكل؟ قال: هريسة، فتقدمت بإصلاحها له، فلما أكل قلت له: أي شيء تحب بعد هذا؟ قال: رطب، فأمرت بإحضاره فأكل، فلما فرغ من أكله قلت: أنشدني شيئاً من شعرك، فأنشدني قوله:

تناسيت ما أوعيت سمعك يا سمعي ... كأنك بعد الضر خال من النفع

أما عند عينيك اللتين هما هما ... لمكتئب يرجوك شيئاً سوى المنع

فإن كنت مطبوعاً على الصد والجفا ... فمن أين لي صبر فأجعله طبعي

فإن يك أضحى فوق خديك روضة ... فإن على خدي غديراً من الدمع

سل المطر العام الذي عم أرضكم ... أجاء بمقدار الذي فاض من دمعي

فقلت: زدني، فقال: لا يصيبك بهريسة ورطب غير هذا، والله أعلم.

الشيخ الخصر بن عقيل الإربلي

أبو العباس الخضر بن نصر بن عقيل بن نصر الإربلي الفقيه الشافعي؛ كان فقيهاً فاضلاً عارفاً بالمذهب والفرائض والخلاف، اشتغل ببغداد على الكيا الهراسي وابن الشاشي ولقي عدة من مشايخها، ثم رجع إلى إربل، وبنى له بها الأمير أبو منصور سرفتكين بن عبد الله الزيني، نائب صاحب إربل، مدرسة القلعة، وتاريخها سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة، ودرس فيها زماناً، وهو أول من درس بإربل، وله تصانيف حسان كثيرة في التفسير والفقه وغير ذلك، وله كتاب ذكر فيه ستاً وعشرين خطبة للرسول صلى الله عليه وسلم، وكلها مسندة، واشتغل عليه خلق كثير وانتفعوا به، وكان رجلاً صالحاً زاهداً عابداً ورعاً متقللاً ونفسه مباركاً.

وذكره الحافظ ابن عساكر في "تاريخ دمشق" وأثنى عليه، وكان قد قدم دمشق فأقام بها مدة ثم رجع إلى إربل.

ومن جملة من تخرج عليه الشيخ الفقيه ضياء الدين أبو عمرو عثمان بن عيسى ابن درباس الهذباني، الذي شرح "المهذب"–وسيأتي ذكره في حرف

العين إن شاء الله تعالى-وتخرج عليه أيضاً بان أخيه عز الدين أبو القاسم نصر بن عقيل ابن نصر وغيرهما.
وكانت ولادته سنة ثمان وسبعين وأربعمائة وكانت وفاته ليلة الجمعة رابع عشر جمادى الآخرة سنة سبع وستين وخمسمائة بإربل ودفن بها في مدرسته التي بالربض في قبة مفردة، وقبره يزار وزرته كثيراً، رحمه الله تعالى.
ولما توفي تولى موضعه ابن أخيه المذكور في المدرستين، وكان فاضلاً، ومولده بإربل سنة أربع وثلاثين وخمسمائة، وسخط عليه الملك المعظم مظفر الدين صاحب إربل وأخرجه منها، فانتقل إلى الموصل، فكتب إليه أبو الدر الرومي-الآتي ذكره في حرف الياء إن شاء الله تعالى-من بغداد، وكان صاحبه:

أيا ابن عقيل لا تخف سطوة العدا … وإن أظهرت ما أضمرت من عنادها
وأقصتك يوماً عن بلادك فتية … رأت فيك فضلاً لم يكن في بلادها
كذا عادة الغربان تكره أن ترى … بياض البزاة الشهب بين سوادها

وأشار بذلك إلى الجماعة الذين سعوا به حتى غيروا خاطر الملك عليه، وكان ذلك في سنة اثنتين أو ثلاث وستمائة، كذا أعرفه، وقال ابن باطيش: في سنة ست وستمائة، والله أعلم.
وفي تلك السنة خرجت الكرج على مدينة مرند، من أعمال أذربيجان، وهي قريبة من إربل، فقتلوا وسبوا واسروا، فعمل شرف الدين محمد وله عز الدين أبي القاسم المذكور في إخراجهم من إربل:

إن يكن أخرجوا النساء من الأو … طان ظلماً وأسرفوا في التعدي
فلنا أسوة بمن جارت الكر … ج عليهم وأخرجوا من مرند

وهذا الشرف له في عمل الدوبيت اليد الطولى، ولولا خوف التطويل لذكرت شيئاً منها.

وسكن عز الدين ظاهر الموصل في رباط ابن الشهرزوري، وقرر له صاحب الموصل راتباً، ولم يزل هناك حتى توفي يوم الجمعة ثالث عشر شهر ربيع الآخر وقيل جمادى الآخرة سنة تسع عشرة وستمائة، رحمه الله تعالى، ودفن بمقبرة تل توبه، وهو ابن خالة الشيخ عماد الدين أبي حامد محمد بن يونس، وتوفي ولده الشرف المذكور ليلة السبت الثامن والعشرين من المحرم سنة ثلاث وثلاثين وستمائة بدمشق، ودفن بمقابر الصوفية، رحمه الله تعالى، ومولده في رجب سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة بإربل، وقرأ الفقه على أبيه وعلى عماد الدين بن يونس، والأدب على أبي الحرم مكي.
وسرفتكين-بفتح السين المهملة والراء وسكون الفاء وكسر التاء المثناة من فوقها والكاف وسكون الياء المثناة من تحتها، وبعدها نون-كان مملوك زين الدين علي صاحب إربل، والد مظفر الدين، وكان أرمنياً صالحاً فأعتقه وتقدم عنده واعتمد عليه واستنابه في المملكة، وبنى مساجد كثيرة بإربل وقراها وبنى المدرسة المذكورة، وبنى سور مدينة فيد التي في طريق مكة من جهة بغداد، وأثر آثاراً صالحة، كل ذلك من ماله، وتوفي في شهر رمضان سنة تسع وخمسين وخمسمائة، رحمه الله تعالى.

ابن بشكوال

أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود بن بشكوال بن يوسف بن داحة ابن داكة بن نصر بن عبد الكريم بن وافد الخزرجي الأنصاري القرطبي؛ كان من علماء الأندلس وله التصانيف المفيدة، منها "كتاب الصلة" الذي جعله ذيلاً على "تاريخ علماء الأندلس" تصنيف القاضي أبي الوليد عبد المعروف بابن الفرضي، وقد جمع فيه خلقاً كثيراً، وله تاريخ صغير في أحوال الأندلس وما أقصر فيه، وكتاب "الغوامض والمبهمات" ذكر فيه من جاء ذكره في الحديث مبهماً فعينه، ونسج فيه على منوال الخطيب البغدادي في كتابه الذي وضعه على هذا الأسلوب، وجزء لطيف ذكر فيه من روى "الموطأ" عن مالك بن أنس، رضي الله عنه، ورتب أسماءهم على حروف المعجم، فبلغت عدتهم ثلاثة وسبعين رجلاً، ومجلد لطيف سماه "كتاب

المستغيثين بالله تعالى عند المهمات والحاجات والمتضرعين إليه سبحانه بالرغبات والدعوات وما يسر الله الكريم لهم من الإجابات والكرامات" وله غير ذلك أيضاً من المصنفات.

قال أبو الخطاب ابن دحية: نقلت من خط شيخنا-يعني ابن بشكوال- أنه فرغ من تأليف "الصلة" في جمادى الأولى سنة أربع وثلاثين وخمسمائة.

وكان مولده يوم الاثنين ثالث-وقيل ثامن-ذي الحجة، سنة أربع وتسعين وأربعمائة. وتوفي ليلة الأربعاء لثمان خلون من شهر رمضان سنة ثمان وسبعين وخمسمائة بقرطبة، ودفن يوم الأربعاء بعد صلاة الظهر بمقبرة ابن عباس، بمقربة من قبر يحيى بن يحيى، رحمهما الله تعالى.

وداحة: بفتح الدال المهملة وبعد الألف حاء مهملة أيضاً مفتوحة ثم هاء ساكنة.

وداكة: مثلها إلا أن عوض الحاء كاف.

وبشكوال: بفتح الباء الموحدة وسكون الشين المعجمة وضم الكاف وبعد الواو ألف ولام.

وتوفي والده أبو مروان عبد الملك بن مسعود صبيحة يوم الأحد، ودفن عشي يوم الاثنين لأربع بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة، وعمره نحو ثمانين سنة، رحمه الله تعالى.

خلف بن هشام

أبو محمد خلف بن هشام بن ثعلب، ويقال: هشام بن طالب، بن غراب البزار المقرئ؛ سمع مالك بن أنس وحماد بن زيد وأبا عوانة وغيرهم؛ روى عنه عباس الدوري ومحمد بن الجهم وأحمد بن أبي خيثمة وغيرهم؛ قال ابو العباس أحمد بن إبراهيم وراق خلف: سمعت خلفاً يقول: قدمت الكوفة فصرت إلى سليم بن عيسى فقال: ما أقدمك؟ قلت: أقرأ القرآن على أبي بكر ابن عياش بحرف عاصم، فقال لي: ألا تزيد؟ قلت: بلى، قال: فدعا ابنه وكتب معه رفعة إلى ابن عياش، فاستأذن لي عليه سليم بن عيسى، فدخل عليه فأعطاه الرقعة، وكان لخلف سبع عشرة سنة؛ قال: فلما قرأها قال: أدخل الرجل، فدخلت فسلمت فصعد في النظر، ثم قال لي: أنت خلف؟ قلت: نعم، قال لي: أنت لم تخلف ببغداد أحداً أقرأ منك؟ فسكت، فقال لي: اقعد هات اقرأ، قلت: عليك؟ قال: نعم، قلت: لا إله إلا الله، لا أقرأ على رجل يستصغر رجلاً من حملة القرآن، وتركته وخرجت، فوجه إلى سليم فسأله أن يردني إليه فلم أرجع؛ قال: فندمت واحتجت، فكتبت قراءة عاصم عن يحيى ابن آدم عن أبي بكر ابن عياش.

وقال خلف: أتيت سليم بن عيسى لأقرأ عليه، وكان بين يديه قوم وأظنهم سبقوني، فلما جلست قال: بلغني أنك تريد الترفع في القراءة فلست آخذ عليك شيئاً، قال: فكنت أحضر المجلس أسمع ولا يأخذ علي شيئاً، فبكرت يوماً في الغلس، وخرج فقال: من ها هنا يتقدم ويقرأ، فتقدمت واستفتحت بسورة يوسف وهي من أشد القرآن إعراباً، فقال لي: من أنت فما سمعت أقرأ منك؟ فقلت: خلف، فقال لي: فعلتها ما يحل لي أن أمنعك، فكنت أقرأ عليه حتى بلغت يوماً حم المؤمن، فلما بلغت إلى قوله تعالى: "ويستغفرون للذين آمنوا". بكى بكاءً شديداً ثم قال لي: يا خلف ألا ترى ما أعظم حق المؤمن تراه نائماً على فراشه والملائكة يستغفرون له.

وروى خلف بسنده إلى أبي هريرة إلى النبي صلى الله عليه وسلم أن الله عز وجل خلق مائة رحمة فأنزل منها رحمة على عباده يتراحمون بها وخبأ تسعاً وتسعين عنده فإذا كان يوم القيامة جمع تيك الرحمة إلى التسع والتسعين وفضها على عباده، فمن رحمة واحدة جعلني مسلماً وعلمني القرآن وعرفني نبيه صلى الله عليه وسلم وفعل بي وفعل بي وأنا أرجو من تسع وتسعين الجنة.

وذكر لأبي جعفر النفيلي خلف بن هشام البزار فقال: كان من أصحاب السنة لولا بلية كانت فيه، يشرب النبيذ؛ قال عبد الكريم بن الحداد: وكان خلف يشرب من الشراب على التأويل، فكان ابن أخته يوماً يقرأ عليه سورة الأنفال حتى بلغ قوله تعالى: "ليميز الله الخبيث من الطيب" الأنفال فقال:: يا خال إذا ميز الله الخبيث من الطيب أين يكون الشراب؟ قال: فنكس رأسه طويلاً ثم قال: مع الخبيث، قال: فترضى أن تكون مع أصحاب الخبيث؟ قال: يا بني امض إلى المترل فاصبب كل شيء فيه، فتركه فأعقبه الله تعالى الصوم، فصام الدهر إلى أن مات، وقيل إنه أعاد صلاة الأربعين سنة التي كان يتناول فيها الشراب على مذهب الكوفيين. وكانت وفاته يوم السبت السابع عشر من جمادي الآخرة سنة تسع وعشرين ومائتين، رحمه الله تعالى؛ ورثاه بعض الشعراء بقوله:

مضى شيخنا البزار بالفضل يذكر هجان إمام في القراءة مبصر

سقى الله قبراً حله من غمامه بوابل غيث صفوه يتفجر

وقد طلب الحساد في الناس كيده فما قدروا حتى عموا وتحيروا

خليفة بن خياط

أبو عمرو خليفة بن خياط بن أبي هبيرة خليفة بن خياط الشيباني العصفري البصري المعروف بشباب صاحب "الطبقات"؛ كان حافظاً عارفاً بالتواريخ وأيام الناس غزير الفضل، روى عنه محمد بن إسماعيل البخاري في صحيحه وتاريخه وعبد الله ابن الإمام أحمد بن حنبل وأبو يعلى الموصلي والحسن بن سفيان النسوي، في آخرين، وروى هو عن ابن عيينة ويزيد بن زريع وأبي داود الطيالسي ودرست بن حمزة وتلك الطبقة.

توفي في شهر رمضان سنة ثلاثين ومائتين، وقال الحافظ ابن عساكر في "معجم مشايخ الأئمة الستة" إنه توفي سنة أربعين، وقيل: ست وأربعين ومائتين، رحمه الله تعالى.

والعصفري-بضمن العين وسكون الصاد المهملتين وضم الفاء وبعدها راء-هذه النسبة إلى العصفر الذي تصبغ به الثياب حمراً.

وشباب-بفتح الشين المثلثة والباء الموحدة وبعد الألف باء ثانية-وقد اختلفوا في تلقيبه بذلك لأي معنى هو.

وتوفي جده أبو هبيرة خليفة بن خياط في رجب سنة ستين ومائة، وكان أبو عمرو المذكور يقول: توفي جدي خليفة بن خياط وشعبة بن الحجاج في شهر واحد، رحمهم الله أجمعين.

الخليل بن أحمد

أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي ويقال: الفرهودي الأزدي اليحمدي؛ كان إماماً في علم النحو، وهو الذي استنبط علم العروض وأخرجه إلى الوجود وحصر أقسامه في خمس دوائر يستخرج منها خمسة عشر بحراً، ثم زاد فيه الأخفش بحراً آخر وسماه الخبب. وقيل إن الخليل دعا بمكة أن يرزق علماً لم يسبقه أحد إليه ولا يؤخذ إلا عنه، فرجع من حجة ففتح عليه بعلم العروض، وله معرفة بالإيقاع والنغم، وتلك المعرفة أحدثت له علم العروض، فإنهما متقاربان في المأخذ.

وقال حمزة بن الحسن الأصبهاني في حق الخليل بن أحمد في كتابه الذي سماه "التنبيه على حدوث التصحيف": "وبعد، فإن دولة الإسلام لم تخرج أبدع للعلوم التي يكن لها عند علماء العرب أصول من الخليل، وليس على ذلك برهان أوضح من علم العروض الذي لا عن حكيم أخذه، ولا على مثال تقدمه احتذاه، وإنما اخترعه من مر له بالصفارين من وقع مطرقة على طست ليس فيهما حجة ولا بيان يؤديان إلى غير حليتهما أو يفيدان غير جوهرهما، فلو كانت أيامه قديمة ورسومه بعيدة لشك فيه بعض الأمم لصنعته ما لم يصنعه أحد منذ خلق الدنيا من اختراعه العلم الذي قدمت ذكره، ومن تأسيسه بناء كتاب "العين" الذي يحصر لغة أمة من الأمم قاطبة، ثم من إمداده سيبويه من علم النحو بما صنف منه كتابه الذي هو زينة لدولة الإسلام، انتهى كلامه.

وكان الخليل رجلاً صالحاً عاقلاً حليماً وقوراً، ومن كلامه: لا يعلم الإنسان خطأ معلمه حتى يجالس غيره. وقال تلميذه النضر بن شميل: أقام الخليل في خص من أخصاص البصرة لا يقدر على فلسين، واصحابه يكسبون بعلمه الأموال، ولقد سمعته يوماً يقول: إني لأغلق علي بابي فما يجاوزه همي. وكان يقول: أكمل ما يكون الإنسان عقلاً وذهناً إذا بلغ أربعين سنة، وهي السن التي بعث الله تعالى فيها محمداً صلى الله عليه وسلم، ثم يتغير وينقص إذا بلغ ثلاثاً وستين سنة، وهي السن التي قبض فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأصفى ما يكون ذهن الإنسان في وقت السحر.

وكان له راتب على سليمان بن حبيب بن المهلب بن أبي صفرة الأزدي وكان والي فارس والأهواز، فكتب إليه يستدعيه، فكتب الخليل جوابه:

أبلغ سليمان أني عنه في سعة وفي غنى غير أني لست ذا مال

شحاً بنفسي أني لا أرى أحداً يموت هزلاً ولا يبقى على حال
الرزق عن قدر لا ا لضعف ينقصه ولا يزيدك فيه حول محتال
والفقر في النفس لا في المال نعرفه ومثل ذاك الغنى في النفس لا المال

فقطع عنه سليمان الراتب فقال الخليل:

إن الذي شق فمي ضامن للرزق حتى يتوفاني
حرمتني خيراً قليلاً فما زادك في مالك حرماني

فبلغت سليمان فأقامته وأقعدته، وكتب إلى الخليل يعتذر إليه، وأضعف راتبه، فقال الخليل:

وزلة يكثر الشيطان إن ذكرت منها التعجب جاءت من سليمانا
لا تعجبن لخير زل عن يده فالكوكب النحس يسقي الأرض أحيانا

واجتمع الخليل وعبد الله بن المقفع ليلة يتحدثان إلى الغداة، فلما تفرقا قيل للخليل: كيف رأيت ابن المقفع؟ فقال: رأيت رجلاً علمه أكثر من عقله، وقيل لابن المقفع: كيف رأيت الخليل؟ قال: رأيت رجلاً عقله أكثر من علمه.

وللخليل من التصانيف كتاب "العين" في اللغة وهو مشهور، وكتاب "العروض" وكتاب "الشواهد" وكتاب "النقط والشكل" وكتاب "النغم" وكتاب في العوامل.

وأكثر العلماء العارفين باللغة يقولون: إن كتاب العين في اللغة المنسوب إلى الخليل بن أحمد ليس تصنيفه، وإنما كان قد شرع فيه ورتب أوائله وسماه ب "العين"، ثم مات فأكمله تلامذته النضر بن شميل ومن في طبقته وهم مؤرج السدوسي ونصر بن علي الجهضمي وغيرهما، فما جاء الذي عملوه مناسباً لما وضعه الخليل في الأول، فأخرجوا الذي وضعه الخليل منه، وعملوا أيضاً الأول، فلهذا وقع فيه خلل كثير يبعد وقوع الخليل في مثله، وقد صنف ابن درستويه في ذلك كتاباً استوفى الكلام فيه، وهو كتاب مفيد.

ويقال: إن الخليل كان له ولد مختلف، فدخل على أبيه يوماً فوجده يقطع بيت شعر بأوزان العروض، فخرج إلى الناس وقال: إن أبي قد جن، فدخلوا عليه وأخبروه بما قال ابنه، فقال مخاطباً له:

لو كنت تعلم ما أقول عذرتني أو كنت تعلم ما تقول عذلتكا
لكن جهلت مقالتي فعذلتني وعلمت أنك جاهل فعذرتكا

وقد روي عنه أنه أنشد، ولم يذكر لنفسه أم لغيره:

يقولون لي دار الأحبة قد دنت وأنت كئيب إن ذا لعجيب
فقلت: وما تغني الديار وقربها إذا لم يكن بين القلوب قريب

ويحكى عنه أنه قال: كان يتردد إلى شخص يتعلم العروض وهو بعيد الفهم، فأقام مدة ولم يعلق على خاطره شيء منه، فقلت له يوماً: قطع هذا البيت:

إذا لم تستطيع شيئاً فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع

فشرع معي في تقطيعه على قد معرفته، ثم نهض ولم يعد يجيء إلي، فعجبت من فطنته لما قصدته في البيت مع بعد فهمه.

وأخبار الخليل كثيرة، وسيبويه عنه أخذ علوم الأدب–وسيأتي ذكره في حرف العين المهملة إن شاء الله تعالى–. ويقال: إن أباه أحمد أول من سمي

بأحمد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، كذا ذكره المرزباني في كتاب "المقتبس" نقلاً عن أحمد بن أبي خيثمة. وكانت ولادته في سنة مائة للهجرة. وتوفي سنة سبعين، وقيل خمس وسبعين ومائة، وقيل عاش أربعاً وسبعين سنة، رحمه الله تعالى. وقال ابن قانع في تاريخه المرتب على السنين: إنه توفي سنة ستين ومائة. وقال ابن الجوزي في كتابه الذي سماه "شذور العقود": إنه مات سنة ثلاثين ومائة، وهذا غلط قطعاً، لكن نقله الواقدي، ومات بالبصرة–أعني الخليل–وكان سبب موته أنه قال: أريد أن أقرب نوعاً من الحساب تمضي به الجارية إلى البياع فلا يمكنه ظلمها، ودخل المسجد وهو يعمل فكره في ذلك، فصدمته سارية وهو غافل عنها بفكره، فانقلب على ظهره، فكانت سبب موته، وقيل: بل كان يقطع بحراً من العروض.

والفراهيدي–بفتح الفاء والراء وبعد الألف هاء مكسورة ثم ياء ساكنة مثناة من تحتها وبعدها دال مهملة–هذه النسبة إلى فراهيد، وهي بطن من الأزد، والفرهودي واحدها، والفرهود: ولد الأسد بلغة أزد شنوءة، وقيل: إن الفراهيد صغار الغنم.

واليحمدي–بفتح الياء المثناة من تحتها وسكون الحاء المهملة وفتح الميم وبعدها دال مهملة–نسبة إلى يحمد، وهو أيضاً: بطن من الأزد، خرج منه خلق كثير.

ويحكى أن الخليل ينشد كثيراً هذا البيت، وهو للأخطل:

وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد ... ذخراً يكون كصالح الأعمال

خمارويه بن طولون

أبو الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون–وقد تقدم ذكر أبيه وجده في حرف الهمزة–ولما توفي أبوه اجتمع الجند على توليته مكانه فولي وهو ابن عشرين سنة، وكانت ولايته في أيام المعتمد على الله، وفي سنة ست وسبعين ومائتين تحرك الافشين: محمد بن أبي الساج ديوداذ بن دوست من أرمينية والجبال في جيش عظيم، وقصد مصر، فلقيه خمارويه في بعض أعمال دمشق، وانهزم اللافشين، واستأمن أكثر عسكره، وسار خمارويه حتى بلغ الفرات ودخل أصحابه الرقة، ثم عاد وقد ملك من الفرات إلى بلاد النوبة.

ولما مات المعتمد وتولى المعتضد الخلافة، باد إليه خمارويه بالهدايا والتحف، فأقره المعتضد على عمله، وسأل خمارويه أن يزوج ابنته قطر الندى–واسمها أسماء–للمكتفي بالله بن المعتضد بالله، وكان يوم ذاك ولي العهد، فقال المعتضد بالله: بل أتزوجها أنا، فتزوجها في سنة إحدى وثمانين ومائتين، ودخل بها في آخر هذه السنة، وقيل في سنة اثنتين وثمانين، والله أعلم. وكان صداقها ألف ألف درهم، وكانت موصوفة بفرط الجمال والعقل. حكي أن المعتضد خلا بها يوماً للأنس في مجلس أفرده لها ما حضره سواها، فأخذت منه الكأس، فنام على فخذها، فلما استثقل وضعت رأسه على وسادة وخرجت وجلست في ساحة القصر، فاستيقظت فلم يجدها، فاستشاط غضباً ونادى بها، فأجابته عن قرب، فقال: ألم أخلك إكراماً لك؟ ألم أدفع إليك مهجتي دون سائر حظاياي؟ فتضعين رأسي على وسادة وتذهبين؟! فقالت: يا أمير المؤمنين، ما جهلت قدر ما أنعمت به علي، ولكن فيما أدبني به أبي أن قال: لا تنامي مع الجلوس، ولا تجلسي مع النيام.

ويقال: إن المعتضد أراد بنكاحها افتقار الطولونية، وكذا كان، فإن أباها جهزها بجهاز لم يعمل مثله، حتى قيل: كان لها ألف هاون ذهباً. وشرط عليه المعتضد أن يحمل كل سنة بعد القيام بجميع وظائف مصر وأرزاق أجنادها مائتي ألف دينار، فاقام على ذلك إلى أن قتله غلمانه بدمشق على فراشه ليلة الأحد لثلاث بقين من ذي القعدة سنة اثنتين وثمانين ومائتين، وعمره اثنتان وثلاثون سنة، وقتل قتلته أجمعون، وحمل تابوته إلى مصر، ودفن عند أبيه بسفح المقطم، رحمهما الله تعالى.

وكان خمارويه من أحسن الناس خطاً، وكان وزيره أبا بكر محمد بن علي بن أحمد المعروف بالماذرائي–الآتي ذكره إن شاء الله تعالى –.

ولما حملت قطر الندى ابنة خمارويه إلى المعتضد، خرجت معها عمتها العباسة بنت أحمد بن طولون مشيعة لها إلى آخر عمارة الديار المصرية من جهة الشام، ونزلت هناك وضربت فساطيطها، وبنت هناك قرية فسميت باسمها، وقيل لها العباسة، وهي عامرة إلى الآن، وبها جامع حسن وسوق قائم؛ ذكر ذلك جماع من أهل العلم.

وماتت قطر الندى لتسع خلون من رجب سنة سبع وثمانين ومائتين، ودفنت داخل قصر الرصافة ببغداد.

وتوفي الافشين محمد بن أبي الساج في شهر ربيع الأول سنة ثمان وثمانين ومائتين، ببرذعة، وهي كرسي أعمال أذربيجان، وقيل إنها من أران.

وتوفي أبوه أبو الساج-وهو الذي تنسب إليه الأجناد الساجية ببغداد-في شهر ربيع الآخر سنة ست وستين ومائتين بجند يسابور، من أعمال خوزستان.

وخمارويه: بضم الخاء الموحدة وفتح الميم وبعدها ألف ثم راء مفتوحة وواو، ثم ياء ساكنة مثناة من تحتها، وبعدها هاء ساكنة.

خير النساج

أبو الحسن خير بن عبد الله النساج الصوفي؛ من أهل سر من رأى، نزل بغداد وكان له حلقة يتكلم فيها؛ وكان قد صحب أبا حمزة محمد بن إبراهيم الصوفي وغيره، وصحب الجنيد بن محمد وأبا العباس ابن عطاء وأبا محمد الحريري وأبا بكر الشبلي، وعمر عمراً طويلاً، وللصوفية عنه حكايات غريبة، وإنما سمي النساج لخبر؛ قال جعفر الخلدي: سألت خيراً النساج: أكان النسج حرفتك؟ قال: لا، قلت: فمن أين سميت به؟ قال: كنت عاهدت الله أن لا آكل الرطب أبداً، فغلبتني نفسي، فأخذت نصف رطل، فلما اكلت واحدة إذا رجل نظر إلي وقال: يا خير، يا آبق هربت مني، وكان له غلام هرب منه اسمه خير، فوقع علي شبهه وصورته، فاجتمع الناس وقالوا: هذا والله غلامك خير، فبقيت متحيراً، وعلمت بم أخذت، وعرفت جنايتي، فأخذني وحملني إلى حانوته الذي كان ينسج فيه غلامه وقال لي: يا عبد السوء، تهرب من مولاك! ادخل فاعمل عملك الذي كنت تعمل، وأمرني بنسج الكرباس، فدليت رجلي على أن أعمل فأخذت بيدي آلته وكأني كنت أعمل من سنين. فبقيت معه أشهراً أنسج له، فقمت ليلة إلى صلاة الغداة فسجدت وقلت في سجودي: إلهي لا أعود إلى ما فعلت، فأصبحت وإذا الشبه ذهب عني، وعدت إلى صورتي التي كنت عليها، فأطلقت، وثبت علي هذا الاسم؛ وفي بعض الروايات: كان يقول: يا خير، فيقول: لبيك، ثم قال له الرجل بعد ذلك: لا أنت عبدي، ولا اسمك خير، فمضى وقال: لا أغير اسماً سماني به رجل مسلم.

وكان يقول: لا نسب أشرف من نسب من خلقه الله بيده فلم يعصمه، ولا أعلم أرفع ممن علمه الله الأسماء كلها فلم ينفعه في وقت جريان القضاء عليه.

وكان خير قد احد ودب، وكان إذا سمع قام ظهره ورجعت قوته كالشاب المطلق، فإذا غاب عن الوجود عاد إلى حاله.

وكان قد عمر مائة وعشرين سنة؛ وكان يذكر أن إبراهيم الخواص صحبه.

وحكى علي بن هارون الحربي عن غير واحد ممن حضر موته من أصحابه أنه غشي عليه عند صلاة المغرب، ثم افاق، ونظر إلى ناحية من باب البيت، وقال: قف، عافاك الله، فإنما أنت عبد مأمور، وأنا عبد مأمور ما أمرت به لا يفوتك وما أمرت به يفوتني، فدعني أمضي لما أمرت به، ثم امض أنت لما أمرت به، ودعا بماء فتوضأ للصلاة وصلى وتمدد وأغمض عينيه وتشهد، ثم مات، رحمه الله تعالى. فرآه بعض أصحابه في النوم، فقال: ما فعل الله بك؟ فقال: لا تسلني عن هذا، ولكن استرحت من دنياكم المضرة. وكانت وفاته في سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة، رحمه الله تعالى.

حرف الدال

داود الظاهري

أبو سليمان بن علي بن خلف الأصبهاني الإمام المشهور المعروف بالظاهري؛ كان زاهداً متقللاً كثير الورع، أخذ العلم عن إسحاق بن راهويه وأبي ثور وغيرهما، وكان من أكثر الناس تعصباً للإمام الشافعي رضي الله عنه، وصنف في فضائله والثناء عليه كتابين، وكان صاحب مذهب مستقل، وتبعه جمع كثير يعرفون بالظاهرية، وكان ولده أبو بكر محمد على مذهبه-وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى-وانتهت إليه رياسة العلم ببغداد.

قال أبو عبد الله المحاملي: صليت صلاة العيد يوم فطر في جامع المدينة، فلما انصرفت قلت في نفسي: أدخل إلى داود بن علي فأهنيه، وكان يترل قطيعة الربيع؛ قال: فجئته، وإذا بين يديه طبق فيه أوراق هندبا وعصارة فيها نخالة وهو يأكل، فهنأته وتعجبت من حاله، ورأيت أن جميع ما نحن فيه من الدنيا

ليس بشيء، فخرجت من عنده ودخلت على رجل من محبي الصنيعة يقال له الجرجاني، فلما علم بمجيئي خرج إلي حاسر الرأس حافي القدمين، وقال لي: ما عني القاضي أيده الله؟ قالت: مهم، قال: وما هو؟ قلت: في جوارك داود بن علي، ومكانه من العلم ما تعلمه، وأنت فكثير البر والرغبة في الخير تفغل عنه، وحدثته بما رأيت منه، فقال لي: داود شرس الخلق، أعلم القاضي أنني وجهت إليه البارحة ألف درهم مع غلام ليستعين بها في بعض أموره فردها مع الغلام وقال للغلام: قل له: بأي عين رأيتني؟ وما الذي بلغك من حاجتي وخلتي حتى وجهت إلي بهذا؟ قال: فتعجبت من ذلك وقلت له: هات الدراهم فإني أحملها إليه، فدفعها إلي ثم قال: يا غلام، الكيس الآخر، فجاءه بكيس فوزن ألفاً أخرى، وقال: تلك لنا وهذه لموضع القاضي وعنايته، قال: فخرجت وجئت إليه، فقرعت الباب فخرج وكلمني من وراء الباب وقال: ما رد القاضي؟ قلت: حاجة أكلمك فيها، فدخلت وجلست ساعة، ثم أخرجت الدراهم وجعلتها بين يديه، فقال: هذا جزاء من ائتمنك على سره أنا بأمانة العلم أدخلتك إلي، ارجع فلا حاجة لي فيما معك، قال المحاملي: فرجعت وقد صغرت الدنيا في عيني ودخلت على الجرجاني فأخبرته بما كان، فقال: أما أنا فقد أخرجت هذه الدراهم لله تعالى، لا أرجع في شيء منها، فليتول القاضي إخراجها في أهل الستر والعفاف على ما يراه القاضي.

قيل: عن كان يحضر مجلسه أربعمائة صاحب طيلسان أخضر، قال داود: حضر مجلسي يوماً أبو يعقوب الشريطي، وكان من أهل البصرة، وعليه خرقتان، فتصدر لنفسه من غير أن يرفعه أحد وجلس إلى جانبي وقال لي: سل يا فتى عما بدا لك، فكأني غضبت منه، فقلت له مستهزئاً: أسألك عن الحجامة، فبرك أبو يعقوب ثم روى طريق "أفطر الحاجم والمحجوم" ومن أرسله ومن أسنده ومن وقفه ومن ذهب إليه من الفقهاء، وروى اختلاف طريق احتجام رسول الله صلى الله عليه وسلم وإعطاء الحجام أجره، ولو كان حراماً لم يعطه، ثم روى طرق أن النبي صلى الله عليه وسلم "احتجم بقرن وذكر أحاديث صحيحة في الحجامة، ثم ذكر الأحاديث المتوسطة مثل "ما مررت بملا من الملائكة" ومثل "شفاء أمتي في ثلاث" وما أشبه ذلك، وذكر الأحاديث الضعيفة مثل قوله عليه السلام "لا تحتجموا يوم كذا ولا ساعة كذا"، ثم ذكر ما ذهب إليه أهل الطب من الحجامة في كل زمان وما ذكروه فيها، ثم ختم كلامه بأن قال: وأول ما خرجت الحجامة من أصبهان، فقلت له: والله لا حقرت بعدك أحداً أبداً.

وكان داود من عقلاء الناس، قال أبو العباس ثعلب في حقه: كان عقل داود أكثر من علمه.

وكان مولده بالكوفة سنة اثنتين ومائتين، وقيل سنة مائتين، وقيل سنة إحدى ومائتين، ونشأ ببغداد، وتوفي بها سنة سبعين ومائتين في ذي القعدة، وقيل في شهر رمضان، ودفن بالشونيزية، وقيل في منزله.

وقال ولده أبو بكر محمد: رأيت أبي داود في المنام، فقلت له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي وسامحني، فقلت: غفر لك ففيم سامحك؟ فقال: يا بني الأمر عظيم، والويل كل الويل لمن لم يسامح، رحمه الله تعالى.

وأصله من أصبهان، وقد تقدم الكلام على أصبهان والشونيزية فيما مر من التراجم، فلا حاجة إلى الإعادة.

الملك الزاهر

أبو سليمان داود الملقب الزاهر مجير الدين ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، رحمهم الله تعالى، كان صاحب قلعة البيرة التي على شاطئ الفرات، وكان يحب العلماء وأهل الأدب، ويقصدونه من البلاد، ولما ولد بمدينة القاهرة كان السلطان صلاح الدين بالشام، وكان الثاني عشر من أولاده، فكتب إليه القاضي الفاضل رسالة يبشره بولادته ومن جملتها: "وهذا الولد المبارك هو الموفي لاثني عشر ولداً، بل لاثني عشر نجماً متقداً، فقد زاد الله تعالى في أنجمه عن أنجم يوسف عليه السلام نجماً، ورآهم المولى يقظة ورأى يوسف تلك الأنجم حلماً، ورآهم يوسف ساجدين له ورأينا الخلق لهم سجوداً، وهو تعالى قادر أن يزيد جدود المولى إلى أن يراهم آباء وجدوداً"، وقد ألم القاضي الفاضل في آخر هذا الكلام بقول البحتري في مدح الخليفة المتوكل وقد ولد له المعتز من جملة قصيدة:

وبقيت حتى تستضيء برأيه ... وترى الكهول الشيب من أولاده

وحكى عنه جماعة أنه كان يقول: من أراد أن يبصر صلاح الدين فليبصرني، فأنا أشبه أولاده به.

وكانت ولادته لسبع بقين من ذي الحجة، وقيل ذي القعدة، سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة، وهو شقيق الملك الظاهر -الآتي ذكره في حرف الغين المعجمة إن شاء الله تعالى-. وتوفي في البيرة في ليلة التاسع من صفر سنة اثنتين وثلاثين وستمائة، وكنت بحلب وقد وصل نعيه إليها، فتوجه الملك العزيز ابن الملك الظاهر أخيه إلى القلعة المذكورة وملكها، رحمه الله تعالى.

والبيرة -بكسر الباء الموحدة وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح الراء وبعدها هاء ساكنة- وهي قلعة بقرب سميساط من ثغور الروم على الفرات من جانب الجزيرة الفراتية؛ وسميساط في بر الشام بين قلعة الروم وملطية، والفرات يفصل بين الجهتين.

داود الطائي

أبو سليمان داود بن نصير الطائي الكوفي؛ سمع عبد الملك بن عمير وحبيب بن أبي عمرة وسليمان الأعمش ومحمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى؛ روى عنه إسماعيل بن عيينة ومصعب بن المقدام وأبو نعيم الفضل بن دكين وغيرهم؛ وكان داود ممن شغل نفسه بالعلم ودرس الفقه وغيره من العلوم ثم اختار بعد ذلك العزلة وآثر الانفراد والخلوة فلزم العبادة واجتهد فيها إلى آخر عمره، وقدم بغداد في أيام المهدي ثم عاد إلى الكوفة وفيها كانت وفاته؛ قال علي بن المديني: سمعت ابن عيينة يقول: داود الطائي ممن علم وفقه، قال: وكان يختلف إلى أبي حنيفة رضي الله عنه حتى تقدم في ذلك الكلام؛ قال: فأخذ يوماً حصاة فحذف بها إنساناً فقال له: يا أبا سليمان طال لسانك وطالت يدك، قال: فاختلف بعد ذلك سنة لا يسأل ولا يجيب، فلما علم أنه تصبر عمد إلى كتبه فغرقها في الفرات ثم أقبل على العبادة وتخلى. وقال عبيد بن جناد سمعت عطاء يقول: كان لداود الطائي ثلثمائة درهم فعاش بها عشرين سنة ينفقها على نفسه؛ قال: وكنا ندخل على داود الطائي فلم يكن في بيته إلا بارية ولبنة يضع عليها رأسه واجانة فيها خبز ومطهرة يتوضأ منها ومنها يشرب.

وقال أبو سليمان الداراني: ورث داود الطائي من أمه داراً، فكان يتنقل في بيوت الدار كلما تخرب بيت من الدار انتقل منه إلى آخر ولم يعمره حتى أتى على عامة البيوت التي في الدار؛ قال وورث من أبيه دنانير فكان يتنفق بها حتى كفن بآخرها.

وقال اسماعيل بن حسان: جئت إلى باب داود الطائي فسمعته يخاطب نفسه فظننت أن عنده أحداً، فأطلت القيام على الباب ثم استأذنت فدخلت، فقال: ما بدا لك في الاستئذان؟ قلت: سمعتك تتكلم فظننت أن عندك أحداً، قال: لا ولكن كنت أخاصم نفسي؛ اشتهت البارحة تمراً فخرجت فاشتريت لها، فلما جئت اشتهت جزراً، فأعطيت الله عهداً ان لا آكل تمراً ولا جزراً حتى ألقاه.

وقدم محمد بن قحطبة الكوفة فقال: أحتاج إلى مؤدب يؤدب أولادي حافظ لكتاب الله تعالى عالم بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبالآثار والفقه والنحو والشعر وأيام الناس؛ فقيل له: ما يجمع هذه إلا داود الطائي، فسير إليه بدرة عشرة آلاف درهم، وقال: استعن بها على دهرك، فردها فوجه إليه بدرتين مع غلامين مملوكين وقال لهما: إن قبل البدرتين فأنتما حران، فمضيا بهما إليه فأبى أن يقبلهما، فقال: إن في قبلوهما عتق رقبانا من الرق، فقال لهما: إني أخاف أن يكون في قبولهما وهق رقبتي في النار، رداهما إليه وقولا له: إن ردهما على أخذهما منه أولى من أن يعطيني أنا.

وكان حائطه قد تصدع فقيل له: لو أمرت به، فقال: كانوا يكرهون فضول النظر.

وقيل إنه صام أربعين سنة ما علم به أحد من أهله، فكان يحمل غذاءه معه ويتصدق به في الطريق ويرجع إلى أهله يفطر عشاء، ولا يعلمون أنه صائم. وقال له رجل: ألا تسرح لحيتك؟ قال: إني عنها مشغول. وقيل احتجم داود فدفع إلى الحجام عشرة دراهم فقيل له: هذا سرف، فقال: لا عبادة لمن لا مروءة عنده.

وقالت أخته: لو تنحيت عن الشمس، فقال: هذه خطي لا أدري كيف تكتب.

قال أبو الربيع الأعرج: دخلت على داود الطائي بيته بعد المغرب فقرب لي كسيرات يابسة، فعطشت فقمت إلى دن فيه ماء حار، فقلت: رحمك الله! لو اتخذت دفاً غير هذا يكون فيه الماء بارداً، فقال لي: إذا كنت لا أشرب إلا بارداً ولا آكل إلا طيباً ولا ألبس إلا ليناً، فما أبقيت لآخرتي؟ قال: قلت له: أوصني، قال: صم عن الدنيا، واجعل إفطارك فيها الموت، وفر من الناس فرارك من السبع، وصاحب أهل التقوى إن صحبت فإنهم أخف مؤونة

وأحسن معونة، ولا تدع الجماعة، حسبك هذا إن عملت به.

وقا داود الطائي: ما حسدت أحداً على شيء إلا أن يكون رجلاً يقوم الليل؛ فإني أحب أن أرزق وقتاً من الليل. قال أبو خالد: وبلغني أنه كان لا ينام الليل، إذا غلبته عيناه احتبى قاعداً؛ ومكث عشرين سنة لا يرفع رأسه إلى السماء.

وقدم هارون الرشيد الكوفة فكتب قوماً من القراء فأمر لكل واحد منهم بألفي درهم فكان داود الطائي ممن كتب فيهم ودعي باسمه أين داود الطائي؟ فقالوا: داود يجيبكم؟ أرسلوا اليه، قال ابن السماك وحماد بن أبي حنيفة: نحن نذهب إليه، قال ابن السماك لحماد في الطريق: إذا نحن دخلنا عليه فانثرها بين يديه فإن للعين حظها، فقال حماد: رجل ليس عنده شيء يؤمر له بألفي درهم يردها!! فلما دخلوا عليه فنثروها بين يديه قال: سوءة، إنما يفعل هذا بالصبيان، وأبى أن يقبلها.

وقال حماد بن أبي حنيفة إن مولاة كانت لداود تخدمه قالت: لو طبخت لك دسماً تأكله، فقال: وددت، فطبخت له دسماً ثم أتته به، فقال لها: ما فعل أيتام بني فلان؟ قالت: على حالهم، قال: اذهبي بهذا إليهم، فقالت: أنت لم تأكل أدماً منذ كذا وكذا، فقال: إن هذا إذا أكلوه صار إلى العرش، وإذا أكلته صار إلى الحش، فقالت له: يا سيدي أما تشتهي الخبز؟ قال: يا داية، بين مضغ الخبز وشرب الفتيت قراءة خمسين آية.

وقال محارب بن دثار: لو كان داود في ا لأمم الماضية لقص الله تعالى شيئاً من خبره.

توفي داود سنة ستين، وقيل سنة خمس وستين ومائة، رحمه الله تعالى.

ولما مات جاء ابن السماك ووقف على قبره ثم قال:

أيها الناس إن أهل الزهد في الدنيا تعجلوا الراحة على أبدانهم مع يسير الحساب غداً عليهم، وإن أهل الرغبة فيها تعجلوا التعب على أبدانهم مع ثقل الحساب غداً عليهم، والزهادة راحة لصاحبها في الدنيا والآخرة، والرغبة تعب لصاحبها في الدنيا والآخرة؛ رحمك الله أبا سليمان ما كان أعجب شأنك، ألزمت نفسك الصبر حتى قومتها: أجعتها وإنما تريد شبعها، وأظمأتها وإنما تريد ريها، أخشنت المطعم وإنما تريد طيبه، أخشنت الملبس وإنما تريد لينه؛ أبا سليمان: أما كنت تشتهي من الطعام طيبه، ومن الماء بارده، ومن اللباس لينه؟ بلى ولكن أخرت ذلك لما بين يديك، فما أراك إلا قد ظفرت بما طلبت وما إليه رغبت، فما أيسر ما ضيعت، وأحقر ما فعلت في جنب ما أملت، فمن سعى مثلك عزم عزمك وصبر صبرك، آنس ما يكون إذا كنت بالله خالياً وأوحش ما يكون آنس ما يكون الناس. سمعت الحديث وتركت الناس يحدثون وتفهمت في دين الله وتركتهم يفتون. لا تقبل من السلطان عطية، ولا من الإخوان هدية، سجنت نفسك في بيتك فلا محدث لك، ولا ستر على بابك، فلو رأيت جنازتك وكثرة تابعك علمت أنه قد شرفك وأكرمك وألبسك رداء عملك، فلو لم يرغب عبد في الزهد في الدنيا إلا لمحبة هذا الستر الجميل والتابع الكثير لكان حقيقاً بالاجتهاد، فسبحان من لا يضيع مطيعاً ولا ينسى لأحد صنيعاً.

وقيل إن ابن السماك لما قام على قبر داود قال: رحمك الله يا داود! كنت تسهر ليلك والناس نائمون، وكنت تربح إذ الناس يخسرون، فقال الناس جميعاً: صدقت؛ وكنت تسلم إذ الناس يخوضون، فقال الناس جميعاً: صدقت؛ حتى عدد فضائله كلها. ولما فرغ قام أبو بكر النهشلي فحمد الله ثم قال: يا رب إن الناس قد قالوا ما عندهم مبلغ ما علموا، اللهم فاغفر له برحمتك ولا تكله إلى عمله، وفرغ من دفنه وقام الناس.

قال جعفر بن نفيل الرهبي: رأيت داود الطائي بعد موته فقلت له: كيف رأيت خير الآخرة؟ قال: رأيت خيرها كثيراً، قلت: فماذا صرت إليه؟ قال: صرت إلى خير الحمد لله، قال فقلت له: هل لك من علم بسفيان بن سعيد؟ فقال: كان يحب الخير وأهله فرقاه الخير إلى درجة أهل الخير.

دبيس بن صدقة

أبو الأغر دبيس بن سيف الدولة أبي الحسن صدقة بن منصور بن دبيس بن علي بن مزيد الأسدي الناشري الملقب نور الدولة ملك العرب صاحب الحلة المزيدية؛ كان جواداً كريماً عنده معرفة بالأدب والشعر، وتمكن في خلافة الإمام المسترشد واستولى على كثير من بلاد العراق، وهو من بيت كبير-وسيأتي ذكر أبيه وأجداده في حرف الصاد إن شاء الله تعالى-.

ودبيس المذكور هو الذي عناه ابن الحريري صاحب "المقامات" في المقامة التاسعة والثلاثين بقوله "أو الأسدي دبيس" لأنه كان معاصره-كما نذكره

في حرف القاف إن شاء الله تعالى-فرام التقرب إليه بذكره في مقاماته، ولجلالة قدره أيضاً.

وله نظم حسن، ورأيت العماد الكاتب في "الخريدة" وابن المستوفي في "تاريخ إربل" وغيرهما قد نسبوا إليه الأبيات اللامية التي من جملتها:

أسلمه حب سليمانكم ... إلى هوى أيسره القتل

ورأيت ابن بسام صاحب كتاب "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة" قد ذكرها لابن رشيق القيروان-وقد ذكرها في ترجمته في حرف الحاء-والظاهر أنها لابن رشيق، لأن ابن بسام ذكر في "الذخيرة" أنه ألفها في سنة اثنتين وخمسمائة وفي هذا التاريخ كان دبيس شاباً ويبعد أن يصل شعره في ذلك السن إلى الأندلس وينسب إلى مثل ابن رشيق، مع معرفة ابن بسام بأشعار أهل المغرب.

وذكر ابن المستوفي في تاريخه أن بدران أخا دبيس كتب إلى أخيه المذكور وهو نازح عنه:

ألا قل لمنصور وقل لمسيب ... وقل لدبيس إنني لغريب

هنيئاً لكم ماء الفرات وطيبه ... إذا لم يكن لي في الفرات نصيب

فكتب إليه دبيس:

ألا قل لبدران الذي حن نازعاً ... إلى أرضه والحر ليس يخيب

تمتع بأيام السرور فإنما ... عذار الأماني بالهموم يشيب

ولله في تلك الحوادث حكمة ... "وللأرض من كأس الكرام نصيب "

وذكر غير ابن المستوفي أن بدران بن صدقة المذكور لقبه تاج الملوك، ولما قتل أبوه تغرب عن بغداد ودخل الشام فأقام بها مدة ثم توجه إلى مصر ومات بها في سنة ثلاثين وخمسمائة؛ وكان يقول الشعر، وذكره العماد الكاتب الأصفهاني في كتاب "الخريدة".

وكان دبيس في خدمة السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي وهم نازلون على باب المراغة من بلاد أذربيجان ومعهم الإمام المسترشد بالله-لسبب سنذكره في ترجمة مسعود المذكور إن شاء الله تعالى-، فيقال إن السلطان دس عليه جماعة من الباطنية فهجموا خيمته-أعني المسترشد بالله-وقتلوه يوم الخميس الثامن والعشرين، وقال ابن المستوفي: الرابع عشر من ذي القعدة سنة تسع وعشرين وخمسمائة، وخاف أن تنسب القضية إليه، وأراد أن تنسب إلى دبيس المذكور، فتركه إلى أن جاء إلى الخدمة وجلس على باب خيمة السلطان، فسير بعض مماليكه، فجاءه من ورائه وضرب رأسه بالسيف فأبانه، وأظهر السلطان بعد ذلك أنه إنما فعل هذا انتقاماً منه بما فعل في حق الإمام، وكان ذلك بعد قتل الإمام بشهر، رحمه الله تعالى.

وذكر المأموني في تاريخه أنه قتل في رابع عشر ذي الحجة من السنة المذكورة على باب خوي. وكان قد أحسن بتغير رأي السلطان فيه منذ قتل المسترشد، وعزم على الهرب مراراً، وكانت المنية تثبطه.

وذكر ابن الأزرق في تاريخه أنه قتله كان على باب تبريز، وأنه لما قتل حمل إلى ماردين إلى زوجته كهارخاتون، فدفن بالمشهد عند نجم الدين إيلغازي صاحب ماردين، والد كهارخاتون ابنة المذكورة، ثم توزج السلطان المذكور ابنة دبيس المذكور، وأمها شرف خاتون ابنة عميد الدولة بن فخر الدولة محمد بن جهير، وأم شرف خاتون المذكورة زبيدة بنت الوزير نظام الملك-وسيأتي ذكر ذلك في ترجمة فخر الدولة بن جهير إن شاء الله تعالى-.

والناشري-بفتح النون وبعد الألف شين معجمة مكسورة وبعدها راء ثم ياء-هذه النسبة إلى ناشرة بن نصر بطن من أسد بن خزيمة.

دعبل

أبو علي دعب بن علي بن رزين بن سليمان الخزاعي الشاعر المشهور، وذكر صاحب الأغاني: أنه دعبل بن علي بن رزين بن سليمان بن تميم بن نهشل-وقيل بهنس-بن خراش بن خالد بن دعبل بن أنس بن خزيمة بن سلامان بن اسلم ابن أفصى بن حارثة بن عمرو بن عامر مزيقيا ويكنى: أبا علي. وقال الخطيب البغدادي في تاريخه: هو دعبل بن علي بن رزين بن عثمان بن عبد الله ابن بديل بن ورقاء الخزاعي.

أصله من الكوفة، ويقال: من قرقيسيا وأقام ببغداد، وقيل إن دعبلاً لقب واسمه الحسن، وقيل عبد الرحمن، وقيل محمد، وكنيته أبو جعفر والله أعلم.
ويقال: إنه كان أطروشاً وفي قفاه سلعة.
كان شاعراً مجيداً، إلا أنه كان بذي اللسان مولعاً بالهجو والحط من أقدار الناس، وهجا الخلفاء فمن دونهم، وطال عمره فكان يقول: لي خمسون سنة أحمل خشبتي على كتفي، أدور على من يصلبني عليها فما أجد من يفعل ذلك، ولما عمل في إبراهيم بن المهدي–المقدم ذكره–الأبيات التي أثبتها في ترجمته وأولها:

نعر ابن شكلة بالعراق وأهله فهفا إليه كل أطلس مائق

دخل إبراهيم على المأمون فشكا إليه حاله، وقال: يا أمير المؤمنين، إن الله سبحانه وتعالى فضلك في نفسك علي وألهمك الرأفة والعفو عني، والنسب واحد، وقد هجاني دعبل فانتقم لي منه، فقال المأمون: ما قال؟ لعل قوله:

نعر ابن شكلة بالعراق ...

وأنشد الأبيات، فقال: هذا من بعض هجائه، وقد هجاني بما هو أقبح من هذا، فقال المأمون: لك أسوة بي فقد هجاني واحتملته، وقال في:

أيسومني المأمون خطة جاهل أو ما رأى بالأمس رأس محمد
إني من القوم الذين سيوفهم قتلت أخاك وشرفتك بمقعد
شادوا بذكرك بعد طول خموله واستنقذوك من الحضيض الأوهد

فقال إبراهيم: زادك الله حلماً يا أمير المؤمنين وعلماً فيما ينطق أحدنا إلا عن فضل علمك ولا يحلم إلا اتباعاً لحلمك.

وأشار دعبل في هذه الأبيات إلى قضية طاهر بن الحسين الخزاعي–الآتي ذكره إن شاء الله تعالى–وحصاره بغداد، وقتله الأمين محمد بن الرشيد، وبذلك ولي المأمون الخلافة. والقصة مشهورة، ودعبل خزاعي، فهو منهم، وكان المأمون إذا أنشد هذه الأبيات يقول: قبح الله دعبلاً فما أوقحه، كيف يقول عني هذا وقد ولدت في حجر الخلافة ورضعت يديها وربيت في مهدها؟ ومثل هذا الحلم بل أعظم ما حكي عن الواثق أنه كان يحب الباذنجان ويكثر من أكله ومعظم الرمد بالعراق من أكل الباذنجان لحر الإقليم والسوداء المتولدة من أكله، فبعث إليه أبوه المعتصم وقال له: دع أكل الباذنجان واحفظ بصرك فمتى رأيت خليفة أعمى؟ فقال للرسول: قل لأمير المؤمنين إني تصدقت بعيني على الباذنجان، ثم رمد رمدة صعبة ما تخلص منها إلا وعلى إحدى عينيه بياض كاد يسدها، وكان المسدود الشاعر قد هجا الواثق وهو ولي عهد أبيه، وسمي المسدود لجسم سد منخريه فعمل:

من المسدود في الأنف إلى المسدود في العين
فيا طبلاً له رأس ويا طبلاً برأسين

فلما كان يوم تفرقة العطاء كتب المسدود مستحقه في ورقة وجعلها في عمامته مع ورقة الهجو ثم دخل على الخليفة فناوله ورقة الهجو فقرأها وضحك وقال: خذ هذه وهات ورقة المستحق ولا تعد في مثل هذا، وقضى حاجته.
وكان بين دعبل ومسلم بن الوليد الأنصاري اتحاد كثير، وعليه تخرج دعبل في الشعر، فاتفق أن ولي مسلم جهة في بعض بلاد خراسان أو فارس ثم إني ظفرت بالجهة التي تولاها مسلم وهي جرجان من ناحية خراسان ولاه إياها الفضل بن سهل–الآتي ذكره إن شاء الله تعالى–فقصده دعبل لما يعلمه من الصحبة التي بينهما، فلم يلتفت مسلم إليه، ففارقه وعمل:

غششت الهوى حتى تداعت أصوله بنا وابتذلت الوصل حتى تقطعا
وأنزلت من بين الجوانح والحشا ذخيرة ود طالما قد تمنعا

فلا تعذلني ليس لي فيك مطمع تخرقت حتى لم أجد لك مرقعاً

وهبك يميني استأكلت فقطعتها وصبرت قلبي بعدها فتشجعا

ومن شعره في الغزل:

لا تعجبي يا سلم من رجل ضحك المشيب برأسه فبكى

يا ليست شعري كيف نومكما يا صاحبي إذا دمي سفكا

لا تأخذا بظلامتي أحداً قلبي وطرفي في دمي اشتركا

ومن شعره في مدح المطلب بن عبد الله بن مالك الخزاعي أمير مصر:

زمني بمطلب سقيت زمانا ما كنت إلا روضة وجنانا

كل الندى إلا نداك تكلف لم أرض غيرك كائناً من كانا

أصلحتني بالبر بل أفسدتني وتركتني أتسخط الإحسانا

ومن كلامه: من فضل الشعر أنه لم يكذب أحد قط إلا اجتواه الناس، إلا الشاعر فإنه كلما زاد كذبه زاد المدح له، ثم لا يقنع له بذلك حتى يقال له: أحسنت والله، فلا يشهد له شهادة زور إلا ومعها يمين بالله تعالى.

وقال دعبل: كنا يوماً عند سهل بن هارون الكاتب البليغ، وكان شديد البخل، فأطلنا الحديث، واضطره الجوع إلى أن دعا بغدائه، فأتي بقصعة فيها ديك عاس هرم لا تخرقه سكين ولا يؤثر فيه ضرس، فأخذ كسرة خبز فخاض بها مرقته، وقلب جميع ما في القصعة، ففقد الرأس، فبقي مطرقاً ساعة، ثم رفع رأسه وقال للطباخ: أين الرأس؟ فقال: رميت به، قال: ولم؟ قال: ظننت أنك لا تأكله، فقال: لبئس ما ظننت، ويحك والله إني لأمقت من يرمي برجليه فكيف من يرمي رأسه، والرأس رئيس، وفيه الحواس الأربع، ومنه يصيح، ولولا صوته لما فضل، وفيه فرقه الذي يتبرك به، وفيه عيناه اللتان يضرب بهما المثل فيقال: شراب كعين الديك، وماغه عجب لوجع الكليتين، ولم ير عظم قط أهش من عظم رأسه، أو ما علمت أنه خير من طرف الجناح ومن الساق ومن العنق؟ فإن كان قد بلغ من نبلك أنك لا تأكله فانظر أين هو، قال: والله لا أدري أين هو، رميت به، قال: لكني أدري أين هو، رميت به في بطنك فالله حسبك.

ودعبل ابن عم أبي جعفر بن عبد الله بن رزين الملقب أبا الشيص الخزاعي الشاعر المشهور، وكان أبو الشيص من مداح الرشيد، ولما مات رثاه ومدح ولده الأمين.

وكانت ولادة دعبل في سنة ثمان وأربعين ومائة، وتوفي سنة ست وأربعين ومائتين بالطيب، وهي بلدة بين واسط العراق وكور الأهواز، رحمه الله تعالى.

وجده رزين مولى عبد الله بن خلف الخزاعي، والد طلحة الطلحات، وكان عبد الله المذكور كاتب عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، على ديوان الكوفة، وولي طلحة سجستان فمات بها، رحمه الله تعالى.

ولما مات دعبل–وكان صديق البحتري، وكان أبو تمام الطائي قد مات قبله كما تقدم–رثاهما البحتري بأبيات منها:

قد زاد في كلفي وأوقد لوعتي مثوى حبيب يوم مات ودعبل

أخوي لا تزل السماء مخيلة تغشاكما بسماء مزن مسبل

جدث على الأهواز يبعد دونه مسرى النعي ورمة بالموصل

ودعبل–بكسر الدال وسكون العين المهملتين وكسر الباء الموحدة وبعدها لام–وهو اسم الناقة الشارف، وكان يقول: مررت يوماً برجل قد أصابه الصرع، فدنوت منه وصحت في أذنه بأعلى صوتي: دعبل، فقام يمشي كأنه لم يصبه شيء.

دعلج بن أحمد

دعلج بن أحمد بن دعلج بن عبد الرحمن السجستاني المعدل؛ سمع الحديث ببلاد خراسان والري وحلوان وبغداد والبصرة والكوفة ومكة، وكان من ذوي اليسار وله صدقات جارية وأوقاف محبسة على أهل الحديث ببغداد ومكة وسجستان؛ وجاور بمكة زماناً طويلاً ثم سكن بغداد واستوطنها وحدث بها عن محمد بن عمر الحرسي ومحمد بن النضر الجارودي وغيرهما، وروى عنه الدار قطني أبو الحسن وغيره من شيوخ الخطيب. وكان ثقة، وجمع له "المسند" وغير ذلك.

قال الخطيب: بلغني أنه بعث بكتابه "المسند" إلى أبي العباس ابن عقدة لينظر فيه وجعل في الأجزاء بين كل ورقتين ديناراً؛ وكان يقول: ليس في الدنيا مثل داري، وذلك أنه ليس في الدنيا مثل بغداد، ولا في بغداد مثل القطيعة، ولا في القطيعة مثل درب أبي خلف، ولا في درب أبي خلف مثل داري.

قال الخطيب: حدثني أبو بكر محمد بن علي بن عبد الله الحداد–وكان من أهل الدين والقرآن والصلاح–عن شيخ سماه وذهب عني حفظه اسمه قال: حضرت يوم جمعة المسجد الجامع بمدينة المنصور، فرأيت رجلاً بين يدي في الصف حسن الوقار ظاهر الخشوع دائم الصلاة، لم يزل يتنفل مذ دخل المسجد إلى أن قرب قيام الصلاة، ثم جلس، قال: فغلبتني هيبته ودخل قلبي محبته، ثم اقيمت الصلاة فلم يصل مع الناس الجمعة، فكبر علي ذلك من أمره، وتعجبت من حاله، وغاظني فعله، فلما قضيت الصلاة تقدمت إليه وقلت: أيها الرجل، ما رأيت أعجب من أمرك، أطلت النافلة وأحسنتها وتركت الفريضة وضيعتها، فقال: يا هذا إن لي عذراً وبي علة منعتني من الصلاة، قلت: وما هي؟ قال: أنا رجل علي دين اختفيت في منزلي مدة بسببه ثم حضرت اليوم الجامع للصلاة فقبل أن تقام التفت فرأيت صاحب الدين، فمن خوفه أحدثت في ثيابي، فهذا خبري، فأسألك بالله إلا سترت علي وكتمت أمري، فقلت: ومن الذي له عليك الدين؟ قال: دعلج بن احمد، وكان إلى جانبه صاحب لدعلج قد صلى وهو لا يعرفه، فسمع هذا القول، ومضى في الوقت إلى دعلج فذكر له القصة، فقال له دعلج: امض إلى الرجل واحمله إلى الحمام واطرح عليه خلعة من ثيابي وأجلسه في منزلي حتى أنصرف من الجامع، ففعل الرجل ذلك، فلما انصرف دعلج إلى منزله أمر بالطعام فأحضر وأكل هو والرجل ثم أخرج حسابه فنظر فيه فإذا له عليه خمسة آلاف درهم فقال له: انظر لا يكون عليك في الحساب غلط أو نسي لك نقد، فقال الرجل: لا، فضرب دعلج على حسابه وكتب تحته علامة الوفاء، ثم أحضر الميزان ووزن خمسة آلاف درهم وقال له: أما الحساب الأول فقد حاللناك مما بيننا وبينك فيه وأسألك أن تقبل هذه الخمسة آلاف درهم وتجعلنا في حل من الروعة التي دخلت قلبك برؤيتك إيانا في مسجد الجامع، أو كما قال.

وكانت وفاة دعلج المذكور يوم الجمعة لإحدى عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة سنة إحدى وخمسين وثلثمائة، وقيل لعشر بقين منها، رحمه الله تعالى.

أبو بكر الشبلي

أبو بكر دلف بن جحدر–وقيل جعفر، وقيل جعفر بن يونس وهكذا هو مكتوب على قبره–المعروف بالشبلي الصالح المشهور الخراساني الأصل البغدادي المولد والمنشأ؛ كان جليل القدر مالكي المذهب، وصحب الشيخ أبا القاسم الجنيد ومن في عصره من الصلحاء رضي الله عنهم، وكان في مبدإ أمره والياً في دنباوند، فلما تاب في مجلس خير النساج مضى إليها وقال لأهلها: كنت والي بلدكم فاجعلوني في حل. ومجاهداته في أول أمره فوق الحد، ويقال: إنه اكتحل بكذا وكذا من الملح ليعتاد السهر ولا يأخذه نوم؛ وكان يبالغ في تعظيم الشرع المطهر؛ وكان إذا دخل شهر رمضان المبارك جد في الطاعات ويقول: هذا شهر عظمه ربي فأنا أولى بتعظيمه، وكان في آخر عمره ينشد كثيراً:

وكم من موضع لو مت فيه ... لكنت به نكالاً في العشيره

ودخل يوماً على شيخه الجنيد، فوقف بين يديه وصفق بيديه، وأنشد:

عودوني الوصال والوصل عذب ورموني بالصد والصد صعب

زعموا حين أزمعوا أن ذنبي فرط حبي لهم، وما ذاك ذنب

لا وحق الخضوع عند التلاقي ما جزا من يحب إلا يحب

قال: فأجابه الجنيد:

وتمنيت أن أرا ك فلما رأيتكا

غلبت دهشة السرو ر فلم املك البكا

حدث أحمد بن منصور بن نصر قال: جاء الشبلي يوماً إلى أبي بكر ابن مجاهد فلم يجده في مسجده فسأل عنه فقيل: هو عند علي بن المجوسي، فلما دخل وقعدنا قال له أبو بكر ابن مجاهد: يا أبا بكر، أخبرت أنك تحرق الثياب والخبز والأطعمة وما ينتفع الناس فيه، أين هذا من العلم والشرع؟ فقال له: يقول الله: "فطفق مسحاً بالسوق والأعناق ص. أين هذا من العلم؟ فسكت أبو بكر ابن مجاهد، فقال: كأني ما قرأتها قط. وقيل إنهم عابثوه في مثله فقرأ. "إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم. الأنبياء. هذه الأطعمة والشهوات حقيقة الخلق ومعبودهم أبرأ منه وأحرقه؛ ومن أناشيده:

ودادكم هجر وحبكم قلى ووصلكم سلم وسلمكم حرب

وحكي عن بعض المعترفين أنه أنس إلى طريقة التصوف واستشرف وشاور أبا بكر فرده عما أراده وحذره التعرض له، وعطفته الخواطر عليه فمال إلى قرين من هذه الطائفة فعلق بهم واتصل بجملتهم، ثم صحب جماعة منهم متوجهاً إلى الحج، فعجز في بعض الطريق من مسايرتهم وقصر عن اللحاق فمضوا وتخلف عنهم، فاستند إلى بعض الرمال إرادة الاستراحة من الإعياء، فمر به الشيخ المذكور فقال مخاطباً له:

إن الذين بخير كنت أذكرهم قضوا عليك وعنهم كنت أنهاكا

فقال له الفتى: ما أصنع الآن؟ فقال له:

لا تطلبن حياة غير حبهم فليس يحييك إلا من توفاكا

قال محمد بن إبراهيم: حضرت وفاة الشبلي فأمسك لسانه وعرق جبينه فأشار إلى وضوء الصلاة فوضأته، وبقي تخليل لحيته، فقبض على يدي وأدخل إصبعي في لحيته يخللها، فبكيت وقلت: رجل لم يذهب عليه تخليل لحيته في الوضوء عند نزع روحه وإمساك لسانه.

ودخل عليه أبو الفتح عائداً في مرضه، فسمعه يقول:

صح عند الناس أني عاشق غير أن لم يعلموا عشقي لمن

قال أبو بكر الشبلي: جئت يوماً إلى باب الطاق فرأيت والدة تضرب ولدها، فقلت لها: لهذا حرمة، فقال الصبي: معارضتك بيني وبين والدتي أشد علي من ضربها، أرأيت أحداً يضرب ولده إلا من محبته إياه؟ إنما ضرب الوالدين تأديب وشفقة وفرط محبة، قال الشبلي: فكأني كنت المقصود بهذه المخاطبة، فانصرفت عنهما وأنا أقول:

لبيك تصديقاً أيا سيدي من الذي يألم من عثرتك

وحكى الخطيب في تاريخه، قال أبو الحسن التميمي: دخلت على أبي بكر في داره يوماً وهو يهيج، ويقول:

على بعدك ما يصب ر من عادته القرب

ولا يقوى على هجر ك من تيمه الحب

فإن لم ترك العين فقد يبصرك القلب

وذكر الخطيب أيضاً في ترجمة أبي سعد إسماعيل بن علي الواعظ ما مثاله: وأنشدنا أبو سعد قال: أنشدنا طاهر الخثعمي قال: أنشدني الشبلي لنفسه:

مضت الشبيبة والحبيبة فانبرى ... دمعان في الأجفان يزدحمان

ما أنصفتني الحادثات، رمينني ... بمودعين وليس لي قلبان

وقال الشبلي أيضاً: رأيت يوم الجمعة معتوهاً عند جامع الرصافة قائماً عريان، وهو يقول: أنا مجنون الله، أنا مجنون الله، فقلت له: لم لا تدخل الجامع وتتوارى وتصلي؟ فأنشد:

يقولون زرنا واقض واجب حقنا ... وقد أسقطت حالي حقوقهم عني

إذا أبصروا حالي ولم يأنفوا لها ... ولم يأنفوا منها أنفت لهم مني

وكانت وفاته يوم الجمعة لليلتين بقيتا من ذي الحجة سنة أربع وثلاثين وثلثمائة ببغداد، ودفن في مقبرة الخيزران، وعمره سبع وثمانون سنة، رحمه الله تعالى، ويقال إنه مات سنة خمس وثلاثين، والأول أصح، ويقال إن مولده بسر من رأى.

والشبلي: بكسر الشين وسكون الباء الموحدة وبعدها لام–وهذه النسبة إلى شبلة، وهي قرية من قرى أسروشنة، وأسروشنة بضم الهمزة وسكون السين المهملة وضم الراء وسكون الواو وفتح الشين المعجمة وفتح النون وبعدها هاء ساكنة–وهي بلدة عظيمة وراء سمرقند من بلاد ما وراء النهر.

ودنباوند: بضم الدال المهملة وسكون النون وفتح الباء الموحدة وبعد الألف واو مفتوحة ثم نون ساكنة وبعدها دال مهملة–وهي ناحية من رستاق الري في الجبال، وبعضهم يقول: دماوند، والأول أصح.

حرف الذال

ذو القرنين ابن حمدان

أبو المطاع ذو القرنين ابن أبي المظفر حمدان بن ناصر الدولة أبي محمد الحسن ابن عبد الله بن حمدان التغلبي الملقب وجيه الدولة–وقد تقدم ذكر جده ناصر الدولة في حرف الحاء، ورفعت هناك في نسبه فأغنى عن إعادته–؛ كان أبو المطاع المذكور شاعراً ظريفاً حسن السبك جميل المقاصد، ومن شعره قوله:

إني لأحسد "لا" في أسطر الصحف ... إذا رأيت اعتناق اللام للألف

وما أظنهما طال اعتناقهما ... إلا لما لقيا من شدة الشغف

وله أيضاً:

أفدي الذي زرته بالسيف مشتملاً ... ولحظ عينيه أمضى من مضاربه

فما خلعت نجادي في العناق له ... حتى لبست نجاداً من ذوائبه

فكان أسعدنا في نيل بغيته ... من كان في الحب أشقانا بصاحبه

وأورد له الثعالبي في "اليتيمة" الأبيات التي تقدم ذكرها في ترجمة الشريف أبي القاسم أحمد بن طباطبا العلوي التي أولها:

قالت لطيف خيال زارني ومضى ... بالله صفه ولا تنقص ولا تزد

وذكر في ترجمة أبي المطاع أنها له وفي ترجمة الشريف أنها له، والله أعلم لمن هي منهما.

وله أيضاً:

لما التقينا معاً والليل يسترنا ... من جنحة أظلم في طيها نعم
بتنا أعف مبيت باته بشر ... ولا مراقب إلا الطرف والكرم
فلا مشى من وشى عند العدو بنا ... ولا سعت بالذي يسعى بنا قدم

وله أيضاً:

لو كنت ساعة بيننا وما بيننا ... فشهدت حين نكرر التوديعا
أيقنت أن من الدموع محدثاً ... وعلمت أن من الحديث دموعا

وقوله:

ترى الثياب من الكتان يلمحها ... نور من البدر أحياناً فيبليها
فكيف تنكر أن تبلى معاجرها ... والبدر في كل وقت طالع فيها

وللشريف الرضي في المعنى:

كيف لا تبلى غلالته ... وهو بدر وهي كتان

ومن المنسوب إليه:

تقول لما رأتني ... نضواً كمثل الخلال
هذا اللقاء منام ... وأنت طيف خيال
فقلت كلا ولكن ... أساء بينك حالي
فليس تعرف مني ... حقيقتي من محالي

وله أشعار كثيرة حسنة، ولعبد العزيز بن نباته الشاعر المشهور في أبيه مدائح جمة.

وتوفي أبو المطاع في صفر سنة ثمان وعشرين وأربعمائة، وكان قد وصل إلى مصر في أيام الظاهر بن الحاكم العبيدي صاحبها، فقلده ولاية الاسكندرية وأعمالها في رجب سنة أربع عشرة وأربعمائة، وأقام بها مقدار سنة، ثم رجع إلى دمشق، هكذا قاله المسبحي في تاريخه.

حرف الراء

رابعة العدوية

أم الخير رابعة ابنة إسماعيل العدوية البصرية مولاة آل عتيك الصالحة المشهورة؛ كانت من أعيان عصرها، وأخبارها في الصلاح والعبادة مشهورة وذكر أبو القاسم القشيري في "الرسالة" أنها كانت تقول في مناجاتها: إلهي تحرق بالنار قلباً يحبك؟ فهتف بها مرة هاتف: ما كنا نفعل هذا، فلا تظني بنا ظن السوء. وقال يوماً عندها سفيان الثوري: واحزناه! فقالت: لا تكذب بل قل واقلة حزناه، لو كنت محزوناً لم يتهيأ لك أن تتنفس. وقال بعضهم: كنت أدعو لرابعة العدوية، فرأيتها في المنام تقول: هداياك تأتينا على أطباق من نور مخمرة بمناديل من نور، وكانت تقول: ما ظهر من أعمالي فلا أعده شيئاً. ومن وصاياها: اكتموا حسناتكم كما تكتمون سيئاتكم. وقالت لأبيها: يا أبه، لست أجعلك في حل من حرام تطعمنيه، فقال لها: أرأيت إن لم أجد إلا حراماً؟ قالت: نصبر في الدنيا على الجوع خير من أن نصبر في الآخرة على النار. وكانت إذا جن عليها الليل قامت إلى سطح لها ثم نادت: إلهي هدأت الأصوات وسكنت الحركات وخلا كل حبيب بحبيبه، وقد خلوت بك أيها المحبوب، فاجعل خلوتي منك في هذه الليلة عتقي من النار.

ولقي سفيان الثوري رابعة–وكانت زرية الحال–فقال لها: يا أم عمرو أرى حالاً رثة فلو أتيت جارك فلاناً لغير بعض ما أرى، فقالت له: يا سفيان وما ترى من سوء حالي؟ ألست على الإسلام فهو العز الذي لا ذل معه والغني الذي لا فقر معه والأنس الذي لا وحشة معه؛ والله إني لأستحيي أن أسأل الدنيا من يملكها فكيف أسألها من لا يملكها؟ فقال سفيان وهو يقول: ما سمعت مثل هذا الكلام. وقالت رابعة لسفيان: إنما أنت أيام معدودة فإذا ذهب يوم ذهب بعضك ويوشك إذا ذهب البعض أن يذهب الكل وأنت تعلم فاعمل.

كان أبو سليمان الهاشمي له بالبصرة كل يوم غلة ثمانين ألف درهم، فبعث إلى علماء البصرة يستشيرهم في امرأة يتزوجها فأجمعوا على رابعة العدوية فكتب إليها: أما بعد فإن ملكي من غلة الدنيا في كل يوم ثمانون ألف درهم وليس يمضي إلا قليل حتىى أتمها مائة ألف إن شاء الله، وأنا أخطبك نفسك، وقد بذلت لك من الصداق مائة ألف وأنا مصير إليك من بعد أمثالها، فأجبيبني، فكتبت إليه: أما بعد فإن الزهد في الدنيا راحة القلب والبدن، والرغبة فيها تورث الهم والحزن، فإذا أتاك كتابي فهيء زادك وقدم لمعادك، وكن وصي نفسك ولا تجعل وصيتك إلى غيرك، وصم دهرك واجعل الموت فطرك، فما يسرني أن الله خولني أضعاف ما خولك فيشغلني بك عنه طرفة عين والسلام.

وقالت امرأة لرابعة: إني أحبك في الله، فقالت لها: أطيعي من أحببتني له. وكانت رابعة تقول: اللهم قد وهبت لك من ظلمني فاستوهبني ممن ظلمته.

قال رجل لرابعة: إني أحبك في الله، قالت: فلا تعص الذي أحببتني له.

إني جعلتك في الفؤاد محدثي	وأبحت جسمي من أراد جلوسي
فالجسم مني للجليس مؤانس	وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسي

وكانت وفاتها في سنة خمس وثلاثين ومائة، ذكره ابن الجوزي في "شذور العقود" وقال غيره: سنة خمس وثمانين ومائة، رحمهما الله تعالى، وقبرها يزار، في كتاب "صفة الصفوة" في ترجمة رابعة المذكورة بإسناد له متصل إلى عبدة بنت أبي شوال–قال ابن الجوزي: وكانت من خيار إماء الله تعالى، وكانت تخدم رابعة–قالت: كانت رابعة تصلي اليل كله، فإذا طلع الفجر هجعت في مصلاها هجعة خفيفة حتى يسفر الفجر، فكنت أسمعها تقول إذا وثبت من مرقدها ذلك وهي فزعة: يا نفس، كم تنامين؟ وإلى كم تقومين؟ يوشك أن تنامي نومة لا تقومين منها، إلا لصرخة يوم النشور، وكان هذا دأبها دهرها حتى ماتت، ولما حضرتها الوفاة دعتني وقالت: يا عبدة لا تؤذني بموتي أحداً، وكفنيني في جبتي هذه، وهي جبة من شعر كانت تقوم فيها إذا هدأت العيون، قالت: فكفناها في تلك الجبة، وفي خمار صوف كانت تلبسه، ثم رأيتها بعد ذلك بسنة أو نحوها في منامي عليها حلة إستبرق خضراء وخمار من سندس أخضر لم ار شيئاً قط أحسن منه، فقلت: يا رابعة، ما فعلت بالجبة التي كفناك فيها والخمار الصوف؟ قالت: إنه والله نزع عني وأبدلت به ما ترينه علي، فطويت أكفاني وختم عليها، ورفعت في عليين ليكمل لي بها ثوابها يوم القيامة، فقلت لها: لهذا كنت تعملين أيام الدنيا، فقالت: وما هذا عندما رأيت من كرامة الله عز وجل لأوليائه؟ فقلت لها: فما فعلت عبيدة بنت أبي كلاب؟ فقالت: هيهات هيهات سبقتنا والله إلى الدرجات العلا، فقلت: وبم وقد كنت عند الناس، أي أكبر منها؟ قالت: إنها لم تكن تبالي على أي حال أصبحت من الدنيا وأمست، فقلت لها: فما فعل أبو مالك؟ أعني ضيغماً، قالت: يزور الله عز وجل متى شاء، قلت: فما فعل بشر بن منصور؟ قالت: بخ بخ، أعطي والله فوق ما كان يؤمل، قلت: فمريني بأمر أتقرب به إلى الله عز وجل، قالت: عليك بكثرة ذكره، يوشك أن تغتبطي بذلك في قبرك، رحمهما الله تعالى.

ربيعة الرأي

أبو عثمان ربيعة بن أبي عبد الرحمن فروخ، مولى آل المنكدر التيميين–تيم قريش–المعروف بربيعة الرأي، فقيه أهل المدينة؛ أدرك جماعة من الصحابة رضي الله عنهم، وعنه أخذ مالك بن أنس رضي الله عنه. قال بكر بن عبد الله الصنعاني: أتينا مالك بن أنس، فجعل يحدثنا عن ربيعة الرأي، فكنا نستزيده من حديث ربيعة، فقال لنا ذات يوم: ما تصنعون بربيعة وهو نائم في ذاك الطاق؟ فأتينا ربيعة فأنبهناه وقلنا له: أنت ربيعة؟ قال: نعم، قلنا: أنت الذي يحدث عنك مالك بن أنس؟ قال: نعم، فقلنا: كيف حظي بك مالك وانت لم تحظ بنفسك؟ قال: أما علمتم أن مثقالاً من دولة خير من حمل علم؟ وكان ربيعة يكثر الكلام ويقول: الساكت بين النائم والأخرس. وكان يوماً في مجلسه وهو يتكلم، فوقف عليه أعرابي دخل من البادية

فأطال الوقوف والإنصات إلى كلامه، فظن ربيعة أنه قد أعجبه كلامه، فقال له: يا أعرابي، ما البلاغة عندكم؟ فقال: الإيجاز مع إصابة المعنى، فقال: وما العي؟ فقال: ما أنت فيه منذ اليوم، فخجل ربيعة.

قال عبد الوهاب بن عطاء الخفاف: حدثني مشايخ أهل المدينة أن فروخاً أبا عبد الرحمن بن ربيعة خرج في البعوث إلى خراسان أيام بني أمية غازياً وربيعة حمل في بطن أمه، وخلف عند زوجته أم ربيعة ثلاثين ألف دينار، فقدم المدينة بعد سبع وعشرين سنة وهو راكب فرساً وفي يده رمح، فترل ودفع الباب برمحه فخرج ربيعة، وقال: يا عدو الله، أتهجم على مترلي؟ فقال فروخ: يا عدو الله، أنت دخلت على حرمي، فتؤاثبا وتلبب كل واحد منهما بصاحبه حتى اجتمع الجيران، فبلغ مالك بن أنس والمشيخة فأتوا يعينون ربيعة، فجعل ربيعة يقول: والله لا فارقتك إلا عند السلطان، وعل فروخ يقول: والله لا فارقتك إلا بالسلطان وأنت مع امرأتي؛ وكثر الضجيج، فلما أبصروا بمالك سكتوا، فقال مالك: أيها الشيخ، لك سعة في غير هذه الدار، فقال الشيخ: هي داري وأنا فروخ، فسمعت امرأته كلامه فخرجت وقالت: هذا زوجي، وهذا ابني الذي خلفه وأنا حامل به، فاعتنقا جميعاً وبكيا. فدخل فروخ المترل وقال: هذا ابني؟ فقالت: نعم، قال: أخرجي المال الذي لي عندك وهذه معي أربعة آلاف دينار، قالت: قد دفنته وأنا أخرجه بعد أيام، ثم خرج ربيعةإلى المسجد وجلس في حلقته، فأتاه مالك والحسن بن زيد وابن أبي علي اللهبي والمساحقي وأشراف أهل المدينة وأحدق الناس به، فقالت امرأته لزوجها فروخ: اخرج فصل في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلمن فخرج فنظر إلى حلقة وافرة فأتاها فوقف عليها فأخرجوا له قليلاً فنكس ربيعة رأسه يوهمه أنه يره، وعليه دنية طويلة، فشك أبوه فيه، فقال: من هذا الرجل؟ فقالوا: هذا ربيعة بن أبي عبد الرحمن، فقال: فقد رفع الله ابني، ورجع إلى مترله، وقال لوالدته: لقد رأيت ولدك على حالة ما رأيت أحداً من أهل العلم والفقه عليها، فقالت أمه: فأيما أحب إليك ثلاثون ألف دينار أو هذا الذي هو فيه؟ فقال: لا والله بل هذا، فقالت: فإني أنفقت المال كله عليه، قال: فو الله ما ضيعته.

وقال معاذ بن معاذ: سمعت سوار ابن عبد الله يقول: ما رأيت أحداً أعلم من ربيعة الرأي، قلت: ولا الحسن وابن سيرين؟ قال: ولا الحسن وابن سيرين، وما كان بالمدينة رجل أسخى بما في يديه لصديق أو غيره من ربيعة الرأي، أنفق على إخوانه أربعين ألف درهم، ثم جعل يسأل إخوانه، فقيل له: أذهبت مالك وأنت تخلق جاهك، فقال: لا يزال هذا دأبي ما وجدت أحداً يغبطني على جاهي.

وكانت وفاته في سنة ست وثلاثين، وقيل سنة ثلاثين ومائة بالهاشمية، وهي مدينة بناها السفاح بأرض الأنبار وكان يسكنها، ثم انتقل إلى الأنبار رحمه الله تعالى.

وقال مالك بن أنس: ذهبت حلاوة الفقه منذ مات ربيعة الرأي.

قلت: ولا يمكن الجمع بين قول من يقول إنه توفي سنة ثلاثين ومائة وإنه دفن بالهاشمية التي بناها السفاح، لأن السفاح ولي الخلافة يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من ربيع الآخر سنة اثنتين وثلاثين ومائة، كذا نقله أرباب التواريخ واتفقوا عليه، فتأمله.

الربيع بن سليمان المرادي

أبو محمد الربيع بن سليمان بن عبد الجبار بن كامل المرادي بالولاء المؤذن المصري، صاحب الإمام الشافعي؛ وهو الذي روى أكثر كتبه، وقال الشافعي في حقه: الربيع راويتي، وقال: ما خدمني أحد ما خدمني الربيع، وكان يقول له: يا ربيع، لو أمكنني أن أطعمك العلم لأطعمتك. ويحكى عنه أنه قال: دخلت على الشافعي رضي الله عنه عند وفاته، وعنده البويطي والمزني وابن عبد الحكم، فنظر إلينا ثم قال: أما أنت يا أبا يعقوب–يعني البويطي–فتموت في حديدك، وأما أنت يا مزني فستكون لك في مصر هنات وهنات، ولتدركن زماناً تكون فيه أقيس أهل زمانك، وأما أنت يا محمد–يعني ابن عبد الحكم–فترجع إلى مذهب مالك، وأما أنت يا ربيع فأنت أنفعهم لي في نشر الكتب، قم يا أبا يعقوب فتسلم الحلقة. قال الربيع: فلما مات الشافعي رضي الله عنه صار كل واحد منهم إلى ما قاله، حتى كأنه ينظر إلى الغيب من ستر رقيق.

وحكى الخطيب في تاريخه في ترجمة البويطي: قال الربيع بن سليمان المرادي: كنا جلوساً بين يدي الشافعي رضي الله عنه أنا والبويطي والمزني، فنظر إلى البويطي فقال: ترون هذا؟ إنه لن يموت إلا في حديده، ثم نظر إلى المزني فقال: ترون هذا؟ أما إنه سيأتي عليه زمان لا يفسر شيئاً فيخطئه، ثم نظر

إلي فقال: أما إنه ما في القوم أحد أنفع لي منه، ولودتت أني حشوته العلم حشواً. والربيع هذا آخر من روى عن الشافعي بمصر.
ورأيت بخط الحافظ زكي الدين عبد العظيم المنذري المصري شعراً للربيع المذكور:

صبراً جميلاً ما أسرع الفرجا ... من صدق الله في الأمور نجا
من خشي الله لم ينله أذى ... ومن رجا الله كان حيث رجا

وتوفي الربيع يوم الاثنين لعشر بقين من شوال سنة سبعين ومائتين بمصر، ودفن بالقرافة مما يلي الفقاعي في بحريه في حجرة هناك، وعند رأسه بلاطة رخام فيها اسمه وتاريخ وفاته، رحمه الله تعالى.
والمرادي–بضم الميم وفتح الراء وبعد الألف دال مهملة–هذه النسبة إلى مراد، وهي قبيلة كبيرة باليمن خرج منها خلق عظيم.

الربيع بن سليمان الجيزي

أبو محمد الربيع بن سليمان بن داود بن الأعرج الأزدي بالولاء المصري الجيزي صاحب الشافعي رضي الله عنه؛ لكنه كان قليل الرواية عنه، وإنما روى عن عبد الله بن عبد الحكم كثيراً، وكان ثقة، وروى عنه أبو داود والنسائي.
قيل: إنه اجتاز يوماً بمصر، فطرحت عليه إجانة رماد، فترل عن دابته وجعل ينفضه عن ثيابه و لم يقل شيئاً، فقيل له: ألا تزجرهم؟ فقال: من استحق النار وصولح بالرماد فقد ربح.
وتوفي في ذي الحجة سنة ست وخمسين ومائتين بالجيزة، وقبره بها، كذا قاله القضاعي في "الخطط"، رحمه الله تعالى.
والأزدي: قد تقدم الكلام فيه.
والجيزي –بكسير الجيم وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها زاي–هذه النسبة إلى الجيزة، وهي بليدة في قبالة مصر يفصل بينهما عرض الغيل، والأهرام في عملها وبالقرب منها، وهي من عجائب الأبنية قال بعض الحكماء: ما على وجه الأرض بنية إلا وأنا أرثي لها من الليل والنهار، إلا الهرمين فأنا أرثي لليل والنهار منهما.
ولأبي الطيب المتنبي فيهما:

أين الذي الهرمان من بنيانه ... ما قومه ما يومه ما المصرع
تتخلف الآثار عن أصحابها ... حيناً ويدركها الفناء فتتبع

وزعم قوم أن الأهرام قبور ملوك عظام آثروا أن يتميزوا بها على سائر الملوك بعد مماقم كما تميزوا عليهم في حياقم، وتوخوا أن يبقى ذكرهم بسببها على تطاول الدهور وتراخي العصور. ولما وصل الخليفة المأمون إلى مصر أمر ينقب الهرمين، فنقب أحدهما بعد جهد شديد وعناء طويل، فوجدوا داخله مراقي ومهاوي يهول أمرها ويعسر السلوك فيها، ووجدوا في أعلاها بيتاً مكعباً طول كل ضلع من أضلاعه نحو من ثمانية أذرع وفي وسطه حوض رخام مطبق فيه رمة بالية، وقد أتت عليها العصور، فكف عن نقب ما سواه، وكانت النفقة على نقبه عظيمة، والمؤونة شديدة.
ومن الناس من زعم أن هرمس الأول المدعو بالمثلث بالنبوة والملك والحكمة وهي الذي يسميه العبرانيون خنوخ–وهو إدريس عليه السلام–استدل من أحوال الكواكب على الطوفان، فأمر ببناء الأهرام وإيداعها ما يشفق عليه من الذهاب؛ وقيل بانيها سورند لرؤيا رآها وهي أن آفة تترل من السماء وهي الطوفان؛ ويقال: إنه بناها في مدة ستة أشهر، وغشاها بالديباج الملون، وكتب عليها: قد بنيناها في ستة أشهر، قل لمن يأتي بعدنا يهدمها في ستمائة سنة، والهدم أيسر من البنيان، وكسوناها الديباج الملون فليكسها حصراً، والحصر أهون من الديباج. وبالجملة فالأمر فيها عجيب جداً، والله أعلم

الربيع بن يونس

أبو الفضل الربيع بن يونس بن محمد بن عبد الله بن أبي فروة–واسمه كيسان–مولى الحارث الحفار، مولى عثمان بن عفان رضي الله عنه؛ كان الربيع المذكور حاجب أبي جعفر المنصور، ثم وزر له بعد أبي أيوب المورياني–الآتي ذكره في حرف السين إن شاء الله تعالى–وكان كثير الميل إليه حسن الاعتماد عليه؛ قال له يوماً: يا ربيع، سل حاجتك، قال: حاجتي يا أمير المؤمنين أن تحب الفضل ابني، فقال له: ويحك! إن المحبة تقع بأسباب، فقال له: قد أمكنك الله من إيقاع سببها، قال: وما ذاك؟ قال: تفضل عليه، فإنك إذا فعلت ذلك أحبك وإذا أحبك أحببته، قال: قد والله حببته إلي قبل إيقاع السبب، ولكن كيف اخترت له المحبة دون كل شيء؟ قال: لأنك إذا أحببته كبر عندك صغير إحسانه، وصغر عندك كبير إساءته، وكانت ذنوبه كذنوب الصبيان، وحاجته إليك حاجة الشفيع العريان. أشار بقوله "الشفيع العريان" إلى قول الفرزدق الشاعر:

ليس الشفيع الذي يأتيك متزراً ... مثل الشفيع الذي يأتيك عريانا

وهذا البيت من جملة أبيات في عبد الله بن الزبير بن العوام لما طلب الخلافة لنفسه واستولى على الحجاز والعراق في أيام عبد الملك بن مروان الأموي، وكان قد اختصم الفرزدق وزوجته النوار، فمضيا من البصرة إلى مكة، ليفصل الحكم بينهما عبد الله بن الزبير، فترل الفرزدق عند حمزة بن عبد الله، ونزلت النوار عند زوجة عبد الله، وشفع كل واحد منهما لتريله، فقضى عبد الله للنوار وترك الفرزدق، فقال الأبيات المذكورة، فصار الشفيع العريان مثلاً يضرب لكل من تقبل شفاعته.

وكان أبو جعفر إذا أراد بإنسان خيراً أمر بتسليمه إلى الربيع، وإذا أراد به شراً سلمه للمسيب، فكتب عامل فلسطين يذكر أن بعض أهلها وثب واستغوى جماعة وعاب في العمل، فكتب إليه أبو جعفر: دمك بواء بدمه إلى أن توجه به إلي، فأخذه ووجه به إليه، فلما دخل عليه قال: أنت المتوثب على عامل أمير المؤمنين؟ لأنثرن من لحمك أكثر ما بقي منه على عظمك، فقال له بصوت ضئيل، وكان شيخاً كبيراً:

أتروض عرسك بعد ما هرمت ... ومن العناء رياضة الهرم

فقال أبو جعفر: يا ربيع، ما يقول: يقول:

العبد عبدكم والمال مالكم ... فهل عذابك عني اليوم مصروف

فقال: قد عفوت عنه، فخلى سبيله وأحسن إليه. وهذا الشعر لسحيم عبد بني الحسحاس.

وقال له المنصور يوماً: ويحك يا ربيع، ما أطيب الدنيا لولا الموت! فقال له: ما طابت إلا بالموت، قال: وكيف ذاك؟ قال: لولا الموت لم تقعد هذا المقعد، قال: صدقت. وقال له المنصور لما حضرته الوفاة: يا ربيع، بعنا الآخرة بنومة.

وقال الربيع: كنا يوماً وقوفا على رأس المنصور وقد طرحت لولده المهدي–وهو يومئذ ولي عهده–وسادة إذ أقبل صالح بن المنصور، وكان قد رشحه أن يوليه بعض أموره، فقام بين السماطين، والناس على قدر أنساهم ومراتبهم، فتكلم فأجاد، فمد المنصور يده إليه، وقال: إلي يا بني، واعتنقه، ونظر إلى وجوه الناس، هل فيهم من يذكر مقامه ويصف فضله؟ فكلهم كرهوا ذلك بسبب المهدي خيفةً منه، فقام شبة بن عقال التميمي، فقال: لله در خطيب قام عندك يا أمير المؤمنين، ما أفصح لسانه، وأحسن بيانه، وأمضى جنانه، وأبل ريقه، وأسهل طريقه، وكيف لا يكون كذلك، وأمير المؤمنين أبوه، والمهدي أخوه؟ وهو كما قال الشاعر:

هو الجواد فإن يلحق بشأوهما ... على تكاليفه فمثله لحقا

أو يسبقاه على ما كان من مهل ... فمثل ما قدما من صالح سبقا

فعجب من حضر بجمعه بين المدحين وإرضائه المنصور وخلاصه من المهدي؛ قال الربيع: فقال لي المنصور: لا يخرج التميمي إلا بثلاثين ألف درهم، فلم يخرج إلا بها.

ويقال: إن الربيع لم يكن له أب يعرف، وإن بعض الهاشميين دخل على المنصور وجعل يحدثه، ويقول: كان أبي رحمه الله تعالى، وكان، وأكثر من الترحم عليه، فقال له الربيع: كم تترحم على أبيك بحضرة أمير المؤمنين؟ فقال له الهاشمي: انت معذور يا ربيع، لأنك لا تعرف مقدار الآباء، فخجل

منه.

ولما دخل أبو جعفر المنصور المدينة، قال للربيع: ابغني رجلاً عاقلاً عالماً ليقفني على دورها، فقد بعد عهدي بديار قومي، فالتمس له الربيع فتى من أعلم الناس وأعقلهم، فكان لا يبتدئ بالإخبار عن شيء حتى يساله المنصور فيجيبه بأحسن عبارة وأجود بيان وأوفى معنى، فأعجب المنصور به، فأمر له بمال فتأخر عنه، ودعته الضرورة إلى استنجازه، فاجتاز ببيت عاتكة بنت عبد الله بن أبي سفيان الأموي، فقال: يا أمير المؤمنين، هذا بيت عاتكة، الذي يقول فيه الأحوص بن محمد بن محمد الأنصاري:

يا بيت عاتكة الذي أتعزل — حذر العدا وبه الفؤاد موكل

إني لأمنحك الصدود وإنني — قسماً إليك مع الصدود لأميل

ففكر المنصور في قوله، وقال: لم يخالف عادته بابتداء الإخبار دون الاستخبار غلا الأمر، وأقبل يردد القصيدة ويتصفحها شيئاً فشيئاً حتى انتهى إلى قوله فيها:

وأراك تفعل ما تقول وبعضهم — مذق الحديث يقول ما لا يفعل

فقال المنصور: يا ربيع، هل أوصلت إلى الرجل ما أمرنا له به؟ قال: تأخر عنه لعلة ذكرها الربيع، فقال: عجله له مضاعفاً، وهذا ألطف تعريض من الرجل، وحسن فهم من المنصور.

وكان يقول: من كلم الملوك في الحاجات في غير أوقاتها لم يظفر ببغيته، وما أشبه الحال في ذلك إلا بأوقات الصلاة، فإن الصلاة لا تقبل إلا فيها، فمن أراد خطاب الملوك فليختر لذلك الوقت المنجح الذي يصلح فيه ذكر ما أراد ليصح النجح، وغلا فلا.

وحكت فائقة بنت عبد الله أم عبد الواحد بن جعفر بن سليمان، قالت: كنا يوماً عند المهدي أمير المؤمنين، وكان قد خرج متنزهاً إلى الأنبار، إذ دخل عليه الربيع، ومعه قطعة من جراب فيه كتابة برماد وخاتم من طين قد عجن بالرماد وهو مطبوع بخاتم الخلافة، فقال: يا أمير المؤمنين، وما رأيت أعجب من هذه الرقعة، جاءني بها رجل أعرابي، وهو ينادي: هذا كتاب أمير المؤمنين، دلوني على هذا الرجل الذي يسمى الربيع، فقد أمرني أن أدفعها إليه، وهذه هي الرقعة؛ فأخذها المهدي وضحك وقال: صدقت، هذا خطي وهذا خاتمي، أفلا أخبركم بالقصة كيف كانت؟ قلنا: أمير المؤمنين أعلى رأياً في ذلك، فقال: خرجت أمس إلى الصيد في غب سماء، فلما أصبحت هاج علينا ضباب شديد وفقدت أصحابي حتى ما رأيت منهم أحداً، وأصابني من البرد والجوع والعطش ما الله به أعلم، وتحيرت عند ذلك فذكرت دعاء سمعته من أبي، يحكيه عن أبيه عن جده عن ابن عباس–رضى الله عنهما–رفعه، قال: من قال إذا أصبح وإذا أمسى "بسم الله وبالله ولا حول ولا قوة إلا بالله، اعتصمت بالله وتوكلت على الله، حسبي الله، لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم" وقي وكفي وهدي وشفي من الحرق والغرق والهدم وميتة السوء، فلما قلتها، رفع الله لي ضوء نار، فقصدتها فإذا بهذا الأعرابي في خيمة له، وإذا هو يوقد ناراً بين يديه، فقلت له: أيها الأعرابي، هل من ضيافة؟ فقال: انزل، فنزلت، فقال لزوجته: هاتي ذلك الشعير، فأتت به، فقال: اطحنيه، فابتدأت تطحنه، فقلت له: اسقني ماء، فأتى بسقاء فيه مذقة لبن أكثرها ماء، فشربت منها شربة ما شربت شيئاً قط إلا وهي أطيب منه، وأعطاني حلساً له فوضعت رأسي عليه، فنمت نومة ما نمت أطيب منها وألذ، ثم انتبهت، فإذا هو قد وثب إلى شويهة فذبحها، وإذا امرأته تقول له: ويحكّ قتلت نفسك وصبيتك، إنما كان معاشكم من هذه الشاة، فذبحتها فبأي شيء نعيش؟ قال: فقلت: لا عليك، هات الشاة، فشققت جوفها، واستخرجت كبدها بسكين كانت في خفي، فشرحتها ثم طرحتها على النار وأكلتها، ثم قلت له: هل عندك شيء أكتب لك فيه؟ فجاءني بهذه القطعة من جراب، وأخذت عوداً من الرماد الذي بين يديه، وكتبت له هذا الكتاب، وختمته بهذا الخاتم، وأمرته أن يجيء ويسأل عن الربيع فيدفعها إليه، فإذا في الرقعة خمسمائة ألف درهم، فقال: والله ما أردت إلا خمسين ألف درهم، ولكن جرت بخمسمائة ألف درهم، لا أنقص والله منها درهماً واحداً، ولو لم يكن في بيت المال غيرها؛ احملوها معه، فما كان إلا قليل حتى كثرت إبله وشاؤه، وصار منزلاً من المنازل ينزله الناس ممن اراد الحج، وسمي منزل مضيف أمير المؤمنين المهدي.

وقال أبان بن صدقة: كنت أخلف الربيع على كتبه للمنصور، فدخلت يوماً وعلي خز أسود جديد والمنصور في قباء خز خلق، فجعل ينظر إلي فضاقت علي الدنيا، وخرج الربيع فقلت إني أخطأت خطأً عظيماً، وعرفته الخبر فقال: ما ذاك إلا لخير فلا يحزنك، فلما كان من غد دخلت في قباء خز خلق فقال لي المنصور: أما عندك أحسن من هذا تلبسه أمام المنصور؟ قلت: بلى، ولكن رأيت أمير المؤمنين لبس قباء خلقاً وكان علي قباء جديد فضاقت علي الرض إذ لبست أفضل من لباسه، فقال: لا تفعل، ألبس خير ما عندك في خدمتي ليتبين الناس إحساني إليك ولا تلبس مثل هذا فيظن بي إساءة إليك، فإن الناس يعلمون أني أقدر على أشرف اللباس وإن لم ألبس وأنت فلا يظن ذلك بك، قال: فعلمت أن الربيع أعقل الناس وأعلمهم بأخبار أمير المؤمنين.

وكانت وفاة الربيع في أول سنة سبعين ومائة. وقال الطبري: مات الربيع في سنة تسع وستين ومائة. وقيل إن الهادي سمه، وقيل مرض ثمانية أيام ومات، والله أعلم، رحمه الله تعالى.

وإنما قيل لجده "أبو فروة لأنه أدخل المدينة وعليه فروة، فاشتراه عثمان رضي الله عنه وأعتقه، وجعل يحفر القبور، وكان من سبي جبل الخليل صلى الله عليه وسلم-وسيأتي ذكر ولده الفضل إن شاء الله تعالى-.

وقطيعة الربيع منسوبة إليه، وهي محلة كبيرة مشهورة ببغداد، وإنما قيل لها قطيعة الربيع لأن المنصور أقطعه إياها.

ربعي بن حراش

ربعي بن حراش بن جحش بن عمرو بن عبد الله بن نجار بن عبد مالك بن غالب بن قطيعة بن عبس بن بغيض بن ريث بن غطفان بن قيس بن عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان العبسي الكوفي؛ روى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعلي بن أي طالب وحذيفة بن اليمان وابي بكرة وعمران بن الحصين رضي الله عنهم. حدث عنه عامر الشعبي وعبد الملك بن عمير ومنصور بن المعتمر وأبو مالك الأشجعي وغيرهم. وكان ثقة، وهو أخو مسعود وربيع ابني حراش، ورد المدائن غير مرة في حياة حذيفة وبعده.

قال أبو مسلم صالح بن عبد الله العجلي: حدثني أبي قال: ربعي بن حراش كوفي تابعي ثقة؛ يقال إنه لم يكذب قط، وكان له ابنان عاصيان زمن الحجاج، فقيل للحجاج: إن أباهما لا يكذب قط، ولو أرسلت إليه فسألته عنهما، فأرسل إليه فقال له: أين ابناك؟ قال: هما في البيت، قال: قد عفونا عنهما لصدقك.

وكان ربعي بن حراش آلى ألا تفتر أسنانه بالضحك حتى يعلم أين مصيره، فما ضحك إلا بعد موته؛ وكان أخوه ربيع بعده آلى ألا يضحك حتى يعلم أفي الجنة هو أم في النار؛ قال الحارث الغنوي: فأخبرني غاسله أنه لم يزل مبتسماً على سريره ونحن نغسله حتى فرغنا منه.

قال سعيد بن جميل العبسي: رأيت ربعي بن حراش رجلاً أعور.

مات سنة أربع ومائة، وصلى عليه عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد، وذلك في ولاية عمر بن عبد العزيز، رحمه الله تعالى.

رجاء بن حيوة

أبو المقدام رجاء بن حيوة بن جرول الكندي؛ كان من العلماء، وكان يجالس عمر بن عبد العزيز؛ ذكر أنه بات ليلة عنده فهم السراج أن يخمد، فقال إليه ليصلحه، فأقسم عليه عمر ليقعدن، وقام هو إليه فأصلحه؛ قال: فقلت له: تقوم أنت يا أمير المؤمنين؟ فقال: قمت وأنا عمر بن عبد العزيز ورجعت وأنا عمر بن عبد العزيز.

قال: وأمرني عمر بن عبد العزيز أن أشتري له ثوباً بستة دراهم، فأتيته به فجسه وقال: هو على ما أحب لولا أن فيه ليناً، قال: فبكيت، قال: فما يبكيك؟ قال: أتيتك وأنت أمير بثوب بستمائة درهم، فجسسته وقلت: هو على ما أحب لولا أن فيه خشونة، وأتيتك وأنت أمير المؤمنين بثوب بستة دراهم، فجسسته وقلت: هو على ما أحب لولا أن فيه ليناً، فقال: يا رجاء إن لي نفساً تواقة تاقت إلى فاطمة بنت عبد الملك فتزوجتها، وتاقت إلى الإمارة فوليتها، وتاقت إلى الخلافة فأدركتها، وقد تاقت إلى الجنة فأرجو أن أدركها إن شاء الله عز وجل.

وقال: قومت ثياب عمر بن عبد العزيز وهو يخطب باثني عشر درهماً، وكانت قباء وعمامة وقميصاً وسراويل ورداء وخفين وقلنسوة؛ وله معه أخبار وحكايات.

وكان يوماً عند عبد الملك بن مروان، وقد ذكر عنده شخص بسوء، فقال عبد الملك: والله لئن أمكنني الله منه لأفعلن به ولأصنعن، فلما أمكنه الله منه هم بإيقاع الفعل به، فقام إليه رجاء بن حيوة المذكور فقال: يا أميرالمؤمنين قد صنع الله لك ما أحببت فاصنع ما يحب الله من العفو، فعفا عنه وأحسن إليه.

ولما حضر أيوب بن سليمان بن عبد الملك الوفاة-وكان ولي عهد أبيه-دخل عليه أبوه وهو يجود بنفسه، ومعه عمر بن عبد العزيز وسعيد بن عقبة ورجاء بن حيوة، فجعل سليمان ينظر في وجه أيوب، فخنقته العبرة، ثم قال: إنه ما يملك العبد نفسه أن يسبق إلى قلبه الوجد عند المصيبة، والناس في ذلك أصناف: فمنهم المحتسب، ومنهم من يغلب صبره جزعه فذلك الجلد الحازم، ومنهم من يغلب جزعه صبره فذلك المغلوب الضعيف، وإني أجد في قلبي لوعة إن أنا لم أبردها خفت أن تنصدع كبدي كمداً، فقال له عمر: يا أمير المؤمنين، الصبر أولى بك فلا يحبطن أجرك. وقال سعيد بن عقبة: فنظر إلي وإلى رجاء بن حيوة نظر مستغيث يرجو أن نساعده على ما أدركه من البكاء، فأما أنا فكرهت أن آمره أو أنهاه، وأما رجاء فقال: يا أمير المؤمنين، إني لا أرى بذلك بأساً ما لم يأت الأمر المفرط، وإني قد بلغني أن النبي صلى الله عليه وسلم لما مات ابنه إبراهيم دمعت عيناه، فقال: "تدمع العين، ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يرضي الرب، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون"، فبكى سليمان حتى اشتد بكاؤه، فظننا أن نياط قلبه قد انقطع، فقال عمر بن عبد العزيز لرجاء بن حيوة: بئس ما صنعت بأمير المؤمنين، فقال: دعه يا أبا حفص يقضي من بكائه وطراً، فإنه لو لم يخرج من صدره ما ترى خفت أن يأتي عليه، ثم أمسك عن البكاء، ودعا بماء فغسل وجهه، وقضى الفتى، فأمر بجهازه، وخرج يمشي أمام جنازته، فلما دفن وقف ينظر إلى قبره، ثم قال:

وقفت على قبر مقيم بقفرة ... متاع قليل من حبيب مفارق

ثم قال: السلام عليك يا أيوب، وقال:

كنت لنا أنساً ففارقتنا ... فالعيش من بعدك مر المذاق

ثم قال: يا غلام أدن دابتي مني، فركب وعطف دابته إلى القبر، وقال:

فإن صبرت فلم ألفظك من شبع ... وإن جزعت فعلق منفس ذهبا

فقال عمر: بل الصبر أقرب إلى الله عز وجل، قال: صدقت، وانصرف.

وكانت وفاته سنة اثنتي عشرة ومائة، وكان رأسه أحمر ولحيته بيضاء، رحمه الله تعالى.

وحيوة: بفتح الحاء المهملة وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح الواو وبعدها هاء ساكنة.

رؤبة بن العجاج

أبو محمد رؤبة بن العجاج-والعجاج لقب واسمه: أبو الشعثاء عبد الله-ابن رؤبة البصري التميمي السعدي؛ وهو وأبوه راجزان مشهوران، كل منهما له ديوان رجز ليس فيه شعر سوى الأراجيز، وهما مجيدان في رجزهما، وكان بصيراً باللغة بحوشيها وغريبها.

حكى يونس بن حبيب النحوي قال: كنت عند أبي عمرو ابن العلاء، فجاءه شبيل بن عزرة الضبعي، فقام إليه أبو عمرو وألقى إليه لبد بغلته، فجلس عليه ثم أقبل عليه يحدثه، فقال شبيل: يا أبا عمرو، سألت رؤبتكم عن اشتقاق اسمه فما عرفه، يعني رؤبة. قال يونس: فلم أملك نفسي عند ذكره، فقلت له: لعلك تظن أن معد بن عدنان أفصح منه ومن أبيه؟ أفتعرف أنت ما الروبة، والروبة، والروبة، والروبة، والرؤبة وانا غلام رؤبة، فلم يحر جواباً، وقام مغضباً، فأقبل علي أبو عمرو وقال: هذا رجل شريف، يقصد مجالستنا ويقضي حقوقنا، وقد أسأت فيما فعلت مما واجهته به، فقلت: لم أملك نفسي عند ذكره رؤبة. فقال أبو عمرو: أو قد سلطت على تقويم الناس؟ ثم فسر يونس ما قاله فقال: الروبة: خميرة اللبن؛ والروبة: قطعة من

الليل؛ والروبة: الحاجة، يقال: فلان لا يقوم بروبة أهله: أي بما أسندوا إليه من حوائجهم؛ والروبة: جمام ماء الفحل، والرؤبة-بالهمزة-القطعة التي يشعب بها الإناء، والجميع بسكون الواو وضم الراء التي قبلها، إلا رؤبة فإنها بالهمز.

وكان رؤبة يأكل الفأر، فعوتب في ذلك، فقال: هي أنظف من دواجنكم ودجاجكم اللائي يأكلن العذرة، وهل يأكل الفأر إلا نقي البر أو لباب الطعام؟ ولما مات قال الخليل: دفنا الشعر واللغة والفصاحة.

وكان رؤبة مقيماً بالبصرة، فلما ظهر بها إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وخرج على أبي جعفر المنصور وجرت الواقعة المشهورة، خاف رؤبة على نفسه وخرج إلى البادية ليتجنب الفتنة، فلما وصل إلى الناحية التي قصدها أدركه أجله بها، فتوفي هناك سنة خمس وأربعين ومائة وكان قد أسن، رحمه الله تعالى.

ورؤبة-بضم الراء وسكون الهمزة وفتح الباء الموحدة وبعدها هاء ساكنة-وهي في الأصل اسم لقطعة من الخشب يشعب بها الإناء، وجمعها رئاب، وباسمها سمي الراجز المذكور.

روح بن حاتم

أبو حاتم روح بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة الأزدي-وسيأتي تمام النسب عند ذكر جده المهلب في حرف الميم إن شاء الله تعالى-؛ كان روح المذكور من الكرماء الأجوادن وولي لخمسة من الخلفاء: أبي العباس السفاح والمنصور والمهدي والهادي والرشيد. ويقال إنه لم يتفق مثل هذا إلا لأبي موسى الأشعري رضي الله عنه، فإنه ولي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولأبي بكر وعمر وعثمان وعلي، رضي الله عنهم. وكان روح والياً على السند، ولاه إياها المهدي بن أبي جعفر المنصور في سنة تسع وخمسين ومائة، وكان قد ولاه في أول خلافته الكوفة، وقيل إنه ولي السند سنة ستين ومائة، ثم عزله عن السند سنة إحدى وستين ومائة، ثم ولاه البصرة.

وكان يزيد أخو روح والياًعلى إفريقية، فلما توفي يزيد يوم الثلاثاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان سنة سبعين ومائة بإفريقية في مدينة القيروان ودفن بباب سلم-وكان أقام والياً عليها خمس عشرة سنة وثلاثة أشهر-قال أهل إفريقية: ما أبعد ما يكون بين قبري هذين الأخوين، فإن أخاه بالسند وهذا ها هنا، فاتفق أن الرشيد عزل روحاً عن السند وسيره إلى موضع أخيه يزيد، فدخل إلى إفريقية أول رجب سنة إحدى وسبعين ومائة، و لم يزل والياً عليها إلى أن توفي بها لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان سنة أربع وسبعين ومائة، ودفن في قبر أخيه يزيد، فعجب الناس من هذا الاتفاق بعد ذلك التباعد، رحمهما الله تعالى.

ويزيد المذكور هو الذي قصده ربيعة بن ثابت الأسدي الرقي فأحسن إليه، وكان ربيعة مدح يزيد بن أسيد السلمي فقصر يزيد في حقه، فمدح يزيد بن حاتم وهجا يزيد السلمي بقصيدته الميمية التي يقول من جملتها:

لشتان ما بين اليزيدين في الندى ... يزيد سليم والأغر ابن حاتم

فهم الفتى الأزدي إتلاف ما له ... وهم الفتى القيسي جمع الدراهم

فلا يحسب التمام أني هجوته ... ولكنني فضلت أهل المكارم

ومنها:

فيا ابن أسيد لا تسام ابن حاتم ... فتقرع إن ساميته سن نادم

هو البحر إن كلفت نفسك خوضه ... تهالكت في آذيه المتلاطم

تمنيت مجداً في سليم سفاهة ... أماني خال أو أماني حالم

ألا إنما آل المهلب غرة ... وفي الحرب قادات لكم بالخزائم

وهي طويلة، ويكفي منها هذا القدر، وكان قد قصر في حقه أولاً فعمل ربيعة أبياتاً من جملتها:

أراني ولا كفران لله راجعاً   بخفي حنين من نوال ابن حاتم

فعاد فعطف عليه، وبالغ في الإحسان إليه.

ويزيد المذكور جد الوزير أبي محمد المهلبي فينظر في ترجمته.

الزبير بن بكار

أبو عبد الله الزبير بن بكر بن بكار– وكنيته أبو بكر– بن عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير بن العوام القرشي الأسدي الزبير؛ كان من أعيان العلماء، وتولى القضاء بمكة حرسها الله تعالى، وصنف الكتب النافعة، منها كتاب "أنساب قريش" وقد جمع فيه شيئاً كثيراً، وعليه اعتماد الناس في معرفة نسب القرشيين، وله غيره مصنفات دلت على فضله واطلاعه. روى عن ابن عيينة ومن في طبقته، وروى عنه ابن ماجه القزويني وابن أبي الدنيا وغيرهما.

ولقي الزبير بن بكار اسحاق بن إبراهيم الموصلي فقال: يا أبا عبد الله، عملت كتاباً سميته "كتاب النسب" وهو كتاب الأخبار، قال وأنت يا أبا محمد–أيدك الله–عملت كتاباً سميته "كتاب الأغاني" وهو كتاب المعاني.

قال جحظة: كنت بحضرة الأمير محمد بن عبد الله بن طاهر، فاستأذن الزبير بن بكار حين جاء من الحجاز، فدخل، فأكرمه وعظمه، وقال له: إن باعدت بيننا الأنساب لقد قربت بيننا الآداب، وإن أمير المؤمنين اختارك لتأديب ولده وأمر لك بعشرة آلاف درهم وعشرة تخوت ثياب وعشرة أبغل تحمل عليها رحلك إلى حضرة سر من رأى، فشكر ذلك وقبله، فلما ودعه قال للشيخ: أرونا حديثاً نذكرك به، قال: أحدثك بما سمعت أو بما شاهدت؟ قال: بل بما شاهدت، قال: بينا أنا في مسيري هذا بين مسجدين إذ بصرت بحبالة منصوبة فيها ظبي ميت، وبإزائها رجل في نعشه ميث، وامرأة حسرى تسعى وتقول:

أمست فتاة بني نهد علانية   وبعلها في أكف الموت يبتذل

وكنت راغبة فيه أضن به   فحال من دون ظبي الريمة الأجل

ثم خرج، فقال محمد بن عبد الله بن طاهر: أي شيء افدنا من هذا الشيخ؟ قلنا: الأمير أعلم، فقال: قوله "أمست فتاة بني نهد علانية" أي ظاهرة، وهذا حرف لم أسمعه في كلام العرب قبل هذا.

قال الزبير بن بكار: قالت ابنة أختي لأهلنا: خالي خير رجل لأهله، لا يتخذ ضرة ولا يشتري جارية، فقالت المرأة: لهذه الكتب أشد علي من ثلاث ضرائر وأصعب.

وتوفي بمكة وهو قاض عليها ليلة الأحد لسبع–وقيل لتسع–ليال بقين من ذي القعدة سنة ست وخمسين ومائتين، وعمره أربع وثمانون سنة، رحمه الله تعالى. وتوفي والده سنة خمس وتسعين ومائة، رحمه الله تعالى.

أبو عبد الله الزبيري

أبو عبد الله الزبير بن أحمد بن سليمان بن عبد الله بن عاصم بن المنذر بن الزبير بن العوام، الفقيه الشافعي المعروف بالزبيري البصري؛ كان إمام أهل البصرة في عصره ومدرسها، حافظاً للمذهب مع حظ من الأدب، وقدم بغداد وحدث بها عن داود بن سليمان المؤدب ومحمد بن سنان القزاز وإبراهيم بن الوليد ونحوهم. وروى عنه النقاش صاحب التفسير وعمر بن بشران السكري وعلي بن هارون السمسار ونحوهم. وكان ثقة صحيح الرواية، وكان أعمى، وله مصنفات كثيرة منها "الكافي" في الفقه، وكتاب "النية" وكتاب "ستر العورة" وكتاب "الهداية" وكتاب "الاستشارة والاستخارة" وكتاب

"رياضة المتعلم" وكتاب "الإمارة" وغير ذلك، وله في المذهب وجوه غريبة.

وتوفي قبل العشرين وثلثمائة، رحمه الله تعالى.

زبيدة أم الأمين

أم جعفر زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هائم، وهي أم الأمين محمد بن هارون الرشيد؛ كان لها معروف كثير وفعل خير، وقصتها في حجها وما اعتمدته في طريقها مشهورة فلا حاجة إلى شرحها.

قال الحافظ أبو الفرج ابن الجوزي في كتاب "الألقاب": إنها سقت أهل مكة الماء بعد أن كانت الرواية عندهم بدينار، وإنها أسالت الماء عشرة أميال بحط الجبال ونحوت الصخر حتى غلغلته من الحل إلى الحرم، وعملت عقبة البستان، فقال لها وكيلها: يلزمك نفقة كثيرة، فقالت: أعملها ولو كانت ضربة فأس بدينار، فبلغت النفقة عليه ألف ألف وسبعمائة ألف دينار؛ قال اسماعيل بن جعفر بن سليمان: حجت أم جعفر زبيدة فبلغت نفقتها في ستين يوماً أربعة وخمسين ألف ألف، ولها آثار كثيرة في طريق مكة والمدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام من مصانع وبرك أحدثتها. وإنه كان لها مائة جارية يحفظن القرآن، ولكل واحدة ورد عشر القرآن، وكان يسمع في قصرها كدوي النحل من قراءة القرآن، وإن اسمها أمة العزيز، ولقبها جدها أبو جعفر المنصور "زبيدة" لبضاضتها ونضارتها.

قال الطبري في تاريخه: أعرس بها هارون الرشيد في ذي الحجة في سنة 165 في قصره المعروف بالخلد وحشد الناس من الآفاق وفرق فيهم الأموال و لم ير في الإسلام مثله، وبلغت النفقة في هذا الغرض من بيت مال الخاصة خارجة سوى ما أنفقه هارون من ماله خمسين ألف ألف درهم، وليس في بني هاشم هاشمية ولدت خليفة إلا هي. وحكي أنها أحضرت الأصمعي وقالت له: إن أمير المؤمنين استدعاني وقال: هلمي يا أم نهر، فما معنى ذلك؟ فقال لها: إن جعفراً في اللغة هو النهر الصغير وأنت أم جعفر.

وحضر شاعر بابها، وأنشد:

أزبيدة ابنة جعفر طوبى لزائرك المثاب
تعطين من رجليك ما تعطي الأكف من الرغاب

فتبادر الخدم إليه ليوقعوا به على سوء أدبه وعبارته فقالت: دعوه فإن من أراد خيراً فأخطأ خير ممن أراد شراً فأصاب، سمع الناس يقولون: شمالك أندى من يمين غيرك، فقدر أن هذا مثل ذلك؛ أعطوه ما أمل وعرفوه ما جهل.

ووقع بين الرشيد وبين زبيدة الشركة المتعهدة فتهاجرا فعمل داود بن رزين مولى عبد القيس شعراً وهو:

زمن طيب ويوم مطير هذه روضة وهذا غدير
إنما أم جعفر جنة الخل د رضاها والسخط منها السعير
أنت عبد لها ومولى لهذا ال خلق طرا وليس في ذا نكير
فاعتذر يا خليفة الله في الأر ض إليها وترك ذاك كبير

فصار إليها عندما وقف على الأبيات وسألت عن سبب مجيئه فعرفت، وأوصلت إلى داود مائة ألف درهم في وقتها وأضعافها بعد ذلك.

ولما ولدت ابنة جعفر محمداً قال مروان بن أبي حفصة:

لله درك يا عقيلة جعفر ماذا ولدت من الندى والسؤدد
إن الخلافة قد تبين نورها للناظرين على جبين محمد

إني لأعلم أنه لخليفة إن بيعة عقدت وإن لم تعقد

فأمر له هارون بثلاثة آلاف دينار، وأمرت زبيدة أن يحشى فوه جوهراً، فكانت قيمته عشرة آلاف دينار.

وقالت زبيدة للمأمون عند دخوله بغداد: أهنيك بخلافة قد هنأت نفسي بها عنك قبل أن أراك، وان كنت قد فقدت ابناً خليفة لقد عوضت ابناً خليفة لم ألده، وما خسر من اعتاض مثلك وثكلت أم ملأت يدها منك، وأنا أسأل الله أجراً على ما أخذ وامتاعاً بما عوض؛ وقيل إن زبيدة أرسلت إلى أبي العتاهية أن يقول على لسانها أبياتاً يستعطف بها المأمون، فأرسل هذه الأبيات:

ألا إن صرف الدهر يدني ويبعد ويمتع بالألاف طراً ويفقد

أصابت بريب الدهر مني يدي فسلمت للأقدار والله أحمد

وقلت لريب الدهر إن هلكت يد فقد بقيت والحمد لله لي يد

إذا بقي المأمون لي فالرشيد لي ولي جعفر لم يفقدا ومحمد

فسيرتها له، فلما قرأها المأمون استحسنها وسأل عن قائلها فقيل له أبو العتاهية، فأمر له بعشرة آلاف درهم وعطف على زبيدة وزاد في تكرمتها والبر بها.

اختلف الرشيد وأم جعفر في اللوزينج والفالوذج أيهما أطيب، فمالت زبيدة إلى تفضيل الفالوذج ومال الرشيد إلى تفضيل اللوزينج، وتخاطرا على مائة دينار، فأحضر أبا يوسف القاضي وقالا له: يا يعقوب قد اختلفنا في كذا على كذا وكذا فاحكم فيه، فقال: يا أمير المؤمنين ما يحكم على غائب وهو مذهب أبي حنيفة، فأحضر له جامين من المذكورين، فطفق يأكل من هذا مرة ومن هذا مرة، وتحقق انه إن حكم للرشيد لم يأمن غضب زبيدة، وإن حكم لها لم يأمن غضب الرشيد، فلم يزل في الأكل إلى أن نصف الجامين فقال له الرشيد: أيه ابا يوسف، فقال: يا أمير المؤمنين، ما رأيت خصمين أجدل منهما، كلما أردت أن أسجل لأحدهما أدلى الآخر بحجته، وقد حرت بينهما، فضحك الرشيد وأعطاه المائة دينار وانصرف مشكوراً.

ومن عجائب التنجيم أن زبيدة فقدت خاتماً بفص له قيمة، وأنها اتهمت به بعض جواريها، فأحضرت رجلاً من أهل الصناعة فأخذ الطالع على تلك المصانع وقال: ما أخذ هذا الخاتم إلا الله تعالى، وردد القول و لم يرجع عنه، فبعد مدة فتحت زبيدة المصحف فوجدت الخاتم فيه، وكانت قد جعلته علامة للوقف وأنسيته.

وكانت وفاتها في سنة ست عشرة ومائتين في جمادى الأولى ببغداد، وتوفي أبوها جعفر بن المنصور في سنة ست وثمانين ومائة.

ورآها عبد الله بن المبارك الزمن في المنام فقال لها: ما فعل الله بك؟ قالت: غفر لي الله بأول معول ضرب في طريق مكة، قال: قلت ما هذه الصفرة في وجهك؟ قالت: دفن بين ظهرانينا رجل يقال له بشر المريسي فزفرت جهنم عليه زفرة فاقشعر لها جسدي، فهذه الصفرة من تلك الزفرة، رحمها الله تعالى.

زفر بن الهذيل الحنفي

أبو الهذيل زفر بن الهذيل بن قيس بن سليم بن قيس بن مكمل بن ذهل بن ذؤيب بن جذيمة بن عمرو بن حنجور بن جندب بن العنبر بن عمرو بن تميم بن مر ابن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، العنبري الفقيه الحنفي؛ كان قد جمع بين العلم والعبادة، وكان من أصحاب الحديث، ثم غلب عليه الرأي، وهو قياس أصحاب أبي حنيفة رضي الله عنه، وكان أبوه الهذيل على أصبهان.

حكى المعافى بن زكريا في كتاب "الجليس والأنيس" عن عبد الرحمن ابن مغراء قال: جاء رجل إلى أبي حنيفة فقال: إني شربت البارحة نبيذاً ولا أدري أطلقت امرأتي أم لا، قال: المرأة امرأتك حتى تستيقن أنك طلقتها. ثم أتى سفيان الثوري فقال: يا أبا عبد الله إني شربت البارحة نبيذاً ولا أدري طلقت امرأتي أم لا، قال: اذهب فراجعها فإن كنت طلقتها فقد راجعتها، وإن لم تكن طلقتها فلم تضرك المراجعة شيئاً. ثم أتى شريك بن عبد الله فقال: يا أبا

عبد الله إني شربت البارحة نبيذاً، ولا أدري طلقت امرأتي أم لا، قال: اذهب فطلقها ثم راجعها. ثم اتى زفر بن الهذيل فقال: يا أبا الهذيل إني شربت البارحة نبيذاً ولا أدري طلقت امرأتي أم لا، قال: هل سألت غيري؟ قال: أبا حنيفة. قال: فما قال لك؟ قال قال: المرأة امرأتك حتى تستيقن أنك قد طلقتها، قال: هو الصواب، قال: فهل سألت غيره؟ قال: سفيان الثوري، قال: فما قال لك؟ قال: اذهب فراجعها فإن كنت طلقتها فقد راجعتها، وإن لم تكن طلقتها فلم تضرك المراجعة شيئاً، قال: ما أحسن ما قال لك، فهل سألت غيره؟ قال: شريك بن عبد الله، قال: فما قال لك؟ قال: اذهب فطلقها ثم راجعها، قال: فضحك زفر وقال: لأضربن لك مثلاً، رجل مر بمثعب سيل فأصاب ثوبه، قال لك أبو حنيفة: ثوبك طاهر وصلاتك مجزئة حتى تستيقن أمر الماء، وقال لك سفيان: اغسله فإن يك نجساً فقد طهر، وإن يك طاهراً زاده نظافة، وقال لك شريك: اذهب فبل عليه ثم اغسله. قال المعافى: وقد أحسن زفر في فصله بين هؤلاء الثلاثة فيما أفتوا به في هذه المسألة، وفيما ضربه لسائله من الأمثلة.

فأما قول أبي حنيفة فهو محض النظر وأمر الحق ولا يجوز أن يحكم على امرئ في زوجته بطلاقها بعد صحة زوجيتها بظن عرض له وهو أبعد عند ذوي الأفهام من أضغاث الأحلام، وأما قول سفيان الثوري فإنه أشار بالاستظهار والتوثقة والأخذ بالحزم والحيطة وهذه طريقة أهل الورع وذوي الاستقصار والمشفقين على نفوسهم من أهل الدين، وفتيا أبي حنيفة في هذا عين الحق وجل الفقه، وأي هاتين المحجتين سلك من نزلت به هذه النازلة وعرضت له هذه الحادثة فهو مصيب محسن على ما بينا فيهما من الفصل بين المترلتين، وأما ما أفتى به شريط فتعجب زفر منه واقع في موضعه ولا وجه في الصحة لما أشار به. وقد أصاب زفر أيضاً في الوجه الذي ضربه له وارى شريكاً توهم أن الرجعة لا تحقق إلا مع تحقق الطلاق فأمر باستئناف تطليقة لتصح الرجعة بعدها وهذا مختل فاسد ولو كان كما يرى أنه توهمه لما أثرت الرجعة إلا في التطليقة التي أوقعها وتيقنها دون التي أشفق من تقدمها وهو على غير يقين منها، ولو ان رجلاً وكل رجلاً في طلاق زوجته ثم غاب الوكيل فأشفق من تطليقه إياها عليه فأشهد على رجعتها وهو غير عالم بوقوعها ثم تبين أنها وقعت قبل مراجعته لصحت رجعته، وكذلك لو كتب إلى زوجته بطلاقها إذا وصل إليها كتابه ثم أشهد على الرجعة بعد الوصول وقبل انقضاء العدة لكانت المراجعة صحيحة لوقتها بعد الطلاق الذي لم يكن عالماً به.

ومولده سنة عشر ومائة وتوفي في شعبان سنة ثمان وخمسين ومائة، رحمه الله تعالى.

وزفر: بضم الزاي وفتح الفاء وبعدها راء.

والهذيل: بضم الهاء وفتح الذال المعجمة وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها لام.

أبو دلامة

أبو دلامة زند بن الجون؛ كان صاحب نوادر وحكايات وأدب ونظم، وذكر الحافظ أبو الفرج ابن الجوزي في كتاب "تنوير الغبش" أنه كان أسود عبداً حبشياً مولى لبني أسد وكان أوه عبداً لرجل منهم يقال له قصاقص فأعتقه. أدرك أبو دلامة آخر بني أمية و لم يكن له نباهة في أيامهم، ونبغ في أيام بني العباس، فانقطع إلى السفاح والمنصور والمهدي، وكانوا يقدمونه ويفضلونه ويستطيبون نوادره، ومدح المنصور وذكر قتله أبا مسلم من جملة قصيدة فقال فيها:

أبا مسلم خوفتني القتل فانتحى ... عليك بما خوفتني الأسد الورد

أبا مسلم ما غير الله نعمة ... على عبده حتى يغيرها العبد

وأنشدها المصنور في ملإ من الناس فقال له: احتكم، فقال له: عشرة آلاف درهم، فأمر له بها، فلما خلا به قال: أما والله لو تعديتها لقتلتك. وقد قيل إنه بقي إلى خلافة الرشيد ولا يثبت، وكان مطبوعاً كثير النوادر.

وقال محمد بن زياد: سمعت ثعلباً يقول: لما ماتت حمادة بنت عيسى ابنة عم أبي جعفر فحضر جنازتها وجلس لدفنها وهو متأ لم لفقدها كئيب عليها وهي زوجته، فأقبل أبو دلامة وجلس قريباً منه، فقال له المنصور: ويحك! ما أعددت لهذا المكان؟ وأشار إلى القبر، فقال: ابنة عم أمير المؤمنين، فضحك المنصور حتى استلقى، ثم قال له: ويحك، فضحتنا بين الناس.

وامر المهدي أبا دلامة بالخروج نحو عبد الله بن علي، فقال أبو دلامة: أنشدك الله يا أمير المؤمنين أن لا تحضرني شيئاً من عساكرك فإني شهدت تسعة

عساكر انهزمت كلها، وأخاف أن يكون عسكرك العاشر، فضحك منه وأعفاه.

قال أبو العيناء: بلغنا عن أبي دلامة أنه دخل على المهدي فأنشده قصيدة، فقال له: سلني حاجتك، فقال: يا أمير المؤمنين، هب لي كلباً، فغضب، وقال: أقول لك سلني حاجتك، فتقول: هب لي كلباً؟ فقال: يا أمير المؤمنين، الحاجة لي أم لك؟ قال بل لك، قال: فإني أسألك أن تهب لي كلب صيد، فأمر له بكلب، فقال: يا أمير المؤمنين، هبني خرجت إلى الصيد أفأعدو على رجلي؟ فأمر له بدابة، فقال: يا أمير المؤمنين، من يقوم عليها؟ فأمر به بغلام، فقال: يا أمير المؤمنين، هبني صدت صيداً وأتيت به المترل فمن يطبخه؟ فأمر له بجارية، فقال: يا أمير المؤمنين، هؤلاء يبيتون في البادية؟ فأمر له بدار، فقال: يا أمير المؤمنين، قد صيرت في عنقي كفاء من عيال، جريب غامراً، قال: أما العامر فقد عرفت، فما الغامر؟ قال: الخراب الذي لا شيء فيه، قال: أنا أقطع أمير المؤمنين مائة ألف جريب بالبدو، ولكني أسأل أمير المؤمنين من ألف جريب جريباً واحداً عامراً، قال: من أين؟ قال: من بيت المال، فقال المهدي: حولوا المال وأعطوه جريباً، قال: يا أمير المؤمنين، إذا حول منه المال صار غامراً، فضحك منه، قال: فهل بقيت لك حاجة؟ قال: نعم، تأذن لي أن أقبل يدك، فقال: ما لك إلى ذلك سبيل، قال: والله ما رددتني عن حاجة أهون علي فقداً منها.

واتفق أن أبا دلامة تأخر عن الحضور بباب أبي جعفر أياماً ثم حضر، فأمر بإلزامه القصر، وألزمه بالصلاة في مسجده، ووكل به من يلاحظه في ذلك، فمر به أبو أيوب المورياني وهو إذ ذاك وزير أبي جعفر، فقام إليه أبو دلامة ودفع رقعة مختومة، وقال: هذه ظلامة لأمير المؤمنين، فأوصلها أعزك الله إليه بخاتمها، فأخذها أبو أيوب، فلما دخل على أبي جعفر أوصلها إليه فقرأها فإذا فيها:

ألم تعلموا أن الخليفة لزني ... بمسجده والقصر، ما لي وللقصر

أصلي به الأولى مع العصر دائماً ... فويلي من الأولى وويلي من العصر

ووالله ما لي نية في صلاتهم ... ولا البر والإحسان والخير من أمري

وما ضره والله يصلح أمره ... لو أن ذنوب العالمين على ظهري

فضحك المنصور وأمر بإحضاره، فلما حضر قال: هذه قصتك؟ قال: دفعت إلى أبي أيوب رقعة مختومة أسأل فيها إعفائي من لزوم الذي أمرني بلزومه، فقال له أبو جعفر: اقرأها، قال: ما أحسن أن أقرأ، وعلم أنه إن أقر بكتابته لها يحده بذكره الصلاة وتعريضه بها، فلما رآه يحيد من ذلك، قال له: يا خبيث أما لو أقررت لضربتك الحد، ثم قال: لقد أعفيتك من لزوم المسجد، فقال أبو دلامة: أو كنت ضاربي يا أمير المؤمنين لو أقررت؟ قال: نعم، قال: مع قول الله عز وجل "يقولون ما لا يفعلون". الشعراء. فضحك منه وأعجب من انتزاعه، ووصله.

وذكر ابن شبة في كتاب "أخبار البصرة" أن أبا دلامة كتب إلى سعيد بن دعلج–وكان يومئذ يتولى الأحداث بالبصرة–وأرسلها إليه من بغداد مع ابن عم له:

إذا جئت الأمير فقل سلام ... عليك ورحمة الله الرحيم

وأما بعد ذاك فلي غريم ... من الأعراب قبح من غريم

له ألف علي ونصف أخرى ... ونصف النصف في صك قديم

دراهم ما انتفعت بها ولكن ... وصلت بها شيوخ بني تميم

فسير له ابن دعلج ما طلب.

وكان روح بن حاتم المهلبي والياً على البصرة، فخرج إلى حرب الجيوش الخراسانية ومعه أبو دلامة، فخرج من صف العدو مبارز، فخرج إليه جماعة فقتلهم، فتقدم روح إلى أبي دلامة بمبارزته فامتنع فألزمه فاستعفاه فلم يعفه، فأنشد أو دلامة:

إني أعوذ بروح أن يقدمني ... الى القتال فيخزى بي بنو أسد

إن المهلب حب الموت أورثكم ولم أرث أنا حب الموت من أحد

إن الدنو إلى الأعداء أعلمه مما يفرق بين الروح والجسد

فأقسم عليه ليخرجن، وقال: لماذا تأخذ رزق السلطان؟ قال: لأقاتل عنه، قال: فمالك لا تبرز إلى عدو الله؟ فقال: أيها الأمير، إن خرجت إليه لحقت بمن مضى، وما الشرط أن أقتل عن السلطان، بل أقاتل عنه، فحلف روح: لتخرجن إليه فتقتله أو تأسره أو تقتل دون ذلك، فلما رأى أبو دلامة الجد منه قال: أيها الأمير، تعلم أن هذا أول يوم من أيام الآخرة، ولابد فيه من الزوادة، فأمر له بذلك، فأخذ رغيفاً مطوياً على دجاجة ولحم وسطيحة من شراب وشيئاً من نقل، وشهر سيفاً وحمل، وكان تحته فرس جواد، فأقبل يجول ويلعب بالرمح، وكان مليحاً في الميدان، والفارس يلاحظه ويطلب منه غرة، حتى إذا وجدها حمل عليه، والغبار كالليل، فأغمد أبو دلامة سيفه وقال للرجل: لا تعجل واسمع مني–عافاك الله–كلمات ألقيهن إليك، فإنما أتيتك في مهم، فوقف مقابله وقال: ما المهم؟ قال: أتعرفني؟ قال: لا، قال: أنا أبو دلامة، قال: قد سمعت بك حياك الله، فكيف برزت إلي وطمعت في بعد من قتلت من أصحابك؟ فقال: ما خرجت لأقتلك ولا لأقاتلك، ولكني رأيت لباقتك وشهامتك فاشتهيت أن تكون لي صديقاً، وإني لأدلك على ما هو أحسن من قتالنا، قال: قل على بركة الله تعالى، قال: أراك قد تعبت وأنت بغير شك سغبان ظمآن، قال: كذلك هو، قال: فما علينا من خراسان والعراق، إن معي خبزاً ولحماً وشراباً ونقلاً كما يتمنى المتمني، وهذا غدير ماء نمير بالقرب منا، فهلم بنا إليه نصطبح وأترنم لك بشيء من حداء الأعراب، فقال: هذا غاية أملي، فقال: ها أنا أستطرد لك فاتبعني حتى نخرج من حلق الطعان، ففعلا، وروح يتطلب أبا دلامة فلا يجده، والخراسانية تطلب فارسها فلا تجده، فلما طابت نفس الخراساني قال له أبو دلامة: إن روحاً كما عملت من أبناء الكرام، وحسبك بابن المهلب جواداً، وإنه يبذل لك خلعة فاخرة وفرساً جواداً ومركباً مفضضاً وسيفاً محلى ورمحاً طويلاً وجارية بربرية ويترلك في أكثر العطاء، وهذا خاتمه معي لك بذلك، قال: ويحك! وما أصنع بأهلي وعيالي؟ فقال: استخر الله وسر معي ودع أهلك، فالكل يخلف عليك، فقال: سر بنا على بركة الله، فسارا حتى قدما من وراء العسكر، فهجما على روح، فقال: يا أبا دلامة أين كنت؟ قال: في حاجتك، أما قتل الرجل فما أطقته، وأما سفك دمي فما طبت به نفساً، وأما الرجوع خائباً فلم أقدم عليه، وقد تلطفت وأتيتك به أسير كرمك، وقد بذلت له عنك كيت وكيت، فقال: ممضى إذا وثق لي، قال: بماذا؟ قال: بنقل أهله، قال الرجل: أهلي على بعد ولا يمكنني نقلهم الآن، ولكن امدد يدك أصافحك وأحلف لك متبرعاً بطلاق الزوجة أني لا أخونك، فإن لم أف إذا حلفت بطلاقها لم ينفعك نقلها، قال: صدقت، فحلف له وعاهده، ووفى له بما ضمنه أبو دلامة وزاد عليه، وانقلب معهم الخراساني يقاتل الخراسانية، وينكي فيهم أشد نكاية، وكان أكبر أسباب ظفر روح.

وكان المنصور قد أمر بهدم دور كثيرة وكان من جملتها دار أبي دلامة، فكتب إلى المنصور:

يا بن عم النبي دعوة شيخ قد دنا هدم داره وبواره

فهو كالماخض التي اعتادها الطل ق فقرت وما يقر قراره

لكم الأرض كلها فأعيروا عبدكم ما احتوى عليه جداره

فأمر له بدار عوضاً عنها ولما قدم المهدي بن المنصور من الري إلى بغداد دخل عليه أبو دلامة للتسليم والتهنئة بقدومه، فأقبل عليه المهدي، وقال له: كيف أنت يا أبا دلامة؟ فقال: يا أمير المؤمنين:

إني حلفت لئن رأيتك سالماً بقرى العراق وأنت ذو وفر

لتصلين على النبي محمد ولتملأن دراهماً حجري

فقال المهدي: أما الأولى فنعم، وأما الثانية فلا، فقال: جعلني الله فداك! إنهما كلمتان لا يفرق بينهما، فقال: يملأ حجر أبي دلامة دراهم، فقعد وبسط حجره فملئ دراهم، فقال له: قم الآن يا أبا دلامة، فقال: ينخرق قميصي يا أمير المؤمنين، حتى أشيل الدراهم وأقوم، فردها إلى الأكياس ثم قام فدعا

له وخرج بها وله أشعار كثيرة، وذكره ابن المنجم في كتاب "البارع في اختيار شعر المحدثين".

ومن أخباره: أنه مرض ولده، فاستدعى طبيباً ليداويه وشرط له جعلاً معلوماً، فلما برئ قال له: والله ما عندنا شيء نعطيك، ولكن ادع على فلان اليهودي–وكان ذا مال كثير–بمقدار الجعل، وأنا وولدي نشهد لك بذلك، فمضى الطبيب إلى القاضي بالكوفة–وكان يومئذ محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، وقيل: عبد الله بن شبرمة–وحمل إليه اليهودي المذكور، وادعى عليه بذلك المبلغ، فأنكر اليهودي، فقال: لي بينة، وخرج لإحضارها، فأحضر أبا دلامة وولده، فدخلا إلى المجلس، وخاف أبو دلامة أن يطالبه القاضي بالتزكية فأنشد في الدهليز قبل دخوله بحيث يسمع القاضي:

إن الناس غطوني تغطيت عنهم ... وإن بحثوا عني ففيهم مباحث

وإن نبثوا نبثت بئارهم ... ليعلم قوم كيف تلك النبائث

ثم حضرا بين يدي القاضي، وأديا الشهادة، فقال له: كلامك مسموع وشهادتك مقبولة، ثم غرم المبلغ من عنده وأطلق اليهودي، وما أمكنه أن يرد شهادتهما خوفاً من لسانه، فجمع بين المصلحتين وتحمل الغرم من ماله.

قال العتابي: خرج المهدي وعلي بن سليمان إلى الصيد ومعهما أبو دلامة، فرمى المهدي ظبياً فأصابه، ورمى علي بن سليمان ظبياً فأخطأه وأصاب كلباً، فضحك المهدي، وقال: يا أبا دلامة، قل في هذا، فقال:

قد رمى المهدي ظبياً ... شك بالسهم فؤاده

وعلي بن سليما ... ن رمى كلباً فصاده

فهنيئاً لكما كل امرئ ... يأكل زاده

فأمر له بثلاثين ألف درهم.

ودخل أبو دلامة على المهدي، فقال: يا أمير المؤمنين، ماتت أم دلامة، وبقيت ليس أحد يعاطيني، فقال: إنا لله، أعطوه ألف درهم يشتري بها أمة تعاطيه، وكان قد دس أم دلامة على الخيزران، فقالت: يا سيدتي مات أبو دلامة وبقيت ضائعة، فأمرت لها بألف درهم، فدخل المهدي على الخيزران، وهو حزين، فقالت: ما بال أمير المؤمنين؟ قال: ماتت أم دلامة، فقالت: إنما مات أبو دلامة، فقال: قاتل الله أبا دلامة وأم دلامة، قد خدعانا والله.

وكان أبو عطاء السندي مولى بني أسد قد هجاه بقوله:

ألا أبلغ هديت أبا دلامة ... فليس من الكرام ولا كرامة

إذا لبس العمامة كان قرداً ... وخنزيراً إذا وضع العمامة

فلم يتعرض له أبو دلامة. ونوادره كثيرة.

وكانت وفاته سنة إحدى وستين ومائة. رحمه الله تعالى، ويقال: إنه عاش إلى أيام هارون الرشيد، وكانت ولاية الرشيد في سنة سبعين ومائة.

ودلامة: بضم الدال المهملة.

وزند: بفتح الزاي وسكون النون وبعدها دال مهملة، وقيل اسمه "زبد" بالياء الموحدة، والأول أثبت.

والجون: بفتح الجيم وسكون الواو وبعدها نون.

عماد الدين زنكي

أبو الجود عماد الدين زنكي بن آق سنقر بن عبد الله الملقب بالملك المنصور المعروف والده بالحاجب؛ صاحب الموصل–وقد تقدم ذكر أبيه في حرف الهمزة–وكان من الأمراء المقدمين، وفوض إليه السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي ولاية بغداد في سنة إحدى وعشرين وخمسمائة، ولما قتل آق سنقر البرسقي–المذكور في حرف الهمزة–وتوفي أيضاً ولده مسعود–حسبما ذكرناه في ترجمته–ورد مرسوم السلطان محمود من خراسان

بتسليم الموصل إلى دبيس بن صدقة الأسدي صاحب الحلة–وقد تقدم ذكره أيضاً–فتجهز دبيس للمسير، وكان بالموصل أمير كبير المترلة يعرف بالجاولي، وهو مستحفظ قلعة الموصل ومتولي أمورها من جهة البرسقي، فطمع في البلاد وحدثته نفسه بتملكها، فأرسل إلى بغداد بهاء الدين أبا الحسن علي بن القاسم الشهرزوري وصلاح الدين محمد اليغيساني لتقرير قاعدته، فلما وصلا إليها وجدا الإمام المسترشد قد أنكر تولية دبيس، وقال: لا سبيل إلى هذا، وترددت الرسائل بينه وبين السلطان محمود في ذلك، وآخر ما وقع اختيار المسترشد عليه تولية زنكي المذكور، فاستدعى الرسولين الواصلين من الموصل وقرر معهما أن يكون الحديث في البلاد لزنكي، ففعلا ذلك، وضمنا للسلطان مالاً وبذل له على ذلك المسترشد من ماله مائة ألف دينار، فبطل أمر دبيس وتوجه زنكي إلى الموصل وتسلمها، ودخلها في عاشر رمضان سنة إحدى وعشرين وخمسمائة، كذا قال ابن العظيمي في تاريخه، وقد قيل: إن انتقاله إلى الموصل كان في سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة، والأول أصح–وسيأتي ذكر السلطان محمود في حرف الميم إن شاء الله تعالى–.

ولما تقدم زنكي الموصل سلم إليه السلطان محمود ولديه ألب ارسلان وفروخ شاه المعروف بالخفاجي ليربيهما فلهذا قيل له "أتابك" لأن الأتابك هو الذي يربي أولاد الملوك–وقد تقدم ذكر ذلك في حرف الجيم عند ذكر جقر–ثم استولى زنكي على ما وإلى الموصل من البلاد، وفتح الرها يوم السبت الخامس والعشرين من جمادى الآخرة سنة تسع وثلاثين وخمسمائة، وكانت لجوسلين الأرمني، ثم توجه إلى قلعة جعبر ومالكها يوم ذاك سيف الدولة أبو الحسن علي بن مالك، فحاصرها وأشرف على أخذها، فأصبح يوم الأربعاء خامس شهر ربيع الآخر سنة إحدى وأربعين وخمسمائة مقتولاً، قتله خادمه وهو راقد على فراشه ليلاً، ودفن بصفين، رحمه الله تعالى.

وذكر شيخنا عز الدين بن الأثير الجزري في تاريخه الأتابكي أن زنكي المذكور لما قتل والده كان عمره تقديراً عشر سنين، وقد تقدم تاريخ قتل والده في ترجمته، فيكون مولده سنة سبع وسبعين وأربعمائة.

وعن بعض خواصه قال: دخلت إليه في الحال وهو حي، فحين رآني ظن أني أريد قتله فأشار إلي بإصبعه السبابة يستعطفني، فوقفت من هيبته وقلت له: يا مولانا، من فعل بك هذا؟ فلم يقدر على الكلام، وفاضت نفسه لوقته. وكان شديد الهيبة على عسكره ورعيته، عظيم السياسة، لا يقدر القوي على ظلم الضعيف، وكانت البلاد قبل أن يملكها خراباً من الظلم ومجاورة الفرنج، فعمرها وامتلأت أهلاً وسكاناً.

قال عز الدين بن الأثير في تاريخه: حكى لي والدي قال: رأيت الموصل وأكثرها خراب، وكان الإنسان لا يقدر على المشي إلى الجامع العتيق إلا ومعه من يحميه لبعده عن العمارة، وهو الآن في وسط العمارة.

وكان شديد الغيرة لا سيما على نساء الأجناد، وكان يقول: لو لم تحفظ نساء الأجناد بالهيبة وإلا فسدن لكثرة غيبة أزواجهن في الأسفار. وكان من أشجع خلق الله تعالى.

وصفين–بكسر الصاد المهملة وتشديد الفاء وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها نون–وهي أرض على شاطئ الفرات بالقرب من قلعة جعبر، إلا أنها في بر الشام، وقلعة جعبر في بر الجزيرة الفراتية، بينهما مقدار فرسخ أو أقل، وفيها مشهد في موضع الوقعة المشهورة التي كانت بها بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما، وبهذه الأرض قبور جماعة من الصحابة–رضي الله عنهم–حضروا هذه الوقعة وقتلوا بها، منهم عمار بن ياسر رضي الله عنه.

وتوفي القاضي بهاء الدين أبو الحسن علي بن القاسم الشهرزوري الرسول المذكور يوم السبت سادس عشر رمضان سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة بحلب، وحمل إلى صفين ودفن بها، رحمه الله تعالى عليه.

عماد الدين صاحب سنجار

أبو الفتح وأبو الجود عماد الدين زنكي بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي المذكور قبله المعروف بصاحب سنجار؛ كان قد ملك حلب بعد ابن عمه الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي، وكانت وفاة الصالح المذكور في سنة سبع وسبعين وخمسمائة وعمره تسع عشرة سنة.

وكان لما اشتد مرضه وصف له الأطباء شرب الخمر للتداوي، فقال: لا أفعل حتى أستفتي الفقهاء، فأفتاه فقيه من مدرسي الحنفية بجواز ذلك، فقال له:

أرأيت إن قدر الله تعالى بقرب الأجل أيؤخره شرب الخمر؟ فقال الفقيه: لا، فقال: والله لا لقيت الله عز وجل وقد استعملت ما حرمه عليه فلما يئس من نفسه أحضر الأمراء وسائر الأجناد ووصاهم بتسليم البلد إلى ابن عمه عز الدين مسعود واستحلفهم على ذلك ثم مات. وكان حليماً كريماً عفيف اليد والفرج ملازماً للدين والخير لا يعرف شيئاً مما يتعاطاه الملوك والشباب من شرب الخمر وغيره، حسن السيرة في رعيته عادلاً فيهم، رحمه الله تعالى.

ثم إن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله سار من عينتاب إلى حلب وحاصرها في سنة ثمانين وخمسمائة، فترل في الميدان الأخضر عدة أيام ثم انتقل إلى جبل جوشن، فترل بأعلاه وأظهر أنه يريد يبني مساكن له ولعسكره، والقتال بين العسكرين كل يوم. وكان صاحب حلب عماد الدين زنكي المذكور ومعه العسكر النوري وهم مجدون في القتال، فلما رأى تطاول القتال كره الخرج كأنه استكثره، فحضر عنده يوماً بعض أجناده وطلبوا منه شيئاً فاعتذر بقلة المال عنده، فقال له بعضهم: من يريد يحفظ مثل حلب يخرج المال، ولو باع حلي نسائه، فمال حينئذ إلى تسليم حلب لصلاح الدين ويأخذ عوضها سنجار ونصيبين والخابور والرقة وسروج، وجرت اليمين على ذلك فتسلمها صلاح الدين ثامن عشر صفر ونزل عنها عماد الدين، فعجب الناس من ذلك وقبحوا على عماد الدين فعله حتى إن بعض عامة حلب أحضر إجانة وماء وناداه: أنت لا يصلح لك الملك وإنما يصلح لك أن تغسل الثياب، وإذا أراد الله أمراً فلا مرد له؛ وتقرر عماد الدين أن يكون في خدمة صلاح الدين متى استدعاه.

ومن عجيب الاتفاقات أن محيي الدين بن الزكي قاضي دمشق مدح صلاح الدين بقصيدة منها:

وفتحك القلعة الشهباء في صفر   مبشر بفتوح القدس في رجب

وكذا كان، فإن القدس فتح في رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة على ما سنذكره إن شاء الله تعالى.

ومما كتبه القاضي الفاضل في المعنى: أعطيناه عن حلب كذا وكذا وهو صرف على الحقيقة: أخذنا فيه الدنانير وأعطيناه الدراهم ونزلنا عن القرى وأحرزنا العواصم.

وكان في جملة من قتل على حلب تاج الملوك أخو صلاح الدين الأصغر وقد تقدم ذكره. وانتقل عماد الدين المذكور في السنة المذكورة إلى سنجار و لم يزل بها إلى أن توفي في المحرم سنة أربع وتسعين وخمسمائة.

وملك ابنه قطب الدين محمد وتولى تدبير دولته مجاهد الدين يرنقش مملوك أبيه، وكان ديناً خيراً عادلاً حسن السيرة كثير البر والإحسان للفقراء، إلا أنه كان شديد التعصب على مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه، كثير الذم للشافعية، وكان بخيلاً؛ فمن تعصبه على الشافعية أنه بنى مدرسة للحنفية بسنجار وشرط أن يكون النظر للحنفية من أولاده دون الشافعية، وأن يكون البواب والفراش على مذهب أبي حنيفة.

بهاء الدين زهير

أبو الفضل زهير بن محمد بن علي بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن منصور بن عاصم المهلبي العتكي الملقب بهاء الدين الكاتب؛ من فضلاء عصره، واحسنهم نظماً ونثراً وخطاً، ومن أكبرهم مروءة، كان قد اتصل بخدمة السلطان الملك الصالح أبي الفتح أيوب ابن السلطان الملك الكامل بالديار المصرية، وتوجه في خدمته إلى البلاد الشرقية، وأقام بها إلى أن ملك الملك الصالح مدينة دمشق، فانتقل إليها في خدمته، وأقام كذلك إلى أن جرت الكائنة المشهورة على الملك الصالح، وخرجت عنه دمشق وخانه عسكره وهو على نابلس وتفرق عنه، وقبض عليه الملك الناصر صاحب الكرك، واعتقله بقلعة الكرك، فأقام بهاء الدين زهير المذكور بنابلس محافظة لصاحبه، و لم يتصل بخدمة غيره، و لم يزل على ذلك حتى خرج الملك الصالح وملك الديار المصرية، وقدم إليها في خدمته، وذلك في أواخر ذي القعدة سنة سبع وثلاثين وستمائة-وهذا الفصل مذكور في ترجمة أبيه الملك الكامل محمد فينظر هناك-.

وكنت يومئذ مقيماً بالقاهرة، وأود لو اجتمعت به لما كنت أسمعه عنه، فلما وصل اجتمعت به ورأيته فوق ما سمعت عنه من مكارم الأخلاق وكثرة الرياضة ودماثة السجايا، وكان متمكناً من صاحبه كبير القدر عنده، لا يطلع على سره الخفي غيره، ومع هذا كله فإنه كان لا يتوسط عنده إلا

بالخير، ونفع خلقاً كثيراً بحسن وساطته وجميل سفارته.

وأنشدني كثيراً من شعره، فمن ذلك ما كتبه إلى بعض أصحابه وكان قد غرقت به سفينة فسلم بنفسه وذهب ما كان معه:

لا تعتب الدهر في خطب رماك به إن استرد فقدماً طالما وهبا
حاسب زمانك في حالي تصرفه تجده أعطاك أضعاف الذي سلبا
والله قد جعل الأيام دائرة فلا ترى راحة تبقى ولا تعبا
ورأس مالك وهي الروح قد سلمت لا تأسفن لشيء بعدها ذهبا
ما كنت أول مفدوح بحادثة كذا مضى الدهر لا بدعاً ولا عجبا
ورب مال نما من بعد مرزئة أما ترى الشمع بعد القط ملتهبا

وأنشدني المذكور، وكتب بها لفخر الدين ابن قاضي داريا يشكو إليه سوء أدب غلمانه:

سواك الذي ودي لديه مضيع وغيرك من سعيي إليه محبب
ووالله ما آتيك إلا محبة وأني في أهل الفضيلة أرغب
أبث لك الذكر الذي طاب نشره وأطري بما أثني عليك وأطرت
فما لي ألقى دون بابك جفوة لغيرك تعزى، لا إليك، وتنسب
أرد برد الباب إن جئت زائراً فيا ليت شعري أين أهل ومرحب
ولست بأوقات الزيارة جاهلاً ولا أنا ممن قربه يتجنب
وقد جعلوا في خادم المرء أنه بما كان من أخلاقه يتهذب
فهلا سرت منك اللطافة فيهم وأعددتهم آدابهم فتأدبوا
ويصعب عندي حالة ما ألفتها على أن بعدي عن جنابك أصعب
فأمسك نفسي عن لقائك كارهاً "أغالب فيك الشوق والشوق أغلب "
وأغضب للفضل الذي أنت ربه لأجلك، لا أني لنفسي أغضب
وآنف إما عزة منك نلتها وإما لإدلال به أتعتب
وإن كنت ما أعتد هاتيك زلة فحسبي بها من خجلة حين أذهب

وله من قصيدة يمدح بها الملك المسعود صلاح الدين يوسف ابن الملك الكامل رحمه الله:

وتهتز أعواد المنابر باسمه فهل ذكرت أيامها وهي قضبان
فدع كل ماء حين يذكر زمزم ودع كل واد حين يذكر نعمان
وما كل أرض مثل أرضي هي الحمى وما كل بيت مثل بيتي هو البان

وله من قصيد يمدح به الأمير علاء الدين وله الأمير شجاع الدين جلدك التقوي بثغر دمياط سنة خمس وستمائة، وهي أول شيء قاله من المدح:

فيا ظبي هلا كان فيك التفاتة ويا غصن هلا كان فيك تعطف

ويا حرم الحسن الذي هو آمن وألبابنا من حوله تتخطف

عسى عطفة بالوصل يا واو صدغه وحقك إني أعرف الواو تعطف

وله من قصيدة:

وما كل مخضوب البنان بثينة ولا كل مسلوب الفؤاد جميل

وله من قصيدة يمدح بها الأمير نصير الدين بن اللمطي ويهنيه:

وهل كنت إلا السيف خالطه الصدا فكنت له يا ذا المواهب صيقلا

ومالي لا أسمو إلى كل غاية إذا كنت عوني في الزمان وكيف لا

وله من أبيات كتب بها إلى القاضي فخر الدين ابن قاضي داريا يشكره لمعروف ابتدأه به:

وخذها على ما خيلت بنت ساعة أتتك على استحيائها تتعثر

ومما أنشدنيه قوله:

يا روضة الحسن صلي فما عليك ضير

فهل رأيت روضة ليس بها زهير

وأنشدني أيضاً لنفسه:

كيف خلاصي من هوى مازج روحي واختلط

وتائه أقبض في حبي له وما انبسط

يا بدر إن رمت به تشبهاً رمت شطط

ودعه يا غصن النقا ما أنت من ذاك النمط

قام بعذري وجهه عند عذولي وبسط

لله أي قلم لواو ذاك الصدغ خط

ويا له من عجب في خده كيف نقط

يمر بي ملتفتاً فهل رأيت الظبي قط

ما فيه من عيب سوى فتور عينيه فقط

يا قمر السعد الذي نجمي لديه قد هبط

يا مانعي حلو الرضا وما نحي مر السخط

حاشاك أن ترضى بأن أموت في الحب غلط

وأنشدني لنفسه أيضاً:

أنا ذا زهيرك ليس إلا | جود كفك لي مزينه
أهوى جميل الذكر عن | ك كأنما هو لي بثينه
فاسأل ضميرك عن ودا | دي إنه فيه جهينه

وأنشدني لنفسه أيضاً أبياتاً لم يعلق على خاطري منها سوى بيتين من آخرها، وهما:

وأنت يا نرجس عينيه كم | تشرب من قلبي وما أذبلك
ما لك في حسنك من مشبه | ما تم في العالم ما تم لك

وأنشدني غير ذلك شيئاً كثيراً، وشعره كله لطيف، وهو كما يقال: السهل الممتنع، وأجازني رواية ديوانه، وهو كثير الوجود بأيدي الناس فلا حاجة إلى الإكثار من ذكر مقاطيعه.

وأخبرني جمال الدين أبو الحسين يحيى بن مطروح–الآتي ذكره في حرف الياء إن شاء الله تعالى–قال: كتبت إليه، وكان خصيصاً به:

أقول وقد تتابع منك بر | واهلاً ما برحت لكل خير
ألا لا تذكروا هرما بجود | فما هرم بأكرم من زهير

قال: وكتب إليه مرة أخرى يطلب درج ورق ومداداً:

أفلست يا سيدي من الورق | فجد بدرج كعرضك اليقق
وآتني بالمداد مقترناً | فمرحباً بالخدود والحدق

فسير إليه زهير المذكور جوابه مع المطلوب:

مولاي سيرت ما أمرت به | وهو يسير المداد والورق
وعز عند يسير ذاك وقد | شبهته بالخدود والحدق

وأخبرني بهاء الدين زهير المذكور أنه توجه إلى الموصل رسولاً من جهة مخدومه الملك الصالح لما كان ببلاد الشرق، وأنه كان ببلاد الموصل يومئذ صاحبنا الأديب شرف الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي الوفاء بن خطاب المعروف بابن الحلاوي الموصلي الأصل الدمشق المولد والدار، فحضر إليه ومدحه بقصيدة طويلة أحسن فيها كل الإحسان، وكان من جملتها قوله:

تجيزها وتجيز المادحين بها | فقل لنا أزهير أنت أم هرم

وأنه لما رجع من الموصل اجتمع بجمال الدين بن مطروح المذكور فأوقفه على القصيدة المذكورة فأعجبه منها هذا البيت المذكور، فكتب إليه البيتين المذكورين.

قلت: وبيت ابن الحلاوي المذكور ينظر إلى قول ابن القاسم في الداعي سبأ ابن أحمد الصليحي، أحد ملوك اليمن، وكان شاعراً جواداً من قصيدة:

ولما مدحت الهبرزي ابن أحمد | أجاز وكافاني على المدح بالمدح
فعوضني شعراً بشعر وزادني | عطاء فهذا رأس مالي وذا ربحي

وأخبرني بهاء الدين أيضاً أن مولده في خامس ذي الحجة سنة إحدى وثمانين وخمسمائة بمكة حرسها الله تعالى، وأخبرني مرة أخرى أنه ولد بوادي نخلة،

وهو بالقرب من مكة، والله أعلم، وهو الذي أملى علي نسبه على هذه الصورة، وسطرت هذا الفصل وهو في قيد الحياة منقطعاً في بيته بالقاهرة بعد موت مخدومه، طيب الله قلبه وأجراه على أجمل عاداته، وأخبرني أن نسبته إلى المهلب بن أبي صفرة–وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى–.

ثم حصل بالقاهرة ومصر مرض عظيم لم يكد يسلم منه أحد، وكان حدوثه يوم الخميس الرابع والعشرين من شوال سنة ست وخمسين وستمائة، وكان بهاء الدين المذكورة ممن مسه منه ألم، فأقام أياماً ثم توفي قبيل المغرب يوم الأحد رابع ذي القعدة من السنة المذكورة، ودفن من الغد بعد صلاة الظهر بالقرافة الصغرى بتربته بالقرب من قبة الإمام الشافعي، رضي الله عنه، في جهتها القبلية، و لم يتفق لي الصلاة عليه لاشتغالي بالمرض، رحمه الله تعالى. ولما أبللت من المرض مضيت إلى تربيته وزرته وقرأت عنده شيئاً من القرآن وترحمت عله لمودة كانت بيننا.

وأنشدني الفقيه أبو الحجاج يوسف الضرير لبهاء الدين لغزاً في القفل:

وأسود عار أنحل البرد جسمه ... وما زال من أوصافه الحرص والمنع

وأعجب شيء كونه الدهر حارساً ... وليس له عين وليس له سمع

أبو محمد البكائي

أبو محمد زياد بن عبد الله بن طفيل بن عامر القيسي العامري من بني عامر بن صعصعة ثم من بني البكاء؛ روى سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن محمد بن إسحاق، ورواها عنه عبد الملك بن هشام الذي رتبها ونسبت إليه. والبكائي المذكور كوفي، وكان صدوقاً ثقة، خرج عنه البخاري في كتاب الجهاد، ومسلم في مواضع من كتابه، وذكر البخاري في تاريخه عن وكيع قال: زياد أشرف من أن يكذب في الحديث؛ ووهم الترمذي فقال في كتابه عن البخاري قال، قال وكيع: زياد بن عبد الله على شرفه يكذب في الحديث، وهذا وهم، و لم يقل وكيع فيه إلا ما ذكره البخاري في تاريخه، ولو رماه وكيع بالكذب ما خرج البخاري عنه حديثاً واحداً ولا مسلم، كما لم يخرجا عن الحارث الأعور لما رماه الشعبي بالكذب ولا عن أبان بن أبي عياش لما رماه شعبة بالكذب. وروى عن الأعمش، وروى عنه أحمد بن حنبل وغيره، رضي الله عنه.

وكانت وفاة أبي محمد المذكور في سنة ثلاث وثمانين ومائة بالكوفة، رحمه الله تعالى.

والبكائي: بفتح الباء الموحدة وتشديد الكاف وبعد الهمزة الممدودة ياء مثناة من تحتها، وهذه النسبة إلى البكاء، واسمه ربيعة بن عامر بن ربيعة بن عامر بن صعصعة، وسمي البكاء لخبر يسمج ذكره.

التاج الكندي

أبو اليمن زيد بن الحسن بن زيد بن الحسن بن سعيد الكندي الملقب تاج الدين البغدادي المولد والمنشأ الدمشقي الدار والوفاة المقرئ النحوي الأديب؛ كان أوحد عصره في فنون الآداب وعلو السماع، وشهرته تغني عن الاطناب في وصفه، وكان قد لقي جلة المشايخ وأخذ عنهم، منهم الشريف أبو السعادات ابن الشجري وأبو محمد ابن الخشاب وابو منصور الجواليقي، وسافر عن بغداد في شبابه، وآخر عهده بها في سنة ثلاث وستين وخمسمائة، واستوطنت حلب حدة، وكان يبتاع الخيلع ويسافر به إلى بلاد الروم ويعود إليها. ثم انتقل إلى دمشق، وصحب الأمير عز الدين فروخ شاه بن شاهان شاه، وهو ابن أخي السلطان صلاح الدين، واختص به وتقدم عنده وسافر في صحبته إلى الديار المصرية واقتنى من كتب خزائنها كل نفيس، وعاد إلى دمشق واستوطنها، وقصده الناس وأخذوا عنه، وله كتاب مشيخه على حروف المعجم.

أخبرني أحد أصحابه أنه قال: كنت قاعداً على باب أبي محمد عبد الله بن الخشاب النحوي ببغداد، وقد خرج من عند أبو القاسم الزمخشري الإمام المشهور، وهو يمشي في جاون خشب فإن إحدى رجليه كانت قد سقطت من الثلج، ثال: والناس يقولون: هذا الزمخشري. ونقل من خطه: كان الزمخشري أعلم فضلاء العجم بالعربية في زمانه، وأكثرهم أنساً واطلاعاً على كتبها، وبه ختم فضلاؤهم، وكان متحققاً بالاعتزال، قدم علينا بغداد سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة، ورأيته عند شيخنا أبي منصور الجواليقي، رحمه الله تعالى، مرتين قارئاً عليه بعض كتب اللغة من فواتحها ومستجيزاً لها،

لأنه لم يكن له على ما عنده من العلم عفا الله عنه وعنا.

وأخبرني الشيخ مهذب الدين أبو الطالب محمد المعروف بابن الخيمي بالقاهرة المحروسة قال: كتب إلي الشيخ الدين الكندي من دمشق من جملة أبيات:

أيها الصاحب المحافظ قد حم   لتنا من وفاء عهدك دينا
نحن بالشام رهن شوق إليكم   هل لديكم بمصر شوق إلينا
قد غلبنا بما حرمنا عليكم   وغلبتم بما رزقتم علينا
فعجزنا عن أن تروناالديكم   وعجزتم عن أن نراكم لدينا
حفظ الله عهد من حفظ   العهد وأوفى به كما قد وفينا

قال: فكتبت جوابها أبياتاً من جملتها:

أيها الساكنون بالشام من كند   ة إنا بعهدكم ما وفينا
لو قضينا حق المودة كنا   نحبنا بعد بعدكم قد قضينا

وأنشدني له الشيخ مهذب الدين المذكور:

دع المنجم يكبو في ضلالته   إن ادعى علم ما يجري به الفلك
تفرد الله بالعلم القديم فلا ال   إنسان يشركه فيه ولا الملك
أعد للرزق من اشراكه شركاً   وبئست العدتان الشرك والشرك

وكتبت إليه أبو شجاع ابن الدهان الفرضي، الآتي ذكره إن شاء الله تعالى في حرف الميم:

يا زيد زادك ربي من مواهبه   نعمى يقصر عن إدراكها الأمل
لا غير الله حالاً قد حباك بها   ما دار بين النحاة الحال والبدل
النحو أنت أحق العالمين به   أليس باسمك فيه يضرب المثل

ومن شعر الشيخ تاج الدين، وقد طعن في السن:

أرى المرء يهوى أن تطول حياته   وفي ظولها إرهاق ذلك وإزهاق
تمنيت في عصر الشبيبة أنني   أعمر والأعمار لا شك أرزاق
فلما أتاني ما تمنيت ساءني   من العمر ما قد كنت أهوى وأشتاق
يخيل لي فكري إذا كنت خاياً   حفائر يعلوها من الترب أطباق
وها أنا في إحدى وتسعين حجة   لها في إرعاد مخوف وإبراق
يقولون ترياق لمثلك نافع   وما لي إلا رحمة الله ترياق

وكانت ولادته بكرة يوم الأربعاء الخامس والعشرين من شعبان سنة عشرين وخمسمائة ببغدادن وتوفي يوم الاثنين ضحوة سادس شوال سنة ثلاثة عشرة وستمائة بدمشق، ودفن من يومه بجبل قاسيون، رحمه الله تعالى.

وأما مهذب الدين المذكور فهو أبو طالب محمد بن ابي الحسن علي بن علي بن المفضل بن التامغاز، كذا أملى علي نسبه، وأنشدني كثيراً من شعره

وشعر غيره، وكان اجتماعنا بالقاهرة المحروسة في مجالس عديدة، وأخبرني أن مولده في الثامن والعشرين من سوال سنة تسع وأربعين وخمسمائة بالحلة المزيدية، وتوفي يوم الأربعاء والعشرين من ذي القعدة سنة اثنتين وأربعين وستمائة، ودفن من الغد بالقرافة الصغرى، وحضرت الصلاة عليه، وكان إماماً في اللغة راوية للشعر والأدب، رحمه الله تعالى.

وقاسيون: بفتح القاف وبعد الألف سين مكسورة مهملة وضم الياء المثناة من تحتها وبعد الواو الساكنة نون، وهو جبل مطل على دمشق، وفيه قبول أهلها وتربهم وفيه مدارس ورباطات وجامع، وفيه نهران ثورا ويزيد.

زيري بن مناد الصنهاجي

الأمير زيري بن مناد الحميري الصنهاجي جد المعز بن باديس-الآتي ذكره إن شاء الله تعالى، وقد تقدم ذكر ولده بلكين وحفيده باديس في حرف الباء وذكر حفيد حفيده الأمير تميم في حرف التاء، واستوعبت عنده الرفع في نسبه-؛ وزيري المذكور أول من ملك من بيتهم، وهو الذي بنى مدينة آشير، وحصنها في ايام خروج أبي يزيد مخلج الخارجي-المقدم ذكره-لما خرج على القائم بن المهدي وعلى ولده المنصور إسماعيل وملكها السيرة تام السياسة شجاعاً صارماً، وكانت بينه وبين جعفر بن علي لأندلسي-المقدم ذكره في حرف الجيم-ضغائن وأحقاد أفضت إلى الحرب، فلما تصافا انجلى المصاف عن قتل زيري المذكور، وذلك في شهر رمضان سنة ستين وثلثمائة، وذكر أنه كبابه فرسه؛ فسقط إلى الأرض فقتل، وكانت مدة ملكه ستاً وعشرين سنة، رحمه الله تعالى.

وزيري: بكسر الزاي وسكون الياء المثناة من تحتها وكسر الراء وبعدها مثناة من تحتها.

ومناد: بفتح الميم والنون وبعد الألف دالة مهملة.

والصنهاجي: تقدم الكلام عليه.

وآشير: بمد الهمزة وكسر الشين المعجمة وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها راء، وقد تقدم ذكرها في حرف الهمزة في ترجمة أبي إسحاق إبراهيم ابن قرقول.

وتاهرت: بفتح التاء المثناة من فوقها وبعد الألف هاء مفتوحة وراء ساكنة ثم تاء مثناة من فوقها، وهي مدينة بأفريقية، وثم أيضاً تاهرت أخرى، ويقال للواحدة القديمة وللأخرى الجديدة، ولا أعلم أي المدينتين ملكها زيري المذكور.

زينب بنت الشعري

أم المؤيد زينب-وتدعى حرة أيضاً-بنت أبي القاسم عبد الرحمن بن الحسن بن أحمد بن سهل بن أحمد بن عبدوس الجرجاني الأصل النيسابوري الدار الصوفي المعروف بالشعري؛ كانت عالمة، وأدركت جماعة من أعيان العلماء، وأخذت عنهم رواية وإجازة. سمعت من أبي محمد إسماعيل بن أبي القاسم ابن أبي بكر النيسابوري القارئ، وأبي القاسم زاهر وأبي بكر وجيه ابني طاهر الشحاميين وأبي المظفر عبد المنعم بن عبد الكريم بن هوازن القشيري وأبي الفتوح عبد الوهاب بن شاه الشاذياخي وغيرهم، وأجاز لها الحافظ أبو الحسن عبد الغافر بن إسماعيل بن عبد الغافر الفارسي والعلامة أبو القاسم محمود ابن عمر الزمخشري صاحب "الكشاف" وغيرهما من السادات الحفاظ.

ولنا منها إجازة كتبتها في بعض شهور سنة عشر وستمائة، ومولدي يوم الخميس بعد صلاة العصر حادي عشر شهر ربيع الآخر سنة ثمان وستمائة بمدينة إربل بمدرسة سلطانها الملك المعظم مظفر الدين بن زين الدين، رحمهما الله تعالى.

ومولد زينب المذكورة سنة أربع وعشرين وخمسمائة بنيسابور، وتوفيت سنة خمس عشرة وستمائة في جمادى الآخرة بمدينة نيسابور، رحمها الله تعالى.

والشعري: بفتح الشين المثلثة وسكون العين المهملة وفتحها وبعدها راء، هذه النسبة إلى الشعر وعمله وبيعه، ولا أعلم من كان في أجدادها يتعاطاه فنسبوا إليه، والله أعلم.

سالم بن عبد الله بن عمر

أبو عمرو–ويقال أبو عبد الله–سالم بن عبد الله ابن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب العدوي، رضي الله عنهم أجمعين؛ أحد فقهاء المدينة، من سادات التابعين وعلمائهم وثقاتهم، روى عن أبيه وغيره، وروى عنه الزهري ونافع. توفي في آخر ذي الحجة سنة ست ومائة، وقيل سنة ثمان ومائة، وهشام بن عبد الملك يومئذ بالمدينة، وكان قد حج بالناس تلك السنة، ثم قدم المدينة فوافق موت سالم، فصلى عليه بالبقيع لكثرة الناس، فلما رأى هشام كثرتهم قال لإبراهيم بن هشام المخزومي والي المدينة: اضرب على الناس بعث أربعة آلاف، فسمي عام أربعة آلاف.

حدث الزهري قال سمعت سالم بن عبد الله يقول: دخلت على الوليد بن عبد الملك، فقال: ما أحسن جسمك! فما طعامك؟ قلت: الكعك والزيت، قال: وتشتهيه؟ قلت: أدعه حتى أشتهيه، فإذا اشتهيته أكلته، وكان يقول: إياكم ومداومة اللحم، فإن له ضراوة كضراوة الشراب.

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى سالم بن عبد الله أن اكتب لي بشيء من رسائل عمر بن الخطاب، فكتب إليه: "يا عمر، اذكر الملوك الذين تفقأت أعينهم التي كانت لا تنقضي لذتهم بها، وتفقأت بطونهم التي كانوا لا يشبعون بها، وصاروا جيفاً في الأرض تحت آكامها، لو كانت إلى جنب مساكن لنا لتأذينا بريحهم".

وقال محمد بن إسحاق صاحب المغازي والسير: رأيت سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهم يلبس الصوف، وكان علج الخلق يعالج بيديه ويعمل.

ودخل سليمان بن عبد الملك الكعبة، فرأى سالماً، فقال له: سلني حوائجك، فقال: والله لاسألت في بيت الله غير الله.

سالم الخاسر

أبو عمر سالم الشاعر عرف بالخاسر؛ يقال إنه مولى أبي بكر الصديق، وقيل بل مولى المهدي، وهو سالم بن عمرو بن حماد بن عطاء بن ياسر، هكذا نسبه أحمد ابن أبي طاهر، وسمي الخاسر لكونه باع مصحفاً واشترى بثمنه طنبوراً. قدم بغداد ومدح المهدي والهادي والبرامكة، وكان على طريقة غير مرضية من المجون والتظاهر بالخلاعة والفسوق.

وكان سالم المذكور قد مدح المهدي بقصيدة منها:

حضر الرحيل وشدت الأحداج ... وحدا بهن مشمر مزعاج

شربت بمكة في ذرى بطحائها ... ماء النبوة ليس فيه مزاج

وكان المهدي أعطى مروان بن أبي حفصة مائة ألف درهم بقصيدته التي أولها:

طرقتك زائرة فحي خيالها

فأراد أن ينقص سالماً من هذه الجائزة فحلف سالم أن لا يأخذ إلا مائة ألف وقال: تطرح القصيدتان إلى أهل العلم حتى يخبروا بتقدم قصيدتي؛ فأنفذ له المهدي مائة ألف درهم وألف درهم، وكان هذا ماله.

وكان ينتمي إلى ولاء تيم بن مرة من قريش، فلما بلغ زمن الرشيد، وكان الرشيد قد بايع لمحمد بن زبيدة، يعني ولده الأمين، قال قصيدته التي أولها:

قل للمنازل بالكثيب الاعفر ... أسقيت غادية السحاب الممطر

قد بايع الثقلان مهدي الهدى ... لمحمد بن زبيدة ابنة جعفر

فحشت زبيدة فاه دراً فباعه بعشرين ألف دينار. وتقدم لمروان بن أبي حفصة مع زبيدة مثل ذلك في حرف الزاي.

ومات سالم في أيام الرشيد وقد اجتمع عنده ستة وثلاثون ألف دينار، فاودعها أبا السمراء الغساني فبقيت عنده، وإن إبراهيم الموصلي دخل يوماً على الرشيد وغناه فأطربه فقال: سل ما شئت، قال: نعم يا سيدي، أسأل شيئاً لا يزرأك، قال: ما هو؟ قال: مات سالم وليس له وارث وخلف ستة وثلاثين

ألف دينار عند أبي السمراء الغساني، تأمره أن يدفعها إلي، فتسلمها.

وكان الجماز قدم هو وأبوه يطالبان بميراث سالم بأنهما من قرابته. وذكروا أنه لما قال أبو العتاهية:

تعالى الله يا سلم بن عمرو أذل الحرص أعناق الرجال

غضب سالم وقال: يزعم أني حريض؟ وقال يرد عليه:

ما أقبح التزهيد من واعظ يزهد الناس ولا يزهد

لو كان في تزهيده صادقاً أضحى وأمسى بيته المسجد

ويرفض الدنيا ولم يقنها ولم يكن يسعى ويسترفد

يخاف أن تنفد أرزاقه والرزق عند الله لا ينفد

والرزق مقسوم على من ترى يناله الأبيض والأسود

كل يوفى رزقه كاملاً من كف عن جهد ومن يجهد

وكان سالم من الشعراء المجيدين من تلامذة بشار، وصار يقول أرق من شعر بشار. وكان بشار قد قال:

من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

وقال سالم:

من راقب الناس مات غماً وفاز باللذة الجسور

فغضب بشار وقال: ذهب والله بيتي؛ يأخذ المعاني التي تعبت فيها فيكسوها ألفاظاً أخف من ألفاظي، لا أرضى عنه، فما زالوا يسألونه حتى رضي عنه.

وقال أبو معاذ النميري: رأيت بشاراً لما قال هذا البيت وهو يلهج به كثيراً.

من راقب الناس لم يظفر بحاجته... البيت

قلت: يا أبا معاذ، قد قال سالم الخاسر بيتاً في هذا المعنى هو أخف من هذا، وأنشدته:

من راقب الناس مات غماً

فقال: ذهب والله بيتي، والله لا أكلت اليوم شيئاً ولا صمت.

وكانت وفاة سالم المذكور سنة ست وثمانين ومائة، رحمه الله تعالى.

أبو بكر ابن عياش

أبو بكر سالم بن عياش بن سالم الحناط، الأسدي مولاهم، الكوفي؛ كان من أرباب الحديث والعلماء المشاهير، وهو أحد راوي يالقراءات عن عاصم، وهو مولى واصل بن حيان الأحدب.

ذكر أبو العباس المبرد في كتاب "الكامل"، قال: قال ابو بكر ابن عياش: أصابتني مصيبة آلمتني، فذكرت قول ذي الرمة:

لعل انحدار الدمع يعقب راحة من الوجد أو يشفي نجي البلابل

فخلوت بنفسي وبكيت فاسترحت. وله أخبار وحكايات كثيرة. وقيل: اسمه كنيته، وقيل: اسمه شعبة، والله أعلم.

وروي عنه أنه قال: لما كنت شاباً وأصابتني مصيبة تجلدت لها، ودفعت البكاء بالصبر، فكان ذلك يؤذيني ويؤلمني، حتى رأيت أعرابياً بالكناسة وهو واقف على نجيب له ينشد:

خليلي عوجا من صدور الرواحل بمهجور حزوى فابكيا في المنازل

وبعده:

لعل انحدار الدمع يعقب راحة من الوجد أو يشفي نجي البلابل

فسألت عنه، فقيل لي: ذو الرمة، فأصابني بعد ذلك مصائب، فكنت أبكي فأوجد لذلك راحة، فقلت: قاتل الله الأعرابي ما كان أبصره! قال أبو بكر: قال لي رجل وأنا شاب: خلص رقبتك ما استطعت في الدنيا من رق الآخرة، فان أسير الآخرة غير مفكوك أبداً، فأنسيتها.

وكانت وفاته بالكوفة في سنة ثلاث وتسعين ومائة، بعد هارون الرشيد بثمانية عشر يوماً، وعمره ثمان وتسعون سنة، وكانت وفاة الرشيد ليلة السبت لثلاث خلون من جمادى الآخرة من السنة المذكورة بمدينة طوس، رحمهما الله تعالى.

وعياش: بفتح العين المهملة وتشديد الياء المثناة من تحتها وبعد الألف شين معجمة.

والأسدي والكوفي: قد تقدم الكلام عليهما، وقيل: هو مولى بني كاهل ابن أسد بن خزيمة.

سابور بن أردشير

أبو نصر سابور بن أردشير، الملقب بهاء الدولة وزير بهاء الدولة أبي نصر ابن عضد الدولة بن بويه الديلمي؛ كان من أكابر الوزراء، وأماثل الرؤساء، جمعت فيه الكفاية والدراية، وكان بابه محط الشعراء. ذكره أبو منصور الثعالبي في كتاب "اليتيمة"، وعقد لمداحه باباً مستقلاً، لم يذكر فيه غيرهم، فمن جملة من مدحه أبو الفرج الببغاء بقوله:

لمت الزمان على تأخير مطلبي فقال: ما وجه لومي وهو محظور

فقلت :لو شئت ما فات الغنى أملي فقال :أخطأت، بل لو شاء سابور

لذ بالوزير أبي نصر وسل شططاً أسرف فإنك في الإسراف معذور

وقد تقبلت هذا النصح من زمني والنصح حتى من الأعداء مشكور

ولمحمد بن أحمد الحرون فيه قصيدة من جملتها:

يا مؤنس الملك والأيام موحشة ورابط الجأش والآجال في وجل

ما لي ولأرض لم أوطن بها وطناً كأنني بكر معنى سار في المثل

لو أنصف الدهر أو لانت معاطفه اصبحت عندك ذا خيل وذا خول

لله لؤلؤ ألفاظ أساقطها لو كن للغيد ما استأنسن بالعطل

ومن عيون معان لو كحلن لها نجل العيون لأغناها عن الكحل

وكان قد صرف عن الوزارة ثم أعيد إليها، فكتب إليه أبو إسحاق الصابئ:

قد كنت طلقت الوزارة بعدما زلت بها قدم وساء صنيعها

فغدت بغيرك تستحل ضرورة كيما يحل إلى ذراك رجوعها

فالآن عادت ثم آلت حلفة أن لا يبيت سواك وهو ضجيعها

ولبعض الشعراء في وزير صرف ثم أعيد من يومه فقال على لسانه:

عاداني الدهر نصف يوم فانكشف الناس لي وبانوا

يا أيها المعرضون عنا عودوا فقد عاد لي الزمان

وله ببغداد دار علم، وإليها أشار أبو العلاء المعري بقوله في القصيدة المشهورة:

وغنت لنا في دار سابور قينة من الورق مطراب الأصائل ميهال

وكانت وفاة سابور المذكور في سنة ست عشرة وأربعمائة ببغداد، رحمه الله تعالى. ومولده بشيراز، ليلة السبت خامس عشر ذي القعدة سنة ست وثلاثين وثلثمائة.

وتوفي مخدومه بهاء الدولة في جمادى الأولى سنة ثلاث وأربعمائة بأرجان، وعمره اثنتان وأربعون سنة وتسعة أشهر وعشرون يوماً، رحمه الله تعالى.

وسابور: بفتح السين المهملة وضم الباء الموحدة وبعد الواو راء. والأصل فيه "شاه بور" فعرب لأن الشاه بالعجمي: الملك، وبور: ابن، فكأنه قال: ابن الملك، وعادة العجم تقديم المضاف إليه على المضاف. وأول من سمي بهذا الاسم سابور بن أردشير بن بابك بن ساسان أحد ملوك الفرس.

وأردشير: بفتح الهمزة وسكون الراء وفتح الدال المهملة وكسر الشين المعجمة وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها راء، قاله الدار قطني الحافظ، وقال غيره: معناه دقيق حليب، وقيل معناه دقيق وحلو–وقال بعضهم: "أزدشير" بالهمزة والزاي–وهو لفظ عجمي، وأرد عندهم: الدقيق، وشير: الحليل، وشيرين: الحلو، والله أعلم.

سري السقطي

أبو الحسن سري بن المغلس السقطي أحد رجال الطريقة وأرباب الحقيقة؛ كان أوحد زمانه في الورع وعلوم التوحيد، وهو خال أبي القاسم الجنيد وأستاذه، وكان تلميذ معروف الكرخي، يقال: إنه كان في دكانه، فجاءه معروف يوماً ومعه صبي يتيم، فقال له: اكس هذا اليتيم، قال سري: فكسوته، ففرح به معروف، وقال: بغض الله إليك الدنيا وأراحك مما أنت فيه؛ فقمت من الدكان وليس شيء أبغض إلي من الدنيا. وكل ما أنا فيه من بركات معروف.

ويحكى أنه قال: منذ ثلاثين سنة أنا في الاستغفار من قولي مرة "الحمد لله"! قيل له: وكيف ذلك؟ فقال: وقع ببغداد حريق فاستقبلني واحد وقال: نجا حانوتك، فقلت: الحمد لله، فأنا نادم من ذلك الوقت على ما قلت، حيث أردت لنفسي خيراً من الناس.

وحكى أبو القاسم الجندي قال: دخلت يوماً على خالي سري السقطي وهو يبكي، فقلت: ما يبكيك؟ قال: جاءتني البارحة الصبية فقالت: يا أبت، هذه ليلة حارة، وهذا الكوز أعلقه هاهنا، ثم إنه حملتني عيناي فنمت فرأيت جارية من أحسن خلق الله قد نزلت من السماء، فقلت: لمن أنت؟ قالت: لمن لا يشرب الماء المبرد في الكيزان، وتناولت الكوز فضربت به الأرض، قال الجنيد: فرأيت الخزف المكسور لم يرفعه، حتى عفى عليه التراب.

قال عبد الله بن شاكر، قال سري: صليت وردي ليلة، ومددت رجلي في المحراب فنوديت: يا سري، هكذا تجالس الملوك؟ قال: فضممت رجلي، ثم قلت: وعزتك لا مددت رجلي أبداً. قال الجنيد: أتت عليه ثمان وتسعون سنة ما رئي مضطجعاً إلا في علة الموت.

ويحكى عن الجنيد أنه قال: سألني السري يوماً عن المحبة، فقلت: قال قوم: هي الموافقة، وقال قوم: هي الإيثار، وقال قوم: كذا وكذا، فأخذ السري جلدة ذراعه ومدها فلم تمتد، ثم قال: وعزته لو قلت إن هذه الجلدة يبست على هذا العظم من محته لصدقت.

قال الجنيد: وسمعته يقول: أريد أن آكل أكلة ليس لله علي فيها تبعة ولا لمخلوق فيها منة فلم أجد، فأتاني حي الجرجاني فدق علي باب الغرفة فخرجت إليه فقال لي: يا سري، ملحك مدقوق؟ فقلت: نعم، قال: لا تفلح، ثم قال: لولا أن الله عز وجل عقم الآذان عن فهم القرآن ما زرع الزارع، ولا تجر التاجر، ولا تلاه الناس في الطرقات، ثم مضى فأتعبني وأبكاني.

وحكى الجنيد أيضاً عن سري قال: كنت في طلب صديق ثلاثين سنة، فلم أظفر به، فمررت في بعض الجبال بأقوام مرضى وزمنى وعمي وبكم، فسألتهم عن مقامهم في ذلك الموضع، فقالوا: في هذا الكهف رجل يمسح بيده عليهم فيبرءون بإذن الله تعالى وبركة دعائه، فوقفت أنتظر معهم،

فخرج شيخ عليه جبة صوف، فلمسهم ودعا لهم، فكانوا يبرءون من عللهم بمشيئة الله عز وجل، قال: فأخذت بذيله، فقال: خل عني يا سري لا يراك تأنس بغيره فتسقط من عينه.

قال سري: المتصوف اسم لثلاثة معان، وهو الذي لا يطفئ نور معرفته نور ورعه، ولا يتكلم بباطن في علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب، ولا تحمله ا لكرامات على هتك محارم الله تعالى.

وكانت وفاته سنة إحدى وخمسين، وقيل يوم الأربعاء لست خلون من شهر رمضان بعد الفجر سنة ست وخمسين، وقيل سبع وخمسين ومائتين ببغداد، ودفن بالشونيزية. وقال الخطيب في "تاريخ بغداد": مقبرة الشونيزي وراء المحلة المعروفة بالتوثة بالقرب من نهر عيسى بن علي الهاشمي، وسمعت بعض شيوخنا يقول: مقابر قريش كانت قديماً تعرف بمقبرة الشونيزي الصغير، والمقبرة التي وراء التوثة تعرف بمقبرة الشونيزي الكبير، وكانا أخوين يقال لكل واحد منهما "الشونيزي" ودفن كل واحد منهما في إحدى هاتين المقبرتين ونسبت المقبرة إليه، والله أعلم.

وقبره ظاهر معروف، وإلى جنبه قبر الجنيد، رضي الله عنهما.

والمغلس: بضم الميم وفتح الغين المعجمة وكسر اللام المشددة وبعدها سين مهملة.

وكان سري كثيراً ما ينشد:

إذا ما شكوت الحب قالت كذبتني | فما لي أرى الأعضاء منك كواسيا

فلا حب حتى يلصق الجلد بالحشا | وتذهل حتى لا تجيب المناديا

السري الرفاء

أبو الحسن السري بن أحمد بن السري الكندي الرفاء الموصلي الشاعر المشهور؛ كان في صباه يرفو ويطرز في دكان بالموصل، وهو مع ذلك يتولع بالأدب وينظم الشعر، ولم يزل حتى جاد شعره ومهر فيه، وقصد سيف الدولة ابن حمدان بحلب ومدحه وأقام عنده مدة، ثم انتقل بعد وفاته إلى بغداد ومدح الوزير المهلبي وجماعة من رؤسائها، ونفق شعره وراج. وكانت بينه وبين أبي بكر محمد وأبي عثمان سعيد ابني هاشم الخالديين الموصليين الشاعرين المشهورين معاداة فادعى عليهما سرقة شعره وشعر غيره.

وكان السري مغرى بنسخ ديوان أبي الفتح كشاجم الشاعر المشهور، وهو إذ ذاك ريحان الأدب بتلك البلاد، والسري في طريقه يذهب، وعلى قالبه يضرب، فكان يدس فيما يكتبه من شعره أحسن شعر الخالديين، ليزيد في حجم ما ينسخه وينفق سوقه ويغلي سعره ويشنع بذلك عليهما ويغض منهما ويظهر مصداق قوله في سرقتهما، فمن هذه الجهة وقعت في بعض النسخ من ديوان كشاجم زيادات ليست في الأصول المشهورة.

وكان شاعراً مطبوعاً عذب الألفاظ مليح المأخذ كثير الافتنان في التشبيهات والأوصاف، ولم يكن له رواء ولا منظر، ولا يحسن من العلوم غير قول الشعر، وقد عمل شعره قبل وفاته نحو ثلثمائة ورقة، ثم زاد بعد ذلك، وقد عمله بعض المحدثين الأدباء على حروف المعجم.

ومن شعر السري أبيات يذكر فيها صناعته، فمنها قوله:

وكانت الإبرة فيما مضى | صائنة وجهي وأشعاري

فأصبح الرزق بها ضيقاً | كأنه من ثقبها جاري

ومن محاسن شعره في المديح من جملة قصيد:

يلقى الندى برقيق وجه مسفر | فإذا التقى الجمعان عاد صفيقا

رحب المنازل ما أقام فإن سرى | في جحفل ترك الفضاء مضيقا

وذكر له الثعالبي في كتاب "المنتحل":

البستني نعماً رأيت بها الدجى صبحاً وكنت أرى الصباح بهيما

فغدوت يحسدني الصديق وقبلها قد كان يلقاني العدو رحيما

ومن غرر شعره في النسيب قوله:

بنفسي من أجود له بنفسي ويبخل بالتحية والسلام

وحتفي كامن في مقلتيه كمون الموت في حد الحسام

وله من قصيدة يمدح بها سيف الدولة بن حمدان:

تركتهم بين مصبوغ ترائبه من الدماء ومخضوب ذوائبه

فحائد وشهاب الرمح لاحقه وهارب وذباب السيف طالبه

يهوي إليه بمثل طاعنه وينتحيه بمثل البرق غالبه

يكسوه من دمه ثوباً ويسلبه ثيابه فهو كاسيه وسالبه

وله من قصيدة أخرى:

وكم ليلة شمرت للراح رائحاً وبت لغزلان الصريم مغازلا

وحليت كأسي والسنا بحليها فما عطلت حتى بدا الأفق عاطلا

ومن شعره:

وفتية زهر الآداب بينهم أبهى وأنضر من زهر الرياحين

راحوا إلى الراح مشي الرخ وانصرفوا والراح تمشي بهم مشي الفرازين

ومن شعره:

ما كان ذاك العيش إلا سكرة رحلت لذاذتها وحل خمارها

ومن شعره:

انظر إلى الليل كيف تصرعه راية صبح مبيضة العذب

كراهب جن للهوى طرباً فشق جلبابه من الطرب

وللسري المذكور ديوان شعر كله جيد، وله كتاب "المحب والمحبوب والمشموم والمشروب" وكتاب "الديرة".

وكانت وفاته في سنة نيف وستين وثلثمائة ببغداد، رحمه الله تعالى، هكذا قال الخطيب البغدادي في تاريخه، وقال غيره: توفي سنة اثنتين وستين وثلثمائة وقيل سنة أربع وأربعين وثلثمائة، والله أعلم. وذكر شيخنا ابن الأثير في تاريخه أنه توفي سنة ستين وثلثمائة، رحمه الله تعالى.

حيص بيص

أبو الفوارس سعد بن محمد بن سعد بن الصيفي التميمي الملقب شهاب الدين المعروف بحيص بيص الشاعر المشهور؛ كان فقيهاً شافعي المذهب، تفقه بالري على القاضي محمد بن عبد الكريم الوزان، وتكلم في مسائل الخلاف، إلا أنه غلب عليه الأدب ونظم الشعر، وأجاد فيه مع جزالة لفظه، وله

رسائل فصيحة بليغة. ذكره الحافظ أبو سعد ابن السمعاني في كتاب "الذيل" وأثنى عليه. وحدث بشيء من مسموعاته، وقرئ عليه ديوانه ورسائله، وأخذ الناس عنه أدباً وفضلاً كثيراً؛ وكان من أخبر الناس بأشعار العرب واختلاف لغاتهم. ويقال إنه كان فيه تيه وتعاظم، وكان لا يخاطب أحداً إلا بالكلام العربي، وكانت له حوالة بمدينة الحلة، فتوجه إليها لاستخلاص مبلغها، وكانت على ضامن الحلقة، فسير غلامه إليه فلم يعرج عليه وشتم أستاذه، فشكاه إلى والي الحلة، وهو يومئذ ضياء الدين مهلهل بن أبي العسكر الجاواني، فسير معه بعض غلمان الباب ليساعده، فلم يقنع أبو الفوارس منه بذلك، فكتب إليه يعاتبه، وكانت بينهما مودة متقدمة "ما كنت أظن أن صحبة السنين ومودتها يكون مقدارها في النفوس هذا المقدار، بل كنت أظن أن الخميس الجحفل لو زن لي عرضاً لقام بنصري من آل أبي العسكر حماة غلب الرقاب، فكيف بعامل سويقة، وضامن حليلة وحليقة؟ ويكون جوابي في شكواي أن ينفذ إليه مستخدم يعاتبه، ويأخذ ما قبله من الحق، لا والله:

إن الأسود أسود الغاب همتها ... يوم الكريهة في المسلوب لا السلب

وبالله أقسم، ونبيه وآل بيته، لئن لم تقم لي حرمة يتحدث بها نساء الحلة في أعراسهن ومناحاتهن، لا أقام وليك بحلتك هذه، ولو أمسى بالجسر أو القناطر، هبني خسرت حمر النعم أفأخسر أبيتي، واذلاه، واذلاه، والسلام".

وكان يلبس زي العرب ويتقلد سيفاً، فعمل فيه أبو القاسم ابن الفضل–الآتي ذكره في حرف الهاء إن شاء الله تعالى–وذكر العماد في "الخريدة" أنها للرئيس علي بن الأعرابي الموصلي، وذكر أنه توفي سنة سبع وأربعين وخمسمائة:

كم تبادى وكم تطول طرطو ... رك؟ ما فيك شعرة من تميم

فكل الضب واقرط الحنظل اليا ... بس واشرب ما شئت بول الظليم

ليس ذا وجه من يضيف ولا يق ... ري ولا يدفع الأذى عن حريم

فلما بلغت الأبيات أبا الفوارس المذكور عمل:

لا تضع من عظيم قدر وإن كن ... ت مشاراً إليه بالتعظيم

فالشريف الكريم ينقص قدراً ... بالتعدي على الشريف الكريم

ولع الخمر بالعقول رمى الخم ... ر بتنجيسها وبالتحريم

وعمل فيه خطيب الحويزة البحيري:

لسنا وحقك حيص بي ... ص من الأعارب في الصميم

ولقد كذبت على بحي ... ر كما كذبت على تميم

وقال الشيخ نصر الله بن مجلي مشارف الصناعة بالمخزن، وكان من الثقات أهل السنة: رأيت في المنام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقلت له: يا أمير المؤمنين، تفتحون مكة فتقولون من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ثم يتم على ولدك الحسين يوم الطف ما تم؟ فقال: أما سمعت أبيات ابن الصيفي في هذا؟ فقلت: لا، فقال: اسمعها منه، ثم استيقظت فبادرت إلى دار حيص بيص، فخرج إلي، فذكرت له الرؤيا فشهق وأجهش بالبكاء، وحلف بالله إن كانت خرجت من فمي أو خطي إلى أحد، وإن كنت نظمتها إلا في ليلتي هذه، ثم أنشدني:

ملكنا فكان العفو منا سجية ... فلما ملكتم سال بالدم أبطح

وحللتم قتل الأسارى، وطالما ... غدونا على الأسرى نعف ونصفح

فحسبكم هذا التفاوت بيننا ... وكل إناء بالذي فيه ينضح

وإنما قيل له حيص بيص لأنه رأى الناس يوماً في حركة مزعجة وأمر شديد فقال: ما للناس في حيص بيص، فبقي عليه هذا اللقب، ومعنى هاتين الكلمتين الشدة والاختلاط، تقول العرب: وقع الناس في حيص بيص، أي في شدة واختلاط.

وكانت وفاته ليلة الأربعاء سادس شعبان سنة أربع وسبعين وخمسمائة ببغداد، ودفن من الغد بالجانب الغربي في مقابر قريش، رحمه الله تعالى.

وكان إذا سئل عن عمره يقول: أنا أعيش في الدنيا مجازفة، لأنه كان لا يحفظ مولده، وكان يزعم أنه من ولد أكثم بن صيفي التميمي حكيم العرب.

و لم يترك أبو الفوارس عقباً.

وصيفي: بفتح الصاد المهملة وسكون الياء المثناة من تحتها وكسر الفاء وبعدها ياء.

والحويزة: بضم الحاء المهملة وفتح الواو وسكون الياء المثناة من تحتها، وبعدها زاي ثم هاء، وهي بليدة من إقليم خوزستان على اثني عشر فرسخاً من الأهواز.

أبو المعالي الحظيري

أبو المعالي سعد بن علي بن القاسم بن علي بن القاسم بن علي بن القاسم الأنصاري الخزرجي الوراق الحظيري المعروف بدلال الكتب؛ كانت لديه معارف، وله نظم جيد، وألف مجاميع ما قصر فيها، منها كتاب "زينة الدهر وعصره أهل العصر وذكر ألطاف شعراء العصر" الذي ذيله على "دمية القصر" لأبي الحسن الباخرزي جمع فيه جماعة كبيرة من أهل عصره ومن تقدمهم، وأورد لكل واحد طرفاً من أحواله وشيئاً من شعره. وقد ذكره العماد الكاتب في "الخريدة" وأنشد له عدة مقاطيع، وروى عنه لغيره شيئاً كثيراً. وكان مطلعاً على أشعار الناس وأحوالهم، وله كتاب سماه "لمح الملح" يدل على كثرة اطلاعه.

ومن شعر أبي المعالي المذكور قوله:

ومعذر في خده ... ورد وفي فمه مدام

ما لان لي حتى تغشى ... صبح سالفه ظلام

كالمهر يجمح تحت را ... كبه ويعطفه اللجام

وهذا المعنى يقرب من قول أبي علي الحسن بن رشيق -المقدم ذكره-:

وأسمر اللون عسجدي ... يستمطر المقلة الجهاما

ضاق بحمل العذار ذرعاً ... كالمهر لا يعرف اللجاما

فظن أن العذار مما ... يزيح عن جسمي السقاما

فنكس الرأس إذ رآني ... كآبة منه واحتشاما

وما درى أنه نبات ... أنبت في قلبي الغراما

وهل ترى عارضيه إلا ... حمائلاً علقت حساما

وقد سبق في ترجمة أبي عمر أحمد بن عبد ربه صاحب كتاب "العقد" معنى هذا البيت الأخير.

وله أيضاً:

أحدقت ظلمة العذار بخدي ... ه فزادت في حبه حسراتي

قلت ماء الحياة في فمه العذ ... ب دعوني أخوض في الظلمات

ومن شعره الرائق:

لئن قيل أبدع في شبهه ... ولم يكس معناه لفظاً سليما
فمن عنب الكرم ويجنى السلاف ... وغن لم يكن غصنها مستقيما

وله أيضاً:

قل لمن عاب شامة لحبيبي ... دون فيه دع الملامة فيه
إنما الشامة التي قلت عنها ... فص فيروزج بخاتم فيه

ومن شعره أيضاً:

لما حنى الشيب ظهري صحت واحربا ... دنا أوان فراق الروح والجسد
أما ترى القوس أحنى ظهرها فدنا ... ترحل السهم عنها وهي في الكبد

وله في كتاب جمعه وسماه "زينة الدهر":

هذا كتاب قد غدا روضة ... ونزهة للقلب والعين
جعلت من شعري له عوذة ... خوفاً وإشفاقا من العين

وله أيضاً:

مد على ماء الشباب الذي ... في خده جسر من الشعر
صار طريقاً لي إلى سلوتي ... وكنت فيه موثق الأسر

ومن شعره أيضاً:

شكوت هوى من شف قلبي بعده ... توقد نار ليس يطفى سعيرها
فقال بعادي عنك أكثر راحة ... ولولا بعاد الشمس أحرق نورها

وله أيضاً:

ومهفهف شبهته شمس الضحى ... في حسن بهجتها وبعد مكانها
قد زاده نقش العذار محبة ... نقش الفصوص يزيد في أثمانها

ومن شعره:

ومستحسن أصبحت أهذي بذكره ... وأمسيت في شغل من الوصل شاغل
وعارضني من سحر عينيه جنة ... فقيدني من صدغه بسلاسل

وله كل معنى مليح مع جودة السبك.

وتوفي يوم الاثنين الخامس والعشرين، وقيل الخامس عشر، من صفر سنة ثمان وستين وخمسمائة ببغداد، ودفن بمقبرة باب حرب، رحمه الله تعالى.

والحظيري: بفتح الحاء المهملة وكسر الظاء المعجمة وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها راء، هذه النسبة إلى موضع فوق بغداد يقال له "الحظيرة"، ينسب إليه كثير من العلماء، والثياب الحظيرية منسوبة إليه أيضاً.

سعيد الحيري

أبو عثمان سعيد بن إسماعيل بن سعيد بن منصور الواعظ الحيري؛ ولد بالري ونشأ بها ثم انتقل إلى نيسابور فسكنها إلى أن توفي بها، وكان قد سمع بالري من محمد بن مقاتل وغيره، وبالعراق من محمد بن إسماعيل الأحمسي وحميد بن الربيع للحمي وغيرهما، ودخل بغداد.

ويقال: إنه كان مستجاب الدعوة وقام في مجلسه رجل فقال: يا أبا عثمان، من يكون الرجل صادقاً في حب مولاه؟ قال: إذا خلا من خلافه كان صادقاً في حبه، قال: فوضع الرجل التراب على وجهه وصاح، وقال: كيف أدعي حبه و لم أخل طرفة عين من خلافه؟ فبكى أبو عثمان وأهل المجلس، وجعل أبو عثمان يقول: صادق في حبه، مقصر في حقه.

قال ابو عمرو: وكنت أختلف إلى أبي عثمان مدة في وقت شبابي، وحظيت عنده، ثم اشتغلت مدة بشيء مما يشتغل به الفتيان فانقطعت عنه، وكنت إذا رأيته من بعيد أو في طريق اختفيت حتى لا يراني، فخرج علي يوماً من سكة في عطفة فلم أجد عنه محيصاً فتقدمت إليه وأنا دهش، فلما رأى ذلك قال: يا أبا عمرو، لا تثقن بمودة من لا يحبك إلا معصوماً.

وكان يقول: طول العتاب فرقة، وترك العتاب حشمة، وكان يقول: لا يستوي الرجل حتى يستوي في قلبه أربعة أشياء: المنع والعطاء، والعز والذل.

وكان يقال: ثلاثة أشياء لا رابع لها: أبو عثمان بنيسابور، والجنيد ببغداد، وأبو عبد الله ابن الجلاء بالشام.

وقال أبو عثمان: منذ أربعين سنة ما أقامني الله تعالى في شيء فكرهته، ولا نقلني إلى حال فسخطته.

وقالت مريم امرأة أبي عثمان: كنا نؤخر اللعب والضحك والحديث إلى أن يدخل أبو عثمان في ورده من الصلاة، فإنه إذا دخل ستر الخلوة لم يحس بشيء من الحديث وغيره. وقالت: صادفت من أبي عثمان خلوة فاغتنمتها، وقلت: يا أبا عثمان، أي عملك أرجى عندك؟ فقال: يا مريم، لما ترعرعت وأنا بالري وكانوا يراودونني على التزوج فأمتنع جاءتني امرأة فقالت: يا أبا عثمان، قد أحببتك حباً ذهب بنومي وقراري، وأنا أسألك بمقلب القلوب أن تتزوج بي، فقلت: ألك والد؟ قالت: نعم، فلان الخياط في موضع كذا، فراسلته، فأجاب، فتزوجت بها، فلما دخلت وجدتها عوراء عرجاء سيئة الخلق، فقلت: اللهم لك الحمد على ما قدرته لي، وكان أهل بيتي يلومونني على ذلك، فأزيدها براً وإكراماً، إلى أن صارت لا تدعني أخرج من عندها، فتركت حضور المجلس إيثاراً لرضاها وحفظاً لقلبها، وبقيت معها على هذه الحالة خمس عشرة سنة، وكنت معها في بعض أوقاتي كأني قابض على الجمر ولا أبدي لها شيئاً من ذلك، إلى أن ماتت، فما شيء عندي أرجى من حفظي عليها ما كان في قلبها من جهتي.

ولما تغير على أبي عثمان الحال عند الموت مزق ابنه أبو بكر قميصاً على نفسه. ففتح أبو عثمان عينه وقال: خلاف السنة يا بني في الظاهر، وعلامة رياء في الباطن.

توفي لثلاث عشرة بقين من ربيع الآخر سنة ثمان وتسعين ومائتين، رحمه الله تعالى.

وكان كثيراً ما ينشد في حال وعظه:

وغير تقي يأمر الناس بالتقى ... طبيب يداوي والطبيب مريض

سعيد بن جبير

أبو عبد الله–وقيل أبو محمد–سعيد بن جبير بن هشام الأسدي بالولاء مولى بني والبة بن الحارث بطن من بني أسد بن خزيمة؛ كوفي أحد أعلام التابعين، وكان أسود، أخذ العلم عن عبد الله بن العباس وعبد الله بن عمر، رضي الله عنهم. قال له ابن عباس: حدث، فقال: أحدث وأنت ها هنا؟ فقال: أليس من نعمة الله عليك أن تحدث وأنا شاهد، فإن أصبت فذاك، وإن أخطأت علمتك.

وكان لا يستطيع أن يكتب مع ابن عباس في الفتيا، فلما عمي ابن عباس كتب، فبلغه ذلك فغضب. وعن ابن عباس رضي الله عنه أخذ القراءة أيضاً عرضاً، وسمع منه التفسير وأكثر روايته عنه.

وروى عن سعيد القراءة عرضاً المنهال بن عمرو وأبو عمرو بن العلاء؛ قال وفاء بن إياس: قال لي سعيد في رمضان: أمسك علي القرآن، فما قام من مجلسه حتى ختمه، قال سعيد: قرأت القرآن في ركعة في البيت الحرام؛ وقال إسماعيل بن عبد الملك: كان سعيد بن جبير يؤمنا في شهر رمضان فيقرأ ليلة بقراءة عبد الله بن مسعود وليلة بقراءة زيد بن ثابت وليلة بقراءة غيره، هكذا أبداً، وسأله رجل أن يكتب له تفسير القرآن، فغضب وقال: لأن يسقط شقي أحب إلي من ذلك؛ وقال خصيف: كان من أعلم التابعين بالطلاق سعيد بن المسيب، وبالحج عطاء، وبالحلال والحرام طاوس، وبالتفسير أبو الحجاج مجاهد بن جبر، وأجمعهم لذلك كله سعيد بن جبير.

وكان سعيد في أول أمره كاتباً لعبد الله بن عتبة بن مسعود، ثم كتب لأبي بردة بن أبي موسى الأشعري.

وذكره أبو نعيم الأصبهاني في "تاريخ أصبهان" فقال: دخل أصبهان وأقام بها مدة، ثم ارتحل منها إلى العراق وسكن قرية سنبلان.

وروى محمد بن حبيب أن سعيد بن جبير كان بأصبهان يسألونه عن الحديث فلا يحدث، فلما رجع إلى الكوفة حدث، فقيل له: يا أبا محمد، كنت بأصبهان لا تحدث وأنت بالكوفة تحدث، فقال: انشر بزك حيث يعرف.

وكان مع عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس لما خرج على عبد الملك بن مروان، فلما قتل عبد الرحمن وانهزم أصحابه من دير الجماجم هرب فلحق بمكة، وكان واليها يومئذ خالد بن عبد الله القسري، فأخذه وبعث به إلى الحجاج بن يوسف الثقفي مع إسماعيل بن أوسط البجلي، فقال له الحجاج: يا شقي ين كسير، أما قدمت الكوفة وليس يؤمن بها إلا عربي فجعلتك إماماً؟ فقال: بلى، قال: أما وليتك القضاء فضج أهل الكوفة وقالوا: لا بصلح للقضاء إلا عربي فاستقضيت ابا بردة بن أبي موسى الأشعري وأمرته أن لا يقطع أمراً دونك؟ قال: بلى، قال: أما جعلتك في مساري وكلهم رؤوس العرب؟ قال: بلى، قال: أما أعطيتك مائة ألف درهم تفرقها على أهل الحاجة في أول ما رأيتك ثم لم أسألك عن شيء منها؟ قال: بلى، قال: فما أخرجك علي؟ قال: بيعة كانت في عنقي لابن الأشعث، فغضب الحجاج ثم قال: أفما كانت بيعة أمير المؤمنين عبد الملك في عنقك من قبل؟ والله لأقتلنك، يا حرس اضرب عنقه، فضرب عنقه، وذلك في شعبان سنة خمس وتسعين، وقيل سنة أربع وتسعين للهجرة، بواسط، ودفن في ظاهرها وقبره يزار بها، رضي الله عنه، وله تسع وأربعون سنة.

وكان يوم أخذ يقول: وشى بي واش في بلد الله الحرام، أكله إلى الله تعالى، يعني خالد بن عبد الله القسري.

وقال أحمد بن حنبل: قتل الحجاج سعيد بن جبير وما على وجه الأرض أحد إلا وهو مفتقر إلى علمه. ثم مات الحجاج بعده في شهر رمضان من السنة، وقيل بل مات بعده بستة أشهر، ولم يسلطه الله تعالى بعده على قتل أحد حتى مات. ولما قتله سال منه دم كثير، فاستدعى الحجاج الأطباء وسألهم عنه وعمن كان قتله قبله، فإنه كان يسيل منهم دم قليل، فقالوا له: هذا قتلته ونفسه معه والدم تبع للنفس، ومن كنت تقتله قبله كانت نفسه تذهب من الخوف، فلذلك قل دمهم.

وقيل للحسن البصري: إنالحجاج قد قتل سعيد بن جبير، فقال: اللهم ايت على فاسق ثقيف، والله لو أن من بين المشرق والمغرب اشتركوا في قتله لكبهم الله عز وجل في النار.

ويقال إن الحجاج لما حضرته الوفاة كان يغوص ثم يفيق ويقول: ما لي ولسعيد بن جبير؟ وقيل إنه في مدة مرضه كان إذا نام رأى سعيد بن جبير آخذاً بمجامع ثوبه يقول له: يا عدو الله، فيم قتلتني؟ فيستيقظ مذعوراً ويقول: ما لي ولسعيد بن جبير؟! ويقال: إنه رئي الحجاج في النوم بعد موته، فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: قتلني بكل قتيل قتلته قتلة، وقتلني بسعيد ابن جبير سبعين قتلة.

وحكى الشيخ أبو إسحاق الشيرازي في كتاب "المهذب" أن سعيد بن جبير كان يلعب بالشطرنج استدباراً، ذكره في كتاب الشهادات في فصل اللعب بالشطرنج.

سعيد بن المسيب

أبو محمد سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران ابن مخزوم القرشي المدين؛ أحد الفقهاء السبعة بالمدينة، وقد تقدم ذكر اثنتين منهم: أبو بكر في حرف الباء وخارجة في حرف الخاء.

كان سعيد المذكور سيد التابعين من الطراز الأول، جمع بين الحديث والفقه والزهد والعبادة والورع، سمع سعد بن أبي وقاص الزهري وأبا هريرة رضي الله عنهما.

قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما لرجل سأله عن مسألة: أيت ذاك فسله، يعني سعيداً، ثم ارجع إلي بأخبرني، ففعل ذلك وأخبره، فقال: ألم أخبركم أنه أحد العلماء؟ وقال أيضاً في حقه لأصحابه: لو رأى هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم لسره. وكان قد لقي جماعة من الصحابة رضي الله عنهم وسمع منهم، ودخل على أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذ عنهن، وأكثر روايته المسند عن أبي هريرة رضي الله عنه، وكان زوج ابنته. وسئل الزهري ومكحول: من أفقه من أدركتما؟ فقالا: سعيد بن المسيب؛ وروي عنه أنه قال: حججت أربعين حجة؛ وعنه أنه قال: ما فاتتني التكبيرة الأولى منذ خمسين سنة، وما نظرت إلى قفا رجل في الصلاة منذ خمسين سنة، لمحافظته على الصف الأول، وقيل إنه صلى الصبح بوضوء العشاء خمسين سنة وكان يقول: ما أعزت العباد نفسها بمثل طاعة الله، ولا أهانت نفسها بمثل معصية الله، ودعي إلى نيف وثلاثين ألفاً ليأخذها فقال: لا حاجة لي فيها ولا في بني مروان، حتى ألقى الله فيحكم بيني وبينهم.

وقال ابو وداعة: كنت أجالس سعيد بن المسيب ففقدني أياماً، فلما جئته قال: أين كنت؟ قلت: توفيت أهلي فاشتغلت بها، فقال: هلا أخبرتنا فشهدناها؟ قال: ثم أردت أن أقوم فقال: هلا أحدثت امرأة غيرها؟ فقلت: يرحمك الله ومن يزوجني وما أملك إلا درهمين أو ثلاثة؟ فقال: إن أنا فعلت تفعل؟ قلت: نعم، ثم حمد الله تعالى وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم وزوجني على درهمين أو قال على ثلاثة، قال: فقمت وما أدري ما أصنع من الفرح، فصرت إلى منزلي، وجعلت أتفكر ممن آخذ وأستدين، وصليت المغرب، وكنت صائماً، فقدمت عشاي لأفطر، وكان خبزاً وزيتاً، وإذا بالباب يقرع، فقلت: من هذا؟ قال: سعيد، ففكرت في كل إنسان اسمه سعيد إلا سعيد بن المسيب، فإنه لم ير منذ أربعين سنة إلا ما بين بيته والمسجد، فقمت وخرجت، وإذا بسعيد بن المسيب، فظننت أنه قد بدا له، فقلت: يا أبا محمد، هلا أرسلت إلي فآتيك؟ قال: لا، أنت أحق أن تؤتى، قلت: فما تأمرني؟ قال: رأيتك رجلاً عزباً قد تزوجت فكرهت أن تبيت الليلة وحدك، وهذه امرأتك، فإذا هي قائمة خلفه في طوله ثم دفعها في الباب ورد الباب، فسقطت المرأة من الحياء، فاستوثقت من الباب، ثم صعدت إلى السطح، فناديت الجيران، فجاءوني وقالوا: ما شأنك؟ فقلت: زوجني سعيد بن المسيب اليوم ابنته وقد جاء بها على غفلة، وها هي في الدار، فنزلوا إليها، وبلغ أمي فجاءت وقالت: وجهي من وجهك حرام إن مسستها قبل أن أصلحها ثلاثة أيام، فأقمت ثلاثاً ثم دخلت بها، فإذا هي من أجمل الناس وأحفظهم لكتاب الله تعالى وأعلمهم بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعرفهم بحق الزوج؛ قال: فمكث شهراً لا يأتيني ولا آتيه، ثم أتيته بعد شهر وهو في حلقته، فسلمت عليه، فرد علي ولم يكلمني حتى انفض من في المسجد، فلما لم يبق غيري، قال: ما حال ذلك الإنسان؟ قلت: هو على ما يحب الصديق ويكره العدو، قال: إن رابك شيء فالعصا، فانصرفت إلى منزلي.

وكانت بنت سعيد المذكورة خطبها عبد الملك بن مروان لابنه الوليد حين ولاه العهد، فأبى سعيد أن يزوجه، فلم يزل عبد الملك يحتال على سعيد حتى ضربه في يوم بارد وصب عليه الماء؛ قال يحيى بن سعيد: كتب هشام بن إسماعيل والي المدينة إلى عبد الملك بن مروان: إن أهل المدينة قد أطبقوا على البيعة للوليد وسليمان إلا سعيد بن المسيب، فكتب أن أعرضه على السيف، فإن مضى فاجلده خمسين جلدة وطف به أسواق المدينة، فلما قدم الكتاب على الوالي دخل سليمان بن يسار وعروة بن الزبير وسالم بن عبد الله على سعيد بن المسيب، وقالوا: جئناك في أمر، قد قدم كتاب عبد الملك إن لم تبايع ضربت عنقك، ونحن نعرض عليك خصالاً ثلاثاً، فأعطنا إحداهن، فإن الوالي قد قبل منك أن يقرأ عليك الكتاب، فلا تقل لا ولا نعم، قال: يقول الناس، بايع سعيد بن المسيب، ما أنا بفاعل، وكان إذا قال لا لم يستطيعوا أن يقولوا نعم، قالوا: فتجلس في بيتك ولا تخرج إلى الصلاة أياماً، فإنه يقبل منك إذا طلبك من مجلسك فلم يجدك، قال: فأنا أسمع الأذان فوق أذني حي على الصلاة حي على الصلاة، ما أنا بفاعل، قالوا: فانتقل من مجلسك إلى غيره فإنه يرسل إلى مجلسك، فإن لم يجدك أمسك عنك، قال: أفرقاً من مخلوق؟ ما أنا بمتقدم شبراً ولا متأخر، فخرجوا وخرج إلى صلاة الظهر، فجلس في مجلسه الذي كان يجلس فيه، فما صلى الوالي بعث إليه، فأتي به، فقال: إن أمير المؤمنين كتب يأمرنا إن لم تبايع ضربنا عنقك، قال: نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيعتين، فلما رآه لم يجب أخرج إلى السدة، فمدت عنقه وسلت السيوف، فلما رآه قد مضى أمر به فجرد، فإذا

عليه ثياب شعر، فقال: لو علمت ذلك ما اشتهرت بهذا الشأن، فضربه خمسين سوطاً، ثم طاف به أسواق المدينة، فلما ردوه والناس منصرفون من صلاة العصر قال: إن هذه لوجوه ما نظرت إليها منذ أربعين سنة، ومنعوا الناس أن يجالسوه، فكان من ورعه إذا جاء إليه أحد يقول له: قم من عندي، كراهية أن يضرب بسببه.

قال مالك رضي الله عنه: بلغني أن سعيد بن المسيب كان يلزم مكاناً من المسجد لا يصلي من المسجد في غيره، وأنه ليالي صنع به عبد الملك ما صنع قيل له أن يترك الصلاة فيه فأبى إلا أن يصلي فيه.

وكان يقول: لا تملأوا أعينكم من أعوان الظلمة إلا بإنكار من قلوبكم لكي لا تحبط أعمالكم؛ وقيل له وقد نزل الماء في عينه: ألا تقدح عينك؟ قال: حتى على من أفتحها.

ورأى عبد الملك بن مروان في منامه كأنه قد بال في المحراب أربع مرات فوجه إلى سعيد بن المسيب من يسأله، فقال: يملك من ولده لصلبه أربعة، فكان كما قال، فإنه ولي الوليد وسليمان ويزيد وهشام، وهم أولاد عبد الملك لصلبه.

وكانت ولادته لسنتين مضتا من خلافة عمر رضي الله عنه، وكان في خلافة عثمان رضي الله عنه رجلاً.

وتوفي بالمدينة سنة إحدى–وقيل اثنتين، وقيل ثلاث، وقيل أربع، وقيل خمس–وتسعين للهجرة، وقيل إنه توفي سنة خمس ومائة، والله أعلم، رضي الله عنه.

والمسيب: بفتح الياء المشددة المثناة من تحتها، وروي عنه أنه كان يقول بكسر الياء، ويقول: سيب الله من يسيب أبي.

وحزن: بفتح الحاء المهملة وسكون الزاي وبعدها نون.

وعائذ: بذال معجمة.

أبو زيد الأنصاري

أبو زيد سعيد بن أوس بن ثابت بن زيد بن قيس بن زيد بن النعمان بن مالك ابن ثعلبة بن كعب بن الخزرج، وقال محمد بن سعد في "الطبقات": هو أبو زيد سعيد بن أوس بن ثابت بن بشير بن ابي زيد ثابت بن زيد بن قيس. والأول ذكره الخطيب في تاريخه، والله أعلم بالصواب، الأنصاري اللغوي البصري؛ كان من أئمة الأدب، وغلب عليه اللغات والنوادر والغريب، وكان يرى رأي القدر، وكان ثقة في روايته.

حدث أبو عثمان المازني قال: رأيت الأصمعي وقد جاء إلى حلقة أبي زيد المذكور، فقبل رأسه وجلس بين يديه وقال: أنت رئيسنا وسيدنا منذ خمسين سنة. وكان التوزي يقول: قال لي ابن مناذر: أصف لك أصحابك؟ أما الأصمعي فأحفظ الناس، وأما أبو عبيدة فأجمعهم، وأما أبو زيد الأنصاري زيد الأنصاري وأبو محمد اليزيدي. وقال أبو زيد: حدثني خلف الأحمر، قال: أتيت الكوفة لأكتب عنهم الشعر، فبخلوا علي به، فكنت أعطيهم المنحول وآخذ الصحيح، ثم مرضت فقلت لهم: ويلكم! أنا تائب إلى الله تعالى، هذا الشعر لي، فلم يقبلوا مني، فبقي منسوباً إلى العرب لهذا السبب.

وابو زيد المذكور له في الآداب مصنفات مفيدة: منها كتاب "القوس والترس" وكتاب: "الإبل" وكتاب "خلق الإنسان" وكتاب "المطر" وكتاب "المياه" وكتاب "اللغات" وكتاب "النوادر" وكتاب "الجمع والتثنية" وكتاب "اللبن" وكتاب "بيوتات العرب" وكتاب "تخفيف الهمزة" وكتاب "القضيب" وكتاب "الوحوش" وكتاب "الفرق" وكتاب "فعلت وأفعلت" وكتاب "غريب الأسماء" وكتاب "الهمزة" وكتاب "المصادر" وغير ذلك، ولقد رأيت له في النبات كتاباً حسناً جمع فيه أشياء غريبة.

وحكى بعضهم أنه كان في حلقة شعبة بن الحجاج، فضجر من إملاء الحديث فرمى بطرفه فرأى أبا زيد الأنصاري في أخريات الناس فقال: يا أبا زيد:

استعجمت دار مي ما تكلمنا   والدار لو كلمتنا ذات إخبار

إلي يا أبا زيد، فجاءه، فجعلا يتحدثان ويتناشدان الأشعار، فقال له بعض أصحاب الحديث: يا أبا بسطام، نقطع إليك ظهور الإبل لنسمع منك حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فتدعنا وتقبل على الأشعار؟ قال: فغضب شعبة غضباً شديداً، ثم قال: يا هؤلاء، أنا أعلم بالأصلح لي، أنا والله

الذي لا إله إلا هو في هذا أسلم مني في ذاك.

وكانت وفاته بالبصرة في سنة خمس عشرة–وقيل أربع عشرة، وقيل ستة عشرة–ومائتين، وعرم عمراً طويلاً حتى قارب المائة، وقيل أنه عاش ثلاثاً وتسعين سنة، وقيل خمساً وتسعين، وقيل ستاً وتسعين، رحمه الله تعالى.

الأخفش الأوسط

أبو الحسن سعيد بن مسعدة المجاشعي بالولاء النحوي البلخي المعروف بالأخفش الأوسط؛ أحد نحاة البصرة، والأخفش الأكبر أبو الخطاب، وكان نحوياً أيضاً من أهل هجر من مواليهم، واسمه عبد الحميد بن عبد المجيد، وقد أخذ عنه أبو عبيدة وسيبويه وغيرهما.

وكان الأخفش والأوسط المذكور من أئمة العربية، وأخذ النحو عن سيبويه، وكان أكبر منه، وكان يقول: ما وضع سيبويه في كتابه شيئاً إلا وعرضه علي، وكان يرى أنه أعلم به مني، وأنا اليوم أعلم به منه.

وحكى أبو العباس ثعلب عن آل سعيد بن سلم، قالوا: دخل الفراء على سعيد المذكور، فقال لنا: قد جاءكم سيد أهل اللغة وسيد أهل العربية، فقال الفراء: أما ما دام الأخفش يعيش فلا.

وهذا الأخفش هو الذي زاد في العروض بحر الخبب كما سبق في حرف الخاء في ترجمة الخليل، وله من الكتب المصنفة كتاب "الأوسط" في النحو وكتاب "تفسير معاني القرآن" وكتاب "المقاييس" في النحو، وكتاب "الاشتقاق" وكتاب "العروض" وكتاب "القوافي" وكتاب "معاني الشعر" وكتاب "الملوك" وكتاب "الأصوات" وكتاب "المسائل" الكبير، وكتاب "المسائل" الصغير، وغير ذلك.

وكان أجلع، والأجلع: الذي لا تنضم شفتاه على أسنانه، والأخفش: الصغير العينين مع سوء بصرهما. وكانت وفاته سنة خمس عشرة ومائتين، وقيل سنة إحدى وعشرين ومائتين، رحمه الله تعالى. وكان يقال له: "الأخفش الأصغر" فلماظهر علي بن سليمان المعروف بالأخفش أيضاً، صار هذا وسطاً.

ومسعدة: بفتح الميم وسكون السين وفتح العين والدال المهملات وبعدهن هاء ساكنة.

والمجاشعي: بضم الميم وفتح الجيم وبعد الألف شين مثلثة مكسورة وبعدها عين مهملة، هذه النسبة إلى مجاشع بن دارم، بطن من تميم.

ابن الدهان النحوي

أبو محمد سعيد بن المبارك بن علي بن عبد الله بن سعيد بن محمد بن نصر بن عاصم بن عبادة بن عصام بن الفضل بن ظفر بن غلاب بن حمد بن شاكر بن عياض ابن حصن بن رجاء بن أبي بن شبل بن أبي اليسر كعب الأنصاري رضي الله عنه المعروف بابن الدهان النحوي البغدادي؛ سمع الحديث من أبي القاسم هبة الله بن الحصين ومن أبي غالب أحمد بن الحسن بن البناء وغيرهما، وكان سيبويه عصره، وله في النحو التصانيف المفيدة منها "شرح كتاب الإيضاح والتكملة" وهو مقدار ثلاث وأربعين مجلدة، ومنها "الفصول الكبرى" و"الفصول الصغرى" وشرح كتاب "اللمع" لابن جني شرحاً كبيراً يدخل في مجلدين وسماه "الغرة" ولم أر مثله مع كثرة شروح هذا الكتاب، ومنها كتاب "العروض" في مجلدة وكتاب "الدروس في النحو" في مجلدة، وكتاب تذكرته سماه "زهر الرياض" في سبع مجلدات، كتاب "الغنية في الضاد والظاء" و"المعقود في المقصور والممدود" و"الراء" و"الغنية في الأضداد" وغير ذلك من المصنفات.

وكان في زمن أبي محمد المذكور ببغداد من النحاة ابن الجواليقي وابن الخشاب وابن الشجيري، وكان الناس يرجحون أبا محمد المذكور على الجماعة المذكورين مع أن كل واحد منهم إمام. ثم إن أبا محمد ترك بغداد وانتقل إلى الموصل قاصداً جناب الوزير جمال الدين الأصبهاني المعروف بالجواد–الآتي ذكره في حرف الميم إن شاء الله تعالى–فتلقاه بالإقبال وأحسن إليه، وأقام في كنفه مدة، وكانت كتبه قد تخلفت ببغداد فاستولى الغرق تلك السنة على البلد، فسير من يحضرها إليه إن كانت سالمة، فوجدها قد غرقت، وكان خلف داره مدبغة فغرقت أيضاً، وفاض الماء منها إلى داره، فتلفت الكتب بهذا السبب زيادة على إتلاف الغرق، وكان قد أفنى في تحصيلها عمره، فلما حملت إليه على تلك الصورة أشاروا عليه أن يطيبها بالبخور ويصلح منها ما أمكن، فبخرها باللاذن ولازم ذلك إلى أن بخرها بأكثر من ثلاثين رطلاً لاذناً فطلع ذلك إلى رأسه وعينيه فأحدث له العمى وكف بصره. وانتفع عليه

خلق كثير، ورأيت الخلق يشتغلون في تصانيفه المذكورة بالموصل وتلك الديار اشتغالاً كثيراً.

وكانت وفاته يوم الأحد غرة شوال سنة تسع وستين وخمسمائة، وقال ابن المستوفي: سنة ست وستين بالموصل، رحمه الله تعالى، ودفن بمقبرة المعافى بين عمران بباب الميدان.

ومولده عشية الخميس سادس وعشرين رجب سنة أربع وتسعين وأربعمائة ببغداد بنهر طابق، وهي محلة بها، وقيل يوم الجمعة.

وله نظم حسن، فمنه قوله:

لا تجعل الهزل دأباً فهو منقصة — والجد تغلو به بين الورى القيم
ولا يغرنك من ملك تبسمه — ما تصخب السحب إلا حين تبتسم

وله أيضاً:

لا تحسبن أن بالشع — ر مثلنا ستصير
فاللدجاجة ريش — لكنها لا تطير

وله أيضاً:

لا غرو أن أخشى فرا — قكم وتخشاني الليوث
أو ترى الثوب الجدي — د من التفرق يستغيث

وذكره الحظيري في كتاب "زينة الدهر" وأورد له:

بادر إلى العيش والأيام راقدة — ولا تكن لصروف الدهر تنتظر
فالعمر كالكأس يبدو في أوائله — صفو وآخره في قعره الكدر

وأورد له أيضاً:

قالوا اغترب عن بلاد كنت تألفها — إن ضاق رزق تجد في الأرض منتزحا
قلت: انظروا الريق في الأفواه مختزناً — عذباً فإن بان عنها صار مطرحا

وأورد له أيضاً:

أهوى الخمول لكي أظل مرفهاً — مما يعانيه بنو الأزمان
إن الرياح إذا توالى عصفها — تولي الأذية شامخ الأغصان

وأورد له أيضاً:

يا سادتي لا عدمتم استمعوا — قول فتى عارف بمنطقه
كنت ببيتي كالرخ محترماً — فصرت في غربتي كبيذقه

وقد ذكره العماد الكاتب في "الخريدة" وأثنى عليه، وذكر طرفاً من حاله. وقال الحافظ أبو سعد المسعاني: سمعت الحافظ ابن عساكر الدمشقي يقول: سمعت سعيد بن المبارك بن الدهان يقول: رأيت في النوم شخصاً أعرفه وهو ينشد شخصاً آخر كأنه حبيب له:

أيها الماطل ديني — أملي وتماطل؟

علل القلب فإني قانع منك بباطل

قال السمعاني: فرأيت ابن الدهان وعرضت عليه الحكاية فقال: ما أعرفها ولعل ابن الدهان نسي، فإن ابن عساكر من أوثق الرواة، ثم استملى ابن الدهان من السمعاني هذه الحكاية وقال: أخبرني السمعاني عن ابن عساكر عني، فروى عن شخصين عن نفسه، وهذا غريب في الرواية.
وكان له ولد–وهو أبو ذكريا يحيى بن سعيد–وكان أديباً شاعراً، ومولده بالموصل في أوائل سنة تسع وستين وخمسمائة تقديراً، وتوفي سنة ست عشرة وستمائة بالموصل، ودفن على أبيه بمقبرة المعافى بن عمران الموصلي.
ومن شعره:

إن مدخت الخمول نبهت أقوا ماً نياماً فسابقوني إليه

هو قد دلني على لذة العي ش، فمال ي أدل غيري عليه

ومن شعره على ما قيل:

وعهدي بالصبا زمناص وقدي حكى ألف ابن مقلة في الكتاب

فصرت الآن منحنياً كأني أفتش في التراب على شبابي

سفيان الثوري

أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق بن حبيب بن رافع بن عبد الله بن موهبة بن أبي عبد الله بن منقذ بن نصر بن الحكم بن الحارث بن ثعلبة بن ملكان ابن ثور بن عبد مناة بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، الثوري الكوفي؛ كان إماماً في علم الحديث وغيره من العلوم، وأجمع الناس على دينه وورعه وزهده وثقته، وهو أحد الأئمة المجتهدين، ويقال إن الشيخ في ترجمته في حرف الجيم.
وقال يونس بن عبيد: ما رأيت كوفياً أفضل من سفيان، قالوا: إنك رأيت سعيد بن جبير وفلاناً وفلاناً، قال: ما رأيت كوفياً أفضل من سفيان.
وقال سفيان بن عيينة: ما رأى سفيان مثله. أكل سفيان ليلة فشبع فقال: الحمار إذا زيد في علفه زيد في عمله، فقام حتى أصبح.
وحدث ابن عيينة قال: دعانا سفيان فقدم إلينا غداء ولبناً خائراً، فلما توسطنا قال: قوموا بنا نصلي ركعتين شكراً لله تعالى؛ قال ابن وكيع–وكان حاضراً–: لو قدم إلينا شيئاً من هذا اللوزينج المحدث لقال: قوموا بنا نصلي التراويح.
وقال بشر بن الحارث: كان سفيان الثوري كأن العلم بين عينيه، يأخذ منه ما يريد ويدع منه ما يريد.
وقال الأوزاعي: كنت أقول فيمت ضحك في الصلاة قولاً لا أدري كيف هو، فلما لقيت سفيان الثوري سأله فقال: يعيد الصلاة والوضوء، فأخذت به.
وكان عصام بن أبي النجود يجيء إلى سفيان يستفتيه ويقول: يا سفيان أتيتنا صغيراً وأتيناك كبيراً.
وقال عبد الرحمن بن مهدي: ما رأيت رجلاً أحسن عقلاً من مالك بن أنس، ولا رأيت رجلاً أنصح لأمة محمد صلى الله عليه وسلم من عبد الله بن مبارك، ولا أعلم بالحديث من سفيان، ولا أقشف من شعبة.
وقال سفيان الثوري: ما استودعت قلبي شيئاً فخانني.
وقيل: لقي سفيان الثوري شريكاً بعدما ولي القضاء بالكوفة فقال: يا أبا عبد الله، بعد الإسلام والتفقه والخير تلي القضاء، أو صرت قاضياً؟ فقال له شريك: يا أبا عبد الله، لابد لنلاس من قاض، فقال سفيان: يا أبا عبد الله، لابد الناس من شرطي.
وحدث عبد الرحمن بن أبي عبد الرحمن بن عبد الله البصري، قال: قال رجل لسفيان: اوصني، فقال: اعمل للدنيا بقدر بقائك فيها واعمل للآخرة بقدر دوامك فيها والسلام.

وجاء سفيان الثوري إلى صيرفي بمكة يشتري منه دراهم بدينار، فأعطاه الدينار، وكان معه آخر فسقط من سفيان، فطلبه فإذا إلى جانبه دينار آخر، قال له الصيرفي: خذ دينارك، قال: ما أعرفه، قال: خذ الناقص، قال: فلعله الزائد، وتركه ومضى.
وقال شعيب بن حرب: سمعت سفيان الثوري يقول: انظر درهمك من أين هو وصل في الصف الآخر.

وقال عبد الله بن صالح العجلي: دخل سفيان على المهدي فقال: سلام عليكم، كيف أنتم يا أبا عبد الله؟ ثم جلس فقال: حج عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأنفق في حجته ستة عشر ديناراً، وأنت حججت فأنفقت في حجتك بيوت الأموال، قال: فأي شيء تريد؟ تريد أن أكون مثلك؟ قال: فوق ما أنا فيه ودون ما أنت فيه، فقال وزيره أبو عبيد الله: أبا عبد الله قد كانت كتبك تأتينا فننفذها، قال: من هذا؟ قال: أبو عبيد الله وزيري، قال: احذره فإنه كذاب، إني ما كتبت إليك، ثم قام فقال له المهدي: إلى أين يا أبا عبد الله، قال: أعود؛ وكان قد ترك نعله حين قام فعاد فأخذها ثم مضى، فانتظره المهدي فلم يعد، فقال: وعدنا أن يعود فلم يعد، فعلم أنه عاد لأخذ نعله، فغضب فقال: قد أمن الناس إلا سفيان الثوري وإنه لفي المسجد الحرام، فذهب فألقى نفسه بين النساء فخبأنه، فقيل له: لم فعلت؟ فقال: إنهن أرحم؛ ثم خرج إلى البصرة فلم يزل بها حتى مات.
قال عبد الرحمن بن مهدي: لما قدم سفيان البصرة والسلطان يطلبه، صار في بعض البساتين، واجر نفسه على أن يحفظ ثمارها، فمر به بعض العشارين فقال: من أين أنت يا شيخ؟ قال: من أهل الكوفة، قال: أخبرني رطب البصرة أحلى أم رطب الكوفة؟ قال: أما رطب البصرة فلم أذقه ولكن رطب السابري بالكوفة حلو، فقال: ما أكذبك من شيخن الكلاب والبر والفاجر يأكلون الرطب الساعة وأنت تزعم أنك لم تذقه! فرجع إلى العامل ليخبره بما قال لتعجبه، فقال: ثكلتك أمك، ادركه إن كنت صادقاً فإنه سفيان الثوري لتتقرب به إلى أمير المؤمنين، فرجع في طلبه فما قدر عليه.
ودخل سفيان على المهدي فكلمه بكلام فيه غلظة فقال له عيسى بن موسى: تكلم أمير المؤمنين بمثل هذا الكلام وإنما أنت رجل من ثور، فقال له سفيان: إن من أطاع الله من ثور خير ممن عصى الله من قومك.
وكان فتى يجالسه ولا يتكلم، فأحب سفيان أن يعرف نطقه فقال له: يا فتى إن من كان قبلنا مروا على خيل سابقة وبقينا بعدهم على حمر دبرة، فقال الفتى: يا أبا عبد الله، إن كنا على الطريق فما أسرع لحوقنا بهم.
وحدث أبو بكر ابن عياش قال: كنت أنا وسفيان الثوري نمشي فرأينا شيخاً أبيض الرأس واللحية حسن السمت، فقال له سفيان: يا شيخ أعندك شيء من الحديث؟ قال: لا، ولكن عندي عتيق سنين، فنظرنا فإذا هو خمار.
وحكى ضمرة قال: سألت سفيان الثوري: أصافح اليهود والنصارى؟ فقال: برجلك نعم. وقال له رجل: إني أريد الحج، فقال: لا تصحب من يتكرم عليك فإن ساويته في النفقة أضر بك وإن تفضل عليك استذلك.
وكان يقول: من كان في يده شيء من هذه الدراهم فليصلحه فإنه في زمان إن احتاج كان أول من يبذل دينه. وحكي عنه أنه قال: إني لألقى الرجل أبغضه فيقول لي: كيف اصبحت؟ فيلين له قلبي، فكيف بمن أكل ثريدهم ووطئ بساطهم؟ وقيل إن المهدي قال للخيزران: أريد أتزوج، وكانت بكتاب فقالت له: لا يحل لك أن تتزوج علي، قال: بلى، قالت له: بيني وبينك من شئت، قال: أترضين سفيان الثوري؟ قالت: نعم، فوجه إلى سفيان فقال: إن أم الرشيد تزعم أنه لا يحل لي أتزوج عليها وقد قال الله عز وجل "فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع" ثم سكت، فقال له سفيان: أتم الآية، يريد قوله تعالى "فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة". النساء. وأنت لا تعدل، فأمر له بعشرة آلاف درهم فأبى أن يقبلها.
ومثل هذه النادرة ما أخبرني به الفقيه أمين الدين المحلي الذي كان في جملة المتصدرين عند الفقيه برهان الدين ابن الفقيه نصر وهو يومئذ صاحب ديوان الأحباس، وكتب أسماءهم ينتدبهم للمضي إلى الخانقاه إلى المقام السلطاني في مهم فاعتذر رجل منهم فخط على اسمه وكتب غيره، فقام رجل يعتذر فقال: المملوك كما قال الله عز وجل "إن بيوتنا عورة" فقال له الفقيه أمين الدين: صصل، يشير إلى بقية الآية وهي قوله تعالى "وما هي بعورة أن يريدون إلا فراراً" الأحزاب. فضحك البرهان والحاضرون، وقال: لا أجمع عليك بين الفقه وبين تكليفك المجيء، ثم خط على اسمه وابتدأ بغيره.

قال سفيان بن عيينة: ما رأيت رجلاص أعلم بالحلال والحرام من سفيان الثوري. وقال عبد الله بن المبارك: لا نعلم على وجه الأرض أعلم من سفيان

الثوري. ويقال: كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه في زمانه رأس الناس، وبعده عبد الله بن عباس، وبعده الشعبي، وبعده سفيان الثوري.

سمع سفيان الثوري الحديث من أبي إسحاق السبيعي والأعمش ومن في طبقتهما، وسمع منه الأوزاعي وابن جريج ومحمد بن إسحاق ومالك تلك الطبقة.

وذكر المسعودي في "مروج الذهب" ما مثاله: قال القعقاع بن حكيم: كنت عند المهدي وقد أتي بسفيان الثوري، فلما دخل عليه سلم تسليم العامة و لم يسلم بالخلافة، والربيع قائم على رأسه متكئاً على سيفه يرقب أمره، فأقبل عليه المهدي بوجه طلق، وقال له: يا سفيان، تفر منا ها هنا وها هنا وتظن أنا لو أردناك بسوء لم نقدر عليك، فقد قدرنا عليك الآن، افما تخشى أن نحكم فيك بهوانا؟ قال سفيان: إن تحكم في يحكم فيك ملك قادر يفرق بين الحق والباطل، فقال له الربيع: يا أمير المؤمنين، ألهذا الجاهل أن يستقبلك بمثل هذا؟ إيذن لي أن أضرب عنقه، فقال له المهدي: اسكت ويلك، وهل يريد هذا وأمثاله إلا أن نقتلهم فنشقى بسعادتهم؟ اكتبوا عهده على قضاء الكوفة على أن لا يعترض عليه في حكم، فكتب عهده ودفع إليه، فأخذه وخرج فرمى به في دجلة وهرب، فطلب في كل بلد فلم يوجد. ولما امتنع من قضاء الكوفة وتولاه شريك بن عبد الله النخعي قال الشاعر:

تحرز سفيان وفر بدينه | وأمسى شريك مرصداً للدراهم

وحكي عن أبي صالح بن حرب المدائني–وكان أحد السادة الأئمة الأكابر في الحفظ والدين–أنه قال: إنني لأحسب يجاء بسفيان الثوري يوم القيامة حجة من الله على الخلق، يقال لهم: لم تدركوا نبيكم عليه أفضل الصلاة والسلام فلقد رأيتم سفيان الثوري، ألا اقتديتم به؟.

ومولده في سنة خمس، وقيل ست، وقيل سبع وتسعين للهجرة. وتوفي بالبصرة أول سنة إحدى وستين ومائة متوارياً من السلطان، ودفن عشاء رحمه الله تعالى؛ و لم يعقب.

والثوري: بفتح الثاء المثلثة وبعدها واو ساكنة وراء، هذه النسبة إلى ثور ابن عبد مناة، وثم ثوري آخر في بني تميم، وثوري آخر بطن من همدان.

وقيل: إنه توفي سنة اثنتين وستين، والأول أصح.

سفيان بن عيينة

أبو محمد بن سفيان بن عيينه بن أبي عمران ميمون الهلالي، مولى امرأة من بني هلال بن عامر رهط ميمونة زوج النبي صلى الله عليه وسلم، وقيل مولى بني هاشم، وقيل مولى الضحاك بن مزاحم، وقيل مولى مسعر بن كدام؛ وأصله من الكوفة، وقيل ولد بالكوفة ونقله أبوه إلى مكة، ذكره ابن سعد في "كتاب الطبقات" وعده في الطبقة الخامسة من أهل مكة، كان إماماً عالماً ثبتاً حجة زاهداً ورعاً مجمعاً على صحة حديثه وروايته، وحج سبعين حجة.

روى عن الزهري وأبي إسحاق السبيعي وعمرو بن دينار ومحمد بن المنكدر وأبي الزناد وعاصم بن أبي النجود المقرئ والأعمش وعبد الملك بن عمير وغير هؤلاء من أعيان العلماء؛ وروى عنه الإمام الشافعي وشعبة بن الحجاج ومحمد ابن إسحاق وابن جريج والزبير بن بكار وعمه مصعب وعبد الرزاق بن همام الصنعاني ويحيى بن أكثم القاضي وخلق كثير، رضي الله عنهم.

ورأيت في بعض المجاميع أن سفيان خرج يوماً إلى من جاءه يسمع منه وهو ضجر، فقال: أليس من الشقاء أن أكون جالست ضمرة بن سعيد وجالس هو أبا سعيد الخدري، وجالست عمرو بن دينار وجالس هو ابن عمر رضي الله عنهما، وجالست الزهري وجالس هو أنس بن مالك، حتى عد جماعة، ثم أنا أجالسكم؟ فقال له حدث في المجلس: أتنصف يا أبا محمد؟ قال: إن شاء الله تعالى، فقال: والله لشقاء أصحاب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بك أشد من شقائك بنا؛ فأطرق وأنشد قول أبي نواس:

خل جنبيك لرام | وامض عنه بسلام

مت بداء الصمت خير | لك من داء الكلام

إنما السالم من أل | جم فاه بلجام

فتفرق الناس وهم يتحدثون برجاحة الحدث، وكان ذلك الحدث يحيى بن أكثم التميمي، فقال سفيان: هذا الغلام يصلح لصحبة هؤلاء، يعني السلطان–وسيأتي ذكر يحيى في حرف الياء إن شاء الله تعالى، وهو القاضي المشهور–.

وقال الشافعي: ما رأيت أحداً فيه من آلة الفتيا ما في سفيان، وما رأيت أكف عن الفتيا منه.

وكان أدرك نيفاً وثمانين نفساً من التابعين. قال سفيان المذكور: كنت أخرج إلى المسجد فأتصفح الخلق فإذا رأيت مشيخة وكهولة جلست إليهم وأنا اليوم قد اكتنفني هؤلاء الصبيان، ثم ينشد:

خلت الديار فسدت غير مسود ... ومن الشقاء تفردي بالسؤود

قيل إنه في آخر سنة حج قال: قد وافيت هذا الموضع سبعين مرة وأقول كل مرة: اللهم لا تجعله آخر العهد من هذا المكان، وإني قد استحييت من الله من كثرة ما أسأله ذلك، فرجع فتوفي في العام القابل.

وقال رجل: كنت أمشي مع سفيان بن عيينة إذ أتاه سائل فلم يكن معه ما يعطيه، فبكى، فقلت: يا أبا محمد ما الذي أبكاك؟ قال: أي مصيبة أعظم من أن يؤمل فيك رجل خيراً فلا يصيبه؟.

وكان أبو عمران جد سفيان المذكور من عمال خالد بن عبد الله القسري، فلما عزل خالد عن العراق وولي يوسف بن عمر الثقفي طلب عمال خالد فهرب أبو عمران المذكور منه إلى مكة فنزلها، وهو من أهل الكوفة.

وقال سفيان: دخلت الكوفة ولم يتم لي عشرون سنة، فقال أبو حنيفة لأصحابه ولأهل الكوفة: جاءكم حافظ علم عمرو بن دينار، قال: فجاء الناس يسألونني عن عمر بن دينار، فأول من صيرني محدثاً أبو حنيفة، فذاكرته فقال لي: يا بني، ما سمعت من عمرو إلا ثلاثة أحاديث، يضطر في حفظ تلك الأحاديث.

ومولد سفيان بالكوفة في منتصف شعبان سنة سبع ومائة. وتوفي يوم السبت آخر يوم من جمادى الآخرة، وقيل أول يوم من رجب سنة ثمان وتسعين ومائة بمكة ودفن بالحجون، رحمه الله تعالى.

وعيينة: بضم العين المهملة وفتح الياء الأولى وسكون الثانية المثناتين من تحتهما وفتح النون وبعدها هاء ساكنة.

والحجون: بفتح الحاء المهملة وضم الجيم وبعد الواو الساكنة نون، جبل بأعلى مكة عنده مدافن أهلها، وله ذكر في الأشعار.

سكينة بنت الحسين

السيدة سكينة ابنة الحسين بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنهم؛ كانت سيدة نساء عصرها، ومن أجمل النسار وأظرفهن وأحسنهن أخلاقاً، وتزوجها مصعب بن الزبير فهلك عنها، ثم تزوجها عبد الله بن عثمان بن عبد الله بن حكيم ابن حزام فولدت له قريناً، ثم تزوجها الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان وفارقها قبل ا لدخول، ثم تزوجها زيد بن عمرو بن عثمان بن عفان رضي الله عنه، فأمره سليمان بن عبد الملك بطلاقها ففعل، وقيل في ترتيب أزواجها غير هذا، والطرة السكينية منسوبة إليها.

ولها نوادر وحكايات ظريفة مع الشعراء وغيرهم، من ذلك ما يروى أنها وقفت على عروة بن أذينة –وكان من أعيان العلماء وكبار الصالحين وله أشعار رائقة–فقالت له: أنت القائل:

إذا وجدت أوار الحب في كبدي ... أقبلت نحو سقاء الماء أبترد

هبني بردت ببرد الماء ظاهره ... فمن لنار على الأحشاء تتقد

فقال لها: نعم، فقالت: وأنت القائل:

قالت وأبثثتها سري فبحت به ... قد كنت عندي تحب الستر فاستتر

ألست تبصر من حولي؟ فقلت لها ... غطى هواك وما ألقى على بصري

فقال: نعم، فالتفتت إلى جوار كن حولها وقالت: هن حرائر إن كان خرج هذا من قلب سليم قط.
وكان لعروة المذكور أخ اسمه بكر فمات فرثاه عروة بقوله:

سرى همي وهم المرء يسري وغاب النجم إلا قيد فتر
أراقب في المجرة كل نجم تعرض أو على المجراة يجري
لهم ما أزال له قريناً كأن القلب أبطن حر جمر
على بكر أخي، فارقت بكراً وأي العيش يصلح بعد بكر؟

فلما سمعت سكينة هذا الشعر قالت: ومن هو بكر هذا؟ فوصف لها، فقالت: أهو ذلك الأسيد الذي كان يم بنا؟ قالوا: نعم، قالت: لقد طاب بعده كل شيء حتى الخبز والزيت. وأسيد: تصغير أسود.
ويحكى أن بعض المغنين غنى هذه الأبيات عند الوليد بن يزيد الأموي وهو في مجلس أنسه، فقال للمغني: من يقول هذا الشعر؟ فقال: عروة بن أذينة، فقال الوليد: وأي العيش يصلح بعد بكر؟ هذا العيش الذي نحن فيه، والله لقد تحجر واسعاً.
وكان عروة المذكور كثير القناعة، وله في ذلك أسعار سائرة وكان قد وفد من الحجاز على هشام بن عبد الملك بالشام في جماعة من الشعراء، فلما دخلوا عليه عرف عروة، فقال له: ألست القائل:

لقد علمت وما الإشراف من خلقي أن الذي هو رزقي سوف يأتيني

أسعى له فيعيني تطلبه ولو قعدت أتاني لا يعنيني

وما أراك فعلت كما قلت، فإنك أتيت من الحجاز إلى الشام في طلب الرزق، فقال: لقد وعظت يا أمير المؤمنين فبالغت في الوعظ، وأذكرت ما أنسانيه الدهر، وخرج من فروه إلى راحلته فركبها وتوجه راجعاً إلى الحجاز، فمكث هشام يومه غافلاً عنه، فلما كان في الليل استيقظ من منامه وذكره، وقال: هذا رجل من قريش قال حكمة ووفد إلي فجبهته ورددته عن حاجته، وهو مع هذا شاعر لا آمن لسانه، فلما أصبح سأل عنه، فأخبر بانصرافه، فقال: لا جرم ليعلمن أن الرزق سيأتيه، ثم دعا بمولى له وأعطاه ألفي دينار، وقال: الحق بهذه عروة بن أذينة فأعطه إياها، قال: فلم أدركه إلا وقد دخل بيته، فقرعت عليه الباب، فخرج فأعطيته المال، فقال: أبلغ أمير المؤمنين السلام وقل له: كيف رأيت قولي؟ سعيد فأكديت، ورجعت إلى بيتي فأتاني فيه الرزق. وهذه الحكاية وغن كانت دخيلة ليست مما نحن فيه لكن حديث عروة ساقها.
ولبعض المعاصرين وهو محمد بن إدريت المعروف بمرج كحل الأندلسي في معنى هذين البيتين، وأحسن فيه:

مثل الرزق الذي تطلبه مثل الظل الذي يمشي معك
أنت لا تدركه متبعاً فإذا وليت عنه تبعك

وكان وفاة سكينة بالمدينة يوم الخميس لخمس خلون من شهر ربيع الأول سنة سبع عشرة ومائة، رضي الله عنهما؛ وقيل اسمها آمنة، وقيل أمينة، وقيل أميمة، وسكينة لقب لقبتها به أمها الرباب ابنة امرئ القيس بن عدي. وقال محمد بن السائب الكلبي النسابة: سألني عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم عن اسم سكينة ابنة الحسين بن علي رضي الله عنهم، فقلت: أميمة، فقال: أصبت.
وتوفي مرج كحل المذكور في سنة أربع وثلاثين وستمائة ببلده—وهو جزيرة شقر بالأندلس—وكانت ولادته بها سنة أربع وخمسين وخمسمائة.

سليم الرازي

أبو الفتح سليم بن أيوب بن سليم الرازي الفقيه الشافعي الأديب؛ كان مشاراً إليه في الفضل والعبادة، وصنف الكتب الكثيرة منها كتاب "الإشارة" وكتاب "غريب الحديث" ومنها "التقريب" وليس هو التقريب الذي ينقل عنه إمام الحرمين في"النهاية" والغزالي في "البسيط" و"الوسيط" فإن ذلك للقاسم بن القفال الشاشي، وقد ذكره في الباب الثاني من كتاب الرهن في "الوسيط".

وأخذ سليم الفقه عن الشيخ أي حامد الإسفرايني، وأخذ عنه أبو الفتح نصر بن إبراهيم المقدسي.

وقال سليم: دخلت بغداد في حداثتي لطلب علم اللغة، فكنت آتي شيخاً هناك، وذكره في بعض الأيام إليه فقيل لي: هو في الحمام، فمضيت نحوه، فعبرت في طريقي على الشيخ أبي حامد الإسفرايني وهو يملي، فدخلت المسجد وجلست مع الطلبة، فوجدته في كتاب الصيام في مسألة إذا أولج ثم أحس بالفجر فترع، فاستحسنت ذلك، فعلقت الدرس على ظهر جزء كان معي، فلما عدت إلى مترلي وجعلت أعيد الدرس حلالي، وقلت: أتم هذا الكتاب-يعني كتاب الصيام-فعلقته، ولزمت الشيخ أبا حامد حتى علقت عنه جميع التعليق.

وكان لا يخلو له وقت عن اشتغال، حتى إنه كان إذا برى القلم قرأ القرآن أو سبح، وكذلك إذا كان ماراً في الطريق وغير ذلك من الأوقات التي لا يمكن الاشتغال فيها بعلم.

وسكن سليم الشام بمدينة صور متصدياً لنشر العلم وإفادة الناس، وكان يقول: وضعت مني صور، ورفعت من أبي الحسن المحاملي بغداد. ثم أنه غرق في بحر القلزم بعد رجوعه من الحج عند ساحل جدة، في سلخ صفر سنة سبع وأربعين وأربعمائة، وكان قد نيف على ثمانين سنة، رحمه الله تعالى؛ ودفن في جزيرة بقرب الجار عند المخاضة في طريق عيذاب.

والرازي: بفتح الراء وبعد الألف زاي، هذه النسبة إلى الري، وهي مدينة عظيمة من بلاد الديلم بين قومس والجبال، وألحقوا الزاي في النسبة إليها كما ألحقوها في المروزي عند النسب إلى مرو، وقد تقدم ذكر ذلك.

والجار: بفتح الجيم وبعد الألف راء، وهي بليدة على الساحل، بينها وبين مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم يوم وليلة، وإليها ينسب القمح الجاري، وذكر أبو القاسم الزمخشري في "كتاب الأمكنة والجبال والمياه" في باب الشين أن الجار قرية على ساحل البحر، بها ترسو مطايا القلزم ومطايا عيذاب ومطايا بحر النعام.

وقال ابن حوقل في كتابه: "الجارفرضة المدينة على ثلاث مراحل منها على البحر، وجدة فرضة مكة".

وتوفي ولده او سعيد إبراهيم بن سليم يوم الثلاثاء السادس والعشرين من ذي الحجة سنة إحدى وتسعين وأربعمائة بدمشق، ذكره الحافظ ابن عساكر في "تاريخ دمشق" وقال: أخذ عن جماعة من جلة المشايخ وأخذوا عنه، وكان صدوقاً، رحمه الله تعالى.

سليمان بن يسار

أبو أيوب-ويقال أبو عبد الرحمن، ويقال ابو عبد الله-سليمان بن يسار مولى ميمونة زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ أحد الفقهاء السبعة بالمدينة، وقد تقدم ذكر ثلاثة منهم. وكان سليمان النذكور أخا عطاء بن يسار، وكان عالماً ثقة عابداً ورعاً حجة؛ قال الحسن بن محمد: سليمان بن يسار عندنا أفهم من سعيد بن المسيب، و لم يقل أعلم ولا أفقه. وروى عن ابن عباس وأبي هريرة وأم سلمة، رضي الله عنهم، وروى عنه الزهري وجماعة من الأكابر. وكان المستفتي إذا أتى سعيد بن المسيب يقول له: اذهب إلى سليمان بن يسار، فإنه أعلم من بقي اليوم. وقال قتادة: قدمت المدينة، فسألت: من أعلم أهلها بالطلاق؟ فقالوا: سليمان بن يسار.

وتوفي سنة سبع ومائة، وقيل سنة مائة، وقيل سنة أربع وتسعين للهجرة، والله أعلم، وهو ابن ثلاث وسبعين سنة، رحمه الله تعالى.

الأعمش

أبو محمد سليمان بن مهران مولى بني كاهل من ولد أسد، المعروف بالأعمش الكوفي الإمام المشهور؛ كان ثقة عالماً فاضلاً، وكان ابوه من دنباوند، وقدم الكوفة وامرأته حامل بالأعمش فولدته بها؛ قال السمعاني: وهو لا يعرف بهذه النسبة، بل يعرف بالكوفي، وكان يقارن بالزهري في الحجاز،

ورأى أنس ابن مالك–رضي الله عنه–وكلمه، ولكنه لم يرزق السماع عليه، وما يرويه عن أنس فهو إرسال أخذه عن أصحاب أنس. ورأى أبا بكرة الثقفي وأخذ بركابه فقال له: يا بني إنما أكرمت ربك. سمع داود بن سويد وأبا وائل وإبراهيم التيمي وسعيد بن جبير ومجاهداً والنخعي، وروى عن عبد الله بن أبي أوفى حديثاً واحداً، ولقي كبار التابعين رضي الله عنهم، وروى عنه سفيان الثوري وشعبة بن الحجاج وحفص بن غياث وخلق كثير من جلة العلماء.

وكان الأعمش يقول: إن كان بيننا وبين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ستر؛ قال أبو عبد الله أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى: صدق، هكذا كان، وقد رأى أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم.

وقال عيسى بن يونس: لم نر نحن والقرن الذي قبلنا مثل الأعمش: ما رأيت الأغنياء والسلاطين عند أحد أحقر منهم عند الأعمش مع فقره وحاجته.

حدث محمد بن جرير، قال عيسى بن موسى لابن أبي ليلى: اجمع الفقهاء؛ قال: فجمعهم، فجاء الأعمش في جبة وفرو وقد ربط وسطه بشريط فأبطأوا فقام الأعمش فقال: إن أردتم أن تعطونا شيئاً وإلا فخلوا سبيلنا، فقال عيسى المذكور: قلت لك تأتي بالفقهاء فتجيء بهذا؟ فقال: هذا سيدنا، هذا الأعمش.

حدثنا أحمد بن علي بن ثابت بإسناد له عن وكيع: كان الأعمش قريباً من سبعين سنة لم تفته التكبيرة الأولى، واختلفت إليه أكثر من ستين سنة فمار أيته يقضي ركعة.

وقال الأعمش: كنت آتي مجاهداً فيقول: لو كنت أطيق المشي لأتيتك.

وجرى بينه وبين زوجته كلام، وكان يأتيه رجل يقال له أبو ليلى مكفوف فصيح يتكلم بالإعراف يتطلب الحديث منه، فقال: يا أبا ليلى، امرأتي نشزت علي وأنا أحب أن تدخل عليها فتخبرها مكاني من الناس وموضعي عندهم، فدخل عليها وكانت من أجمل أهل الكوفة فقال: يا هنتاه إن الله قد أحسن قسمك، هذا شيخنا وسيدنا وعنه نأخذ أصل ديننا وحلالنا فلا يغرنك عموشة عينيه ولا حموشة ساقيه، فغضب الأعمش وقال: يا أعمى يا خبيث، أعمى الله قلبك كما أعمى عينيك، قد أخبرتها بعيوبي كلها؛ اخرج من بيتي.

وأراد إبراهيم النخعي أن يماشيه فقال الأعمش: إن الناس إذا رأونا معاً قالوا: أعور وأعمش، قال النخعي: وما عليك أن نؤجر ويأثموا؟ فقال له الأعمش: وما عليك أن يسلموا ونسلم؟ وجاء رجل يطلبه في مترله ووصل وقد خرج مع امرأته إلى المسجد فجاء فوجدهما في الطريق فقال: أيكما الأعمش؟ فقال الأعمش: هذه، وأشار إلى المرأة.

ودخل الحمام يوماً وجاء رجل حاسر، فقال له الرجل: متى ذهب بصرك؟ فقال: مذ بدت عورتك.

قال محمد بن حميد، حدثنا جرير قال: جئنا الأعمش يوماً فوجدناه قاعداً في ناحية فجلسنا في ناحية أخرى وفي الموضع خليج من ماء المطر، فجاء الأعمش رجل عليه، فلما بصر بالأعمش وعليه فروة حقيرة قال: قم فعبرني هذا الخليج، وجذب يده وأقامه وركبه وقال: "سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين". فمضى به الأعمش حتى توسط به الخليج فرمى به وقال: "رب أنزلني مترلاً مباركاً وأنت خير المترلين". ثم خرج وترك الأسود يخبط في الماء.

وكان الأعمش إذا رأى ثقيلاً قال: كم غرضك تقيم في هذه البلدة؟.

وكان لطيف الخلق مزاحاً، جاءه أصحاب الحديث يوماً ليسمعوا عليه، فخرج إليهم، وقال: لولا أن في مترلي من هو أبغض إلي منكم ما خرجت إليكم.

وقال له داود بن عمر الحائك: ما تقول في الصلاة خلف الحائك؟ فقال: لا بأس بها على غير وضوء، فقال: ما تقول في شهادة الحائك؟ فقال: تقبل مع عدلين. ويقال إن الإمام أبا حنيفة رضي الله عنه عاده يوماً في مرضه، فطول القعود عنده، فلما عزم على القيام قال له: ما كأني إلا ثقلت عليك، فقال: والله إنك لتثقل علي وأنت في بيتك. وعادة أيضاً جماعة فأطالوا الجلوس عنده فضجر منهم، فأخذ وسادته وقام وقال: شفى الله مريضكم بالعافية؛ وقيل عنده يوماً: قال صلى الله عليه وسلم: "من نام عن قيام الليل بال الشيطان في أذنه" فقال: ما عمشت عيني إلا من بول الشيطان في أذني.

وكانت له نوادر كثيرة.

وقال أبو معاوية الضرير: بعث هشام بن عبد الملك إلى الأعمش أن اكتب لي مناقب عثمان ومساوئ علين فأخذ الأعمش القرطاس وأدخلها في فم شاة فلاكتها، وقال لرسوله: قل له هذا جوابك، فقال له الرسول: إنه قد آلى أن يقتلني إن لم آته بجوابك، وتحمل عليه بإخوانه، فقالوا لهك يا أبا محمد افتده من القتل، فلما ألحو عليه كتب له "بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد يا أمير المؤمنين، فلو كانت لعثمان رضي الله عنه مناقب أهل الأرض ما نفعتك، ولو كانت لعلي رضي الله عنه مساوئ أهل الأرض ما ضرتك، فعليك بخويصة نفسك، والسلام".

وكتب إلى بعض إخوانه يعزيه:

إنا نعزيك لا انا على ثقة	من البقاء ولكن سنة الدين
فلا المعزى بباق بعد ميته	ولا المعزي وإن عاشا إلى حين

ومولده سنة ستين للهجرة، وقيل إنه يوم مقتل الحسين رضي الله عنه، وذلك يوم عاشوراء سنة إحدى وستين، وكان أبوه حاضراً مقتل الحسين، وعده ابن قتيبة في كتاب "المعارف" في جملة من حملت به أمه سبعة أشهر.

وتوفي في سنة ثمان وأربعين ومائة في شهر ربيع الأول، وقيل سنة سبع وأربعين، وقيل سنة تسع واربعين، رحمه الله تعالى.

وقال زائدة بن قدامة: تبعت الأعمش يوماً، فأتى المقابر فدخل في قبر محفور فاضطجع فيه، ثم خرج منه وهو ينفض التراب عن رأسه ويقول: واضيق مسكناه.

ودنباوند: بضم الدال المهملة وسكون النون وفتح الباء الموحدة وبعد الألف واو مفتوحة ثم نون ساكنة وبعدها دال مهملة، وهي ناحية من رستاق الري في الجبال، وبعضهم يقول "دماوند" والأول أصح، وقد تقدم ذكرها قبل هذا.

أبو داود السجستاني

أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو بن عمران الأزدي السجستاني؛ أحد حفاظ الحديث وعلمه وعلله، وكان في الدرجة العالية من النسك والصلاح، طوف البلاط وكتب عن العراقيين والخراسانيين والشاميين والمصريين والجزريين، وجمع كتاب "السنن" قديماً وعرضه على الإمام أحمد بن حنبل، رضي الله عنه، فاستجاده واستحسنه، وعده الشيخ أبو غسحاق الشيرازي في "طبقات الفقهاء" من جملة أصحاب الإمام أحمد بن حنبل، وقال غبراهيم الحربي لما صنف أبو داود كتاب "السنن": ألين لأبي داود الحديث كما ألين لداود الحديد.

وكان يقول: كتبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسمائة ألف حديث انتخبت منها ما ضمنته هذا الكتاب–يعني "السنن"–جمعت فيه أربعة آلاف وثمانمائة حديث، ذكرت الصحيح وما يشبهه ويقاربه، ويكفي الإنسان لدينه من ذلك أربعة أحاديث: أحدها قوله صلى الله عليه وسلم "إنما الأعمال بالنيات" والثاني قوله "من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه" والثالث قوله "لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يرضى لأخيه ما يرضاه لنفسه" والرابع قوله "الحلال بين والحرام بين، وبين ذلك أمور مشتبهات" الحديث بكماله.

وجاءه سهل بن عبد الله التستري فقيل له: يا أبا داود، هذا سهل بن عبد الله قد جاءك زائراً، قال: فرحب به وأجلسه، فقال: يا أبا داود لي إليك حاجة، وما هي؟ قال: حتى تقول قضيتها مع الإمكان، قال: قد قضيتها مع الإمكان، قال: أخرج لي لسانك الذي حدثت به عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبله، قال: فأخرج له لسانه فقبله.

وكان لأبي داود كم واسع وكم ضيق، فقيل له: يرحمك الله ما هذا؟ فقال: الواسع للكتب والآخر لا نحتاج إليه. وكان يقول: الشهوة الخفية حب الرياسة. وكان في أيام حداثته وطلب الحديث جلس في مجلس بعض الرواة يكتب، فدنا رجل إلى محبرته وقال له: أستمد من هذه المحبرة؟ فالتفت إليه وقال: أما علمت أن من شرع في مال أخيه بالاستئذان فقد استوجب بالحشمة الحرمان؟ فسمي ذلك اليوم حكيماً.

وكانت ولادته في سنة اثنتين ومائتين، وقدم بغداد مراراً ثم نزل إلى البصرة وسكنها، وتوفي بها يوم الجمعة منتصف شوال سنة خمس وسبعين ومائتين،

رحمه الله تعالى.

وكان ولده أبو بكر عبد الله بن أبي داود سليمان من أكابر الحفاظ ببغداد، عالماً متفقاً عليه، إمام ابن إمام، وله كتاب "المصابيح" وشارك أباه في شيوخه بمصر والشام، وسمع ببغداد وخراسان وأصبهان وسجستان وشيراز. وتوفي في سنة ست عشرة وثلثمائة، واحتج به ممن صنف الصحيح أبو علي الحافظ النيسابوري وابن حمزة الأصبهاني.

والسجستاني: بكسر السين المهملة والجيم وسكون السين الثانية وفتح التاء المثناة من فوقها وبعد الألف نون، هذه النسبة إلى سجستان، الإقليم المشهور، وقيل بل نسبته إلى سجستان أو سجستانة، قرية من قرى البصرة، والله أعلم بذلك.

أبو موسى الحامض

أبو موسى سليمان بن محمد بن أحمد النحوي البغدادي المعروف بالحامض؛ كان أحد المذكورين من العلماء بنحو الكوفيين، أخذ النحو عن أبي العباس ثعلب، وهو المقدم من أصحابه، وجلس موضعه وخلفه بعد موته، وصنف كتباً حساناً في الأدب، وروى عنه أبو عمر الزاهد وأبو جعفر الأصبهاني المعروف ببرزويه غلام نفطويه. وكان ديناً صالحاً، وكان أوحد الناس في البيان والمعرفة بالعربية واللغة والشعر، وكان قد أخذ عن البصريين أيضاً، وخلط النحوين، وكان حسن الوراقة في الضبط، وكان يتعصب على البصريين فيما أخذ عنهمن في عربيتهم، وله عدة تصانيف: فمنها كتاب "خلق الإنسان" وكتاب "السبق والنضال" وكتاب "النبات" وكتاب "الوحوش" وكتاب في النحو مختصر، وغير ذلك.

وتوفي ليلة الخميس لسبع بقين من ذي الحجة سنة خمس وثلثمائة ببغداد، ودفن بمقبرة باب التين، رحمه الله تعالى.

وإنما قيل له الحامض لأنه كانت له أخلاق شرسة، فلقب الحامض لذلك، ولما احتضر أوصى بكتبه لأبي فاتك المقتدري، بخلاً بها أن تصير إلى أحد من أهل العلم.

أبو القاسم الطبراني

أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الطبراني؛ كان حافظ عصره، رحل في طلب الحديث من الشام إلى العراق والحجاز واليمن ومصر وبلاد الجزيرة الفراتية، وأقام في الرحلة ثلاثاً وثلاثين سنة، وسمع الكثير، وعدد شيوخه ألف شيخ، وله المصنفات الممتعة النافعة الغريبة منها المعاجم الثلاثة: "الكبير" و"الأوسط" و"الصغير" وهي اشهر كتبه، وروى عنه الحافظ أبو نعيم والخلق الكثير.

ومولده سنة ستين ومائتين بطبرية الشام، وسكن أصبهان إلى أن توفي بها يوم السبت لليلتين بقيتا من ذي القعدة سنة ستين وثلثمائة، وعمره تقديراً مائة سنة، رحمه الله تعالى، وقيل إنه توفي في شوال، والله أعلم، ودفن إلى جانب جمعه الدوسي صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

والطبراني: بفتح الطاء المهملة والباء الموحدة والراء وبعد الألف نون، هذه النسبة إلى طبرية، والطبري نسبة إلى طبرستان، وقد تقدم ذلك.

واللخمي: بفتح ا للام وسكون الخاء المعجمة وبعدها ميم، هذه النسبة إلى لخم، واسمه مالك بن عدي، وهو أخو جذام، وقد تقدم القول في تسميتهما بهذين الاسمين لم كان.

ومطير: تصغير مطر.

أبو الوليد الباجي

أبو الوليد سليمان بنخلف بن سعد بن أيوب بن وارث التجيبي المالكي الأندلسي الباجي؛ كان من علماء الأندلس وحفاظها، سكن شرق الأندلس ورحل إلى المشرق سنة ست وعشرين وأربعمائة أو نحوها، فأقام بمكة مع أبي ذر الهروي ثلاثة أعوام وحج فيها أربع حجج، ثم رحل إلى بغداد فأقام بها ثلاثة أعوام يدرس الفقه ويقرأ الحديث، ولقي بها سادة من العلماء كأبي الطيب الطبري الفقيه الشافعي والشيخ أبي إسحاق الشيرازي صاحب "المهذب" وأقام بالموصل مع أبي جعفر السمناني عاماً يدرس عليه الفقهن وكان مقامه بالمشرق نحو ثلاثة عشر عاماً، وروى عن الحافظ أبي بكر الخطيب، وروى الخطيب أيضاً عنه، قال: أنشدني أبو الوليد الباجي لنفسه يرثي ابنيه، وماتا مقترنين:

لئن غيبا عن ناظري وتبوءا فؤادي لقد زاد التباعد في القرب
يقر بعيني أن أزور ثراهما وألصق مكنون الترائب بالترب

وروى الخطيب أيضاً عنه قال: أنشدني أبو الوليد الباجي لنفسه:

إذا كنت أعلم علماً يقيناً بأن جميع حياتي كساعه
فلم لا أكون ضنيناً بها وأجعلها في صلاح وطاعه

وصنف كتباً كثيرة منها كتاب "المنتقى" وكتاب "إحكام الفصول في أحكام الأصول" وكتاب "التعديل والتجريح فيمن روى عنه البخاري في الصحيح" وغير ذلك. وهو أحد أئمة المسلمين، وكان يقول: سمعت أبا ذر عبد ابن أحمد الهروي يقول: لو صحت الإجازة لبطلت الرحلة. وكان قد رجع إلى الأندلس وولي القضاء هناك، وقد قيل إنه ولي قضاء حلب أيضاً، والله أعلم.

ومولده يوم الثلاثاء النصف من ذي القعدة سنة ثلاث وأربعمائة بمدينة بطليوس، وتوفي بالمرية ليلة الخميس بين العشاءين تاسعة عشرة رجب سنة اربع وسبعين وأربعمائة، ودفن يوم الخميس بعد صلاة العصر بالرباط على ضفة البحر، وصلى عليه ابنه القاسم.

وأخذ عنه أبو عمر ابن عبد البر صاحب "الاستيعاب"، وبينه وبين أبي محمد ابن حزم المعروف بالظاهري مجالس ومناظرات وفصول يطول شرحها.

والباجي: بفتح الباء الموحدة وبعد الألف جيم، هذه النسبة إلى باجة، وهي مدينة بالأندلس، وثم باجة أخرى وهي مدينة بإفريقية، وباجة أخرى، قرية من قرى أصبهان.

وبطليوس يأتي ذكرها إن شاء الله تعالى. والمرية قد تقدم الكلام عليها.

أبو أيوب المورياني

أبو أيوب سليمان بن أبي سليمان مخلد –وقيل داود–المورياني الخوزي؛ كان وزير أبي جعفر المنصور، تولى وزارته بعد خالد بن برمك جد البرامكة وتمكن منه غاية التمكن، وسبب ذلك أنه كان يكتب لسليمان بن حبيب بن المهلب بن أبي صفرة الأزدي، وكان المنصور قبل الخلافة ينوب عن سليمان المذكور في بعض كور فارس، فاتهمه بأنه احتجن المال لنفسه، فضربه بالسياط ضرباً شديداً وأغرمه المال، فلما ولي الخلافة ضرب عنقه، وكان سليمان قد عزم على هتكه عقيب ضربه، فخلصه منه كاتبه أبو أيوب المذكور، فاعتدها المنصور له واستوزره، ثم غنه فسدت نيته فيه ونسبه إلى أخذ الأموال، وهم أن يوقع به فتطاول ذلك، فكان كلما دخل عليه ظن أنه سيوقع به ثم يخرج سالماً، فقيل إنه كان معه شيء من الدهن قد عمل فيه سحر فكان يدهن به حاجبيه إذا دخل على المنصور، فسار في العامة دهن أبي أيوب.

ومن ملح أمثاله أن خالد بن يزيد الأرقط قال: بينا أبو أيوب المذكور جالس في أمره ونهيه أتاه رسول المنصور فتغير لونه، فلما رجع تعجبنا من حالته، فضرب مثلاً لذلك وقال: زعموا أن البازي قال للديك: ما في الأرض حيوان أقل وفاء منك، قال: وكيف ذلك؟ قال: أخذك أهلك بيضة فحضنوك، ثم خرجت على أيديهم وأطعموك في أكفهم ونشأت بينهم، حتى إذا كبرت صرت لا يدنو منك أحد إلا طرت ها هنا وها هنا وصوت، وأخذت أنا مسنا من الجبال، فعلموني وألفوا بي، ثم يخلى عني فآخذ صيداً في الهواء وأجيء به إلى صاحبي، فقال له الديك: إنك لو رأيت من البزاة في سفافيدهم المعدة للشي مثل الذي رأيت من الديوك لكنت أنفر مني، ولكنكم أنتم لو علمتم ما أعلم لم تتعجبوا من خوفي مع ما ترون من تمكن حالي.

ثم إنه أوقع به سنة ثلاث وخمسين ومائة، وعذبه وأخذ أمواله. ومات سنة أربع وخمسين ومائة، رحمه الله تعالى.

وكان سبب ذلك ما حكاه المعافى بن زكريا في كتاب "الجليس والأنيس" قال: كان أبو جعفر المنصور في بعض أسفاره في أيام بني أمية تزوج امرأة من الأزد بالموصل عن ضر شديد أصابه، حتى أكرى نفسه مع الملاحين يمد في الحبل، أو فعل ذلك لأمر خافه على نفسه، فتنكر وأكرى نفسه في مدادي السفن، فخطب هذه المرأة ورغبها في نفسه ووعدها ومناها، وأخبرها أنه جليل القدر وأنه من أهل بيت شرف، وأنها إن تزوجته سعدت، ولم يزل يمنيها حتى أجابته، وأقام معها يختلف في أسبابه ويجعل طريقه عليها بما رزقه الله تعالى؛ ثم اشتملت على حمل فقال لها: أيتها المرأة، هذه رقعة مختومة

عندك لا تفتحيها حتى تضعي ما في بطنك، فإن ولدت ابناً فسميه جعفراً وكنيه أبا عبد الله، وإن ولدت بنتاً فسميها فلانة، وأنا عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبط المطلب، فاستري أمري فإنا قوم مطلوبون، والسلطان إلينا سريع، وودعها وخرج؛ فقضي أنها ولدت ذكراً، فأخرجت الرقعة فقرأت ما فيها، وسمته جعفراً، وضرب الدهر على ذلك، ما تسمع له خبراً، ونشأ الصبي مع أخواله وأهل بيت أمه، وكان كيساً ذهناً لقناً، واستخلف أبو العباس، فقيل للمرأة: إن كنت صادقة في رقعتك وكان من كتبها صادقاً فإن زوجك الخليفة أمير المؤمنين. قالت: ما أدري، صفوا لي صفة هذا الخليفة، قالوا: غلام حين بقل وجهه، قالت: ليس هو هو، قالوا: فاستري أمرك، و لم يلبث أبو العباس أن مات واستحكم عندها اليأس، وأقبل ابنها على الأدب فتأدب وكتب ونزعت به همته إلى بغداد فدخل ديوان أبي أيوب كاتب المنصور وانقطع إلى بعض أهله فأتى عليه زمان يتقوت بالكسب ويزيد في أدبه وفهمه وخطه حتى صار يكتب بين يدي أبي أيوب، إلى أن تهيأ أن خرج خادم يوماً إلى الديوان يطلب كاتباً يكتب بين يدي المنصور، فقال أبو أيوب للغلام: خذ دواتك وقم واكتب بين يدي أمير المؤمنين، فدخل الغلام فكتب، وكان يتهيأ من أبي جعفر إليه النظرة بعد النظرة يتامله، والقيت عليه محبته واستجاد خطه واسترشق فهمه، فكتب زماناً واستراح أبو أيوب إلى مكانه، ورأى أنه قد حمل عنه ثقلاً، وبز الغلام ووصله وكساه كسوة تصلح أن يدخل بها على أمير المؤمنين؛ ثم إن أبا جعفر قال للغلام يوماً: ما اسمك؟ قال: جعفر، قال: ابن من؟ فسكت متحيراً، قال ابن من ويحك؟ قال: ابن عبد الله، قال: وأين أبوك؟ قال: لم أره و لم أعرفه، ولكن أمي أخبرتني أن أبي شريف وان عندها رقعة بخطه فيها نسبه: عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب، فساعة ذكر الرقعة تغير وجه المنصور فقال: وأين أمك؟ قال: في موضع كذا، قال: أتعرف فلاناً؟ قال: نعم، هو إمام مسجد محلتنا، قال: أتعرف فلاناً؟ قال: نعم، خياط في مسجدنا، قال: أفتعرف فلاناً؟ قال: نعم في سكننا، فلما رأى الغلام أبا جعفر يترع بأسماء قوم يعرفهم أدركته هيبة له وجزع وتدمع، فأدركت أبا جعفر الرقة عليه، فلم يتمالك أن قال: فلانة بنت فلانة من هي منك؟ قال: أمي، قال: فلانة؟ قال: خالتي، قال: فلان؟ قال: خالي، فضمه إليه وبكى، وقال: يا غلام لا تعلمن أبا أيوب ولا أحداً ما دار بيني وبينك، انظر انظر، احذر احذر، فنهض الغلام وخرج، فقال له أبو أيوب: لقد احتبست عند أمير المؤمنين، قال: كتبت كتباً كثيرة أملاها علي، فأين هي؟ قال: جعلها نسخاً يردد فيها نظره حتى يحكمها، ثم خرج إلى الديوان.

ثم إن أبا جعفر جعل يقول في بعض الأيام لأبي أيوب: هذا الغلام الذي يكتب بين يدي استوص به، فاتهم أبو أيوب الغلام أنه يلقي إلى أبي جعفر الشيء بعد الشيء من خبره، ثم لم يلبث أن سأله مرة بعد مرة، فقذف في بلب أبي أيوب بغض الغلام وأنه يقوم مقامه إن فقده أبو جعفر، وأبو جعفر يزداد ولها إلى الغلام ويجن به جنوناً وليس يمنعه من إدنائه وإظهار أمره إلا أمر يريد الله، فلما رأى أبو أيوب ذلك احتبسه عنده عناداً، ثم قال المنصور للخادم: اخرج إلى الديوان فجئني بفلان، فإن بعث معك بغيره فقل: أمرني أمير المؤمنين لا يدخل عليه غيره، ففعل الخادم ذلك، واستحكم في قلب أبي أيوب ما حذره وحدثته به نفسه، فقال الغلام: يا أمير المؤمنين قد تعرفت من أبي أيوب البغض وله غوائل لا يحيط بها علمي وأنا أخاف على نفسي، فقال له أبو جعفر: يا بني قد حاك ذلك في صدري، فإذا كان الغد فتعرض لأن يغلظ لك فإذا أغلظ فقم وانصرف كأنك مغضب ولا تعد إلى الديوان، واجعل وجهك إلى أمك وأوصل إليها هذا العقد وهذا الكيس وكتابي هذا واحمل أمك ومن اتبعها من قرابتك وأقبل فانزل في موضع كذا فغني منفذ إليك خادما يتفقد أمورك ويعرف خبرك، فلا تطلعن أحداً من الخلق على ما معك وامض بهذا المال وهذا العقد وأحرزه أولاً قبل رجوعك إلى الديوان؛ ثم قال للخادم: أخرجه من باب كذا وكذا، فخرج الغلام فأحرز ما كان معه ثم رجع إلى بهج مسرور لا يخفى ذلك عليه وظهر الفرح في وجهه وشمائله، فقال أبو أيوب: أحلف بالله لقد رجع هذا الغلام بغير الوجه الذي مضى به، ولقد دار بينه وبين أمير المؤمنين من ذكري ما سره، فاستشعر الوحشة منه وصرف أكثر عمه عنه، ثم لم ينشب أن أغلظ له فقال الغلام: أنا إنسان غريب أطلب الرزق وأنت تستخف بي فأني قد ثقلت عليك فأتنحى عنك قبل أن تطردني، ثم قام وانصرف فافتقده أبو أيوب أياماً ورأى أن أبا جعفر لا يسأل عنه ولا يذكره، ثم إن نفس أبي أيوب نازعته إلى علم حقيقة خبره فأرسل من يسأل عنه في الموضع الذي كان نازلاً به، فقيل له إنه قد تهيأ وتجهز جهازاً حسناً وشخص إلى أهله بالموصل، فقال أبو أيوب في نفسه: ومن أين له ما يتجهز به، وكم مبلغ ما ارتزق معي وارتفق به لهذا الأمر؟ وجعلت نفسه تزداد وحشة منه ومن خبره إلى أن قيل له: قد كان أبو جعفر وصله بمال ووهب له شيئاً، فقال في نفسه: هذا الذي ظننت، وقد نصبه مكاني، ويجوز أن يكون استأذنه في أن يخرج إلى أهله فيسلم

عليهم ثم يرجع إليه فيقلده مكاني، فقال لرجل من أصحابه: اخرج إلى طريق الموصل قرية قرية براً وبحراً فإذا عرفت موضعه فاقتله وجئني بما معه، فشخص.

وإن الغلام لما خرج من بغداد رأى أنه قد أمن في مسيره، وكان يقيم في الموضع الذي يستطيبه اليوم واليومين والأكثر والأقل، فلحقه رسول أبي أيوب وعرفه فباتا في قرية فقام الرسول إليه فخنقه وطرحه في بئر وأخذ خرجه وخرائط كانت معه وركب دابة له ورجع إلى أبي أيوب فسلم ذلك إليه وشرح له الخبر، ففتش أبو أيوب متاعه فإذا المال والعقد فعرفه، وإذا كتاب المنصور بخطه إلى أمه، فوجم أبو أيوب وندم، وعلم أنه قد عجل وأخطأ وأن الخبر لم يكن كما ظن، وعزم على الحلف والمكابرة إن عثر على شيء من أمره.

وأبطأ خبر الغلام واستبطأه في الوقت الذي ضربه له فدعا خادماً من ثقاته ورجلاً من خاصته وقال لهما: استقريا المنازل إلى الموصل منزلاً منزلاً وقرية قرية وأعطيا صفة الغلام حتى تدخلا ثم اقصدا موضع كذا من الموصل فاسألا عن فلانة–ووصف لهما كل ما أراد–ففعلا، فلما انتهيا إلى الموضع الذي أصيب فيه الغلام أعلما خبره، وذكرا الوقت الذي أصيب فيه فإذا التاريخ بعينه، ثم مضيا إلى الموصل فسألا عن أمه فوجداها أشد الخلق ولهاً على ابنها وحاجتها إلى علم خبره، فأطلعاها على حاله وأمرها أن تستر نفسها، ولم ترد الدنيا بعده فكان المنصور يذكره واستصفى أمواله وأموال أهل بيته ثم قتلهم جميعاً واباد خضراءهم، وكان إذا ذكر أبا أيوب لعنه وسبه وقال: ذاك قاتل حبيبي.

والمورياني: بضم الميم وسكون الواو وكسر الراء وفتح الياء المثناة من تحتها وبعد الألف نون، هذه النسبة إلى موريان، وهي قرية من قرى الأهواز، ذكره ابن نقطة، من أعمال خوزستان.

والخوزي نسبة إلى خوزستان–بضم الخاء الموحدة وسكون الواو وكسر الزاي وسكون السين المهملة وفتح التاء المثناة من فوقها وبعد الألف نون–وهي بلاد بين البصرة وفارس، وقيل إنما قيل له الخوزي لشحه، وقيل لأنه كان يترل شعب الخوز بمكة.

سليمان بن وهب

أبو أيوب سليمان بن وهب بن سعيد بن عمرو بن حصين بن قيس بن فنال، وكان فنال كاتباً ليزيد بن أبي سفيان لما ولي الشام ثم لمعاوية بعده، ووصله معاوية بولده يزيد، وفي أيامه، واستكتب يزيد ابنه قيساً، ثم كتب قيس لمروان ابن الحكم ثم لولده عبد الملك ثم لهشام به عبد الملك، وفي أيامه مات، واستكتب هشام ابنه الحصين، ثم استكتبه مروان بن محمد الجعدي آخر ملوك بني أمية، ثم صار إلى يزيد بن عمر بن هبيرة؛ ولما خرج يزيد إلى أبي جعفر المصور أخذ للحصين أماناً فخدم المنصور ثم المهدي، وتوفي في أيامه في طريق الري، فاستكتب المهدي ابنه عمراً، ثم كتب لخالد بن برمك، ثم توفي وخلف سعيداً، فما زال في خدمة آل برمك، وتحول ولدخ وهب إلى جعفر بن يحيى ثم صار بعده وقلده كرمان وفارس فأصلح حمالهما، ثم وجه به إلى المأمون برسالة من فم الصلح، فغرق في طريقه بين بغداد وفم الصلح.

وكتب سليمان المذكور للمأمون وهو ابن أربع عشرة سنة ثم لإيتاخ ثم لأشناس، ثم ولي الوزارة للمهتدي بالله ثم للمعتمد على الله، وله ديوان رسائل. وكان أخوه الحسن بن وهب يكتب لمحمد بن عبد الملك الزيات، وولي ديوان الرسائل، وكان أيضاً شاعراً بليغاً مترسلاً فصيحاً، وله ديوان رسائل أيضاً.

وكان هو وأخوه الحسن بن أعيان عصرهما–وقد تقدم ذكر الحسن في حرف الحاء في ترجمة أبي تمام الطائي، وأنه هو الذي ولاه بريد الموصل–ولما مات أبو تمام رثاه الحسن بما ذكرته ثم ولم أظفر بتاريخ وفاته حتى أفرد له ترجمة، وقد تقدم في خطبة هذا الكتاب أن مبناه على الوفيات وأن الذي أذكره من بعض أحوال من أذكره لم يكن إلا للإمتاع والتفكه لا غير، لا أنه مقصود في نفسه.

وقد مدح هذين الأخوين خلق كثير من أعيان الشعراء مثل أبي تمام الطائي والبحتري ومن في طبقتهما. ومن محاسن قول أبي تمام في سليمان المذكور من جملة قصيدة:

كل شعب كنتم به آل وهب فهو شعبي وشعب كل أديب

إن قلبي لكم لكالكبد الحر ى وقلبي لغيركم كالقلوب

وسمع هذين البيتين بعض الأفاضل فقال: لو كانا في آل رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أليق، فما يستحق هذا القول إلا هم، رضي الله عنهم. وكان يقول: اني أغار على أصدقائي كما أغار على حرمي. ونظر يوماً في المرآة فرأى شيباً كثيراً فقال: عيب لا عدمناه. وكان الحسن بن وهب لا يصحو من الشراب فقال له أخوه سليمان–وقد رآه لا يشرب ذات يوم–: أراك عازفاً، قال: نعم ولذلك لا أعده من عمري، وأنشد بديهاً:

إذا كان يومي غير يوم مدامة ولا يوم قينات فما هو من عمري
وإن كان معموراً بعود وقهوة فذلك مسروق لعمري من الدهر

وكانت وفاة سليمان المذكور في سنة اثنتين وسبعين ومائتين يوم الأحد منتصف صفر في الحبس، وقيل توفي سنة إحدى وسبعين. وقال الطبري في تاريخه: إنه توفي يوم الثلاثاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من صفر في حبس الموفق طلحة والد المعتضد، رحمه الله تعالى.

وللبحتري في سليمان بن وهب:

كأن آراءه والحزم يتبعها تريه كل خفي وهو إعلان
ما غاب عن عينه فالقلب يكلؤه وإن تنم عينه فالقلب يقظان

وهذا المعنى قد استعمله الشعراء كثيراً، فقال أوس بن حجر التميمي أحد شعراء الجاهلية:

الألمعي الذي يظن بك الظ ن كأن قد رأى وقد سمعا

وقال آخر:

بصير بأعقاب الأمور كأنما تخاطبه من كل أمر عواقبه

وقال آخر:

بصير بأعقاب الأمور كأنما يرى بصواب الظن ما هو واقع

وقال آخر:

عليم بأخبار الخطوب بظنه كأن له في اليوم عيناً على غد

وقال آخر:

كأنك مطلع في القلوب إذا ما تناجت بأسرارها

وهو باب متسع لا حاجة إلى الاطالة فيه.

وتنقل سليمان في الدواوين الكبار والوزارة، ولم يزل كذلك حتى توفي مقبوضاً عليه.

وحكي أن سليما بلغه أن الواثق نظر إلى أحمد بن الخصيب الكاتب فأنشد:

من الناس إنسانان ديني عليهما مليان لو شاءا لقد قضياني
خليلي أما أم عمرو فإنهما وأما عن الأخرى فلا تسلاني

فقال: إنا لله أحمد بن الخصيب أم عمرو، وأما الأخرى فأنا، وكذلك كان، فإنه نكبهما بعد أيام. ولما تولى سليمان بن وهب الوزارة–وقيل لما تولاها ابنه عبيد الله بن سليمان–كتب إليه عبيد الله بن عبد الله بن طاهر الآتي ذكره:

أبى دهرنا إسعافنا في نفوسنا فأسعفنا فيمن نحب ونعظم
فقلت له نعماك فيهم أتمها ودع أمرنا إن المهم المقدم

سليمان بن حرب

أبو أيوب سليمان بن حرب بن بجيل الأزدي الواشحي البصري؛ سمع شعبة وجرير بن حازم والحمادين ومبارك بن فضالة وسعيد بن زيد بن درهم والبسري بن يحيى ويزيد بن إبراهيم التستري؛ وروى عنه يحيى بن سعيد القطان وأحمد بن حنبل ومحمد بن سعد كاتب الواقدي وغيرهم.

قدم بغداد وحدث بها، وولي قضاء مكة.

ذكره أبو حاتم الرازي فقال: إمام من الأئمة، كان لا يدلس؛ وقال: ظهر حديثه نحو عشرة آلاف حديث ما رأيت في يده كتاباً قط، ولقد حضرت مجلس سليمان بن حرب ببغداد فحزروا من حضر مجلسه أربعين ألف رجل. وكان مجلسه عند قصر المأمون فبنى له شبه منبر، فصعد سليمان، وحضر جماعة من القواد عليهم السواد والمأمون فوق قصره وقد فتح القصر وقد أرسل ستراً وهو خلفه يكتب ما يلي.

وقال يحيى بن أكثم: قال لي المأمون: من تركت بالبصرة؟ فوصفت له مشايخ منهم سليمان بن حرب وقلت: هو ثقة حافظ للحديث عاقل في نهاية الستر والصيانة، فأمرني بحمله إليه، فكتبت إليه في ذالك فقدم. فاتفق أني أدخلته إليه وفي المجلس ابن أبي داود وثمامة وأشباه لهما، فكرهت أن يدخل مثله بحضرتهم، فلما دخل سلم، فأجابه المأمون، ودعا له سليمان بالعز والتوفيق، فقال ابن أبي داود، يا أمير المؤمنين، نسأل الشيخ عن مسألة؟ فنظر إليه المأمون نظرة تخيير له، فقال سليمان: يا أمير المؤمنين، حدثنا حماد ابن زيد قال: قال رجل لابن شبرمة: اسألك؟ قال: إن كانت مسألتك لا تضحك الجلوس ولا تزري بالمسؤول فسل؛ وحدثنا وهيب بن خالد قال: قال إياس بن معاوية: من المسائل ما لا ينبغي للسائل أن يسأل عنها ولا للمجيب أن يجيب فيها؛ فإن كانت مسألة من غير هذا فليسأل، وأن كانت من هذا فليمسك؛ قال: فهابوه فما نظر أحد منهم إليه حتى قام، وولاه قضاء مكة فخرج إليها.

قال الخطيب: وكانت ولايته مكة في سنة أربع عشرة، فلم يزل على ذلك إلى أن عزل سنة تسع عشرة ومائتين. وولد سنة اربعين ومائة في صفر وتوفي بالبصرة لأربع ليال بقين من شهر ربيع الآخر سنة أربع وعشرين ومائتين، رحمه الله تعالى.

سليمان بن عبد الملك

أبو أيوب سليمان بن عبد الملك بن مروان بن الحكم، وأمه ولادة أم أخيه الوليد؛ بويع له يوم السبت النصف من جمادى الآخرة سنة ست وتسعين، وتوفي بذات الجنب بدابق لعشر خلون من صفر سنة تسع وتسعين وله خمس وأربعون سنة، وصلى عليه عمر بن عبد العزيز، وكانت خلافته سنتين وثمانية أشهر إلا خمسة أيام. وكان الناس يتبركون به ويسمونه مفتاح الخير، وذلك أنه أذهب عنهم سنة الحجاج وأطلق السرى وأخلى السجون وأحسن إلى الناس واستخلف عمر بن عبد العزيز رضي الله عنهن فكان يقال: فتح بخير وختم بخير.

وكان قد أغزى أخاه مسلمة الصائفة حتى بلغ القسطنطينية، فأقام بها حتى هلك سليمان؛ وقيل إن سليمان لما وجه أخاه لفتح القسطنطينية أمره أن يقيم عليها حتى يفتحها أو يأتيه أمره، فسار إليها مسلمة، فلما دنا منها أمر كل فارس أن يحمل على عجز فرسه مدين من الطعام حتى يأتي به قسطنطينية، ففعلوا ذلك، وألقى ذلك الطعام مثل الجبال، ثم قال للمسلمين: لا تأكلوا منه شيئاً، وأقام بأرضهم وشتا وصيف وزرع، والناس يأكلون ما أصابوا من لغارات، ثم أكلوا من الزرع؛ فأقام مسلمة على قسطنطينية قاهراً لأهلها ومعه وجوه أهل الشام، ومات ملك الروم ومسلمة نازل عليها، فكتب الروم إلى اليون صاحب أرمينية، فسار اليون من أرمينية ومكر في طريقه بمسلمة ووعده أن يسلم إليه قسطنطينية. وكانت الروم قد أرسلوا إلى اليون: إن صرفت عنا مسلمة ملكناك، فلما أتى اليون مسلمة قال له: إنك لا تصدقهم القتال ولا تزال تطاولهم مادام هذا الطعام عندك وقد أحسوا بذلك منك، فلو أحرقت الطعام أعطوا ما بأيديهم، فأحرقه مسلمة، ووجه مع اليون من شيعه حتى دخل القسطنطينية، فلما دخلها ملكه الروم عليهم، فأرسل إلى مسلمة يخبره بما جرى من أمره ويسأله أن يأذن له أن يدخل من الطعام، من النواحي، ما يعيش به القوم حتى يصدقوه بأن أمره وأمر مسلمة

واحد، وأنهم في أمان من الشتات والخروج من بلادهم، وأن يأذن لهم ليلة واحدة في حمل الطعام. وهيأ اليون السفن والرجال، فأذن له مسلمة، فحمل جميع ما في تلك النواحي من الغلة في ليلة واحدة، وأفرج اليون وأصبح محارباً لمسلمة، وظهرت هذه الخديعة التي لا تتم على النساء، وأقام المسلمون في قلة الميرة، وحصلت الميرة جميعها عند الروم، ولقي المسلمون من الشدة ما لم يلق أحد قط حتى إن الرجل كان يخاف أن يخرج من العسكر وحده، وأكلوا الدواب والجلود وأصول الشجر والعروق والورق وكل شيء حتى الروث، هذا وسليمان مقيم بدابق، فدهمهم الشتاء و لم يقدر أن يمدهم، حتى هلك سليمان.

قيل غنه خرج من الحمام يريد الصلاة ونظر في المرآة فأعجبه جماله، وكان حسن الوجه فقال: أنا الخليفة الشاب، فلقيته إحدى حظاياه، فقال: كيف ترينني؟ فتمثلت:

ليس فيما بدا لنا فيك عيب — عابه الناس غير أنك فان

أنت نعم المتاع لو كنت تبقى — غير أن لا بقاء للإنسان

ورجع فحم، فما بات تلك الليلة إلا ميتاً.

وكان عاقلاً ديناً متوقفاً عن الدماء، ويقال إنه كان شرهاً نكاحاً، يأكل في كل يوم نحو مائة رطل، وكان به عرج.

وحج بالناس سنة سبع وتسعين فمر على المدينة وهو يريد مكة فقال: أهاهنا أحد يذكرنا؟ فقيل له: أبو حازم، فأرسل إليه فدعاه، فلما دخل عليه قال له: يا أبا حازم، ما هذا الجفاء؟ قال: يا أمير المؤمنين، أعيذلك بالله أن تقول ما لم يكن، ما عرفتني قبل ولا أنا رأيتك، فالتفت سليمان إلى محمد ابن شهاب وقال: أصاب الشيخ وأخطأت أنا؛ فقال سليمان: يا أبا حازم، ما لنا نكره الموت؟ قال: لأنكم أخربتم آخرتكم وعمرتم الدنيا فكرهتم أن تنتقلوا من العمران إلى الخراب، قال: صدقت، فكيف القدوم على الله عز وجل غداً؟ قال: أما المحسن فكالغائب يقدم على أهله، وأما المسيء فكالآبق يقدم على مولاه، فبكى سليمان وقال: ليت شعري، ما أنا عند الله؟ قال: يا أمير المؤمنين، اعرض عملك على كتاب الله عز وجل، قال: وأين أجده؟ قال: "إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم"، قال: يا أبا حازم، فأي عباد الله أفضل؟ قال: أولو المروءة والتقى، قال: فأي الأعمال أفضل؟ قال: أداء الفرائض مع اجتناب المحارم، قال: فأي الدعاء أسمع؟ قال: دعوة المحسن للمحسن، قال: فأي الصدقة أزكى؟ قال: صدقة السائل البائس وجهد من مقل ليس فيها من ولا أذى؛ قال: فأي القول أعدل؟ قال: قول الحق عند من يخافه أو يرجوه؛ قال فأي الناس أحمق؟ قال: رجل انحط في هوى أخيه وهو ظالم فباع آخرته بدنيا غيره؛ قال: صدقت، فما الذي تقول فيما نحن فيه؟ قال: يا أمير المؤمنين أو تعفيني من ذلك؟ قال: لا، ولكن نصيحة تلقيها إلي؛ قال: إن آباءك قهروا الناس بالسيف وأخذوا الملك عنوة من غير مشورة من المسلمين ولا رضى حتى قتلوا عليه مقتلة عظيمة وارتحلوا عنها، فلو سمعت ما قالوا وما قيل لهم؛ فغشي على سليمان، فقال رجل من جلسائه: بئس ما قلت يا أبا حازم! قال أبو حازم: كذبت يا عدو الله، إن الله أخذ ميثاق العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه، فأفاق سليمان فقال: يا أبا حازم كيف لنا أن نصلح للناس؟ قال: تدع الصلف وتستمسك بالمروة وتقسم بالسوية، قال سليمان: كيف المأخذ به؟ قال: أن تأخذ المال من حله وتضعه في أهله، قال سليمان: هل لك أن تصحبنا فتصيب منا ونصيب منك؟ قال: أعوذ بالله يا أمير ا لمؤمنين! قال: و لم؟ قال: أشحى أن أركن إليكم شيئاً قليلاً فيذيقني الله ضعف الحياة وضعف الممات، قال: يا أبا حازم ارفع إلي حوائجك، قال: تنجيني من النار وتدخلني الجنة، قال: ليس ذلك غلي، قال: فلا حاجة لي غيرها، قال: فادع لي الله يا أبا حازم، قال: اللهم إن كان سليمان وليك فيسره بخير الدنيا والآخرة، وإن كان عدوك فخذ بناصيته إلى ما تحب وترضى، قال سليمان: زدني، قال: يا أمير المؤمنين قد أوجزت وأكثرت إن كنت من أهله، وإن لم تكن من أهله فيما ينبغي لي أن أرمي عن قوس ليس لها وتر، قال: أوصني يا أبا حازم، قال: سأوصيك وأوجز: عظم ربك ونزهه أن يراك حيث نهاك أو يفقدك من حيث أمرك، ثم قام، فبعث إليه سليمان بمائة دينار وكتب إليه أن أنفقها ولك مثلها كثير، فردها عليه وكتب إليه: يا أمير المؤمنين أعوذ بالله أن يكون سؤالك إياي هزلاً وردي عليك باطلاً، فو الله ما أرضاها لك فكيف أرضاها لنفسي؟ يا أمير المؤمنين إن كانت هذه المائة عوضاً لما حدثتك فالميتة ولحم الخنزير في حل الاضطرار أحل من هذه، وإن كانت هذه حقاً لي في بيت المال فلي فيها

نظر، فإن سويت بيننا وإلا فلا حاجة لي فيها؛ قال له جلساؤه: يا أمير المؤمنين أيسرك أن يكون الناس كلهم مثله؟ قال: لا والله، قال أبو حازم: يا أمير المؤمنين إن بني إسرائيل ما داموا على الهدى والرشد كان أمراؤهم يأتون علماءهم رغبة فيما عندهم، فلما رئي قوم من أراذل الناس تعلموا العلم وأتوا به الأمراء يريدون به الدنيا استغنت الأمراء عن العلماء فتعسوا ونكسوا وسقطوا من عين الله عز وجل، ولو أن علماءهم زهدوا فيما عند الأمراء لرغب الأمراء في علمهم، ولكنهم رغبوا فيما عند الأمراء فزهدوا فيهم وهانوا في أعينهم، فقال: الزهري: إياي تعني وتعرض بي؟ فقال أبو حازم: لا والله ما تعمدتك ولكن هو ما تسمع؛ قال سليمان للزهري: هل تعرفه؟ قال: يا أمير المؤمنين إنه لجاري منذ ثلاثين سنة ما كلمته، قال أبو حازم: أجل والله لو أحببت الله لعرفتني ولكن لم تحب الله فنسيتني، فقال الزهري: يا أبا حازم تشتمني! قال: لا، ولكنك شتمت نفسك، أما علمت أن للجار حقاً كالقرابة؟ حقاً كالقرابة؟ جاء سليمان يوماً إلى طاوس فلم ينظر إليه، فقيل له في ذلك، فقال: أردت أن يعلم أن الله رجالاً يزهدون فيما لديه.

وشاور سليمان عمر بن عبد العزيز في أمر، فقال سليمان: هل علينا عين؟ فقال عمر نعم عين بصيرة لا تحتاج إلى تحديق، وسمع نافذ لا يحتاج إلى إصغاء.

حضر أعرابي إلى مائدة سليمان فجعل يمد يده فقال له الحاجب: كل ما بين يديك، فقال الأعرابي: من أجدب انتجع، فشق ذلك على سليمان وقال له: لا تعد إلينا؛ ودخل آخر فمد يده فقال له الحاجب: كل مما يليك، فقال: من أخصب تخير، فأعجب ذلك سليمان وقضى حوائجه.

وحكى عتيق بن عامر بن عبد الله بن الزبير قال: كنت نديماً لسليمان بن عبد الملك، وإني لعنده ذات يوم إذ دخل عليه عمر بن عبد العزيز فقال: يا أمير المؤمنين إن بالباب أعرابياً وله دين، فلو أذنت له فسمعت كلامه، قال: نعم، يا غلام، إيذن للأعرابي، فلما دخل عليه قال: يا أمير المؤمنين إني مكلمك بكلام فاحتمله فإن وراءه ما يحب إن قلته، فقال له: يا أعرابي إنا لنجود بالاحتمال على من لا نأمن غيبه ولا نرجو نصحه وأنت المأمون غيباً والناصح جيباً فهات، فقال الأعرابي: أما إذا أمنت بادرة غضبك فإني مطلق لساني بما خرست به الألسن بإذنه، لحق الله عز وجل وحق أمانتك يا أمير المؤمنين، إنه تكنفك قوم أساءوا الاختيار لأنفسهم وابتاعوا دنياك بآخرتهم ورضاك بسخط الله، خافوك في الله و لم يخافوا الله فيك فلا تأمنهم على ما ائتمنك الله عليه فإنهم لم يألوا الأمانة والأمة خسفاً وعسفاً وأنت مسؤول عما اجترحوا وليسوا مسؤولين عما اجترحت، فلا تفسد آخرتك بدنيا غيرك، فإن المغبون كل المغبون من أفسد آخرته بدنيا غيره، فقال له سليمانك أما أنت فقد سللت علينا لسانك وهو أقطع من سيفك، قال: نعم يا أمير المؤمنين وهو لك لا لغيرك، فقيل له: سل أمير المؤمنين حاجة، قال: ما آخذ خاصاً دون عام، ثم خرج.

ظلم عامل لسليمان رجلاً فقال: يا أمير المؤمنين إني أحذرك يوم الأذان، قال: وما يوم الأذان؟ قال: قوله تعالى: "فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين"، قال: لا جرم لا أبرح أو تصل إلى حقك.

وغضب سليمان بن عبد الملك على خالد القسري، فلما أدخل عليه قال: يا أمير المؤمنين إن القدرة تذهب الحفيظة وإنك تجل عن العقوبة، فإن تعف فأهل لذلك أنت، وإن تعاقب فأهل لذلك أنا، فعفا عنه.

احتال يزيد بن راشد في الدخول على سليمان متنكراً بعد أو لي الخلافة فقعد في السماط، وكان سليمان قد نذر أنه إن أفضت إليه الخلافة قطع لسانه لأنه كان ممن دعا إلى خلع سليمان والبيعة لعبد العزيز، فقال: يا أمير المؤمنين كن كنبي الله أيوب عليه السلام، ابتلي فصبر وأعطي فشكر وقدر فغفر، قال: ومن أنت؟ قال: يزيد بن راشد، فعفا عنه.

كان سليمان قد طلب يزيد بن أبي مسلم كاتب الحجاج، فلما دخل عليه مكبلاً بالحديد ازدراه وقال: لعن الله رجلاً رفعك ووجهك في أمره، فقال له: رأيتني والأمر عني مدبر وعليك مقبل، ولو رأيتني والأمر مقبل علي لاستعظمت مني ما استصغرت ولاستجللت مني ما استحقرت، قال: صدقت، اجلس لا أم لك، فلما جلس قال له سليمان: عزمت عليك لتخبرني عن الحجاج ما ظنك به، أتراه يهوي بعد في جهنم أو قد استقر فيها؟ فقال: يا أمير المؤمنين لا تقل هذا للحجاج فإنه بذل لكم نصحه وأحقن دونكم دمه وأمن وليكم وأخاف عدوكم، وإنه يأتي يوم القيامة عن يمين أبيك ويسار أخيك حيث شئت؛ فصاح سليمان: اخرج عني إلى لعنة الله.

بينما سليمان بن عبد الملك في مجلسه مر به رجل عليه ثياب يختال في مشيه، وكان العلاء بن كدير حاضراً فقال: ما ينبغي أن يكون إلا كوفياً وينبغي أن يكون من همدان، ثم قال: علي بالرجل، فأتي به فقال: ممن الرجل؟ فقال: ويلك دعني حتى ترتد إلي نفسي، فتركه هنيهة ثم قال له: ممن الرجل؟ فقال: من أهل العراق، قال: من أيهم؟ قال: من أ هل الكوفة، قال: من أي أهل الكوفة؟ قال: من همدان، فازداد عجباً، قال: ما تقول في أبي بكر؟ قال: ما أدركت دهره ولا أدركه دهري، ولقد قال الناس فيه وأحسنوا وهو إن شاء الله كذلك، قال: فما تقول في عمر؟ فقال مثل ذلك، فقال: ما تقول في عثمان؟ قال: ما أدركت دهره ولا أدركه دهري، ولقد قال فيه ناس فأحسنوا وقال فيه ناس فأساءوا وعند الله علمه، قال: فما تقول في علي؟ فقال مثل ذلك، قال: سب علياً، قال: لا أسبه، قال: والله لتسبنه أو لأضربن عنقك، فقال: والله لا أسبه، فأمر بضرب عنقه، فقام رجل بيده سيف فهزه حتى أضاء في يده كأنه خوصة وقال: لتسبنه أو لأضربن عنقك، قال: والله لا أسبه، ثم نادى: ويلك يا سليمان أدنني منك، فدعا به فقال: يا سليمان أما ترضى مني بما رضي به من هو خير منك ممن هو خير مني فيمن هو الشركة المتعهدة من علي؟ قال: وما ذلك؟ قال: الله تعالى رضي من عيسى وهو خير مني إذ قال في بني إسرائيل وهم الشركة المتعهدة من علي: "إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم". قال فنظرت إلى الغضب يتحدر من وجهه حتى صار في طرف أرنبته ثم قال: خليا سبيله، فعاد إلى مشيته فما رأيت رجلاً قط خيراً من ألف رجل غيره وإذا هو طلحة بن مطرف.

قال سليمان لعدي بن الرقاع: أنشدني قولك في الخمرة، فأنشده:

كميت إذا شجت وفي الكأس وردة	لها في عظام الشاربين دبيب
تريك القذى من دونها وهي دونه	لوجه أخيها في الإناء قطوب

فقال سليمان: شربتها ورب الكعبة! فقال عدي: والله يا أمير المؤمنين لئن رابك وصفي لها لقد رابني معرفتك بها، فتضاحكا وأخذا في الحديث.

وكان سليمان هرب من الطاعون، فقيل له: إن الله عز وجل يقول: "قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذا لا تمتعون إلا قليلاً". قال: ذلك القليل اطلب.

وقع بين ابن لعمر بن عبد العزيز وبين ابن لسليمان بن عبد الملك كلام فجعل ابن عمر يذكر فضل أبيه ويصفه فقال له ابن سليمان: إن شئت فأكثر أو فأقلل، ما كان أبوك إلا حسنة من حسنات أبي، لأن سليمان هو الذي ولى عمر بن عبد العزيز.

السلطان سنجر السلجوقي

أبو الحارث سنجر بن ملكشاه بن ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق؛ سلطان خراسان وغزنة وما وراء النهر، وخطب له بالعراقين وأذربيجان وأران وأرمينية والشام والموصل وديار بكر وربيعة والحرمين، وضربت السكة باسمه في الخافقين، وتلقب بالسلطان الأعظم معز الدين.

كان من أعظم الملوك همة، وأكثرهم عطاء، ذكر عنه أنه اصطبح خمسة أيام متوالية ذهب في الجود بها كل مذهب، فبلغ ما وهبه من العين سبعمائة ألف جينار، غير ما أنعم من الخيل والخلع والأثاث وغير ذلك.

وقال خازنه: اجتمع في خزائنه من الأموال ما لم أسمع أنه اجتمع في خزائن أحد من الملوك الأكاسرة، وقلت له يوماً: حصل في خزائنك ألف ثوب ديباج أطلس وأحب أن تبصرها، فسكت، وظننت أنه رضي بذلك، فأبرزت جميعها، وقلت: أما تنظر إلى مالك؟ أما تحمد الله تعالى على ما أعطاك وأنعم عليك؟ فحمد الله تعالى، ثم قال: يقبح بمثلي أن يقال: ما إلى المال، وأمر للأمراء بالإذن في الدخول فدخلوا عليه، ففرق عليهم الثياب الطلس وانصرفوا. واجتمع عنده من الجوهر ألف وثلاثون رطلاً، ولم يسمع عند أحد من الملوك بمثل هذا ولا بما يقاربه، ولم يزل أمره في ازدياد وسعادته في الترقي إلى أن ظهرت عليه الأغز –وهم طائفة من الترك–في سنة ثمان وأربعين وخمسمائة، وهي واقعة مشهورة استشهد فيها الفقيه محمد بن يحيى–كما سيأتي في ترجمته إن شاء الله تعالى–وكسروه وانحل نظام ملكه، وملكوا نيسابور وقتلوا فيها خلقاً لا يحصى عدده، وأسروا السلطان سنجر، وأقام في اسرهم مقدار خمس سنين، وتغلب خوارزم شاه على مدينة مرو، وتفرقت مملكة خراسان.

ثم إن سنجر أفلت من الأسر وعاد إلى خراسان وجمع إليه أطرافه بمرو، وكان يعود إلى ملكه، فأدركه أجله.
وكانت ولادته يوم الجمعة لخمس بقين من رجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة بظاهر مدينة سنجار، ولذلك سمي سنجر، فان والده السلطان ملكشاه لما اجتاز بديار ربيعة ونزل على سنجار جاءه هذا الولد، فقالوا: ما نسميه؟ فقال: سموه سنجر، وأخذ هذا الاسم من اسم المدينة.
وتولى المملكة في سنة تسعين واربعمائة نيابة عن أخيه بر كياروق -كما تقدم ذكره في حرف الباء-ثم استقل بالسلطنة في سنة اثنتي عشرة وخمسمائة.
وتوفي يوم الاثنين رابع عشر شهر ربيع الأول سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة بمرو، ودفن بها بعد خلاصه من الأسر، وانقطع بموته استبداد الملوك السلجوقية بخراسان، واستولى على أكثر مملكته خوارزم شاه أتسز بن محمد بن أنوشتكين رحمه الله تعالى، وهو جد السلطان محمد بن تكش خوارزم شاه، فسبحان من لا يزول ملكه. وذكر ابن الأزرق الفارقي في تاريخه أنه مات سنة خمس وخمسين وخمسمائة، والله أعلم بذلك.
وقال غيره: توفي في جمادى الآخرة من السنة، وقطعت الخطبة ببغداد للسلجوقية عند وصول خبر وفاته في أيام المقتفي لأمر الله، وكتب إلى بلاد الجزيرة الفراتية والشام بقطع الخطبة في هذه السنة، والله أعلم.

أبو محمد التستري

أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس بن عيسى بن عبد الله بن رفيع التستري الصالح المشهور؛ لم يكن له في وقته نظير في المعاملات والورع؛ وكان صاحب كرامات، ولقي الشيخ ذا النون المصري رحمه الله تعالى بمكة حرسها الله تعالى، وكان له اجتهاد وافر ورياضة عظيمة، وكان سبب سلوكه هذا الطريق خاله محمد بن سوار، فإنه قال: قال لي خالي يوماً: ألا تذكر الله الذي خلقك؟ فقلت له: كيف أذكره؟ قال: قل بقلبك عند تقلبك في ثيابك ثلاث مرات من غير أن تحرك به لسانك؟ الله معي، الله ناظر إلي، الله شاهدي، فقلت ذلك ليالي، ثم أعلمته، فقال: قلها في كل ليلة سبع مرات، فقلت ذلك، ثم أعلمته، فقال: قلها في كل ليلة إحدى عشرة مرة، فقلت ذلك، فوقع في قلبي حلاوة، فلما كان بعد سنة قال لي خالي: احفظ ما علمتك ودم عليه إلى أن تدخل القبر فإنه ينفعك في الدنيا والآخرة، فلم أزل على ذلك سنين، فوجدت لها حلاوة في سري.
ثم قال لي خالي يوماً: يا سهل، من كان الله معه وهو ناظر إليه وشاهده بعصيه؟ إياك والمعصية. فكان ذلك أول أمره، وسكن البصرة زماناً وعبادان مدة.
وكان قد اعتقل بطن يعقوب بن الليث في بلد فارس، فجمع له الأطباء فلم يغنوا عنه، فوصف له سهل بن عبد الله، فأمر بإحضاره فأحضر، فلما دخل عليه قعد عند رأسه وقال: اللهم أريته ذل المعصية فأره عز الطاعة، ففرج الله عنه من ساعته، فأخرج إليه بدراً وثياباً فردها وما قبل منها شيئاً، فلما رجع إلى تستر قال له بعض أصحابه: لو أخذت تلك الدراهم وفرقتها على الفقراء، فقال: انظر إلى الأرض، فإذا الأرض كلها ذهب؛ ثم قال: من كان حاله مع الله سبحانه هذا لا يستكثر هذا.
وكانت وفاته سنة ثلاث وثمانين في المحرم، وقيل سنة ثلاث وسبعين ومائتين، رضي الله عنه، بالبصرة. وذكر شيخنا ابن الأثير في تاريخه أن مولده في سنة مائتين، وقيل إحدى ومائتين بتستر.
والتستري: بضم التاء المثناة من فوقها وسكون السين المهملة وفتح التاء الثانية وبعدها راء، هذه النسبة إلى تستر، وهي بلدة من كور الأهواز من خوزستان، يقول لها الناس ششتر -بشينين معجمتين-بها قبر البراء بن مالك رضي الله عنه.

أبو حاتم السجستاني

أبو حاتم سهل بن محمد بن عثمان بن يزيد الجشمي السجستاني النحوي اللغوي المقرئ، نزيل البصرة وعالمها؛ كان إماماً في علوم الآداب، وعنه أخذ علماء عصره كأبي بكر محمد بن دريد والمبرد وغيرهما، وقال المبرد: سمعته يقول: قرأت كتاب سيبويه على الأخفش مرتين، وكان كثير الرواية عن أبي زيد الأنصاري وأبي عبيدة والأصمعي، عالماً باللغة والشعر، حسن العلم بالعروض وإخراج المعمى، وله شعر جيد، ولم يكن حاذقاً في النحو، وكان إذا

اجتمع بأبي عثمان المازني في دار عيسى بن جعفر الهاشمي تشاغل أو بادر بالخروج خوفاً من أن يسأله عن مسألة في النحو. وكان صالحاً عفيفاً يتصدق كل يوم بدينار، ويختم القرآن في كل أسبوع، وله نظم حسن. وكان أبو العباس المبرد يحضر حلقته، ويلازم القراءة عليه، وهو غلام وسيم في نهاية الحسن فعمل فيه أبو حام المذكور:

فإذا لقيت اليوم من ... متمجن خنث الكلام
وقف الجمال بوجهه ... فسمت له حدق الأنام
حركاته وسكونه ... تجنى بها ثمر الأثام
وإذا خلوت بمثله ... وعزمت فيه على اعتزام
لم أعد أفعال العف ... ف، وذاك أوكد للغرام
نفسي فداؤك يا أبا ال ... عباس جل بك اعتصامي
فارحم أخاك فإنه ... نزر الكرى بادي السقام
وأنله ما دون الحرا ... م فليس يرغب في الحرام

ومن شعر أبي حاتم أيضاً:

أبرزوا وجهه الجميل ... ولاموا من افتتن
لو أرادوا عفافنا ... ستروا وجهه الحسن

وله أيضاً:

كبد الحسود تقطعي ... قد بات من أهوى معي

وله غير ذلك كثير.

قال محمد بن الحسن الأزدي: حدثنا أبو حاتم قال: وفد علينا عامل من أهل الكوفة ولم أر في عمال السلطان أبرع منه، فدخلت عليه مسلماً فقال لي: يا سجستاني، من علماؤكم بالبصرة؟ قلت: الزيادي أعلمنا بعلم الأصمعي، والمازني أعلمنا بالنحو، وهلال الرأي أفقهنا، والشاذكوني من أعلمنا بالحديث، وأنا-رحمك الله-انسب إلى علم القرآن، وابن الكلبي من أكتبنا للشروط. قال: فقال لكاتبه: إذا كان غداً فاجمعهم الي، قال: فجمعنا فقال: أيكم المازني؟ فقال أبو عثمان: ها أنا ذا، قال: هل يجزي في كفارة الطهارة عتق عبد أعور؟ قال المازني: لست صاحب فقه، أنا صاحب عربية، قال: يا زيادي، كيف يكتب بين بعل وامرأة خالعها على الثلث من صداقها؟ قال: ليس هذا من علمي، هذا من علم هلال الرأي، قال: يا هلال، كم اسند ابن عون عن الحسن؟ قال: ليس هذا من علمي، هذا من علم الشاذكوني، قال: يا شاذكوني، من قرأ: "ألا أنهم يثنون صدورهم". قال: ليس هذا من علمي، هذا من علم أبي حاتم، قال: يا أبا حاتم، كيف تكتب كتاباً إلى أمير المؤمنين تصف خصاصة أهل البصرة وما أصابهم بي وتسأله النظر بالبصرة؟ قلت: لست صاحب براعة وكتابة، أنا صاحب قرآن؛ قال: ما أقبح بالرجل يتعاطى العلم خمسين سنة لا يعرف إلا فناً واحداً حتى إذا سئل عن غيره لم يحل فيه ولم يمر، لكن عالمنا بالكوفة الكسائي لو سئل عن هذا كله لأجاب.

وقال أبو حاتم لتلميذه: إذا أردت أن تضمن كتاباً سراً فخذ لبناً حليباً فاكتب به في قرطاس، فيذر المكتوب إليه عليه رماداً سخناً من رماد القراطيس فيظهر المكتوب، وإن كتبته بماء الزاج الأبيض، فإذا ذر عليه المكتوب إليه شيئاً من العفص ظهر، وكذا بالعكس.

وله من المصنفات كتاب "إعراب القرآن" وكتاب "ما يلحن فيه العامة" وكتاب "الطير" وكتاب "المذكر والمؤنث" وكتاب "النبات" وكتاب "المقصور والممدود" وكتاب "الفرق" وكتاب "القراءات" وكتاب "المقاطع والمبادي" وكتاب "الفصاحة" وكتاب "النخلة" وكتاب "الأضداد" وكتاب "القسي

والنبال والسهام" وكتاب "السيوف والرماح" وكتاب "الدرع والفرس" وكتاب "الوحوش" وكتاب "الحشرات" وكتاب "الهجاء" وكتاب "الزرع" وكتاب "خلق الانسان" وكتاب "الإدغام" وكتاب "اللبأ واللبن والحليب" وكتاب "الكرم" وكتاب "الشتاء والصيف" وكتاب "النحل والعسل" وكتاب "الإبل" وكتاب "العشب" وكتاب "الخصب والقحط" وكتاب "اختلاف المصاحف" وغير ذلك من المصنفات.

وكانت وفاته في الحرم، وقيل رجب، سنة ثمان وأربعين ومائتين، وقيل سنة خمسين، وقيل أربع وخمسين، وقيل خمس وخمسين ومائتين بالبصرة، وصلى عليه سليمان بن جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب الهاشمي، وكان والي البصرة يومئذ، ودفن بسرة المصلى، رحمه الله تعالى.

والجشمي: بضم الجيم وفتح الشين المثلثة وبعدها ميم، هذه النسبة إلى عدة قبائل يقال لكل واحدة منها جشم، ولا أدري إلى أيها ينسب أبو حاتم المذكور.

والسجستاني: قد تقدم الكلام عليه.

أبو الفتح الأرغياني

أبو الفتح سهل بن أحمد علي الأرغياني الفقيه الشافعي؛ كان إماماص كبير المقدار في العلم وتفقه بمرو على الشيخ أبي علي السنجي-المقدم ذكره في حرف الحاء-ثم قرأ على القاضي حسين بن محمد المروروذي وحصل طريقته، حتى قال: ما علق أحد طريقتي مثله. ودخل نيسابور وقرأ أصول الفقه على إمام الحرمين أبي المعالي الجويني، وناظر في مجلسه وارتضى كلامه، ثم عاد إلى ناحية أرغيان، وتقلد قضاءها سنين مع حسن السيرة وسلوك الطرائق المرضية، ثم خرج إلى الحج ولقي للشايخ بالعراق والحجاز والجبال وسمع منهم وسمعوا منه، ولما رجع من مكة، حرسها الله تعالى، دخل على الشيخ العارف الحسن السمناني شيخ وقته زائراً فأشار عليه بترك المناظرة فتركها و لم يناظر بعد ذلك، وعزل نفسه عن القضاء ولزم البيت والانزواء، وبنى للصوفية دويرة من ماله، وأقام بها مشغولاً بالتصنيف والمواظبة على العبادة إلى أن توفي على تيقظ من حاله مستهل المحرم سنة تسع وتسعين وأربعمائة، رحمه الله تعالى.

وهو صاحب الفتاوى المنسوبة إليه، وسمع جماعة من الأئمة مثل أبي بكر البيهقي وناصر المروزي وعبد الغافر بن إسماعيل بن عبد الغافر الفارسي صاحب "مجمع الغرائب" و"ذيل تاريخ نيسابور" وغيرهم، رحمهم الله تعالى.

والأرغياني: بفتح الهمزة وسكون الراء وكسر الغين المعجمة وفتح الياء المثناة من تحتها وبعد الألف نون، هذه النسبة إلى أرغيان وهي اسم لناحية من نواحي نيسابور بها عدة من القرى.

أبو الطيب الصعلوكي

أبو الطيب سهل بن محمد بن سليمان بن محمد بن سليمان الصعلوكي النيسابوري الفقيه الشافعي-وسيأتي ذكر أبيه ورفع نسبه في حرف الميم إن شاء الله تعالى-؛ كان أبو الطيب المذكور مفتي نيسابور وابن مفتيها، أخذ الفقه عن أبيه أبي سهل الصعلوكي، وكان في وقته يقال له "الإمام" وهو متفق عليه، عديم النظير في علمه وديانته، وسمع أباه ومحمد بن يعقوب الأصم وابن مطر وأقرانهم. وكان فقيهاً أديباً متكلماً، خرجت له الفوائد من سماعاته، وقيل إنه وضع له في المجلس أكثر من خمسمائة محبرة وجمع رياسة الدنيا والآخرة وأخذ عنه فقهاء نيسابور.

وتوفي في المحرم سنة سبع وثمانين وثلثمائة، رحمه الله تعالى. وقال أبو يعلى الخليلي في كتاب "الإرشاد": إنه توفي أول سنة اثنتين وأربعمائة، والله أعلم بالصواب.

والصعلوكي: بضم الصاد المهملة وسكون العين المهملة وضم اللام وسكون الواو وفي آخرها كاف، هذه النسبة إلى صعلوك، هكذا ذكره السمعاني وما عليه.

قال عبد الواحد اللخمي: أصاب سهلاً الصعلوكي رمد فكان الناس يدخلون عليه وينشدونه من النظم ويروون له من الآثار ما جرت به العادة، فدخل

عليه الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي وقال: أيها الإمام، لو أن عينيك رأتا وجهك ما رمدت، فقال له الشيخ سهل: ما سمعت بأحسن من هذا الكلام، وسر به.

ولما مات أبوه محمد بن سليمان-في التاريخ الآتي ذكره في ترجمته-كتب أبو النضر ابن عبد الجبار إلى أبي الطيب المذكور يعزيه عن والده:

من مبلغ شيخ أهل العلم قاطبة عني رسالة محزون وأواه

أولى البرايا بحسن الصبر ممتحناً من كان فتياه توقيعاً عن الله

حرف الشين

شاور وزير مصر

أبو شجاع شاور بم مجير بن نزار بن عشائر بن شأس بن مغيث بن حبيب ابن الحارث بن ربيعة بن يخنس بن أبي ذؤيب عبد الله-وهو والد حليمة مرضع رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال ابن الكلبي في "جمهرة النسبة": حليمة مرضع النبي صلى الله عليه وسلم ابنة أبي ذؤيب وهو الحارث بن عبد الله بن شجنة بن جابر ابن ناصرة، أرضعته بلبن ابنتها الشيماء بنت الحارث بن عبد العزى بن رفاعة ابن ملان، وهو الذي حضن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما كان عنده حليمة، والشيماء المذكورة كانت تحمل النبي صلى الله عليه وسلم فعضها وهي تحمله فلما وفدت عليه أرته الأثر، والله أعلم-ابن الحارث بن شجنة بن جابر بن رزام بن ناصرة بن قصية بن نصر بن سعد بن بكر بن هوازن السعدي.

كان الصالح بن رزيك وزيراً العاضد صاحب مصر قد ولاه الصعيد الأعلى من ديار مصر، ثم ندم على توليته، ولما جرح الصالح وأشرف على الوفاة-كما سيأتي في ترجمته في حرف الطاء إن شاء الله تعالى-كان يعد لنفسه زويلة، فإنه كان قد بقي عوناً لم يحاصر القاهرة، وثالثتها خرجه إلى بلبيس بالعساكر ورجوعه بعد أن أنفق فيهم أكثر من مائتي ألف دينار حيث لم يتم إلى بلاد الشام ويفتح بيت المقدس ويسأصل شأفة الفرنج.

ثم إن شاور تمكن في الصعيد، وكان ذا شهمة وفروسية، وكان الصالح قد أوصى ولده العادل رزيك أن لا يتعرض لشاور بمساءة ولا يغير عليه حاله، فإنه لا يأمن عصيانه والخروج عليه، وكان كما أشار، والشرح يطول. وقدم من الصعيد على واحات، واخترق تلك البراري إلى أن خرج عند تروجة بالقرب من الإسكندرية، وتوجه إلى القاهرة ودخلها يوم الأحد الثاني والعشرين من المحرم سنة ثمان وخمسين وخمسمائة. وهرب العادل رزيك وأهل من القاهرة ليلة العشرين من المحرم المذكور، وقتل العادل بن الصالح، وأخذ موضعه من الوزارة واستولى. ثم توجه في سنة ثمان وخمسين وخمسمائة في شهر رمضان منها إلى الشام مستنجداً بالملك العادل نور الدين محمود بن زنكي في شهر رمضان منها إلى الشام مستنداً بالملك العادل نور الدين محمود بن زنكي صاحب الشام لما خرج عليه أبو الأشبال ضرغام بن عامر بن سوار الملقب فارس المسلمين اللخمي المنذري نائب الباب بجموع كثيرة وغلبه وأخرجه من القاهرة، وقتل ولده طياً، وولي الوزارة مكانه-كعادة المصريين-فأنجده بالأمير أسد الدين شيركوه، والقصة مشهورة فلا حاجة إلى الإطالة فيها، وآخر الأمر أن أسد الدين تردد إلى الديار المصرية ثلاث دفعات-كما سيأتي في ترجمته من هذا الحرف إن شاء الله تعالى-.

وقتل شاور يوم الأربعاء سابع عسر، وقيل ثامن عشر شهر ربيع الآخر سنة أربع وستين وخمسمائة، ودفن في تربه ولده طي، وتربته بالقرافة الصغرى بالقرب من تربة القاضي الفاضل، وكان المباشر لتفة الأمير عز الدين جرديك عتيق نور الدين صاحب الشام. وقال الروحي في كتاب "تحفة الخلفاء": إن السلطان صلاح الدين أوقع به، وكان إذ ذاك في صحبة عمه أسد الدين وإن قتله كان يوم الست منتصف جمادى من السنة المذكورة، رحمه الله تعالى. وذكر ابن شداد في سيرة صلاح الين" أن شاور المذكور خرج إلى أسد الدين في موكبه، فلم يتجاسر أحد عليه إلا صلاح الدين، فإنه تلقاه وسار إلى جانبه وأخذ بتلابيبه وأمرالعسكر بقصد أصحابه، ففروا ونهبهم العسكر، وأنزل شاور في خيمة مفرده، وفي الحال جاء توقيع على يد خادم خاص من جهة المصريين يقول: لابد من رأسه، جرياً على عادهم مع وزرائهم، فحز رأسه وأنقذه إليهم، وسير إلى أسد الدين خلع الوزارة فلبسها، وسار ودخل القصر وترتب وزيراً، وذلك في سابع عشر شهر ربيع الآخر من السنة المذكورة.

وذكر الحافظ ابن عساكر في تاريخه أن شاور وصل إلى نور الدين مستجيراً فأكرمه واحترمه وبعث معه جيشاً فقتلوا خصمه و لم يقع منه الوفاء بما ورد من جهته، ثم إن شاور بعث إلى ملك الفرنج واستنجده وضمن له أمولاً، فرجع عسكر نور الدين إلى الشام، وحدث ملك الفرنج نفسه بملك مصر، فحضر إلى بلبيس وأخذها وخيم عليهان فلما بلغ نور الدين ذلك جهز عسكراً إليها، فلما سمع العدو بتوجه الجيش رجعوا خائبين، واطلع من شاور على المخامرة، وأنفذ يراسل العدو طمعاً منه في المظافرة، فلما خيف من شره تمارض أسد الدين فجاءه شاور عائداً له فوثب جرديك وبرغش موليا نور الدين فقتلا شاور، وكان ذلك برأي الملك الناصر صلاح الدين، فإنه أول من تولى القبض عليه ومد يده بالمكروه إليه، وصفا الأمر لأسد الدين، وظهرت السنة بالديار المصرة، وخطب فيها بعد اليأس للدولة العباسية.

وللفقيه عمارة اليمني–الآتي ذكره–فيه مدائح، من جملتها قوله من جملة قصيد:

ضجر الحديد من الحديد وشاور … من نصر دين محمد لم يضجر

حلف الزمان ليأتين بمثله … حنثت يمينك يا زمان فكفر

وحكى الفقيه عمارة المذكور أنه لما تم الأمر لشاور وانقرضت دولة بني زيك جلس شاور وحوله جماعة من أصحاب بني رزيك وممن لهم عليهم إحسان وإنعام، فوقعوا في بني رزيك تقرباً إلى قلب شاور، وكان الصالح بن رزيك وابنه العادل قد أحسنا إلى عمارة عند دخوله إلى الديار المصرية، قال: فأنشدته:

صحت بدولتك الأيام من سقم … وزال ما يشتكيه الدهر من ألم

زالت ليالي بني رزيك وانصرمت … والحمد والذم فيها غير منصرم

كأن صالحهم يوماً وعادلهم … في صدر ذا الدست لم يقعد ولم يقم

هم حركوها عليهم وهي ساكنة … والسلم قد ينبت الأوراق في السلم

كما نظن وبعض الظن مأثمة … بأن ذلك جمع غير منهزم

فمذ وقعت وقوع النسر خانهم … من كان مجتمعاً من ذلك الرخم

ولم يكونوا عدواً ذل جانبه … وإنما غرقوا في سيلك العرم

وما قصدت بتعظيمي عداك سوى … تعظيم شأنك فاعذرني ولا تلم

ولو شكرت لياليهم محافظة … لعهدها لم يكن بالعهد من قدم

ولو فتحت فمي يوماً بذمهم … لم يرض فضلك إلا أن يسد فمي

والله يأمر بالإحسان عارفة … منه وينهى عن الفحشاء في الكلم

قال عمارة: فشكرني شاور وولداه على الوفاء لبني رزيك.

وأما الملك المنصور أبو الأشبال ضرغام بن سوار اللخمي المذكور فإنه لما وصل شاور من الشام بالعساكر خرج من القاهرة وقتل يوم الجمعة الثامن والعشرين من شهر جمادى الآخرة، وقيل في رجب سنة تسع وخمسين وخمسمائة، وكان قتله عند مشهد السيد نفيسة رضي الله عنها، فيما بين القاهرة ومصر، وحزوا رأسه وطافوا به على رمح، وبقيت جثته هناك ثلاثة أيام تأكل منها الكلاب، ثم دفن عند بركة الفيل وعمر عليه قبة، هكذا وجدته في بعض التواريخ، وعلى البركة قبة، وغالب ظني أنها هي المذكورة.

وواحات: بفتح الواو وبعد الألف حاء مهملة وبعد الألف الثانية تاء مثناة من فوقها، وهي بلاد بنواحي الديار المصرية مستطيلة في طول صعيدها داخل البرية مما يلي أرض برقة وطريق المغرب.

وتروجة: بفتح التاء المثناة من فوقها والراء وبعد الواو الساكنة جيم ثم هذه ساكنة، وهي قرية بالقرب من الإسكندرية أكثر زراعة أهلها الكرويا. ونقلت نسبه على هذه الصورة من شجرة أحضرها إلي أحد حفدته.

شاور بن مجير الوزير المصري

بعد النسب المتقدم في الترجمة السابقة وزير العاضد صاحب مصر، ولي الوزارة له سنة ثمان وخمسين وخمسمائة في صفر منها، وكان ابتداء امره أنه كان يخدم الصالح بن رزيك، فأقبل عليه وولاه الصعيد وهو أكبر الأعمال بعد الوزارة، وظهرت منه كفاءة عظيمة وتقدم واستمال الرعية والمقدمين من العرب وغيرهم، فعسر أمره على الصالح و لم يمكنه عزله، فاستدام استعماله لئلا يخرج عن طاعته. ولما جرح الصالح وأشرف على الوفاة كان يعد لنفسه ثلاث غلطات إحداها تولية شاور. ولما حضر الصالح الموت كان من جملة وصيته للعادل رزيك ولده: أنك لا تغير على شاور فإنني أنا أقوى منك وقد ندمت على استعماله و لم يمكني عزله فلا تغيروا عليه فيكون لكم ما تكرهون. فلما توفي الصالح وتولى ابنه العادل الوزارة حسن له أهله عزل شاور واستعمال بعضهم مكانه وخوفوه منه أن اقره على عمله، فأرسل إليه بالعزل فجمع جموعاً كبيرة وقدم من الصعيد على واحات واخترق تلك البراري إلى أن قدم عند تروجة من الاسكندرية وتوجه إلى القاهرة، فهرب منه العادل بن ريك فأخذ وقتل. وكانت مدة وزارته وزارة أبيه تسع سنين وشهراً واحداً وأياماً.

وصار شاور وزيرا تلقب بأمير الجيوش، وكان ذا شهامة ونجابة وفروسية. ثم أن الضرغام جمع جموعاً كبيرة ونازع شاور في الوزارة، وفي شهر رمضان ظهر أمره وانهزم شاور منه إلى الشام وصار ضرغام وراءه. فلما تمكن ضرغام من الوزارة، قتل كثيراً من الامراء المصريين لتخلو له البلاد من منازع. ثم ان شاور لما نازعه ضرغام في الوزارة قصد نور الدين محمود بن زنكي ملتجئاً إليه مستجيراً به، فأكرم مثواه وأحسن إليه وانعم عليه، وطلب منه إرسال العساكر معه إلى مصر ليعود إلى منصبه، ويكون لنور الدين ثلث خراج مصر بعد اقطاعات العساكر، ويكون شيركوه مقيماً بعساكره في مصر ويتصر بأمر نور الدين واختياره. وفبقي نور الدين يقدم إلى هذا العرض رجلاً ويؤخر أخرى، فتارة تحمله رعاية قصد شاور به وطلب الزيادة في الملك والتقوي على الفرنج، وتارة يمنعه خطر الطريق من أجل الفرنج وخوفاً من أن شاور أن استقرت قاعدته ربما لا يفي؛ ثم قوي عزمه على ارسال الجيوش، فتقدم بتجهيزها وازاحة عللها. وكان هوى أسد الدين في ذلك وعنده من الشجاعة وقة النفس ما لا يبالي بمخافة، فتجهز وساروا جميعاً وشاور صحبتهم في جمادى الأولى سنة تسع وخمسين، وتقدم نور الدين إلى شيركوه أن يعيد شاور إلى منصبه وينتقم له ممن نازعه، ووصل أسد الدين والعساكر إلى مدينة بلبيس، فخرج إليهم ناصر الدين أخو ضرغام بعسكر المصريين ولقيهم فانهزم وعاد إلى القاهرة مهزوماً، ووصل أسد الدين إلى القاهرة أواخر جمادى الآخرة، فخرج الملك المنصور أبو الأشبال ضرغام بن عامر بن سوار الملقب فارس المسلمين اللخمي المنذري–المذكور أول الترجمة–من القاهرة سلخ الشهر، فقتل عند مشهد السيدة نفيسة وبقي يومين ثم حمل ودفن بالقاهرة. وقتل أخوه ناصر الدين، وخلع على شاور مستهل رجب واعيد إلى الوزارة وتمكن منها، والقصة مشهورة...

وحدث ملك الفرنج نفسه بملك مصر وأخذ بلبيس وحكم عليها، وكان استقر بينهم وبين المصريين أن يكون لهم بالقاهرة شحنة وتكون أسوارها بيد فرسانهم ليمتنع نور الدين من إيفاد عسكر إليهم ويكون لهم من دخل مصر كل سنة مائة ألف دينار، وهذا كله استقر مع شاور فإن العاضد لم يكن له معه حكم، قد حجر عليه وحجبه عن الأمور كلها.

وعاد الفرنج إلى بلاد الساحل الشامي وتركوا بمصر جماعة من مشاهير فرسانهم. وكان الكامل شجاع بن شاور قد أرسل إلى نور الدين مع بعض الأمراء ينهي إليه محبته وولاءه ويسأله الدخول في طاعته، وضمن على نفسه أنه يجمع الكلمة بمصر على طاعته وبذل مالاً يحمله كل سنة، فأجابه إلى ذلك وحملوا إليه مالاً جزيلاً، فبقي الأمر على ذلك إلى أن قصد الفرنج مصر سنة أربع وستين.

وفي ربيع الأول من هذه السنة، سار أسد الدين شيركوه إلى ديار مصر ومعه العساكر النورية، وسبب ذلك ما ذكرناه من تمكن الفرنج وأنهم جعلوا لهم في القاهرة شحنة وتسلموا أبوابها وجعلوا فيها جماعة من فرسانهم وحكموا على المسلمين حكماً جائراً، فلما رأوا ذلك وأن البلاد ليس فيها من

يردهم، ارسلوا إلى ملك الفرنج بالشام، وهو مري، و لم يكن للفرنج منذ ظهروا بالشام مثله شجاعةً ومكراً ودهاءً، يستدعونه ليمكلها واعلموه خلوها من ممانع وهونوا عليه أمرها، فلم يجبهم إلى ذلك، فاجتمع عنده فرسان الفرنج وذو الرأي وأشاروا عليه بقصدها، فقال لهم: الرأي عندي أنا لا نقصدها لنملكها فإن صاحبها وعساكره وعامة بلاده لا يسلمونها إلينا ويقاتلوننا دونها ويجعلهم الخوف على تسليمها إلى نور الدين، وأن أخذها وصار له فيها مثل أسد الدين فهو هلاك الفرنج وإجلاؤهم من أرض الشام، فلم يقبلوا قوله وقالوا أنها لا مانع فيها ولا حامي، وإلى أن يجهز نور الدين عسكراً نكون قد ملكناها وفرغنا من أمرها وحينئذ يتمنى نور الجين منا السلامة. فسار معهم على كره وشرعوا يتجهزون ويظهرون أنهم يقصدون مدينة حمص. فلما سمع نور الدين شرع أيضاً في جمع عسكره. وجد الفرنج في السير إلى مصر ونازلوا مدينة بلبيس وملكوها قهراً ونهبوا فيها وأسروا وسبوا. وكان جماعة من أعيان المصريين قد كاتبوا الفرنج ووعدوهم النصرة عداوة منهم لشاور، منهم ابن الخياط وابن مرجلة، فقوي جنان الفرنج بهم، وساروا من بلبيس إلى مصر فترلوا على القاهرة وحصروها، فخاف الناس منهم واقبلوا على الامتناع فحفظوا البلد وقاتلوا عليه وبذلوا جهدهم في حفظه. فلو أن الفرنج أحسنوا السيرة في بلبيس لملكوا مصر والقاهرة، ولكن الله حسن لهم ما فعلوا ليقضي الله أمراً كان مفعولاً. وأمر شاور باحراقها مدينة مصر، وامر أهلها بالانتقال منها إلى القاهرة وان ينهب البلد، فانتقلوا وبقوا على الطرق ونهبت المدينة وافتقر أهلها وذهبت أموالهم ونعمتهم قبل نزول الفرنج عليهم بيوم أو يومين خوفاً أن يملكها الفرنج، وبقيت النار فيها أربعة وخمسين يوماً. فأرسل الخليفة العاضد إلى نور الدين يستغيث به ويعرفه ضعف المسلمين عن دفع الفرنج، وأرسل في الكتب شعور النساء وقال: هذه شعور نسائي من قصر تستغيث بك لتنقذهم من الفرنج. فشرع في تجهيز الجيوش.

وأما الفرنج فانهم اشتدوا في حصار القاهرة وضيقوا على أهلها وشاور هو المتولي للأمر والعساكر والقتال، فضاق به المر وضعف عن ردهم، فأخذ في إعمال الحيلة، فأرسل إلى ملك الفرنج يعرفه مودته له ومحبته القديمة، وأن هواه معه لخوفه من نور الدين ومن العاضد، وأن المسلمين لا يوافقونه على التسليم إليه، وبشر بالصلح على أن يعطيه ألف ألف دينار مصرية، يعجل البعض ويؤخر الباقي، فاستقرت القاعدة على ذلك. ورأى الفرنج أن البلاد قد امتنعت عليهم وربما سلمت إلى نور الدين، فأجابوا إلى ذلك فقالوا: نأخذ المال ونتقوى به ونعاود البلاد بقوة لا نبالي معها بنور الدين، ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين. فجعل لهم شاور مائة ألف دينار وسألهم الرحيل عنهم ليجمع لهم المال، فرحلوا وشرع شاور يجمع المال من أهل القاهرة ومضى فلم يتحصل له إلا قدر يسير لا يبلغ خمسة آلاف دينار وتنبه أن أهل مصر أحرقت دورهم بما فيها وما سلم نهب وهم لا يقدرون على الأقوات فضلاًعلى الأقساط، وأما أهل القاهرة فالأغلب فيهم الجند وغلمانهم فلهذا تعذر جمع المال، وهم في خلال هذا يراسلون نور الدين بما الناس فيه وبذلوا له ثلث خراج ديار مصر وأن يكون أسد الدين مقيماً عندهم في عسكر يكون مقطعاً في الديار المصرية خارجاً عن الثلث المختص به.

فأسر نور الدين لأسد الدين بالتجهيز إلى مصر وأعطاه مائتي ألف دينار سوى الثياب والأسلحة والدواب وغير ذلك وحكمه في العسكر والخزائن، فاختار من العسكر الفي فارس وأخذ المال وجمع ستة آلاف فارس وسار بهم هو وصلاح الدين ابن أخيه. فلما قرب أسد الدين من مصر رحل الفرنج عنها عائدين إلى بلادهم بخفي حنين. فلما وصل أسد الدين إلى القاهرة دخل إلى العاضد فخلع عليه وعاد إلى المخيم بالخلعة وفرح بها أهل مصر وأجريت عليه وعلى عسكره الجرايات الكثيرة والاقامات الوافرة. و لم يمكن شاور المنع من ذلك لأنه رأى العساكر كثيرة مع شيركوه وهوى العاضد معهم، فلم يتجاسر على إظهار ما في نفسه وشرع يماطل أسد الدين في تقدير ما كان بذل لنور الدين من المال وإقطاع الجند وهو يركب كل يوم إلى أسد الدين ويسير معه ويعده ويمنيه. ثم أنه عزم على أن يعمل دعوة يدعو لها أسد الدين وجماعة من الأمراء الذين معه ويقبض عليهم ويستخدم من معهم من الجند فتمنع بهم البلاد من الفرنج، فنهاه ابنه الكامل وقال: والله لئن عزمت على هذا لأعرفن شيركوه، فقال له أبوه: والله لئن لم نفعل هذا لنقتلن جميعاً، فقال: صدقت ولكن نقتل ونحن مسلمون خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج، فإنه ليس بينك وبين عود الفرنج إلا أن يسمعوا بالقبض على شيركوه، وحينئذ لو مشى العاضد إلى نور الدين لم يرسل معه فارساً واحداً ويملكون البلاد؛ فترك ما كان عزم عليه.

ولما رأى العسكر النوري مطل شاور خافوا شره، واتفق صلاح الدين ومن معه من الأمراء منهم عز الدين جرديك على قتل شاور، وأعلموا أسد الدين، فنهاهم عنه فسكتوا وهم على العزم. فاتفق أن شاور قصد عسكر أسد الدين على عادته في الخيام فلم يجده–وكان قد مضى لزيارة قبر الإمام

الشافعي رضي الله عنه-فمضى إليه ومعه صلاح الدين وجرديك في جمع من العسكر فساروا جميعاً، فتناوله صلاح الدين وجرديك وألقياه إلى الأرض عن فرسه، فهرب عنه أصحابه وأخذ أسيراً، و لم يمكنهم قتله بغير أمر أسد الدين، فوكلوا به وسيروا أعلموا أسد الدين بالحال، فحضر و لم يمكنه إلا اتمام ما عملوه. وسمع العاضد الخبر فأرسل إلى أسد الدين وطلب إيفاد رأس شاور وبايع الرسل بذلك، فقتل كما تقدم في هذه الترجمة.

أما الكامل بن شاور فانه لم اقتل أبوه دخل إلى القصر هو وأخوته معتصمين به فكان آخر العهد بهم. فكان شيركوه يتأسف كيف عدم لأنه بلغه ما كان منه مع أبيه في منعه من قتل شيركوه. وكان يقول: وددت لو بقي لأحسن إليه جزاء الصنيعة.

وصفا الأمر لأسد الدين وظهرت السنة بالديار المصرية وخطب فيها بعد اليأس للدولة العباسية.

الأفضل ابن أمير الجيوش

أبو القاسم شاهنشاه الملقب الملك الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالي.

كان بدر المذكور أرمني الجنس، اشتراه جمال الدولة بن عمار، وتربى عنده وتقدم بسببه، وكان من الرجال المعدودين في ذوي الآراء والشهامة وقوة العزم، واستنابه المستنصر صاحب مصر بمدينة صور، وقيل عكا، فلما ضعف حال المستنصر واختلت دولته-كما سيأتي في ترجمته في حرف الميم إن شاء الله تعالى-وصف له بدر الجمالي المذكور، فاستدعاه وركب البحر في الشتاء في وقت لم تجر العادة بركوبه في مثله، ووصل إلى القاهرة عشية يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من جمادى الأولى، وقيل الآخرة، سنة ست وستين وأربعمائة، فولاه المستنصر تدبير أموره، وقامت بوصوله الحرمة واصلح الدولة؛ وكان وزير السيف والقلم، وإليه قضاء القضاة والتقدم على الدعاة، وساس الأمور أحسن سياسة، ويقال: إن وصوله كان أول سعادة المستنصر وآخر قطوعه، وكان يلقب أمير الجيوش؛ ولما دخل على المستنصر قرأ قارئ بين يدي المستنصر: "ولقد نصركم الله ببدر". و لم يتم الآية، فقال المستنصر: لو أتمها ضربت عنقه، وجاوز ثمانين سنة، و لم يزل كذلك إلى أن توفي في ذي القعدة، وقيل في ذي الحجة، سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، رحمه الله تعالى.

قال علقمة العليمي: قصدت بدراً الجمالي بمصر فرأيت الناس وكبراءهم وشعراءهم على بابه قد طال مقامهم و لم يصلوا إليه؛ فقال: فبينا أنا كذلك إذ خرج بدر يريد الصيد، فخرج علقمة في إثره، فلما رجع وقف على نشز من الأرض وأومأ برقعة في يده وأنشأ يقول:

نحن التجار وهذه أعلاقنا ... درر، وجود يمينك المبتاع

قلب وفتشها بسمعك إنما ... هي جوهر تختاره الأسماع

كسدت علينا بالشآم وكلما ... قل النفاق تعطل الصناع

فأتاك يحملها إليك تجارها ... ومطيها الآمال والأطماع

فوهبت ما لم يعطه في دهره ... هرم ولا كعب ولا القعقاع

وسبقت هذا الناس في طلب العلا ... فالناس بعدك كلهم أتباع

يا بدر أقسم لو بك اعتصم الورى ... ولجوا إليك بأسرهم ما ضاعوا

وكان على يد بدر بازي فألقاه وانفرد عن الجيش وجعل يسترد الأبيات إلى أن استقر في مجلسه ثم قال لجماعة غلمانه وخاصته: من أحبني فليخلع على هذا الشاعر، فخرج من عنده ومعه سبعون بغلاً تحمل الخلع وأمر له بعشرة آلاف درهم وخرج من عنده وفرق كثيراً من ذلك على الشعراء.

وهو الذي بنى الجامع الذي بثغر الإسكندرية المحروس الذي في سوق العطارين، وكان فراغه من عمارته في شهر ربيع الأول سنة تسع وسبعين وأربعمائة، وبنى مشهد الرأس بعسقلان.

ولما مرض واشتد مرضه في شهر ربيع الأول من سنة سبع وثمانين، وزر ولده الأفضل المذكور موضعه في حياته، وقضيته مع نزار بن المستنصر وغلامه أفتكين الأفضلي والي الإسكندرية مشهورة في أخذهما وإحضارهما إلى القاهرة المحروسة، و لم يظهر لهما خبر بعد ذلك، وكان ذلك في سنة ثمان وثمانين

وأربعمائة–وكان المستنصر قد مات في التاريخ المذكور في ترجمته، وأقام الأفضل ولده المستعلي أحمد المقدم ذكره مقامه واستمر على وزارته–فأما أفتكين فإنه قتل ظاهراً، وأما نزار فيقال: إن أخاه المستعلي أحمد–المقدم ذكره–بنى في وجهه حائطاً فمات، والله أعمل، وقد سبق طرف من خبره في ترجمة المستعلي، وأفتكين كان غلام الأفضل المذكور، ونزار المذكور إليه تنتسب ملوك الإسماعيلية أصحاب الدعوة أرباب قلعة الالموت وما معها من القلاع في بلاد العجم.

وكان الأفضل المذكور حسن التدبير فحل الرأي، وهو الذي أقام الآمر ابن المستعلي موضع أبيه في المملكة بعد وفاة أبيه كما فعل مع أبيه، ودبر دولته وحجر عليه ومنعه من ارتكاب الشهوات، فإنه كان كثير اللعب–كما سيأتي في ترجمته إن شاء الله تعالى–فحمله ذلك على أن عمل على قتله، فأوثب عليه جماعة، وكان يسكن بمصر في دار الملك التي على بحر النيل، وهي اليوم دار الوكالة، فلما ركب من داره المذكور وتقدم إلى ساحل البحر وثبوا عليه فقتلوه، وذلك في سلخ رمضان المعظم عشية يوم الأحد سنة خمس عشرة وخمسمائة، رحمه الله تعالى.

وهو والد أبو علي أحمد بن شاهنشاه–الآتي ذكره في ترجمة الحافظ أبي الميمون عبد المجيد العبيدي صاحب مصر، وما اعتده في حقه إن شاء الله تعالى–. وقد تقدم في ترجمة المستعلي أحمد صاحب مصر وفي ترجمة أرتق التركماني طرف من حديث الأفضل المذكور وما فعل في أخذ القدس من سكمان وغيل غازي ابني أرتق التركماني.

ثم رأيت بعد ذلك في كتاب "الدول المنقطعة" في ترجمة المستعلي شيئاً آخر فألحقته ها هنا، فإنه قال: إن الأفضل تسلم القدس في يوم الجمعة لخمس بقين من شهر رمضان من سنة إحدى وتسعين وأربعمائة، وولى فيه من قبله، فلم يكن لمن فيه طاقة بالفرنج، فأخذوه بالسيف في شعبان سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة، ولو ترك في يد الأرتقية لكان أصلح للمسلمين، فندم الأفضل حين لم ينفعه الندم.

وخلف الفضل من الأموال ما لم يسمع بمثله؛ قال صاحب "الدول المنقطعة": خلف ستمائة ألف ألف دينار عيناً، ومائتين وخمسين إردباً دراهم نقد مصر، وخمسة وسبعين ألف ثوب ديباج أطلس، وثلاثين راحلة أحقاق ذهب عراقي، ودواة ذهب فيها جوهر قيمته اثنا عشر الف دينار، ومائة مسمار من ذهب وزن كل مسمار مائة مثقال، في عشرة مجالس في كل مجلس عشرة مسامير على كل مسمار منديل مشدود مذهب بلون من الألوان أيما أحب منها لبسه، وخمسمائة صندوق كسوة لخاصه من دق تنيس ودمياط، وخلف من الرقيق والخيل والبغال والمراكب والطيب والتجمل والحلي ما لم يعلم قدره إلا الله سبحانه وتعالى، وخلف خارجاً عن ذلك من البقر والجواميس والغنم ما يستحيا من ذكر عدده، وبلغ ضمان ألبانها في سنة وفاته ثلاثين ألف دينار، ووجد في تركته صندوقان كبيران فيهما إبر ذهب برسم النساء والجواري.

شاهنشاه بن أيوب

الأمير نور الدولة شاهنشاه بن نجم الدين أيوب بن شاذي بن مروان، أخو السلطان صلاح الدين رحمه الله تعالى؛ كان أكبر الاخوة، وهو والد عز الدين فروخ شاه والد الملك الأمجد صاحب بعلبك ووالد الملك المظفر تقي الدين عمر صاحب حماة–وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى–.

وقتل شاهنشاه المذكور في الواقعة التي اجتمع فيها الفرنج سبعمائة ألف ما بين فارس وراجل على ما يقال، وتقدموا إلى باب دمشق، وعزموا على قصد بلاد المسلمين قاطبة، ونصر الله سبحانه وتعالى عليهم، وكان قتله في شهر ربيع الأول سنة ثلاث واربعين وخمسمائة، رحمه الله تعالى.

وفي من خرج إلى القتال واستشهد الفقيه حجة الدين يوسف بن درباس الفندلاوي الغربي، وكان شيخاً كبيراً فقيهاً عالماً زاهداً صالحاً، فلما رآه معين الدين مقدم العسكر وهو راجل قصده وسلم عليه وقال: يا شيخ، أنت معذور لكبر سنك، ونحن نقوم بالذب عن المسلمين، وسأله أن يعود فلم يفعل وقال له: قد بعت واشترى مني، فو الله لا أقيله ولا أستقليه، يريد قوله تعالى: "إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة"، وتقدم فقاتل ا لفرنج إلى أن قتل عند النيرب. ورئي الفندلاوي في النوم فقيل له: ما فعل الله بك وأين أنت؟ فقال: غفر لي وأنا في جنات عدن على سرر متقابلين، رحمه الله تعالى.

وأما عز الدين أبو سعيد فروخشاه فكان ينعت بالملك المنصور، وكان سرياً نبيلاً جليلاً، وساتخلفه السلطان صلاح الدين بدمشق لما عاد إلى الديار المصرية من الشام، فقام بضبط أمورها وإصلاح أحوالها أحسن قيام، ثم توفي في آخر جمادى الأولى سنة ثمان وسبعين وخمسمائة بدمشق، وهكذا قال

العماد الأصبهاني في البرق الشامي، وقال ابن شداد في "سيرة صلاح الدين": إن السلطان بلغة وفاة ابن أخيه عز الدين فروخ شاه في رجب سنة سبع وسبعين والعماد أخبر بذلك، والله أعلم.

وكان لشاهنشاه المذكور بنت تسمى عذرا وهي التي بنت المدرسة العذراوية بمدينة دمشق، وإليها تنسب، وماتت عذرا المذكورة عاشر المحرم سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة.

وأما الملك الأمجد مجد الدين أبو المظفر بهرام شاه بن فروخ شاه فإن صح الدين أ بقى عليه بعلبك، وكان فيه فضل وله ديوان شعر، وأخذ الأشرف بن العادل منه بعلبك فانتقل إلى دمشق، وقتله مملوكه في داره ليلة الأربعاء ثاني عشر شوال سنة ثمان وعشرين وستمائة.

شبيب الخارجي

أبو الضحاك شبيب بن يزيد بن نعيم بن قيس بن عمرو بن الصلب بن قيس بن شراحيل بن مرة بن همام بن ذهل بن شيبان بن ثعلبة–وبقية النسبة معروف–الشيباني الخارجي؛ كان خروجه في خلافة عبد الملك بن مروان، والحجاج بن يوسف الثقفي بالعراق يومئذ، وخرج بالموصل، فبعث إليه الحجاج خمسة قواد، فقتلهم واحداً بعد واحد، ثم خرج من الموصل يريد الكوفة، وخرج الحجاج من البصرة يريد الكوفة أيضاً، وطمع شبيب أن يلقاه قبل أن يصل إلى الكوفة، فأقحم الحجاج خيله فدخلها قبله، وذلك في سنة سبع وسبعين للهجرة، وتحصن الحجاج في قصر الإمارة، ودخل إليها شبيب وأمه جهيزة وزوجته غزالة عند الصباح، فوجد باب القصر مغلقاً والحجاج فيه، فقتل الحرس ثم دنا من الباب فعالجه هو وأصحابه فأعياهم فتحه، فضربه شبيب بعمود كان في يده فنقب الباب، فيقال إن ذلك النقب لم يزل في الباب إلى أن خرب قصر افمارة وفيه ضربة شبيب. وقد كانت غزالة نذرت أن تدخل مسجد الكوفة فتصلي فيه ركعتين تقرأ فيهما سورة البقرة وآل عمران، فأتوا الجامع في سبعين رجلاً فصلت فيهالغداة وخرجت من نذرها فقيل فيها:

وفت الغزالة نذرها ... يا رب لا تغفر لها

وكانت غزالة من الشجاعة والفروسية بالموضع العظيم، وكانت تقاتل في الحروب نفسها، وقد كان الحجاج هرب في بعض الوقائع مع شبيب من غزالة فعيره ذلك بعض الناس بقوله:

أسد علي وفي الحروف نعامة ... فتخاء تنفر من صفير الصافر

هلا برزت إلى غزالة في الوغى ... بل كان قلبك في جناحي طائر

وكانت أمه جهيزة أيضاً شجاعة تشهد الحروب، وكان شبيب قد ادعى الخلافة، ولما عجز الحجاج عن شبيب بعث عبد الملك إليه عساكر كثيرة من الشام عليها سفيان بن الأبرد الكلبي، فوصل إلى الكوفة، وخرج الحجاج ايضاً وتكاثروا على شبيب فانهزم وقتلت غزالة وأمه ونجا شيب في فوارس من أصحابه، واتبعه سفيان في أهل الشام، فلحقه بالأهواز فولى شبيب فلما حصل على جسر دجيل نفر به فرسه وعليه الحديد الثقيل من درع ومغفر وغيرهما فألقاه في الماء فقال له بعض أصحابه: أغرقا يا أمير المؤمنين؟ قال: ذلك تقدير العزيز العليم، فألقاه دجيل ميتاً في ساحله، فحمل على البريد إلى الحجاج، فأمر الحجاج بشق بطنه واستخراج قلبه، فاستخرج فإذا هو كالحجر إذا ضرب به الأرض نبا عنها، فشق فكان في داخله قلب صغير كالكرة فشق فأصيب علقة الدم في داخله.

وقال بعضهم: رأيت شبيباً وقد دخل المسجد وعليه جبة طيالسة عليها نقط من أثر المطر، وهو طويل أشمط جعد آدم، فجعل المسجد يرتج له.

وكان مولده يوم عيد النحر سنة ست وعشرين للهجرة، وغرق بدجيل كما تقدم سنة سبع وسبعين للهجرة، رحمه الله تعالى.

ولما غرق أحضر إلى عبد الملك رجل يرى رأي الخوارج وهو عتبا الحروري ابن أصيلة، ويقال وصيلة، وهي أمه، وهي من بني محلم وهو من بني شيبان من شراة الجزيرة، وقد عمل قصيدة وهي أبيات عديدة ذكرها المرزباني في "المعجم" فقال له: ألست القائل يا عدو الله:

فإن يك منكم كان مروان وابنه وعمرو ومنكم هاشم وحبيب

فمنا حصين والبطين وقعنب ومنا أمير المؤمنين شبيب

فقال: لم أقل كذا يا أمير المؤمنين، وإنما قلت:

ومنا أمير المؤمنين شبيب

فاستحسن قوله، وامر بتخيلة سبيله.

وهذا الجواب في نهاية الحسن، فإنه إذا كان "أمير" مرفوعاً كان مبتدأ فيكون شبيب أمير المؤمنين، وإذا كان منصوباً فقد حذف منه حرف النداء ومعناه يا أمير المؤمنين منا شبيب، فلا يكون شبيب أمير المؤمنين، بل يكون منهم.

وذكر الحافظ أبو القاسم المعروف بابن عساكر الدمشقي في "تاريخ دمشق" في أواخر كتابه المذكور في جملة تراجم أرباب الكنى ما مثاله: أبو المنهال الخارجي، شاعر وفد على عبد الملك بن مروان مستأمناً بعدما كان قال لعبد الملك:

أبلغ أمير المؤمنين رسالة وذو النصح لو يدعى إليه قريب

فلا صلح ما دامت منابر أرضنا يقوم عليها من ثقيف خطيب

وإنك إن لا ترض بكر بن وائل يكن لك يوم بالعراق عصيب

وبعد هذه الأبيات الثلاثة البيتان المذكوران. وابو المنال كنية عتبان بن وصيلة المذكور. وقوله "من ثقيف خطيب" يريد به الحجاج بن يوسف الثقفي المقدم ذكره.

وجهيزة: بفتح الجيم وكسر الهاء وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح الزاي وبعدها هاء ساكنة، وهي التي يضرب بها المثل في الحمق فيقال "أحمق من جهيزة"، ذكر ذلك يعقوب بن السكيت في كتاب "إصلاح المنطق" في باب ما تضعه العامة في غير موضعه، وقال: كان أبو شبيب من مهاجرة الكوفة، فغزا سلمان بن ربيعة الباهلي في سنة خمس وعشرين للهجرة، فأتوا الشام، فأغاروا على بلاد وأصابوا سبياً وغنموا، وأبو شبيب في ذلك الجيس، فاشترى جارية من السبي حمراء طويلة جميلة، فقال لها: أسلمي، فأبت، فضربها فلم تسلم، فواقعها فحملت، وتحرك الولد في بطنها فقالت: في بطني شيء ينقز، فقيل: أحمق من جهيزة، ثم اسلمت فولدت شبيباً سنة ست وعشرين يوم النحر، فقالت لمولاها: إني رأيت قبل أن ألد كأني ولدت غلاماً فخرج مني شهاب من نار فسطع بين السماء والأرض ثم سقط في ماء فخبا، وقد ولدته في يوم أريق فيه الدماء وقد زجرت أن ابني يعلو أمره ويكون صاحب دماء يهريقها؛ هذا آخر كلام ابن السكيت.

ودجيل: بضم الدال المهملة وفتح الجيم وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها لام، وهو نهر عظيم بنواحي الأهواز وتلك البلاد، عليه قرى ومدن، ومخرجه من جهة أصبها، وحفره أردشير بن بابك أول ملوك بني ساسان ملوك الفرس بالمدائن، وهو غير دجيل بغداد فإن ذلك مخرجه من دجلة مقابل القادسية في الجانب الغربي بين تكريت وبغداد، عليه كورة عظيمة.

وعتبان: بكسر العين المهملة وسكون التاء المثناة من فوقها وفتح الباء الموحدة وبعدالألف نون.

والحروري: بفتح الحاء المهملة وضم الراء وسكون الواو وبعدها راء، هذه النسبة إلى حروراء، بالمد، وهي قرية بناحية الكوفة، كان أول اجتماع الخوارج بها فنسبوا إليها.

شبيب بن شيبة

أبو معمر شبيب بن شيبة الخطيب المنقري البصري؛ حدث عن الحسن ومعاوية بن قرة وعطاء بن أبي رباح وغيرهم، وروى عنه عيسى بن يونس وأبو بدر شجاع بن الوليد وغيرهما، وكان له لسن وفصاحة. وقدم بغداد في أيام المنصور فاتصل به وبالمهدي من بعده، وكان كريماً عليهما أثيراً عندهما.

قال شبيب: كنت أسير في موكب أمير المؤمنين أبي جعفر فقلت: يا أمير المؤمنين رويداً فإني أمير عليك، فقال: ويلك، أمير علي؟ قلت: نعم، حدثني معاوية بن قرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أقطف القوم دابة أميرهم، فقال أبو جعفر أعطوه دابة فهو أهون من أن يتأمر علينا.

وقال أيضاً: قال لي أبو جعفر وكنت في سماره: يا شبيب عظني وأوجز، فقلت: يا أمير المؤمنين إن الله عز وجل قسم الدنيا فلم يرض لك إلا بأرفعها وأشرفها فلا ترض لنفسك من الآخرة إلا مثل الذي رضي لك من الدنيا، وأوصيك بتوقى الله عز وجل فإنها عليكم نزلت وعنكم أقبلت وإليكم صدرت. قال: لقد أوجزت وقصرت. قلت: والله لئن قصرت فما بلغت كنه النعمة فيك.

وخرج شبيب من دار المهدي فقيل له: كيف تركت الناس؟ قال: تركت الداخل راجياً والخارج راضياً.

وقال حماد بن سلمة: كان شبيب بن شيبة يصلي بنا في المسجد الشارع في مربعة أبي عبيد الله، فصلى يوماً الصبح فقرأ بالسجد و"هل أتى على الإنسان" فلما قضى الصلاة قام رجل فقال: لا جزاك الله عني خيراً فإني كنت غدوت لحاجة فلما أقيمت الصلاة دخلت أصلي فأطلت حتى فاتتني حاجتي. قال: وما حاجتك؟ قال: قدمت من الثغر في شيء من مصلحته وكنت وعدت البكور إلى الخليفة لأتنجز ذلك، قال: فأنا أركب معك، وركب معه ودخل على المهدي فأخبره الخبر وقص عليه القصة، قال: فتريد ماذا؟ قال: قضاء حاجته، فقضى حاجته وأمر له بثلاثين ألف درهم فدفعها إلى الرجل، ودفع له شبيب من ماله أربعة آلاف درهم وقال له: لم تضرك يا أخي السورتان.

وقال الأصمعي: كان شبيب بن شيبة رجلاً شريفاً يفزع إليه أهل البصرة في حوائجهم، وكان يغدو في كل يوم ويركب، فإذا أراد أن يغدو أكل من الطعام شيئاً ثم يركب، فقيل له: إنك تباكر الغداء، فقال: أجل أطفئ به فورة الجوع وأقطع به خلوف فمي وأبلغ به في قضاء حاجتي، فاني وجدت خلاء الجوف وشهوة الطعام يقطعان الحكيم عن بلوغ حاجته ويحمله ذلك على التقصير فيما به الحاجة، وإني رأيت النهم لا مروءة له، ورأيت الجوع داءً، فخذ من الطعام ما يذهب عنك النهم وتداوي به الداء.

قيل إن شبيباً أتى سليمان بن علي الأمير في حاجة، فقال له سليمان: قد حلفت أني ل أقضي هذه الحاجة، فقال: أيها الأمير إن كنت لم تحلف بيمين قط فحنثت فيها فما أحب أن أكون أول من أحنثك، وغن كنت ترى غيرها خيراً منها فكفر، فقال: أستخير الله، ثم قضاها.

وكان يقول: من سمع كلمة يكرهها فسكت انقطع عنه ما يكره، فإن أجاب سمع أكثر مما يكره.

القاضي شريح

أبو أمية شريح بن الحارث بن قيس بن الجهم بن معاوية بن عامر بن الرائش ابن الحارث بن معاوية بن ثور بن مرتع-بتشديد التاء المثناة من فوقها وكسرها-الكندي، وثور بن مرتع هو كندة، وفي نسبه اختلاف كثير، وهذه الطريق أصحها؛ كان من كبار التابعين، وأدرك الجاهلية، واستقضاه عمر بن الخطاب رضي الله عنه على الكوفة، فأقام قاضياً خمساً وسبعين سنة لم يتعطل فيها إلا ثلاث سنين امتنع فيها من القضاء في فتنة ابن الزبير، واستعفى الحجاج بن يوسف من القضاء فأعفاه، و لم يقض بين اثنتين حتى مات.

وكان أعلم الناس بالقضاء، ذا فطنة وذكاء ومعرفة وعقل ورصانة، قال ابن عبد البر: وكان شاعراً محسناً، وهو أحد السادات الطلس، وهم أربعة: عبد الله بن الزبير، وقيس بن سعد بن عبادة، والأحنف بن قيس الذي يضرب به المثل في الحلم، والقاضي شريح المذكور. والأطلس: الذي لا شعر في وجهه.

وكان مزاحاً، دخل عليه عدي بن أرطاة فقال له: أين أنت أصلحك الله؟ فقال: بينك وبين الحائط، قال: استمع مني، قال: قل أسمع، قال: إني رجل من أهل الشام، قال: مكان سحيق، قال: تزوجت عندكم، قال: بالرفاء والبنين، قال: وأردت أن ألحها، قال: الرجل أحمق بأهله، قال: وشرطت لها دارها، قال: الشرط أملك، قال: فاحكم الآن بيننا، قال: قد فعلت، قال: فعلى من حكمت؟ قال: على ابن أمك، قال: بشهادة من؟ قال: بشهادة ابن أخت خالتك.

وروي أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه دخل مع خصم له ذمي إلى القاضي شريح فقام له، فقال: هذا أول جورك، ثم أسند ظهره إلى الجدار وقال: أما إن خصمي لو كان مسلماً لجلست بجنبه.

وروي أن علياً رضي الله عنه قال: اجمعوا لي القراء، فاجتمعوا في رحبة المسجد، فقال: إني أوشك أن أفارقكم، فجعل يسائلهم: ما تقولون في كذا؟ ما تقولون في كذا؟ وشريح ساكت، ثم سأله، فلما فرغ منهم قال: اذهب فأنت من أفضل الناس، أو من أفضل العرب.

وتزوج شريح امرأة من بني تميم تسمى زينب، فنقم عليها شيئاً فضربها ثم ندم وقال:

رأيت رجالاً يضربون نساءهم	فشلت يميني يوم أضرب زينبا
أأضربها من غير ذنب أتت به	فما العدل مني ضرب من ليس مذنبا
فزينب شمس والنساء كواكب	إذا طلعت لم تبق منهن كوكبا

وهكذا ذكر هذه الحكاية صاحب "العقد".

ويروى أن زياد بن أبيه كتب إلى معاوية: "يا أمير المؤمنين، قد ضبطت لك العراق بشمالي، وفرغت يميني لطاعتك، فولني الحجاز"، فبلغ ذلك عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما، وكان مقيماً بمكة، فقال: اللهم اشغل عنا يمين زياد، فأصابه الطاعون في يمينه، فجمع الأطباء واستشارهم، فأشاروا عليه بقطعها، فاستدعى القاضي شريحاً وعرض عليه ما أشار به الأطباء، فقال لهك لك رزق معلوم وأجل مقسوم وإني أكره إن كانت لك مدة أن تعيش في الدنيا بلا يمين، وإن كان قد دنا أجلك أن تلقى ربك مقطوع اليد فإذا سألك: لم قطعتها؟ قتل: بغضاً في لقائك وفراراً من قضائك. فمات زياد من يومه، فلام الناس شريحاً على منعه من القطع، لبغضهم له، فقال: إنه استشارني والمستشار مؤتمن، ولولا الأمانة في المشورة لوددت أنه قطع يده يوماً ورجله يوماً وسائر جسده يوماً يوماً.

وكتب شريح إلى أخ له هرب من الطاعون: أما عد فإنك أنت الذي بعين من لا يعجزه من طلب ولا يفوته من هرب، والمكان الذي خلفته لم يعجل أمرءاً حمامه و لم يظلمه أيامه، وأنك وإياهم لعلى بساط واحد؛ إن المنتجع من غير ذي قدرة لقريب والسلام.

وعن الشعبي قال: شهدت شريحاً وجاءته امرأة تخاصم رجلاً فأرسلت عينيها فبكت، فقلت أنا: ما أظن هذه البائسة إلا مظلومة، فقال: يا شعبي أن إخوة يوسف عليه السلام جاءوا اباهم عشاء يبكون.

وسئل شريح عن الحجاج: اكان مؤمناً؟ قال: نعم، بالطاغوت، كافراً بالله تعالى.

وكانت وفاة القاضي شريح سنة سبع وثمانين للهجرة وهو ابن مائة سنة، وقيل سنة اثنتين وثمانين، وقيل سنة ثمان وسبعين، وقيل سنة ثمانين، وقيل سنة تسع وسبعين، وقيل سنة ست وسبعين، وهو ابن مائة وعشرين سنة، وقيل مائة وثماني سنين، رضي الله عنه.

والكندي: بكسر الكاف وسكون النون وبعدها دال مهملة، هذه النسبة إلى كندة، وهو ثور بن مرتع بن مالك بن زيد بن كهلان، وقيل ثور بن عفير بن الحارث بن مرة بن أدد، وسمي كندة أباه نعمته: أي كفرها.

القاضي شريط النخعي

أبو عبد الله شريك بن عبد الله بن أبي شريك وهو الحارث بن أوس بن الحارث بن الأذهل بن وهبيل بن سعد بن مالك بن النخع النخعي، وبقية النسبة في ترجمة إبراهيم النخعي في أول هذا الكتاب؛ تولى القضاء بالكوفة أيام المهدي، ثم عزله موسى الهادي. أدرك عمر بن عبد العزيز وسمع أبا أسحاق السبيعي ومنصور بن المعتمر وعبد الملك بن عمير وسماك بن حرب وغيرهم، وروى عند عبد الله بن المبارك وعباد بن العوام ووكيع بن الجراح وغيرهم؛ وكان شريك ولد ببخارى من أرض خراسان، وكان جده قد شهد القادسية.

وكان عالماً فهماً ذكياً فطناً، حكم يوماً على وكيل عبد الله بن مصعب بحكم لم يوافق هوى عبد الله، فالتقى شريط بن عبد الله وعبد الله بن مصعب بحضرة المهدي فقال عبد الله بن مصعب لشريك: ما حكمت على وكيلي بالحق، قال: ومن أنت؟ قال: من لا ينكر. قال: قد نكرتك أشد النكير، قال: أنا عبد الله بن مصعب، قال: لا كبير ولا طيب، قال: وكيف لا تقول ذلك وأنت تنتقص الشيخين؟! قال: ومن الشيخان؟ قال: أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، قال: والله ما أتنقص جدك وهو دونهما فكيف أتنقصهما؟.

وذكر معاوية بن أبي سفيان عنده ووصف بالحلم، فقال شريك: ليس بحليم من سفه الحق وقاتل علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وخرج شريط يوماً إلى أصحاب الحديث ليسمعوا عليه، فشموا منه رائحة النبيذ، فقالوا له: لو كانت هذه الرائحة منا لاستحيينا، فقال: لأنكم أهل ريبة.

ودخل يوماً على المهدي فقال له: لابد أن تجيبني إلى خصلة من ثلاث خصال، قال: وما هن يا أمير المؤمنين؟ قال: إما أن تلي القضاء أو تحدث ولدي وتعلمهم أو تأكل عندي أكلة، وذلك قبل أن يلي القضاء، فأفكر ساعة ثم قال: الأكلة أخفها على نفسي، فأجلسه وتقدم إلى الطباخ أن يصلح له ألواناً من المخ المعقود بالسكر الطبرزذ والعسل وغير ذلك، فعمل ذلك وقدمه إليه فأكل، فلما فرغ من الأكل قال له الطباخ: والله يا أمير المؤمنين ليس يفلح الشيخ بعد هذهالأكلة أبداً؛ قال الفضل بن الربيع: فحدثهم والله شريك بعد ذلك، وعلم أولادهم وولي القضاء لهم.

ولقد كتب له برزقه على الصيرفي فضايقه في النقد، فقال له الصيرفي: إنك لم تبع به بزاً، فقال له شريك: بل والله بعت أكثر من البز، بعت به ديني.

وقال يحيى بن اليمان: لما ولي شريك القضاء أكره على ذلك وأقعد معه جماعة من الشرط يحفظونه، ثم طاب للشيخ فقعد من نفسه، فبلغ سفيان الثوري أنه قعد من نفسه فجاء فتراءى له، فلما رأى الثوري قام إليه فعظمه وأكرمه ثم قال: يا أبا عبد الله، هل من حاجة؟ قال: نعم، مسألة، قال: أو ليس عندك من العلم ما يجزئك؟ قال: أحببت أن أذكرك بها، قال: قل، قال: ما تقول في امرأة جاءت فجلست على باب رجل فاحتملها ففجر بها، لمن تحد منهما؟ فقال: الرجل دونها لأنها مغصوبة، قال: فإنه لما كان من الغد جاءت فتزينت وتبخرت وجلست على ذلك الباب ففتح الرجل فرآها فاحتملها ففجر بها، لم تحد؟ قال: أحدهما جميعاً لأنها جاءت من نفسها وقد علمت الخبر بالأمس، قال: أنت كان عذرك حين كان الشرط يحفظونك؛ اليوم أي عذر لك؟ قال: يا أبا عبد الله، أكلمك، قال: ما كان الله ليراني أكلمك أو تتوب؟ قال: ووثب فلم يكلمه حتى مات؛ وكان إذا ذكره قال: أي رجل كان لو لم يفسدوه.

واجتمع شريط ويحيى بن عبد الله بن الحسن البصري في دار الرشيد، فقال يحيى لشريك: ما تقول في النبيذ؟ قال: حلال، قال: شربه خير أم تركه؟ قال: بل شربه، قال: قليله خير أم كثيره؟ قال: بل قليله؛ قال يحيى: ما رأيت خيراً قط إلا والازدياد منه خير إلا خيرك هذا، فإن قليله خير من كثيره.

وروى صالح بن علي قال: كنت مع المهدي فدخل عليه شريك بن عبد الله فأراد أن يبخره، فقال لخادم على رأسه: هات عوداً للقاضي، فجاء الخادم بالعود الذي يلهى به فوضعه في حجر شريك، فقال شريك: ما هذا يا أمير المؤمنين؟ قال: هذا أخذه صاحب العسس البارحة فأحببت أن يكون كسره على يد القاضي، فقال: جزاك الله يا أمير المؤمنين خيراً، فكسره. ثم أفاضوا في حديث حتى نسي الأمر ثم قال المهدي لشريك: ما تقول في رجل أمر وكيلاً له أن يأتي بشيء بعينه فأتى بغيره فتلف ذلك الشيء؟ فقال: يضمن يا أمير المؤمنين، فقال للخادم: اضمن ما تلف بقيمته.

وكان شريك يشاحن الربيع صاحب شرطة المهدي، فكان يحمل المهدي عليه، فدخل شريك يوماً على المهدي فقال له المهدي: بلغني أنك ولدت في قوصرة، قال: يا أمير المؤمنين، ولدت بخراسان والقواصر هناك عزيزة، قال: إني لأراك فاطمياً خبيثاً، قال: والله إني لأحب فاطمة، وأبا فاطمة صلى الله عليه وسلم، قال: وأنا والله أحبهما، ولكني رأيتك في منامي مصروفاً وجهك عني، وما ذاك إلا لبغضك لنا، وما أراني إلا قاتلك لأنك زنديق، قال: يا أمير المؤمنين إن الدماء لا تسفك بالأحلام، وليست رؤياك رؤيا يوسف عليه السلام؛ وأما قولك إني زنديق فإن للزنادقة علامة يعرفون بها، قال: وما هي؟ قال: شرب الخمور والضرب بالطنبور، قال: صدقت أبا عبد الله، وأنت خير من الذي حملني عليك.

قال مصعب بن عبد الله الزبيري: حدثني أبي قال: دخل شريك على المهدي فقال له: ما ينبغي أن تقلد الحكم بين المسلمين، قال: و لم؟ قال: لخلافك على الجماعة وقولك بالإمامة، فقال: أما قولك: لخلافك على الجماعة، فمن الجماعة أخذت ديني، فكيف أخالفهم وهم أصل ديني، وأما قولك: وقولك بالإمامة، فما أعرف إلا كتاب الله عز وجل وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وأما قولك: مثلك لا يقلد الحكم بين المسلمين، فهذا شيء أنتم فعلتموه، فإن كان خطأ فلتستغفروا الله منه، وإن كان صواباً فامسكوا عليه. قال: ما تقول في علي بن أبي طالب رضي الله عنه؟ قال: ما قال فيه جدك العباس وعبد الله، قال: وما قالا فيه؟ قال: أما العباس فمات وعلي عنده أفضل الصحابة، وقد كان يرى كبراء المهاجرين يسألونه عما يترل من النوازل وما احتاج إلى أحد حتى لحق بالله. وأما عبد الله فإنه كان يضرب بين يديه بسيفين، وكان في حروبه رأساً متبعاً وقائداً مطاعاً، فلو كانت

إمامة علي جوراً لكان أول من يقعد عنها أبوك لعلمه بدين الله وفقهه في أحكام الله. فسكت المهدي وأطرق، و لم يمض بعد هذا المجلس إلا قليل حتى عزل شريك.

وقال عبد الله العجلي: قدم هارون الكوفة فعزل شريكاً عن القضاء، وكان موسى بن عيسى والياً على الكوفة، فقال موسى لشريك: ما صنع أمير المؤمنين بأحد ما صنع بك: عزلك عن القضاء، قال له شريك: هم أمراء المؤمنين يعزلون الولاة ويخلعون ولاة العهود فلا يعاب ذلك عليهم، فقال موسى: ما ظننت أنه مجنون هكذا لا يبالي ما تكلم به، وكان أبوه عيسى بن موسى ولي العهد بعد أبي جعفر فخلعه أبو جعفر.

وحكى الحريري في كتاب درة الغواص أنه كان لشريك المذكور جليس من بني أمية، فذكر شريك في بعض الأيام فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنهن فقال ذلك الأموي: نعم الرجل علي، فأغضبه ذلك وقال: ألعي يقال نعم الرجل؟ فأمسك حتى سكن غضبه ثم قال: يا أبا عبد الله ألم يقل الله تعالى في الإخبار عن نفسه: "فقدرنا فنعم القادرون"، وقال في أيوب: "إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب"، وقال في سليمان: "ووهبنا لداود سليمان نعم العبد"، فلا ترضى لعلي بما رضي الله به لنفسه ولأنبيائه؟ فتنبه شريك عند ذلك لوهمه، وزادت مكانة ذلك الأموي من قلبه.

وكان عادلاً في قضائه كثير الصواب حاضر الجواب، قال له رجل يوماً: ما تقول فيمن أراد أن يقنت في الصبح قبل الركوع فقنت بعده؟ فقال: هذا أراد أن يخطئ فأصاب.

وكان مولده ببخارى سنة خمس وتسعين للهجرة، وتولى القضاء بالكوفة ثم بالأهواز، وتوفي يوم السبت مستهل ذي القعدة سنة سبع وسبعين ومائة بالكوفة، وقال خليفة بن خياط: مات سنة سبع أو ثمان وسبعين ومائة، رحمه الله تعالى. وكان هارون الرشيد بالحيرة، فقصده ليصلي عليه فوجدهم قد صلوا عليه، فرجع.

والنخعي: بفتح النون والخاء المعجمة وبعدها عين مهملة، هذه النسبة إلى النخع، وهي قبيلة كبيرة من مذحج.

قلت: هكذا وجدت نسبه في "جمهرة النسب" لابن الكلبي، ثم وجدت في نسخة أخرى "ابن أبي شريك أوس بن الحارث بن ذهل بن وهبيل"، والله أعلم بالصواب.

شعبة بن الحجاج

أبو بسطام شعبة بن الحجاج بن الورد مولى الأشاقر؛ واسطي الأصل بصري الدار، رأى الحسن ومحمد بن سيرين وسمع قتادة ويونس بن عبيد وأيوب خالداً الحذاء وعبد الملك بن عمير وأبا اسحاق السبيعي وطلحة بن مصرف وخلقاً غيرهم من طبقتهم؛ روى عنه أيوب السختياني والأعمش ومحمد بن اسحاق وإبراهيم بن سعد وسفيان الثوري وشريك بن عبد الله وسفيان بن عيينة وغيرهم.

قدم شعبة بغداد مرتين وكان قدومه إحدى المرتين بسبب أخ له كان قد حبس في دين كان عليه، فجاء إلى المهدي في شأن أخيه. فقال سفيان الثوري: هوذا شعبة قد جاء إليهم، فبلغ شعبة فقال: هو لم يحبس أخوه. وكان أخوه اشترى طعاماً من طعام السلطان، فخسر هو وشركاؤه، فحبس بستة آلاف دينار بحصته، فلما دخل شعبة على المهدي قال لهك يا أمير المؤمنين، أنشدني قتادة لأمية بن أبي الصلت بقول لعبد الله بن جدعان:

أأذكر حاجتي أم قد كفاني ... حياؤك ان شيمتك الحياء

كريم لا يعطله صباح ... عن الخلق الكريم ولا مساء

فأرض أرض مكرمة بنوها ... بنو تيم وأنت لهم سماء

فقال المهدي: لا يا أبا بسطام، لا تذكرها، قد عرفناها وقضيناها لك؛ ادفعوا إليه أخاه ولا تلزموه شيئاً، ووهب له ثلاثين ألف درهم فقسمها، وأقطعه ألف جريب بالبصرة، فقدم فلم يجد شيئاً يطيب له فتركها.

وقال النضر بن شميل: ما رأيت أرحم بمسكين من شعبة؛ كان إذا رأى المسكين لا يزال ينظر إليه حتى يعطى. وكان يقول: والله لأنا في الشعر اسلم مني في الحديث، ولو أردت الله لما خرجت اليكم، ولو أردتم الله ما جييتموني، ولكنا نحب المدح ونكره الذم.

ركب شعبة يوماً حماره فلقيه سليمان بن المغيرة فشكا إليه الفقر والحاجة، فقال: والله ما أملك غير هذا الحمار، ثم نزل عنه ودفعه إليه فابتيع بستة عشر درهماً.

توفي بالبصرة سنة ستين ومائة وهو ابن خمس وسبعين سنة، رحمه الله تعالى.

شعيب بن حرب

أبو صالح شعيب بن حرب المدائني، وهو من أبناء خراسان، سمع شعبة وسفيان الثوري وزهير بن معاوية وغيرهم، روى عنه موسى بن داود الضبي ويحيى بن أيوب المقابري وأحمد بن حنبل وغيرهم. وكان أحد المذكورين بالعبادة والصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قال شعيب بن حرب: بينا أنا في طريق مكة إذ رأيت هارون الرشيد، فقلت لنفسي: قد وجب عليك الأمر والنهي، فقالت لي: لا تفعل فإن هذا رجل جبار ومتى أمرته ضرب عنقك، فقلت لنفسي: لابد من ذلك. فلما دنا مني صحت: يا هارون قد أتعبت الأمة وأتعبت البهائم، فقال: خذوه، ثم أدخلت عليه وهو على كرسي بيده عمود يلعب به فقال: ممن الرجل؟ قلت: من أفناء الناس، فقال: ممن ثكلتك أمك! قلت: من الأبناء. قال: ما حملك على أن تدعوني باسمي؟ قال شعيب: فورد على قلبي كلمة ما خطرت لي قط على بال، فقلت له: أنا أدعو الله باسمه فأقول يا الله يا رحمن، لا أدعوك باسمك؟ وما ينكر من دعائي باسمك وقد رأيت الله تعالى سمى في كتابه أحب الخلق إليه محمداً وكنى أبغض الخلق إليه أبا لهب، فقال: "تبت يدا أبي لهب". فقال: أخرجوه، فأخرجت.

وكان يقول: من أراد الدنيا فليتهيأ للذل. واراد أن يتزوج امرأة، فقال لها: أنا سيء الخلق، قالت: أسوأ منك خلقاً من أحوجك أن تكون سيء الخلق، فقال لها: أنت إذاً امرأتي.

قال سري السقطي رحمه الله تعالى: أربعة كانوا في الدنيا أعملوا أنفسهم في طلب الحلال، فلم يدخلوا أجوافهم إلا الحلال، فقيل له: من هم؟ قال: وهيب بن الورد وشعيب بن حرب ويوسف بن اسباط وسليمان الخواص.

قال شعيب: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم ومعه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، فجئت، فقال: أوسعوا له فإنه حافظ لكتاب الله عز وجل.

وقال شعيب: أكلت في عشرة أيام أكلة وشربت شربة. وكان ثقة مأموناً، مات بمكة سنة تسع وتسعين ومائة، رحمه الله تعالى.

أشعب الطامع

واسمه شعيب واسم أبيه جبير؛ قال الحافظ أبو الفرج ابن الجوزي في "المنتظم": ولد أشعب سنة تسع من الهجرة، وكان أشعب خال الأصمعي وفي اسم أمه ثلاثة أقوال: أحدها جعدة مولاة أسماء بنت أبي بكر الصديق، رضي الله عنهما، والثاني أم حميدة-بضم الحاء-والثالث أم حميدة-بفتح الحاء-.

اتفقوا أنه مولى واختلفوا في ولائه على أربعة أقوال: أحدها لعثمان رضي الله عنه والثاني عبد الله بن الزبير والثالث سعيد بن العاص والرابع فاطمة بنت الحسين.

عمر دهراً طويلاً، وكان قد أدرك زمن عثمان رضي الله عنه، وقرأ القرآن وتنسك. روى عن عبد الله بن جعفر والقاسم بن محمد وسالم بن عبد الله وعكرمة، وله أخبار طريفة: من ذلك ما حكى العباس بن نسيم الكاتب قال: قيل لأشعب: طلبت العلم وجالست الناس فلو جلست لنا لسمعنا منك، فقال: نعم، فجلس لهم فقالوا: حدثنا، فقال: سمعت عكرمة يقول سمعت بن عباس يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: خلتان لا تجتمعان في مؤمن، ثم سكت فقالوا: ما الخلتان؟ فقال: نسي عكرمة واحدة ونسيت أنا الأخرى.

وحدثنا الزبير بن بكار قال: قال الواقدي: لقيت أشعب يوماً فقال لي: يا ابن واقد وجدت ديناراً فكيف اصنع به؟ قلت: تعرفه، قال: سبحان الله، قلت: فما الرأي؟ قال: اشتري به قميصاً وأعرفه، قلت: إذن لا يعرفه أحد، قال: فذاك أريد.

وقال الهيثم بن عيد: أسلمته فاطمة بنت الحسين في البزازين فقيل له: أين بلغت من معرفة البز؟ فقال: أحسن النشر ولا أحسن أطوي وأرجو أن أتعلم الطي. ومر برجل يتخذ طبقاً فقال: اجعله واسعاً لعلهم يهدون إلينا فيه فيكون كبيراً خيراً من أن يكون صغيراً.

وخرج سالم بن عبد الله إلى ناحية من نواحي المدينة متنزهاً ومعه حرم. فبلغ اشعب خبره فوافى الموضع الذي هم فيه فصادف الباب مغلقاً فتسور الحائط فقال له سالم: ويحك بناتي وحرمي، فقال: "لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد"، فوجه إليه بطعام أكل منه وحمل إلى منزله.

وقال سليمان الشاذكوني: كان لي بني في المكتب فانصرف إلي يوماً فقال: يا أبه الا احدثك بطريف؟ فقال: هات، فقال: كنت أقرأ على المعلم أن أبي يدعوك وأشعب الطامع عنده جالس، فلبس نعله وقال: امش بين يدي، فقلت: إنما أقرأ عشري، فقال: عجبت أن تفلح أو يفلح أبوك.

وحكى الحسن بن علي الخلال عن أبي عاصم النبيل قال: سمعت أشعب يقول: ما زفت بالمدينة امرأة قط إلى زوجها إلا كنست بيتي ورفعت ستري طمعاً في أن تهدي إلي.

وقيل لأشعب: هل رأيت أطمع منك؟ قال: نعم، شاة كانت لي على سطح فنظرت إلى قوس قزح فظنته حبل قت فأهوت إليه واثبة من السطح فاندق عنقها.

وقدم على يزيد بن حاتم مصر فجلس في مجلسه من الناس، فدعا يزيد بعض غلمانه وأسر له بشيء، فقام أشعب فقبل يده، فقال له: و لم فعلت هذا؟ قال: رأيتك أسررت إلى غلامك بشيء فعلمت أنك قد أمرت لي بصلة، فضحك منه وقال: ما فعلت ولكني أفعل، وأمر له بصلة.

وحكى المدائني قال: تغدى أشعب مع زياد بن عبيد الله الحارثي فجاءوه بمضيرة فقال أشعب للخبازك ضعها بين يدي، فوضعها بين يديه، فقال زياد: من يصلي بأهل السجن؟ قالوا: ليس لهم إمام، فقال: أدخلوا أشعب يصلي بهم، قال: أو غير ذلك أصلح الله الأمير؟ أحلف لا آكل مضيرة أبداً.

وحكى المدائني قال: أتي أشعب بفالوذجة عند بعض الولاة فأكل منها فلم توافقه، فقيل له: كيف تراها يا أشعب؟ قال: امرأته طالق إن لم تكن عملت من قبل أن يوحي الله إلى النحل.

وحكى المدائني عن حبهم بن خلف قال: حدثني رجل قال: قلت لأشعب: لو تحدثت عندي العشية، قال: أكره أن يجيء ثقيل، قلت: ليس غيرك وغيري، قال: فإذا صليت الظهر فأنا عندك، فصلى وجاء، فلما وضعت الجاية الطعام إذا صديق لي يدق الباب، قال: ألا ترى؟ قد صرت إلى ما أكره، قلت: إن لك عندي فيه عشر خصال، قال: فما هي؟ قلت: أولها أنه لا يأكل مع ضيف، قال: التسع خصال لك، أدخله.

ووجدت في بعض الكتب عن المدائني قال: توضأ أشعب فغسل رجله اليسرى وترك اليمنى، فقيل له: تركت غسل اليمنى، فقال: لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: أمتي غر محجلون من آثار الوضوء، وأنا أحب أن أكون أغر محجلاً من الثلاث مطلق اليمين.

وحكى الهيثم بن عدي قال: لقيت أشعب فقلت لهك كيف ترى أهل زمانك هذا؟ قال: يسألون عن أحاديث الملوك ويعطون عطاء العبيد. وحكى المدائني قال: بعث الوليد بن يزيد إلى أشعب بعدما طلق امرأته سعدى، فقال له: يا أشعب أن لك عندي عشرة آلاف درهم على أن تبلغ رسالتي سعدى، فقال له: أحضر المال حتى أنظر إليه، فأحضر الوليد بدرة فوضعها أشعب على عنقه وقال: هات رسالتك يا أمير المؤمنين، قال: قل لها: يقول لك.

أسعدى هل إليك لنا سبيل	وهل حتى القيامة من تلاق
بلى ولعل دهراً أن يواتي	بموت من حليلك أو طلاق
فأصبح شامتاً وتقر عيني	ويجمع شملنا بعد افتراق

قال: فأتى أشعب الباب فأخبرت بمكانه فأمرت ففرش لها فرش وجلست فأذنت له فدخل فأنشدها ما أمره، فقالت لخدمها: خذوا الفاسق، فقال: يا سيدتي إنها بعشرة آلاف درهم، قالت: والله لأقتلنك أو تبلغه كما تبلغني، قال: هاتي رسالتك جعلت فداك، قالت: قل له:

أتبكي على لبنى وأنت تركتها	وقد ذهبت لبنى فما أنت صانع

فأقبل أشعب فدخل على الوليد فأنشده البيت فقال: أوه! قتلتني والله، ما تراني صانعاً بك يا ابن الزانية؟ اختر إما أن أدليك في البئر منكساً أو أرمي بك من فوق القصر منكساً أو أضرب رأسك بعمودي هذا ضربة، فقال: ما كنت فاعلاً بي شيئاً من ذلك، قال: و لم؟ قال: لأنك لم تكن لتعذب عينين قد نظرنا إلى سعدى، قال: صدقت يا ابن الزانية، اخرج عني.

قال الزبير: حدثني مصعب قال، قال لي ابن كليب: حدثت أشعب مرة فبكى فقلت: ما يبكيك؟ قال: أنا بمنزلة شجرة الموز إذا نشأت ابنتها قطعت هي، وقد نشأت أنت في موالي وأنا الآن أموت وأنا أبكي على نفسي.

وكان أشعب يغني وله أصوات قد حكيت عنه وكان ابنه عبيدة يغنيها، فمن اصواته هذه:

أروني من يقوم لكم مقامي	إذا ما الأمر جل عن الخطاب
إلى من تفزعون إذا حثوتم	بأيديكم علي من التراب

شقيق البلخي

أبو علي شقيق بن إبراهيم البخلي؛ من مشايخ خراسان، له لسان في التوكل حسن الكلام فيه، صاحب إبراهيم بن أدهم وأخذ عنه الطريق، وهو أستاذ حاتم الأصم، وكان قد خرج إلى بلاد الترك للتجارة وهو حدث، فدخل إلى بيت أصنامهم، فقال لعالمهم: إن هذا الذي أنت فيه باطل، ولهذا الخلق خالق ليس كمثله شيء رازق كل شيء، فقال له: ليس يوافق قولك فعلك، فقال له شقيق: كيف؟ قال: زعمت أن لك خالقاً قادراً على كل شيء وقد تعنيت إلى ها هنا لطلب الرزق، قال شقيقك فكان سبب زهدي كلام التركي، فرجع وتصدق بجميع ما يملك، وطلب العلم.

وكانت وفاته سنة ثلاث وخمسين ومائة، رحمه الله تعالى. ذكره ابن الجوزي في "الشذور".

شقيق بن سلمة

أبو وئل شقيق بن سلمة الأسدي؛ أدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم و لم يلقه، وسمع عمر بن الخطاب وعثمان وعلياً وعماراً وعبد الله بن مسعود وخباب ابن الأرت وأبا موسى الأشعري وأسامة بن زيد وحذيفة بن اليمان وابن عمر وابن عباس وجرير بن عبد الله وأبا مسعود الأنصاري والمغيرة بن شعبة رضي الله عنهم اجمعين، وروى عنه منصور بن المعتمر والحكم بن عبة وحبيب بن أبي ثابت وغيرهم.

وكان ممن سكن الكوفة وورد المدائن مع علي رضي الله عنه حين قاتل الخوارج بالنهروان؛ قيل له: من أدركت؟ قال: بينا أنا أرعى غنماً لأهلي إذ مر ركب أو فوارس ففرقوا غنمي، فوقف رجل فقال: اجمعوا للغلام غنمه كما فرقتموها عليه، فتبعت رجلاً منهم فقلت: من هذا؟ قال: النبي صلى الله عليه وسلم. وقال الأعمش: قال لي شقيقق بن سلمة: لو رأيتني ونحن هراب من خالد بن الوليد يو بزاخة فوقعت عن البعير فكادت تندق عنقي، فلو مت يومئذ كانت النار؛ وقال: كنت يومئذ ابن إحدى عشرة سنة.

وكان لأبي وائل خص من قصب هو فيه وفرسه. وكان إذا غزا نقضه وإذا قدم بناه. وكان يقول للأعمش: يا سليمان، نعم الرب ربنا لو أطعناه ما عصيناه. وقال أيضاً: أسمع الناس يقولون الدانق والقيراط، الدانق أكبر أو القيراط؟ وقال سعيد بن صالح: كان أبو وائل يؤم جنائزنا وهو ابن خمسين ومائة سنة...

شهدة بنت الإبري

فخر النساء شهدة بنت أبي نصر أحمد بن الفرج بن عمر الإبري الكاتبة الدينورية الأصل البغدادية المولد والوفاة؛ كانت من العلماء، وكتبت الخط الجيد وسمع عليها خلق كثير، وكان لها المساع العالي ألحقت فيه الأصاغر بالأكابر؛ سمعت من أبي الخطاب نصر بن أحمد بن البطر وأبي عبد الله الحسين ابن أحمد بن طلحة النعالي وطراد بن محمد الزينبي وغيرهم مثل أبي الحسن علي ابن الحسين بن أيوب وأبي الحسين أحمد بن عبد القادر بن يوسف وفخر الإسلام أبي بكر محمد بن أحمد الشاشي واشتهر ذكرها وبعد صيتها. وكانت وفاتها يوم الأحد بعد العصر ثالث عشر المحرم سنة أربع وسبعين

وخمسمائة، ودفنت بباب أبرز وقد نيفت على تسعين سنة من عمرها، رحمها الله تعالى.

والإبري: بكسر الهمزة وفتح الباء الموحدة وبعد ياء مثناة من تحتها، هذه النسبة إلى الإبر التي هي جمع إبرة التي يخاط بها، وكان المنسوب إليها يعلمها أو يبيعها.

والدينورية: بكسر الدال المهملة وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح النون والواو وفي آخرها راء، هذه النسبة إلى الدينور، وهي بلدة من بلاد الجبل ينسب إليها جماعة من العلماء، وقال أبو سعد ابن السمعاني: إن الدال من الدينور مفتوحة، والأصح الكسر كما ذكرناه.

ومات والدها أبو نصر أحمد في يوم السبت الثالث والعشرين من جمادى الأولى سنة ست وخمسمائة رحمه الله تعالى، وكانت وفاته ببغداد ودفن بباب أبرز.

وذكر ابن النجار في "تاريخ بغداد" علي بن محمد بن يحيى أبا الحسن الدريني المعروف بثقة الدولة ابن الأنباري فقال: كان من الأماثل والأعيان، واختص بالإمام المقتفي لأمر الله، وكان فيه أدب ويقول الشعر، وبنى مدرسة لأصحاف الشافعي على شاطئ دجلة بباب الأزج وإلى جانبها رباطاً للصوفية ووقف عليهما وقوفاً حسنة، وسمع الحديث؛ قال السمعاني: كان يخدم أبا نصر أحمد بن الفرج الإبري وزوجه بنته شهدة الكاتبة، ثم علت درجته إلى أن صار خصيصاً بالمقتفي. مولده سنة خمس وسبعين وأربعائة، وتوفي يوم الثلاثاء سادس عشر شعبان سنة تسع وأربعين وخمسمائة، ودفن في داره برحبة الجامع، ثم نقل بعد موت زوجته شهدة فدفنا بباب أبرز قريباً من المدرسة التاجية في محرم سنة اربع وسبعين وخمسمائة.

أسد الدين شيركوه

أبو الحارث شيركوه بن شاذي بن مروان الملقب الملك المنصور أسد الدين عم السلطان صلاح الدين رحمه الله تعالى؛ قد تقدم من حديثه نبذة في أخبار شاور، وكان شاور قد وصل إلى الشام يستنجد بنور الدين في سنة تسع وخمسين وخمسمائة. وذكر بهاء الدين بن شداد أن ذلك كان في سنة ثمان وخمسين، وأنهم وصلوا إلى مصر في الثاني من جمادى الآخرة من السنة المذكورة، حكاه في "سيرة صلاح الدين" رحمه الله تعالى، فسير معه جماعة من عسكره، وجعل مقدمهم أسد الدين شيركوه، وقدموا مصر، وغدر بهم شاور ولم يف بما وعدهم به، فعادوا إلى دمشق، وكان رحيلهم عن مصر في السابع من ذي الحجة من السنة المذكورة. ثم إنه عاد إلى مصر، وكان توجهه إليها في شهر ربيع الول من سنة اثنتين وستين، لأنه طمع في ملكها في الدفعة الأولى، وسلك طريق وادي الغزلان، وخرج عند إطفيح، وكانت في تلك الدفعة وقعة البابين عند الأشمونين، وتوجه السلطان صلاح الدين إلى الاسكندرية واحتمى بها، وحاصره شاور وعسكر مصر.

ثم رجع أسد الدين من الصعيد إلى بلبيس، وجرى الصلح بينه وبين المصريين، وسيروا له صلاح الدين، وعاد إلى الشام، ولما وصل الفرنج إلى بلبيس وملكوها وقتلوا أهلها في سنة أربع وستين، سيروا إلى أسد الدين وطلبوه ومنوه ودخلوا في مرضاته لأن ينجدهم، فمضى إليهم وطرد الفرنج عنهم. وكان وصوله إلى مصر في شهر ربيع الأول من السنة المذكورة، وعزم شاور على قتله وقتل الأمراء الكبار الذين معه، فبادروه وقتلوه كما تقدم في ترجمته.

وتولى أسد الدين الوزارة يوم الأربعاء سابع عشر شهر ربيع الآخر سنة أربع وستين وخمسمائة، وأقام بها شهرين وخمسة أيام، ثم توفي فجأة يوم السبت الثاني والعشرين، وقال الروحي: يوم الأحد الثالث والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة بالقاهرة، ودفن بها، ثم نقل إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم بعد مدة بوصية منه، رحمه الله تعالى، وتولى مكانه صلاح الدين.

وقال ابن شداد في "سيرة صلاح الدين": إن أسد الدين كان كثير الأكل، شديد المواظبة على تناول اللحوم الغليظة، تتواتر عليه التخم والخوانيق وينجو منها بعد مقاساة شدة عظيمة، فأخذه مرض شديد، واعتراه خانوق عظيم فقتله في التاريخ المذكور، ولم يخلف ولداً سوى ناصر الدين محمد بن شيركوه الملقب الملك القاهر.

ولما مات أسد الدين أخذ نور الدين حمص منهم في رجب سنة أربع وستين وخمسمائة. فلما ملك صلاح الدين الشام أعطى حمص لناصر الدين المذكور، ولم يزل ملكها حتى توي يوم عرفة سنة إحدى وثمانين وخمسمائة ونقلته زوجته بنت عمه ست الشام بنت أيوب إلى تربتها بمدرستها بدمشق

ظاهر البلدن ودفنته عند أخيها شمس الدولة توران شاه بن أيوب ا لمقدم ذكره.

وملك حمص بعده ولده أسد الدين شيركوه، ومولده في سنة تسع وستين وخمسمائة، وتوفي يوم الثلاثاء تاسع عشر شهر رجب سنة سبع وثلاثين وستمائة بحمص، ودفن في تربته داخل البلد. وكانت له أيضاً الرحبة وتدمر وماكسين من بلد الخابور.

وخلف جماعة من الأولاد، فقام مقامه في الملك ولده الملك المنصور ناصر الدين إبراهيم. ولم يزل حتى توفي يوم الجمعة عاشر صفر سنة أربع وأربعين وستمائة بالنيرب من غوطة دمشق، ونقل إلى حمص، ودفن ظاهر البلد في مسجد الخضر عليه السلام من جههتها القبلية.

وترتب مكانه ولده الملك الأشرف مظفر الدولة أبو الفتح موسى. وأخبرني الأشرف المذكور بدمشق في أواخر سنة إحدة وستين وستمائة أن مولده في السنة التي كسر فيها الخوارزمية بالروم، وأن والده بشر به وهم راجعون من هناك. وكانت الوقعة في شهر رمضان سنة سبع وعشرين وستمائة حسبما هو مشروح في ترجمة الأشرف بن العادل وقال لي: إن والده لما بشر به قال للملك الأشرف بن العادل: يا خوند قد زاد في مماليكك واحد، فقال: سمه باسمي، فسماه الأشرف مظفر الدين أبا الفتح موسى.

وكانت وفاة الأشرف بن المنصور المذكور بحمص يوم الجمعة عاشر صفر سنة اثنتين وستين وستمائة، ودفن عند قبر أسد الدين شيركوه جده داخل حمص، فيكون تقدير ولادته في شوال أو ذي القعدة سنة سبع وعشرين.

وشيركوه: لفظ عجمي تفسيره بالعربي أسد الجبل، فشير: أسد، وكوه: جبل.

وحج شيركوه في سنة خمس وخمسين وخمسمائة من دمشق على طريق تيماء وخيبر، وفي تلك السنة حج زين الدين علي بن بكتكين على طريق العراق، واجتمع بالخليفة.

أبو عمر الجرمي

أبو عمر صالح بن إسحاق الجرمي النحوي؛ كان فقيهاً عالماً بالنحو واللغة، وهو من البصرة وقدم بغداد، وأخذ النحو عن الأخفش وغيره، ولقي يونس بن حبيب ولم يلق سيبويه، وأخذ اللغة عن أبي عبيدة وأبي زيد الأنصاري والأصمعي وطبقتهم.

وكان ديناً ورعاً حسن المذهب صحيح الاعتقاد، روى الحديث، وله في النحو كتاب جيد يعرف ب "الفرخ"، معناه فرخ كتاب سيبويه، وناظر ببغداد الفراء.

وحدث أبو العباس المبرد عنه قال: قال لي أبو عمر: قرأت ديوان الهذليين على الأصمعي، وكان أحفظ له من أبي عبيدة، فلما فرغت منه قال لي: يا أبا عمر، إذا فات الهذلي أن يكون شاعراً أو رامياً أو ساعياً فلا خير فيه.

وكان يقول في قوله تعالى: "ولا تقف ما ليس لك به علم"، قال: لا تقل سمعت ولم تسمع، ولا رأيت ولم تر، ولا علمت ولم تعلم، "إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا".

وقال المبرد أيضاً: كان الجرمي أثبت القوم في كتاب سيبويه، وعليه قرأت الجماعة.

وكان عالماً باللغة حافظاً لها، وله كتب انفرد بها، وكان جليلاً في الحديث والأخبار، وله كتاب في السير عجيب وكتاب الأبنية، وكتاب العروض، ومختصر في النحو، وكتاب غريب سيبويه. وذكره الحافظ أبو نعيم الأصبهاني في تاريخ أصبهان. وكانت وفاته سنة خمس وعشرين ومائتين، رحمه الله تعالى.

والجرمي – بفتح الجيم وسكون الراء وبعدها ميم – هذه النسبة إلى عدة قبائل كل واحدة يقال لها جرم، ولا أعلم إلى أيها ينسب أبو عمر المذكور، ولم يكن منهم وإنما نزل فيهم فنسب غليهم، ثم وجدت في كتاب الفهرست، تأليف أبي الفرج محمد بن إسحاق المعروف بابن أبي يعقوب الوراق النديم البغدادي أن أبا عمر المذكور مولى جرم بن ربان، وفي كتاب السمعاني أن ربان بالراء والباء الموحدة المشددة، وهو ربان بن عمران بن الحاف بن قضاعة القبيلة المشهورة، وقيل إنه مولى بجيلة أيضاً. وفي بجيلة جرم بن علقمة بن أنمار، والله اعلم بالصواب.

وما أحسن قول زياد الأعجم في هجو جرم:

تكلفني سويق الكرم جرم وما جرم وما ذاك السويق
وما شربته جرم وهو حل ولا غالت به مذ كان سوق
فلما أنزل التحريم فيها إذا الجرمي منها لا يفيق

وكنى بالسويق عن الخمر، وفي ذلك كلام يطول شرحه فأضربت عنه، وحاصل ما قالوه أن الشاعر كنى عن الخمر بالسويق لانسياقها في الحلق، فسماها سويقاً لذلك.

صالح بن مرداس

أسد الدولة أبو علي صالح بن مرداس بن إدريس بن نصر بن حميد بن مدرك ابن شداد بن عبد قيس بن ربيعة بن كعب بن عبد الله بن أبي بكر بن كلاب ابن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، الكلابي؛ كان من عرب البادية، وقصد مدينة حلب وبها مرتضى الدولة ابن لؤلؤ الجراحي غلام أبي الفضائل ابن سعد الدولة نصر بن سيف الدولة بن حمدان نيابة عن الظاهر بن الحاكم العبيدي صاحب مصر، فاستولى عليها وانتزعها منه، وكان ذا بأس وعزيمة وأهل وعشيرة وشوكة، وكان تملكه لها في ثالث عشر ذي الحجة سنة سبع عشرة وأربعمائة، واستقر بها ورتب أمورها، فجهز إليه الظاهر المذكور أمير الجيوش أنوشتكين الدزبري في عسكر كثيف–والدزبري بكسر الدال المهملة والباء الموحدة وبينهما زاي وفي الآخر راء، هذه النسبة إلى دزبر بن أويتم الديلمي وهو بالدال وبالتاء، أيضاً، وكان بدمشق نائباً عن الظاهر، وكان ذا شهامة وتقدمة ومعرفة بأسباب الحرب–فخرج متوجهاً إليه، فلما سمع صالح الخبر خرج إليه، وتقدم حتى تلاقيا على الأقحوانة فتصافا وجرت بينهما مقتلة انجلت عن قتل أسد الدولة صالح المذكور، وذلك في جمادى الأولى سنة عشرين، وقيل تسع عشرة وأربعمائة، رحمه الله تعالى.

وهو أول ملوك بني مرداس المتملكين لحلب. وسيأتي ذكر حفيده نصر إن شاء الله تعالى في ترجمة ابن حيوس الشاعر.

ومرداس: بكسر الميم وسكون الراء وفتح الدال المهملة وبعد الألف سين مهملة.

والأقحوانة: بضم الهمزة وسكون القاف وضم الحاء المهملة وفتح الواو وبعد الألف نون مفتوحة ثم هاء ساكنة، وهي بليدة بالشام من أعمال فلسطين بالقرب من طبرية. وبالحجاز أيضاً بليدة يقال لها الأقحوانة كان يسكنها الحارث بن خالد بن العاصي بن هشام بن المغيرة المخزومي، وفيها يقول من جملة أبيات:

من كان يسأل عنا أين منزلنا فالأقحوانة منا منزل قمن
إذ نلبس العيش صفوا لا يكدره طعن الوشاة ولا ينبوبنا الزمن

صاعد البغدادي اللغوي

أبو العلاء صاعد بن الحسن بن عيسى الربعي البغدادي اللغوي صاحب كتاب "الفصوص"؛ روى بالمشرق عن أبي سعيد السيرافي وأبي علي الفارسي وأبي سليمان ا لخطابي، ورحل إلى الأندلس في أيام هشام بن الحكم وولاية المنصور ابن أبي عامر في حدود الثمانين والثلثمائة، وأصلة من بلاد الموصل، ودخل بغداد، وكان عالماً باللغة والأدب والأخبار سريع الجواب حسن الشعر طيب المعاشرة ممتعاً، فأكرمه المنصور وزاد في الإحسان إليه والإفضال عليه، وكان مع ذلك محسناً للسؤال حاذقاً في استخراج الأموال، وجمع له كتاب "الفصوص" نحا فيه منحى القالي في أماليه، وأثابه عليه خمسة آلاف دينار، وكان يتهم بالكذب في نقله، فلهذا رفض الناس كتابه.

ولما دخل مدينة دانية وحضر مجلس الموفق مجاهد بن عبد الله العامري أمير البلد كان في المجلس أديب يقال له بشار، فقال للموفق مجاهد: دعني أعبث بصاعد، فقال له مجاهد لا تتعرض إليه فإنه سريع الجواب، فأبى إلا مشاكلته، فقال له بشار، وكان أعمى: يا أبا العلاء، فقال: لبيك، فقال: ما الجرنفل

في كلام العرب؟ فعرف أبو العلاء أنه قد وضع هذه الكلمة وليس لها أصل في اللغة، فقال له بعد أن أطرق ساعة: هو الذي يفعل بنساء العميان ولا يفعل بغيرهن، ولا يكون الجرنفل جرنفلاً حتى لا يتعداهن إلى غيرهن، وهو في ذلك كله يصرح ولا يكني، قال: فخجل بشار وانكسر، وضحك من كان حاضراً، فقال له الموفق: قلت لك لا تفعل فلم تقبل.

وتوفي صاعد المذكور سنة سبع عشرة وأربعمائة بصقيلة، رحمه الله.

ولما ظهر للمنصور كذبه في النقل وعدم تثبيته، رمى كتاب "الفصوص" في النهر، لأنه قيل له: جميع ما فيه لا صحة له، فعمل فيه بعض شعراء عصره:

قد غاص في البحر كتاب الفصوص وهكذا كل ثقيل يغوص

فلما سمع صاعد هذا البيت أنشد:

عاد إلى عنصره إنما يخرج من قعر البحور الفصوص

وله أخبار كثيرة في الامتحان، ولولا التطويل لذكرتها.

والجرنفل: بفتح الجيم والراء وسكون النون وضم الفاء وبعدها لام.

صدقة بن دبيس

أبو الحسن صدقة الملقب سيف الدولة فخر الدين بن بهاء الدولة أبي كامل منصور بن دبيس بن علي بن مزيد الأسدي الناشري صاحب الحلة السيفية؛ كان يقال له ملك العرب وكان ذا بأس وسطوة وهيبة، ونافر السلطان محمد ابن ملكشاه بن ألي أرسلان السلجوقي وأفضت الحال إلى الحرب، فتلاقيا عند النعمانية، وقتل الأمير صدقة المذكور في المعركة يوم الجمعة سلخ جمادى الآخرة، وقيل العشرين من رجب سنة إحدى وخمسمائة، وحمل رأسه إلى بغداد، رحمه الله تعالى.

وذكر عز الدين أبو الحسن علي بن الأثير في استدراكاته على السمعاني في كتاب "الأنساب" أنه توفي سنة خمسمائة، والله أعلم.

وله نظم الشريف أبو يعلى محمد بن الهبارية كتاب "الصادح والباغم"–وسيأتي ذكر ذلك في ترجمة ابن الهبارية، إن شاء الله تعالى –.

وكانت وفاة والده أبي كامل منصور في أواخر شهر ربيع الأول سنة تسع وسبيعن وأربعمائة، رحمه الله تعالى.

وتوفي جده دبيس المذكور ولقبه نور الدولة أبو الأغر في ليلة الأحد عاشر شوال سنة ثلاث، وقيل اربع وسبعين وأربعمائة، وكانت إمارته سبعاً وستين سنة، ولي الإمارة سنة ثمان وأربعمائة وعمره يوم ذاك أربع عشرة سنة، وكان أبو الحسن علي بن أفلح الشاعر المشهور كاتباً بين يديه في شبيبته.

وتوفي جد أبيه علي بن مزيد سنة ثمان وأربعمائة، وقد تقدم ذكر ولده دبيس بن صدقة في حرف الدال.

ودبيس: بضم الدال المهملة وفتح الباء الموحدة وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها سين مهملة.

ومزيد: بفتح الميم وسكون الزاي وفتح الياء المثناة من تحتها وبعدها دال مهملة.

والأسدي والناشري: تقدم الكلام عليهما في حرف الدال في ترجمة دبيس.

والحلة: بكسر الحاء المهملة وتشديد اللام وبعدها هاء ساكنة، وهي بلدة بالعراق بين بغداد والكوفة على الفرات في بر الكوفة، اختطها سيف الدولة صدقة المذكور في سنة خمس وتسعين وأربعمائة، فنسبت غليه.

والنعمانية، بضم النون، بلدة بين الحلة وواسط.

صالح بن عبد القدوس

أبو الفضل صالح بن عبد القدوس البصري مولى الأزد، أحد الشعراء، اتهمه المهدي بالزندقة فأمر بحمله، فأحضر، فلما خاطبه أعجب بغزارة أدبه وعلمه وبراعته وحسن بيانه وكثرة حكمته فأمر بتخلية سبيله، فلما ولى رده وقال: ألست القائل:

والشيخ لا يترك أخلاقه حتى يوارى في ثرى رمسه

إذا ارعوى عاد إلى جهله		كذي الضنى عاد إلى نكسه

قال: بلى يا أمير المؤمنين. قال: فأنت لا تترك أخلاقك، ونحن نحكم فيك بحكمك في نفسك، ثم أمر به فقتل وصلب على الجسر؛ ويقال إن المهدي أبلغ عنه أبياتاً عرض فيها بذكر النبي صلى الله عليه وسلم، فأحضره المهدي وقال له: أنت القائل هذه الأبيات؟ قال: لا والله يا أمير المؤمنين، ما أشركت بالله طرفة عين، فاتق الله ولا تسفك جمي على الشبهة، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: ادرأوا الحدود بالشبهات، وجعل يتلو عليه القرآن حتى رق له وأمر بتخليته. فلما ولى قال: أنشدني قصيدتك السينية، فأنشده حتى بلغ إلى قوله فيها: والشيخ لا يترك أخلاقه... فأمر به حينئذ فقتل.

ومن مستحسنات قصائد صالح المذكور القصيدة التي أولها:

المرء يجمع والزمان يفرق		ويظل يرقع والخطوب تمزق

وزن الكلام إذا نطقت فإنما		يبدي عيوب ذوي العقول المنطق

ومن الرجال إذا استوت أحلامهم		من يستشار إذا استشير فيطرق

حتى يجيل بكل واد قلبه		فيرى ويعرف ما يقول فينطق

ما الناس إلا عاملان فعامل		قد مات من عطش وآخر يغرق

والناس في طلب المعاش فإنما		بالجد يرزق منهم من يرزق

لو يرزقون الناس حسب عقولهم		ألفيت أكثر من ترى يتصدق

لكنه فضل المليك عليهم		هذا عليه موسع ومضيق

وإذا الجنازة والعروس تلاقيا		ورأيت دمع نوائح يترقرق

سكت الذي تبع العروس مبهتاً		ورأيت من تبع الجنازة ينطق

ومن مختار شعره:

ان الغني الذي يرضى بعيشته		لا من يظل على ما فات مكتئبا

لا تحقرن من الأيام محتقراً		كل امرئ سوف يجزى بالذي اكتسبا

قد يحقز المرء ما يهوى فيركبه		حتى يكون إلى توريطه سببا

قال أحمد بن عبد الرحمن المعبر: رأيت صالح بن عبد القدوس في المنام ضاحكاً مستبشراً فقلت له: ما فعل بك ربك، وكيف نجوت مما كنت ترمى به؟ قال: إني وردت على رب لا تخفى عليه خافية، فاستقبلني برحمته وقال: لقد علمت براءتك مما كنت تقذف به. وكان قتله سنة سبع وستين ومائة.

صالح المري

أبو بشير صالح بن بشير القارئ المعروف بالمري؛ من أهل البصرة، حدث عن الحسن ومحمد بن سيرين وبكر بن عبد الله وغيرهم؛ روى عنه شجاع بن أبي نصر البلخي وسريج بن النعمان الجوهري وعفان بن مسلم وغيرهم.

كان عبداً صالحاً، وكان المهدي قد بعث إليه فأقدمه عليه؛ قال صالح المري: دخلت على المهدي بالرصافة، فلما مثلت بين يديه قلت: يا أمير المؤمنين، احمل لله ما أكلمك به اليوم، فإن أولى الناس بالله أحملهم لغلظة النصيحة فيه، وجدير بمن له قرابة برسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرث أخلاقه، ويأتم بهديه، وقد ورثك الله من فهم العلم وإنارة الحجة ميراثاً قطع به عذرك، فمهما ادعيت من حجة أو ركبت من شبهة لم يصح لك فيهما برهان

من الله، حل بك من سخط الله بقدر ما تجاهلته من العلم أو أقدمت عليه من شبهة الباطل؛ واعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خصم من خالف في أمته يبتزها أحكامها. ومن كان محمد صلى الله عليه وسلم خصمه، كان الله خصمه، فأعد لمخاصمة الله ومخاصمة رسول الله صلى الله عليه وسلم حججاً تضمن لك النجاة أو استسلم للهلكة. واعلم أن أبطأ الصرعى نهضة صريع هوى، وأن أثبت الناس قدماً يوم القيامة آخذهم بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، فمثلك لا يكابر بتجديد المعصية، ولكن تمثل له الاساءة إحساناً، ويشهد له عليها خونة العلماء، وبهذه الحبالة تصيدت الدنيا نظراؤك، فأحسن الحمل فقد أحسنت إليك الأداء؛ قال: فبكى المهدي ثم أمر له بشيء فلم يقبله؛ وحكي بعض الكتاب أنه رأى هذا الكلام مكتوباً في دواوين المهدي.

وقال عفان بن مسلم: كنا نأتي مجلس صالح المري نحضره وهو يقص، وكان إذا أخذ في قصصه كأنه رجل مذعور يفزعك أمره من حزنه وكثرة بكائه كأنه ثكلى. وكان مملوكاً لامرأة من بني مرة بن الحارث بن عبد القيس. ومات سنة ست وسبعين، رحمه الله تعالى.

حرف الضاد

الأحنف بن قيس

أبو بحر الضحاك بن قيس بن معاوية بن حصين بن عبادة بن النزال بن مرة ابن عبيد بن الحارث بن عمرو بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم التميمي المعروف بالأحنف، وقيل اسمه صخر، وهو الذي يضرب به المثل في الحلم-والحارث المذكور لقبه مقاعس-.

كان من سادات التابعين رضي الله عنهم؛ أدرك عهد النبي صلى الله عليه وسلم و لم يصحبه وشهد بعض الفتوحات منها قاسان والتيمرة، وذكره الحافظ أبو نعيم في "تاريخ أصبهان" وقال ابن قتيبة في كتاب "المعارف" ما صورته: ولما أتى النبي صلى الله عليه وسلم بني تميم يدعوهم إلى الإسلام كان الأحنف فيهم، و لم يجيبوا إلى اتباعه، فقال لهم الأحنف: إنه ليدعوكم إلى مكارم الأخلاق وينهاكم عن ملائمها، فأسلموا وأسلم الأحنف و لم يفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما كان زمن عمر رضي الله عنه وفد عليه. وكان من جلة التابعين وأكابرهم، وكان سيد قومه، موصوفاً بالعقل والدهاء والعلم والحلم، روى عن عمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم، وروى عنه الحسن البصري وأهل البصرة، وشهد مع علي رضي الله عنه وقعة صفين، و لم يشهد وقعة الجمل مع أحد الفريقين، وشهد بعض فتوحات خراسان في زمن عمر وعثمان، رضي الله عنهما.

ولما استقر الأمر لمعاوية دخل عليه يوماً فقال له معاوية: والله يا أحنف ما أذكر يوم صفين إلا كانت حزازة في قلبي إلى يوم القيامة، فقال له الأحنف: والله يا معاوية إن القلوب التي أبغضناك بها لفي صدورنا، وإن السيوف التي قاتلناك بها لفي أغمادها، وإن تدن من الحرب فتراً ندن منها شبراً، وإن تمش إليها نهرول إليها، ثم قام وخرج. وكانت أخت معاوية من وراء حجاب تسمع كلامه فقالت: يا أمير المؤمنين، من هذا الذي يتهدد ويتوعد؟ قال: هذا الذي إذا غضب غضب لغضبه مائة ألف من بني تميم لا يدرون فيم غضب.

وروي أن معاوية أيضاً لما نصب ولده يزيد لولاية العهد أقعده في قبة حمراء، فجعل الناس يسلمون على معاوية ثم يميلون إلى يزيد، حتى جاء رجل ففعل ذلك ثم رجع إلى معاوية فقال: يا أمير المؤمنين، اعلم أنك لو لم تول هذا أمور المسلمين لأضعتها، والأحنف بن قيس جالس، فقال له معاوية: ما بالك لا تقول يا أبا بحر؟ فقال: أخاف الله إن كذبت وأخافكم إن صدقت، فقال له معاوية: جزاك الله عن الطاعة خيراً، وأمر له بألوف؛ فلما خرج لقيه ذلك الرجل بالباب فقال له: يا أبا بحر، غني لأعلم أن الشركة المتعهدة من خلق الله سبحانه وتعالى نطمع في استخراجها إلا بما سمعت، فقال له الأحنف: أمسك عليك فإن ذا الوجهين خليق أن لا يكون عند الله تعالى وجيهاً.

ومن كلام الأحنف: في ثلاث خصال ما أقولهن إلا ليعتبر: ما دخلت بين اثنين قط حتى يدخلاني بينهما، ولا أتيت باب أحد من هؤلاء ما لم أدع إليه، يعني الملوك، ولا حللت حبوتي إلى ما يقوم الناس إليه.

ومن كلامه: ألا أدلكم على المحمد بلا مرزئة؟ الخلق السجيح والكف على التسبيح، ألا أخبركم بأدوإ الداء؟ الخلق الدنيء واللسان البذيء.

ومن كلامه: ما خان شريف ولا كذب عاقل ولا اغتاب مؤمن. وقال ما ادخرت الآباء للأبناء ولا أبقت الموتى للأحياء أفضل من اصطناع معروف عند ذوي الأحساب والآداب. وقال: كثرة الضحك تذهب الهيبة، وكثرة المزاح تذهب المروءة، ومن لزم شيئاً عرف به.

وسمع الأحنف رجلاً يقول: ما أبالي أمدحت أم ذممت، فقال له: لقد استرحت من حيث تعب الكرام.
ومن كلامه: جنبوا مجلسنا ذكر النساءوالطعام، فإني أبغض الرجل يكون وصافاً لفرجه وبطنه، وإن من المروءة أن يترك الرجل الطعام وهو يشتهيه.
وقال هشام بن عقبة أخو ذي الرمة الشاعر المشهور: شهدت الأحنف بن قيس وقد جاء إلى قوم يتكلمون في دم، احكموا، فقالوا: نحكم بديتين. قال: ذلك لكم، فلما سكتوا قال: أنا أعطيكم ما سألتم غير أني قائل لكم شيئاً، إن لله عز وجل قضى بدية واحدة، وإن النبي صلى الله عليه وسلم قضى بدية واحدة، وأنتم اليوم طالبون، وأخشى أن تكونوا غداً مطلوبين، فلا يرضى الناس منكم إلا بمثل ما سننتم لأنفسكم، فقالوا: فردها إلى دية واحدة؛ فحمد الله وأثنى عليه وركب.

وسئل عن الحلم ما هو فقال: هو الذل مع الصبر. وكان يقول إذا عجب الناس من حلمه: إني لأجد ما تجدون، ولكني صبور. وكان يقلو: وجدت الحلم أنصر لي من الرجال. وكان يقول: ما تعلمت الحلم إلا من قيس بن عاصم المنقري، لأنه قتل ابن أخر له بعض بنيه فأتي بالقاتل مكتوفياً يقاد إليه، فقال: ذعرتم الفتى، ثم أقبل على الفتى فقال: يا بني، بئس ما صنعت: نقصت عددك وأوهنت عضدك وأشمت عودك وأسأت بقومك؛ خلو سبيله، واحملوا إلى أم المقتول دينه فإنها غريبة. ثم انصرف القاتل وما حل قيس حبوته ولا تغير وجهه.
وكان زياد بن أبيه في مدة ولايته العراقين كثير الرعاية بن بدر الغداني وللأحنف، وكان حارثة مكباً على الشرب، فوقع أهل البصرة فيه عند زياد ولاموا زياداً في تقريبه ومعاشرته، فقال لهم زياد: يا قوم، كيف لي باطراح رجل هو يسايرني منذ دخلت العراق، ولم يصكك ركابي ركاباه قط، ولا تقدمني فنظرت إلى قفاه، ولا تأخر عني فلويت إليه عنقي، ولا أخذ علي الروح في صيف قط، ولا الشمس في شتاء قط، ولا سألته عن شيء من العلوم إلا وظننته لا يحسن سواه، ثم وجدت هذا الكلام في كتاب "ربيع الأبرار" تأليف الزمخشري في باب معاشرة الناس على هذه الصورة، والله أعلم. وأما الأحنف فلم يكن فيه ما يقال. فلما مات زياد وتولى ولده عبيد الله قال لحارثة: إما أن تترك الشراب أو تبعد عني، فقال له حارثة: قد علمت حالي عند والدك، فقال عبيد الله: إن والدي كان قد برع بروعاً لا يلحقه معه عيب، وأنا حدث، وإنما أنسب إلى من يغلب علي، وأنت رجل تديم الشراب فمتى قربتك فظهرت رائحة الشراب منك لم آمن أن يظن بي، فدع النبيذ وكن أول داخل علي وآخر خارج عني، فقال له حارثة: أنا لا أدعه لمن يملك ضري ونفعي، أفأدعه للحال عندك؟ قال: فاختر من عملي ما شئت، قال: توليني سرق فقد وصف لي شرابها، وتضم إليها رام هرمز، فولاه إياهما، فلما خرج شيعه الناس، فقال له أنس بن أبي أنس، وقيل أبو الأسود الدؤلي:

أحار بن بدر قد وليت إمارة ... فكن جرذاً فيها تخون وتسرق
ولا تحتقر يا حار شيئاً وجدته ... فحظك من مال العراقيين سرق
باه تميماً بالغنى إن للغنى ... لساناً به المرء الهيوبة ينطق
فإن جميع الناس إما مكذب ... يقول بما تهوى وإما مصدق
يقولون أقوالاً ولا يعلمونها ... ولو قيل هاتوا حققوا لم يحققوا

وأما الأحنف فإنه تغيرت مترلته عند عبيد الله أيضاً، وصار يقدم عليه من لا يساويه ولا يقاربه.

ثم إن عبيد الله جمع أعيان العراق وفيهم الأحنف وتوجه بهم إلى الشام للسلام على معاوية، فلما وصلوا دخل عبيد الله على معاوية وأعلمه بوصول رؤساء العراق، فقال: أدخلهم إلي أولاً فأول على قدر مراتبهم عندك. فخرج إليهم وأدخلهم على الترتيب كما قال معاوية، وآخر من دخل الأحنف. فلما رآه معاوية–وكان يعرف مترلته ويبالغ في إكرامه لتقدمه وسيادته–قال له: إلي يا أبا بحر، فتقدم إليه فأجلسه معه على مرتبته وأقبل عليه يسأله عن حاله ويحادثه وأعرض عن بقية الجماعة؛ ثم إن أهل العراق أخذوا في الشكر من عبيد الله والثناء عليه، والأحنف ساكت، فقال له معاوية: لم لا تتكلم يا أبا بحر؟ فقالك إن تكلمت خالفتهم، فقال لهم معاوية: اشهدوا علي أنني قد عزلت عبيد الله عنكم، قوموا انظروا في أمير أوليه عليكم وترجعون إلي

بعد ثلاثة أيام. فلما خرجوا من عنده كان فيهم جماعة يطلبون الإمارة لأنفسهم وفيهم من عين غيره وسعوا في السر مع خواص معاوية أن يفعل لهم ذلك، ثم اجتمعوا بعد انقضاء الثلاثة كما قال معاوية، والأحنف معهم، ودخلوا عليه فأجلسهم على ترتيبهم في المجلس الأول، وأخذ الأحنف إليه كما فعل أولاً وحادثه ساعة، ثم قال: ما فعلتم فيما انفصلتم عليه؟ فجعل كل واحد يذكر شخصاً، وطال حديثهم في ذلك وأفضى إلى منازعة وجدال، والأحنف ساكت، ولم يكن في الأيام الثلاثة تحدث مع أحد في شيء، فقال له معاوية: لم لا تتكلم يا أبا بحر؟ فقال الأحنف: إن وليت أحداً من أهل بيتك لم تجد من يعدل عبيد الله ولا يسد مسده، وإن وليت من غيرهم فذلك إلى رأيك. ولم يكن في الحاضرين الذين بالغوا في المجلس الأول في الثناء على عبيد الله من ذكره في هذا المجلس ولا سأل عوده إليهم، فلما سمع معاوية مقالة الأحنف قال للجماعة: اشهدوا علي أني أعدت عبيد الله إلى ولايته، فكل منهم ندم على عدم تعيينه، وعلم معاوية أن شكرهم لعبيد الله لم يكن لرغبتهم فيه، بل كما جرت العادة في حق المتولي. فلما فصل الجماعة من مجلس معاوية خلا بعبيد الله وقال له: كيف ضيعت مثل هذا الرجل-يعني الأحنف-فإنه عزلك وأعادك إلى الولاية وهو ساكت، وهؤلاء الذين قدمتهم عليه واعتمدت عليهم لم ينفعوك ولا عرجوا عليك لما فوضت الأمر إليهم، فمثل الأحنف من يتخذه الإنسان عوناً وذخراً. فلما عادوا إلى العراق أقبل عليه عبيد الله وجعله بطانته وصاحب سره. ولما جرت لعبيد الله تلك الكائنة المشهورة لم ينفعه فيها سوى الأحنف، وتخلى عنه الذين كان يعتقدهم أعواناً.

وبقي الأحنف إلى زمن مصعب بن الزبير، فخرج معه إلى الكوفة، فمات بها سنة سبع وستين للهجرة، وقيل إحدى وسبعين، وقيل سبع وسبعين، وقيل ثمان وستين عن سبعين سنة، والأول أشهر، رضي الله عنه، وكان قد كبر جداً، ودفن بالثوية عند قبر زياد.

وحكى عبد الرحمن بن عمارة بن عقبة بن أبي معيط قال: حضرت جنازة الأحنف بن قيس بالكوفة، فكنت فيمن نزل قبره، فلما سويته رأيته قد فسح له مد بصري، فأخبرت بذلك أصحابي، فلم يروا ما رأيت؛ ذكر ذلك ابن يونس في "تاريخ مصر" المختص بالغرباء في ترجمة عبد الرحمن المذكور.

وهو أحد السادات الطلس، كما تقدم في أخبار القاضي شريح.

وحدث الكندي عن أبيه قال: ان معاوية بن أبي سفيان بينا هو جالس وعنده وجوه الناس فيهم الأحنف بن قيس إذ دخل رجل من أهل الشام فقام خطيباً، فكان آخر كلامه أن سب علياً رضي الله عنه، فأطرق الناس، وتكلم الأحنف فقال: يا أمير المؤمنين، إن هذا القائل آنفاً لو يعلم أن رضاك في لعن المرسلين لفعل؛ فاتق الله ودع عنك علياً فقد لقي ربه وأفرد في قبره وخلا بعمله، وكان والله المبرز سيفه، الطاهر ثوبه، الميمون نقيبته، العظيم مصيبته. فقال معاوية: يا أحنف لقد أغضيت العين عن القذى وقلت فيما ترى، وايم الله لتصعدن المنبر ولتلعننه طوعاً أو كرهاً. فقال له الأحنف: يا أمير المؤمنين، إن تعفني فهو خير لك وإن تجبرني فو الله لا تجري به شفتاي أبداً. قال: قم فاصعد، قال الأحنف: أما والله مع ذلك لأنصفنك في القول والفعل، قال: وما أنت قائل يا أحنف ان انصفتني؟ قال: أصعد المنبر فأحمد الله تعالى بما هو أهله وأصلي على نبيه صلى الله عليه وسلم ثم أقول: أيها الناس، أن أمير المؤمنين معاوية أمرني أن ألعن علياً، ألا وإن علياً ومعاوية اقتتلا واختلفا فادعى كل منهما انه مبغي عليه وعلى فئته، فإذا دعوت فأمنوا رحمكم الله، ثم أقول: اللهم العن أنت وملائكتك وأنبياؤك وجميع خلقك الباغي منهما على لا أزيد على هذا حرفاً، ولا انقص منه حرفاً، ولو كان فيه ذهاب نفسي. فقال معاوية: إذن نعفيك أبا بحر. ومثل هذا ما قال معاوية أيضاً لعقيل بن أبي طالب رضي الله عنه: ان علياً قد قطعك ووصلتك، ولا يرضيني منك إلا أن تلعنه على المنبر، قال: أفعل، قال: فاصعد المنبر، فصعد، ثم قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: أيها الناس أمرني أن ألعن علي بن ابي طالب أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان فالعنوه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، ثم نزل، فقال له معاوية: انك لم تبين، قال: والله لازدت حرفاً ولا نقصت آخر، والكلام على نية المتكلم.

وكان الأحنف بن قيس يقول: عجبت لمن جرى في مجرى البول كيف يتكبر؛ وكان يقول: اكرموا سفهاءكم فإنهم يكفونكم العار والنار. وقال الأحنف: شكوت إلى عمي مصيبة نزلت بي فأسكتني ثلاثاً ثم قال لي: يا أبا بحر، لا تشك الذي نزل بك إلى مخلوق فإنما هو صديق تسوءه أو عدو تسره.

وقال رجل للأحنف: أخبرني الثقة عنك بسوء، قال: الثقة لا ينم.

وولد ملتزق الأليتين حتى شق، أحنف الرجل يطأ على وحشيها ولذلك قيل له الأحنف، وذهبت عينه عند فتح سمرقند، ويقال بل ذهبت بالجدري؛ وكان متراكب الأسنان صغير الرأس مائل الذقن، وقتل عنترة بن شداد العبسي الفارس المشهور جده معاوية بن حصين في يوم الفروق، وهو أحد أيام وقائع العرب المشهورة.

وها هنا ألفاظ تحتاج إلى تفسير، فالأحنف: المائل، ووحشي الرجل: ظهرها.

والغداني: بضم الغين المعجمة وفتح الدال المهملة وبعد الألف نون، هذه النسبة إلى غدانة بن يربوع، بطن من تميم.

ورام هرمز: مشهورة لا حاجة إلى ضبطها، وهي من بلاد الأهواز من إقليم خوزستان الذي بين البصرة وفارس.

وسرق: بضم السين المهملة وفتح الراء المشددة وبعدها قاف، من كور الأهواز أيضاً ومدينتها دورق: بفتح الدال المهملة وسكون الواو وفتح الراء وبعدها قاف، ويقال لها: دورق الفرس.

والثوية: بفتح الثاء المثلثة وكسر الواو وتشديد الياء المثناة من تحتها، وتصغر أيضاً فيقال لها الثوية، اسم موضع بظاهر الكوفة فيه قبور جماعة من الصحابة وغيرهم رضي الله عنهم، وفيه ماء.

وكان للأحنف ولد يقال له بحر، وبه كني، وكان مضعوفاً، قيل له: لم لا تتأدب بأخلاق أبيك؟ فقال: الكسل. ومات وانقطع عقبه.

حرف الطاء

طاوس

أبو عبد الرحمن طاوس بن كيسان الخولاني الهمداني اليماني، من أبناء الفرس؛ أحد الاعلام التابعين، سمع ابن عباس وأبا هريرة رضي الله عنهما، وروى عنه مجاهد وعمرو بن دينار، وكان فقيهاً جليل القدر نبيه الذكر. قال ابن عيينة: قلت لعبيد الله بن يزيد: مع من تدخل على ابن عباس؟ قال: مع عطاء وأصحابه. قلت: وطاوس؟ قال: أيهات، كان ذلك يدخل مع الخواص. وقال عمرو بن دينار: ما رأيت أحداص قط مثل طاوس.

ولما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة كتب إليه طاوس المذكور: إن أردت أن يكون عملك خيراً كله فاستعمل أهل الخير، فقال عمر: كفى بها موعظة.

وتوفي حاجاص بمكة قبل يوم التروية بيوم، وصلى عليه هشام بن عبد الملك وذلك في سنة ست ومائة رضي الله عنه، وقيل سنة أربع ومائة، والله أعلم.

قال بعض العلماء: مات طاوس بمكة فلم يتهيأ إخراج جنازته لكثرة الناس، حتى وجه إبراهيم بن هشام المخزومي أمير مكة بالحرس، فلقد رأيت عبد الله ابن الحسن بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنهم، واضع السرير على كاهله، وقد سقطت قلنسوة كانت على رأسه ومزق رداؤه من خلفه.

ورايت بمدينة بعلبك داخل البلد قبراً يزار، وأهل البلد يزعمون أنه طاوس المذكور، وهو غلط.

قال أبو الفرج ابن الجوزي في كتاب "الألقاب" إن اسمه ذكوان، وطاوس لقبه وإنما لقب به لأنه كان طاوس القراء، والمشهور أنه اسمه.

وحكي أن هشام بن عبد الملك قدم حاجاً إلى بيت الله الحرام، فلما دخل الحرم قال: إيتوني برجل من الصحابة، فقيل: يا أمير المؤمنين قد تفانوا، قال: فمن التابعين، فأتي بطاوس اليماني، فلما دخل عليه خلع نعليه بحاشية بساطه و لم يسلم بإمرة المؤمنين و لم يكنه وجلس إلى جانبه بغير إذنه وقال: كيف أنت يا هشام؟ فغضب من ذلك غضباً شديداً حتى هم بقتله، فقيل: يا أمير المؤمنين أنت في حرم الله وحرم رسوله صلى الله عليه وسلم؛ لا يمكن ذلك، فقال له: يا طاوس، ما حملك على ما صنعت؟ قال: وما صنعت؟ فاشتد غضبه له وغيظه وقال: خلعت نعليك بحاشية بساطي و لم تسلم علي بإمرة المؤمنين و لم تكنني وجلست بإزائي بغير إذني وقلت: يا هشام كيف أنت؟ قال: أما خلع نعلي بحاشية بساطك فإني أخلعها بين يدي رب العزة كل يوم خمس مرات فلا يعاتبني ولا يغضب علي؛ وأما ما قلت: لم تسلم علي بإمرة المؤمنين فليس كل المؤمنين راضين بإمرتك فخفت أن أكون كاذباً؛ وأما ما قلت: لم تكنني فإن الله عز وجل سمى أنبياءه، قال: يا داود يا يحيى يا عيسى، وكنى أعداءه فقال: "تبت يدا أبي لهب وتب"؛ وأما قولك: جلست بإزائي، فإني سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: إذا أردت أن تنظر إلى رجل من أهل النار فانظر إلى رجل جالس وحوله قوم قيام؛ فقال له: عظني، قال: إني سمعت أمير المؤمنين رضي الله عنه يقول: إن في جهنم حيات كالقلال وعقارب كالبغال تلدغ كل أمير لا يعدل في رعيته. ثم قام وخرج.

قالت امرأة ماجنة ما بقي أحد إلا فتنته ما خلا طاوس فإني تعرضت له فقال: إذا كان وقت كذا فتعالي، فجئت ذلك الوقت فذهب بي إلى المسجد الحرام فقال: اضطجعي، فقلت: ها هنا؟ فقال: الذي يرانا هنا يرانا ثم.

وقال رجل لطاوس: ادع لي، قال: ادع أنت لنفسك فإنه يجيب المضطر إذا دعاه.

ابن جريج قال، قال لي عطاء: جاءني طاوس فقال لي: يا عطاء، إياك أن ترفع حوائجك إلى من أغلق دونك بابه، وعليك بطلب حوائجك إلى من بابه مفتوح لك إلى يوم القيامة، طلبك أن تدعوه ووعدك الإجابة.

وقال عبد الله بن طاوس: قال لي أبي: يا بني صاحب العقلاء تنسب إليهم وإن لم تكن منهم، ولا تصاحب الجهال فتنسب إليهم وإن لم تكن منهم، واعلم أن لكل شيء غاية، وغاية المرء حسن عقله.

وروي أن أير المؤمنين أبا جعفر المنصور استدعى عبد الله بن طاوس المذكور ومالك بن أنس رحمهما الله تعالى، فلما دخلا عليه أطرق ساعة، ثم التفت إلى ابن طاوس، وقال له: حدثني عن أبيك؟ فقال: حدثني أبي أن أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل أشركه الله تعالى في سلطانه فأدخل عليه الجور في حكمه، فأمسك أبو جعفر ساعة؛ قال مالك: فضممت ثيابي خوفاً أن يصيبني دمه. ثم قال له المنصور: ناولني تلك الدواة، ثلاث مرات، فلم يفعل، فقال له: لم لا تناولني؟ فقال: أخاف أن تكتب بها معصية فأكون قد شاركتك فيها، فلما سمع ذلك قال: قوما عني، قال: ذلك ما كنا نبغي. قال مالك: فما زلت أعرف لابن طاوس فضله من ذلك اليوم.

والخولاني: بفتح الخاء المعجمة وسكون الواو وبعدها لام ألف ثم نون، هذه النسبة إلى خولان، واسمه أفكل بن عمرو بن مالك، وهي قبيلة كبيرة نزلت بالشام.

والهمداني: بسكون الميم وفتح الدال المهملة، قد تقدم الكلام عليه ونسبته إليهم بالولاء.

أبو الطيب الطبري

أبو الطيب طاهر بن عبد الله بن طاهر بن عمر الطبري القاضي الفقيه الشافعي؛ كان ثقة صادقاً ديناً ورعاً عارفاً بأصول الفقه وفروعه، محققاً في علمه، سليم الصدر حسن الخلق صحيح المذهب، يقول الشعر على طريقة الفقهاء.

ومن شعره ما أورده له الحافظ أبو طاهر أحمد بن محمد السلفي–المقدم ذكره–في الجزء الذي وضعه في أخبار أبي العلاء المعري، فقال مسنداً عنه: كتبت إلى أبي العلاء المعري الأديب حين وافى ببغداد، وكان قد نزل في سويقة غالب:

وما ذات در لا يحل لحالب ... تناوله واللحم منها محلل
لمن شاء في الحالين حياً وميتاً ... ومن شاء شرب الدر فهو مضلل
إذا طعنت في السن فاللحم طيب ... وآكله عند الجميع مغفل
وخرفانها للأكل فيها كزازة ... فما لحصيف الرأي فيهن مأكل
وما يجتني معناه إلا مبرز ... عليم بأسرار القلوب محصل

فأجابني وأملى على الرسول في الحال ارتجالاً:

جوابان عن هذا السؤال كلاهما ... صواب، وبعض القائلين مضلل
فمن ظنه كرماً فليس بكاذب ... ومن ظنه نخلاً فليس يجهل
لحومهما الأعناب والرطب الذي ... هو الحل، والدر الرحيق المسلسل

ولكن ثمار النخل وهي غضيضة — تمر وغض الكرم يجنى ويؤكل
يكلفني القاضي الجليل مسائلاً — هي النجم قدراً بل أعز وأطول
ولو لم أجب عنها لكنت بجهلها — جديراً ولكن من يودك مقبل

فأجبته عنه، وقلت:

أنار ضمير من يعز نظيره — من الناس طراً سابغ الفضل مكمل
ومن قلبه كتب العلوم بأسرها — وخاطره في حدة النار مشعل
تساوى له سر المعاني وجهرها — ومعضلها باد لديه مفصل
ولما أنار الحب قاد منيعه — أسيراً بأنواع البيان يكبل
وقربه من كل فهم بشكفه — وإيضاحه حتى رآه المغفل
وأعجب منه نظمه الدر مسرعاً — ومرتجلاً من غير ما يتمهل
فيخرج من بحر ويسمو مكانه — جلالاً إلى حيث الكواكب تنزل
فهنأه الله الكريم بفضله — محاسنه والعمر فيها مطول

فأجاب مرتجلاً وأملى على الرسول:

ألا أيها القاضي الذي بدهائه — سيوف على أهل الخلاف تسلل
فؤادك ممهور من العلم آهل — وجدك في كل المسائل مقبل
فإن كنت بين الناس غير ممول — فأنت من الفهم المصون ممول
إذا أنت خاطبت الخصوم مجادلاً — فأنت، وهم مثل الحمائم، أجدل
كأنك من في الشافعي مخاطب — ومن قلبه تملي فما تتمهل
وكيف يرى علم ابن إدريس دارساً — وأنت بإيضاح الهدى متكفل
تفضلت حتى ضاق ذرعي بشكر ما — فعلت وكفي عن جوابك أجمل
لأنك في كنه الثريا فصاحة — وأعلى ومن يبغي مكانك أسفل
فعذرك في أني أجبتك واثقاً — بفضلك فالإنسان يسهو ويذهل
وأخطأت في إنفاذ رقعتك التي — هي المجد لي منها أخير وأول
ولكن عداني أن أروم احتفاظها — رسولك وهو الفاضل المتفضل
ومن حقها أن يصبح المسك عامراً — لها وهي في أعلى المواضع تجعل
فمن كان في أشعاره متمثلاً — فأنت امرؤ في العلم والشعر أمثل
تجملت الدنيا بأنك فوقها — ومثلك حقاً من به تتجمل

وذكر السمعاني في "الذيل" في ترجمة أبي الحسن علي بن أحمد بن الحسين بن أحمد بن الحسين بن محمويه اليزدي أنه كان له عمامة وقميص بينه وبين أخيه: إذا خرج ذاك قعد هذا في البيت، وإذا خرج هذا احتاج ذاك أن يقعد. قال السمعاني: وسمعته يقول يوماص، وقد دخلت عليه مع علي بن الحسين الغزنوي الواعظ مسلماً داره، فوجدناه عرياناً، متأزراً بمئزر، فاعتذر من العري وقال: نحن إذا غسلنا ثيابنا نكون كما قال القاضي أبو الطيب الطبري:

قوم إذا غسلوا ثياب جمالهم لبسوا البيوت إلى فراغ الغاسل

عاش مائة سنة وسنتين، لم يختل عقله ولا تغير فهمه، يفتي ويستدرك على الفقهاء الخطأ ويقضي ببغداد ويحضر المواكب في دار الخلافة إلى أن مات. تفقه بآمل على أبي علي الزجاجي صاحب ابن القاص، وقرأ على أبي سعد الإسماعيلي وأبي القاسم بن كج بجرجان، ثم ارتحل إلى نيسابور، وأدرك أبا الحسن الماسرجسي فصحبه أربع سنين وتفقه عليه، ثم ارتحل إلى بغداد وحضر مجلس الشيخ ابي حامد الاسفراييني. وعليه اشتغل الشيخ أبو إسحاق الشيرازي، وقال في حقه: "لم أر فيمن رأيت أكمل اجتهاداً واشد تحقيقاً وأجود نظراً منه".

وشرح مختصر المزني وفروع أبي بكر ابن الحداد المصري، وصنف في الأوصل والمذهب والخلاف والجدل كتباً كثيرة.

وقال الشيخ أبو إسحاق: "لازمت مجلسه بضع عشرة سنة، ودرست أصحابه في مسجده سنين بإذنه، ورتبني في حلقته".

واستوطن بغداد وولي القضاء بربع الكرخ بعد موت أبي عبد الله الصيمري، ولم يزل على القضاء إلى حين وفاته.

وكان مولده بآمل سنة ثمان وأربعين وثلثمائة، وتوفي في شهر ربيع الأول يوم السبت لعشر بقين منه سنة خمسين واربعمائة، رحمه الله تعالى، ببغداد، ودفن من الغد في مقبرة باب حرب وصلي عليه في جامع المنصور.

والطبري: قد تقدم الكلام عليه أنه منسوب إلى طبرستان.

وآمل: بمد الهمزة وضم الميم وبعدها لام، مدينة عظيمة هي قصبة طبرستان.

ابن بابشاذ النحوي

أبو الحسن طاهر بن أحمد بن بابشاذ النحوي؛ يقال إن أصله من الديلم، وكان هو بمصر إمام عصره في علم النحو، وله المصنفات المفيدة، منها: "المقدمة" المشهورة، وشرحها، و"شرح الجمل" للزجاجي، و"شرح كتاب الأصول" لابن السراج، وجمع في حال انقطاعه شكة كبيرة في النحو، يقال إنها لو بيضت قاربت خمس عشرة مجلدة، وسماها النحاة بعده الذين وصلت إليهم "تعليق الغرفة" وانتقلت هذه التعليقة إلى تلميذه أبي عبد الله محمد بن بركات السعدي النحوي اللغوي المتصدر موضعه، ثم انتقلت منه إلى صاحبه: أبي محمد عبد الله بن بري النحوي المتصدر في مكانه، ثم انتقلت بعده إلى صاحبه أبي الحسين النحوي المنبوز بثلط الفيل، المتصدر في موضعه، وقيل: إن كل واحد من هؤلاء كان يهبها لتلميذه ويعهد إليه بحفظها. ولقد اجتهد جماعة من الطلبة في نسخها، فلم يتمكنوا من ذلك.

وانتفع الناس بعلمه وتصانيفه. وكان وظيفته بمصر أن ديوان الإنشاء لا يخرج منه كتاب حتى يعرض عليه ويتأمله، فإن كان فيه خطأ من جهة النحو أو اللغة أصلحه كاتبه، وإلا استرضاه فسيروه إلى الجهة التي كتب إليها، وكان له على هذه الوظيفة راتب من الخزانة يتناوله في كل شهر، وأقام على ذلك زماناً.

ويحكى أنه كان يوماً في شطح جامع مصر وهو يأكل شيئاً وعنده ناس، فحضرهم قط فرموا له لقمة، فأخذها في فيه وغاب عنهم ثم عاد إليهم، فرموا له شيئاً آخر ففعل كذلك، وتردد مراراً كثيرة وهم يرمون له وهو يأخذه ويغيب به ثم يعود من فوره، حتى عجبوا منه، وعلموا أن مثل هذا الطعام لا يأكله وحده لكثرته، فلما استرابوا حاله تبعوه فوجدوه يرقى إلى حائط في سطح الجامع، ثم ينزل إلى موضع خال صورة بيت خراب، وفيه قط آخر أعمى، وكل ما يأخذه من الطعام يحمله إلى ذلك القط ويضعه بين يديه وهو يأكله. فعجبوا من تلك الحال، فقال ابن بابشاذ: إذا كان هذا حيواناً

أخرس قد سخر الله سبحانه وتعالى له هذا القط، وهو يقوم بكفايته و لم يحرمه الرزق، فكيف يضيع مثلي؟ ثم قطع الشيخ علائقه واستعفى من الخدمة ونزل عن راتبه ولازم بيته واشتغاله متوكلاً على الله سبحانه وتعالى. وما زال محروساً محمول الكلفة إلى أن مات عشية اليوم الثالث من رجب سنة تسع وستين وأربعمائة بمصر، ودفن في القرافة الكبرى، رحمه الله تعالى، وزرت بها قبره، وقرأت تاريخ وفاته على حجر عند رأسه، كما هو ها هنا. وكان سبب موته أنه لما انقطع وجمع أطرافه وباع ما حوله وأبقى ما لا بد له منه، كان انقطاعه في غرفة بجامع عمرو بن العاص، وهو الجامع العتيق بمصر، فخرج ليلة من الغرفة إلى سطح الجامع، فزلت رجله من بعض الطاقات المؤدية للضوء إلى الجامع، فسقط وأصبح ميتاً.

وبابشاذ: بباءين موحدتين بينهما ألف ثم شين معجمة وبعد الألف الثانية ذال معجمة، وهي كلمة عجمية تتضمن الفرح والسرور.

طاهر بن الحسين

أبو الطيب طاهر بن الحسين بن مصعب بن رزيق بن ماهان، ورأيت في مكان آخر: رزيق بن أسعد بن رادويه، وفي مكان آخر: أسعد بن زاذان–والله أعلم–وقيل مصعب بن طلحة بن رزيق الخزاعي بالولاء الملقب ذا اليمينين؛ كان جده رزيق بن ماهان مولى طلحة الطلحات الخزاعي المشهور بالكرم والجود المفرط، وكان طاهر من أكبر أعوان المأمون، وسيره من مرو كرسي خراسان لما كان المأمون بها إلى محاربة أخيه الأمين ببغداد لما خلع المأمون بيعته، والواقعة مشهورة، وسير الأمين أبا يحيى علي بن عيسى بن ماهان لدفع طاهر عنه، فتواقعا وقتل علي في المعركة.

ذكر ابن العظيمي الحلبي في تاريخه أن الأمين وجه علي بن عيسى بن ماهان لملاقاة طاهر بن الحسين، فلقيه بالري فقتل علي بن عيسى لسبع خلون من شعبان سنة خمس وتسعين ومائة. قلت: وذكر الطبري في تاريخه هذه الواقعة في سنة خمس وتسعين، و لم يعين الشهر، لكنه قال: إنه قتل في الحروب، وسير طاهر بالخير إلى مرو، وبينهما نحو مائتين وخمسين فرسخاً، فسار الكتاب ليلة الجمعة وليلة السبت وليلة الأحد، و لم يذكر في أي شهر، فوصلهم يوم الأحد، ثم قال بعد هذا: وخرج علي بن عيسى من بغداد لسبع ليال خلون من شعبان من سنة خمس وتسعين. والظاهر أن ابن العظيمي اشتبه عليه يوم قتل علي بن عيسى بيوم خروجه من بغداد. ثم قال بعد هذا: إن الخبر وصل إلى بغداد بقتله يوم الخميس النصف من شوال من السنة، فيحتمل أنه قتل لسبع أو لتسع من شوال، وتصحف على الناسخ شوال بشعبان، فيكون كما قال الطبري خرج من بغداد في شعبان، وقتل في شوال أو في رمضان، والله أعلم.

وتقدم طاهر إلى بغداد وأخذ ما في طريقه من البلاد، وحاصر بغداد والأمين بها، وقتله يوم الأحد لست أو أربع خلون من صفر سنة ثمان وتسعين ومائة، ذكره الطبري في تاريخه؛ وقال غيره: إن طاهراً سير إلى المأمون يستأذنه في أمر الأمين إذا ظفر به، فبعث إليه بقميص غير مقور، فعلم أنه يريد قتله، فعمل على ذلك، والله أعلم؛ وحمل رأسه إلى خراسان ووضع بين يدي المأمون، وعقد للمأمون على الخلافة، فكان المأمون يرعاه لمناصحته وخدمته.

وقيل لطاهر ببغداد لما بلغ: ليهنك ما أدركته من هذه المترلة التي لم يدركها أحد من نظرائك بخراسان، فقال: ليس يهنيني ذلك، لأني لا ارى عجائز بوشنج يتطلعن إلي من أعالي سطوحهن إذا مررت بهن، وإنما قال ذلك لأنه ولد ونشأ بها، وكان جده مصعب والياً عليها وعلى هراة.

وكان شجاعاص أديباً، وركب يوماً ببغداد في حراقته، فاعترضه مقدس ابن صيفي الخلوقي الشاعر، وقد أدنيت من الشط ليخرج، فقال: أيها الأمير، إن رأيت أن تسمع مني أبياتاً، فقال: قل، فأنشأ يقول:

عجبت لحراقة ابن الحسين لا ... غرقت كيف لا تغرق

وبحران :من فوقها واحد ... وآخر من تحتها مطبق

وأعجب من ذاك أعوادها ... وقد مسها كيف لا تورق؟

فقال طاهر: أعطوه ثلاثة آلاف دينار، وقال له: زدنا حتى نزيدك، فقال: حسبي.

ولبعض الشعراء في بعض الرؤساء، وقد ركب البحر، وما أقصر فيه:

ولما امتطى البحر ابتهلت تضرعاً ... إلى الله يا مجري الرياح بلطفه

جعلت الندى من كفه مثل موجه فسلمه واجعل موجه مثل كفه

وكان طاهر قد احتاج إلى الأموال عند محاصرة بغداد، فكتب إلى المأمون يطلبها منه، فكتب له إلى خالد بن جيلويه الكاتب ليقرضه ما يحتاج إليه، فامتنع خالد من ذلك، فلما أخذ طاهر بغداد أحضر خالداً وقال له: لأقتلنك الشركة المتعهدة قتلة، فبذل من الماء شيئاً كثيراً فلم يقبله منه، فقال خالد: قد قلت شيئاً فاسمعه، ثم شأنك وما أردت، فقال طاهر: هات، وكان يعجبه الشعر، فأنشده:

زعموا بأن الصقر صادف مرة عصفور بر ساقه المقدور

فتكلم العصفور تحت جناحه والصقر منقض عليه يطير

ما كنت يا هذا لمثلك لقمةً ولئن شويت فإنني لحقير

فتهاون الصقر المدل بصيده كرماً فأفلت ذلك العصفور

فقال طاهر: أحسنت، وعفا عنه.

وكان طاهر بفرد عين، وفيه يقول عمرو بن بانة-الآتي ذكره إن شاء الله تعالى-:

يا ذا اليمينين وعين واحدة نقصان عين ويمين زائدة

ويحكى أن إسماعيل بن جرير البجلي كان مداحاً لطاهر المذكور، فقيل له: إنه يسرق الشعر ويمدحك به، فأحب طاهر أنه يمتحنه، فقال له: تهجوني، فامتنع، فألزمه بذلك، فكتب إليه:

رأيتك لا ترى إلا بعين وعينك لا ترى إلا قليلاً

فأما إذ أصبت بفرد عين فخذ من عينك الأخرى كفيلا

فقد أيقنت أنك عن قريب بظهر الكف تلتمس السبيلا

فلما وقف عليها قال له: احذر أن تنشدها أحداً، ومزق الورقة.

ولما استقل المأمون بالأمر بعد قتل أخيه الأمين كتب إلى طاهر بن الحسين المذكور وهو مقيم ببغداد والمأمون مقيم بخراسان بأن يسلم إلى الحسن بن سهل-المقدم ذكره-جميع ما افتتحه من البلاد، وهي العراق وبلاد الجبل وفارس والأهواز والحجاز واليمن، وأن يتوجه هو إلى الرقة، وولاه الموصل وبلاد الجزيرة الفراتية والشام والمغرب، وذلك في بقية سنة ثمان وتسعين ومائة.

وأخبار طاهر كثيرة وسيأتي ذكر ولده عبد الله وحفيده عبيد الله في حرف العين إن شاء الله تعالى.

وكان مولده سنة تسع وخمسين ومائة. وتوفي يوم السبت لخمس بقين من جمادى الآخرة سنة سبع ومائتين بمدينة مرو رحمه الله تعالى.

وكان المأمون قد ولاه خراسان، فوردها في شهر ربيع الآخر سنة ست ومائتين، واستخلف ابنه طلحة، هكذا قال السلامي في كتاب "أخبار ولاة خراسان"، وقال غيره: إنه خلع طاعة المأمون، وجاءت كتب البريد من خراسان تتضمن ذلك، فقلق المأمون لذلك قلقاً شديداً، ثم جاءته كتب البريد ثاني يوم أنه أصابته عقيب ما خلع حمى فوجد في فراشه ميتاً، وقيل إنه حدث به في جفن عينه حادث، فسقط ميتاً.

وحكى هارون بن العباس بن المأمون في تاريخه، قال: دخل طاهر يوماً على المأمون في حاجة فقضاها وبكى حتى اغرورقت عيناه بالدموع، فقال طاهر: يا أمير المؤمنين لم تبكي؟ لا أبكى الله عينك، وقد دانت لك الدنيا وبلغت الأماني، فقال: أبكي لا عن ذل ولا عن حزن، ولكن لا تخلو نفس من شجن، فاغتنم طاهر وقال لحسين الخادم وكان يحجب المأمون في خلواته: أريد أن تسأل أمير المؤمنين عن موجب بكائه عندما رآني، ثم أنفذ طاهر للخادم مائة ألف درهم، فلما كان في بعض خلوات المأمون وهو طيب الخاطر قال له حسين الخادم: يا أمير المؤمنين، لم بكيت لما دخل عليك طاهر؟ فقال: مالك ولهذا ويلك؟ قال: غمني بكاؤك، فقال: هو أمر إن خرج من رأسك أخذته، فقال: يا سيدي ومتى أبحت لك سراً؟ قال: إني ذكرت محمداً

أخي وما ناله من الذلة، فخنقتني العبرة، ولن يفوت طاهراً مني ما يكره، فأخبر حسين طاهراً بذلك، فركب طاهر إلى أحمد بن أبي خالد فقال له: إن الثناء مني ليس برخيص وإن المعروف عندي ليس بضائع، فغيبني عن المأمون، فقال: سأفعل، فبكر إلي غداً، وركب أحمد إلى المأمون فقال له: لم أنم البارحة، فقال له: ولم؟ قال: لأنك وليت خراسان غسان وهو ومن معه أكلة رأس، وأخاف أن يصطلمه مصطلم، فقال: فمن ترى؟ قال: طاهر، قال: هو جائع، فقال: أنا ضامن له، فدعا به المأمون وعقد له على خراسان من ساعته، وأهدى له خادماً كان رباه، وأمره إن رأى ما يريبه أن يسمه، فلما تمكن طاهر من الولاية قطع الخطبة. حكى كلثوم بن ثابت متولي بريد خراسان قال: صعد طاهر المنبر يوم الجمعة وخطب، فلما بلغ ذكر الخليفة أمسك، فكتب بذلك إلى المأمون على خيل البريد، واصبح طاهر يوم السبت ميتاً فكتب أيضاً بذلك، فلما وصلت الخريطة الأولى إلى المأمون دعا أحمد بن أبي خالد وقال: اشخص الآن فأت به كما ضمنت، واكرهه على المسير في يومه، ثم بعد شدائد أذن له في المبيت، ثم وافت الخريطة الثانية من يومه .بموته، وقيل: إن الخادم سمه في كامخ.

ثم إن المأمون استخلف ولده طلحة على خراسان، وقيل إنه جعله خليفة بها لأخيه عبد الله بن طاهر الآتي ذكره، وتوفي طلحة سنة ثلاث عشرة ومائتين ببلخ.

واختلفوا في تلقيبه بذي اليمينين لأي معنى كان، فقيل لأنه ضرب شخصاً في وقعته مع علي بن ماهان كما تقدم فقده نصفين، وكانت الضربة بيساره، فقال فيه بعض الشعراء:

كلتا يديك يمين حين تضربه

فلقبه المأمون "ذا اليمينين"، وقيل غير ذلك.

وكان جده مصعب بن رزيق كاتباً لسليمان بن كثير الخزاعي صاحب دعوة بني العباس، وكان بليغاً، فمن كلامه: ما احوج الكاتب إلى نفس تسمو به إلى أعلى المراتب، وطبع يقوده إلى أكرم الأخلاق، وهمة تكفه عن دنس الطمع ودناءة الطبع.

وبوشنج: بضم الباء الموحدة وسكون الواو وفتح الشين المعجمة وسكون النون وبعدها جيم، وهي بلدة بخراسان على سبعة فراسخ من هراة.

ومقدس: بضم الميم وفتح القاف وتشديد الدال المهملة المكسورة وبعدها سين مهملة، وهو اسم علم على الشاعر المذكور.

والخلوقي: بفتح الخاء المعجمة وضم اللام وسكون الواو وبعدها قاف، هذه النسبة إلى خلوق او خلوقة، وهي قبيلة من العرب مشهورة.

ومات والده الحسين بن مصعب بخراسان في سنة تسع وتسعين ومائة، وحضر المأمون جنازته وبعث إلى ابنه طاهر وهو بالعراق يعزيه.

سيف الإسلام طغتكين

سيف الإسلام أبو الفوارس طغتكين بن أيوب بن شاذي بن مروان المنعوت بالملك العزيز ظهير الدين، صاحب اليمن؛ كان أخوه السلطان الملك الناصر صلاح الدين، رحمه الله تعالى، لما ملك الديار المصرية قد سير أخاه شمس الدولة توران شاه-المقدم ذكره في حرف التاء-الى بلاد اليمن، فملكها واستولى على كثير من بلادها، ورجع عنها-حسبما هو مذكور في ترجمته-ثم سير السلطان إليها بعد ذلك أخاه سيف ا لإسلام المذكور، وذلك في سنة سبع وسبعين وخمسمائة. وكان رجلاً شجاعاً كريماً مشكور السيرة حسن السياسة مقصوداً من البلاد الشاسعة لإحسانه وبره، ودخل إليه شرف الدين أبو المحاسن ابن عنين الدمشقي-الآتي ذكره في حرف الميم إن شاء الله تعالى-ومدحه بغر القصائد، فأحسن إليه وأجزل صلته، واكتسب من جهته مالاً وافراً وخرج به من اليمن، فلما وصل إلى الديار المصرية وسلطانها يومئذ الملك العزيز عماد الدين عثمان ابن السلطان صلاح الدين، رحمه الله تعالى، ألزمه أرباب ديوان الزكاة بدفع الزكاة من المتاجر التي وصلت صحبته، فعلم:

ما كل من يتمسى بالعزيز لها ... أهل ولا كل برق سحبه غدقه

بين العزيزين بون في فعالهما ... هذا يعطي، وهذا يأخذ الصدقة

وكانت وفاة سيف الإسلام في شوال تاسع عشر سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة بالمنصورة، وهي مدينة اختطها باليمن، رحمه الله تعالى.
وتولى بعده ولده الملك المعز فتح الدين إسماعيل، وللمعز المذكور صنف أبو الغنائم مسلم بن محمود بن نعمة بن أرسلان الشيزري كتابه الذي سماه "عجائب الأسفار وغرائب الأخبار" وأودع فيه من أشعاره وأخبار الناس كثيراً، وذكر العز بن عساكر أنه مات بالحمراء من بلاد اليمن، وذكر أبو الغنائم المذكور في كتابه الذي سماه "جمهرة الإسلام ذات النثر والنظام" أنه مات بتعز، ودفن بها بالمدرسة. ثم قال: وقتل ولده فتح الدين أبو الفداء إسماعيل في رجب سنة ثمان وتسعين، بمكان يقال له عجي شامي زبيد، وتولى مكانه أخوه الملك الناصر أيوب.
وكان الملك المعز اسماعيل اهوج كثير التخليط بحيث أنه ادعى أنه قرشي من بني أمية وخطب لنفسه بالخلافة وتلقب بالهادي، فلما سمع عمه الملك العادل ذلك ساءه وأهمه وكتب إليه يلومه ويوبخه ويأمره بالعودة إلى نسبه الصحيح، ويترك ما ارتكبه مما يضحك الناس منه، فلم يلتفت و لم يرجع؛ وانضاف إلى ذلك أنه أساء السيرة مع اجناده وامرائه، فوثبوا عليه فقتلوه وملكوا عليهم أخاه الملك الناصر محمداً.
وكان أبو الغنائم المذكور أديباً شاعراً، وكان موجوداص في سنة سبع عشرة وستمائة. فقد توفي في هذه السنة أو بعدها.
وكان أبوه أبو الثناء محمود نحوياً متصدراً بجامع دمشق لإقراء النحور، وذكره الحافظ ابن عساكر في تاريخه الكبير، وذكره العماد الكاتب في كتاب "الخريدة" وقال: توفي بعد سنة خمس وستين وخمسمائة. وقال شرف الدين ابن عنين: أنشدني محمود المذكور لنفسه:

يقولون كافات الشتاء كثيرة ... وما هي إلا واحد غير مفترى
إذا صح كان الكيس فالكل حاصل ... لديك، وكل الصيد يوجد في الفرا

وكان جده أرسلان مملوك ابن منقذ صاحب شيزر، والله أعلم.
وطغتكين: بضم الطاء المهملة وسكون الغين المعجمة وكسر التاء المثناة من فوقها والكاف وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها نون، وهو اسم تركي لا أعرف معناه.

الصالح بن رزيك

أبو الغارات طلائع بن رزيك الملقب الملك الصالح وزير مصر؛ كان والياً بمنية بني خصيب من أعمال صعيد مصر، فلما قتل الظافر إسماعيل صاحب مصر-كما تقدم في حرف الهمزة-سير أهل القصر إلى الصالح، واستنجدوا به على عباس وولده نصر المتفقين على قتله، فتوجه الصالح إلى القاهرة ومعه جمع عظيم من العربان، فلما قربوا من البلد هرب عباس وولده وأتباعهما ومعهما أسامة بن منقذ-المذكور في حرف الهمزة أيضاً-لأنه كان مشاركاً لهما في ذلك على ما يقال، ودخل الصالح إلى القاهرة وتولى الوزارة في أيام الفائز، واستقل بالأمور وتدبير أحوال الدولة، وكانت ولايته في التاسع عشر من شهر ربيع الأول سنة تسع وأربعين وخمسمائة. وكان فاضلاً سمحاً في العطاء سهلاً في اللقاء محباً لأهل الفضائل جيد الشعر، وقفت على ديوان شعره وهو في جزاين، ومن شعره قوله:

كم ذا يرينا الدهر من أحداثه ... عبراً وفينا الصد والإعراض
ننسى الممات وليس يجري ذكره ... فينا فتذكرنا به الأمراض

ومن شعره أيضاً:

ومهفهف ثمل القوام سرت إلى ... أعطافه النشوات من عينيه
ماضي اللحاظ كأنما سلت يدي ... سيفي غداة الروع من جفنيه
قد قلت إذ خط العذار بمسكة ... في خده ألفيه لا لاميه
ما الشعر دب بعارضيه وإنما ... أصداغه نفضت على خديه

الناس طوع يدي وامري نافذ فيهم وقلبي الآن طوع يديه
فاعجب لسلطان يعم بعدله ويجور سلطان الغرام عليه
والله لولا اسم الفرار وأنه مستقبح لفررت منه إليه

وروى عنه أبو الحسن علي بن إبراهيم بن نجا بن غنائم الأنصاري الملقب زين الدين الحنبلي المعروف بابن نجية الواعظ المشهور الدمشق قال: أنشدني طلائع بن رزيك لنفسه بمصر:

مشيبك قد نضا صبغ الشباب وحل الباز في وكر الغراب
تنام ومقلة الحدثان يقظى وما ناب النوائب عنك نابي
وكيف بقاء عمرك وهو كنز وقد أنفقت منه بلا حساب

وكان المهذب عبد الله بن أسعد الموصلي نزيل حمص قد قصده من الموصل، ومدحه بقصيدته الكافية التي أولها:

أما كفاك تلافي في تلافيكا ولست تنقم إلا فرط حبيكا

وهي من نخب القصائد، ومخلصها:

وفيم تغضب أن قال الوشاة سلا وأنت تعلم أني لستت أسلوكا
لأنك وصلك إن كان الذي زعموا ولا شفى ظمئي وجود ابن رزيكا

وهي طويلة ولولا خوف الإطالة لكتبتها.

ولما مات الفائز وتولى العاضد مكانه استمر الصالح على وزارته وزادت حرمته وتزوج العاضد ابنته، فاغتر بطول السلامة، وكان العاضد تحت قبضته وفي أسره، فلما طال عليه ذلك أعمل الحيلة في قتله، فاتفق مع قوم من أجناد الدولة يقال لهم أولاد الراعي وتقرر ذلك بينهم، وعين لهم موضعاً في القصر يجلسون فيه مستخفين، فإذا مر بهم الصالح ليلاً أو نهاراً قتلوه، فقعدوا له ليلة وخرج من القصر، فقاموا ليخرجوا غليه، فاراد أحدهم أن يفتح غلق الباب فأغلقه وما علم، فلم يحصل مقصودهم تلك الليلة لأمر أراده الله تعالى في تأخير الأجل، ثم جلسوا له يوماً آخر، فدخل القصر نهاراً فوثبوا عليه وجرحوه جراحات عديدة بعضها في رأسه، ووقع الصوت، فعاد أصحابه إليه فقتلوا الذين جرحوه وحمل إلى داره مجروحاً ودمه يسيل، وأقام بعض يوم. ومات يوم الاثنين تاسع عشر رمضان سنة ست وخمسين وخمسمائة، رحمه الله تعالىن وكانت ولادته في سنة خمس وتسعين وأربعمائة.

وخرجت الخلع لولده العادل يحيى الدين رزيك-المقدم ذكره في ترجمة شاور-يوم الثلاثاء ثاني يوم وفاة أبيه، وكنيته أبو شجاع، ولما تولى الوزارة لقبوه العادل الناصر.

ولما مات رثاه الفقيه عمارة اليمني بقصيدة، أولها:

أفي أهل ذا النادي عليم أسائله فإني لما بي ذاهب اللب ذاهله
سمعت حديثاً أسحد الصم عنده ويذهل واعيه ويخرس قائله
فهل من جواب يستغيث به المنى ويعلو على حق المصيبة باطله
وقد رابني من شاهد الحال أنني أرى الدست منصوباً وما فيه كافله
فهل غاب عنه واستتاب سليله أم اختار هجراً لا يرجى تواصله
فإني ارى فوق الوجوه كآبة تدل على أن الوجوه ثواكله

ومنها:

دعوني فما هذا أوان بكائه سيأتيكم طل البكاء ووابله
ولا تنكروا حزني عليه فإنني تقشع عني وابل كنت آمله
ولما لا نبكيه ونندب فقده وأولادنا أيتامه وأرامله
فيما ليت شعري بعد حسن فعاله وقد غاب عنا ما بنا الله فاعله
أيكرم مثوى ضيفكم وغريبكم فيمكث أم تطوى ببين مراحله

وهي طويلة؛ وكان قد دفن بالقاهرة، ثم نقله ولده العادل من دار الوزارة التي دفن بها، وهي المعروفة بانشاء الأفضل شاهان شاه-المقدم ذكره-؛ وكان نقله في تاسع عشر صفر سنة سبع وخمسين في تابوت وركب خلفه العاضد إلى تربته التي بالقرافة الكبرى، فعمل في ذلك الفقيه عمارة أيضاً قصيدة طويلة أجاد فيها، ومن جملتها في صفة التابوت:

وكأنه تابوت موسى أودعت في جانبيه سكينة ووقار

وله فيه مرات كثيرة.

وهذا الصالح هو الذي بنى الجامع الذي على باب زويلة بظاهر القاهرة.

وأما ولده العادل رزيك فقد ذكرت في ترجمة شاور تاريخ هربه من القاهرة، وكان قد حمل معه من الذخائر ما لا يحصى، ومعه أهله وحاشيته، واستجار بسليمان، وقيل بيعقوب بن النيص اللخمي، وكان من خواص أصحابهم، وحصل من جهتهم نعمة وافرة، فأنزلهم عنده وهو بإطفيح، وسار من ساعته إلى شاور وأعلمه بهم، فندب معه جماعة ومضوا إلى العادل وأخذوه أسراً وأحضروه إلى باب شاور، فوقف زماناً طويلاً ثم حبسه.

ثم قال شاور لابن النيص: لقد خبأك الصالح ذخيرة صالحة لولده وأنا أخبؤك أيضاً لولدي، ثم شنقه، وبقي العادل في الاعتقال مدة مديدة، ثم قتله وأخرج رأسه لأمراء الدولة.

ومن العجائب أن الصالح ولي الوزارة في التاسع عشرن وقتل في التاسع عشر، ونقل تابوته في التاسع عشر، وزالت دولتهم في التاسع عشر.

ورزيك: بضم الراء وتشديد الزاي المكسورة وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها كاف.

وكانت ولادة زين الدين الواعظ المذكور سنة ثمان وخمسمائة بدمشق، ونشأ لها وقدم بغداد مراراً، وصاهر أبا الحسن سعد الخير بن محمد بن سهل بن سعد البلنسي الأنصاري الأندلسي على ابنته أم عبد الكريم فاطمة، وانتقل قبل وفاته إلى مصر، وحدث بها، وتوفي يوم الأربعاء ثامن رمضان سنة تسع وتسعين وخمسمائة بمصر، وهو المعروف بابن نجية، رحمه الله تعالى.

أبو يزيد البسطامي

أبو يزيد طيفور بن عيسى بن آدم بن عيسى بن علي البسطامي الزاهد المشهور؛ كان جده مجوسياً ثم أسلم، وكان له أخوان زاهدان عابدان أيضاً: آدم وعلي، وكان أبو يزيد أجلهم. وسئل أبو يزيد: بأي شيء وجدت هذه المعرفة؟ فقال: ببطن جائع وبدن عار؛ وقيل لأبي يزيد: ما أشد ما لقيته في سبيل الله تعالى؟ فقال: لا يمكن وصفه، فقيل له: ما أهون ما لقيت نفسك منك؟ فقال: أما هذا فنعم، دعوتها إلى شيء من الطاعات فلم تجبني طوعاً، فمنعتها الماء سنة. وكان يقول: لو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات حتى يرتفع في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود واداء الشريعة. وله مقالات كثيرة ومجاهدات مشهورة وكرامات ظاهرة.

وكانت وفاته سنة إحدى وستين، وقيل أربع وستين ومائتين، رحمه الله تعالى.

وطيفور: بفتح الطاء المهملة وسكون الياء المثناة من تحتها وضم الفاء وبعد الواو الساكنة راء.

والبسطامي: بفتح الباء الموحدة وسكون السين المهملة وفتح الطاء المهملة وبعد الألف ميم، هذه النسبة إلى بسطام، وهي بلدة مشهورة من أعمال قومس ويقال: إنها أول بلاد خراسان من جهة العراق، والله أعلم.

حرف الظاء

أبو الأسود الدؤلي

أبو الأسود ظالم بن عمرو بن سفيان بن جندل بن يعمر بن حلس بن نفاثة ابن عدي بن الديل بن بكر الديلي، ويقال: الدؤلي، وفي اسمه ونسبه ونسبته اختلاف كثير؛ كان من سادات التابعين وأعيانهم، صحب علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، وشهد معه وقعة صفين، وهو بصري، وكان من أكمل الرجال رأياً وأسدهم عقلاً.

وهو أول من وضع النحو، قيل إن علياً، رضي الله عنه، وضع له: الكلام كله ثلاثة أضرب: اسم وفعل وحرف، ثم رفعه إليه وقال له: تمم على هذا.

وكان يترل البصرة في بني قشير، وكانوا يرجمونه بالليل لمحبته علياً كرم الله وجهه، فإذا ذكر رجمهم قالوا: إن الله يرجمك، فيقول لهم: تكذبون، لو رجمني الله لأصابني ولكنكم ترجمون ولا تصيبون... وهذا بالعكس مما جرى لأبي الجهم العدوي فإنه باع داره بمائة ألف درهم ثم قال: فبكم تشترون جوار سعيد بن العاص؟ قالوا: وهل يشتري جوار قط؟ قال: ردوا علي داري ثم خذوا مالكم، لا أدع جوار رجل أن قعدت سأل عني وإن رآني رحب بي وإن غبت حفظني وإن شهدت قربني وإن سألته قضى حاجتي وإن لم أسأله بدأني وإن نابتني فرج عني، فبلغ ذلك سعيداً فبعث إليه بمائة ألف درهم.

وحكى أبو غفر الدؤلي–وكان شاعراً–قال: كنت عند عبد الملك بن مروان إذ دخل عليه أبو الأسود الدؤلي–وكان أحول دميماً قبيح المنظر–فقال له عبد الملك: يا أبا الأسود، لو علقت عليك عودة من العين، فقال: إن لك جواباً يا أمير المؤمنين، وأنشد:

افنى الشباب الذي افنيت جدته ... كر الجديدين من آت ومنطلق

لم يتركا لي في طول اختلافهما ... شيئاً أخاف عليه لذعة الحدق

أما والله لئن كانت أبلتني السنون وأسرعت إلي المنون لما اثبت ذاك إلا في موضعه، ولرب يوم كنت فيه إلى الآنسات البيض اشهى منك إليهن، وإني اليوم لكما قال امرؤ القيس:

أراهن لا يحببن من قل ماله ... ولا من رأين الشيب فيه وقوما

ولقد كنت كما قال أيضاً:

ورعن إلى صوتي إذا ما سمعنه ... كما يرعوي عيط إلى صوت اعيسا

فقال عبد الملك: قاتلك الله من شيخ ما أعظم همتكّ وكان لأبي الأسود من معاوية ناحية حسنة فوعده وعداً أبطأ عليه فقال:

لا يكن برقك برقاً خلباً ... إن خير البرق ما الغيث معه

لا تهني بعد إذ أكرمتني ... فقبيح عادة منتزعه

وقيل إنه كان يعلم أولاد زياد بن أبيه وهو والي العراقين يومئذ، فجاءه يوماً وقال له: أصلح الله الأمير، إني أرى العرب قد خالطت هذه الأعاجم وتغيرت ألسنتهم، أفتأذن لي أن أضع للعرب ما يعرفون أو يقيمون به كلامهم؟ قال: لا، قال: فجاء رجل إلى زياد وقال: أصلح الله الأمير، توفي أبانا وترك بنون، فقال زياد: توفي أبانا وترك بنون!! ادعوا لي أبا الأسود، فلما حضر قال: ضع للناس الذي نهيتك أن تضع لهم.

وقيل: إنه دخل بيته يوماً فقال له بعض بناته: يا أبت، ما أحسن السماء، فقال: يا بنية نجومها، فقالت له: إني لم أرد أي شيء منها أحسن، إنما تعجبت من حسنها، فقال: إذن فقولي ما أحسن السماء، وحينئذ وضع النحو.

وحكى ولده أبو حرب قال: أول باب رسم أبي باب التعجب.

وقيل لأبي الأسود: من أين لك هذا العلم؟ يعنون النحو، فقال: لقنت حدوده من علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وقيل إن أبا الأسود المذكور كان لا يخرج شيئاً أخذه عن علي بن أبي طالب إلى أحد، حتى بعث إليه زياد المذكور: أن اعمل شيئاً يكون للناس إماماً ويعرف به كتاب الله عز وجل، فاستعفاه من ذلك، حتى سمع أبو الأسود قارئاً يقرأ: "إن الله بريء من المشركين ورسوله"، بالكسر، فقال: ما ظننت أن أمر الناس آل إلى هذا، فرجع إلى زياد فقال: أفعل ما أمر به الأمير، فليبغني كاتباً لقناً يفعل ما أقول له، فأتي بكاتب من عبد القيس فلم يرضه، فأتي بآخر فقال له أبو الأسود: إذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة فوقه، وإن ضممت فمي فانقط بين يدي الحرف، وإن كسرت فاجعل النقطة من تحت، ففعل ذلك.

وإنما سمي النحو نحواً لأن أبا الأسود المذكور قال: استأذنت علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن أضع نحو ما وضع، فسمي لذلك نحواً، والله أعلم.

وكان لأبي الأسود بالبصرة دار، وله جار يتأذى منه في كل وقت، فباع الدار فقيل له: بعت دارك، فقال: بل بعت جاري، فأسلها مثلاً.

ودخل أبو الأسود يوماً على عبيد الله بن أبي بكرة نفيع بن الحارث بن كلدة الثقفي رضي الله عنه، فرأى عليه جبة رثة كان يكثر لبسها، فقال: يا أبا الأسود أما تمل هذه الجبة؟ فقال: رب مملوك لا يستطاع فراقه، فلما خرج من عنده بعث إليه مائة ثوب، فكان ينشد بعد ذلك–وقيل إن هذه القضية جرت له مع المنذر بن الجارود –.

كساني ولم أستكسه فحمدته ... أخ لك يعطيك الجزيل وناصر

وإن أحق الناس إن كنت شاكراً ... بشكرك من أعطاك والعرض وافر

يروى "مملوك" بالكفا و"مملول" باللام، ويروى "ناصر" بالنون و"ياصر" بالياء، ولكل واحد منهما معنى، فمعناه بالنون ظاهر لأنه من النصرة وبالياء من التعطف والحنو، يقال: فلان يأصر على فلان، إذا كان يعطف عليه ويحنو.

وله أشعار كثيرة، فمن ذلك قوله:

وما طلب المعيشة بالتمني ... ولكن ألق دلوك في الدلاء

تجيء بملئها طوراً وطوراً ... تجيء بحمأة وقليل ماء

ومن شعره أيضاً–وله ديوان شعر–:

صبغت أمية بالدماء أكفنا ... وطوت أمية دوننا دنياها

ويحكى أنه أصابه الفالج فكان يخرج إلى السوق يجر رجله، وكان موسراً ذا عبيد وإماء، فقيل له: قد أغناك الله عز وجل عن السعي في حاجتك، فلو جلست في بيتك، فقال: لا، ولكني أخرج وأدخل فيقول الخادم: قد جاء، ويقول الصبي: قد جاء، ولو جلست في البيت فبالت علي الشاة ما منعها أحد عني.

وحكى خليفة بن خياط أن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما كان عاملاً لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه على البصرة، فلما شخص الىالحجاز استخلف أبا الأسود عليها، فلم يزل حتى قتل علي رضي الله عنه.

وكان أبو الأسود معروفاً بالبخل، وكان يقول: لو أطعنا المساكين في أموالنا لكنا أسوأ حالاً منهم. وقال لبنيه: لا تجاودوا الله عز وجل فإنه أجود وأمجد، ولو شاء أو يوسع على الناس كلهم لفعل، فلا تجهدوا أنفسكم في التوسع فتهلكوا هزالاً. وسمع رجلاً يقول: من يعشي الجائع؟ فقال: علي به، فعشاه، ثم ذهب ليخرج، فقال: أين تريد؟ قال: أهلي، قال: هيهات، ما عشيتك إلا على أن لا تؤذي المسلمين الليلة، ثم وضع في رجله القيد حتى أصبح.

وتوفي أبو الأسود بالبصرة سنة تسع وستين في طاعون الجارف، وعمره خمس وثمانون سنة رضي الله عنه، وقيل إنه مات قبل الطاعون بعلة الفالج، وقيل إنه توفي في خلافة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، وتولى عمر الخلافة في صفر سنة تسع وتسعين للهجرة وتوفي في رجب سنة إحدى ومائة بدير

سمعان، رضي الله عنه.

وقيل لأبي الأسود عند الموت: أبشر بالمغفرة، فقال: وأين الحياء مما كانت له المغفرة؟ والديلي: بكسر الدال المهملة وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها لام، والدؤلي: بضم الدال المهمة وفتح الهمزة وبعدها لام، هذه النسبة إلى الدئل بكسر الهمزة، وهي قبيلة من كنانة، وإنما فتحت الهمزة في النسبة لئلا تتوالى الكسرات، كما قالوا في النسبة إلى نمرة نمري–بالفتح–وهي قاعدة مطردة، والدئل: اسم دابة بين ابن عرس والثعلب.

وحلس: بكسر الحاء المهملة وسكون اللام وبعدها سين مهملة، هكذا ذكره الوزير أبو القاسم المغربي في كتاب "الإيناس" وهو مما يحرف كثيراً فقد وجدت فيه اختلافاً، وهذا الأصح.

ظافر الحداد

أبو المنصور ظافر بن القاسم بن منصور بن عبد الله بن خلف بن عبد الغني الجذامي الإسكندراني المعروف بالحداد الشاعر المشهور؛ كان من الشعراء المجيدين وله ديوان شعر أكثره جيد، ومدح جماعة من المصريين، وروى عنه الحافظ أبو طاهر السلفي وغيره من الأعيان. ومن مشهور شعره قوله:

لو كان بالصبر الجميل ملاذه ما سح وابل دمعه ورذاذه

ما زال جيش الحب يغزو قلبه حتى وهى وتقطعت أفلاذه

لم يبق فيه مع الغرام بقية إلا رسيس يحتويه جذاذه

من كان يرغب في السلامة فليكن أبداً من الحدق المراض عياذه

لا تخدعنك بالفتور فإنه نظر ير بقلبك استلذاذه

يا أيها الرشأ الذي من طرفه سهم إلى حب القلوب نفاذه

در يلوح بفيك من نظامه خمر يجول عليه من نباذه

وقناة ذاك القد كيف تقومت وسنان ذاك اللحظ ما فولاذه

رفقاً بجسمك لا يذوب فإنني أخشى بأن يجفو عليه لاذه

هاروت يعجز عن مواقع سحره وهو الإمام فمن ترى أستاذه

تالله ما علقت محاسنك امرءاً إلا وعز على الورى استنقاذه

أغريت حيك بالقلوب فأذعنت طوعاً وقد أودى بها استحواذه

ما لي أتيت الحظ من أبوابه جهدي فدام نفوره ولواذه

إياك من طمع المنى فعزيزه كذليله وغنيه شحاذه

منها:

ذالية ابن دريد استهوى بها قوماً غداة نبت به بغداذه

دانوا لزخرف قوله فتفرقت طمعاً بهم صرعاه أو جذاذه

من قدر الرزق السني لك أنما قد كان ليس يضره إنفاذه

وهذه القصيدة من غرز القصائد. والعجب أني رأيت صاحبنا عماد الدين أبا المجد إسماعيل المعروف بابن باطيش الموصلي قد ذكر هذه الأبيات في كتابه "المغني" الذي وضعه على كتاب "المهذب" في الفقه، وفسر فيه غريبه، وتكلم على أسماء رجاله، فلما انتهى إلى ذكر أبي بكر محمد بنا الحداد المصري الفقيه الشافعي وشرح طرفاً من حاله قال بعد ذلك: وكان مليح الشعر، أنشدني بعض الفقهاء أبياتاً من قصيدة عزاها إليه، وذكر بعض هذه الأبيات المكتتبة ها هنا، وما أوقعه في هذا إلا كون ظافر يعرف بالحداد، والفقيه ابن الحداد، بجمعتهما لفظة الحداد، فمن ها هنا حصل الالتباس.

ومن شعره أيضاً:

رحلوا فلولا أنني ... أرجو الإياب قضيب نحبي

والله ما فارقتهم ... لكنني فارقت قلبي

وذكر العماد الكاتب في "الخريدة" هذين البيتين للعيني، ثم قال: كان العيني من الأجناد الأكياس، مذكوراً بالباس. وتوفي سنة ست وأربعين وخمسمائة. والصحيح أنهما لظافر الحداد، وذكرهما في "الخريدة" في ترجمة ظافر الحداد أيضاً.

وله من جملة قصيد:

يذم المحبون الرقيب وليت لي ... من الوصل ما يشخى عليه رقيب

وكانت وفاته بمصر في المحرم سنة تسع وعشرين وخمسمائة. وقد تقدم الكلام على الجذامي.

وله أيضاً من الشعر في كرسي النسخ:

انظر بعينك في بديع صنائعي ... وعجيب تركيبي وحكمة صانعي

فكأنني كفا محب شبكت ... يوم الفراق أصابعاً بأصابع

وذكره علي بن ظافر بن منصور في كتاب "بدائع البدائه" وأثنى عليه، وأورد فيه عن القاضي أبي عبد الله محمد بن الحسين الآمدي النائب كان في الحكم بثغر الاسكندرية المحروس، قال: دخلت على الأمير السعيد بن ظفر أيام ولايته للثغر، فوجدته يقطر دهناً على خنصره، فسألته عن سببه، فذكر ضيق خاتمه عليه وأنه ورم بسببه، فقلت له: الرأي قطع حلقته قبل أن يتفاقم الأمر فيه، فقال: اختر من يصلح لذلك، فاستدعيت أبا المنصور ظافر بن القاسم الحداد المذكور، فقطع الحلقة، وأنشد بديهاً:

قصر عن أوصافك العالم ... وكثر الناثر والناظم

من يكن البحر له راحة ... يضيق عن خنصره الخاتم

فاستحسنه الأمير ووهب له الحلقة، وكانت من ذهب. وكان بين يدي الأمير غزال مستأنس، وقد ربض وجعل رأسه في حجره، فقال ظافر بديهاً:

عجبت لجرأة هذا الغزال ... وأمر تخطى له واعتمد

وأعجب به إذا بدا جائعاً ... وكيف اطمأن وأنت الأسد

فزاد الأمير والحاضرون في الاستحسان. وتأمل ظافر شيئاً كان على باب المجلس يمنع الطير من دخولها فقال:

رأيت ببابك هذا المنيف ... شباكاً فأدركني بعض شك

وفكر فيما رأى خاطري ... فقلت البحار مكان الشبك

ثم انصرف وتركنا متعجبين من حسن بديهته، رحمه الله تعالى وغفر له.

عاصم المقرئ

أبو بكر عاصم بن أبي النجود بهدلة مولى بني جذيمة بن مالك بن نصر ابن قعين بن أسد؛ كان أحد القراء السبعة والمشار إليه في القراءات، أخذ القراءة عن أبي عبد الرحمن السلمي وزر بن حبيش، وأخذ عنه أبو بكر ابن عياش وأبو عمر البزار واختلفوا اختلافاً شديداً في حروف كثيرة.

وتوفي عاصم في سنة سبع وعشرين ومائة، رحمه الله تعالى، بالكوفة.

والنجود: بفتح النون وضم الجيم وسكون الواو وبعدها دال مهملة، وهي الحمارة الوحشية التي لا تحمل، وقيل هي المشرفة.

وبهدلة: بفتح الباء الموحدة وسكون الهاء وفتح الدال المهملة واللام وبعدها هاء ساكنة، ويقال إنه اسم أمه.

أبو بردة ابن أبي موسى الأشعري

أبو بردة عامر بن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري؛ كان أبوه صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، قدم عليه من اليمن في الأشعريين، فأسلموا. وأبو بردة كان قاضياً على الكوفة، وليها بعد القاضي شريح، هكذا ذكره محمد ابن سعد في " كتاب الطبقات "، وله مكارم ومآثر مشهورة. "وكان أبو موسى تزوج في عمله على البصرة طنية بنت دمون، وكان أبوها رجلاً من أهل الطائف، فولدت له أبا بردة، فاسترضع له في بني فقيم في آل الغرق وسماه أبو موسى عامراً، فلما شب كساه أبو شيخ ابن الغرق بردتين وغدا به إلى أبيه فكناه أبا بردة، فذهب اسمه ".

وكان ولده بلال قاضياً على البصرة، وهم الذين يقال في حقهم: ثلاثة قضاة في نسقٍ؛ فإن أبا موسى رضي الله عنه قضى لعمر رضي الله عنه بالبصرة ثم قضى بالكوفة في زمن عثمان رضي الله عنه. وبلال المذكور هو ممدوح ذي الرمة وله فيه غر المدائح، وفيه يقول مخاطباً لناقته:

إذا ابن أبي موسى بلال بلغته ... فقام بفأس بين وصليك جازر

وفيه يقول أيضاً:

سمعت الناس ينتجعون غيثاً ... فقلت لصيدح انتجعي بلالا

وصيدح: اسم ناقته، وهو بفتح الصاد المهملة وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح الدال المهملة وبعدها حاء مهملة.

وكان بلال أحد نواب خالد بن عبد الله القسري – المقدم ذكره في حرف الخاء – فلما عزل وولي موضعه يوسف بن عمر الثقفي على العراقين حاسب خالداً ونوابه وعذبهم، فمات خالد من عذابه ومات بلال من عذابه أيضاً.

ورأيت في بعض المجاميع أن أبا بردة جلس يوماً يفتخر بأبيه ويذكر فضائله وصحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان في مجلس عام وفيه الفرزدق الشاعر، فلما أطال القول في ذلك أراد الفرزدق أن يغض منه فقال: لو لم تكن لأبي موسى منقبة إلا أنه حجم رسول الله صلى الله عليه وسلم لكفاه، فامتعض أبو بردة من ذلك ثم قال: صدقت، لكنه ما حجم أحداً قبله ولا بعده، فقال الفرزدق: كان أبو موسى والله أفضل من أن يجرب الحجامة في رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسكت أبو بردة على غيظ.

وحكى غرس النعمة بن الصابئ في بعض تصانيفه أن أبا صفوان خالد ابن صفوان التميمي المشهور بالبلاغة كان يدخل على بلال بن أبي بردة المذكور فيحدثه فيلحن في كلامه، فلما كثر ذلك على بلال قال له: يا خالد، تحدثني أحاديث الخلفاء وتلحن لحن السقاءات، يعني النساء اللواتي يسقين الماء للناس، فصار خالد بعد ذلك يأتي المسجد ويتعلم الإعراب، وكف بصره، فكان إذا مر به موكب بلال يقول: من هذا؟ فيقال: الأمير، فيقول خالد: سحابة صيف عن قليل تقشع، فقيل ذلك لبلال فقال: لا تقشع والله حتى يصيبك منها شؤبوب، وأمر به فضرب مائتي سوط.

وكان خالد كثير الهفوات لا يتأمل ما يقول ولا يفكر فيه، وهو من ذرية عمرو بن الأهتم التميمي الصحابي رضي الله عنه، فإن خالد بن صفوان ابن عبد الله بن عمرو بن الأهتم بن سمي بن سنان بن خالد بن منقر التميمي المنقري، واسم الأهتم بسنان، وإنما قيل له الأهتم لأن قيس بن عاصم المنقري ضربه بقوس فهتم ثناياه، وقيل بل هتمت يوم الكلاب، والله أعلم.

وشبيب بن شيبة ابن عم خالد المذكور.

وكانت وفاة أبي بردة المذكور في سنة ثلاث ومائة بالكوفة، وقيل سنة أربع، وقيل سنة ست أو سبع ومائة، وقال ابن سعد: مات أبو بردة والشعبي في

سنة ثلاث ومائة في جمعة واحدة، رحمهما الله تعالى.
وسيأتي الكلام على الأشعري في ترجمة أبي الحسن إن شاء الله تعالى.

الشعبي

أبو عمرو عامر بن شراحيل بن عبد بن ذي كبار، وذو كبار قيلٌ من أقيال اليمن، الشعبي، وهو من حمير وعداده في همدان؛ وهو كوفي تابعي جليل القدر وافر العلم، روي أن ابن عمر رضي الله عنه مر به يوماً وهو يحدث بالمغازي فقال: شهدت القوم وإنه أعلم بها مني. وقال الزهري: العلماء أربعة: ابن المسيب بالمدينة، والشعبي بالكوفة، والحسن البصري بالبصرة، ومكحول بالشام. ويقال إنه أدرك خمسمائة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وحكى الشعبي قال: أنفذني عبد الملك بن مروان إلى ملك الروم، فلما وصلت إليه جعل لا يسألني عن شيء إلا أجبته، وكانت الرسل لا تطيل الإقامة عنده، فحبسني أياماً كثيرة حتى استحثثت خروجي، فلما أردت الانصراف قال لي: من أهل بيت المملكة أنت؟ فقلت: لا، ولكني رجل من العرب في الجملة، فهمس بشيء، فدفعت إلي رقعة وقال لي: إذا أديت الرسائل إلى صاحبك فأوصل إليه هذه الرقعة، قال: فأديت الرسائل عند وصولي إلى عبد الملك وأنسيت الرقعة،، فلما صرت في بعض الدار أريد الخروج تذكرتها، فرجعت فأوصلتها إليه، فلما قرأها قال لي: أقال لك شيئاً قبل أن يدفعها إليك؟ قلت: نعم، قال لي: من أهل بيت المملكة أنت؟ قلت: لا، ولكني من العرب في الجملة. ثم خرجت من عنده، فلما بلغت الباب رُددت، فلما مثلت بين يديه قال لي: أتدري ما في الرقعة؟ قلت:لا، قال: اقرأها، فقرأتها فإذا فيها " عجبت من قوم فيهم مثل هذا كيف ملكوا غيره "، فقلت له: والله لو علمت ما حملتها، وإنما قال هذا لأنه لم يرك، قال: أفتدري لم كتبها؟ قلت: لا، قال: حسدني عليك، وأراد أن يغريني بقتلك، قال: فتأدى ذلك إلى ملك الروم فقال: ما أردت إلا ما قال.
"ولما حمل الشعبي إلى عبد الملك ونادمه قال له: يا شعبي، لا تساعدني على قبح ولا ترد علي الخطأ في مجلسي ولا تكلفني جواب التشميت ولا جواب السؤال والتعزية، ودع عنك كيف أصبح الأمير وكيف أمسى، واجعل بدل التعريض لي صواب الاستماع مني، واعلم أن صواب الاستماع أولى من صواب القول، وإذا سمعتني أتحدث فلا يفتك منه شيء، وارعني فهمك وسمعك، ولا تجهد نفسك في تطرية سواي، ولا تستدع بذلك الزيادة من كلامي، فإن اسوأ الناس حالاً من شكر الملوك بالباطل وأسوأ حالاً منه من استخف بحقهم؛ واعلم يا شعبي أن أقل من هذا يذهب بسالف الاحسان ويسقط حق الحرمة، وان الصمت في موضعه وعند إصابته فرصة.
وكان أعرابي يجالس الشعبي ويطيل الصمت، فقال له الشعبي يوماً: ألا تتكلم؟ فقال: أسكت فأسلم وأسمع فأعلم؛ إن حظ المرء في أذنه له، وفي لسانه لغيره.
وقال رجل للشعبي كلاماً أقذع فيه فقال له: ان كنت صادقاً غفر الله لي وإن كنت كاذباً غفر الله لك.
وسئل الشعبي عن الرجل يعسر عن الأضحية ولا يجد ما يشتري فقال: لأن اتركها وأنا موسر أحب إلي من أن اتكلفها وأنا معسر.
وقال الشعبي: كانت درة عمر رضي الله عنه أهيب من سيف الحجاج؛ وقال أيضاً: من زوج كريمته من فاسق فقد قطع رحمها.
وأحضر الشعبي بين يدي الحجاج – وكان قد خرج مع ابن الأشعث – فسلم على الحجاج بالإمرة ثم قال: أيها الأمير إن الناس قد أمروني أن أعتذر إليك لغير ما يعلم الله انه الحق؛ وايم الله لا أقول في هذا المقام إلا حقاً: قد والله خرجنا عليك وجهدنا كل الجهد فما كنا بالفجرة الأقوياء ولا البررة الأتقياء، وقد نصرك الله علينا وأظفرك بنا، فإن سطوت فبذنوبنا وما جرت إلينا أيدينا، وإن عفوت عنا فبحلمك؛ وبعد، فالحجة لك علينا. فقال الحجاج: أنت والله أحب إلي ممن يدخل علي يقطر سيفه من دمائنا ثم يقول: ما فعلت وما شهدت؛ قد أمنت عندنا يا شعبي، فانصرف.
وقال له الحجاج: يا شعبي، ما كان عبد الرحمن يزجر حين رآني نزلت دير قرة ونزل هو دير الجماجم محارباً؛ وكان أبداً يقول هذا الكلام على سبيل الفأل والزجر ".
وكلم الشعبي عمر بن هبيرة الفزاري أمير العراقين في قوم حبسهم ليطلقهم فأبى، فقال له: أيها الأمير، إن حبستهم بالباطل فالحق يخرجهم، وإن

حبستهم بالحق فالعفو يسعهم، فأطلقهم.
وكان ضئيلاً نحيفاً، فقيل له يوماً: ما لنا نراك ضئيلاً؟ فقال: زوحمت في الرحم، وكان قد ولد هو وأخ آخر في بطن وأقام في البطن سنتين، ذكره في كتاب " المعارف ". ويقال إن الحجاج بن يوسف الثقفي قال له يوماً: كم عطاءك في السنة؟ فقال: ألفين، فقال: ويحك! كم عطاؤك؟ فقال: ألفان، قال: كيف لحنت أولاً؟ قال: لحن الأمير فلحنت، فلما أعرب أعربت، وما أمكن أن يلحن الأمير وأعرب أنا. فاستحسن ذلك منه وأجازه.
وكان مزاحاً، يحكى أن رجلاً دخل عليه ومعه امرأة في البيت فقال: أيكما الشعبي؟ فقال: هذه.

وكانت ولادته لست سنين خلت من خلافة عثمان رضي الله عنه، وقيل سنة عشرين للهجرة، وقيل إحدى وثلاثين، وروي عنه أنه قال: ولدت سنة جلولاء وهي سنة تسع عشرة. وقال قتادة: ولد الشعبي لأربع سنين بقين من خلافة عمر رضي الله عنه، وقال خليفة بن خياط: ولد الشعبي والحسن البصري في سنة إحدى وعشرين، وقال الأصمعي: في سنة سبع عشرة بالكوفة. وتوفي بالكوفة سنةأربع، وقيل ثلاث، وقيل ست، وقيل سبع، وقيل خمس ومائة، وكانت وفاته فجأة. وكانت أمه من سبي جلولاء، رضي الله عنه.
وشراحيل: بفتح الشين المعجمة والراء وبعد الألف حاء مهملة مكسورة ثم ياء ساكنة مثناة من تحتها وبعدها لام.
والشعبي: بفتح الشين المعجمة وسكون العين المهملة وبعدها باء موحدة، هذه النسبة إلى شعب، وهو بطن من همدان، وقال الجوهري: هذه النسبة إلى جبل باليمن نزله حسان بن عمرو الحميري هو وولده ودفن به، وهو ذو شعبين، فمن كان بالكوفة منهم قيل لهم: شعبيون، ومن كان منهم بمصر والمغرب قيل لهم: الأشعوب، ومن كان منهم بالشام قيل لهم: شعبانيون، ومن كان باليمن قيل لهم: آل ذي شعبين.
وجلولاء: بفتح الجيم وضم اللام ومد آخره، قرية بناحية فارس كانت بها الوقعة المشهورة زمن الصحابة رضي الله عنهم.
وكان كثيراً يتمثل بقول مسكين الدارمي:

ليست الأحلام في حال الرضى ... إنما الأحلام في وقت الغضب

أم المؤمنين عائشة

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها وعن والدها؛ تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة، شرفها الله تعالى، قبل الهجرة بثلاث سنين، وقيل انه تزوجها قبل سودة، زوجه إياها أبوها فأصدقها مثلما أصدق سودة. وكان لها يوم تزوجها ست سنين، وما تزوج بكراً سواها، وقبض صلى الله عليه وسلم وهي بنت ثماني عشرة سنة، وماتت في خلافة معاوية سنة ثمان وخمسين ولها سبع وستون سنة، ودفنت بالبقيع؛ ولما ماتت بكى عليها ابن عمر رضي الله عنه، فبلغ ذلك معاوية فقال له: أتبكي على امرأة؟ فقال: إنما يبكي على أم المؤمنين بنوها وأما من ليس لها بابن فلا.
وقال المبرد: قالت عائشة رضي الله عنها: لما أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يخير نساءه قال لي: أتختارين الله ورسوله والدار الآخرة أو الحياة الدنيا وزينتها؟ قلت: الله ورسوله أحب إلي والدار الآخرة، ثم قلت له: أخبرت أحداً قبلي؟ قال: لا، قلت: لا تخبرهن، فقال صلى الله عليه وسلم: إن الله بعثني نذيراً ولم يبعثني معنتاً " ولا متعنتاً ".
وبلغ عائشة رضي الله عنها أن أناساً يسبون أبا بكر وعمر رضي الله عنهما فقالت: إن الله قطع عنهما العمل فأحب أن لا يقطع عنهما الأجر.
وقيل لعائشة رضي الله عنها: متى يكون الرجل مسيئاً؟ فقالت: إذا ظن أنه محسن.
قال مسلم بن دارة: مازلت أستجفي عائشة رضي الله عنها في قولها لرسول الله صلى الله عليه وسلم: " بمنة الله لا بمنتك " حتى سألت أبا زرعة الرازي فقال: وآت الحمد أهله.
وقالت عائشة رضي الله عنها للخنساء: كم تبكين على صخر وإنما هو جمرة في النار؟ قالت: ذاك أشد لجزعي عليه.
وسئلت عائشة رضي الله عنها: هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمزح؟ قالت: نعم، كان عندي عجوز فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: ادع الله أن يجعلني من أهل الجنة، قال: إن الجنة لا يدخلها العجائز؛ وسمع النداء فخرج وهي تبكي فقال: ما لها؟ قالوا: إنك حدثتها أن الجنة لا

يدخلها العجائز، قال: إن الله سبحانه وتعالى يحولهن أبكاراً عرباً أتراباً.

وكان عند عائشة رضي الله عنها طبق عنب فجاء سائل فدفعت إليه واحدة منه، فضحك نساءٌ كن، فقالت: إن فيما ترون مثاقيل ألذ كثيرة.

وقيل: وقعت بين حيين من قريش منازعة فخرجت عائشة " على بغلة " تصلح بينها، فلقيها ابن أبي عتيق فقال: إلى أين جعلت فداك؟ فقالت: أصلح بين هذين الحيين، فقال: والله ما غسلنا رؤوسنا من يوم الجمل بعد فكيف إذا قيل يوم البغل؟ فضحكت وانصرفت.

ومثل هذه النادرة: أرسل القاضي شرف الدين بن عين الدولة الشرف ابن منهال موقعه إلى الحسام بن منقذ بسبب شهادةٍ شهدها على ابن الجمل أن يتثبت منها ويتحققها قبل أدائها، ثم قال في أثناء ذلك: قال له نوبة الجمل ما كانت قليل.

وكانت عائشة رضي الله عنها خرجت من المدينة حاجة وعثمان محصور ثم صدرت عن الحج، فلما كانت بسرف - وهو موضع قبر ميمونة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم - لقيها الخبر بقتل عثمان وبيعة علي، فانصرفت راجعة إلى مكة ولحق بها طلحة والزبير ومروان بن الحكم، فلما تتاموا بمكة تشاوروا فيما يريدون من الطلب بدم عثمان وهموا بالشام لمكان معاوية، فصرفهم عبد الله بن عامر عن ذلك بالبصرة، فتوجهوا إليها فأخذوا عثمان بن حنيف عامل علي بها فهموا بقتله فناشدهم الله وذكرهم صحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فأشير بضربه أسواطاً فضربوه ونتفوا لحيته ورأسه حتى حاجبيه وأشفار عينيه، ثم حبسوه، وقتلوا خمسين رجلاً كانوا معه على بيت المال وغير ذلك من أعماله، فلما بلغ علياً مسيرهم خرج مبادراً إليهم واستنفر أهل الكوفة ثم سار بهم إلى البصرة، وهم بضعة عشر ألفاً، فخرج إليه طلحة والزبير وعائشة وأهل البصرة فاقتتلوا قتالاً شديداً؛ قال عبد الله بن الزبير: أمسيت يوم الجمل وفي سبع وثلاثون جراحة من طعنة وضربة، وما رأيت مثل يوم الجمل قط لا يهزم منا أحد ولا منهم، وما أخذ خطام الجمل أحدٌ إلا قتل، فأخذت بالخطام فقالت عائشة: من؟ قلت: ابن الزبير، قالت: واثكل أسماء! ومر بي الأشتر فعرفته فعانقته وناديت: اقتلوني ومالكاً، فجاء ناس منا ومنهم فقاتلوا حتى تحاجزنا وضاع مني الخطام، فسمعت علياً ينادي: اعقروا الجمل فإنه ان عقر تفرقوا، فضربه رجل فسقط، فما سمعت قط أشد عجيجاً منه، ثم أمر علي رضي الله عنه بحمل الهودج من ين القتلى، وقد كان القعقاع وزفر بن الحارث انزلاه عن ظهر البعير فوضعاه إلى جنب البعير، فأقبل محمد بن أبي بكر ومعه عمار حتى احتملاه، وأدخل محمد بن أبي بكر يده فقال: يا أخية قولي بنار الدنيا، فقالت: بنار الدنيا.

وقيل إن طلحة أصابه سهم فشك ركبته بصفحة الفرس وسال دمه فضعف، فقال: يا غلام، ابغني مكاناً، فمات قبل أن يصل إلى الموضع الذي أمر أن يحمل إليه، ورجع الزبير فقتل بوادي السباع، قتله عمرو بن جرموز وعاد بسيفه إلى علي، فلما رآه قال: إنه لسيف طالما جلا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الكرب؛ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: بشر قاتل ابن صفية بالنار. واحيط بعائشة رضي الله عنها، ودخل علي البصرة بمن معه، فبايعه أهلها وأطلق عثمان بن حنيف وجهز عائشة رضي الله عنها، وأمر أخاها محمداً بالخروج معها وخرج في تشييعها اميالاً وسرح بنيه معها يوماً. وقيل إن أهل المدينة علموا بيوم الجمل يوم الخميس قبل أن تغرب الشمس - وفيه كان القتال - وذلك أن نسراً مر بماء حول المدينة معه شيء معلق، فتأمله الناس فوقع فإذا كف فيها خاتم نقشه عبد الرحمن بن عتاب، ثم كان من بين مكة والمدينة ممن قرب من البصرة أو بعد قد علموا بالواقعه مما تنقل إليهم النسور من الأيدي والأقدام. ويقال إن عدة المقتولين من أصحاب الجمل ثمانية آلاف، وقيل سبعة عشر ألفاً، وذكر أنه قطع على خطام الجمل سبعون يداً كلهم من بني ضبة، كلما قطعت يد رجل تقدم آخر، وقتل من أصحاب علي رضي الله عنه نحو ألف.

العباس بن الأحنف

أبو الفضل العباس بن الأحنف بن الأسود بن طلحة بن جردان بن كلدة ابن خريم بن شهاب بن سالم بن حية بن كليب بن عبد الله بن عدي بن حنيفة بن لجيم الحنفي اليمامي الشاعر المشهور؛ كان رقيق الحاشية لطيف الطباع، جميع شعره في الغزل، لا يوجد في ديوانه مديح، ومن رقيق شعره قوله من جملة قصيدة:

يا أيها الرجل المعذب نفسه ... أقصر فإن شفاءك الإقصار

نزف البكاء دموع عينك فاستعر عيناً يعينك دمعها المدرار
من ذا يعيرك عينه تبكي بها أرأيت عيناً للبكاء تعار

ذكر أبو علي القالي في كتاب " الأمالي " قال: قال بشار بن برد: ما زال غلام من بني حنيفة يدخل نفسه فينا ويخرجها منا حتى قال هذه الأبيات.
ومن شعره أيضاً من جملة أبيات، وينسبان إلى بشار بن برد أيضاً والله أعلم:

أبكي الذين أذاقوني مودتهم حتى إذا أيقظوني للهوى رقدوا
واستنهضوني فلما قمت منتصباً بثقل ما حملوني منهم قعدوا

"ويحكى أن الرشيد كان يهوى جاريته ماردة هوى شديداً، فتغاضبا مرة ودام بينهما الغضب، فأمر جعفر البرمكي العباس بن الأحنف أن يعمل في ذلك شيئاً فعمل:

راجع أحبتك الذين هجرتهم إذ المتيم قلما يتجنب
إن التجانب إن تطاول منكما دب السلو له ففر المطلب

وأمر إبراهيم الموصلي فغنى بهما، فلما سمعه الرشيد بادر إلى ماردة فترضاها، فسألت عن السبب في ذلك فقيل لها، فأمرت لكل واحد من العباس وإبراهيم بعشرة آلاف درهم وأمرت الرشيد أن يكافئهما فأمر لهما بأربعين ألف درهم ".
وله أيضاً:

تعب يطول مع الرجاء لذي الهوى خير له من راحةٍ في اليأس
لولا محبتكم لما عاتبتكم ولكنتم عندي كبعض الناس

وله أيضاً:

وحدثتني يا سعد عنها فزدتني جنوناً فزدني من حديثك يا سعد
هواها هوًى لم يعرف القلب غيره فليس له قبلٌ وليس له بعد

وله أيضاً:

إذا أنت لم تعطفك إلا شفاعةٌ فلا خير في ودٍ يكون بشافع
فأقسم ما تركي عتابك عن قلًى ولكن لعلمي أنه غير نافع
وإني إذا لم ألزم الصبر طائعاً فلا بد منه مكرهاً غير طائع

"قيل أنه أنشد الرشيد يوماً قوله:

طاف الهوى في عباد الله كلهم حتى إذا مر بي من بينهم وقفا

قال له الرشيد: ما الذي رأى فيك حتى وقف عليك؟ قال: سألني عن وجود أمير المؤمنين فأخبرته، فاستحسن الرشيد جوابه ووصله.
قيل إن الرشيد عمل في الليل بيتاً ورام أن يشفعه بآخر فامتنع القول عليه، فقال: علي بالعباس، فلما طرق عليه ذعر وفزع أهله، فلما وقف بين يدي الرشيد قال له: وجهت إليك بسبب بيت قلته ورمت أن أشفعه بمثله فامتنع القول علي، فقال: يا أمير المؤمنين، دعني حتى ترجع إلي نفسي فإني تركت عيالي على حال من القلق عظيمة، ونالني من الخوف ما يتجاوز الحد والوصف؛ فانتظر هنيهة ثم أنشده:

جنانٌ قد رأيناها ... ولم نر مثلها بشرا

فقال العباس بن الأحنف:

يزيدك وجهها حسناً ... إذا ما زدته نظرا

فقال: زدني، فقال:

إذ ا ما الليل سال علي ... ك بالإظلام واعتكرا

ودج فلم تر قمراً ... فأبرزها تر قمرا

فقال له الرشيد: قد ذعرناك وأفزعنا عيالك وأقل الواجب أن نعطيك ديتك، وأمر له بعشرة آلاف درهم.

وله – أعني الرشيد –:

إن تشق عيني بها فقد سعدت ... عينا رسولي وفزت بالخبر

وكلما جاءني الرسول لها ... رددت عمداً في عينه نظري

خذ مقلتي يارسول عاريةً ... فانظر بها واحتكم على بصري

وأخذ المأمون هذا المعنى بعينه فقال:

بعثتك مرتاداً ففزت بنظرةٍ ... وأغفلتني حتى أسأت بك الظنا

فناجيت من أهوى وكنت مباعداً ... فيا ليت شعري عن دنوك ما أغنى

أرى أثراً منها بعينك بيناً ... لقد أخذت عيناك من عينها حسناً

وللعباس أيضاً:

أغيب عنك بودٍ لا يغيره ... نأي المحل ولا صرفٌ من الزمن

فإن أعش فلعل الدهر يجمعنا ... وإن أمت فبطول الهم والحزن

قد حسن الحب في عيني ما صنعت ... حتى أرى حسناً ما ليس بالحسن

تعتل بالشغل عنا لا تكلمنا ... الشغل للقلب ليس الشغل للبدن

قال الزبير بن بكار: لا أعلم شيئاً من أمور الدنيا خيرها وشرها إلا وهو يصلح أن يتمثل فيه بنصف هذا البيت الأخير.

وله أيضاً:

قد كنت أبكي وأنت راضيةٌ ... حذار هذا الصدود والغضب

إن تم ذا الهجر يا ظلوم ولا ... تم فما لي في العيش من أرب

وله أيضاً:

أحرم منكم بما أقول وقد ... نال به العاشقون من عشقوا

صرت كأني ذبالةٌ نصبت ... تضيء للناس وهي تحترق

قال الرياشي: لو لم يقل من الشعر إلا هذين البيتين لكفياه.

وقال أبو بكر الصولي: كنت عند القاسم بن إسماعيل فقال: انشدني عمك إبراهيم بن العباس لخاله العباس بن الأحنف:

قد سحب الناس أذيال الظنون بنا وفرق الناس فينا قولهم فرقا

فكاذبٌ قد رمى بالظن غيركم وصادقٌ ليس يدري أنه صدقا

قال عبد الله بن المعتز: لو قيل لي: ما أحسن شيء تعرفه؟ لقلت: بيتا العباس بن الأحنف، وأنشد هذين البيتين.

وله أيضاً:

اليوم آخر أيام السرور به واليوم أول يومٍ فيه أكتئب

ما كنت أحسب أن الحزن ينزل بي بعد السرور فقد جاءت به العقب

وله ايضاً:

خيالك حين أرقد نصب عيني إلى وقت انتباهي لا يزول

وليس يزورني صلةً ولكن حديث النفس عنك به الوصول

وله أيضاً:

يا ذا الذي أنكرني طرفه إن ذاب جسمي وعلاني الشحوب

ما مسني ضرٌ ولكنني جفوت نفسي إذ جفاني الحبيب

وله أيضاً:

أرى الطريق قريباً حين أسلكه إلى الحبيب بعيداً حين أنصرف "

وشعره كله جيد، وهو خال إبراهيم بن العباس الصولي – وقد تقدم ذكر ذلك في ترجمته في حرف الهمزة.

وتوفي سنة اثنتين وتسعين ومائة ببغداد.

وحكى عمر بن شبة قال: مات إبراهيم الموصلي المعروف بالنديم سنة ثمان وثمانين ومائة، ومات في ذلك اليوم الكسائي النحوي والعباس بن الأحنف وهشيمة الخمارة، فرفع ذلك إلى الرشيد فأمر المأمون أن يصلي عليهم فخرج فصفوا بين يديه فقال: من هذا الأول؟ فقالوا: إبراهيم الموصلي، فقال: أخروه وقدموا العباس بن الأحنف، فقدم فصلى عليه، فلما فرغ وانصرف دنا منه هاشم بن عبد الله بن مالك الخزاعي فقال: يا سيدي، كيف آثرت العباس بن الأحنف بالتقدمة على من حضر؟ فأنشد:

وسعى بها ناس فقالوا: إنها لهي التي تشقى بها وتكابد

فجحدتهم ليكون غيرك ظنهم إني ليعجبني المحب الجاحد

ثم قال: أتحفظهما؟ فقلت: نعم، وأنشدته، فقال لي المأمون: أليس من قال هذا الشعر أولى بالتقدمة؟ فقلت: بلى والله يا سيدي.

قلت: وهذه الحكاية تخالف ما يأتي في ترجمة الكسائي، لأنه مات بالري على الخلاف في تاريخ وفاته. وقيل إن العباس توفي سنة اثنتين وتسعين ومائة، وقال أبو بكر الصولي: حدثني عون بن محمد قال: حدثني أبي قال: رأيت العباس بن الأحنف ببغداد بعد موت الرشيد، وكان منزله بباب الشام، وكان لي صديقاً، ومات وسنه أقل من ستين سنة. قال الصولي: وهذا يدل على أنه مات بعد سنة اثنتين وتسعين، لأن الرشيد ملت ليلة السبت لثلاث خلون من جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين ومائة بمدينة طوس.

وكانت وفاة الأحنف والد العباس المذكور سنة خمسين ومائة، ودفن بالبصرة، رحمه الله تعالى.

وحكى المسعودي في كتاب " مروج الذهب " عن جماعة من أهل البصرة قالوا: خرجنا نريد الحج، فلما كنا ببعض الطريق إذا غلام واقف على المحجة وهو ينادي: أيها الناس هل فيكم أحد من أهل البصرة؟ قال: فعدلنا إليه وقلنا له: ما تريد؟ قال: إن مولاي لما به يريد أن يوصيكم، فملنا معه، فإذا بشخصٍ ملقى على بعد من الطريق تحت شجرة لا يحير جواباً، فجلسنا حوله، فأحس بنا فرفع طرفه وهو لايكاد يرفعه ضعفاً، وأنشأ يقول:

يا غريب الدار عن وطنه ... مفرداُ يبكي على شجنه

كلما جد البكاء به ... دبت الأسقام في بدنه

ثم أغمي عليه طويلاً ونحن جلوس حوله، إذ أقبل طائر فوقع على أعلى الشجرة وجعل يغرد ففتح عينيه وجعل يسمع تغريد الطائر، ثم أنشأ الفتى يقول:

ولقد زاد الفؤاد شجًى ... طائر يبكي على فننه

شفه ما شفني فبكى ... كلنا يبكي على سكنه

قال: ثم تنفس تنفساً فاضت نفسه منه، فلم نبرح من عنده حتى غسلناه وكفناه وتولينا الصلاة عليه، فلما فرغنا من دفنه سألنا الغلام عنه، فقال: هذا العباس بن الأحنف، رحمه الله تعالى؛ والله أعلم أي ذالك كان.

والحنفي: بفتح الحاء المهملة والنون وبعدها فاء، هذه النسبة إلى بني حنيفة ابن لجيم بن صعب بن علي بن بكر بن وائل، وهي قبيلة كبيرة مشهورة، واسم حنيفة أثال – بضم الهمزة وبعدها ثاء مثلثة وبعد الألف لام – وإنما قيل له حنيفة لأنه جرى بينه وبين الأحزن بن عوف العبدي مفاوضة في قصة يطول شرحها فضرب حنيفة الأحزن المذكور بالسيف، فجذمه فسمي جذيمة، وضرب الأحزن حنيفة على رجله فحنفها، فسمي حنيفة وحنيفة، أخو عجل.

واليمامي: بفتح الياء المثناة من تحتها والميم وبعد الألف ميم ثانية، هذه النسبة إلى اليمامة، وهي بلدة بالحجاز في البادية أكثر أهلها بنو حنيفة وبها تنبأ مسيلمة الكذاب وقتل، وقصته مشهورة.

الرياشي

أبو الفضل العباس بن الفرج الرياشي النحوي اللغوي البصري؛ كان عالماً راوية ثقة عارفاً بأيام العرب كثير الاطلاع، روى عن الأصمعي وأبو عبيدة معمر بن المثنى وغيرهما، وروى عنه إبراهيم الحربي وابن أبي الدنيا وغيرهما.

ومما رواه عن الأصمعي قال: مر بنا أعرابي ينشد ابناً له، فقلنا له: صفه لنا، فقال: كأنه دنينير، فقلنا له لم نره، قال: فلم يلبث أن جاء بصغير أسيد كأنه جعلٌ قد حمله على عنقه، فقلنا: لو سألتنا عن هذا لأرشدناك، فإنه ما زال اليوم بين أيدينا. ثم أنشد الأصمعي:

نعم ضجيع الفتى إذا برد اللي ... ل سحيراً وقرقف الصرد

زينها الله في الفؤاد كما ... زين في عين والد ولد

قتل الرياشي المذكور بالبصرة أيام العلوي البصري صاحب الزنج في شوال سنة سبع وخمسين ومائتين، رحمه الله تعالى.

وسئل في عقب ذي الحجة سنة أربع وخمسين ومائتين: كم يعد سنه؟ فقال: أظن سبعاً وسبعين، وذكر شيخنا ابن الأثير في تاريخه الكبير أنه قتل في سنة خمس وستين ومائتين، قتله الزنج بالبصرة، وهو غلط، إذ لا خلاف بين أهل العلم بالتاريخ أن الزنج دخلوا البصرة وقت صلاة الجمعة لثلاث عشرة ليلة بقيت من شوال سنة سبع وخمسين، فأقاموا على القتل والإحراق ليلة السبت ويوم السبت ثم عادوا إليها يوم الإثنين، فدخلوها وقد تفرق الجند وهربوا فنادوا بالأمان، فلما ظهر الناس قتلوهم، فلم يسلم منهم إلا النادر، واحترق الجامع ومن فيه، وقتل العباس المذكور في أحد هذه الأيام فإنه كان في الجامع لما قتل.

والرياشي: بكسر الراء وفتح الياء المثناة من تحتها وبعد الألف شين معجمة، هذه النسبة إلى رياش، وهو اسم لجلد رجل من جذام كان والد المنسوب إليه عبداً له فنسب إليه وبقي عليه.

ابن عمر

أبو عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، القرشي العدوي؛ أسلم مع أبيه وهو صغير لم يبلغ الحلم، وهاجر مع أبيه إلى المدينة، وعرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد فرده لصغر سنه، فعرض عليه يوم الخندق وهو ابن خمس عشرة سنة فأجازه، وكان من أهل الورع والعلم، وكان كثير الاتباع لآثار رسول الله صلى الله عليه وسلم، شديد التحري والاحتياط والتوقي في فتواه وكل ما تأخذ به نفسه، وكان لا يتخلف عن السرايا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم كان بعد موته مولعاً بالحج قبل الفتنة وفي الفتنة إلى أن مات.

ويقولون: إنه كان أعلم الصحابة بمناسك الحج، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأم المؤمنين حفصة بنت عمر: " إن أخاك عبد الله رجل صالح، لو كان يقوم من الليل "؛ فما ترك ابن عمر بعدها قيام الليل.

وقال جابر بن عبد الله: ما منا أحد إلا مالت به الدنيا ومال بها، ما خلا عمر وابنه عبد الله.

وقال ميمون بن مهران: ما رأيت أورع من ابن عمر، ولا أعلم من ابن عباس. وقال سعيد بن المسيب: لو شهدت لأحد أنه من أهل الجنة، لشهدت لعبد الله بن عمر.

وحكى الأصمعي قال: حدثنا أبو عبد الرحمن – وهو أبو الزناد – عن أبيه، قال: اجتمع في الحجر: مصعب وعروة وعبد الله بنو الزبير، وعبد الله بن عمر، فقالوا: نتمنى، فقال مصعب بن الزبير: أما أنا فأتمنى إمرة العراق والجمع بين عائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين. وقال عبد الله بن عمر: أما أنا فأتمنى المغفرة، قال: فنالوا ما تمنوا؛ ولعل ابن عمر قد غفر له.

وحكى سفيان الثوري عن طارق بن عبد العزيز عن الشعبي، قال: لقد رأيت عجباً، كنا بفناء الكعبة أنا وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير ومصعب بن الزبير وعبد الملك بن مروان، فقال القوم بعدما فرغوا من صلاتهم: ليقم رجل منكم فليأخذ الركن اليماني وليسأل الله حاجته، فإنه يعطى من ساعته، قم يا عبد الله بن الزبير، فإنك أول مولود ولد في الهجرة، فقام وأخذ بالركن اليماني، ثم قال: اللهم إنك عظيم ترجى لكل عظيم، أسألك بحرمة عرشك وحرمة وجهك وحرمة نبيك، عليه الصلاة والسلام، أن لا تميتني حتى توليني الحجاز، ويسلم عليّ بالخلافة، وجاء حتى جلس، فقال: قم يا مصعب، فقام حتى أخذ بالركن اليماني، فقال: اللهم إنك رب كل شيء، وإليك يصير كل شيء، أسألك بقدرتك على كل شيء، أن لا تميتني من الدنيا حتى توليني العراق، وتزوجني سكينة بنت الحسين، وجاء حتى جلس، فقال: قم يا عبد الملك، فقام وأخذ بالركن اليمان، وقال: اللهم رب السموات السبع، ورب الأرض ذات القفر، أسألك بما سألك عبادُك المطيعون لأمرك، وأسألك بحرمة وجهك، وأسألك بحقك على جميع خلقك، وبحق الطائفي حول بيتك، أن لا تميتني من الدنيا حتى توليني شرق الأرض وغربها ولا ينازعني أحد إلا أتيت برأسه، ثم جاء حتى جلس، فقال: قم يا عبد الله بن عمر، فقام حتى أخذ بالركن اليماني، ثم قال: اللهم إنك رحمن رحيم، أسألك برحمتك التي سبقت غضبك، وأسألك بقدرتك على جميع خلقك، أن لا تميتني من الدنيا حتى توجب لي الجنة، قال الشعبي: فما ذهبت عيناي من الدنيا حتى رأيت لكل رجل ما سأل وبشر عبد الله بن عمر بالجنة ورؤيت له.

وحكى حمزة بن عبد الله بن عمر عن عبد الله بن عمر قال: خطرت لي هذه الآية: "لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون"، فذكرت ما أعطاني الله عز وجل فما وجدت شيئاً أحب إلي من جاريتي رمينة، فقلت: هي حرة لوجه الله، فلولا أني أعود في شيء جعلته لله لنكحتها، فأنكحها نافعاً، فهي أم ولده.

وكان ابن عمر إذا اشتد عجبه بشيء من ماله قربه إلى ربه عز وجل.

قال نافع: كان رقيقه قد عرفوا ذلك منه، فربما شمر أحدهم فيلزم المسجد، فإذا رآه ابن عمر على تلك الحالة الحسنة أعتقه، فيقول له أصحابه: يا أبا عبد الرحمن، والله ما بهم إلا أن يخدعوك، فيقول: ما خدعنا أحد بالله إلا انخدعنا له.

قال نافع: ما مات ابن عمر حتى أعتق ألف إنسان، أو ما زاد، وكان يحيي الليل صلاةً، فإذا جاء السحر استغفر إلى الصباح.
وتوفي بمكة سنة ثلاث وسبعين وهو ابن أربع وثمانين سنة، وكان قد أوصى أن يدفن في الليل، فلم يقدر على ذلك من أجل الحجاج، ودفن بذي طوى في مقبرة المهاجرين.
وكان الحجاج قد أمر رجلاً سمّ زجّه وزحمه في الطريق، ووضع الزج على ظهر قدمه، وذلك أن الحجاج خطب يوما وأخر الصلاة، فقال ابن عمر: إن الشمس لا تنتظرك، فقال له الحجاج: لقد هممت أن أضرب الذي فيه عيناك، قال: إن تفعل فإنك سفيه مسلّط. وقيل: إنه أخفى قوله ذلك على الحجاج و لم يسمعه، وإنما كان يتقدمه في المواقف بعرفة وغيرها إلى المواضع التي كان النبي صلى الله عليه وسلم وقف فيها، وكان ذلك يعز على الحجاج، فأمر الحجاج رجلاً معه حربة يقال إنها كانت مسمومة، فلما دفع الناس من عرفة لصق به ذلك الرجل، فأمرّ الحربة على قدمه، وهي في غرز راحلته، فمرض منها أياماً، فدخل عليه الحجاج يعوده، فقال: من سمّك يا أبا عبد الرحمن؟ فقال: وما تصنع به؟ قال: قتلني الله إن لم أقتله، قال: ما أراك فاعلاً، أنت أمرت من نخسني بالحربة، فقال: لا تفعل يا أبا عبد الرحمن، وخرج عنه. وروي أنه قال للحجاج- إذ قال له: من سمّك؟- قال: أنت أمرت بإدخال السلاح في الحرم. فلبث أياماً ثم مات، رضي الله عنه ونفع به، وصلى عليه الحجاج.

عبد الله بن المبارك

أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح المروزي، مولى بني حنظلة، كان قد جمع بين العلم والزهد، تفقه على سفيان الثوري ومالك بن أنس رضى الله عنهما، وروى عنه الموطأ، وكان كثير الانقطاع محباً للخلوة شديدة التورع، وكذلك كان أبوه.

ويحكى عن أبيه أنه كان يعمل في بستان لمولاه وأقام فيه زماناً، ثم أن مولاه جاءه يوما وقال له: أريد رماناً حلواً، فمضى إلى بعض الشجر وأحضر منها رماناً فكسره فوجده حامضاً، فحرد عليه وقال: أطلب الحلو فتحضر لي الحامض؟ هات حلواً، فمضى وقطع من شجرة أخرى، فلما كسره وجده أيضاً حامضاً فاشتد حرده عليه، وفعل كذلك دفعة ثالثة، فقال له بعد ذلك: أنت ما تعرف الحلوا من الحامض؟ فقال: لا، فقال: كيف ذلك؟ فقال: لأنني ما أكلت منه شيئاً حتى أعرفه، فقال: و لم لم تأكل؟ قال: لأنك ما أذنت لي، فكشف عن ذلك فوجد قوله حقاً، فعظم في عينه وزوّجه ابنته، ويقال: إن عبد الله رزقه من تلك الابنة، فنمت عليه بركة أبيه. ورأيت في بعض التواريخ هذه القضية منسوبة إلى إبراهيم بن أدهم العبد الصالح، رضي الله عنه، وكذا ذكرها الطرطوشي في أول " سراج الملوك " لابن أدهم.
ونقل أبو علي الغساني الجياني أن عبد الله بن المبارك المذكور سئل: أيهما أفضل: معاوية بن أبي سفيان أم عمر بن عبد العزيز؟ فقال: والله إن الغبار الذي دخل في أنف معاوية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من عمر بألف مرة، صلى معاوية خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: سمع الله لمن حمده، فقال معاوية: ربنا ولك الحمد، فما بعد هذا؟ "ووقفت في كتاب " النصوص على مراتب أهل الخصوص " عن أشعث بن شعبة المصيصي قال: قدم هارون الرشيد الرقة فانجفل الناس خلف عبد الله بن المبارك، وتقطعت النعال وارتفعت الغبرة، فأشرفت أم ولد أمير المؤمنين من برج الخشب، فلما رأت الناس قالت: ما هذا؟ قالوا: عالم أهل خراسان قدم الرقة يقال له عبد الله بن المبارك، فقالت: هذا والله الملك، لا ملك هارون الذي لا يجمع الناس إلا بشرط وأعوان ".
وكان لعبد الله شعر، فمن ذلك قوله:

قد يفتح المرء حانوتاً لمتجره ... وقد فتحت لك الحانوت بالدين
بين الأساطين حانوت بلا غلق ... تبتاع بالدين أموال المساكين
صيّرت دينك شاهيناً تصيد به ... وليس يفلح أصحاب الشواهين

" وكان إذا خرج إلى مكة حرسها الله تعالى يقول:

بعض الحياة وخوف الله أخرجني ... وبيع نفسي لما ليست له ثمنا

انی وزنت الذي يبقى ليعدله ماليس يبقى فلا والله ما اتزنا"

ومن كلامه: تعلمنا العلم للدنيا فدلنا على ترك الدنيا.

وكان عبد الله قد غزا، فلما انصرف من الغزو وصل إلى هيت فتوفي بها في رمضان سنة إحدى، وقيل اثنتين وثمانين ومائة، ومولده بمرو سنة ثماني عشرة ومائة، رضى الله عنه.

وهيت: بكسر الهاء وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها تاء مثناة من فوقها، مدينة على الفرات فوق الأنبار من أعمال العراق لكنها في بر الشام والأنبار في بر بغداد، والفرات يفصل بينهما، ودجلة تفصل بين الأنبار وبغداد، وقبره ظاهر يزار بها، وقد جمعت أخباره في جزأين.

عبد الله بن عبد الحكم

أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم بن أعين بن ليث بن رافع، الفقيه المالكي المصري؛ كان أعلم أصحاب مالك بمختلف قوله، وأفضت إليه رياسة الطائفة المالكية بعد أشهب، وروى عن مالك الموطأ سماعاً، وكان من ذوي الأموال والرباع، له جاه عظيم وقدر كبير، وكان يزكي الشهود ويجرحهم، ومع هذا لم يشهد ولا أحد من ولده لدعوة سبقت فيه، ذكر ذلك القضاعي في كتاب " خطط مصر "، ويقال: إنه دفع للإمام الشافعي، رضي الله عنه، عند قدومه إلى مصر ألف دينار من ماله، وأخذ له من ابن عسامة التاجر ألف دينار، ومن رجلين آخرين ألف دينار، وهو والد أبي عبد الله محمد، صاحب الإمام الشافعي - وسيأتي ذكره في حرف الميم، ان شاء الله تعالى.

وروى بشر بن بكر، قال: رأيت مالك بن أنس في النوم بعدما مات بأيام، فقال: إن ببلدكم رجلاً يقال له ابن عبد الحكم، فخذوا عنه فإنه ثقة.

وكان لأبي محمد المذكور ولد آخر يسمى عبد الرحمن من أهل الحديث والتواريخ، صنف كتاب فتوح وغيره.

وكانت ولادة أبي محمد المذكور في سنة خمسين ومائة، وقيل سنة خمس وخمسين ومائة. وتوفي في شهر رمضان سنة أربع عشرة ومائتين بمصر، وقبره إلى جانب قبر الإمام الشافعي، رضي الله عنهما، مما يلي القبلة، وهو الأوسط من القبور الثلاثة.

وتوفي ولده عبد الرحمن المذكور في سنة سبع وخمسين ومائتين، وقبره إلى جانب قبر أبيه من جهة القبلة.

وأعين: بفتح الهمزة وسكون العين المهملة وفتح الياء المثناة من تحتها وبعدها نون.

وعسامة: بضم العين المهملة وفتح السين المهملة وبعد الألف ميم ثم هاء.

ابن وهب الفقيه المالكي

أبو محمد عبد الله بن وهب بن مسلم، القرشي بالولاء الفقيه المالكي المصري مولى ريحانة مولاة أبي عبد الرحمن يزيد بن أنيس الفهري، كان أحد أئمة عصره وصحب الإمام مالك بن أنس، رضي الله عنه، عشرين سنة، وصنف " الموطأ الكبير " و" الموطأ الصغير " وقال مالك في حقه: عبد الله بن وهب إمام. وقال أبو جعفر ابن الجزار: رحل ابن وهب إلى مالك في سنة ثمان وأربعين ومائة و لم يزل في صحبته إلى أن توفي مالك، وسمع من مالك قبل عبد الرحمن بن القاسم ببضع عشرة سنة. وكان مالك يكتب إليه إذا كتب في المسائل: إلى عبد الله بن وهب المفتي، و لم يكن يفعل هذا مع غيره. وأدرك من أصحاب ابن شهاب الزهري أكثر من عشرين رجلاً. وذكر ابن وهب وابن القاسم عند مالك، فقال: ابن وهب عالم وابن القاسم فقيه. قال القضاعي في كتاب " خطط مصر ": قبر عبد الله بن وهب مختلف فيه، وفي مجرّ بني مسكين قبر صغير مخلق يعرف بقبر عبد الله، وهو قبر قديم يشبه أن يكون قبره.

وكان مولده في ذي القعدة سنة خمس، وقيل أربع وعشرين ومائة بمصر. وتوفي بها يوم الأحد لخمس بقين من شعبان سنة سبع وتسعين ومائة، رضي الله عنه.

وله مصنفات في الفقه معروفة، وكان محدثاً. وقال يونس بن عبد الأعلى صاحب الإمام الشافعي، رحمه الله تعالى: كتب الخليفة إلى عبد الله بن وهب في قضاء مصر، فجنّن نفسه، ولزم بيته، فاطلع عليه رشدين بن سعد، وهو يتوضأ في صحن داره، فقال له: ألا تخرج إلى الناس فتقضي بينهم بكتاب

الله عز وجل وسنة رسوله صلى الله عليه وسلّم؟ فرفع إليه رأسه وقال: إلى ها هنا انتهى عقلك؟ أما علمت أن العلماء يحشرون مع الأنبياء وأن القضاة يحشرون مع السلاطين؟ وكان عالماً صالحاً خائفاً لله تعالى.

وسبب موته أنه قرئ عليه كتاب " الأهوال " من جامعه، فأخذه شيء كالغشي، فحمل إلى داره فلم يزل كذلك إلى أن قضى نحبه.

قال ابن يونس المصري في تاريخه: هو مولى يزيد بن رمانة مولى أبي عبد الرحمن يزيد بن أنيس الفهري، والذي ذكرته أولاً قاله ابن عبد البر، والله أعلم. "وقال عبد الله بن وهب المصري: كان حيوة بن شريح يأخذ عطاءه في كل سنة ستين ديناراً. قال: وكان إذا أخذه لم يطلع إلى مترله حتى يتصدق به. قال: ثم يجيئ إلى مترله فيجدها تحت فراشه. قال: وكان له ابن عم، فلما بلغه ذلك أخذ عطاءه فتصدق به، ثم جاء يطلبه تحت فراشه فلم يجد شيئاً. قال: فشكا إلى حيوة، فقال له حيوة: أنا أعطيت ربي بيقين، وأنت أعطيت ربك تجربة ".

عبد الله بن لهيعة

أبو عبد الرحمن عبد الله بن لهيعة بن عقبة بن لهيعة الحضرمي الغافقي المصري، كان مكثراً من الحديث والأخبار والرواية. قال محمد بن سعد في حقه: إنه كان ضعيفاً، ومن سمع منه في أول أمره أقرب حالاً ممن سمع منه في آخره. وكان يقرأ عليه ما ليس من حديثه فيسكت، فقيل له في ذلك فقال: ما ذنبي؟ إنما يجيئوني بكتاب يقرأونه عليّ ويقومون، ولو سألوني لأخبرهم أنه ليس من حديثي.

وكان أبو جعفر المنصور قد ولاه القضاء بمصر في مستهلّ سنة خمس وخمسين ومائة، وهو أول قاض ولي بمصر من قبل الخليفة، وصرف عن القضاء في شهر ربيع الأول سنة أربع وستين ومائة، وهو أول قاض حضر لنظر الهلال في شهر رمضان واستمر القضاة عليه إلى الآن.

ذكر ابن الفراء في تاريخه في سنة اثنتين وخمسين ومائة فقال: وفيها توفي أبو خزيمة إبراهيم بن يزيد القاضي الحميري وولي مكانه عبد الله بن لهيعة الحضرمي، وكان سبب ولايته أن ابن حديج كان بالعراق، قال: فدخلت على أبي جعفر المنصور فقال لي: يا ابن حديج، لقد توفي ببلدك رجل أصيب به العامة، قلت: يا أمير المؤمنين ذاك إذاً أبو خزيمة، قال: نعم، فمن ترى أن نولي القضاء بعده؟ قلت: أبا معدان " عامر بن مرة " اليحصبي يا أمير المؤمنين، قال: ذاك رجل أصم، لا يصلح للقاضي أن يكون أصم. قال فقلت: فابن لهيعة يا أمير المؤمنين، قال: فابن لهيعة على ضعف فيه، فأمر بتوليته، وأجرى عليه في كل شهر ثلاثين ديناراً، وهو أول قضاة مصر أجري عليه ذلك، وأول قاض بها استقضاه خليفة، وإنما كان ولاة البلد هم الذين يولون القضاة.

وتوفي بمصر يوم الأحد منتصف شهر ربيع الأول سنة أربع وسبعين، وقيل سنة سبعين ومائة، وعمره إحدى وثمانون سنة، رحمه الله تعالى.

قال أبو موسى العتري في تاريخه: وكان الليث بن سعد أكبر من ابن لهيعة بسنة أو بسنتين.

" وذكره ابن يونس في تاريخه فقال: عبد الله بن لهيعة بن عقبة بن فرعان بن ربيعة الحضرمي ثم الأعدولي، من أنفسهم، قاضي مصر، يكنى أبا عبد الرحمن وروى عنه عمرو بن الحارث والليث بن سعد وعثمان بن الحكم الجذامي وابن المبارك، وذكر تاريخ وفاته، ثم قال: وكان مولده سنة سبع وتسعين، ثم روى بإسناد متصل إليه أنه قال: كنت إذا أتيت يزيد بن أبي حبيب يقول لي: كأني بك وقد قعدت على الوسادة، يعني وسادة القضاة، فما مات ابن لهيعة حتى ولي القضاء".

ولهيعة: بفتح اللام وكسر الهاء وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح العين المهملة وبعدها هاء ساكنة.

والحضرمي: بفتح الحاء المهملة وسكون الضاد الموحدة وفتح الراء وبعدها ميم، هذه النسبة إلى حضرموت، وهي من بلاد اليمن في أقصاها.

القعنبي

أبو عبد الرحمن عبد الله بن مسلمة بن قعنبٍ الحارثي المعروف بالقعنبي، كان من أهل المدينة، وأخذ العلم والحديث عن الإمام مالك رضي الله عنه، وهو من جلة أصحابه وفضلائهم وثقاهم وخيارهم، وهو أحد رواة " الموطأ " عنه، فإن " الموطأ " رواه عن مالك رضي الله عنه جماعة، وبين الروايات اختلاف، وأكملها رواية يحيى بن يحيى – كما سيأتي في ترجمته إن شاء الله تعالى.

وكان يسمى " الراهب " لعبادته وفضله. وقال عبد الله بن أحمد بن الهيثم: سمعت جدي يقول: كنا إذا أتينا عبد الله بن مسلمة القعنبي خرج إلينا كأنه مشرف على جهنم، ونعوذ بالله منها. وكان القعنبي يسكن البصرة، وهو من الثقات في روايته. وتوفي يوم الجمعة لست خلون من المحرم سنة إحدى وعشرين ومائتين بالبصرة، رحمه الله تعالى، وذكر أبو القاسم ابن بشكوال في تسمية من روى " الموطأ " عن مالك أنه توفي بمكة، والله أعلم.

والقعنبي: بفتح القاف وسكون العين المهملة وفتح النون وبعدها باء موحدة، هذه النسبة إلى جده المذكور أعلاه، رحمه الله تعالى.

ابن كثير المقرئ

أبو سعيد عبد الله بن كثير؛ أحد القراء السبعة. توفي سنة عشرين ومائة بمكة، رحمه الله تعالى، ولم أقف على شيء من حاله لأذكره. ثم وجدت صاحب كتاب " الإقناع " في القراءات ذكره فقال: ابن كثير، المكي الداري - والدار بطن من لخم منهم تميم الداري رضي الله عنه، وقيل إنما نسب إلى دارين لأنه كان عطاراً، وهو موضع الطيب، وهذا هو الصحيح - قالوا: وهو مولى عمرو بن علقمة الكناني، وهو من أبناء فارس الذين بعثهم كسرى بالسفن إلى اليمن حين طرد الحبشة عنها، وكان يخضب بالحناء، وكان قاضي الجماعة بمكة، وهو من الطبقة الثانية من التابعين، وكان شيخاً كبيراً، أبيض الرأس واللحية طويلاً جسيماً أسمر أشهل العينين، يغير شيبته بالحناء أو بالصفرة، وكان حسن السكينة، ولد بمكة سنة خمس وأربعين، ومات بها سنة عشرين ومائة.

ثم قال هذا المصنف: ما ذكر من وفاته هو كالإجماع بين القراء، ولا يصح عندي، لأن عبد الله بن إدريس الأودي قرأ عليه، ومولد ابن إدريس سنة خمس عشرة ومائة، فكيف تصح قراءته عليه لولا ابن كثير تجاوز سنة عشرين؟ وإنما الذي مات فيها عبد الله بن كثير القرشي وهو غير القارىء، وأصل الغلط في هذا من أبي بكر ابن مجاهد، والله أعلم.

وراوياه: قنبل وهو محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن خالد بن سعيد بن جرجة المكي المخزومي، توفي سنة إحدى وتسعين ومائتين وله ست وتسعون سنة.

وراويه الآخر البزي، وهو أحمد بن محمد بن عبد الله بن القاسم بن نافع بن أبي بزة بشار الفارسي، كنيته أبو الحسن، توفي سنة سبعين ومائتين وله ثمانون سنة، رحمهم الله أجمعين.

ابن قتيبة

أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، وقيل المروزي، النحوي اللغوي صاحب كتاب المعارف وأدب الكاتب؛ كان فاضلاً ثقة، سكن بغداد وحدث بها عن إسحاق بن راهويه وأبي إسحاق إبراهيم بن سفيان بن سليمان بن أبي بكر بن عبد الرحمن بن زياد بن أبيه الزيادي وأبي حاتم السجستاني وتلك الطبقة، وروى عنه ابنه أحمد وابن دُر ستُويه الفارسي، وتصانيفه كلها مفيدة، منها ما تقدم ذكره، ومنها غريب القرآن الكريم وغريب الحديث وعيون الأخبار ومشكل القرآن ومشكل الحديث وطبقات الشعراء والأشربة وإصلاح الغلط وكتاب التقفية وكتاب الخيل وكتاب إعراب القراءات وكتاب الأنواء وكتاب المسائل والجوابات وكتاب الميسر والقداح وغير ذلك. وأقرأ كتبه ببغداد إلى حين وفاته، وقيل أن أباه مروزي، وأما هو فمولده ببغداد، وقيل بالكوفة، وأقام بالدِّينورِ مدةً قاضياً فنسب إليها. وكانت ولادته سنة ثلاث عشرة ومائتين، وتوفي في ذي القعدة سنة سبعين، وقيل سنة إحدى وسبعين، وقيل أول ليلة في رجب، وقيل منتصف رجب سنة ست وسبعين ومائتين، والأخير أصح الأقوال، وكانت وفاته فجأة، صاح صيحة سمعت من بُعد ثم أغمي عليه ومات، وقيل أكل هريسة فأصابه حرارة ثم صاح صيحة شديدة ثم أغمي عليه إلى وقت الظهر ثم اضطرب ساعة ثم هدأ فما زال يتشهد إلى وقت السحر، ثم مات رحمه الله تعالى.

وكان ولده أبو جعفر أحمد بن عبد الله المذكور فقيهاً، وروى عن أبيه كتبه المصنفة كلها وتولى القضاء بمصر، وقدمها في ثامن عشر جمادى الآخرة سنة إحدى وعشرين وثلثمائة، توفي بها في شهر ربيع الأول سنة اثنتين وعشرين وثلثمائة، وهو على القضاء ومولده ببغداد.

والناس يقولون: إن أكثر أهل العلم يقولون: إن أدب الكاتب خطبة بلا كتاب، وإصلاح المنطق كتاب بلا خطبة، وهذا فيه نوع تعصب عليه، فإن

أدب الكاتب قد حوى من كل شيء وهو مفنَّن، وما أظن حملهم على هذا القول إلا أن الخطبة طويلة، والإصلاح بغير خطبة، وقيل أنه صنف هذا الكتاب لأبي الحسن عبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير المعتمد على الله بن المتوكل على الله الخليفة العباسي، وقد شرح هذا الكتاب أبو محمد بن السيد البطليوسي – الآتي ذكره أن شاء الله تعالى – شرحاً مستوفى، ونبه على مواضع الغلط منه، وفيه دلالة على كثرة اطلاع الرجل، وسماه الاقتضاب في شرح أدب الكتَّاب.

وقتيبة: بضم القاف وفتح التاء المثناة من فوقها وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها باء موحدة ثم هاء ساكنة، وهي تصغير قتبة بكسر القاف، وهي واحدة الأقتاب، والأقتاب: الأمعاء، وبها سمي الرجل، والنسبة إليه قتبيّ. والدينوري: بكسر الدال المهملة، وقال السمعاني بفتحها وليس بصحيح وبسكون الياء المثناة من تحتها وفتح النون والواو وبعدها راء، هذه النسبة إلى دينور، وهي بلدة من بلاد الجبل عند قرميسين خرج منها خلق كثير.

ابن درستويه

أبو محمد عبد الله بن جعفر بن درستويه بن المرزبان الفارسي الفسوي النحوي؛ كان عالماً فاضلاً أخذ فن الأدب عن ابن قتيبة – المقدم ذكره – وعن المبرد وغيرهما ببغداد، وأخذ عنه جماعة من الأفاضل كالدارقطني وغيره. وكانت ولادته في سنة ثمان وخمسين ومائتين، وتوفي يوم الاثنين لتسع بقين من صفر، وقيل لست بقين منه، سنة سبع وأربعين وثلثمائة ببغداد، رحمه الله تعالى. وكان أبوه من كبار المحدثين وأعيانهم. ودرستويه: بضم الدال المهملة والراء وسكون السين المهملة، وضم التاء المثناة من فوقها وسكون الواو وفتح الياء المثناة من تحتها وبعدها هاء ساكنة، هكذا قاله السمعاني، وقال غيره: هو بفتح الدال والراء والواو، وهذا القائل هو ابن ماكولا في كتاب الاكمال.

والفارسي والفسوي قد تقدم الكلام عليهما في ترجمة البساسيري في حرف الهمزة. وتصانيف في غاية الجودة والإتقان، منها: تفسير كتاب الجرمي والارشاد في النحو، وكتاب الهجاء وشرح الفصيح والرد على المفضل الضبي في الرد على الخليل وكتاب الهداية وكتاب المقصور والممدود وكتاب غريب الحديث وكتاب معاني الشعر وكتاب الحي والميت وكتاب التوسط بين الأخفش وثعلب في تفسير القرآن وكتاب خبر قس بن ساعدة وكتاب الأعداد وكتاب أخبار النحويين وكتاب الرد على الفراء في المعاني، وله عدة كتب شرع فيها و لم يكملها.

الكعبي

أبو القاسم عبد الله بن أحمد بن محمود الكعبي البلخي العالم المشهور، كان رأس طائفة من المعتزلة يقال لهم الكعبية، وهو صاحب مقالات، ومن مقالته: أن الله سبحانه وتعالى ليست له إرادة، وأن جميع أفعاله واقعة منه من غير إرادة ولا مشيئة منه لها. وكان من كبار المتكلمين، وله اختيارات في علم الكلام، وتوفي مستهل شعبان سنة سبع عشرة وثلثمائة، رحمه الله تعالى.

والكعبي: بفتح الكاف وسكون العين المهملة وبعدها باء موحدة هذه النسبة إلى بني كعب.

والبلخي: بفتح الباء الموحدة وسكون اللام وبعدها خاء معجمة، هذه النسبة إلى بلخ إحدى مدن خراسان.

القفال المروزي

أبو بكر عبد الله بن أحمد بن عبد الله الفقيه الشافعي المعروف بالقفال المروزي؛ كان وحيد زمانه فقهاً وحفظاً وورعاً وزهداً، وله في مذهب الإمام الشافعي من الآثار ما ليس لغيره من أبناء عصره، وتخاريجه كلها جيدة وإلزاماته لازمة؛ واشتغل عليه خلق كثير وانتفعوا به، منهم الشيخ أبو علي السنجي والقاضي حسين بن محمد – وقد تقدم ذكرهما – والشيخ أبو محمد الجويني والد إمام الحرمين – وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى – وغيرهم، وكل واحد من هؤلاء صار إماماً يشار إليه، ولهم التصانيف النافعة ونشروا علمه في البلاد وأخذه عنهم أئمة كبار أيضاً.

وكان ابتداء اشتغاله بالعلم على كبر السن بعدما أفنى شبيبته في عمل الأقفال ولذلك قيل له القفال وكان ماهراً في عملها. ويقال إنه لما شرع في التفقه كان عمره ثلاثين سنة، وشرح فروع أبي بكر محمد بن الحداد المصري فأجاد في شرحها، وشرحها أيضاً أبو علي السنجي المذكور والقاضي أبو الطيب الطبري، وهو كتاب مشكل مع صغر حجمه، وفيه مسائل عويصة وغريبة، والمبرز من الفقهاء الذي يقدر على حلها وفهم معانيها وسيأتي ذكر

مصنفها في حرف الميم إن شاء الله تعالى.

وكانت وفاة القفال المذكور في بعض شهور سنة سبع عشرة وأربعمائة، وهو ابن تسعين سنة، ودفن بسجستان، وقبره بها معروف يزار، رحمه الله تعالى.

الشيخ أبو محمد الجويني

أبو محمد عبد الله بن يوسف بن عبد الله بن يوسف بن محمد حيويه الجويني الفقيه الشافعي والد إمام الحرمين – وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى –؛ كان إماماً في التفسير والفقه والأصول والعربية والأدب، قرأ الأدب أولاً على أبيه أبي يعقوب يوسف بجوين، ثم قدم نيسابور واشتغل بالفقه على أبي الطيب سهل بن محمد الصعلوكي – المقدم ذكره في حرف السين – ثم انتقل إلى أبي بكر القفال المروزي المذكور قبله، واشتغل عليه بمرو ولازمه واستفاد منه وانتفع به وأتقن عليه المذهب والخلاف وقرأ عليه طريقته وأحكمها، فلما تخرج عليه عاد إلى نيسابور سنة سبع وأربعمائة وتصدّر للتدريس والفتوى فتخرّج عليه خلق كثير منهم ولده إمام الحرمين.

وكان مهيباً لا يجري بين يديه إلا الجد، وصنف التفسير الكبير المشتمل على أنواع العلوم، وصنف في الفقه التبصرة والتذكرة ومختصر المختصر والفرق والجمع والسلسلة وموقف الإمام والمأموم وغير ذلك من التعاليق، وسمع الحديث الكثير.

وتوفي في ذي القعدة سنة ثمان وثلاثين، كذا قال السمعاني في كتاب الذيل، وقال في الأنساب في سنة أربع وثلاثين وأربعمائة بنيسابور، والله أعلم.

وقال غيره: وهو في سن الكهولة، رحمه الله تعالى. وقال الشيخ أبو صالح المؤذن: مرض الشيخ أبو محمد الجويني سبعة عشر يوماً، وأوصاني أن أتولّى غسله وتجهيزه، فلما توفي غسلته، فلما لففته في الكفن رأيت يده اليمنى إلى الإبط زهراء منيرةً من غير سوء، وهي تتلألأ تلألؤ القمر، فتحيرت وقلت في نفسي: هذه بركات فتاويه.

وحيويه: بفتح الحاء المهملة وتشديد الياء المثناة من تحتها وضمها وسكون الواو وفتح الياء الثانية وبعدها هاء.

والجويني: بضم الجيم وفتح الواو وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها نون، هذه النسبة إلى جوين، وهي ناحية كبيرة من نواحي نيسابور تشتمل على قرىً كثيرة مجتمعة.

أبو زيد الدبوسي

أبو زيد عبد الله بن عمر بن عيسى الدّبوسيّ الفقيه الحنفي؛ كان من كبار أصحاب الإمام أبي حنيفة، رضي الله عنه، ممن يضرب به المثل، وهو أول من وضع علم الخلاف وأبرزه إلى الوجود، وله كتاب الأسرار والتقويم للأدلة وغيره من التصانيف والتعاليق. وروي أنه ناظر بعض الفقهاء فكان كلما ألزمه أبو زيد إلزاماً تبسم أو ضحك، فأنشد أبو زيد:

ما لي إذا ألزمته حجّةً ... قابلني بالضّحك والقهقهة

إن كان ضحك المرء من فقهه ... فالدبّ في الصحراء ما أفقهه

وكانت وفاته بمدينة بخارى سنة ثلاثين وأربعمائة، رحمه الله تعالى.

والدّبوسيّ: بفتح الدال المهملة وضم الباء الموحدة وبعدها واو ساكنة وسين مهملة، هذه النسبة إلى دبوسة، وهي بليدة بين بخارى وسمرقند نسب إليه جماعة من العلماء.

المرتضى بن الشهرزوري

أبو محمد عبد الله بن القاسم بن المظفر بن عليّ بن القاسم الشّهرزوريّ المنعوت بالمرتضى، والد القاضي كمال الدين – وسيأتي ذكر ولده ووالده إن شاء الله تعالى –؛ كان أبو محمد المذكور مشهوراً بالفضل والدين، وكان مليح الوعظ مع الرشاقة والتجنيس، وأقام ببغداد مدة يشتغل بالحديث والفقه، ثم رجع إلى الموصل وتولى بها القضاء وروى الحديث، وله شعر رائق، فمن ذلك قصيدته التي على طريقة الصوفية ولقد أحسن فيها وهي:

لمعت نارهم وقد عسعس اللي … ل وملَّ الحادي وحار الدليل

فتأملتها وفكري من البي … ن عليلٌ ولحظ عيني كليل

وفؤادي ذاك الفؤاد المعنى … وغرامي ذاك الغرام الدخيل

ثم قابلتها وقلت لصحبي … هذه النار نار ليلى فميلوا

فرموا نحوها لحاظاً صحيحا … تٍ فعادت خواسئاً وهى حول

ثم مالوا إلى الملام وقالوا … خلبٌ ما رأيت أم تخييل

فتجنبتهم وملت إليها … والهوى مركبي وشوقي الزميل

ومعي صاحب أتى يقتفي الآ … ثار والحب شرطه التطفيل

وهي تعلو ونحن ندنو إلى أن … حجزت دونها طلولٌ محول

فدنونا من الطلول فحالت … زفراتٌ من دونها وغليل

قلت: من بالديار؟ قالوا: جريحٌ … وأسيرٌ مكبلٌ وقتيل

ما الذي جئت تبتغي؟ قلت: ضيف … جاء يبغي القرى فأين النزول

فأشارت بالرحب دونك فاعقر … ها فما عندنا لضيفٍ رحيل

من أتانا ألقى عصا السير عنه … قلت :من لي بها وأين السبيل؟

فحططنا إلى منازل قومٍ … صرعتهم قبل المذاق الشمول

درس الوجد منهم كل رسمٍ … فهو رسمٌ والقوم فيه حلول

منهم من عفا ولم يبق للشك … وى ولا للدموع فيه مقيل

ليس إلا الأنفاس تخبر عنه … وهو عنها مبرَّأ معزول

ومن القوم من يشير إلى وج … دٍ تبقَّى عليه منه القليل

ولكلٍ رأيت منه مقاماً … شرحه في الكتاب مما يطول

قلت أهل الهوى سلامٌ عليكم … لي فؤادٌ عنكم بكم مشغول

وجفونٌ قد أقرحتها من الدم … ع حثيثاً إلى لقاكم سيول

لم يزل حافز من الشوق يحدو … ني إليكم والحادثات تحول

واعتذاري ذنبٌ فهل عند من يعلم عذري في ترك عذري قبول

جئت كي أصطلي فهل لي إلى نا ... ركم هذه الغداة سبيل
فأجابت شواهد الحال عنهم ... كل حدٍّ من دونها مفلول

لا تروقنّك الرياض الأنيقا ... ت فمن دونها ربًى ودحول
كم أتاها قومٌ على غرّةٍ من ... ها وراموا أمراً فعزَّ الوصول
وقفوا شاخصين حتى إذا ما ... لاح للوصل غرّةٌ وحجول
وبدت راية الوفا بيد الوج ... د ونادى أهل الحقائق جولوا
أين من كان يدَّعينا فهذا ال ... يوم فيه صبغ الدعاوى يحول
حملوا حملة الفحول ولايص ... رع يوم اللقاء إلا الفحول
بذلوا أنفساً سخت حين شحَّت ... بوصالٍ واستصغر المبذول
ثم غابوا من بعد ما اقتحموها ... بين أمواجها وجاءت سيول
قذفتهم إلى الرسوم فكلٌّ ... دمه في طلولها مطلول
نارنا هذه تضيء لمن يس ... ري بليلٍ لكنها لا تنيل
منتهى الحظ ما تزوّد منها اللح ... ظ والمدركون ذاك قليل
جاءها من عرفت يبغي اقتباساً ... وله البسط والمنى والسُّول
فتعالت عن المنال وعزَّت ... عن دنوٍّ إليه وهو رسول
فوقفنا كما عهدت حيارى ... كلُّ عزمٍ من دونها مخذول
ندفع الوقت بالرجاء وناهي ... ك بقلبٍ غذاؤه التعليل
كلما ذاق كأس يأسٍ مريرٍ ... جاء كأسٌ من الرجا معسول
فإذا سوَّلت له النفس أمراً ... حيد عنه وقيل: صبرٌ جميل
هذه حالنا وما وصل العل ... م إليه، وكلُّ حال تحول

وإنما أثبت هذه القصيدة بكاملها لأنها قليلة الوجود وهي مطلوبة. وحكي عن بعض المشايخ أنه رأى في النوم قائلاً يقول: ما قيل في الطريق مثل القصيدة الموصلية، يعني هذه.

وأنشد له مجد العرب العامري دوبيت:

يا قلب إلام لا يفيد النصح ... دع مزحك كم جنى عليك المزح
ما جارحة فيك عداها جرح ... ما تشعر بالخمار حتى تصحو

وأورد له العماد الكاتب في الخريدة قوله:

فعاودت قلبي أسأل الصبر وقفةً عليها فلا قلبي وجدت ولا صبري
وغابت شموس الوصل عني وأظلمت مسالكه حتى تحيرت في أمري
فما كان إلا الخطف حتى رأيتها محكّمة والقلب في ربقة الأسر

وله من أبيات:

وبانوا فكم دمعٍ من الأسر أطلقوا نجيعاً وكم قلبٍ أعادوا إلى الأسر
فلا تنكروا خلعي عذاري تأسُّفاً عليهم فكم أوضحت عندكم عذري

ومن شعره أيضاً:

بقلبي منهم علق ودمعي فيهم علق
وعندي منهم حرق لها الأحشاء تحترق
ونحن ببابهم فرق أذاب قلوبنا الفرق
وما تركوا سوى رمقٍ فليتهم له رمقوا
فلا وصلٌ ولا هجرٌ ولا نومٌ ولا أرق
ولا يأسٌ ولا طمعٌ ولا صبرٌ ولا قلق
فليتهم وقد قطعوا ولم يُبقوا عليَّ بَقوا
أأفنى في محبتهم وطيب محبتي عبق
كمثل الشمع يمتع من ينادمه ويمَّحق

وله أيضاَ:

يا ليل ما جئتكم زائراً إلا وجدت الأرض تطوى لي
ولا ثنيت العزم عن بابكم إلا تعثرت بأذيالي

وغالب شعره على هذا الأسلوب.

وكانت ولادته في شعبان سنة خمس وستين وأربعمائة، وتوفي في شهر ربيع الأول سنة إحدى عشرة وخمسمائة بالموصل، ودفن في التربة المعروفة بمرحمه الله تعالى، وذكر عماد الدين الكاتب الأصبهاني في كتاب الخريدة في ترجمة المرتضى المذكور قال السمعاني: إنه سمع أن القاضي أبا محمد، يعني المرتضى المذكور، توفي بعد سنة عشرين وخمسمائة، والله أعلم.

شرف الدين ابن أبي عصرون

أبو سعد عبد الله بن أبي السَّريِّ محمد بن هبة الله بن مطهّر بن علي بن أبي عُصرون ابن أبي السَّريِّ التميمي الحديثي ثم الموصلي، الفقيه الشافعي الملقب شرف الدين؛ كان من أعيان الفقهاء وفضلاء عصره، وممن سار ذكره وانتشر أمره. قرأ في صباه القرآن الكريم بالعشر على أبي الغنائم السُّلمي السّروجي والبارع أبي عبد الله ابن الدباس وأبي بكر المزرفي وغيرهم. وتفقه أولاً على القاضي المرتضى أبي محمد عبد الله بن القاسم الشهرزوري –

المذكور قبله – وعلى أبي عبد الله الحسين بن خميس الموصلي، ثم على أسعد الميهني ببغداد، وأخذ الأصول عن أبي الفتح ابن برهان الأصولي، وقرأ الخلاف، وتوجه إلى مدينة واسط وقرأ على قاضيها الشيخ أبي علي الفارقي – المذكور في حرف الحاء – وأخذ عنه فوائد المهذب، ودرس بالموصل في سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة، وأقام بسنجار مدة ثم انتقل إلى حلب في سنة خمس وأربعين، ثم قدم دمشق لما ملكها الملك العادل نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي في صفر سنة تسع وأربعين وخمسمائة، ودرس بالزاوية الغربية من جامع دمشق وتولى أوقاف المساجد، ثم رجع إلى حلب، وأقام بها وصنف كتباً كثيرة في المذهب، منها صفوة المذهب من نهاية المطلب في سبع مجلدات، وكتاب الانتصار في أربع مجلدات، وكتاب المرشد في مجلدين، وكتاب الذريعة في معرفة الشريعة وصنف التيسير في الخلاف أربعة أجزاء، وكتاباً سماه ما أخذ النظر ومختصراً في الفرائض وكتاباً سماه الإرشاد المغرب في نصرة المذهب ولم يكمله، وذهب فيما نهب له بحلب. واشتغل عليه خلق كثير وانتفعوا به، وتعين بالشام وتقدم عند نور الدين صاحب الشام وبنى له المدارس بحلب وحماة وحمص وبعلبك وغيرها، وتولى القضاء بسنجار ونصيبين وحران وغيرها من ديار بكر، ثم عاد إلى دمشق في سنة سبعين وخمسمائة، وتولى القضاء بها في سنة ثلاث وسبعين عقيب انفصال القاضي ضياء الدين أبي الفضائل القاسم بن تاج الدين يحيى بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري – حسبما شرحته في ترجمة القاضي كمال الدين أبي الفضل محمد الشهرزوري.

ثم عمي في آخر عمره قبل موته في عشر سنين، وابنه محيي الدين محمد ينوب عنه وهو باق على القضاء، وصنف جزءاً لطيفاً في جواز قضاء الأعمى، وهو على خلاف مذهب الشافعي. ورأيت في كتاب الزوائد تأليف أبي الحسين العمراني صاحب كتاب البيان وجهاً أنه يجوز، وهو غريب لم أره في غير هذا الكتاب. ووقع لي كتاب جميعه بخط السلطان صلاح الدين، رحمه الله تعالى، قد كتبه من دمشق إلى القاضي الفاضل وهو بمصر وفيه فصول من جملتها حديث الشيخ شرف الدين المذكور، وما حصل له من العمى، وأنه يقول: إن قضاء الأعمى جائز، وإن الفقهاء قالوا: إنه غير جائز، فتجتمع بالشيخ أبي الطاهر بن عوف الاسكندراني وتسأله عما ورد من الأحاديث في قضاء الأعمى: هل يجوز أم لا؟ وبالجملة فلا شك في فضله. وقد ذكره الحافظ أبو القاسم ابن عساكر في تاريخ دمشق، وذكره العماد الكاتب في كتاب الخريدة وأثنى عليه، وقال: ختمت به الفتاوى، وذكر له شيئاً من الشعر، وأنشدني بعض المشايخ قال: سمعته كثيراً ما ينشد، ولا أعلم هل هو له أم لا، وذكرهما العماد الكاتب في الخريدة:

أؤمّل أن أحيا وفي كلّ ساعةٍ ... تمرُّ بي الموتى تهزُّ نعوشها
وهل أنا إلا مثلهم غير أنَّ لي ... بقايا ليالٍ في الزمان أعيشها

وأورد له أيضاً في الخريدة:

أؤمل وصلاً من حبيبٍ وإنني ... على ثقةٍ عما قليل أفارقه
تجارى بنا خيل الحمام كأنما ... يسابقني نحو الردى وأسابقه
فيا ليتنا متنا معاً ثم لم يذق ... مرارة فقدي لا ولا أنا ذائقه

وأورد له أيضاً:

يا سائلي كيف حالي بعد فرقته ... حاشاك مما بقلبي من تنأيكا
قد أقسم الدمع لا يجفوا الجفون أسىً ... والنوم لازهارها حتى الأقيكا

وأورد له أيضاً:

وما الدهر إلا ما مضى وهو فائتٌ ... وما سوف يأتي وهو غير محصل
وعيشك فيما أنت فيه فإنه ... زمان الفتى من مجمل ومفصل

وكانت ولادته يوم الاثنين الثاني والعشرين من شهر ربيع الأول سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة بالموصل. وتوفي ليلة الثلاثاء الحادية عشرة من شهر رمضان سنة خمس وثمانين وخمسمائة بمدينة دمشق ودفن في مدرسته التي أنشأها داخل البلد، وهي معروفة به، وزرت قبره مراراً، رحمه الله تعالى.

ولما توفي القاضي ورد من القاضي الفاضل تعزية فيه جواباً عن كتاب ورد عليه بذلك والتعزية، وصل كتاب الذات الكريمة – جمع الله شملها وسر بها أهلها ويسر إلى الخيرات سبلها وجعل في ابتغاء رضوانه قولها وفعلها – وفيه زيادة هي نقص الإسلام، وثلم في البرية يتجاوز رتبة الانثلام إلى الانهدام، وذلك ما قضاه الله وقدره من وفاة الإمام شرف الدين بن أبي عصرون رحمه لله تعالى، وما حصل بموته من نقص الأرض من أطرافها، ومن مساءة أهل الملة ومسرة أهل خلافها، فلقد كان علماً للعلم منصوباً، وبقية من بقايا السلف الصالح محسوباً.

والعلم بالشام زرعه وكل من انتفع فعليه كان وإليه ينسب نفعه، رضي الله عنه وأرضاه، ونضح بماء الرحمة مثواه وما مات من أبقى تلك التصانيف التي هي المعنى المغني، بل ما مات من ولده المحيي، فإنه والله لآثاره ولعلمه المحيي، والحضرة تنوب عني في تعزيته، والقيام بحق تسليته، وقد ساءتني الغيبة عن مشهده، وتغبير القدم وراء سريره والتوسل إلى الله في ساعة مقدمه، ولقد علم الله اغتمامي لفقد حضرته، واستيحاشي لخلو الدنيا من بركته، واهتمامي بما عدمت من النصيب الموفور كان من أدعيته، وما مات بحمد الله حتى أحرز غيبته بأولاد كرام بررة، وأنشأ طلبةً للعلم نقلة وللمدارس عمرة، وحتى بنى لله المدارس والمساجد، وأحيا نهاره وليله بين راكع وساجد، فهو حيٌ لمجده، وإنما نحن الموت بفقده، وتعذر عليه أن ينتقل بقايا الخير وأعقاب السلف وأن يفارق من ليس لنا منه لولا خلفه خلف.

والحديثي: بفتح الحاء المهملة وكسر الدال المهملة وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها ثاء مثلثة، هذه النسبة إلى حديثة الموصل، وهي بليدة على دجلة بالجانب الشرق قرب الزاب الأعلى، وهي غير الحديثة التي يقال لها حديثة النورة، وهي قلعة حصينة على فراسخ من الأنبار في وسط الفرات، والماء محيط بها وحديثة الموصل هي آخر حدّ أرض السواد في الطول، وقول الفقهاء في كتبهم أرض السواد ما بين حديثة الموصل إلى عبَّادان طولاً، ومن القادسية إلى حلوان عرضاً، يريدون به هذه الحديثة لا حديثة الفرات.

ابن أسعد الموصلي

أبو الفرج عبد الله بن أسعد بن علي بن عيسى بن علي المعروف بابن الدهان الموصلي، ويعرف بالحمصي أيضاً، الفقيه الشافعي المنعوت بالمهذّب؛ كان فقيهاً فاضلاً أديباً شاعراً لطيف الشعر مليح السبك حسن المقاصد، غلب عليه الشعر واشتهر به وله ديوان صغير وكله جيد، وهو من أهل الموصل ولما ضاقت به الحال عزم على قصد الصالح بن رُزّيك وزير مصر المذكور في حرف الطاء، وعجزت قدرته عن استصحاب زوجته فكتب إلى الشريف ضياء الدين أبي عبد الله زيد بن محمد بن محمد بن عبيد الله الحسيني نقيب العلويين بالموصل هذه الأبيات:

وذات شجوٍ أسال البين عبرتها ... باتت تؤمل بالتفنيد إمساكي
لجت فلما رأتني لا أصيخ لها ... بكت فأقرح قلبي جفنها الباكي
قالت وقد رأت الأجمال محدجةً ... والبين قد جمع المشكو والشاكي
من لي إذا غبت في ذا المحل قلت لها ... الله وابن عبيد الله مولاك
لا تجزعي بانحباس الغيث عنك فقد ... سألت نوء الثريا جود مغناك

فتكفل الشريف المذكور لزوجته بجميع ما تحتاج إليه مدة غيبته عنها. ثم توجه إلى مصر ومدح الصالح بن رزيك بالقصيدة الكافية، وقد ذكرت بعضها هناك، ثم تقلبت به الأحوال وتولى التدريس بمدينة حمص، وأقام بها فلهذا ينسب إليها.

قال العماد الكاتب فيه الخريدة: مازلت وأنا بالعراق، إلى لقائه بالأشواق، فإني كنت أقف على قصائده المستحسنة، ومقاصده الحسنة، وقد سارت

كافيته بين فضلاء الزمان كافةً فشهدت بكفايته، وسجلت بأن أهل العصر لم يبلغوا إلى غايته. ثم قال بعض الثناء عليه: فيه تمتمة تسفر عن فصاحة تامة، وعقدة لسانٍ تبين فقه في القول. ثم قال بعد ذلك: ولما وصل السلطان صلاح الدين رحمه الله إلى حمص وخيم بظاهرها خرج إلينا أبو الفرج المذكور، فقدمته إلى السلطان، وقلت له: هذا الذي يقول في قصيدته الكافية التي في ابن رزيك:

أأمدح الترك أبغي الفضل عندهم ... والشعر ما زال عند الترك متروكا

قال: فأعطاه السلطان وقال: حتى لا يقول إنه متروك، ثم امتدح السلطان بقصيدته العينية التي يقول فيها:

قل للبخيلة بالسلام تورعاً ... كيف استبحت دمي ولم تتورعي

وزعمت أن تصلي بعامٍ قابلٍ ... هيهات أن أبقى إلى أن ترجعي

أبديعة الحسن التي في وجهها ... دون الوجه علامة للمبدع

ما كان ضرك لو غمزت بحاجبٍ ... يوم التفرق أو أشرت بإصبع

وتيقني إني بحبك مغرم ... ثم اصنعي ما شئت بي أن تصنعي

وقال العماد أيضاً: أنشدني هذين البيتين وزعم أنه أبتكر معناهما و لم يسبق إليه، وهما:

تردي الكتائب كتبه فإذا انبرت ... لم تدر أنفذ أسطراً أم عسكرا

لم يحسن الإتراب فوق سطورها ... إلا لأن الجيش يعقد عثيرا

وهذان البيتان من جملة قصيدة ولقد أبدع فيهما. وفي معنى تشبيه القلم بالجيش قول بعضهم:

قوم إذا أخذوا الأقلام عن غضب ... ثم استمدوا بها ماء المنيات

نالوا بها من أعاديهم وإن بعدوا ... ما لم ينالوا بحد المشرفيات

قلت: ومعنى البيت الأول ينظر إلى قول أبي تمام الطائي في مدح محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم:

هززت أمير المؤمنين محمداً ... فكان ردينياً وأبيض منصلا

فما إن تبالي إذ تجهز رأيه ... إلى ناكث أن لا تجهز جحفلا

ثم إني وجدت معنى البيت الثاني للأستاذ أبي إسماعيل الحسين بن علي المنشئ الطغرائي المقدم ذكره وهو من جملة قصيدة يمدح بها نظام الملك:

إذا ما دجا ليل العجاجة لم يزل ... بأيديهم جمرٌ إلى الهند منسوب

عليها سطور الضرب يعجمها القنا ... صحائف يغشاها من النقع تتريب

ومن شعره السائر:

يضحي يجانبي مجانبة العدا ... ويبيت وهو إلى الصباح نديم

ويمر بي يخشى الرقيب فلفظه ... شتمٌ وغنج لحاظه تسليم

وله في غلام لسبته نحلة في شفته:

بأبي من لسبته نحلةٌ ... ألمت أكرم شيء وأجل

أثرت لسبتها في شفةٍ ... ما براها الله إلا للقبل

حسبت أن بفيه بيتها إذا رأت ريقته مثل العسل

ولولا خوف الإطالة لذكرت له أشياء بديعة.

وتوفي بمدينة حمص في شعبان سنة إحدى، وقيل اثنتين وثمانين وخمسمائة، والثاني ذكره في السيل والذيل والأول أصح، رحمه الله تعالى، وقد قارب ستين سنة.

وتوفي الشريف ابن عبيد الله المذكور بالموصل سنة ثلاث وستين وخمسمائة، رحمه الله تعالى، وكان رئيساً جواداً كثير الإحسان جم الإفضال، وله شعر فمنه قوله:

قالوا سلا، صدقوا عن السلوان ليس عن الحبيب

قالوا فلم ترك الزيا رة؟ قلت من خوف الرقيب

قالوا وكيف تعيش مع هذا؟ فقلت من العجيب

وذكره عماد الدين في كتاب الخريدة وبالغ في الثناء عليه، ثم قال: وسمعت ببغداد أبياتاً يغنى بها فنسبها بعض الشاميين إلى الشريف ضياء الدين المذكور، منها:

يا بانة الوادي التي سفكت دمي بلحاظها بل يا فتاة الأجرع

لي أن أبثّ إليك ما ألقاه من ألم الهوى وعليك أن لا تسمعي

كيف السبيل إلى تناول حاجة قصرت يدي عنها كزند الأقطع

ابن شاس

أبو محمد عبد الله بن نجم بن شاس بن نزار بن عشاير بن عبد الله بن محمد بن شاس الجذامي السعدي الفقيه المالكي المنعوت بالجلال؛ كان فقيهاً فاضلاً في مذهبه عارفاً بقواعده، رأيت بمصر جمعاً كبيراً من أصحابه يذكرون فضائله، وصنف في الإمام مالك رضي الله عنه كتاباً نفيساً أبدع فيه، وسماه الجواهر الثمينة في مذهب عالم المدينة وضعه على ترتيب الوجيز تصنيف حجة الإسلام أبي حامد الغزالي، رحمه الله تعالى، وفيه دلالة على غزارة فضله، والطائفة المالكية بمصر عاكفة عليه لحسنه وكثرة فوائده. وكان مدرساً بمصر بالمدرسة المجاورة للجامع، وتوجه إلى ثغر دمياط لما أخذه العدو المخذول بنية الجهاد، فتوفي هناك في جمادى الآخرة أو في رجب سنة ست عشرة وستمائة، رحمه الله تعالى.

وشاس: بالشين المعجمة والسين المهملة بينهما ألف.

والجذامي والسعدي: قد تقدم الكلام عليهما.

عبد الله بن العباس بن عبد المطلب

أبو العباس عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وله ثلاث عشرة سنة، وكان صلى الله عليه وسلم دعا له فقال: اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل.

وحرق عليّ رضي الله عنه قوماً من الزنادقة فأنكر عليه ابن عباس فقال: ويح ابن أم الفضل إنه لغواص على الهنات. وكان عطاء إذا حدث عنه قال: حدثني البحر، وكان ميمون بن مهران إذا ذكر عنده عبد الله بن عمر وعبد الله ابن العباس قال: كان ابن عباس أفقه.

وأخذ الفقه عن ابن عباس جماعة منهم عطاء بن أبي رباح وطاوس ومجاهد وسعيد بن جبير وعبيد الله بن عبد الله بن مسعود وأبو الشعثاء جابر بن زيد وابن أبي مليكة وعكرمة وميمون بن مهران وعمرو بن دينار وغيره.

ذكر أنه اجتمع من بني هاشم جماعة عند معاوية يوماً فأقبل عليهم فقال: يا بني هاشم والله إن خيري لممنوح وإن بابي لكم لمفتوح فلا يقطع خيري عنكم علة ولا يوصد بأبي دونكم مسألة، وإني نظرت في أمري وأمركم فرأيت أمراً مختلفاً: إنكم ترون أنكم أحق بما في يدي مني، وإذا أعطيتكم عطية فيها قضاء حقوقكم قلتم: أعطانا دون حقنا وقصر بنا عن قدرنا، فصرت كالمسلوب، والمسلوب لا حمد له، هذا مع إنصاف قائلكم وإسعاف سائلكم، قال: فأقبل ابن عباس فقال: أما والله ما منحتنا شيئاً حتى سألناه ولا فتحت لنا باباً حتى قرعناه، ولئن قطعت عنا خيرك فالله أوسع خيراً منك، ولئن أغلقت دوننا بابك لنكفنَّ أنفسنا عنك، وأما هذا المال فليس لك منه إلا ما لرجل واحد من المسلمين، ولنا في كتاب الله حقان: حق في الغنيمة وحق في الفيء. فالغنيمة ما غلبنا عليه والفيء ما احتسبناه ولولا حقنا في هذا المال لم يأتك منا زائر يحمله خفٌ ولا حافر. كفاك أم أزيدك؟ قال: كفاني فإنك لا تهرّ ولا تنبح.

وحكى المدائني قال: قام عمرو بن العاص في موسم من مواسم العرب فأطرى معاوية بن أبي سفيان وبني أمية وذكر مشاهده بصفين، واجتمعت قريش فأقبل عبد الله بن عباس على عمرو فقال: يا عمرو إنك بعت دينك من معاوية وأعطيته ما بيدك، ومنّاك ما بيد غيره، فكان الذي أخذ منك أكثر مما أعطاك، والذي أخذت منه دون الذي أعطيته، وكل راضٍ بما أخذ وأعطي، فلما صارت مصر في يدك كدرها عليك بالعزل والتنغيص حتى لو كانت نفسك بيدك ألقيتها، وذكرت مشاهدك بصفين فوالله ما ثقلت علينا وطأتك ولقد كشفت فيها عورتك، وإن كنت لطويل اللسان، قصير السنان، آخر الخيل إذا أقبلت، وأولها إذا أدبرت، لك يدان: يد لا تبسطها إلى خير وأخرى لا تقبضها عن شر، ووجهان: وجه موحش ووجه مؤيس، ولعمري ان من باع دينه بدنيا غيره لحريّ أن يطول ندمه. لك لسان وفيك خطل، ولك رأي وفيك نكد، ولك قدر وفيك حسد، فأصغر عيب فيك أكبر عيب فيّ.

وقال ابن عباس رضي الله عنه: ما رأيت رجلاً لي عنده معروف إلا أضاء ما بيني وبينه. وقال رضي الله عنه: أربعة لا أقدر على مكافأتهم: رجل بدأني بالسلام، ورجل وسع لي في المجلس، ورجل اغبرت قدماه في المشي في حاجتي، فأما الرابع فما يكافئه عني إلا الله عز وجل، قيل: ومن هو؟ قال: رجل نزل به أمر فبات ليلته يفكر فيمن يقصده ثم رآني أهلاً لحاجته فأنزلها بي.

وقال له رجل: زوّجني من فلانة– وكانت يتيمة في حجره – فقال: لا أرضاها لك لأنها تسرف، فقال الرجل: قد رضيت، فقال ابن عباس: الآن لا أرضاك لها.

ومات ابن عباس بالطائف في فتنة ابن الزبير وبلغ سبعين سنة. قال أبو صالح صاحب التفسير ما رأينا بني أم قط أبعد قبوراً من بني العباس لأم الفضل: مات الفضل بالشام، ومات عبد الله بالطائف، ومات عبيد الله بالمدينة، ومات قثم بسمرقند، وقتل معبد بأفريقيا. قال الواقدي: مات ابن عباس سنة ثمان وسبعين بالطائف وهو ابن اثنتين وسبعين سنة وقد كف بصره، فصلى عليه ابن الحنفية وكبّر أربعاً وضرب على قبره فسطاطاً، رحمه الله تعالى.

أبو بكر الصديق

أبو بكر عبد الله بن أبي قحافة – واسمه عثمان – بن عامر، من ولد تيم بن مرة – تيم قريش – يلتقي هو ورسول الله صلى الله عليه وسلم عند مرة بن كعب وهما في القعدد إليه سواء، بين كل واحد منهما وبينه ستة آباء، كان اسمه في الجاهلية عبد الكعبة فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله، ولقبه عتيق، لقب به لجمال وجهه رضي الله عنه، وقيل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له: أنت عتيق من النار، وسمي صدّيقاً لتصديقه خبر المسرى. وأمه سلمى وتكنى أم الخير بنت صخر وهي بنت عم أبيه.

كان طويلاً آدم خفيف العارضين يخضب بالحنّاء والكتم. بويع له يوم الاثنين الذي توفي فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتوفي بالسل ليلة الثلاثاء، وقيل يوم الجمعة، لتسع ليال بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة، وسنه ثلاث وستون سنة، وكانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر وتسعة أيام، وغسلته زوجته أسماء ابنة عميس، وصلى عليه عمر رضي الله عنهما، وحمل على سرير رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو سرير عائشة رضي الله عنها، وكان من خشبتي ساجٍ منسوج بالليف، وبيع في ميراث عائشة، رضي الله عنها، بأربعة آلاف درهم، فاشتراه مولى لمعاوية وجعله للمسلمين، ويقال إنه بالمدينة، ودفن في حجرة عائشة ورأسه بين كتفي رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وكان يأخذ من بيت المال في كل يوم ثلاثة دراهم، وكان قال لعائشة: انظري يا بنية ما زاد في مال أبي بكر منذ وليت هذا الأمر فرديه على المسلمين، فنظرت فإذا بكر وقطيفة لا تساوي خمسة دراهم ومحشة، فلما جاء بذلك الرسول إلى عمر قال: رحم الله أبا بكر لقد كلف من بعده تعباً.
وروي أن أبا بكر خرج بعد البيعة ومعه ميزان ورزمة ثياب تحت يده وخرج إلى السوق فقيل له: ما هذا؟ فقال: أكتسب لنفسي وعيالي، فأجمعوا رأيهم وفرضوا له في كل يوم درهماً وثلثي درهم من بيت مال المسلمين.

وأبو بكر رضي الله عنه أول من طلب من النبي صلى الله عليه وسلم الدلالة على نبوته، وسبب ذلك أن أبا بكر رضي الله عنه كان باليمن في تجارة، ونبِّئ النبي صلى الله عليه وسلم وهو غائب، فترل أبو بكر رضي الله عنه في طريقه على دير فيه راهب باليمن هو ورفقته، فسألهم الراهب: هل فيكم خطيب؟ قالوا: نعم، وأشاروا إلى أبي بكر رضي الله عنه، فدعاه إليه وحده فقال له الراهب: من أين أنت؟ فقال: من مكة، فقال: هل ظهر بها أحد يدعي النبوة؟ فقال: لا، فقال الراهب: عندي صورة أريكها فإن عرفت أحداً يشبهها فعرفني، فعرض عليه الصورة فقال: هذه صورة رجل يعرف بمحمد بن عبد الله بن عبد المطلب، فقال الراهب: هذا هو النبي المدعو به وهو خاتم الأنبياء، يظفر بأعدائه ويعلو دينه الأديان. فقال أبو بكر رضي الله عنه: ما عرفنا هذا منه ولا ادعاه ولا عرف بالعلم ولا يحسن الكتابة ولا خالط اليهود والنصارى، فقال الراهب: هذا هو النبي نفسه. وقيل أن الراهب قال لأبي بكر: وأنت الخليفة من بعده على أهل دينه. فرجع أبو بكر من عند الراهب و لم يشعر أحداً من رفقته بما قال له الراهب، فلما قدم مكة قالت له أمه سلمى أم الخير: ما بلغك ما حدث من صديقك محمد؟ زعم أنه نبي نبأه الله وأرسله إلى قومه وكافة الخلق، فقال لها: وأين هو؟ قالت: بجبل حراء، فأسرع أبو بكر رضي الله عنه نحو الجبل فرأه في غار فسلمّ عليه وقال: بلغني أنك ادعيت النبوة والرسالة، فقال له: لست بمدعٍ، وقد فعل الله ذلك بي، قال له: فما الدليل على صدقك؟ قال: هل خرجت علي كذباً؟ فقال: لا والله، غير أن هذا أمر لا يقبل بغير دليل. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: دليله ما قاله لك الراهب، قال أبو بكر: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله، أنا أول متابع لك على هذا الأمر وهو أول من أمّ في محراب رسول الله صلى الله عليه وسلم في حياته، وأول من دعي بخليفة وأول من رقي منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم.
قال الشعبي: لما ولي أبو بكر الخلافة صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها أيها الناس أني وليتكم ولست بخيركم ولكن نزل القرآن فأدّبنا فتأدبنا، وسنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فعلمنا فتعلمنا، وإن أكيس الكيس التقى وأحمق الحمق الفجور، وأن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ له بحقه، وإن أضعفكم عندي القوي حتى آخذ منه الحق. إنما أنا متبع ولست بمبتدع، فإن أحسنت فأعينوني وإن زغت فسددوني. أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم ولجميع المسلمين.

ولما تم الأمر لأبي بكر رضي الله عنه ارتدت العرب إلا قليلاً منه، وكان قد تنبأ في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة: الأسود بن كعب العنسي ومسيلمة الكذاب –واسمه ثمامة بن حبيب – وطليحة الأسدي. فأما الأسود فإنه غلب على صنعاء ونجران إلى عمل الطائف واستطار استطارة الحريق فكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر بقتله فقتله فيروز الديلمي في مترله، وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر بقتله من السماء فأخبر به أصحابه، ثم وصل المخبر بقتله إلى المدينة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان أول فتح على أبي بكر رضي الله عنه. كذا ذكره الطبري في تاريخه، وقال أبو بشر الدولأبي إنه قتل في خلافة أبي بكر. وأما مسيلمة وطليحة فإن أمرهما استغلظ، واجتمع على طليحة عوام طيء وأسد وغطفان، وارتدت قبائل العرب إلا قيساً وثقيفاً ومنعوا الزكاة، فأشار الناس على أبي بكر رضي الله عنه بأخذ العرب بالصلاة ومسامحتهم في الزكاة فقال: والله لو منعوني عقالاً أو عناقاً مما كانوا يؤدون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على ذلك. ثم خرج إلى عبس وذبيان فقاتلهم فالهزموا وعادوا إلى المدينة، ثم سيّر الجيوش لقتال أهل الردة، وعقد أحد عشر لواء على أحد عشر جنداً وسير خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى طليحة ومن تابعه من غطفان، فهزمهم والهزم طليحة حتى لحق بالشام، وقتل من أصحابه جمع كبير، ثم أسلم طليحة بعد ذلك لمّا بلغه عن أسد وغطفان، و لم يزل مقيماً في كلب حتى مات أبو بكر رضي الله عنه ثم أتى عمر رضي الله عنه فبايعه ورجع إلى ديار قومه. وسار خالد لقتال بني حنيفة ومسيلمة. وكانت امرأة تعرف بسجاح ابنة الحارث قد تنبأت في بني تغلب وسارت إلى مسيلمة الكذاب فتزوجت به وأقامت عنده ثلاثاً ثم انصرفت إلى قومها،

ثم هزم الله بني حنيفة وقتل مسيلمة الكذاب، قتله وحشي قاتل حمزة.
ولما فرغ خالد رضي الله عنه، من أمر اليمامة كتب إليه أبو بكر الصديق رضي الله عنه، يأمره بالمسير إلى العراق، فسار وصالح أهل الحيرة على جزية حملها إلى المدينة، وكانت أول جزية حملت إليها. وقال أبو بكر رضي الله عنه لخالد حين بعثه إلى أهل الردة: احرص على الموت توهب لك الحياة، ففتح الأنبار وعين التمر وأنفذ السبي إلى المدينة، وسار إلى دومة الجندل فقتل وسبى، ثم وجه أبو بكر رضي الله عنه الجيوش إلى الشام، وأمر خالداً بالمسير إليها، وفتحت بصرى في خلافته، وهي أول مدينة فتحت بالشام.
وحج بالناس سنة اثنتي عشرة، وهي السنة الثانية من خلافته وولي الأولى عمر رضي الله عنه.
ومات أبو قحافة والد أبي بكر بعد موت أبي بكر رضي الله عنه بسنة، وقيل تسعة أشهر، وذلك في سنة أربع عشرة، وسنه سبع وتسعون سنة. وكان إسلامه يوم فتح مكة، وكان يوم مات أبو بكر رضي الله عنه بمكة، و لم يلِ الخلافة من أبوه حي غير أبي بكر رضي الله عنه.
وهو أول من جمع القرآن الكريم بين اللوحين، وذلك أن المسلمين لما اصيبوا باليمامة خاف أبو بكر، رضي الله عنه، أن يفنى قراء القرآن – وإنما كان في صدور الرجال –فجمعه وجعله بين اللوحين وسمّاه مصحفاً، و لم يزل عنده إلى أن مات، وبقي عند عمر، رضي الله عنه، إلى أن مات، وبقي عند حفصة ابنته.
ولما احتضر أبو بكر رضي الله عنه استخلف على المسلمين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، ووصّاه، فكان من وصيته أن قال: هذا ما وصى به أبو بكر بن أبي قحافة عند آخر عهده من الدنيا وأول عهده بالآخرة؛ إني قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب، فإن بّر وعدل فذاك ظني به ورجائي فيه، وان غيّر وبدّل فلا علم لي بالغيب، والخير أردت، ولكل امرىء ما اكتسب، وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون.
ووصل الخبر بموت أبي بكر رضي الله عنه إلى الشام وخالد بن الوليد على دمشق يحاصرها، وفي اليوم الثاني من ورود الخبر فتحت دمشق. وكان خالد رضي الله عنه أخفى خبر موته إلى أن فتح دمشق.
واختلفوا في سبب مرضه الذي مات فيه، فقيل: سّمته يهودية، وقيل اغتسل في يوم بارد فحمّ ومرض خمسة عشر يوماً، وكان عمر رضي الله عنه يصلي بالناس حين ثقل.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما هاجر إلى المدينة يركب وأبو بكر رضي الله عنه رديفه، وهو أسنّ من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان أبو بكر، رضي الله عنه، يعرف الطريق لاختلافه إلى الشام، فكان يمر بالقوم فيقولون: من هذا بين يديك يا أبا بكر؟ فيقول: هادٍ يهديني. وهذا الحديث يدل على أنه أسنّ من رسول الله صلى الله عليه وسلم.
ورأى أبو بكر رضي الله عنه رجلاً بيده ثوب فقال: أهو للبيع؟ قال: لا أصلحك الله، فقال: هلا قلت: لا، وأصلحك الله لئلا يشتبه الدعاء لي بالدعاء علي؟ وقال لرجل قال له: لأشتمّنك شتماً يدخل معك قبرك، قال: معك يدخل والله لا معي. ومدح قوم أبا بكر رضي الله عنه فقال: الله أعلم بي مني بنفسي، وأنا أعلم بنفسي منكم، فاستغفروا الله مما لا تعلمون، وأسأله أن لا يؤاخذكم بما تقولون، وأن يجعلني خيراً مما تظنون.
وحكي أن أبا بكر رضي الله عنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم بصدقته فأخفاها فقال: يا رسول الله، هذه صدقتي ولله عندي معاد، وجاء عمر رضي الله عنه بصدقته فأظهرها وقال: يا رسول الله، هذه صدقتي ولي عند الله المعاد، فقال رسول الله صلى عليه وسلم: يا عمر، وترت قوسك بغير وتر، ما بين صدقتيكما كما بين كلمتيكما.
أولاده لصلبه وأعقابهم: عبد الله بن أبي بكر وأسماء بنت أبي بكر وأمهما قتيلة من بني عامر بن لؤي، وعبد الرحمن وعائشة وأمهما أم رومان بنت الحارث بن الحويرث من بني فراس بن غنم بن كنانة، ومحمد بن أبي بكر أمه أسماء بنت عميس، وأم كلثوم أمها بنت زيد بن خارجة – رجل من الأنصار.
فأما عبد الله بن أبي بكر فإنه شهد الطائف مع النبي صلى الله عليه وسلم فجرح وبقي إلى خلافة أبيه ومات وترك سبعة دنانير فاستكثرها أبوه رضي الله عنه. وولد عبد الله إسماعيل، وهلك ولا عقب له.

وأما أسماء فهي ذات النطاقين وتزوجها الزبير بمكة فولدت له عدة أولاد، ثم طلقها فكانت مع عبد الله ابنها حتى قتل، وبقيت مائة سنة حتى عميت وماتت بمكة رضي الله عنها.

وأما عائشة رضي الله عنها فتزوجها النبي صلى الله عليه وسلم - وقد تقدم ذكرها في هذا الحرف -.

وأما عبد الرحمن بن أبي بكر فشهد يوم بدر مع المشركين ثم أسلم وحسن إسلامه ومات فجأة سنة ثلاث وخمسين بجبل بقرب مكة، فأدخلته عائشة الحرم ودفنته وأعتقت عنه. وكان شهد الجمل معها، ويكنى أبا عبد الله.

وأما أم كلثوم فتزوجها طلحة بن عبيد الله فولدت له محمداً وكان عاملاً على مكة. وولدت له زكريا وعائشة، ثم قتل عنها فتزوجها عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي - الآتي ذكره- ولطلحة عقب كثير وهم يترلون بالقرب من المدينة، وكانت بنت محمد بن طلحة عند سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس.

وأما محمد بن عبد الرحمن فولد عبد الله بن محمد وله عقب يقال لهم آل أبي عتيق من بين ولد أبي بكر وذلك أن عدةً من ولد أبي بكر تفاضلوا فقال أحدهم: أنا ابن الصّديق، وقال الآخر: أنا ابن ثاني اثنين، وقال آخر: أنا ابن صاحب الغار، وقال محمد بن عبد الرحمن: أنا ابن عتيق، فنسب إلى ذلك هو وولده إلى اليوم.

وأما محمد بن أبي بكر فسيأتي ذكره في حرف الميم إن شاء الله تعالى.

مواليه: بلال بن أبي رباح وأمه حمامة، وكان من مولدي السراة فيما بين اليمن والطائف، وكان لرجل من بني جمح فاشتراه أبو بكر رضي الله عنه بخمس أواقي وأعتقه، وكان من المعذبين في الله عز وجل، وشهد بلال بدر والمشاهد كلها، وهو أول من أذّن لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء إلى أبي بكر رضي الله عنه فاستأذنه إلى الشام فأذن له، فلم يزل مقيماً بها و لم يؤذن بعد النبي صلى الله عليه وسلم لأحد منهم، فلما قدم عمر رضي الله عنه إلى الشام لقيه فأمره بالأذان فأذّن، فبكى عمر والمسلمون معه. وكان بلال يكنى أبا عبد الله، وكان شديد الأدمة نحيفاً طوالاً خفيف العارضين به شمط كبير وكان لا يغير شيبه. مات بدمشق سنة عشرين وهو ابن بضع وستين سنة، رحمه الله تعالى.

كتّابه: عثمان بن عفان رضي الله عنه وزيد بن ثابت.

قاضيه: عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقيل أنه أقام سنة لم يختصم إليه أحد.

حاجبه: شديد مولاه.

وكان خاتم رسول الله صلى الله عليه وسلم في يده.

عبد الله بن الزبير

أبو خبيب عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي، وأمه أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهم ذات النطاقين-وقد تقدم ذكرها مع أبيها؛ وهو أول مولود ولد بالمدينة من المسلمين بعد الهجرة. بويع له بمكة سنة أربع وستين بعد أن أقام الناس بغير خليفة جماديين وأياماً من رجب، وبايعه أهل العراق، وولّى أخاه مصعباً البصرة، وولّى عبد الله بن مطيع الكوفة فوثب المختار بن أبي عبيد على الكوفة فأخذها، ووجه شميطاً إلى البصرة فقتله مصعب، وسار مصعب إلى المختار فقتله في سنة سبع وستين.

وبنى ابن الزبير الكعبة وادخل فيها الحجر وجعل لها بابين مع الأرض يدخل من أحدهما ويخرج من الآخر، وخلّق داخل الكعبة وخارجها فكان أول من خلّقها وكساها القباطيّ.

وولى أخاه عبيدة بن الزبير المدينة، وأخرج مروان بن الحكم وبنيه منها فصار إلى الشام و لم يزل يقيم للناس الحج من سنة أربع وستين إلى سنة اثنتين وسبعين، فلما ولي عبد الملك منع أهل الشام من الحج من أجل ابن الزبير: كان يأخذ الناس بالبيعة له إذا حجوا، فضج الناس لما منعوا الحج، فبنى عبد الملك في بيت المقدس الصخرة، فكان الناس يحضرونها يوم عرفة ويقفون عندها، ويقال إن ذلك سبب التعريف من مسجد بيت المقدس ومساجد الأمصار. وذكر الجاحظ في كتاب نظم القرآن، أن أول من سنّ التعريف في مساجد الأمصار عبد الله بن عباس؛ وذكر أبو عمر الكندي إن عبد

العزيز بن مروان أول من سنّ التعريف بمصر في الجامع بعد العصر.
ثم بعد ذلك بعث عبد الملك الحجاج إلى عبد الله بن الزبير، وسبب ذلك أن عبد الملك لما قتل مصعباً وابنه عيسى وأراد الرجوع إلى الشام قام إليه الحجاج فقال: يا أمير المؤمنين أني رأيت في منامي أني أخذت عبد الله بن الزبير فسلخته فابعثني إليه وولّني عليه، فبعثه في جيش من أهل الشام كثيف، فنزل الطائف، وكان يبعث البعوث فيقاتلون ابن الزبير، ففي ذلك كله ترجع خيل الحجاز بالظفر، ثم كتب الحجاج إلى عبد الملك يستأذنه في دخول الحرم عليه وحصاره، وأخبره أن شوكته قد كلّت، فأذن له في ذلك، فلما دخل ذو القعدة رحل الحجاج من الطائف حتى نزل بئر ميمون وحصر ابن الزبير. وأمدّ عبد الملك الحجاج لهلال ذي الحجة، ولم يطف بالبيت ولم يصل إليه، وكان يلبس السلاح ولا يمسّ النساء ولا الطيب إلى أن قتل ابن الزبير. ولم يحج ابن الزبير ولا أصحابه في هذه السنة لأنهم لم يقفوا بعرفة، وحجّ الحجاج في هذه السنة ثم حصر ابن الزبير ثمانية أشهر، فتفرق عامة من كان معه وخرجوا إلى الحجاج في الأمان حتى بلغ عدة المستأمنة عشرة آلاف، وكان في جملتهم ابنا عبد الله بن الزبير، أخذا أماناً لنفسيهما.

فلما رأى عبد الله بن الزبير ما رأى من ولده وأصحابه دخل على أمه أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما فقال: يا أمه، قد خذلني الناس حتى ولدي وأهلي ولم يبقَ إلا اليسير ممن ليس عنده من الدفع إلا صبر ساعة، والقوم يعطونني ما أردت من الدنيا، فما رأيك؟ فقالت: والله يا بنيّ أنت أعلم بنفسك؛ إن كنت تعلم أنك على حق فامضِ له فقد قتل عليه أصحابك، وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت أهلكت نفسك ومن قتل معك، وإن قلت إني على حق فلما وهن أصحابي ضعفت فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين. فدنا ابن الزبير فقبّل رأسها وقال: هذا رأيي ولكن أحببت أن أعلم رأيك فزدتني بصيرة، فانظري يا أماه إني مقتول من يومي هذا فلا يشتدّ حزنك وسلمي لأمر الله فإن ابنك لم يتعمد اتيان منكر ولا عمل بفاحشة، ولم يجر في حكم ولم يتعمد ظلم مسلم ولا معاهد، اللهم إني لا أقول هذا تزكية لنفسي ولكن تعزية لأمي لتسلو عني. فقالت أمه: اني لأرجو أن يكون عزائي فيك حسناً؛ اخرج حتى انظر إلى ما يصير إليه أمرك، ثم قالت: اللهم ارحم طول ذلك القيام في الليل الطويل وذلك التحنث والظمأ في الهواجر بالمدينة ومكة وبره بأبيه وبي؛ اللهم قد أسلمته لأمرك فيه ورضيت بما قضيت فأثبني في عبد الله ثواب الشاكرين الصابرين. ثم دنا فتناول يدها فقبّلها فقالت: هذا وداع فلا تبعد. وكان عليه درع فلما عانقها وجدت مس الدرع فقالت: ما هذا صنيع من يريد ما تريد، قال: ما لبستها إلا لأشدّ منك، قالت: فإنها لا تشدّ مني، فنزعها ثم أدرج كميه وأدخل أسفل قميصه وجبّة خز كانت عليه من أسفل المنطقة وخرج، وقد كبّر الناس، فحمل عليهم فلم يبقَ بين يديه أحد، وانهزم الناس ووقف بالأبطح لا يدنو منه أحد وكان الحجاج وطارق بن عمرو جميعاً في ناحية الأبطح إلى المروة والناس لكل طائفة منهم باب، فمرة يحمل عبد الله في هذه ومرة في هذه وكأنه أسد في اجمة، فلما كان يوم الثلاثاء أذّن المؤذّن فتقدم فصلّى بالناس، فلما فرغ من الصلاة أمر أهله وحضهم على القتال ثم قال لهم في جملة كلامه: ألا من كان سائلاً عني فاني في الرعيل الأول، احملوا على بركة الله وعونه، ثم حمل حتى بلغ بهم الحجون فرمي بآجرّة فأرعش لها ودمي وجهه، فلما وجد سخونة الدم على وجهه ولحيته قال:

فلسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ولكن على أقدامنا تقطر الدّما

وصاحت مولاة لآل الزبير مجنونة: وا أمير المؤمنيناه! وكانت رأته حيث هوى وكان قتله يوم الثلاثاء لثلاث عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين، وقيل جمادى الآخرة، وكان سنه اثنتين وسبعين سنة، رضي الله عنه؛ وجاء الخبر إلى الحجاج فسجد وجاء هو وطارق حتى وقفا عليه فقال طارق: ما ولدت النساء اذكر من هذا، فقال الحجاج: أتمدح من يخالف طاعة أمير المؤمنين؟ قال: نعم، هو أعذر لنا ولولا هذا ما كان لنا عذر بالمحاصرة وهو في غير خندق ولا حصن ولا منعة منذ سبعة أشهر ينتصف منا بل يفضل علينا في كل ما التقينا، فبلغ كلامهما عبد الملك فصوّب رأي طارق.
وحكى الشعبي قال: حضرت عبد الله بن الزبير وهو يخطب بمكة فقال في آخر خطبته: أما والله لو كانت الرجال تصرف لصرفتكم تصريف الذهب بالفضة، أما والله لوددت أن لي بكل رجلين منكم رجلاً من أهل الشام بل بكل خمسة بل بكل عشرة، فما بكم يدرك الثأر ولا بكم يمنع الجار. فقام إليه رجل من أهل البصرة فقال: ما نجد لنا ولك مثلاً إلا قول الأعشى:

علقتها عرضاً وعلقت رجلاً غيري وعلق أخرى غيرها الرجل

علقناك وعلقت أهل الشام، وعلق أهل الشام بني مروان فما عسانا أن نصنع؟ قال الشعبي: فما سمعت بجواب أحضر منه ولا أحسن.

ثم دخل الحجاج مكة فبايع من بها من قريش، وبعث برأس ابن الزبير وجماعة إلى المدينة فنصبوا بها ثم ذهب بها إلى عبد الملك بن مروان فبعث عبد الملك برأس ابن الزبير إلى عبد الله بن خازم الأسلمي وهو بخراسان والٍ من جهة ابن الزبير، وكتب إليه عبد الملك يدعوه إلى طاعته ويقول له: بايعني حتى أجعل لك خراسان طعمة سبع سنين، فقال ابن خازم لرسوله: لولا أن الرسل لا تقتل لأمرت بضرب عنقك، ولكنَ كل كتاب صاحبك، فأكله، ثم أخذ الرأس فغسله وطيّبه وكفنه ودفنه، وقيل: إنه بعث به إلى آل الزبير إلى المدينة فدفنوه مع جثته، ثم قال:

أعيش زبيريَّ الحياة فإن أمت فإني موصٍ هامتي بالتزبّر

ثم إن عبد الملك بن مروان ولّى الحجاج مكة واليمن واليمامة فنقض الحجاج بنيان الكعبة الذي بناه ابن الزبير لأنه كان تخلخل من حجارة المنجنيق، فأعاده إلى بناء قريش الأول. ولما توفي بشر بن مروان كتب عبد الملك إلى الحجاج بن يوسف وهو بالمدينة بوفاته فأقبل في اثني عشر راكباً على النجائب حتى دخل الكوفة فجأة فبدأ بالمسجد فدخله ثم صعد المنبر، وستأتي تتمة الكلام.

وقيل إن عبد الله بن الزبير قال لأمه أسماء: إني لا آمن إن قتلت أن يمثل بي وأصلب، قالت: يا بني إن الشاة إذا ذبحت لم تألم السلخ. وماتت أمه بعده بخمسة أيام ولها مائة سنة رضي الله عنها، وكان سلطانه بالحجاز والعراق تسع سنين واثنين وعشرين يوماً رضي الله عنه.

عبد الله بن المعتز

أبو العباس عبد الله بن المعتز بن المتوكل بن المعتصم بن هارون الرشيد بن المهدي بن المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب الهاشمي؛ أخذ الأدب عن أبي العباس المبرد وأبي العباس ثعلب وغيرهما، كان أديباً بليغاً شاعراً مطبوعاً مقتدراً على الشعر قريب المأخذ سهل اللفظ جيد القريحة حسن الإبداع للمعاني مخالطاً للعلماء والأدباء معدوداً من جملتهم، إلى أن جرت له الكائنة في خلافة المقتدر، واتفق معه جماعة من رؤساء الأجناد ووجوه الكتّاب فخلعوا المقتدر يوم السبت لعشر بقين، وقيل لسبعٍ بقين من شهر ربيع الأول سنة ست وتسعين ومائتين، وبايعوا عبد الله المذكور ولقبوه المرتضي بالله، وقيل المنصف بالله، وقيل الغالب بالله، وقيل الراضي بالله، وأقام يوماً وليلة، ثم إن أصحاب المقتدر تحزبوا وتراجعوا وحاربوا أعوان ابن المعتز وشتتوهم، وأعادوا المقتدر إلى دسته، واستخفى ابن المعتز في دار أبي عبد الله الحسين بن عبد الله بن الحسين المعروف بابن الجصاص التاجر الجوهري، فأخذه المقتدر وسلمه إلى مؤنس الخادم الخازن فقتله وسلمه إلى أهله ملفوفاً في كساء، وقيل إنه مات حتف أنفه وليس بصحيح بل خنقه مؤنس، وذلك يوم الخميس ثاني شهر ربيع الآخر سنة ست وتسعين ومائتين، ودفن في خرابة بإزاء داره، رحمه الله تعالى.

ومولده لسبعٍ بقين من شعبان سنة سبع وأربعين، وقال سنان بن ثابت: في سنة ست وأربعين ومائتين، والقضية مشهورة وفيها طول، وهذا خلاصتها.

ثم قبض المقتدر على ابن الجصاص المذكور وأخذ منه مقدار ألفي ألف دينار، وسلم له بعد ذلك مقدار سبعمائة ألف دينار، وكان فيه غفلة وَبَله، وتوفي يوم الأحد لثلاث عشرة ليلة خلت من شوال سنة خمس عشرة وثلثمائة.

ولابن المعتز من التصانيف كتاب الزهر والرياض، وكتاب البديع، وكتاب مكاتبات الإخوان بالشعر، وكتاب الجوارح والصيد، وكتاب السرقات، وكتاب أشعار الملوك، وكتاب الآداب، وكتاب حلى الأخبار، وكتاب طبقات الشعراء، وكتاب الجامع في الغناء، وكتاب فيه أرجوزة في ذم الصبوح.

ومن كلامه: البلاغة البلوغ إلى المعنى، ولم يطل سفر الكلام، وكان يقول: لو قيل لي: ما أحسن شعر تعرفه؟ لقلت: قول العباس بن الأحنف:

قد سحب الناس أذيال الظنون بنا وفرّق الناس فينا قولهم فِرقا

فكاذبٌ قد رمى بالظنّ غيركم وصادقٌ ليس يدري أنه صدقا

ورثاه علي بن محمد بن بسام الشاعر – الآتي ذكره – بقوله:

لله درُّك من ميت بمضيعة ناهيك في العلم والآداب والحسب

ما فيه لوٌّ ولا لولا فتنقصه وإنما أدركته حرفة الأدب

ولعبد الله المذكور أشعار رائقة وتشبيهات بديعة، فمن ذلك قوله:

سقى المطيرة ذات الظل والشجر ودير عبدون هطّالٌ من المطر
فطالما نبّهتني للصّبوح بها في غرّة الفجر والعصفور لم يطر
أصوات رهبان ديرٍ في صلاتهم سود المدارع نعارين في السحر
مزنّرين على الأوساط قد جعلوا على الرؤوس أكاليلاً من الشّعر
كم فيهم من مليح الوجه مكتحل بالسحر يطبق جفنيه على حَور
لاحظته بالهوى حتى استقاد له طوعاً وأسلفني الميعاد بالنظر

وجاءني في قميص الليل مستتراً يستعجل الخطو من خوف ومن حذر
فقمت أفرش خدّي في الطريق له ذلاًّ وأسحب أذيالي على الأثر
ولاح ضوء هلال كاد يفضحنا مثل القلامة قد قدّت من الظُّفر
وكان ما كان مما لست أذكره فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر

ومن ظريف شعره قوله، ولم أجدها في ديوانه، ولكن الرواة أطبقوا على أنها له، والله أعلم:

ومقَرطَقٍ يسعى إلى النّدماء بعقيقةٍ في درّةٍ بيضاء
والبدر في أفق السماء كدرهم ملقىً على ياقوتةٍ زرقاء
كم ليلةٍ قد سرّني بمبيته عندي بلا خوفٍ من الرّقباء
ومهفهفٍ عقد الشّراب لسانه فحديثه بالرّمز والإيماء
حرّكته بيدي وقلت له انتبه يا فرحة الخلطاء والنّدماء
فأجابني والسّكر يخفض صوته بتلجلجٍ كتلجلج الفأفاء
إني لأفهم ما تقول وإنما غلبت عليَّ سلافة الصّهباء
دعني أفيق من الخمار إلى غدٍ واحكم بما تختار يا مولائي

وله في الخمرة المطبوخة، وهو معنى بديع وفيه دلالة على أنه كان حنفي المذهب:

خليليَّ قد طاب الشّراب المورَّد وقد عدت بعد النّسك والعود أحمد
فهاتا عقاراً في قميص زجاجةٍ كياقوتةٍ في درَّةٍ تتوقّد
يصوغ عليها الماء شبّاك فضّةٍ له حلقٌ بيضٌ تحلٌّ وتعقد
وقتني من نار الجحيم بنفسها وذلك من إحسانها ليس يجحد

وكان ابن المعتز شديد السمرة مسنون الوجه يخضب بالسواد.

ورأيت في بعض المجاميع أن عبد الله بن المعتز المذكور كان يقول:أربعة من الشعراء سارت أسماؤهم بخلاف أفعالهم، فأبو العتاهية سار شعره بالزهد وكان على الإلحاد، وأبو نوّاس سار شعره باللواط وكان أزنى من قرد، وأبو حكيمة الكاتب سار شعره بالعنّة وكان أهب من تيس، ومحمد بن حازم سار شعره بالقناعة وكان أحرص من كلب.

وقد رويت لابن حازم خبراً يخالف حكاية ابن المعتز ويوافق شعره، وذلك أنه كان جار سعيد بن حميد الكاتب الطوسي، فهجاه لأمر كان بينهما، فبلغ سعيداً هجوه، فأغضى عنه مع القدرة. ثم إن محمداً ساءت حاله فتحول عن جواره، فبلغ ابن حميد ذلك، فبعث إليه عشرة آلاف درهم وتخوت ثياب وفرساً بآلته ومملوكاً وجارية، وكتب إليه " ذو الأدب يحمله ظرفه على نعت الشيء بغير هيئته، وتبعثه قدرته على وصفه بخلاف حليته، ولم يكن ما شاع من هجائك فيَّ جارياً إلا هذا المجرى، وقد بلغني من سوء حالك وشدّة خلّتك ما لا غضاضة به عليك مع كبر همتك وعظم نفسك، ونحن شركاء فيما ملكنا ومتساوون فيما تحت أيدينا، وقد بعثت إليك بما جعلته وإن قلَّ: استفتاحاً لما بعده وإن جلَّ ". فردَّ ابن حازم جميعه ولم يقبل منه شيئاً وكتب إليه:

وفعلت بي فعل المهلَّب إذ ... غمر الفرزدق بالندى الدَّثر

فبعثت بالأموال ترغبني ... كلاّ وربِّ الشفع والوتر

لا ألبس النعماء من رجلٍ ... ألبسته عاراً على الدَّهر

وهذا دليل على قناعته وحسن صبره واحتماله الإضاقة.

وهذا سعيد بن حميد يكنّى أبا عثمان، وكان كاتباً شاعراً مترسلاً عذب الألفاظ مقدماً في صناعته جيد السرقة، حتى قال بعض الفضلاء: لوقيل لكلام سعيد وشعره: ارجع إلى أهلك، لما بقي معه منه شيء. وكان يدعي أنه من أولاد ملوك الفرس، وله من الكتب: كتاب " انتصاف العجم من العرب "، ويعرف بالتسوية وله ديوان رسائل، وديوان شعر صغير.

والمطيرة: بفتح الميم وكسر الطاء المهملة وسكون الياء المثناة من تحتها وبعد الراء المفتوحة هاء، وهي قرية من نواحي سرَّ من رأى.

وعبدون الذي يضاف الدير إليه، فيقال " دير عبدون "، هو ابن مخلد وهو أخو الوزير صاعد بن مخلد، وإنما أضيف إليه لأنه كان كثير التردد إليه، والمقام فيه، والعناية بعمارته، وهو إلى جنب المطيرة، ودير عبدون أيضاً: قرب جزيرة ابن عمر، بينهما دجلة، وقد خرب الآن، وكان متنزّهاً لأهلها.

وقوله " ولاح ضوء هلال كاد يفضحنا "، مأخوذ من قول عمرو بن قميئة في صفة الهلال:

كأن ابن مزنتها جانحاً ... فسيط لدى الأفق من خنصر

والفسيط: قلامة الظفر

ابن طباطبا

أبو محمد عبد الله بن أحمد بن علي بن الحسن بن إبراهيم طباطبا بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، الحجازي الأصل المصري الدار والوفاة؛ كان طاهراً كريماً فاضلاً صاحب رباع وضياع ونعمة ظاهرة وعبيد وحاشية، كثير التنعم، كان بدهليزه رجل يكسر اللوز كل يوم من أول النهار إلى آخره برسم الحلوى التي ينفذها لأهل مصر من الأستاذ كافور الإخشيدي إلى من دونه، ويطلق للرجل المذكور دينارين في كل شهر أجرة عمله، فمن الناس من كان يرسل له الحلوى كل يوم، ومنهم كل جمعة، ومنهم كل شهر. وكان يرسل إلى كافور في كل يوم جامين حلوى ورغيفاً في منديل مختوم، فحسده بعض الأعيان وقال لكافور: الحلوى حسن، فما لهذا الرغيف؟ فإنه لا يحسن أن يقابلك به؛ فأرسل إليه كافور وقال: يجريني الشريف في الحلوى على العادة ويعفيني من الرغيف. فركب الشريف إليه، وعلم أنهم قد حسدوه على ذلك وقصدوا إبطاله، فلما اجتمع به قال له: أيدك الله، إنا ما ننفذ الرغيف تطاولاً ولا تعاظماً إنما هي صبيّة حسنيّةٌ تعجنه بيدها وتخبزه، فنرسله على سبيل التبرك، فإذا

كرهته قطعناه. فقال كافور: لا والله لا تقطعه ولا يكون قوتي سواه. فعاد إلى ما كان عليه من إرسال الحلوى والرغيف.

ولما مات كافور وملك المعز أبو تميم معدُّ بن المنصور العبيدي الديار المصرية على يد القائد جوهر – المقدم ذكره في حرف الجيم – وجاء المعز بعد ذلك من أفريقيا وكان يطعن في نسبه، فلما قرب من البلد وخرج الناس للقائه، اجتمع به جماعة من الأشراف فقال له من بينهم ابن طباطبا المذكور: إلى من ينتسب مولانا؟ فقال له المعز: سنعقد مجلساً ونجمعكم ونسرد عليكم نسبنا. فلما استقر المعز بالقصر جمع الناس في مجلس عام وجلس لهم وقال: هل بقي من رؤساكم أحد؟ فقالوا: لم يبقى معتبر، فسلَّ عند ذلك نصف سيفه وقال: هذا نسبي، ونثر عليهم ذهباً كثيراً وقال: هذا حسبي، فقالوا جميعاً: سمعنا وأطعنا. وكان الشريف المذكور حسن المعاملة في معامليه حسن الإفضال عليهم ملاطفاً لهم، يركب إليهم وإلى سائر أصدقائه، ويقضي حقوقهم ويطيل الجلوس عندهم، وأغنى جماعة، وكان حسن المذهب. وكانت ولادته سنة ست وثمانين ومائتين. وتوفي في الرابع من رجب سنة ثمان وأربعين وثلثمائة بمصر وصلّي عليه في مصلّى العيد، وحضر جنازته من الخلق ما لا يحصي عددهم ألا الله تعالى، ودفن بقرافة مصر، وقبره معروف ومشهور بإجابة الدعاء. روي أن رجلاً حجّ وفاتته زيارة النبي صلى الله عليه وسلم، فضاق صدره لذلك، فرآه في نومه صلى الله عليه وسلم، فقال له: إذا فاتتك الزيارة فزر قبر عبد الله بن أحمد بن طباطبا. وكان صاحب الرؤيا من أهل مصر. وحكى بعض من له عليه إحسان أنه وقف على قبره وأنشد:

وخلفت الهموم على أناسٍ وقد كانوا بعيشك في كفاف

فرآه في نومه فقال: قد سمعت ما قلت، وحيل بيني وبين الجواب والمكافأة، ولكن صر إلى مسجد وصلّ ركعتين، وادع يستجب لك، رحمه الله تعالى.

وقد تقدم في حرف الهمزة الكلام على طباطبا.

وهذه الحكاية التي جرت له مع المعز عند قدومه مصر ذكرها في كتاب " الدول المنقطعة " لكنها تناقض تاريخ الوفاة، فإن المعز دخل مصر في شهر رمضان سنة اثنتين وستين وثلثمائة – كما سيأتي في ترجمته أن شاء الله تعالى – وابن طباطبا المذكور توفي في سنة ثمان وأربعين وثلثمائة كما هو مذكور ها هنا، فكيف يتصور الجمع بينهما؟ وأفادني تاريخ وفاته شيخنا الحافظ زكي الدين أبو محمد عبد العظيم المنذري، وراجعته في هذا التناقض فقال: أما الوفاة في هذا التاريخ فهي محققة ولعل صاحب الواقعة مع المعز كان ولده، والله أعلم أي ذلك كان.

ثم رأيت تاريخ وفاته كما هو هاهنا في تاريخ الأمير المختار المعروف بالمسبّحي وقال: وكان علته قد طالت من توثة عرضت له في حنكه، فتعالج بضروب العلاجات فلم ينجع فيه شيء، وكانت علة غريبة لم يعهد مثلها.

ثم رأيت في تاريخ ابن زولاق أن الشريف الذي التقى بالمعز هو أبو جعفر مسلم بن عبيد الله الحسيني والشريف أبو إسماعيل إبراهيم بن أحمد الحسيني الرسي، ولعل أحدهما صاحب هذه الواقعة، والله أعلم.

عبد الله بن طاهر

أبو العباس عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب بن رزيق بن ماهان الخزاعي – وقد تقدم ذكر أبيه في حرف الطاء؛ وقد كان عبد الله المذكور سيداً نبيلاً عالي الهمة شهماً، وكان المأمون كثير الاعتماد عليه حسن الالتفات إليه لذاته، ورعايةً لحق والده وما أسلفه من الطاعة في خدمته، وكان والياًعلى الدينور، فلما خرج بابك الخرمي على خراسان وأوقع الخوارج بأهل قرية الحمراء من أعمال نيسابور وأكثروا الفساد واتصل الخبر بالمأمون بعث إلى عبد الله هو بالدينور يأمره بالخروج إلى خراسان، فخرج إليها في النصف من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث عشر ة ومائتين وحارب الخوارج، وقدم نيسابور في رجب سنة خمس عشرة ومائتين وكان المطر قد انقطع عنها تلك السنة، فلما دخلها مطرت مطراً كثيراً، فقام أليه رجل بزاز من حانوته وأنشده:

قد قحط الناس في زمانهم حتى إذا جئت جئت بالدّرر

غيثان في ساعةٍ لنا قدما فمرحباً بالأمير والمطر

هكذا قال السلامي في أخبار خراسان؛ وذكر الطبري في تاريخه أن طلحة بن طاهر – المذكور في ترجمة أبيه – لما مات في سنة ثلاث عشرة وعبد الله يوم ذاك بالدينور أرسل المأمون إليه القاضي يحيى بن أكثم يعزيه عن أخيه طلحة ويهنئه بولاية خراسان، وذكر بعد هذا في ولاية طلحة شيئاً آخر فقال: إن المأمون لما مات طاهر وكان ولده عبد الله بالرقة على محاربة نصر بن شبث ولاه عمل أبيه كله، وجمع له مع ذلك الشام، فوجه عبد الله أخاه طلحة إلى خراسان والله أعلم.

وذكر الطبري أيضاً في سنة ثلاث عشرة أن المأمون ولى أخاه المعتصم الشام ومصر، وابنه العباس بن المأمون الجزيرة والثغور والعواصم، وأعطى كل واحد منهما ومن عبد الله بن طاهر خمسمائة ألف دينار، وقيل إنه لم يفرق في يوم من المال مثل ذلك.

وكان أبو تمام الطائي قد قصد عبد الله من العراق، فلما انتهى إلى قومس وطالت به الشقة وعظمت عليه المشقة قال:

يقول في قومس صحبي وقد أخذت — مّنا السّرى وخطى المهريَّة القود

أمطلع الشمس تنوي أن تؤم بنا — فقلت كلاّ ولكن مطلع الجود

قلت: وقد أخذ أبو تمام هذين البيتين من أبي وليد مسلم بن الوليد الأنصاري المعروف بصريع الغواني الشاعر المشهور حيث يقول:

يقول صحبي وقد جدُّوا على عجل — والخيل تستنَّ بالركبان في اللّجم

أمغرب الشمس تنوي أن تؤم بنا — فقلت كلاّ ولكن مطلع الكرم

فإنه أغار على اللفظ والمعنى.

رجعنا إلى ما كنافيه: ولما وصل أبو تمام إليه أنشده قصيدته البديعة البائية التي يقول فيها:

وركب كأطراف الأسنّة عرسّوا — على مثلها والليل تسطو غياهبه

لأمرٍ عليهم أن تتم صدوره — وليس عليهم أن تتم عواقبه

وهي من القصائد الطنانة، وفيها يقول:

فقد بثَّ عبد الله خوف انتقامه — على الليل حتى ما تدبُّ عقاربه

وفي هذه السفرة ألف أبو تمام كتاب " الحماسة" فإنه لما وصل إلى همذان وكان في زمن الشتاء والبرد بتلك النواحي شديد خارج عن حد الوصف، قطع عليه كثرة الثلوج طريق مقصده، فأقام بهمذان ينتظر زوال الثلج، وكان نزوله عند بعض رؤسائها، وفي دار ذلك الرئيس خزانة كتب فيها دواوين العرب وغيرها، فتفرغ لها أبو تمام وطالعها وأختار منها كتاب " الحماسة ". وكان عبد الله المذكور أديباً ظريفاً جيد الغناء، نسب أليه صاحب" الأغاني" أصواتاً كثيرة أحسن فيها ونقلها أهل الصنعة عنه، وله شعر مليح ورسائل ظريفة، فمن شعره قوله، وجدتها منسوبة إليه:

نحن قوم تليننا الحدق النّج — ل على أننا نلين الحديدا

طوع أيدي الظباء تقتادنا العي — ن ونقتاد بالطعان الأسودا

نملك الصيد ثم تملكنا البي — ض المصونات أعيناً وخدودا

تتقي سخطنا الأسود ونخشى — سخط الخشف حين يبدي الصدودا

فترانا يوم الكريهة أحرا — راً وفي السلم للغواني عبيداً

وقيل: إنها لأصرم بن حميد ممدوح أبي تمام، والله أعلم.

ومن مشهور شعر عبد الله قوله:

اغتفر زلتي لتحرز فضل الشكر منّي ولا يفوتك أجري

لا تكلني إلى التوسل بالعذ ... ر لعلّي أن لا أقوم بعذري

وكان عبد الله أحد الأجواد الأسخياء؛ حكى محمد بن داود بن الجراح عن محلم بن أبي محلم الشيباني عن أبيه قال: عادلت عبد الله بن طاهر إلى خراسان فدخلنا الري وقت السحر فإذا قمرية تغرد على فنن شجرة، فقال عبد الله بن طاهر: أحسن والله أبو كبير الهذلي حيث يقول:

ألا يا حمام الأيك إلفك حاضر ... وغصنك ميّاد ففيم تنوح

ثم قال: ما أحسن هذا، فقلت وقد عملت على البديهة في معارضته ثم قلت:

أفي كل يوم غربةٌ ونزوح ... أما للنوى من أوبةٍ فتروح

لقد طلَّح البين المشتّ ركائبي ... فهل أرينّ البين وهو طليح

وأرّقني بالري نوح حمامةٍ ... فنحت وذو الشجو القديم ينوح

على انها ناحت فلم تذر دمعة ... ونحت وأسراب الدموع سفوح

وناحت وفرخاها بحيث تراهما ... ومن دون أفراخي مهامه فيح

عسى جود عبد الله ان يعكس النوى ... فتضحي عصا الاسفار وهي طريح

قال: فأذن من ساعتي بالرجوع ووصلني بعشرة آلاف درهم وردني إلى مترلي.

ولما رجع عبد الله إلى الشام ارتفع فوق سطح قصره فنظر إلى دخان يرتفع من جواره فقال: ما هذا الدخان؟ فقيل: إن الجيران يخبزون، فقال: ان من اللؤم ان نقيم بمكان فنكلف جيرانه بالخبز، فاقصدوا الدور واكسروا التنانير واحضروا ما بها من رجل وامرأة، فأجرى على كل إنسان خبزه ولحمه وما يحتاج إليه، فسميت أيامه أيام الكفاية.

وكتب إليه وكيله أن دابة بعض الأضياف به نقبٌ، فوقّع: يجلب عليه وعلى مثله من بعد، بلا استشارة ولا استئذان.

ومن كلامه: سمن الكيس ونبل الذّكر لا يجتمعان في موضع واحد.

ورفعت إليه قصة مضمونها أن جماعة خرجوا إلى ظاهر البلد للتفرج، ومعهم صبي، فكتب على رأسها: ما السبيل على فتية خرجوا لمتترّههم يقضون أوطارهم، على قدر أخطارهم، ولعل الغلام ابن أحدهم أو قرابة بعضهم.

وكان عبد الله قد تولى الشام مدة، والديار المصرية مدة، وفيه يقول بعض الشعراء وهو بمصر:

يقول أناسٌ إن مصراً بعيدة ... وما بعدت مصر وفيها ابن طاهر

وأبعد من مصر رجال تراهم ... بحضرتنا معروفهم غير حاضر

عن الخير موتى ما تبالي أزرتهم ... على طمع أم زرت أهل المقابر

وتنسب هذه الأبيات إلى عوف بن محلّم الشيباني، والله أعلم.

وكان دخوله إليها سنة إحدى عشرة ومائتين، وخرج منها في أواخر هذه السنة فدخل بغداد في ذي القعدة منها، واستمر نوابه بمصر، وعزل عنها في سنة ثلاث عشرة ومائتين، ووليها أبو إسحاق ابن الرشيد وهو الملقب بالمعتصم.

وذكر الفرغاني في تاريخه أن عبد الله بن طاهر وليها بعد عبيد الله بن السّريّ بن الحكم، وخرج عبيد الله عنها في صفر سنة إحدى عشرة ومائتين، وخرج عبد الله بن طاهر عنها إلى العراق لخمس بقين من رجب سنة اثنتي عشرة ومائتين، وقد استخلف بها إلى أن وليها المعتصم. وذكر الوزير أبو القاسم بن المغربي في كتاب " أدب الخواص " أن البطيخ العبدلاّوي الموجود بالديار المصرية منسوب إلى عبد الله المذكور، وهذا النوع من البطيخ لم

أره في شيء من البلاد سوى مصر، ولعله نسب إليه لأنه كان يستطيبه، أو أنه أول من زرعه هناك.
90 وعبد الله وقومه خزاعيون بالولاء، فإن جدّهم رزيقاً كان مولى أبي محمد طلحة بن عبيد الله بن خلف المعروف بطلحة الطّلحات الخزاعي، وكان طلحة المذكور والياً على سجستان من قبل مسلم بن زياد بن أبيه والي خراسان، وكنيته أبو حرب، فمات بها في فتنة عبد الله بن الزبير رضي الله عنه، وفيه يقول الشاعر وهو عبيد الله بن قيس الرقيات:

رحم الله أعظماً دفنوها ... بسجستان طلحة الطلحات

وإنما قيل له " طلحة الطلحاتِ" لأن أمه طلحة بنت أبي طلحة، هكذا قاله أبو الحسين علي بن أحمد السلامي في " تاريخ ولاة خراسان ".

وقومس المذكور في شعر أبي تمام: بضم القاف وسكون الواو وفتح الميم، وقيل بكسرها، وبعدها سين مهملة، وهو إقليم من عراق العجم حدّه من جهة خراسان بسطام، ومن جهة العراق سمنان، هاتان المدينتان داخلتان في أعمال قومس وكرسي قومس الدامغان.
وكانت وفاة عبد الله المذكور في شهر ربيع الأول سنة ثمان وعشرين ومائتين بمرو، وقيل: سنة ثلاثين، وهو الأصح. وقال الطبري: مات بنيسابور يوم الاثنين لإحدى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول من سنة ثلاثين ومائتين، بعد موت أشناس التركي بسبعة أيام. وعاش مثل أبيه طاهر ثمانياً وأربعين سنة، رحمه الله تعالى - وسيأتي ذكر ولده عبيد الله إن شاء الله تعالى.

أبو العميثل

أبو العميثل عبد الله بن خليد، مولى جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، رضي الله عنهم؛ ويقال: أصله من الري، وكان يفخّم الكلام ويغرّبه، وكان كاتب عبد الله بن طاهر المذكور قبله، وشاعره ومنقطعاً إليه، وكاتب أبيه طاهر من قبله، وكان مكثراً من نقل اللغة، عارفاً بها شاعراً مجيداً، فمن شعره في عبد الله المذكور قوله:

يا من يحاول أن تكون صفاته ... كصفات عبد الله أنصت واسمع

فلأنصحنَّك في المشورة والذي ... حجَّ الحجيج إليه فاسمع أو دع

أصدق وعفّ وبرّ واحتمل ... واصفح وكاف ودار واحلم واشجع

والطف ولن وتأنّ وارفق واتئد ... واحزم وجد وحام واحمل وادفع

فلقد محضتك إن قبلت نصيحتي ... وهديت للنهج الأسدّ المهيع

ولقد أحسن في هذا المقطوع كل الإحسان، وله غيره أشعار حسان؛ ويقال إنه وصل يوماً إلى باب عبد الله بن طاهر، فرام الدخول إليه فحجب فقال:

سأترك هذا الباب ما دام إذنه ... على ما أرى حتى يخفّ قليلا

إذا لم أجد يوماً إلى الأذن سلّما ... وجدت إلى ترك اللقاء سبيلا

فبلغ ذلك عبد الله فأنكره، وأمر بدخوله.
وكان يقول: النعمان اسم من أسماء الدم، ولذلك قيل: " شقائق النعمان " نسبت إلى الدم لحمرتها. قال: وقولهم " إنها منسوبة إلى النعمان بن المنذر " ليس بشيء، وحدثت الأصمعي بهذا فنقله عني؛ هذا كله كلام أبي العميثل؛ وللذي ذكره أرباب اللغة بخلافه، فإن ابن قتيبة ذكر في كتاب " المعارف " ان النعمان بن المنذر، وهو آخر ملوك الحيرة من اللخميين، خرج إلى ظهر الكوفة، وقد اعتمّ نبته من بين أصفر وأحمر وأخضر، وإذا فيه من هذه الشقائق شيء كثير، فقال: ما أحسنها، احموها، فحموها، فسمي شقائق النعمان بذلك، وقال الجوهري في " الصحاح " انها منسوبة إلى النعمان المذكور، وكذا غيره، والله أعلم.

ويحكى أن أبا تمام الطائي لما أنشد عبد الله بن طاهر قصيدته البائية المذكورة في ترجمته، كان أبو العميثل حاضراً، فقال له يا أبا تمام، لم لا تقول ما يفهم؟ فقال: يا أبا العميثل، لم لا تفهم ما يقال؟.

وقبّل يوماً كفّ عبد الله بن طاهر، فاستخشن مسَّ شاربيه، فقال أبو العميثل في الحال: شوك القنفذ لا يؤ لم كفَّ الأسد، فأعجبه كلامه وأمر له بجائزة سنية.

وصنف كتباً منها: " كتاب ما اتفق لفظه واختلف معناه "و " كتاب التشابه" و" كتاب الأبيات السائرة " وكتاب " معاني الشعر " وغير ذلك.

وكانت وفاة أبو العميثل سنة أربعين ومائتين، رحمه الله تعالى.

والعميثل: بفتح العين المهملة والميم وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح الثاء المثلثة وبعدها لام، وهو اسم لعدة أشياء من جملتها الأسد، والظاهر أنه هو المقصود ها هنا.

الناشي الأكبر

أبو العباس عبد الله بن محمد الناشي الأنباري المعروف بابن شرشير الشاعر؛ كان من الشعراء المجيدين، وهو في طبقة ابن الرومي والبحتري وأنظارهما، وهو الناشي الأكبر – وسيأتي ذكر الناشي الأصغر إن شاء الله تعالى – وكان نحوياً عروضياً متكلماً، أصله من الأنبار، وأقام ببغداد مدة طويلة ثم خرج إلى مصر، وأقام بها إلى آخر عمره. وكان متبحراً في عدة علوم من جملتها علم المنطق. وكان بقوة علم الكلام قد نقض علل النحاة، وأدخل على قواعد العروض شبهاً، ومثَّلها بغير أمثلة الخليل، وكلُّ ذلك بحذقه وقوة فطنته.

وله قصيدة في فنون من العلم على رويّ واحد تبلغ أربعة آلاف بيت، وله عدة تصانيف جميلة، وله أشعار كثيرة في جوارح الصيد وآلاته، والصُّيود وما يتعلق بها، كأنه كان صاحب صيد، وقد استشهد كشاجم بشعره في كتاب "" المصايد والمطارد "" في مواضع، منها قصائد ومنها طرديات على أسلوب أبي نواس ومنها مقاطيع، وقد أجاد في الكل، فمن ذلك قوله طردية في وصف بازٍ:

لما تفرى الليل عن أثباجه ... وارتاح ضوء الصبح لانبلاجه
غدوت أبغي الصيد في منهاجه ... بأقمرٍ أبدع في نتاجه
ألبسه الخالق من ديباجه ... وشياً يحار الطرف في اندراجه
في نسقٍ منه وفي انعراجه ... وزان فوديه إلى حجاجه
بزينةٍ كفته نظم تاجه ... منسرهُ ينبئ عن خلاجه
وظفره يخبر عن علاجه ... لو استضاء المرء في إدلاجه
بعينه كفته من سراجه

ومن شعره في جارية مغنية بديعة الجمال:

فديتك لو أنهم أنصفوك ... لردُّوا النواظر عن ناظريك
تردِّين أعيننا عن سواك ... وهل تنظر العين إلا إليك
وهم جعلوك رقيباً علينا ... فمن ذا يكون رقيباً عليك
ألم يقرأوا ويحهم ما يرون ... من وحي حسنك في وجنتيك

وشعره كثير، ونقتصر منه على هذا القدر.
وكانت وفاته في مصر سنة ثلاث وتسعين ومائتين، رحمه الله تعالى.
والناشي: بفتح النون وبعد الألف شين معجمة وبعدها ياء، وهو لقب عليه.
وشرشير: بكسر الشين الأولى والثانية المعجمتين وبينهما راء ساكنة ثم ياء مثناة من تحتها وبعدها راء، وهو في الأصل: اسم طائر يصل إلى الديار المصرية في البحر في زمن الشتاء وهو أكبر من الحمام بقليل وأظنه من طير الماء، وهو كثير الوجود بساحل دمياط وأظنه يأتي من صحراء الترك، وباسمه سمي الرجل، والله أعلم.
والأنباري: بفتح الهمزة وسكون النون وفتح الباء الموحدة وبعد الألف راء، هذه النسبة إلى الأنبار وهي مدينة قديمة على الفرات في جهة بغداد يفصل بينهما دجلة وهي في الجانب الغربي وبغداد في الجانب الشرقي وبينهما وبين بغداد عشرة فراسخ، خرج منها جماعة من العلماء، وهو جمع واحده نِبر، بكسر النون وسكون الباء. والأنبار: أهراءُ الطعام، وإنما قيل لهذه البليدة الأنبار لأن الملوك الأكاسرة كانوا يخزنون بها الطعام فسميت بذلك.

ابن صارة الشنتريني

أبو محمد عبد الله بن محمد بن صارة البكري الأندلسي الشنتريني الشاعر المشهور؛كان شاعراً ماهراً ناظماً ناثراً، إلا أنه كان قليل الحظ إلا من الحرمان، لم يسعه مكان، ولا اشتمل عليه سلطان، ذكره صاحب "قلائد العقيان "، وأثنى عليه ابن بسام في " الذخيرة " وقال: إنه تتبع المحقرات، وبعد جهد ارتقى إلى كتابة بعض الولاة، فلما كان من خلع الملوك ما كان أوى إلى إشبيلية أوحش حالاً من الليل، وأكثر انفراداً من سُهيل، وتبلّغ بالوراقة وله منها جانب، وبها بصر ثاقب، فانتحلها على كساد سوقها، وخاوّ طريقها، وفيها يقول:

أما الوراقةُ فهي أيكةُ حرفةٍ ... أوراقها وثمارها الحرمانُ
شبَّهت صاحبها بصاحب إبرةٍ ... تكسو العراة وجسمها عريانُ

وله:

ومعذّرٍ رقت حواشي حسنه ... فقلوبنا وجداً عليه رقاقُ
لم يكسو عارضه السوادُ وإنما ... نفضت عليه سوادها الأحداقُ

وله في غلام أزرق العين:

ومهفهفٍ أبصرت في أطواقه ... قمراً بآفاق المحاسن يشرقُ
تقضي على المهجات منه صعدةٌ ... متألقٌ فيها سنانٌ أزرقُ

وهذا كقول السلامي:

أعانق من قده صعدةً ... ترى اللخظ منها مكان السنانِ

ومن ها هنا أخذ النبيه المصري قوله:

أسمر كالرمح له مقلةٌ ... لو لم تكن كحلاء كانت سنان

وأورد له صاحب كتاب "الحديقة":

أسنى ليالي الدهر عني ليلةٌ ... لم أخل فيها الكأس من إعمال
فرّقت فيها بين جفني والكرى ... وجمعت بين القرط والخلخال

وقال غيره: هذان البيتين لصالح الهزيل الإشبيلي، والله أعلم.

وله في الزهد:

يا من يصيخ إلى داعي السفاه وقد ... نادى به الناعيان: الشَّيب والكبر
إن كنت لا تسمع الذكرى ففيم ثوى ... في رأسك الواعيان: السمع والبصر
ليس الأصم ولا الأعلى سوى رجلٍ ... لم يهده الهاديان: العين والأثر
لا الدهر يبقى ولا الدنيا ولا الفلك ال ... أعلى ولا النيران: الشمس والقمر
ليرحلن عن الدنيا وإن كرها ... فراقها الثاويان: البدو والحضر

وله:

وصاحب لي كداء البطن صحبته ... يودني كوداد الذئب للراعي
يثني عليَّ جزاه الله صالحةً ... ثناء هندٍ على روح بن زنباع

قوله " ثناء هند على روح بن زنباع ": هذه هند بنت النعمان ابن بشير الأنصاري رضي الله عنه. وكان روح بن زنباع الجذامي صاحب عبد الملك بن مروان قد تزوَّجها وكانت تكرهه، وفيه تقول:

وهل هند إلا مهرةٌ عربيةٌ ... سليلة أفراسٍ تحلَّلها بغلُ
فإن نتجت مهراً كريماً فبالحرى ... وإن يك إقرافٌ فما أنجب الفحلُ

ويروى " فمن قبل الفحل " وهو إقواء؛ ويروى هذان البيتان لأختها حميدة بنت النعمان، والإقراف: أن تكون الأم عربية والأب ليس كذلك، والهجنة خلاف ذلك بأن يكون الأب عربياً والأم خلاف ذلك.

وله ديوان شعر أكثره جيد، وكانت وفاته سنة سبع عشرة وخمسمائة بمدينة المرية من جزيرة الأندلس وقد تقدم ذكرها.

ويقال في اسم جده: صارة وسارة، بالصاد والسين المهملتين.

والشَّنتريني: بفتح الشين المعجمة وسكون النون وفتح التاء المثناة من فوقها وكسر الراء وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها نون، وهذه النسبة إلى شنترين، وهي بلدة في غرب جزيرة الأندلس أيضاً، رحمه الله تعالى.

البطليوسي

أبو محمد عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي النحوي؛ كان عالماً بالآداب واللغات متبحراً فيهما مقدماً في معرفتهما وإتقانهما، سكن مدينة بلنسية، وكان الناس يجتمعون إليه ويقرأون عليه ويقتبسون منه، وكان حسن التعليم جيد التفهيم ثقة ضابطاً، ألف كتباً نافعة ممتعة منها: كتاب " المثلث " في مجلدين، اتى فيه بالعجائب ودل على اطلاع عظيم، فإن " مثلث " قطرب في كراسة واحدة، واستعمل فيها الضرورة وما لا يجوز وغلط في بعضه. وله كتاب " الاقتضاب في شرح أدب الكتَّاب " – وقد ذكرته في ترجمة عبد الله بن قتيبة – وشرح " سقط الزند "لأبي العلاء المعري شرحاً استوفى فيه المقاصد، وهو أجود من شرح أبي العلاء صاحب الديوان الذي سماه " ضوء السقط "، وله كتاب في الحروف الخمسة، وهي: السين والصاد والضاد والطاء والذال، جمع فيه كل غريب، وله كتاب " الحلل في شرح أبيات الجمل " و" الخلل في أغاليط الجمل " أيضاً، وكتاب " التنبيه على الأسباب الموجبة لإختلاف الأمة " وكتاب " شرح الموطأ "، وسمعت أن له شرح ديوان المتنبي، و لم أقف عليه، وقيل أنه لم يخرج من المغرب، وبالجملة فكل شيء يتكلم فيه فهو في غاية الجودة، وله نظم حسن، فمن ذلك قوله:

أخو العلم حيٌّ خالدٌ بعد موته ... وأوصاله تحت التراب رميم

وذو الجهل ميت وهو ماشٍ على الثرى — يظن من الأحياء وهو عديم

وله في طول الليل:

ترى ليلنا شابت نواصيه كبرة — كما شبت أم في الجو روض بهار

كأن الليالي السبع في الجو جمعت — ولا فصل فيما بينها لنهار

وله من أول قصيد يمدح بها المستعين بن هود:

هم سلبوني حسن صبري إذ بانوا — بأقمار أطواق مطالعها بانُ

لئن غادروني باللوى إن مهجتي — مسايرةٌ أظعانهم حيثما كانوا

سقى عهدهم بالخيف عهد غمائم — ينازعها مزنٌ من الدمع هتان

أأحبابنا هل ذلك العهد راجعٌ — وهل لي عنكم أخر الدهر سلوان

ولي مقلةٌ عبرى وبين جوانحي — فؤاد إلى لقياكم الدهر حنان

تنكرت الدنيا لنا بعد بعدكم — وحلت بنا من معضل الخطب ألوان

ومن مديحها:

رحلنا سوام الحمد عنها لغيرها — فلا ماؤها صدا ولا النبت سعدان

إلى ملك حاباه بالحسن يوسف — وشاد له البيت الرفيع سليمان

من النفر الشم الذين أكفهم — غيوث ولكن الخواطر نيران

وهي طويلة ونقتصر منها على هذا القدر.

ومولده في سنة أربع وأربعين وأربعمائة بمدينة بطليوس وتوفي في منتصف رجب سنة إحدى وعشرين وخمسمائة بمدينة بلنسية، رحمه الله تعالى.

والسيد: بكسر السين المهملة وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها دال مهملة، وهو من جملة أسماء الذئب سمي الرجل به.

والبطليوسي: بفتح الباء الموحدة والطاء المهملة وسكون اللام وفتح الياء المثناة من تحتها وسكون الواو وبعدها سين مهملة. وبلنسية: بفتح الباء الموحدة واللام وسكون النون وكسر السين المهملة وفتح الياء المثناة من تحتها وبعدها هاء ساكنة، هاتان المدينتان بجزيرة الأندلس خرج منهما جماعة من العلماء.

ابن ناقيا

أبو القاسم عبد الله، وقيل عبد الباقي، بن محمد بن الحسين بن داود بن ناقيا الأديب الشاعر اللغوي المترسل؛ هو من أهل الحريم الطاهري، وهي محلة ببغداد، وكان فاضلاً بارعاً، وله مصنفات حسنه مفيدة، منها مجموع سماه " ملح الممالحة " ومنها كتاب " الجُمان في تشبيهات القرآن " وله مقامات أدبيه مشهورة، واختصر "الأغاني " في مجلد واحد وشرح كتاب "الفصيح " وله ديوان شعر كبير وديوان رسائل، وذكره العماد الأصبهاني في كتاب " الخريدة " وأثنى عليه وذكر طرفاً من أحواله، وأورد هذين البيتين في بعض الرؤساء وقد افتصد فكتبهما إليه:

جعل الله ذو المواهب عقبا — ك من الفصد صحة وسلامه

قل ليمناك كيف شئت استهلي — لا عدمت الندى فأنت غمامه

ولقد أجاد فيهما ومن شعره أيضاً:

أخلاَّي ما صحبت في العيش لذة ... ولا زال عن قلبي حنين التذكر

ولا طاب لي طعم الرقاد ولا اجتنت ... لحاظي مذ فارقتكم حسن منظر

ولا عبثت كفي بكأس مدامة ... يطوف بها ساقٍ ولا جسٌ مزهر

وكان ينسب إلى التعطيل ومذهب الأوائل، وصنف في ذلك مقالة. وكان كثير المجون، وحكى الذي تولى غسله بعد موته أنه وجد يده اليسرى مضمومة، فأجتهد حتى فتحها، فوجد فيها كتابة بعضها على بعض، فتمهل حتى قرأها، فإذا فيها مكتوب:

نزلت بجار لا يخيب ضيفه ... أرجي نجاتي من عذاب جهنم

وأني على خوفٍ من الله واثقٌ ... بإنعامه فالله أكرم منعم

ومولده في منتصف ذي القعدة سنة عشر وأربعمائة. وتوفي ليلة الأحد رابع المحرم سنة خمس وثمانين وأربعمائة، ودفن بباب الشام ببغداد، رحمه الله تعالى.

وناقيا: بفتح النون وبعد الألف قاف مكسورة ثم ياء مثناة من تحتها مفتوحة وبعدها ألف.

وقد تقدمت له أبيات مرثيه في ترجمة الشيخ أبي إسحاق الشيرازي.

الشيخ أبو البقاء

أبو البقاء عبد الله بن أبي عبد الله الحسين بن أبي البقاء عبد الله بن الحسين العكبري الأصل البغدادي المولد والدار، الفقيه الحنبلي الحاسب الفرضي النحوي الضرير، الملقب محب الدين؛ أخذ النحو عن أبي محمد ابن الخشاب المذكور بعده وعن غيره من مشايخ عصره ببغداد، وسمع الحديث من أبي الفتح محمد بن عبد الباقي بن أحمد المعروف بابن البطي، ومن أبي زرعة طاهر بن محمد بن طاهر المقدسي، وغيرهما. ولم يكن في آخر عمره في عصره مثله في فنونه، وكان الغالب عليه علم النحو وصنف فيه مصنفات مفيدة، وشرح كتاب " الإيضاح " لأبي علي الفارسي، وديوان المتنبي، وله كتاب " إعراب القرآن الكريم " في مجلدين، وكتاب " إعراب الحديث " لطيف، وكتاب " شرح اللمع " لابن جني، وكتاب " اللباب في علل النحو" وكتاب " إعراب شعر الحماسة" وشرح " المفصل " للزمخشري شرحاً مستوفىً وشرح " الخطب النباتية " و" المقامات الحريرية " وصنف في النحو والحساب، واشتغل عليه خلق كثير، وانتفعوا به، واشتهر اسمه في البلاد وهو حي وبعد صيته.

وكانت ولادته سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة. وتوفي ليلة الأحد ثامن شهر ربيع الآخر سنة ست عشرة وستمائة ببغداد، ودفن بباب حرب، رحمه الله تعالى.

والعكبري: بضم العين المهملة وسكون الكاف وفتح الباء الموحدة وبعدها راء، هذه النسبة إلى عكبرا، وهي بليدة على دجلة فوق بغداد بعشرة فراسخ خرج منها جماعة من العلماء وغيرهم.

وحكى الشيخ أبو البقاء المذكور في كتاب " شرح المقامات" عند ذكر العنقاء أن أهل الرسِّ كان بأرضهم جبل يقال له " رمخ" صاعد في السماء قدر ميل، وكان به طيور كثيرة، وكانت العنقاء طائرة عظيمة الخلق، طويلة العنق، لها وجه إنسان وفيها من كل حيوان شبه، من أحسن الطير، وكانت تأتي في السنة مرة هذا الجبل فتلتقط طيره، فجاعت في بعض السنين وأعوزها الطير فانقضت على صبي فذهبت به، فسميت " عنقاء مغرباً " لإبعادها بما تذهب به، ثم ذهبت بجارية أخرى، فشكا أهل الرس إلى نبيهم حنظلة بن صفوان فدعا عليها فأصابتها صاعقة فاحترقت، والله أعلم.

قلت: هذا حنظلة بن صفوان نبي أهل الرسّ، كان في زمن الفترة بين عيسى والنبي عليهما الصلاة والسلام. ثم رأيت في تاريخ أحمد بن عبد الله بن أحمد الفرغاني نزيل مصر أن العزيز نزار بن المعز صاحب مصر اجتمع عنده من غرائب الحيوان ما لم يوجد عنده غيره، فمن ذلك العنقاء، وهو طائر

جاءه من صعيد مصر في طول البلشوم، وأعظم جسماً منه، له غبب ولحية وعلى رأسه وقاية، وفيه عدة ألوان ومشابه من طيور كثيرة، والله أعلم.

ثم وجدت في أواخر كتاب " ربيع الأبرار " تأليف العلاّمة أبي القاسم الزمخشري في باب الطير عن ابن عباس، رضي الله عنهما، أن الله تعالى خلق في زمن موسى عليه السلام طائرة اسمها العنقاء لها أربعة أجنحة من كل جانب، ووجهها كوجه الإنسان، وأعطاها من كل شيء حسنٍ قسطاً وخلق لها ذكراً مثلها، وأوحى إليه أني خلقت طائرين عجيبين وجعلت رزقهما في الوحوش التي حول بيت المقدس وآنستك بهما وجعلتهما زيادة فيما فضلت به بني إسرائيل، فتناسلا وكثر نسلهما، فلما توفي موسى عليه السلام انتقلت فوقعت بنجد والحجاز، فلم تزل تأكل الوحش وتخطف الصبيان إلى أن نُبِّئ خالد بن سنان العبسي بين عيسى ومحمد عليهما السلام، فشكوها إليه، فدعا الله فقطع نسلها وانقرضت، والله أعلم.

ابن الخشاب

أبو محمد عبد الله بن أحمد بن أحمد بن أحمد المعروف بابن الخشاب البغدادي؛ العالم المشهور في الأدب والنحو والتفسير والحديث والنسب والفرائض والحساب وحظ الكتاب العزيز بالقراءات الكثيرة، وكان متضلعاً من العلوم وله فيها اليد الطولى، وكان خطه في نهاية الحسن، ذكره العماد الأصبهاني في " الخريدة " وعدد فضائله ومحاسنه، ثم قال: وكان قليل الشعر، ومن شعره في الشمعة:

صفراء من غير سقام بها ... كيف وكانت أمها الشافيه

عاريةٌ باطنها مكتسٍ ... فاعجب بها عاريةً كاسيه

وذكر له لغزاً في كتاب وهو:

وذي أوجهٍ لكنه غير بائح ... بسرٍ وذو الوجهين للسر مظهر

تناجيك بالأسرار أسرار وجهه ... فتسمعها ما دمت تنظر

وهذا المعنى مأخوذ من قول المتنبي في ابن العميد:

فدعاك حدسك الرئيس وأمسكوا ... ودعاك خالقك الرئيس الأكبرا

خلفت صفاتك في العيون كلامه ... كالخط يملأ مسمعي من أبصر

وشرح كتاب " الجمل " لعبد القاهر الجرجاني وسماه "المرتجل في شرح الجمل " وترك أبواباً من وسط الكتاب ما تكلم عليها، وشرح " اللمع " لابن جني و لم يكملها، وكانت فيه بذاذة وقلة اكتراث بالمأكل والملبس. وذكر العماد أنه كانت بينهما صحبة ومكاتبات، وقال: لما مات كنت بالشام فرأيته ليلة في المنام فقلت له: ما فعل الله بك؟قال: خيراً، فقلت: فهل يرحم الله الأدباء؟فقال: نعم، قلت: وإن كانوا مقصرين؟ فقال: يجري عتاب كثير، ثم يكون النعيم.

ومولده سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة. قلت: هكذا وجدت تاريخ ولادته، وعندي في ذلك شيء، لأني وقع لي جزء فيه تعاليق وفوائد علقها بخطه، وكتب على ظهره ما صورته مختصراً: سألت أبا الفضل محمد بن ناصر عن مولد شيخنا أبي الكرم المبارك بن فاخر المعروف بابن الدباس النحوي فقال: سنة ثلاثين وأربعمائة، وأظنه خمن، لأنه توفي سنة خمس وخمسمائة وسنه فيما أرى أعلى من ذلك فسألت أبا المحاسن ابن أبي نصر بن الدباس الناسخ عن مولد عمه أبي الكرم المذكور؛ فقال: لي قبل وفاته بسنة: أنا في سنتي هذه بين فمي سبعين، وأنني لأخشى من ذلك، يعني لي سبع وسبعون، وهذا يقتضي أن يكون مولده سنة ست وعشرين.

فمضمون هذه الحكاية أن وفاة ابن الدباس محققة في سنة خمس وخمسمائة وهو أحد مشايخ ابن الخشاب المذكور، وممن أكثر الرواية عنه، ويبعد أن يكون قد حصل له هذا التحصيل واستفاد منه، وسنه حينئذ لم يبلغ الحلم فإنه على ما ذكرناه من تاريخ وفاة المذكور ومولد ابن الخشاب المذكور يكون تقدير عمره عند وفاة شيخه أبي الكرم ثلاث عشرة سنة، وفي مثل هذا السن يبعد اشتغاله وجمعه، ولاشك أن خط ابن الخشاب يعتمد عليه،

فعلى هذا التقدير يكون مولده قبل هذا التاريخ الذي ذكرناه، ويحتمل أن يكون التاريخ صحيحاً، وتكون روايته عن شيخه المذكور بمجرد الروايه دون الاشتغال والاستفاده ومثل ذلك يكون كثيراً، والله أعلم.

وكانت وفاته عشية الجمعة ثالث شهر رمضان سنة سبع وستين وخمسمائة ببغداد، رحمه الله تعالى، بباب الأزج بدار أبي القاسم ابن الفراء. ودفن بمقبرة أحمد بباب حربٍ، وصلي عليه بجامع السلطان يوم السبت.

ابن الفرضي

أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر الأزدي الأندلسي القرطبي الحافظ المعروف بابن الفرضيّ؛ كان فقيها عالماً في فنون من العلم: الحديث وعلم الرجال والأدب البارع وغير ذلك. وله من التصانيف " تاريخ علماء الأندلس " وهو الذي ذيّل عليه ابن بشكوال بكتابه الذي سماه "الصلة "، وله كتاب حسن في " المؤتلف والمختلف " وفي " مشتبه النسبة " وكتاب في أخبار شعراء الأندلس وغير ذلك.

ورحل من الأندلس إلى المشرق في سنة اثنتين وثمانين وثلثمائة، فحج وأخذ عن العلماء وسمع منهم وكتب من أماليهم.

ومن شعره:

أسير الخطايا عند بابك واقف ... على وجلٍ مما به أنت عارف

يخاف ذنوبا لم يغب عنك غيبها ... ويرجوك فيها فهو راجٍ وخائف

ومن ذا الذي يرجو سواك ويتقي ... ومالك في فصل القضاء مخالف

فيا سيدي لا تخزني في صحيفتي ... اذا نشرت يوم الحساب الصحائف

وكن مؤنسي في ظلمة القبر عندما ... يصدُّ ذوو القربى ويجفو الموالف

لئن ضاق عني عفوك الواسع الذي ... أرجي لإسرافي فإني لتالف

ومن شعره أيضا:

إن الذي أصبحت طوع يمينه ... إن لم يكن قمرا فليس بدونه

ذلّي له في الحب من سلطانه ... وسقام جسمي من سقام جفونه

وله شعر كثير. ومولده في ذي القعدة سنة إحدى وخمسين وثلثمائة. وتولى القضاء بمدينة بلنسية. وقتلته البربر يوم فتح قرطبة، وهو يوم الاثنين لست خلون من شوال سنة ثلاث وأربعمائة، رحمه الله تعالى، وبقي في داره ثلاثة أيام ودفن متغيراً من غير غسل ولا كفن ولا صلاة؛ روي عنه أنه قال: تعلقت بأستار الكعبة وسألت الله تعالى الشهادة، ثم انحرفت وفكرت في هول القتل، فندمت وهممت أن أرجع فأستقيل الله سبحانه ذلك، فاستحييت. وأخبر من رآه بين القتلى ودنا منه فسمعه يقول بصوت ضعيف: لا يكلم أحد في سبيل الله، والله أعلم بمن يكلم في سبيله، إلا جاء يوم القيامة وجرحه يثعب دماً اللون لون دم والريح ريح مسك، كأنه يعيد على نفسه الحديث الوارد في ذلك، قال: ثم قضى على أثر ذلك، وهذا الحديث أخرجه مسلم في حديثه.

الرشاطي

أبو محمد عبد الله بن علي بن عبد الله بن علي بن خلف بن أحمد بن عمر اللخمي المعروف بالرشاطي الأندلسي المريي؛ كانت له عناية كثيرة بالحديث والرجال والرواة والتواريخ، وله كتاب حسن سماه كتاب " اقتباس الأنوار والتماس الأزهار في أنساب الصحابة ورواة الآثار" أخذه الناس عنه وأحسن فيه وجمع وما أقصر، وهو على أسلوب كتاب أبي سعد ابن السمعاني الحافظ الذي سماه " بالأنساب " – وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى –.

ومولد الرشاطي صبيحة يوم السبت لثمان خلون من جمادى الآخرة سنة ست وستين وأربعمائة بقرية من أعمال مرسية، يقال لها أو ريوالة: بفتح الهمزة وسكون الواو وكسر الراء وضم الياء المثناة من تحتها وفتح الواو وبعد الألف لام مفتوحة بعدها هاء. وتوفي شهيداً بالمرية عند تغلب العدو عليها صبيحة يوم الجمعة العشرين من جمادى الأولى سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة، رحمه الله تعالى.

والرشاطي: بضم الراء وفتح الشين المعجمة وبعد الألف طاء مهملة مكسورة ثم ياء مثناة من تحتها، هذه النسبة ليست إلى قبيلة ولا إلى بلد بل ذكر في كتابه المذكور أن أحد أجداده كانت في جسمه شامة كبيرة وكانت له خادمةٌ جمية تحضنه في صغره، فإذا لاعبته قالت له: رشطاله، وكثر ذلك منها، فقيل له: الرشاطي.

ابن بري

أبو محمد عبد الله بن أبي الوحش بري بن عبد الجبار بن بري المقدسي الأصل المصري الإمام المشهور في علم النحو واللغة والرواية والدراية؛ كان علاّمة عصره وحافظ وقته ونادرة دهره. أخذ علم العربية عن أبي بكر محمد ابن عبد الملك الشنتريني النحوي وأبي طالب عبد الجبار بن محمد بن علي المعافري القرطبي وغيرهما، وسمع الحديث على أبي صادق المديني وأبي عبد الله الرازي وغيرهما، واطلع على أكثر كلام العرب، وله على كتاب " الصحاح " للجوهري حواشٍ فائقة أتى فيها بالغرائب، واستدرك عليه فيها مواضع كثيرة، وهي دالة على سعة علمه وغزارة مادته وعظم اطلاعه، وصحبه خلق كثير اشتغلوا عليه وانتفعوا به، ومن جملة من أخذ عنه أبو موسى الجزولي صاحب المقدمة في النحو - وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى- وذكره في مقدمته ونقل عنه في آخرها. وكان عارفاً بكتاب سيبويه وعلله، وكان إليه التصفح في ديوان الإنشاء، لا يصدر كتاب عن الدولة إلى ملك من ملوك النواحي إلا بعد أن يتصفحه ويصلح ما لعله فيه من خلل خفي، وهذه كانت وظيفة ابن بابشاذ - وقد ذكرت ذلك في ترجمته في حرف الطاء -.

ولقيت بمصر جماعة من أصحابه وأخذت عنهم رواية وإجازة؛ ويحكى أنه كانت فيه غفلة، ولا يتكلف في كلامه، ولا يتقيد بالإعراب بل يسترسل في حديثه كيفما اتفق، حتى قال يوماً لبعض تلامذته ممن يشتغل عليه بالنحو: اشتر لي قليل هندبا بعروقو، فقال له التلميذ: هندبا بعروقه، فعز عليه كلامه وقال له: لا تأخذه إلا بعروقو، وإن لم يكن بعروقو فما أريده. وكانت له ألفاظ من هذا الجنس لا يكترث بما يقوله ولا يتوقف على إعرابها.

ورأيت له حواشي على " درة الغواص في أوهام الخواص " للحريري، وله جزء لطيف في أغاليط الفقهاء، وله الرد على أبي محمد ابن الخشاب - المذكور في هذا الحرف - في الكتاب الذي بيَّن فيه غلط ابن الحريري في المقامات، وانتصر لابن الحريري وما أقصر فيما عمله.

وكانت ولادته بمصر في الخامس من رجب سنة تسع وتسعين وأربعمائة. وتوفي بمصر ليلة السبت السابعة والعشرين من شوال سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة، رحمه الله تعالى.

وبرِّي: بفتح الباء الموحدة وتشديد الراء المكسورة وبعدها ياء، وهو اسمٌ علمٌ يشبه النسبة.

العاضد

أبو محمد عبد الله الملقب العاضد بن يوسف بن الحافظ بن محمد المستنصر بن الظاهر بن الحاكم بن العزيز بن المعز بن المنصور بن القائم بن المهدي، آخر ملوك مصر من العبيديين - وقد تقدم ذكر جماعة من أهل بيته وسيأتي ذكر الباقين -؛ ولي المملكة بعد وفاة ابن عمه الفائز في التاريخ المذكور في ترجمته، وكان أبوه يوسف أحد الأخوين اللذين قتلهما عباس بعد الظافر - وقد سبق ذلك في ترجمة الظافر في حرف الهمزة - واستقر الأمر للعاضد المذكور اسماً وللصالح بن رزّيك - المذكور في حرف الطاء - جسماً.

وكان العاضد شديد التشيع متغالياً في سب الصحابة، رضوان الله عليهم وإذا رآى سنياً استحل دمه، وسار وزيره الصالح بن رزّيك في أيامه سيرة مذمومة فإنه احتكر الغلات فارتفع سعرها، وقتل أمراء الدولة خشية منهم، وأضعف أحوال الدولة المصرية فقتل مقاتلتها وأفنى ذوي الآراء والحزم منها، وكان كثير التطلع إلى ما في أيدي الناس من الأموال، وصادر أقواماً ليس بينه وبينهم تعلق.

وفي أيام العاضد ورد أبو عبد الله الحسين بن نزار بن المستنصر من المغرب ومعه عساكر وحشود، فلما قارب بلاد مصر غدر به أصحابه وقبضوه وحملوه إلى العاضد فقتله صبراً، وذلك في سنة سبع وخمسين وخمسمائة في شهر رمضان، وقيل إن ذلك كان في أيام الحافظ عبد المجيد – هكذا قاله صاحب كتاب " الدول المنقطعة " والله أعلم، ثم أعاد ذلك في أيام العاضد كما ذكرته أولاً، والله أعلم بالصواب – وكان قد تلقب بالمنتصر بالله. وقد تقدم في ترجمة شاور وأسد الدين شيركوه في حرف الشين ما يغني عن الإطالة في سبب انقراض دولته، واستيلاء الغز عليها وسيأتي في أخبار السلطان صلاح الدين، رحمه الله تعالى في حرف الياء طرف من ذلك أيضاً.

وسمعت من جماعة من المصريين يقولون: إن هؤلاء القوم في أوائل دولتهم قالوا لبعض العلماء: تكتب لنا ورقة تذكر فيها ألقاباً تصلح للخلفاء، حتى إذا تولى واحد لقبوه ببعض تلك الألقاب، فكتب لهم ألقاباً كثيرة، وآخر ما كتب في الورقة " العاضد " فاتفق أن آخر من ولي منهم تلقب بالعاضد، وهذا من عجيب الاتفاق. وأيضاً فإن العاضد في اللغة القاطع، يقال: عضدتُ الشيء فأنا عاضدٌ له، إذا قطعته، فكأنه عاضدٌ لدولتهم، وكذا كان لأنه قطعها.

وأخبرني أحد علماء المصريين أيضاً أن العاضد المذكور في أواخر دولته رأى في منامه وهو بمدينة مصر وقد خرجت إليه عقرب من مسجد هو معروف بها، فلدغته فلما استيقظ ارتاع لذلك، فطلب بعض معبري الرؤية وقص عليهم المنام فقال له: ينالك مكروه من شخص مقيم في هذا المسجد، فطلب والي مصر وقال له: تكشف عمن هو مقيم في المسجد الفلاني، وكان العاضد يعرف ذلك المسجد، فإذا رأيت به أحداً تحضره عندي. فمضى الوالي إلى المسجد فرأى فيه رجلاً صوفياً فأخذه ودخل به على العاضد، فلما رآه سأله: من أين هو؟ ومتى قدم البلاد؟ وفي أي شيء قدم؟ وهو يجاوبه عن كل سؤال، فلما ظهر له منه ضعف الحال والصدق والعجز عن إيصال المكروه إليه أعطاه شيئاً وقال له: يا شيخ ادع لنا، وأطلق سبيله، فنهض من عنده وعاد إلى مسجده. فلما استولى السلطان صلاح الدين وعزم على القبض على العاضد واستفتى الفقهاء في قتله، أفتوه بجواز ذلك لما كان عليه العاضد وأشياعه من انحلال العقيدة وفساد الاعتقاد وكثرة الوقوع في الصحابة والإستهتار بذلك. وكان أكثرهم مبالغة في الفتيا الصوفي المقيم في المسجد، وهو الشيخ نجم الدين الخبوشاني – الآتي ذكره في حرف الميم إن شاء الله تعالى – فإنه عدَّد مساوئ هؤلاء القوم وسلب عنهم الإيمان وأطال الكلام في ذلك، فصحَّت بذلك رؤيا العاضد.

وكانت ولادة العاضد يوم الثلاثاء لعشر بقين من المحرم سنة ست وأربعين وخمسمائة. وتوفي ليلة الاثنين لإحدى عشرة ليلة خلت من المحرم سنة سبع وستين وخمسمائة، وقيل إن العاضد حصل له غيظ من شمس الدولة توران شاه بن أيوب أخي صلاح الدين فسمّ نفسه فمات، والله أعلم، رحمه الله تعالى. وقيل إنه مات يوم عاشوراء.

ابن الرداد المؤذن

أبو الرداد عبد الله بن عبد السلام بن عبد الله بن الرداد المؤذن البصري، صاحب المقياس بمصر؛ كان رجلاً صالحاً وتولى مقياس النيل الجديد بجزيرة مصر، وجمع إليه جميع النظر في أمره وما يتعلق به في سنة ست وأربعين ومائتين، واستمرت الولاية في ولده إلى الآن. وتوفي في سنة تسع وسبعين ومائتين، وقيل سنة ست وستين ومائتين، والله أعلم.

والردّاد: بفتح الراء وبالدالين المهملتين وتشديد الأولى منهما وبينهما ألف. ذكره القضاعي في " خطط مصر " وذكر قضية الجارية التي كانت تلقى في النيل، وذلك في فصل المقياس.

وهذا المقياس: وضعه أحمد بن محمد الحاسب القرصاني بأمر المتوكل على الله.

–وكان أسامة بن زيد التّنوخي في سنة ست وسبعين للهجرة قد أمر ببناء المقياس في الجزيرة قديماً – وحكي عنه أنه قال: لما أردت أن أكتب على مواضع من المقياس ناظرت يزيد بن عبد الله وسليمان بن وهب والحسن الخادم فيما ينبغي أن يكتب عليه، وأعلمتهم أن أحسن ما يكتب عليه آيات من القرآن، واسم أمير المؤمنين المتوكل على الله واسم الأمير المنتصر، إذ كان العمل له، فاختلفوا في ذلك، وبادر سليمان بن وهب فكتب من غير أن يعلم ويستطلع الرأي في ذلك، فورد كتاب أمير المؤمنين أن يكتب عليه آيات من القرآن وما يشبه أمر المقياس، واسم أمير المؤمنين، فاستخرجت من

القرآن آيات لا يمكن أن يكتب على المقياس أحسن ولا أشبه بأمر المقياس منها، وجعلت جميع ما كتبت في الرخام الذي تقدم في البناية في المواضع التي قدرت الكتابة فيها بخط مقوم غليظ على قدر الإصبع ثابت في بدن الرخام مصبغ الحفر باللازورد المشمع يقرأ من بعد، فجعلت أول ما كتبت أربع آيات متساوية المقادير في سطور أربعة في تربيع بناء المقياس على وزن سبع عشرة ذراعاً من العمود.

فكتبت في الجانب الشرقي، وهو المقابل لمدخل المقياس: " بسم الله الرحمن الرحيم، ونزلنا من السماء ماءً مباركاً فأنبتنا به جنّاتٍ وحبّ الحصيد " ق: 9 وفي الجانب الشمالي: " وترى الأرض هامدةً، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتّزت وربت وأنبتت من كل زوجٍ بهيج " الحج: 5 وعلى الجانب الغربي: " آلم تر أنّ الله أنزل من السماء ماءً فتصبح الأرض مخضرّةَ إن الله لطيفٌ خبير " الحج: 63 وعلى الجانب الجنوبي: " وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته، وهو الولي الحميد " الشورى: 28 فصارت هذه الآيات سطوراً على وجه الماء إذا بلغ سبع عشرة ذراعاً، لأن هذا وسط الزيادة، ثم جعلت في الذراع الثامن عشر في جميع التربيع نطاقاً مثل النطاق الذي جعلته علامة للذراع السادس عشر، وكتبت بإزاء الذراع الثامن عشر سطراً واحداً يحيط بجميع التربيع " بسم الله الرحمن الرحيم، الله الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم، وسخّر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره، وسخر لكم الأنهار، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين، وسخر لكم الليل والنهار، وآتاكم من كل ما سألتموه، وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها، إن الإنسان لظلومٌ كفّار " إبراهيم: 32- 34 " بسم الله الرحمن الرحيم، مقياس يمنٍ وسعادةٍ ونعمة وسلامة. أمر ببنائه عبد الله جعفر الإمام المتوكل على الله أمير المؤمنين، أطال الله بقاءه وأدام عزه وتأييده، على يدي أحمد بن محمد الحاسب، سنة سبع وأربعين ومائتين. وجعلت ما فوق ذلك من الحيطان التي بأعلى البناء منقوشاً كله، محفوراً مصبوغاً باللازورد المشمع، وعمدت إلى ما جاوز من العمود تسع عشرة ذراعاً، والرأس المنصوب عليه، والعارضة اللبخ الممسكة له، فنقشت ذلك كله بالذهب واللازورد، وكتبت على العارضة آية الكرسي إلى آخرها وكتبت على حائط الزقاق المقابل للنيل، فوق باب مدخل المقياس حيث يقرؤه السابلة سطراً إلى الرخام من أوله إلى آخره، وهو: " بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد سيد المرسلين، أمر عبد الله جعفر الإمام المتوكل على الله أمير المؤمنين ببناء هذا المقياس الهاشمي، لتعرف به زيادة النيل ونقصانه، وأطال الله بقاء أمير المؤمنين، وأدام له العز والتمكين والظفر على الأعداء، وتتابع الإحسان والنعماء، وزاده في الخير رغبة، وبالرعية رأفة، وكتبه أحمد بن محمد الحاسب في رجب سنة سبع وأربعين ومائتين ".

وكتبت سطرين في رخام عن جنبتي الباب: أحدهما " بسم الله ما شاء الله، لا حول ولا قوة إلا بالله، وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً "، والآخر " بسم الله، بلغ الماء في السنة التي بني فيها هذا المقياس المتوكلي المبارك سبع عشرة ذراعاً وثمانية عشر إصبعاً ".

واتخذت مثال سبع من رخام ركبته في وجه حائط فويقة القناة المطل على النيل، على المقدار الذي إذا بلغ الماء ست عشرة ذراعاً دخل الماء في فيه، وكتبت فوق ذلك في أعلى الحائط: " أو لم يروا أنّا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به ذرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم، أفلا يبصرون " السجدة: 27 " كتبه أحمد بن محمد الحاسب في جمادى الآخرة سنة سبع وأربعين ومائتين، وصلى الله على سيدنا محمد النبي وآله وسلم تسليما.

والذراع في المقياس ثمانية وعشرون إصبعاً إلى أن ينتهي إلى اثنتي عشرة ذراعاً، وبعد ذلك يصير اعتباره أربعة وعشرين إصبعاً ".

عبيد الله بن عبد الله

أبو عبد الله عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود بن عاقل بن حبيب بن شمخ بن مخزوم بن صبح بن كاهل بن الحارث بن تميم بن سعد بن هزيل بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان الهذلي، أحد الفقهاء السبعة بالمدينة – وقد تقدم ذكر أربعة منهم – وهذا عبيد الله ابن أخي عبد الله بن مسعود الصحابي، رضي الله عنه، وهو من أعلام التابعين، لقي خلقاً كثيراً من الصحابة، رضوان الله عليهم، وسمع من ابن عباس وأبي هريرة وأم المؤمنين عائشة، رضي الله عنهم أجمعين، وروى عنه أبو الزناد والزهري وغيرهما، وقال الزهري: أدركت أربعة بحور، فذكر فيهم عبيد الله المذكور، وقال: سمعت من العلم شيئاً كثيراً فظننت أني قد اكتفيت حتى لقيت عبيد الله فإذا كأني ليس في يدي شيء. وقال عمر بن عبد العزيز: لأن يكون لي مجلس من عبيد الله أحب إلي من الدنيا؛ " وقال: والله إني لأشتري ليلة من ليالي عبيد الله بألف دينار من بيت المال، فقالوا: يا أمير المؤمنين، تقول هذا مع تحريك وشدة تحفظك؟ فقال: أين يذهب بكم؟ والله إني لأعود برأيه وبنصيحته وبهدايته على بيت مال المسلمين بألوف وألوف، إن في المحادثة

تلقيحاً للعقل، وترويحاً للقلب، وتسريحاً للهمّ، وتنقيحاً للأدب ".

وكان عالماً ناسكاً. وكانت وفاته سنة اثنتين ومائة، وقيل سنة تسع وتسعين، وقيل ثمان وتسعين للهجرة بالمدينة، رضي الله عنه.

وله شعر، فمن ذلك ما أورده له في كتاب " الحماسة " وهو قوله:

شققت القلب ثم ذررت فيه هواك فليم فالتأم الفطور

تغلغل حب عثمة في فؤادي فباديه مع الخافي يسير

تغلغل حيث لم يبلغ شرابٌ ولا حزن ولم يبلغ سرور

ولما قال هذا الشعر قيل له: أتقول مثل هذا؟ فقال:في اللّدود، راحة المفؤود. وهو القائل: لابد للمصدور من أن ينفث.

والهذلي: بضم الهاء وفتح الذال المعجمة وبعدها لام، هذه النسبة إلى هذيل بن مدركة كما تقدم في نسبه، وهي قبيلة كبيرة، وأكثر أهل وادي نخلة المجاور لمكة، حرسها الله تعالى، من هذه القبيلة.

وتوفي والده عبد الله سنة ست وثمانين للهجرة، رضي الله عنه، وكانت الرياسة في الجاهلية إلى جده صبح بن كاهل.

المهدي عبيد الله

أبو محمد عبيد الله، الملقب بالمهدي؛ وجدت في نسبه اختلافاً كثيراً قال صاحب " تاريخ القيروان " هو عبيد الله بن الحسن بن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقال غيره: هو عبيد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر المذكور، وقيل هو علي بن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن الحسن بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقيل هو عبيد الله بن التقي بن الوفي بن الرضي، وهؤلاء الثلاثة يقال لهم المستورون في ذات الله، والرضي المذكور بن محمد بن إسماعيل بن جعفر المذكور، واسم التقي الحسين، واسم الوفي أحمد، واسم الرضي عبد الله، وإنما استتروا خوفاً على أنفسهم لأنهم كانوا مطلوبين من جهة الخلفاء من بني العباس، لأنهم علموا أن فيهم من يروم الخلافة أسوة غيرهم من العلويين وقضاياهم ووقائعهم في ذلك مشهورة. وإنما تسمى المهدي عبيد الله استتاراً، هذا عند من يصحح نسبه، ففيه اختلاف كثير. وأهل العلم بالأنساب من المحققين ينكرون دعواه في النسب، وقد تقدم في ترجمة الشريف عبد الله بن طباطبا ما جرى بينه وبين المعز عند وصوله إلى مصر وما كان من جواب المعز له، وفيه أيضاً دلالة على ذلك، فإنه لو عرف نسبه لذكره وما احتاج إلى ذلك المجلس الذي ذكرناه هناك.

ويقولون أيضاً: إن اسمه سعيد ولقبه عبيد الله، وزوج أمه الحسين بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن ميمون القداح، وسمي قداحاً لأنه كان كحّالاً يقدح العين إذا نزل فيها الماء. وقيل إن المهدي لما وصل إلى سجلماسة ونما خبره إلى اليسع مالكها، وهو آخر ملوك بني مدرار، وقيل له: إن هذا هو الذي يدعو إلى بيعته أبو عبد الله الشيعي بأفريقية – وقد تقدم الكلام على ذلك في ترجمة أبي عبد الله في حرف الحاء – أخذه اليسع واعتقله، فلما سمع أبو عبد الله الشيعي باعتقاله حشد جمعاً كثيراً من كتامة وغيرها، وقصد سجلماسة لاستنقاذه، فلما بلغ اليسع خبر وصولهم قتل المهدي في السجن، فلما دنت العساكر من البلد هرب اليسع، فدخل أبو عبد الله إلى السجن فوجد المهدي مقتولاً وعنده رجل من أصحابه كان يخدمه، فخاف أبو عبد الله أن ينتقض عليه ما دبره من الأمر إن عرفت العساكر بقتل المهدي، فأخرج الرجل وقال: هذا هو المهدي؛ وبالجملة فأخباره مشهورة فلا حاجة إلى الإطالة فيها.

وهو أول من قام بهذا الأمر من بيتهم وادعى الخلافة بالمغرب، وكان داعيه أبا عبد الله الشيعي – المذكور في حرف الحاء – ولما استتب له الأمر قتله وقتل أخاه – كما ذكرناه في ترجمته – وبنى المهدي بأفريقية وفرغ من بنائها في شوال سنة ثمان وثلثمائة، وكان شروعه فيها في ذي القعدة سنة ثلاث وثلثمائة، وبنى سور تونس وأحكم عمارتها وجدّد فيها مواضع، فنسبت " المهدية " إليه.

وملك بعده ولده القائم، ثم المنصور ولد القائم – وقد تقدم ذكره – ثم المعز بن المنصور، وهو الذي سيّر القائد جوهراً وملك الديار المصرية وبنى

القاهرة، واستمرت دولتهم حتى انقرضت دولتهم على يد السلطان صلاح الدين رحمه الله تعالى. وقد تقدم ذكر جماعة من حفدته وسيأتي ذكر باقيهم، إن شاء الله تعالى. ولأجل نسبتهم إليه يقال لهم " العبيديون "، وهكذا ينسب إلى عبيد الله.

وكانت ولادته في سنة تسع وخمسين، وقيل سنة ستين ومائتين، وقيل ست وستين ومائتين بمدينة سلميّة، وقيل بالكوفة، ودعي له بالخلافة على منابر رقّادة والقيروان يوم الجمعة لتسع بقين من شهر ربيع الآخر سنة سبع وتسعين ومائتين، بعد رجوعه من سجلماسة، وقد جرى له بها ما جرى. وكان ظهوره بسجلماسة يوم الأحد لسبع خلون من ذي الحجة سنة ست وتسعين ومائتين، وخرجت بلاد المغرب عن ولاية بني العباس. وتوفي ليلة الثلاثاء منتصف شهر ربيع الأول سنة اثنتين وعشرين وثلثمائة بالمهدية، رحمه الله تعالى.

وسلميّة: بفتح السين المهملة واللام وكسر الميم وتشديد الياء المثناة من تحتها وتخفيفها أيضاً مع سكون الميم، وهي بليدة بالشام من أعمال حمص.

ورقّادة: بفتح الراء وتشديد القاف وبعد الألف دال مهملة ثم هاء ساكنة، بلدة بأفريقية، وقد تقدم ذكرها في ترجمة أبي عبد الله الحسين بن أحمد المعروف بالشيعي، وكان قد بناها إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب جد زيادة الله بن الأغلب المذكور في ترجمة الشيعي أيضاً، وكان شروعه أيضاً في بنائها في سنة ثلاث وستين ومائتين وفرغ منها في سنة أربع وستين ومائتين وانتقل إليها لما فرغت.

والقيروان وسجلماسة: قد تقدم الكلام عليهما في مواضعهما.

عبيد الله بن عبد الله بن طاهر

أبو أحمد عبيد الله بن عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب بن رزيق بن ماهان الخزاعي؛ – تقدم ذكر أبيه وجده وما كانا عليه من التقدم وعلو المنزلة عند المأمون، وتوليتهما خراسان وغيرها –وكان عبيد الله المذكور أميراً، ولي الشرطة ببغداد خلافةً عن أخيه محمد بن عبد الله، ثم استقل بها بعد موت أخيه، وكان سيداً، وإليه انتهت رياسة أهله، وهو آخر من مات منهم رئيساً ولهم من الكتب المصنفة كتاب " الإشارة في أخبار الشعراء " وكتاب " رسالة في السياسة الملوكية " وكتاب مراسلاته لعبد الله بن المعتز، وكتاب " البراعة والفصاحة " وغير ذلك. وحدّث عن الزبير بن بكار وغيره، وكان مترسلاً شاعراً لطيفاً حسن المقاصد جيد السبك رقيق الحاشية.

ومن شعره، ثم وجدتها لأبي الطريف شاعر المعتمد الخليفة العباسي وزعم الصولي أن البحتري أنشده هذه الأبيات لنفسه، والله أعلم، وهي:

أتهجرون فتى أغري بكم تيها ... لحقٌّ دعوة صبٍّ أن تجيبوها

أهدى إليكم على نأيٍ تحيته ... حيُّوا بأحسن منها أو فردُّوها

زمُّوا المطايا غداة البين واحتملوا ... وخلَّفوني على الأطلال أبكيها

شيَّعتهم فاسترابوا بي فقلت لهم ... إني بعثت مع الأجمال أحدوها

قالوا فما نفسٌ يعلو كذا صعدا ... وما لعينك لا ترقا مآقيها

قلت التنفّس من إدمان سيركم ... ودمع عيني جارٍ من قذىً فيها

حتى إذا انجذبوا والليل معتكر ... رفعت في جنحه صوتي أناديها

يا من به أنا هيمانٌ ومختبلٌ ... هل لي إلى الوصل من عقبى أُرجيها

"ومن شعره ما ذكره ابن رشيق في كتاب "" العمدة "" في باب الاستطراد، فقال: ومن الإستطراد نوع يسمى الإدماج، ونحو ذلك قول عبيد الله بن عبد الله بن طاهر لعبيد الله بن سليمان بن وهب حين وزر للمعتضد:

أبى دهرنا إسعافنا في نفوسنا ... وأسعفنا في من نحبُّ ونكرم

فقلت له نعماك فينا أتمها ودع أمرنا إن المهمَّ المقدَّم"

ومن شعره:

واحربا من فراق قوم هم المصأبيح والحصون
والأسد والمزن والرواسي والأمن والخفض والسكون
لم تتنكر لنا الليالي حتى توفَّتهم المنون
فكلُّ نارٍ لنا قلوب وكلُّ ماء لنا عيون

وله:

إن الأمير هو الذي يضحي أميراً يوم عزله
إن زال سلطان الولا ية لم يزل سلطان فضله

وله:

اقضي الحوائج ما استطع ت وكن لهمٍّ أخيك فارج
فلخير أيام الفتى يومٌ قضى فيه الحوائج

وله ديوان شعر ونقتصر من نظمه على هذا القدر.

وكان عبيد الله قد مرض فعاده الوزير، فلما انصرف عنه كتب إليه: " ما اعرف أحداً جزى العلة خيراً غيري، فإني جزيتها الخير، وشكرت نعمتها علي، إذ كانت إلى رؤيتك مؤدية، فأنا كالأعرأبي الذي جزَّى يوم البين خيراً فقال:

جزى الله يوم البين خيراً فإنه أرانا على علاَّته أمَّ ثابت
أرانا ربيبات الخدور، ولم نكن نراهنَّ إلا بانتعات النواعت"

قلت: ومثل هذا ما كتبه البحتري إلى أبي غانم وقد مرض فعاده الوزير، وهو قوله:

يا أبا غانمٍ غنمت ولا زا لت عهاد الوسمي تسقي بلادك
ليت أنا مثل اعتلالك نعت ل على أن يعودنا من عادك
أبهجت زورة الوزير أودا ك جميعاً وأرغمت حسادك

وكانت ولادته سنة ثلاث وعشرين ومائتين. وكانت وفاته ليلة السبت لاثنتي عشرة ليلة خلت من شوال سنة ثلثمائة ببغداد، ودفن بمقابر قريش، رحمه الله تعالى.

"وتوفي الأمير أبو القاسم عبيد الله بن سليمان سنة ثمان وثمانين ومائتين، وعمره اثنتان وستون سنة، وكانت وزارته عشر سنين وخمسين يوما ".

و لم مات أخوه سليمان بن عبد الله بن طاهر في سنة خمس وستين ومائتين وقف أخوه عبيد الله المذكور على قبره متكئاً على قوسه ونظر إلى قبور أهله، وأنشد:

النفس ترقى بحزن في تراقيها ودمعة العين تجري من مآقيها
لبقعة ما رأت عيني كقلتها ولا ككثرة أحباب ثووا فيها

أبو الحكم المغربي

أبو الحكم عبيد الله بن المظفر بن عبد الله بن محمد الباهلي، الحكيم الأديب المعروف بالمغربي؛ أصله من أهل المرية بالأندلس – وتقدم ذكرها – ومولده ببلاد اليمن. ذكر أبو شجاع محمد بن علي بن الدهان الفرضي –الآتي ذكره إن شاء الله تعالى – في تاريخ جمعه أن أبا الحكم المذكور قدم بغداد وأقام بها مدة يعلم الصبيان، وأنه كان ذا معرفة بالأدب والطب والهندسة؛ انتهى كلام أبي شجاع وذكر مولده ووفاته. وقال غيره: كان كامل الفضيلة، جمع بين الأدب والحكمة، وله ديوان شعر جيد، والخلاعة والمجون غالبة عليه.

وذكر العماد الأصبهاني في " الخريدة " أن أبا الحكم المذكور كان طبيب البيمارستان الذي كان يحمله أربعون جملاً المستصحب في معسكر السلطان محمود السلجوقي حيث خيم، وكان السديد أبو الوفاء يحيى بن سعيد بن يحيى المظفر المعروف بابن المرخم الذي صار أقضى القضاة ببغداد في أيام الأمام المقتفي فاصداً وطبيباً في هذا البيمارستان، ثم إن العماد أثنى على أبي الحكم المذكور، وذكر فضله وما كان عليه، وذكر أن له كتاباً سماه " نهج الوضاعة لأولي الخلاعة ".

ثم إن أبا الحكم المذكور انتقل إلى الشام وسكن دمشق، وله فيها أخبار وماجرايات ظريفه تدل على خفة روحه.

رأيت في ديوانه أن أبا الحسين أحمد بن منير الطرابلسي – المقدم ذكره في حرف الهمزة –كان عند الأمراء بني منقذ بقلعة شيزر، وكانوا مقبلين عليه، وكان بدمشق شاعر يقال له أبو الوحش سبع بن خلف بن محمد بن هبة الله الفقعسي، وكانوا يصغرون كنيته فيقولون " وحيش " وكانت فيه دعابة، وبينه وبين أبي الحكم مودة وألفة متحدة، فعزم أبو الوحش أن يتوجه إلى شيزر يمدح بني منقذ ويسترفدهم، فالتمس من أبي الحكم المذكور كتاباً إلى ابن منير بالوصية عليه، فكتب أبو الحكم:

أبا الحسين استمع مقال فتىً ... عوجل فيما يقول فارتجلا
هذا أبو الوحش جاء ممتدح ال ... قوم فنوه به إذا وصلا
واتل عليهم بحسن شرحك ما ... أتلوه من حديثه جملا
وخبر القوم أنه رجل ... ما أبصر الناس مثله رجلا
تنوب عن وصفه شمائله ... لا يبتغي عاقل به بدلا
وهو على خفة به أبداً ... معترف أنه من الثقلا
يمت بالثلب والرقاعة والس ... خف، وأما بما سواه فلا
إن أنت فاتحته لتخبر ما ... يصدر عنه فتحت منه خلا
فسمه إن حل خطة الخسف وال ... هونِ ورحب به إذا رحلا
وسقه السم إن ظفرت به ... وأمزج له من لسانك العسلا

وله أشياء مستملحة، منها مقصورة هزلية ضاهى بها مقصورة ابن دريد، من جملتها:

وكل ملموم فلابد له ... من فرقة لو لزقوه بالغرا

وله مرثية في عماد الدين زنكي بن آق سنقر الأتابك – المقدم ذكره – شاب فيها الجد بالهزل والغالب على شعره الانطباع.

وكانت ولادته في سنة ست وثمانين وأربعمائة باليمن، على ما حكاه ابن الدبيثي في ذيله. وتوفي ليلة الأربعاء رابع ذي القعدة سنة تسع وأربعين

وخمسمائة، وقال ابن الدبيثي: توفي لساعتين خلتا من ليلة الأربعاء سادس ذي القعدة بدمشق، وهو الأصح، ودفن بباب الفراديس، رحمه الله تعالى.
والقاضي ابن المرخم المذكور هو الذي يقول فيه أبو القاسم هبة الله ابن الفضل الشاعر المعروف بابن القطان - الآتي ذكره إن شاء الله تعالى -:

يا ابن المرخم صرت فينا قاضياً ... خرف الزمان تراه أم جن الفلك

إن كنت تحكم بالنجوم فربما ... أما بشرع محمدٍ من أين لك

عبد الرحمن بن أبي ليلى

أبو عيسى عبد الرحمن بن أبي ليلى يسار، وقيل داود، بن بلال بن أحيحة ابن الجلاح الأنصاري، وفي اسم أبيه خلاف غير هذا، كان من أكابر تابعي الكوفة، سمع علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان وأبا أيوب الأنصاري وغيرهم، رضي الله عنهم، ويروى أنه سمع من عمر، رضي الله عنه، والحفاظ لا يثبتون سماعه من عمر، وأبوه أبو ليلى له رواية عن النبي، صلى الله عليه وسلم، وشهد وقعة الجمل وكانت راية علي بن أبي طالب رضي الله عنه، معه. وسمع من عبد الرحمن: الشعبيّ ومجاهد وعبد الملك بن عمير وخلق سواهم، رضي الله عنهم. ولد لست سنين بقين من خلافة عمر، وقتل بدجيل، وقيل غرق في نهر البصرة، وقيل فقد بدير الجماجم سنة ثلاث وثمانين في وقعة ابن الأشعث، وقيل سنة إحدى، وقيل سنة اثنتين وثمانين للهجرة، رضي الله عنه.

وأحيحة: بضم الهمزة وفتح الحاء المهملة وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح الحاء الثانية وبعدها هاء ساكنة.

والجلاح: بضم الجيم وبعد اللام ألف حاء مهملة.

وسيأتي ذكر ولده محمد إن شاء الله تعالى.

الأوزاعي

أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو بن يحمد الأوزاعي إمام أهل الشام؛ لم يكن بالشام أعلم منه، قيل إنه أجاب في سبعين ألف مسألة، وكان يسكن بيروت. روي أن سفيان الثوري بلغه مقدم الأوزاعي فخرج حتى لقيه بذي طوى، فحل سفيان رأس بعيرة عن القطار ووضعه على رقبته، فكان إذا مر بجماعة قال: الطريق للشيخ. سمع من الزهري وعطاء وروى عنه الثوري وأخذ عنه عبد الله بن المبارك وجماعة كبيرة.

وكانت ولادته ببعلبك سنة ثمان وثمانين للهجرة، وقيل سنة ثلاث وتسعين.

ومنشؤه بالبقاع، ثم نقلته أمه إلى بيروت. وكان فوق الربعة خفيف اللحية به سمرة، وكان يخضب بالحناء. وتوفي سنة سبع وخمسين ومائة يوم الأحد لليلتين بقيتا من صفر، وقيل في شهر ربيع الأول بمدينة بيروت، رحمه الله تعالى، ورثاه بعضهم بقوله:

جاد الحيا بالشام كل عشيةٍ ... قبراً تضمن لحده الأوزاعي

قبرٌ تضمن فيه طود شريعةٍ ... سقيا له من عالمٍ نفاع

عرضت له الدنيا فأعرض مقلعاً ... عنها بزهدٍ أيما إقلاع

وقبره في قرية على باب بيروت يقال لها حنتوس، وأهلها مسلمون، وهو مدفون في قبلة المسجد، وأهل القرية لا يعرفونه، بل يقولون: ها هنا رجل صالح يترل عليه النور؛ ولا يعرفه إلا الخواص من الناس.

"ذكر الحافظ ابن عساكر في " تاريخ دمشق " أن الأوزاعي دخل الحمام ببيروت وكان لصاحب الحمام شغل، فأغلق الحمام عليه وذهب، ثم جاء ففتح الباب فوجده ميتاً، قد وضع يده اليمنى تحت خده وهو مستقبل القبلة؛ وقيل أن امرأته فعلت ذلك، ولم تكن عامدة لذلك، فأمرها سعيد بن عبد العزيز بعتق رقبة ".

ويحمد: بضم الياء المثناة من تحتها وسكون الحاء المهملة وكسر الميم وبعدها دال مهملة.

والأوزاعي: بفتح الهمزة وسكون الواو وفتح الزاي وبعد الألف عين مهملة هذه النسبة إلى الأوزاع، وهي بطن من ذي الكلاع من اليمن، وقيل بطن من همدان، واسمه مرثد بن زيد، وقيل الأوزاع قرية بدمشق على طريق باب الفراديس، ولم يكن أبو عمرو منهم، وإنما نزل فيهم فنسب إليهم وهو من سبي اليمن.

وبيروت: بفتح الباء الموحدة وسكون الياء المثناة من تحتها وضم الراء وسكون الواو وفي آخرها تاء مثناة، وهي بليدة بساحل الشام أخذها الفرنج من المسلمين يوم الجمعة عاشر ذي الحجة سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة.

" وحنتوس: بفتح الحاء المهملة وسكون النون وضم التاء المثناة من فوقها وسكون الواو ثم سين مهملة ".

ابن القاسم المالكي

أبو عبد الله عبد الرحمن بن القاسم بن خالد بن جنادة العتقي بالولاء، الفقيه المالكي؛ جمع بين الزهد والعلم وتفقه بالإمام مالك رضي الله عنه ونظرائه، وصحب مالكاً عشرين سنة، وانتفع به أصحاب مالك بعد موت مالك، وهو صاحب " المدونة" في مذهبهم، وهي من أجل كتبهم، وعنه أخذها سحنون.

وكانت ولادته في سنة اثنتين، وقيل ثلاث وثلاثين ومائة، وقيل ثمان وعشرين وتوفي سنة إحدى وتسعين ومائة، ليلى الجمعة لسبع ليال مضين من صفر بمصر، ودفن خارج باب القرافة الصغرى قبالة قبر أشهب الفقيه المالكي، وزرت قبريهما، وهما بالقرب من السور، رحمهما الله تعالى.

وجنادة: بضم الجيم وفتح النون وبعد الألف دال مهملة مفتوحة ثم هاء ساكنة.

والعتقي: بضم العين وفتح التاء المثناة من فوقها وبعدها قاف، هذه النسبة إلى العتقاء، وليسوا من قبيلة واحدة بل هم من قبائل شتى، منهم حجر حمير، ومن سعد العشيرة، ومن كنانة مضر وغيرهم، وعامتهم بمصر. وعبد الرحمن المذكور مولى زبيد بن الحارث العتقي، وكان زبيد من حجر حمير، وقال عبد الله القضاعي: وكانت القبائل التي نزلت الظاهر العتقاء، وهم جماع من القبائل كانوا يقطعون على من أراد النبي صلى الله عليه وسلم، فبعث إليهم فأتى بهم أسرى فأعتقهم، فقيل لهم العتقاء.

ولما فتح عمرو بن العاص مصر، وكان ذلك يوم الجمعة مستهل المحرم سنة عشرين للهجرة، كان العتقاء معه معدودين في أهل الراية، وإنما قيل له أهل الراية لأن العرب كانوا يجعلون لكل بطن منهم راية يعرفون بها، ولم يكن لكل بطن من بطون أهل الراية من العدد ما يجعلون لكل بطن راية، فقال عمرو بن العاص: أنا أجعل راية لا أنسبها إلى أحد، فتكون دعوتكم عليها، ففعلوا، فكان هذا الاسم كالنسب الجامع، وعليها كان ديوانهم. ولما فتحوا الإسكندرية ورجع عمرو إلى الفسطاط اختط الناس بها خططهم، ثم جاء العتقاء بعدهم فلم يجدوا موضعاً يختطون فيه عند أهل الراية، فشكوا ذلك إلى عمرو، فقال معاوية ين حديج، وكان يتولى أمر الخطط: أرى لكم أن تظهروا على هذه القبائل فتتخذونه منزلاً وتسمونه الظاهر، ففعلوا ذلك، فقيل له " أهل الظاهر " لذلك، ذكر هذا كله أبو عمرو محمد بن يوسف بن يعقوب التجيبي في كتاب " خطط مصر " وهي فائدة غريبة يحتاج إليها، فأحببت ذكرها.

أبو سليمان الداراني

أبو سليمان عبد الرحمن بن أحمد بن عطية العنسي، الداراني الزاهد المشهور أحد رجال الطريقة؛ كان من جلة السادات، وأرباب الجد في المجاهدات.

ومن كلامه: من أحسن في نهاره كفي في ليله، ومن أحسن في ليله كفي في نهاره، ومن صدق في ترك شهوة ذهب الله سبحانه وتعالى بها من قلبه، والله تعالى أكرم من أن يعذب قلباً بشهوة تركت له. ومن كلامه: أفضل الأعمال خلاف هوى النفس. وقال: نمت ليلة عن وردي فإذا بحوراء تقول لي: تنام وأنا أربى لك في الخدور منذ خمسمائة عام؟ وله كل معنى مليح. وكانت وفاته سنة خمس ومائتين، وقيل سنة خمس عشرة ومائتين، رضي الله عنه.

والعنسي: بفتح العين المهملة وسكون النون وبعدها سين مهملة، هذه النسبة إلى بني عنس بن مالك بن أدد حيٍ من مذحج ينسب أبو سليمان إليها.

والداراني: بفتح الدال المهملة وبعد الألف راء مفتوحة وبعد الألف الثانية نون، هذه النسبة إلى داريا وهي قرية بغوطة دمشق، والنسبة إليها على هذه الصورة من شواذ النسب، والياء في داريا مشددة.

الفوراني

أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن فوران الفوراني المروزي الفقيه الشافعي؛ كان مقدم الفقهاء الشافعية بمرو، وهو أصولي فروعي، أخذ الفقه عن أبي بكر القفال الشاشي، وصنف في الأصول والمذهب والخلاف والجدل والملل والنحل، وانتهت إليه رياسة الطائفة الشافعية، وطبق الأرض بالتلامذة، وله في المذهب الوجوه الجيدة، وصنف في المذهب كتاب " الإبانة " وهو كتاب مفيد. وسمعت بعض فضلاء المذهب يقول: إن إمام الحرمين كان يحضر حلقته وهو شاب يومئذ، وكان أبو القاسم لا ينصفه ولا يصغي إلى قوله لكونه شاباً، فبقي في نفسه منه شيء، فمتى قال في "نهاية المطلب " وقال بعد المصنفين كذا وغلط في ذلك، وشرع في الوقوع فيه، فمراده أبو القاسم الفوراني.

وكانت وفاته في شهر رمضان سنة إحدى وستين وأربعمائة بمدينة مرو، وهو ابن ثلاث وسبعين سنة، رحمه الله تعالى.

وذكره الحافظ عبد الغافر بن إسماعيل بن عبد الغافر الفارسي في " سياق تاريخ نيسابور " وأثنى عليه.

والفوراني: بضم الفاء وسكون الواو وفتح الراء وبعد الألف نون، هذه النسبة إلى جده فوران المذكور، هكذا ذكره السمعاني.

أبو سعد المتولي

أبو سعد عبد الرحمن بن محمد واسمه مأمون بن علي، وقيل إبراهيم، المعروف بالمتولي الفقيه الشافعي النيسابوري؛ كان جامعاً بين العلم والدين وحسن السيرة وتحقيق المناظرة، له يد قوية في الأصول والفقه والخلاف، تولى التدريس بالمدرسة النظامية بمدينة بغداد بعد وفاة الشيخ أبي إسحاق الشيرازي، رحمه الله تعالى، ثم عزل عنها قي بقية سنة ست وسبعين وأربعمائة وأعيد أبو النصر ابن الصباغ صاحب " الشامل "، ثم عزل ابن الصباغ في سنة سبع وسبعين وأعيد أبو سعد المذكور واستمر عليها إلى حين وفاته.

"وذكر أبو عبد الله محمد بن عبد الملك بن إبراهيم الهمذاني في كتابه الذي ذيله على طبقات الشيخ أبي إسحاق الشيرازي في ذكر الفقهاء ما مثاله: حدثني أحمد بن سلامة المحتسب قال: لما جلس للتدريس أبو سعد عبد الرحمن واسمه مأمون بن علي المتولي بعد شيخنا، يعني أبا إسحاق الشيرازي، أنكر عليه الفقهاء استناده موضعه، وأرادوا منه أن يستعمل الأدب في الجلوس دونه، ففطن وقال له: اعلموا أنني لم أفرح في عمري إلا بشيئين: أحدهما إني جئت من وراء النهر ودخلت سرخس وعلي أثوابٌ أخلاقٌ لا تشبه ثياب أهل العلم، فحضرت مجلس أبي الحارث ابن أبي الفضل السرخسي، وجلست في أخريات أصحابه، فتكلموا في مسألة فقلت واعترضت، فلما انتهيت في نوبتي أمرني أبو الحارث بالتقدم، فتقدمت، ولما عادت نوبتي استدناني وقربني حتى جلست إلى جنبه، وقام بي وألحقني بأصحابه، فاستولى علي الفرح، والشيء الثاني حين أهلت للاستناد في موضع شيخنا أبي إسحاق، رحمه الله تعالى، فذلك أعظم النعم، وأوفى القسم ".

وتخرج على أبي سعد جماعة من الأئمة، وأخذ الفقه بمرو عن أبي القاسم عبد الرحمن الفوراني – المذكور قبله – وبمرو الروذ عن القاضي حسين بن محمد، وببخارى عن أبي سهل أحمد بن علي الأبيوردي، وسمع الحديث وصنف في الفقه كتاب " تتمة الإبانة " تمم به " الإبانة " تصنيف شيخه الفوراني لكنه لم يكلمه وعاجلته المنية قبل إكماله، وكان قد انتهى فيه إلى كتاب الحدود، وأتمه من بعده جماعة منهم أبو الفتوح أسعد العجلي – المذكور في حرف الهمزة –وغيره، ولم يأتوا فيه بالمقصود ولا سلكوا طريقه، فإنه جمع في كتابه الغرائب من المسائل والوجوه الغريبة التي لا تكاد توجد في كتاب غيره، وله في الفرائض مختصر صغير وهو مفيد جداً، وله في الخلاف طريقة جامعة لأنواع المآخذ، وله في أصول الدين أيضاً تصنيف صغير، وكل تصانيفه نافعة.

وكانت ولادته سنة ست وعشرين وأربعمائة، وقيل سنة سبع وعشرين، بنيسابور، وتوفي ليلة الجمعة ثامن عشر شوال سنة ثمان وسبعين وأربعمائة

ببغداد، ودفن بمقبرة باب أبرز، رحمه الله تعالى.

والمتولي: بضم الميم وفتح التاء المثناة من فوقها والواو وتشديد اللام المكسورة، و لم أعلم لأي معنى عرف بذلك، و لم يذكر السمعاني هذه النسبة.

فخر الدين ابن عساكر

أبو منصور عبد الرحمن بن محمد بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين الدمشقي الملقب فخر الدين المعروف بابن عساكر الفقيه الشافعي؛ كان إمام وقته في علمه ودينه، تفقه على الشيخ قطب الدين أبي المعالي مسعود النيسابوري - الآتي ذكره في حرف الميم إن شاء الله تعالى - وصحبه زماناً وانتفع بصحبته وتزوج ابنته ثم استقل بنفسه ودرّس بالقدس زماناً وبدمشق واشتغل عليه خلق كثير وتخرجوا عليه وصاروا أئمة وفضلاء. وكان مسدداً في الفتاوى، وهو ابن أخي الحافظ أبي القاسم علي ابن عساكر صاحب " تاريخ دمشق " - الآتي ذكره إن شاء الله تعالى - وخرج من بيتهم جماعة من العلماء والرؤساء.

وكانت ولادته سنة خمسين وخمسمائة، ظناً، وكتب بخطه أن مولده سنة خمسين وخمسمائة. وتوفي في العاشر من رجب يوم الأربعاء سنة عشرين وستمائة بدمشق، رحمه الله تعالى، وزرت قبره مراراً بمقابر الصوفية ظاهر دمشق.

أبو القاسم الزجاجي

أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي النحوي البغدادي داراً ونشأة، النهاوندي أصلاً ومولداً؛ كان إماماً في علم النحو، وصنف فيه كتاب " الجمل الكبرى " وهو كتاب نافع لولا طوله بكثرة الأمثلة. أخذ النحو عن محمد بن العباس اليزيدي وأبي بكر ابن دريد وأبي بكر ابن الأنباري، وصحب أبا إسحاق إبراهيم بن السري الزجاج - وقد تقدم ذكره - فنسب إليه وعرف به، وسكن دمشق وانتفع الناس به وتخرجوا عليه. وتوفي في رجب سنة سبع وثلاثين، وقيل تسع وثلاثين وثلثمائة، وقيل في شهر رمضان سنة أربعين، والأول أصح، بدمشق وقيل بطبرية، رحمه الله تعالى. وكان قد خرج من دمشق مع ابن الحارث عامل الضياع الإخشيديه فمات بطبرية.

وكتابه " الجمل " من الكتب المباركة لم يشتغل به أحد إلا وانتفع به، ويقال إنه صنفه بمكة، حرسها الله تعالى، وكان إذا فرغ من باب طاف اسبوعاً ودعا الله تعالى أن يغفر له وأن ينفع به قارئه.

والزجاجي: بفتح الزاي وتشديد الجيم وبعد الألف جيم ثانية، وقد تقدم القول في سبب هذه النسبة.

ابن يونس صاحب تاريخ مصر

أبو سعيد عبد الرحمن بن أبي الحسن أحمد بن أبي موسى يونس بن عبد الأعلى بن موسى بن ميسرة بن حفص بن حيان الصدفي المحدث المؤرخ المصري؛ كان خبيراً بأحوال الناس، ومطلعاً على تواريخهم عارفاً بما يقوله، جمع لمصر تاريخين: أحدهما وهو الأكبر يختص بالمصريين، والآخر وهو صغير يشتمل على ذكر الغرباء الواردين على مصر، وما أقصر فيهما، وقد ذيلهما أبو القاسم يحيى بن علي الحضرمي وبنى عليهما.

وهذا أبو سعيد المذكور هو حفيد يونس بن عبد الأعلى صاحب الإمام الشافعي رضي الله عنه، والناقل لأقواله الجديدة - وسيأتي ذكره في حرف الياء إن شاء الله تعالى - وقال أبو الحسن علي بن عبد الرحمن المذكور: كانت ولادة أبي في سنة إحدى وثمانين ومائتين.

وكانت وفاته يوم الأحد ودفن يوم الاثنين لست وعشرين ليلة خلت من جمادى الآخرة سنة سبع وأربعين وثلثمائة، رحمه الله تعالى، وصلى عليه أبو القاسم ابن الحجاج، ورثاه أبو عيسى عبد الرحمن بن إسماعيل بن عبد الله بن سليمان الخولاني الخشّاب المصري النحوي العروضي بقوله:

بثثت علمك تشريقاً وتغريباً ... وعدت بعد لذيذ العيش مندوبا

أبا سعيد وما نألوك أن نشرت ... عنك الدواوين تصديقاً وتصويبا

ما زلت تلهج بالتاريخ تكتبه ... حتى رأيناك في التاريخ مكتوبا

أرّخت موتك في ذكري وفي صحفي لمن يؤرخني إذ كنت محسوبا
نشرت عن مصر من سكانها علماً مبجّلاً بجمال القوم منصوبا
كشفت عن فخرهم للناس وما سجعت ورق الحمام على الأغصان تطريبا
أعربت عن عرب نقّبت عن نجبٍ سارت مناقبهم في الناس تنقيبا
أنشرت ميتهم حيّاً بنسبته حتى كأن لم يمت إذ كان منسوبا
إن المكارم للإحسان موجبة وفيك قد ركّبت يا عبد تركيبا
حجبت عنا وما الدنيا بمظهرة شخصاً وإن جلّ إلا عاد محجوبا
كذلك الموت لا يبقي على أحدٍ مدى الليالي من الأحباب محبوبا

-وسيأتي ذكر ولده أبي الحسن علي بن المنجم صاحب الزيج إن شاء الله تعالى -.

والصدفي: بفتح الصاد والدال المهملتين وبعدهما فاء، هذه النسبة إلى الصدف بن سهل، وهي قبيلة كبيرة من حمير نزلت مصر. والصدف بكسر الدال، وإنما تفتح في النسب كما قالوا في النسب إلى نمرة نمري، وهي قاعدة مطردة، وفيه لغة أخرى أنه الصدف - بفتح الدال.

وتوفي أبو عيسى عبد الرحمن بن إسماعيل صاحب الأبيات المذكورة في صفر سنة ست وستين وثلثمائة، رحمه الله تعالى.

ابن الأنباري النحوي

أبو البركات عبد الرحمن بن أبي الوفاء محمد بن عبيد الله بن محمد بن عبيد الله بن أبي سعيد محمد بن الحسن بن سليمان الأنباري، الملقب كمال الدين، النحوي؛ كان من الأئمة المشار إليهم في علم النحو، وسكن بغداد من صباه إلى أن مات، وتفقه على مذهب الشافعي، رضي الله عنه، بالمدرسة النظامية وتصدر لإقراء النحو بها، وقرأ اللغة على أبي منصور ابن الجواليقي، وصحب الشريف أبا السعادات هبة الله بن الشجري - الآتي ذكره في حرف الهاء إن شاء الله تعالى -وأخذ عنه وانتفع بصحبته، وتبحر في علم الأدب، واشتغل عليه خلق كثير وصاروا علماء، ولقيت جماعة منهم، وصنف في النحو كتاب " أسرار العربية " وهو سهل المأخذ كثير الفائدة، وله كتاب " الميزان " في النحو أيضاً، وله كتاب في " طبقات الأدباء " جمع فيه المتقدمين والمتأخرين مع صغر حجمه، وكتبه كلها نافعة، وكان نفسه مباركاً ما قرأ عليه أحد إلا وتميز. وانقطع في آخر عمره في بيته مشتغلاً بالعلم والعبادة وترك الدنيا ومجالسة أهلها، ولم يزل على سيرة حميدة.

وكانت ولادته في شهر ربيع الآخر سنة ثلاث عشرة وخمسمائة، وتوفي ليلة الجمعة تاسع شعبان سنة سبع وسبعين وخمسمائة ببغداد، ودفن بباب أبرز بتربة الشيخ أبي إسحاق الشيرازي، رحمه الله تعالى.

والأنباري: بفتح الهمزة وسكون النون وبعدها باء موحدة وبعد الألف راء، هذه النسبة إلى الأنبار، بلدة قديمة على الفرات، بينها وبين بغداد عشرة فراسخ، وسميت الأنبار لأن كسرى كان يتخذ فيها أنابير الطعام، والأنابير: جمع الأنبار جمع نبر بكسر النون وبعدها راء، مثل نقس وأنقاس، والنبر: الهري الذي تجعل فيه الغلة، والنقس: بكسر النون وسكون القاف وبعده سين مهملة وهو المداد.

أبو الفرج ابن الجوزي

أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسن علي بن محمد بن علي بن عبيد الله بن عبد الله بن حمادى بن أحمد بن محمد بن جعفر الجوزي بن عبد الله بن القاسم بن النضر بن القاسم بن محمد بن عبد الله بن عبد الله بن عبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، وبقية النسب معروف، القرشي التيمي البكري البغدادي الفقيه الحنبلي الواعظ الملقب جمال الدين الحافظ؛ كان علاّمة عصره وإمام وقته في الحديث وصناعة الوعظ. صنف في

فنون عديدة، منها " زاد المسير في علم التفسير " أربعة أجزاء أتى فيه بأشياء غريبة، وله في الحديث تصانيف كثيرة، وله " المنتظم " في التاريخ، وهو كبير، وله " الموضوعات " في أربعة أجزاء، ذكر فيها كل حديث موضوع، وله " تلقيح فهوم الأثر " على وضع كتاب " المعارف " لابن قتيبة، وبالجملة فكتبه أكثر من أن تعد. وكتب بخطه شيئاً كثيراً، والناس يغالون في ذلك حتى يقولوا: إنه جمعت الكراريس التي كتبها وحسبت مدة عمره وقسمت الكراريس على المدة فكان ما خص كل يوم تسع كراريس، وهذا شيء عظيم لا يكاد يقبله العقل. ويقال إنه جمعت براية أقلامه التي كتب بها حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فحصل منها شيء كثير، وأوصى أن يسخن بها الماء الذي يغسل به بعد موته، ففعل ذلك، فكفت وفضل منها. وله أشعار لطيفة، أنشدني له بعض الفضلاء يخاطب أهل بغداد:

عذيري من فتية بالعراق ... قلوبهم بالجفا قلب

يرون العجيب كلام الغريب ... وقول القريب فلا يعجب

ميازيبهم إن تندت بخيرٍ ... إلى غير جيرانهم تقلب

وعذرهم عند توبيخهم ... مغنية الحي ما تطرب

وله أشعار كثيرة. وكانت له في مجالس الوعظ أجوبة نادرة، فمن أحسن ما يحكى عنه أنه وقع النزاع ببغداد بين أهل السنة والشيعة في المفاضلة بين أبي بكر وعلي، رضي الله عنهما، فرضي الكل بما يجيب به الشيخ أبو الفرج، فأقاما شخصاً سأله عن ذلك وهو على الكرسي في مجلس وعظه، فقال: أفضلهما من كانت ابنته تحته، ونزل في الحال حتى لا يراجع في ذلك، فقالت السنة: هو أبو بكر لأن ابنته عائشة رضي الله عنها تحت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقالت الشيعة: هو علي لأن فاطمة ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا من لطائف الأجوبة، ولو حصل بعد الفكر التام وإمعان النظر كان في غاية الحسن فضلاً عن البديهة. وله محاسن كثيرة يطول شرحها. وكانت ولادته بطريق التقريب سنة ثمان، وقيل عشر وخمسمائة. وتوفي ليلة الجمعة ثاني عشر شهر رمضان سنة سبع وتسعين وخمسمائة ببغداد ودفن بباب حرب، وتوفي والده في سنة أربع عشرة وخمسمائة رحمهما الله تعالى.

وحمادى: بضم الحاء المهملة وتشديد الميم وبعد الألف دال مهملة مفتوحة وياء مفتوحة.

والجوزي: بفتح الجيم وسكون الواو وبعدها زاي، هذه النسبة إلى فرضة الجوز، وهو موضع مشهور.

ورأيت بخطي في مسوداتي أن جده كان من مشرعة الجوز، إحدى محال بغداد بالجانب الغربي، والله أعلم.

وقال ابن النجار في تاريخ بغداد: كان أبو الفرج ابن الجوزي يقول: لا أتحقق مولدي غير أن والدي مات سنة أربع عشرة وقالت الوالدة: كان لك من العمر نحو ثلاث سنين. وكان والده يعمل الصفر بنهر القلايين، والله أعلم.

وكان ولده محيي الدين أبو محمد يوسف بن عبد الرحمن محتسب بغداد وتولى تدريس المدرسة المستنصرية لطائفة الحنابلة، وكان يتردد في الرسائل إلى الملوك، وصار أستاذ دار الخلافة، ومولده ليلة السبت ثالث عشر ذي القعدة سنة ثمانين وخمسمائة ببغداد، وتوفي في وقعة التتر قتيلاً سنة ثلاث وخمسين وستمائة.

وكان سبطه شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزغلي الواعظ المشهور حنفي المذهب، وله صيت وسمعة في مجالس وعظه وقبول عند الملوك وغيرهم، وصنف تاريخاً كبيراً رأيته بخطه في أربعين مجلداً سماه " مرآة الزمان "، وتوفي ليلة الثلاثاء حادي عشرين ذي الحجة سنة أربع وخمسين وستمائة بدمشق بمنزله بجبل قاسيون ودفن هناك، ومولده سنة إحدى وثمانين وخمسمائة ببغداد، رحمه الله تعالى، وكان هو يقول: أخبرتني أمي أن مولدي سنة اثنتين وثمانين.

السهيلي

أبو القاسم وأبو زيد عبد الرحمن بن الخطيب أبي محمد عبد الله ابن الخطيب أبي عمر أحمد بن أبي الحسن أصبغ بن حسين بن سعدون بن رضوان بن فتوح، وهو الداخل إلى الأندلس. - قال الحافظ أبو الخطاب ابن دحية: هكذا أملى علي نسبه - الخثعمي السهيلي الإمام المشهور صاحب كتاب " الروض الأنف " في شرح سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وله كتاب " التعريف والإعلام فيما أبهم في القرآن من الأسماء الأعلام "، وله كتاب " نتائج الفكر " ومسألة رؤية الله تعالى في المنام، ورؤية النبي صلى الله عليه وسلم، ومسألة السر في عور الدجال، ومسائل كثيرة مفيدة. وقال ابن دحية: أنشدني وقال: إنه ما سأل الله تعالى بها حاجةً إلا أعطاه إياها وكذلك من استعمل إنشادها وهي:

يا من يرى ما في الضمير ويسمع ... أنت المعد لكل ما يتوقع
يا من يرجى للشدائد كلها ... يا من إليه المشتكى والمفزع
يا من خزائن رزقه في قول كن ... امنن فإن الخير عندك أجمع
ما لي سوى فقري إليك وسيلةٌ ... فبالإفتقار إليك فقري أدفع
ما لي سوى قرعي لبابك حيلةٌ ... فلئن رددت فأي باب أقرع
ومن الذي أدعو وأهتف باسمه ... إن كان فضلك عن فقيرك يمنع
حاشا لمجدك أن يقنط عاصياً ... الفضل أجزل والمواهب أوسع

وأشعاره كثيرة وتصانيفه ممتعة، وكان ببلده يتسوغ بالعفاف ويتبلغ بالكفاف، حتى نمي خبره إلى صاحب مراكش فطلبه إليها وأحسن إليه، وأقبل بوجه الإقبال عليه، وأقام بها نحو ثلاثة أعوام.

ومولده سنة ثمان وخمسمائة بمدينة مالقة. وتوفي بحضرة مراكش يوم الخميس ودفن وقت الظهر، وهو السادس والعشرون من شعبان سنة إحدى وثمانين وخمسمائة، رحمه الله تعالى؛ وكان مكفوفاً.

والخثعمي: بفتح الخاء الموحدة وسكون الثاء المثلثة وفتح العين المهملة وبعدها ميم، هذه النسبة إلى خثعم بن أنمار، وهي قبيلة كبيرة، وفيه اختلاف.

والسهيلي: بضم السين المهملة وفتح الهاء وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها لام، هذه النسبة إلى سهيل، وهي قرية بالقرب من مالقة، سميت باسم الكوكب لأنه لا يرى في جميع بلاد الأندلس إلا من جبل مطلٍ عليها.

ومالقة: بفتح الميم وبعد الألف لام مفتوحة ثم قاف مفتوحة وبعدها هاء، وهي مدينة كبيرة بالأندلس، وقال السمعاني: بكسر اللام وهو غلط.

أبو مسلم الخرساني

أبو مسلم عبد الرحمن بن مسلم، وقيل عثمان، الخرساني القائم بالدعوة العباسية، وقيل هو إبراهيم بن عثمان بن يسار بن شذوس بن جودرن من ولد بزرجمهر بن البختكان الفارسي، قال له إبراهيم الإمام ابن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب: غير اسمك فما يتم لنا الأمر حتى تغير اسمك، فسمى نفسه عبد الرحمن، والله أعلم.

كان أبوه من رستاق فريذين من قرية تسمى سنجرد وكانت هذه القرية له مع عدة قرى، وقيل: إنه من قرية يقال لها ماخوان، على ثلاث فراسخ من مرو، وكان بعض الأحيان يجلب إلى الكوفة مواشي، ثم إنه قاطع على رستاق فريذين، فلحقه فيه عجز، وأنفذ عامل البلد إليه من يشخصه إلى الديوان، وكان له عند أذين بنداذ ابن وستجان جارية اسمها وشيكة جلبها من الكوفة، فأخذ الجارية معه وهي حامل، وتنحى عن مؤدى خراجه آخذاً إلى أذربيجان، فاجتاز على رستاق فاتق بعيسى بن معقل بن عمير أخي إدريس بن معقل جد أبي دلف العجلي فأقام عنده أياماً، فرأى في منامه كأنه جلس للبول فخرج من إحليله نار وارتفعت في السماء وسدت الأفاق وأضاءت الأرض ووقعت بناحية المشرق، فقص رؤياه على عيسى بن معقل فقال له: ما أشك أن في بطنها غلاماً، ثم فارقه ومضى إلى أذربيجان ومات بها.

ووضعت الجارية أبا مسلم، ونشأ عند عيسى، فلما ترعرع اختلف مع ولده إلى المكتب، فخرج أديباً لبيباً يشار إليه في صغره. ثم إنه اجتمع على عيسى بن معقل وأخيه إدريس جد أبي دلف العجلي بقايا من الخراج تقاعدا من أجلها عن حضور مؤدى الخراج بأصبهان، فأنهى عامل أصبهان خبرهما إلى خالد بن عبد الله القسري والي العراقين، فأنفذ خالد من الكوفة من حملهما إليه بعد قبضه عليهما، فتركهما خالد في السجن، فصادفا فيه عاصم بن يونس العجلي محبوساً بسبب من أسباب الفساد، وقد كان عيسى بن معقل قبل أن يقبض عليه أنفذ أبا مسلم إلى قرية من رستاق فاتق لاحتمال غلتها، فلما اتصل به خبر عيسى بن معقل باع ما كان احتمله من الغلة وأخذ ما كان اجتمع عنده من ثمنها ولحق بعيسى بن معقل، فأنزله عيسى بداره في بني عجل، وكان يختلف إلى السجن ويتعهد عيسى وإدريس ابني معقل. وكان قد قدم الكوفة جماعة من نقباء الإمام محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب – الآتي ذكره إن شاء الله تعالى – مع عدة من الشيعة الخرسانية، فدخلوا على العجليين السجن مسلمين، فصادفوا أبا مسلم عندهم، فأعجبهم عقله ومعرفته وكلامه وأدبه، ومال هو إليهم ثم عرف أمرهم وأنهم دعاة، واتفق مع ذلك هرب عيسى وإدريس من السجن، فعدل أبو مسلم من دور بني عجل إلى هؤلاء النقباء، ثم خرج معهم إلى مكة، حرسها الله تعالى، فأورد النقباء على إبراهيم بن محمد الإمام – المذكور في ترجمة أبيه محمد بن علي وقد تولى الإمامة بعد وفاة أبيه –عشرين ألف دينار ومائتي ألف درهم، وأهدوا إليه أبا مسلم، فأعجب به وبمنطقه وعقله وأدبه، وقال لهم: هذا عضلة من العضل. وأقام أبو مسلم عند الإمام إبراهيم يخدمه حضراً وسفراً.

ثم إن النقباء عادوا إلى إبراهيم الإمام وسألوه رجلاً يقوم بأمر خراسان، فقال: إني قد جربت هذا الأصبهاني وعرفت ظاهره وباطنه فوجدته حجر الأرض، ثم دعا أبا مسلم وقلده الأمر وأرسله إلى خراسان وكان من أمره ما كان. وكان إبراهيم الإمام قد أرسل إلى أهل خراسان سليمان بن كثير الحراني يدعوهم إلى أهل البيت، فلما بعث أبا مسلم أمر من هناك بالسمع والطاعة له، وأمره أن لا يخالف سليمان بن كثير، فكان أبو مسلم يختلف ما بين إبراهيم وسليمان.

وقال المأمون، وقد ذكر أبو مسلم عنده: أجل ملوك الأرض ثلاثة، وهم اللذين قاموا بثقل الدول: الاسكندر وأردشير وأبو مسلم الخراساني.

وكان أبو مسلم يدعو الناس إلى رجل من بني هاشم وأقام على ذلك سنين وفعل في خراسان وتلك البلاد ما هو مشهور ولا حاجة إلى الإطالة بذكره.

وكان مروان بن محمد، آخر ملوك بني أمية، يحتال على الوقوف على حقيقة الأمر وأن أبا مسلم إلى من يدعو منهم، فلم يزل على ذلك حتى ظهر له أن الدعاء لإبراهيم الإمام، وكان مقيماً عند اخوته وأهله بالحميمة – الآتي ذكرها في ترجمة جده علي بن عبد الله بن العباس رضي الله عنهما – فأرسل إليه وقبض عليه وأحضره إلى حران فأوصى إبراهيم بالأمر من بعده لأخيه عبد الله السفاح. ولما وصل إبراهيم إلى حران حبسه مروان بها ثم غمه بجراب طرح فيه نورة وجعل فيه رأسه وسد عليه إلى أن مات، وذلك في صفر سنة اثنتين وثلاثين ومائة، وقيل إنه قتله غير هذه القتلة لكن هذا هو الأكثر، وكان عمره إحدى وخمسين سنة، وكان دفنه هناك داخل حران.

ثم صار أبو مسلم يدعو الناس إلى أبي العباس عبد الله بن محمد الملقب السفاح. وكان بنو أمية يمنعون بني هاشم من نكاح الحارثية للخبر المروي في ذلك أن هذا الأمر يتم لابن الحارثيه، فلما قام عمر بن عبد العزيز بالأمر أتاه محمد بن علي وقال: إني أردت أن اتزوج ابنة خالي من بني الحارث بن كعب، أفتأذن لي؟ قال: تزوج من شئت، فتزوج ريطة بنت عبيد الله بن عبد الله بن عبد المدان بن الركال بن قطن بن زياد بن الحارث بن كعب، فأولدها السفاح المذكور، فتولى الخلافة.

ووصف المدائني أبا مسلم فقال: كان قصيراً أسمر جميلاً حلواً نقي البشرة أحور العين عريض الجبهة حسن اللحية وافرها طويل الشعرة طويل الظهر قصير الساق والفخذ خافض الصوت، فصيحاً بالعربية والفارسية حلو المنطق راوية للشعر عالماً بالأمور، لم ير ضاحكاً ولا مازحاً إلا في وقته ولا يكاد يقطب في شيء من أحواله، تأتيه الفتوحات العظام فلا يظهر عليه أثر السرور، وتنزل به الحوادث الفادحة فلا يرى مكتئباً، وإذا غضب لم يستفزه الغضب، ولا يأتي النساء في السنة إلا مرة واحدة، ويقول: الجماع جنون ويكفي الإنسان أن يجن في السنة مرة، وكان من أشد الناس غيرةً " لا يدخل قصره غيره، وكان في القصر كوى يطرح لنسائه منها ما يحتجن إليه، قالوا: وليلة زفت أليه امرأته أمر بالبرذون الذي ركبته فذبح وأحرق سرجه، لئلا يركبه ذكر بعدها، وقال له ابن شبرمة: أصلح الله الأمير، من أشجع الناس؟ قال: كل قوم في إقبال دولتهم؛ وكان أقل الناس طمعاً، واكثرهم طعاماً،

ولما حج نادى في الناس: برئت الذمة ممن أوقد ناراً، فكفى العسكر ومن معه أمر طعامهم وشرابهم في ذهابهم وإيابهم ومنصرفهم، وهربت الأعراب، فلم يبق في المناهل منهم أحد لما كانوا يسمعونه من سفكه الدماء: قتل في دولته ستمائة ألف صبراً، فقيل لعبد الله بن المبارك: أبو مسلم خير أو الحجاج؟ قال: لا أقول إن أبا مسلم خيراً من أحد، ولكن الحجاج كان شراً منه ".

وقيل له: بم بلغت ما بلغت؟ فقال: ما أخرت أمر يومي إلى غد قط. وذكر الزمخشري في كتاب" ربيع الأبرار " في باب " الأسنان وذكر الصبا والشباب " أن أبا مسلم نهض للدعوة وهو ابن ثماني عشرة سنة، وقتل وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة. وقال الزمخشري أيضاً في كتابه المذكور انه كان عظيم القدر – يعني أبا مسلم – وأنه قدم مرة فتلقاه ابن أبي ليلى القاضي المشهور فقبل يده، فقيل له في ذلك فقال: قد لقي أبو عبيدة ابن الجراح عمر ابن الخطاب رضي الله عنهما فقبل يده، فقيل له: أتشبه أبا مسلم بعمر؟ فقال: أتشبهونني بأبي عبيدة؟ وكان له إخوة من جملتهم يسار جد علي بن حمزة بن عمارة بن حمزة بن يسار الأصبهاني.

وكانت ولادته في سنة مائة للهجرة، والخليفة يومئذ عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، في رستاق فاتق، بقرية يقال لها ناوانه، ويدعي أهل مدينة جي الأصبهانية أن مولده بها. ولما ظهر بخراسان كان أول ظهوره بمرو يوم الجمعة لتسع بقين، وقال الخطيب لخمس بقين من شهر رمضان سنة تسع وعشرين ومائة، والوالي بخراسان يومئذ نصر بن سيار الليثي من جهة مروان بن محمد آخر ملوك بني أمية، فكتب نصر إلى مروان:

أرى جذعاً إن يثن لم يقو ريضٌ   عليه، فبادر قبل أن يثني الجذع

وكان مروان مشغولاً عنه بغيره من الخوارج بالجزيرة الفراتية وغيرها منهم الضحاك بن قيس الحروري وغيره فلم يجبه عن كتابه، وأبو مسلم يوم ذاك في خمسين رجلاً، فكتب إليه ثانية قول أبي مريم عبد الله بن إسماعيل البجلي الكوفي وهو من جملة أبيات كثيرة، وكان أبو مريم منقطعاً إلى نصر بن سيار وكان له مكتب بخراسان:

أرى خلل الرماد وميض نارٍ   ويوشك أن يكون لها ضرام
فإن النار بالزندين تورى   وإن الحرب أولها كلام
لئن لم يطفها عقلاء قوم   يكون وقودها جثثٌ وهام
أقول من التعجب ليت شعري   أأيقاظٌ أمية أم نيام
فإن كانوا لحينهم نياماً   فقل قوموا فقد حان القيام

وهذا مثل ما يحكى عن بعض علوية الكوفة أنه قال، لما خرج محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه على أبي جعفر المنصور وأخوه إبراهيم بن عبد الله:

أرى ناراً تشب على يفاعٍ   لها في كل ناحية شعاع
وقد رقدت بنو العباس عنها   وباتت وهي آمنةٌ رتاع
كما رقدت أمية ثم هبت   تدافع حين لا يغني الدفاع

رجعنا إلى الأول:

فانتظر ابن سيار ما يكون من مروان، فجاءه جوابه وهو يقول: إنا حين وليناك خراسان، والشاهد يرى ما يرى الغائب، فحسم الثؤلول قبلك، فقال نصر حين أتاه الجواب: قد أعلمكم أن لا نصر عنده، ثم كتب ثانياً فأبطأ عنه الجواب. واشتدت شوكة أبي مسلم فهرب نصر من خراسان وقصد العراق، فمات في الطريق بناحية ساوة، وقيل أنه مرض بالري وحمل إلى ساوة وهي بالقرب من همذان، فمات بها في شهر ربيع الأول سنة إحدى وثلاثين ومائة، وكانت ولايته بخراسان عشر سنين.

وفي يوم الثلاثاء لليلتين بقيتا من المحرم سنة اثنتين وثلاثين ومائة وثب أبو مسلم على علي بن جديع بن علي الكرماني بنيسابور فقتله بعد أن قيده

وحبسه، وقعد في الدست وسلم عليه بالإمرة وصلى وخطب ودعا للسفاح أبي العباس عبد الله بن محمد أول خلفاء بني العباس، وصفت له خراسان وانقطعت عنها ولاية بني أمية. ثم سير العساكر لقتال مروان بن محمد، وظهر السفاح بالكوفة وبويع بالخلافة ليلة الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الآخر وقيل الأول سنة اثنتين وثلاثين ومائة، وقيل غير هذا التاريخ.

وتجهزت العساكر الخراسانية وغيرها من جهة السفاح لقصد مروان بن محمد ومقدمها عبد الله بن علي عم السفاح، فتقدم مروان إلى الزاب، النهر الذي بين الموصل وإربل، وكانت الوقعة على كشاف – بضم الكاف وهي قرية هناك –، وانكسر عسكر مروان وهرب إلى الشام، فتبعه عبد الله بجيوشه، فهرب إلى مصر، فأقام عبد الله بدمشق وأرسل جيشاً وراء مروان مع الأصفر – وقيل: مصفر – وعامر بن إسماعيل الجرجاني.

فلما وصل إلى بوصير القرية التي عند الفيوم قتل بها ليلة الأحد لثلاث بقين من ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائة، رحمه الله تعالى، وقيل في ذي القعدة من السنة، قتله عامر المذكور، واحتزوا رأسه وبعثوه إلى السفاح، فبعثه السفاح إلى أبي مسلم وأمره يطيف به في بلاد خراسان.

وقيل لمروان: ما الذي أصارك إلى هذا؟ قال: قلة مبالاتي بكتب نصر بن سيار لما استنصرني وهو بخراسان.

فاستقل السفاح بالخلافة، وخلا له الوقت من منازع.

" وقال أبو عثمان التيمي قاضي مروان بن محمد: رأيت في منامي كأن عاتكة بنت عبد الله بن يزيد بن معاوية ناشرة شعرها وهي واقفة على مرقى بين مراقي منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي تنشد بيتين من قصيدة الأحوص التي أولها:

يا بيت عاتكة الذي أتعزّل

أين الشباب وعيشنا اللذّ الذي ... كنا به زمنا نسر ونجذل

ذهبت بشاشته وأصبح ذكره ... حزناً يعل به الفؤاد وينهل

قال أبو عثمان التيمي: فلم يكن بين ذلك وبين الحادثة على بني أمية إلا أقل من شهر.

ووجد بخط محمد بن أسعد قال: كان الخراز يقول: من أعجب أحاديث مروان بن محمد ما رواه المدائني قال: لما حاصر مروان تدمر فظفر بها وهدم دورها افضى إلى جرن طويل، فلم يشك مروان والحاضرون أن تحته كنزاً، فنبشوه فإذا امرأة مسجاة عظيمة الخلق على قفاها فوق سرير من حجارة عليها سبعون حلة منسوجة بالذهب جرباناتها، لها غدائر من رأسها إلى رجليها، فذرع قدمها فكانت عظيمة الساق، وكان طولها سبعة أذرع، وإذا عند رأسها صفيحة من نحاس مكتوب عليها بالحميرية، فطلب من قرأه فإذا فيه: أنا تدمر بنت حسان بن أذينة بن السميدع بن هرم العماليقي، من دخل علي بيتي هذا فأزعجني منه حتى يراني أدخل الله عليه المهانة والذل والصغار؛ فلما قرىء المكتوب على مروان عظم عليه وندم على ما كان منه وتطير بذلك وجعل يسترجع، ثم أمر بطبق الجرن وأن يرد إلى موضعه، وما كان بين ذلك وبين الظفر به وزوال الملك واستباحة حريمه إلا قليل ".

وكان السفاح كثير التعظيم لأبي مسلم لما صنعه ودبره، وكان أبو مسلم عند ذلك ينشد في كل وقت:

أدركت بالحزم والكتمان ما عجزت ... عنه ملوك بني مروان إذ حشدوا

ما زلت أسعى بجهدي في دمارهم ... والقوم في غفلة بالشام قد رقدوا

حتى ضربتهم بالسيف فانتبهوا ... من نومةٍ لم ينمها قبلهم أحد

ومن رعى غنماً في أرض مسبعةٍ ... ونام عنها تولى رعيها الأسد

ولما مات السفاح في ذي الحجة سنة ست وثلاثين ومائة بعلة الجدري – وكانت وفاته بالأنبار – وتولى الخلافة أخوه أبو جعفر المنصور يوم الأحد لثلاث عشرة ليلة خلت من ذي الحجة من السنة وهو بمكة، صدرت من أبي مسلم أسباب وقضايا غيرت قلب المنصور عليه فعزم على قتله، وبقي حائراً بين الاستبداد برأيه في أمره أو الاستشارة، فقال يوماً لسلم بن قتيبة بن مسلم الباهلي: ما ترى في أمر أبي مسلم؟ قال: " لو كان فيهما آلهة إلا

الله لفسدتا " الأنبياء:22 " فقال: حسبك يا ابن قتيبة، لقد أودعتها أذناً واعية.

وكان أبو مسلم قد حج، فلما عاد نزل الحيرة التي عند الكوفة وكان بها نصراني عمره مائتا سنة يخبر عن الكوائن، فأحضره وسمع كلامه، وكان في جملته أنه يقتل، وقال له: إن صرت إلى خراسان سلمت، فعزم على الرجوع إليها.

فلم يزل المنصور يخدعه بالرسائل حتى أحضره إليه، وكان أبو مسلم ينظر في كتب الملاحم ويجد خبره فيها وأنه مميت دولة ومحيي دولة وأنه يقتل ببلاد الروم، وكان المنصور يومئذٍ برومية المدائن التي بناها كسرى، ولم يخطر بقلب أبي مسلم أنها موضع قتله، بل راح وهمه إلى بلاد الروم، فلما دخل على المنصور رحب به ثم أمره بالانصراف إلى مخيمه، وانتظر المنصور فيه الفرص والغوائل، ثم إن أبا مسلم ركب إليه مراراً فأظهر له التجني، ثم جاءه يوماً فقيل له: إنه يتوضأ للصلاة، فقعد تحت الرواق، ورتب المنصور له جماعة يقفون وراء السرير الذي خلف أبي مسلم، فإذا عاتبه لا يظهرون فإذا ضرب يداً على يد ظهروا وضربوا عنقه؛ ثم جلس المنصور ودخل عليه أبو مسلم فسلم فرد عليه وأذن له في الجلوس وحادثه ثم عاتبه وقال: فعلت وفعلت، فقال أبو مسلم: ما يقال هذا لي بعد سعيي واجتهادي وما كان مني، فقال له: يا ابن الخبيثة إنما فعلت ذلك بجدنا وحظنا، ولو كان مكانك أمة سوداء لعملت عملك، ألست الكاتب إلي تبدأ بنفسك قبلي؟ ألست الكاتب تخطب عمتي آسيا وتزعم أنك ابن سليط بن عبد الله بن العباس؟ لقد ارتقيت لا أم لك مرتقىً صعباً. فأخذ أبو مسلم بيده يعركها ويقبلها ويعتذر إليه، فقال له المنصور وهو آخر كلامه: قتلني الله إن لم أقتلك، ثم صفق بإحدى يديه على الأخرى، فخرج إليه القوم وخبطوه بسيوفهم، والمنصور يصيح: اضربوا قطع الله أيديكم، وكان أبو مسلم قد قال عند أول ضربة: استبقني يا أمير المؤمنين لعدوك، قال: لا أبقاني الله أبداً إذاً، وأي عدو أعدى منك؟ وكان قتله يوم الخميس لخمس بقين من شعبان، وقيل لليلتين، وقيل يوم الأربعاء لسبع ليال خلون منه، سنة سبع وثلاثين ومائة، وقيل سنة ست وثلاثين، وقيل سنة أربعين وهذا القول ضعيف، وكان قتله برومية المدائن، وهي بلدة بالقرب من بغداد على دجلة بالجانب الغربي معدودة من مدائن كسرى. ولما قتله أدرجه في بساط فدخل عليه جعفر بن حنظلة فقال له المنصور: ما تقول في أمر أبي مسلم؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إن كنت أخذت من رأسه شعرة فاقتل ثم اقتل ثم اقتل، فقال المنصور: وفقك الله، هاهو في البساط، فلما نظر إليه قتيلاً قال: يا أمير المؤمنين عد هذا اليوم أول خلافتك، فأنشد المنصور:

فألقت عصاها واستقرت بها النوى ... كما قر عيناً بالإياب المسافر

ثم أقبل المنصور على من حضره، وأبو مسلم طريح بين يديه وأنشد:

زعمت أن الدين لا يقتضى ... فاستوف بالكيل أبا مجرم

اشرب بكأسٍ كنت تسقي بها ... أمر في الحلق من العلقم

وكان المنصور بعد قتله أبا مسلم كثيراً ما ينشد جلساءه قول بعضهم:

طوى كشحه عن أهل كل مشورةٍ ... وبات يناجي عزمه ثم صمما

وأقدم لما لم يجد ثم مذهباً ... ومن لم يجد بداً من الأمر أقدما

قلت: ومن ها هنا أخذ البحتري قوله في قصيدته التي مدح بها الفتح بن خاقان صاحب المتوكل على الله وقد لقي أسداً في طريقه فلم يقدم عليه الأسد فقتله الفتح، وهي من غرر قصائده والمقصود منها قوله:

فأحجم لما لم يجد فيك مطمعاً ... وأقدم لما لم يجد منك مهربا

والله أعلم.

وقد اختلف الناس في نسب أبي مسلم، فقيل إنه من العرب، وقيل من العجم، وقيل من الأكراد، وفي ذلك يقول أبو دلامة المقدم ذكره:

أبا مجرم ما غير الله نعمةً ... على عبده حتى يغيرها العبد

أفي دولة المنصور حاولت غدرةً ألا إن أهل الغدر آباؤك الكرد

أبا مجرم خوفتني القتل فانتحى عليك بما خوفتني الأسد الورد

ورومية: بضم الراء وسكون الواو وكسر الميم وفتح الياء المثناة من تحتها وبعدها هاء ساكنة، بناها الإسكندر ذو القرنين لما أقام بالمدائن، وكان قد طاف الأرض شرقاً وغرباً، كما أخبر عنه الباري تعالى في القرآن الكريم ولم يختر منها منزلاً سوى المدائن فنزلها، وبنى رومية المذكورة إذ ذاك، والله أعلم.

الخطيب ابن نباتة

الخطيب أبو يحيى عبد الرحيم بن محمد بن إسماعيل بن نباتة، الحذاقي الفارقي صاحب الخطب المشهورة؛ كان إماماً في علوم الأدب، ورزق السعادة في خطبه التي وقع الإجماع على أنه ما عمل مثلها، وفيها دلالة على غزارة علمه وجودة قريحته. وهو من أهل ميافارقين، وكان خطيب حلب وبها اجتمع بأبي الطيب المتنبي في خدمة سيف الدولة بن حمدان، وقالوا: إنه سمع عليه بعض ديوانه. وكان سيف الدولة كثير الغزوات فلهذا أكثر الخطيب من خطب الجهاد ليحض الناس عليه، ويحثهم على نصرة سيف الدولة، وكان رجلاً صالحاً.

وذكر الشيخ تاج الدين الكندي بإسناده المتصل إلى الخطيب ابن نباتة أنه قال: لما عملت خطبة المنام وخطبت بها يوم الجمعة رأيت ليلة السبت في منامي كأني بظاهر ميافارقين عند الجبانة فقلت: ما هذا الجمع؟ فقال لي قائل: هذا النبي صلى الله عليه وسلم ومعه أصحابه، فقصدت إليه لأسلم عليه، فلما دنوت منه التفت فرآني فقال: مرحباً يا خطيب الخطباء، كيف تقول؟ وأومأ إلى القبور؛ قلت: لا يخبرون بما إليه آلوا، ولو قدروا على المقال لقالوا، قد شربوا من الموت كأساً مرة، ولم يفقدوا من أعمالهم ذرة، وآلى عليهم الدهر ألية برة، ألا يجعل لهم إلى دار الدنيا كرة، كأنهم لم يكونوا للعيون قرة، ولم يعدوا في الأحياء مرة، أسكتهم والله الذي أنطقهم، وأبادهم الذي خلقهم، وسيجدهم كما أخلقهم، ويجمعهم كما فرقهم " يوم يعيد الله العالمين خلقاً جديداً، ويجعل الظالمين لنار جهنم وقوداً، يوم تكونون شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً –وأومأت عند قولي " تكونون شهداء على الناس " إلى الصحابة وبقولي " شهيداً " إلى الرسول صلى الله عليه وسلم – "" يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ""، فقال لي:أحسنت، ادن، فدنوت منه صلى الله عليه وسلم فأخذ وجهي وقبله " ثم تفل في فيَّ وقال: وفقك الله، قال: فانتبهت من النوم وبي من السرور ما يجل عن الوصف فأخبرت أهلي بما رأيت.

قال الكندي بروايته: وبقي الخطيب بعد هذا المنام ثلاثة أيام لا يطعم طعاماً ولا يشتهيه، ويوجد في فيه رائحة المسك، ولم يعش إلا مدة يسيرة. ولما استيقظ الخطيب من منامه كان على وجهه أثر نور وبهجة لم تكن قبل ذلك، وقص رؤياه على الناس، وقال: سماني رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيباً، وعاش بعد ذلك ثمانية عشر يوماً لا يستطعم فيها طعاماً ولا شراباً من أجل تلك التفلة وبركتها. وهذه الخطبة التي فيها هذه الكلمات تعرف بالمنامية لهذه الواقعة.

وهذا الخطيب لم أر أحداً من المؤرخين ذكر تاريخه في المولد والوفاة سوى ابن الأزرق الفارقي في تاريخه، فإنه قال: ولد في سنة خمس وثلاثين وثلثمائة. وتوفي في سنة أربع وسبعين وثلثمائة بميافارقين ودفن بها، رحمه الله تعالى.

ورأيت في بعض المجاميع قال الوزير أبو القاسم ابن المغربي: رأيت الخطيب ابن نباتة في المنام بعد موته فقلت له: ما فعل الله بك؟ فقال: دفع لي ورقة فيها سطران بالأحمر وهما:

قد كان أمنٌ لك من قبل ذا واليوم أضحى لك أمنان

والصفح لا يحسن عن محسن وإنما يحسن عن جاني

قال: فانتبهت من النوم وأنا أكررهما.

ونباتة: بضم النون وفتح الباء الموحدة وبعد الألف تاء مثناة من فوقها مفتوحة ثم هاء ساكنة.

والحذاقي: بضم الحاء المهملة وفتح الذال المعجمة وبعد الألف قاف، هذه النسبة إلى حذاقة بطن من قضاعة، وقال ابن قتيبة في كتاب " أخبار الشعراء ": وحذاق قبيلة من إياد، والله أعلم.

القاضي الفاضل

أبو علي عبد الرحيم ابن القاضي الأشرف بهاء الدين أبي المجد علي ابن القاضي السعيد أبي محمد الحسن بن الحسن بن أحمد بن الفرج بن أحمد اللخمي العسقلاني المولد المصري الدار، المعروف بالقاضي الفاضل الملقب مجير الدين؛ وزر للسلطان الملك الناصر صلاح الدين، رحمه الله تعالى، وتمكن منه غاية التمكن، وبرز في صناعة الإنشاء، وفاق المتقدمين، وله فيه الغرائب مع الإكثار. أخبرني أحد الفضلاء الثقات المطلعين على حقيقة أمره أن مسودات رسائله في المجلدات والتعليقات في الأوراق إذا جمعت ما تقصر عن مائة مجلد، وهو مجيد في أكثرها.

قال العماد الأصبهاني في كتاب " الخريدة " في حقه: رب القلم والبيان، واللسن واللسان، والقريحة الوقادة، والبصيرة النقادة، والبديهة المعجزة، والبديعة المطرزة، والفضل الذي ما سمع في الأوائل بمن لو عاش في زمانه لتعلق بغباره، أو جرى في مضماره، فهو كالشريعة المحمدية التي نسخت الشرائع، ورسخت بها الصنائع، يخترع الأفكار، ويفترع الأبكار، ويطلع الأنوار، ويبدع الأزهار، وهو ضابط الملك بآرائه، رابط السلك بآلائه، إن شاء أنشأ في يوم واحد بل في ساعة واحدة ما لو دون لكان لأهل الصناعة خير بضاعة، أين قس عند فصاحته؟ وابن قيس في مقام حصافته؟ ومن حاتم وعمرو في سماحته وحماسته؟ وأطال القول في تقريظه.

ونذكر له رسالة لطيفة كتبها على يد خطيب عيذاب إلى صلاح الدين يتشفع له في توليته خطابة الكرك وهي: " أدام الله السلطان الملك الناصر وثبته، وتقبل عمله بقبولٍ صالح وأنبته، وأخذ عدوه قائلاً أو بيته، وأرغم أنفه بسيفه وكبته، خدمة المملوك هذه واردة على يد خطيب عيذاب، ولما نبا به المنزل عنها، وقل عليه المرفق فيها، وسمع بهذه الفتوحات التي طبق الأرض ذكرها ووجب على أهلها شكرها، هاجر من هجير عيذاب وملحها، سارياً في ليلة أمل كلها نهار فلا يسأل عن صبحها. وقد رغب في خطابة الكرك وهو خطيب، وتوسل بالمملوك في هذا الملتمس وهو قريب، ونزع من مصر إلى الشام ومن عيذاب إلى الكرك وهذا عجيب، والفقر سائق عنيف، والمذكور عائل ضعيف، ولطف الله بالخلق بوجود مولانا لطيف، والسلام ".

وله من جملة رسالة في صفة قلعة شاهقة ولقد أبدع فيها، ويقال إنها قلعة كوكب " وهذه القلعة عقاب في عقاب، ونجم في سحاب، وهامة لها الغمامة عمامة، وأنملة إذا خضبها الأصيل كان الهلال لها قلامة ".

وملحه ونوادره كثيرة. وقوله " كان الهلال لها قلامة " أخذه من قول عبد الله بن المعتز من جملة أبياته المتقدم ذكرها في ترجمته وهو قوله:

ولاح ضوء هلال كاد يفضحنا ... مثل القلامة قد قدت من الظفر

وابن المعتز أخذه من قول عمرو بن قميئة وهو:

كأن ابن مزنتها جانحاً ... فسيط لدى الأفق من خنصر

والفسيط، بفتح الفاء وكسر السين المهملة، قلامة الظفر.

ومن كلامه في أثناء رسالة وقد كبر: " والمملوك قد وهت ركبتاه، وضعف أطيباه، وكتبت لام ألف عند قيامه رجلاه، ولم يبق من نظره إلا شفافة، ومن حديثه إلا خرافة ".

وله في النظم أيضاً أشياء حسنة، منها ما أنشده عند وصوله إلى الفرات في خدمة السلطان صلاح الدين، رحمه الله تعالى، ويتشوق نيل مصر:

بالله قل للنيل عني إنني ... لم أشف من ماء الفرات غليلا

وسل الفؤاد فإنه لي شاهد ... إن كان جفني بالدموع بخيلا

يا قلب كم خلفت ثم بثينةً ... وأعيذ صبرك أن يكون جميلا

ومن المنسوب إلى القاضي الفاضل قوله:

عتبٌ أقلب فيه طرف ترقبي فعسى يكون وراءه الإعتاب

ومن شعره أيضاً:

بتنا على حال يسر الهوى وربما لا يمكن الشرح

بوابنا الليل، وقلنا له: إن غبت عنا دخل الصبح

ولقد نظمت هذا المعنى في دوبيت وهو:

ما أطيب ليلة مضت بالسفح والوصف لها يقصر عنه شرحي

إذ قلت لها بوابنا أنت متى ما غبت نخاف من دخول الصبح

وكان كثيراً ما ينشد لابن مكنسة، وهو أبو طاهر إسماعيل بن محمد بن الحسين القرشي الإسكندري:

وإذا السعادة أحرستك عيونها نم فالمخاوف كلهن أمان

واصطد بها العنقاء فهي حبائل واقتد بها الجوزاء فهي عنان

"وكان الملك العزيز بن صلاح الدين يميل إلى القاضي الفاضل في حياة أبيه، فاتفق أن العزيز هوي قينة شغلته عن مصالحه، وبلغ ذلك والده، فأمره بتركها ومنعها من صحبته، فشق ذلك عليه، وضاق صدره، ولم يجسر أن يجتمع بها، فلما طال ذلك بينهما سيرت له مع بعض الخدم كرة عنبر، فكسرها فوجد في وسطها زر ذهب، فأفكر فيه ولم يعرف معناه، واتفق حضور القاضي، فعرفه الصورة، فعمل القاضي الفاضل في ذلك بيتين وأرسلهما إليه وهما:

أهدت لك العنبر في وسطه زرٌ من التبر دقيق اللحام

فالزر في العنبر معناهما زر هكذا مستتراً في الظلام

فعلم الملك العزيز أنها أرادت زيارته في الليل ".

وشعره أيضاً كثير.

وكانت ولادته يوم الاثنين في خامس عشر جمادى الآخرة سنة تسع وعشرين وخمسمائة بمدينة عسقلان، وتولى أبوه القضاء بمدينة بيسان فلهذا نسبوا إليها، وفي ترجمة الموفق يوسف بن الخلال - في حرف الياء - صورة مبدإ أمره وقدومه الديار المصرية واشتغاله عليه بصناعة الإنشاء، فلا حاجة إلى ذكره ها هنا.

ثم إنه تعلق بالخدم في ثغر الاسكندرية وأقام به مدة، وقال الفقيه عمارة اليمني في كتاب " النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية " في ترجمة العادل ابن الصالح بن رزيك: ومن محاسن أيامه وما يؤرخ عنها، بل هي الحسنة التي لا توازى، بل هي اليد البيضاء التي لا تجازى، خروج أمره إلى والي الاسكندرية بتسيير القاضي الفاضل إلى الباب، واستخدامه بحضرته وبين يديه في ديوان الجيش، فإنه غرس منه للدولة بل للملة، شجرة مباركة متزايدة النماء، أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

وقد تقدم ذكر ما آل إليه أمره من وزارة السلطان صلاح الدين، وترقي منزلته عنده، وبعد وفاة صلاح الدين استمر على ما كان عليه عند ولده الملك العزيز في المكانة والرفعة ونفاذ الأمر، ولما توفي العزيز وقام ولده الملك المنصور بالملك بتدبير عمه الملك الأفضل نور الدين كان أيضاً على حاله. ولم يزل كذلك إلى أن وصل الملك العادل وأخذ الديار المصرية، وعند دخوله القاهرة توفي القاضي الفاضل، وذلك في ليلة الأربعاء سابع شهر ربيع الآخر

سنة ست وتسعين وخمسمائة بالقاهرة، فجأة، ودفن في تربته من الغد بسفح المقطم في القرافة الصغرى، وزرت قبره مراراً، وقرأت تاريخ وفاته على الرخام المحوط حول القبر كما هو ها هنا، رحمه الله تعالى؛ وكان من محاسن الدهر وهيهات أن يخلف الزمان مثله.

وبنى بالقاهرة مدرسة بدرب ملوخية، ورأيت بخطه أنه استفتح التدريس بها يوم السبت مستهل المحرم من سنة ثمانين وخمسمائة. وأما لقبه فإن أهله يقولون: إنه كان يلقب محيي الدين، ورأيت مكاتبة الشيخ شرف الدين عبد الله بن أبي عصرون – المقدم ذكره – إليه وهو يخاطبه بمجير الدين، والله أعلم بالصواب.

وكان ولده القاضي الأشرف بهاء الدين أبو العباس أحمد ابن القاضي الفاضل كبير المترلة عند الملوك، وكان مثابراً على سماع الحديث وتحصيل الكتب، ومولده في المحرم سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة بالقاهرة، وتوفي بها في ليلة الاثنين سابع جمادى الآخرة سنة ثلاث وأربعين وستمائة، ودفن بسفح المقطم إلى جانب قبر أبيه، وكان الملك الكامل ابن الملك العادل ابن أيوب قد سيره من مصر في رسالة إلى بغداد، فأنشد الوزير من نظمه:

يا أيها المولى الوزير ومن له ... مننٌ حللن من الزمان وثاقي

من شاكر عني نداك فإنني ... من عظم ما أوليت ضاق نطاقي

مننٌ تخف على يديك، وإنما ... ثقلت مؤونتها على الأعناق

ابن جريج

أبو خالد وأبو الوليد عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج، القرشي بالولاء المكي، مولى أمية بن خالد بن أسيد، ويقال إن جريجاً كان عبداً لأم حبيب بنت جبير زوجة عبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبي العيص بن أمية فنسب ولاؤه إليه.

وكان عبد الملك أحد العلماء المشهورين، ويقال إنه أول من صنف الكتب في الإسلام، وكان يقول: كنت مع معن بن زائدة باليمن، فحضر وقت الحج فلم تحضرني نية، فخطر ببالي قول عمر بن أبي ربيعة:

بالله قولي له من غير معتبةٍ ... ماذا أردت بطول المكث في اليمن

إن كنت حاولت دنيا أو نعمت بها ... فما أخذت بترك الحج من ثمن

قال: فدخلت على معن فأخبرته أني قد عزمت على الحج، فقال لي: ما يدعوك إليه و لم تكن تذكره؟ فقلت له: ذكرت بيتين لعمر بن أبي ربيعة، وأنشدته إياهما، فجهزني وانطلقت.

وكانت ولادته سنة ثمانين للهجرة، وقدم بغداد على أبي جعفر المنصور. وتوفي سنة تسع وأربعين ومائة، وقيل سنة خمسين، وقيل إحدى وخمسين ومائة، رحمه الله تعالى.

وجريج: بضم الجيم وفتح الراء وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها جيم ثانية.

عبد الملك بن عمير

أبو عمر، ويقال أبو عمرو، عبد الملك بن عمير بن سويد بن حارثة بن املاص بن شنيف بن عبد شمس بن سعد بن الوسيع بن الحارث بن يثيع بن أزدة بن حجر بن جزيلة بن لخم اللخمي الكوفي القبطي الفرسي؛ كان قاضياً على الكوفة بعد الشعبي، وهو من مشاهير التابعين وثقاهم ومن كبار أهل الكوفة، رأى علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، وروى عن جابر بن عبد الله. ومن أخباره أنه قال: كنت عند عبد الملك بن مروان بقصر الكوفة حين جيء برأس مصعب بن الزبير فوضع بين يديه، فرآني قد ارتعت، فقال لي: ما لك؟ فقلت: أعيذك بالله يا أمير المؤمنين، كنت بهذا القصر بهذا الموضع مع عبيد الله بن زياد فرأيت رأس الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه بين يديه في هذا المكان، ثم كنت فيه مع المختار بن أبي عبيد الثقفي فرأيت رأس عبيد الله بن زياد بين يديه ثم كنت فيه مع مصعب بن الزبير هذا فرأيت رأس المختار فيه بين يديه، ثم هذا رأس مصعب بن الزبير بين

يديك. قال: فقام عبد الملك من موضعه، وأمر بهدم ذلك الطاق الذي كنا فيه.

ومرض عبد الملك بن عمير مرة، فاعتذر إليه رجل من تخلفه عن عيادته، فقال له: ما كنت لألوم على ترك عيادتي رجلاً لو مرض لما عدته. وكانت وفاته سنة ست وثلاثين ومائة في ذي الحجة، وهو ابن مائة سنة وثلاث سنين.

والقبطي: بكسر القاف وسكون الباء الموحدة وكسر الطاء المهملة، هذه النسبة إلى القبطي، وهو فرسٌ سابق كان له فنسب إليه.

والفرسي: بالفاء والراء المفتوحتين والسين المهملة، نسبة إلى هذا الفرس أيضاً وأكثر الناس يصحفونه بالقرشي، رحمه الله تعالى.

ابن الماجشون

أبو مروان عبد الملك بن عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة الماجشون، واسمه ميمون، وقيل دينار، القرشي التيمي المنكدري مولاهم، المدني الأعمى الفقيه المالكي؛ تفقه على الإمام مالك، رضي الله عنه، وعلى والده عبد العزيز وغيرهما. وقيل إنه عمي في آخر عمره، وكان مولعاً بسماع الغناء، قال أحمد بن حنبل: قدم علينا ومعه من يغنيه. وحدث وكان من الفصحاء، روي أنه كان إذا ذاكره الإمام الشافعي رضي الله عنه لم يعرف الناس كثيراً مما يقولان، لأن الشافعي تأدب بهذيل في البادية وعبد الملك تأدب في خؤولته من كلب بالبادية. وقال يحيى بن أحمد بن المعذل: كلما تذكرت أن التراب يأكل لسان عبد الملك صغرت الدنيا في عيني. وسئل أحمد بن المعذل فقيل له: أين لسانك من لسان أستاذك عبد الملك؟ فقال: كان لسان عبد الملك إذا تعايا أحيى من لساني إذا تحايا.

ومات عبد الملك المذكور سنة ثلاث عشرة ومائتين، وقال أبو عمر ابن عبد البر: توفي سنة اثنتي عشرة، وقيل سنة أربع عشرة ومائتين، رحمه الله تعالى.

والماجشون: بفتح الميم وبعد الألف جيم مكسورة ثم شين معجمة مضمومة وبعد الواو نون، وهو المورد، ويقال: الأبيض الأحمر، وهو لقب أبي يوسف يعقوب بن أبي سلمة المذكور، وهو عم والد عبد الملك المذكور، لقبته بذلك سكينة بنت الحسين بن علي، رضي الله عنهم، وجرى هذا اللقب على أهل بيته من بنيه وبني أخيه، وقيل إن أصلهم من أصبهان، فكان إذا سلم بعضهم على بعض قال: شوبي، شوبي، فسمي الماجشون، حكاه الحافظ أبو بكر أحمد بن إبراهيم الجرجاني، وقال أبو داود: كان عبد الملك الماجشون لا يعقل الحديث، قال ابن البرقي: دعاني رجل أن أمضي إليه، فجئناه فإذا هو لا يدري الحديث أيش هو، وذكره محمد بن سعد في " الطبقات الكبرى " وقال: كان له فقه ورواية.

والمنكدري: منسوب إلى المنكدر بن عبد الله بن هدير القرشي التيمي والد محمد وأبي بكر وعمر بني المنكدر، وقد استوفى ابن قتيبة حديثهم في كتاب " المعارف " في ترجمة محمد بن المنكدر.

إمام الحرمين

أبو المعالي عبد الملك ابن الشيخ أبي محمد عبد الله بن أبي يعقوب يوسف بن عبد الله بن يوسف بن محمد بن حيويه، الجويني، الفقيه الشافعي الملقب ضياء الدين، المعروف بإمام الحرمين؛ أعلم المتأخرين من أصحاب الإمام الشافعي على الإطلاق، المجمع على إمامته المتفق على غزارة مادته وتفننه في العلوم من الأصول والفروع والأدب وغير ذلك، وقد تقدم ذكر والده في العبادلة، ورزق من التوسع في العبارة ما لم يعهد من غيره، وكان يذكر دروساً يقع كل واحد منها في عدة أوراق ولا يتلعثم في كلمة منها، وتفقه في صباه على والده أبي محمد، وكان يعجب بطبعه وتحصيله وجودة قريحته وما يظهر عليه من مخايل الإقبال، فأتى على جميع مصنفات والده وتصرف فيها، حتى زاد عليه في التحقيق والتدقيق. ولما توفي والده قعد مكانه للتدريس، وإذا فرغ منه مضى إلى الأستاذ أبي القاسم الإسكافي الإسفرايني بمدرسة البيهقي حتى حصل عليه علم الأصول، ثم سافر إلى بغداد ولقي بها جماعة من العلماء، ثم خرج إلى الحجاز وجاور بمكة أربع سنين، وبالمدينة، يدرس ويفتي ويجمع طرق المذهب، فلهذا قيل له إمام الحرمين، ثم عاد إلى نيسابور في أوائل ولاية السلطان ألب أرسلان السلجوقي، والوزير يومئذ نظام الملك، فبنى له المدرسة النظامية بمدينة نيسابور، وتولى الخطابة بها، وكان يجلس للوعظ والمناظرة، وظهرت تصانيفه، وحضر دروسه الأكابر من الأئمة وانتهت إليه رياسة الأصحاب، وفوض إليه أمور الأوقاف، وبقي على ذلك قريباً من ثلاثين سنة غير مزاحم ولا مدافع، مسلم له المحراب والمنبر والخطابة والتدريس ومجلس التذكير يوم الجمعة.

وصنف في كل فن: منها كتاب " نهاية المطلب في دراية المذهب " الذي ما صنف في الإسلام مثله، قال أبو جعفر الحافظ: سمعت الشيخ أبا إسحاق الشيرازي يقول لإمام الحرمين: يا مفيد أهل المشرق والمغرب، أنت اليوم إمام الأئمة. وسمع الحديث من جماعة كبيرة من علمائه، وله إجازة من الحافظ أبي نعيم الأصبهاني صاحب " حلية الأولياء ". ومن تصانيفه " الشامل " في أصول الدين، و" البرهان " في أصول الفقه، و" تلخيص التقريب " و" الإرشاد " و" العقيدة النظامية " و" مدارك العقول " لم يتمه، وكتاب " تلخيص نهاية المطلب " لم يتمه، و" غياث الأمم في الإمامة " و" مغيث الخلق في اختيار الأحق " و" غنية المسترشدين " في الخلاف وغير ذلك من الكتب. وكان إذا شرع في علوم الصوفية وشرح الأحوال أبكى الحاضرين، ولم يزل على طريقة حميدة مرضية من أول عمره إلى آخره.

أخبرني بعض المشايخ أنه وقف على جلية أمره في بعض الكتب، وأن والده الشيخ أبا محمد، رحمه الله تعالى، كان في أول أمره ينسخ بالأجرة، فاجتمع له من كسب يده شيء اشترى به جارية موصوفة بالخير والصلاح، ولم يزل يطعمها من كسب يده أيضاً إلى أن حملت بإمام الحرمين، وهو مستمر على تربيتها بكسب الحل، فلما وضعته أوصاها أن لا تمكن أحداً من إرضاعه، فاتفق أنه دخل عليها يوماً وهي متألمة والصغير يبكي، وقد أخذته امرأة من جيرانهم وشاغلته بثديها فرضع منه قليلاً، فلما رآه شق عليه وأخذه إليه ونكس رأسه ومسح على بطنه وأدخل إصبعه في فيه ولم يزل يفعل به ذلك حتى قاء جميع ما شربه، وهو يقول: يسهل علي أن يموت ولا يفسد طبعه بشرب لبن غير أمه. ويحكى عن إمام الحرمين أنه كان تلحقه بعض الأحيان فترةٌ في مجلس المناظرة فيقول: هذا من بقايا تلك الرضعة.

ومولده في ثامن عشر المحرم سنة تسع عشرة وأربعمائة، ولما مرض حمل إلى قرية من أعمال نيسابور، يقال لها بشتنقان موصوفة باعتدال الهواء وخفة الماء، فمات بها ليلة الأربعاء وقت العشاء الآخرة الخامس والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة ثمان وسبعين وأربعمائة، ونقل إلى نيسابور تلك الليلة ودفن من الغد في داره، ثم نقل بعد سنين إلى مقبرة الحسين فدفن بجنب أبيه، رحمهما الله تعالى، وصلى عليه ولده أبو القاسم، فأغلقت الأسواق يوم موته وكسر منبره في الجامع وقعد الناس لعزائه وأكثروا فيه المراثي.

ومما رثي به:

قلوب العالمين على المقالي	وأيام الورى شبه الليالي
أيثمر غصن أهل العلم يوماً	وقد مات الإمام أبو المعالي

وكانت تلامذته يومئذٍ قريباً من أربعمائة واحد، فكسروا محابرهم وأقلامهم وأقاموا على ذلك عاماً كاملاً.

الأصمعي

أبو سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك بن علي بن أصمع بن مظهر بن رياح بن عمرو بن عبد شمس بن أعيا بن سعد بن عبد بن غنم بن قتيبة بن معن بن مالك بن أعصر بن سعد بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، المعروف بالأصمعي الباهلي، وإنما قيل له الباهلي وليس في نسبه اسم باهلة لأن باهلة اسم امرأة مالك بن أعصر، وقيل إن باهلة ابن أعصر.

كان الأصمعي المذكور صاحب لغة ونحو، وإماماً في الأخبار والنوادر والملح والغرائب، سمع شعبة بن الحجاج والحمادين ومسعر بن كدام وغيرهم، وروى عنه عبد الرحمن ابن أخيه عبد الله وأبو عبيد القاسم بن سلام وأبو حاتم السجستاني وأبو الفضل الرياشي وغيرهم، وهو من أهل البصرة، وقدم بغداد في أيام هارون الرشيد.

قيل لأبي نواس: قد أحضر أبو عبيدة والأصمعي إلى الرشيد، فقال: أما أبو عبيدة فإنهم إن أمكنوه قرأ عليهم أخبار الأولين والآخرين، وأما الأصمعي فبلبل يطربهم بنغماته.

وقال عمر بن شبة: سمعت الأصمعي يقول: أحفظ ستة عشر ألف أرجوزة. وقال إسحاق الموصلي: لم أر الأصمعي يدعي شيئاً من العلم فيكون أحد

أعلم به منه.

" وحكى محمد بن هبيرة قال: قال الأصمعي للكسائي وهما عند الرشيد: ما معنى قول الراعي:

قتلوا ابن عفان الخليفة محرماً ... ودعا فلم أر مثله مخذولا

قال الكسائي: كان محرماً بالحج، قال الأصمعي: ما أراد عدي بن زيد بقوله:

قتلوا كسرى بليلٍ محرماً ... فتولى لم يمتع بكفن

هل كان محرماً بالحج؟ وأي إحرامٍ لكسرى؟ فقال الرشيد للكسائي: إذا جاء الشعر فإياك والأصمعي. قال الأصمعي: قوله " محرماً " في حرمة الإسلام ومن ثم قتل مسلماً محرماً، أي لم يحل في نفسه شيئاً يوجب القتل؛ وقوله " محرماً " في كسرى يعني حرمة العهد الذي كان في عنق أصحابه ".وقال الربيع بن سليمان: سمعت الشافعي، رضي الله عنه، يقول: ما عبر أحد من العرب بأحسن من عبارة الأصمعي. وقال أبو أحمد العسكري: لقد حرص المأمون على الأصمعي وهو بالبصرة أن يصير إليه فلم يفعل واحتج بضعفه وكبره، فكان المأمون يجمع المشكل من المسائل ويسيرها إليه ليجيب عنها.

وقال الأصمعي: حضرت أنا وأبوعبيدة معمر بن المثنى عند الفضل بن الربيع فقال لي: كم كتابك في الخيل؟ فقلت: جلد واحد، فسأل أبا عبيدة عن كتابه فقال: خمسون مجلدة، فقال له: قم إلى هذا الفرس وأمسك عضواً عضواً منه وسمه، فقال: لست بيطاراً، وإنما هذا شيء أخذته عن العرب، فقال لي: قم يا أصمعي وافعل ذلك، فقمت وأمسكت ناصيته وشرعت أذكر عضواً عضواً وأضع يدي عليه وأنشد ما قالت العرب فيه، إلى أن فرغت منه، فقال: خذه، فأخذته، وكنت إذا أردت أن أغيظ أبا عبيدة ركبته إليه. وقد روي من طريق أخرى أن ذلك كان عند هارون الرشيد، وأن الأصمعي لما فرغ من كلامه في أعضاء الفرس قال الرشيد لأبي عبيدة: ما تقول فيما قال؟ قال: أصاب في بعض وأخطأ في بعض، فالذي أصاب فيه مني تعلمه، والذي أخطأ فيه ما أدري من أين أتى به.

وكن شديد الإحتراز في تفسير الكتاب والسنة، فإذا سئل عن شيء منهما يقول: العرب تقول معنى هذا كذا، ولا أعلم المراد منه في الكتاب والسنة أي شيء هو.

وأخباره ونوادره كثيرة، " حدث محمد بن الحسن بن دريد قال: حدثنا أبو حاتم عن الأصمعي قال: دخلت على الرشيد هارون ومجلسه حافل، فقال: يا أصمعي، ما أغفلك عنا وأجفاك لحضرتنا! قلت: والله يا أمير المؤمنين ما لاقتني بلاد بعدك حتى أتيتك، قال: فأمرني بالجلوس، فجلست وسكت عني، فلما تفرق الناس إلا أقلهم نهضت للقيام، فأشار إلي أن اجلس فجلست حتى خلا المجلس ولم يبق غيري ومن بين يديه من الغلمان، فقال: يا أبا سعيد، ما معنى قولك ما لاقتني بلاد بعدك؟ قلت: ما أمسكتني يا أمير المؤمنين، وأنشدت قول الشاعر:

كفاك كف ما تليق درهما ... جوداً، وأخرى تعط بالسيف دما

أي: ما تمسك درهماً، فقال: أحسنت، وهكذا فكن، وقرنا في الملا، وعلمنا في الخلا، فإنه يقبح بالسلطان أن لا يكون عالماً، إما أن أسكت فيعلم الناس أني لا أفهم إذ لم أجب، وإما أن أجيب بغير الجواب فيعلم من حولي أني لم أفهم ما قلت، قال الأصمعي: فعلمني أكثر مما علمته.

وحكى المبرد أيضاً قال: مازح الرشيد أم جعفر فقال لها: كيف أصبحت يا أم نهر؟ فاغتمت لذلك ولم تفهم معناه، فأنفذت إلى الأصمعي تسأله عن ذلك، فقال: الجعفر النهر الصغير، وإنما ذهب إلى هذا، فطابت نفسها.

وقال أبو بكر النحوي: لما قدم الحسن بن سهل العراق قال: أحب أن أجمع قوماً من أهل الأدب، فأحضر أبا عبيده والأصمعي ونصر بن علي الجهضمي، وحضرت معهم فابتدأ الحسن فنظر في رقاعٍ بين يديه للناس في حاجاتهم، فوقع عليها، فكانت خمسين رقعة ثم أمر فدفعت إلى الخازن، ثم أقبل علينا فقال: قد فعلنا خيراً، ونظرنا في بعض ما نرجو نفعه من أمور الناس والرعية، فنأخذ الآن في ما نحتاج إليه، فأفضنا في ذكر الحفاظ، فذكرنا الزهري وقتادة ومررنا، فالتفت أبو عبيدة فقال: ما الغرض أيها الأمير في ذكر من مضى وبالحضرة ها هنا من يقول ما قرأ كتاباً قط فاحتاج إلى أن يعود فيه ولا دخل قلبه شيء فخرج عنه؟ فالتفت الأصمعي وقال: إنما يريدني بهذا القول أيها الأمير، والأمر في ذلك على ما حكى، وأنا أقرب إليك،

قد نظر الأمير فيما نظر فيه من الرقاع، وأنا أعيد ما فيها وما وقع به على الأمير على رقعة رقعة، قال: فأمر وأحضرت الرقاع، فقال الأصمعي: سأل صاحب الرقعة الأولى كذا، واسمه كذا، فوقع له بكذا، والرقعة الثانية والثالثة حتى مر في نيف وأربعين رقعة، فالتفت إليه نصر بن علي فقال: أيها الرجل، أبق على نفسك من العين، فكف الأصمعي.

وحكي عن عباس بن الفرج قال: ركب الأصمعي حماراً دميماً، فقيل له: بعد براذين الخلفاء تركب هذا؟ فقال متمثلاً:

ولما أبت إلا انصراماً لودها ... وتكديرها الشرب الذي كان صافياً

شربنا برنقٍ من هواها مكدرٍ ... وليس يعاف الرنق من كان صادياً

هذا وأملك ديني أحب إلي من ذاك مع فقده.

وقال الأصمعي: ذكرت يوماً للرشيد نهم سليمان بن عبد الملك، وقلت: إنه كان يجلس ويحضر بين يديه الخراف المشوية وهي كما أخرجت من تنانيرها، فيريد أخذ كلاها فتمنعه الحرارة، فيجعل يده على طرف جبهته ويدخلها في جوف الخروف فيأخذ كلاه، فقال لي: قاتلك الله ما أعلمك بأخبارهم! اعلم أنه عرضت علي ذخائر بني أمية، فنظرت إلى ثياب مذهبة ثمينة وأكمامها ودكة بالدهن، فلم أدر ما ذلك حتى حدثتني بالحديث، ثم قال: علي بثياب سليمان، فأتي بها، فنظر إلى تلك الآثار فيها ظاهرة فكساني منها حلة، وكان الأصمعي ربما خرج فيها أحياناً فيقول: هذه جبة سليمان التي كسانيها الرشيد.

وحكي عنه قال: رأيت بعض الأعراب يفلي ثيابه، فيقتل البراغيث ويدع القمل فقلت: يا إعرأبي، و لم تصنع هذا؟ فقال: أقتل الفرسان ثم أعطف على الرجالة ".

وكان جده علي بن أصمع سرق بسفوان فأتوا به علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال: جيئوني بمن يشهد أنه أخرجها من الرحل، قال ك فشهد عليه بذلك عنده، فأمر به فقطع من أشاجعه، فقيل له: يا أمير المؤمنين ألا قطعته من زنده، فقال: يا سبحان الله، كيف يتوكأ؟ كيف يصلي؟كيف يأكل؟ فلما قدم الحجاج بن يوسف البصرة أتاه علي بن أصمع فقال: أيها الأمير، إن أبوي عقاني فسمياني علياً، فسمني أنت، فقال: ما أحسن ما توسلت به، قد وليتك سمك البارجاه، وأجريت لك في كل يوم دانقين فلوساً، ووالله لئن تعديتهما لأقطعن ما أبقاه علي من يدك.

وكانت ولادة الأصمعي سنة اثنتين، وقيل ثلاث وعشرين ومائة. وتوفي في صفر سنة ست عشرة، وقيل أربع عشرة وقيل خمس عشرة وقيل سبع عشرة ومائتين بالبصرة، وقيل بمرو، رحمه الله تعالى.

وقال الخطيب أبو بكر: بلغني أن الأصمعي عاش ثمانياً وثمانين سنة. ومولد أبيه قريب سنة ثلاث وثمانين للهجرة، و لم أقف على تاريخ وفاته، رحمه الله تعالى.

وقريب: بضم القاف وفتح الراء وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها باء موحدة، وهو لقب له قال المرزباني وأبو سعيد السيرافي: اسمه عاصم وكنيته أبو بكر وغلب عليه لقبه. والأصمعي: نسبة إلى جده أصمع.

ومظهر: بضم الميم وفتح الظاء المعجمة وتشديد الهاء وكسرها وبعدها راء.

وأعيا: بفتح الهمزة وسكون العين المهملة وفتح الياء المثناة من تحتها.

وباهلة: قد تقدم الكلام عليها في أول الترجمة وهي بالباء الموحدة وكسر الهاء وفتح اللام.

وسفوان: بفتح السين المهملة والفاء والواو وبعد الألف نون وهو اسم موضع عند البصرة ومن قصد البحرين من البصرة يخرج إلى سفوان ثم إلى كاظمة ومنها يتوجه إلى هجر، وهي مدينة البحرين.

والبارجاه: موضع بالبصرة.

قال أبو العيناء: كنا في جنازة الأصمعي، فجذبني أبو قلابة حبيش بن عبد الرحمن الجرمي وقيل حبيش بن منقذ، قاله المرزباني فيه " المعجم "، الشاعر فأنشدني لنفسه:

لعن الله أعظماً حملوها | نحو دار البلى على خشباتِ
أعظماً تبغض النبي و أهل | البيت و الطيبين و الطيبات

قال: وجذبني أبو العالية الشامي وأنشدني واسم أبي العاليه الحسن بن مالك:

لا در در بنات الأرض إذ فجعت | بالأصمعي لقد أبقت لنا أسفا
عش ما بدا لك في الدنيا فلست ترى | في الناس منه و لا من علمه خلفاً

قال: فعجبت من اختلافهما فيه.

وللأصمعي من التصانيف كتاب "خلق الإنسان "وكتاب " الأجناس" وكتاب " الأنواء" وكتاب " الهمز" وكتاب " المقصور والمدود " وكتاب " الفرق " وكتاب " الصفات " وكتاب " الأبواب " وكتاب "الميسر والقداح " وكتاب " خلق الفرس " وكتاب " الخيل " وكتاب " الإبل " وكتاب " الشاء " وكتاب " الأخبية " وكتاب " الوحوش " وكتاب " فعل وأفعل " وكتاب " الأمثال " وكتاب " الأضداد " وكتاب " الألفاظ " وكتاب " السلاح " وكتاب " اللغات " وكتاب " مياه العرب " وكتاب " النوادر " وكتاب " أصول الكلام " وكتاب " القلب والإبدال " وكتاب " جزيرة العرب " وكتاب " الاشتقاق " وكتاب " معاني الشعر " وكتاب " المصادر " وكتاب " الأراجيز " وكتاب " النخلة " وكتاب " النبات " وكتاب " ما اتفق لفظه واختلف معناه " وكتاب " غريب الحديث " وكتاب " نوادر الاعراب " وغير ذلك.

ابن هشام صاحب السيرة

أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري؛ قال أبو القاسم السهيلي عنه في كتاب " الروض الأنف " – شرح سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم –: إنه مشهور بحمل العلم، متقدم في علم النسب والنحو، وهو من مصر وأصله من البصرة، وله كتاب في أنساب حمير وملوكها، وكتاب في شرح ما وقع في أشعار السير من الغريب فيما ذكر لي. وتوفي بمصر في سنة ثلاث عشرة ومائتين، رحمه الله تعالى.

قلت وهذا ابن هشام هو الذي جمع سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم من" المغازي والسير " لابن إسحاق وهذبها لخصها وشرحها السهيلي المذكور، وهي الموجودة بأيدي الناس المعروفة بسيرة ابن هشام. وقال أبو سعيد عبد الحمن بن أحمد ين يونس صاحب " تاريخ مصر " المقدم ذكره في تاريخه الذي جعله للغرباء القادمين على مصر:إن عبد الملك المذكور توفي لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الآخر سنة ثماني عشرة ومائتين .بمصر، والله أعلم بالصواب، وقال: إنه ذهلي.

والحميري قد تقدم الكلام عليه.

والمعافري: بفتح الميم والعين المهملة وبعد الألف فاء مكسورة ثم راء، هذه النسبة إلى المعافر بن يعفر قبيل كبير ينسب إليه بشر كثير عامتهم .بمصر.

الثعالبي

أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري؛ قال ابن بسام صاحب " الذخيرة" في حقه: " كان في وقته راعي تلعات العلم، وجامع أشتات النثر والنظم، رأس المؤلفين في زمانه، وإما م المصنفين بحكم قرانه، سار ذكره سير المثل، وضربت إليه آباط الإبل، وطلعت دواوينه في المشارق والمغارب طلوع النجم في الغياهب، وتواليفه أشهر مواضع وأبهر مطالع وأكثر راوٍ لها وجامع، من أن يستوفيها حد أو وصف، أو يوفيها حقوقها نظم أو رصف "، وذكر له طرفاً من النثر وأورد شيئاً من نظمه فمن ذلك ما كتبه إلى الأمير أبي الفضل الميكالي:

لك في المفاخر معجزاتٌ جمةٌ | أبداً لغيرك في الورى لم تجمع
بحران :بحر في البلاغة شانه | شعر الوليد وحسن لفظ الأصمعي

"وترسل الصابي يزين علوه — خط ابن مقلة ذو المحل الأرفع"
كالنور أو كالسحر أو كالبدر أو — كالوشي في بردٍ عليه موشع
شكراً فكم من فقرة لك كالغنى — وافى الكريم بعيد فقر مدقع

وإذا تفتق نور شعرك ناضراً — فالحسن بين مرصع ومصرع
أرجلت فرسان الكلام ورضت أف — راس البديع وأنت أمجد مبدع
ونقشت في فص الزمان بدائعاً — تزري بآثار الربيع الممرع

" ومنها في وصف فرس أهداه إليه ممدوحه:

يا واهب الطرف الجواد كأنما — قد أنعلوه بالرياح الأربع
لا شيء أسرع منه إلا خاطري — في وصف نائلك اللطيف الموقع
ولو انني أنصفت في إكرامه — لجلال مهديه الكريم الألمعي
أقضمته حب الفؤاد محبة — وجعلت مربطه سواد المدمع
وخلعت ثم قطعت غير مضيع — برد الشباب لجله والبرقع"

ومن شعره:

لما بعثت فلم توجب مطالعتي — وأمعنت نار شوقي في تلهبها
ولم أجد حيلةً تبقي على رمقي — قبلت عيني رسولي إذ رآك بها

" وكتب إلى أبي نصر بن سهل ابن المرزبان يحاجيه:

حاجت شمس العلم في ذا العصر — نديم مولانا الأمير نصر
ما حاجةٌ لأهل كل مصر — في كل ما دار وكل قطر
ليست ترى إلا بعيد العصر

فكتب إليه جوابه:

يا بحر آدابٍ بغير جزر — وحظه في العلم غير نزر
حزرت ما قلت وكان حزري — أن الذي عنيت دهن البزر
يعصره ذو قوةٍ وأزر"

وله من التواليف " يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر " وهو أكبر كتبه وأحسنها وأجمعها، وفيها يقول أبو الفتوح نصر الله قلاقس الإسكندري الشاعر المشهور–وسيأتي ذكره أن شاء الله تعالى –:

أبيات أشعار اليتيمه — أبكار أفكار قديمه

وله أيضاً كتاب "فقه اللغة " و"سحر البلاغة وسر البراعة " و" من غاب عنهم المطرب "و " مؤنس الوحيد" وشيء كثير جمع فيها أشعار الناس ورسائلهم وأخبارهم وأحوالهم وفيها دلالة على كثرة اطلاعه. وله أشعار كثيرة. وكانت ولادته سنة خمسين وثلثمائة وتوفي سنة تسع وعشرين وأربعمائة رحمه الله تعالى.

والثعالبي: بفتح الثاء المثلثه والعين المهملة وبعد الألف باء مكسورة وبعدها لام موحدة هذه النسبة إلى خياطة جلود الثعالب وعملها، قيل له ذلك لأنه كان فراء.

سحنون

أبو سعيد عبد السلام بن سعيد بن حبيب بن حسان بن هلال بن بكار بن ربيعة التنوخي الملقب سحنون الفقيه المالكي، قرأ على ابن القاسم وبن وهب وأشهب ثم انتهت الرياسة في العلم بالمغرب إليه، وكان يقول قبح الله الفقر، أدركنا مالكاً وقرأنا على ابن القاسم. كان أصله من الشام من مدينة حمص قدم به أبوه مع جند أهل حمص وولي القضاء بالقيروان وعلى قوله المعول بالمغرب. وصنف كتاب " المدونة " في مذهب الإمام مالك رضي الله عنه، وأخذها عن ابن القاسم وكان أول من شرع في تصنيف " المدونة " أسد بن الفرات الفقيه المالكي بعد رجوعه من العراق وأصلها أسئلة سأل عنها ابن القاسم فأجابه عنها، وجاء بها أسد إلى القيروان وكتبها عنه سحنون، وكانت تسمى "الأسدية " ثم رحل بها سحنون إلى ابن القاسم في سنة ثمان وثمانين ومائة فعرضها عليه وأصلح فيها مسائل ورجع بها إلى القيروان في سنة إحدى وتسعين ومائة، وهي في التأليف على ما جمعه أسد ابن الفرات أولاً غير مرتبة المسائل ولا مرسمة التراجم، فرتب سحنون أكثرها وبوبه على ترتيب التصانيف واحتج لبعض مسائلها بالآثار من روايته من موطإ ابن وهب وغيره، وبقيت منها بقية لم يتمم فيها سحنون هذا العمل المذكور، ذكر هذا كله القاضي عياض وغيره.

وذكر لي بعض الفقهاء المالكية أن الشيخ جمال الدين أبا عمرو المعروف بابن الحاجب الفقيه المالكي النحوي –الآتي ذكره بعد هذا إن شاء الله تعالى واسمه عثمان – قال: إن أسد بن الفرات الفقيه المالكي جاء من الغرب إلى مصر وقرأ على ابن القاسم وأخذ عنه "المدونه " وكانت مسودة وعاد بها إلى بلاده فحضر إليه سحنون وطلبها منه لينقلها فبخل عليه بها فرحل سحنون إلى ابن القاسم وأخذ عنه " المدونة " وقد حررها ابن القاسم فدخل بها إلى الغرب وعلى يده كتاب ابن القاسم إلى أسد بن الفرات يقول فيه: تقابل نسختك بنسخة سحنون فالذي تتفق عليه النسختان يثبت والذي يقع فيه الاختلاف فالرجوع إلى نسخة سحنون، وتمحى نسخة ابن الفرات فهذه هي الصحيحة فلما وقف ابن الفرات على كتاب ابن القاسم عزم على العمل به، فقال له أصحابه: إن عملت هذا صار كتاب سحنون هو الأصل وبطل كتابك، وتكون أنت قد أخذته عن سحنون، فلم يعمل بكتاب ابن القاسم، فلما بلغ ابن القاسم الخبر قال: اللهم لا تنفع أحداً بابن الفرات ولا بكتابه، فهجره الناس لذلك، وهو الآن مهجور، وعلى كتاب سحنون يعتمد أهل القيروان.

وحصل له من الأصحاب والتلامذة ما لم يحصل لأحد من أصحاب مالك مثله وعنه انتشر علم مالك بالمغرب. وكانت ولادته أول ليلة من شهر رمضان سنة ستين ومائة، وتوفي في يوم الثلاثاء لتسع خلون من رجب سنة أربعين ومائتين، رحمه الله تعالى.

وسحنون: بفتح السين المهملة وضمها وسكون الحاء المهملة وضم النون وبعد الواو نون ثانية، وفي فتح السين وضمها كلام من جهة العربية يطول شرحه وليس هذا موضعه، وقد صنف فيه أبو محمد ابن السيد البطليوسي جزءاً وقفت عليه، وقد استوفى الكلام فيه كما ينبغي وهو مجيد في كل ما يصنعه، وقد تقدم ترجمته.ولقب سحنون باسم طائر حديد بالمغرب يسمونه سحنوناً لحدة ذهنه وذكائه، ذكر ذلك أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم القيرواني في كتاب " طبقات من كان بإفريقيه من العلماء "، والله أعلم.

وأما أسد بن الفرات فإنه أرسله زيادة الله بن الأغلب في جيش إلى جزيرة صقلية، ونزلوا على مدينة سرقوسة، و لم يزالوا محاصرين لها إلى أن مات ابن الفرات في رجب سنة ثلاث عشرة ومائتين، ودفن بمدينة بلرم من الجزيرة أيضاً، والله أعلم.

أبو هاشم الجبائي

أبو هاشم عبد السلام بن أبي علي محمد الجبائي بن عبد الوهاب بن سلام بن خالد بن حمران بن أبان مولى عثمان بن عفان رضي الله عنه، المتكلم المشهور العالم ابن العالم؛ كان هو وأبوه من كبار المعتزلة، ولهما مقالات على مذهب الاعتزال، وكتب الكلام مشحونة بمذاهبهما واعتقادهما، وكان له ولد يسمى أبا علي، وكان عامياً لا يعرف شيئاً، فدخل يوماً على الصاحب بن عباد، فظنه عالماً فأكرمه ورفع مرتبته، ثم سأله عن مسألة فقال: لا أعرف نصف العلم، فقال له الصاحب: صدقت يا ولدي، إلا أن أباك تقدم بالنصف الآخر.

وكانت ولادة أبي هاشم المذكور سنة سبع وأربعين ومائتين. وتوفي يوم الأربعاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من شعبان سنة إحدى وعشرين وثلثمائة ببغداد، ودفن في مقابر البستان من الجانب الشرقي، وفي ذلك اليوم توفي أبو بكر محمد بن دريد اللغوي المشهور – وسيأتي ذكر والده إن شاء الله تعالى – رضي الله عنهم أجمعين.

وحمران: بضم الحاء المهملة وسكون الميم وفتح الراء وبعد الألف نون.

وأبان: بفتح الهمزة والباء الموحدة وبعد الألف نون.

والجبائي: بضم الجيم وتشديد الباء الموحدة، هذه النسبة إلى قرية من قرى البصرة خرج منها جماعة من العلماء، هكذا قاله السمعاني في كتاب " الأنساب "، وقال ياقوت الحموي في كتابه " المشترك ": إنها كورة وبلدة ذات قرى وعمارات من نواحي خوزستان، والله أعلم.

ديك الجن

أبو محمد عبد السلام بن رغبان بن عبد السلام بن حبيب بن عبد الله بن رغبان بن زيد بن تميم الكلبي الملقب ديك الجن، الشاعر المشهور؛ وذكر ابن الجراح في كتاب " الورقة " أنه مولى لطيء، والله أعلم؛ أصله من أهل سلمية، ومولده بمدينة حمص، وتميم أول من أسلم من أجداده على يد حبيب بن مسلمة الفهري، أخذ محارباً، وكان يفخر على العرب ويقول: مالهم فضل علينا، أسلمنا كما أسلموا. وهو من شعراء الدولة العباسية، ولم يفارق الشام ولا رحل إلى العراق ولا إلى غيره منتجعاً بشعر، ولا متصدياً لأحد، وكان يتشيع تشيعاً حسناً، وله مراثٍ في الحسين، رضي الله عنه. وكان ماجناً خليعاً عاكفاً على القصف واللهو متلافاً لما ورثه، وشعره في غاية الجودة.

حدث عبد الله بن محمد بن عبد الملك الزبيدي قال: كنت جالساً عند ديك الجن، فدخل عليه حدث فأنشده شعراً عمله، فأخرج ديك الجن من تحت مصلاه درجاً كبيراً فيه كثير من شعره فسلمه إليه وقال: يا فتى تكسب بهذا واستعن به على قولك. فلما خرج سألته عنه فقال: هذا فتى من أهل جاسم، يذكر أنه من طيء، يكنى أبا تمام، واسمه حبيب بن أوس، وفيه أدب وذكاء وله قريحة وطبع، قال: وعمر الملقب ديك الجن إلى أن مات أبو تمام ورثاه.

ومولد ديك الجن سنة إحدى وستين ومائة وعاش بضعاً وسبعين سنة، وتوفي في أيام المتوكل سنة خمس أو ست وثلاثين ومائتين.

ولما اجتاز أبو نواس بحمص قاصداً مصر لامتداح الخصيب بن عبد الحميد سمع ديك الجن بوصوله، فاستخفى منه خوفاً أن يظهر لأبي نواس أنه قاصر بالنسبة إليه، فقصده أبو نواس في داره وهو بها، فطرق الباب واستأذن عليه، فقالت الجارية: ليس هو ها هنا؛ فعرف مقصده فقال لها: قولي له اخرج فقد فتنت أهل العراق بقولك:

موردة من كف ظبي كأنما … تناولها من خده فأدارها

فلما سمع ديك الجن ذلك خرج إليه واجتمع به وأضافه. وهذا البيت من جملة أبيات وهي:

بها غير معذولٍ فداو خمارها … وصل بحبالات الغبوق ابتكارها

ونل من عظيم الوزر كل عظيمةً … إذا ذكرت خاف الحفيظان نارها

وقم أنت فاحثث كأسها غير صاغرٍ ولا تسق إلا خمرها وعقارها

فقام يكاد الكأس يحرق كفه من الشمس أو من وجنتيه استعارها

ظللنا بأيدينا نتعتع روحها فتأخذ من أقدامنا الراح ثارها

موردةً من كف ظبي كأنما تناولها من خده فأدارها

وذكر الجهشياري في كتاب " أخبار الوزراء " أن حبيب بن عبد الله بن رغبان المذكور في هذا النسب كان كاتباً في أيام الخليفة المنصور، وكان يتقلد الاعطاء، وكان موجوداً في سنة ثلاث وأربعين ومائة، وأن ديك الجن الشاعر من ولده، وإليه ينسب مسجد ابن رغبان بمدينة السلام، وأنه مولى حبيب ابن مسلمة الفهري.

قلت: وحبيب بن مسلمة كان من خواص معاوية، وله معه في وقعة صفين آثار شكرها له، ولما استقر الأمر لمعاوية سير حبيباً في بعض مهامه، فلقيه الحسن بن علي، رضي الله عنهما، وهو خارج فقال له: يا حبيب، رب مسيرٍ لك في غير طاعة الله، فقال له حبيب: أما إلى أبيك فلا، فقال له الحسن: بلى والله، ولقد طاوعت معاوية على دنياه، وسارعت في هواه، فلئن قام بك في دنياك فقد قعد بك في دينك، فليتك إذ أسأت الفعل أحسنت القول، فتكون كما قال الله تعالى " وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً " " التوبة: 102 "ولكنك كما قال الله تعالى " كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون " " المطففين: 14." وكنية حبيب هذا أبو عبد الرحمن، ولاه معاوية أرمينية فمات بها سنة اثنتين وأربعين للهجرة و لم يبلغ خمسين سنة.

وكانت لديك الجن جارية يهواها اسمها دنيا، فاتهمها بغلامه الوصيف فقتلها ثم ندم على ذلك فأكثر من التغزل فيها، فمن ذلك قوله:

يا طلعة طلع الحمام عليها وجنى لها ثمر الردى بيديها

رويت من دمها الثرى ولطالما روى الهوى شفتي من شفتيها

مكنت سيفي من مجال خناقها ومدامعي تجري على خديها

فوحق نعليها وما وطئ الحصى شيء أعز علي من نعليها

ما كان قتليها لأني لم أكن أبكي إذا سقط الغبار عليها

لكن بخلت على سواي بحبها وأنفت من نظر الغلام إليها

وله فيها:

جاءت تزور فراشي بعد ما قبرت فظلت ألثم نحراً زانه الجيد

وقلت قرة عيني قد بعثت لنا فكيف ذا وطريق القبر مسدود

قالت هناك عظامي فيه مودعةً تعيث فيها بنات الأرض والدود

وهذه الروح قد جاءتك زائرةً هذي زيارة من في القبر ملحود

وله فيها، وقيل أن هذه الأبيات لها في ولدها منه، واسمه رغبان:

بأبي نبذتك بالعراء المقفر وسترت وجهك بالتراب الأعفر

بأبي بذلتك بعد صونٍ للبلى ورجعت عنك صبرت أو لم أصبر

لو كنت أقدر أن أرى أثر البلى | لتركت وجهك ضاحياً لم يقبر

"ويروى أن المتهم بالجارية غلام كان يهواه فقتله أيضاً، وصنع فيه أبياتاً وهي:

أشفقت أن يرد الزمان بغدره | أو أبتلى بعد الوصال بهجره
فقتلته وله علي كرامةٌ | ملء الحشا وله الفؤاد بأسره
قمرٌ أنا استخرجته من دجنه | لبليتي ورفعته من خدره
عهدي به ميتاً كأحسن نائمٍ | والحزن ينحر في مقلتي في نحره
لو كان يدري الميت ماذا بعده | بالحي منه بكى له في قبره
غصصٌ تكاد تفيظ منها نفسه | ويكاد يخرج قلبه من صدره

فصنعت أخت الغلام:

يا ويح ديك الجن يا تباً له | مما تضمن صدره من غدره
قتل الذي يهوى وعمر بعده | يا رب لا تمدد له في عمره "

وقد ذكر أبو بكر الخرائطي في كتاب " اعتلال القلوب " حديثه وشعره وله كل معنى حسن، رحمه الله تعالى.

ورغبان: بفتح الراء وسكون الغين المعجمة وفتح الباء الموحدة وبعد الألف نون.

وقد تقدم الكلام على سلمية في ترجمة المهدي عبيد الله. وحمص: مدينة مشهورة.

أبو القاسم الداركي

أبو القاسم عبد العزيز بن عبد الله بن محمد بن عبد العزيز الداركي،الفقيه الشافعي؛ كان أبوه محدث أصبهان في وقته، وكان أبو القاسم من كبار فقهاء الشافعيين، نزل نيسابور سنة ثلاث وخمسين وثلثمائة ودرس الفقه بها سنين، ثم انتقل إلى بغداد وسكنها إلى حين وفاته، وأخذ الفقه عن أبي إسحاق المروزي، وعليه تفقه الشيخ أبو حامد الإسفرايني بعد موت أبي الحسن ابن المرزبان، وأخذ عنه عامة شيوخ بغداد وغيرهم من أهل الآفاق. وكان يدرس ببغداد في مسجد دعلج بن أحمد بدرب أبي خلف من قطيعة الربيع، وله حلقة في الجامع للفتوى والنظر، وانتهى التدريس إليه ببغداد وانتفع به خلق كثير. وله في المذهب وجوه جيده دالة على متانة علمه، وكان يتهم بالاعتزال، وكان الشيخ أبو حامد الإسفرايني يقول: ما رأيت أحداً أفقه من الداركي، وأخذ الحديث عن جده لأمه الحسن بن محمد الداركي. وكان إذا جاءته مسألة تفكر طويلاً ثم يفتي فيها، وربما أفتى على خلاف مذهب الإمامين الشافعي وأبي حنيفة، رضي الله عنهما، فيقال له في ذلك، فيقول: ويحكم، حدث فلان عن فلان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بكذا وكذا، والأخذ بالحديث أولى من الأخذ بقول الإمامين.

وتوفي ببغداد يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من شوال سنة خمس وسبعين وثلثمائة، عن نيف وسبعين سنة، رحمه الله تعالى، وقيل: إنه توفي في ذي القعدة، والأول أصح. وكان ثقة أميناً.

والداركي: بفتح الدال المهملة وبعد الألف راء مفتوحة وبعدها كاف، قال السمعاني: هذه النسبة إلى دارك، وظني أنها من قرى أصبهان، وقال: هو عبد العزيز بن الحسن بن أحمد الداركي، والله أعلم بالصواب.

ابن نباتة الشاعر

أبو نصر عبد العزيز بن عمر بن محمد بن أحمد بن نباتة بن حميد بن نباتة بن الحجاج بن مطر بن خالد بن عمرو بن رزاح بن رياح بن سعد بن ثجير

بن ربيعة بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم بن مر، التميمي السعدي، وبقية النسب معروف؛ كان شاعراً مجيداً، جمع بين حسن السبك وجودة المعنى، طاف البلاد ومدح الملوك والوزراء والرؤساء، وله في سيف الدولة بن حمدان غر القصائد ونخب المدائح، وكان قد أعطاه فرساً أدهم أغر محجلاً فكتب إليه:

يا أيها الملك الذي أخلاقه	من خلقه ورواؤه من رائه
قد جاءنا الطرف الذي أهديته	هاديه يعقد أرضه بسمائه
أولايةً وليتنا فبعثته	رمحاً سبيب العرف عقد لوائه
نحتل منه على أغر محجل	ماء الدياجي قطرةٌ من مائه
فكأنما لطم الصباح جبينه	فاقتص منه فخاض في أحشائه
متمهلاً والبرق من أسمائه	متبرقعاً والحسن من أكفائه
ما كانت النيران يكمن حرها	ولو كان للنيران بعض ذكائه
لاتعلق الألحاظ في أعطافه	إلا إذا كفكفت من غلوائه
لا يكمل الطرف المحاسن كلها	حتى يكون الطرف من أسرائه

وهذا المعنى الذي وقع له في صفة الغرة والتحجيل في غاية الإبداع، وما أظنه سبق إليه.

وله في سيف الدولة أيضاً قصيدة لامية طويلة ومن جملة أبياتها قوله:

قد جدت لي باللها حتى ضجرت بها	وكدت من ضجري أثني على البخل
إن كنت ترغب في أخذ النوال لنا	فاخلق لنا رغبة أو لا فلا تنل
لم يبقِ جودك لي شيئاً أؤمله	تركتني أصحب الدنيا بلا أمل

وهذا المعنى فيه إلمام بقول البحتري، أعني البيت الأول:

إني هجرتك إذ هجرتك وحشةً	لا العود يذهبها ولا الإبداء
أخجلتني بندى يديك فسودت	ما بيننا تلك اليد البيضاء
وقطعتني بالجود حتى إنني	متخوفٌ أن لا يكون لقاء
صلةٌ غدت في الناس وهي قطيعة	عجب وبر راح وهو جفاء

وفي معناه أيضا قول دعبل بن علي الخزاعي المقدم ذكره يمدح المطلب بن عبد الله بن مالك الخزاعي أمير مصر:

زمني بمطلب سقيت زمانا	ما كنت إلا روضةً وجنانا
كل الندى إلا نداك تكلفٌ	لم أرض بعدك كائناً من كانا
أصلحتني بالبر بل أفسدتني	وتركتني أتسخط الإحسانا

وهو معنى مطروق تداولته الشعراء، وأكثرت استعماله، فمنهم من يستوفيه ومنهم من يقصر فيه، وكتب به علي بن جبلة المعروف بالعكوك–الآتي ذكره إن شاء الله تعالى– إلى أبي دلف العجلي في أبيات رائية، ولولا خوف الإطالة لذكرتها، وما ألطف قول أبي العلاء المعري فيه:

لو اختصرتم من الإحسان زرتكم والعذب يهجر للإفراط في الخصر

رجعنا إلى ذكر أبي نصر المذكور: ومعظم شعره جيد، وله ديوان كبير، وكان قد وصل إلى مدينة الري، وامتدح أبا الفضل محمد بن العميد وجرى بينهما مفاوضة يأتي شرحها في ترجمته إن شاء الله تعالى.

وكانت ولادته في سنة سبع وعشرين وثلثمائة، وتوفي يوم الأحد بعد طلوع الشمس ثالث شوال سنة خمس وأربعمائة ببغداد، ودفن قبل الظهر في مقبرة الخيزران من الجانب الشرقي، رحمه الله تعالى.

ونباتة: بضم النون كما تقدم في جد الخطيب ابن نباتة.

وثجير: بضم الثاء المثلثة وفتح الجيم وسكون الياء المثناة من تحتها، وبعدها راء.

وبقيت الأسماء معروفة.

قال أبو غالب محمد بن أحمد بن سهل: دخلت على أبي الحسن محمد بن علي بن نصر البغدادي صاحب الرسائل وصاحب كتاب " المفاوضة " – قلت: وهو أخو القاضي عبد الوهاب المالكي، وسيأتي ذكرهما في ترجمة عبد الوهاب إن شاء الله تعالى– قال: وكان في مرض موته بواسط، فقعدت عنده قليلاً ثم قمت لأنه كان به قيام، فأنشدني بيت أبي نصر عبد العزيز وهو:

متع لحاظك من خلٍ تودعه فما إخالك بعد اليوم بالوادي

ثم قال لي أبو الحسن المذكور: عدت أبا نصر ابن نباتة في اليوم الذي توفي فيه فأنشدني هذا البيت، وودعته وانصرفت، فأخبرت في طريقي أنه توفي، قال الشيخ أبو غالب: وفي تلك الليلة توفي أبو الحسن المذكور، وقد ذكرت تاريخ ذلك في ترجمة عبد الوهاب المالكي.

وقال أبو علي محمد بن وشاح بن عبد الله: سمعت أبا نصر ابن نباتة يقول: كنت يوما قائلاً في دهليزي، فدق عليه الباب، فقلت: من؟ فقال: رجلٌ من أهل المشرق، فقلت: ما حاجتك؟ فقال: أنت القائل:

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره تنوعت الأسباب والداء واحد

فقلت: نعم، فقال: أرويه عنك؟ فقلت: نعم، فمضى، فلما كان أخر النهار دق عليه الباب، فقلت: من؟ قال رجل من أهل تاهرت من الغرب، ما حاجتك؟ فقال: أنت القائل:

ومن لم يمت بالسيف ما بغيره وتنوعت الأسباب والداء واحد

فقلت: نعم، فقال: أرويه عنك؟ فقلت: نعم، وعجبت كيف وصل إلى الشرق والغرب.

ابن مغلس الأندلسي

أبو محمد عبد العزيز بن أحمد بن السيد بن مغلس القيسي الأندلسي؛ كان من أهل العلم باللغة والعربية مشاراً إليه فيهما، رحل من الأندلس وسكن مصر واستوطنها، وقرأ الأدب على أبي العلاء صاعد بن الحسن الربعي صاحب كتاب " الفصوص " – وقد سبق ذكره في حرف الصاد – وعلى أبي يعقوب يوسف بن يعقوب النجيرمي بمصر، ودخل بغداد واستفاد وأفاد، وله شعر حسن، فمن ذلك قوله:

مريض الجفون بلا علةٍ ولكن قلبي به ممرض
أعان السهاد على مقلتي بفيض الدموع فما تغمض
وما زار شوقاً ولكن أتى يعرض لي أنه معرض

وله أشعار كثيرة، وكانت بينه وبين أبي الطاهر إسماعيل بن خلف صاحب كتاب" العنوان" معارضات في قصائد هي موجودة في ديوانيهما، ولولا خوف الإطالة لأتيت بشيء منها.

وتوفي يوم الأربعاء لست بقين من جمادى الأولى سنة سبع وعشرين وأربعمائة، بمصر، وصلى عليه الشيخ أبو الحسن علي بن إبراهيم الحوفي صاحب التفسير في مصلى الصدفي، ودفن عند بني إسحاق، رحمهم الله أجمعين.

ومغلس: بضم الميم وفح الغين المعجمة وتشديد اللام وكسرها وبعدها سين مهملة.

عبد الصمد بن علي الهاشمي

أبو محمد عبد الصمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب الهاشمي؛ ذكر الحافظ أبو الفرج ابن الجوزي في كتاب " شذور العقود " أنه كانت فيه عجائب، مها أنه ولد في سنة أربع ومائة، وولد أخوه محمد بن علي والد السفاح والمنصور في سنة ستين للهجرة، فبينهما في المولد أربع وأربعون سنة، وتوفي في سنة ست وعشرين ومائة، وتوفي عبد الصمد المذكور في سنة خمس وثمانين ومائة، فكان بينهما في الوفاة تسع وخمسون سنة، ومنها أنه حج يزيد بن معاوية في سنة خمسين للهجرة وحج عبد الصمد بالناس سنة وخمسين ومائة، وهما في النسب إلى عبد مناف سواء، لأن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، فبين يزيد وعبد مناف خمسة أجداد، وبين عبد الصمد وعبد مناف خمسة، لأن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، ومنها أنه أدرك السفاح والمنصور وهما ابنا أخيه، ثم أدرك المهدي بن المنصور وهو عم أبيه، ثم أدرك الهادي وهو عم جده، ثم أدرك الرشيد وفي أيامه مات. وقال يوما للرشيد: يا أمير المؤمنين، هذا مجلس فيه أمير المؤمنين وعم أمير المؤمنين وعم عم أمير المؤمنين وعم عم عمه، وذلك أن سليمان بن أبي جعفر عم الرشيد، والعباس عم سليمان، وعبد الصمد عم العباس. ومنها أنه مات بأسنانه التي ولد بها، ولم يثغر، وكانت قطعة واحدة من أسفل.

وذكر ابن جرير الطبري في تاريخه أن عبد الصمد المذكور ولد في رجب سنة ست ومائة، ومات في جمادى الآخرة سنة خمس وسبعين ومائة. وقال غيره: كانت وفاته ببغداد، وقال غيره: ولد في سنة تسع، وقيل في سنة خمس بالحميمة من أرض البلقاء، والله أعلم.

وأمه كبيرة التي يقول فيها عبيد الله بن قيس الرقيات الشاعر المشهور قصيدته التي أولها:

عاد له من كبيرة الطرب

وعمي في أخر عمره.

يقال: ثغر الصبي يثغر فهو مثغور، إذا سقطت أسنانه، وإذا نبتت قيل قد اثغر، واتغر، بالثاء والتاء مع التشديد فيهما –وسيأتي ذكر والده وأخيه إن شاء الله تعالى –.

ابن بابك

أبو القاسم عبد الصمد بن منصور بن الحسن بابك الشاعر المشهور؛ أحد الشعراء المجيدين المكثرين، رأيت ديوانه في ثلاث مجلدات، وله أسلوب رائق في نظم الشعر، وجاب البلاد، ولقي الرؤساء، ومدحهم، وأجزلوا جائزته ولما قدم على الصاحب بن عباد قال له: أنت بابك الشاعر؟ فقال: أنا ابن بابك، فاستحسن قوله وأجازه وأجزل صلته.

ومن شعره قوله:

وأغيد معسول الشمائل زارني ... على فرقٍ والنجم حيران طالع

فلما جلا صبغ الدجى قلت حاجبٌ ... من الصبح أو قرنٌ من الشمس لامع

إلى أن دنا والسحر رائد طرفه ... كما ريع ظبيٌ بالصريمة راتع

فنازعته الصهباء والليل دامسٌ ... رقيق حواشي البرد والنسر واقع

عقار عليها من دم الصب نفضةٌ ... ومن عبرات المستهان فواقع

تدير إذا شجت عيوناً كأنها عيون العذارى شق عنها البراقع
معودة غضب العقول كأنما لها عند ألباب الرجال ودائع
فبتنا وظل الوصل دانٍ وسرنا مصون ومكتوم الصبابة ذائع
إلى أن سلا عن ورده فارط القطا ولاذت بأطراف الغصون السواجع
فولى أسير السكر يكبو لسانه فتنطق عنه بالوداع الأصابع

وله:

يا صاحبي امزجا كأس المدام لنا كيما يضيء لنا من نورها الغسق
خمراً إذا ما نديمي هم يشربها أخشى عليه من اللألاء يحترق
لو رام يحلف أن الشمس ماغربت في فيه كذبه في وجهه الشفق

وله من قصيد بيتٌ من في غاية الرقة وهو:

ومر بي النسيم فرق حتى كأني قد شكوت إليه ما بي

وكانت وفاته في سنة عشر وأربعمائة ببغداد، رحمه الله تعالى.

وبابك: بفتح الباءين الموحدتين بينهما ألف وفي الأخير كاف.

أبو المحاسن الروياني

أبو المحاسن عبد الواحد بن إسماعيل بن أحمد بن محمد الروياني الفقيه الشافعي؛ من رؤوس الأفاضل في أيامه مذهباً وأصولاً وخلافاً، سمع أبا الحسين عبد الغافر بن محمد الفارسي بميافارقين ومن أبي عبد الله محمد بن بيان بن محمد الكازروني وتفقه عليه على مذهب الشافعي، وروى عنه زاهر بن طاهر الشحامي وغيره.

وكان له الجاه العظيم والحرمة الوافرة في تلك الديار، وكان الوزير نظام الملك كثير التعظيم له لكمال فضله. رحل إلى بخارى وأقام بها مدة ودخل غزنة ونيسابور، ولقي الفضلاء وحضر مجلس ناصر المروزي وعلق عنه وسمع الحديث، وبنى بآمل طبرستان مدرسةً، ثم انتقل إلى الري ودرّس بها، وقدم أصبهان وأملى بجامعها، وصنف الكتب المفيدة: منها "بحر المذهب " وهو من أطول كتب الشافعيين وكتاب " مناصيص الإمام الشافعي " وكتاب " الكافي "وكتاب " حلية المؤمن " وصنف في الأصول والخلاف، ونقل عنه أنه كان يقول: لو احترقت كتب الشافعي لأمليتها من خاطري. وذكره القاضي أبو محمد عبد الله بن يوسف الحافظ في " طبقات أئمة الشافعية " فقال: أبو المحاسن الروياني باقرة العصر إمام في الفقه، وذكره الحافظ أبو زكرياء يحيى بن منده، وروى الحديث عن خلق كثير في بلاد متفرقة. وكانت ولادته في ذي الحجة سنة خمس عشرة وأربعمائة، وقال الحافظ أبو طاهر السلفي: بلغنا أن أبا المحاسن الروياني أملى بمدينة آمل، وقتل بعد فراغه من الإملاء بسبب التعصب في الدين، في المحرم سنة اثنتين وخمس مائة. وذكر معمر بن عبد الواحد بن فاخر في الوفيات التي خرجها للحافظ أبي سعد ابن السمعاني أن أبا المحاسن المذكور قتل بآمل في جامعها يوم الجمعة الحادي عشر من المحرم من السنة المذكورة، قتله الملاحدة، والله أعلم، رحمه الله تعالى.

والروياني: بضم الراء وسكون الواو وفتح الياء المثناة من تحتها وبعد الألف نون، هذه النسبة إلى رويان، وهي مدينة بنواحي طبرستان خرج منها جماعة من العلماء؛ وآمل مدينة هنالك وقد سبق ذكرها.

الببغاء

أبو الفرج عبد الواحد بن نصر بن محمد المخزومي الشاعر المعروف بالببغاء؛ ذكّره الثعالبي في " يتيمة الدهر " وقال: هو من أهل نصيبين، وبالغ في الثناء عليه وذكر جملة من رسائله ونظمه وما دار بينه وبين أبي إسحاق الصابي، وأشياء يطول شرحها.

واتفق أن أبا الفرج قدم مرة بغداد وأبو إسحاق معتقل مدة طويلة و لم يصبر عنه وزاره في مجلسه ثم انصرف و لم يعاوده فكتب إليه أبو إسحاق:

أبا الفرج اسلم وابق وانعم ولا تزل ... يزيدك صرف الدهر حظاً إذا نقص

مضى زمن تستام وصلي غالياً ... فأرخصته والبيع غالٍ ومرتخص

وأنستني في مجلسي بزيارة ... شفت كبداً من صاحبٍ لك قد خلص

ولكنها كانت كحسوة طائرٍ ... فواقاً كما يستفرص السارق الفرص

وأحسبك استوحشت من ضيق محبسي ... وأوجست خوفاً من تذكرك القفص

كذا الكرز اللماح ينجو بنفسه ... إذا عاين الأشراك تنصب للقنص

فحوشيت يا قسَّ الطيور بلاغةً ... إذا أنشد المنظوم أو درس القصص

من المنسر الأشغى ومن حدة المدى ... ومن بندق الرامي ومن قصة المقص

فهذي دواهي الطير وقيت شرها ... إذا الدهر من أحداثه جرع الغصص

فأجابه أبو الفرج في الحال مع رسوله:

أيا ماجداً مذ يمم المجد مانكص ... وبدر تمامٍ مذ تكامل ما نقص

ستخلص من هذا السرار وأيما ... هلالٍ توارى بالسرار فما خلص

برأفة تاج الملة الملك الذي ... لسؤدده في خطة المشتري حصص

تقنصت بالألطاف شكري ولم أكن ... علمت بأن الحر بالبر يقتنص

وصادفت أدنى فرصة فانتهزتها ... بلقياك إذ بالحزم تنتهز الفرص

أتتني القوافي الزاهرات تجمل ال ... بدائع من مستحسن الجد والرخص

فقابلت زهر الروض منها ولم أرد ... وأحرزت در البحر منها ولم أغص

فإن كنت بالببغاء قدماً ملقباً ... فكم لقبٍ بالجور لا العدل مخترص

وبعد فما أخشى تقنص جارحٍ ... وقلبك لي وكرٌ ورأيك لي قفص

فانتهى الابتداء والجواب إلى عضد الدولة فأعجب بهما واستظرفهما، وكان ذلك أحد أسباب إطلاق أبي إسحاق من اعتقاله. ثم اتصلت بينهما المودة والكتابة. وحكى القاضي أبو علي التنوخي قال: دخل أبو الفرج عبد الواحد الببغاء على الوزير أبي نصر سأبور بن أردشير وقد نثرت عليه دنانير وجواهر، فأنشد بديهاً:

نثروا الجواهر واللجين وليس لي ... شيءٌ عليه سوى المدائح أنثر

بقصائدٍ كالدر إن هي أنشدت ... وثنا إذا ما فاح فهو العنبر

ومن شعره:

يا سادتي هذه روحي تودعكم إذ كان لا الصبر يسليها ولا الجزع

قد كنت أطمع في روح الحياة لها فالآن إذ بنتم لم يبق لي طمع

لا عذب الله روحي بالبقاء فما أظنها بعدكم بالعيش تنتفع

وله:

خيالك منك أعرف بالغرام وأرأف بالمحب المستهام

ولو يسطيع حين حظرت نومي علي لزار في غير المنام

وله أيضاً:

ومهفهفٍ لما اكتست وجناته خلع الملاحة طرزت بعذاره

لما انتصرت على أليم جفائه بالقلب كان القلب من أنصاره

كملت محاسن وجهه فكأنما اق تبس الهلال النور من أنواره

وإذا ألح القلب في هجرانه قال الهوى لا بد منه فداره

وله في التشبيه وقد أبدع فيه:

وكأنما نقشت حوافر خيله للناظرين أهلةً في الجلمد

وكأن طرف الشمس مطروفٌ وقد جعل الغبار له مكان الإثمد

وله في سعيد الدولة بن سيف الدولة بن حمدان:

لا غيث نعماه في الورى خلب ال برق ولا ورد جوده وشل

جاد إلى أن لم يبق نائله مالاً ولم يبق للورى أمل

وقد سبق نظير هذا المعنى في شعر أبي نصر ابن نباتة السعدي. وأكثر شعر أبي الفرج المذكور جيد ومقاصده فيه جميلة. وكان قد خدم سيف الدولة بن حمدان مدة، وبعد وفاته تنقل في البلاد.

وتوفي يوم السبت سلخ شعبان سنة ثمان وتسعين وثلثمائة، وقال الخطيب في تاريخه: توفي في ليلة السبت لثلاث بقين من شعبان سنة ثمان وتسعين وثلثمائة، والله أعلم، رحمه الله تعالى. وقال الثعالبي: وسمعت الأمير أبا الفضل الميكالي يقول عند صدوره من الحج ودخوله بغداد في سنة تسعين وثلثمائة: ورأيت بها أبا الفرج الببغاء شيخاً عالي السن متطاول الأمد، قد أخذت الأيام من جسمه وقوته ولم تأخذ من ظرفه وأدبه.

والببغاء: بفتح الباء الأولى وتشديد الباء الثانية وفتح الغين المعجمة وبعدها ألف، وهو لقب وإنما لقب به لحسن فصاحته، وقيل: للثغة كانت في لسانه.

ووجد بخط أبي الفتح ابن جني النحوي الفقفاء، بفاءين، والله أعلم بالصواب.

أبو منصور البغدادي

الأستاذ أبو منصور عبد القاهر بن محمد البغدادي الفقيه الشافعي الأصولي الأديب؛ كان ماهراً في فنون عديدة خصوصاً علم الحساب، فإنه كان متقناً له وله فيه تواليف نافعة، منها كتاب " التكملة "، وكان عارفاً بالفرائض والنحو، وله أشعار، وذكره الحافظ عبد الغافر بن إسماعيل الفارسي في "

سياق تاريخ نيسابور "، وقال: " ورد مع أبيه نيسابور، وكان ذا مال وثروة وأنفقه على أهل العلم والحديث و لم يكتسب بعلمه مالاً، وصنف في العلوم وأربى على أقرانه في الفنون ودرس في سبعة عشر فناً، وكان قد تفقه على أبي إسحاق الإسفراييني وجلس بعده للإملاء في مكانه بمسجد عقيل فأملى سنين، واختلف إليه الأئمة فقرأوا عليه، مثل ناصر المروزي وزين الإسلام القشيري وغيرهما ".

وتوفي سنة تسع وعشرين وأربعمائة بمدينة إسفراين، ودفن إلى جانب شيخه الأستاذ أبي إسحاق، رحمهما الله تعالى.

أبو النجيب السهروردي

أبو لنجيب عبد القاهر بن عبد الله بن محمد بن عمويه، واسمه عبد الله، بن سعد بن الحسين بن القاسم بن علقمة بن النضر بن معاذ بن عبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، الملقب ضياء الدين السهروردي. وقال محب الدين بن النجار في " تاريخ بغداد ": نقلت نسب الشيخ أبي النجيب من خطه وهو: عبد القاهر بن عبد الله بن محمد بن عمويه، واسمه عبد الله، بن سعد بن الحسين بن القاسم بن النضر بن سعد بن النضر عبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، وإذا كان بخطه هكذا فهو أصح.

كان شيخ وقته بالعراق، وولد بسهرورد سنة تسعين وأربعمائة تقريباً، وقدم بغداد وتفقه بالمدرسة النظامية على أسعد الميهني – المقدم ذكره –وغيره، ثم سلك طريق الصوفية وحبب إليه الانقطاع والعزلة فانقطع عن الناس مدة مديدة، وأقبل على الاشتغال بالعمل لله تعالى وبذل الجهد في ذلك، ثم رجع ودعا جماعة إلى الله تعالى وكان يعظ ويذكر، فرجع بسببه خلق كثير إلى الله تعالى. وبنى رباطاً على الشط من الجانب الغربي ببغداد وسكنه جماعة من أصحابه الصالحين، ثم ندب إلى التدريس بالمدرسة النظامية فأجاب ودرس بها مدة، وظهرت بركته على تلامذته وكانت ولايته في السابع والعشرين من المحرم سنة خمس وأربعين وخمسمائة، وصرف عنها في رجب سنة سبع وأربعين. وروى عنه الحافظ أبو سعد السمعاني وذكره في كتابه.

وقدم الموصل مجتازاً إلى الشام لزيارة البيت المقدس في سنة سبع وخمسين وخمسمائة، وعقد بها مجلس الوعظ بالجامع العتيق، ثم توجه إلى الشام فوصل إلى دمشق، و لم تتفق له الزيارة لانفساخ الهدنة بين المسلمين والفرنج، خذلهم الله تعالى، فأكرم الملك العادل نور الدين محمود صاحب الشام مورده، وأقام بدمشق مدة يسيرة وعقد بها مجلس الوعظ وعاد إلى بغداد، وتوفي بها يوم الجمعة وقت العصر سابع عشر جمادى الآخرة سنة ثلاث وستين وخمسمائة، ودفن بكرة الغد في رباطه. وكان مولده تقديراً سنة تسعين وأربعمائة، كذا ذكره ابن أخيه شهاب الدين في مشيخته.

وهو عم شهاب الدين أبي حفص عمر السهروردي، وسيأتي اسمه، رحمهما الله تعالى.

وعمويه: بفتح العين المهملة وتشديد الميم المضمومة وسكون الواو وفتح الياء المثناة من تحتها.

وسهرورد: بضم السين المهملة وسكون الهاء وفتح الراء والواو وسكون الراء الثانية وفي آخرها دال مهملة، وهي بليدة عند زنجان من عراق العجم.

أبو القاسم القشيري

أبو القاسم عبد الكريم بن هوزان بن عبد الملك بن طلحة بن محمد القشيري الفقيه الشافعي؛ كان علامة في الفقه والتفسير والحديث والأصول والأدب والشعر والكتابة وعلم التصوف، جمع بين الشريعة والحقيقة، أصله من ناحية أستوا من العرب الذين قدموا خراسان، توفي أبوه وهو صغير، وقرأ الأدب في صباه، وكانت له قرية مثقلة الخراج بنواحي أستوا فرى من الرأي أن يحضر إلى نيسابور يتعلم طرفاً من الحساب ليتولى الاستيفاء ويحمي قريته من الخراج، فحضر نيسابور على هذا العزم، فاتفق حضوره مجلس الشيخ أبي علي الحسن بن علي النيسابوري المعروف بالدقاق، وكان إمام وقته، فلما سمع كلامه أعجبه ووقع في قلبه فرجع عن ذلك العزم، وسلك طريق الإرادة، فقبله الدقاق وأقبل عليه، وتفرس فيه النجابة فجذبه بهمته وأشار عليه بالاشتغال بالعلم، فخرج إلى درس أبي بكر محمد بن أبي بكر الطوسي، وشرع في الفقه حتى فرغ من تعليقه، ثم اختلف إلى الأستاذ أبي بكر ابن الإسفراييني، وقعد يسمع درسه أياماً فقال الأستاذ: هذا العلم لا يحصل بالسماع ولابد من الضبط بالكتابة، فأعاد عليه جميع ما سمعه تلك الأيام، فعجب منه وعرف محله فأكرمه وقال له: ما تحتاج إلى درس بل يكفيك أن تطالع مصنفاتي فقعد وجمع بين طريقته وطريقة ابن فورك، ثم نظر في كتب القاضي أبي بكر بن الطيب الباقلاني وهو مع ذلك يحضر مجلس أبي علي الدقاق، وزوجه ابنته مع كثرة أقاربها.

وبعد وفاة أبي علي سلك مسلك المجاهدة والتجريد وأخذ في التصنيف، فصنف التفسير الكبير قبل سنة عشر وأربعمائة، وسماه " التيسير في علم التفسير " وهو من أجود التفاسير، وصنف الرسالة "في رجال الطريقة "، وخرج إلى الحج في رفقة فيها الشيخ أبو محمد الجويني والد إمام الحرمين وأحمد بن الحسين البيهقي وجماعة من المشاهير، فسمع معهم الحديث ببغداد والحجاز.

وكان له في الفروسية واستعمال السلاح يد بيضاء، وأما مجالس الوعظ والتذكير فهو إمامها، وعقد لنفسه مجلس الإملاء في الحديث سنة سبع وثلاثين وأربعمائة. وذكره أبي الحسن علي الباخرزي في كتاب " دمية القصر " وبالغ في الثناء عليه، وقال في حقه: لو قرع الصخر بصوت تحذيره لذاب ولو ربط إبليس في مجلسه لتاب.

وذكره الخطيب في تاريخه وقال: قدم علينا – يعني إلى بغداد – في سنة ثمان وأربعين وأربعمائة وحدث ببغداد وكتبنا عنه، وكان ثقة وكان يقص وكان حسن الوعظ مليح الإشارة، وكان يعرف الأصول على مذهب الأشعري والفروع على مذهب الشافعي. وذكره عبد الغافر الفارسي في تاريخه.

وقال أبو عبد الله محمد بن الفضل الفراوي: أنشدنا عبد الكريم بن هوازن القشيري لنفسه:

سقى الله وقتاً كنت أخلو بوجهكم ... وثغر الهوى في روضة الأنس ضاحك

أقمنا زماناً والعيون قريرة ... وأصبحت يوماً والجفون سوافك

وقال أبو الفتح محمد بن محمد بن علي الواعظ الفراوي: وكان أبو القاسم القشيري كثيراً ما ينشد لبعضهم وهو ذو القرنين ابن حمدان المقدم ذكره في حرف الذال:

لو كنت ساعة بيننا ما بيننا ... وشهدت كيف تكرر التوديعا

أيقنت أن من الدموع محدثاً ... وعلمت أن من الحديث دموعا

ولد في شهر ربيع الأول سنة ست وسبعين وثلثمائة؛ وتوفي صبيحة يوم الأحد قبل طلوع الشمس سادس عشر ربيع الآخر سنة خمس وستين وأربعمائة بمدينة نيسابور، ودفن بالمدرسة تحت شيخه أبي علي الدقاق، رحمه الله تعالى، ورأيت في كتابه المسمى بالرسالة بيتين أعجباني، فأحببت ذكرهما:

ومن كان في طول الهوى ذاق سلوةً ... فإني من ليلى لها غير ذائق

وأكثر شيء نلته من وصالها ... أماني لم تصدق كخطفة بارق

وكان ولده أبو نصر عبد الرحيم إماماً كبيراً أشبه أباه في علومه ومجالسه، ثم واظب دروس إمام الحرمين أبي المعالي حتى حصل طريقته في المذهب والخلاف ثم خرج للحج فوصل إلى بغداد وعقد بها مجلس وعظ، وحصل له قبول عظيم وحضر الشيخ أبو إسحاق الشيرازي مجلسه وأطبق علماء بغداد على أنهم لم يروا مثله، وكان يعظ في المدرسة النظامية ورباط شيخ الشيوخ، وجرى له مع الحنابلة خصام بسبب الاعتقاد لأنه تعصب للأشاعرة وانتهى الأمر إلى فتنة قتل فيها جماعة من الفريقين، وركب أحد أولاد نظام الملك حتى سكنها، وبلغ الخبر نظام الملك وهو بأصبهان، فسير إليه وإستدعاه فلما حضر عنده زاد في إكرامه ثم جهزه إلى نيسابور فلما وصلها لازم الدرس والوعظ إلى أن قارب انتهاء أمره فأصابه ضعف في أعضائه وأقام كذلك مقدار شهر، ثم توفي ضحوة نهار الجمعة الثامن والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربع عشرة وخمسمائة بنيسابور، ودفن في المشهد المعروف بهم، رحمه الله تعالى.

وكان يحفظ من الشعر والحكايات شيئاً كثيراً، ورأيت له في بعض المجاميع هذه الأبيات، وذكرها السمعاني في " الذيل " أيضاً:

القلب نحوك نازع ... والدهر فيك منازع

جرت القضية بالنوى ... ما للقضية وازع

الله يعلم أنني لفراق وجهك جازع

وتوفي شيخه أبو علي الدقاق المذكور في سنة اثنتي عشرة وأربعمائة.

والقشيري: بضم القاف وفتح الشين المعجمة وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها راء، هذه النسبة إلى قشير بن كعب، وهي قبيلة كبيرة.

وأستوا: بضم الهمزة وسكون السين المهملة وضم التاء المثناة من فوقها أو فتحها وبعدها واو ثم ألف، وهي ناحية بنيسابور كثيرة القرى خرج منها جماعة من العلماء.

ابن السمعاني

تاج الإسلام أبو سعد عبد الكريم بن أبي بكر محمد بن أبي المظفر المنصور بن محمد بن عبد الجبار بن أحمد بن محمد بن جعفر بن أحمد بن عبد الجبار بن الفضل ابن الربيع بن مسلم بن عبد الله بن عبد المجيد التميمي السمعاني المروزي الفقيه الشافعي الحافظ الملقب قوام الدين؛ ذكره الشيخ عز الدين أبو الحسن علي بن الأثير الجزري في أول مختصره فقال: كان أبو سعد واسطة عقد البيت السمعاني وعينهم الباصرة ويدهم الناصرة، وإليه انتهت رياستهم، وبه كملت سيادتهم، رحل في طلب العلم والحديث إلى شرق الأرض وغربها وشمالها وجنوبها، وسافر إلى ما وراء النهر وسائر بلاد خراسان عدة دفعات، وإلى قومس والري وأصبهان وهمذان، وبلاد الجبال والعراق والحجاز والموصل والجزيرة والشام وغيرها من البلاد التي يطول ذكرها ويتعذر حصرها، ولقي العلماء وأخذ عنهم وجالسهم وروى عنهم واقتدى بأفعالهم الجميلة وآثارهم الحميدة، وكان عدة شيوخه تزيد على أربعة آلاف شيخ، وذكر في بعض أماليه فقال: ودعني عبد الله بن محمد بن غالب أبو محمد الجيلي الفقيه نزيل الأنبار، وبكى وأنشدني:

ولما برزنا لتوديعهم بكوا لؤلؤاً وبكينا عقيقا

أداروا علينا كؤوس الفراق وهيهات من سكرها أن نفيقا

تولوا فأتبعتهم أدمعي فصاحوا الغريق فصحت الحريقا

ومما قيل في المعنى:

تنفست الغداة غداة ولوا وعيرهم معارضة الطريق

فصاحوا بالحريق، فظلت أبكي فصاحوا بالحريق والغريق

وصنف التصانيف الحسنة الغزيرة الفائدة، فمن ذلك " تذييل تاريخ بغداد" الذي صنعه الحافظ أبو بكر الخطيب وهو نحو خمسة عشر مجلداً، ومن ذلك " تاريخ مرو " يزيد على عشرين مجلداً، وكذلك " الأنساب" نحو ثماني مجلدات وهو الذي اختصره عز الدين المذكور واستدرك عليه، وهو في ثلاث مجلدات، والمختصر هو الموجود بأيدي الناس والأصل قليل الوجود.

ذكر أبو سعد السمعاني المذكور في ترجمة والده أن أباه حج سنة سبع وتسعين وأربعمائة، ثم عاد إلى بغداد وسمع بها الحديث من جماعة من المشايخ، وكان يعظ الناس في المدرسة النظامية، ويقرأ عليه الحديث، ويحصل الكتب، وأقام كذلك مدة، ثم رحل إلى أصبهان فسمع بها من جماعة كبيرة، ثم رجع إلى خراسان وأقام بمرو إلى سنة تسع وخمسمائة، وخرج إلى نيسابور.

قال أبو سعد: وحملني وأخي إليها، وسمعنا الحديث من أبي بكر عبد الغفار بن محمد الشيروي وغيره من المشايخ، وعاد إلى مرو، وأدركته المنية وهو شاب ابن ثلاث وأربعين سنة.

وكانت ولادة أبي سعد المذكور بمرو يوم الاثنين الحادي والعشرين من شعبان سنة ست وخمسمائة. وتوفي بمرو في ليلة غرة شهر ربيع الأول سنة اثنتين وستين وخمسمائة، رحمه الله تعالى.

وكان أبوه محمد إماماً فاضلاً مناظراً محدثاً فقيهاً شافعياً حافظاً، وله الإملاء الذي لم يسبق إلى مثله، تكلم على المتون والأسانيد، وأبان مشكلاتها، وله

عدة تصانيف، وكان له شعر غسله قبل موته، وكانت ولادته في جمادى الأولى سنة ست وستين وأربعمائة، وتوفي وقت فراغ الناس من صلاة الجمعة ثاني صفر سنة عشر وخمسمائة، ودفن يوم السبت عند والده أبي المظفر بسفحوان إحدى مقابر مرو، رحمه الله تعالى.

وكان جده المنصور إمام عصره بلا مدافعة، أقر له بذلك الموافق والمخالف، وكان حنفي المذهب متعيناً عند أئمتهم، فحج في سنة اثنتين وستين وأربعمائة وظهر له بالحجاز ما اقتضى انتقاله إلى مذهب الإمام الشافعي، رضي الله عنه، فلما عاد إلى مرو لقي بسبب انتقاله محناً وتعصباً شديداً، فصبر على ذلك، وصار إمام الشافعية بعد ذلك يدرس ويفتي، وصنف في مذهب الشافعي رضي الله عنه وفي غيره من العلوم تصانيف كثيرة، منها " منهاج أهل السنة " و" الانتصار " و" الرد على القدرية " وغيرها. وصنف في الأصول " القواطع " وفي الخلاف " البرهان" يشتمل على قريب من ألف مسألة خلافية، و" الأوسط "و" الاصطلام " رد فيه على أبي زيد الدبوسي، وأجاب عن الأسرار التي جمعها، وله تفسير القرآن العزيز، وهو كتاب نفيس، وجمع في الحديث ألف حديث عن مائة شيخ، وتكلم عليها فأحسن، وله وعظ مشهور بالجودة، وكانت ولادته في سنة ست وعشرين وأربعمائة في ذي الحجة، وتوفي في شهر ربيع الأول سنة تسع وثمانين وأربعمائة بمرو، رحمه الله تعالى.

وفي بيتهم جماعة كثيرة علماء رؤساء.

والسمعاني: بفتح السين المهملة وسكون الميم وفتح العين المهملة وبعد الألف نون، هذه النسبة إلى سمعان، وهو بطن من تميم، وسمعت بعض العلماء يقول: يجوز بكسر السين أيضاً.

وكان لأبي سعد عبد الكريم ولد يقال له أبو المظفر عبد الرحيم بكر به والده في سماع الحديث وطاف به في بلاد خراسان وما وراء النهر وأسمعه الحديث وحصل له النسخ وجمع له معجماً لمشايخه في ثمانية عشر جزءاً، وعوالي في مجلدين ضخمين، وشغله بالفقه والأدب والحديث حتى حصل من كل واحد طرفاً صالحاً، وحدث بالكثير ورحل إليه الطلاب، وكان محترماً ببلاده، ومولده في ليلة الجمعة لسبع عشرة ليلة خلت من ذي القعدة سنة سبع وثلاثين وخمسمائة بنيسابور، وتوفي بمرو ما بين سنة أربع عشرة وستمائة، رحمه الله تعالى.

ابن حمديس الشاعر الصقلي

أبو محمد عبد الجبار بن أبي بكر ابن محمد بن حمديس الأزدي الصقلي الشاعر المشهور؛ قال ابن بسام في حقه:هو شاعر ماهر يقرطس أغراض المعاني البديعة، ويعبر عنها بالألفاظ النفيسة الرفيعة، ويتصرف في التشبيه المصيب، ويغوص في بحر الكلم على در المعنى الغريب، فمن معانيه البديعة قوله في صفة نهر:

ومطرد الأجزاء تصقل متنه ... صباً أعلنت للعين ما في ضميره

جريحٌ بأطراف الحصى كلما جرى ... عليها شكا أوجاعه بخريره

كأن حباباً ريع تحت حبابه ... فأقبل يلقي نفسه في غديره

كأن الدجى خط المجرة بيننا ... وقد كللت حافاته ببدوره

شربنا على حافاته دور سكره ... وأقتل سكراً منه عينا مديره

وله من قصيد:

بت منها مستعيداً قبلاً ... كن لي منها على الدهر اقتراح

وأروي غلل الشوق بما ... لم يكن في قدرة الماء القراح

قوله" وأروي غلل الشوق " مأخوذ من قول البحتري:

وبي ظمأ لا يملك الماء دفعه ... إلى نهلة من ريقها البارد العذب

وقوله " جريح بأطراف الحصى " مأخوذ من قول المتنبي:

وذكي رائحة الرياض كأنها تلقي الثناء على الحيا فيفوح

جهد المقل فكيف بابن كريمة توليه خيراً واللسان فصيح

وله من قصيدة أولها:

قم هاتها من كف ذات الوشاح فقد نعى الليل بشير الصباح

باكر إلى اللذات واركب لها سوابق اللهو ذوات المراح

من قبل أن ترشف شمس الضحى ريق الغوادي من ثغور الأقاح

ومن معانيه النادرة قوله:

زادت على كحل الجفون تكحلاً ويسم نصل السهم وهو قتول

وله من جملة قصيد يتشوق صقلية:

ذكرت صقلية والأسى يجدد للنفس تذكارها

فإن كنت أخرجت من جنةٍ فإني أحدث أخبارها

ولولا ملوحة ماء البكاء حسبت دموعي أنهارها

وكان قد دخل إلى الأندلس سنة إحدى وسبعين وأربعمائة، ومدح المعتمد بن عباد فأحسن إليه وأجزل عطاياه، ولما قبض المعتمد وحبس بأغمات – كما سيأتي في ترجمته إن شاء الله – سمع ابن حمديس المذكور له أبياتاً عملها المعتمد في الاعتقال، فأجابه عنها بقوله:

أتيأس من يوم يناقض أمسه وشهب الدراري في البروج تدور

ولما رحلتم بالندى في أكفكم وقلقل رضوى منكم وثبير

رفعت لساني بالقيامة قد دنت فهذي الجبال الراسيات تسير

وقد ألم في البيت الأخير بقول عبد الله بن المعتز في مرثيته للوزير أبي القاسم عبيد الله بن سليمان بن وهب:

قد استوى الناس ومات الكمال وقال صرف الدهر أين الرجال

هذا أبو القاسم في نعشه قوموا انظروا كيف تزول الجبال

وله ديوان شعر أكثره جيد.

وتوفي في شهر رمضان سنة سبع وعشرين وخمسمائة بجزيرة ميورقة ودفن إلى جنب قبر ابن اللبانة الشاعر المشهور، وكان قد عمي، وقيل ببجاية، وأبياته الميمية التي في الشيب والعصا تدل على أنه بلغ الثمانين، رحمه الله تعالى.

وحمديس: بفتح الحاء المهملة وسكون الميم وكسر الدال المهملة وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها سين مهملة.

والصقلي: بفتح الصاد المهملة والقاف وبعدها لام مشددة – هذه النسبة إلى جزيرة صقلية وهي في بحر المغرب بالقرب من إفريقية انتزعها الفرنج من المسلمين في سنة أربع وستين وأربعمائة.

أبو طالب المعافري

أبو طالب عبد الجبار بن محمد بن علي بن محمد المعافري المغربي؛ كان إماماً في اللغة وفنون الأدب، جاب البلاد وانتهى إلى بغداد وقرأ بها، واشتغل عليه خلق كثير وانتفعوا به، ودخل الديار المصرية في سنة إحدى وخمسين وخمسمائة، وقرأ عليه بها الشيخ العلامة أبو محمد عبد الله بن بري - المقدم ذكره -وكتب بخطه كثيراً، وهو حسن الخط على طريق المغاربة، وأكثر ما كتب في الأدب، ورأيت منه شيئاً كثيراً، وقد أتقن ضبطه غاية الإتقان، ورأيت بخطه على ظهر كتاب " المذيل " في اللغة بيتين وهما:

أقسم بالله على كل من	أبصر خطي حيثما أبصره
أن يدعو الرحمن لي مخلصاً	بالعفو والتوبة والمغفرة

وكتاب " المسلسل " للشيخ أبي الطاهر محمد بن يوسف بن عبد الله التميمي وهو يروي الكتاب عن مؤلفه - وقد ذكرت ذلك في ترجمة أبي الطاهر المذكور في حرف الميم في ترجمة المحمدين.

وتوفي في سنة ست وستين وخمسمائة وهو عائد إلى المغرب من الديار المصرية، رحمه الله تعالى.

والمعافري: بفتح الميم والعين المهملة وبعد الألف فاء مكسورة ثم راء، هذه النسبة إلى المعافر بن يعفر، وهي قبيل كبير، عامتهم بمصر.

عبد الرزاق الصنعاني

أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الصنعاني، مولى حمير؛ قال أبو سعد ابن السمعاني: قيل ما رحل الناس إلى أحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل ما رحلوا إليه. يروي عن معمر بن راشد الأزدي مولاهم البصري والأوزاعي وابن جريج وغيرهم، وروى عنه أئمة الإسلام في ذلك العصر منهم سفيان بن عيينة وهو من شيوخه وأحمد بن حنبل ويحيى بن معين وغيرهم.

وكانت ولادته في سنة ست وعشرين ومائة. وتوفي في شوال سنة إحدى عشرة ومائتين باليمن، رحمه الله تعالى.

والصنعاني: بفتح الصاد المهملة وسكون النون وفتح العين المهملة وبعد الألف نون، هذه النسبة إلى مدينة صنعاء، وهي من أشهر مدن اليمن، وزادوا النون في النسبة إليها، وهي نسبة شاذة، كما قالوا في بهراء: بهراني.

وقال أبو محمد عبد الله بن الحارث الصنعاني: سمعت عبد الرزاق يقول: من يصحب الزمان ير الهوان، قال: وسمعته ينشد:

فذاك زمان لعبنا به	وهذا زمان بنا يلعب

ابن الصباغ صاحب الشامل

أبو نصر عبد السيد بن محمد بن عبد الواحد بن أحمد بن جعفر، المعروف بابن الصباغ، الفقيه الشافعي؛ كان فقيه العراقين في وقته، وكان يضاهي الشيخ أبا إسحاق الشيرازي، وتقدم عليه في معرفة المذهب. وكانت الرحلة إليه من البلاد، وكان تقياً حجة صالحاً، ومن مصنفاته كتاب " الشامل " في الفقه، وهو من أجود كتب أصحابنا، وأصحها نقلاً وأثبتها أدلةً، وله كتاب " تذكرة العالم والطريق السالم " و" العدة " في أصول الفقه، وتولى التدريس بالمدرسة النظامية ببغداد أول ما فتحت، ثم عزل بالشيخ أبي إسحاق، وكانت ولايته لها عشرين يوماً، ولما توفي أبو إسحاق أعيد لها أبو نصر المذكور.

وذكر أبو الحسن محمد بن هلال بن الصابئ في تاريخه أن المدرسة النظامية بدئ بعمارتها في ذي الحجة من سنة سبع وخمسين وأربعمائة، وفتحت يوم السبت عاشر ذي القعدة من سنة تسع وخمسين، وكان نظام الملك أمر أن يكون المدرس بها أبا إسحاق الشيرازي، وقرروا معه الحضور في هذا اليوم للتدريس، فاجتمع الناس ولم يحضر، وطلب فلم يوجد، فنفذ إلى أبي نصر ابن الصباغ فأحضر ورتب بها مدرساً، وظهر الشيخ أبو إسحاق في مسجده ولحق أصحابه من ذلك ما بان عليهم وفتروا عن حضور درسه وراسلوه إن لم يدرس بها مضوا إلى ابن الصباغ وتركوه، فأجاب إلى ذلك، وعزل ابن الصباغ، وجلس أبو إسحاق يوم السبت مستهل ذي الحجة فكان مدة تدريس ابن الصباغ عشرين يوماً.

وقال ابن النجار في " تاريخ بغداد ": ولما مات أبو إسحاق تولى أبو سعد المتولي ثم صرف في سنة ست وسبعين، وأعيد ابن الصباغ ثم صرف في سنة سبع وسبعين، وأعيد أبو سعد إلى أن مات، وقد ذكرت ذلك في ترجمته. وقد سبق في ترجمة الشيخ أبي إسحاق في حرف الهمزة طرف من هذه القضية.

وكانت ولادته سنة أربعمائة ببغداد، وكف بصره في آخر عمره.

وتوفي في جمادى الأولى سنة سبع وسبعين وأربعمائة ببغداد، وقيل بل توفي يوم الخميس منتصف شعبان من السنة المذكورة، رحمه الله تعالى.

القاضي عبد الوهاب المالكي

القاضي أبو محمد عبد الوهاب بن علي بن نصر بن أحمد بن الحسين بن هارون بن مالك بن طوق التغلبي البغدادي الفقيه المالكي، وهو من ذرية مالك بن طوق التغلبي صاحب الرحبة؛ كان فقيهاً أديباً شاعراً، صنف في مذهبه كتاب " التلقين " وهو مع صغر حجمه من خيار الكتب وأكثرها فائدة، وله كتاب " المعونة " و" شرح الرسالة " وغير ذلك عدة تصانيف.

ذكره الخطيب في " تاريخ بغداد " فقال: سمع أبا عبد الله بن العسكري وعمر بن محمد بن سبنك وأبا حفص ابن شاهين، وحدث بشيء يسير. كتبت عنه، وكان ثقة، و لم يلق من المالكيين أحداً أفقه منه، وكان حسن النظر جيد العبارة، وتولى القضاء ببادرايا وباكسايا، وخرج في آخر عمره إلى مصر فمات بها.

وذكره ابن بسام في كتاب " الذخيرة " فقال: كان بقية الناس، ولسان أصحاب القياس، وقد وجدت له شعراً معانيه أجلى من الصبح وألفاظه أحلى من الظفر بالنجح، ونبت به بغداد كعادة البلاد بذوي فضلها، وعلى حكم الأيام في محسني أهلها، فخلع أهلها، وودع ماءها وظلها، وحدثت أنه شيعه يوم فصل عنها من أكابرها وأصحاب محابرها جملة موفورة وطوائف كثير، وأنه قال لهم: لو وجدت بين ظهرانيكم رغيفين كل غداة وعشية، ما عدلت ببلدكم بلوغ أمنية، وفي ذلك يقول:

سلام على بغداد في كل موطنٍ ... وحق لها مني سلامٌ مضاعف

فوالله ما فارقتها عن قلىً لها ... وإني بشطي جانبيها لعارف

ولكنها ضاقت علي بأسرها ... ولم تكن الأرزاق فيها تساعف

وكانت كخلٍ كنت أهوى دنوه ... وأخلاقه تنأى به وتخالف

واجتاز في طريقه بمعرة النعمان، وكان قاصداً مصر، وبالمعرة يومئذ أبو العلاء المعري فأضافه، وفي ذلك يقول من جملة أبيات:

والمالكي ابن نصرٍ زار في سفرٍ ... بلادنا فحمدنا النأي والسفرا

إذا تفقه أحيا مالكاً جدلاً ... وينشر الملك الضليل إن شعرا

ثم توجه إلى مصر فحمل لواءها، وملأ أرضها وسماءها، واستتبع سادها وكبراءها، وتناهت إليه الغرائب، وانثالت في يديه الرغائب، فمات لأول ما وصلها من أكلة اشتهاها فأكلها، وزعموا أنه قال وهو يتقلب، ونفسه يتصعد ويتصوب: لا إله إلا الله، إذا عشنا متنا.

وله أشعار رائقة طريفة، فمن ذلك قوله:

ونائمة قبلتها فتنبهت ... فقالت تعالوا واطلبوا اللص بالحد

فقلت لها إني فديتك غاصبٌ ... وما حكموا في غاصبٍ بسوى الرد

خذيها وكفي عن أثيمٍ ظلامةً ... وإن أنت لم ترضي فألفاً على العد

فقالت :قصاص يشهد العقل أنه على كبد الجاني ألذ من الشهد
فباتت يميني وهي هميان خصرها وباتت يساري وهي واسطة العقد
فقالت :ألم أخبر بأنك زاهدٌ فقلت بلى ما زلت أزهد في الزهد

ومن شعره أيضاً:

بغداد دارٌ لأهل المال طيبة وللمفاليس دار الضنك والضيق
ظللت حيران أمشي في أزقتها كأنني مصحفٌ في بيت زنديق

وله:

أهيم بذكر الشرق والغرب دائماً وما لي لا شرق البلاد ولا غرب
ولكن أوطاناً نأت وأحبةً فعدت متى أذكر عهودهم أصب
ولم أنس من ودعت بالشط سحرةً وقد غرد الحادون واشتغل الركب
أليفان هذا سائرٌ نحو غربةٍ وهذا مقيمٌ سار من صدره القرب

وله أيضاً:

قطعت الأرض في شهري ربيعٍ إلى مصر وعدت إلى العراق
وقال لي الحبيب وقد رآني مشوقاً للمضمرة العتاق
ركبت على البراق؟ فقلت كلا ولكني ركبت على اشتياقي

وكان على خاطري أبيات لا أعرف لمن هي، ثم وجدهما في عدة مواضع للقاضي عبد الوهاب المذكور وهي:

متى يصل العطاش إلى ارتواءٍ إذا استقت البحار من الركايا
ومن يثني الأصاغر عن مرادٍ وقد جلس الأكابر في الزوايا
وأن ترفع الوضعاء يوماً على الرفعاء من إحدى الرزايا
إذا استوت الأسافل والأعالي فقد طابت منادمة المنايا

وذكر صاحب " الذخيرة " أنه ولي القضاء بمدينة اسعرد وقال غيره: كان قاضياً في بادرايا وباكسايا وهما بليدتان من أعمال العراق. وسئل عن مولده فقال: يوم الخميس السابع من شوال سنة اثنتين وستين وثلثمائة ببغداد. وتوفي ليلة الاثنين الرابعة عشرة من صفر سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة بمصر، وقيل: إنه توفي في شعبان من السنة المذكورة رحمه الله تعالى. ودفن في القرافة الصغرى وزرت قبره فيما بين قبة الإمام الشافعي، رضي الله عنه، وباب القرافة، بالقرب من ابن القاسم وأشهب، رحمهما الله تعالى.

وكان أبوه من أعيان الشهود المعدلين ببغداد.

وكان أخوه أبو الحسن محمد بن علي بن نصر أديباً فاضلاً صنف كتاب " المفاوضة " للملك العزيز جلال الدولة أبي منصور ابن أبي طاهر بهاء الدولة بن عضد الدولة بن بويه، جمع فيه ما شاهده، وهو من الكتب الممتعة في ثلاثين كراسة، وله رسائل، ومولده ببغداد في إحدى الجماديين في سنة اثنتين وسبعين وثلثمائة، وتوفي يوم الأحد لثلاث بقين من شهر ربيع الآخر سنة سبع وثلاثين وأربعمائة بواسط وكان قد صعد إليها من البصرة فمات بها.

وتوفي أبوهما أبو الحسن علي يوم السبت ثاني شهر رمضان المعظم إحدى وتسعين وثلثمائة رحمهم الله تعالى.

الحافظ عبد الغني

أبو محمد عبد الغني بن سعيد بن علي سعيد بن بشر بن مروان بن عبد العزيز الأزدي الحافظ المصري؛ كان حافظ مصر في عصره، وله تواليف نافعة منها " مشتبه النسبة " وكتاب " المؤتلف والمختلف " وغير ذلك وانتفع به خلق كثير وكانت بينه وبين أبي أسامة جنادة اللغوي وأبي علي المقرئ الأنطاكي مودة أكيدة واجتماع في دار الكتب ومذاكرات فلما قتلهما الحاكم صاحب مصر استتر بسبب ذلك الحافظ عبد الغني خوفاً أن يلحق بهما لاتهامه بمعاشرتهما وأقام مستخفياً مدة حتى حصل له الأمن فظهر – وقد تقدم في ترجمة أبي أسامة خبر ذلك.

وكانت ولادة الحافظ عبد الغني لليلتين بقيتا من ذي القعدة سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة. وتوفي ليلة الثلاثاء ودفن يوم الثلاثاء سابع صفر سنة تسع وأربعمائة بمصر ودفن بحضرة مصلى العيد، رحمه الله تعالى.

وذكر أبو القاسم يحيى بن علي الحضرمي المعروف بابن الطحان في تاريخه الذي جعله ذيلاً لتاريخ ابن يونس المصري أن عبد الغني بن سعيد المذكور مولده في سنة ثلاث وثلاثين وثلثمائة، والله أعلم.

وتوفي والده سعيد المذكور سنة ثمان وثلاثين وثلثمائة، وعمره ثلاث وأربعون سنة، رحمه الله تعالى، وقال ولده الحافظ عبد الغني: لم أسمع من والدي شيئاً.

وقال أبو الحسن علي بن بقا كاتب الحافظ عبد الغني بن سعيد: سمعت الحافظ عبد الغني بن سعيد يقول: رجلان جليلان لزمهما لقبان قبيحان: معاوية بن عبد الكريم الضال، وإنما ضل في طريق مكة، وعبد الله بن محمد الضعيف، وإنما كان ضعيفاً في جسمه، لا في حديثه.

وقال أبو عبد الله محمد بن علي الحافظ الصوري: قيل للدارقطني: هل رأيت في الحديث أحداً يرجى علمه؟ فقال: نعم، شاباً بمصر كأنه شعلة نار يقال له: عبد الغني، فلما خرج الدارقطني من مصر جاءه المودعون وتحزنوا على مفارقته وبكوا، فقال: لقد تركت عندكم خلفاً، يعني عبد الغني.

وقال أيضاً – أعني الصوري – لما صنف عبد الغني " المؤتلف والمختلف " عرضه على الدارقطني فقال له: اقرأه، فقال: كيف أقرأه لك ومعظمه أخذته عنك؟ فقال: نعم أخذته عني متفرقاً، والآن قد جمعته.

الحافظ عبد الغافر الفارسي

أبو الحسن عبد الغافر بن إسماعيل بن عبد الغافر بن محمد بن عبد الغافر بن أحمد بن محمد بن سعيد الفارسي الحافظ؛ كان إماماً في الحديث والعربية وقرأ القرآن الكريم، ولقن الاعتقاد بالفارسية وهو ابن خمس سنين، وتفقه على إمام الحرمين أبي المعالي الجويني صاحب " نهاية المطلب " في المذهب والخلاف ولازمه مدة أربع سنين وهو سبط الإمام أبي القاسم عبد الكريم القشيري – المقدم ذكره – وسمع عليه الحديث الكثير، وعلى جدته فاطمة بنت أبي علي الدقاق وخاليه أبي سعد وأبي سعيد ولدي أبي القاسم القشيري ووالده أبي عبد الله إسماعيل بن عبد الغافر ووالدته أمة الرحيم ابنة أبي القاسم القشيري وجماعة كبيرة سواهم. ثم خرج من نيسابور إلى خوارزم ولقي بها الأفاضل، وعقد له المجلس، ثم خرج إلى غزنة ومنها إلى الهند، وروى الأحاديث، وقرئ عليه لطائف الإشارات بتلك النواحي، ثم رجع إلى نيسابور وولي الخطابة بها، وأملى بها في مسجد عقيل أعصار يوم الاثنين سنين، ثم صنف كتباً عديدة منها " المفهم لشرح غريب صحيح مسلم " و" السياق لتاريخ نيسابور " وفرغ منه في أواخر ذي القعدة سنة ثماني عشرة وخمسمائة، وكتاب " مجمع الغرائب " في غريب الحديث، وغير ذلك من الكتب المفيدة.

وكانت ولادته في شهر ربيع الآخر سنة إحدى وخمسين وأربعمائة؛ وتوفي في سنة تسع وعشرين وخمسمائة بنيسابور، رحمه الله تعالى.

أبو الوقت

أبو الوقت عبد الأول بن أبي عبد الله عيسى بن شعيب بن إبراهيم بن إسحاق السجزي؛ كان مكثراً من الحديث عالي الاسناد، طالت مدته وألحق الأصاغر بالأكابر.

سمعت صحيح البخاري بمدينة إربل في بعض شهور سنة إحدى وعشرين وستمائة على الشيخ الصالح أبي جعفر محمد بن هبة الله بن المكرم بن عبد الله

الصوفي البغدادي، بحق سماعه في المدرسة النظامية ببغداد من الشيخ أبي الوقت المذكور، في شهر ربيع الأول سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة، بحق سماعه من أبي الحسن عبد الرحمن بن محمد بن مظفر الداودي في ذي القعدة سنة خمس وستين وأربعمائة، بحق سماعه من أبي محمد عبد الله بن أحمد بن حمويه السرخسي في صفر سنة إحدى وثمانين وثلثمائة، بحق سماعه من أبي عبد الله محمد بن يوسف بن مطر الفربري سنة ست عشرة وثلثمائة، بحق سماعه من مؤلفه الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري مرتين، إحداهما سنة ثمان وأربعين ومائتين والثانية سنة اثنتين وخمسين ومائتين، رحمهم الله أجمعين.

وكان الشيخ أبو الوقت صالحاً يغلب عليه الخير، وانتقل أبوه إلى مدينة هراة وسكنها فولد له بها أبو الوقت في ذي القعدة سنة ثمان وخمسين وأربعمائة. وتوفي في ليلة الأحد سادس ذي القعدة سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة، رحمه الله تعالى. وكان قد وصل إلى بغداد يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من شوال سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة، ونزل في رباط فيروز وبه مات، وصلي عليه فيه ثم صلوا عليه الصلاة العامة بالجامع، وكان الإمام في الصلاة الشيخ عبد القادر الجيلي، وكان الجمع متوفراً، ودفن بالشونيزية في الدكة المدفون بها رويم الزاهد؛ وكان سماعه الحديث بعد الستين والأربعمائة، وهو آخر من روى في الدنيا عن الداودي، رحمه الله تعالى.

وتوفي والده سنة بضع عشرة وخمسمائة، رحمه الله تعالى.

وقد تقدم الكلام على السجزي، وهي من شواذ النسب.

وكانت ولادة شيخنا أبي جعفر محمد بن هبة الله بن المكرم الصوفي المذكور في ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة، وقيل سنة ست، وقيل سنة سبع وثلاثين. وتوفي ليلة الخميس من المحرم سنة إحدى وعشرين وستمائة ببغداد، ودفن من الغد بالشونيزية، رحمهم الله أجمعين.

ابن كليب الحراني

أبو الفرج عبد المنعم بن أبي الفتح عبد الوهاب بن سعد بن صدقة بن الخضر بن كليب، الملقب شمس الدين، الحراني الأصل البغدادي المولد والدار الحنبلي المذهب؛ كان تاجراً وله في الحديث السماعات العالية، وانتهت الرحلة إليه من أقطار الأرض وألحق الصغار بالكبار لا يشاركه في شيوخه ومسموعاته أحد.

وكانت ولادته في صفر سنة خمس خمسمائة. وتوفي ليلة الاثنين السابع والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ست وتسعين وخمسمائة ببغداد، ودفن من الغد بمقبرة الإمام أحمد بن حنبل، رضي الله عنه، بباب حرب، عند أبيه وأهله، وكان صحيح الذهن والحواس إلى أن مات، وتسرى مائة وثمانياً وأربعين جارية، رحمه الله تعالى.

عبد الحميد الكاتب

عبد الحميد بن يحيى بن سعد مولى بني عامر بن لؤي بن غالب، الكاتب البليغ المشهور؛ وبه يضرب المثل في البلاغة، حتى قيل فتحت الرسائل بعبد الحميد، وختمت بابن العميد. وكان في الكتابة وفي كل فن من العلم والأدب إماماً، وهو من أهل الشام، وكان أولاً معلم صبيةٍ يتنقل في البلدان، وعنه أخذ المترسلون، ولطريقته لزموا ولآثاره اقتفوا، وهو الذي سهل سبيل البلاغة في الترسل، ومجموع رسائله مقدار ألف ورقة. وهو أول من أطال الرسائل واستعمل التحميدات في فصول الكتب، فاستعمل الناس ذلك بعده، وكان كاتب مروان بن محمد بن مروان بن الحكم الأموي آخر ملوك بني أمية المعروف بالجعدي، فقال له يوماً وقد أهدى له بعض العمال عبداً أسود فاستقله: اكتب إلى هذا العامل كتاباً مختصراً، وذمه على ما فعل، فكتب إليه "لو وجدت لوناً شراً من السواد وعدداً أقل من الواحد لأهديته، والسلام ".

ومن كلامه أيضاً: القلم شجرة ثمرتها الألفاظ، والفكر بحر لؤلؤه الحكمة. وقال إبراهيم بن العباس الصولي، وقد ذكر عبد الحميد المذكور عنده: كان والله الكلام معاناً له، ما تمنيت كلام أحد من الكتاب قط أن يكون لي مثل كلامه. وفي رسالة له " والناس أخياف مختلفون، وأطوار متباينون، منهم علق مضنة لا يباع، وغل مظنة لا يبتاع " وكتب على يد شخص كتاباً بالوصاة عليه إلى بعض الرؤساء فقال: " حق موصل كتابي إليك عليك كحقه

علي إذ رآك موضعا لأمله، ورآني أهلاً لحاجته، وقد أنجزت حاجته، فصدق أمله ". ومن كلامه " خير الكلام ما كان لفظه فحلاً ومعناه بكراً ". وكان كثيراً ما ينشد:

إذا جرح الكتاب كانت دويهم قسياً وأقلام الدوي لها نبلا

وله رسائل بليغة.

وكان حاضراً مع مروان في جميع وقائعه عند آخر أمره، وقد سبق في أخبار أبي مسلم الخراساني طرف من ذلك. ويحكى أن مروان قال له حين أيقن بزوال ملكه: قد احتجت أن تصير مع عدوي وتظهر الغدر بي، فإن إعجابهم بأدبك وحاجتهم إلى كتابتك يحوجهم إلى حسن الظن بك، فإن استطعت أن تنفعني في حياتي، وإلا لم تعجز عن حفظ حرمي بعد وفاتي. فقال له عبد الحميد: إن الذي أشرت به علي أنفع الأمرين لك وأقبحهما بي، وما عندي إلا الصبر حتى يفتح الله تعالى أو أقتل معك؛ وأنشد:

أسر وفاء ثم أظهر غدرةً فمن لي بعذر يوسع الناس ظاهر

ذكر ذلك أبو الحسن المسعودي في كتاب " مروج الذهب ".

ثم إن عبد الحميد قتل مع مروان، وكان قتل مروان يوم الاثنين ثالث عشر ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائة، بقرية يقال لها بوصير من أعمال الفيوم بالديار المصرية، رحمهما الله تعالى.

ورأيت بخطي في مسوداتي أنه لما قتل مروان بن محمد الأموي استخفى عبد الحميد بالجزيرة، فغمز عليه، فأخذ ودفعه أبو العباس، وأظنه السفاح، إلى عبد الجبار بن عبد الرحمن صاحب شرطته، فكان يحمي له طستاً بالنار ويضعه على رأسه حتى مات. وكان من أهل الأنبار وسكن الرقة، وشيخه في الكتابة سالم مولى هشام بن عبد الملك.

وروى محمد بن العباس اليزيدي بإسناد ذكره قال: أتي أبو جعفر المنصور أخو السفاح – وهو ثاني خلفاء بني العباس بعد قتل مروان بن محمد الجعدي – بعبد الحميد الكاتب والبعلبكي المؤذن وسلام الحادي، فهم المنصور بقتلهم جميعاً لكونهم من أصحاب مروان، فقال سلام: استبقني يا أمير المؤمنين فإني أحسن الناس حداءً، فقال: وما بلغ من حدائك؟ فقال: تعمد إلى إبل فتظمئها ثلاثاً ثم توردها الماء، فإذا وردت رفعت صوتي بالحداء فترفع رؤوسها وتدع الشرب ثم لا تشرب حتى أسكت، قال: فأمر المنصور بإبل فأظمئت ثلاثة أيام، ثم أوردت الماء، فلما بدأت بالشرب رفع سلام صوته بالحداء فامتنعت من الشرب ثم لم تشرب حتى سكت، فاستبقى سلاماً وأجازه وأجرى عليه رزقه. وقال له البعلبكي المؤذن: استبقني يا أمير المؤمنين قال: وما عندك؟ قال: أنا مؤذن، قال: وما بلغ من أذانك؟ قال: تأمر جارية تقدم إليك طستاً وتأخذ بيدها أبريقاً وتصب عليك، وأبتدئ الآذان فتدهش ويذهب عقلها إذا سمعت أذاني حتى تلقي الأبريق من يدها وهي لا تعلم؛ فأمر جارية فأعدت أبريقاً فيه ماء وقدمت إليه طستاً وجعلت تصب عليه ورفع البعلبكي صوته بالآذان فبقيت الجارية شاخصة وألقت الأبريق من يدها فاستبقاه وأجازه وأجرى عليه الرزق وصير أمر الجامع إليه.

قال له: عبد الحميد الكاتب: استبقني يا أمير المؤمنين قال: وما عندك؟ قال: أنا أبلغ أهل زماني في الكتابة، فقال له المنصور: أنت الذي فعلت بنا الأفاعيل وعملت بنا الدواهي. فأمر به فقطعت يداه ورجلاه ثم ضربت عنقه، والله أعلم أي ذلك كان.

وكان ولده إسماعيل كاتباً ماهراً نبيلاً معدوداً في جملة الكتاب المشاهير.

وكان يعقوب بن داود وزير المهدي – الآتي ذكره إن شاء الله تعالى – كاتباً بين يدي عبد الحميد المذكور، وممن تخرج عليه وتعلم منه.

وساير عبد الحميد يوماً مروان بن محمد على دابة قد طالت مدتها في ملكه، فقال له مروان: قد طالت صحبة هذه الدابة لك، فقال: يا أمير المؤمنين إن من بركة الدابة طول صحبتها وقلة علفها، فقال له: فكيف سيرها؟ فقال: همها أمامها وسوطها عنانها وما ضربت قط إلا ظلماً.

وقال أبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري في كتاب " أخبار الوزراء ": وجدت بخط أبي علي أحمد بن إسماعيل: حدثني العباس بن جعفر الأصبهاني، قال: طلب عبد الحميد بن يحيى الكاتب وكان صديقاً لابن المقفع، ففاجأهما الطلب وهما في بيت، فقال الذين دخلوا عليهما: أيكما عبد الحميد؟ فقال كل واحد منهما: أنا، خوفاً من أن ينال صاحبه مكروه وخاف عبد الحميد أن يسرعوا إلى ابن المقفع فقال: ترفقوا بنا فإن كلاً منا له

علامات، فوكلوا بنا بعضكم ويمضي البعض الآخر ويذكر تلك العلامات لمن وجهكم ففعلوا، وأخذ عبد الحميد.

وبوصير: بضم الباء الموحدة وسكون الواو وكسر الصاد المهملة وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها راء. ويقال: إن مروان لما وصل إليها منهزماً والعساكر في طلبه قال: ما اسم هذه القرية؟ فقيل له: بوصير، فقال: إلى الله المصير، فقتل بها، وهي واقعة مشهورة.

وقال إبراهيم بن جبلة: رآني عبد الحميد الكاتب أخط خطاً رديئاً فقال لي: أتحب أن تجود خطك؟ فقلت: نعم، فقال: أطل جلفة قلمك وأسمنها، وحرف قطتك وأيمنها، ففعلت فجاد خطي.

عبد المحسن الصوري

أبو محمد عبد المحسن بن محمد بن أحمد بن غالب بن غلبون الصوري الشاعر المشهور؛ أحد المحسنين الفضلاء، المجيدين الأدباء، شعره بديع الألفاظ حسن المعاني، رائق الكلام مليح النظام، من محاسن الشام، له ديوان شعر أحسن فيه كل الإحسان، فمن محاسنه قوله:

أترى بثأرٍ أم بدين ... علقت محاسنها بعيني

في لحظها وقوامها ... ما في المهند والرديني

وبوجهها ماء الشبا ... ب خليط نار الوجنتين

بكرت علي وقالت اخ ... تر خصلة من خصلتين

إما الصدود أو الفرا ... ق فليس عندي غير ذين

فأجبتها ومدامعي ... تنهل مثل المأزمين

لا تفعلي، إن حان ص ... دك أو فراقك حان حيني

فكأنما قلت انهضي ... فمضت مسارعةً لبيني

ثم استقلت أين حل ... ت عيسها رميت بأين

ونوائبٍ أظهرن أيا ... مي إلي بصورتين

سودنها وأطلنها ... فرأيت يوماً ليلتين

ومنها:

هل بعد ذلك من يع ... رفني النضار من اللجين

فلقد جهلتهما لبع ... د العهد بينهما وبيني

متكسباً بالشعر يا ... بئس الصناعة في اليدين

كانت كذلك قبل أن ... يأتي علي بن الحسين

فاليوم حال الشعر ثا ... لثة لحال الشعريين

أغنى وأعفى مدحه ال ... عافين عن كذب ومين

وهذه القصيدة عملها عبد المحسن في علي بن الحسين والد الوزير أبي القاسم بن المغربي، وهي قصيدة طويلة جيدة ولها حكاية ظريفة، وهي أنه كان بمدينة عسقلان رئيس يقال له ذو المنقبتين، فجاءه بعض الشعراء وامتدحه بهذه القصيدة وجاء في مديحها:

ولك المناقب كلها فلم اقتصرت على اثنتين؟

فأصغى الرئيس إلى إنشاده واستحسنها وأجزل جائزته، فلما خرج من عنده قال له بعض الحاضرين: هذه القصيدة لعبد المحسن، فقال: أعلم هذا وأحفظ القصيدة، ثم أنشدها، فقال له ذلك الرجل: فكيف حتى عملت معه هذا العمل من الإقبال عليه والجائزة السنية؟ فقال: لم أفعل ذلك إلا لأجل البيت الذي ضمنها، وهو قوله: ولك المناقب كلها فإن هذا البيت ليس لعبد المحسن، وأنا ذو المنقبتين، فأعلم قطعاً أن هذا البيت ما عمل إلا في، وهو في نهاية الحسن.

ومن شعره أيضاً، وذكر الثعالبي في كتابه الذي جعله ذيلاً على " يتيمة الدهر "، هذه الأبيات لأبي الفرج ابن أبي حصين علي بن عبد الملك الرقي أصلاً، وكان أبوه قاضي حلب، والله أعلم، ولكنها في ديوان عبد المحسن – والثعالبي قد نسب أشياء إلى غير أربابها وغلط فيها، ولعل هذا من جملة الغلط أيضاً – وذكر في ديوانه أنه عملها في أخيه عبد الصمد، وهي:

وأخٍ مسه نزولي بقرحٍ مثلما مسني من الجوع قرح
بت ضيفاً له كما حكم الده ر وفي حكمه على الحر قبح
فابتداني يقول وهو من السك رة بالهم طافح ليس يصحو
لم تغربت؟ قلت قال رسول الله والقول منه نصحٌ ونجح
سافروا تغنموا، فقال: وقد قا ل تمام الحديث صوموا تصحوا

وذكر له صاحب " اليتيمة " هذين البيتين:

عندي حدائق شكرٍ غرس جودكم قد مسها عطش فليسق من غرسا
تداركوها وفي أغصانها رمقٌ فلن يعود اخضرار العود إن يبسا

واجتاز يوماً بقبر صديق له فأنشده:

عجباً لي وقد مررت على قب رك كيف اهتديت قصد الطريق
أتراني نسيت عهدك يوماً؟ صدقوا ما لميت من صديق

ولما ماتت أمه ودفنها وجد عليها وجداً كثيراً فأنشد:

رهينة أحجار ببيداء دكدك تولت فحلت عروة المتمسك
وقد كنت أبكي إن تشكت وإنما أنا اليوم أبكي أنها ليس تشتكي

وهذا المعنى مأخوذ من قول المتنبي:

وشكيتي فقد السقام لأنه قد كان لما كان لي أعضاء

وقد استعمل أبو محمد عبد الله بن محمد المعروف بابن سنان الخفاجي الحلبي هذا المعنى في بيت من جملة قصيدة طويلة فقال:

بكى الناس أطلال الديار وليتني وجدت دياراً للدموع السواكب

ومحاسنه كثيرة، والاقتصار أولى.
وتوفي يوم الأحد تاسع شوال سنة تسع عشرة وأربعمائة، وعمره ثمانون سنة أو أكثر، رحمه الله تعالى.
وغلبون: بفتح الغين المعجمة وسكون اللام وضم الباء الموحدة وبعد الواو نون.
والصوري قد تقدم الكلام عليه.

الحافظ عبد المجيد العبيدي

أبو الميمون عبد المجيد، الملقب الحافظ، ابن أبي القاسم محمد بن المستنصر بن الظاهر بن الحاكم بن العزيز بن المعز بن المنصور بن القائم بن المهدي عبيد الله – وقد تقدم ذكر المهدي وجماعة من حفدته –؛ بويع الحافظ بالقاهرة يوم مقتل ابن عمه الآمر بولاية العهد وتدبير المملكة حتى يظهر الحمل المخلف عن الآمر – حسبما يأتي شرحه في آخر هذه الترجمة إن شاء الله تعالى – فغلب عليه أبو علي أحمد بن الأفضل شاهان شاه ابن أمير الجيوش بدرٍ الجمالي – وقد تقدم ذكر أبيه في حرف الشين – في صبيحة يوم مبايعته وكان الآمر لما قتل الأفضل اعتقل جميع أولاده وفيهم أبو علي المذكور، فأخرجه الجند من الاعتقال لما قتل الآمر وبايعوه فسار إلى القصر وقبض على الحافظ المذكور واستقل بالأمر وقام به أحسن قيام، ورد على المصادرين أموالهم، وأظهر مذهب الإمامية وتمسك بالأئمة الاثني عشر، ورفض الحافظ وأهل بيته، ودعا على المنابر للقائم في أخر الزمان المعروف بالإمام المنتظر على زعمهم وكتب اسمه على السكة، ونهى أن يؤذن " حي على خير العمل "، وأقام كذلك إلى أن وثب عليه رجل من الخاصة بالبستان الكبير بظاهر القاهرة في النصف من المحرم سنة ست وعشرين وخمسمائة فقتله، وكان ذلك بتدبير الحافظ، فبادر الأجناد بإخراج الحافظ وبايعوه ولقبوه الحافظ، ودعي له على المنابر.

وكان مولده بعسقلان في المحرم من سنة سبع وستين وأربعمائة، وقيل سنة ست وستين، وكان قد بويع بالعهد يوم قتل الآمر – وسيأتي تاريخه في ترجمته في حرف الميم إن شاء الله تعالى – ثم بويع بالاستقلال يوم قتل أحمد بن الأفضل في التاريخ المذكور. وتوفي أخر ليلة الأحد لخمس خلون من جمادى الآخرة سنة أربع، وقيل ثلاث وأربعين وخمسمائة، رحمه الله تعالى. وقيل أنه ولد في الثالث عشر وقيل الخامس عشر من شهر رمضان سنة ثمان وستين وأربعمائة.

وكان سبب ولادته بعسقلان أن أباه خرج إليها من مصر في أيام الشدة والغلاء المفرط الذي حصل بمصر في زمان جده المستنصر – حسبما هو مشروح في ترجمته في حرف الميم – فأقام بها ينتظر أيام الرخاء وزوال الشدة، فولد له الحافظ المذكور هناك، هكذا قاله شيخنا عز الدين بن الأثير في تاريخه الكبير، والله أعلم.

ولم يتول الأمر من ليس أبوه صاحب الأمر من بيتهم سواه وسوى العاضد عبد الله – وقد تقدم ذكره في العبادلة – وكان سبب توليته أن الآمر لم يخلف ولداً وخلف امرأة حاملاً، فماج أهل مصر وقالوا: هذا البيت لا يموت إمام منهم حتى يخلف ولداً ذكراً وينص عليه بالإمامه، وكان الآمر قد نص على الحمل، فوضعت له المرأة بنتاً، فكان ما شرحناه من حديث الحافظ المذكور وأحمد بن الأفضل أمير الجيوش، ولهذا السبب بويع الحافظ بولاية العهد ولم يبايع بالإمامة مستقلاً، لأنهم كانوا ينتظرون ما يكون من الحمل.

وهذا الحافظ كان كثير المرض بعلة القولنج فعمل له شيرماه الديلمي – وقيل موسى النصراني – طبل القولنج الذي كان في خزائنهم لما ملك السلطان صلاح الدين، رحمه الله تعالى، الديار المصرية، وكسره السلطان المذكور، وقصته مشهورة، وأخبرني حفيد شيرماه المذكور أن جده ركب هذا الطبل من المعادن السبعة والكواكب السبعة في إشرافها كل واحد منها في وقته، وكان من خاصته أن الإنسان إذا ضربه خرج الريح من مخرجه، ولهذه الخاصية كان ينفع من القولنج.

عبد المؤمن صاحب المغرب

أبو محمد عبد المؤمن بن علي القيسي الكومي الذي قام بأمره محمد بن تومرت المعروف بالمهدي؛ كان والده وسطاً في قومه، وكان صانعاً في عمل

الطين يعمل منه الآنية فيبيعها، وكان عاقلاً من الرجال وقوراً. ويحكى أن عبد المؤمن في صباه كان نائماً تجاه أبيه وأبوه مشتغل بعمله في الطين، فسمع أبوه دوياً من السماء، فرفع رأسه فرأى سحابة سوداء من النحل قد هوت مطبقة على الدار، فنزلت كلها مجتمعة على عبد المؤمن وهو نائم، فغطته و لم يظهر من تحتها ولا استيقظ لها، فرأته أمه على تلك الحال فصاحت خوفاً على ولدها، فسكتها أبوه فقالت: أخاف عليه، فقال: لا بأس عليه، بل إني متعجب مما يدل عليه ذلك، ثم إنه غسل يديه من الطين ولبس ثيابه ووقف ينتظر ما يكون من أمر النحل، فطار عنه بأجمعه، فاستيقظ الصبي وما به من ألم، فتفقدت أمه جسده فلم تر به أثراً، و لم يشك إليها ألمًا، وكان بالقرب منهم رجل معروف بالزجر، فمض أبوه إليه فأخبره ما رآه من النحل مع ولده، فقال الزاجر: يوشك أن يكون له شأن، يجتمع على طاعته أهل المغرب، فكان من أمره ما اشتهر.

ورأيت في بعض تواريخ المغرب أن ابن تومرت كان قد ظفر بكتاب يقال له " الجفر " وفيه ما يكون على يده وقصة عبد المؤمن وحليته واسمه، وأن ابن تومرت أقام مدة يتطلبه حتى وجده وصحبه وهو إذ ذاك غلام، وكان يكرمه ويقدمه على أصحابه، وأفضى إليه بسره وانتهى به إلى مراكش وصاحبها يومئذ أبو الحسن علي بن يوسف بن تاشفين ملك الملثمين، وجرى له معه فصول يطول شرحها، وأخرجه منها فتوجه إلى الجبال وحشد واستمال المصامدة، وبالجملة فإنه لم يملك شيئاً من البلاد، بل عبد المؤمن ملك بعد وفاته بالجيوش التي جهزها ابن تومرت والترتيب الذي رتبه، وكان أبداً يتفرس فيه النجابة وينشد إذا أبصره:

تكاملت فيك أوصافٌ خصصت بها فكلنا بك مسرورٌ ومغتبط
السن ضاحكةٌ والكف مانحة والنفس واسعةٌ والوجه منبسط

وهذان البيتان وجدتهما منسوبين إلى أبي الشيص الخزاعي الشاعر المشهور، وكان يقول لأصحابه: صاحبكم هذا غلاب الدول، و لم يصح عنه أنه استخلفه، بل راعى أصحابه في تقديمه إشارته فتم له الأمر وكمل.

وأول ما أخذ من البلاد وهران ثم تلمسان ثم فاس ثم سلا ثم سبتة، وانتقل بعد ذلك إلى مراكش وحاصرها أحد عشر شهراُ ثم ملكها، وكان أخذه لها في أوائل سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة، واستوثق له الأمر، وامتد ملكه إلى المغرب الأقصى والأدنى وبلاد إفريقية وكثير من بلاد الأندلس، وتسمى أمير المؤمنين، وقصدته الشعراء وامتدحته بأحسن المدائح، وذكر العماد الأصبهاني في كتاب " الخريدة " أن الفقيه أبا عبد الله محمد بن أبي العباس التيفاشي لما أنشده:

ما هز عطفيه بين البيض والأسل مثل الخليفة عبد المؤمن بن علي

أشار عليه بأن يقتصر على هذا البيت وأمر له بألف دينار.

ولما تمهدت له القواعد وانتهت أيامه خرج من مراكش إلى مدينة سلا، فأصابه بها مرض شديد، وتوفي منه في العشر الأخير من جمادى الآخرة السابع والعشرين منه سنة ثمان وخمسين وخمسمائة، وقيل أنه حمل إلى تين مل المذكورة في ترجمة المهدي محمد بن تومرت، ودفن هناك، والله أعلم، وكانت مدة ولايته ثلاثاً وثلاثين سنة وأشهراً، وكان عند موته شيخاً نقي البياض.

ونقلت من تاريخ فيه سيرته وحليته، فقال مؤلفه: رأيته شيخاً معتدل القامة عظيم الهامة أشهل العينين كث اللحية شثن الكفين طويل القعدة واضح بياض الأسنان، بخده الأيمن خال، رحمه الله تعالى.

وقيل إن ولادته كانت سنة خمسمائة، وقيل سنة تسعين وأربعمائة، والله أعلم. وعهد إلى ولده أبي عبد الله محمد فاضطرب أمره وأجمعوا على خلعه في شعبان من سنة ولايته، وبويع أخوه يوسف – على ما سيأتي ذكره إن شاء الله تعالى.

والكومي: بضم الكاف وسكون الواو وبعدها ميم، هذه النسبة إلى كومية، وهي قبيلة صغيرة نازلة بساحل البحر من أعمال تلمسان، ومولده في قرية هناك يقال لها تاجرة.

وأما كتاب " الجفر " فقد ذكره ابن قتيبة في أوائل كتاب " اختلاف الحديث " فقال بعد كلام طويل واعجب من هذا التفسير تفسير الروافد للقرآن الكريم وما يدعونه من علم باطنه بما وقع إليهم من الجفر الذي ذكره سعد بن هارون العجلي وكان رأس الزيدية فقال:

ألم تر أن الرافضين تفرقوا ... فكلهم في جعفر قال منكرا
فطائفة قالوا إمامٌ ومنهم ... طوائف سمته النبي المطهرا
ومن عجب لم أقضه جلد جفرهم ... برئت إلى الرحمن ممن تجفرا

والأبيات أكثر من هذا فاقتصرت منها على هذا لأنه المقصود بذكر الجفر، ثم قال ابن قتيبة بعد الفراغ من الأبيات: " وهو جلد جفر ادعوا أنه كتب لهم فيه الإمام كل ما يحتاجون إليه وكل ما يكون إلى يوم القيامة ". قلت: وقولهم " الإمام يريدون به جعفراً الصادق، رضي الله عنه، وقد تقدم ذكره. وإلى هذا الجفر أشار أبو العلاء المعري بقوله من جملة أبيات:

لقد عجبوا لأهل البيت لما ... أتاهم علمه في مسك جفر
ومرآة المنجم وهي صغرى ... أرته كل عامرةٍ وقفر

وقوله " في مسك جفر " المسك، بفتح الميم وسكون السين المهملة، الجلد. والجفر، بفتح الجيم وسكون الفاء وبعدها راء، من أولاد المعز ما بلغ أربعة أشهر، وجفر جنباه، وفصل عن أمه، والأنثى جفرة، وكانت عاداتهم ذلك الزمان أنهم يكتبون في الجلود والعظام والخزف وما شاكل ذلك.

أبو القاسم الأنماطي

أبو القاسم عثمان بن سعيد بن بشار الأحول الأنماطي الفقيه الشافعي؛ كان من كبار الفقهاء الشافعية أخذ الفقه عن المزني والربيع بن سليمان المرادي، وأخذ عنه أبو العباس ابن سريج وغيره، وكان هو السبب في نشاط الناس ببغداد في كتب الشافعي وتحفظها. وقال عن المزني: أنا أنظر في كتاب " الرسالة "عن الشافعي، رضي الله عنه، منذ خمسين سنة ما أعلم أني نظرت فيه مرةً إلا وأنا أستفيد منه شيئاً كثيرا، لم أكن عرفته. وتوفي في شوال سنة ثمان وثمانين ومائتين ببغداد، رحمه الله تعالى.

وقال أبو حفص عمر بن علي المطوعي في كتاب " المذهب في ذكر أئمة المذهب " اسم أبي القاسم عبيد الله بن أحمد بن بشار الأنماطي، رحمه الله تعالى.

والأنماطي: بفتح الهمزة وسكون النون وفتح الميم وبعد الألف طاء مهملة، هذه النسبة إلى الأنماط وبيعها، وهي البسط التي تفرش وغير ذلك من آلة الفرش من الأنطاع والوسائد، وأهل مصر يسمون هذه الآلات الأنماط وبائعها الأنماطي، والله أعلم

ضياء الدين شارح المهذب

أبو عمرو عثمان بن عيسى بن درباس بن فير بن جهم بن عبدويس الهذباني الماراني الملقب ضياء الدين؛ كان من أعلم الفقهاء في وقته بمذهب الإمام الشافعي، وهو أخو القاضي صدر الدين أبي القاسم عبد الملك الحاكم بالديار المصرية - كان -وناب عنه في الحكم في القاهرة، واشتغل في صباه بإربل على الشيخ أبي العباس الخضر بن عقيل - المقدم ذكره في حرف الخاء - ثم انتقل إلى دمشق وقرأ على الشيخ أبي سعد عبد الله بن أبي عصرون - المقدم ذكره - وتمهر في المذهب وأصول الفقه وأتقنهما، وشرح " المذهب " شرحاً شافياً لم يسبق إلى مثله في قريب من عشرين مجلداً و لم يكمله، بل بقي من كتاب الشهادات إلى آخره، وسماه " الاستقصاء لمذاهب الفقهاء " وشرح " اللمع " في أصول الفقه للشيخ أبي إسحاق الشيرازي شرحاً مستوفى في مجلدين وصنف غير ذلك. وقبل أن مات القاضي صدر الدين، رحمه الله تعالى - وكان موته في الليلة الخامسة من رجب ليلة الأربعاء سنة خمس وستمائة -عزل ضياء الدين المذكور عن النيابه، فوقف عليه الأمير جمال الدين خشترين الهكاري مدرسة أنشأها بالقصر بالقاهرة وفوض تدريسها إليه. و لم يزل بها إلى أن توفي في ثاني عشر ذي القعدة سنة اثنتين وستمائة بالقاهرة ودفن بالقرافة الصغرى وقد قارب تسعين سنة، رحمه الله تعالى.

ثم توفي صدر الدين في التاريخ المذكور، ودفن في تربته بالقرافة الصغرى، وكان يتردد في مولده: هل هو في أواخر سنة ست عشرة أو أوائل سنة سبع عشرة وخمسمائة؛ وفوض إليه السلطان صلاح الدين القضاء بالديار المصرية بعد أن كان قاضي الغربية من أعمال الديار المصرية في الثاني والعشرين من

جمادى الآخرة سنة ست وقيل سنة خمس وستين وخمسمائة، رحمه الله تعالى.

وفير: بكسر الفاء وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها راء.

وجهم: بفتح الجيم وسكون الهاء وبعدها ميم.

وعبدوس: بفتح العين المهملة وسكون الباء الموحدة وضم الدال المهملة وسكون الواو وبعدها سين مهملة.

والماراني: بفتح الميم وبعد الألف راء مفتوحة وبعد الألف الثانية نون، هذه النسبة إلى بني ماران بالمروج تحت الموصل.

تقي الدين ابن الصلاح

أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان بن موسى بن أبي نصر النصري الكردي الشهرزوري المعروف بابن الصلاح، الشرخاني الملقب تقي الدين، الفقيه الشافعي؛ كان أحد فضلاء عصره في التفسير والحديث والفقه وأسماء الرجال وما يتعلق بعلم الحديث ونقل اللغة، وكانت له مشاركة في فنون عديدة، وكانت فتاويه مسددة وهو أحد أشياخي الذين انتفعت بهم. قرأ الفقه أولاً على والده الصلاح وكان من جلة مشايخ الأكراد المشار إليهم، ثم نقله والده إلى الموصل واشتغل بها مدة، وبلغني أنه كرر على جميع كتاب " المهذب " و لم يطر شاربه، ثم إنه تولى الإعادة عند الشيخ العلامة عماد الدين أبي حامد ابن يونس بالموصل أيضاً، وأقام قليلاً ثم سافر إلى خراسان فأقام بها زماناً وحصل علم الحديث هناك، ثم رجع إلى الشام وتولى التدريس بالمدرسة الناصرية بالقدس المنسوبة إلى الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، رحمه الله تعالى، وأقام بها مدة، واشتغل الناس عليه وانتفعوا به، ثم انتقل إلى دمشق وتولى تدريس المدرسة الرواحية التي أنشأها الزكي أبو القاسم هبة الله بن عبد الواحد ابن رواحة الحموي، وهو الذي أنشأ المدرسة الرواحية بحلب أيضاً. ولما بنى الملك الأشرف ابن الملك العادل بن أيوب، رحمه الله تعالى، دار الحديث بدمشق فوض تدريسها إليه. واشتغل الناس عليه بالحديث، ثم تولى تدريس ست الشام زمرد خاتون بنت أيوب – وهي شقيقة شمس الدولة توران شاه بن أيوب المقدم ذكره التي هي داخل البلد قبلي البيمارستان النوري، وهي التي بنت المدرسة الأخرى ظاهر دمشق، وبها قبرها وقبر أخيها المذكور وزوجها ناصر الدين بن أسد الدين شيركوه صاحب حمص – فكان يقوم بوظائف الجهات الثلاث من غير إخلال بشيء منها إلا لعذر ضروري لابد منه، وكان من العلم والدين على قدم حسن، وقدمت عليه في أوائل شوال سنة اثنتين وثلاثين وستمائة، وأقمت عنده بدمشق ملازم الاشتغال مدة سنة.

وصنف في علوم الحديث كتاباً نافعاً، وكذلك في مناسك الحج جمع فيه أشياء حسنة يحتاج الناس إليها، وهو مبسوط، وله إشكالات على كتاب " الوسيط " في الفقه، وجمع بعض أصحابه فتاويه في مجلد. و لم يزل أمره جارياً على سداد وصلاح حال واجتهاد في الاشتغال والنفع إلى أن توفي يوم الأربعاء وقت الصبح، وصلي عليه بعد الظهر، وهو الخامس والعشرون من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وأربعين وستمائة بدمشق، ودفن بمقابر الصوفية خارج باب النصر، رحمه الله تعالى. ومولده سنة سبع وسبعين وخمسمائة بشرخان.

وتوفي والده الصلاح ليلة الخميس السابع والعشرين من ذي القعدة سنة ثمان عشرة وستمائة بحلب، ودفن خارج باب الأربعين في الموضع المعروف بالجبل بتربة الشيخ علي بن محمد الفارسي، وكان مولده في سنة تسع وثلاثين وخمسمائة تقديراً لأنه كان لا يتحققه، وتولى بحلب تدريس المدرسة الأسدية المنسوبة إلى أسد الدين شيركوه بن شاذي – المقدم ذكره – وكان قد دخل بغداد واشتغل بها، واشتغل أيضاً على شرف الدين بن أبي عصرون – المقدم ذكره.

والنصري: بفتح النون وسكون الصاد المهملة وبعدها راء، هذه النسبة إلى جده أبي نصر المذكور.

وشرخان: بفتح الشين المثلثة والراء والخاء المعجمة وبعد الألف نون، قرية من أعمال إربل قريبة من شهرزور.

وتوفي الزكي ابن رواحة المذكور يوم الثلاثاء سابع رجب سنة اثنتين وعشرين وستمائة بدمشق ودفن في مقابر الصوفية، وذكر الشهاب عبد الرحمن المعروف بأبي شامة في تاريخه المرتب على السنين أنه مات سنة ثلاث وعشرين.

وتوفيت ست الشام بنت أيوب المذكورة في سنة ست عشرة وستمائة يوم الجمعة سادس عشر ذي القعدة، رحمها الله تعالى.

وروي عن تقي الدين المعروف بابن الصلاح، رحمه الله تعالى، أنه قال: أخبرني الشيخ الصالح علي بن الرواس، قدس الله روحه، قال: ألهمت في النوم هذه الكلمات: ادفع المسألة ما وجدت التجمل يمكنك، فإن لكل يوم رزقاً جديداً، والإلحاح في الطلب يذهب البهاء، وما أحسن الصنيع إلى الملهوف، وربما كانت الغير نوعاً من أدب الله تعالى، والحظوظ مراتب فلا تعجل على ثمرةٍ قبل أن تدرك، فإنك ستنالها في أوانها، ولا تعجل في حوائجك فتضيق بها ذرعاً ويغشاك القنوط، والله أعلم

ابن جني

أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي النحوي المشهور؛ كان إماماً في علم العربية، قرأ الأدب على الشيخ أبي علي الفارسي - المقدم ذكره في حرف الحاء - وفارقه وقعد للإقراء بالموصل، فاجتاز بها شيخه أبو علي فرآه في حلقته والناس حوله يشتغلون عليه، فقال له " زببت وأنت حصرم "، فترك حلقته وتبعه ولازمه حتى تمهر.

وكان أبوه جني مملوكاً رومياً لسليمان بن فهد بن أحمد الأزدي الموصلي، وإلى هذا أشار بقوله في جملة أبيات:

فإن أصبح بلا نسب ... فعلمي في الورى نسبي
على أني أؤول إلى ... قرومٍ سادة نجب
قياصرة إذا نطقوا ... أرم الدهر ذو الخطب
أولاك دعا النبي لهم ... كفى شرفاً دعاء نبي

" أرم " بمعنى سكت.

وله أشعار حسنة، ويقال أنه كان أعور، وفي ذلك يقول - وقيل إن هذه الأبيات لأبي منصور الديلمي:

صدودك عني ولا ذنب لي ... يدل على نية فاسدة
فقد وحياتك مما بكيت ... خشيت على عيني الواحدة
ولولا مخافة أن لا أراك ... لما كان في تركها فائدة

ورأيت له قصيدة بائية يرثي بها المتنبي ولولا طولها لأتيت بها.

وأما أبو منصور الديلمي فالمشهور عنه غير هذه التسمية، وأنه أبو الحسن علي بن منصور، وكان أبوه من جند سيف الدولة بن حمدان، وكان شاعراً مجيداً خليعاً، وكان بفرد عين، وله في ذلك أشياء مليحة فمن ذلك قوله:

يا ذا الذي ليس له شاهدٌ ... في الحب معروفٌ ولا شاهده
شواهدي عيناي إني بها ... بكيت حتى ذهبت واحدة
وأعجب الأشياء أن التي ... قد بقيت في صحبتي زاهده

وله في غلام جميل الصورة بفرد عين، وقد أبدع فيه:

له عين أصابت كل عين ... وعين قد أصابتها العيون

ولابن جني من التصانيف المفيدة في النحو كتاب " الخصائص " و" سر الصناعة " و" المنصف في شرح تصريف أبي عثمان المازني " و" التلقين في النحو " و" التعاقب " و" الكافي في شرح القوافي " للأخفش، و" المذكر والمؤنث " و"المقصور والممدود " و"التمام في شرح شعر الهذليين " و" المنهج في اشتقاق أسماء شعراء الحماسة " ومختصر في العروض ومختصر في القوافي و" المسائل الخاطريات " و"التذكرة الأصبهانية " و" مختار تذكرة أبي علي الفارسي " وتهذيبها و" المقتضب " في المعتل العين و" اللمع " و" التنبيه " و" المهذب " و" التبصرة " وغير ذلك، ويقال: إن الشيخ أبا إسحاق

الشيرازي أخذ منه أسماء كتبه، فإن له " المهذب " و" التنبيه " في الفقه، و" اللمع "و " التبصرة " في أصول الفقه. وشرح ابن جني ديوان المتنبي نسماه الفسر وكان قد قرأ الديوان على صاحبه، ورأيت في شرحه قال: سأل شخص أبا الطيب المتنبي عن قوله:

بادٍ هواك صبرت أم لم تصبرا

فقال: كيف أثبت الألف في " تصبرا " مع وجود لم الجازمة، وكان من حقه أن يقول " لم تصبر "، فقال المتنبي: لو كان أبو الفتح هاهنا لأجابك، يعنيني، وهذه الألف هي بدل من نون التأكيد الخفيفة، كان في الأصل " لم تصبرن " ونون التأكيد الخفيفة إذا وقف الإنسان عليها أبدل منها ألفاً، قال الأعشى:

ولا تعبد الشيطان والله فاعبدا

وكان الأصل فاعبدن فلما وقف أتى بالألف بدلاً.

وكانت ولادة ابن جني قبل الثلاثين والثلثمائة بالموصل. وتوفي يوم الجمعة لليلتين بقيتا من صفر سنة اثنتين وتسعين وثلثمائة، رحمه الله تعالى، ببغداد.

وجني: بكسر الجيم وتشديد النون وبعدها ياء.

أبو عمرو ابن الحاجب

أبو عمرو عثمان بن عمر بن أبي بكر ابن يونس الدوني ثم المصري الفقيه المالكي المعروف بابن الحاجب، الملقب جمال الدين؛ كان والده حاجباً للأمير عز الدين موسك الصلاحي وكان كردياً، واشتغل ولده أبو عمرو المذكور بالقاهرة في صغره بالقرآن الكريم، ثم بالفقه على مذهب الإمام مالك، رضي الله عنه، ثم بالعربية والقراءات، وبرع في علومه وأتقنها غاية الإتقان، ثم انتقل إلى دمشق ودرس بجامعها في زاوية المالكية، واكب الخلق على الاشتغال عليه، والتزم لهم الدروس وتبحر في الفنون، وكان الأغلب عليه علم العربية، وصنف مختصراً في مذهبه، ومقدمة وجيزة في النحو، وأخرى مثلها في التصريف وشرح المقدمتين وله:

أي غدٌ مع يدٍ ددٍ ذي حروفٌ	طاوعت في الروي وهي عيون
ودواة والحوت والنون نونا	ت عصتهم وأمرها مستبين

وهو جواب عن البيتين المشهورين وهما:

ربما عالج القوافي رجالٌ	في القوافي فتلتوي وتلين
طاوعتهم عينٌ وعين وعين	وعصتهم نون ونون ونون

فيعني بقوله " عين وعين وعين " نحو غد ويدٍ ودد، فإن وزن كل منها " فع " إذ أصل غد: غدوٌ ويد: يديٌ ودد: ددن، وبقوله "نون ونون ونون " الدواة والحوت والنون الذي هو الحرف، وله أيضاً في أسماء قداح الميسر ثلاثة أبيات، وهي:

هي فذ وتوأم ورقيب	ثم حلس ونافس ثم مسبل
والمعلى والوغد ثم سفيح	ومنيح وذي الثلاثة تهمل
ولكلٍ مما عداها نصيب	مثله أن تعد أول أول

وصنف في أصول الفقه، وكل تصانيفه في نهاية الحسن والإفادة، وخالف النحاة في مواضع، وأورد عليهم إشكالات وإلزامات تبعد الإجابة عنها، وكان من أحسن خلق الله ذهناً.

ثم عاد إلى القاهرة وأقام بها والناس ملازمون للاشتغال عليه، وجاءني مراراً بسبب أداء شهادات، وسألته عن مواضع في العربية مشكلة، فأجاب أبلغ

إجابة بسكون كثير وتثبت تام، ومن جملة ما سألته عن مسألة اعتراض الشرط على الشرط في قولهم " إن أكلت إن شربت فأنت طالق " لم تعين تقديم الشرب على الأكل بسبب وقوع الطلاق حتى لو أكلت ثم شربت لا تطلق؟ وسألته عن بيت أبي الطيب المتنبي وهو قوله:

لقد تصبرت حتى لات مصطبر ... فالآن أقحم حتى لات مقتحم

ما السبب الموجب لخفض مصطبر ومقتحم، ولات ليست من أدوات الجر؟ فأطال الكلام فيهما وأحسن الجواب عنهما، ولولا التطويل لذكرت ما قاله. ثم انتقل إلى الإسكندرية للإقامة بها، فلم تطل مدته هناك، وتوفي بها ضاحي نهار الخميس السادس والعشرين من شوال سنة ست وأربعين وستمائة، ودفن خارج باب البحر بتربة الشيخ الصالح ابن أبي شامة؛ وكان مولده في آخر سنة سبعين وخمسمائة بأسنا، رحمه الله تعالى.

وأسنا: بفتح الهمزة وسكون السين المهملة وفتح النون وبعدها ألف، وهي بليدة صغيرة من الأعمال القوصية بالصعيد الأعلى من مصر.

الملك العزيز ابن صلاح الدين

الملك العزيز عماد الدين أبو الفتح عثمان ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب؛ كان نائباً عن أبيه في الديار المصرية لما كان أبوه بالشام، وتوفي أبوه بدمشق، فاستقل بملكتها باتفاق من الأمراء، كما هو مشهور فلا حاجة إلى شرحه. وكان ملكاً مباركاً كثير الخير واسع الكرم محسناً إلى الناس معتقداً في أرباب الخير والصلاح؛ وسمع بالإسكندرية الحديث من الحافظ السلفي والفقيه أبي الطاهر ابن عوف الزهري، وسمع بمصر من العلامة أبي محمد ابن بري النحوي وغيرهم. ويقال إن والده كان يؤثره على بقية أولاده، ولما ولد له الملك المنصور ناصر الدين محمد كان والده بالشام والقاضي الفاضل بالقاهرة فكتب إليه يهنئه " المملوك يقبل الأرض بين يدي مولانا الملك الناصر، دام رشده وإرشاده، وزاد سعده وإسعاده، وكثرت أولياؤه وعبيده وأعداده، واشتد بأعضاده فيهم اعتضاده، وأنمى الله عدده حتى يقال هذا آدم الملوك وهذه أولاده، وينهي أن الله تعالى وله الحمد رزق الملك العزيز عز نصره ولداً مباركاً علياً، ذكراً سرياً، براً زكياً تقياً نقياً، من ذرية كريمة بعضها من بعض، وبيت شريف كادت ملوكه تكون ملائكة في السماء ومماليكه ملوكاً في الأرض ".

وكانت ولادة الملك العزيز بالقاهرة في ثامن جمادى الأولى سنة سبع وستين وخمسمائة، وكان قد توجه إلى الفيوم، فطرد فرسه وراء صيد فتقطر به فأصابته الحمى من ذلك وحمل إلى القاهرة، فتوفي بها في الساعة السابعة من ليلة الأربعاء الحادي والعشرين من المحرم سنة خمس وتسعين وخمسمائة، رحمه الله تعالى.

نقلت من خط القاضي الفاضل فصلاً يتعلق بالملك العزيز بن صلاح الدين، رحمه الله تعالى، ما مثاله: لما كان يوم السبت تاسع عشر المحرم سنة خمس وتسعين وخمسمائة اشتد المرض بالملك العزيز وخيف عليه، وأدركه في ليلته فواقٌ وأخذ نبضه في الضعف وأصبح الطبيب على إياسٍ منه، ثم لما كان وقت الظهر وقعت البشرى أنه أفاق وحضر ذهنه، وكلم من حوله وحضر إليه الأمراء والخواص، ثم قال بعد ذلك: إلى أن كان وقت العتمة من ليلة الأحد، فبدت قوته تخور، والفواق يشتد وبغته الأمر وعظمت الحمى وصغر النبض وكثر عليه الغشي، وكانت وفاته في الساعة السابعة من ليلة الأحد، ولما كان في آخر الليل خرج فخر الدين جهاركس وأسد الدين سراسنقر وجماعة من المماليك واستدعوا الأمراء فأحضرت وأعلمت بوفاته، وقال المذكورون: إنا قد اجتمعت كلمتنا على أن يكون ولد العزيز الأكبر وتقدير عمره عشر سنين واسمه محمد ولقبه ناصر الدين المنتصب في السلطنة والقائم بالأمر، وأن يكون أتابكه بهاء الدين قراقوش، وقالوا: قد كان السلطان استناب هذا الولد واستخلف على تربيته قراقوش، ونريد أن يجتمع الأمراء، ويخرج الخدام يبلغونهم رسالة عن السلطان وأنه حي، ومعنى الرسالة أن هذا ولدي سلطانكم من بعدي، فاحلفوا له واحفظوني فيه، فقلت لهم: فإن طالبكم الأمراء بسماع هذه المشافهة من السلطان ما الذي تقولون لهم؟ فرجعوا إلى أن يخاطبوا الأمراء إذا حضروا بأن السلطان وصى بهذه الوصية، وأنه قد قضى، ويدخلون عليهم من جانب الموافاة لجد هذا الصبي وأبيه، فقلت لهم: لا تنتظروا اجتماع الأمراء، فإنهم إن حضروا جملة فلا تأمنوا أن يمتنعوا جملة، بل كل من حضر من الأمراء تقولون له: قد اتفقنا فكن معنا، وقد حلفنا فاحلف كما حلفنا، وقدموا المصحف وأسرعوا في تلقينه، فجرى الأمر على هذا، فلما تكامل الحلف أو أكثره أحضروا الولد، فبكى الناس لما رأوه وصاحوا وقاموا إليه، ووقفوا بين يديه، جميع ذلك قبل

أن يسفر صباح الأحد، ثم صليت فريضة الفجر، وشرعوا في تجهيز الملك العزيز إلى قبره، وغسل في مكان موته، واجتمع الناس فيما بين الظهر والعصر للصلاة عليه، وكثر الزحام، وقامت الواعية، فلم يخلص من دفنه إلى قريب المغرب، وخوطب ولده بالملك الناصر بلقب جده في هذا اليوم ".

ولما مات كتب القاضي الفاضل إلى عمه الملك العادل رسالة يعزيه، من جملتها: " فنقول في توديع النعمة بالملك العزيز: لا حول ولا قوة إلاّ بالله، قول الصابرين، ونقول في استقبالها بالملك العادل: الحمد لله رب العالمين، قول الشاكرين، وقد كان من أمر هذه الحادثة ما قطع كل قلب، وجلب كل كرب، ومثل وقوع هذه الواقعة لكل أحد ولا سيما لأمثال المملوك، ومواعظ الموت بليغة، وأبلغها ما كان في شباب الملوك، فرحم الله ذلك الوجه ونضره، ثم السبيل إلى الجنة يسره.

وإذا محاسن أوجهٍ بليت ... فعفا الثرى عن وجهه الحسن

والمملوك في حال تسطير هذه الخدمة جامع بين مرضي قلب وجسد، ووجع أطراف وغليل كبد، فقد فجع المملوك بهذا المولى والعهد بوالده غير بعيد، والأسى في كل يوم جديد، وما كان ليندمل ذلك القرح، حتى أعقبه هذا الجرح، فالله تعالى لا يعدم المسلمين بسلطانهم الملك العادل السلوة، كما لم يعدمهم بنبيهم صلى الله عليه وسلم الأسوة ". ودفن بالقرافة الصغرى في قبة الإمام الشافعي، رضي الله عنه، وقبره معروف هناك.

عدي الهكاري

الشيخ عدي بن مسافر بن إسماعيل بن موسى بن الحسن بن مروان، كذا أملى نسبه بعض ذوي قرابته الهكاري مسكناً، العبد الصالح المشهور الذي تنسب إليه الطائفة العدوية؛ سار ذكره في الآفاق، وتبعه خلق كثير، وجاوز حين اعتقادهم فيه الحد، حتى جعلوه قبلتهم التي يصلون إليها، وذخيرتهم في الآخرة التي يعولون عليها، وكان قد صحب جماعة كثيرة من أعيان المشايخ والصلحاء المشاهير مثل عقيل المنبجي وحماد الدباس وأبي النجيب عبد القاهر السهروردي وعبد القادر الجيلي وأبي الوفاء الحلواني ثم انقطع إلى جبل الهكارية من أعمال الموصل، وبنى له هناك زاوية، ومال إليه أهل تلك النواحي كلها ميلاً لم يسمع لأرباب الزوايا مثله.

وكان مولده في قرية يقال لها بيت فار من أعمال بعلبك، والبيت الذي ولد فيه يزار إلى الآن. وتوفي الشيخ سنة سبع، وقيل خمس وخمسين وخمسمائة، في بلده بالهكارية ودفن بزاويته، رحمه الله تعالى؛ وقبره عندهم من المزارات المعدودة، والمشاهد المقصودة، وحفدته إلى الآن بموضعه يقيمون شعاره ويقتفون آثاره، والناس معهم على ما كانوا عليه زمن الشيخ من جميل الاعتقاد وتعظيم الحرمة.

وذكره أبو البركات ابن المستوفي في " تاريخ إربل " وعده من جملة الواردين على إربل. وكان مظفر الدين صاحب إربل، رحمه الله تعالى، يقول: رأيت الشيخ عدي بن مسافر وأنا صغير بالموصل، وهو شيخ ربعةٌ أسمر اللون، وكان يحكي عنه صلاحاً كثيراً، وعاش الشيخ عدي تسعين سنة، رحمه الله تعالى.

عروة بن الزبير

أبو عبد الله عروة بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب القرشي الأسدي، وبقية النسب معروف؛ هو أحد الفقهاء السبعة بالمدينة –وقد تقدم ذكر خمسة منهم كل واحد في بابه – وأبوه الزبير بن العوام أحد الصحابة العشرة المشهود لهم بالجنة وهو ابن صفية عمة النبي، صلى الله عليه وسلم. وأم عروة المذكور أسماء بنت أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، هي ذات النطاقين وإحدى عجائز الجنة، وعروة شقيق أخيه عبد الله ابن الزبير، بخلاف أخيهما مصعب فإنه لم يكن من أمهما، وقد وردت عنه الرواية في حروف القرآن، وسمع خالته عائشة أم المؤمنين، رضي الله عنها، وروي عنه ابن شهاب الزهري وغيره. وكان عالماً صالحاً، وأصابته الأكلة في رجلة وهو بالشام عند مجلس الوليد بن عبد الملك، فقطعت رجله في مجلس الوليد، والوليد مشغول عنه بمن يحدثه، فلم يتحرك ولم يشعر الوليد أنها قطعت حتى كويت فوجد رائحة الكي، هكذا قال ابن قتيبة في كتاب " المعارف "، ولم يترك ورده تلك الليلة، ويقال: إنه مات ولده محمد في تلك السفرة فلما عاد إلى المدينة قال: لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً، وعاش بعد قطع رجله ثماني سنين.

وذكر أبو العباس المبرد في كتاب "التعازي " ما مثاله: وقال إسحاق ابن أيوب وعامر بن جعفر بن حفص وسلمة بن محارب: قدم عروة بن الزبير على الوليد بن عبد الملك ومعه ولده محمد بن عروة فدخل محمد دار الدواب فضربته دابة فخر ميتاً، ووقعت في رجل عروة الأكلة و لم يدع ورده تلك الليلة فقال له الوليد: اقطعها فقال: لا، فسرت إلى ساقه فقال له الوليد: اقطعها وإلا أفسدت عليك جسدك فقطها بالمنشار وهو شيخ كبير و لم يمسكه أحد وقال لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً.

وقدم تلك السنة قوم من بني عبس فيهم رجل ضرير فسأله الوليد عن عينيه فقال: يا أمير المؤمنين بت ليلة في بطن واد ولا أعلم عبسياً يزيد ماله على مالي، فطرقنا سيلٌ فذهب بما كان لي من أهل وولد ومال غير بعير وصبي مولود وكان البعير صعباً فند، فوضعت الصبي واتبعت البعير، فلم أجاوز قليلاً حتى سمعت صيحة ابن ورأسه في فم الذئب وهو يأكله، فلحقت البعير لأحبسه فنفحني برجله على وجهي فحطمه وذهب بعيني، فأصبحت لا مال لي ولا أهل ولا ولد ولا بصر؛ فقال الوليد: انطلقوا به إلى عروة ليعلم أن في الناس من هو أعظم منه بلاء.

وكان أحسن من عزاه إبراهيم بن محمد بن طلحة وقال له: والله ما بك حاجة إلى المشي، ولا أربٌ في السعي، وقد تقدمك عضو من أعضائك وابن من أبنائك إلى الجنة، والكل تبع للبعض، إن شاء الله تعالى، وقد أبقى الله لنا منك ما كنا إليه فقراء، وعنه غير أغنياء، ومن علمك ورأيك، نفعك الله وإيانا به، والله ولي ثوابك، والضمين بحسابك.

وحكى سعيد بن أسد قال: حدثنا ضمرة عن ابن شوذب قال: كان عروة بن الزبير إذا كان أيام الرطب ثلم حائطه فيدخل الناس فيأكلون ويحتملون، وكان إذا دخله ردد هذه الأية فيه: " ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله " " الكهف: 39 "حتى يخرج منه. وكان يقرأ ربع القرآن كل يوم نظراً في المصحف ويقوم به الليل، فما تركه إلا ليلة قطعت رجله، ثم عاد من الليلة المقبلة.

وقال ابن قتيبة وغيره: لما دعي الجزار ليقطعها قال له: نسقيك الخمر حتى لا تجد لها ألماً، فقال: لا أستعين بحرام الله على ما أرجو من عافية، قالوا: فنسقيك المرقد، قال:ما أحب أن أسلب عضواً من أعضائي وأنا لا أجد ألم ذلك فأحتسبه، قال: ودخل عليه قوم أنكرهم، فقال: ما هؤلاء؟ قالوا: يمسكونك فإن الألم ربما عزب معه الصبر، قال: أرجو أن أكفيكم ذلك من نفسي، فقطعت كعبه بالسكين حتى إذا بلغ العظم وضع عليها المنشار فقطعت وهو يهلهل ويكبر، ثم أنه أغلي له الزيت في مغارف الحديد فحسم به، فغشي عليه، فأفاق وهو يمسح العرق عن وجهه، ولما رأى القدم بأيديهم دعا بها فقلبها في يده ثم قال: أما والذي حملني عليك إنه ليعلم إني ما مشيت بك إلى حرام، أو قال معصية، ولما دخل ابنه إصطبل الوليد بن عبد الملك وقتلته الدابة كما تقدم لم يسمع في ذلك منه شيء، حتى قدم المدينة فقال: اللهم، إنه كان لي أطراف أربعة فأخذت واحدة وأبقيت لي ثلاثة، فلك الحمد، وايم الله لئن أخذت لقد أبقيت، ولئن ابتليت لطالما عافيت.

ولما قتل أخوه عبد الله قدم عروة على عبد الملك بن مروان فقال له يوماً: أريد أن تعطيني سيف أخي عبد الله، فقال له: هو بين السيوف ولا أميزه من بينها، فقال عروة: إذا حضرت السيوف ميزته أنا، فأمر عبد الملك بإحضارها، فلما حضرت أخذ منها سيفاً مفلل الحد فقال: هذا سيف أخي، وقال عبد الملك: كنت تعرفه قبل الأن؟ فقال: لا، فقال: كيف عرفته؟ قال: بقول النابغة الذبياني:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهن فلولا من قراع الكتائب

وعروة هذا هو الذي احتفر بئر عروة التي بالمدينة وهي منسوبة إليه وليس بالمدينة بئر أعزب من ماءها.

وكانت ولادته سنة اثنتين وعشرين، وقيل ست وعشرين للهجرة. وتوفي في قرية له بقرب المدينة يقال لها فرع - بضم الفاء وسكون الراء - وهي من ناحية الربذة، بينها وبين المدينة أربع ليال، وهي ذات نخيل ومياه، سنة ثلاث وتسعين، وقيل أربع وتسعين، ودفن هناك، قاله ابن سعد، وهي سنة الفقهاء، رضي الله عنهم، وسيأتي ذكر ولده هشام إن شاء الله تعالى.

وذكر العتبي أن المسجد الحرام جمع بين عبد الملك بن مروان وعبد الله بن الزبير وأخويه مصعب وعروة المذكور أيام تألفهم بعهد معاوية بن أبي سفيان، فقال بعضهم: هلم فلنتمنه، فقال عبد الله بن الزبير: منيتي أن أملك الحرمين وأنال الخلافة، وقال مصعب: منيتي أن أملك العراقين وأجمع بين عقيلتي قريش سكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة، وقال عبد الملك بن مروان: منيتي أن أملك الأرض كلها وأخلف معاوية، وقال عروة: لست في

شيء مما أنتم فيه، منيتي الزهد في الدنيا والفوز بالجنة في الآخرة وأن أكون ممن يروى عنه هذا العلم، قال: فصرف الدهر من صرف إلا أن بلغ كل واحد منهم إلى أمله. وكان عبد الملك لذلك يقول: من شره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى عروة بن الزبير.

ركن الدين الطاوسي

أبو الفضل العراقي بن محمد العراقي القزويني، الملقب ركن الدين، المعروف بالطاوسي؛ كان إماماً فاضلاً مناظراً محجاجاً، قيماً بعلم الخلاف ماهراً فيه، اشتغل به على الشيخ رضي الدين النيسابوري الحنفي صاحب الطريقة في الخلاف وبرز فيه، وصنف ثلاث تعاليق في الخلاف: مختصرة وثانية وثالثة مبسوطة، واجتمع عليه الطلبة بمدينة همذان، وقصدوه من البلاد البعيدة والقريبة للاستفادة عليه، وعلقوا تعاليقه. وبنى له الحاجب جمال الدين بهمذان مدرسة تعرف بالحاجبية، وطريقته الوسطى أحسن من طريقتيه الأخريين لأن فقهها كثير وفوائدها جمة، وأكثر اشتغال الناس في هذا الزمان بها، واشتهر صيته في البلاد وحملت طريقته إليها. وتوفي بهمذان في رابع عشر جمادى الآخرة سنة ستمائة، رحمه الله تعالى.

و لم أعلم نسبة الطاوسي إلى أي شيء ولا ذكرها السمعاني، والله أعلم. وسمعت جماعة من الفقهاء من أهل بلاده يقولون: إن في قزوين خلقاً كثيراً ينتسبون هذه النسبة، ويزعمون أنهم من نسل طاووس بن كيسان التابعي المذكور قبل هذا، فلعله منهم، والله أعلم.

شيذلة

أبو المعالي عزيزي بن عبد الملك بن منصور الجيلي، المعروف بشيذلة، الفقيه الشافعي الواعظ؛ كان فقيهاً فاضلاً واعظاً ماهراً فصيح اللسان حلو العبارة كثير المحفوظات، صنف في الفقه وأصول الدين والوعظ، وجمع كثيراً من أشعار العرب، وتولى القضاء بمدينة بغداد بباب الأزج، وكانت في أخلاقه حدة، وسمع الحديث الكثير من جماعة كثيرة، وكان يتظاهر بمذهب الأشعري. ومن كلامه: إنما قيل لموسى، عليه السلام، لن تراني لأنه لما قيل له انظر إلى الجبل نظر إليه، فقيل له: يا طالب النظر إلينا لم تنظر إلى سوانا؟

يا مدعي بمقاله	صدق المحبة والإخاء
لو كنت تصدق في المقا	ل لما نظرت إلى سوائي
فسلكت سبل محبتي	واخترت غيري في الصفاء
هيهات أن يحوي الفؤا	د محبتين على استواء

وقال: أنشدني والدي عند خروجه من بغداد للحج:

مددت إلى التوديع كفاً ضعيفةً	وأخرى على الرمضاء فوق فؤادي
فلا كان هذا العهد آخر عهدنا	ولا كان ذا التوديع آخر زادي

وتوفي يوم الجمعة سابع عشر صفر سنة أربع وتسعين وأربعمائة ببغداد، ودفن بباب أبرز محاذياً للشيخ أبي إسحاق الشيرازي، رحمهما الله تعالى.

وعزيزي: بفتح العين المهملة وزايين بينهما ياء مثناة من تحتها وهي ساكنة، وبعد الزاي الثانية ياء ثانية.

وشيذلة: بفتح الشين المعجمة وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح الذال المعجمة والام وبعدها هاء ساكنة، وهو لقب عليه، ولا أعرف معناه من كثرة كشفي عنه.

عطاء بن أبي رباح

أبو محمد عطاء بن أبي رباح أسلم-وقيل سالم- بن صفوان مولى بني فهر أو جمح المكي، وقيل إنه مولى أبي ميسرة الفهري، من مولدي الجند؛ كان من أجلاء الفقهاء وتابعي مكة وزهادها، سمع جابر بن عبد الله الأنصاري وعبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير وخلقاً كثيراً من الصحابة، رضوان الله

عليهم، وروى عنه عمرو بن دينار والزهري وقتادة وملك بن دينار والأعمش والأوزاعي وخلق كثير، رحمهم الله تعالى وإليه وإلى، وإلى مجاهد انتهت فتوى مكة في زمانهما. قال قتادة: أعلم الناس بالمناسك عطاء. وقال إبراهيم بن عمر ابن كيسان: أذكرهم في زمان بني أمية يأمرون في الحج صائحاً يصيح: لا يفتي الناس إلا عطاء بن أبي رباح، وإياه عنى الشاعر بقوله:

سل المفتي المكي هل في تزاورٍ وضمة مشتاق الفؤاد جناح

فقال معاذ الله أن يذهب التقى تلاصق أكبادٍ بهن جراح

فلما بلغه البيتان قال: والله ما قلت شيئاً من هذا.

وحكي عن وكيع قال: قال لي أبو حنيفة النعمان بن ثابت: أخطأت في خمسة أبواب في المناسك بمكة فعلمنيها حجام، وذلك إني أردت أن أحلق رأسي، فقال لي: أعربي أنت؟ قلت: نعم، وكنت قد قلت له: بكم تحلق رأسي؟ فقال: النسك لا يشارط فيه، اجلس، فجلست منحرفاً عن القبلة، فأومأ لي باستقبال القبلة، وأردت أن أحلق رأسي من الجانب الأيسر، فقال: أدر شقك الأيمن من رأسك، فأدرته، وجعل يحلق رأسي وأنا ساكت فقال لي: كبر، فجعلت أكبر حتى قمت لأذهب فقال: أين تريد؟ قلت: رحلي فقال: صلي ركعتين وامض، فقلت: ما ينبغي أن يكون هذا من مثل هذا الحجام إلا ومعه علم، فقلت: من أين لك ما رأيتك أمرتني به؟ فقال: رأيت عطاء بن أبي رباح يفعل هذا.

وحكي عن خليفة بن سلام عن يونس قال: سمعت الحسن البصري ذات يوم في مجلسه يقول: اعتبروا من المنافق بثلاث، إن حدث كذب، وإن اؤتمن خان وإن وعد أخلف، فبلغ ذلك عطاء فقال: قد كانت هذا الخلال الثلاث في ولد يعقوب، حدثوه فكذبوه، وائتمنهم فخانوه، ووعده فأخلفوه، فأعقبهم الله النبوة فبلغ الحسن فقال: "وفوق كل ذي علم عليم".

ونقل أصحابنا عن مذهبه أنه كان يرى إباحة وطء الجواري بإذن أربابهن؛ وحكى أبو الفتوح العجلي – المقدم ذكره في حرف الهمزة – في كتاب " شرح مشكلات الوسيط والوجيز " في الباب الثالث من كتاب الرهن ما مثاله: وحكي عن عطاء أنه كان يبعث بجواريه إلى ضيفانه، والذي أعتقد أنا أن هذا بعيد، فإنه ولو رأى الحل لكن المروءة والغيرة تأبى ذلك فكيف يظن هذا بمثل ذلك السيد الإمام؟ و لم أذكره إلا لغرابته.

وكلن أسود أعور أفطس أشل أعرج، ثم عمي، مفلفل الشعر. قال سليمان بن رفيع: دخلت المسجد الحرام والناس مجتمعون على رجل فاطلعت فإذا عطاء بن أبي رباح جالس كأنه غراب أسود.

توفي سنة خمس عشرة ومائة، وقيل أربع عشرة ومائة، وعمره ثمان وثمانون سنة، رضي الله عنه، وقال ابن أبي ليلى: حج عطاء سبعين حجة وعاش مائة سنة، والله أعلم.

ورباح: بفتح الراء والباء الموحدة.

وأسلم: بفتح الهمزة وسكون السين المهملة وفتح اللام.

وفهر: بكسر الفاء وسكون الهاء وبعدها راء.

وجمح: بضم الجيم وفتح الميم وبعدها حاء مهملة.

والباقي معلوم.

والجند: بفتح الجيم والنون وبعدها دال مهملة، وهي بلدة مشهورة باليمن خرج منها جماعة من العلماء، رحمهم الله تعالى.

المقنع الخراساني

اسمه عطاء، ولا أعرف اسم أبيه وقيل اسمه حكيم، والأول أشهر؛ وكان في مبدأ أمره قصاراً من أهل مرو، وكان يعرف شيئاً من السحر والنيرجات فادعى الربوبية من طريق المناسخة، وقال لأشياعه والذين اتبعوه: إن الله سبحانه وتعالى تحول إلى صورة آدم، ولذلك قال للملائكة: اسجدوا له فسجد إلا إبليس فاستحق بذلك السخط، ثم تحول من آدم إلى صورة نوح عليه السلام، ثم إلى صورة واحد فواحد من الأنبياء عليهم السلام والحكماء حتى

حصل في صورة أبي مسلم الخراساني – المقدم ذكره – ثم زعم أنه انتقل إليه منه، فقبل قوم دعواه وعبدوه وقاتلوا دونه، مع ما عاينوا من عظيم ادعائه وقبح صورته، لأنه كان مشوه الخلق أعور ألكن قصيراً، وكان لا يسفر عن وجهه بل اتخذ وجهاً من ذهب فتقنع به، فلذلك قيل له "المقنع "، وإنما غلب على عقوله بالتمويهات التي أظهرها لهم بالسحر والنيرجات. وكان في جملة ما أظهر لهم صورة قمر يطلع ويراه الناس من مسافة شهرين من موضعه، ثم يغيب،فعظم اعتقادهم به، وقد ذكر أبو العلاء المعري هذا القمر في قوله:

أفق إنما البدر المقنع رأسه ... ضلالٌ وغيٌ مثل البدر المقنع

وهذا البيت من جملة قصيدة طويلة، وإليه أشار أبو القاسم هبة الله بن سناء الملك الشاعر – الآتي ذكره – في جملة قصيدة طويلة بقوله:

إليك فما بدر المقنع طالعاً ... بأسحر من ألحاظ بدر المعمم

ولما اشتهر أمر المقنع وانتشر ذكره ثار عليه الناس، وقصدوه في قلعته التي كان اعتصم بها وحصروه، فلما أيقن بالهلاك جمع نساءه وسقاهن سماً فمتن منه ثم تناول شربة من ذلك السم فمات، ودخل المسلمون قلعته فقتلوا من فيها من أشياعه وأتباعه، وذلك في سنة ثلاث وستين ومائة، لعنه الله تعالى، ونعوذ بالله من الخذلان.

قلت: و لم أر أحداً ذكر هذه القلعة وأين هي حتى أذكرها، ثم رأيت في كتاب الشهاب ياقوت الحموي – الآتي ذكره إن شاء الله تعالى – الذي وضعه في معرفة المواضع المشتركة، فقال في باب سنام بفتح السين: إنها أربعة مواضع والموضع الرابع منها سنام قلعة عمرها المقنع الخارجي بما وراء النهر، والله أعلم، والظاهر أنها هذه القلعة، ثم وجدت في أخبار خراسان أنها هي، وأنها من رستاق كش، والله أعلم.

عكرمة

أبو عبد الله عكرمة بن عبد الله مولى عبد الله بن عباس، رضي الله عنهما؛ أصله من البربر من أهل المغرب، كان لحصين بن الحر العنبري، فوهبه لابن عباس رضي الله عنهما، حين ولي البصرة لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه واجتهد ابن عباس في تعليمه القرآن والسنن وسماه بأسماء العرب.

حدث عن عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو بن العاص وأبي هريرة وأبي سعيد الخدري والحسن بن علي بن وعائشة، رضي الله عنهم؛ وهو أحد فقهاء مكة وتابعيها، وكان ينتقل من بلد إلى بلد؛ روي أن ابن عباس قال له: انطلق فأفت الناس. وقيل لسعيد بن جبير: هل تعلم أحداً أعلم منك؟ قال: عكرمة. وقد تكلم الناس في لأنه كان يرى رأي الخوارج.

وروى عن جماعة من الصحابة، رضي الله عنهم، وروى عنه الزهري وعمرو بن دينار والشعبي وأبو إسحاق السبيعي وغيرهم. ومات مولاه ابن عباس وعكرمة على الرق و لم يعتقه، فباعه ولده علي بن عبد الله بن عباس من خالد بن يزيد بن معاوية بأربعة آلاف دينار، فأتى عكرمة مولاه علياً، فقال له: ما خير لك، بعت علم أبيك بأربعة آلاف دينار، فاستقاله وأقاله وأعتقه. وقال عبد الله بن الحارث: دخلت على علي بن عبد الله بن عباس وعكرمة موثق على باب كنيف، فقلت: أتفعلون هذا بمولاكم؟ قال: إن هذا يكذب على أبي.

وتوفي عكرمة في سنة سبع ومائة، وقيل سنة ست، وقيل سنة أربع، وقيل سنة خمس، وقيل سنة خمس عشرة، والله أعلم، وعمره ثمانون، وقيل أربع وثمانون سنة. وروى محمد بن سعد عن الواقدي عن خالد بن القاسم البياضي قال: مات عكرمة وكثير عزة الشاعر في يوم واحد، سنة خمس ومائة، فرأيتهما جميعاً صلي عليهما في موضع الجنائز بعد الظهر، فقال الناس: مات أفقه الناس وأشعر الناس، رحمهما الله تعالى، وكان موتهما بالمدينة، وقيل إن عكرمة مات بالقيروان، والأول أصح.

وكان عكرمة كثير التطواف والجولان في البلاد: دخل خراسان وأصبهان ومصر وغيرها من البلاد.

وعكرمة: بكسر العين المهملة وسكون الكاف وكسر الراء وفتح الميم وبعدها هاء ساكنة، وهو في الأصل اسم الحمامة الأنثى، فسمي به الإنسان.

وعمارة بن حمزة مولى المنصور الموصوف بالتيه من أولاده، وقال الخطيب البغدادي: هو ابن ابنة عكرمة المذكور، والله أعلم.

زين العابدين

أبو الحسن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنهم أجمعين، المعروف بزين العابدين، ويقال له علي الأصغر، وليس للحسين، رضي الله عنه، عقب إلا من ولد زين العابدين هذا؛ وهو أحد الأئمة الاثني عشر ومن سادات التابعين، قال الزهري: ما رأيت قرشياً أفضل منه.

وأمه سلافة بنت يزدجرد آخر ملوك فارس، وهي عمة أم يزيد بن الوليد الأموي المعروف بالناقص. وكان قتيبة بن مسلم الباهلي أمير خراسان لما تتبع دولة الفرس وقتل فيروز بن يزدجرد المذكور بعث بابنتيه إلى الحجاج بن يوسف الثقفي – المقدم ذكره – وكان يومئذ أمير العراق وخراسان وقتيبة نائبه بخراسان، فأمسك الحجاج إحدى البنتين لنفسه وأرسل الأخرى إلى الوليد بن عبد الملك، فأولدها يزيد الناقص، واسمها شاه فريذ، وسمي بالناقص لأنه نقص أعطية الجند. وكان يقال لزين العابدين ابن الخيرتين، لقوله صلى الله عليه وسلم " لله تعالى من عباده خيرتان، فخيرته من العرب قريش ومن العجم فارس ".

وذكر أبو القاسم الزمخشري في كتاب " ربيع الأبرار " أن الصحابة، رضي الله عنهم، لما أتوا المدينة بسبي فارس في خلافة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، كان فيهم ثلاث بنات ليزدجرد، فباعوا السبايا، وأمر عمر ببيع بنات يزدجرد أيضاً، فقال له علي بن أبي طالب، رضي الله عنه: إن بنات الملوك لا يعاملن معاملة غيرهن من بنات السوقة، فقال: كيف الطريق إلى العمل معهن؟ قال: يقومن مهما بلغ ثمنهن قام به من يختارهن فقومن وأخذهن علي، رضي الله عنه، فدفع واحدة لعبد الله بن عمر وأخرى لولده الحسين وأخرى لمحمد بن أبي بكر الصديق، وكان ربيبه، رضي الله عنهم أجمعين، فأولد عبد الله أمته ولده سالماً، وأولد الحسين زين العابدين، وأولد محمد ولده القاسم، فهؤلاء الثلاثة بنو خالة، وأمهاتهم بنات يزدجرد.

وحكى المبرد في كتاب " الكامل " ما مثاله: يروى عن رجل من قريش لم يسم لنا قال: كنت أجالس سعيد بن المسيب، فقال لي يوماً: من أخوالك؟ فقلت له: أمي فتاة، فكأني نقصت من عينه، فأمهلت حتى دخل سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، رضي الله عنهم، فلما خرج من عنده قلت: يا عم من هذا؟ فقال: سبحان الله، أتجهل مثل هذا من قومك؟ هذا سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، قلت: فمن أمه؟ قال: فتاة، قال: ثم أتاه القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، فجلس عنده ثم نهض، قلت: يا عم، من هذا؟ فقال: أتجهل من أهلك مثله؟ ما أعجب هذا، هذا القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، قلت: فمن أمه؟ قال: فتاة، قال: فأمهلت شيئاً حتى جاءه علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه فسلم عليه ثم نهض، فقلت: يا عم، من هذا؟ قال: هذا الذي لا يسعُ مسلماً أن يجهله، هذا علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، فقلت: من أمه؟ قال: فتاة، فقلت: يا عم، رأيتني نقصت في عينك لما علمت أن أمي فتاة، أفما لي في هؤلاء أسوة؟ قال: فجللت في عينه جداً.

وكان أهل المدينة يكرهون اتخاذ أمهات الأولاد حتى نشأ فيهم علي بن الحسن والقاسم بن محمد وسالم بن عبد الله، ففاقوا أهل المدينة فقهاً وورعاً، فرغب الناس في السراري.

وكان زين العابدين كثير البر بأمه، حتى قيل له: إنك أبر الناس بأمك، ولسنا نراك تأكل معها في صحفة، فقال: أخاف أن تسبق يدي إلى ما سبقت إليه عينها فأكون قد عققتها، وهذا ضد قصة أبي المخش مع ابنه، فإنه قال: كانت لي ابنة تجلس معي على المائدة فتبرز كفاً كأنها طلعة في ذراع كأنه جمارة فما تقع عينها على لقمة نفيسة إلا خصتني بها، فزوجتها، فصار يجلس معي على المائدة ابن لي فيبرز كفاً كأنها كرنافة في ذراع كأنه كربة، فوالله ما تسبق عيني إلى لقمة طيبة إلا سبقت يده إليها.

وحكى ابن قتيبة في كتاب " المعارف " أن أم زين العابدين سندية يقال لها سلافة ويقال غزالة والله أعلم بالصواب، وأنه زوجها بعد أبيه بن بزبيد مولى أبيه، وأعتق جارية له وتزوجها، فكتب إليه عبد الملك بن مروان يعيره ذلك، فكتب إليه زين العابدين: " لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة، وقد أعتق رسول الله صلى الله عليه وسلم، صفية بنت حيي بن أخطب وتزوجها وأعتق زيد بن حارثة وزوجه بنت عمته زينب بنت جحش ".

وفضائل زين العابدين ومناقبه أكثر من أن تحصر. وكانت ولادته يوم الجمعة في بعض شهور سنة ثمان وثلاثين للهجرة، وتوفي سنة أربع وتسعين وقيل تسع وتسعين وقيل اثنتين وتسعين للهجرة بالمدينة، ودفن في البقيع في قبر عمه الحسن بن علي، رضي الله تعالى عنه، في القبة التي فيها قبر العباس، رضي الله عنه.

علي الرضا

أبو الحسن علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين المذكور قبله؛ وهو أحد الأئمة الاثني عشر على اعتقاد الإمامية، وكان المأمون قد زوجه ابنته أم حبيب في سنة اثنتين ومائتين وجعله ولي عهده، وضرب اسمه على الدينار والدرهم، وكان السبب في ذلك أنه استحضر أولاد العباس الرجال منهم والنساء، وهو بمدينة مرو من بلاد خراسان، وكان عددهم ثلاثة وثلاثين ألفاً ما بين الكبار والصغار، واستدعى علياً المذكور فأنزله أحسن منزلة، وجمع خواص الأولياء وأخبرهم أنه نظر في أولاد العباس وأولاد علي بن أبي طالب، رضي الله عنهما، فلم يجد في وقته أحداً أفضل ولا أحق بالأمر من علي الرضا فبايعه، وأمر بإزالة السواد من اللباس والأعلام؛ ونمي الخبر إلى من بالعراق من أولاد العباس، فعلموا أن في ذلك خروج الأمر عنهم، فخلعوا المأمون وبايعوا إبراهيم بن المهدي - المقدم ذكره - وهو عم المأمون، وذلك يوم الخميس لخمس خلون من المحرم سنة اثنتين، وقيل سنة ثلاث ومائتين، والشرح في ذلك يطول والقصة مشهورة، وقد اختصرته في ترجمة إبراهيم بن المهدي.

وكانت ولادة علي الرضا يوم الجمعة في بعض شهور سنة ثلاث وخمسين ومائة بالمدينة، وقيل بل ولد سابع شوال، وقيل ثامنه، وقيل سادسه، سنة إحدى وخمسين ومائة. وتوفي في آخر يوم من صفر سنة اثنتين ومائتين، بل توفي خامس ذي الحجة، وقيل ثالث عشر ذي القعدة سنة ثلاث ومائتين، بمدينة طوس وصلى عليه المأمون ودفنه ملاصق قبر أبيه الرشيد، وكان سبب موته أنه أكل عنباً فأكثر منه، وقيل بل كان مسموماً فاعتل منه ومات، رحمه الله تعالى.

وفيه يقول أبو نواس:

قيل لي أنت أحسن الناس طراً ... في فنونٍ من الكلام النبيه

لك من جيد القريض مديحٌ ... يثمر الدر في يدي مجتنيه

فعلام تركت مدح ابن موسى ... والخصال التي تجمعن فيه

قلت لا أستطيع مدح إمامٍ ... كان جبريل خادماً لأبيه

وكان سبب قوله هذه الأبيات أن بعض أصحابه قال له: ما رأيت أوقح منك، ما تركت خمراً ولا طرداً ولا معنى إلا قلت فيه شيئاً، وهذا علي بن موسى الرضا في عصرك لم تقل فيه شيئاً، فقال: والله ما تركت ذلك إلا إعظاماً له، وليس قدر مثلي أن يقول في مثله، ثم أنشده بعد ساعة هذه الأبيات.

وفيه يقول أيضاً وله ذكر في " شذور العقول " في سنة إحدى أو اثنتين ومائتين:

مطهرون نقياتٌ جيوبهم ... تجري الصلاة عليهم أينما ذكروا

من لم يكن علوياً حين تنسبه ... فما له في قديم الدهر مفتخر

الله لما برا خلقاً فأتقنه ... صفاكم واصطفاكم أيها البشر

وأنتم الملأ الأعلى وعندكم ... علم الكتاب وما جاءت به السور

وقال المأمون يوماً لعلي بن موسى الرضا المذكور: ما يقول بنو أبيك في جدنا العباس بن عبد المطلب؟ فقال: ما يقولون في رجل فرض الله طاعة بنيه على خلقه وفرض طاعته على بنيه، فأمر له بألف ألف درهم.

وكان قد خرج أخوه زيد بن موسى بالبصرة على المأمون، وفتك بأهلها، فأرسل إليه المأمون أخاه علياً المذكور يرده عن ذلك، فجاءه وقال له: ويلك يا زيد، فعلت بالمسلمين بالبصرة ما فعلت، وتزعم أنك ابن فاطمة بنت رسول الله، صلى الله عليه وسلم! والله لأشد الناس عليك رسول الله، صلى اله عليه وسلم، يا زيد ينبغي لمن أخذ برسول الله، صلى اله عليه وسلم، أن يعطي به، فبلغ كلامه المأمون، فبكى وقال: هكذا ينبغي أن يكون أهل بيت رسول الله، صلى اله عليه وسلم.

قلت: وآخر هذا الكلام مأخوذ من كلام علي زين العابدين – المقدم ذكره – فقد قيل: إنه كان إذا سافر كتم نفسه، فقيل له في ذلك فقال: أنا أكره أن آخذ برسول الله، صلى اله عليه وسلم، ما لا أعطي به.

أبو الحسن العسكري

أبو الحسن علي الهادي بن محمد الجواد بن علي الرضا – المقدم ذكره –وهو حفيد الذي قبله، فلا حاجة إلى رفع نسبه، ويعرف بالعسكري؛ وهو أحد الأئمة الاثني عشر عند الإمامية، كان قد سعي به إلي المتوكل وقيل إن في مترله سلاحاً وكتاباً وغيرها من شيعته، وأوهموه أنه يطلب الأمر لنفسه، فوجه إليه بعدة من الأتراك ليلاً فهجموا عليه في مترله على غفلة، فوجدوه وحده في بيت مغلق وعليه مدرعة من شعر، وعلى رأسه ملحفة من صوف وهو مستقبل القبلة يترنم بآيات من القرآن في الوعد والوعيد، ليس بينه وبين الأرض بساط ألا الرمل والحصى، فأخد على الصورة التي وجد عليها وحمل إلى المتوكل في جوف الليل، فمثل بين يديه والمتوكل يستعمل الشراب وفي يده كأس، فلما رآه أعظمه وأجلسه إلى جنبه، و لم يكن في مترله شيء مما قيل عنه ولا حالة يتعلق عليه بها، فناوله المتوكل الكأس الذي كان بيده، فقال: يا أمير المؤمنين، ما خامر لحمي ودمي قط فأعفني منه، فأعفاه وقال: أنشدني شعراً أستحسنه، فقال: إني لقليل الرواية للشعر، قال: لابد أن تنشدني فأنشده:

باتوا على قلل الأجبال تحرسهم ... غلب الرجال فما أغنتهم القلل

واستنزلوا بعد عزٍ من معاقلهم ... فأودعوا حفراً يا بئس ما نزلوا

ناداهم صارخٌ من بعد قبروا ... أين الأسرة والتيجان والحلل

أين الوجوه التي كانت منعمةً ... من دونها تضرب الأستار والكلل

فأفصح القبر عنهم حين ساءلهم ... تلك الوجوه عليها الدود يقتتل

قد طال ما أكلوا دهراً وما شربوا ... فأصبح بعد طول الأكل قد أكلوا

قال: فأشفق من حضر على علي وظن أن بادرة تبدر إليه، فبكى المتوكل بكاء كثيراً حتى بلت دموعه لحيته وبكى من حضره، ثم أمر برفع الشراب ثم قال: يا أبا الحسن، أعليك دين؟ قال: نعم أربعة آلاف دينار، فأمر بدفعها إليه ورده إلى مترله مكرماً.

وكانت ولادته يوم الأحد ثالث عشر رجب، وقيل يوم عرفة سنة أربع عشرة وقيل ثلاث عشرة ومائتين. ولما كثرت السعاية في حقه عند المتوكل أحضره من المدينة وكان مولده بها، وأقره بسر من رأى وهي تدعى بالعسكر، لأن المعتصم لما بناها انتقل إليها بعسكره، فقيل لها العسكر، ولهذا قيل لأبي الحسن المذكور العسكري لأنه منسوب إليها، فأقام بها عشرين سنة وتسعة أشهر. وتوفي بها يوم الاثنين لخمس بقين من جمادى الآخرة، وقيل لأربع بقين منها وقيل في رابعها، وقيل في ثالث رجب سنة أربع وخمسين ومائتين، ودفن في داره، رحمه الله تعالى.

علي بن عبد الله بن العباس

أبو محمد علي بن عبد الله بن العباس به عبد المطلب بن هاشم الهاشمي، وهو جد السفاح والمنصور الخليفتين؛ كان سيداً شريفاً بليغاً، وهو أصغر ولد أبيه، وكان أجمل قرشي على وجه الأرض وأوسمه وأكثره صلاة، وكان يدعى السجاد لذلك. وكان له خمسمائة أصل زيتون يصلي في كل يوم إلى كل أصل ركعتين، وكان يدعى " ذا الثفنات" هكذا قاله المبرد في " الكامل "، وقال أبو الفرج ابن الجوزي الحافظ: ذو الثفنات هو علي بن الحسين، يعني زين العابدين، وإنما قيل له ذلك لأنه كان يصلي في كل يوم ألف ركعة فصار في ركبتيه مثل ثفن البعير، ذكر ذلك في كتاب " الألقاب".

وروي أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، افتقد عبد الله بن العباس، رضي الله عنه في وقت صلاة الظهر، فقال لأصحابه: ما بال أبي العباس لم يحضر الظهر؟ فقالوا: ولد له مولود، فلما صلى علي، رضي الله عنه قال أمضوا بنا إليه فأتاه فهناه فقال: شكرت الواهب، وبورك لك في الموهوب ما سميته؟ فقال: أو يجوز لي أن أسميه حتى تسميه؟ فأمر به فأخرج إليه فأخذه فحنكه ودعا له ثم رده إليه وقال: خذ إليك أبا الأملاك، وقد سميته علياً وكنيته أبا

الحسن، فلما قام معاوية خليفة قال لابن عباس: ليس لكم اسمه وكنيته وقد كنيته أبا محمد، فجرت عليه هكذا قاله المبرد في " الكامل ".
وقال الحافظ أبو نعيم في كتاب "حلية الأولياء": إنه لما قدم على عبد الملك بن مروان قال له: غير اسمك وكنيتك، فلا صبر لي على اسمك وكنيتك قال: أما الاسم فلا، وأما الكنية فأكتني بأبي محمد، فغير كنيته؛ انتهى كلام أبي نعيم.
قلت أنا: وإنما قال له عبد الملك هذه المقالة لبغضه في علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فكره أن يسمع اسمه وكنيته.
وذكر الطبري في تاريخه إنه دخل على عبد الملك بن مروان فأكرمه وأجلسه على سريره وسأله عن كنيته فأخبره، فقال: لا يجتمع في عسكري هذا الاسم وهذه الكنية لأحد، وسأله: هل له من ولد؟ وكان قد ولد له يومئذ محمد بن علي، فأخبره بذلك فكناه أبا محمد.
وقال الواقدي: ولد أبو محمد المذكور في الليلة التي ولد فيها علي بن أبي طالب رضي الله عنه والله أعلم بالصواب.
وقال المبرد أيضاً: وضرب علي بالسياط مرتين كلتاهما ضربه الوليد بن عبد الملك: إحداهما في تزوجه لبابة ابنة عبد الله بن جعفر بن أبي طالب.
وكانت عند عبد الملك فعض تفاحة ثم رمى بها إليها، وكان أبخر فدعت بسكين فقال: ما تصنعين بها؟ فقالت: أميط عنها الأذى فطلقها فتزوجها علي بن عبد الله المذكور فضربه الوليد وقال: إنما تتزوج بأمهات الخلفاء لتضع منهم، لأن مروان بن الحكم إنما تزوج بأم خالد بن يزيد بن معاوية ليضع منه، فقال علي بن عبد الله إنما أرادت الخروج من هذا البلد وأنا ابن عمها فتزوجتها لأكون لها محرماً.

وأما ضربه إياه في المرة الثانية فقد حدث أبو عبد الله محمد بن شجاع في إسناد متصل يقول في أخره رأيت: علي بن عبد الله يوماً مضروباً بالسوط يدار به على بعير ووجهه مما يلي ذنب البعير، وصائح يصيح عليه: هذا علي بن عبد الله الكذاب فأتيته وقلت ما هذا الذي نسبوك فيه إلى الكذب؟ قال: بلغهم عني أني أقول: إن هذا الأمر سيكون في ولدي، ووالله ليكونن فيهم حتى تملكهم عبيدهم الصغار العيون، العراض الوجوه الذي كأن وجوههم المجان المطرقة.
قلت: ذكر ابن الكلبي في كتاب " النسب " أن الذي تولى ضرب علي بن عبد الله بن العباس، رضي الله عنهم، هو كلثوم بن عياض بن وحوح بن قشير بن الأعور بن قشير، كان والي الشرطة للوليد بن مروان، ثم أنه تولى إفريقية لهشام بن عبد الملك وقتل بها وقال غير بن الكلبي: كان قتله في ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين ومائة.
وروى أن علي بن عبد الله دخل على سليمان بن عبد الملك، وهو غلط، بل الصحيح أنه هشام بن عبد الملك معه ابنا الخليفتان وهما السفاح والمنصور ابنا محمد بن علي المذكور، فأوسع له على سريره وبره وسأله عن حاجته فقال: ثلاثون ألف درهم علي دين فأمر بقضائها ثم قال له: وتستوصي بابني هذين خيراً ففعل، فشكره وقال: وصلتك رحم. فلما ولى علي قال هشام لأصحابه: إن هذا الشيخ قد اختل وأسن وخلط فصار يقول: إن هذا الأمر سينتقل إلى ولده، فسمعه علي فقال: والله ليكونن ذلك وليملكن هذان.
وكان علي المذكور عظيم المحل عند أهل الحجاز، حتى قال هشام بن سليمان المخزومي: إن علي بن عبد الله كان إذا قدم مكة حاجاً أو معتمراً عطلت قريش مجالسها في المسجد الحرام وهجرت مواضع حلقها ولزمت مجلسه إعظاماً وإجلالاً وتبجيلاً له، فإن قعد قعدوا وإن نهض نهضوا وإن مشى مشوا جميعاً حوله، ولا يزالون كذلك حتى يخرج من الحرم.
وكان آدم جسيماً له لحية طويلة، وكان عظيم القدم جداً لا يوجد له نعل ولا خف حتى يستعمله وكان مفرطاً في الطول، إذا طاف كأنما الناس حوله مشاة وهو راكب من طوله، وكان مع هذا الطول يكون إلى منكب أبيه عبد الله وكان عبد الله إلى منكب أبيه العباس وكان العباس إلى منكب أبيه عبد المطلب. ونظرت عجوز إلى علي وهو يطوف وقد فرع الناس – فرع بالعين المهملة: أي علا عليهم – فقالت: من هذا الذي فرع الناس؟ فقيل: علي بن عبد الله بن العباس، فقالت: لا إله إلا الله، إن الناس ليرذلون، عهدي بالعباس يطوف بهذا البيت كأنه فسطاط أبيض. ذكر هذا كله المبرد في "الكامل "، وذكر أيضاً أن العباس كان عظيم الصوت وجاءتهم مرة غارة وقت الصباح فصاح بأعلى صوته: واصباحاه، فلم تسمعه حامل في الحي إلا وضعت.
وذكر أبو بكر الحازمي في كتاب " ما اتفق لفظه وافترق مسماه " في أول حرف الغين في باب عانة وغابة، وقال: كان العباس بن عبد المطلب يقف

على سلع، وهو جبل عند المدينة، فينادي غلمانه وهم في الغابة فيسمعهم، وذلك من آخر الليل، وبين الغابة وسلع ثمانية أميال.

وكانت وفاة علي بن عبد الله سنة سبع عشرة ومائة بالشراة بالحميمة وهو ابن ثمانين سنة. وقال الواقدي: ولد في الليلة التي قتل فيها علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، وكان قتل علي، رضي الله عنه، في ليلة الجمعة سابع عشر شهر رمضان من سنة أربعين للهجرة، وقيل غير ذلك، وتوفي علي بن عبد الله سنة ثماني عشرة ومائة، وقال غير الواقدي: إن وفاته كانت في ذي القعدة، وقال خليفة بن خياط: مات في سنة أربع عشرة، وقال في موضع آخر: سنة ثماني عشرة، وقال غيره: سنة تسع عشرة، والله أعلم.

وكان يخضب بالسواد، وابنه محمد والد السفاح والمنصور يخضب بالحمرة، فيظن من لا يعرفهما أن محمداً علي وأن علياً محمد، رضي الله عنهما.

والشراة: بفتح الشين المعجمة والراء وبعد الألف هاء مثناة، صقع بالشام في طريق المدينة من دمشق بالقرب من الشوبك وهو من إقليم البلقاء وفي بعض نواحيه القرية المعروفة بالحميمة – بضم الحاء المهملة وفتح الميم وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح الميم الثانية وبعدها هاء ساكنة – وهذه القرية كانت لعلي المذكور وأولاده في أيام بني أمية، وفيها ولد السفاح والمنصور وبها تربيا ومنها انتقلا إلى الكوفة، وبويع السفاح بالخلافة فيها كما هو مشهور – وسيأتي ذكر ولده محمد إن شاء الله تعالى.

وذكر الطبري في تاريخه أن الوليد بن عبد الملك بن مروان أخرج علي بن عبد الله بن العباس من دمشق وأنزله الحميمة في سنة خمس وتسعين للهجرة، و لم يزل ولده بها إلى أن زالت دولة بني أمية وولد له بها نيفٌ وعشرون ولداً ذكراً.

القاضي أبو الحسن الجرجاني

القاضي أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني الفقيه الشافعي؛ كان فقيهاً أديباً شاعراً، ذكره الشيخ أبو إسحاق الشيرازي في كتاب " طبقات الفقهاء " وقال: له ديوان شعر وهو القائل:

يقولون لي فيك انقباض وإنما ... رأوا رجلاً عن موقف الذل أحجما

وهي أبيات طويلة ومشهورة، فلا حاجة إلى ذكرها. وذكره الثعالبي في كتاب " يتيمة الدهر " فقال: " هو فرد الزمان، ونادرة الفلك، وإنسان حدقة العلم، وقبة تاج الأدب، وفارس عسكر الشعر، يجمع خط ابن مقلة إلى نثر الجاحظ ونظم البحتري، وقد كان في صباه خلف الخضر في قطع الأرض وتدويخ بلاد العراق والشام وغيرها، واقتبس من أنواع العلوم والآداب ما صار به في العلوم علماً، وفي الكمال عالماً " وأورد له مقاطيع كثيرة من الشعر، فمن ذلك قوله:

قد برح الحب بمشتاقك ... فأوله أحسن أخلاقك

ولا تجفه وارع له حقه ... فإنه آخر عشاقك

وأنشدني صاحبنا الحسام عيسى بن سنجر بن بهرام المعروف بالحاجري – الآتي ذكره – لنفسه دوبيت في هذا المعنى وهو:

يا عارضه فديت بالأحداق ... لم يبق على العهود غيري باقي

ناشدتك إلا ما عسى ترفق بي ... في الحب فإني آخر العشاق

وله من أبيات:

وقالوا توصل بالخضوع إلى الغنى ... وما علموا أن الخضوع هو الفقر

وبيني وبين المال شيئان حرما ... علي الغنى: نفسي الأبية والدهر

إذا قيل هذا اليسر أبصرت دونه ... مواقف خيرٌ من وقوفي بها العسر

وله أيضاً:

وقالوا اضطرب في الأرض فالرزق واسع فقلت ولكن موضع الرزق ضيق
إذا لم يكن في الأرض حر يعينني ولم يك لي كسبٌ فمن أين أرزق

وله أيضاً في الصاحب بن عباد:

ولا ذنب للأفكار أنت تركتها إذا احتشدت لم تنتفع باحتشادها
سبقت لأفراد المعاني وألفت خواطرك الألفاظ بعد شرادها
فأن نحن حاولنا اختراع بديعة حصلنا على مسروقها ومعادها

وله فيه يهنيه بالعافية من جملة أبيات:

أفي كل يوم للمكارم روعةٌ لها في قلوب المكرمات وجيب
تقسمت العلياء جسمك كله فمن أين للأسقام فيه نصيب
إذا ألمت نفس الوزير تألمت لها أنفسٌ تحيا بها وقلوب
ووالله لاحظت وجهاً أحبه حياتي، وفي وجه الوزير شحوب
وليس شحوباً ما أراه بوجهه ولكنه في المكرمات ندوب
فلا تجزعن تلك السماء تغيمت وعما قليل تبتدي فتصوب

وله:

ما تطعمت لذة العيش حتى صرت للبيت والكتاب جليسا
ليس شيء أعز عندي من العل م فما أبتغي سواه أنيسا
إنما الذل في مخالطة النا س فدعهم وعش عزيزاً رئيسا

وله:

ما لي وما لك يا فراق أبداً رحيلٌ وانطلاق
يانفس موتي بعدهم فكذا يكون الاشتياق

وشعره كثير وطريقه فيه سهل، وله كتاب " الوساطة بين المتنبي وخصومه " أبان فيه عن فضل غزير واطلاع كثير ومادة متوفرة.

وذكر الحاكم أبو عبد الله ابن البيع في " تاريخ النيسابوريين " أنه توفي في سلخ صفر سنة ست وستين وثلثمائة بنيسابور وعمره ست وسبعون سنة، رحمه الله تعالى، وقال غيره: إنه كان حسن السيرة في قضائه صدوقاً، ورد به أخوه محمد نيسابور في سنة سبع وثلاثين وثلثمائة وهو صغير غير بالغ، وسمعا من سائر الشيوخ، ومات بالري وهو قاضي القضاة في سنة اثنتين وتسعين وثلثمائة، وحمل تابوته إلى جرجان ودفن بها، ونقل الحاكم أثبت وأصح.

وجرجان: بضم الجيم وسكون الراء وفتح الجيم الثانية وبعد الألف نون، وهي مدينة عظيمة من ناحية خراسان.

ابن المرزبان

أبو الحسن علي بن أحمد بن المرزبان البغدادي الفقيه الشافعي؛ كان فقيها ورعاً من جلة العلماء، أخذ الفقه عن أبي الحسين ابن القطان، وعنه أخذ الشيخ أبو حامد الإسفراييني أول قدومه بغداد. وحكي عنه أنه قال: ما أعلم أن لأحد عليّ مظلمة، وقد كان فقيهاً يعلم أن الغيبة من المظالم، وكان مدرّساً ببغداد وله وجه في مذهب الشافعي. وتوفي في رجب سنة ست وستين وثلثمائة، رحمه الله تعالى.

والمرزبان: بفتح الميم وسكون الراء وضم الزاي وفتح الباء الموحدة وبعد الألف نون، وهو لفظ فارسي معناه صاحب الحد، ومرز هو الحد، وبان صاحب، وهو في الأصل اسم لمن كان دون الملك.

الماوردي

أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري، المعروف بالماوردي، الفقيه الشافعي؛ كان من وجوه الفقهاء الشافعية ومن كبارهم، أخذ الفقه عن أبي القاسم الصيمري بالبصرة، ثم عن الشيخ أبي حامد الإسفراييني ببغداد، وكان حافظاً للمذهب وله فيه كتاب " الحاوي " الذي لم يطالعه أحد إلا وشهد له بالتبحّر والمعرفة التامة بالمذهب. وفوّض إليه القضاء ببلدان كثيرة، واستوطن بغداد في درب الزّعفراني وروى عنه الخطيب أبو بكر صاحب " تاريخ بغداد " وقال: كان ثقة.

وله من التصانيف غير " الحاوي " " تفسير القرآن الكريم " و" النكت والعيون " و" أدب الدين والدنيا " و" الأحكام السلطانية " و" قانون الوزارة " و" سياسة الملك " و" الإقناع " في المذهب، وهو مختصر، وغير ذلك، وصنف في أصول الفقه والأدب وانتفع الناس به.

وقيل: إنه لم يظهر شيئاً من تصانيفه في حياته، وإنما جمع كلها في موضع، فلما دنت وفاته قال لشخص يثق إليه: الكتب التي في المكان الفلاني كلها تصنيفي، وإنما لم أظهرها لأني لم أجد نية خالصة لله تعالى لم يشبها كدر، فإن عاينت الموت ووقعت في الترع فاجعل يدك في يدي، فإن قبضت عليها وعصرتها فاعلم أنه لم يقبل مني شيء منها، فاعمد إلى الكتب وألقها في دجلة ليلاً، وإن بسطت يدي و لم أقبض على يدك فاعلم أنها قبلت وأني قد ظفرت بما كنت أرجوه من النية الخالصة. قال ذلك الشخص: فلما قارب الموت وضعت يدي في يده فبسطها و لم يقبض على يدي، فعلمت أنها علامة القبول، فأظهرت كتبه بعده.

وذكر الخطيب في أول " تاريخ بغداد " عن الماوردي المذكور، قال: كتب أخي إليّ من البصرة وأنا ببغداد:

طيب الهواء ببغداد يشوّقني ... قدماً إليها وإن عاقت مقادير

فكيف صبري عنها الآن إذ جمعت ... طيب الهواءين ممدود ومقصور

وقال أبو العز أحمد بن عبيد الله بن كادش: أنشدني أبو الحسن الماوردي، قال: أنشدنا أبو الخير الكاتب الواسطي بالبصرة لنفسه:

جرى قلم القضاء بما يكون ... فسيّان التحرك والسكون

جنونٌ منك أن تسعى لرزقٍ ... ويرزق في غشاوته الجنين

ويقال إن أبا الحسن الماوردي لما خرج من بغداد راجعاً إلى البصرة كان ينشد أبيات العباس بن الأحنف – المقدم ذكره – وهي:

أقمنا كارهين لها فلما ... ألفناها خرجنا مكرهينا

وما حب البلاد بنا ولكن ... أمرّ العيش فرقة من هوينا

خرجت أقرّ ما كانت لعيني ... وخلّفت الفؤاد بها رهينا

وإنما قال ذلك لأنه من أهل البصرة وما كان يؤثر مفارقتها، فدخل بغداد كارهاً لها ثم طابت له بعد ذلك ونسي البصرة فشق عليه فراقها، وقد قيل إن هذه الأبيات لأبي محمد المزني الساكن بما وراء النهر، كذا قال السمعاني، والله أعلم.

وتوفي يوم الثلاثاء سلخ شهر ربيع الأول سنة خمسين وأربعمائة، ودفن من الغد في مقبرة باب حرب ببغداد، وعمره ست وثمانون سنة، رحمه الله تعالى.
والماوردي: نسبة إلى بيع الماورد، هكذا قاله الحافظ ابن السمعاني.

أبو الحسن الأشعري

أبو الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بشر إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن بلال بن أبي بردة عامر بن أبي موسى الأشعري صاحب رسول الله، صلى الله عليه وسلم؛ هو صاحب الأصول والقائم بنصرة مذهب السنة، وإليه تنسب الطائفة الأشعرية، وشهرته تغني عن الإطالة في تعريفه، ولقاضي أبو بكر الباقلاني ناصر مذهبه ومؤيد اعتقاده، وكان أبو الحسن يجلس أيام الجمع في حلقة أبي إسحاق المروزي الفقيه الشافعي في جامع المنصور ببغداد. ومولده سنة سبعين، وقيل ستين ومائتين بالبصرة. وتوفي سنة نيف وثلاثين وثلثمائة، وقيل: سنة أربع وعشرين وثلثمائة، وقيل: سنة ثلاثين فجأة – حكاه ابن الهمذاني في " ذيل تاريخ الطبري " ببغداد ودفن بين الكرخ وباب البصرة، رحمه الله تعالى.
قال الحافظ أبو القاسم ابن عساكر في كتاب " تبيين كذب المفتري فيما نسب للشيخ أبي الحسن الأشعري " –بعد أن حكى في تاريخ وفاته أقوالاً – :وقال بعض البصريين: مات سنة ثلاث وثلاثين، وهذا القول أراه صحيحاً، والأصح أنه مات سنة أربع وعشرين، وكذلك ذكره أبو بكر ابن فورك؛ انتهى.
وقد تقدم ذكر جده أبي بردة في أول حرف العين.
والأشعري: بفتح الهمزة وسكون الشين المعجمة وفتح العين المهملة وبعدها راء، هذه النسبة إلى أشعر، واسمه نبت بن أدد بن زيد بن يشجب، وإنما قيل له أشعر لأن أمه ولدته والشعر على بدنه، هكذا قال السمعاني، والله أعلم.
وقد صنف الحافظ أبو القاسم ابن عساكر في مناقبه مجلداً.
وكان أبو الحسن الأشعري أولاً معتزلياً، ثم تاب من القول بالعدل وخلق القرآن في المسجد الجامع بالبصرة يوم الجمعة، ورقي كرسياً ونادى بأعلى صوته: من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فأنا أعرفه بنفسي، أنا فلان بن فلان، كنت أقول بخلق القرآن وأن الله لا تراه الأبصار وأن أفعال الشر أنا أفعلها، وأنا تائب مقلع، معتقد للرد على المعتزلة مخرج لفضائحهم ومعايبهم.
وكان فيه دعابة ومزاح كثير، وله من الكتب كتاب " اللمع " وكتاب " الموجز " وكتاب " إيضاح البرهان " وكتاب " التبيين عن أصول الدين " وكتاب " الشرح والتفصيل في الرد على أهل الإفك والتضليل " وهو صاحب الكتب في الرد على الملاحدة وغيرهم من المعتزلة والرافضة والجهمية والخوارج، وسائر أصناف المبتدعة.
ودفن في مشرعة الروايا في تربة إلى جانبها مسجد وبالقرب منها حمام وهو عن يسار المار من السوق إلى دجلة. وكان يأكل من غلة ضيعة وقفها جده بلال بن أبي بردة ابن أبي موسى على عقبه، وكانت نفقته في كل يوم سبعة عشر درهماً، هكذا قاله الخطيب. وقال أبو بكر الصيرفي: كانت المعتزلة قد رفعوا رؤوسهم حتى أظهر الله الأشعري فجحرهم في أقماع السمسم. وقال أبو محمد علي بن حزم الأندلسي: إن أبا الحسن له من التصانيف خمسة وخمسون تصنيفاً.

الكيا الهراسي

أبو الحسن علي بن محمد بن علي الطبري، الملقب عماد الدين، المعروف بالكيا الهراسي الفقيه الشافعي؛ كان من أهل طبرستان، وخرج إلى نيسابور وتفقه على إمام الحرمين أبي المعالي الجويني مدة إلى أن برع، وكان حسن الوجه جهوري الصوت فصيح العبارة حلو الكلام، ثم خرج من نيسابور إلى بيهق ودرس بها مدة، ثم خرج إلى العراق وتولى تدريس المدرسة النظامية ببغداد إلى أن توفي.
وذكره الحافظ عبد الغافر بن إسماعيل الفارسي – المقدم ذكره – في " سياق تاريخ نيسابور " فقال: كان من رؤوس معيدي إمام الحرمين في الدرس. وكان ثاني أبي حامد الغزالي، بل آصل وأصلح وأطيب في الصوت والنظر، ثم اتصل بخدمة مجد الملك بركياروق بن ملك شاه السلجوقي – المذكور في

حرف الباء –وحظي عنده بالمال والجاه وارتفع شأنه، وتولى القضاء بتلك الدولة، وكان محدثاً يستعمل الأحاديث في مناظراته ومجالسه. ومن كلامه: إذا جالت فرسان الأحاديث في ميادين الكفاح، طارت رؤوس المقاييس في مهاب الرياح.

وحدث الحافظ أبو طاهر السلفي قال: استفتيت شيخنا أبا الحسن المعروف بالكيا الهراسي ببغداد في سنة خمس وتسعين وأربعمائة لكلام جرى بيني وبين الفقهاء بالمدرسة النظامية، وصورة الاستفتاء: " ما يقول الإمام وفقه الله تعالى في رجل أوصى بثلث ماله للعلماء والفقهاء، هل تدخل كتبة الحديث تحت هذه الوصية أم لا؟ " فكتب الشيخ تحت السؤال " نعم، كيف لا وقد قال النبي، صلى الله عليه وسلم: من حفظ على أمتي أربعين حديثاً من أمر دينها بعثه الله يوم القيامة فقيهاً عالماً؟ " وسئل الكيا أيضاً عن يزيد بن معاوية فقال: إنه لم يكن من الصحابة لأنه ولد في أيام عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وأما قول السلف ففيه لأحمد قولان تلويح وتصريح، ولمالك قولان تلويح وتصريح، ولأبي حنيفة قولان تلويح وتصريح، ولنا قول واحد التصريح دون التلويح وكيف لا يكون كذلك وهو اللاعب بالنرد والمتصيد بالفهود ومدمن الخمر، وشعره في الخمر معلوم، ومنه قوله:

أقول لصحبٍ ضمت الكأس شملهم ... وداعي صبابات الهوى يترنم

خذوا بنصيبٍ من نعيمٍ ولذةٍ ... فكلٌ وإن طال المدى يتصرم

ولا تتركوا يوم السرور إلى غدٍ ... فرب غدٍ يأتي بما ليس يعلم

وكتب فصلاً طويلاً، ثم قلب الورقة وكتب: لو مددت ببياضٍ لمددت العنان في مخازي هذا الرجل؛ وكتب فلان بن فلان وقد أفتى الإمام أبو حامد الغزالي، رحمه الله تعالى، في مثل هذه المسألة بخلاف ذلك، فإنه سئل عمن صرح بلعن يزيد: هل يحكم بفسقه أم هل يكون ذلك مرخصاً فيه؟ وهل كان مريداً قتل الحسين، رضي الله عنه، أم كان قصده الدفع؟ وهل يسوغ الترحم عليه أم السكوت عنه أفضل؟ ينعم بإزالة الاشتباه مثاباً، فأجاب: لا يجوز لعن المسلم أصلاً، ومن لعن مسلماً فهو الملعون، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "المسلم ليس بلعانٍ"، وكيف يجوز لعن المسلم ولا يجوز لعن البهائم وقد ورد النهي عن ذلك، وحرمة المسلم أعظم من حرمة الكعبة بنص النبي، صلى الله عليه وسلم. ويزيد صح إسلامه، وما صح قتله الحسين، رضي الله عنه، ولا أمره لا رضاه بذلك، ومهما لم يصح ذلك منه لا يجوز أن يظن ذلك به فإن إساءة الظن بالمسلم أيضاً حرام، وقد قال تعالى: "اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعد الظن، وقال النبي، صلى الله عليه وسلم: "إن الله حرم من المسلم دمه وماله وعرضه وأن يظن به ظن السوء"، ومن زعم أن يزيد أمر بقتل الحسين، رضي الله عنه، أو رضي به فينبغي أن يعلم به غاية حماقة، فإن من قتل من الأكابر والوزراء والسلاطين في عصره لو أراد أن يعلم حقيقة من أمر بقتله ومن الذي رضي به ومن الذي كرهه لم يقدر على ذلك، وإن كان قد قتل في جواره وزمانه وهو يشاهده، فكيف لو كان في بلد بعيد وزمن قديم قد انقضى، فكيف يعلم ذلك فيما انقضى عليه قريب من أربعمائة سنة في كان بعيد؟ وقد تطرق التعصب في الواقعة فكثرت فيها الأحاديث من الجوانب فهذا أمرٌ لا تعرف حقيقته أصلاً، وإذا لم يعرف وجب إحسان الظن بكل مسلم يمكن إحسان الظن به، ومع هذا فلو ثبت على مسلم أنه قتل مسلماً فمذهب الحق أنه ليس بكافر، والقتل ليس بكفر بل هو معصية، وإذا مات القاتل فربما مات بعد التوبة، والكافر لو تاب من كفره لم تجز لعنته، فكيف من تاب عن قتل؟ وبم يعرف أن قاتل الحسين رضي الله عنه، مات قبل التوبة؟ وهو الذي يقبل التوبة عن عباده، فإذاً لا يجوز لعن أحد ممن مات من المسلمين، ومن لعنه كان فاسقاً عاصياً لله تعالى، ولو جاز لعنه فسكت لم يكن عاصياً بالإجماع، بل لو لم يلعن إبليس طول عمره لا يقال له يوم القيامة: لم لم تلعن إبليس، ويقال للاعن: لم لعنت؟ ومن أين عرفت أنه مطرود ملعون؟ والملعون وهو المبعد من الله عز وجل، وذلك غيب لا يعرف إلى فيمن مات كافراً فإن ذلك علم بالشرع، وأما الترحم عليه جائز، بل هو مستحب، بل هو داخل في قولنا في كل صلاة "اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات"، فإنه كان مؤمناً والله أعلم؛ كتبه الغزالي.

وكانت ولادة الكيا في ذي القعدة سنة خمسين وأربعمائة. وتوفي يوم الخميس وقت العصر مستهل المحرم سنة أربع وخمسمائة ببغداد، ودفن في تربة

الشيخ أبي إسحاق الشيرازي، رحمه الله تعالى، وحضر دفنه الشيخ أبو طالب الزينبي وقاضي القضاة أبو الحسن ابن الدامغاني، وكان مقدمي الطائفة الحنفية، وكان بينه وبينهما في حال الحياة منافسة، فوقف أحدهما عند رأسه والأخر عند رجليه، فقال ابن الدامغاني متمثلاً:

وما تغني النوادب والبواكي | وقد أصبحت مثل حديث أمس

وأنشد الزينبي متمثلاً أيضاً:

عقم النساء فما يلدن شبيهه | إن النساء بمثله عقيم

و لم أعلم لأي معنى قيل له الكيا، وفي اللغة العجمية الكيا هو الكبير القدر المقدم بين الناس، وهو بكسر الكاف وفتح الياء المثناة من تحتها وبعدها ألف. وكان في خدمته بالمدرسة النظامية أبو إسحاق إبراهيم بن عثمان الغزي الشاعر المشهور – المقدم ذكره في حرف الهمزة – فرثاه إرتجالاً بهذه الأبيات على ما حكاه الحافظ ابن عساكر في تاريخه الكبير، وهي:

هي الحوادث لا تبقي ولا تذر | ما للبرية من محتوفها وزر

لو كان ينجي علو من بوائقها | لم تكسف الشمس بل لم يخسف القمر

قل للجبان الذي أمسى على حذرٍ | من الحمام متى رد الردى الحذر

بكى على شمسه الإسلام إذ أفلت | بأدمعٍ قل في تشبيهها المطر

حبرٌ عهدناه طلق الوجه مبتسماً | والبشر أحسن ما يلقى به البشر

لئن طوته المنايا تحت أخمصها | فعلمه الجم في الأفق منتشر

سقى ثراك عماد الدين كل ضحىً | صوب الغمام ملث الودق منهمر

عند الورى من أسىً أيقنته خبرٌ | فهل أتاك من استيحاشهم خبر

أحيا ابن إدريس درسٌ كنت تورده | تحار في نظمه الأذهان والفكر

من فاز منه بتعليقٍ فقد علقت | يمينه بشهابٍ ليس ينكدر

كأنما مشكلات الفقه يوضحها | جباه دهمٍ لها من لفظه غرر

ولو عرفت له مثلاً دعوت له | وقلت دهري إلى شرواه مفتقر

الحافظ المقدسي

أبو الحسن علي بن الأنجب أبي المكارم المفضل بن أبي الحسن علي بن أبي الغيث مفرج بن حاتم بن الحسن بن جعفر بن إبراهيم بن الحسن اللخمي المقدسي الأصل، الاسكندراني المولد والدار، المالكي المذهب؛ كان فقيهاً فاضلاً في مذهب الإمام مالك، رضي الله عنه، ومن أكابر الحفاظ المشاهير في الحديث وعلومه، صحب الحافظ أبا الطاهر السلفي الأصبهاني نزيل الاسكندرية، رحمه الله تعالى، وانتفع به، وصحبه شيخنا الحافظ العلامة زكي الدين أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوي بن عبد الله المنذري، ولازم صحبته وبه انتفع وعليه تخرج، وذكر عنه فضلاً غزيراً وصلاحاً كثيراً، وأنشدني له مقاطيع عديدة؛ فمما أنشدني قال، أنشدني الحافظ أبو الحسن المقدسي المذكور لنفسه:

تجاوزت ستين من مولدي | فأسعد أيامي المشترك

يسائلني زائري حالتي | وما حال من حل في المعترك

وأنشدني أيضاً قال أنشدني الحافظ لنفسه:

أيا نفس بالمأثور عن خير مرسلٍ ... وأصحابه والتابعين تمسكي
عساك إذا بالغت في نشر دينه ... بما طاب من نشرٍ له أن تمسكي
وخافي غداً يوم الحساب جهنماً ... إذا لفحت نيرانها أن تمسك

وأنشدني أيضاً قال، أنشدني لنفسه:

ثلاث باءات بلين بها: ... البق والبرغوث والبرغش
ثلاثة أوحش ما في الورى ... ولست أدري أيها أوحش

وأنشدني أيضاً قال، أنشدني لنفسه:

ولمياء تحيي من تُحيّي بريقها ... كأن مزاج الراح بالمسك في فيها
وما ذقت فاها غير أني رويته ... عن الثقة المسواك وهو موافيها

وهذا معنى مستعمل قد سار في كثير من أشعار المتقدمين والمتأخرين، فمن ذلك قول بشار بن برد من جملة أبيات:

يا أطيب الناس ريقاً غير مختبر ... إلا شهادة أطراف المساويك

وقول الأبيوردي من جملة أبيات:

وأخبرني أترابها أن ريقها ... على ما حكى عود الأراك لذيذ

ونقتصر على هذا القدر.

وكان الحافظ المذكور ينوب في الحكم بثغر الاسكندرية المحروس، ودرس به بالمدرسة المعروفة به هناك، ثم انتقل إلى مدينة القاهرة المحروسة ودرس بها بالمدرسة الصاحبية، وهي مدرسة الوزير صفي الدين أبي محمد عبد الله بن علي المعروف بابن شكر، واستمر بها إلى حين وفاته.

وكانت ولادته ليلة السبت الرابع والعشرين من ذي القعدة سنة أربع وأربعين وخمسمائة بالثغر المحروس. وتوفي يوم الجمعة مستهل شعبان سنة إحدى عشرة وستمائة بالقاهرة، رحمه الله تعالى.

وتوفي والده القاضي الأنجب أبو المكارم المفضل في رجب سنة أربع وثمانين وخمسمائة، وكان مولده في سنة ثلاث وخمسمائة، رحمهما الله تعالى.

والمقدسي: بفتح الميم وسكون القاف وكسر الدال المهملة وفي آخرها سين مهملة، هذه النسبة إلى بيت المقدس.

واللخمي: تقدم الكلام عليه.

السيف الآمدي

أبو الحسن علي بن أبي علي بن محمد بن سالم التغلبي الفقيه الأصولي، الملقب سيف الدين الآمدي؛ كان في أول اشتغاله حنبلي المذهب، وانحدر إلى بغداد وقرأ بها على ابن المني أبي الفتح نصر بن فتيان الحنبلي، وبقي على ذلك مدة ثم انتقل إلى مذهب الإمام الشافعي، رضي الله عنه، وصحب الشيخ أبا القاسم بن فضلان واشتغل عليه في الخلاف وتميز فيه، وحفظ طريقة الشريف وزوائد طريقة أسعد الميهني – المقدم ذكره – ثم انتقل إلى الشام واشتغل بفنون المعقول وحفظ منه الكثير وتمهر فيه وحصل منه شيئاً كثيراً، ولم يكن في زمانه أحفظ منه لهذه العلوم. ثم انتقل إلى الديار المصرية وتولى الإعادة بالمدرسة المجاورة لضريح الإمام الشافعي، رضي الله عنه، التي بالقرافة الصغرى، وتصدر بالجامع الظافري بالقاهرة مدة، واشتهر بها فضله واشتغل عليه الناس وانتفعوا به، ثم حسده جماعة من فقهاء البلاد وتعصبوا عليه ونسبوه إلى فساد العقيدة وانحلال الطوية والتعطيل ومذهب الفلاسفة

والحكماء، وكتبوا محضراً يتضمن ذلك، ووضعوا فيه خطوطهم بما يستباح به الدم؛ وبلغني عن رجل منهم فيه عقل ومعرفة أنه لما رأى تحاملهم عليه وإفراط التعصب كتب في المحضر وقد حمل إليه ليكتب فيه مثل ما كتبوا فكتب:

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه فالقوم أعداءٌ له وخصوم

والله أعلم، وكتب فلان بن فلان. ولما رأى سيف الدولة تألبهم عليه وما اعتمدوه في حقه، ترك البلاد وخرج منها مستخفياً وتوصل إلى الشام، واستوطن مدينة حماة.

وصنف في أصول الفقه والدين والمنطق والحكمة والخلاف، وكل تصانيفه مفيدة. فمن ذلك كتاب " أبكار الأفكار " في علم الكلام واختصره في كتاب سماه " منائح القرائح " و"رموز الكنوز " وله " دقائق الحقائق " و" لباب الألباب " و" منتهى السول في علم الأصول "، وله طريقة في الخلاف، ومختصر في الخلاف أيضاً وشرح جدل الشريف، وله مقدار عشرين تصنيفاً.

وانتقل إلى دمشق ودرس بالمدرسة العزيزية وأقام بها زماناً، ثم عزل عنها لسبب تهم فيه وأقام بطالاً في بيته. وتوفي على تلك الحال في رابع صفر يوم الثلاثاء سنة إحدى وثلاثين وستمائة ودفن بسفح جبل قاسيون. وكانت ولادته في سنة إحدى وخمسين وخمسمائة، رحمه الله تعالى.

والآمدي: بالهمزة الممدودة والميم المكسورة وبعدها دال مهملة، هذه النسبة إلى آمد، وهي مدينة كبيرة في ديار بكر مجاورة لبلاد الروم.

وكان أبو الفتح نصر بن فتيان بن المني المذكور فقيهاً محدثاً، انتفع به جماعة كبيرة. ومولده سنة إحدى وخمسمائة، وتوفي خامس شهر رمضان سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، رحمه الله تعالى.

الكسائي

أبو الحسن علي بن حمزة بن عبد الله بن بهمن بن فيروز، الأسدي بالولاء الكوفي المعروف بالكسائي؛ أحد القراء السبعة، كان إماماً في النحو واللغة والقراءات، ولم تكن له في الشعر يد، حتى قيل: ليس في علماء العربية أجهل من الكسائي بالشعر؛ وكان يؤدب الأمين بن هارون الرشيد ويعلمه الأدب ولم يكن له زوجة ولا جارية، فكتب إلى الرشيد يشكو العزبة في هذه الأبيات:

قل للخليفة لا تقول لمن أمسى إليك بحرمة يدلي

ما زلت مذ صار الأمين معي عبدي يدي ومطيتي رجلي

وعلى فراشي من ينبهني من نومتي وقيامه قبلي

أسعى برجل منه ثالثة موفورة مني بلا رجل

وإذا ركبت أكون مرتدفاً قدام سرجي راكب مثلي

فامنن علي بما يسكنه عني وأهد الغمد للنصل

فأمر له الرشيد بعشرة آلاف درهم وجارية حسناء بجميع آلاتها وخادم وبرذون بجميع آلاته.

واجتمع يوماً بمحمد بن الحسن الفقيه الحنفي في مجلس الرشيد فقال الكسائي: من تبحر في علم تهدى إلى جميع العلوم، فقال له محمد: ما تقول فيمن سها في سجود السهو، هل يسجد مرة أخرى؟ قال الكسائي: لا، قال: لماذا؟ قال: لأن النحاة تقول: التصغير لا يصغر، هكذا وجدت هذه الحكاية في عدة مواضع؛ وذكر الخطيب في " تاريخ بغداد " أن هذه القضية جرت بين محمد بن الحسن المذكور والفراء - الآتي ذكره إن شاء الله تعالى - وهما ابنا خالة، والله أعلم بالصواب.

رجعنا إلى بقية الحكاية: فقال محمد: فما تقول في تعليق الطلاق بالملك؟ قال: لا يصح، قال: لم؟ قال: لأن السيل لا يسبق المطر.

وله مع سيبويه وأبي محمد اليزيدي مجالس ومناظرات -سيأتي ذكر بعضها في تراجم أربابها إن شاء الله تعالى.

روى الكسائي عن أبي بكر ابن عياش وحمزة الزيات وابن عيينة وغيرهم وروى عنه الفراء وأبو عبيد القاسم بن سلام وغيرهما. وتوفي سنة تسع وثمانين ومائة بالري وكان قد خرج إليها صحبة هارون الرشيد. قال السمعاني: وفي ذلك اليوم توفي محمد بن الحسن المذكور بالري أيضاً – كما سيأتي في ترجمته إن شاء الله تعالى – وكذا قال ابن الجوزي في " شذور العقود "توفي برنبويه قرية من قرى الري – ورنبويه مذكورة في ترجمة محمد بن الحسن – وقال السمعاني أيضاً: وقيل إن الكسائي مات بطوس سنة اثنتين أو ثلاث وثمانين ومائة، والله أعلم، ويقال إن الرشيد كان يقول: دفنت الفقه والعربية بالري.

والكسائي: بكسر الكاف وفتح السين المهملة وبعدها ألف ممدودة، وإنما قيل له الكسائي لأنه دخل الكوفة وجاء إلى حمزة بن حبيب الزيات وهو ملتف بكساء، فقال حمزة: من يقرأ؟ فقيل له: صاحب الكساء، فبقي عليه، وقيل بل أحرم في كساء فنسب إليه، رحمه الله تعالى.

الدارقطني

أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد بن مهدي البغدادي الدارقطني الحافظ المشهور؛ كان عالماً حافظاً فقيهاً على مذهب الإمام الشافعي، رضي الله عنه، أخذ الفقه عن أبي سعيد الإصطخري الفقيه الشافعي، وقيل بل أخذه عن صاحب لأبي سعيد، وأخذ القراءة عرضاً وسماعاً عن محمد بن الحسن النقاش وعلي بن سعيد القزاز ومحمد بن الحصين الطبري ومن في طبقتهم، وسمع من أبي بكر بن مجاهد وهو صغير، وانفرد بالإمامة في علم الحديث في دهره، ولم ينازعه في ذلك أحد من نظرائه، وتصدر في آخر أيامه للإقراء ببغداد. وكان عارفاً باختلاف الفقهاء ويحفظ كثيراً من دواوين العرب، منها ديوان السيد الحميري، فنسب إلى التشيع لذلك. وروى عنه الحافظ أبو نعيم الأصبهاني صاحب " حلية الأولياء " وجماعة كثيرة، وقبل القاضي ابن معروف شهادته في سنة ست وسبعين وثلثمائة، فندم على ذلك وقال: كان يقبل قولي على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بانفرادي، فصار لا يقبل قولي على نقلي إلا مع آخر.

وصنف كتاب " السنن " و" المختلف والمؤتلف " وغيرهما، وخرج من بغداد إلى مصر قاصداً أبا الفضل جعفر بن الفضل المعروف بابن حترابة وزير كافور الإخشيدي – المذكور في حرف الجيم – فإنه بلغه أن أبا الفضل عازم على تأليف مسند فمضى إليه ليساعده عليه، وأقام عنده مدة، وبالغ أبو الفضل في إكرامه وأنفق عليه نفقة واسعة وأعطاه شيئاً كثيراً وحصل له بسببه مال جزيل. ولم يزل عنده حتى فرغ المسند، وكان يجتمع هو والحافظ عبد الغني بن سعيد – المقدم ذكره – على تخريج المسند وكتابته إلى أن نجز.

وقال الحافظ عبد الغني المذكور: أحسن الناس كلاماً على حديث رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ثلاثة: علي بن المديني في وقته، وموسى بن هارون في وقته، والدارقطني في وقته.

وسأل الدارقطني يوماً أحد أصحابه: هل رأى الشيخ مثل نفسه؟ فامتنع من جوابه، وقال: قال الله تعالى: "فلا تزكوا أنفسكم"، فألح عليه، فقال: إن كان في فن واحد فقد رأيت من هو أفضل مني، وإن كان من اجتمع فيه ما اجتمع في فلا، وكان مفنناً في علوم كثيرة وإماماً في علوم القرآن.

وكانت ولادة الحافظ المذكور في ذي القعدة سنة ست وثلثمائة. وتوفي يوم الأربعاء لثمان خلون من ذي القعدة، وقيل ذي الحجة، سنة خمس وثمانين وثلثمائة ببغداد، وصلى عليه الشيخ أبو حامد الإسفراييني الفقيه المشهور المقدم ذكره. ودفن قريباً من معروفٍ الكرخي، في مقبرة باب الدير، رحمه الله تعالى.

والدارقطني: بفتح الدال المهملة وبعد الألف راء مفتوحة ثم قاف مضمومة وبعدها طاء مهملة ساكنة ثم نون، هذه النسبة إلى دار القطن وكانت محلة كبيرة ببغداد.

الرماني

أبو الحسن علي بن عيسى بن علي بن عبد الله الرماني النحوي المتكلم؛ أحد الأئمة المشاهير، جمع بين علم الكلام والعربية، وله تفسير القرآن الكريم، أخذ الأدب عن أبي بكر ابن دريد وأبي بكر ابن السراج، وروى عنه أبو القاسم التنوخي وأبو محمد الجوهري وغيرهما. وكانت ولادته ببغداد سنة

ست وتسعين ومائتين، وتوفي ليلة الأحد حادي عشر جمادى الأولى سنة أربع وثمانين، وقيل اثنتين وثمانين وثلثمائة، رحمه الله تعالى؛ وأصله من سر من رأى.

والرماني: بضم الراء وتشديد الميم وبعد الألف نون، هذه النسبة يجوز أن تكون إلى الرمان وبيعه، ويمكن أن تكون إلى قصر الرمان، وهو قصر بواسط معروف، وقد نسب إلى هذا وهذا خلق كثير، و لم يذكر السمعاني أن نسبة أبي الحسن المذكور إلى أيهما، والله أعلم.

الحوفي صاحب التفسير

أبو الحسن علي بن إبراهيم بن سعيد بن يوسف الحوفي النحوي؛ كان عالما بالعربية وتفسير القرآن الكريم، وله تفسير جيد، واشتغل عليه خلق كثير وانتفعوا به ورأيت خطه على كثير من كتب الأدب قد قرئت عليه وكتب لأربابها بالقراءة كما جرت عادة المشايخ. وتوفي بكرة يوم السبت مستهل ذي الحجة سنة ثلاثين وأربعمائة، رحمه الله تعالى.

والحوفي: بفتح الحاء المهملة وسكون الواو وفي آخرها فاء هذه النسبة إلى حوف، قال السمعاني: ظني أنها قرية بمصر، حتى قرأت في تاريخ البخاري أنها من عمان منها أبو الحسن المذكور، ثم قال: وكان عنده من تصانيف النحاس أبي جعفر المصري قطعة كثيرة.

قلت: قوله قرية بمصر، ليس كذلك، بل الناحية المعروفة بالشرقية التي قصبتها مدينة بلبيس جميع ريفها يسمونه الحوف، ولا أعلم ثم قرية يقال لها حوف، والله أعلم، وأبو الحسن من حوف مصر.

وبعد أن فرغت من ترجمة أبي الحسن الحوفي على هذه الصورة ظفرت بترجمته مفصلة، وذلك أنه من قرية يقال لها شبرا اللنجة من أعمال الشرقية المذكورة وأنه دخل مصر وقرأ على أبي بكر الأدفوي، ولقي جماعة من علماء المغرب وأخذ عنهم، وتصدر لإفادة العربية، وصنف في النحو مصنفاً كبيراً وصنف في إعراب القرآن كتاباً في عشر مجلدات، وله تصانيف كثيرة يشتغل بها الناس.

الأخفش الأصغر

أبو الحسن علي بن سليمان بن الفضل المعروف بالأخفش الأصغر النحوي؛ كان عالماً، روى عن المبرد وثعلب وغيرهما، وروى عنه المرزباني وأبو الفرج المعافى الجريري وغيرهما، وكان ثقة، وهو غير الأخفش الأكبر والأخفش الأوسط.

فإن الأخفش الأكبر هو أبو الخطاب عبد الحميد بن عبد المجيد من أهل هجر من مواليهم، وكان نحوياً لغوياً وله ألفاظ لغوية انفرد بنقلها عن العرب وأخذ عنه سيبويه وأبو عبيدة ومن في طبقتهما، و لم أظفر له بوفاة حتى أفرد له ترجمة.

والأخفش الأوسط أبو الحسن سعيد بن مسعدة – وقد تقدم ذكره في حرف السين – وهو صاحب سيبويه.

وكان بين الأخفش المذكور وبين ابن الرومي الشاعر منافسة، فكان الأخفش يباكر داره ويقول عند بابه كلاماً يتطير به، وكان ابن الرومي كثير التطير، فإذا سمع كلامه لم يخرج ذلك اليوم من بيته، فكثر ذلك منه، فهجاه ابن الرومي بأهاج كثيرة، وهي مثبتة في ديوانه، وكان الأخفش يحفظها ويوردها في جملة ما يوردها استحساناً لها وافتخاراً بأنه نوه بذكره إذ هجاه، فلما علم ابن الرومي بذلك أقصر عنه.

وقال المرزباني: لم يكن الأخفش بالمتسع في الرواية للأشعار والعلم بالنحو؛ وما علمته صنف شيئاً البتة ولا قال شعراً، وكان إذا سئل عن مسألة في النحو ضجر وانتهر من يسأله.

وكان وفاة أبي الحسن المذكور في ذي القعدة، وقيل شعبان، سنة خمس عشرة، وقيل ست عشرة وثلثمائة، فجاءة ببغداد، ودفن بمقبرة قنطرة بردان.

ودخل مصر سنة سبع وثمانين ومائتين، وخرج منها إلى حلب سنة ست وثلثمائة، رحمه الله تعالى.

والأخفش: بفتح الهمزة وسكون الخاء المعجمة وفتح الفاء وبعدها شين معجمة، وهو الصغير العين مع سوء بصرها.

وبردان: بفتح الباء الموحدة والراء والدال المهملة وبعد الألف نون، وهي قرية من قرى بغداد خرج منها جماعة من العلماء وغيرهم.

وقال أبو الحسن ثابت بن سنان: كان الأخفش المذكور يواصل المقام عند أبي علي ابن مقلة، وأبو علي يراعيه ويبره، فشكا إليه في بعض الأيام ما هو

فيه من وشدة الفاقة وزيادة الإضاقة، وسأله أن يكلم الوزير أبا الحسن علي بن عيسى في أمره، ويسأله إقرار رزق له في جملة من يرتزق من أمثاله، فخاطبه أبو علي في ذلك، وعرّفه اختلال حاله وتعذر القوت عليه في أكثر أيامه، وسأله أن يجري عليه رزقاً أسوة بأمثاله، فانتهره الوزير انتهاراً شديداً، وكان ذلك في مجلس حافل، فشق ذلك على أبي علي وقام من مجلسه، وصار إلى مترله لائماً نفسه على سؤاله، ووقف الأخفش على الصورة، فاغتم لها وانتهت به الحال إلى أكل السلجم النيئ، فقيل إنه قبض على فؤاده، فمات فجأة في التاريخ المذكور.

وكان أبو الحسن الأخفش كثيراً ما ينشد وعلي على الناس، وكأنه كان يعرض بأبي علي ابن مقلة الوزير:

هون عليك فإني غير حائيكا ... وإنني غير ماضٍ في نواحيكا

والله لو كانت الدنيا بزينتها ... وادٍ بكفك لم أحلل بواديكا

ولو ملكت رقاب الناس كلهم ... شرقاً وغرباً لما جئنا نهنيكا

الواحدي

أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي بن متويه الواحدي المتوي صاحب التفاسير المشهورة؛ كان أستاذ عصره في النحو والتفسير، ورزق السعادة في تصانيفه، وأجمع الناس على حسنها وذكرها المدرسون في دروسهم، منها " البسيط " في تفسير القرآن الكريم، وكذلك " الوسيط " وكذلك " الوجيز " ومنه أخذ أبو حامد الغزالي أسماء كتبه الثلاثة، وله كتاب " أسباب الترول " و" التحبير في شرح أسماء الله تعالى الحسنى" وشرح ديوان أبي الطيب المتنبي شرحاً مستوفى، وليس في شروحه مع كثرتها مثله، وذكر فيه أشياء غريبة منها أنه في شرح هذا البيت وهو:

وإذا المكارم والصوارم والقنا ... وبنات أعوج كل شيءٍ يجمع

تكلم على البيت ثم قال في أعوج: إنه فحل كريم كان لبني هلال بن عامر، وإنه قيل لصاحبه: ما رأيت من شدة عدوه؟ فقال: ضللت في بادية وأنا راكبه، فرأيت سرب قطا يقصد الماء فتبعته، وأنا أغض من لجامه، حتى توافينا الماء دفعة واحدة، وهذا أغرب شيء يكون، فإن القطا شديد الطيران، وإذا قصد الماء اشتد طيرانه أكثر من غير قصد الماء، ثم ما كفى حتى قال: كنت أغض من لجامه، ولو ذلك لكان يسبق القطا، وهذه مبالغة عظيمة، وإنما قيل له أعوج لأنه كان صغيراً وقد جاءهم غارة فهربوا منها وطرحوه في خرج وحملوه لعدم قدرته على متابعتهم لصغره، فاعوج ظهره من ذلك فقيل له أعوج. وهذا البيت من جملة القصيدة التي رثى بها فاتكاً المجنون.

وكان الواحدي المذكور تلميذ الثعلبي صاحب التفسير – المقدم ذكره في حرف الهمزة –وعنه أخذ علم التفسير وأربى عليه، وتوفي عن مرض طويل في جمادى الآخرة سنة ثمان وستين وأربعمائة بمدينة نيسابور، رحمه الله تعالى.

ومتويه: بفتح الميم وتشديد التاء المثناة من فوقها وضمها وسكون الواو وبعدها ياء مفتوحة مثناة من تحتها ثم هاء ساكنة،ونسبة المتوي إلى هذا الجد.

والواحدي: بفتح الواو وبعد الألف حاء مهملة مكسورة وبعدها دال مهملة، لم أعرف هذه النسبة إلى أي شيء هي، ولا ذكرها السمعاني، ثم وجدت هذه النسبة إلى الواحد بن الدين بن مهرة، ذكره أبو أحمد العسكري.

ابن ماكولا

الأمير سعد الملك أبو نصرعلي بن هبة الله بن علي بن جعفر بن علكان بن محمد بن دلف بن أبي دلف القاسم بن عيسى بن إدريس بن معقل بن عمير العجلي، المعروف بابن ماكولا –وبقية نسبه مستوفاة في ترجمة جده أبي دلف القاسم بن عيسى في حرف القاف – وأصله من جرباذقان من نواحي أصبهان، ووزر أبوه أبو القاسم هبة الله للإمام القائم بأمر الله، وتولى عمه أبو عبد الله الحسين بن علي قضاء بغداد.

سمع الحديث الكثير وصنف المصنفات النافعة، وأخذ عن مشايخ العراق وخراسان والشام وغير ذلك. وكان أحد الفضلاء المشهورين، تتبع الألفاظ المشتبهة في الأسماء الأعلام وجمع منها شيئاً كثيراً، وكان الخطيب أبو بكر صاحب " تاريخ بغداد " قد أخذ كتاب الحافظ أبي الحسن الدارقطني

المسمى" المختلف والمؤتلف " وكتاب الحافظ عبد الغني بن سعيد الذي سماه " مشتبه النسبة " وجمع بينهما، وزاد عليهما، وجعله كتاباً مستقلاً سماه " المؤتنف تكملة المختلف "؛ وجاء الأمير أبو نصر المذكور وزاد على هذا " المؤتنف " وضم إليه الأسماء التي وقعت له، وجعله أيضاً كتاباً مستقلاً سماه " الإكمال " وهو في غاية الإفادة في رفع الالتباس والضبط والتقييد، وعليه اعتماد المحدثين وأرباب هذا الشأن، فإنه لم يوضع مثله ولقد أحسن فيه غاية الإحسان. ثم جاء ابن نقطة – الآتي ذكره إن شاء الله تعالى –وذيله وما أقصر فيه أيضاً، وما يحتاج الأمير المذكور مع هذا الكتاب إلى فضيلة أخرى، وفيه دلالة على كثرة اطلاعه وضبطه وإتقانه.

ومن الشعر المنسوب إليه:

قوض خيامك عن أرضٍ تهان بها ... وجانب الذل إن الذل يجتنب

وارحل إذا كان في الأوطان منقصةٌ ... فالمندل الرطب في أوطانه حطب

وكانت ولادته في عكبرا في خامس شعبان سنة إحدى وعشرين وأربعمائة، وقتله غلمانه بجرجان في سنة نيف وسبعين وأربعمائة. وذكر أبو الفرج ابن الجوزي في كتاب " المنتظم " أنه قتل في سنة خمس وسبعين وأربعمائة، وقيل في سنة سبع وثمانين، وقال غيره: في سنة تسع وسبعين بخوزستان، وقيل بالأهواز. وقال الحميدي: خرج إلى خراسان ومعه غلمان له أتراك فقتلوه بجرجان وأخذوا ماله وهربوا، وطاح دمه هدراً، رحمه الله تعالى.

ومدحه الشاعر المعروف بصر در – الآتي ذكره إن شاء الله تعالى – ومدحه في ديوانه موجود.

وماكولا: بفتح الميم وبعد الألف كاف مضمومة وبعدها واو ساكنة ثم لام ألف، ولا أعرف معناه، ولا أدري سبب تسميته بالأمير، هل كان أميراً بنفسه أم لأنه من أولاد أبي دلف العجلي – وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى.

وعكبرا قد تقدم القول عليها في ترجمة الشيخ أبي البقاء.

أبو الفرج الأصبهاني

أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد بن أحمد بن الهيثم بن عبد الرحمن بن مروان بن عبد الله بن مروان بن محمد بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، القرشي الأموي الكاتب الأصبهاني صاحب كتاب " الأغاني " وجده مروان بن محمد المذكور آخر خلفاء بني أمية؛ وهو أصبهاني الأصل بغدادي المنشأ، كان من أعيان أدبائها، وأفراد مصنفيها، وروى عن عالم كثير من العلماء يطول تعدادهم، وكان عالماً بأيام الناس والأنساب والسير.

قال التنوخي: ومن المتشيعين الذين شاهدناهم أبو الفرج الأصبهاني، كان يحفظ من الشعر والأغاني والأخبار والآثار والأحاديث المسندة والنسب ما لم أر قط من يحفظ مثله، ويحفظ دون ذلك من علوم أخر منها اللغة والنحو والخرافات والسير والمغازي، ومن آلة المنادمة شيئاً كثيراً، مثل علم الجوارح والبيطرة ونتف من الطب والنجوم والأشربة وغير ذلك، وله شعر يجمع إتقان العلماء وإحسان الظرفاء الشعراء.

وله المصنفات المستملحة منها: كتاب " الأغاني " الذي وقع الاتفاق على أنه لم يعمل في بابه مثله، يقال إنه جمعه في خمسين سنة، وحمله إلى سيف الدولة بن حمدان فأعطاه ألف دينار واعتذر إليه. وحكي عن الصاحب بن عباد أنه كان في أسفاره وتنقلاته يستصحب حمل ثلاثين جملاً من كتب الأدب ليطالعها، فلما وصل إليه كتاب " الأغاني " لم يكن بعد ذلك يستصحب سواه، استغناءً به عنها. ومنها: كتاب " القيان " وكتاب " الإماء الشواعر " وكتاب " الديارات " وكتاب " دعوة التجار " وكتاب " مجرد الأغاني " وكتاب " أخبار جحظة البرمكي " و" مقاتل الطالبيين" وكتاب " الحانات " و" آداب الغرباء ".

وحصل له ببلاد الأندلس كتب صنفها لبني أمية ملوك الأندلس يوم ذاك وسيرها إليهم سراً وجاءه الإنعام منهم سراً، فمن ذلك كتاب " نسب بني عبد شمس " وكتاب " أيام العرب " ألف وسبعمائة يوم، وكتاب " التعديل والانتصاف " في مآثر العرب ومثالبها، وكتاب " جمهرة النسب " وكتاب "

نسب بني شيبان " وكتاب " نسب المهالبة " وكتاب " نسب بني تغلب " و" نسب بني كلاب " وكتاب " الغلمان المغنين " ذلك.
وكان منقطعاً إلى الوزير المهلبي وله فيه مدائح، فمن ذلك قوله فيه:

ولما انتجعنا لائذين بظله — أعان وعنى ومن وما منا
وردنا عليه مقترين فراشنا — وردنا نداه مجدبين فأخصبنا

وله فيه من قصيدة تهنئة بمولود جاءه من سرية رومية:

اسعد بمولودٍ أتاك مباركاً — كالبدر أشرق جنح ليلٍ مقمر
سعد لوقت سعادةٍ جاءت به — أمٌ حصانٌ من بنات الأصفر
متبجحٌ في ذروتي شرف الورى — بين المهلب منتماه وقيصر
شمس الضحى قرنت إلى بدر الدجى — حتى إذا اجتمعا أتت بالمشتري

وكتب إلى بعض الرؤساء وكان مريضاً:

أبا محمد المحمود يا حسن ال — إحسان والجود يا بحر الندى الطامي
حاشاك من عود عواد إليك ومن — دواء داء ومن إلمام آلام

وشعره كثير، ومحاسنه شهيرة. وكانت ولادته سنة أربع وثمانين ومائتين، وفي هذه السنة مات البحتري الشاعر. وتوفي يوم الأربعاء رابع عشر ذي الحجة سنة ست وخمسين وثلثمائة ببغداد، وقيل سنة سبع وخمسين، والأول أصح، وكان قد خلط قبل أن يموت، رحمه الله تعالى؛ وهذه سنة ست وخمسين مات فيها عالمان كبيران وثلاثة ملوك كبار، فالعالمان أبو الفرج المذكور وأبو علي القالي – وقد ذكرناه في حرف الهمزة – والملوك الثلاثة سيف الدولة بن حمدان، ومعز الدولة بن بويه وكافور الإخشيدي، وهو مذكور في ترجمة كل واحد.

الحافظ ابن عساكر

الحافظ أبو القاسم علي بن أبي محمد الحسن بن هبة الله أبي الحسن بن عبد الله بن الحسين المعروف بابن عساكر،الدمشقي الملقب ثقة الدين كان محدث الشام في وقته، ومن أعيان الفقهاء الشافعية، غلب عليه الحديث فاشتهر به وبالغ في طلبه إلى أن جمع منه ما لم يتفق لغيره،ورحل وطوف وجاب البلاد ولقي المشايخ،وكان رفيق الحافظ أبي سعد عبد الكريم بن السمعاني في الرحلة، وكان حافظا دّيناً جمع بين معرفة المتون والأسانيد.

سمع ببغداد سنة عشرين وخمسمائة من أصحاب البرمكي والتنوخي والجوهري، ثم رجع إلى دمشق ثم رحل إلى خراسان ودخل نيسابور وهراة وأصبهان والجبال، وصنف التصانيف المفيدة وخرّج التخاريج. وكان حسن الكلام على الأحاديث، محظوظاً في الجمع والتأليف، صنف التاريخ الكبير لدمشق في ثمانين مجلدة، أتى فيه بالعجائب، وهو على نسق " تاريخ بغداد ". قال لي شيخنا الحافظ العلامة زكي الدين أبو محمد عبد العظيم المنذري حافظ مصر أدام الله به النفع، وقد جرى ذكر هذا التاريخ، وأخرج لي منه مجلداً وطال الحديث في أمره واستعظامه: ما أظن هذا الرجل إلى عزم على وضع هذا التاريخ من عقل على نفسه، وشرع في الجمع من ذلك الوقت، وإلا فالعمر يقصرعن أن يجمع فيه الإنسان مثل هذا الكتاب بعد الاشتغال والتنبه. ولقد قال الحق، ومن وقف عليه عرف حقيقة هذا القول، ومتى يتسع للإنسان الوقت حتى يضع مثله؟ وهذا الذي ظهر هو الذي اختاره، وما صح له هذا إلا بعد مسودات ما يكاد ينضبط حصرها. وله غيره تواليف حسنة وأجزاء ممتعة، وله شعر لا بأس به، فمن ذلك قوله على ما قيل:

ألا إن الحديث أجل علمٍ — وأشرفه الأحاديث العوالي
وأنفع كل نوعٍ منه عندي — وأحسنه الفرائد في الأمالي

وإنك لن ترى للعلم شيئاً   يحققه كأفواه الرجال
فكن يا صاح ذا حرصٍ عليه   وخذه عن الرجال بلا ملال
ولا تأخذه من صحفٍ فترمى   من التصحيف بالداء العضال

ومن المنسوب إليه أيضاً:

أيا نفس ويحك جاء المشيب   فماذا التصابي وماذا الغزل
تولى شبابي كأن لم يكن   وجاء مشيبي كأن لم يزل
كأني بنفسي على غرةٍ   وخطب المنون بها قد نزل
فيا ليت شعري ممن أكون   وما قدر الله لي بالأزل

وقد التزم فيها مالا يلزم، وهو الزاي قبل اللام، والبيت الثاني هو بيت علي بن جبلة المعروف بالعكوك، وهو قوله:

شبابٌ كأن لم يكن   وشيب كأن لم يزل

وليس بينهما إلا تغيير يسير كما تراه، وهذا البيت من جملة أبيات - وسيأتي ذكر قائله بعد هذا إن شاء الله تعالى.

وكانت ولادة الحافظ المذكور في أول المحرم سنة تسع وتسعين وأربعمائة. وتوفي ليلة الاثنين الحادي عشر من رجب سنة إحدى وسبعين وخمسمائة بدمشق، ودفن عند والده وأهله بمقابر باب الصغير، رحمهم الله تعالى. وصلى عليه الشيخ قطب الدين النيسابوري - الآتي ذكره إن شاء الله تعالى - وحضر الصلاة عليه السلطان صلاح الدين، رحمه الله تعالى.

وتوفي ولده أبو محمد القاسم الملقب بهاء الدين ابن الحافظ في التاسع من صفر سنة ستمائة بدمشق، ودفن من يومه خارج باب النصر، ومولده بها ليلة النصف من جمادى الأولى سنة سبع وعشرين وخمسمائة، رحمه الله تعالى، وكان أيضاً حافظاً.

وتوفي أخوه الفقيه المحدث الفاضل صائن الدين هبة الدين بن الحسن بن هبة الله يوم الأحد الثالث والعشرين من شعبان سنة ثلاث وستين وخمسمائة بدمشق، ودفن من الغد بمقبرة باب الصغير، ومولده على ما ذكر أخوه الحافظ المذكور في العشر الأول من رجب سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، وقدم بغداد سنة عشرين وخمسمائة، وقرأ على أسعد الميهني - المقدم ذكره - وابن برهان، وعاد إلى دمشق، ودرس بالمقصورة الغربية في جامع دمشق وأفتى وحدّث، رحمه الله تعالى.

السمسماني

أبو الحسن علي بن عبيد الله بن عبد الغفار السمسماني اللغوي؛ كان قيماً بعلم اللغة مشهوراً؛ وكتب الأدب التي عليها خطه مرغوبٌ فيها، ولا أعرف شيئاً من أحواله سوى أنه سمع أبا بكر ابن شاذان وأبا الفضل ابن المأمون؛ وذكره الخطيب في تاريخه وقال: كتبت عنه.

وكان صدوقاً، وكتب الكثير، وخطه في غاية الإتقان والصحة، وتصدر ببغداد للرواية وإقراء الأدب، وأكثر كتبه بخطه، وحصلت بعده عند ابن دينار الواسطي الأديب وأدركها الغرق ففسد أكثرها. وتوفي يوم الأربعاء رابع المحرم سنة خمس عشرة وأربعمائة، رحمه الله تعالى.

ولا أعرف نسبته إلى ماذا هي، وهي بكسر السينين المهملتين وسكون الميم الأولى وفتح الثانية وبالنون، ثم وجدت في " درة الغواص " للحريري ما مثاله: ويقولون في النسبة إلى الفاكهة والباقلاء والسمسم: فاكهاني، وباقلاني، وسمسماني، فيخطئون فيه، وبين وجه الخطأ، ثم قال بعد ذلك: ووجه الكلام أن يقال في المنسوب إلى السمسم سمسمي، وتمم الكلام إلى آخره. فلما وقفت على هذا علمت أن نسبة أبي الحسن المذكور إلى السمسم، وأنه استعمل على اصطلاح الناس، والله أعلم.

الشريف المرتضى

الشريف المرتضى أبو القاسم علي بن الطاهر ذي المناقب أبي أحمد الحسين بن موسى بن محمد بن موسى بن إبراهيم بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه؛ كان نقيب الطالبيين وكان إماماً في علم الكلام والأدب والشعر، وهو أخو الشريف الرضي - وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى - وله تصانيف على مذهب الشيعة ومقالة في أصول الدين، وله ديوان شعر كبير، وإذا وصف الطيف أجاد فيه، وقد استعمله في كثير من المواضع. وقد اختلف الناس في كتاب " نهج البلاغة " المجموع من كلام الإمام علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، هل هو جمعه أم جمع أخيه الرضي؟ وقد قيل: إنه ليس من كلام علي، وإنما الذي جمعه ونسبه إليه هو الذي وضعه، والله أعلم. وله الكتاب الذي سماه " الغرر والدرر " وهي مجالس أملاها تشتمل على فنون من معاني الأدب تكلم فيها على النحو واللغة وغير ذلك، وهو كتاب ممتع يدل على فضل كثير، وتوسع في الاطلاع على العلوم.

وذكره ابن بسام الأندلسي في أواخر كتاب " الذخيرة " فقال: كان هذا الشريف إمام أئمة العراق، بين الاختلاف والاتفاق، إليه فزع علماؤها، وعنه أخذ عظماؤها، صاحب مدارسها، وجماع شاردها وآنسها، ممن سارت أخباره، وعرفت له أشعاره، وحمدت في ذات الله مآثره وآثاره، إلى تواليفه في الدين، وتصانيفه في أحكام المسلمين، مما يشهد أنه فرع تلك الأصول، ومن أهل ذلك البيت الجليل، وأورد له عدة مقاطيع، فمن ذلك قوله:

ضن عني بالنزر إذ أنا يقظا ... ن وأعطى كثيره في المنام

والتقينا كما اشتهينا ولا عي ... ب سوى أن ذاك في الأحلام

وإذا كانت الملاقاة ليلاً ... فالليالي خيرٌ من الأيام

قلت: وهذا من قول أبي تمام الطائي:

استزارته فكرتي في المنام ... فأتاني في خفية واكتتام

يا لها زورةً تلذذت الأر ... واح فيها سراً من الأجسام

مجلسٌ لم يكن لنا فيه عيب ... غير أنا في دعوة الأحلام

ومن شعره أيضاً:

يا خليلي من ذؤابة قيسٍ ... في التصابي رياضة الأخلاق

عللاني بذكرهم تطرباني ... واسقياني دمعي بكأسٍ دهاق

وخذا النوم من جفوني فإني ... قد خلعت الكرى على العشاق

فلما وصلت هذه الأبيات إلى البصروي الشاعر قال:المرتضى قد خلع ما لا يملك على من لا يقبل.

ومن شعره أيضاً:

ولما تفرقنا كما شاءت النوى ... تبين ودٌ خالصٌ وتودد

كأني وقد سار الخليط عشيةً ... أخو جنةً مما أقوم وأقعد

ومعنى البيت الأول مأخوذ من قول المتنبي في مديح عضد الدولة بن بويه من جملة قصيدته الكافية التي ودعه بها لما عاد من خدمته من شيراز إلى العراق وقتل في الطريق، كما هو مشروح في ترجمة المتنبي وهو:

وفي الأحباب مختصٌ بوجدٍ ... وآخر يدعي معه اشتراكا

إذا اشتبهت دموعٌ في خدودٍ تبين من بكى ممن تباكى

ونقلت من كتاب " جنان الجنان ورياض الأذهان " الذي صنفه القاضي الرشيد أبو الحسين أحمد المعروف بابن الزبير الغساني - المقدم ذكره - ما نسبه إلى الشريف المرتضى المذكور، وهو:

بيني وبين عواذلي في الحب أطراف الرماح

أنا خارجيٌّ في الهوى لا حكم إلا للملاح

ونسب إليه أيضاً:

مولاي يا بدر كل داجية خذ بيدي قد وقعت في اللجج

حسنك ما تنقضي عجائبه كالبحر حدث عنه بلا حرج

بحق من خط عارضيك ومن سلط سلطانها على المهج

مد يديك الكريمتين معي ثم ادع لي من هواك بالفرج

وذكر له أيضاً:

قل لمن خده من اللحظ دامٍ رق لي من جوانح فيك تدمى

يا سقيم الجفون من غير سقم لا تلمني إن مت منهن سقما

أنا خاطرت في هواك بقلبٍ ركب البحر فيك إما وإما

وحكى الخطيب أبو زكرياء يحيى بن علي التبريزي اللغوي أن أبا الحسن علي ابن أحمد بن علي بن سلك الفالي الأديب كانت له نسخة بكتاب " الجمهرة " لابن دريد في غاية الجودة، فدعته الحاجة إلى بيعها فباعها واشتراها الشريف المرتضى أبو القاسم المذكور بستين ديناراً، وتصفحها فوجد بها أبياتاً بخط بائعها أبي الحسن الفالي وهي:

أنست بها عشرين حولاً وبعتها لقد طال وجدي بعدها وحنيني

وما كان ظني أنني سأبيعها ولو خلدتني في السجون ديوني

ولكن لضعفٍ وافتقارٍ وصبيةٍ صغارٍ عليهم تستهل شؤوني

فقلت ولم أملك سوابق عبرةٍ مقالة مكوي الفؤاد حزين:

"وقد تخرج الحاجات يا أم مالك كرائم من ربٍ بهن ضنين"

وهذا الفالي منسوب إلى فالة - بالفاء - وهي بلدة بخوزستان قريبة من إيذج، أقام بالبصرة لمدة طويلة، وسمع بها من أبي عمرو ابن عبد الواحد الهاشمي وأبي الحسن ابن النجاد وشيوخ ذلك الوقت، وقدم بغداد واستوطنها وحدث بها. وأما جده سلك فهو بفتح السين المهملة وتشديد اللام وفتحها وبعدها كاف، هكذا وجدته مقيداً، ورأيت في موضع آخر بكسر السين وسكون اللام، والله أعلم بالصواب.

وملح الشريف المرتضى وفضائله كثيرة. وكانت ولادته في سنة خمس وخمسين وثلثمائة. وتوفي يوم الأحد الخامس والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ست وثلاثين وأربعمائة ببغداد، ودفن في داره عشية ذلك النهار، رحمه الله تعالى.

وكانت وفاة أبي الحسن الفالي المذكور في ذي القعدة سنة ثمان وأربعين وأربعمائة ليلة الجمعة ثامن الشهر المذكور، ودفن في مقبرة جامع المنصور، وكان أديباً شاعراً. روى عنه الخطيب أبو بكر صاحب " تاريخ بغداد "، وأبو الحسين ابن الطيوري وغيرهما، رحمهم الله أجمعين.

الخلعي

أبو الحسين علي بن الحسن بن الحسين بن محمد القاضي، المعروف بالخلعي، الموصلي الأصل المصري الشافعي، صاحب " الخلعيات " المنسوبة إليه؛ سمع أبا الحسن الحوفي وأبا محمد ابن النحاس وأبا الفتح العداس وأبا سعد الماليني وأبا القاسم الأهوازي وغيرهم.

قال القاضي عياض اليحصبي: سألت أبا علي الصدفي عنه، وكان قد لقيه لما رحل إلى البلاد الشرقية، فقال: فقيه له تواليف، ولي القضاء وقضى يوماً واحداً واستعفى وانزوى بالقرافة الصغرى، وكان مسند مصر بعد الحبال. وذكره القاضي أبو بكر ابن العربي فقال: شيخ معتزل في القرافة له علو في الرواية وعنده فوائد، وقد حدث عنه الحميدي وكنى عنه بالقرافي. وقال غيره: ولي الخلعي قضاء فامية، وخرج له أبو نصر أحمد بن الحسن الشيرازي أجزاء من مسموعاته، آخر من رواها عنه أبو رفاعة، ونقلت منها عن الأصمعي، قال: كان نقش خاتم أبي عمرو ابن العلاء:

وإن امرءاً دنياه أكبر همه لمستمسكٌ منها بحبل غرور

فسألته عن ذلك فقال: كنت في ضيعتي نصف النهار أدور فيها، فسمعت قائلاً يقول هذا البيت ونظرت فلم أر أحداً فكتبته على خاتمي.

قال أبو العباس ثعلب: هذا البيت لهانئ بن توبة بن سحيم بن مرة المعروف بالشويعر الحنفي.

وقال الحافظ أبو طاهر السلفي: كان أبو الحسن الخلعي إذا سمع عليه الحديث يختم مجالسه بهذا الدعاء: اللهم ما مننت به فتممه، وما أنعمت به فلا تسلبه، وما سترته فلا تهتكه، وما علمته فاغفره. وكانت ولادة الخلعي في المحرم سنة خمس وأربعمائة بمصر. وتوفي بها في ثامن عشر ذي الحجة يوم السبت سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة، وقيل في السادس والعشرين من الشهر المذكور.

وتوفي أبوه في شوال سنة ثمان وأربعين وأربعمائة، رحمهما الله تعالى.

والخلعي: بكسر الخاء المعجمة وفتح اللام وبعدها عين مهملة، هذه النسبة إلى الخلع ونسب إليها أبو الحسن المذكور لأنه كان يبيع بمصر الخلع لأملاك مصر، فاشتهر بذلك وعرف به.

وأما القرافة: بفتح القاف والراء المخففة وبعد الألف فاء، فهما قرافتان الكبرى منهما ظاهر مصر، والصغرى ظاهر القاهرة، وبها قبر الإمام الشافعي، رضي الله عنه.

وبنو قرافة: فخذ من المعافر بني يعفر، نزلوا هذين المكانين فنسبا إليه.

وفامية: بالفاء وبعد الألف ميم مكسورة وبعدها ياء مثناة من تحتها ثم هاء قد يزاد فيها الألف فيقال: أفامية، وهي قلعة ورستاق من أعمال حلب الآن.

الشابشتي

أبو الحسين علي بن محمد الشابشتي الكاتب؛ كان أديباً فاضلاً، تعلق بخدمة العزيز بن المعز العبيدي صاحب مصر، فولاه أمر خزانة كتبه، وجعله دفترخوان يقرأ له الكتب ويجالسه وينادمه، وكان حلو المحاورة، لطيف المعاشرة، وله مصنفات حسنة، منها: كتاب " الديارات " ذكر فيه كل دير بالعراق والموصل والشام والجزيرة والديار المصرية وجميع الأشعار المقولة في كل دير وما جرى فيه، وهو على أسلوب " الديارات " للخالديين وأبي الفرج الأصبهاني، مع أن هذه الديارات قد جمع فيها تواليف كثيرة، وله كتاب " اليسر بعد العسر " وكتاب " مراتب الفقهاء " وكتاب " التوقيف والتخويف " وله مكاتبات ومراسلات مضمنة شعراً وحكماً، وغير ذلك من المصنفات في الأدب وغيره.

وتوفي سنة تسعين وثلثمائة، وقال الأمير المختار المعروف بالمسبحي: توفي سنة ثمان وثمانين وثلثمائة، وزاد غيره فقال: ليلة الثلاثاء منتصف صفر، رحمه الله تعالى، وكانت وفاته بمصر.

والشابشتي: بفتح الشين المعجمة وبعد الألف باء موحدة مضمومة ثم شين معجمة ساكنة وبعدها تاء مثناة من فوقها – كشفت عن هذه النسبة كثيراً

فلم أعرفها، ثم بعد هذا بسنين كثيرة وجدت في كتاب " التاجي " تصنيف أبي إسحاق الصابي أن الشابشتي حاجب وشمكير بن زيار الديلمي، قتل في سنة ست وعشرين وثلثمائة بالقرب من أصبهان.

قلت: وهذا اسم ديلمي يشبه النسبة وليس بنسبة، ويحتمل أن يكون صاحب هذه الترجمة منسوباً إليه، بأن يكون أحد أجداده من أصحابه فنسب إليه، وبقي النسب على أولاده كذلك. وهكذا وشمكير هو والد الأمير قابوس – الآتي ذكره إن شاء الله تعالى.

القابسي

أبو الحسن علي بن محمد بن خلف المعافري القروي، المعروف بابن القابسي؛ كان إماماً في علم الحديث ومتونه وأسانيده وجميع ما يتعلق به، وكان للناس فيه اعتقاد كثير، وصنف في الحديث كتاب " الملخص " جمع فيه ما اتصل إسناده من حديث مالك بن أنس، رضي الله عنه، في كتاب " الموطإ " رواية أبي عبد الله عبد الرحمن بن القاسم المصري، وهو على صغر حجمه جيد في بابه.

وكانت ولادة أبي الحسن المذكور في يوم الاثنين لست مضين من رجب سنة أربع وعشرين وثلثمائة، ورحل إلى الشرق يوم السبت لعشر مضين من شهر رمضان سنة اثنتين وخمسين وثلثمائة، وحج سنة ثلاث وخمسين، وسمع كتاب البخاري بمكة من أبي زيد، ورجع إلى القيروان فوصلها غداة الأربعاء أول شعبان أو ثانيه سنة سبع وخمسين كذا قاله أبو عبد الله مالك بن وهيب. وذكر الحافظ السلفي في " معجم السفر " أن شخصاً قال في مجلس القابسي وهو بالقيروان: ما قصر المتنبي في معنى قوله:

يراد من القلب نسيانكم ... وتأبى الطباع على الناقل

فقال له: يا مسكين أين أنت عن قوله تعالى: "لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون". وتوفي ليلة الأربعاء ثالث شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وأربعمائة، ودفن يوم الأربعاء وقت العصر بالقيروان، وبات عند قبره من الناس خلق عظيم، وضربت الأخبية، وأقبل الشعراء بالمراثي، رحمه الله تعالى.

ولما طعن في السن كان كثيراً ما ينشد قول زهير بن أبي سلمى المزني:

سئمت تكاليف الحياة، ومن يعش ... ثمانين حولاً لا أبا لك يسأم

وقال أبو بكر الصقلي: قال لي أبو الحسن القابسي: كذب علي وعليك وسموني بالقابسي وما أنا بالقابسي، وإنما السبب في ذلك أن عمي كان يشد عمامته شدة قابسية فقيل لعمي " قابسي " واشتهرنا بذلك، وإلا فأنا قروي؛ وأنت، فلما دخل أبوك مسافراً إلى صقلية نسب إليها فقيل " الصقلي ".

ومما سمع القاضي يقول أول جلوسه للمناظرة بأثر صوت أبي محمد:

لعمر أبيك ما نسب المعلى ... إلى كرم وفي الدنيا كريم

ولكن البلاد إذا اقشعرت ... وصوح نبتها رعي الهشيم

ثم بكى حتى أبكى القوم وقال: أنا الهشيم أنا الهشيم، والله لو ان في الأرض خضراء ما رعيت أنا. وأبو محمد هذا أبو محمد عبد الله بن أبي هاشم التجيبي شيخه الذي روى عنه، وهو قروي. وقال أبو عمرو الداني: كان شيخنا أبو الحسن – يعني القابسي – يقرأ " الملخص " – بكسر الخاء – يجعله فاعلاً، يريد انه يلخص المتصل من حديث مالك، رحمه الله تعالى، وتقدير الترجمة: ما اتصل من حديث مالك للمستحفظين.

والقابسي: بفتح القاف وبعد الألف باء موحدة مكسورة ثم سين مهملة، هذه النسبة إلى قابس، وهي مدينة بإفريقية بالقرب من المهدية، ولما فتحها الأمير تميم بن المعز بن باديس – المقدم ذكره – قال ابن محمد خطيب سوسة قصيدة طائلة أولها:

ضحك الزمان وكان يدعى عابساً ... لما فتحت بحد عزمك قابسا

أنكحتها عذراء ما أصدقتها ... إلا قناً وبواتراً وفوارسا

الله يعلم ما جنيت ثمارها إلا وكان أبوك قبلك غارسا

من كان بالسمر العوالي خاطباً أضحت له بيض الحصون عرائسا

ابن القطاع

أبو القاسم علي بن جعفر بن علي بن محمد بن عبد الله بن الحسين بن أحمد بن محمد ابن زيادة الله بن محمد بن الأغلب السعدي بن إبراهيم بن الأغلب بن سالم بن عقال ابن خفاجة بن عبد الله بن عباد بن محرث بن سعد بن حرام بن سعد بن مالك بن سعد بن زيد مناة بن تميم بن مر بن أد بن طابخة بن إلياس بم مضر ابن نزار بن معد بن عدنان، المعروف بابن القطاع السعدي، الصقلي المولد المصري الدار والوفاة، اللغوي؛ هكذا وجدت هذا النسب بخطي في مسوداتي، وما أعلم من أين نقلته. والمنقول من خطه أنه علي بن جعفر بن علي بن محمد بن عبد الله بن الحسين الشنتريني السعدي، أحد بني سعد بن زيد مناة بن تميم، والله أعلم.

كان أحد أئمة الأدب خصوصاً اللغة، وله تصانيف نافعة، منها كتاب " الأفعال " أحسن فيه كل الإحسان، وهو أجود من " الأفعال " لابن القوطية وإن كان ذلك قد سبقه إليه، وله كتاب " أبنية الأسماء " جمع فيه فأوعب، وفيه دلالة على كثرة اطلاعه، وله عروض حسن جيد، وكتاب " الدرة الخطيرة في المختار من شعراء الجزيرة " وكتاب " لمح الملح " جمع فيه خلقاً من شعراء الأندلس.

وكانت ولادته في العاشر من صفر سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة بصقلية، وقرأ الأدب على فضلائها كابن البر اللغوي وأمثاله، وأجاد في النحو غاية الإجادة، ورحل عن صقلية لما أشرف على تملكها الفرنج، ووصل إلى مصر في حدود سنة خمسمائة، وبالغ أهل مصر في إكرامه، وكان ينسب إلى التساهل في الرواية، ونظم الشعر في سنة ست وأربعين، ومن شعره في ألثغ:

وشادنٍ في لسانه عقدٌ حلت عقودي وأوهنت جلدي

عابوه جهلاً بها فقلت لهم أما سمعتم بالنفث في العقد

وله من جملة قصيدة:

فلا تنفدن العمر في طلب الصبا ولا تشقين يوماً بسعدى ولا نعم

ولا تندبن أطلال مية باللوى ولا تسفحن ماء الشؤون على رسم

فإن قصارى المرء إدراك حاجةٍ وتبقى مذمات الأحاديث والإثم

ومن شعره في غلام اسمه حمزة:

يا من رمى النار في فؤادي وأنبط العين بالبكاء

اسمك تصحيفه بقلبي وفي ثناياك برء دائي

اردد سلامي فإن نفسي لم يبق منها سوى الذماء

وارفق بصبٍ أتى ذليلاً قد مزج اليأس بالرجاء

أنهكه في الهوى التجني فصار في رقة الهواء

وله شعر كثير.

وكانت ولادته في سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة، هكذا ذكره في كتابه " الدرة الخطيرة في شعراء الجزيرة " عند ذكر ترجمة نفسه، رحمه الله تعالى، في

أواخر الكتاب المذكور، ورأيته بخطه. وتوفي بمصر في صفر سنة خمس عشرة وخمسمائة، رحمه الله تعالى.
وقد تقدم الكلام على السعدي والصقلي.

ابن حزم الظاهري

أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن معدان بن سفيان بن يزيد، مولى يزيد بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس الأموي، وجده يزيد أول من أسلم من أجداده، وأصله من فارس، وجده خلف أول من دخل الأندلس من آبائه. ومولده بقرطبة من بلاد الأندلس يوم الأربعاء قبل طلوع الشمس سلخ شهر رمضان سنة أربع وثمانين وثلثمائة في الجانب الشرقي منها.

وكان حافظاً عالماً بعلوم الحديث وفقهه، مستنبطاً للأحكام من الكتاب والسنة بعد أن كان شافعي المذهب، فانتقل إلى مذهب أهل الظاهر، وكان متفنناً في علوم جمة، عاملاً بعلمه، زاهداً في الدنيا بعد الرياسة التي كانت له ولأبيه من قبله في الوزارة وتدبير الممالك، متواضعاً ذا فضائل جمة وتواليف كثيرة، وجمع من الكتب في علوم الحديث والمصنفات والمسندات شيئاً كثيراً، وسمع سماعاً جماً، وألف في فقه الحديث كتاباً سماه " الإيصال إلى فهم كتاب الخصال الجامعة لحمل شرائع الإسلام في الواجب والحلال والحرام والسنة والإجماع " أورد فيه أقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أئمة المسلمين، رضي الله عنهم أجمعين، في مسائل الفقه، والحجة لكل طائفة وعليها، وهو كتاب كبير، وله كتاب " الإحكام لأصول الأحكام " في غاية التقصي وإيراد الحجج، وكتاب " الفصل في الملل في الأهواء والنِّحل " وكتاب في الإجماع ومسائله على أبواب الفقه، وكتاب في مراتب العلوم وكيفية طلبها وتعلق بعضها ببعض، وكتاب " إظهار تبديل اليهود والنصارى للتوراة والإنجيل وبيان تناقض ما بأيديهم من ذلك مما لا يحتمل التأويل " وهذا معنى لم يسبق إليه، كتاب " التقريب بحد المنطق والمدخل إليه بالألفاظ العامية والأمثلة الفقهية " فإنه سلك في بيانه وإزالة سوء الظن عنه وتكذيب الممخرقين به طريقة لم يسلكها أحد قبله، وكان شيخه في المنطق محمد بن الحسن المذحجي القرطبي المعروف بابن الكتاني، وكان أديباً شاعراً طبيباً له في الطب رسائل، وكتب في الأدب، ومات بعد الأربعمائة، ذكر ذلك ابن ماكولا في كتاب " الإكمال" في باب الكتامي والكتاني، نقلاً عن الحافظ أبي عبد الله الحميدي. وله كتاب صغير سماه " نقط العروس " جمع كل غريبة نادرة، وهو مفيد جداً.

وقال ابن بشكوال في حقه: كان أبو محمد أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام، وأوسعهم معرفةً مع توسعه في علم اللسان ووفور حظه من البلاغة والشعر والمعرفة بالسير والأخبار. أخبر ولده أبو رافع الفضل أنه اجتمع عنده بخط أبيه من تأليفه نحو أربعمائة مجلد، تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة.

وقال الحافظ أبو عبد الله محمد بن فتوح الحميدي: ما رأينا مثله فيما اجتمع له من الذكاء وسرعة الحفظ وكرم النفس والتدين، وما رأيت من يقول الشعر على البديهة أسرع منه. ثم قال: أنشدني لنفسه:

لئن أصبحت مرتحلاً بجسمي ... فروحي عندكم أبداً مقيم
ولكن للعيان لطيف معنى ... له سأل المعاينة الكليم

وله في المعنى:

يقول أخي شجاك رحيل جسمٍ ... وروحك ما له عنا رحيل
فقلت له: المعاين مطمئن ... لذا طلب المعاينة الخليل

وروى له الحافظ الحميدي أيضاً:

أقمنا ساعة ثم ارتحلنا ... وما يغني المشوق وقوف ساعه
كأن الشمل لم يك ذا اجتماع ... إذا ما شتت البين اجتماعه

وقال الحميدي أيضاً: أنشدني أبو محمد علي بن أحمد بن حزم - يعني المذكور - لعبد الملك بن جهور:

إن كانت الأبدان بائنةً فنفوس أهل الظرف تأتلف
يا رب مفترقين قد جمعت قلبيهما الأقلام والصحف

ومن شعره أيضاً:

وذي عذلٍ فيمن سباني حسنه يطيل ملامي في الهوى ويقول
أفي حسن وجهٍ لاح لم تر غيره ولم تدر كيف الجسم أنت قتيل
فقلت له أسرفت في اللوم ظالماً وعندي ردٌ لو أردت طويل
ألم تر أني ظاهري وأنني على ما بدا حتى يقوم دليل

وكانت بينه وبين أبي الوليد سليمان الباجي -المذكور في حرف السين -مناظرات وما جرايات يطول شرحها، وكان كثير الوقوع في العلماء المتقدمين، لا يكاد يسلم أحد من لسانه، فنفرت عنه القلوب واستهدف لفقهاء وقته، فتمالأوا على بغضه وردوا قوله واجمعوا على تضليله وشنعوا عليه وحذروا سلاطينهم من فتنته ونهوا عوامهم عن الدنو إليه والأخذ منه، فأقصته الملوك وشردته عن بلاده حتى انتهى إلى بادية لبلة فتوفي بها آخر نهار الأحد لليلتين بقيتا من شعبان سنة ست وخمسين وأربعمائة،وقيل إنه توفي في منت ليشم، وهي قرية ابن حزم المذكور، رحمه الله تعالى.
وفيه قال أبو العباس ابن العريف - المقدم ذكره -: كان لسان ابن حزم وسيف الحجاج بن يوسف شقيقين، وإنما قال ذلك لكثرة وقوعه في الأئمة.
وكانت وفاة والده أبي عمر أحمد في ذي القعدة سنة اثنتين وأربعمائة، وكان وزير الدولة العامرية، وهو من أهل العلم والأدب والخير والبلاغة، وقال ولده أبو محمد المذكور: أنشدني والدي الوزير في بعض وصاياه لي رحمه الله تعالى:

إذا شئت أن تحيا غنياً فلا تكن على حالةٍ إلا رضيت بدونها

وذكر الحميدي في كتاب " جذوة المقتبس " أن الوزير المذكور كان جالساً بين يدي مخدومه المنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر في بعض مجالسه العلمة، فرفعت إليه رقعة استعطاف لأم رجل مسجون كان المنصور اعتقله حنقاً عليه لجرم استعظمه منه، فلما قرأها اشتد غضبه، وقال: ذكرتني والله به، وأخذ القلم وأراد أن يكتب: يصلب، فكتب: يطلق، ورمى الورقة إلى وزيره المذكور، وأخذ الوزير القلم وتناول الورقة وجعل يكتب بمقتضى التوقيع إلى صاحب الشرطة، فقال له المنصور: ما هذا الذي تكتب؟ قال: بإطلاق فلان، فحرد، وقال: من أمر بهذا؟ فناوله التوقيع، فلما رآه قال: وهمت، والله ليصلبن، ثم خط على التوقيع، وأراد أن يكتب " يصلب " فكتب " يطلق، فأخذ الوزير الورقة، وأراد أن يكتب إلى الوالي بالإطلاق، فنظر إليه المنصور وغضب أشد من الأول، وقال: من أمر بهذا؟ فناوله التوقيع، فرأى الخط، فخط عليه، وأراد أن يكتب " يصلب " فكتب " يطلق "، وأخذ الوزير التوقيع وشرع في الكتابة إلى الوالي، فرآه المنصور فأنكر أكثر من المرتين الأوليين، فأراه خطه بالإطلاق، فلما رآه عجب من ذلك، وقال: نعم يطلق على رغمي، فمن أراد الله سبحانه إطلاقه لا أقدر أنا على منعه وكان لأبي محمد ولد نبيه سريٌّ فاضل يقال له أبو رافع الفضل ابن أبي محمد علي، وكان في خدمة المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية وغيرها من بلاد الأندلس، وكان المعتمد قد غضب على عمه أبي طالب عبد الجبار بن محمد بن إسماعيل بن عباد وهمَّ بقتله لأمرٍ رابه منه، فاستحضر وزراءه وقال لهم: من يعرف منكم في الخلفاء أو ملوك الطوائف من قتل عمه عندما هم بالقيام عليه؟ فتقدم أبو رافع المذكور، وقال: ما نعرف أيدك الله إلا من عفا عن عمه بعد قيامه عليه، وهو إبراهيم بن المهدي عم المأمون من بني العباس، فقبله المعتمد بين عينيه وشكره، ثم أحضر عمه وبسطه وأحسن إليه. وقتل أبو رافع المذكور في وقعة الزلاقة مع مخدومه المعتمد في يوم الجمعة منتصف رجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة - وقد استوفيت خبر هذه الواقعة في ترجمة يوسف بن تاشفين فلينظر هناك، وقد سبق ذكر إبراهيم بن المهدي في هذا الكتاب - والله أعلم.

ولبلة: بفتح اللامين، وبينهما باء موحدة ساكنة، وفي الأخير هاء ساكنة، بلدة بالأندلس.

ومنت ليشم: بفتح الميم وسكون النون وفتح التاء المثناة من فوقها وكسر اللام وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح الشين المعجمة وفي آخرها ميم، وهي قرية من أعمال لبلة كانت ملك ابن حزم المذكور، وكان يتردد إليها.

ابن سيده

الحافظ أبو الحسن علي بن إسماعيل المعروف بابن سيده المرسي؛ كان إماماً في اللغة والعربية حافظاً لهما وقد جمع في ذلك جموعاً، من ذلك كتاب " المحكم " في اللغة، وهو كتاب كبير جامع مشتمل على أنواع اللغة، وله كتاب " المخصص " في اللغة أيضاً وهو كبير، وكتاب " الأنيق " في شرح الحماسة في ست مجلدات، وغير ذلك من المصنفات النافعة.

وكان ضريراً، وأبوه ضريراً، وكان أبوه أيضاً قيماً بعلم اللغة، وعليه اشتغل ولده في أول أمره، ثم على أبي العلاء صاعد البغدادي – المقدم ذكره – وقرأ أيضاً على أبي عمر الطلمنكي، قال الطلمنكي: دخلت مرسية فتشبث بي أهلها يسمعون علي " غريب المصنف " فقلت لهم: انظروا لي من يقرأ لكم وأمسك أنا كتابي، فأتوني برجل أعمى يعرف بابن سيده، فقرأه علي من أوله إلى آخره، فتعجبت من حفظه. وكان له في الشعر حظ وتصرف. وتوفي بحضرة دانية عشية يوم الأحد لأربع بقين من شهر ربيع الآخر سنة ثمان وخمسين وأربعمائة، وعمره ستون سنة أو نحوها. رأيت على ظهر مجلد من " المحكم " بخط بعض فضلاء الأندلس أن ابن سيده المذكور كان يوم الجمعة قبل يوم الأحد المذكور صحيحاً سوياً إلى وقت صلاة المغرب، فدخل المتوضأ فأخرج منه وقد سقط لسانه وانقطع كلامه، فبقي على تلك الحال إلى العصر من يوم الأحد ثم توفي، رحمه الله تعالى؛ وقيل سنة ثمان وأربعين وأربعمائة، والأول أصح وأشهر.

وسيده: بكسر السين المهملة وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح الدال المهملة وبعدها هاء ساكنة.

والمرسي: بضم الميم وسكون الراء وبعدها سين مهملة، هذه النسبة إلى مرسية، وهي مدينة في شرق الأندلس.

والطلمنكي: بفتح الطاء المهملة واللام والميم وسكون النون وبعدها كاف، هذه النسبة إلى طلمنكة وهي مدينة في غرب الأندلس.

ودانية: بفتح الدال المهملة وبعد الألف نون مكسورة ثم ياء مثناة من تحتها مفتوحة وبعدها هاء ساكنة، وهي مدينة في شرق الأندلس أيضاً.

أبو الحسن الحصري

أبو الحسن علي بن عبد الغني الفهري المقرئ الضرير الحصري القيرواني الشاعر المشهور.

قال ابن بسام صاحب " الذخيرة " في حقه: كان بحر براعة، ورأس صناعة، وزعيم جماعة، طرأ على جزيرة الأندلس منتصف المائة الخامسة من الهجرة بعد خراب وطنه من القيروان، والأدب يومئذ بأفقنا نافق السوق، معمور الطريق، فتهادته ملوك طوائفها تهادي الرياض بالنسيم، وتنافسوا فيه تنافس الديار في الأنس المقيم، على أنه كان فيما بلغني ضيق العطن، مشهور اللسن، يتلفت إلى الهجاء تلفت الظمأن إلى الماء، ولكنه طوي على غره، واحتمل بين زمانته وبعد قطره، ولما خلع ملوك الطوائف بأفقنا اشتملت عليه مدينة طنجة، وقد ضاق ذرعه، وتراجع طبعه.

قلت: وهذا أبو الحسن ابن خالة أبي إسحاق الحصري صاحب " زهر الآداب "؛ وذكره ابن بشكوال في كتاب " الصلة " والحميدي أيضاً، وقال: كان عالماً بالقراءات وطرقها، وأقرأ الناس القرآن الكريم بسبتة وغيرها، وله قصيدة نظمها في قراءة نافع عدد أبياتها مائتان وتسعة، وله ديوان شعر، فمن قصائده السائرة القصيدة التي أولها:

يا ليل الصب متى غده ... أقيام الساعة موعده

رقد السمار فأرقه ... أسفٌ للبين يردده

وهي مشهورة فلا حاجة إلى إيرادها. وقد وازنها صاحبنا الفقيه نجم الدين موسى بن محمد بن موسى بن أحمد بن عيسى الكناني أبو الفضائل المعروف بالقمراوي، رحمه الله تعالى -والقمراوي بفتح القاف وسكون الميم وبعد الراء ألف ثم واو، هذه النسبة إلى قمراء وهي ضيعة بالشام من أعمال صرخد - والأبيات:

قد مل مريضك عوده | ورثى لأسيرك حسده
لم يبق جفاك سوى نفسٍ | زفرات الشوق تصعده
هاروت يعنعن في السح | ر إلى عينيك ويسنده
وإذا أغمدت اللحظ فتك | ت فكيف وأنت تجرده

ومنها:

كم سهل خدك وجه الرضا | والحاجب منك يعقده
ما أشرك فيك القلب فلم | في نار الهجر تخلده

ومن شعر الحصري أيضاً:

أقول له وقد حيا بكأسٍ | لها من مسك ريقته ختام
أمن خديك تعصر قال كلا | متى عصرت من الورد المدام

ولما كان مقيماً بمدينة طنجة أرسل غلامه إلى المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية، واسمها في بلادهم حمص، فأبطأ عنه، وبلغه أن المعتمد ما احتفل به، فعمل:

نبت الركب الهجوعا | ولم الدهر الفجوعا
حمصٌ الجنة قالت | لغلامي لا رجوعا
رحم الله غلامي | مات في الجنة جوعا

وقد التزم في هذه الأبيات لزوم ما لا يلزم.

وحكى تاج الدين العلا أبو زيد المعروف بالنسابة، قال: حدثني أبو أصبغ نباتة ابن الأصبغ بن زيد بن محمد الحارثي الأندلسي عن جده زيد بن محمد، قال: بعث المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية إلى أبي العرب الزبيري خمسمائة دينار، وأمره أن يتجهز بها ويتوجه إليه، وكان بجزيرة صقلية وهو من أهلها -وهو أبو العرب مصعب بن محمد بن أبي الفرات القرشي الزبيري الصقلي الشاعر - وبعث مثلها إلى أبي الحسن الحصري وهو بالقيروان، فكتب إليه أبو العرب:

لا تعجبن لرأسي كيف شاب أسىً | واعجب لأسود عيني كيف لم يشب
البحر للروم لا تجري السفين به | إلا على غررٍ والبر للعرب

وكتب إليه الحصري:

أمرتني بركوب البحر أقطعه | غيري لك الخير فاخصصه بذا الراء
ما أنت نوحٌ فتنجيني سفينته | ولا المسيح أنا أمشي على الماء

ثم دخل الأندلس بعد ذلك، وامتدح المعتمد وغيره. وتوفي سنة ثمان وثمانين وأربعمائة بطنجة، رحمه الله تعالى ومولد القمراوي سنة إحدى وتسعين وخمسمائة تقديراً، وتوفي راجعاً من اليمن في أواخر صفر سنة إحدى وخمسين وست مائة، على ساحل بحر عيذاب بموضعٍ يقال له رأس دواير بين عيذاب وسواكن، ودفن في بر عيذاب مقابل موضع موته.

والحصري: قد تقدم الكلام عليه في حرف الهمزة.

وطنجة: بفتح الطاء وسكون النون وفتح الجيم، وهي بلدة بالمغرب، بينها وبين سبتة مرحلتان من تلك الناحية.

وأما أبو العرب الزبيري فإنه ولد بصقلية سنة ثلاث وعشرين وأربعمائة، وخرج منها لما تغلب الروم عليها سنة أربع وستين وأربعمائة قاصداً للمعتمد بن عباد، قال ابن الصيرفي: وبلغني أنه في سنة سبع وخمسمائة حيٌّ بالأندلس.

ابن خروف

أبو الحسن علي بن محمد بن علي الحضرمي، المعروف بابن خروف النحوي الأندلسي الإشبيلي؛ كان فاضلاً في علم العربية، وله فيها مصنفات شهدت بفضله وسعة علمه، شرح كتاب سيبويه شرحاً جيداً، وشرح أيضاً كتاب " الجمل " لأبي القاسم الزجاجي وما أقصر فيه، وكان قد تخرج على ابن طاهر النحوي الأندلسي المعروف بالخدب. وتوفي سنة عشر وستمائة، وقيل إنه توفي سنة تسع وستمائة بإشبيلية، رحمه الله تعالى.

وخروف: بفتح الخاء المعجمة –وهو غير ابن خروف الشاعر، وسيأتي ذكر ذلك أيضاً إن شاء الله تعالى في رسالته التي كتبها إلى بهاء الدين بن شداد، رحمه الله تعالى –.

والحضرمي: بفتح الحاء المهملة وسكون الضاد المعجمة وفتح الراء وبعدها ميم، هذه النسبة إلى حضرموت، وقد تقدم الكلام عليها.

الربعي النحوي

أبو الحسن علي بن عيسى بن الفرج بن صالح الربعي النحوي، البغدادي المترل الشيرازي الأصل؛ كان إماماً في النحو متقناً له، شرح كتاب " الإيضاح " لأبي علي الفارسي فأجاد فيه؛ اشتغل ببغداد على السيرافي ثم خرج إلى شيراز فقرأ على أبي علي الفارسي عشرين سنة ثم رجع إلى بغداد. وقال أبو علي: قولوا لعلي البغدادي لو سرت من الشرق إلى الغرب لم تجد أنحى منك. وقال أبو علي أيضاً لما انفصل عنه: ما بقي له شيء يحتاج يسأل عنه. وله عدة تواليف في النحو منها " شرح مختصر الجرمي ". وانتفع بالاشتغال عليه خلق كثير. وذكره ابن الأنباري في كتاب " طبقات الأدباء ".

وكانت ولادته سنة ثمان وعشرين وثلثمائة. وتوفي ليلة السبت لعشر بقين من المحرم سنة عشرين وأربعمائة ببغداد، رحمه الله تعالى.

والربعي: بفتح الراء والباء الموحدة وبعدها عين مهملة، هذه النسبة إلى ربيعة، ولا أعلم أهو ربيعة بن نزار أم غيره، فقد جاءت هذه النسبة إلى جماعة اسم كل واحد منهم ربيعة، والله أعلم.

الفصيحي

أبو الحسن علي بن أبي زيد محمد بن علي النحوي، المعروف بالفصيحي الإسترابادي؛ أخذ النحو عن عبد القاهر الجرجاني صاحب " الجمل الصغرى " وتبحر فيه حتى صار أعرف أهل زمانه به، وقدم بغداد واستوطنها ودرّس النحو بالمدرسة النظامية مدة، وكان يكتب خطاً في غاية الصحة، وكتب كثيراً من كتب الأدب، وانتفع به خلقٌ كثير، ومن جملة من أخذ عنه ملك النحاة الحسن بن صافي – وقد تقدم ذكره – وروى عنه الحافظ أبو الطاهر السلفي الأصبهاني، وقال: جالسته ببغداد وسألته عن أحرف من العربية، وقال: أنشدني لبعض النحاة:

النحو شؤمٌ كله فاعلموا ... يذهب بالخبز من البيت

خيرٌ من النحو وأصحابه ... ثريدةٌ تعمل بالزيت

وتوفي يوم الأربعاء ثالث عشر ذي الحجة سنة ست عشرة وخمسمائة ببغداد، رحمه الله تعالى.

و لم أعرف نسبته بالفصيحي: إلى كتاب " الفصيح " لثعلب، أم إلى شيء آخر.

والإسترابادي: بكسر الهمزة وسكون السين المهملة وكسر التاء المثناة من فوقها وفتح الراء وبعد الألف باء موحدة مفتوحة وبعد الألف الثانية ذال معجمة، هذه النسبة إلى إستيراباذ، وهي بلدة من أعمال مازندران بين سارية وجرجان.

ابن العصار

أبو الحسن علي بن أبي الحسين عبد الرحيم بن الحسن بن عبد الملك بن إبراهيم السلمي الرقي الأصل، البغدادي المولد والدار، الملقب مهذب الدين، المعروف بابن العصار اللغوي؛ كان من الأدباء المشاهير، وحصل له منه أشياء غريبة، وقرأ الأدب على الشريف أبي السعادات ابن الشجري وأبي منصور ابن الجواليقي، وبرع في فنه، وأقرأ الناس زماناً، ورحل إلى مصر واجتمع بأبي محمد ابن بري والموفق بن الخلال كاتب الإنشاء. وكان عارفاً بديوان أبي الطيب المتنبي علماً ورواية، وقرأه عليه جمع كثير في العراق والشام ومصر، وكتب بخطه الكثير من كتب الأدب وشعر العرب، ويقع في خطه الغلط مع كثرة ضبطه واحترازه.

وقيل إنه لم ذكياً، و لم يكن في النحو كما هو في اللغة، وكانت طريقته في الخط حسنة، والناس يتنافسون في خطه ويغالون به، وكان حريصاً على الفوائد وطلبها وسطرها على كتبه. ورأيت جماعة ممن لقيه وأخذ عنه.

وكانت ولادته في سنة ثمان وخمسمائة. وتوفي يوم السبت بعد صلاة الظهر ثالث المحرم سنة ست وسبعين وخمسمائة ببغداد. ودفن بمقبرة الشونيزي ببغداد، رحمه الله تعالى، بجنب قبر أبيه يوم الأحد.

شميم الحلي

أبو الحسن علي بن الحسن بن عنتر بن ثابت، الملقب مهذب الدين، المعروف بشميم الحلي؛ كان أديباً فاضلاً خبيراً بالنحو واللغة وأشعار العرب حسن الشعر، وكان اشتغاله ببغداد على أبي محمد ابن الخشاب ومن في طبقته من أدباء ذلك الوقت، ثم سافر إلى ديار بكر والشام ومدح الأكابر وأخذ جوائزهم، واستوطن الموصل، وله عدة تصانيف، وجمع من نظمه كتاباً سماه " الحماسة "رتبه على عشرة أبواب، وضاهى به كتاب " الحماسة " لأبي الطيب الطائي، وكان جم الفضيلة إلا أنه كان بذيء اللسان كثير الوقوع في الناس مسلطاً على ثلب أعراضهم، لا يثبت لأحد في الفضل شيئاً.

ذكره أبو البركات ابن المستوفي في " تاريخ إربل " وقبح ذكره بأشياء نسبها إليه: من قلة الدين وتركه للصلوات المكتوبة ومعارضته للقرآن الكريم واستهزائه بالناس؛ وذكر مقاطيع من شعره. وفي شعره تعسف؛ وقال:سئل لم سمي شميماً، فقال أقمت مدة آكل كل يوم شيئاً من الطين فإذا وضعته عند قضاء الحاجة شممته فلا أجد له رائحة، فسميت لذلك شميماً. وتوفي ليلة الأربعاء الثامن والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة إحدى وستمائة بالموصل، ودفن بمقبرة المعافى، رحمه الله تعالى.

وشميم: بضم الشين المعجمة وفتح الميم وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها ميم، وهو من الشم.

العلم السخاوي

أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الصمد بن عبد الأحد بن عبد الغالب الهمداني المصري السخاوي المقرىء النحوي، الملقب علم الدين؛ كان قد اشتغل بالقاهرة على الشيخ أبي محمد القاسم الشاطبي المقرىء – المذكور في حرف القاف – وأتقن عليه علم القراءات والنحو واللغة، وعلى أبي الجود غياث بن فارس بن مكي المقرىء، وسمع بالإسكندرية من السلفي وابن عوف، وبمصر من البوصيري وابن ياسين، ثم انتقل إلى مدينة دمشق وتقدم بها على علماء فنونه واشتهر، وكان للناس اعتقاد عظيم، وشرح " المفصل " للزمخشري في أربع مجلدات، وشرح القصيدة الشاطبية في القراءات، وكان قد قرأها على ناظمها، وله خطب وأشعار، وكان متعيناً في وقته.

ورأيته بدمشق والناس يزدحمون عليه في الجامع لأجل القراءة، ولا تصح لواحد منهم نوبة إلا بعد زمان، ورأيته مراراً يركب بهيمة وهو يصعد إلى جبل الصالحين وحوله اثنان وثلاثة وكل واحد يقرأ ميعاده في موضع غير الآخر، والكل في دفعة واحدة، وهو يرد على الجميع. و لم يزل مواظباً على وظيفته

إلى أن توفي بدمشق ليلة الأحد ثاني عشر جمادى الآخرة سنة ثلاث وأربعين وستمائة، وقد نيف على تسعين سنة، رحمه الله تعالى.
ولما حضرته الوفاة أنشد لنفسه:

قالوا غداً نأتي ديار الحمى ... وينزل الركب بمغناهم
وكل من كان مطيعاً لهم ... أصبح مسروراً بلقياهم
قلت: فلي ذنبٌ فما حيلتي ... بأي وجه أتلقاهم
قالوا: أليس العفو من شانهم ... لا سيما عمن ترجاهم

ثم ظفرت بتاريخ مولده في سنة ثمان وخمسين وخمسمائة بسخا، والله أعلم.
والسخاوي: بفتح السين المهملة والخاء المعجمة وبعدها ألف، هذه النسبة إلى سخا، وهي بليدة بالغربية من أعمال مصر، وقياسه سخوي، لكن الناس أطبقوا على النسبة الأولى.

ابن البواب الكاتب

أبو الحسن علي بن هلال المعروف بابن البواب الكاتب المشهور؛ لم يوجد في المتقدمين ولا المتأخرين من كتب مثله ولا قاربه، وإن كان أبو علي ابن مقلة أول من نقل هذه الطريقة من خط الكوفيين، وأبرزها في هذه الصورة وله بذلك فضيلة السبق وخطه أيضاً في نهاية الحسن، لكن ابن البواب هذب طريقته ونقحها وكساها طلاوة وبهجة. وقيل إن صاحب الخط المنسوب المشهور ليس أبا علي المذكور، وإنما هو أخوه أبو عبد الله الحسن – وهو مذكور في ترجمة أخيه أبي علي المذكور في المحمدين فلينظر هناك – ولما شاهد أبو عبيد البكري الأندلسي صاحب التصانيف خط ابن مقلة أنشد:

خط ابن مقلة من أرعاه مقلته ... ودت جوارحه لو أصبحت مقلا

والكل معترفون لأبي الحسن بالتفرد، وعلى منواله ينسجون، وليس فيهم من يلحق شأوه ولا يدعي ذلك، مع أن في الخلق من يدعي ما ليس فيه، ومع هذا فما رأينا ولا سمعنا أن أحداً ادعى ذلك، بل الجميع أقروا له بالسابقة وعدم المشاركة. ويقال له " ابن الستري أيضاً " لأن أباه كان بواباً والبواب ملازم ستر الباب، فلهذا نسب إليه.
وكان شيخه في الكتابة ابن أسدٍ الكاتب المشهور، وهو أبو عبد الله محمد بن أسد بن علي بن سعيد القارىء الكاتب البزاز البغدادي سمع أبا بكر أحمد بن سليمان النجاد وعلي بن محمد بن الزبير الكوفي وجعفر الخلدي وعبد الملك بن الحسن السقطي، وجماعة من هذه الطبقة، وكان صدوقاً؛ مات محمد بن أسد في يوم الأحد لليلتين خلتا من المحرم سنة عشر وأربعمائة، ودفن بالشونيزي.
وتوفي ابن البواب يوم الخميس ثاني جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة وأربعمائة ببغداد، ودفن جوار الإمام أحمد بن حنبل، رضي الله عنه.
وأنشدني بعض العلماء بيتين ذكر أنه رثي بهما ابن البواب وهما:

استشعر الكتاب فقدك سالفاً ... وقضت بصحة ذلك الأيام
فلذاك سودت الدوي كآبةً ... أسفاً عليك وشقت الأقلام

وهذا معنى حسن جداً.
وسألني بعض الفقهاء بمدينة حلب عن قول بعض المتأخرين من جملة أبيات في صفة كتاب:

كتابٌ كوشي الروض خطت سطوره ... يد ابن هلالٍ عن فم ابن هلال

فقلت له: هذا يقول إن خطه في الحسن مثل خط ابن البواب وفي بلاغة ألفاظه مثل رسائل الصابىء، لأنه ابن هلال أيضاً – كما تقدم في ترجمته – ثم سألت الفقيه المذكور عن بقية الأبيات التي منها هذا البيت، فأنشدنيها، وهي:

ولما أتى منك الكتاب الذي حوى قلائد سحرٍ للبيان حلال
وقفت على ربعٍ من الفضل آهل وقوفي بربع للأحبة خال
أرقرق من دمعي وأدمن لثمه وأسأل أطلالاً تجيب سؤالي
وهمت به حتى توهمت لفظه نجوم ليالٍ أم سموط لآلي
كتاب كوشي الروض خطت سطوره يد ابن هلال عن فم ابن هلال

ومما يتعلق بالكتابة أن أول من خط بالعربي إسماعيلٌ عليه السلام، والصحيح عند أهل العلم أنه مرامر بن مروة من أهل الأنبار، وقيل إنه من بني مرة، ومن الأنباء انتشرت الكتابة في الناس. قال الأصمعي: ذكروا أن قريشاً سألوا: من أين لكم الكتابة؟ فقالوا: من الحيرة، وقيل لأهل الحيرة: من أين لكم الكتابة؟ فقالوا: من الأنبار.

وروى ابن الكلبي والهيثم بن عدي أن الناقل لهذه الكتابة من الحيرة إلى الحجاز هو حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي الأموي، وكان قدم الحيرة فعاد إلى مكة بهذه الكتابة، وقالا: قيل لأبي سفيان ابن حرب: ممن أخذ أبوك هذه الكتابة؟ فقال: من أسلم بن سدرة، وقال: سألت أسلم: ممن أخذت هذه الكتابة؟ فقال: من واضعها مرامر بن مرة، فحدوث هذه الكتابة قبل الإسلام بقليل. وكان لحمير كتابة تسمى المسند، وحروفها منفصلة غير متصلة، وكانوا يمنعون العامة من تعلمها، فلا يتعاطاها أحد إلا بإذنهم، فجاءت ملة الإسلام وليس بجميع اليمن من يقرأ ويكتب.

وجميع كتابات الأمم من سكان الشرق والغرب اثنتا عشرة كتابة، وهي: العربية والحميرية واليونانية والفارسية والسريانية والعبرانية والرومية والقبطية والبربرية والأندلسية والهندية والصينية، فخمس منها اضمحلت وبطل استعمالها وذهب من يعرفها، وهي: الحميرية واليونانية والقبطية والبربرية والأندلسية، وثلاث قد بقي استعمالها وعدم من يعرفها في بلاد الإسلام، وهي: الرومية والهندية والصينية، وحصلت أربع هي مستعملات في بلاد الإسلام وهي: العربية والفارسية والسريانية والعبرانية.

شيخ الإسلام

أبو الحسن علي بن أحمد بن يوسف بن جعفر بن عرفة الهكاري الملقب شيخ الإسلام؛ هو من ولد عتبة بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية، وكان كثير الخير والعبادة، وطاف البلاد واجتمع بالعلماء والمشايخ وأخذ عنهم الحديث، ورجع إلى وطنه وانقطع به وأقبل الناس عليه وكان لهم فيه اعتقاد حسن، ولقي الشيخ أبا العلاء المعري وسمع منه، فلما انفصل عنه سأله بعض أصحابه عما رآه منه وعن عقيدته، فقال: هو رجل من المسلمين. وسمعت أن بعض الأكابر قال له: أنت شيخ الإسلام، فقال: بل أنا شيخ في الإسلام، وخرج من أولاده وحفدته جماعة تقدموا عند الملوك وعلت مراتبهم، منهم فقهاء ومنهم أمراء.

وكانت ولادته سنة تسع وأربعمائة. وتوفي في أول المحرم سنة ست وثمانين وأربعمائة، رحمه الله تعالى.

والهكاري: بفتح الهاء وتشديد الكاف وبعد الألف راء، هذه النسبة إلى قبيلة من الأكراد لهم معاقل وحصون وقرى من بلاد الموصل من جهتها الشرقية.

الشيخ علي الهروي السائح

أبو الحسن علي بن أبي بكر بن علي الهروي الأصل الموصلي المولد، السائح المشهور نزيل حلب؛ طاف البلاد وأكثر من الزيارات، وكاد يطبق الأرض بالدوران، فإنه لم يترك براً ولا بحراً ولا سهلاً ولا جبلاً من الأماكن التي يمكن قصدها ورؤيتها إلا رآه، ولم يصل إلى موضع إلا كتب خطه في حائطه، ولقد شاهدت ذلك في البلاد التي رأيتها مع كثرتها، ولما سار ذكره بذلك واشتهر به ضرب به المثل فيه، ورأيت لبعض المعاصرين، وهو ابن شمس الخلافة جعفر – المقدم ذكره – بيتين في شخص يستجدي من الناس بأوراقه وقد ذكر فيهما هذه الحالة وهما:

أوراق كديته في بيت كل فتىً		على اتفاق معانٍ واختلاف روي

قد طبق الأرض من سهلٍ إلى جبلٍ		كأنه خط ذاك السائح الهروي

وإنما ذكرت البيتين استشهاداً بهما على ما ذكرته من كثرة زياراته وكتب خطه. وكان مع هذا فيه فضيلة، وله معرفة بعلم السيمياء، وبه تقدم عند الملك الظاهر ابن السلطان صلاح الدين صاحب حلب، وأقام عنده، وكان كثير الرعاية له، وبنى له مدرسة بظاهر حلب وفي ناحية منها قبة هو مدفون بها، وبتلك المدرسة بيوت كتب على باب كل بيت ما يليق به، ورأيته كتب على باب الميضأة " بيت المال في بيت الماء "، ورأيت في قبته معلقاً عند رأسه غصناً وهو حلقة خلقية ليس فيه صنعة، وهو أعجوبة، وقيل إنه رآه في بعض سياحاته فاستصحبه وأوصى أن يكون عند رأسه ليعجب منه من يراه.

وله مصنفات: منها كتاب " الإشارات في معرفة الزيارات " وكتاب " الخطب الهروية " وغير ذلك.

ورأيت في حائط الموضع الذي تلقى فيه الدروس من المدرسة المذكورة بيتين مكتوبين بخط حسن، وكأنهما كتابة رجل فاضل نزل هناك قاصداً الديار المصرية، فأحببت ذكرهما لحسنهما وهما:

رحم الله من دعا لأناسٍ		نزلوا هاهنا يريدون مصرا

نزلوا والخدود بيضٌ فلما		أزف البين عدن بالدمع حمرا

وتوفي في شهر رمضان في العشر الوسط سنة إحدى عشرة وستمائة في مدرسته المذكورة ودفن في القبة، رحمه الله تعالى.

والهروي: بفتح الهاء والراء وبعدها واو، هذه النسبة إلى مدينة هراة، وهي أحد كراسي مملكة خراسان، فإنها مملكة عظيمة، وكراسيها أربعة: نيسابور ومرو وبلخ وهراة، والباقي مدن كبار، لكنها ما تنتهي إلى هذه الأربعة؛ وهراة بناها الإسكندر ذو القرنين عند مسيره إلى المشرق.

عز الدين ابن الأثير الجزري

أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني، المعروف بابن الأثير الجزري، الملقب عز الدين، ولد بالجزيرة ونشأ بها، ثم سار إلى الموصل مع والده وأخويه – الآتي ذكرهما إن شاء الله تعالى – وسكن الموصل وسمع بها من أبي الفضل عبد الله أحمد الخطيب الطوسي ومن فيه طبقته، وقدم بغداد مراراً حاجاً ورسولاً من صاحب الموصل وسمع بها من الشيخين أبي القاسم يعيش بن صدقة الفقيه الشافعي وأبي أحمد عبد الوهاب بن علي الصوفي وغيرهما، ثم رحل إلى الشام والقدس وسمع هناك من جماعة، ثم عاد إلى الموصل ولزم بيته منقطعاً إلى التوفر على النظر في العلم والتصنيف، وكان بيته مجمع الفضل لأهل الموصل والواردين عليها.

وكان إماماً في حفظ الحديث ومعرفته وما يتعلق به، وحافظاً للتواريخ المتقدمة والمتأخرة، وخبيراً بأنساب العرب وأخبارهم وأيامهم ووقائعهم، صنف في التاريخ كتاباً كبيراً سماه " الكامل " ابتدأ فيه من أول الزمان إلى آخر سنة ثمان وعشرين وستمائة وهو من خيار التواريخ، واختصر كتاب " الأنساب " لأبي سعد عبد الكريم بن السمعاني، واستدرك عليه فيه مواضع ونبه على أغلاط وزاد أشياء أهملها، وهو كتاب مفيد جداً، وأكثر ما يوجد اليوم بأيدي الناس هذا المختصر، وهو في ثلاث مجلدات، والأصل في ثمان وهو عزيز الوجود ولم أره سوى مرة واحدة بمدينة حلب، ولم يصل إلى الديار المصرية سوى المختصر المذكور. وله كتاب " أخبار الصحابة "، رضوان الله عليهم، في ست مجلدات كبار.

ولما وصلت إلى حلب في أواخر سنة ست وعشرين وستمائة كان عز الدين المذكور مقيماً بها في صورة الضيف عند الطواشي شهاب الدين طغريل الخادم أتابك الملك العزيز ابن الملك الظاهر صاحب حلب، وكان الطواشي كثير الإقبال عليه حسن الاعتقاد فيه مكرماً له، فاجتمعت به فوجدته رجلاً مكملاً في الفضائل وكرم الأخلاق وكثرة التواضع، فلازمت التردداد إليه، وكان بينه وبين الوالد، رحمه الله تعالى، مؤانسة أكيدة، فكان بسببها يبالغ في الرعاية والإكرام. ثم إنه سافر إلى دمشق في أثناء سنة سبع وعشرين، ثم عاد إلى حلب في أثناء سنة ثمان وعشرين، فجريت معه على عادة الترداد والملازمة. وأقام قليلاً ثم توجه إلى الموصل.

وكانت ولادته في رابع جمادى الأولى سنة خمس وخمسين وخمسمائة بجزيرة ابني عمر، وهم من أهلها. وتوفي في شعبان سنة ثلاثين وستمائة، رحمه الله تعالى، بالموصل.

وسيأتي ذكر أخويه مجد الدين أبي السعادات المبارك، وضياء الدين أبي الفتح نصر الله، إن شاء الله تعالى.

والجزيرة المذكورة أكثر الناس يقولون: إنها جزيرة ابن عمر، ولا أدري من ابن عمر وقيل إنها منسوبة إلى يوسف بن عمر الثقفي أمير العراقين، ثم إني ظفرت بالصواب في ذلك، وهو أن رجلاً من أهل برقعيد من أعمال الموصل بناها وهو عبد العزيز بن عمر فأضيفت إليه. ورأيت في بعض التواريخ أنها جزيرة ابني عمر أوسٍ وكاملٍ، ولا أدري أيضاً من هما، ثم رأيت في تاريخ ابن المستوفي في ترجمة أبي السعادات المبارك بن محمد أخي أبي الحسن المذكور أنه من جزيرة أوس وكامل ابني عمر بن أوس التغلبي.

العكوك

أبو الحسن علي بن جبلة بن مسلم بن عبد الرحمن، المعروف بالعكوك الشاعر المشهور؛ أحد فحول الشعراء المبرزين قال الجاحظ في حقه: كان أحسن خلق الله إنشاداً، ما رأيت مثله بدوياً ولا حضرياً وكان من الموالي وولد أعمى، وكان أسود أبرص، ومن مشهور شعره قوله:

بأبي من زارني مكتتماً　　خائفاً من كل شيء جزعا
زائرٌ نم عليه حسنه　　كيف يخفي الليل بدراً طلعا
رصد الغفلة حتى أمكنت　　ورعى السامر حتى هجعا
ركب الأهوال في زروته　　ثم ما سلم حتى ودعا

ومن قوله في الحسن بن سهل:

أعطيتني يا ولي الحق مبتدئاً　　عطيةً كافأت شعري ولم ترني
ما شمت برقك إلا نلت ريقه　　كأنما كنت بالجدوى تبادرني

وله في أبي دلف العجلي وأبي غانم حميد بن عبد الحميد الطوسي غر المدائح، فمن قصائده الفائقة في أبي دلف القصيدة التي أولها:

ذاد ورد الغي عن صدره　　فارعوى واللهو من وطره

يقول في مدحها:

إنما الدنيا أبو دلفٍ　　بين مغزاه ومحتضره
فإذا ولى أبو دلف　　ولت الدنيا على أثره

ومنها:

كل من في الأرض من عربٍ　　بين باديه إلى حضره
مستعيرٌ منك مكرمةً　　يكتسيها يوم مفتخره

وهي طويلة عددها ثمانية وخمسون بيتاً، ولولا خوف الإطالة لأثبتها كلها لأجل حسنها.

ولقد سئل شرف الدين بن عنين - الآتي ذكره إن شاء الله تعالى - وكان من أخبر الناس بنقد الشعر، عن هذه القصيدة وقصيدة أبي نواس الموازنة لها التي أولها:

أيها المنتاب من عفره لست من ليلي ولا سمره

وهي من نوادر الشعر أيضاً، فلم يفضل إحداهما عن الأخرى، وقال: ما يصلح أن يفاضل بين هاتين إلا شخصٌ يكون في درجة هذين الشاعرين.

ورأيت لأبي العباس المبرد كلاماً في وصف قصيدة أبي نواس المذكورة، فإنه قال بعد ذكر القصيدة: ما أحسب شاعراً جاهلياً ولا إسلامياً يبلغ هذا المبلغ فضلاً أن يزيد عليه جزالة وفخامة.

وقال محمد بن خلف بن محمد الطائي: قلت لعلي بن جبلة: عارضت أبا نواس بقصيدتك هذه " ذاد ورد الغي عن صدره " في قصيدته.

ويحكى أن العكوك مدح حميد بن عبد الحميد الطوسي بعد مدحه لأبي دلف بهذه القصيدة فقال له حميد: ما عسى أن تقول فينا وما أبقيت لنا بعد قولك في أبي دلف: إنما الدنيا أبو دلف... وأنشد البيتين، فقال: أصلح الله الأمير، قد قلت فيك ما هو أحسن من هذا، قال: وما هو؟ فأنشد:

إنما الدنيا حميد وأياديه الجسام

فإذا ولى حميد فعلى الدنيا السلام

قال: فتبسم و لم يحر جواباً، فأجمع من حضر المجلس من أهل المعرفة والعلم بالشعر أن هذا احسن مما قاله في أبي دلف، فاعطاه وأحسن جائزته.

وحكي أنه مدح المأمون بقصيدة أجاد فيها وتوسل بحميد الطوسي في إيصالها إليه، فقال له المأمون: خيره بين أن نجمع بين قوله هذا وبين قوله فيك وفي أبي دلف، فإن وجدنا قوله فينا خيراً منه أجزناه عشرة آلاف، وإلا ضربناه مائة سوط، فخيره حميد فاختار الإعفاء.

وقال ابن المعتز في " طبقات الشعراء ": ولما بلغ المأمون خبر هذه القصيدة غضب غضباً شديداً وقال: اطلبوه حيثما كان وائتوني به، فطلبوه فلم يقدروا عليه لأنه كان مقيماً بالجبل، فلما اتصل به الخبر هرب إلى الجزيرة الفراتية، وقد كانوا كتبوا إلى الآفاق أن يؤخذ حيث كان، فهرب من الجزيرة حتى توسط الشامات، فظفروا به فأخذوه وحملوه مقيداً إلى المأمون، فلما صار بين يديه قال له: يا بن اللخناء، أنت القائل في قصيدتك للقاسم بن عيسى، وهو أبو دلف:

كل من في الأرض من عرب

وأنشد البيتين، جعلتنا ممن يستعير المكارم منه والإفتخار به، قال: يا أمير المؤمنين: أنتم أهل بيت لا يقاس بكم لأن الله اختصكم لنفسه من عباده وآتاكم الكتاب والحكم وآتاكم ملكاً عظيماً، وإنما ذهب في قولي إلى أقران وأشكال القاسم بن عيسى من هذا الناس، فقال: والله ما أبقيت أحداً، ولقد أدخلتنا في الكل، وما استحل دمك بكلمتك هذه، ولكني استحله بكفرك في شعرك حيث قلت في عبد ذليل مهين فأشركت بالله العظيم وجعلت معه مالكاً قادراً وهو:

أنت الذي تنزل الأيام منزلها وتنقل الدهر من حال إلى حال

وما مددت مدى طرفٍ إلى أحد إلا قضيت بأرزاق وآجال

ذاك الله عز وجل يفعله، أخرجوا لسانه من قفاه، فأخرجوا لسانه من قفاه فمات، وكان ذلك في سنة ثلاث عشرة ومائتين ببغداد. ومولده سنة ستين ومائة، وقيل إنه أصابه الجدري وهو ابن سبع سنين فذهب بصره منه، وهذا خلاف ما قيل في الأول.

قلت: هكذا ذكر ابن المعتز هذه القصة، وكذلك قال أيضاً أبو الفرج الأصبهاني في كتاب " الأغاني "، ورأيت في كتاب " البارع في أخبار الشعراء المولدين تأليف أبي عبد الله ابن المنجم هذين البيتين مع بيت ثالث، وهو:

تزور سخطاً فتمسي البيض راضيةً وتستهل فتبكي أعين المال

لخلف بن مرزوق مولى علي بن ريطة، والله أعلم بالصواب.

ومن مديحه حميداً قوله:

تكفل ساكني الدنيا حميدٌ فقد أضحوا له فيها عيالاً

كأن أباه آدم كان أوصى إليه أن يعولهم فعالا

وقوله أيضاً فيه:

دجلة تسقي وأبو غانمٍ يطعم من تسقي من الناس

فالناس جسمٌ وإمام الهدى رأس، وأنت العين في الراس

ولما مات حميد في يوم عيد الفطر سنة عشر ومائتين رثاه بقصيده من جملتها:

فأدبنا ما أدب الناس قبلنا ولكنه لم يبق للصبر موضع

ورثاه أبو العتاهية بقوله:

أبا غانم أما ذراك فواسعٌ وقبرك معمور الجوانب محكم

وما ينفع المقبور عمران قبره إذا كان فيه جسمه يتهدم

وأخبار العكوك كثيرة، ونقتصر منها على هذا القدر.

والعكوك: بفتح العين المهملة والكاف وتشديد الواو وبعدها كاف ثانية، وهو السمين القصير مع صلابة، رحمه الله تعالى.

وجبلة: بفتح الجيم والباء الموحدة واللام وبعدها هاء ساكنة.

وأما حميد الطوسي فإن الطبري ذكر في تاريخه تاريخ وفاته كما ذكرته ها هنا، وغالب ظني أنه توفي بفم الصلح، لأنه كان مع المأمون لما توجه إليها للدخول على بوران، حسب ما شرحته في ترجمتها في هذا التاريخ.

علي بن الجهم

أبو الحسن علي بن الجهم بن بدر بن الجهم بن مسعود بن أسيد بن أذينة بن كرار بن كعب بن جابر بن مالك بن عتبة بن جابر بن الحارث بن قطن بن مدلج بن قطن بن أحزم بن ذهل بن عمرو بن مالك بن عبيدة بن الحارث بن سامة ابن لؤي بن غالب القرشي السامي الشاعر المشهور؛ أحد الشعراء المجيدين، هكذا ساق الخطيب في" تاريخ بغداد " نسبه في ترجمة والده الجهم، وذكره أيضاً في ترجمة مفردة، فقال: له ديوان شعر مشهور، وكان جيد الشعر عالماً بفنونه، وله اختصاصٌ بجعفر المتوكل، وكان متديناً فاضلاً؛ انتهى كلامه.

وكان – مع انحرافه عن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، وإظهاره التسنن – مطبوعاً مقتدراً على الشعر عذب الألفاظ. وكان من ناقلة خراسان إلى العراق ثم نفاه المتوكل إلى خراسان في سنة اثنتين وثلاثين، وقيل تسع وثلاثين ومائتين، لأنه هجا المتوكل، وكتب إلى طاهر بن عبد الله بن طاهر بن الحسين أنه إذا ورد عليه صلبه يوماً، فوصل إلى شاذياخ نيسابور، فحبسه طاهر ثم أخرجه فصلبه مجرداً نهاراً كاملاً، فقال في ذلك:

لم ينصبوا بالشاذياخ صبيحة ال إثنين مسبوقاً ولا مجهولا

نصبوا بحمد الله ملء قلوبهم شرفاً وملء صدورهم تبجيلا

وهي أبيات كثيرة مشهورة، ثم رجع إلى العراق ثم خرج إلى الشام، وبعد ذلك ورد على المستعين كتاب من صاحب البريد بحلب أن علي بن الجهم خرج من حلب متوجهاً إلى العراق، فخرجت عليه وعلى جماعة معه خيل من بين كلب، فقاتلهم قتالاً شديداً، ولحقه الناس وهو جريح بأخر رمق، فكان مما قال:

أزيد في الليل ليل أم سال بالصبح سيل

ذكرت أهل دجيلٍ وأين مني دجيل

وكان مترله ببغداد في شارع الدجيل، وكان ورود الكتاب في شعبان سنة تسع وأربعين ومائتين، وتوفي في وقته، ولما نزعت ثيابه بعد موته وجدت فيها رقعة وقد كتب فيها:

يا رحمتا للغريب في البلد الن ... ازح ماذا بنفسه صنعا

فارق أحبابه فما انتفعوا ... بالعيش من بعده ولا انتفعا

وكانت بينه وبين أبي تمام مودة أكيدة، وإليه كتب أبو تمام الأبيات التي يودعه فيها التي أولها:

هي فرقة من صاحب لك ماجد ... فغداً إراقة كل دمع جامد

وديوان شعره صغير، فمنه قوله وهو معنى مليح:

بلاء ليس يعدله بلاء ... عداوة غير ذي حسب ودين

يبيحك منه عرضاً لم يصنه ... ويرتع منك في عرض مصون

وهذان البيتان قالهما في مروان بن أبي حفصة لما عمل فيه:

لعمرك ما الجهم بن بدر بشاعر ... وهذا عليٌ بعده يدعي الشعرا

ولكن أبي قد كان جاراً لأمه ... فلما ادعى الأشعار أوهمني أمرا

وهذا المعنى مأخوذ من قول كثير عزة، وقد أنشد الفرزدق شعراً له فاستحسنه فقال له: يا أبا صخر، هل كانت أمك ترد البصرة؟ فقال: لا، ولكن أبي كثيراً ما يردها.

وله وقد حبس أبياته المشهورة التي أولها:

قالت حبست فقلت ليس بضائري ... حبسي، وأي مهند لا يغمد

وهي أبيات جيدة في هذا المعنى لم يعمل مثلها، ولولا طولها لذكرتها.

وله أيضاً:

يا ذا الذي بعذابي ظل مفتخرا ... هل أنت إلا مليك جار إذ قدرا

لولا الهوى لتجارينا على قدر ... فإن أفق منه يوماً ما فسوف ترى

وله أشياء حسنة.

والسامي: بفتح السين المهملة وبعد الألف ميم، هذه النسبة إلى سامة بن لؤي المذكور في نسبه، ويتصحف على كثير من الناس بالشامي، بالشين المعجمة، وهو غلط.

ودجيل: بضم الدال المهملة وفتح الجيم وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها لام – تصغير دجلة، تصغير ترخيم – وهو نهر بأعلى بغداد، مخرجه من دجلة، مقابل القادسية في الجانب الغربي بين تكريت وبغداد، عليه مدن وقرى، وهو غير دجيل الأهواز، وهو أيضاً نهر عليه قرى ومدن ومخرجه من جهة أصبهان، حفره أردشير بن بابك بن ساسان أول ملوك الفرس.

ابن الرومي أبو الحسن علي بن العباس بن جريج، وقيل جورجيس، المعروف بابن الرومي، مولى عبيد الله بن عيسى بن جعفر بن المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، رضي الله عنه؛ الشاعر المشهور صاحب النظم العجيب، والتوليد الغريب، يغوص على المعاني النادرة فيستخرجها من مكامنها ويبرزها في أحسن صورة، ولا يترك المعنى حتى يستوفيه إلى آخره ولا يبقي فيه بقية، وكان شعره غير مرتب، ورواه عنه

المسيبي، ثم عمله أبو بكر الصولي ورتبه على الحروف، وجمعه أبو الطيب وراق ابن عبدوس من جميع النسخ، فزاد على كل نسخة مما هو على الحروف وغيرها نحو ألف بيت. وله القصائد المطولة والمقاطيع البديعة، ولو في الهجاء كل شيء ظريف، وكذلك في المديح، فمن ذلك قوله:

المنعمون وما منوا على أحدٍ ... يوم العطاء ولو منوا لما مانوا

كم ضن بالمال أقوامٌ وعندهم ... وفر، وأعطى العطايا يدان

وله أيضاً، وقال: ما سبقني إلى هذا المعنى أحد:

آراؤكم ووجوهكم وسيوفكم ... في الحادثات إذا دجون نجوم

منها معالم للهدى ومصابح ... تجلو الدجى والأخريات رجوم

ومن معانيه البديعة قوله:

وإذا امرؤ مدح امرءاً لنواله ... وأطال فيه فقد أراد هجاءه

لو لم يقدر فيه بعد المستقى ... عند الورود لما أطال رشاءه

وكذلك قوله في ذم الخضاب، قال أبو الحسين جعفر بن علي الحمداني: ما سبقه أحد إلى هذا المعنى:

إذا دام للمرء السواد وأخلقت ... شبيبته ظن السواد خضابا

فكيف يظن الشيخ أن خضابه ... يظن سواداً أو يخال شبابا

وقوله:

كم يعد القرن باللقاء وكم ... يكذب في وعده ويخلفه

لا يعرف القرن وجهه ويرى ... قفاه من فرسخٍ فيعرفه

أخذ هذا المعنى الأخير من قول الخارجي وقد قال المنصور: أي أصحابنا أشد إقداماً في مبارزتكم؟ فقال: ما أعرف وجوههم ولكن أعرف أقفاءهم، فقل لهم يقبلوا فأعرفهم.

وقال رجل لابن الرومي وهو يمازحه: ما أنت والشعر وقد نلت منه حظاً جسيماً وأنت من العجم؟ أراك عربياً أو مدعياً في الشعر، قال: بل أنت دعي إذ كنت تنسب عربياً ولا تحسن من ذلك شيئاً، وأنشده:

إياك يا ابن بويب ... أن يستثار بويب

قد تحسن الروم شعراً ... ما أحسنته العريب

وكان كثير الطيرة، وربما أقام المدة الطويلة لا يتصرف تطيراً لسوء ما يراه أو يسمعه حتى إن بعض إخوانه من الأمراء افتقده وعرف بحاله في الطيرة فبعث إليه خادماً اسمه إقبال ليتفاءل به، فلما أخذ أهبة ركوبه قال للخادم: انصرف إلى مولاك.

وله في بعض الرؤساء وقد سأله حاجة فقضاها له وكان لا يتوقع منه خيراً:

سألتك في أمر فجدت ببذله ... على أني ما خلت أنك تفعل

وألزمتني بالبذل شكراً وإنه ... علي من الحرمان أدهى وأعضل

وما خلت أن الدهر يثني بصرفه ... إلى أن أرى في الناس مثلك يسأل

لئن سرني ما نلت منك فإنه ... لقد ساءني إذ أنت ممن يؤمل

وهذه الأبيات تنسب إلى ابن وكيع التنيسي أيضاً – وقد سبق ذكره واسمه الحسن – والله أعلم.

وبالجملة فإن محاسنه كثيرة فلا حاجة إلى الإطالة. وكانت ولادته يوم الأربعاء بعد طلوع الفجر لليلتين خلتا من رجب سنة إحدى وعشرين ومائتين ببغداد، في الموضع المعروف بالعقيقية ودرب الختلية في دار بإزاء قصر عيسى بن جعفر بن المنصور، وفي بغداد يقول وقد غاب عنها في بعض أسفاره:

بلد صحبت به الشبيبة والصبا ... ولبست ثوب العيش وهو جديد

فإذا تمثل في الضمير رأيته ... وعليه أغصان الشباب تميد

وتوفي يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من جمادى الأولى سنة ثلاث وثمانين، وقيل أربع وثمانين، وقيل ست وسبعين ومائتين ببغداد ودفن في مقبرة باب البستان، وكان سبب موته، رحمه الله تعالى، أن الوزير أبا الحسين القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب وزير الإمام المعتضد كان يخاف من هجوه وفلتات لسانه بالفحش، فدس عليه ابن فراس، فأطعمه خشكنانجة مسمومة وهو في مجلسه، فلما أكلها أحس بالسم فقام، فقال له الوزير: إلى أين تذهب، فقال: إلى الموضع الذي بعثتني إليه، فقال له: سلم على والدي، فقال: ما طريقي على النار؛ وخرج من مجلسه وأتى منزله وأقام أياماً ومات. وكان الطبيب يتردد إليه ويعالجه بالأدوية النافعة للسم، فزعم أنه غلط في بعض العقاقير؛ قال إبراهيم بن محمد بن عرفة الأزدي المعروف بنفطويه: رأيت ابن الرومي يجود بنفسه فقلت: ما حالك؟فأنشد:

غلط الطبيب علي غلطة موردٍ ... عجزت موارده عن الإصدار

والناس يلحون الطبيب وإنما ... غلط الطبيب إصابة المقدار

وقال أبو عثمان الناجم الشاعر: دخلت على ابن الرومي أعوده فوجدته يجود بنفسه، فلما قمت من عنده قال لي:

أبا عثمان أنت حميد قومك ... وجودك للعشيرة دون لومك

تزود من أخيك فما أراه ... يراك ولا تراه بعد يومك

وكان الوزير المذكور عظيم الهيبة شديد الإقدام سفاكاً للدماء، وكان الكبير والصغير منه على وجلٍ لا يعرف أحدٌ من أرباب الأموال معه نعمة. وتوفي الوزير المذكور عشية الأربعاء لعشر خلون من شهر ربيع الآخر سنة إحدى وتسعين ومائتين في خلافة المكتفي، وعمره نيف وثلاثون سنة، وفي ذلك يقول عبد الله بن الحسن بن سعد:

شربنا عشية مات الوزير ... سروراً، ونشرب في ثالثه

فلا رحم الله تلك العظام ... ولا بارك الله في وارثه

وكان لهذا الوزير أخ يقال له أبو محمد الحسن، فمات في حياة أبيه والوزير، فعمل أبو الحارث النوفلي، وقيل البسامي وهو الأصح – وسيأتي ذكره بعد هذا إن شاء الله تعالى – ثم رأيت في " الذيل " للسمعاني في ترجمة علي بن مقلد بن عبد الله بن كرامة البواب أن أبا الحارث النوفلي قال: كنت أبغض القاسم بن عبيد الله لمكروه نالني منه، فلما مات أخوه الحسن قلت على لسان ابن بسام، وأنشد هذه الأبيات، وقال السمعاني قبل هذا الكلام: قال أبو بكر الصولي النديم: وقد رأيت أبا الحارث هذا، وكان رجلاً صدوقاً، وهي هذه:

قل لأبي القاسم المرزا ... قابلك الدهر بالعجائب

مات لك ابنٌ وكان زيناً ... وعاش ذو الشين والمعايب

حياة هذا كموت هذا ... فلست تخلو من المصايب

وعمل آخر في المعنى أيضاً ولا أعرفه، ثم وجدت هذه الأبيات له أيضاً:

قل لأبي القاسم المرزا ... ونادِ يا ذا المصيبتين

مات لك ابنٌ وكان زيناً ... وعاش شين وأي شين
حياة هذا كموت هذا ... فالطم على الرأس باليدين

البسامي الشاعر

أبو الحسن علي بن محمد بن منصور بن نصر بن بسام، الشاعر المعروف بالبسامي الشاعر المشهور؛ كانت أمه أمامة ابنة حمدون النديم، وروى عنه أبو بكر الصولي وأبو سهل بن زياد وغيرهما، وكان من أعيان الشعراء ومحاسن الظرفاء لسناً مطبوعاً في الهجاء، لم يسلم منه أمير ولا وزير ولا صغير ولا كبير، وهجا أباه وإخوته وسائر أهل بيته، فمن قوله في أبيه:

هبك عمرت عمر عشرين نسراً ... اترى أنني أموت وتبقى
فلئن عشت بعد موتك يوماً ... لأشقن جيب مالك شقا

وله:

أقصرت عن طلب البطالة والصبا ... لما علاني للمشيب قناع
لله أيام الشباب ولهوه ... لو أن أيام الشباب تباع
فدع الصبا يا قلب واسل عن الهوى ... ما فيك بعد مشيبك استمتاع
وانظر إلى الدنيا بعين مودع ... فلقد دنا سفرٌ وحان وداع
والحادثات موكلاتٌ بالفتى ... والناس بعد الحادثات سماع

وله في الوزير ابن المرزبان،وكان قد سأله برذوناً فمنعه إياه:

بخلت عني بمقرفٍ عطبٍ ... فلن تراني ما عشت أطلبه
وإن تقل صنته فما خلق ... الله مصوناً وأنت تركبه

وله في أسد بن جهور الكاتب:

تعس الزمان لقد أتى بعجاب ... ومحا رسوم الظرف والآداب
وأتى بكتابٍ لو انبسطت يدي ... فيهم رددتهم إلى الكتاب
أو ما ترى أسد بن جهور قد غدا ... متشبهاً بأجلة الكتاب

وله أيضاً:

وكانت بالصراة لنا ليالٍ ... سرقناهن من ريب الزمان
جعلناهن تاريخ الليالي ... وعنوان المسرة والأماني

وكان أبوه محمد بن نصر رجلاً مترفاً في نهاية السرو وحسن الزي، ظاهر المروءة، متخصصاً في هيئته ومطعمه وملبسه وتجمل داره. ويحكى أن الوزير القاسم بن عبيد الله المذكور قبله دخل على المعتضد يوماً وهو يلعب بالشطرنج وينشد قول ابن بسام هذا:

حياة هذا كموت هذا ... فلست تخلو من المصائب

وقد تقدم ذكر الأبيات الثلاثة، ثم رفع المعتضد رأسه، فنظر إلى الوزير فاستحيا منه، فقال له يا قاسم، اقطع لسان ابن بسام عنك، فخرج مبادراً لقطع لسانه فبلغ ذلك المعتضد فاستدعاه وقال له:لا تعرض إليه بسوء، بل اقطعه بالبر والشغل، فولاه البريد والجسر بجند قنسرين والعواصم من أرض الشام.

وتوفي ابن بسام المذكور في صفر سنة اثنتين، وقيل ثلاث وثلثمائة، رحمه الله تعالى، عن نيف وسبعين سنة.

وجده نصر بن منصور ممدوح أبي تمام.

والعواصم: كورة متسعة بالشام قصبتها أنطاكية، وذكرها المعري بقوله:

متى سألت بغداد عني وأهلها فإني عن أهل العواصم سآل

وإنما قال هذا لأن بلاده معرة النعمان من جملة العواصم.

وذكر الطبري في تاريخه أن هارون الرشيد عزل الثغور كلها عن بلاد الجزيرة وقنسرين وجعلها حيزاً واحداً، وسميت العواصم، وذلك في سنة سبعين ومائة.

ولما هدم المتوكل على الله قبر الحسين بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنهما، في سنة ست وثلاثين ومائتين عمل البسامي:

تالله إن كانت أمية قد أتت قتل ابن بنت نبيها مظلوما

فلقد أتاه بنو أبيه بمثله هذا لعمرك قبره مهدوما

أسفوا على أن لا يكونوا شاركوا في قتله فتتبعوه رميما

وكان المتوكل كثير التحامل على علي وولديه الحسن والحسين، رضي الله عنهم أجمعين، فهدم هذا المكان بأصوله ودوره وجميع ما يتعلق به وأمر أن يبذر ويسقى موضع قبره ومنع الناس من إتيانه، هكذا قال أرباب التواريخ، والله أعلم.

ولابن بسام المذكور في التصانيف " أخبار عمر بن أبي ربيعة " ولم يستقص أحد في بابه أبلغ منه، وكتاب " أخبار الأحوص " وكتاب " مناقضات الشعراء " وكتاب " ديوان رسائله " وغير ذلك.

القاضي التنوخي

أبو القاسم علي بن محمد بن أبي الفهم داود بن إبراهيم بن تميم بن جابر بن هانئ بن زيد بن عبيد بن مالك بن مريط بن سرح بن نزار بن عمرو بن الحارث بن صبح بن عمرو بن الحارث، وهو أحد ملوك تنوخ الأقدمين، ابن فهم بن تيم الله بن أسد بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن إلحاف بن قضاعة، التنوخي، الأنطاكي؛ كان عالماً بأصول المعتزلة والنجوم، قال الثعالبي في حقه: " هو من أعيان أهل العلم والأدب، وأفراد الكرم وحسن الشيم، وكان كما قرأته في فصل للصاحب بن عباد: إن أردت فإني سبحة ناسك، وإن أحببت فإني تفاحة فاتك، أو اقترحت فإني مدرعة راهب، أو آثرت فإني تحية شارب ". وكان تقلد قضاء البصرة والأهواز بضع سنين، وحين صرف عنه ورد حضرة سيف الدولة بن حمدان زائراً ومادحاً، فأكرم مثواه واحسن قراه، وكتب في معناه إلى الحضرة ببغداد حتى أعيد إلى عمله، وزيد في رزقه ورتبته. وكان الوزير المهلبي وغيره من رؤساء العراق يميلون إليه ويتعصبون له ويعدونه ريحانة الندماء، وتاريخ الظرفاء، وكان في جملة الفقهاء والقضاة الذين ينادمون الوزير المهلبي، ويجتمعون عنده في الأسبوع ليلتين على اطراح الحشمة والتبسط في القصف والخلاعة، وهم:القاضي أبو بكر ابن قريعة وابن معروف والتنوخي المذكور وغيرهم، وما منهم إلا أبيض اللحية طويلها، وكذلك كان المهلبي، فإذا تكامل الأنس وطاب المجلس ولذ السماع وأخذ الطرب منهم مأخذه، وهبوا ثوب الوقار للعقار، وتقلبوا في أعطاف العيش بين الخفة والطيش، ووضع في يد كل واحد منهم طاس ذهب فيه ألف مثقال، مملوءٌ شراباً قطربلياً أو عكبرياً، فيغمس لحيته فيه بل ينقعها حتى تتشرب أكثره ويرش بها بعضهم بعضاً ويرقصون بأجمعهم وعليهم المصبغات ومخانق المنثور والبرم، فإذا أصبحوا عادوا كعادتهم في التوقر والتحفظ بأبهة القضاء وحشمة المشايخ الكبراء. وأورد من شعره قوله:

وراحٍ من الشمس مخلوقةٌ | بدت لك في قدحٍ من نهار
هواءٌ ولكنه جامدٌ | وماءٌ ولكنه غير جار
كأن المدير لها باليمين | إذا مال للسقي أو باليسار
تدرع ثوباً من الياسمين | له فرد كمٍ من الجلنار

وأورد له أيضاً:

بأبي حسنك لو أش | بهه منك صنيع
أنت بدرٌ ما له في | فلك الوصل طلوع

وأورد له:

رضاك شبابٌ لا يليه مشيب | وسخطك داء ليس منه طبيب
كأنك في كل النفوس مركبٌ | فأنت إلى كل النفوس حبيب

وذكر له شيئاً كثيراً غير هذا.

وقال المسعودي في كتاب "مروج الذهب ": وقد عارض أبو القاسم التنوخي المذكور أبا بكر ابن دريد في مقصورته، وذكر منها أبياتاً، ومدح فيها تنوخ وقومه من قضاعة.

وقال غيره: حكى أبو محمد الحسن بن عسكر الصوفي الواسطي قال: كنت ببغداد في سنة إحدى وعشرين وخمسمائة جالساً على دكة بباب أبرز للفرجة إذ جاء ثلاث نسوة فجلسن إلى جانبي، فأنشدت متمثلاً:

هواءٌ ولكنه جامد | وماء ولكنه غير جار

وسكت، فقالت إحداهن: هل تحفظ لهذا البيت تماماً؟ فقلت: ما أحفظ سواه، فقالت: أن أنشدك أحدٌ تمامه وما قبله ماذا تعطيه؟ فقلت: ليس لي شيء أعطيه، ولكني أقبل فاه، فأنشدتني الأبيات المذكورة، وزادت بعد البيت الأول:

إذا ما تأملتها وهي فيه | تأملت نوراً محيطاً بنار
فهذا النهاية في الابيضاض | وهذا النهاية في الاحمرار

فحفظت الأبيات منها، فقالت لي: أين الوعد؟ تعني التقبيل، أرادت مداعبتي بذلك.

وقال الخطيب: إنه ولد بأنطاكية يوم الأحد لأربع بقين من ذي الحجة سنة ثمان وسبعين ومائتين، وقدم بغداد وتفقه بها على مذهب الإمام أبي حنيفة، رضي الله عنه، وسمع الحديث وكان معتزلياً. وتوفي بالبصرة يوم الثلاثاء لسبع خلون من شهر ربيع الأول سنة اثنتين وأربعين وثلثمائة، رحمه الله تعالى. ودفن من الغد في تربة اشتريت له، بشارع المربد - وسيأتي ذكر ولده المحسّن في حرف الميم إن شاء الله تعالى - وكل واحد منهما له ديوان شعر.

الناشئ الأصغر

أبو الحسن علي بن عبد الله بن وصيف، المعروف بالناشئ الأصغر، الحلاّء الشاعر المشهور؛ وهو من الشعراء المحسنين، وله في أهل البيت قصائد كثيرة. وكان متكلماً بارعاً، أخذ علم الكلام عن أبي سهل إسماعيل بن علي بن نوبخت المتكلم، وكان من كبار الشيعة، وله تصانيف كثيرة، وكان جده وصيف مملوكاً وأبوه عبد الله عطاراً. والحلاء: بفتح الحاء المهملة وتشديد اللام ألف، وإنما قيل له ذلك لأنه كان يعمل حلية من النحاس.

قال أبو بكر الخوارزمي: أنشدني أبو الحسن الناشئ بحلب لنفسه، وهو مليح جداً:

إذا أنا عاتبت الملوك فإنما أخط بأقلامي على الماء أحرفا
وهبه ارعوى بعد العتاب، ألم تكن مودته طبعاً فصارت تكلفا

ومضى إلى الكوفة في سنة خمس وعشرين وثلثمائة، وأملى شعره بجامعها، وكان المتنبي وهو صبي يحضر مجلسه بها. وكتب من إملائه لنفسه من قصيدة:

كأن سنان ذابله ضميرٌ فليس عن القلوب له ذهاب
وصارمه كبيعته بخمٍ مقاصدها من الخلق الرقاب

فنظم المتنبي هذا وقال:

كأن الهام في الهيجا عيونٌ وقد طبعت سيوفك من رقاد
وقد صغت الأسنة من هموم فما يخطرن إلا في فؤاد

وكان قد قصد حضرة سيف الدولة بن حمدان بحلب، ولما عزم على مفارقته، وقد غمره بإحسانه، كتب إليه يودعه:

أودع لا أني أودع طائعا وأعطي بكرهي الدهر ما كنت مانعا
وأرجع لا ألفي سوى الوجد صاحباً لنفسي إن ألفيت بنفسي راجعا
تحملت عنا بالصنائع والعلا فنستودع الله العلا والصنائعا
راعاك الذي يرعى بسيفك دينه ولقاك روض العيش أخضر يانعا

ومن شعره أيضاً، عزاها إليه الثعالبي، ثم عزاها إلى أبي محمد ابن المنجم:

إذا لم تنل همم الأكرمين وسعيهم وادعاً فاغترب
فكم دعةٍ أتعبت أهلها وكم راحة نتجت من تعب

وله أيضاً:

إني ليهجرني الصديق تجنياً فأريه أن لهجره أسبابا
وأخاف إن عاتبته أغريته فأرى له ترك العتاب عتابا
وإذا بليت بجاهلٍ متغافلٍ يدعو المحال من الأمور صوابا
أوليته مني السكوت وربما كان السكوت عن الجواب جوابا

وفي أشعاره مقاصد جميلة.

وتوفي سنة ست وستين وثلثمائة، رحمه الله تعالى، وقيل أنه توفي يوم الاثنين لخمسة خلون من صفر من سنة خمس وستين ببغداد. ومولده في سنة إحدى وسبعين ومائتين.

الزاهي الشاعر

أبو القاسم بن علي بن إسحاق بن خلف البغدادي المعروف بالزاهي الشاعر المشهور؛ وكان وصافاً محسناً كثير الملح، ذكره الخطيب في " تاريخ بغداد " فقال: إنه حسن الشعر في الشبيهات وغيرها، وأحسب شعره قليلاً، وأشار إلى أنه كان قطاناً، وكان دكانه في قطيعة الربيع.

وذكره عميد الدولة أبو سعد ابن عبد الرحيم في " طبقات الشعراء " فقال: ولد يوم الاثنين لعشر ليال بقين من صفر سنة ثماني عشرة وثلثمائة، وتوفي

يوم الأربعاء لعشر بقين من جمادى الآخرة سنة اثنتين وخمسين وثلثمائة ببغداد، ودفن في مقابر قريش؛ وشعره في أربعة أجزاء، وأكثر شعره في أهل البيت، ومدح سيف الدولة والوزير المهلبي وغيرهما من رؤساء وقته، وقال في جميع الفنون؛ وذكر له:

صدودك في الهوى هتك استتاري ... وعاونه البكاء على اشتهاري
ولم أخلع عذاري فيك إلا ... لما عاينت من حسن العذار
وكم أبصرت من حسنٍ ولكن ... عليك لشقوتي وقع اختياري

وللزاهي المذكور في تشبيه البنفسج:

ولازورديةٍ أوفت بزرقتها ... بين الرياض على زرق اليواقيت
كأنها فوق قامات ضعفن بها ... أوائل النار في أطراف كبريت

وله:

ومدامةٍ لضيائها في كأسها ... نورٌ على فلك الأنامل بازغ
رقت وغاب عن الزجاجة لطفها ... فكأنما الإبريق منها فارغ

ومن محاسن شعره قوله:

وبيضٍ بألحاظ العيون كأنما ... هززن سيوفاً واستللن خناجرا

تصدين لي يوماً بمنعرج اللوى ... فغادرن قلبي بالتصبر غادرا
سفرن بدوراً وانتقبن أهلة ... ومسن غصوناً والتفتن جآذرا
وأطلعن في الأجياد بالدر أنجماً ... جعلن لحبات القلوب ضرائرا

وهذا تقسيم عجيب، وقد استعمله جماعة من الشعراء، ولكنهم ما أتوا به على هذه الصورة، فإنه أبدع فيه، وهو مثل قول المتنبي:

بدت قمراً ومالت خوط بان ... وفاحت عنبراً ورنت غزالا

وذكر الثعالبي لبعض شعراء عصره على هذا الأسلوب في وصف مغنٍ:

فديتك يا أتم الناس ظرفاً ... وأصلحهم لمتخذ حبيبا
فوجهك نزهة الأبصار حسناً ... وصوتك متعة الأسماع طيبا
وسائلة تسائل عنك قلنا ... لها في وصفك العجب العجيبا
رنا ظبياً وغنى عندليبًا ... ولاح شقائقاً ومشى قضيبا

ولولا خوف التطويل لذكرت له نظائر.

وللزاهي أيضاً:

من عذيري من عذاري قمر ... عرض القلب لأسباب التلف
علم الشعر الذي عاجله ... أنه جار عليه فوقف

والزاهي: بفتح الزاي وكسر الهاء بعد الألف قال السمعاني: هذه النسبة إلى قرية من قرى نيسابور ونسب إليها جماعة، ثم قال: وأما أبو الحسن علي بن إسحاق بن خلف الشاعر البغدادي المعروف بالزاهي فلا أدري نسب إلى هذه القرية أم لا، غير أنه بغدادي، وكان حسن الشعر.

علي بن المنجم

أبو الحسن علي بن يحيى بن أبي منصور المنجم؛ كان نديم المتوكل على الله ومن خواصه وجلسائه المتقدمين عنده، ثم انتقل إلى من بعده من الخلفاء، و لم يزل مكيناً عندهم حظياً لديهم يجلس بين يدي أسرتهم ويفضون إليه بأسرارهم ويأمنونه على أخبارهم، و لم يزل عندهم في المترلة العلية. وكان قبل اتصاله بالخلفاء يلوذ بمحمد بن إسحاق بن إبراهيم المصعبي، ثم اتصل بالفتح بن خاقان وعمل له خزانة كتب أكثرها حكمة، واستكتب له شيئاً عظيماً يزيد على ما كان في خزانته أضعافاً مضاعفة مما لم تشتمل عليه خزانته، وكان راوية للأشعار والأخبار حاذقاً في صنعة الغناء، أخذ عن إسحاق بن إبراهيم الموصلي، وشاهده، وصنف عدة كتب منها كتاب " الشعراء القدماء والإسلاميين " وكتاب " أخبار إسحاق بن إبراهيم الموصلي " وكتاب في الطبيخ، وغير ذلك. وكان شاعراً محسناً، فمن شعره قوله في الطيف:

بأبي والله من طرقا ... كابتسام البرق إذ خفقا

زادني شوقاً برؤيته ... وحشا قلبي به حرقا

من لقلب هائم كلفٍ ... كلما سكنته خفقا

زارني طيف الحبيب فما ... زاد أن أغرى بي الأرقا

وله أشعار حسان، وعاش إلى أن خدم المعتمد على الله وتوفي في أواخر أيامه، وذلك في سنة خمس وسبعين ومائتين بسر من رأى، رحمه الله تعالى، وخلف جماعة من الأولاد، وكلهم نجباء علماء ندماء – وسيأتي ذكر بعضهم في مواضعهم من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

علي بن هارون المنجم

أبو الحسن علي بن أبي عبد الله هارون بن علي بن يحيى بن أبي منصور المنجم الشاعر المشهور؛ ذو نسب عريق في ظرفاء الأدباء وندماء الخلفاء والوزراء، وله مع الصاحب ابن عباد مجالس، وفي تشريفه يقول الصاحب:

لبني المنجم فطنةٌ لهبيه ... ومحاسن عجميةٌ عربيه

وما زلت أمدحهم وأنشر فضلهم ... حتى عرفت بشدة العصبيه

ولأبي الحسن المذكور أشعار نادرة، ومما يتغنى به من شعره قوله:

بيني وبينك في الهوى أسباب ... وإلى المحبة ترجع الأنساب

بيني وبين الدهر فيك عتاب ... سيطول إن لم يمحه الإعتاب

يا غائباً بوصاله وكتابه ... هل يرتجى من غيبتيك إياب

لولا التعلل بالرجا لتقطعت ... نفسٌ عليك شعارها الأوصاب

لا يأس من روح الإله فربما ... يصل القطوع وتحضر الغياب

وكتب إلى ابن الخوارزمي وقد وثئت رجله من عثرة لحقته:

كيف نال العثار من لم يزل من ... ه مقيلاً في كل خطب جسيم

أو ترقى الردى إلى قدم لم ... تخط إلا إلى مقام كريم

وأشعاره ونوادره كثيرة.

وله من التصانيف كتاب " شهر رمضان " عمله للإمام الراضي، وكتاب " النيروز والمهرجان " وكتاب " الرد على الخليل " في العروض، وكتاب ابتدأ فيه بنسب أهله، عمله للوزير المهلبي و لم يتمه، وكتاب رسالة في الفرق بين إبراهيم بن المهدي وإسحاق الموصلي في الغناء وكتاب " اللفظ المحيط بنقض ما لفظ به اللقيط " وهو يعارض كتاب أبي الفرج الأصبهاني الذي سماه " الفرق والعيار بين الأوغاد والأحرار ". وهو ولد صاحب كتاب " البارع في اختيار شعر المحدثين " - وسيأتي ذكره في حرف الهاء إن شاء الله تعالى - وحفيد أبي الحسن المذكور قبله.

وكانت ولادته لتسع خلون من صفر سنة ست، وقيل سنة سبع وسبعين ومائتين. وتوفي يوم الأربعاء لثلاث عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة سنة اثنتين وخمسين وثلثمائة، رحمه الله تعالى، وكان يخضب إلى أن توفي.

أبو الفتح البستي

أبو الفتح علي بن محمد الكاتب البستي الشاعر المشهور؛ صاحب الطريقة الأنيقة في التجنيس الأنيس البديع التأسيس، فمن ألفاظه البديعة قوله: من أصلح فاسده، أرغم حاسده. من أطاع غضبه، أضاع أدبه. عادات السادات، سادات العادات. من سعادة جدك، وقوفك عند حدك. الرشوة رشاء الحاجات. أجهل الناس من كان للإخوان مذلا، وعلى السلطان مدلا. الفهم شعاع العقل. المنية تضحك من الأمنية. حد العفاف، الرضا بالكفاف. ما لخرق الرقيع ترقيع.

ومن نادر شعره قوله:

إن هز أقلامه يوماً ليعملها ... أنساك كل كميٍ هز عامله

وإن أقر على رق أنامله ... أقر بالرق كتاب الأنام له

وله:

وقد يلبس المرء حر الثياب ... ومن دونها حالة مضنيه

كمن يكتسي خده حمرةً ... وعلتها ورم في الريه

وله:

إذا تحدثت في قوم لتؤنسهم ... بما تحدث من ماض ومن آت

فلا تعد لحديث إن طبعهم ... موكل بمعاداة المعادات

وله:

تحمل أخاك على ما به ... فما في استقامته مطمع

وأنى له خلق واحد ... وفيه طبائعه الأربع

وللبستي حين تغير عليه السلطان، وهو معنى بديع:

قل للأمير أدام ربي عزه ... وأناله من فضله مكنونه

إني جنيت ولم يزل أهل النهى ... يهبون للخدام ما يجنونه

ولقد جمعت من العيون فنونها ... فاجمع من العفو الكريم فنونه

من كان يرجو عفو من هو فوقه عن ذنبه فليعف عمن دونه

وله أيضاً:

إذا أحسست في لفظي فتوراً وحفظ والبلاغة والبيان

فلا ترتب بفهمي إن رقصي على مقدار إيقاع الزمان

هكذا قاله في " زهر الآداب "، والله أعلم.

وشعره كثير في التجنيس وغيره.

وتوفي سنة أربعمائة، وقيل سنة إحدى وأربعمائة ببخارى،والله أعلم، رحمه الله تعالى.

وقد تقدم الكلام على البستي في ترجمة الخطابي، ورأيت في أول ديوانه أنه أبو الفتح علي بن محمد بن الحسن بن محمد بن عبد العزيز الكاتب الشاعر، والله أعلم.

التهامي الشاعر

أبو الحسن علي بن محمد التهامي الشاعر المشهور؛ قال ابن بسام الأندلسي في كتاب " الذخيرة " في حقه: كان مشتهر الإحسان، ذرب اللسان، مخلى بينه وبين دروب البيان، يدل شعره على فوز القدح، دلالة برد النسيم على الصبح، ويعرب عن مكانه من العلوم، إعراب الدمع على سر الهوى المكتوم.

قلت: وله ديوان شعر صغير أكثره نخب. ومن لطيف نظمه قوله من جملة قصيدة طويلة مدح بها الوزير أبا القاسم ابن المغربي – المقدم ذكره في حرف الحاء:

قلت لخلي وثغور الربا مبتسمات وثغور الملاح

أيهما أحلى ترى منظراً فقال :لا أعلم، كلٌ أقاح

ومثل هذا ما ينسب إلى ابن سناء الملك – الآتي ذكره – وهو:

فتحيرت أحسب الثغر عقداً لسليمى وأحسب العقد ثغرا

فلثمت الجميع قطعاً لشكي وكذا فعل كل من يتحرى

وله في المديح وقد بالغ فيه:

أعطى وأكثر فاستقل هباته فاستحيت الأنواء وهي هوامل

فاسم السحاب لديه وهو كنهور آلٌ، وأسماء البحور جداول

وله مرثية في ولده، وكان قد مات صغيراً، وهي في غاية الحسن ولم يمنعني من الإتيان بها إلا أن الناس يقولون: إنها محدودة، فتركتها، لكن من جملتها بيتان في الحساد ومعناهما غريب فأثبتهما:

إني لأرحم حاسدي لحر ما ضمت صدورهم من الأوغار

نظروا صنيع الله بي فعيونهم في جنة، وقلوبهم في نار

ومنها في ذم الدنيا:

طبعت على كدر وأنت تريدها ... صفواً من الأقذاء والأكدار

ومكلف الأيام ضد طباعها ... متطلب في الماء جذوة نار

وإذا رجوت المستحيل فإنما ... تبني الرجاء على شفيرٍ هار

ومنها:

جاورت أعدائي وجاور ربه ... شتان بين جواره وجواري

وتلهب الأحشاء شيب مفرقي ... هذا الشعاع شواظ تلك النار

ومعنى هذا البيت مأخوذ من قول أبي نصر سعيد بن الشاه، وهو:

قالت اسود عارضاك بشعرٍ ... وبه تقبح الوجوه الحسان

قلت أشعلت في فؤادي ناراً ... فعلى وجنتي منه دخان

وله من جملة قصيدة طويلة:

كم قلت إياك الحجاز فإنه ... ضريت جآذره بصيد أسوده

وأردت صيد مها الحجاز فلم يسا ... عدك القضاء فصرت بعض صيوده

ومن شعره المشهور قوله:

بين كريمين مجلسٌ واسع ... والود حال يقرب الشاسع

والبيت إن ضاق عن ثمانية ... متسعٌ بالوداد للتاسع

وله بيت بديع من جملة قصيدة وهو:

وإذا جافاك الدهر وهو أبو الورى ... طراً فلا تعتب على أولاده

وكان التهامي المذكور قد وصل إلى الديار المصرية مستخفياً، ومعه كتب كثيرة من حسان بن مفرج بن دغفل البدوي وهو متوجه إلى بني قرة، فظفروا به، فقال: أنا من بني تميم، فلما انكشفت حاله عرف أنه التهامي الشاعر، فاعتقل في خزانة البنود، وهو سجن بالقاهرة المحروسة، وذلك لأربع بقين من شهر ربيع الآخر سنة ست عشرة وأربعمائة، ثم قتل سراً في سجنه في تاسع جمادى الأولى من السنة المذكورة، رحمه الله تعالى. وكان أصفر اللون، هكذا نقلته من بعض تواريخ المصريين، وهو مرتب على الأيام، قد كتب مؤلفه كل يوم وما جرى فيه من الحوادث، رأيت منه مجلداً واحداً، ولا أعلم كم عدد مجلداته. وبعد موته رآه بعض أصحابه في النوم، فقال له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي، فقال: بأي الأعمال؟ فقال: بقولي في مرثية ولدي الصغير:

جاورت أعدائي وجاور ربه ... شتان بين جواره وجواري

والتهامي: بكسر التاء المثناة من فوقها وفتح الهاء وبعد الألف ميم، هذه النسبة إلى تهامة، وهي تنطلق على مكة، حرسها الله تعالى، ولذلك قيل للنبي صلى الله عليه وسلم: تهامي لأنه منها، وتنطلق أيضاً على جبال تهامة وبلادها، وهي خطة متسعة بين الحجاز وأطراف اليمن، ولا أعلم هل نسبة هذا الشاعر إلى مكة أم إليها، والله أعلم.

ابن نوبخت

أبو الحسن علي بن أحمد بن نوبخت الشاعر؛ كان شاعراً مجيداً، إلا أنه كان قليل الحظ من الدنيا، لم يزل رقيق الحال ضعيف المقدرة، وتوفي بمصر في شعبان سنة ست عشرة وأربعمائة، وهو على حاله من الضرورة وشدة الفاقة، رحمه الله تعالى؛ وكفنه ولي الدولة أبو محمد أحمد بن علي المعروف بابن خيران الكاتب الشاعر.

وهذا ابن خيران كان متولي كتب السجلات عن الظاهر بن الحاكم صاحب مصر، وله ديوان شعر أيضاً صغير الحجم ومن شعره البيتان المشهوران وهما:

سعى إليك بي الواشي فلم ترني ... اهلاً لتكذيب ما ألقى من الخبر

ولو سعى بك عندي في ألذ كرىً ... طيف الخيال لبعت النوم بالسهر

قلت: ويقرب من هذا المعنى قول أبي عبد الله الحسين بن القم اليمني الشاعر المشهور صاحب الرسالة المشهورة من جملة أبيات، وهو قوله:

أنبئت أنك قد أتتك قوارضٌ ... عني ثنتك على الضمير الواجد

عملت رقى الواشين فيك وإنها ... عندي لتضرب في حديد بارد

والأصل في هذا كله قول عبد الله بن الدمينة الخثعمي الشاعر المشهور المعروف بنائحة العرب من جملة قصيدته البائية المشهورة، وهو قوله:

وكوني على الواشين لداء شغبةً ... كما أنا للواشي ألد شغوب

ونوبخت: بضم النون وسكون الواو وفتح الباء الموحدة وسكون الخاء المعجمة وبعدها تاء مثناة من فوقها.

وإنما ذكرت ابن خيران في هذه الترجمة، و لم أفرده بترجمة، لأني لم أقف على تاريخ وفاته، وقد التزمت في هذا الكتاب ذكر أرباب الوفيات، ثم إني وجدت في كتاب " طبقات الشعراء " تأليف الوزير أبي سعد محمد بن الحسين بن عبد الرحيم الملقب عميد الدولة ترجمة ولي الدولة ابن خيران المذكور، وذكر له شعراً وقال: كان شاباً حسن الوجه، ورد الخبر بوفاته في شهر رمضان من سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة، وكان وقوفي على هذا الفصل في أواخر سنة خمس وسبعين وستمائة بالقاهرة، والله أعلم.

صريع الدلاء

أبو الحسن علي بن عبد الواحد الفقيه البغدادي، المعروف بصريع الدلاء قتيل الغواشي ذي الرقاعتين الشاعر المشهور؛ ذكره الرشيد أبو الحسين أحمد بن الزبير المذكور في حرف الهمزة في كتاب " الجنان "، فقال: " كان يسلك في شعره مسلك أبي الرقعمق، وله قصيدة في المجون ختمها ببيت لو لم يكن له في الجد سواه لبلغ به درجة الفضل وأحرز معه قصب السبق وهو قوله:

من فاته العلم وأخطاه الغنى ... فذاك والكلب على حال سوا

وقدم مصر سنة اثنتي عشرة وأربعمائة ومدح الظاهر لإعزاز دين الله "؛ انتهى كلام ابن الزبير.

ورأيت في نسخة من ديوان شعره أنه أبو الحسن محمد بن عبد الواحد القصار البصري، والله أعلم بالصواب. وكانت وفاته في سابع رجب سنة اثنتي عشرة وأربعمائة، فجأة، من شرقة لحقته عند الشريف البطحائي، وغالب ظني أنه توفي بمصر، رحمه الله تعالى، لأني نقلت تاريخ وفاته من التاريخ الذي ذكرته في ترجمة التهامي، ومبناه على الحوادث الكائنة بمصر يوماً فيوماً ويؤيد ذلك أن ابن الزبير قد ذكر أنه قدم مصر في سنة اثنتي عشرة، وهي السنة التي توفي فيها، والله أعلم.

وفيه قال أبو العلاء المعري:

دعيت بصارعٍ فتداركته ... مبالغةٌ فرد إلى فعيل

كان طلب منه شراباً وما يليق به، فسير له قليل نفقة، واعتذر بهذه الأبيات.

صردر الشاعر

الرئيس أبو منصور علي بن الحسن بن علي بن الفضل الكاتب المعروف بصردر الشاعر المشهور؛ أحد نجباء شعراء عصره، جمع بين جودة السبك وحسن المعنى، وعلى شعره طلاوة رائقة وبهجة فائقة، وله ديوان شعر وهو صغير، وما ألطف قوله من جملة قصيدة:

نسائل عن ثمامات بحزوى ... وبان الرمل يعلم ما عنينا
فقد كشف الغطاء فما نبالي ... أصرحنا بذكرك أم كنينا
ولو أني أنادي يا سليمى ... لقالوا ما أردت سوى لبينى
ألا لله طيفٌ منك يسقي ... بكاسات الكرى زوراً ومينا
مطيته طوال الليل جفني ... فكيف شكا إليك وجىً وأينا
فأمسينا كأنا ما افترقنا ... وأصبحنا كأنا ما التقينا

وقوله في الشيب:

لم أبك أن رحل الشباب، وإنما ... أبكي لأن يتقارب الميعاد
شعر الفتى أوراقه، فإذا ذوى ... جفت على آثاره الأعواد

وله في جارية سوداء، وهو معنى حسن:

علقتها سوداء مصقولةً ... سواد قلبي صفةٌ فيها
ما انكسف البدر على تمه ... ونوره إلا ليحكيها
لأجلها الأزمان أوقاتها ... مؤرخات بلياليها

وإنما قيل له " صردر " لأن أباه كان يلقب " صربعر " لشحه، فلما نبغ ولده المذكور وأجاد في الشعر قيل له: صردر، وقد هجاه بعض الشعراء وقته وهو الشريف أبو جعفر مسعود المعروف بالبياضي الشاعر – وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى:

لئن لقب الناس قدماً أباك ... وسموه من شحه صر بعرا
فإنك تنثر ما صره ... عقوقاً له وتسميه شعرا

ولعمري ما أنصفه هذا الهاجي، فإن شعره نادر، وإنما العدو لا يبالي بما يقوله.

وكانت وفاة صردر في سنة خمس وستين وأربعمائة، وكان سبب موته أنه تردى في حفرة حفرت للأسد في قرية بطريق خراسان. وكانت ولادته قبل الأربعمائة – وسيأتي ذكره في ترجمة الوزير فخر الدولة بن جهير، واسمه محمد، وله هناك شعر بديع.

الباخرزي

أبو الحسن علي بن الحسن بن علي بن أبي الطيب الباخرزي الشاعر المشهور؛ كان أوحد عصره في فضله وذهنه، والسابق إلى حيازة القصب في نظمه ونثره. كان في شبابه مشتغلاً بالفقه على مذهب الإمام الشافعي، رضي الله عنه، واختص بملازمة درس الشيخ أبي محمد الجويني والد إمام الحرمين، ثم شرع في فن الكتابة، واختلف إلى ديوان الرسائل، وارتفعت به الأحوال وانخفضت، ورأى من الدهر العجائب سفراً وحضراً، وغلب أدبه على فقهه، فاشتهر بالأدب وعمل الشعر، وسمع الحديث، وصنف كتاب " دمية القصر وعصرة أهل العصر " وهو ذيل " يتيمة الدهر " التي للثعالبي، وجمع فيها

خلقاً كثيراً.

وقد وضع على هذا الكتاب أبو الحسن علي بن زيد البيهقي كتاباً سماه " وشاح الدمية " وهو كالذيل له، هكذا سماه السمعاني في " المذيل "، وقال العماد في "الخريدة ": هو شرف الدين أبو الحسن علي بن الحسن البيهقي، والله أعلم، وذكر أشياء من شعره، فمن ذلك:

يا خالق الخلق حملت الورى | لما طغى الماء على جاريه
وعبدك الآن طغى ماؤه | في الصلب فاحمله على جاريه

رجعنا إلى الباخرزي وديوان شعره مجلد كبير والغالب عليه الجودة، فمن معانيه الغريبة قوله:

وإني لأشكو لسع أصداغك التي | عقاربها التي في وجنتيك تحوم
وأبكي لدر الثغر منك ولي أبٌ | فكيف يديم الضحك وهو يتيم

ومن قوله في شدة البرد:

كم مؤمن قرصته أظفار الشتا | فغدا لسكان الجحيم حسودا
وترى طيور الماء في وكناتها | تختار حر النار والسفودا
وإذا رميت بفضل كسأك في الهوى | عادت عليك من العقيق عقودا
يا صاحب العودين لا تهملهما | حرق لنا عوداً وحرك عودا

وقوله من جملة أبيات:

يا فالق الصبح من لألاء غرته | وجاعل الليل من أصداغه سكنا
بصورة الوثن استعبدني، وبها | فتنتني، وقديماً هجت لي شجنا
لا غرو أن أحرقت نار الهوى كبدي | فالنار حق على من يعبد الوثنا

ومن المنسوب إليه،والله أعلم:

وإذا بكيت دماً تقول شمت بي | يوم النوى فصبغت دمعك أحمرا
من شاء أمنحه الغرام فدونه | هذي خلائقها بتحبير الشرى

هكذا أنشدنيهما بعض المتأدبين والعهدة عليه في ذلك.

وقتل الباخرزي في مجلس الأنس بباخرز في ذي القعدة سنة سبع وستين وأربعمائة، وذهب دمه هدراً، رحمه الله تعالى.

وباخرز: بفتح الباء الموحلة وبعد الألف خاء موحدة مفتوحة ثم راء ساكنة وبعدها زاي، وهي ناحية من نواحي نيسابور تشتمل على قرى ومزارع، خرج منها جماعة من الفضلاء وغيرهم.

ابن أفلح الشاعر

جمال الملك أبو القاسم علي بن أفلح العبسي الشاعر المشهور؛ شاعر ظريف حسن المديح كثير الهجاء، مدح الخلفاء فمن دونهم من أرباب المراتب، وجاب البلاد ولقي رؤساها وأكابرها ، رأيت ديوانه في مجلد وسط وقد جمعه بنفسه وعمل له خطبة وقفاه، وذكر عدد ما في كل قافية في بيت، واعتنى بأمره وهذبه، نقلت منه قوله يخاطب محبوبه:

يا جاهلاً قدر المحبة ساءني | ما ضاع من كلفي ومن تبريحي

سيان عندك مغرم بك هائم ... وخلي قلبٍ فيك غير قريح
لو كنت أعلم أن طبعك هكذا ... لم أعص يوم نصحت فيك نصيحي
ما كان في عزمي السلو وإنما ... ألزمتنيه بكثرة التقبيح

وله في غلام ناقص الجمال:

وما عشقي له وحشاً لأني ... كرهت الحسن واخترت القبيحا
ولكن غرت أن أهوى مليحاً ... وكل الناس يهوون المليحا

ولابن المعتز في هذا المعنى أيضاً، أي في ناقص الجمال:

قلبي ميال إلى ذا وذا ... ليس يرى شيئاً فيأباه
يهيم بالحسن كما ينبغي ... ويرحم القبح فيهواه

ومن أبياته السائرة المشهورة من جملة أبيات قوله:

بيننا يوم أثيلات منى ... كان عن غير تراضٍ بيننا

ولبعض المتأخرين في المعنى الأول:

أنا لا أعشق من يع ... شقه كل الأنام
وأعاف المنهل العذ ... ب لبغضي في الزحام

وله في غلام أعرج، أي لابن أفلح المذكور:

بأبي من رأيته يتثنى ... فهو من لينه يحل ويعقد
حسدوه على الجمال فقالوا ... أعرج والمليح مازال يحسد
هو غصنٌ والحسن في الغصن النا ... عم ما كان مائلاً يتأود

وله في بعض الرؤساء، وقد وصل إلى بابه، فمنعه البواب من الدخول إليه:

حمدت بوابك إذ ردني ... وذمه غيري على رده
لأنه قلدني نعمة ... تستوجب الإغراق في حمده
أراحني من قبح ملقاك لي ... وكبرك الزائد في حده

وأورد له الحظيري في " زينة الدهر ":

لا غرو من جزعي لبينهم ... يوم النوى وأنا أخو الفهم
فالقوس من خشب تئن إذا ... ما كلفوها فرقة السهم

وقال وقد وعده رجل بدرياق وتأخر عنه:

لا غرو أن أخلف ميعاده ... من لم يجد قط ولم يكرم

وإنما الأعجب منه أنا | أن أطلب الدرياق من أرقم

وله نوادر كثيرة.

وتوفي يوم الخميس ثاني شعبان سنة خمس، وقيل ست، وقيل سبع وثلاثين وخمسمائة، وعمره أربع وستون سنة وثلاثة أشهر وأربعة عشر يوماً، وكانت وفاته ببغداد، ودفن بالجانب الغربي بمقابر قريش، رحمه الله تعالى.

وأفلح: بفتح الهمزة وسكون الفاء وفتح اللام وبعدها حاء مهملة.

والعبسي: بفتح العين المهملة وسكون الباء الموحدة وبعدها سين مهملة، هذه النسبة إلى عبس، وهو اسم لعدة قبائل، ولا أعلم إلى أيها ينسب المذكور، وهو يتصحف بالعنسي، مثل الأول لكن بدل الباء نون، وهي قبيلة أيضاً.

ابن مسهر الموصلي

أبو الحسن علي بن أبي الوفاء سعد بن أبي الحسن علي بن عبد الواحد بن عبد القاهر بن أحمد بن مسهر الموصلي، الملقب مهذب الدين؛ كان شاعراً بارعاً رئيساً مقدماً، تنقل في أكثر ولايات الموصل ومدح الخلفاء والأمراء؛ رأيت ديوان شعره في مجلدين، وذكر في ديوانه أنه ولد بمدينة آمد، ومن محاسن شعره قوله في صفة فهد:

وكل أهرت بادي السخط مطرح ال | حياء جهم المحيا سيء الخلق

والشمس مذ لقبوها بالغزالة أع | طته الرشا حسداً من لونها اليقق

ونقطته حباءً كي يسالمها | على المنايا نعاج الرمل بالحدق

هذا ولم يبرزا مع سلم جانبه | يوماً لناظره إلا على فرق

ومن هذه القصيدة في صفة الخيل:

سودٌ حوافرها بيضٌ جحافلها | صبغ تولد بين الصبح والغسق

من طول ما وطئت ظهر الدجا خبباً | وطول ما كرعت من منهل الفلق

وهي قصيدة بديعة، وأولها:

هي الموارد بين السحر والحدق | فرد دنان المنايا مورد الأنق

وأطيب العيش ما تجنيه من تعب | وأعذب الشرب ما يصفو من الرنق

يا دار درك إخلاف الغمام على | مر النسيم بجاري الغيث منبثق

وإن عدتك عوادي المزن فانتجعي | بأروض الأرض من أجفان ذي حرق

وهذه الأبيات مع أنها جيدة مأخوذة من أبيات الأمير أبي عبد الله محمد بن أحمد السراج الصوري، وكان معاصره، وهي من جملة قصيدة:

شثن البراثن في فيه وفي يده | ما في الصوارم والعسالة الذبل

تنافس الليل فيه والنهار معاً | فقمصاه بجلباب من المقل

والشمس منذ دعوها بالغزالة لم | تبرز لناظره إلا على وجل

ومن شعر ابن مسهر أيضاً بيتان كتبهما إلى بعض الرؤساء:

ولما اشتكيت اشتكى كل ما | على الأرض واعتل شرقٌ وغرب

لأنك قلبٌ لجسم الزمان وما صح جسمٌ إذا اعتل قلب

وذكره العماد الكاتب في " الخريدة "، وبالغ في الثناء عليه، ثم قال: أنشدني العلم الشاتاني له هذه القصيدة:

حسرت عن يومنا النوب واكتسى نواره العشب

واستقامت في مجرتها بالأماني السبعة الشهب

يا خليلي أين مصطبحٌ فيه للذات مصطحب

وثغور الزهر ضاحكة ودموع القطر تنسكب

ولنا في كل جارحة من غنا أطياره طرب

اسقنيها بنت دسكرة وهي أم حين تنتسب

خندريسونٌ دون مدتها جاءت الأزمان والحقب

طاف يجلوها لنا رشأ قصرت عن لحظه القضب

أوقدتها نار وجنته فهي في كفيه تلتهب

ولها من ذاتها طربٌ فلهذا يرقص الحبب

ثم قال بعد ذلك: وكان قد حكى لي كمال الدين بن السهروردي قال: كان ابن مسهر إذا أعجبه معنى لشاعر أو بيت عمل عليه قصيدة وادعاه لنفسه، واجتمع هو والأبيوردي مرة، وهو لا يعرف ابن مسهر، فجرى حديث ابن مسهر وأنه سرق بيت الأبيوردي، فقال ابن مسهر: بل الأبيوردي سرق شعري.

وقال في " الخريدة " أيضاً في حقه في أول ترجمته: عاش إلى زماننا هذا، ورأيته شيخاً أناف على التسعين لما كنت بالموصل سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة، ثم وصفه على جاري عادته، ثم قال: وابن مسهر مسهر المعاصرين حسداً، ومميت القاصرين عن شأوه كمداً، ثم قال في أثناء الترجمة: ومن غريب الاتفاق ما حكاه السمعاني عن أبي الفتح عبد الرحمن بن أبي الغنائم محمد بن أحمد بن علي بن عبد الغفار المعروف بابن الأخوة البيع الأديب الكاتب، أنه رأى في منامه منشداً ينشد:

وأعجب من صبري القلوص التي سرت بهودجك المزموم أنى استقلت

وأطبق أحناء الضلوع على جوىً جميعٍ وصبرٍ مستحيلٍ مشتت

قال أبو الفتح المذكور: فلما انتبهت جعلت دأبي السؤال عن قائل هذين البيتين مدة، فلم أجد مخبراً عنهما، ومضى على ذلك عدة سنين، ثم اتفق نزول أبي الحسن علي بن مسهر المذكور في ضيافتي، فتجاذبنا في بعض الليالي ذكر المنامات، فذكرت له حال المنام الذي رأيته، وأنشدته البيتين المذكورين، فقال:أقسم بالله أنهما من شعري من جملة قصيدة، وأنشدني منها:

إذا ما لسان الدمع نم على الهوى فليس بسرٍ ما الضلوع أجنت

فوالله ما أدري عشية ودعت أناحت حمامات اللوى أم تغنت

وأعجب من صبري القلوص التي سرت بهودجك المزموم أنى استقلت

أعاتب فيك اليعملات على النوى | وأسأل عنك الريح من حيث هبت
وأطبق أحناء الضلوع على جوىً | جميعٍ وصبرٍ مستحيلٍ مشتت

قال: فعجبنا من هذا الاتفاق، ثم تذاكرنا بقية ليلتنا بأنواع الأدب.

ومن شعره أيضاً، وهو ما أورده له في " الخريدة " من قصيدة:

الوجد ما قد هيج الطللان | مني، وأذكرني حمام البان
أنا والحمائم حيث تندب شجوها | فوق الأراكة سحرةً سيان
فأنا المعنى بالقدود أمالها | شرخ الشباب وهن بالأغصان

ومنها:

فافخر فإنك من سلالة معشر | عقدوا عمائمهم على التيجان
كل الأنام بنو أبٍ لكنما | بالفضل تعرف قيمة الإنسان .

وتوفي في أواخر صفر سنة ثلاث وأربعين وخمسائة رحمه الله تعالى. وقال العماد الكاتب في " الخريدة " سنة ست وأربعين.

ومسهر: بضم الميم وسكون السين المهملة وكسر الهاء بعدها وبعدها راء، وهو اسم علم.

ابن الساعاتي

أبو الحسن علي بن رستم بن هردوز المعروف بابن الساعاتي، الملقب بهاء الدين، الشاعر المشهور؛ شاعر مبرز في حلبة المتأخرين، له ديوان شعر يدخل في مجلدين، أجاد فيه كل الإجادة، وديوان أخر لطيف سماه " مقطعات النيل " نقلت منه قوله:

لله يومٌ في سيوط وليلةٌ | صرف الزمان بأختها لا يغلط
بتنا وعمر الليل في غلوائه | وله بنور البدر فرعٌ أشمط
والطل في سلك الغصون كلؤلؤ | رطب يصافحه النسيم فيسقط
والطير يقرأ والغدير صحيفة | والريح تكتب والغمامة تنقط

وهذا تقسيم بديع؛ ونقلت منه أيضاً:

وقد نزلت بروضة حزنيةٍ | رتعت نواظرها بها والأنفس
فظللت أعجب حيث يحلف صاحبي | والمسك من نفحاتها يتنفس
ما الجو إلا عنبرٌ والدوح | إلا جوهرٌ والروض إلا سندس
سفرت شقائقها فهم الأقحوا | ن بلثمها فرنا إليه النرجس

فكأن ذا خد وذا ثغر يحا | وله وذا أبداً عيون تحرس

وله كل معنى مليح.

أخبرني ولده بالقاهرة المحروسة أن أباه توفي يوم الخميس الثالث والعشرين من شهر رمضان سنة أربع وستمائة بالقاهرة، ودفن بسفح المقطم وعمره

إحدى وخمسون سنة وستة أشهر وأثنا عشر يوماً. ورأيت بخط بعض المشايخ وقد وافق في تاريخ الوفاة ولكنه قال: عاش ثمانياً وأربعين سنة وسبعة أشهر واثني عشر يوما وأنه ولد بدمشق، رحمه الله تعالى. والله أعلم بالصواب.

ورستم: بضم الراء وسكون السين المهملة وضم التاء المثناة من فوقها.

وهردوز: بفتح الهاء وسكون الراء وضم الدال وسكون الواو وبعدها زاي.

وسيوط: بضم السين المهملة والياء المثناة من تحتها وسكون الواو وبعدها طاء مهملة، وهي بلدة بصعيد مصر، ومنهم من يقول أسيوط بزيادة همزة مضمومة وسكون السين.

ابن الآمدي قاضي واسط

أبو الفضائل علي بن أبي المظفر يوسف بن أحمد بن محمد بن عبيد الله بن الحسين بن أحمد بن جعفر، الآمدي الأصل الواسطي المولد والدار؛ هو من بيت معروف بواسط بالصلاح والروايه والعدالة، قدم بغداد وأقام بها مدة متفقهاً على مذهب الإمام الشافعي، رضي الله عنه، على الشيخ أبي طالب المبارك بن المبارك صاحب ابن الخل، ثم من بعده على أبي القاسم يعيش بن صدقة الفراتي، وأعاد له درسه بالمدرسة الثقتية بباب الأزج، وكان حسن الكلام في المناظرة، وسمع الحديث من جماعة كبيرة ببلده وببغداد، وتولى القضاء بواسط في أواخر صفر سنة أربع وستمائة، وصار إليها في شهر ربيع الأول من السنة المذكورة، وأضيف إليه أيضاً الاشراف بالأعمال الواسطية، وكان له معرفة بالحساب، وله أشعار رائقة، فمن ذلك الأبيات السائرة وهي:

واهاً له ذكر الحمى فتأوها ... ودعا به داعي الصبا فتولها

هاجت بلابله البلابل فانثنت ... أشجانه تثني عن الحلمي النهى

فشكا جوى وبكى أسى وتنبه ال ... وجد القديم ولم يزل متنبها

قالوا وهى جلداً ولو علق الهوى ... بيلملم يوما تأوه أو وهى

لا تكرهوه على السلو فطائعاً ... حمل الغرام فكيف يسلو مكرها

ياعتب لا عتب عليك فسامحي ... وصلي فقد بلغ السقام المنتهى

علمت بان الجزع ميل غصونه ... لما خطرت عليه في حلل البها

ومنحت غنج اللحظ غزلان النقا ... فلذاك أحسن ما يرى عين المها

لولا دلالك لم أبت متقسم ال ... عزمات مسلوب الرقاد متيها

لي أربع شهداء في صدق الولا ... دمع وحزن مفرطٌ وتدلها

وبلابل تعتادني لو أنها ... في يذبل يوماً لأصبح كالسها

لام العواذل في هواك وما أرعوى ... ونهاه عنك اللائمون ومن انتهى

قالوا اشتهاك وقد رآك مليحة ... عجباً وأي مليحة لا تشتهى

أنا أعشق العشاق فيك ولا أرى ... مثلي ولا لك في الملاحة مشبها

وله غيرها أشعار رقيقة.

قلت: هكذا وجدت هذه الأبيات منسوبة إليه ولا أتحقق صحتها، والله أعلم، ثم وجدت بخطي في مسودتي أن توفي ابن الآمدي الشاعر سنة إحدى

وخمسين وخمسمائة، وكان في طبقة الغزي والأرجاني، و لم أقف على اسمه ونسبه حتى أعلم من هو، لكنه قال: وكان من أهل النيل، يعني البليدة التي في العراق، وكان قد زاد على تسعين سنة، فيحتمل أن تكون له هذه الأبيات المذكورة في هذه الترجمة، ويحتمل أن تكون لهذا الثاني المجهول الاسم والنسب، والله أعلم، لكن يترجح الأول لأنه كان قاضي واسط فهو الفقيه، وهذا الشاعر.

وكانت ولادته بواسط في الخامس والعشرين من ذي الحجة سنة تسع وخمسين وخمسمائة. وتوفي ليلة الاثنين ثالث شهر ربيع الأول سنة ثمان وستمائة بواسط، وصلي عليه يوم الاثنين، ودفن عند أبيه وأهله بظاهر البلد، رحمه الله تعالى، وقد تقدم الكلام على الآمدي، وأن نسبته إلى آمد.

عماد الدوله ابن بويه

عماد الدولة أبو الحسن علي بن بويه بن فناخسرو الديلمي صاحب بلاد فارس – وقد تقدم تمام نسبه في ترجمة أخيه معز الدولة أحمد بن بويه في حرف الهمزة فأغنى عن الإعادة؛ وعماد الدولة المذكور أول من ملك من بني بويه، وكان أبوه صياداً وليست له معيشة إلا من صيد السمك، وكانوا ثلاثة إخوة: عماد الدولة أكبرهم، ثم ركن الدولة الحسن وهو والد عضد الدولة – وقد تقدم ذكره في حرف الحاء – ثم معز الدولة، والجميع ملكوا. وكان عماد الدولة سبب سعادتهم وانتشار صيتهم، واستولوا على البلاد وملكوا العراقين والأهواز وفارس وساسوا أمور الرعية أحسن سياسة، ثم لما ملك عضد الدولة بن ركن الدولة اتسعت مملكته، وزادت على ما كان لأسلافه، ولولا خوف الإطالة لذكرت طرفاً من سبب تملك عماد الدولة المذكور وكيفية أمره من أول الحال.

وذكر أبو محمد هارون بن العباس المأموني في تاريخه أن عماد الدولة المذكور اتفقت له أسباب عجيبة كانت سبباً لثبات ملكه: منها أنه لما ملك شيراز في أول ملكه اجتمع أصحابه وطالبوه بالأموال، و لم يكن معه ما يرضيهم به وأشرف أمره على الانحلال، فاغتم لذلك، فبينما هو مفكر قد استلقى على ظهره في مجلس قد خلا فيه للفكرة والتدبير إذ رأى حية قد خرجت من موضع من سقف ذلك المجلس ودخلت موضعاً آخر منه، فخاف أن تسقط عليه، فدعا الفراشين وأمرهم بإحضار سلم، وأن تخرج الحية، فلما صعدوا وبحثوا عن الحية وجدوا ذلك السقف يفضي إلى غرفة بين سقفين، فعرفوه ذلك، فأمرهم بفتحه ففتحت فوجد فيها عدة صناديق من المال والمصاغات قدر خمسمائة ألف دينار، فحمل المال إلى بين يديه، فسر به وأنفقه في رجاله، وثبت أمره بعد أن كان قد أشفى على الانخرام. ثم أنه قطع ثياباً وسأل عن خياط حاذق، فوصف له خياط كان لصاحب البلد قبله، –فأمر بإحضاره، وكان أطروشاً، فوقع له أنه قد سعي به إليه في وديعة كانت عنده لصاحبه، وأنه طلبه لهذا السبب، فلما خاطبه حلف أنه ليس عنده إلا اثنا عشر صندوقاً لا يدري ما فيها، فعجب عماد الدولة من جوابه، ووجه معه من حملها، فوجد فيها أموالاً وثياباً بجملة عظيمة، فكانت هذه الأسباب من أقوى دلائل سعادته، ثم تمكنت حاله واستقرت قواعده.

وكانت وفاته يوم الأحد لأربع عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى سنة ثمان وثلاثين، وقيل تسع وثلاثين وثلثمائة بشيراز، ودفن في دار المملكة، وأقام في المملكة ست عشر سنة، وعاش سبعاً وخمسين سنة و لم يعقب، رحمه الله تعالى.

وأتاه في مرضه أخوه ركن الدولة واتفقا على تسليم بلاد فارس إلى عضد الدولة بن ركن الدولة فتسلمها.

سيف الدولة بن حمدان

سيف الدولة أبو الحسن علي بن عبد الله بن حمدان – وقد تقدم تتمة نسبه في ترجمة أخيه ناصر الدولة الحسن في حرف الحاء فلا حاجة إلى إعادته؛ قال أبو منصور الثعالبي في كتاب " يتيمة الدهر ": كان بنو حمدان ملوكاً أوجههم للصباحة، وألسنتهم للفصاحة، وأيديهم للسماحة، وعقولهم للرجاحة، وسيف الدولة مشهور بسيادتهم، ووساطة قلادتهم، وحضرته مقصد الوفود، ومطلع الجود، وقبلة الآمال، ومحط الرحال، وموسم الأدباء، وحلبة الشعراء، ويقال: إنه لم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ونجوم الدهر، وإنما السلطان سوق يجلب إليها ما ينفق لديها؛ وكان أديباً شاعراً محباً لجيد الشعر شديد الاهتزاز له، وكان كل من أبي محمد عبد الله بن محمد الفياض الكاتب وأبي الحسن علي بن محمد الشمشاطي قد اختار من مدائح الشعراء لسيف الدولة عشرة آلاف بيت.

ومن محاسن شعر سيف الدولة في وصف قوس قزح وقد أبدع فيه كل الإبداع، وقيل: إن هذه الأبيات لأبي الصقر القبيصي، والأول ذكره الثعالبي في كتاب " اليتيمة ":

وساقٍ صبيح للصبوح دعوته ... فقام وفي أجفانه سنة الغمض
يطوف بكاسات العقار كأنجم ... فمن بين منقض علينا ومنفض
وقد نشرت أيدي الجنوب مطارفاً ... على الجو دكناً والحواشي على الأرض
يطرزها قوس السحاب بأصفرٍ ... على أحمرٍ في أخضر تحت مبيض
كأذيال خودٍ أقبلت في غلائل ... مصبغة، والبعض أقصر من بعض

وهذا من التشبيهات الملوكية التي لا يكاد يحضر مثلها للسوقة، والبيت الأخير أخذ معناه أبو علي الفرج بن محمد بن الأخوة المؤدب البغدادي، فقال في فرس أدهم محجل:

لبس الصبح والدجنة بردي ... ن فأرخى برداً وقلص بردا

وقيل إنها لعبد الصمد بن المعذل.

وكانت له جارية من بنات ملوك الروم في غاية الجمال، فحسدها بقية الحظايا لقربها منه ومحلها من قلبه، وعزمنا على إيقاع مكروه بها من سم أو غيره، فبلغه الخبر وخاف عليها، فنقلها إلى بعض الحصون احتياطاً، وقال:

راقبتني العيون فيك فأشفق ... ت ولم أخل قط من إشفاق
ورأيت العدو يحسدني في ... ك مجداً يا أنفس الأعلاق
فتمنيت أن تكوني بعيداً ... والذي بيننا من الود باق
رب هجر يكون من خوف هجر ... وفراقٍ يكون خوف فراق

ورأيت هذه الأبيات بعينها في ديوان عبد المحسن الصوري، والله أعلم لمن هي منهما.

ومن شعره أيضاً:

أقبله على جزعٍ ... كشرب الطائر الفزع
رأى ماءً فأطعمه ... وخاف عواقب الطمع
وصادف خلسة فدنا ... ولم يلتذ بالجرع

ويحكى أن ابن عمه أبا فراس – المقدم ذكره في حرف الحاء – كان يوماً بين يديه في نفر من ندمائه، فقال لهم سيف الدولة: أيكم يجيز قولي، وليس له إلا سيدي، يعني أبا فراس:

لك جسمي تعله ... فدمي لم تحله؟

فارتجل أبو فراس وقال:

قال إن كنت مالكاً ... فلي الأمر كله

فاستحسنه وأعطاه ضيعة بأعمال منبج المدينة المعروف تغل ألفي دينار في كل سنة.

ومن شعر سيف الدولة أيضاً قوله:

تجنى علي الذنب والذنب ذنبه وعاتبني ظلماً وفي شقه العتب

إذا برم المولى بخدمة عبده تجنى له ذنباً وإن لم يكن ذنب

وأعرض لما صار قلبي بكفه فهلا جفاني حين كان لي القلب

وأنشدني الفقير أيدمر الصوفي المسمى إبراهيم لنفسه دوبيت في معنى البيت الثالث:

قوم نقضوا عهودنا بالشعب من غير جناية ولا من ذنب

صدوا وتعتبوا وقد همت بهم هلا هجروا وكان قلبي قلبي

ويحكى أن سيف الدولة كان يوماً بمجلسه والشعراء ينشدونه، فتقدم أعرأبي رث الهيئة وأنشد وهو بمدينة حلب:

أنت علي وهذه حلب قد نفذ الزاد وانتهى الطلب

بهذه تفخر البلاد وبال أمير تزهى على الورى العرب

وعبدك الدهر قد أضر بنا إليك من جور عبدك الهرب

فقال سيف الدولة: أحسنت والله، وأمر له بمائتي دينار.

وقال أبو القاسم عثمان بن محمد العراقي قاضي عين زربة: حضرت مجلس الأمير سيف الدولة بحلب، وقد وافاه القاضي أبو نصر محمد بن محمد النيسابوري، فطرح من كمه كيساً فارغاً ودرجاً فيه شعر استأذن في إنشاده، فأذن له، فأنشد قصيدة أولها:

حباؤك معتادٌ وأمرك نافذ وعبدك محتاج إلى ألف درهم

فلما فرغ من إنشاده ضحك سيف الدولة ضحكاً شديداً، وأمر له بألف درهم، فجعلت في الكيس الفارغ الذي كان معه.

وكان أبو بكر محمد وأبو عثمان سعيد ابنا هاشم المعروفان بالخالديين الشاعرين المشهورين، وأبو بكر أكبرهما، قد وصلا إلى حضرة سيف الدولة ومدحاه، فانزلهما وقام بواجب حقهما، وبعث لهما مرة وصيفاً ووصيفة ومع كل واحد منهما بدرة وتخت ثياب من عمل مصر، فقال أحدهما من قصيدة طويلة:

لم يغد شكرك في الخلائق مطلقاً إلا ومالك في النوال حبيس

خولتنا شمساً وبدراً أشرقت بهما لدينا الظلمة الحنديس

رشأ أتانا وهو حسناً يوسفٌ وغزالةٌ هي بهجةً بلقيس

هذا ولم تقنع بذاك وهذه حتى بعثت المال وهو نفيس

أتت الوصيفة وهي تحمل بدرة وأتى على ظهر الوصيف الكيس

وحبوتنا مما أجادت حوكه مصرٌ وزادت حسنه تنيس

فغدا لنا من جودك المأكول وال مشروب والمنكوح والملبوس

فقال له سيف الدولة: أحسنه إلا في لفظة " المنكوح " فليست مما يخاطب الملوك بها.

وأخبار سيف الدولة كثيرة مع الشعراء، خصوصاً مع المتنبي والسري الرفاء والنامي والببغاء والوأواء وتلك الطبقة، وفي تعدادهم طول.
وكانت ولادته يوم الأحد سابع عشر ذي الحجة سنة ثلاث وثلثمائة، وقيل سنة إحدى وثلثمائة. وتوفي يوم الجمعة ثالث ساعة، وقيل رابع ساعة، لخمس بقين من صفر سنة ست وخمسين وثلثمائة بحلب، ونقل إلى ميافارقين، ودفن في تربة أمه، وهي داخل البلد، وكان مرضه عسر البول.
وكان قد جمع من نفض الغبار الذي يجتمع عليه في غزواته شيئاً وعمله لبنة بقدر الكف، وأوصى أن يوضع خده عليها في لحده، فنفذت وصيته في ذلك.
وملك حلب في سنة ثلاث وثلاثين وثلثمائة، انتزعها من يد أحمد بن سعيد الكلابي صاحب الإخشيد.
ورأيت في " تاريخ حلب " أن أول من ولي حلب من بني حمدان الحسين بن سعيد، وهو أخو أبي فراس ابن حمدان، وأنه تسلمها في رجب سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة، وكان شجاعاً موصوفاً، وفيه يقول ابن المنجم:

وإذا رأوه مقبلاً قالوا ألا ... إن المنايا تحت راية ذاكا

وتوفي يوم الاثنين لأربع عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة سنة ثمان وثلاثين وثلثمائة بالموصل، ودفن بالمسجد الذي بناه في الدير الأعلى، وكنت أظن أن دير سعيد الذي بظاهر الموصل منسوب إلى أبيه حتى رأيته في كتاب الديرة منسوباً إلى سعيد بن عبد الملك بن مروان الأموي.
وكان سيف الدولة قبل ذلك مالك واسط وتلك النواحي، وتقلبت به الأحوال وانتقل إلى الشام وملك دمشق أيضاً وكثيراً من بلاد الشام وبلاد الجزيرة، وغزواته مع الروم مشهورة، وللمتنبي في أكثر الوقائع قصائد، رحمه الله تعالى.
وملك بعده ولده سعد الدولة أبو المعالي شريف بن سيف الدولة، وطالت مدته أيضاً في المملكة، ثم عرض له قولنج وأشفى منه على التلف، وفي اليوم الثالث من عافيته واقع جاريته، فلما فرغ منها سقط عنها وقد جف شقه الأيمن، فدخل عليه طبيبه، فأمر ان يسجر عنده الند والعنبر، فأفاق قليلاً، فقال له الطبيب: أرني مجسك، فناوله يده اليسرى، فقال: أريد اليمين، فقال: ما تركت لي اليمين يميناً، وكان قد حلف وغدر. وتوفي ليلة الأحد لخمس بقين من شهر رمضان من سنة إحدى وثمانين وثلثمائة وعمره أربعون سنة وستة أشهر وعشرة أيام.
وتولى بعده ولده أبو الفضائل سعد، و لم أقف على تاريخ وفاته، وبموته انقرض ملك بني سيف الدولة.
وتوفي أبو علي ابن الأخوة المذكور يوم الجمعة رابع عشر جمادى الآخرة سنة ست وأربعين وخمسمائة، وكان شاعراً مجيداً.

الظاهر العبيدي

أبو هاشم علي، الملقب الظاهر لإعزاز دين الله، ابن الحاكم بن العزيز بن المعز ابن المنصور بن القائم بن المهدي عبيد الله صاحب مصر، وقد تقدم ذكر جماعة من أهل بيته؛ كانت ولايته بعد فقد أبيه بمدة، لأن أباه فقد في السابع والعشرين من شوال سنة إحدى عشرة وأربعمائة – كما سيأتي في ترجمته إن شاء الله تعالى –وكان الناس يرجون ظهوره ويتتبعون آثاره إلى أن تحققوا عدمه، فأقاموا ولده المذكور في يوم النحر من السنة المذكورة، وكانت مملكته الديار المصرية وإفريقية وبلاد الشام، فقصد صالح بن مرداس الكلابي – المذكور في حرف الصاد – مدينة حلب وحاصرها، وفيها مرتضى الدولة بن لؤلؤ الجراحي غلام أبي الفضائل ابن شريف بن سيف الدولة الحمداني نيابة عن الظاهر المذكور، فانتزعها منه واستولى على ما يليها، وتغلب حسان بن مفرج بن دغفل البدوي صاحب الرملة على أكثر بلاد الشام، وتضعضعت دولة الظاهر وجرت أمور وأسباب يطول شرحها.

واستوزر نجيب الدولة أبا القاسم علي بن أحمد الجرجرائي، وكان أقطع اليدين من المرفقين، قطعهما الحاكم والد الظاهر في شهر ربيع الآخر سنة أربع وأربعمائة على باب القصر البحري بالقاهرة المحروسة، وحمل إلى داره، وكان يتولى بعض الدواوين فظهرت عليه خيانة قطع بسببها، ثم بعد ذلك ولي ديوان النفقات سنة تسع وأربعمائة، ثم وزر للظاهر سنة ثماني عشرة وأربعمائة، وهذا كله بعد أن تنقل في الخدم بالأرياف والصعيد. ولما استوزر كان يكتب عنه العلامة القاضي أبو عبد الله القضاعي صاحب كتاب " الشهاب " – وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى – وكانت علامته " الحمد لله شكراً لنعمته " واستعمل العفاف والأمانة الزائدة والاحتراز والتحفظ، وفي ذلك يقول جاسوس الفلك:

يا أحمقاً اسمع وقل ودع الرقاعة والتحامق

أأقمت نفسك في الثقا ت وهبك فيما قلت صادق

فمن الأمانة والتقى قطعت يداك من المرافق

وهو منسوب إلى جرجرايا- بفتح الجيمين بينهما راء ساكنة ثم راء مفتوحة وبين الألفين ياء مثناة من تحتها - وهي قرية من أرض العراق.

وكانت ولادة الظاهر يوم الأربعاء عاشر شهر رمضان سنة خمس وتسعين وثلثمائة بالقاهرة. وتوفي أخر ليلة الأحد منتصف شعبان سنة سبع وعشرين وأربعمائة، رحمه الله تعالى.

وسمعت أنه توفي ببستان الدكة، وكان بالمقس في الموضع المعروف بالدكة، والله أعلم.

وتوفي وزيره الجرجرائي سنة ست وثلاثين وأربعمائة، رحمه الله تعالى، في سابع شهر رمضان، وكانت مدة وزارته للظاهر وولده المستنصر سبع عشرة سنة وثمانية أشهر وثمانية عشر يوماً.

علي بن منقذ

أبو الحسن علي بن مقلد، بن نصر بن منقذ الكناني، الملقب سديد الملك، صاحب قلعة شيزر؛ كان شجاعاً مقدماً قوي النفس كريماً، وهو أول من ملك قلعة شيزر من بني منقذ، لأنه كان نازلاً مجاور القلعة بقرب الجسر المعروف اليوم بجسر بني المنقذ، وكانت القلعة بيد الروم فحدثته نفسه بأخذها، فنازلها وتسلمها بالأمان في رجب سنة أربع وسبعين وأربعمائة، ولم تزل في يده ويد أولاده إلى أن جاءت الزلزلة في سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة فهدمتها وقتلت كل من فيها من بني منقذ وغيرهم تحت الهدم، وشغرت، فجاءها نور الدين محمود بن زنكي صاحب الشام في بقية السنة وأخذها.

وذكر بهاء الدين بن شداد في كتاب " سيرة صلاح الدين " أنه جاءت زلزلة بحلب، وأخربت كثيراً من البلاد، وذلك في الثاني عشر من شوال سنة خمس وستين وخمسمائة، وهذه غير تلك، فلا يظن الواقف عليه أن هذا غلط، بل هما زلزلتان، والأول ذكره ابن الجوزي في " شذور العقود " وغيره أيضاً.

وكان سديد الملك المذكور مقصوداً، وخرج من بيته جماعة نجباء أمراء فضلاء كرماء، ومدحه جماعة من الشعراء كابن الخياط والخفاجي وغيرهما وكان له شعر جيد أيضاً، فمنه قوله وقد غضب على مملوك له وضربه:

أسطو عليه وقلبي لو تمكن من كفي غلهما غيظاً إلى عنقي

وأستعير إذا عاقبته حنقاً وأين ذل الهوى من عزة الحنق

وكان موصوفاً بقوة الفطنة، وتنقل عنه حكاية عجيبة، وهي أنه كان يتردد إلى حلب قبل تملكه شيزر، وصاحب حلب يومئذ تاج الملوك محمود بن صالح بن مرداس، فجرى أمر خاف سديد الملك المذكور على نفسه منه، فخرج من حلب إلى طرابلس الشام وصاحبها يومئذ جلال الملك بن عمار، فأقام عنده، فتقدم محمود بت صالح إلى كاتبه أبي نصر محمد بن الحسين علي بن النماس الحلبي أن يكتب إلى سديد الملك كتاباً يتشوقه ويستعطفه ويستدعيه إليه، ففهم الكاتب أنه يقصد له شراً، وكان صديقاً لسديد الملك، فكتب الكتاب كما أمر إلى أن بلغ إلى " إن شاء الله تعالى " فشدد النون وفتحها، فلما وصل الكتاب إلى سديد الملك عرضه على ابن عمار صاحب طرابلس ومن بمجلسه من خواصه، فاستحسنوا عبارة الكتاب واستعظموا ما فيه من رغبة محمود فيه وإيثاره لقربه، فقال سديد الملك إني أرى في الكتاب ما لا ترون، ثم أجابه عن الكتاب بما اقتضاه الحال، وكتب في جملة الكتاب " أنا الخادم المقر بالأنعام " وكسر الهمزة من أنا وشدد النون، فلما وصل الكتاب إلى محمود ووقف عليه الكاتب سر بما فيه وقال لأصدقائه: قد علمت أن الذي كتبته لا يخفى على سديد الملك، وقد أجاب بما طيب نفسي؛ وكان الكاتب قد قصد قول الله تعالى: "إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك". فأجاب سديد الملك بقوله تعالى: "إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها"، فكانت هذه معدودة من تيقظه وفهمه؛ وهكذا ساق هذه الحكاية

أسامة في مجموعه إلى الرشيد بن الزبير في ترجمة ابن النحاس.
وكانت وفاته في سنة خمس وسبعين وأربعمائة، رحمه الله تعالى.
وقد تقدم ذكر حفيده أسامة بن مرشد بن علي المذكور في حرف الهمزة وسيأتي ذكر والده في حرف الميم إن شاء الله تعالى.
وذكرهم العماد الأصبهاني في الخريدة، وبالغ في الثناء عليهم وذكر أيضاً في كتاب السيل والذيل أنه توفي تحت الهدم لما هدمت الزلزلة حصن شيزر يوم الاثنين ثالث رجب سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة، والله أعلم.

الصليحي

أبو الحسن علي بن محمد بن علي الصليحي القائم باليمن؛ كان أبوه محمد قاضياً باليمن سني المذهب، وكان أهله وجماعته يطيعونه، وكان الداعي عامر بن عبد الله الزواحي يلاطفه ويركب إليه، لرياسته وسؤدده وصلاحه وعلمه، فلم يزل عامر المذكور حتى استمال قلب ولده علي المذكور وهو يومئذ دون البلوغ ولاحت له فيه مخايل النجابة، وقيل كانت عنده حلية علي الصليحي في كتاب " الصور " وهو من الذخائر القديمة، فأوقفه منه على تنقل حاله وشرف مآله، وأطلعه على ذلك سراً من أبيه وأهله.
ثم مات عامر عن قرب وأوصى له بكتبه وعلومه، ورسخ في ذهن علي من كلامه ما رسخ، فعكف على الدرس، وكان ذكياً، فلم يبلغ الحلم حتى تضلع من معارفه التي بلغ بها وبالجد السعيد غاية الأمل البعيد، فكان فقيهاً في مذهب الدولة الإمامية مستبصراً في علم التأويل، ثم إنه صار يحج بالناس دليلاً على طريق السراة والطائف خمس عشرة سنة وكان الناس يقولون له:بلغنا أنك ستملك اليمن بأسره ويكون لك شأن، فيكره ذلك وينكره على قائله، مع كونه أمراً قد شاع وكثر في أفواه الناس، الخاصة والعامة؛ ولما كان في سنة تسع وعشرين وأربعمائة ثار في رأس مسار، وهو أعلى ذروة في جبال اليمن، وكان معه ستون رجلاً قد حالفهم بمكة في موسم سنة ثمان وعشرين وأربعمائة على الموت والقيام بالدعوة وما منهم إلا من هو من قومه وعشائره في منعة وعدد كثير، ولم يكن برأس الجبل المذكور بناء، بل كان قلة منيعة عالية، فلما ملكها لم ينتصف نهار ذلك اليوم الذي ملكها في ليلته إلا وقد أحاط به عشرون ألف ضارب سيف وحصروه وشتموه وسفهوا رأيه وقالوا له: إن نزلت وإلا قتلناك أنت ومن معك بالجوع، فقال لهم: لم أفعل هذا إلا خوفاً علينا وعليكم أن يملكه غيرنا، فإن تركتموني أحرسه وإلا نزلت إليكم، فانصرفوا عنه؛ ولم تمض عليه أشهر حتى بناه وحصنه وأتقنه.

واستفحل أمر الصليحي شيئاً فشيئاً، وكان يدعو للمستنصر صاحب مصر في الخفية، ويخاف من نجاح صاحب تهامة ويلاطفه ويستكين لأمره، وفي الباطن يعمل الحيلة في قتله، ولم يزل حتى قتله بالسم مع جارية جميلة أهداها إليه، وذلك في سنة اثنتين وخمسين وأربعمائة بالكدراء. وفي سنة ثلاث وخمسين كتب الصليحي إلى المستنصر يستأذنه في إظهار الدعوة، فأذن له، فطوى البلاد طياً وفتح الحصون والتهائم، ولم تخرج سنة خمس وخمسين إلا وقد ملك اليمن كله سهله ووعره وبره وبحره، وهذا أمر لم يعهد مثله في جاهلية ولا إسلام، حتى قال يوماً وهو يخطب الناس في جامع الجند: وفي مثل هذا اليوم نخطب على منبر عدن، ولم يكن ملكها بعد، فقال بعض من حضر مستهزئاً: سبوح قدوس، فأمر بالحوطة عليه، وخطب الصليحي في مثل ذلك اليوم على منبر عدن، فقام ذلك الإنسان وتغالى في القول وأخذ البيعة ودخل في المذهب.
ومن سنة خمس وخمسين استقر حاله في صنعاء، وأخذ معه ملوك اليمن الذين أزال ملكهم، وأسكنهم معه وولى في الحصون غيرهم، واختط بمدينة صنعاء عدة قصور، وحلف أن لا يولي تهامة إلا لمن وزن مائة ألف دينار، فوزنت له زوجته أسماء عن أخيها أسعد بن شهاب، فولاه، وقال لها: يا مولاتنا أنا لك هذا؟ فقالت: "هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب"، فتبسم وعلم أنه من خزانته، فقبضه وقال: "هذه بضاعتنا ردت إلينا، ونمير أهلنا ونحفظ أخانا".
ولما كان في سنة ثلاث وسبعين وأربعمائة عزم الصليحي على الحج، فأخذ معه الملوك الذين كان يخاف منهم أن يثوروا عليه، واستصحب زوجته أسماء ابنة شهاب، واستخلف مكانه ولده الملك المكرم أحمد، وهو ولدها أيضاً، وتوجه في ألفي فارس فيهم من آل الصليحي مائة وستون شخصاً، حتى إذا كان بالمهجم، ونزل في ظاهرها بضيعة يقال لها أم الدهيم وبئر أم معبد، وخيمت عساكره والملوك التي معه من حوله، لم يشعر الناس حتى قيل: قد قتل الصليحي، فانذعر الناس وكشفوا عن الخبر، فكان سعيد الأحول ابن نجاح المذكور التي قتلته الجارية بالسم قد استتر في زبيد، وكان أخوه جياش في

دهلك، فسير إليه وأعلمه أن الصليحي متوجه إلى مكة، فتحضر حتى نقطع عليه الطريق ونقتله، فحضر جياش إلى زبيد، وخرج هو وأخوه سعيد ومعهما سبعون رجلاً بلا مركوب ولا سلاح، بل مع كل واحد جريدة في رأسها مسمار حديد، وتركوا جادة الطريق وسلكوا طريق الساحل، وكان بينهم وبين المهجم مسيرة ثلاثة أيام للمجد.

وكان الصليحي قد سمع بخروجهم، فسير خمسة آلاف حربة من الحشة الذين في ركابه لقتالهم، فاختلفوا في الطريق، فوصل سعيد ومن معه إلى طرف المخيم، وقد أخذ منهم التعب والحفاء وقلة المادة، فظن الناس أنهم من جملة عبيد العسكر، ولم يشعر بهم إلا عبد الله أخو علي الصليحي، فقال لأخيه: يا مولانا اركب، فهذا والله الأحول سعيد بن نجاح، وركب عبد الله، فقال الصليحي لأخيه: إني لا أموت إلا بالدهيم وبئر أم معبد، معتقداً أنها أم معبد التي نزل بها رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لما هاجر إلى المدينة، فقال له رجل من أصحابه: قاتل عن نفسك، فهذه والله الدهيم وهذه بئر أم معبد، فلما سمع الصليحي ذلك لحقه زمع اليأس من الحياة، وبال، ولم يبرح من مكانه حتى قطع رأسه بسيفه وقتل أخوه معه وسائر الصليحين، وذلك في الثاني عشر من ذي القعدة سنة ثلاث وسبعين وأربعمائة.

ثم إن سعيداً أرسل إلى خمسة الآلاف التي أرسلها الصليحي لقتالهم، وقال لهم: إن الصليحي قد قتل، وأنا رجل منكم، وقد أخذت ثأر أبي، فقدموا عليه وأطاعوه، واستعان بهم على قتال عسكر الصليحي، فاستظهر عليهم قتلاً وأسرا ونهباً، ثم رفع رأس الصليحي على عود المظلة، وقرأ القارئ: "قل اللهم مالك الملك". ورجع إلى زبيد، وقد حاز الغنائم ملكاً عقيماً، ودخلها في السادس عشر من ذي القعدة من السنة وملكها، وملك بلاد تهامة. ولم يزل على ذلك حتى قتل في سنة إحدى وثمانين وأربعمائة بتدبير الحرة، وهي امرأة من الصليحيين، وخبر ذلك يطول.

ولما قتل الصليحي ورفع رأسه على عود المظلة - كما تقدم ذكره - عمل في ذلك القاضي العثماني:

بكرت مظلته عليه فلم ترح ... إلا على الملك الأجل سعيدها
ما كان أقبح وجهه في ظلها ... ما كان أحسن رأسه في عودها

سود الأراقم قابلت أسد الشرى ... وارحمتا لأسودها من سودها

ولعلي الصليحي شعر جيد، فمن ذلك قوله:

أنكحت بيض الهند سمر رماحهم ... فرؤوسهم عوض النثار نثار
وكذا العلا لا يستباح نكاحها ... إلا بحيث تطلق الأعمار

وذكره العماد في " الخريدة " فقال: ومن شعره، وقيل لغيره على لسانه:

ألذ من قرع المثاني عنده ... في الحرب ألجم يا غلام وأسرج
خيلٌ بأقصى حضرموت أشدها ... وصهيلها بين العراق ومنبج

والصليحي: بضم الصاد المهملة وفتح اللام وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها حاء مهملة، لا أعرف هذه النسبة إلى أي شيء هي، والظاهر أنها إلى رجل، فقد جاء في الأسماء الأعلام صليح، ونسبوا إليه أيضاً.

وأما الأماكن المذكورة فكلها من بلاد اليمن، ولم أتحقق ضبطها فكتبتها على الصورة التي وجدتها.

وأكثر هذه الترجمة نقلته من " أخبار اليمن " للفقيه عمارة اليمني الشاعر - وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى.

العادل ابن السلار

أبو الحسن علي بن السلار، المنعوت بالملك العادل سيف الدين، ورأيت في مكان أخر أنه أبو منصور علي بن إسحاق، عرف بابن السلار، وزير الظافر العبيدي صاحب مصر؛ رأيت في بعض تواريخ المصريين: أنه كان كردياً زرزارياً، وكان تربية القصر بالقاهرة وتقلبت فيه الأحوال في الولايات

بالصعيد وغيره إلا أن تولى الوزارة للظافر المذكور في رجب سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة. ثم وجدت في مكان أخر أن الظافر المذكور استوزر نجم الدين أبا الفتح سليم بن محمد مصال في أول ولايته. وكان ابن مصال من أكابر أمراء الدولة ثم تغلب عليه العادل بن سلام وعدى ابن مصال إلى الجيزة ليلة الثلاثاء رابع عشر شعبان سنة أربع وأربعين وخمسمائة، عندما سمع بوصول ابن السلار من ولاية الإسكندرية طالباً للوزارة ودخل ابن السلار لقاهرة في الخامس عاشر من الشهر المذكور وتولى تدبير الأمور ونعت بالعادل أمير الجيوش، وحشد ابن مصال جماعة من المغاربة وغيرهم، وجرد العادل العساكر للقائه، فكسره بدلاص من الوجه القبلي، وأخذ رأسه ودخل به إلى القاهرة على رمح يوم الخميس الثالث والعشرين من ذي القعدة من السنة المذكورة واستمر العادل إلى أن قتل، وهذا القول أصح من الأول، والله أعلم.

وكان ابن مصال من أهل لك -بضم اللام وتشديد الكاف - وهي بليدة عند برقة من أعمالها، وكان هو وأبوه يتعاطيان البيزرة والبيطرة، وبذلك تقدما، وكانت وزارة ابن مصال نحواً من خمسين يوماً.

وكان ابن السلار شهماً مقداماً مائلاً إلى أرباب الفضل والصلاح، عمر بالقاهرة مساجد، ورأيت بظاهر مدينة بلبيس مسجداً منسوباً إليه، وكان ظاهر التسنن شافعي المذهب، ولما وصل الحافظ أبو طاهر السلفي، رحمه لله تعالى، إلى ثغر الإسكندرية المحروس وأقام به - كما ذكرته في ترجمته - ثم صار العادل المذكور والياً به احتفل به وزاد في إكرامه وعمر له هناك مدرسة فوض تدريسها إليه، وهي معروفة به إلى الآن، و لم أر بالإسكندرية مدرسة للشافعية سواها.

وكان مع هذه الأوصاف ذا سيرة جائرة وسطوة قاطعة يؤاخذ الناس بالصغائر والمحقرات. ومما يحكى عنه أنه قبل وزراته بزمان، وهو يومئذ من آحاد الأجناد، دخل يوما على الموفق أبي الكرم ابن معصوم التنيسي، وكان يتولى الديوان، فشكا إليه حاله من غرامة لزمته بسبب تفريطه في شيء من لوازم الولاية بالغربية، فلما أطال عليه الكلام قال له أبو الكرم: والله إن كلامك ما يدخل في إذني، فحقد عليه ذلك. فلما ترقى إلى درجة الوزارة طلبه، فخاف منه واستتر مدة، فنادى عليه في البلد، وأهدر دم من يخفيه، فأخرجه الذي خبأه عنده، فخرج في زي امرأة بإزار وخف، فعرف فأخذ وحمل إلى العادل، فأمر بإحضار لوح خشب ومسمار طويل وأمر به فألقي على جنبه وطرح اللوح تحت أذنه، ثم ضرب المسمار في الأذن الأخرى وصار كلما صرخ يقول له: دخل كلامي في أذنك بعد أم لا؟ و لم يزل كذلك حتى نفذ المسمار من الأذن التي على اللوح، ثم عطف المسمار على اللوح ويقال: إنه شنقه بعد ذلك.

وكان قد وصل من إفريقية إلى الديار المصرية أبو الفضل عباس بن أبي الفتوح ابن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجي وهو صبي ومعه أمه واسمها بلارة فتزوجها العادل المذكور وأقامت عنده زماناً، ورزق عباس ولداً سماه نصراً فكان عند جدته في دار العادل والعادل يحنو عليه ويعزه، ثم إن العادل جهز عباساً إلى جهة الشام بسبب الجهاد، وكان معه أسامة بن منقذ - المذكور في حرف الهمزة - فلما وصل إلى بلبيس وهو مقدم الجيش الذي صار في صحبته تذاكرا طيب طيب الديار المصرية وحسنها وما هي عليها، وكونه يفارقها ويتوجه للقاء العدو ويقاسي البيكار، فأشار عليه أسامة على ما قيل بقتل العادل، ويستقل هو بالوزارة ويستريح من البيكار، وتقرر بينهما أن ولده نصراً يباشر ذلك إذا رقد العادل، فإنه ومعه في الدار ولا ينكر عليه ذلك. وحاصل الأمر أن نصراً قتله على فراشه يوم الخميس سادس المحرم سنة ثمان وأربعين وخمسمائة، بدار الوزارة بالقاهرة المحروسة، رحمه الله تعالى، وتفصيل الواقعة يطول. وقيل إنه قتل يوم السبت حادي عشر المحرم من السنة المذكورة.

وكان والده في صحبة سقمان بن أرتق صاحب القدس، فلما أخذ الأفضل أمير الجيوش القدس من سقمان - كما هو مذكور في ترجمة أبيه أرتق - وجد فيه طائفة من عسكر سقمان، فضمهم الأفضل إليه؛ وكان في جملتهم السلار والد العادل المذكور، فأخذه الأفضل إليه، وتقدم عنده، وسماه " ضيف الدولة " وأكرم ولده هذا، وجعل في صبيان الحجر، ومعنى صبيان الحجر عندهم: أن يكون لكل واحد منهم فرس وعدة، فإذا قيل له عن شغلٍ ما يحتاج أن يتوقف فيه، وذلك على مثال الداوية والاسبتار، فإذا تميز صبي من هؤلاء بعقل وشجاعة قدم للإمرة، فترجح العادل بهذه الصفات وزاد عليها بالحزم والهيبة وترك المخالطة، فأمره الحافظ، وولاه الإسكندرية، وكان يعرف برأس البغل، ثم تقدم.

وهذا نصر بن عباس هو الذي قتل الظافر إسماعيل بن الحافظ، صاحب مصر، وقد ذكرته في ترجمته في أوائل هذا الكتاب.

الملك الأفضل ابن صلاح الدين

أبو الحسن علي، الملقب الملك الأفضل نور الدين، ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب؛ سمع بالإسكندرية من الإمام أبي الطاهر إسماعيل بن مكي بن عوف الزهري، وبمصر من العلامة أبي محمد عبد الله بن بري النحوي، وأجاز له أبو الحسين أحمد بن حمزة بن علي السلمي، وأبو عبد الله محمد بن علي بن صدقة الحراني، وغيرهما من الشاميين، وأجاز له أبو القاسم هبة الله بن علي بن مسعود وأبو عبد الله بن أحمد بن حامد وغيرهما من المصريين. وكان يكتب خطاً حسناً، واجتمعت فيه فضائل.

وكان أكبر أولاد أبيه وإليه كانت ولاية عهده،فلما توفي بدمشق رحمه الله تعالى - كما سيأتي في ترجمته - وكان الملك الأفضل في صحبته، استقل بمملكة دمشق واستقل أخوه الملك العزيز عماد الدين عثمان بالديار المصرية - كما سبق في ترجمته - وبقي الملك الظاهر أخوهما بحلب، ثم إن الملك الأفضل جرت له مع أخيه وقائع في أسباب يطول شرحها. وآخر الأمر أن العزيز والملك العادل عمه حاصرا دمشق وأخذاها من الأفضل وأعطياه صرخد، فمضى إليها وأقام بها قليلاً، فمات العزيز بمصر وتولى ولده الملك المنصور محمد وكان صغيراً، فطلب الملك الأفضل من صرخد ليكون أتابكه، وكان طلبه يوم الأربعاء التاسع والعشرين من صفر سنة خمس وتسعين وخمسمائة، عقيب موت أخيه العزيز عثمان، ومشى في ركاب المنصور محمد ابن العزيز.

ثم أن الملك العادل قصد الديار المصرية وأخذها، ودفع للأفضل عدة بلاد بالشرق، فمضى إليها، فلم يحصل له سوى سميساط فأقام بها، ولم يزل بها إلى أن مات.

وما أحسن كلام القاضي الفاضل، من جملة كتاب كتبه في أثناء هذه الوقائع:"أما هذا البيت فإن الآباء منه اتفقوا فملكوا، والأبناء اختلفوا فهلكوا، وإذا غرب نجم فما في الحيلة تشريقه، وإذا بدا خرق ثوبٍ فما يليه إلا تمزيقه، وهيهات أن يسد على قدر طريقه، وقد قدر طروقه، وإذا كان الله مع خصم على خصم، فمن كان الله معه فمن يطيقه؟ ".

وكان الأفضل فيه فضيلة ومعرفة وكتابة ونباهة، وكان يحب العلماء ويعظم حرمتهم، وله شعر. فمن المنسوب إليه أنه كتبه إلى الإمام الناصر يشكو من عمه العادل وأخيه العزيز لما أخذ منه دمشق:

مولاي إن أبا بكر وصاحبه ... عثمان قد غصبا بالسيف حق علي
وهو الذي كان قد ولاه والده ... عليهما فاستقام الأمر حين ولي
فخالفاه وحلا عقد بيعته ... والأمر بينهما والنص فيه جلي
فانظر إلى حظ هذا الاسم كيف لقي ... من الأواخر ما لقي من الأول

فجاء جواب الإمام الناصر وفي أوله:

وافى كتابك يا ابن يوسف معلناً ... بالود يخبر أن أصلك طاهر
غصبوا علياً حقه إذ لم يكن ... بعد النبي له بيثرب ناصر
فأبشر فإن غداً عليه حسابه ... واصبر فناصرك الإمام الناصر

وكانت ولادته يوم عيد الفطر وقت العصر سنة ست، وقيل خمس وستين وخمسمائة بالقاهرة، ووالده يومئذ وزير المصريين. وتوفي في صفر سنة اثنتين وعشرين وستمائة فجأة بسميساط، رحمه الله تعالى، ونقل إلى حلب، ودفن في تربته بظاهر حلب بالقرب من مشهد الهروي.

وسميساط: بضم السين المهملة وفتح الميم وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح السين الثانية وبعد الألف طاء مهملة، وهي قلعة في بر الشام على الفرات في ناحية بلاد الروم بين قلعة الروم وملطية.

ابن الفرات

أبو الحسن علي بن محمد بن موسى بن الحسن بن الفرات وزير المقتدر بالله بن المعتضد بالله، وزر له ثلاث دفعات، فالأولى منهن بثمان خلون من شهر ربيع الأول، وقيل لسبع بقين منه، سنة ست وتسعين ومائتين، و لم يزل وزيره إلى أن قبض عليه الأربع خلون من ذي الحجة سنة تسع وتسعين ومائتين ونكبه ونهب داره وأمواله، واستغل من أملاكه إلى أن عاد إلى الوزارة في المرة الثانية سبعة آلاف ألف دينار، وذكروا عنه أنه كتب إلى الأعراب أن يكبسوا بغداد، والله أعلم. ثم عاد إلى الوزارة يوم الاثنين لثمان خلون من ذي الحجة سنة أربع وثلثمائة، وخلع عليه سبع خلع، وحمل إليه ثلثمائة ألف درهم لغلمانه وخمسون بغلاً لثقله وعشرون خادماً وغير ذلك من العدد والآلات، وزاد في ذلك اليوم في ثمن الشمع في كل من قيراط ذهب لكثرة استعماله إياه، وكان ذلك النهار شديد الحر، فسقي في ذلك النهار وتلك الليلة في داره أربعون ألف رطل ثلج، و لم يزل على وزارته إلى أن قبض عليه يوم الخميس لثلاث بقين من جمادى الأول سنة ست وثلثمائة، ثم عاد إلى الوزارة يوم الخميس لسبع ليال بقين من ربيع الآخر سنة إحدى عشرة وثلثمائة، وكان يوم خرج من الحبس مغتاظاً، فصادر الناس، وأطلق يد ولده المحسن فقتل حامد بن العباس الوزير الذي كان قبل أبيه، وسفك الدماء، و لم يزل وزيراً إلى أن قبض عليه لتسع ليلي خلون من شهر ربيع الآخر سنة اثنتي عشر وثلثمائة، وقيل قبض عليه يوم الثلاثاء لتسع خلون من شهر ربيع الأول.

وكان يملك أموالاً كثيرة تزيد على عشرة آلاف ألف دينار، وكان يستغل من ضياعه في كل سنة ألفي ألف دينار ينفقها، قال أبو بكر محمد بن يحيى الصولي: مدحته بقصيدة، فحصل لي في ذلك اليوم ستمائة دينار.

وكان كاتباً كافياً خبيراً، قال الإمام المعتضد بالله لعبيد الله بن سليمان: قد دفعت إلى ملك مختل وبلاد خراب ومال قليل، وأريد أعرف ارتفاع الدنيا لتجري النفقات عليه، فطلب عبيد الله ذلك من جماعة من الكتاب، فاستمهلوه شهراً، وكان أبو الحسن ابن الفرات وأخوه أبو العباس محبوسين منكوبين، فأعلما بذلك، فعملاه في يومين وأنفذاه، فعلم عبيد الله أن ذلك لا يخفى على المعتضد، فكلمه فيهما ووصفهما،فاصطنعهما.

وكانت في دار أبي الحسن ابن الفرات حجرة شراب يوجه الناس على اختلاف طبقاته إليها غلمانهم يأخذون منها الأشربة والفقاع والجلاب إلى دورهم.

وكان يجري الرزق على خمسة آلاف من أهل العلم والدين والبيوت والفقراء أكثرهم مائة درهم في الشهر، وأقله خمسة دراهم، وما بين ذلك. قال الصولي: ومن فضائله التي لم يسبق إليها أنه كان إذا رفع إليه قصة فيها سعاية خرج من عنده غلام فنادى: أين فلان بن فلان الساعي؟ فلما عرف الناس ذلك من عادته امتنعوا من السعاية بأحد، واغتاظ يوماً من رجل فقال: اضربوه مائة صوت، ثم أرسل رسولاً فقال: اضربوه خمسين، ثم أرسل أخر وقال: لا تضربوه، وأعطوه عشرين ديناراً، فكفاه ما مر به المسكين من الخوف.

قال الصولي: قام من مرضه – وقد اجتمعت الكتب والرقاع عنده – فنظر في ألف كتاب، ووقع في ألف رقعة، فقلنا له: بالله لا يسمع بهذا أحد، خوفاً من العين عليه.

قال الصولي: ورأيت من أدبه أنه دعا خاتم الخلافة ليختم به كتاباً، فلما رآه قام على رجليه تعظيماً للخلافة، قال: ورأيته جالساً للمظالم، فتقدم إليه خصمان في دكاكين في الكرخ، فقال لأحدهما: رفعت إلي قصة في سنة اثنتين وثمانين ومائتين في هذه الدكاكين، ثم قال: سنك يقصر عن هذا، فقال له: ذاك كان أبي، قال: نعم وقعت له على قصة رفعها.

وكان إذا مشى الناس بين يديه غضب وقال: أنا لا أكلف هذا غلماني فكيف أكلف أحراراً لا إحسان لي عليهم.

وقتل نازوك صاحب الشرطة أبا الحسن ابن الفرات المذكور وابنه المحسن يوم الاثنين ثلاثة عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الآخر سنة اثني عشر وثلثمائة. وقال بعض المؤرخين: كان مولده لتسع خلون من ربيع الآخر سنة إحدى وأربعين ومائتين، وكان عمر ابنه المحسن يوم قتل ثلاثاً وثلاثين سنة.

قال الصاحب أبو القاسم ابن عباد المقدم ذكره: أنشدني أبو الحسن ابن أبي بكر العلاف – وهو المشهور بكثرة الأكل – قصيدة أبيه أبي بكر في الهر وقال: إنما كنى بالهر عن المحسن بن أبي الحسن ابن الفرات أيام محنتهم، لأنه لم يجسر أن يذكره يرثيه. قلت: وقد سبق ذكر المرثية في ترجمة أبي بكر

العلاف.

ومن غرائب الأخبار أن زوجة المحسن ابن الفرات أرادت أن تختن أبنها بعد قتل أبيه فرأت المحسن في منامها، فذكرت له تعذر النفقه، فقال لها: إن لي عند فلان عشرة آلاف دينار أودعته إياها، فانتبهت، وأخبرت أهلها فسألوا الرجل فأعترف وحمل المال عن آخره.

وكان أبو العباس أحمد بن محمد بن الفرات أخو أبي الحسن المذكور أكتب أهل زمانه وأضبطهم للعلوم والآداب، وللبحتري فيه القصيدة التي أولها:

بت أبدي وجداً وأكتم وجدا   لخيال قد بات لي منك يهدى

وتوفي أبو العباس المذكور يوم الثلاثاء منتصف شهر رمضان سنة إحدى وتسعين ومائتين.

وأما أخوه أبو الخطاب جعفر بن محمد بن الفرات فإنه عرضت عليه الوزارة فأباها.

وتولاها ابنه أبو الفتح الفضل بن جعفر، وكان كاتباً مجوداً، وهو المعروف بابن حترابة، وهي أمه، وكانت جارية رومية، قلده المقتدر الوزارة يوم الاثنين لليلتين بقيتا من ربيع الآخر سنة عشرين وثلثمائة وقيل خلع عليه في أول شهر ربيع الآخر سنة عشرين وثلثمائة، والله أعلم و لم يزل وزيره إلى أن قتل المقتدر لأربع بقين من شوال سنة عشرين وثلثمائة، وتولى الخلافة أخوه القاهر بالله، فاستتر أبو الفتح ابن حترابة، فولى القاهر أبا علي محمد بن علي بن مقلة الكاتب – الآتي ذكره إن شاء الله تعالى – الوزارة، ثم تولى أبو الفتح الدواوين في أيام القاهر أيضاً، وخلع القاهر وسملت عيناه في يوم الأربعاء لست خلون من جمادى الأولى سنة اثنتين وعشرين وثلثمائة.

وولي الخلافة لراضي بالله ابن المقتدر بالله المقدم ذكره، فقلد أبا الفتح ابن حترابة الشام، فتوجه إليها، ثم إن الراضي بالله ولاه الوزارة، وهو يومئذ مقيم بحلب، وعقد له الأمر فيها يوم الأحد لثلاث عشرة ليلة خلت من شعبان سنة خمس وعشرين وثلثمائة، وكوتب بالمسير إلى الحضرة، فوصل إلى بغداد يوم الخميس لست خلون من شوال من السنة، فأقام ببغداد قليلاً، فرأى الأمور مضطربة، وقد استولى الأمير أبو بكر محمد بن رائق على الحضرة، فتحدث أبو الفتح مع ابن رائق في أنه يعود إلى الشام، وأطمعه في حمل الأموال إليه من مصر والشام، فعاد إليها في الثالث عشر من شهر ربيع الأول سنة ست وعشرين، فأدركه أجله بغزة، وقيل بالرملة، وجاءت الكتب إلى الحضرة بموته في يوم الأحد لثمان خلون من جمادى الأولى سنة سبع وعشرين وقيل ست وعشرين والأول أصح ودفن في داره بالرملة. وكان مولده في ليلة السبت لسبع ليال بقين من شعبان سنة تسع وسبعين ومائتين، وكانت الكتب تصدر باسمه في الشام.

وأما ابنه أبو الفضل جعفر بن الفضل فقد سبق ذكره في حرف الجيم من هذا الكتاب، وتاريخ وفاته ومولده، رحمهم الله تعالى أجمعين.

وهذا الذي ذكرته في هذه الترجمة نقلته من عدة مواضع: منها كتاب " أخبار الوزراء " تأليف الصاحب ابن عباد، وكتاب " عيون السير " تأليف محمد بن عبد الملك الهمداني، وكتاب " الوزراء " تأليف أبي عبد الله محمد بن أحمد الفارسي وما منهم أحد تعرض إلى قضية عبد الله بن المعتز.

وترجمة ابن الفرات المذكور تترتب على قضية ابن المعتز فلا بد من ذكر شيء من أحوالها، وأصح التواريخ نقلاً تاريخ أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، فنذكر ما قاله في حوادث سنة ست وتسعين ومائتين: إن القواد والكتّاب اجتمعوا على خلع الخليفة المقتدر، وتناظروا فيمن يجعلونه موضعه، فأجمعوه رأيهم على عبد الله بن المعتز، وناظروه في ذلك، فأجابهم إليه على أنه لا يكون في ذلك سفك دم ولا حرب، فأخبروه أن الأمر يسلم إليه عفواً، وأن جميع من وراءهم من الجند والقواد والكتاب قد رضوا، فبايعهم على ذلك، وكان الرأس في ذلك محمد بن داود بن الجراح وأبا المثنى أحمد بن يعقوب القاضي، وواطأ محمد بن داود جماعة من القواد على الفتك بالمقتدر والعباس بن الحسن؛ قلت: وكان وزير المقتدر يومئذ.

قال الطبري: وكان العباس بن الحسن على ذلك قد واطأ جماعة من القواد على خلع المقتدر والبيعة لعبد الله بن المعتز، فلما رأى أمره مستوسقاً له مع المقتدر على ما يحب بدا له فيما كان قد عزم عليه من ذاك، فحينئذ وثب به الآخرون فقتلوه، يعني الوزير المذكور، وقال الطبري: وكان الذي تولى قتله بدر الأعجمي والحسين بن حمدان ووصيف بن صوارتكين، وذلك يوم السبت لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول، ولما كان من غد هذا اليوم، وهو يوم الأحد، خلع المقتدر الكتاب والقواد وقضاة بغداد، وبايعوا عبد الله بن المعتز ولقبوه الراضي بالله، وكان الذي يأخذ البيعة على القواد ويلي استحلافهم والدعاء بأسمائهم محمد بن سعيد الأزرق كاتب الجيش. وفي هذا اليوم كانت بين الحسين بن حمدان وبين غلمان الدار حرب

شديدة من غدوة إلى انتصاف النهار، وفي هذا اليوم انفضت الجموع التي كان ابن داود جمعها لبيعة ابن المعتز عنه، وذلك أن الخادم الذي يدعى مؤنساً حمل غلاماً من غلمان الدار في الشذوات - قلت: وهي عندهم المراكب - قال: فصاعد بها وهم فيها وهي في دجلة، فلما جاوزوا الدار التي فيها ابن المعتز ومحمد بن داود صاحوا بهم ورشقوهم بالنشاب، فتفرقوا وهرب من كان في الدار من الجند والقواد والكتاب وهرب ابن المعتز، ولحق بعض الذين بايعوا ابن المعتز بالمقتدر، فاعتذروا إليه بأنهم منعوا من المصير إليه، واستخفى بعضهم، فطلبوا وأخذوا وقتلوا وانتبهت العامة دور ابن داود، وأخذ ابن المعتز فيمن أخذ؛ انتهى كلام الطبري في ذلك.

فنذكر ما قال غيره، جمعته من مواضع متفرقة، حاصله أن عبد الله بن المعتز رتب للوزارة في ذلك اليوم محمد بن داود المذكور، وللقضاء أبا المثنى المذكور، فلما انتقض أمره وأخذ ابن المعتز استتر ابن داود، وكان من فضلاء أهل عصره وله عدة تصانيف منها كتاب " الورقة في أخبار الشعراء وكتاب " الوزراء " وغير ذلك، ثم ظهر لمؤنس الخادم المذكور، وخافه أبو الحسن علي ابن الفرات المذكور، فأشار على مؤنس بقتله، فقتل وأخرج وطرح في سقاية عند المأمونية، فحمل إلى منزله، وكان قتله في شهر ربيع الآخر من السنة، ومولده في سنة ثلاث وأربعين ومائتين في الليلة التي توفي فيها إبراهيم ابن العباس الصولي المقدم ذكره.

ولما عاد أمر المقتدر إلى ما كان عليه وقد قتل وزيره العباس بن الحسن في التاريخ الذي ذكره الطبري استوزر أبا الحسن علي بن الفرات المذكور، فأول ما ظهر من محاسنه أنه حمل إليه من دار ابن المعتز صندوقان عظيمان، فقال: أعلمتم ما فيهما؟ قيل: نعم، جرائد بأسماء من بايعه، فقال: لا تفتحوهما، ودعا بنار فطرح الصندوقين فيها، فلما احترقا قال: لو فتحتهما وقرأت ما فيهما فسدت نيات الناس بأجمعهم علينا، واستشعروا منا، ومع ما فعلناه قد هدأت القلوب وسكنت النفوس.

ومما يتعلق بهذه الترجمة أن القاهر بالله لما خلع وسملت عيناه كما ذكرناه آل به الأمر إلى أن خرج إلى جامع المنصور ببغداد، فعرف الناس بنفسه، وسألهم التصدق عليه، فقام إليه ابن أبي موسى الهاشمي فأعطاه ألف درهم، وفي ذلك عبرة لأولي الألباب.

وقد سبق ذكر عبد الله بن المعتز في ترجمته، لكن هذه الحاجة دعت إلى إعادتها ها هنا.

ونقلت من كتاب " الأعيان والأماثل " تأليف الرئيس أبي الحسن هلال بن المحسن بن أبي إسحاق إبراهيم الصابي: وحدث القاضي أبو الحسين عبيد الله بن عباس أن رجلاً اتصلت عطلته، وانقطعت مادته، فزور كتاباً من أبي الحسن ابن الفرات إلى أبي زنبور المادرائي عامل مصر في معناه يتضمن الوصاة به والتأكيد في الإقبال عليه والإحسان إليه، وخرج إلى مصر فلقيه به، فارتاب أبو زنبور في أمره لتغير الخطاب على ما جرت به العادة وكون الدعاء ألين مما يقتضيه محله،فرعاه مراعاة قريبة ووصله بصلة قليلة، واحتبسه عنده على وعد وعده به، وكتب إلى أبي الحسن ابن الفرات يذكر الكتاب الوارد عليه، وأنفذه بعينه إليه واستثبته فيه، فوقف ابن الفرات على الكتاب المزور، فوجد فيه ذكر الرجل وأنه من ذوي الحرمات والحقوق الواجبة عليه، وما يقال في ذلك مما قد استوفي الخطاب فيهن وعرضه على كتابه وعرفهم الصورة فيه، وعجب إليهم منها ومما أقدم عليه الرجل، وقال لهم: ما الرأي في أمر هذا الرجل عندكم؟ فقال بعضهم: تأديبه أو حبسه، وقال آخر: قطع إبهامه لئلا يعاود مثل هذا أو يقتدي به غيره فيما هو أكثر من هذا، وقال أجملهم محضراً: يكشف لأبي زنبور قصته ويرسم له طرده وحرمانه، فقال ابن الفرات: ما أبعدكم عن الخيرية والحرية وأنفر طباعكم منها! رجلٌ توسل بنا وتحمل المشقة إلى مصر في تأميل الصلاح بجاهنا، واستمداد صنع الله عز وجل بالانتساب إلينا، يكون أحسن أحواله عند أحسنكم محضراً تكذيب ظنه وتخييب سعيه، والله لا كان هذا أبداً! ثم إنه أخذ القلم من دواته وكتب على الكتاب المزور " هذا كتأبي، ولست أعلم لم أنكرت أمره، واعترضتك شبهة فيه، وليس كل من خدمنا وأوجب حقاً علينا تعرفه، وهذا رجل خدمني في أيام نكبتي، وما أعتقده في قضاء حقه أكثر مما كلفتك في أمره من القيام به، فأحسن تفقده ووفر رفده وصرفه فيما يعود عليه نفعه ويصل إلينا فيما يحقق ظنه ويبين موقعه " ورده إلى أبي زنبور من يومه، فلما مضت على ذلك مدة طويلة دخل على أبي الحسن ابن الفرات رجل ذو هيئة مقبولة وبزة جميلة، وأقبل يدعو له ويثني عليه ويبكي ويقبل يده الأرض، فقال له ابن الفرات: من أنت بارك الله فيك؟ وكانت هذه كلمته، فقال: صاحب الكتاب المزور إلى أبي زنبور الذي صححه كرم الوزير وتفضله، فعل الله به وصنع، فضحك ابن الفرات وقال: كم وصل إليك منه؟ قال: وصل إلي من ماله وتقسط قسطه على عماله ومعامليه وعمل صرفني فيه عشرون

ألف دينار، فقال ابن الفرات: الحمد لله، الزمنا، فإنا نعرضك إلى عمل يزداد به صلاح هالك، ثم اختبره فوجده كاتباً سديداً، فاستخدمه وأكسبه مالاً جزيلاً، رحمه الله تعالى ورضي عنه.

والفرات: بضم الفاء وبعد الراء ألف وبعدها تاء مثناة من فوقها.

ونازوك: بالنون وبعد الألف زاء مضمومة وبعد الواو كاف.

ابن يونس المنجم

صاحب الزيج الحاكمي أبو الحسن علي بن أبي سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس بن عبد الأعلى الصدفي المنجم المصري المشهور، صاحب الزيج الحاكمي المعروف بزيج ابن يونس، وهو زيج كبير رأيته في أربع مجلدات، بسط القول والعمل فيه وما أقصر في تحريره، ولم أر في الأزياج على كثرتها أطول منه، وذكر أن الذي أمره بعمله وابتدأه له العزيز أبو الحاكم صاحب مصر - وسيأتي ذكره في حرف النون إن شاء الله تعالى.

كان مختصاً بعلم النجوم متصرفاً في سائر العلوم بارعاً في الشعر، وعلى إصلاحه لزيج يحيى بن منصور تعويل أهل مصر في تقويم الكواكب، وعدله القاضي أبو عبد الله محمد بن النعمان في جمادى الأولى سنة ثمانين وثلثمائة، وخلف ولداً متخلفاً باع كتبه وجميع تصنيفاته بالأرطال في الصابونيين، وكان قد أفنى عمره في الرصد والتسيير للمواليد وعمل فيها ما لا نظير له، وكان يقف للكواكب، قال الأمير المختار المعروف بالمسبحي: أخبرني أبو الحسن المنجم الطبراني أنه طلع معه إلى جبل المقطم وقد وقف للزهرة، فنزع ثوبه وعمامته ولبس ثوباً نساوياً أحمر ومقنعة حمراء تقنع بها، وأخرج عوداً فضرب به، والبخور بين يديه، فكان عجباً من العجب.

قال الأمير المختار في تاريخ مصر: كان ابن يونس المذكور أبله مغفلاً، يعتم على طرطور طويل ويجعل رداءه فوق العمامة، وكان طويلاً، وإذا ركب ضحك منه الناس لشهرته وسوء حاله ورثاثة لباسه، وكان له مع هذه الهيئة إصابة بديعة غريبة في النجامة لا يشاركه فيها غيره، وكان أحد الشهود، وكان متفنناً في علوم كثيرة، وكان يضرب بالعود على جهة التأدب، وله شعر حسن فمنه قوله:

أحمل نشر الريح عند هبوبه ... رسالة مشتاق لوجه حبيبه

بنفسي من تحيا النفوس بقربه ... ومن طابت الدنيا به وبطيبه

لعمري لقد عطلت كأسي بعده ... وغيبتها عني لطول مغيبه

وجدد وجدي طائف منه في الكرى ... سرى موهناً في خفية من رقيبه

وله شعر كثير.

وقد تقدم ذكر والده في حرف العين وهو صاحب التاريخ - وسيأتي ذكر جده في حرف الياء إن شاء الله تعالى.

ويحكى أن الحاكم العبيدي صاحب مصر قال وقد جرى في مجلسه ذكر ابن يونس وتغفله: دخل إلى عندي يوماً ومداسه بيده، فقبل الأرض وجلس وترك المداس إلى جانبه، وأنا أراه وأراها، وهو بالقرب مني، فلما أراد أن ينصرف قبل الأرض وقدم المداس ولبسه وانصرف. وإنما ذكر هذا في معرض غفلته وقلة اكتراثه.

وقال المسبحي: كانت وفاته بكرة يوم الاثنين لثلاث خلون من شوال سنة تسع وتسعين وثلثمائة فجأة، رحمه الله تعالى، وصلى عليه في الجامع بمصر القاضي مالك بن سعيد بن أحمد بن محمد بن سليمان بن ثواب، ودفن بداره بالفرائين.

الفقيه عمارة اليمني

الفقيه أبو محمد عمارة بن أبي الحسن علي بن زيدان بن أحمد الحكمي اليمني، الملقب نجم الدين، الشاعر المشهور؛ نقلت من بعض تواليفه أنه من قحطان، ثم الحكم بن سعد العشيرة المذحجي، وأن وطنه من تهامة باليمن مدينة يقال لها مرطان من وادي وساع وبعدها من مكة في مهب الجنوب

أحد عشر يوماً، وبها مولده ومرباه، وأنه بلغ الحلم سنة تسع وعشرين وخمسمائة، ورحل إلى زبيد سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة، فأقام بها يشتغل بالفقه في بعض مدارسها مدة أربع سنين، وأنه حج سنة تسع وأربعين وخمسمائة، وسيره قاسم بن هاشم ابن فليتة صاحب مكة شرفها الله تعالى رسولاً إلى الديار المصرية، فدخلها في شهر ربيع الأول سنة خمسين وخمسمائة، وصاحبها يومئذ الفائز بن الظافر، والوزير الصالح ابن رزيك – المذكور في حرف الطاء –وأنشدهما في تلك الدفعة قصيدته الميمية، وهي:

الحمد للعيس بعد العزم والهمم ... حمداً يقوم بما أولت من النعم
لا أجحد الحق عندي للركاب يدٌ ... تمنت اللجم فيها رتبة الخطم
قربن بعد مزار العز من نظري ... حتى رأيت إمام العصر من أمم
ورحن من كعبة البطحاء والحرم ... وفداً إلى كعبة المعروف والكرم
فهل درى البيت أني بعد فرقته ... ما سرت من حرمٍ إلا حرم
حيث الخلافة مضروبٌ سرادقها ... بين النقيضين من عفو ومن نقم
وللإمامة أنوارٌ مقدسة ... تجلو البغيضين من ظلم ومن ظلم
وللنبوة آيات تنص لنا ... على الخفيين من حكم ومن حكم
وللمكارم أعلامٌ تعلمنا ... مدح الجزيلين من بأس ومن كرم
وللعلا ألسنٌ تثني محامدها ... على الحميدين من فعل ومن شيم
وراية الشرف البذاخ ترفعها ... يد الرفيعين من مجدٍ ومن همم
أقسمت بالفائز المعصوم معتقداً ... فوز النجاة وأجر البر في القسم
لقد حمى الدين والدنيا وأهلهما ... وزيره الصالح الفراج للغمم
اللابس الفخر لم تنسج غلائله ... إلا يد الصنعين السيف والقلم
وجوده أوجد الأيام ما اقترحت ... وجوده أعدم الشاكين للعدم
قد ملكته العوالي رق مملكة ... تعير أنف الثريا عزة الشمم
أرى مقاماً عظيم الشأن أوهمني ... في يقظتي أنها من جملة الحلم
يوم من العمر لم يخطر على أملي ... ولا ترقت إليه رغبة الهمم

ليت الكواكب تدنو لي فأنظمها ... عقود مدح فما أرضى لكم كلمي
ترى الوزارة فيه وهي باذلة ... عند الخلافة نصحاً غير متهم
عواطف علمتنا أن بينهما ... قرابة من جميل الرأي لا الرحم
خليفة ووزير مد عدلهما ... ظلاً على مفرق الإسلام والأمم

زيادة النيل نقص عند قبضهما فما عسى نتعاطى منة الديم

فاستحسنا قصيدته وأجزلا صلته، وأقام إلى شوال من سنة خمسين في أرغد عيش وأعز جانب، ثم فارق مصر في هذا التاريخ وتوجه إلى مكة ومنها إلى زبيد في صفر سنة إحدى وخمسين، ثم حج من عامه فأعاده قاسم صاحب مكة المذكور في رسالة إلى مصر مرة ثانية، فاستوطنها و لم يفارقها بعد ذلك.

ورأيت في كتابه الذي جعله تاريخ اليمن أنه فارق بلاده في شعبان سنة اثنتين وخمسين، وكان فقيهاً شافعي المذهب شديد التعصب للسنة، أديباً ماهراً شاعراً مجيداً محادثاً ممتعاً، فأحسن الصالح وبنوه وأهله إليه كل الإحسان، وصحبوه مع اختلاف العقيدة لحسن صحبته، وله في الصالح وولده مدائح كثيرة – وقد تقدم طرفٌ من خبره في ترجمة شاور السعدي والصالح، وما رثاه به – وكانت بينه وبين الكامل بن شاور صحبة متأكدة قبل وزارة أبيه، فلما وزر استحال عليه، فكتب إليه:

إذا لم يسالمك الزمان فحارب وباعد إذا لم تنتفع بالأقارب

و لا تحتقر كيداً ضعيفاً فربما تموت الأفاعي من سمام العقارب

فقد هد قدماً عرش بلقيس هدهدٌ وخرب فأر قبل ذا سد مأرب

إذا كان رأس المال عمرك فاحترز عليه من الإنفاق في غير واجب

فبين اختلاف الليل والصبح معرك يكر علينا جيشه بالعجائب

وما راعني غدر الشباب لأنني أنست بهذا الخلق من كل صاحب

وغدر الفتى في عهده ووفائه وغدر المواضي في نبو المضارب

ومنها:

إذا كان هذا الدر معدنه فمي فصونوه عن تقبيل راحة واهب

رأيت رجالاً أصبحت في مآدب لديكم وحالي وحدها في نوادب

تأخرت لما قدمتهم علاكم علي وتأبى الأسد سبق الثعالب

ترى أين كانوا في مواطني التي غدوت لكم فيهن أكرم نائب

ليالي أتلو ذكركم في مجالس حديث الورى فيها بغمز الحواجب

وزالت دولة المصريين وهو في البلاد.

ولما ملك السلطان صلاح الدين، رحمه الله تعالى، مدحه ومدح جماعة من أهل بيته، يتضمن ديوانه جميع ذلك، وكتب إلى صلاح الدين قصيدة متضمنة شرح حاله وضرورته، وسماها " شكاية المتظلم ونكاية المتألم " وهي بديعة، ورثى أصحاب القصر عند زوال ملكهم بقصيدة لامية طويلة أجاد فيها، وغالب شعره جيد.

ثم إنه شرع في أمور وأسباب من الاتفاق مع جماعة من رؤساء البلد على التعصب للمصريين وإعادة لدولتهم، فأحس بهم السلطان صلاح الدين، وكانوا ثمانية من الأعيان ومن جملتهم الفقيه عمارة المذكور، وشنقهم في يوم السبت ثاني شهر رمضان سنة تسع وستين وخمسمائة بالقاهرة، رحمهم الله تعالى، وكان قبضهم يوم الأحد السادس والعشرين من شعبان من السنة.

وله تواليف منها كتاب " أخبار اليمن " وفيه فوائد، ومنها " النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية " وغير ذلك.

وقال العماد الأصبهاني في كتاب " الخريدة ": إنه صلب في جملة الجماعة الذين نسب إليهم التدبير عليه، يعني السلطان صلاح الدين، ومكاتبة الفرنج

واستدعاؤهم إليه، حتى يجلسوا ولداً للعاضد، وكانوا أدخلوا معهم رجلاً من الأجناد ليس من أهل مصر، فحضر عند صلاح الدين وأخبره بما جرى، فأحضرهم فلم ينكروا الأمر و لم يروه منكراً، فقطع الطريق على عمر عمارة، وأعيض بخرابه عن العمارة، ووقعت اتفاقات عجيبة، فمن جملتها أنه نسب إليه بيت من قصيدة ذكروا أنه يقول فيها:

قد كان أول هذا الدين من رجل سعى إلى أن دعوه سيد الأمم

ويجوز أن يكون البيت معمولاً عليه، فأفتى فقهاء مصر بقتله، وحرضوا السلطان على المثلة بمثله، ومنها أنه كان في النوبة التي لا تقال عثرتها، ولا يحترم الأديب فيها ولو أنه في سماء النظم والنثر نثرتها، ومنها أنه كان قد هجا أميراً فعد ذلك من كبائره، وجرى عليه الردى في جرائره؛ ثم قال في آخر ترجمته: والعجب من عمارة أنه تأبى في ذلك المقام عن الانتماء إلى القوم وترك، وغطى القدر على بصره حتى أراد أن يتعصب لهم ويعيد دولتهم فهلك؛ وإنما قال العماد هذا لأجل الأبيات التي كتبها الصالح بن رزيك يرغبه في التشيع، وهي في الورقة التي هي قربها.

والمذحجي: بفتح الميم وسكون الذال المعجمة وكسر الحاء المهملة وبعدها جيم، هذه النسبة إلى مذحج، واسمه مالك بن أدد بن زيد بن يشحب، وإنما قيل له مذحج لأنه ولد على أكمة حمراء باليمن يقال لها مذحج فسمي بها، وقيل غير ذلك، والله أعلم.

عمر بن أبي ربيعة المخزومي

أبو الخطاب عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة ابن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة القرشي المخزومي الشاعر المشهور؛ لم يكن في قريش أشعر منه، وهو كثير الغزل والنوادر والوقائع والمجون والخلاعة، وله في ذلك حكايات مشهورة. وكان يتغزل في شعره بالثريا ابنة علي بن عبد الله بن الحارث ابن أمية الأصغر بن عبد شمس بن عبد مناف الأموية، وقال السهيلي في " الروض الأنف ": هي الثريا ابنة عبد الله، و لم يذكر علياً، ثم قال: وقتيلة ابنة النضر جدتها، لأنها كانت تحت الحارث بن أمية، وعبد الله ولدها وهو والد الثريا، وهذه قتيلة هي التي أنشدت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، عقيب وقعة بدر الأبيات القافية، وكان قد قتل أباها النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي القرشي العبدري، وقيل كان أخاها، ومن جملة الأبيات:

أمحمد و لأنت ضنء نجيبةٍ من قومها و الفحل فحلٌ معرق
ما كان ضرك لو مننت وربما من الفتى و هو المغيظ المحنق
فالنضر أقرب من تركت وسيلةً و أحقهم إن كان عتق يعتق

فقال عليه السلام: لو سمعت شعرها قبل أن أقتله لما قتلته؛ وكان شديد العداوة لرسول الله، صلى الله عليه وسلم، فأسره في يوم بدر، فلما رجع إلى المدينة أمر علي بن أبي طالب، وقيل المقداد بن أسود بقتله، فقتله صبراً بين يديه بالصفراء، وهي مكان بين المدينة وبدر؛ وهذه الأبيات من جملة أبيات مذكورة في كتاب " الحماسة " في باب المراثي.

وكانت الثريا موصوفة بالجمال، فتزوجها سهيل بن عبد الرحمن بن عوف الزهري، رضي الله عنه، ونقلها إلى مصر، فقال عمر المذكور في زواجها يضرب المثل في الثريا وسهيل النجمين المعروفين:

أيها المنكح الثريا سهيلاً عمرك الله كيف يلتقيان
هي شامية إذا ما استقلت وسهيلٌ إذا استقل يماني

وهذه الثريا وأختها عائشة أعتقتا الغريض المغني المشهور صاحب معبد، واسمه عبد الملك وكنيته أبو زيد، وسمي الغريض باسم الطلع، ويقال فيه الغريض والاغريض، وإنما سميلنقاء لونه، وقيل إنما سمي به لطراوته.

يروى أن يزيد بن معاوية لما أراد توجيه مسلم بن عقبة إلى المدينة اعترض الناس، فمر به رجل من أهل الشام بترس قبيح، فقال له: يا أخا الشام، مجن ابن أبي ربيعة أحسن من مجنك، يريد قول ابن أبي ربيعة:

وكان مجني دون من كنت أتقي ... ثلاث شخوص: كاعبان ومعصر

وهذا البيت من جملة قصيدة، وهي من ظريف شعره، فمن جملتها:

فحييت إذ فاجأتها فتلهفت ... وكادت بمكتوم التحية تجهر
وقالت وعضت بالبنان: فضحتني ... وأنت امرؤ ميسور أمرك أعسر
أريتك إن هنا عليك ولم تخف ... رقيباً وحولي من عدوك حضر
فوالله ما أدري أتعجيل حاجة ... سرت بك أم قد نام من كنت تحذر
فقلت لها: بل قادني الشوق والهوى ... إليك وما عين من الناس تنظر
فلما تقضى الليل إلا قليله ... وكادت توالي نجمه تتغور
أشارت بأن الحي قد حان منهم ... هبوب ولكن موعد لك عزور

فما راعني إلا مناد برحلة ... وقد لاح مفتر من الصبح أشقر
فلما رأت من قد تنور منهم ... وأيقاظهم قالت: أشر كيف تأمر
فقلت :أباديهم فإما أفوتهم ... وإما أسل السيف ثأراً فيثأر
فقالت :أتحقيقاً لما قال كاشح ... علينا وتصديقاً لما كان يؤثر
وإن كان ما لابد منه فغيره ... من الأمر أدنى للخفاء وأستر
أقص على أختي بدء حديثنا ... وما لي من أن يعلما متأخر
لعلهما أن يبغيا لك مخرجاً ... وأن يرحبا سرباً بما كنت أحصر
فقالت لأختيها: أعينا على فتى ... أتى زائراً والأمر للأمر يقدر
فأقبلتا فارتاعتا ثم قالتا: ... اقلي عليك اللوم فالخطب أيسر
يقوم فيمشي بيننا متنكراً ... فلا سرنا يفشو ولا هو يظهر
وكان مجني دون من كنت أتقي ... ثلاث شخوص كاعبان ومعصر

ومن شعر عمر المذكور أيضاً:

حي طيفاً من الأحبة زارا ... بعدما صرع الكرى السمارا
طارقا في المنام تحت دجى اللي ... ل ضنيناً بأن يزور نهارا
قلت ما بالنا جفينا وكنا ... قبل ذاك الأسماع والأبصارا

وكانت ولادته في الليلة التي قتل فيها عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وهي ليلة الأربعاء لأربع بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وتسعين للهجرة. وغزا في البحر فأحرقوا السفينة فاحترق في حدود سنة ثلاث وعشرين للهجرة وعمره مقدار سبعين سنة، رحمه الله تعالى، وقال الهيثم بن عدي: مات سنة ثلاث وتسعين للهجرة، وعمره ثمانون سنة، والله أعلم.

وقتل والده عبد الله في سنة ثمان وسبعين للهجرة بسجستان.

وكان الحسن البصري، رضي الله عنه، إذا جرى ذكر ولادة عمر بن أبي ربيعة في الليلة التي قتل فيها عمر، رضي الله عنه، يقول: أي حق رفع؟ وأي باطل وضع؟ وكان جده أبو ربيعة يلقب ذا الرمحين، واسمه عمرو، وقيل حذيفة، وقيل اسمه كنيته.

وكان أبوه عبد الله أخا أبي جهل ابن هشام المخزومي لأمه، وأمهما أسماء بنت مخربة، من بني مخزوم، وقيل من بني نهشل، وهما ابنا عم، يجمعهما المغيرة بن عبد الله.

ويقظة: بفتح الياء المثناة من تحتها والقاف والظاء المعجمة.

عمر بن شبة

أبو زيد عمر بن شبة، واسمه زيد وشبة لقب، ابن عبيدة بن زيد، ويقال ابن رايطة، النميري البصري؛ كان صاحب أخبار ونوادر ورواية واطلاع كثير، وصنف " تاريخ البصرة ". روى القراءة عن جبلة بن مالك عن المفضل عن عاصم بن أبي النجود، وسمع الحروف من محبوب بن الحسن، وروى عن عبد الوهاب الثقفي وعمرو بن علي، وروى القراءة عنه عبد الله بن سليمان وعبد الله بن عمرو الوراق وأحمد بن فرج، وسمع منه أبو محمد ابن الجارود وسئل عنه أبو حاتم الرازي فقال: صدوق، وروى عنه الحافظ محمد بن ماجة صاحب السنن وغيره.

وقد تقدم ذكره في ترجمة العباس بن الأحنف. وكانت ولادته يوم الأحد مستهل رجب سنة ثلاثة وسبعين ومائة. وتوفي يوم الاثنين لست بقين، وقيل يوم الخميس لأربع بقين من جمادى الآخرة سنة اثنتين، وقيل ثلاث وستين ومائتين بسر من رأى، رحمه الله تعالى.

وشبة: بفتح الشين وتشديد الباء الموحدة.

والنميري: بضم النون وفتح الميم وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها راء، هذه نسبة إلى نمير بن عامر بن صعصعة، وهي قبيلة كبيرة ينسب إليها جماعة من العلماء وغيرهم.

الخرقي

أبو القاسم عمر بن أبي علي الحسين بن عبد الله بن أحمد الخرقي الفقيه الحنبلي؛ كان من أعيان الفقهاء الحنابلة، وصنف في مذهبهم كتباً كثيرة من جملتها المختصر الذي يشتغل به أكثر المبتدئين من أصحابهم، وكان قد أودعها في بغداد لما عزم على السفر إلى دمشق لما ظهر بها - أعني بغداد - من سب السلف، فاحترقت في غيبته.

وتوفي بدمشق، وقيل ببغداد في سنة أربع وثلاثين وثلثمائة، رحمه الله تعالى.

وكان والده أيضاً من الأعيان، روى عن جماعة، وروت عنه جماعة، رحمهم الله أجمعين.

والخرقي: بكسر الخاء المعجمة وفتح الراء وبعدها قاف، هذه النسبة إلى بيع الخرق والثياب.

عمر بن ذر

أبو ذر عمر بن ذر بن عبد الله بن زرارة بن معاوية بن منبه بن غالب بن وقش بن قسيم بن موهبة بن دعام بن مالك بن معاوية بن صعب بن دومان ابن بكيل بن جشم بن مالك، وهو الخارق بن عبد الله بن كبير بن مالك ابن جشم بن حاشد بن جشم بن خيوان بن نوف بن همدان، هكذا ساق نسبه هشام بن الكلبي في كتاب " جمهرة النسب " الهمداني الكوفي الفقيه القاص؛ كان صالحاً عابداً كبير القدر، روى عن عطاء ومجاهد، وروى عنه

وكيع وأهل العراق، وكان ولده ذر كثير البر له شديد التوفر على طاعته، ولما حضرته الوفاة دخل عليه أبوه عمر المذكور وهو يجود بنفسه، فقال له: يا بني، إنه ما علينا من موتك غضاضة، ولا بنا إلى أحد سوى الله من حاجة، فلما قضى صلى عليه ودفنه ووقف على قبره وقال: أما والله يا ذر لقد شغلنا لبكاء لك عن البكاء عليك، لأنا ما ندري ما قلت ولا ما قيل لك، اللهم إني قد وهبت له ما قصر فيه مما افترضت عليه من حقي، فهب لي ما قصر فيه مما افترضت عليه من حقك واجعل ثوابي عليه له، وزدني من فضلك إني إليك من الراغبين.

وقيل له: كيف كان بر ابنك بك؟ فقال: ما مشيت قط بنهار وهو معي إلا مشى خلفي، ولا بليل إلا مشى أمامي، ولا رقي سطحاً وأنا تحته. ويحكى عنه في ذلك أشياء كثيرة. وكان عمر المذكور يعد من المرجئة. وتوفي سنة ست، وقيل خمس وخمسين ومائة، رحمه الله تعالى.

وذر: بفتح الذال المعجمة وتشديد الراء.

والهمداني: بفتح الهاء وسكون الميم وفتح الدال المهملة، وقد تقدم الكلام عليها، وإنما قيدتها كيلا تتصحف بالهمذاني.

وزرارة: بضم الزاي وفتح الراءين بينهما ألف.

وكان أبوه ذر فقيهاً أيضاً.

الثمانيني

أبو القاسم عمر بن ثابت الثمانيني الضرير النحوي؛ كان قيماً بعلم النحو عارفاً بقوانينه، شرح كتاب " اللمع " لابن جني شرحاً تاماً حسناً أجاد فيه، وانتفع بالاشتغال عليه جمعٌ كبير؛ وكان نحوياً فاضلاً، أخذ النحو عن أبي الفتح ابن جني، وأخذ عنه الشريف أبو المعمر يحيى بن محمد بن طباطبا العلوي الحسيني، وشرح كتاب " اللمع " في التصريف لابن جني أيضاً، وكان هو وأبو القاسم ابن برهان متعارضين يقرئان الناس بالكرخ ببغداد، فكان خواص الناس يقرأون على ابن برهان، والعوام يقرأون على الثمانيني.

وتوفي في ذي القعدة سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة، رحمه الله تعالى.

والثمانيني: بفتح الثاء المثلثة والميم وبعد الألف نون مكسورة ثم ياء مثناة من تحتها ثم نون أخرى، هذه النسبة إلى ثمانين، وهي قرية من نواحي جزيرة ابني عمر عند الجبل الجودي. وهي أول قرية بنيت بعد الطوفان، وسميت بعدد الجماعة الذين خرجوا من السفينة مع نوح عليه السلام، فإنهم كانوا ثمانين وبنى كل واحد منهم بيتاً، فسميت القرية ثمانين، وقد خرج من هذه القرية جماعة.

وتوفي الشريف ابن طباطبا المذكور في شهر رمضان سنة ثمان وسبعين وأربعمائة، رحمه الله تعالى.

ابن البزري

أبو القاسم عمر بن محمد بن أحمد بن عكرمة، المعروف بابن البزري الجزري الفقيه الشافعي إمام جزيرة ابني عمر وفقيهها ومفتيها؛ تفقه أولاً بالجزيرة على الشيخ أبي الغنائم محمد بن الفرج بن منصور بن إبراهيم بن الحسن السلمي الفارقي نزيل جزيرة ابني عمر، ثم رحل إلى بغداد، واشتغل على الكيا الهراسي وحجة الإسلام أبي حامد الغزالي، وسمع عليه وعلى أخيه أحمد، وصحب الشاشي صاحب كتاب " المستظهري " وأدرك جماعة من العلماء، واستفاد منهم، ورجع إلى الجزيرة ودرس بها، وقصد من البلاد للاشتغال عليه وبطريقته، وصنف كتاباً شرح فيه إشكالات كتاب " المهذب " للشيخ أبي إسحاق الشيرازي وغريب ألفاظه وأسماء رجاله، سماه " الأسامي والعلل من كتاب المهذب " وهو مختصر.

وكان من العلم والدين في محل رفيع، وكان أحفظ من بقي في الدنيا على ما يقال لمذهب الإمام الشافعي، رضي الله عنه، وكان الغالب عليه المذهب، وانتفع به خلق كثير، وكان ينعت زين الدين جمال الإسلام. ومولده في سنة إحدى وسبعين وأربعمائة. وتوفي في ثاني شهر ربيع الأول، وقيل الآخر، سنة ستين وخمسمائة بالجزيرة، رحمه الله تعالى.

وما خلف مثله، وله تلاميذ كثيرون.

وتوفي شيخه أبو الغنائم الفارقي المذكور سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة، رحمه الله تعالى، وعليه اشتغل الفقيه عيسى بن محمد الهكاري – الآتي ذكره إن

شاء الله تعالى - بالجزيرة.

والبزري: بفتح الباء الموحدة وسكون الزاي وبعدها راء، هذه النسبة إلى عمل البزر أو بيعه، والبزر في تلك البلاد اسم للدهن المستخرج من حب الكتان، وبه يستصبحون.

شهاب الدين السهروردي

أبو حفص عمر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عمويه، واسمه عبد الله، البكري الملقب شهاب الدين السهروردي - وقد تقدم تتمة نسبه إلى أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، في ترجمة عمه الشيخ أبي النجيب عبد القاهر، فأغنى عن إعادته؛ كان فقيهاً شافعي المذهب شيخاً صالحاً ورعاً كثير الاجتهاد في العبادة والرياضة وتخرج عليه خلق كثير من الصوفية في المجاهدة والخلوة، ولم يكن في آخر عمره في عصره مثله، وصحب عمه أبا النجيب وعنه أخذ التصوف والوعظ، والشيخ أبا محمد عبد القادر بن أبي صالح الجيلي وغيرهما، وانحدر إلى البصرة إلى الشيخ أبي محمد ابن عبد، ورأى غيرهم من الشيوخ، وحصل طرفاً صالحاً من الفقه والخلاف، وقرأ الأدب، وعقد مجلس الوعظ سنين. وكان شيخ الشيوخ ببغداد، وكان له مجلس وعظ، وعلى وعظه قبول كثير وله نفس مبارك؛ حكى لي من حضر مجلسه أنه أنشد يوماً على الكرسي:

لا تسقني وحدي فما عودتني ... أني أشح بها على جلاسي
أنت الكريم ولا يليق تكرماً ... أن يعبر الندماء دور الكاس

فتواجد الناس لذلك، وقطعت شعور كثيرة وتاب جمع كبير وله تواليف حسنة منها كتاب " عوارف المعارف " وهو أشهرها، وله شعر فمنه:

تصرمت وحشة الليالي ... وأقبلت دولة الوصال
وصار بالوصل لي حسوداً ... من كان في هجركم رثى لي
وحقكم بعد إن حصلتم ... بكل ما فات لا أبالي
أحييتموني وكنت ميتاً ... وبعتموني بغير غالي
تقاصرت عنكم قلوبٌ ... فيا له مورداً حلا لي
علي ما للورى حرام ... وحبكم في الحشا حلا لي
تشربت أعظمي هواكم ... فما لغير الهوى وما لي
فما على عادمٍ أجاجاً ... وعنده أعين الزلال

ورأيت جماعة ممن حضروا مجلسه وقعدوا في خلوته وتسليكه، كجاري عادة الصوفية، فكانوا يحكون غرائب مما يطرأ عليهم فيها وما يجدونه من الأحوال الخارقة، وكان قد وصل رسولاً إلى إربل من جهة الديوان العزيز، وعقد بها مجلس وعظ، ولم تتفق لي رؤيته لصغر السن.

وكان كثير الحج، وربما جاور في بعض حججه، وكان أرباب الطريق من مشايخ عصره يكتبون إليه من البلاد صورة فتاوى يسألونه عن شيء من أحوالهم؛ سمعت أن بعضهم كتب إليه " يا سيدي إن تركت العمل أخلدت إلى البطالة، وإن عملت داخلني العجب، فأيهما أولى؟ " فكتب جوابه: " اعمل واستغفر الله تعالى من العجب ". وله من هذا شيء كثير، وذكر في كتابه " عوارف المعارف " أبياتاً لطيفة منها:

أشم منك نسيماً لست أعرفه ... أظن لمياء جرت فيك أذيالا

وذكر فيه أيضاً:

إن تأملتكم فكلي عيونٌ ... أو تذكرتكم فكلي قلوب

وذكر أشياء غير هذا لا حاجة إلى التطويل بذكرها.
وكان قد صحب عمه الشيخ أبا النجيب المذكور زماناً، وعليه تخرج. ومولده بسهرورد في أواخر رجب، أو أوائل شعبان، والشك منه، في سنة تسع وثلاثين وخمسمائة. وتوفي في مستهل المحرم سنة اثنتين وثلاثين وستمائة ببغداد، رحمه الله تعالى، ودفن من الغد بالوردية.

الحافظ ابن دحية

أبو الخطاب عمر بن الحسن بن علي بن محمد الجميل بن فرح بن خلف بن قومس بن مزلال بن ملال بن بدر بن أحمد بن دحية بن خليفة بن فروة الكلبي، المعروف بذي النسبين، الأندلسي البلنسي الحافظ؛ نقلت نسبه على هذه الصورة من خطه، وكان قد قيده وضبطه كما هو هاهنا.
الجميل: بضم الجيم وفتح الميم وتشديد الياء المثناة من تحتها وبعدها لام وهو تصغير جميل.
وفرح: بفتح الفاء وسكون الراء وبعدها حاء مهملة.
وقومس: بضم القاف وفتحها وسكون الواو وكسر الميم وبعدها سين مهملة.
ومزلال: بفتح الميم وسكون الزاي وبعد اللام ألف لام.
وملال: بفتح الميم وتشديد اللام ألف وبعدها لام.

ودحية: بكسر الدال المهملة وفتحها وسكون الحاء المهملة وبعدها ياء مثناة من تحتها، وهو دحية الكلبي صاحب رسول الله، صلى الله عليه وسلم.
والباقي معروف لا حاجة إلى ضبطه.
كان يذكر أن أمه أمة الرحمن بنت أبي عبد الله ابن أبي البسام موسى بن عبد الله بن الحسين بن جعفر بن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، فلهذا كان يكتب بخطه " ذو النسبين دحية والحسين، رضي الله عنهما " وكان يكتب أيضاً " سبط أبي البسام " إشارة إلى ذلك.
كان أبو الخطاب المذكور من أعيان العلماء ومشاهير الفضلاء، متقناً لعلم الحديث النبوي وما يتعلق به، عارفاً بالنحو واللغة وأيام العرب وأشعارها، واشتغل بطلب الحديث في أكثر بلاد الأندلس الإسلامية، ولقي بها علماءها ومشايخها، ثم رحل منها إلى بر العدوة ودخل مراكش واجتمع بفضلائها، ثم ارتحل إلى إفريقية ومنها إلى الديار المصرية ثم إلى الشام والشرق والعراق؛ وسمع ببغداد من بعض أصحاب ابن الحصين، وسمع بواسط من أبي الفتح محمد بن أحمد بن الميداني ودخل إلى عراق العجم وخراسان وما والاها ومازندران، كل ذلك في طلب الحديث والاجتماع بأئمته والأخذ عنهم، وهو في تلك الحال يؤخذ عنه، ويستفاد منه وسمع بأصبهان من أبي جعفر الصيدلاني، وبنيسابور من منصور بن عبد المنعم الفراوي وقدم مدينة إربل في سنة أربع وستمائة، وهو متوجه إلى خراسان، فرأى صاحبها الملك المعظم مظفر الدين بن زيد الدين، رحمه الله تعالى، مولعاً بعمل مولد النبي، صلى الله عليه وسلم، عظيم الاحتفال به – كما هو مذكور في ترجمته في حرف الكاف من هذا الكتاب – فعمل له كتاباً سماه " كتاب التنوير في مولد السراج المنير "وقرأه عليه بنفسه، وسمعناه على الملك المعظم في ست مجالس في جمادى الآخرة سنة خمس وعشرين وستمائة، وكان الحافظ أبو الخطاب المذكور قد ختم هذا الكتاب بقصيدة طويلة أولها:

لولا الوشاة وهم ... أعداؤنا ما وهموا

وقد ذكرت فيما تقدم في ترجمة الأسعد بن مماتي في حرف الهمزة حديث هذه القصيدة فليتأمل هناك؛ ولما عمل هذا الكتاب دفع له الملك المعظم المذكور ألف دينار، وله عدة تصانيف.
وكانت ولادته في مستهل ذي القعدة سنة أربع وأربعين وخمسمائة. وتوفي في يوم الثلاثاء الرابع عشر من ربيع الأول سنة ثلاث وثلاثين وستمائة بالقاهرة، ودفن بسفح المقطم، رحمه الله تعالى، أخبرني بذلك ولده؛ وأخبرني بعض أصحابنا الموثوق بقولهم أنه سأل ولده المذكور عن مولد أبيه، فقال في ذي القعدة من سنة ثمان وأربعين، وأخبرني ابن أخيه قال: سمعت عمي أبا الخطاب غير مرة يقول: ولدت في مستهل ذي القعدة سنة ست وأربعين

وخمسمائة، والله أعلم.

والبلنسي: بفتح الباء الموحدة اللام وسكون النون وبعها سين مهملة، هذه النسبة إلى بلنسية، وهي مدينة في شرق الأندلس.

وكان أخوه أبو عمرو عثمان بن الحسن أسن من أخيه أبي الخطاب، وكان حافظاً للغة العرب قيماً بها. وعزل الملك الكامل أبا الخطاب المذكور عن دار الحديث التي كان أنشأها بالقاهرة، ورتب مكانه أخاه أبا عمرو المذكور، ولم يزل بها إلى أن توفي يوم الثلاثاء ثالث عشر جمادى الأولى سنة أربع وثلاثين وستمائة بالقاهرة، ودفن بسفح المقطم، وله رسائل استعمل فيها حوشي اللغة.

أبو علي الشلوبيني

أبو علي عمر بن محمد بن عمر بن عبد الله الأزدي، المعروف بالشلوبيني، الأندلسي الإشبيلي النحوي تلميذ أبي بكر محمد بن خلف بن محمد بن عبد الله ابن صافي اللخمي الإشبيلي، ومن قوله:

قالوا :حبيبك معلول فقلت لهم — نفسي الفداء له من كل محذور

يا ليت علته بي غير أن له — أجر العليل واني غير مأجور

كان إماماً في علم النحو مستحضراً له غاية الاستحضار، ولقد رأيت جماعة من أصحابه وكلهم فضلاء، وكل منهم يقول: ما يتقاصر الشيخ أبو علي الشلوبيني عن الشيخ أبي علي الفارسي، ويغالون فيه مغالاة زائدة، وقالوا: فيه مع هذه الفضيلة غفلة وصورة بله في الصورة الظاهرة، حتى قالوا: إنه كان يوماً على جانب نهر وبيده كراريس فوقع منه كراسة في الماء وبعدت عنه فلم تصل يده إليها ليأخذها فأخذ كراسة أخرى وجذبها بها فتلفت الأخرى بالماء؛ وكان له مثل هذه الأسباب الدالة على البله.

وشرح المقدمة الجزولية شرحين كبيراً وصغيراً، وله كتاب في النحو سماه " التوطئة ". وكانت إقامته بإشبيلية، وأخباره متواصلة إلينا وتلامذته واردة في كل وقت، وبالجملة فإنه على ما يقال كان خاتمة أئمة النحو.

وكانت ولادته بإشبيلية في سنة اثنتين وستين وخمسمائة. وتوفي في أحد الربيعين، وقيل في صفر، سنة خمس وأربعين وستمائة بإشبيلية، رحمه الله تعالى.

والشلوبيني: بفتح الشين المثلثة اللام وسكون الواو وكسر الباء الموحدة وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها نون، هذه النسبة إلى الشلوبين، وهو بلغة الأندلس الأبيض الأشقر هكذا ذكروا، والله أعلم.

ابن طبرزذ

أبو حفص عمر بن أبي بكر محمد بن معمر بن أحمد بن يحيى بن حسان المؤدب، المعروف بابن طبرزذ، المحدث المشهور البغدادي، الملقب موفق الدين من أهل الجانب الغربي ببغداد، من ساكني محلة دار القز ولهذا عرف بالدارقزي؛ كان أخوه الأكبر أبو البقاء محمد قد أسمعه الكثير من الحديث، ثم استقل بإفادة نفسه، وعمر حتى حدث سنين، وحفظ الأصول إلى وقت الحاجة إليها، وكانت بخط أخيه أبي البقاء المذكور إلا القليل، وكان سماعه من أبي القاسم هبة الله بن عبد الواحد بن الحصين وأبي المواهب أحمد بن محمد بن ملوك الوراق وأبي الحسن ابن الزاغوني وأبي غالب ابن البناء وأبي القاسم هبة الله بن عبد الشروطي وأبي القاسم هبة الله بن أحمد الحريري والقاضي أبي بكر محمد بن عبد الباقي الأنصاري وأبي منصور ابن زريق وإسماعيل بن أحمد السمرقندي وعبد الوهاب الأنماطي وخلق كثير يطول ذكرهم؛ وكان سماعه صحيحاً على تخليط فيه، وسافر في آخر عمره إلى الشام، وحدث في طريقه بإربل والموصل وحران وحلب ودمشق وغيرها وعاد إلى بغداد وحدث بها، وتفرد بالرواية عن جماعة منهم الفقيه أبو الحسن علي بن عبد الله بن الزاغوني وابن ملوك المذكور وأبو القاسم الشروطي المذكور وأبو غالب محمد بن أحمد بن قريش وأبو البركات بن كامل بن حبيش وأبو غالب أحمد بن الحسن بن البناء وأبو القاسم هبة الله بن الحصين وغيرهم، وجمع له ابن المديني مشيخةً في جزأين وبعض ثالث فيها ثلاثة وثمانون شيخاً.

وكان عالي الإسناد في سماع الحديث، طاف البلاد وأفاد أهلها وألحق الأصاغر بالأكابر وطبق الأرض بالسماعات والإجازات، وامتدت له الحياة فخلا له العصر، وكان فيه صلاح وخير. ومولده في ذي الحجة سنة ست عشرة وخمسمائة.

وتوفي في عصر يوم الثلاثاء تاسع رجب سنة سبع وستمائة ببغداد، ودفن من الغد بباب حرب، رحمه الله تعالى.

وطبرزذ: بفتح الطاء المهملة والباء الموحدة وسكون الراء وفتح الزاي وبعدها ذال معجمة، وهو اسم لنوع من السكر.

الشرف ابن الفارض

أبو حفص وأبو القاسم عمر بن أبي الحسن علي بن المرشد بن علي، الحموي الأصل، المصري المولد والدار والوفاة، المعروف بابن الفارض، المنعوت بالشرف؛ له ديوان شعر لطيف، وأسلوبه فيه رائق ظريف ينحو منحى طريقة الفقراء؛ وله قصيدة مقدار ستمائة بيت على اصطلاحهم ومنهجهم، وما ألطف قوله في جملة قصيدة طويلة:

أهلاً بما لم أكن أهلاً لموقعه ... قول المبشر بعد اليأس بالفرج

لك البشارة فاخلع ما عليك فقد ... ذكرت ثم على ما فيك من عوج

وقوله من قصيدة أخرى:

لم أخل من حسدٍ عليك فلا تضع ... سهري بتشنيع الخيال المرجف

واسأل نجوم الليل هل زار الكرى ... جفني؟ وكيف يزور من لم يعرف؟

ومنها:

وعلى تفنن واصفيه بحسنه ... يفنى الزمان وفيه ما لم يوصف

وله دوبيت ومواليا وألغاز.

وسمعت أنه كان رجلاً صالحاً كثير الخير، على قدم التجرد، جاور بمكة، زادها الله تعالى شرفاً، زماناً. وكان حسن الصحبة محمود العشرة، أخبرني عنه بعض أصحابه أنه ترنم يوماً وهو في خلوة ببيت الحريري، صاحب " المقامات " وهو:

من ذا الذي ما ساء قط ... ومن له الحسنى فقط

قال: فسمع قائلاً ولم ير شخصه وقد أنشد:

محمد الهادي الذي ... عليه جبريل هبط

وأنشدني له جماعة من أصحابه مواليا في غلام صنعته الجزارة، وهو كيس، ولم أره في ديوانه:

قلتو لجزر عشقتو كم تشرخني ... قتلتني قال ذا شغلي توبخني

ومل إلي وبس رجلي يربخني ... يريد ذبحي فينفخني ليسلخني

وقد كتبته على اصطلاحهم فإنهم لا يراعون فيه الإعراب والضبط بل يجوزون فيه اللحن، بل غالبه ملحون، فلا يؤاخذ من يقف عليه.

وكان يقول: عملت في النوم بيتين، وهما:

وحياة أشواقي إلي ... ك وحرمة الصبر الجميل

لا أبصرت عيني سوا ... ك ولا صبوت إلى خليل

وكانت ولادته في الرابع من ذي القعدة سنة ست وسبعين وخمسمائة بالقاهرة. وتوفي بها يوم الثلاثاء الثاني من جمادى الأولى سنة اثنتين وثلاثين وستمائة ودفن من الغد بسفح المقطم، رحمه الله تعالى.

والفارض: بفتح الفاء وبعد الألف راء مفتوحة وبعدها ضاد معجمة، وهو الذي يكتب الفروض للنساء على الرجال.

تقي الدين صاحب حماة

الملك الظفر تقي الدين أبو سعيد عمر بن نور الدولة شاهنشاه بن أيوب صاحب حماة، وهو ابن أخي السلطان صلاح الدين، رحمه الله تعالى – وقد تقدم ذكر أبيه في حرف الشين؛ كان شجاعاً مقداماً منصوراً في الحروب مؤيداً في الوقائع ومواقفه مشهورة مع الفرنج. وكانت له آثار في المصافات دلت عليها التواريخ، وله في أبواب البر كل حسنة، منها: مدرسة منازل العز التي بمصر، يقال إنها كانت دار سكنه، فوقف عليها وقفاً كثيراً وجعلها مدرسة. وكانت الفيوم وبلادها إقطاعه، وله بها مدرستان: شافعية ومالكية، وعليهما وقفٌ جيد أيضاً، وبنى بمدينة الرها مدرسة لما كان صاحب البلاد الشرقية، وكان كثير الإحسان إلى العلماء والفقراء وأرباب الخير.

وناب عن عمه صلاح الدين بالديار المصرية في بعض غيباته عنها، فإن الملك العادل كان نائباً عن أخيه السلطان صلاح الدين بالديار المصرية، فلما حاصر الكرك في سنة تسع وسبعين وخمسمائة في رجب طلب أخاه من مصر بالعساكر، وسير إليها تقي الدين في العشر الوسط من شعبان من السنة نائباً عنها، ثم استدعاه إليه بالشام، ورتب بالديار المصرية ولده الملك العزيز عثمان – المقدم ذكره – ومعه الملك العادل، فشق ذلك على تقي الدين وعزم على دخوله بلاد المغرب ليفتحها، فقبح أصحابه عليه ذلك، فامتثل قول عمه صلاح الدين وحضر إلى خدمته. وخرج السلطان التقاه بمرج الصفر، واجتمعا هناك في الثالث والعشرين من شعبان سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة، وفرح به وأعطاه حماة، فتوجه إليها وتوجه إلى قلعة منازكرد من نواحي خلاط ليأخذها، فحاصرها مدة، وتوفي عليها يوم الجمعة تاسع عشر شهر رمضان، سنة سبع وثمانين وخمسمائة وقيل بل توفي ما بين خلاط وميافارقين، ونقل إلى حماة، ودفن بها.

وترتب مكانه ولده الملك المنصور ناصر الدين أبو المعالي محمد بن عمر، ومات يوم الاثنين الثاني والعشرين من ذي القعدة سنة سبع عشرة وستمائة بحماة، رحمهما الله تعالى.

ورأيت بخطي في مسوداتي أن تقي الدين مولده سنة أربع وثلاثين وخمسمائة.

قال ابن شداد في " السيرة ": لما كان يوم الجمعة حادي عشر شوال سنة سبع وثمانين وخمسمائة ركب السلطان إلى جهة العدو وأشرف عليهم، ثم عاد وأمرني بالإشارة إلى الملك العادل بأن يحضر معه علم الدين سليمان بن جندر وسابق الدين بن الداية وعز الدين بن المقدم؛ فلما مثلت بين يديه الجماعة بخدمته، أمر بإخلاء المكان من غير المذكورين وإبعاد الناس عن الخيمة، وكنت من جملة الحاضرين؛ فأخرج كتاباً من قبائه وفضه ووقف عليه، ففاضت دموعه وغلبه النحيب والبكاء حتى وافقناه من غير أن نعلم السبب في ذلك، ثم ذكر انه يتضمن وفاة الملك المظفر تقي الدين، رحمه الله تعالى، فاستأنف الحاضرون البكاء عليه والأسف، ثم ذكرته الله تعالى وعرفته ما يجب من الانقياد لقضائه وقدره فقال: أستغفر الله، إنا لله وإنا إليه راجعون؛ ثم قال: من المصلحة كتمان ذلك وإخفاؤه لئلا يتصل بالعدو ونحن منازلوه. ثم أمر بإحضار الطعام وأطعم الجماعة وانفصلوا من بين يديه. وكانت وفاته في طريق خلاط عائداً إلى ميافارقين، فحمل ميتاً إلى ميافارقين، وعملت له تربة ومدرسة مشهورة بأرض حماة، وحمل إليها ودفن بها وزرته بها. وكانت وفاته يوم الجمعة تاسع شهر رمضان سنة سبع وثمانين وخمسمائة. وذكر قبل هذا: لما كان يوم الأحد الحادي والعشرين من شهر رمضان – يعني من السنة – وصل كتاب من الديوان العزيز ينكر قصد الملك المظفر تقي الدين إلى جهة خلاط وفيه معاتبة نائبه بسبب بكتمر ويشفع فيه وفي حسن بن قفجاق وأن يتقدم بإطلاقه – وكان مظفر الدين قد قبض عليه بإربل – وأن يسير القاضي الفاضل إلى الديوان لبت حال، فسير الكتاب إلى القاضي الفاضل ليقف عليه ويكتب إلى الملك المظفر بما رسم فيه. ثم عاد ابن شداد إلى هذا الكلام في كتاب آخر بعد هذا التاريخ وقال: كان الجواب عن تقي الدين: إنا لم نأمره إلى التعريض ببكتمر صاحب اخلاط وإنما عبر ليجمع العساكر للجهاد ويعود، فاتفقت أسباب اقتضت ذلك وقد أمرنا بالعود عنه؛ وعن ابن

قفجاق بأن قد عرفتم حال ابن قفجاق وما يتصدى له من الفساد في الأرض وانه قد تقدم إلى مظفر الدين بإحضاره معه إلى الشام ليقطعه فيه ويكون ملازماً للجهاد؛ وعن الثالث بالاعتذار عن القاضي الفاضل بأن قوته تضعف عن الحركة إلى العراق؛ هذا حاصل الجواب.

أبو إسحاق السبيعي

أبو إسحاق عمرو بن عبد الله بن علي بن أحمد بن ذي يحمد بن السبيع السبيعي الهمداني الكوفي من أعيان التابعين؛ رأى علياً وابن عباس وابن عمر وغيرهم من الصحابة، رضي الله عنهم أجمعين، وروى عنه الأعمش وشعبة والثوري وغيرهم، رضي الله عنهم، وكان كثير الرواية. ولد لثلاث سنين بقين من خلافة عثمان، رضي الله عنه، وتوفي سنة تسع وعشرين، وقيل سبع وعشرين، وقيل ثمان وعشرين ومائة. وقال يحيى بن معين والمدائني: مات سنة اثنتين وثلاثين ومائة، والله أعلم، رضي الله عنه.

والسبيعي: بفتح السين المهملة وكسر الباء الموحدة وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها عين مهملة، هذه النسبة إلى سبيع، وهو بطن من همدان.

وكان أبو إسحاق المذكور يقول: رفعني أبي حتى رأيت علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، يخطب وهو أبيض الرأس واللحية.

عمرو بن عبيد

أبو عثمان عمرو بن عبيد بن باب، المتكلم الزاهد المشهور، مولى بني عقيل، ثم آل عرادة بن يربوع بن مالك. كان جده باب من سبي كابل من جبال السند، وكان أبوه يخلف أصحاب الشرط بالبصرة، فكان الناس إذا رأوا عمراً مع أبيه، قالوا: هذا خير الناس ابن شر الناس، فيقول أبوه: صدقتم، هذا إبراهيم وأنا آزر، وقيل لأبيه عبيد: إن ابنك يختلف إلى الحسن البصري، ولعله أن يكون، فقال: وأي خير يكون من ابني وقد أصبت أمه من غلول وأنا أبوه؟ وكان عمرو شيخ المعتزلة في وقته –وسيأتي في ترجمة واصل بن عطاء سبب اعتزاله، و لم سموا المعتزلة إن شاء الله تعالى – وكان آدم مربوعاً بين عينيه أثر السجود.

وسئل الحسن البصري عنه، فقال للسائل: لقد سألت عن رجل كأن الملائكة أدبته، وكأن الأنبياء ربته، إن قام بأمر قعد به، وإن قعد بأمر قام به، وإن أمر بشيء كان ألزم الناس له، وإن نهي عن شيء كان أترك الناس له، ما رأيت ظاهراً أشبه بباطن ولا باطناً أشبه بظاهر منه.

ولما كان عبد الله بن عمر بن عبد العزيز أميراً على العراق أرسل إلى عامله على البصرة – وهو شبيب بن شيبة – أن يوفد إليه وفداً، فأرسل إلى جماعة يأمرهم بذلك، وأرسل إلى عمرو بن عبيد فامتنع، فأعاد سؤاله فقال: إن أول ما يسألني عنه سيرتك، فما تراني قائلاً؟ قال: فكف عنه.

قلت: هذا عبد الله بن عمر هو الذي حفر نهر البصرة المعروف بنهر ابن عمر المشهور في مكانه، وهو عبد الله بن عمر بن عبد العزيز بن مروان الأموي الحكمي، حبسه مروان بن محمد المنبوذ بالحمار، آخر ملوك بني أمية، مع إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، المعروف بالإمام، بحران، وقتلهما في سنة نيف وثلاثين ومائة.

ودخل عمرو يوماً على أبي جعفر المنصور في خلافته، وكان صاحبه وصديقه قبل الخلافة وله معه مجالس وأخبار، فقربه وأجلسه، ثم قال له: عظني، فوعظه بمواعظ، منها: إن هذا الأمر الذي أصبح في يدك لو بقي في يد غيرك ممن كان قبلك لم يصل إليك، فأحذرك ليلة تمخض بيوم لا ليلة بعده. فلما أراد النهوض قال: قد أمرنا لك بعشرة آلاف درهم، قال: لا حاجة لي فيها، قال: والله تأخذها، قال: والله لا آخذها. وكان المهدي ولد المنصور حاضراً، فقال: يحلف أمير المؤمنين وتحلف أنت؟ فالتفت عمرو إلى المنصور وقال: من هذا الفتى؟ قال: هذا المهدي ولدي وولي عهدي، فقال: أما لقد ألبسته لباساً ما هو من لباس الأبرار، وسميته باسم ما استحقه، ومهدت له أمراً أمتع ما يكون به أشغل ما يكون عنه. ثم التفت عمرو إلى المهدي وقال: نعم يا ابن أخي، إذا حلف أبوك أحنثه عمك، لأن أباك أقوى على الكفارات من عمك، فقال له المنصور: هل من حاجة؟ قال: لا تبعث إلي حتى آتيك، قال: إذاً لا تلقني، قال: هي حاجتي، ومضى، فأتبعه المنصور طرفه، وقال:

كلكم يمشي رويد ... كلكم يطلب صيد

غير عمرو بن عبيد

ولما خرج محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب، رضي الله تعالى عنهم، على أبي جعفر المنصور وقدم البصرة ثم خرج منها، وبلغ المنصور خبره، أقبل مسرعاً في سنة اثنتين وأربعين ومائة، وبها عمرو بن عبيد، فقال له أصحابه: نخرج للقائه، فأبى، فعاودوه وغلبوه على رأيه حتى خرج إليه، فقال له يا أبا عثمان، هل بالبصرة أحد نخافه على أمرنا؟ قال: لا، قال: أفأقتصر على قولك وأنصرف؟ قال: نعم، فانصرف و لم يدخلها.
ولعمرو المذكور رسائل وخطب، وكتاب التفسير عن الحسن البصري، وكتاب " الرد على القدرية "، وكلام كثير في العدل والتوحيد، وغير ذلك.
ولما حضرته الوفاة قال لصاحبه: نزل بي الموت و لم أتأهب له، ثم قال: اللهم إنك تعلم أنه لم يسنح لي أمران في أحدهما رضا لك وفي الآخر هوى لي إلا اخترت رضاك على هواي، فاغفر لي.
وكانت ولادته في سنة ثمانين للهجرة. وتوفي سنة أربع وأربعين ومائة، وقيل اثنتين، وقيل ثلاث، وقيل ثمان، وهو راجع من مكة بموضع يقال له مران؛ ورثاه المنصور بقوله:

صلى الإله عليك من متوسدٍ	قبراً مررت به على مران
قبراً تضمن مؤمناً متحنفاً	صدق الإله ودان بالعرفان
لو أن هذا الدهر أبقى صالحاً	أبقى لنا عمراً أبا عثمان

و لم يسمع بخليفة رثى من دونه سواه، رضي الله عنه.
ومران: بفتح الميم وتشديد الراء وبعد الألف نون، موضع بين مكة والبصرة على ليلتين من مكة، وبه دفن أيضاً تميم بن مر الذي تنسب إليه بنو تميم القبيلة الكبيرة المشهورة.
واسم جده باب: بباءين موحدتين بينهما ألف، وإنما قيدته لأنه يتصحف بناب.

سيبويه

أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، الملقب سيبويه،مولى بني الحارث بن كعب، وقيل آل الربيع بن زياد الحارثي؛ كان أعلم المتقدمين والمتأخرين بالنحو، و لم يوضع فيه مثل كتابه، وذكره الجاحظ يوماً فقال: لم يكتب الناس في النحو كتاباً مثله، وجميع كتب الناس عليه عيال. وقال الجاحظ: أردت الخروج إلى محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم ففكرت في شيء أهديه له، فلم أجد شيئاً أشرف من كتاب سيبويه،فلما وصلت إليه قلت له: لم أجد شيئاً أهديه لك مثل هذا الكتاب، وقد اشتريته من ميراث الفراء، فقال: والله ما أهديت لي شيئاً أحب إلي منه. ورأيت في بعض التواريخ أن الجاحظ لما وصل إلى ابن الزيات بكتاب سيبويه أعلمه به قبل إحضاره، فقال له ابن الزيات: أو ظننت أن خزانتنا خالية من هذا الكتاب؟ فقال الجاحظ: ما ظننت ذلك، ولكنها بخط الفراء ومقابلة الكسائي وتهذيب عمرو بن بحر الجاحظ، يعني نفسه، فقال ابن الزيات: هذه أجل نسخة توجد وأعزها، فأحضرها إليه، فسر بها ووقعت منه أجمل موقع.
وأخذ سيبويه النحو عن الخليل بن أحمد – المقدم ذكره –وعن عيسى ابن عمر ويونس بن حبيب وغيرهم، وأخذ اللغة عن أبي الخطاب المعروف بالأخفش الأكبر وغيره.
وقال ابن النطاح: كنت عند الخليل بن أحمد فأقبل سيبويه، فقال الخليل: مرحباً بزائر لا يمل، قال أبو عمر المخزومي وكان كثير المجالسة للخليل: ما سمعت الخليل يقولها لأحد إلا لسيبويه.
وكان قد ورد إلى بغداد من بصرة والكسائي يومئذ يعلم الأمين بن هارون الرشيد، فجمع بينهما وتناظرا وجرى مجلس يطول شرحه، وزعم الكسائي أن العرب تقول: كنت أظن أن الزنبور أشد لسعاً من النحلة فإذا هو إياها، فقال سيبويه: ليس المثل كذا، بل فإذا هو هي، وتشاجرا طويلاً، واتفقا على مراجعة عربي خالص لا يشوب كلامه شيء من كلام أهل الحضر، وكان الأمين شديد العناية بالكسائي لكونه معلمه، فاستدعى عربياً وسأله فقال كما قال سيبويه. فقال له: نريد أن تقول كما قال الكسائي، فقال: إن لساني لا يطاوعني على ذلك فإنه ما يسبق إلا إلى الصواب، فقرروا معه

أن شخصاً يقول: قال سيبويه كذا وقال الكسائي كذا، فالصواب مع من منهما؟ فيقول العربي: مع الكسائي، فقال: هذا يمكن، ثم عقد لهما المجلس واجتمعا أئمة هذا الشأن وحضر العربي، وقيل له ذلك فقال: الصواب مع الكسائي، وهو كلام العرب، فعلم سيبويه أنهم تحاملوا عليه وتعصبوا للكسائي، فخرج من بغداد وقد حمل في نفسه لما جرى عليه، وقصد بلاد فارس فتوفي في قرية من قرى شيراز يقال لها البيضاء في سنة ثمانين ومائة، وقيل سنة سبع وسبعين، وعمره نيف وأربعون سنة، وقال ابن قانع: بل توفي بالبصرة في سنة إحدى وستين ومائة، وقيل سنة ثمان وثمانين، وقال الحافظ أبو الفرج ابن الجوزي: توفي سنة أربع وتسعين ومائة، وعمره اثنتان وثلاثون سنة، وأنه توفي بمدينة ساوة، وذكر الخطيب في " تاريخ بغداد " عن ابن دريد أنه قال: مات سيبويه بشيراز، وقبره بها، والله أعلم.

وقيل أن ولادته كانت بالبيضاء المذكورة، لا وفاته. قال أبو سعيد الطوال: رأيت على قبر سيبويه هذه الأبيات مكتوبة، وهي لسليمان بن يزيد العدوي:

ذهب الأحبة بعد طول تزاور ... ونأى المزار فأسلموك وأقشعوا
تركوك أوحش ما تكون بقفرة ... لم يؤنسوك، وكربة لم يدفعوا؟
قضيا لقضاء وصرت صاحب حفرة ... عنك الأحبة أعرض وتصدعوا

وقال معاوية بن بكر العليمي، وقد ذكر عنده سيبويه: رأيته وكان حديث السن، وكنت أسمع في ذلك العصر أنه أثبت من حمل عن الخليل بن أحمد، وقد سمعته يتكلم ويناظر في النحو، وكانت في لسانه حبسة، ونظرت في كتابه فقلمه أبلغ من لسانه.

وقال أبو زيد الأنصاري: كان سيبويه غلاماً يأتي مجلسي وله ذؤابتان، فإذا سمعته يقول: حدثني من أثق بعربيته، فإنما يعنيني.

وكان سيبويه كثيراً ما ينشد:

إذا بل من داءٍ به ظن أنه ... نجا، وبه الداء الذي هو قاتله

وسيبويه: بكسر السين المهملة وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح الباء الموحدة والواو وسكون الياء الثانية وبعدها هاء ساكنة، ولا يقال بالتاء البتة، وهو لقب فارسي معناه بالعربية رائحة التفاح؛ هكذا يضبط أهل العربية هذا الاسم ونظائره مثل نفطويه وعمرويه وغيرهما، والعجم يقولون " سيبويه " بضم الباء الموحدة وسكون الواو وفتح الياء المثناة بعدها، لأنهم يكرهون أن يقع في آخر الكلمة " ويه " لأنها للندبة. وقال إبراهيم الحربي: سمي سيبويه لأن وجنتيه كانتا كأنهما تفاحتان، وكان في غاية الجمال، رحمه الله تعالى.

أبو عمرو بن العلاء

أبو عمرو بن العلاء بن عمار بن العريان بن عبد الله بن الحصين التميمي المازني البصري. ورأيت بخطي في مسوداتي: هو أبو عمرو بن العلاء بن عمار ابن عبد الله بن الحصين بن الحارث بن جلهم بن خزاعي بن مازن بن مالك بن عمرو بن تميم، ويقال: جلهم بن حجر بن خزاعي، واسمه العريان؛ أحد القراء السبعة، كان أعلم الناس بالقرآن الكريم والعربية والشعر، وهو في النحو في الطبقة الرابعة من علي بن أبي طالب، رضي الله عنه. قال الأصمعي: قال أبو عمرو بن العلاء: لقد علمت من النحو ما لم يعلمه الأعمش وما لو كتب لما استطاع أن يحمله. وقال أيضاً: سألت أبا عمرو عن ألف مسألة، فأجابني فيها بألف حجة.

وكان أبو عمرو رأساً في حياة الحسن البصري مقدما في عصره. وقال أبو عبيدة: كان أبو عمرو أعلم الناس بالأدب والعربية والقرآن والشعر. وكانت كتبه التي كتب عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتا له إلى قريب من السقف، ثم إنه تقرأ– أي تنسك – فأخرجها كلها، فلما رجع إلى علمه الأول لم يكن عنده إلا ما حفظه بقلبه، وكانت عامة أخباره عن أعراب قد أدركوا الجاهلية. قال الأصمعي: جلست إلى أبي عمرو بن العلاء عشر حجج، فلم أسمعه يحتج ببيت إسلامي، قال: وفي أبي عمرو بن العلاء يقول الفرزدق:

مازلت أغلق أبواباً وأفتحها حتى أتيت أبا عمرو بن عمار

والصحيح أن كنيته اسمه، وقيل اسمه زبان، وقيل غير ذلك، وليس بصحيح، وهو من خزاعي بن مازن، وحكي في نسبه في بعض الروايات أنه أبو عمرو بن العلاء بن عمار بن عبد الله بن الحصين بن الحارث بن جلهم بن خزاعي بن مازن بن مالك بن عمرو بن تميم، ويقال: جلهم بن حجر بن خزاعي، والله أعلم.

وحكى أبو عمرو قال: طلب الحجاج بن يوسف الثقفي أبي، فخرج منه هارباً إلى اليمن، فإنا لنسير بصحراء باليمن إذ لحقنا لاحق ينشد:

ربما تكره النفوس من الام ر له فرجة كحل العقال

قال: فقال أبي: مالخبر؟ قال: مات الحجاج، قال أبو عمرو: فأنا بقوله " له فرجة " أشد سروراً مني بموت الحجاج، قال، فقال أبي: اصرف ركابنا إلى البصرة. قال أبو عبيدة، قلت لأبي عمرو: كم سنك يوم يومئذ؟ قال: كنت قد خنقت بضعاً وعشرين سنة.

يقال فرجة بالفتح بين الأمرين وبالضم بين الجبلين.

وذكر في كتاب " طبقات النحاة " قال: حدث الأصمعي عن أبي عمرو ابن العلاء في قول رسول الله، صلى الله عليه وسلم " في الجنين غرة عبد أو أمة " لولا أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أراد بالغرة معنى لقال: " في الجنين عبد أو أمة " ولكنه عنى البياض، ولا يقبل في الدية إلا غلام أبيض أو جارية بيضاء، لا يقبل فيها أسود ولا سوداء،وهذا غريب، ولا أعلم أهل يوافق مذهب أحد من الأئمة المجتهدين أم لا، ولغرابته نقلته. وذكر في هذا الكتاب أيضاً قال الأصمعي: سألت أبا عمرو بن العلاء عن قولهم " أرهبته ورهبته " فقال: ليستا بسواء، فقلت: رهبته فرقته، وأرهبته أدخلت الفرق في قلبه، قال أبو عمرو: ذهب من يعرف هذا منذ ثلاثين سنة.

وقال ابن مناذر: سألت أبا عمرو بن العلاء: حتى متى يحسن بالمرء أن يتعلم؟ قال: ما دامت الحياة تحسن به. وقال أبو عمرو: حدثنا قتادة السدوسي قال: لما كتب المصحف عرض على عثمان بن عفان، رضي الله عنه، فقال: إن فيه لحناً ولتقيمنه العرب بألسنتها.

وكان أبو عمرو إذا دخل شهر رمضان لم ينشد بيت شعر حتى ينقضي. وكان له في كل يوم فلسان يشتري بأحدهما كوزاً جديداً يشرب فيه يومه ثم يتركه لأهله، ويشتري بالأخر ريحاناً فيشمه يومه فإذا أمسى قال لجاريته: جففيه ودقيه في الأشنان.

وروى بن يونس بن حبيب النحوي قال: سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول: ما زدت في شعر العرب قط إلا بيتاً واحداً، وهو:

وأنكرتني وما كان الذي نكرت من الحوادث إلا الشيب والصلعا

وهذا البيت يوجد في جملة أبيات للأعشى، وهي أبيات مشهورة. وقال أبو عبيدة: دخل أبو عمرو بن العلاء على سليمان بن علي، وهو عم السفاح، فسأله عن شيء فصدقه، فلم يعجبه ما قاله، فوجد أبو عمرو في نفسه وخرج، وهو يقول:

أنفت من الذل عند الملوك وأن أكرموني وإن قربوا

إذا ما صدقتهم خفتهم ويرضون مني بأن يكذبوا

وحكى علي بن محمد بن سليمان النوفلي قال: سمعت أبي يقول لأبي عمرو بن العلاء: خبرني عما وضعت مما سميته عربيةً، يدخل فيه كلام العرب كله؟ فقال: لا، فقلت: فكيف تصنع فيما خالفتك فيه العرب وهو حجة؟ قال: أعمل على الأكثر، واسمي ما خالفني لغات. وأخبار أبي عمرو كثيرة.

وكانت ولادته سنة سبعين، وقيل ثمان وستين، وقيل خمس وستين للهجرة بمكة. وتوفي سنة أربع وخمسين، وقيل تسع وخمسين، وقيل ست وخمسين ومائة بالكوفة، وكان قد خرج إلى الشام يجتدي عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام والي دمشق، فلما عاد إلى الكوفة توفي بها، وقال ابن قتيبة: مات في طريق الشام، ونسبوه في ذلك إلى الغلط، فقد ذكر بعض الرواة أنه رأى قبر أبي عمرو بالكوفة مكتوباً عليه " هذا قبر أبي عمرو بن العلاء ".

ولما حضرته الوفاة كان يغشى عليه ويفيق، فأفاق من غشية له، فإذا ابنه بشر يبكي، فقال: ما يبكيك وقد أتت علي أربع وثمانون سنة؟ رحمه الله تعالى.

ورثاه عبد الله بن المقفع بقوله:

رزئنا أبا عمرو ولا حي مثله فلله ريب الحادثات بمن فجع
فإن تك قد فارقتنا وتركتنا ذوي خلة ما في انسداد لها طمع
فقد جر نفعاً فقدنا لك أننا أمنا على كل الرزايا من الجزع

وقد قيل: إنما رثي بها يحيى بن زياد بن عبيد الله بن عبد الله بن عبد المدان الحارثي الكوفي الشاعر المشهور، وهو ابن خال السفاح أول خلفاء بني العباس، رضي الله عنه؛ وقيل بل رثي بها عبد الكريم بن أبي العوجاء، والأول أشهر، والله أعلم؛ وقيل أن هذه الأبيات لمحمد بن عبد الله بن المقفع، والله أعلم.

وأقول: إن هذه المرثية إن كانت في أبي عمرو المذكور فما يمكن أن تكون لعبد الله لأنه مات قبل موت أبي عمرو، وإن كانت لمحمد فيمكن ذلك، ولكنها مشهورة في أبي عمر المذكور.

وإنما أتيت بأبي عمرو في هذا الحرف، وهذه كنية لا اسم، للعذر الذي تقدم في حرف الباء في ترجمة أبي بكر بن عبد الرحمن، فلينظر هناك.

وأما عبد الوهاب المذكور فهو ابن إبراهيم المعروف بالإمام المذكور في ترجمة أبيه محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، رضي الله عنه، وكان عبد الوهاب يتولى الشام من جهة عمه المنصور، وكان المنصور يخافه فلما حضرت المنصور الوفاة وهو بباب مكة عند بئر ميمون كما هو مشهور قال لحاجبه الربيع ابن يونس المقدم ذكره: ما أخاف إلى صاحب الشام عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام، ثم رفع يديه إلى السماء وقال: اللهم اكفني عبد الوهاب، قال الربيع: فلما مات المنصور ودليته في القبر وعرضت عليه الحجارة سمعت هاتفاً يهتف من القبر: مات عبد الوهاب، وأجيبت الدعوة، قال الربيع فهالني ذلك الصوت، وجيء بالخبر بعد سادسة أو سابعة بوفاة عبد الوهاب، هكذا ذكره ابن بدرون في شرح قصيدة ابن عبدون التي أولها:

الدهر يفجع بعد العين بالأثر

بعد قوله فيها:

وروعت كل مأمون ومؤتمن وأسلمت كل منصور ومنتصر

والله أعلم.

الجاحظ

أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الليثي المعروف بالجاحظ، البصري العالم المشهور؛ صاحب التصانيف في كل فن، له مقالة في أصول الدين، وإليه تنتسب الفرقة المعروفة بالجاحظية من المعتزلة، وكان تلميذ أبي إسحاق إبراهيم بن سيار البلخي المعروف بالنظام المتكلم المشهور، وهو خال يموت بن المزرع – الآتي ذكره في حرف الياء إن شاء الله تعالى – ومن أحسن تصانيفه وأمتعها كتاب " الحيوان " فلقد جمع كل غريبة، وكذلك كتاب " البيان والتبين " وهي كثيرة جداً. وكان من فضائله مشوه الخلق، وإنما قيل له " الجاحظ " لأن عينيه كانتا جاحظتين، والجحوظ: النتو، وكان يقال له أيضاً " الحدقي " لذلك.

ومن جملة أخباره أنه قال: ذكرت للمتوكل لتأديب بعض ولده، فلما رآني استبشع منظري فأمر لي بعشرة آلاف درهم وصرفني، فخرجت من عنده فلقيت محمد بن إبراهيم وهو يريد الانصراف إلى مدينة السلام، فعرض علي الخروج معه والانحدار في حراقته وكنا بسر من رأى، فركبنا في الحراقة، فلما انتهينا إلى فم نهر القاطول نصب ستارةً وأمر بالغناء، فاندفعت عوادة فغنت:

كل يوم قطيعةٌ وعتاب ينقضي دهرنا ونحن غضاب
ليت شعري أنا خصصت بهذا دون ذا الخلق أم كذا الأحباب

وسكتت، فأمر الطنبورية فغنت :

ورحمتاه للعاشقينا ما إن أرى لهم معينا

كم يهجرون ويصرمو ن ويقطعون فيصبرونا

قال: فقالت لها العوادة: فيصنعون ماذا؟ قالت: هكذا يصنعون، وضربت بيدها إلى الستارة فهتكتها وبرزت كأنها فلقة قمر، فألقت نفسها في الماء، وعلى رأس محمد غلام يضاهيها في الجمال، وبيده مذبة، فأتى الموضع ونظر إليها وهي تمر بين الماء، وأنشد:

أنت التي غرقتني بعد القضا لو تعلمينا

وألقى نفسه في أثرها، فأدار الملاح الحراقة، فإذا بهما معتنقان ثم غاصا فلم يريا،فاستعظم محمد ذلك وهاله أمره، ثم قال: يا عمرو، لتحدثني حديثا يسليني عن فعل هذين، وإلا الحقتك بهما، قال: فحضرني حديث يزيد بن عبد الملك، وقد قعد للمظالم يوماً وعرضت عليه القصص، فمرت به قصة فيها: " إن رأى أمير المؤمنين أن يخرج إلي جاريته فلانة حتى تغنيني ثلاثة أصوات فعل "، فاغتاظ يزيد من ذلك، وأمر من يخرج إليه ويأتيه برأسه، ثم أتبع الرسول برسول آخر يأمره أن يدخل إليه الرجل، فأدخله، فلما وقف بين يديه قال له: ما لذي حملك على ما صنعت؟ قال: الثقة بحلمك والاتكال على عفوك، فأمره بالجلوس حتى لم يبق أحد من بني أمية إلا خرج، ثم أمر فأخرجت الجارية ومعها عودها، فقال لها الفتى غني:

أفاطم مهلاً بعض هذا التدلل وإن كنت قد أزمعت صرمي فأجملي

فغنته، فقال له يزيد: قل، فقال: غني:

تألق البرق نجدياً فقلت له يا أيها البرق إني عنك مشغول

فغنته، فقال له يزيد: قل، قال: تأمر لي برطل شراب، فأمر له، فما استتم شربه حتى وثب وصعد على أعلى قبة ليزيد، فرمى نفسه على دماغه فمات، فقال يزيد: إنا لله وإنا إليه راجعون، أتراه الأحمق الجاهل ظن أني أخرج إليه جاريتي وأردها إلى ملكي، يا غلمان خذوا بيدها واحملوها إلى أهله إن كان له أهل، وإلا فبيعوها وتصدقوا بثمنها عليه. فانطلقوا بها إلى أهله، فلما توسطت الدار نظرت إلى حفيرة في وسط دار يزيد قد أعدت للمطر فجذبت نفسها من أيديهم، وأنشدت:

من مات عشقاً فليمت هكذا لا خير في عشق بلا موت

وألقت نفسها في الحفيرة على دماغها فماتت. فسري عن محمد وأجزل صلتي. وقال أبو القاسم السيرافي: حضرنا مجلس الأستاذ أبي الفضل ابن العميد الوزير – الآتي ذكره إن شاء الله تعالى – فجرى ذكر الجاحظ، فغض منه بعض الحاضرين وأزرى به، وسكت الوزير عنه، فلما خرج الرجل قلت له: سكت أيها الأستاذ عن هذا الرجل في قوله مع عادتك في الرد على أمثاله، فقال: لم أجد في مقابلته أبلغ من تركه على جهله، ولو وافقته وبينت له لنظر في كتبه وصار بذلك إنساناً يا أبا القاسم، فكتب الجاحظ تعلم العقل أولاً والأدب ثانياً، و لم أستصلحه لذلك.

وكان الجاحظ في أواخر عمره قد أصابه الفالج، فكان يطلي نصفه الأيمن بالصندل والكافور لشدة حرارته، والنصف الأيسر لو قرض بالمقاريض لما أحس به من خدره وشدة برده. وكان يقول في مرضه: اصطلحت على جسدي الأضداد. إن أكلت بارداً أخذ برجلي، وأن أكلت حاراً أخذ برأسي. وكان يقول: أما من جانبي الأيسر مفلوج فلو قرض بالمقاريض ما علمت به، ومن جانبي الأيمن منقرسٌ فلو مر به الذباب لألمت، وبي حصاة لا ينسرح لي البول معها وأشد ما علي ست وتسعون سنة، وكان ينشد:

أترجو أن تكون وأنت شيخٌ كما قد كنت أيام الشباب

لقد كذبتك نفسك ليس ثوب دريسٌ كالجديد من الثياب

وحكى بعض البرامكة قال: كنت تقلدت السند، فأقمت بها ما شاء الله، ثم اتصل بي إني صرفت عنها، وكنت كسبت بها ثلاثين ألف دينار، فخشيت أن يفجأني الصارف فيسمع بمكان المال فيطمع فيه، فصغته عشرة آلاف إهليلجة في كل إهليلجة ثلاثة مثاقيل؛ و لم يمكث الصارف أن أتى، فركبت البحر وانحدرت إلى البصرة، فخبرت أن الجاحظ بها وأنه عليل بالفالج، فأحببت أن أراه قبل وفاته، فسرت إليه، فأفضيت إلى باب دار لطيف فقرعته فخرجت إلي خادمة صفراء فقالت: من أنت؟ قلت: رجل غريب وأحب أن أسر بالنظر إلى الشيخ فبلغته الخادم ما قلته، فسمعته يقول: قولي له وما تصنع بشق مائل ولعاب سائل ولون حائل، فقلت للجارية: لابد من الوصول إليه، فلما بلغته قال: هذا رجل قد اجتاز بالبصرة وسمع بعلتي فقال: أراه قبل موته لأقول: قد رأيت الجاحظ، ثم أذن لي فدخلت فسلمت عليه ورد رداً جميلاً، وقال: من تكون أعزك الله؟ فانتسبت له، فقال: رحم الله أسلافك وآباءك السمحاء الأجواد، فلقد كانت أيامهم رياض الأزمنه، ولقد انجبر بهم خلق كثير فسقياً لهم ورعياً، فدعوت له وقلت: أنا أسألك أن تنشدني شيئاً من الشعر، فأنشدني:

لئن قدمت قبلي رجال فطالما ... مشيت على رسلي فكنت المقدما

ولكن هذا الدهر تأتي صروفه ... فتبرم منقوضاً وتنقض مبرماً

ثم نهضت، فلما قاربت الدهليز قال: يا فتى أرأيت مفلوجاً ينفعه الإهليلج؟ قلت: لا، قال: فإن الإهليلج الذي معك ينفعني فابعث لي منه، فقلت: نعم، وخرجت متعجباً من وقوعه على خبري مع كتماني له، وبعثت له مائة إهليلجة.

وقال أبو الحسن البرمكي: أنشدني الجاحظ:

وكان لنا أصدقاء مضوا ... تفانوا جميعاً فما خلدوا

تساقوا جميعاً كؤوس المنون ... فمات الصديق ومات العدو

وكانت وفاة الجاحظ في المحرم سنة خمس وخمسين ومائتين بالبصرة، وقد نيف على تسعين سنة، رحمه الله تعالى.

وبحر: بفتح الباء الموحدة وسكون الحاء المهملة وبعدها راء.

ومحبوب: بفتح الميم وسكون الحاء المهملة وضم الباء الموحدة وسكون الواو وبعدها باء موحدة.

والجاحظ: بفتح الجيم وبعد الألف حاء مهملة مكسورة وبعدها ظاء معجمة.

والكناني: بكسر الكاف وفتح النون وبعد الألف نون ثانية.

والليثي: بفتح اللام وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها ثاء مثلثة، هذه النسبة إلى ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانه بن خزيمة.

عمرو بن مسعدة

عمرو بن مسعدة بن سعيد بن صول الكاتب وكنيته أبو الفضل، أحد وزراء المأمون؛ ذكر الخطيب في " تاريخ بغداد " أنه ابن عم إبراهيم بن العباس الصولي الشاعر – وقد تقدم ذكره – وكان كاتباً بليغاً جزل العبارة وجيزها سديد المقاصد والمعاني. ولما كان الفضل بن سهل أخو الحسن بن سهل وزير المأمون لم يكن لأحد معه كلام، لاستيلائه على المأمون، فلما قتل سلم عليه الوزراء بعد ذلك وهم: أحمد بن أبي خالد الأحول وعمرو بن مسعدة المذكور وأبو عباد.

وكان المأمون قد أمره أن يكتب لشخص كتاباً إلى العمال بالوصية عليه والاعتناء بأمره، فكتب له " كتابي إليك كتاب واثقٍ بمن كتبت إليه، معنيٍ بمن كتبت له، ولن يضيع بين الثقة والعناية موصله، والسلام ".

وقيل إن هذا من كلام الحسن بن وهب، والأول أصح وأشهر. وقال عمرو بن مسعدة المذكور: كنت أوقع بين يدي جعفر بن يحيى البرمكي فرفع إليه غلمانه ورقة يستزيدونه في رواتبهم، فرمى بها إلي، وقال: أجب عنها، فكتبت " قليل دائم خير من كثير منقطع " فضرب بيده على ظهره، وقال: أي وزير في جلدك؟

وله كل معنى بديع. وتوفي في سنة سبع عشرة ومائتين بموضع يقال له أذنة، وذكر الجهشياري في كتاب " الوزراء " أنه توفي في شهر ربيع الأخر سنة

خمسة عشرة ومائتين، والله أعلم. ولما مات رفعت إلى المأمون رقعة أنه خلف ثمانين ألف ألف درهم، فوقع في ظهرها " هذا قليل لمن اتصل بنا وطالت خدمته لنا، فبارك الله لولده فيما خلف، وأحسن لهم النظر فيما ترك ".

وذكر المسعودي في كتاب " مروج الذهب " أنه لما مات عرض لماله و لم يعرض لمال وزير غيره، رحمه الله تعالى.

ومسعدة: بفتح الميم وسكون السين المهملة وفتح العين والدال المهملتين.

وأذنة: بفتح الهمزة والذال المعجمة والنون، وهي بليدة بساحل الشام عند طرسوس، بني حصنها سنة أربع وأربعين ومائة.

وبعد انتهائي إلى هذا الموضع ظفرت له برسالة بديعة كتبها إلى بعض الرؤساء وقد تزوجت أمه فساءه ذلك، فلما قرأها ذلك الرئيس تسلى بها وذهب عنه ما كان يجده، فآثرت الإتيان بها لحسنها، وهي " الحمد لله الذي كشف عنا ستر الحيرة، وهدانا لستر العورة، وجدع بما شرع من الحلال أنف الغيرة، ومنع من عضل الأمهات، كما منع من وأد البنات، استنزالاً للنفوس الأبية، عن الحمية حمية الجاهلية ثم عرض لجزيل الأجر من استسلم لواقع قضائه،وعوض جليل الذخر من صبر على نازل بلائه، وهناك الذي شرح للتقوى صدرك، ووسع في البلوى صبرك، وألهمك من التسليم لمشيئته، والرضا بقضيته، ما وفقك له من قضاء الواجب في أحد أبويك، ومن عظم حقه عليك،وجعل تعالى جده ما تجرعته من أنف، وكظمته من أسف، معدوداً فيما يعظم به أجرك ويجزل عليه ذخرك، وقرن بالحاضر من امتعاضك بفعلها، المنتظر من ارتماضك بدفنها، فتستوفى بها المصيبة، وتستكمل عنها المثوبة، فوصل الله لسيدي ما استشعره من الصبر على عرسها، ما يستكسبه من الصبر على نفسها، وعوضه من أسرة فرشها، أعواد نعشها، وجعل تعالى جده ما ينعم به عليه بعدها من نعمة، معرى من نقمة، وما يوليه من بعد قبضها من منحة، مبرأ من محنة، فأحكام الله تعالى جده وتقدست أسمائه جارية على غير مراد المخلوقين، لكنه تعالى يختار لعباده المؤمنين، ما هو خيرٌ لهم في العاجلة، وأبقى لهم في الآجلة، اختار الله لك في قبضها إليه، وقدومها عليه، ما هو أنفع لها، وأولى بها، وجعل القبر كفؤاً لها، والسلام ".

وقيل: إن هذا الرسالة لأبي الفضل ابن العميد – الآتي ذكره إن شاء الله تعالى.

ولقد أذكرتني هذه الرسالة بيتين للصاحب بن عباد في شخص زوج أمه، وهما:

عذلت لتزويجه أمه | فقال: فعلت حلالاً يجوز
فقلت :صدقت، حلالاً فعلت | ولكن سمحت بصدع العجوز

وكتب عمرو إلى بعض أصحابه في حق شخص يعز علي " أما بعد فموصل كتابي إليك سالم، والسلام "؛ أراد قول الشاعر:

يديرونني عن سالم وأديرهم | وجلدت بين العين والأنف سالم

أي: يحل مني هذا المحل.

وأنشد محمد بن داود بن الجراح لمحمد البيدق النصيبي في عمرو بن مسعدة وقد اشتكى:

قالوا أبو الفضل معتل فقلت لهم: | نفسي الفداء له من كل محذور
يا ليت علته بي ثم أن له | أجر العليل وأني غير مأجور

وكان بين عمرو المذكور وبين إبراهيم بن العباس الصولي –المقدم ذكره– مودة، فحصل لإبراهيم ضائقة بسبب البطالة في بعض الأوقات، فبعث لهم عمرو مالاً، فكتب إليه إبراهيم:

سأشكر عمراً ما تراخت منيتي | أيادي لم تمنن وإن هي جلت
فتى غير محجوب الغنى عن صديقه | ولا مظهر الشكوى إذ النعل ذلت
رأى خلتي من حيث يخفى مكانها | فكانت قذى عينيه حتى تجلت

وقال أحمد بن يوسف الكاتب – المقدم ذكره –: دخلت على المأمون، وهو يمسك كتاباً بيده، وقد أطال النظر فيه زماناً وأنا ملتفت إليه، فقال: يا أحمد، أراك مفكراً فيما تراه مني، قلت: نعم، وقى الله أمير المؤمنين من المكاره وأعاذه من المخاوف، قال: فإنه لا مكروه فيه: ولكنني قرأت كلاماً وجدته نظير ما سمعته من الرشيد يقوله في البلاغة، كان يقول: البلاغة التباعد عن الإطالة، والتقرب من معنى البغية، والدلالة بالقليل من اللفظ على المعنى، وما كنت أتوهم أن أحداً يقدر على المبالغة في هذا المعنى، حتى قرأت هذا الكتاب، ورمى به إلي، وقال: هذا كتاب من عمرو بن مسعدة إليه، قال: فقرأته فإذا فيه " كتابي إلى أمير المؤمنين ومن قبلي من قواده وسائر أجناده في الانقياد والطاعة على أحسن ما تكون عليه طاعة جند تأخرت أرزاقهم، وانقياد كفاة تراخت أعطياتهم، واختلت لذلك أحوالهم، والتاثت معه أمورهم " فلما قرأته قال: إن استحساني إياه بعثني على أن أمرت للجند قبله بعطائهم لسبعة أشهر، وأنا على مجازاة الكاتب بما يستحقه من حل محله في صناعته.

ابن بانة

عمرو بن محمد بن سليمان بن راشد، المعروف بابن بانة،مولى يوسف بن عمر الثقفي؛ أحد المغنين المشهورين المجيدين في طبقة المتقدمين منهم، ذكره أبو الفرج الأصبهاني في كتاب " الأغاني " وقال: كان أبوه صاحب ديوان ووجهاً من وجوه الكتاب، وكان مغنياً مجيداً وشاعراً صالح الشعر، وله كتاب في الأغاني؛ وكانت تياهاً معجباً بنفسه، وهو معدود في ندماء الخلفاء ومغنيهم، على ما كان به من الوضح؛ وتوفي سنة ثماني وسبعين ومائتين بسر من رأى، رحمه الله تعالى؛ وكان خصيصاً بالمتوكل على الله آنساً به، أخذ الغناء عن إسحاق بن إبراهيم الموصلي وغيره، وله صنعة في الغناء تدل على حذقه، وكان مترله بغداد، ويتردد إلى سر من رأى في الأحيان.

وبانة: بفتح الباء الموحدة وبعد الألف نون مفتوحة ثم هاء ساكنة، وهو اسم أمه، وهي بانة ابنة روح كاتب سلمة الوصيف، وكان ينسب إليها، وقد تقدم في ترجمة طاهر بن الحسين ذكر بيتين من شعره يهجوه بهما.

ابن الموصلايا

أبو سعد العلاء بن الحسن بن وهب بن الموصلايا، الكاتب البغدادي منشئ دار الخلافة، الملقب أمين الدولة؛ كان نصرانياً وأسلم على يد الإمام المقتدي بالله وحسن إسلامه، وله الرسائل الرائقة والأشعار الجيدة، وكل منهما مدون.

وكان كثير الفضل، وخدم بديوان الإنشاء للإمام القائم في سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة. وتوفي بعد أن كف بصره في تاسع عشر جمادى الأولى سنة سبع وتسعين وأربعمائة، رحمه الله تعالى.

وتوفي ابن أخته تاج الرؤساء أبو نصر هبة الله بن صاحب الخير الحسن ابن علي الكاتب – وكان فاضلاً له معرفة بالأدب والبلاغة والخط الحسن، وكان ذا رسائل جيدة، وهي مدونة أيضاً ومشهورة – في عشية الاثنين حادي عشر جمادى الأولى سنة ثمان وتسعين وأربع مائة ببغداد، ودفن بباب أبرز، وكان مرضه خمسة أيام، وعمره سبعون سنة رحمه الله تعالى. وكان قد أسلم مع خاله المذكور، وكان إسلامهما في سنة أربع وثمانين وأربعمائة.

والموصلايا: بضم الميم وسكون الواو وفتح الصاد المهملة وبعد اللام ألف ياء مثناة من تحتها وبعدها ألف، وهو من أسماء النصارى.

ابن السوادي

أبو الفرج العلاء بن علي بن محمد بن علي بن أحمد بن عبيد الله الواسطي، المعروف بابن السوادي الواسطي الكاتب الشاعر؛ كان شاعراً فاضلاً ظريفاً خليعاً مطبوعاً من بيت كبير في بلد مشهور بالكتابة والنباهة والتميز، وله شعر حسن فمنه قوله:

أشكو إليك ومن صدودك أشتكي ... وأظن من شغفي بأنك منصفي

وأصد عنك مخافة من إن يرى ... منك الصدود فيشتفي من يشتفي

وهو مأخوذ من قول بعضهم:

أخفي هواه عن العذول تجلداً — كي لا يرى جزعي عليه فيشتفي

وكنت قد وقفت على هذا البيت قبل وقوفي على بيتي ابن السوادي،فأعجبني المعنى، فنظمته في دوبيت، وهو:

يا غصن نقا قوامه مياد — أيام رضاك كلها أعياد
ما أكتم حزني عندما تهجرني — إلا حذرني أن تشمت الحساد

وقال عماد الدين الكاتب في كتاب " الخريدة ": أنشدني لنفسه:

يميناً بما ضم المصلى وما حوت — رحاب منًى إني إليك مشوق

وهي ثلاثة أبيات اقتصرت منها على هذا لأنه أحسنها.

وكان أبو القاسم هبة الله بن الفضل المعروف بابن القطان – الآتي ذكره في حرف الهاء إن شاء الله تعالى – قد هجا قاضي القضاة الزينبي بقصيدته الكافية التي أولها:

يا أخي الشرط أملك — لست للثلب أترك

وهي طويلة عدد أبياتها مائة وثمانية عشر بيتاً، وتناقلتها الرواة وسارت عنه، فبلغ ذلك الزينبي المذكور، فأحضر ابن الفضل وصفعه وحبسه لمدة ثم أفرج عنه، فاتفق أن حضر ابن السوادي المذكور إلى بغداد من واسط عقيب هذه الواقعة، ومدح الزينبي المذكور بقصيدة، فتأخرت عنه الجائزة، وتردد إلى مجلسه كثيراً فما أجدى عليه، فاجتمع بابن الفضل المذكور وشرح له حاله، وقال: أنا على عزم الانحدار إلى واسط، فإذا وصلت إلى بلدي هجوت الزينبي، وكان للزينبي صاحب يقال له أبو الفتح فكتب إليه ابن الفضل أبياتاً من جملتها:

يا أبا الفتح الهجاء إذا — جاش صدرٌ فهو متسع
وقوافي الشعر واثبةٌ — ولها الشيطان متبع
فاحذروا كافات منحدرٍ — مالكم في صفعه طمع

فاتصلت الأبيات بالزينبي، فأرسل لابن السوادي جائزة وطيب قلبه.

وكانت ولادة ابن السوادي بواسط سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة، منتصف شهر ربيع الآخر ليلة الأربعاء. وتوفي سنة ست وخمسين وخمسمائة بواسط.

والسوادي: بفتح السين المهملة والواو وبعد الألف دال مهملة، هذه النسبة إلى سواد العراق، وإنما قيل له السواد لأن العرب لما رأت خضرة الأشجار قالت: ما هذا السواد؟ فبقي الاسم عليه.

القاضي عياض

القاضي أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن موسى بن عياض ابن محمد بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي؛ كان إمام وقته في الحديث وعلومه والنحو واللغة وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم وصنف التصانيف المفيدة منها " الإكمال في شرح كتاب مسلم " كمل به "المعلم في شرح مسلم " للمازري، ومنها " مشارق الأنوار " وهو كتاب مفيد جداً في تفسير غريب الحديث المختص بالصحاح الثلاثة وهي: الموطأ والبخاري ومسلم، وشرح حديث أم زرع شرحاً مستوفى، وله كتاب سماه "التنبيهات " جمع فيه غرائب وفوائد، وبالجملة فكل تواليفه بديعة.

ذكره أبو القاسم بن بشكوال في كتاب " الصلة " فقال: دخل الأندلس طالباً للعلم، فأخذ بقرطبة عن جماعة، وجمع من الحديث كثيراً، وكان له عناية كبيرة به والاهتمام بجمعه وتقييده. وهو من أهل التفنن في العلم والذكاء واليقظة والفهم، واستقضي ببلده – يعني مدينة سبتة – مدة طويلة حمدت سيرته فيها، ثم نقل عنها إلى قضاء غرناطة، فلم يطل أمده فيها؛ انتهى كلامه.

وللقاضي عياض شعر حسن، فمنه ما رواه عنه ولده أبو عبد الله محمد قاضي دانية قال: أنشدني أبي لنفسه في خامات زرع بينها شقائق النعمان هبت عليه ريح:

انظر إلى الزرع وخاماته ... تحكي وقد ماست أمام الرياح

كتيبةً حمراء مهزومة ... شقائق النعمان فيها جراح

الخامة: القصبة الرطبة من الزرع.

وأنشد أيضاً لأبيه:

الله يعلم أني منذ لم أركم ... كطائرٍ خانه ريح الجناحين

فلو قدرت ركبت البحر نحوكم ... لأن بعدكم عني جنى حيني

ورأيت لابن العريف رسالة كتبها إليه فأحببت ذكرها، ثم أضربت عنها لطولها.

وذكره العماد في " الخريدة "فقال: كبير الشان، غزير البيان،وذكر له البيتين في الزرع الذي بينه شقائق النعمان، ثم قال بعد ذلك: وله في لزوم ما لا يلزم:

إذا ما نشرت بساط انبساطٍ ... فعنه فديتك فاطو المزاحا

فإن المزاح على ما حكاه ... أولو العلم قبلي عن العلم زاحا

ومدحه أبو الحسن ابن هارون المالقي الفقيه المشاور بقوله:

ظلموا عياضاً وهو يحلم عنهم ... والظلم بين العالمين قديم

جعلوا مكان الراء عيناً في اسمه ... كي يكتموه فإنه معلوم

لولاه ما ناحت أباطح سبتةٍ ... والروض حول فنائها معدوم

وذكره ابن الأبار في تسمية أصحاب أبي علي الغساني، فقال: من أهل سبتة، وأصله من بسطة، يكنى أبا الفضل، أحد الأئمة الحفاظ الفقهاء المحدثين الأدباء، وتواليفه وأشعاره شاهدة بذلك، كتب إليه أبو علي في جماعة جلة، ولقي أيضاً آخرين مثلهم، وشيوخه يقاربون المائة.

وكان مولد القاضي عياض بمدينة سبتة في النصف من شعبان سنة ست وسبعين وأربعمائة. وتوفي بمراكش يوم الجمعة سابع جمادى الآخرة، وقيل في شهر رمضان سنة أربع وأربعين وخمسمائة، رحمه الله تعالى، ودفن بباب إيلان داخل المدينة؛ وتولى القضاء بغرناطة سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة.

وتوفي ولده المذكور سنة خمس وسبعين وخمسمائة، رحمه الله تعالى.

وعياض: بكسر العين المهملة وفتح الياء المثناة من تحتها وبعد الألف ضاد معجمة.

واليحصبي: بفتح الياء المثناة من تحتها وسكون الحاء المهملة وضم الصاد المهملة وفتحها وكسرها وبعدها باء موحدة، هذه النسبة إلى يحصب بن مالك قبيلة من حمير.

وسبتة: مدينة مشهورة بالمغرب، وكذلك غرناطة – بفتح الغين المعجمة وسكون الراء وفتح النون وبعد الألف طاء مهملة ثم هاء – وهي بالأندلس.

عيسى بن عمر الثقفي

أبو عمرو عيسى بن عمر الثقفي النحوي البصري، قيل كان مولى خالد بن الوليد، رضي الله عنه، ونزل في ثقيف فنسب إليهم؛ كان صاحب تقعير في كلامه واستعمال للغريب فيه وفي قراءاته، وكانت بينه وبين أبي عمرو بن العلاء صحبة، ولهما مسائل ومجالس وأخذ القراءة عرضاً عن عبد الله بن أبي

إسحاق وروى الحروف عن عبد الله بن كثير وابن محيصن، وسمع الحسن البصري، وله اختيار في القراءة على قياس العربية، وروى القراءات عنه أحمد بن موسى اللؤلؤي وهارون بن موسى النحوي والأصمعي والخليل بن أحمد وسهل بن يوسف وعبيد بن عقيل وأخذ سيبويه عنه النحو، وله الكتاب الذي سماه " الجامع " في النحو، ويقال إن سيبويه أخذ هذا الكتاب وبسطه وحشى عليه من كلام الخليل وغيره، ولما كمل بالبحث والتحشية نسب إليه، وهو كتاب سيبويه المشهور، والذي يدل على صحة هذا القول أن سيبويه لما فارق عيسى بن عمر المذكور ولازم الخليل بن أحمد سأله الخليل عن مصنفات عيسى، فقال له سيبويه: صنف نيفاً وسبعين مصنفاً في النحو، وإن بعض أهل اليسار جمعها وأتت عنده عليها آفة فذهبت و لم يبق منها في الوجود سوى كتابين: أحدهما اسمه " الإكمال "، وهو بأرض فارس عند فلان، والآخر " الجامع " وهو هذا الكتاب الذي أشتغل فيه وأسألك عن غوامضه، فأطرق الخليل ساعة ثم رفع رأسه وقال: رحم الله عيسى، وأنشد:

ذهب النحو جميعاً كله ... غير ما أحدث عيس بن عمر

ذاك إكمال وهذا جامعٌ ... وهما للناس شمسٌ وقمر

فأشار بالإكمال إلى الغائب وبالجامع إلى الحاضر. وكان الخليل قد أخذ عنه أيضاً.

ويقال: إن أبا الأسود الدؤلي لم يضع في النحو إلا باب الفاعل والمفعول فقط، وإن عيسى بن عمر وضع كتاباً على الأكثر وبوبه وهذبه وسمى ما شذ عن الأكثر لغات. وكان يطعن على العرب ويخطئ المشاهير منهم، مثل النابغة في بعض أشعاره وغيره، وروى الأصمعي قال: قال عيسى بن عمر لأبي عمرو بن العلاء: أنا أفصح من معد بن عدنان، فقال له أبو عمرو: لقد تعديت، فكيف تنشد هذا البيت:

قد كنا يخبأن الوجوه تستراً ... فاليوم حين بدأن للنظار

أو " بدين للنظار " فقال عيسى: بدأن للنظار، فقال له أبو عمرو، أخطأت؛ يقال: بدا يبدو إذا ظهر، وبدا يبدأ إذا شرع في الشيء، والصواب " حين بدون للنظار ". وإنما قصد أبو عمرو تغليطه، لأنه لا يقال في هذا الموضع " بدأن " ولا " بدين " بل " بدون ".

ومن جملة تقعيره في الكلام ما حكاه الجوهري في كتاب " الصحاح " قال: سقط عيسى بن عمر عن حمار له، فاجتمع عليه الناس، فقال: ما لكم تكأكأتم علي تكأكؤكم على ذي جنة، افرنقعوا عني؛ معناه: ما لكم تجمعتم علي تجمعكم على مجنون، انكشفوا عني.

ورأيت في بعض المجاميع أنه كان به ضيق النفس، فأدركه يوماً وهو في السوق، فوقع ودار الناس حوله يقولون: مصروع مصروع، فبين قارئ ومعوذ من الجان، فلما أفاق من غشيته نظر إلى ازدحامهم فقال هذه المقالة، فقال بعض الحاضرين: إنه جنيه يتكلم بالهندية.

ويروى أن عمر بن هبيرة الفزاري أمير العراقين كان قد ضربه بالسياط، وهو يقول: والله إن كانت إلا أثياباً في أسيفاط قبضها عشاروك. وله من هذا النوع شيء كثير. وتوفي سنة تسع وأربعين ومائة، رحمه الله تعالى.

وقيل إن الذي ضربه كان يوسف بن عمر أمير العراقين – وسيأتي ذكره في حرف الياء إن شاء الله تعالى – وكان سبب ضربه إياه أنه لما تولى العراقين بعد خالد بن عبد الله القسري تتبع أصحابه، وكان بعض جلسائه قد أودع عند عيسى بن عمر المذكور وديعةً فنمي الخبر إلى يوسف، فكتب إلى نائبه بالبصرة يأمره بأن يحمل إليه عيسى بن عمر مقيداً، فدعا به ودعا حداداً، وأمره بتقييده: فلما قيده قال له الوالي: لا بأس عليك، إنما أرادك الأمير لتأديب ولده، قال: فما بال القيد إذاً؟ فبقيت هذه الكلمة مثلاً بالبصرة، فلما وصل إلى يوسف سأله عن الوديعة فأنكر، فأمر بضربه، فلما أخذه السوط جزع فقال هذه المقالة المقدم ذكرها.

الجزولي

أبو موسى عيسى بن عبد العزيز بن يللبخت بن عيسى بن يوماريلي الجزولي اليزدكتني؛ كان إماماً في علم النحو، كثير الاطلاع على دقائقه وغريبه وشاذه، وصنف في المقدمة التي سماها القانون، ولقد أتى فيها بالعجائب، نوهي في غاية الايجاز مع الاشتمال على شيء كثير من النحو، ولم يسبق إلى مثلها، واعتنى بها جماعة من الفضلاء فشرحوها، ومنهم من وضع لها أمثلة، ومع هذا كله فلا تفهم حقيقتها، وأكثر النحاة ممن لم يكن قد أخذوها عن

موقف يعترفون بقصور أفهامهم عن إدراك مراده منها، فإنها كلها رموز وإشارات؛ ولقد سمعت من بعض أئمة العربية المشار إليه في وقته وهو يقول: أنا ما أعرف هذه المقدمة، وما يلزم من كوني ما أعرفها أن لا أعرف النحو. وبالجملة فإنه أبدع فيها. وسمعت أن له أمالي في النحو، ولكنها لم تشتهر، ورأيت له مختصر " الفسر " لابن جني في شرح ديوان المتنبي، ويقال: إنه كان يدري شيئاً من المنطق.

ودخل إلى الديار المصرية، وقرأ على الشيخ أبي محمد بن بري المقدم ذكره، وقد نقل عنه شيئاً في المقدمة المذكورة، وذكر بعض المتأخرين في تصنيفه أنه كان قد قرأ " الجمل " على ابن بري، وسأله عن مسائل على أبواب الكتاب، فأجابه ابن بري عنها، وجرى فيها بحث بين الطلبة حصلت منه فوائد علقها الجزولي مفردة، فجاءت كالمقدمة فيها كلام غامض وعقود لطيفة وإشارات إلى أصول صناعة النحو غريبة، فنقلها الناس عنه واستفادوها منه. ثم قال هذا المصنف: وبلغني أنه كان إذا سئل عنها: هل هي من تصنيفك؟ قال: لا، لأنه كان متورعاً، ولما كانت من نتائج خواطر الجماعة عند البحث ومن كلام شيخه ابن بري لم يسعه أن يقول: هي من تصنيفي، وإن كانت منسوبة إليه، لأنه هو الذي انفرد بترتيبها.

ثم رجع الجزولي إلى بلاد المغرب بعد أن حج، وأقام بمدينة بجاية مدة، والناس يشتغلون علي، وانتفع به خلق كثير، ورأيت جماعة من أصحابه. وتوفي سنة عشر وستمائة بمدينة مراكش، رحمه الله تعالى، هكذا سمعت جماعة يذكرون تاريخ وفاته، ثم وقفت على ترجمته، وقد رتبها أبو عبد الله ابن الأبار القضاعي فقال: في سنة ست أو سبع وستمائة مات الجزولي.

ويللبخت: بفتح الياء المثناة من تحتها واللام وسكون اللام الثانية وفتح الباء الموحدة وسكون الخاء المعجمة وبعدها تاء مثناة من فوقها، وهو اسم بربري.

ويوماريلي: بضم الياء المثناة من تحتها وسكون الواو وفتح الميم وبعد الألف راء مكسورة ثم ياء ساكنة مثناة من تحتها وبعدها لام ثم ياء، وهو اسم بربري أيضاً.

والجزولي: بضم الجيم والزاي وسكون الواو وبعدها لام، هذه النسبة إلى جزولة، ويقال لها أيضاً كزولة - بالكاف - وهي بطن من البربر.

واليزدكتني: بفتح الياء المثناة من تحتها وسكون الزاي وفتح اللام المهملة وسكون الكاف وفتح التاء المثناة من فوقها وبعدها نون، هذه النسبة إلى فخذ من جزولة.

ورأيت بخطي في مسوداتي أنه تولى الخطابة بجامع مراكش وأن قبيلته كزولة من الرحالة يكونون بصحراء بلاد السوس في المغرب الأقصى، وكان إماماً في القراءات والنحو واللغة، وكان يتصدر في الجامع للاقراء، وأنه شرح مقدمته في مجلد كبير أتى فيه بغرائب وفوائد، وذكر بعض أصحابه أنه حضر عنده ليقرأ عليه قراءة أبي عمرو فقال بعض الحاضرين: أتريد أن تقرأ على الشيخ النحو؟ قال: فقلت: لا، قال: فسألني آخر كذلك، فقلت: لا، فأنشد الشيخ وقال: قل لهم:

لست للنحو جئتكم	لا ولا فيه أرغب
خل زيداً لشأنه	أينما شاء يذهب
أنا ما لي ولامرئ	أبد الدهر يضرب

وكانت وفاته بهسكورة من أعمال مراكش، والله أعلم.

الفائز العبيدي

أبو القاسم عيسى الملقب الفائز ابن الظافر ابن الحافظ بن محمد بن المستنصر بن الظاهر بن الحاكم بن العزيز بن المعز بن المنصور بن القائم بن المهدي عبيد الله، وقد تقدم ذكر والده وجماعة من أهل بيته، وكيف قتل نصر بن عباس أباه حسبما شرح هناك، وهذا نصر بن عباس هو الذي قتل العادل بن السلار، وقد رفعت هناك في نسبه، فمن أراد معرفته فلينظره هناك.

ولما كان صبيحة ليلة قتل فيها الظافر حضر عباسٌ إلى القصر على جاري عادته في الخدمة، وأظهر عدم الاطلاع على قضيته وطلب الاجتماع به، و لم

يكن أهل القصر قد علموا بقتله بعد، فإنه خرج من عندهم في خفية كما ذكر ثم، وما علم أحد بخروجه، فدخل الخدم إلى موضعه ليستأذنوا لعباس فلم يجدوه، فدخلوا إلى قاعة الحرم فقيل: إنه لم يبت ها هنا، وحاصل الأمر أنهم تطلبوه في جميع مظانه في القصر فلم يقفوا له على خبر، فتحققوا عدمه، فأخرج عباس المذكور أخوي الظافر – وهما جبريل ويوسف وهو أبو العاضد المقدم ذكره في جملة من اسمه عبد الله – وقال لهما: أنتما قتلتما إمامنا وما نعرف حاله إلا منكما، فأصرا على الإنكار وكانا صادقين في ذلك، فقتلهما في الوقت لينفي عن نفسه وابنه التهمة، ثم استدعى ولده الفائز المذكور وتقدير عمره خمس سنين، وقيل سنتان، فحمله على كتفه ووقف في صحن الدار، وأمر أن يدخل الأمراء، فدخلوا، فقال لهم: هذا ولد مولاكم وقد قتل عماه أباه، وقد قتلتهما كما ترون، والواجب إخلاص الطاعة لهذا الطفل فقالوا بأجمعهم: سمعنا وأطعنا، وصاحوا صيحة واحدة اضطرب منها الطفل وبال على كتف عباس، وسموه الفائز، وسيروه إلى أمه، واختل من تلك الصيحة فصار يصرع في كل وقت ويختلج، وخرج عباس إلى داره ودبر لأمور وانفرد بالتصرف ولم يبق على يده يد.

وأما أهل القصر فإنهم اطلعوا على باطن الأمر، وأخذوا في إعمال الحيلة في قتل عباس وابنه نصر، وكاتبوا الصالح بن رزيك الأرمني – المذكور في حرف الطاء –وكان إذ ذاك والي منية بن خصيب بالصعيد، وسألوه الانتصار لهم ولمولاه والخروج على عباس، وقطعوا شعورهم وسيروها طي الكتاب وسودوا الكتاب، فلما وقف الصالح عليه أطلع من حوله من الأجناد عليه وتحدث معهم في المعنى، فأجأبوا إلى الخروج معه، واستمال جمعاً من العرب، وساروا قاصدين القاهرة وقد لبسوا السواد، فلما قاربوها خرج إليهم جميع من بها من الأمراء والأجناد والسودان، وتركوا عباساً وحده، فخرج عباس في ساعته من القاهرة هارباً ومعه شيء من ماله، وخرج معه ولده نصر قاتل الظافر، وأسامة بن منقذ – المذكور في حرف الهمزة – فقد قيل: إنه الذي أشار عليهما بقتل الظافر وشرح ذلك يطول وقد تقدم في ترجمة العادل بن السلار ذكره أيضاً وأنه الذي أشار بقتله، والله العالم بالخفيات. وكان معهم جماعة يسيرة من أتباعهم، وقصدوا طريق الشام على أيلة، وذلك في رابع عشر شهر ربيع الأول سنة تسع وأربعين وخمسمائة.

وأما الصالح بن رزيك فإنه دخل القاهرة بغير قتال، وما قدم شيئاً على النزول بدار عباس المعروفة بدار المأمون ابن البطائحي وهي اليوم مدرسة للطائفة الحنفية، وتعرف بالسيوفية، واستحضر الخادم الصغير الذي كان مع الظافر ساعة قتله، وسأله عن الموضع الذي دفن فيه، فعرفه به، وقلع البلاطة التي كانت عليه، وأخرج الظافر ومن معه من المقتولين وحملوا، وقطعت لهم الشعور وانتشر البكاء والنياح في البلد، ومشى الصالح والخلق قدام الجنازة إلى موضع الدفن، وهو في تربة آبائه، وهي معروفة في قصرهم. وتكفل الصالح بالصغير ودبر أحواله.

وأما عباس ومن معه فإن أخت الظافر كاتبت فرنج عسقلان بسببه وشرطت لهم مالاً جزيلاً بسببه إذا أمسكوه، فخرجوا عليه وصادفوه، فتواقعوا وقتلوا عباساً وأخذوا ماله وولده وانهزم بعض أصحابه إلى الشام، وفيهم ابن منقذ، فسلموا، وسيرت الفرنج نصر بن عباس إلى القاهرة تحت الحوطة في قفص حديد، فلما وصل تسلم رسولهم ما شرطوا لهم من المال، فأخذوا نصراً المذكور وضربوه بالسياط ومثلوا به، وصلبوه بعد ذلك على باب زويلة، ثم أنزلوه يوم عاشوراء من سنة إحدى وخمسين وخمسمائة ثم أحرقوه، هذه خلاصة الواقعة وإن كان فيها طول.

وكان دخول نصر بن عباس إلى القصر بالقاهرة في السابع والعشرين من شهر ربيع الأول من سنة خمسين وخمسمائة، وأخرج من القصر يوم الاثنين سادس عشر شهر ربيع الآخر من السنة، وكان قد قطعت يده اليمنى وقرض جسمه بالمقاريض، والله أعلم، وقيل كان ذلك يوم الجمعة ثامن الشهر المذكور.

ولم تطل مدة الفائز في ولايته، وكانت ولادته يوم الجمعة لتسع بقين من المحرم سنة أربع وأربعين وخمسمائة وتولى في تاريخ وفاة والده – وهو مذكور في ترجمته في حرف الهمزة، واسمه إسماعيل – وتوفي ليلة الجمعة لثلاث عشرة ليلة بقيت من رجب سنة خمس وخمسين وخمسمائة، رحمه الله تعالى، وتولى بعده العاضد – وقد سبق ذكره – وهو آخرهم.

الملك المعظم ابن العادل

الملك المعظم شرف الدين عيسى، ابن الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب صاحب دمشق؛ كان عالي الهمة حازماً شجاعاً مهيباً فاضلاً جامعاً شمل أرباب الفضائل محباً لهم، وكان حنفي المذهب متعصباً لمذهبه وله فيه مشاركة حسنة، ولم يكن في بني أيوب حنفي سواه، وتبعه أولاده، وكان قد

حج إلى بيت الله الحرام في سنة إحدى عشرة وستمائة، سار من الكرك على الهجن في حادي عشر ذي القعدة في جماعة من خواصه، وسلك طريق العلا وتبوك، وفي هذه السنة أخذ المعظم صرخد من ابن قراجا وأعطاها مملوكه عز الدين أيبك المعروف بصاحب صرخد، و لم يزل بها إلى أن أخذها منه الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل في سنة أربع وأربعين وستمائة، وحمله إلى القاهرة واعتقله بدار الطواشي صواب.

وكان المعظم يحب الأدب كثيراً ومدحه جماعة من الشعراء المجيدين فأحسنوا في مدحه، وكانت له رغبة في فن الأدب، وسمعت أشعاراً منسوبة إليه و لم أستثبتها فلم أثبت شيئاً منها. وقيل إنه كان قد شرط لكل من يحفظ " المفصل " للزمخشري مائة دينار وخلعة، فحفظه لهذا السبب جماعة، ورأيت بعضهم بدمشق، والناس يقولون: إن سبب حفظهم له كان هذا، وقيل إنه لما توفي كان قد انتهى بعضهم إلى أواخره وبعضهم في أثنائه وهم على قدر أوقات شروعهم فيه، و لم أسمع بمثل هذه المنقبة لغيره.

وكانت مملكته متسعة من حدود بلد حمص إلى العريش يدخل في ذلك بلاد الساحل الإسلاميه منها وبلاد الغور وفلسطين والقدس والكرك والشوبك وصرخد وغير ذلك.

وكانت ولادته في سنة ثمان وسبعين وخمسمائة، وذكر أبو المظفر يوسف سبط ابن الجوزي في تاريخه " مرآة الزمان " أن المعظم ولد في سنة ست وسبعين وخمسمائة بالقاهرة، وولد أخوه الأشرف موسى قبله بليلة واحدة. وتوفي المعظم يوم الجمعة مستهل ذي الحجة سنة أربع وعشرين وستمائة، والله أعلم بالصواب.

وقال غيره: بل توفي يوم الجمعة ثامن ساعة من نهار سلخ ذي القعدة سنة أربع وعشرين وستمائة بدمشق، ودفن بقلعتها ثم نقل إلى جبل الصالحية، ودفن في مدرسة هناك بها قبور جماعة من إخوته وأهل بيته تعرف بالمعظمية، وكان نقله ليلة الثلاثاء مستهل المحرم سنة سبع وعشرين.

وكان كثيراً ما ينشد:

ومورد الوجنات أغيد خاله ... بالحسن من فرط الملاحة عمه

كحل الجفون وكان في ألحاظه ... كحل فقلت سقى الحسام وسمه

وهذا ينظر إلى قول عبد الجبار بن حمديس الصقلي – المقدم ذكره:

زادت على كحل الجفون تكحلا ... ويسمٌ نصل السيف وهو قتول

رحمه الله تعالى، فلقد كان من النجباء الأذكياء؛ أخبرني جماعة عن شرف الدين بن عنين بأمور كانت تجري بينهما تدل على حسن الإدراك وإصابة المقصد، منها: أنه كان ابن عنين قد مرض فكتب إليه:

انظر إلي بعين مولىً لم يزل ... يولي الندى وتلاف قبل تلافي

أنا كالذي أحتاج ما تحتاجه ... فاغنم ثوابي والثناء الوافي

فجاء بنفسه إليه يعوده ومعه صرة فيها ثلثمائة دينار، فقال: هذه الصلة وأنا العائد، وهذه لو وقعت لأكابر النحاة ومن هو في ممارسته طول عمره لاستعظم منه، لا سيما مثل هذا الملك، وأشياء كثيرة غير هذه يطول شرحها وكان المقصود ذكر أنموذج منها ليستدل بها على الباقي.

وتولى موضعه: ولده الملك الناصر صلاح الدين داود، وتوفي في السابع والعشرين من جمادى الأولى سنة ست وخمسين وستمائة، في قرية يقال لها البويضاء على باب دمشق، ودفن عند والده. وكانت ولادته يوم السبت، سابع عشر جمادى الأولى سنة ثلاث وستمائة بدمشق.

وتوفي عز الدين أيبك صاحب صرخد المذكور في أوائل جمادى الأولى من سنة ست وأربعين وستمائة في موضع اعتقاله بالقاهرة. ودفن خارج باب النصر في تربة شمس الدولة، وحضرت الصلاة عليه ودفنه. ثم نقل إلى تربته في مدرسته التي أنشأها ظاهر دمشق على الشرف الأعلى مطلة على الميدان الأخضر الكبير.

الفقيه عيسى الهكاري

الفقيه أبو محمد عيسى بن محمد بن عيسى بن محمد بن أحمد بن يوسف بن القاسم ابن عيسى بن محمد بن القاسم بن محمد بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، هكذا أملى علي نسبه ولد ولد أخيه، ويقال له الهكاري، الملقب ضياء الدين.

كان أحد الأمراء بالدولة الصلاحية، كبير القدر وافر الحرمة معولاً عليه في الآراء والمشورات. وكان في مبدأ أمره يشتغل في الفقه بالمدرسة الزجاجية بمدينة حلب، فاتصل بالأمير أسد الدين شيركوه، عم السلطان صلاح الدين – المقدم ذكره – وصار إمامه يصلي به الفرائض الخمس. ولما توجه أسد الدين إلى الديار المصرية، وتولى الوزارة – كما سبق شرحه – كان في صحبته.

ولما توفي أسد الدين اتفق الفقيه عيسى المذكور والطواشي بهاء الدين قراقوش – الآتي ذكره إن شاء الله تعالى – على ترتيب السلطان صلاح الدين موضعه في الوزارة، ودققا الحيلة في ذلك حتى بلغا المقصود، وشرح ذلك يطول؛ فلما تولى صلاح الدين رأى له ذلك واعتمد عليه، ولم يكن يخرج عن رأيه، وكان كثير الإدلال عليه، يخاطبه بما لا يقدر عليه غيره من الكلام، وكان واسطة خير للناس نفع بجاهه خلقاً كثيراً.

ولم يزل على مكانته وتوفر حرمته إلى أن توفي في يوم الثلاثاء عند طلوع الشمس، التاسع من ذي القعدة سنة خمس وثمانين وخمسمائة بالمخيم بمنزلة الخروبة، ثم نقل إلى القدس ودفن بظاهرها، رحمه الله تعالى.

وكان يلبس زي الأجناد ويعتم بعمائم الفقهاء، فيجمع بين اللباسين. ورأيت أخاه الأمير مجد الدين أبا حفص عمر أيضاً على هذه الصفة.

والخروبة: بفتح الخاء المعجمة وتشديد الراء وضمها وسكون الواو وفتح الباء الموحدة وبعدها هاء ساكنة، موضع بالقرب من عكا.

وكانت ولادة أخيه مجد الدين عمر في رجب سنة ستين وخمسمائة. وتوفي في الثالث والعشرين من ذي الحجة سنة ست وثلاثين وستمائة بالقاهرة ودفن بسفح المقطم، وحضرت الصلاة عليه، عليه رحمة الله.

فخر الدين صاحب تكريت

أبو المنصور عيسى بن مودود بن علي بن عبد الملك بن شعيب، الملقب فخر الدين صاحب تكريت؛ هو من أتراك الشام، وكانت فيه فضائل، وله ديوان شعر حسن ورسائل مطبوعة ودوبيت رقيق، فمن شعره قوله:

وما ذات طوق في فروع أراكةٍ ... لها رنةٌ تحت الدجى وصدوح
ترامت بها أيدي النوى وتمكنت ... بها فرقة من أهلها ونزوح
فحلت بزوراء العراق وزغبها ... بعسفان ثاوٍ منهم وطليح
تحن إليهم كلما ذر شارق ... وتسجع في جنح الدجى وتنوح
إذا ذكرتهم هيجت ذا بلابل ... وكادت بمكتوم الغرام تبوح

بأبرح من وجد لذكراكم متى ... تألق برق أو تنسم ريح

ومن رسائله على هذا الأسلوب قوله: " ما شوارد أنعام بسباسب فلوات، لم يسمها أخمص دارج، ولم يلج فيها جان من مارج، منحتها أنفاس الهجير، لوافح زفرات السعير، فارجحنت من الأين، وراهقت مداناة الحين، فأتت العمق، بعد ثلاثٍ تستبق، وقد أدنفها اللغوب، وكادت أن تعلق بها شعوب، فألفت الماء أزرق سلسالا يعثر بصفحاته النسيم، وتعطفه ذوائب التسنيم، غير أن لا سبيل لها إلى مقراته، ولا وصول إلى موارده ونهلاته:

ترنو إليه خوازراً بعيونها ... إذ حاولت مضض الجواد عظيما
بأشد من ظمئي إلى لقياكم ... من حيث آنس قلبي التسليما

فالرغبة والابتهال إلى فارض الفرض، ورب السكون والنبض، أن يحقق الأماني، ويبدل النائي بالداني، إنه سميع الدعاء ".

ومن دوبيتياته:

القبض لديك في الهوى والبسط | يا من أملي عذراه المختط
قالوا رشأ فقلت مه لا تخطوا | من أين لساكن الفيافي قرط

وله في النظم والنثر شيء كثير ولطيف.

ومولده بمدينة حماه، وقتله إخوته سنة أربع وثمانين وخمسمائة بقلعة تكريت، رحمه الله تعالى. وكان له أخ اسمه الياس، وهو الذي سلم تكريت إلى الإمام الناصر في شوال سنة خمس وثمانين وخمسمائة –وسيأتي في ترجمة مظفر الدين كوكبوري صاحب إربل أن تكريت كانت لأبيه زين الدين – وكان له غلام من أهل حمص اسمه " تبر " ويقال " طبر " أيضاً – بالتاء والطاء – فولاه قلعة العماديه وكانت أيضاً له، ثم نقله إلى قلعة تكريت، فلما كبر زين الدين وعزم على الانتقال إلى إربل كما شرحته في ترجمة ولده مظفر الدين سلم البلاد التي كانت له إلى قطب الدين، فعصى تبر في تكريت وسير إلى قطب الدين مودود صاحب الموصل يقول له: أنت ما تقيم بتكريت، ولابد لك فيها من نائب، وأنا ذلك النائب، فلم يقدر على مشاقته خوفاً أن يسلمها إلى الخليفة، فسكت عنه وأقره على حاله.

ولما امتنع تبر من التسليم كان زيد الدين يقول: سود الله وجهك يا تبر كما سودت وجهي مع قطب الدين، و لم يزل تبر بها إلى أن مات، و لم يكن له ولد سوى بنت، فتزوجها ابن أخيه، وهو عيسى ابن مودود صاحب هذه الترجمة وملك تكريت.

ثم أنه أحب مطربة فتزوجها وأولدها ولدين: شمس الدين وفخر الدين، وتوصلت المطربة وزوجت ابنها الشمس بابنة حسن بن قفجاق أمير التركمان، وطلبت منه خمسين فارساً تكون عندهم في تكريت لتحفظها. فلما علم أخوته بذلك، وكانوا اثني عشر رجلاً، وثبوا على أخيهم عيسى المذكور فقتلوه خنقاً وملكوا تكريت. ثم وقع بينهم الاختلاف، فباعها المقدم منهم للإمام الناصر لدين الله والله أعلم.

وتكريت: بكسر التاء المثناة من فوقها وسكون الكاف وكسر الراء وسكون الياء المثناة من تحتها، وهي بلدة كبيرة لها قلعة حصينة على دجلة فوق بغداد بنحو ثلاثين فرسخاً، وهي في بر الموصل، وسميت تكريت بتكريت بنت وائل أخت بكر بن وائل، وبنى قلعتها سابور بن أردشير بن بابك، وهو ثاني ملوك الفرس.

الحاجري الإربلي

أبو يحيى وأبو الفضل عيسى بن سنجر بن بهرام بن جبريل بن خمارتكين بن طاشتكين الإربلي، المعروف بالحاجري الملقب حسام الدين؛ هو جندي ومن أولاد الأجناد، وله ديوان شعر تغلب عليه الرقة وفيه معاني جيدة وهو مشتمل على شعر والدوبيت والموالية، وقد أحسن في الكل مع أنه قل من يجيد في مجموع هذه الثلاثة، بل من غلب عليه واحد منها قصر في الباقي، وله أيضاً " كان وكان " واتفقت له فيها مقاصد حسان. وكان صاحبي وأنشدني كثيراً من شعره، فمن ذلك قوله وهو معنى جيد:

ما زال يحلف لي بكل أليةٍ | ألا يزال مدى الزمان مصاحبي
لما جفا نزل العذار بخده | فتعجبوا لسواد وجهه الكاذب

وأنشدني لنفسه أيضاً:

لك خالٌ من فوق عر | ش شقيقٍ قد استوى
بعث الصدغ مرسلاً | يأمر الناس بالهوى

وأنشدني لنفسه أيضاً أبيات منها في صفة الخال:

لم يحو ذاك الخد خالاً أسوداً | إلا لنبت شقائق النعمان

وله في الخال أيضاً، وهو معنى لطيف:

ومهفهف من شعره وجبينه	أمسى الورى في ظلمة وضياء

لا تنكروا الخال الذي في خده	كل الشقيق بنقطة سوداء

ومثل هذا قول بن وكيع التنيسي – المقدم ذكره – واسمه الحسن:

إن الشقيق رأى محاسن وجهه	فأراد أن يحكيه في أحواله

فأفاد حمرة لونه من خده	وأفاد لون سواده من خاله

وله أيضاً:

يقولون لما خط لام عذاره	سلا كل قلب كان منه سليما

لقد كنت أهوى ورد خديه زائراً	فكيف إذا ما الآس جاء مقيما

وأنشدني أيضاً أكثر دوبيتياته، فمن ذلك قوله، وقال لي: ما يعجبني فيما عملته مثل هذا الدوبيت، وهو آخر شيء عملته إلى الآن، وهو:

حيا وسقى الحمى سحابٌ هامي	ما كان ألذ عامه من عام

يا علوة ما ذكرت أيامكم	إلا وتظلمت على الأيام

وكان لي أخ يسمى ضياء الدين عيسى بينه وبين الحاجري المذكور مودة أكيدة، فكتب إليه من الموصل في صدر كتاب، وكان الأخ بإربل، وذلك في سنة تسع عشرة وستمائة:

الله يعلم ما أبقى سوى رمق	مني فراقك يا من قربه الأمل

فابعث كتابك واستودعه تعزية	فربما مت شوقاً قبل ما يصل

ومع شهرة ديوانه وكثرة وجوده بأيدي الناس لا حاجة إلى الإطالة في إيراد أكثر من هذا.

وكنت خرجت من إربل في أواخر شهر رمضان سنة ست وعشرين وستمائة وهو معتقل بقلعتها لأمر يطول شرحه، بعد أن كان قد حبس في قلعة خفتيدكان ثم نقل منها، وله في ذلك أشعار، فمن ذلك قوله أبيات أولها:

قيد أكابده وسجنٌ ضيق	يا ربي شاب من الهموم المفرق

ومنها:

يا برق إن جئت الديار بإربلٍ	وعلى عليك من التداني رونق

بلغ تحية نازحٍ حسراته	أبداً بأذيال الصبا تتعلق

قل يا جعلت لك الفداء أسير كم	من كل مشتاق إليكم أشوق

والله ما سرت الصبا نجدية	إلا وكدت بدمع عيني أشرق

كيف السبيل إلى اللقاء ودونه	شماء شاهقة وباب مغلق

وله وهو في السجن أيضاً:

أحبابنا أي داعٍ بالبعاد دعا	وأي خطبٍ دهانا منه تفريق
لا كان دهرٌ رمانا بالفراق فقد	أضحى له في صميم القلب تمزيق
كانت تضيق بي الدنيا بغيبتكم	فكيف سجنٌ ومن عاداته الضيق

ثم بلغني بعد ذلك أنه خرج من الاعتقال، واتصل بخدمة الملك المعظم مظفر الدين صاحب إربل، رحمه الله تعالى، وتقدم عنده وغير لباسه وتزين بزي الصوفية، فلما توفي مظفر الدين – في التاريخ الأتي ذكره في ترجمته إن شاء الله تعالى – سافر عن إربل ثم عاد إليها وقد صارت في مملكة أمير المؤمنين المستنصر بالله ونائبه بها الأمير شمس الدين أبو الفضائل باتكين، فأقام مديدة، وكان وراءه من يقصده، فاتفق أن خرج يوماً من بيته قبل الظهر، فوثب عليه شخص وضربه بسكين فأخرج حشوته، فكتب في تلك الحال إلى بآتكين المذكور وهو يكابد الموت:

أشكوك يا ملك البسيطة حالة	لم تبق رعباً في عضواً ساكنا
إن تستبح إبلي لقيطة معشر	ممن أومل غير جأشك مازنا
ومن العجائب كيف يمسي خائفاً	من بات في حرم الخلافة آمنا

ثم توفي بعد ذلك من يومه في يوم الخميس ثاني شوال سنة اثنتين وثلاثين وستمائة، ودفن في مقبرة باب الميدان، رحمه الله تعالى، وتقدير عمره خمسون سنة.

وباتكين المذكور كان أرمني الجنس، وهو مملوك أم الخليفة الإمام الناصر لدين الله، ولما أخذ التتر إربل في الدفعة الأولى في أواخر سنة أربع وثلاثين وستمائة رجع إلى بغداد ومات بها يوم الأربعاء الثالث والعشرين من شوال سنة أربعين وستمائة، ودفن بالشونيزية.

والحاجري: بفتح الحاء المهملة وبعد الألف جيم مكسورة وبعدها راء، هذه النسبة إلى حاجر، وكانت بليدة بالحجاز ولم يبق منها اليوم سوى الآثار، ولم يكن الحاجري منها، بل لكونه استعملها في شعره كثيراً نسب إليها، وهو إربلي الأصل والمولد والمنشأ، ولما غلبت عليه هذه النسبة وعرف بها واشتهرت بحيث صارت كالعلم عليه عمل في ذلك دوبيت، وهو:

لو كنت كفيت من هواك البينا	ما بات يحاكي دمع عيني عينا
لولاك لما ذكرت نجداً بفمي	من أين أنا وحاجر من أين

وذكر ذلك أيضاً في أبيات لطيفة أولها:

أي طرف أحيور	للغزال الأسيمر

وآخرها:

أيهذا الأربيلي	هام فيك الحويجري

وفي مدينة إربل محلة يقال لها قرية جبريل بالتصغير ذكر أبو البركات ابن المستوفي في " تاريخ إربل " أنها منسوبة إلى جده جبريل المذكور.

وخمارتكين: بضم الخاء المعجمة.

وطاشتكين: بفتح الطاء المهملة وسكون الشين المثلثة.

والباقي معروف.

وخفتيدكان: بضم الخاء المعجمة وسكون الفاء وكسر التاء المثناة من فوقها وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها دال مهملة وكاف وبعد الألف نون، وهي قلعة حصينة مشهورة في بلد إربل، ويقال لها خفتيدكان صارم الدين وهي غير خفتيدكان أبي علي.

طويس المغني

قال أبو فرج الأصبهاني في كتاب " الأغاني " اسمه عيسى بن عبد الله وكنيته أبو عبد المنعم، وغيرها المخنثون فقالوا: عبد النعيم، وهو مولى بني مخزوم، وطويس لقب عليه.

وقال ابن قتيبة في كتاب " المعارف " في فصل عامر بن عبد الله الصحابي، رضي الله عنه: ومن موالي آل كريز طويس مولى أروى بنت كريز، وهي أم عثمان بن عفان، رضي الله عنه، واسمه عبد الملك ويكنى أبا عبد النعيم.

وقال الجوهري في كتاب " الصحاح ": واسمه طاوس، فلما تخنث جعله طويساً ويسمى بعبد النعيم.

وقد وقع هذا الاختلاف في اسمه كما تراه، وقيل إن الأصح أنه عيسى لتطابق جماعة من العلماء عليه.

وكان طويس المذكور من المبرزين في الغناء المجيدين فيه، وممن تضرب به الأمثال، وإياه عنى الشاعر بقوله في مدح معبد المغني:

تغنى طويسٌ والسريجي بعده ... وما قصبات السبق إلا لمعبد

وقد ذكر في كتاب " الأغاني " ترجمته وأطال الحديث في أمره وهو الذي يضرب به المثل في الشؤم، فيقال: أشأم من طويس، وإنما قيل له ذلك لأنه ولد في اليوم الذي قبض فيه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وفطم في اليوم الذي مات فيه أبو بكر الصديق، رضي الله عنه وختن في اليوم الذي قتل فيه عمر بن الخطاب، وقيل بلغ الحلم في ذلك اليوم، وتزوج في اليوم الذي قتل فيه عثمان بن عفان، رضي الله عنه، وولد له مولود في اليوم الذي قتل فيه علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، وقيل بل في يوم مات الحسن بن علي، رضي الله عنهما، فلذلك تشاءموا به. وهذا من عجائب الاتفاقات.

وكان مفرطاً في طوله مضطرباً في خلقه أحول العين، وكان يسكن المدينة ثم انتقل عنها إلى السويداء، وهي على مرحلتين من المدينة في طريق الشام، فلم يزل بها حتى توفي سنة اثنتين وتسعين للهجرة، رحمه الله تعالى وسامحه، وهو ابن اثنتين وثمانين سنة، وقيل إنه مات بالمدينة، والله أعلم.

وذكر ياقوت الحموي في كتابه " المشترك " أن قبر طويس المخنث في سقيا الجزل، وما ذكر أين هي.

وطويس: بضم الطاء المهملة وفتح الواو وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها سين مهملة، وهي تصغير طاوس بعد حذف الزيادات، هكذا قاله الجوهري في " الصحاح "، وله ذكر في كتاب " الأوائل " تأليف أبي هلال العسكري.

حرف الغين

غازي بن زنكي

سيف الدين غازي بن عماد زنكي بن آق سنقر، صاحب الموصل – وقد تقدم ذكر والده في حرف الزاي – وأنه قتل على حصار قلعة جعبر، فلما قتل وكان معه ألب أرسلان بن السلطان محمود المعروف بالخفاجي السلجوقي، المذكور في ترجمة عماد الدين زنكي، اجتمع أكابر الدولة، وفيهم الوزير جمال الدين محمد الأصبهاني، المعروف بالجواد، والقاضي كمال الدين أبو الفضل محمد بن الشهروزي–وسيأتي ذكرهما إن شاء الله تعالى – وقصدوا خيمة ألب أرسلان المذكور، وقالوا له: كان عماد الدين زنكي غلامك ونحن غلمانك، والبلاد لك، وطمنوا الناس بهذا الكلام.

ثم إن العسكر افترق فرقتين: فطائفة منهم توجهت صحبة نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي – الآتي ذكره إن شاء الله تعالى–إلى الشام، والطائفة الثانية سارت مع ألب أرسلان وعساكر الموصل وديار ربيعة إلى الموصل، فلما انتهوا إلى سنجار تخيل ألب أرسلان منهم الغدر فتركهم وهرب، فلحقه بعض العسكر وردوه، فلما وصلوا إلى الموصل وصلهم سيف الدين غازي المذكور، وكان مقيما بشهرزور لأنها كانت إقطاعه من جهة السلطان مسعود السلجوقي – الآتي ذكره إن شاء الله بعض القلاع، وملك الموصل وما كان لأبيه من ديار ربيعة، وترتبت أحواله، وأخذ أخوه نور الدين محمود – وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى – حلب وما والاها من بلاد الشام، ولم تكن دمشق يومئذ لهم.

وكان غازي المذكور منطويا على خير وصلاح يحب العلم وأهله، وبنى بالموصل المدرسة المعروفة بالعتيقة، ولم تطل مدته في المملكة حتى توفي أربعين سنة، ودفن في مدرسته المذكورة، رحمه الله تعالى، وتولى بعده أخوه قطب الدين مودود – وسيأتي ذكره في حرف الميم إن شاء الله تعالى.

الغازي ابن مودود

سيف غازي بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي بن آق سنقر، صاحب المزصل، وهو ابن أخي المذكور قبله؛ تقلد المملكة بعد وفاة أبيه مودود، وهو والد سنجر شاه صاحب جزيرة ابني عمر، ولما توفي والده – في التاريخ الآتي ذكره في ترجمته – بلغ الخبر الدين وهو بتل باشر، فسار من ليلته طالبا بلاد الموصل إلى الرقة في المحرم سنة ست وستين وخمسمائة وملكها، وسار منها إلى نصبين فملكها في بقية الشهر، وأخذ سنجار في شهر ربيع الآخر منها، ثم قصد الموصل وقصد أن لايقاتلها، فعبر بعسكره من مخاضة بلد –وهي سيف الدين المذكور وعرفه صحة قصده، فصالحه ودخل الموصل في ثالث عشر جمادى الأولى، وأقر صاحبها فيها وزوجه ابنته وأعطى أخاه عماد الدين زنكي – المذكور في ترجمة جده عماد الدين زنكي – سنجار، وخرج من الموصل وعاد إلى الشام ودخل حلب في شعبان من السنة المذكورة، فلما مات نور الدين وملك صلاح الدين دمشق ونزل على حلب يحاصرها سير سيف الدين المذكور جيشا مقدمه أخوه عز الدين مسعود – الآتي ذكره إن شاء الله تعالى – والتقوا عند قرون حماة، وسيأتي تفصيل ذلك هناك، فلما انكسر عز الدين مسعود تجهز سيف الدين بنفسه وخرج إلى لقائه وتصافا على تل السلطان، وهي قرية بين حلب حماة، وذلك في بكرة الخميس عاشر شوال سنة إحدى وسبعين وخمسمائة، قال العماد الأصبهاني في – البرق الشامي – زابن شداد في – سيرة صلاح الدين –: إنه انكسرت ميسرة صلاح الدين بمظفر الدين ابن زين الدين، فإنه كان في ميمنة سيف الدين ثم حمل صلاح الدين بنفسه، فالهزم جيش سيف الدين وعاد إلى حلب، ثم رحل إلى الموصل، ومظفر الدين المذكور هو صاحب إربل – وترجمته في حرف الكاف – وأقام غازي في المملكة عشر سنين وشهورا، وأصابه مرض مزمن وتوفي يوم الأحد ثالث صفر سنة ست وسبعين وخمسمائة، رحمه الله تعالى، وتولى بعده أخوه عز الدين مسعود – وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى – وكان مرضه السل، وطال به، وعاش مقدار ثلاثين سنة.

الملك الظاهر صاحب حلب

أبو الفتح وأبو منصور غازي ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، الملقب الملك الظاهر غياث الدين صاحب حلب، كان ملكا مهيبا حازما متيقظا كثير الاطلاع على أحوال رعيته وأخبار الملوك، عالي الهمة حسن التدبير والسياسة باسط العدل محبا للعلماء مجيزا للشعراء، أعطاه والده مملكة حلب في سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة بعد أن كانت لعمه الملك العادل، فترل عنها وتعوض غيرها، كما قد شهر.

ويحكى عن سرعة إدراكه أشياء حسنة: منها أنه جلس يوما لعرض العسكر، وديوان الجيش بين يديه، فكان كلما حضر واحد من الأجناد سأله الديوان عن اسمه ليترلوه، حتى حضر واحد فسألوه فقبل الأرض، فلم يفطن أحد من أرباب الديوان لما أراد، فاودوا سؤاله، فقال الملك الظاهر: اسمه غازي، وكان كذلك، وتأدب الجندي أن يذكر اسمه لما كان موافقا لاسم السلطان، وعرف هو مقصوده، وله من هذا الجنس شيء كثير لا حاجة إلى النطويل فيه.

وكانت ولادته بالقاهرة في منتصف رمضان سنة ثمان وستين وخمسمائة، وهي السنة الثانية من استقلال أبيه بمملكة الديار المصرية. وتوفي بقلعة حلب، ليلة الثلاثاء العشرين من جمادى الآخرة، سنة ثلاث عشرة وستمائة، ودفن بالقلعة، ثم بنى الطواشي شهاب الدين طغريل الخادم اتابك ولده الملك العزيز مدرسة تحت القلعة وعمر فيها تربة ونقله إليها، رحمه الله تعالى. والعجب أنه دخل حلب مالكا لها في الشهر بعينه واليوم من سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة.

ورثاه شاعره الشرف راجح بن إسماعيل بن أبي القاسم الأسدي الحلي، وكنيته أبو الوفاء، بهذه القصيدة، ومدح ولديه السلطان الملك العزيز محمدا وأخاه الملك الصالح صاحب عين تاب، وما أقصر فيها، وهي:

سل الخطب إن أصغى إلى من يخاطبه ... بمن علقت أنيابه ومخالبه
نشدتك عاتبع على نائباته ... وإن كان نائي السمع عمن يعاتبه
لي الله كم أرمي بطرفي ضلالة ... إلى أفق مجد قد تهاوت كواكبه
فما لي أرى الشهباء قد حال صبحها ... علي دجى لا تستنير غياهبه

أحقا حمى الغازي الغياث بن يوسف　　أبيح وعادت خائبات مواكبه
نعم كورت شمس المدائح وانطوت　　سماء العلا والنجح ضاقت مذاهبه
فمن مخبري عن ذلك الطود هل وهت　　قواعده أم لان للخطب جانبه
أجل ضعضعت بعد الثبات وزعزعت　　بريح المنايا العاصفات مناكبه
وغيض ذاك البحر من بعد ما طمت　　وطمت لغيبان البلاد غواربه
فشلت يمين الخطب أي مهند　　برغم العلا سلت وفلت مضاربه
لئن حبس الغيث الغياثي قطره　　فقد سحبت في كل قطر سحائبه
فأنى يلذ العيش بعد ابن يوسف　　أبو أمل أكدت عليه مطالبه
فلا أدركت نيل المنى طالباته　　ولا بركت في أرض يمن ركائبه
ولا انتجعت إلا معبس حقبة　　من الجدب لا تثني عليه حقائبه
مضى من أقام الناس في ظل عدله　　وآمن من خطب تدب عقاربه
فكم من حمى صعب أباحت سيوفه　　ومن مستباح قد حمته كتائبه
أرى اليوم دست الملك أصبح خاليا　　أما فيكم من مخبر أين صاحبه
فمن سائلي عن سائل الدمع لم جرى　　لعل فؤادي بالوجيب يجاوبه
فكم من ندوب في قلوب نضيجة　　بنار كروب أججتها نوادبه
أيسلم لم تحطم صدور رماحه　　بذب ولم تثلم بضرب قواضبه
ولا اصطدمت عند الحتوف كماته　　ولا ازدحمت بين الصفوف جنائبه
ولا سيم أخذ الثار يوم كريهة　　تشق مثار النقع فيها سلاهبه
فيا ملبسي ثوبا من الحزن مسبلا　　أيحسن بي أن التسلي سالبه
خدمتك، روض المجد تضفو ظلاله　　علي، وحوض الجود تصفو مشاربه
وقد كنت تدنيني وترفع مجلسي　　لمفروض مدح ما تعداك واجبه
فما بال إذني قد تمادى ولم يكن　　إذا جئت يثنيني عن الباب حاجبه
أرى الشمس أخفت يوم فقدك نورها　　فلا كان يوم كاسف الوجه شاحبه
فكيف نبا سيف اعتزامك أو كبا　　جواد من الحزم الذي أنت راكبه
فمن لليتامى يا غياث يغيثهم　　إذا الغيث لم ينقع صدى العام ساكبه
ومن لملوك كنت ظلا عليهم　　ظليلا إذا ما الدهر نابت نوائبه

أيا تاركي ألقى العدو مسالما | متى ساءني بالجد قمت ألاعبه
سقت قبرك الغر الغوادي وجاده | من الغيث سارية الملث وساربه
فإن يك نور من شهابك قد خبا | فيا طالما جلى دجى الليل ثاقبه

فقد لاح بالملك العزيز محمد | صباح هدى كنا زمانا نراقبه
فتى لم يفته من أبيه وجده | إباء وجد غالبا من يغالبه
ومن كان في المسعى أبوه دليله | تدانى له الشأو الذي هو طالبه
وبالصالح استعلى صلاح رعية | لها منه رعي ليس يقلع راتبه
فحسب الورى من أحمد ومحمد | مليكان من عاداهما ذل جانبه
فما أحرزا علياء غازي بن يوسف | وما ضيعا المجد الذي هو كاسبه
فأفق الورى لولاهما كان أظلمت | مشارقه من بعده ومغاربه
سيحمي على رغم الليالي حماهما | عوالي قنا تردى الأسود ثعالبه
فكم من ملم جل موقع خطبه | فساءت مباديه وسرت عواقبه
فيا قمري سعد أطلا على الدجى | فولى وما ألوى على الأرض هاربه
أيمكث في الشهباء عبد أبيكما | ومادحه أم تستقل نجائبه
فإن شئتما بعد الغياث أغثتما | مصاب سهام فوقتها مصائبه
كأن لم أقف أجلو التهاني أمامه | وتضحك في وجه الأماني مواهبه
فهنيتما ما نلتما وبقيتما | لإعلاء ملك ساميات مراتبه

وهذه القصيدة مع جودتها فيها مواضع مأخوذة من مرثية الفقيه عمارة اليمني للصالح بن رزيك، وبعضها مذكور في ترجمة الصالح، وكأنه قد نسج على منوالها، فإنها على وزنها وإن كان حرف الروي مختلفا، فقد استعمل هاء الوصل كما استعمله عمارة، والظاهر أنه كان قد وقف عليها فقصد مضاهاتها.

وقام بالأمر ومملكة حلب من بعده: ولده الملك العزيز غياث الدين أبو المظفر محمد ابن الملك الظاهر، ومولده يوم الخميس خامس ذي الحجة سنة عشر وستمائة بقلعة حلب، وتوفي يوم الأربعاء رابع شهر ربيع الأول سنة أربع وثلاثين وستمائة، وكنت بحلب في ذلك الوقت، وذفن بالقلعة.

وترتب مكانه ولده الملك الناصر صلاح الدين أبو المظفر يوسف ابن الملك العزيز، واتسعت مملكته، فإنه ملك عدة بلاد من الجزيرة الفراتية لما كسر الخوارزمية، وكان مقدم جيشه الملك المنصور صاحب حمص، وذلك في أواخر سنة إحدى وأربعين أو أوائل سنة اثنتين وأربعين، ثم ملك دمشق والبلاد الشامية يوم الأحد سابع عشر ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين وستمائة، ومولده بقلعة حلب في تاسع عشر رمضان سنة سبع وعشرين وستمائة، وقصده التتر وملكوا الشام، فخرج من دمشق في صفر سنة ثمان وخمسين، وقتل في الثالث والعشرين من شوال سنة ثمان وخمسين بالقرب من المراغة من أعمال أذربيجان على ما نقل الناقل، والله أعلم، وقصته مشهورة.

زتزفي عمه الملك الصالح صلاح الدين أحمد ابن الملك الظاهر صاحب عين تاب في شعبان سنة إحدى وخمسين وستمائة، وكانت ولادته في صفر سنة

ستمائة بحلب، ومات بعين تاب، رحمهم الله تعالى أجمعين. وإنما قدموا العزيز وهو الأصغر على أخيه الصالح لأن أمه صفية خاتون بنت الملك العادل بن أيوب، فقدموه في الملك لأجل جده وأخواله اولاد العادل، وأما الصالح فإن أمه جارية.

وتوفي الشرف الحلي المذكور في ليلة السابع والعشرين من شعبان سنة سبع وعشرين وستمائة بدمشق، رحمه الله تعالى، ودفن بظاهرها في جوار مسجد النارنج شرقي مصلى العيد، ومولده في منتصف شهر ربيع الآخر سنة سبعين وخمسمائة بالحلة، وهو من مشاهير شعراء عصره.

ذو الرمة

أبو الحارث غيلان بن عقبة بن بهيش بن مسعود بن حارثة بن عمرو بن ربيعة بن ساعدة بن كعب بن عوف بن ربيعة بن ملكان بن عدي بن عبد مناة ابن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، الشاعر المشهور المعروف بذي الرمة، أحد فحولة الشعراء، ويقال إنه كان ينشد شعره في سوق الإبل، فجاء الفرزدق فوقف عليه، فقال له ذو الرمة: كيف ترى ما تسمع يا أبا فراس؟ فقال: ما أحسن ما تقول! قال: فما لي لا أذكر مع الفحول؟ قال: قصر بك عن غايتهم بكاؤك في الدمن، وصفتك للأبعار والعطن.

وهو أحد عشاق العرب المشهورين بذلك، وصاحبته مية ابنة مقاتل بن طلبة بن قيس بن عاصم المنقري، وقيس بن عاصم هو الذي قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم في وفد بني تميم فأكرمه، وقال له: أنت سيد أهل الوبر، وقال أبو عبيد البكري: هي مية بنت عاصم بن طلبة بن قيس بن عاصم، والله أعلم بالصواب.

وكان ذو الرمة كثير التشبيب بها في شعره، وإياهما عنى أبوتمام الطائي بقوله في قصيدته البائية:

ما ربع مية معمورا يطيف به　　　غيلان أبهى ربا من ربعها الخرب

وقال ابن قتيبة في كتاب – طبقات الشعراء –: قال أبو ضرار الغنوي: رأيت مية وإذا معها بنون لها، فقلت: صفها لي، قال: مسنونة الوجه طويلة الخد شماء الأنف، عليها وسم جمال، قلت: أكانت تنشدك شيئا مما قال فيها ذو الرمة؟ قال: نعم. ومكثت مية زمانا تسمع شعر ذي الرمة ولاتراه، فجعلت لله تعالى عليها أن تنحر بدنة يوم تراه، فلما رأته رأت رجلا دميما أسود، وكانت من أهل الجمال، فقالت: واسوأتاه، وابؤساه! فقال ذو الرمة:

على وجه مي مسحة من ملاحة　　　وتحت الثياب العار لو كان باديا

ألم تر أن الماء يخبث طعمه　　　وإن كان لون الماء أبيض صافيا

فواضيعة الشعر الذي لج فانقضى　　　بمي ولم أملك ضلال فؤاديا

ويروى أن ذا الرمة لم ير مية قط إلا في ببرقع، فأحب أن ينظر إلى وجهها فقال:

جزى الله البراقع من ثياب　　　عن الفتيان شرا ما بقينا

يوارين الملاح فلا نراها　　　ويخفين القباح فيزدهينا

فنزعت البرقع عن وجهها، وكانت باهرة الحسن، فلما رآها مسفرة قال:

على وجه مية مسحة من ملاحة

البيت المقدم، فنزعت ثيابها وقامت عريانة، فقال:

ألو تر أن الماء يخبث طعمه

البيت المذكور، فقالت له: أتحب أن تذوق طعمه؟ قال: إي والله، فقالت له: تذوق الموت قبل أن تذوقه، والله أعلم.

ومن شعره السائر فيها:

إذا هبت الأرواح من نحو جانب	به أهل مي هاج قلبي هبوبها

هوى تذرف العينان منه وإنما	هوى كل نفس حيث كان حبيبها

ومان ذو الرمة يشبب بخرقاء أيضا، وهي من بني البكاء بن عامر بن صعصعة وسبب تشبيبه بها أنه مر في سفر ببعض البوادي، فإذا خرقاء خاجة من خباء، فنظر إليها فوقعت في قلبه، فخرق إداوته ودنا منها يستطعم كلامها، فقال: إني رجل على ظهر سفر، وقد تخرقت إداوتي، فأصلحيها لي، فقالت: والله ما احسن العمل وإني لخرقاء، والخرقاء التي لا تعمل شغلا لكرامتها على أهلها، فشبب بها ذو الرمة وسماها خرقاء، وإياها عنى بقوله وهو في غاية المبالغة:

وما شنتا خرقاء واهيتا الكلى	سقى بها ساق ولم يتبللا

بأضيع من عينيك للدمع كلما	تذكرت ربعا أو توهمت منزلا

وقال المفضل الضبي: كنت أنزل على بعض الأعراب إذا حججت، فقال لي يوما: هل لك أن أريك خرقاء صاحبة ذي الرمة؟ فقلت له: إنن فعلت فقد بررتني، فتوجهنا جميعا نريدها، فعدل بي عن الطريق بقدر ميل، ثم أتينا أبيات شعر، فاستفتح بيتا ففتح له، وخرجت علينا امرأة طويلة حسانة بها قوة، والحسانة أشد حسنا من الحسناء، فسلمت وجلست وتحدثنا ساعة، ثم قالت لي: هل حججت قط: قلت: غير مرة، قالت: فما منعك من زيارتي، أما علمت أني منسك من مناسك الحج؟ قلت: وكيف ذلك؟ قالت: أما سمعت قول ذي الرمة:

تمام الحج أن تقف المطايا	على خرقاء واضعة اللثام

وكان ذو الرمة كثير المديح لبلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، وفيه يقول مخاطبا ناقته صيدح، وهذا الاسم علم عليها:

إذا ابن أبي موسى بلالا بلغته	فقام بفأس بين وصليك جازر

وقد أخذ هذا المعنى من قول الشماخ في عرابة الأوسي رضي الله عنه، وهو أيضا يخاطب ناقته من جملة أبيات:

إذا بلغتني وحملت رحلي	عرابة فاشرقي بدم الوتين

وجاء بعدهما أبو نواس فكشف عن هذا المعنى وأوضحه بقوله في الأمين محمد بن هارون الرشيد:

وإذا المطي بنا بلغن محمدا	فظهورهن على الرجال حرام

حتى قال بعض العلماء، ولا أستحضر الآن من هو القائل، لما وقف على بين أبي نواس: هذا المعنى والله الذي كانت العرب تحوم حوله فتخطئه ولا تصيبه فقال الشماخ كذا، وقال ذو الرمة كذا، وأنشد بيتيهما المذكورين، وما أبانه إلا أبو نواس بهذا البيت، وهو في نهاية الحسن. والأصل في هذا المعنى، قول الأنصارية المأسورة بمكة، وكانت قد نجت على ناقة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما وصلت إليه قالت: يا رسول الله، إني نذرت إن نجوت عليها أن أنحرها، فقال رسول الله صلىالله عليه وسلم لبئس ما جزيتها. وتفسير هذا المعنى: إني لست أحتاج أن أرحل إلى غيرك، فقد كفيتني وأغنيتني، إلا أن الشماخ وعد ناقته بالذبح، وذا الرمة دعا عليها أيضا بالذبح، وأبو نواس حرم الركوب على ظهرها وأراحها من الكد في الأسفار، فهو أتم في المقصود، لكونه أحسن إليها في قبالة إحسانها إليه، حيث أوصلته إلى الممدوح.

وكان لذي الرمة إخوة: هشام وأوفى ومسعود، فمات أوفى ثم مات ذو الرمة بعدة، فقال مسعود يرثيهما – هكذا قال ابن قتيبة، وقال في الحماسة في المراثي خلاف هذا، والله أعلم بالصواب – والأبيات التي قالها مسعود:

تعزيت عن أوفى بغيلان بعده	عزاء وجفن العين ملآن مترع

ولم ينسني أوفى المصيبات بعده	ولكن نكء القرح بالقرح أوجع

وهي من جملة أبيات، وهذا مسعود هو الذي أشار إليه أبو تمام بقوله:

إن كان مسعود سقى أطلالهم — سبل الشؤون فلست من مسعود

قال أبو القاسم الآمدي صاحب كتاب الموازنة بين الطائيين في الكلام على هذا البيت: هذا مسعود أخو ذي الرمة، وكان يلوم أخاه ذا الرمة على بكائه الطلول، حتى قال فيه ذو الرمة:

عشية مسعود يقول وقد جرى — على لحيي من واكف الدمع قاطر

أفي الدار تبكي إذ بكيت صبابة — وأنت امرؤ قد حلمتك العشائر

فكأن أبا تمام يقول: إن كان مسعود قد رجع عن ذلك المذهب وصار يبكي على الطلول فلست منه، وهذا أبلغ في التبري منه مما إذا كان هذا شأنه، فصار كقول القائل: إن كان حاتم قد بخل أو السموأل قد غدر فلست منهما، وهذا أبلغ من قوله: إن كان البخيل قد بخل والغادر قد غدر فلست منهما، وهذا حاصل ما قاله الآمدي، وإن كان بغير هذه العبارة.

وأخبار ذي الرمة كثيرة، والاختصار أولى. وكانت وفاته سنة سبع عشرة ومائة، رحمه الله تعالى، ولما حضرته الوفاة قال: أنا ابن نصف الهرم، أنا ابن أربعين سنة، وأنشد:

يا قابض الروح عن نفسي إذا احتضرت — وغافر الذنب زحزحني عن النار

وإنما قيل له ذو الرمة بقوله في الوتد:

أشعث باقي رمة التقليد

والرمة – بضم الراء – الحبل البالي، وبكسرها العظم البالي.

وقال أبو عمرو بن العلاء: ختم الشعر بذي الرمة والرجز برؤبة بن العجاج، فقيل له: إن رؤبة حي، فقال: نعم، ولكن ذهب شعره كما ذهب مطعمه وملبسه ومنكحه، فقيل له: فهؤلاء الآخرون؟ فقال: مرقعون مهدمون، إنما هم كل على غيرهم.

وقال أبو عمرو، قال جرير: لو خرس ذو الرمة بعد قوله قصيده التي أولها:

ما بال عينيك منها الماء ينسكب

كان أشعر الناس، وقال أبو عمرو: سمعت ذا الرمة يقول: إذا نزل بنا نازل قلنا له: الحليب أحب إليك أم المخيض؟ فإن قال المخيض، قلنا: عبد من أنت: وإن قال الحليب، قلنا: ابن من أنت؟ وقال أبو عمرو: شعر ذي الرمة نقط عروس يضمحل عن قليل، وأبعار ظباء لها شم في أول رائحة، ثم يعود إلى البعر. وبالجملة فقد كان من مشاهير الشعراء في عصره، وذوي التقدم في النظم في دهره، رحمه الله تعالى.

وذكر محمد بن جعفر بن سهل الخرائطي في كتاب – اعتلال القلوب – عن محمد ابن سلمة الضبي قال: حججت، فلما صدرت من الحج تيممت منهلا من المناهل، وإذا بيت بناحية من الطريق، فأنخت بفنائه، فقلت: أنزل؟ فقالت ربة البيت: نعم، فقلت: وادخل؟ قالت: أجل، فدخلت فإذا بجارية أحسن من الشمس، فجلست أحدثها وكأن الدر ينثر من فيها، فبينا أنا كذلك إذ خرجت عجوز مؤتزرة بعباءة مشتملة باخرى، فقالت: يا عبد الله، ما جلوسك هاهنا عند هذا الغزال النجدي الذي لا تأمن حباله، ولا ترجو نواله؟ فقالت لها الجارية: أي جدة دعيه يتعلل كما قال ذو الرمة:

فإن لا يكن إلا تعلل ساعة — قليلا فإني نافع لي قليلها

قال: فأقمت يومي وانصرفت، وفي قلبي كجمر الغضا من حبها.

حرف الفاء

فاتك المجنون

أبو شجاع فاتك الكبير المعروف بالمجنون، كان روميا، أخذ صغيرا هو وأخ له وأخت لهما من بلد الروم من موضع قرب حصن يعرف بذي الكلاع، فتعلم الخط بفلسطين، وهو ممن أخذه الإخشيد من سيده بالرملة كرها بلا ثمن، فأعتقه صاحبه، وكان معهم حرا في عدة المماليك، وكان كريم النفس بعيد الهمة شجاعا كثير الإقدام، ولذلك قيل له المجنون، وكان رفيق الأستاذ كافور في خدمة الإخشيد، فلما مات مخدومهما وتقرر كافور في تربية ابن الإخشيد – كما سيأتي في ترجمة كافور إن شاء الله تعالى – أنف فاتك من الإقامة بمصر كيلا يكون كافور أعلى رتبة منه، ويحتاج أن يركب في خدمته، وكانت الفيوم وأعمالها إقطاعا له، فانتقل إليها واتخذها سكنا له، وهي بلاد وبيئة كثيرة الوخم، فلم يصح له بها جسم، وكان كافور يخافه ويكرمه فزعا منه وفي نفسه منه ما فيها، فاستحكمت العلة في جسم فاتك وأحوجته إلى دخول مصر للمعالجة، فدخلها وبها أبو الطيب المتنبي ضيفا للأستاذ كافور، وكان يسمع بكرم فاتك وكثرة سخائه، غير أنه لا يقدر على قصد خدمته خوفا من كافور، وفاتك يسأل عنه ويراسله بالسلام، ثم لتقيا في الصحراء مصادفة من غير ميعاد، وجرى بينهما مفاوضات، فلما رجع فاتك إلى داره حمل لأبي الطيب في ساعته هدية قيمتها ألف دينار، ثم أتبعها بهدايا بعدها، فاستأذن المتنبي الأستاذ كافورا في مدحه فأذن له، فمدحه في التاسع من جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وثلثمائة بقصيدته المشهورة التي أولها، وهي من غر القصائد:

لاخيل عندك تهديها ولا مال | فليسعد النطق إن لم يسعد الحال

وما أحسن قوله فيها:

كفاتك ودخول الكاف منقصة | كالشمس قلت وما للشمس أمثال

ثم توفي فاتك المذكور ليلة الأحد عشاء، لإحدى عشرة ليلة خلت من شوال سنة خمسين وثلثمائة بمصر، فرثاه المتنبي، وكان قد خرج من مصر، بقصيدته التي أولها:

الحزن يقلق والتجمل يردع | والدمع بينهما عصي طيع

وما أرق قوله فيها:

إني لأجبن من فراق أحبتي | وتحس نفسي بالحمام فأشجع
ويزيدني غضب الأعادي قسوة | ويلم بي عتب الصديق فأجزع
تصفو الحياة لجاهل أو غافل | عما مضى منها وما يتوقع
ولمن يغالط في الحقائق نفسه | ويسومها طلب المحال فتطمع
أين الذي الهرمان من بنيانه | ماقومه ما يومه ما المصرع
تتخلف الآثار عن أصحابها | حينا فيدركها الفناء فتتبع

وهي من المراثي الفائقة. ثم عمل بعد خروجه من بغداد يذكر مسيرة من مصر ويرثي فاتكا المذكور، وأنشأها يوم الثلاثاء لتسع خلون من شعبان سنة اثنتين وخمسين وثلثمائة، وأولها:

حتام نحن نساري النجم في الظلم | وماسراه على خف ولا قدم

ومنها في ذكر فاتك:

لا فاتك آخر في مصر نقصده | ولا له خلف في الناس كلهم
من لا تشابهه الأحياء في شيم | أمسى تشابهه الأموات في الرمم

عدمته وكأني سرت أطلبه   فما تزيدني الدنيا على العدم

وله فيه شيء آخر، رحمه الله تعالى.

صاحب قلائد العقيان

أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله بن خاقان بن عبد الله القيسي الإشبيلي صاحب كتاب قلائد العقيان، له عدة تصانيف منها الكتاب المذكور وقد جمع فيه من شعراء المغرب طائفة كثيرة، وتكلم على ترجمة كل واحد منهم بأحسن عبارة وألطف إشارة، وله أيضا كتاب – مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملمح أهل الأندلس – وهو ثلاث نسخ كبرى وصغرى ووسطى، وهو كتاب كثير الفائدة، لكنه قليل الوجود في هذه البلاد، وكلامه في هذه الكتب يدل على فضله وغزارة مادته، وكان كثير الأسفار سريع التنقلات.

وتوفي قتيلا سنة خمس وثلاثين وخمسمائة بمدينة مراكش في الفندق.

وقال الحافظ أبو الخطاب ابن دحية في كتابه الذي سماه – المطرب من أشعار أهل المغرب –: إني لقيت جماعة من أصحابه وحدثوني عنه بتصانيفه وعجائبه، وكان مخلوع العذار في دنياه، لكن كلامه في تواليفه كالسحر الحلال والماء الزلال، قتل ذبحا في مسكنه بفندق من حضرة مراكش صدر سنة تسع وعشرين وخمسمائة، رحمه الله تعالى، وإن الذي أشار بقتله أمير المسلمين أبو الحسن علي بن يوسف بن تاشفين هذا كله لفظه، والله أعلم بالصواب.

وأمير المسلمين المذكور هو أخو أبي إسحاق إبراهيم بن يوسف بن تاشفين الذي ألف له أبو نصر المذكور – قلائد العقيان – وقد ذكره في خطبة الكتاب.

الشهاب فتيان الشاغوري

الشهاب فتيان بن علي بن فتيان بن ثمال، الأسدي الحريمي المعروف بالشاغوري المعلم، كان فاضلا وشاعرا ماهرا، خدم الملوك ومدحهم وعلم أولادهم، وله ديوان شعر فيه مقاطيع حسان، وأقام مدة بالزبداني وله فيها أشعار لطيفة، فمن ذلك قوله في جنة الزبداني، وهي أرض فيحاء جميلة المنظر تتراكم عليها الثلوج في زمن الشتاء وتنبت أنواع الأزهار في زمن الربيع، ولقد أحسن فيها كل الإحسان، وهي:

قد أجمد الخمر كانون بكل قدح   وأخمد الجمر في الكانون حين قدح

ياجنة الزبداني أنت مسفرة   بحسن وجه إذا وجه الزمان كلح

فالثلج قطن عليك السحب تندفه   والجو يحلجه والقوس قوس قزح

وله وقد دخل إلى حمام ماؤها شديد الحرارة، وكان قد شاخ وكبر:

أرى ماء حمامكم كالحميم   نكابد منه عناء وبوسا

وعهدي بكم تسمطون الجداء   فما بالكم تسمطون التيوسا

ثم وجدت في كتاب الخريدة في ترجمة سعد بن إبراهيم الشيباني الاسعردي الملقب بالمجد الكاتب خمسة أبيات، قال العماد الأصبهاني صاحب الخريدة: أنشدنيها سعد المذكور في ذم حمام، و لم يقل إنها له، والبيت الخامس منها:

وقد كان في العرف سمط الجداء   فلم صرتم تسمطون التيوسا

وقال العماد: وهو إلى سادس شهر ربيع الآخر سنة سبع وثمانين وخمسمائة مقيم بالعسكر المنصور على عكا.

قلت: فقد استعمله فتيان الشاعر تضمينا، فنبهت عليه كيلا يظن أنه لفتيان.

وكان قد تعلق بخدمة الأمير بدر الدين مودود بن المبارك شحنة دمشق، وهو أخر عز الدين فروخ شاه ابن أخي السلطان صلاح الدين لأمه، وكان يعلم أولاده الخط، فكتب إليه شرف الدين بن عنين:

يامن تلقب ظلما بالشهاب وإن ... نافى بظلمته في أفقها الشهبا

لا يغررنك من مودود دولته ... وإن تمسكت من أسبابها سببا

فلست تنبح فيها غير واحدة ... حتى تلف على خيشومك الذنبا

وهذا البيت الأخير من أبيات الحماسة وقد استعمله تضمينا، وكانت بينهما مكاتبات ومداعبات يطول شرحها.

ومولده بعد سنة ثلاثين وخمسمائة ببانياس. ومن شعره:

علام تحركي والحظ ساكن ... وما نهنهت في طلب ولكن

أرى نذلا تقدمه المساوي ... على حر تؤخره المحاسن

وله ديوان آخر صغير جميع ما فيه دوبيت رأيته بدمشق ونقلت منه:

الورد بوجنتيك زاه زاهر ... والسحر بمقلتيك واف وافر

والعاشق في هواك ساه ساهر ... يوجر ويخاف فهو شاك شاكر

وتوفي فتيان المذكور سحر الثاني والعشرين من المحرم سنة خمس عشرة وستماءة، ودفن بمقابر باب الصغير، رحمه الله تعالى.

والشاغوري: بفتح الشين المعجمة وبعد الألف غين معجمة مضمومة ثم واو ساكنة بعدها راء، هذه النسبة إلى الشاغور، وهي عمارة بظاهر دمشق من جملة ضواحيها.

والزبداني: بفتح الزاي والباء الموحدة والدال المهملة وبعد الألف نون مكسورة ثم ياء مثناة من تحتها، وهي قرية بين دمشق وبعلبك كثيرة الأشجار والمياه، رأيتها مرارا، وهي في غاية الحسن والطيبة.

الفضل بن يحيى البرمكي

أبو العباس الفضل بن يحي بن خالد بن برمك البرمكي، كان من أكثرهم كرما مع كرم البرامكة وسعة جودهم، وكان أكرم من أخيه جعفر المقدم ذكره، وكان جعفر أبلغ في الرسائل والكتابة منه، وكان هارون الرشيد قد ولاه الوزارة قبل جعفر، وأراد أن ينقلها إلى جعفر فقال لأبيهما يحي: يا أبت – وكان يدعوه يا أبت – إني أريد أن أجعل الخاتم الذي لأخي الفضل لجعفر، وكان يدعوه الفضل يا أخي، فإنهما متقاربان في المولد، وكانت أم الفضل قد أرضعت الرشيد، واسمها زبيدة من مولدات المدينة، والخيزران أم الرشيد أرضعت الفضل، فكانا أخوين من الرضاع، وفي ذلك قال مروان بن أبي حفصة يمدح الفضل:

كفى لك فضلا أن أفضل حرة ... غذتك بثدي والخليفة واحد

لقد زنت يحيى في المشاهد كلها ... كما زان يحيى خالدا في المشاهد

قال الرشيد ليحيى: وقد احتشمت من الكتاب إليه في ذلك فاكفنيه، فكتب والده إليه: قد أمر أمير المؤمنين بتحويل الخاتم من يمينك إلى شمالك فكتب إليه الفضل قد سمعت مقالة أمير المؤمنين في أخي وأطعت، وما انتقلت عني نعمة صارت إليه، ولا غربت عني رتبة طلعت عليه فقال جعفر: لله أخي ما أنفس نفسه، وأبين دلائل الفضل عليه، وأقوى منة العقل فيه، وأوسع في البلاغة ذرعه.

وكان الرشيد قد جعل ولده محمدا في حجر الفضل بن يحيى، والمأمون في حجر جعفر، فاختص كل واحد منهما بمن في حجره، ثم إن الرشيد قلد

الفضل بعمل خراسان، فتوجه إليها وأقام بها مدة، فوصل كتاب صاحب البريد بخراسان إلى الرشيد ويحيى جالس بين يديه ومضمون الكتاب أن الفضل بن يحيى متشاغل بالصيد وإدمان اللذات عن النظر في أمور الرعية، فلما قرأه الرشيد رمى به إلى يحيى، وقال له: يا أبت، اقرأ هذا الكتاب واكتب إليه بما يردعه عن هذا، فكتب يحيى على ظهر كتاب صاحب البريد: حفظك الله يا بني وأمتع بك، قد انتهى إلى أمير المؤمنين مما أنت عليه من التشاغل بالصيد ومداومة اللذات عن النظر في أمور الرعية ما أنكره، فعاود ما هو أزين بك، فإنه من عاد إلى ما يزينه أو يشينه لم يعرفه أهل دهره إلا به، والسلام وكتب في أسفله هذه الأبيات:

انصب نهارا في طلاب العلا	واصبر على فقد لقاء الحبيب
حتى إذ الليل أتى مقبلا	واستترت فيه وجوه العيوب
فكابد اليل بما تشتهي	فإنما الليل نهار الأريب
كم من فتى تحسبه ناسكا	يستقبل الليل بأمر عجيب
غطى عليه الليل أستاره	فبات في لهو وعيش خصيب
ولذة الأحمق مكشوفة	يسعى بها كل عدو رقيب

والرشيد ينظر إلى ما يكتب، فلما فرغ قال: أبلغت يا أبت، فلما ورد الكتاب على الفضل لم يفارق المسجد نهارا إلى أن انصرف من عمله.

ومن مناقبه أنه لما تولى خراسان دخل إلى بلخ وهو وطنهم، وبها النوبهار وهو بيت النار التي كانت المجوس تعبدها، وكان جدهم برمك خادم ذلك البيت – حسبما هو مشروح في ترجمة جعفر – فأراد الفضل هدم ذلك البيت، فلم يقدر عليه لإحكام بنائه، فهدم منه ناحية وبنى فيها مسجدا.

وذكر الجهشياري في – أخبار الوزراء – أن الرشيد ولى جعفر بن يحيى الغرب كله من الأنبار إلى أفريقية في سنة ست وسبعين ومائة، وقلد الضل الشرق كله من شروان إلى أقصى بلاد الترك، فأقام جعفر بمصر واستخلف على عمله، وشخص الفضل إلى عمله في سنة ثمان وسبعين، فلما وصل إلى خراسان أزال سيرة الجور، وبنى المساجد والحياض والربط وأحرق دفاتر البقايا وزاد الجند، ووصل الزوار والقواد والكتاب في سنة تسع بعشرة آلاف درهم، واستخلف على عمله، وشخص في آخر هذه السنة إلى العراق، فتلقاه الرشيد وجمع له الناس وأكرمه غاية الإكرام، وأمر الشعراء بمدحه والخطباء بذكر فضله، فكثر المادحون له، ومدحه إسحاق بن إبراهيم الموصلي بأبيات منها:

لو كان بيني وبين الفضل معرفة	فضل بن يحيى لأعداني على الزمن
هو الفتى الماجد الميمون طائره	والمشتري الحمد بالغالي من الثمن

وكان أبو الهول الحميري قد هجا الفضل، ثم أتاه راغبا إليه، فقال له: ويلك! بأي وجه تلقاني؟ فقال: بالوجه الذي ألقى به الله عز وجل وذنوبي إليه أكثر من ذنوبي إليك، فضحك ووصله.

ومن كلامه: ماسرور الموعود بالفائدة كسروري بالإنجاز.

وقيل له: ما أحسن كرمك لولا تيه فيك، فقال: تعلمت الكرم والتيه من عمارة بن حمزة. فقيل له: وكيف ذلك؟ فقال: كان أبي عاملا على بعض كور بلاد فارس، فانكسرت عليه جملة مستكثرة، فحمل إلى بغداد، وطولب بالمال، فدفع جميع ما يملكه، وبقيت عليه ثلاثة آلاف ألف درهم لا يعرف لها وجها، والطلب عليه حثيث، فبقي حائرا في أمره، وكانت بينه وبين عمارة بن حمزة منافرة ومواحشة، لكنه علم أنه ما يقدر على مساعدته إلا هو، فقال لي يوما وأنا صبي: امض إلى عمارة وسلم عليه عني وعرفه الضرورة التي قد صرنا إليها واطلب منه هذا المبلغ على سبيل القرض إلى أن يسهل الله تعالى باليسرة، فقلت له: أنت تعلم ما بينكما، وكيف أمضي إلى عدوك بهذه الرسالة وأنا أعلم أنه لو قدر على إتلافك لأتلفك؟ فقال: لا بد أن تمضي إليه لعل الله يسخره ويوقع في قلبه الرحمة، قال الفضل: فلم يمكني معاودته، وخرجت وأنا أقدم رجلا وأؤخر أخرى، حتى أتيت داره واستأذنت في

الدخول عليه، فأذن لي، فلما دخلت وجدته في صدر إيوانه متكئا على مفارش وثيرة، وقد غلف سعر رأسه ولحيته بالمسك، ووجهه إلى الحائط وكان من شدة تيهه لا يقعد إلا كذلك، قال الفضل: فوقفت أسفل الإيوان، وسلمت عليه فلم يرد السلام، فسلمت عليه عن أبي وقصصت عليه القصة، فسكت ساعة ثم قال: حتى ننظر، فخرجت من عنده نادما على نقل خطاي إليه، موقنا بالحرمان عاتبا على أبي كونه كلفني إذلال نفسي بما لا فائدة فيه، وعزمت على أن لا أعود إليه غيظا منه، فغبت عنه ساعة ثم جئته وقد سكن ما عندي، فلما وصلت إلى الباب وجدت أبغالا محملة، فقلت: ما هذه؟ فقيل: إن عمارة قد سير المال، فدخلت على أبي و لم أخبره بشيء مما جرى لي معه كيلا أكدر عليه إحسانه، فمكثنا قليلا، وعاد أبي إلى الولاية وحصلت له أموال كثيرة، فدفع إلي ذلك المبلغ وقال: تحمله إليه، فجئت به ودخلت عليه، فوجدته على الهيئة الأولى، فسلمت عليه فلم يرد، فسلمت عليه عن أبي وشكرت إحسانه وعرفته بوصول المال، فقال لي بحرد: ويحك أقسطارا كنت لأبيك؟ اخرج عني لا بارك الله فيك، وهو لك، فخرجت ورددت المال إلى أبي وعجبنا من حاله، فقال لي: يا بني، والله ما تسمح نفسي لك بذلك، ولكن خذ ألف ألف درهم واترك لأبيك ألفي ألف درهم، فتعلمت منه الكرم والتيه.

وحكى الجهشياري في – أخبار الوزراء – هذه الحكاية، لكن بين الحكايتين اختلاف قليل، وذكر أن جملة المال ألف ألف درهم، وكان ذلك في أيام المهدي، وكان يحيى قد ضمن فارس فانكسر عليه المال، وقال المهدي لمن يطالبه بالمال: إن أدى لك المال قبل المغرب من يومنا هذا وإلا فأتني برأسه، وكلن المهدي مغضبا عليه.

والقسطار: الصيرفي.

وعمارة المذكور من أولاد عكرمة مولى ابن عباس، وقد تقدم ذكره، وكان كاتب أبي جعفر المنصور ومولاه، وكان تائها معجبا، كريما بليغا فصيحا، أعور. وكان المنصور وولده المهدي يقدمانه، ويحتملان أخلاقه لفضله وبلاغته ووجوب حقه، وولي لهما الأعمال الكبار، وله رسائل مجموعة من جملتها رسالة الخميس التي تقرأ لبني العباس.

ويحكى أن الفضل دخل عليه حاجبه يوما فقال به: إن بالباب رجلا زعم أن له سببا يمت به إليك، فقال: أدخله فإذا هو شاب حسن الوجه رث الهيئة، فسلم، فأوما إليه بالجلوس فجلس، فقال له بعد ساعة: ما حاجتك؟ قال، أعلمتك بها رثاثة ملبسي، قال: نعم، فما الذي تمت به إلي؟ قال: ولادة تقرب من ولادتك، وجوار يدنو من جوارك، واسم مشتق من اسمك، قال الفضل: أما الجوار فيمكن، وقد يوافق الاسم الاسم، ولكن من أعلمك بالولادة؟ قال: أخبرتني أمي أنها لما ولدتني قيل لها: قد ولد هذه الليلة ليحيى بن خالد غلام وسمي الفضل، فسمتني أمي فضيلا إكبارا لاسمك أن تلحقني به، وصغرته لقصور قدري عن قدرك، فتبسم الفضل وقال له: كم أتى عليك من السنين؟ قال: خمس وثلاثون سنة، قال: صدقت، هذا المقدار الذي أعد، قال: فما فعلت أمك؟ قال: ماتت، قال: فما منعك من اللحاق بنا متقدما؟ قال: لم أرض نفسي للقائك، لأنها كانت في عامية معها حداثة تقعدني عن لقاء الملوك، وعلق هذا بقلبي منذ أعوام، فشغلت نفسي بما يصلح للقائك حتى رضيت نفسي، قال: فما تصلح له؟ قال: الكبير من الأمر والصغير، قال: يا غلام، أعطه لكل عام مضى من سنه ألف درهم، وأعطه عشرة آلاف درهم يجمل بها نفسه إلى وقت استعماله. وأعطاه مركوبا سريا.

ثم إن الرشيد لما قتل جعفرا – على ما تقدم في ترجمته – قبض على أبيه يحيى وأخيه الفضل المذكور، وكان عنده، ثم توجه الرشيد إلى الرقة وهما معه وجميع البرامكة في التوكيل غير يحيى، فلما وصلوا إليها وجه الرشيد إلى يحيى أن أقم بالرقة أو حيث شئت، فوجه إليه: إني أحب أن أكون مع ولدي، فوجه إليه: أترضى بالحبس؟ فذكر أنه يرضى به، فحبس معهم، ووسع عليهم، ثم كانوا حينا يوسع عليهم وحينا يضيق عليهم حسبما ينقل إليه عنهم، واستصفى أموال البرامكة. ويقال: إن الرشيد سير مسرورا الخادم إلى السجن، فجاءه فقال للمتوكل بهما: أخرج إلي الفضل، فأخرجه، فقال له: إن أمير المؤمنين يقول لك: إني قد أمرتك أن تصدقني عن أموالكم، فزعمت أنك قد فعلت، وقد صح عندي أنك بقيت لك أموالا كثيرة، وقد أمرني إن لم تطلعني على المال أن أضربك مائتي سوط، وأرى لك أن لا تؤثر مالك على نفسك، فرفع الفضل رأسه وقال: والله ما كذبت فيما أخبرت به، ولو خيرت بين الخروج من ملك الدنيا وأن أضرب سوطا واحدا لاخترت الخروج، وأمير المؤمنين يعلم ذلك، وأنت تعلم أنا كنا نصون أعراضنا بأموالنا،

فكيف صرنا نصون أموالنا بأنفسنا؟ فإن كنت قد أمرت بشيء فامض له، فأخرج مسرورا أسواطا كانت معه في منديل، وضربه مائتي سوط، وتولى ضربه الخدم فضربوه أشد الضرب، وهم لا يحسنون الضرب، فكادوا أن يتلفوه، وتركوه. وكان هناك رجل بصير بالعلاج فطلبوه لمعالجته، فلما رآه قال: يكون قد ضربوه خمسين سوطا، فقيل: بل مائتي سوط، فقال: ما هذا إلا أثر خمسين سوطا لا غير، ولكن يحتاج أن ينام على ظهره على بارية وأدوس صدره، فجزع الفضل من ذلك ثم أجاب إليه، فألقاه على ظهره وداسه، ثم أخذ بيده وجذبه عن البارية، فتعلق بها من لحم ظهره شيء كثير، ثم أقبل يعالجه، إلى أن نظر يوما إلى ظهره، فخر المعالج ساجدا لله تعالى، فقيل له: ما بالك؟ فقال: قد برئ وقد نبت في ظهره لحم حي، ثم قال: ألست قلت هذا ضرب خمسين سوما، أما والله لو ضرب ألف سوط ما كان أثرها بأشد من هذا الأثر، وإنما قلت ذلك حتى تقوى نفسه فيعينني على علاجه.

ثم إن الفضل اقترض من بعض أصحابه عشرة آلاف درهم وسيرها له، فردها عليه، فاعتقد أنع قد استقلها، فقترض عليها عشرة آلاف أخرى وسيرها فأبى أن يقبلها وقال: ما كنت لآخذ على معالجة فتى من الكرام كراء، والله لو كانت عشرين ألف دينار ما قبلتها، فلما بلغ ذلك الفضل قال: والله إن الذي فعله هذا أبلغ من الذي فعلناه في جميع أيامنا من المكارم، وكان قد بلغه ان ذلك المعالج كان في شدة وضائقة.

وكان الفضل ينشد وهو في السجن هذه الأبيات، وأظنها لأبي العتاهية، ثم وجدتها لصالح بن عبد القدوس من جملة أبيات قالها وهو محبوس، وقيل إنها لعلي بن الخليل، وكان هو وصالح المذكور يتهمان بالزندقة، فحبسهما الخليفة المهدي بن المنصور، فقال هذه الأبيات:

إلى الله فيما نالنا نرفع الشكوى ... ففي يده كشف المضرة والبلوى

خرجنا من الدنيا ونحن من أهلها ... فلا نحن في الأموات فيها ولا الأحيا

إذا جاءنا السجان يوما لحاجة ... عجبنا وقلنا: جاء هذا من الدنيا

وقد مدح البرامكة جميع شعراء عصرهم، فمن ذلك قول مروان بن أبي حفصة، وقيل إنها لأبي الحجناء في الفضل المذكور:

عند الملوك منافع ومضرة ... وأرى البرامك لا تضر وتنفع

إن كان شر كان غيرهم له ... والخير منسوب إليهم أجمع

وإذا جهلت من امرئ أعراقه ... وقديمه فانظر إلى ما يصنع

إن العروق إذا استسر بها الندى ... أشب النبات بها وطاب المزرع

وغضب الرشيد على العتابي فشفع له الفضل فرضي عنه، فقال:

ما زلت في غمرات الموت مطرحا ... يضيق عني وسيع الرأي والحيل

فلم تزل دائما تسعى بلطفك لي ... حتى اختلست حياتي من يدي اجلي

ومدحه أبو نواس بقصائد، قال في بعضها:

سأشكو إلى الفضل بن يحيى بن خالد ... هواك لعل الفضل يجمع بيننا

فقيل له: قد أسأت المقال في المخاطبة بهذا القول، فقال: أردت جمع تفضل لا جمع توصل، وتبعه المتنبي بقوله:

عل الأمير يرى ذلي فيشفع لي ... إلى التي صيرتني في الهوى مثلا

وعمل فيه بعض الشعراء بيتا واحدا وهو:

ما لقينا من جود فضل بن يحيى ... ترك الناس كلهم شعراء

فاستحسنوا منه ذلك وعابوا عليه كونه مفردا، فقال أبو العذافير ورد ابن سعد العمي:

علم المفحمين أن ينظموا الأش عار منا والباخلين السخاء

فاستحسنوا منه ذلك.

وكان الفضل كثير البر بأبيه، وكان أبوه يتأذى من استعمال الماء البارد في زمن الشتاء. فيحكى أنهما لما كانا في السجن لم يقدرا على تسخين الماء، فكان الفضل ياخذ الإبريق النحاس وفيه الماء فيلصقه إلى بطنه زمانا عساه تنكسر برودته بحرارة بطنه حتى يستعمله أبوه بعد ذلك.

واخباره كثيرة. وكانت ولادته لسبع بقين من ذي الحجة سنة سبع وأربعين ومائة وذكر الطبري في تاريخه في أول خلافة هارون الرشيد أن مولد الفضل بن يحيى سنة ثمان وأربعين، والله أعلم. وتوفي بالسجن سنة ثلاث وتسعين ومائة في المحرم غداذ جمعة بالرقة، وقيل إنه توفي في شهر رمضان سنة اثنتين وتسعين ومائة، رحمه الله تعالى.

ولما بلغ الرشيد موته قال: أمري قريب من أمره، وكذا كان، فإنه توفي بطوس سنة ثلاث وتسعين ومائة ليلة السبت لثلاث خلون من جمادى الآخرة، وقيل النصف منه، وقيل ليلة الخميس النصف من جمادى الأولى، وقال ابن اللبان الفرضي: في شهر ربيع الآخر، مع اتفاقهم على السنة وقد تقدم أنه كان قرينه في الولادة أيضا وترتب في الخلافة ولده المين محمد والمأمون صاحب خراسان.

الفضل بن الربيع

أبو العباس الفضل بن الربيع بن يونس بن محمد بن عبد الله بن أبي فروة، واسمه كيسان، مولى عثمان بن عفان، رضي الله عنه، وقد تقدم ذكر أبيه في حرف الراء وشيء من أخباره مع المنصور أبي جعفر، فلما آل الأمر إلى الرشيد واستوزر البرامكة، كان الفضل بن الربيع يروم التشبه بهم ومعارضتهم، ولم يكن له من القدرة ما يدرك به اللحاق بهم، فكان في نفسه منهم إحن وشحناء، قال عبيد الله بن سليمان بن وهب: إذا أراد الله تعالى هلاك قوم وزوال نعمتهم جعل لذلك أسبابا، فمن أسباب زوال أمر البرامكة تقصيرهم بالفضل بن الربيع وسعي الفضل بهم وتمكنه من المجالسة مع الرشيد فأوغر قلبه عليهم ومالأه على ذلك كاتبهم إسماعيل بن صبيح حتى كان ما كان.

ويحكى أن الفضل المذكور دخل يوما على يحيى بن خالد البرمكي، وقد جلس لقضاء حوائج الناس، وبين يديه ولده جعفر يوقع في القصص، فعرض الفضل عليه عشر رقاع للناس، فتعلل يحيى في كل رقعة بعلة ةلم يوقع في شيء منهاألبتة، فجمع الفضل الرقاع وقال: ارجعن خائبات خاسئات، ثم خرج وهو يقول:

عسى وعسى يثني الزمان عنانه بتصريف حال والزمان عثور

فتقضى لبانات وتشفى حسائف وتحدث من بعد الأمور أمور

فسمعه يحيى وهو ينشد ذلك، فقال له: عزمت عليك يا أبا العباس إلا رجعت، فرجع فوقع له في جميع الرقاع. ثم ما كان إلا القليل حتى نكبوا على يده وتولى بعدهم وزارة الرشيد، وفي ذلك يقول أبو نواس وقيل أبو حزرة:

ما رعى الدهر آل برمك لما أن رمى ملكهم بأمر فظيع

إن دهرا لم يرع عهدا ليحيى غير راع ذمام آل الربيع

وتنازع يوما جعفر بن يحيى والفضل بن الربيع بحضرة الرشيد، فقال جعفر للفضل: يا لقيط، إشارة إلى ما كان يقال عن أبيه الربيع: إنه لا يعرف نسبه وأبوه، حسبما ذكرناه في ترجمته، فقال الفضل: اشهد يا أمير المؤمنين، فقال جعفر للرشيد: تراه عند من يقيمك هذا الجاهل شاهدا يا أمير المؤمنين، وأنت حاكم الحكام.

ومات الرشيد والفضل مستمر على وزارته وكان في صحبة الرشيد، فقرر الأمور للأمين محمد بن الرشيد، ولم يعرج على المأمون وهو بخراسان، ولا التفت إليه، فعزم المأمون على إرسال طائفة من عسكره لأن يعترضوه في طريقه لما انفصل عن موضع وفاة الرشيد، وهو طوس حسبما ذكرته في ترجمة

الفضل ابن يحيى البرنمي، فأشار عليه وزيره الفضل بن سهل أن لا يعترض له، وخاف عاقبته.
ثم إن الفضل بن الربيع خاف من المأمون إن انتهت الخلافة إليه، فزين للأمين أن يخلع المأمون من ولاية العهد، ويجعل ولي عهده موسى بن الأمين، وحصلت الوحشة بين الأخوين إلى أن سير المأمون جيشا من خراسان مقدمه طاهر بن الحسين المقدم ذكره بإشارة وزيره الفضل بن سهل، وأخرج الأمين من بغداد جيشا بإشارة وزيره الفضل بن الربيع المذكور، مقدمه علي بن عيسى ابن ماهان، فالتقيا، وقتل علي بن عيسى، وذلك في سنة أربع وتسعين ومائة.
ثم اضطربت أحوال الأمين وقويت شوكة المأمون، ولما رأى الفضل ابن الربيع الأمور مختلة استتر في رجب سنة ست وتسعين ومائة، ثم ظهر لما ادعى إبراهيم بن المهدي الخلافة ببغداد، كما ذكرته في ترجمته، واتصل به ابن الربيع، فلما اختل حال إبراهيم استتر ابن الربيع ثانيا، وشرح ذلك يطول. وخلاصته أن طاهر بن الحسين سأل المأمون الرضا عنه، فأدخله عليه، وقيل غير ذلك، إلا أنه لم يزل بطالا إلى أن مات، ولم يكن له في دولة المأمون حظ، والله أعلم.
وكتب إليه أبو نواس يعزيه في الرشيد، ويهنئه بولاية ولده الأمين:

تعز أبا العباس عن خير هالك ... بأكرم حي كان أو هو كائن
حوادث أيام تدور صروفها ... لهن مساو مرة ومحاسن
وفي الحي بالميت الذي غيب الثرى ... فلا أنت مغبون ولا الموت غابن

وفيه أيضا قال أبو نواس من جملة أبيات:

وليس لله بمستنكر ... أن يجمع العالم في واحد

قال أبو بكر الصولي: ولقد أخذ أحمد بن يوسف الكاتب هذا المعنى وزاد عليه، وكتبه إلى بعض إخوانه، وقد ماتت له ببغاء، وله أخ كثير التخلف يسمى عبد الحميد:

أنت تبقى ونحن طرا فداكا ... أحسن الله ذو الجلال عزاكا
فلقد جل خطب دهر أتاكا ... بمقادير أتلفت ببغاكا
عجبا للمنون كيف أتتها ... وتخطت عبد الحميد أخاكا
كان عبد الحميد أصلح للمو ... ت من الببغا وأولى بذاكا
شملتنا المصيبتان جميعا ... فقدنا هذه ورؤية ذاكا

وقد تقدم في ترجمة ابن الرومي ذكر المقطوعين المقولين في الوزير أبي القاسم عبيد الله وولديه الحي والميت، وذلك المعنى مأخوذ من هذه الأبيات وأبو نواس هو الذي فتح لهم الباب، ومنه أخذ الباقون، وإن كان بينهم مغايرة ما لكن المادة واحدة.
وكانت وفاة الفضل بن الربيع في ذي القعدة، سنة ثمان ومائتين وسنة ثمان وستون سنة، وقيل في شهر ربيع الآخر، رحمه الله تعالى، وفيه يقول أبو نواس أبياته الدالية التي فيها والخير عادة.

الفضل بن سهل

أبو العباس الفضل بن سهل السرخسي أخو الحسن بن سهل – وقد تقدم ذكره في حرف الحاء –؛ أسلم على يد المأمون في سنة تسعين ومائة، وقيل إن أباه سهلا أسلم على يد المهدي، والله أعلم، فوزر للمأمون واستولى عليه حتى ضايقه في جارية أراد شراءها.

ولما عزم جعفر البرمكي على استخدام الفضل للمأمون، وصفه يحيى بحضرة الرشيد، فقال له الرشيد: أوصله إلي، فلما وصل إليه أدركته حيرة فسكت، فنظر الرشيد إلى يحيى نظر منكر لاختياره، فقال ابن سهل: يا أمير المؤمنين، إن من أعدل الشواهد على فراهة المملوك أن يملك قلبه هيبة سيده، فقال الرشيد: لئن كنت سكت لتصوغ هذا الكلام فلقد أحسنت، وإن كان بديهة إنه لأحسن وأحسن، ثم لم يسأله بعد ذلك عن شيء إلا أجابه بما يصدق وصف يحيى له.

وكان فيه فضائل، وكان يلقب بذي الرياستين لأنه تقلد الوزارة والسيف.

وكان يتشيع، وكن من اخبر الناس بعلم النجامة، وأكثرهم إصابة في أحكامه. حكى أبو الحسين علي بن أحمد السلامي في تاريخ ولاة خراسان: أن طاهر بن الحسين، المقدم ذكره، لما عزم المأمون على إرساله إلى محاربة أخيه محمد بن الأمين نظر الفضل بن سهل في مسألته، فوجد الدليل في وسط السماء، وكان ذا يمينين، فأخبر المأمون بأن طاهرا يظفر بالأمين ويلقب بذي اليمينين،فتعجب المأمون من إصابة الفضل، ولقب طاهرا بذلك، وولع بالنظر في علم النجوم.

وقال السلامي أيضا: ومما أصاب الفضل بن سهل فيه من أحكام النجوم أنه اختار لطاهر بن الحسين حين سمي للخروج إلى الأمين وقتا، فعقد فيه لواءه وسلمه إليه، ثم قال له: قد عقدت لك لواء لا يحل خمسا وستين سنة، فكان بين خروج طاهر بن الحسين إلى وجه علي بن عيسى بن هامان، مقدم جيش الأمين، وقبض يعقوب بن الليث الصفار على محمد بن طاهر بن عبد الله بن طاهر ابن الحسين بنيسابور خمس وستون سنة. وكان قبض يعقوب بن الليث على محمد المذكور يوم الأحد لليلتين خلتا من شوال سنة تسع وخمسين ومائتين.

ومن إصاباته أيضا ما حكم به على نفسه، وذلك أن المأمون طالب والدة الفضل بما خلفه، فحملت إليه سلة مختومة مقفلة، ففتح قفلها، فإذا صندوق صغير مختوم، وإذا فيه درج، وفي الدرج رقعة من حرير مكتوب فيها بخطه: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما قضى الفضل بن سهل على نفسه، قضى أنه يعيش ثمانيا وأربعين سنة، ثم يقتل ما بين ماء ونار فعاش هذه المدة، ثم قتله غالب خال المأمون في حمام بسرخس – كما سيأتي إن شاء الله تعالى، وله غير ذلك إصابات كثيرة.

ويحكى أنه قال يوما لثمامة بن الأشرس: ما أدري ما أصنع بطلاب الحاجات فقد كثروا علي وأضجروني، فقال له: زل عن موضعك، وعلي أن لا يلقاك أحد منهم، فقال: صدقت، وانتصب لقضاء أشغالهم.

وكان من مرض بخراسان وأشفى على التلف، فلما أصاب العافية جلس للناس، فدخلوا عليه وهنوه بالسلامة، وتصرفوا في الكلام، فلما فرغوا من كلامهم أقبل على الناس وقال: إن في العلل لنعما لا ينبغي للعقلاء أن يجهلوها: تمحيص الذنوب، والتعرض لثواب الصبر، والإيقاظ من الفغلة، والإذكار بالنعمة في حال الصحة، واستدعاء التوبة، والحض على الصدقة.

زقد مدحه جماعة من اعيان الشعراء، وفيه يقول إبراهيم بن العباس الصولي، وقد سبق ذكره:

لفضل بن سهل يد ... تقاصر عنها المثل

فنائلها للغنى ... وسطوتها للأجل

وباطنها للندى ... وظاهرها للقبل

ومن ها هنا أخذ ابن الرومي قوله في الوزير القاسم بن عبيد الله من جملة أبيات:

أصبحت بين خصاصة وتجمل ... والحر بينهما يموت هزيلا

فامدد إلي يدا تعود بطنها ... بذل النوال وظهرها التقبيلا

وفيه يقول أبو محمد عبد الله بن محمد، وقيل ابن أيوب التميمي:

لعمرك ما الأشراف في كل بلدة ... وإن عظموا للفضل إلا صنائع

ترى عظماء الناس للفضل خشعا إذا ما بدا، والفضل لله خاشع
تواضع لما زاده الله رفعة وكل جليل عنده متواضع

وقال فيه مسلم بن الوليد الأنصاري المعروف بصريع الغواني من جملة قصيدة:

أقمت خلافة وأزلت أخرى جليل ما أقمت وما أزلتا

وحكى الجهشياري أن الفضل بن سهل أصيب بابن له يقال له العباس، فجزع عليه جزعا شديدا، فدخل عليه إبراهيم بن موسى بن جعفر العلوي وأنشده:

خير من العباس أجرك بعده والله خير منك للعباس

فقال: صدقت، ووصله وتعزى له.

ولما ثقل أمره على المأمون دس عليه خاله غالبا المسعودي الأسود، فدخل عليه الحمام بسرخس، ومعه جماعة، وقتلوه مغافصة، وذلك يوم الخميس ثاني شعبان سنة اثنتين ومائتين، وقيل ثلاث ومائتين، وعمره ثمان وأربعون سنة، وقيل إحدى وأربعون سنة وخمسة أشهر، والله أعلم.

وذكر الطبري في تاريخه أنه كان عمره ستين سنة، وقيل سنة اثنتين ومائتين يوم الجمعة لليلتين خلتا من شعبان. قلت: وهو الصحيح.

ورثاه مسلم بن الوليد ودعبل وإبراهيم بن العباس، رحمه الله تعالى. ومات والده سهل في سنة اثنتين أيضا، بعد قتل ابنه بقليل. وعاشت أمه وأم أخيه الحسن حتى أدركت عرس بوران على المأمون.

ولما قتل مضى المأمون إلى والدته ليعزيها، فقال لها: لا تأسي عليه لا تحزني لفقده، فإن الله قد أخلف عليك مني ولدا يقوم مقامه، فمهما كنت تنبسطين إليه فيه فلا تنقبضي عني منه، فبكت ثم قالت: يا أمير المؤمنين، وكيف لا أحزن على ولد أكسبني ولدا مثلك؟.

والسرخسي: بفتح السين المهملة والراء وسكون الخاء المعجمة وبعدها سين مهملة، هذه النسبة إلى سرخس، وهي مدينة بخراسان.

الفضل بن مروان

أبو العباس الفضل بن مروان بن ماسرخس بن مروان بن ماسرخس وزير المعتصم، وهو الذي أخذ له البيعة ببغداد وكان المعتصم يومئذ ببلاد الروم، فإنه توجه إليها صحبة أخيه المأمون، فاتفق موت المأمون هناك، وتولى المعتصم بعده، واعتد له المعتصم بها يدا عنده وفوض إليه الوزارة يوم دخوله بغداد، وهو يوم السبت مستهل شهر رمضان سنة ثمان عشرة ومائتين، وخلع عليه، ورد أموره كلها إليه، فغلب عليه بطول خدمته، وتربيته إياه واستقل بالأمور، وكذلك كان في أواخر ولاية المأمون، فإنه غلب عليه كثيرا. وكان نصراني الأصل قليل المعرفة بالعلم حسن المعرفة بخدمة الخلفاء، وله ديوان رسائل وكتاب المشاهدات والأخبار التي شاهدها، ومن كلامه: مثل الكتاب كالدولاب إذا تعطل انكسر. وكان قد جلس يوما لقضاء أشغال الناس ورفعت إليه قصص العامة، فرأى في جملتها رقعة مكتوبا فيها:

تفرعنت يا فضل بن مروان فاعتبر فقبلك كان الفضل والفضل والفضل
ثلاثة أملاك مضوا لسبيلهم أبادتهم الأقياد والحبس والقتل
وإنك قد أصبحت في الناس ظالما ستودي كما أودى الثلاثة من قبل

أراد الفضول الثلاثة الذين تقدم ذكرهم، وهم: الفضل بن يحيى البرمكي، والفضل بن الربيع، والفضل بن سهل.

وذكر المرزباني في معجم الشعراء هذه الأبيات للهيثم بن فراس السامي، من بني سامة ابن لؤي، وكذا ذكرها الزمخشري في كتاب ربيع الأبرار.

ومثل هذه القضية ما جرى لأسد بن زريق الكاتب، فإنه جاء إلى باب أبي عبد الله الكوفي لما قلد مكان أبي جعفر بن شيرزاد، وانتقل إلى داره، وجلس في دسته، فمنعه البواب من الدخول إليه، فرجع إلى داره وكتب إليه:

إنا رأينا حجابا منك قد عرضا فلا يكن ذلنا فيه لك الغرضا

اسمع مقالي ولا تغضب علي فما أبغي بذلك لا مالا ولا عرضا

الشكر يبقى ويفنى ما سواه، وكم سواك قد نال ملكا فانقضى ومضى

في هذه الدار في هذا الرواق على هذا السرير رأيت العز وانقرضا

فلما وقف أبو عبد الله على هذه الأبيات استدعاه واعتذر إليه وقضى حاجته.

وقد سبق نظير هذا في ترجمة عبد الملك بن عمير، وما جرى له مع عبد الملك ابن مروان الأموي لما حضر بين يديه رأس مصعب بن الزبير، فلينظر هناك.

ثم إن المعتصم تغير على الفضل بن مروان، وقبض عليه في رجب سنة إحدى وعشرين ومائتين، ولما قبض عليه قال: عصى الله في طاعتي فسلطني عليه، ثم خدم بعد ذلك جماعة من الخلفاء، ثم توفي في شهر ربيع الآخر سنة خمسين ومائتين، وعمره ثمانون سنة، رحمه الله تعالى.

وقال في كتاب الفهرست: عاش ثلاثا وتسعين سنة، والله أعلم بالصواب.

وقال الطبري: كانت نكبته في صفر من السنة المذكورة. وقال الصولي: أخذ المعتصم من داره لما نكبه ألف ألف دينار، وأخذ أثاثا وآنية بألف ألف دينار، وحبسه خمسة أشهر، ثم أطلقه وألزمه بيته، واستوزر أحمد بن عمار.

ومن كلامه: لا تتعرض لعدوك وهو مقبل، فإن إقباله يعينه عليك، ولا تتعرض له وهو مدبر، فإن إدباره يكفيك أمره.

الفضيل بن عياض

أبو علي الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر التميمي الطالقاني الأصل، الفنديني، الزاهد المشهور أحد رجال الطريقة، كان في أول أمره شاطرا يقطع الطريق بين أبيورد وسرخس، وكان سبب توبته أنه عشق جارية فبينا هو يرتقي الجدران إليها سمع تالياً يتلو: "ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله"، فقال: يارب قد آن، فرجع، وآواه الليل إلى خربة فإذا فيها رفقة، فقال بعضهم: نرتحل، وقال بعضهم: حتى نصبح، فإن فضيلا على الطريق يقطع علينا، فتاب الفضيل وآمنهم.

وكان من كبار السادات، حدث سفيان بن عيينة قال: دعانا هارون الرشيد فدخلنا عليه، ودخل الفضيل آخرنا مقنعا رأسه بردائه، فقال لي: يا سفيان، وأيهم أمير المؤمنين؟ فقلت: هذا، وأومأت إلى الرشيد، فقال له: يا حسن الوجه، أنت الذي أمر هذه الأمة في يدك وعنقك؟ لقد تقلدت أمرا عظيما، فبكى الرشيد، ثم أتي كل رجل منا ببدرة، فكل قبلها إلا الفضيل، فقال الرشيد: يا أبا علي إن لم تستحل أخذها فأعطها ذا دين أو أشبع بها جائعا أو اكس بها عاريا فاستعفاه منها، فلما خرجنا قلت: يا أبا علي، أخطأت، ألا أخذتها وصرفتها في أبواب البر؟ فأخذ بلحيتي ثم قال: يا أبا محمد، أنت فقيه البلد والمنظور إليه وتغلط مثل هذا الغلط؟ لو طابت لأولئك لطابت لي.

ويحكى أن الرشيد قال له يوما: ما أزهدك! فقال الفضيل: أنت أزهد مني، قال: وكيف ذلك؟ قال: لأني أزهد في الدنيا، وأنت تزهد في الآخرة، والدنيا فانية والآخرة باقية.

وذكر الزمخشري في كتاب ربيع الأبرار في آخر باب الطعام أن الفضيل قال يوما لأصحابه: ما تقولون في رجل في كمه تمر يقعد على رأس الكنيف فيطرحه فيه تمرة تمرة؟ قالوا: هو مجنون، قال: فالذي يطرحه في بطنه حتى يحشوه فهو أجن منه، فإن هذا الكنيف يملأ من هذا الكنيف.

ومن كلام الفضيل: إذا أحب الله عبدا أكثر غمه، وإذا أبغض عبدا وسع عليه دنياه. وقال: لو أن الدنيا بحذافيرها عرضت علي على أن لا أحاسب عليها لكنت أتقذرها كما يتقذر أحدكم الجيفة إذا مر بها أن تصيب ثوبه. وقال: ترك العمل لأجل الناس هو الرياء، والعمل لأجل الناس هو الشرك. وقال: إني لأعصى الله تعالى فأعرف ذلك في خلق حماري وخادمي. وقال: لو كانت لي دعوة مستجابة لم أجعلها إلا في إمام، لأنه إذا صلح الإمام أمن البلاد والعباد.

وقال: لأن يلاطف الرجل أهل مجلسه ويحسن خلقه معهم خير له من قيام ليله وصيام نهاره.
وقال أبو علي الرازي: صحبت الفضيل ثلاثين سنة، ما رأيته ضاحكا ولا متبسما إلا يوم مات ابنه علي، فقلت له في ذلك، فقال: إن الله أحب أمرا فأحببت ذلك الأمر، وكان ولده المذكور شابا سريا من كبار الصالحين. وهو معدود في جملة من قتلهم محبة الباري سبحانه وتعالى، وهم مذكورون في جزء سمعناه قديما ولا أذكر الآن من مؤلفه.
وكان عبد الله بن المبارك رضي الله عنه يقول: إذا مات الفضيل ارتفع الحزن من الدنيا.
ومناقب الفضيل كثيرة. ومولده بأبيورد، وقيل بسمرقند، ونشأ بأبيورد وقدم الكوفة وسمع الحديث بها، ثم انتقل إلى مكة شرفها الله تعالى وجاور بها إلى أن مات في المحرم سنة سبع وثمانين ومائة، رضي الله عنه.
والطالقاني: نسبة إلى طالقان خراسان، وقد تقدم الكلام عليها في ترجمة الصاحب بن عباد في حرف الهمزة.
والفنديني: بضم الفاء وسكون النون وكسر الدال المهملة وسكون الياء المثناة من تحتها وفي آخرها نون، هذه النسبة إلى فندين، وهي من قرى مرو.
وأبيورد: بفتح الهمزة وكسر الباء الموحدة وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح الواو وسكون الراء وبعدها دال مهملة، بليدة بخراسان.
وسمرقند: بفتح السين المهملة والميم وسكون الراء وفتح القاف وسكون النون وبعدها دال مهملة، أعظم مدينة بما وراء النهر، قال ابن قتيبة في كتاب المعارف في ترجمة شمر بن أفريقش أحد ملوك اليمن: إنه خرج في جيش عظيم ودخل أرض العراق، ثم توجه يريد الصين فأخذ على فارس وسجستان وخراسان وافتتح المدائن والقلاع، وقتل وسبى، ودخل مدينة الصغد فهدمها فسميت شمركند أي: شمر أخربها، لأن كند بالعجمي معناه بالعربي أخرب، ثم عربها الناس فقالوا: سمرقند، ثم أعيدت عمارتها، فبقي عليها ذلك الاسم.

عضد الدولة

أبو شجاع فناخسرو، الملقب عضد الدولة بن ركن الدولة أبي علي الحسن ابن بويه الديلمي – وقد تقدم تمام نسبه في ترجمة عمه معز الدولة أحمد في حرف الهمزة، فليطلب هناك–، ولما مرض عمه عماد الدولة بفارس أتاه أخره ركن الدولة واتفقا على تسليم فارس إلى أبي شجاع فناخسرو بن ركن الدولة، ولم يكن قبل ذلك يلقب بعضد الدولة، فتسلمها بعد عمه، ثم تقلب بذلك.
وقد تقدم أيضاً ذكر والده وعمه الأكبر عماد الدولة أبي الحسن علي وابن عمه عز الدولة بختيار بن معز الدولة، وهؤلاء كلهم – مع عظم شأنهم وجلالة أقدارهم – لم يبلغ أحد منهم ما بلغه عضد الدولة من سعة المملكة والاستيلاء على الملوك وممالكهم، فإنه جمع بين مملكة المذكورين كلهم، وقد ذكرت في ترجمة كل واحد منهم ما كان له من المماليك، وضم إلى ذلك الموصل وبلاد الجزيرة وغير ذلك، ودانت له البلاد والعباد ودخل في طاعته كل صعب القياد، وهو أول من خوطب بالملك في الإسلام، وأول من خطب بله على المنابر ببغداد بعد الخليفة، وكان من جملة ألقابه تاج الملة ولما صنف له أبو إسحاق الصابي كتاب التاجي في أخبار بني بويه أضافه إلى هذا اللقب، وقد تقدم خبر هذا الكتاب في ترجمته.
وكان فاضلا محبا للفضلاء مشاركا في عدة فنون، وصنف له الشيخ أبو علي الفارسي كتاب الإيضاح والتكملة في النحو – وقد سبق ذكره في ترجمته – وقصده فحول الشعراء في عصره، ومدحوه بأحسن المدائح، فمنهم أبو الطيب المتنبي، ورد عليه وهو بشيراز في جمادى الأولى سنة أربع وخمسين وثلثمائة، وفيه يقول من جملة قصيدته المشهورة الهائية:

وقد رأيت الملوك قاطبة	وسرت حتى رأيت مولاها
ومن مناياهم براحته	يأمرها فيهم وينهاها
أبا شجاع بفارس عضد ال	دولة فناخسرو شهنشاها
أساميا لم تزده معرفة	وإنما لذة ذكرناها

وهذه القصيدة أول شيء أنشده، ثم أنشده في هذا الشهر قصيدته النونية التي ذكر فيها شعب بوان، ومنها قوله:

يقول بشعب بوان حصاني أعن هذا يسار إلى الطعان

أبوكم آدم سن المعاصي وعلمكم مفارقة الجنان

فقلت :إذا رأيت أبا شجاع سلون عن العباد وذا المكان

فإن الناس والدنيا طريق إلى من ماله في الناس ثاني

ومدحه بعد ذلك بعدة قصائد، ثم أنشده قصيدته الكافية يودعه فيها ويعده بالعود إلى حضرته، وذلك صدر شعبان من السنة المذكورة، وهي آخر شعر المتنبي فإنه قتل في عوده من عنده كما سبق في ترجمته، ومن جملة هذه القصيدة:

أروح وقد ختمت على فؤادي بحبك أن يحل به سواكا

وقد حملتني شكرا طويلا ثقيلا لا أطيق به حراكا

أحاذر أن يشق على المطايا فلاتمشي بنا إلا سواكا

لعل الله يجعله رحيلا يعين على الإقامة في ذراكا

فلو أني استطعت خفضت طرفي فلم أبصر به حتى أراكا

وكيف الصبر عنك وقد كفاني نداك المستفيض وما كفاكا

وما أحسن قوله فيها:

ومن أعتاض عنك إذا افترقنا وكل الناس زور ما خلاكا

وما انا غير سهم في هواء يعود ولم يجد فيه امتساكا

وقصده أيضا أبو الحسن محمد بن عبد الله السلامي–الآتي ذكره إن شاء الله تعالى–وكان عين شعراء العراق، وأنشده قصيدته البديعة التي منها:

إليك طوى عرض البسيطة جاعل قصارى المطايا أن يلوح لها القصر

فكنت وعزمي في الظلام وصارمي ثلاثة أشباه كما اجتمع النسر

وبشرت آمالي بملك هو الورى ودار هي الدنيا ويوم هو الدهر

وعلى الحقيقة هذا الشعر هو السحر الحلال كما يقال، وقد أخذ هذا المعنى القاضي أبو بكر أحمد الأرجاني – المقدم ذكره – وعمل:

يا سائلي عنه لما جئت أمدحه هذا هو الرجل العاري من العار

كم من شنوف لطاف من محاسنه علقن منه على آذان سمار

لقيته فرأيت الناس في رجل والدهر في ساعة والأرض في دار

ولكن أين الثريا من الثرى؟ وهذا المعنى موجود في الشطر الأخير من بيت المتنبي وهو:

هي الغرض الأقصى ورؤيتك المنى ومنزلك الدنيا وانت الخلائق

ولكنه ما استوفاه، فإنه ما تعرض إلى ذكر اليوم الذي جعله السلامي هو الدهر، فليس له طلاوة بيت السلامي.

رجعنا إلى ذكر عضد الدولة: كتب إليه أبو منصور أفتكين التركي متولي دمشق كتابا مضمونه أنه الشام قد صفا وصار في يدي، وزال عنه حكم

صاحب مصر، وإن قويتني بالأموال والعدد حاربت القوم في مستقرهم، فكتب عضد الدولة جوابه هذه الكلمات، وهي متشابهة في الخط لا تقرأ إلا بعد الشكل والنقط والضبط، وهي غرك عزك فصار قصار ذلك ذلك، فاخش فاحش فعلك فعلك بهذا تهدا ولقد أبدع فيها كل الإبداع.

وكان أفتكين المذكور مولى معز الدولة بن بويه فتغلب على دمشق وخرج على العزيز العبيدي صاحب مصر، وقصده بنفسه والتقى جيشاهما، وجرت مقتلة عظيمة بينهما وانكسر أفتكين وهرب، وقطع عليه الطريق دغفل بن الجراح البدوي وحمله إلى العزيز وفي عنقه حبل، فأطلقه وأحسن إليه، وأقام يسيرا، ومات سنة اثنتين وسبعين وثلثمائة، رحمه الله تعالى، يوم الثلاثاء لسبع خلون من رجب.

وكانت لعضد الدولة أشعار، فمن ذلك ما أورده له أبو منصور الثعالبي في كتاب يتيمة الدهر وقال: اخترت من قصيدته التي فيها البيت الذي لم يفلح بعده أبياتا، وهي:

ليس شرب الراح إلا في المطر	وغناء من جوار في السحر
غانيات سالبات للنهى	ناعمات في تضاعيف الوتر
مبرزات الكأس من مطلعها	ساقيات الراح من فاق البشر
عضد الدولة وابن ركنها	ملك الأملاك غلاب القدر

فيحكى عنه أنه لما احتضر لم يكن لسانه ينطق إلا بتلاوة: "ما أغنى عني ماليه هلك عني سلطانيه"، ويقال إنه ما عاش بعد هذه الأبيات إلا قليلا، وتوفي بعلة الصرع في يوم الاثنين ثامن شوال سنة اثنتين وسبعين وثلثمائة ببغداد، ودفن بدار الملك بها، ثم نقل إلى الكوفة ودفن بمشهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وعمره سبع وأربعون سنة وأحد عشر شهرا وثلاثة أيام، رحمه الله تعالى.

والبيمارستان العضدي ببغداد منسوب إليه، وهو في الجانب الغربي، وغرم عليه مالا عظيما، وليس في الدنيا مثل ترتيبه، وفرغ من بنائه سنة ثمان وستين وثلثمائة، وأعد له من الآلات ما يقصر الشرح عن وصفه.

وهو الذي أظهر قبر علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالكوفة، وبنى عليه المشهد الذي هناك، وغرم عليه شيئا كثيرا، وأوصى بدفنه فيه، وللناس في هذا القبر اختلاف كثير، حتى قيل إنه قبر المغيرة بن شعبة الثقفي، فإن عليا رضي الله عنه لا يعرف قبره، وأصح ما قيل فيه: إنه مدفون بقصر الامارة بالكوفة، والله أعلم.

وفناخسرو: بفتح الفاء وتشديد النون وبعد الألف خاء معجمة مضمومة وسين ساكنة وبعدها راء مضمومة ثم واو.

وشعب بوان: بكسر الشين المعجمة وسكون العين المهملة وبعدها باء موحدة، ثم باء ثانية مفتوحة بعدها واو مشددة وبعد الألف نون، وهو موضع عند شيراز كثير الأشجار والمياه وهو منسوب إلى بوان بن إيران بن الأسود ابن سام بن نوح عليه السلام قال أبو بكر الخوارزمي: مستنزهات الدنيا أربعة مواضع: غوطة دمشق ونهر الابلة وشعب بوان وصغد سمرقند، وأحسنها غوطة دمشق، والله أعلم.

القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق

أبو محمد القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، ونسبه معروف فلا حاجة إلى رفعه، كان من سادات التابعين، وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة، وقد تقدم ذكر ستة منهم، وكان من أفضل أهل زمانه، روى عن جماعة من الصحابة، رضي الله عنهم، وروى عنه جماعة من كبار التابعين. قال يحيى بن سعيد: ما أدركنا أحدا نفضله على القاسم بن محمد. وقال مالك: كان القاسم من فقهاء هذه الأمة. وقال محمد بن إسحاق: جاء رجل إلى القاسم بن محمد فقال: أنت أعلم أم سالم، فقال: ذاك مبارك سالم، قال ابن إسحاق: كره أن يقول هو أعلم مني فيكذب، أو يقول أنا أعلم منه فيزكي نفسه، وكان القاسم أعلمهما، وكان القاسم بن محمد يقول في سجوده: اللهم اغفر لأبي ذنبه في عثمان.

وقد تقدم في ترجمة زين العابدين علي بن الحسين رضي الله عنهما أنهما كانا ابني خالة، وأن القاسم بن محمد والدته ابنة يزدجرد آخر ملوك الفرس، وكذلك زين العابدين وسالم بن عبد الله بن عمر، والقصة مستوفاة من هناك.

وتوفي سنة إحدى أو اثنتين ومائة، وقيل سنة ثمان، وقيل اثنتي عشرة ومائة بقديد، فقال: كفنوني في ثيابي التي كنت أصلي فيها قميصي وإزاري وردائي، فقال ابنه: يا أبت ألا نزيد ثوبين، فقال: هكذا كفن أبو بكر في ثلاثة أثواب، والحي أحوج إلى الجديد من الميت، وكان عمره سبعين سنة أو اثنتين وسبعين سنة، رضي الله عنه.

وقديد: بضم القاف وفتح الدال المهملة وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها دال مهملة، وهو متزل بين مكة والمدينة.

أبو عبيد القاسم بن سلام

أبو عبيد القاسم بن سلام، بتشديد اللام، كان أبوه عبدا روميا لرجل من أهل هراة، واشتغل أبو عبيد بالحديث والأدب والفقه، وكان ذا دين وسيرة جميلة ومذهب حسن وفضل بارع.

وقال القاضي أحمد بن كامل: كان أبو عبيد فاضلا في دينه وعلمه، ربانيا متفننا في أصناف علوم الإسلام من القراءات والفقه والعربية والأخبار، حسن الرواية صحيح النقل، ولا أعلم احدا من الناس طعن عليه في شيء من أمر دينه.

قال إبراهيم الحربي: كان أبو عبيد كأنه جبل نفخ فيه الروح يحسن كل شيء. وولي القضاء بمدينة طرسوس ثماني عشرة سنة، وروى عن أبي زيد الأنصاري والأصمعي وأبي عبيدة وابن الأعرابي والكسائي والفراء وجماعة كثيرة غيرهم، وروى الناس من كتبه المصنفة بضعة وعشرين كتابا في القرآن الكريم والحديث وغريبه والفقه وله الغريب المصنف والأمثال ومعاني الشعر وغير ذلك من الكتب النافعة.

ويقال إنه أول من صنف في غريب الحدي. وانقطع إلى عبد الله بن طاهر مدة، ولما وضع كتاب الغريب عرضه على عبد الله بن طاهر، فاستحسنه وقال: إن عقلا بعث صاحبه على عمل هذا الكتاب حقيق ألا يحوج إلى طلب المعاش، وأجري عليه عشرة آلاف درهم في كل شهر. وقال محمد بن وهب المسعري: سمعت أبا عبيد يقول: كنت في تصنيف هذا الكتاب أربعين سنة، وربما كنت أستفيد الفائدة من أفواه الرجال فأصعها في موضعها من الكتاب، فأبيت ساهرا فرحا مني بتلك الفائدة، وأحدكم يجيئني فيقيم أربعة خمسة أشهر فيقول: قد أقمت كثيرا.

وقال الهلال بن العلاء الرقي: من الله تعالى على هذه الأمة بأربعة في زمانهم: بالشافعي تفقه في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبأحمد بن حنبل ثبت في محنة ولولا ذاك لكفر الناس، وبيحيى بن معين نفى الكذب عن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبأبي عبيد القاسم بن سلام فسر غريب الحديث ولولا ذاك لاقتحم الناس الخطأ.

وقال أبي بكر ابن الأنباري: كان أبو عبيد يقسم الليل أثلاثا فيصلي ثلثه وينام ثلثه ويضع الكتب ثلثه. وقال إسحاق بن راهويه: أبو عبيد أوسعنا علما وأكثرنا أدبا وأجمعنا جمعا، إنا نحتاج إلى أبي عبيد وأبو عبيد لا يحتاج إلينا. وقال ثعلب: لو كان أبو عبيد في بني إسرائيل لكان عجبا.

وكان يخضب بالحناء، أحمر الرأس واللحية، وكان له وقار وهيبة. وقدم بغداد فسمع الناس منه كتبه. ثم حج وتوفي بمكة، وقيل بالمدينة بعد الفراغ من الحج، سنة اثنتين او ثلاث وعشرين ومائتين، وقال البخاري: سنة أربع وعشرين، وزاد غيره: في المحرم، وقال الخطيب في تاريخ بغداد: بلغني أنه عاش سبعا وستين سنة، وذكر الحافظ ابن الجوزي أن مولده سنة خمسين ومائة. وقال أبو بكر الزبيدي في كتاب التقريظ: إن مولده سنة أربع وخمسين ومائة. وذكر أن أبا عبيد لما قضى حجه وعزم على الانصراف واكترى إلى العراق، رأى في الليلة التي عزم على الخروج في صبيحتها النبي صلى الله عليه وسلم في منامه وهو جالس وعلى رأسه قوم يحجبونه وناس يدخلون فيسلمون عليه ويصافحونه، قال: فكلما دنوت لأدخل منعت، فقلت لهم: لم لا تخلون بيني وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قالوا: لا والله لا تدخل إليه ولا تسلم عليه وأنت خارج غدا إلى العراق، فقت لهم: إني لا أخرج إذا، فأخذوا عهدي، ثم خلوا بيني وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدخلت وسلمت عليه وصافحني، فأصبحت ففسخت الكراء وسكنت بمكة، ولم يزل بها إلى الوفاة، ودفن في دور جعفر، وقيل إنه رأى المنام بالمدينة ومات بها بعد رحيل الناس عنها بثلاثة أيام، رحمه الله تعالى، ومولده بهراة.

وطرسوس: بفتح الطاء المهملة والراء وضم السين المهملة وسكون الواو وبعدها سين ثانية، وهي مدينة بساحل الشام عند السيس والمصيصة بناها المهدي ابن المنصور أبي جعفر في سنة ثمان وستين ومائة، على ما حكاه ابن الجزار في تاريخه.

ومن تصانيفه أيضا المقصور والممدود والقراءات والمذكر والمؤنث وكتاب النسب وكتاب الأحداث وأدب القاضي وعدد آي القرآن والأيمان والنذور والحيض وكتاب الأموال وغير ذلك، رحمه الله تعالى.

الحريري صاحب المقامات

أبو محمد القاسم بن علي بن محمد بن عثمان الحريري البصري الحرامي صاحب المقامات، كان أحد أئمة عصره، ورزق الحظوة التامة في عمل المقامات، واشتملت علي شيء كثير من كلام العرب: من لغاتها وأمثالها ورموز أسرار كلامها، ومن عرفها حق معرفتها استدل بها على فضل هذا الرجل وكثرة اطلاعه وغزارة مادته، وكان سبب وضعه لها ما حكاه ولده أبو القاسم عبد الله قال: كان أبي جالسا في مسجده ببني حرام فدخل شيخ ذو طمرين عليه أهبة السفر رث الحال فصيح الكلام حسن العبارة، فسألته الجماعة: من أين الشيخ؟ فقال: من سروج، فاستخبروه عن كنيته فقال: أبو زيد، فعمل أبي المقامة المعروفة بالحرامية، وهي الثامنة والأربعون، وعزاها إلى أبي زيد المذكور، واشتهرت فبلغ خبرها الوزير شرف الدين أبا نصر أنوشروان ابن خالد بن محمد القاشاني وزير الإمام المسترشد بالله، فلما وقف عليها أعجبته، وأشار على والدي أن يضم إليها غيرها، فأتمها خمسين مقامة، وإلى الوزير المذكور أشار الحريري في خطبة المقامات بقوله: فأشار من إشارته حكم، وطاعته غنم، إلى أن أنشئ مقامات أتلو فيها البديع، وإن لم يدرك الظالع شأو الضليع هكذا وجدته في عدة تواريخ، ثم رأيت في بعض شهور سنة ست وخمسين وستمائة بالقاهرة المحروسة نسخة مقامات وجميعها بخط مصنفها الحريري، وقد كتب بخطه أيضا على ظهرها: إنه صنفها للوزير جلال الدين عميد الدولة أبي علي الحسن بن أبي العز علي بن صدقة وزير المسترشد أيضا، ولا شك أن هذا أصح من الرواية الأولى لكونه بخط المصنف، وتوفي الوزير المذكور في رجب سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة، فهذا كان مستنده في نسبتها إلى أبي زيد السروجي.

وذكر القاضي الأكرم جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف الشيباني القفطي وزير حلب في كتابه الذي سماه إنباه الرواة على أنباه النحاه أن أبا زيد المذكور اسمه المطهر بن سلار، وكان بصيرا نحويا لغويا، صحب الحريري المذكور، واشتغل عليه بالبصرة وتخرج به، وروى عنه القاضي أبو الفتح محمد بن أحمد بن المندائي الواسطي ملحة الأعراب للحريري، وذكر أنه سمعها منه عن الحريري وقال: قدم علينا واسط في سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة، فسمعتها منه، وتوجه منها مصعدا إلى بغداد فوصلها وأقام بها مدة يسيرة وتوفي بها، رحمه الله تعالى وكذا ذكره السمعاني في الذيل والعماد في الخريدة وقال: لقبه فخر الدين، وتولى صدرية المشان، ومات بها بعد سنة أربعين وخمسمائة.

وأما تسمية الراوي لها بالحارث بن همام فإنما عنى به نفسه، هكذا وقفت عليه في بعض شروح المقامات، وهو مأخوذ من قوله صلى الله عليه وسلم كلكم حارث وكلكم همام فالحارث الكاسب، والهمام الكثير الاهتمام، وما من شخص إلا وهو حارث وهمام، لأن كل واحد كاسب ومهتم بأموره.

وقد اعتنى بشرحها خلق كثير: فمنهم من طول، ومنهم من اختصر.

ورأيت في بعض المجاميع أن الحريري لما عمل المقامات كان قد عملها أربعين مقامة، وحملها من البصرة إلى بغداد وادعاها، فلم يصدقه في ذلك جماعة من أدباء بغداد، وقالوا: إنها ليست من تصنيفه، بل هي لرجل مغربي من أهل البلاغة مات بالبصرة ووقعت أوراقه إليه فادعاها، فاستدعاه الوزير إلى الديوان وسأله عن صناعته، فقال: أنا رجل منشيء، فاقترح عليه إنشاء رسالة في واقعة عينها، فانفرد في ناحية من الديوان، وأخذ الدواة والورقة ومكث زمانا كثيرا فلم يفتح الله سبحانه عليه بشيء من ذلك، فقام وهو خجلان، وكان في جملة من أنكر دعواه في عملها أبو القاسم علي بن أفلح الشاعر – المقدم ذكره – فلما لم يعمل الحريري الرسالة التي اقترحها الوزير أنشد ابن أفلح، وقيل إن هذين البيتين لأبي محمد ابن أحمد المعروف بابن جكينا الحريمي البغدادي الشاعر المشهور:

شيخ لنا من ربيعة الفرس ينتف عثنونه من الهوس

أنطقه الله بالمشان كما رماه وسط الديوان بالخرس

وكان الحريري يزعم أنه من ربيعة الفرس، وكان مولعا بنتف لحيته عن الفكرة، وكان يسكن في مشان البصرة، فلما رجع إلى بلده عمل عشر مقامات أخر وسيرهن، واعتذر من عيه وحصره في الديوان بما لحقه من المهابة.

وللحريري تواليف حسان منها درة الغواص في أوهام الخواص ومنها ملحة الاعراب المنظومة في النحو، وله أيضا شرحها، وله ديوان رسائل وشعر كثير غير شعره الذي في المقامات، فمن ذلك قوله وهو معنى حسن:

قال العواذل ما هذا الغرام به ... أما ترى الشعر في خديه قد نبتا

فقلت والله لو أن المفند لي ... تأمل الرشد في عينيه ما ثبتا

ومن أقام بأرض وهي مجدبة ... فكيف يرحل عنها والربيع أتى

وذكر له العماد الكاتب في الخريدة:

كم ظباء بحاجر ... فتنت بالمحاجر

ونفوس نفائس ... خدرت بالمخادر

وتثن لخاطر ... هاج وجدا لخاطري

وعذار لأجله ... عاذلي عاد عاذري

وشجون تضافرت ... عند كشف الضفائر

وله قصائد استعمل فيها التجنيس كثيرا.

ويحكى أنه كان دميما قبيح المنظر، فجاءه سخص غريب يزوره ويأخذ عنه شيئا، فلما رآه استزرى شكله، ففهم الحريري ذلك منه، فلما التمس منه أن يملي عليه قال له: اكتب:

ما أنت أول سار نحره قمر ... ورائد أعجبته خضرة الدمن

فاختر لنفسك غيري إنني رجل ... مثل المعيدي فاسمع بي ولا ترني

فخجل الرجل منه وانصرف.

وكانت ولادة الحريري في سنة ست وأربعين وأربعمائة، وتوفي سنة ست عشرة، وقيل خمس عشرة وخمسمائة بالبصرة، في سكة بني حرام وخلف ولدين، وقال أبو منصور الجواليقي: أجازني المقامات نجم الدين عبد الله وقاضي قضاة البصرة ضياء الإسلام عبيد الله عن أبيهما منشئها.

نسبته بالحراني إلى هذه السكة، رحمه الله تعالى، وهي بفتح الحاء المهملة والراء وبعدها ألف بعده ميم، وبنو حرام: قبيلة من العرب سكنوا في هذه السكة فنسبت إليهم.

والحريري: نسبة إلى الحرير وعمله أو بيعه.

والمشان: بفتح الميم والشين المعجمة وبعد الألف نون، بليدة فوق البصرة كثيرة النخل موصوفة بشدة الوخم، وكان أصل الحريري منها، ويقال إنه كان له بها ثمانية عشر ألف نخلة، وإنه كان من ذوي اليسار.

والوزير أنوشروان المذكور كان نبيلا فاضلا جليل القدر، له تاريخ لطيف سماه صدور زمان الفتور وفتور زمان الصدور ونقل منه العماد الأصبهاني في كتاب نصرة الفترة وعصرة الفطرة الذي ذكر فيه اخبار الدولة السلجوقية نقلا كثيرا، وتوفي الوزير المذكور سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة، رحمه الله تعالى.

وأما ابن المندائي المذكور فهو أبو الفتح محمد بن أبي العباس أحمد بن بختيار بن علي بن محمد بن إبراهيم بن جعفر الواسطي، المعروف بابن المندائي، وقد أخذ عنه جماعة من الأعيان كالحافظ أبي بكر الحازمي وغيره، وكانت ولادته في شهر ربيع الآخر سنة سبع وخمسمائة بواسط، وتوفي بها في الثامن من شعبان سنة خمس وستمائة، رحمه الله تعالى.

والمندائي: بفتح الميم وسكون النون وفتح الدال المهملة ومد الهمزة.

والمعيدي: بضم الميم وفتح العين المهملة وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها دال مهملة مكسورة وياء مشددة، وقد جاء في المثل تسمع بالمعيدي لا أن تراه وجاء أيضا تسمع بالمعيدي خير من أن تراه وقال المفضل الضبي: أول من تكلم به المنذر بن ماء السماء، قاله لشقة بن ضمرة التميمي الدارمي، وكان قد سمع بذكره، فلما رآه اقتحمته عينه، فقال له هذا المثل وسار عنه، فقال له شقة: أبيت اللعن! إن الرجال ليسوا بجزر يراد منها الأجسام، إنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه، فأعجب المنذر ما رأى من عقله وبيانه. وهذا المثل يضرب لمن له صيت وذكر ولا منظر له، والمعيدي منسوب إلى معد ابن عدنان، وقد نسبوه بعد أن صغروه وخففوا منه الدال.

القاسم بن الشهرزوري

أبو أحمد القاسم بن المظفر بن علي بن القاسم الشهرزوري، والد قاضي الخافقين أبي بكر محمد والمرتضى أبي محمد عبد الله وأبي منصور المظفر، وهو جد بيت الشهرزوري قضاة الشام والموصل والجزيرة، وكلهم إليه ينتسبون، كان حاكما بمدينة إربل مدة ومدينة سنجار مدة، وكان من أولاده وحفدته علماء نجباء كرماء نالوا المراتب العلية وتقدموا عند الملوك وتحكموا وقضوا ونفقت أسواقهم، خصوصا حفيده القاضي كمال الدين محمد ومحيي الدين بن كمال الدين – وسيأتي ذكرهما إن شاء الله تعالى – وإلى الآن من نسله جماعة من الأعيان والقضاة بالموصل. وقدم بغداد غير مرة، وذكره الحافظ أبو سعد السمعاني في كتاب الذيل ثم ذكره في كتاب الأنساب في موضعين: أحدهما في نسبة الإربلي، وقال: كان منها – يعني إربل – جماعة من العلماء، منهم أبو أحمد القاسم المذكور، وقال: إنه شيباني، والثاني في نسبة الشهرزوري، ذكره وذكر ولده قاضي الخافقين المذكور، وأثنى عليه، وذكره أبو البركات ابن المستوفي في تاريخ إربل وأورد له شعرا، فمن ذلك قوله:

همتي دونها السها والزبانى ... قد علت جهدها فما تتدانى

فأنا متعب معنى إلى أن ... تتفانى الأيام أو نتفانى

ورأيت في كتاب الذيل للسمعاني هذين البيتين منسوبين إلى ولده أبي بكر محمد المعروف بقاضي الخافقين، والله أعلم لمن هما منهما.

وتوفي القاسم المذكور سنة تسع وثمانين وأربعمائة بالموصل، ودفن في التربة المعروفة به الآن المجاورة لمسجد جده أبي الحسن بن فرغان، رحمه الله تعالى.

وأما ولده المرتضى عبد الله فهو والد القاضي كمال الدين – وقد تقدم ذكره في العبادلة، وأوردت قصيدته اللامية المعروفة بالموصلية.

وأما قاضي الخافقين فقد قال السمعاني: إنه اشتغل بالعلم على أبي إسحاق الشيرازي، وولي القضاء بعدة بلاد، ورحل إلى العراق وخراسان والجبال وسمع الحديث الكثير، وسمع منه السمعاني، وكانت ولادة قاضي الخافقين بإربل سنة ثلاث، أو أربع وخمسين وأربعمائة، وتوفي في جمادى الآخرة سنة ثمان وثلاثين وخسمائة ببغداد، ودفن في باب أبرز، رحمه الله تعالى، وإنما قيل له قاضي الخافقين لكثرة البلاد التي ولي فيها.

وأما المظفر فإن السمعاني ذكره أيضا في الذيل فقال: ولد بإربل، ونشأ بالموصل، وورد بغداد وتفقه بها على الشيخ أبي إسحاق الشيرازي، ورجع إلى الموصل، ثم ولي قضاء سنجار على كبر سنه وسكنها، وكان قد أضر. ثم قال: سألته عن مولده فقال: ولدت في جمادى الآخرة – أو رجب – سنة سبع وخمسين وأربعمائة بإربل، و لم يذكر وفاته.

والشهرزوري: بفتح الشين المعجمة وسكون الهاء وضم الراء والزاي وسكون الواو وبعدها راء، هذه النسبة إلى شهرزور، وهي بلدة كبيرة معدودة من أعمال إربل، بناها زور بن الضحاك، وهي لفظة عجمية معناها بالعربي بلدة زور، ومات بها الإسكندر ذو القرنين عند عوده من بلاد المشرق، وحكى لي بعض أهلها وقد سألته عن قبره فقال: هنك قبر يعرف بقبر إسكندر، ولا يعرف أهلها من هو، وهي مدينة قديمة، وحكى الخطيب في تاريخ بغداد

أن الإسكندر جعل المدائن دار إقامته، أعني مدائن كسرى، و لم يزل بها إلى أن توفي هناك، وحمل تابوته إلى الإسكندرية لأن أمه كانت مقيمة هناك، ودفن عندها، والله أعلم.

الشيخ الشاطبي

أبو محمد القاسم بن فيرة بن أبي القاسم خلف بن أحمد، الرعيني الشاطبي الضرير المقرئ صاحب القصيدة التي سماها حرز الأماني ووجه التهاني في القراءات، وعدتها ألف ومائة وثلاثة وسبعون بيتا، ولقد أبدع فيها كل الإبداع، وهي عمدة قراء هذا الزمان في نقلهم، فقل من يشتغل بالقراءات إلا ويقدم حفظها ومعرفتها، وهي مشتملة على رموز عجيبة وإشارات خفية لطيفة، وما أظنة سبق إلى أسلوبها، وقد روي عنه أنه كان يقول: لا يقرأ أحد قصيدتي هذه إلا وينفعه الله عز وجل بها، لأني نظمتها لله تعالى مخلصا في ذلك. ونظم قصيدة دالية في خمسمائة بيت من حفظها أحاط علما بكتاب التمهيد لابن عبد البر.

وكان عالما بكتاب الله تعالى قراءة وتفسيرا، وبحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم مبرزا فيه، وكان إذا قرئ عليه صحيح البخاري ومسلم والموطأ تصحح النسخ من حفظه، ويملي النكت على المواضع المحتاج إليها، وكان أوحدا في علم النحو واللغة، عارفا بعلم الرؤيا، حسن المقاصد، مخلصا فيما يقول ويفعل.

وقرأ القرآن الكريم بالروايات على أبي عبد الله محمد بن علي بن محمد بن أبي العاص النفزي المقري وأبي الحسن علي بن محمد بن هذيل الأندلسي، وسمع الحديث من أبي عبد الله محمد بن يوسف بن سعادة وأبي عبد الله محمد بن عبد الرحيم الخزرجي وأبي الحسن ابن هذيل والحافظ أبي الحسن ابن النعمة وغيرهم وانتفع به خلق كثير، وأدركت من أصحابه جمعا كثيرا بالديار المصرية.

وكان يجتنب فضول الكلام ولا ينطق إلا على طهارة في هيئة حسنة وتخشع واستكانة، وكان يعتل العلة الشديدة فلا يشتكي ولا يتأوه، وإذا سئل عن حاله قال: العافية، لا يزيد على ذلك. أنشدني بعض أصحابه قال: كان الشيخ كثيرا ما ينشد هذا اللغز، وهو في نعش الموتى فقلت له: فهل هو له؟ فقال: لا أعلم، ثم إني وجدته بعد ذلك في ديوان الخطيب أبي زكريا يحيى بن سلامة الحصكفي – وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى – وهو:

أتعرف شيئا في السماء يطير ... إذا سار صاح الناس حيث يسير

فتلقاه مركوبا وتلقاه راكبا ... وكل أمير يعتليه أسير

يحض على التقوى ويكره قربه ... وتنفر منه النفس وهو نذير

ولم يستزر عن رغبة في زيارة ... ولكن على رغم المزور يزور

وكانت ولادته في آخر سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة، وخطب ببلدة على فتاء سنى، ودخل مصر سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة. وكان يقول عند دخوله إليها: إنه يحفظ وقر بعير من العلوم، بحيث لو نزل عليه ورقة أخرى لما احتملها، وكان نزيل القاضي الفاضل، ورتبه بمدرسته بالقاهرة متصدرا لإقراء القرآن الكريم وقراءاته والنحو واللغة. وتوفي يوم الأحد بعد صلاة العصر، الثامن والعشرين من جمادى الآخرة سنة تسعين وخمسمائة. ودفن يوم الاثنين في تربة القاضي الفاضل بالقرافة الصغرى، وزرت قبره مرارا، رحمه الله تعالى، وصلى عليه الخطيب أبو إسحاق العراقي – المقدم ذكره – خطيب جامع مصر.

وفيره: بكسر الفاء وسكون الياء المثناة من تحتها وتشديد الراء وضمها، وهو بلغة اللطيني من أعاجم الأندلس ومعناه بالعربي: الحديد.

والرعيني: بضم الراء وفتح العين المهملة وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها نون، هذه النسبة إلى ذي رعين، وهو أحد أقيال اليمن، نسب إليه خلق كثير.

والشاطبي: بفتح الشين المعجمة وبعد الألف طاء مكسورة مهملة وبعدها باء موحدة، هذه النسبة إلى شاطبة، وهي مدينة كبيرة ذات قلعة حصينة

بشرق الأندلس، خرج منها جماعة من العلماء، استولى عليها الفرنج في العشر الأخير من شهر رمضان، سنة خمس وأربعين وستمائة.

وقيل إن اسم الشيخ المذكور أبو القاسم، وكنيته اسمه، لكن وجدت في إجازات أشياخه له أبو محمد القاسم كما ذكرته ها هنا.

أبو دلف العجلي

أبو دلف القاسم بن عيسى بن إدريس بن معقل بن عمير بن شيخ بن معاوية ابن خزاعي بن عبد العزى بن دلف بن جشم بن قيس بن سعد بن عجل بن لجيم ابن صعب بن علي بن بكر بن وائل بن قاسط بن هنب بن أفصى بن دعمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان، العجلي، أحد قواد المأمون ثم المعتصم من بعده – وقد تقدم ذكره في ترجمة علي بن جبلة العكوك، وبعض مديح العكوك فيه، وتقدم أيضا في ترجمة أبي مسلم الخراساني أنه كان تربية جده المذكور، وتقدم ذكر حفيده الأمير أبي نصر علي بن ماكولا، صاحب كتاب الإكمال –.

وكان أبو دلف المذكور كريما سريا جوادا ممدحا شجاعا مقدما ذا وقائع مشهورة وصنائع مأثورة، أخذ عنه الأدباء والفضلاء، وله صنعة في الغناء، وله من الكتب كتاب البزاة والصيد وكتاب السلاح وكتاب النزه وكتاب سياسة الملوك وغير ذلك.

ولقد مدحه أبو تمام الطائي بأحسن المدائح، وكذلك بكر بن النطاح، وفيه يقول:

يا طالبا للكيمياء وعلمه   مدح ابن عيسى الكيمياء الأعظم
لو لم يكن في الأرض إلا درهم   ومدحته لأتاك ذاك الدرهم

ويحكى أنه اعطاه على هذين البيتين عشرة ألاف درهم، فأغفله قليلا ثم دخل عليه وقد اشترى بتلك الدراهم قرية في نهر الأبلة، فأنشده:

بك ابتعت في نهر الأبلة قرية   عليها قصير بالرخام مشيد
إلى جنبها أخت لها يعرضونها   وعندك مال للهبات عتيد

فقال له: كم ثمن الأخت؟ فقال: عشرة آلاف درهم، فدفعها له ثم قال له: تعلم أن نهر الأبلة عظيم وفيه قرى كثيرة، وكل أخت إلى جانبها أخرى، وإن فتحت هذا الباب اتسع علي الخرق، فاقنع بهذه ونصطلح عليها، فدعا له وانصرف.

وقد ألم أبو بكر محمد بن هاشم، أحد الخالديين، بمعنى قول بكر بن النطاح المذكور في البيتين الأولين، فقال:

وتيقن الشعراء أن رجاءهم   في مأمن بك من وقوع الياس
ما صح علم الكيمياء لغيرهم   فيمن عرفنا من جميع الناس
تعطيهم الأموال في بدر إذا   حملوا الكلام إليك في قرطاس

وكان أبو دلف قد لحق أكرادا قطعوا الطريق في عمله، فطعن فارسا فنفذت الطعنة إلى أن وصلت إلى فارس آخر وراءه رديفه، فنفذ فيه السنان فقتلهما، وفي ذلك يقول بكر بن النطاح المذكور:

قالوا وينظم فارسين بطعنة   يوم الهياج ولا تراه كليلا
لا تعجبوا فلو أن طول قناته   ميل إذا نظم الفوارس ميلا

وكان أبو عبد الله أحمد بن أبي فنن صالح مولى بني هاشم، أسود مشوه الخلق، وكان فقيرا، فقالت له امرأته: يا هذا، إن الأدب أراه قد سقط نجمه وطاش سهمه، فاعمد إلى سيفك ورمحك وقوسك، وادخل مع الناس في غزواتهم، عسى الله أن ينفلك من الغنيمة شيئا، فأنشد:

ما لي وما لك قد كلفتني شططا   حمل السلاح وقول الدارعين قف
أمن رجال المنايا خلتني رجلا   أمسي وأصبح مشتاقا إلى التلف

تمشي المنايا إلى غيري فأكرهها فكيف أمشي إليها بارز الكتف
ظننت أن نزال القرن من خلقي أو أن قلبي في جنبي أبي دلف

فبلغ خبره أبا دلف، فوجه إليه ألف دينار. وكان أبو دلف لكثرة عطائه قد ركبته الديون، واشتهر ذلك عنه، فدخل عليه بعضهم وأنشده:

أيا رب المنائح والعطايا ويا طلق المحيا واليدين
لقد خبرت أن عليك دينا فزد في رقم دينك واقض ديني

فوصله وقضى دينه. ودخل عليه بعض الشعراء فأنشده:

الله أجرى من الأرزاق أكثرها على يديك تعلم يا أبا دلف
ما خط لا كاتباه في صحيفته كما تخطط لا في سائر الصحف

بارى الرياح فأعطى وهي جارية حتى إذا وقفت أعطى ولم يقف

ومدائحه كثيرة. وله أيضا أشعار حسنة، ولولا خوف التطويل لذكرت بعضها.

وكان أبوه قد شرع في عمارة مدينة الكرج وأتمها هو، وكان بها أهله وعشيرته وأولاده، وكان قد مدحه وهو بها بعض الشعراء، فلم يحصل له منه ما في نفسه، فانفصل عنه وهو يقول –وهذا الشاعر هو منصور بن باذان، وقيل هو بكر بن النطاح والله أعلم–:

دعيني أجوب الأرض في فلواتها فما الكرج الدنيا ولا الناس قاسم

وهذا مثل قول بعضهم، ولا أدري أيهما أخذ من الآخر:

فإن رجعتم إلى الإحسان فهو لكم عبد كما كان، مطواع ومذعان
وإن أبيتم فأرض الله واسعة لا الناس أنتم ولا الدنيا خراسان

ثم وجدت هذين البيتين قد ذكرهما السمعاني في كتاب الذيل، في ترجمة أبي الحسن علي بن محمد بن علي البلخي، فقال: أنشدني القاضي علي بن محمد البلخي بدورق متمثلا للأمير أبي الحسن علي بن المنتجب، ولعله سمع منه، وأنشد البيتين.

وروي أن الأمير علي بن عيسى بن ماهان صنع مأدبة لما قدم أبو دلف من الكرج ودعاه إليها، وكان قد احتفل بها غاية الاحتفال، فجاء بعض الشعراء ليدخل دار علي بن عيسى فمنعه البواب، فتعرض الشاعر لأبي دلف وقد قصد دار علي بن عيسى، وبيده جزازة فناوله إياها، فإذا فيها مكتوب:

قل له إن لقيته متأن بلا وهج
جئت في ألف فارس لغداء من الكرج
ما على الناس بعدها في الدنيات من حرج

فرجع أبو دلف، وحلف أنه لا يدخل الدار ولا يأكل شيئا من الطعام، ورأيت في بعض المجاميع أن هذا الشاعر هو عباد بن الحريش، وكانت المأدبة ببغداد.

ورأيت في بعض المجاميع أيضا أن أبا دلف لما مرض مرض موته حجب الناس عن الدخول عليه لثقل مرضه، فاتفق أنه أفاق في بعض الأيام، فقال لحاجبه: من بالباب من المحاويج؟ فقال: عشرة من الأشراف، وقد وصلوا من خراسان، ولهم بالباب عدة أيام لم يجدوا طريقا، فقعد على فراشه واستدعاهم، فلما دخلوا رحب بهم وسألهم عن بلادهم وأحوالهم وسبب قدومهم، فقالوا: ضاقت بنا الأحوال، وسمعنا بكرمك فقصدناك، فأمر خازنه

بإحضار بعض الصناديق، وأخرج منه عشرين كيسا في كل كيس ألف دينار، ودفع لكل واحد منهم كيسين، ثم أعطى كل واحد مؤونة طريقه، وقال لهم: لا تمسوا الأكياس حتى تصلوا بها سالمة إلى أهلكم، واصرفوا هذا في مصالح الطريق. ثم قال: ليكتب لي كل واحد منكم خطه: أنه فلان بن فلان حتى ينتهي إلى علي ابن أبي طالب رضي الله عنه، ويذكر جدته فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ليكتب: يا رسول الله إني وجدت إضاقة وسوء حال في بلدي وقصدت أبا دلف العجلي، فأعطاني ألفي دينار كرامة لك، وطلبا لمرضاتك، ورجاء لشفاعتك، فكتب كل واحد منهم ذلك، وتسلم الأوراق. وأوصى من يتولى تجهيزه إذا مات أن يضع تلك الأوراق في كفنه، حتى يلقى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعرضها عليه.

ومع هذا فقد حكي أنه قال يوما: من لم يكن مغاليا في التشيع فهو ولد زنا، فقال له ولده: إني لست على مذهبك، فقال له أبوه: لما وطئت أمك وعلقت بك ما كنت بعد قد استبرأتها، فهذا من ذاك، والله أعلم.

ومع هذا فقد حكى جماعة من أرباب التواريخ أن دلف بن أبي دلف قال: رأيت في المنام آتيا أتاني فقال لي: أجب الأمير، قمت معه، فأدخلني دارا وحشة وعرة سوداء الحيطان مقلعة السقوف والأبواب وأصعدني على درج منها، ثم أدخلني غرفة في حيطانها أثر النيران وفي أرضها أثر الرماد، وإذا بأبي وهو عريان واضع رأسه بين ركبتيه، فقال لي كالمستفهم: دلف؟ قلت: دلف: فأنشأ يقول:

أبلغن أهلنا ولا تخف عنهم ... ما لقينا في البرزخ الخناق

قد سئلنا عن كل ما قد فعلنا ... فارحموا وحشتي وما قد ألاقي

ثم قال: فهمت؟ قلت: نعم، ثم أنشد:

فلو كنا إذا متنا تركنا ... لكان الموت راحة كل حي

ولكنا إذا متنا بعثنا ... ونسأل بعده عن كل شي

ثم قال: أفهمت؟ قلت: نعم، وانتبهت.

وكانت وفاته سنة ست وعشرين، وقيل خمس وعشرين ومائتين ببغداد، رحمه الله تعالى.

ودلف: بضم الدال المهملة وفتح اللام وبعدها فاء، وهو اسم علم لا ينصرف، لاجتماع العلمية والعدل، فإنه معدول عن دالف.

والعجلي: قد تقدم الكلام عليه.

والأبلة: بضم الهمزة والباء الموحدة واللام المشددة المفتوحة وبعدها هاء ساكنة، وهي بلدة قديمة على أربعة فراسخ من البصرة، وهي اليوم من البصرة، وهي من جنان الدنيا، وإحدى المستنزهات الأربع، وقد سبق ذكرها في ترجمة عضد الدولة بن بويه مع شعب بوان وغيره.

والكرج: بفتح الكاف والراء وبعدها جيم، وهي مدينة بالجبل، بين أصبهان وهمذان.

والجبل: إقليم كبير بين بلاد العراق وخراسان، والعامة تسميه عراق العجم، وفيه مدن كبار منها: همذان وأصبهان والري وزنجان، وغير ذلك.

شمس المعالي قابوس

الأمير شمس المعالي أبو الحسن قابوس بن أبي طاهر وشمكير بن زيار بن وردانشاه الجيلي، أمير جرجان وبلاد الجيل وطبرستان.

قال الثعالبي في اليتيمة: أنا أختم هذا الجزء بذكر خاتم الملوك، وغرة الزمان، وينبوع العدل والإحسان، ومن جمع الله سبحانه له إلى عزة العلم بسطة القلم، وإلى فصل الحكمة فصل الحكم. ثم قال: ومن مشهور ما ينسب إليه من الشعر قوله:

قل للذي بصروف الدهر عيرنا ... هل حارب الدهر إلا من له خطر

أما ترى البحر تعلو فوقه جيف ... وتستقر بأقصى قعره الدرر

فإن تكن عبثت أيدي الزمان بنا ... ومسنا من تمادي بؤسه ضرر

ففي السماء نجوم ما لها عدد وليس يكسف إلا الشمس والقمر

وينسب إليه أيضا:

خطرات ذكرك تستثير مودتي فأحس منها في الفؤاد دبيبا

لا عضو لي إلا وفيه صبابة فكأن أعضائي خلقن قلوبا

وذكر له جملة من النثر أيضا.

وكان خطه في نهاية الحسن. وكان الصاحب بن عباد إذا رأى خطه قال: هذا خط قابوس، أم جناح طاووس، وينشد قول المتنبي:

في خطه من كل قلب شهوة حتى كأن مدادهالأهواء

ولكل عين قرة في قربه حتى كأن مغيبه الأقذاء

وكان الأمير المذكور صاحب جرجان وتلك البلاد، وكانت من قبله لأبيه.

وكانت وفاة أبيه في المحرم سنة سبع وثلاثين وثلثمائة بجرجان، ثم انتقلت مملكة جرجان عنهم إلى غيرهم، وشرح ذلك يطول. وملكها قابوس المذكور في شعبان سنة ثمان وثمانين وثلثمائة، وكانت المملكة قد انتقلت إلى أبيه من أخيه مرداويج بن زيار بن وردانشاه الجيلي، وكان ملكا جليل القدر بعيد الهمة. وكان عماد الدولة أبو الحسن علي بن بويه – المقدم ذكره – من أحد أتباعه ومقدمي أمرائه، وبسببه ترقى إلى درجة الملك، وشرح حديثه يطول، وهو أول من ملك من بني بويه، وهو أكبر الإخوة – وقد سبق ذكر ذلك كله.

وكان قابوس من محاسن الدنيا وبهجتها، غير أنه كان، على ما خص به من المناقب والرأي البصير بالعواقب مر السياسة، لا يساغ كأسه، ولا يؤمن بحال سطوته وبأسه، يقابل زلة القدم، بإراقة الدم، لا يذكر العفو عند الغضب، فما زال على هذا الخلق حتى استوحشت النفوس منه، وانقلبت القلوب عنه، فأجمع أعيان عسكره على خلعه ونزع الأيدي عن طاعته، فوافق هذا التدبير منهم غيبته عن جرجان إلى المعسكر ببعض القلاع، فلم يشعر بهذا التدبير لذلك و لم يحس بهم إلا وقد قصدوه وأرادوا قبضه، ونهبوا أمواله وخيله، فحامى عنه من كان في صحبته من خواصه، فرجعوا إلى جرجان وملكوها، وبعثوا إلى ولده أبي منصور منوجهر، وهو بطبرستان، يستحثونه على الوصول إليهم لعقد البيعة له، فأسرع في الحضور، فلما وصل إليهم أجمعوا على طاعته إن خلع أباه، فلم يسعه في تلك الحال إلا المداراة والإجابة خوفا على خروج الملك عن بيتهم.

ولما رأى الأمير قابوس صورة الحال توجه إلى ناحية بسطام بمن معه من الواص لينتظر ما يستقر عليه الأمر، فلما سمع الخارجون عليه انحيازه إلى تلك الجهة حملوا ولده منوجهر على قصده وإزعاجه من مكانه، فسار معهم مضطرا، فلما وصل إلى أبيه اجتمع به وتباكيا وتشاكيا، وعرض الولد نفسه أن يكون حجابا بينه وبين أعاديه، ولو ذهبت نفسه فيه، ورأى الوالد أن ذلك لا يجدي، وأنه أحق بالملك من بعده، وسلم خاتم المملكة إليه، واستوصاه خيرا بنفسه ما دام في قيد الحياة، واتفقا على أن يكون في بعض القلاع إلى أن يأتيه أجله، فانتقل إلى تلك القلعة. وشرع الولد في الإحسان إلى الجيش، وهو لا يطمئنون خشية قيام الوالد، ولو يزالوا حتى قتل، وذلك في سنة ثلاث وأربعمائة، ودفن بظاهر جرجان، رحمه الله تعالى، وقيل إنه لما حبس في القلعة منع من الغطاء والدثار، وكان البرد شديدا فمات من ذلك.

والجيلي: بكسر الجيم وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها لام، هذه النسبة إلى جيل، وهو اسم رجل كان أخا ديلم، وقد نسب إلى كل واحد منهما. وهذه النسبة غير نسبة الجيلي إلى الإقليم وراء طبرستان، فليعلم ذلك، فقد يقع فيه الالتباس، فلهذا نبهت عليه. وقد تقدم الكلام على جرجان فلا حاجة إلى إعادته.

مجاهد الدين قايماز الزيني

أبو منصور قايماز بن عبد الله الزيني، الملقب مجاهد الدين الخادم، كان عتيق زين الدين أبي سعيد علي بن بكتكين والد الملك المعظم مظفر الدين صاحب إربل، وهو من أهل سجستان، أخذ منها صغيرا، وكان أبيض اللون، وكانت مخايل النجابة لائحة عليه، فقدمه معتقه وجعله أتابك أولاده، وفوض إليه أمور إربل في خامس شهر رمضان سنة تسع وخمسين وخمسمائة، فأحسن السيرة وعدل في الرعية، وكان كثير الخير والصلاح، بنى بإربل مدرسة وخانقاه وأكثر وقفهما، ثم انتقل إلى الموصل في سنة إحدى وسبعين وخمسمائة وسكن قلعتها وتولى أمور تدبيرها وراسل الملوك وراسلوه، وكان يبلغ منهم بكتبه ما لا يبلغ سواه، وفوض إليه الأتابك سيف الدين غازي بن مودود - المقدم ذكره - صاحب الموصل الحكم في سائر بلاده لما رآه من حسن مقاصده، واعتمد عليه في جميع أحواله، وكان نائبه وهو السلطان في الحقيقة، وكان يحمل إليه أكثر أموال إربل، وأثر بالموصل آثارا جميلة، منها أنه بنى بظاهرها جامعا كبيرا ومدرسة وخانقاه، والجميع متجاورة، ووقف أملاكا كثيرة على خبز الصدقات، وأنشأ مكتبا للأيتام، وأجرى لهم جميع ما يحتاجون إليه، ومد على شط الموصل جسرا غير الجسر الأصلي، ووجد الناس به رفقا كثيرا لعدم كفايتهم بالجسر الأصلي، وله شيء كثير من وجوه البر، ومدحه جماعة من الشعراء منهم حيص بيص وسبط ابن التعاويذي - الآتي ذكره إن شاء الله تعالى - بقصيدته التي أولها:

عليل الشوق فيك متى يصح ... وسكران بحبك كيف يصحو

وبين القلب والسلوان حرب ... وبين الجفن والعبرات صلح

وهي من قصائده المختارة، وسيرها إليه من بغداد فأجازه جائزة سنية، وسير له معها بغلة، فوصلت إليه وقد هزلت من تعب الطريق، فكتب إليه:

مجاهد الدين دمت ذخرا ... لكل ذي فاقة وكنزا

بعثت لي بغلة ولكن ... قد مسخت في الطريق عنزا

ومدحه بهاء الدين أبو المعالي أسعد بن يحيى السنجاري - المقدم ذكره - بقصيدته المشهورة التي يتغنى بها، ومن جملتها:

يا قلب تبا لك من صاحب ... كان البلا منك ومن ناظري

لله أيامي على رامة ... وطيب أوقاتي على حاجر

تكاد بالسرعة في مرها ... أولها يعثر بالآخر

وعمل له أبو المعالي أسعد بن علي الحظيري - المقدم ذكره - كتاب الإعجاز في حل الأحاجي والألغاز برسم الأمير مجاهد الدين قايماز وحمله إليه لما كان بإربل، وأقام عنده مدة، فاشتاق إلى أهله بالحظيرة فقال:

ألا من لصب قليل العزاء ... غريب يحن إلى المنزل

ينادي بإربل أحبابه ... وأنى الحظيرة من إربل

وكان يحب الأدب والشعر، أنشدني بعض أصحابنا قال: كثيرا ما كان ينشد أبياتا من جملتها:

إذا أدمت قوارصكم فؤادي ... صبرت على أذاكم وانطويت

وجئت إليكم طلق المحيا ... كأني ما سمعت وما رأيت

وهذان البيتان من جملة أبيات لأسامة بن منقذ - المقدم ذكره وقد تقدم في ترجمة العلم أبي علي الحسن بن سعيد الشاتاني ذكر بيتين عملهما فيه لما قبض عليه وبالجملة فآثاره مشهورة.

وكان مجد الدين أبو السعادات المبارك بن الأثير الجزري صاحب جامع الأصول كاتبا بين يديه ومنشئا عنه إلى الملوك، وكان قد مات الأتابك سيف الدين وتولى أخوه عز الدين مسعود، فسعى أهل الفساد إليه في حقه، وكثير ذلك منهم فقبض عليه في سنة تسع وثمانين وخمسمائة، ثم ظهر له فساد

رأيه في ذلك، فأطلقه وأعاده إلى ما كان عليه.

واستمر على ذلك إلى أن توفي في منتصف شهر ربيع الأول، وقيل في سادسه، وقال ابن المستوفي في تاريخ إربل: في صفر سنة خمس وتسعين وخمسمائة بقلعة الموصل. وكان شروعه في عمارة جامعه بالموصل في سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة، رحمه الله تعالى.

قتادة السدوسي

أبو الخطاب قتادة بن دعامة بن عزيز بن عمرو بن ربيعة بن عمرو بن الحارث ابن سدوس، السدوسي البصري الأكمه، كان تابعيا وعالما كبيرا، قال أبو عبيدة: ما كنا نفقد في كل يوم راكبا من ناحية بني أمية ينيخ على باب قتادة فيسأله عن خبر أو نسب أو شعر، وكان قتادة أجمع الناس. وقال معمر: سألت أبا عمرو بن العلاء عن قوله تعالى: "وما كنا له مقرنين"، فلم يجبني، فقلت: إني سمعت قتادة يقول: مطيقين، فسكت، فقلت له: ما تقول يا أبا عمرو؟ فقال: حسبك قتادة، فلولا كلامه في القدر – وقد قال صلى الله عليه وسلم إذا ذكر القدر فأمسكوا – لما عدلت به أحدا من أهل دهره. وقال أبو عمرو: كان قتادة من أنسب الناس، كان قد أدرك دغفلا، وكان يدور البصرة أعلاها وأسفلها بغير قائد، فدخل مسجد البصرة، فإذا بعمرو بن عبيد ونفر معه قد اعتزلوا من حلقة الحسن البصري وحلقوا وارتفعت أصواتهم، فأمهم وهو يظن أنها حلقة الحسن، فلما صار معهم عرف أنها ليست هي، فقال: إنما هؤلاء المعتزلة، ثم قام عنهم، فمذ يومئذ سموا المعتزلة.

وكانت ولادته سنة ستين للهجرة. وتوفي سنة سبع عشرة ومائة بواسط، وقيل ثماني عشرة، رضي الله عنه.

والسدوسي: بفتح السين المهملة وضم الدال المهملة وسكون الواو وبعدها سين ثانية، هذه النسبة إلى سدوس بن شيبان، وهي قبيلة كبيرة كثيرة العلماء وغيرهم.

ودغفل: بفتح الدال المهملة وسكون الغين المعجمة وفتح الفاء ثم لام، هو ابن حنظلة السدوسي النسابة، أدرك النبي صلى الله عليه وسلم و لم يسمع منه شيئا، وقدم على معاوية، وكان أنسب العرب، وقتلته الأزارقة وقيل إنه غرق بدجيل في وقعة دولاب، وهو الأصح.

قتيبة بن مسلم

أبو حفص قتيبة بن أبي صالح مسلم بن عمرو بن الحصن بن ربيعة بن خالد بن أسيد الخير بن قضاعي بن هلال بن سلامة بن ثعلبة بن وائل بن معن بن مالك بن أعصر بن سعد بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، الباهلي أمير خراسان زمن عبد الملك بن مروان من جهة الحجاج بن يوسف الثقفي لأنه كان أمير العراقين، وكل من كان يليهما كانت خراسان مضافة إليه، وأقام بها ثلاث عشرة سنة، وكان من قبلها على الري وتولى خراسان بعد يزيد ابن المهلب بن أبي صفرة وفي ترجمة يزيد شرح ذلك وهو الذي افتتح خوارزم وسمرقند وبخارى، وقد كانوا كفروا. وكان شهما مقداما نجيبا، وكان أبوه مسلم كبير القدر عند يزيد بن معاوية، وهو صاحب الحرون، وكان الحرون من الفحول المشاهير يضرب به المثل. ثم فتح قتيبة فرغانة في سنة خمس وتسعين في أواخر أيام الوليد بن عبد الملك وقال أهل التاريخ: بلغ قتيبة بن مسلم في غزو الترك والتوغل في بلاد ما وراء النهر وافتتاح القلاع واستباحة البلاد وأخذ الأموال وقتل الفتاك ما لم يبلغه المهلب بن أبي صفرة ولا غيره، حتى إنه فتح بلاد خوارزم وسمرقند في عام واحد، ولما فتح هاتين المدينتين الجليلتين عادت السغد وحملت الاتاوة. ودعا قتيبة لما تمت له هذه الأحوال نهار بن توسعة شاعر المهلب بن أبي صفرة وبنيه، وقال له: أين قولك في المهلب لما مات:

ألا ذهب الغزو المقرب للغنى ... ومات الندى والجود بعد المهلب

أفغزو هذا يا نهار؟ قال: لا بل هذا حشر. ثم قال نهار وأنا القائل:

ولا كان مذ كنا ولا كان قبلنا ... ولا هو فيما بعدنا كابن مسلم

أعم لأهل الترك قتلا بسيفه ... وأكثر فينا مقسما بعد مقسم

ثم إنه لما بلغ الحجاج ما فعل قتيبة من الفتوحات والقتل والسبي قال: بعثت قتيبة فتى غزاء فما زدته باعا إلا زادني ذراعا.

فلما مات الوليد في سنة ست وتسعين وتولى الأمر أخوه سليمان بن عبد الملك وكان يكره قتيبة لأمر يطول شرحه، فخاف منه قتيبة وخلع بيعة سليمان وخرج عليه وأظهر الخلاف، فلم يوافقه على ذلك أكثر الناس، وكان قتيبة قد عزل وكيع بن حسان بن قيس بن يوسف بن كلب بن عوف بن مالك بن غدانة واسم غدانة أشرس وكنيه وكيع أبو المطرف الغداني عن رياسة بني تميم، فحقد وكيع عليه وسعى في تأليب الجند سرا وتقاعد عن قتيبة متمارضا، ثم خرج عليه وهو بفرغانة فقتله مع أحد عشر من أهله، وذلك في ذي الحجة سنة ست وتسعين للهجرة، وقيل سنة سبع وتسعين.

ومولده سنة تسع وأربعين، وتولى خراسان تسع سنين وسبعة أشهر، هكذا قال السلامي في تاريخ ولاة خراسان وهو خلاف ما قيل أولا وقال الطبري: تولى خراسان سنة ست وثمانين وفي قتله يقول جرير:

ندمتم على قتل الأغر ابن مسلم ... وأنتم إذا لاقيتم الله أندم

لقد كنتم من غزوة في غنيمة ... وأنتم لمن لاقيتم اليوم مغنم

على أنه أفضى إلى حور جنة ... وتطبق بالبلوى عليكم جهنم

وقتل أبوه مسلم بن عمرو مع مصعب بن الزبير في سنة اثنتين وسبعين للهجرة.

وقتيبة المذكور جد أبي عمرو سعيد بن سلم بن قتيبة بن مسلم، وكان سعيد المذكور سيدا كبيرا ممدحا، وفيه يقول عبد الصمد بن المعذل يرثيه:

كم يتيم نعشته بعد يتم ... وفقير أغنيته بعد عدم

كلما عضت النوائب نادى ... رضي الله عن سعيد بن سلم

وتولى سعيد أرمينية والموصل والسند وطبرستان وسجستان والجزيرة، وتوفي سنة سبع عشرة ومائتين، ومن أخباره أنه قال: لما كنت واليا بأرمينية أتاني أبو دهمان الغلابي فقعد على بابي أياما فلما وصل إلي جلس قدامي بين السماطين، وقال: والله إني لأعرف أقواما لو علموا أن سف التراب يقيم أود أصلابهم لجعلوه مسكة لأرماقهم إيثارا للتنزه عن عيش رقيق الحواشي، أما والله إني لبعيد الوثبة، بطيء العطفة، إنه والله ما يثنيني عليك إلا مثل ما يصرفك عني، ولأن أكون مقلا مقربا أحب إلي من أن أكون مكثرا مبعدا، والله ما نسأل عملا لا نضبطه، ولا مالا إلا ونحن أكثر منه، إن هذا الأمر الذي صار في يديك قد كان في يد غيرك فأمسكوا والله حديثا إن خيرا فخير وإن شرا فشر، فتحبب إلى عباد الله بحسن البشر ولين الحجاب، فإن حب عباد الله موصول بحب الله، وهم شهداء الله على خلقه، ورقباء على من اعوج عن سبيله، والسلام.

ولما مات ولده عمرو بن سعيد المذكور رثاه أبو عمرو أشجع بن عمرو السلمي الرقي نزيل البصرة الشاعر المشهور بقوله:

مضى ابن سعيد حين لم يبق مشرق ... ولا مغرب إلا له فيه مادح

وما كنت أدري ما فواضل كفه ... على الناس حتى غيبته الصفائح

وأصبح في لحد من الأرض ضيق ... وكانت به حيا تضيق الصحاصح

سأبكيك ما فاضت دموعي فإن تغض ... فحسبك مني ما تجن الجوانح

فما أنا من رزء وإن جل جازع ... ولا بسرور بعد موتك فارح

كأن لم يمت حي سواك ولم يقم ... على أحد إلا عليك النوائح

لئن حسنت فيك المرائي وذكرها ... لقد حسنت من قبل فيك المدائح

وهذه المرثية من محاسن المراثي، وهي في كتاب الحماسة والبيت الأخير منها مثل قول مطيع بن إياس في يحيى بن زياد من جملة أبيات:

يا خير من يحسن البكاء له ال يوم ومن كان أمس للمدح

وهذه الأبيات في الحماسة في باب المراثي.

وأخباره كثيرة. وقد تقدم الكلام على الباهلي في ترجمة الأصمعي، وأن هذه النسبة إلى أي شيء هي، وكانت العرب تستنكف من الانتساب إلى هذه القبيلة حتى قال الشاعر:

وما ينفع الأصل من هاشم إذا كانت النفس من باهله

وقال الآخر:

ولو قيل للكلب يا باهلي عوى الكلب من لؤم هذا النسب

وقيل لأبي عبيدة: يقال إن الأصمعي دعي في نسبه إلى باهلة، فقال: هذا ما يمكن، فقيل: و لم؟ فقال: لأن الناس إذا كانوا من باهلة تبرأوا منها، فكيف يجيء من ليس منها وينتسب إليها؟ ورأيت في بعض المجاميع أن الأشعث ابن قيس الكندي قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أتتكافأ دماؤنا؟ فقال: نعم، ولو قتلت رجلا من باهلة لقتلتك به. وقال قتيبة بن مسلم المذكور لهبيرة بن مسروح: أي رجل أنت لو كان أخوالك من غير سلول؟ فلو بادلت بهم، فقال: أصلح الله الأمير، بادل بهم من شئت من العرب وجنبني باهلة. ويحكى أن أعرابيا لقي شخصا في الطريق فسأله: ممن أنت؟ فقال: من باهلة، فرثى له الأعرابي، فقال ذلك الشخص: وأزيدك أني لست من صميمهم، ولكن من مواليهم، فأقبل الأعرابي عليه يقبل يديه ورجليه، فقال له: و لم ذاك؟ فقال: لأن الله تبارك وتعالى ما ابتلاك بهذه الرزية في الدنيا إلا ويعوضك الجنة في الآخرة. وقيل لبعضهم: أيسرك أن تدخل الجنة وأنت باهلي؟ فقال: نعم، بشرط ألا يعلم أهل الجنة أني باهلي، والأخبار في ذلك كثيرة، رحمهم الله أجمعين.

وسئل حسين بن بكر الكلابي النسابة عن السبب في اتضاع باهلة وغني عند العرب، فقال: لقد كان بينهما غناء وشرف، و لم يضعهما إلا إشراف أخويهما فزارة وذبيان عليهما بالمآثر، فلنؤا بالإضافة إليهما ذكر ذلك الوزير أبو القاسم المغربي في كتاب أدب الخواص وقد تقدم الكلام على قتيبة في ترجمة عبد الله بن مسلم بن قتيبة.

بهاء الدين قراقوش

أبو سعيد قراقوش بن عبد الله الأسدي، الملقب بهاء الدين، كان خادم صلاح الدين، وقيل خادم أسد الدين شيركوه عم السلطان صلاح الدين، فأعتقه – وقد تقدم ذكره في ترجمة الفقيه عيسى الهكاري. ولما استقل صلاح الدين بالديار المصرية جعله زمام القصر، ثم ناب عنه مدة بالديار المصرية، وفوض أمورها إليه واعتمد في تدبير أحوالها عليه، وكان رجلا مسعودا وصاحب همة عالية، وهو الذي بنى السور المحيط بالقاهرة ومصر وما بينهما وبنى قلعة الجبل، وبنى القناطر التي بالجيزة على طريق الأهرام، وهي آثار دالة على علو الهمة، وعمر بالمقس رباطا، وعلى باب الفتوح بظاهر القاهرة خان سبيل. وله وقف كثير لا يعرف مصرفه، وكان حسن المقاصد جميل النية. ولما أخذ صلاح الدين مدينة عكا من الفرنج سلمها إليه، ثم لما عادوا واستولوا عليها حصل أسيرا في أيديهم، ويقال إنه افتك نفسه بعشرة آلاف دينار وذكر شيخنا القاضي بهاء الدين بن شداد في سيرة صلاح الدين أنه انفك من الأسر في يوم الثلاثاء حادي عشر شوال سنة ثمان وثمانين وخمسمائة، ومثل في الخدمة الشريفة السلطانية، ففرح به فرحا شديدا، وكان له حقوق كثيرة على السلطان وعلى الإسلام والمسلمين، واستأذن في المسير إلى دمشق ليحصل مال القطيعة، فأذن له في ذلك، وكان – على ما ذكر – ثلاثين ألفا والناس ينسبون إليه أحكاما عجيبة في ولايته، حتى إن الأسعد بن مماتي – المقدم ذكره – له جزء لطيف سماه الفاشوش في أحكام قراقوش وفيه أشياء يبعد وقوع مثلها منه، والظاهر أنها موضوعة، فإن صلاح الدين كان معتمدا في أحوال المملكة عليه، ولولا وثوقه بمعرفته وكفايته ما فوضها إليه.

وكانت وفاته في مستهل رجب سنة سبع وتسعين وخمسمائة بالقاهرة، ودفن في تربته المعروفة به بسفح المقطم بقرب البئر والحوض اللذين أنشأهما على شفير الخندق، رحمه الله تعالى.

وقراقوش: بفتح القاف والراء وبعد الألف قاف ثانية ثم واو وبعدها شين معجمة، وهو لفظ تركي تفسيره بالعربي العقاب، الطائر المعروف، وبه سمي الإنسان، والله أعلم.

قطري بن الفجاءة

أبو نعامة قطري بن الفجاءة، واسمه جعونة، بن مازن بن يزيد بن زياد ابن خنثر بن كابية بن حرقوص بن مازن بن مالك بن عمرو بن تميم بن مر، المازني الخارجي، خرج زمن مصعب بن الزبير لما ولي العراق نيابة عن أخيه عبد الله بن الزبير وكانت ولاية مصعب في سنة ست وستين للهجرة فبقي قطري عشرين سنة يقاتل ويسلم عليه بالخلافة، وكان الحجاج بن يوسف الثقفي يسير إليه جيشا بعد جيش وهو يستظهر عليهم.

وحكي عنه أنه خرج في بعض حروبه وهو على فارس أعجف وبيده عمود خشب، فدعا إلى المبارزة، فبرز إليه رجل، فحسر له قطري عن وجهه، فلما رآه الرجل ولى عنه، فقال له قطري: إلى أين؟ فقال: لا يستحيي الإنسان أن يفر منك.

وقد ذكر أبو العباس المبرد في كتاب الكامل من أخبارهم ومحارباتهم قطعة كبيرة.

و لم يزل الحال بينهم كذلك حتى توجه إليه سفيان بن الأبرد الكلبي، فظر عليه وقتله في سنة ثمان وسبعين للهجرة، وكان المباشر لقتله سودة بن أبجر الدارمي، وقيل إن قتله كان بطبرستان في سنة تسع وسبعين، وقيل عثر به فرسه فاندقت فخذه فمات، فأخذ رأسه فجيء به إلى الحجاج.

قلت: هكذا قال أهل التاريخ والله أعلم أنه أقام عشرين سنة يقاتل ويسلم عليه بالخلافة، وتاريخ خروجه وقتله بخلاف ذلك فتأمله.

ولا عقب لقطري، وإنما قيل لأبيه الفجاءة لأنه كان باليمن، فقدم على أهله فجاءة، فسمي به وبقي عليه، وقطري هو الذي عناه الحريري في المقامة السادسة بقوله: فقلدوه في هذا الأمر الزعامة، تقليد الخوارج أبا نعامة وكان رجلا شجاعا مقداما كثير الحروب والوقائع، قوي النفس لا يهاب الموت، وفي ذلك يقول مخاطبا لنفسه:

أقول لها وقد طارت شعاعا ... من الأبطال ويحك لا تراعي
فإنك لو سألت بقاء يوم ... على الأجل الذي لك لم تطاعي
فصبرا في مجال الموت صبرا ... فما نيل الخلود بمستطاع
ولا ثوب الحياة بثوب عز ... فيطوى عن أخي الخنع اليراع
سبيل الموت غاية كل حي ... وداعية لأهل الأرض داعي
ومن لا يغتبط يسأم ويهرم ... وتسلمه المنون إلى انقطاع
وما للمرء خير في حياة ... إذا ما عد من سقط المتاع

وهذه الأبيات مذكورة في الحماسة في الباب الأول، وهي تشجع أجبن خلق الله، وما أعرف في هذا الباب مثلها، وما صدرت إلا عن نفس أبية وشهامة عربية.

وهو معدود في جملة خطباء العرب المشهورين بالبلاغة والفصاحة.

روي أن الحجاج قال لأخيه: لأقتلنك، فقال: لم ذلك؟ قال: لخروج أخيك، قال: فإن معي كتاب أمير المؤمنين أن لا تأخذني بذنب أخي، قال: هاته، قال: فمعي ما هو أوكد منه، قال: ما هو؟ قال: كتاب الله عز وجل، حيث يقول: "ولا تزر وازرة وزر أخرى"، فعجب منه وخلى سبيله.

وفي قطري قال حصين بن حفصة السعدي من أبيات:

وأنت الذي لا نستطيع فراقه ... حياتك لا نفع وموتك ضائر

وقد ضبطت أسماء أجداده ضبطا يغني عن التقييد، ففيه تطويل، فمن كتبه فليعتمد على هذا الضبط ففيه كفاية، وكذلك الألفاظ التي في الأبيات مضبوطة.

وقد قيل: إن قولهم قطري ليس باسم له، ولكنه نسبة إلى موضع بين البحرين وعمان، وهو اسم بلد كان منه أبو نعامة المذكور، فنسب إليه، وقيل إنه هو قصبة عمان، والقصبة هي كرسي الكورة.

حرف الكاف

كافور الإخشيدي

أبو المسك كافور بن عبد الله الإخشيدي – وقد سبق شيء من خبره في ترجمة فاتك –، وكان كافور عبدا لبعض أهل مصر، ثم اشتراه أبو بكر محمد ابن طغج الإخشيد – الآتي ذكره إن شاء الله تعالى – في سنة اثنتي عشرة وثلثمائة بمصر من محمود بن وهب بن عباس وترقى عنده إلى أن جعله أتابك ولديه. وقال محمد وكيل الأستاذ كافور: خدمت الأستاذ والجراية التي يطلقها ثلاث عشرة جراية في كل يوم، ومات وقد بلغت علي يدي ثلاثة عشر ألفا في كل يوم.

ولما توفي الإخشيد في التاريخ المذكور في ترجمته تولى مملكة مصر والشام ولده الأكبر وهو أبو القاسم أنوجور، ومعناه بالعربي محمود، بعقد الراضي له، وقام كافور بتدبير دولته أحسن قيام إلى أن توفي أنوجور يوم السبت لثمان وقيل لسبع خلون من ذي العقدة سنة تسع وأربعين وثلثمائة، وحمل إلى القدس ودفن عند أبيه. وكانت ولادته بدمشق يوم الخميس لتسع خلون من ذي الحجة سنة تسع عشرة وثلثمائة، رحمه الله تعالى. وتولى بعدة أخوه أبو الحسن علي، وملك الروم في أيامه حلب والمصيصة وطرسوس وذلك الصقع أجمع، فاستمر كافور على نيابته وحسن إيالته، إلى أن توفي علي المذكور في سنة خمس وخمسين وثلثمائة، وقيل بل توفي لإحدى عشرة ليلة خلت من المحرم سنة أربع وخمسين، وكانت ولادته يوم الثلاثاء لأربع بقين من صفر سنة ست وعشرين وثلثمائة بمصر، رحمه الله تعالى.

ثم استقل كافور بالمملكة من هذا التاريخ وأشير عليه بإقامة الدعوة لولد لأبي الحسن علي بن الإخشيد، فاحتج بصغر سنة، وركب بالمطارد، وأظهر خلعا جاءته من العراق وكتابا بتكنيته، وركب بالخلع يوم الثلاثاء لعشر خلون من صفر سنة خمس وخمسين وثلثمائة وكان وزيره أبا الفضل جعفر بن الفرات – المقدم ذكره –.

وكان كافور يرغب في أهل الخير ويعظمهم، وكان أسود اللون شديد السواد بصاصا، واشتراه الإخشيد بثمانية عشر دينارا على ما نقل، وقد سبق في ترجمة الشريف ابن طباطبا شيء من خبره معه. وكان أبو الطيب المتنبي قد فارق سيف الدولة بن حمدان – المقدم ذكره – مغاضبا له، وقصد مصر وامتدح كافورا بأحسن المدائح، فمن ذلك قوله في أول قصيدة أنشأها له في جمادى الآخرة سنة ست وأربعين وثلثمائة، وقد وصف فيها الخيل ثم قال:

قواصد كافور توارك غيره ... ومن قصد البحر استقل السواقيا

فجاءت بنا إنسان عين زمانه ... وخلت بياضا خلفها ومآقيا

ولقد أحسن في هذا غاية الإحسان. وأنشده أيضا في شوال سنة سبع وأربعين قصيدته البائية التي يقول فيها:

وأخلاق كافور إذا شئت مدحه ... وإن لم أشأ تملي علي فأكتب

إذا ترك الإنسان أهلا وراءه ... ويمم كافورا فما يتغرب

ومن جملتها:

يضاحك في ذا العيد كل حبيبه ... حذائي وأبكي من أحب وأندب

أحن إلى أهلي وأهوى لقاءهم ... وأين من المشتاق عنقاء مغرب

فإن لم يكن إلا أبو المسك أو هم		فإنك أحلى في فؤادي وأعذب
وكل امرئ يولي الجميل محبب		وكل مكان ينبت العز طيب

وحكي عن المتنبي أنه قال: كنت إذا دخلت على كافور أنشده يضحك إلي ويبش في وجهي، إلى أن أنشدته:

ولما صار ود الناس خبا		جزيت على ابتسام بابتسام
وصرت أشك فيمن أصطفيه		لعلمي أنه بعض الأنام

قال: فما ضحك بعدها في وجهي إلى أن تفرقنا، فعجبت من فطنته وذكائه.

وآخر شيء أنشده في شوال سنة تسع وأربعين و لم يلقه بعدها قصيدته البائية وشابها بطرف من العتب، ومنها:

أرى لي بقربي منك عينا قريرة		وإن كان قربا بالبعاد يشاب
وهل نافعي أن ترفع الحجب بيننا		ودون الذي أملت منك حجاب
أقل سلامي حب ما خف عنكم		وأسكت كيما لا يكون جواب
وفي النفس حاجات وفيك فطانة		سكوتي بيان عندها وخطاب
وما أنا بالباغي على الحب رشوة		ضعيف هوى يبغي عليه ثواب
وما شئت إلا أن أدل عواذلي		على أن رأيي في هواك صواب
وأعلم قوما خالفوني فشرقوا		وغربت أنى قد ظفرت وخابوا
جرى الخلف إلا فيك أنك واحد		وأنك ليث والملوك ذئاب
وأنك إن قويست صحف قارئ		ذئابا ولم يخطئ فقال ذباب
وإن مديح الناس حق وباطل		ومدحك حق ليس فيه كذاب
إذا نلت منك الود فالمال هين		وكل الذي فوق التراب تراب
وما كنت لولا أنت إلا مهاجرا		له كل يوم بلدة وصحاب
ولكنك الدنيا إلي حبيبة		فما عنك لي إلا إليك ذهاب

وأقام المتنبي بعد إنشاده هذه القصيدة بمصر سنة لا يلقى كافورا غضبا عليه لكنه يركب في خدمته خوفا منه ولا يجتمع به، واستعد للرحيل في الباطن، وجهز جميع ما يحتاج إليه، وقال في يوم عرفة سنة خمسين وثلثمائة قبل مفارقته مصر بيوم واحد قصيدته الدالية التي هجا كافورا فيها، وفي آخر هذه القصيدة:

من علم الأسود المخصي مكرمة		أقومه البيض أم آباؤه الصيد
أم أذنه في يد النحاس دامية		أم قدره وهو بالفلسين مردود
وذاك أن الفحول البيض عاجزة		عن الجميل فكيف الخصية السود

وله فيه أهاج كثيرة تضمنها ديوانه، ثم فارقه بعد ذلك، ورحل إلى عضد الدولة بن بويه بشيراز – حسبما تضمنه ترجمته.

ورأيت في بعض المجاميع قال بعضهم: حضرت مجلس كافور الإخشيدي، فدخل رجل ودعا له وقال في دعائه: أدام الله أيام مولانا، بكسر الميم من أيام، فتحدث جماعة من الحاضرين في ذلك وعابوه عليه، فقام رجل من أوساط الناس وأنشد مرتجلا وهو أبو اسحاق إبراهيم بن عبد الله بن محمد بن حشيش النجيرمي اللغوي الاخباري كاتب كافور، والذي دعا لكافور ولحن هو أبو الفضل ابن عياش:

لا غرو أن لحن الداعي لسيدنا — أو غض من دهش بالريق أو بهر

فتلك هيبته حالت جلالتها — بين الأديب وبين القول بالحصر

فإن يكن خفض الأيام من غلط — في موضع النصب لا عن قلة النظر

فقد تفاءلت في هذا لسيدنا — والفأل مأثورة عن سيد البشر

بأن أيامه خفض بلا نصب — وأن أوقاته صفر بلا كدر

وأخبار كافور كثيرة.

ولما كثرت الزلازل بمصر في أيام كافور أنشده محمد بن عاصم قصيدة يقول فيها:

ما زلزلت مصر من سوء يراد بها — لكنها رقصت من عدله فرحا

فأمر له بألف دينار، وقيل إن عطاءه ذلك حث المتنبي على المسير إلى مصر.

ودخل على كافور غلام فقال: ما اسمك؟ قال: كافور، فقال: نعم ما كل من اسمه محمد نبي.

وله مع الشيخ عبد الله بن جابار الصوفي الزاهد شيخ البقاعي، رحمهما الله تعالى، وكان من كبار المشايخ، قصة عجيبة هي من غرر مناقبه، ذكر المسبحي في تاريخه قال: حدثني أبو الدابة كاتب أبي بكر القمي عن أبي الحسن البغدادي قال: وردت إلى مصر مع والدي وأنا صبي دون البلوغ في أيام كافور، وكان أبو بكر المحلي يتولى نفقات مصالحه وخواص خدمه، وقد نتجت بينه وبين أبي مودة، وكان يزوره ويصله، قال: فجاءه ذات يوم فتذاكرا أخبار كافور وطريقته وما هو عليه من الخشوع، فقال أبو بكر لأبي وأنا أسمع: هذا الأستاذ كافور له في كل عيد أضحى عادة، وهي أن يسلم إلي بغلا محملا ذهبا وورقا وجريدة تتضمن أسماء قوم من حد القرافة إلى المنامة وما بينهما، ويمضي معي صاحب الشرطة ونقيب يعرف المنازل، وأطوف من بعد العشاء الآخرة إلى آخر الليل حتى أسلم ذلك إلى من جعل له وتتضمن اسمه الجريدة، وأطوف منزل كل إنسان ما بين رجل وامرأة وأقول: الأستاذ أبو المسك كافور يهنيك بعيدك ويقول لك: اصرف هذا في منفعتك، فادفع إليه ما جعل له، فلما كان في هذا العيد جريت على العادة ورأيته زادني في الجريدة الشيخ أبو عبد الله ابن جابار مائة دينار فأنفقت المال في أربابه و لم يبق إلا الصرة، فجعلتها في كمي وسرت مع النقيب حتى أتينا منزله بظاهر القرافة، فطرقت الباب فنزل إلينا شيخ عليه أثر السهر فسلمت عليه فلم يرد علي وقال: ما حاجتك؟ قلت: الأستاذ أبو المسك كافور يخص الشيخ بالسلام، فقال: والي بلدنا؟ قلت: نعم، قال: حفظه الله، الله يعلم أنني أدعو له في الخلوات وأدبار الصلوات وللمسلمين بما الله سامعه ومجيبه، قلت: وقد أنفذ معي هذه الصرة وهو يسألك قبولها لتصرفها في مؤونة هذا العيد المبارك فقال: نحن رعيته ونحن نحبه في الله تعالى وما نفسد هذا بعلة، فراجعته القول فتبين لي الضجر في وجهه والقلق والتلهف واستحييت من الله تعالى أن أقطعه عما هو عليه فتركته وانصرفت، قال: فجئت فوجدت الأمير قد تهيأ للركوب وهو ينتظرني فلما رآني قال: هيه يا أبا بكر، فقلت له: أرجو أن يستجيب الله تعالى فيك كل دعوة صالحة دعيت لك في هذه الليلة وفي هذا اليوم الشريف، فقال: الحمد لله الذي جعلني سببا لإيصال الراحة إلى عياله، ثم أخبرته بامتناع ابن جابار فقال: نعم هو بذلك جدير، لم يجر بيننا وبينه معاملة قبل هذا اليوم، ثم قال لي: عد إليه واركب دابة من دواب النوبة فلست أشك فيما لقيت دابتك في هذه الليلة من التعب، ثم امض إليه واطرق بابه فإذا نزل إليك فإنه سيقول: أ لم تكن عندنا؟ فلا ترد عليه جوابا ثم استفتح واقرأ: "بسم الله الرحمن الرحيم طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى. إلا تذكرة لمن يخشى. تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى. الرحمن على العرش استوى، له ما في السموات وما في الأرض

وما بينهما وما تحت الثرى". يا ابن جابار، يقول لك كافور: ومن كافور العبد الأسود ومن مولاه ومن الخلق؟ أبقي لأحد مع الله تعالى ملكة أو شركة؟ تلاشى الناس كلهم، ها هنا تدري من معطيك وعلى من رددت أنت ما سألت، هو أرسل إليك يا ابن جابار، ما تفرق بين السبب والمسبب! قال: فركبت وسرت فطرقت مترله فترل إلي وقال لي مثل لفظ كافور، فأضربت عن الجواب وقرأت طه ثم قلت له ما قال كافور، فبكى ابن جابار وقال: أين ما حملت؟ فأخرجت له الصرة فأخذها وقال: علمنا الأستاذ كيف التصوف، قل له: أحسن الله جزاءك، قال: فعدت إليه فأخبرته فسر بذلك ثم سجد لله تعالى شكرا وقال: الحمد لله الذي جعلني سببا لإيصال الراحة إلى عبادة، ثم ركب حينئذ.

و لم يزل مستقلا بالأمر بعد أمور يطول شرحها إلى أن توفي يوم الثلاثاء لعشر بقين من جمادى الأولى سنة خمس وخمسين وثلثمائة بمصر، وقيل إنه توفي يوم الأربعاء، وقيل توفي سنة خمس وخمسين وثلثمائة، وقيل سنة سبع وخمسين وهو قول القضاعي في كتاب الخطط، والله أعلم، وكذا قال الفرغاني في تاريخه أيضا، رحمه الله تعالى والأول أصح، ودفن بالقرافة الصغرى، وقبته مشهورة هناك، و لم تطل مدته في الاستقلال على ما ظهر من تاريخ موت علي بن الإخشيد إلى هذا التاريخ.

وكانت بلاد الشام في مملكته أيضا مع مصر وكان يدعى له على المنابر بمكة والحجاز جميعه والديار المصرية وبلاد الشام من دمشق وحلب وأنطاكية وطرسوس والمصيصة وغير ذلك، وكان تقدير عمره خمسا وستين سنة على ما حكاه القرغاني في تاريخه، والله أعلم.

وكانت أيامه سديدة جميلة، ووقع الخلف فيمن ينصب للأمر بعده، إلى أن تقرر الأمر وتراضت الجماعة بولد أبي الحسن علي بن الإخشيد، وكانت ولاية كافور سنتين وثلاثة أشهر إلا سبعة أيام، وخطب لأبي الفوارس أحمد بن علي بن الإخشيد يوم الجمعة لسبع بقين من جمادى الأولى سنة سبع وخمسين، وبقية خبرهم مذكورة في ترجمة جده محمد الإخشيد.

كثير عزة

أبو صخر كثير بن عبد الرحمن بن أبي جمعة الأسود بن عامر بن عويمر الخزاعي، أحد عشاق العرب المشهورين به وقال ابن الكلبي في جمهرة النسب: هو كثير بن عبد الرحمن بن الأسود بن عويمر بن مخلد بن سعيد بن سبيع بن خثعمة بن سعد بن مليح بن عمرو بن ربيعة بن حارثة بن عمرو مزيقياء بن عامر ماء السماء بن حارثة بن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد، وبقية النسب معروفة، وربيعة بن حارثة هو لحي، وابنه عمرو بن لحي هو الذي رآه النبي صلى الله عليه وسلم يجر قصبه في النار، وهو أول من سيب السوائب وبحر البحيرة وغير دين إبراهيم عليه السلام، ودعا العرب إلى عبادة الأصنام، وهذا لحي وأخوه أفصى ابنا حارثة هما خزاعة، ومنهما تفرقت، وإنما قيل لهم خزاعة لأنهم انقطعوا عن الأزد لما تفرقت الأزد من اليمن أيام سيل العرم وأقاموا بمكة، وسار الآخرون إلى المدينة والشام وعمان.

وقال ابن الكلبي أيضا قبل هذا بقليل: والأشيم وهو أبو جمعة بن خالد بن عبيد بن مبشر بن رباح، وهو جد كثير بن عبد الرحمن صاحب عزة أبو أمه إليه ينسب.

وهو صاحب عزة بنت جميل بن حفص بن إياس بن عبد العزى بن حاجب ابن غفار بن مليل بن ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة بن خزيمة ابن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. وقال السمعاني: جميل ابن وقاص بن حفص بن إياس، والله أعلم. وله معها حكايات ونوادر وأمور مشهورة، وأكثر شعره فيها.

وكان يدخل على عبد الملك بن مروان وينشده، وكان رافضيا شديد التعصب لآل أبي طالب، حكى ابن قتيبة في طبقات الشعراء أن كثيرا دخل يوما على عبد الملك فقال له عبد الملك: بحق علي بن أبي طالب هل رأيت أحدا أعشق منك؟ قال: يا أمير المؤمنين، لو نشدتني بحقك أخبرتك، قال: نشدتك بحقي إلا ما أخبرتني، قال: نعم، بينا أنا أسير في بعض الفلوات إذا أنا برجل قد نصب حبالة، فقلت له: ما أجلسك ها هنا؟ قال: أهلكني وأهلي الجوع، فنصبت حبالتي هذه لأصيد لهم شيئا ولنفسي ما يكفينا ويعصمنا يومنا هذا، قلت: أرأيت إن أقمت معك فأصبت صيدا تجعل لي منه جزءا؟ قال: نعم، فبينا نحن كذلك إذ وقعت ظبية في الحبالة، فخرجنا نبتدر، فبدرني إليها فحلها وأطلقها، فقلت له: ما حملك على هذا؟ قال: دخلتني لها رقة لشبهها بليلى، وأنشأ يقول:

أيا شبه ليلى لا تراعي فإنني لك اليوم من وحشية لصديق

أقول وقد أطلقتها من وثاقها فأنت لليلى ما حييت طليق

ولما عزم عبد الملك على الخروج إلى محاربة مصعب بن الزبير ناشدته زوجته عاتكة بنت يزيد بن معاوية أن لا يخرج بنفسه، وأن يستنيب غيره في حربه ولم تزل تلح عليه في المسألة وهو يمتنع من الإجابة، فلما يئست أخذت في البكاء حتى بكى من كان حولها من جواريها وحشمها، فقال عبد الملك: قاتل الله ابن أبي جمعة – يعني كثيرا – كأنه رأى موقفنا هذا حين قال:

إذا ما أراد الغزو لم يثن عزمه حصان عليها نظم در يزينها

نهته فلما لم تر النهي عاقه بكت فبكى مما شجاها قطينها

ثم عزم عليها أن تقصر فأقصرت وخرج لقصده.

ويقال إن عزة دخلت على أم البنين ابنة العزيز، وهي أخت عمر ابن عبد العزيز وزوجة الوليد بن عبد الملك: فقالت لها: أرأيت قول كثير:

قضى كل ذي دين فوفى غريمه وعزة ممطول معنى غريمها

ما كان ذلك الدين؟ قالت: وعدته قبلة فحرجت منها، فقالت أم البنين: أنجزيها وعلي إثمها. ثم ندمت أم البنين فاستغفرت الله تعالى وأعتقت عن هذه الكلمة أربعين رقبة.

وكان لكثير غلام عطار بالمدينة، وربما باع نساء العرب بالنسيئة، فأعطى عزة وهو لا يعرفها شيئا من العطر، فمطلته أياما، وحضرت إلى حانوته في نسوة فطالبها: فقالت له: حبا وكرامة، ما أقرب الوفاء وأسرعه، فأنشد متمثلا:

قضى كل ذي دين فوفى غريمه وعزة ممطول معنى غريمها

فقالت النسوة: اتدري من غريمتك؟ قال: لا والله، فقلن: هي والله عزة فقال: أشهدكن الله أنها في حل مما لي قبلها، ثم مضى إلى سيده فأخبره بذلك، فقال كثير: وأنا أشهد الله أنك حر لوجهه، ووهبه جميع ما في حانوت العطر، فكان ذلك من عجائب الاتفاق.

ولكثير في مطالها بالوعد شعر كثير، فمن ذلك قوله:

أقول لها عزيز مطلت ديني وشر الغانيات ذوو المطال

فقالت ويح غيرك كيف أقضي غريما ما ذهبت له بمال

وله:

وقد زعمت أني تغيرت بعدها ومن ذا الذي يا عز لا يتغير

تغير جسمي والخليقة كالذي عهدت ولم يخبر بسرك مخبر

ولما قتل يزيد بن المهلب بن أبي صفرة وجماعة من أهل بيته بعقر بابل – وسيأتي خبر ذلك في ترجمته إن شاء الله تعالى – وكانوا يكثرون الإحسان إلى كثير، فلما بلغه ذلك قال: ما أجل الخطب! ضحى بنو حرب بالدين يوم الطف وضحى بنو مروان بالكرم يوم العقر، وأسبلت عيناه بالدموع.

وحدث أبو الفرج الأصبهاني صاحب كتاب الأغاني أن كثيرا خرج من عند عبد الملك بن مروان وعليه مطرف، فاعترضته عجوز في الطريق اقتبست نارا في روثة، فتأفف كثير في وجهها، فقالت: من أنت؟ قال: كثير عزة، فقالت: ألست القائل:

فما روضة زهراء طيبة الثرى يمج الندى جثجاثها وعرارها

بأطيب من أردان عزة موهنا إذا أوقدت بالمندل الرطب نارها

فقال لها كثير: نعم، فقالت: لو وضع المندل الرطب على هذه الروثة لطيب رائحتها، هلا قلت كما قال امرؤ القيس:

ألم ترياني كلما جئت طارقا   وجدت بها طيبا وإن لم تطيب

فناولها المطرف وقال: استري علي هذا.

وسمعت بعض مشايخ الأدب في زمن اشتغالي بالأدب يقول: إن النصف الثاني من البيت الثاني من تتمة أوصاف الروضة أيضا، فكأنه قال: إن هذه الروضة الطيبة الثرى التي يمج الندى جثجاثها وعرارها إذا أوقدت بالمندل الرطب نارها ما هي بأطيب من أردان عزة وعلى هذا لا يبقى عليه اعتراض، لكنه يبعد أن يكون هذا مقصوده.

وكان كثير ينسب إلى الحمق، ويروى أنه دخل يوما على يزيد بن عبد الملك فقال: يا أمير المؤمنين، ما يعني الشماخ بقوله:

إذا الأرطى توسد أبرديه   خدود جوازئ بالرمل عين

فقال يزيد: وما يضرني أن لا أعرف ما عنى هذا الأعرابي الجلف؟ واسحمقه وأمر بإخراجه.

ودخل كثير على عبد العزيز بن مروان والد عمر يعوده في مرضه، وأهله يتمنون أن يضحك، وكان يومئذ أمير مصر، فلما وقف عليه قال: لولا أن سرورك لا يتم بأن تسلم وأسقم لدعوت الله ربي أن يصرف ما بك إلي، ولكني أسأل الله تعالى لك العافية ولي في كنفك النعمة، فضحك عبد العزيز، وأنشد كثير:

ونعود سيدنا وسيد غيرنا   ليت التشكي كان بالعواد

لو كان يقبل فدية لفديته   بالمصطفى من طارفي وتلادي

ومما يستجاد من شعر كثير قصيدته التائية التي يقول من جملتها:

وإني وتهيامي بعزة بعد ما   تسليت من وجد بها وتسلت

لكالمرتجي ظل الغمامة كلما   تبوأ منها للمقيل اضمحلت

وقال أبو علي القالي: أنشدنا أبو عبد الله إبراهيم بن عرفة المعروف بنفطويه لكثير:

ألا تلك عزة قد أقبلت   تقلب للهجر طرفا غضيضا

تقول مرضت فما عدتني   وكيف يعود مريض مريضا

ومن شعره أيضا:

رهبان مدين والذين عهدتهم   يبكون من حذر العذاب قعودا

لو يسمعون كما سمعت كلامها   خروا لعزة ركعا وسجودا

وبلغ كثيرا أن عزة مريضة وانها تشتاقه فخرج يريدها، فلما صار ببعض الطريق لقيه أعرابي من نهد فقال: يا أبا صخر، أين تريد؟ قال: أريد عزة، قال: فهل رأيت في وجهك شيئا؟ قال: لا، إلا اني رأيت غرابا ساقطا فوق بانة ينتف ريشه، قال: توافي مصر وقد ماتت عزة، فانتهره كثير ثم مضى وعاد كثير إلى مصر فوافاها والناس منصرفون من جنازة عزة فقال:

رأيت غرابا ساقطا فوق بانة   ينتف أعلى ريشه ويطايره

فقلت ولو أني أشاء زجرته   بنفسي للنهدي هل أنت زاجره

فقال غراب لاغتراب وفرقة وبان فبين من حبيب تعاشره

فما أعيف النهدي لا در دره وازجره للطير لا عز ناصره

وكان كثير بمصر وعزة بالمدينة، فاشتاق إليها فسافر نحوها، فلقيها في الطريق وهي متوجهة إلى مصر، وجرى بينهما كلام يطول شرحه، ثم إنها انفصلت عنه وقدمت إلى مصر، وعاد كثير إلى مصر فوافاها والناس ينصرفون من جنازتها فأتى قبرها وأناخ راحلته عنده، ومكث ساعة، ثم رحل وهو ينشد أبياتا منها:

أقول ونضوي واقف عند قبرها عليك سلام الله والعين تسفح

وقد كنت أبكي من فراقك حية فأنت لعمري اليوم أنأى وأنزح

وأخبارهما كثيرة.

وتوفي كثير عزة في سنة خمس ومائة، رحمه الله تعالى، وروى محمد بن سعد عن الواقدي عن خالد بن القاسم البياضي قال: مات عكرمة مولى ابن عباس وكثير عزة في يوم واحد في سنة خمس ومائة، فرأيتهما جميعا صلي عليهما في موضع واحد بعد الظهر، فقال الناس: مات أفقه الناس وأشعر الناس، وكان موتهما بالمدينة، وقد تقدم ذكر عكرمة والخلاف في تاريخ موته، فلينظر هناك في ترجمته.

وقد تقدم الكلام على الخزاعي.

وكثير: تصغير كثير وإنما صغر لأنه كان حقيرا شديد القصر. وكان إذا دخل على عبد العزيز بن مروان يقول: طأطئ رأسك لئلا يؤذيك السقف، يمازحه بذلك، وكان يلقب زب الذباب لقصره، وقال بعضهم: رأيت كثيرا يطوف بالبيت، فمن أخبرني أن طوله كان أكثر من ثلاثة أشبار فقد كذب.

مظفر الدين صاحب إربل

أبو سعيد كوكبوري بن أبي الحسن علي بن بكتكين بن محمد، الملقب الملك المعظم مظفر الدين صاحب إربل.

كان والده زين الدين علي المعروف بكجك صاحب إربل، ورزق أولادا كثيرة، وكان قصيرا، ولهذا قيل له كجك وهو لفظ أعجمي معناه بالعربي صغير: أي صغير القدر، وأصله من التركمان، وملك إربل وبلادا كثيرة في تلك النواحي، وفرقها على أولاد أتابك قطب الدين مودود بن زنكي صاحب الموصل و لم يبق له سوى إربل، والشرح يطول، وعمر طويلا، يقال إنه جاوز مائة سنة وعمي في آخر عمره، وانقطع بإربل إلى أن توفي بها ليلة الأحد حادي عشر ذي القعدة سنة ثلاث وستين وخمسمائة وقال ابن شداد في سيرة صلاح الدين: مات في ذي الحجة من السنة ودفن في تربته المعروفة به المجاورة للجامع العتيق داخل البلد رحمه الله تعالى، وكان موصوفا بالقوة المفرطة والشهامة، وله بالموصل أوقاف كثيرة مشهورة من مدارس وغيرها.

قال شيخنا الحافظ عز الدين أبو الحسن علي المعروف بابن الأثير الجزري في تاريخه الصغير الذي عمله لبني أتابك ملوك الموصل: إن زين الدين المذكور سار عن الموصل إلى إربل سنة ثلاث وستين وخمسمائة، وسلم جميع ما كان بيده من البلاد والقلاع إلى أتابك قطب الدين، فمن ذلك سنجار وحران وقلعة عقر الحميدية وقلاع الهكارية جميعها وتكريت وشهرزور وغير ذلك، وما ترك لنفسه سوى إربل، وكان قد حج هو وأسد الدين شيركوه بن شاذي في سنة خمس وخمسين وخمسمائة.

ولما توفي ولي موضعه ولده مظفر الدين المذكور وعمره أربع عشرة سنة، وكان أتابكه مجاهد الدين قايماز – المذكور في حرف القاف – فأقام مدة، ثم تعصب مجاهد الدين عليه، وكتب محضرا أنه ليس أهلا لذلك، وشاور الديوان العزيز في أمره واعتقله، وأقام أخاه زين الدين أبا مظفر يوسف مكانه، وكان أصغر منه، ثم أخرج مظفر الدين من البلاد، فتوجه إلى بغداد فلم يحصل له بها مقصوده، فانتقل إلى الموصل ومالكها يومئذ سيف الدين غازي بن مودود – المقدم ذكره في حرف الغين –، فاتصل بخدمته، وأقطعه مدينة حران، فانتقل إليها وأقام بها مدة، ثم اتصل بخدمة السلطان صلاح الدين،

وحظي عنده، وتمكن منه، وزاده في الاقطاع الرها في سنة ثمان وسبعين وخمسمائة، وأخذ صلاح الدين الرها من ابن الزعفراني وأعطاها مظفر الدين مع حران، وأخذ الرقة من ابن حسان وأعطاها ابن الزعفراني، والشرح في ذلك يطول، ثم أعطاه سميساط، وزوجه أخته الست ربيعة خاتون بنت أيوب، وكانت قبله زوجة سعد الدين مسعود بن معين الدين صاحب قصر معين الدين الذي بالغور، وتوفي سعد الدين المذكور سنة إحدى وثمانين وخمسمائة. وشهد مظفر الدين مع صلاح الدين مواقف كثيرة وأبان فيها عن نجدة وقوة نفس وعزيمة، وثبت في مواضع لم يثبت فيها غيره على ما تضمنته تواريخ العماد الأصبهاني وبهاء الدين بن شداد وغيرهما، وشهرة ذلك تغني عن الإطالة فيه، ولو لم يكن له إلا وقعة حطين لكفته، فانه وقف هو وتقي الدين صاحب حماة – المقدم ذكره – وانكسر العسكر بأسره، ثم لما سمعوا بوقوفهما تراجعوا حتى كانت النصرة للمسلمين، وفتح الله سبحانه عليهم. ثم لما كان السلطان صلاح الدين منازلا عكا بعد استيلاء الفرنج عليها وردت عليه ملوك الشرق تنجده وتخدمه، وكان في جملتهم زين الدين يوسف أخو مظفر الدين، وهو يومئذ صاحب إربل، فأقام قليلا ثم مرض، وتوفي في الثامن والعشرين من شهر رمضان سنة ست وثمانين وخمسمائة بالناصرة – وهي قرية بالقرب من عكا يقال إن المسيح عليه الصلاة والسلام ولد بها على الاختلاف الذي في ذلك – فلما توفي التمس مظفر الدين من السلطان أن يترل عن حران والرها وسميساط، ويعوضه إربل، فأجابه إلى ذلك وضم إليه شهرزور، فتوجه إليها ودخل إربل في ذي الحجة سنة ست وثمانين وخمسمائة، هذه خلاصة أمره.

وأما سيرته الذاتية فلقد كان له في فعل الخيرات غرائب لم يسمع أن أحدا فعل في ذلك ما فعله، لم يكن في الدنيا شيء أحب إليه من الصدقة، كان له كل يوم قناطير مقنطرة من الخبز يفرقها على المحاويج في عدة مواضع من البلد يجتمع في كل موضع خلق كثير يفرق عليهم في أول النهار، وكان إذا نزل من الركوب يكون قد اجتمع عند الدار خلق كثير فيدخلهم إليه ويدفع لكل واحد كسوة على قدر الفصل من الشتاء والصيف أو غير ذلك، ومع الكسوة شيء من الذهب من الدينار والاثنين والثلاثة وأقل وأكثر، وكان قد بنى أربع خانقاهات للزمنى والعميان وملأها من هذين الصنفين، وقرر لهم ما يحتاجون إليه كل يوم، وكان يأتيهم بنفسه في كل عصرية اثنين وخميس ويدخل عليهم، ويدخل إلى كل واحد في بيته، ويسأله عن حاله ويتفقده بشيء من النفقة، وينتقل إلى الآخر، وهكذا حتى يدور على جميعهم، وهو يباسطهم ويمزح معهم ويجبر قلوبهم، وبنى دارا للنساء الأرامل، ودارا للصغار الأيتام، ودارا للملاقيط رتب بهم جماعة من المراضع، وكل مولود يلتقط يحمل إليهن فيرضعنه، وأجرى على أهل كل دار ما يحتاجون إليه في كل يوم، وكان يدخل إليها في كل وقت ويتفقد أحوالهم ويعطيهم النفقات زيادة على المقرر لهم، وكان يدخل إلى البيمارستان ويقف على مريض مريض ويسأله عن مبيته وكيفية حاله وما يشتهيه وكان له دار مضيف يدخل إليها كل قادم على البلد من فقيه أو فقير أو غيرهما، وعلى الجملة فما كان يمنع منها كل من قصد الدخول إليها، ولهم الراتب الدار في الغداء والعشاء، وإذا عزم الإنسان على السفر أعطوه نفقة على ما يليق بمثله، وبنى مدرسة رتب فيها فقهاء الفريقين من الشافعية والحنفية، وكان كل وقت يأتيها بنفسه، ويعمل السماط بها ويبيت بها ويعمل السماع، فإذا طاب وخلع شيئا من ثيابه، سير للجماعة بكرة شيئا من الأنعام، و لم يكن له لذة سوى السماع، فإنه كان لا يتعاطى المنكر، ولا يمكن من إدخاله إلى البلد، وبنى للصوفية خانقاهين فيهما خلق كثير من المقيمين والواردين، ويجتمع في أيام المواسم فيهما من الخلق ما يعجب الإنسان من كثرتهم، ولهما أوقاف كثيرة تقوم بجميع ما يحتاج إليه ذلك الخلق، ولا بد عند سفر كل واحد من نفقة يأخذها، وكان يترل بنفسه إليهم ويعمل عندهم السماعات في كثير من الأوقات.

وكان يسير في كل سنة دفعتين جماعة من امنائه إلى بلاد الساحل ومعهم جملة مستكثرة من الناس يفتك بها أسرى المسلمين من أيدي الكفار، فإذا وصلوا إليه أعطى كل واحد شيئا، وإن لم يصلوا فالأمناء يعطونهم بوصية منه في ذلك. وكان يقيم في كل سنة سبيلا للحاج، ويسير معه جميع ما تدعو حاجة المسافر إليه في الطريق، ويسير صحبته أمينا معه خمسة أو ستة آلاف دينار ينفقها بالحرمين على المحاويج وأرباب الرواتب، وله بمكة حرسها الله تعالى، آثار جميلة وبعضها باق إلى الآن، وهو أول من أجرى الماء إلى جبل عرفات ليلة الوقوف: وغرم عليه جملة كثيرة، وعمر بالجبل مصانع للماء، فإن الحجاج كانوا يتضررون من عدم الماء، وبنى له تربة أيضا هناك.

وأما احتفاله بمولد النبي صلى الله عليه وسلم، فإن الوصف يقصر عن الإحاطة به، لكن نذكر طرفا منه: وهو أن أهل البلاد كانوا قد سمعوا بحسن اعتقاده فيه، فكان في كل سنة يصل إليه من البلاد القريبة من إربل – مثل بغداد والموصل والجزيرة وسنجار ونصيبين وبلاد العجم وتلك النواحي – خلق كثير من الفقهاء والصوفية والوعاظ والقراء والشعراء، ولا يزالون يتواصلون من المحرم إلى أوائل شهر ربيع الأول، ويتقدم مظفر الدين بنصب قباب من الخشب كل قبة أربع أو خمس طبقات، ويعمل مقدار عشرين قبة وأكثر، منها قبة له، والباقي للأمراء وأعيان دولته لكل واحد قبة، فإذا كان أول صفر زينوا تلك القباب بأنواع الزينة الفاخرة المستجملة، وقعد في كل قبة جوق من المغاني وجوق من أرباب الخيال ومن أصحاب الملاهي، و لم يتركوا طبقة من تلك الطباق في كل قبة حتى رتبوا فيها جوقا، وتبطل معايش الناس في تلك المدة، وما يبقى لهم شغل إلا التفرج والدوران عليهم، وكانت القباب منصوبة من باب القلعة إلى باب الخانقاه المجاورة للميدان، فكان مظفر الدين يترل كل يوم بعد صلاة العصر ويقف على قبة قبة إلى آخرها، ويسمع غناءهم، ويتفرج على خيالاتهم وما يفعلونه في القباب، ويبيت في الخانقاه ويعمل السماع ويركب عقيب صلاة الصبح يتصيد، ثم يرجع إلى القلعة قبل الظهر، هكذا يعمل كل يوم إلى ليلة المولد، وكان يعمله سنة في ثامن الشهر، وسنة في الثاني عشر، لأجل الاختلاف الذي فيه، فإذا كان قبل المولد بيومين أخرج من الإبل والبقر والغنم شيئا كثيرا زائدا عن الوصف وزفها بجميع ما عنده من الطبول والمغاني والملاهي حتى يأتي بها إلى الميدان، ثم يشرعون في نحرها، وينصبون القدور ويطبخون الألوان، المختلفة فإذا كانت ليلة المولد عمل السماعات بعد أن يصلي المغرب في القلعة ثم يترل وبين يديه من الشموع المشتعلة شيئ كثير، وفي جملتها شمعتان أو أربع – أشك في ذلك – من الشموع الموكبية التي تحمل كل واحدة منها على بغل، ومن ورائها رجل يسندها وهي مربوطة على ظهر البغل حتى ينتهي إلى الخانقاه، فإذا كان صبيحة يوم المولد أنزل الخلع من القلعة إلى الخانقاه على أيدي الصوفية، على يد كل شخص منهم بقجة، وهو متتابعون كل واحد وراء الآخر، فيترل من ذلك شيء كثير لا أتحقق عدده، ثم يترل إلى الخانقاه وتجتمع الأعيان والرؤساء وطائفة كبيرة من بياض الناس، وينصب كرسي للوعاظ، وقد نصب لمظفر الدين برج خشب له شبابيك إلى الموضع الذي فيه الناس والكرسي، وشبابيك أخر للبرج أيضا إلى الميدان، وهو ميدان كبير في غاية الاتساع، ويجتمع فيه الجند ويعرضهم ذلك النهار، وهو تارة ينظر إلى عرض الجند وتارة إلى الناس والوعاظ، ولا يزال كذلك حتى يفرغ الجند من عرضهم، فعند ذلك يقدم السماط في الميدان للصعاليك، ويكون سماطا عاما فيه من الطعام والخبز شيء كثير لا يحد ولا يوصف، ويمد سماطا ثانيا في الخانقاه للناس المجتمعين عند الكرسي، وفي مدة العرض ووعظ الوعاظ يطلب واحدا واحدا من الأعيان والرؤساء والوافدين لأجل هذا الموسم ممن قدمنا ذكره من الفقهاء والوعاظ والقراء والشعراء، ويخلع على كل واحد ثم يعود إلى مكانه، فإذا تكامل ذلك كله، حضروا السماط وحملوا منه لمن يقع التعيين على الحمل إلى داره، ولا يزالون على ذلك إلى العصر أو بعدها، ثم يبيت تلك الليلة هناك، ويعمل السماعات إلى بكرة، هكذا يعمل في كل سنة، وقد لخصت صورة الحال فإن الاستقصاء يطول، فإذا فرغوا من هذا الموسم تجهز كل إنسان للعود إلى بلده، فيدفع لكل شخص شيئا من النفقة، وقد ذكرت في ترجمة الحافظ أبي الخطاب ابن دحية في حرف العين وصوله إلى إربل وعمله لكتاب التنوير في مولد السراج المنير لما رأى من اهتمام مظفر الدين به، وأنه أعطاه ألف دينار غير ما غرم عليه مدة إقامته من الإقامات الوافرة.

وكان رحمه الله متى أكل شيئا استطابه لا يختص به، بل إذا أكل من زبدية لقمة طيبة قال لبعض الجنادرة: احمل هذا إلى الشيخ فلان أو فلانة ممن هم عنده مشهورون بالصلاح، وكذلك يعمل في الفاكهة والحلوى وغير ذلك من المطاعم.

وكان كريم الأخلاق كثير التواضع حسن العقيدة سالم البطانة شديد الميل إلى أهل السنة والجماعة لا ينفق عنده من أرباب العلوم سوى الفقهاء والمحدثين ومن عداهما لا يعطيه شيئا إلا تكلفا، وكذلك الشعراء لا يقول بهم ولا يعطيهم إلا إذا قصدوه فما كان يضيع قصدهم ولا يخيب أمل من يطلب بره، وكان يميل إلى علم التاريخ، وعلى خاطره منه شيء يذاكر به، و لم يزل، رحمه الله تعالى، مؤيدا في مواقفه ومصافاته مع كثرتها، لم ينقل أنه انكسر في مصاف قط، ولو استقصيت في تعداد محاسنه لطال الكتاب، وفي شهرة معروفه غنية عن الإطالة وليعذر الواقف على هذه الترجمة ففيها تطويل، و لم يكن سببه إلا ما له علينا من الحقوق التي لا نقدر على القيام بشكر بعضها، ولو عملنا مهما عملناه، وشكر المنعم واجب، فجزاه الله عنا أحسن الجزاء، فكم له علينا من الأيادي، ولأسلافه على أسلافنا من الإنعام، والإنسان صنيعة الإحسان، ومع الاعتراف بجميله فلم أذكر عنه شيئا على

سبيل المبالغة، بل كل ما ذكرته عن مشاهدة وعيان، وربما حذفت بعضه طلبا للإيجاز.

وكانت ولادته بقلعة الموصل ليلة الثلاثاء السابعة والعشرين من المحرم سنة تسع وأربعين وخمسمائة. وتوفي وقت الظهر ليلة الجمعة رابع عشر شهر رمضان سنة ثلاثين وستمائة بداره في البلد التي كانت لمملوكه شهاب الدين قراطايا، فلما قبض عليه في سنة أربع عشرة وستمائة أخذها وصار يسكنها بعض الأوقات، فمات بها، ثم نقل إلى قلعة إربل ودفن بها، ثم حمل بوصية منه إلى مكة، شرفها الله تعالى، وكان قد أعد له بها قبة تحت الجبل في ذيله يدفن فيها، وقد سبق ذكرها، فلما توجه الركب إلى الحجاز سنة إحدى وثلاثين سيروه في الصحبة، فاتفق أن رجع الحاج تلك السنة من لينة، ولو يصلوا إلى مكة، فردوه ودفنوه بالكوفة بالقرب من المشهد، رحمه الله تعالى وعوضه خيرا وتقبل مباره وأحسن منقلبه.

وأما زوجته ربيعة خاتون بنت أيوب فإنها توفيت في شعبان سنة ثلاث وأربعين وستمائة، وغالب ظني أنها جاوزت ثمانين سنة، ودفنت في مدرستها الموقوفة على الحنابلة بسفح قاسيون، وكانت وفاتها بدمشق، وأدركت من محارمها من الملوك من إخوتها وأولادهم أكثر من خمسين رجلا غير محارمها من غير الملوك ولولا خوف الإطالة لذكرتهم مفصلا، فإن إربل كانت لزوجها المذكور، والموصل لأولاد بنتها، وخلاط وتلك الناحية لابن أخيها الملك الأوحد نجم الدين أيوب ابن الملك العادل، وبلاد الجزيرة الفراتية للأشرف ابن أخيها، وبلاد الشام لأولاد إخوتها، والديار المصرية والحجازية واليمن لإخوتها وأولادهم، ومن تأمل ذلك عرف الجميع.

وكوكبوري: بضم الكافين بينهما واو ساكنة ثم باء موحدة مضمومة ثم واو ساكنة وبعدها راء، وهو اسم تركي معناه بالعربي ذئب أزرق.

وبكتكين: بضم الباء الموحدة وسكون الكاف وكسر التاء المثناة من فوقها والكاف وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها نون وهو اسم تركي أيضا.

ولينة: بكسر اللام وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح النون وبعدها هاء ساكنة، منزلة في طريق الحجاز من جهة العراق، وكان الركب في تلك السنة قد رجع منها لعدم الماء وقاسوا مشقة عظيمة.

العتابي

كلثوم بن عمرو العتابي الشاعر المشهور، كان شاعرا خطيبا بليغا مجيدا، وهو من أهل قنسرين وقدم بغداد ومدح هارون الرشيد وغيره من الخلفاء، وله رسائل مستحسنة، وكان يتجنب غشيان السلطان قناعة وصيانة وتنزها وتعززا، وكان يلبس الصوف ويظهر الزهد، مترسل بليغ مطبوع متصرف في فنون من الشعر مقدم في الخطابة والرواية حسن العارضة والبديهة، من شعراء الدولة العباسية، وكان يقول بالاعتزال، فاتصل بالرشيد وكثر عليه من أمره فأمر فيه بأمر غليظ فهرب إلى اليمن وكان مقيما بها، فاحتال يحيى بن خالد إلى أن حمل للرشيد من خطبه ورسائله فاستحسن الرشيد ذلك وسأل عن الكلام لمن هو فقال يحيى: هو للعتابي، ولو حضر حتى يسمع منه الأمين والمأمون هذا الكلام ويصنع لهما خطبا لكان في ذلك صلاح، فأمر بإحضاره، فأخذ له يحيى الأمان واتصل الخبر بالعتابي فقال:

ما زلت في غمرات الموت منطرحا ... قد غاب عني وجوه الأمر من حيلي

فلم تزل دائبا تسعى لتنقذني ... حتى استللت حياتي من يدي أجلي

وكان العتابي منقطعا إلى البرامكة، ومنصور النمري روايته وتلميذه.

قال أبو دعامة الشاعر: كتب طوق بن مالك إلى العتابي يستزيره ويدعوه إلى أن يصل القرابة بينه وبينه، فرد عليه: إن قريبك من قرب منك خيره وابن عمك من عمك نفعه وإن عشيرك من أحسن عشرتك وإن أحب الناس إليك أجراهم بالمنفعة عليك، ولذلك أقول:

ولقد بلوت الناس ثم سبرتهم ... وخبرت ما وصلوا من السباب

فإذا القرابة لا تقرب قاطعا ... وإذا المودة أكبر الأنساب

قيل للعتابي: انك تلقى العامة ببشر وتقريب فقال: رفع ضغينة بأيسر مؤنة واكتساب إخوان بأهون مبذول.

ولما قدم العتابي مدينة السلام على المأمون أذن له فدخل وعنده إسحاق الموصلي، وكان العتابي شيخا جليلا نبيلا، فسلم فرد عليه وأدناه وقربه حتى

قرب منه فقبل يده، ثم أمره بالجلوس فجلس، ثم أقبل عليه يسأله عن حاله وهو يجيبه بلسان طلق، فاستطرف المأمون ذلك منه فأقبل عليه بالمداعبة بالمزح، فظن الشيخ أنه استخف به فقال: يا أمير المؤمنين، الإيناس قبل الإبساس، فاشتبه على المأمون قوله فنظر إلى إسحاق مبتسما فأومأ إليه بعينه وغمزه على معناه حتى فهمه ثم قال: يا غلام، ألف دينار، فأتي بذلك فوضعه بين يدي العتابي وأخذوا في الحديث، ثم غمز المأمون إسحاق بن إبراهيم عليه، فجعل العتابي لا يأخذ في شيء إلا عارضه فيه إسحاق بن إبراهيم، فبقي العتابي متعجبا ثم قال: يا أمير المؤمنين، أتأذن لي في مسألة هذا الشيخ عن اسمه؟ قال: نعم سله، فقال إسحاق: يا شيخ، من أنت وما اسمك؟ قال: أنا من الناس واسمي كل بصل، فتبسم العتابي ثم قال: أما النسب فمعروف وأما الاسم فمنكر، فقال له إسحاق: ما أقل انصافك! أتنكر أن يكون اسمي كل بصل واسمك كل ثوم؟ وما كلثوم من الأسماء؟ أو ليس البصل أطيب من الثوم؟ فقال له العتابي لله درك ما أحجك، أتأذن لي يا أمير المؤمنين أن أصله بما وصلتني به؟ فقال له المأمون: بل ذلك موفر عليك ونأمر له بمثله، فقال له إسحاق: أما إذا أقررت بهذه فتوهمني تجدني، فقال له: ما أظنك إلا إسحاق الموصلي الذي تناهى إلينا خبره، فقال: أنا حيث ظننت، فأقبل عليه بالتحية والسلام، فقال المأمون وقد طال الحديث بينهما: أما إذا اتفقتما على المودة فانصرفا، فانصرف العتابي إلى منزل إسحاق فأقام عنده.

كتب المأمون في إشخاص العتابي فلما دخل عليه قال له: يا كلثوم بلغني وفاتك فساءني ثم بلغني وفادتك فسرتني، فقال له العتابي: يا أمير المؤمنين، لو قسمت هاتان الكلمتان على أهل الأرض لوسعتهم فضلا وإنعاما وقد خصصتني منهما بما لا يتسع له أمنية ولا ينبسط لسواه أمل، لأنه لا دين إلا بك ولا دنيا إلا معك، قال: سلني، قال: يدك بالعطاء أطلق من لساني بالمسألة، فوصله صلة سنية وبلغ به من التقديم والإكرام أعلى محل.

قال الأصمعي: كتب كلثوم بن عمرو العتابي إلى رجل:

ان الكريم ليخفى عنك عسرته ... حتى تراه غنيا وهو مجهود

وللبخيل على أمواله علل ... زرق العيون عليها أوجه سود

بث النوال ولا يمنعك قلته ... فكل ما سد فقرا فهو محمود

قال: فشاطره ماله حتى بعث إليه بنصف خاتمه وفرد نعله.

قال مالك بن طوق للعتابي: يا أبا عمرو، رأيتك كلمت فلانا فأقللت كلامك، قال: نعم كانت معي حيرة الداخل وفكرة صاحب الحاجة وذل المسألة وخوف الرد مع شدة الطمع.

وقيل للعتابي: قد فلح -؟ - ابن مسلم الخلق، قال: لعله أكل من شعره. ومثل ذلك اجتمع قوم من الشعراء على فالوذجة حارة فقال أحدهم يخاطب شخصا منهم: كأنها مكانك من النار، قال له: أصلحها ببيب من شعرك.

قيل: كان مروان بن السمط يرمى في شعره بالبرد، وكانت له بغلة بالبصرة لا يفارق ركوبها فقال الجماز يهجوه...

الليث بن سعد

أبو الحارث الليث بن سعد بن عبد الرحمن إمام أهل مصر في الفقه والحديث، كان مولى قيس بن رفاعة، وهو مولى عبد الرحمن بن خالد بن مسافر الفهمي وأصله من أصبهان، وكان ثقة سريا سخيا، قال الليث: كتبت من علم محمد ابن شهاب الزهري علما كثيرا، وطلبت ركوب البريد إليه إلى الرصافة، فخفت أن لا يكون ذلك لله تعالى فتركته.

وقال الشافعي رضي الله عنه: الليث بن سعد أفقه من مالك، إلا أن أصحابه لم يقوموا به. وكان ابن وهب تقرأ عليه مسائل الليث، فمرت به مسألة فقال رجل من الغرباء: أحسن والله الليث، كأنه كان يسمع مالكا يجيب فيجيب هو، فقال ابن وهب للرجل: بل كان مالك يسمع الليث يجيب فيجيب هو، والله الذي لا إله إلا هو ما رأينا أحدا قط أفقه من الليث.

وكان من الكرماء الأجواد، ويقال إن دخله كان هو كل سنة خمسة آلاف دينار، وكان يفرقها في الصلات وغيرها. وقال منصور بن عمار: أتيت الليث فأعطاني ألف دينار وقال: صن بهذه الحكمة التي آتاك الله تعالى. ورأيت في بعض المجاميع أن الليث كان حنفي المذهب، وأنه ولي القضاء بمصر،

وأن الإمام مالكا أهدى إليه صينية فيها تمر، فأعادها مملوءة ذهبا، وكان يتخذ لأصحابه الفالوذج، ويعمل فيه الدنانير ليحصل لكل من أكل كثيرا أكثر وكان قد حج سنة ثلاث عشرة ومائة وهو ابن عشرين سنة، وسمع من نافع مولى ابن عمر، رضي الله عنهما.

وكان الليث يقول، قال لي بعض أهلي: ولدت سنة اثنتين وتسعين للهجرة والذي أوقن سنة أربع وتسعين في شعبان. وتوفي يوم الخميس – وقيل الجمعة – منتصف شعبان سنة خمس وسبعين ومائة ومائة ودفن يوم الجمعة بمصر في القرافة الصغرى، وقبره أحد المزارات، رضي الله عنه. وقال السمعاني: ولد في شعبان سنة أربع وعشرين ومائة، والأول أصح. وقال غيره: ولد سنة ثلاث وتسعين، والله أعلم بالصواب.

وقال بعض أصحابه: لما دفنا الليث بن سعد سمعنا صوتا وهو يقول:

ذهب الليث فلا ليث لكم ومضى العلم قريبا وقبر

قال فالتفتنا فلم نر أحدا.

ويقال: إنه من أهل قلقشندة، وهي بفتح القاف وسكون اللام وفتح القاف الثانية والشين المعجمة وسكون النون وفتح الدال المهملة وبعدها هاء ساكنة، وهي قرية من الوجه البحري من القاهرة، بينها وبين القاهرة مقدار ثلاثة فراسخ.

والفهمي: بفتح الفاء وسكون الهاء وبعدها ميم، هذه النسبة إلى فهم وهو بطن من قيس عيلان خرج منها جماعة كثيرة.

ب–الليث بن سعد أبو الحارث الليث... سريا سخيا.

ولد بقلقشندة سنة أربع وتسعين، وسمع علماء المصريين والحجازيين وروى عن عطاء بن أبي رباح وابن أبي مليكة وابن شهاب الزهري ونافع مولى ابن عمر وغيرهم، وحدث عنه هشيم بن بشير وعبد الله بن المبارك وعبد الوهاب بن وهب وعبد الله بن عبد الحكم ويحيى بن بكير وغيرهم. وقدم بغداد وحدث بها. قال الليث: كتبت من علم ابن شهاب الزهري علما كثيرا وطلبت ركوب البريد إليه إلى الرصافة فخفت أن لا يكون ذلك لله تعالى فتركته.

قال الخطيب صاحب تاريخ بغداد: خرج الليث إلى العراق سنة إحدى وستين ومائة وخرج في شوال وشهد الأضحى ببغداد.

وقال الشافعي...أفقه من الليث.

قال أبو الحسن الخادم: كنت غلاما لزبيدة وأتي يوما بالليث ين سعد، فكنت واقفا على رأس زبيدة خلف الستارة فسأله هارون الرشيد فقال: حلفت أن لي جنتين؟ فاستحلفه الليث ثلاثا انك تخاف الله فحلف له، فقال له الليث: قال الله تعالى: "ولمن خاف مقام ربه جنتان"، قال: فأقطعه قطائع كثيرة بمصر.

قال الليث بن سعد: قال لي أبو جعفر: تلي لي مصر؟ قلت: لا يا أمير المؤمنين إني أضعف عن ذلك، إني رجل من الموالي، فقال: ما بك ضعف معي، ولكن ضعفت نيتك في العمل عن ذلك لي.

وحج الليث سنة ثلاث عشرة فسمع من ابن شهاب وغيره بمكة في هذه السنة.

وقال الليث: حججت سنة ثلاث عشرة وأنا ابن عشرين سنة.

وقال يحيى بن بكير: ما رأيت أحدا أكمل من الليث بن سعد، كان فقيه البدن عربي اللسان يحسن القرآن والنحو ويحفظ الشعر والحديث حسن المذاكرة – وما زال يذكر خصالا جميلة ويعقد بيده حتى عقد عشرة – لم أر مثله.

قال سعيد بن أبي أيوب: لو أن مالكا والليث اجتمعا لكان مالك عند الليث أبكم ولباع الليث مالكا في من يزيد.

وقال ابن وهب: كل ما كان في كتب مالك وأخبرني من أثق به من أهل العلم فهو الليث بن سعد، وقال ابن وهب: لولا مالك والليث بن سعد لضل الناس.

وقال عثمان بن صالح: كان أهل مصر ينتقصون عثمان حتى نشأ فيهم الليث ابن سعد فحدثهم بفضائل عثمان فكفوا عن ذلك، وكان أهل حمص ينتقصون عليا حتى نشأ فيهم إسماعيل بن عياش فحدثهم بفضائله فكفوا عن ذلك.

وقال ابن وهب: كان الليث بن سعد يصل مالك بن أنس بمائه دينار في كل سنة، فكتب إليه مالك: إن علي دينا، فبعث إليه بخمسمائة دينار، وكتب إليه مالك: إني أريد أن أدخل ابنتي على زوجها فأحب أن تبعث إلي شيئا من عصفر، فبعث إليه ثلاثين حملا من عصفر فصبغ لابنته وباع منه بخمسمائة دينار وبقي عنده فضلة.

وقال قتيبة بن سعيد: كان الليث يستغل عشرين ألف دينار في كل سنة.

وقال: ما وجبت علي زكاة قط.

وقال محمد بن رمح: كان دخل الليث بن سعد في كل سنة ثمانين ألف دينار وما أوجب الله عليه زكاة درهم قط.

قال منصور بن عمار: أتيت الليث بن سعد فأعطاني ألف دينار وجارية تسوى ثلاثمائة دينار وقال صن بهذه الحكمة.

وجاءت امرأة إلى الليث فقالت: يا أبا الليث فقالت: يا أبا الحارث، إن ابنا لي عليل واشتهى عسلا، فقال: يا غلام، اعطها مرطا من عسل، والمرط عشرون ومائة رطل، وقال غيره: سألت المرأة منا من عسل فأمر لها بزق فقال له كاتبه: إنما سألت منا فقال: إنها سألتني على قدرها فأعطيناها على قدر السعة.

وقال الحارث بن مسكين: اشترى قوم من الليث بن سعد ثمرة فاستغلوها فاستقالوه فأقالهم ثم دعا بخريطة فيها أكياس فأمر لهم بخمسمائة دينار، فقال له الحارث ابنه في ذلك فقال: اللهم غفرا، إنهم كانوا أملوا فيه أملا فأحببت أن أعوضهم من أملهم بهذا.

وقال شعيب بن الليث: خرجت مع أبي حاجا فقدم المدينة فبعث إليه مالك بن أنس بطبق رطب فجعل على الطبق ألف دينار ورده إليه.

قال أشهب بن عبد العزيز: كان لليث بن سعد كل يوم أربعة مجالس يجلس فيها، أما أولها فيجلس ليأتيه السلطان في نوائبه وحوائجه، وكان الليث يغشاه السلطان فإن أنكر من القاضي أمرا أو من السلطان كتب إلى أمير المؤمنين فيأتيه العزل، ويجلس لأصحاب الحديث، وكان يقول: نجحوا أصحاب الحوانيت فإن قلوبهم معلقة بأسواقهم، ويجلس للمسائل يغشاه الناس فيسألونه، ويجلس لحوائج الناس لا يسأله أحد من الناس فيرده، كبرت حاجته أو صغرت، قال: وكان يطعم الناس في الشتاء الهرائس بعسل النحل وسمن البقر، وفي الصيف سويق اللوز بالسكر.

قال أبو رجاء قتيبة: قفلنا مع الليث بن سعد من الإسكندرية وكان معه ثلاث سفائن: سفينة فيها مطبخه، وسفينة فيها عياله، وسفينة فيها أضيافه.

وقال ابن بكير: سمعت الليث بن سعد كثيرا ما يقول: أنا أكبر من ابن لهيعة، والحمد لله الذي متعنا بعقلنا. وكان الليث أكبر من ابن لهيعة ولكن إذا نظرت إليهما تقول ذا ابن وذا أب، يعني ابن لهيعة الأب.

وقيل لليث بن سعد: ما صلاح بلدك يا أبا الحارث؟ قال: جرى نيلها وعدل واليها ومن رأس العين يأتي الكدر.

وقال أبو محمد ابن أبي القاسم: قلت لليث: أمتع الله بك يا أبا الحارث، إنا نسمع منك الحديث ليس في كتبك، قال: أو كل ما في صدري في كتبي؟ لو كتبت ما في صدري ما وسعه هذا المركب.

ورأيت في بعض المجاميع... وقبره أحد المزارات رضي الله عنه.

قال محمد بن عبد الرحمن: كنت جالست الليث بن سعد وشهدت جنازته وأنا مع أبي، فما رأيت جنازة أعظم منها ولا أكثر من أهلها، ورأيت كلهم عليهم الحزن والناس يعزي بعضهم بعضا ويبكون، فقلت لأبي: يا أب، كل واحد من الناس صاحب الجنازة، فقال لي: يا بني كان عالما سعيدا كريما حسن الفعل كثير الأفضال، يا بني لا ترى مثله أبدا.

ويقال إنه من أهل قلقشندة...جماعة كثيرة.

حرف الميم

الإمام مالك

الإمام أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو بن الحارث بن غميان - بغين معجمة وياء تحتها نقطتان - ويقال عثمان - بعين مهملة وثاء مثلثة - ابن جثيل - بجيم وثاء مثلثة وياء ساكنة تحتها نقطتان - وقال ابن سعد: هو خثيل بخاء معجمة، ابن عمرو بن ذي أصبح الأصبحي المدني إمام دار الهجرة وأحد الأئمة الأعلام. أخذ القراءة عرضا عن نافع بن أبي نعيم، وسمع الزهري ونافعا مولى ابن عمر، رضي الله عنهما، وروى عنه

الأوزاعي ويحيى بن سعيد، وأخذ العلم عن ربيعة الرأي – وقد تقدم ذكره – ثم أفتى معه عند السلطان. وقال مالك: قل رجل كنت أتعلم منه ومات حتى يجيئني ويستفتيني. وقال ابن وهب: سمعت مناديا ينادي بالمدينة: ألا لا يفتي الناس إلا مالك بن أنس وابن أبي ذئب.

وكان مالك إذا أراد أن يحدث توضأ وجلس على صدر فراشه وسرح لحيته وتمكن في جلوسه بوقار وهيبة ثم حدث، فقيل له في ذلك فقال: أحب أن أعظم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا أحدث به إلا متمكنا على طهارة، وكان يكره أن يحدث على الطريق أو قائما أو مستعجلا ويقول: أحب أن أتفهم ما أحدث به عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان لا يركب في المدينة مع ضعفه وكبر سنه، ويقول: لا أركب في مدينة فيها جثة رسول الله صلى الله عليه وسلم مدفونة.

وقال الشافعي، قال لي محمد بن الحسن: أيهما أعلم صاحبنا أم صاحبكم؟ يعني أبا حنيفة ومالكا، رضي الله عنهما، قال: قلت: على الإنصاف؟ قال: نعم، قال: قلت: ناشدتك الله من أعلم بالقرآن صاحبنا أم صاحبكم؟ قال: اللهم صاحبكم، قال: قلت: ناشدتك الله من أعلم بأقاويل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم المتقدمين صاحبنا أم صاحبكم؟ قال: اللهم صاحبكم، قال الشافعي: فلم يبق إلا القياس، والقياس لا يكون إلا على هذه الأشياء، فعلى أي شيء يقيس؟ وقال الواقدي: كان مالك يأتي المسجد، ويشهد الصلوات والجمعة والجنائز، ويعود المرضى ويقضي الحقوق ويجلس في المسجد ويجتمع إليه أصحابه، ثم ترك الجلوس في المسجد فكان يصلي وينصرف إلى مجلسه، وترك حضور الجنائز فكان يأتي أصحابها فيعزيهم، ثم ترك ذلك كله فلم يكن يشهد الصلوات في المسجد ولا الجمعة ولا يأتي أحدا يعزيه ولا يقضي له حقا، واحتمل الناس له ذلك حتى مات عليه، وكان ربما قيل له في ذلك فيقول: ليس كل الناس يقدر أن يتكلم بعذره.

وسعي به إلى جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس رضي الله عنهما وهو ابن عم أبي جعفر المنصور، وقالوا له: إنه لا يرى أيمان بيعتكم هذه بشيء، فغضب جعفر ودعا به وجرده وضربه بالسياط، ومدت يده حتى انخلعت كتفه وارتكب منه أمرا عظيما، فلم يزل بعد ذلك الضرب في علو ورفعة وكأنما كانت السياط حليا حلي به. وذكر ابن الجوزي في شذور العقود في سنة سبع وأربعين ومائة: وفيها ضرب مالك بن أنس سبعين سوطا لأجل فتوى لم توافق غرض السلطان، والله أعلم.

وكانت ولادته في سنة خمس وتسعين للهجرة، وحمل به ثلاث سنين. وتوفي في شهر ربيع الأول سنة تسع وسبعين ومائة، رضي الله عنه، فعاش أربعا وثمانين سنة، وقال الواقدي: مات وله تسعون سنة والله أعلم بالصواب وقال ابن الفرات في تاريخه المرتب على السنين: توفي مالك بن أنس الأصبحي لعشر مضين من شهر ربيع الأول سنة تسع وسبعين ومائة، وقيل إنه توفي سنة ثمان وسبعين ومائة، وقيل إن مولده سنة تسعين للهجرة، وقال السمعاني في كتاب الأنساب في ترجمة الأصبحي: إنه ولد في سنة ثلاث أو أربع وتسعين، والله أعلم بالصواب.

وحكى الحافظ أبو عبد الله الحميدي في كتاب جذوة المقتبس قال: حدث القعنبي قال: دخلت على مالك بن أنس في مرضه الذي مات فيه، فسلمت عليه، ثم جلست فرأيته يبكي، فقلت: يا أبا عبد الله، ما الذي يبكيك؟ قال فقال لي: يا ابن قعنب، وما لي لا أبكي؟ ومن أحق بالبكاء مني؟ والله لوددت أني ضربت لكل مسألة أفتيت فيها برأيي بسوط سوط، وقد كانت لي السعة فيما قد سبقت إليه، وليتني لم أفت بالرأي، أو كما قال.

وكانت وفاته بالمدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، ودفن بالبقيع جوار إبراهيم ولد النبي صلى الله عليه وسلم وكان شديد البياض إلى الشقرة، طويلا عظيم الهامة أصلع، يلبس الثياب العدنية الجياد، ويكره حلق الشارب ويعيبه ويراه من المثلة، ولا يغير شيبه.

ورثاه أبو محمد جعفر بن أحمد بن الحسين السراج – وقد سبق ذكره – بقوله:

سقى جدثا ضم البقيع لمالك ... من المزن مرعاد السحائب مبراق
إمام موطاه الذي طبقت به ... أقاليم في الدنيا فساح وآفاق
أقام به شرع النبي محمد ... له حذر من أن يضام وإشفاق
له سند عال صحيح وهيبة ... فللكل منه حين يرويه إطراق

وأصحاب صدق كلهم علم فسل بهم إنهم إن أنت ساءلت حذاق

ولو لم يكن إلا ابن إدريس وحده كفاه ألا إن السعادة أرزاق

والأصبحي: بفتح الهمزة وسكون الصاد المهملة وفتح الباء الموحدة وبعدها حاء مهملة، هذه النسبة الى ذي أصبح، واسمه الحارث بن عوف بن مالك بن زيد بن شداد بن زرعة، وهو من يعرب بن قحطان، وهي قبيلة كبيرة باليمن، واليها تنسب السياط الأصبحية. وقال هشام بن الكلبي في جهرة النسب ذو أصبح هو الحارث بن مالك بن زيد بن غوث بن سعد بن عوف بن عدي بن مالك بن زيد بن سهل بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جثم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن قطن بن عريب بن زهير بن أيمن بن همسيع بن حمير بن سبأبن يشجب بن يعرب بن قحطان، واسمه يقطن، بن عابر بن شالخ بن ارفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام، والذي ذكرناه أولا ذكره الحازمي في كتاب العجالة والله أعلم بالصواب.

مالك بن دينار

أبو يحيى مالك بن دينار البصري، وهو من موالي بني سامة بن لؤي القرشي، كان عالما زاهدا كثير الورع قنوعا لا يأكل إلا من كسبه، وكان يكتب المصاحف بالأجرة، وروي عنه أنه قال: قرأت في التوراة أن الذي يعمل بيده طوبى لمحياه ومماته. وكان يوما في مجلس وقد قص فيه قاص، فبكى القوم، ثم ما كان بأوشك من أن أتوا برؤوس فجعلوا يأكلون منها، فقيل لمالك: كل، فقال: إنما يأكل الرؤوس من بكى، وأنا لم أبك، فلم يأكل.

وله مناقب عديدة وآثار شهيرة: فمن ذلك ما حكاه أبو القاسم خلف بن بشكوال الأندلسي – المقدم ذكره – في كتابه الذي سماه كتاب المستغيثين بالله تعالى، فإنه قال: بينما مالك بن دينار يوما جالس إذ جاءه رجل فقال: يا أبا يحيى، ادع الله لامرأة حبلى منذ أربع سنين وقد أصبحت في كرب شديد، فغضب مالك وأطبق المصحف ثم قال: ما يرى هؤلاء القوم إلا أننا انبياء، ثم قرأ ثم دعا فقال: اللهم هذه المرأة إن كان في بطنها جارية فأبدلها بها غلاما فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب، ثم رفع مالك يده ورفع الناس أيديهم، وجاء رسول إلى عند الرجل وقال: أدرك امرأتك، فذهب الرجل فما حط مالك يده حتى طلع الرجل من باب المسجد، على رقبته غلام جعد قطط ابن أربع سنين قد استوت أسنانه، ما قطعت سراره.

وكان من كبار السادات. وتوفي سنة إحدى وثلاثين ومائة بالبصرة، قبل الطاعون بيسير، رحمه الله تعالى.

وقد أذكرني مالك بن دينار أبياتا أنشدنيها لنفسه صاحبنا جمال الدين محمود ابن عبد عملها في بعض الملوك، وقد حارب ملكا آخر فانتصر الملك الذي عمل فيه الأبيات على عدوه، وغنم أمواله وخزائنه وأسر رجاله وأبطاله، فلما صار الجميع في قبضته فرق الأموال على الناس واعتقل الأجناد، فمدحه ابن عبد المذكور بقصيدة أجاد فيها كل الإجادة، ووصف هذه الواقعة، واستعمل لفظة مالك بن دينار وحصل له فيها التورية العجيبة، والموضع المقصود منها قوله:

أعتقت من أموالهم ما استعبدوا وملكت رقهم وهم أحرار

حتى غدا من كان منهم مالكا متمنيا لو أنه دينار

وهذا في نهايةالحسن، فلهذا ذكرتهما.

مجد الدين ابن الأثير الجزري

أبو السعادات المبارك بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني، المعروف بابن الأثير الجزري، الملقب مجد الدين.

قال أبو البركات ابن المستوفي في تاريخ إربل في حقه: أشهر العلماء ذكرا، وأكبر النبلاء قدرا، وأحد الأفاضل المشار إليهم، وفرد الأماثل المعتمد في الأمور عليهم، أخذ النحو عن شيخه أبي محمد سعيد بن المبارك الدهان – وقد سبق ذكره – وسمع الحديث متأخرا، ولم تتقدم روايته.

وله المصنفات البديعة والرسائل الوسيعهة، منها: جامع الأصول في أحاديث الرسول جمع فيه بين الصحاح الستة، وهو على وضع كتاب رزين، إلا أن فيه زيادات كثيرة عليه، ومنها كتاب النهاية في غريب الحديث في خمس مجلدات، وكتاب الإنصاف في الجمع بين الكشف والكشاف في تفسير القرآن

الكريم، أخذه من تفسير الثعلبي والزمخشري، وله كتاب المصطفى والمختار في الأدعية والأذكار وله كتاب لطيف في صنعة الكتابة، وكتاب البديع في شرح الفصول في النحو لابن الدهان وله ديوان رسائل، وكتاب الشافي في شرح مسند الإمام الشافعي وغير ذلك من التصانيف.

وكانت ولادته بجزيرة ابني عمر في أحد الربيعين سنة أربع وأربعين وخمسمائة ونشأ بها، ثم انتقل إلى الموصل في سنة خمس وستين وخمسمائة ثم عاد إلى الجزيرة ثم عاد إلى الموصل وتنقل في الولايات بها واتصل بخدمة الأمير مجاهد الدين قايماز بن عبد الله الخادم الزيني – المقدم ذكره في حرف القاف – وكان نائب المملكة، فكتب بين يديه منشئا إلى أن قبض عليه – كما سبق ذكره – فاتصل بخدمة عز الدين مسعود بن مودود صاحب الموصل وتولى ديوان رسائله وكتب له إلى أن توفي، ثم اتصل بولده نور الدين أرسلان شاه – وقد سبق ذكره – فحظي عنده وتوفرت حرمته لديه وكتب له مدة. ثم عرض له مرض كف يديه ورجليه فمنعه من الكتابة مطلقا، وأقام في داره يغشاه الأكابر والعلماء، وأنشأ رباطا بقرية من قرى الموصل تسمى قصر حرب ووقف أملاكه عليه وعلى داره التي كان يسكنها بالموصل، وبلغني أنه صنف هذه الكتب كلها في مدة العطلة، فإنه تفرغ لها، وكان عنده جماعة يعينونه عليها في الاختيار والكتابة.

وله شعر يسير، من ذلك ما أنشده للأتابك صاحب الموصل وقد زلت به بغلته:

إن زلت البغلة منتحته ... فإن في زلتها عذرا

حملها من علمه شاهقا ... ومن ندى راحته بحرا

وهذا معنى مطروق وقد جاء في الشعر كثيرا.

وحكى أخوه عز الدين أبو الحسن علي أنه لما أقعد جاءهم رجل مغربي، والتزم أنه يداويه ويبرئه مما هو فيه، وأنه لا يأخذ أجرا إلا بعد برئه، فملنا إلى قوله، وأخذ في معالجته بدهن صنعه، فظهرت ثمرة صنعته ولانت رجلاه وصار يتمكن من مدهما، وأشرف على كمال البرء فقال لي: اعط هذا المغربي شيئا يرضيه واصرفه فقلت له: لماذا وقد ظهر نجح معاناته؟ فقال: الأمر كما تقول، ولكني في راحة مما كنت فيه من صحبة هؤلاء القوم والالتزام بأخطارهم: وقد سكنت روحي إلى الانقطاع والدعة، وقد كنت بالأمس وأنا معافى أذل نفسي بالسعي إليهم، وها أنا اليوم قاعد في منزلي، فإذا طرأت لهم أمور ضرورية جاءوني بأنفسهم لأخذ رأيي، وبين هذا وذاك كثير، ولم يكن سبب هذا إلا هذا المرض، فما أرى زواله ولا معالجته، ولم يبق من العمر إلا القليل، فدعني أعيش باقيه حرا سليما من الذل وقد أخذت منه بأوفر حظ، قال عز الدين: فقبلت قوله وصرفت الرجل بإحسان.

وكانت وفاة مجد الدين المذكور بالموصل، يوم الخميس سلخ ذي الحجة سنة ست وستمائة، ودفن برباطه بدرب دراج داخل البلد، رحمه الله تعالى.

وقد سبق ذكر أخيه عز الدين علي، وسيأتي ذكر أخيه ضياء الدين نصر الله، إن شاء الله تعالى.

وجزيرة ابني عمر: مدينة فوق الموصل على دجلتها، سميت جزيرة لأن دجلة محيطة بها، قال الواقدي: بناها رجل من أهل برقعيد يقال له عبد العزيز بن عمر.

المبارك بن منقذ

أبو الميمون المبارك بن كامل بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني، الملقب سيف الدولة مجد الدين، كان من أمراء الدولة الصلاحية، وشاد الديوان بالديار المصرية، وهو من بيت كبير – وقد سبق ذكر جده سديد الدولة علي، وابن عمه أسامة بن مرشد.

ولما سير السلطان صلاح الدين أخاه شمس الدولة توران شاه – المقدم ذكره – إلى بلاد اليمن وتملكها رتب ابن منقذ المذكور نائبا عنه في زبيد، ولما رجع شمس الدولة إلى الشام فارق ابن منقذ اليمن واستناب أخاه حطان باذن شمس الدولة، ووصل إلى دمشق، ثم رجع شمس الدولة إلى مصر وابن منقذ معه، وقيل لصلاح الدين عنه: إنه قتل جماعة من أهل اليمن وأخذ أموالهم، فلما مات شمس الدولة حبسه صلاح الدين، وأخذ منه ثمانين ألف دينار وعروضا بعشرين ألف دينار، وذلك في سنة سبع وسبعين وخمسمائة، ثم توجه سيف الإسلام طغتكين – المقدم ذكره – إلى اليمن فتحصن حطان في بعض القلاع، فاستنزله بالمهادنة والخداع، وقبض عليه واستصفى أمواله، وسجنه في بعض القلاع، وكان آخر العهد به، ويقال إنه قتله، وقيل إنه

أخذ منه سبعين غلاف زردية مملوءة ذهبا، والله أعلم.

و لم يزل سيف الدولة المذكور مقدما في الدولة كبير القدر نبيه الذكر رئيسا عالي الهمة، وكانت فيه فضيلة وكان يحب أربابها، ومدحه جماعة من مشاهير الشعراء، ومن جملة مداحه القاضي الوجيه رضي الدين أبو الحسن علي بن أبي الحسن يحيى بن الحسن بن أحمد المعروف بابن الذروي مدحه بقصيدته الذالية التي سارت مسير المثل، وأولها:

لك الخير عرج بي على ربعهم فذي ... ربوع يفوح المسك من عرفها الشذي

وذا، يا كليم الشوق، واد مقدس ... لدى الحب فاخلع ليس يمشيه محتذي

ومن جملتها:

وبي ظبي إنس كمل الله حسنه ... وقال لأفواه الخلائق عوذي

جلا تحت ياقوت اللمى ثغر جوهر ... رطيب وأبدى شاربا من زمرذ

ولي عذل أبدي التشاغل عنهم ... إذا أخذوا في عذلهم كل مأخذ

يقولون من هذا الذي مت في الهوى ... به كمدا يا رب لا عرفوا الذي

ورب أديب لم يجد في ارتحاله ... جوادا إذا ما قال هات يقل خذ

أقول له إذا قام يرحل مصعبا ... يكلفه طول السفار وقد حذي

مبارك وفد العيس باب مبارك ... وهل منقذ القصاد إلا ابن منقذ

ومن مديحها وفيه صناعة بديعة:

وألين عند السلم من بطن حيه ... وأخشن يوم الروع من ظهر قنفذ

وهي قصيدة نفيسة اقتصرت منها على هذه الأبيات حذرا من التطويل.

ولأبي الميمون المذكور شعر، فمن ذلك قوله في البراغيث:

ومعشر يستحل الناس قتلهم ... كما استحلوا دم الحجاج في الحرم

إذا سفكت دما منها فما سفكت ... يداي من دمها المسفوك غير دمي

أصطاد هذا فيبقى ذا فيلسعني ... فينقضي الليل في صيدي ولسعهم

هكذا رواها عنه عز الدين أبو القاسم عبد الله بن أبي علي الحسين ابن أبي محمد عبد الله بن الحسين بن رواحة بن إبراهيم بن عبد الله بن رواحة بن عبيد بن محمد بن عبد الله بن رواحة الأنصاري الحموي. ومولد ابن رواحة بساحل صقلية سنة ستين وخمسمائة، ومات سنة ست وأربعين وستمائة في جباب التركمان، المنزلة التي بين حلب وحماة، وهو راكب على الجمل، فكانت ولادته في مركب، ومات على جمل.

وكانت ولادة سيف الدولة المذكور بقلعة شيزر سنة ست وعشرين وخمسمائة. وتوفي بالقاهرة ثامن شهر رمضان يوم الثلاثاء سنة تسع وثمانين وخمسمائة رحمه الله تعالى.

والذروى: بفتح الذال المعجمة والراء وبعدها واو، هذه النسبة إلى ذروى وهي قرية بصعيد مصر.

شرف الدين ابن المستوفي

أبو البركات المبارك بن أبي الفتح أحمد بن المبارك بن موهوب بن غنيمة بن غالب اللخمي، الملقب شرف الدين، المعروف بابن المستوفي الإربلي، كان رئيسا جليل القدر كثير التواضع واسع الكرم، لم يصل إلى إربل أحد من الفضلاء إلا وبادر إلى زيارته وحمل إليه ما يليق بحاله، ويقرب إلى قلبه بكل طريق، وخصوصا أرباب الأدب فقد كانت سوقهم لديه نافقة. وكان جم الفضائل عارفا بعدة فنون، منها الحديث وعلومه وأسماء رجاله وجميع ما يتعلق به، كان إماما فيه. وكان ماهرا في فنون الأدب من النحو واللغة والعروض والقوافي وعلم البيان وأشعار العرب وأخبارها وأيامها ووقائعها وأمثالها. وكان بارعا في علم الديوان وحسابه وضبط قوانينه على الأوضاع المعتبرة عندهم.

وجمع لإربل تاريخا في أربع مجلدات، وقد احلت عليه في هذا الكتاب في مواضع عديدة، وله كتاب النظام في شرح شعر المتنبي وأبي تمام في عشر مجلدات، وكتاب إثبات المحصل في نسبة أبيات المفصل في مجلدين تكلم فيه على الأبيات التي استشهد بها الزمخشري في المفصل وله كتاب سر الصنعة وله كتاب سماه أبا قماش جمع فيه أدبا كثيرا ونوادر وغيرها.

وسمعت منه كثيرا، وسمعت بقراءته على المشايخ الواردين على إربل شيئا كثيرا فإنه كان يعتمد القراءة بنفسه، وله ديوان شعر أجاد فيه، فمن شعره بيتان فضل فيهما البياض على السمرة، وهما:

لا تخدعنك سمرة غرارة ... ما الحسن إلا للبياض وجنسه
فالرمح يقتل بعضه من غيره ... والسيف يقتل كله من نفسه

وقد أخذ هذا المعنى من قول أبي الندى حسان بن نمير الكلبي المعروف بالعرقلة الدمشقي الشاعر المشهور، وهو:

إن كنت بالأسمر الزيتي مفتتنا ... فسل عن الأبيض الفضي بلبالي
إن كان في الرمح شبر قاتل أبدا ... ففي المهند شبر غير قتال

ولما نظم شرف الدين بيتيه هذين قال بعض الأدباء: لو قال إن بعض الرمح الذي يقتل به هو من جنس السيف كان أتم في المعنى، فعمل بعض المتأدبين – ولا أعلم هل هو شرف الدين نفسه أم غيره – بيتين نبه فيهما على هذه الزيادة، وهما:

البيض أقتل مضربا ... وبمهجتي منها الحسان
والسمر إن قتلت فمن ... بيض يصاغ لها السنان

ومن أشعاره التي يتغنى بها قوله:

يا ليلة حتى الصباح سهرتها ... قابلت فيها بدرها بأخيه
سمح الزمان بها فكانت ليلة ... عذب العتاب بها لمجتذبيه
أحييتها وأمتها عن حاسد ... ما همه إلا الحديث يشتهيه
ومعانقي حلو الشمائل أهيف ... جمعت ملاحة كل شيء فيه
يختال معتدلا فإن عبث الصبا ... بقوامه معترضا يثنيه
نشوان تهجم بي عليه صبابتي ... ويردني ورعي فأستحييه
علقت يدي بعذاره وبخده ... هذا أقبله وذا أجنيه
لو لم تخالط زفرتي أنفاسه ... كانت تنم بنا إلى واشيه

حسد الصباح الليل لما ضمنا   غيظا ففرق بيننا داعيه

وله

رعى الله ليلات تقضت بقربكم   قصارا وحياها الحيا وسقاها

فما قلت إيه بعدها لمسامر   من الناس إلا قال قلبي آها

وهذان بيتان يوجدان في أثناء قصيدة لصاحبنا الحسام الحاجري – المقدم ذكره في حرف الغين – لكن رأيت أكثر أصحابنا يقولون: إنهما لشرف الدين المذكور، والله أعلم.

وكان قد خرج من مسجد بجواره ليلا ليجيء إلى داره فوثب عليه شخص وضربه بسكين قاصدا فؤاده، فالتقى الضربة بعضده فجرحته جراحة متسعة فأحضر في الحال المزين وخاطها ومرخها وقمطها باللفائف، فكتب إلى الملك المعظم مظفر الدين صاحب إربل يطالعه بما تم عليه في هذه الأبيات، وغالب ظني أن ذلك كان في سنة ثماني عشرة وستمائة، وأذكر القضية وأنا يومئذ صغير، والأبيات:

يا أيها الملك الذي سطواته   من فعلها يتعجب المريخ

آيات جودك محكم تنزيلها   لا ناسخ فيها ولا منسوخ

أشكو إليك وما بليت بمثلها   شنعاء ذكر حديثها تاريخ

هي ليلة فيها ولدت وشاهدي   فيما ادعيت القمط والتمريخ

وهذا معنى بديع جدا. وكان يقول: علمت في نومي بيتين وهما:

وبتنا جميعا وبات الغيور   يعض يديه علينا حنق

نود غراما لو أنا نباع   سواد الدجى بسواد الحدق

وكان قد وصل إلى إربل بعض الشعراء وهو الشرف عبد الرحمن بن أبي الحسن بن عيسى بن علي بن يعرب البوازيجي الشاعر في سنة ثمان وعشرين وستمائة وشرف الدين يومئذ وزير، فسير له مثلوما على يد شخص كان في خدمته يقال له الكمال بن الشعار الموصلي صاحب التاريخ – والمثلوم: عبارة عن دينار تقطع منه قطعة صغيرة وقد جرت عادتهم في العراق وتلك البلاد أن يفعلوا مثل هذا، لأنهم يتعاملون بالقطع الصغار، ويسمونها القراضة، ويتعاملون أيضا بالمثلوم، وهو كثير الوجود بأيديهم في معاملاتهم – فجاء الكمال إلى ذلك الشعر وقال له: الصاحب يقول لك: أنفق الساعة هذا حتى يجهز لك شيئا يصلح لك، فتوهم ذلك الشاعر أن يكون الكمال قد قرض القطعة من الدينار، وأن شرف الدين ما سيره إلا كاملا، وقصد استعلام الحال من جهة شرف الدين، فكتب إليه:

يا أيها المولى الوزير ومن به   في الجود حقا تضرب الأمثال

أرسلت بدر التم عند كماله   حسنا فوافى العبد وهو هلال

ما غاله النقصان إلا أنه   بلغ الكمال، كذلك الآجال

فأعجب شرف الدين بهذا المعنى وحسن الاتفاق، وأجاز الشاعر وأحسن إليه.

وكنت خرجت من إربل في سنة ست وعشرين وستمائة وشرف الدين مستوفي الديوان، والاستيفاء في تلك البلاد منزلة عليه، وهو تلو الوزارة، ثم بعد ذلك تولى الوزارة في سنة تسع وعشرين وستمائة، وشكرت سيرته فيها، ولم يزل عليها إلى أن مات مظفر الدين في التاريخ المذكور في ترجمته في حرف الكاف رحمه الله تعالى، وأخذ الإمام المستنصر إربل في منتصف شوال من السنة المذكورة فبطل شرف الدين وقعد في بيته، والناس يلازمون

خدمته على ما بلغني، ومكث كذلك إلى أن أخذ التتر مدينة إربل في سابع عشرين شوال سنة أربع وثلاثين وستمائة، وجرى عليها وعلى أهلها ما قد اشتهر، فكان شرف الدين في جملة من اعتصم بالقلعة وسلم منهم، ولما انتزح التتر عن القلعة انتقل إلى الموصل وأقام بها في حرمة وافرة، وله راتب يصل إليه، وكان عنده من الكتب النفيسة شيء كثير. ولم يزل على ذلك حتى توفي بالموصل يوم الأحد لخمس خلون من المحرم سنة سبع وثلاثين وستمائة، ودفن بالمقبرة السابلة خارج باب الجصاصة. ومولده في النسف من شوال سنة أربع وستين وخمسمائة بقلعة إربل. وهو من بيت كبير كان فيه جماعة من الرؤساء الأدباء. وتولى الاستيفاء بإربل والده وعمه صفي الدين أبو الحسن علي بن المبارك.

وكان عمه المذكور فاضلا وهو الذي نقل نصيحة الملوك تصنيف حجة الإسلام أبي حامد الغزالي من اللغة الفارسية إلى العربية، فإن الغزالي لم يضعها إلا بالفارسية، وقد ذكر ذلك شرف الدين في تاريخه، وكنت أسمع ذلك أيضا عنه أيام كنت في تلك البلاد، ووكان ذلك مشهورا بين الناس.

ولما مات شرف الدين رثاه صاحبنا الشمس أبو العز يوسف بن النفيس الإربلي المعروف بشيطان الشام، ومولد شيطان الشام سنة ست وثمانين وخمسمائة بإربل، وتوفي بالموصل سادس عشر شهر رمضان سنة ثمان وثلاثين وستمائة، ودفن بمقبرة باب الجصاصة، وفيه يقول:

أبا البركات لو درت المنايا ... بأنك فرد عصرك لم تصبكا

كفى الإسلام رزأ فقد شخص ... عليه بأعين الثقلين يبكى

ولولا خوف الإطالة لذكرت كثيرا من وقائعه وأخباره وما جراياته وتفاصيل أحواله وما مدح به، ولقد كان، رحمه الله، من محاسن وقته، ولم يكن في آخر الوقت في ذلك البلد مثله في فضائله ورياسته.

وقد سبق الكلام على اللخمي فلا حاجة إلى إعادته.

الوجيه ابن الدهان

أبو بكر المبارك بن أبي طالب المبارك بن أبي الأزهر سعيد، الملقب الوجيه، المعروف بابن الدهان، النحوي الضرير الواسطي، ولد ببلده ونشأ به، وحفظ القرآن هناك وقرأ القراءات، واشتغل بالعلم وسمع بها من أبي سعيد نصر بن محمد بن سالم الأديب وأبي الفرج العلاء بن علي المعروف بابن السوادي الشاعر – وقد تقدم ذكره –وغيرهما، ثم قدم بغداد واستوطنها، وكان يسكن بالظفرية، وجالس أبا محمد ابن الخشاب النحوي وصحب أبا البركات ابن الأنباري – المقدم ذكرهما –ولازم أبا البركات، وجل ما أخذ عنه، وسمع الحديث من أبي زرعة طاهر بن محمد بن طاهر المقدسي، وتفقه على مذهب أبي حنيفة بعد أن كان حنبليا، ثم شغر منصب تدريس النحو بالمدرسة النظامية، وشرط الواقف أن لا يفوض إلا إلى شافعي المذهب، فانتقل الوجيه المذكور إلى مذهب الشافعي وتولاه، وفي ذلك يقول المؤيد أبو البركات بن زيد التكريتي:

ومن مبلغ عني الوجيه رسالة ... وإن كان لا تجدي إليه الرسائل

تمذهبت للنعمان بعد ابن حنبل ... وذلك لما أعوزتك المآكل

وما اخترت قول الشافعي تدنيا ... ولكنما تهوى الذي منه حاصل

وعما قليل أنت لا شك صائر ... إلى مالك فافطن لما أنا قائل

وللوجيه المذكور تصنيف في النحو، وأقرأ القرآن الكريم كثيرا، وكان كثير الهذر، وفيه شره نفس وتوسع في القول، وكان كثير الدعاوى، وله شعر فمنه:

لست استقبح اقتضاءك بالوع ... د وإن كنت سيد الكرماء

فإله السماء قد ضمن الرز ... ق عليه ويقتضي بالدعاء

وكانت ولادته سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة بواسط. وتوفي ليلة الأحد السادس والعشرين من شعبان سنة اثنتي عشرة وستمائة ببغداد، ودفن من الغد بالوردية، رحمه الله تعالى.

القاضي مجلي صاحب الذخائر

أبو المعالي مجلي بن جميع بن نجا، القرشي المخزومي الأرسوفي الأصل، المصري الدار والوفاة، الفقيه الشافعي، كان من أعيان الفقهاء المشار إليهم في وقته، وصنف في الفقه كتاب الذخائر وهو كتاب مبسوط جمع من المذهب شيئا كثيرا، وفيه نقل غريب ربما لا يوجد في غيره، وهو من الكتب المعتبرة المرغوب فيها، وتولى أبو المعالي المذكور القضاء بمصر في سنة سبع وأربعين وخمسمائة بتفويض من العادل أبي الحسن علي بن السلار – المقدر ذكره في حرف العين – فإنه كان صاحب الأمر في ذلك الزمان، ثم صرف عن القضاء في أوائل سنة تسع وأربعين وخمسمائة، ودفن بالقرافة الصغرى، رحمه الله تعالى.

والأرسوفي: بضم الهمزة وسكون الراء وضم السين المهملة وسكون الواو وبعدها فاء، هذه النسبة إلى أرسوف، وهي بليدة بالشام على ساحل البحر، كان بها جماعة من العلماء والمرابطين، وهي اليوم بيد الفرنج، خذلهم الله تعالى.

قلت: ثم انترعها السلطان الملك الظاهر ركن الدين أبو الفتح بيبرس الصالحي النجمي من أيديهم في ثاني عشرين رجب من شهور سنة ثلاث وستين وستمائة بعد أن ملك قيسارية وخربها وعفى آثارها مع كثير من البلاد الساحلية التي تجاورها مثل يافا وغيرها، فامتلكها وبقي بها بعد ذلك.

والملك الظاهر المذكور هو أحد مماليك الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل ابن الملك العادل ابن أيوب – وسيأتي ذكر والده في محله – وتولى المملكة بعد قتل الملك المظفر سيف الدين قطز بن عبد الله المعزي في سنة ثمان وخمسين وستمائة، وكان قتل المظفر وهو عائد من كسرة التتر المخنولين، وهي الكسرة المشهورة على عين جالوت بالقرب من بيسان، وقتل بمنزلة القصير من الرمل، وتولى الظاهر بعده باتفاق الأمراء عليه وتوجه لليلته ووصل القلعة في اليوم الثاني لمسيره ودخلها، وكنت يومئذ بالقاهرة.

وكان ملكا عالي الهمة شديد البأس، لم نر في هذا الزمان ملكا مثله في عزمه وهمته وسعادته، وفتح من حصون الفرنج والإسماعيلية ما أعيا من تقدمه من ملوك الإسلام وذلك في مدة مملكته. وكسر التتر دفعات آخرها في أواخر سنة خمس وسبعين وستمائة بحدود بلاد الروم، ودخل الروم ووصل إلى قيسارية وجلس على سرير الملك بها ثم عاد إلى دمشق وأقام بها إلى أوائل سنة ست وسبعين وستمائة، فتوفي بها في يوم الخميس السابع والعشرين من المحرم من سنة ست المذكورة بقصر الميدان، ونقل ليومه إلى القلعة وكتم موته، وقام مملوكه وعتيقه الأمير بدر الدين بيلبك المعروف بالخازندار بتدبير الأمور والعساكر وتوجه بهم إلى مصر ودخلها في شهر صفر من السنة ووطد قواعد السلطنة لولده السعيد ناصر الدين محمد بركة قان، واستمرت المملكة.

ثم توفي بدر الدين الخازندار في شهر ربيع الأول من السنة المذكورة. وفي أثناء هذه السنة أظهر موت الملك الظاهر ودفن بالتربة المجاورة للمدرسة التي أنشأها ولده الملك السعيد المذكور بدمشق المحروسة شمالي الجامع قبالة المدرسة العادلية الكبيرة.

وأقام ولده الملك السعيد في المملكة إلى سنة ثمان وسبعين وستمائة. وفي هذه السنة وصل إلى دمشق وزار قبر والده المذكور وأقام بدمشق مدة يسيرة. وجرت أسباب أوجبت تغير قلوب الأمراء، وانفصل أكثر العساكر عنه وفارقوه وتوجهوا طالبين الديار المصرية وتبعهم هو فيمن بقي من عسكره وفيمن عنده من مماليك أبيه وعسكر الشام ومعه من الأمراء الكبار شمس الدين سنقور الأشقر العلائي والأمير علم الدين سنجر الحلبي الكبير وغيرهما، ثم جرت أمور يطول شرحها، خلاصتها انه شق جموعهم بنفسه ودخل قلعة مصر في العشر الأواخر من ربيع الأول من السنة، ثم حاصروه بها وأنزلوه منها وأعطوه قلعة الكرك، وهي قلعة حصينة بين الشام ومصر على فم البرية الحجازية، فأقام بها إلى أن توفي في يوم الجمعة حادي عشر ذي القعدة سنة ثمان وسبعين وستمائة ودفن بالرك مدة ثم نقل إلى دمشق المحروسة في شهر جمادى من سنة ثمانين وستمائة ودفن على والده في التربة المجاورة للمدرسة المذكورة التي أنشأها. وهذه المدرسة على الفريقين أصحاب الإمام الشافعي وأبي حنيفة رضي الله عنهما، وافتتح بذكر الدرس فيها يوم الأربعاء سابع

عشر صفر سنة سبع وسبعين وستمائة، وكنت حاضره يومئذ، وحضر نائب المملكة بدمشق يومذاك، وهو الأمير عز الدين ايدمر بن عبد الله الظاهري، وهي من مشاهير المدارس وكبارها يومئذ بدمشق المحروسة، حماها الله تعالى وسائر بلاد المسلمين.

ولما نزل الملك السعيد من قلعة الجبل انتهى رأي أكابر الأمراء على أن يقيموا اخاه سيف الدسن سلامش، وكان صغيرا، تقدير عمره دون عشر سنين، وأن يلقبوه بالملك العادل فوضعوه مكانه في السلطنة، وأن يكون اتابك العساكر ومتولي التدبير الأمير سيف الدين قلاون الصالحي المعروف بالألفي الكبير، فجرى الأمر على ذلك، واستمر هذا الحال كذلك إلى أواخر شهر رجب من السنة، فاستقل الأمير سيف الدين قلاون المذكور بالسلطنة وركب بأبهتها في حادي عشرين رجب المذكور، ولقب بالملك المنصور، وخلفه الأمراء والناس، ودخل أهل جميع المماليك في طاعته، و لم يبق إلا الملك السعيد بالكرك. ثم ان الأمراء أرسلوا إلى الملك السعيد بالكرك أخوه سلامش المذكور وعامة أهل بيت الملك الظاهر، فانقطعت مملكتهم من الديار المصرية وغيرها، و لم يبق لهم الا قلعة الكرك وما هو مضاف اليها، والله متولي الأمور، وبمشيئته يجري كل مقدور.

وكان سبب وفاة الملك السعيد أنه خرج إلى الصيد فتقنطر به الفرس، فحمل إلى قلعة الكرك فبقي يويمات قلائل مريضا، ثم توفي في التاريخ المذكور.

أبو على التنوخي

القاضي أبو علي المحسن بن أبي القاسم علي بن محمد بن أبي الفهم داود بن إبراهيم ابن تميم التنوخي – وقد سبق ذكر ابيه في حرف العين وإيراد شيء من أخباره وشعره – وذكرهما الثعالبي في باب واحد وقدم ذكر الأب، ثم قال في حق أبي علي المذكور: هلال ذلك القمر، وغصن هاتيك الشجر، والشاهد العدل بمجد أبيه وفضله، والفرع المسند لأصله، والنائب عنه في حياته، والقائم مقامه بعد وفاته. وفيه يقول أبو عبد الله بن الحجاج الشاعر:

إذا ذكر القضاة وهم شيوخ ... تخيرت الشباب على الشيوخ

ومن لم يرض ام أصفعه إلا ... بحضرة سيدي القاضي التنوخي

وله كتاب الفرج بعد الشدة وذكر في أوائل هذا الكتاب أنه كان على العيار في دار الضرب بسوق الأهواز في سنة ست وأربعين وثلثمائة، وذكر بعد ذلك بقليل أنه كان على القضاء بجزيرة ابني عمر، وله ديوان شعر أكبر من ديوان أبيه، وكتاب نشوار المحاضرة وله كتاب المستجاد من فعلات الأجواد.

وسمع بالبصرة من أبي العباس الأثرم وأبي بكر الصولي والحسين بن محمد بن يحيى بن عثمان النسوي وطبقتهم، ونزل ببغداد وأقام بها، وحدث إلى حين وفاته وكان سماعه صحيحا، وكان أديبا شاعرا أخباريا، وكان أول سماعه الحديث في سنة ثلاث وثلاثين وثلثمائة، وأول ما تقلد القضاء من قبل أبي السائب عتبة بن عبيد الله بالقصر وبابل وما والاهما في سنة تسع وأربعين، ثم ولاه الإمام المطيع لله القضاء بعسكر مكرم وإيدج ورامهرمز، وتقلد بعد ذلك أعمالا كثيرة في نواح مختلفة.

ومن شعره في بعض المشايخ وقد خرج يستسقي وكان في السماء سحاب، فلما دعا أصحت السماء، فقال أبو علي التنوخي:

خرجنا لنستسقي بيمن دعائه ... وقد كاد هدب الغيم أن يلحف الأرضا

فلما ابتدا يدعو تكشفت السما ... فما تم إلا والغمام قد انفضا

ولبعضهم في المعنى وهو أبو الحسين سليمان بن محمد بن الطراوة النحوي الأندلسي المالقي في هذا المعنى:

خرجوا ليستسقوا وقد نجمت ... غريبة قمن بها السح

حتى إذا اصطفوا لدعوتهم ... وبدا لأعينهم بها رشح

كشف السحاب إجابة لهم ... فكأنهم خرجوا ليستصحوا

ومن المنسوب إليه أعني القاضي التنوخي:

قل للمليحة في الخمار المذهب | أفسدت نسك أخي التقي المترهب
نور الخمار خدك تحته | عجبا لوجهك كيف لم يلتهب
وجمعت بين المذهبين فلم يكن | للحسن عن ذهبيهما من مذهب
وإذا أتت عين لتسرق نظرة | قال الشعاع لها اذهبي لا تذهب

وما ألطف قوله اذهبي لا تذهب. وقد أذكرتني هذه الأبيات في الخمار المذهب حكاية وقفت عليها منذ زمان بالموصل، وهي أن بعض التجار قدم مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومعه حمل من الخمر السود، فلم يجد لها طالبا، فكسدت عليه وضاق صدره، فقيل له: ما ينفقها لك إلا مسكين الدارمي، وهو من مجيدي الشعراء الموصوفين بالظرف والخلاعة، فقصده فوجده قد تزهد وانقطع في المسجد، فأتاه وقص عليه القصة، فقال: وكيف أعمل وأنا قد تركت الشعر وعكفت على هذه الحال؟ فقال له التاجر: أنا رجل غريب، وليس لي بضاعة سوى هذا الحمل، وتضرع إليه، فخرج من المسجد وأعاد لباسه الأول وعمل هذين البيتين وشهرهما وهما:

قل للمليحة في الخمار الأسود | ماذا عملت بناسك متعبد
قد كان شمر للصلاة ثيابه | حتى قعدت له بباب المسجد

فشاع بين الناس أن مسكينا الدارمي قد رجع إلى ما كان عليه، وأحب واحدة ذات خمار أسود، فلم يبق بالمدينة ظريفة إلا وطلبت خمارا أسود، فباع التاجر الحمل الذي كان معه بأضعاف ثمنه، لكثرة رغباتهم فيه، فلما فرغ منه عاد مسكين إلى تعبده وانقطاعه.

وكتب القاضي أبو علي التنوخي المذكور إلى بعض الرؤساء في شهر رمضان:

نلت في ذا الصيام ما تشتهيه | وكفاك الإله ما تتقيه
أنت في الناس مثل شهرك في الأش | هر، بل مثل ليلة القدر فيه

وله أشياء فائقة.

وكانت ولادته ليلة الأحد لأربع بقين من شهر ربيع الأول سنة سبع وعشرين وثلثمائة بالبصرة. وكانت وفاته ليلة الاثنين، لخمس بقين من المحرم سنة أربع وثمانين وثلثمائة ببغداد، رحمه الله تعالى.

وأما ولده أبو القاسم علي بن المحسن بن علي التنوخي فكان أديبا فاضلا له شعر لم أقف منه على شيء، وكان يصحب أبا العلاء المعري وأخذ عنه كثيرا، وكان يروي الشعر الكثير، وهم أهل بيت كلهم فضلاء أدباء ظرفاء، وكانت ولادة الولد المذكور في منتصف شعبان سنة خمس وستين وثلثمائة بالبصرة، وتوفي في يوم الأحد مستهل المحرم سنة سبع وأربعين وأربعمائة، رحمه الله تعالى، وكانت بينه وبين الخطيب أبي زكريا التبريزي مؤانسة واتحاد بطريق أبي العلاء المعري وذكره الخطيب في تاريخ بغداد وعدد شيوخه الذين روى عنهم، ثم قال: وكتبت عنه، وذكر مولده ووفاته كما هو ها هنا، لكنه قال: إن وفاته كانت ليلة الاثنين ثاني المحرم، ودفن يوم الاثنين في داره بدرب التل، وإنه صلى على جنازته، وإن أول سماعه كان في شعبان سنة سبعين، وكان قد قبلت شهادته عند الحكام في حداثته، ولم يزل على ذلك مقبولا إلى آخر عمره، وكان متحفظا في الشهادة محتاطا صدوقا في الحديث، وتقلد قضاء نواح عدة، منها المدائن وأعمالها ودورنجان والبردان وقرميسين وغير ذلك.

وقد سبق الكلام على التنوخي.

والمحسن: بضم الميم وفتح الحاء المهملة وكسر السين المهملة المشددة، وبعدها نون.

وإليه كتب أبو العلاء المعري قصيدته التي أولها:

هات الحديث عن الزوراء أو هيتا

الإمام الشافعي

الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب ابن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف، القرشي المطلبي الشافعي، يجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في عبد مناف المذكور، وباقي النسب إلى عدنان معروف، لقي جده شافع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مترعرع، وكان أبوه السائب صاحب راية بني هاشم يوم بدر، فأسر وفدى نفسه ثم أسلم، فقيل له: لم لم تسلم قبل أن تفدي نفسك؟ فقال: ما كنت أحرم المؤمنين مطمعا لهم في.

وكان الشافعي كثير المناقب جم المفاخر منقطع القرين، اجتمعت فيه من العلوم بكتاب الله وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم، وكلام الصحابة رضي الله عنهم وآثارهم، واختلاف أقاويل العلماء وغير ذلك من معرفة كلام العرب واللغة والعربية والشعر - حتى إن الأصمعي مع جلالة قدره في هذا الشأن قرأ عليه أشعار الهذليين - ما لم يجتمع في غيره، حتى قال أحمدبن حنبل رضي الله عنه: ما عرفت ناسخ الحديث ومنسوخه حتى جالست الشافعي، وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: ما رأيت رجلا قط أكمل من الشافعي، وقال عبد الله بن أحمد ابن حنبل: قلت لأبي: أي رجل كان الشافعي؟ فإني سمعتك تكثر من الدعاء له، فقال: يا بني، كان الشافعي كالشمس للدنيا وكالعافية للبدن، هل لهذين من خلف أو عنهما من عوض؟ وقال أحمد: ما بت منذ ثلاثين سنة إلا وأنا أدعو للشافعي وأستغفر له، وقال يحيى بن معين: كان أحمد بن حنبل ينهانا عن الشافعي، ثم استقبلته يوما والشافعي راكب بغلة وهو يمشي خلفه، فقلت: يا أبا عبد الله، تنهانا عنه وتمشي خلفه؟ فقال: اسكت، لو لزمت البغلة انتفعت.

وحكى الخطيب في تاريخ بغداد عن ابن عبد الحكم قال: لما حملت أم الشافعي به رأت كأن المشتري خرج من فرجها حتى انقض بمصر، ثم وقع في كل بلد منه شظية، فتأول أصحاب الرؤيا أنه يخرج منها عالم يخص علمه أهل مصر ثم يتفرق في سائر البلدان.

وقال الشافعي: قدمت على مالك بن أنس وقد حفظت الموطأ فقال لي: أحضر من يقرأ لك، فقلت: أنا قارئ، فقرأت عليه الموطأ حفظا، فقال: إن يك أحد يفلح فهذا الغلام. وكان سفيان بن عيينة إذا جاءه شيء من التفسير أو الفتيا التفت إلى الشافعي فقال: سلوا هذا الغلام. وقال الحميدي: سمعت زنجي بن خالد - يعني مسلما - يقول للشافعي: أفت يا أبا عبد الله فقد والله آن لك أن تفتي، وهو ابن خمس عشرة سنة، وقال محفوظ بن أبي توبة البغدادي: رأيت أحمد بن حنبل عند الشافعي في المسجد الحرام، فقلت: يا أبا عبد الله، هذا سفيان بن عيينة في ناحية المسجد يحدث، فقال: إن هذا يفوت وذاك لا يفوت. وقال أبو حسان الزيادي: ما رأيت محمد بن الحسن يعظم أحدا من أهل العلم تعظيمه للشافعي، ولقد جاءه يوما فلقيه وقد ركب محمد بن الحسن، فرجع محمد إلى مترله وخلا به يومه إلى الليل، و لم يأذن لأحد عليه.

والشافعي أول من تكلم في أصول الفقه وهو الذي استنبطه، وقال أبو ثور: من زعم انه رأى مثل محمد بن إدريس في علمه وفصاحته ومعرفته وثباته وتمكنه فقد كذب، كان منقطع القرين في حياته، فلما مضى لسبيله لم يعتض منه. وقال أحمد بن حنبل: ما أحد ممن بيده محبرة أو ورق إلا وللشافعي في رقبته منة. وكان الزعفراني يقول: كان أصحاب الحديث رقودا حتى جاء الشافعي فأيقظهم فتيقظوا. ومن دعائه: اللهم يا لطيف أسألك اللطف فيما جرت به المقادير، وهو مشهور بين العلماء بالإجابة، وأنه مجرب. وفضائله أكثر من أن تعدد.

ومولده سنة خمسين ومائة، وقد قيل إنه ولد في اليوم الذي توفي فيه الإمام أبو حنيفة، وكانت ولادته بمدينة غزة، وقيل بعسقلان، وقيل باليمن، والأول أصح، وحمل من غزة إلى مكة وهو ابن سنتين فنشأ بها وقرأ القرآن الكريم، وحديث رحلته إلى مالك بن أنس مشهور فلا حاجة إلى التطويل فيه، وقدم بغداد سنة خمس وتسعين ومائة فأقام بها سنتين، ثم خرج إلى مكة، ثم عاد إلى بغداد سنة ثمان وتسعين ومائة فأقام بها شهرا، ثم خرج إلى مصر، وكان وصوله إليها في سنة تسع وتسعين ومائة، وقيل سنة إحدى ومائتين.

و لم يزل بها إلى أن توفي يوم الجمعة آخر يوم من رجب سنة أربع ومائتين، ودفن بعد العصر من يومه بالقرافة الصغرى، وقبره يزار بها بالقرب من المقطم، رضي الله عنه.

قال الربيع بن سليمان المرادي: رأيت هلال شعبان وأنا راجع من جنازته، وقال: رأيته في المنام بعد وفاته فقلت: يا أبا عبد الله، ما صنع الله بك؟ فقال:

أجلسني على كرسي من ذهب، ونثر علي اللؤلؤ الرطب. وذكر الشيخ أبو إسحاق الشيرازي في كتاب طبقات الفقهاء ما مثاله: وحكى الزعفراني عن أبي عثمان ابن الشافعي قال: مات أبي وهو ابن ثمان وخمسين سنة.

وقد اتفق العلماء قاطبة من أهل الحديث والفقه والأصول واللغة والنحو وغير ذلك على ثقته وأمانته وعدالته وزهده وورعه ونزاهة عرضه وعفة نفسه وحسن سيرته وعلو قدره وسخائه.

وللإمام الشافعي أشعار كثيرة فمن ذلك ما نقلته من خط الحافظ أبي طاهر السلفي رحمه الله تعالى:

إن الذي رزق اليسار ولم يصب ... حمدا ولا أجرا لغير موفق
الجد يدني كل أمر شاسع ... والجد يفتح كل باب مغلق
وإذا سمعت بأن مجدودا حوى ... عودا فأثمر في يديه فصدق
وإذا سمعت بأن محروما اتى ... ماء ليشربه فغاض فحقق
لو كان بالحيل الغنى لوجدتني ... بنجوم أقطار السماء تعلقي
لكن من رزق الحجا حرم الغنى ... ضدان مفترقان أي تفرق
ومن الدليل على القضاء وكونه ... بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمد

ومن المنسوب إليه أيضا:

ماذا يخبر ضيف بيتك أهله ... إن سيل كيف معاده ومعاجه
أيقول جاوزت الفرات ولم أنل ... ريا لديه وقد طغت أمواجه
ورقيت في درج العلا فتضايقت ... عما أريد شعابه وفجاجه
ولتخبرن خصاصتي بتملقي ... والماء يخبر عن قذاه زجاجه
عندي يواقيت القريض ودره ... وعلي إكليل الكلام وتاجه
تربي على روض الربا أزهاره ... ويرف في نادي الندى ديباجه
والشاعر المنطيق أسود سالخ ... والشعر منه لعابه ومجاجه
وعداوة الشعراء داء معضل ... ولقد يهون على الكريم علاجه

ومن المنسوب إليه أيضا:

رام نفعا فضر من غير قصد ... ومن البر ما يكون عقوقا

ومن المنسوب إلى الشافعي:

كلما أدبني الده ... ر أراني نقص عقلي
وإذا ما ازددت علما ... زادني علما بجهلي

وهو القائل:

ولولا الشعر بالعلماء يزري ... لكنت اليوم أشعر من لبيد

وقال الشافعي رضي الله عنه: تزوجت امرأة من قريش بمكة، وكنت أمازحها فأقول:

ومن البلية أن تحب فلا يحبك من تحبه

فتقول هي:

ويصد عنك بوجهه وتلج أنت فلا تغبه

وأخبرني أحد المشايخ الأفاضل أنه عمل في مناقب الشافعي ثلاثة عشر تصنيفا.

ولما مات رثاه خلق كثير، وهذه المرثية منسوبة إلى أبي بكر محمد بن دريد صاحب المقصورة، وقد ذكرها الخطيب في تاريخ بغداد وأولها:

بمقلتيه للمشيب طوالع زواجر عن ورد التصابي روادع
تصرفه طوع العنان وربما دعاه الصبا فاقتاده وهو طائع
ومن لم يزعه لبه وحياؤه فليس له من شيب فوديه وازع
هل النافر المدعو للحظ راجع أم النصح مقبول أم الوعظ نافع
أم الهمك المغموم بالجمع عالم بأن الذي يوعي من المال ضائع
وأن قصاراه على فرط ضنه فراق الذي أضحى له وهو جامع
ويخمل ذكر المرء ذي المال بعده ولكن جمع العلم للمرء رافع
ألم تر آثار ابن إدريس بعده دلائلها في المشكلات لوامع
معالم يفنى الدهر وهي خوالد وتنخفض الأعلام وهي فوارع
مناهج فيها للهدى متصرف موارد فيها للرشاد شرائع
ظواهرها حكم ومستبطناتها لما حكم التفريق فيه جوامع
لرأي ابن إدريس ابن عم محمد ضياء إذا ما أظلم الخطب ساطع
إذا المفظعات المشكلات تشابهت سما منه نور في دجاهن لامع

أبى الله إلا رفعه وعلوه وليس لما يعليه ذو العرش واضع
توخى الهدى واستنقذته يد التقى من الزيغ إن الزيغ للمرء صارع
ولاذ بآثار الرسول فحكمه لحكم رسول الله في الناس تابع
وعول في أحكامه وقضائه على ما قضى في الوحي والحق ناصع
بطيء عن الرأي المخوف التباسه إليه إذا لم يخش لبسا مسارع
وأنشا له منشيه من خير معدن خلائق هن الباهرات البوارع
تسربل بالتقوى وليدا وناشئا وخص بلب الكهل مذ هو يافع

وهذب حتى لم تشر بفضيلة إذا التمست إلا إليه الأصابع

فمن يك علم الشافعي إمامه فمرتعه في ساحة العلم واسع

سلام على قبر تضمن جسمه وجادت عليه المدجنات الهوامع

لقد غيبت أثراؤه جسم ماجد جليل إذا التفت عليه المجامع

لئن فجعتنا الحادثات بشخصه لهن لما حكمن فيه فواجع

فأحكامه فينا بدور زواهر وآثاره فينا نجوم طوالع

وقد يقول القائل: إن ابن دريد لم يدرك الشافعي، فكيف رثاه؟ لكنه يجوز أن يكون رثاه بعد ذلك، فما فيه بعد، فقد رأينا مثل هذا في حق غيره، مثل الحسين، رضي الله تعالى عنه، وغيره.

محمد بن الحنفية

أبو القاسم محمد بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، المعروف بابن الحنفية، أمه الحنفية خولة بنت جعفر بن قيس بن سلمة بن ثعلبة بن يربوع بن ثعلبة ابن الدول بن حنيفة بن لجيم، ويقال بل كانت من سبي اليمامة، وصارت إلى علي رضي الله عنه، وقيل بل كانت سندية سوداء، وكانت أمة لبني حنيفة ولم تكن منهم، وإنما صالحهم خالد بن الوليد على الرقيق، ولم يصالحهم على أنفسهم.

وذكر البغوي في كتاب شرح السنة في باب قتال مانعي الزكاة أن طائفة ارتدوا عن الدين وأنكروا الشرائع وعادوا إلى ما كانوا عليه من الجاهلية، واتفقت الصحابة على قتالهم وقتلهم، ورأى أبو بكر رضي الله عنه سبي ذراريهم ونسائهم، وساعده على ذلك أكثر الصحابة، واستولد علي رضي الله عنه جارية من سبي بني حنيفة فولدت له محمد بن علي الذي يدعى محمد بن الحنفية، ثم لم ينقرض عصر الصحابة حتى أجمعوا على أن المرتد لا يسبى.

وأما كنيته بأبي القاسم فيقال إنها رخصة من رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وإنه قال لعلي رضي الله عنه: سيولد لك بعدي غلام وقد نحلته اسمي وكنيتي ولا تحل لأحد من أمتي بعده. وممن يسمى محمدا ويكنى أبا القاسم: محمد بن أبي بكر الصديق، ومحمد بن طلحة بن عبيد الله، ومحمد بن سعد بن أبي وقاص، ومحمد بن عبد الرحمن بن عوف، ومحمد بن جعفر بن أبي طالب، ومحمد بن حاطب بن أبي بلتعة، ومحمد بن الأشعث بن قيس.

وكان محمد المذكور كثير العلم والورع، وقد ذكره الشيخ أبو إسحاق الشيرازي في طبقات الفقهاء. وكان شديد القوة، وله في ذلك أخبار عجيبة، منها ما حكاه المبرد في كتاب الكامل أن أباه عليا، رضي الله عنه، استطال درعا كانت له، فقال: لينقص منها كذا وكذا حلقة، فقبض محمد إحدى يديه على ذيلها والأخرى على ضلها، ثم جذبها فقطع من الموضع الذي حدده أبوه. وكان عبد الله بن الزبير إذا حدث بهذا الحديث غضب واعتراه إفكل، وهو الرعدة، لأنه كان يحسده على قوته، وكان ابن الزبير أيضا شديد القوى.

ومن قوته أيضا ما حكاه المبرد في كتابه أن ملك الروم في أيام معاوية وجه إليه: إن الملوك قبلك كانت تراسل الملوك منا، ويجهد بعضهم أن يغرب على بعض، أفتأذن في ذلك؟ فأذن له، فوجه إليه برجلين أحدهما طويل جسيم، والآخر أيد، فقال معاوية لعمرو بن العاص: أما الطويل فقد أصبنا كفؤه، وهو قيس بن سعد بن عبادة رضي الله عنه، وأما الآخر الأيد فقد احتجنا إلى رأيك فيه، فقال عمرو: ها هنا رجلان كلاهما إليك بغيض: محمد بن الحنفية وعبد الله بن الزبير، فقال معاوية: من هو أقرب إلينا على كل حال، فلما دخل الرجلان وجه إلى قيس بن سعد بن عبادة يعلمه، فدخل قيس، فلما مثل بين يدي معاوية نزع سراويله، فرمى بها إلى العلج فلبسها فبلغت ثندوته، فأطرق مغلوبا، فقيل إن قيسا لاموه في ذلك، وقيل له: لم تبذلت هذا التبذل بحضرة معاوية؟ هلا وجهت إليه غيرها؟ فقال:

أردت لكيما يعلم الناس أنها سراويل قيس والوفود شهود

وأن لا يقولوا غاب قيس وهذه سراويل عادي نمته ثمود

وإني من القوم اليمانين سيد　　　وما الناس إلا سيد ومسود

وبذ جميع الخلق أصلي ومنصبي　　　وجسم به أعلو الرجال مديد

ثم وجه معاوية إلى محمد بن الحنفية فحضر، فخبر بما دعي له، فقال: قولوا له إن شاء فليجلس وليعطني يده حتى أقيمه أو يقعدني، وإن شاء فليكن القائم وأنا القاعد، فاختار الرومي الجلوس فأقامه محمد، وعجز الرومي عن إقعاده، ثم اختار أن يكون محمد هو القاعد، فجذبه محمد فأقعده، وعجز الرومي عن إقامته، فانصرفا مغلوبين.

وكانت راية أبيه يوم صفين بيده، ويحكى أنه توقف أول يوم في حملها لكونه قتال المسلمين، ولم يكن قبل ذلك شهد مثاله، فقال له علي رضي الله عنه: هل عندك شك في جيش مقدمه أبوك؟ فحملها. وقيل لمحمد: كيف كان أبوك يقحمك المهالك ويولجك المضايق دون أخويك الحسن والحسين؟ فقال: لأنهما كانا عينيه، وكنت يديه، فكان يقي عينيه بيديه.

ومن كلامه: ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لا يجد من معاشرته بدا حتى يجعل الله له فرجا.

ولما دعا ابن الزبير إلى نفسه وبايعه أهل الحجاز بالخلافة دعا عبد الله بن العباس ومحمد بن الحنفية رضي الله عنهما إلى البيعة، فأبيا ذلك وقالا: لا نبايعك حتى تجتمع لك البلاد، ويتفق الناس، فأساء جوارهم وحصرهم وآذاهم، وقال لهم: لئن لم تبايعا أحرقتكما بالنار، والشرح في ذلك يطول.

وكانت ولادته لسنتين بقيتا من خلافة عمر، وتوفي رحمه الله في أول المحرم سنة إحدى وثمانين للهجرة، وقيل سنة ثلاث وثمانين، وقيل سنة اثنتين أو ثلاث وسبعين بالمدينة، وصلى عليه أبان بن عثمان بن عفان، وكان والي المدينة يومئذ، ودفن بالبقيع، وقيل إنه خرج إلى الطائف هاربا من ابن الزبير فمات هناك، وقيل إنه مات ببلاد أيلة.

والفرقة الكيسانية تعتقد إمامته وأنه مقيم بجبل رضوى، وإلى هذا أشار كثير عزة بقوله من جملة أبيات، وكان كيساني الاعتقاد:

وسبط لا يذوق الموت حتى　　　يقود الخيل يقدمها اللواء

تغيب لا يرى فيهم زمانا　　　برضوى عنده عسل وماء

وكان المختار بن أبي عبيد الثقفي يدعو الناس إلى إمامة محمد بن الحنفية، ويزعم أنه المهدي، وقال الجوهري في كتاب الصحاح: كيسان لقب المختار المذكور، وقال غيره: كيسان مولى علي رضي الله عنه. والكيسانية يزعمون أنه مقيم برضوى في شعب منه ولم يمت، دخل إليه ومعه أربعون من أصحابه، ولم يوقف لهم على خبر وهم أحياء يرزقون، ويقولون إنه مقيم في هذا الجبل بين أسد ونمر، وعنده عينان نضاختان تجريان عسلا وماء، وإنه يرجعه إلى الدنيا فيملؤها عدلا.

وكان محمد يخضب بالحناء والكتم وكان يختم في اليسار، وله أخبار مشهورة، رضي الله عنه، وانتقلت إمامته إلى ولده أبي هاشم عبد الله ومنه إلى محمد بن علي والد السفاح والمنصور، كما سيأتي في ترجمته إن شاء الله تعالى.

ورضوى: بفتح الراء وبعدها ضاد معجمة وبعد الواو ألف، قال ابن جرير الطبري في تاريخه الكبير في سنة أربع وأربعين ومائة: رضوى جبل جهينة، وهو في عمل ينبع، وقال غيره: بينهما مسيرة يوم واحد، وهو من المدينة على سبع مراحل ميامنة طريق المدينة ومياسرة طريق البر لمن كان مصعدا إلى مكة وهو على ليلتين من البحر، والله أعلم. ومن رضوى تحمل حجارة المسن إلى سائر الأمصار، قاله ابن حوقل في كتابه المسالك والممالك.

وذكر أبو اليقظان في كتاب النسب أن ابن الحنفية له ابن اسمه الهيثم وكان مؤخذا عن مسجد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لا يقدر أن يدخله، والأخيذ في اللغة: الأسير، والأخذه – بضم الهمرة – رقية كالسحر، فكانه كان مسحورا.

محمد الباقر

أبو جعفر محمد بن زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين، الملقب الباقر، أحد الأئمة الاثني عشر في اعتقاد الإمامية، وهو والد جعفر الصادق - وقد تقدم ذكره.

كان الباقر عالما سيدا كبيرا، وإنما قيل له الباقر لأنه تبقر في العلم، أي توسع، والتبقر: التوسع، وفيه يقول الشاعر:

يا باقر العلم لأهل التقى وخير من لبى على الأجبل

ومولده يوم الثلاثاء ثالث صفر سنة سبع وخمسين للهجرة، وكان عمره يوم قتل جده الحسين، رضي الله عنه، ثلاث سنين، وأمه أم عبد الله بنت الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه. وتوفي في شهر ربيع الآخر سنة ثلاث عشرة ومائة، وقيل في الثالث والعشرين من صفر سنة أربع عشرة، وقيل سبع عشرة، وقيل ثمان عشرة بالحميمة. ونقل إلى المدينة ودفن بالبقيع في القبر الذي فيه أبوه وعم أبيه الحسن بن علي رضي الله عنهم، في القبة التي فيها قبر العباس رضي الله عنه.

وقد تقدم الكلام على الحميمة في ترجمة علي بن عبد الله بن العباس.

محمد الجواد

أبو جعفر محمد بن علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر المذكور قبله، المعروف بالجواد، أحد الأئمة الاثني عشر أيضا. قدم إلى بغداد وافدا على المعتصر، ومعه امرأته أن الفضل ابنة المأمون، فتوفي بها، وحملت امرأته إلى قصر عمها المعتصم فجعلت مع الحرم.

وكان يروي مسندا عن آبائه إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن، فقال لي وهو يوصيني: يا علي، ما خاب من استخار ولا ندم من استشار، يا علي، عليك بالدلجة فإن الأرض تطوى بالليل ما لا تطى بالنهار، يا علي اغد بسم الله فإن الله بارك لأمتي في بكورها. وكان يقول: من استفاد أخا في الله فقد استفاد بيتا في الجنة.

وقال جعفر بن محمد بن مزيد: كنت ببغداد فقال لي محمد بن منده بن مهريزد: هل لك أن ادخلك على محمد بن علي الرضا؟ فقلت: نعم، قال: فأدخلني عليه، فسلمنا وجلسنا، فقال له: حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أن فاطمة رضي الله عنها أحصنت فرجها فحرم الله ذريتها على النار، قال: ذلك خاص بالحسن والحسين رضي الله عنهما. وله حكايات وأخبار كثيرة.

وكانت ولادته يوم الثلاثاء خامس شهر رمضان، وقيل منتصفه، سنة خمس وتسعين مائة. وتوفي يوم الثلاثاء لخمس خلون من ذي الحجة سنة عشرين مائتين، وقيل تسع عشرة ومائتين ببغداد، ودفن عند جده موسى بن جعفر، رضي الله عنهم أجمعين، في مقابر قريش، وصلى عليه الواثق بن المعتصم.

أبو القاسم المنتظر

أبو القاسم محمد بن الحسن العسكري بن علي الهادي بن محمد الجواد المذكور قبله، ثاني عشر الأئمة الاثني عشر على اعتقاد الامامية، المعروف بالحجة، وهو الذي تزعم الشيعة أنه المنتظر والقائم والمهدي، وهو صاحب السرداب عندهم، وأقاويلهم فيه كثيرة، وهم ينتظرون ظهوره في آخر الزمان من السرداب بسر من رأى. كانت ولادته يوم الجمعة منتصف شعبان سنة خمس وخمسين ومائتين، ولما توفي أبوه - وقد سبق ذكره - كان عمره خمس سنين، واسم أمه خمط، وقيل نرجس، والشيعة يقولون: إنه دخل السرداب في دار أبيه وأمه تنظر إليه، فلم يعد يخرج إليها، وذلك في سنة خمس وستين ومائتين، وعمره يومئذ تسع سنين.

وذكر ابن الأزرق في تاريخ ميافارقين أن الحجة المذكور وله تاسع شهر ربيع الأول سنة ثمان وخمسين ومائتين، وقيل في ثامن شعبان سنة ست وخمسين، وهو الأصح، وأنه لما دخل السرداب كان عمره أربع سنين، وقيل خمس سنين، وقيل إنه دخل السرداب سنة خمس وسبعين ومائتين وعمره سبع عشرة سنة، والله أعلم أي ذلك كان، رحمه الله تعالى.

الزهري

أبو بكر محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب بن عبد الله بن الحارث بن زهرة الزهري أحد الفقهاء والمحدثين، والأعلام التابعين بالمدينة، رأى عشرة من الصحابة رضوان الله عليهم، وروى عنه جماعة من الأئمة: منهم مالك بن أنس وسفيان بن عيينة وسفيان الثوري. وروي عن عمرو بن دينار أنه قال: أي شيء عند الزهري؟ أنا لقيت ابن عمر و لم يلقه، وأنا لقيت ابن عباس و لم يلقه، فقدم الزهري مكة فقال عمرو: احملوني إليه، وكان قد أقعد، فحمل إليه، فلم يأت إلى أصحابه إلا بعد ليل، فقالوا له: كيف رأيت؟ فقال: والله ما رأيت مثل هذا الفتى القرشي قط. وقيل لمكحول: من أعلم من رأيت؟ قال: ابن شهاب، قيل له: ثم من؟ قال: ابن شهاب، قيل له: ثم من؟ قال: ابن شهاب. وكان قد حفظ علم الفقهاء السبعة. وكتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إلى الآفاق: عليكم بابن شهاب، فإنكم لا تجدون احدا أعلم بالسنة الماضية منه.

وحضر الزهري يوما مجلس هشام بن عبد الملك وعنده أبو والزناد عبد الله بن ذكوان فقال له هشام: أي شهر كان يخرج الطاء فيه لأهل المدينة؟ فقال الزهري: لا أدري، فسأل أبا الزناد عنه فقال: في المحرم، فقال هشام للزهري: يا أبا بكر، هذا علم استفدته اليوم، فقال: مجلس أمير المؤمنين أهل أن يستفاد منه العلم. وكان إذا جلس في بيته وضع كتبه حوله، فيشتغل بها عن كل شيء من أمور الدنيا، فقالت له امرأته يوما: والله لهذه الكتب أشد علي من ثلاث ضرائر.

وكان أبو جده عبد الله بن شهاب شهد مع المشركين بدرا، وكان أحد النفر الذين تعاقدوا يوم أحد لئن رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقتلنه أو ليقتلن دونه، وروي أنه قيل للزهري: هل شهد جدك بدرا؟ قال: نعم، ولكن من ذلك الجانب، يعني أنه كان في صف المشركين. وكان أبوه أسلم مع مصعب بن الزبير، و لم يزل الزهري مع عبد الملك ثم مع هشام بن عبد الملك، وكان يزيد بن عبد الملك قد استقضاه.

وتوفي ليلة الثلاثاء لسبع عشرة ليلة خلت من شهر رمضان سنة أربع وعشرين ومائة، وقيل ثلاث وعشرين، وقيل خمس وعشرين ومائة، وهو ابن اثنتين – وقيل ثلاث –وسبعين سنة، وقيل مولده سنة إحدى وخمسين للهجرة، والله أعلم، ودفن في ضيعته أدامي بفتح الهمزة والدال المهملة وبعد الألف ميم مفتوحة وياء مفتوحة أيضا وقيل: أدمي، مثل الأول لكنها بغير ألف، وهي خلف شغب وبدا، وهما واديان وقيل قريتان بين الحجاز والشام في موضع هو آخر عمل الحجاز وأول عمل فلسطين. وذكر في كتاب التمهيد أنه مات في بيته بنعف، وهي قرية عند القرى المذكورة،وماتت بها أيضا أم حزرة زوجة جرير، فقال من أبيات:

نعم القرين وكنت علق مضنة ... وارى بنعف بلية الأحجار

وقبره على الطريق ليدعو له كل من يمر عليه، رضي الله عنه.

والزهري: بضم الزاي وسكون الهاء وبعدها راء، هذه النسبة إلى زهرة ابن كلاب بن مرة، وهي قبيلة كبيرة من قريش، ومنها آمنة أم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وخلق كثير من الصحابة وغيرهم، رضي الله عنهم.

وشغب: بفتح الشين المعجمة وسكون الغين المعجمة وبعدها ياء موحدة.

وبدا: بفتح الباء الموحدة والدال المهملة وبعدها ألف، وفيهما يقول كثير عزة:

وأنت التي حببت شغبا إلى بدا ... إلي وأوطاني بلاد سواهما
إذا ذرفت عيناي أعتل بالقذى ... وعزة لو يدري الطبيب قذاهما
وحلت بهذا حلة ثم أصبحت ... بهذا، فطاب الواديان كلاهما

وهذا الشعر يدل على أنهما واديان، لا قريتان والله أعلم.

محمد بن أبي ليلى

محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى يسار – ويقال داود بن بلال بن أحيحة ابن الجلاح الانصاري الكوفي – وقد سبق ذكر أبيه في حرف العين، كان محمد المذكور من أصحاب الرأي، وتولى القضاء بالكوفة وأقام حاكما ثلاثا وثلاثين سنة، ولي لبني أمية ثم لبني العباس وكان فقيها مفننا، وقال: لا

أعقل من شأن أبي شيئا غير أني أعرف أنه كانت له امرأتان، وكان له حبان أخضران، فينبذ عند هذه يوما وعند هذه يوما. وتفقه محمد بالشعبي، وأخذ عنه سفيان الثوري، وقال الثوري: فقهاؤنا ابن أبي ليلى وابن شبرمة. وقال محمد المذكور: دخلت على عطاء فجعل يسألني، فأنكر بعض من عنده وكلمه في ذلك فقال: هو أعلم مني.

وكانت بينه وبين أبي حنيفة رضي الله عنه وحشة يسيرة، وكان يجلس للحكم في مسجد الكوفة، فيحكى انه انصرف يوما من مجلسه، فسمع امرأة تقول لرجل: يا ابن الزانيين، فأمر بها فأخذت ورجع إلى مجلسه، وأمر بها فضربت حدين وهي قائمة. فبلغ ذلك أبا حنيفة فقال: أخطأ القاضي في هذه الواقعة في ستة أشياء: في رجوعه إلى مجلسه بعد قيامه منه، ولا ينبغي له أن يرجع بعد أن قام منه، وفي ضربه الحد في المسجد، وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن إقامة الحدود في المساجد، وفي ضربه المرأة قائمة، وإنما تضرب النساء قاعدات كاسيات، وفي ضربه إياها حدين، وإنما يجب على القاذف إذا قذف جماعة بكلمة واحدة حد واحد، ولو وجب أيضا حدان لا يوالي بينهما، بل يضرب أولا ثم يترك حتى يبرأ من ألم الأمل، وفي إقامة الحد عليها بغير طالب. فبلغ ذلك محمد بن أبي ليلى، فسير إلى والي الكوفة وقال: ها هنا شاب يقال له أبو حنيفة يعارضني في أحكامي ويفتي بخلاف حكمي ويشنع علي بالخطأ، فأريد أن تزجره عن ذلك، فبعث إليه الوالي ومنعه عن الفتيا، فيقال إنه كان يوما في بيته وعنده زوجته وابنه حماد وابنته، فقالت له ابنته: إني صائمة وقد خرج من بين أسناني دم وبصقته حتى عاد الريق أبيض لا يظهر عليه أثر الدم، فهل أفطر إذا بلعت الآن الريق؟ فقال لها: سلي أخاك حمادا فإن الأمير منعني من الفتيا. وهذه الحكاية معدودة في مناقب أبي حنيفة وحسن تمسكه بامتثال إشارة رب الأمر، فإن إجابته طاعة، حتى إنه أطاعه في السر، و لم يرد على ابنته جوابا، وهذا غاية ما يكون من امتثال الأمر.

وكانت ولادة محمد المذكور سنة أربع وسبعين للهجرة، وتوفي سنة ثمان وأربعين ومائة بالكوفة، وهو باق على القضاء، فجعل أبو جعفر المنصور ابن أخيه مكانه، رضي الله عنه.

محمد بن سيرين

أبو بكر محمد بن سيرين البصري، كان أبوه عبدا لأنس بن مالك، رضي الله عنه، كاتبه على أربعين ألف درهم، وقيل عشرين ألفا، وأدى المكاتبة. وكان من سبي ميسان، ويقال من سبي عين التمر. وكان أبوه سيرين من أهل جرجرايا، وكنيته أبو عمرة، وكان يعمل قدور النحاس، فجاء إلى عين التمر يعمل بها، فسباه خالد بن الوليد رضي الله عنه في أربعين غلاما مختتنين، فأنكرهم، فقالوا: إنا كنا أهل مملكة، ففرقهم في الناس. وكانت أمه صفية مولاة أبي بكر الصدين، رضي الله عنه، طيبها ثلاث من أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعون لها، وحضر إملاكها ثمانية عشر بدريا فيهم أبي ابن كعب يدعو وهم يؤمنون. وروى محمد المذكور عن أبي هريرة وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وعمران بن حصين وأنس بن مالك، رضي الله عنهم، وروى عنه قتادة بن دعامة وخالد الحذاء وأيوب السختياني وغيرهم من الأئمة، وهو أحد الفقهاء من أهل البصرة، والمذكور بالورع في وقته. وقدم المدائن على عبيدة السلماني وقال: صليت معه، فلما قضى صلاته دعا بغداء، فأتي بخبز ولبن وسمن فأكل وأكلنا معه، ثم جلسنا حتى حضرت العصر، ثم قام عبيدة فأذن وأقام، ثم صلى بنا العصر و لم يتوضأ لا هو ولا احد ممن أكل معنا فيما بين الصلاتين.

وكان محمد المذكور صاحب الحسن البصري ثم تهاجرا في آخر الأمر، فلما مات الحسن لم يشهد ابن سيرين جنازته. وكان الشعبي يقول: عليكم بذلك الرجل الأصم، يعني ابن سيرين، لأنه كان في أذنيه صمم. وكانت له اليد الطولى في تعبير الرؤيا. وكانت ولادته لسنتين بقيتا من خلافة عثمان، وتوفي تاسع شوال يوم الجمعة سنة عشر ومائة بالبصرة، بعد الحسن البصري بمائة يوم، رضي الله عنهما،

وكان بزازا، وحبس بدين كان عليه، وولد له ثلاثون ولدا من امرأة واحدة عربية و لم يبق منهم غير عبد الله، ولما مات كان عليه ثلاثون ألف درهم دينا فقضاه ولده عبد الله، فما مات عبد الله حتى قوم ماله بثلثمائة ألف درهم.

وكان محمد المذكور كاتب أنس بن مالك بفارس. وكان الأصمعي يقول: الحسن البصري سيد سمح وإذا حدث الأصم بشيء – يعني ابن سيرين – فاشدد يديك، وقتادة حاطب ليل. قال ابن عوف: لما مات أنس بن مالك أوصى أن يصلي عليه ابن سيرين ويغسله، قال: وكان ابن سيرين محبوسا، فأتوا الأمير – وهو رجل من بني أسد – فأذن له، فخرج فغسله وكفنه وصلى عليه في قصر أنس بالطف، ثم رجع فدخل كما هو إلى السجن، و لم يذهب إلى أهله.

قلت: وذكر عمر بن شبة في كتاب أخبار البصرة أن الذي غسل أنس بن مالك هو قطن بن مدرك الكلابي والي البصرة، وكذلك قال أبو اليقظان.
وميسان: بفتح الميم وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح السين المهملة وبعد الألف نون، وهي بليدة بأيفل أرض البصرة.
وعين التمر: قد سبق الكلام عليها.

ابن أبي ذئب

أبو الحارث محمد بن عبد الرحمن بن المغيرة بن الحارث بن أبي ذئب، واسمه هشام، بن شعبة بن عبد الله بن أبي قيس بن عبد ود بن نصر بن مالك بن حسل ابن عامر بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، القرشي العامري المدني، أحد الأئمة المشاهير، وهو صاحب الإمام مالك رضي الله عنه وكانت بينهما ألف أكيدة ومودة صحيحة. ولما قدم مالك على أبي جعفر المنصور سأله: من بقي بالمدينة من المشيخة؟ فقال: يا أمير المؤمنين، ابن أبي ذئب وابن أبي سلمة وابن أبي سبرة. وكان أبوه قد أتى قيصر فسعي به، فحبسه حتى مات في حبسه.
وتوفي أبو الحارث المذكور في سنة تسع وخمسين، وقيل ثمان وخمسين ومائة بالكوفة، رضي الله عنه، ومولده في المحرم سنة إحدى وثمانين للهجرة، وقيل سنة ثمانين، وهي سنة سيل الجحاف.
والحسل: ولد الضب، وجعه حسول.
ولؤي: من همزه قال هو تصغير لأي، وهو الثور، ومن لم يهمزه قال هو تصغير لوى الرمل، والفهر: الحجر، والله أعلم.

محمد بن الحسن الحنفي

أبو عبد الله محمد بن فرقد، الشيباني بالولاء الفقيه الحنفي، أصله من قرية على باب دمشق في وسط الغوطة اسمها حرستا، وقدم أبوه من الشام إلى العراق، وأقام بواسط فولد له بها محمد المذكور، ونشأ بالكوفة، وطلب الحديث، ولقي جماعة من أعلام الأئمة، وحضر مجلس أبي حنيفة سنتين، ثم تفقه على أبي يوسف صاحب أبي حنيفة.
وصنف الكتب الكثيرة النادرة، منها الجامع الكبير والجمع الصغير وغيرهما. وله في مصنفاته المسائل المشكلة خصوصا المتعلقة بالعربية. ونشر علم أبي حنيفة، وكان من أفصح الناس، وكان إذا تكلم خيل لسامعه أن القرآن نزل بلغته. ولما دخل الإمام الشافعي رضي الله عنه بغداد كان بها، وجرى بينهما مجالس ومسائل بحضرة هارون الرشيد. وقال الشافعي: ما رأيت أحدا يسأل عن مسألة فيها نظر إلا تبينت الكراهة في وجهه، إلا محمد بن الحسن، وقال أيضا: حملت من علم محمد بن الحسن وقر بعير. وقال الربيع بن سليمان المرادي: كتب الشافعي إلى محمد بن الحسن وقد طلب منه كتبا له لينسخها، فتأخرت عنه:

قل لمن لم تر ع	ين من رآه مثله
ومن كأن من رآ	ه قد رأى من قبله
العلم ينهى أهله	أن يمنعوه أهله
لعله يبذله	لأهله لعله

فأنفذ إليه الكتب من وقته. ورأيت هذه الأبيات في ديوان منصور بن إسماعيل الفقيه المصري – الآتي ذكره إن شاء الله تعالى – وقد كتبها إلى أبي بكر بن قاسم. والذي ذكرناه أولا حكاه الشيخ أبو إسحاق الشيرازي في طبقات الفقهاء. وروي عن الشافعي أنه قال: ما رأيت سمينا ذكيا إلا محمد ابن الحسن. وكان الرشيد قد ولاه قضاء الرقة ثم عزله عنها، وقدم بغداد.
وحكى محمد بن الحسن قال: أتوا أبا حنيفة في امرأة ماتت وفي جوفها وله يتحرك، فأمرهم فشقوا جوفها واستخرجوا الولد وكان غلاما، فعاش حتى طلب العلم وكان يتردد إلى مجلس محمد بن الحسن، وسمي ابن أبي حنيفة.

ولم يزل محمد بن الحسن ملازما للرشيد حتى خرج إلى الري خرجته الأولى، فخرج معه، ومات برنبويه قرية من قرى الري في سنة تسع وثمانين ومائة. ومولده سنة خمس وثلاثين، وقيل إحدى وثلاثين، وقيل اثنتين وثلاثين ومائة. وقال السمعاني: مات محمد بن الحسن والكسائي في يوم واحد بالري، رحمها الله تعالى، وقيل إن الرشيد كان يقول: دفنت الفقه والعربية بالري.

ومحمد بن الحسن المذكور ابن خالة الفراء صاحب النحو واللغة.

وقد تقدم الكلام على الشيباني.

وحرستا: بفتح الحاء المهملة والراء وسكون السين المهملة وفتح التاء المثناة من فوقها وبعدها ألف مقصورة.

ورنبويه: بفتح الراء وسكون النون وفتح الباء الموحدة والواو وبعدها ياء مثناة من تحتها ساكنة وبعدها هاء ساكنة.

محمد بن علي العباسي

أبو عبد الله محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب الهاشمي، وهو والد السفاح والمنصور الخليفتين – وقد تقدم ذكر والده في حرف العين –، قال ابن قتيبة: كان محمد المذكور من أجمل الناس وأعظمهم قدرا، وكان بينه وبين أبيه في العمر أربع عشرة سنة، وكان علي يخضب بالسواد ومحمد يخضب بالحمرة، فيظن من لا يعرفهما أن محمدا هو علي.

قال يزيد بن أبي مسلم كاتب الحجاج بن يوسف الثقفي، سمعت الحجاج يقول: بينا نحن عند عبد الملك بن مروان بدومة الجندل في منتزه له ومعه قائف يحادثه ويسائله، إذ أقبل علي بن عبد الله بن العباس ومحمد ابنه، فلما رآه عبد الملك مقبلا حرك شفتيه وهمس بهما وانتقع لونه وقطع حديثه، قال الحجاج: فوثبت نحو علي لأرده، فأشار إلي عبد الملك أن كف عنه، وجاء علي فسلم فأقعده إلى جانبه، وجعل يمس ثوبه، وأشار إلى محمد أن اقعد، وكلمه وساءله، وكان علي حلو المحادثة، وحضر الطعام فأتي بالطست، فغسل يده وقال: أدن الطست من أبي محمد، فقال: أنا صائم، ثم وثب، فأتبعه عبد الملك بصره حتى كاد يخفي عن عينبه، ثم التفت إلى القائف فقال: أتعرف هذا؟ فقال: لا، ولكن أعرف من أمره واحدة، قال: وما هي؟ قال: إن كان الفتى الذي معه ابنه فإنه يخرج من عقبه فراعنه يملكون الأرض ولا يناويهم مناو إلا قتلوه، قال: فاربد لون عبد الملك، ثم قال: زعم راهب إيليا – ورأى عندي – انه يخرج من صلبه ثلاثة عشر ملكا، وصفهم بصفاتهم.

وكان سبب انتقال الأمر إليه أن محمد بن الحنيفية – وقد سبق ذكره – كانت الشيعة تعتقد إمامته بعد أخيه الحسين، رضي الله عنه، فلما توفي محمد بن الحنيفية انتقل الأمر إلى ولده أبي هاشم – وقد سبق ذكره أيضا في ترجمة أبيه – وكان عظيم القدر، وكانت الشيعة تتوالاه، فحضرته الوفاة بالشام في سنة ثمان وتسعين للهجرة ولا عقب له، فأوصى إلى محمد بن علي المذكور وقاله له: انت صاحب هذا الأمر، وهو في ولدك، ودفع إليه كتبه وصرف الشيعة نحوه. ولما حرض محمدا المذكور الوفاة بالشام أوصى إلى ولده إبراهيم المعروف بالإمام، فلما ظهر أبو مسلم الخراساني بخراسان دعا الناس إلى مبايعة إبراهيم بن محمد المذكور، فلذلك قيل له الإمام. وكان نصر بن سيار نائب مروان بن محمد آخر ملوك بني أمية يومئذ بخراسان، فكتب إلى مروان يعلمه بظهور أبي مسلم يدعو لبني العباس. فكتب مروان إلى نائبه بدمشق بأن يحضر إبراهيم من الحميمة موثقا، فأحضره وحمله إليه وحبسه مروان بن محمد آخر ملوك بني امية بمدينة حران، فتحقق أن مروان يقتله، فأوصى إلى أخيه السفاح، وهو أول من ولي الخلافة من اولاد العباس، هذه خلاصة الأمر، والشرح فيه تطويل وبقي إبراهيم في الحبس شهرين، ومات وقيل قتل.

وكانت ولادة محمد المذكور سنة ستين للهجرة، هكذا وجدته منقولا، وهو يخالف ما تقدم من أن بينه وبين أبيه في العمر أربع عشرة سنة، فقد تقدم في تاريخ أبيه أنه ولد في حياة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أو في ليلة قتل علي، على الاختلاف فيه، وكان قتل علي في رمضان سنة أربعين، فكيف يمكن أن يكون بينهما أربع عشرة سنة؟ بل أقل ما يمكن أن يكون بينهما عشرون سنة. وذكر ابن حمدون في كتاب التذكرة أن محمدا المذكور مولده في سنة اثنتين وستين للهجرة، وتوفي محمد المذكور في سنة ست وعشرين، وقيل اثنتين وعشرين ومائة، وفيها ولد المهدي بن أبي جعفر المنصور، وهو والد هارون الرشيد، وقيل سنة خمس وعشرين ومائة بالشراة، وقال الطبري في تاريخه: توفي محمد بن علي مستهل ذي القعدة سنة ست وعشرين

ومائة، وهو ابن ثلاث وستين سنة رحمه الله تعالى.
وقد تقدم الكلام على الشراة في ترجمة أبيه علي بن عبد الله.
وقال الطبري في تاريخه: في سنة ثمان وتسعين للهجرة قدم أبو هاشم عبد الله ابن محمد بن الحنفية على سليمان بن عبد الملك بن مروان فأكرمه، وسار أبو هاشم يريد فلسطين، فأنفذ سليمان من قعد له على الطريق بلبن مسموم، فشرب منه أبو هاشم فأحس بالموت، فعدل إلى الحميمة واجتمع بمحمد بن علي بن عبد الله بن العباس وأعلمه ان الخلافة في ولده عبد الله بن الحارثية – قلت: وهو السفاح – وسلم إليه كتب الدعاة وأوقفه على ما يعمل بالحميمة، هكذا قال الطبري، و لم يذكر إبراهيم الإمام، وجميع المؤرخين اتفقوا على إبراهيم، إلا أنه ما تم له الأمر، والله أعلم.

البخاري

أبو عبد الله محمد بن أبي الحسن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن الأحنف يزذبه وقال ابن ماكولا: هو يزدزبه الجعفي بالولاء، البخاري الحافظ الإمام في علم الحديث، صاحب الجامع الصحيح والتاريخ، رحل في طلب الحديث إلى أكثر محدثي الأمصار، وكتب بخراسان والجبال ومدن العراق والحجاز والشام ومصر، وقدم بغداد، واجتمع إليه أهلها واعترفوا بفضله وشهدوا بتفرده في علم الرواية والدراية، وحكى أبو عبد الله الحميدي في كتاب جذوة المقتبس والخطيب في تاريخ بغداد أن البخاري لما قدم بغداد سمع به أصحاب الحديث، فاجتمعوا وعمدوا إلى مائة حديث فقبلوا متونها وأسانيدها وجعلوا متن هذا الإسناد إسناد آخر، ودفعوا إلى عشرة أنفس إلى كل رجل عشرة أحاديث، وأمروهم إذا حضروا المجلس يلقون ذلك على البخاري، وأخذوا الموعد للمجلس، فحضر المجلس جماعة من أصحاب الحديث من الغرباء من أهل خراسان وغيرها ومن البغداديين، فلما اطمأن المجلس بأهله انتدب إليه واحد من العشرة، فسأله عن حديث من تلك الأحاديث، فقال للبخاري: لا أعرفه، فسأله عن آخر فقال: لا أعرفه، فما زال يلقي عليه واحدا بعد واحد حتى فرغ من عشرته، والبخاري يقول: لا أعرفه، فكان الفقهاء ممن حضر المجلس يلتفت بعضهم إلى بعض ويقولون: الرجل فهم، ومن كان منهم ضد ذلك يقضي على البخاري بالعجز والتقصير وقلة الفهم. ثم انتدب رجل آخر من العشرة فسأله عن حديث من تلك الأحاديث المقلوبة، فقال البخاري: لا أعرفه، فسأله عن آخر فقال: لا أعرفه، فلم يزل يلقي عليه واحدا بعد واحد حتى فرغ من عشرته، والبخاري يقول: لا أعرفه، ثم انتدب الثالث والرابع إلى تمام العشرة حتى فرغوا كلهم من الأحاديث المقلوبة، والبخاري لا يزيدهم على قوله: لا أعرفه، فلما علم البخاري أنهم فرغوا التفت إلى الأول منهم فقال: أما حديثك الأول فهو كذا، وحديثك الثاني فهو كذا، والثالث والرابع على الولاء، حتى أتى تمام العشرة، فرد كل متن إلى إسناده وكل إسناد إلى متنه، وفعل بالآخرين كذلك، ورد متون الأحاديث كلها إلى أسانيدها وأسانيدها إلى متونها، فأقر له الناس بالحفظ وأذعنوا له بالفضل.
وكان ابن صاعد إذا ذكره يقول: الكبش النطاح، ونقل عنه محمد بن يوسف الفربري أنه قال: ما وضعت في كتابي الصحيح حديثا إلا اغتسلت قبل ذلك وصليت ركعتين. وعنه أنه قال: صنفت كتابي الصحيح لست عشرة سنة، خرجته من ستمائة ألف حديث، وجعلته حجة فيما بيني وبين الله عز وجل.
وقال الفربري: سمع صحيح البخاري تسعون ألف رجل، فما بقي أحد يروي عنه غيري. وروى عنه أبو عيسى الترمذي.

وكانت ولادته يوم الجمعة بعد الصلاة، لثلاث عشرة، وقيل لاثنتي عشرة ليلة خلت منن شوال سنة أربع وتسعين ومائة، وقال أبو يعلى الخليلي في كتاب الإرشاد: إن ولادته كانت لاثنتي عشرة ليلة خلت من الشهر المذكور.
وتوفي ليلة السبت بعد صلاة العشاء، وكانت ليلة عيد الفطر، ودفن يوم الفطر بعد صلاة الظهر، سنة ست وخمسين ومائتين بخرتنك، رحمه الله تعالى.
وذكر ابن يونس في تاريخ الغرباء أنه قدم مصر وتوفي بها، وهو غلط، والصواب ما ذكرناه ها هنا رحمه الله تعالى. وكان خالد بن أحمد بن خالد الذهلي أمير خراسان قد اخرجه من بخارى إلى خرتنك، ثم حج خالد المذكور فوصل إلى بغداد فحبسه الموفق بن المتوكل أخو المعتمد الخليفة، فمات في حبسه.
وكان شيخا نحيف الجسم، لا بالطويل ولا بالقصير. وقد اختلف في اسم جده، فقيل إنه يزذبه – بفتح الياء المثناة من تحتها وسكون الزاي وكسر الذال

المعجمة وبعدها باء موحدة ثم هاء ساكنة، وقال أبو نصر بن ماكولا في كتاب الإكمال: هو يزدزبه – بدال وزاي وباء معجمة بواحدة – والله أعلم، وقال غيره: هذا الجد مجوسيا مات على دينه، وأول من أسلم منهم المغيرة، ووجدته في موضع آخر عوض يزذبه الأحنف ولعل يزذبه كان أحنف الرجل، والله أعلم.

والبخاري: بضم الباء الموحدة وفتح الخاء المعجمة وبعد الألف راء، هذه النسبة إلى بخارا، وهي من أعظم مدن ما وراء النهر، بينها وبين سمرقند مسافة ثمانية أيام.

وخرتنك: بفتح الخاء المعجمة وسكون الراء وفتح التاء المثناة من فوقها وسكون النون وبعدها كاف، وهي قرية من قرى سمرقند.

وقد سبق الكلام على الجعفي، ونسبة البخاري إلى سعيد بن جعفر والي خراسان، وكان له عليهم الولاء فنسبوا إليه.

ابن جرير الطبري

أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن خالد، الطبري، وقيل يزيد بن كثير ابن غالب، صاحب التفسير الكبير والتاريخ الشهير، كان إماما في فنون كثيرة منها التفسير والحديث والفقه والتاريخ وغير ذلك، وله مصنفات مليحة في فنون عديدة تدل على سعة علمه وغزارة فضله، وكان من الأئمة المجتهدين، لم يقلد أحدا، وكان أبو الفرج المعافى بن زكريا النهرواني المعروف بابن طرارا على مذهبه – وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى –.

وكان ثقة في نقله، وتاريخه أصح التواريخ وأثبتها، وذكره الشيخ أبو إسحاق الشيرازي في طبقات الفقهاء في جملة المجتهدين، ورأيت في بعض المجاميع هذه الأبيات منسوبة إليه، وهي:

إذا اعسرت لم يعلم شقيقي ... وأستغني فيستغني صديقي

حيائي حافظ لي ماء وجهي ... ورفقي في مطالبتي رفيقي

ولو أني سمحت ببذل وجهي ... لكنت إلى الغنى سهل الطريق

وكانت ولادته سنة أربع وعشرين ومائتين، بآمل طبرستان، وتوفي يوم السبت آخر النهار، ودفن يوم الأحد في داره، في السادس والعشرين من شوال سنة عشر وثلثمائة ببغداد، رحمه الله تعالى. ورايت بمصر في القرافة الصغرى عند سفح المقطم قبرا يزار، وعند رأسه حجر عليه مكتوب هذا قبر ابن جرير الطبري والناس يقولون: هذا صاحب التاريخ، وليس بصحيح، بل الصحيح أنه ببغداد، وكذلك قال ابن يونس في تاريخ مصر المختص بالغرباء: إنه توفي ببغداد. وأبو بكر الخوارزمي الشاعر المشهور ابن أخته – وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى، وقد سبق الكلام على الطبري.

محمد بن عبد الحكم

أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد الحكم بن أعين ابن ليث بن رافع المصري الفقيه الشافعي، سمع من ابن وهب وأشهب من أصحاب الإمام مالك، فلما قدم الإمام الشافعي، رضي الله عنه، مصر صحبه وتفقه به، وحمل في المحنة إلى بغداد إلى القاضي أحمد بن أبي دواد الإيادي – المقدم ذكره – فلم يجب إلى ما طلب منه فرد إلى مصر، وانتهت إليه الرياسة بمصر.

وكانت ولادته سنة اثنتين وثمانين ومائة. وتوفي يوم الأربعاء لليلة خلت من ذي القعدة، وقيل منتصفه، سنة ثمان وستين ومائتين، وقبره فيما يذكر مع قبر أبيه وأخيه عبد الرحمن – وقد سبق ذكر ذلك – وهما إلى جانب الإمام الشافعي، وقال ابن قانع: توفي سنة تسع وستين بمصر، رحمه الله تعالى.

روى عنه أبو عبد الرحمن النسائي في سننة. وقال المزني: كنا نأتي الشافعي نسمع منه، فنجلس على باب داره، ويأتي محمد بن عبد الله بن عبد الحكم فيصعد إليه ويطيل المكث، وربما تغدى معه ثم نزل، فيقرأ علينا الشافعي، فإذا فرغ من قراءته قرب إلى محمد دابته فركبها، وأتبعه الشافعي بصره، فإذا غاب شخصه قال: وددت لو أن لي ولدا مثله وعلي ألف دينار لا أجد لها قضاء.

وحكي عن محمد المذكور أنه قال: كنت اتردد إلى الشافعي، فاجتمع قوم من أصحابنا إلى أبي، وكان على مذهب الإمام مالك – وقد سبق ذكره في

العبادلة – فقالوا: يا أبا محمد، إن محمدا ينقطع إلى هذا الرجل ويتردد إليه فيرى الناس أن هذا رغبة عن مذهب أصحابه، فجعل أبي يلاطفهم ويقول: هو حدث ويحب النظر في اختلاف أقاويل الناس ومعرفة ذلك، ويقول لي في السر: يا بني، الزم هذا الرجل، فإنك لو جاوزت هذا البلد فتكلمت في مسألة فقلت فيها: قال أشهب، لقيل لك: من أشهب؟ قال: فلزمت الشافعي، وما زال كلام والدي في قلبي حتى خرجت إلى العراق فكلمني القاضي بحضرة جلسائه في مسألة فقلت فيها: قال أشهب عن مالك فقال: ومن أشهب؟ وأقبل على جلسائه فقال لبعضهم كالمنكر: ما أعرف أشهب ولا أبلق. وأخباره كثيرة.

وذكره القضاعي في كتاب خطط مصر قال: ومحمد هذا هو الذي أحضره أحمد بن طولون في الليل إلى حيث سقايته بالمعافر لما توقف الناس عن شرب مائها والوضوء به، فشرب منه وتوضأ، فأعجب ذلك ابن طولون، وصرفه لوقته ووجه إليه بصلة، والناس يقولون: إنه المزني، وليس بصحيح، والله أعلم.

الترمذي

أبو جعفر محمد بن أحمد بن نصر، الترمذي الفقيه الشافعي، لم يكن للفقهاء الشافعية في وقته أرأس منه ولا أورع ولا أكثر تقلا، وكان يسكن بغداد، وحدث بها عن يحيى بن بكير المصري ويوسف بن عدي وكثير بن يحيى وغيرهم. وروى عنه أحمد بن كامل القاضي وعبد الباقي بن قانع وغيرهما.

وكان ثقة من أهل العلم والفضل والزهد في الدنيا. قال أبو الطيب أحمد بن عثمان السمسار والد أبي حفص عمر بن شاهين: حضرت عند أبي جعفر الترمذي فسأله سائل عن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله تعالى يترل إلى سماء الدنيا فالترول كيف يبقى فوقه علو؟ فقال أبو جعفر: الترول معقول والكيف مجهول، والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة.

وكان من التقلل في المطعم على حالة عظيمة فقرا وورعا وصبرا على الفقر، أخبر محمد بن موسى بن حماد أنه أخبره أنه تقوت في سبعة عشر يوما خمس حبات، أو قال ثلاث حبات، قال: قلت: كيف عملت؟ فقال: لم يكن عندي غيرها فاشتريت بها لفتا، فكنت آكل كل يوم واحدة. وذكر أبو إسحاق الزجاج النحوي أنه كان يجرى عليه في كل شهر أربعة دراهم، وكان لا يسأل أحدا شيئا.

وكان يقول: تفقهت على مذهب أبي حنيفة، فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم في مسجد المدينة عام حججت فقلت: يا رسول الله، قد تفقهت بقول أبي حنيفة، أفآخذ به؟ قال: لا، فقلت: آخذ بقول مالك بن أنس؟ فقال: خذ منه ما وافق سنتي، قلت: فآخذ بقول الشافعي؟ فقال: ما هو بقوله، إلا أنه أخذ بسنتي ورد على من خالفها، قال: فخرجت في أثر هذه الرؤيا إلى مصر، وكتبت كتب الشافعي. وقال الدارقطني: هو ثقة مأمون ناسك، وكان يقول: كتبت الحديث تسعا وعشرين سنة. وكانت ولادته في ذي الحجة سنة مائتين، وقيل سنة عشر ومائتين. وتوفي لإحدى عشرة ليلة خلت من المحرم سنة خمس وتسعين ومائتين، و لم يغير سيبه، وكان قد اختلط في آخر عمره اختلاطا عظيما، رحمه الله تعالى.

وقال السمعاني في نسبة الترمذي: هذه النسبة إلى مدينة قديمة على طرف نهر بلخ الذي يقال له جيحون، والناس مختلفون في كيفية هذه النسبة: بعضهم يقول بفتح التاء ثالث الحروف، وبعضهم يقول بضمها، وبعضهم يقول بكسرها، والمتداول على لسان أهل تلك المدينة بفتح التاء وكسر الميم، والذي كنا نعرفه قديما كسر التاء والميم جميعا، والذي يقوله المتنوقون وأهل المعرفة بضم التاء والميم، وكل واحد يقول معنى لما يدعيه، هذا كله كلام السمعاني، والله أعلم بالصواب. وسألت من رآها: هل هي في ناحية خوارزم أم في ناحية ما وراء النهر؟ فقال: بل هي في حساب ما وراء النهر في ذلك الجانب.

ابن الحداد المصري

أبو بكر محمد بن أحمد بن محمد بن جعفر الكناني، المعروف بابن الحداد، الفقيه الشافعي المصري، صاحب كتاب الفروع في المذهب وهو كتاب صغير الحجم كثير الفائدة، دقق في مسائله غاية التدقيق، واعتنى بشرحه جماعة من الأئمة الكبار: شرحه القفال المروزي شرحا متوسطا ليس بالكبير، وشرحه القاضي أبو الطيب الطبري في مجلد كبير، وشرحه الشيخ أبو علي السنجي شرحا تاما مستوفى أطال فيه، وهو أحسن الشروح.

وكان ابن الحداد المذكور قد أخذ الفقه عن أبي إسحاق المروزي، وقال صاحبنا عماد الدين بن باطيش في كتابه الذي وضعه على المهذب وفي طبقات الفقهاء: إنه من اعيان أصحاب إبراهيم المزني، وقد وهم فيه، فإن ابن الحداد ولد في السنة التي توفي فيها المزني. وقال القضاعي في كتاب خطط مصر إنه ولد في اليوم الذي مات فيه المزني رحمه الله تعالى، فكيف يمكن أن يكون من أصحابه؟ وإنما نبهت على ذلك لئلا يظن ظان أن هذا غلط، وذلك الصواب، ونسب إليه أيضا الأبيات الذالية التي ذكرتها في ترجمة ظافر الحداد الإسكندري، وقد سبق الكلام عليها في ترجمة ظافر.

وكان ابن الحداد فقيها محققا غواصا على المعاني، تولى القضاء بمصر والتدريس وكانت الملوك والرعايا تكرمه وتعظمه وتقصده في الفتاوى والحوادث، وكان يقال في زمنه: عجائب الدنيا ثلاث: غضب الجلاد، ونظافة السماد، والرد على ابن الحداد. وكانت ولادته لست بقين من شهر رمضان، سنة أربع وستين ومائتين، وتوفي سنة خمس وأربعين وثلثمائة، وقال السمعاني: سنة أربع وأربعين، والله أعلم بالصواب. وحدث عن أبي عبد الرحمن النسائي وغيره رحمهم الله أجمعين، وذكر القضاعي في كتاب خطط مصر ان ابن الحداد المذكور توفي عند منصرفه من الحج، سنة أربع وأربعين وثلثمائة بمنية حرب على باب مدينة مصر، وقيل في موضع القاهرة.

وكان متصرفا في علوم كثيرة من علوم القرآن الكريم والفقه والحديث والشعر وأيام العرب والنحو واللغة وغير ذلك، و لم يكن في زمانه مثله، وكان محببا إلى الخاص والعام، وحضر جنازته الأمير أبو القاسم أنوجور ابن الإخشيد وكافور وجماعة من اهل البلد، وله تسع وسبعون سنة وأربعة أشهر ويومان، رحمه الله تعالى.

والحداد: بفتح الحاء المهملة وتشديد الدال ثم دال بعد ألف، وكان أحد أجداده يعمل الحديد ويبيعه فنسب إليه.

أبو بكر الصيرفي

أبو بكر محمد بن عبد الله، المعروف بالصيرفي، الفقيه الشافعي البغدادي، كان من جملة الفقهاء، أخذ الفقه عن أبي العباس بن سريج، واشتهر بالحذق في النظر والقياس وعلوم الأصول، وله في أصول الفقه كتاب لم يسبق إلى مثله. حكى أبو بكر القفال في كتابه الذي صنفه في الأصول أن أبا بكر الصيرفي كان أعلم الناس بالأصول بعد الشافعي، وهو أول من انتدب من أصحابنا للشروع في علم الشروط، وصنف فيه كتابا أحسن فيه كل الإحسان. وتوفي يوم الخميس لثمان بقين من شهر ربيع الآخر سنة ثلاثين وثلثمائة، رحمه الله تعالى.

والصيرفي: بفتح الصاد المهملة وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح الراء وبعدها فاء، هذه النسبة مشهورة لمن يصرف الدنانير والدراهم، وإنما قصدت بذكرها ضبطها وتقييدها، فقد رأيت كثيرا من الناس ينطقون بكسر الصاد والراء.

القفال الشاشي

أبو بكر محمد بن علي بن إسماعيل، القفال الشاشي الفقيه الشافعي، إمام عصره بلا مدافعة، كان فقيها محدثا أصوليا لغويا شاعرا، لم يكن بما وراء النهر للشافعيين مثله في وقته، رحل إلى خراسان والعراق والحجاز والشام والثغور، وسار ذكره في البلاد، وأخذ الفقه عن ابن سريج، وله مصنفات كثيرة، وهو أول من صنف الجدل الحسن من الفقهاء، وله كتاب في أصول الفقه، وله شرح الرسالة، وعنه انتشر مذهب الشافعي في بلاده، وروى عن محمد بن جرير الطبري وأقرانه، وروى عنه الحاكم أبو عبد الله وأبو عبد الله ابن منده وأبو عبد الرحمن السلمي وجماعة كثيرة. وهو والد القاسم صاحب كتاب التقريب الذي ينقل عنه في النهاية والوسيط والبسيط. وقد ذكره الغزالي في الباب الثاني من كتاب الرهن، لكنه قال: أبو القاسم، وهو غط، وصوابه: القاسم. وقال العجلي في شرح مشكلات الوجيز والوسيط في الباب الثالث من كتاب التيمم: إن صاحب التقريب هو أبو بكر القفال، وقيل إنه ابنه القاسم، ثم قال: فلهذا يقال: صاحب التقريب على الإبهام.

قلت: ورأيت في شوال سنة خمس وستين وستمائة، في خزانة الكتب بالمدرسة العادلية بدمشق المحروسة كتاب التقريب في ست مجلدات، وهي من حساب عشر مجلدات، وكتب عليه بأنه تصنيف أبي الحسن القاسم ابن أبي بكر القفال الشاشي، وقد كانت النسخة المذكورة للشيخ قطب الدين مسعود النيسابوري – الآتي ذكره إن شاء الله تعالى – وعليها خطه بأنه وقفها، وهذا التقريب غير التقريب الذي لسليم الرازي، فإني رأيت خلقا كثيرا

من الفقهاء يعتقدونه هو، فلهذا نبهت عليه، والتقريب الذي لابن القفال قليل الوجود، والذي لسليم موجود بأيدي الناس، وهذا التقريب هو الذي تخرج به فقهاء خراسان.

وقد وقع الاختلاف في وفاة القفال المذكور، فقال الشيخ أبو إسحاق الشيرازي في طبقات الفقهاء: توفي في سنة ست وثلاثين وثلثمائة، وقال الحاكم أبو عبد الله المعروف بابن البيع النيسابوري: إنه توفي بالشاش، في ذي الحجة سنة خمس وستين وثلثمائة، وقال: كتبت عنه وكتب عني، ووافقه على هذا ابن السمعاني في كتاب الأنساب وزاد فقال: وكانت ولادته في سنة إحدى وتسعين ومائتين، وقال أعني ابن السمعاني في كتاب الذيل: إنه توفي سنة ست وستين وثلثمائة، رحمه الله تعالى، وكذا قاله في كتاب الأنساب أيضا في ترجمة الشاشي، والقول الأول قاله في ترجمة القفال، والله أعلم بالصواب.

والشاشي: نسبة إلى الشاش – بشينين معجمتين بينهما ألف – وهي مدينة وراء نهر سيحون، خرج منها جماعة من العلماء، وهذا القفال غير القفال المروزي – وقد سبق ذكر ذلك في العبادلة – وهو متاخر عن هذا.

أبو الحسن الماسرجسي

أبو الحسن محمد بن علي بن سهل بن مصلح، الماسرجسي الفقيه الشافعي، أحد أئمة الشافعيين بخراسان، وأعرفهم بالمذهب وترتيبه وفروع المسائل، تفقه بخراسان والعراق والحجاز، وصحب أبا إسحاق المروزي وتفقه عليه وخرج معه إلى مصر ولزمه إلى أن مات ثم رجع إلى بغداد، وكان يخلف علي بن أبي هريرة في مجالسه بعد قيامه عنها، ثم انصرف إلى خراسان سنة أربع وأربعين وثلثمائة، ودرس بنيسابور وعنه أخذ فقهاؤها، وعليه تفقه القاضي أبو الطيب الطبري. وسمع من خاله المؤمل بن الحسن بن عيسى الماسرجسي، وسمع بمصر من أصحاب المزني ويونس بن عبد الأعلى الصدفي. وقال الحاكم أبو عبد الله ابن البيع: عقدت له مجلس الإملاء في دار السنة في رجب سنة إحدى وثمانين وثلثمائة، وتوفي عشية الأربعاء، ودفن في عشية الخميس سادس جمادى الآخرة سنة أربع وثمانين وثلثمائة، وعمره ست وسبعون سنة. وقال الشيخ أبو إسحاق في الطبقات: سنة ثلاث وثمانين، رحمه الله تعالى.

والماسرجسي: بفتح الميم وبعد الألف سين مفتوحة مهملة وراء ساكنة ثم جيم مكسورة بعدها سين ثانية، هذه النسبة إلى ماسرجس، وهو اسم لجد أبي علي الحسن بن عيسى بن ماسرجس النيسابوري، كان نصرانيا فأسلم على يد عبد الله بن المبارك، وأبو الحسن الفقيه المذكور ابن بنت أبي علي المذكور، فنسب إليه، ونسبة الكل إلى ماسرجس المذكور.

أبو عبد الله الختن

أبو عبد الله محمد بن الحسن بن إبراهيم الأستراباذي، وقيل الجرجاني، المعروف بالختن، الفقيه الشافعي، كان فقيها فاضلا ورعا مشهورا في عصره، وله وجوه حسنة في المذهب، وكان مقدما في الأدب ومعانيالقرآن والقراءات، ومن العلماء المبرزين في النظر والجدل. سمع أبا نعيم عبد الملك بن محمد بن عدي وأقرانه ببلده، وورد نيسابور سنة سبع وثلاثين وثلثمائة فأقام بها إلى آخر سنة تسع، ثم دخل أصبهان فسمع مسند أبي داود من عبد الله بن جعفر، ودخل العراق وكتب بعد الأربعين وأكثر، وكان كثير السماع والرحلة، وشرح كتاب التلخيص لأبي العباس ابن القاص، وتوفي بجرجان يوم عيد الأضحى سنة ست وثمانين وثلثمائة، وهو ابن خمس وسبعين سنة، رحمه الله تعالى.

وقد تقدم الكلام على الأستراباذي والجرجاني، والختن: بفتح الخاء المعجمة والتاء المثناة من فوقها وبعدها نون، وإنما قيل له ذلك لأنه كان ختن الفقيه أبي بكر الإسماعيلي.

أبو سهل الصعلوكي

أبو سهل محمد بن سليمان بن محمد بن سليمان بن هارون بن موسى بن عيسى بن إبراهيم بن بشر الحنفي العجلي المعروف بالصعلوكي، الأصبهاني أصلا ومولدا النيسابوري دارا، الفقيه الشافعي المفسر المتكلم الأديب النحوي الشاعر العروضي الكاتب، ذكره الحاكم أبو عبد الله في تاريخه فقال: حبر

زمانه، وفقيه أصحابه وأقرانه، صحب أبا إسحاق المرزوي وتفقه عليه وتبحر في العلوم، ثم خرج إلى العراق ودخل البصرة ودرس بها سنين، إلى أن استدعي إلى أصبهان فاقام بها سنين، فلما نعي إليه عمه أبو الطيب خرج مستخفيا فورد نيسابور سنة سبع وثلاثين وثلثمائة، وجلس لمأتم عمه ثلاثة أيام، وكان الشيخ أبو بكر ابن إسحاق يحضر كل يوم فيقعد معه، وكذلك كل رئيس وقاض ومفت من الفريقين، فلما فرغ من العزاء عقدوا له مجلس النظر، ولم يبق موافق ولا مخالف إلا أقربفضله وتقدمه، وحضره المشايخ مرة بعد أخرى يسألونه أن ينقل من خلفهم وراءه بأصبهان، فأجاب إلى ذلك، ودرس وأفتى، وعنه أخذ فقهاء نيسابور. وكان الصاحب ابن عباد يقول: أبو سهل الصعلوكي لا نرى مثله ولا يرى مثل نفسه.

وسئل أبو الوليد عن أبي بكر القفال والصعلوكي فقال: ومن يقدر يكون مثل الصعلوكي؟ وكانت ولادته سنة ست وتسعين ومائتين، وسمع الحديث سنة خمس وثلثمائة، وحضر مجلس أبي علي الثقفي للتفقه سنة ثلاث عشرة. وتوفي في آخر سنة تسع وستين وثلثمائة بنيسابور، وحملت جنازته إلى ميدان الحسين، فقدم السلطان ولده أبا الطيب للصلاة عليه فصلى، ودفن في المسجد الذي كان يدرس فيه، رحمه الله تعالى، وقد تقدم ذكر ابنه في حرف السين والكلام على الصعلوكي.

أبو الطيب ابن سلمة

أبو الطيب محمد بن المفضل بن سلمة بن عاصم الضبي البغدادي الفقيه الشافعي، كان من كبار الفقهاء ومتقدميهم، أخذ الفقه عن أبي العباس ابن شريج، وكان موصوفا بفرط الذكاء، ولهذا كان أبو العباس يقبل عليه كل الإقبال ويميل إلى تعليمه غاية الميل، وصنف كتبا عديدة، وتوفي في المحرم سنة ثمان ثلثمائة، وهو غض الشباب، رحمه الله تعالى، وله في المذهب وجوه حسنة.

وسلمة: بفتح السين المهملة واللام والميم.

وأبوه أبو طالب المفضل بن سلمة بن عاصم الضبي اللغوي صاحب التصانيف المشهورة في فنون الأدب ومعاني القرآن، وكان كوفي المذهب مليح الخط، لقي ابن الأعرابي وغيره من العلماء، واستدرك على الخليل في كتاب العين وخطأه، وعمل في ذلك كتابا، وله من التصانيف كتاب البارع في علم اللغة وكتاب الفاخر وكتاب العود والملاهي وكتاب جلاد الشبه وكتاب الطيف وكتاب ضياء القلوب في معاني القرآن نيف وعشرون جزءا، وكتاب الاشتقاق وكتاب الزرع والنبات وكتاب خلق الإنسان وكتاب ما يحتاج إليه الكاتب وكتاب المقصور والممدود وكتاب المدخل إلى علم النحو وروى عنه أبو بكر الصولي وزعم أنه سمع عنه في سنة تسعين ومائتين.

وجده سلمة بن عاصم صاحب الفراء وروايته، وهم أهل بيت كلهم علماء نبلاء مشاهير، رحمهم الله تعالى.

وكان المفضل المذكور متصلا بالوزير إسماعيل بن بلبل فقيل له: إن ابن الرومي الشاعر – المقدم ذكره – قد هجاه، فشق ذلك على الوزير، وحرم ابن الرومي عطاياه، فعمل ابن الرومي في المفضل أبياتا وهي:

لو تلففت في كساء الكسائي ... وتفريت فروة الفراء
وتخللت بالخليل وأضحى ... سيبويه لديك رهن سباء
وتكونت من سواد أبي الأسود شخصا يكنى أبا السوداء
لأبى الله أن يعدك أهل العلم إلا من جملة الأغبياء

أبو بكر النيسابوري

أبو بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري، كان فقيها عالما مطلعا، ذكره الشيخ أبو إسحاق في طبقات الفقهاء وقال: صنف في اختلاف العلماء كتبا لم يصنف أحد مثلها، واحتاج إلى كتبه الموافق والمخالف، ولا أعلم عمن أخذ الفقيه، وتوفي بمكة سنة تسع أو عشر وثلثمائة، رحمه الله تعالى، ومن كتبه المشهورة في اختلاف العلماء كتاب الاشراف وهو كتاب كبير يدل على كثرة وقوفه على مذاهب الأئمة، وهو من أحسن الكتب وأنفعها وأمتعها، وله كتاب المبسوط أكبر من الاشراف، وهو في اختلاف العلماء ونقل مذاهبهم أيضا، وله كتاب الإجماع وهو صغير.

أبو زيد المرزوي

أبو زيد محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد، المرزوي الفاشاني الفقيه الشافعي، كان من الأئمة الأجلاء، حسن النظر مشهورا بالزهد حافظا للمذهب، وله فيه وجوه غريبة. أخذ الفقه عن أبي إسحاق المرزوي، وأخذ عنه أبو بكر القفال المرزوي، ودخل بغداد وحدث بها، وسمع منه الحافظ أبو الحسن الدارقطني ومحمد بن أحمد بن القاسم المحاملي، ثم خرج إلى مكة فجاور بها سبع سنين، وحدث هناك بصحيح البخاري عن محمد بن يوسف الفربري، قال الخطيب: وأبو زيد أجل من روى هذا الكتاب. وقال أبو بكر البزار: عادلت الفقيه أبا زيد من نيسابور إلى مكة فما أعلم أن الملائكة كتبت عليه، يعني خطيئة. وقال أحمد بن محمد الحاتمي الفقيه: سمعت أبا زيد المروزي يقول: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام وأنا بمكة، وكأنه يقول لجبريل عليه السلام: يا روح الله اصحبه إلى وطنه.

وكان في أول أمره فقيرا لا يقدر على شيء فكان يعبر الشتاء بلا جبة مع شدة البرد في تلك البلاد، فإذا قيل له في ذلك يقول: بي علة تمنعني من لبس المحشو، يعني به الفقر. وكان لا يشتهي أن يطلع أحدا على باطن حاله، ثم أقبلت عليه الدنيا في آخر عمره وقد أسن وتساقطت أسنانه فكان لا يتمكن من المضغ وبطلت منه حاسة الجماع فكان يقول مخاطبا للنعمة: لا بارك الله فيك! أقبلت حين لا ناب ولا نصاب.

وقد أذكرتني هذه الحكاية أبياتا لبعض الفضلاء وقد أثرى وصارت له نعمة وهو في عشر الثمانين، وهي:

ما كنت أرجوه إذ كنت ابن عشرينا ... ملكته بعد أن جاوزت سبعينا

تطيف بي من بني الأتراك أغزلة ... مثل الغصون على كثبان يبرينا

وخرد من بنات الروم رائعة ... يحكين بالحسن حور الجنة العينا

يغمزنني بأساريع منعمة ... تكاد تنقض من أطرافها لينا

يردن إحياء ميت لا حراك به ... فكيف يحيين ميتا صار مدفونا

قالوا أنينك طول الليل يقلقنا ... فما الذي تشتكي؟ قلت الثمانينا

وتوفي يوم الخميس ثالث عشر رجب سنة إحدى وسبعين وثلثمائة بمرو، رحمه الله تعالى، وقد تقدم الكلام على نسبة المرزوي والفاشاني فلا حاجة إلى الإعادة.

أبو بكر الأودني

أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن نصر بن ورقاء الأودني الفقيه الشافعي، إمام أصحاب الشافعي في عصره، ذكره الحاكم أبو عبد الله بن البيع النيسابوري في تاريخ نيسابور وقال: حج ثم انصرف وأقام بنيسابور عندنا مدة وكان من أزهد الفقهاء وأبكاهم على تقصيره. وتوفي في شهر ربيع الأول سنة خمس وثمانين وثلثمائة ببخارا، ودفن بكلاباذ رحمه الله تعالى.

والأودني: بضم الهمزة وسكون الواو وفتح الدال المهملة وبعدها نون، هذه النسبة إلى أودنة، وهي قرية من قرى بخارا، هكذا قاله السمعاني، والفقهاء يحرفونه فيقولون الأودي وسمعت بعض مشايخنا في زمن الاشتغال بالعلم يقول: هو الأودني بفتح الهمزة والله أعلم. ثم وجدت في كتاب أبي بكر الحازمي الذي سماه ما اتفق لفظه وافترق مسماه ما يدل على أنه بفتح الهمزة، فإنه جعله مع أردن ونظائره مما أوله بفتح الهمزة، ثم قال: وأما أودن – بعد الهمزة واو ساكنة ثم دال مهملة وآخره نون – فقرية من قرى بخارا، وعادته في هذا الكتاب أنه إذا ذكر مكانا على مثل هذه الصورة ثم ذكر بعده مثله تركه على حاله، وإن اختلف في الحركة ذكر وجه المخالفة، و لم يذكر ها هنا ضمة الهمزة، فدل على أنه مثل الأول.

وله وجوه في المذهب، وذكره صاحب الوسيط في مواضع عديدة.

وكلاباذ: بفتح الكاف وبعد اللام ألف باء موحدة مفتوحة وبعد الألف ذال معجمة، وهي محلة ببخارا.

وإليها ينسب الحافظ المتقن أبو نصر أحمد بن محمد بن الحسن بن الحسين ابن علي بن رستم الكلاباذي أحد أئمة الحديث وكان ثقة، وتوفي لسبع بقين من جمادى الآخرة سنة ثمان وتسعين وثلثمائة، ومولده سنة ستين وأربعمائة رحمه الله تعالى. قلت: هكذا ذكره الحافظ أبو سعيد ابن السمعاني في تاريخ وفاة الكلاباذي ومولده وهو غلط، فإنه أخر تاريخ المولد عن تاريخ الوفاة، وكشفته من جهات عديدة فلم أجد من ذكره، فتركته على حاله، والظاهر أن الأمر بالعكس، والله أعلم.

أبو بكر الفارسي

أبو بكر محمد بن أحمد بن علي بن شاهويه الفارسي الفقيه الشافعي، ذكره الحاكم أبو عبد الله في تاريخ نيسابور وقال: أقام بنيسابور زمانا، ثم خرج إلى بخارا ثم انصرف إلى نيسابور، ورجع إلى بلاد فارس فولي القضاء بها، ثم رجع إلى نيسابور وحدث بها. وتوفي في سنة اثنتين وستين وثلثمائة بنيسابور، رحمه الله تعالى. وله في المذهب وجوه بعيدة تفرد بها، و لم نرها منقولة عن غيره، و لم أعلم عمن أخذ الفقه.

وشاهويه: بالشين المعجمة وبعد الألف هاء مفتوحة ثم واو مفتوحة ثم ياء مثناة من تحتها ساكنة، وهو اسم عجمي مركب، فالشاه الملك، وأما ويه فقد قال الجوهري في كتاب الصحاح: سيبويه ونحوه من الأسماء اسم بني مع صوت فجعلا اسما واحدا.

وأما فارس فإنها كورة عظيمة قصبتها شيراز، وشهرتها تغني عن ضبطها.

القضاعي

أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر بن علي بن حكمون بن إبراهيم بن محمد بن مسلم القضاعي الفقيه الشافعي، صاحب كتاب الشهاب، ذكره الحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق وقال: روى عنه أبو عبد الله الحميدي، وتولى القضاء بمصر نيابة من جهة المصريين، وتوجه منهم رسولا إلى جهة الروم، وله عدة تصانيف: منها كتاب الشهاب وكتاب مناقب الإمام الشافعي رضي الله عنه وأخباره وكتاب الإنباء عن الأنبياء وتواريخ الخلفاء وله كتاب خطط مصر.

وذكره الأمير أبو نصر ابن ماكولا في كتاب الإكمال وقال: كان مفننا في عدة علوم. وتوفي بمصر ليلة الخميس السادس عشر من ذي القعدة سنة أربع وخمسين وأربعمائة، وصلي عليه يوم الجمعة بعد العصر في مصلى النجار. وقد تقدم ذكره في ترجمة الظاهر بن الحاكم العبيدي صاحب مصر، وأنه كان يعلم عن وزيره الأقطع الجرجرائي.

وذكر السمعاني في كتاب الذيل في ترجمة الخطيب أبي بكر أحمد بن علي ابن ثابت الحافظ صاحب تاريخ بغداد أنه حج سنة خمس وأربعين وأربعمائة وحج تلك السنة أبو عبد الله القضاعي المذكور، وسمع الخطيب منه، رحمه الله تعالى.

والقضاعي: بضم القاف وفتح الضاد المعجمة وبعد الألف عين مهملة، هذه النسبة إلى قضاعة، ويقال: هم ابن معد بن عدنان، ويقال: هو من حمير، وهو الأكثر والأَصح، واسمه عمرو بن مالك، وينسب إليه قبائل كثيرة، منها كلب وبلي وجهينة وعذرة وغيرهم.

والنجار صاحب المصلى هو: عمران بن موسى النجار مولى غافق، وقيل إن النجار المذكور هو أبو الطيب محمد بن جعفر البغدادي النجار، ويعرف بغندر، وتوفي سنة ثمان وخمسين وثلثمائة قبل دخول القائد جوهر مصر، رحمه الله تعالى.

المسعودي الفقيه

أبوعبد الله محمد بن عبد الله بن مسعود بن أحمد، المسعودي الفقيه الشافعي، إمام فاضل مبرز ورع من أهل مرو، تفقه على أبي بكر القفال المرزوي وشرح مختصر المزني وأحسن فيه، وروى قليلا من الحديث عن أستاذه القفال، وحكى عنه الغزالي في كتاب الوسيط في الأيمان في الباب الثالث فيما يقع به الحنث مسألة لطيفة فقال: فرع – لو حلف لا يأكل بيضا، ثم انتهى إلى رجل فقال: والله لآكلن ما في كمك، فإذا هو بيض، فقد سئل القفال عن هذه المسألة وهو على الكرسي فلم يحضره الجواب، فقال المسعودي تلميذه: يتخذ منه الناطف ويأكله، فيكون قد أكل ما في كمه و لم يأكل

البيض، فاستحسن ذلك منه، وهذه الحيلة من لطائف الحيل. وتوفي المسعودي المذكور سنة نيف وعشرين وأربعمائة بمرو، رحمه الله تعالى، ونسبته إلى جده مسعود.

أبو عاصم العبادي

القاضي أبو عاصم محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن عباد، العبادي الهروي الفقيه الشافعي، تفقه بهراة على القاضي أبي منصور الأزدي، وبنيسابور على القاضي أبي عمر البسطامي، وصار إماما متقنا دقيق النظر. تنقل في البلاد ولقي خلقا كثيرا من المشايخ وأخذ عنهم، وصنف كتبا نافعة: منها أدب القضاء والمبسوط والهادي إلى مذهب العلماء وكتاب الرد على السمعاني وله كتاب لطيف في طبقات الفقهاء، وعنه أخذ أبو سعد الهروي صاحب كتاب الأشراف في أدب القضاء وغوامض الحكومات وسمع الحديث ورواه. وتوفي في شوال سنة ثمان وخمسين وأربعمائة، وكانت ولادته في سنة خمس وسبعين وثلثمائة، رحمه الله تعالى.

والعبادي: بفتح العين المهملة وتشديد الباء الموحدة وبعد الألف دال مهملة، هذه النسبة إلى جده عباد المذكور. وقد تقدم الكلام على الهروي.

الخضري

أبو عبد الله محمد بن أحمد الخضري المروزي الفقيه الشافعي، إمام مرو ومقدم الفقهاء الشافعية، صحب أبا بكر الفارسي، وكان من أعيان تلامذة أبو بكر القفال الشاشي، وأقام بمرو ناشرا فقه الشافعي، وكان يضرب به المثل في قوة الحفظ وقلة النسيان، وله في المذهب وجوه غريبة نقلها الخراسانيون عنه، وروى عن الشافعي رضي الله عنه أنه صحح دلالة الصبي على القبلة، قال الخضري: معناه أن يدل على قبلة تشاهد في الجامع، فأما في موضع الاجتهاد فلا يقبل.

وذكر أبو الفتوح العجلي في أول كتاب النكاح من كتاب شرح مشكلات الوجيز والوسيط أن الشيخ أبا عبد الله الخضري سئل عن قلامة ظفر المرأة: هل يجوز للرجل الأجنبي النظر إليها، فأطرق الشيخ طويلا ساكتا، وكانت ابنة الشيخ أبي علي الشبوي تحته، فقالت له: لم تتفكر وقد سمعت أبي يقول في جواب هذه المسألة: إن كانت من قلامة أظفار اليدين جاز النظر إليها وإن كانت من أظفار الرجلين لم يجز، وإنما كان ذلك لأن يدها ليست بعورة، بخلاف ظهر القدم، ففرح الخضري وقال: لو لم أستفد من اتصالي بأهل العلم إلا هذه المسألة لكانت كافية، انتهى كلام العجلي.

قلت أنا: هذا التفصيل بين اليدين والرجلين فيه نظر، فإن أصحابنا قالوا: اليدان ليستا بعورة في الصلاة، أما بالنسبة إلى نظر الأجنبي فما نعرف بينهما وكانت له معرفة بالحديث أيضا وكان ثقة. وتوفي في عشر الثمانين والثلثمائة، رحمه الله تعالى.

والخضري: بكسر الخاء المعجمة وسكون الضاد المعجمة وبعدها راء، هذه النسبة إلى بعض لأجداده، واسمه الخضر، هذا عند من يكسر الخاء ويسكن الضاد من الخضر، وهي إحدى اللغتين، فأما من يقول الخضر – بفتح الخاء وكسر الضاد – فقياسه أن يقال الخضري – بفتح الضاد – كما قالوا في النسبة إلى نمرة نمري، وهو باب مطرد لا يخرج عنه شيء.

والشبوي: بفتح الشين المعجمة وتشديد الباء الموحدة وضمها وسكون الواو، هذه النشبة إلى شبويه، وهو اسم بعض أجداد الشيخ أبي علي المذكور وكان فقيها فاضلا من أهل مرو، رحمه الله تعالى.

الغزالي

أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي، الملقب حجة الإسلام زين الدين الطوسي الفقيه الشافعي، لم يكن للطائفة الشافعية في آخر عصره مثله، اشتغل في مبدأ أمره بطوس على أحمد الراذكاني، ثم قدم نيسابور واختلف إلى دروس إمام الحرمين أبي المعالي الجويني، وجد في الاشتغال حتى تخرج في مدة قريبة، وصار من الأعيان المشار إليهم في زمن أستاذه، وصنف في ذلك الوقت، وكان أستاذه يتبجح به، ولم يزل ملازما له إلى أن توفي في التاريخ المذكور في ترجمته، فخرج من نيسابور إلى العسكر، ولقي الوزير نظام الملك فأكرمه وعظمه وبالغ في الإقبال عليه، وكان بحضرة الوزير جماعة من الأفاضل، فجرى بينهم الجدال والمناظرة في عدة مجالس، فظهر عليهم واشتهر اسمه وسارت بذكره الركبان.

ثم فوض إليه الوزير تدريس مدرسته النظامية بمدينة بغداد، فجاءها وباشر إلقاء الدروس بها، وذلك في جمادى الأولى سنة أربع وثمانين وأربعمائة، وأعجب به أهل العراق وارتفعت عندهم منزلته، ثم ترك جميع ما كان عليه في ذي القعدة سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، وسلك طريق الزهد والانقطاع وقصد الحج وناب عنه أخوه أحمد في التدريس فلما رجع توجه إلى الشام فأقام بمدينة دمشق مدة يذكر الدروس في زاوية الجامع في الجانب الغربي منه، وانتقل منها إلى البيت المقدس، واجتهد في العبادة وزيارة المشاهد والمواضع المعظمة، ثم قصد مصر وأقام بالإسكندرية مدة، ويقال إنه قصد منها الركوب في البحر إلى بلاد المغرب على عزم الاجتماع بالأمير يوسف بن تاشفين صاحب مراكش، - وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى - فبينا هو كذلك بلغه نعي يوسف بن تاشفين المذكور، فصرف عزمه عن تلك الناحية.

ثم عاد إلى وطنه بطوس واشتغل بنفسه وصنف الكتب المفيدة في عدة فنون منها ما هو أشهرها كتاب الوسيط والبسيط والوجيز والخلاصة في الفقه، ومنها إحياء علوم الدين وهو من أنفس الكتب وأجملها، وله في أصول الفقه المستصفى فرغ من تصنيفه في سادس المحرم سنة ثلاث وخمسمائة، وله المنحول والمنتحل في علم الجدل وله تهافت الفلاسفة ومحك النظر ومعيار العلم والمقاصد والمضنون به على غير أهله والمقصد الأقصى في شرح أسماء الله الحسنى ومشكاة الأنوار والمنقذ من الضلال وحقيقة القولين وكتبه كثيرة وكلها نافعة.

ثم ألزم بالعود إلى نيسابور والتدريس بها بالمدرسة النظامية، فأجاب إلى ذلك بعد تكرار المعاودات، ثم ترك ذلك وعاد إلى بيته في وطنه، واتخذ خانقاه للصوفية ومدرسة للمشتغلين بالعلم في جواره، ووزع أوقاته على وظائف الخير: من ختم القرآن ومجالسة أهل القلوب والقعود للتدريس، إلى أن انتقل إلى ربه. ويروى له شعر، فمن ذلك ما نسبه إليه الحافظ أبو سعد السمعاني في الذيل وهو قوله:

حلت عقارب صدغه في خده ... قمرا فجل بها عن التشبيه

ولقد عهدناه يحل ببرجها ... فمن العجائب كيف حلت فيه

ورأيت هذين البيتين في موضع آخر لغيره والله أعلم. ونسب إليه العماد الأصبهاني في الخريدة هذين البيتين، وهما:

هبني صبوت كما ترون بزعمكم ... وحظيت منه بلثم خد أزهر

إني اعتزلت فلا تلوموا إنهأضحى يقابلني بوجه أشعر ي

ونسب إليه البيتين اللذين قبلهما.

وكانت ولادته سنة خمسين وأربعمائة، وقيل سنة إحدى وخمسين بالطابران، وتوفي يوم الاثنين رابع عشر جمادى الآخرة سنة خمس وخمسمائة بالطابران، ورثاه الأديب أبو المظفر محمد الأبيوردي الشاعر المشهور - وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى - بأبيات فائية من جملتها:

مضى وأعظم مفقود فجعت به ... من لا نظير له في الناس يخلفه

وتمثل الإمام إسماعيل الحاكمي بعد وفاته بقول أبي تمام من جملة قصيدة مشهورة:

عجبت لصبري بعده وهو ميت ... وكنت امرءا أبكي دما وهو غائب

على أنها الأيام قد صرن كلها ... عجائب حتى ليس فيها عجائب

ودفن بظاهر الطابران، وهي قصبة طوس، رحمه الله تعالى.

وقد تقدم الكلام على الطوسي والغزالي في ترجمة أخيه أحمد الزاهد الواعظ المذكور في حرف الهمزة، والطابران، بفتح الطاء المهملة والباء الموحدة وراء مهملة وبعد الألف الثانية نون، وهي إحدى بلدتي طوس، كما تقدم ترجمة أحمد أيضا.

المستظهري

أبو بكر محمد بن أحمد بن الحسين بن عمر الشاشي الأصل الفارقي المولد، المعروف بالمستظهري، الملقب فخر الإسلام الفقيه الشافعي، كان فقيه وقته، تفقه أولا بميافارقين على أبي عبد الله محمد بن بيان الكازروني، وعلى القاضي أبي منصور الطوسي صاحب أبي محمد الجويني إلى أن عزل عن قضاء ميافارقين، ثم رحل أبو بكر إلى بغداد، ولازم الشيخ أبا إسحاق الشيرازي، رحمه الله تعالى، ثم رحل أبو بكر إلى بغداد، وقرأ عليه وأعاد عنده، وقرأ كتاب الشامل في الفقه على مصنفه أبي نصر ابن الصباغ، رحمه الله تعالى، ودخل نيسابور صحبة الشيخ أبي إسحاق، وتكلم في مسألة بين يدي إمام الحرمين فأحسن فيها، وعاد إلى بغداد. وذكره الحافظ عبد الغافر الفارسي في سياق تاريخ نيسابور وتعين في الفقه بالعراق بعد أستاذه أبي إسحاق، وانتهت إليه رياسة الطائفة الشافعية. وصنف تصانيف حسنة، من ذلك كتاب حلية العلماء في المذهب، وذكر فيه مذهب الشافعي، ثم ضم إلى كل مسألة اختلاف الأئمة فيها، وجمع من ذلك شيئا كثيرا وسماه المستظهري لأنه صنفه للإمام المستظهر بالله، وصنف أيضا في الخلاف.

وتولى التدريس بالمدرسة النظامية بمدينة بغداد، سنة أربع وخمسمائة إلى حين وفاته، وكان قد وليها قبله الشيخ أبو إسحاق الشيرازي وأبو نصر ابن الصباغ صاحب الشامل وأبو سعد المتولي صاحب تتمة الإبانة وأبو حامد الغزالي – وقد سبق ذكر ذلك في ترجمة كل واحد منهم – فلما انقرضوا تولاها هو. وحكى لي بعض المشايخ من علماء المذهب أنه يوم ذكر الدرس، وضع منديله على عينيه وبكى كثيرا، وهو جالس على السدة التي جرت عادة المدرسين بالجلوس عليها وكان ينشد:

خلت الديار فسدت غير مسود	ومن العناء تفردي بالسؤدد

وجعل يردد هذا البيت ويبكي، وهذا إنصاف منه واعتراف لمن تقدمه بالفضل والرجحان عليه، وهذا البيت من جملة أبيات في الحماسة.

ومدحه تلميذه أبو المجد حمدان بن كثير البالسي بقصيدة يقول فيها:

يا كعبة الفضل افتنا لم لم يجب	شرعا على قصادك الإحرام
ولما تضمخ زائريك بطيب ما	تلقيه وهو على الحجيج حرام

وقد سبق في مرثية أبي العلاء المعري مثل هذا المعنى.

وكانت ولادته في المحرم سنة تسع وعشرين وأربعمائة بميافارقين. وتوفي في يوم السبت خامس عشري شوال سنة سبع وخمسمائة ببغداد، ودفن في مقبرة باب أبرز، مع شيخه أبي إسحاق في قبر واحد، وقيل دفن إلى جانبه، رحمهما الله تعالى.

أبو نصر الأرغياني

أبو نصر محمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن عبد الله الأرغياني الفقيه الشافعي، قدم من بلده إلى نيسابور واشتغل على إمام الحرمين أبي المعالي الجويني وبرع في الفقه، وكان إماما مفننا ورعا كثير العبادة. وسمع الحديث من أبي الحسن علي ابن أحمد الواحدي صاحب التفاسير، وروى عنه في تفسير قوله تعالى: "إني لأجد ريح يوسف"، أن ريح الصبا استاذنت ربها عز وجل أن تأتي بريح يوسف على نبينا وعليهما أفضل الصلاة والسلام قبل أن يأتيه البشير بالقميص، فأذن لها فأتته بذلك، فلذلك يستروح كل محزون بريح الصبا، وهي من ناحية المشرق: إذا هبت على الأبدان نعمتها ولينتها، وهيجت الأشواق إلى الأوطان والأحباب، وأنشد:

أيا جبلي نعمان بالله خليا	نسيم الصبا يخلص إلي نسيمها
فان الصبا ريح إذا ما تنسمت	على نفس مهموم تجلت همومها

وكانت ولادته في سنة أربع وخمسين وأربعمائة، وتوفي ليلة الرابع والعشرين من ذي القعدة، سنة ثمان وعشرين وخمسمائة بنيسابور، ودفن بظاهرها بموضع يقال له الحيرة على الطريق، رحمه الله تعالى.

والفتاوى المستخرجة من كتاب نهاية المطلب المنسوبة إلى الأرغياني أشك فيها: هل هي له أم لأبي الفتح سهل بن علي الأرغياني – المقدم ذكره – فإني بعيد العهد بالوقوف عليها، وذكرت في ترجمة أبي الفتح أنها له، ثم حصل لي الشك، والله أعلم.

وقد تقدم الكلام على نسبة الأرغياني في ترجمة أبي الفتح المذكور.

ثم إني ظفرت بالفتاوى المذكورة، فوجدتها لأبي نصر المذكور، لا لأبي الفتح.

محمد بن يحيى

أبو سعد محمد بن يحيى بن أبي منصور النيسابوري، الملقب محيي الدين، الفقيه الشافعي، أستاذ المتأخرين وأوحدهم علما وزهدا، تفقه على حجة الإسلام أبي حامد الغزالي، وأبي المظفر أحمد بن محمد الخوافي - المقدم ذكره - وبرع في الفقه وصنف فيه وفي الخلاف، وانتهت إليه رياسة الفقهاء بنيسابور، ورحل إليه الناس من البلاد، واستفاد منه خلق كثير صار أكثرهم سادة وأصحاب طرق في الخلاف، وصنف كتاب المحيط في شرح الوسيط والانتصاف في مسائل الخلاف وغير ذلك من الكتب.

ذكره الحافظ عبد الغافر الفارسي في سياق تاريخ نيسابور وأثنى عليه، وقال: كان له حظ في التذكير، واستمداد من سائر العلوم، وكان يدرس بنظامية نيسابور، ثم درس بمدينة هراة في المدسة النظامية، ومن جملة مسموعاته ما سمعه من الشيخ أبي حامد أحمد بن علي بن محمد بن عبدوس بقراءة الإمام أبي نصر عبد الرحيم بن أبي القاسم عبد الكريم القشيري، في سنة ست وتسعين وأربعمائة، وحضر بعض فضلاء عصرة درسه وسمع فوائده، وحسن إلقائه، فأنشده:

رفات الدين والإسلام يحيا بمحيي الدين مولانا ابن يحيى
كأن الله رب العرش يلقي عليه حين يلقي الدرس وحيا

ورأيت في بعض المجاميع بيتين منسوبين إليه، ثم وجدت في ترجمة الشيخ شهاب الدين أبي الفتح محمد بن محمود بن محمد الطوسي الفقيه الشافعي نزيل مصر، قال: وأنشدني الإمام أبو سعد محمد بن يحيى النيسابوري لنفسه وهما:

وقالوا يصير الشعر في الماء حية إذا الشمس لاقته فما خلته صدقا
فلما ثوى صدغاه في ماء وجهه وقد لسعا قلبي تيقنته حقا

وكانت ولادته سنة ست وسبعين وأربعمائة بطريثيث. وتوفي شهيدا في شهر رمضان، سنة ثمان وأربعين وخمسمائة، قتلته الغز لما استولوا على نيسابور في وقعتهم مع السلطان سنجر السلجوقس - كما تقدم ذكره في ترجمته - أخذته ودست في فيه التراب حتى مات. وحكى ابن الأزرق الفارقي في تاريخه أن ذلك كان في سنة ثلاث وخمسين، والأول أصح. ولما مات رثاه جماعة من العلماء، من جملتهم أبو الحسن علي بن أبي القاسم البيهقي، قال فيه:

يا سافكا دم عالم متبحر قد طار في أقصى الممالك صيته
تالله قل لي يا ظلوم ولا تخف من كان محيي الدين كيف تميته

رحمه الله تعالى.

وتوفي شهاب الدين الطوسي المذكور، في العشرين من ذي القعدة سنة ست وتسعين وخمسمائة بمصر ودفن بالقرافة، ومولده سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة، وكان مدرسا بمدرسة منازل العز بمصر، وقدم إلى مصر من مكة سنة تسع وسبعين وخمسمائة ونزل خانقاه سعيد السعداء بالقاهرة.

وطريثيث: بضم الطاء المهملة وفتح الراء وسكون الياء المثناة من تحتها وكسر الثاء المثلثة وسكون الياء المثناة الثانية وبعدها ثاء مثلثة، وهي ناحية كبيرة من نواحي نيسابور، خرج منها جماعة من العلماء وغيرهم.

البروي

أبو منصور محمد بن محمد بن محمد بن سعد بن عبد الله البروي الفقيه الشافعي، أحد الأئمة المشار إليهم بالتقدم في الفقه والنظر وعلم الكلام والوعظ، وكان حلو العبارة ذا فصاحة وبراعة، تفقه على الفقيه محمد بن يحيى المذكور قبله، وكان من أكبر أصحابه، وصنف في الخلاف تعليقة جيدة، وهي مشهورة، وله جدل مليح مشهور سماه المقترح في المصطلح وأكثر اشتغال الفقهاء به، وقد شرحه الفقيه تقي الدين أبو الفتح مظفر بن عبد الله المصري المعروف بالمقترح شرحا مستوفى وعرف به، واشتهر باسمه لكونه كان يحفظه فلا يقال له إلا التقي المقترح.

ودخل البروي بغداد سنة سبع وستين وخمسمائة فصادف قبولا وافرا من العام والخاص، وتولى المدرسة البهائية قريبا من النظامية وكان يذكر بها كل يوم عدة دروس، ويحضر عنده الخلق الكثير، وله حلقة المناظرة بجامع القصر، ويحضر عنده المدرسون والأعيان، وكان يجلس للوعظ بالمدرسة النظامية، ومدرسها يومئذ أبو نصر أحمد بن عبد الله الشاشي، وكان يظهر عليه من الحركات ما يدل على رغبته في تدريس النظامية، وكان ينشد في أثناء مجلسه مشيرا إلى موضع التدريس أبيات المتنبي، وهي أوائل قصيد:

بكيت يا ربع حتى كدت أبكيكا	وجدت بي وبدمعي في مغانيكا
فعم صباحا لقد هيجت لي شجنا	وارد تحيتنا إنا محيوكا
بأي حكم زمان صرت متخذا	ريم الفلا بدلا من ريم أهليكا

فكان الناس يفهمون منه ذلك، وكان أهلا له، ووعد به فأدركته المنية، وكانت ولادته يوم الثلاثاء خامس عشر ذي القعدة سنة سبع عشرة وخمسمائة بطوس، وتوفي يوم الخميس بين الصلاتين سادس عشر رمضان سنة سبع وستين وخمسمائة ببغداد، وصلي عليه يوم الجمعة بجامع القصر الخليفة المستضيء بأمر الله ودفن في ذلك النهار في تربة الشيخ أبي إسحاق الشيرازي بباب أبرز، رحمهما الله تعالى.

وذكر الحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق أن أبا منصور البروي المذكور قدم دمشق في سنة خمس وستين وخمسمائة ونزل في رباط السميساطي، وقرئ عليه شيء من أماليه.

والبروي: بفتح الباء الموحدة والراء وبعدها واو، لا أعلم هذه النسبة إلى أي شيء هي، ولا ذكرها السمعاني، وغالب ظني أنها من نواحي طوس، والله أعلم.

ابن الخل

أبو الحسن محمد بن المبارك، وكنيته أبو البقاء، ابن محمد بن عبد الله بن محمد المعروف بابن الخل، الفقيه الشافعي البغدادي، تفقه على أبي بكر محمد بن احمد الشاشي المعروف بالمستظهري – المقدم ذكره – وبرع في العلم، وكان يجلس في مسجده الذي بالرحبة شرقي بغداد لا يخرج عنه إلا بقدر الحاجة يفتي ويدرس، وكان قد تفرد بالفتوى بالمسألة السريجية ببغداد وصنف كتابا سماه توجيه التنبيه على صورة الشرح لكنه مختصر، وهو أول من شرح التنبيه، لكن ليس فيه طائل، وله كتاب في أصول الفقه. وسمع الحديث من أبي عبد الله الحسين بن أبي طلحة النعالي وأبي عبد الله الحسين البسري وغيرهما. وروى عنه الحافظ أبو سعد السمعاني وغيره. وسمعت بعض الفقهاء ينقل عنه أنه كان يكتب خطا جيدا منسوبا وأن الناس كانوا يحتالون على أخذ خطه في الفتاوى من غير حاجة إليها بل لأجل الخط لا غير، فكثرت عليه الفتاوى وضيقت عليه أوقاته، ففهم ذلك منهم، فصار يكسر القلم ويكتب جواب الفتوى به، فأقصروا عنه. وقيل إن صاحب الخط المليح هو أخوه، والله أعلم.

وتوفي سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة ببغداد ونقل إلى الكوفة ودفن بها، رحمه الله تعالى.

وكان أخوه أبو الحسين أحمد بن المبارك فقيها فاضلا وشاعرا ماهرا، ذكره العماد الأصبهاني في كتاب الخريدة وأثنى عليه، وأورد له مقاطيع شعر ودوبيت، فمن ذلك أبيات في بعض الوعاظ وهي:

ومن الشقاوة أنهم ركنوا إلى	نزغات ذاك الأحمق التمتام

شيخ يبهرج دينه بنفاقه ونفاقه منهم على اقوام

وإذا رأى الكرسي تاه بأنفه أي أن هذا موضعي ومقامي

ويدق صدرا ما انطوى إلا على غل يواريه بكف عظام

ويقول أيش أقول من حصر به لا لازدحام عبارة وكلام

وله دوبيت:

هذا ولهي وكم كتمت الولها صونا لوداد من هوى النفس لها

يا آخر محنتي ويا أولها آيات غرامي فيك من أولها

وله أيضا:

ساروا وأقام في فؤادي الكمد لم يلق كما لقيت منهم احد

شوق وجوى ونار وجد تقد مالي جلد، ضعفت ما لي جلد

وله أيضا:

ما ضر حداة عيسهم لو رفقوا لم يبق غداة بينهم لي رمق

قلب قلق وأدمع تستبق أو هي جلدي من الفراق الفرق

وكانت ولادته سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة، وتوفي سنة اثنتين – أو ثلاث – وخمسين وخمسمائة، رحمه الله تعالى.

محي الدين بن زكي الدين

أبو المعالي محمد بن أبي الحسن علي بن محمد أبي المعالي مجد الدين بن يحيى أبي الفضل زكي الدين بن علي بن عبد العزيز بن علي بن الحسين بن محمد بن عبد الرحمن بن القاسم بن الوليد بن القاسم بن عبد الرحمن بن أبان بن أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضي الله عنه، القرشي، الملقب محيي الدين، المعروف بابن زكي الدين، الدمشقي الفقيه الشافعي، كان ذا فضائل عديدة من الفقه والأدب وغيرهما، وله النظم المليح والخطب والرسائل، وتولى القضاء بدمشق في شهر ربيع الأول، سنة ثمان وثمانين وخمسمائة، يوم الأربعاء العشرين من الشهر المذكور، هكذا وجدته بخط القاضي الفاضل:
وكذلك أبوه زكي الدين وجده مجد الدين، وجد أبيه زكي الدين أيضا وهو أول من ولي من بينهم وولداه زكي الدين أبو العباس الطاهر ومحيي الدين كانوا قضاتها. وكانت له عند السلطان صلاح الدين، رحمه الله تعالى، المنزلة العالية، والمكانة المكينة. ولما فتح السلطان المذكور مدينة حلب، يوم السبت ثامن عشر صفر، سنة تسع وسبعين وخمسمائة، أنشده القاضي محيي الين المذكور قصيدة بائية، أجاد فيها كل الإجادة، وكان من جملتها بيت هو متداول بين الناس، وهو:

وفتحك القعلة الشهباء في صفر مبشر بفتوح القدس في رجب

فكان كما قال، فإن القدس فتحت لثلاث بقين من رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، وقيل لمحيي الدين: من أين لك هذا؟ فقال: أخذته من تفسير ابن برجان في قوله تعالى: "ألم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين". ولما وقفت أنا على هذا البيت وهذه الحكاية لم أزل أتطلب تفسير ابن برجان حتى وجدته على هذه الصورة، لكن كان هذا الفصل مكتوبا في الحاشية بخط غير الأصل، ولا أدري هل كان من أصل الكتاب أم هو ملحق به، وذكر له حسابا طويلا وطريقا في استخراج ذلك حتى حرره من قوله بضع سنين.
ولما ملك السلطان صلاح الدين حلب، فوض الحكم والقضاء بها في ثالث عشر ربيع الآخر من السنة إلى القاضي محيي الدين المذكور، فاستناب بها

زين الدين بنا أبا الفضل بن البانياسي.

ولما فتح السلطان القدس الشريف تطاول إلى الخطابة يوم الجمعة كل واحد من العلماء الذين كانوا في خدمته حاضرين، وجهز كل واحد منهم خطبة بليغة، طمعا في أن يكون هو الذي يعين لذلك، فخرج المرسوم إلى القاضي محيي الدين ان يخطب هو، وحضر السلطان وأعيان دولته، وذلك في أول جمعة صليت بالقدس بعد الفتح، فلما رقي المنبر استفتح بسورة الفاتحة، وقرأها إلى آخرها، ثم قال: "فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين"، ثم قرأ أول سورة الأنعام: "الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور"، ثم قرأ من سورة سبحان: "وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا"، ثم قرأ أول الكهف: "الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب"، الآيات الثلاث، ثم قرأ من النمل: "وقل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى"، ثم قرأ من سورة سبأ: "الحمد لله الذي له ما في السموات"، ثم قرأ من سورة فاطر: "الحمد لله فاطر السموات والأرض"، وكان قصده أن يذكر جميع تحميدات القرآن الكريم، ثم شرع في الخطبة، فقال: الحمد لله معز الإسلام بنصره، ومذل الشرك بقهره، ومصرف الأمور بأمره، ومديم النعم بشكره، ومستدرج الكفار بمكره، الذي قدر الأيام دولا بعدله، وجعل العاقبة للمتقين بفضله، وأفاء على عباده من ظله، وأظهر دينه على الدين كله، القاهر فوق عباده فلا يمانع، والظاهر على خليقته فلا ينازع، والآمر بما يشاء فلا يراجع، والحاكم بما يريد فلا يدافع، أحمده على إظفاره وإظهاره، وإعزازه لأوليائه ونصره لأنصاره، وتطهير بيته المقدس من أدناس الشرك وأوضاره، حمد من استشعر الحمد باطن سره وظاهر جهاره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، شهادة من طهر بالتوحيد قلبه، وأرضى به ربه، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله رافع الشك، وداحض الشرك، وراحض الإفك، الذي أسرى به من المسجد الحرام إلى هذا المسجد الأقصى، وعرج به منه إلى السموات العلا إلى سدرة المنتهى، عندها جنة المأوى، ما زاغ البصر وما طغى، صلى الله عليه وعلى خليفته أبي بكر الصديق السابق إلى الإيمان، وعلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أول من رفع عن هذا البيت شعار الصلبان، وعلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان ذي النورين جامع القرآن، وعلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب مزلزل الشرك ومكسر الأوثان، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان.

أيها الناس، أبشروا برضوان الله الذي هو الغاية القصوى والدرجة العليا لما يسره الله على أيديكم من استرداد هذه الضالة، من الأمة الضالة، وردها إلى مقرها من الإسلام، بعد ابتذالها في أيدي المشركين قريبا من مائة عام، وتطهير هذا البيت الذي أذن الله أن يرفع ويذكر فيه اسمه، وإماطة الشرك عن طرقه بعد أن امتد عليها رواقه واستقر فيها رسمه، ورفع قواعده بالتوحيد، فإنه بني عليه وشيد بنيانه بالتمجيد، فإنه أسس على التقوى من خلفه ومن بين يديه، فهو موطن أبيكم إبراهيم، ومعراج نبيكم محمد عليه الصلاة والسلام، وقبلتكم التي كنتم تصلون إليها في ابتداء الإسلام، وهو مقر الأنبياء، ومقصد الأولياء، ومدفن الرسل ومهبط الوحي، ومنزل به ينزل الأمر والنهي، وهو في أرض المحشر وصعيد المنشر، وهو في الأرض المقدسة التي ذكرها الله في كتابه المبين، وهو المسجد الأقصى الذي صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالملائكة المقربين، وهو البلد الذي بعث الله إليه عبده ورسوله وكلمته التي ألقاها إلى مريم، وروحه عيسى الذي كرمه برسالته وشرفه بنبوته، ولم يزحزحه عن رتبة عبوديته، فقال تعالى: "لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون"، كذب العادلون بالله وضلوا ضلالاً بعيدا "ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض، سبحان الله عما يصفون"، "لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم" إلى آخر الآيات من المائدة، وهو أول القبلتين، وثاني المسجدين، وثالث الحرمين، لا تشد الرحال بعد المسجدين إلا إليه، ولا تعقد الخناصر بعد الموطنين إلا عليه، فلولا أنكم ممن اختاره الله من عباده، واصطفاه من سكان بلاده، لما خصكم بهذه الفضيلة التي لا يجاريكم فيها مجار، ولا يباريكم في شرفها مبار، فطوبى لكم من جيش ظهرت على أيديكم المعجزات النبوية، والواقعات البدرية، والعزمات الصديقية، والفتوحات العمرية، والجيوش العثمانية، والفتكات العلوية، جددتم للإسلام أيام القادسية، والملاحم اليرموكية، والمنازلات الخيبرية، والهجمات الخالدية، فجزاكم الله عن نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أفضل الجزاء، وشكر لكم ما بذلتموه من مهجكم في مقارعة الأعداء، وتقبل منكم ما تقربتم به إليه من مهراق الدماء، وأثابكم الجنة فهي دار السعداء، فاقدروا رحمكم الله هذه النعمة حق قدرها، وقوموا لله تعالى بواجب شكرها، فله تعالى المنة عليكم بتخصيصكم بهذه النعمة، وترشيحكم لهذه الخدمة، فهذا هو الفتح الذي فتحت له أبواب السماء، وتبلجت بأنواره وجوه الظلماء، وابتهج به الملائكة المقربون، وقر به عينا الأنبياء والمرسلون، فماذا عليكم من النعمة بأن

جعلكم الجيش الذي يفتح على يديه البيت المقدس في آخر الزمان، والجند الذي تقوم بسيوفهم بعد فترة من النبوة أعلام الإيمان، فيوشك أن يفتح الله على أيديكم أمثاله، وأن تكون التهاني لأهل الخضراء، أكثر من التهاني لأهل الغبراء، أليس هو البيت الذي ذكره الله في كتابه، ونص عليه في محكم خطابه، فقال تعالى: "سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى"، أليس هو البيت الذي عظمته الملل، وأثنت عليه الرسل، وتليت فيه الكتب الأربعة المنزلة من الله عز وجل؟ أليس هو البيت الذي أمسك الله تعالى لأجله الشمس على يوشع أن تغرب.

وباعد بين خطواتها ليتيسر فتحه ويقرب؟ أليس هو البيت الذي أمر الله عز وجل موسى أن يأمر قومه باستنقاذه فلم يجبه إلا رجلان، وغضب الله عليهم لأجله فألقاهم في التيه عقوبة للعصيان؟ فاحمدوا الله الذي أمضى عزائمكم لما نكلت عنه بنو إسرائيل، وقد فضلت على العالمين، ووفقكم لما خذل فيه أمم كانت قبلكم من الأمم الماضين، وجمع لأجله كلمتكم وكانت شتى، وأغناكم بما أمضته كان وقد عن سوف وحتى، فليهنكم أن الله قد ذكركم به فيمن عنده، وجعلكم بعد أن كنتم جنودا لأهويتكم جنده، وشكر لكم الملائكة المنزلون، على ما أهديتم لهذا البيت من طيب التوحيد ونشر التقديس والتمجيد، وما أمطتم عن طرقهم فيه من أذى الشرك والتثليث، والاعتقاد الفاجر الخبيث، فالآن تستغفر لكم أملاك السموات، وتصلي عليكم الصلوات المباركات، فاحفظوا رحمكم الله هذه الموهبة فيكم، واحرسوا هذه النعمة عندكم، بتقوى الله التي من تمسك بها سلم، ومن اعتصم بعروتها نجا وعصم، واحذروا من اتباع الهوى، ومواقعة الردى، ورجوع القهقرى، والنكول عن العدا، وخذوا في انتهاز الفرصة، وإزالة ما بقي من الغصة، وجاهدوا في الله حق جهاده، وبيعوا عباد الله أنفسكم في رضاه إذ جعلكم من خير عباده، وإياكم أن يستزلكم الشيطان، وأن يتداخلكم الطغيان، فيخيل لكم أن هذا النصر بسيوفكم الحداد، وخيولكم الجياد، وبجلادكم في مواطن الجلاد، لا والله ما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم، فاحذروا عباد الله – بعد أن شرفكم بهذا الفتح الجليل، والمنح الجزيل، وخصكم بنصره المبين، وأعلق أيديكم بحبله المتين – أن تقترفوا كبيرا من مناهيه، وأن تأتوا عظيما من معاصيه، فتكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا، وكالذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين، والجهاد الجهاد فهو من أفضل عباداتكم، وأشرف عاداتكم، انصروا الله ينصركم، احفظوا الله يحفظكم، اذكروا الله يذكركم، اشكروا الله يزدكم ويشكركم، جدوا في حسم الداء، وقلع شأفة الأعداء، وطهروا بقية الأرض من هذه الأنجاس التي أغضبت الله ورسوله، واقطعوا فروع الكفر واجتثوا أصوله، فقد نادت الأيام يا للثارات الإسلامية والملة المحمدية، الله أكبر، فتح الله ونصر، غلب الله وقهر، أذل الله من كفر، واعلموا رحمكم الله أن هذه فرصة فانتهزوها، وفريسة فناجزوها، وغنيمة فحوزوها، ومهمة فأخرجوا لها هممكم وأبرزوها، وسيروا إليها سرايا عزماتكم وجهزوها، فالأمور بأواخرها، والمكاسب بذخائرها، فقد أظفركم الله بهذا العدو المخذول، وهم مثلكم أو يزيدون، فكيف وقد أضحى قبالة الواحد منهم منكم عشرون، وقد قال الله تعالى: "إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون"، أعاننا الله وإياكم على اتباع أوامره، والازدجار بزواجره، وأيدنا معاشر المسلمين بنصر من عنده "إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده"، إن أشرف مقال يقال في مقام، وأنفذ سهام تمرق عن قسي الكلام، وأمضى قول تحل به الأفهام، كلام الواحد الفرد العزيز العلام، قال الله تعالى: "وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم"، وقرأ أول الحشر، ثم قال: آمركم وإياي بما أمر به من حسن الطاعة فأطيعوه، وأنهاكم وإياي عما نهاكم عنه من قبح المعصية فلا تعصوه، وأستغفر الله العظيم لي ولكم ولجميع المسلمين فاستغفروه.

ثم خطب الخطبة الثانية على عادة الخطباء مختصرة ثم دعا للإمام الناصر خليفة العصر. ثم قال: اللهم وأدم سلطان عبدك الخاضع لهيبتك، الشاكر لنعمتك، المعترف بموهبتك، سيفك القاطع، وشهابك اللامع، والمحامي عن دينك المدافع، والذاب عن حرمك الممانع، السيد الأجل، الملك الناصر، جامع كلمة الإيمان، وقاطع عبدة الصلبان، صلاح الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، مطهر البيت المقدس أبي المظفر يوسف بن أيوب، محيي دولة أمير المؤمنين، اللهم عم بدولته البسيطة، واجعل ملائكتك براياته محيطة، وأحسن عن الدين الحنيفي جزاءه، واشكر عن الملة المحمدية عزمه ومضاءه، اللهم أبق للإسلام مهجته، ووق للإيمان حوزته، وانشر في المشارق والمغارب دعوته، اللهم كما فتحت على يديه البيت المقدس بعد أن ظنت

الظنون، وابتلي المؤمنون، فافتح كما فتحت على يديه داني الأرض وقاصيها، وملكه صياصي الكفر ونواصيها، فلا تلقاه منهم كتيبة إلا مزقها، ولا جماعة إلا فرقها، ولا طائفة بعد طائفة إلا ألحقها بمن سبقها، اللهم اشكر عن محمد صلى الله عليه وسلم سعيه، وأنفذ في المشارق والمغارب أمره ونهيه، اللهم وأصلح به أوساط البلاد وأطرافها، وأرجاء الممالك وأكنافها، اللهم ذلل به معاطس الكفار، وأرغم به أنوف الفجار، وانشر ذوائب ملكه على الأمصار، وابثث سرايا جنوده في سبل الأقطار. اللهم ثبت الملك فيه وفي عقبه إلى يوم الدين، واحفظه في بنيه وبني أبيه الملوك الميامين، واشدد عضده ببقائهم، واقض بإعزاز أوليائه وأوليائهم. اللهم كما أجريت على يده في الإسلام هذه الحسنة التي تبقى على الأيام، وتتخلد على مر الشهور والأعوام، فارزقه الملك الأبدي الذي لا ينفد في دار اليقين، وأجب دعاءه في قوله "رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي، وأن أعمل صالحا ترضاه، وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين" - الأحقاف: 15 - ثم دعا بما جرت به العادة.

وكانت ولادته سنة خمسين وخمسمائة بدمشق، وتوفي في سابع شعبان سنة ثمان وتسعين وخمسمائةبدمشق ودفن من يومه بسفح جبل قاسيون، رحمه الله تعالى.

وكان والده أبو الحسن علي الملقب زكي الدين على القضاء بدمشق. وكان كثير الخير والدين، فاستعفى عن القضاء فأعفي، فخرج إلى مكة حاجا، وعاد إلى بغداد في صفر سنة ثلاث وستين وخمسمائة فأقام بها، وكان عالي الطبقة في سماع الحديث، سمع خلقا كثيرا، وحدث ببغداد مدة إقامته، وسمع عليه الناس، ولم يزل بها إلى أن توفي يوم الخميس الثامن والعشرين من شوال سنة أربع وستين وخمسمائة، وصلي عليه بجامع القصر، ودفن بمقبرة الإمام أحمد بن حنبل، رضي الله عنهم أجمعين.

وأما ابن برجان المذكور، فهو: أبو الحكم عبد السلام بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن اللخمي، كان عبدا صالحا، وله تفسير القرآن العظيم، وأكثر كلامه فيه على طريق أرباب الأحوال والمقامات، وتوفي سنة ست وثلاثين وخمسمائة بمدينة مراكش، رحمه الله تعالى.

وبرجان: بفتح الباء الموحدة وتشديد الراء وبعدها جيم وبعد الألف نون.

السديد السلماسي

السديد محمد بن هبة الله بن عبد الله السلماسي الفقيه الشافعي، كان إماما في عصره، تولى الإعادة بالمدرسة النظامية ببغداد، وأتقن عدة فنون، وهو الذي شهر طريقة الشريف بالعراق، قيل إنه كان يذكر طريقة الشريف والوسيط للغزالي والمستصفى من غير مراجعة كتاب. قصده الناس من البلاد، واشتغلوا عليه وانتفعوا به، وخرجوا علماء مدرسين مصنفين، ومن جملتهم الشيخان الإمامان: عماد الدين محمد، وكمال الدين موسى ولدا يونس - وسيأتي ذكرهما إن شاء الله تعالى - والشيخ شرف الدين أبو المظفر محمد بن علوان بن مهاجر، وغيرهم من الأفاضل. وكان مسددا في الفتيا، وتوفي ببغداد في شعبان سنة أربع وسبعين وخمسمائة، رحمه الله تعالى.

والسلماسي: بفتح السين المهملة واللام والميم وبعد الألف سين ثانية، هذه النسبة إلى سلماس، وهي مدينة من بلاد أذربيجان، خرج منها جماعة مشاهير.

حفدة

أبو منصور محمد بن أسعد بن محمد بن الحسين بن القاسم العطاري الطوسي الأصل، المعروف بحفدة، الملقب عمدة الدين، الفقيه الشافعي النيسابوري، كان فقيها فاضلا واعظا فصيحا أصوليا، تفقه بمرو على أبي بكر محمد بن منصور السمعاني والد الحافظ المشهور، ثم انتقل إلى مروالروذ، واشتغل على القاضي حسين بن مسعود الفراء المعروف بالبغوي صاحب شرح السنة والتهذيب - وقد سبق ذكره - ثم انتقل إلى بخارا واشتغل بها على البرهان عبد العزيز ابن عمر بن مارة الحنفي، ثم عاد إلى مرو وعقد له بها مجلس التذكير، وأقام بها مدة، ثم في فتنة الغز - وكانت فتنة الغز - وكانتت فتنة الغز سنة ثمان وأربعين وخمسمائة، كما ذكرته في ترجمة الفقيه محمد بن يحيى - خرج إلى العراق ومنها إلى أذربيجان والجزيرة ومنها إلى الموصل، واجتمع الناس عليه بسبب الوعظ، وسمعوا منه الحديث، ومن أماليه:

مثل الشافعي في العلماء مثل الشمس في نجوم السماء

قل لمن قاسه بغير نظير أيقاس الضياء بالظلماء

وأنشد يوما على الكرسي من جملة أبيات:

تحية صوب المزن يقرؤها الرعد على منزل كانت تحل به هند

نأت فأعرناها القلوب صبابة وعارية العشاق ليس لها رد

وكانت مجالسه في الوعظ من أحسن المجالس. وتوفي في شهر ربيع الآخر سنة إحدى وسبعين وخمسمائة بمدينة تبريز، وقيل إنه توفي في رجب سنة ثلاث وسبعين، رحمه الله تعالى، والله أعلم بالصواب.

وحفدة: بفتح الحاء المهملة والفاء والدال المهملة، ولا أعلم لم سمي بهذا الاسم مع كثرة كشفي عنه.

وتبريز: بكسر التاء المثناة من فوقها وسكون الباء الموحدة وكسر الراء وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها زاي، وهي من أكبر مدن أذربيجان.

نجم الدين الخبوشاني

أبو البركات محمد بن الموفق بن سعيد بن علي بن الحسن بن عبد الله الخبوشاني، الملقب نجم الدين الفقيه الشافعي، كان فقيها فاضلا كثير الورع، تفقه على محمد ابن يحيى – المقدم ذكره – وكان يستحضر كتابه المحيط في شرح الوسيط على ما قيل، حتى نقل عنه أنه عدم الكتاب فأملاه من خاطره، وله كتاب تحقيق المحيط وهو كبير، رأيته في ستة عشر مجلدا. وقد تقدم ذكره في ترجمة العاضد عبد الله العبيدي صاحب مصر وما جرى له معه. ولما استقل السلطان صلاح الدين رحمه الله تعالى بملك الديار المصرية قربه وأكرمه، وكان يعتقد في علمه ودينه، ويقال إنه أشار عليه بعمارة المدرسة المجاورة لضريح الإمام الشافعي، رضي الله عنه، فلما عمرها فوض تدريسها إليه، وعمرها في سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة، وفي هذه السنة بني البيمارستان في القصر بالقاهرة. ورأيت جماعة من أصحابه وكانوا يصفون فضله ودينه وأنه كان سليم الباطن قليل المعرفة بأحوال الدنيا.

وكانت ولادته في الثالث عشر من رجب سنة عشر وخمسمائة، باستوى خبوشان، وتوفي يوم الأربعاء ثاني عشر ذي القعدة سنة سبع وثمانين وخمسمائة، بالمدرسة المذكورة، ودفن في قبة تحت رجلي الإمام الشافعي، وبينهما شباك، رحمها الله تعالى.

والخبوشاني: بضم الخاء المعجمة والباء الموحدة وفتح الشين المعجمة وبعد الأف نون، هذه النسبة إلى خبوشان، وهي بليدة بناحية نيسابور.

وأستوى: بضم الهمزة وسكون السين المهملة وفتح التاء المثناة من فوقها أو ضمها، ناحية كثيرة القرى من أعمال نيسابور.

القاضي كمال الدين الشهرزوري

أبو الفضل محمد بن أبي محمد عبد الله بن أبي أحمد القاسم الشهرزوري الملقب كمال الدين الفقيه الشافعي – وقد سبق ذكر أبيه وجده في موضعهما – تفقه كمال الدين ببغداد على أسعد الميهني، وقد سبق ذكره، وسمع الحديث من أبي البركات محمد بن محمد بن خميس الموصلي، وتولى القضاء بالموصل وبنى بها مدرسة للشافعية، ورباطا بمدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان يتردد في الرسائل منها إلى بغداد عن عماد الدين زنكي الأتابك – المقدم ذكره – ولما قتل عماد الدين على قلعة جعبر، كما ذكرناه في ترجمته، كان كمال الدين المذكور حاضرا في العسكر هو وأخوه تاج الدين أبو طاهر يحيى والد القاضي ضياء الدين، فلما رجع العسكر إلى الموصل كانا في صحبته.

ولما تولى سيف الدين غازي ولد عماد الدين – وقد تقدم ذكره أيضا – فوض الأمور كلها إلى القاضي كمال الدين وأخيه بالموصل وجميع مملكته، ثم إنه قبض عليهما في سنة اثنتين وأربعين واعتقلهما بقلعة الموصل، وأحضر نجم الدين أبا علي الحسن بن بهاء الدين أبي الحسن علي وهو ابن عم كمال الدين، وكان قاضي الرحبة، وولاه القضاء بالموصل وديار ربيعة عوضا عن كمال الدين. ثم إن الخليفة المقتفي سير رسولا وشفع في كمال الدين وأخيه فأخرجا من الاعتقال، وقعدا في بيوتهما وعليهما الترسيم، وحبس بالقلعة جلال الدين أبو أحمد ولد كمال الدين وضياء الدين أبو الفضائل القاسم بن

تاج الدين.

ولما مات سيف الدين غازي في التاريخ المذكور في ترجمته رفع الترسيم عنهما، وحضرا إلى قطب الدين مودود بن زنكي - وقد تولى السلطنة بعد أخيه سيف الدين - وكان راكبا في ميدان الموصل، فلما قربا منه ترجلا وعليهما ثياب العزاء بغير طرحات، فلما وصلا إليه ترجل لهما أيضا، وعزياه عن اخيه وهنآه بالولاية، ثم ركبوا، ووقف كل واحد منهما على جانبه، ثم عادا إلى بيتهما بغير ترسيم، وصارا يركبان في الخدمة.

ثم انتقل كما الدين إلى خدمة نور الدين محمود صاحب الشام في سنة خمسين وخمسمائة، وأقام بدمشق مدة، ثم عزل زكي الدين عن الحكم، وتولاه كمال الدين في شهر صفر سنة خمس وخمسين وخمسمائة، واستناب ولده وأولاد أخيه ببلاد الشام، وترقى إلى درجة الوزارة، وحكم في بلاد الشام الإسلامية في ذلك الوقت، واستناب ولده القاضي محيي الدين في الحكم بمدينة حلب، و لم يكن شيء من أمور الدولة يخرج عنه، حتى الولاية وشد الديوان وغير ذلك، وذلك في أيام نور الدين محمود بن زنكي صاحب الشام، وتوجه من جهته رسولا إلى الديوان في أيام المقتفي، وسيره المقتفي رسولا للإصلاح بين نور الدين المذكور وقلج ارسلان بن مسعود صاحب الروم. ولما مات نور الدين وملك صلاح الدين دمشق أقره على ما كان عليه.

وكان فقيها أديبا شاعرا كاتبا ظريفا فكه المجالسة، يتكلم في الخلاف والأصولين كلاما حسنا، وكان شهما جسورا كثير الصدقة والمعروف، وقف أوقافا كثيرة بالموصل ونصيبين ودمشق، وكان عظيم الرياسة خبيرا بتدبير الملك، لم يكن في بيته مثله ولا نال أحد منهم ما ناله من المناصب مع كثرة رؤساء بيته، وذكره الحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق.

وله نظم جيد، فمن ذلك ما أنشدني له بعض أهل بيته وهو:

ولقد أتيتك والنجوم رواصد ... والفجر وهم في ضمير المشرق
وركبت م الأهوال كل عظيمة ... شوقا إليك لعلنا أن نلتقي

وقال عماد الدين الكاتب الأصبهاني في الخريدة في ترجمة القاضي كمال المذكور: أنشدني لنفسه هذين البيتين في ثالث شهر ربيع الأول سنة إحدى وسبعين، وقد تذكرت قول أبي يعلى ابن الهبارية الشريف في معنى الصبح وإبطائه:

كم ليلة بت مطويا على حرق ... أشكو إلى النجم حتى كان يشكوني
والصبح قد مطل الشرق العيون به ... كأنه حاجة في كف مسكين

ثم قال: لم قال تقضى لمسكين لكان أحسن فإنها تمطل بقضائها ثم قال: وكلاهما أحسن وأجاد.

وقيل: إنه كتب إلى ولده محيي وهو بحلب، وذكر في الخريدة انهما له:

عندي كتائب أشواق أجهزها ... إلى جنابك إلا أنها كتب
ولي أحاديث من نفسي أسر بها ... إذا ذكرتك إلا أنها كذب

وقيل: إنه لما ضعف وكبر وقلت حركته كان ينشد في كل وقت:

يا رب لا تحيني إلى زمن ... أكون فيه كلا على أحد
خذ بيدي قبل أن أقول لمن ... ألقاه عند القيام: خذ بيدي

ولا أعلم هل هذان البيتان له أم لا، ثم وجدت هذين البيتين من جملة أبيات لأبي الحسن محمد بن علي بن الحسن بن أبي الصقر الواسطي - وسيأتي ذكره وذكر البيتين إن شاء الله تعالى -.

وكانت ولادته سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة، بالموصل. وتوفي يوم الخميس سادس المحرم سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة بدمشق، ودفن من الغد بجبل

قاسيون رحمه الله تعالى، وكان عمره حين وتوفي ثمانين سنة وأشهرا، ورثاه ولده محيي الدين محمد، وأوصى بولاية ابن أخيه أبي الفضائل القاسم بن يحيى بن عبد الله الملقب ضياء الدين، فأنفذ السلطان وصيته، وفوض القضاء بدمشق إلى ضياء الدين المذكور، فأقام به مدة، ثم عرف أن ميل السلطان إلى الشيخ شرف الدين ابن أبي عصرون - المقدم ذكره - فسأله الإقالة فأقيل وتولى شرف الدين.

وكان القاضي ضياء الدين أبو الفضائل القاسم بن القاضي تاج الدين أبي طاهر يحيى بن عبد الله المذكور قد سمع الحديث بالإسكندرية من الحافظ أبي طاهر السلفي، وروى عن عمارة اليمني الفقيه شيئا من شعره. وتولى القضاء بدمشق بعد عمه كمال الدين. ولما انفصل عن القضاء صار يتردد في الرسائل إلى بغداد، ولما مات السلطان صلاح الدين سيره ولده الملك الأفضل نور الدين علي صاحب دمشق رسولا إلى بغداد بهدايا وتحف، وصار له هناك منزلة ومكانة جيدة. ثم عاد إلى دمشق وتولى نظر الأوقاف بها، ثم فارق دمشق وقدم الموصل وتولى القضاء بعد الشيخ عماد الدين أبي حامد محمد بن يونس - الآتي ذكره إن شاء الله تعالى - وكانت ولاية ضياء الدين في صفر سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة، ثم فارق بغداد باختياره على القضاء يحكم ويتصرف كما كان، في شهر ذي الحجة سنة سبع وتسعين، ولم يجر هذا لأحد غيره، وعبر على الموصل ولم يدخلها، وانتهى إلى مدينة حماة فولاه الملك المنصور ناصر الدين محمد بن تقي الدين عمر ملكها يومئذ القضاء بها فأقام إلى أن مات ضياء الدين بها في نصف رجب سنة تسع وتسعين وخمسمائة، ونقل إلى دمشق ودفن بها، ومولده سنة أربع وخمسين وخمسمائة بالموصل، وقيل إن مولده في جمادى الأولى سنة خمس وثلاثين، والله أعلم، وله شعر فمن ذلك:

فارقتكم ووصلت مصر فلم يقم ... أنس اللقاء بوحشة التوديع

وسررت عند قدومها لولا الذي ... لكم من الأشواق بين ضلوعي

وأما والده تاج الدين أبو طاهر يحيى فقد ذكره القاضي عماد الدين الكاتب الأصبهاني في كتاب الخريدة فقال: هو أخو كمال الدين، وذكر بعد الثناء عليه، أنه توفي بالموصل في سنة ست وخمسين وخمسمائة، قال: وأنشدني ولده ضياء الدين أبياتا له على وزن بيت مهيار وهو:

وعطل كؤوسك إلا الكبار ... تجد للصغار أناسا صغارا

فقال:

وسق الندامى عقيقة ... تضيء فتحسب في الليل نارا

تدور المسرة مع كأسها ... وتتبعه حيثما الكاس سارا

ولا عيب فيها سوى أنها ... متى عرست بحمى الغم سارا

ستلقى ليالي الهموم الطوال ... فبادر ليالي السرور القصارا

قلت: وقد سبق في ترجمة عماد الدين زنكي ذكر عمهما القاضي بهاد الدين أبي الحسن علي بن القاسم والد نجم الدين الحسين قاضي الرحبة المذكور وتاريخ وفاته، والله أعلم.

القاضي محيي الدين ابن الشهرزوري

أبو حامد محمد بن القاضي كمال الدين بن الشهرزوري المذكور قبله، الملقب محيي الدين، وقد تقدم من ذكر رياسة أبيه وما كان عليه من علو المرتبة ما لا حاجة إلى إعادته. وكان القاضي محيي الدين قد دخل بغداد للاشتغال فتفقه على الشيخ أبي منصور بن الرزاز وتميز، ثم أصعد إلى الشام، وولي قضاء دمشق نيابة عن والده، ثم انتقل إلى حلب وحكم بها نيابة عن أبيه أيضا في شهر رمضان سنة خمس وخمسين وخمسمائة، وبه عزل ابن أبي جرادة المعروف بابن العديم، وقيل كان ذلك في شعبان سنة ست وخمسين، والله أعلم. وبعد وفاة والده تمكن عند الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين صاحب حلب غاية التمكن، وفوض إليه تدبير مملكة حلب في شعبان سنة ثلاث وسبعين، واستمر على ذلك، ثم وشى به أعداؤه وحساده إلى الصالح

وجرت أسباب اقتضت أنه لزم بيته، ورأى المصلحة في مفارقة حلب والرجوع إلى بلد الموصل فانتقل إليها، وتولى قضاءها ودرس بمدرسة والده وبالمدرسة النظامية بالموصل، وتمكن عند صاحب الموصل عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود بن زنكي - الآتي ذكره إن شاء الله تعالى - واستولى على جميع الأمور، وتوجه من جهته رسولا إلى بغداد مرارا. وذكر بهاء الدين يوسف المعروف بابن شداد قاضي حلب في كتاب ملجأ الحكام عند التباس الأحكام انه كان في خدمة القاضي محيي الدين عند توجهه إلى بغداد في إحدى الرسائل، وناهيك بمن يكون في خدمته مثل هذا الرجل - وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى.

وكان محيي الدين المذكور جوادا سريا، قيل إنه انعم في بعض رسائله إلى بغداد بعشرة آلاف دينار أميرية على الفقهاء والأدباء والشعراء والمحاويج، ويقال إنه في مدة حكمه بالموصل لم يعتقل غريما على دينارين فما دونهما، بل كان يوفيهما عنه ويخلي سبيله ويحكى عنه مكارم كثيرة ورياسة ضخمة، وكان من النجباء عريقا في النجابة تام الرياسة، كريم الأخلاق رقيق الحاشية، له في الأدب مشاركة حسنة وله أشعار جيدة، فمن ذلك ما أنشدني له بعض الأصحاب في وصف جرادة، وهو تشبيه غريب:

لها فخذ بكر وساقا نعامة — وقادمتا نسر وجؤجؤ ضيغم

حبتها أفاعي الرمل بطنا وأنعمت — عليها جياد الخيل بالرأس والفم

ورأيت له في بعض المجاميع هذين البيتين، وهما في وصف نزول الثلج من الغيم:

ولما شاب رأس الدهر غيظا — لما قاساه من فقد الكرام

أقام يميط هذا الشيب عنه — وينثر ما أماط على الأنام

وكانت ولادته سنة عشر وخمسمائة تقريبا، وقال العماد الكاتب في الخريدة: مولده سنة تسع عشرة، والله أعلم، وزاد في كتاب السيل في شعبان. وتوفي سحرة يوم الأربعاء رابع عشر جمادى الأولى سنة ست وثمانين وخمسمائة، وقيل ثالث عشريه، هكذا ذكره العماد في السيل والأول ذكره ابن الدبيثي، وذلك بالموصل، ودفن بداره بمحلة القلعة، ثم نقل إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، رحمه الله تعالى. هكذا رأيته في بعض التواريخ، وذكر ابن الدبيثي في تاريخه انه نقل إلى تربة عملت له ظاهر البلد، والله أعلم، ثم حققت ذلك فوجدته كما قال ابن الدبيثي، وتربته خارج باب الميدان بالقرب من تربة قضيب البان صاحب الكرامات، رحمه الله تعالى.

وكان لكمال الدين ابن آخر يقال له عماد الدين أحمد توجه رسولا إلى بغداد عن نور الدين في سنة تسع وستين وخمسمائة، ومدحه ابن التعاويذي بقصيدة يقول من جملتها:

وقالوا :رسول أعجزتنا صفاته — فقلت: صدقتم هذه صفة الرسل

فخر الدين الرازي

أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي التيمي البكري الطبرستاني الأصل الرازي المولد، الملقب فخر الدين، المعروف بابن الخطيب، الفقيه الشافعي، فريد عصره ونسيج وحده، فاق أهل زمانه في علم الكلام والمعقولات وعلم الأوائل، له التصانيف المفيدة في فنون عديدة منها تفسير القرآن الكريم جمع فيه كل غريب وغريبة، وهو كبير جدا لكنه لم يكمله، وشرح سورة الفاتحة في مجلد، ومنها في علم الكلام المطالب العالية ونهاية العقول وكتاب الأربعين والمحصل وكتاب البيان والبرهان في الرد على أهل الزيغ والطغيان وكتاب المباحث العمادية في المطالب المعادية وكتاب تهذيب الدلائل وعيون المسائل وكتاب إرشاد النظار إلى لطائف الأسرار وكتاب أجوبة المسائل التجارية وكتاب تحصيل الحق وكتاب الزبدة والمعالم، وغير ذلك، وفي أصول الفقه المحصول والمعالم، وفي الحكمة الملخص وشرح الإشارات لابن سينا وشرح عيون الحكمة وغير ذلك، وفي الطلسمات السر المكتوم وشرح أسماء الله الحسنى ويقال: إن له شرح المفصل في النحو للزمخشري، وشرح الوجيز في الفقه للغزالي، وشرح سقط الزند للمعري، وله

مختصر في الإعجاز، ومؤاخذات جيدة على النحاة، وله طريقة في الخلاف، وله في الطب شرح الكليات للقانون، وصنف في علم الفراسة، وله مصنف في مناقب الشافعي، وكل كتبه ممتعة، وانتشرت تصانيفه في البلاد ورزق فيها سعادة عظيمة فإن الناس اشتغلوا بها ورفضوا كتب المتقدمين، وهو أو لمن اخترع هذا الترتيب في كتبه، وأتى فيها بما لم يسبق إليه.

وكان له في الوعظ اليد البيضاء، ويعظ باللسانين العربي والهجمي، وكان يلحقه الوجد في حال الوعظ ويكثر البكاء، وكان يحضر مجلسه بمدينة هراة أرباب المذاهب والمقالات ويسألونه وهو يجيب كل سائل بأحسن إجابة، ورجع بسببه خلق كثير من الطائفة الكرامية وغيرهم إلى مذهب أهل السنة، وكان يلقب بهراة شيخ الإسلام.

وكان مبدأ اشتغاله على والده إلى أن مات، ثم قصد الكمال السمناني واشتغل عليه مدة، ثم عاد إلى الري واشتغل على المجد الجيلي، وهو أحد أصحاب محمد ابن يحيى، ولما طلب المجد الجيلي إلى مراغة ليدرس بها صحبه فخر الدين المذكور إليها، وقرأ عليه مدة طويلة علم الكلام والحكمة، ويقال إنه كان يحفظ الشامل لإمام الحرمين في علم الكلام، ثم قصد خوارزم وقد تمهر في العلوم فجرى بينه وبين أهلها كلام فيما يرجع إلى المذهب والاعتقاد، فأخرج من البلد، فقصد ما رواء النهر، فجرى له أيضا هناك ما جرى له في خوارزم، فعاد إلى الري، وكان بها طبيب حاذق له ثروة ونعمة، وكان للطبيب ابنتان، ولفخر الدين ابنان، فمرض الطبيب وأيقن بالموت فزوج ابنتيه لولدي فخر الدين، ومات الطبيب فاستولى فخر الدين على جميع أمواله، فمن ثم كانت له النعمة، ولازم الأسفار، وعامل شهاب الدين الغوري صاحب غزنة في جملة من المال، ثم مضى إليه لاستيفاء حقه منه فبالغ في إكرامه والإنعام عليه وحصل له من جهته مال طائل، وعاد إلى خراسان، واتصل بالسلطان محمد بن تكش المعروف بخوارزم شاه، وحظي عنده، ونال أسنى المراتب، و لم يبلغ أحد منزلته عنده، ومناقبه أكثر من أن تعد، وفضائله لا تحصى ولا تحد.

وكان له مع هذه العلومشيء من النظم، فمن ذلك قوله:

نهاية إقدام العقول عقال — وأكثر سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا — وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا — سوى أنم جمعنا فيه قيل وقالوا
ولم قد رأينا من رجال ودولة — فبادوا جميعا مسرعين وزالوا
وكم من جبال قد علت شرفاتها — رجال فزالوا والجبال جبال

وكان العلماء يقصدونه من البلاد، وتشد إليه الرحال من الأقطار، وحكى شرف الدين بن عنين – الآتي ذكره إن شاء الله تعالى – أنه حضر درسه يوما وهو يلقي الدروس في مدرسته بخوارزم ودرسه حافل بالأفاضل واليوم شات وقد سقط ثلج كثير وخوارزم بردها شديد إلى غاية ما يكون، فسقطت بالقرب منه حمامة وقد طردها بعض الجوارح، فلما وقعت رجع عنها الجارح خوفا من الناس الحاضرين، فلم تقدر الحمامة على الطيران من خوفها وشدة البرد، فلما قام فخر الدين من الدرس وقف عليها ورق لها أخذها بيده، فأنشد ابن عنين في الحال:

يا ابن الكرام المطمعين إذا شتوا — في كل مسغبة وثلج خاشف
العاصمين إذا النفوس تطايرت — بين الصوارم والوشيج الراعف
من نبأ الورقاء أن محلكم — حرم وأنك ملجأ للخائف
وفدت عليك وقد تدانى حتفها — فحبوتها ببقائها المستأنف
ولو أنها تحبى بمال لانثنت — من راحتيك بنائل متضاعف
جاءت سليمان الزمان بشكوها — والموت يلمع من جناحي خاطف

قرم لواه القوت حتى ظله بإزائه يجري بقلب واجف

ولابن عنين المذكور فيه قصيدة من جملتها:

ماتت به بدع تمادى عمرها دهرا وكاد ظلامها لا ينجلي

فعلا به الإسلام أرفع هضبة ورسا سواه في الحضيض الأسفل

غلط امرؤ بأبي علي قاسه هيهات قصر عن مداه أبو علي

لو أن رسطاليس يسمع لفظة من لفظه لعرته هزة أفكل

ولحار بطليموس لو لاقاه من برهانه في كل شكل مشكل

ولو أنهم جمعوا لديه تيقنوا أن الفضيلة لم تكن للأول

وقال أبو عبد الله الحسين الواسطي: سمعت فخر الدين بهراة ينشد على المنبر عقيب كلام عاتب فيه أهل البلد:

المرد ما دام حيا يستهان به ويعظم الرزء فيه حين يفتقد

وذكر فخر الدين في كتابه الذي سماه تحصيل الحق أنه اشتغل في علم الأصول على والده ضياء الدين عمر، ووالده على أبي القاسم سليمان بن ناصر الأنصاري، وهو على إمام الحرمين أبي المعالي، وهو على الأستاذ أبي إسحاق الإسفراييني، وهو على الشيخ أبي الحسين الباهلي، وهو على شيخ السنة أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، وهو على أبي علي الجبائي أولا ثم رجع عن مذهبه ونصر مذهب أهل السنة والجماعة.

وأما اشتغاله في المذهب فإنه اشتغل على والده، ووالده على أبي محمد الحسين ابن مسعود الفراء، البغوي، وهو على القاضي حسين المروزي، وهو على القفال المروزي، وهو على أبي زيد المروزي، وهوعلى أبي إسحاق المروزي، وهو على أبي العباس بن سريج، وهو على أبي القاسم الأنماطي، وهو على أبي إبراهيم المزني، وهو على الإمام الشافعي، رضي الله عنه.

وكانت ولادة فخر الدين في الخامس والعشرين من شهر رمضان سنة أربع وأربعين، وقيل ثلاث وأربعين وخمسمائة، بالري. وتوفي يوم الاثنين، وكان عيد الفطر، سنة ست وستمائة بمدينة هراة، ودفن آخر النهار في الجبل المصاقب لقرية مزداخان، رحمه الله تعالى، ورأيت له وصية أملاها في مرض موته على أحد تلاميذته تدل على حسن العقيدة.

ومزداخان: بضم الميم وسكون الزاي وفتح الدال المهملة وبعد الألف خاء معجمة مفتوحة وبعد الألف الثانية نون، وهي قرية بالقرب من هراة. وقد تقدم الكلام على هراة.

الشيخ عماد الدين بن يونس

أبو حامد محمد بن يونس بن محمد بن منعة بن مالك بن محمد، الملقب عماد الدين، الفقيه الشافعي؛ كان إمام وقته في المذهب والأصول والخلاف، وكان له صيت عظيم في زمانه، وقصده الفقهاء من البلاد الشاسعة الاشتغال، وتخرج عليه خلق كثير صاروا كلهم أئمة مدرسين يشار إليهم، وكان مبدأ اشتغاله على أبيه - وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى-وذلك بالموصل، ثم توجه إلى بغداد وتفقه بالمدرسة النظامية على السديد محمد السلماسي- وقد تقدم ذكره -وكان معيدا بها، والمدرس يؤمئذ الشرف يوسف بن بندار الدمشقي، وسمع بها الحديث من أبي عبد الرحمن محمد بن محمد الكشميهني لما قدمها، ومن أبي حامد محمد بن أبي الربيع الغرناطي، وعاد إلى الموصل ودرس بها في عدة مدارس، وصنف كتبا في المذهب: منها كتاب المحيط في الجمع بين المهذب والوسيط وشرحالوجيز للغزالي، وصنف جدلا وعقيدة وتعليقه في الخلاف، لكنه لم يتمها، وكانت إليه الخطابة في الجامع المجاهدي مع التدريس في المدرسة النورية والعزية والزينية والبقشية والعلانية، وتقدم في دولة نور أرسلان شاه صاحب الموصل تقدما كثيرا، وتوجه عنه

رسولا إلى بغداد غير مرة، وإلى الملك العادل، وناظر في ديوان الخلافة، واستدل في مسألة شراء الكافر للعبد المسلم، وذلك في سنة ست وتسعين وخمسمائة،وتولى القضاء بالموصل يوم الخميس رابع شهر رمضان سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة، ثم انفصل عنه بأبي الفضائل القاسم بن يحيى بن عبد الله بت القاسم الشهرزوي الملقب ضياء الدين–المذكور في ترجمة عمة كمال الدين – في صفر سنة ثلاث وتسعين، وولي ضياء الدين المذكور يوم الأربعاء سابع عشر صفر المذكور، وانتهت إليه رياسة أصحاب الشافعي بالموصل.

وكان شديد الورع والتقشف لايلبس الثوب الجديد حتى يغسله، ولا يمس القلم للكتابة إلا ويغسل يده، وكان دمث الأخلاق لطيف الخلوة ملاطفا بحكايات وأشعار، وكان كثير المباطنة لنور الدين صاحب الموصل يرجع إليه في الفتاوى ويشاور في الأمور وله صنف العقيدة المذكورة و لم يزل معه حتى انتقل عن مذهب أبي حنيفة إلى مذهب الشافعي، و لم يوجد في بيت أتابك مع كثرتهم شافعي سواه.

ولما توفي نور الدين في سنة سبع وستمائة–كما تقدم – توجه إلى بغداد في الرسالة بسبب تقرير ولده الملك القاهر مسعود – وسيأتي ذكره في ترجمة جده مسعود إن شاء الله تعالى – فعاد وقد قضى الشغل ومعه الخلعة والتقليد، وتوفرت حرمته عند القاهر أكثر مما كانت عند أبيه، وكان مكمل الأدوات، غير أنه لم يرزق سعادة في تصانيفه، فإنها ليست على قدر فضائله.

وكانت ولادته بقلعة إربل سنة خمس وثلاثين وخمسمائة، في بيت صغير منها، ولما وصل إلى إربل في بعض رسائله دخل ذلك البيت وتمثل بالبيت المشهور، وهو:

بلاد بها نيطت علي تمائمي   وأول أرض مس جلدي ترابها

وتوفي يوم الخميس، تاسع عشر جمادى الآخرة، سنة ثمان وستمائة بالموصل، رحمه الله تعالى.

وكان الملك المعظم مظفر الدين صاحب إربل، رحمه الله تعالى، يقول رأيت الشيخ عماد الدين في المنام بعد موته، فقلت له: أما مت؟ فقال: بلى، ولكني محترم.

وقد ذكره ابن الدبيثي في كتاب الذيل وذكره أبو البركات ابن المستوفي فيتاريخ إربل – وسيأتي ذكر أخيه الشيخ كمال الدين موسى إن شاء الله تعالى – وهم أهل بيت خرج منهم جماعة من الأفاضل.

وحفيده تاج الدين أبو القاسم عبد الرحيم ابن الشيخ رضي الدين محمد ابن الشيخ عماد الدين أبي حامد المذكور اختصر كتاب الوجيز للغزالي اختصارا حسنا سماهالتعجيز في اختصار الوجيز واختصر كتاب المحصول في أصول الفقه، واختصر طريقة ركن الدين الطاوسي في الخلاف، ومولده بالموصل في سنة ثمان وتسعين وخمسمائة، ولما استولى التتر على الموصل كان بها، ثم انتقل إلى بغداد فدخلها في شهر رمضان سنة سبعين وستمائة، وتوفي بها في سنة إحدى وسبعين وستمائة، وكانت، وفاته في جمادى الأولى تقديرا من السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

المعين الجاجرمي

أبو حامد بن إبراهيم بن أبي الفضل، السهلي الجاجرمي الفقيه الشافعي، الملقب معين الدين؛ كان إماما فاضلا متفننا مبرزا، سكن نيسابور ودرس بها، وصنف في الفقه كتاب الكفاية وهو في غاية الإيجاز مع اشتماله على أكثر المسائل التي تقع في الفتاوى، وهو في مجلد واحد، وله كتاب إيضاح الوجيز أحسن فيه، وهو في مجلدين، وله طريقة مشهورة في الخلاف والقواعد المشهورة منسوبة إليه، واشتغل عليه الناس وانتفعوا به وبكتبه من بعده، خصوصا القواعد، فإن الناس أكبوا على الاشتغال بها. وتوفي بكرة نهار الجمعة حادي عشر رجب سنة ثلاث عشرة وستمائة بنيسابور، رحمه الله تعالى.

والجاجرمي: بفتح الجيمين بينهما ألف وسكون الراء وبعدها ميم، هذه النسبة إلى جاجرم، وهي بلدة بين نيسابور وجرجان، خرج منها جماعة من العلماء. ورأيت بمدينة دمشق خطه على كتاب شرح فيه الأحاديث المسطورة في المهذب والألفاظ المشكلة، وقد سمعه عليه جماعة من الفقهاء بنيسابور في الرابع والعشرين من ذي الحجة سنة اثنتي عشرة وستمائة.

العميدي

أبو حامد محمد بن محمد بن محمد–وقيل أحمد – العميدي، الفقيه الحنفي المذهب السمرقندي، الملقب ركن الدين؛ كان إماما في فن الخلاف، خصوصا الجست، وهو أول من أفرده بالتصنيف ومن تقدمه كان يمزجه بخلاف المتقدمين، وكان اشتغاله فيه على الشيخ رضي الدين النيسابوري، وهو أحد الأركان الأربعة، فإنه كان من جملة المشتغلين علي رضي الدين أربعة أشخاص تميزروا وتبخروا في هذا الفن، وكل واحد منهم ينعت بالركن، وهم: ركن الدين الطاوسي – وقد سبق ذكره –والعميدي المذكور، وركن الدين إمام زادا، وقد شذ عني من هو الرابع، وصنف العميدي في هذا الفن طريقة، وهي مشهورة بأيدي الفقهاء، وصنف الإرشاد واعتنى بشرحها جماعة من أرباب هذا الشأن: منهم القاضي شمس الدين أبو العباس أحمد بن الخليل بن سعادة ابن جعفر بن عيسى الفقيه الشافعي الخوبي قاضي دمشق – كان – رحمه الله تعالى، والقاضي أوحد الدين الدوني قاضي منبج، ونجم الدين المرندي وبدر الدين المراغي المعروف بالطويل وغيرهم، وصنف كتاب النفائس أيضا، واختصره شمس الدين الخوبي المذكور، وسماه عرائس النفائس وصنف أشياء مستملحة على هذا الأسلوب. واشتغل عليه خلق كثير وانتفعوا به من جملتهم: نظام الدين أحمد ابن الشيخ جمال الدين أبي المجاهد محمود بن أحمد بن عبد السيد ابن عثمان بن نصر بن عبد الملك البخاري التاجري الحنفي المعروف بالحصيري صاحب الطريقة المشهورة وغيره.

وكان العميدي كريم الأخلاق كثير التواضع طيب العاشرة. وتوفي ليلة الأربعاء تاسع جمادى الآخرة سنة خمس عشرة وستمائة ببخارا، رحمه الله تعالى.

وتوفي شمس الدين الخوبي المذكور يوم السبت سابع شعبان سنة سبع وثلاثين وستمائة بمدينة دمشق، ودفن بسفح جبل قاسيون، ومولده في شوال سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، رحمه الله تعالى.

وتوفي أوحد الدين بحلب عقيب أخذ التتر لقلعة حلب، وكان أخذ القلعة بعد أخذ البلد بتسعة وعشرين يوما، وأخذ البلد في عشر صفر سنة ثمان وخمسين وستمائة، ومولد أوحد الدين سنة ست وثمانين وخمسمائة، رحمهم الله تعالى.

والعميدي: بفتح العين المهملة وكسر الميم وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها دال مهملة، ولا أعرف هذه النسبة إلى ماذا، ولاذكرها السمعاني.

ونظام الدين الحصيري قتله التتر بمدينة نيسابور عند أول خروجهم إلى البلاد، وذلك في سنة ست عشرة وستمائة، رحمه الله تعالى.

وكان ولده من أعيان العلماء، اجتمعت به عدة دفوع بدمشق، وكان يدرس بالمدرسة النووية ولم يكن في عصره من يقاربه في مذهب الإمام أبي حنيفة؛وبلغني أنه كان ينكر على والده نظام الدين المذكور تضييع فكره وذهنه، وكان من أشد ذهنا وإدراكا وهو عند ذلك شاب، وكان ابنه يقول عنه لاقتصاره على المذهب فقط: أبي شيخ كودون؛ ومولد الحصيري ببخارا سنة ست وأربعين وخمسمائة في رجب، وتوفي ليلة الأحد الثامن من صفر سنة ست وثلاثين وستمائة بدمشق، ودفن من الغد بمقبرة الصوفية خارج باب النصر، وكان يقول: كان أبي يعرف بالتاجري، وإنما ببخارا محلة يعمل فيها الحصر، وكنا نحن بها.

محمد بن داود الظاهري

أبو بكر محمد بن داود بن علي بن خلف الأصبهاني المعروف بالظاهري؛ كان فقيها أديبا شاعرا ظريفا، وكان يناظر أبا العباس ابن سريج – وقد سبق خبره معه في ترجمته – ولما توفي أبوه في التاريخ المذكور في ترجمة جلس ولده أبو بكر المذكور في حلقته، وكان على مذهب والده، فاستصغروه، فدسوا أليه رجلا وقالوا له: سله عن حد السكر، فأتاه الرجل فسأله عن السكر: ما هو؟ ومتى يكون الإنسان سكران. فقال: إذا عزبت عنه الهموم، وباح بسره المكتوم؛ فاستحسن ذلك منه، وعلم موضعه من العلم، وصنف في عنفوان شبابه كتابه الذي سماه الزهرة وهو مجموع أدب فيه بكل غريبة ونادرة وشعر رائق.

واجتمع يوما هو وأبو العباس ابن سريج في مجلس الوزير ابن الجراح فتناظرا في الإيلاء، فقال ابن سريج: أنت بقولك من كثرت لحظاته دامت حسراته أبصر منك في الإيلاء، فقال له أبو بكر: لئن قلت ذلك فإني أقول:

أنزه في روض المحاسن مقلتي ... وأمنع نفسي أن تنال محرما

وأحمل من ثقل الهوى مالو أنه ... يصب على الصخر الأصم تهدما

وينطق طرفي عن مترجم خاطري — فلولا اختلاسي رده لتكلما

رأيت الهوى دعوى من الناس كلهم — فما إن أرى حبا صحيحا مسلما

فقل له ابن سريج: وبم تفتخر علي ولو شئت أنا لقلت:

ومساهر بالغنج من لحظاته — قد بت أمنعه لذيذ سناته

ضنا بحسن حديثه وعتابه — وأكرر اللحظات في وجناته

حتى إذا ما الصبح لاح عموده — ولي بخاتم ربه وبراته

فال أبو بكر: يحفظ الوزير عليه ذلك حتى يقيم شاهدي عدل انه ولي بخاتم ربه، فقال أبو العباس ابن سريج: يلزمني في ذلك ما يلزمك في قولك:

أنزه في روض المحاسن مقلتي — وأمنع نفسي أن تنال محرما

فضحك الوزير وقال: لقد جمعتما ظرفا ولطفا وفهما وعلما.

ورأيت في بعض المجاميع هذه الأبيات منسوبة إليه:

لكل امرئ ضيف يسر بقربه — وما لي سوى الأحزان والهم من ضيف

له مقلة ترمي القلوب بأسهم — أشد من الضرب المدارك بالسيف

يقول خليلي: كيف صبرك بعدنا؟ — فقلت :وهل صبر فاسأل عن كيف

وحكى أبو بكر عبد الله بن أبي الدنيا أنه حضر مجلس محمد المذكور قال: فجاءه رجل فوقف عليه ورفع له رقعة، فأخذها وتأملها طويلا وظن تلامذته أنها مسألة، ثم قلبها وكتب على ظهرها وردها إلى صاحبها، فنظرنا فإذا الرجل علي بن العباس المعروف بابن الرومي الشاعر المشهور، وإذا في الرقعة:

يا ابن داود يا فقيه العراق — أفتنا في قواتل الأحداق

هل عليهن في الجروح قصاص — أم مباح لها دم العشاق

وإذا الجواب:

كيف يفتكم قتيل صريع — بسهام الفراق والإشتياق

وقتيل التلاق أحسن حالا — عند داود من قتيل الفراق

وكان عالما في الفقه وله تصانيف عديدة: منها كتاب الوصول إلى معرفة الأصول وكتاب الإنذار وكتاب الإعذار وكتاب الإنتصار على محمد ابن جرير وعبد الله بن شرشي وعيسى بن إبراهيم الضرير وغير ذلك.

وتوفي يوم الاثنين تاسع شهر رمضان سنة سبع وتسعين ومائتين وعمره اثنان وأربعون سنة، وقيل كانت وفاته سنة ست وتسعين، والأول أصح وفي يوم وفاته توفي يوسف بن يعقوب القاضي، رحمهما الله تعالى.

ويحكى أنه لما بلغت وفاته ابن سريج كان يكتب شيئا فألقى الكراسة من يده وقال: مات من كنت أحث نفسي وأجهدها على الاشتغال لمناظرته ومقاومته.

الطرطوشي

أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان بن أيوب القرشي الفهري الأندلسي الطرطوشي الفقيه المالكي الزاهد، المعروف بابن أبي رندقة؛ صحب أبا الوليد الباجي – المقدم ذكره –بمدينة سرقسطة، وأخذ عنه مسائل الخلاف وسمع منه، وأجاز له،وقرأ الفرائض والحساب بوطنه، وقرأ

الأدب على أبي محمد ابن حزم–المقدم ذكره–بمدينة إشبيلية، ورحل إلى المشرق سنة ست وسبعين وأربعمائة وحج ودخل بغداد والبصرة، وتفقه على أبي بكر محمد بن أحمد الشاشي المعروف بالمستظهري الفقيه الشافعي – وقد تقدم ذكره –وعلى أبي أحمد الجرجاني، وسكن الشام مدة ودرس بها.

وكان إماما عالما كامل زاهدا ورعا دينا متواضعا متقشفا متقلالا من الدنيا راضيا منها باليسير، وكان يقول: إذا عرض لك أمران دنيا وأمر أخرى فبادر بأمر الأخرى يحصل لك أمر الدنيا والأخرى، وكان كثيرا ما ينشد:

إن لله عبادا فطنا	طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا
فكروا فيها فلما علموا	أنها ليست لحي وطنا
جعلوها لجة واتخذوا	صالح الأعمال فيها سفنا

ولما دخل على الأفضل شاهنشاه ابن امير الجيوش – المقدم ذكره في حرف الشين – بسط مئزرا كان معه وجلس عليه، وكان إلى جانب الأفضل رجل نصراني فوعظ الأفضل حتى بكى، وأنشد:

ياذا الذي طاعته قربة	وحقه مفترض واجب
إن الذي شرفت من أجله	يزعم هذا أنه كاذب

وأشار إلى النصراني، فأقام الأفضل من موضعه. وكان الأفضل قد أنزل الشيخ في مسجد شقيق الملك بالقرب من الرصد وكان يكرهه، فلما طال مقامه به ضجر وقال لخادمه: إلى متى نصبر؟ اجمع لي المباح، فجمع له فأكله ثلاثة أيام، فلما كان عند صلاة المغرب قال لخادمه: رميته الساعة، فلما كان من الغد ركب الأفضل فقتل، وولي بعده المأمون بن البطائحي، فأكرم الشيخ إكراما كثيرا، وصنف له كتاب سراج الهدى وهو حسن في بابه. وله من التصانيف سراج الملوك وكتاب بر الوالدين وكتاب الفتن وغير ذلك، وله طريقة في الخلاف. ورأيت أشعارا منسوبة عليه: فمن ذلك وقد ذكرها الحافظ زكي الدين عبد العظيم المنذري في الترجمة التي جمعها للطرطوشي المذكور، وهي:

إذا كنت في حاجة مرسلا	وأنت بإنجازها مغرم
فأرسل بأكمه خلابة	به صمم أغطش أبكم
ودع عنك كل رسول سوى	رسول يقال له الدرهم

وقد سبق في ترجمة أبي الحسين أحمد بن فارس اللغوي بيتان يشتملان على أكثر ألفاظ هذه الإبيات، وهما:

إذا كنت في حاجة مرسلا	وأنت بها كلف مغرم
فأرسل حكيما ولا توصه	وذاك الحكيم هو الدرهم

وقال الطرشوشي المذكور: كنت ليلة نائما في بيت المقدس، فبننا أنا في جنح الليل غذ سمعت صوتا حزينا ينشد:

أخوف ونوم؟ إن ذا لعجب	ثكلتك من قلب فأنت كذوب
أما وجلال الله لو كنت صادقا	لما كان للاغماض منك نصيب

قال: فأيقظ النوام وابكى العيون.

وكانت ولادة الطرشوشي المذكور سنة إحدى وخمسين وأربعمائة تقريبا.

وتوفي ثلث الليل الأخير من ليلة السبت لأربع بقين من جمادى الأولى سنة عشرين وخمسمائة بثغر الإسكندرية، وصلى عليه ولده محمد، ودفن في مقبرة وعلة قريبا من البرج الجديد قبلي الباب الأخضر، رحمه الله تعالى؛ وذكر ابن بشكوال في كتاب الصلة أنه توفي في شعبان من السنة المذكورة. قلت:

هكذا وجدت تاريخ وفاة هذا الشيخ في مواضع كثيرة، ثم ظفرت بدمشق في أوائل سنة ثمانين وستمائة بمشيخة جمعت لشيخنا القاضي بهاء الدين يوسف المعروف بابن شداد – المذكور في حرف الياء – ذكر فيها شيوخه الذين سمع عليهم ثم ذكر بعدهم الشيوخ الذين أجازوه فذكر في جملتهم الشيخ أبا بكر الطرشوشي المذكور؛ ولاخلاف أن ابن شداد مولده في سنة تسع وثلاثين وخمسمائة، فكيف يجيزه الطرطوشي ووفاته في سنة عشرين وخمسمائة؟ فقد توفي قبل مولد ابن شداد بتسع عشرة سنة، وكان يمكن أن يقال: ربما وقع الغلط من الذي جمع المشيخة، لكن هذه النسخة التي رأيتها قرئت عليه، وكتب خطه عليها بالسماء فما بقي الغلط منسوبا إلى جامع المشيخة، بل يحتاج هذا إلى التحقيق من جهة أخرى وقد نبهت عليه ليكتشف عن ذلك من يقف عليه، ولا ينسبني إلى الغلط في ذلك، والله أعلم بالصواب.

والطرطوشي: بضم الطاءين المهملتين بينهما راء ساكنة وبعدها واو ساكنة ثم شين معجمة، هذه النسبة إلى طرطوشة، وهي مدينة في آخر بلاد المسلمين بالأندلس على ساحل البحر وهي شرق الأندلس.

ورندقة: بفتح الراء وسكون النون وفتح الدال المهملة والقاف، وهي لفظة فرنجية، سألت بعض الفرنج عنها فقال: معناها رد تعال. وقد تقدم الكلام علىوعلة في ترجمة الحافظ أبيطاهر أحمد بن محمد السلفي رحمه الله تعالى.

أبو الهذيل العلاف

أبو الهذيل محمد الهذيل بن عبد الله بن مكحول العبدي، المعروف المتكلم؛كان شيخ البصريين في الاعتزال، ومن أكبر علمائهم، وهو صاحب مقالات في مذهبهم ومجالس ومناظرات، وهو مولى عبد القيس.

وكان حسن الجدال قوي الحجة كثير الاستعمال للأدلة والإلزامات. حكي أنه لقي صالح بن عبد القدوس، وقد مات له ولد وهو شديد الجزع عليه، فقال له أبو الهذيل: لاأعرف لجزعك عليه وجها، إذ كان الإنسان عندك كالزرع، قال صالح: ياأبا الهذيل، إنما أجزع عليه لأنه لم يقرأ كتاب الشكوكفقال له: كتاب الشكوك ما هو يا صالح؟ قال: هو كتاب قد وضعته من قرأه يشك فيما كان حتى يتوهم أنه لم يكن، ويشك فيما لم يكن حتى يتوهم أنه قد كان، فقال له أبو الهذيل: فشك أنت في موت ابنك، واعمل على انه لم يمت،وإن كان قد مات، وشك أيضا في قراءته كتاب الشكوك وإن كان لم يقرأه.

ولأبي الهذيل كتاب يعرف بميلاس وكان ميلاس رجلا مجوسيا فأسلم وكان سبب إسلامه أنه جمع بين أبي الهذيل المذكور وجماعة من التنويه، فقطعهم أبو الهذيل، فأسلم ميلاس عند ذلك.

وكان قد اجتمع عند يحيى بن خالد البرمكي جماعة من أرباب الكلام فسألهم عن حقيقة العشق، فتكلم كل واحد بشيء، وكان أبو الهذيل المذكور في جملتهم، فقال: أيها الوزير، العشق يختم على النواظر ويطبع على الأفئدة، مرتعة في الأجسسام ومشرعة في الأكباد، وصاحبه متصرف الظنون متفنن الأوهام، لايصفو له مرجو ولايسلم له موعود، تسرع إليه النوائب. وهو جرعة من نقيع الموت ونقعة من حياض الثكل، غير أنه من أريحية تكون في الطبع وطلاوة توجد في الشمائل، وصاحبه جواد لايصغي إلى داعية المنع ولا يصيخ لنازع العذل. وكان المتكلمون ثلاثة عشر شخصا، وأبو الهذيل ثالث من تكلم منهم، ولولا خوف الإطالة لذكرت كلام الجميع.

ورأيت في بعض المجاميع أن أعرابية وصفت العشق، فقلت في صفته: خفي عن أن يرى وجل عن أن يخفى، فهو كامن ككمون النار في الحجر: إن قدحته أورى وإن تركته توارى، وإن لم يكن شعبة من الجنون فهو عصارة السحر.

وكانت ولادة أبي الهذيل سنة إحدى – وقيل أربع، وقيل خمس–وثلاثين ومائة. وتوفي سنة خمس وثلاثين ومائتين بسر من رأى؛ وقال الخطيب البغدادي توفي سنة ست وعشرين، وقال المسعودي في كتاب مروج الذهب: إنه توفي سنة سبع وعشرين ومائتين، رحمه الله تعالى، وكان قد كف بصره وخرف في آخر عمره، إلا أنه كان لايذهب عليه شيء من الأصول، لكنه ضعف عن مناهضة المناظرين وحجاج المخالفين، وضعف خاطره.

أبو علي الجبائي

أبو علي محمد بن عبد الوهاب بن سلام بن خالد بن حمران بن أبان، مولى عثمان بن عفان، رضي الله عنه، المعروف بالجبائي أحد أئمة المعتزلة؛ كان إماما في علم الكلام، وأخذ هذا العلم عن أبي يوسف يعقوب بن عبد الله الشحام البصري رئيس المعتزلة بالبصرة في عصره، وله في مذهب الاعتزاك مقالات مشهورة، وعنه أخذ الشيخ أبو الحسن الأشعري شيخ السنة علم الكلام، وله معه مناظرة روتها العلماء، فيقال إن أبا الحسن المذكور سأل أستاذه أبا علي الجبائي عن ثلاثة إخوة: أحدهم كان مؤمنا برا تقيا، والثاني كان كافرا فاسقا شقيا، والثالث كان صغيرا، فماتوا فكيف حالهم؟ فقال الجبائي: أما الزاهد ففي الدرجات، وأما الكافر ففي الدركات، وأما الصغير فمن أهل السلامة، فقال الأشعري: إن أراد الصغير أن يذهب إلى درجات الزاهد هل يؤذن له؟ فقال الجبائي: لا، لأنه يقال له: إن أخاك إنما وصل إلى هذه الدرجات بسبب طاعاته الكثيرة، وليس لك تلك الطاعات، فقال الأشعري: فإن قال ذلك الصغير: التقصير ليس مني، فإنك ما أبقيتني ولا أقدرتني على الطاعة، فقال الجبائي: يقول الباري جل وعلا: كنت أعلم أنك لو بقيت لعصيت وصرت مستحقا للعذاب الأليم، فراعيت مصلحتك، فقال الأشعري: فلو قال الأخ الكافر: ياإله العالمين، كما علمت حاله فقد علمت حالي، فلم راعيت مصلحته دوني؟ فقال الجبائي للأشعري: انك لمجنون فقال لا بل وقف حمار الشيخ في العقبة فانقطع الجبائي وهذه المناظرة دالة على أن الله تعالى خص من شاء برحمته، وخص آخر بعذابه، وأن أفعاله غير معللة بشيء من الأغراض.

ثم وجدت في تفسير القرآن العظيم تصنيف الشيخ فخر الدين الرازي في سورة الأنعام: أن الأشعري لما فارق مجلس الأستاذ الجبائي وترك مذهبه وكثر اعتراضه على أقاويله عظمت الوحشة بينهما، فاتفق يوما أن الجبائي عقد مجلس التذكير، وحضر عنده عالم من الناس، فذهب الأشعري إلى ذلك المجلس، وجلس في بعض النواحي مختفيا عن الجبائي، وقال لبعض من حضره من النساء: أنا أعلمك مسألة فاذكريها لهذا الشيخ، ثم علمها سؤالا بعد سؤال، فلما انقطع الجبائي في الأخير رأى الأشعري، فعلم أن المسألة منه لا من العجوز.

ورأيت في كتاب المسالك والممالك لابن حوقل في فصل خوزستان أن جبى مدينة ورستاق عريض مشتبك العمائر بالنخل وقصب السكر وغيرهما.

قال: ومنها أبو علي الجبائي الشيخ الجليل إمام المعتزلة ورئيس المتكلمين في عصره.

وكانت ولادة الجبائي في سنة خمس وثلاثين ومائتين. وتوفي في شعبان سنة ثلاث وثلثمائة، رحمه الله تعالى.

وقد سبق ذكر ولده أبي هاشم عبد السلام، والكلام على الجبائي في حرف العين.

أبو بكر الباقلاني

القاضي أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القسم، المعروف بالباقلاني البصري المتكلم المشهور؛ كان على مذهب الشيخ أبي الحسن الأشعري، ومؤيدا اعتقاده وناصرا طريقته، وسكن بغداد، وصنف التصانيف الكثيرة المشهورة في علم الكلام وغيره، وكان في علمه أوحد زمانه وانتهت إليه الرياسة في مذهبه، وكان موصوفا بجوده الاستنباط وسرعة الجواب، وسمع الحديث؛ وكان كثير التطويل في المناظرة مشهورا بذلك عند الجماعة،وجرى يوما بينه وبين أبي سعيد الهاروني مناظرة، فأكثر القاضي أبو بكر المذكور فيها الكلام ووسع العبارة وزاد في الإسهاب، ثم التفت إلى الحاضرين وقال اشهدوا على أنه إن أعاد ما قلت لاغير لم أطالبه بالجواب، فقال الهاروني: اشهدوا علي أنه إن أعاد كلام نفسه سلمت له ما قال.

وتوفي القاضي أبو بكر المذكور آخر يوم السبت، ودفن يوم الأحد لسبع بقين من ذي القعدة سنة ثلاث وأربعمائة ببغداد، رحمه الله تعالى، وصلى عليه ابنه الحسن، ودفنه في داره بدرب المجوس، ثم نقل بعد ذلك فدفن في مقبرة باب حرب.

ورثاه بعض شعراء عصره بقوله:

انظر إلى جبل تمشي الرجال به ... وانظر إلى القبر مايحوي من الصلف

وانظر إلى صارم الإسلام مغتمدا ... وانظر إلى درة الإسلام في الصدف

والباقلاني: بفتح الباء الموحدة وبعد الألف قاف مكسورة ثم لام ألف وبعدها نون، هذه النسبة إلى الباقلي وبيعه، وفيه لغتان: من شدد اللام قصر الألف ومن خفتها مد الألف فقال:باقلاء، وهذه النسبة شاذة لأجل زيادة النون فيها، وهو نظير قولهم في النسبة إلى صنعاء صنعاني، وإلى بهراء: بهرانين

وقد أنكر الحريري في كتابدرة الغواص هذه النسبة وقال: من قصر الباقلي قال في النسبة إليه: باقلي، ومن مد قال في النسب إليه:باقلاوي وباقلائي ولايقاس على صنعاء وبهراء، لأن ذلك شاذ لايعاج إليه، والسمعاني ما أنكر النسبة الأولى، والله أعلم بالصواب.

أبو الحسين البصري

أبو الحسين محمد بن علي بن الطيب البصري المتكلم على مذهب المعتزلة؛ وهو أحد أئمتهم؟ لأعلام المشار إليه في هذا الفن، كان جيد الكلام مليح العبارة غزير المادة، إمام وقته،وله التصانيف الفائقة في أصول الفقه، منه المعتمد وهو كتاب كبير، ومنه أخذ فخر الدين الرازي كتاب المحصول وله تصفح الأدلة في مجلدين، وغرر الأدلة في مجلد كبير، وشرح الأصول الخمسة وكتاب في الإمامة، وغير ذلك في؟أصول الدين، وانتفع الناس بكتبه. وسكن بغداد وتوفي بها يوم الثلاثاء خامس شهر ربيع الآخر سنة ست وثلاثين وأربعمائة، رحمه الله تعالى، ودفن في مقبرة الشونيزي، وصلى عليه القاضي أبو عبد الله الصيمري.

ولفظهالمتكلم تطلق على من يعرف علم الكلام، وهو أصول الدين، وإنما قيل له علم الكلام لأن أول خلاف وقع في الدين كان في كلام الله، عز وجل: أمخلوق هو أم غير مخلوق؟ فتكلم الناس فيه، فسمي هذا النوع من العلم كلاما، اختص به وإن كانت العلوم جميعها تنشر بالكلام، هكذا قاله السمعاني.

أبو بكر ابن فورك

الأستاذ أبو بكر محمد بن الحسن بن فورك المتكلم الأصولي الأديب النحوي الواعظ الصبهاني؛ أقام بالعراق مدة يدرس العلم، ثم توجه إلى الري فسمعت به المبتدعة، فراسله أهل نيسابور والتمسوا منه التوجه إليهم، ففعل وورد نيسابور، فبنى له بها مدرسة ودارا، وأحيا الله تعالى به أنواعا من العلوم، ولما استوطنها وظهرت بركاته على جماعة المتفقهة وبلغت مصنفاته في أصول الفقه والدين ومعاني القرآن قريبا من مائة مصنف، دعي إلى مدينة غزنة وجرت له بها مناظرات كثيرة.

ومن كلامه: شغل العيال نتيجته متابعة الشهوة بالحلال، فما ظنك بقضية شهوة الحرام؟ وكان شديد الرد على أصحاب أبي عبد الله ابن كرام.

ثم عاد إلى نيسابور فسم في الطريق فمات هناك ونقل إلى نيسابور ودفن بالحيرة، ومشهده بها ظاهر يزار ويستسقى به وتجاب الدعوة عنده، وكانت وفاته سنة ست وأربعمائة، رحمه الله تعالى. وقال أبو القاسم القشيري في الرسالة سمعت أبا علي الدقاق يقول: دخلت على أبي بكر ابن فورك عائدا فلما رآني دمعت عيناه، فقلت له: إن الله سبحانه يعافيك ويشفيك، فقال لي: ترامي أخاف من الموت، إنما أخاف مما وراء الموت.

وفورك: بضم الفاء وسكون الواو وفتح الراء وبعدها كاف، وهو اسم علم.

والحيرة: بكسر الحاء المهملة وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح الراء وبعدها هاء ساكنة، وهي محلة كبيرة بنيسابور ينسب إليها جماعة من أهل العلم، وهي تلتبس بالحيرة التي بظاهر الكوفة.

وغزنة: بفتح الغين المعجمة وسكون الزاي وفتح النون بعدها هاء ساكنة، وهي مدينة عظيمة في أوائل الهند من جهة خراسان.

الشهرستاني

أبو الفتح محمد بن أبي القاسم عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني المتكلم على مذهب الأشعري؛ كان إماما مبرزا فقيها تفقه على أحمد الخوافي – المقدم ذكره –وعلى أبي نصر القشيري وغيرهما، وبرع في الفقه، وقرأ الكلام على أبي القاسم الأنصاري وتفرد فيه، وصف كتبا منها كتابنهاية الإقدام في علم الكلام وكتاب الملل والنحلوالمناهج والبينات وكتاب المضارعة وتلخيص الإقسام لمذاهب الأنام وكان كثير المحفوظ حسن المحاورة يعظ الناس، ودخل بغداد سنة عشروخمسمائة وأقام بها ثلاث سنين، وظهر له قبول كثير عند العوام، وسمع الحديث من علي بن أحمد المديني بنيسابور ومن غيره، وكتب عنه الحافظ أبو سعد عبد الكريم السمعاني، وذكره في كتاب الذيل وكانت ولادته سنة سبع وستين وأربعمائة بشهرستان، هكذا وجدته بخطي في مسودتين وما أدري من أين نقلته، وقال ابن السمعاني في كتاب الذيل: سألته عن مولده فقال: في سنة تسع وسبعين وأربعمائة وتوفي بها أيضا في

أواخر شعبان سنة ثمان وأربعين وخمسمائة، وقيل سنة تسع وأربعين، والأول أصح، رحمه الله تعالى.
وذكر في أول كتاب نهاية الإقدام المذكور بيتين وهما:

لقد طفت في تلك المعاهد كلها وسيرت طرفي بين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعا كف حائر على ذقن أو قارعا سن نادم

و لم يذكر لمن هذان البيتان، وقال غيره: هما لأبي بكر محمد بن باجة المعروف بابن الصائغ الأندلسي - الآتي ذكره إن شاء الله تعالى.
وشهرستان:بفتح الشين المعجمة وسكون الهاء وفتح الراء وسكون السين المهملة وفتح التاء المثناة من فوقها وبعد الألف نون، وهو اسم لثلاث مدن:
الأولى: شهرستان خراسان بين نيسابور وخوارزم في آخر حدود خراسان وأول الرمل المتصل بناحية خوارزم وهي المشهورة، ومنها أبو الفتح محمد المذكور، وأخرجت خلقا كثيرا من العلماء، وبناها عبدالله بن طاهر أمير خراسان - المقدم ذكره - في خلافة المأمون.
الثانية: شهراستان قصبة ناحية سابور من أرض فارس، كما ذكره ابن البناء البشاري.
الثالثة: مدينة جي بأصبهان يقال لها شهراستان، بينها وبين اليهودية مدينة أصبهان اليوم نحو ميل، بها أسواق، وهي على نهر زرندود وبها قبر الإمام الراشد بن المسترشد.
وشهراستان لفظة عجمية وهي مركبة، فمعنى شهر مدينة، ومعنى الاستان الناحية، فكأنه قال: مدينة الناحية - ذكر ذلك كله أبو عبد الله ياقوت الحموي في كتابه الذي سماهالمشترك وضعا المختلف صعقا وفي بعضه زيادة على ماذكره ياقوت.

وكان الشهرستان المذكور يروي بالإسناد إلى الكظام البلخي العالم المشهور، واسمه إبراهيم بن سيار، أنه كان يقول: لو كان للفراق صورة لارتاع لها القلوب ولهد الجبال، ولجمر الغضى أقل توجها من حمله، ولو عذب الله أهل النار بالفراق لاستراحوا إلى ماقبله من العذاب. وكان يروى للدريدي أيضا باتصال الإسناد إليه قوله:

ودعته حين لاتودعه روحي ولكنها تسير معه
ثم افترقنا وفي القلوب لنا ضيق مكان وفي الدموع سعة

وكان يروي للدريدي أيضا مسندا إليه:

يا راحلين بمهجة في الحب متلفة شقيه
الحب فيه بلية وبليتي فوق البلية

كل ذلك رواه الحافظ أبو سعد ابن السمعاني في كتاب الهذيل ثم قال في آخر الترجمة: وصل إلي نعيه وأنا ببخارا، رحمه الله تعالى.

محمد بن إسحاق

أبو بكر، وقيل أبو عبد الله، محمد بن إسحاق بن يسار بن خيار، وقيل يسار بن كوتان المطلبي بالولاء المديني صاحب المغازي والسير كان جده يسار مولى قيس بن مخرمة بن المطلب بن عبد مناف القرشي، سباه خالد بن الوليد من عين التمر، وكان محمد المذكور ثبتا في الحديث عند أكثر العلماء، وأما في المغازي والسير فلاتجهل إمامته فيها، قال ابن شهاب الزهري: من أراد المغازي فعليه بابن إسحاق وذكره البخاري في تاريخه؛ وروي عن الشافعي رضي الله عنه أنه قال: من اراد أن يتبحر في المغازي فهو عيال على ابن إسحاق. وقال سفيان بن عيينة: ما أدركت أحدا يتهم ابن إسحاق في حديثه. وقال شعبة بن الحجاج: محمد بن إسحاق أمير المؤمنين، يعني في الحديث.
ويحكى عن الزهري أنه خرج إلى قرية فاتبعه طلاب الحديث فقال لهم: أين أنتم من الغلام الأحول أو قد خلفت فيكم الغلام الأحول، يعني ابن إسحاق. وذكر الساجي أن أصحاب الزهري كانوا يلجؤون إلى محمد بن إسحاق فيما شكوا فيه من حديث الزهري، ثقة منهم بحفظه؛ وحكي عن

يحيى بن معين وأحمد بن حنبل ويحيى بن سعيد القطان أنهم وثقوا محمد بن إسحاق واحتجوا بحديثه،وإنما لم يخرج البخاري عنه وقد وثقه، وكذلك مسلم بن الحجاج لم يخرج عنه إلا حديثا واحدا في الرجم طعن مالك بن أنس فيه، وإنما طعن مالك فيه لأنه بلغه عنه أنه قال: هاتوا حديث مالك فأنا طبيب بعلله، فقال مالك: وما ابن إسحاق؟ إنما هو دجال من الدجاجلة، نحن أخرجناه من المدينة؛ يشير – والله أعلم – إلى أن الدجال لايدخل المدينة.

وكان محمد بن إسحاق قد أتى أبا جعفر المنصور وهو بالحيرة فكتب له المغازي فسمع منه أهل الكوفة بذلك السبب، وكان يروي عن فاطمة بنت المنذر بن الزبير، وهي امرأة هشام بن عروة بن الزبير، فبلغ ذلك هشاما فأنكره وقال: أهو كان يدخل على امرأتي؟ وحكى الخطيب أبو بكر أحمد ابن علي بن ثابت في تاريخ بغداد أن محمد بن إسحاق رأى أنس بن مالك رضي الله عنه، وعليه عمامة سوداء والصبيان خلفه يشتدون ويقولون: هذا رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، لايموت حتى يلقى الدجال.

وتوفي محمد بن إسحاق ببغداد سنة إحدى وخمسين ومائة، وقيل سنة خمسين، وقيل سنة اثنتين وخمسين، وقال خليفة بن خياط: سنة ثلاث وخمسين، وقيل أربع وأربعين والله أعلم، والأول أصح رحمه الله تعالى. ودفن في مقبرة الخيزران بالجانب الشرقي، وهي منسوبة إلى الخيزران أم هارون الشيد وأخيه الهادي، وإنما نسبت إليها لأنها مدفونة بها، وهذه المقبرة أقدم المقابر التي بالجانب الشرقي.

ومن كتبه أخذ عبد الملك بن هشام سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد تقدم ذكره، وكذلك كل من تكلم في هذا الباب فعليه اعتماده وإليه إسناده.

والمطلبي: نسبة إلى المطلب بن عبد مناف المذكور أولا. وقد تقدم الكلام على عين التمر في ترجمة أبي العتاهية.

الترمذي

أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة بن موسى الضحاك السلمي الضرير البوغي الترمذي الحافظ المشهور؛ أحد الأئمة الذين يقتدى بهم في علم الحديث.

صنف كتاب الجامع والعلل تصنيف رجل متقن، وبه كان يضرب المثل، وهو تلميذ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، وشاركه في بعض شيوخه مثل قتيبة بن سعيد وعلي بن حجر وابن بشار وغيرهم. وتوفي لثلاث عشرة ليلة خلت من رجب ليلة الاثنين سنة تسع وسبعين ومائتين بترمذ،وقال السمعاني: توفي بقرية بوغ في سنة خمس وسبعين ومائتين، وذكره في كتاب الأنساب في نسبه البوغي، رحمه الله تعالى.

وبوغ: بضم الباء الموحدة وسكون الواو وبعدها غين معجمة، وهي قرية من قرى ترمذ على ستة فراسخ منها. وقد تقدم الكلام على الترمذي، والاختلاف في كسر التاء وضمها وفتحها في ترجمة أبي جعفر محمد بن أحمد الفقيه الشافعي.

ابن ماجه

أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه الربعي بالولاء القزويني الحافظ المشهور، مصنف كتاب السنن في الحديث؛ كان إماما في الحديث عارفا بعلومه وجميع ما يتعلق به، ارتحل إلى العراق والبصرة والكوفة وبغداد ومكة والشام ومصر والري لكتب الحديث، وله تفسير القرآن الكريم وتاريخ مليح، وكتابه في الحديث أحد الصحاح الستة.

وكانت ولادته سنة تسع ومائتين. وتوفي يوم الاثنين، ودفن يوم الثلاثاء، لثمان بقين من شهر رمضان سنة ثلاث وسبعين ومائتين، رحمه الله تعالى؛ وصلى عليه أخوه ابو بكر وتولى دفنه أخواه أبو بكر وعبد الله وابنه عبد الله.

وماجه: بفتح الميم والجيم وبينهما؟ألف وفي الآخر هاء ساكنة.

والربعي: بفتح الراء والباء الموحدة وبعدها عين مهملة، هذه النسبة إلى بيعة، وهي اسم لعدة قبائل لاأدري إلى أيها ينسب المذكور.

والقزويني: بفتح القاف وسكون الزاي وكسر الواو وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها نون، هذه النسبة إلى قزوين، وهي من أشهرمدن عراق العجم، خرج منها جماعة من العلماء المعتبرين.

الحاكم بن البيع النيسابوري

أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نعيم بن الحكم الضبي الطهاني المعروف بالحاكم النيسابوري، الحافظ المعروف بابن البيع؛ إمام أهل الحديث في عصره والمؤلف فيه الكتب التي لم يسبق إلى مثلها، كان عالما عارفا واسع العلم، تفقه على أبي سهل محمد بن سليمان الصعلوكي الفقيه الشافعي – وقد تقدم ذكره – ثم انتقل إلى العراق وقرأ على أبي علي ابن أبي هريرة الفقيه – وقد تقدم ذكره أيضا ثم طلب الحديث وغلب عليه فاشتهربه، وسمعه من جماعة لايحصون كثرة فإن معجم شيوخه يقرب من ألفي رجل حتى روى عمن عاش بعده لسعة روايته وكثرة شيوخه. وصنف في علومه مايبلغ ألفا وخمسمائة جزء، منها الصحيحان والعلل والأمالي وفوائد الشيوخ وأمالي العشيات وتراجم الشيوخ. وأما ما تفرد بإخراجه فمعرفة علوم الحديث وتاريخ علماء نيسابور والمدخل إلى علم الصحيح والمستدرك على الصحيحين وما تفرد به كل من الإمامين وفضائل الإمام الشافعي رضي الله عنه.

وله إلى الحجاز والعراق رحلتان، وكانت الرحلة الثانية سنة ستين وثلثمائة، وناظر الحفاظ وذاكر الشيوخ وكتب عنهم أيضا، وباحث الدار قطني فرضية، وتقلد القضاء بنيسابور في سنة تسع وخمسين وثلثمائة في أيام الدولة السامانية ووزراء أبي النصر محمد بن عبد الجبار العتبي، وقلد بعد ذلك قضاء جرجان فامتنع، وكانوا ينفذونه في الرسائل إلى ملوك بني بويه.

وكانت ولادته في شهر ربيع الأول سنة إحدى وعشرين وثلثمائة بنيسابور وتوفي بها يوم الثلاثاء ثالث صفر سنة خمس وأربعمائة، وقال الخليلي في كتاب الإرشاد: توفي سنة ثلاث وأربعمائة.

وسمع الحديث في سنة ثلاثين، وأملى بما وراء النهر سنة خمس وخمسين، وبالعراق سنة سبع وستين، ولازمه الدار قطني، وسمع منه أبو بكر القفال الشاشي، وأنظارهما.

وحمدويه: بفتح الحاء المهملة وسكون الميم وضم الدال المهملة وسكون الواو وفتح الياء المثناة من تحتها وبعدها هاء ساكنة.

والبيع: بفتح الباء الموحدة وكسر الياء المثناة من تحتها وتشديدها وبعدها عين مهملة.

وإنما عرف بالحاكم لتقلده القضاء، رحمه الله تعالى.

الحميدي

أبو عبد الله محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله بن حميد بن يصل، الأزدي الحميدي الأندلسي الميورقي الحافظ المشهور؛ أصله من قرطبة من ربض الرصافة، وهو من أهل جزيرة ميورقة، روى عن أبي محمد علي بمن حزام الظاهري – المقدم ذكره – واختص به، وأكثر من الأخذ عنه وشهر بصحبته، وعن أبي عمر يوسف بن عبد البر صاحب كتاب الاستيعاب – وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى–وعن غيرهما من الأئمة.

ورحل إلى المشرق سنة ثمان وأربعين فحج وسمع بمكة حرسها الله تعالى، وبإفريقية وبالأندلس ومصر والشام والعراق، واستوطن بغداد. وكان موصوفا بالنباهة والمعرفة والإتقان والدين والورع، وكانت له نغمة حسنة في قراءة الحديث. وذكره الأمير أبو نصر علي بن ماكولا صاحب كتاب الإكمال – المقدم ذكره – فقال: أخبرنا صديقنا أبو عبد الله الحميدي، وهو من اهل العلم والفضل والتيقظ، وقال: لم أر مثله في عفته ونزاهته وورعه وتشاغله بالعلم ولأبي عبد الله المذكور كتاب الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم وهو مشهور، وأخذه الناس عنه، وله أيضا تاريخ علماء الأندلس سماهجذوة المقتبس في مجلد واحد، وذكر في خطبته أنه كتبه من حفظه، وقد طلب ذلك منه ببغداد. وكان يقول: ثلاثة أشياء من علوم الحديث يجب تقديم التهم بها: كتاب العلل وأحسن كتاب وضع فيه الدار قطني، وكتاب المؤتلف والمختلف وأحسن كتاب وضع فيه كتاب الأمير أبي نصر ابن ماكولا، وكتابوفيات الشيوخ وليس فيه كتاب، وقد كنت أردت أن أجمع في ذلك كتابا فقال لي الأمير: رتبه عل حروف المعجم بعد أن رتبته على السنن، قال أبو بكر بن طرخان: فشغله عنه الصحيحان إلى أن مات.

وقال ابن طرخان المذكور: أنشدنا أبو عبد الله الحميدي المذكور لنفسه:

لقاء الناس ليس يفيد شيئا سوى الهذيان من قيل وقال

فأقلل من لقاء الناس إلا لأخذ العلم أو إصلاح حال

وكان قد أدرك بدمشق الخطيب ابا بكر الحافظ، وروى عنه وعن غيره، وروى الخطيب أيضا عنه. وكانت ولادته قبل العشرين وأربعمائة. وتوفي ليلة الثلاثاء سابع عشر ذي الحجة سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ببغداد.

وقال السمعاني في كتاب الأنساب في ترجمة الميورقي: إنه توفي في صفر سنة إحدى وتسعين وأربعمائة، رحمه الله تعالى، هكذا وجدته في المختصر الذي اختصره أبو الحسن علي بن الأثيرالجزري – المقدم ذكره – وكشفت عنه عدة نسخ فوجدته على هذه الصورة، لأني توهمت الغلط في نسختي، و لم أقدر على مرجعة الأصل الذي لابن السمعاني الذي هذا المختصر منه، لأنه لايوجد في هذه البلاد، وبقي في نفسي شيء من التفاوت بين التاريخين، فإنه كبير. ثم إني كشفت كتاب الذيل للسمعاني فوجدت فيه أن الحميدي المذكور توفي ليلة الثلاثاء السابع غشر من ذي الحجة سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، ودفن من الغد في مقبرة باب أبرز، بالقرب من قبر الشيخ أبي إسحاق الشيرازي، وصلى عليه أبوبكر محمد بن أحمد بن الحسين الشاشي الفقيه في جامع القصر، ثم نقل بعد ذلك في صفر سنة إحدى وتسعين إلى مقبرة باب حرب، ودفن عند قبر بشر بن الحارث المعروف بالحاقي، رحمه الله تعالى.

فلما وقفت في الذيل على هذه الصورة علمت أن الغلط وقع من ابن الأثير في المختصر: إما لأن النسخة التي اختصرها كانت غلطا من الناسخ، فتتبع ابن الأثير ذلك الغلط و لم يكشفه من موضع آخر، أو لأنه عبر من سطر إلى سطر كما جرت عادة النساخ في بعض الأوقات، والله أعلم أي ذلك كان.

والحميدي بضم الحاء المهملة وفتح الميم وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها دال مهملة، هذه النسبة إلى جده حميد المذكور، وأخبرني بعض أرباب التاريخ أنه رأى في بعض التواريخ أن نسبته إلى حميد بن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، وهو ليس بصحيح، لأن أبا عبد الله المذكور أزدي النسب، وعبد الرحمن قرشي زهري، فكيف يجتمعان؟.

ويصل: بفتح الياء المثناة من تحتها وكسر الصاد المهملة وبعدها لام.

وقد تقدم الكلام على الأزدي، وكذلك على ميورقة في ترجمة أبي محمد عبد الجبار بن حمديس الصقلي الشاعر، وهي بفتح الميم وضم الياء المثناة من تحتها وسكون الواو وفتح الراء والقاف وبعدها هاء ساكنة، وهي جزيرة في البحر الغربي قريبة من بر الاندلس.

المازري

أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد التميمي المازري الفقيه المالكي المحدث؛ أحد الأعلام المشار إليهم في حفظ الحديث والكلام عليه،وشرح صحيح مسلم شرحا جيدا سماهكتاب المعلم بفوائد كتاب مسلم وعليه بنى القاضي عياض كتاب الإكمال–وقد تقدم ذكره – وهو تكملة لهذا الكتاب، وله كتاب إيضاح المحصول في برهان الأصول، وله في الأدب كتب متعددة، وكان فاضلا متقنا. وقيل توفي في الثامن عشر من شهر ربيع الأول سنة ست وثلاثين وخمسمائة يوم الاثنين ثاني الشهر المذكور بالمهدية،وعمره ثلاث وثمانون سنةودفن بالمنستير رحمه الله تعالى.

والمازري: بفتح الميم وبعدها ألف ثم زاي مفتوحة وقد تكسر أيضا ثم راء، هذه النسبة إلى مازر، وهي بليدة بجزيرة صقلية.

الحافظ أبو موسى الأصبهاني

أبو موسى محمد بن أبي بكر عمر بن أبي عيسى أحمد بن عمر بن محمد بن أبي عيسى الأصبهاني المديني الحافظ المشهور؛ كان إمام عصره في الحفظ والمعرفة، وله في الحديث وعلومه تواليف مفيدة وصنف كتاب المغيث في مجلد، كمل به كتاب الغريبينللهروي، واستدرك عليه، وهو كتاب نافع، وله كتاب الزيادات في جزء لطيف جعله ذيلا على كتاب شيخه أبي الفضل محمد بن طاهر المقدسي الذي سماه كتاب الأنساب وذكر من أهله وما أقصر فيه.

ورحل عن أصبهان في طلب الحديث ثم رجع إليها وأقام بها. وكانت ولادته في ذي القعدة سنة إحدى وخمسمائة، وتوفي ليلة الأربعاء تاسع جمادى

الأولى سنة إحدى وثمانين وخمسمائة،وكانت وفاته ومولده بأصبهان، رحمه الله تعالى.

والمديني: بفتح الميم وكسر الدال المهملة وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها نون، هذه النسبة إلى مدينة أصبهان، وقد ذكر الحافظ أبو سعد السمعاني في كتاب الأنسابهذه النسبة إلى عدة مدن: أولاهن مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والثانية مرو، والثالثة نيسابور، والرابعة أصبهان، والخامسة مدينة المبارك بقزوين، والسادسة بخارا، والسابعة سمرقند، والثامنة نسف، وذكر أن النسبة إلى هذه المدن كلها المديني، وقال: أكثر ما ينسب إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم المدني.

محمد بن طاهر المقدسي

أبو الفضل محمد بن طاهر بن علي بن أحمد المقدسي الحافظ المعروف بابن القيسراني؛ كان أحد الرحالين في طلب الحديث،سمع بالحجاز والشام ومصر والثغور والجزيرة والعراق والجبال وفارس وخوزستان وخراسان. واستوطن همذان وكان من المشهورين بالحفظ والمعرفة بعلوم الحديث، وله في ذلك مصنفات ومجموعات تدل على غزارة علمه وجودة معرفته.

وصنف تصانيف كثيرة: منهاأطراف الكتب الستة وهي: صحيح البخاري ومسلم وأبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه، وأطراف الغرائب تصنيف الدار قطني، وكتاب الأنساب في جزء لطيف، وهو الذي ذيله الحافظ أبو موسى الأصبهاني المذكور قبله، وغير ذلك من الكتب وكانت له معرفة بعلم التصوف وأنواعه متفننا فيه وله فيه تصنيف أيضا، وله شعر حسن، وكتب عنه غير واحد من الحفاظ: منهم أبو موسى المذكور.

وكانت ولادته في السادس من شوال سنة ثمان وأربعين وأربعمائة، ببيت المقدس، وأول سماعه سنة ستين وأربعمائة، ودخل بغداد سنة سبع وستين وأربعمائة ثم رجع إلى بيت المقدس فأحرم من ثم إلى مكة؛ وتوفي عند قدومه من الحج آخر حجاته، يوم الجمعة لليلتين بقيتا من شهر ربيع الأول سنة سبع وخمسمائة ببغداد، ودفن في المقبرة العتيقة بالجانب الغربي، وقيل توفي يوم الخميس العشرين من الشهر المذكور، رحمه الله تعالى.

وكان ولده أبو زرعة طاهر بن محمد من المشهورين بعلو الإسناد وكثرة السماع، و لم يكن له معرفة بالعلم، لكن كان والده قد أسمعه في صباه من جماعة منهم أبو محمد عبد الرحمن بن أحمد الدوني بالري وأبو الفتح عبدوس بن عبد الله بهمذان وأبو عبد الله محمد بن عثكان الكامخي وأبو الحسن مكي ابن منصور السلار. وقدم به بغداد فسمع بها من أبي القاسم علي بن أحمد بن ريان وغيره. وسكن بعد وفاة أبيه بهمذان، وكان يقدم بغداد للحج،فحدث بها بأكثر سماعاته، وسمع منه الوزير ابو المظفر يحيى بن هبيرة وغيره، وكان مولده بالري في سنة إحدى وثمانين وأربعمائة، وتوفي يوم الأربعاء سابع شهر ربيع الآخر سنة ست وستين وخمسمائة بهمذان، رحمه الله تعالى.

والقيسراني: بفتح القاف والسين المهملة بينهما ياء مثناة من تحتها ثم راء مفتوحة وبعد الألف نون، هذه النسبة إلى قيسرية، وهي بليدة بالشام على ساحل البحر، وهي الآن بيد الفرنجن خذلهم الله تعالى.

قلت: ثم استنفذها من أيديهم الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي في شهور سنة ثلاث وستين وستمائة وخربها، وهي الآن خراب.

ابن منده

أبو عبد الله محمد بن يحيى بن منده العبدي الحافظ المشهور، صاحب متابتاريخ أصبهان؛ كان أحد الحفاظ الثقات، وهم أهل بيت كبير خرج منه جماعة من العلماء و لم يكونوا عبدين، وإنما ام الحفظ أبي عبد الله المذكور وإسمها برة بنت محمد كانت من بني عبد ياليل فنسب إلى أخواله، ذكر ذلك الحافظ أبو موسى الأصبهاني في كتابزيادات الأنساب – وقد تقدم ذكره – واستوفى رفع نسبها هناك فأضربت عن ذكره لطوله، وكذلك ذكره الحازمي في كتاب العجالة لكنه لم يرفع في نسبها. وتوفي الحافظ أبو عبد الله المذكور في سنة إحدى وثلثمائة، رحمه الله تعالى.

ومنده: بفتح الميم والدال المهملة بينهما نون ساكنة وفي الآخر هاء ساكنة أيضا.

وسيأتي ذكر حفيده يحيى بن عبد الوهاب إن شاء الله تعالى.

أبو عبد الله الفربري

أبو عبد اله محمد بن يوسف بن مطر بن صالح بن بشر الفربري رواية صحيح البخاري عنه، رحل إليه الناس، وسمعوا منه هذا الكتاب. وكانت ولادته في سنة إحدى وثلاثين ومائتين؛ وتوفي في ثالث شوال سنة عشرين وثلثمائة، رحمه الله تعالى.

ونسبته إلى فربر: بفتح الفاء والراء وسكون الباء الموحدة وفي آخرها راء ثانية، وهي بلدة على طرف جيحون مما يلي بخارا، وهو آخر من روى الجامع الصحيح عن البخاري.

أبو عبد الله الفراوي

أبو عبد الله محمد بن الفضل بن أحمد بن محمد بن أحمد بن أبي العباس، الصاعدي الفراوي النيسابوري الملقب كمال الدين الفقيه المحدث؛ كان يختلف إلى مجلس إمام الحرمين أبي المعالي الجويني الفقيه الشافعي صاحبنهاية المطلب وعلق عنه الأصول، ونشأ بين الصوفية، وكان فقيها محدثا مفننا مناظرا واعظا، وكان يحمل الطعام إلى المسافرين الواردين عليه ويخدمهم بنفسه مع كبر سنه، وخرج حاجا إلى مكة، وعقد له مجلس الوعظ ببغداد وسائر البلاد التي توجه إليها، وأظهر العلم بالحرمين، وعاد إلى نيسابور وقعد للتدريس بالمدرسة الناصحية، وقام بإمامة مسجد المطرز.

وسمع صحيح مسلم من عبد الغافر الفارسي–المقدم ذكره –وصحيح البخاري من سعيد بن أبي سعيد، وسمع من الشيخ أبي إسحاق الشيرازي والحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي وأبي القاسم عبد الكريم بن هوازان القشيري وإمام الحرمين، وتفرد برواية عدة كتب للحافظ البيهقي مثل دلائل النبوة والأسماء والصفات والبعث والنشور والدعوات الكبيرة والصغيرة، وكان يقال في حقه: الفراوي، ألف راوي.

وكانت ولادته سنة إحدى، وقيل اثنتين، وأربعين واربعمائة بنيسابور، وسمع الحديث سنة سبع وأربعين.وتوفي ضحوة يوم الخميس الحادي، وقيل الثاني، والعشرين من شوال سنة ثلاثين وخمسمائة، رحمه الله تعالى.

والفراوي: بضم الفاء وفتح الراء وبعدها ألف ثم واو، هذه النسبة إلى فراوة، وهي بليدة مما يلي خوارزم يقال لها رباط فراوة، بناها عبد الله بن طاهر في خلافة المأمون، وهو يومئذ أمير خراسان – وقد تقدم ذكره.

أبو بكر الآجري

أبو بكر محمد بن الحسين بن عبد الله الآجري الفقيه الشافعي المحدث صاحب كتاب الأربعين حديثا، وهي مشهورة به؛ وكان صالحا عابدا،وروى عن أبي مسلم الكجي وأبي شعيب الحراني وأحمد بن يحيى الحلواني والمفضل بن محمد الجندي، وخلق كثير من أقرانهم.

ذكره محمد بن إسحاق النديم في كتابه الذي سماهالفهرست وصنف في الفقه والحديث كثيرا، وذكره الحافظ أبو بكر الخطيب البغدادي في تاريخه وقال: كان ثقة صدوقا دينا، وله تصانيف كثيرة. حدث ببغداد قبل سنة ثلاثين وثلثمائة، ثم انتقل إلى مكة فسكنها، حتى توفي بها. وروى عنه جماعة من الحفاظ منهم ابو نعيم الأصبهاني صاحب كتابحلية الأولياء وغيره.

وأخبرني بعض العلماء أنه لما دخل إلى مكة حرسها الله تعالى أعجبه، فقال: الهم ارزقني الإقامة بها سنة، فسمع هاتفا يقول له:بل ثلاثين سنة، فعاش بعد ذلك ثلاثين سنة، ثم مات بها في المحرم سنة ستين وثلثمائة، قال الخطيب: قرأت ذلك على بلاطة قبره بمكة.

والآجري: بفتح الهمزة الممدودة وضم الجيم وتشديد الراء، هذه النسبة إلى الآجر، ولاأعلم لأي معنى نسب إليه.

ورأيت حاشية على كتاب الصلة صورتها: الإمام أبو بكر الأجري نسب إلى قرية من قرى بغداد يقال لها آجر، واستوطن مكة حرسها الله تعالى، وتوفي بها أول يوم من المحرم سنة ستين وثلثمائة، رحمه الله تعالى.

الحافظ محمد بن ناصر السلامي

أبو الفضل محمد بن ناصر بن محمد بن علي بن عمر البغدادي، الحافظ الأديب المعروف بالسلامي؛ كان حافظ بغداد في زمانه وكان له حظ وافر من الأدبن وأخذ الأدب عن الخطيب أبي زكريا التبريزي، وخطه في غاية الصحة والإتقان، وكان كثير البحث عن الفوائد وإثباتها، روى عنه الأئمة فأكثروا، وأخذ عنه علماء عصره منهم الحافظ أبو الفرج ابن الجوزي، وأكثر روايته عنه، وذكره الحافظ أبو سعد ابن السمعاني في كتبه.

وكانت ةلادته ليلة السبت خامس عشر شعبان سنة سبع وستين وأربعمائة. وتوفي ليلة الثلاثاء ثامن عشر شعبان سنة خمسين وخمسمائة ببغداد، وأخرج من الغد، وصلي عليه بالقرب من جامع السلطان ثلاث مرات، وعبر به إلى جامع المنصور فصلي عليه، ثم حمل إلى الحربية وصلي عليه، ودفن بباب حرب تحت السدرة بجنب أبي منصور ابن الأنباري الواعظ، رحمه الله تعالى.

والسلامي: بفتح السين المهملة واللام ألف المخففة وبعدها ميم، هذه النسبة إلى مدينة السلام بغداد، قال ابن السمعاني: كذا كان يكتب لنفسه السلامي، يعني الحافظ المذكور.

الحازمي

أبو بكر محمد بن أبي عثمان موسى بن عثمان بن موسى بن عثمان بن حازم، الحازمي الهمذاني الملقب زين الدين؛ أحد الحفاظ المتقنين، وعباد الله الصالحين حفظ القرآن الكريم، وحضر بهمذان أبا الوقت عبد الأول بن عيسى السجزي، وسمع بها من أبي منصور شهردار بن شيرويه الديلمي وأبي زرعة طاهر بن محمد المقدسي وأبي العلاء الحسن بن أحمد الحافظ، وجماعة كثيرة وتفقه ببغداد على الشيخ جمال الدين واثق بن فضلان وغيره، وسمع الحديث ببغداد من أبي الحسين عبد الحق وأبي نصر عبد الرحيم ابني عبد الخالق بن أحمد بن يوسف وأبي الفتح عبيد الله بن عبد الله بن شاتيل ةغيرهم، ثم عني بنفسه فارتحل في طلبه إلى عدة بلاد من العراق ثم إلى الشام والموصل وبلاد فارس وأصبهان وهمذان وكثير من بلاد أذربيجان، وكتب عن أكثر شيوخ هذه البلاد، وغلب عليه الحديث، وبرع فيه واشتهر به، وصنف فيه وفي غيره كتبا مفيدة: منهاالناسخ والمنسوخ في الحديث، وكتاب الفيصل في مشتبه النسبة، وكتاب العجالة في النسب وكتابما اتفق لفظه وافترق مسماه في الأماكن والبلدان المشتبهة في الخط، وكتابسلسلة الذهب فيما روى الإمام أحمد بن حنبل عن الإمام الشافعي رضي الله عنهما، وشروط الأئمة وغير ذلك من الكتب النافعة.

واستوطن بغداد، وسكن بالجانب الشرقي. ولم يزل مواظب الاشتغال ملازم الخير إلى أن اخترمته المنية وغصن شبابه نضير، وذلك في ليلة الاثنين الثامن والعشرين من جمادى الأولى سنة أربع وثمانين وخمسمائة، بمدينة بغداد. ودفن في المقبرة الشونيزية إلى جانب سمنون بن حمزة مقابل قبر الجنيد، رضي الله عنه، بعد أن صلى عليه خلق كثير برحبة جامع القصر. وحمل إلى الجانب الغربي، فصلي عليه مرة أخرى، وفرق كتبه على أصحاب الحديث. وكانت ولادته في سنة ثمان – أوتسع –وأربعين وخمسمائة، بطريق همذان، وحمل إليها ونشأ بها، رحمه الله تعالى.

والحازميك بفتح الحاء المهملة وبعد الألف زاي مكسورة وبعدها ميم، هذه النسبة إلى جده حازم المذكور.

الحافظ أبو بكر ابن العربي

أبو بكر محمد بن عبد الله بن أحمد، المعوف بابن العربي المعافري الأندلسي الإشبيلي الحافظ المشهور؛ ذكره ابن بشكوال في كتاب الصلة فقال: هو الحافظ المستبحر، ختام علماء الأندلس وآخر أئمتها وحفاظها، لقيته بمدينة إشبيلية ضحوة يوم الاثنين لليلتين خلتا من جمادى الآخرة سنة ست عشرة وخمسمائة فأخبرني أنه رحل إلى المشرق مع أبيه يوم الأحد مستهل شهر ربيع الأول سنة خمس وثمانين وأربعمائة وأنه دخل الشام ولقي بها أبا بكر محمد بن الوليد الطرطوشي وتفقه عنده، ودخل بغداد وسمع بها من جماعة من أعيان مشايخها، ثم دخل الحجاز فحج في موسم سنة تسع وثمانين، ثم عاد إلى بغداد وصحب بها أبا بكر الشاشي وأبا حامد الغزالي وغيرهما من العلماء والأدباء، ثم صدر عنهم، ولقي بمصر والأسكندرية جماعة من المحدثين فكتب عنهم واستفاد منهم وأفادهم، ثم عاد إلى الأندلس سنة ثلاث وتسعين، وقدم إلى إشبيلية بعلم كثير لم يدخله أحد قبله ممن كانت له رحلة إلى المشرق. وكان من أهل التفنن في العلوم والاسبحار فيها والجمع لها مقدما في المعارف كلها متكلما في أنواعها نافذا في جميعها، حريصا على أدائها ونشرها،ثاقب الذهن في تمييز الصواب منها، ويجمع إلى ذلك كله آداب الأخلاق مع حسن المعاشرة ولين الكنف وكثرة الاحتمال وكرم النفس وحسن العهد وثبات الود. واستقضي ببلدة فنفع الله به أهلها لصرامته وشدته ونفوذ أحكامه، وكانت له في الظالمين سورة مرهوبة، ثم صرف عن القضاء، واقبل على نشر العلم وبثه.وسألته عن مولده فقال: ولدت ليلة الخميس لثمان بقين من شعبان سنة ثمان وستين وأربعمائة. وتوفي بالعدوة ودفن بمدينة فاس في شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة، رحمه الله تعالىانتهى كلام ان بشكوال.

قلت أنا: وهذا الحافظ له مصنفات: منها كتابعارضة الأحوذي في شرح الترمذي وغيره من الكتب، وكانت ولادته بإشبيلية، وقيل إن ولادته كانت سنة تسع وستين، وقيل إن وفاته كانت في جمادى الأولى على مرحلة من فاس عند رجوعه من مراكش، ونقل إلى فاس، ودفن بمقبرة الجياني.

وتوفي والده بمصر منصرفا عن المشرق في السفرة التي كان ولده المذكور في صحبته، وذلك في المحرم سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة، ومولده سنة خمس وثلاثين وأربعمائة، وكان من أهل الآداب الواسعة والبراعة والكتابة، رحمه الله تعالى. وقد تقدم الكلام على المعافري والإشبيلي.

ومعنىعارضة الاحوذي فالعارضة: القدرة على الكلام، يقال: فلان شديد العارضة إذا كان ذا قدرة على الكلام، والأحوذي: الخفيف في الشيء لحذقه، وقال الأصمعي: الأحوذي المشمر في الأمور القاهر لها الذي لايشذ عليه منها شيء، وهو بفتح الهمزة وسكون الحاء المهملة وفتح الواو وكسر الذال المعجمة وفي آخره ياء مشددة.

النقاش المفسر

أبو بكر محمد بن الحسن بن محمد بن زياد بن هارون بن جعفر بن سند المقرئ، المعروف بالنقاش، الموصلي الاصل البغدادي المولد والمنشأ؛ كان عالما بالقرآن والتفسير، وصنف في التفسير كتابا، سماه شفاء الصدور وصنف غيره فمن ذلك الإشارةفي غريب القرآن، والموضح في القرآن ومعانيه وصد العقل، والمناسك، وفهم المناسك، وأخبار القصاص،وذم الحسد، ودلائل النبوة، والأبواب في القرآن، وإرم ذات العماد، والمعجم الأوسط، والمعجم الأصغر، والمعجم الكبير في أسماء القراء وقراءاقم، وكتاب السبعة بعللها الكبير، وكتاب السبعة الأوسط، وكتاب السبعة الأصغر.

وسافر الكثير شرقا وغربا، وسمع بالكوفة والبصرة ومكة ومصر والشام والجزيرة والموصل والجبال وخراسان وماوراء النهر. وفي حديثه مناكير بأسانيد مشهورة، وذكر النقاش عند طلحة بن محمد بن جعفر، فقال: كان يكذب في الحديث، والغالب عليه القصص، وروى عن جماعة من العلماء ورووا عنه، وقال البرقاني: كل حديث النقاش مناكير، وليس في تفسيره حديث صحيح.

وكانت ولادته سنة ست، وقيل خمس، وستين ومائتين. وتوفي يوم الثلاثاء ودفن يوم الأربعاء، لثلاث خلون من شوال سنة إحدى وخمسين وثلثمائة، رحمه الله تعالى،ويقال توفي سنة خمسين، وقيل اثنتين وخمسين وثلثمائة، والله أعلم.

والنقاش: بفتح النون والقاف المشددة وبعد الألف شين معجمة، هذه النسبة إلى من ينقش السقوف والحيطان وغيرهما، وكان أبو بكر المذكور في مبدأ أكره يتعاطى هذه الصنعة فعرف بها.

ابن شنبوذ المقرئ

أبو الحسن محمد بن أحمد بن أيوب بن الصلت بن شنبوذ المقرئ البغدادي؛ كان من مشاهير القراء وأعيانهم، وكان دينا، وفيه سلامة صدر وفيه حمق، وقيل إنه كان كثير اللحن قليل العلم، وتفرد بقراءات من الشواذ كان يقرأ بها في المحراب فأنكرت عليه، وبلغ ذلك الوزير أباعلي محمد بن مقلة الكاتب المشهور، وقيل له: إنه يغير حروفا من القرآن ويقرأ بخلاف ما أنزل، فاستحضره في أول شهر بيع الآخر سنة ثلاث وعشرين وثلثمائة، واعتقله في داره أياما، فلما كان يوم الأحد لسبع خلون من الشهر المذكور، استحضر الوزير المذكور القاضي أبا الحسين عمر بن محمد وأبا بكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد المقرئ وجماعة من أهل القرآن، وأحضر ابن شنبوذ المذكور، ونوظر بحضرة الوزير، فأغلظ في الخطاب للوزير والقاضي وأبي بكر ابن مجاهد ونسبهم إلى قلة المعرفة وعيرهم بأنهم ما سافروا في طلب العلم كما سافر، واستصبى القاضي أبا الحسين المذكور، فأمر الوزير أبو علي بضربه، فأقيم وضرب سبع درر،فدعا وهو يضرب على الوزير ابن مقلة بأن يقطع الله يده ويشتت شمله، فكان الأمر كذلك – كما سيأتي في خبر ابن مقلة إن شاء الله تعالى – ثم أوقفوه على الحروف التي قيل إنه يقرأ بها، فأنكر ما كان شنيعا، وقال فيما سواه: إنه قرأ به قوم، فاستتابوه فتاب، وقال إنه قد رجع عما كان يقرؤه، وإنه لايقرأ إلا بمصحف عثمان بن عفان، رضي الله عنه، وبالقراءة المتعارفة التي يقرأ بها الناس.

فكتب عليه الوزير محضرا بما قاله، وأمره أن يكتب خطه في آخره، فكتب مايدل على توبته؛ ونسخه المحضر: سئل محمد بن أحمد المعروف بابن شنبوذ عما حكي عنه أنه يقرؤه، وهو "إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فامضوا إلى ذكر الله" فاعترف به، وعن"وتجعلون شكركم أنكم تكذبون" فاعترف

به، وعن "تبت يدا أبي لهب وقد تب" فاعترف به، وعن "كالصوف المنفوش" فاعترف به، وعن "فاليوم ننجيك ببدنك" فاعترف به، "وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبا" فاعترف به، وعن "فلما خر تبينت الإنس أن الجن لوكانوا يعلمون الغيب ما لبثوا حولا في العذاب المهين" فاعترف به، وعن "والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى والذكر والأنثى" فاعترف به، وعن "فقد كذب الكافرون فسوف يكون لزاما" فاعترف به، وعن"ولتكن منك فئة يدعون إلى الخير ويامرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويستعينون الله على ما أصابهم أولئك هم المفلحون" فاعترف به، وعن "إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد عريض" فاعترف به، وكتب الشهود الحاضرون شهاداتهم في المحضر حسبما سمعوه من لفظه.

وكتب ابن شنبوذ بخطه ما صورته: يقول محمد بن أحمد بن أيوب المعروف بابن شنبوذ: مافي هذه الرقعة صحيح، وهوقولي واعتقادي، وأشهد الله عز وجل وسائر من حضر على نفسي بذلك؛ وكتب بخطه: فمتى خالفت ذلك أو بان مني غيره، فأمير المؤمنين في حل من دمي وسعة، وذلك يوم الأحد لسبع خلون من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وعشرين وثلثمائة في مجلس الوزير أبي علي محمد بن علي بن مقلة أدام الله توفيقه.

وكلم أبو أيوب السمسار الوزير أبا علي في أمره وسأله في إطلاقه، وعرفه أنه إن صار إلى منزله قتله العامة، وسأله أن ينفذه في الليل سرا إلى المدائن ليقيم بها أياما، ثم يدخل إلى منزله ببغداد مستخفيا، ولايظهر بها أياما، فأجابه الوزير إلى ذلك، وأنقذه إلى المدائن؛ وتوفي يوم الاثنين لثلاث خلون من صفر سنة ثمان وعشرين وثلثمائة ببغداد، وقيل إنه توفي في محبسه بدار السلطان، رحمه الله تعالى.

وتوفي أبو بكر ابن مجاهد المذكور يوم الأربعاء لإحدى عشرة ليلة بقيت من شعبان سنة أربع وعشرين وثلثمائة، ودفن في تربة له بسوق العطش، وكان مولده سنة خمس وأربعين ومائتين، رحمه الله تعالى.

وشنبوذ:بفتح الشين المعجمة والنون وضم الباء الموحدة وسكون الواو وبعدها ذال معجمة.

ابن السماك

أبو العباس محمد بن صبيح المذكر مولى بني عجل، المعروف بابن السماك القاص الكوفي الزاهد المشهور؛ كان زاهداً عابداً حسن الكلام صاحب مواعظ، جمع كلامه وحفظ،ولقي جماعة من الصدر الأول وأخذ عنهم: مثل هشام بن عروة والأعمش وغيرهما.وروى عنه أحمد بن أحمد بن حنبل وأنظاره؛وهو كوفي قدم بغداد زمن هارون الرشيد فمكث بها مدة، ثم رجع إلى الكوفة فمات بها.ومن كلامه: خف الله كأنك لم تطعه، وارج الله كأنك لم تعصه.

وكان هارون الرشيد قد حلف أنه من أهل الجنة، فاستفتى العلماء فلم يفته أحد بأنه من أهلها فقيل له عن ابن السماك المذكور، فاستحضره وسأله، فقال له هل قدر أمير المؤمنين على معصية فتركها خوفا من الله تعالى؟ فقال: نعم، كان لبعض ألزمي جارية فهويتها فتركها خوفا من الله تعالى؟ فقال: نعم، كان لبعض ألزمي جارية فهويتها وأنا إذ ذاك شاب، ثم إني ظفرت بها مرة، وعزمت على ارتكاب الفاحشة معها، ثم إني فكرت في النار وهولها وأن الزنا من الكبائر، فأشفقت من ذلك، وكففت عن الجارية مخافة من الله تعالى، فقال له ابن السماك: أبشر ياأمير المؤمنين فإنك من أهل الجنة، فقال هارون:ومن أين لك هذا؟ فقال: من قوله تعالى "وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى" – النازعات:40 – فسر هارون بذلك.

ودخل على بعض الرؤساء يشفع إليه فقال له: إني أتيتك في حاجة، وإن الطالب والمطلوب منه عزيزان إن قضيت الحاجة، ذليلان إن لم تقضها، فاختر لنفسك عز البذل على ذل المنع، واختر لي عز النجح على ذل الرد؛ فقضى حاجته. ومن كلامه: من جرعته الدنيا حلاوتها بميلة إليها جرعته الآخرة مرارتها بتجافيها عنه. وتكلم يوما وجاريته تسمع كلامه، فقال لها: كيف سمعت كلامي؟ فقالت هو حسن، لولا أنك تردده، فقال: أردده كي يفهمه من لم يفهمه، فقالت: إلى أن يفهمه من لم يفهمه يمله من فهمه.وأخباره ومواعظه كثيرة.

وتوفي سنة ثلاث وثمانين ومائة بالكوفة، رحمه الله تعالى.

والسماك:بفتح السين المهملة والميم المشددة وبعد الألف كاف، هذه النسبة إلى بيع السمك وصيده.

أبو طالب المكي

أبو طالب محمد بن علي بن عطية، الحارثي المكي صاحب كتابقوت القلوب؛ كان رجلا صالحا مجتهدا في العبادة، ويتكلم في الجامع، وله مصنفات في التوحيد، و لم يكن من أهل مكة، وإنما كان من أهل الجبل وسكن مكة فنسب إليها، وكان يستعمل الرياضة كثيرا حتى قيل غنه هجر الطعام زمانا واقتصر على أكل الحشائش المباحة فاخضر جلده من كثرة تناولها.

ولقي جماعة من المشايخ في الحديث وعلم الطريقة وأخذ عنهم، ودخل البصرة بعد وفاة أبي الحسن ابن سالم فانتمى إلى مقالته، ودخل البصرة بعد وفاة أبي الحسن ابن سالم فانتمى إلى مقالته، وقدم بغداد فوعظ الناس فخلط في كلامه فتركوه وهجروه. وقال محمد بن طاهر المقدسي في كتاب الأنساب:إن أبا طالب المكي المذكور لما دخل بغداد واجتمع الناس عليه في مجلس الوعظ خلط في كلامه، وحفظ عنه أنه قال:ليس على المخلوقين أضر من الخالق، فبدعه الناسوهجروه، وامتنع من الكلام بعد ذلك؛ وله كتب في التوحيد. وتوفي لست خلون من جمادى الآخرة سنة ست وثمانين وثلثمائة ببغداد، ودفن بمقبرة المالكية، وقبره بالجانب الشرقي، وهو مشهور هناك يزار، رحمه الله تعالى.

والحارثي: بفتح الحاء المهملة وبعد الألف راء مكسورة ثم ثاء مثلثة، هذه النسبة إلى عدة قبائل منها الحارث ومنها الحارثة ولا أدري أيها ينسب أبو طالب المذكور من هذه القبائل.

والمكي: نسبة إلى مكة، حرسها الله تعالى.

ابن سمعون الواعظ

أبو الحسين محمد بن أحمد بن إسماعيل بن عنبس بن إسماعيل الواعظ البغدادي، المعروف بابن سمعون؛كان وحيد دهره في الكلام على الخواطر وحسن الوعظ وحلاوة الإشارة ولطف العبارة. أدرك جماعة من جلة المشايخ وروى عنهم: منهم الشيخ أبو بكر الشبلي، رحمه الله تعالى وأنظاره. ومن كلامه ما رواه الصاحب أبو القاسم إسماعيل بن عباد – المقدم ذكره–قال:سمعت ابن سمعون يوما، وهو على الكرسي في مجلس وعظه يقول: سبحان من أنطق باللحم، وبصر بالشحم، وأسمع بالعظم، إشارة إلى اللسان والعين والأذن، وهذه من لطائف الإشارات.ومن كلامه أيضا: رأيت المعاصي نذالة، فتركتهامروءة فاستحال ديانة؛ وله كل معنى لطيف.

وكان لأهل العراق فيه اعتقاد كثير، ولهم به غرام شديد، وإياه عني الحريري صاحب المقامات في المقامة الحادية والعشرين وهي الرازية بقوله في أوائلها:رأيت بها ذات بكرة، زمرة أثر زمرة، وهم منتشرون انتشار الجراد، ومستنون استنان الجياد، ومتواصفون واعظا يقصدونه، ويحلون ابن سمعون دونه، و لم يأت بعده في الوعاظ مثله.

وتوفي في ذي الحجة سنة سبع وثمانين وثلثمائة، وقيل بل توفي يوم الجمعة منتصف ذي القعدة من السنة المذكورة ببغداد، ودفن في داره بدرب العتابين، ثم نقل يوم الخميس حادي عشر رجب سنة ست وعشرين وأربعمائة، ودفن بباب حرب، وقيل إن أكفانه لم تكن بليت بعد، رحمه الله تعالى.

وسمعون:بفتح السين المهملة وسكون الميم وضم العين المهملة وسكون الواو وبعدها نون، قيل إن جده اسماعيل غير اسمه فقيل سمعون.

وعنبس:بفتح العين المهملة وسكون النون وفتح الباء الموحدة وبعدها سين مهملة، وهو في الأصل اسم الأسد وبه سمي الرجل وهو فنعل من العبوس، والنون زائدة.

الشيخ أبو عبد الله القرشي

أبو عبد الله بن أحمد بن إبراهيم القرشي الهاشمي العبد الزاهد الصالح من أهل الجزيرة الخضراء؛ كانت له كرامات ظاهرة، ورأيت أهل مصر يحكن عنه أشياء خارقة، ورأيت جماعة ممن صحبه،وكل منهم قد نما عليه من بركته، وذكروا عنه أنه وعد جماعته الذين صحبوه مواعيد من الولايات والمناصب العلية، وذكروا عنه أنه وعد جماعته الذين صحبوه مواعيد من الولايات والمناصب العلية، وأنها صحت كلها، وكان من السادات الأكابر، والطراز الأول، وهو مغربي، وصحب بالمغرب أعلام الزهاد وانتفع بهم، فلما وصل إلى مصر انتفع به من صحبته أو شاهده. ثم سافر إلى الشام قاصدا زيارة البيت المقدس فأقام به إلى أن مات في السادس من ذي الحجة سنة تسع وتسعين وخمسمائة،وصلي عليه بالمسجد الأقصى، وهو ابن خمس وخمسين

سنة، رحمه الله تعالى.وقبره ظاهر يقصد للزيارة والتبرك به.

والجزيرة الخضراء في بر الأندلس: مدينة قبالة سبتة من بر العدوة.

ومن جملة وصايا لأصحابه: سيروا إلى الله تعالى عرجا ومكاسير فإن انتظار الصحة بطالة.

ابن الأعرابي

أبو عبد الله محمد بن زياد، المعروف بابن الأعرابي الكوفي صاحب اللغة؛ وهو من موالي بني هاشم، فإنه مولى العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، رضي الله عنه، وكان أبوه زياد عبدا سنديا، وقيل إنه من موالي بني شيبان، وقيل غير ذلك، والأول أصح، وكان أحول، راوية لأشعار القبائل ناسبا، وكان أحد العالمين باللغة المشهورين بمعرفتها، يقال لم يكن في الكوفيين أشبه برواية البصريين منه، وهو ربيب المفضل بن محمد الضبي صاحب المفضلياتكانت امه تحته. وأخذ الأدب عن أبي معاوية الضرير والمفضل الضبي والقاسم بن معن ابن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود الذي ولاه المهدي القضاء، والكسائي، وأخذ عنه إبراهيم الحربي وأبو العباس ثعلب وابن السكيت وغيرهم. وناقش العلماء واستدرك عليهم وخطأ كثيرا من نقلة اللغة، وكان رأسا في كلام العرب، وكان يزعم أن أبا عبيدة والأصمعي لايحسنان شيئا، وكان يقول: جائز في كلام العرب ان يعاقبوا بين الضاد والظاء، فلا يخطئ من يجعل هذه في موضع هذه، وينشد:

إلى الله أشكو من خليل أوده ... ثلاث خلال كلها لي غائض

بالضاد، ويقول: هكذا سمعته من فصحاء العرب.

وكان يحضر مجلسه خلق كثير من المستفيدين ويملي عليهم؛ قال أبو العباس ثعلب: شاهدت مجلس ابن الأعرابي، وكان يحضره زهاء مائة إنسان، وكان يسأل ويقرأ عليه فيجيب من غير كتاب، ولزمته بضع عشرة سنة ما رأيت بيده كتابا قط، ولقد أملى على الناس مايحمل على أجمال، و لم ير أحد في علم الشعر أغزر منه. ورأى في مجلسه رجلين يتحادثان، فقال لأحدهما: من أين أنت؟ فقال: من إسبيجاب، وقال للآخر:من أين أنت؟ فقال: من الأندلس، فعجب من ذلك وأنشد:

رفيقان شتى ألف الدهر بيننا ... وقد يلتقي الشتى فيأتلفان

ثم أملى على من حضر مجلسه بقية الأبيات وهي:

نزلنا على قيسية يمينية ... لها نسب في الصالحين هجان

فقالت وأرخت جانب الستر بيننا ... لأية أرض أم من الرجلان

فقلت لها: أما رفيقي فقومه ... تميم، وأما أسرتي فيماني

رفيقان شتى ألف الدهر بيننا ... وقد يلتقي الشتى فيأتلفان

ومن أماليه ما رواه أبو العباس ثعلب قال: أنشدنا ابن الأعرابي محمد بن زياد المذكور:

سقىالله حيا دون بطنان دارهم ... وبورك في مرد هناك وشيب

وإني وإياهم على بعد دارهم ... كخمربماء في الزجاج مشوب

ومن تصانيفه كتاب النوادر وهو كبير، وكتاب الأنواء وكتاب صفة النخل وكتاب صفة الزرع وكتاب النبات وكتاب الخيل وكتاب تاريخ القبائل وكتاب معاني الشعر وكتاب تفسير الأمثال وكتاب الألفاظ وكتاب نسب الخيل وكتاب نوادر الزبيريين وكتاب نوادر بني فقعس وكتاب الذباب وغير ذلك، وأخباره ونوادره وأماليه كثيرة.

وقال ثعلب: سمعت ابن الأعرابي يقول: ولدت في الليلة التي مات فيها الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه، وذلك في رجب سنة خمسين ومائة على الصحيح.

وتوفي لأربع عشرة ليلة خلت من شعبان وقال الطبري في تاريخه: توفي يوم الأربعاء ثالث عشر الشهر المذكور سنة إحدى وثلاثين ومائتين بسر من رأى، وقيل سنة ثلاثين ومائتين، والأول أصح، وصلى عليه القاضي أحمد بن أبي داود الإيادي-المقدم ذكره.

والأعرابي: بفتح الهمزة وسكون العين المهملة وفتح الراء وبعد الألف باء موحدة، هذه النسبة إلى الأعراب، قال أبو بكر بن عزيز السجستاني المعروف بالعزيزي في كتابه الذي فسر فيه غريب القرآن الكريم: يقال رجل أعجم وأعجمي أيضا إذا كان في لسانه عجمة، وإن كان من العرب ورجل عجمي منسوب إلى العجم وإن كان فصيحا، ورجل أعرابي إذا كان بدويا وإن لم يكن من العرب، ورجل أعرابي إذا كان بدويا وإن لم يكن من العرب، ورجل عربي منسوب إلى العرب وإن لم يكن بدويا.

وإسبيجاب: بكسر الهمزة وسكون السين المهملة وكسر الباء الموحدة وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح الجيم وبعد الألف باء موحدة، وهي مدينة من اقصى بلاد الشرق، وأظنها من إقليم الصين أو قريبة منه.

وبطنان: بضم الباء الموحدة وسكون الطاء المهملة وبين النونين ألف، وهو جمع بطن، وهو الغامض من الأرض.

الكلبي

أبو النضر محمد بن السائب بن بشر، وقيل مبشر، بن عمرو الكلبي وقال محمد بن سعد: هو محمد بن السائب الكلبي بن بشر بن عمرو بن الحارث بن عبد الحارث بن عبد العزى بن امرئ القيس بن عامر بن النعمان بن عامر ابن عبدون بن كنانة بن عوف بن عذرة بن زيد بن عبد اللات بن رفيدة بن ثور بن كلب، ثم كشفت كتاب النسب لهشام بن الكلبي فساق نسبهم على هذه الصورة إلا أنه أسقط منه عبد الحارث فقط، والباقي صحيح الكوفي، صاحب التفسير وعلم النسب؛ كان أماما في هذين العلمين.حكى ولده هشام عنه قال: دخلت على ضرار بن عطارد بن حاجب بن زرارة التميمي بالكوفة، وإذا عنده رجل كأنه جرذ يتمرغ في الحر، وهو الفرزدق الشاعر، فغمزني ضرار وقال: سله ممن أنت، فسألته فقال: إن كنت نسابا فانسبني، فإني من بني تميم، فابتدأت أنسب تميما حتى بلغت إلى غالب، وهو والد الفرزدق، فقلت: وولد غالب هماما - وهو اسم الفرزدق، كما سيأتي ترجمته في حرف الهاء إن شاء الله تعالى - فاستوى الفرزدق جالسا وقال: والله ماسماني به أبواي ولاساعة من النهار، فقلت: والله إني لأعرف اليوم الذي سماك فيه أبوك الفرزدق، فقال: وأي يوم؟ فقلت: بعثك في حاجة فخرجت تمشي وعليك مستقة، فقال: والله لكأنك فرزدق، دهقان قرية قد سماها بالجبل، فقال: صدقت والله، ثم قال: أتروي شيئا من شعري؟ فقلت: لا، ولكن أروي لجرير مائة قصيدة، فقال: تروي لابن المراوغة ولاتروي لي؟والله لآهجون كلبا سنة أو تروي لي كما رويت لجرير، فجعلت أختلف إليه أقرأعليه النقائض خوفا منه،وما لي في شيء منها حاجة.

قلت: المستقة، بضم الميم وسكون السين المهملة وضم التاء المثناة من فوقها وهي الفروة الطويلة الكم،والجمع مساتق وفيها لغة أخرى بفتح التاء، وروي عن عمر رضي الله عنه، انه كان يصلي وعليه مستقة من سندس وروي عن أنس بن مالك أن ملك الروم أهدى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، مستقة من سندس فلبسها فكأني أنظر إلى يديه قد بدتا، ثم بعث بها إلى جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال: ابعث بهاإلى أخيك النجاشي، وقال النضر بن شميل: المستقة: الجبة الوسعة.

وكان الكلبي المذكور من أصحاب عبد بن سبأالذي يقول إن علي بن أبي طالب رضي الله عنه لم يمت وإنه راجع إلى الدنيا. وروى عنه سفيان الثوري ومحمد بن إسحاق، وكانا يقولان: حدثنا أبو النضر حتى لايعرف؛ وشهد الكلبي المذكور دير الجماجم مع عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندي،وشهد جده بشر وبنوه السائب وعبيد وعبد الرحمن وقعة الجمل وصفين مع علي ابن أبي طالب رضي الله عنه، وقتل السائب مع مصعب بن الزبير، وفيه يقول ابن ورقاء النخعي:

فمن مبلغ عني عبيدا بأنني　　　علوت أخاه بالحسام المهند

فإن كنت تبغي العلم عنه فإنه مقيم لدى الديرين غير موسد

وعمدا علوت الرأس منه بصارم فأثكلته سفيان بعد محمد

سفيان ومحمد ابنا السائب.

وذكر هشام بن الكلبي المذكور في كتابجمهرة النسب أن جدهم عبد العزى كان جميلا شريفا، وقد وفد على بعض بني جفنة بأفراس فقبلها وأعجبه حديثه، وكان يسامره، فقتلت بنو كنانة ابنا له، فقال لعبد العزى: ائتني بهم فقال: إنهم قوم احرار ليس لي عليهم فضل، وكتب إلى قومه ينذرهم، فقال في شعر له طويل:

جزاني جزاه الله شر جزائه جزاء سنمار وما كان ذا ذنب

وسنمار هو الذي بنى الخورنق على باب الحيرة للنعمان الأكبر ابن امرئ القيس ملك الحيرة فألقاه من أعلاه فقتله، وقصته طويلة مشهورة فلا حاجة إلى ذكرها.

وتوفي محمد الكلبي المذكور سنة ست وربعين ومائة بالكوفة، رحمه الله تعالى.-وسيأتي ذكر ولده أبي المنذر هشام النسابة في حرف الهاء، إن شاء الله تعالى-والكلبي بن وبرة، وهي قبيلة وسكون اللام وبعدها باء موحدة، هذه النسبة إلى كلب بن وبرة، وهي قبيلة كبيرة من قضاعة، ينسب إليها خلق كثير. والمستقة: لفظة فارسية معربة.

قطرب

أبو علي محمد بن المستنير بن أحمد النحوي اللغوي البصري، مولى سالم بن زيادة، المعروف بقطرب؛ أخذ الأدب عن سيبويه وعن جماعة من العلماء البصريين، وكان حريصا على الاشتغال والتعلم، وكان يبكر إلى سيبويه قبل حضور أحد من التلامذة، فقال له يوما: ما أنت إلا قطرب ليل، فبقي عليه هذا اللقب، وقطرب: اسم دويبة لا تزال تدب ولا تفتر، وهو بضم القاف وسكون الطاء المهملة وضم الراء وبعدها باء موحدة.

وكان من أئمة عصره؛ وله من التصانيف كتاب معاني القرآن وكتاب الاشتقاق وكتاب القوافي وكتاب النوادر وكتاب الأزمنة وكتاب الفرق وكتاب الأصوات وكتاب الصفات وكتاب العلل في النحو وكتاب الأضداد وكتاب خلق الفرس وكتاب خلق الإنسان وكتاب غريب الحديث وكتاب الهمز وفعل وأفعل والرد على الملحدين في تشابه القرآن وغير ذلك.

وهو أول من وضع المثلث في اللغة، وكتابه وإن كان صغيرا لكن له فضيلة السبق، وبه اقتدى أبو محمد عبد اله بن السيد البطليوسي – المقدم ذكره– وكتابه كبير،ورأيت مثلثاآخر لشخص آخر تبريزي، وليس هو الخطيب أبو زكريا التبريزي – الآتي ذكره إن شاء الله تعالى – بل غيره، ولا أستحضر الآن اسمه، وهو كبير أيضا واأقصر فيه، وما نهج لهم الطريق إلا قطرب المذكور. وكان قطرب معلم أولاد أبي دلف العجلي – المقدم ذكره – وروى له ابن المنجم في كتاب البارع بيتين وهما:

إن كنت لست معي فالذكر منك معي يراك قلبي وإن غيبت عن بصري

والعين تبصر من تهوى وتفقده وباطن القلب لا يخلو من النظر

هذان البيتان مشهوران ولاأعلم أنهما إلا من هذا الكتاب.

وتوفي سنة ست ومائتين، رحمه الله تعالى؛ ويقال إن اسمه محمد، وقيل الحسن بن محمد، والأول أصح، والله أعلم بالصواب.

والمستنير: بضم الميم وسكون السين المهملة وفتح التاء المثناة من فوقها وكسر النون وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها راء.

المبرد

أبو العبلس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر بن عمير بن حسان بن سليمان بن سعد بن عبد الله بن زيد بن مالك بن الحارث بن عامر بن عبد الله بن بلال بن عوف بن أسلم، وهو ثمالة، بن أحجن بن كعب بن الحارث بن كعب ابن عبد الله بن مالك بن النضر بن الأسد بن الغوث، وقال ابن الكلبي: عوف بن أسلم هو ثمالة والأسد هو الأزد، الثمالي الأزدي البصري المعروف بالمبرد النحوي؛نزل بغداد، وكان إماما في النحو واللغة، وله التواليف النافعة في الأدب: منها كتاب الكامل وكتاب الروضة وطالمقتضب وغير ذلك. أخذ الأدب عن أبي عثمان المازني وأبي حاتم السجستاني – وقد تقدم ذكرهما–وأخذ عنه نفطويه – وقد تقدم ذكره –وغيره من الأئمة.

وكان المبرد المذكور وأبو العباس أحمد بن يحيى الملقب بثعلب صاحب كتاب الفصيح عالمين متعاصرين قد ختم بهما تاريخ الأدباء، وفيهما يقول بعض أهل عصرهما من جملة أبيات وهو أبو بكر ابن أبي الأزهر:

أيا طالب العلم لاتجهلن وعذ بالمبرد او ثعلب

تجد عند هذين علم الورى فلاتك كالجمل الأجرب

علوم الخلائق مقرونة بهذين في الشرق والمغرب

وكان المبرد يحب الاجتماع في المناظرة بثعلب والاستكثار منه، وكان ثعلب يكره ذلك ويمتنع منه، وحكى أبو القاسم جعفر بن محمد بن حمدان الفقيه الموصلي وكان صديقهما، قال: لأبي عبد الله الدينوري ختن ثعلب: لم يأبى ثعلب الاجتماع بالمبرد؟ فقال: لأن المبرد حسن العبارة حلو الإشارة فصيح اللسان ظاهر البيان، وثعلب مذهبهمذهب المعلمين، فإذا اجتمعا في محفل حكم للمبرد على الظاهر إلى أن يعرف الباطن.

وكان المبرد كثير الأمالي حسن النوادر، فمما أملاه أن المنصور أبا حعفر ولى رجلا على العميان والأيتام والقواعد من النساء اللواتي لا أزواج لهن، فدخل على هذا المتولي بعض المتخلفين ومعه ولده، فقال له: إن رأيت أصلحك الله أن تثبت اسمي مع القواعد، فقال له المتولي: القواعد نساء فكيف أثبتك فيهن؟فقال ففي العميان؟ فقال:أما هذا فنعم، فإن الله تعالى يقول "فإنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور" – الحج:46 – فقال: وتثبت ولدي في الأيتام،فقال: وهذا أفعله أيضا، فإنه من تكن أنت أباه فهو يتيم، فانصرف عنه وقد أثبته في العميان وولده في الأيتام. وطلب بعض الأكابر من المبرد معلما لولده، فبعث شخصا وكتب معه: قد بعثت به وأنا اتمثل فيه:

إذا زرت الملوك فإن حسبي شفيعا عندهم أن يخبروني

ومعنى هذا البيت مأخوذ من كلام أحمد بن يوسف كاتب المأمون وقد أهدى إليه ثوب وشي في يوم نيروز:قد أهديت إلى أمير المؤمنين ثوب وشي يصف نفسه، والسلام.

وحكى عنه أبو بكر ابن أبي الأزهر بشيء طريف في هذا قال: حدثني محمد بن يزيد قال: قال لي المازني ياأبا العباس بلغني أنك تنصرف من مجلسنا فتصير إلى مواضع المجانين والمعالجين فما معناك في ذاك؟ قال: فقلت له: ان لهم أعزك الله طرائف من الكلام وعجائب من الأقسام،فقال: حدثني بأعجب ما رأيته منهم، فقلت: دخلت يوما إلى مستقرهم مع ابن أبي خميصة، وكان المتقلد عليهم النفقة والمتقلد أحوالهم، فرأيت مراتبهم على مقدار بليتهم، فمررت على شيخ منهم تلوح صلعته وتبرق بالدهن جبهته، وهو جالس على حصير نظيف ووجهه إلى القبلة كأنه يريد الصلاة، فجاوزته إلى غيره، فناداني: سبحان الله، اين السلام؟ من أولى به أنا أو أنت؟ فاستحسنت منه وقلت: السلام عليكم، فقال: لو كنت ابتدأت لأوجبت علينا حسن الرد عليك، على أننا نصرف سوء أدبك لأحسن جهاته من العذر، لأنه كان يقال إن للقادم دهشة،اجلس أعزك الله عندنا، وأومأ إلى موضع من حصيرة ينفضه كأنه يوسعه لي، فعزمت على الدنو، فناداني ابن أبي خميصة: إياك إياك، فأحجمت عن ذلك ووقفت ناحية استجلب مخاطبته وأرصد الفائدة منه؛ ثم قال لي وقد رأى معي محبرة: ياهذا أرى معك آلة رجلين أرجو ألا تكون أحدهما: أتجالس أصحاب الحديث الأغثات أم الأدباء من أصحاب النحو والشعر؟ قلت: الأدباء، قال: أتعرف أبا عثمان المازني؟ قلت: نعم أعرفه معرفة تامة، قال: أفتعرف الذي يقول فيه:

وفتى من مازن ساد أهل البصرة

أمه معروفة وأبوه نكره

قلت لأعرفه؛ قال: أفتعرف غلاما له قد نبغ في هذا العصر، معه ذهن وله حفظ وقد برز في النحو وجلس مجلس صاحبه وشاركه فيه يعرف بالمبرد؟ فقلت: أنا والله عين الخبير به، قال: فهل أنشدك شيئا من غثيثات أشعاره؟ قلت: لأحسبه يحسن قول الشعر، قال: ياسبحان الله، أليس الذي يقول:

حبذا ماء العناقي د بريق الغانيات

بهما ينبت لحمي ودمي أي نبات

أيها الطالب أشهى من لذيذ الشهوات

كل بماء المزن تفا ح خدود الناعمات

قلت: قد سمعته ينشدها في مجلس الأنس، قال: ياسبحان الله اويستحب أن ينشد مثل هذا حول الكعبة؟ ماتسمع الناس يقولون في نسبه؟ قلت يقولون إنه من الأزد، أزد شنوءة، ثم من ثمالة، قال: قاتله الله ما أبعد غوره! أتعرف قوله:

سألنا عن ثمالة كل حي فقال القائلون ومن ثمالة

فقلت: محمد بن يزيد منهم فقالوا زدتنا بهم جهالة

فقال لي المبرد خل قومي فقومي معشر فيهم نذالة

فقلت: أعرف هذه الأبيات لعبد الصمد بن المعذل يقولها فيه؛ قال:كذب من ادعاها غيره، هذا كلام رجل لانسب له يريد أن يثبت بهذا الشعر نسبا له.قلت:أنت أعلمن قال: ياهذا قد غلبت بخفة روحك على قلبي وتمكنت من إنصاتك من استحساني، وقد أخرت ماكان يجب أن أقدمه، الكنية أصلحك الله،فقلت: أبو العباس، قال: فالاسم؟قلت: محمد،قال:فالأب؟قلت:يزيد، قال:قبحك الله، أحوجتني إلى الاعتذار إليك مما قدمت ذكره؛ ثم وثب باسطا كفه لمصافحتي، فرأيت القيد في رجله قد شد إلى خشبة في الأرض، فأمنت عند ذلك غائلته، فقال لي: ياأبا العباس، صن نفسك عن الدخول إلى هذه المواضع فليس يتهيألك في كل وقت أن تصادف مثلي على مثل هذه الحال الجميلة، أنت المبرد أنت المبرد، وجعل يصفق وقد انقلبت عينه وتغيرت حليته، فبادرت مسرعا خوفا من ان يبدر لي منه شيءأو بادرة، وقبلت والله قوه فلم أعاود الدخول إلى محبس ولاغيره.

وقال أبو العباس المبرد: ماتنادر أحد علي ما تنادر به سذاب الوراق، فإني اجتزت يوما به وهو قاعد بباب داره، فقال لي: إلى أين؟ولا طفني وعرض علي القرى، فقلت له: ما عندك؟ فقال: عندي أنت وعليه أنا، يشير إلى اللحم المبرد بالسذاب.

وذكر رجلا عاد المبرد بالبصرة مع جماعة، فغنت جارية من وراء ستارة:

وقالوا لها هذا حبيبك معرض فقالت ألا إعراضه أيسر الخطب

فما هي إلا نظرة بتبسم فتصطك رجلاه ويسقط للجنب

فطرب كل من حضر إلا المبرد، فقال له صاحب المجلس: كنت أحق بالطرب، فقلت الجارية: دعه يامولاي، فإنه سمعني أقول هذا حبيبك معرض فظنني لحنت و لم يعلم أن ابن مسعود قرأ "وهذا بعلي شيخ" – هود:72–قال: فطرب المبرد من قولها إلى أن شق ثوبه.

وكنت رأيت المبرد المذكور في المنام وجرى لي معه قصة عجيبة فأحببت ذكرها، وذلك أني كنت بالإسكندرية في بعض شهور سنة ست وثلاثين وستمائة وأقمت بها خمسة أشهر، وكان عندي كتاب الكامل للمبرد، وكتاب العقد لابن عبد ربه، وأنا أطالع فيهما، فرأيت في العقد في فصل ترجمة بقوله ماغلط فيه الشعراء وذكر أبياتا نسبوا أصحابها فيها إلى الغلط وهي صحيحة، وإنما وقع ممن استدرك عليهم لعدم اطلاعهم على حقيقة الأمر فيها، ومن جملة من ذكر المبرد فقال: ومثله قول محمد بن يزيد النحوي في كتاب الروضة ورد على الحسن بن هانئ – يعني أبا نواس – في قوله:

وما لبكر بن وائل عصم إلا بحمقائها وكاذبها

فزعم أنه أراد بحمقائها هبنقة القيسي، ولايقال في الرجل حمقاء، وإنما أراد دغة العجيلية، وعجل في بكر، وبها يضرب المثل في الحمق، هذا كله كلام صاحب العقد وغرضه أن المبرد نسب أبانواس إلى الغلط بكونه قال ب حمقائها واعتقد أنه أراد هبنقة، وهبنقة رجل، والرجل لايقال له حمقاء، بل يقال له أحمق، وأبونواس إنما أراد دغة وهي امرأة، فالغلط حينئذ من المبرد، لا من أبي نواس. فلما كان بعد ليال قلائلب من وقوفي على هذه الفائدة رأيت في المنام كأني بمدينة حلب في مدرسة القاض بهاء الدين المعروف بابن شداد، وفيها كان اشتغالي بالعلم، وكأننا قد صلينا الظهر في الموضع الذي جرت العادة بالصلاة فيه جماعة، فلما فرغنا من الصلاة قمت لأخرج،فرأيت في أخريات الموضع شخصا واقفا يصلي، فقال لي بعض الحاضرين: هذا أبو العباس المبرد، فجئت إليه وقعدت إلى جانبه أنتظر فراغه، فلما فرغ سلمت عليه وقلت له:أنا في هذا الزمان أطالع في كتابك الكامل فقال لي: رأيت كتابي الروضة؟ فقلت: لا، وما كنت رأيته قبل ذلك، فقال: قم حتى أريك إياه، فقمت معه وصعد بي إلى بيته، فدخلنا فيه ورأيت كتبا كثيرة، فقعد قدامها يفتشى عليه وقعدت انا ناحية عنه، فأخرج منه مجلدا ودفعه إلي ففتحه وتركته في حجري ثم قلت له: قد أخذا عليك فيه، فقال:أي شيء أخذوا؟ فقلت: أنك نسبت أبانواس إلى الغلط في البيت الفلاني، وأنشدته إياه فقال: نعم، غلط في هذا، فقلت له: إنه لم يغلط، بل هو على الصواب،ونسبوك أنت إلى الغلط في تغليطه، فقال: وكيف هذا؟ فعرفته ما قال صاحب العقد فعض على رأس سبابته، وبقي ساهيا ينظر إلي وهو في صورة خجلان و لم ينطق، ثم استيقظت من منامي وهو على تلك الحال، و لم أذكر هذا المنام إلا لغربته.

وكانت ولادة المبرد يوم الاثنين عيد الأضحى سنة عشر ومائتين، وقيل سنة سبع ومائتين ز وتوفي يوم الاثنين لليلتين بقيتا من ذي الحجة، وقيل ذي القعدة، سنة ست وثمانين، وقيل خمس وثمانين ومائتين ببغداد، ودفن في مقابر باب الكوفة في دار اشتريت له، وصلى عليه أبو محمد يوسف بن يعقوب القاضي، رحمه الله تعالى. ولما مات نظم فيه وفي ثعلب أبو بكر الحسن بن علي المعروف بابن العلاف – المقدم ذكره –أبياتا سائرة، وكان ابن الجواليقي كثيرا ما ينشدها،وهي:

ذهب المبرد وانقضت أيامه	وليذهبن إثر المبرد ثعلب
بيت من الاداب أصبح نصفه	خربا وباقي بيتها فسيخرب
فابكوا لما سلب الزمان ووطنوا	للدهر أنفسكم على ما يسلب
وتزودوا من ثعلب، فبكأس ما	شرب المبرد عن قريب يشرب
وأرى لكم أن تكتبوا أنفاسه	إن كانت الأنفاس مما يكتب

وقريب من هذه الأبيات ما أنشده أبو عبد الله الحسين بن علي اللغوي البصري النمري لما مات أبو عبد الله محمدبن المعلى الأزدي، وكان بينهما تنافس وهي:

مضى الأزدي والنمري يمضي	وبعض الكل مقرون ببعض
أخي والمجتني ثمرات ودي	وإن لم يجزني قرضي وفرضي
وكانت بيننا أبدا هنات	توفر عرضه منها وعرضي
وما هانت رجال الأزد عندي	وإن لم تدن أرضهم بأرضي

والثمالي: بضم الثاء المثلثة وفتح الميم وبعد الألف لام، هذه النسبة إلى ثمالة، واسمه عوف بن أسلم، وهو بطن من الأزد، قال المبرد في كتاب الاشتقاق: إنما سميت ثمالة لأنهم شهدوا حربا فني فيها أكثرهم، فقال الناس: مابقي منهم إلا ثمالة، والثمالة: البقية اليسيرة.وفي المبرد يقول بعض شعراء عصره وهجا قبيلته بسببه، وذكر أبو علي القالي في كتاب الأمالي أنها لعبد الصمد ابن المعذل:

سألنا عن ثمالة كل حي فقال القائلون: ومن ثمالة؟

فقلت محمد بن يزيد منهم فقالوا زدتنا بهم جهالة

فقال لي المبرد خل عني فقومي معشر فيهم نذالة

ويقال: إن هذه الأبيات للمبرد، وكان يشتهي أن يشتهر بهذه القبيلة، فصنع هذه الأبيات فشاعت وحصل له مقصوده من الاشتهار.
وكان كثيرا ما ينشد في مجالسه:

يامن تلبس أثوابا يتيه بها تيه الملوك على بعض المساكين

ماغير الجل أخلاق الحمير ولا نقش البراذع أخلاق البراذين

والمبرد:بضم الميم وفتح الباء الموحدة والراء المشددة وبعدها دال مهملة، وهو لقب عرف به،واختلف العلماء في سبب تلقيبه بذلك،فالذي ذكره الحافظ أبو الفرج ابن الجوزي في كتاب الألقاب أنه قال: سئل المبرد: لم لقبت بهذا اللقب؟ فقال: كان سبب ذلك أن صاحب الشرطة طلبني للمنادمة والمذاكرة، فكرهت الذهاب إليه، فدخلت إلى أبي حاتم السجستاني، فجاء رسول الوالي يطلبني، فقال لي أبو حاتم: ادخل في هذا، يعني غلاف مزملة فارغا، فدخلت فيه وغطى رأسه، ثم خرج إلى الرسول وقال: ليس هو عندي، فقال: أخبرت أنه دخل إليك،فقال: إدخل الدار وفتشها، فدخل فطاف كل موضع في الدار ولم يفطن لغلاف المزملة، ثم خرج فجعل أبو حاتم يصفق وينادي على المزملة:المبرد المبرد، وتسامع الناس بذلك فلهجوا به.وقيل إن الذي لقبه بهذا اللقب شيخه أبو عثمان المازني، وقيل غير ذلك.

وهبنقة: بفتح الهاء والباء الموحدة والنون المشددة والقاف وبعدها هاء ساكنة، وهو لقب أبي الودعات يزيد بن ثروان القيسي، وقيل كنيته أبو نافع، وبه يضرب المثل في الحمق فيقال أحمق من هبنقة القيسي لأنه كان قد شردله بعير فقال: من جاء به فله بعيران، فقيل له: أتجعل في بعير بعيرين؟فقال: إنكم لاتعرفون حلاوة الوجدان،فنسب إلى الحمق بهذا السبب، وسارت به الأشعار فمن ذلك قول أبي محمد يحيى بن المبارك اليزيدي–وسيأتي ذكره إن شاء الله – في شيبة بن الوليد العبسي عم دقاقة، من جملة أبيات:

عش بجد ولا يضرك نوك إنما عيش من ترى بالجدود

رب ذي إربة مقل من الما ل وذي عنجهية مجدود

عش بجد وكن هبنقة القي سي أو مثل شيبة بن الوليد

و سبب نظم اليزيدي هذه الأبيات أنه تناظر هو والكسا ئي في مجلس المهدي، وكان شيبة بن الوليد حاضرا فتعصب للكسائي وتحامل على اليزيدي، فهجاه في عدة مقاطيع هذا المقطوع من جملتها.

ودغة: بضم الدال المهملة وفتح الغين المعجمة وبعدها هاء ساكنة، واسمها مارية بنت مغنج، بفتح الميم وسكون الغين المعجمة وفتح النون وبعدها جيم، وقيل معنج بكسر الميم وسكون العين المهملة وباقية مثل الأول،وهو لقب، واسمه ربيعة بن سعد بن عجل بن لجيم – وهي التي يضرب بها المثل في الحمق،فيقال أحمق من دغة.وذكر ابن الكلبي في كتاب جمهرة النسب غير هذا، فقال في نسب بني العنبر:فولد جندب بن العنبر عديا وكعبا وعويجا أمهم مارية بنت ربيعة بن سعد بن عجل، ويقال بل هي دغة بنت مغنج بن إياد، فجعل مارية غير دغة، والله أعلم.وإنما نسبت إلى الحمق لأنها ولدت فصاح المولود، فقالت لامرأة: أيفتح الجعر فاه؟فقالت المرأة: نعم ويسب أباه، فسارت مثلا. الأصل في الجعر أنه روث كل ذي مخلب من السباع، وقد يستعمل في غيرها بطريق التجوز، ودغة لجهلها لما ولدت ظنت أنه قد خرج منها المعتاد، فلما استهل المولود عجبت من ذلك وسألت عنه، فهذا كان سبب نسبتها إلى الحمق.وكانت متزوجة في بني العنبربن عمرو بن تميم،فبنو العنبر يدعون لذلك بني الجعراء؛وهذا كله وإن كان خارجا عن المقصود، لكنها فوائد غريبة فأحببت ذكرها.

ابن دريد

أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد بن عتاهية بن حنتم بن حسن بن حمامي بن جرو بن واسع بن وهب بن سلمة ابن حاضر بن أسد بن عدي بن عمرو بن مالك بن فهم بن غانم بن دوس بن عدنان بن عبد الله بن زهران بن كعب بن الحارث بن كعب بن عبد الله بن مالك بن نصر بن الأزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، الأزدي اللغوي البصري إمام عصره في اللغة والآداب والشعر الفائق؛ قال المسعودي في كتاب مروج الذهب في حقه:وكان ابن دريد ببغداد ممن برع في زماننا هذا في الشعر، وانتهى في اللغة، وقام مقام الخليل بن أحمد فيها، وأورد أشياء في اللغة لم توجد في كتب المتقدمين، وكان يذهب بالشعر كل مذهب، فطورا يجزل وطورا يرق، وشعره أكثر من أن نحصيه أو نأتي على أكثره أو يأتي عليه كتابنا هذا، فمن جيد شعره قصيدته المشهورة بالمقصورة التي يمدح بها الشاه ابن ميكال وولده، وهما عبد الله بن محمد بن ميكال وولده أبو العباس إسماعيل بن عبد الله، ويقال إنه أحاط فيها بأكثر المقصور، وأولها:

إما تري رأسي حاكى لونه	طرة صبح تحت أذيال الدجى
واشتعل المبيض في مسوده	مثل اشتعال النار في جزل الغضى

ثم قال المسعودي: وقد عارضه في هذه القصيدة المعروفة جماعة من الشعراء منهم أبو القاسم علي بن محمد بن أبي الفهم الأنطاكي التنوخ، وعدد جمعا ممن عارضها.

قلت أنا: وقد اعتنى بهذه المقصورة خلق من المتقدمين والمتأخرين، وشرحوها وتكلموا على ألفاظها، ومن أجود شروحها وأبسطها شرح الفقيه أبي عبد الله محمد بن أحمد بن هشام ابن إبراهيم اللخمي السبتي، وكان متأخرا توفي في حدود سنة سبعين وخمسمائة، وشرحها الإمام أبو عبد الله محمد ابن جعفر المعروف بالقزاز صاحب كتاب الجامع في اللغة – وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى – وشرحها غيرهما أيضا.

ولا بن دريد من التصانيف المشهورة كتاب الجمهرة وهو من الكتب المعتبرة في اللغة، وله كتاب الأشتقاق وكتاب السراج واللجام وكتاب الخيل الكبير، وكتاب الخيل الصغير، وكتاب الأنواء وكتاب المقتبس وكتاب الملاحن وكتاب زوار العرب وكتاب اللغات وكتاب السلاح وكتا بغريب القرأن لم يكمله،وكتاب المجتبى وهو مع صغر حجمه كثير الفائدة،وكذلك الوشاح صغير مفيد.

وله نظم رائق جدا، وكان من تقدم من العلماء يقول: ابن دريد أعلم الشعراء وأشعر العلماء فمن أول شعر قاله قوله:

ثوب الشباب علي اليوم بهجته	وسوف تنزعه عني يد الكبر
أنا ابن عشرين مازادت ولانقصت	إن ابن عشرين من شيب على خطر

ومن مليح شعره قوله:

غراء لو جلت الخدود شعاعها	للشمس عند طلوعها لم تشرق
غصن على دعص تأود فوقه	قمر تألق تحت ليل مطبق
لوقيل للحسن احتكم لم يعدها	أو قيل خاطب غيرها لم ينطبق
وكأننا من فروعها في مغرب	وكأننا من وجهها في مشرق
تبدو فيهتف للعيون ضياؤها	الويل حل بمقلة لم تطبق

ولولا خوف الإطالة لذكرت كثيرا من شعره.

وكانت ولادته بالبصرة في سكة صالح سنة ثلاث وعشرين ومائتين، ونشأ بها وتعلم فيها، وأخذ عن أبي حاتم السجستاني والرياشي وعبد الرحمن بن عبد الله المعروف بابن أخي الأصمعي وأبي عثمان سعيد بن هارون الأشنانداني صاحب كتاب المعاني وغيرهم، ثم انتقل عن البصرة مع عمه الحسين عند ظهور الزنج وقتلهم الرياشي – كماسبق في ترجمته – وسكن عمان وأقام بها اثنتي عشرة سنة، ثم عاد إلى البصرة وسكنها زمانا، ثم خرج إلى نواحي فارس وصحب ابني ميكال، وكانا يومئذ على عمالة فارس، وعمل لهما كتاب الجمهرة وقلداه ديوان فارس، وكانت تصدر كتب فارس عن رأيه ولا ينفذ أمر إلا بعد توقيعه، فأفاد معهما أموالا عظيمة، وكان مفيدا مبيدا لا يمسك درهما سخاء وكرما، ومدحهما بقصيدته المقصورة فوصلاه بعشرة آلاف درهم، ثم انتقل من فارس إلى بغداد، ودخلها سنة ثمان وثلثمائة بعد عزل ابني ميكال وانتقالهما إلى خراسان.ولما وصل إلى بغداد أنزله علي بن محمد الحواري في جواره وأفضل عليه، وعرف الإمام المقتدر خبره ومكانه من العلم، فأمر أن يجرى عليه خمسون دينارا في كل شهر، و لم تزل جارية عليه إلى حين وفاته.

وكان واسع الرواية لم ير أحفظ منه، وكان يقرأ عليه دواوين العرب فيسابق إلى إتمامها من حفظه، وسئل عنه الدار قطني، أثقة هو أم لا؟ فقال: تكلموا فيه، وقيل إنه كان يتسامح في الرواية فيسند إلى كل واحد ما يخطر له. وقال أبو منصور الأزهري اللغوي: دخلت عليه فرأيته سكران، فلم أعد إليه.وقال ابن شاهينك كنا ندخل عليه ونستحيي مما نرى من العيدان المعلقة والشراب المصفى. وذكر أن سائلا سأله شيئا فلم يكن عنده غير دن من نبيذ فوهبه له، فأنكر عليه أحد غلمانه، وقال تتصدق بالنبيذ؟ فقال: لم يكن عندي شيء سواه، ثم أهدي له بعد ذلك عشرة دنان من النبيذ، فقال لغلامه: أخرجنا دنا فجاءنا عشرة، وينسب إليه من هذه الأمور شيء كثير.

وعرض له في رأس التسعين من عمره فالج سقي له الترياق فبرئ منه وصح ورجع إلى أفضل أحواله، و لم ينكر من نفسه شيئا ورجع إلى إسماع تلامذته وإملائه عليهم، ثم عاوده الفالج بعد حول لغذاء ضار تناوله، فكان يحرك يديه حركة ضعيفة، وبطل من محزمه إلى قدميه، فكان إذا دخل عليه الداخل ضج وتألم لدخوله وإن لم يصل إليه، قال تلميذه أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي المعروف بالبغدادي – المقدم ذكره –: فكنت أقول في نفسي: إن الله عز وجل عاقبه بقوله في قصيدته المقصورة – المقدم ذكرها – حين ذكر الدهر:

مارست من لو هوت في الأفلاك من ... جوانب الجو عليه ما شكا

وكان يصيح لذلك صياح من يمشي عليه أويسل بالمسال، والداخل بعيد منه، وكان مع هذه الحال ثابت الذهن كامل العقل، يرد فيما يسأل عنه ردا صحيحا؛قال أبو علي: وعاش بعد ذلك عامين، وكنت أسأله عن شكوكي في اللغة وهو بهذه الحال فيرد بأسرع من النفس بالصواب. وقال لي مرة وقد سألته عن بيت شعر: لئن طفئت شحمتا عيني لم تجد من يشفيك من العلم، قال أبو علي: ثم قال لي: يابني، وكذلك قال لي أبو حاتم وقد سألته عن شيء، ثم قال لي أبو حاتم: وكذلك قال لي الأصمعي وقد سألته. وقال أبو علي: وآخر شيء سألته عنه جاوبني أن قال لي: يابني حال الجريض دون القريض، فكان هذا الكلام آخر ماسمعته منه وكان قبل ذلك كثيرا ما يتمثل:

فواحزني أن لا حياة لذيذة ... ولاعمل يرضى به الله صالح

وقال المرزباني،قال لي ابن دريد: سقطت من منزلي بفارس، فانكسرت ترقوتي، فسهرت ليلتي، فلما كان آخر الليل غمضت عيني فرأيت رجلا طويلا أصفر الوجه كوسجا دخل علي وأخذ بعضادتي الباب وقال: أنشدني أحسن ما قلت في الخمر، فقلت: ما ترك أبو نواس لأحد شيئا، فقال: أنا أشعر منه، فقلت: ومن أنت؟ فقال: أنا أبو ناجية من أهل الشام، وأنشدني:

وحمراء قبل المزج صفراء بعده ... أتت بين ثوبي نرجس وشقائق

حكت وجنة المعشوق صرفا فسلطوا ... عليها مزاجا فاكتست لون عاشق

فقلت له: أسأت، فقال: و لم؟ قلت: لأنك قلت وحمراء فقدمت الحمراء ثم قلت بين ثوبي نرجس وشقائق فقدمت الصفرة، فهلا قدمتها على الأخرى، فقال: ما هذا الاستقصاء في هذا الوقت يابغيض؟

وجاء في رواية أخرى أن الشيخ أبا علي الفارسي النحوي قال: أنشدني ابن دريد هذين البينين لنفسه، وقال: جاءني إبليس في المنام وقال: أغرت على

أبي نواس؟فقلت: نعم فقال: أجدت إلا أنك أسأت في شيء، ثم ذكر بقية الكلام إلى آخره، والله أعلم.
وتوفي يوم الأربعاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من شعبان سنة إحدى وعشرين وثلثمائة ببغداد، رحمه الله تعالى، ودفن بالمقبرة المعروفة بالعباسية من الجانب الشرقي في ظهر سوق السلاح بالقرب من الشارع الأعظم. وتوفي في ذلك اليوم أبو هاشم عبد السلام بن أبي علي الجبائي المتكلم المعتزلي – المقدم ذكره – فقال الناس: اليوم مات علم اللغة والكلام. ويقال إنه عاش ثلاثا وتسعين سنة لاغير، ورثاه جحظة البرمكي – المقدم ذكره –بقوله:

فقدت بابن دريد كل فائدة | لما غدا ثالث الأحجار والترب
وكنت أبكي لفقد الجود منفردا | فصرت أبكي لفقد الجود والأدب

الترب:بفتح الراء، جمع تربة.
ودريد: بضم الدال المهملة وفتح الراء وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها دال مهملة، وهو تصغير أدرد: الذي ليس فيه سن، وهو تصغير ترخيم، وإنما سمي هذا التصغير ترخيما لحذف حرف الهمزة من أوله كما تقول في تصغير أسود: سويد، وتصغير أزهر: زهير.
وعتاهية: بفتح العين المهملة وفتح التاء المثناة من فوقها وبعد الألف هاء مكسورة وياء مفتوحة مثناة من تحتها وبعدها هاء ساكنة.
وحنتم: بفتح الحاء المهملة وسكون النون وفتح التاء المثناة من فوقها وبعدها ميم، والأصل في الحنتم الجرة المدهونة الخضراء وبها سمي الرجل.
وحمامي: بفتح الحاء المهملة والميم الخفيفة وبعد الألف ميم مكسورة ثم ياء، قال الأمير أبو نصر ابن ماكولا: هو أول من أسلم من آبائه. وبقية النسب معروف. وحامي من جملة السبعين راكبا الذين خرجوا مع عمرو بن العاص من عمان إلى المدينة لما بلغهم وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والقصة مشهورة وقد تقدم الكلام على الأزدي.
وقولهحال الجريض دون القريض هذا مثل مشهور وأول من نطق به عبيد بن الأبرص أحد شعراء الجاهلية لما لقي النعمان بن المنذر اللخمي آخر ملوك الحيرة في يوم بؤسه وعزم على قتله، وكان ذلك عادته، فأحس به عبيد فاستنشده شيئا من شعره، فقال له: حال الجريض دون القريض فسارت مثلا، والجريض: بفتح الجيم وكسر الراء وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها ضاد معجمة، هو الغضة، والقريض: الشعر، فكأنه قال: حالت الغصة دون إنشاد الشعر، وهذه القصة مشهورة، فاقتصرت منها على ذكر خلاصتها.

عبيد

بفتح العين المهملة وكسر الباء الموحدة وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها دال مهملة، وهو شاعر مشهور، وكان في الولادة من أقرن عبد المطلب بن هاشم جد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أبو عمر المطرز الزاهد

أبو عمر محمد بن عبد الواحد بن أبي هاشم، المعروف بالمطرز، الباوردي الزاهد غلام ثعلب – المقدم ذكره –؛أحد أئمة اللغة المشاهير المكثرين، صحب ابا العباس ثعلبا زمانا فعرف به إليه وأكثر من الأخذ عنه، واستدرك على كتابهالفصيح جزئا لطيفا سماهفائت الفصيح وشرحه أيضا في جزء آخر. وله كتاب اليواقيت وكتابشرح الفصيحلثعلب،وكتاب الجرجاني وكتاب الموضح وكتاب الساعاتوكتاب يوم وليلة وكتاب المستحسن وكتاب العشرات وكتاب الشورى وكتاب البيوع وكتابتفسير أسماء الشعراء وكتاب القبائل وكتاب المكنون والمكتوم وكتاب التفاحة وكتاب المداخل وكتاب على المداخلوكتاب النوادر وكتاب فائت العين وكتاب فائت الجمهرة وكتاب ما أنكرته الأعراب على أبي عبيدة فيما رواه أو صنفه. وكان ينقل غريب اللغة وحواشيها، وأكثر ما نقل أبو محمد ابن السيد البطليوسي في كتاب المثلث عنه، وحكى عنه غرائب. وروى عنه أبو الحسن محمد بن رزقويه وأبو علي ابن شاذان وغيرهم.
وكانت ولادته سنة إحدى وستين ومائتين. وتوفي يوم الأحد لثلاث عشرة ليلة خلت من ذي القعدة سنة خمس وأربعين، وقيل أربع وأربعين وثلثمائة، ودفن يوم الاثنين ببغداد في الصفة التي تقابل معروفا الكرخي، رضي الله عنهن وبينهما عرض الطريق، رحمه الله تعالى.

وكان اشتغاله بالعلوم واكتسابها قد منعه من اكتساب الرزق والتحيل له، فلم يزل مضيقا عليه. وكان لسعة روايته وغزارة حفظه يكذبه أدباء زمانه في أكثر نقل اللغة ويقولون: لو طار طائر لقال أبو عمر حدثنا ثعلب عن ابن الأعرابي، ويذكر في معنى ذلك شيئا. فأما روايته الحديث فإن المحدثين يصدقونه ويوثقونه؛ وكان أكثر ما يمليه من التصانيف يلقيه بلسانه من غير صحيفة يراجعها، حتى قيل إنه أملى من حفظه ثلاثين ألف ورقة من اللغة، فلهذا الإكثار نسب إلى الكذب. وكان يسأل عن شيء قد تواطأت الجماعة على وضعه،فيجيب عنه، ثم يترك سنة ويسأل عنه فيجيب بذلك الجواب بعينه. ومما جرى له في ذلك أن جماعة قصدوه للأخذ عنه،فتذكروا في طريقهم عند قنطرة هناك إكثاره، وأنه منسوب إلى الكذب بسبب ذلك، فقال أحدهم: أنا أصحف له اسم هذه القنطرة وأسأله عنها، فانظروا ماذا يجيب، فلما دخلوا عليه قال له: أيها الشيخ ما القبطرة عند العرب؟ فقال: كذا وكذا، فتضاحكت الجماعة سرا، وتركوه شهرا، ثم قرروا مع شخص سأله عن القبطرة بعينها فقال: أليس سئلت عن هذه المسألة منذ مدة كذا وكذا وأجبت عنها بكذا وكذا؟ فعجب الجماعة من فطنته وذكائه واستحضاره للمسألة والوقت وإن لم يتحققوا صحة ماذكره.

وكان معز الدولة بن بويه قد قلد شرطة بغداد لغلام له اسمه خواجا، فبلغ أبا عمر الخبر، وكان يملي كتاب اليواقيت فلما جلس للإملاء قال: اكتبوا ياقوتة خواجا، الخواج في أصل لغة العرب: الجوع، ثم فرع على هذا بابا وأملاه، فاستعظم الناس ذلك من كذبه، وتتبعوه في كتب اللغة. قال أبو علي الحاتمي الكاتب اللغوي:أخرجنا في أمالي الحامض عن ثعلب عن ابن الأعرابي الخواج: الجوع.

وكان أبو عمر المذكور يؤدب ولد القاضي أبي عمر محمد بن يوسف فأملى يوما على الغلام نحوا من مائة مسألة في اللغة وذكر غريبها وختمها ببيتين من الشعر، وحضر أبو بكر ابن دريد وأبو بكر ابن الأنباري وأبو بكر ابن مقسم عند القاضي أبي عمر، فعرض عليهم تلك المسائل، فما عرفوا منها شيئا وأنكروا الشعر، فقال لهم القاضي: ماتقولون فيها؟ فقال ابن الأنباري: أنا مشغول بتصنيف مشكل القرآن ولست أقول شيئا، وقال ابن مقسم مثل ذلك، واحتج باشتغاله بالقراءات، وقال ابن دريد: هذه المسائل من موضوعات أبي عمر، ولا أصل لها ولا لشيء منها في اللغة، وانصرفوا، وبلغ أبا عمر ذلك، فاجتمع بالقاضي وسأله إحضار دواوين جماعة من قدماء الشعراء عينهم، ففتح القاضي خزانته وأخرج له تلك الدواوين، فلم يزل أبو عمر يعمد إلى كل مسألة ويخرج لها شاهدا من بعض تلك الدواوين ويعرضه على القاضي حتى استوفى جميعها، ثم قال له: وهذان البيتان أنشدهما ثعلب بحضرة القاضي، وكتبهما القاضي بخطه على ظهر الكتاب الفلاني، فأحضر القاضي الكتاب فوجد البيتين على ظهره بخطه كما ذكر أبو عمر بلفظه به.

وقال رئيس الرؤساء: وقد رأيت أشياء كثيرة مما استنكر على أبي عمر ونسب فيها إلى الكذب، فوجدتها مدونة في كتب أهل اللغة، وخاصة في غريب المصنف لأبي عبيد. وقال عبد الواحد بن علي بن برهان الأسدي أبو القاسم: لم يتكلم في علم اللغة أحد من الأزلين والآخرين أحسن من كلام أبي عمر الزاهد، وله كتابغريب الحديث صنفه على مسند أحمد بن حنبل، وكان يستحسنه جدا.

وقال أبو علي محمد بن الحسن الحاتمي: اعتللت فتأخرت عن مجلس أبي عمر الزاهد، قال: فسأل عني لما تراخت الأيام، فقيل له إنه كان عليلا، فجاءني من الغد يعودني، فاتفق أني كنت قد خرجت من داري إلى الحمام، فكتب بخطه على بابي باسفيداج:

وأعجب شيء سمعنا به عليل يعاد فلا يوجد

قال: والبيت له.

وكان مغاليا في حب معاوية وعنده جزء من فضائله، وكان إذا ورد عليه من يروم الأخذ عنه ألزمه بقراءة ذلك الجزء.وكانت فضائله جمة ومعلوماته غزيرة، وفي هذا القدر كفاية.

والمطرز: بضم الميم وفتح الطاء المهملة وكسر الراء المشددة وبعدها زاي،هذه الفظة تقال لمن يطرز الثياب، وكانت صناعة أبي عمر المذكور التطريز فنسب إليها، وعرف بهذه الصناعة جماعة من العلماء.

وكشفت في كتاب الأنساب للسمعاني في ترجمة المطرز عن أبي عمر المذكور فلم يذكره، لكنه ذكر أبا القاسم عبد الواحد بن محمد بن يحيى بن أيوب المطرز البغدادي الشاعر،ويحتمل أن يكون والد أبي عمر المذكور، لأن اسمه موافق اسم والده، ويحتمل أن يكون غيره، لكني لاأعرفه، وقال: هو مشهور الشعر سائره، فمن قوله:

ولما وقفنا بالصراة عشية حيارى لتوديع ورد سلام
وقفنا على رغم الحسود وكلنا يفض عن الأشواق كل ختام
وسوغني عند الوداع عناقه فلما رأى وجدي به وغرامي
تلثم مرتابا بفضل ردائه فقلت :هلال بعد بدر تمام
وقبلته فوق اللثام فقال لي: هي الخمر، إلا أنها بفدام

لكن السمعاني وإن كان ماذكره في هذه الترجمة فقد ذكره في ترجمة غلام ثعلب، وقال: هو غلام ثعلب، كما ذكرته أولا.

قلت: ثم بعد هذا بسنين عديدة رأيت بدمشق المحروسة ديوان شعر أبي القاسم عبد الواحد المعروف بالمطرز المذكور، وهو بغدادي، وأكثر شعره جيد، وكانت ولادته سنة أربع وخمسين وثلثمائة. وتوفي ليلة الأحد مستهل جمادى الآخرة سنة تسع وثلاثين وأربعمائة، فظهر بهذا أنه ليس والد أبي عمرالمذكور، وإنما هو مطرز آخر.

والباروردي:بالباء الموحدة وبعد الألف والواو راء ثم دال مهملة، وهي بليدة بخراسان، يقال لها باوردوأباورد وأبيورد، ومنها أبو المظفر الأبيوردي الشاعر – الآتي ذكره إن شاء الله تعالى.

الأزهري

أبو منصور محمد بن احمد بن الأزهر بن طلحة بن نوح بن أزهر، الأزهري الهروي اللغوي الإمام المشهور في اللغة؛ كان فقيها شافعي المذهب غلبت عليه اللغة فاشتهر بها، وكان متفقا على فضله وثقته ودرايته وورعه.روى عن أبي الفضل محمد بن أبي جعفر المنذري اللغوي عن أبي العباس ثعلب وغيره، ودخل بغداد وأدرك بها أبا بكر ابن دريد ولم يرو عنه شيئا، وأخذعن أبي عبد الله إبراهيم ابن عرفة الملقب نفطويه – المقدم ذكره – وعن أبي بكر محمد بن السري المعروف بابن السراج النحوي – وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى – وقيل إنه لم يأخذ عنه شيئا.

وكان قد رحل وطاف في أرض العرب في طلب اللغة؛وحكى بعض الأفاضل أنه رأى بخطه قال: امتحنت بالأسر سنة عارضت القرامطة الحاج بالهبير، وكان القوم الذين وقعت في سهمهم عربا نشؤوا في البادية يتتبعون مساقط الغيث أيام النجع، ويرجون إلى أعداد المياه في محاضرهم زمان القيظ، ويرعون النعم ويعيشون بألبانها، ويتكلمون بطباعهم ولا يكاد يوجد في منطقهم لحن أو خطأ فاحش، فبقيت في أسرهم دهرا طويلا، وكنا نشتي بالدهناء ونرتبع بالصمان ونقيظ بالستارين، واستفدت من محاورتهم ومخاطبة بعضهم بعضا ألفاظا جمة ونوادر كثيرة أوقعت أكثرها في كتابي–يعني التهذيب – وستراها في مواضعها، وذكر في تضاعيف كلامه أنه أقام بالصمان شتوتينومما رواه أن أعرابيا قال: اللهم من ظلمني مرة فاجزه ومن ظلمني مرتين فاجزني واجزه، ومن ظلمني ثلاث مرات فاجزني ولا تجزه.

وكان أبو منصور المذكور جامعا لشتات اللغة مطلعا على أسرارها ودقائقها،وصنف في اللغة كتاب التهذيب وهو من الكتب المختارة يكون أكثر من عشر مجلدات، وله تصنيف في غريب الألفاظ التي تستعملها الفقهاء في مجلد واحد، وهو عمدة الفقهاء في تفسير مايشكل عليهم من اللغة المتعلقة بالفقه، وكتاب التفسير. ورأى ببغداد أبا إسحاق الزجاج وأبا بكر ابن الأنباري، ولم ينقل انه أخذ عنهما شيئا. وكانت ولادته سنة اثنين وثمانين ومائتين. وتوفي في سنة سبعين وثلثمائة في أواخرها، وقيل سنة إحدى وسبعين بمدينة هراة، رحمه الله تعالى.

والأزهري: بفتح الهمزة وسكون الزاي وفتح الهاء وبعدها راء، هذه النسبة إلى جده أزهر المذكور وقد تقدم الكلام على الهروي.

والقرامطة: نسبتهم إلى رجل من سواد الكوفة يقال لهقرمط–بكسر القاف وسكون الراء وكسر الميم وبعدها طاء مهملة – ولهم مذهب مذموم، وكانوا قد ظهروا في سنة إحدى وثمانين ومائتين في خلافة المعتضد بالله، وطالت أيامهم وعظمت شوكتهم وأخافوا السبيل، واستولوا على بلاد كثيرة، وأخبارهم مستقصاة في التواريخ.

وكانت وقعة الهبير التي أشار إليها في سنة إحدى عشرة وثلثمائة، وكان مقدم القرامطة يوم ذاك أبا طاهر الجنابي القرمطي، ولما ظهر على الحجاج قتل بعضهم واسترق آخرين، واستولى على جميع اموالهم، وذلك في خلافة المقتدر بن المعتضد؛ وقيل كان اول ظهورهم في سنة ثمان وسبعين ومائتين،وأولهم أبو سعيد الجنابي كان بناحية البحرين وهجر، وقتل في سنة إحدى وثلثمائة، قتله خادم له، وقتل أبو طاهر المذكور في سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة.

والجنابي: بفتح الجيم والنون المشددة وبعد الألف باءموحدة، هذه النسبة إلى جنابة، وهي بلدة بالبحرين بالقرب من سيراف على البحر.

والهبير: بفتح الهاء وكسر الباء الموحدة وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها راء ساكنة، وهو الموضع المطمئن من الأرض.

والدهناء: بفتح الدال المهملة وسكون الهاء وبعدها نون مفتوحة ثم ألف تمد وتقصر، وهي أرض واسعة في بادية العرب في ديار بني تميم، وقيل هي سبعة أجبل من الرمل، وقيل هي في بادية البصرة في ديار بني سعد.

والصمان: بفتح الصاد المهملة والميم المشددة وبعد الألف نون، وهو جبل أحمر ينقاد ثلاث ليال، وليس له ارتفاع، يجاور الدهناء، وقيل إنه قرب رمال عالج، وبينه وبين البصرة تسعة أيام.

والستاران: تثنية ستار، بكسر السين المهملة وفتح التاء المثناة من فوقها وبعد الألف راء، وهما واديان في ديار بني سعد، يقال لهما: سودة، ويقال لأحدهما: الستار الأغبر، وللآخر: الستار الجابري، وفيهما عيون فوارة يسقى نخيلهما منهما. وهذا كله وإن كان خارجا عن المقصود، لكنها ألفاظ غريبة فأحببت تفسيرها لئلا تشكل على من يطالع هذا المجموع.

أبو عبد الله اليزيدي

أبو عبد الله محمد بن العباس بن محمد اليزيدي النحوي –وسيأتي ذكر جده أبي محمد يحيى بن المبارك العدوي اليزيدي إن شاء الله تعالى–؛ كان محمد المذكور إماما في النحو والأدب ونقل النوادر وكلام العرب. ومما رواه أن أعرابيا هوي أعرابية فأهدى إليها ثلاثين شاة وزقا من خمر مع عبد له أسود فأخذ العبد شاة في الطريق فذبحها وأكل منها وشرب بعض الزق، فلما جاءها بالباقي عرفت أنه خانها في الهدية، فلما عزم على الانصراف سألها: هل لك من حاجة؟ فأرادت إعلام سيده بما فعله في الطريق فقالت له:اقرأعليه السلام وقل له:إن الشهر كان عندنا محاقا، وإن سحيما راعي غنمنا جاء مرثوما، فلم يعلم العبد ما أرادت بهذه الكناية، فلما عاد إلى مولاه أخبره برسالتها ففطن لما أرادته، فدعا له بالهراوة وقال: لتصدقني وإلا ضربتك بهذه ضربا مبرحا، فأخبره الخبر، فعفا عنه، وهذه من لطائف الكنايات وأحلى الإشارات.

وروى أبو محمد ابن قتيبة في هذا المعنى عن أبي حاتم عن الأصمعي قال: حدثني شيخ من بني العنبر قال: أسرت بنو شيبان رجلا من العرب من بني العنبر، فقال لهم: أرسل إلي أهلي ليفدوني فقالوا: ولا تكلم الرسول إلا بين أيدينا، فجاءوه برسول فقال له: ايت قومي فقل لهم: إن الشجر قد أورق وإن النساء قد أشكت، قال له: أتعقل؟ قال: نعم، قال: فما هذا؟ وأشار بيده، فقال: هذا الليل، فقال: أراك تعقل، انطلق فقل لأهلي: عروا جملي الأصهب واركبوا ناقتي الحمراء واسألوا حارثة عن أمري؛ فأتاهم الرسول، فأرسلوا إلى حارثة فقص عليه الرسول القصة، فلما خلا معهم قال: أما قوله: ان الشجر قد أورق فإنه يريد أن القوم قد تسلحوا، وقوله: ان النساء قد شكت أشكت أياتخذت الشكاء للغزو وهي أسقية، وقوله: هذا الليل، يريد يأتونكم مثل الليل، أو في الليل، وقوله: عروا جملي الأصهب، يريد ارتحلوا عن الصمان، وقوله: اركبوا ناقتي الحمراء يريد: اركبوا الدهناء. فلما قال لهم ذلك تحملوا من مكانهم، فلما أتاهم القوم لم يجدوا منهم أحدا.

وحكي عن الأعرابي قال: أسرت طيء رجلا شابا من العرب، فقدم عليه أبوه وعمه ليفدياه، فاشتطوا عليهما في الفداء فأعطيا به عطية لم يرضوا بها، فقال أبوه: لا والذي جعل الفرقدين يصبحان ويمسيان على جبل طيء لاأزيدكم على ما أعطيتكم. ثم انصرفا، فقال الأب للعم: لقد ألقيت إليه كلمة لئن كان فيه خير لينجون، فما لبث أن نجا وطرد قطعة من إبلهم فذهب بها، كأنه قال له: الزم الفرقدين على جبلي طيء فإنهما طالعان عليه ولا يغيبان عنه

والمرثوم: بفتح الميم وسكون الراء وضم الثاء المثلثة، المكسور الألف الملطخ بالدم، والرثم: البياض في جحفلة الفرس العليا، وهو في الزق مستعمل على سبيل الاستعارة.

وله تصانيف، فمن ذلك كتاب الخيل وكتابمناقب بني العباس وكتاب أخبار اليزيديين وله مختصر في النحو. وكان قد استدعي في آخر عمره إلى تعليم أولاد المقتدر بالله فلزمهم مدة، ولقيه بعض أصحابه بعد اتصاله بالخليفة فسأله أن يقرئه فقال: أنا في شغل عن ذلك.وتوفي أبو عبد الله المذكور ليلة الأحد أول الليل لاثنتي عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة سنة عشر وثلثمائة،وعمره اثنتان وثمانون سنة وثلاثة أشهر، رحمه الله تعالى.

واليزيدي:نسبة إلى يزيد بن منصور - وسيأتي الكلام على ذلك في ترجمة جده أبي محمد يحيى بن المبارك، إن شاء الله تعالى.

أبو بكر ابن السراج النحوي

أبو بكر محمد بن السري بن سهل النحوي المعروف بابن السراج؛ كان أحد الأئمة المشاهير، المجمع على فضله ونبله وجلالة قدره في النحو والآداب، أخذ الأدب عن أبي العباس المبرد - المقدم ذكره - وغيره، وأخذ عنه جماعة من الأعيان منهم: أبو سعيد السيرافي وعلي بن عيسى الرماني وغيرهما، ونقل عنه الجوهري في كتاب الصحاح في مواضع عديدة.وله التصانيف المشهورة في النحو: منها كتاب الأصول وهو من أجود الكتب المصنفة في هذا الشأن، وإليه المرجع عند اضطراب النقل واختلافه، وكتابجمل الأصول وكتاب الموجز صغير، وكتاب الاشتقاق وكتابشرح كتاب سيبويه وكتاب احتجاج القراء وكتاب الشعر والشعراء وكتاب الرياح والهواء والنار وكتاب الجمل وكتاب المواصلات.

وكان يلثغ في الراء فيجعلها غينا، فأملى يوما كلاما فيه لفظة بالراء، فكتبوها عنه بالغين، فقال: لا، بالغاء، لا بالغاء يريد بالراء، وجعل يكررها على هذه الصورة.

ورأيت في بعض المجاميع أبياتا منسوبة إليه ولا أتحقق صحتها،وهي سائرة بين الناس في جارية كان يهواها، وهي:

ميزت بين جمالها وفعالها ... فإذا الملاحة بالخيانة لاتفي

حلفت لنا أن لاتخون عهودنا ... فكأنما حلفت لنا أان لاتفي

والله لا كلمتها ولو أنها ... كالبدر أو كالشمس أو كالمكتفي

وبعد الفراغ من هذه الترجمة وجدت هذه الأبيات له، ولها قصة عجيبة، وهي أن أبا بكر المذكور كان يهوى جارية فجفته، فاتفق وصول الإمام المكتفي في تلك الأيام من الرقة، فاجتمع الناس لرؤيته، فلما رآه أبو بكر استحسنه، وأنشد لأصحابه الأبيات المذكورة، ثم إن أبا عبد الله محمد بن إسماعيل بن زنجي الكاتب أنشدها لأبي العباس ابن الفرات، وقال: هي لابن المعتز، وأنشدها أبو العباس للقاسم بن عبيد الله الوزير، فاجتمع الوزير بالمكتفي وأنشده إياها فقال لمن هي، فقال لعبيد الله بن عبد الله بن طاهر، فأمر له بألف دينار، فوصلت إليه فقال ابن زنجي: ما أعجب هذه القصة!يعمل أبو بكر ابن السراج أبياتا تكون سببا لوصول الرزق إلى عبيد الله بن عبد الله بن طاهر.

توفي أبو بكر المذكور يوم الأحد لثلاث ليال بقين من ذي الحجة سنة ست عشرة وثلثمائة، رحمه الله تعالى.

والسراج: بفتح السين المهملة والراء المشددة وبعد الألف جيم، هذه النسبة إلى عمل السروجز

أبو بكر ابن الأنباري

أبو بكر محمد بن أبي محمد القاسم بن محمد بن بشار بن الحسن بن بيان بن سماعة ابن فروة بن قطن بن دعامة الأنباري النحوي صاحب التصانيف في النحو والأدب؛ كان علامة وقته في الآداب وأكثر الناس حفظا لها، وكان صدوقا ثقة دينا خيرا من أهل السنة، وصنف كتبا كثيرة في علوم القرآن وغريب الحديث والمشكل والوقف والابتداء والرد على من خالف مصحف العامة وكتاب الزاهر. ذكره الخطيب في تاريخ بغداد وأثنى عليه وقال: بلغني أنه كتب عنه وأبوه حي، وكان يملي ناحية من المسجد وأبوه في ناحية أخرى.

وكان أبوه عالما بالأدب موثقا في الرواية صدوقا أمينا سكن بغداد وروى عنه جماعة من العلماء، وروى عنه ولده المذكور، وله تصانيف فمن ذلك كتاب خلق الإنسان وكتاب خلق الفرس وكتاب الأمثال وكتاب المقصور والممدود وكتاب المؤنث والمذكر وكتاب غريب الحديث.

وقال أبو علي القالي: كان أبو بكر ابن الأنباري يحفظ فيما ذكر ثلثمائة ألف بيت شاهد في القرآن الكريم، وقيل له: قد أكثر الناس من محفوظاتك فكم تحفظ؟ فقال:أحفظ ثلاثة عشر صندوقا، وقيل إنه كان يحفظ مائة وعشرين تفسيرا للقرآن بأسانيدها.

وحكى أبو الحسن الدار قطني أنه حضر في مجلس إملائه يوم جمعة فصحف اسما أورده في إسناد حديث إما كان حيان فقال حبان أو حبان فقال حيان،قال الدار قطني: فأعظمت أن يحمل عن مثله في فضله وجلالته وهم، وهبت أن أوقفه على ذلك، فلما انقضى الإملاء تقدمت إلى المستملي فذكرت له وهمه وعرفته صواب القول فيه، وانصرفت ثم حضرت الجمعة الثانية مجلسه، فقال أبوبكر: عرف جماعة الحاضرين أنا صحفنا الاسم الفلاني لما أملينا حديث كذا في الجمعة الماضية، ونبهنا ذلك الشاب على الصواب، وهو كذا، وعرف ذلك الشاب أنا رجعنا إلى الأصل فوجدناه كما قال.

ومن جملة تصانيفه غريب الحديث قيل إنه خمسة وأربعون ألف ورقة، وكتابشرح الكافي وهو نحو ألف ورقة، وكتاب الهاءات نحو ألف ورقة، وكتاب الأضداد وكتاب الجاهليات وهو سبعمائة ورقة، والمذكر والمؤنث ما عمل احد اتم منه، ورسالة المشكل رد فيها على ابن قتيبة وأبي حاتم.

وكانت ولادته يوم الأحد لإحدى عشرة ليلة خلت من رجب سنة إحدى وسبعين ومائتين. وتوفي ليلة عيد النحر سنة ثمان وعشرين، وقيل سنة سبع وعشرين وثلثمائة.

وتوفي أبوه القاسم سنة أربع وثلثمائة ببغداد، وقيل في صفر سنة خمس وثلثمائة،رحمه الله تعالى.

وقد تقدم الكلام على الأنباري في ترجمة عبد الرحمن الأنباري النحوي. وأملى أبو بكر المذكور في بعض أماليه لبعض العرب:

فهلا منعتم إذ منعتم كلامها خيالا يوافيني على النأي هاديا

سقى الله أطلالا بأكثبة الحمى وإن كن قد أبدين للناس حاليا

منازل لومرت بهن جنازتي لقال الصدى ياصاحبي انزلا بيا

وأملى أيضا في مجلس آخر:

وبالعرصة البيضاء إن زرت أهلها مها مهملات ما عليهن سائس

خرجن لحب اللهو من غير ريبة عفائف باغي اللهو منهن آيس

أبو العيناء

أبو عبد الله محمد بن القاسم بن خلاد بن ياسر بن سليمان، الهاشمي بالولاء، الضرير، مولى أبي جعفر المنصور، المعروف بأبي العيناء صاحب النوادروالشعر والأدب؛أصله من اليمامة ومولده بالأهواز ومنشؤه بالبصرة، وبها طلب الحديث وكسب الأدب، وسمع من أبي عبيدة والأصمعي وأبي زيد الأنصاري والعتبي وغيرهم، وكان من أحفظ الناس وأفصحهم لسانا، وكان من ظرفاء العالم،وفيه من اللسن وسرعة الجواب والذكاء ما لم يكن أحد من نظرائه، وله أخبار حسان وأشعار ملاح مع أبي علي الضرير.

وحضر يوما مجلس بعض الوزراء، فتفاوضوا حديث البرامكة وكرمهم وما كانوا عليه من الجود، فقال الوزير لأبي العيناء – وكان قد بالغ في وصفهم وما كانوا عليه من البذل والإفضال–: قد أكثرت من ذكرهم ووصفك إياهم، وإنما هذا تصنيف الوراقين، وكذب المؤلفين. فقال له أبو العيناء: فلم لا يكذب الوراقون عليك أيها الوزير؟ فسكت الوزير،وعجب الحاضرون من إقدامه عليه.

وشكا إلى عبيد الله بن سليمان بن وهب الوزير سوء الحال، فقال له: أليس قد كتبنا إلى إبراهيم في أمرك؟ قال: نعم، قد كتبت إلى رجل قد قصر من همته طول الفقر، وذل الأسر، ومعاناة الدهر، فاخفق سعيي وخابت طلبتي، فقال عبيدالله: أنت اخترته، فقال: وما علي أيها الوزير في ذلك وقد اختار موسى قومه سبعين رجلا فما كان فيهم رشيد، واختار النبي صلى الله عليه وسلم، عبد الله بن سعد بن أبي سرح كاتبافرجع إلى المشركين مرتدا، واختار علي بن أبي طالب رضي الله عنه أبا موسى الأشعري حاكما له فحكم عليه.

وإنما قال ذل الأسر لأن إبراهيم المذكور كان قد أسره علي بن محمد صاحب الزنج بالبصرة وسجنه فنقب السجن وهرب.

ودخل على أبي الصقر إسماعيل بن بلبل الوزير يوما فقال له ما الذي أخرك عنا يا أبا العيناء؟ فقال: سرق حماري، فقال: وكيف سرق؟ قال: لم أكن مع اللص فأخبرك، قال: فهلا أتيتنا على غيره، قال: قعد بي عن الشراء قلة يساري وكرهت ذلة المكاري، ومنة العواري. وخاصم علويا فقال:له العلوي:تخاصمني وأنت تقول كل يوم: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، فقال:لكني أقول: الطيبين الطاهرين، ولست منهم. ووقف عليه رجل من العامة فلما أحس به قال: من هذا؟ قال: رجل من بني آدم، فقال ابو العيناء: مرحبا بك أطال الله بقاءك، ماكنت أظن هذا النسل إلا قد انقطع.وصار يوما إلى باب صاعد بن مخلد فاستأذن عليه، فقيل هو مشغول بالصلاة، فقال: لكل جديدة لذة، وكان صاعد قبل الوزارة نصرانيا. ومر بباب عبد الله ابن منصور وهو مريض وقد صلح، فقال لغلامه: كيف خبره؟ فقال: كما تحب فقال: ما لي لا أسمع الصراخ عليه؟ ودعا سائلا ليعيشه فلم يدع شيئا إلا أكله، فقال: يا هذا دعوتك رحمة فتركتني رحمة. ولقيه بعض أصحابه في السحر،فجعل يتعجب من بكورة، فقال أبو العيناء: أراك تشركني في الفعل،وتفردني بالتعجب. وذكر له أن المتوكل قال: لولا أنه ضرير لنادمناه، فقال: إن أعفاني من رؤية الأهلة وقراءة نقوش الفصوص فأنا أصلح للمنادمة. وقيل له: إلى متى تمدح وتهجو؟ فقال: ما دام المحسن محسنا والمسيء مسيئا، بل أعوذ بالله أن أكون كالعقرب التي تلسب النبي والذمي.

وذكر الزمخشري في كتابربيع الأبرار في باب الظلم قال أبو العيناء فقلت: قد تضافروا علي وصاروا يدا واحدة، فقال: "يد الله فوق أيديهم" – الفتح:10 – قلت: فإن لهم مكرا، قال: "ولايحيق المكر السيء إلا بأهله" – فاطر:43 – قلت هم كثير، قال: "كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين" – البقرة:249–.

وكان بينه وبين ابن مكرم مداعبات، فسمع ابن مكرم رجلا يقول: من ذهب بصره قلت حيلته، فقال: ما أغفلك عن أبي العيناء! ذهب بصره فعظمت حيلته.وقد ألم أبو علي البصير إلى هذا المعنى يشير به إلى أبي العيناء، فقال:

قد كنت خفت يد الزما	ن عليك أن ذهب البصر
لم أدر أنك بالعمى	تغنى ويفتقر البشر

وسمع ابن مكرم أبا العيناء يقول في بعض دعائه:يارب سائلك، فقال يا ابن الفاعلة، ومن لست سائله. وقال له ابن مكرم يوما يعرض به: كم عدد المكدين بالبصرة؟ فقال له: مثل عدد البغائين ببغداد.

ودخل على ابن ثوابة عقيب كلام جرى بينه وبين أبي الصقر أربى ابن ثوابة عليه فيه، فقال له: بلغني ماجرى بينك وبين أبي الصقر، وما منعه من استقصاء الجواب إلا أنه لم يجد عزا فيضيعه، ولا مجدا فينقصه، وبعد فإنه عاف لحمك أن يأكل، وسهك دمك أن يسفكه، فقال ابن ثوابة: وما أنت والدخول بيني وبين هؤلاء يامكدي؟ فقال: لاتنكر على ابن ثمانين قد ذهب بصره وجفاه سلطانه أن يعول على إخوانه فيأخذ من أموالهم، ولكن أشد من هذا من يستنزل الماء من أصلاب الرجال فيستفرغه في جوفه، فيقطع أنسابهم ويعظم أوزارهم، فقال ابن ثوابة: ماتساب اثنان إلا غلب ألأمهما، فقال أبو العيناء: وبها غلبت أبا الصقر بالأمس، فأسكته.

ودخل على المتوكل في قصره المعروف بالجعفري سنة ست وأربعين ومائتين فقال له: ما تقول في دارنا هذه؟ فقال: إن الناس بنوا الدور في الدنيا وأنت بنيت الدنيا في دارك، فاستحسن كلامه، ثم قال: كيف شربك للخمر؟ قال: أعجز عن قليله وأفتضح عنده كثيره، فقال له: دع هذا عنك ونادمنا، فقال:أنا رجل مكفوف، وكل من في مجلسك يخدمك، وأنا أحتاج أن أخدم ولست آمن من أن تنظر إلي بعين راض، وقلبك علي غضبان، أو بعين غضبان وقلبك راض، ومتى لم أميز بين هذين هلكت، فأختار العافية على التعرض للبلاء، فقال: بلغنا عنك بذاء في لسانك، فقال: ياأمير المؤمنين، قد مدح الله تعالى وذم، فقال "نعم العبد إنه أواب" – ص:44 – وقال عز وجل "هماز مشاء بنميم مناع للخير معتد أثيم" – القلم:11–وقال الشاعر:

إذا أنا بالمعروف لم أثن صادقا	ولم أشتم النكس اللئيم المذمما
ففيم عرفت الخير والشر باسمه	وشق لي الله المسامع والفما

قال:فمن أين أنت، قال: من البصرة، قال: فما تقول فيها؟ قال ماؤها أجاج وحرها عذاب، وتطيب في الوقت الذي تطيب فيه جهنم.
ولما سلم نجاح بن سلمة إلى موسى بن عبد الله الأصبهاني ليستأدي ما عليه من الأموال عاقبه فتلف في مطالبته، وذلك في يوم الاثنين لثمان بقين من ذي القعدة سنة خمس وأربعين ومائتين، وفي تلك الليلة بلغ المعتز بالله ابن المتوكل الخبر، فاجتمع بعض الرؤساء بأبي العيناء، فقال له: ما عندك من خبر نجاح ابن سلمة؟ فقال أبو العيناء "فوكزه موسى فقضى عليه" - القصص:15 - فبلغت كلمته موسى فلقيه في الطريق فتهدده، فقال له أبو العيناء "أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا بالأمس" - القصص:19-.
وكتب إلى بعض الرؤساء وقد وعده بشيء فلم ينجزه: ثقتي بك تمنعني من استبطائك، وعلمي بشغلك يدعوني إلى إذكارك، ولست آمن، مع استحكام ثقتي بطولك والمعرفة بعلو همتك، اخترام الأجل، فإن الآجال آفات الآمال، فسح الله في أجلك، وبلغك منتهى أملك، والسلام.
وأحواله ونوادره كثيرة.
وروي عنه أنه قال: كنت يوما جالسا عند أبي الحكم إذ أتاه رجل فقال له: وعدتني وعدا فإن رأيت أن تنجزه، فقال: ما أذكره، فقال: إن لم تذكره فلأن من تعده مثلي كثير، وأنا لا أنساه، لأن من أسأله مثلك قليل، فقال: أحسنت لله أبوك، وقضى حاجته.
وكانت ولادته سنة إحدى وتسعين ومائة بالأهواز - كما تقدم، ونشأ بالبصرة وكف بصره وقد بلغ أربعين سنة.
وكان جده الأكبر لقي علي بن أبي طالب فأعياه في المخاطبة معه فدعا عليه بالعمى له ولولده، فكل من عمي من ولد جدأبي العيناء في فهو صحيح النسب فيهم، هكذا قاله أبو سعيد الطلحي. وخرج من البصرة وهو بصير وقدم سر من رأى فاعتلت عيناه فعمي وسكن بغداد مدة وعاد إلى البصرة، وتوفي بها في جمادى الآخرة سنة ثلاث وثمانين، وقيل اثنتين وثمانين ومائتين. وقال ابنه جعفر: توفي أبي لعشر ليال خلون من جمادى الأولى، ومولده سنة تسعين ومائة، والله أعلم، رحمه الله تعالى. ولقب بأبي العيناء لأنه قال لأبي زيد الأنصاري: كيف تصغر عينا؟ فقال: عيينا ياأبا العيناء، فبقي عليه.
وعيناء: بفتح العين المهملة وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح النون وبعدها ألف ممدودة.
وخلاد: بفتح الخاء المعجمة وتشديد اللام ألف.
وقد تقدم الكلام على اليمامة والأهواز فأغنى عن الإعادة.

الواقدي

أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد الواقدي المدني مولى بني هاشم، وقيل مولى بني سهم بن أسلم؛ كان إماما عالما له التصانيف في المغازي وغيرها، وله كتاب الردة ذكر فيه ارتداد العرب بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، ومحاربة الصحابة رضي الله عنهم، لطليحة بن خويلد الأزدي والأسود العنسي ومسيلمة الكذاب، وما أقصر فيه.
سمع من أبي ذئب ومعمر بن راشد ومالك بن أنس والثوري وغيرهم. وروى عنه كاتبه محمد بن سعد - المذكور عقيبة إن شاء الله تعالى - وجماعة من الأعيان، وتولى القضاء بشرقي بغداد، وولاه المأمون القضاء بعسكر المهدي. وضعفوه في الحديث وتكلموا فيه.
وكان المأمون يكرم جانبه ويبالغ في رعايته، وكتب إليه مرة يشكو ضائقة لحقته وركبه بسببها دين، وعين مقداره في قصته، فوقع المأمون فيها بخطه: فيك خلتان سخاء وحياء، فالسخاء أطلق يديك بتبذي ماملكت، والحياء حملك أن ذكرت لنا بعض دينك، وقد أمرنا لك بضعف ما سألت، وإن كن قصرنا عن بلوغ حاجتك فبجنايتك على نفسك، وإن كنا بلغنا بغيتك فزد في بسطة يدك، فإن خزائن الله مفتوحة ويده بالخير مبسوطة، وأنت حدثتني حين كنت على قضاء الرشيد أن النبي صلى الله عليه وسلم، قال للزبير: يا زبير إن مفاتيح الرزق بإزاء العرش، ينزل الله سبحانه للعباد أرزاقهم على قدر نفقاهم، فمن كثر كثر له، ومن قلل قلل عليه، قال الواقدي وكنت نسيت الحديث، فكانت مذكراته إياي أعجب إلي من صلته.

وروى عنه بشر الحافي - المقدم ذكره - رضي الله عنه، حكاية واحدة، وهي أنه سمعه يقول:ما يكتب للحمى، يؤخذ ثلاث ورقات زيتون تكتب يوم السبت وأنت على طهارة على واحدة منهاجهنم غرثيوعلى الأخرى جهنم عطشى وعلى الأخرى جهنم مقرورة ثم تجعل في خرقة وتشد على عضد

المحموم الأيسر، قال الواقدي المذكور جربته فوجدته نافعا، هكذا نقل هذه الحكاية أبو الفرج ابن الجوزي في كتابه الذي وضعه في أخبار بشر الحافي.

وروى المسعودي في كتابمروج الذهب أن الواقدي المذكور قال: كان لي صديقان أحدهما هاشمي، وكنا كنفس واحدة، فنالتني ضائقة شديدة، وحضر العيد فقالت امرأتي: أما نحن في أنفسنا فنصبر على البؤس والشدة،وأما صبياننا هؤلاء فقد قطعوا قلبي رحمة لهم، لأنهم يرون صبيان الجيران قد تزينوا في عيدهم وأصلحوا ثيابهم وهم على هذه الحال من الثياب الرثة، فلو احتلت في شيء تصرفه في كسوتهم، قال: فكتبت إلى صديق لي وهو الهاشمي أسأله التوسعة علي بما حضر، فوجه إلي كيسا مختوما ذكر أن فيه ألف درهم، فما استقر قراري حتى كتب إلي الصديق الآخر يشكو مثل ما شكوت إلى صاحبي الهاشمي، فوجهت إليه الكيس بحاله، وخرجت إلى المسجد فأقمت فيه ليلتي مستحييا من امرأتي، فلما دخلت عليها استحسنت ما كان مني و لم تعنفني عليه، فبينا أنا كذلك إذ وافى صديقي الهاشمي ومعه الكيس كهيئته، فقال لي:اصدقني عما فعلته فيما وجهت به إليك، فعرفته الخبر على وجهه، فقال لي: إنك وجهت إلي وما أملك على الأرض إلا ما بعثت به إليك، وكتبت إلى صديقنا أسأله المواساة، فوجه كيسي بخاتمي، قال الواقدي: فتواسينا ألف درهم فيما بيننا، ثم إنا أخرجنا للمرأة مائة درهم قبل ذلك، ونمي الخبر إلى المأمون، فدعاني وسألني، فشرحت له الخبر،فامر لنا بسبعة آلاف دينار،لكل واحد منا ألفا دينار وللمرأة ألف دينار.

وقد ذكر الخطيب فيتاريخ بغداد هذه الحكاية وبينها وبين ماذكرناه ها هنا اختلاف يسير.

وكانت ولادة الواقدي في أول سنة ثلاثين ومائة. وتوفي عشية يوم الاثنين حادي عشر ذي الحجة سنة سبع ومائتين، وهو يومئذ قاض ببغداد في الجانب الغربي، كذا قاله ابن قتيبة. وقال السمعاني: كان قاضيا بالجانب الشرقي كما تقدم، والله أعلم. وصلى عليه محمد بن سماعة التميمي ودفن في مقابر الخيزران، وقيل مات سنة تسع، وقيل سنة ست ومائتين، والأول أصح، وقال الخطيب فيتاريخ بغداد في أول ترجمة الواقدي: إنه توفي في ذي القعدة، وقال في آخر الترجمة: إنه مات في ذي الحجة، والله أعلم، رحمه الله تعالى ورأيت بخطي في مسوداتي أن الواقدي مات وعمره ثماني وسبعون سنة.

والواقدي: بفتح الواو وبعد الألف قاف مكسورة ثم دال مهملة، هذه النسبة إلى واقد وهو جده المذكور.

وقد تقدم الكلام على المدني.

وعسكر المهدي هي المحلة المعروفة اليوم بالرصافة في الجانب الشرقي من بغداد، عمرها أبو جعفر المنصور لولده المهدي فنسب إليه، وهذا يؤيد أن الواقدي كان قاضي الجانب الشرقي لاالغربي، والله أعلم.

محمد بن سعد كاتب الواقدي

أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع، الزهري البصري كاتب الواقدي؛ كان أحد الفضلاء النبلاء الأجلاء، صحب الواقدي المذكور قبله زمانا وكتب له فعرف به، وسمع سفيان بن عيينة وأنظاره، وروى عنه أبو بكر ابن أبي الدنيا وأبو محمد الحارث بن أبي أسامة التميمي وغيرهما وصنف كتابا كبيرا في طبقات الصحابة والتابعين والخلفاء إلى وقته، فأجاد فيه وأحسن، وهو يدخل في خمس عشرة مجلدة، وله طبقات أخرى صغرى، وكان صدوقا ثقة.

ويقال اجتمعت كتب الواقدي عند أربعة أنفس: أولهم كاتبه محمد بن سعد المذكور، وكان كثير العلم غزير الحديث والرواية كثير الكتبة، كتب الحديث والفقه وغيرهما. وقال الحافظ أبو بكر الخطيب صاحب تاريخ بغداد في حقه: ومحمد بن سعد عندنا من أهل العدالة وحديثه يدل على صدقه فإنه يتحرى في كثير من رواياته، وهو من موالي الحسين بن عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب.

وتوفي يوم الأحد لأربع خلون من جمادى الآخرة، سنة ثلاثين ومائتين ببغداد. ودفن في مقبرة باب الشام، وهو ابن اثنتين وستين سنة، رحمه الله تعالى.

الدولابي

أبو بشر محمد بن أحمد بن حماد بن سعد، الأنصاري بالولاء، الوراق الرازي الدولابي؛ كان عالما بالحديث والأخبار والتواريخ، سمع الأحاديث بالعراق والشام وروى عن محمد بن بشار وأحمد بن عبد الجبار العطاردي وخلق كثير؛ وروى عنه الطبراني وأبوحاتم ابن حبان البستي. وله تصانيف مفيدة في

التاريخ ومواليد العلماء ووفياتهم، واعتمد عليه أرباب هذا الفن في النقل وأخبروا عنه في كتبهم ومصنفاتهم المشهورة. وبالجملة فقد كان من الأعلام في هذا الشأن وممن يرجع إليه، وكان حسن التصنيف. وتوفي سنة عشرين وثلثمائة بالعرج، رحمه الله تعالى.

وروي عنه أنه كان ينشد لعروة بن حزام العذريحيث قال:

إذا رام قلبي هجرها حال دونه — شفيعان من قلبي لها جدلان

إذا قال: لا، قالا: بلى، ثم أصبحوا — جميعا على الرأي الذي يريان

والدولابي: بضم الدال المهملة وفتحها – قال السمعاني: والفتح أصح – وسكون الواو وبعد اللام الف باء موحدة، هذه النسبة إلى الدولاب، وهي قرية من أعمال الري، وبالأهواز قرية يقال لها الدولاب، وبها كانت الوقعة المشهورة للأزارقة، وبشرقي بغداد موضع آخر يقال له الدولاب، ودولاب الجار أيضا موضع آخر، والدولاب الذي يدار ويستعمل بضم الدال وفتحها.

والعرج: بفتح العين المهملة وسكون الراء وبعدها جيم، وهي عقبة بين مكة والمدينة على جادة الحاج. والعرج أيضا:قرية جامعة من نواحي الطائف إليها ينسب العرجي الشاعر، وهو عبد الله بن عمرو بن عمر بن عثمان بن عفان، رضي الله عنه.

ولا أعلم هل توفي الدولابي في العرج الأولى أم الثانية، وباليمن بلد آخر يقال له سوق العرج، والله أعلم.

المرزباني

أبو عبيد الله محمدبن عمران بن موسى بن سعيد بن عبيد الله، الكاتب المرزباني الخراساني الأصل البغدادي المولد، صاحب التصانيف المشهورة والمجاميع الغريبة؛ كان راوية للأدب صاحب أخبار، وتواليفه كثيرة، وكان ثقة في الحديث ومائلا إلى التشيع في المذهب، حدث عن عبد الله بن محمد البغوي وأبي بكر ابن داود السجستاني في آخرين.

وهو أول من جمع ديوان يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الأموي واعتنى به، وهو صغير الحجم يدخل في مقدار ثلاث كراريس، وقد جمعه من بعده جماعة وزادوا فيه أشياء كثيرة ليست له وكنت حفظت جميع ديوان يزيد لشدة غرامي به، وذلك في سنة ثلاث وثلاثين وستمائة بمدينة دمشق وعرفت صحيحه من المنسوب إليه الذي ليس له، وتتبعته حتى ظفرت بصاحب كل أبيات، ولولا خوف التطويل لبينت ذلك. وشعر يزيد، مع قلته، في نهاية الحسن، ومن أطايب شعره الأبيات العينية التي منها:

إذا رمت من ليلى على البعد نظرة — تطفي جوى بين الحشا والأضالع

تقول نساء الحي تطمع أن ترى — محاسن ليلى؟ مت بداء المطامع

وكيف ترى ليلى بعين ترى بها — سواها؟ وما طهرتها بالمدامع

وتلتذ منها بالحديث وقد جرى — حديث سواها في خروق المسامع

أجلك ياليلى عن العين إنما — أراك بقلب خاشع لك خاضع

ومن لطيف شعره قوله:

ولي ولها إذا الكاسات دارت — رقى سحر يفك عرى الهموم

معاتبة ألذ من الأماني — وبث جوى أرق من النسيم

ومن شعره:

وداع دعاني والثريا كأنها — قلائص قد أعنقن خلف فنيق

وناولني كأسا كأن بنانه — مخلقة من نورها بخلوق

إذا ما سما فيها المزاج حسبتها — نجوم لآل في سماء عقيق

وقال اغتنم من دهرنا غفلاته — فعقد نظام الدهر غير وثيق

وإني من لذات دهري لقانع — بحلو حديث صديق أو بمر عتيق

هما ما هما لم يبق شيء سواهما — حديث صديق أو عتيق رحيق

وكانت ولادة المرزباني المذكور في جمادى الآخرة سنة سبع وتسعين ومائتين، وقيل سنة ست وتسعين. وتوفي يوم الجمعة ثاني شوال سنة أربع وثمانين، وقيل سنة ثمان وسبعين وثلثمائة، والأول أصح، رحمه الله تعالى، وصلى عليه الفقيه أبو بكر الخوارزمي ودفن في داره بشارع عمرو الرومي ببغداد في الجانب الشرقي.

وروى عن أبي القاسم البغدادي وأبي بكر ابن دريد وأبي بكر ابن الأنباري، وروى عنه أبو عبد الله الصيمري وأبو القاسم التنوخي وأبو محمد الجوهري وغيرهم.

والمرزباني: بفتح الميم وسكون الراء وضم الزاي وفتح الباء الموحدة وبعد الألف نون، هذه النسبة إلى بعض أجداده، وكان اسمه المرزبان، وهذا الاسم لايطلق عند العجم إلا على الرجل المقدم العظيم القدر، وتفسيره بالعربية حافظ الحد، قاله ابن الجواليقي في كتابهالمعرب

أبو بكر الصولي

أبو بكر محمد بن يحيى بن عبد الله بن العباس بن محمد بن وصول تكين الكاتب، المعروف بالصولي الشطرنجي؛ كان أحد الأدباء الفضلاء المشاهير، روى عن أبي داود السجستاني وأبي العباس ثعلب وأبي العباس المبرد وغيرهم، وروى عنه أبو الحسن الدار قطني الحافظ، وأبو عبيد الله المرزباني المذكور قبله وغيرهما. ونادم الراضي، وكان أولا يعلمه ثم نادم المقتدر، ونادم قبله المكتفي.

وله التصانيف المشهورة منها كتاب الوزراء وكتاب الورقة وكتاب أدب الكاتب وكتاب الأنواع وكتاب أخبار أبي تمام وكتاب أخبار القرامطة وكتاب الغرر وكتاب أخبار أبي عمرو بن العلاء وكتاب العبادة وكتاب أخبار ابن هرمة وكتاب أخبار السيد الحميري وكتاب أخبار إسحاق بن إبراهيم، وجمع أخبار جماعة من الشعراء، ورتبه على حروف المعجم، وكلهم من الشعراء المحدثين، وغير ذلك.

وكان ينادم الخلفاء، وكان أغلب فنونه أخبار الناس، وله رواية واسعة ومحفوظات كثيرة، وكان حسن الاعتقاد جميل الطريقة مقبول القول، وكان أوحد وقته في لعب الشطرنج، لم يكن في عصره مثله في معرفته.والناس إلى الآن يضربون به المثل في ذلك فيقولون لمن يبالغون في حسن لعبه فلان يلعب الشطرنج مثل الصولي.

ورأيت خلقا كثيرا يعتقدون أن الصولي المذكور هو الذي وضع الشطرنج، وهو غلط، فإن الذي وضعه صصه بن داهر الهندي، واسم الملك الذي وضعه له شهرام، بكسر الشين المعجمة.

وكان أردشير ابن بابك أول ملوك الفرس الأخيرة قد وضع النرد، ولذلك قيل له النردشير لأنهم نسبوه إلى واضعه المذكور، وجعله مثالا للدنيا وأهلها، فرتب الرقعة اثني عشر بيتا بعدد شهور السنة، وجعل القطع ثلاثين قطعة بعدد أيام كل شهر، وجعل الفصوص مثل القدر وتقلبه بأهل الدنيا. وبالجملة فالكلام في هذا يطول ويخرج عما نحن بصدده؛ فافتخرت الفرس بوضع النرد وكان ملك الهند يومئذ بلهيت، فوضع له صصه المذكور الشطرنج، فقضت حكماء ذلك العصر بترجيحه على النرد لأمور يطول شرحها.

ويقال إن صصه لما وضع الشطرنج وعرضه على الملك شهرام المذكور أعجبه وفرح به كثيرا، وأمر أن يكون في بيوت الديانة، ورآه أفضل ما علم لأنه آلة للحرب وعز للدين والدنيا وأساس لكل عدل، وأظهر الشكر والسرور على ما أنعم عليه في ملكه منه، وقال لصصه: اقترح علي ما تشتهي، فقال له: اقترحت أن تضع حبة قمح في البيت الأول، ولاتزال تضعها حتى تنتهي إلى آخرها، فمهما بلغ تعطيني، فاستصغر الملك ذلك، وأنكر عليه كونه قابله بالنزر اليسير، وكان قد أضمر له شيئا كثيرا، فقال: ما أريد إلاهذا، فراده فيه وهو مصر عليه فأجابه إلى مطلوبه وتقدم له به، فلما قل لأرباب

الديوان حسبوه فقالوا ما عندنا قمح يفي بهذا ولا بما يقاربه، فلما قيل للملك استنكر هذه المقالة، وأحضر أرباب الديوان وسألهم فقالوا له: لو جمع كل قمح في الدنيا ما بلغ هذا القدر، فطالبهم بإقامة البرهان على ذلك، فقعدوا وحسبوه، فظهر له صدق ذلك، فقال الملك لصصه: أنت في اقتراحك ما اقترحت أعجب حالا من وضعك الشطرنج.

وطريق هذا التضعيف ان يضع الحاسب في البيت الأول حبة وفي الثاني حبتين وفي الثالث أربع حبات وفي الرابع ثماني حبات،وهكذا إلى آخره، كلما انتقل إلى بيت ضاعف ما قبله وأثبته فيه. ولقد كان في نفسي من هذه المبالغة شيء حتى اجتمع بي بعض حساب الإسكندرية، وذكر لي طريقا تبين لي صحة ماذكروه، وأحضر لي ورقة بصورة ذلك، وهو أنه ضاعف الأعداد إلى البيت السادس عشر فأثبت فيه اثنين وثلاثين ألفا وسبعمائة وثمانيا وستين حبة، وقال: نجعل هذه الجملة مقدار قدح، وقد اعتبرتها فكانت كذلك، والعهدة عليه في هذا النقل، ثم ضاعف القدح في البيت السابع عشر، وهكذا حتى بلغ ويبة في البيت العشرين ثم انتقل إلى الويبات، ومنها إلى الأرادب، ولم يزل يضاعفها حتى انتهى في بيت الأربعين إلى مائة ألف إردب أربعة وسبعين ألف إردب وسبعمائة واثنين وستين إردبا وثلثين، فقال تجعل هذه الجملة في شونه فإن الشونة لايكون فيها أكثر من هذا، ثم ضاعف الشون إلى بيت الخمسين فكانت الجملة ألفا وأربعا وعشرين شونة، فقال: تجعل هذه في مدينة، فإن المدينة لايكون فيها أكثر من هذه الشون، وأي مدينة يكون فيها هذه الجملة من الشون؟ ثم ضاعف المدن حتى انتهى في البيت الرابع والستين–وهو آخر أبيات رقعة الشطرنج – إلى ستة عشر ألف وثلثمائة وأربع وثمانين مدينة، وقال: تعلم أنه ليس في الدنيا مدن أكثر من هذا العدد، فإن دور كرة الأرض معلوم بطريق الهندسة، وهو ثمانية آلاف فرسخ، بحيث لووضعنا طرف حبل على أي موضع كان من الأرض وأدرنا الحبل على كرة الأرض حتى انتهينا بالطرف الآخر إلى ذلك الموضع من الأرض والتقى الطرفان فإذا مسحنا ذلك الحبل كان طوله أربعة وعشرين ألف ميل، وهي ثمانية آلاف فرسخ، وهو قطعي لاشك فيه، ولولا خوف التطويل والخروج عن المقصود لبينت ذلك – وسأذكره إن شاء الله تعالى في ترجمة بني موسى – وتعلم ما في الأرض من المعمور وهو مقدار ربع الكرة بطريق التقريب.

وقد انتشر الكلام وخرجنا عن المقصود، لكنه ماخلا عن فائدة، فإن هذه الطريقة غريبة، فأحببت إثباتها ليقف عليها من يستنكر ما قالوه في تضعيف رقعة الشطرنج ويعلم أن ذلك حق، وأن هذه الطريقة سهلة الاطلاع على حقيقة ما ذكروه.

ولنرجع إلى حديث الصولي: حكى المسعودي في كتاب مروج الذهب أن الإمام الراضي بالله أتى في بعض منتزهاته بستانا مونقا رائقا، فقال لمن حضره ممن كان أتى ندمائه: هل رأيتم منظرا أحسن من هذا؟ فكل أثنى، وذهب فيه إلى مدحه ووصف محاسنه، وأنها لايفي بها شيء من زهرات الدنيا، فقال الراضي لعب الصولي بالشطرنج أحسن من هذا، ومن كل ما تصفون.

ثم قال المسعودي:وقد ذكر أن الصولي في بدء دخوله على الإمام المكتفي، وقد كان ذكر له تخرجه في اللعب بالشطرنج، وكان الماوردي اللاعب متقدما عنده، متمكنا من قلبه معجبا به للعبه، فلما لعبا جميعا بحضرة المكتفي حمل المكتفي حسن رأيه في الماوردي وتقدم الحرمة في الألفة على نصرته وتشجيعه وتنبيهه حتى أدهش ذلك الصولي في أول وهلة، فلما اتصل اللعب بينهما وجمع له الصولي متانته وقصد قصده غلبه غلبا لايكاد يرد عليه شيئا، وتبين حسن لعب الصولي للمكتفي، فعدل عن هواه ونصرة الماوردي، وقال له: عاد ماء وردك بولا.

وأخبارالصولي ونوادره كثيرة، وما جراياته أكثر من أن تحصى. ومع فضائله والاتفاق على تفننه في العلوم وخلاعته وظرافته ما خلا من منتقص هجاه هجوا لطيفا، وهو أبو سعيد العقيلي، فإنه رأى له بيتا مملوءا كتبا قد صفها وجلودها مختلفة الألوان، وكان يقول: هذه كلها سماعي، وإذا احتاج إلى معاودة شيء منها قال: ياغلام هات الكتاب الفلاني، فقال أبو سعيد المذكور هذه الأبيات:

إنما الصولي شيخ — أعلم الناس خزانه
إن سالناه بعلم — طلبا منه إبانه
قال ياغلمان هاتوا — رزمة العلم فلانه

وتوفي الصولي المذكور سنة خمس – وقيل ست – وثلاثين وثلثمائة بالبصرة مستترا، لأنه روى خبرا في حق علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فطلبته الخاصة والعامة لتقتله فلم تقدر عليه، وكان قد أخرج من بغداد لإضاقه لحقته.
وقد سبق الكلام على الصولي في ترجمة إبراهيم بن العباس الصولي، وهو عم والدأبي بكر المذكور، فليطلب هناك.

وصصه: بصادين مهملتين الأولى منهما مكسورة والثانية مشددة مفتوحة وفي الآخر هاء ساكنة.
وداهر: بدال مهملة وبعد الألف هاء مكسورة ثم راء.
وأردشير: بفتح الهمزة وسكون الراء وفتح الدال المهملة وكسر الشين المعجمة وسكون الياء المثناة من تحتها وفي آخرها راء؛ هكذا قاله الحافظ الدار قطنيوقال غير الدار قطني: هذا لفظ عجمي، وتفسيره بالعربي دقيق وحليب، فأرد: دقيق، وشير:حليب، وقيل دقيق وحلاوة، وقيل إنه بالزاي لا بالراء، والله أعلم وهو الذي أباد ملوك الطوائف، ومهد الملك لنفسه، واستولى على الممالك، وهو جد ملوك الفرس الذين آخرهم يزدجر، وكان انقراض ملكهم في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه اثنتين وثلاثين من الهجرة، وأخبارهم مشهورة وهؤلاء غير ملوك الفرس الأوائل الذين آخرهم دار بن دارا الذي قتله الإسكندر، ورتب في البلاد ملوك الطوائف وسماهم بذلك لأن كل ملك يحكم على طائفة مخصوصة، بعد أن كانت الممالك لرجل واحد، وكان أردشير من ملوك الطوائف، ثم استقل بالجميع كالعادة الأولى، وكانت مدة مملكة ملوك الطوائف أربعمائة سنة، ومدة مملكة ملوك الفرس الأواخر أربعمائة سنة ويزدجر: بفتح الياء المثناة من تحتها وسكون الزاي وفتح الدال المهملة وكسر الجيم وسكون الراء وفي الآخر دال مهملة.
وأما بلهيت ملك الهند فلا أتحقق ضبطه، غير أني وجدته مضبوطا بخط الناسخ، وقد فتح الباء الموحدة وسكن اللام وفتح الهاء وسكن الياء المثناة من تحتها وبعدها تاء مثناة من فوقها، والله أعلم بصحة ذلك من سقمه.

الحاتمي

أبو علي محمد بن الحسن بن المظفر، الكاتب اللغوي البغدادي المعروف بالحاتم؛ أحد الأعلام المشاهير المطلعين المكثرين، أخذ الأدب عن أبي عمر الزاهد غلام ثعلب – وقد تقدم ذكره – وروى عنه أخبارا وأملاها في مجالس الأدب، وروى عن غيره أيضا، وأخذ عنه جماعة من النبلاء:منهم القاضي أبو القاسم التنوخي – المقدم ذكره – وغيره، وله الرسالة الحاتمية التي شرح فيها ما جرى ينه وبين أبي الطيب المتنبي من إظهار سرقاته وإبانة عيوب شعره، ولقد دلت على غزارة مادته وتوفر اطلاعه.
وحكى في أول الرسالة السبب الحامل له على ذلك فقال: لما ورد أحمد بن الحسين المتنبي مدينة السلام منصرفا عن مصر ومتعرضا للوزير أبي محمد المهلبي، بالتخييم عليه والمقام لديه، التحف رداء الكبر وأذال ذيول التيه، ونأى بجانبه استكبارا وثنى عطفيه جبرية وازورارا، فكان لايلاقي أحد إلا أعرض عنه تيها وزخرف القول عليه تمويها، تخيل عجبا إليه أن الأدب مقصور عليه، وأن الشعر بحر لم يرد نمير مائة غيره وروض لم يرد نواره سواه، فهو يجني جناه ويقطف قطوفه دون من تعاطاه، وكل مجر في الخلاء يسر ولكل نبأ مستقر،
فغبر جاريا على هذه الوتيرة مدة مديدة أجررته رسن البغي فيها، فظل يمرح في تيهه حتى إذا تخيل أنه السابق الذي لايجارى في مضمار ولا يساوي عذاره بعذار، وأنه رب الكلام ومقتض عذارى الألفاظ، ومالك زق الفصاحة نثرا ونظما وقريع دهره الذي لايقارع فضلا وعلما، وثقلت وطأته على كثير مما وسم نفسه بميسم الأدب، وأنبط من مائه أعذب مشرب، فطأطأ بعض رأسه وخفض بعض جناحه وطامن على التسليم له طرفه، وساء معز الدولة أحمد بن بويه – المقدم ذكره – وقد صورت حاله، أن يرد حضرته مهي دار الخلافة ومستقر العز وبيضة الملك رجل صدر عن حضرة سيف الدولة بن حمدان – وقد تقدم ذكره أيضا – وكان عدوا مباينا لمعز الدولة، فلا يلقى أحدا بمملكته يساويه في صناعته، وهو ذو النفس الأبية والعزيمة الكسروية، والهمة التي لو همت بالدهر لما تصرفت بالأحرار صروفه ودارت عليهم دوائره، وتخيل الوزير المهلبين رجما بالغيب، أن أحدا لايستطيع مساجلته ولا يرى نفسه كفؤا له ولا يضطلع بأعبائه فضلا عن التعلق بشيء من معانيه، وللرؤساء مذاهب في تعظيم من يعظمونه وتفخيم من يفخمونه وتكرمة من يراعونه ويكرمونه، وربما حالت بهم الحال وأوشكوا عن هذه الخليقة الانتقال، وتلك صورة الوزير المهلبي في عودة عن رأيه هذا فيه،و لم و لم يكن هناك مزية يتميز بها أبو الطيب عن الهجين الجذع من أبناء الأدب فضلا عن العتيق القارح إلا الشعر، ولعمري إن أفنانه كانت فيه رطبة

ومجانية عذبة، فنهدت له متتبعا عواره ومقلما أظفاره ومذيعا أسراره، وناشرا مطاويه ومنتقدا من نظمه ما تسمح فيه،ومتحنيا أن تجمعنا دار يشار إلى ربها فأجري أنا وهو في مضمار يعرف به السابق من المسبوق واللاحق من المقصر عن اللحوق، وكنت إذ ذاك ذا سحاب مدراروزند في كل فضيلة وار، وطبع يناسب صفو العقار إذا وشيت بالحباب ووشت بها سرائر الأكواب، هذا وغدير الصبا صاف ورداؤه ضاف، وديباجة العيش غضة وأرواحه معتلة وغمائمة منهلة، وللشبيبة شره وللاقبال من الدهر غرة، والخيل تجري في يوم الرهان بإقبال أربابها لابعروقها ونصابها، ولكل امرئ حظ من مواتاه زمانه، يقضى في ظله أرب ويدرك مطلب ويتوسع مراد ومذهب، حتى إذا عدت عن اجتماعنا عواد من الأيام قصدت مستقره وتحتي بغلة سفواء تنظر عن عيني باز وتتشوف بمثل قادمتي نسر، وهي مركب رائع، وكأنني كوكب وقاد من تحته غمامة يقتادها زمام الجنوب، وبين يدي عدة من الغلمان الروقة مماليك وأحرار يتهافتون تهافت فريد الدر عن أسلاكه. و لم أورد هذا متبجحا ولا متكثرا بذكره، بل ذكرته لأن أبا الطيب شاهد جميعه في الحال، و لم ترعه روعته ولا استعطفه زبرجه، ولا زادته تلك الجملة الجميلة التي ملأت أقمه طرفه وقلبه إلا عجبا بنفسه وإعراضا عني بوجهه، وكان قد أقام هناك سوقا عند أغيلمة لم ترضهم العلماء ولاعركتهم رحى النظراء، ولا أنضوا أفكار في مدرسة الأدب، ولا فرقوا بين حلو الكلام ومره وسهله ووعره، وإنما غاية أحدهم مطالعة شعر أبي تمام وتعاطي الكلام على نبذ من معانيه، وعلى ما تعلقت الرواة مما يجوز فيه، فألفيت هناك فتية تأخذ عنه شيئا من شعره.

فحين أوذن بحضوري واستؤذن عليه لدخولي، نهض من مجلسه مسرعا وواری شخصه عني مستخفيا، وأعجلته نازلا عن البغلة وهو يراني لانتهائي بها إلى حيث أخذها طرفة، ودخلت فأعظمت الجماعة قدري وأجلستني في مجلسه وإذا تحته أخلاق عباءة قد ألحت عليها الحوادث رسوم دائرة وأسلاك متناثرة، فلم يكن إلا ريثما جلست، فنهضت، فوفيته حق السلام غير مشاح له في القيام، لأنه إنما اعتمد بنهوضه عن الموضع ألا ينهض إلي، والغرض كان في لقائه غير ذلك، وحين لقيته تمثلت بقول الشاعر:

وفي الممشى إليك علي عار — ولكن الهوى منع القرارا

فتمثل بقوله الآخر:

يشقى رجال ويشقى آخرون بهم — ويسعد الله أقواما بأقوام

وليس رزق الفتى من فضل حيلته — لكن جدود وأرزاق بأقسام

كالصيد يحرمه الرامي المجيد وقد — يرمي فيحرزه من ليس بالرامي

وإذا به لابس سبعة أقبية كل قباء منها لون، وكنا في وغرة القيظ وجمرة الصيف وفي يوم تكاد ودائع الهامات تسيل فيه، فجلست مستوفزا وجلس متحفزا، وأعرض عني لاهيا وأعرضت عنه ساهيا، أؤنب نفسي في قصده وأستخف رأيها في تكلف ملاقاته، فغبر هنية ثانيا عطفه لايعيرني طرفة، وأقبل على تلك الزعنفة التي بين يديه، وكل يومي إليه ويوحي بلحظة ويشير إلى مكاني بيديه، ويوقظه من سنته وجهله، ويأبى إلا ازورارا ونفارا وعتوا واستكبارا، ثم رأى أن يثني جانبه إلي ويقبل بعض الإقبال علي، فأقسمت بالوفاء والكرم، فأنهما من محاسن القسم، إلا أنه لم يزد على أن قال: أيش خبرك، فقلت: بخير أنا لولا ما جنيته على نفسي من قصدك ووسمت به قدري من ميسم الذل بزيارتك وجشمت رأيي من السعي إلى مثلك، ممن لم تهذبه تجربة ولا أدبته بصيرة. ثم تحدرت عليه تحدر السيل إلى قرارة الوادي وقلت له: أبن لي مم تيهك وخيلاؤك وعجبك وكبرياؤك؟ وما الذي يوجب ما أنت عليه من الذهاب بنفسك والرمي بهمتك إلى حيث يقصر عنه باعك ولا تطول إليه ذراعك؟ هل ها هنا نسب انتسب إلى المجد بهظ أو شرف علقت بأذياله؟ أو سلطان تسلطت بعزة أو علم تقع الاشارة إليك به؟ إنك لو قدرت نفسك بقدرها أو وزنتها بميزانها و لم يذهب بك التيه مذهبا لما عدوت أن تكون شاعرا مكتسبا، فامتقع لونه وغص بريقه، وجعل يلين في الاعتذار ويرغب في الصفح والاغتفار، ويكرر الأيمان أنه لم يثبتني، ولا اعتمد التقصير بي، فقلت: ياهذا إن قصدك شريف في نسبه تجاهلت نسبه، أو عظيم في أدبه صغرت أدبه، أو متقدم عند سلطانه خفضت منزلته، فهل المجد تراث لك دون غيرك؟ كلا والله، لكنك مددت الكبر سترا على نقصك وضربته رواقا حائلا دون مباحثتك، فعاود الاعتذار فقلت: لا عذر لك

مع الاصرار. وأخذت الجماعة في الرغبة إلي في مياسرته وقبول عذره، واستعمال الأناة التي تستعملها الحزمة عند الحفيظة، وأنا على شاكلة واحدة في تقريعه وتوبيخه وذم خليقته، وهو يؤكد القسم أنه لم يعرفني معرفة ينتهز معها الفرصة في قضاء حقي، فأقول: ألم أستأذن عليك باسمي ونسبي؟ أما كان في هذه الجماعة من كان يعرفني لو كنت جهلتني؟ وهب أن كذلك، ألم تر شارتي؟ أما شممت عطر نشري؟ ألم أتميز في نفسك عن غيري؟ وهو في أثناء ما أخاطبه وقد ملأت سمعه تأنيبا وتفنيدا يقول: خفض عليك، اكفف من غربك، اردد من سورتك، استأن فإن الأناة من شيم مثلك، فأصحب حينئذ جانبي له ولانت عريكتي في يده، واستحيت من تجاوز الغاية التي انتهيت إليها في معاتبته، وذلك بعد أن رضته رياضة الصعب من الإبل، وأقبل علي معظما وتوسع في تفريطي مفخما، وأقسم أنه ينازع منذ ورد العراق ملاقاتي ويعد نفسه بالاجتماع معي ويسوفها التعلق بأسباب مودتي.

فحين استوفى القول في هذا المعنى استأذن عليه فتى من فتيان الطالبين الكوفيين، فأذن له، فإذا حدث مرهف تميل به نشوة الصبا، فتكلم فأعرب عن نفسه، فإذا لفظ رخيم ولسان حلو وأخلاق فكهة وجواب حاضر وثغر باسم، في أناة الكهول، ووقار المشايخ، فأعجبني ما شاهدته من شمائله وملكني ما تبينته من فضله، فجاراه أبياتا.

ومن هاهنا كان افتتاح الكلام بينهما في إظهار سرقاته ومعايب شعره؛ وقد طال الكلام لكنه لزم بعضه بعضا فما أمكن قطعه. وهذه الرسالة تشتمل على فوائد جمة، فإن كان كما ذكر أنه أبان له جميعها في ذلك المجلس فما هذا إلا اطلاع عظيم، وقد سماهاالموضحة وهي كبيرة تدخل في اثنتي عشرة كراسة شهدت لصاحبها بالفضل الباهر، مع سرعة الاستحضار وإقامة الشاهد. وله كتابحلية المحاضرة يدخل في مجلدين، وفيه أدب كثير أيضا.

وتوفي الحاتمي المذكور يوم الأربعاء لثلاث بقين من شهر ربيع الآخر سنة ثمان وثمانين وثلثمائة، رحمه الله تعالى.

وذكر الحاتمي أنه اعتل فتأخر عن مجلس شيخه أبي عمر الزاهد المذكور في أول هذه الترجمة، فسأل عنه، فقيل له: إنه مريض، فجاءه يعوده، فوجده قد خرج إلى الحمام، فكتب على بابه بإسفيداج:

وأعجب شيء سمعنا به عليل يعاد فلا يوجد

والحاتمي: بفتح الحاء المهملة وبعد الألف تاء مثناة من فوقها مكسورة وبعدها ميم، هذه النسبة إلى بعض أجداده اسمه حاتم.

ابن القوطية

أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز بن إبراهيم بن عيسى بن مزاحم، المعروف بابن القوطية، الأندلسي الإشبيلي الأصل القرطبي المولد والدار؛ سمع بإشبيلية من محمد بن عبد الله ابن القوق،وحسن بن عبد الله الزبيدي، وسعيد بن جابر وغيرهم، وسمع بقرطبة من طاهر بن عبد العزيز وابن أبي الوليد الأعرج ومحمد بن عبد الوهاب ابن مغيث وغيرهم. كان من أعلم أهل زمانه باللغة العربية، وكان مع ذلك حافظا للحديث والفقه والخبر والنادر، وأروى الناس للأشعار وأدركهم للآثار، لايلحق شأوه ولا يشق غباره، وكان مضطلعا بأخبار الأندلس مليا برواية سير أمرائها وأحوال فقائها وشعرائها،يملي ذلك عن ظهر قلب، وكانت كتب اللغة أكثر ما تقرأ عليه وتؤخذ عنه، ولم يكن بالضابط لروايته في الحديث والفقه ولا كانت له أصول يرجع إليها، وكان ما يسمع عليه من ذلك إنما يحمل على المعنى لا على اللفظ، وكان كثيرا ما يقرأ عليه مالا رواية به على جهة التصحيح، وطال عمره فسمع الناس منه طبقة بعد طبقة، وروى عنه الشيوخ والكهول؛ وكان قد لقي مشايخ عصره بالأندلس وأخذ عنهم وأكثر من النقل من فوائدهم.

وصنف الكتب المفيدة في اللغة، منها كتاب تصاريف الأفعال وهو الذي فتح هذا الباب فجاء من بعده ابن القطاع وتبعه - كما سبق في ترجمته وله كتاب المقصور والممدود جمع فيه مالا يحد ولا يوصف، ولقد أعجز من يأتي بعده وفاق من تقدمه.

وكان أبو علي القالي لما دخل الأندلس اجتمع به، وكان يبالغ في تعظيمه حتى قال له الحكم بن الناصر لدين الله عبد الرحمن صاحب الأندلس يومئذ: من أنبل من رأيته ببلدنا هذا في اللغة؟ فقال: محمد ابن القوطية، وكان مع هذه الفضائل من العباد النساك، وكان جيد الشعر صحيح الألفاظ واضح المعاني حسن المطالع والمقاطع، إلا أنه ترك ذلك ورفضه.

حكى الأديب الشاعر أبو بكر يحيى بن هذيل التميمي أنه توجه يوما إلى ضيعة له بسفح جبل قرطبة، وهي من بقاع الأرض الطيبة المونقة، فصادف أبا بكر ابن القوطية المذكور صادرا عنها، وكانت له أيضا هناك ضيعة، قال فلما رآني عرج علي واستبشر بلقائي، فقلت له على البديهة مداعبا له:

من أين أقبلت يامن لاشبيه له ... ومن هو الشمس والدنيا له فلك

قال: فتبسم وأجاب بسرعة:

من منزل يعجب النساك خلوته ... وفيه ستر على الفتاك إن فتكوا

قال: فما تمالكت أن قبلت يده إذ كان شيخي، ومجدته ودعوت له.

وتوفي أبو بكر المذكور يوم الثلاثاء لسبع بقين من شهر ربيع الأول سنة سبع وستين وثلثمائة بمدينة قرطبة، ودفن يوم الأربعاء وقت صلاة العصر بمقبرة قريش رحمه الله تعالى، وقيل إنه توفي في رجب من السنة المذكورة، والأول أصح.

والقوطية: بضم القاف وسكون الواو وكسر الطاء المهملة وتشديد الياء المثناةمن تحتها وبعدها هاء ساكنة، هذه النسبة إلى قوط بن حام بن نوح عليه السلام، نسب إليه جده أبي بكر المذكور، وقوط أبو السودان والهند والسند، وهي أم إبراهيم بن عيسى بن مزاحم جد أبي بكر المذكور، وهي ابنة وبة بن غيطشة، وكان من ملوك الأندلس، وعلي وعلى أخويه أرطباس قومس الأندلس وسيدة افتتح طارق مولى موسى بن نصير مع المسلمين بلاد الأندلس، وكانت القوطية المذكورة وفدت على هشام بن عبد الملك متظلمة من عمها أرطباس المذكور فتزوجها بالشام عيسى بن مزتحم المذكور، وهو من موالي عمر بن عبد العزيز الأموي رضي الله عنه، وسافر معها إلى الأندلس فكان ذلك سبب انتقال عيسى بن مزاحم إلى الأندلس وإنساله بها، وجاءت القوطية بكتاب هشام إلى الخطاب الشعبي الكلبي، وكان عامله على الأندلس، بالوصاة عليها فكف عمها عنها وأنصفها مما كان لها قبله ورعى حرمتها وتمادت بها الحال وطالت حياتها إلى أيام الأمير عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك الداخل إلى الأندلس من بني أمية، فكانت تدخل عليه وتقضي حاجتها، وغلب اسمها على ذريتها وعرفوا بها إلى اليوم. ذكر ذلك في كتاب الاحتفال في أعلام الرجال مما انتخبه وألفه في أخبار الفقهاء والعلماء المتأخرين من أهل قرطبة الفقيه أبو عمر أحمد بن محمد بن عفيف التاريخي بما بسطه ونمقه من ذلك الفقيه أبو بكر الحسن ابن محمد بن مفرج بن عبد الله بن مفرج المعافري القرطبي المعروف بالقبشي حامله عنه، قال أبو محمد الرشاطي في كتاب الأنساب: عين قبش في الريض الغربي من قرطبة، ينسب بذلك أبو عبد الله محمد بن مفرج المعافري القبشي. وتوفي ليلة الجمعة خامس شهر رمضان سنة إحدى وسبعين وثلثمائة.

قلت: وهذا المذكور والد أبي بكر الحسن بن محمد المذكور قبله، والله أعلم.

أبو بكر الزبيدي

أبو بكر محمد بن الحسن بن عبد الله بن مذحج بن محمد بن عبد الله بن بشر الزبيدي الإشبيلي نزيل قرطبة؛ كان واحد عصره في علم النحو وحفظ اللغة، وكان أخبر أهل زمانه بالإعراب والمعاني والنوادر، إلى علم السير والأخبار، ولم يكن بالأندلس في فنه مثله في زمانه، وله كتب تدل على وفور علمه منها مختصر كتاب العين وكتابطبقات النحويين والغويين بالمشرق والأندلس من زمن أبي الأسود الدؤلي إلى زمن شيخه أبي عبد الله النحوي الرباحي، وله كتاب الردة على ابن مسرة وأهل مقالته سماههتك ستور الملحدين وكتابلحن العامة وكتاب الواضح في العربية وهو مفيد جدا، وكتاب الأبنية في النحو ليس لأحد مثله.

واختار الحكم المنتصر بالله صاحب الأندلس لتأديب ولده ولي عهده هشام المؤيد بالله، فكان الذي علمه الحساب والعربية ونفعه نفعا كثيرا، ونال أبو بكر الزبيدي منه ديناعريضة، وتولى قضاء إشبيلية وخطة الشرطة، وحصل نعمه ضخمة لبسها بنوه من بعده زمانا. وكان يستعظم أدب المؤيد بالله أيام صباه ويصف رجاحته وحجاه، ويزعم أنه لم يجالس قط من أبناء العظماء من أهل بيته وغيره في مثل سنة أذكى منه ولا أحضر يقظة وألطف حسا وأرزن حلما، وذكر عنه حكايات عجيبة.

وكان الزبيدي المذكور شاعرا كثير الشعر، فمن ذلك قوله في أبي مسلم ابن فهر:

أبا مسلم إن الفتى بجنانه ... ومقولة لا بالمراكب واللبس
وليس ثياب المرء تغني قلامه ... إذا كان مقصورا على قصر النفس
وليس يفيد العلم والحلم والحجا ... أبا مسلم طول القعود على الكرسي

وكانفي صحبة الحكم المستنصر، وترك جاريته بإشبيلية فاشتاق إليها، فاستأذنه في العود إليها فلم يأذن له، فكتب إليها:

ويحك يا سلم لاتراعي ... لابد للبين من زماع
لاتحسبني صبرت إلا ... كصبرميت على النزاع
ماخلق الله من عذاب ... أشد من وقفة الوداع
ما بينها والحمام فرق ... لولا المناجاة والنواعي
إن يفترق شملنا وشيكا ... من بعد ما كان ذا اجتماع
فكل شمل إلى فراق ... وكل شعب إلى انصداع
وكل قرب إلى بعاد ... وكل وصل إلى انقطاع

وكان كثيرا ما ينشد:

الفقر في أوطاننا غربة ... والمال في الغربة أوطان
والأرض شيء كلها واحد ... والناس إخوان وجيران

وكان قد قيد الأدب واللغة على أبي علي البغدادي المعروف بالقالي – المقدم ذكره – لما دخل الأندلس، وسمع من قاسم بن أصبغ وسعيد بن فحلون وأحمدابن سعيد بن حزم. وأصله من جند حمص المدينة التي بالشام.

وتوفي يوم الخميس مستهل جمادى الآخرة سنة تسع وسبعين وثلثمائة بإشبيلية، ودفن ذلك اليوم بعد صلاة الظهر، وصلى عليه ابنه أحمد، وعاش ثلاثا وستين سنة، رحمه الله تعالى.

ومذحج: بفتح الميم وسكون الذال المعجمة وكسر الحاء المهملة وبعدها جيم، وهو في الأصل اسم أكمة حمراء باليمن، ولد عليها مالك بن أدد فسمي باسمها، ثم كثر ذلك في تسمية العرب حتى صاروا يسمون بها ويجعلون علما على المسمى، وقطعوا النظر عن تلك الأكمة.

والزبيدي: بضم الزاي وفتح الباء الموحدة وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها دال مهملة، هذه النسبة إلى زبيد، واسمه منبه بن صعب بن سعد العشيرة بن مذحج، وهو الذي سمي بالأكمة المذكورة، وزبيد قبيلة كبيرة باليمن خرج منها خلق كثير من الصحابة وغيرهم، رضي الله عنهم.

القزاز

أبو عبد الله محمد بن جعفر التميمي النحوي المعروف بالقزاز القيرواني؛ كان الغالب عليه علم النحو واللغة والافتنان في التواليف، فمن ذلك كتاب الجامع في اللغة، وهو من الكتب الكبار المختارة المشهورة.

وذكر أبو القاسم ابن الصيرفي الكاتب المصري أن أبا عبد الله القزاز المذكور كان في خدمة العزيز ابن المعز العبيدي صاحب مصر وصنف له كتبا.

وقال غيره: كان العزيز بنه المعز العبيدي صاحب مصر قد تقدم إليه أن يؤلف كتابا يجمع فيه سائر الحروف التي ذكر النحويون أن الكلام كله اسم وفعل وحرف جاء لمعنى، وأن يقصد في تأليفه إلى ذكر الحرف الذي جاء لمعنى، وأن يجري ما ألفه من ذلك على حروف المعجم؛ قال ابن الجزارك وما علمت أن نحويا ألف شيئا من النحو على هذا التأليف، فسارع أبو عبد الله القزاز إلى مأأمره العزيز به، وجمع المفترق من الكتب النفيسة في هذا المعنى

على أقصد سبيل وأقرب مأخذ وأوضح طريق، فبلغ جملة الكتاب ألف ورقة، ذكر ذلك كله الأمير المختار المعروف بالمسبحي في تاريخه الكبير. وله كتاب التعريض ذكر فيه مادار بين الناس من المعاريض في كلامهم.

وقال أبو علي الحسن بن رشيق في كتاب الأنموذج إن القزاز المذكور فضح المتقدمين وقطع ألسنة المتأخرين، وكان مهيبا عند الملوك والعلماء وخاصة الناس محبوبا عند العامة، قليل الخوض إلا في علم دين أو دنيا، يملك لسانه ملكا شديدا. وكان له شعر مطبوع مصنوع ربما جاء به مفاكهة وممالحة من غير تحفز ولا تحفل، يبلغ بالرفق والدعة على الرحب والسعة أقصى ما يحاوله أهل القدرة على الشعر من توليد المعاني وتوكيد المباني، علما بتفاصيل الكلام وفواصل النظام، فمن ذلك قوله:

أما ومحل حبك في فؤادي ... وقدر مكانه فيه المكين
لو انبسطت لي الآمال حتى ... تصيرمن عنانك في يميني
لصنتك في مكان سواد عيني ... وخطت عليك من حذر جفوني
فأبلغ منك غايات الأماني ... وآمن فيك آفات الظنون
فلي نفس تجرع كل يوم ... عليك بهن كاسات المنون
إذا أمنت قلوب الناس خافت ... عليك خفي الحاظ العيون
فكيف وأنت دنياي ولولا ... عقاب الله فيك لقلت ديني

ومن شعره أيضا:

أضمروا لي ودا ولا تظهروه ... يهده منكم إلي الضمير
ما أبالي إذا بلغت رضاكم ... في هواكم لأي حال أصير

وله أيضا:

ألا من لركب فرق الدهر شملهم ... فمن منجد نائي المحل متهم
كأن الردى خاف الردى في اجتماعهم ... فقسمهم في الأرض كل مقسم

وله أيضا:

ولنا من أبي الربيع ربيع ... ترتعيه هوامل الآمال
أبدا يذكر العدات وينسى ... ماله عندنا من الإفضال

وله أيضا:

أحين علمت أنك نور عيني ... وأني لا أرى حتى أراكا
جعلت كغيب شخصك عن عياني ... يغيب كل مخلوق سواكا

وذكر له مقاطيع مثيرة غير هذه، ثم قال: وشعر أبي عبد الله – يعني القزاز المذكور – أحسن مما ذكرت، لكني لم أتمكن من روايته، وقد شرطت في هذا الكتاب أن كل ماجئت به من الأشعار على غير جهة الاختيار.

وكانت وفاته بالحضرة سنة اثنتي عشرة وأربعمائة، وقد قارب السبعين، رحمه الله تعالى؛ والمراد بالحضرة القيروان، فإنها كانت دار المملكة يوم ذاك.
والقزاز:بفتح القاف وزايين بينهما ألف والأولى منهما مشدودة، هذه النسبة إلى عمل القز وبيعه، وقد اشتهر به جماعة.

المسبحي

بالأمير المختار عز الملك محمد بن أبي القاسم عبيد الله بن أحمد بن إسماعيل بن عبد العزيز، المعروف بالمسبحي الكاتب، الحراني الأصل المصري المولد، صاحب التاريخ المشور وغيره من المصنفات؛ كانت فيه فضائل ولديه معارف، ورزق حظوة في التصانيف، وكان على زي الأجناد، واتصل بخدمة الحاكم بن العزيز العبيدي صاحب مصر ونال منه سعادة، وذكر في تاريخه أن أول تصرفه في خدمة الحاكم صاحب مصر كان في سنة ثمان وتسعين وثلثمائة، وذكر فيه أيضا: أنه تقلد القيس والبهنسا من أعمال الصعيد، ثم تولى ديوان الترتيب، وله مع الحاكم مجالس ومحاضرات حسبما يشهد بها تاريخه الكبير.

وجمع مقدار ثلاثين مصنفا، منها: التاريخ المذكور الذي قال في حقهالتاريخ الجليل قدره الذي يستغنى بمضمونه عن غيره من الكتب الواردة في معانيه، وهو أخبار مصر ومن حلها من الولاة والأمراء والأئمة والخلفاء،وما بها من العجائب والأبنية واختلاف أصناف الأطعمة، وذكر نيلها، وأحوال من حل بها إلى الوقت الذي كتبنا فيه تعليق هذه الترجمة، وأشعار الشعراء وأخبار المغنين وجالس القضاة والحكام والمعدلين والأدباء والمعتزلين وغيرهموهو ثلاثة عشر ألف ورقة. ومن تصانيفه كتاب التلويح والتصريح في معاني الشعر وغيره وهو ألف ورقة، وهو ألف ورقة، وكتاب الراح والارتياح ألف وخمسمائة ورقة، وكتاب الغرق والشرق في ذكر من مات غرقا غرقا وشرقا مائتا ورقة، وكتاب الطعام والإدام ألف ورقة، وكتاب درك البغية في وصف الأديان والعبادات ثلاثة آلاف وخمسمائة ورقة، وقصص الأنبياء عليهم السلام وأحوالهم ألف وخمسمائة ورقة، وكتاب المفاتحة والمناكحة في أصناف الجماع ألف ومائتا ورقة، وكتاب الأمثلة للدول المقبلة يتعلق بالنجوم والحساب خمسمائة ورقة، وكتاب القضايا الصائبة في معاني أحكام النجوم ثلاثة آلاف ورقة، وكتاب جونة الماشطة يتضمن غرائب الأخبار والأشعار والنوادر التي لم يتكرر مرورها على الأسماع، وهو مجموع مختلف غير مؤتلف، ألف وخمسمائة ورقة، وكتاب الشجن والسكن في أخبار أهل الهوى وما يلقاه أربابه ألفان وخمسمائة ورقة، وكتاب السؤال والجواب ثلثمائة ورقة، وكتاب السؤال والجواب ثلثمائة ورقة، وكتاب مختار الأغاني ومعانيها وغير ذلك من الكتب.
وله شعر حسن، فمن ذلك أبيات رثى بها أم ولده، وهي:

ألا في سبيل الله قلب تقطعا | وفادحة لم تبق للعين مدمعا
أصبرا وقد حل الثرى من أوده | فلله هم ما أشد وأوجعا
فيا ليتني للموت قدمت قبلها | وإلا فليت الموت أذهبنا معا

وكان المسبحي المذكور قد استزار أبا محمد عبيد الله بن أبي الجوع الأديب الوراق الكاتب المشهور، فزاره؛ فعمل المسبحي هذه الأبيات وأنشده إياها على البديهة:

حللت فأحلت قلبي السرورا | وكاد لفرحته أن يطيرا
وأمطر علمك سحب السماء | ولولاك ما كان يوما مطيرا
تضوع نشرك لما وردت | وعاد الظلام ضياء منيرا

وكان ابن أبي الجوع المذكور شاعرا أديبا حلوا مقبولا له أشعار كثيرة في المراسلات والمعاتبات والأهاجي، وكان نسخة في غاية الجودة، وكان ينسخ كل خمسين ورقة بدينار، وخطه موجود بأيدي الناس ومرغوب فيه، وكانت وفاة ابن أبي الجوع سنة خمس وتسعين وثلثمائة.
وكانت ولادة المسبحي المذكور يوم الأحد عاشر رجب سنة ست وستيم وثلثمائة، كذا ذكره في تاريخه الكبير. وتوفي في شهر ربيع الآخر سنة عشرين وأربعمائة.

وتوفي والده ضحوة نهار الاثنين تاسع شعبان سنة أربعمائة، وعمره ثلاث وتسعون سنة، وصلي عليه في جامع مصر ودفن في داره، رحمهم الله تعالى أجمعين. ولما توفي الوالد رثاه ولده المسبحي المذكور بهذه الأبيات:

خطب يقل له البكاء وينطوي عنه العزاء ويظهر المكتوم

خطب يميت من الصدور قلوبها أسفا ويقعد تارة ويقيم

يا دهر قد أنشبت في مخالبا بالأسودين لوقعهن كلوم

يادهر قدألبستني حلل الأسى مذحل شخص في التراب كريم

لو كنت تقبل فدية لفديت من رضت عظامي فيه وهو رميم

يا من يلوم إذا رآني جازعا من طارق الحدثان، فيم تلوم

بأبي فجعت فأي ثكل مثله ثكل الأبوة في الشباب أليم

قد كنت أجزع أن يلم به الردى أو يعتريه من الزمان هموم

ورثاه جماعة من شعراء عصره ذكرهم ولده في تاريخه وذكر مراثيهم.

والمسبحي: بضم الميم وفتح الين المهملة وكسر الباء الموحدة وفي آخره حاء مهملة قال السمعاني في كتاب الأنساب: هذه النسبة إلى الجد، وعرف بها المسبحي صاحب تاريخ المغاربة ومصر، يعني الأمير المذكور.

ابن حمدون صاحب التذكرة

أبو المعالي محمد بن أبي سعد الحسن بن محمد بن علي بن حمدون الكاتب الملقب كافي الكفاة بهاء الدين البغدادي؛ كان فاضلا ذا معرفة تامة بالأدب والكتابة، من بيت مشهور بالرياسة والفضل هو وأبوه وأخواه أبو نصر وأبو المظفر، وسمع أبو المعالي المذكور من أبي القاسم إسماعيل بن الفضل الجرجاني وغيره، وصنف كتاب التذكرة وهو من أحسن المجاميع، يشتمل على التاريخ والأدب والنوادر والأشعار، لم يجمع أحد من المتأخرين مثله، وهو مشهور بأيدي الناس كثير الوجود، وهو من الكتب الممتعة.

ذكر العماد الأصبهاني الكاتب في كتاب الخريدة فقال: كان عارض العسكر المقتفوي، ثم صار صاحب ديوان الزمام المستنجدي، وهو كلف باقتناء الحمد وابتناء المجد، وفيه فضل ونبل وله على أهل الأدب ظل، وألف كتابا سماهالتذكرة وجمع فيه الغث والسمين والمعرفة والنكرة، فوقف افمام المستنجد على حكايات ذكرها نقلا من التواريخ توهم في الدولة غضاضة، ويعتقد للتعرض بالقدح فيها عراضة، فأخذ من دست منصبه وحبس، و لم يزل في نصبه إلى أن رمس، وذلك في أوائل سنة اثنتين وستين وخمسمائة، وأنشدني لنفسه لغزا في مروحة الخيش:

ومرسلة معقودة دون قصدها مقيدة تجري حبيس طليقها

يمر خفيف الريح وهي مقيمة وتسري وقد سدت عليها طريقها

لها من سليمان النبي وراثة وقد عزيت نحو النبيط عورقها

إذا صدق النوء السماكي أمحلت وتمطر والجوزاء ذاك حريقها

تحيتها إحدى الطبائع انها لذلك كانت كل روح صديقها

وأورد له أيضا:

وحاشا معاليك أن تستزاد وحاشا نوالك أن يقتضى

ولكنما أستزيد الحظوظ وإن أمرتني النهى بالرضا

وأورد له أيضا:

يا خفيف الرأس والعقل معا وثقيل الروح أيضا والبدن

تدعي أنك مثلي طيب طيب أنت ولكن بلبن

انتهى كلام العماد.وقال غيره: إنه سمع الحديث كثيرا وروى عن الإمام المستنجد قول أبي حفص الشطرنجي في جارية حولاء:

حمدت إلهي إذبليت بحبها على حول يغني عن النظر الشزر

نظرت إليها والرقيب يخالني نظرت إليه فاسترحت من العذر

وهذا من المعاني النادرة العجيبةوالأمام في هذا قول مهيار الديلمي يصف ناقة:

هواها وراءها والسرى من أمامها فهن صحيحات النواظر حول

وكانت ولادة ابن حمدون المذكور في رجب سنة خمس وتسعين وأربعمائة وتوفي يوم الثلاثاء حادي عشر ذي القعدة سنة اثنتين وستين وخمسمائة،ودفن يوم الأربعاء بمقابر قريش ببغداد،وكان موته في الحبس.

وأخوه أبو نصر محمد بن الحسن الملقب غرس الدولة كان من العمال، وممن يعتقد في أهل الخير والصلاح ويرغب في صحبتهم، ولد في صفر سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، وتوفي في ذي الحجة سنة خمس وأربعين وخمسمائة ببغداد، ودفن بمقابر قريش.

وكان والدهما من شيوخ الكتاب والعارفين بقواعد التصرف والحساب وله تصنيف في معرفة الأعمال، وعمر طويلا، وتوفي يوم السبت عاشر جمادى الأولى سنة ست وأربعين وخمسمائة، رحمهم الله تعالى أجمعين.

ابن قريعة

القاضي لأبو بكر محمد بن عبد لرحمن، المعروف بابن قريعة البغدادي؛ كان قاضي السندية وغيرها من أعمال بغداد، ولاه أبو السائب عتبة بن عبيد الله القاضي، وكان من إحدى عجائب الدنيا في سرعة البديهة بالجواب عن جميع ما يسأل عنه في أفصح لفظ وأملح سجع، وكان مختصا بحضرة الوزير أبي محمد المهلبي – المقدم ذكره –منقطعا إليه، وله مسائل وأجوبة مدونة في كتاب مشهور بأيدي الناس، وكان رؤساء ذلك العصر وفضلاؤه يداعبونه ويكتبون إليه المسائل الغريبة المضحكة، فيكتب الجواب من غير توقف ولا تلبث مطابقا لما سألوه، وكان الوزير المذكور يغري به جماعة يضعون له من الأسئلة الهزلية على معان شتى من النوادر الطترية ليجيب عنها بتلك الأجوبة، فمن ذلك ما كتب إليه العباس بن المعلى الكاتب: مايقول القاضي، وفقه الله تعالى، في يهودي زنى بنصرانية فولدت ولدا جسمه للبشر ووجهه للبقر، وقد قبض عليهما، فما يرى القاضي فيهما؟ فكتب جوابه بديها: هذا من أعدل الشهود على الملاعين اليهود، بأنهم أشربوا حب العجل في صدورهم حتى خرج من أيورهم، وأرى أن يناط برأس اليهودي رأس العجل، ويصلب على عنق النصرانية الساق مع الرجل، ويسحبا على الأرض، وينادى عليهما ظلمات بعضها فوق بعض، والسلام.

ولما قدم الصاحب بن عباد–المقدم ذكره – إلى بغداد حضر مجلس الوزير المهلبي المقدم ذكره أيضا، وكان في المجلس القاضي أبو بكر المذكور، فرأى من ظرفه وسرعة أجوبته مع لطافتها ماعظم منه تعجبه، وكتب الصاحب إلى أبي الفضل ابن العميد كتابا يقول فيه: وكان في المجلس شيخ خفيف الروح يعرف بالقاضي ابن قريعة، جاراني في مسائل خستها تمنع من ذكرها، إلا أني استظرفت من كلامه، وقد سأله كهل يتطلب بحضرة الوزير أبي محمد عن حد القفا، فقال: ما اشتمل عليه جربانك، ومازحك فيه إخوانك، وأدبك فيه سلطانك، وباسطك فيه غلمانك، فهذه حدود اربعة.

قلت: وجربان الثوب: بضم الجيم والراء وتشديد الباء الموحدة وبعدها ألف ثم نون، وهي العريضة التي فوق القب، وهي التي تستر القفا،والجربان لفظ

فارسي معرب.

وجميع مسائله على هذا الأسلوب، ولولا خوف الإطالة لذكرت جملة منها، وقد سرد أبو بكر محمدبن شرف القيرواني الشاعر المشهور في كتابه الذي سماهأبكار الأفكار عدة مسائل وجواباتها من هذه المسائل.

وتوفي القاضي أبو بكر المذكور يوم السبت لعشر بقين من جمادى الآخرة، سنة سبع وستين وثلثمائة ببغداد، وعمره خمس وستون سنة، رحمه الله تعالى.

وقريعة: بضم القاف وفتح الراء وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها عين مهملة، وهولقب جده، كذا حكاه السمعاني.

والسندية: بكسر السين المهملة وسكون النون وكسر الدال المهملة وتشديد الياء المثناة وبعدها هاء ساكنة، وهي قرية على نهر عيس بين بغداد والأنبار، وينسب إليها ليحصل الفرق بين هذه النسبة والنسبة إلى بلاد السند المجاور لبلاد الهند.

الوهراني

أبو عبد الله محمد بن محرز بن محمد الوهراني الملقب ركن الدين، وقيل جمال الدين؛ أحد الفضلاء الظرفاء، قدم من بلاده إلى الديار المصرية في أيام السلطان صلاح الدين، رحمه الله تعالى، وفنه الذي يمت به صناعة الإنشاء، فلما دخل البلاد ورأى بها القاضي الفاضل وعماد الدين الأصبهاني الكاتب وتلك الحلبة علم من نفسه أنه ليس من طبقتهم ولا تتفق سلعته مع وجودهم، فعدل عن طريق الجد وسلك طريق الهزل، وعمل المنامات والرسائل المشهورة به والمنسوبة إليه، وهي كثيرة الوجود بأيدي الناس، وفيها دلالة على خفة روحه ورقة حاشيته وكمال ظرفه، ولو لم يكن له فيها إلا المنام الكبير لكفاه، فإنه أتى فيه بكل حلاوته، ولولا طوله لذكرته، ثم إن الوهراني المذكور تنقل في البلاد وأقام بدمشق زمانا، وتولى الخطابة بداريا،وهي قرية على باب دمشق في الغوطة.

وتوفي في سنة خمس وسبعين وخمسمائة بداريا، رحمه الله تعالى، ودفن على باب تربة الشيخ أبي سليمان الداراني.نقلت من خط القاضي الفاضل: وردت الأخبار من دمشق في سابع عشر رجب بوفاة الوهراني.

والوهراني: بفتح الواو وسكون الهاء وفتح الراء وبعد الألف نون، هذه النسبة إلى وهران، وهي مدينة كبيرة في أرض القيروان، بينهما وبين تلمسان مسافة يومين، وهي على ساحل البحر الشامي، وذكر الرشاطي أنها أسست في سنة تسعين ومائتين على يدي محمد بن أبي عون ومحمد بن عبدوس وجماعة، وخرج منها جماعة من العلماء وغيرهم.

وداريا: بالدال المهملة وبعد الألف راء مفتوحة وبعدها ياء مثناة من تحتها مشددة.

فخر الدين ابن تيمية الحراني

أبو عبد اله محمد بن أبي القاسم الخضر بن محمد بن الخضر بن علي بن عبد الله، المعروف بابن تيمية الحراني الملقب، فخر الدين الخطيب الواعظ الفقيه الحنبلي؛ كان فاضلا، تفرد في بلده بالعلم، وكان المشار إليه في الدين، لقي جماعة من العلماء وقدم بغداد وتفقه بها على أبي الفتح ابن المني، وسمع الحديث بها من شهدة بنت الإبري وابن المقرب وابن البطي وغيرهم، وصنف في مذهب الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه، مختصرا أحسن فيه،وله ديوان خطب مشهور وهو في غاية الجودة، وله تفسير القرآن الكريم، وله نظم حسن، وكانت إليه الخطابة بحران، ولأهله من بعده، و لم يزل أمره جاريا على سداد وصلاح حال.

ومولده في أواخر شعبان سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة، بمدينة حران.

وتوفي بها في حادي عشر صفر، سنة إحدى وعشرين وستمائة، رحمه الله تعالى.

قال أبو المظفر سبط ابن الجوزي في حقه: كان ضنينا بحران، متى نبغ فيها أحد لايزال وراءه حتى يخرجه منها ويبعده عنها، ومات في خامس صفر من السنة المذكورة، وهذا خلاف ما ذكرته أولا، قال:وسمعته في جامع حران يوم الجمعة بعد الصلاة ينشد:

أحبابنا قد نذرت مقلتي لاتلتقي بالنوم أو نلتقي
رفقا بقلب مغرم واعطفوا على سقام الجسد المغرق
كم تمطلوني بليالي اللقا قد ذهب العمر ولم نلتق

ذكره أبو يوسف محاسن بن سلامة بن خليفة الحراني في تاريخ حران وأثنى عليه، ثم قال: توفي يوم الخميس بعدالعصر عاشر صفر سنة اثنتين وعشرين وستمائة.

وذكره أبو البركات ابن المستوفي فيتاريخ إربل فقال: ورد إربل حاجا في سنة أربع وستمائة، وذكر فضله، وقال: كان يدرس التفسير في كل يوم، وهو حسن القصص حلو الكلام مليح الشمائل، وله القبول التام عند الخاص والعام، وكان أبوه أحد الأبدال والزهاد، وتفقه بحران وببغداد، وكان حاذقا في المناظرات صنف مختصرات في الفقه، وخطبا سلك فيها مسلك ابن نباتة، وكان بارعا في تفسير القرآن وجميع العلوم له فيها يد بيضاء، وسمع من مشايخ الحديث ببغداد وأنشد له:

سلام عليكم مضى مامضى فراقي لكم لم يكن عن رضا
سلوا الليل عني مذ غبتم أجفني بالنوم هل أغمضا
أأحباب قلبي وحق الذي بمر الفراق علينا قضى
لئن عاد عيد اجتماعي بكم وعوفيت من كارث أمرضا
لألتقين مطاياكم بخدي وأفرشه في الفضا
ولو كان حبوا على جبهتي ولو لفح الوجه جمر الغضى
فأحيا وأنشد من فرحتي سلام عليكم مضى ما مضى

ثم قال: سألته عن اسم تيمية ما معناه، فقال: حج أبي أو جدي، انا أشك أيهما، قال: وكانت امرأته حاملا، فلما كان بتيماء رأى جويرية قد خرجت من خباء، فلما رجع إلى حران وجد امرأته قد وضعت جارية، فلما رفعوها إليه قال: ياتيمية، ياتيمية، يعني أنها تشبه التي رآها بتيماء، فسمي بها، أو كلاما هذا معناه.

وتيماء: بفتح التاء المثناة من فوقها وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح الميم وبعدها همزة ممدودة، وهي بليدة في بادية تبوك إذا خرج الإنسان من خيبر إلها تكون على منتصف طريق الشام، وتيمية منسوبة إلى هذه البليدة، وكان ينبغي أن تكون تيماوية، لأن النسبة إلى تيماء تيماوي، لكنه هكذا قال واشتهر كما قال.

أبو منصور العتابي

أبو منصور محمد بن علي بن إبراهيم بن زبرج، النحوي المعروف بالعتابي؛ كانت له معرفة بالنحو واللغة وفنون الأدب، وله الخط المليح الصحيح الذي يتنافس فيه أهل العلم، وقرأ الأدب على الشريف أبي السعادات هبة الله بن الشجري - الآتي ذكره إن شاء الله تعالى - وعلى أبي المنصور موهوب بن الجواليقي وغيرهما وسمع الحديث من مشايخ وقته، وكتب الكثير، وكل كتاب يوجد بخطه فهو مرغوب فيه. وكانت ولادته في شهر ربيع الأول سنة أربع وثمانين وأربعمائة. وتوفي ليلة الثلاثاء الخامس والعشرين من جمادى الأولى سنة ست وخمسين وخمسمائة، رحمه الله تعالى.

والعتابي: بفتح العين المهملة وتشديد التاء المثناة من فوقها وبعد الألف باء موحدة، هذه النسبة إلى العتابيين، وهي إحدى محال بغداد في الجانب الغربي منها، وكان أبو منصور المذكور قد تركها وسكن في الجانب الشرقي.

وأما أبو عمرو كلثوم بن عمرو بن أيوب العتابي الشاعر المشهور فهو منسوب إلى عتاب بن سعد بن زهير بن جشم، وكان شاعرا بليغا مجيدا، مدح هارون الرشيد وغيره، وهو من اهل قنسرين المدينة القديمة التي بالشام مجاورة حلب، وكان ينبغي ذكره في هذا الكتاب، وإنما أخللت به لأني لم أظفر له بوفاة، ومبنى هذا الكتاب على من عرفت وفاته.

المسعودي شارح المقامات

أبو سعيد – ويقال أبو عبد الله – محمد بن أبي السعادات عبد الرحمن بن محمد بن مسعود بن أحمد بن الحسين بن محمد المسعودي، الملقب تاج الدين، الخراساني المروروذي البندهي الفقيه الشافعي الصوفي؛ ان أديبا فاضلا اعتنى بالمقامات الحريرية فشرحها وأطال شرحها، واستوعب فيه ما لم يستوعبه غيره، رأيته في خمس مجلدات كبار لم يبلغ أحد من شراح هذا الكتاب إلى هذا القدر ولا إلى نصفه، وهو مشهور كثير الوجود بأيدي الناس، وكان مقيما بدمشق في الخانقاه السميساطية، والناس يأخذون عنه بعد أن كان يعلم الملك الأفضل أبا الحسن علي ابن السلطان صلاح الدين – وقد تقدم ذكره –وحصل بطريقه كتبا كثيرة نفيسة غريبة، وبها استعان على شرح المقامات.

وحكى أبو البركات الهاشمي الحلبي قال: لما دخل السلطان صلاح الدين إلى حلب في سنة تسع وسبعين وخمسمائة نزل المسعودي المذكور إلى جامع حلب وقعد في خزانة كتبها الوقف واختار منها أخذها لم يمنعه منها مانع، ولقد رأيته وهو يحشوها في عدل، ولقيت جماعة من أصحابه وسمعت منهم وأجازوني.

ورأيت في تاريخ بعض المتأخرين أن البندهي المذكور كانت ولادته سنة إحدى وعشرين وخمسمائة. ونقل بعض الأفاضل من خط البندهي ما صورته: ولدت وقت المغرب من ليلة الثلاثاء غرة شهر ربيع الآخر سنة اثنين وعشرين وخمسمائة، واظاهر أن هذا أصح، لكونه منقولا من خطه باليوم والشهر. وتوفي في ليلة السبت التاسع والعشرين من شهر ربيع الأول، وقيل في مستهل شهر ربيع الاخر سنة أربع وثمانين وخمسمائة بمدينة دمشق، ودفن بسفح جبل قاسيون، رحمه الله تعالى، ووقف كتبه على الخانقاه المذكورة،وكان كثرا ما ينشد:

قالت عهدتك تبكي ... دما حذار التنائي
فلم تعوضت عنها ... بعد الدماء بماء؟
فقلت ما ذاك مني ... لسلوة أو عزاء
لكن دموعي شابت ... من طول عمر بكائي

ومثله قول الإخر:

قالت سعاد أتبكي ... بالدمع بعد الدماء
فقلت قد شاب دمعي ... من طول عمر بكائي

ونسبته بالمسعودي إلى جده مسعود المذكور.

وقد تقدم الكلام على المروروذي فلا حاجة إلى إعادته.

والبندهي: بفتح الباء الموحدة وسكون النون وفتح الدال المهملة وبعدها هاء، هذه النسبة إلى بنج دية من أعمال مرووذ، ومعناه بالعربي خمس قرى،ويقال في النسبة أيضا إليها: الفنجديهي والبنديهي، بالفاء والجيم أو بالباء الموحدة والجيم، وخرج منها خلق كثير من العلماء وغيرهم.

وقاسيون: بفتح القاف وبعد الألف سين مهملة مكسورة وياء مثناة من تحتها مضمومة ثم واو ساكنة وبعدها نون، وهو جبل مطل على دمشق من جهتها الشمالية فيه المنازل المليحة والمدارس والربط والبساتين، وفيه نهر يزيد، ونهر ثورى في ذيله، وفيه جامع كبير بناه مظفر الدين بن زين الدين صاحب إربل – المقدم ذكره في حرف الكاف – رحمه الله تعالى، وفيه يقول ابن عنين – الآتي ذكره إن شاء الله تعالى – في قصيدته اللامية التي مدح

بها سيف الإسلام ابن أيوب صاحب اليمن – المذكور في حرف الطاء –فإنه تشوق إلى دمشق فيها، وذكر مواضع من مستتزهاتها، وقال في الجبل المذكور:

وفي كبدي من قاسيون حزازة   تزول رواسيه وليس تزول

وهي من غر ولقد أبدع فيها، رحمه الله.

ابن نقطة

أبو بكر محمد بن عبد الغني بن أبي بكر بن شجاع بن أبي نصر بن عبد الله الحنبلي، المعروف بابن نقطة، الملقب معين الدين البغدادي المحدث؛ كان من طلبة الحديث المشهورين به المكثرين من سماعه وكتابته والراحلين في تحصيله.

دخل خراسان وبلاد الجبل والجزيرة والشام ومصر، ولقي المشايخ وأخذ عنهم واستفاد منهم، وكتب الكثير وعلق التعاليق النافعة، وذيل علىالإكمال كتاب الأمير أبي نصر ابن ماكولا – المقدم ذكره –وما أقصر فيه وجاء في مجلدين. وله كتاب آخر لطيف في الأنساب مثل الذيل على كتابي محمد بن طاهر المقدسي وأبي موسى الأصبهاني الحافظين – المقدم ذكرهما – وكتاب التقييد لمعرفة الرواة والسنن والمسانيد وكنت أسمع به في وقته، و لم أجتمع به.

وذكر أبو البركات ابن المستوفي في تاريخ إربل وعده في جملة من وصل إليها وسمع الحديث بها، وأثنى عليه وقال: أنشدني لأبي على محمد بن الحسين بن أبي الشبل البغدادي، وهو أحد شعراء العراق المجيدين المتأخرين، وقد ذكره ابن الحظيري في كتابزينة الدهر

لاتظهرن لعاذل أو عاذر   حاليك في الضراء والسراء

فلرحمة المتوجعين مرارة   في القلب مثل شماتة الأعداء

وتوفي ابن نقطة المذكور في الثاني والعشرين من صفر سنة تسع وعشرين وستمائة ببغداد، وهو في سن الكهولة، وكنت يؤمئذ مقيما بمدينة حلب للاشتغال فوصلنا خبر موته، رحمه الله تعالى.

وتوفي ابوه عبد الغني في رابع جمادى الآخرة سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ببغداد، ودفن في موضع مجاور لمسجده، وكان مشهورا بالتقلل والإيثار.

ونقطة: بضم النون وسكون القاف وفتح الطاء المهملة وبعدها هاء ساكنة.

وتوفي أبو علي ابن أبي الشبل المذكور سنة ثلاث وسبعين وأربعمائة، رحمه الله تعالى؛ ذكره العماد الأصبهاني في كتاب الخريدة.

ابن الدبيثي

أبو عبد الله محمد بن أبي المعالي سعيد بن أبي طالب بن أبي الحسن علي ابن الحجاج بن محمد بن الحجاج، المعروف بابن الدبيثي، الفقيه المؤرخ الواسطي؛ سمع الحديث كثيرا وعلق تعاليق مفيدة، وكانت له محفوظات حسنة، وكان يوردها ويستعملها في محاوراته،وكان في الحديث وأسماء رجاله والتاريخ من الحفاظ المشهورين والنبلاء المذكورين، وصنف كتابا جعله ذيلا على تاريخ أبي سعد عبد الكريم ابن السمعاني الحافظ – المقدم ذكره – المذيل على تاريخ بغداد للخطيب، وذكر فيه مالم يذكره السمعاني ممن أغفله أو كان بعده، وهو في ثلاث مجلدات وما أقصر فيه، وصنف تاريخا لواسط، وصنف غير ذلك. ذكره ابن المستوفي في تاريخ إربل فقال: ورد علينا في ذي القعدة سنة إحدى عشرة وستمائة، وهو شيخ حسن، وقال: أنشد لنفسه:

خبرت بني الأيام طرا فلم أجد   صديقا مسعدا في النوائب

وأضيفتهم مني الوداد فقابلوا   صفاء ودادي بالقذى والشوائب

وما اخترت منهم صاحبا وارتضيته   فأحمدته في فعله والعواقب

ولم يزل أبو عبد الله المذكور على اجتهاده وتعليقه إلى أن توفي.
وكانت ولادته يوم الاثنين السادس والعشرين من رجب سنة ثمان وخمسين وخمسمائة بواسط.
وتوفي يوم الاثنين لثمان خلون من شهر ربيع الآخر سنة سبع وثلاثين وستمائة ببغداد، رحمه الله تعالى، ودفن بالوردية من الغد.

والدبيثي: بضم الدال المهملة وفتح الباء الموحدة وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها ثاء مثلثة هذه النسبة إلى دبيثى، وهي قرية بنواحي واسط، وأصله من كنجة، وقدم جده علي من دبيثي وسكن واسط وبها توالدوا.
وتوفي والده أبو المعالي سعيد ليلة عيد النحر سنة خمس وثمانين وخمسمائة بواسط، ومولده بها في السابع والعشرين من صفر سنة سبع وعشرين وخمسمائة.

ابن ظفر

أبو عبد الله محمد بن أبي محمد بن محمد بن ظفر الصقلي المنعوت بحجة الدين؛ أحد الأدباء الفضلاء، صاحب التصانيف الممتعة، منها كتابسلوان المطاع في عدوان الاتباع صنفه لبعض القواد بصقلية، سنة أربع وخمسين وخمسمائة،وخير البشر بخير البشر وكتاب الينبوع في تفسير القرآن الكريم، وهو كبير، زكتاب نجباء الأبناء، وكتاب الحاشية على درة الغواص للحريري صاحب المقامات، وشرح المقامات للحريري وهما شرحان: كبير وصغير، وغير ذلك من التواليف الظريفة المليحة. ورأيت في أول الشرح الذي له يذكر أنه أخبره بها الحافظ أبو الطاهر السلفي عن منشئها الحريري، والناس يقولون: إن الحافظ السلفي رأى الحريري في جامع البصرة وحوله حلقة، وهو يأخذون عنه المقامات، فسأل عنه فقيل له: إن هذا قد وضع شيئا من الأكاذيب وهو يمليه على الناس، فتنكبه ولم يعرج عليه، والله أعلم بالصواب.
وحكي عن الشيخ تاج الدين الكندي – المقدم ذكره – انه قال: أحلت على ديوان حماة برزق، فسرت إليها لأجل ذلك، فلما حللتها جمع الجماعة بيني وبين ابن ظفر المذكور، وجرت بيننا مناظرة في النحو واللغة، فأوردت عليه مسائل في النحو فلم يمش فيها، وكان حاله في اللغة قريبا، فلما كاد المجلس يتقوض قال ابن ظفر: الشيخ تاج الدين أعلم مني بالنحو وأنا أعلم منه باللغة، فقلت: الأول مسلم والثاني ممنوع، وتفرقنا.
وكان ابن ظفر قصير القامة دميم الخلقة غير صبيح الوجه. ويروى لابن ظفر المذكور شعر، فمن ذلك ما وجدته في بعض المجاميع منسوبا إليه وهو:

حملتك في قلبي فهل أنت عالم ... بأنك محمول وأنت مقيم
ألا إن شخصا في فؤادي محله ... وأشتاقه، شخص علي كريم

وقد أخذ هذا المعنى من قول بعض العرب:

سقى بلدا كانت سليمى تحله ... من المزن ماتروى به وتشيم
وإن لم أكن من ساكنيه فإنه ... يحل به شخص علي كريم

وأورد له العماد الأصبهاني في كتاب الخريدةعدة مقاطيع، فمن ذلك قوله:

على قدر فضل المرء تأتي خطوبه ... ويعرف عند الصبر في ما يصيبه
ومن قل فيما يتقيه اصطباره ... فقد قل فيما يرتجيه نصيبه

وكانت نشأته بمكة، وتنقل في البلاد، ومولده بصقلية، وسكن آخر الوقت بمدينة حماة وتوفي بها سنة خمس وستين وخمسمائة، رحمه الله تعالى. ولم يزل يكابد الفقر إلى أن مات، حتى قيل إنه زوج ابنته في حماة بغير كفء من الحاجة والضرورة، وإن الزوج رحل بها عن حماة وباعها في بعض البلاد.
وظفر: بفتح الظاء المعجمة والفاء وبعدها راء، وهو المصدر من قولهم: ظفر بالشيء يظفر ظفرا، إذا فاز به.
وقد تقدم الكلام على صقلية فلاحاجة إلى إعادته.

العتبي

أبو عبد الرحمن محمد بن عبيد الله بن عمرو بن معاوية بن عمرو بن عتبة بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس القرشي الأموي المعروف بالعتبي، الشاعر البصري المشهور؛ كان أديبا فاضلا شاعرا مجيدا، وكان يروي الأخبار وأيام العرب، ومات له بنون، فكان يرثيهم، وروى عن أبيه وعن سفيان بن عيينة ولوط بن محنف،وروى عنه أبو حاتم السجستاني وأبو الفضل الرياشي وإسحاق بن محمد النخعي وغيرهم، وقدم بغداد وحدث بها وأخذ عنه أهلها، وكان مستهترا بالشراب، ويقول الشعر في عتبة. وكان هو وأبوه سيدين أديبين فصيحين، وله من التصانيف كتاب الخيل وكتاب أشعار الأعاريب وأشعار النساء اللاتي أحببن ثم أبغضن وكتاب الذبيح وكتاب الأخلاق وغير ذلك.

وقال العتبي المذكور: سمعت أعرابيا يقول لرجل: إن فلانا وإن ضحك لك فإن عقاربه تسري إليك، فإن لم تجعله عدوا في علانيتك فلا تجعله صديقا في سريرتك.

وذكره ابن قتيبة في كتاب المعارف وابن المنجم في كتاب البارعوروى له:

رأين الغواني الشيب لاح بعارضي ... فأعرضن عني بالخدود النواضر

وكن متى أبصرنني أو سمعن بي ... سعين فرقعن الكوى بالمحاجر

فإن عطفت عني أعنة أعين ... نظرن بأحداق المها والجآذر

فإني من قوم كريم ثناؤهم ... لأقدامهم ضيعت رؤوس المنابر

خلائف في الإسلام، في الشرك قادة ... بهم وإليهم فخر كل مفاخر

وفي المجموع الذي بخطي أبيات للشريف الرضي، رحمه الله، في هذا المعنى. وأورد له أيضا:

لما رأتني سليمى قاصرا بصري ... عنها وفي الطرف عن أمثالها زور

قالت عهدتك مجنونا، فقلت لها ... إن الشباب جنون برؤه الكبر

وهذا البيت من الأمثال السائرة. وذكر له المبرد في كتاب الكامل بيتين يرثي بهما بعض أولاده،وهما:

أضحت بخدي للدموع رسوم ... أسفا عليك وفي الفؤاد كلوم

والصبر يحمد في المواطن كلها ... إلا عليك فإنه مذموم

وهذا البيت أيضا من الأبيات المشهورة. وشعره كثير جيد، وهو من فحول الشعراء المحدثين. وتوفي سنة ثمان وعشرين ومائتين، رحمه الله تعالى.

والعتبي: بضم العين المهملة وسكون التاء المثناة من فوقها وبعدها باء موحدة، هذه النسبة إلى جده عتبه بن أبي سفيان المذكور، وقد نسب مثل هذه النسبة إلى عتبة بن غزوان الصحابي، رضي الله عنه، وغيره ويجوز أن تكون نسبته إلى عتبة التي كان يقول الشعر فيها، والله أعلم.وروي عنه أنه كان يقول: الزرافة – بفتح الزاي وضمها – الحيوان المعروف وهي متولدة بين ثلاث حيوانات: الناقة الوحشية والبقرة الوحشية والضبعان، وهو الذكر من الضباع، فيقع الضبعان على الناقة فتأتي بولد بين الناقة والضبع، فإذا كان الولد ذكرا وقع على البقرة فتأتي بالزرافة، وذلك في بلاد الحبشة، ولذلك قيل لها الزرافة، والزرافة في الأصل الجماعة، قلما تولدت من جماعة قيل لها الزرافة، والعجم تسميها: اشتروا كاو بلنك لان الأشتر: الجملوالكاو البقرة، والبلنك الضبع.

أبو بكر الخوارزمي الشاعر

أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي الشاعر المشهور، ويقال له الطبرخزي أيضا لأن أباه من خوارزم وأمه من طبرستان فركب له من الاسمين نسبة، كذا ذكره السمعاني، وهو ابن أخت أبي جعفر بن جرير الطبري صاحب التاريخ – وقد تقدم ذكر ذلك في ترجمة ابن جرير.

وأبو بكر المذكور أحد الشعراء المجيدين الكبار المشاهير، كان إماما في اللغة والأنساب، أقام بالشام مدة وسكن بنواحي حلب، وكان مشارا إليه في عصره. ويحكى أنه قصد حضرة ابن عباد وهو بأرجان، فلما وصل إلى بابه قال لأحد حجابه: قل للصاحب على الباب أحد الأدباء وهو يستأذن في الدخول، فدخل الحاجب وأعلمه، فقال الصاحب، قل له: قد ألزمت نفسي أن لايدخل علي من الأدباء إلا من يحفظ عشرين ألف بيت من شعر العرب، فخرج إليه الحاجب وأعلمه بذلك، فقال له أبو بكر: ارجع إليه وقل له: هذا القدر من شعر الرجال أم من شعر النساء؟ فدخل الحاجب فأعاد عليه ماقال، فقا الصاحب: هذا يريد أن يكون أبا الخوارزمي، فأذن له في الدخول، فدخل عليه فعرفه وانبسط له.

وأبو بكر المذكور له ديوان رسائل وديوان شعر. وقد ذكره الثعالبي في كتاب اليتيمة، وذكر قطعة من نثره ثم أعقبها بشي من نظمه، فمن ذلك قوله:

رأيتك إن أيسرت خيمت عندنا مقيما وإن أعسرت زرت لماما

فما أنت إلا البدر إن قل ضوؤه أغب إن زاد الضيا أقاما

يشير إلى قول ابنة عبيد الله بن مطيع لزوجها يحيى بن طلحة: ما رأيت ألأم من أصحابك، إذا أيسرت لزموك، وإذا أعسرت تركوك، فقال: هذا من كرمهم، يأتوننا في حال القوة منا عليهم ويعافوننا في حال الضعف منا عنهم؛ وأنشدني عثمان بن سعيد بن تولوا لنفسه:

متواضع كالغصن يدنوا مثمرا فإذا أنالك ماعليه ترفعا ومن شعره أيضا :

يامن يحاول صرف الراح يشربها ولا يفك لما يلقاه قرطاسا

الكاس والكيس لم يقض امتلاؤهما ففرغ الكيس حتى تملأالكاسا

وفيه يقول أبو سعيد أحمد بن شهيب الخوارزمي:

أبو بكر له أدب وفضل ولكن لايدوم على الوفا

مودته إذا دامت لخل فمن وقت الصباح إلى المساء

وملحه ونوادره كثيرة.

ولما رجع من الشام سكن نيسابور ومات بها في منتصف شهر رمضان سنة ثلاث وثمانين وثلثمائة. وذكر شيخنا ابن الأثير في تاريخه أنه توفي في سنة ثلاث وتسعين، والله أعلم، رحمه الله تعالى.

وكان قد فارق الصاحب ابن عباد غير راض عمل فيه:

لاتحمدن ابن عباد وإن هطلت يداه بالجود حتى ألأحجل الديما

فإنها خطرت من وساوسه يعطي ويمنع لابخلا ولا كرما

فبلغ ابن عباد ذلك، فلما بلغه خبر موته أنشد:

أقول لركب من خراسان قافل أمات خوارزميكم؟ قيل لي: نعم

فقلت: اكتبوا بالجص من فوق قبره ألا لعن الرحمن من كفر النعم

قلت: هكذا وجدت هذين البيتين منسوبين إلى أبي بكر الخوارزمي المذكور في الصاحب ابن عباد، ذكر ذلك جماعة من الأدباء في مجاميعهم وفي مذكراتهم.

ثم نظرت في كتابمعجم الشعراء تأليف المرزباني، فوجدت في ترجمة أبي القاسم الأعمى، واسمه معاوية بن سفيان، وهو شاعر بغداد أحد غلمان الكسائي، اتصل بالحسن بن سهل يؤدب أولاده، فعتب عليه في شيء فقال يهجوه:

لاتحمدن حسنا بالجود إن مطرت　　كفاه غزرا ولا تذممه إن زرما

فليس يمنع إبقاء على نشب　　ولا يجود لفضل الحمد مغتنما

لكنها خطرت من وساوسه　　يعطي ويمنع لابخلا ولاكرما

والله أعلم بذلك. وقد تقدم الكلام على الخوارزمي.

والطبرخزي: بفتح الطاء المهملة والباء الموحدة وسكون الراء وفتح الخاء المعجمة وبعدها زاي، وقد سبق في أول الترجمة الكلام على سبب هذه النسبة.

السلامي الشاعر

أبو الحسن محمد بن عبد الله بن محمد بن يحيى بن خليس بن عبد الله بن يحيى بن عبد الله ابن الحارث بن عبد الله بن الوليد بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، المخزومي السلامي الشاعر المشهور؛ هو من ولد الوليد بن الوليد بن المغيرة المخزومي، أخي خالد بن الوليد، رضي الله عنه. قال الثعالبي في حقه هو من أشعر أهل العراق قولا بالإطلاق، وشهادة بالاستحقاق، وعلى ما أجريته من ذكره، شاهد عدل من شعره، والذي كتبت من محاسنه نزه العيون، ورقى القلوب، ومنى النفوس. ومن خبره أنه قال الشعر وهو ابن عشر سنين، وأول شيء قال في المكتب:

بدائع الحسن فيه مفترقة　　وأعين الناس فيه متفقه

سهام ألحاظه مفوقة　　فكل من رام لحظه رشقه

قد كتب الحسن فوق وجنتيه　　هذا مليح وحق من خلقه

وركب في صباه سمارية في دجلة، ولم يكن رأى دجلة قبل ذلك فقال:

وميدان تجول به خيول　　تقود الدارعين ولا تقاد

ركبت به إلى اللذات طرفا　　له جسم وليس له فؤاد

جرى فظننت أن الأرض وجه　　ودجلة ناظر، وهو السواد

ونشأ ببغداد وخرج منها إلى الموصل وهو صبي يوم ذاك، فوجد بها جماعة من مشايخ الشعراء، منهم أبو عثمان الخالدي أحد الخالدين، وأبو الفرج الببغاء – المقدم ذكره–وأبو الحسن التلعفري، وغيرهم، فلما رأوه عجبوا منه لبراعته مع حداثة سنه، فاتهموه بان الشعر ليس له، فقال الخالدي: أنا أكفيكم أمره، واتخذ دعوة جمع فيها الشعراء وأحضر السلامي المذكور معهم، فلما تواسطوا الشراب أخذوا في التفتيش عن بضاعته، فلم يلبثوا أن جاء مطر شديد وبرد ستر وجه الأرض، فألقى الخالدي نارنجا كان بين أيديهم على ذلك البرد، وقال ياأصحابنا، هل لكم أن نصف هذا؟ فقال السلامي ارتجالا:

لله در الخالدي　　الأوحد الندب الخطير

أهدى لماء المزن عن　　د جموده نار السعير

حتى إذا صدر العتا　　ب إليه عن حر الصدور

بعثت إليه هدية　　عن خاطري أيدي السرور

لا تعذلوه فإنه أهدى الخدود إلى الثغور

فلما رأوا ذلك منه أمسكوا عنه. وكانوا يصفونه بالفضل ويعترفون له بالإجادة والحذق، إلا التلعفري فإنه أقام على قوله الأول حتى قال السلامي فيه:

سما التلعفري إلى وصالي ونفس الكلب تكبر عن وصاله
ينافي خلقه خلقي وتأبى فعالي أن تضاف إلى فعاله
فصنعتي النفيسة في لساني وصنعته الخسيسة في قذاله
فإن؟أشعر فما هو من رجالي وإن يصفع فما أنا من رجاله

وله فيه أهاج كثيرة.

ودخل السلامي يوما على أبي تغلب، وأظنه الحمداني، وبين يديه درع فقال: صفها لي، فارتجل:

يارب سابغة حبتني نعمة كافأتها بالسوء غير مفند
أضحت تصون عن المنايا مهجتي وظللت أبذالها لكل مهند

وهذا المعنى مأخوذ من قول عبد الله بن المعتز في الخمرة المطبوخة، وقد سبق ذكر ذلك في ترجمته وهو:

وقتني من نار الجحيم بنفسها وذلك من إحسانها ليس يجحد

وقصد السلامي حضرة الصاحب ابن عباد وهو بأصبهان، فأنشده قصيدته البائية التي من جملتها:

تبسطنا على الآثام لما رأينا العفو من ثمر الذنوب

وهذا البيت من محاسنه، وفيه إشارة إلى قول أبي نواس الحسن بن هانئ من جملة أبيات في الزهد – وقد تقدم ذكرها في ترجمته – وهو قوله:

تعض ندامة كفيك مما تركت مخافة النار السرورا

وفيه إلمام أيضا بقول المأمون:لو علم أرباب الجرائم تلذذي بالعفو لتقربوا إلي بالذنوب.

و لم يزل السلامي عند الصاحب بين خير مستفيض، وجاه عريض، ونعم بيض، لإلى أن آثر قصد حضرة الصاحب عضد الدولة بن بويه بشيراز، فحمله الصاحب إليها وزوده كتابا بخطه إلى أبي القاسم عبد العزيز بن يوسف الكاتب،وكان أحد البلغاء، وممن يجري عند عضد الدولة مجرى الوزراء، ونسخة الكتاب: قد علم مولاي أن باعة الشعر أكثر من عدد الشعر، ومن يوثق أن حليته التي يهديها من صوغ طبعه، وحلله التي يؤديها من نسخ فكره، أقل من ذلك، وممن خبرته بالامتحان فحمدته، وفررته بالاختبار فاخترته، أبو الحسن محمد بن عبد الله السلامي، وله بديهة قوية، توفي على الروية، ومذهب في الإجادة يهش السمع لوعيه، كما يرتاح الطرف لرعيه، وقد امتطى أمله، وخير له إلى الحضرة الجليلة رجاء أن يحصل في سواد أمثاله، ويظهر معهم بياض حاله، فجهزت منه أمير الشعر في موكبه، وحليت فرس البلاغة بمركبه، وكتابي هذا رائده إلى القطر، بل مشرعة إلى البحر، لإن رأى مولاي أن يراعي كلامي في بابه، ويجعل ذلك من ذرائع غيجابه، فعل إن شاء الله تعالى.

فلما ورد عليه تكفل به أبو القاسم وأفضل عليه وأوصله إلى عضد الدولة، حتى أنشده قصيدته التي منها.

إليك طوى عرض البسيطة جاعل قصارى المطايا أن يلوح لها القصر
فكنت وعزمي في الظلام وصارمي ثلاثة أشباه كما اجتمع النسر
وبشرت آمالي بملك هو الورى ودار هي الدنيا، ويوم هو الدهر

وقد تقدم ذلك في ترجمة عضد الدولة في حرف الفاء فليطلب هناك-.
وقد أخذ القاضي أبو بكر أحمد الأرجاني – المقدم ذكره – معنى البيت الأخير وسبكه في قوله:

يا سائلي عنه لما ظلت أمدحه   هذا هو الرجل العاري من العار
لو زرته لرأيت الناس في رجل   والدهر في ساعة والأرض في دار

وهذا البيت وإن كان في معنى ذلك البيت لكن ليس فيه رشاقته ولا عليه طلاوته؛وقد استعمل المتنبي أيضا هذا المعنى المذكور لكنه لم يكمله فأتى ببعضه في النصف الأخير من هذا البيت وهو قوله:

هي الغرض الأقصى ورؤيتك المنى   ومنزلك الدنيا وانت الخلائق

رجعنا إلى خبرالسلامي مع عضد الدولة: فاشتمل عليه بجناح القبول، ودفع إليه مفتاح المأمول،واختص بخدمته في مقامه وظعنه، وتوفر من صلاته حظه، وكان عضد الدولة يقول: إذا رأيت السلامي في مجلس ظننت أعطارد قد نزل من الفلك إلي ووقف بين يدي. ولما توفي عضد الدولة – في التاريخ المذكور في ترجمته – تراجع طبع السلامي ورقت حاله، ثم مازالت تتماسك مرة وتتداعى أخرى حتى مات.
وله في عضد الدولة كل قصيدة بديعة، فمن ذلك قوله ذلك قوله من جملة قصيد:

نبهت ندماني وقد   عبرت بنا الشعرى العبور
والبدر في أفق السما   ء كروضة فيها غدير
هبوا إلى شرب المدا   م فإنما الدنيا غرور
هبوا فقد عيي الرقي   ب فنام وانتبه السرور
وأشار إبليس فقل   نا كلنا:نعم المشير
صرعى بمعركة تعف   الوحش عنا والنسور
نوار روضتنا خدو   دوالغصون بها خضور
والعيش أستر ما يكو   ن إذا تهتكت الستور
طاف السقاة بها كما   أهدت لك الصيد الصقور
عذراء يكتمها المزا   ج كأنها فيه ضمير
وتظن تحت حبابها   خدا تقبله ثغور
حتى سجدنا والإما   م أمامنا بم وزير

وله فيه أيضا من جملة أبيات:

يزور نائلك العافي وصارمك الع   اصي فتحويها أيد وأعناق
في كل يوم لبيت المجد منك غنى   وثروة، ولبيت المال إملاق

وله فيه أيضا:

تشبهه المداح في البأس والندى   بمن لو رآه كان أصغر خادم

ففي جيشه خمسون ألفا كعنتر   وأمضى،وفي خزانة ألف حاتم

ومن شعره أيضا:

لما أصيب الخد منك بعارض   أضحى بسلسلة العذار مقيدا

ومن هاهنا أخذ ابن التلعفري قوله :

هب أن خدك قد أصيب بعارض   فعلام صدغك راح وهو مسلسل

وأنشدني ابن التلعفري – وهو الشهاب محمد بن يوسف بن مسعود الشيباني – أبياته التي من جملتها هذا البيت.

وبالجملة فأكثر شعره نخب وغرر.وكانت ولادته آخر نهار الجمعة لست خلون من رجب سنة ست وثلاثين وثلاثمائة في كرخ بغدادز وتوفي يوم الخميس رابع جمادى الأولى سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة، رحمه الله تعالى.

والسلامي: نسبة إلى دار السلام بغداد – وقد تقدم ذكر ذلك في ترجمة محمد بن ناصر الحافظ.

ابن سكرة الشاعر

أبو الحسن محمد بن عبد الله بن محمد، المعروف بابن سكرة الهاشمي البغدادي الشاعر المشهور، وهو من ولد علي بن المهدي بن أبي جعفر المنصور الخليفة العباسي؛ قال الثعالبي في ترجمته: هو شاعر متسع الباع في أنواع الإبداع، فائق في قول الطرف والملح على الفحول والأفراد، جار في ميدان المجون والسخف ما أراد، وكان يقال ببغداد: إن زمانا جاد بمثل ابن سكرة وابن حجاج لسخي جدا، وما شبها إلا بجرير والفرزدق في عصرهما. ويقال إن ديوان ابن سكرة يربي على خمسين ألف بيت، فمن بديع تشبيهه ما قاله في غلام رآه وفي يده غصن وعليه زهر، وهو:

غصن بان بدا وفي اليد منه   غصن فيه لؤلؤ منظوم

فتحيرت بين غصنين في ذا   قمر طالع وفي ذا نجوم

ومن شعره:

قالوا: التحى وستسلو عنه قلت لهم: هل يحسن الروض ما لم يطلع الزهر

هل التحى طرفه الساجي فأهجره؟   أم هل تزحزح عن أجفان الحور؟

وله في غلام أعرج:

قالوا بليت بأعرج فأجبتهم   ألعيب يحدث في غصون البان

إني أحب حديثه وأريده للنو   م لا للجري في الميدان

وله أيضا:

أنا والله هالك   آيس من سلامتي

أو أرى القامة التي   قد أقامت قيامتي

وقال ابو الحسن علي بن محمد بن الفتح المعروف بابن أبي العصب – وقال ابن العصب – الأشناني الملحي البغدادي الشاعر: كتب إلي ابن سكرة الهاشمي:

يا صديقا أفادنيه زمان   فيه ضن بالأصدقاء وشح

بين شخصي وبين شخصك بعد   غير أن الخيال بالوصل سمح

إنما أوجب التباعد منا أنني سكر وأنك ملح

فكتب إليه:

هل يقول الإخوان يوما لخل شاب منه محض المودة قدح
بيننا سكر فلاتفسدنه أم يقولون :بيننا وبينك ملح

وله يهجو بعض الرؤساء:

تهت علينا ولست فينا ولي عهد ولا خليفة
فته وزد ما علي جار يقطع عني ولا وظيفة

ولاتقل ليس في عيب قد تقذف الحرة العفيفه
والشعر نار بلا دخان وللقوافي رقى لطيفه
كم من ثقيل المحل سام هوت به أحرف خفيفه
لوهجي المسك وهو أهل لكل مدح لصار جيفه

وله أيضا:

قيل: ما أعددت للبر د فقد جاء بشده
قلت :دراعة عري تحتها جبة رعده

وله بيتان اللذان ذكرهما الحريري في المقامة الكرجية، وهما:

جاء الشتاء وعندي من حوائجه سبع إذا القطر عن حاجاتنا حبسا
كن وكيس وكانون وكاس طلا بعد الكباب وكس ناعم وكسا

وقد نسج ابن التعاويذي – الآتي ذكره في المحمدين إن شاء الله تعالى – على منواله، فقال:

إذا اجتمعت في مجلس الشرب سبعة فما الرأي في التأخير عنه صواب
شواء وشمام وشهد وشادن وشمع وشاد مطرب وشراب

وقال أبو الثناء محمود بن نعمة بن أرسلان النحوي الشيزري:

يقولون كافات الشتاء كثيرة وما هي إلا واحد غير مفترى
إذا صح كاف الكيس فالكل حاصل لديك، وكل الصيد يوجد في الفرا

وله في الشباب أيضا:

لقد بان الشباب وكان غصنا له ثمر وأوراق تظلك
وكان البعض منك فمات فاعلم متى ما مات بعضك مات كلك

ومحاسن شعره كثيرة.

وتوفي يوم الأربعاء حادي عشر شهر ربيع الآخر سنة خمس وثمانين وثلاثمائة رحمه الله تعالى.

وكانت ولادة ابن العصيب المذكور بعد سنة خمس وثمانين ومائتين، وسمع منه الحسن ابن علي الجوهريهذه الأبيات سنة أربع وسبعين وثلاثمائة.

وتوفي أبو الثناء محمود بن نعمة المذكور سنة خمس وستين وخمسمائة بدمشق،وذكر عماد الدين الكاتب في كتاب الخريدة أنه رآه بدمشق سنة ثلاث وستين وخمسمائة، وأنشد عدة مقاطيع له.

وسكرة: بضم السين المهملة وتشديد الكاف وفتح الراء وبعدها هاء ساكنة، وهي معروفة فلا حاجة إلى تفسيرها.

الشريف الرضي الموسوي

الشريف الرضي أبو الحسن محمدبن طاهر ذي المناقب أبي أحمد الحسين بن موسى بن محمد ابن موسى بن إبراهيم بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، المعروف بالموسوي صاحب ديوان الشعر؛ ذكره الثعالبي في كتاب اليتيمة فقال في ترجمته: ابتدأ يقول الشعر بعد أن جاوز عشر سنين بقليل، وهو اليوم أبدع أنشأ الزمان، وأنجب سادة العراق، يتحلى مع محتدة الشريف ومفخره المنيف، بأدب ظاهر وفضل باهر وحظ من جميع المحاسن وافر، ثم هو أشعر الطالبين من مضى منهم ومن غبر، على كثرة شعرائهم الملفقين، ولو قلت إنه أشعر قريش لم أبعد عن الصدق، وسيشهد بما أخبر به شاهد عدل من شعره العالي القدح الممتنع عن القدح، الذي يجمع إلى السلاسة متانة وإلى السهولة رصانة ويشتمل على معان يقرب جناها ويبعد مداها. وكان أبوه يتولى قديما نقابة نقباء الطالبين، ويحكم فيهم أجمعين، والنظر في المظالم والحج بالناس، ثم ردت هذه الأعمال كلها إلى ولده الرضي المذكور في سنة ثمان وثمانين وثلثمائة وأبوه حي.

ومن غرر شعره ماكتبه إلى الإمام القادر بالله أبي العباس أحمد بن المقتدر من جملة قصيدته:

عطفا أمير المؤمنين فإننا ... في دوحة العلياء لانتفرق

مابيننا يوم الفخار تفاوت ... أبدا، كلنا في المعالي معرق

إلا الخلافة ميزتك، فإنني ... أنا عاطل منها وأنت مطوق

ومن جيد شعره قوله أيضا:

رمت المعالي فامتنعن ولم يزل ... أبدا يمانع عاشقا معشوق

وصبرت ختى نلتهن ولم أقل ... ضجرا :دواء الفارك التطليق

وله من جملة أبيات:

يا صاحبي قفا لي واقضيا وطرا ... وحدثاني عن نجد بأخبار

هل روضت قاعة الوعساء أم مطرت خميلة الطلح ذات البان والغار

أم هل أبيت ودار دون كاظمة ... وداري، وسمار ذاك الحي سماري

تضوع أرواح نجد من ثيابهم ... عند القدوم لقرب العهد بالدار

وديوان شعره كبير يدخل في أربع مجلدات، وهو كثير الوجود فلاحاجة إلى الإكثار من ذكره.

وذكر أبو الفتح ابن جني النحوي – المقدم ذكره –في بعض مجاميعه أن الشريف الرضي المذكور أحضر إلى ابن السيرافي النحوي وهو طفل جدا لم يبلغ عمره عشر سنين فلقنه النحو، وقعد معه يوما في حلقته، فذاكره بشيء من الإعراب على عادة التعليم، فقال له: إذا قلنارأيت عمر فما علامة النصب

في عمر؟ فقال له الرضي: بغض علي؛ فعجب السيرافي والحاضرون من حدة خاطره. وذكر أنه تلقن القرآن بعد أن دخل في السن فحفظه في مدة يسيرة. وصنف كتابا في معاني القرآن الكريم يتعذر وجود مثله دل على توسعه في علم النحو واللغة، وصنف كتابا في مجازات القرآن فجاء نادرا في بابه.

وقد عني بجمع ديوان الشريف الرضي المذكور جماعة، وأجود ما جمع الذي جمعه أبو حكيم الخبري.

ولقد أخبرني بعض الفضلاء أنه رأى في مجموع أن بعض الأدباء اجتاز بدار الشريف الرضي المذكور بسر من رأى، وهو لايعرفها، وقد أخنى عليها الزمان وذهبت بهجتها وأخلقت ديباجتها، وبقايا رسومها تشهد له بالنضارة وحسن الشارة، فوقف عليها متعجبا من صروف الزمان وطوارق الحدثان، وتمثل بقول الشريف الرضي المذكور:

ولقد وقفت على ربوعهم ... وطلولها بيد البلى نهب
فبكيت حتى ضج من لغب ... نضوي ولج بعذلي الركب
وتلفتت عيني فمذ خفيت ... عني الطلول تلفت القلب

فمر به شخص وسمعه وهو ينشد الأبيات، فقال له: هل تعرف هذه الدار لمن هي؟فقال لا، فقال: هذه الدار لصاحب هذه الأبيات الشريف الرضي فتعجبا من حسن الاتفاق.

ولقد اذكرتني هذه الواقعة حكاية هي في معناها ذكرها الحريري في كتابدرة الغواص في أوهام الخواص وهي على ما رواه أن عبيد بن شرية الجرهمي عاش ثلثمائة سنة وأدرك الإسلام ودخل على معاوية بن أبي سفيان بالشام وهو خليفة، فقال له:حدثني بأعجب ما رأيت، فقال:مررت ذات يوم بقوم يدفنون ميتا لهم، فلما انتهيت إليهم اغرورقت عيناي بالدموع فتمثلت بقول الشاعر:

يا قلب إنك من أسماء مغرور ... فاذكر وهل ينفعك اليوم تذكير
قد بحت بالحب ماتخفيه من أحد ... حتى جرت لك اطلاقا محاضير
فلست تدري وما تدري أعاجلها ... أدنى لرشدك أم مافيه تأخير
فاستقدر الله خيرا وارضين به ... فبينماالعسر إذ دارت مياسير
وبينما المرء في الأحياء مغتبط ... إذا هو الرمس تعفوه الأعاصير
يبكي الغريب عليه ليس يعرفه ... وذو قرابته في الحي مسرور

قال، فقال لي رجل: أتعرف من يقول هذا شعر؟ فقلت:لا، قال: إن قائله هو الذي دفناه الساعة، وأنت الغريب الذي تبكي عليه ولست تعرفه، وهذا الذي خرج من قبره أمس الناس رحما به وأسرهم بموته، فقال له معاوية:لقد رأيت عجبا، فمن الميت؟ قال: هو عثير بن لبيد العذري.

ويقرب من هذا ما ذكره الأمير المسبحي في كتاب الحمة الذي ألفه للظاهر بن الحاكم سنة اثنتين عشرة وأربعمائة قال، قال محمود المادرائي: كنت متوجها إلى الديوان فدخلنا الأبلة فصعدت من السفينة لحاجة، ووقفت على تل رماد عتيق وعن لي أن أنشدت قول الشاعر:

يا رب قائله يوما وقد لغبت ... كيف الطريق إلى حمام منجاب

وكان شيخ من أهل الأبلة جالسا على قرب من الموضع، فقال لي: يافتى، تعرف حمام منجاب؟ قلت: لا، قال: فأنت واقف على مستوقده؛ فعجب من الاتفاق في ذلك.

ومثل هاتين القضيتين ما ذكره الخطيب أبو زكريا التبريزي في كتاب شرح الحماسة وذكر غيره أيضا أن عمرو بن شاس الأسدي الشاعر المشهور كانت له امرأة من قومه، وابن من أمه سوداء يقال له عرار، فكانت تعير به أباه وتؤذيه ويؤذيها، فأنكر عمرو عليها أذاها له وقال:

أردت عرارا بالهوان ومن يرد عرارا لعمري بالهوان لقد ظلم
وإن عرارا إن يكن غير واضح فإني أحب الجون ذا المنكب العمم

وهي عدة أبيات في الباب الاول من كتاب الحماسة – والجنون:الأسود، والعمم:التام – وكان عرار أحد فصحاء العقلاء، وتوجه من عند الملهب بن أبي صفرة إلى الحجاج بن يوسف الثقفي رسولا في بعض فتوحه فلما مثل بين يدي الحجاج لم يعرفه وازدراه، فلما استنطقه أبان وأعرب ما شاء وبلغ الغاية والمراد في كل ما سئل عنه، فأنشد الحجاج متمثلا: أرادت عرارا بالهوان ومن يرد عرارا لعمري بالهوان لقد ظلم فقال عرار:أنا – أيد الله الأمير – عرار، فأعجب به وبذلك الاتفاق 0 وشاس:المكان الغليظ.

وعمرو المذكور من أسد بن خزيمة، وهو مخضرم أدرك الإسلام وهو شيج كبير.

وعرار من قولهم عار الظليمبتشديد الراء يعار عرارا إذا صاح؛يقول:أردت امرأتي إهانة عرار، ومن طلب ذلك من مثله فقد وضع الشيء في غير محله، وهو الظلم.

واجتهد عمرو بن شاس أن يصلح بين امرأته وابنه فلم يمكنه ذلك فطلقها فندم وقال في ذلك شعرا تركته لعدم الحاجة وخشية الإطالة.

رجعنا إلى ذكر الشريف:قال الخطيب في تاريخ بغداد: سمعت أبا عبدالله محمد بن عبد الله الكاتب بحضرة أبي الحسين ابن محفوظ، وكان أوحد الرؤساء، يقول: سمعت جماعة من أهل العلم بالأدب يقولون: الرضي أشعر قريش، فقال ابن محفوظ: هذا صحيح، وقد كان في قريش من يجيد القول، إلا أن شعره قليل، فأما مجيد مكثر فليس إلا الرضي.

وكانت ولادته سنة تسع وخمسين وثلثمائة ببغداد؛ وتوفي بكرة يوم الأحد سادس المحرم–وقيل صفر – سنة ست وأربعمائة ببغداد، ودفن في داره بخط مسجد الأنبارين بالكرخ، وقد خربت الدار ودرس القبر. ومضى أخوه المرتضى أبو القاسم إلى مشهد موسى بن جعفر لأنه لم يستطع أن ينظر إلى تابوته ودفنه، وصلى عليه الوزير فخر الملك في الدار مع جماعة كثيرة، رحمه الله تعالى.

وكانت ولادة والدة الطاهرذي المناقب أبي أحمد سنة سبع وثلثمائة، وتوفي في جمادى الأولى سنة أربعمائة، وقيل توفي سنة ثلاث وأربعمائة ببغداد ودفن في مقابر قريش بمشهد باب التبن، ورثاه ولده الرضي، ورثاه أيضا أبو العلاء المعري بقصيدته التي أولها:

أودى فليت الحادثات كفاف مال المسيف وعنبر المستاف

وهي طويلة أجاد فيها كل الإجادة.

وقد تقدم ذكر أخيه الشريف المرتضى أبي القاسم علي.

وعبيد: بفتح العين المهملة وكسر الباء الموحدة وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها دال مهملة.

وشرية: بفتح الشين المعجمة وسكون الراء وفتح الياءالمثناة من تحتها وبعدها هاء ساكنة.

والجرهمي: بضم الجيم وسكون الراء وضم الهاء وبعدها ميم، هذه النسبة إلى جرهم بن قحطان، وهي قبيلة كبيرة مشهورة باليمن.

وعثير: بكسر العين المهملة وسكون الثاء المثلثة وفتح الياء المثناة من تحتها وبعدها راء، وهو في الأصل اسم للغبار، وبه سمي الرجل.

ولبيد: اسم علم مشهور فلا حاجة إلى ضبطه.

وقد تقدم الكلام على العذري، والله أعلم.

ابن هانئ الأندلسي

أبو القاسم وأبو الحسن، محمد بن هانىء الأزدي الأندلسي الشاعر المشهور؛ قيل إنه من ولد يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة الأزدي، وقيل بل هو من ولد أخيه روح بن حاتم – وقد تقدم ذكر يزيد وأخيه روح في ترجمة روح في حرف الراء –؛ وكان أبوه هانئ من قرية من قرى المهدية بأفريقية، وكان شاعرا أديبا، فانتقل إلى الأندلس، فولد له بها محمد المذكور بمدينة إشبيلية ونشأ بها واشتغل، وحصل له حظ وافر من الأدب

وعمل الشعر فمهر فيه، وكان حافظا لأشعار العرب وأخبارهم، واتصل بصاحب إشبيلية وحظي عنده، وكان كثير الانهماك في الملاذ متهما بمذهب الفلاسفة، ولما اشتهر عنه ذلك نقم عليه أهل إشبيلية وساءت المقالة في حق الملك بسببه، واتهم بمذهبه أيضا، فأشار الملك عليه بالغيبة عن البلد مدة ينسى فيها خبره، فانفصل عنها وعمره يومئذ سبعة وعشرون عاما.

وحديثه طويل، وخلاصته أنه خرج إلى عدرة المغرب ولقي جوهرا للقائد مولى المنصور – وقد تقدم ذكره وما جرى له عند توجهه إلى مصر وفتحها للمعز –فامتدحه ثم ارتحل إلى يحيى ابني علي – وقد تقدم ذكر جعفر – وكانا بالمسيلة وهي مدينة الزاب، وكانا والييها، فبالغا في إكرامه والإحسان إليه، فنمي خبره إلى المعز أبي تميم معد بن المنصور العبيدي – وسيأتي ذكره في هذا الحرف إن شاء الله تعالى – فطلبه منهما، فلما انتهى إليه بالغ في الإنعام عليه.

ثم توجه المعز إلى الديار المصرية – كما سيأتي في خبره – فشيعه ابن هانئ المذكور ورجع إلى المغرب لأخذ عياله والالتحاق به، فتجهز وتبعه، فلما وصل إلى برقة أضافه شخص من أهلها، فأقام عنده أياما في مجلس الأنس، فيقال إنهم عربدوا عليه فقتلوه، وقيل خرج من تلك الدار وهو سكران فنام في الطريق وأصبح ميتا و لم يعرف سبب موته، وقيل إنه وجد في سانيه من سواني برقة مخنوقا بتكة سراريله، وكان ذلك في بكرة يوم الأربعاء لسبع ليال بقين من رجب سنة اثنتين وستين وثلثمائة، وعمره ست وثلاثون سنة، وقيل اثنتان وأربعون، رحمه الله تعالى، هكذا قيده صاحب كتابأخبار القيروان وأشار إلى انه في صحبة المعز، وهو مخالف لماذكرته أولا من تشييعه للمعز ورجوعه لأخذ عياله. ولما بلغ المعز وفاته وهو بمصر تأسف عليه كثيرا وقال: هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدر لنا ذلك.

وله في المعز المذكور غرر المدائح ونخب الشعر، فمن ذلك قصيدته النونية التي أولها:

هل من أعقه عالج يبرين أم منهما بقر الحدوج العين

ولمن ليال ما ذككنا عهدها مذ كن إلا أنهن شجون

المشرقات كأنهن كواكب والناعمات كأنهن غصون

بيض وما ضحك الصباح، وإنها بالمسك من طرر الحسان لجون

أدمى لها المرجان صفحة خده وبكى عليها اللؤلؤ المكنون

أعدى الحمام تأوهي من بعدها فكأنه فيما سجعن رنين

بانوا سراعا للهوادج زفرة مما رأين وللمطي حنين

فكأنما صبغوا الضحى بقبابهم أو عصفرت فيه الخدود جفون

ماذا على حلل الشقيق لوأنها عنلابسيها في الخدود تبين

فلأعطشن الروض بعدهم ولا يرويه لي دمع عليه هتون

أأعير لحظ العين بهجة منظر وأخونهم؟ إني إذن لخؤون

لا الجو جو مشرق ولواكتسى زهرا، ولا الماء المعين معين

لايبعدن إذ العبير له ثرى والبان دوح والشموس قطين

أيام فيه العبقري مفوف والسابري مضاعف موضون

والزاغبية شرع والمشرفي — قلمع والمقربات صفون
والعهد من ظمياء إذ لاقومها — خزر ولا الحرب الزبون زبون
حزني لذاك الجو وهو أسنة — وكناس ذاك الخشف وهو عرين
هل يدنيني منه أجرد سابح — مرح وجائله النسوع امون
ومهند قيه الفرند كأنه — رد ء له خلف الغرار كمين
عضب المضارب مقفر من أعين — لكنه من أنفس مسكون
قد كلن رشح حديده أجلا، وما — صاغت مضاربه الرقاق قيون
وكأنما يلقى الضريبة دونه — بأس المعز أو اسمه المخزون

ومنها في صفة الخيل:

وصواهل لا الهضب يوم مغارها — هضب ولا البيد الحزون حزون
عرفت بساعة سبقها، لا أنها — علقت بها يوم الرهان عيون
وأجل علم البرق فيها أنها مرت بجانحتيه وهي ظنون
في الغيث شبه من نداك كأنما — مسحت على الأنواء منك يمين

وهذه القصيدة من قصائده الطنانة، ولولا طولها لأوردتها كلها.

وله أيضا:

والله لولا أن يسفهني الهوى — ويقول بعض القائلين تصابى
لكسرت دملجها بضيق عناقه — ورشفت من فيها البرود رضابا

وفي هذا الأنموذج دلالة على علو درجته وحسن طريقته. وديوانه كبير، ولولا ما فيه من الغلو في المدح والإفراط المفضي إلى الكفر لكان من احسن الدواوين، وليس في المغاربة من هو في طبقته:لا من متقدميهم ولا من متأخريهم، بل هو أشعرهم على الإطلاق، وهو عندهم كالمتنبي عند المشارقة، وكانا متعاصرين، وإن كان في المتنبي مع أبي تمام من الاختلاف مافيه.

وما زلت أتطلب تاريخ وفاة ابن هانيء المذكور من التواريخ والمظان التي يطلب منها فلا أجده، وسألت عنه خلقا كثيرا من مشايخ هذا الشأن فلم أجده، حتى ظفرت به في كتاب لطيف لأبي علي الحسن بن رشيق القيرواني سماه قراضة الذهب فألفيته كما هو مذكور هاهنا،ونقلت مدة عمره من موضع آخر رأيت بعض الأفاضل قد اعتنى بأحواله فجمعها وكتبها في أول ديوانه، وذكر مدة العمر، ولم يذكر تاريخ الوفاة لأنه ماعثر عليه.

ويقال إن أبا العلاء المعري كان إذا سمع شعر ابن هانئ يقول: ما أشبهه إلا برحى تطحن قرونا، لأجل القعقعة التي في ألفاظه، ويزعم أنه لاطائل تحت تلك الألفاظ، ولعمري ما أنصفه في هذا المقال، وما حمله على هذا فرط تعصبه للمتنبي، وبالجملة فما كان إلا من المحسنين في النظم، والله أعلم.

ابن عمار الأندلسي

ذو الوزارتين أبو بكر محمد بن عمار، المهري الأندلسي الشلبي الشاعر المشهور؛ هو وابن زيدون القرطبي – المذكور في حرف الهمزة – فرسا رهان، ورضيعا لبان، في التصرف في فنون البيان، وهما كانا شاعري ذلك الزمان.

وكانت ملوك الأندلس تخاف من ابن عمار المذكور لبذاءة لسانه وبراعة إحسانه، لاسيما حين اشتمل عليه المعتمد على الله ابن عباد صاحب غرب الأندلس – الآتي ذكره في هذا الحرف إن شاء الله تعالى –وأنهضه جليسا وسميرا وقدمه وزيرا ومشيرا ثم خلع عليه خاتم الملك ووجهه أميرا، وكان قد أتى عليه حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا، فتبعته المواكب والمضارب والنجائب والجنائب والكتائب والجنود، وضربت خلفه الطبول ونشرت على رأسه الرايات والبنود، فملك مدينة تدمير، وأصبح راقي منبر وسرير، مع ما كان فيه من عدم السياسة وسوء التدبير، ثم وثب على مالك رقه ومستوجب شكره ومستحقه، فبادر إلى عقوقه وبخس حقه، فتحيل المعتمد عليه وسدد سهام المكايد إليه، حتى حصل في قبضته قنيصا، وأصبح لا يجد محيصا، إلى أن قتله المعتمد في قصره ليلا بيده، وأمر من أنزله في ملحده، وذلك في سنة سبع وسبعين وأربعمائة بمدينة إشبيلية.

وكانت ولادته في سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة، وقصته مشهورة، ولما قتله المعتمد رثاه صاحبه أبو محمد عبد الجليل بن وهبون الأندلسي المرسي بقوله من جملة قصيدة:

عجبا له أبكيه ملء مدامعي ... وأقول لا شلت يمين القاتل

وقال أبو نصر الفتح بن خاقان صاحب قلائد العقيان: لقد رأيت عظمي ساقي ابن عمار قد أخرج بعد سنين من حفر حفر بجانب القصر وأساودهما بهما ملتفة، ولبلتهما مشتفة، ما فغرت أفواهما، ولا حل التواؤهما، فرمق الناس العبر، وصدق المكذب الخبر.

يعني بالأساود القيود.

ومن مشاهير قصائد ابن عمار المذكور قوله:

أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى ... والنجم قد صرف العنان عن السرى

والصبح قد أهدى لنا كافوره ... لما استرد الليل منا العنبرا

ومن مديحها، وهي في المعتضد بن عباد:

ملك إذا ازدحم الملوك بمورد ... ونحاه لا يردون حتى يصدرا

أندى على الأكباد من قطر الندى ... وألذ في الأجفان من سنة الكرى

قداح زند المجد لاينفك من ... نار الوغى إلا إلى نار القرى

وهي طويلة وفائقة.

ومن جيد شعره أيضا القصيدة الميمية، وهي أيضا في المعتضد بن عباد، وأولها:

علي، وإلا ما بكاء الغمائم ... وفي، وإلا فيم نوح الحمائم

ومنها أيضا في وصف وطنه:

كساها الحيا برد الشباب، فإنها ... بلاد بها عق الشباب تمائمي

ذكرت بها عهد الصبا فكأنما ... قدحت بنار الشوق بين الحيازم

ليالي لاألوي على رشد لائم ... عناني، ولا أتثنيه عن غي هائم

أنال سهادي من عيون نواعس ... وأجني عذابي من غصون نواعم

وليل لنا بالسد بين معاطف ... من النهر ينساب انسياب الأرقم

تمر علينا ثم عنا كأنها — حواسد تمشي بيننا بالنمائم

بحيث اتخذنا الروض جارا تزورنا — هداياه في أيدي الرياح النواسم

وبتنا ولا واش يحس كأنما — حللنا مكان السر من صدر كاتم

ومن مديحها:

ملوك مناخ العز في عرصاتهم — ومثوى المعالي بين تلك المعالم

هم البيت ماغير الظبا لبنائه — بأس ولا غير القنا بدعائم

إذا قصر الروع الخطا نهضت بهم — طوال العوالي في طوال المعاصم

وأيد أبت من ان تؤوب ولم تفز — بجز النواصي او بحز الغلاصم

ندامى الوغى يجرون بالموت كأسها — إذا رجعت أسيافهم بالجماجم

هناك القنا مجرورة من حفائظ — وثم الظبا مهزوزة من عزائم

ومنها:

إذا ركبوا فانظره أول طاعن — وإن نزلوا فارصده آخر طاعم

وهي أيضا طويلة وطنانة.

ومن جملة ذنوبه عند المعتمد بن عباد ما بلغه عنه من هجائه وهجاء أبيه المعتمد في بيتين، هما كانا من أكبر أسباب قتله،وهما:

مما يقبح عندي ذكر أندلس — سماع معتضد فيها ومعتمد

أسماء مملكة في غير موضعها — كالهر يحكي انتفاخا صولة الأسد

ومحاسن ابن عمار كثيرة.

والمهري: بفتح الميم وسكون الهاء وبعدها راء، هذه النسبة إلى مهرة بن حيدان بن إلحاف بن قضاعة وهي قبيلة كبيرة ينسب إليها خلق كثير.

والشلبي: بكسر الشين المعجمة وسكون اللام وبعدها باء موحدة، هذه النسبة إلى شلبن وهي مدينة بالأندلس على ساحل البحر.

وتدمير: بضم التاء المثناة من فوقها وشسكون الدال المهملة وكسر الميم وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها راء، وهي مدينة مرسية، وكان المعتمد ابن عباد قد سير إليها أبا بكر ابن عمار المذكور نائبا عنه، فعصى بها، و لم يزل المعتمد يحتال عليه حتى وقع في قبضته، وقتله بيده كما تقدم أولا، وشهرة هذه الواقعة تغني عن الإطالة في تفصيلها.

وذكر عماد الدين الأصفهاني الكاتب في كتاب الخريدة في ترجمة ابن عمار المذكور: وقتله المعتمد، وكلن أقوى الأسباب لقيله أنه هجاه بشعر ذكر فيه أم بنيه المعروفة بالرمكية، وهي أبيات منها:

تخيرتها من بنات الهجان — رمكية لا تساوي عقالا

فجاءت بكل قصير الذراع — لئيم النجارين عما وخالا

قلت: وهذه الرمكية كانت سرية المعتمد، اشتراها من رميك بن حجاج، فنسبت إليه، وكان قد اشتراها في أيام أبيه المعتضد فأفرط في الميل إليها وغلبت عليه، واسمها اعتماد، فاختار لنفسه لقبا يناسب اسمها، هو المعتمد، وتوفيت بأغمات قبل المعتمد بأيام، و لم ترقأ له عبرة ولا فارقته حسرة حتى

قضى نحبه أسفا وحزنا، وهي التي أغرت المعتمد على قتل ابن عمار، لكونه هجاها؛ وقيل إن هذا الشعر ليس لابن عمار، وإنما نسبته إليه لكي توغر صدر المعتمد عليه، والله أعلم.

أبو بكر ابن الصائغ الأندلسي

أبو بكر محمد بن باجه التجيبي الأندلسي السرقسطي المعروف بابن الصائغ، الفيلسوف الشاعر المشهور؛ ذكره أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد بن خاقان القيسي، صاحب قلائد العقيان في كتابه، ونسبه إلى التعطيل ومذهب الحكماء والفلاسفة وانحلال العقيدة، وقال في حقه في كتابه الذي سماه مطمح الأنفس ما مثاله: نظر في كتاب التعاليم، وفكر في أجرام الأفلاك وحدود الأقاليم، ورفض كتاب الله الحكيم، ونبذه من وراء ظهره ثاني عطفه، وأراد إبطال ما لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، واقتصر على الهيئة، وأنكر أن يكون لنا إلى الله فيئة، وحكم للكواكب بالتدبير، واجترم على الله اللطيف الخبير، واجترأ عند سماع النهي والإيعاد، واستهزأ بقوله تعالى "إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد" – القصص:85 – فهو يعتقد أن الزمان دور، وأن الإنسان نبات أو نور،حمامة تمامه، واختطافه قطافه، قد محي الإيمان من قلبه فما له فيه رسم، ونسي الرحمن لسانه فما يمر عليه له اسم.

ولقد بالغ ابن خاقان في أمره وجاوز الحد فيما وصفه به من هذه الاعتقادات الفاسدة، والله أعلم بكنه حاله، وأورد له مقاطيع من الشعر، فمن ذلك قوله:

أسكان نعمان الأراك تيقنوا — بأنكم في ربع قلبي سكان

ودوموا على حفظ الوداد فطالما — بلينا باقوام إذا استؤمنوا خانوا

سلوا الليل عني مذ تناءت دياركم — هل اكتحلت بالغمض لي فيه أجفان

وهل جردت أسياف برق سماؤكم — فكانت لها إلا جفوني أجفان

وكان قد أنشدني هذه الأبيات بعض أشياخ المغاربة الفضلاء بمدينة حلب منسوبة إلى ابن الصائغ المذكور، ثم وجدتها بعد ذلك بعينها في ديوان أبي الفتيان محمد بن حيوس – الآتي ذكره إن شاء الله تعالى – فبقيت شاكا فيما أنشدني ذلك الشيخ، وقلت: لعله وهم في نسبتها إلى ابن الصائغ، إلى أن وجدتها في كتابه مطمح الأنفس أيضا منسوبة إلى ابن الصائغ المذكور، والله تعالى أعلم لمن هي منهما.

وله.

ضربوا القباب على أقاحة روضة — خطر النسيم بها ففاح عبيرا

وتركت قلبي سار بين حمولهم — دامي الكلوم يسوق تلك العيرا

هلا سألت أسيرهم هل عندهم — عان يفك ولو سألت غيورا

لا والذي جعل الغصون معاطفا — لهم وصاغ الأقحوان ثغورا

ما مر بي ريح الصبا من بعدهم — إلا شهقت له فعاد سعيرا

ولما حضرته الوفاة كان ينشد:

أقول لنفسي حين قابلها الردى — فراغت فرارا منه يسرى إلى يمنى

ففي تحملي بعض الذي تكرهينه — فقد طالما اعتدت الفرار إلى الأهنا

وتوفي في شهر رمضان المعظم سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة، وقيل سنة خمس وعشرين وخمسمائة مسموما في باذنجان بمدينة فاس، رحمه الله تعالى.
وباجه: بالباء الموحدة وبعد الألف جيم مشددة ثم هاء ساكنة، وهي الفضة بلغة فرنج المغرب.
والتجيبي: بضم التاء المثناة من فوقها وفتحها وكسر الجيم وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها باء موحدة؛ هذه النسبة إلى تجيب، وهي أم عدي وسعد ابني أشرس بن شبيب بن السكون، نسب ولدها إليها، وهي تجيب بنت ثوبان بن سليم بن مذحج.
والسرقي: بفتح السين المهملة والراء وضم القاف وسكون السين المهملة وبعدها طاء مهملة، هذه النسبة إلى سرقطة، وهي مدينة بالأندلس خرج منها جماعة من العلماء واستولى عليها سنة اثنتي عشرة وخمسمائة.

الرصافي الشاعر

أبو عبد الله محمد بن غالب الرفاء الأندلسي الرصافي الشاعر المشهور؛ له أشعار ظريفة ومقاصد في النظم لطيفة، وشعره سائر في الآفاق، ومن أشهر شعره أبياته التي نظمها في غلام صنعته النسج فيها كل الإجادة، وهي:

قالوا وقد أكثروا في حبه عذلي ... لو لم تهم بمذال القدر مبتذل
فقلت لو كان أمري في الصبابة لي ... لاخترت ذلك ولكن ليس ذلك لي
أحببته حببي الثغر عاطره ... حلو اللمى ساحر الأجفان والمقل
غزيلا لم تزل في الغزل جائله ... بنانه جولان الفكر والغزل
جذلان يلعب بالمحواك أنمله ... على السدى لعب الأيام بالدول
جذبا بكفيه او فحصا بأخمصه ... تخبط الظبي في أشراك محتبل

وله غير هذا المقطوع أشياء رائقة، فمن ذلك قوله في غلام يبل عينيه بريقه ويظهر أنه يبكي وليس بباك:

عذيري من جذلان يبكي كآبة ... وأضلعه مما يحاوله صفر
يبل مآقي زهرتيه بريقه ... ويحكي البكا عمدا كما ابتسم الزهر
ويوهم أن الدمع بل جفونه ... وهل عصرت يوما من النرجس الخمر

وله أيضا:

ومهفهف كالغصن إلا أنه ... تتحير اللباب عند لقائه
أضحى ينام وقد تكلل خده ... عرقا، فقلت:الورد رش بمائه

وتوفي في شهر رمضان، سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة بمدينة مالقة، رحمه الله تعالى.

والرصافي: بضم الصاد المهملة وبعد الألف فاء، هذه النسبة إلى الرصافة، وهي بليدة صغيرة بالأندلس عند بلنسية، وبالأندلس أيضا بليدة أخرى صغيرة اسمها الرصافة، وهي عند قرطبة، أنشأها عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك الأموي أول ملوك الأندلس من بني أمية، ويعرف بالداخل، لأنه دخل إلى الأندلس من بلاد الشام خوفا من أبي جعفر المنصور العباسي، وقصته مشهورة، فلما دخلها ملكها وبويع له بقرطبة يوم عيد الأضحى سنة ثمان وثلاثين ومائة، وعمره يومئذ خمس وعشرون سنة، وبنى هذه الرصافة وسماها برصافة جده هشام بن عبد الملك بن مروان، وهي بليدة مشهورة بالشام، كذا قاله ياقوت الحموي–الآتي ذكره إن شاء الله تعالى – في كتابه المسمىبالمشترك وضعا المختلف صعقا وذكر أن الرصافة اسم تسع مواضع، وعددها، ولولا خوف التطويل لذكرتها، غير أنه لم يذكر رصافة بلنسية، وبهذه الرصافة تكون عشرة مواضع، والله تعالى أعلم.

أبو بكر ابن زهر

أبو بكر محمد بن أبي مروان عبد الملك بن أبي العلاء زهر بن أبي مروان عبد الملك بن أبي بكر محمد بن مروان بن زهر الإيادي الأندلسي الإشبيلي؛ كان من أهل بيت كلهم علماء رؤساء حكماء وزراء، نالوا المراتب العلية وتقدموا عند الملوك ونفذت أوامرهم.

قال الحافظ أبو الخطاب ابن دحية في كتابه المسمىالمطرب من أشعار أهل المغرب: وكان شيخنا أبو بكر – يعني ابن زهر المذكور – بمكان من اللغة مكين، ومورد من الطب عذب معين، كان يحفظ شعر ذي الرمة، وهو ثلث لغة العرب مع الإشراف على جميع أقوال أهل الطب والمترلة العليا عند أصحاب المغرب، مع سمو النسب، وكثرة الأموال والنشب، صحبته زمانا طويلا، واستفدت منه أدبا جليلا.

وأنشد من شعره:

وموسدين على الأكف خدودهم ... قد غالهم نوم الصباح وغالني

ما زلت أسقيهم وأشرب فضلهم ... حتى سكرت ونالهم ما نالني

والخمر تعلم حين تأخذ ثارها ... أني أملت إناءها فأمالني

ثم قال: سألته عن مولده فقال: ولدت سنة سبع وخمسمائة،وبلغني وفاته في آخرسنة خمس وتسعين وخمسمائة، رحمه الله تعالى؛ انتهى كلام ابن دحية.

قلت أنا: وقد ألم ابن زهر المذكور في هذه الأبيات بقول الرئيس أبي غالب عبيد الله بن هبة الله بن الاصباغي وهو:

عقرتهم مشمولة لو سالمت ... شرابها ما سميت بعقار

ذكرت حقائدهم القديمة إذ غدت ... صرعى تداس بأرجل العصار

لانت لهم حتى انتشوا وتمكنت ... منهم، وصاحت فيهم بالثار

ومن المنسوب إليه أيضا في كتاب جالينوس الحكيم المسمىحيلة البرء – وهو من أجل كتبهم وأكبرها – قوله:

حيلة البرء صنفت لعليل ... يترجى الحياة أو لعيله

فإذا جاءت المنية قالت: ... حيلة البرء ليس في البرء حيلة

ومن شعر ابن زهر أيضا يتشوق ولدا له صغيرا:

ولي واحد مثل فرخ القطا ... صغير تخلف قلبي لديه

نأت عنه داري فيا وحشتا ... لذاك الشخيص وذاك الوجيه

تشوقني وتشوقته ... فيبكي علي وأبكي عليه

لقد تعب الشوق ما يننا ... فمنه إلي ومني إليه

وله وقد شاخ وغلب الشيب:

إني نظرت إلى المرآة إذ جليت ... فانكرت مقلتاي كل ما رأتا

رأيت فيها شييخا لست أعرفه ... وكنت أعهده من قبل ذاك فتى

فقلت :أين الذي بالأمس كان هنا ... متى ترحل عن هذا المكان متى؟

فاستضحكت ثم قالت وهي معجبة: ... إن الذي أنكرته مقلتاك أتى

كانت سليمى تنادي ياأخي وقد صارت سليمى تنادي اليوم ياأبتا

والبيت الأخير من هذه الأبيات ينظر إلى قول الأخطل الشاعر المشهور:

وإذا دعونك عمهن فإنه نسب يزيدك عندهن خبالا

وإذا دعونك ياخي فإنه أدنى وأقرب خلة ووصالا

وأوصى أنه إذا مات يكتب على قبره هذه الأبيات، وفيها إشارة إلى طبه ومعالجته للناس، وهي:

تأمل بحقك يا وافقا ولاحظ مكانا دفعنا إليه

تراب الضريح على وجنتي كأني لم أمش يوما عليه

أداوي الأنام حذار المنون وها أنا قد صرت رهنا لديه

وهذه المقاطيع إنما أخذناها من أفواه العلماء منسوبة إلى ابن زهر المذكور، والله أعلم بصحتها، والعهدة عليهم في نقلها.

وقال ابن دحية أيضا في حقه: والذي انفرد به شيخنا وانقادت لتخيله طباعه وصارت النبهاء فيه خوله وأتباعه، الموشحات، وهي زبدة الشعر ونخبته وخلاصة جوهره وصفوته، وهي من الفنون التي أغربت بها أهل المغرب على أهل المشرق، وظهروا فيها كالشمس الطالعة والضياء المشرق؛ وأورد له موشحا حسنا.

وقال في حق جده أبي العلاء زهر: إنه كان وزير ذلك الدهر وعظيمه، وفيلسوف ذلك العصر وحكيمه، وتوفي ممتحنا من نغلة بين كتفيه سنة خمس وعشرين وخمسمائة بمدينة قرطبة.

ثم قال في حق جد أبيه عبد الملك: إنه رحل إلى المشرق، وبه تطبب زمانا طويلا، وتولى رياسة الطب ببغداد ثم بمصر ثم بالقيروان، ثم استوطن مدينة دانية وطار ذكره منها إلى أقطار الأندلس والمغرب، واشتهر بالتقدم في علم الطب حتى بذ أهل زمانه، ومات بمدينة دانية.

ثم قال في حق جد جده محمد بن مروان: إنه كان عالما بالرأي حافظا للأدب، ففيها حاذقا بالفتوى مقدما في الشورى، متفننا في الفنون، وسيما فاضلا، جمع الرواية والدراية، توفي بطلبيرة سنة اثنتين وعشرين وأبعمائة، وهو ابن ست وثمانين سنة، حدث عنه جماعة من العلماء الأندلسيين ووصفوه بالدين والفضل والجود والبذل، رحمه الله تعالى.

وقد تقدم الكلام على الإيادي وعلى طلبيرة فلا حاجة إلى الإعادة.

وزهر:بضم الزاي وسكون الهاء وبعدها راء.

وذكر عماد الدين الكاتب في كتاب الخريدة لأبي الطيب ابن البزار في بعض بني زهر وكنيته أبو زيد، ولم يذكر اسمه، قوله:

قل للوبا انت وابن زهر جاوزتما الحد في النكاية

ترفقا بالورى قليلا فواحد منكما كفايه

ثم وجدت هذين البيتين لأبي بكر أحمد بن محمد الأبيض، وأنه توفي سنة أربع وأربعين وخمسمائة رحمه الله تعالى، والله أعلم.

ابن حيوس الشاعر

أبو الفتيان محمد بن سلطان بن محمد بن حيوس بن محمد المرتضى بن محمد بن الهيثم بن عدي بن عثمان الغنوي الملقب مصطفى الدولة، الشاعر المشهور؛ كان يدعى بالأميرلأن أباه كان من أمراء العرب، وهو أحد الشعراء الشاميين المحسنين ومن فحولهم المجيدين، له ديوان شعر كبير. لقي جماعة من الملوك والأكابر ومدحهم وأخذ جوائزهم، وكان منقطعا إلى بني مرداس أصحاب حلب - ذكر الجوهري في الصحاح في فصل ردس المرداس:

حجر يرمى به في البئر ليعلم أفيها ماء أم لا، وبه سمي الرجل – وله فيهم القصائد الأنيقة.

وقضيته مشهورة مع الأمير جلال الدولة وصمامها أبي المظفر نصر بن محمود بن سبل الدولة نصر صالح بن مرداس الكلابي صاحب حلب، فإنه كان قد مدح أباه محمود بن نصر فأجازه ألف دينار، فلما مات وقام مقامه ولده نصر المذكور قصده ابن حيوس المذكور بقصيدته الرائية يمدحه بها ويعزيه عن أبيه، وهي:

كفى الدين عزا ماقضاه لك الدهر فمن كان ذا نذر فقد وجب النذر

ومنها:

ثمانية لم تفترق مذ جمعتها فلا افترقت ماذب عن ناظر شفر

يقينك والتقوى، وجودك والغنى، ولفظك والمعنى وعزمك والنصر

يذكر فيها وفاة أبيه وتوليته الأمر من بعده بقوله:

صبرنا على حكم الزمان الذي سطا على أنه لولاك لم يكن الصبر

غزانا ببؤس لايماثلها الأسى تقارن نعمى لايقوم بها الشكر

ومنها:

تباعدت عنكم حرفة لا زهادة وسرت إليكم حين مسني الضر

فلاقيت ظل الأمن ماعنه حاجز يصد، وباب العز مادونه ستر

وطال مقامي في غسار جميلكم فدامت معاليكم ودام لي الأسر

وأنجز لي رب السموات وعدة ال كريم بأن العسر يتبعه اليسر

فجاد ابن نصر لي بألف تصرمت وإني عليم أن سيحلفه نصر

لقد كنت مأمورا ترجى لمثلها فكيف وطوعا أمرك النهي والأمر

وما بي إلى الإلحاح والحرص حاجة وقد عرف المبتاع وانفصل السعر

واني بآمالي لديك مخيم وكم في الورى ثاو وآماله سفر

وعندك ما أبغي بقولي تصنعا بأيسر ما توليه يستبعد الحر

فلما فرغ من إنشادها قال الأمير نصر: والله لوقال عوض قولهسيحلفها نصر: سيضعفها نصر، لأضعفتها له، وأعطاه ألف دينار في طبق فضة.

وكان قد اجتمع على باب الأمير نصر المذكور جماعة من الشعراء، وامتدحوه وتأخرت صلته عنهم، ونزل بعد ذلك الأمير نصر إلى دار بولص النصراني، وكانت له عادة بغشيان مترله، وعقد مجلس الأنس عنده، فجاءت الشعراء الذين تأخرت جوائزهم إلى باب بولص، وفيهم أبو الحسن أحمد بن محمد بن الدويدة المعري الشاعر المعروف، فكتبوا ورقة فيها أبيات اتفقوا على نظمها، وقيل بل نظمها ابن الدويدة المذكور، وسيروا الورقة إليه، والأبيات المذكورة هي:

على بابك المحروس منا عصابة مفاليس فانظر في أمور المفاليس

وقد قنعت منك الجماعة كلها بعشر الذي أعطيته لابن حيوس

وما بيننا هذا التفاوت كله ... ولكن سعيد لايقاس بمنحوس

فلما وقف عليه الأمير نصر اطلق لهم مائة دينار، فقال: والله لو قالوا بمثل الذي أعطيته لابن حيوس لأعطيتهم مثله.

وذكر العماد في الخريدة أن هذه الأبيات لأبي سالم عبد الله بن أبي الحسن أحمد بن محمد بن الدويدة وأنه كان يعرف بالقاق والله أعلم.

وكان الأمير نصر سخيا واسع العطاء، ملك حلب بعد وفاة أبيه محمود في سنة سبع وستين وأربعمائة، ولم تطل مدته حتى ثار عليه جماعة من جنده فقتلوه في ثاني شوال سنة ثمان وستين وأربعمائة – وقد ذكر جد أبيه صالح بن مرداس في حرف الصاد–.

وقدم ابن حيوس حلب في شوال سنة اربع وستين وأربعمائة، وداره بها هي الدار المعروفة الآن بالأمير علم الدين سليمان بن حيدر.

ومن محاسن شعر ابن حيوس القصيدة اللامية التي مدح بها أبا الفضائل سابق ابن محمود وهو أخو الأمير نصر المذكور، ومن مديحهاقوله:

طالما قلت للمسائل عنكم ... واعتمادي هداية الضلال

إن ترد علم حالهم عن يقين ... فالقهم في مكارم أو نزال

تلق بيض الأعراض سود مثار النقع خضر الأكناف حمر النصال

وما أحسن هذا التقسيم الذي اتفق له، وقد ألم فيه بقول أبي سعيد محمد بن محمد بن الحسين الرستمي الشاعر المشهور من جملة قصيدة يمدح بها الصاحب بن عباد – المقدم ذكره في حرف الهمزة – وهي من فاخر الشعر، وذلك قوله:

من النفر العالين في السلم والوغى ... وأهل المعالي والعوالي وآلها

إذا نزلوا اخضر الثرى من نزولهم ... وإن نازلوا احمر القنا من نزالها

هذا والله الشعر الخالص الذي لايشوبه شيء من الحشو.

وكان ابن حيوس المذكور قد أثرى وحصلت له نعمة ضخمة من بني مرداس، فبنى دارا بمدينة حلب وكتب على بابها من شعره:

دار بنيناها وعشنا بها ... في نعمة من آل مرداس

قوم نفوا بؤسي ولم يتركوا على للأيام من باس

قل لبني الدنيا ألا هكذا ... فليصنع الناس مع الناس

وقيل: إن هذه الأبيات للأمير الجليل أبي الفتح الحسن بن عبد الله بن عبد الجبار، المعروف بابن أبي حصينة الحلبي، وهو الصحيح. ومن غرر قصائده السائرة قوله:

هوذلك ربع المالكية فاربع ... واسأل مصيفا عافيا عن مربع

واستق للدمن الخوالي بالحمى ... غر السحائب واعتذر عن أدمعي

فلقد فنين أمام دان هاجر ... في قربه، ووراء ناء مزمع

لو يخبر الركبان عني حدثوا ... عن مقلة عبرى وقلب موجع

ردي لنا زمن الكثيب فإنه ... زمن متى يرجع وصالك يرجع

لو كنت عالمة بأدنى لوعتي ... لرددت أقصى نيلك المسترجع

بل لو قنعت من الغرام بمظهر ... عن مضمر بين الحشى والأضلع

أعتبت إثر تعتب، ووصلت غب تجنب، وبذلت بعد تمنع

ولو أنني أنصفت نفسي صنتها　　　عن أن اكون كطالب لم ينجح

ومنها:

إني دعوت ندى الكرام فلم يجب　　　فلأشكرن ندى أجاب وما دعي

ومن العجائب، والعجائب جمة،　　　شكر بطيء عن ندى متسرع

ومن شعره أيضا:

قفوا في القلى حيث انتهيتم تذمما　　　ولا تقتفوا من جار لما تحكما

أرى كل معوج المودة يصطفى　　　لديكم ويلقى حتفه من تقوما

فإن كنتم لم تعدلوا إذ حكمتم　　　فلا تعدلوا عن مذهب قد تقدما

حنى الناس من قبل القسي لتقتنى　　　وثقف منآد القنا ليقوما

وما ظلم الشيب الملم بلمتي　　　وإن بزني حظي من الظلم واللمى

ومحجوبة عزت وعز نظيرها　　　وإن أشبهت في الحسن والعفة والدمى

أعنف فيها صبوة قط ما ارعوت　　　وأسأل عنها معلما ما تكلما

سلي عنه تخبر عن يقين دموعه　　　ولا تسألي عن قلبه أين يمما

فقد كان لي عونا على الصبر برهة　　　وفارقني أيام فارقتم الحمى

فراق قضى أن لا تأسي بعد أن　　　مضى منجدا صبري وأوغلت متهما

وفجعة بين مثل صرعة مالك　　　ويقبح بي أن لا أكون منكما

خليلي إن لم تسعداني على الأسى　　　فلا أنتما مني ولا انا منكما

وحسنتما لي سلوة وتناسيا　　　ولم تذكرا كيف السبيل إليهما

سقى الله أيام الصبا كل هاطل　　　ملث إذا ماالغيث أثجم أنجما

وعيشا سرقناه برغم رقيبنا　　　وقد مل من طول السهاد فهو ما

وهي طويلة.

وحكى الحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق قال: أنشدنا أبو القاسم علي بن إبراهيم العلوي من حفظه سنة سبع وخمسمائة قال: أخذ الأمير أبو الفتيان بن حيوس بيدي ونحن بحلب وقال: اروعني هذا البيت وهو في شرف الدولة مسلم بن قريش:

أنت الذي نفق الثناء بسوقه　　　وجرى الندى بعروقه قبل الدم

وهذا البيت في غاية المدح؛ وقد تقدم في ترجمة أبي بكر بن الصائغ الأندلسي ذكر الأبيات النونية، وكونها منسوبة إليه، وهي موجودة في ديوان ابن حيوس المذكور، والله اعلم بجلية الحال فيها.

وكان أبو عبد الله أحمد بن محمد بن الخياط الشاعر – المقدم ذكره – قد وصل إلى حلب في بعض شهور سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة، وبها يؤمئذ أبو الفتيان المذكور فكتب إليه ابن الخياط المذكور قوله:

لم يبق عندي مايباع بدرهم		وكفاك مني منظري عن مخبري
إلا بقية ماء وجه صنتها		عن أن تباع وأين أين المشتري

فقال: لو قال وأنت نعم المشتري لكان أحسن.

وكانت ولادة ابن حيوس يوم السبت سلخ صفر سنة أربع وتسعين وثلثمائة بدمشق، وتوفي في شعبان سنة ثلاث وسبعين وأربعمائة بحلب. وهو شيخ أبي عبد الله أحمد بن محمد المعروف بابن الخياط الشاعر المشهور وقد تقدم ذكر ذلك في ترجمته.

وحيوسك بالحاء المهملة المفتوحة والياء المشددة المثناة من تحتها المضمومة والواو الساكنة وبعدها سين مهملة.

وفي شعراء المغاربة ابن حبوس مثل الأول، ولكن بالباء الموحدة المخففة، وإنما ذكرته لئلا يتصحف على كثير من الناس بابن حيوس.ورأيت خلقا كثيرا يتوهمون أن المغربي يقال له ابن حيوس ايضا، وهو غلط، والصواب ما ذكرته، والله تعالى أعلم.

الأبيوردي الشاعر

أبو المظفر محمد بن أبي العباس أحمد بن محمد أحمد بن إسحاق بن أبي العباس الإمام محمد بن إسحاق وهو أبو الفتيان بن أبي الحسن بن أبي مرفوعة بن منصور بن معاوية الأصغر بن محمد بن أبي العباس عثمان بن عنبسة الأصغر بن عتبة بن الأشرف بن عثمان بن عنبسة بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، القرشي الأموي المعاوي الأبيوردي الشاعر المشهور؛ كان من الأدباء المشاهير، رواية نسابة شاعرا ظريفا، قسم ديوان شعره إلى أقسام: منها العراقيات ومنها النجديات ومنها الوجديات، وغير ذلك، وكان من أخبر الناس بعلم الأنساب نقل عنه الحافظ الأثبات الثقات، وقد روى عنه الحافظ أبو الفضل محمد بن طاهر المقدسي في غير موضع من كتابه الذي وضعه في الأنساب، وقال في حقه في ترجمة المعاوي: إنه كان أوحد زمانه في علوم عديدة، وقد أوردنا عنه في غير موضع من هذا الكتاب أشياء وكان يكتب في نسبه المعاوي، وأليق ما وصف به بيت أبي العلاء المعري:

وإني وإن كنت الأخير زمانه		لآت بما لم تستطعه الأوائل

انتهى كلام المقدسي بعد أن ذكر له أبياتا يفتخر بها لا حاجة بنا إليها.

وذكره أبو زكريا ابن منده في تاريخ أصبهان فقال: فخر الرؤساء أفضل الدولة، حسن الاعتقاد جميل الطريقة، متصرف في فنون جمة من العلوم، عارف بأنساب العرب، فصيح الكلام حاذق في تصنيف الكتب، وافر العقل كامل الفضل، فريد دهره ووحيد عصره. وكان فيه تيه وكبر وعزة نفس، وكان إذا صلى يقول: اللهم ملكني مشارق الأرض ومغاربها.

وذكره الحافظ ابن السمعاني في كتاب الأنساب في ترجمة المعاوي، وفي كتاب الذيل وقال: كان ينسب إلى معاوية الأصغر المقدم ذكره في عمود نسبه، وأخبر عنه أنه كتب رقعة إلى أمير المؤمنين المستظهر بالله وعلى رأسها الخادم المعاوي فكره الخليفة النسبة إلى معاوية، فحك الميم من المعاوي ورد الرقعة إليه، فصار العاوي.

ومن محاسن قوله:

ملكنا أقاليم البلاد فأذعنت		لنا رغبة أو رهبة عظماؤها
فلما انتهت أيامنا علقت بنا		شدائد أيام قليل رخاؤها
وكان إلينا في السرور ابتسامها		فصار علينا في الهموم بكاؤها

وصرنا نلاقي النائبات بأوجه ... رقاق الحواشي كاد يقطر ماؤها

إذا ما هممنا أن نبوح بما جنت ... علينا الليالي لم يدعنا حياؤها

وقوله أيضا:

تنكر لي دهري ولم يدر أنني ... أعز وأحداث الزمان تهون

فبات يريني الخطيب كيف اعتداؤه ... وبت أريه الصبر كيف يكون

ومن شعره أيضا:

وهيفاء لا أصغي إلى من يلومني ... عليها ويغريني بها أن أعيبها

أميل بإحدى مقلتي إذا بدت ... إليها، وبالأخرى أراعي رقيبها

وقد غفل الواشي ولم يدر أنني ... أخذت لعيني من سليمى نصيبها

وله في أبي النجيب عبد الرحمن بن عبد الجبار المراغي، وكان من أفراد زمانه فضلا، وكان يستعمل في شعره لزوم مالا يلزم، وكانت إقامته بثغر حيرة:

شعر المراغي وحوشيتم ... كعقله أسلمه أسقمه

يلزم ماليس له لازما ... لكنه يترك ما يلزمه

وله أيضا:

أأميم إن لم تسمحي بزيارة ... بخلا فجودي بالخيال الطارق

والله لاتمحو الوشاة ولا النوى سمة لحبك في ضمير العاشق

قلت: ومن معنى هذا البيت الأول أخذ سبط ابن التعاويذي – الاتي ذكره – قوله من جملة قصيدة:

إن كنت ليلى بالسلام بخيلة ... فمري الخيال يمر بي فيسلم

وعدي بوصلك في المنام لعلها ... ترجو لقاءك مقلتي فتهوم

ومن نجدياته:

نزلنا بنعمان الأراك وللندى ... سقيط به ابتلت علينا المطارف

فبت أعاني الوجد والركب نوم ... وقد أخذت مني السرى والتنائف

وأذكر خودا إن دعاني إلى النوى ... هوها أجابته الدموع الذوارف

لها في مغاني ذلك الشعب منزل ... لئن أنكرته العين فالقلب عارف

وقفت به والدمع أكثره دم ... كأني من جفني بنعمان راعف

وله وقد أخرج من الحلة المزيدية مكرها، وكان سنيا:

أبابل ما واديك بالرفد مفعم ... لدينا ولا ناديك بالوفد آهل

لئن ضقت عنا فالبلاد فسيحة ... وحسبك عارا أنني عنك راحل

لئن كنت بالسحر الحرام مدلة فعندي من السحر الحلال دلائل

قواف تعير الأعين النجل سحرها فكل مكان خيمت فيه بابل

ومن معانيه البديعة قوله من جملة أبيات في صفة الخمرة:

ولها من ذاتها طرب فلهذا يرقص الحبب

وله من جملة قصيدة:

فسد الزمان فكل من صاحبته راج ينافق أو مداج خاشي

وإذا اختبرتهم ظفرت بباطن متجهم وبظاهر هشاش

وهذا المعنى مأخوذ من قول أبي تمام الطائي من جملة قصيدة أجاد فيها كل الإجادة:

إن شئت أن يسود ظنك كله فأجله في هذا السواد الأعظم

ليس الصديق بمن يعيرك ظاهرا متبسما عن باطن متجهم

وقد خرجنا عن المقصود بالتطويل.

وله تصانيف كثيرة مفيدة: منها تاريخ أبيورد ونساوكتاب المختلف والمؤتلف وطبقات كل فنوما اختلف وائتلف في أنساب العرب وله في اللغة مصنفات كثيرة لم يسبق إلى مثلها. وكان حسن السيرة جميل الأثر له معاملة صحيحة.

وكانت وفاة الأبيوردي المذكور بين الظهر والعصر يوم الخميس العشرين من ربيع الأول سنة سبع وخمسين وخمسمائة بأصبهان مسموما، وصلي عليه في الجامع العتيق بها، رحمه الله تعالى.

والأبيوردي: بفتح الهمزة وكسر الباء الموحدة وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح الواو وسكون الراء وبعدها دال مهملة، هذه النسبة إلى أبيورد، ويقال لها أباورد وباورد، وهي بليدة بخراسان خرج منها جماعة من العلماء وغيرهم، وذكر السمعاني في كتاب الأنساب في ترجمة الكوفني – بضم الكاف وسكون الواو وفتح الفاء وبعدها نون – هذه النسبة إلى كوفن، وهي بليدة صغيرة على ستة فراسخ من أبيورد بخراسان بناها عبد الله بن طاهر، وخرج منها جماعة من المحدثين والفضلاء، منهم الأديب أبو المظفر محمد بن أحمد الكوفني المعروف بالأديب الأبيوردي، والله أعلم.

ابن أبي الصقر الواسطي

أبو الحسن محمد بن علي بن عمر، المعروف بابن أبي الصقرالواسطي؛ كان فقيها شافعي المذهب، تفقه على الشيخ أبي إسحاق الشيرازي، رحمه الله تعالى، لكنه غلب عليه الأدب والشعر واشتهر به، ورأيت له بدمشق ديوان شعر في الخزانة الأشرفية التي في الجامع المشهور في تربته شمال الكلاسة التي هي زيادة في الجامع الكبير، والديوان مجلد وحد، وكان شديد التعصب للطائفة الشافعية، وظهر ذلك في قصائده المعروفة بالشافعية، وله في الشيخ أبي إسحاق الشيرازي مرات، وكان كاملا في البلاغة والفضل وحسن الخط وجودة الشعر.

وذكره أبو المعالي الحظيري – المقدم ذكره – في كتابزينة الدهر وأورد له عدة مقاطيع، فمن ذلك قوله:

كل رزق ترجوه من مخلوق يعتريه ضرب من التعويق

وأنا قائل واستغفر الله مقال المجاز لا التحقيق

لست أرضى من فعل إبليس شيئا غير ترك السجود للمخلوق

وذكر له أيضا:

وحرمة الود مالي عنكم عوض لأنني ليس لي في غيركم غرض

أشتاقكم وبودي لو يواصلني لكم خيال ولكن لست أغتمض

وقد شرطت على قوم صحبتهم بأن قلبي لكم من دونهم، ورضوا

ومن حديثي بكم قالوا به مرض فقلت لا زال عني ذلك المرض

وكان قد طعن في السن وضعف عن المشي فصار يتوكأ على عصا، فقال في ذلك:

كل أمري إذا تفكرت فيه وتأملته رأيت ظريفا

كنت أمشي على اثنتين قويا صرت أمشي على ثلاث ضعيفا

قلت: ولي أبيات أشير فيها إلى مثل هذا المعنى وهي:

يا سائلي عن حالتي خذ شرحها ملخصا

قد صرت بعد قوة تفض أفلاذ الحصى

أمشي على ثلاثة أجود ما فيها العصا

ولابن أبي الصقر أيضا في اعتذاره عن ترك القيام لأصدقائه:

علة سميت ثمانين عاما منعتني للأصدقاء القياما

فإذا عمروا تمهد عذري عندهم بالذي ذكرت وقاما

وله في كبره أيضا:

ولما إلى عشر تسعين صرت ومالي إليها أب قبل صارا

تيقنت أني مستبدل بداري دارا وبالجار جارا

فتبت إلى الله مما مضى ولن يدخل الله من تاب نارا

وله أيضا وقد حضر عزاء صغير وهو يرتعش من الكبر، فتغامز عليه الحاضرون كيف مات الصغير وبقي هذا الشيخ في هذا السن، فقال:

إذا دخل الشيخ بين الشباب عزاء وقد مات طفل صغير

رأيت اعتراضا على الله إذ توفى الصغير وعاش الكبير

فقل لابن شهر وقل لابن ألف وما بين ذلك: هذا المصير

وله أيضا في ذلك:

ابن أبي الصقر افتكروا وقال في حال الكبر

والله لولا بولة تحرقني وقت السحر

لما ذكرت أن لي مابين فخذي ذكر

وله كل مقطوع مليح.

وكانت ولادته ليلة الاثنين ثالث عشر ذي القعدة سنة تسع وأربعمائة. وتوفي يوم الخميس رابع عشر جمادى الأولى سنة ثمان وتسعين وأربعمائة بواسط، رحمه الله تعالى.

ابن الهبارية

الشريف أبو يعلى محمد بن محمد بن صالح بن حمزة بن عيسى بن محمد بن عبد الله ابن داود بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس الهاشمي العباسي المعروف بابن الهبارية الملقب نظام الدين البغدادي الشاعر المشهور؛ كان شاعرا مجيدا حسن المقاصد، لكنه كان خبيث اللسان كثير الهجاء والوقوع في الناس لايكاد يسلم من لسانه أحد.

وذكره العماد الكاتب في الخريدة فقال:من شعراء نظام الملك، غلب على شعره الهجاء والهزل والسخف، وسبك في قالب ابن حجاج وسلك أسلوبه وفاقه في الخلاعة، والنظيف من شعره في غاية الحسن؛ انتهى كلام العماد.

وكان ملازما لخدمة نظام الملك أبي علي الحسن بن علي بن إسحاق وزير السلطان ألب أرسلان وولده ملك شاه - وقد تقدم ذكره في حرف الحاء - وله عليه الإنعام التام والإدرار المستمر، وكان بين نظام الملك وتاج الملك أبي الغنائم بن دارست شحناء ومنافسة، كما جرت العادة بمثله بين الرؤساء، فقال أبو الغنائم لابن الهبارية:إن هجوت نظام الملك فلك عندي كذا، وأجزل له الوعد فقال: كيف أهجو شخصا لا أرى في بيتي شيئا إلا من نعمته؟ فقال لابد من هذا، فعمل:

لاغرو إن ملك ابن إس — حاق وساعده القدر

وصفت له الدنيا وخ — ص أبو الغنائم بالكدر

فالدهر كالدولاب لي — س يدور إلا بالبقر

فبلغت الأبيات نظام الملك، فقال: هو يشير إلى المثل الساءر على ألسن الناس، وهو قولهمأهل طوس بقروكان نظام الملك من طوس، وأغضى عنه و لم يقابله على ذلك بل زاد في إفضاله عليه، فكانت هذه معدودة من مكارم أخلاق نظام الملك وسعة حلمه. وكان مع فرط إحسان كظام الملك إليه يقاسي من غلمانه وأتباعه شر مقاساة لما يعلمونه من بذاءة لسانه، فلما اشتد عليه الحال منهم كتب إلى نظام الملك:

لذ بنظام الحضرتين الرضى — إذا بنو الدهر تحاشوك

واجل به عن ناظريك القذى — إذا لئام القوم أعشوك

واصبر على وحشة غلمانه لابد للورد من الشوك

وذكر العماد الأصبهاني فيالخريدة أنه أنفذ هذه الأبيات مع ولده إلى نقيب النقباء علي بن طراد الزبيبي، ولقبه نظام الحضرتين أبو الحسن.

ومن شعره أيضا:

وجهي يرق عن السؤا — ل وحالتي منه أرق

دقت معاني الفضل في — وحرفتي منها أدق

ومن معانيه الغريبة قوله في الرد على من يقول إن السفر به يبلغ الوطر:

قالوا أقمت وما رزقت وإنما — بالسير يكتسب اللبيب ويرزق

فأجبتهم ما كل سير نافعا — الحظ ينفع لا الرحيل المقلق

كم سفرة نفعت، وأخرى مثلها — ضرت، ويكتسب الحريص ويخفق

كالبدر يكتسب الكمال بسيره وبه إذا حرم السعادة يمحق

وله أيضا:

خذ جملة البلوى ودع تفصيلها ما في البرية كلها إنسان
وإذا البياذق في الدسوت تفرزنت فالرأي أن يتبيذق الفرزان

وله على سبيل الخلاعة والمجون:

يقول أبو سعيد إذ رآني عفيفا منذ عام ما شربت
على يد أي شيخ قل لي فقلت على يد الإفلاس تبت

وله في المعنى أيضا:

رأيت في النوم عرسي وهي ممسكة أذني، وفي كفلها شيء من الأدم
معوج الشكل مسود به نقط لكن أسفله في هيئة القدم
تظل ترقعني كيما ترنخني فصرت ألتذ بالإيقاع والنغم
حتى تنبهت محمر القذال، ولو طال المنام على الشيخ الأديب عمي

وله أيضا:

المجلس التاجي، دام جماله وجلاله وكماله، بستان
والعبد فيه حمامة، تغريدها فيه المديح وطوقه الإحسان

وله:

وعندي شوق دائم وصبابة ومن أنا ذا حتى أقول له عندي
إلى رجل لو أن بعض ذكائه على كل مولود تكلم في المهد
فلولا نداه خفت نار ذكائه عليه ولكن الندى مانع الوقد

وله أيضا:

دعوه ما شاء فعل سيان صد أو وصل
فكم رأينا قبلها أسود من ذا ونصل

ومحاسنه كثيرة.

وله كتابنتائج الفطنة في نظم كليلة ودمنةوقد سبق في ترجمة البارع الدباس في حرف الحاء ذكر الأبيات الدالية وجوابها وما دار بينهما، وسيأتي في ترجمة الوزير فخر الدولة محمد بن جهير واقعة لطيفة جرت له مع السابق الشاعر المعري، إن شاء الله تعالى.

وديوان شعره كبير يدخل في أربع مجلدات، ومن غرائب نظمه كتاب الصادح والباغم نظمه على أسلوب دليلة ودمنة وهو أراجيز، وعدد بيوته ألفا بيت، نظمها في عش سنين، ولقد أجاد فيه كل الإجادة، وسير الكتاب على يد ولده الأمير أبي الحسن صدقة بن منصور بن دبيس الأسدي صاحب الحلة – المقدم ذكره في حرف الصاد – وختمه بهذه الأبيات، وهي:

هذا كتاب حسن تحار فيه الفطن

أنفقت فيه مدة عشر سنين عدة

منذ سمعت باسمكا وضعته برسمكا

بيوته ألفان جميعها معاني

لو ظل كل شاعر وناظم وناثر

كعمر نوح التالد في نظم بيت واحد

من مثله لما قدر ما كل من قال شعر

أنفذته مع ولدي بل مهجتي وكبدي

وأنت عند ظني أهل لكل من

وقد طوى إليكا توكلا عليكما

مشقة شديدة سعيا وما ونيت

إن الفخار والعلا إرثك من دون الورى

فأجزل صلته وأسنى جائزته.

وتوفي ابن الهبارية المذكور بكرمان سنة أربع وخمسمائة، هكذا قال العماد الأصبهاني في كتاب الخريدة بعد أن أقام مدة بأصبهان وخرج إلى كرمان وأقام بها إلى آخر عمره، وقال ابن السمعاني: توفي بعد سنة تسعين وأربعمائة.

والهبارية: بفتح الهاء وتشديد الباء الموحدة وبعد الألف راء، هذه النسبة إلى هبار، وهو جد أبي يعلى المذكور لأمه.

وكرمان: بكسر الكاف وقيل بفتحها وسكون الراء وفتح الميم وبعد الألف نون، وهي ولاية كبيرة تشتمل على مدن كبار وصغار، وخرج منها خلق من الأعيان، وهي متصلة بأطراف أعمال خراسان، ومن جانبها الآخر البحر، والله أعلم.

الخالدي المعروف بابن القيسراني الشاعر

أبو عبد الله محمد بن نصر بن صغير بن داغر بن محمد بن خالد بن نصر بن داغر بن عبد الرحمن بن المهاجر بن خالد بن الوليد المخزومي، الخالدي الحلبي الملقب شرف المعالي عدة الدين، المعروف بابن القيسراني، هكذا أملى علي نسبه بعض حفدته، الشاعر المشهور؛ من الشعراء المجيدين والأدباء المتفننين، قرأ الأدب على توفيق بن محمد وأبي عبد الله ابن الخياط الشاعر - المقدم ذكره - وكان فاضلا في الأدب وعلم الهيئة، سمع بحلب من الخطيب أبي طاهر هاشم بن أحمد الحلبي وغيره، وسمع منه الحافظان أبو القاسم ابن عساكر وأبو سعد ابن السمعاني، وذكراه في كتابيهما، وكذلك ابو المعالي الحظيري، وذكره في كتاب الملح أيضا.

وكان هو وابن منير - المذكور في حرف الهمزة - شاعري الشام في ذلك العصر، وجرت بينهما وقائع وماجرايات وملح ونوادر، وكان ابن منير ينسب إلى التحامل على الصحابة، رضي الله عنهم، ويميل إلى التشيع، فكتب إليه ابن القيسراني المذكور وقد بلغه أنه هجاه:

ابن منير هجوت مني حبرا أفاد الورى صوابه

ولم تضيق بذاك صدري فإن لي أسوة الصحابة

ومن محاسن شعره قوله:

كم ليلة بت من كاسي وريقته — نشوان أمزج سلسالا بسلسال

وبات لا تحتمي عني مراشفه — كأنما ثغره ثغر بلا والي

وظفرت بديوانه وجميعه بخطبه وأنا يومئذ بمدينة حلب ونقلت منه أشياء فمن ذلك قوله في مدح خطيب:

شرح المنبر صدرا — لتلقيك رحيبا

أترى ضم خطيبا — منك أم ضمخ طيبا

وهذا الجناس في غاية الحسن؛ ثم وجدت هذين البيتين لأبي القاسم ابن زيد ابن أبي الفتح أحمد بن عبيد بن فضل الموازيني الحلبي المعروف أبوه بالماهر، وأن ابن القيسراني المذكور أنشدهما للخطيب ابن هاشم لما تولى خطابة حلب فنسبا إليه، ورأيت الأول على هذه الصورة، وهو:

قد زها المنبر عجبا — إذ ترقيت خطيبا

وله في الغزل:

بالسفح من لبنان لي — قمر منازله القلوب

حملت تحيته الشما — ل فردها عني الجنوب

فرد الصفات غريبها — والحسن في الدنيا غريب

لم أنس ليلة قال لي — لما رأى جسدي يذوب

بالله قل لي من أعل — ك يافتى؟ قلت: الطبيب

وله أيضا:

وقالوا لاح عارضه — وما ولت ولايته

فقلت عذار من أهوى — أماراته إمارته

ومن معانيه البديعة قوله من جملة قصيدته رائقة:

هذا الذي سلب العشاق نومهم — أما ترى عينيه ملأى من الوسن

وهذا البيت ينظر إلى قول المتنبي في مدح سيف الدولة بن حمدان:

نهبت من الأعمار مالو حويته — لهنئت الدنيا بأنك خالد

وكان كثير الإعجاب بقوله من جملة قصيدة:

وأهوى الذي أهوى له البدر ساجدا — ألست ترى في وجهه أثر الترب

وحضر مرة في سماع وكان المغني حسن الغناء، فلما طربت الجماعة وتواجدت عمل:

والله لو أنصفت العشاق انفسهم — فدوك منها بما عزوا وما صانوا

ما انت حين تغني في مجالسهم — إلا نسيم الصبا والقوم أغصان

وأنشدني صاحبنا الفخر إسحاق بن المختص الإربلي لنفسه دوبيت، وأخبرني أنه كان في سماع وفيه جماعة من أرباب القلوب، فلما طابت الجماعة كان هناك فرش منضود على كراسي فتساقطت، قال: فعملت في الحال:

داعي النغمات حلقة الشوق طرق   وهنا فأجابته شجون وحرق

لو أسمع صخرة لخرت طربا   من نغمته فكيف قطن وخرق

وكانت ولادة ابن القيسراني المذكور سنة ثمان وسبعين وأربعمائة بعكا. وتوفي ليلة الأربعاء الحادي والعشرين من شعبان سنة ثمان وأربعين وخمسمائة من شعبان سنة ثمان وأربعين وخمسمائة بمدينة دمشق، ودفن بمقبرة باب الفراديس، رحمه الله تعالى.

والخالدي: بفتح الخاء المعجمة وبعد الألف لام ثم دال مهملة، هذه النسبة إلى خالد بن الوليد المخزومي، رضي الله عنه؛ هكذا يزعم أهل بيته، وأكثر المؤرخين وعلماء الأنساب يقولون: إن خالدا رضي الله عنه، لم يتصل نسبه بل انقطع منذ زمان، والله أعلم.

والقيسراني: بفتح القاف وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح السين المهملة والراء وبعد الألف نون، هذه النسبة إلى قيسارية، وهي بليدة بالشام على ساحل البحر.

الكيزاني

أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن ثابت بن إبراهيم بن فرح الكناني المقرئالأديب الشافعي الحامي المصري المعروف بابن الكيزاني، الشاعر المشهور؛ كان زاهدا ورعا، وبمصر طائفة ينسبون إليه ويعتقدون مقالته، وله ديوان شعر أكثره في الزهد، و لم أقف عليه، وسمعت بيتا واحدا أعجبني، وهو:

وإذا لاق بالمحب غرام   فكذا الوصل بالحبيب يليق

ويروى له:

ياضنى جسمي تحكم أو فدع   ليس في السلوان عن ليلى كمع

عنفوني والهوى يغلبني   وأطالوا العتب لو كان نفع

سألوني هل يوافي طيفها   إنما يعلم هذا من هجع

وفي شعره أشياء حسنة. وتوفي ليلة الثلاثاء التاسع من شهر ربيع الأول، وقيل بل توفي في المحرم سنة اثنتين وستين وخمسمائة بمصر، ودفن بالقرب من قبة الإمام الشافعي، رضي الله عنه، بالقرافة الصغرى، ثم نقل إلى سفح المقطم بقرب الحوض المعروف بأم مودود، وقبره مشهور هناك يزار، وزرته مرارا، رحمه الله تعالى.

والكيزاني: بكسر الكاف وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح الزاي وبعد الألف نون، هذه النسبة إلى عمل الكيزان وبيعها، وكان بعض أجداده يصنع ذلك، والله أعلم.

الأبلة الشاعر

أبو عبد الله محمد بن بختيار بن عبد الله الولد، المعروف بالأبلة البغدادي، الشاعر المشهور أحد المتأخرين المجيدين،جمع في شعره بين الصناعة والرقة، وله ديوان شعر بايدي الناس كثير الوجود.

وذكره العماد الكاتب الأصبهاني في كتاب الخريدة فقال: هو شاب ظريف يتزيا بزي الجند، رقيق أسلوب الشعر حلو الصناعة رائق البراعة عذب اللفظ،أرق من النسيم السحري وحسن من الوشي التستري، وكلما ما ينظمه،ولو أنه يسير، يسير، والمغنون يغنون برائقات أبياته عن أصوات القدماء، فهم يتهافتون على نظمه المطرب تهافت الطير الحوم على عذب المشرب. ثم قال: أنشدني لنفسه من قصيدة سنة خمس وخمسين وخمسمائة ببغداد:

زار من أحيا بزورته | والدجى في لون طرته
قمر يثني معانقه | بانة في طي بردته
بت أستجلي المدام على | غرة الواشي وغرته
يالها من زورة قصرت | فأملت طول جفوته
آه من حضر له وعلى | رشفة من برد ريقته
يا له في الحسن من صنم | كلنا من جاهليته

ومن أبياته السائرة قوله من جملة قصيدة أنيقة:

لايعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها

ومن رقيق شعره قوله في غزل قصيدة:

دعني أكابد لوعتي وأعاني | أين الطليق من الأسير العاني
آليت لا أدع الملام يغرني | من بعد ما أخذ الغرام عناني
أولا تروض العاذلات وقد أرى | روضات حسن في خدود حسان
ولدي يلتمس السلو، ولم أزل | حي الصبابة ميت السلوان
يا برق إن تجفالعقيق فطالما | أغنته عنك سحائب الأجفان
هيهات أن أنسى رباك ووقفه | فيها أغير بها على الغيران
ومهفهف ساجي اللحاظ حفظته | فأضاعني وأطعته فعصاني
يصمي قلوب العاشقين بمقلة | طرف السنان وطرفها سيان
خنث الدلال: بشعره وبثغره | يوم الوداع أضلني وهداني
ما قام معتد لايهز قوامه | إلا وبانت خجلة في البان
يأهل نعمان إلى وجناتكم | تعزى الشقائق لا إلى نعمان
ما يفعل المران من يد قلب | في القلب فعل مرارة الهجران

وهي قصيدة طويلة ومديحها جيد، وجميع شعره على هذا الأسلوب والنسق ومخالصة من الغزل إلى المدح في نهاية الحسن، وقل من يلحقه فيها، فمن ذلك قوله من قصيدة أولها:

جنيت جني الورد من ذلك الخد | وعانقت غصن البان من ذلك القد

فلما انتهى إلى مخلصها قال:

لئن يوما بسمعي ملامة | لهند فلا عفت الملامة في هند
ولا وجدت عيني سبيلا إلى البكا | ولا بت في أسر الصبابة والوجد

وبحت بما ألقى ورحت مقابلا سماحة مجد الدين بالكفر والجحد

وقوله من قصيدة أخرى:

فلا وجد سوى وجدي بليلى ولا مجد كمجد ابن الدوامي

وقوله في أخرى:

فأقسم أني أفي الصبابة واحد وأن كمال الدين في الجود واحد

إلى غير ذلك.

وكانت وفاته، على ماقاله ابن الجوزي في تاريخه، في جمادى الآخرة سنة تسع وسبعين، وقال غيره: سنة ثمانين وخمسمائة ببغداد، ودفن في باب أبرز محاذي التاجية، رحمه الله تعالى.

والأبلة: معروف فلا حاجة إلى ضبطه، وإنما قيل له أبلة لأنه كان فيه طرف بلة، وقيل لأنه كان في غاية الذكاء، وهو من أسماء الأضداد، كما قيل للأسود: كافور.

وكان له ميل إلى بعض أبناء البغاددة، فعبر على باب داره فوجد خلوة، فكتب على الباب، قال العماد الكاتب: وأنشدنيهما:

دارك يا بدر الدجى جنة بغيرها نفسي ماتلهو

وقد روي في خبر أنه أكثر أهل الجنة البلة

ولابن التعاويذي المذكور بعده فيه هجاء أفحش فيه، فأضربت عن ذكره مع أنها أبيات جيدة، والله أعلم.

ابن التعاويذي الشاعر

أبو الفتح محمد بن عبيد الله بن عبد الله الكاتب المعروف بابن التعاويذي، الشاعر المشهور؛ كان مولى لابن المظفر واسمه نشتكين، فسماه ولده المذكور عبيد الله، وهو سبط أبي محمد المبارك بن علي بن نصر السراج الجوهري الزاهد المعروف بابن التعاويذي، وإنما نسب إلى جده المذكور لأنه كفله صغيرا، ونشأ في حجره فنسب إليه.

وكان أبو الفتح المذكور شاعر وقته، لم يكن فيه مثله، جمع شعره بين جزالة الأافاظ وعذوبتها ورقة المعاني ودقتها، وهو في غاية الحسن والحلاوة، وفيما أعتقد لم يكن قبله بمائتين سنة من يضاهيه، ولا يؤاخذني من يقف على هذا الفصل فإن ذلك يختلف بميل الطباع، ولله القائل:

وللناس فيما يعشقون مذاهب

وكان كاتبا بديوان المقاطعات ببغداد، وعمي في آخره عمره سنة تسع وسبعين، وله في عماه أشعار كثيرة يرثي بها ويندب زمان شبابه وتصرفه، وكان قد جمع ديوانه بنفسه قبل العمى، وعمل له خطبة طريفة، ورتبه أربعة فصول، وكل ما جدده بعد ذلك سماهالزيادات فلهذا يوجد ديوانه في بعض النسخ خاليا من الزيادات، وفي بعضها مكملا بالزيادات، ولما عمي كان باسمه راتب في الديوان، فالتمس أن ينقل باسم أولاده، فلما نقل كتب إلى الإمام لدين الله هذه الأبيات يسأله أن يجدد له راتبا مدة حياته، وهي:

خليفة الله أنت بالدين والدن يا وأمر الإسلام مضطلع

أنت لما سنه الأئمة أع لام الهدى مقتنف ومتبع

قد عدم العدم في زمانك وال جور معا والخلاف والبدع

فالناس في الشرع والسياسة والإحسان والعدل كلهم شرع

يا ملكا يردع الحوادث والأيام عن ظلمها فترتدع

ومن له أنعم مكررة لنا مصيف منها ومرتبع

أرضي قد أجدبت وليس لمن أجدب يوما سواك منتجع

ولي عيال لا در درهم قد أكلوا دهرهم وما شبعوا

إذا رأوني ذا ثروة جلسوا حولي ومالوا إلي واجتمعوا

وطالما قطعوا حبالي إع راضا إذا لم تكن معي قطع

يمشون حولي شتى كأنهم عقارب كلما سعوا لسعوا

فمنهم الطفل والمراهق والرضي ع يحبو والكهل واليفع

لا قارح منهم أؤمل أن ينالني خبره ولا جذع

لهم حلوق تفضي إلى معد تحمل في الأكل فوق ماتسع

من كل رحب المعاء أجوف نا ري الحشا لايمسه الشبع

لا يحسن المضغ فهو ينزل في فيه بلا كلفة ويبتلع

ولي حديث يلهي ويعجب من يوسع لي خلقه فيسمع

نقلت ريمي جهلا إلى ولد لست بهم ماحييت أنتفع

نظرت في نفعهم وما أنا في اج تلاب نفع الاولاد مبتدع

وقلت هذا بعدي يكون لكم فما أطاعوا أمري ولا سمعوا

واختلسوه مني فما تركوا عيني عليه ولا يدي تقع

فبئس والله ما صنعت فأض ررت بنفسي وبئس ما صنعوا

فاستأنفوا لي رسما أعود على ضنك معاشي به فيتسع

وإن زعمتم أني أتيت بها خديعة فالكريم ينخدع

حاشا لرسمي الكريم ينسخ من نسخ دواوينكم فينقطع

فوقعوا لي بما سألت فقد أطعت نفسي واستحكم الطمع

ولا تطيلوا معي فلست ولو دفعتوني بالراح اندفع

وحلفوني أن لا تعود يدي ترفع في نقله ولا تضع

فما ألطف ما توصل به إلى بلوغ مقصوده بهذه الأبيات التي لو مرت بالجماد لاستمالته وعطفته، فأنعم عليه أمير المؤمنين بالراتب، فكان يصله بصلة من الخشكار الرديء، فطتب إلى فخر الدين صاحب المخزن أبياتا يشكو من ذلك أولها:

مولاي فخر الدين أنت إلى الندى عجل وغيرك محجم متباطي

ومنها:

حاشاك ترضى أن تكون جرايتي كجراية البواب والنفاط

سوداء مثل الليل سعر قفيزها مابين طسوج إلى قيراط

أخنت علي الحادثات وأفرطت فيها الرداءة أيما إفراط

قد كدرت حسي المضيء، وغيرت طبعي السليم، وعفنت أخلاطي

فتول تدبيري فقد أنهيت ما أشكوه من مرضي إلى بقراط

وكان وزير الديوان العزيز شرف الدين أبو جعفر أحمد بن محمد بن سعيد بن إبراهيم التميمي وزير الإمام المستنجد بالله المعروف بابن البلدي، وقد عزل أرباب الدواوين وحسبهم وحاسبهم وصادرهم وعاقبهم ونكل بهم، فعمل سبط ابن التعاويذي المذكور في ذلك قوله:

يا قاصدا بغداد حد عن بلدة للجور فيها زخرة وعباب

إن كنت طالب حاجة فارجع فقد سدت على الراجي بها الأبواب

ليست، وما بعد الزمان، كعهدها أيام يعمر ربعها الطلاب

ويحلها الرؤساء من ساداتها والجلة الأدباء والكتاب

والدهر في أولى حداثته ولل أيام فيها نضرة وشباب

والفضل في سوق الكرام يباع بال غالي من الأثمان، والآداب

بادت وأهلوها معا، فبيوتهم ببقاء مولانا الوزير خراب

وارتهم الأجداث أحياء تها ل جنادل من فوقهم وتراب

فهم خلود في محابسهم يصب عليهم بعد العذاب عذاب

لا يرتجى منها إيابهم، وهل يرجى لسكان القبور إياب

والناس قد قامت قيامتهم، فلا أنساب بينهم ولا أسباب

والمرء يسلمه أبوه وعرسه ويخونه القرباء والأحباب

لاشافعل تغني شفاعته، ولا جان له مما جناه متاب

شهدوا مادهم فعاد مصدقا من كان قبل ببعثه يرتاب

حشر وميزان وعرض جرائد وصائف منشورة وحساب

وبها زبانية تبث على الورى وسلاسل ومقامع وعذاب

ما فاتهم من كل ما وعدوا به في الحشر إلا راحم وهاب

وله في الوزير المذكور:

يا رب أشكو إليك ضرا أنت على كشفه قدير

أليس صرنا زمان فيه أبو جعفر وزير

وذكر محب الدين المعروف بابن النجار فيتاريخ بغداد أن الإمام المستنجد بالله توفي يوم الاثنين ثامن شهر ربيع الآخر سنة وستين وخمسمائة وتولى بعده ولده المستضيء بأمر الله وجلس للمبايعة يوم الثلاثاء ثاني اليوم المذكور، فخرج أستاذ الدار عضد الدين أبو الفرج المذكور عقيب هذا ومعه ابن السيبي فقال له: إن الخليفة قد تقدم أن يستوفي القصاص من هذان وأشار إلى الوزير، فأخذ وسحب وقطع أنفه ويده ورجلهن ثم ضربت رقبته، وجمع في ترس وألقي في دجلة، وكان هذا الوزير قد قطع أنف أم ابن السيبي المذكور ويد أخيه ورجله في أيام ولايته، فاقتص منه في هذا اليوم، نعوذ بالله من سوءالعاقبة.

وكتب سبط ابن التعاويذي إلى عضد الدين أبي الفرج محمد بن المظفر، وهو من ابناء مواليه يطلب منه شعيرا لفرسه، وهو الذي فعل بالوزير ابن البلدي تلك الفعلة المذكورة قبل هذا:

مولاي يامن له أياد ليس إلى عدها سبيل

ومن إذا قلت العطايا فجوده وافر جزيل

إليه إن جارت الليالي نأوي وافر

إن كميتي العتيق سنا فأعجب لما يجلب الفضول

ولم أخل للسقاء أني لثقل أعبائه حمول

فإن أكن عاليا عليه فهو على كاهلي ثقيل

أرجل كالبوم ليس فيه خير كثير ولا قليل

ليس له مخبر حميد ولا له منظر جميل

وهو حرون وفيه بطء ولاجواد ولا ذلول

لا كفل معجب لراء إذا رآه ولا تليل

مقصرا إن مشى، ولكن إن حضر الاكل مستطيل

يعجبه التبن والشعيرال مغسول والقت والقصيل

إذا رأى عكشا رايت اللعاب من شدقه يسيل

وليس فيه من المعاني شيء سوى أنه أكول

فهب له اليوم ماتسنى وهبه من نعض ماتنيل

ولا تقل إن ذا قليل فالجل في عينيه جليل

وإنما أوردت هذه المقاطيع من شعره لكونها مستملحة. وأما قصائده المشتملة على النسيب والمدح فإنها في غاية الحسن، وصنف كتابا سماهالحجبة والحجاب يدخل في مقدار خمس عشرة كراسة، وأكال الكلام فيه، وهو قليل الوجود. وذكر العماد الأصبهاني في كتاب الخريدة أن ابن التعاويذي

المذكور كان صاحب لما كان بالعراق، فلما انتقل العماد إلى الشام واتصل بخدمة السلطان صلاح الدين كتب إليهابن التعاويذي رسالة يطلب منه فروة، وذكر الرسالةن وهيوقد كلف مكارمه وإن لم يكن للجود عليها كلفة، وأتحفه بما وجهه إليه من أمله وهو لعمر الله تحفه، أهدى فروة دمشقية، سرية نقية، يلين لمسها، ويزين لبسها، ودباغتها نظيفة، وخياطتها لطيفة، طويلة كطوله، سابغة كأنعمه حالية كذكره، جميلة كفعله، واسعة كصدره، نقية كعرضه، رفيعة كقدره، موشية كنظمه ونثره، ظاهرها كظاهره، وباطنها كباطنه، يتجمل بها اللابس، وتتحلى بها المجالس، وهي لخادمه سربال، وله–حرس الله مجده – جمال، يشكره عليها من لم يلبسها، ويثني عليه من لم يتدرعها، تذهب خميلة وبرها، ويبقى حميد أثرها، ويخلق إهابها وجلدها، ويتجدد شكرها وحمدها، وقد نظم أبياتا ركب في نظمها الغرر، وأهدى بها التمر إلى هجر، إلا أنه قد عرض الطيب على عطاره، ووضع الثوب في يد بزازة، وأحل الثناء في محله، وجمع بين الفضل وأهله، وهي في حسنه وخفارة كرمه ثم ذكر القصيدة التي أولها:

بأبي من ذبت في الح ... ب له شوقا وصبوة

وهي موجودة في ديوانه. وكتب العماد جواب القصيدة على هذا الروي أيضا، وهما طويلتان.

وذكر العماد قبل ذكر الرسالة والقصيدة في حقه:هو شاب فيه فضل وآداب ورياسة وكياسة ومروة وأبوه وفتوة، جمعني وإياه صدق العقيدة في عقد الصداقة، وقد كملت فيه أسباب الظرف واللطف واللباقة؛ ثم أتى بالرسالة والقصيدة وجوابها، وهذه الرسالة لم أر مثلها في بابها، سوى ماسيأتي في ترجمة بهاء الدين ابن شداد – في حرف الياء إن شاء الله تعالى – فان ابن خروف المغربي كتب إليه رسالة بديعة يستجديه فروة يستجديه فروة قرظ.

وكانت ولادة ابن التاويذي المذكور في العاشر من رجب يوم الجمعة سنة تسع عشرة وخمسمائة. وتوفي في ثاني شوال سنة أربع، وقيل ثلاث وثمانين وخمسمائة ببغداد، ودفن في باب أبرز، رحمه الله تعالى. وقال ابن النجارفي تاريخه: مولده يوم الجمعة، وتوفي يوم السبت ثامن عشر شوال.

والتعاويذي: بفتح التاء المثناة من فوقها والعين المهملة وكسر الواو بعد الألف وبعدها ياء مثناة من تحتها ساكنة ثم ذال معجمة، هذه النسبة إلى كتبه التعاويذ وهي الحروز.

واشتهر بها أبو محمد المبارك بن المبارك بن السراج التعاويذي البغدادي الزاهد، المقدم ذكره في أول هذه الترجمة، وكان صالحا. ذكره ابن السمعاني في كتاب الذيل وكتاب الأنساب وقال: لعل أباه كان يرقي ويكتب التعاويذ، وسمع منه ابن السمعاني المذكورن وقال: سألته عن مولده، فقال:ولدت في سنة ست وتسعين وأربعمائة بالكرخ. وتوفي في جمادى الأولى سنة ثىث وخمسين وخمسمائة، ودفن في جمادى الأولى سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة، ودفن بمقبرة الشويتري، رحمه الله تعالى. وقال السمعاني:أنشدني أبو محمد المبارك المذكور لنفسه قوله:

اجعل همومك واحدا ... وتخل عن كل الهموم

فعساك أن تحظى بما ... يغنيك عن كل العلوم

ثم قال، قال لي ابن التعاويذي: ما قلت من الشعر غير هذين البيتين.

ونشتكين: بضم النون وسكون الشين المعجمة وكسر التاء المثناة من فوقها والكاف وبعدها النون وسكون الشين المعجمة وكسر التاء المثناة من فوقها والكاف وبعدها ياء مثناة من تحتها ساكنة ثم نون، وهو اسم أعجمي تسمى به المماليك، وقد تقدم في أول الترجمة أنه كان من مماليك أحد بني المظفر رئيس الرؤساء، وله فيهم مدائع بديعة، وأفراد مدائعهم في فصل من الفصول الأربعة المرتبة في ديوانه لكونهم مواليه، وكانوا يحسنون إليه، والله أعلم.

ابن المعلم الشاعر

أبو الغنائم محمد بن علي بن فارس بن عبد الله بن الحسين بن القاسم، المعروف بابن المعلم الواسطي الهرئي، الملقب نجم الدين، الشاعر المشهور؛ كان شاعراً رقيق الشعر لطيف حاشية الطبع، يكاد شعره يذوب من رقته، وهو أحد من سار شعره وانتشر ذكره ونبه بالشعر قدره وحسن به حاله وأمره وطال في نظم القريض عمره وساعده على قوله زمانه ودهره، وأكثر القول في الغزل والمدح وفنون المقاصد، وكان سهل الألفاظ صحيح المعاني يغلب على شعره وصف الشوق والحب وذكر الصبابة والغرام، فعلق بالقلوب ولطف مكانه عند أكثر الناس ومالوا إليه وحفظوه وتداولوه بينهم واستشهد به

الوعاظ واستحلاه السامعون.

سمعت جماعة من مشايخ البطائح يقولون: ما سبب لطافة شعر ابن المعلم إلا أنه كان إذا نظم قصيدة حفظها الفقراء المنتسبون إلى الشيخ أحمد بن الرفاعي – المقدم ذكره في حرف الهمزة – وغنوا بها في سماعهم وطابوا عليها، فعادت عليه بركة أنفاسهم، ورأيتهم يعتقدون ذلك اعتقاداً لا شك عندهم فيه، وبالجملة فشعره يشبه النوح، ولا يسمعه من عنده أدنى هوى إلا فتنه وهاج غرامه.

وكان بين ابن المعلم المذكور وبين ابن التعاويذي المذكور قبله تنافس، وهجاه ابن التعاويذي بأبيات جميلة أجاد فيها ولا حاجة إلى ذكرها.

ولابن المعلم قصيدة طويلة أولها:

ردوا علي شوارد الأظعان ... ما الدار إن لم تغن من أوطاني

منها:

ولكم بذاك الجزع من متمنع ... هزأت معاطفه بغصن البان

أبدى تلونه بأول موعدٍ ... فمن الوفي لنا بوعد ثاني

فمتى اللقاء ودونه من قومه ... أبناء معركةٍ وأسد طعان

نقلوا الرماح وما أظن أكفهم ... خلقت لغير ذوابل المران

وتقلدوا بيض السيوف فما ترى ... في الحي غير مهندٍ وسنان

ولئن صددت فمن مراقبة العدا ... ما الصد عن ملل ولا سلوان

يا ساكني نعمان أين زماننا ... بطويلعٍ يا ساكني نعمان

وله من أخرى:

كم قلت إياك العقيق فإنه ... ضريت جآذره بصيد أسوده

وأردت صيد مها الحجاز فلم يسا ... عدك القضاء فرحت بعض صيوده

وله من أخرى:

أجيراننا إن الدموع التي جرت ... رخاصاً على أيدي النوى لغوالي

أقيموا على الوادي ولو عمر ساعة ... كلوث إزار أو كحل عقال

فكم ثم لي من وقفة لو شريتها ... بنفسي لم أغب فكيف بمالي

وله من أخرى:

كيف يخفي سر الهوى المستهام ... هي حزوى وما الخيام الخيام

ولئن كانت الخيام وما النا ... س بها الناس، فالغرام الغرام

وله من أخرى:

قسماً بما ضمت عليه شفاههم ... من قرقف في لؤلؤٍ مكنون

إن شارف الحادي العذيب لأقضين ... نحبي ومن لي أن تبر يميني

لو لم يكن آثار ليلى والهوى ... بتلاعه ما رحت كالمجنون

وكان سبب عمل هذه القصيدة أن ابن المعلم المذكور والأبله وابن التعاويذي المذكورين قبله لما وقفوا على قصيدة صردر- المقدم ذكره في حرف العين - التي أولها:

أكذا يجارى ود كل قرين ... أم هذه شيم الظباء العين

وهي من نخب القصائد "وسأذكرها في ترجمة عميد الملك محمد إن شاء الله تعالى" أعجبتهم، فعمل ابن المعلم من وزنها هذه القصيدة وعمل ابن التعاويذي من وزنها قصيدة أبدع فيها، وأرسلها إلى السلطان صلاح الدين الأيوبي، رحمه الله تعالى، وهو بالشام يمدحه بها، وأولها:

إن كان دينك في الصبابة ديني ... فقف المطي برملتي يبرين

وعمل الأبله قصيدة أخرى، وأحسن الكل قصيدة ابن التعاويذي.

وحكي عن ابن المعلم المذكور أنه قال: كنت ببغداد، فاجتزت يوماً بالموضع الذي يجلس فيه أبو الفرج ابن الجوزي للوعظ، فرأيت الخلق مزدحمين، فسألت بعضهم عن سبب الزحام فقال: هذا ابن الجوزي الواعظ جالس، ولم أكن علمت بجلوسه، فزاحمت وتقدمت حتى شاهدته وسمعت كلامه وهو يعظ حتى قال مستشهداً على بعض إشاراته: ولقد أحسن ابن المعلم حيث يقول:

يزداد في مسمعي تكرار ذكركم ... طيباً، ويحسن في عيني تكرره

فعجبت من اتفاق حضوري واستشهاده بهذا البيت من شعري، ولم يعلم بحضوري لا هو ولا غيره من الحاضرين.

وهذا البيت من جملة قصيدة له مشهورة.

ولابن المعلم في أناء قصيدة أيضاً:

يوهي قوي جليدي من لا أبوح به ... ويستبيح دمي من لا أسميه

قسا فما في لساني ما يعاتبه ... ضعفاً، بلى في فؤادي ما يقاسيه

وفي يوم وقعة الجمل على البصرة، قبل مباشرة الحرب، أرسل علي بن أبي طالب رضي الله عنه ابن عمه عبد الله بن العباس، رضي الله عنهما، إلى طلحة والزبير رضي الله عنهما برسالة يكفهما عن الشروع في القتال، ثم قال له: لا تلقين طلحة فإنك إن تلقه تجده كالثور عاقصاً أنفه يركب الصعب، ويقول: هو الذلول، ولكن الق الزبير، فإنه ألين عريكة منه، وقل له: يقول لك ابن خالك: عرفتني بالحجاز، وأنكرتني بالعراق، فما عدا مما بدا؟ وعلي، رضي الله عنه، أول من نطق بهذه الكلمة، فأخذ ابن المعلم المذكور هذا الكلام وقال:

منحوه بالجزع السلام وأعرضوابالغور عنه، فما عدا مما بدا هذا البيت من جملة قصيدة طويلة .

ورسالة علي نقلتها من كتاب "نهج البلاغة" ولا حاجة إلى الإطالة فرائده مع شهرة ديوانه وكثرة وجوده بأيدي الناس.

وكانت ولادته في ليلة سابع عشر جمادى الآخرة سنة إحدى وخمسمائة. وتوفي رابع رجب سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة بالهرث، رحمه الله تعالى.

والهرث: بضم الهاء وسكون الراء وبعدها ثاء مثلثة، وهي قرية من أعمال جعفر، بينها وبين واسط نحو عشرة فراسخ، وكانت وطنه ومسكنه إلى أن توفي بها، رحمه الله تعالى.

البحراني الشاعر

أبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد بن قائد، الملقب موفق الدين الإربلي أصلاً ومنشأ البحراني مولداً الشاعر المشهور؛ كان غماماً مقدماً في علم العربية، مفننا في أنواع الشعر، ومن اعلم الناس بالعروض والقوافي وأحذقهم بنقد الشعر وأعرفهم بجيده من رديئه وأدقهم نظراً في اختياره. واشتغل بشيء من علوم الأوائل، وحل كتاب إقليدس، وبدأ ينظم الشعر وهو صبي صغير بالبحرين جرياً على عادة العرب قبل أن ينظر في الأدب.

وهو شيخ أبي البركات ابن المستوفي صاحب "تاريخ إربل"– المقدم ذكره – وعليه اشتغل بعلوم الشعر وبه تخرج، وقد ذكره في تاريخه وعدد فضائله، وقال: كان شيخنا أبو الحرم مكي الماكسيني، النحوي– وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى– يراجعه كثير من المسائل المشكلة في النحو وكان يرجع إليه في أجوبة ما يورد عليه. وكان قد رحل إلى شهرزور وأقام بها مدة، ثم رحل إلى دمشق ومدح السلطان صلاح الدين، رحمه الله تعالى، بقصيدة طويلة، وله ديوان شعر جيد ورسائل حسنة، وكان في الشعر في طبقة معاصريه ممن تقدم ذكرهم. ومن شعره قصيدة يمدح بها زين الدين أبا المظفر يوسف بن زين الدين صاحب إربل– وقد تقدم ذكره في ترجمة أخيه مظفر الدين في حرف الكاف –:

رب دار بالغضا طال يلاها ... عكف الركب عليها فبكاها

درست إلا بقايا أسطر ... سمح الدهر بها ثم محاها

كان لي فيها زمان وانقضى ... فسقى الله زماني وسقاها

وقفت فيها الغوادي وقفةً ... ألصقت حر ثراها بحشاها

وبكت أطلالها نائبةً ... عن جفوني، أحسن الله جزاها

قل لجيران مواثيقهم ... كلما أحكمتها رثت قواها

كنت مشغوفاً بكم إذا كنتم ... شجراً لا يبلغ الطير ذراها

لا تبيت الليل إلا حولها ... حرس ترشح بالموت ظباها

وإذا مدت إلى أغصانها ... كف جان قطعت دون جناها

فتراخى الأمر حتى أصبحت ... هملاً يطمع فيها من رآها

تخصب الأرض فلا أقربها ... رائداً إلا إذا عز حماها

لا يراني الله أرعى روضةً ... سهلة الأكناف من شاء رعاها

وإذا ما طمع أغرى بكم ... عرض اليأس لنفسي فثناها

فصبابات الهوى أولها ... طمع النفس وهذا منتهاها

لا تظنوا لي إليكم رجعةً ... كشف التجريب عن عيني عماها

إن زين الدين أولاني يداً ... لم تدع لي رغبة فيما سواها

وهي طويلة أجاد في مدحها.

وكان أبوه من أهل إربل وصنعته التجارة، وكان يتردد من إربل إلى البحرين ويقيم بها مدة لتحصيل اللآلئ من المغاصات أسوة التجار، فاتفق أن ولد له هناك الموفق أبو عبد الله المذكور، ثم انتقل إلى إربل فنسب إلى البحرين لهذا السبب.

وله معنى مليح في غلام اسمه السهم وقد التحى:

قالوا التحى السهم قلت حصن ... حشاك فالآن لا يطيش

فالسهم لا ينفذ الرمايا ... إلا إذا كان فيه ريش

وتوفي ليلة الأحد ثالث شهر ربيع الآخر سنة خمس وثمانين وخمسمائة بإربل، ودفن بمقبرة أهله قبلي البست، رحمه الله تعالى. قال المطرزي في كتاب "المغرب": البست كلمة فارسية وهو مفتح الماء في فم النهر.

والبحراني: بفتح الباء الموحدة وسكون الحاء المهملة وفتح الراء وبع الألف نون، هذه النسبة إلى البحرين المقدم ذكرها، وهي بليدة بالقرب من هجر، قال الأزهري: وإنما سميت البحرين لأن في ناحية قراها بحيرة على باب الأحساء وقرى، هجر بينها وبين البحر الأخضر عشرة فراسخ، وقدرت البحيرة ثلاثة أميال في مثلها، ولا يغيض ماؤها، وهو راكد زعاق. وحدث أبو عبيد عن أبي محمد اليزيدي قال: سألني المهدي وسأل الكسائي عن النسبة إلى البحرين وعن الحصين، لم قالوا: حصني، وبحراني؟ فقال الكسائي: كرهوا أن يقولوا حصناني لاجتماع النونين، قال: وقلت أنا: كرهوا أن يقولوا بحري فتشبه النسبة إلى البحر.

والبست: بفتح الباء الموحدة وسكون السين المهملة وبعدها تاء مثناة من فوقها، واد عريض في وسط إربل تجري فيه مياه السيول في الشتاء والربيع وفيه شيء كثير من الحجارة الصغار، والله أعلم.

أبو شجاع الفرضي

أبو شجاع محمد بن علي بن شعيب، المعروف بابن الدهان، الملقب فخر الدين، البغدادي الفرضي الحاسب الأديب؛ هو من أعل بغداد، وانتقل إلى الموصل وصحب جمال الدين الأصبهاني الوزير بها، ثم تحول إلى خدمة السلطان سلاح الدين فولاه ديوان ميافارقين، فلم يمش له بها حال مع واليها، فدخل إلى دمشق فاجري له بها رزق لم يكن كافياً وكان يزجي به الوقت، ثم ارتحل إلى مصر في سنة ست وثمانين وخمسمائة ثم عاد منها إلي دمشق وجعلها دار إقامة.

وله أوضاع الجداول في الفرائض وغيرها، وصنف "غريب الحديث" في ستة عشر مجلداً لطافاً، ورمز فيه حروفاً يستدل بها على أماكن الكلمات المطلوبة منه، وكان قلمه أبلغ من لسانه، وجمع تاريخاً وغير ذلك.

وذكره أبو البركات ابن المستوفي في "تاريخ إربل" وعده في زمرة الوافدين عليها، وقال في حقه: عالم فاضل متفنن، وله شعر جيد، وذكر الأبيات التي مدح بها تاج الدين أبا اليمن زيد بن الحسن الكندي، وقد ذكرتها في ترجمة الكندي.

وذكره أيضاً العماد الكاتب في "الخريدة" وأثنى عليه، وأورد له مقاطيع أحسن فيها، فمن ذلك قوله في ابن الدهان المعروف بالناصح أبي محمد سعيد بن المبارك النحوي وقد سبق ذكره وكان مخلاً بإحدى عينيه:

لا يبعد الدهان إن ابنه	أدهن منه بطريقين
في عجب البحر فحدث به	بفرد عينٍ وبوجهين

ومنه ما كتبه إلى بعض الرؤساء وقد عوفي من مرضه:

نذر الناس يوم برئك صوماً	غير أني نذرت وحدي فطرا
عالماً أن يوم برئك عيدٌ	لا أرى صومه ولو كان نذرا

وله غير ذلك أناشيد حسان. وكانت له اليد الطولى في النجوم وحل الأزياج. وتوفي في صفر سنة تسعين وخمسمائة بالحلة السيفية، وكان سبب موته أنه حج من دمشق وعاد على طريق العراق، ولما وصل إلى الحلة عثر جمله هناك فأصاب وجهه بعض خشب المحمل فمات لوقته. وكان شيخاً دميم الخلقة مسنون الوجه مسترسل اللحية خفيفها، أبيض تعلوه صفر، رحمه الله تعالى. وقيل إنه كان يلقب برهان الدين، والله أعلم أي ذلك كان. وقد تقدم الكلام على الحلة فلا حاجة إلى إعادته.

ابن عنين الشاعر

أبو المحاسن محمد بن نصر بن الحسين بن عنين الأنصاري، الملقب شرف الدين، الكوفي الأصل الدمشقي المولد الشاعر المشهور؛ كان خاتمة الشعراء لم يأت بعده مثله، ولا كان في أواخر عصره من يقاس به، و لم يكن شعره مع جودته مقصوراً على أسلوب واحد بل تفنن فيه، وكان غزير المادة من الأدب مطلعاً على معظم أشعار العرب، وبلغني أنه كان يستحضر نقل كتاب "الجمهرة" لابن دريد في اللغة، وكان مولعاً بالهجاء وثلب أعراض الناس، وله قصيدة طويلة جمع فيها خلقاً من رؤساء دمشق سماها "مقراض الأعراض". وكان السلطان صلاح الدين، رحمه الله تعالى، قد نفاه من دمشق بسبب وقوعه في الناس، فلما خرج عمل:

فعلام أبعدتم أخا ثقة ... لم يجترم ذنباً ولا سرقا؟

انفوا المؤذن من بلادكم ... إن كان ينفى كل من صدقا

وطاف البلاد من الشام والعراق والجزيرة وأذربيجان وخراسان وغزنة وخوارزم ما وراء النهر، ثم دخل الهند واليمين وملكها يومئذ سيف الإسلام طغتكين بن أيوب أخو السلطان صلاح الدين، رحمه الله تعالى- المذكور في حرف الطاء - وأقام بها مدة، ثم رجع إلى الحجاز والديار المصرية، وعاد إلى دمشق، وكان يتردد منها إلى البلاد ويعود إليها. ولقد رأيته بمدينة إربل في سنة ثلاث وعشرين وستمائة و لم آخذ عنه شيئاً، وكان قد وصل إليها رسولاً عن الملم المعظم شرف الدين عيسى بن الملك العادل صاحب دمشق، وأقام بها قليلاً، ثم سافر وكتب من بلاد الهند إلى أخيه وهو بدمشق هذين البيتين، والثاني منهما لأبي العلاء المعري استعمله مضمناً فكان أحق بها، وهما:

سامحت كتبك في القطيعة عالماً ... أن الصحيفة لم تجد من حامل

"وعذرت طيفك في الجفاء أنه ... يسري فيصبح دوننا بمراحل"

لله دره فما أحسن ما وقع له هذا التضمين. وقد كرر هذا المعنى في مواضع من شعره: فمن ذلك قوله من جملة قصيدة طويلة:

ألا يا نسيم الريح من تل راهط ... وروض الحمى، كيف اهتديت إلى الهند

وقوله من أبيات وهو في عدن اليمن:

ألحبابنا لا أسأل الطيف زورة ... وهيهات، أن أين الديلميات من عدن؟

الديلميات وتل راهط والحمى: أسماء مواضع من ضواحي دمشق، والبيت الذي للمعري قبله:

وسألت كم بين العقيق إلى الحمى ... فعجبت من بعد المدى المتطاول

والمعري أخذا هذا المعنى من دعبل بن علي الخزاعي الشاعر- المقدم ذكره - فإنه كان قد هجا الخليفة المعتصم بالله بن هارون الرشيد، فطلبه، فهرب من العراق إلى الديار المصرية وسكن بأسوان في آخر بلادها، وقال في ذلك:

وإن امرءاً أضحت مطارح سهمه ... بأسوان لم يترك من الحزم معلما

حللت محلاً يحسر الطرف دونه ... ويعجز عنه الطيف أن يتجشما

وقد خرجنا عن المقصود ولكن ساق الكلام بعضه بعضاً.

ولما مات السلطان صلاح الدين وملك الملك العادل دمشق كان غائباً في السفرة التي نفي فيها، فسار متوجهاً إلى دمشق، وكتب إلى الملك العادل قصيدته الرائية يستأذنه في الدخول إليها ويصف دمشق ويذكر ما قاساه في الغربة، ولقد أحسن فيها كل الإحسان واستعطفه أبلغ استعطاف، وأولها:

ماذا على طيف الأحبة لو سرى ... وعليهم لو سامحوني بالكرى

ووصف في أوائلها دمشق وبساتينها وأنهارها ومستلزماتها، ولما فرغ من وصف دمشق قال مشيراً إلى النفي منها:

فارقها لا عن رضاً، وهجرتها ... لا عن قلى، ورحلت لا متخيرا

أسعى لرزق في البلاد مشتتٍ ومن العجائب أن يكون مقترا

وأصون وجه مدائحي متقنعاً وأكف ذيل مطامعي متسترا

ومنا يشكو الغربة وما قاساه فيها:

أشكو إليك نوى تمادي عمرها حتى حسبت اليوم منها أشهرا

لا عيشتي تصفو، ولا رسم الهوى يعفو، ولا جفني يصافحه الكرى

أضحي ع الأحوى المريع محلاً وأبيت عن ورد النمير منفرا

ومن العجائب أن يقبل ظلكم كل الورى، ونبذت وحدي بالعرا

وهذه القصيدة من أحسن الشعر، وعندي هي خير من قصيدة أبي بكر ابن عمار الأندلسي التي أولها– وهي على وزنها ورويها وقد تقدم ذكر شيء منها في ترجمته–:

أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى

فلما وقف عليه الملك العادل أذن له في الدخول إلى دمشق، فلما دخلها قال:

هجوت الأكابر في جلقٍ ورعت الوضيع بسب الرفيع

وأخرجت منها ولكنني رجعت على رغم أنف الجميع

وكان له في عمل الألغاز وحلا اليد الطولى، فمن كتب إليه بشيء منها حله في وقته وكتب الجواب أحسن من السؤال نظماً. ولم يكن له غرض في جمع شعره، فلذلك لم يدونه، فهو يوجد مقاطيع في أيدي الناس، وقد جمع له بعض أهل دمشق ديواناً صغيراً لا يبلغ عشر ما له من النظم، ومع هذا ففيه أشياء ليست له.

وكان من أظرف الناس وأخفهم روحاً وأحسنهم مجوناً، وله بيت عجيب من جملة قصيدة يذكر فيها أسفاره ويصف توجهه إلى جهة الشرق، وهو:

أشقق قلب الشرق حتى كأنني أفتش في سودائه عن سنا الفجر

وبالجملة فمحاسن شعره كثيرة.

وكنت قد رأيته في المنام في بعض شهور سنة تسع وأربعين وستمائة، وأنا يوم ذاك بالقاهرة المحروسة، وفي يده ورقة حمراء، وهي عريضة، وفيها مقدار خمسة عشر بيتاً تقريباً، وهو يقول: عملت هذه الأبيات في الملك المظفر صاحب حماة، وكان الملك المظفر في ذلك الوقت ميتاً أيضاً، وكان في المجلس جماعة حاضرون، فقرأ علينا الأبيات، فأعجبني منها بيت فرددته في النوم، واستيقظت من المنام وقد علق بخاطري، وهو:

والبيت لا يحسن إنشاده إلا إذا أحسن من شاده

وهذا البيت غير موجود في شعره.

وقد تقدم ذكره في ترجمة الإمام فخر الدين الرازي وأبياته الفائية وكذلك في ترجمة سيف الإسلام.

وكان وافر الحرمة عند الملوك، وتولى الوزارة بدمشق في آخر دولة الملك المعظم ومدة ولاية الملك الناصر ابن المعظم، وانفصل عنها لما ملكها الملك الأشرف وأقام في بيته، ولم يباشر بعدها خدمة. وكانت ولادته بدمشق يوم الاثنين تاسع شعبان سنة تسع وأربعين وخمسمائة، وتوفي عشية نهار الاثنين لعشرين من شهر ربيع الأول سنة ثلاثين وستمائة بدمشق أيضاً، ودفن من الغد بمسجده الذي أنشأه بأرض المزة، وهي– بكسر الميم وتشديد الزاء – قرية على باب دمشق، رحمه الله تعالى.

قال ابن الدبيثي: سمعته يقول: إن أصلنا من الكوفة من موضع يعرف بمسجد بني النجار، ونحن من الأنصار؛ قلت: هكذا نقلته أولاً، ثم إني زرت قبر

بلال مؤذن سول الله صلى الله عليه وسلم بمقابر باب الصغير ظاهر دمشق، فلما خرجت من تربته وجدت على الباب قبراً كبيراً فقيل لي: هذا قبر ابن عنين، فوقفت وترحمت عليه.

وعنين: بضم العين المهملة وفتح النون وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها نون، والله أعلم.

القائم ابن المهدي

أبو القاسم محمد، ويدعى نزار، ابن المهدي أبي محمد عبيد الله القائم بالمغرب، كان أبو القاسم المذكور يلقب بالقائم- وقد تقدم ذكر والده المهدي في حرف العين وذكر ولده المنصور إسماعيل في حرف الهمزة –وكان أبوه المهدي قد بايع بولاية العهد في حياته بإفريقية وما معها، وكانت الكتب تكتب باسمه، والمظلة تحمل على رأسه، ولما توفي أبوه في التاريخ المذكور في ترجمته جددت له البيعة. وكان جهزه أبوه إلى مصر ليأخذها مرتين: المرة الأولى في الثامن عشر من ذي الحجة سنة إحدى وثلثمائة، فوصل إلى الإسكندرية وملكها والفيوم، وصار في يده أكثر خراج مصر، وضيق على أهلها، والمرة الثانية وصل إلى الإسكندرية في شهر ربيع الأول من سنة سبع وثلثمائة في عسكر عظيم، فخرج عامل الإمام المقتدر عنها ودخلها القائم المذكور، ثم خرج إلى الجيزة في خلق عظيم ووردت الأخبار بذلك إلى بغداد، فجهز المقتدر مؤنساً الخادم إلى محاربته بالرجال والأموال، فجد في السير، فلما وصل إلى مصر كان القائم قد ملك الجيزة والأشمونين وأكثر بلاد الصعيد، فتلاقيا، وجرت بين العسكرين حروب لا توصف، ووقع عسكر القائم الوباء والغلاء فمات الناس والخيل، فرجع إلى إفريقية وتبعه عسكر مصر إلى أن تباعد عنهم: وكان وصوله إلى المهدية يوم الثلاثاء الثالث من رجب من السنة المذكورة، وفي أيامه خرج أبو يزيد مخلد بن كيداد الخارجي- وقد تقدم ذكره وما جرى له وكيف مات في الأسر في ترجمة المنصور- والشرح في ذلك يطول.

وكانت ولادة القائم بمدينة سليمة- المذكورة في ترجمة والده المهدي- في المحرم سنة ثمانين، وقيل سنة اثنتين وثمانين، وقيل سبع وسبعين ومائتين، واستصحبه والده معه عند توجهه إلى بلاد المغرب؛ وتوفي يوم الأحد ثالث عشر شوال سنة أربع وثلاثين وثلثمائة، رحمه الله تعالى بالمهدية وأبو يزيد الخارجي محاصر له، فقام بالأمر ولد المنصور إسماعيل، وكتم خبر موته خوفاً من الخارجي أن يطلع عليه فيطمع فيه، وكان بالقرب منه على مدينة سوسة، فأبقى الأمور على حالها وأكثر من العطايا والصلات ولم يتسم بالخليفة، وكانت كتبه تنفذ من الأمير إسماعيل ولي عهد المسلمين، والله أعلم.

المعتمد بن عباد ملك الأندلس وأبوه وجده

المعتمد على الله أبو القاسم محمد بن المعتضد بالله أبي عمرو عباد بن الظافر المؤيد بالله أبي القاسم محمد قاضي إشبيلية بن أبي الوليد إسماعيل بن قريش بن عباد بن عمرو بن أسلم بن عمرو بن عطاف بن نعيم، اللخمي من ولد النعمان بن المنذر اللخمي آخر ملوك الحيرة؛ كان المعتمد المذكور صاحب قرطبة وإشبيلية وما والاهما من جزيرة الأندلس وفيه وفي أبيه المعتضد يقول بعض لشعراء:

من بني المنذرين وهو انتساب ... زاد في فخره بنو عباد
فتية لم تلد سواها المعالي ... والمعاني قليلة الأولاد

وكان بدء أمرهم في بلاد الأندلس أن نعيماً وابنه عطافاً أول من دخل إليها من بلاد المشرق، وهما من أهل العريش، المدينة القديمة الفاضلة بين الشام والديار المصرية في أول الرمل من جهة الشام؟، وأقاما بها مستوطنين بقرية بقرب يومين من إقليم طشانة من أرض اشبيلية.

وامتد لعطاف عمود النسب في الولد إلى الظافر محمد بن إسماعيل القاضي، فهو أول من نبغ منهم في تلك البلاد وتقدم بإشبيلية إلى أن ولي القضاء بها فأحسن السياسة مع الرعية والملاطفة بهم، فرمقته القلوب، وكان يحيى بن علي بن حمود الحسني المنعوت بالمعتلي صاحب قرطبة، وكان مذموم السيرة، فتوجه إلى إشبيلية محاصراً لها، فلما نزل عليها اجتمع رؤساء إشبيلية وأعيانها وأتوا القاضي محمداً المذكور وقالوا له: أما ترى ما حل بنا من هذا الظالم وما أفسد من أموال الناس؟ فقم بنا نخرج إليه ونملكك ونجعل الأمر إليك، ففعل، ووثبوا على يحيى، فركب إليهم وهو سكران فقتل.

وتم له الأمر ثم ملك بعد ذلك قرطبة وغيرها من البلاد. وقصته مشهورة مع الذي زعم أنه هشام بن الحكم آخر ملوك بني أمية بالأندلس الذي كان المنصور بن أبي عامر قد استولى عليه وحجبه عن الناس، وكان يصدر الأمور عن إشارته، ولا يمنه من التصرف، ليس له سوى الاسم والخطبة على المنابر، فإنه كان قد انقطع خبره مدة نيف وعشرين سنة، وجرت أحوال مختلفة في هذه المدة، ثم قيل للقاضي محمد المذكور بعد تملكه واستيلائه على البلاد: إن هشام بن الحكم في مسجد بقلعة رباح، فأرسل إليه من أحضره، وفوض الأمر إليه، وجعل نفسه كالوزير بين يديه، وهذه الواقعة يقول الحافظ أبو محمد بن حزم الظاهري في كتاب "نقط العروس": أخلوقة لم يقع في الدهر مثلها فإنه ظهر رجل يقال له خلف الحصري بعد نيف وعشرين سنة من موت هشام بن الحكم المنعوت بالمؤيد وادعى أنه هشام، فبويع وخطب له على جميع منابر الأندلس في أوقات شتى، وسفك الدماء وتصادمت الجيوش في أمره، وأقام المدعي أنه هشام نيفاً وعشرين سنة، والقاضي محمد بن إسماعيل في رتبة الوزير بين يديه، والأمر إليه، و لم يزل الأمر كذلك إلى أن توفي المدعو هشاماً، فاستبد القاضي محمد بالأمر بعده. وكان من أهل العلم والأدب والمعرفة التامة بتدبير الدول، و لم يزل ملكاً مستقلاً إلى أن توفي ليلة الأحد لليلة بقيت من جمادى الأولى سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة؛ وقيل إنه عاش إلى قريب الخمسين وأربعمائة ودفن بقصر إشبيلية، واختلفوا أيضاً في مبدإ استلائه: فقيل سنة أربع عشرة وأربعمائة، وهو الذي ذكره العماد الكاتب في "الخريدة"، وقيل أربع وعشرين، والله أعلم بالصواب في ذلك كله.

ولما مات محمد القاضي قام مقامه ولده المعتضد بالله أبو عمرو عباد، قال أبو الحسن علي بن بسام صاحب كتاب "الذخيرة" في حقه: ثم أفضى الأمر إلى عباد سنة ثلاث وثلاثين، وتسمى أولاً بفخر الدولة ثم بالمعتضد، قطب رحى الفتنة، ومنتهى غاية المحنة، من رجل لم يثبت له قائم ولا حصيد، ولا سلم منه قريب ولا بعيد، جبار أبرم الأمر وهو متناقض، وأسد فرس الطلا وهو رابض، متهور تتحاماه الدهاة، وجبان لا تأمنه الكماة، متعسف اهتدى، ومنبت قطع ما أبقى، ثار والناس حرب وضبط شأنه بين قائم وقاعد، حتى طالت يده واتسع بلده وكثر عديده وعدده، وكان قد أوتي أيضاً من جمال الصورة وتمام الخلقة وفخامة الهيئة وسباطة البنان وثقوب الذهن وحضور الخاطر وصدق الحس، ما فاق على نظرائه، ونظر مع ذلك في الأدب قبل ميل الهوى به إلى طلب السلطان أدنى نظر بأزكى طبع حصل منه لثقوب ذهنه على قطعة وافرة علقها من غير تعمد لها ولا إمعان في غمارها ولا إكثار من مطالعتها ولا منافسة في اقتناء صحائفها، أعطته سجية على ذلك ما شاء من تحبير الكلام وقرض قطع من الشعر ذات طلاوة في معان أمدته فيها الطبيعة، وبلغ فيها الإرادة، واكتتبها الأدباء للبراعة، جمع هذه الخلال الظاهرة إلى جود كف باري السحاب بها. وأخبار المعتضد في جميع أفعاله وضروب أنحائه غريبة بديعة. وكان ذا كلف بالنساء فاستوسع في اتخاذهن وخلط في جنوسهن، فانتهى في ذلك إلى مدى لم يبلغه أحد من نظرائه، ففشا نسله لتوسعه في النكاح وقوته عليه، فذكر أنه كان له من الولد نحو العشرين ذكوراً، ومن الإناث مثلهم. وأورد له عدة مقاطيع، فمن ذلك قوله:

شربنا وجفن الليل يغسل كحله	بماء صباحٍ والنسيم رقيق
معتقة كالتبر أما نجارها	فضخم وأما جسمها فدقيق

–وقد تقدم في ترجمة أبي بكر محمد بن عمار الأندلسي ذكر شيء من قصيدتيه اللتين مدح المعتضد المذكور بهما: إحداهما رائية والأخرى ميمية –. ولولده المعتمد فيه من جملة أبيات:

سميدع يهب الآلاف مبتدئاً	ويستقل عطاياه ويعتذر
له يد كل جبارٍ يقبلها	لولا نداها لقلنا إنها الحجر

و لم يزل في غز سلطانه واغتنام مساره، حتى أصابته علة الذبحة، فلم تطل مدتها، ولما أحس بتداني حمامه استدعى مغنياً يغنيه ليجعل ما يبدأ به فألاً فأول ما غنى:

نطوي الليالي علماً أن ستطوينا	فشعشعيها بماء المزن واستقينا

فتطير من ذلك و لم يعش بعده سوى خمسة أيام وقيل إنه ما غنى منها إلا بخمسة أبيات وتوفي يوم الاثنين غرة جمادى الآخرة سنة إحدى وستين وأربعمائة، ودفن ثاني يوم بمدينة إشبيلية، رحمه الله تعالى.

وقام بالمملكة بعده ولده المعتمد على الله أبو القاسم محمد.

قال أبو الحسن علي بن القطاع السعدي- المقدم ذكره - في كتاب "لمح الملح" في حق المعتمد المذكور: أندى ملوك الأندلس راحة، وأرحبهم ساحة، وأعظمهم ثماداً، وأرفعهم عماداً، ولذلك كانت حضرته ملقى الرحال، وموسم الشعراء، وقبلة الآمال ومألف الفضلاء، حتى إنه لم يجتمع بباب أحد من ملوك عصره من أعيان الشعراء وأفاضل الأدباء ما كان يجتمع ببابه، وتشتمل عليه حاشيتا جنابه.

وقال ابن بسام في "الذخيرة": وللمعتمد بن عباد شعر كما انشق الكمام عن الزهر، لو صدر مثله عمن جعل الشعر صناعة واتخذه بضاعة، لكان رائقاً معجباً ونادراً مستغرباً، فمن ذلك قوله:

أكثرت هجرك غير أنك ربما ... عطفتك أحياناً علي أمور

فكأنما زمن التهاجر بيننا ... ليلٌ وساعات الوصال بدور

وهذا المعنى ينظر إلى قول بعضهم من جملة أبيات:

أسفر ضوء الصبح عن وجهه ... فقام خال الخد فيه بلال

كأنما الخال على خده ... ساعة هجرٍ في زمان الوصال

وعزم المعتمد على إرسال حظاياه من قرطبة إلى إشبيلية، فخرج معهن يشيعهن فسايرهن من أول الليل إلى الصبح، فودعهن ورجع وأنشد أبياتاً من جملتها:

سايرتهم والليل غفلٌ ثوبه ... حتى تبدى للنواظر معلما

فوقفت ثم مودعاً وتسلمت ... مني يد الإصباح تلك الأنجما

وهذا المعنى في نهاية الحسن. وله في وداعهن أيضاً:

ولما وقفنا للوداع غديةً ... وقد خفقت في ساحة القطر رايات

بكينا دماً حتى كأن عيوننا ... بجري الدموع الحمر منها جراحات

وهذا ينظر إلى قول القائل:

بكيت دماً حتى لقد قال قائلٌ ... أهذا الفتى من جفن عينيه يرعف

وقد سبق في شعر الأبيوردي نظيره.

ومن شعره أيضاً:

لولا عيونٌ من الواشين ترمقني ... وما أحاذر من قول حراس

لزرتكم لا أكافيكم بجفوتكم ... مشياً على الوجه أو سعياً على الراس

وكتب إلى ندامه من قصره بقرطبة وقد اصطبحوا بالزهراء يدعوهم إلى الاغتباق عنده:

حسد القصر فيكم الزهراء ... ولعمري وعمركم ما أساء

قد طلعتم بها شموساً نهاراً فاطلعوا عندنا بدوراً مساء

وهذا من بديع المعاني العجيبة.

والزهراء: بفتح الزاي وسكون الهاء وفتح الراء وبعدها همزة ممدودة، وهي من عجائب أبنية الدنيا، أنشأها أبو المطرف عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الملقب الناصر أحد ملوك بني أمية بالأندلس، بالقرب من قرطبة، في أول سنة خمس وعشرين وثلثمائة، ومسافة ما بينهما أربعة أميال وثلثا ميل، وطول الزهراء من الشرق إلى الغرب ألفان وسبعمائة ذراع، وعرضها من القبلة إلى الجنوب ألف وخمسمائة ذراع، وعدد السواري التي فيها أربعة آلاف سارية وثلثمائة سارية، وعدد أبوابها يزيد على خمسة عشر ألف باب. وكان الناصر يقسم جباية البلاد أثلاثاً، فثلث للجند وثلث مدخر وثلث ينفقه على عمارة الزهراء، وكانت جباية الأندلس يومئذ خمسة آلاف دينار أربعمائة ألف وثمانين ألف دينار، ومن السوق والمستخلص سبعمائة ألف وخمسة وستون ألف دينار، وهي من أهول ما بناه الإنس وأجله خطراً وأعظمه شأناً، ذكر ذلك كله ابن بشكوال- المقدم ذكره في حرف الخاء – في "تاريخ الأندلس".

وكان أبو بكر محمد بن عيسى بن محمد اللخمي الداني الشاعر المشهور مائلاً إلى بني عباد بطبعه، إذ كان المعتمد الذي جذب بضبعه، وله في المدائح الأنيقة، فمن ذلك قصيدة يمدحه بها ويذكر أولاده الربعة وهم: الرشيد عبيد الله، والراضي يزيد والمأمون والمؤتمن، ومن جملتها قوله، ولقد أجاد فيه كل الإجادة وأبدع فيه:

يغيثك في محل، يغنيك في ردىً يروعك في درع، يروقك في برد

جمال وإجمالٌ وسبق وصولة كشمس الضحى كالمزن كالبرق كالرعد

بمهجته شاد العلا ثم زادها بناء بأبناءٍ جحاجحة لد

بأربعة مثل الطباع تركبوا لتعديل جسم المجد والشرف العد

ومع هذا المكارم والإحسان العام لم يسلموا من لسان طاعن، وفيهم يقول أبو الحسن جعفر بن إبراهيم بن الحاج اللورقي:

تعز عن الدنيا ومعروف أهلها إذا عدم المعروف في آل عباد

حللت بهم ضيفاً ثلاثة أشهر بغير قرى ثم ارتحلت بلا زاد

وكان الأذفونش فرذلند ملك الإفرنج بالأندلس قد قوي أمره في ذلك الوقت، وكانت ملوك الطوائف من المسلمين هناك يصالحونه، ويؤدون إليه ضريبة، ثم إنه أخذ طليطلة في يوم الثلاثاء مستهل صفر سنة ثمان وسبعين وأربعمائة بعد حصار شديد، وكانت للقادر بالله بن ذي النون، وفي أخذها يقول أبو محمد عبد الله بن فرج بن غزلون اليحصبي، يعرف بابن العسال الطليطلي، وهو مذكور في "الصلة" لابن بشكوال:

حثوا رواحلكم يا أهل أندلس فما المقام بها إلا من الغلط

السلك ينثر من أطرافه وأرى سلك الجزيرة منثوراً من الوسط

من جاور الشر لم يأمن عواقبه كيف الحياة مع الحيات في سفط

وكان المعتمد بن عباد أكبر ملوك الطوائف وأكثرهم بلاداً. وكان يؤدي الضريبة للأذفونش، فلما ملك طليطلة لم يقبل ضريبة المعتمد طمعاً في أخذ بلاده، وأرسل إليه يتهدده ويقول له: تنزل عن الحصون التي بيدك ويكون لك السهل: فضرب المعتمد الرسول وقتل من كان معه، فبلغ الخبر للأذفونش وهو متوجه لحصار قرطبة فرجع إلى طليطلة لأخذ آلات الحصار.

فلما سمع مشايخ الإسلام وفقهاؤها بذلك اجتمعوا وقالوا: هذه مدن الإسلام قد تغلب عليها الفرنج، وملوكنا مشتغلون بمقاتلة بعضهم بعضاً، وإن

استمرت الحال ملك الفرج جميع البلاد، وجاءوا إلى القاضي عبيد الله بن محمد بن أدهم وفاوضوه فيما نزل بالمسلمين وتشاوروا فيما يفعلونه، فقال كل واحد منهم شيئاً، وآخر ما اجتمع رأيهم عليه أن يكتبوا إلى أبي يعقوب يوسف بن تاشفين ملك الملثمين صاحب مراكش يستنجدونه- وسيأتي ذكره في حرف الياء إن شاء الله تعالى. فاجتمع القاضي بالمعتمد وأخبره بما جرى، فوافقهم على أنه مصلحة وقال له تمضي إليه بنفسك، فامتنع فألزمه بذلك، فقال: أستخير الله سبحانه، وخرج من عنده، وكتب للوقت كتاباً إلى يوسف بن تاشفين يخبره بصورة الحال، وسيرة مع بعض عبيده إليه، فلما وصله خرج مسرعاً إلى المدينة سبتة، وحتى خرج القاضي ومعه جماعة إلى سبتة للقائه وإعلامه بحال المسلمين فأمر بعبور عسكره إلى الجزيرة الخضراء، وهي مدينة في بر الأندلس، وأقام بسبتة، وهي في بر مراكش مقابلة الجزيرة الخضراء، وسر إلى مراكش يستدعي من تخلف بها من جيشه، فلما تكاملوا عنده أمرهم بالعبور، وعبر آخرهم وهو في عشرة آلاف مقاتل، واجتمع بالمعتمد وقد جمع أيضاً عساكره، وتسامع المسلمون بذلك، فخرجوا من كل البلاد طلباً للجهاد، وبلغ الأذفونش الخبر وهو بطليطلة، فرج في أربعين ألف فارس غير ما انضم إليه، وكتب الأذفونش إلى الأمير يوسف كتاباً يتهدده، وأطال الكتاب، فكتب يوسف الجواب في ظهره: "الذي يكون ستراه" ورده إليه. فلما وقف عليه ارتاع لذلك وقال: هذا رجل عازم.

ثم سار الجيشان والتقيا في مكان يقال له الزلاقة من بلد بطليوس وتصافا، وانتصر المسلمون وهرب الأذفونش بعد استئصال عساكره ولم يسلم معه سوى نفر يسير، وذلك يوم الجمعة في العشر الأول من شهر رمضان المعظم سنة تسع وسبعين وأربعمائة، كذا قال بعضهم، والصحيح أن هذه الوقعة كانت في منتصف رجب من السنة المذكورة، وهذا يؤرخ به في بلاد الأندلس كلها فيقال عام الزلاقة، وهذه الواقعة من أشهر الوقائع. وثبت المعتمد في ذلك اليوم ثباتاً عظيماً، وأصابه عدة جراحات في وجهه وبدنه، وشهد له بالشجاعة، وغنم المسمون دوابهم وسلاحهم، ورجع الأمير يوسف إلى بلاده والمعتمد إلى بلاده.

ثم إن الأمير يوسف عاد إلى الأندلس في العام الثاني وخرج إليه المعتمد، وحاصرا بعض حصون الفرنج، فلم يقدرا عليه، فرحلا عنه وعبر يوسف على غرناطة، فخرج إليه صاحبها عبد الله بن بلكين ثم دخل البلد ليخرج إليه التقادم، فغدر به يوسف ودخل البلد وأخرج عبد الله ودخل قصره فوجد فيه من الأموال والذخائر ما لا يحد ولا يحصى. ثم رجع إلى مراكش وقد أعجبه حسن بلاد الأندلس وبهجتها وما بها من المباني والبساتين والمطاعم وسائر أصناف الأموال التي لا توجد في مراكش، فإنها بلاد بربر وأجلاف العربان وجعل خواص الأمير يوسف يعظمون عنده بلاد الأندلس ويحسنون له أخذا، ويغرون قلبه على المعتمد بأشياء نقلوها عنه فتغير عليه وقصده، فلما انتهى إلى سبتة جهز إليه العساكر وقدم عليها سير بن أبي بكر الأندلسي، فوصل إلى إشبيلية وبها المعتمد فحاصره أشد محاصرة، وظهر من مصابرة المعتمد وشدة بأسه وترامية على الموت بنفسه ما لم يسمع بمثله، والناس بالبلد قد استولى عليهم الفزع وخامرهم الجزع يقطعون سبلها سياحة ويخوضون نهرها سباحة ويترامون من شرفات الأسوار. فلما كان يوم الأحد العشرين من رجب سنة أربع وثمانين وأربعمائة هجم عسكر الأمير يوسف البلد وشنوا فيه بالغارات، ولم يتركوا لأحد شيئاً، وخرج الناس من منازلهم يسترون عوراتهم بأيديهم، وقبض على المعتمد وأهله، وكان قد قتل له ولدان قبل ذلك، أحدهما: المأمون، وكان ينوب عن والده في قرطبة فحصروه بها إلى أن أخذوه وقتلوه والثاني الراضي، كان أيضاً نائباً عن أبيه في رندة وهي من الحصون المنيعة فنازلوها وأخذوها وقتلوا الراضي، ولأبيهما المعتمد فيهما مرات كثيرة.

وبعد ذلك جرى إشبيلية على المعتمد ما ذكرناه. ولما أخذ المعتمد قيدوه من ساعته، وجعل مع أهله في سفينة، قال ابن خاقان في "قلائد العقيان" في هذا الموضع: ثم جمع هو وأهله وحملتهم الجواري المنشآت، وضمتهم كأنهم أموات، بعد ما ضاق عنهم القصر، وراق منهم العصر، والناس قد حشروا بضفتي الوادي، يبكون بدموع الغوادي، فساروا والنوح يحدوهم، والبوح باللوعة لا يعدوهم، وفي ذلك يقول أبو بكر محمد بن عيسى الداني المعروف بابن اللبانة:

تبكي السماء بدمع رائح غادي ... على البهاليل من أنباء عباد

ومن جملتها:

يا ضيف أفقر بيت المكرمات فخذ		في ضم رحلك واجمع فضلة الزاد

وهي قصيدة طويلة لا حاجة إلى ذكرها. وفي هذه الحال وصفتها يقول أبو محمد عبد الجبار بن حمديس الصقلي الشار المشهور- المقدم ذكره:

ولما رحلتم بالندى في أكفكم		وقلقل رضوى منكم وثبير

رفعت لساني بالقيامة قد دنت		فهذي الجبال الراسيات تسير

وهي أبيات كثيرة، وهذا المعنى مأخوذ من قول عبد الله بن المعتز في أبي العباس أحمد بن محمد الفرات الوزير وقد مات:

قد استوى الناس ومات الكمال		وصاح صرف الدهر أين الرجال

هذا أبو العباس في نعشه		قوموا انظروا كيف تسير الجبال

وقيل إنه أنشدها لما مات الوزير أبو القاسم عبيد الله بن سليمان بن وهب، والله أعلم بالصواب، ثم وجدت القول الثاني هو الصحيح، والله أعلم.
وتألم المعتمد يوماً من قيده وضيقه وثقله فأنشد:

تبدلت من ظل عز البنود		بذل الحديد وثقل القيود

وكان حديدي سناناً ذليقاً		وعضباً رقيقاً صقيل الحديد

وقد صار ذاك وذا أدهما		يعض بساقي عض الأسود

ثم إنهم حملوا إلى الأمير يوسف بمراكش، فأمر بإرسال المعتمد إلى مدينة أغمات، واعتقله بها ولم يخرج منها على الممات، قال ابن خاقان: ولما أجلي عن بلاده، وأعري من طارفه وتلاده، وحمل في السفين، وأحل في العدوة محل الدفين، تندبه منابره وأعواده، ولا يدنو منه زواره ولا عواده، بقي آسفاً تتصعد زفراته، وتطرد اطراد المذانب عبراته، ولا يخلو بمؤانس، ولا يرى إلا عريناً بدلاً من تلك المكانس، ولما لم يجد سلواً ولم يؤمل دنواً ولم ير وجه مسرة مجلواً، تذكر منازله فشاقته، وتصور بهجتها فراقته، وتخيل استيحاش أوطانه، وإجهاش قصره إلى قطانة، وإظلام جوه من أقماره، وخلوه من حراسة سماره. وفي اعتقاله يقول أبو بكر الداني المذكور قصيدته المشهورة التي أولها:

لكل شيء من الأشياء ميقات		وللمنى من منياهن غايات

والدهر في صبغة الحرباء منغمسٌ		ألوان حالاته فيها استحالات

ونحن من لعب الشطرنج في يده		وربما قمرت بالبيدق الشاة

قلت: هذا غلط، فإن الشاة بالهاء الملك بالعجمي، وإذا كان كذلك فلا تسلم القافية، لأنها على حرف التاء، ثم قال:

انفض يديك من الدنيا وساكنها		فالأرض قد أقفرت والناس قد ماتوا

وقل لعالمها الأراضي: قد كتمت		سريرة العالم العلوي أغمات

وهي طويلة تقارب خمسين بيتاً.
وله أيضاً في حبسه قصيدة عملها بأغمات، سنة ست وثمانين وأربعمائة:

تنشق رياحين السلام فإنما		أقض بها ممسكاً عليك مختما

وقل لي مجازاً إن عدمت حقيقةً		لعلك في نعمى وقد كنت منعما

أفكر في عصرٍ مضى لك مشرقا		فيرجع ضوء الصبح عندي مظلما

وأعجب من أفق المجرة إذ رأى كسوفك شمساً كيف أطلع أنجما

لئن عظمت فيك الرزية إننا وجدناك منها في المزية أعظما

قناة سعت للطعن حتى تقصدت وسيفٌ أطال الضرب حتى تثلما

ومنها:

بكى آل عباد ولا كمحمد وأبنائه صوب الغمامة إذا همى

حبيبٌ إلى قلبي، حبيبٌ لقوله عسى طلل يدنو بهم ولعلما

صباحهم كنا بهم نحمد السرى فلما عدمناهم سرينا على عمى

وكنا رعينا العز حول حماهم فقد أجدب المرعى وقد أقفر الحمى

وقد ألبست أيدي الليالي محلهم مناسج سدى الغيث فيها وألحما

قصورٌ خلت من ساكنيها فما بها سوى الأدم تمشي حول واقعة الدمى

يجيب بها الهام الصدى ولطالما أجاب القيان الطائر المترنما

كأن لم يكن فيها أنيس ولا التقى بها الوفد جمعاً والخميس عرمرما

ومنها:

حكيت وقد فارقت ملكك مالكا ومن ولهي أحكي عليك متمما

مصاب هوى بالنيرات من العلا ولم يبق في أرض المكارم معلما

تضيق علي الأرض حتى كأنما خلقت وإياها سواراً ومعصما

ندبتك حتى لم يخل لي الأسى دموعاً بها أبكي عليك ولا دما

وإني على رسمي مقيمٌ فإن أمت سأجعل للباكين رسمي موسما

بكاك الحيا والريح شقت جيوبها عليك، وناح الرعد باسمك معلما

ومزق ثوب البرق واكتست الضحى حداداً، وقامت أنجم الجو مأتما

وحار ابنك الإصباح وجداً فما اهتدى وغاض أخوك البحر غيضاً فما طما

وما حل بدر التم بعدك دارةً ولا أظهرت شمس الظهيرة مبسما

قضى الله أن حطوك عن ظهر أشقرٍ أشم وأن أمطوك أشأم أدهما

وكان قد انفكت عنه القيود فأشار إلى ذلك بقوله منها:

قيودك ذابت فانطلقت لقد غدت قيودك منهم بالمكارم أرحما

عجبت لأن لان الحديد وقد قسوا لقد كان منهم بالسريرة أعلما

سينجيك من نجى من الجب يوسفا ويؤويك من آوى المسيح بن مريما

وله في البكاء على أيامهم وانتثار نظامهم عدة مقاطيع وقصائد مطولات يشتمل عليها جزء لطيف صدر عنه في صورة تأليف وهيئة تصنيف سماه "نظم السلوك في وعظ الملوك". ووفد على المعتمد وهو بأغمات وفادة وفاء، لا وفادة السلوك استجداء، وحكى أنه لما عزم على الانفصال عنه بعث إليه المعتمد عشرين ديناراً وشقة بغدادية، وكتب معها:

إليك النزر من كف الأسير ... فإن تقبل يكن عين الشكور

تقبل ما يذوب له حياء ... وإن عذرته أحوال الفقير

وهي عدة أبيات، قال أبو بكر المذكور: فرددهما إليه، لعلمي بحاله وأنه لم يترك عنده شيئاً، وكتبت إليه جوابها، وهو:

سقطت من الوفاء على خبير ... فذرني والذي لك في ضمير

تركت هواك وهو شقيق نفسي ... لئن شقت برودي عن غدور

ولا كنت الطليق من الرزايا ... لئن أصبحت أجحف بالأسير

جذيمة أنت والزباء خانت ... وما أنا من يقصر عن قصير

أسير ولا أسير إلى اغتنام ... معاذ الله من سوء المصير

أنا أدري بفضلك منك، إني ... لبست الظل منه في الحرور

ومنها أيضاً قوله:

تصرف في الندى خيل المعالي ... فتسمح من قليل بالكثير

وأعجب منك أنك في ظلام ... وترفع للعفاة منار نور

رويدك سوف توسعني سروراً ... إذا عاد ارتقاؤك للسرير

وسوف تحلني رتب المعالي ... غداة تحل في تلك القصور

تزيد على ابن مروان عطاءً ... بها وأزيد ثم على جرير

تأهب أن تعود إلى طلوعٍ ... فليس الخسف ملتزم البدور

ودخل عليه يوماً بناته السجن، وكان يوم عيد، وكن يغزلن للناس بالأجرة في أغمات، حتى إن إحداهن غزلت لبيت صاحب الشرطة الذي كان في خدمة أبيها وهو في سلطانه، فرآهن في أطمار رثة وحاله سيئة، فصدعن قلبه وأنشد:

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا ... فساءك العيد في أغمات مأسورا

ترى بناتك في الأطمار جائعةً ... يغزلن للناس لا يملكن قطميرا

برزن نحوك للتسليم خاشعةً ... أبصارهن حسيراتٍ مكاسيرا

يطأن في الطين والأقدام حافيةٌ ... كأنها لم تطأ مسكاً وكافورا

ومنها أيضاً:

لا خد إلا ويشكو الجدب ظاهره ... وليس إلا مع الأنفاس مطمورا

قد كان دهرك إن تأمره ممتثلاً فردك الدهر منهياً ومأمورا

من بات بعدك في ملك يسر به فإنما بات بالأحلام مغرورا

ودخل عليه وهو في تلك الحال ولده أبو هاشم والقيود قد عضت بساقيه عض الأسود، والتوت عليه التواء الأساود السود، وهو لا يطيق إعمال قدم، ولا يريق دمعاً إلا ممتزجاً بدم، بعد ما عهد نفسه فوق منبر وسرير، وفي وسط جنة وحرير، تخفق عليه الألوية، وتشرق منه الأندية، فلما رآه بكى وعمل:

قيدي أما تعلمني مسلما أبيت أن تشفق أو ترحما

دمي شرابٌ لك، واللحم قد أكلته، لا تهشم الأعظما

يبصرني فيك أبو هاشمٍ فينثني والقلب قد هشما

ارحم طفيلاً طائشاً لبه لم يخش أن يأتيك مسترحما

وارحم أخياتٍ له مثله جزعتهن السم والعلقما

منهن من يفهم شيئاً فقد خفنا عليه للبكاء العمى

والغير لا يفهم شيئاً فما يفتح إلا لرضاعٍ فما

وكان قد اجتمع عنده جماعة من الشعراء وألحوا عليه في السؤل، وهو على تلك الحال، فأنشد:

سألوا اليسير من الأسير وإنه بسؤالهم لأحق منهم فاعجب

لولا الحياء وعزةٌ لخميةٌ طي الحشا لحكاهم في المطلب

وأشعار المعتمد وأشعار الناس فيه كثيرة، وقد جاوزنا الحد في تطويل ترجمته، وسببه أن قضيته غريبة لم يعهد مثلها، ودخل فيها حديث أبيه وجده فطالت.

وكانت ولادته في شهر ربيع الأول سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة بمدينة باجة من بلاد الأندلس، وملك بعد وفاة أبيه في التاريخ المذكور هناك، وخلع في التاريخ المقدم ذكره. وتوفي في السجن بأغمات لإحدى عشرة ليلة خلت من شوال، وقيل في ذي الحجة، سنة ثمان وثمانين وأربعمائة رحمه الله تعالى؛ ومن النادر الغريب أنه نودي في جنازته بالصلاة على الغريب، بعد عظم سلطانه وجلالة شانه، فتبارك من له البقاء والعزة والكبرياء. واجتمع عند قبره جماعة من الشعراء الذي كانوا يقصدونه بالمدائح، ويجزل لهم المنائح، فرثوه بقصائد مطولات، وأنشدوها عند قبره وبكوا عليه، فمنهم أبو بحر عبد الصمد شاعره المختص به، رثاه بقصيدة طويلة أجاد فيها، وأولها:

ملك المولك، أسامع فأنادي أم قد عدتك عن السماع عوادي

لما نقلت عن القصور ولم تكن فيها كما قد كنت في الأعياد

أقبلت في هذا الثرى لك خاضعاً وجعلت قبرك موضع الإنشاد

ولما فرغ من إنشادها قبل الثرى، ومرغ جسمه وعفر خده، فأبكى كل من حضر.

ويحكى أن رجلاً رأى في منامه إثر الكائنة عليه كأن رجلاً صعد منبر جامع قرطبة واستقبل الناس وأنشد:

رب ركبٍ قد أناخوا عيسهم في ذرى مجدهم حين بسق

سكت الدهر زماناً عنهم ثم أبكاهم دماً حين نطق

ورأى أبو بكر الداني حفيد المعتمد وهو غلام وسيم قد اتخذ الصياغة صناعة وكان يلقب في أيام دولتهم "فخر الدولة" وهو من الألقاب السلطانية عندهم، فنطر إليه وهو ينفخ الفحم بقصبة الصائغ، فقال من جملة قصيدة:

شكاتنا فيك يا فخر العلا عظمت والرزء يعظم فيمن قدره عظما

طوقت من نائبات الدهر مخنقة ضاقت عليك وكم طوقتنا نعما

وعاد طوقك في دكان قارعةٍ من بعدما كنت في قصر حكى إرما

صرفت في آلة الصواغ أنملةً لم تدر إلا الندى والسيف والقلما

يد عهدتك للتقبيل تبسطها فتستقل الثريا أن تكون فما

يا صائغاً كانت العليا تصاغ له حلياً وكان عليه الحلي منتظما

للنفخ في الصور هولٌ، ما حكاه سوى أني رأيتك فيه تنفخ الفحما

وددت إذا نظرت عيني عليك به لو أن عيني تشكو قبل ذاك عمى

ما حطك الدهر لما حط من شرفٍ ولا تحيف من أخلاقك الكرما

لح في العلا كوكباً إن لم تلح قمرا وقم بها ربوةً إن لم تقم علما

والله لو أنصفتك الشهب لانكسفت ولو وفى لك دمع العين لانسجما

أبكى حديثك حتى الدهر حيد غدا يحكيك رهطاً وألفاظاً ومبتسما

ولا حاجة إلى الزيادة على ما اودعناه هذه الترجمة.

واللورقي: بضم اللام وسكون الواو والراء وبعدها قاف، هذه النسبة إلى الورقة، وهي مدينة بالأندلس، وهذا الشاعر ذكره في "الخريدة" وقال: عاش بعد الخمسمائة طويلاً، واورد كثيراً من شعره.

وأغمات: بفتح الهمزة وسكون الغين المعجمة وفتح الميم وبعد الألف تاء مثناة من فوقها، وهي بليدة وراء مراكش، بينهما مسافة يوم، وخرج منهما جماعة مشاهيرا.

واما أبو بكر بن اللبابة المذكور فما رأيت تاريخ وفاته في شيء من الكتب ولا رأيت من يعلم ذلك، لكن رأيت في كتاب الحماسة التي صنفها أبو الحجاج يوسف البياسي المذكور بعد هذا أن ابن اللبابة قدم ميورقة في آخر شعبان سنة تسع وثمانين وأربعمائة، ومدح ملكها مبشر بن سليمان بأبيات أولها:

ملك يروعك في حلى ريعانه راقت برونقه صفات زمانه

وكنت أظن انه مات قبل المعتمد، لأني ما رأيت له فيه مرثية، إلى أن رأيت ما قاله البياسي، والله تعالى أعلم

المعتصم ابن صمادح الأندلسي

أبو يحيى محمد بن معن بن محمد بن أحمد بن صمادح، المنعوت بالمعتصم، التجيبي، صاحب المرية وبجاية والصمادحية من بلاد الأندلس.

كان جده محمد بن أحمد بن صمادح صاحب مدينة وشقة وأعمالها، وذلك في أيام المؤيد هشام بن الحكم الأموي- المذكور في ترجمة المعتمد بن عباد- فحاربه ابن عمه منذر بن يحيى التجيبي، فاستظهر عليه وعجز عن دفعه لكثرة رجاله، وترك مدينة وشقة، وفر بنفسه و لم يبق له بالبلد علقة، وكان

صاحب رأي ودهاء ولسان وعارضة لم يكن في أصحاب السيوف من يعدله في هذه الخلال في ذلك العصر.

وكان ولده معن والد المعتصم مصاهراً لعبد العزيز بن أبي عامر صاحب بلنسية، فلما قتل زهير مولى أبيه- وكان صاحب المرية- وثب عبد العزيز على المرية فملكها لكونها كانت لمولاهم، فحسده على ذلك مجاهد بن عبد الله العامري المكني أبا الجيش صاحب دانية، فخرج قاصداً بلاد عبد العزيز وهو بالمرية مشتغل في تركة زهير، فلما سمع بخروج مجاهد خرج من المرية مبادراً لاستصلاحه واستخلف بها صهره ووزيره معن بن صمادح والد المعتصم فخانه في الأمانة وغدر به، وطرده عن الإمارة، فلم يبق في ملوك الطوائف بالأندلس أحد إلا ذمه على هذه الفعلة، إلا أنه تم له الأمر واستتب.

فلما مات انتقل الملك إلى ولده المعتصم وتسمى بأسماء الخلفاء، وكان رحب الفناء، جزل العطاء، حليماً عن الدماء، طافت به الآمال، واتسع في مدحه المقال، وأعملت إلى حضرته الرحال، ولزمه جماعة من فحول الشعراء، كأبي عبد الله بن الحداد وغيره، وله أشعار حسنة، فمن ذلك ما كتبه إلى أبي بكر ابن عمار الأندلسي- المقدم ذكر- يعاتبه:

وزهدني في الناس معرفتي بهم ... وطول اختباري صاحباً بعد صاحب

فلم ترني الأيام خلاً تسرني ... بواديه إلا ساءني في العواقب

ولا صرت أرجوه لدفع ملمة ... من الدهر إلا كان إحدى النوائب

فكتب إليه ابن عمار جوابها، وهي أبيات كثيرة فلا حاجة إلى ذكرها.

ومن شعره أيضاً:

يا من بجسمي لبعده سقم ... ما منه غير الدنو يبريني

بين جفوني والنوم معترك ... تصغر عنه حروب صفين

إن كان صرف الزمان أبعدني ... عنك فطيف الخيال يدنيني

ومن هنا أنشد بهاء الدين زهير بن محمد- الكاتب المقدم ذكره - قوله من جملة قصيدة:

بين جفوني والكرى ... مذ غبت عني معترك

وله غير ذلك مقاطيع كثيرة.

ولأبي عبد الله محمد بن أحمد بن خلف بن أحمد بن عثمان بن إبراهيم المعروف بالحداد القيسي من أهل المرية في مديحه قصائد بديعة، فمن ذلك قصيدته التي أولها:

لعلي بالوادي المقدس شاطئ ... فكالعنبر الهندي ما أنا واطئ

وإني من رياك واجد ريحهم ... فروح الهوى بين الجوانح ناشئ

ولي في السرى من نارهم ومنارهم ... حدادة هداة والنجوم طوافئ

لذلك ما حنت ركابي وحمحمت ... عرابي وأوحى سيرها المتباطئ

فهل هاجها ما هاجني ولعلها ... إلى الوجد من نيران قلبي لواجئ

رويداً فذا وادي لبيني وإنه ... لورد لباناتي وإني لظامئ

ويا حبذا من آل لبنى مواطنٌ ... ويا حبذا في أرض لبنى مواطئ

ميادين تهيامي ومسرح خاطري ... فللشوق غاياتٌ بها ومبادئ
ولا تحسبوا غيداً حوتها مقاصرٌ ... فتلك قلوبٌ ضمنتها جآجئ
وفي الكلة الزرقاء مكلوء عزه ... تحف به زرق العوالي الكوالئ
محاملة السلوان مبعث حسنه ... فكل إلى دين الصبابة صابئ

ومنها أيضاً:

تمنى مدى قرطبة عفرٌ توالع ... وتهوى ضيا عينيه عينٌ جوازئ
وفي ملعب الصدغين أبيض ناصع ... تخلله للحسن أحمر قانئ
أفاتكة الألحاظ ناسكة الهوى ... ورعت ولكن لحظ عينك خاطئ
وآل الهوى جرحى ولكن دماؤهم ... دموع هوامٍ والجروح مآقئ
وكيف أعاني كلك طرفك في الحشا ... وليس لتمزيق المهند راقئ
ومن أين أرجو برء نفسي من الجوى ... وما كل ذي سقم بارئ

ويخرج من هذا إلى المدح، وهذه القصيدة طنانة طويلة.

وقصده أيضاً من شعراء الأندلس أبو القاسم الأسعد بن بليطة، وهو من فحول شعرائهم، ومدحه بقصيدته الطائية التي أولها:

برامة ريم زارني بعدما شطا ... تقنصته في الحلم بالشط فاشتطا
رعى من أناس في الحشا ثمر الهوى ... جنياً ولم يرع العرار ولا الخمطا

ومنها:

وقد ذاب كحل الليل في دمع فجره ... إلى أن تبدي الصبح كاللمة الشمطا
كأن الدجى جيش من الزنج نافر ... وقد أرسل الإصباح في إثره القبطا
كأن أنو شروان أعلاه تاجه ... وناطت عليه كف مارية القرطا
سبى حلة الطاوس حسن لباسه ... ولم يكفه حتى سبى المشية البطا

ومنها أيضاً:

توهم عطف الصدع نوناً بخدها ... فباتت بمسك الخال تنقطه نقطا
غلامية جاءت وقد جعل الدجى ... لخاتم فيها فص غالية خطا
غدت تنفع المسواك في بر ثغرها ... وقد ضمخت مسكا غدائرها المشطا

فقلت أحاجيها بما في جفونها ... وما في الشفاه اللعس من حسنها المعطى
محيرة الألحاظ من غير سكرةٍ ... متى شربت ألحاظ عينيك إسفنطا

أرى صفرة المسواك في حمرة اللمى | وشاربك المخضر بالمسك قد خطا
عسى قزح قلبه فاخاله | على الشفة اللمياء قد جاء مختطا

ومنها في المدح قوله:

كأن أبا يحيى بن معن أجادها | فعلمها من كفه الوكف والبسطا
تألف من در وشذرٍ نجاره | فجاءت به العليا على جيدها سمطا
إذا سار سار المجد تحت لوائه | فليس يحط المجد إلا إذا حطا
رفيع عماد النار في الليل للسرى | فما يخيط العشواء طارقه خبطا

ومنها أيضاً:

أقول لركب يمموا مسقط الندى | وقد جاوز الركبان من دونك السقطا
أفي المجد تبغي لابن معنٍ مناقضاً | ومن يوقد المصباح في الشمس قد أخطا

وهي قصيدة طويلة مقدار تسعين بيتاً، أحسن فيها ناظمها مع وعورة مسلك حرف رويها.

وكان المعتصم المذكور قد اختص بمؤانسة الأمير يوسف بن تاشفين عند عبوره إلى جزيرة الأندلس حسبما شرحناه في ترجمة المعتمد بن عباد المذكور قبله وأقبل عليه أكثر من بقية ملوك الطوائف، فلما تغيرت نية الأمير يوسف على المعتمد وجاهره المعتمد بالعصيان شاركه في ذلك المعتصم، ووافقه على الخروج عن طاعته وعدم الإنقياد لأمره، فلما قصد الأمير يوسف بلاد الأندلس عزم على خلعهما وقبضهما.

قال ابن بسام في "الذخيرة": وكان بين المعتصم وبين الله سريرة، أسلفت له عند الحمام يداً مشكورة، فمات وليس بينه وبين حلول الفاقرة به إلا أيام يسيرة، في سلطانه وبلده، وبين أهله وولده. حدثني من لا أرد خبره عن أروى بعض مسان حظايا أبيه قالت: إني لعنده وهو يرضى بشأنه، وقد غلب على أكثر يده ولسانه، ومعسكر أمير المسلمين – تعني يوسف بن تاشفين –يومئذ بحيث نعد خيماهم ونسمع اختلاط أصواهم إذ سمع وجبة من وجباهم، فقال: لا إله إلا الله، نعض علينا كل شيء حتى الموت! قالت أروى: فدمعت عيني، فلا أنسى طرفاً إلي يرفعه، وإنشاده لي بصوت لا أكاد أسمعه:

ترفق بدمعك لا تفنه | فبين يديك بكاء طويل

وقال محمد بن أيوب الأنصاري في كتابه الذي صنفه للسلطان الملك الناصر صلاح الدين رحمه الله تعالى في سنة ثمان وستين وخمسمائة في ترجمة المعتصم بن صمادح المذكور، بعد أن ذكر طرفاً من أخباره، وشيئاً من أشعاره، وحكى صورة حصاره، وقوله في مرضه نغض غلينا كل شيء حتى الموت: ومات – يعني المعتصم – في أثر ذلك عند طلوع الشمس يوم الخميس لثمان بقين من شهر ربيع الأول سنة أربع وثمانين وأربعمائة بالمرية، رحمه الله تعالى، ودفن في تربة له عند باب الخوخة.

وصمادح: بضم الصاد االمهملة وفتح الميم وبعد الألف دال مكسورة ثم حاء مهملة، وهو الشديد.

وبليطة: والد أبي القاسم الأسعد الشاعر المذكور، بكسر الباء الموحدة واللام المشددة وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح الطاء المهملة وبعدها هاء ساكنة، ولا أعرف معناه، وهو بلغة أعاجم الأندلس.

والتجيبي: قد تقدم الكلام عليه.

وبجاية: بفتح الباء الموحدة والجيم وبعد الألف ياء ثم هاء ساكنة، وهي مدينة بالأندلس.

والمرية قد تقدم الكلام عليها؛ والصمادحية منسوبة إلى صمادح المذكور.

ووشقة: بفتح الواو وسكون الشين المعجمة وفتح القاف وبعدها هاء ساكنة، بلدة بالأندلس أيضاً، والله أعلم.

المهدي ابن تومرت

أبو عبد الله بن محمد بن عبد الله بن تومرت، المنعوت بالمهدي الهرغي، صاحب دعوة عبد المؤمن بن علي بالمغرب- وقد تقدم في ترجمة عبد المؤمن طرف من خبره -وكان ينتسب إلى الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما؛ وجدت على ظهر كتاب النسب للشريف العابد بخط أهل الأدب من عصرنا نسب ابن تومرت المذكور فنقلته كما وجدته وهو: محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن هود بن خالد بن تمام بن عدنان بن صفوان بن سفيان بن جابر بن يحيى بن عطاء بن رباح بن يسار بن العباس بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنهما، والله أعلم.

وهو من جبل السوس في أقصى بلاد المغرب، ونشأ هناك ثم رحل إلى المشرق في شبيبته طالباً للعلم، فانتهى إلى العراق، واجتمع بأبي حامد الغزالي والكيا الهراسي والطرطوشي وغيرهم، وحج وأقام بمكة مديدة وحصل طرفاً صالحاً من علم الشريعة والحديث النبوي وأصول الفقه والدين.

وكان ورعاً ناسكاً متقشفاً مخشوشناً مخلوقاً كثير الإطراق، بساماً في وجوه الناس، مقبلاً على العبادة، لا يصحبه من متاع الدنيا إلا عصا وركوة. وكان شجاعاً فصيحاً في لسان العربي والمغربي، شديد الإنكار على الناس فيما يخالف الشرع، لا يقنع في أمر الله بغير إظهاره. وكان مطبوعاً على الالتذاذ بذلك متحللاً للأذى من الناس بسببه، وناله بمكة، شرفها الله تعالى، شيء من المكروه من أجل ذلك، فخرج منها إلى مصر وبالغ في الإنكار، فزادوا في أذاه، وطردته الدولة، وكان إذا خاف من ابطش وإيقاع الفعل به خلط في كلامه فينتسب إلى الجنون؛ فخرج من مصر إلى الإسكندرية، وركب البحر متوجهاً إلى بلاده. وكان قد رأى في منامه وهو في بلاد المشرق كأنه شرب ماء البحر جميعه كرتين، فلما ركب في الفينة شرع في تغيير المنكر على أهل السفينة، وألزمهم بإقامة الصلوات وقراءة أحزاب من القرآن العظيم، ولم يزل على ذلك حتى انتهى إلى المهدية إحدى مدن إفريقية، وكان ملكها يومئذ الأمير يحيى بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجي، وذلك في سنة خمس وخمسمائة.

هكذا وجدته في "تاريخ القيروان"، وقد تقدم في ترجمة الأمير تميم والد يحيى المذكور أن محمد بن تومرت المذكور اجتاز في أيام ولايته بإفريقية عند عودة من المشرق، وكنت وجدته كذا أيضاً والله أعلم بالصواب، ولم يرحل إلى المشرق مرتين حتى يحمل ذلك على دفعتين، فإن كان عوده في سنة خمس كما ذكرناه فهو ولاية الأمير يحيى، لأن أباه الأمير تميماً توفي سنة إحدى وخمسمائة كما تقدم في ترجمته، وغنما نبهت عليه ألا يتوهم الواقف عليه أنه فاتني ذلك، وهو متناقض.

ورأيت في تاريخ القاضي الأكرم بن القفطي وزير حلب وهو مرتب على السنين ما صورته: في هذه السنة -وكان آخر سنة إحدى عشر وخمسمائة -خرج محمد بن تومرت من مصر في زي الفقهاء بعد الطلب بها وبغيرها ووصل إلى بجاية، والله أعلم بالصواب؛ ولما وصل إلى المهدية نزل في مسجد معلق، وهو على الطريق، وجلس في طاق شارع إلى المحجة ينظر إلى المارة فلا يرى منكراً من آلة الملاهي أو أواني الخمر إلا نزل إليها وكسرها، فتسامع به الناس في البلد، فجاءوا إليه، وقرأوا عليه كتباً من أصول الدين، وبلغ خبره الأمير يحيى، فاستدعاه مع جماعة من الفقهاء، فلما رأى سمتة وسمع كلامه أكرمه وأجله وسأله الدعاء، فقال له: أصلح الله لرعيتك، ولم يقم بعد ذلك بالمهدية إلا أياماً يسيرة، ثم انتقل إلى بجاية، وأقام بها مدة وهو على حاله في الإنكار، فأخرج منها إلى بعض قررها واسمها ملالة، فوجد بها عبد المؤمن بن علي القيسي المقدم ذكره.

ورأيت في كتاب "المغرب عن سيرة ملوك المغرب" أن محمد بن تومرت كان قد اطلع من علوم أهل البيت على كتاب يسمى الجفر وأنه رأى فيه صفة رجل يظهر بالمغرب الأقصى بمكان السوس، وهو من ذرية رسول الله صلى الله عليه وسلم، يدعو إلى الله، يكون مقامه ومدفنه بموضع من المغرب يسمى باسم هجاء حروفه "ت ي ن م ل" ورأى فيه أيضاً أن استقامة ذلك الأمر واستلاءه وتمكنه يكون على يد رجل من أصحابه هجاء اسمه "ع ب، م وم ن" ويجاوز وقته المائة الخامسة للهجرة، فأوقع الله سبحانه وتعالى في نفسه أنه القائم بأول الأمر، وأن أوانه قد أزف، فما كان محمد يمر بموضع إلا سأل عنه، ولا يرى أحداً إلا أخذ اسمه وتفقد حليته، وكانت حلية عبد المؤمن معه، فبينما هو في الطريق رأى شاباً قد بلغ أشده على الصفة التي نعه. فقال له محمد وقد تجاوزه: ما اسمك يا شاب؟ فقال: عبد المؤمن، فرجع إليه وقال له: الله أكبر، أنت بغيتي، فنظر في حليته فوافقت ما عنده، فقال له: ممن أنت، فقال: من كومية، قال: أين مقصدك؟ فقال: الشرق، فقال: ما تبغي؟ قال: اطلب علماً وشرفاً، قال: وجدت علماً وشرفاً وذكراً، اصحبني تنله فوافقه على ذلك، فألقى محمد إليه أمره وأودعه سره.

وكان محمد قد صحب رجلاً يسمى عبد الله الونشريسي ففاوضه فيما عزم عليه من القيام، فوافقه على ذلك أتم موافقة، وكان الونشريسي ممن تهذب وقرأ فقهاً، وكان جميلاً فصيحاً في لغة العرب وأهل المغرب، فتحثا يوماً في كيفية الوصول إلى الأمر المطلوب، فقال محمد لعبد الله: أرى أن تستر ما أنت عليه من العلم والفصاحة عن الناس وتظهر من العجز واللكن والحصر والتعري عن الفضائل ما تشتهر به عند الناس، لنتخذ الخروج عن ذلك واكتساب العلم والفصاحة دفعة واحدة ليقوم ذلك مقام المعجزة عند حاجتنا إليه، فتصدق فيما نقوله، ففعل عبد الله ذلك.

ثم إن محمداً استدنى أشخاصاً مناهل الغرب أجلاداً في القوى الجسمانية أغماراً، وكان أميل إلى الأغمار من أولى الفطن والاستبصار، فاجتمع له منهم ستة سوى عبد الله الونشريسي، ثم إنه رحل إلى أقصى المغرب، واجتمع بعبد المؤمن بعد ذلك، وتوجهوا جميعاً إلى مراكش وملكها يومئذ أبو الحسن علي بن يوسف بن تشافين– وقد سبق ذكر والده في ترجمة المعتمد بن عباد والمعتصم بن صمادح –وكان ملكاً عظيماً حليماً عادلاً متواضعاً، وكان بحضرته رجل يقال له مالك بن وهيب الأندلسي، وكان عالماً صالحاً، فشرع محمد في الإنكار على جاري عادته، حتى أنكر على ابنة الملك، وله في ذلك قصة يطول شرحها.

وبلغ الملك خبره وانه يتحدث في تغيير الدولة، فتحدث مالك بن وهيب في أمره، وقال: نخاف من فتح باب يعسر علينا سده، والرأي أن يحضر هذا المختص وأصحابه لنسمع كلامهم بحضور جماعة من علماء البلد، فأجاب الملك إلى ذلك، وكان محمد وأصحابه مقيمين في مسجد خراب خارج البلد، فطلبوهم، فلما ضمهم المجلس قال الملك لعلماء بلده: سلوا هذا الرجل ما ينبغي منا، فانتدب له قاضي المرية واسمه محمد بن أسود فقال: ما هذا الذي يذكر عنك من الأقوال في حق الملك العادل الحليم المنقاد إلى الحق المؤثر طاعة الله تعالى على هواه، فقال له محمد: أما ما نقل عني فقد قلتها ولي من ورائه أقوال، وأما قولك إنه يؤثر طاعة الله تعالى على هواه وينقاد إلى الحق فقد حضر اعتبار صحة هذا القول عنه، ليعلم بتعريه عن هذه الصفة أنه مغرور بما تقولون له وتضرونه به، مع علمكم أن الحجة عليه متوجهة، فهل بلغك يا قاضي أن الخمرة تباع جهاراً وتمشي الخنازير بين المسلمين، وتؤخذ أموال اليتامى؟ وعدد من ذلك شيئاً كثيراً.

فلما سمع الملك كلامه ذرفت عيناه وأطرق حياء، ففهم الحاضرون من فحوى كلامه انه طامع في المملكة لنفسه، ولما رأوا سكوت الملك وانخداعه لكلامه لم يتكلم أحد منهم، فقال مالك بن وهيب، وكان كثير الاجتراء على الملك: أيها الملك، إن عندي لنصيحة إن قبلتها حمدت عاقبتها، وإن تركتها لم تأمن غائلتها، فقال الملك: ما هي؟ قال: إني خائف عليك من هذا الرجل، وأرى أنك تعتقله وأصحابه، وتنفق عليهم كل يوم ديناراً لتكتفي شره، وإن لم تفعل ذلك لتنفقن عليه خزائنك كلها، ثم لا ينفعك ذلك. فوافقه الملك على ذلك، فقال له وزيره: يقبح منك أن تبكي من موعظة هذا الرجل ثم تسيئ إليه في مجلس واحد، وأن يظهر منك الخوف منه مع عظم ملكك، وهو رجل فقير لا يملك سد جوعه، فلما سمع الملك كلامه أخذته عزة النفس واستهون أمره وصرفه، وسأله الدعاء.

وحكى صاحب كتاب "المغرب في أخبار أهل المغرب" أنه لما خرج من عند الملك لم يزل وجهه تلقاء وجهه إلى أن فارقه، فقيل له: نراك قد تأدبت مع الملك إذ لم توله ظهرك، فقال: أردت أن لا يفارق وجهي الباطل حتى أغيره ما استطعت؛ انتهى كلامه.

فلما خرج محمد وأصحابه من عند الملك قال لهم: لا مقام لنا بمراكش مع وجود مالك بن وهيب، فلما نأمن من أن يعاود الملك في أمرنا فينالنا منه مكروه، وإن لنا بمدينة أغمات أخاً في الله، فنقص المرور به فلن نعدم منه رأياً ودعاء صالحاً، واسم هذا الشخص عبد الحق بن إبراهيم، وهو من فقهاء المصامدة، فخرجوا إليه ونزلوا عليه، وأخبروا محمد خبرهم وأطلعه على مقصدهم وما جرى لهم عند الملك، فقال عبد الحق: هذا الموضع لا يحميكم، وإن أحصن الموضع المجاورة لهذا البلد تين مل، وبيننا وبينها مسافة يوم في هذا الجبل، فانقطعوا في برهة ريثما ينسى ذكركم، فلما سمع محمد بهذا الإسم تجدد له ذكر اسم الموضع الذي رآه في كتاب الجفر، فقصده مع أصحابه، فلما أتوه رآهم أهله على تلك الصورة فعلموا أنهم طلاب العلم، فقاموا إليهم وأكرموهم وتلقوهم بالترحاب وأنزلوهم في أكرم منازلهم، وسأل الملك عنه بعد خروجهم من مجلسه فقيل له: إنهم سافروا، فسره ذلك وقال: تخلصنا من الإثم بحبسهم.

ثم إن أهل الجبل تسامعوا بوصول محمد إليهم، وكان قد سار فيهم ذكره، فجاءوه من كل فج عميق وتبركوا بزيارته، وكان كل من أتاه استناه وعرض عليه ما في نفسه من الخروج على الملك، فإن أجابه أضافه إلى خواصه، وان خالفه أعرض عنه. وكان يستميل الأحداث وذوي العزة، وكان ذو العقل والعلم والحلم من أهاليهم ينهونهم ويحذرونهم من اتباعه ويخوفونهم من سطوة الملك، فكان لا يتم له مع ذلك حال. وطالت المدة وخاف محمد من مفاجأة الأجل قبل بلوغ الأمل، وخشي أن يطرأ على أهل الجبل من جهة الملك ما يحوجهم إلى تسليمه إليه والتخلي عنه، فشرع في إعمال الحيلة فيما يشاركونه فيه ليعصوا على الملك بسببه، فرأى بعض أولاد القوم شقراً زرقاً، وألوان آبائهم السمرة والكحل، فسألهم عن سبب ذلك فلم يجيبوه، فألزمهم بالإجابة فقالوا: نحن من رعية الملك وله علينا خراج، وفي كل سنة تصعد مماليكه إلينا يترلون في بيوتنا ويخرجونا عنها ويخلون بمن فيها من النساء، فتأتي الأولاد على هذه الصفة، وما لنا قدرة في دفع ذلك عنا، فقال محمد: والله إن الموت خير من هذه الحياة، وكيف رضيتم بهذا وأنتم أضرب خلق الله بالسيف وأطعنهم بالرمح والحربة؟ فقالوا: بالرغم لا بالرضا، فقال: أرأيتم لو أنا ناصراً نصركم على أعدائكم ما كنتم تصنعون؟ قالوا: كنا نقدم أنفسنا بين يديه للموت، قالوا: من هو؟ قال: ضيفكم- يعني نفسه- فقالوا: السمع الطاعة، وكانوا يغالون في تعظيمه؛ فأخذ عليهم العهود والمواثيق واطمأن قلبه، ثم قال لهم: استعدوا لحضور هؤلاء بالسلاح، فإذا جاءوكم فأجروكم على عاداهم وخلوا بينهم وبين النساء وميلوا عليهم بالخمور، فإذا سكروا فأذوني بهم، فلما حضر المماليك وفعل بهم أهل الحبل ما أشار به محمد، وكان ليلاً، فأعلموه بذلك، فأمر بقتلهم بأسرهم، فلم يمض من الليل سوى ساعة حتى أتوا على آخرهم، و لم يفلت منهم سوى مملوك واحد كان خارج المنازل لحاجة له، فسمع التكبير عليهم والوقع فهرب من غير الطريق حتى خلص من الحبل ولحق بمراكش وأخبر الملك بما جرى، فندم على فوات محمد من يده، وعلم أن الحزم كان مع ملك بن وهيب فيما أشار به، فجهز من وقته خيلاً بمقدار ما يسع وادي تين مل فإنه ضيق المسلك، وعلم محمد أنه لا بد من عسكر يخرج إليهم، فأمر أهل الجبل بالقعود على أنقاب الوادي ومراصده، واستنجد لهم بعض المجاورين، فلما وصلت الخيل إليهم أقبلت عليهم الحجارة من جانبي الوادي مثل المطر، وكان ذلك من أول النهار إلى آخره، وحال بينهم الليل، فرجع العسكر إلى الملك وأعلموه بما تم لهم، فعلم أنه لا طاقة له بأهل الجبل لتحصنهم، فأعرض عنهم.

وتحقق محمد ذلك منه، وصفت له مودة أهل الجبل، فعند ذلك استدعى الونشريسي المذكور وقال له: هذا أوان إظهار فضائلك دفعة واحدة. ليقوم لك مقام المعجزة لنستميل بك قلوب من لا يدخل في الطاعة، ثم اتفقنا على أنه يصلي الصبح ويقول بلسان فصيح بعد استعمال العجمة واللكنة في تلك المدة: إني رأيت البارحة في منامي وقد نزل بي ملكان من السماء وشقا فؤادي وغسلاه وحشياه علماً وحكمة وقرآناً، فلما أصبح فعل ذلك، وهو فصل يطول شرحه، فانقاد له كل صعب القياد، وعجبوا من حاله وحفظه القرآن في النوم، فقال له محمد فعجل لنا البشرى في أنفسنا وعرفنا أسعداء نحن أم أشقياء؟ فقال له: أما أنت فإنك المهدي القائم بأمر الله، ومن تبعك سعد ومن خالفك هلك؛ ثم قال: اعرض أصحابك علي حتى أميز أهل الجنة من أهل النار، وعمل في ذلك حيلة قتل بها من خالف أمر محمد، وأبقى من أطاعه، وشرح ذلك يطول، وكان غرضه أن لا يبقى في الجبل مخالف لمحمد، فلما قتل من قتل وعلم محمد أن في الباقين من له أهل وأقارب قتلوا وأنهم لا تطيب قلوبهم بذلك فجمعهم وبشرهم بانتقال ملك مراكش إليهم، واغتنام أموالهم، فسرهم ذلك وسلاهم عن أهلهم، وبالجملة فإن تفصيل هذه الواقعة يطول شرحه ولسنا بصدد ذلك.

وخلاصة الأمران محمداً لم يزل يجهز جيشاً عدد رجاله عشرة آلاف بين فارس وراجل، وفيهم عند المؤمن والونشريسي وأصحابه كلهم، وأقام هو بالجبل، فترل لحصار مراكش، وأقاموا عليها شهراً، ثم كسروا كسرة شنيعة، وهرب من سلم من القتل، وكان فيمن سلم عبد المؤمن، وقتل الونشريسي، وبلغ محمداً الخبر وهو بالجبل وحضرته الوفاة قبل عودة أصحابه إليه، فأوصى من حضر أن يلغ الغائبين أن النصر لهم، وأن العاقبة حميدة فلا يضجروا وليعاودوا القتال:، وأن الله سبحانه وتعالى سيفتح على أيديهم والحرب سجال، وإنكم ستقوون ويضعفون ويقلون وتكثرون، وأنتم في مبدإ أمرٍ وهم في آخره، ومثل هذه الوصايا وأشباهها، وعي وصية طويلة.

ثم إنه توفي إلى رحمه الله تعالى في سنة أربع وعشرين وخمسمائة، ودفن في الجبل، وقبره هناك مشهور يزار، وهذه السنة تسمى عندهم عام البحيرة؛

وكانت ولادته يوم عاشوراء سنة خمس وثمانين وأربعمائة، وأول ظهوره ودعائه إلى هذا الأمر سنة أربع عشرة وخمسمائة.
وكان رجلاً ربعة قضيفاً أسمر عظيم الهامة حديد النظر، وقال صاحب كتاب "المغرب في أخبار أهل المغرب" في حقه:

آثاره تنبيك عن أخباره حتى كأنك بالعيان تراه

قدم في الثرى وهمة في الثريا، ونفس ترى إراقة ماء الحياء دون إراقة ماء المحيا، أغفل المرابطون حله وربطه، حتى دب دبيب الفلق في الغسق، وترك الدنيا دوياً، انشأ دولة لو شاهدها أبو مسلم، لما كان لعزمه فيها بمسلم، وكان قوته من غزل أخت له رغيفاً في كل يوم بقليل سمن أو زيت، ولم ينتقل عن هذا حين كثرت عليه الدنيا، ورأى أصحابه يوماً وقد مالت نفوسهم إلى كثرة ما غنموه، فأمر بضم ذلك جميعه وأحرقه وقال: من كان يتبعني للدنيا فما له عندي إلا ما رأى، ومن تبعني للآخرة فجزاؤه عند الله تعالى. وكان على خمول زيه وبسط وجهه مهيباً منيع الحجاب، إلا عند مظلمة، وله رجل مختص بخدمته والإذن عليه، وكان شعر فمن ذلك قوله:

أخذت بأعضادهم إذ نأوا وخلفك القوم إذ وعوا
فكم أنت تنهى ولا تنتهي وتسمع وعظاً ولا تسمع
فيا حجر الشحذ حتى متى تسن الحديد ولا تقطع

وكان كثيراً ما ينشد:

تجرد من الدنيا فإنك إنما خرجي إلى الدنيا وأنت مجرد

وكان أيضاً يتمثل بقول المتنبي:

إذا غامرت في شرف مروم فلا تقنع بما دون النجوم
فطعم الموت في أمر حقير كطعم الموت في أمر عظيم

وبقوله أيضاً:

ومن عرف الأيام معرفتي بها وبالناس، روى رمحه غير راحم
فليس بمرحوم إذا ظفروا به ولا في الردى الجاري عليهم بآثم

وبقوله أيضاً:

وما أنا منهم بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرغام

ولم يفتح شيئاً من البلاد، وإنما قرر القواعد ومهدها، ورتب الأحوال ووطدها، وكانت الفتوحات على يد عبد المؤمن كما تقدم ذكره في ترجمته.

والهرغي: بفتح الهاء وسكون الراء وبعدها غين معجمة، هذه النسبة إلى هرغة وهي قبيلة كبيرة من المصامدة في جبل السوس في أقصى المغرب تنسب إلى الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، يقال إنها نزلت في ذلك المكان عندما فتح المسلمون البلاد على يد موسى بن نصير- الآتي ذكره إن شاء الله تعالى.
و تومرت: بضم التاء المثناة من فوقها وسكون الواو وفتح الميم وسكون الراء بعدها تاء مثناة من فوقها أيضاً، وهو اسم بربري.
و الونشريسي: بفتح الواو وسكون النون وفتح الشين المعجمة وكسر الراء وسكون الياء المثناة من تحتها وبعها سين مهملة، هذا النسبة إلى ونشريس، وهي بليدة بإفريقية من أعمال بين باجة وقسطنطينة المغرب.

وتين مل: بكسر التاء المثناة من فوقها وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها نون ثم ميم مفتوحة ولام مشددة.
وقد تقدم الكلام على الجفر فر ترجمة عبد المؤمن فليكشف من هناك؛ والله أعلم.

أبو بكر الأخشيد

أبو بكر محمد بن أبي محمد طغج- وتفسيره عبد الرحمن - ابن جف بن يلتكين بن فوران بن فوري بن خالقان، الفرغاني الأصل، صاحب سرير الذهب المنعوت بالإخشيد، صاحب مصر والشام والحجاز؛ أصله من أولاد ملوك فرغانة.

وكان المعتصم بالله بن هارون الشريد قد جلبوا إليه من فرغانة جماعة كثيرة، فوصفوا له جف وغيره بالشجاعة والتقدم في الحروب فوجه المعتصم من أحضرهم، فلما وصلوا إليه بالغ في إكرامهم وأقطعهم قطائع بسر من رأى، وقطائع جف إلى الآن معروفة هناك ولم يزل مقمياً بها، وجاءته الأولاد، وتوفي جف ببغداد في الليلة التي قتل فيها المتوكل، وكانت ليلة الأربعاء لثلاث خلون من شوال سنة سبع وأربعين ومائتين.

فخرج أولاده إلى البلاد يتصرفون ويطلبون لهم معايش، فاتصل طغج بن جف بلؤلؤ غلام ابن طولون وهو إذ ذاك مقيم بديار مصر، فاستخدمه على ديار مصر، ثم انحاز طغج إلى جملة أصحاب إسحاق بن كنداج، فلم يزل معه إلى أن مات أحمد بن طولون، وجرى الصلح بين ولده أبي الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون- المقدم ذكره -وبين إسحاق بن كنداج، ونظر أبو الجيش إلى طغج بن جف في جملة أصحاب إسحاق فأعجب به وأخذه من إسحاق وقدمه على جميع من معه، وقلده دمشق وطبرية، ولم يزل معه إلى أن قتل أبو الجيش- في تاريخه المقدم ذكره - فرجع طغج إلى الخليفة المكتفي بالله، فخلع عليه وعرف له ذلك، وكان وزير الخليفة يومئذ العباس بن الحسن، فسام طغج أن يجري في التذلل له مجرى غيره، فكبرت نفس طغج عن ذلك، فأغرى به المكتفي، فقبض عليه وحبسه وابنه أبا بكر محمد بن طغج المذكور، فتوفي طغج في السجن.

وبقي له ولده أبو بكر بعده محبوساً مدة، ثم أطلق وخلع عليه، ولم يزل يراصد العباس بن الحسن الوزير المذكور حتى أخذ بثأر أبيه هو وأخوه عبيد الله في الوقت الذي قتله فيه الحسين بن حمدلن. ثم خرج أبو بكر وأخوه عبيد الله في سنة ست وتسعين ومائتين، وهرب عبيد الله إلى ابن أبي الساج، وهرب أبو بكر على الشام، وأقام متغرباً في البادية سنة، ثم اتصل بأبي منصور تكين الخرزي، فكان أكبر أركانه.

ومما كبر به اسمه سريته إلى التنقيب على الجمع الذين تجمعوا على الحجاج لقطع الطريق عليهم، وذلك سنة ست وثلثمائة، وهو يومئذ يتقلد عمان وجبال الشراة من قبل تكين المذكور، وظفره بهم، ومجيء الحاج وقد فرغ من أمرهم بأسر من أسره وقتل من قتله وشرد الباقين. وكان قد حج في هذه السنة من دار الخليفة المقتدر بالله امرأة تعرف بعجوز، فحدثت المقتدر بالله بما شاهدت منه، فانفذ إليه خلعاً وزيادة في رزقه.

ولم يزل أبو بكر في صحبة تكين إلى سنة ست عشرة وثلثمائة، ثم فارقه بسبب اقتضى ذلك ولا حاجة بنا إلى التطويل بذكره، وسار إلى الرملة فوردت كتب المقتدر إليه بولاية الرملة، فأقام بها إلى سنة ثماني عشرة، فوردت كتب المقتدر إليه بولاية دمشق فسار إليها، ولم يزل بها إلى أن ولاه القاهرة بالله ولاية مصر في شهر رمضان سنة إحدى وعشرين وثلثمائة، ودعي له بها مدة اثنتين وثلاثين يوماً ولم يدخلها، ثم ولي أبو العباس أحمد بن كيغلغ الولاية الثانية من قبل القاهرة أيضاً لتسع خلون من شوال سنة إحدى وعشرين وثلثمائة، ثم أعيد إليها أبو بكر بن محمد بن الإخشيد من جهة الخليفة الراضي بالله بن المقتدر بعد خلع عمه القاهر عن الخلافة، وضم إليه البلاد الشامية والجزرية والحرمين وغير ذلك، ودخل مصر يوم الأربعاء لسبع بقين من شهر رمضان المعظم سنة ثلاث وعشرين وثلثمائة وقيل إنه لم يزل على مصر فقط إلى أن توفي الراضي بالله في سنة تسع وعشرين وثلثمائة، وتولى أخوه المقتفي لأمر الله فضم إليه الشام والحجاز وغير ذلك، والله أعلم.

ثم إن الراضي لقبه بالإخشيد في شهر رمضان المعظم سنة سبع وعشرين وثلثمائة إنما لقبه بذلك لأنه لقب ملوك فرغانة، وهو من أولادهم- كما سبق ذكره في أول هذه الترجمة -وتفسيره بالعربي ملك الملوك، وكل من ملك تلك الناحية لقبوا بهذا اللقب، كما لقبوا كل من ملك بلاد فارس كسر، وملك الترك خاقان، وملك الروم قيصر، وملك الشام هرقل، وملك اليمن تبع، ملك الحبشة النجاشي، وغير ذلك. وقيصر كلمة فرنجية تفسيرها بالعربية شق عنه وسببه أن أمه ماتت في المخاض فشق بطنها وأخرج، فسمي قيصر، وكان يفتخر بذلك على غيره من الملوك، لأنه لم يخرج من الرحم، واسمه أغسطس، وهو أول ملوك الروم، وقد قيل إنه في السنة الثالثة والربعين من ملكه ولد المسيح عيسى عليه السلام وقيل في السنة السابعة عشرة من

ملكه، فسموا ملوك الروم بإسمه، والله أعلم.

ودعي له إخشيد على المنابر بهذا اللقب واشتهر به وصار كالعلم عليه؛ وكان ملكاً حازماً كثير التيقظ في حروبه ومصالح دولته، حسن التدبير، مكرماً للجنود شديد القوى لا يكاد يجر قوسه غيره؛ وذكر محمد بن عبد الملك الهمذاني في تاريخه الصغير الذي سماه "عيون السير" إن جيشه كان يحتوي على أربعمائة ألف رجل، وأنه كان جباناً، وكان له ثمانية آلاف يحرسه في كل ليلة ألفان منهم، ويوكل بجانب خيمته الخدم إذا سافر، ثم لا يثق حتى يمضي إلى خيم الفراشين فينام فيها.

و لم يزل على مملكته وسعادته إلى أن توفي في الساعة الرابعة من يوم الجمعة لثمان بقين من ذي الحجة سنة أربع وثلاثين وثلثمائة بدمشق، وحمل تابوته إلى بيت المقدس فدفن به؛ وقال أبو الحسين الرازي: توفي في سنة خمس وثلاثين، والله أعلم؛ وكانت ولادته يوم الإثنين منتصف شهر رجب من سنة ثمان وستين ومائتين ببغداد، بشارع باب الكوفة، رحمه الله تعالى.

وهو أستاذ كافور الإخشيدي وفاتك الجنون– وقد تقدم ذكر كل واحد منهما في ترجمة مستقلة في هذا الكتاب.

ثم قام كافور المذكور بتربية ابني مخدومه أحسن قيام، وهما أبو القاسم أنوجور وأبو الحسن علي، كما تقدم شرحه في ترجمة كافور فأغنى عن إعادته هاهنا، فقد ذكرت هناك تاريخ مولد كل واحد منهما، ومدة ولايته وتاريخ وفاته، على سبيل الاختصار، واستوفيت حديث كافور وما كان منه إلى حين وفاته، وأن الجند أقاموا بعده أبا الفوارس أحمد بن علي بن الإخشيد المذكور، وأحلت بقية الكلام في ذلك على ذكره في هذه الترجمة؛ وكان عمر أبي الفوارس أحمد يوم ذاك إحدى عشرة سنة.

وجعلوا خليفته في تدبير أموره أبا محمد الحسن بن عبيد الله بن طغج بن جف، وهو ابن عم أبيه، وكان صاحب الرملة من بلاد الشام، وهو الذي مدحه المتنبي بقصيدته التي أولها:

أنا لائمي إن كنت وقت الوائم ... علمت بما بي بين تلك المعالم

وقال في مخلصها:

إذا صليت لم أترك مصالا لفاتكٍ ... وغن قلت لم أترك مقالا لعالم.

وإلا فخانتني القوافي وعاقني ... عن ابن عبيد الله ضعف العزائم

وما أحسن قولها فيها:

أرى دن ما بين الفرات وبرقة ... ضراباً ينشي الخيل فوق الجماجم

وطعن غطاريف كأن أكفهم ... عرفن الردينيات قبل المعاصم

حمته على الأعداء من كل جانب ... سيوف بني طغج بن جف القاقم

هم المحسنون الكر في حومة الوغي ... وأحسن منه كرهم في المكارم

وهو يحسنون العفو عن كل مذنب ... ويحتملون الغرم عن كل غارم

حييون إلا أنهم في نزالهم ... أقل حياء من شفار الصوارم

ولولا احتقار الأسد شبهتها بهم ... ولكنها معدومة في البهائم

ومنها:

كريم نقضت الناس لما بلغته ... كانهم ما جف من زاد قادم

وكاد سروري لا يفي بندامتي على تركه في عمري المتقادم

وهي قصيدة طويلة من غرر القصائد.

ولما تقرر الأمر على هذه القاعدة تزوج الحسن بين عبيد الله ابنة عمه الإخشيد، دعوا له على المنابر بعد أبي الفوارس احمد بن علي وهو بالشام، واستمر الحال على ذلك إلى يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من شعبان من سنة ثمان وخمسين وثلثمائة، ودخل إلى مصر رايات المغاربة الواصلين صحبة القائد جوهر المغربي – المقدم ذكره – وانقرضت الدولة الإخشيدية، وكانت مدتها أربعاً وثلاثين سنة وعشرة أشهر وأربعة وعشرين يوماً.

وكان قد قدم ابن عبيد الله من الشام منهزماً من القرامطة لما استولوا على الشام ودخل على ابنة عمه التي تزوجها وحكم وتصرف، وقبض على الوزير جعفر بن الفرات وصارده وعذبه، ثم سار إلى الشام في مستهل شهر بيع الآخر من سنة ثمانين وخمسين وثلثمائة. ولما سير القائد جوهر المغربي جعفر بن فلاح إلى الشام، وملك البلاد حسبما شرحته في ترجمته، أسر جعفر بن فلاح أبا محمد بن عبد الله، وسيره إلى مصر مع جماعة من امراء الشام إلى القائد جوهر، ودخلوا مصر في جمادى الأولى سنة تسع وخمسن، وكان ابن عبيد الله قد أساء إلى أهل مصر في مدة ولايته عليهم فلما ولصوا إلى مصر تركوهم وقوفاً مشهورين مقدار سبع ساعات، والناس ينظرون إليهم، وشمت بهم من في نفسه منهم شيء، ثم أنزلوا في مضرب القائد جوهر وجعلوا مع المعتقلين. وفي السابع عشر من جمادى الأولى أرسل القائد جوهر ولده جعفراً إلى مولاه المعز، ومعه هدايا عظيمة تجل عن الوصف، وأرسل معه المأسورين الواصلين من الشام، وفيهم ابن عبيد الله، وحملوا في مركب بالنيل، وجوهر واقف ينظر إليهم، فانقلب المركب، فصاح ابن عبيد الله على القائد جوهر: يا أبا الحسن، أتريد أن تغرقنا؟ فاعتذر إليه وأظهر التوجع له: ثم نقوا إلى مركب آخر، وكانوا مقيدين، فلم أقف لهم بعد على خير، والله أعلم.

ثم وجدت بعدها في تاريخ العتقي أن الحسن المذكور توفي ليلة الجمعة لعشر بقين من شهر رجب سنة إحدى وسبعين وثلثمائة، وصلى عليه العزيز نزار بن المعز المذكور في القصر بالقاهرة.

وذكر الفرغاني في تاريخه أن ولادة الحسن المذكور في سنة اثنتي عشرة وثلثمائة، وأنه توفي في التاريخ المذكور، وان أبا الفوارس أحمد بن علي المذكور توفي لثلاث عشرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة سبع وسبعين وثلثمائة، والله أعلم.

والإخشيد: بكسر الهمزة وسكون الخاء المعجمة وكسر الشين المعجمة وبعدها ياء ساكنة مثناة من تحتها ثم دال مهملة – وقد تقدم الكلام على تفسير هذه الكلمة.

وطغج: بضم الطاء المهملة وسكون الغين المعجمة وبعدها جيم.

وجف: بضم الجيم وفتحها وبعدها فاء مشددة.

ويلتكين: بفتح الياء الثناة من تحتها سكون اللام وكسر التاء المثناة من فوقها وبعدها كاف مكسورة ثم ياء مثناة من تحتها نون.

وفوران بضم الفاء، وفوري بضم الفاء.

وأما تكين المذكور فإنه ولي مصر ثلاث مرات، وتوفي بها في المرة الثالثة يوم السبت لست عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول سنة إحدى وعشرين وثلثمائة وتولاهما بعده أبو بكر الإخشيد كما تقدم ذكره.

وأما أحمد بن كيغلغ فقد ذكره الحافظ ابن عساكر في "تاريخ دمشق" في ترجمة مستقلة وذكر ولايته مصر وقال: وجرت بينه وبين محمد بن تكين الخاصة حروب إلى أن خلص الأمر له، ثم قدم محمد بن طغج أميراً على مصر من قبل الراضي فسلم إليه مصر، وكان أحمد أديباً شاعراً، ومن شعره:

لا يكن للكأس في كف ك يوم الغيث لبث

أوما تعلم أن ال غيث ساق مستحث

ومن شعره أيضاً:

واعطشا إلى فم يمج خمراً من برد

إن قسم الناس فحس بي بك من كل أحد

ثم قال: ومات أخوه إبراهيم بن كيغلغ في مستهل ذي القعدة سنة ثلاث وثلثمائة.

وابنه إسحاق بن إبراهيم هو الذي كان بطرابلس، وعاق بها أبا الطيب المتنبي لما قدمها من الرملة يريد أنطاكية ليمدحه فلم يفعل، وهجاه بقصيدته التي أولها:

لهوى القلوب سريرة لا تعلم عرضاً نظرت وخلت أني أسلم

ثم راح من عنده فبلغه موته بجبلة فقال:

قالوا لنا مات إسحاق فقلت لهم هذا الدواء الذي يشفي من الحمق

وهذه القصيدة والتي قبلها موجودتان في ديوانه، فلذلك تركنا ذكرهما، وله فيه أيضاً غير ذلك من الهجاء، تجاوز الله عنا وعنهم أجمعين.

طغرلبك

أبو طالب محمد بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق الملقب ركن الدين طغرلبك أول ملوك السلاجقة؛ كان هؤلاء القوم قبل استيلائهم على المماليك يسكنون فيما وراء النهر في موضع بينه وبين بخارى مسافة عشرين فرسخاً، وهم اتراك، وكانوا عدداً يجل عن الحصر والإحصاء، وكانوا لا يدخلون تحت طاعة سلطان، وإذا قصدهم جمع لا طاقة لهم به دخلوا المفاوز وتحصنوا بالرمال فلا يصل إليهم أحد، فلما عبر السلطان محمود بن سبكتكين إلى ما وراء النهر– وكان سلطان خراسان وغزنة وتلك النواحي وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى – وجد زعيم بني سلجوق قوي الشوكة كثير العدة، يتصرف في أمره على المخاتلة والمراوغة وينتقل من أرض إلى غيرها ويغير في أثناء ذلك على تلك البلاد، فاستماله وجذبه، و لم يزل يخدعه حتى أقدمه إليه، فأمسكه وحمله إلى بعض القلاع واعتقله، وخرج في إعمال الحيلة في تدبير أمر أصحابه، واستشار أعيان دولته في شأنهم، فمنهم من أشار بإغراقهم في نهر جيحون؛ وأشار آخرون بقطع إبهام كل رجل منهم ليعتذر عليهم الرمي والعمل بالسلاح، واختلفت الآراء في ذلك، وآخر ما وقع الاتفاق عليه أن يعبر بهم جيحون إلى أرض خراسان ويفرقهم في النواحي، ويضع عليهم الخراج، ففعل ذلك، فدخلوا في الطاعة واستقاموا، وأقاموا على تلك الحالة مدة، فطمع فيهم العمال وظلموهم وامتدت إليهم أيدي الناس وتهضموا جانبهم وأخذوا من أموالهم ومواشيهم، فانفصل منهم ألفا بيت، ومضوا إلى بلاد كرمان، وملكها يومئذ الأمير أبو الفوارس ابن بهاء الدولة عضد الدولة بن بويه، فأقبل عليهم وخلع على وجوههم، وعزم على استخدامهم فلم يستتموا عشرة أيام حتى مات أبو الفوارس، وخافوا من الديلم، وهم أهل ذلك الإقليم، فبادروا إلى قصد أصبهان ونزلوا بظاهرها، وصاحبها علاء الدولة أبو جعفر بن كاكويه، فرغب في استخدامهم، فكتب إليه السلطان محمود يأمره بالإيقاع بهم ونهبهم، فتواقعوا وقتل من الطائفتين جماعة، وقصد الباقون أذربيجان وانحاز الذين بخراسان إلى جبل قريب من خوارزم، فجرد السلطان محمود جيشاً وأرسله في طلبهم، فتتبعوهم في تلك المفاوز مقدار سنتين، ثم قصدهم محمود بنفسه و لم يزل في أثرهم حتى شردهم وشتتهم.

ثم توفي محمود عقيب ذلك– في التاريخ الآتي ذكره في ترجمته إن شاء الله تعالى – وقام بالأمر بعده ولده مسعود، فاحتاج إلى الاستظهار بالجيوش، فكتب إلى الطائفة التي بأذربيجان لتتوجه إليه، فجاءه منهم ألف فارس، فاستخدمهم ومضى بهم إلى خراسان، فسألوه في أمر الباقين الذي شتتهم والده محمود، فراسلهم وشرد عليه لزوم الطاعة، فأجابوه إلى ذلك وأمنهم، وحضروا إليه ورتبهم على ما كان والده قد رتبهم أولاً، ثم دخل مسعود بلاد الهند لاضطراب أحوالها عليه، فخلت لهم البلاد وعادوا إلى الفساد، وبالجملة فإن الشرح في هذا يطول.

وجرى هذا كله والسلطان طغرلبك المذكور واخوه داود ليسا معهم، بل كانا في موضعهم من نواحي ما وراء النهر، وجرت بينهما وبين ملكشاه صاحب بخارى وقعة عظيمة قتل فيها خلق كثير من أصحابهما، ودعت حاجتهما إلى اللحاق بأصحابهما الذي بخراسان فكاتبوا مسعوداً وسألوه الأمان والاستخدام، فحبس الرسل وجرد جيوشاً لمواقعة من بخراسان منهم، فكانت مقتلة عظيمة، ثم إنهم اعتذوروا إلى مسعود وبذلوا له الطاعة وضمنوا له

أخذ خوارزم من صاحبها، فطيب قلوبهم وأفرج عن الرسل الواصلين من جهة ما وراء النهر وسألوه أن يفرج عن زعيمهم الذي اعتقله أبوه محمود في أول الأمر، فأجابهم إلى سؤالهم وأنزله من تلك القلعة، وحمل إلى بلخ مقيداً فاستأذن مسعوداً في مراسلة ابني أخيه طغرلبك وداود– المقدم ذكرهما – فأذن له، فراسلهما. وحاصل الأمر أنهما وصلا إلى خراسان ومعهما أيضاً جيش كبير، فاجتمع الجميع، وجرت لهم مع ولاة خراسان ونواب مسعود في البلاد أسباب يطول شرحها.

وخلاصة الأمر انهم استظهروا عليهم وظفروا بهم، وأول شيء ملكوه من البلاد طوس، وقيل الري، وكان تملكهم في سنة تسع وعشرين وأربعمائة، ثم بعد ذلك بقليل ملكوا نيسابور، إحدى قواعد خراسان، في شهر رمضان في السنة المذكورة، وكان السلطان طغرلبك المذكور كبيرهم، وإليه الأمر والنهي في السلطنة، وأخذ أخوه داود المذكور مدينة بلخ، وهو والد ألب أرسلان – الآتي ذكره إن شاء الله تعالى – واتسع لهم الملك واقتسموا البلاد، وانحاز مسعود إلى غزنة وتلك النواحي، وكانوا يخطبون له في أول الأمر، وعظم شأنهم إلى أن أرسلهم الإمام القائم بأمر الله، وكان الرسول الذي أرسلهم إليهم القاضي أبا الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي، مصنف "الحاوي" في الفقه– وقد تقدم ذكره – ثم ملك بغداد والعراق، في سادس عشر شهر رمضان المعظم، سنة سبع وأربعين وأربعمائة، وأوصاهم بتقوى الله تعالى والعدل في الرعية والرفق بهم وبث الإحسان إلى الناس.

وكان طغرلبك حليماً كريماً محافظاً على الصلوات الخمس في أوقاتها جماعة، وكان يصوم الإثنين والخميس ويكثر من الصدقات ويبني المساجد، ويقول: أستحي من الله سبحانه وتعالى أن أبني لي داراً ولا أبني إلى جانبها مسجداً. ومن محاسنه المسطورة أنه سير الشريف ناصر بن إسماعيل رسولاً إلى ملكة الروم، وكانت إذا ذاك امرأة كافرة، فاستأذنها الشريف في الصلاة بجامع القسطنطينية جماعة يوم الجمعة، فأذنت له في ذلك، فصلى وخطب للإمام القائم، وكان رسول المستنصر العبيدي صاحب مصر حاضراً فأنكر ذلك، وكان من أكبر الأسباب في فساد الحال بين المصريين والروم.

ولما تمهدت له البلاد وملك العراق وبغداد، سير إلى الإمام القائم وخطب ابنته، فشق على القائم ذلك واستعفى منه، وترددت الرسل بينهما، ذكر ذلك في "الشذور" سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة، فلم يجد من ذلك بداً فزوجه بها، وعقد العقد بظاهر مدينة تبريز، ثم توجه إلى بغداد في سنة خمس وخمسين وأربعمائة، ولما دخلها سير طلب الزفاف وحمل مائة ألف دينار برسم حمل القماش ونقله، فزفت إليه ليلة الإثنين خامس عشر صفر بدار المملكة، وجلست على سرير ملبس بالذهب، ودخل إليها السلطان فقبل الأرض بين يديها و لم يكشف البرقع عن وجهها في ذلك الوقت، وقدم لها تحفاً يقصر الوصف عن ضبطها، وقبل الأرض وخدم وتنصرف وظهر عليه سرور عظيم.

وبالجملة فأخبار الدولة السلجوقية كثيرة، وقد اعتنى بها جماعة من المؤرخين وألفوا فيها تآليف اشتملت على تفاصيل أمرهم، وما قصدت من الإتيان بهذه النبة إلا التنبيه على مبدإ حالهم، ليكشف جلية ذلك من يروم الوقوف عليه. وتوفي طغرلبك المذكور يوم الجمعة ثامن شهر رمضان المعظم سنة خمس وخمسين وأربعمائة بالري، وعمره سبعون سنة، ونقل إلى مرو ودفن عند قبر أخيه داود– وسيأتي ذكره في ترجمة ولده ألب أرسلان، إن شاء الله تعالى– وقال ابن الهمذاني في تاريخه، إنه دفن بالري في تربة هناك، وكذا قال السمعاني في "الذيل"، في ترجمة السلطان سنجر المقدم ذكره.

وحكى وزيره محمد بن منصور الكندري– الآتي ذكره – عنه انه قال: رأيت وأنا بخراسان في المنام كأنني رفعت إلى السماء، وأنا في ضباب لا أبصر معه شيئاً غير أني أشم رائحة طيبة، وإذا بمناد ينادي: أنت قريب من الباري جلت قدرته، فاسأل حاجتك لتقضى، فقلت في نفسي أسأل طول العمر، فقيل لك سبعون سنة، فقلت: يا رب لا تكفيني، فقيل لك سبعون سنة، فقلت: لا تكفيني، فقيل لك سبعون سنة، ذكر هذا شيخنا ابن الأثير في تاريخه.

ولما حضرته الوفاة قال: إنما مثلي مثل شاة تشد قوائهما لجز الصوف، فتظن أنها تذبح فتضطرب، حتى إذا أطلقت تفرح، ثم تشد للذبح فتظن أنه لجز الصوف فتسمن فتذبح، وهذا المرض الذي أنا فيه هو أشد القوائم للذبح، فمات منه، رحمه الله تعالى؛ و لم تقم بنت الإمام القائم في صحبته إلا مقدار ستة أشهر. و لم يخلف ولداً ذكراً، فانتقل ملكه إلى ابن أخيه ألب أرسلان حسبما شرح في ترجمته. وماتت زوجته ابنة القائم في سنة ست وتسعين وأربعمائة، في سادس المحرم.

وطغرلبك: بضم الطاء المهملة وسكون الغين المعجمة وضم الراء وسكون اللام وفتح الباء الموحدة وبعدها كاف، وهو اسم علم تركي مركب من

طغرل وهو اسم علم بلغة الترك لطائر معروف عندهم، وبه سمي الرجل، وبك معناه الأمير.
وسلجوق: بفتح السين المهملة وسكون اللام وضم الجيم وسكون الواو وبعدها قاف.
ودقاق: بضم الدال المهملة وبين القافين ألف ساكنة.
وجيحون: بفتح الجيم وسكون الياء المثناة من تحتها وضم الحاء المهملة وسكون الواو وبعدها نون، وه النهر العظيم الفاصل ما بين خوارزم وبلاد خراسان وبين بخارى وسمرقند وتلك البلاد، فكل ما كان من تلك الناحية فهو ما وراء النهر، والمراد بالنهر هم النهر المذكور، وهو أحد انهار الجنة الذي جاء ذكره في الحديث أنه يخرج منها أربعة أنهار: نهران ظاهران ونهران باطنان، فالظاهران: النيل والفرات، والباطنيان: سيحون وجيحون.
وسيحون: بفتح السين المهملة وسكون الياء المثناة من تحتها وضم الحاء المهملة وسكون الواو وبعدها نون، وهو وراء جيحون فيما يلي بلاد الترك، وبينهما مسافة خمسة وعشرين يوماً، وهذان النهران مع عظمهما وسعة عرضهما يجمدان في زمن الشتاء، وتعبر القوافل عليهما بدوابهما وأثقالهما ويقيمان كذلك مقدار ثلاثة أشهر.
وهذا كله وإن كان خارجاً عن مقصودنا لكنه متعلق بما نحن فيه، فانتشر الكلام، وما يخلو من فائدة يقف عليها من كان يتوقعها ممن بعدت بلاده ولا يعرف صورة الحال.

ألب أرسلان

أبو شجاع محمد بن جعفري بك داود بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق، الملقب عضد الدولة ألب أرسلان، وهو ابن أخي السلطان طغرلبك – المقدم ذكره – وقد تقدم في ترجمة طغرلبك طرف من أخبار والده داود المذكور.
ولما مات السلطان طغرلبك – في التاريخ المذكور في ترجمته – نص على تولية المر لسليمان بن داود أخي ألب أرسلان المذكور، و لم ينص عليه إلا لأن أمه كانت عنده فتبع هواها في ولدها، فقام سليمان بالأمر وثار عليه أخوه ألب أرسلان وعمه شهاب الدولة قتلمش، وجرت بينهم خطوب فلم يتم لسليمان الأمر، وكانت النصرة لأخيه ألب أرسلان.
فاستولى على الممالك، وعظمت مملكته ورهبت سطوته، وفتح من البلاد ما لم يكن لعمه طغرلبك مع سعة ملكك عمه، وقصد بلاد الشام فانتهى إلى مدينة حلب وصاحبها يومئذ محمود بن نصر بن صالح بن مرداس الكلابي، فحاصره مدة ثم جرت المصالحة بينهما، فقال ألب أرسلان: لا بد من دوس بساطي، فخرج إليه محمود ليلاً ومعه أمه، فتلقاهما بالجميل وخلع عليهما وأعادهما إلى البلد ورحل عنها.

وقال المأموني في تاريخه: قيل إنه لم يعبر الفرات في قديم الزمان ولا حديثه في الإسلام ملك تركي قبل ألب أرسلان، فإنه أول من عبرها من ملوك الترك. ولما عاد عزم على قصد بلاد الترك، وقد كمل عسكره مائتي ألف فارس أو يزيدون، فمد عللا جيحون– النهر المقدم ذكره – جسراً وأقام العسكر يعبر عليه شهراً، وعبر هو بنفسه أيضاً، ود السماط في بليدة يقال لها "فربر" ولتلك البليدة حصن على شاطئ جيحون، في السادس من شهر ربيع الأول، سنة خمس وستين وأربعمائة، فأحضر إليه أصحابه مستحفظ الحص، ويقال له يوسف الخوارزمي، وكان قد ارتكب جريمة في أمر الحصن، فحمل إليه مقيداً، فلما قرب منه أمر أن تضرب أربعة أوتاد لتشد أطرافه الأربعة إليها ويعذبه ثم يقتله، فقال يوسف المذكور: ومثلي يفعل به هذه المثلة؟ فغضب ألب أرسلان وأخذ قوسه وجعل فيها سهماً، وأمر بحل قيده ورماه فأخطأه وكان مدلاً برميه، وكان جالساً على سريره، فترل عنه فعثر ووقع على وجهه، فبادر يوسف المذكور وضربه بسكين كانت معه في خاصرته، فوثب عليه فراش أرمني فضربه في رأسه بمزربة فقتله، فانتقل ألب أرسلان إلى خيمة أخرى مجروحاً، فأحضر وزيره نظام الملك أبا علي الحسن– المذكور في حرف الحاء – وأوصى به إليه، وجعل ولده ملك شاه ولي عهده– وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى.
ثم توفي يوم السبت عاشر الشهر المذكور، وكانت ولادته سنة أربع وعشرين وأربعمائة، وكانت مدة ملكه تسع سنين وأشهراً، ونقل إلى مرو ودفن عند قبر أبيه داود وعمه طغرلبك، و لم يدخل بغداد ولا رآها، مع أنها كانت داخلة في ملكه، وهو الذي بنى على قبر الإمام أبي حنيفة مشهداً، ووبنى ببغداد مدرسة أنفق عليها أمولاً عظيمة؛ وذكر في كتاب "زبدة التواريخ" أنه جرح يوم السبت، سلخ شهر ربيع الأول سنة خمس وستين، وعاش بعد

الجراحة ثلاثة أيام، والله أعلم.

وقد تقدم ذكر أبيه، وانه كان صاحب بلخ، وتوفي بها في رجب سنة إحدى وخمسين، وقيل سنة خمسين وأربعمائة، ونقل إلى مرو ودفن بها، وقيل إنه توفي بمرو، والله أعلم بالصواب، وقيل توفي في صفر سنة اثنتين وخمسين وأربعمائة، ودفن بمدرسة مرو، رحمه الله تعالى.

وقد تقدم ذكر ولده تتش في حرف التاء.

وألب أرسلان: بفتح الهمزة وسكون اللام وبعدها ياء موحدة، وبقية الاسم معروفة فلا حاجة إلى تفسيرها، وهو اسم تركي معناه شجاع أسد، فألب شجاع، وأرسلان أسد.

وأما شهاب الدولة قتلمش بن إسرائيل بن سلجوق، فإنه والد سليمان ابن قتلمش جد الملوك أصحاب الروم إلى الآن، وكان له حصون وقلاع من جملتها كردوكه وغيرها من عراق العجم، وعصى على ابن أخيه ألب أرسلان المذكور وحاربه بالقرب من الري، فلما انجلى الأمر وجد قتلمش ميتاً لا يدري كيف كان موته، وذلك في المحرم من سنة ست وخمسين وأربعمائة، قيل إنه مات من الخوف، فشق ذلك على ألب أرسلان، والله تعالى أعلم بالصواب.

محمد بن ملكشاه السلجوقي

أبو شجاع محمد بن ملك شاه بن ألب أرسلان المذكور قبله، الملقب غياث الدين، وقد تقدم في ترجمة جده تتمة نسبه فلا حاجة إلى الإعادة.

ولما توفي والده ملكشاه اقتسم مملكته أولاده الثلاثة وهو بركياروق وسنجر– وقد تقدم ذكرهما –ومحمد المذكور، ولم يكن لمحمد وسنجر، وهما من أم واحدة، وجود بركياروق حديث، لأنه كان السلطان المشار إليه، وهما كالأتباع له، ثم اختلف محمد وبركياروق، فدخل محمد المذكور وأخوه سنجر إلى بغداد، وخلع عليهما الإمام المستظهر بالله، وكان محمد قد التمس من أمير المؤمنين أن يجلس له ولأخيه سنجر، فأجيب إلى ذلك، وجلس لهما في قبة التاج وحضر أرباب المناصب وأتباعهم وجلس أمير المؤمنين على سدته، ووقف سيف الدولة صدقة بن مزيد صاحب الحلة عن يمين السدة، وعلى كتفه بردة النبي صلى الله عليه وسلم، وعلى رأسه العمامة وبين يديه القضيب، وأفيض على محمد الخلع السبع التي جرت عادة السلاطين بها، وأبس الطوق والتاج والسوارين، وعقد له الخليفة اللواء بيده وقلده سيفين، وأعطاه خمسة أفراس بمراكبها، وخلع على أخيه سنجر خلعة أمثاله، وخطب لمحمد بالسلطنة في جامع بغداد كجاري عادتهم في ذلك الزمان وتركوا الخطبة لبركياروق لسبب اقتضى ذلك، ولا حاجة لشرحه لطوله، قال محمد بن عبد الملك الهمداني في تاريخه: وكان ذلك في سنة خمس وتسعين وأربعمائة، وقال صاحب تاريخ السلجوقية: أقيمت الخطبة ببغداد للسلطان محمد في سابع عشر ذي الحجة من سنة اثنتين وتسعين واربعمائة، ووافقه على ذلك غيره؛ ثم قال الهمداني: وكان من الاتفاق العجيب أن خطيب جامع القصر ببغداد لما بلغ إلى الدعاء للسلطان بركياروق، وأراد أن يذكره، سبق لسانه للسلطان محمد ودعا له، فأتى أصحاب بركياروق وشنعوا بما جرى في الديوان العزيز، فعزل الخطيب لهذا السبب ورتبوا ولده موضعه، فلم تتأخر خطبة السلطان محمد عن هذه الواقعة إلا أياماً قلائل، وكان ذلك فألاً للسلطان محمد، وأما بركياروق فإنه كان مريضاً وانحدر إلى واسط، ثم قوي أمره واستظهر، وجرى بينه وبين أخيه محمد مصاف على الري، وانكسر محمد، وبالجملة فإن شرح ذلك يطول.

وكان السلطان محمد المذكور رجل الملوك السلجوقية وفحلهم، وله الآثار الجميلة والسيرة الحسنة، والمعدلة الشاملة، والبر للفقراء والأيتام، والحرب للطائفة الملحدة والنظر في أمور الرعية.

وذكره أبو البركات ابن المستوفي في "تاريخ إربل" وذكر أنه وصل إليها في تاسع شهر ربيع الأول سنة ثمان وتسعين وأربعمائة، ورحل عنها متوجهاً إلى الموصل في ثاني عشر الشهر المذكور، ثم قال: ووجدت في كتاب ذكره الإمام أبو حامد الغزالي في مخاطبته السلطان محمد بن ملكشاه: اعلم يا سلطان العالم أن بني آدم طائفتين: طائفة غفلاء نظروا إلى مشاهد حال الدنيا، وتمسكوا بتأميل العمر الطويل، ولم يتفكروا في النفس الأخير، وطائفة عقلاء جعلوا النفس الأخير نصب أعينهم، لينظروا إلى ماذا يكون مصيرهم، وكيف يخرجون من الدنيا ويفرقونها وإيمانهم سالم، وما الذي ينزل من الدنيا في قبورهم، وما الذي يتركون لأعيادهم من بعدهم ويبقى عليهم وباله ونكاله.

ثم إن السلطان محمداً استقل بالمماليك بعد موت أخيه بركياروق- في التاريخ المذكور في ترجمته - ولم يبق له منازع وصفت له الدنيا، وأقام على ذلك مدة، ثم مرض زماناً طويلاً، وتوفي يوم الخميس الرابع والعشرين من ذي الحجة سنة إحدى عشرة وخمسمائة بمدينة أصبهان، وعمره سبع وثلاثون سنة وأربعة أشهر وستة أيام، وهو مدفون بأصبهان في مدرسة عظيمة، وهي موقوفة على الطائفة الحنفية، وليس بأصبهان مدرسة مثلها. ولما أيس من نفسه أحضر ولده محمداً - الآتي ذكره إن شاء الله تعالى - فقبله وبكى كل واحد منهما، وأمره أن يخرج ويجلس على تخت السلطنة وينظر في أمور الناس، فقال لوالده: إنه يوم غير مبارك، يعني من طريق النجوم، فقال: صدقت، ولكن على أبيك، وأما عليك فمبارك بالسلطنة. فخرج وجلس على التخت بالتاج والسوارين، ولم يخلف أحد من الملوك السلجوقية ما خلفه من الذخائر وأصناف الموال والدواب وغير ذلك مما يطول شرحه، رحمه الله تعالى؛ وسيأتي ذكر والده في هذا الحرف، إن شاء الله تعالى.

وتزوج الإمام المقتفي أمر الله فاطمة ابنة السلطان محمد المذكور، وكان الوكيل في قبول النكاح الوزير شرف الدين أبا القاسم علي ابن طراد الزينبي، وذلك في سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة، وحضر أخوها مسعود العقد، ونقلت فاطمة ابنة السلطان المذكورة إلى دار الخلافة للزفاف سنة أربع وثلاثين، ويقال إنما كانت تقرأ وتكتب، ولها التدبير الصائب، وسكنت في الموضع المعروف بدركاه خاتون، وتوفيت في عصمته يوم السبت الثاني والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة، ودفنت بالرصافة، رحمها الله تعالى، والله أعلم بالصواب.

الملك العادل ابن أيوب

أبو بكر محمد بن أبي الشكر أيوب بن شاذي بن مروان، الملقب بالملك العادل سيف الدين، أخوه السلطان صلاح الدين، رحمهما الله تعالى- وقد تقدم ذكر والده في حرف الهمزة، وسيأتي ذكر أخيه صلاح الدين في حرف الياء إن شاء الله تعالى؛ وكان الملك العادل قد وصل إلى الديار المصرية صحبة أخيه وعمه أسد الدين شيركوه- المقدم ذكره - وكان يقول: لما عزمنا على المسير إلى مصر احتجب إلى حرمدان، فطلبته من والدي فأعطاني وقال: يا أبا بكر إذا ملكتم مصر أعطني ملئه ذهباً، فلما جاء إلى مصر قال: يا أبا بكر أين الحرمدان؟ فرحت وملأته من الدراهم السود وجعلت أعلاها شيئاً من الذهب وأحضرته إليه، فلما رآه اعتقده ذهباً، فقلبه فظهرت الفضة السوداء، فقال: يا أبا بكر تعلمت من زغل المصريين.

ولما ملك صلاح الدين الديار المصرية كان ينوب عنه في حال غيبته في الشام ويستدعي منه الأموال للإنفاق في الجند وغيرهم، ورأيت في بعض رسائل القاضي الفاضل أن الحمول تأخرت مدة، فتقدم السلطان إلى العماد الأصبهاني أن يكتب إلى أخيه الملك العادل يستحثه على إنفاذها حتى قال: يسير لنا الحمل من مالنا أو من ماله؛ فلما وصل الكتاب إليه ووقف على هذا الفصل شق عليه، وكتب إلى القاضي الفاضل يشكو من السلطان لأجل ذلك، فكتب القاضي الفاضل جوابه، وفي جملته: "وأما ما ذكره المولى من قوله يسير لنا الحمل من مالنا أو من ماله، فتلك لفظة فظة ما المقصود بها من المالك النجعة، وإنما المقصود بها من الكاتب السجعة، وكم من لفظة فظة، وكلمة فيها غلظة، جبرت عي الأقلام، وسدت خلل الكلام، وعلى المملوك الضمان في هذه النكتة، وقد فات لسان القلم منها أي سكنة، وكان المملوك حاضراً وقد خرجت قوارع الاستحثاث، وصرصر البازي وقوة نفس العماد قوة نفس البغاث، والسلام".

ولما ملك السلطان مدينة حلب في صفر سنة تسع وسبعين وخمسمائة- كما تقدم في ترجمة عماد الدين زنكي - أعطاها لولده الملك الظاهري غازي- المقدم ذكره - ثم أخذها منه أعطاها للملك العادل، فانتقل إليها وقصد قلعتها يوم الجمعة الثاني والعشرين من شهر رمضان المعظم من السنة المذكورة، ثم نزل عنها للملك الظاهري غازي ابن السلطان - المقدم ذكره - لمصلحة وقع الاتفاق عليها بينه وبين أخيه صلاح الدين، وخرج منها في سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة ليلة السبت الرابع والعشرين من شهر ربيع الأول، ثم أعطاها السلطان قلعة الكرك، وتنقل في المماليك في حياة السلطان وبعد وفاته؛ وقضاياه مشهورة مع الملك الفضل والملك العزيز والملك الظاهر، فلا حاجة إلى الإطالة بشرحها؛ وآخر الأمر أنه استقل بمملكة الديار المصرية، وكان دخوله القاهرة لثلاث عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الآخر سنة ست وتسعين وخمسمائة، واستقرت له القواعد.

وقال أبو البركات ابن المستوفي في "تاريخ إربل" في ترجمة ضياء الدين أبي الفتح نصر الله المعروف بابن الأثير الوزير الجزري ما مثاله: وجدت بخطه "خطب للملك العادل أبي بكر ابن أيوب بالقاهرة ومصر يوم الجمعة الحادي والعشرين من شوال سنة ست وتسعين وخمسمائة، وخطب له بحلب يوم

الجمعة حادي عشر جمادى الآخرة سنة ثمان وتسعين وخمسمائة. وملك معها البلاد الشامية والشرقية وصفت له الدنيا، ثم ملك بلاد اليمن في سنة اثنتي عشرة وستمائة، وسير إليها ولد ولده المسعود صلاح الدين أبا المظفر يوسف المعروف بأطسيس ابن الملك الكامل- الآتي ذكره إن شاء الله تعالى -. وكان ولده الملك الأوحد نجم الدين أيوب ينوب عنه في ميافارقين وتلك النواحي، فاستولى على مدينة خلاط وبلاد أرمينية واتسعت مملكته، وذلك في سنة أربع وستمائة.

ولما تمهدت له البلاد قسمها بين أولاده، فأعطى الملك الكامل الديار المصرية والملك المعظم البلاد الشامية، والملك الأشرف البلاد الشرقية، والأوحد في المواضع التي ذكرناها.

وكان ملكاً عظيماً ذا رأي ومعرفة تامة قد حنكته التجارب، حسن السيرة جميل الطوية، وافر العقل، حازماً في الأمور صالحاً محافظاً على الصلوات في أوقاتها، متبعاً لأرباب السنة مائلاً إلى العلماء، حتى صنف له فخر الدين الرازي كتاب "تأسيس التقديس" وذكر اسمه في خطبته وسيره إليه من بلاد خراسان وبالجملة فإنه كان رجلاً مسعوداً، ومن سعادته أنه خلف أولاداً لم يخلف أحد من الملوك امثالهم في نجابتهم وبسالتهم ومعرفتهم وعلة همتهم، ودانت لهم العباد وملكوا خيار البلاد، ولما مدح ابن عنين- المقدم ذكره - الملك العادل بقصيدته الرائية المذكور بعضها في ترجمته جاء منها في مديح أولاده المذكورين قوله:

وله البنون بكل أرض منهم	ملكٌ يقود إلى الأعادي عسكرا
من كل وضاح الجبين تخاره	بدراً، وإن شهد الوغى فغضنفرا
متقدمٌ حتى إذا النقع انجلى	بالبيض عن سبي الحريم تأخرا
قوم زكوا أصلاً وطابوا محتدا	وتدفقوا جوداً وراقوا منظرا
وتعاف خيلهم الورود بمنهلٍ	ما لم يكن بدم الوقائع أحمرا
يعشو إلى نار الوغى شغفاً بها	ويجل أن يعشو إلى نار القرى

وكم للشعراء فيهم من القصائد المختارة، لكن ذكرت هذه لكونها جامعة لجمعهم، ومن جملة هذه القصيدة في مدح الملك العادل قوله ولقد أحسن فيه:

العادل الملك الذي أسماؤه	في كل ناحية تشرف منبرا
وبكل أرض جنة من عدله الص	افي أسأل نداه فيها كوثرا
عدل يبيت الذئب منه على الطوى	غرثان وهو يرى الغزال الأعفرا
ما في أبي بكر لمعتقد الهدى	شك يريب بأنه خير الورى
سيف صقال المجد أخلص متنه	وأبان طيب الأصل منه الجوهرا
ما مدحه بالمستعار له ولا	آيات سؤدده حديث يفترى
بين الملوك الغابرين وبينه	في الفضل ما بين الثريا والثرى
نسخت خلائقه الحميدة ما أتى	في الكتب عن كسرى الملوك وقيصرا
ملك إذا خفت حلوم ذوي النهى	في الروع زاد رصانة وتوقرا

ثبت الجنان تراع من وثابته | وثباته يوم الوغى أسد الشرى
لفظٌ يكاد يقول عما في غد | ببديهة أغنته أن يتفكرا
حلم تخف له الحلوم وراءه | رأي وعزم يحقر الإسكندرا
يعفو عن الذنب العظيم تكرماً | ويصد عن قول الخنا متكبرا
لا تسعمن حديث ملك غيره | يروى، فكل الصيد في جوف الفرا

وبالجملة فإنها من القصائد المختارة.

ولما قسم البلاد بين أولاده كان يتردد بينهم، وينتقل إليهم من مملكة إلى أخرى. وكان في الغالب يضيف بالشام لأجل الفواكه والثلج والمياه الباردة، ويشتي في الديار المصرية لاعتدال الوقت فيها وقلة البرد، وعاش في أرغد عيش، وكان يأكل كثيراً خارجاً عن المعتاد، حتى يقال إنه يأكل وحده خروفاً لطيفاً مشوياً، وكان له في النكاح نصيب وافر، وحاصل الأمر انه كان ممتعاً في دنياه.

وكانت ولادته بدمشق في المحرم سنة أربعين، وقيل ثمان وثلاثين وخمسمائة. وتوفي في سابع جمادى الآخرة سنة خمس عشرة وستمائة بعالقين، ونقل إلى دمشق ودفن بالعلقة ثاني يوم وفاته، ثم نقل إلى مدرسته المعروفة به ودفن في التربة التي بها، وقبره على الطريق يراه المجتاز من الشباك المركب هناك، رحمه الله تعالى.

وعالقين: بفتح العين المهملة وبعد الألف لام مكسورة وقاف مكسورة أيضاً وياء مثناة من تحتها ساكنة وبعدها نون، وهي قرية بظاهر دمشق من الجيدور وكان ذلك عند وصول الفرنج إلى ساحل الشام، وقصدوا أولاً لقاء الملك العادل، فتوجه قدامهم إلى جهة دمشق ليتجهز ويتأهب للقائهم، فلما وصل إلى الموضع المذكور توفي به، فحينئذ أعرض جميع الفرنج عن دمشق، وقصدوا الديار المصرية فكانت وقعة دمياط المشهورة في ذلك التاريخ، وتاريخها مضبوط في ترجمة يحيى بن منصور المعروف بابن جراح في حرف الياء.

وأطسيس: بفتح الهمزة وسكون الطاء المهملة وكسر السين المهملة وبعدها ياء مثناة من تحتها ثم سين ثانية، وهي كلمة تركية معناها بالعربية ما له اسم، ويقال: إنما سمي بذلك لأن الملك الكامل ما كان يعيش له ولد، فلما ولد هذا المسعود المذكور قال بعض الحاضرين في مجلسه من الأتراك: في بلادنا إذا كان الإنسان لا يعيش له ولد سماه أطسيس، فسماه أطسيس، والناس يقولون أقسيس بالقاف، وصوبه بالطاء، كذا قوالو والله أعلم.

ثم ظفرت بتاريخ تسلم حلب محرراً، وهو أن عماد الدين زنكي نزل من قلعتها يوم الخميس الثاني والعشرين من صفر، وصعد صلاح الدين إليها يوم الاثنين السادس والعشرين من صفر المذكور، والله أعلم.

الملك الكامل الأيوبي

أبو المعالي محمد، ابن الملك العادل المذكور، الملقب بالملك الكامل ناصر الدين؛ قد سبق فر ترجمة والده طرف من خبره؛ ولما وصل الفرنج إلى دمياط – كما تقد ذكره – كان الملك الكامل في مبدأ استقلاله بالسلطنة، وكان عند جماعة كثيرة من أكابر الأمراء، وفيهم عماد الدين أحمد بن المشطوب– المذكور في حرف الهمزة – فاتفقوا مع أخيه الملك الفائز سابق الدين إبراهيم بن الملك العادل وانضموا إليه، وظهر للملك الكامل منهم أمور تدل على أنهم عازمون على تفويض السلطنة إليه وخلع الملك الكامل، واشتهر ذلك بين الناس؛ وكان الملك الكامل يداريهم لكونه في قبالة العدو، ولا يمكنه المقافزة والمنافرة، وطول نفسه معه، و لم يزل على ذلك حتى وصل إليه أخوه الملك المعظم صاحب دمشق – المذكور في حرف العين – يوم الخميس تاسع عشر ذي القعدة سنة خمس عشرة وستمائة، فأطلعه الملك الكامل في الباطن على صورة الحال، وأن رأس هذه الطائفة ابن المشطوب، فجاءه يوماً على غفلة إلى خيمته واستدعاه، فخرج إليه فقال له: أريد أن أتحدث معك سراً في خلوة، فركب فرسه وسار معه وهو جريدة وقدر جر المعظم جماعة ممن يعتمد عليهم ويثق إليهم، وقال لهم: اتبعونا، و لم يزل المعظم يشاغله بالحديث ويخرج معه من شيء إلى شيء حتى أبعد عن المخيم، ثم قال له: يا

عماد الدين، هذه البلاد لك ونشتهي أن تهبها لنا، ثم أعطاه شيئاً من النفقة، وقال لأولئك المجردين: تسلموه حتى تخرجوه من الرمل، فلم يسعه إلا امتثال الأمر لانفراده وعدم القدرة على الممانعة في تلك الحال.

ثم عاد المعظم إلى أخيه الكامل وعرفه صورة ما جرى، ثم جهز أخاه الملك الفائز إلى الموصل لإحضار النجدة منها ومن بلاد الشرق، فمات بسنجار وكان ذلك خديعة لإخراجه من البلاد، فلما خرج هذان الشخصان من العسكر تحللت عزائم من بقي من المراء الموافقين لهما، ودخلوا في طاعة الملك الكامل كرهاً لا طوعاً، وجرى في قضية دمياط ما هو مشهور، فلا حاجة إلى الإطالة بذكره؛ ولما ملك الفرنج دمياط وصارت في قبضتهم خرجوا منها قاصدين القاهرة ومصر، ونزلوا في رأس الجزيرة التي دمياط في برها، وكان المسلمون قبالتهم في القرية المعروفة بالمنصورة، والبحر حائل بينهم، وهو بحر أشموم، ونصر الله تعالى بمنه وجميل لطفه المسلمين عليهم، كما هو مشهور، ورحل الفرنج عن منزلهم ليلة الجمعة سابع شهر رجب سنة اثنا عشرة وستمائة، وتم الصلح بينهم وبين المسلمين في حادي عشر الشهر المذكور، ورحل الفرنج عن البلاد في شعبان من السنة المذكورة، وكانت مدة إقامتهم في بلاد الإسلام ما بين الشام والديار المصرية أربعين شهراً وسبعة عشرة يوماً، وكفى الله شرهم والحمد لله على ذلك، وقد فصلت ذلك في ترجمة يحيى بن جراح فيكشف هناك.

فلما استراح خاطر الملك الكامل من جهة هذا العدو تفرغ للأمراء الذين كانوا متحاملين عليه فنفاهم عن البلاد، وبدد شملهم وشردهم، ودخل إلى القاهرة وشرع في عمارة البلاد واستخراج الأموال من جهاتها، وكان سلطاناً عظيم القدر جميل الذكر محباً للعلماء متمسكاً بالسنة النبوية حسن الاعتقاد معاشراً لأرباب الفضائل حازماً في أموره، لا يضع الشيء إلا في موضعه من غير إسراف ولا إقتار؛ وكانت تبيت عنده كل ليلة جمعة جماعة من الفضلاء، ويشاركهم في مباحثاتهم، ويسألهم عن المواضع المشكلة من كل فن، وهو معهم كواحد منهم، وكان يعجبه هذا البيتان وينشدهما كثيراً، وهما:

ما كنت من قبل ملك قلبي ... تصد عن مدنف حزين

وإنما قد طمعت لما ... حللت في موضع حصين

وبنى بالقاهرة دار حديث ورتب لها وقفاً جيداً، وكان قد بنى على ضريح الإمام الشافعي، رضي الله عنه، قبة عظيمة، ودفن أمه عنده، وأجرى إليها من ماء النيل، ومدده بعيد، وغرم على ذلك جملة عظيمة.

ولما مات أخوه الملك المعظم صاحب الشام – في التاريخ المذكور في ترجمته– وقام ولده الملك الناصر صلاح الدين داود مقامه، خرج الملك الكامل من الديار المصرية قاصداً أخذ دمشق منه، وجاءه أخوه الملك الأشرف مظفر الدين موسى – الآتي ذكره بعده إن شاء الله تعالى – فاجتمعا على أخذ دمشق – بعد فصول جرت يطول شرحها –وملك دمشق في أول شعبان سنة ست وعشرين وستمائة، وكان يوم الاثنين، فلما ملكها دفعها إلى أخيه الملك الأشرف، وأخذ عوضها من بلاد الشرق حران والرها وسروج والرقة ورأس عين، وتوجه إليها بنفسه في تاسع شهر رمضان المعظم من السنة المذكورة.

واجتزت بحران في شوال سنة ست وعشرين وستمائة، والملك الكامل مقيم بها بعساكر الديار المصرية، وجلال الدين خوارزم شاه يوم ذاك يحاصر خلاط، وكانت لأخيه الملك الأشرف، ثم رجع إلى الديار المصرية.

ثم تجهز في جيش عظيم وقصد آمد في سنة تسع وعشرين وستمائة، فأخذها مع حصن كيفما وتلك البلاد من الملك المسعود ركن الدين مودود بن الملك الصالح أبي الفتح محمد بن نور الدين محمد بن فخر الدين قرأ أرسلان بن ركن الدولة داود ابن نور الدولة سقمان – ويقال سكمان – بن أرتق، وقد تقدم ذكر جدهم أرتق؛ أخبرني بعض أهل آمد ممن عنده معرفة أن آمد انبرم أمرها وتسليمها إلى الملك الكامل في تاسع عشر ذي الحجة من السنة المذكورة، ودخلها ولده الملك الصالح نجم الدين أيوب في العشرين من الشهر المذكور، دخلها المذكور في مستهل المحرم سنة ثلاثين وستمائة.

ولما مات الملك الأشرف – في التاريخ الآتي ذكره إن شاء الله تعالى في ترجمته – جعل ولي عهده أخاه الملك الصالح إسماعيل بن الملك العادل، فقصده

الملك الكامل وانتزع منه دمشق، بعد مصالحة جرت بينهما، وذلك في التاسع من جمادى الأولى سنة خمس وثلاثين وستمائة، وأبقى له بعلبك وأعمالها وبصرى وأرض السواد وتلك البلاد. ولما ملك البلاد الشرقية وآمد وتلك النواحي استخلف فيها ولده الملك الصالح نجم الدين أبا المظفر أيوب، واستخلف ولده الأصغر الملك العادل سيف الدين أبا بكر بالديار المصرية.

وقدتقدم في ترجمة الملك العادل انه سير الملك المسعود إلى اليمن، وكان أكبر أولاد الملك الكامل، وملك الملك المسعود مكة حرسها الله تعالى وبلاد الحجاز مضافة إلى اليمن. وكان رحيل الملك المسعود عن الديار المصرية متوجهاً إلى اليمن يم الاثنين سابع عشر رمضان المعظم سنة إحدى عشرة وستمائة، ودخل مكة شرفها الله تعالى في الثالث من ذي العقدة من السنة، وخطب له بها وحج، ودخل زبيد وملكها مستهل المحرم سنة اثنتي عشرة وستمائة، ودخل مكة شرفها الله تعالى في ربيع الآخر من سنة عشرين وستمائة، أخذها من الشريف حسن بن قتادة الحسني، واتسعت المملكة للملك الكامل. ولقد حكى لي من حضر الخطبة يوم الجمعة بمكة شرفها الله تعالى انه لما وصل الخطيب إلى الدعاء للملك الكامل قال: صاحب مكة وعبيدها، واليمن وزبيدها، ومصر وصعيدها، والجزيرة ووليدها، سلطان القبلتين، ورب العلامتين، خادم الحرمين الشريفين، أو المعالي محمد الملك الكامل ناصر الدين خليل أمير المؤمنين؛ وبالجملة فق خرجا عن المقصود.

ولقد رأيته بدمشق في سنة ثلاثة وثلاثين وستمائة عند رجوعه من بلاد الشرق واستنفاذه إياها من يد علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو بن قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان بن سليمان بن قتلمش بن إسرائيل بن سلجوق بن دقاق السلجوقي صاحب الروم، وهي وقعة مشهورة يطول شرحها، وفي خدمته يومئذ بضعة عشر ملكاً منهم أخوه الملك الأشرف. و لم يزل في علو شانه وعظم سلطانه إلى أن مرض بعد أخذ دمشق و لم يركب، وكان ينشد في مرضه كثيراً:

يا خليلي خبراني بصدق	كيف طعم الكرى فإني عليل

و لم يزل كذلك إلى أن توفي يوم الأربعاء بعد العصر، ودفن بالقلعة بمدينة دمشق يوم الخميس من رجب سنة خمس وثلاثين وستمائة، وكنت بدمشق يومئذ، وحضرت الصبحة يوم السبت في جامع دمشق لأنهم أخفوا موته إلى وقت صلاة الجمعة، فلما حضرت الصلاة قام بعض الدعاة على العريشة الذي بين يدي المنبر وترحم على الملك الكامل ودعا لولده الملك العادل صاحب مصر، وكنت حاضراً في ذلك الموضع، فضج الناس ضجة واحدة، وكانوا قد أحسوا بذلك، لكنهم لم يتحققوه إلا ذلك اليوم.

وترتب ابن أخيه الملك الجواد مظفر الدين يونس بن شمس الدين مودود ابن الملك العادل في نيابة السلطنة بدمشق، عن الملك العادل بن الملك الكامل صاحب مصر، باتفاق الأمراء الذين كانوا حاضرين ذلك الوقت بدمشق.

ثم بنى له تربة مجاورة للجامع، ولها شباك إلى الجامع، ونقل إليها؛ وكانت ولادته في سنة ست وسبعين وخمسمائة في الخامس والعشرين من شهر ربيع الأول كذا وجدته بخط من يعتني بالتاريخ، والله أعلم.

وتوفي ولده الملك المسعود بمكة شرفها الله تعالى في ثالث عشر جمادى الأولى سنة ست وعشرين وستمائة، ومولده في سنة سبع وتسعين وخمسمائة، وكان بمكة رجل من المجاورين يقال له الشيخ صديق بن بدر بن جناح، من أكراد بلاد إربل، وكان من كبار الصالحين، فلما حضرت الملك المسعود الوفاة أوصى أنه إذا مات لا يجهز بشيء من ماله، وكفنه في إزار كان أحرم فيه بالحج والعمرة سنين عديدة، وجهزه تجهيز الفقراء على حسب قدرته، وكان أوصى انه لا يبني على قبره شيء، بل يدفن في جانب المعلى جبانة مكة، وكان أوصى انه لا يبنى على قبره "هذا قبر الفقير إلى رحمة الله تعالى يوسف بن محمد بن أبي بكر بن أيوب " ففعل به ذلك. ثم إن عتيقة الصارم قايماز المسعودي الذي تولى القاهرة بعد ذلك بنى عليه قبة، ولما بلغ الملك الكامل ما فعله الشيخ الذي تولى القاهرة بعد ذلك بنى عليه قبة، ولما بلغ الملك الكامل ما فعله الشيخ صديق كتب إليه وشكره فقال: ما فعلت ما أستق به الشكر، فإن هذا رجل فقير سألني القيام بأمره فساعدته بما يجب على كل أحد القيام به من مواراة الميت، فقيل له: تكتب جواب الملك الكامل؟ فقال: ليس لي إليه حاجة، وكان قد سأله أن يسأله حوائجه كلها، فما رد عليه الجواب؛ أخبرني بذلك كله من كان حاضراً ويعرف ما يقول، والله أعلم.

وأما ولد الملك العادل فإنه أقام في المملكة إلى يوم الجمعة ثامن ذي القعدة سنة سبع وثلاثين وستمائة، فقبض عليه أمراء دولته بظاهر بلبيس، وطلبوا أخاه الملك الصالح نجم الدين أيوب، وكان الصالح قد صالح الملك الجواد على أن أعطاه دمشق، وعوضه عنها سنجار وعانة، وقدم الصالح دمشق متملكاً لها في مستهل جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين وستمائة. ثم إن عمه الملك الصالح عماد الدين إسماعيل صاحب بعلبك اتفق مع الملك المجاهد أسد الدين شير كوه بن ناصر الدين محمد بن أسد الدين شير كوه صاحب حمص على أخذ دمشق اغتيالاً، وكان الملك الصالح نجم الدين قد خرج منها قاصداً الديار المصرية ليأخذها من أخيه الملك العادل، فلما استقر بنابلس وأقام بها مدة جرت هذه الكائنة في سنة سبع وثلاثين وستمائة، يوم الثلاثاء السابع والعشرين من صفر، فهجما دمشق بعساكرهما وأخذاها، وهي قضية مشهورة، فلما أخذت دمشق رجع العسكر الذي كان مع الصالح نجم الدين إليها ليدرك كل واحد منهم أهله وبنيه، وتركوا الملك الصالح بنابلس وحيداً في نفر قليل من غلمانه وأتباعه، فجاءه الملك الناصر ابن الملك المعظم صاحب الكرك، وقبض عليه ليلة السبت الثاني والعشرين من شهر ربيع الأول من السنة، وأرسله إلى الكرك واعتقله بها، ثم إنه أفرج عنه في ليلة السبت السابع والعشرين من شهر رمضان المعظم من السنة المذكورة، وشرح ذلك يطول. واجتمع هو والملك الناصر على نابلس، فما قبض الملك العادل في التاريخ المذكور وطلب الأمراء الملك الصالح نجم الدين أيوب جاءهم ومعه الملك الناصر صاحب الكرك، ودخلا القاهرة في الساعة الثانية من يوم الأحد السابع والعشرين من ذي القعدة سنة سبع وثلاثين وستمائة، وكنت إذ ذاك بالقاهرة، وأدخل أخوه الملك العادل في محفة واعتقله بها عند دخوله في داخل الدور السلطانية، وبسط العدل في الرعية وأحسن إلى الناس وأخرج الصدقات ورمم ما تهدم من المساجد، وسيرته طويلة.

ثم إنه أخذ دمشق من عمه الملك الصالح في يوم الاثنين ثامن جمادى الأولى سنة ثلاث وأربعين وستمائة، وأبقى عليك بعلبك، ومضى بعد ذلك إلى الشام في سنة "أربع وأربعين ودخلها في تاسع عشر ذي القعدة من السنة، ثم توجه إليها" ست وأربعين بعد أن كان عاد إلى مصر، ودخل دمشق في أوائل شعبان من السنة، وسير العساكر لحصار حمص، وقد كان الملك الناصر صاحب حلب أخذها من صاحبها الأشرف ابن صاحب حمص، ثم رجع في أوائل سنة سبع وأربعين وهو مريض.

وقصد الفرنج دمياط وهو مقيم بأشموم ينتظر وصولهم، وكان وصولهم إليها يوم الجمعة العشرين من صفر سنة سبع وأربعين وستمائة، وملكوا بر الجيزة يوم السبت، وملكوا دمياط يم الأحد ثلاثة أيام متوالية لأن العسكر وجميع أهلها تركوها وهربوا منها.

وانتقل الملك الصالح من بأشموم إلى المنصورة، ونزل بها وهو في غاية من المرض، وأقام بها على تلك الحال إلى أن توفي هناك ليلة الاثنين نصف شعبان من السنة المذكورة، وحمل إلى القلعة الجديدة التي في الجزيرة، وترك بها في مسجد هناك، وأخفي موته مقدار ثلاثة أشهر، والخطبة باسمه، إلى أن وصل ولده الملك المعظم توران شاه من حصن كيفا على البرية إلى المنصورة، فعند ذلك أظهروا موته، وخطب لولده المذكور، ثم بعد ذلك بني له بالقاهرة إلى جنب مدراسه تربة، ونقل إليها في رجب سنة ثمان وأربعين وستمائة. وكانت ولادته في الرابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثلاث وستمائة، هكذا وجد بخط ابنه مكتوباً، ورأيت في مكان آخر أنه ولد في ليلة الخميس الخامس من جمادى الآخرة من السنة المذكورة وفي مكان آخر أنه ولد في الرابع من المحرم سنة أربع وستمائة، والله تعالى أعلم؛ وأمه جارية مولدة سمراء اسمها ورد المنى، رحمه الله تعالى.

وكانت ولادة الملك العادل في ذي الحجة سنة سبع عشرة وستمائة، بالمنصورة ووالده في قبالة العدو على دمياط، وتوفي في الاعتقال يوم الاثنين ثاني عشر شوال سنة خمس وأربعين وستمائة بقلعة القاهرة، ودفن في تربة شمس الدولة خارج باب النصر، رحمه الله تعالى.

هذه الفصول ذكرت خلاصتها، ولو فصلتها لطال الشرح، والمقصود الاختصار وطلب الإنجاز مع أني كنت حاضراً أكثر وقائعها.

وكان للملك العادل المذكور ولد صغير يقال له الملك المغيث مقيماً بالقلعة، فلما وصل بن عمه الملك المعظم توران شاه إلى المنصورة سير من هناك ونقله إلى قلعة الشوبك. فلما جرت الكائنة على المعظم متسلم قلعة الكرك الملك المغيث من الشوبك وسلم إليه الكرك والشوبك وتلك النواحي، وهو الآن ملكها، ولم يزل مالكاً لها إلى سنة إحدى وستين وستمائة، فنزل الملك الظاهر ركن الدين بيبرس المذكور في ترجمة القاضي مجلي صاحب كتاب "الذخائر" بالغور، وراسله وبذل له من تسليم البلد بذولاً كثيرة وحلف له، ويقال إنه ورى في اليمن ولم يستقص فيها. فنزل إليه إلى منزله بالطور من

الغور، فقيض عليه ساعة وصوله إلى قلعة الجبل بمصر واعتقله بها.
وكان للمغيث ولد ينعت بالعزيز فخر الدين عثمان صغير السن، فأمره الملك الظاهر، ولم يزل في خدمته أميراً إلى أن فتح أنطاكية في شهر رمضان سنة ست وستين وستمائة، وتوجه من الشام بعد ذلك إلى مصر، فلما دخل إليها قبض عليه واعتقله، وهو الآن معتقل بقلعة الجبل المذكور.
وهذه قلعة الكرك هي المذكورة في ترجمة القاضي مجلي أيضاً، وكان الملك الظاهر يخاف على أولاده فكان يبالغ في تحصين القلعة المذكور، ويملؤها بالذخائر والأموال، ولما جرى لولده السعيد ما ذكرنا في ترجمة القاضي مجلي وتوجه إلى الكرك نفعته تلك الذخائر ووجدها عوناً له على زمانه.
ولما توفي الملك السعيد ابن الملك الظاهر في الكرك – كما ذكرناه في الترجمة المذكورة – ملكها بعد أخوه الملك المسعود نجم الدين خضر ابن الملك الظاهر باتفاق ممن كان بها من مماليك أبيه ومن أمرائه، وهو الآن ممتلكها مقيم بها، ثم نزل منه بالأمان بعد حصاره فيها مدة الأمير حسام الدين طرنطاي المنصوري كان نائب المملكة، وتقدم العساكر، ونزل معه أخوه الملك العادل سلامش بعد أخيه السعيد، وتوجه إلى الديار المصرية إلى خدمة السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاون الصالحي المذكور في ترجمة القاضي مجلي في أوائل هذا الحرف، فاحسن السلطان إليهما، وجعل الملك خضراً وأخاه سلامش أميرين، وأقطعهما الإقطاعات الجيدة، وأسكنهما بقلعة الجبل المنصور، واستمر الأمر على ذلك، وهما مختلطان به في جملة من أهله ملازمان للركوب مع ولديه السلطان الملك الصالح علاء الدين والملك الأشرف صلاح الدين خليل.
"ولم يزل الأمر كذلك إلى شهور سنة ثمان وثمانين وستمائة، فجرى من الأمر ما اقتضى الحال معه القبض على الأميرين نجم الدين خضر وبدر الدين سلامش المذكورين واعتقالهما بقلعة الجبل المنصورة وأما الملك الصالح بن الملك المنصور المذكور، فإنه كان ولي عهد أبيه، وكان حازماً شديد الرأي.
وتوفي في حياة والده في شهر شعبان سنة سبع وثمانين وستمائة، ثم إن والده جعل ولاية العهد إلى ولده الملك الأشرف المذكور، وقلده الملك في شهر شوال سنة سبع وثمانين المذكورة وهو من الملوك المشهورين بعلو الهمة والسعادة والحزم.
وتوفي الملك المنصور قلاون في يوم السبت من شهر ذي القعدة سنة تسع وثمانين وستمائة في دهليزه بمسجد التين. وكان قد خرج على نية الغزاة إلى عكا، فعرض له مرض، فقضى به نحبه وعادت العساكر إلى مستقرها.
واستقل ولده السلطان الملك الأشرف بالمملكة يجمع المعاقل والبلاد، ولم ير في الملوك أكثر سعادة منه، ولا أعلى همة ولا أكرم نفساً ولا أكثر وفاء لمن خدمه ولاذ به.

وفي أيام الملك المنصور فتحت طرابلس الشام يوم الثلاثاء تاسع ربيع الآخر سنة ثمان وثمانين وستمائة، وكان نازلها بنفسه وعساكره، وفتحها قهراً بالسيف، واستولى القتل والأسر والنهب على أهلها، وملك ما جاورها من قلعة جبيل والبترون وغير ذلك، ثم إن الملك الأشرف المذكور بعد استقلاله بالملك بمدة يسيرة خرج بنفسه وجمع عساكره وتوجه إلى عكا، فنازلها في يوم، وكان خروجه من مصر في يوم، واجتمع على عكا جميع الناس: الجند والمتطوعة وغيرهم وسائر البلاد، ويسر الله فتحها في يوم الجمعة سابع عشر جمادى الأولى سنة تسعين وستمائة، في مثل الساعة من اليوم من الشهر الذي أخذت فيه من السلمين، إلا أن الشهر كان الأولى، وأخذت من المسلمين في أيام صلاح الدين يوسف بن أيوب في الآخرة سنة سبع وثمانين وخمسمائة، وأن السلطان الملك الأشرف صلاح الدين أخرج أهلها منها وقتلهم جميعاً بالسيف، وكذلك الفرنج عملوا بالذي كان فيها من المسلمين لما ملكوها في أيام صلاح الدين، فانظروا إلى هذا الاتفاق العجيب في أمور كثيرة. لما أخذت من صلاح الدين ملكها صلاح الدين وقتل المسلمون بها ثم قتل الكافرون بها، ثم ملكها المسلمون ثاني ساعة من يوم الجمعة سابع عشر جمادى الأولى، فسبحان مقدر الأمور.
ثم انحلت عزائم الفرنج عن أخذ عكا، فهرب من كان في بيروت وعثليت وهما حصنان عظيمان لا تتطرق الأوهام إليهما، وملكها المسلمون بحول الله وقوته من غير منازع. وملكوا أيضاً صيدا وبيروت وحيفا فلم يبق للفرنج على الساحل الشامي قلعة ولا بلد ولا قرية ولا جزيرة إلا وملك المسلمون ذلك جميعه والحمد لله وحده".
وتوفي المعظم توران شاه يوم الاثنين السابع والعشرين من المحرم من سنة ثمان وأربعين وستمائة رحمه الله تعالى، والله تعالى أعلم.
ب –الملك الكامل الأيوبي أبو المعالي محمد بن أبي بكر الملقب الملك الكامل ناصر الدين صاحب الديار المصرية. خطب له أخوته وأهل بيته في بلادهم

وضربوا السكة باسمه؛ وكان محبوباً إلى الناس مسعوداً مؤيداً في الحروب. ولما نزل الفرنج على دمياط في صفر سنة خمس عشرة اتفق لما يريده الله تعالى وفاة والده العادل، وجرت أمور مع ذلك أوجبت خروج السلطان ومن معه من المخيم ليلاً إلى أشموم – حسبما هو مشروح في ترجمة عماد الدين أحمد بن المشطوب المذكور في حرف الهمزة – وكان "الفرنج" قد ساروا عن دمياط في الفارس والراجل، وقصدوا الملك الكامل فنزلوا مقابله، وبينهما بحر أشموم وهم يرمون بمناجيقهم وجروخهم إلى عساكر المسلمين، وتيقنوا وكل الناس أنهم يملكون الديار المصرية، فوصل الشرف وتلقاه أخوه الكامل والمعظم، واستبشروا به وكافة المسلمين وتوقعوا النصرة على الأعداء الكافرين، ووقع الاتفاق أن يبعثوا في بحر المحلة أسطولاً يدخل إلى بحر دمياط ليمنع الميرة عن الفرنج، وأمر السلطان بنصب الجسور وعبر عليها المسلمون إلى جزيرة، شرمساح التي الفرنج مخيمون عليها، وكسروا النيل عليها؛ وكان النيل في زيادته، فركب الماء أكثر تلك الأرض، و لم يبق للفرنج جهة يسلكونها، غير جهة واحدة ضيقة إن أرادوا العود إلى دمياط، وعبرت العساكر وملكوا الطريق، و لم يبق لهم خلاص، وأيقنوا بالهلكة، فراسلوا السلطان الملك الكامل يبذلون له النزول عن دمياط على أن يؤمنهم، فأجابهم إلى ذلك، وشرط عليهم إطلاق من في أيديهم من أسرى المسلمين، وأخذ منهم رهائن ملوكهم على تسليم البلد، وتقرر بينهم صلح مدة ثمان سنين، وتسلم السلطان دمياط يوم الأربعاء لإحدى عشرة ليلة بقيت من جرب، فكانت مدة ملك الفرنج لها سنة وعشرة أشهر وأربعة وعشرين يوماً؛ وكان يوماً مشهوداً؛ ومن العجيب أن المسلمين لما تسلموها وصلت الفرنج نجدة في البحر فلو سبقوا المسلمين إليها لامتنعوا من تسليم دمياط ليقضي الله أمراً كان مفعولاً. فلما دخلها المسلمون لم يجدوا فيها من أهلها إلا آحاداً، فبعضهم سار عنها باختياره، وبعضهم مات. وكان الفرنج قد حصنوها تحصيناً عظيماً بحيث بقيت لا ترام ولا يوصل إليها؛ وأعاد الله سبحانه وتعالى الحق إلى نصابه ورده إلى أربابه، فالله المحمود المشكور على ما أنعم به على الإسلام والمسلمين من كف عادية هذا العدو، وكفاهم شره.

منقبة للملك الكامل جرت في هذه النوبة: لما وقع الحصار على مدينة دمياط اتفق أن علجاً منهم، لعنه الله، قد ألهج لسانه بسبب النبي صلى الله عليه وسلم، معلناً به على خنادقهم، ومنكياً لمن يليهم من حرس الإسلام ورجالهم، وكان أمره قد استفحل، وداء اشتهاره بهذه العظيمة قد أعضل، وقد جعل هذا الأمر ديدن جهاده، وذهب عنه أن الله تعالى ينتقم لنفسه من عتو هذا اللعين وعناده. فلما كانت الوقعة المشهورة في شعبان من سنة عشرة التي أسر فيها أعلاج الكفر وكنودهم، وأفاء الله على أهل دينه عدوهم وعديدهم، واستولى منهم على ما يناهز ألفي فارس، عرف هذا العلج في جملة من اشتمل عليه الاستيلاء منهم حصراً وعداً، وعوجل بعقوبة كفره الذي تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا؛ فلما صفد في وثاقه، وخرست شقاشق شقاقه، أشعر السلطان الملك الكامل بموضعه، فتنوعت المشورات بصورة قتل هذا الكافر، واللحاق بروحه إلى الجحيم التي هي مأوى الفاجر، فصمم الملك الكامل على إرسال هذا العلج مع من يوصله إلى والي المدينة النبوية، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، وإشعاره بأمره، وأن يباشر بذلك المحل الشريف تطهير الأرض من كفره. فما وصل أقيم بين يدي الضريح المطهر، ونوجي ذلك المحل الأطهر، وذلك في عيد الفطر من السنة المذكورة، وقيل: يا رسول الله: هذا عدو لله وعدوك، والمصرح في ملة كفره بسبك وسب صاحبك، قد أرسله محمد سلطان مصر ليقتل بين يديك، ويشكر الله لما وفقه من مجاهدة الشرك الذين كفروا بما أنزل إليك، ورام أن يجعله عبرة لمن انتهك حرمتك واجترأ عليك، فتهادته أيدي المنايا ضرباً بالسيوف، وفرح المؤمنون بنصر الله لدينه على طوائف الشرك وأن رغمت منها الأنوف، والحمد لله رب العالمين.

لا جرم أنه بعد وفاته أثيب على هذا المقصد السديد، والتوفيق الذي ما على النعمة به من مزيد: أن الانبرور ملك صقلية وغيرها من بلاد الفرنج – وهو اليوم أكبر ملوكهم خطراً وكانت بينه وبين الملك الكامل صداقة ومهاداة يألف بها إلى أن تأكدت له محبته وصار ذبه عن بلاده من طوائف الكفر ديدنه وعادته –كان عنده من الأسرى المأخوذين من مدينة ميرقة من الغرب عند استيلائه عليها جماعة، فأحضرهم الانبرور بين يديه، وقال له: يا حجاج، قد أعتقتكم عن الملك الكامل؛ وسيرهم مع قصاد تقودهم إلى عكا وأمرهم بحب قيودهم عند قبره، وإطلاق سبيلهم.

وكانت وفاته بدمشق يوم الأربعاء آخر النهار، ودفن يوم الخميس في الساعة الثانية منه، وذلك لتسع بقين من شهر رجب سنة خمس وثلاثين وستمائة بالكلاسة رحمه الله تعالى.

ولما توفي كان ولده الملك الصالح نجم الدين أيوب بالبلاد الشرقية، وهي التي كانت بيده في حياة والده، وكان ولده الملك العادل سيف الدين أبو بكر

بالديار المصرية؛ ولما بلغ بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل وفاة السلطان، قصد سنجار مريداً حصارها، وبها الملك الصالح نجم الدين، فنازلها وزحف إليها، فأرسل عليهم الخوارزمية، فأوقعوا بهم واستولوا على جميع ما معهم من الأثقال، ثم جرت مراسلات آخرها أنهم انقادوا لأمره، ودخلوا في طاعته؛ وكانت هذه الواقعة من الوقائع العجيبة.

ولما كان مستهل جمادى الآخرة وصل الملك الصالح المذكور إلى دمشق ودخلها في الساعة الخامسة من النهار، وقد تقدم في ترجمة بهاء الدين زهير المذكور طرف من حديثه وملكه للديار المصرية، حسبما شرحناه ثم.

محمد بن عبد الله بن طاهر

أبو العباس محمد بن عبد الله بن طاهر الخزاعي؛ كان شيخاً فاضلاً وأديباً شاعراً، وهو أمير ابن أمير، ولي إمارة بغداد في أيام المتكل، وكان مألفاً لأهل العلم والدب؛ وقد أسند حديثاً عن أبي الصلت.

قال أحمد بن يزيد المهلبي: كانت لأبي حاجة إلى محمد بن عبد الله بن طاهر فكتب إليه:

ألا مبلغ عني الأمير محمداً ... مقالاً له فضل على القول واسع

لنا حاجة إن أمكنتك قضيتها ... وإن هي لم تمكن فعذرك واسع

فأنت وإن كنت الجواد بعينه ... فلست بمعطي الناس ما الله مانع

فإن يور زند الطاهري فبالحرى ... وإلا فقد تنبو السيوف القواطع

وقيل: كان الحسن بن وهب عند محمد بن عبد الله بن طاهر فعرضت لها سحابة ومطرت، فقال كل من حضر فيها شيئاً، فقال الحسن:

هطلتنا السماء هطلاً داركاً ... عارض المرزمان فيها السماكا

قلت للبرق إذ توقد فيها ... يا زناد السماء من أوراكا

أحببت نأيته فجفاكا ... فهو العارض الذي استبكاها

أم تشبهت بالأمير أبي العب ... اس في جوده، فلست هناكا

قال إبراهيم بن عرفة: في سنة ثلاث وخمسين ومائتين لإحدى عشرة ليلة خلت من ذي القعدة انكسف القمر في أول الليل حتى ذهب أكثره فلما انتصف الليل مات محمد بن عبد الله بن طاهر، وكان به خراج في حلقه واشتد حتى عولج بالفتائل؛ وفي وفاته يقول أخوه عبد الله بن عبد الله بن طاهر:

هد ركن الخلافة الموطود ... زال عنها السرادق الممدود

كسف البدر والأمير جميعاً ... وانجلى البدر والأمير عميد

ودفن في مقابر قرش رحمه الله تعالى.

الوزير ابن الزيات

أبو جعفر محمد بن عبد الملك بن أبان بن حمزة، المعروف بابن الزيات، وزير لمعتصم؛ كان جده أبان رجلاً من أهل جبل من قرية كان بها يقال لها الدسكرة يجلب الزيت من مواضعه إلى بغداد، فسمت بمحمد المذكور همته – على ما سيأتي ذكره فيه – وكان من أهل الأدب الظاهر والفضل الباهر، أديباً فاضلاً بليغاً عالماً بالنحو واللغة.

ذكر ميمون بن هرون الكاتب أن أبا عثمان المازني لما قدم بغداد في أيام المعتصم كان أصحابه وجلساؤه يخوضون بين يديه في علم النحو، فإذا اختلفوا فيما يقع فيه الشك يقول لهم أبو عثمان: ابعثوا إلى هذا الفتى الكاتب؛ يعني محمد بن عبد الملك المذكور، فاسألوه واعرفوا جوابه، فيفعلون ويصدر

جوابه بالصواب الذي يرتضيه أبو عثمان ويوقفهم عليه.

وقد ذكر دعبل بن علي الخزاعي المقدم ذكره في كتاب "طبقات الشعراء" وذكره أبو عبد الله هرون بن المنجم - الآتي ذكره إن شاء الله تعالى - في كتاب "البارع" وأورد له من شعره عدة مقاطيع.

وكان في أول أمره من جملة الكتاب، وكان أحمد بن عمار بن شاذي البصري وزير المعتصم، فورد على المعتصم كتاب من بعض العمال فقرأه الوزير عليه، وكان في الكتاب ذكر الكلإ، فقال له المعتصم، ما الكلأ؟ فقال: لا أعلم، وكان قليل المعرفة بالأدب، فقال المعتصم: خليفة أمي ووزير عامي؟! وكان المعتصم ضعيف الكتابة، ثم قال: أبصروا من بالباب من الكتاب، فوجدوا محمد بن عبد الملك المذكور، فأدخلوه إليه فقال له: ما الكلأ؟ فقال الكلأ العشب على الإطلاق، فإن كان رطباً فهو الخلا، فإذا يبس فهو الحشيش، وشرع في تقسيم أنواع النبات، فعلم المعتصم فضله، فاستوزره وحكمه وبسط يده.

وقد ذكرنا ما كان بينه وبين القاضي أحمد بن أبي داود الإيادي في ترجمته.

وحكى أبو عبد الله البيمارستاني أن أبا حفص الكرماني كاتب عمرو بن مسعدة كتب إلى محمد بن عبد الملك الزيات المذكور: أما بعد فإنك ممن إذا غرس سقى، وإذا أسس بنى ليستتم بناء أسه ويجتني ثمره غرسه، وبناؤك في ودي وقد وهى وشارف الدروس، وغرسك عندي قد عطش وأشفى على اليبوس، فتدارك بناء ما أسست وسقي ما غرست، فقال البيمارستاني: فحدثت بذلك أبا عبد الرحمن العطوي، فقال في هذا المعنى يمدح محمد بن عمران بن موسى بن يحيى بن خالد بن برمك، ثم وجدت الأبيات في ديوان أبي نواس، صنعة الأصبهاني، وهي:

إن البرامكة الكرام تعلموا ... فعل الجميل وعلموه الناسا

كانوا إذا غرسوا سقوا وإذا بنوا ... لا يهدمون لما بنوه أساسا

وإذا هم صنعوا الصنائع في الورى ... جعلوا لها طول البقاء لباسا

فعلام تسقيني وأنت سقيتنيكأس المودة من جفائك كاسا

آنستني متفضلاً، أفلا ترى ... أن القطيعة توحش الإيناسا؟

وقد تقدم في ترجمة عبد المحسن الصوري هذا المعنى أيضاً.

ولابن الزيات المذكور أشعار رائقة، فمن ذلك قوله:

سماعاً يا عباد الله مني ... وكفوا عن ملاحظة الملاح

فإن الحب آخره المنايا ... وأوله يهيج بالمزاح

وقالوا دع مراقبة الثريا ... ونم فالليل مسود الجناح

فقلت وهل أفاق القلب حتى ... أفرق بين ليلي والصباح

وله على ما نقلته من خط بعض الأفاضل:

ظالم ما علمته ... معتدٍ لا عدمته

مطمع في الوصال مم ... تنع حين رمته

قال إذ أفصح البكا ... ء بما قد كتمته

لو بكى طول عمره ... بدم ما رحمته

رب هم طويت في ... ه وغيظ كظمته
وحياة سئمتها ... والهوى ما سئمته

وذكر الخطيب في "تاريخ بغداد" أن ابن الزيات المذكور كان يعشق جارية من جواري القيان، فبيعت من رجل من أهل خراسان، فأخرجها، قال: فذهل عقل ابن الزيات حتى غشي عليه، ثم إنه أنشأ يقول:

يا طول ساعات ليل العاشق الدنف ... وطول رعيته للنجم في السدف
ماذا أوارى ثيابي من أخي حرق ... كأنما الجسم منه دقة الألف
ماذا قال يا أسفا يعقوب من كمد ... إلا لطول الذي لاقى من الأسف
من سهر أن يرى ميت الهوى دنفا ... فليستدل على الزيات وليقف

ومن شعره ما ذكره في كتاب "البارع" يرثي جاريته، وقد خلفت له ابن ثمان سنين، وكان يبكي عليها فيتألم بسببه وهو:

ألا من رأى الطفل المفارق أمه ... بعيد الكرى عيناه تنسكبان
رأى كل أم وابنها غير أمه ... يبيتان تحت الليل ينتجيان
وبات وحيداً في الفراش تجيبه ... بلابل قلب دائم الخفقان
فهبني أطلت الصبر عنها لأنني ... جليد، فمن للصبر بابن ثمان؟
ضعيف القوى لا يعرف الصبر جسمه ... ولا يأتسي بالناس في الحدثان

وله ديوان رسائل جيد.

ومدحه البحتري بقصيدته الدالية واحسن في مصف خطه وبلاغته، وقال في آخرها:

ورأى الخلق مجمعين على فض ... لك من بين سيد ومسود
عرف العالمون فضلك بالع ... م وقال الجهال بالتقليد

ولأبي تمام فيه مدائح وجماعة من شعراء عصره، ولإبراهيم بن العباس الصولي المقدم ذكره فيه مقاطيع يعبث به فيها، فمن ذلك قوله:

أخ كنت آوي منه عند إدركاره ... إلى ظل آباء من العز شامخ
سعت نوب الأيام بيني وبينه ... فأقلعن منه عن ظلوم وصارخ
وإني وإعدادي لدهري محمداً ... كملتمسٍ إطفاءه نار نافخ

ومن ذلك قوله أيضاً:

دعوتك عن بلوى ألمت ضرورة ... فأوقدت عن طعن علي سعيرها
وإني إذا أدعوك عند ملمة ... كداعيةٍ عند القبور نصيرها

له أيضاً فيه:

أبا جعفر خف نبوة بعد دولة ... وقصر قليلاً عن مدى غلوائكما
فإن يك هذا اليوم يوماً حويته ... فإن رجائي في غدٍ كرجائكما

وله فيه أيضاً:

قلت لها حين أكثرت عذلي: ويحك! أزرت بنا المروءات

قالت: فأين السراة؟ قلت لها: لا تسألي عنهم فقد ماتوا

قالت :ولم ذاك؟ قلت لها: هذا وزير الإمام زيات

وله فيه أيضاً:

لئن صدرت بي زورة عن محمد بمنع لقد فارقته ومعي قدري

أليست يداً عندي لمثل محمد صيانته عن مثل معروفه شكري

وله فيه أيضاً:

فإن تكن الدنيا أنالتك ثروة فأصبحت ذا يسر وقد كنت ذا عسر

فقد كشف الإثراء منك خلائفاً من اللؤم كانت تحت ثوب من الفقر

وله فيه أيضاً:

من يشتري مني إخاء محمد أم من يريد إخاءه مجانا

أم من يخلص من إخاء محمد وله مناه كائناً من كانا

وله أشياء غير ذلك، وما زالت الأشراف تهجي وتمدح.

وفيه يقول بعضهم، ولا أذكره الآن، ثم ظفرت به بعد ذلك، وهو القاضي أحمد بن أبي داود الإيادي – المقدم ذكره – وكان ابن الزيات المذكور قد هجاه بتسعين بيتاً، فعمل القاضي أحمد فيه بيتين وهما:

أحسن من تسعين بيتاً سدى جمعك معناهن في بيت

ما أحوج الملك إلى مطرةٍ تغسل عنه وضر الزيت

ونسب صاحب "العقد" هذين البيتين إلى علي بن الهجم، والأول حكاه في "الأغاني" والله تعالى أعلم؛ "فأجابه ابن الزيات عن بيتيه بقوله، معرضاً بأن بعض أجداد القاضي كان يبيع القار:

يا أيها الطامع في هجونا نفسك قد عرضت للموت

الزيت لا يزري بأحسابنا أحسابنا معروفة البيت

قيرتم الملك فلم ننقه حتى غسلنا القار بالزيت"

ولما مات المعتصم وقام بالأمر ولده الواثق هارون أنشد ابن الزيات المذكور:

قد قلت إذ غيبوك وامصرفوا في خير قبر لخير مدفون

لن يحبر الله أمة فقدت مثلك إلا بمثل هارون

وأقره الواثق على ما كان عليه في أيام المعتصم، بعد أن كان متسخطاً عليه في أيام أبيه وحلف يميناً مغلظة أنه ينكبه إذا صار الأمر إليه، فلما ولي أمر الكتاب أن يكتبوا ما يتعلق بأمر البيعة، فكتبوا فلم يرض ما كتبوه، فكتب ابن الزيات نسخة رضيها، وأمر بتحرير المكاتبات عليها، فكفر عن يمينه

وقال: عن المال والفدية عن اليمين عوض، وليس عن الملك وابن الزيات عوض. فلما مات وتولى المتوكل كان في نفسه منه شيء كثير، فسخط عليه بعد ولايته بأربعين يوماً، فقبض عليه واستصفى أمواله، وكان سبب قبضه عليه أنه لما مات الواثق بالله أخو المتوكل أشار محمد المذكور بتولية ولد الواثق وأشار القاضي أحمد ابن دواد المذكور بتولية المتوكل وقام في ذلك وقعد حتى عممه بيده وألبسه البردة وقبله بين عينيه وكان المتوكل في أيام الواثق يدخل على الوزير المذكور فيتجهمه ويغلظ عليه في الكلام، وكان يتقرب بذلك إلى قلب الواثق فحقد المتوكل ذلك عليه، فلما ولي الخلافة خشي إن نكبه عاجلاً أن يستر أمواله فيفوته، فاستوزره ليطمئن، وجعل القاضي أحمد يغريه ويجد لذلك عنده موقعاً، فلما قبض عليه ومات في التنور – كما سيأتي ذكره – لم يجد من جميع أملاكه وضياعه وذخائره إلا ما كانت قيمته مائة ألف دينار، فندم على ذلك و لم يجد عنه عوضاً، وقال للقاضي أحمد: أطعمتني في باطل وحملتني على شخص لم أجد عنه عوضاً.

وكان ابن الزيات المذكور قد اتخذ تنوراً من حديد وأطراف مساميره المحددة إلى داخل، وهي قائمة مثل رؤوس المسال، في أيام وزارته، وكان يعذب فيه المصادرين وأرباب الدواوين المطلوبين بالأموال، فكيفما انقلب واحد منهم أو تحرك من حرارة العقوبة تدخل المسامير في جسمه، فيجدون لذلك أشد الألم لم يسبقه أحد إلى هذه المعاقبة، وكان إذا قال أحد منهم أيها الوزير ارحمني، فيقول له: الرحمة خور في الطبيعة، فلما اعتقله المتوكل أمر بإدخاله في التنور، قيده بخمسة عشر رطلاً من الحديد فقال: يا أمير المؤمنين ارحمني، فقال له: لرحمة خور في الطبيعة، كما كان يقول للناس، فطلب دواة وبطاقة فأحضرتا إليه فكتب:

هي السبيل فمن يوم إلى يوم	كأنه ما تريك العين في النوم
لا تجزعن، رويداً إنها دول	دنيا تنقل من قوم إلى قوم

وسيرها إلى المتوكل، فاشتعل عنها و لم يقف عليها إلا في الغد، فلما قرأها المتوكل أمر بإخراجه، فجاؤوا إليه فوجدوه ميتاً، وذلك في سنة ثلاث وثلاثين ومائتين، وكانت مدة إقامته في التنور أربعين يوماً، وكان القبض عليه لثمان مضين من صفر من السنة المذكورة.

ولما مات وجد في التنور مكتوب بخطه قد خطه بالفحم على جانب لتنور يقول:

من له عهد بنوم	يرشد الصب إليه
رحم الله رحيماً	دل عيني عليه
سهرت عيني	ونامت عين من هنت لديه

وقال أحمد الأحوال: لما قبض على ابن الزيات تلطفت إلى أن وصلت إليه فرأيته في حديد ثقيل، فقلت له: يعز علي ما أرى، فقال:

سل ديار الحي من غيرها	وعفاها ومحا منظرها
وهي الدنيا إذا ما أقبلت	صيرت معروفها منكرها
إنما الدنيا كظل مائل	نحمد الله كذا قدرها

ولما جعل في التنور قال له خادمه: يا سيدي، قد صرت إلى ما صرت إليه وليس لك حامد، فقال: وما نفع البرامكة صنعهم؟ فقال: ذكرك لهم هذه الساعة، فقال: صدقت، رحمه الله تعالى.

ب الوزير ابن الزيات

كان شاعراً مجيداً وفاضلاً نبيلاً، وزر لثلاثة خلفاء من بني العباس وهم: المعتصم والواثق والمتوكل، وكان سبب وزارته ما حكى الصولي عن سعيد بن سلم قال: ورد كتاب من الجبل عن المعتصم بوصف خصب السنة وكثرة الكلأ فقال لأحمد بن عمار: ما الكلأ؟ فلم يعرفه، فدعا ابن عبد الملك وسأله عنه فقال: ما رطب من النبات فهو كلأ، وإذا جف فهو حشيش، ويسمى أول ما ينبت الرطب والبقل، فقال لأحمد: أنت انظر في الأمور والدواوين والأعمال، وهذا يعرض علي، فعرض عليه أياماً ثم استوزره؛ وكان محمد المذكور قبل ذلك يلي أمور المطبخ والفرش.

وكان الواثق لما ولي أمر أن يقوم جميع الناس لابن الزيات، ولم يجعل في ذلك رخصة لأحد، فكان ابن أبي داود يستعجل صلاة الضحى إذا أحس بقدومه أنفة من القيام له في دار السلطان، وامتثالاً للأمر، فصنع ابن الزيات:

صلى الضحى لما استفاد عداوتي ... وأراه ينسك بعدها ويصوم

لا تأمنن عداوة مسموة ... تركتك تقعد تارة وتقوم

وقد سبق شيء من خبره معه في ترجمته.

ومن شعر محمد المذكور في جارته أم ابنه عمر، وقد ماتت:

يقول لي الخلان لو زرت قبرها ... فقلت وهل غير الفؤاد لها قبر

على حين لم أحدث فاجهل فقدها ... ولم أبلغ السن التي معها الصبر

وشعره كله نخب، ونقتصر منه على هذا القدر ففيه كفاية.

وكان أبوه زياتاً إلا انه كان كثير المال؛ وكان محمد المذكور شديد القسوة صعب العريكة لا يرق لأحد ولا يرحمه، وكان يقول: الرحمة خور في الطبيعة، ووقع يوماً على رقعة رجل توسل إليه بقرب الجوار منه: الجوار للحيطان، والتعطف للنسوان.

فلما أراد المتوكل قتله أحضره وأحضر تنور خشب فيه مسامير من حديد أطرافها إلى داخل التنور تمنع من يكون فيه من الحركة، كان محمد اتخذه ليعذب فيه من يطالبه – وهو أول من عمل ذلك وعذب فيه ابن أسباط المصري – وقال: أجرينا فيك حكمك في الناس، فاجلس فيه، فمات بعد ثلاث وذلك في سنة ثلاثة وثلاثين ومائتين؛ وقيل إنه كتب في التنور بفحمه:

من له عهد بنوم ... يرشد الصب إليه

رحم الله رحيماً ... دل عيني عليه

ودفن لم يعمق قبره فنبشته الكلاب وأكلته، رحمه الله تعالى.

وكان الجاحظ منقطعاً إليه فخاف أن يؤخذ مع أسبابه، فغاب وكان يقول: كدت أكون. وحكى ابن أبي العيناء قال: كنت عند ابن أبي داود بعد قتل ابن الزيات فجيء بالجاحظ مقيداً وكان في أسبابه وناحيته، وعند ابن أبي محمد بن منصور، وهو إذ ذاك يلي قضاء فارس وخورستان، فقال ابن أبي داواد للجاحظ، ما تأويل هذه الآية "وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة، إن أخذه أليم شديد". هود: -102 – فقال: تلاوتها تأويلها أعز الله القاضي، فقال: جيئوا بحداد، فقال اعز الله القاضي، ليفك عني أو ليزيدني؟ فقال: بل ليفك عنك، فجيء بالحداد وغمره بعض أهل المجلس أن يعنف بساق الجاحظ ويطيل أسره قليلاً، ففعل، فلطمه الجاحظ وقال: اعمل عمل شهر في يوم وعمل يوم في ساعة وعمل ساعة في لحظة، فإن الغرر على ساقي وليس بجذع ولا ساجة، فضحك ابن أبي داود وأهل المجلس منه، وقال ابن أبي داود لمحمد بن منصور: أنا أثق بظرفه ولا أثق بدينه.

أبو الفضل ابن العميد

أبو الفضل محمد بن العميد أبي عبد الله الحسين بن محمد الكاتب، المعروف بابن العميد، والعميد لقب والده، لقبوه بذلك على عادة أهل خراسان في إجرائه مجرى التعظيم، وكان فيه فضل وأدب وله ترسل.

وأما ولده أبو الفضل فإنه كان وزير ركن الدولة أبي علي الحسن بن بويه الديلمي والد عضد الدولة – وقد تقدم ذكرهما – وتولى وزارته عقيب موت وزيره أبي علي ابن القمي، وذلك في سنة ثمان وعشرين وثلثمائة، وكان متوسعاً في علوم الفلسفة والنجوم، وأما الأدب والترسل فلم يقاربه فيه أحد في زمانه، وكان يسمى الجاحظ الثاني، وكان كامل الرياسة جليل المقدار، من بعض أتباعه الصاحب ابن عباد – المقدم ذكره – ولأجل صحبته قيل له الصاحب، وكان له في الرسائل اليد البيضاء.

قال الثعالبي في كتاب "اليتيمة": كان يقال: بدئت الكتابة بعبد الحميد، وختمت بابن العميد، وقد تقدم ذكر عبد الحميد.

وكان الصاحب ابن عباد قد سافر إلى بغداد، فلما رجع إليه قال له: كيف وجدتها؟ فقال: بغداد في البلاد، كالأستاذ في العباد، وكان يقال له "الأستاذ" وكان سائساً مدبراً للملك قائماً بحقوقه.

وقصد جماعة من مشاهير الشعراء من البلاد الشاسعة، ومدحوه بأحسن المدائح، فمنهم أبو الطيب المتنبي، ورد عليه وهو بأرجان، ومدحه بقصائد إحداهما التي أولها:

باد هوالك صبرت أو لم تصبرا ... وبكاك إن لم يجر دمعك أو جرى

ومنها عند مخلصها:

أرجان أيتها الجياد فإنه ... عزمي الذي يذر الوشيج مكسرا

لو كنت أفعل ما اشتهيت فعاله ... ما شق كوكبك العجاج الأكدرا

أمي أبا الفضل المبر، أليتي ... لأيممن أجل بحر جوهرا

أفتى برؤيته الأنام وحاش لي ... من أكون مقصرا أو مقصرا

ومنها:

من مبلغ الأعراب أني بعدها ... شاهدت رسطاليس والإسكندرا

ومللت نحر عشارها فأضافني ... من ينحر البدر النضار لمن قرى

وسمعت بطليموس دارس كتبه ... متملكاً متبدياً متحضرا

ولقيت كل الفاضلين كأنما ... رد الإله نفوسهم والأعصرا

نسقوا لنا نسق الحساب مقدما ... وأتى فذلك إذا أتيت مؤخرا

وهي من القصائد المختارة. وقال ابن الهمداني في كتاب "عيون السير": أعطاه ثلاثة آلاف دينار.

وقد استعمل أرجان بتخفيف الراء، وهي مشددة على ما ذكره الجوهري في كتاب "الصحاح" والحازمي في كتاب "ما اتفق لفظه وافترق مسماه" وابن الجواليقي في كتاب "المعرب". وقد سبق ذكره هذه القصيدة في ترجمة أبي الفضل جعفر بن الفرات، وأن المتنبي نظمها فيه وهو بمصر، فلم يرضه لم ينشده إياها، فلما توجه إلى بلاد فارس صرفها لابن العميد.

وكان أبو نصر عبد العزيز بن نباتة السعدي – المقدم ذكره – قد ورد عليه وهو بالري وامتدحه بقصيدته التي أولها:

برح اشتياق وادكار ... ولهيب أنفاس حرار

ومدامع عبراتها ... ترفض عن نوم مطار

لله قلبي ما يجن ... من الهموم وما يواري

لقد انقضى سكر الشبا ... ب وما انقضى وصب الخمار

وكبرت عن وصل الصغا ... ر وما سلوت عن الصغار

سقياً لتغليسي إلى ... باب الرصافة وابتكاري

أيام أخطر في الصبا ... نشوان مسحوب الإزار

حجي إلى حجر الصرا ة وفي حدائقها اعتماري
ومواطن اللذات أو طاني ودار اللهو داري

ومنها:

لم يبق لي عيش يلذ سوى معاقرة العقار
حسبي بألحان قمر ت بهن ألحان القماري
وإذا استهل ابن العمي د تضاءلت ديم القطار
خرق صفت أخلاقه صفو السبيك من النصار
فكأنما رفدت موا هبه بأمواج البحار
وكأن نشر حديثه نشر الخزامى والعرار
وكأننا مما تف رق راحتاه في نثار
كلف بحفظ السر تح سب صدره ليل السرار

ومنها:

إن الكبار من الأمو ر تنال بالهمم الكبار
وإلى أبي الفضل اتبع ت هواجس النفس السواري

فتأخرت صلته عنه، فشفع هذه القصيدة بأخرى وأتبعها برقعة، فلم يزده ابن العميد على الإهمال مع ورقة حاله التي ورد عليها إلى بابه، فتوسل إلى أن دخل عليه يوم المجلس وهو حفل بأعيان الدولة ومقدمي أرباب الديوان، فوقف بين يديه وأشار إليه بيده، وقال: أيها الرئيس، إني لزمتك لزوم الظل، وذللت لك ذل النعل، وأكلت النوى المحرق انتظاراً لصلتك، والله ما بي من الحرمان، ولكن شماتة الأعداء، قوم نصحوني فاغتششتهم، وصدقوني فاتهمتهم، فبأي وجه ألقاهم وبأي حجة أقاومهم؟ و لم أحصل من مديح بعد مديح ومن نثر بعد نظم إلا على ندم مؤلم ويأس مسقم؟ فإن كان للنجاح علامة فأين هي وما هي؟ إن الذين تحسدهم على ما مدحوا به كانوا من طينتك، وإن الذين هجوا كانوا مثلك، فزاحم بمنكبك أعظمهم سناماً وأنورهم شعاعاً، وأشرفهم بقاعاً، فحار ابن العميد وشده و لم يدر ما يقول، فاطرق ساعة ثم رفع رأسه وقال: هذا وقت يضيق عن الإطالة منم في الاستزادة، وعن الإطالة مني في المعذرة، وإذا تواهبنا ما دفعنا إليه استأنفنا ما نتحامد عليه، فقال ابن نباتة: أيها الرئيس، هذه نفثة صدر دوي منذ زمان، وفضلة لسان قد خرس منذ دهر، والغني إذا مطل لئيم، فاستشاط ابن العميد، وقال: والله ما استوجبت هذا العتب من أحد من خلق الله تعالى، ولقد نافرت العميد من دون ذا حتى دفعنا إلى قري عائم ولجاج قائم، ولست ولي نعمتي فاحتملك، ولا صنيعتي فأغضي عليك، وإن بعض ما أقررته في مسامعي ينقض مرة الحليم ويبدد شمل الصبر، هذا وما استقدمتك بكتاب ولا استدعيتك برسول، ولا سألتك مدحي ولا كلفتك تقريضي؛ فقال ابن نباتة: صدقت أيها الرئيس ما استقدمتني بكتاب ولا استدعيتني برسول، ولا سألتني مدحك ولا كلفتني تقريضك، ولكن جلست في صدر ديوانك بأبهتك وقلت: لا يخاطبني أحد إلا بالرياسة، ولا ينازعني خلق في أحكام السياسة، فإني كاتب ركن الدولة وزعيم الأولياء والحضرة، والقيم بمصالح المملكة، فكأنك دعوتني بلسان الحال و لم تدعني بلسان المقال، فثار ابن العميد مغضباً وأسرع في صحن داره إلى أن دخل حجرته، وتقوض المجلس وماج الناس، وسمع ابن نباتة وهو في صحن الدار ماراً يقول: والله إن سف التراب والمشي على الجمر أهون من هذا، فلعن الله الأدب إذا كان بائعه مهيناً له، ومشتريه مماسكاً فيه. فلما سكن غيظ ابن العميد وثاب إليه حلمه التمسه من الغد ليعتذر إليه ويزيل آثار ما كان منه، فكأنما غاص في سمع الأرض

وبصرها، فكانت حسرة في قلب ابن العميد إلى أن مات.

ثم إني وجدت هذه القصيدة وصورة هذا المجلس منسوبين إلى غير ابن نباتة، وكشفت ديوان ابن نباتة فلم أر هذه القصيدة فيه، والله أعلم بالصواب، ثم وجدت في كتاب "الوزيرين" تأليف أبي حيان التوحيدي هذه القصيدة لأبي محمد عبد الرزاق بن الحسين المعروف بابن أبي الثياب البغدادي اللغوي المنطيقي الشاعر، وهذه المخاطبة لشاعر آخر من أهل الكرخ يعرف بممويه والله أعلم.

وكان أبو الفرج أحمد بن محمد الكاتب مكيناً عند مخدومه ركن الدولة ابن بويه، وله الرتبة العلية لديه، وكان ابن العميد لا يوفيه حقه من الإكرام، فعاتبه مراراً فلم يفد، فكتب إليه:

مالك موفور فما باله	أكسبك التيه على المعدم
ولم إذا جئت نهضنا وإن	جئنا تطاولت ولم تتمم؟
وإن خرجنا لم تقل مثل ما	نقول قدم طرفه قدم
إن كنت ذا علم فمن ذا الذي	مثل الذي تعلم لم يعلم
ولست في الغارب من دولة	ونحن من دونك في المنسم
وقد ولينا وعزلنا كما	أنت فلم نصغر ولم تعظم
تكافأت أحوالنا كلها	فصل على الإنصاف أو فاصرم

وللصاحب ابن عباد فيه مدائح كثيرة، وكان ابن العميد قد قدم مرة إلى أصبهان والصاحب فيها فكتب إليه:

قالوا ربيعك قد قدم	قلت البشارة إن سلم
أهو الربيع أخو الشتا	ء أم الربيع أخو الكرم
قالوا الذي بنواله	أمن المقل من العدم
قلت الرئيس ابن العمي	د إذاً، فقالوا لي نعم

وكان ابن العميد كثير الإعجاب بقول بعضهم:

وجاءت إلى ستر على الباب بيننا	مجاف وقد قامت عليه الولائد
لتسمع شعري وهو يقرع قلبها	بوحي تؤديه إليه القصائد
إذا سمعت مني لطيفاً تنفست	له نفساً تنقد منه القلائد

ولابن العميد شعر، وما أعجبني الذي وقفت عليه منه حتى أثبته، سوى ما ذكره ابن الصابي في كتاب "الوزراء"، وهو قوله:

رأيت في الوجه طاقة بقيت	سوداء عيني تحب رؤيتها
فقلت للبض إذ تروعها	بالله إلا رحمت وحدتها
فقل لبث السوداء في وطنٍ	تكون فيه البيضاء ضرتها

وذكر له الأمير أبو الفضل الميكالي في كتاب "المنتحل":

آخ الرجال من الأبا	عد والأقارب لا تقارب

إن الأقارب كالعقا ... رب بل أضر من العقارب

وتوفي ابن العميد المذكور في صفر، وقيل في المحرم بالري، وقيل ببغداد، سنة ستين وثلثمائة، رحمه الله تعالى.

وذكر أبو الحسين هلال بن المحسن بن إبراهيم الصابي في كتاب "الوزراء" أنه توفي في سنة تسع وخمسين وثلثمائة، وكذا قال جده إبراهيم الصابي في كتاب "التاجي"، والله أعلم.

وكان أبو الفضل ابن العميد يعتاده القولنج تارة والنقرس أخرى، تسلمه هذه إلى هذه، وقال لسائل سأله: أيهما أصعب عليك وأشق؟ قال: إذا عارضني النقرس فكأني بين فكي سبع يمضغني، وإذا اعتراني القولنج وددت لو استبدلت النقرس عنه، ويقال: إنه رأى أكاراً في بستان يأكل خبزاً ببصل ولبن وقد أمعن منه، فقال: وددت لو كنت كهذا الأكار آكل ما أشتهي؛ قلت: وهذه شيمة الدنيا، قل أن تصفو من الشوائب.

ورأيت في بعض المجاميع أن الصاحب بن عباد عبر على باب داره بعد وفاته فلم ير هناك أحداً بعد أن كان الدهليز يغص من زحام الناس، فأنشد:

أيها الربع لم علاك اكتئاب ... أين ذاك الحجاب والحجاب

أين من كان يفرغ الدهر منه ... فهو اليوم في التراب تراب

قل بلا رقبة وغير احتشام ... مات مولاي فاعتراني اكتئاب

ثم رأيت في كتاب "اليميني" للعتبي هذه الأبيات، وقد نسبها إلى أبي العباس الضبي، ثم قال: ويقال إنها لأبي بكر الخوارزمي، وقد اجتاز بباب الصاحب ابن عباد، ولا يمكن أن تكون على هذا التقدير للخوارزمي لأنه مات قبل الصاحب كما تقدم ذكره.

ومثل هذه الحكاية ما حكاه علي بن سليمان قال: رأيت بالري دار قوم لم يبق منها إلا رسم بابها، وعليه مكتوب:

اعجب لصرف الزمان معتبرا ... فهذه الدار من عجائبها

عهدي بها بالملوك زاهية ... قد سطع النور في جوانبها

تبدلت وحشة بساكنها ... ما أوحش الدار بعد صاحبها

ولما مات رتب مخدومه ركن الدولة ولده ذا الكفايتين أبا الفتح علياً مكانه في دست الوزارة، وكان جليلاً نبيلاً سرياً فضائل وفواضل، وهو الذي كتب إليه المتنبي الأبيات الخمسة الدالية الموجودة في ديوانه أثناء مدائح والده، ولا حاجة إلى ذكرها.

وذكره الثعالبي في "اليتيمة" في ترجمة والده، وقال: كتب إلى صديق له يستهديه خمراً مستوراً عن والده "قد اغتنمت الليلة –أطال الله بقاءك يا سيدي –رقدة من عين الدهر، وانتهزت فرصة من فرص العمر، وانتظمت مع أصحابي في سمط الثريا، فإن لم تحفظ علينا هذا النظام، بإهداء المدام، عدنا كبنات نعش والسلام" وذكر له مقاطيع من الشعر. ولم يزل أبو الفتح المذكور في وزارة ركن الدولة إلى أن توفي مؤيد الدولة فاستوزره أيضاً، وأقام على ذلك مدة مديدة، وكانت بينه وبين الصاحب ابن عباد منافسة، ويقال: إنه أغرى قلب مؤيد الدولة عليه، فظهر له منه التنكر والإعراض، وقبض عليه في بعض شهور سنة ست وستين وثلثمائة، وله في اعتقاله أبيات شرح فيها حاله. وقال الثعالبي: اجتاح ماله وقطع في العقوبة أنفه وجز لحيته – وقال غيره: وقطع يديه – فلما أيس من نفسه وعلم أنه لا مخلص له مما هو فيه ولو بذل جميع ما تحتوي عليه يده، فتق جيب جبة كانت عليه واستخرج منها رقعة فيها تذكرة بجميع ما كان له ولوالده من الذخائر والدفائن، وألقاها في النار، فلما علم أنها احترقت قال للموكل به: افعل ما أمرت به. فوالله لا يصل إلى صاحبك من أموالنا درهم واحد، فما زال يعرضه على أنواع العذاب حتى تلف، وكان القبض عليه يوم الأحد ثامن عشر ربيع الآخر سنة ست وستين وثلثمائة، وكانت ولادته سنة سبع وثلثمائة.

ولما انصرف أهل خراسان في سنة خمس وخمسين وثلثمائة أيام الغزاة من الري بعد الحادثة التي جرت هناك – وهي واقعة مشهورة ودفع الله شرها – شرع الرئيس أبو الفضل ابن العميد في بناء حائط عظيم دار مخدومه ركن الدولة، فقال له عارض الجيش: هذا كما يقال: الشد بعد الضراط، فقال ابن

العميد: هذا أيضاً جيد، لئلا تنفلت أخرى، فاستحسن منه هذا الجواب.
وفيه يقول بعض أصحابه:

آل العميد وآل برمك ما لكم قل المعين لكم وذل الناصر
كان الزمان يحبكم فبدا له إن الزمان هو الخؤون الغادر

وتولى موضعه الصاحب ابن عباد – وقد تقدم ذكره في ترجمته فينظر هناك في حرف الهمزة.
وكان أبو الفتح المذكور قبل أن يقتل بمدة قد لهج بإنشاد هذين البيتين:

دخل الدنيا أناس قبلنا رحلوا عنها وخلوها لنا
ونزلناها كما قد نزلوا ونخليها لقوم بعدنا

ومن المنسوب إلى أبي الفتح ابن العميد:

يقول لي الواشون: كيف تحبها؟ فلت لهم: بين المقصر والغالي
ولولا حذاري منهم لصدقتهم فقلت :هوى لم يهوه قط أمثالي
وكم من شفيق قال: مالك واجما؟ فقلت: ترى ما بي وتسأل عن حالي

وكان أبو حيان علي بن محمد التوحيدي البغدادي قد وضع كتاباً سماه "مثالب الوزيرين" ضمنه معايب أبي الفضل ابن العميد المذكور والصاحب ابن عباد، وتحامل عليهما وعدد نقائصهما، وسلبهما ما اشتهر عنهما من الفضائل والإفضال، وبالغ في التعصب عليهما وما انصفهما، وهذا الكتاب من الكتب المحدودة، ما ملكه أحد إلا وتعكست أحواله، ولقد جربت ذلك وجربه غيري على ما أخبرني من أثق به. وكان أبو حيان المذكور فاضلاً منصفاً له من الكتب المشهور الإمتاع والمؤانسة في مجلدين، وكتاب وكتاب البصائر والذخائر وكتاب الصديق والصداقة في مجلد واحد أيضاً وكتاب المقابسات في مجلد أيضاً، وكتاب "مثالب الوزيرين" في مجلد واحد أيضاً، وغير ذلك، وكان موجوداً في السنة الأربعمائة، ذكر في كتاب "الصديق والصداقة".
والتوحيدي: بفتح التاء المثناة من فوقها وسكون الواو وكسر الحاء المهملة وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها دال مهملة، ولم أر أحداً ممن وضع كتب الأنساب تعرض إلى هذه النسبة، لا السمعاني ولا غيره، لكن يقال إن أباه كان يبيع التوحيد ببغداد، وهو نوع من التمر بالعراق، وعليه حمل بعض من شرح ديوان المتنبي قوله:

يترشفن من فمي رشفات هن فيه أحلى من التوحيد

والله أعلم بالصواب.

ابن مقلة

أبو علي بن الحسين بن مقلة الكاتب المشهور؛ كان في أول أمره يتولى بعض أعمال فارس ويجبي خراجها، وتنقلت أحواله إلى أن استوزره الإمام المقتدر بالله، وخلع عليه لأربع عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول سنة ست عشرة وثلثمائة، وقبض عليه يوم الأربعاء لأربع عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى سنة ثماني عشرة وثلثمائة، ثم نفاه إلى بلاد فارس بعد أن صادره، ثم استوزره الإمام القاهر بالله، فأرسل إليه إلى فارس رسولاً يجيء به، ورتب له نائباً عنه، فوصل ابن نقلة من فارس بكرة يوم الخميس عيد الأضحى من سنة عشرين وثلثمائة، وخلع عليه، ولم يزل وزيره حتى اتهمه بمعاضدة علي بن بليق على الفتك به، وبلغ ابن مقلة الخبر، فاستتر في أول شعبان من سنة إحدى وعشرين وثلثمائة.

ولما ولي الرضي بالله، لست خلون من جمادى الأولى من سنة اثنتين وعشرين وكان المظفر بن ياقوت مستحوذاً على أمور الراضي، وكانت بينه وبين أبي علي الوزير وحشة، فقرر ياقوت المذكور مع الغلمان الحجرية أنه إذا جاء الوزير أبو علي قبضوا عليه، وأن الخليفة لا يخالفهم في ذلك، وربما سره هذا الأمر، فلما حصل الوزير في دهليز دار الخلافة وثب الغلمان عليه ومعهم ابن ياقوت المذكور فقبضوا عليه وأرسلوا إلى الراضي يعرفونه صورة الحال، وعددوا له ذنوباً وأسباباً تقضي ذلك، فرد جوابهم وهو يستصوب رأيهم فيما فعلوه، وذلك في يوم الاثنين لأربع عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى سنة أربع وعشرين وثلثمائة، واتفق رأيهم على تفويض الوزارة إلى عبد الرحمن بن عيسى بن داود بن الجراح، فقلده الراضي الوزارة، وسلم إليه أبا علي بن مقلة، فضربه بالمقارع وجرى عليه من المكاره بالتعليق وغيره من العقوبة شيء كثير، وأخذ خطه بألف ألف ينار، ثم خلص وجلس بطالاً في داره.

ثم إن أبا بكر محمد بن رائق استولى على الخلافة، وخرج عن طاعتها فانفذ إليه الراضي واستماله، وفوض إليه تدبير المملكة وجعله أمير الأمراء ورد إليه تدبير أعمال الخراج والضياع في جيمع النواحي، وأمر أن يخطب له على جميع المنابر، فقوي أمره وعظم شأنه وتصرف على حسب اختياره؛ واحتاط على أملاك ابن مقلة المذكور وضياعه وأملاك ولده أبي الحسين، فحضر إليه ابن مقلة وإلى كاتبه وتذلل لهما في معنى الإفراج عن أملاكه، فلم يحصل منهما إلا على المواعيد، فلما رأى ابن مقلة ذلك أخذ في السعي بابن رائق المذكور من كل جهة، وكتب إلى الراضي يشير عليه بإمساكه والقبض عليه، وضمن له أنه متى فعل ذلك وقلده الوزارة استخرج له ثلثمائة ألف ألف دينار، وكانت مكاتبته على يد علي بن هارون المنجم النديم – المقدم ذكره – فأطمعه الراضي بالإجابة إلى ما سأل، وترددت الرسائل بينهما في ذلك، فلما استوثق ابن مقلة من الراضي اتفقا على أن ينحدر إليه سراً ويقيم عنده إلى أن يتم التدبير، فركب من داره وقد بقي من شهر رمضان ليلة واحدة، واختار هذا الطالع لأن القمر يكون تحت الشعاع، وهو يصلح للأمور المستورة، فلما وصل إلى دار الخليفة لم يمكنه من الوصول إليه، واعتقله في حجره، ووجه الراضي من غد إلى ابن رائق، وأخبره بما جرى، وانه احتال على ابن مقلة حتى حصله في أسره وترددت بينهما المكاتبات في ذلك.

فلما كان رابع عشر شوال سنة ست وعشرين وثلثمائة، اظهر الراضي أمر ابن مقلة وأخرجه من الاعقتال، وحضر حاجب ابن رائق وجماعة من القواد وتقابلا، وكان ابن رائق قد التمس قطع يده اليمنى التي كتب بها تلك المطالعة، فلما انتهى كلامهما في المقابلة قطعت يده اليمنى ورد إلى محبسه، ثم ندم الراضي على ذلك وأمر الأطباء بملازمته للمداواة، فلازموه حتى برئ، وكان ذلك نتيجة دعاء أبي الحسن محمد بن شنبوذ المقرئ عليه بقطع اليد – وقد تقدم ذكر سبب ذلك في ترجمته – وذلك من عجيب الاتفاق.

وقال أبو الحسن ثابت بن سنان بن ثابت بن قرة الطبيب، وكان يدخل عليه لمعالجته: كنت إذا دخلت عليه في تلك الحال يسألني عن أحوال ولده أبي الحسين، فأعرفه استتاره وسلامته، فتطيب نفسه، ثم ينوح على يده ويبكي ويقول: خدمت بها الخلفاء وكتبت بها القرآن الكريم دفعتين، تقطع كما تقطع أيدي اللصوص؟ فأسليه وأقول له: هذا انتهاء المكروه وخاتمة القطوع فينشدني ويقول:

إذا ما مات بعضك فابك بعضا ... فإن البعض من بعض قريب

ثم عاد وراسل الراضي من الحبس بعد قطع يده وأطمعه في المال وطلب الوزارة وقال: إن قطع اليد ليس مما يمنع الوزارة، وكان يشد القلم على ساعده ويكتب به.

ولما قدم بحكم التركي من بغداد، وكان من المنتمين إلى ابن رائق أمر بقطع لسانه أيضاً فقطع، وأقام في الحبس مدة طويلة ثم لحقه ذرب، و لم يكن له من يخدمه، فكان يستقي الماء لنفسه من البئر، فيجتذب بيده اليسرى جذبة وبفمه الأخرى. وله أشعار في شرح حاله وما انتهى أمره إليه ورثاء يده والشكوى من المناصحة وعدم تلقيها بالقبول، فمن ذلك قوله:

ما سئمت الحياة لكن توثق ... ت بأيمانهم فبانت يميني

بعت ديني لهم بدنياي حتى ... حرموني دنياهم بعد ديني

ولقد حطمت ما استطعت بجهدي حفظ أرواحهم فما حفظوني
ليس بعد اليمين لذة عيش يا حياتي بانت يميني فبيني

ومن المنسوب إلى ابن مقلة أيضاً:

لست ذا ذلة إذا عضني الده ر ولا شامخاً إذا واتاني
أنا نار في مرتقى نفس الحا سد ماء جار مع الإخوان

وفي الوزير المذكور يقول بعضهم:

وقالوا العزل للوزراء حيض لحاه الله من أمر بغيض
ولكن الوزير أبا علي من اللائي يئسن من المحيض

ومن شعره أيضاً ما قاله الثعالبي في "يتيمة الدهر"

وإذا رأيت فتى بأعلى رتبة في شامخ من عزه المترفع
قالت لي النفس العروف بقدرها ما كان أولاني بهذا الموضع

ولم يزل على هذه الحال إلى أن توفي في موضعه يوم الأحد عاشر شوال، سنة ثمان وعشرين وثلثمائة، ودفن في مكانه، ثم نبش بعد زمان وسلم إلى أهله.

وكانت ولادته يوم الخميس بعد العصر، لتسع بقين من شوال سنة اثنتين وسبعين ومائتين، ببغداد، رحمه الله تعالى.

وقد تقدم طرف من خبره في ترجمة ابن البواب الكاتب، وأنه أول من نقل هذه الطريقة من خط الكوفيين إلى هذه الصورة هو وأخوه، على الخلاف المذكور في ترجمة ابن البواب، وأن ابن البواب تبع طريقته ونقح أسلوبه.

ولابن مقلة ألفاظ منقولة مستعملة، فمن ذلك قوله: إذا أحببت تمالكت، وإذا أبغضت أهلكت، وإذا رضيت آثرت، وإذا غضبت أثرت. ومن كلامه أيضاً: يعجبني من يقول الشعر تأدباً لا تكسبا، ويتعاطى الغناء تطرباً لا تطلبا. وله كل معنى مليح في النظم والنثر. وكان ابن الرومي الشاعر – المتقدم ذكره – يمدحه فمن معاينة المقولة فيه قوله:

إن يخدم القلم السيف الذي خضعت له الرقاب ودانت خوفه الأمم
فالموت، والموت لا شيء يعادله ما زال يتبع ما يجري به القلم
كذا قضى الله للأقلام مذ بريت أن السيوف لها مذ أرهفت خدم
وكل صاحب سيف دائماً أبداً ما يزال يتبع ما يجري به القلم

وكان أخوه أبو عبد الله الحسن بن علي بن مقلة كاتباً أديباً بارعاً، والصحيح أنه صاحب الخط المليح، ومولده يوم الأربعاء طلوع الفجر، سلخ شهر رمضان سنة ثمان وسبعين ومائتين. وتوفي في شهر ربيع الآخر سنة ثمان وثلثين وثلثمائة، رحمه الله تعالى.

وأما ابن رائق، فإن الحافظ ابن عساكر ذكر في "تاريخ دمشق" أنه قدمها في ذي الحجة سنة سبع وعشرين وثلثمائة وذكر أن الإمام المقتفي بالله ولاه أمر دمشق، وأخرج منها بدر بن عبد الله الإخشيدي، ثم توجه إلى مصر، وتواقع هو وصاحبها محمد بن طغج الإخشيد – المقدم ذكره – فهزمه الإخشيد فرجع إلى دمشق، ثم توجه إلى بغداد وقتل بالموصل سنة ثلاثين وثلثمائة، وقيل أن بني حمدان قتلوه بالموصل، قتله ناصر الدولة الحسن – المقدم ذكره –.

ابن بقية

الوزير أبو الطاهر محمد بن محمد بن بقية بن علي، الملقب نصير الدولة، وزير عز الدولة بختيار بن معز الدولة بن بويه - المقدم ذكره - كان من جلة الرؤساء، أكابر الوزراء، وأعيان الكرماء. وقد تقدم فر ترجمة عز الدولة طرف من خبره في قضية الشمع، وأن الشماع لما سئل عن راتب عز الدولة في السمع كم كان، فقال: كان راتب وزيره محمد بن بقية ألف من في كل شهر، فإذا كان هذا راتب الشمع خاصة مع قلة الحاجة إليه، فكم يكون غيره مما تشتد الحاجة إليه؟

وكان من أهل أوانا من أعمال بغداد، وكان في أول أمره قد توصل إلى أن صار صاحب مطبخ معز الدولة والد عز الدولة، ثم تنقل إلى غيرها من الخدم.

ولما مات معز الدولة وأفضى الأمر إلى عز الدولة حسنت حاله عنده، ورعى خدمته لأبيه، وكان فيه توصل وسعة صدر، وتقدم إلى أن استوزره عز الدولة يوم الاثنين لسبع ليال خلون من ذي الحجة سنة اثنتين وستين وثلثمائة.

ثم إنه قبض عليه لسبب اقتضى ذلك يطول شرحه؛ وحاصله أنه حمله على محاربة ابن عمه عضد الدولة، فالتقيا على الأهواز وكسر عز الدولة، فنسب ذلك إلى رأيه ومشورته، وفي ذلك يقول أبو غسان الطبيب بالبصرة:

أقام على الأهواز خمسين ليلة يدبر أمر الملك حتى تدمرا

فدبر أمراً كان أوله عمى وأوسطه بلوى وآخره خرا

وكان قبضه يوم الاثنين لثلاث عشرة ليلة بقيت من ذي الحجة سنة ست وستين وثلثمائة بمدينة واسط، وسمل عينيه ولزم بيته. وكان في مدة وزارته يبلغ عضد الدولة ابن بويه عنه أمور يسوءه سماعها، منها أنه كان يسميه أبا بكر الغددي تشبيهاً له برجل أشقر أزرق أنمش يسمى أبا بكر كان يبيع الغدد برسم السنانير ببغداد، وكان عضد الدولة بهذه الحلية وكان الوزير يفعل ذلك تقرباً إلى قلب مخدومه عز الدولة لما كان بينه وبين ابن عمه عضد الدولة من العداوة، فلما قتل عز الدولة - كما وصفناه في ترجمته - وملك عضد الدولة بغداد ودخلها طلب ابن بقية المذكور وألقاه تحت أرجل الفيلة، فلما قتل صلبه بحضرة البيمارستان العضدي ببغداد، وذلك في يوم الجمعة لست خلون من شوال سنة سبع وستين وثلثمائة، رحمه الله تعالى.

وقال ابن الهمذاني في كتاب "عيون السير": لما استوزر عز الدولة بختيار ابن بويه ابن بقية المذكور، بعد أن كان يتولى أمر المطبخ، قال الناس: من الغضارة إلى الوزارة، وستر كرمه عيوبه، وخلع في عشرين يوماً عشرين ألف خلعة، قال أبو إسحاق الصابي: رأيته وهو يشرب في بعض الليالي، وكلما لبس خلعة خلعها على أحد الحاضرين، فزادت على مائتي خلعة، فقالت له مغنيته: يا سيدي الوزير في هذه الثياب زنابير ما تدعها تثبت على جسمك، فضحك وأمر لها بحقة حلي. وهو أول وزير لقب بلقبين، فإن الإمام المطيع لقبه بالناصح، ولقبه ولده الطائع بنصير الدولة.

ولما جرت الحرب بين عز الدولة وابن عمه عضد الدولة قبض عز الدولة عليه وسمله وحمله إلى عضد الدولة مسمولاً، فشهره عضد الدولة وعلى رأسه برنس، ثم أمر بطرحه للفيلة فقتله، ثم صلبه عند داره بباب الطاق، وعمره نيف وخمسون سنة. ولما صلب رثاه أبو الحسن محمد بن عمر بن يعقوب الأنباري أحد العدول ببغداد بقوله:

علو في الحياة وفي الممات لحق أنت إحدى المعجزات

كأن الناس حولك حين قاموا وفود نداك أيام الصلات

كأنك قائم فيهم خطيباً وكلهم قيام للصلاة

مددت يديك نحوهم احتفاء كمدهما إليهم بالهبات

ولما ضاق بطن الأرض عن أن يضم علاك من بعد الممات

أصاروا الجو قبرك واستنابوا عن الكفان ثوب السافيات

لعظمك في النفوس تبيت ترعى بحفاظ وحراس ثقات

وتشعل عندك النيران ليلاً كذلك كنت أيام الحياة
ركبت مطية من قبل زيد علاها في السنين الماضيات
وتلك فضيلة فيها تأس تباعد عنك تعيير العداة
ولم أر قبل جذعك قط جذعا تمكن من عناق المكرمات
أسأت إلى النوائب فاستثارت فأنت قتيل ثأر النائبات
وكنت تجير من صرف الليالي فعاد مطالباً لك بالترات
وصير دهرك الإحسان فيه إلينا من عظيم السيئات
وكنت لمعشر سعداً، فلما مضيت تفرقوا بالمنحسات
غليل باطن لك في فؤادي يخفف بالدموع الجاريات
ولو أني قدرت على قيام لفرضك والحقوق الواجبات
ملأت الأرض من نظم القوافي ونحت بها خلاف النائحات

ولكني أصبر عنك نفسي مخافة أن أعد من الجناة
وما لك تربة فأقول تسقى لأنك نصب هطل الهاطلات
عليك تحية الرحمن تترى برحمات غواد رائحات

ولم يزل ابن بقية مصلوباً إلى أن توفي عضد الدولة – في التاريخ المذكور في ترجمته في حرف الفاء – فأنزل عن الخشبة، ودفن في موضعه، فقال فيه أبو الحسن ابن الأنباري صاحب المرثية المذكورة:

ولم يلحقوا بك عاراً إذ صلبت بلى باءوا بإثمك ثم استرجعوا ندما
وأيقنوا أنهم في فعلهم غلطوا وأنهم نصبوا من سؤدد علما
فاسترجعوك وواروا منك طود علا بدفنه دفنوا الأفضال والكرما
لئن بليت فلا يبلى نداك فيك كما ما زال مالك بين الناس منقسما

قال الحافظ ابن عساكر في "تاريخ دمشق": لما صنع أبو الحسن المرثية التائية كتبها ورماها في شوارع بغداد، فتداولتها الأدباء، إلى أن وصل الخبر إلى عضد الدولة، فلما أنشدت بين يديه تمنى أن يكون هو المصلوب دونه، فقال: علي بهذا الرجل، فطلب سنة كاملة، واتصل الخبر بالصاحب ابن عباد وهو بالري فكتب له الأمان، فلما سمع أبو الحسن ابن الأنباري بذكر الأمان قصد حضرته فقال له: أنت القائل هذه الأبيات؟ قال: نعم، قال: أنشدنيها من فيك، فلما أنشد:

ولم أر قبل جذعك قط جذعا تمكن من عناق المكرمات

قام إليه الصاحب وعاتقه وقبل فاه، وأنفذ إلى عضد الدولة، فلما مثل بين يديه قال له: ما الذي حملك على مرثية عدوي؟ فقال: حقوق سلفت وأياد مضت، فجاش الحزن في قلبي فرثيت، فقال: هل يحضرك شيء في الشموع، والشموع تزهر بين يديه، فأنشأ يقول:

كأن الشموع وقد أظهرت ... من النار في كل رأس سنانا

أصابع أعدائك الخائفين ... تضرع تطلب منك الأمانا

فلما سمعها خلع عليه وأعطاه فرساً وبدرة؛ انتهى كلام الحافظ ابن عساكر رحمه الله.

قلت: قوله في الأبيات:

ركبت مطية من قبل زيد ... علاها في السنين الماضيات

زيد هذا هو أبو الحسين زيد بن زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، وكان قد ظهر في أيام هشام بن عبد الملك في سنة اثنتين وعشرين ومائة، ودعا إلى نفسه، فبعث إليه يوسف بن عمر الثقفي والي العراقين يومئذ جيشاً مقدمه العباس المري، فرماه رجل منهم بسهم فأصابه فمات، وصلب بكناسة الكوفة، ونقل رأسه إلى البلاد. وقال ابن قانع: كان ذلك في صفر سنة إحدى وعشرين ومائة، وقيل سنة اثنتين وعشرين ومائة في صفر أيضاً، بالكوفة، ولزيد من العمر اثنان وأربعون سنة يومئذ. وقال ابن الكلبي في كتاب "جمهرة النسب": إن زيد بن علي رضي الله عنهما أصابه سهم في جبهته فاحتمله أصحابه، وكان ذلك عند المساء، ثم دعوا الحجام فانتزع النشابة وسالت نفسه، رضي الله عنه. وذكر أبو عمرو الكندي في كتاب "أمراء مصر" أن أبا الحكم ابن أبي الأبيض العبسي قدم إلى مصر برأس زيد بن علي خطيباً يوم الأحد لعشر خلون من جمادى الآخرة سنة اثنتين وعشرين ومائة، واجتمع إليه الناس في المسجد، وهو صاحب المشهد الذي بين مصر وبركة قارون، بالقرب من جامع ابن طولون يقال: إن رأسه مدفون به، والله أعلم بالصواب.

وقتل ولده يحيى بن زيد سنة خمس وعشرين ومائة، وقصته مشهورة بالجوزجان، قتله سالم بن أحوز المازني، وقيل جهم بن صفوان صاحب الجهمية.

وهذه القصيدة اتفق العلماء على أنه لم يعمل في بابها مثلها. وقد ذكر أبو تمام أيضاً حال المصلوبين في قصيدته التي مدح بها المعتصم لما صلب الأفشين حيذر ابن كاوس مقدم قواده وبابك ومازيار في سنة ست وعشرين ومائتين، وقصتهم مشهورة، فمنها قوله:

ولقد شفى الأحشاء من برحائها ... إذ صار بابك جار مازيار

ثانية في كبد السماء ولم يكن ... كاثنين ثان إذ هما في الغار

وكأنما انتبذا لكيما يطويا ... عن ناطس خبراً من الأخبار

سود اللباس كأنما نسجت لهم ... أيدي السموم مدارعاً من قار

بكروا وأسروا في متون ضوامر ... قيدت لهم من مربط النجار

لا يبرجون ومن رآهم خالهم ... أبداً على سفر من الأسفار

وقبل هذا في وصف الأفشين خاصة:

رمقوا أعالي جذعه فكأنما ... رمقوا الهلال عشية الإفطار

وهي من القصائد الطنانة. والأفشين مشهور فلا حاجة إلى ضبطه، وهو بكسر الهمزة وفتحها، واسمه حيذر - بفتح الخاء المعجمة وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح الذال المعجمة وبعدها راء - وإنما قيدته لأنه يتصحف على كثير من الناس بحيدر، بالحاء المهملة.

ومن شعر أبي الحسن الأنباري المذكور في الباقلي الأخضر قوله:

فصوص زمرد في غلف در ... بأقماع حكت تقليم ظفر

وقد خلع الربيع له ثيابا ... لها لونان من بيض وخضر

وقد ذكره الخطيب في "تاريخ بغداد" وقال: إنه من المقلين في الشعر، رحمه الله تعالى.

الوزير فخر الملك

أبو غالب محمد بن علي بن خلف، الملقب فخر الملك، وزير بهاء الدولة أبي نصر بن عضد الدولة بن بوية، وبعد وفاته وزر لولده سلطان الدولة أبي شجاع فناخسرو. وكان فخر الملك المذكور من أعظم وزراء آل بويه على الإطلاق بعد أبي الفضل محمد بن العميد والصاحب بن عباد – المقدم ذكرهما – وكان أصله من واسط، وأبوه صيرفياً، وكان واسع النعمة فسيح مجال الهمة جم الفضائل والإفضال جزيل العطايا والنوال، قصد جماعة من أعيان الشعراء ومدحوه، وقرضوه بنخب المدائح، منهم أبو نصر عبد العزيز بن نباتة الشاعر – المقدم ذكره – له فيه قصائد مختارة، منها قصيدته النونية التي من جملتها يقول:

لكل فتى قرين حين يسمو وفخر الملك ليس له قرين
أنخ بجنابه واحكم عليه بما أملته فأنا الضمين

أخبرني بعض علماء الأدب أن بعض الشعراء امتدح فخر الملك بعد هذه القصيدة، فأجازه إجازة لم يرضها، فجاء الشعر إلى نباتة، وقال له: أنت غررتني، وأنا ما مدحته إلا ثقة بضمانك، فتعطي ما يليق بمثل قصيدتي، فأعطاه من عنده شيئاً رضي به، بلغ ذلك فخر الملك، فسير لابن نباتة جملة مستكثرة لهذا السبب.

ويقرب من معنى هذين البيتين في شدة الوثوق بالعطاء قول المتنبي:

وثقنا بأن تعطي فلو لم تجد لنا لخلناك قد أعطيت من قوة الوهم

ويحكى في هذا المعنى أيضاً أن بعض الشعراء مدح بعض الأكابر بقصيدة، فلما أصبح كتب إليه:

لم أعالجك بالرقاع إلى أن عاجلتني رقاع أهل الديون
علموا أنني بمدحك أمسي ت ملياً فأصبحوا يرفعوني

ومن جملة مداحه المهيار بن مرزويه الكاتب الشاعر المشهور – وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى – وفيه يقول قصيدته الرائية التي منها:

أرى كبدي وقد بردت قليلاً أمات الهم أم عاش السرور
أم الأيام خافتني لأني بفخر الملك منها أستجير

ومدائحه كثيرة، ولأجله صنف أبو بكر محمد بن الحسن الحاسب الكرجي كتاب "الفخري" في الجبر والمقابلة، وكتاب "الكافي" في الحساب.
ورأيت في بعض المجاميع أن رجلاً شيخاً رفع إلى فخر الملك المذكور قصة سعى فيها بهلاك شخص، فلما وقف فخر الملك عليها قلبها وكتب في ظهرها: "السعاية قبيحة وإن كانت صحيحة، فإن كنت أجريتها مجرى النصح، فخسرانك فيها أكثر من الربح، ومعاذ الله أن نقبل من مهتوك في مستور، ولولا أنك في خفارة من شيبك لقابلناك بما يشبه مقالك، ونردع به أمثالك، فاكتم هذا العيب، واتق من يعلم الغيب، والسلام".
وذكر أبو منصور الثعالبي في كتاب "تتمة يتيمة الدهر" للأشرف بن فخر الملك قوله:

مر بي الموكب لكنني لم أر فيه قمر الكوكب
قل لأمير الجيش يا سيدي ما لأمير الحسن لم يركب

ومحاسن فخر الملك كثيرة، ولم يزل في عزه وجاهه وحرمته إلى أن نقم عليه مخدومه سلطان الدولة المذكور بسبب اقتضى ذلك، فحبسه ثم قتله بسفح جبل قريب من الأهواز، يوم السبت، وقيل يوم الثلاثاء، لثلاث بقين من شهر ربيع الأول سنة سبع وأربعمائة، ودفن هناك، ولم يستقص في دفنه فنبشت الكلاب قبره وأكلته، ثم أعيد دفن رمته، فشفع فيه بعض أصحابه فنقلت عظامه إلى مشهد هناك فدفنت فيه في سنة ثمان وأربعمائة.

وقال أبو عبد الله أحمد بن القادسي في "أخبار الوزراء": وكان الوزير فخر الملك قد أهمل بعض الواجبات فعوقب سريعاً، وذلك أن بعض خواصه قتل رجلاً ظلماً، فتصدت له زوجة المقتول تستغيث، فلم يلتفت إليها، فلقيه ليلة في مشهد باب التبن وقد حضر للزيارة، فقالت له: يا فخر الملك، القصص التي أرفعها إليك ولا تلتفت إليها صرت أرفعها إلى الله، وأنا منتظرة خروج التوقيع من جهته، فلما قبض عليه قال: لا شك أن توقيعها خرج، واستدعي إلى مضرب سلطان الدولة، ثم قبض عليه وعدل به إلى خركاه، وقد أحيط على أمواله وخزائنه وكراعه وولده وأصحابه، وقتل في التاريخ المذكور أعلاه وأخذ من ماله ستمائة ألف دينار ونيف وثلاثون ألف دينار، وقيل إنه وجد له ألف ألف ومائتا ألف دينار منطبعة.

ورثاه الشريف الرضي بأبيات ما اخترت منها شيئاً حتى أثبته هاهنا فسبحان اللطيف الخبير، الفعال لما يريد. ومولده بواسط يوم الخميس الثاني والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة أربع وخمسين وثلثمائة، وقد استوفى هلال ابن الصابي أخباره في تاريخه، والله تعالى أعلم بالصواب.

أبو نصر ابن جهير

أبو نصر محمد بن محمد بن جهير، المقلب فخر الملك مؤيد الدين الموصلي الثعلبي؛ كان ذا رأي وعقل وحزم وتدبير، خرج من الموصل لأمر يطول شرحه، وصار ناظر الديوان بحلب، ثم صرف عنه وانتقل إلى آمد، وأقام بها مدة طويلة بطالاً، ثم توصل إلى أن وزر للأمير نصر الدولة أحمد بن مروان الكردي صاحب ميافارقين وديار بكر – وقد تقدم ذكر ذلك في ترجمة نصر الدولة – وكان نافذ الكلم مطاع الأمر، ولم يزل على ذلك إلى أن توفي نصر الدولة في التاريخ المذكور في ترجمته، وقام بالأمر ولده نظام الدين، فأقبل عليه وزاد في إكرامه فرتب أمور دولته وأجراها على الأوضاع التي كانت في أيام أبيه.

ثم خطر له التوجه إلى بغداد، فعمل على ذلك، وكان يكاتب الإمام القائم بأمر الله، ولم يزل يتوصل ويبذل الأموال حتى خرج إليه نقيب النقباء ابن طراد الزينبي، فقرر معه ما أراد تقريره ثم خرج لوداعه، ويمم إلى بغداد، وأرسل ابن مروان خلفه من يرده فلم يقدر عليه، فلما بلغها تولى وزارة القائم بدلاً من أبي الغنائم ابن دراست في سنة أربع وخمسين وأربعمائة، ودام فيها إلى أن توفي القائم، وتولى ولده المقتدي بأمر الله فأقره على الوزارة مدة سنين، ثم عزله عنها يوم عرفة الأمير أبو الغنائم ابن دراست، بإشارة الوزير نظام الملك، وكان ولده عميد الدولة شرف الدين أبو منصور محمد ينوب عنه فيها، فلما عزل والده خرج هو نظام الملك أبي الحسن وزير ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي – المقدم ذكره واسترضاه وأصلح حاله معه وعاد إلى بغداد، وتولى الوزارة مكان أبيه.

وخرج أبوه فخر الدولة في سنة ست وسبعين إلى جهة السلطان ملكشاه المذكور باستدعائه إياه، فعقد له على ديار بكر، وسار معه الأمير أرتق بن أكسب صاحب حلوان – المقدم ذكره – في جماعة من التركمان والأكراد والأمراء، فلما وصلوا إلى ديار بكر فتح ولده أبو القاسم زعيم الرؤساء مدينة آمد بعد حصار شديد، ثم فت أبوه فخر الدولة ميافارقين بعد ثلاثة أشهر من فتح آمد وكان أخذها من ناصر الدولة أبي المظفر منصور بن نظام الدين، واستولى على أموال بني مروان وذلك في سنة تسع وسبعين وأربعمائة. ومن عجيب الاتفاق أن منجماً حضر إلى ابن مروان نصر الدولة، وحكم له بأشياء، ثم قال له: ويخرج على دولتك رجل قد أحسنت إليه، فيأخذ الملك من أولادك، فأفكر ساعة ثم رفع رأسه إلى فخر الدولة وقال: إن كان هذا القول صحيحاً فهو الشيخ هذا، ثم أقبل عليه وأوصاه على أولاده، فكان الأمر كما قال، فإنه وصل إلى البلاد وكان فتحها على يديه كما ذكرنا، والشرح في ذلك يطول.

وكان رئيساً جليلاً، خرج من بيتهم جماعة من الوزراء والرؤساء، ومدحهم أعيان الشعراء، فمنهم أبو منصور علي بن الحسن المعروف بصردر، أنفذ إلى فخر الملك المذكور من واسط عند تقلده الوزارة قصيدة، وهي من مشاهير القصائد، وأولها:

لجاجة قلب ما يفيق غرورها ... وحاجة نفس ليس يقضى يسيرها

وقفنا صفوفاً في الديار كأنها ... صحائف ملقاة ونحن سطورها

يقول خليلي والظباء سوانح: ... أهذا الذي تهوى؟ فقلت: نظيرها

لئن شابهت أجيادها وعيونها لقد خالفت أعجازها وصدورها
فيا عجباً منها يصد أنيسها ويدنو على ذعر إلينا نفورها
وما ذاك إلا أن غزلان عامر تيقن أن الزائرين صقورها
ألم يكفها ما قد جنته شموسها على القلب حتى ساعدتها بدورها
نكصنا على الأعقاب خوف إناثها فما بالها تدعو نزال ذكورها
ووالله ما أدري غداة نظرننا أتلك سهام أم كؤوس تديرها
فإن كن من نبل فأين حفيفها؟ وإن كن من مر فأين سرورها؟
أيا صاحبي استأذنا لي خمرها فقد أذنت لي في الوصول خدورها
هباها تجافت عن خليل يروعها فهل أنا إلا كالخيال يزورها
وقد قلتما لي ليس في الأرض جنة أما هذه فوق الركائب حورها
فلا تحسبا قلبي طليقاً فإنما لها الصدر سجن وهو فيه أسيرها
يعز على الهيم الخوامس وردها إذا كان ما بين الشفاه غديرها
أراك الحمى قل لي بأي وسيلة توسلت حتى قبلتك ثغورها

ومن مديحها:

أعدت إلى جسم الوزارة روحه وما كان يرجى بعثها ونشورها
أقامت زماناً عند غيرك طامثاً وهذا الزمان قرؤها طهورها
من الحق أن يحبى بها مستحقها وينوعها مردوة مستعيرها
إذا ملك الحسناء من ليس كفؤها أشار عليها بالطلاق مشيرها

وأنشده أيضاً لما عاد إلى الوزارة في صفر سنة إحدى وستين وأربعمائة بعد العزل، وكان المقتدري بالله قد أعاده إلى الوزارة بعد العزل وقبل الخروج إلى السلطان ملكشاه، فعمل فيه صردر هذه القصيدة:

قد رجع الحق إلى نصابه وأنت من كل الورى أولى به
ما كنت إلا السيف سلته يد ثم أعادته إلى قرابه
هزته حتى أبصرته صارماً رونقه يغنيه عن ضرابه
أكرم بها وزارة ما سلمت ما استودعت إلا إلى أربابه
مشوقة إليك مذ فارقتها شوق أخي الشيب إلى شبابه
مثلك محسود ولكن معجز أن يدرك البارق في سحابه

حاولها قوم ومن هذا الذي يخرج ليثاً خادراً من غابه
يدمى أبو الأشبال من زاحمه في خيسه بظفره ونابه
وهل سمعت او رأيت لابساً ما خلع الأرقم من إهابه

ومنها:

تيقنوا لما راوها صعبة أن ليس للجو سوى عقابه
إن الهلال يرتجي طلوعه بعد السرار ليلة احتجابه
والشمس لا يؤيس من طلوعها وإن طواها الليل في جنابه
ما أطيب الأوطان إلا انها للمرء أحلى أثر اغترابه
كم عودة دلت على دوامها والخلد للإنسان في مآبه
لو قرب الدر على جالبه ما لجج الغائض في طلابه
ولو أقام لازماً أصدافه لم تكن التيجان في حسابه
ما لؤلؤ البحر ولا مرجانه إلا وراء الهول من عبابه

وهي قصيدة طويلة اقتصرنا منها على هذا القدر.

وقد سبق في ترجمة سابور بن أردشير ثلاثة أبيات كتبها إليه أبو إسحاق الصابي لما عاد إلى الوزارة بعد العزل، ولم يعمل في هذا الباب مثلها.

وممن مدحه أيضاً القائد أبو الرضا الفضل بن منصور الشريف الفارقي، وفيه عمل الأبيات الحائية المشهورة، وهي:

يا قالة الشعر قد نصحت لكم ولست أدهى إلا من النصح
قد ذهب الدهر بالكرام وفي ذاك أمور طويلة الشرح
وأنتم تمدحون بالحسن وال ظرف وجوهاً في غاية القبح
وتطلبون السماح من رجل قد طبعت نفسه على الشح
من أجل ذا تحرمون كدكم لأنكم تكذبون في المدح
صونوا القوافي فما أرى أحداً يعثر فيه الرجاء سمح
فإن شككتم فيما أقول لكم فكذبوني بواحد سمح

سوى الوزير الذي رياسته تعرك أذن الزمان بالملح

وكانت ولادة فخر الدولة المذكور في سنة ثمان وتسعين وثلثمائة بالموصل؛ وتوفي بها في شهر رجب، وقيل في المحرم، سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة ودفن في تل توبة، وهو تل في قبالة الموصل يفصل بينهما عرض الشط، رحمه الله تعالى.

وكان قد عاد إلى ديار ربيعة متولياً من جهة ملكشاه أيضاً في سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة، فأول ما ملك نصيبين في شهر رمضان من هذه السنة، ثم ملك الموصل وسنجار والرحبة والخابور وديار ربيعة أجمع، وخطب به على منابرها نيابة عن الموصل إلى أن توفي.

وأما ولده عميد الدولة المذكور فقد ذكره محمد بن عبد الملك الهمداني في تاريخه فقال: انتشر عنه الوقار والهيبة والعفة وجودة الرأي، وخدم ثلاثة من الخلفاء ووزر لاثنين منهم، وكان عليه رسوم كثيرة وصلات جمة، وكان نظام الملك يصفه دائماً بأوصاف عظيمة، ويشاهدها بعين الكافي الشهم، ويأخذ رأيه في أهم الأمور ويقدمه على الكفاة والصدور، ولم يكن يعاب بأشد من الكبر الزائد، فإن كلماته كانت محفوظة مع ضنه بها، ومن كلمة بكلمة قامت عنده مقام بلوغ الأمل، فمن جملة ذلك ما قاله لولد الشيخ الإمام أبي نصر ابن الصباغ: اشتغل وتأدب، وإلا كنت صباغاً بغير أب، انتهى كلامه ابن الهمداني.

وكان نظام الملم الوزير قد زوجه زبيدة ابنته، وكان قد عزل عن الوزارة ثم أعيد إليها بسبب المصاهرة، وفي ذلك يقول الشريف أبو يعلى ابن الهبارية – المقدم ذكره –:

قل للوزير ولا تفزعك هيبته ... وإن تعاظم واستولى لمنصبه

لولا ابنة الشيخ ما استوزرت ثانية ... فاشكر حراً صرت مولانا الوزير به

ووجدت بخط أسامة بن منقذ – المقدم ذكره أن السابق بن أبي مهزول الشاعر المعري قال: دخلت العراق واجتمعت بابن الهبارية، فقال لي في بعض الأ يام: امض بنا لنخدم الوزير ابن جهير، وكان قد عزل ثم استوزر، قال السابق: فدهلت معه حتى وقفنا بين يدية الوزير، فدفع إليه رقعة صغيرة، فلما قرأها تغير وجهه ورأيت فيه الشر، وخرجنا من مجلسه فقلت: ما كان في الرقعة؟ فقال: خير، الساعة تضرب رقبتي ورقبتك، فأشفقت وقلقت، وقلت: أنا رجل غريب صحبتك هذه الأيام، وسعيت في هلاكي، فقال: كان ما كان. فقصدنا باب الدار لنخرج فردنا البواب، فقال: أمرت بمنعكما، فقال السابق: أنا رجل غريب من أهل الشام ما يعرفني الوزير، إنما القصد هذا، فقال البواب: لا تطول فما إلى خروجك من سبيل، فأيقنت بالهلاك، فلما خف الناس من الدار خرج إليه غلام معه قرطاس فيه خمسون ديناراً وقال: قد شكرنا فاشكر، فانصرفنا، ودفع لي عشرة دنانير منها، فقلت: ما كان في الرقعة؟ فأنشدني البيتين المذكورين، فآليت أن لا أصحبه بعدها.

ولعميد الدولة شعر ذكره في "الخريدة" لكنه غير مرضي، وذكره ابن السمعاني في كتاب "الذيل"؛ ومدحه خلق كثير من شعراء عصره، وفيه يقول صردر المذكور قصيدته العينية المشهورة التي أولها:

قد بان عذرك والخليط مودع ... وهوى النفوس مع الهوادج يرفع

لك حيثما سمت الركائب لفتة ... أترى البدور بكل واد تطلع

في الظاعنين من الحمى ظبي له ال ... أحشاء مرعى والمآقي مكرع

ممنوع أطراف الجمال رقيبه ... حذراً عليه من العيون البرقع

عهد الحبائل صائدات شبهه ... فارتاع فهو لكل حبل يقطع

لم يدر حامي سربه أني إذا ... حرم الكلام له لساني الأصبع

وإذا الطيوف إلى المضاجع أرسلت ... بتحية منه فعيني تسمع

وهذه القصيدة طويلة، وهي من غرر الشعر، وقوله فيها:

عهد الحبائل صائدات شبهه ... فارتاع فهو لكل حبل يقطع

نظير قول ابن الحمارة الأندلسي:

عن النوم سل عيناً به طال عهدها ... وكان قليلاً في ليال قلائل

إذا ظن وكراً مقلتي طائر الكرى ... رأى هدبها فارتاع خوف الحبائل

ولا أدري أيهما أخذ من الآخر، لأني لم أقف على تاريخ وفاة ابن الحمارة حتى أعرف عصره. ويجوز أن يكون ذلك بطريق التوارد على هذا المعنى من غير أن يأخذ أحدهما من الآخر.

وعزل عميد الدولة المذكور عز الدولن الوزارة وحبس وقيد في شهر رمضان المعظم سنة اثنتين وأربعمائة، وتوفي في شوال من السنة، وإليه كتب أبو الكرم ابن العلاف الشاعر قوله:

ولولا مدائحنا لم تبن — فعال المسيء من المحسن
فهبك احتجبت عن الناظرين — فهلا احتجبت عن الألسن

وتوفيت زوجته بنت نظام الملك المذكور في شعبان سنة سبعين وأربعمائة وكان تزوجها في سنة اثنتين وستين وأربعمائة.وتوفي في سنة ثلاث وتسعين في حصن مقابل لتل بها.

ولصردر أيضاً في زعيم الرؤساء أبي القاسم ابن فخر الدولة قصيدته القافية التي أولها:

صبحها الدمع ومساها الرق — هل بين هذين بقاء للحدق

وهي بديعة مختارة مشهورة فلا حاجة إلى التطويل في الاتيان بها، وتولى زعيم الرؤساء أبو القاسم ابن فخر الدولة وزارة الإمام المستظهر بالله، في شعبان من سنة ست وتسعين وأربعمائة، ولقبه نظام وقيل قوام، الدين.

وجهير: بفتح الجيم وكسر الهاء وسكون الياء الثمناة من تحتها وبعدها راء، وقال السمعاني: بضم الجيم، وهو غلط، يقال رجل جهير بين الجهارة، أي ذو منظر، ويقال أيضاً جهير الصوت بمعنى جهوري الصوت، والله تعالى أعلم بالصواب.

ظهير الدين الروذراوري

أبو شجاع محمد بن الحسين بن محمد بن عبد الله بن إبراهيم، الملقب ظهير الدين، الروذراوري الأصل الأهوازي المولد؛ قرأ الفقه على الشيخ أبي إسحاق الشيرازي، وقرأ الأدب، وولي الوزارة للإمام المقتدي بأمر الله بعد عزل عميد الدولة أبي منصور ابن جهير المذكور قبله في ترجمة أبيه فخر لدولة، وذلك في سنة ست وسبعين وأربعمائة، وعزل عنها يوم الخميس تاسع عشر صفر سنة أربع وثمانين وأربعمائة، وأعيد ابن جهير. ولما قرأ أبو شجاع التوقيع بعزله أنشد:

تولاها وليس له عدو — وفارقها وليس له صديق

وخرج بع عزله ماشياً يوم الجمعة من داره إلى الجامع، وانثالت عليه العامة تصافحه وتدعوا له، وكان ذلك سبباً لإلزامه بالقعود في داره، ثم خرج إلى روذراور وهي موطنه قديماً، فأقام هناك مدة، ثم خرج إلى الحج في الموسم سنة سبع وثمانين وأربعمائة، وخرجت العرب على الركب الذي هو فيه بقرب الربذة، فلم يسلم من الرفقة سواه، وجاور بعد الحج بمدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلى أن توفي في النصف من جمادى الآخرة سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، ودفن بالبقيع عند القبة التي فيها قبر إبراهيم عليه السلام ابن رسول الله صلى الله عليع وسلم؛ وكانت ولادته سنة سبع وثلاثين وأربعمائة رحمه الله تعالى.

قال العماد الكاتب في "الخريدة" في حقه: وكان عصره أحسن العصور، وزمانه أنضر الأ زمان، و لم يكن في الوزراء من يحفظ أمر الدين وقانون الشريعة مثله، صعباً شديداً في أمور الشرع، سهلاً في أمور الدنيا، لا تأخذه في الله لومة لائم.

ثم قال: ذكره ابن الهمذاني في "الذيل" فقال: كانت أيامه أوفى الأيام سعادة للدولتين، وأعظمها بركة على الرعية، وأعمها أمناً وأشملها رخصاً وأكملها صحة، لم يغادها بؤس و لم تشبها مخافة، وقامت للخلافة في نظره من الحشمة والإحترام، ما أعادت سالف الأيام، وكان أحسن الناس خطاً ولفظاً.

وذكره الحافظ ابن السمعاني في "الذيل" فقال: كان يرجع إلى فضل كامل وعقل وافر ورزانة ورأي صائب، وكان له شعر رقيق مطبوع، أدركته حرفة

الأدب، وصرف عن الوزارة وكلف لزوم البيت، فانتقل من بغداد إلى جوار النبي صلى الله عليه وسلم، وأقام بالمدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام إلى حين وفاته، وزرت قبره غير مرة عند قبر إبراهيم ابن نبينا، صلى الله عليه وسلم، بالبقيع؛ ثم قال السمعاني بعد ذلك: سمعت من أثق به يقول إن الوزير أبا شجاع وقت أن قرب أمره وحان ارتحاله من الدنيا حمل إلى مسجد النبي صلى الله عليه وسلم، فوقف عند الحظيرة وبكى وقال: يا رسول الله، قال الله سبحانه وتعالى: "ولو أنهم ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً" النساء: -14- ولقد جئتك معترفاً بذنوبي وجرائمي أرجو شفاعتك، وبكى ورجع وتوفي من يومه.

وله شعر حسن مجموع في ديوان، فمن ذلك قوله:

لأعذبن العين غير مفكر ... فيها بكت بالدمع أو فاضت دما

ولأهجرن من الرقاد لذيذه ... حتى يعود على الجفون محرما

هي أوقعتني في حبائل فتنة ... لو لم تكن نظرت لكنت مسلما

سفكت دمي لأسفكن دموعها ... وهي التي بدأت فكانت أظلما

وإلى هذا المعنى ينظر قول بعضهم:

يا عين ما ظلم الفؤاد ... ولا تعدى في الصنيع

جرعته مر الهوى ... فمحا سوادك بالدموع

وله أيضاً:

وإني لأبدي في هواك تجلداً ... وفي القلب مني لوعة وغليل

فلا تحسبي أني سلوت فربما ... ترى صحة بالمرء وهو عليل

وله أيضاً:

أيذهب جل العمر بيني وبينكم ... بغير لقاء؟ إن ذا لشديد

فإن يسمح الدهر الخؤون بوصلكم ... على فاقتي إني إذاً لسعيد

وعمل ذيلاً على كتاب "تجارب الأمم"، تأليف أبي علي أحمد بن محمد المعروف بمسكويه، وهو التاريخ المشهور بأيدي الناس.

وقال محمد بن عبد الملك الهمداني في تاريخه: وظهر منه من التلبس في الدين وإظهاره وإعزاز أهله والرأفة بهم والأخذ على أيدي الظلمة ما أذكر به عدل العادلين؛ وكان لا يخرج من بيته حتى يكتب شيئاً من القرآن العظيم ويقرأ في المصحف ما تيسر. وكان يؤدي زكاة أمواله الظاهرة في سائر أملاكه وضياعه واقطاعه ويتصدق سراً. وعرضت عليه رقعة فيها: إن الدار الفلانية بدرب القيار، فيها إمراة معها أربعة أيتام وهو عراة جياع، فاستدعى صاحباً له وقال له: مر واكسهم وأشبعهم، وخلع أثوابه وحلف: لا لبستها ولا دفئت حتى تعود إلي وتخبرني أنك كسوتهم وأشبعتهم. ولم يزل يرعد إلى أن جاء صاحبه وأخبره بذلك؛ وكانت له مبار كثيرة.

والروذراوري: بضم الراء وسكون الواو والذال المعجمة وفتح الراء والواو بينهما ألف في آخرها راء أخرى، هذه النسبة على روذراور، وهي بليدة بنواحي همذان، والله تعالى أعلم.

عميد الملك الكندري

أبونصر محمد بن منصور بن محمد، الملقب عميد الملك الكندري؛ كان من رجال الدهر جوداً وسخاء وكتابة وشهامة، واستوزره السلطان طغرلبك السلجوقي – المقدم ذكره –ونال عنده الرتبة العالية والمترلة الجليلة، ولم يكن أحد من أصحابه معه كلام، وهو أول وزير كان لهذه الدولة، ولم تكن له منقبة إلا صحبة إمام الحرمين أبي المعالي عبد الملك ابن الشيخ أبي محمد الجويني الفقيه الشافعي صاحب "نهاية المطلب" على ما ذكره المسعاني في ترجمة أبي المعالي في كتاب "الذيل" فإنه قال – بعد الإطناب في وصف إمام الحرمين وذكر تنقله في البلاد – ثم قال: وخرج إلى بغداد وصحب العميد الكندري أبا نصر مدة يطوف معه ويلتقي في حضرته بالأكابر من العلماء ويناظرهم، وتحنك بهم حتى تهذب في النظر، وشاع ذكره.

وذكره شيخنا ابن الأثير في تاريخه في سنة ست وخمسين وأربعمائة وقال: إن الوزير المذكور كان شديد التعصب على الشافعية كثير الوقيعة في الشافعي، رضي الله عنه، حتى بلغ من تعصبه أنه خاطب السلطان ألب أرسلان السلجوقي في لعن الرافضة على منابر خراسان، فأذن في ذلك، فلعنهم وأضاف إليهم الأشعرية، فانف من ذلك أئمة خراسان، منهم أبو القاسم القشيري وإمام الحرمين الجويني وغيرهما، ففارقوا خراسان، وأقام إمام الحرمين بمكة شرفها الله تعالى أربع سنين يدرس ويفتي، فلهذا قيل له إمام الحرمين فلما جاءت الدولة النظامية أحضر من انتزح منهم وأكرمهم وأحسن إليهم؛ وقيل إنه تاب عن الوقيعة في الشافعي، فإن صح فقد أفلح.

وكان عميد الملك ممدحاً مقصداً للشعراء، مدحه جماعة من أكابر شعراء عصره، منهم أبو الحسن الباخرزي – المقدم ذكره – والرئيس أبو منصور علي بن الحسين بن علي بن الفضل، الكاتب المعروف بصردر – المقدم ذكره أيضاً – وفيه يقول قصيدته النونية، وهي:

أكذا يجازى ود كل قرين ... ام هذه شيم الظباء العين

قصوا علي حديث من قتل الهوى ... إن التأسي روح كل حزين

ولئن كتمتم مشفقين لقد درى ... بمصارع العذري والمجنون

فوق الركاب ولا أطيل مشبها ... بل ثم شهوة أنفس وعيون

هزت قدوهدهم وقالت للصبا ... هزؤاً عند البان مثل غصوني

ووراء ذياك المقبل مورد ... حصباؤه من لؤلؤ مكنون

إما بيوت النحل بين شفاههم ... منظومة أو حانة الزرجون

ترمي بعينيك الفجاج مقلباً ... ذات الشمال بها وذات يمين

لو كنت زرقاء اليمامة ما رأت ... من بارق حياً على جيرون

شكواك من ليل التمام وإنما ... أرقي بليل ذوائب وقرون

ومعنف في الوجد قلت له اتئد ... فالدمع دمعي والحنين حنيني

ما نافعي إذ كان ليس بنافعي ... جاه الصبا وشفاعة العشرين

لا تطرقن خجلاً للومة لائم ... مالنت أول حازم مفتون

أأسومهم، وهم الأجانب، طاعة ... وهواي بين جوانحي يعصيني

ديني على ظبياته ما يقتضى ... فبأي حكم يقتضون رسهوني

وخشيت من قلبي الفرار إليهم ... حتى لقد طالبته بضمين

كل النكال أطيق إلا ذلة ... إن العزيز عذابه بالهون

يا عين مثل قذاك رؤية معشر ... عار على دنياهم والدين

لم يشبهوا الإنسان إلا أنهم ... متكونون من الحما المسنون

نجس العيون فإن رأيتهم مقلتي ... طهرتها فنزحت ماء جفوني

أنا إن هم حسبوا الذخائر دونهم ... وهم إذا عدوا الفضائل دوني

لا يشمت الحساد أن مطامعي ... عادت إلي بصفقة المغبون

ما يستدير البدر إلا بعدما ... أبصرته في الضمر كالعرجون

هذا الطريق اللحب زاجر ناقتي ... واليم قاذف فلكي المشحون

فإذا عميد الملك حلى ربعه ... ظفراً بفأل الطائر الميمون

ملك إذا ما العزم حث جياده ... مرحت بأزهر شامخ العرنين

بأغر ما أبصرت نور جبينه ... إلا اقتضاني بالسجود جبيني

تجلو النواظر في نواحي دسته ... والسرج بدر دجى وليث عرين

عمت فضائله البرية فالتقى ... شكر الغني ودعوة المسكين

قالوا وقد شنوا عليه غارة ... أصلات جود أم قضاء ديون

لو كان في الزمن القديم تظلمت ... منه الكنوز إلى يدي قارون

أما خزائن ماله فمباحة ... فاستوهبوا من علمه المخزون

ما الرزق محتاجاً بعرصته إلى ... طلب وليس الأجر بالمنون

أقسمت أن ألقى المكارم عالماً ... أني برؤيته أبر يميني

ساس الأمور فليس يخلي رغبة ... من رهبة، وبسالة من لين

كالسيف رونق أثره في متنه ... ومضاؤه في حده المسنون

شهدت علاه أن عنصر ذاته ... مسك وعنصر غيره من طين

وكان إنشاده إياه هذه القصيدة عند وصول عميد الملك إلى العراق، وهو في دست وزارته وعلو منصبه، وهذه القصيدة من الشعر الفائق المختار وقد أثبتها بكمالها ما خلا ثلاثة أبيات فإنها لم تعجبني فأهملتها، وقد وازن هذه القصيدة جماعة من الشعراء منهم ابن التعاويذي – المقدم ذكره – وازنه بقصيدته التي أولها:

إن كان دينك في الصبابة ديني ... فقف المطي برملتي يبرين

وهي القصيدة النادرة، وأرسلها من العراق إلى الشام ممتدحاً بها السلطان صلاح الدين، رحمه الله تعالى، ولولا خوف الإطالة لأثبتها، ثم ذكرتها في ترجمة صلاح الدين يوسف بن أيوب فتطلب هناك؛ ووازنه أيضاً ابن المعلم – المقدم ذكره – بقصيدته التي أولها:

ما وقفة الحادي على يبرين   وهو الخلي من الظباء العين

وهي أيضاً قصيدة جيدة، وقد ذكرت بعضها في ترجمته، وقد وازنها الأبله أيضاً، وبالجملة فما قاربها إلا ابن التعاويذي، وقد خرجنا عن المقصود، ولكن انتشر الكلام فلم يكن بد من استيفائه.

ولم يزل عميد الملك في دولة طغرلبك عظيم الجاه والحرمة، إلى أن توفي طغرلبك – في التاريخ المذكور في ترجمته– وقام في المملكة ابن أخيه ألب أرسلان – المقدم ذكره –فأقره على حاله وزاد في إكرامه ورتبته، ثم إنه سيره إلى خوارزم شاه ليخطب له ابنته، فأرجف أعداؤه أنه خطبها لنفسه، وشاع ذلك بين الناس فبلغ عميد الملك الخبر، فخاف تغير قلب مخدومه عليه، فعمد إلى لحيته فحلقها وإلى مذاكيره فجبها، فكان ذلك سبب سلامته من ألب أرسلان، وقيل إن السلطان خصاه، فلما فعل ذلك عمل أبو الحسن علي بن الحسن الباخرزي المذكور في ترجمته قوله:

قالوا محا السلطان عنه بعدكم   سمة الفحول وكان قرماً صائلاً

قلت اسكتوا فالآن زاد فحولة   لما اغتدى من أنثييه عاطلاً

فالفحل يأنف أن يسمى بعضه   أنثى، لذلك جده مستاصلا

وهذا من المعاني الغريبة البديعة.

ثم إن ألب أرسلان عزله من الوزارة في المحرم من سنة ست وخمسين وأربعمائة لسبب يطول شرحه، وفوض الوزارة إلى نظام الملك أبي علي الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي المقدم ذكره.وحبس عميد الملك بنيسابور في دار عميد خراسان، ثم نقله إلى مرو الروذ وحبسه في داره، فكان في حجرة تلك الدار عياله، وكانت له بنت واحدة لا غير، فلما أحس بالقتل دخل الحجرة وأخرج كفنه وودع عياله وأغلق باب الحجرة واغتسل وصلى ركعتين، وأعطى الذي هم بقتله مائة دينار نيسابورية وقال: حقي عليك أن تكفنني في هذا الثوب الذي غسلته بماء زمزم، وقال لجلاده: قل للوزير نظام الملك: بئس ما فعلت، علمت الأتراك قتل الوزراء، وأصحاب الديوان، ومن حفر مهواة وقع فيها، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة؛ ورضي بقضاء الله الحتوم.

وقتل يوم الأحد سادس عشر ذي الحجة سنة خمس وخمسين وأربعمائة وعمره يومئذ نيف وأربعون سنة، فعمل في ذلك الباخرزي الشاعر المذكور مخاطباً للسلطان ألب أرسلان.

وعمك أدناه وأعلى محله   وبوأه من ملكه كنفاً رحبا

قضى كل مولى منكما حق عبده   فخوله الدنيا وخولته العقبى

ومن العجائب أنه دفنت مذاكيره بخوارزم، واريق دمه بمرو الروذ، ودفن جسده بقريته كندر، وجمجمته ودماغه بنيسابور، وحشيت سوأته بالتين ونقلت إلى كرمان، وكان نظام الملك هناك، ودفنت ثم، وفي ذلك عبرة لمن اعتبر، بعد أن كان رئيس عصره، رحمه الله تعالى.

والكندري: بضم الكاف وسكون النون وضم الدال المهملة وبعدها راء، هذه النسبة إلى كندر، وهي قرية من قرى طريثيث – بضم الطاء المهملة وفتح الراء وسكون الياء المثناة من تحتها وكسر الثاء المثلثة وسكون الياء المثناة من تحتها أيضاً وبعدها ثاء مثلثة – وهي كورة من نواحي نيسابور، خرج منها جماعة من العلماء وغيرهم، والله تعالى أعلم بالصواب.

الوزير الجواد جمال الدين

أبو جعفر محمد بن علي بن أبي منصور، الملقب جمال الدين المعروف بالجواد الأصفهاني، وزير صاحب الموصل؛ كان جده أبو منصور فهاداً للسلطان ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي –الآتي ذكره إن شاء الله تعالى فتأدب ولده وسمت همته، فاشتهر أمره وخدم في مناصب علية وصاهر الأكابر، فلما ولد له جمال الدين المذكور عني بتأديبه وتهذيبه، ثم ترتب في ديوان العرض للسلطان محمود بن محمد بن ملكشاه – الآتي ذكره إن شاء الله تعالى –

فظهرت كفايته وحمدت طريقته، فلما تولى أتابك زنكي بن آق سنقر - المقدم ذكره- الموصل وما والاها استخدم جمال الدين المذكور وقربه واستصحبه معه إليها، فولاه نصيبين، فظهرت كفايته، وأضاف إليه الرحبة، فأبان عن كفاية وعفة، وكان من خواصه وأكبر ندمائه، فجعله مشرف مملكته كلها وحكمه تحكيماً لا مزيد عليه. وكان الوزير يومئذ ضياء الدين أبا سعيد بهرام بن الخضر الكفرتوثي، استوزره أتابك نكي في سنة ثمان وعشرين وخمسمائة، وتوفي خامس شعبان سنة ست وثلاثين وخمسمائة، وهو على وزارته، وتولى الوزارة بعده أبو الرضى ابن صدقة، وجمال الدين المذكور على وظائفه.

وكان جمال الدين دمث الأخلاق، حسن المحاضرة مقبول المفاكهة، فخف على أتابك زنكي المذكور وأعجبه حديثه ومحاورته، وجعله من ندمائه، وعول عليه في آخر مدته في أشراف ديوانه وزارد ماله، ولم يظهر منه في أيام أتابك زنكي كرم ولا جود ولا تظاهر بموجود، فلما قتل على قلعة جعبر - كما تقدم في ترجمته -أراد بعض العسكر قتل الوزير المذكور ونهب ماله، فتعرضوا له ورموا خيمته بالنشاب، فحماه جماعة من الأمراء، وتوجه بالعسكر إلى الموصل، فرتبه سيف الدين غازي بن أتابك زنكي - المقدم ذكره - في وزارته، وفوض الأمور وتدبير أحوال الدولة إليه وإلى زين الدين علي بن بكتكين والد مظفر الدين صاحب إربل -وقد تقدم طرف من خبره فير ترجمة ولده في حرف الكاف - فظهر حينئذ جود الوزير المذكور وانبسطت يده، ولم يزل يعطي ويبذل الأموال ويبالغ في الإنفاق حتى عرف بالجواد، وصار ذلك كالعلم عليه، حتى لا يقال له إلا "جمال الدين الجواد". ومدحه جماعة من الشعراء، من جملتهم محمد بن نصر بن صغير القيسراني الشاعر - المقدم ذكره فإنه قصده بقصيدته المشهورة التي أولها:

سقى الله بالزوراء من جانب الغربي مهاً وردت عين الحياة من القلب

وهي من القصائد الطنانة.

وأثر آثار جميلة، وأجرى الماء إلى عرفات أيام الموسم من مكان بعيد، وعمل الدرج من أسفل الدبل إلى أعلاه، وبنى سور مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، وما كان خرب من مسجده، وكان يحمل في كل سنة إلى مكة شرفها الله تعالى والمدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام من الأموال والكسوات للفقراء والمنقطعين ما يقوم بهم مدة سنة كاملة، وكان له ديوان مرتب باسم أرباب الرسوم والقصاد لا غير، ولقد تنوع في فعل الخير حتى جاء في زمنه بالموصل غلاء مفرط فواسى الناس حتى لم يبق له شيء، وكان إقطاعه عشر مغل البلاد على جاري عادة وزراء الدولة السلجوقية، فأخبر بعض وكلائه أنه دخل عليه يوماً فناوله بقياره، وقال له: بع هذا واصرف ثمنه إلى المحاويج، فقال له الوكيل: إنه لم يبق عندك سوى هذا البقيار والذي على رأسك، وإذا بعت هذا ربما تحتاج إلى تغيير البقيار فلا تجد ما تلبسه، فقال له: إن هذا الوقت صعب كما ترى، وربما لا أجد وقتاً أصنع فيه الخير كهذا الوقت، وأما البقيار فإني أجد عوضه كثيراً، فخرج الوكيل وباع البقيار وتصدق بثمنه؛ وله من هذه النوادر أشياء كثيرة.

وأقام على هذه الحال إلى أن توفي مخدومه غازي - في التاريخ المذكور في ترجمته -وقام بالأمر من بعده أخوه قطب الدين مودود - وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى -فاستولى عليه مدة، ثم إنه استكثر إقطاعه وثقل عليه أمره، فقبض عليه في شهر رجب الفرد سنة ثمان وخمسين وخمسمائة. وفي أخبار زين الدين صاحب إربل طرف من خبر قبضه وحبسه في قلعة الموصل. ولم يزل مسجوناً بها إلى أن توفي في العشر الأخير من شهر رمضان المعظم، وقيل شعبان، سنة تسع وخمسين وخمسمائة، وصلي عليه، وكان يوماً مشهوداً من ضجيج الضعفاء والأرامل والأيتام حول جنازته، ودفن بالموصل إلى بعض سنة ستين، ثم نقل إلى مكة - حرسها الله تعالى -وطيف به حول الكعبة، وكان بعد أن صعدوا به ليلة الوقفة إلى جبل عرفات، وكانوا يطوفون به كل يوم مراراً مدة مقامهم بمكة، شرفها الله تعالى، وكان يوم دخوله مكة يوماً مشهوداً من اجتماع الخلق والبكاء عليه، ويقال إنه لم يعهد عندهم مثل ذلك اليوم، وكان معه شخص مرتب يذكر محاسنه ويعدد مآثره، إذا وصلوا به إلى المزارات والمواضع المعظمة، فلما انتهوا به إلى الكعبة وقف وأنشد:

يا كعبة الإسلام هذا الذي جاءك يسعى كعبة الجود

قصدت في العام وهذا الذي لم يخل يوماً غير مقصود

ثم حمل إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ودفن بها بالبقيع بعد أن أدخل المدينة، وطيف به حول حجرة الرسول صلى الله عليه وسلم مراراً وأنشد الشخص الذي كان مرتباً معه، فقال:

سرى نعشه فوق الرقاب وطالما سرى جوده فوق الركاب ونائله

يمر على الوادي فتثني رماله عليه وبالنادي فتبكي أرامله

قلت: وهذان البيتان من جملة القصيدة المذكورة في ترجمة المقلد بن نصر بن منفذ الشيزري – وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى –؛ رحمه الله تعالى.

وكان ولده أبو الحسن علي الملقب جلال الدين، من الأدباء الفضلاء البلغاء الكرماء، رأيت له ديوان رسائل أجاد فيه، وجمعه مجد الدين أبو السعادات المبارك المعروف بابن الأثير الجزري صاحب جامع الأصول – وقد تقدم ذكره – وسماه كتاب الجواهري واللآلي من الإملاء المولوي الوزيري الجلالي".
وكان مجد الدين المذكور في أول أمره كاتباً بين يديه، يملي رسائله وإنشاءه عليه، وهو كاتب يده، وقد أشار مجد الدين إلى ذلك في أول هذا الكتاب، وبالغ في وصف جلال الدين المذكور وتقريضه، وفضله على كل من تقدم من الفصحاء، وذكر أنه كان بينه وبين حيص بيص – الشاعر المقدم ذكره – مكاتبات، ولولا خوف الإطالة لذكرت بعض رسائله.
وفي جملة ما ذكره أن حيص بيص كتب إليه على يد رجل عليه دين رسالة مختصرة، فأتيت بها لقصرها، وهي "الكرم غامر والذكر سائر، والعون على الخطوب أكرم ناصر، وإغاثة الملهوف من أعظم الذخائر، والسلام".
وكان جلا الدين المذكور وزير سيف الدين غازي بن قطب الدين مودو، – وقد تقدم ذكره أيضاً في حرف الغين –.
وتوفي جلا الدين المذكور سنة أربع وسبعين وخمسمائة، بمدينة دنيسر وحمل إلى الموصل ثم نقل إلى المدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، ودفن بها في تربة والده، رحمه الله تعالى.
ودنيسر: بضم الدال المهملة وفتح النون، وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح السين المهملة وبعدها راء، وهي مدينة بالجزيرة الفراتية بين نصيبين ورأس عين، تطرقها التجار من جميع الجهات، وهي مجمع الطرقات، ولهذا قيل لها: دنيسر، وهي لفظ مركب عجمي، وأصله دنياسر، ومعناه رأس الدنيا، وعادة العجم في الأسماء المضافة أن يؤخروا المضاف عن المضاف إليه، وسر بالعجمي رأس.
والكفر توثي الوزير المذكور: بفتح الكاف وسكون الفاء وفتح الراء وضم التاء المثناة من فوقها وسكون الواو وبعدها ثاء مثلثة، هذه النسبة إلى كفرتوثا وهي قرية من أعمال الجزيرة الفراتية بين رأس عين ودارا، والله أعلم بالصواب.

العماد الأصفهاني الكاتب

أبو عبد الله محمد بن صفي الدين أبي الفرج محمد بن نفيس الدين أبي الرجا حامد بن محمد بن عبد الله بن علي بن محمود بن هبة الله المعروف بابن أخي العزيز – وقد تقدم ذكر عمه العزيز في حرف الهمزة –. المعروف بأله، الملقب عماد الدين، الكاتب الأصبهاني.
كان العماد المذكور فقيهاً شافعي المذهب، تفقه بالمدرسة النظامية زماناً، وأتقن الخلاف وفنون الأدب، وله من الشعر والرسائل ما يغني عن الإطالة في شرحه. وكان قد نشأ بأصبهان وقد بغداد في حداثته، وتفقه على الشيخ أبي منصور سعيد بن محمد بن الزاز مدرس النظامية، وسمع بها الحديث من أبي الحسن علي بن هبة الله بن عبد السلام وأبي منصور محمد بن عبد الملك بن جيرون وأبي المكارم المبارك بن علي السمرقندي وأبي بكر أحمد بن علي بن الأشقر، وغيرهم، وأقام بها مدة.
ولما تخرج ومهر تعلق بالوزير عون الدين يحيى بن هبيرة ببغداد، فولاه النظر بالبصرة ثم بواسط، ولم يزل ماشي الحال مدة حياته، فلما توفي – في التاريخ الآتي ذكره في ترجمته إن شاء الله تعالى – تشتت شمل أتباعه والمنتسبين إليه ونال المكروه بعضهم، وأقام العماد مدة في هيش منكد وجفن مسهد، ثم انتقل إلى مدينة دمشق، فوصلها في شعبان سنة اثنتين وستين خمسمائة، وسلطانها يومئذ الملك العادل نور الدين أبو القاسم محمود بن أتابك زنك – الآتي ذكره إن شاء الله تعالى – وحاكمها ومتولي أمورها وتدبير دولتها القاضي كمال الدين أبو الفضل محمد ابن الشهرزوري – المقدم ذكره

– فتعرف به وحضر مجالسه، وذكر لديه مسألة في الخلاف، وعرفه الأمير الكبير نجم الدين أبو الشكر أيوب والد السلطان صلاح الدين رحمهما الله تعالى، وكان يعرف عمه العزيز من قلعة تكريب فأحسن إليه وأكرمه وميزه عند الأعيان والأماثل، وعرفه السلطان صلاح الدين من جهة والده، ومدحه في ذلك الوقت بدمشق المحروسة، وذكر العماد ذلك في كتابه "البرق الشامي" وأورد القصيدة التي مدحه بها يومئذ.

ثم إن القاضي كمال الدين نوه بذكره عند السلطان نور الدين، وعدد عليه فضائله وأهله لكتابة الإنشاء. قال العماد: فبقيت متحيراً في الدخول فيما ليس من شأني ولا وظيفتي، ولا تقدمت لي به دربة. ولقد كانت مواد هذه الصناعة عتيدة عنده، لكنه لم يكن قد مارسها فجبن عنها في الابتداء، فلما باشرها هانت عليه، وأجاد فيها وأتى فيها بالغرائب؛ وكان ينشئ الرسائل باللغة العجمية أيضاً، وحصل بينه وبين صلاح الدين في تلك المدة مودة أكيدة وامتزاج تام، وعلت مترلته عند نور العين، وصار صاحب سره، وسيره إلى دار السلام بغداد رسولاً في أيام الإمام المستنجد، ولما عاد فوض إليه تدريس المدرسة المعروفة به في دمشق، أعني العماد، وذلك في شهر رجب سنة سبع وستين وخمسمائة، ثم رتبه في إشراف الديوان في سنة ثمان وستين، ولم يزل مستقيم الحال رخي البال، إلى أن توفي نور الدين – في التاريخ الآتي ذكره إن شاء الله تعالى – وقام ولده الملك الصالح إسماعيل مقامه وكان صغيراً فاستولى عليه جماعة كانوا يكرهون العماد فضايقوه وأخافوه إلى أن ترك جميع ما هو فيه وسافر قاصداً بغداد فوصل إلى الموصل ومرض بها مرضاً شديداً.

ثم بلغه خروج السلطان صلاح الدين من الديار المصرية لأخذ دمشق، فانثنى عزمه عن قصد العراق وعزم على العود إلى الشام وخرج من الموصل رابع جمادى الأولى سنة سبعين وخمسمائة، وسلك طريق البرية، فوصل إلى دمشق في ثامن جمادى الآخرة وصلاح الدين يومئذ نازل على حلب، ثم قصد خدمته وقد تسلم قلعة حمص في شعبان من السنة، فحضر بين يديه وأنشده قصيدة أطال نفسه فيها، ثم لزم الباب يترل لترول السلطان ويرحل لرحيله، فاستمر على عطلته مديدة، وهو يغشى مجالس السلطان وينشده في كل وقت مدائح ويعرض عليه ويقرب بصحبته القديمة، ولم يزل على ذلك حتى نظمه في سلك جماعته واستكتبه واعتمد عليه وقرب منه، فصار من جملة الصدور المعدودين والأماثل المشهورين، يضاهي الوزراء ويجري في مضمارهم. وكان القاضي الفاضل في أكثر أوقاته ينقطع عن خدمة السلطان ويتوفر على مصالح الديار المصرية، والعماد ملازم الباب بالشام وغيره وهو صاحب السر المكتوم.

وصنف التصانيف النافعة، من ذلك: كتاب "خريدة القصر وجريدة العصر" جعله ذيلاً على "زينة الدهر" تأليف أبي المعالي سعد بن علي الوراق الحظيري، والحظيري جعل كتابه ذيلاً على دمية القصر وعصر أهل العصر للباخرزي، والباخرزي جعل كتابه ذيلاً على "يتيمة الدهر" للثعالبي، وقد تقدم ذكر هؤلاء الثلاثة المؤلفين، والثعالبي جعل كتابه ذيلاً على كتاب "البارع" لهارون بن علي المنجم – وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى – وقد ذكر العماد في خريدته الشعراء الذين كانوا بعد المائة الخامسة إلى سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة، وجمع شعراء العراق والعجم والشام والجزيرة ومصر والمغرب، ولم يترك أحداً إلا النادر الخامي، وأحسن في هذا الكتاب، وهو في عشر مجلدات.

وصنف كتاب "البرق الشامي" في سبع مجلدات، وهو مجموع تاريخ، وبدأ فيه بذكر نفسه وصورة انتقاله من العراق إلى الشام، وما جرى له في خدمة السلطان نورد الدين محمود، وكيفية تعلقه بخدمة السلطان صلاح الدين، وذكر شيئاً من الفتوحات بالشام، وهو من الكتب الممتعة، وإنما سماه "البرق الشامي" لأنه شبه أوقاته في تلك الأيام بالبرق الخاطف لطيبها وسرعة انقضائها.

وصنف كتاب "الفتح القدسي في الفتح القدسي" في مجلدين، يتضمن كيفية فتح البيت المقدس، وصنف كتاب "السيل على الذيل" جعله ذيلاً على "الذيل" لابن السمعاني المقدم ذكره الذي ذيل به "تاريخ بغداد" تأليف الخطيب البغدادي الحافظ، هكذا كنت قد سمعت ثم إني وقفت عليه فوجدته ذيلاً على كتابه "خريدة القصر" المذكور، وصنف كتاب "نصرة الفترة وعصره الفطرة في أخبار الدولة السلجوقية" وله ديوان رسائل وديوان شعر في أربع مجلدات، ونفسه في قصائده طويل، وله ديوان صغير جميعه دوبيت.

وكان بينه وبين القاضي الفاضل مكاتبات ومحاورات لطاف، فمن ذلك ما يحكى عنه أنه لقيه يوماً وهو راكب على فرس، فقال له: سر فلا كبا بك

الفرس، فقال له الفاضل: دام علا العماد، وهذا مما يقرأ مقلوباً وصحيحاً سواء.واجتمعا يوماً في موكب السلطان، وقد انتشر من الغبار لكثرة الفرسان ما سد الفضاء، فتعجبا من ذلك، فأنشد العماد في الحال:

أما الغبار فإنه مما أثارته السنابك

والجو منه مظلم لكن أنار به السنابك

يا دهر لي عبد الرحيم فلست أخشى مس نابك

وقد اتفق له الجناس في الأبيات الثلاثة، وهو في غاية الحسن.

وكان القاضي الفاضل قد حج من مصر في سنة أربع وسبعين وخمسمائة وركب البحر في طريقه، فكتب إليه العماد: طوبى للحجر والحجون من ذي الحجر والحجا، منيل الجدا ومنير الدحى، ولندي الكعبة من كعبة الندى، وللهدايا المشعرات من مشعر الهدى، وللمقام الكريم من مقام الكريم، ومن حاط فقار القفر للحطيم، ومتى رؤي هرم في الحرم، وحاتم ماتح زمزم؟ ومتى ركب البحر البحر، وسلك البر البر؟ لقد عادي قس إلى عكاظه، ولقبلة يستقبلها قبلة القبول والإقبال، والسلام.

لقد أبدع في هذه الرسالة وما أودعها من الصناعة، لكن الظاهر أنه غلط في قوله قيس لحفاظه، فإن المشهور أنس الحافظ، وهم أربعة أخوة لكل واحد منهم لقب، ولولا خوف الإطالة والانتقال عما نحن بصدده لذكرت قصتهم.

ولما توفي الوزير عون الدين بن هبيرة اعتقل الديوان العزيز جماعة من أصحابه وكان العماد في جملة من اعتقل، لأنه كان ينوب عنه في واسط تلك المدة، فكتب من الحبس إلى عماد الدين بن عضد الدين بن رئيس الرؤساء، وكان حينئذ أستاذ الدار المستنجدية، وذلك في شعبان سنة ستين وخمسمائة من قصيدة:

قل للإمام: علام حبس وليكم أولوا جميلكم جميل ولائه

أوليس إذ حبس الغمام وليه خلى أبوك سبيله بدعائه

فأمر بإطلاقه، وهذا معنى مليح غريب، وفيه إشارة إلى قضية العباس بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فإن الغيث قد انقطع في زمن خلافته وأمحلت الأرض، فخرج للاستسقاء ومعه العباس والناس، فلما وقف للدعاء قال: اللهم إنا كنا إذا قحطنا توسلنا إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك اليوم بعم نبينا فاسقنا، فسقوا. وأما الوي فهو المطر الذي يأتي بعد الوسمي، وسمي ولياً لأنه يلي الوسمي، والوسمي: مطر الربيع الأول، وسمي بذلك لأنه يسم الأرض بالنبات، وهو منسوب إلى الوسم، وقد جمعها المتنبي في بيت واحد وهو:

أمنعمة بالعود الظبية التي بغير ولي كان نائلها الوسمي

يعني أنه لم تكن لزيارتها الأولى ثانية: ولم يزل العماد الكاتب على مكانته ورفعة منزلته إلى أن توفي السلطان صلاح الدين، رحمه الله تعالى، فاختلت أحواله وتعطلت أوصاله، ولم يجد في وجهه باباً مفتوحاً، فلزم بيته وأقبل على الاشتغال بالتصانيف، وقد ساق في أوائل "البرق الشامي" طرفاً من ذلك. وتقد في ترجمة ابن التعاويذي ما دار بينهما في طلب الفروة والرسالة والقصيدة وجوابهما.

وكانت ولادته يوم الاثنين ثاني جمادى الآخرة، وقيل في شعبان، سنة تسع عشرة وخمسمائة بأصبهان. وتوفي يوم الاثنين مستهل شهر رمضان المعظم سنة سبع وتسعين وخمسمائة بدمشق، ودفن في مقابر الصوفية خارج باب النصر، رحمه الله تعالى.

أخبرني بعض الرؤساء ممن كان ملازمه في مدة مرضه أنه كان إذا دخل عليه أحدٌ يعوده أنشده:

أنا ضيف بربعكم أين أين المضيف؟

أنكرتني معارفي مات من كنت أعرف

وأله: بفتح الهمزة وضم اللام وسكون الهاء، وهو اسم عجمي معناه بالعربي العقاب، وهو الطائر المعروف، وقد قيل إن العقاب لا يوجد فيه ذكر بل جميعه أنثى، وإن الذي يسافده طائر آخر من غير جنسه، وقيل إن الثعلب يسافده، وهذا من العجائب.
ولابن عنين الشاعر المقدم ذكره في هجو شخص يقال له ابن سيده:

ما أنت إلا كالعقاب فأمه ... معروفة وله ب مجهول

وهذه إشارة إلى ما نحن فيه، والله تعالى أعلم بالصواب.

الفارابي الفيلسوف

أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان بن أوزلغ الفارابي التركي الحكيم المشهور، صاحب التصانيف في المنطق والموسيقى وغيرهما من العلوم، وهو أكبر فلاسفة المسلمين، و لم يكن فيهم من بلغ رتبته في فنونه، والرئيس أبو علي ابن سينا – المقدم ذكره – بكتبه تخرج وبكلامه انتفع في تصانيفه. وكان رجلاً تركياً ولد في بلده ونشأ بها –وسيأتي الكلام عليها في آخر الترجمة إن شاء الله تعالى – ثم خرج من بلده وتنقلت به الأسفار إلى أن وصل إلى بغداد، وهو يعرف اللسان التركي وعدة لغات غير العربي، فشرع في اللسان العربي فتعلمه وأتقنه غاية الإتقان، ثم اشتغل بعلوم الحكمة.
ولما دخل بغداد كان بها أبو بشر متى بن يونس الحكيم المشهور، وهو شيخ كبير، وكان يقرأ الناس عليه فن المنطق، وله إذ ذاك صيت عظيم وشهرة وافية، ويجتمع في حلقته كل يوم المئون من المشتغلين بالمنطق، وهو يقرأ كتاب أرسطاطاليس في المنطق ويملي على تلامذته شرحه، فكتب عنه في شرحه سبعون سفراً، و لم يكن في ذلك الوقت أحد مثله في فنه، وكان حسن العبارة في تواليفه لطيف الإشارة، وكان يستعمل في تصانيفه البسط والذليل، حتى قال بعض علماء هذا الفن: ما أرى أبا نصر الفارابي أخذ طريق تفهيم المعاني الجزلة بالألفاظ السهلة إلا من أبي بشر يعني المذكور، وكان أبو نصر يحضر حلقته في غمار تلامذته.
فأقام أبو نصر كذلك برهة ثم ارتحل إلى مدينة حران وفيها يوحنا بن حيلان الحكم النصراني، فأخذ عنه طرفاً من المنطق أيضاً، ثم أنه قفل راجعاً إلى بغداد وقرأ بها علوم الفلسفة، وتناول جميع كتب أرسطاطاليس وتمهر في استخراج معانيها والوقوف على أغراضه فيها، ويقال إنه وجد "كتاب النفس" لأرسطاطاليس وعليه مكتوب بخط أبي نصر الفارابي: إني قرأت هذا الكتاب مائتي مرة. ونقل عنه أنه كان يقول: قرأت "السماع الطبيعي"
لأرسطاطاليس الحكيم أربعين مرة، وأرى أني محتاج إلى معاودة قراءته. ويروى عنه أنه سئل: من أعلم الناس بهذا الشأن أنت أم أرسطاطاليس؟ فقال: لو أدركته لكنت أكبر تلامذته.
وذكره أبو القاسم صاعد بن أحمد بن عبد الرحمن بن صاعد القرطبي في كتاب "طبقات الحكماء" فقال: الفارابي فيلسوف المسلمين بالحقيقة، أخذ صناعة المنطق عن يوحنا بن حيلان المتوفى بمدينة السلام في أيام المقتدر، فبذ جميع أهل الإسلام وأربى عليهم في التحقيق لها وشرح غامضها وكشف سرها وقرب تناولها، وجميع ما يحتاج إليه منها، في كتب صحيحة العبارة لطيفة الإشارة، منبهاً على ما أعيا الكندي وغيره من صناعة التحليل وأنحاء التعاليم، وأوضح القول فيها عن مواد المنطق الخمسة، وأفاد وجوه الانتفاع بها وعرف طرق استعمالها، وكيف تصرف صورة القياس في كل مادة منها، فجاءت كتبه في ذلك الغاية الكافية والنهاية الفاضلة، ثم له بعد هذا كتاب شريف في إحصاء العلوم والتعريف بأغراضها لم يسبق إليه ولا ذهب أحد مذهبه فيه ولا يستغني طلاب العلوم كلها عن الاهتداء به، انتهى كلام ابن صاعد؛ وذكر بعد ذلك شيئاً من تواليفه ومقاصده فيها.
و لم يزل أبو نصر ببغداد مكباً على الاشتغال بهذا العلم والتحصيل له إلى أن برز فيه وفاق أهل زمانه، وألف بها معظم كتبه، ثم سافر منها إلى دمشق، و لم يقم بها، ثم توجه إلى مصر، وقد ذكر أبو بصر في كتابه الموسوم بالسياسة المدنية، أنه ابتدأ بتأليفه في بغداد وأكمله بمصر، ثم عاد إلى دمشق وأقام بها، وسلطانها يومئذ سيف الدولة بن حمدان، فأحسن إليه.

ورأيت في يعض المجاميع أن أبا نصر لما ورد على سيف الدولة وكان مجلسه مجمع الفضلاء في جميع المعارف فأدخل عليه وهو بزي الأتراك، وكان ذلك

زيه دائماً، فوقف، فقال له سيف الدولة: اقعد، فقال: حيث أنا أم حيث أنت؟ فقال: حيث أنت، فتخطى رقاب الناس حتى انتهى إلى مسند سيف الدولة وزاحمه فيه حتى أخرجه عنه، وكان على رأس سيف الدولة مماليك، وله معهم لسان خاص يسارهم به قل أن يعرفه أحد، فقال لهم بذلك اللسان: إن هذا الشيخ قد أساء الأدب، وإني مسائله عن أشياء إن لم يوف بها فاخرقوا به، فقال له أبو نصر بذلك اللسان: أيها الأمير، اصبر فإن الأمور بعواقبها، فعجب سيف الدولة منه وقال له: أتسحن هذا اللسان؟ فقال: نعم أحسن أكثر من سبعين لساناً، فعظم عنده. ثم أخذ يتكلم مع العلماء الحاضرين في المجلس في كل فن، فلم يزل كلامه يعلو وكلامهم يسفل حتى صمت الكل وبقي يتكلم وحده، ثم أخذوا يكتبون ما يقوله، فصرفهم سيف الدولة وخلا به، فقال له: هل لك في أن تأكل؟ فقال: لا، فقال: فهل تشرب؟ فقال: لا، فقال: فهل تسمع؟ فقال: نعم، فأمر سيف الدولة بإحضار القيان، فحضر كل ماهر في هذه الصناعة بأنواع الملاهي، فلم يحرك أحد منهم آلته إلا وعابه أبو نصر وقال له: أخطأت، فقال له سيف الدولة: وهل تحسن في هذه الصناعة شيئاً؟ فقال: نعم، ثم أخرج من سوطه خريطة ففتحها وأخرج منها عيداناً وركبها، ثم لعب بها، فضحك منها كل من كان في المجلس، ثم فكها وركبها تركيباً آخر وضرب بها فبكي كل من في المجلس، ثم فكها وغير تركيبها حركها فنام كل من في المجلس حتى البواب، فتركهم نياماً وخرج.

ويحكى أن الآلة المسماة القانون من وضعه، وهو أول من ركبها هذا التركيب. وكان منفرداً بنفسه لا يجالس الناس، وكان مدة مقامه بدمشق لا يكون غالباً إلا عند مجتمع ماء أو مشتبك رياض، ويؤلف هناك كتبه، وينتابه المشتغلون عليه. وكان أكثر تصنيفه في الرقاع، ولم يصنف في الكراريس إلا القليل، فلذلك جاءت أكثر تصانيفه فصولاً وتعاليق، ويوجد بعضها ناقصاً مبتوراً. واكن أزهد الناس في الدنيا لا يحتفل بأمر مكسب ولا مسكن، وأجرى عليه سيف الدولة كل يوم من بيت المال أربعة دراهم، وهو الذي اقتصر عليها لقناعته. ولم يزل على ذلك إلى أن توفي في سنة تسع وثلاثين وثلثمائة بدمشق، وصلى عليه سيف الدولة في أربعة من خواصه، وقد ناهز ثمانين سنة، ودفن بظاهر دمشق خارج باب الصغير، رحمه الله تعالى.

وتوفي متى بن يونس ببغداد في خلافة الراضي، هكذا حكاه ابن صاعد القرطبي في "طبقات الأطباء".

وظفرت في مجموع بأبيات منسوبة إلى الفارابي، ولا أعلم صحتها، وهي:

أخي خل حيز ذي باطل	وكن للحقائق في حيز
فما الدار دار مقام لنا	وما المرء في الأرض بالمعجز
ينافس هدا لهذا على	أقل من الكلم الموجز
وهل نحن إلا خطوط وقعن	على نقطة وقع مستوفز
محيط السموات أولى بنا	فما ذا التنافس في مركز

ورأيت هذه الأبيات في "الخريدة" منسوبة إلى الشيخ محمد بن عبد الملك الفارقي البغدادي الدار. وقال العماد مؤلف "الخريدة": إنه اجتمع به يوم الجمعة ثامن عشر شهر رجب، سنة إحدى وستين وخمسمائة، وتوفي بسنيات بعد ذلك.

وطرخان: بفتح الطاء المهملة وسكون الراء وفتح الخاء المعجمة وبعد الألف نون.

وأوزلغ: بفتح الهمزة وسكون الواو وفتح الزاي واللام وبعدها غين معجمة، وهما من أسماء الترك.

والفارابي: بفتح الفاء والراء وبينهما ألف وبعد الألف الثانية باء موحدة، هذه النسبة إلى فاراب، وتسمى في هذا الزمان أطرار – بضم الهزة وسكون الطاء المهملة وبين الراءين ألف ساكنة –وقد غلب عليها هذا الاسم، وهي مدينة فوق الشاش، قريبة من مدينة بلاساغون، وجميع أهلها على مذهب الإمام الشافعي، رضي الله عنه، وهي قاعدة من قواعد مدن الترك، ويقال له فاراب الداخلة، ولهم فاراب الخارجة، وهي من أطراف بلاد فارس.

وبلاساغون: بفتح الباء الموحدة واللام ألف والسين المهملة وبعد الألف غين معجمة ثم واوا ساكنة وبعدها نون، وهي بلدة في ثغور الترك وراء نهر سيحون – المقدم ذكره – بالقرب من كاشغر.

وكاشغر: بفتح الكاف وبعد الألف شين معجمة ساكنة ثم غين معجمة مفتوحة وفي آخرها راء، وهي من المدن العظام في تخوم الصين؛ والله تعالى أعلم بالصواب.

ابن زكريا الرازي

أبو بكر محمد بن زكريا الرازي الطبيب المشهور؛ ذكر ابن جلجل في "تاريخ الأطباء" أنه دبر مارستان الري ثم مارستان بغداد –في أيام المكتفي. ومن أخباره أنه كان يضرب بالعود ويغني، فلما التحى وجهه قال: نحاة ل غناء يخرج من بين شارب ولحية لا يستظرف، فترع عن ذلك وأقبل على دراسة كتب الطب والفلسفة، فقرأها قراءة رجل متعقب على مؤلفيها، فبلغ من معرفة غوائرها الغاية، واعتقد الصحيح منها وعلل السقيم، وألف في الطب كتباً كثيرة.

وقال غيره: كان إمام وقته في علم الطب والمشار إليه في ذلك العصر، وكان متقناً لهذه الصناعة حاذقاً فيها عارفاً بأوضاعها وقوانينها، تشد إليه الرحال في أخذها عنه، وصنف فيها الكتب النافعة، فمن ذلك كتاب "الحاوي" وهو من الكتب الكبار، يدخل في مقدار ثلثين مجلداً، وهو عمدة الأطباء في التنقل منه والرجوع إليه عند الاختلاف. ومنها كتاب "الجامع"، وهو أيضاً من الكتب الكبار النافعة. وكتاب "الأعصاب" وهو أيضاً كبير، وله أيضاً كتاب "المنصوري" المختصر المشهور، وهو – عل صغر حجه – من الكتب المختارة، جمع فيه بين العمل والعلم ويحتاج إليه كل أحد، وكان قد صنفه لأبي صالح منصور بن نوح بن نصر بن إسماعيل بن أحمد بن أسد بن سامان، أحد الملوك السامانية، فنسب الكتاب إليه، وله غير ذلك تصانيف كثيرة وكلها يحتاج إليها.

ومن كلامه: مهما قدرت أن تعالج بالأغذية فلا تعالج بالأدوية، مهما قدرت أن تعالج بدواء مفرد فلا تعالج بدواء مركب؛ من كلامه: إذا كان الطبيب عالماً والمريض مطيعاً فما أقل لبث العلة؛ ومن كلامه: عالج في أول العلة بما لا تسقط به القوة.

وذكر القاضي التنوخي في كتاب "الفرج بعد الشدة" في باب من اشتد بلاؤه بمرض عافاه الله بأيسر سبب وأقاله: أن غلاماً من بغداد قدم الري وكان ينفث الدم، وكان لحقه ذلك في طريقه، فاستدعى أبا بكر الرازي الطبيب المشهور بالحذق، صاحب الكتب المصنفة، فأراه ما ينفث ووصف له ما يجد، فأخذ الرازي مجسه، ورأى قارورته واستوصف حاله منذ ابتداء ذلك به، فلم يقم له دليل على سل ولا قرحة، و لم يعرف العلة، واستنظر الرجل لينظر في الأمر، فقامت على العليل القيامة وقال: هذا أيأس لي من الحياة لحذق الطبيب وجهله بالعلة، فازداد ما به من الألم، فولد الفكر للرزاي أن عاد إليه فسأله عن المياه التي شربها في طريقه، فأخبر أنه شرب من مستنقعات وصهاريج، فقام في نفس الرازي بحدة الخاطر وجودة الذكاء أن علقة كانت في الماء وقد حصلت في معدته وأن ذلك الدم من فعلها وقال له: إذا كان في غد جئتك فعالجتك و لم أنصرف حتى تبرأ، ولكن بشرط أن تأمر غلمانك أن يطيعوني فبك لم آمرهم، فقال: نعم؛ فانصرف الرازي فجمع ملء مركنين كبيرين من طحلب فأحضرهما في غد معه فأراه إياهما وقال له: ابلع، فقال: لا أستطيع، فقال للغلمان: خذوه فأنيموه، ففعلوا به ذلك، وطرحوه على قفاه وفتحوا فاه وأقبل الرازي يدس الطحلب في حلقه ويكبسه شديداً ويسأله ببلعه ويهدده بأن يضرب، إلى أن أبلعه كارهاً أحد المركنين بأسره، والرجل يستغيث فلا ينفعه مع الرازي شيء، إلى أن قال العليل: الساعة أقذف، فزاد الرازي في ما يكبسه في حلقه، فذرعه القيء فقذف، فتأمل الرازي قذفة فإذا فيه علقة، وإذا هي لما وصل إليها الطحلب قربت إليه بالطبع وتركت موضعها والتفت على الطحلب ونهض العليل معافى.

و لم يزل رئيس هذا الشان، وكان اشتغاله به على كبر، يقال إنه لما شرع فيه كان قد جاوز أربعين سنة من العمر، وطال عكره فعمي في آخر مدته، وتوفي سنة إحدى عشرة وثلثمائة، رحمه الله تعالى.

وكان اشتغاله بالطب على الحكيم أبي الحسن علي بن ربن الطبري صاحب التصانيف المشهورة، منها "فردوس الحكمة" وغيره. وكان مسيحياً ثم أسلم. وقد تقدم الكلام على الرازي.

وأما الملوك السامانية فكانوا سلاطين ما وراء النهر وخراسان، وكانوا أحسن الملوك سيرة، ومن ولي منهم كان يقال له سلطان السلاطين، لا ينعت إلا به، وصار كالعلم لهم، وكان يغلب عليهم العدل والدين والعلم، وملك من بينهم جماعة، و لم تنقرض دولتهم إلا بدولة السلطان محمود بن سبكتكين

– الآتي ذكره إن شاء الله تعالى – وكانت مدة ولايتهم مائة سنة وسنتين وستة أشهر وعشرة أيام.

وكانت وفاة أبي صالح منصور المذكور في شوال سنة خمس وستين وثلثمائة وكان قد صنف له الرازي المذكور الكتاب المذكور في حال صغره، ليشتغل به.

ثم رأيت نسخة كتاب "المنصوري"، وعلى ظهره: أن المنصور الذي وسم الرازي هذا الكتاب باسمه هو المنصور بن إسحاق بن أحمد بن نوح من ولد بهرام كوس صاحب كرمان وخراسان، وكنيته أبو صالح، والله أعلم بالصواب.

وحكى ابن حلجل – المقدم ذكره – في تاريخه أيضاً: أن الرازي المذكور صنف لمنصور المذكور كتاباً في إثبات صناعة الكيمياء، وقصد به من بغداد فدفع له الكتاب، فأعجبه وشكره عليه وحباه بألف دينار وقال له: أريد أن تخرج هذا الذي ذكرت في هذا الكتاب إلى الفعل، فقال له الرازي: إن ذلك مما يتمون له المؤن، ويحاج إلى آلات وعقاقير صحيحة، وإلى إحكام صنعة ذلك كله، وكل ذلك كلفة، فقال له منصور: كل ما احتجت إليه من الآلات، ومما يليق بالصناعة أحضره لك كاملاً حتى تخرج عما ضمنته كتابك إلى العمل. فلما حقق عليه كع عن مباشرة ذلك وعجز عن عمله. فقال له منصور: ما اعتقدت أن حكيماً يرضى بتحليل الكذب في كتب ينسبها إلى الحكمة، يشغل بها قلوب الناس ويتعبهم فيما لا يعود عليهم من ذلك منفعة.

ثم قال له: قد كافأتك على قصدك وتعبك بما صار إليك من الألف دينار، ولا بد من معاقبتك على تخليد الكذب، فحمل السوط على رأسه، ثم أمر أن يضرب بالكتاب على رأسه حتى يتقطع، ثم جهزه وسير به إلى بغداد، فكان ذلك الضرب سبب نزول الماء إلى عينيه، و لم يسمح بقدحهما وقال: قد رأيت الدنيا.

وكانت وفاة والده أبي محمد نوح بن نصر في شعر ربيع الآخر سنة ثلاث وأربعين وثلثمائة.

وكانت وفاة جده أبي الحسن نصر بن إسماعيل في رجب سنة إحدى وثلاثين وثلثمائة.

وكانت وفاة جد أبيه أبي إبراهيم إسماعيل بن احمد في صفر ليلة الثلاثاء لأربع عشرة ليلة خلت منه، سنة خمس وتسعين ومائتين ببخاري؛ ومولده سنة أربع وثلاثين ومائتين بفرغانة، وكن يكتب الحديث ويكرم العلماء.

وكانت وفاة أحمد بن أسد بن سامان سنة خمسين ومائتين بفرغانة، رحمهم الله تعالى.

وسامان: بفتح السين المهملة والميم وبينهما ألف وبعد الألف الثانية نون – وهذا وإن كان خارجاً عن المقصور، لكن مساق الكلام جره، وفيه فائدة لا يستغنى عنها، والله أعلم بالصواب.

ابن شاكر

أبو عبد الله بن موسى بن شاكر؛ أحد الأخوة الثلاثة الذي ينسب إليهم حيل بن موسى، وهم مشهورون بها، واسم أخويه أحمد والحسن، وكانت لهم همة عالة في تحصيل العلوم القديمة وكتب الأوائل، وأتعبوا أنفسهم في شأنها، وأنفذوا إلى بلاد الروم من أخرجها لهم، وأحضروا النقلة من الأصقاع الشاسعة والأماكن البعيدة بالبذل السني، فأظهروا عجائب الحكمة. وكان الغالب عليهم من العلوم: الهندسة والحيل والحركات والموسيقى والنجوم، وهو الأقل. ولهم في الحيل كتاب عجيب نادر يشتمل على كل غريبة، ولقد وقفت عليه فوجدته من أحسن الكتب وأمتعها، وهو مجلد واحد.

ومما اختصوا به في ملة الإسلام وأخرجوه من القوة إلى الفعل – وإن كان أرباب الأرصاد المتقدمون على الإسلام قد فعلوه، لكنه لم يقل إن أحداً من أهل هذه الملة تصدى له وفعله، إلا هم – وهو أن المأمون كان مغرى بعلوم الأوائل وتحقيقها، ورأى فيه أن دور كرة الأرض أربعة وعشرون ألف ميل، كل ثلاثة أميال فرسخ، فيكون المجموع ثمانية آلاف فرسخ، بحيث لو وضع طرف حبل على أي نقطة كانت من الأرض، وأدرنا الحبل على كرة الأرض حتى انتهينا بالطرف الآخر إلى ذلك الموضع من الأرض، والتقى طرفا الحبل، فإذا مسحنا ذلك الحبل كان طوله أربعة وعشرين ألف ميل.

فأراد المأمون أن يقف على حقيقة ذلك، فسأل بني موسى المذكورين عنه فقالوا: نعم، هذا قطعي. فقال: أريد منكم أن تعملوا الطريق الذي ذكره المتقدمون حتى نبصر هل يتحرر ذلك أم لا، فسألوا عن الأراضي المتساوية في أي البلاد هي؟ فقيل لهم: صحراء سنجار في غاية الاستواء وكذلك وطأة

الكوفة، فأخذوا معهم جماعة ممن يثق المأمون إلى أقوالهم، ويركن إلى معرفتهم بهذه الصناعة، وخرجوا إلى سنجار، وجاءوا إلى الصحراء المذكورة، فوقفوا في موضع منها وأخذوا ارتفاع القطب الشمالي ببعض الآلات، وضربوا في ذلك الموضع وتداً وربطوا فيه حبلاً طويلاً، ثم مشوا إلى جهة الشمالية على الاستواء من غير انحراف إلى اليمين واليسار حسب الإمكان. فلما فرغ الحبل نصبوا في الأرض وتداً آخر وربطوا فيه حبلاً طويلاً، ومشوا إلى جهة الشمال أيضاً كفعلهم الأول؛ و لم يزل ذلك دأبهم، حتى انتهوا إلى موضع أخذوا فيه ارتفاع القطب المذكور، فوجدوه قد زاد على الارتفاع الأول درجة، فمسحوا ذلك القدر الذي قدروه من الأرض بالحبل، فبلغ ستة وستين ميلاً وثلثي ميل، فعلموا أن كل درجة من درج الفلك، يقابلها من سطح الأرض ستة وستون ميلاً وثلثان.

ثم عادوا إلى الموضع الذي ضربوا فيه الوتد الأول وشدوا فيه حبلاً وتوجهوا إلى جهة الجنوب، ومشوا على الاستقامة، وعملوا عاماً عملوا في جهة الشمال: من نصب الأوتاد وشد الحبال، حتى فرغت الحبال التي استعملوها في جهة الشمال، ثم أخذوا الارتفاع فوجدوا القطب الشمالي قد نقص عن ارتفاعه الأول درجة، فصح حسابهم وحققوا ما قصدوه من ذلك، وهذا إذا وقف عليه من له يد في علم الهيئة ظهر له حقيقته. ومن المعلوم أن عدد درج الفلك ثلثمائة وستون درجة، لأن الفلك مقسوم باثني عشر برجاً، وكل برج ثلاثون درجة، فتكون الجملة ثلثمائة وستين درجة، فضربوا عدد درج الفلك في ست وستين ميلاً وثلثين – أي التي هي حصة كل درجة – فكانت الجملة أربعة وعشرين ألف ميل، وهي ثمانية آلاف فرسخ، وهذا محقق لا شك فيه.

فلما عاد بنو موسى إلى المأمون وأخبروه بما صنعوا، وكان موفقاً لما رآه في الكتب القديمة من استخراج الأوائل، طلب تحقيق ذلك في موضع آخر، فسيرهم إلى أرض الكوفة وفعلوا كما فعلوا في سنجار، فتوافق الحسابان، فعلم المأمون صحة ما حرره القدماء في ذلك، وهذا الفصل هو الذي أشرت إليه في ترجمة أبي بكر محمد بن يحيى الصولي وقلت: لولا التطويل لبينت ذلك.

وكانت لبني موسى المذكورين أوضاع نادرة غريبة، ولولا الإطالة لذكرت شيئاً منها.

وتوفي محمد المذكور في شهر ربيع الأول سنة تسع وخمسين ومائتين، رحمه الله تعالى؛ والله أعلم بالصواب.

البتاني الحاسب

أبو عبد الله محمد بن جابر الحراني الأصل البتاني الحاسب، المنجم المشهور صاحب الزيج، الصابي؛ له الأعمال العجيبة والأرصاد المتقنة. وأول ما ابتدأ بالرصد في سنة أربع وستين ومائتين، إلى سنة ست وثلثمائة، وأثبت الكواكب الثابتة في زيجه لسنة تسع وتسعين ومائتين. وكان أوحد عصره في فنه، وأعمال تدل على غزارة فضله وسع علمه. وتوفي سنة سبع عشرة وثلثمائة، عند رجوعه من بغداد، بموضع يقال له قصر الحضر، و لم أعلم أنه أسلم، لكن اسمه يدل على إسلامه.

وله من التصانيف "الزيج" وهو نسختان: أولى وثانية، والثانية أجود وكتاب "معرفة مطالع البروج فيما بين أرباع الفلك" ورسالة في "مقدار الاتصالات"، وكتاب شرح فيه أربع أرباع الفلك، ورسالة في تحقيق أقدار الاتصالات، وشرح أربع مقالات بطليموس، وغير ذلك.

والبتاني: بفتح الباء الموحدة، وقال أبو محمد هبة الله بن الأكفاني بكسرها، وبتشديد التاء المثناة من فوقها وبعد الألف نون، هذه النسبة إلى بتان، وهي ناحية من أعمال حران.

والحضر: بفتح الحاء المهملة وسكون الضاد للعجمة وبعدها راء، وهي مدينة قديمة، بالقرب من تكريت؛ بين دجلة والفرات في البرية، وكان صاحبها الساطرون، فحاصره أردشير بن بابك أول ملوك الفرس، وأخذ البلد وقتله، وفي ذلك يقول أبو داود الإيادي، واسمه حارثة بن حجاج، وقيل حنظلة بن شرقي:

وأرى الموت قد تدلى من الحضـ ... ـر على رب أهله الساطرون

صرعته الأيام من بعد ملك ... ونعيم وجوهر مكنون

وذكره أيضاً عدي بن زيد العبادي في قوله:

وأخو الحضر إذ بناه وإذ دج لة تجبى إليه والخابور

وجاء ذكره في السعر كثيراً، وقيل إن الذي حصروه سابور ذو الأكتاف وهو الذي ذكره ابن هشام في سيرة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، والأول أصح.

والساطرون: بفتح السن المهملة وبعد الألف طاء مهملة مكسور ثم راء مضمومة ثم واو ساكنة وبعدها نون وهو لفظ سرياني، ومعناه الملك، واسمه ضيزن – بفتح الصاد المعجمة وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح الزاي وبعدها نون – بن معاوية.

وضيزن: اسم صنم كان في الجاهلية وبه سمي الرجل، وهو قضاعي، وكان من ملوك الطوائف، وإذا اجتمعوا لحرب غيرهم تقدم عليهم، لعظمته عندهم.

فأقام أردشير على حصره أربع سنين وهو لا يقدر عليه، وكان للساطرون ابنة يقال لها نضيرة – بفتح النون وكسر الضاد المعجمة وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح الراء وبعدها هاء ساكنة – وفيها يقول الشاعر:

أقفر الحضر من نضير فالمر باع منها فجانب الثرثار

وكانت في غاية الجمال، وكانت عادهم إذا حاضت المرأة أنزلوها إلى الربض، فحاضت نضيرة فأنزلت إلى ربض الحضر، فأشرفت ذات يوم فأبصرت أردشير وكان من أجمل الرجال فهويته، فأرسلت إليه أن يتزوجها وتفتح له الحصن، واشترطت عليه، والتزم لها ما طلبت، ثم اختلفوا في السبب الذي دلته عليه حتى فتح الحصن، والذي قاله الطبري أنها دلته على طلسم كان في الحصن، وكان في علمهم أنه لا يفتح حتى تؤخذ حمامة ورقاء وتخضب رجلاها بحيض جارية بكر زرقاء، ثم ترسل الحمامة فتنزل على سور الحصن، فيقع الطلسم فيفتح الحصن، ففعل أردشير ذلك واستباح الحصن وخربه أباد أهله "وقتل الساطرون أباها" وسار بنضيرة وتزوجها، فبينما هي نائمة على فراشها ليلاً إذ جعلت تتململ لا تنام، فدعا بالشمع، ففتش فراشها فوجد عليه ورق آس، فقال لها أردشير: أهذا الذي أسهرك؟ قال: نعم، قال: فما كان أبوك يصنع بك؟ قالت: كان يفرش لي الديباج ويلبسني الحرير ويطعمني المخ والزبد وشهد أبكار النحل، ويسقيني الخمر الصافي، قال: فكان جزاء أبيك ما صنعت به؟ أنت إلي بذلك أسرع، ثم أمر بها فربطت قرون رأسها بذنب فرس، ثم ركض الفرس حتى قتلها. والحضر إلى الآن آثاره باقية، وفيه بقايا عمائر، لكنه لم يسكن منذ ذلك الوقت؛ وقد طال الكلام فيه، إنما هي حكاية غريبة فأحببت إثباتها.

ورأيت في تاريخ آخر أنه دخل بغداد وخرج منها وتوفي في الطريق بقصر الحضر في التاريخ المذكور، قال ياقوت الحموي في كتابه "المشترك": قصر الحضر بقرب سامرا من أبنية المعتصم، والله تعالى أعلم.

أبو الوفاء المهندس

أبو الوفاء محمد بن محمد بن يحيى بن إسماعيل بن العباس البوزجاني الحاسب المشهور؛ أحد الأئمة المشاهير في علم الهندسة، وله فيه استخراجات غريبة لم يسبق بها، وكان شيخنا العلامة كمال الدين أبو الفتح موسى بن يونس، تغمده الله برحمته وهو القيم بهذا الفن، يبالغ في وصف كتبه ويعتمد عليها في أكثر مطالعاته، ويحتج بما يقوله. وكان عنده من تواليفه عدة كتب. وله في استخراج الأوتار تصنيف جيد نافع.

وكانت ولادته يوم الأربعاء مستهل شهر رمضان المعظم سنة ثمان وعشرين وثلثمائة، بمدينة بوزجان: بضم الباء الموحدة وسكون الواو والزاي وفتح الجيم وبعد الألف نون، وهي بليدة بخراسان بين هراة ونيسابور.

وكان قد قدم العراق سنة ثمان وأربعين وثلثمائة.

وكنت وقفت على تاريخ ولادته على هذه الصورة في كتاب "الفهرست" تأليف أبي الفرج ابن النديم، ولم يذكر تاريخ وفاته. فكتبت هذه الترجمة، وذكرت تاريخ الولادة، فأخليت بياضاً لأجل تاريخ الوفاة لعي أظفر به، فإن قصدي في هذا التاريخ إنما هو ذكر الوفاة كما ذكرته في أول الكتاب. ثم إني وجدت تاريخ الوفاة في تاريخ شيخنا ابن الأثير قد ذكرها في السنة المذكورة فألحقتها. وكان بين شروعي في هذا التاريخ وظفري بالوفاة أكثر من عشرين سنة، والله تعالى أعلم.

الزمخرشي صاحب الكشاف

أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي الزمخشري، الإمام الكبير في التفسير والحديث والنحو واللغة وعلم البيان؛ كان إمام عصره من غير ما دفع، تشد إليه الرحال في فنونه. أخذ النحو عن أبي مضر منصور، وصنف التصانيف البديعة: منها "الكشاف" في تفسير القرآن العزيز، لم يصنف قبله مثله و"المحاجاة بالمسائل النحوية" و"المفرد والمركب" في العربية و"الفائق" في تفسير الحديث، و"أساس البلاغة" في اللغة، و"ربيع الأبرار وفصوص الأخبار" و"متشابه أسامي الرواة" و"النصائح الكبار" و"النصائح الصغار" و"ضالة الناشد والرائض في علم الفرائض" و"المفصل في النحو وقد اعتنى بشرحه خلق كثير، و"الأنموذج" في النحو، و"المفرد والمؤلف" في النحو، و"رؤوس المسائل" في الفقه، و"شرح أبيات كتاب سيبويه" و"المستقصى في أمثال العرب" و"صميم العربية" و"سوائر الأمثال" و"دويان التمثيل" و"شقائق النعمان في حقائق النعمان" و"شافي العي من كلام الشافعي" رضي الله عنه، و"القسطاس" في العروض، و"معجم الحدود" و"المنهاج" في الأصول، و"مقدمة الآداب" و"ديوان الرسائل" و"ديوان الشعر" و"الرسالة الناصحة" والأمالي في كل فن وغير ذلك؛ وكان شروعه في تأليف "المفصل" في غرة شهر رمضان سنة ثلاث عشرة وخمسمائة، وفرغ منه في غرة المحرم سنة خمس عشرة وخمسمائة.

وكان قد سافر إلى مكة، حرسها الله تعالى، وجاور بها زماناً، فصار يقال له "جار الله" لذلك، وكان هذا الاسم علماً عليه. وسمعت من بعض المشايخ أن إحدى رجليه كانت ساقطة، وأنه كان يمشي في جاون خشب، وكان سبب سقوطها أنه كان في بعض أسفاره ببلاد خوارزم أصابه ثلج كثير وبرد شديد في الطريق فسقطت منه رجله، وأنه كان بيده محضر فيه شهادة خلق كثير ممن اطلعوا على حقيقة ذلك خوفاً من أن يظن من لم يعلم صورة الحال أنها قطعت لريبة، والثلج والبرد كثيراً ما يؤثر في الأطراف في تلك البلاد فتسقط، خصوصاً خوارزم، فإنها في غاية البرد، ولقد شاهدت خلقاً كثيراً ممن سقطت أطرافهم بهذا السبب، فلا يستبعده من لم يعهده.

ورأيت في تاريخ بعض المتأخرين أن الزمخشري لما دخل بغداد واجتمع بالفقيه الحنفي الدامغاني سأله عن سبب قطع رجله، فقال: دعاء الوالدة، وذلك أني في صباي أمسكت عصفوراً وربطته بخيط في رجله، وأفلت من يدي، فأدركته وقد دخل في خرق، فجذبته فانقطعت رجله في الخيط، فتألمت والدتي لذلك وقال: قطع الله رجل الأبعد كما قطعت رجله؛ فلما وصلت إلى سن الطلب رحلت إلى بخارى لطلب العلم، فسقطت عن الدابة فانكسرت الرجل وعملت علي عملاً أوجب قطعها؛ والله أعلم بالصحة.

وكان الزمخشري المذكور معتزلي الاعتقاد متظاهراً به، حتى نقل عنه أنه كان إذا قصد صاحباً له واستأذن عليه في الدخول يقول لمن يأخذ له الإذن: قل له أبو القاسم المعتزلي بالباب. وأول ما صنف كتاب "الكشاف" كتب استفتاح الخطبة "الحمد لله الذي خلق القرآن" فيقال إنه قيل له: متى تركته على هذه الهيئة هجره الناس ولا يرغب أحد فيه، فغيره بقوله "الحمد لله الذي جعل القرآن" وجعل عندهم بمعنى خلق، والبحث في ذلك يطول، ورأيت في كثير من النسخ "الحمد لله الذي أنزل القرآن" وهذا إصلاح الناس لا إصلاح المصنف.

وكان الحافظ أبو الطاهر أحمد بن محمد السلفي المقدم ذكره، رحمه الله تعالى، قد كتب إليه من الإسكندرية، وهو يومئذ مجاور بمكة حرسها الله تعالى، يستجيره في مسموعاته ومصانفه، فرد جزابه بما لا يشفي الغليل، فلما كان في العام الثاني كتب إليه أيضاً مع الحجاج استجازه أخرى اقتراح فيها مقصوده، ثم قال له في آخرها: ولا يحوج، أدام الله توفيقه، إلى المراجعة، فالمسافة بعيدة، وقد كاتبه في السنة الماضية قلم يجبه بما يشفي الغليل، وله في ذلك لأجر الجزيل. فكتب إليه الزمخشري جوابه، ولولا خوف التطويل لكتبت الاستدعاء والجواب، لكن نقتصر على بعض الجواب وهو "ما مثلي مع أعلام العلماء إلا كمثل السها مع مصابيح السماء، والجهام الصفر من الرهام مع الغوادي الغامرة للقيعان والآكام، والسكيت المخلف مع خيل السباق، والبغاث مع الطير العتاق، وما التقيت بالعلامة، إلا شبه الرقم بالعلامة، والعلم مدينة أحد بابيها الدارية، والثاني الرواية، وأنا في كلا البابين ذو بضاعة مزجاة، ظلي فيه أقلص من ظل حصاة، أما الرواية فحديثة الميلاد، قريبة الإسناد، لم تستند إلى علماء نحارير، ولا إلى أعلام المشاهير، وأما الدراية فثمد لا يبلغ أفواها، وبرض لا يبل شفاها" ثم كتب بعد هذا: لا يغرنكم قول فلان في ولا قول فلان وعدد جماعة من الشعراء والفضلاء مدحوه بمقاطيع من

الشعر، وأوردها كلها، ولا حاجة إلى الاتيان بها ها هنا، فلما فرغ من إيرادها كتب "فإن ذلك اعتزاز منهم بالظاهر المموه، وجهل بالباطن المشوه، ولعل الذي غرهم مني ما رأوا من حسن منصح للمسلمين ويبلغ الشفقة على المستفيدين، وقطع المطامع عنهم، وإفادة المبار والصنائع عليهم، وعزة النفس والرب بها على عن الإسفاف للدنيات، والإقبال على خويصتي، والإعراض عما يغنيني، فجللت في عيونهم، وغلطوا في ونسبوني إلى ما لست منه قبيل ولا دبير، وما أنا فيا أقول بهاضمٍ لنفسي كما قال الحسن البصري، رحمه الله تعالى، في أبكر الصديق رضوان الله عليه بقوله "وليتكم ولست بخيركم": إن المؤمن ليهضم نفسه، وإنما صدقت الفاحص عني وعن كنه روايتي ودرايتي ومن لقيت وأخذت عنه، وما بلغ علمي وقصارى فضلي، وأطلعته طلع أمري، وأفضيت إليه بخبية سري، وألقيت إليه عجري وبجري، وأعلمته نجمي وشجري. وأما الموالد فقرية مجهولة من قرى خوارزم تسمى زمخشر، وسمعت أبي، رحمه الله تعالى، يقول: اجتاز بها أعرابي فسأل عن اسمها واسم كبيرها، فقيل له: زمخشر والرداد، فقال لا خير في شر ورد، ولم يلمم بها؛ وقت الميلاد شهر الله الصم في عام سبع وستين وأربعمائة، والله المحمود، والمصلى عليه محمد وآله وأصحابه" هذا آخر الإجازة، وقد أطال الكلام فيها، ولم يصرح له بمقصوده فيها، وما أعلم هل أجازه بعد ذلك أم لا.

وبيني وبينه في الرواية شخص واحد، فإنه أجاز زينب بنت الشعري، ولي منها إجازة كما تقدم في ترجمتها في حرف الزاي.

ومن شعره السائر قوله، وقد ذكره السمعاني في "الذيل" قال: أنشدني أحمد بن محمود الخوارزمي إملاء بسمرقند، فقال: أنشدنا محمود بن عمر الزمخشري لنفسه بخوارزم، وذكر الأبيات وهي:

ألا قل لسعدي ما لنا فيك من وطر ... وما تطلبين النجل من أعين البقر

فإنا اقتصرنا بالذين تضايقت ... عيونهم والله يجزي من اقتصر

مليح ولكن عنده كل جفوة ... ولم أر في الدنيا صفاء بلا كدر

ولم أنس إذ غازلته قرب روضة ... إلى جنب حوض فيه للماء منحدر

فقلت له: جئني بورد وإنما ... أردت به ورد الخدود وما شعر

فقال: انتظرني رجع طرفٍ أجيء به ... فقلت له: هيهات ما لي منتظر

فقال :ولا ورد سوى الخد حاضر ... فقلت له، إني قنعت بما حضر

ومن شعره يرثي شيخه أبا مضر منصوراً المذكور أولاً:

وقائله :ما هذه الدرر التي ... تساقط من عينيك سمطين سمطين؟

فقلت :هو الدر الذي كان قد حشا ... أبو مضر أذني تساقط من عيني

وهذا مثل قول القاضي أبي بكر الرجاني – المقدم ذكره – ولا أعلم أيهما أخذ من الآخر لأنهما كانا متعاصرين، وهو:

لم يبكني إلا حديث فراقكم ... لما أسر به إلى مودعي

هو ذلك الدر الذي أدعتم ... في مسمعي أجريته من مدمعي

وهذان البيتان من جملة قصدية طويلة بديعة؛ ومن المنسوب إلى القاضي الفاضل في هذا المعنى:

لا تزدني نظرة ثانية ... كف الولةى ووفت ثمني

لك في قلبي حديث مودع ... لا جحدت العب ما أودعتني

خذه من جفني عقوداً إنه بعض ما أودعته في أذني

ومما أنشده لغيره في كتابه "الكشاف" عند تفسير قول الله تعالى في سورة البقرة "إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها" "البقرة: 26" فإنه قال: أنشدت لبعضهم:

يا من يرى مد البعوض جناحها في ظلمة الليل البهيم الأليل

ويرى عروق نياطها في نحرها والمخ في تلك العظام النحل

اغفر لعبدٍ تاب من فرطاته ما كان منه في الزمان الأول

وكان بعض الفضلاء قد أنشدني هذه الأبيات بمدينة حلب وقال: إن الزمخشري المذكور أوصى أن تكتب على لوح قبره هذه البيات، ثم أنشدني ذلك الفاضل الرئيس بيتين وذكر أن صاحبهما أوصى أن يكتبا على قبره وهما:

إلهي قد أصبحت ضيفك في الثرى وللضيف حق عند كل كريم

فهب لي ذنوبي في قراي فإنها عظيم ولا يفرى بغير عظيم

وأخبرني بعض الأصحاب أنه رأى بجزيرة سواكن تربة ملكها عزيز الدولة ريحان وعلى قبره مكتوب:

يا أيها الناس كان لي أمل قصر بي عن بلوغه الأجل

فليتق الله ربه جل امكنه قبل موته العمل

ما أنا وحدي نقلت حيث ترى كل إلى ما نقلت ينتقل

وكانت ولادة الزمخشري يوم الربعاء السابع والعشرين من شهر رجب سنة سبع وستين وأربعمائة بومخشر. وتوفي ليلة عرفة سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة، بجرجانية خوارزم، بعد رجوعه من مكة، رحمه الله تعالى ورثاه بعضهم بأبيات، ومن جملتها:

فأرض مكة تذري الدمع مقلتها حزناً لفرقة جار الله محمود

وزمخشر: بفتح الزاي والميم وسكون الخاء المعجمة وفتح الشين المعجمة وبعدها راء، وهي قرية كبيرة من قرى خوارزم.

وجرجانية: بضمن الجيم الأولى وفتح الثانية وسكون الراء بينهما وبعد الألف نون مكسورة وبعدها ياء مثناة من تحتها مفتوحة مشددة ثم هاء ساكنة، وهي قضبة خوارزم.

قال ياقوت الحموي في كتاب "البلدان": يقال لهم بلغتهم كركانج، وقد عربت فقيل لها الجرجانية، وهي على شاطىء جيحون، والله تعالى أعلم بالصواب.

القاضي الأصبهاني

أبو طالب محمود بن علي بن أبي طالب بن عبد الله بن أبي الرجا التميمي الصبهاني، المعروف بالقاضي، صاحب الطريقة في الخلاف، تفقه على الشهيد محمد بن يحي – المقدم ذكره –وبرع في الخلاف، وصنف فيه التعليقة التي شهدت بفضله وتحقيقه وتبريزه على أكثر نظرائه، وجمع فيها بين الفقه والتحقيق، وكان عمدة المدرسين في إلقاء الدروس عليها ومن لم يذكرها فإنما كان لقصور فهمه عن إدراك دقائقها، واشتغل عليه خلق كثير وانتفعوا به، وصاروا علماء مشاهير. وكان له في الوعظ اليد الطولى، وكان متفنناً في العلوم خطيباً، خطب ودرس بأصبهان مدة؛ وتوفي في شوال سنة خمس وثمانين وخمسمائة، رحمه الله تعالى.

محمود بن سبكتكين

أبو القاسم محمود بن ناصر الدولة أبي منصور سبكتكين، الملقب أولاً سيف الدولة، ثم لقبه الإمام القادر بالله لما سلطنه بعد موت أبيه "يمين الدولة وأمين الملة" واشتهر به.

وكان والده سبكتكين قد ورد مدينة بخارى في أيام نوح بن منصور أحد ملوك السامانية المذكورين في ترجمة أبي بكر محمد بن زكريا الرازي الطبيب، وكان وروده في صحبة أبي إسحاق ابن البتكين، وهو حاجبه وعليه مدار أموره، فعرفه أركان تلك الدولة بالشهامة والصرامة، وتوسموا فيه الإرتفاع إلى اليفاع. ولما خرج أبو إسحاق المذكور إلى غزنة والياً عليها وساداً مسداً أبيه انصرف الأمير سبكتكين بانصرافه على جملته في زعامة رجاله ومراعاة ما وراء بابه، فلم يلبث أبو إسحاق بعد موافاتها أن قضى نحبه، ولم يبق من ذوي قرابته من يصلح لمكانته واحتاج الناس إلى من يتولى أمورهم، فاختلفوا فيمن يصلح لذلك، ثم وقع اتفاقهم واجتمعت كلمتهم على تأمير الأمير سبكتكين، فبايعوه على ذلك، وانقادوا لحكمه.
فلما تمكن واستحكم شرع في الغزاة والإغارة على أطراف الهند، فافتتح قلاعاً كثيرة منها، وجرت بينه وبين الهنود وعظم جريدته، وعمرت أرض خزائنه، وأشفقت النفوس من هيبته. وكان من جملة فتوحاته ناحية بست، وكان من جملة ما استفاده من صفاياها أبو الفتح بن محمد البستي الشاعر المقدم ذكره، فإنه كان كاتباً لملك الناحية المذكورة، واسمه بابي نور، فلما تعلق بخدمته اعتمد عليه في أموره، وأسر إليه بأحواله، وشرح ذلك يطول.
وآخر الأمر أن الأمير سبكتكين كان قد وصل إلى مدينة بلخ من طوس فمرض بها، واشتاق إلى غزنة فخرج إليها في تلك الحال، فمات في الطريق قبل وصوله، وذلك في شعبان سنة سبع وثمانين وثلثمائة، ونقل تابوته إلى غزنة، ورثاه جماعة من شعراء عصره منهم كاتبه أبو الفتح الببستي المذكور بقوله:

قلت إذ مات ناصر الدين والدو ... لة حياه ربه بالكرامة
وتداعيت جموعه بافتراق: ... هكذا هكذا تكون القيامة!

واجتاز بعض الأفاضل بداره بعد موته وقد تشعثت، فأنشد:

عليك سلام الله من منزل قفر ... فقد هجت لي شوقاً قديماً وما تدري
عهدتك مذ شهر جديداً ولم أخل ... صروف الردى تبلي مغانيك في شهر

وكان الأمير المذكور قد جعل ولي عهده من بعده ولده إسماعيل، واستخلفه على الأعمال وأوصى إليه بأمر أولاده وعياله، وجمع وجوه حجابه وقواده على طاعته ومتابعته، وجلس على سرير السلطنة، وتحكم واعتبر بيوت الأموال، وكان أخوه السلطان محمود بخراسان مقيماً بمدينة بلخ وإسماعيل بغزنة، فلما بلغه نعي أبيه كتب إلى أخيه إسماعيل ولاطفه في القول وقال له: إن أبي لم يستخلفك دوني إلا لكونك كنت عنده وأنا كنت بعيداً عنه، ولو أوقف المر على حضوري لفاتت مقاصده، ومن المصلحة أن نتقاسم الأموال بالميراث وتكون أنت مكانك بغزنة وأنا بخراسان، وندبر الأمور زنتفق على المصالح كيلا يطمع فينا عدو، ومتى ظهر للناس اخلافنا قلت حرمتنا، فأبى إسماعيل من موافقته على ذلك وكان فيه لين ورخاوة، فطمع فيه الجند وتشغبوا عليه وطالبوه بالأموال فاستنفد في مرضاتهم الخزائن.
ثم خرج محمود إلى هراة وجدد مكاتبة أخيه، وهو لا يزداد إلا اعتياصاً، فدعا محمود عمه بغراجق إلى موافقته فأجابه؛ وكان أخوه أبو المظفر نصر بن سبكتكين أميراً بناحية بست، فنهض إليه وعرض عليه الإنقاياد لمتابعته فلم يتوقف عليه، فلما قوي جأشه بعمه وأخيه قصد أخاه إسماعيل بغزنة وهما معه، فنازلهما في جيش عظيم وجم غفير وحاصرها، واشتد القتال عليها ففتحها، وانحاز إسماعيل إلى قلعتها متحصناً بها، ثم تلطف في طلب الأمان من أخيه محمود فأجابه إلى سؤاله، ونزل في حكم أمانة وتسلم منه مفاتيح الخزائن، ورتب في غزنة النواب والأكفاء وانحدر إلى بلخ.
وكان السلطان محمود قد اجتمع بأخيه إسماعيل في مجلس الأنس بعد ظفره به، فسأله عما كان في نفسه أنه يعتمد في حقه لو ظفر به، فحملته سلامة صدره ونشوة السكر على أن قال: كان في عزمي إن أسيرك إلى بعض القلاع موسعاً عليك فيما تقترحه من دار وغلمان وجوار ورزق على قدر الكفاية، فعامله بجنس ما كان قد نواه له، وسيره إلى بعض الحصون وأوصى عليه الوالي أن يمكنه من جميع ما يشتهي.

ولما انتظم الأمر للسسلطان محمود، كان في بعض بلاد خراسان نواب لصاحب ما وراء النهر من ملوك بني سامان، فجرى بين السلطان محمود وبينهم حروب انتصر فيها عليهم، وملك بلاد خراسان وانقطعت الدولة السامانية منها، وذلك في سنة تسع وثمانين وثلثمائة، واستتب له الملك، وسير له الإمام القادر بالله خلعة السلطنة، ولقبه بالألقاب المذكورة في أول ترجمته، وتبوأ سرير المملكة، وقام بين يديه أمراء خراسان سماطين مقيمين برسم الخدمة، وملتزمين حكم الهيبة، وأجلهم بعد الإذن العام على مجلس الأندلس، وأمر لكل واحد منهم ولسائر غلمانه ووجوه أوليائه وحاشيته من الخلع والصلات ونفائس الأمتعة ما لم يسمع بمثله. واتسعت الأمور عن آخرها في كنف إيالته، واستوسقت الأعمال في ضمن كفالته، وفرض على نفسه في كل عام غزو الهند. ثم إنه ملك سجستان في سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة، بدخول قوادها وولاة أمرها في طاعته من غير قتال.

و لم يزل يفتح في بلاد الهند حتى انتهى إلى حيث لم تبلغه في الإسلام راية، و لم تتل به قط سورة ولا آية، فرحض عنها أدناس الشرك وبنى بها مساجد وجوامع، وتفصيل حاله يطول شرحه. ولما فتح بلاد الهند كتب إلى الديوان العزيز ببغداد كتاباً يذكر فيه ما فتحه الله تعالى على يديه من بلاد الهند، وأنه كسر الصنم المعروف بسومنات. وذكر في كتبه أن هذا الصنم عند الهنود يحي ويميت ويفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وأنه إذا شاء أبرأ من جميع العلل، وربما كان يتفق لشقوتهم إبلال عليل يقصده فيوافقه طيب الهواء وكثرة الحركة فيزيدون به افتتاناً ويقصدونه من أقاصي البلاد رجالاً وركباناً، ومن لم يصادف منهم انتعاشاً احتج بالذنب وقال: إنه لم يخلص له الطاعة، و لم يستحق منه الإجابة، ويزعمون أن الأرواح إذا فارقت الأجسام اجتمعت لديه على مذهب أهل التناسخ، فينشئها فيمن يشاء، وأن مد البحر وجزره عبادة له على قدر طاقته، وكانوا بحكم هذا الاعتقاد يحجونه من كل صقيع بعيد، ويأتونه من كل فج عميق، ويتحفونه بكل مال نفيس. و لم يبق في بلاد السند والهند على تباعد أقطارها وتفاوت أديانها ملك ولا سوقة إلا تقرب إلى هذا الصنم بما عز عليه من أمواله وذخائره حتى بلغت أوقافه عشرة آلاف قرية مشهورة في تلك البقاع، وامتلأت خزائنه من أصناف الأموال، وفي خدمته من البراهمة ألف رجل يخدمونه، وثلثمائة رجل يحلقون رؤوس حجيجه ولحاهم عند الورود عليه، وثلثمائة رجل وخمسمائة امرأة يغنون ويرقصون عند بابه، ويجري من مال الأوقاف المرصدة له لكل طائفة من هؤلاء رزق معلوم.

وكان بين المسلمين وبين القلعة التي فيها الصنم مسيرة شهر في مفازة موصوفة بقلة المياه وصعوبة المسالك واستيلاء الرمل على طرقها، فسار إليها السلطان محمود في ثلاثين ألف فارس جريدة مختارة من بين عدد كثير، وأنفق عليهم من الأموال ما لا يحصى؛ فلما وصلوا إلى القلعة وجدوها حصناً منيعاً وفتحوها في ثلاثة أيام، ودخلوا بيت الصنم وحوله من الأصنام الذهب المرصع بأصناف الجوهر عدة كثيرة محيطة بعرشه، يزعمون أنها الملائكة، وأحرق المسلمون الصنم المذكور فوجدوا في أذنه نيفاً وثلثين حلقة، فسألهم محمود عن معنى ذلك فقالوا: كل حلقة عبادة ألف سنة، وكانوا يقولون بقدم العالم ويزعمون أن هذا الصنم يعبد منذ أكثر من ثلاثين ألف سنة، وكلما عبدوه ألف سنة علقوا في أذنه حلقة، وبالجملة فإن شرح ذلك يطول.

وذكر شيخنا ابن الأثير في تاريخه أن بعض الملوك بقلاع الهند أهدى له هدايا كثيرة من جملتها طائر على هيئة القمري، من خاصيته أنه إذا حضر الطعام وفيه سم دمعت عينا هذا الطائر وجرى منها ماء وتحجر؛ فإذا حك ووضع على الجراحات الواسعة لحمها، ذكر ذلك في سنة أربع عشرة وأربعمائة.

وقد جمع سيرته أبو النصر محمد بن عبد الجبار العتبي الفاضل المعروف في كتاب سماه "اليميني" وهو مشهور، وذكر في أوله أن السلطان المذكور ملك الشرق بجنبيه، والصدر من العالم ويديه، لانتظام الإقليم الرابع بما يليه من الثالث والخامس في حوزة ملكه وحصول ممالكها الفسيحة وولايتها العريضة في قبضة ملكه، ومصير أمرائها وذوي الألقاب الملوكية من عظمائها تحت حمايته وجبايته، واسدرائهم من آفات الزمان بظل ولايته ورعايته، وإذعان ملوك الأرض لعزته، وارتياعهم بفائض هيبته، واحتراسهم – على تقاذف الديار وتحاجز الأنجاد والأغوار – من فاجئ ركضته، واستخفاء الهند تحت جيوبها عند ذكره، واقشعرارهم لمهب الرياح من أرضه، وقد كان مذ لفظه المهد وجفاه الرضاع، وانحلت عن لسانه عقدة الكلام، واستغنى عن الإشارة بالإفهام مشغول اللسان بالذكر والقرآن، مشغوف النفس بالسيف والسنان، ممدود الهمة إلى معالي الأمور، معقود الأمنية بسياسة الجمهور، لعبه مع الأتراب جد، وجده مستكد، يألم لما لا يعلم حتى يقتله خبراً، ويحزن لما يحزن حتى يدمثه قسراً وقهراً.

وذكر إمام الحرمين أبو المعالي عبد الملك الجويني – المقدم ذكره – في كتابه الذي سماه "مغيث الخلق في اختيار الأحق" أن السلطان محموداً المذكور كان على مذهب أبي حنيفة، رضي الله عنه، وكان مولعاً بعلم الحديث، وكانوا يسمعون الحيث من الشيوخ بين يديه، وهو يسمع، وكان يستفسر

الحاديث، فوجد أكثرها موافقاً لمذهب الشافعي رضي الله عنه، فوقع في خلده حكة، فجمع الفقهاء من الفريقين في مرو، والتمس منهم الكلام في ترجيح أحد المذهبين على الآخر، فوقع الاتفاق على أن يصلوا بين يديه ركعتين على مذهب الإمام الشافعي، رضي الله عنه، وعلى مذهب أبي حنيفة، رضي الله عنه، لينظر فيه السلطان، ويتفكر ويختار ما هو أحسنهما، فصلى القفال المروزي – وقد تقدم ذكره – بطهارة مسبغة وشرائط معتبرة من الطهارة والسترة واستقبال القبلة، وأتى بالأركان والهيئات والسنن والآداب والفرائض على وجه الكمال والتمام، وقال: هذه صلاة لا يجوز الإمام الشافعي دونها رضي الله عنه، ثم صلى ركعتين على ما يجوز أبو حنيفة رضي الله عنه، فلبس جلد كلب مدبوغاً ولطخ ربعه بالنجاسة، وتوضأ بنبيذ التمر، وكان في صميم الصيف في المفازة، واجتمع عليه الذباب والبعوض، وكان وضوءه منكساً منعكساً، ثم استقبل القبلة، وأحرم بالصلاة من غير نية في الوضوء، وكبر بالفارسية دو بركك سبز، ثم نقر نقرتين كنقرات الديك من غير فصل ومن غير ركوع، وتشهد، وضرط في آخره، من غير نية السلام، وقال: أيها السلطان، هذه صلاة أبي حنيفة، فقال السلطان، لو لم تكن هذه الصلاة صلاة أبي حنيفة لقتلتك، لأن مثل هذه الصلاة لا يجوزها ذو دين، فأنكرت الحنفية أن تكون هذه صلة أبي حنيفة، فأمر القفال بإحضار كتب أبي حنيفة، وأمر السلطان نصرانياً كاتباً يقرأ المذهبين جميعاً، فوجدت الصلاة على مذهب أبي حنيفة على ما حكاه القفال، فأعرض السلطان عن مذهب أبي حنيفة، وتمسك بمذهب الشافعي رضي الله عنه؛ انتهى كلام إمام الحرمين.

وكانت مناقب السلطان محمود كثيرة، وسيرته من أحسن السير، ومولده ليلة عاشوراء سنة إحدى وستين وثلثمائة. وتوفي في شهر ربيع الآخر، وقيل حادي عشر صفر، سنة إحدى، وقيل اثنتين وعشرين وأربعمائة بغزنة، رحمه الله تعالى.

وقام بالأمر من بعده ولده محمد بوصية من أبيه، اجتمعت عليه الكلمة، وغمرهم بإنفاق الأموال فيهم، وكان أخوه أبو سعيد مسعود غائباً، فقدم نيسابور وقد استتب أمر أخيه محمد، فراسله، ومال الناس إليه لقوة نفسه وتمام هيبته، وزعم أن الإمام القادر بالله قلده خراسان، ولقبه الناصر لدين الله وخلع عليه وطوقه سواراً، فقوي أمره لذلك. وكان محمد هذه سيء التدبير منهمكاً في ملاذه، فأجمع الجند على عزل محمد وتولية الملك المسعود، ففعلوا ذلك، وقبضوا على محمد وحملوه إلى قلعة ووكلوا به.

واستقر الملك للأمير مسعود، وجرى له مع بني سلجوق خطوب يطول شرحها. وله في ترجمة المعتمد بن عباد حكاية في المنام، فلتننظر هناك. وقتل سنة ثلاثين وأربعمائة، واستولى على المملكة بنو سلجوق، وقد تقدم في ترجمة السلطان طغرلبك السلجوقي طرف من الخبر، وكيفية ما اعتمده السلطان محمود في حقهم، وكيف تغلبوا على الأمر.

وسبكتكين: بضم السين المهملة والباء الموحدة وسكون الكاف وكسر التاء المثناة من فوقها والكاف الثانية وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها نون.

وتفسر "دو بركك سبز" ورقتان خضراوان، وهو معنى قوله تعالى في سورة الرحمن "مدهامتان" الرحمن: 64 والله تعالى أعلم.

مغيث الدين السلجوقي

أبو القاسم محمود بن ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي، الملقب مغيث الدين، أحد الملوك السلجوقية المشاهير، وقد تقدم ذكر والده وجماعة من أهل بيته وسيأتي ذكر جده وغيره منهم إن شاء الله تعالى، وتقدم طرف من خبره في ترجمة العزيز أبي نصر أحمد بن حامد الأصبهاني عن العماد الكاتب.

تولى أبو القاسم المذكور السلطنة بعد وفاة والده، وخطب له بها بمدينة بغداد على جاري عادة الملوك السلجوقية، يوم الجمعة الثالث والعشرين من المحرم سنة اثنتي عشرة وخمسمائة، في خلافة المستظهر بالله، وهو يومئذ في سن الحلم، وكان متوقداً ذكاء، قوي المعرفة بالعربية، حافظاً للأشعار والأمثال، عارفاً بالتواريخ والسير، شديد الميل إلى أهل العلم والخير، وكان حيص بيص الشاعر المقدم ذكره قد قصده من العراق ومدحه بقصيدته الدالية المشهورة التي أولها:

ألق الحدائج ترع الضمر القود ... طال السرى وتشكت وخدك البيد

يا ساري الليل لا جذب ولا فرق ... فالنبت أغيد والسلطان محمود

قيل تألفت الأضداد خيفته فالمورد الضنك فيه الشاء والسيد

وهي طويلة ومن غرر القصائد، وأجازه عليها جائزة سنية.

وكان قد تزوج بنتي عمه السلطان سنجر، المقدم ذكره – حسبما شرحناه في ترجمة العزيز الأصبهاني، واحدة بعد الأخرى، وكانت السلطنة في أواخر أيامه قد ضعفت وقلت أموالها، حتى عجزوا عن إقامة وظيفة الفقاعي، فدفعوا له يوماً بعض صناديق الخزانة حتى باعها وصرف ثمنها في حاجته، وكان في آخر مدته قد دخل بغداد، ثم خرج منها، فمرض في الطريق واشتد به المرض، وتوفي يوم الخميس خامس عشر شوال سنة خمس وعشرين وخمسمائة، رحمه الله تعالى.

وذكر ابن الأزرق الفارقي في تاريخه أنه مات خامس عشر شوال سنة أربع وعشرين بباب أصبهان، ودفن بها. وولي السلطنة أخوه طغرلبك، ومات سنة سبع وعشرين، وتولى أخوه مسعود وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى وابنه محمد شاه بن محمود بن محمد هو الذي حاصر بغداد ومعه زين الدين أبو الحسن علي بن بلتكين صاحب إربل في سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة، وقال شيخنا ابن الأثير في سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة – قال ذلك في تاريخه الصغير المعروف بالأتابكي–: ومات محمد شاه المذكور في ذي الحجة سنة أربع وخمسين وخمسمائة، وتاريخ وفاة زين الدين المذكور مذكور في ترجمة ولده مظفر الدين صاحب إربل في حرف الكاف؛ ومات محمد شاه بباب همذان، ومولده في شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة.

الملك العادل نور الدين

أبو القاسم محمود بن عماد الدين زنكي بن آق سنقر، الملقب الملك العادل نور الدين، قد تقدم ذكر أبيه في حرف الزاي.

ولما حاصر أبوه قلعة جعبر – حسبما تقدم ذكره في ترجمته – كان ولده نور الدين المذكور في خدمته، فلما قتل أبو سار نور الدين وفي خدمته صلاح الدين محمد بن أيوب اليغيساني وعساكر الشام إلى مدينة حلب فملكها في ذلك التاريخ. وملك أخوه سيف الدين غازي – المذكور في حرف الغين – مدينة الموصل وما والاها من تلك النواحي.

ثم إنه نزل على دمشق محاصراً لها وصاحبها يومئذ مجير الديم أبو سعيد أبق ابن جمال الدين محمد بن تاج الملوك بوري بن ظهير الدين طغتكين، وهو أتابك الملك دقاق بن تتش – المقدم ذكره في ترجمة تتش في حرف التاء – وكان نزوله عليها ثالث صفر سنة تسع وأربعين وخمسمائة، وملكها يوم الأحد تاسع الشهر المذكور، وعوض مجير الدين أبق عن دمشق حمص ثم أخذها منه وعوضه عنها بالس، فانتقل إليها وأقام بها مدة ثم قصد بغداد في أيام الإمام المقتفي.

وكان أتابكه معين الدين أثر بن عبد الله عتيق جد أبيه ظهير الدين طغتكين الأتابك – المقدم ذكره في ترجمة تتش السلجوقي، وقد سبق ذكر ظهير الدين طغتكين الأتابك هناك أيضاً.

ثم استوزر نور الدين محمود على بقية بلاد الشام من حماة وبعلبك، وهو الذي بنى سورها، منبج ما وبين ذلك، وافتتح من بلاد الروم عدة حصون منها مرعش وبهسنا وتلك الأطراف، وكان فتحه لمرعش في ذي القعدة من سنة ثمان وستين وخمسمائة ولبهسنا في ذي الحجة من السنة، وافتتح أيضاً من بلاد الفرنج حارم، وكان فتحها في أواخر شهر رمضان سنة تسع وخمسمائة، وفتح أعزاز وبانياس وغير ذلك ما تزيد عدته على خمسين حصناً.

ثم سير الأمير أسد الدين شيركوه – المقدم ذكره – إلى مصر ثلاث دفعات، وملكها السلطان صلاح الدين في الدفعة الثالثة نيابة عنه، وضرب باسمه السكة والخطبة، وهي قضية مشهورة فلا حاجة إلى الإطالة في شرحها، وسيأتي ذلك في ترجمة صلاح الدين إن شاء الله تعالى.

وكان ملكاً عادلاً زاهداً عابداً ورعاً، متمسكاً بالشريعة مائلاً إلى أهل الخير، مجاهداً في سبيل الله تعالى، كثير الصدقات، بنى المدارس بجميع بلاد الشام الكبار مثل دمشق وحلب وحماة وحمص وبعلبك ومنبج والرحبة، وقد تقدم ذلك في ترجمة الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون، وبنى بمدينة الموصل الجامع النوري ورتب له ما يكفيه، وبحماة الجامع الذي على نهر العاصي، وجامع الرها وجامع منبج، وبيمارستان دمشق، ودار الحديث بها أيضاً، وله من المناقب والمآثر والمفاخر ما يستغرق الوصف.

وكان بينه وبين أبي الحسن سنان بن سليمان بن محمد الملقب راشد الدين صاحب قلاع الإسماعيلية ومقدم الفرقة الباطنية بالشام، وإليه تنسب الطائفة السنانية، مكاتبات ومحاورات بسبب المجاورة، فكتب إليه نور الدين في بعض الأزمنة كتاباً يتهدده فيه ويتوعده لسبب اقتضى ذلك، فشق على سنان فكتب جوابه أبياتاً ورسالة، وهما:

ياذا الذي بقراع السيف هددنا	لا قام مصرع جنبي حين تصرعه
قام الحمام إلى البازي يهدده	واستيقظت لأسود البر أضبعه
أضحى يسد فم الأفعى بإصبعه	يكفيه ما قد تلاقي منه إصبعه

وقفنا على تفاصيله وجمله، وعلمنا ما هددنا به من قوله وعمله، فيالله العجب من ذبابة تطن في أذن فيل، وبعوضة تعد في التماثيل، ولقد قالها من قبلك قوم آخرون، فدمرنا عليه وما كان لهم من ناصرين، أو للحق تدحضون، وللباطل تنصرون؟ وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون، وأما ما صدر من قولك في قطع رأسي، وقلعك لقلاعي من الجبال الرواسي، فتلك أماني كاذبة، وخيالات غير صائبة، فإن الجواهر لا تزل بالأعراض، كما أن الرواح لا تضمحل بالأمراض، كم بين قوي وضعيف، ودني وشريف؟ وإن عدنا إلى الظاهر والمحسوسات، وعدلنا عن البواطن والمعقولات، فنا أسوة برسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله "ما أوذي نبي ما أوذيت" ولقد علمتم ما جرى على عترته، وأهل بيته وشيعته، والحال ما حال، والأمر ما زال، ولله الحمد في الآخرة والأولى إذ نحن مظلومون لا ظالمون، ومغضوبون لا غاضبون، وإذا جاء الحق زهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً، ولقد علمتم ظاهر حالنا، وكيفية رجالنا، وما يتمنونه من الفوت، ويتقربون به إلى حياض الموت، "قل فتمنوا الموت إن كنتم صادقين، ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين" الجمعة 6-7 وفي أمثال العامة السائرة: أو للبط تهددون بالشط؟ فهيئ للبلايا جلباباً، وتدرع للرزايا أثواباً، فلأظهرن عليك منك، ولأفتتنهم فيك عنك، فتكون كالباحث عن حتفه بظلفه، والجادع مارن أنفه بكفه، وما ذلك على الله بعزيز.

وهذه الرسالة نقلت من خط القاضي الفاضل على هذه الصورة، ورأيت في نسخة زيادة على هذا، وهي: فإذا وقفت على كتابنا هذا فكن لأمرنا بالمرصاد، إلى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، والله أعلم؛ ورأيت في بعض النسخ زيادة بيت في أول الأبيات الثلاثة، وهو:

يا للرجال لأمر هال مفظعه	ما مر قط على سمعي توقعه

وكتب سنان المذكور مرة أخرى إليه، وقد جرت بينهما وحشة:

بنا نلت هذا الملك حتى تأثلت	بيوتك فيها واشمخر عمودها
فأصبحت ترمينا بنبل بنا استوى	مغارسها منا، وفينا حديدها

وبالجملة فإن محاسن نور الدين كثيرة؛ وكانت ولادته يوم الأحد عند طلوع الشمس سابع عشر شوال سنة إحدى عشرة وخمسمائة؛ وتوفي يوم الأربعاء حادي عشر شوال سنة تسع وستين وخمسمائة، بقلعة دمشق، بقلعة الخوانيق، وأشار عليه الأطباء بالفصد فامتنع، وكان مهيباً فما روجع. ودفن في بيت بالقلعة كان يلازم الجلوس فيه والمبيت أيضاً، ثم نقل إلى تربته بمدرسته التي أنشأها عند باب سوق الخواصين، وسمعت من جماعة من أهل دمشق يقولون: إن الدعاء عند قبره مستجاب، ولقد جربت ذلك فصح، رحمه الله تعالى.

وذكر شيخنا عز الدين أبو الحسن علي بن محمد المعروف بابن الأ ثير اجزري في تاريخه الكبير الذي سماه "الكامل" في سنة ثمان وخمسين وخمسمائة أن نور الدين المذكور نزل في البقيعة تحت حصن الكراد في السنة المذكورة محاصراً لحصن الأكراد، وعازماً على قصد طرابلس وهو في جميع عساكره، فاجتمع من الفرنج خلق كثير وكبسوهم في النهار والمسلمون في غفلة عنهم، فلم يتمكنوا من الاستعداد لهم وهربوا منهم، ونجا نور الدين بنفسه وهي وقعة مشهورة معروفة، ونزل على بحيرة قدس بالقرب من حمص، وبينه وبين الفرنج مقدار أربعة فراسخ، فسير إلى حلب وبقية البلاد وأحضروا الأموال الكثيرة وأنفقها ليقوى جيشه ثم يعود إليهم فيستوفي الثار، فقال له بعض أصحابه: إن في بلادك إدرارات وصدقات وصلات كثيرة على الفقهاء

والصوفية والقراء، ولو استعنت بها في هذا الوقت لكان أصلح، فغضب من ذلك غضباً شديداً وقال: إني لا أرجو النصر إلا بأولئك، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم، كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عني وأنا نائم على فراشي بسهام لا تخطئ، وأصرفها إلى من لا يقاتل عني إلا بسهام قد تصيب وتخطئ؟ وهؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال فكيف يحل ان أعطيه غيرهم؟.

وكان أسمر اللون طويل القامة حسن الصورة، ليس بوجهه شعر سوى ذقنه.

وكان قد عهد بالملك إلى ولده الملك الصالح عماد الدين إسماعيل وعمره يوم مات أبوه إحدى عشرة سنة، فقام بالأمر من بعده، وانتقل من دمشق إلى حلب ودخل قلعتها يوم الجمعة مستهل المحرم سنة سبعين وخمسمائة، وخرج السلطان صلاح الدين من مصر، وملك دمشق وغيرها من بلاد الشام، ولم يبق عليه سوى مدينة حلب، ولم يزل الصالح بها إلى أن توفي يوم الجمعة الخامس والعشرين من رجب سنة سبع وسبعين وخمسمائة، وذكروا أنه لم يبلغ عشرين سنة، والله أعلم. وكان مبدأ مرضه في تاسع شهر رجب من السنة المذكورة، وحدث له قولنج في مستهل جمادى الأولى، وكان لموته وقع عظيم في قلوب الناس، وتأسفوا عليه لأنه كان محسناً محمود السيرة، ودفن في المقام الذي في القلعة، ثم نقل إلى رباطه المعروف به تحت القلعة، وهو مشهور هناك، رحمه الله تعالى.

وتوفي مجير الدين أبق المذكور في سنة أربع وستين وخمسمائة ببغداد، ودفن في داره، كذا وجدته في بعض المسودات التي بخطي، والله أعلم، ومولده يوم الجمعة ثامن شعبان سنة أربع وثلاثين وخمسمائة ببعلبك، والله تعالى أعلم.

مروان بن أبي حفصة

أبو السمط – وقيل أبو الهندام – مروان بن أبي حفصة سليمان بن يحيى ابن أبي حفصة يزيد، الشاعر المشهور؛ كان جده أبو حفصة مولى مروان بن الحكم بن أبي العاصي الموي، فأعتقه يوم الدار، لأنه أبلى يومئذ، فجعل عتقه جزاءه، وقيل إن أبا حفصة كان يهودياً طبيباً أسلم على يد مروان بن الحكم ويزعم أهل المدينة أنه كان من موالي اسموأل بن عادياء اليهودي المشهور بالوفاء صاحب القصة المشهورة مع امرئ القيس بن حجر الشاعر المشهور، وأن أبا حفصة سبي من اصطخر وهو غلام فاشتراه عثمان رضي الله عنه، ووهبه لمروان بن الحكم.

ومروان بن أبي حفصة الشاعر المذكور من أهل اليمامة، وقدم بغداد ومدح المهدي وهارون الرشيد، وكان يتقرب إلى الرشيد بهجاء العلويين، ومروان المذكور من الشعراء المجيدين، والفحول المقدمين. حكى ابن سيف عن أبي خليفة عن ابن سلام قال: لما أنشد مروان بن أبي حفصة المهدي قصيدته التي يقول فيها:

إليك قسمنا النصف من صلواتنا ... مسير شهر بعد شهر نواصله
فلا نحن نخشى أن يخيب رجاؤنا ... لديك ولكن أهنأ العيش عاجله

فقال له المهدي، قف بحيث أنت، كم قصيدتك هذه من بيت؟ قال: سبعون بيتاً، قال: فلك سبعون ألفاً، لا تتم إنشادك حتى يحضر المال، فأحضر المال، فأنشد القصيدة وقبضه وانصرف وذكره أبو العابس بن المعتز في كتاب "طبقات الشعراء" فقال في حقه: وأجود ما قاله مروان قصديته الغراء اللامية، وهي التي فضل بها على شعراء زمانه، يمدح فيها معن بن زائدة الشيباني، ويقال إنه أخذ منه عليها مالاً كثيراً لا يقدر قدره، ولم ينل أحد من الشعراء الماضين ما ناله مروان بشعره، فمما ناله ضربة واحدة ثلثمائة ألف درهم من بعض الخلفاء بسبب بيت واحد؛ انتهى كلام ابن المعتز.

والقصيدة اللامية طويلة تناهز الستين بيتاً ولولا خوف الإطالة لذكرتها، ولكن نأتي ببعض مديحها وهو في أثنائها:

بنو مطر يوم اللقاء كأنهم ... أسود لهم في بطن خفان أشبل
هم يمنعون الجار حتى كأنما ... لجارهم بين السماكين منزل
تجنب" لا" في القول حتى كأنه ... حرام عليه قول "لا" حين يسأل

تشابه يوماه علينا فأشكلا فلا نحن ندري أي يوميه أفضل
أيوم نداه الغمر أم يوم بؤسه وما منهما إلا أغر محجل
بهاليل في الإسلام سادوا ولم يكن كأولهم في الجاهلية أول
هم القوم إن قالوا أصابوا، وإن دعوا أجابوا، وإن أعطوا أصابوا وأجزلوا
وما يستطيع الفاعلون فعالهم وإن أحسنوا في النائبات وأجملوا
ثلاث بأمثال الجبال حبالهم وأحلامهم منها لدى الوزن أثقل

هذا لعمري عز الدولة السحر الحلال المنقح لفظاً ومعنى، وحقه أن يفضل على شعراء عصره وغيرهم، وله في مدائح معن المذكور ومرائيه كل معنى بديع، وسيأتي شيء من ذلك في أخبار معن إن شاء الله تعالى.

وحكى ابن المعتز أيضاً عن شراحيل بن معن بن زائدة أنه قال: عرضت في طريق مكة ليحيى بن خالد البرمكي، وهو في قبة، وعديله القاضي أبو يوسف الحنفي وهما يريدان الحج، قال شراحيل: فإني لأسير تحت القبة إذ عرض له رجل من بني أسد في شارة حسنة، فأنشده شعراً، فقال له يحيى بن خالد في بيت منها: ألم أنهك عن مثل هذا البيت أيها الرجل؟ ثم قال: يا أخا بني أسد، إذا قلت الشعر فقل كقول الذي يقول، وأنشده الأبيات اللامية المقدم ذكرها، فقال له القاضي أبو يوسف، وقد أعجبته الأبيات جداً: من قائل هذه البيات يا أبا الفضل؟ فقال يحيى: يقولها مروان بن أبي حفصة يمدح بها أبا هذا الفتى الذي تحت القبة، قال شراحيل: فرمقني أبو يوسف بعينيه وأنا راكب على فرس لي عتيق وقال لي: من أنت يا فتى حياك الله تعالي وقربك قلت: أنا شراحبيل بن معن بن زائدة الشيباني، قال شراحبيل: فوالله ما أتت علي ساعة قط كانت أقر لعيني من تلك الساعة ارتياحاً وسروراً.

ويحكى أن ولداً لمروان بن أبي حفصة المذكور دخل على شراحبيل المذكور فأنشده:

أبا شراحيل من معن بن زائدة يا أكرم الناس من عجم ومن عرب
أعطي أبوك أبي مالاً فعاش به فأعطيني مثل نا أعطى أبوك أبي
ما حل قط أبي أرضاً أبوك بها إلا وأعطاه قنطاراً من الذهب

فأعطاه شراحيل قنطاراً من الذهب.

ومما يقارب هذه الحكاية ما يروى عن أبي مليكة جرول بن أوس المعروف بالحطيئة الشاعر المشهور لما اعتقله عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، لبذاءة لسانه وكثرة هجوه الناس، كتب إليه من الاعتقال:

ماذا تقول لأفراخ بذي مرخ حمر الحواصل لا ماء ولا شجر
ألقيت كاسبهم في قعر مظلمة فارحم عليك سلام الله يا عمر
أنت الإمام الذي من بعد صاحبه ألقت إليك مقاليد النهي البشر
ما آثروك بها إذا قدموك لها لكن لأنفسهم قد كانت الأثر

فأطلقه، وشرط عليه أن يكف لسانه عن الناس، فقال له: يا أمير المؤمنين اكتب لي كتاباً إلى علقمة بن علاثة لأقصده به، فقد منعتني التكسب بشعري وكان علقمة مقيماً بحوران، وهو من الأجواد المشهورين – قال ابن الكلبي في كتاب جمهرة النسب هو علقمة بن علاثة بن عوف بن ربيعة، ويقال له الأحوص لصغر عينيه، ابن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوزان – وكان عمر، رضي الله عنه استعمله على حوران، فامتنع عمر رضي الله عنه من ذلك، فقيل له: با أمير المؤمنين وما عليك من ذلك؟ علقمة ليس من عمالك فتخشى من ذلك أن تأثم، وإنما هو

رجل من المسلمين تشفع بك غليه. فكتب له بما أراد، فمضى الحطيئة بالكتاب، فصادف علقمة قد مات والناس منصرفون من قبره، وابنه حاضر، فوقف عليه ثم أنشد:

لعمري لنعم المرء من آل جعفر | بحوران أمسى علقته الحبائل
فإن تحي لا أملل حياتي، وإن تمت | فما في حياة بعد موتك طائل
وما كان بيني لو لقيتك سالماً | وبين الغنى إلا ليال قلائل

فقال له ابنه: كم ظننت أن علقمة كان يعطيك لو وجدته حياً؟ فقال: مائة ناقة يتبعها مائة من أولادها، فأعطاه ابنه إياها.

والبيتان الأخيران من هذه الثلاثة وجدتهما في ديوان النابغة الذبياني، واسمه زياد بن معاوية بن جابر، من جملة قصيدة يرثي بها النعمان بن أبي شمر الغساني.

وأخبار ابن أبي حفصة ونوادره ومحاسنه كثيرة، فلا حاجة إلى الإطناب بذكرها، وكانت ولادته سنة خمس ومائة. وتوفي سنة إحدى وثمانين ومائة ببغداد، ودفن بمقبرة نصر بن مالك الخزاعي، رحمه الله تعالى.

وحفيده مروان الأصغر، وهو أبو السمط مروان بن أبي الجنوب ابن مروان الأكبر المذكور، وكان من شعراء عصره المشاهير المقدمين، وذكر المبرد في كتاب "الكامل" طرفاً من أخبار عبد الرحمن بن حسان بن ثابت الأنصاري ثم قال: ويروي أن عبد الرحمن المذكور لدغه زنبور فجاء أباه يبكي، فقال له: ما بك؟ قال: لسعني طائر كأنه ملتف في بردي حبرة، فقال أبوه: قلت الشعر والله؟ ثم قال بعد ذلك: وأعرق قوم كانوا في الشعر آل حسان، فإنهم كانوا يعدون ستة في نسق كلهم شاعر، وهم: سعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام، وبعد هؤلاء في الوقت آل أبي حفصة: فإنهم أهل بيت كل واحد منهم شاعر يتوارثونه كابراً عن كابر، ويحيى ابن أبي حفصة كنيته أبو جميل، وأمه تحيا بنت ميمون، يقال إنها من ولد النابغة الجعدي، وإن الشعر أتي إلى أبي حفصة بذلك السبب، وكل واحد من هؤلاء كان يضرب بلسانه أرنبة أنفه، وهو دليل على الفصاحة والبلاغة، والله تعالى أعلم.

مسلم صاحب الصحيح

أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم بن ورد بن كوشاذ القشيري النيسابوري صاحب الصحيح؛ أحد الأئمة الحفاظ وأعلام المحدثين، رحل إلى الحجاز والعراق والشام ومصر، وسمع يحيى بن يحيى النيسابوري وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهوية وعبد الله بن مسلمة القعنبي وغيرهم، وقدم بغداد غير مرة فروى عنه أهلها، وآخر قدومه إليها في سنة تسع وخمسين ومائتين، وروى عنه الترمذي وكان من التقات.

وقال محمد الماسرجسي، سمعت مسلم بن الحجاج يقول: صنفت هذا المسند الصحيح من ثلثمائة ألف حديث مسموعة. وقال الحافظ أبو علي النيسابوري: ما تحت أديم السماء أصح من كتاب مسلم في علم الحديث. وقال الخطيب البغدادي: كان مسلم يناضل عن البخاري، حتى أوحش ما بينه وبين محمد بن يحيى الذهلي بسببه.

وقال أبو عبد الله محمد بن يعقوب الحافظ: لما استوطن البخاري نيسابور أكثر مسلم من الاختلاف إليه، فلما وقع بين محمد بن يحيى والبخاري ما وقع في مسألة اللفظ، ونادى عليه، ومنع الناس من الاختلاف إليه، حتى هجر وخرج من نيسابور في تلك المحنة، قطعه أكثر الناس غير مسلم، فإنه لم يتخلف عن زيارته، فأنهي إلى محمد بن يحيى أن مسلم بن الحجاج على مذهبه قديماً وحديثاً وأنه عوتب على ذلك بالحجاز والعراق و لم يرجع عنه، فلما كان يوم مجلس محمد ابن يحيى قال في آخر مجلسه: ألا من قال باللفظ فلا يحل له أن يحضر مجلسنا، فأخذ مسلم الرداء فوق عمامته، وقام على رؤوس الناس وخرج من مجلسه، وجمع كل ما كان كتب منه وبعث به على ظهر حمال إلى باب محمد بن يحيى، فاستحكمت بذلك الوحشة وتخلف عنه وعن زيارته.

وتوفي مسلم المذكور عشية يوم الأحد ودفن بنصر أباذ ظاهر نيسابور يوم الاثنين لخمس، وقيل لست، بقين من شهر رجب الفرد سنة إحدى وستين

ومائتين بنيسابور، وعمره خمس وخمسون سنة.
هكذا وجدته في بعض الكتب، و لم أر أحداً من الحفاظ يضبط مولده ولا تقدير عمره، وأجمعوا أنه ولد بعد المائتين. وكان شيخنا تقي الدين أبو عمرو عثمان المعروف بابن الصلاح يذكر مولده، وغالب ظني أنه قال: سنة اثنتين ومائتين، ثم كشفت ما قاله ابن الصلاح فإذا هو في سنة ست ومائتين، نقل ذلك من كتاب "علماء الأمصار" تصنيف الحاكم أبي عبد الله بن البيع النيسابوري الحافظ، ووقعت على الكتاب الذي نقل منه، وملكت النسخة التي نقل منها أيضاً، وكانت ملكه، وبيعت في تركته ووصلت إلي وملكتها، وصورة ما قاله بإن مسلم بن الحجاج توفي بنيسابور لخمس بقين من شهر رجب الفرد سنة إحدى وستين ومائتين، وهو ابن خمس وخمسين سنة، فتكون ولادته في سنة ست ومائتين، والله أعلم،رحمه الله تعالى.
وقد تقدم الكلام على القشيري صاحب الرسالة فأغنى عن الإعادة.
وأما محمد بن يحيى المذكور فهو أبو عبد الله محمد بن يحيى بن عبد الله ابن خالد ابن فارس بن ذؤيب الذهلي النيسابوري، وكان أحد الحفاظ الأعيان، روى عنه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة القزويني، وكان ثقة مأموناً. وكان سبب الوحشة بينه وبين البخاري أنه لما دخل البخاري مدينة نيسابور شعث عليه محمد بن يحيى في مسألة خلق اللفظ، وكان قد سمع منه، فلم يمكنه ترك الرواية عنه، وروى عنه في الصوم والطب والجنائز والعتق وغير ذلك مقدار ثلاثين موضعاً، و لم يصرح بإسمه فيقول حدثنا محمد بن يحيى الذهلي، بل يقول: حدثنا محمد، ولا يزيد عليه، ويقول محمد بن عبد الله فينسبه إلى جده وينسبه أيضاً إلى جد أبيه، وتوفي محمد المذكور سنة اثنتين، وقيل سبع، وقيل ثمان وخمسين ومائتين رحمه الله تعالى، والله أعلم.

مسعود الطريثيثي

أبو المعالي مسعود بن محمد بن مسعود بن طاهر النيسابوري الطريثيثي الفقيه الشافعي، الملقب قطب الدين؛ تفقه بنيسابور ومرو على أئمتها، وسمع الحيث من غير واحد، ورأى الاستاذ أبا نصر القشيري، ودرس بالمدرسة الناظمية بنيسابور نيابة عن الجويني. وكان قد قرأ القرآن الكريم والأدب على والده، وقدم بغداد ووعظ بها وتكلم في المسائل فأحسن، وقدم دمشق سنة أربعين وخمسمائة، ووعظ بها وحصل له قبول، ودرس بالمدرسة المجاهدية ثم بالزاوية الغربية من جامع دمشق بعد موت الفقيه أبي الفتح نصر الله المصيصي؛ وذكره الحافظ ابن عساكر في "تاريخ دمشق".
ثم خرج إلى حلب وتولى التدريس مدة في المدرستين اللتين بناهما له نور الدين محمود وأسد الدين شيركوه، ثم مضى إلى همذان وتولى التدريس بها، ثم رجع إلى دمشق ودرس بالزاوية الغرية وحدث، وتفرد برئاسة أصحاب الشافعي رضي الله عنه.
وكان عالماً صالحاً، صنف كتاب "الهادي" في الفقه، وهو مختصر نافع لم يأت فيه إلا بالقول الذي عليه الفتوى، وجمع للسلطان صلاح الدين عقيدة تجمع جميع ما يحتاج إليه في أمور دينه، وحفظها أولاده الصغار حتى تترسخ في أذهانهم من الصغر، قال بهاء الدين ابن شداد في "سيرة السلطان ": ورأيته – يعني السلطان – وهو يأخذها عليهم، وهو يقرؤونها بين يديه من حفظهم.

وكان متواضعاً قليل التصنع. مطرحاً للتكليف؛ وكانت ولادته سنة خمس وخمسمائة، في الثالث عشر من شهر رجب الفرد؛ وتوفي في آخر يوم من شهر رمضان المعظم، سنة ثمان وسبعين وخمسمائة بدمشق، وصلي عليه يوم العيد، وكان نهار الجمعة، ودفن بالمقبرة التي أنشأها جوار مقبر الصوفية غربي دمشق، وزرت قبره غير مرة، رحمه الله تعالى.
وكان والده من طريثت، وقد تقدم الكلام عليها في ترجمة عميد الملك الكندري فلا حاجة إلى إعادته، وهي من نواحي نيسابور.
وقال بعض أصحابه: أنشدنا الشيخ قطب الدين لبعضهم:

يقولون إن الحب كالنار في الحشا ... ألا كذبوا فالنار تذكو وتخمد
وما هي إلا جذوة مس عودها ... ندى فهي لا تخبو ولا تتوقد

والله تعالى أعلم بالصواب.

الشريف البياضي الشاعر

الشريف أبو جعفر مسعود بن عبد العزيز بن المحسن بن الحسن بن عبد الرزاق البياضي، الشاعر المشهور، هكذا وجدته بخط بعض الحفاظ المتقنين، ورأيت في أول ديوانه أنه أبو جعفر مسعود بن المحسن بن العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم القرشي الهاشمي، والله أعلم بالصواب.

وهو من الشعراء المجيدين في المتأخرين، وديوان شعره صغير، وهو في غاية الرقة، وليس فيه من المدائح إلا اليسير، فمن أحسن شعره قصديته القافية التي أولها:

إن غاض دمعك والركاب تساق	مع ما بقلبك فهو منك نفاق
لا تحبسن ماء الجفون فإنه	لك يا لديغ هواهم ترياق
واحذر مصاحبة العذول فإنه	مغر، وظاهر عذله إشفاق
لا يبعدن زمن مضت أيامه	وعلى متون غصونها أوراق
أيام نرجسنا العيون ووردنا ال	غض الخود وخمرنا الأرياق
ولنا بزوراء العراق مواسم	كانت تقام لطيبها أسواق
فلئن بكت عيني دماً شوقاً إلى	ذاك الزمان فمثله يشتاق

ومنها:

أين الأغيلمة الأولى لولاهم	ما كان طعم هوى الملاح يذاق
وكأنما أرماحهم بأكفهم	أجسامهم ونصولها الأحداق
شنوا الإغارة في القلوب بأعين	لا يرتجى لأسيرهاإطلاق
واستعذبوا ماء الجفون فعذبوا ال	أسراء حتى درت الآماق
ونمى الحديث بأنهم نذروا دمي	أو لي دم يوم الفراق يراق

وله، وهو مما يغني به:

كيف يذوي عشب أشوا	قي ولي طرف مطير
إن يكن في العشق حر	فأنا العبد الأسير
أو على الحسن زكاة	فأنا ذاك الفقير

وله وكتبها على مروحة:

وارحمتا لي أن حللت بمجلس	إن لحنوا فيه يكون كسادي

وله أيضاً:

يا ليلة بات فيها البدر معتنقي	إلى الصباح بلا خوف ولا حذر
كلامه الدر يغني عن كواكبها	ووجهه عوض فيها عن القمر

فبينما أنا أرعي في محاسنه ... سمعي وطرفي إذ أنذرت بالسحر
ولم يكن عيبها إلا تقاصرها ... وأي عيب لها أشنى من القصر
وودت لو أنها طالت علي ولو ... أمددتها بسواد القلب والبصر

والبيت الأخير منها ينظر إلى قول أبي العلاء بن سليمان المعري، وهو:

يود أن ظلام الليل دام له ... وزيد فيه سواد القلب والبصر

وشعره كله على هذا الأسلوب، وقد تقدم له بيتان في ترجمة صر در الشاعر. وتوفي الباضي المذكور يوم الثلاثاء سادس عشر ذي القعدة سنة ثمان وستين وأربعمائة ببغداد، ودفن بمقبرة باب أبرز. وإنما قيل له البياضي لأن أحد أجداداه كان في مجلس بعض الخلفاء مع جماعة من العباسيين، وكانوا قد لبسوا سواداً، ما عداه، فإنه كان قد لبس بياضاً فقال الخليفة: من ذلك البياضي؟ فثبت الإسم عليه واشتهر به.

وذكر ابن الجوزي في كتاب "الألقاب" أن صاحب هذه الواقعة هو محمد ابن عيسى بن محمد بن عبد الله بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، رضي الله عنهم أجمعين، وهو الذي يقال له البياضي. ورأيت بخط أسامة بن منقذ – المقدم ذكره – أن الذي لقبه بهذا اللقب هو الخليفة الراضي بالله، والله

غياث الدين السلجوقي

أبو الفتح مسعود بن محمد بم ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي، الملقب غياث الدين، أحد ملوك السلجوقية المشاهير وقد تقدم ذكر والده وأخيه محمود وجماعة من أهل بيته.

كان مسعود المذكور قد سلمه والده في سنة خمس وخمسمائة إلى الأمير مودود ابن التوتكين وجعله صاحب الموصل ليربيه، فلما قتل مودود في سنة سبع وخمسمائة وتولى الأمير آق سنقر البرسقي – المذكور في حرف الهمزة – مكانه سلمه والده إليه أيضاً، ثم أرسله من بعده إلى جيوش بك أتابك الموصل أيضاً.

فلما توفي والده وتولى موضعه ولده محمود – المقدم ذكره – أخذ جيوش بك يحسن لمسعود المذكور الخروج على أخيه محمود وأطعمه في السلطنة، و لم يزل على ذلك حتى جمع العساكر واستكثر منها، وقصد أخاه، والتقيا بالقرب من همذان في ربيع الأول سنة أربع عشرة وخمسمائة، وكان النصر لمحمود، وقتل في هذه الواقعة الأستاذ أبو إسماعيل الطغرائي – وقد سبق شيء من خبره في حرف الحاء.

ثم انتقلت الأحوال وتقلبت بمسعود المذكور واستقل بالسلطنة سنة ثمان وعشرين وخمسمائة، ودخل بغداد، واستوزر شرف الدين أنو شروان بن خالد القاشاني الذي كان وزير المسترشد، وقد تقدم ذكره في ترجمة الحريري صاحب المقامات؛ وكان سلطاناً عادلاً لين الجانب كبير النفس، فرق مملكته على أصحابه، و لم يكن له من السلطنة غير الاسم، وكان حسن الأخلاق كثير المزاح والانبساط مع الناس، فمن ذلك أن أتابك زنكي صاحب الموصل أرسل إليه القاضي كمال الدين محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري في رسالة، فوصل إليه وأقام معه في العسكر، فوقف يوماً على خيمة الوزير حتى قارب أذان امغرب فعاد إلى خيمته وأذن المغرب وهو في الطريق، فرأى إنساناً فقيهاً في خيمة، فنزل إليه فصلى معه، فسأله كمال الدين من أين هو؟ فقال: أنا قاضي مدنية كذا، فقال له كمال الدين: القضاة ثلاثة: قاضيان في النار وهو أنا وأنت، وقاض في الجنة وهو من لا يعرف أبواب هؤلاء الظلمة ولا يراهم. فلما كان من الغد أرسل السلطان وأحضر كمال الدين، فلما دخل عليه ورآه ضحك وقال: القضاة ثلاثة، فقال كمال الدين: نعم يا مولانا، فقال: والله صدقت، ما أسعد من لا يرانا ولا نراه، ثم أمر به فقضيت حاجته وأعاده من يومه.

ومن ذلك أنه اجتاز يوماً في بعض أطراف بغداد فسمع امرأة تقول لأخرى: تعالي انظري إلى السلطان، فوقف وقال: يقف حتى تجيء هذه الست تنظر إلينا وله مناقب كثيرة وكان مع لين جانبه ما ناوأه أحد وظفر به، وقتل من الأمراء الأكابر خلقاً كثيراً، ومن جملة من قتل الخليفتان المسترشد بالله والراشد لأنه كان قد وقع بينه وبين الخليفة المسترشد وحشة قبل استقلاله في السلطنة، فلما استقل استطال نوابه على العراق، وعارضوا الخليفة في

أملاكه، فقويت الوحشة بينهما، وتجهز المسترشد وخرج لمحاربته، وكان السلطان مسعود بهمذان، فجمع جيشاً عظيماً وخرج للقائه، وتصافا بالقرب من همذان فكسر عسكر الخليفة، وأسر هو وأرباب دولته، وأخذه السلطان مسعود مأسوراً وطاف به بلاد أذربيجان، وقتل على باب المراغة، حسبما شرحناه في ترجمة دبيس بن صدقة، وهو الذي خلع الراشد وأقام المقتفي كما هو مشهور.

ثم أقبل مسعود على الاشتغال باللذات والانعكاف على مواصلة وجوه الراحات، متكلاً على السعادة تعمل له ما يؤثره، إلى أن حدث له القيء وعلى الغثيان، واستمر به ذلك إلى أن توفي في حادي عشر جمادى الآخرة، سنة سبع وأربعين وخمسمائة، وقيل يوم الأربعاء، الثاني والعشرين من الشهر المذكور بهمذان ومات معه سعادة البيت السلجوقي فلم تقم له بعد راية يعتد بها ولا يلتفت إليها:

فما كان قيس هلكه واحد ... ولكنه بنيان قوم تهدما

ودفن في مدرسة بناها جمال الدين إقبال الخادم.

وقال ابن الأزرق الفارقي في تاريخه: رأيت السلطان المذكور ببغداد، في السنة المذكورة، وسار إلى همذان ومات بباب همذان، وحمل إلى أصبهان رحمه الله تعالى، وقد تقدم شيء من خبره في ترجمة دبيس بن صدقة صاحب الحلة.

ومولده يوم الجمعة، لثلاث خلون من ذي القعدة، سنة اثنتين وخمسمائة.

ولما ولي السلطنة جرت بينه وبين عمه سنجر – المقدم ذكره – منازعة، ثم خطب له بعد عمه المذكور ببغداد، يوم الجمعة لاثنتي عشرة ليلة خلت من صفر سنة سبع وعشرين وخمسمائة والله أعلم.

عز الدين مسعود صاحب الموصل

أبو الفتح وأبو المظفر، مسعود بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي ابن آق سنقر، أتابك صاحب الموصل، الملقب عز الدين – قد تقدم خبر جده وجد أبيه، وخبر ولده نور الدين أرسلان شاه وغيرهم من أهل بيته، وسيأتي ذكر أبيه في هذا الحرف إن شاء الله تعالى – ولما توفي والده قام بالملك ولده سيف الدين غازي – المقدم ذكره –أنه أكبر الإخوة، وكان قد خلف هذين الولدين، وعماد الدين زنكي صاحب سنجار المذكور عقيب ترجمة جده عماد الدين زنكي.

وكان عز الدين المذكور مقدم الجيوش في أيام أخيه غازي؛ ولما خرج السلطان صلاح الدين من الديار المصرية بعد وفاة الملك العادل نور الدين محمود – المقدم ذكره – وأخذ دمشق وتقدم إلى حلب وحاصرها، خاف غازي منه، وعلم أنه قد استفحل أمره وعظم شأنه، واستشعر أنه متى استحوذ على الشام تعدى الأمر إليه، فجهز جيشاً عظيماً وقدم عليه أخاه عز الدين مسعوداً المذكور، وسار يريد لقاء السلطان، وضرب المصاف معه ليرده على البلاد فلما بلغ السلطان خروجه رحل عن حلب، وذلك في مستهل رجب الفرد سنة سبعين وخمسمائة، وسار إلى حمص وأخذ قلعتها. وكان قد أخذ البلد في جمادى الأولى من السنة المذكورة بعد خروجه من دمشق قاصداً حلب، ووصل عز الدين مسعود إلى حلب لينجد ابن عمه الملك الصالح إسماعيل ابن نور الدين، صاحب حلب.

هذا كان في الصورة الظاهرة، وفي الباطن كان غرضهم ما ذكرناه من خوفهم على بلادهم، فانضم إلى عز الدين مسعود عسكر حلب وخرج في جمع كثير.

ولما عرف السلطان مسيرهم سار حتى وافاهم على قرون حماة، وراسلهم وراسلوه، واجتهد في أن يصالحوه فلم يفعلوا، ورأوا أن ضرب المصاف معه ربما نالوا به الغرض الأكبر والمقصود الأوفر، والقضاء يجر إلى أمور لا يشعرون بها، فقام المصاف بين العسكرين، وقضى الله تعالى أن انكسر جيش عز الدين وأسر السلطان جماعة من أمرائه ثم أطلقهم، وذلك يوم الأحد التاسع عشر من شهر رمضان المعظم من السنة المذكورة، وهذه الواقعة من الوقائع المشهورة.

ثم سار السلطان عقيب الكسر إلى حلب ونزل عليها، وهي الدفعة الثانية، فصالحه الملك الصالح إسماعيل على أخذ المعرة وكفرطاب وبارين ثم رحل

عنها.
وشرح ذلك يطول، وتتمة هذه القضية مذكورة في ترجمة أخيه سيف الدين غازي.
ولما توفي أخوه سيف الدين في التاريخ المذكور في ترجمته، استقل عز الدين المذكور بالملك من بعده، ولم يزل إلى أن حضرت الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين الوفاة – في التاريخ المذكور في ترجمة أبيه نور الدين – فأوصى بمملكة حلب وما معها لابن عمه عز الدين مسعود المذكور، واستحلف له المراء والأجناد، فلما توفي وبلغ الخبر عز الدين مسعوداً، بادر متوجهاً إليها خوفاً من صلاح الدين أن يسبقه فيأخذه، وكان وصوله إليها في العشرين من شعبان سنة سبع وسبعين وخمسمائة، وصعد القلعة واستولى على ما بها من الخزائن والحواصل، وتزوج أم الملك الصالح في خامس شوال من السنة، وأقام بها إلى سادس عشر شوال.
ثم علم أنه لا يمكنه حفظ الشام والموصل، وخاف من جانب صلاح الدين، وألح عليه الأمراء في طلب الزيادات، وتبسطوا عليه في المطالب، وضاق عنهم عطنه. وكان المستولي على أمره مجاهد الدين قايماز الزيني – المقدم ذكره في حرف القاف – فرحل عن حلب وخلف بها مظفر الدين ولده، ومظفر الدين بن زين الدين صاحب إربل – المذكور في حرف الكاف؛ ولما وصل إلى الرقة لقيه بها أخوه عماد الدين زنكي صاحب سنجار، فقرر معه مقايضة حلب بسنجار وتحالفا على ذلك، وسير عماد الدين من يتسلم حلب، وسير عز الدين من يتسلم سنجار.

وفي ثالث عشر المحرم سنة ثمان وسبعين وخمسمائة، صعد عماد الدين إلى قلعة حلب، وكان قد تقرر الصلح بين عز الدين المذكور وابن عمه الملك الصالح، وبين صلاح الدين، على يد قليج أرسلان صاحب الروم، وصعد السلطان صلاح الدين إلى الديار المصرية، واستناب بدمشق ابن أخيه عز الدين فروخ شاه بن شاهان شاه بن أيوب، فلما بلغه خبر وفاة الملك الصالح وهذه الأمور المتجددة عاد إلى الشام. وكان وصوله إلى دمشق في سابع عشر صفر سنة ثمان وسبعين، وبلغه بها أن رسول عز الدين مسعود وصل إلى الفرنج يحثهم على قتال السلطان ويبعثهم على قصده، فعلم أنه قد غدر به ونكث اليمين، فعزم على قصد حلب والموصل وأخذ في التأ هب للحرب، فبلغ عماد الدين صاحب حلب ذلك، فسير إلى أخيه صاحب الموصل يعلمه ذلك ويستدعي منه العساكر.
فسار السلطان صلاح الدين من دمشق ونزل على حلب، في ثاني عشر جمادى الأولى سنة ثمان وسبعين وخمسمائة، وأقام عليها ثلاثة أيام. ثم رحل في الحادي والعشرين من الشهر، ثم جاءه مظفر الدين بن زين الدين صاحب إربل، وكان يوم ذلك في خدمة صاحب الموصل وهو صاحب حران، وكان قد استوحش من عز الدين مسعود صاحب الموصل وخاف من مجاهد الدين قايماز الزيني – المذكور في حرف القاف – فالتجأ إلى السلطان صلاح الدين وقطع الفرات وعبر إليه، وقوى عزمه على قصد بلاد الجزيرة وسهل أمرها عليه، فعبر السلطان صلاح الدين الفرات، وأخذ الرها والرقة ونصيبين وسروج، ثم أشحن على بلاد الخابور وأقطعها، وتوجه إلى الموصل، ونزل عليها يوم الخميس حادي عشر رجب سنة ثمان وسبعين وخمسمائة ليحاصرها، فأقام أياماً، وعلم أنه بلد عظيم لا يتحصل منه شيء بالمحاصرة، وان طريق أخذه أخذ قلاعه وبلاده وإضعاف أهله على طول الزمان، فرحل عنها ونزل على سنجار في سادس عشر شعبان من السنة، وأخذها في ثاني شهر رمضان المعظم، وأعطاها لابن أخيه الملك المظفر تقي الدين عمر – المقدم ذكره – وشرح ذلك يطول.
وخلاصة الأمر أنه رجع إلى الشام فكان وصوله إلى حران في أول ذي القعدة ثم عاد إلى منازلة الموصل، وكان وصوله إليها في أول شهر ربيع الأول سنة إحدى وثمانين، ونزلت إليه والدة عز الدين ومعها جماعة من نساء بني أتابك وابنه نور الدين أرسلان شاه بن مسعود – وقد سبق ذكره في حرف الهمزة –وطلبت منه المصالحة، فردها خائبة ظناً منه أن عز الدين أرسلها عجزاً عن حفظ الموصل، واعتذر بأعذار ندم عليها بعد ذلك، وبذل أهل الموصل نفوسهم في القتال لكونه رد النساء والولد بالخيبة، فأقام عليها إلى أن أتاه خبر وفاة شاه أرمن ناصر الدين محمد بن إبراهيم بن سكمان القطبي صاحب خلاط، وقيام مملوكه بكتمر بالأمر من بعده، وطمع في خلاط، وقرر معه تسليمها إليه وأن يعوضه عنها ما يرضيه. وكانت وفاة شاه أرمن يوم الخميس تاسع شهر ربيع الآخر من السنة المذكورة.
فرحل السلطان صلاح الدين عن الموصل لهذا السبب في العشرين من الشهر المذكور وتوجه نحو خلاط، وفي مقدمته مظفر الدين صاحب إربل وهو

يوم ذاك صاحب حران وناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه وهو ابن عم صلاح الدين، فترلوا بالطوانة، البليدة التي هي بالقرب من خلاط، وسير الرسل إلى بكتمر لتقرير القاعدة، فوصلت الرسل إليه وشمس الدين بهلوان بن الذكر صاحب أذربيجان وعراق العجم قد قرب من خلاط ليحاصرها، فبعث إليه بكتمر يعرفه أنه إن لم يرجع عنه وإلا سلم البلاد إلى السلطان صلاح الدين فصالحه وزوجه ابنته ورجع عنه، وسير بكتمر إلى السلطان صلاح الدين يعتذر عما قاله من تسليم خلاط، وكان السلطان قد نزل على ميافارقين يحاصرها، فقاتلها قتالاً شديداً، ثم أخذها عن صلح بالخديعة في التاسع والعشرين من جمادى الأولى من السنة المذكورة، وكان صاحبها قطب الدين ايغازي بن البي بن كرماس بن غازي بن أرتق، فمات وتركها لولده حسام الدين بولق أرسلان، وهو طفل صغير، فطمع في أخذها من واليها فأخذها.

ولما أيس السلطان من خلاط عاد إلى الموصل، وهي الدفعة الثالثة، ونزل بعيداً عنها بموضع يقال له كفر زمار، فأقام به مدة، وكان الحر شديداً، فمرض السلطان مرضاً شديداً أشفى على الموت، فرحل طالباً حران في مستهل شوال من السنة. ولما علم عز الدين مسعود المذكور بمرض السلطان وأنه رقيق القلب، انتهز الفرصة وسير القاضي بهاء الدين بن شداد – الآتي ذكره إن شاء الله تعالى في حرف الياء – ومعه بهاء الدين الربيب، فوصلا إلى حران في الرسالة والتملس الصلح، فأجاب إلى ذلك، وحلف يوم عرفة من السنة وقد تماثل للصحة، و لم يتغير عن تلك اليمين إلى أن مات رحمه الله تعالى، ثم رحل إلى الشام.

وأمن حينئذ عز الدين مسعود وطابت نفسه، و لم يزل على ذلك إلى أن توفي في السابع والعشرين من شعبان سنة تسع وثمانين وخمسمائة بعلى الإسهال. وكان قد بنى بالموصل مدرسة كبيرة وقفها على الفقهاء الشافعية والحنفية، فدفن بهذه المدرسة في تربة هي بداخلها، رحمه الله تعالى؛ ورأيت المدرسة والتربة، وهي من أحسن المدارس والترب، ومدرسة ولده نور الدين أرسلان شاه في قبالتها، وبينهما ساحة كبيرة.

ولما مات خلف ولده نور الدين المذكور – وقد تقدم ذكره في حرف الهمزة – ولما مات نور الدين – في التاريخ المذكور في ترجمته – خلف ولدين أحدهما الملك القاهر عز الدين أبو الفتح مسعود، والآخر الملك المنصور عماد الدين زنكي ولما حضرته الوفاة قسم البلاد بينهما، فأعطى الملك القاهر – وهو الأكبر – الموصل وأعمالها، وأعطى عماد الدين الشوش والعقر وتلك النواحي.

فأما الملك القاهر فكانت ولادته في سنة تسعين وخمسمائة بالموصل، وتوفي بها فجأة ليلة الاثنين لثلاث بقين من شهر ربيع الآخر سنة خمس عشرة وستمائة، وكان قد بنى مدرسة أيضاً فدفن بها.

وأما عماد الدين فإنه أخذ بعد موت أخيه الملك القاهر قلعة العمادية، ثم أخذت منه، وهي من أحسن القلاع بجبل الهكارية من أعمال الموصل، وكذلك عدة قلاع مما يجاورها، وانتقل إلى إربل، وكان زوج ابنه مظفر الدين صاحب إربل، فأقام بها زماناً، وكنا في جواره، وكان من أحسن الناس صورة، ثم قبض عليه مظفر الدين لأمر يطول شرحه، وسيره إلى سنجار الملك الأشرف ابن الملك العادل – الآتي ذكره إن شاء الله تعالى – فأفرج عنه الملك الأشرف، وعاد إلى أربل، وقايضه مظفر الدين عن العقر بشهرزور وأعمالها، فانتقل إليها، وأقام إلى أن توفي في حدود سنة ثلاثين وستمائة، وخلف ولداً أقام بعده قليلاً ثم مات، رحمهما الله تعالى.

ولما مات عز الدين مسعود بن أرسلان شاه خلف ولدين نور الدين أرسلان شاه، وكان سمي عليا في حياة جده أرسلان شاه، فلما مات جده نور الدين سموه باسمه، وناصر الدين محمد.

فتولى بعده نور الدين المذكور، وكان تقدير عمره عشر سنين، وبقي بعد أبيه قليلاً وتوفي في بقية السنة.

وتولى أخوه بعده ناصر الدين محمود، والمدبر لأمر المملكة بدر الدين لؤلؤ الذي ملك الموصل فيما بعد.

وتوفي بهلوان بن الذكر المذكور، في سلخ ذي الحجة سنة إحدى وثمانين وخمسمائة، رحمه الله تعالى.

وتوفي والده شمس الدين الذكرالأتابك في أواخر شهر ربيع الآخر سنة سبعين وخمسمائة، بنقجوان، ودفن بها رحمه الله تعالى؛ وكان أتابك السلطان أرسلان شاه بن طغرلبك بن محمد بن ملكشاه بن محمد السلجوقي.

وبعد الذكر بمقدار شهر توفي أرسلان شاه المذكور بهمذان ودفن بها رحمه الله تعالى.

وقتل قزل بن الذكر المذكور في أوائل شعبان سنة سبع وثمانين وخمسمائة، وكان ملكاً كبيراً، وهو ابن الذكر المذكور، رحمهم الله تعالى أجمعين. والله تعالى أعلم بالصواب.

مطرف الصنعاني أبو أيوب مطرف بن مازن، الكناني بالولاء، وقيل القيسي بالولاء، اليماني الصنعاني؛ ولي القضاء بصنعاء اليمن، وحدث عن عبد الملك بن عبد العزيز بن جريح وجماعة كثيرة، وروى عنه الإمام الشافعي رضي الله عنه، وخلق كثير.

واختلفوا في روايته: فنقل عن يحيى بن معين أنه سئل عنه فقال: كذاب. وقال النسائي: مطرف بن مازن ليس بثقة. وقال السعدي: مطرف بن مازن الصنعاني يتثبت في حدثه حتى يبلى ما عنده. وقال أبو حاتم محمد بن حبان البستي: مطرف بن مازن الكناني قاضي اليمن يروي عن معمر وابن جريح، روى عنه الشافعي وأهل العراق، وكان يحدث بما لم يسمع، ويروي ما لم يكتب عمن لم يره، ولا تجوز الرواية عنه إلا عند الخواص للإعتبار فقط.

وقال حاجب ابن سليمان: كان مطرف بن مازن قاضي صنعاء وكان رجلاً صالحاً، وذكر عنه حكاية في إبراره قسم من أقسم على أمر شنيع يفعله به. وذكر أبو أحمد عبد الله بن عدي الجرجاني أحاديث من رواية مطرف بن مازن وقال: لمطرف غير ما ذكرت أفراد يتفرد بها عمن يرويها عنه، و لم أر فيما يرويه شيئاً منكراً.

وقال أبو بكر أحمد بن الحسين البهقي: أخبرنا أبو سعيد قال، حدثنا أبو العباس قال: أخبرنا الربيع قال الشافعي رضي الله عنه: وقد كان من حكام الآفاق من يستحلف على المصحف وذلك عندي حسن، وقال: وأخبرني مطرف بن مازن بإسناد لا أحفظه أن ابن الزبير أمر بأن يحلف على المصحف قال الشافعي؛ رضي الله عنه: ورأيت مطرفاً بصنعاء اليمن يحلف على المصحف، وقال غيره، قال الشافعي رضي الله عنه ورأيت ابن مازن – وهو قاضي صنعاء – يغلظ باليمين بالمصحف.

وتوفي مطرف المذكور بالرقة، وقيل بمنبج، وكانت وفاته في أواخر خلافة هارون الرشيد، وتوفي هارون الرشيد ليلة السبت لثلاث خلون من جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين ومائة بطوس، وكانت ولايته يوم الجمعة لأربع عشرة ليلة بقيت من ربيع الأول سنة سبعين ومائة، رحمه الله تعالى.

وهذا مطرف ليس من المشاهير الذين أحتاج إلى ذكرهم، والذي حملني على ذكره أن الشيخ أبا إسحاق الشيرازي، رحمه الله تعالى، ذكره في كتاب ذكره في كتاب "المهذب" في باب اليمين في الدعاوى في فصل التغليظ، فقال: "وإن حلف بالمصحف وما فيه من القرآن فقد حكى الشافعي رضي الله عنه عن مطرف أن ابن الزبير كان يحلف على المصحف، قال: ورأيت مطرفاً بصنعاء يستحلف على المصحف، قال الشافعي رضي الله عنه: وهو حسن" انتهى كلام صاحب "المهذب". ورأيت الفقهاء يسألون عن مطرف المذكور ولا يعرفه أحد، حتى غلط فيه صاحبنا عماد الدين أبو المجد إسماعيل بن أبي البركات هبة الله بن أبي الرضى بن باطيش الموصلي الفقيه الشافعي في كتابه الذي وضعه على "المهذب" في أسماء رجاله والكلام على غريبه فقال: "مطرف بن عبد الله بن الشخير" ثم قال "وتوفي سنة سبع وثمانين" يعني للهجرة، فيا لله العجب! شخص يموت في هذا التاريخ كيف يمكن أن يراه الشافعي رضي الله عنه؟ ومولد الشافعي سنة خمسين ومائة بعد موت ابن الشخير بثلاث وستين سنة، وما أدري كيف وقع هذا الغلط؟ فلو أنه ما حكى تاريخ وفاته كان يمكن أن يقال: ظن أنه أدركه الشافعي.

ولما انتهيت في هذه الترجمة إلى هذا الموضع رأيت في تاريخ أبي الحسين عبد الباقي بن قانع الذي جعله مرتباً على السنين أن مطرف بن مازن توفي سنة إحدى وتسعين ومائة، وهذا يوافق ما قاله الأول من أنه توفي في أواخر خلافة هارون الرشيد.

والذي أفادني هذه الترجمة على الصورة المحكية في الأول هو الشيخ الحافظ زكي الدين أبو محمد عبد العظيم المنذري، نفع الله به.

ومطرف: بضم الميم وفتح الطاء المهملة وتشديد الراء المكسورة وبعدها فاء. والباقي معروف فلا حاجة إلى ضبطه وتقييده.

وأما مطرف الذي ذكره عماد الدين فهو أبو عبد الله مطرف بن عبد الله بن الشخير بن عوف بن كعب بن رقدان بن الحريش بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن منصور بن عكرمة بن حفصة بن قيس عيلان بن مضر بن معد بن عدنان، الحرشي، كان فقيهاً، وكان لوالده عبد الله صحبة، وكان مطرف من أعبد الناس وأنسكهم، فذكروا أنه وقع بينه وبين رجل منازعة، فرفع يديه، وكان ذلك في مسجد البصرة، وقال: اللهم إني أسألك ألا يقوم من مجلسه حتى تكفيني إياه، فلم يفرغ مطرف من كلامه حتى صرع الرجل فمات، وأخذ مطرف وقدموه إلى القاضي، فقال

القاضي: لم يقتله، وإنما دعا عليه فأجاب الله دعوته، فكان بعد ذلك تتقى دعوته، ومات في سنة سبع وثمانين للهجرة وقيل غير ذلك وقال ابن قانع: سنة خمس وتسعين، والله تعالى أعلم بالصواب.

الواعظ الروزي

أبو منصور المظفر بن أبي الحسين أزدشير بن أبي منصور العبادي، الواعظ المروزي الملقب قطب الدين، المعروف بالأمير؛ كان من أهل مرو، وله اليد الطولى في الوعظ والتذكير وحسن العبارة، ومارس هذا الفن من صغره إلى كبره، ومهر فيه حتى صار ممن يضرب به المثل في ذلك وصار عين ذلك العصر، وشهد له الكل بالفضل وحيازة قصب السبق.

وقدم بغداد فأقام بها قريباً من ثلاث سنين يعقد له فيها مجالس الوعظ، ولقي من الخلق قبولاً تاماً، وحظي عند الإمام المقتفي لأمر الله، ثم خرج منها رسولاً إلى جهة السلطان سنجر بن ملك شاه السلجوقي– المقدم ذكره – فوصل إلى خراسان، ثم عاد إلى بغداد، وخرج منها إلى خوزستان في رسالة فمات بعسكر مكرم في سلخ ربيع الآخر يوم الخميس، وقيل الاثنين، سنة سبع وأربعين وخمسمائة، وحمل تابوته إلى بغداد، ودفن بها في الشونيزية في حظيرة الشيخ الجنيد بن محمد العبد الصالح، رضي الله عنه.

ومولده في شهر رمضان سنة إحدى وتسعين وأربعمائة، وسمع الحد يث الكثير بنيسابور من أبي علي نصر الله بن أحمد بن عثمان الخشنامي وأبي عبد الله إسماعيل بن الاحفظ عبد الغافر الفارسي وغيرهما، وروي عنه الحافظ أبو سعد السمعاني، وقال عنه: كان صحيح السماء ع، و لم يكن موثوقاً به في دينه، رأيت منه أشياء، وطالعت بخطه رسالة جمعها في إباحة شرب الخمر، سامحه الله تعالى وعفا عنه.

وكان والده أبو الحسين يعرف بالأمير أيضاً، وكان مليح الوعظ حسن السيرة توفي سنة نيف وتسعين وأربعمائة، رحمهما الله تعالى.

والعبادي: بفتح العين المهملة وتشديد الباء الموحدة وبعد الألف دال مهملة هذه النسبة إلى سنج عباد، وهي قرية من قرى مرو.

وسنج: بكسر السين المهملة وسكون النون وبعدها جيم؛ وبأعمال مرو أيضاً قرية كبيرة يقال لها سنج، منها الفقيه أبو علي النجي – وقد تقدم ذكره في حرف الحاء –وتكلمنا على سنج هناك، فلا يظن ظان أنهما موضع واحد، بل هما قريتان، وقد نبه على ذلك جماعة من أرباب هذا الفن.

وأما أزدشير فقد تقدم الكلام على ضبطه في ترجمة الوزير سابور، فلا حاجة إلى إعادته، والله تعالى أعلم.

موفق الدين العيلاني المصري

أبو العز مظفر بن إبراهيم بن جماعة بن علي بن شامي بن أحمد بن ناهض بن عبد الرزاق العيلاني، الحنبلي المذهب الملقب موفق الدين، الشاعر المشهور المصري؛ كان أديباً عروضياً شاعراً مجيداً، صنف في العروض مختصراً جيداً دل على حذقه فيه، وله ديوان شعر رائق، وكان ضريراً، فمن شعره:

قالوا عشقت وأنت أعمى ... ظبياً كحيل الطرف ألمى

وحلاه ما عاينتها ... فنقول قد شغفتك هما

وخياله بك في المنا ... م فما أطاف و لا ألما

من أين أرسل للفؤا ... د، وأنت لم تنظره، سهما

ومتى رأيت جماله ... حتى كساك هواه سقما

والعين داعية الهوى ... وبه تتم إذا تنمى

وبأي جارحة وصل ... ت لوصفه نثراً ونظما

فأجبت إني موسو ... ي العشق إنصاتاً وفهما

أهوى بجارحة السما ع، ولا أرى ذات المسمى

ولقد أذكرتني هذه الأبيات أبياتاً لرجل ضرير أيضاً، والشيء بالشيء يذكر، وهي هذه:

وغادة قالت لأترابها يا قوم ما أعجب هذا الضرير
أيعشق الإنسان ما لا يرى فقلت والدمع بعيني غزير:
إن لم تكن عيني رأت شخصها فإنها قد مثلت في الضمير

ومثل هذا أيضاً قول المهذب عمر بن محمد المعروف بابن الشحنة الموصلي الأديب الشاعر المشهور من جملة قصيدة طويلة مدح بها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، والبيت المقصود قوله:

وإني امرؤ أحببتكم لمكارم سمعت بها، والأذن تعشق قبل العين أحياناً

وقد أخذ هذا المعنى من قول بشاربن برد الشاعر المقدم ذكره:

وإني امرؤ أحببتكم لمكارم سمعت بها، والأذن كالعين تعشق

وكان الوزير صفي الدين أبو محمد عبد الله بن علي، عرف بابن شكر، قد عاد من الشام إلى مصر، فخرج أصحابه للقائه إلى الخشبي المنزلة المجاورة للعباسة، فكتب مظفر المذكور إليه هذه الأبيات، يعتذر من تأخره عن الخروج إليه وهي:

قالوا إلى الخشبي سرنا على عجل نلقى الوزير جميعاً ذوي الرتب
ولم تسر أيها الأعمى، فقلت لهم: لم أخش من تعب ألقى ولا نصب
وإنما النار في قلبي لوحشته فخفت أجمع بين النار والخشب

وهذا المعنى مطروق لكنه استعمله حسناً.

وأخبرني أحد أصحابه أن شخصاً يقال له: رأيت في بعض تواليف أبي العلاء المعري ما صورته: أصلحك الله وأبقاك، لقد كان من الواجب أن تأتينا اليوم إلى منزلنا الخالي، لكي نحدث عهداً بك يا زين الأخلاء، فما مثلك من غير عهداً أو غفل؛ وسأله: من أي الأبحر هذا؟ وهل هو بيت واحد أم أكثر؟ فإن كان أكثر فهل أبياته على روي واحد أم هي مختلفة الروي؟ قال: فأفكر فيه، ثم أجابه بجواب حسن، فلما قال لي المخبر ذلك قلت له: اصبر علي حتىأنظر فيه ولا تقل ما قاله، ثم أفكرت فيه فوجدته يخرج من بحر الرجز، وهو المجزوء منه، وتشتمل هذه الكلمات على أربع أبيات على روي الكلام، وهي على صورة يسوغ استعمالها عند العروضيين، ومن لا يكون له معرفة بهذا الفن فإنه ينكرها، لأجل قطع الموصول منها، ولا بد من الإتيان بها لتظهر صورة ذلك، وهي:

أصلحك الله وأب قاك لقد كان من ال
واجب أن تأتينا الي وم إلى منزلنا ال
خالي لكي نحدث عه داً بك يا زين الأخل
لاء فما مثلك من غير عهداً أو غفل

وهذا إنما يذكره أهل هذا الشأن للمعاياة، لا لأنه من الأشعار المستعملة، فلما استخرجته عرضته على ذلك الشخص فقال: هكذا قاله مظفر الأعمى.

وقال الشيخ زكي الدين أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوي المنذري المحدث المصري، رحمه الله تعالى، أخبرني الأديب موفق الدين مظفر الضرير

الشاعر المصري أنه دخل على القاضي السعيد بن سناء الملك – قلت: وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى، واسمه هبة الله– قال: فقال لي: يا أديب، قد صنعت نصف بيت، ولي أيام أفكر فيه، ولا يأتي لي تمامه، فقلت: وما هو؟ فأنشدني:

بياض عذارى من سواد عذاره

قال مظفر: فقلت: قد حصل تمامه وأنشدت:

كما جل ناري فيه من جلناره

فاستحسنه، وجعل يعمل عليه، فقلت في نفسي: أقوم وإلا يعمل المقطوع من كيسي.

وبالجملة فقد خرجنا عن المقصود، لكن الكلام يسوق بعضه بعضاً.

وكتب مظفر المذكور لتقي الدين، ومدحه جماعة هو منهم، فخلع على الجميع ولم يخلع عليه:

العبد مملوك مولانا وخادمه ... مظفر الشاعر الأعمى حليف ضنى
يقبل الأرض إجلالاً لمالكه ... رقاً، وينهي إليه بعد كل هنا
أن القميص جميع الناس قد بصروا ... به وما منهم يعقوب غير أنا

وله يوم رمي الشواني:

يا أيها الملك المسرور آمله ... هذي شوانيك ترمي يوم سراء
كأنما هي قعبان بها ظمأ ... طاردت من البحر وانقضت على الماء

وله في يوم لعبها:

مولاي هذه الشواني في ملاعبها ... مثل الشواهين بين السهل والجبل
تسقي مجاذيفها ماء وتنفضه ... نفض العقاب جناحهيا من البلل

وله يصف فانوس الجامع العتيق بمصر:

أرى علماً للناس ينصب ... على جامع ابن العاص أعلاه كوكب
وما هو في الظلماء إلا كأنه ... على رمح زنجي سنان مذهب
ومن عجب أن الثريا سماؤها ... مع الليل تلهي كل من يترقب
فطوراً تحييه بباقة نرجس ... وطوراً يحييها بكاس تلهب
وما الليل إلا قانص لغزالة ... بفانوس نار نحوها يتطلب
ولم أر صيداً على البعد قبله ... إذا قربت منه الغزالة يهرب

وشعره كثير.

وكانت ولادة مظفر المذكور لخمس بقين من جمادى الآخرة سنة أربع وأربعين وخمسمائة بمصر. وتوفي بها سحر يوم السبت التاسع من المحرم سنة ثلاث وعشرين وستمائة، ودفن من الغد بسفح المقطم، رحمه الله تعالى.

والعيلاني، بفتح العين المهملة وسكون الياء المثناة من تحتها وبعد اللام ألف نون، هذه النسبة إلى قيس عيلان، وقيل قيس بن عيلان بن مضر بن نزار بن

عدنان، فمن قال إنه قيس علان فقد اختلفوا في عيلان ماذا؟ فمنهم من قال: هو اسم فرس كان له فأضيف إليه، وقيل اسم كلب كان له، وقيل اسم رجل كان قد حضنه صغيراً، وإنما أضيف إلى عيلان لأنه كان في عصره شخص يقال له قيس كبة – بضم الكاف وتشديد الباء الموحدة – وهو اسم فرس كنت له أيضاً، فكان كل واحد منهما يضاف إلى ما له ليتميز عن الآخر، والله أعلم، وقد قيل إن قيس عيلان اسمه الناس – بالنون – وهو أخو إلياس– بالياء – جد النبي صلى الله عليه وسلم، والله أعلم بالصواب.

الهرا النحوي

أبو مسلم معاذ بن مسلم الهرا النحوي الكوفي، من موالي محمد بن كعب القرظي؛ قرأ عليه الكسائي وروى الحديث عنه، وحكيت عنه في القراءات حكايات كثيرة، وصنف في النحو كثيراً، ولم يظهر له شيء من التصانيف، وكان يتشيع، وله شهر كشعر النحاة. وكان في عصره مشهوراً بالعمر الطويل، وكان له أولاد وأولاد أولاد، فمات الكل وهو باق. وحكى بعض كتابه قال: صحبت معاذ بن مسلم زماناً، فسأله رجل ذات يوم: كم سنك؟ فقال: ثلاث وستون، قال: ثم مكث بعد ذلك سنين وسأله كم سنك؟ فقال: ثلاث وستون، فقلت: أنا معك منذ إحدى وعشرين سنة، وكلما سألك أحد: كم سنك؟ تقول: ثلاث وستون، فقال: لو كنت معي إحدى وعشرين سنة أخرى ما قلت إلا هذا. وقال عثمان بن أبي شيبة: رأيت معاذ بن مسلم الهرا، وقد شد أسنانه بالذهب من الكبر، وفيه يقول أبو السري سهل بن أبي غالب الخزرجي الشاعر المشهور:

إن معاذ بن مسلم رجل ... ليس لميقات عمره أمد
قد شاب رأس الزمان واكتهل الدهر وأثواب عمره جدد
قل لمعاذ إذا مررت به ... قد ضج من طول عمر الأمد
يا بكر حواء كم تعيش وكم ... تسحب ذيل الحياة يا لبد
قد أصبحت دار آدم خربت ... وأنت فيها كأنك الوتد
تسأل غربانها إذا نعبت ... كيف يكون الصداع والرمد
مصححاً كالظليم ترفل في ... بردك مثل السعير تتقد
صاحبت نوحاً ورضت بغلة ذي القرنين شيخاً لولدك الولد
فارحل ودعنا لأن غايتك الموت ... وغن شد ركنك الجلد

قوله "تسحب ذيل الحياة يا لبد" فهذا لبد آخر نسور لقمان بن عاد، وكان لقمان قد سيره قومه – وهو عاد الذين ذكرهم الله تعالى في كتابه العزيز – إلى الحرم يستقي لها، فلما هلكت عاد خير لقمان بين أن يعيش عمر سبع بعرات سمر أو عمر سبعة أنسر، كلما هلك نسر خلف بعده نسر، فاختار النسور، فكان بأخذ الفرخ عند خرجه من البيضة فيربيه فيعيش ثمانين سنة، وهكذا، حتى هلك منها ستة، وبقي السابع فسمي لبداً، فلما كبر وعجز عن الطيران كان يقول له لقمان: انهض لبد، فلما هلك لبد مات لقمان، وقد ذكرت العرب لبداً في أشعارها كثيراً، فمن ذلك قول النابغة الذبياني:

أضحت خلاء وأضحى أهلها احتملوا ... أخنى عليها الذي أخنى على لبد

رجعنا إلى حديث معاذ: لما مات بنوه وحفدته قال:

ما يرتجي في العيش من قد طوى ... من عمره الذاهب تسعينا
أفنى بنيه وبينهم فقد ... جرعه الدهر الأمرينا
لا بد أن يشرب من حوضهم ... وإن تراخى عمره حينا

وكان معاذ المذكور صديقاً للكمين بن زيد الشاعر المشهور؛ قال محمد بن سهل رواية الكميت: صار الطرماح الشاعر إلى خالد بن عبد الله القسري أمير العراقيين وهو بواسط فامتدحه، فأمر له بثلاثين ألف درهم وخلع عليه حلي وشيء لا قيمة لهما، فبلغ ذلك الكميت، فعزم على قصده، فقال له معاذ الهرا: لا تفعل فلست كالطرماح، فإنه ابن عمه، وبينكما بون: أنت مضري وخالد يمني متعصب على مضر، وأنت شيعي وهو أموي، وأنت عراقي وهو شامي، فلم يقبل إشارته، وأبي إلا قصد خالد، فقصده، فقالت اليمانية لخالد: قد جاء الكميت وقد هجانا بقصيدة نونية فخر فيها علينا، فحبسه خالد وقال: في حبسه صلاح لأنه يهجو الناس ويتأكلهم، فبلغ ذلك معاذاً فغمه فقال:

نصحتك والنصيحة إن تعدت ... وى المنصوح عز لها القبول

فخالفت الذي لك فيه رشد ... فغالت دون ما أملت غول

فعاد خلاف ما تهوى خلافاً ... له عرض من البلوى طويل

فبلغ الكميت قوله، فكتب إليه:

أراك كمهدي الماء للبحر حاملاً ... إلى الرمل من يبرين متجراً رملا

ثم كتب تحته: قد جرى علي القضاء فما الحيلة الآن؟ فأشار عليه أن يحتال في الهرب، وقال له: إن خالداً قاتلك لا محالة، فاحتال بامرأته، وكانت تأتيه بالطعام وترجع، فلبس ثيابها وخرج كأنه هي، فلحق بمسلمة بن عبد الملك فاستجار به وقال:

خرجت خروج القدح قدح ابن مقبل ... إليك على تلك الهزاهز والأزل

علي ثياب الغانيات وتحتها ... عزيمة رأى أشبهت سلة النصل

فكان ذلك سبب نجاته من خالد.

وسأل شخص معاذاً عن مولده فقال: ولدت في أيام يزيد بن عبد الملك أو في أيام عبد الملك؛ وكان يزيد بن عبد الملك قد تولى بعد موت عمر بن عبد العزيز في شهر رجب سنة إحدى ومائة، وتوفي في شعبان سنة خمس ومائة، فهذه المدة هي أيامه؛ وأما أبوه عبد الملك فإنه تولى بعد أبيه مروان في شهر رمضان المعظم سنة خمس وستين للهجرة ومات سنة ست وثمانين، فهذه مدته. وتوفي معاذ سنة تسعين ومائة وقيل في السنة التي نكبت فيها البرامكة وهي سنة سبع وثمانين ومائة، وهو الأصح، رحمه الله تعالى.

وكان يكنى أبا مسلم، فولده له ولد سماه علياً فصار يكنى به.

والهرا: بفتح الهاء وتشديد الرء وبعدها ألف مقصورة؛ وإنما قيل له ذلك لأنه كان يبيع الثياب الهروية فنسب إليها.

وأما أبو السري الشاعر صاحب الأبيات الدالية المذكورة فإنه نشأ بسجستان، وادعى رضاع الجن وأنه صار إليهم، ووضع كتاباً ذكر فيه أمر الجن وحكمتهم وأنسابهم وأشعارهم، وزعم أنع بايعهم للأمين بن هارون الرشيد ولي العهد فقربه الرشيد وابنه الأمين وزبيدة أم الأمين، وبلغ معهم، وأفاد منهم، وله أشعار حسان وضعها على الجن والشياطين والسعالي، وقال له الرشيد: إن كنت رأيت ما ذكرت لقد رأيت عجباً، وإن كنت ما رأيته لقد وضعت أدباً، وأخباره كلها غريبة عجيبة، والله أعلم بالصواب.

ابن طرارا الجريري

القاضي أبو الفرج المعافى بن زكريا بن يحيى بن حميد بن حماد بن داود المعروف بابن طرارا الجريري النهرواني؛ كان فقيهاً أديباً شاعراً، عالماً بكل فن، ولي القضاء ببغداد، بباب الطاقة نيابة عن ابن صبر القاضي، وروى عن جماعة من الأئمة، منهم أبو القاسم البغوي وأبو بكر بن أبي داود ويحيى بن صاعد وأبو سعيد العدوي وأبو حامد محمد بن هارون الحضرمي وغيرهم. وأخذ الدب عن أبي عبد الله إبراهيم محمد بن عرفة المعروف بنفطويه وغيره. وروى عنه جماعة من الأئمة أيضاً، منهم أبو القاسم الأزهري والقاضي أبو الطيب الطبري الفقيه الشافعي وأحمد بن علي التوزي وأحمد بن عمرو بن

روح.

وذكر أحمد بن عمر بن روح أن أبا الفرج المذكور حضر في دار لبعض الرؤساء، وكان هناك جماعة من أهل العلم والأدب، فقالوا له: في أي نوع من العلوم نتذاكر؟ فقال أبو الفرج لذلك الرئيس: خزانتك قد جمعت أنواع العلوم، وأصناف الأدب، فإن رأيت أن تبعث الغلام إليها، تأمره أن يفتح بابها، ويضرب بيده إلى أي كتاب رأى منها، فيحمله ثم يفتحه، وينظر في أي العلوم هو، فنتذاكره ونتجارى فيه. قال ابن روح: وهذا يدل على أن أبا الفرج كان له أنسة بسائر العلوم. وكان أبو محمد عبد الباقي يقول: إذا حضر القاضي أبو الفرج فقد حضرت العلوم كلها، وقال: لو أوصى رجل بثلث ماله لأعلم الناس لوجب أن يدفع إلى أبي الفرج المعافى.

وكان ثقة مأموناً في روايته، وله شعر حسن، فمن ذلك ما رواه عنه القاضي أبو الطيب الطبري الفقيه الشافعي، وهو:

ألا قل لم كان لي حاسداً   أتدري على من أسأت الأدب

أسأت على الله في فعله   لأنك لم ترض لي ما وهب

فجازك عنه بأن زادني   وسد عليك وجوه الطلب

وذكر الشيخ أبو إسحاق الشيرازي في كتاب "طبقات الفقهاء" وأثنى عليه ثم قال: وأنشدني قاضي بلدنا أبو علي الداودي، قال: أنشدني أبو الفرج لنفسه:

أأقتبس الضياء من الضباب   وأتمس الشراب من السراب

أريد من الزمان النذل بذلاً   وأرياً من جنى سلع وصاب

أرجي أن ألاقي لاشتياقي   خيار الناس في زمان الكلاب

ومن شعره أيضاً:

مالك العلمين ضامن رزقي   فلماذا أملك الخلق رقي

قد قضى لي بما علي وما لي   خالقي جل ذكره قبل خلقي

صاحبي البذل والندى في يساري   ورفيقي في عسرتي حسن رفق

وكما لا يرد عجزي رزقي   فكذا لا يجر رزقي حذقي

وذكر أنه علمها في معنى قول علي بن الجهم:

لعمرك ما كل التعطل ضائر   ولا كل شغل فيه للمرء منفعه

إذا كانت الأرزاق في القرب والنوى   عليك سواء فاغتنم راحة الدعه

ومن غريب ما اتفق له ما حكاه أبو عبد الله الحميدي، صاحب "الجمع بي الصحيحين" - المقدم ذكره - قال: قرأت بخط أبي الفرج المعافى بن زكريا النهرواني: حججت سنة، وكنت بمنى أيام التشريق، فسمعت منادياً ينادي: يا أبا الفرج، فقلت: لعله يريدني، ثم قلت: في الناس خلق كثير ممن يكنى أبا الفرج، ولعله ينادي غيري، فلم أجبه، فلما رأى أنه لا يجيبه أحد نادي: يا أبا الفرج المعافى، ففهمت أن أجيبه، ثم قلت: قد يتفق أن يكون آخر اسمه المعافى، ويكنى أبا الفرج بن زكريا النهرواني، فقلت: لم يبق شك في مناداته إياي إذ ذكر اسمي وكنيتي واسم أبي وبلدي الذي أنسب إليه، فقلت: ها أنا ذا فما تريد؟ قال: لعلك من نهروان الشرق، فقلت: نعم، فقال: نحن نريد نهروان الغرب، فعجبت من اتفاق الاسم والكنية واسم الأب وما أنتسب إليه، علمت أن بالمغرب موضعاً يسمى النهروان، غير النهروان الذي بالعراق.

ولأبي الفرج المذكور عدة تصانيف ممتعة في الأدب وغيره وكتاب "الجليس الأنيس" تصنيفه أيضاً وكانت ولادته يوم الخميس لسبع خلون من شهر رجب سنة ثلاث، وقيل خمس، وثلثمائة؛ وتوفي يوم الاثنين الثامن عشر من ذي الحجة، سنة تسعين وثلثمائة بالنهروان، رحمه الله تعالى.

وطرارا: بفتح الطاء المهملة والراء بعد الأف راء ثانية مفتوحة ثم ألف مقصورة وبعضهم يكتبه بالهاء بدلاً من الألف، فيقول: طرارة، والله أعلم.

والجريري: بفتح الجيم وكسر الراء وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها راء هذه النسبة إلى الامام محمد بن جرير الطبري – المقدم ذكره – وإنما نسب إليه لأنه كان على مذهبه مقلداً له، وقد تقدم في ترجمته أنه كان مجتهداً صاحب مذهب مستقل، وكان له أتباع، وأخذ بمذهبه جماعة منهم أبو الفرج المذكور.

وقد سبق الكلام على النهرواني فأغنى عن الإعادة، والله تعالى أعلم.

المعز العبيدي

أبو تميم معد، الملقب المعز لدين الله، بن المنصور بن القائم بن المهدي عبيد الله. وقد تقدم ذكر والده وجده وجد أبيه وطرف من أخبارهم؛ وكان المعز المذكور قد بويع بولاية العهد في حياة أبيه المنصور إسماعيل ثم جددت له البيعة بعد وفاته في التاريخ المذكور في ترجمته، ودبر الأمور وساسها وأجراها على أحسن أحكامها إلى يوم الأحد سابع ذي الحجة سنة إحدى وأربعين وثلثمائة، فجلس يومئذ عل سرير ملكه، دخل عليه الخاصة وكثير من العامة، سلموا عليه بالخلافة، وتمسى بالمعز، و لم يظهر على أبيه حزناً.

ثم خرج إلى بلاد إفريقية يطوف فيها، ليمهد قواعدها ويقرر أسبابها، فانقاد له العصاة من أهل تلك البلاد ودخلوا في طاعته، وعقد لغلمانه، وأتباعه على الأعمال، واستندب لكل ناحية من يعلم كفايته وشهامته، وضم إلى كل واحد منهم جمعاً كبيراً من الجند وأرباب السلاح.

ثم جهز أبا الحسن جوهراً القائد – المذكور في حرف الجيم –ومه جيش كثيف، ليفتح ما استعصى عليه من بلاد المغرب، فسار إلى فاس، ثم منها إلى سجلماسة ففتحها، ثم توجه إلى البحر المحيط وصاد من سمكه وجعله في قلال الماء، وأرسله إلى المعز، ثم رجع إلى المعز ومعه صاحب سجلمانة وساحب فاس أسيرين في قفصي حديد، والشرح في ذلك يطول. وخلاصة الأمر: أنه ما رجع القائد جوهر إلى ملولاه المعز إلا وقد وطد له البلاد، وحكم على أهل الزيغ والعناد من باب إفريقية إلى البحر المحيط في جهة الغرب، وفي جهة الشرق من باب إفريقية إلى أعمال مصر، و لم يبق بلد من هذه البلاد إلا أقيمت فيه دعوته وخطب به في جعمته وجماعته، إلا مدينة سبتة فإلها بقيت لبني أمية أصحاب الندلس.

ولما وصل الخبر إلى المعز المذكور بموت كافور الإخشيدي صاحب مصر – حسبما شرحناه في ترجمته من هذا الكتاب – تقدم المعز إلى القائد جوهر المذكور ليتجهز للخروج إلى مصر، فخرج أولاً إلى جهة المغرب لإصلاح أموره، وكان معه جيش عظيم، وجمع قبائل العرب الذي يتوجه بهم إلى مصر، جبى القطائع التي كانت على البربر فكانت خمسمائة ألف دينار.

وخرج المعز بنفسه في الشتاء إلى المهدية، فأخرج من قصور آبائه خمسمائة حمل دنانير وعاد إلى قصره. ولما عاد جوهر بالرجال والأموال، وكان قدومه على المعز يوم الأحد لثلاث بقين من المحرم سنة ثمان وخمسين وثلثمائة، أمره المعز بالخروج إلى مصر، فخرج ومعه أنواع القبائل – وقد ذكرت في ترجمة جوهر تاريخ خروجه وتاريخ وصوله إلى مصر فأغنى عن الإعادة "مفصلاً ها هنا" –وأنفق المعز في العسكرالمسير صحبته أموالاً كثيرة، حتى أعطى من ألف دينار إلى عشرين ديناراً، وغمر الناس بالعطاء، وتصرفوا في القيروان وصبرة في شراء جميع حوائجهم؛ ورحلوا ومعه ألف حمل من الماء والسلاح، ومن الخيل والعدد ما لا يوصف، وكان بمصر في تلك السنة غلاء عظيم ووباء، حتى مات في مصر وأعمالها في تلك المدة ستمائة ألف إنسان على ما قيل. والما كان منتصف شهر رمضان المعظم سنة ثمان وخمسين وثلثمائة، وصلت البشارة إلى المعز بفتح الديار المصرية ودخول عساكره إليها، ثم وصلته النجب بعد ذلك تخبره بصورة الفتح، وكانت كتب جوهر ترد إلى المعز باستدعائه إلى مصر وتحثه كل وقت على ذلك، ثم سير إليه يخبره بانتظام الحال بمصر والشام والحجاز وإقامة الدعوة له بهذه المواضع، فسر المعز بذلك سروراً عظيماً. ولما تقررت قواعده بالديار المصرية استخلف على إفريقية بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي – المذكور في حرف الباء –وخرج المعز متوجهاً بأموال جليلة المقدار ورجال عظيمة الأخطار. وكان

خروجه من المنصورية دار ملكه يوم ذاك يوم الاثنين، لثمان بقين من شوال سنة إحدى وستين وثلثمائة، وانتقل إلى سردانية، أقام بها ليجتمع رجاله وأتباعه ومن يستصحبه معه. وفي هذه المترلة عقد العهد لبلكين في التاريخ المذكور في ترجمته، ورحل عنها يوم الخميس خامس صفر سنة اثنتين وستين وثلثمائة. و لم يزل في طريقه يقيم بعض الأوقات في بعض البلاد أياماً ويجد السير في بعضها، وكان اجتيازه على برقة، ودخل الاسكندرية يوم السبت لست بقين من شعبان من السنة المذكورة وركب فيها ودخل الحمام، وقدم عليه بها قاضي مصر – وهو أبو طاهر محمد ابن أحمد – وأعيان أهل البلاد، وسلموا عليه، وجلس لهم عند المنارة وخاطبهم بخطاب طويل يخبرهم فيه أنه لم يرد دخول مصر لزيادة في ملكه ولا لمال، وإنما أراد إقامة الحق والحج والجهاد، وأن يختم عمره بالأعمال الصالحة، ويعمل بما أمر به جده صلى الله عليه وسلم، ووعظهم وأطال حتى بكى بعض الحاضرين، وخلع على القاضي وبعض الجماعة وحملهم، وودعوه وانصرفوا ثم رحل منها في أواخر شعبان. ونزل يوم السبت ثاني شهر رمضان المعظم على ميناء ساحل مصر بالجيزة، فخرج إليه القائد جوهر وترجل عند لقائه وقبل الأرض بين يديه، وبالجيزة أيضاً اجتمع به الوزير أبو الفضل جعفر بن الفرات – المذكور في حرف الجيم – وأقام المعز هناك ثلاثة أيام، وأخذ العسكر في التعدية بأثقالهم إلى ساحل مصر. ولما كان يوم الثلاثاء لخمس خلون من شهر رمضان المعظيم من السنة، عبر المعز النيل ودخل القاهرة، و لم يدخل مصر، وكانت قد زينت له، وظنوا أنه يدخلها، وأهل القاهرة لم يستعدوا للقائه لأنهم بنوا الأمر على دخوله أولاً، ولما دخل القاهرة ودخل القصر ودخل مجلساً منه خر ساجداً لله تعالى، ثم صلى ركعتين وانصرف الناس عنه.

وهذا المعز هو الذي تنسب إليه القاهرة، فيقال القاهرة المعزية، لأنه الذي بناها القائد جوهر له. وفي يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة بقيت من المحرم سنة أربع وستين عزل المعز القائد جوهراً عن دواوين مصر وجباية أموالها والنظر في سائر أمورها. وقد ذكرنا في ترجمة الشريف عبد الله بن طباطبا ما دار بينه وبين المعز من السؤال عن نسبه وما أجابه به وما اعتمده بعد الدخول إلى القصر.

وكان المعز عاقلاً حازماً سرياً أديباً حسن النظر في النجامة، وينسب إليه من الشعر قوله:

لله ما صنعت بنا ... تلك المحاجز في المعاجز

أمضى وأقضى في النفو ... س من الخناجر في الحناجر

ولقد تعبت بينكم ... تعب المهاجر في الهواجر

وينسب إليه أيضاً:

أطلع الحسن من جبينك شمياً ... فوق ورد وجنتك أطلا

وكأن الجمال خاف على الور ... د جفافاً فمد بالشعر ظلا

وهو معنى غريب بديع. وقد مضى ذكر ولده تميم وشيء من شعره، وسيأتي ذكر ولده العزيز نزار في حرف النون إن شاء الله تعالى.

وكانت ولادته بالمهدية يوم الاثنين حادي عشر شهر رمضان سنة تسع عشرة وثلثمائة. وتوفي يوم الجمعة الحادي عشر من شهر ربيع الآخر، وقيل الثالث عشر، وقيل لسبع خلون منه سنة خمس وستين وثلثمائة بالقاهرة، رحمه الله تعالى.

ومعد: بفتح الميم والعين المهملة وتشديد الدال المهملة، والله تعالى أعلم.

المستنصر العبيدي

أبو تميم معد الملقب المستنصر بالله بن الظاهر لإعزاز دين الله بن الحاكم بن العزيز بن المعز لدين الله المذكور قبله، وقد تقدم بقية النسب؛ بويع بالمر بعد موت والده الظاهر، وذلك يوم الأحد النصف من شعبان سنة سبع وشعرين وأربعمائة، وجرى على أيامه ما لم يجر على أيام أحد من أهل بيته ممن تقدمه ولا تأخره: منها قضية أبي الحارث أرسلان البساسيري – المقدم ذكره في حرف الهمزة – فإنه لما عظم أمره، وكبر شأنه ببغداد قطع خطبة الإمام القائم، وخطب للمسنصر المذكور، وذلك في سنة خمسين وأربعمائة، ودعا له منابرها مدة سنة. ومنها أنه ثار في أيامه علي بن محمد الصليحي –

المقدم ذكره – وملك بلاد اليمن كما شرحنا، ودعا للمسنصر على منابرها بعد الخطبة، وهو شمهور فلا حاجة إلى الإطالة في شرحه. ومنا أنه أقام في الأمر ستين سنة، وهذا أمر لم يبلغه أحد من أهل بيته ولا من بني العباس. ومنها أنه ولي الأمر وهو ابن سبع سنين. ومنها أن دعوتهم لم تزل قائمة بالمغرب منذ قام جدهم المهدي – المقدم ذكره – إلى أيام المعز المذكور قبله، ولما توجه المعز إلى مصر واستخلف بلكين بن زيري حسبما شرحناه، كانت الخطبة في تلك النواحي جارية على عادتها لهذا البيت، إلى أن قطعها المعز بن باديس – الآتي ذكره إن شاء الله تعالى – في أيام المتسنصر المذكور، وذلك في سنة ثلاث واربعين وأربعمائة، وقال في "تاريخ القيروان": إن ذلك كان في سنة خمس وثلاثين، والله تعالى أعلم بالصواب.

وفي سنة تسع قطع اسمه واسم آبائه من الحرمين الشريفين، وذكر اسم المقتدي خليفة بغداد، والشرح في ذلك يطول. ومنها أنه حدث في أيامه الغلاء العظيم الذي ما عهد مثله منذ زمان يوسف عليه السلام، وأقام سبع سنين، وأكل الناس بعضهم بعضاً، حتى قيل أنه بيع رغيف واحد بخمسين ديناراً، وكان المتسنصر في هذه الشدة يركب وحده، وكل من معه من الخواص مترجلون ليس لهم دواب يركبونها، وكانوا إذا مشوا تساقطوا في الطرقات من الجوع، وكان المسنصر يستعير من ابن هبة صاحب ديوان الإنشاء بغلته ليركبها صاحب مظلته، وآخر الأمر توجهت أم المستنصر وبناته إلى بغداد من فرط الجوع، وذلك في سنة اثنتين وستين وأربعمائة، وتفرق أهل مصر في البلاد وتشتتوا، ولم يزل هذا الأمر على شدته حتى تحرك بدر الجمالي والد الفضل أمير الجيوش من عكا وركب البحر – حسبما شرحناه في ترجمة ولده الأفضل شاهنشاه – وجاء إلى مصر وتولى تدبير الأمور فانصلحت، وشرح ذلك يطول.

وكانت ولادة المستنصر صبيحة يوم الثلاثاء لثلاث عرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة سنة عشرين وأربعمائة، وتوفي ليلة الخميس لاثنتي عشرة ليلة بقين من ذي الحجة سنة سبع وثمانين وأربعمائة، رحمه الله تعالى.

قلت: وهذه الليلة هي ليلة عيد الغدير، أعني ليلة الثامن عشر من ذي الحجة وهو غدير خم – بضم الخاء وتشديد الميم – ورأيت جماعة كثيرة يسألون عن هذه الليلة حتى كانت من ذي الحجة؟ وهذا المكان بين مكة والمدينة، وفيه غدير ماء، ويقال إنه غيضة هناك، ولما رجع النبي صلى الله عليه وسلم من مكة، شرفها الله تعالى، عام حجة الوداع، وصل إلى هذا المكان وآخى بين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: "علي مني كهارون من مسوى، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه، وانصر من نصره واخذل من خذله"، وللشيعة به تعلق كبير.

وقال الحازمي: هو وادٍ بين مكة والمدينة عند الجحفة به غدير عنده خطب النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا الوادي موصوف بكثرة الوخامة وشدة الحر. وقد تقدم ذكر جماعة من أهل بيته وسيأتي ذكر الباقين كل واح في موضعه إن شاء الله تعالى، والله أعلم بالصواب.

معروف الكرخي

أبو محمفوظ معروف بن فيروز، وقيل الفيروزان، وقيل علي، الكرخي الصالح المشهور، وهو من موالي علي بن موسى الرضا – وقد تقدم ذكره.

وكان أبواه نصرانيين، فأسلماه إلى مؤدبهم وهو صبي، فكان المؤدب يقول له: قل ثالث ثلاثة، فيقول معروف: بل هو الواحد، فضربه المعلم على ذلك ضرباً مبرحاً فهرب منه. وكان أبواه يقولان: ليته يرجع إلينا على أي دين شاء فنوافقه عليه، ثم إنه أسلم على يد علي بن موسى الرضا، ورجع إلى أبويه فدق الباب، فقيل له: من بالباب؟ فقال: معروف، فقيل له: على أي دين؟ فقال: على الاسلام، فأسلم أبواه. وكان مشهوراً بإجابة الدعوة، وأهل بغدا يستسقون بقبره ويقولون: قبر معروف ترياق مجرب. وكان سري السقطي المقدم ذكره تلميذه، وقال له يوماً: إذا كانت لك حاجة إلى الله تعالى فأقسم عليه بي. وقال سري السقطي: رأيت معروفاً الكرخي في النوم كأنه تحت العرش، والباري جلت قدرته يقول لملائكته: من هذا؟ وهو يقولون: أنت أعلم يا ربنا منا، فقال: هذا معروف الكرخي سكر من حبي فلا يفيق ألا بلقائي.

وقال معروف: قال لي بعض أصحاب داود الطائي: إياك أن تترك العمل، فإن ذلك الذي يقربك إلى رضا مولاك، فقلت: وما ذلك العمل؟ قال: دوام الطاعة لمولاك، وحرمة المسلمين، والنصيحة لهم. وقال محمد بن الحسين، سمعت أبي يقول: رأيت معروفاً الكرخي في النوم بعد موته فقلت له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي، فقلت: بزهدك وورعك؟ فقال: لا بل بقبول موعظة ابن السماك ولزومي الفقر ومحبتي للفقراء. وكانت موعظة ابن السماك ما رواه معروف قال: كنت ماراً بالكوفة فوقفت على رجل يقال له ابن السماك وهو يعظ الناس، فقال في خلال كلامه: من أعرض عن الله بكليته

أعرض عنه الله جملة، ومن أقبل على الله تعالى بقلبه أقبل الله تعالى برحمته عليه، وأقبل بوجوه الخلق إليه، ومن كان مرة ومرة فالله تعالى يرحمه وقتاً ما، فوقع كلامه في قلبي وأقبلت على الله تعالى وتركت جميع ما كنت عليه إلا خدمة مولاي علي بن موسى الرضا، وذكرت هذا الكلام لمولاي فقال: يكفيك هذا موعظة إن اتعظت.

وقد تقدم ذكر ابن السماك في المحمدين.

وقيل لمعروف في مرض موته: أوص، فقال: إذا مت فتصدقوا بقميصي فإني أريد أن أخرج من الدينا عرياناً كما دخلتها عرياناً؛ ومر معروف بسقاء وهو يقول: رحم الله من يشرب، فتقدم وشرب، وكان صائماً، فقيل له: ألم تك صائماً؟ قال: بلى، ولكن رجوت دعاءه.

وأخبار معروف ومحاسنه أكثر من أن تعد؛ وتوفي سنة مائتين، وقيل إحدى ومائتين، وقيل أربع ومائتين ببغداد، وقبره مشهور بها يزار، رحمه الله تعالى.

والكرخي: بفتح الكاف وسكون الرء وبعدها خاء معجمة، هذه النسبة إلى الكرخ، وهو اسم تسع مواضع ذكرها ياقوت الحموي في كتابه، وأشهرها كرخ بغداد، والصحيح أن معروفاً الكرخي منه، وقيل إنه من كرخ جدان - بضم الجيم وتشديد الدال المهملة وبعد الألف نون - وهي بليدة بالعراق تفصل بين ولاية خانقين وشهرزور، والله تعالى أعلم بالصواب.

المعز باديس الصنهاجي

المعز بن باديس بن المنصور بن بلكين بن زيري بن مناد الحميري الصنهاجي، صاحب إفريقية وما والاها من بلاد المغرب، وقد سبق تمام نسبه عند ذكر ولده الأمير تميم، وكان الحاكم صاحب مصر قد لقبه شرف الدولة، وسير له تشريفاً وسجلاً يتضمن اللقب المذكور، وذلك في ذي الحجة سنة سبع وأربعمائة.

وكان ملكاً جليلاً عالي الهمة، محباً لأهل العلم كثير العطاء، وكان واسطة عقد بيته - وقد تقدم ذكر أبيه وجده وجد أبيه - ومدحه الشعراء وانتجعه الأدباء، وكانت حضرته نحط بني الآمال. وكان مذهب أبي حنيفة رضي الله عنه بإفريقية أظهر المذاهب، فحمل المعز المذكور جميع أهل المغرب على التمسك بمذهب الإمام مالك بن أنس، رضي الله عنه، وحسم مادة الخلاف في الذاهب واستمر الحال في ذلك إلى الآن.

وقد تقدم في خبر المستنصر بالله العبيدي أن المعز المذكور قطع خطبته وخلع طاعته، فلما فعل ذلك خطب للإمام القائم بأمر الله خليفة بغداد، فكتب إليه المستنصر يتهدده ويقول له: هلا اقتفيت آثار آبائك في الطاعة والولاء، في كلام طويل، فأجابه المعز: إن آبائي وأجدادي كانوا ملوك الغرب قبل أن تملكه أسلافك، ولهم عليهم من الخدم أعظم من التقديم، ولو أخروهم لتقدموا بأسيافهم؛ واستمر على قطع الخطبة، ولم يخطب بعد ذلك بإفريقية لأحد من المصرينن إلى اليوم.

وأخبار المعز كثيرة وسيرته مشهورة، فلا حاجة إلى الإطالة، وله شعر قليل لم أقف منه على شيء.

وكان المعز يوماً جالساً في مجلسه وعنده جماعة من الادباء، وبين يديه أترجة ذات أصابع، فأمرهم المعز أن يعملوا فيها شيئاً، فعمل أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني الشاعر المقدم ذكره:

أترجة سبطة الأطراف ناعمة ... تلقى العيون بحسن غير منحوس
كأنما بسطت كفا لخالقها ... تدعو بطول بقاء لابن باديس

فاستحسن ذلك منه وفضله على من حضر من الجماعة الأدباء.

وكانت ولادته بالمنصورية، ويقال لها صبرة، من أعمال إفريقية، يوم الخميس لخمس مضين من جمادى الأولى سنة ثمان وتسعين وثلثمائة، وملك بعد أبيه باديس في التاريخ المذكور في ترجمته، وبويع بالمحمدية من أعمال إفريقية أيضاً يوم السبت لثلاث مضين من ذي الحجة سنة ست وأربعمائة. وتوفي رابع شعبان سنة أربع وخمسين وأربعمائة بالقيروان، من أصابه وهو ضعيف الكبد، ولم تطل مدة أحد من أهل بيته في الولاية كمدته، ورثاه أبو علي الحسن بن رشيق - المقدم ذكره - بأبيات على روي الكاف،أضربت عن ذكرها خوف الإطالة.

وهذا المعز لا يعرف له اسم سوى المعز، مع أني كشفت عنه كشفاً تاماً من الكتب وأفواه العلماء وأهل المغرب، فلم يذكر أحد سوى المعز، ولاتعرف كنيته أيضاً، والظاهر أن هذا اسمه، فإن أهل بيته لم يكن فيهم من تلقب حتى يقال هذا لقب، فأ على قدر ما وجدته، والله تعالى أعلم بالصواب.

أبو عبيدة معمر بن المثنى

أبو عبيدة معمر بن المثنى، التيمي بالولاء، تيم قريش، البصري النحوي العلامة؛ قال الجاحظ في حقه: لم يكن في الأرض خارجي ولا جماعي أعلم بجميع العلوم منه. وقال ابن قتيبة في كتاب المعارف: كان الغريب أغلب عليه وأخبار العرب وأيامها، وكان مع معرفته ربما لم يقم البيت إذا أنشده حتى يكسره، وكان يخطئ إذا قرأ القرآن الكريم نظراً، وكان يبغض العرب، وألف في مثالبها كتباً، وكان يرى رأي الخوارج.

وقال غيره: إن هارون الرشيد أقدمه من البصرة إلى بغداد سنة ثمان وثمانين ومائة، وقرأ عليه بها أشياء من كتبه، وأسند الحديث إلى هشام بن عروة وغيره، وروى عنه علي بن المغيرة الأثرم وأبو عبد القاسم بن سلام – المقدم ذكره – وأبو عثمان المازني وأبو حاتم السجستاني وعمر بن شبة النميري، وغيرهم، وقد تقدم ذكر هؤلاء جميعهم.

وقال أبو عبيدة: أرسل إلي الفضل بن الربيع إلى البصرة في الخروج إليه، فقدمت عليه، وكنت أخبر عن تجبره، فأذن لي، فدخلت عليه وهو في مجلس طويل عريض فيه بساط واحد قد ملأه، وفي صدره فرش عاليةلايرتقى عليها إلابكرسي وهو جالس على الفرش،فسلمت عليه بالوزارة، فرد وضحك إلي واستد ناني حتى جلست معه على فرشه، ثم سألني وبسطني وتلطف بي وقال: أنشدني، فأنشدته من عيون أشعار أحفظها جاهلية، فقال لي: قد عرفت أكثر هذه وأريد من ملح الشعر، فأنشدته، فطرب وضحك وزاد نشاطاً، ثم دخل رجل في زي الكتاب وله هيئة حسنة، فأجلسه إلى جانبي، وقال له: أتعرف هذا؟ قال: لا، فقال: هذاأبو عبيدة علامة أهل البصرة أقدمناه لنستفيد من علمه، فدعا الرجل وقرظه لفعله هذا، ثم التفت إلي وقال لي: كنت إليك مشتاقاً، وقد سئلت عن مسألة، أفتأذن لي أن أعرفك إياها؟ قلت: هات، فقال: قال الله تعالى "طلعها كأنه رءوس الشياطين" الصافات: – 65 –، وإنما يقع الوعد والايعاد بما قد عرف مثله، وهذا لم يعرف، قال: فقلت: إنما كلم الله العرب على قدر كلامهم، أما سمعت قول امرئ القيس:

أيقتلني والمشرفي مضاجعي ومسنونة رزق كأنياب أغوال

وهم لم يروا الغول قط، ولكنه لما كان أمر الغول يهولهم أوعدوا به، فاستحسن الفضل ذلك واستحسنه السائل، وأزمعت منذ ذلك اليوم أن أضع كتاباً في القرآن لمثل هذا وأشباهه، ولما يحتاج إليه من علمه، ولما رجعت إلى البصرة عملت كتابي الذي سميته المجاز وسألت عن الرجل فقيل لي: هو من كتاب الوزير وجلسائه.

وقال أبو عثمان المازني، سمعت أبا عبيدة يقول: أدخلت على هارون الرشيد فقال لي: يا معمر، بلغني أن عندك كتاباً حسناً في صفة الخيل أحب أن أسمعه منك، فقال الأصمعي: وما تصنع بالكتب؟ يحضر فرس ونضع أيدينا على عضو عضو منه ونسميه ونذكر ما فيه، فقال الرشيد: يا غلام، فرس، فأحضر فرس فقام الاصمعي فجعل يضع يده على عضو عضو منه ويقول: هذا كذا، قال فيه الشاعر كذا، حتى انقضى قوله، فقال لي الرشيد: ما تقول فيما قال؟ فقلت: أصاب في بعض وأخطأ في بعض، والذي أصاب فيه مني تعلمه، والذي أخطأ فيه ما أدري من أين أتى به.

وبلغ أبا عبيدة أن الأصمعي يعيب عليه كتاب المجاز، فقال: يتكلم في كتاب الله تعالى برأيه؛ فسأل عن مجلس الأصمعي في أي يوم هو، فركب حماره في ذلك اليوم ومر بحلقته، فنزل عن حماره وسلم عليه، وجلس عنده وحادثه ثم قال له: أبا سعيد، ما تقول في الخبز، أي شيء هو؟ فقال: هو الذي تخبزه وتأكله، فقال أبو عبيدة: فقد فسرت كتاب الله تعالى برأيك، فإن الله تعالى قال: وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً يوسف:– 26– ،فقال الأصمعي: هذا شيء بان لي فقلته و لم أفسره برأيي، فقال أبو عبيدة: والذي تعيب علينا كله شيء بان لنا فقلناه و لم نفسره برأينا، وقام فركب حماره وانصرف.

وزعم الباهلي صاحب كتاب المعاني أن طلبة العلم كانوا إذا أتو مجلس الأصمعي اشتروا البعر في سوق الدر، وإذا أتوا مجلس أبي عبيدة اشتروا الدر في

سوق البعر، لأن الأصمعي كان حسن الانشاد والزخرفة لردئ الأخبار والأشعار حتى يحسن عنده القبح، وإن الفائدة عنده مع ذلك قليلة، وإن أبا عبيدة كان معه سوء عبارة مع فوائد كثيرة وعلوم جمة، و لم يكن أبو عبيدة يفسر الشعر.

وقال المبرد: كان أبو زيد الانصاري أعلم من الأصمعي وأبي عبيدة بالنحو، وكانا بعده يتقاربان، وكان أبو عبيدة أكمل القوم، وكان علي بن المديني يحسن ذكر أبي عبيدة ويصحح روايته، وقال: كان لا يحكي عن العرب إلا الشيء الصحيح. وحمل أو عبيدة والأصمعي إلى هارون الرشيد للمجالسة، فاختار الأصمعي لأنه كان أصلح للمنادمة.

وكان أبو نواس يتعلم من أبي عبيدة ويصفه ويشنأ الأصمعي ويهجره، فقيل له: ما تقول في الأصمعي؟ فقال:بلبل في قفص، قيل له: فما تقول في خلف الأحمر؟ فقال: جمع علوم الناس وفهمها، قيل: فما تقول في أبي عبيدة؟ فقال: ذاك أديم طوي على علم.

وقال إسحاق بن إبراهيم النديم الموصلي يخاطب الفضل بن الربيع، يمدح أبا عبيدة ويذم الأصمعي:

عليك أبي عبيدة فاصطنعه ... فإن العلم عند أبي عبيده

وقدمه وآثر علي ... ودع عنه القريد بن القريده

وكان أبو عبيدة إذا أنشد بيتاً لا يقيم وزنه، وإذا تحدث أو قرأ لحن عتماداً منه لذلك، ويقول: النحو محدود.

و لم يزل يصنف حتى مات؛ وتصانيفه تقارب مائتي تصنيف: فمنها كتاب "مجاز القرآن الكريم" وكتاب غريب القرآن وكتاب معاني القرآن وكتاب غريب الحديث وكتاب الديباج وكتاب التاج وكتاب الحدود وكتاب خراسان وكتاب خوارج البحرين واليمامة وكتاب الموالي وكتاب البله وكتاب الضيفان وكتاب مرج راهط وكتاب المنافرات وكتاب القبائل وكتاب خبر البراض وكتاب القرائن وكتاب الببازي وكتاب الحمام وكتاب الحيات وكتاب العقارب وكتاب النواكح وكتاب النواشز وكتاب حضر الخيل وكتاب الأعيان وكتاب بيان باهلة وكتاب أيادي الأزد وكتاب الخيل وكتاب الإبل وكتاب الإنسان وكتاب الزرع وكتاب الرحل وكتاب الدلو وكتاب البكرة وكتاب السرج وكتاب اللجام وكتاب الفرس وكتاب السيف وكتاب الشوارد وكتاب الاحتلام وكتاب مقاتل الفرسان وكتاب مقاتل الأشراف وكتاب الشعر والشعراء وكتاب فعل وأفعل وكتاب المثالب وكتاب خلق الإنسان وكتاب الفرق وكتاب الخف وكتاب مكة والحرم وكتاب الجمل وصفين وكتاب بيوتات العرب وكتاب اللغات وكتاب الغازات وكتاب المعاتبات وكتاب الملاومات وكتاب الأضداد وكتاب مآثر العرب وكتاب مآثر غطفان وكتاب أدعية العرب وكتاب مقتل عثمان رضي الله عنه وكتاب أسماء الخيل وكتاب العققة وكتاب قضاة البصرة وكتاب فتوح الأهواز وكتاب فتوح أرمينية وكتاب لصوص العرب وكتاب أخبار الحجاج وكتاب قصة الكعبة وكتاب الحمس من قريش وكتاب فضائل الفرس وكتاب ما تلحن فيه العامة وكتاب السواد وفتحه وكتاب من شكر العمال وحمد وكتاب الجمع والتثنية" وكتاب المجلة الأولى والثانية، وكتاب البيضة وكتاب الأوس والخزرج وكتاب محمد وإبراهيم ابني عبد الله ابن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين وكتاب الأيام الصغير، خمسة وسبعون يوماً، وكتاب الأيام الكبير، ألف ومائتا يوم، وكتاب أيام بني مازن وأخبارهم وغير ذلك من الكتب النافعة، ولولا خوف الإطالة لذكرت جميعها. ولما جمع كتاب المثالب، قال له رجل مطعون النسب: بلغني أنك عبت العرب جميعها، فقال: وما يضرك؟ أنت من ذلك برئ، يعني أنه ليس منهم.

وقال أبو عبيدة: لما قدمت على الفضل بن الربيع قال لي: من أشعر الناس؟ فقلت: الراعي، قال: وكيف فضلته على غيره؟ فقلت: لأنه ورد على سعيد ابن عبد الرحمن الأموي فوصله في يومه الذي لقيه فيه وصرفه، فقال يصف حاله معه:

وأنضاء تحن إلى سعيد ... طروقاً ثم عجلن ابتكارا

حمدن مناخه وأصبن منه ... عطاء لم يكن عدة ضمارا

فقال الفضل: ما أحسن ما اقتضيتنا يا أبا عبيدة، ثم غدا إلى هارون الرشيد فأخرج لي صلة، وأمر لي بشيء من ماله وصرفني.

وكان أبو عبيدة من موالي بني عبيد الله بن معمر التيمي، وقال له بعض الأجلاء: تقع في الناس فمن أبوك؟ فقال: أخبرني أبي عن أبيه أنه كان يهودياً

من أهل باجروان، فمضى الرجل وتركه.

وكان أبو عبيدة جباهاً، لم يكن بالبصرة أحد إلا وهو يداجيه ويتقيه على عرضه؛ وخرج إلى بلاد فارس قاصداً موسى بن عبد الرحمن الهلالي، فلما قدم عليه قال لغلمانه: احترزوا من أبي عبيدة، فإن كلامه كله دق، ثم حضر الطعام فصب بعض الغلمان على ذيله مرقة، فقال له موسى: قد أصاب ثوبك مرق، وأنا أعطيك عوضه عشر ثياب، فقال أبو عبيدة: لا عليك، فإن مرقكم لا يؤذي، أي ما فيه دهن، ففطن لها موسى وسكت.

وكان الأصمعي إذا أراد دخول المسجد قال: انظروا لا يكون فيه ذاك، يعني أبا عبيدة، خوفاً من لسانه، فلما مات لم يحضر جنازته أحد، لأنه لم يكن يسلم من لسانه شريف ولا غيره.

وكلن وسخاً ألثغ مدخول النسب مدخول الدين يميل إلى مذهب الخوارج، قال أبو حاتم السجستاني: كان أبو عبيدة يكرمني على أنني من خوارج سجستان. وقال الثوري: دخلت المسجد على أبي عبيدة، وهو ينكت الأرض جالساً وحده فقال لي: من القائل:

أقول لها وقد جشأت وجاشت　　　مكانك تحمدي أو تستريحي

فقلت له: قطري بن الفجاءة، فقال: فض الله فاك! هلا قلت: هو لأمير المؤمنين أبي نعامة، ثم قال لي: اجلس، واكتم على ما سمعت مني، قال: فما ذكرته حتى مات.

قلت أنا: وهذه الحكاية فيها نظر، لأن البيت من جملة أبيات لعمرو ابن الإطنابة الخزرجي الأنصاري، والإطنابة أمه، وسام أبيه زيد مناة، لا يكاد يخالف فيه أحد من أهل الأدب، فإنها أبيات مشهورة للشاعر المذكور.

وذكر المبرد في كتاب الكامل أن معاوية بن أبي سفيان الأموي قال: اجعلوا الشعر أكبر همكم وأكثر آدابكم، فإن فيه مآثر أسلافكم، ومواضع إرشادكم، فلقد رأيتني يوم الهرير وقد عزمت على الفرار فما ردني، إلا قول ابن الإطنابة الأنصاري:

أبت لي عفتي وأبى بلائي　　　وأخذي الحمد بالثمن الربيح

وإجشامي على المكروه نفسي　　　وضربي هامة البطل المشيح

وقولي كلما جشأت وجاشت　　　مكانك تحمدي أو تستريحي

لأدفع عن مآثر صالحات　　　وأحمي بعد عن عرض صريح

رجعنا إلى حديث أبي عبيدة: وكان لا يقبل شهادته أحد من الحكام أنه كان يتهم بالميل إلى الغلمان؛ قال الأصمعي: دخلت أنا وأبو عبيدة يوماً المسجد، فإذا على الاسطوانة التي يجلس إليها أبو عبيدة مكتوب على نحو من سبعة أذرع:

صلى الإله على لوط وشيعته　　　أبا عبيدة قل بالله أمينا

فقال لي: يا أصمعي، امح هذا، فركبت على ظهره ومحوته بعد أن أثقلته إلى أن قال: أثقلتني وقطعت ظهري، فقلت له: قد بقيت الطاء، فقال: هي شر حروف هذا البيت؛ وقيل إنه لما ركب ظهره وأثقله قال له: عجل، فقال: قد بقي لوط، فقال: من هذا نفر. وكان الذي كتب البيت أبو نواس الحسن بن هانئ المقدم ذكره.

وقيل إنه وجدت رقاع في مجلس أبي عبيدة هذا البيت فيها، وبعده:

فأنت عندي بلا شك بقيتهم　　　منذ احتملت وقد جاوزت سبعينا

وقال الزمخشري في كتاب ربيع الأبرار في باب الأسماء والكنى والألقاب: سأل رجل أباعبيدة عن اسم رجل، فما عرفه، فقال كيسان: أنا أعرف الناس به، هو: خداش، أو خراش أو رياش أو شيء آخر، فقال أبو عبيدة: ما أحسن ما عرفته! فقال: إي والله، وهو قرشي أيضاً، قال: فما يدريك؟ قال: أما ترى كيف احتوشته الشينات من كل جانب؟ وأخبار أبي عبيدة كثيرة؛ وكانت ولادته في رجب سنة عشر ومائة، في الليلة التي توفي فيها الحسن

البصري، رضي الله عنه، وقد تقدم ذكره، وقيل في سنة إحدى عشرة ومائة، وقيل أربع عشرة، وقيل ثمان، وقيل تسع، والأول أصح؛ والذي يدل عليه أن الأمير جعفربن سليمان بن علي بن عبد الله ابن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه سأله عن مولده فقال: قد سبقني إلى الجواب عن مثل هذا عمر بن أبي ربيعة المخزومي وقد قيل له: متى ولدت؟ فقال: في الليلة التي مات فيها عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأي خير رفع وأي شر وضع؟ وإني ولدت في الليلة التي مات فيها الحسن البصري وجوابي جواب عمر بن أبي ربعة. وقد تقدم في ترجمة ابن أبي ربيعة هذا الجواب منسوباً إلى الحسن البصري رضي الله عنه، فلينظر هناك؛ وتوفي سنة تسع ومائتين بالبصرة وقيل سنة إحدى عشرة، وقيل سنة عشر، وقيل ثلاث عشرة ومائتين رحمه الله تعالى. وكان سبب موته أن محمد بن القاسم بن سهل النوشجاني أطعمه موزاً فمات منه، ثم أتاه أبو العتاهية فقدم إليه موزاً، فقال له: ما هذا يا أبا جعفر؟ قتلت أبا عبيدة بالموز، وتريد أن تقتلني به؟ لقد استحليت قتل العلماء!.

وأبو عبيدة: بضم العين المهملة وإثبات الهاء في آخره، بخلاف القاسم بن سلام المقدم ذكره فإنه أبو عبيدة، بغير هاء.

ومعمر: بفتح الميمين بينهما عين مهملة وفي آخره الراء.

والمثنى: بضم الميم وفتح الثاء المثلثة وتشديد النون المفتوحة وفي آخره ياء مثناة من تحتها.

وباجروان التي والده منها: بفتح الباء الموحدة وبعد الألف جيم مفتوحة ثم راء ساكنة وبعدها واو مفتوحة وبعد الألف نون، وهو اسم لقرية من بلاد البليخ من أعمال الرقة، واسم المدينة بنواحي أرمينية من أعمال شروان عندها – فيما قيل – عين الحياة التي وجدها الخضر عليه السلام، وغالب ظني أن أبا عبيدة من هذه المدينة. وقيل إن باجروان اسم للقرية التي استطعم أهلها موسى والخضر عليهما السلام.

والنوشجاني: بضم النون وسكون الواو والشين المعجمة وفتح الجيم وبعد الألف نون، هذه النسبة إلى نوشجان، وهي بلدة من بلاد فارس، والله تعالى أعلم بالصواب.

معن بن زائدة

أبو الوليد معن بن زائدة بن عبد الله بن زائدة بن مطر بن شريك بن الصلب – بضم الصاد المهملة وسكون اللام وآخره الباء الموحدة – واسمه عمرو بن قيس بن شراحيل بن همام بن مرة بن ذهل بن شيبان، الشيباني، وبقيت النسب معروف؛ وقال البن الكلبي في كتاب "جمهرة النسب": هو معن بن زائدة بن مطر بن شريك بن عمرو بن قيس بن شراحيل بن مرة بن همام بن مرة بن ذهل بن شيبان بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل بن قاسط هنب بن أفضى بن دعمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان.

كان جواداً شجاعاً جزل العطاء كثير المعرف ممدحاً مقصوداً؛ حكى الأصمعي قال: وفد أعرابي على معن بن زائدة فمدحه وطال مقامه على بابه و لم يحصل له جائزة، فعزم على الرحيل، فخرج معن راكباً فقام إليه وأمسك بزمام دابته وقال:

وما في يديك الخير يا معن كله … وفي الناس معروف وعنك مذاهب

ستدري بنات العم ما قد أتيته … إذا فتشت عند الإياب الحقائب

فأمر معن بإحضار خمس نوق من كرام إبله وأوقرهم له ميرة وبراً. وثياباً وقال: انصرف يا ابن أخي في حفظ الله إلى بنات عمك، فلئن فتشن الحقائب ليجدن فيها ما يسرهن، فقال له: صدقت، وبيت الله. وقد سبق في ترجمة مروان بن أبي حفصة الشاعر طرف من أخباره، وكان مروان خصيصاً به وأكثر مدائحه فيه.

وكان معن في أيام بني أمية متنقلاً في الولايات، منقطعاً إلى يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري أمير العراقين، فلما انتقلت الدولة إلى بني العباس وجرى بين أبي جعفر المنصور وبين يزيد بن عمر المذكور من محاصرته بمدينة واسط ما هو مشهور – وسيأتي في ترجمة يزيد المذكور طرف من هذه الواقعة إن شاء الله تعالى – أبلى يؤمئذ معن مع يزيد بلاء حسناً، فلما قتل يزيد خاف معن بن المنصور فاستتر عنه مدة، وجرى له مدة استتاره غرائب.

فمن ذلك ما حكاه مروان بن أبي حفصة الشاعر المذكور قال: أخبرني معن بن زائدة، وهو يومئذ متولي بلاد اليمن، أن المنصور جد في طلبي وجعل لمن

يحملني إليه مالاً، قال: فاضطررت لشدة الطلب إلى أن تعرضت للشمس حتى لوحت وجهي، وخففت عارضي ولبست جبة صوف، وركبت جملاً وخرجت متوجهاً إلى البادية لأقيم بها، قال: فلما خرجت من باب حرب، وهو أحد أبواب بغداد، تبعني أسود متقلد بسيف، حتى إذا غبت عن الحرس قبض على خطام الجمل فأناخه، وقبض على يدي، فقلت له: ما بك؟ فقال: أنت طلبة أمير المؤمنين؟ فقلت: ومن أنا حتى أطلب؟ فقال: أنت معن ابن زائدة، فقلت له: يا هذه اتق الله عز وجل، وأين أنا من معن؟ فقال: دع هذا، فوالله إني لأعرف بك منك، فلما رأيت منه الجد قلت له: هذا جوهر قد حملته بأضعاف ما جعله المنصور لمن يجيئه بي، فخذه ولا تكن سبباً في سفك دمي، قال: هاته، فأخرجته إليه، فنظر فيه ساعة وقال: صدقت في قيمته، ولست قابله حتى أسألك عن شيء، فإن صدقتني أطلقتك، فقلت: قل، قال: إن الناس قد وصفوك بالجود، فأخبرني هل وهبت مالك كله قط؟ قلت: لا، قال: فنصفه؟ قلت: لا، قال فثلثه؟ قلت لا، حتى بلغ العشر، فاستحييت وقلت: أظن أني قد فعلت هذا، قال: ما ذاك بعظيم، وأنا والله راجل ورزقي من أبي جعفر المنصور كل شهر عشرون درهماً، وهذا الجوهر قيمته ألوف دنانير، وقد وهبته لك ووهبتك لنفسك ولجودك المأثور بين الناس، ولتعلم أن في هذه الدنيا من هو أجود منك، فلا تعجبك نفسك، ولتحقر بعد هذا كل جود فعلته ولا تتوقف عن مكرمة، ثم رمى العقد في حجري وترك خطام الجمل وولى منصرفاً، فقلت: يا هذا، قد والله فضحتني ولسفك دمي أهون علي مما فعلت، فخذ ما دفعته لك فإني غني عنه، فضحك وقال: أردت أن تكذ بني في مقالي هذا، والله لا أخذته ولا آخذ لمعروف ثمناً أبداً، ومضى لسبيله، فوالله لقد طلبته بعد أن أمنت، وبذلت لمن يجيء به ما شاء، فما عرفت له خبراً، وكأن الأرض ابتلعته.

و لم يزل معن مستتراً حتى كان يوم الهاشمية، وهو يوم مشهور ثار فيه جماعة من أهل خراسان على المنصور فوثبوا عليه، وجرت مقتلة بينهم وبين أصحاب المنصور بالهاشمية، وهي مدينة بناها السفاح بالقرب من الكوفة. ذكر غرس النعمة بن الصابي في كتاب "الهفوات" ما مثاله: لما فرغ السفاح من بناء مدينته بالأنبار، وذلك في ذي العقدة سنة أربع وثلاثين ومائة، وكان معن متوارياً بالقرب منهم، فخرج متنكراً معتماً ملثماً، وقد تقدم إلى القوم وقاتل قدام المنصور قتالاً أبان فيه عن نجدة وشهامة وفرقهم، فلما أفرج عن المنصور قال له: من أنت ويحك؟ فكشف لثامه فقال: أنا طلبتك يا أمير المؤمنين معن بن زائدة، فأمنه المنصور وأكرمه وكساه وزينه، وصار من خواصه، ثم دخل عليه بعد ذلك في بعض الأيام فلما نظر إليه قال: هيه يا معن، تعطي مروان بن أبي حفصة مائة ألف درهم على قوله:

معن بن زائدة الذي زيدت به — شرفاً على شرف بنو شيبان

فقال: كلا يا أمير المؤمنين، إنما أعطيته على قوله في هذه القصيدة:

ما زلت يوم الهاشمية معلناً — بالسيف دون خليفة الرحمن
فمنعت حوزته وكنت وقاءه — من وقع كل مهند وسنان

فقال: أحسنت يا معن.

وقال له يوماً: يا معن، ما أكثر وقوع الناس في قومك؟ فقال: يا أمير المؤمنين:

إن العرانين تلقاها محسدة — ولا ترى للئام الناس حساداً

ودخل عليه يوماً وقد أسن فقال له: كبرت يا معن، فقال: في طاعتك يا أمير المؤمنين، فقال: وإني لجلد، فقال: على أعدائك يا أمير المؤمنين، فقال: وفيك بقية، فقال، هي لك يا أمير المؤمنين.

وعرض هذا الكلام على عبد الرحمن بن زيد زاهد أهل البصرة، فقال: ويح هذا، ما ترك لربه شيئاً.

وأشهر قصائد مروان فيه وأحسنها القصيدة اللامية التي ذكرت بعضها في ترجمة مروان، وهي طويلة تزيد على خمسين بيتاً، ولولا خوف الإطالة لذكرتها، وله فيه من قصيدة:

قد آمن الله من خوف ومن عدم — من كان معن له جاراً من الزمن

معن بن زائدة الموفي بذمته | والمشتري المجد بالغالي من الثمن
يرى العطايا التي تبقى محامدها | غنماً إذا عدها المعطي من الغبن
بنى لشيان مجداً لا زوال له | حتى تزول ذرى الأركان من حضن

حضن: بفتح الحاء المهملة والضاد المعجمة وبعدها نون، اسم جبل عظيم بين نجد وتهامة، بينه وبين تهامة مرحلة، يقال في المثل: أنجد من رأى حضناً، وله ذكر كثير من الأشعار والأخبار.

ودخل على معن بعض الفصحاء يوماً فقال له: إني لو أردت أن أستشفع إليك ببعض من يثقل عليك لوجدت ذلك سهلاً، ولكني استشفعت إليك بقدرك، واستغنيت بفضلك، فإن رأيت أن تضعني من كرمك بحيث وضعت نفسي من رجائك فافعل، وإني لم أكرم نفسي عن مسألتك فأكرم وجهي عن ردك.

ولمعن أشعار جيدة وأكثرها في الشجاعة، وقد ذكره أبو عبد الله ابن المنجم في كتاب البارع وأورد له عدة مقاطيع، فمن ذلك قوله في خطاب ابن أخي عبد الجبار بن عبد الرحمن، وقد رآه يتبختر بين السماطين، وكان قبل ذلك لقي الخوارج ففر منهم:

هلا مشيت كذا غداة لقيتهم | وصبرت عند الموت يا خطاب
نجاك خوار العنان كأنه | تحت العجاج إذا استحث عقاب
وتركت صحبك والرماح تنوشهم | وكذاك من قعدت به الأحساب

وقال أبو عثمان المازني النحوي: حدثني صاحب شرطة معن قال: بينما أنا على رأس معن إذا هو براكب يوضع، فقال معن: ما أحسب الرجل يريد غيري، ثم قال لحاجبه: لا تحجبه، قال: فجاء حتى مثل بين يديه وأنشد:

أصلحك الله قل ما بيدي | فما أطيق العيال إذ كثروا
ألح دهر رمى بكلكله | فأرسلوني إليك وانتظروا

قال: فقال معن وأخذته الأريحية: لا جرم والله لأعجلن أوبتك، ثم قال: يا غلام، ناقتي الفلانية وألف دينار، فادفعها إليه، فادفعها إليه وهو لا يعرفه، هكذا روى هذا الخطيب في تاريخه.

وأخبار معن ومحاسنه كثيرة.

وكان قد ولي سجستان في أواخر أمره، وانتقل إليها، وله في آثار وماجرايات، وقصده الشعراء بها، فلما كانت سنة إحدى وخمسين، وقيل اثنتين وخمسين، وقيل ثمان وخمسين ومائة، كان في داره صناع يعملون له شغلاً، فاندس بينهم قوم من الخوارج، فقتلوه بسجستان وهو يحتجم، ثم تتبعهم ابن أخيه يزيد بن مزيد بن زائدة – الآتي ذكره إن شاء الله تعالى – فقتلهم بأسرهم، وكان قتله بمدينة بست. ولما قتل معن رثاه الشعرا بأحسن المراثي، فمن ذلك قول مروان بن أبي حفصة شاعره المذكور، وهي قصيدة من أفخر الشعر وأحسنه، وأولها:

مضى لسبيله معن، وأبقى | مكارم لن تبيد ولن تنالا
كأن الشمس يوم أصيب معن | من الإظلام ملبسة جلالاً
هو الجبل الذي كانت نزار | تهد من العدو به الجبالا
وعطلت الثغور لفقد معن | وقد يروي بها الأسل النهالا
وأظلمت العراق وأورثتها | مصيبته المجللة اختلالا

وظل الشام يرجف جانباه لركن العز حين وهى فمالا
وكادت من تهامة كل أرض ومن نجد تزول غداة زالا
فإن يعل البلاد له خشوع فقد كانت تطول به اختيالا
أصاب الموت يوم أصاب معناً من الأحياءأكرمهم فعالا
وكان الناس كلهم لمعن إلى أن زار جفرته عيالا
ولم يك طالب للعرف ينوي إلى غير ابن زائدة ارتحالا
مضى من كان يحمل كل ثقل ويسبق فيض نائله السؤالا
وما عمد الوفود لمثل معن ولا حطوا بساحته الرحالا
ولا بلغت أكف ذوي العطايا يميناًمن يديه ولا شمالا
وما كانت تجف له حياض من المعروف مترعة سجالا
لأبيض لايعد المال حتى يعم به بغاة الخير مالا
فليت الشامتين به فدوه وليت العمر مد له فطالا
ولم يك كنزه ذهباً، ولكن سيوف الهند والحلق المذالا
ومارنة من الخطي سمراً ترى فيهن ليناً واعتدالا
وذخراً من محامد باقيات وفضل تقى به التفضيل نالا

ومنها:

مضى لسبيله من كنت ترجو به عثرات دهرك أن تقالا
فلست بمالك عبرات عين أبت بدموعها إلا انهمالا
وفي الأحشاء منك غليل حزنٍ كحر النار تشتعل اشتعالا
وقائلة رأت جسمي ولوني معاً عن عهدها قلباً فحالا
أرى مروان عاد كذي نحول من الهنندي قد فقد الصقالا
رأت رجلاً براه الحزن حتى أضر به وأورثه خبالا
فقلت لها: الذي أنكرت مني لفجع مصيبة أنكى وعالا
وأيام المنون لها صروف تقلب بالفتى حالاً فحالا
كأن الليل واصل بعد معن ليالي قد قرن به فطالا
فلهف أبي عليك إذا العطايا جعلن منى كواذب واعتلالا

ولهف أبي عليك إذا اليتامى غدوا شعثاً كأن بهم سلالا

ولهف أبي عليك إذا القوافي لممتدح بها ذهبت ضلالا

ولهف أبي عليك لكل هيجا لها تلقي حواملها السخالا

أقمنا باليمامة إذ يئسنا مقاماً لا نريد له زيالا

وقلنا أين نرحل بعد معن وقد ذهب النوال فلا نوالا

وما شهد الوقائع منك أمضى وأكرم مقدماً وأشد بالا

سيذكرك الخليقة غير قال إذا هو في الأمور بلا الرجالا

ولا ينسى وقائعك اللواتي على أعدائه جعلت وبالا

ومعتركاً شهدت به حفاظاً وقد كرهت فوارسه النزالا

حباك أخو أمية بالمراثي مع المدح الذي قد كان قالا

أقام وكان نحوك كل عام يطيل بواسط الرحل اعتقالا

وألقى رحله أسفاً وآلى يميناً لا يشد له حبالا

وهذه المرثية من أحسن المراثي. وقال عبد الله بن المعتز في كتاب طبقات الشعراء: دخل مروان بن أبي حفصة على جعفر البرمكي فقال له: ويحك، أنشدني مرثيتك في معن بن زائدة، فقال: بل أنشدك مديحي فيك، فقال جعفر: أنشدني مرثيتك في معن، فأنشأ يقول:

وكان الناس كلهم لمعن إلى أن زار حفرته عيالا

حتى فرغ من القصيدة، وجعل جعفر يرسل دموعه على خديه، فلما فرغ قال له جعفر: هل أثابك على هذه المرثية أحد من ولده وأهله شيئاً؟ قال: لا: قال جعفر: فلو كان معن حياً ثم سمعها منك كم كان يثيبك عليها؟ قال: أصلح الله الوزير، أربعمائة دينار، قال جعفر: فأنا نظن أنه كان لا يرضى لك بذلك، قد أمرنا لك عن معن، رحمه الله تعالى، بالضعف مما ظننت، وزدناك نحن مثل ذلك، فاقبض من الخازن ألفاً وستمائة دينار قبل أن تنصرف إلى رحلك، فقال مروان يذكر جعفراً وما سمح به عن معن:

نفحت مكافئاً عن قبر معن لنا مما تجود به سجالا

فعجلت العطية يا ابن يحيى لنادبه ولم ترد المطالا

فكافأ عن صدى معن جواد بأجود راحة بذل النوالا

بنى لك خالد وأبوك يحيى بناء في المكارم لن ينالا

كأن البرمكي بكل مال تجود به يداه يفيد مالا

ثم قبض المال وانصرف.

وحكى أبو الفرج الاصبهاني في كتاب الأغاني عن محمد البيذق النديم أنه دخل على هارون الرشيد، فقال له: أنشدني مرثية مروان بن أبي حفصة في

معن ابن زائدة، فأنشده بعض هذه القصيدة، فبكى الرشيد، قال: وكان بين يديه سكرجة فملأها من دموعه.

ويقال: أن مروان بعد هذه القصيدة المرثية لم ينتفع بشعره، فإنه كان إذا مدح خليفة أو من دونه قال له: أنت قلت في مرثيتك:

وقلنا أين نرحل بعد معن ... وقد ذهبت النوال فلا نوالا

فلا يعطيه الممدوح شيئاً، ولا يسمع قصيدته.

حدث الفضل ابن الربيع قال: رأيت مروان بن أبي حفصة وقد دخل على المهدي بعد موت معن بن زائدة في جماعة من الشعراء فيهم سلم الخاسر وغيره، فأنشده مديحاً، فقال له: من أنت؟ فقال: شاعرك مروان بن أبي حفصة، فقال له المهدي: ألست القائل:

وقلنا أين نرحل بعد معن

وأنشده البيت المذكور، وقد جئت تطلب نوالنا وقد ذهب النوال؟! لا شيء لك عندنا، جروا برجله، قال: فجروا برجله حتى أخرجوه، فلما كان في العام المقبل تلطف حتى دخل مع الشعراء، وإنما كانت الشعراء تدخل على الخلفاء في ذلك الحين في كل عام مرة، قال: فمثل بين يديه وأنشده قصيدته التي أولها:

طرقتك زائرة فحي خيالها ... بيضاء تخلط بالحياء دلالها

قادت فؤادك فاستقاد ومثلها ... قاد القلوب إلى الصبا فأمالها

فأنصت له حتى بلغ إلى قوله:

هل تطمسون من السماء نجومها ... بأكفكم أو تسترون هلالها

وقد تقد ذكر بعضها في ترجمة مروان، قال: فأنصت له المهدي، ولم يزل يزحف كلما سمع شيئاً فشيئاً منها، حتى صار على البساط إعجاباً بما سمع، ثم قال له: كم بيت هي؟ فقال: مائة بيت، فأمر له بمائة ألف درهم، وهذا يخالف ما ذكرناه في ترجمته، لكنه يختلف باختلاف الروايات، ويقال إنها أول مائة ألف أعطيها شاعر في خلافة بني العباس. قال الفضل بن الربيع فلم تلبث الأيام أن أفضت الخلافة إلى هارون الرشيد، ولقد رأيت مروان مائلاً مع الشعراء بين يديه، وقد أنشده شعراً، فقال له: من أنت؟ فقال: شاعرك مروان بن أبي حفصة، فقال له: ألست القائل في معن كذا، وأنشده البيت، ثم قال: خذوا بيده فأخرجوه فإنه لا شيء له عندنا، ثم تلطف حتى دخل عليه بعد ذلك، فأنشده فأحسن جائزته.

ومن المراثي النادرة أيضاً أبيات الحسين بن مطير بن الأشيم الأسدي في معن بن زائدة أيضاً، وهي من أبيات الحماسة:

ألما على معن وقولا لقبره ... سقتك الغوادي مربعاً ثم مربعا

فيا قبر كيف واريت جوده ... وقد كان منه البر والبحر مترعا

ويا قبر معن أنت أول حفرة ... من الأرض خطت للمكارم مضجعا

بلى قد وسعت الجود، والجود ميت ... ولو كان حياً ضقت حتى تصدعا

فتى عيش في معروفه بعد موته ... كما كان بعد السيل مجراه مرتعا

ولما مضى معن مضى الجود وانقضى ... وأصبح عرنين المكارم أجدعا

وقد سبق لمعن في ترجمة الصاحب بن عباد نادرة مستظرفة فلا حاجة على إعادتها هنا، ولولا خوف الإطالة لأتيت من محاسنه بكل نادرة بديعة.

والحوفزان بن شريك الشيباني الموصوف بالكرم والشجاعة أخو جده مطر بن شريك، وإنما قيل له الحوفزان لأن قيس بن عاصم المنقري حفزه بالرمح

حين خاف أن يفوته، ومعنى حفزه أي دفعه من خلفه، واسم الحوفزان الحارث بن شريك، وقيل إن الذي حفزه بسطام بن قيس الشيباني، والأول أصلح، والله تعالى أعلم بالصواب.

مقاتل صاحب التفسير

أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير، الأزدي بالولاء الخراساني المروزي، أصله من بلخ وانتقل إلى البصرة ودخل بغداد وحدث بها، وكان مشهوراً بتفسير كتاب الله العزيز، وله التفسير المشهور.

وأخذ الحديث عن مجاهد بن جبر وعطاء بن أبي رباح – المقدم ذكره – وأبي إسحاق السبيعي – وقد تقدم ذكره أيضاً – والضحاك بن مزاحم ومحمد بن مسلم الزهري وغيرهم. وروى عنه بقية بن الوليد الحمصي وعبد الرزاق بن همام الصنعاني – المقدم ذكره – وحرمي بن عمارة وعلي بن الجعد، وغيرهم.

وكان العلماء الأجلاء، حكى عن الإمام الشافعي، رضي الله عنه، أنه قال: الناس كله عيال على ثلاثة: على مقاتل بن سليمان في التفسير، وعلى زهير ابن أبي سلمى في الشعر، وعلى أبي حنيفة في الكلام.

وروي أن أبا جعفر المنصور كان جالساً، فسقط عليه الذباب فطيره، فعاد إليه، وألح عليه، وجعل يقع على وجهه، وأكثر من السقوط عليه مراراً حتى أضجره، فقال المنصور: انظروا من بالباب، فقيل له: مقاتل بن سليمان، فقال: علي به، فأذن له، فلما دخل عليه قال له: هل تعلم لماذا خلق الله تعالى الذباب؟ قال: نعم ليذل الله عز وجل به الجبابرة، فسكت المنصور.

وقال إبراهيم الحربي: قعد مقاتل بن سليمان فقال: سلوني عما دون العرش، فقال له رجل: آدم صلى الله عليه وسلم حين حج من حلق رأسه؟ فقال له: ليس هذا من علمكم، ولكن الله تعالى أراد أن يبتليني لما أعجبتني نفسي. وقال سفيان بن عيينة، قال مقاتل بن سليمان يوماً: عما دون العرش، فقال له إنسان: يا أبا الحسن، أرأيت الذرة والنملة معاها في مقدمها أو في مؤخرها؟ قال: فبقي الشيخ لا يدري ما يقول له، قال سفيان: فظننت أنها عقوبة عوقب بها.

وقد اختلف العلماء في أمره، فمنهم من وثقه في الرواية، ومنهم من نسبه إلى الكذب. قال بقية بن الوليد: كنت كثيراً أسمع شعبة بن الحجاج وهو يسأل عن مقاتل، فما سمعته قط ذكره إلا بخير. وسئل عبد الله بن المبارك عنه فقال: رحمه الله، لقد ذكر لنا عنه عباده. وروي عن عبد الله بن المبارك أيضاً أنه ترك حديثه. وسئل إبراهيم الحربي عن مقاتل: هل سمع من الضحاك ابن مزاحم شيئاً؟ فقال: لا مات الضحاك قبل أن يولد مقاتل بأربع سنين. وقال مقاتل: أغلق علي وعلى الضحاك باب أربع سنين؛ قال إبراهيم: وأراد بقوله باب يعني باب المدينة، وذلك في المقابر. وقال إبراهيم أيضاً: و لم يسمع مقاتل عن مجاهد شيئاً و لم يلقه.

وقال أحمد بن سيار: مقاتل بن سليمان كان من أهل بلخ، وتحول إلى مرو، وخرج إلى العراق، وهو متهم متروك الحديث مهجور القول، وكان يتكلم في الصفات بما لا تحل الرواية عنه. وقال إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني: مقاتل بن سليمان كان دجالاً جسوراً. وقال أبو عبد الرحمن النسائي: الكذابون المعروفون بوضع الحديث على رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة: ابن يحيى بالمدينة، والواقدي ببغداد، ومقاتل بن سليمان بخراسان، ومحمد بن سعيد ويعرف بالمصلوب بالشام.

وذكر وكيع يوماً مقاتل بن سليمان فقال: كان كذاباً. وقال أبو بكر الآجري: سألت أبا داود سليمان بن الأشعث عن مقاتل بن سليمان، فقال: تركوا حديثه. وقال عمرو بن علي الفلاس: مقاتل بن سليمان كذاب متروك الحديث. وقال البخاري: مقاتل بن سليمان سكتوا عنه. وقال في موضع آخر: لا شيء ألبتة. وقال يحيى بن معين: مقاتل بن سليمان ليس حديثه بشيء. وقال أحمد بن حنبل: مقاتل بن سليمان صاحب التفسير ما يعجبني أن أروي عنه شيئاً. وقال أبو حاتم الرازي: هو متروك الحديث. وقال زكريا بن يحيى الساجي: مقاتل بن سليمان من أهل خراسان قالوا: كان كذاباً متروك الحديث. وقال أبو حاتم محمد بن حبان البستي: مقاتل بن سليمان كان يأخذ عن اليهود والنصارى علم القرآن العزيز الذي يوافق كتبهم، وكان مشبهاً يشبه الرب بالمخلوقين، وكان يكذب مع ذلك في الحديث.

وبالجملة فإن الكلام في حقه كثير، وقد خرجنا عن المقصود، لكن أردت ذكر اختلاف أقاويل العلماء في شأنه.
وتوفي سنة خمسين ومائة بالبصرة، رحمه الله تعالى.
وقد تقدم الكلام على الأزدي والمروزي فأغنى عن الإعادة.

شبل الدولة

أبو الهيجاء مقاتل بن عطية بن مقاتل البكري الحجازي، الملقب شبل الدولة؛ كان من أولاد أمراء العرب، فوقع بينه وبين إخوته وحشة أوجبت رحيله عنهم، ففارقهم ووصل إلى بغداد ثم خرج إلى خراسان وانتهى إلى غزنة، وعاد إلى خراسان، واختص بالوزير نظام الملك وصاهره، ولما قتل نظام النلك رثاه أبو الهيجاء المذكور ببيتين، تقدم ذكرهما في ترجمته.
ثم عادى إلى بغداد وأقام بها مدة، وعزم على قصد كرمان مسترفداً وزيرها ناصر الدين مكرم بن العلاء، وكان من الأجواد المشاهير، فكتب إلى الأمام المستظهر بالله قصة يلتمس فيها الإنعام عليه بكتاب إلى الوزير المذكور، مضمونه الإحسان إليه، فوقع المستظهر على رأس قصته: "يا أبا الهيجاء، أبعدت النجعة، أسرع الله بك الرجعة، وفي ابن العلاء مقنع، وطريقه في الخير مهيع، وما يسديه إليك تستحلي ثمرة شكره، وتستعذب مياه بره، والسلام"
فاكتفى أبو الهيجاء بهذه الأسطر، واستغنى عن الكتاب.
وتوجه إلى كرمان، فلما وصلها قصد حضرة الوزير واستأذن في الدخول فأذن له، فدخل عليه وعرض على رأيه القصة، فلما رآها قام وخرج عن دسته فأذن له، إجلالاً لها وتعظيماً لكاتبها، وأطلق لأبي الهيجاء ألف دينار في ساعته ثم عاد إلى دسته، فعرفه أبو الهيجاء أن معه قصيدة يمدحه بها، فاستنشده إياها فأنشده:

دع العيس تذرع عرض الفلا ... إلى ابن العلاء، وإلا فلا

فلما سمع الوزير هذا البيت أطلق له ألف دينار أخرى، ولما أكمل إنشاده القصيدة أطلق له ألف دينار أخرى، وخلع عليه، وقاد إليه جواداً بمركبة، وقال له: دعاء أمير المؤمنين مسموع مرفوع، وقد دعا بسرعة الرجوع، وجهزه بجميع ما يحتاج إليه.
فرجع إلى بغداد وأقام بها قليلاً، ثم سافر إلى ما وراء النهر وعاد إلى خراسان ونزل إلى مدينة هراة، وهوي بها امرأة وأكثر من التشبيب فيها، ثم رحل إلى مرو واستوطنها؛ ومرض في آخر عمره وتسودن، وحمل إلى البيمارستان، وتوفي في حدود سنة خمس وخمسمائة، رحمه الله تعالى.
وكان من جملة الأدباء الظرفاء، وله النظم البديع الرائق، وبينه وبين العلامة أبي القاسم الزمخشري المقدم ذكره مكاتبات ومادعبات، وكتب إليه قبل الاجتماع به:

هذا أديب كامل ... مثل الدراري درره
زمخشري فاضلٌ ... أنجبه زمخشره
كالبحر إن لم أره ... فقد أتاني خبره

فكتب إليه الزمخشري:

شعره أمطر شعري شرفا ... فاعتلى منه ثياب الحسد
كيف لا يسأسد النبت إذا ... بات مسقياً بنوء الأسد

وله كل مقطوع لطيف، رحمه الله تعالى.
والوزير المذكور هو الذي تقدم ذكره في ترجمة أبي إسحاق إبراهيم الغزي الشاعر المشهور، فإن قصده بكرمان وامتدحه بقصيدة بائية طنانة ذكرت منها في ترجمة الغزي بيتين هما من الشعر العجيب، وضمنهما المعنى الغريب.
وأول هذه القصيدة:

وورود ركايا الدمع يكفي الركائبا / وشم تراب الربع يشفي الترائبا
إذا شمت من برق العقيق عقيقه / فلا تنتجع دون الجفون السحائبا

ومنها عند الخروج إلى المديح:

وعيس لها عيسى بن مريم / إذا قتل الفج العميق المطالبا
يرقصهن الآل إما طوافيا / تراهن في آذيه أو رواسبا
سوانح كالبنيان تحسب أنني / مسحت المطايا إذ مسحت السباسبا
تنسمن من كرمان عرفاً عرفته / فهن يلاعبن النشاط لواغبا
يرين وراء الخفاقين من المنى / مشارق لم يؤبه لها ومغاربا
إلى ماجد لم يقبل المجد وارثاً / ولكن سعى حتى حوى المجد كاسبا
تبسم ثغر الدهر منه بصاحب / إذا جد لم يصحب سوى العزم صاحبا

ومنها:

تصيخ له الأسماع ما دام قائلاً / وتعنو له الأبصار مادام كاتبا
ولم أر ليثاً خادراً قبل مكرم / ينافس في العليا ويعطي الرغائبا
ولو لم يكن ليثاً مع الجود لم يكن / إذا صال بالأقلام صارت مخالبا

ومنها:

إذا زان قوماً بالمناقب واصف / ذكرنا له فضلاً يزين المناقبا
له السئيم الشم التي لو تجسمت / لكانت لوجه الدهر عيناً وحاجبا
ثنى نحو شمطاء الوزارة طرفه / فصارت بأدنى لحظة منه كاعبا
تناول أولاها وما مد ساعداً / وأحرز أخراها وما قام واثبا

وهي من غرر القصائد، وفي هذا الأنموذج منها دلالة على الباقي.

المقلد العقيلي

أبو حسان المقلد بن المسيب بن رافع بن المقلد بن جعفر بن عمرو بن المهنا عبد الرحمن بن بريد- بالتصغير- ابن عبد الله بن زيد بن قيس بن جوثة بن طهفة بن حزن بن عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوزان، العقيلي، الملقب حسام الدولة، صاحب الموصل.

كان أخوه أبو الدواد محمد بن المسيب أول من تغلب على الموصل وملكها من أهل هذا البيت، وذلك في سنة ثمانين وثلثمائة. وتزوج بهاء الدولة أبو نصر ابن عضد الدولة بن بويه الديلمي ابنته. فلما مات أبو الدواد في سنة سبع وثمانين قام أخوه المقلد المذكور بالملك من بعده، وكان أعور. وذكر شيخنا ابن الأثير في تاريخه أن ذلك في سنة ست وثمانين، وأن أبا الدواد لما توفي طمع المقلد في الملك، فلم يساعده بنو عقيل، وقدموا أخاه علياً لكبر سنه، ثم توصل بالخديعة حتى ملك، وأطال القول في ذلك فاختصرته، وهذا حاصله.

وقال غير ابن الأثير: إنه كان فيه عقل وسياسة وحسن تدبير، فغلب على سقي الفرات واتسعت مملكته. ولقبه الإمام القادر بالله وكناه، وأنفذ إليه

باللواء والخلع فلبسها بالأنبار. واستخدم من الديلم والأتراك ثلاثة آلاف رجل وأطاعته خفاجة، وكان فيه فضل ومحبة لأهل الأدب، وينظم الشعر.
حكى أبو الهيجاء بن عمران بن شاهين قال: كنت أساير معتمد الدولة أبا المنيع قرواش بن المقلد المذكور ما بين سنجار ونصيبين، فنزلنا، ثم استدعاني بعد الزوال، وقد نزل بقصر هناك يعرف بقصر العباس بن عمرو الغنوي، وكان مطلاً على بساتين ومياه كثيرة، فدخلت عليه فوجدته قائماً يتأمل كتابه على الحائط، فقرأتها فإذا هي:

يا قصر عباس بن عم — رو كيف فراقك ابن عمرك
قد كنت تغتال الدهو — ر فكيف غالك ريب دهرك
واها لعزلك بل لجو — دك بل لمجدك بل لفخرك

وتحتها مكتوب "وكتب علي بن عبد الله بن حمدان بخطه في سنة إحدى وثلاثين" قلت: وهذا الكاتب هو سيف الدولة بن حمدان ممدوح المتنبي، وقد تقدم ذكره – قال الراوي: وكان تحت ذلك مكتوب:

يا قصر ضعضعك الزما — ن وحط من علياء فخرك
ومحا محاسن أسطر — شرفت بهن متون جدرك
واهاً لكاتبها الكري — م وقدره الموفي بقدرك

وتحت الأبيات مكتوب "وكتب الغضنفر بن الحسن بن علي بن حمدان بخطه في سنة اثنتين وستين وثلثمائة " – قلت: وهذا الكاتب هو عدة الدولة بن ناصر الدولة الحسن بن عبد الله بن حمدان ابن أخي سيف الدولة، وقد سبف ذكر والده أيضاً في حرف الحاء– وتحت ذلك مكتوب:

يا قصر ما فعل الألى — ضربت قبابهم بعقرك
أخنى الزمان عليهم — وطواهم بطويل نشرك

واهاً لقاصر عمر من — يختال فيك وطول عمرك

وتحته مكتوب "وكتب المقل بن المسيب بن رافع بخطه فيسنة ثمان وثمانين وثلثمائة " – قلت: وهذا الكاتب هو المقلد المذكور صاحب هذه الترجمة – وتحت ذلك مكتوب:

يا قصر ما صنع الكرا — م الساكنون قديم عصرك
عاصرتهم فبذذتهم — وشأوتهم طراً بصبرك
ولقد أثار تفجعي — يا ابن المسيب رقم سطرك
وعلمت أني لاحق — بك دائب في قفو أثرك

وتحته مكتوب "وكتب قرواش بن المقلد بن المسيب بخطه في سنة إحدى وأربعمائة" قال الراوي: فعجبت من ذلك، وقلت لقرواش: الساعة كتبت هذا؟ فقال: نعم، ولقد هممت بهدم القصر فإنه مشؤم قد دفن الجماعة، فدعوت له بالسلامة وانصرفت، ورحلت بعد ثلاثة أيام، ولم يهدم القصر.
وهذا العباس بن عمرو الغنوي من أهل تل بن سيار الذي بين الرقة ورأس عين بالقرب من حصن مسلمة بن عبد الملك بن مروان الحكمي، وكان يتولى اليمامة والبحرين، وسيره المعتضد بالله لحرب القرامطة في أول أمرهم، فقاتلوه وكسروه وأسروه، ثم أطلقوا فرجع إلى المعتضد ودخل بغداد ليلة الأحد لإحدى عشرة ليلة مضت من شهر رمضان سنة سبع وثمانين ومائتين. وقال أبو عبد الله العظيمي الحلبي في تاريخه الصغير: مات العباس بن عمرو

الغنوي في سنة خمسين وثلثمائة، ومن العجائب أنه توجه إليهم في عشرة آلاف، فقتل الجميع وسلم وحده، وعمرو بن الليث الصفار حارب إسماعيل بن أحمد صاحب خراسان وهو في خمسين ألفاً، فأخذوه ونجا الباقون.

وكان بين ما كتبه سيف الدولة وبين ما كتبه قرواش سبعون سنة؛ وقد سبق نظير هذه الحكاية في ترجمة عبد الملك بن عمير وما جرى له مع عبد الملك ابن مروان، فلينظر هناك.

وبينما المقلد المذكور في مجلس أنسه وهو بالأنبار إذ وثب عليه غلام تركي فقتله، وذلك في صفر سنة إحدى وتسعين وثلثمائة، ويقال: إنه مدفون على الفرات بمكان يقال له شيفيا بين الأنبار وهيت، وحكي أن هذا التركي سمعه وهو يقول لرجل ودعه وهو يريد الحج: إذا جئت ضريح رسول الله صلى الله عليه وسلم فقف عنده وقل له عني: لولا صاحباك لزرتك؛ ولما مات رثاه الشريف الرضي بقصيدتين ورثاه جماعة من الشعراء.

وكان ولده معتمد الدولة أبو المنيع قرواش غائباً عنه، ثم تقلد الأمر من بعده وكان له عمان ينازعانه في الأمر: أحدهما ابو الحسن ابن المسيب، والآخر أبو مرح مصعب بن المسيب، فتوفي أبو الحسن سنة اثنتين وتسعين، وتوفي أبو مرح سنة سبع وتسعين، فتفرد قرواش بالملك واستراح خاطره منهما، وكانت له بلاد الموصل والكوفة والمدائن وسقي الفرات، وخطب في بلاده للحاكم صاحب مصر – وسيأتي ذكره – في سنة إحدى وأربعمائة، ثم رجع عن ذلك، ووصلت الغز إلى الموصل ونهبوا دار قرواش، وأخذوا منها ما يزيد على مائتي ألف دينار، فاستنجد بنور الدولة أبي الأغر دبيس بين صدقة – المقدم ذكره – فانجده واجتمعا على محاربة الغز فنصروا عليهم وقتل الكثير منهم.

ومدحه أبو علي ابن الشبل البغدادي الشاعر المشهور بقصيدة ذكر فيها هذه الواقعة، فمنها قوله:

نزهت أرضك عن قبور جسومهم ... فغدت قبورهم بطون الأنسر

من بعد ما وطئوا البلاد وظفروا ... من هذه الدنيا بكل مظفر

فضوا رتاج السد عن يأجوجه ... ولقوا ببأسك سطوة الإسكندر

وكان قرواش المذكور يلقب مجد الدين، وهو ابن أخت الأمير أبي الهيجاء الهذباني صاحب إربل، وكان أديباً ظريفاً، وله أشعار سائرة، فمن ذلك ما أورده له أبو الحسن الباخرزي في أول كتاب "دمية القصر" وهو قوله:

لله در النائبات فإنها ... صدأ اللئام وصقيل الأحرار

ما كنت إلا زبرة فطبعنني ... سيفاً وأطلق صرفهن غراري

وأورد له أيضاً:

من كان يحمد أو يذم مورثاً ... للمال من آبائه وجدوده

فأنا امرؤ لله أشكر وحده ... شكراً كثيراً جالياً لمزيده

لي أشقر ملء العنان مغاور ... يعطيك كا يرضيك من مجهوده

ومهند عضب إذا جردته ... خلت البروق تموج في تجريده

ومثقف لدن السنان كإنما ... أم المنايا ركبت في عوده

وبذا حويت المال إلا أنني ... سلطت جود يدي على تبديده

ما أحسن هذا الشعر وأمتنه! ومن المنسوب إليه أيضاً:

وآلفه للطيب ليست تغبه ... منعمة الطراف لينة اللمس

إذا ما دخان الند من جيبها علا | على وجهها أبصرت غيما على شمس

وذكر الباخرزي المذكور في "دمية القصر" أيضاً لأبي جوثة ابن عم الأمير قرواش المذكور:

قوم إذا اقتحموا العجاج رأيتهم | شمساً وخلت وجوههم أقمارا

لا يعدولن برفدهم عن سائل | عدل الزمان عليهم أو جارا

وإذا الضريح دعاهم للملة | بذلوا النفوس وفارقوا الأعمارا

وإذا زناد الحرب أخمد نارها | قدحوا بأطراف الأسنة نارا

ومن جملة شعراء "دمية القصر" أيضاً الطاهر الجزري، وقد مدح قرواشاً المذكور بقوله، وهو في نهاية الحسن في باب الاستطراد:

وليل كوجه البرقعيدي ظلمةً | وبرد أغانيه وطول قرونه

سريت ونومي فيه مشردٌ | كعقل سليمان بن فهد ودينه

على أولقٍ فيه مضاء كأنه | أبو جابر في طيشه وجنونه

إلى أن بدا ضوء الصباح كأنه | سنا وجه قرواش وضوء جبينه

ولشرف الدين ابن عنين الشاعر المقدم ذكره على هذه الأسلوب في فقيهين كانا بدمشق ينبز أحدهما بالبغل والآخر بالجاموس:

البغل والجاموس في جدليهما | قد أصبحا عظمةً لكل مناظر

برزا عشية ليلة فتباحثا | هذا بقرنيه وذا بالحافر

ما أتقنا غير الصباح كأنما | لقنا جدال المرتضى بن عساكر

لفظ طويل تحت معنى قاصر | كالعلقل في عبد اللطيف الناظر

اثنان ما لهما وحقك ثالث | إلا رقاعة مدلولية الشاعر

ولقد حكى لي بعض الصحاب أنه سأل ابن عنين عن أبيات الطاهر الجزري واستحسن بناءه عليها، فحلف أنه ما كان سمعها، والله أعلم.

ومدلويه المذكور: لقب كان ينبز به الرشيد أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن بدر بن الحسن بن المفرج بن بكار الشاعر المعروف بابن النابلسي، وكان مقيماً بدمشق، ولابن عنين فيه عدة مقاطيع هجو. وتوفي في منتصف صفر سنة تسع عشرة وستمائة بدمشق المحروسة، ودفن بباب الصغير، رحمه الله تعالى.

وذكر في كتاب "الدمية" أيضاً للطاهر الجزري المذكور أبياتاً لطيفة أحببت ذكرها، وهي:

انظر إلى حظ ابن شبل في الهوى | إذ لا يزال لكل قلب شائقا

شغل النساء عن الرجال، وطالما | شغل الرجال عن النساء مراهقا

عشقوه أمرد والتحى فعشقه | الله أكبر ليس يعدم عاشقا

ثم وجدت في كتاب "الخريدة" في ترجمة أبي نصر ابن النحاس الحلبي البيتين الأخيرين من هذه الأبيات الثلاثة وقال: أورده أبو الصلت في "الحديقة" له،يعني لابن النحاس، والله أعلم.

رجعنا إلى حديث الأمير قرواش: وكان كريماً وهاباً نهاباً جارياً على سنن العرب، نقل أنه جمع بين أختين في النكاح، فلامته العرب على ذلك فقال:

خبروني ما الذي نستعمله مما تبيحه الشريعة؟ وكان يقول: ما في رقبتي غير خمسة أو ستة من أهل البادية قتلتهم، فأما الحاضرة فما يعبأ الله بهم. ودامت إمارة قرواش مدة خمسين سنة فوقع بينه وبين أخيه بركة بن المقلد، وكان خارج البلد فقبض بركة عليه في سنة إحدى وأربعين وأربعمائة، وقيده وحبسه في الجراحية إحدى قلاع الموصل، وتولى مكانه.

ولقب بركة بزعيم الدولة وأقام في الإمارة سنتين، وتوفي في ذي الحجة سنة ثلاث وأربعين.

فقام مقامه ابن أخيه أبو المعالي قريش بن أبي الفضل بدران بن المقلد، وكان بدران المذكور صاحب نصيبين، وتوفي في رجب سنة خمس وعشرين وأربعمائة، فأول ما فعل قريش أنه قتل عمه قرواشاً المذكور في محبسه في مستهل رجب سنة أربع وأربعين وأربعمائة، ودفن بتل توبة شرقي الموصل، وكان فصيحاً شاعراً كريماً شجاعاً.

وقرواش: بكسر القاف وسكون الراء وفتح الواو وبعد الألف شين معجمة، وهو فعوال من القرش، وهو في اللغة الكسب والجمع، وبه سميت قريش أيضاً لأنها كانت تعاني التجارة.

واجتمع قريش مع أرسلان البساسيري المقدم ذكره على نهب دار الخلافة، ثم إن الإمام القائم بأمر الله جرى على سجيته في الحلم، وكتب إلى السلطان طغرلبك المقدم ذكره في المحمدين ليرضى عنه، وورد الخبر بعد ذلك بموته، أعني قريش بن بدران في سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة في أوائلها بالطاعون بمدينة نصيبين، وكان عمره إحدى وخمسن سنة.

وولي بعده إمارة بني عقيل ولده أبو المكارم مسلم بن قريش الملقب شرف الدولة، وكان قد طمع في الاستيلاء على بغداد بعد وفاة السلطان طغرلبك السلجوق، المقدم ذكره ثم رجع عن ذلك، واستولى على ديار ربيعة ومضر وملك حلب وأخذ الأتاوة من بلاد الروم، وقصد دمشق وحاصرها وكاد يأخذها، فبلغه أن حران عصى عليه أهلها فرحل إليهم وحاربوه، ففتحها وقتل خلقاً كثيراً من أهلها، وذلك في سنة ست وسبعين وأربعمائة، واتسعت له المملكة، ولم يكن من أهل بيته من ملك مثله، وكانت سيرته من أحسن السير وأعدلها، وكانت الطرقات آمنة في بلاده.

ومن جملة ما نقل عنه أن ابن حيوس الشاعر، المقدم ذكره مات عنده وخلف أكثر من عشرة آلاف دينار، فحمل ذلك على خزانته فرده وقال: لا يتحدث عني أحد أنني أعطيت شاعراً مالاً ثم شرهت فيه وأخذته، وأنه دخل خزانتي مال جمع من أوساخ الناس. وكان يصرف الجزية في جميع بلاده إلى الطالبين ولا يأخذ منها شيئاً، وهو الذي عمر سور الموصل، وكان ابتداء عمارته يوم الحد ثالث شوال سنة أربع وسبعين، وفرغ من عمارته في ستة أشهر؛ وأخباره كثيرة.

وجرى بينه وبين سليمان بن قتلمش السلجوقي صاحب الروم مصاف، قتل فيه على باب أنطاكية في خامس عشر صفر سنة ثمان وسبعين وأربعمائة، يوم الجمعة، وعمره خمس وأربعون سنة وشهور، هكذا قاله محمد بن عبد الملك الهمداني في كتابه الذي سماه "المعارف المتأخرة"؛ وذكر أيضاً ابن الصابي في تاريخه أن مولد مسلم بن قريش يوم الجمعة الثالث والعشرين من رجب سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة، والله أعلم؛ وذكر المأموني في تاريخه أنه وثب عليه خادم من خواصه فخنقه في الحمام، وذكر له واقعة في ذلك، وذلك في سنة أربع وسبعين، والله أعلم بالصواب.

ورتب السلطان ملكشاه السلجوقي، المقدم ذكره ولده أبا عبد الله محمداً في الرحبة وحران وسروج وبلد الخابور، وزوجه أخته زليخا بنت السلطان ألب أرسلان، وكان والده مسلم بن قريش اعتقل أخاه أبا سالم إبراهيم ابن قريش بقلعة سنجار مدة أربع عشرة سنة، فلما هلك مسلم وتقرر أمر ولده محمد في الإمارة اجتمع أهله على إبراهيم المذكور فأخرجوه وقدموه عليهم، ثم اعتقله ملكشاه وولي ابن أخيه محمداً المذكور، فلما مات مكشاه أطلق، وجمع إبراهيم للعرب وحارب تاج الدولة تتش السلجوقي، المذكور في حرف التاء بمكان يعرف بالمصنع وقتله تاج الدولة تتش صبرا في سنة ست وثمانين وأربعمائة.

ومن أمراء بني عقيل أيضاً أبو الحارث مهارش بن المجلي بن عليب ابن قيان بن شعيب بن المقلد الأكبر بن جعفر بن عمرو بن المهنا المذكور في أول هذه الترجمة؛ ومهارش المذكور هو صاحب الحديثة، وهو الذي نزل عليه الإمام القائم في قصة البساسيري لما خرج من بغداد، وبالغ في إكرامه وإجلاله والإحسان إليه، وأقام عنده سنة، وهي واقعة مشهورة فلا حاجة إلى شرحها.

وكان مهارش المذكور كثير الصدقة والصلوات، ملازم الجمع والجماعات، وتوفي في صفر سنة تسع وتسعين وأربعمائة، وعمره ثمانون سنة، رحمهم الله أجمعين.

مخلص الدولة ابن منقذ

أبو المتوج مقلد بن نصر بن منقذ الكناني، الملقب مخلص الدولة، والد الأمير سديد الدولة أبي الحسن علي صاحب قلعة شيزر، المقدم ذكره؛ كان رجلاً نبيل القدر سائر الذكر، رزق السعادة في بنيته وحفدته،، وقد تقدم في ترجمة ولده المذكور طرف من بدء أمرهم، وكيف ملك القلعة المذكورة.

وكان والده مقلد المذكور في جماعة كثيرة من أهل بيته مقيمين بالقرب من قلعة شيزر عند جسر بني مقلد المنسوب إليهم، وكانوا يترددون إلى حلب وحماة وتلك النواحي، ولهم بها الآدار النفسية والملاك المثمنة، وذلك كله قبل أن ملكوا قلعة شيزر، وكان ملوك الشام يكرمونهم ويبجلون أقدارهم، وشعراء عصرهم يقصدونهم ويمدحونهم، وكان فيهم جماعة أعيان رؤساء كرماء علماء، وقد سبق ذكر أسامة بن منقذ، وهو من أحفاده.

و لم يزل مخلص الدولة في رياسته وجلالته، إلى أن توفي في ذي الحجة سنة خمسين وأربعمائة بحلب، وحمل إلى كفرطاب؛ ورأيت في ديوان ابن سنان الخفاجي الشاعر عقيب أشعار له في المذكور، يقول ما صورته: وقال يرثيه وقد توفي في ذي الحجة سنة خمس وثلاثين وأربعمائة، والله أعلم بالصواب، رحمه الله تعالى. ورثاه القاضي أبو يعلى حمزة بن عبد الرزاق بن أبي حصين بهذه القصيدة، وهي من فائق الشعر، وأنشدها لولده أبي الحسن علي المذكور، سأذكرها كلها إن شاء الله تعالى، وإن كانت طويلة، لكنها غريبة قليلة الوجود بأيدي الناس، وما رأيت أحداً قط يحفظ منها إلا أبياتاً يسيرة فأحببت ذكرها لذلك، وهي هذه:

ألا كل حي مقصدات مقاتله	وآجل ما يخشى من الدهر عاجله
وهل يفرح الناجي السليم وهذه	خيول الردى قدامة وحبائله
لعمر الفتى إن السلامة سلم	إلى الحين والمغرور بالعيش آمله
فتسلب أثواب الحياة معارها	ويقضي غريم الدين ما هو ماطله
مضى قيصرٌ لم تغن عنه قصوره	وجدل كسرى ما حمته مجادله
وما صد هلكاً عن سليمان ملكه	ولا منعت منه أباه سرابله
ولم يبق إلا من يروح ويغتدي	على سفر ينأى عن الأهل قافله
وما نفس الإنسان إلا خزامة	بأيدي المنايا والليالي مراحله
فهل غال بدءاً مخلص الدولة الردى	وهل تنزوي عمن سواه غوائله
ولكنه حوض الحمام، ففارط	إليه، وتالٍ مسرعاتٍ رواحله
لقد دفن الأقوام أروع لم تكن	بمدفونةٍ طول الزمان فضائله
سقى جدثاً هالت عليه ترابه	أكفهم طل الغمام ووابله
ففيه سحابٌ يرفع المحل هديه	وبحر ندىً يستغرق البر ساحله
كأن ابن نصر سائراً في سريره	حبي من الوسمي أقشع هاطله
يمر على الوادي فتثني رماله	عليه، وبالنادي فتبكي أرامله

سرى تعشه فوق الرقاب وطالما سرى جوده فوق الركاب ونائله
أناعيه إن النفوس منوطةٌ بقولك فانظر ما الذي أنت قائله
بفيك الثرى لم تدر من حل بالثرى جهلت وقد يستصغر الأمر جاهله
هو السيد المهتز للتم بدره وللجود عطفاه وللطعن عالمه
أفاض عيون الناس حتى كأنما عيونهم مما تفيض أنامله
فيا عين سحي لا تشحي بسائل على ماجد لم يعرف الشح سائله
متى يسألوه المال تند بنانه وإن لم يسألوه الضيم تبد عوامله
وكم عاد عنه بالخسار مقنع وكم نال منه قانع ما يحاوله
له الغلب القاضي على كل باسل يجالده أو كل خصم يجادله
محاسنه في روضةٍ طلها الندى ولكنه في المجد مات مساجله
فيا عمره أنى قصرت ولم تطل منازله بل كفه بل حمائله
جرت تحته العلياء ملء فروجها إلى غاية طالت على من يطاوله
فما مات حتى نال أقصى مراده كما يستسر البدر تمت منازله
فتى طالما يعتاده الجيش عافياً فينزله أو عادياً فينازله
صفوحٌ عن الجاني وصفحة سيفه إذا هي لم تقتله فالصفح قاتله
وأدمى عسيب الطرف بعدك هلبه وعادته أن يقذف الدم كاهله
فيا طرفه ما كان عجزك حاملاً أدى صارم لو أن ظهرك حامله
لقد كثر الملبوس بعد مروع جرت ببيان المشكلات شواكله
إذا ظن لا يخطي كأن ظنونه على ما يضل الناس عنه دلائله
فلا رحلت عنه نوازل رحمةٍ ضحاه بها موصولة وأصائله
وروى ثراه منهن العفو في غد فقد روت العافين أمس مناهله

قضى الله أن يرزا الأمير وهذه صوافنه موقورة ومناصله
وكل فتى كالبراق إبريق غمده إذا شماه، او كالذبالة ذابله
فليت ظباه صلت اليوم خلفه وظلت على غير الصيام صواهله
بني منقذ صبراً فإن مصابكم يصاب به حافي الأنام وناعله

لقد جل حتى كل واجد لوعة إذا لج فيها ليس يوجد عاذله

إذا صوحت أيدي الرجال فأنتم بني منقذ روض الندى وخمائله

وإن فر من وزر الزمان مفرحٌ فإنكم أوزاره ومعاقله

وصاحب، علي، الصبر عنه فما غوى مصاحب صبرٍ عن حبيب يزايله

وما نام حتى قام منك وراءه أخو يقظات وافر العزم كامله

كأنكما نوءان في فلك العلا فطالعه هذه وذلك آفله

وما كفلوك الأمر إلا لعلمهم قيامك بالأمر الذي أنت كافله

سعيت إلى نيل المكارم سعيه ولو كنت لا تسعى كفتك فواضله

ولم تر أن ترقى بما كان فاعلاً أجل إنما المرفوع بالفعل فاعله

لعمرك إني في الذي عن كله شريك عنان ناصح الود ناخله

وكيف خلو القلب من ذلك الهوى وقد خلدت بين الشغاف دواخله

نجزت القصيدة بتمامها وكمالها. وقد تقدم في ترجمة الصالح طلائع بن رزيك وزير مصر مرثية رثاه بها الفقيه عمارة الميني، وهي على وزن هذه المرثية ورويها،ولم أذكر منها هناك سوى أبيات قلائل لكثرة وجود ديوان عمارة بأيدي الناس، وهذه لا تكاد توجد بكمالها، فلهذا أتممتها ها هنا، وقد تقدم منها ذكر بيتين في ترجمة الوزير جمال الدين أبي جعفر محمد المعروف بالجواد الأصبهاني وزير الموصل.

وتوفي أخوه أبو الغيث منقذ بن نصر بن منقذ سنة تسع وثلاثين وأربعمائة، ورثاه الشيخ الأديب أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن يحيى بن الحسين بن محمد بن الربيع بن سنان بن الربيع الخفاجي الحلبي الشاعر المشهور صاحب الديوان الشعر بقوله، وهو من شعره القديم زمن الصبا:

غربت خلائقك الحسان غريبةً ورمى الزمان دنوها ببعاد

ذهبت كما ذهب الربيع وخلفت فيض الدموع حرارة الأكباد

والخفاجي المذكور رثى مخلص الدولة المذكور أيضاً بقصيدة طويلة رائية، ومدحه بأخرى حائة أجاد فيهما وتركتهما لطولهما، والله تعالى أعلم بالصواب.

مكي بن أبي طالب

أبو محمد مكي بن أبي طالب بن حموش بن محمد بن مختار القيسي المقرئ؛ أصله من القيروان، وانتقل إلى الأندلس وسكن قرطبة، وهو من أهل التبحر في علوم القرآن والعربية، كان حسن الفهم والخلق جيد الدين والعقل، كثير التواليف في علم القرآن محسناً لذلك، مجوداً للقراءات السبع عالماً بمعانيها.

ولد بالقيروان عند طلوع الشمس أو قبل طلوعها بقليل، لسبع بقين من شعبان سنة خمس وخمسين وثلثمائة، وقال أبو عمرو المقرئ الداني:إنه ولد سنة أربع وخمسين، ونشأ بالقيروان وترعرع، وسافر إلى مصر وهو ابن ثلاث عشرة سنة، واختلف بها إلى المؤدبين والعارفين بعلوم الحساب، ثم رجع إلى القيروان، وكان إكماله لاستظهار القرآن بعد كماله وفراغه من الحساب وغيره من الآداب، وذلك في سنة أربع وسبعين وثلثمائة، ثم عاد إلى مصر ثانية بعد استكماله القراءات بالقيروان وذلك في سنة سبع وسبعين، فحج في تلك السنة حجة الإسلام، ثم ابتدأ بالقراءات على أبي الطيب عبد المنعم بن عبيد الله بن غلبون الحلبي المقرئ نزيل مصر بمصر في أول سنة ثمان وسبعين، فقرأ عليه بقية السنة وبعض سنة تسع، ورجع إلى القيروان وقد بقي عليه

بعض القراءات. ثم عاد إلى مصر مرة ثالثة في سنة اثنتين وثمانين، فاستكمل ما بقي له، ثم عاد إلى القيروان في سنة ثلاث وثمانين وأقام بها يقرئ إلى سنة سبع وثمانين، ثم خرج إلى مكة وأقام بها إلى آخر سنة تسعين، وحج أربع حجج متوالية، ثم رجع من مكة سنة إحدى وتسعين، فوصل إلى مصر، ثم رحل منها إلى القيروان في سنة اثنتين وتسعين، ثم ارتحل إلى الأندلس وقدمها في رجب سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة، وجلس للأقراء بجامع قرطبة، فانتفع به خلق كثير وجودوا عليه القرآن، وعظم اسمه في البلد وجل فيها قدره، ونزل عند دخوله قرطبة في مسجد النخيلة الذي بالزقاقين عند باب العطارين، فأقرأ به، ثم نقله المظفر عبد الملك بن أبي عامر إلى جامع الزاهرة، وأقرأ فيه حتى انصرمت دولة آل عامر، فنقله محمد بن هشام المهدي إلى المسجد الخارج بقرطبة، وأقرأ فيه مدة الفتنة كلها إلى أن قلده أبو الحسن ابن جهور الصلاة والخطبة بالمسجد بعد وفاة يونس بن عبد الله، وكان ضعيفاً عليها على أدبه وفهمه، وأقام في الخطابة إلى أن مات، رحمه الله تعالى.

وكان خيراً فاضلاً متواضعاً متديناً مشهوراً بإجابة الدعاء، وله في ذلك أخبار، فمن ذلك ما حكاه أبو عبد الله الطرفي المقرئ قال: كان عندنا بقرطبة رجل فيه بعض الحدة، وكان له على الشيخ أبي محمد المذكور تسلط، وكان يدنو منه إذا خطب فيغمره ويحصي عليه سقطاته، وكان الشيخ كثيراً ما يتلعثم ويتوقف، فحضر ذلك الرجل في بعض الجمع، وجعل يحد النظر إلى الشيخ ويغمزه، فلما خرج معنا ونزل في الموضع الذي كان يقرأ فيه قال لنا: أمنوا على دعائي، ثم رفع يديه وقال: اللهم اكفنيه، اللهم اكفنيه، فأمنا، قال: فأقعد ذلك الرجل، وما دخل الجامع بعد ذلك اليوم.

وله تصانيف كثيرة نافعة فمنها: "الهداية إلى بلوغ النهاية" في معاني القرآن الكريم وتفسيره وأنواع علومه، وهو سبعون جزءاً، و"منتخب الحجة" لأبي علي الفارسي، ثلاثون جزءاُ، وكتاب "التبصر في القراءات" في خمسة أجزاء، وهو من أشهر تواليفه، و"الموجز في القرءات" جزءان، وكتاب "المأثور عن مالك في أحكام القرآن وتفسيره" عشر أجزاء، وكتاب "الرعاية لتجود القراءة" أربعة أجزاء، وكتاب "اختصار أحكام القرآن" أربعة اجزاء، وكتاب "الكشوف عن وجوه القرءات وعللها" عشرون جزءاً، وكتاب "الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه" ثلاثة أجزاء، وكتاب "الإيجاز في ناسخ القرآن ومنسوخه" جزء، وكتاب "الزاهي في اللمع الدالة على مستعملات الإعراب" أربعة أجزاء، وكتاب "التنبيه على أصول قراءة نافع وذكر الاختلاف عنه" جزاءان، وكتاب "الانتصاف، فيما رده على أبي بكر الأدفوي وزعم أنه غلط في كتاب الإبانة" ثلاثة أجزاء، وكتاب "الرسالة إلى أصحاب الأنطاكي في تصحيح المد لورش" ثلاثة أجزاء، وكتاب "الإبانة عن معاني القراءة" جزء، وكتاب "الوقف على كلا وبلى في القرآن" جزءان، وكتاب "الاختلاف في عدد الأعشار" جزء، وكتاب "الإدغام الكبير في المخارج" جزء، وكتاب "بيان الصغائر والكبائر" جزء، وكتاب " الاختلاف في الذبيح من هو"جزء، وكتاب "دخول حروف الجر بعضها مكان بعض" جزء، وكتاب "تنزيه الملائكة عن الذنوب وفضلهم على بني آدم" جزء، وكتاب "الياءات المشددة في القرآن والكلام" جزء، وكتاب "اختلاف العلماء في النفس والروح" جزء، وكتاب "إيجاب الجزاء على قاتل الصيد في الحرم خطأ" على مذهب الإمام مالك، والحجة في ذلك" جزء، وكتاب "مشكل غريب القرآن" ثلاثة أجزاء، وكتاب"فرض الحج على من استطاع إليه سبيلا" جزء وكتاب "التذكرة لاختلاف القراء" جزء، وكتاب "تسمية الأحزاب" جزء، وكتاب "منحب كتاب الإخوان لابن وكيع" جزءان، وكتاب "الحروف المدغمة" جزءان، وكتاب "شرح التمام والوقف" أربعة أجزاء، وكتاب "مشكل المعاني والتفسير" خمسة عشر جزءاً، وكتاب "هجاء المصاحف" جزءان، وكتاب "الرياض" مجموع خمسة أجزاء، وكتاب "المنتقى في الأخبار" أربعة أجزاء، وله في القراءات واختلاف القراء وعلوم القرآن تصانيف كثيرة، ولولا خوف التطويل لاستوعبت ذكرها.

وتوفي يوم السبت عند صلاة الفجر، ودفن يوم الأحد ضحوة لليلتين خلتا من المحرم سنة سبع وثلاثين وأربعمائة بقرطبة، ودفن بالربض، وصلى عليه ولده أبو طالب محمد، رحمه الله تعالى.

وحموش: بفتح الحاء المهملة وتشديد الميم المضمومة وسكون الواو وبعدها شين معجمة.

وقد تقدم الكلام على القيسي والقيروان وقرطبة، فأغنى عن الإعادة.

وأبو الطيب عبد المنعم بن غلبون المقرئ المصري المذكور في هذه الترجمة ذكره الثعالبي في كتاب "اليتيمة" فقال: كان على دينه وفضله وعلمه بالقرآن ومعانيه وإعرابه متفنناً في سائر علوم الأدب، أنشدت له قصيدة منها قوله:

عليك باقلال الزيارة إنها إذا كثرت كانت إلى الهجر مسلكا

ألم تر أن الغيث يسأم دائماً ويطلب بالأيدي إذا هو أمسكا

وقال غير الثعالبي: ولد أبو الطيب المذكور في رجب سنة تسع وثلثمائة، وتوفي في مصر يوم الجمعة لسبع خلون من جمادى الأولى سنة تسع وثلثمائة، رحمه الله تعالى.

مكي الماكسيني النحوي

أبو الحرم مكي بن ريان بن شبة بن صالح، الماكسيني المولد الموصلي الدار، المقرىء النحوي الضرير، الملقب صائن الدين؛ كان والده يصنع الأنطاع بماكسين، ومات فقيراً لم يخلف شيئاً، وترك ولده أبا الحرم المذكور وأمه وبنتاً، فلم تقدر أمه على القيام بمصالحه بسب الفقر، وتضجرت منه ففارقها، وخرج من بلده وقصد الموصل، واشتغل بها بعلم القرآن والأدب، ثم رحل إلى بغداد واجتمع بأئمة الأدب، وقرأ على أبي محمد ابن الخشاب وابن العصار وابن الأنباري وأبي محمد سعيد بن الدهان وقد تقدم ذكرهم ثم عاد إلى الموصل وتصدر بها للإفادة، وأخذ الناس عنه، وانتشر ذكره في البلاد وبعد صيته وانتفع به خلق كثير.

وذكره أبو البركات ابن المستوفي في "تاريخ إربل" فقال: هو جامع فنون الأدب، وحجة كلام العرب، المجمع على دينه وعقله، والمتفق على علمه وفضله؛ رحل إلى بغداد ولقي بها مشايخ النحو واللغة والحديث، وكان واسع الرواية، قد نصب نفسه للانتفاع عليه بالقرآن العزيز وجميع ضروب الأدب، ثم قال: وأنشدني من شعره، وكان قد اشتغل عليه بالموصل، أعني ابن المستوفي المذكور:

سئمت من الحياة فلم أردها تسالمني وتشجيني بريقي

عدوي لا يقصر في أذائي ويفعل مثل ذلك بي صديقي

وقد أضحت لي الحدباء داراً وأهل مودتي بلوى العقيق

والحدباء: كنية الموصل.

ومن شعره أيضاً:

إذا احتاج النوال إلى شفيع فلا تقبله تضح قرير عين

إذا عيف النوال لفرد من فأولى أن يعاف لمنتين

وله أيضاً:

على الباب عبد يسأل الإذن طالباً به أدباً لا أن نعماك تحجب

فإن كان إذن فهو كالخير داخلٌ عليك وإلا فهو كالشر يذهب

وهذا مأخوذ من قول بعضهم:

على الباب عبدٌ من عبيدك واقفٌ بنعماك مغمورٌ بشكرك معترف

أيدخل كالاإقبال لا زالت مقبلاً مدى الدهر أم مثل الحوادث ينصرف

ثم قال ابن المستوفي: وكان قد أضر وهو ابن ثمان أو تسع سنين، وكان أبداً يتعصب لأبي العلاء المعري،ويطرب إذا قرئ عليه شعره، للجامع بينهما من العمى والأدب، فسلك مسلكه في النظم؛ انتهى كلام ابن المستوفي.

قلت: وحكى لي بعض من أخذ عنه أنه لما كان ببلده كان جيرانهم ومعارفهم يسمونه مكيك تصغير مكي، فلما ارتحل واشتغل وحصل اشتاقت نفسه

إلى وطنه، فعاد إليه، فتسامع به من بقي ممن كان يعرفه، فزاروه وفرحوا به لكونه فاضلاً من أهل بلدهم، وبات تلك الليلة، فلما كان سحر خرج إلى الحمام فسمع امرأة في غرفتها تقول لأخرى: ما تدرين من جاء؟ فقالت: لا، فقالت: مكيك ابن فلانة، فقال: والله لا قعدت في بلد أدعى فيه مكيك وسافر من غير تربث بعد أن كان قد نوى الإقامة بها مدة وعاد إلى الموصل، ثم خرج إلى الشام في أواخر عمره لزيارة بيت المقدس، فانتهى إليه وقضى منه وطره.

ورجع إلى الموصل من حلب. وكان دخوله إلى الموصل في شهر رمضان وتوفي ليلة السبت السادس من شوال سنة ثلاث وستمائة بالموصل، وخلف ولداً صغيراً. ودفن بصحراء باب الميدان في مقبرة المعافى بن عمران جوار أبي بكر القرطبي وابن الدهان النحوي، رحمهم الله تعالى؛ ويقال إنه مات مسموماً من جهة صاحب الموصل نور الدين أرسلان شاه المقدم ذكره في حرف الهمزة لسبب اقتضى ذلك، والله أعلم.

وريان: بفتح الراء وتشديد الياء المثناة من تحتها وبعد الألف نون.

وشبه: بفتح الشين المعجمة وتشديد الباء الموحدة وبعد هاء ساكنة.

والماكسيني: بفتح الميم وبعد الألف كاف مكسورة أيضاً ثم ياء ساكنة مثناة من تحتها وبعدها نون، هذه النسبة إلى ماكسين، وهي بليدة من أعمال الجزيرة الفراتية على نهر الخابور، وهي على صغرها تشابه المدن في حسن بنائها ومنازلها.

مكحول الشامي

أبو عبد الله مكحول بن عبد الله الشامي، من سبي كابل ذكره ابن ماكولا في كتاب "الإكمال" في ترجمة شاذل فقال في نسبه: وهو مكحول بن أبي مسلم واسمه شهراب ابن شاذل بن سند بن سروان بن يزدك بن يغوب ابن كسرى.

قال ابن عائشة: كان مولى لامرأة من قيس، وكان سندياً لا يفصح؛ وقال الواقدي: كان مولى لامرأة من هذيل، وقيل هو مولى سعبد بن العاص، وقيل مولى لبني ليث.

قال الخطيب: كان جده شاذل من أهل هراة، فتزوج ابنة ملك من ملوك كابل، ثم هلك عنها وهي حامل، فانصرفت إلى أهلها، فولدت شهراب فلم يزل في أخواله بكابل حتى ولد له مكحول، فلما ترعرع سبي، ثم وقع إلى سعيد بن العاص فوهبه لامرأة من هذيل فأعتقته.

وكان معلم الأوزاعي المقدم ذكره في حرف الهمزة وسعيد بن عبد العزيز، قال الزهري: العلماء أربعة، سعيد بن المسيب بالمدينة، والشعبي بالكوفة، والحسن البصري بالبصرة، ومكحول بالشام. ولم يكن في زمنه أبصر منه بالفتيا، وكان لا يفتي حتى يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، هذا رأي والرأي يخطئ ويصيب. وسمع أنس بن مالك وواثلة بن الأسقع وأبا هند الداري وغيرهم، وكان مقامه بدمشق.

وكان في لسانه عجمة ظاهرة، ويبدل بعض الحروف بغيره، قال نوح بن قيس: سأله بعض الأمراء عن القدر، فقال: أساهر أنا؟ يريد أساحر أنا. وكان يقول بالقدر ورجع عنه، وقال معقل بن عبد الأعلى القرشي: سمعته يقول لرجل: ما فعلت تلك الحاجة؟ يريد الحاجة؛ وهذه العجمة تغلب على أهل السند.

يحكى عن أبي عطاء السندي الشاعر

المشهور، واسمه مرزوق، وهو من موالي أسد بن خزيمة، أنه كان في لسانه هذه العجمة، فاجتمع حماد الرواية وحماد عجرد الشاعر المقدم ذكرهما وحماد بن الزبرقان النحوي وبكر بن مصعب المزني، في بعض الليالي ليتذاكروا فقالوا: ما بقي شيء إلا وقد تهيأ لنا في مجلسنا هذا، فلو بعثنا إلى أبي عطاء السندي ليحضر عندنا ويكمل به المجلس، فأرسلوا إليه، فقال حماد بن الزبرقان: أيكم يحتال لأبي عطاء حتى يقول: جرادة وزج شيطان؟ وإنما اختار له هذه الألفاظ لأنه كان يبدل من الجيم زاياً ومن الشين سيناً، فقال حماد الراوية: أنا احتال في ذلك، فلم يلبثوا أن جاءهم أبو عطاء فقال لهم: هياكم الله، يريد حياكم الله، فقالوا له: مرهباً مرهبا، يريدون مرحبا مرحبا على لغته، فقالوا له: ألا تتعشى؟ فقال: قد تعسيت، فهل عندكم نبيذ نشرب؟

فقالوا: نعم، فأتوا له بنبيذ فشرب حتى استرخى فقال له حماد الراوية: يا أبا عطاء، كيف معرفتك باللغز؟ فقال: هسن، يريد حسن، فقال له ملغزاً في جرادة:

فما صفراء تكنى أم عوف ... كأن رجيلتيها منجلان

فقال: زرادة، فقال: صدقت، ثم قال ملغزاً في زجٍ:

فما اسم حديدةٍ في الرمح ترسي ... دوين الصدر ليست بالسنان

فقال أبو عطاء: زر، فقال حماد: أصبت، ثم قال ملغزاً في مسجد بجوار بني شيطان، وهو بالبصرة:

أتعرف مسجداً لبني تميم ... فويق الميل دون بني أبان

فقال: هو في بني سيطان، فقال: أحسنت، ثم تنادموا وتفاكهوا إلى سحرة في أرغد عيش.

وهذا أبو عطاء من الشعراء المجيدين، وكان عبداً أخرب، والأخرب: المشقوق الأذن، وله في كتاب الحماسة مقاطيع نادرة، ولولا خشية التطويل والخروج عن المقصود لذكرن جملة من شعره ونوادره.

وتوفي مكحول المذكور في سنة ثماني عشرة، وقيل ثلاث عشرة، وقيل ست عشرة، وقيل اثنتي عشرة، وقيل أربع عشرة ومائة، رضي الله عنه.

وكابل: بفتح الكاف وبعد الألف باء موحدة مضمومة ثم لام، وهي ناحية معروفة ببلاد السند.

ملكشاه السلجوقي

أبو الفتح ملكشاه بن ألب أرسلان محمد بن داود بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق، الملقب جلال الدولة وقد تقدم ذكر أبيه وجماعة من أهل بيته.

ولما توفي أبوه في التاريخ المذكور في ترجمته كان ملكشاه المذكور في صحبته، و لم يصحبه قبلها في سفر غير هذه المرة، فولي الأمر من بعده بوصية والده وتحليف الأمراء والجناد على طاعته، ووصى وزيره نظام الملك أبا علي الحسن المقدم ذكره في حرف الحاء على تفرقة البلاد بين أولاده، ويكون مرجعهم إلى ملكشاه المذكور، ففعل ذلك وعبر بهم جيحون راجعاً إلى البلاد، وقد شرحت الوقاعة في ترجمة والده فلا حاجة إلى الإعادة.

فلما وصل إلى البلاد وجد بعض أعمامه وهو قاروت بك صاحب كرمان قد خرج عليه، فعاجله وتصافا بالقرب من همذان، فنصره الله عليهم وانهزم عمه، فتبعه بعض جند ملكشاه فأسروه وحملوه إلى ملكشاه، فبذل التوبة ورضي بالاعتقال وأن لا يقتل، فلم يجبه ملكشاه إلى ذلك، فأنفذ له خريطة مملوءة من كتب أمرائه، وأنهم حملوه على الخروج عن طاعته وحسنوا له ذلك، فدعا السلطان بالوزير نظام الملك فأعطاه الخريطة ليفتحها ويقرأ ما فيها، فلم يفتحها، وكان هناك كانون نار فرمى الخريطة فيه فاحترقت الكتب، فسكنت قلوب العساكر وأمنوا، ووطنوا أنفسهم على الخدمة، بعد أن كانوا قد خافوا من الخريطة لأن أكثرهم كان قد كاتبه، وكان ذلك سبب ثبات قدم ملكشاه في السلطنة، وكانت هذه معدودة في جميل آراء نظام الملك.

ثم إن ملكشاه أمر بقتل عمه فخنق بوتر قوسه، واستقرت القواعد للسلطان وفتح البلاد واتسعت عليه المملكة، وملك ما لم يملكه أحد من ملوك الإسلام بعد الخلفاء المتقدمين فكان في مملكته جميع بلاد ما وراء النهر وبلاد الهياطلة وباب الأبواب والروم وديار بكر والجزيرة والشام وخطب له على جميع منابر الإسلام سوى بلاد المغرب، فإنه ملك من كاشغر وهي مدينة في أُقصى بلاد الترك إلى بيت المقدس طولاً، ومن القسطنطينية إلى بلاد الخزر وبحر الهند عرضاً، وكان قد قدر لمالكه ملك الدنيا.

وكلن من أحسن الملوك سيرة حتى كان يلقب بالسلطان العادل، وكان منصوراً في الحروب، ومغرماً بالعمائر، فحفر كثيراً من الأنهار، وعمر على كثير من البلدان الأسوار، وأنشأ في المفاوز رباطات وقناطر، وهو الذي عمر جامع السلطان ببغداد ابتدأ بعمارته في المحرم من سنة خمس وثمانين وأربعمائة، وزاد في دار السلطنة بها، وصنع بطريق مكة مصانع، وغرم عليها أموالاً كثيرة خارجة عن الحصر، وأبطل المكوس والخفارات في جميع البلاد.

وكان لهجاً بالصيد، حتى قيل إنه ضبط ما اصطاده بيده فكان عشرة آلاف، فتصدق بعشرة آلاف دينار بعد أن نسي كثيراً منه، وقال: إنني خائف من

الله سبحانه وتعالى لإزهاق الأرواح لغير مأكلة، وصار بعد ذلك كلما قتل صيداً تصدق بدينار.

وخرج من الكوفة لتوديع الحاج، فجاوز العذيب وشيعهم بالقرب من الواقصة وصاد في طريقه وحشاً كثيراً فبنى هناك منارة من حوافر الحمر الوحشية وقرون الظباء التي صادها في ذلك الطريق، والمنارة باقية إلى الآن وتعرف بمنارة القرون، وذلك في سنة ثمانين وأربعمائة.

وكانت السبيل في أيامه ساكنة والمخاوف آمنة، تسير القوافل من ما وراء النهر إلى أقصى الشام وليس معها خفير، ويسافر الواحد والإثنان من غير خوف ولا رهب.

وحكى محمد بن عبد الملك الهمذاني في تاريخه أن السلطان ملكشاه المذكور توجه لحرب أخيه تكش فاجتاز بمشهد علي بن موسى الرضا رضي الله عنهما بطوس ودخل مع نظام الملك الوزير وصليا فيه وأطالا الدعاء، ثم قال لنظام الملك: بأي شيء دعوت؟ قال: دعوت الله تعالى أن ينصرك ويظفرك بأخيك، فقال: أما أنا فلم أدع بهذا بل قلت: اللهم انصر أصلحنا للمسليمن وأنفعنا للرعية.

ثم قال الهمذاني أيضاً عقيب هذا: وحكي أن واعظاً دخل عليه ووعظه، فكان من جملة ما حكى له أن بعض الأكاسرة اجتاز منفرداً عن عسكره على باب بستان، فتقدم إلى الباب وطلب ماء يشربه، فأخرجت له صبية إناء فيه ماء السكر والثلج، فشربه واستطابه، فقال لها: هذا كيف يعمل؟ فقالت: إن قصب السكر يزكو عندنا حتى نعصره بأيدينا، فيخرج منه هذا الماء، فقال: ارجعي وأحضري شيئاً آخر، وكانت الصبية غير عارفة به، ففعلت، فقال في نفسه: الصواب أن أعوضهم عن هذا المكان وأصطفيه لنفسي، فما كان بأسرع من خروجها باكية، وقالت: إن نية سلطاننا قد تغيرت، فقال: ومن أين علمت ذلك؟ قالت: كنت آخذ من هذا ما أريد من غير تعسف، والآن فقد اجتهدت في عصر القصب فلم يسمح ببعض ما كان يأتي، فعلم صدقها، فرجع عن تلك النية، ثم قال لها: ارجعي الآن فأنك تبلغين الغرض، وعقد على نفسه أن لا يفعل ما نواه، فخرجت الصبية ومعها ما شاءت من ماء السكر وهي مستبشرة. فقال السلطان للواعظ: فلم لا تذكر للرعية أن كسرى اجتاز على بستان فقال للناطور: ناولني عتقوداً من الحصرم، فقال له: ما يمكنني ذلك، فإن السلطان لم يأخذ حقه ولا تجوز لي خيانته، فعجب الحاضرون من مقابلته الحكاية بمثلها، ومعارضته بما أوجب الحق له ما أوجب الحق عليه.

وحكى الهمذاني أيضاً أن سوادياً لقيه وهو يبكي، فسأله السلطان عن سبب بكائه، فقال: ابتعت بطيخاً بدريهمات لا أملك غيرها، فلقيني ثلاثة أغلمة أتراك فأخذوه مني، وما لي حيلة سواه، فقال: أمسك، واستدعى فراشاً وكان ذلك عند باكورة البطيخ، وقال له: إن نفسي قد تاقت إلى البطيخ، فطف في العسكر وانظر من عنه شيء فأحضره، فعاد ومعه بطيخ، فقال: عند من رأيته؟ قال: عند الأمير فلان، فأحضره وقال: من أين لك هذا البطيخ؟ فقال: جاء به الغلمان، فقال: أريدهم الساعة، فمضى وقد عرف نية السلطان فيهم، فهربهم وعاد فقال: لم أجدهم فالتفت إلى السوادي وقال: هذا مملوكي وقد وهبته لك حين لم يحضر القوم الذين أخذوا متاعك، والله لئن خليته لأضربن عنقك، فأخذه السوادي بيده، وأخرجه من بين يدي السلطان فاشترى المير نفسة بثلاثمائة دينار، وعاد السوادي وقال: يا سلطان، قد بعث المملوك بثلثمائة دينار فقال: أو قد رضيت؟ قال: نعم، قال: امض مصاحباً.

وكانت البركة والثمن مقرونين بناصيته، فكان إذا يدخل أصبهان أو بغداد أو أي بلد من البلاد كان، دخل معه عدد لا يحصى لكثرته فيرخص السعر وتنحط أثمان الأشياء عما كانت عليه قبله، ويكتسب المتعيشون مع عسكره الكسب الكثير.

وحكى الهمذاني أيضاً أنه أحضرت إليه مغنية وهو بالري، فأعجب بها واستطاب غناءها، فهم بها فقالت: يا سلطان، إني أغار على هذا الوجه الجميل أن يعذب بالنار، وإن الحلال أيسر، وبينه وبين الحرام كلمة، فقال: صدقت، واستدعى القاضي فتزوجها منه وابتنى بها، وتوفي عنها.

وقال صاحب الندول المنقطعة: ومن جملة ما سعى تاج الملك في نظام الملك الوزير أن قال للسلطان: إنه ينفق في كل سنة على أرباب المدارس والرباطات ثلثمائة ألف دينار، ولو جيش بها جيشاً لبلغ باب القسطنطينية، فاستحضر الناظم واستفسره على الحال، فقال: يا سلطان العالم إني أنا رجل شيخ، ولو ندوي علي لما زادت قيميتي على ثلاثة دنانير، وأنت حدث لو نودي عليك ما زادت قيمتك على ثلاثين ديناراً، وقد أعطاك الله تعالى وأعطاني بك ما لم يعطه أحداً من خلقه، أفلا نعوضه عن ذلك في حملة دينه وحفظة كتابه ثلاثمائة ألف دينار؟ ثم إنك تنفق على الجيوش المحاربة في كل

سنة ستة أضعاف هذا المال، مع أن أقواهم وأرماهم لا تبلغ رميته ميلاً ولا يضرب بسيفه إلا ما قرب منه، وأنا أجيش لك بهذا المال جيشاً تصل من الدعاء سهامه إلى العرض لا يحجبها شيء عن الله تعالى، فبكى السلطان وقال: يا أبت استكثر من الجيش، والأموال مبذولة لك، والدنيا بين يديك. وعيون محاسنه أكثر من أن تحصى.

وحكى الهمذاني أيضاً أن ناظم الملك الوزير وقع للملاحين الذين عبروا بالسطان والعسكر نهر جيحون على العامل بأنطاكية، وذلك لسعة المملكة، وكان مبلغ أجره المعابر أحد عشر ألف دينار.

وتزوج الإمام المقتدي بأمر الله أمير المؤمنين ابنة السلطان، وكات السفير في الخطبة الشيخ أبا إسحاق الشيرازي صاحب المهذب والتنبيه رحمه الله تعالى، وأنقذه الخليفة إلى نيسابور لهذا السبب، فإن السلطان كان هناك، فلما وصل إلى بغداد في أقل من أربعة أشهر، وناظر إمام الحرمين هناك، فلما أراد الإنصراف من نيسابور خرج إمام الحرمين للوداع، وأخذ بركابه حتى ركب أبو إسحاق، وظهر له في خراسان مترلة عظيمة وكانوا يأخذون التراب الذي وطئته بغلته فيتبركون به.

وكان زفاف ابنة السلطان إلى الخليفة في سنة ثمانين وأربعمائة، وفي صبيحة دخولها عليه أحضر الخليفة المقتدي عسكر السلطان على سماط صنعه لهم كان فيه أربعون ألف مناً سكراً، وفي بقية هذه السنة في ذي القعدة منها رزق الخليفة ولداً من ابنة السلطان سماه أبا الفضل جعفراً، وزينت بغداد لأجله.

وكان السلطان قد دخل إلى بغداد دفعتين، وهي من جملة بلاده التي تحتوي عليها مملكته، وليس للخليفة فيها سوى الاسم، فلما عاد إليها الدفعة الثالثة دخلها في أوائل شوال سنة خمس وثمانين وأربعمائة، وخرج من فوره إلى ناحية دجيل لأجل الصيد، فاصطاد وحشاَ وأكل من لحمه، فابتدأت به العلة، وافتصد، فلم يكثر من إخراج الدم، فعاد إلى بغداد مريضاً، و لم يصل إليه أحد من خاصته، فلما دخلها توفي ثاني يوم دخوله، وهو السادس عشر من شوال سنة خمس وثمانين وأربعمائة، وكانت ولادته في التاسع من جمادى الأولى سنة سبع وأربعين وأربعمائة، رحمه الله تعالى، وقيل إنه سم في خلال تخلل به، وحمل تاوبته إلى أصبهان ودفن بها في مدرسة عظيمة موقوفة على طائفة للشافعية والحنفية، و لم يشهد أحد جنازته ببغداد ولا صلي عليه في الصورة الظاهرة ولا جلسوا للعزاء، ولا حذف عليه ذنب فرس كعادة أمثاله، بل كأنه اختلس من العالم.

ومن عجيب الاتفاق أنه لما دخل بغدا في هذه المرة، وكان للخليفة المقتدي ولدان أحدهما الإمام المستظهر بالله والآخر أبو الفضل جعفر ابن بنت السلطان وقد تقدم ذكر ولادته، وكان الخليفة قد بايع لولده المستظهر بالله بولاية العهد من بعده لأنه كان الأكبر، فألزم السلطان الخليفة أن يخلعه إلى البصرة، فشق ذلك علي الخليفة، وبالغ في استترال السلطان عن هذه الرأي، فلم يفعل، فسأل المهلة عشرة أيام ليتجهز فأمهله، فقيل إن الخليفة في تلك الأيام جعل يصوم ويطوي وإذا أفطر جلس على الرماد للإفطار، وهو يدعو الله سبحانه وتعالى على السلطان، فمرض السلطان في تلك الأيام ومات، وكفي الخليفة أمره، وتزوج ابنة الإمام المستظهر بالله ابنة السلطان خاتون العصمة في سنة اثنتين وخمسمائة.

وقد تقدم ذكر أولاده الثلاثة الملوك، وهم بركياروق وسنجر محمد، كل واحد له ترجمة في حرفه، رحمهم الله تعالى أجمعين.

وكاشغر: بفتح الكاف وبعد الألف شين معجمة ساكنة وغين معجمة مفتوحة وبعدها راء، وقد ذكرت أين هي فلا حاجة إلى الإعادة، وهي قصبة بلاد تركستان.

والواقصة: بفتح الواو وبعد الألف قاف مكسورة وبعدها صاد مهملة مفتوحة ثم هاء ساكنة، وهي مترل معروف بطريق مكة يقال لها واقصة الحرون. والباقي معروف فلا حاجة إلى تفسيره، والله أعلم بالصواب.

منصور الفقيه

أبو الحسن منصور بن إسماعيل بن عمر لتميمي المصري الفقية الشافعي الضرير؛ أصله من رأس عين، البلدة المشهورة بالجزيرة، وأخذ الفقه عن أصحاب الشافعي، رضي الله عنه وعن أصحاب أصحابه. وله مصنفات في المذهب مليحة منها "الواجب" و"المستعمل" و"المسافر" و"الهدية" وغير ذلك من الكتب، وله شعر جيد سائر، وذكره الشيخ أبو إسحاق الشيرازي، رحمه الله تعالى، في "طبقات الفقهاء" وأنشد له:

عاب التفقه قوم لا عقول لهم وما عليه إذا عابوه من ضرر

ما ضر شمس الضحى والشمس طالعة أن لا يرى ضوءها من ليس ذا بصر

ومن هنا أخذ أبو العلاء المعري قوله من قصيدته المشهورة:

والنجم تستصغر الأبصار رؤيته والذنب للطرف لا للنجم في الصغر

ومن شعره أيضاً:

لي حيلة فيمن ينم وليس في الكذاب حيله

من كان يخلق ما يقو ل فحيلتي فيه قليله

وله أيضاً:

الكلب أحسن عشرةً وهو النهاية في الخساسه

ممن ينازع في الريا سة قبل أوقات الرياسه

وحكي أنه أصاب مسغبة في سنة شديدة القحط،، فرقي سطح داره ونادى بأعلى صوته في الليل:

الغياث الغياث يا أحرار نحن خلجانكم وأنتم بحار

إنما تحسن المواساة في الش دة لا حين ترخص الأسعار

فسمعه جيرانه، فأصبح على بابه مائة حمل بر.

وحكاياته وأخباره مشهورة؛ وتوفي في جمادى الأولى سنة ست وثلثمائة بمصر، وقال الشيخ أبو إسحاق في "الطبقات": إنه مات قبل العشرين والثلثمائة، رحمه الله تعالى.

وذكره القاضي أبو عبد الله القضاعي في كتاب "خطط مصر" فقال: أصله من رأس عين وسكن الرملة، وقدم إلى مصر وسكنها، وتوفي سنة ست وثلثمائة، وكان فقيهاً جليل القدر، متصرفاً في كل علم، شاعراً مجيداً، لم يكن في زمانه مثله بمصر.

وكان من أكرم الناس على أبي عبيدة القاضي، حتى كان منهما ما كان بسبب المسألة، وكان لأبي عبيدة في كل عشية مجلس يذاكر فيه رجلاً من أهل العلم ويخلو به، خلا عشية الجمعة فإنه كان يخلو بنفسه فيها، فكان من العشايا عشية يخلو فيها بمنصور، وعشية يخلو فيها بأبي جعفر الطحاوي، وعشية يخلو فيها بمحمد بن الربيع الجيزي، وعشية يخلو فيها بعفان بن سليمان، وعشية يخلو فيها بالسجستاني، وعشية يخلو فيها للنظر مع الفقهاء، وربما حدث، فجرى بينه وبين منصور في بعض العشايا ذكر الحامل المطلقة ثلاثاً، ووجوب نفقتها، فقال أبو عبيد: زعم قوم أن لا نفقة لها في الثلاث، وأن نفقتها في الطلاق غير الثلاث، فأنكر ذلك منصور، وقال: قائل هذا ليس من أهل القبلة. ثم انصرف منصور فحدث بذلك أبا جعفر الحطاوي، فحكاه أبو جعفر لأبي عبيدة فأنكره، وبلغ ذلك منصوراً فقال: أنا أكذبه، واجتمع الناس عند القاضي وتواعدوا لحضور ذلك، فلما حضروا لم يتكلم أحد، فابتدأ أبو عبيد وقال: ما أريد أحداً يدخل علي، ما أريد منصوراً ولا نصاراً ولا منتصراً، قوم عميت قلوبهم كما عميت أبصارهم يحكون عنا ما لم نقله، فقال له منصور: قد علم الله أنك قلت كذا وكذا، فقال أبو عبيد: كذبت، فقال له منصور: قد علم الله الكاذب، ونهض فلم يأخذ أحد بيده غير أبي بكر ابن الحداد فإنه أخذ بيده وخرج معه حتى ركب، وزاد الأمر فيما بينهما، وتعصب الأمير ذكا وجماعة من الجند وغيرهم لمنصور، وتعصب للقاضي جماعة، وشهد على منصور محمد بن الربيع الجيزي بكلام سمعه منه يقال إن منصوراً حكاه عن النظام، فقال القاضي: إن شهد عليه آخر مثل ما شهد به عليه محمد بن الربيع ضربت عنقه، فخاف على نفسه ومات في جمادى الأولى من السنة المذكورة. وخاف أبو عبيد أن يصلي عليه لأجل

الجند الذين تعصبوا لمنصور، فتأخر عن جنازته لهذا السبب، وحضرها الأمير ذكا وابن بسطام صاحب الخراج، وأوعظ الناس و لم يتخلف كبير أحد، وذكر لأبي عبيد أن منصوراً قال عند موته:

قضيت نحبي فسر قوم حمقى بهم غفلة ونوم

كأن يومي علي حتم وليس للشامتين يوم

تموت قبلي ولو بيوم ونحن يوم النشور توم

فأطرق أبو عبيد ساعة ثم قال:

فقد فرحنا وقد شمتنا وليس للشامتين لوم

والله أعلم بالصواب.

الحاكم العبيدي

أبو علي المنصور الملقب الحاكم بأمر الله بن العزيز بن المعز بن المنصور بن القائم ابن المهدي صاحب مصر وقد تقدم ذكر أجداده وجماعة من أحفاده، وسيأتي ذكر أبيه في حرف النون إنشاء الله تعالى وكلهم كانوا يتسمون بالخلفاء.

وتولى الحاكم المذكور عهد أبيه في حياته، وذلك في شعبان سنة ثلاث وثمانين وثلثمائة، ثم استقل بالأمر يوم وفاة والده على ما سيأتي في تاريخه إن شاء الله تعالى؛ وكان جواداً بالمال سفاكاً للدماء، قتل عدداً كثيراً من أمائل أهل دولته وغيرهم صبراً.

وكانت سيرته من أعجب السير، يخترع كل وقت أحكاماً يحمل الناس على العمل بها، منها أنه أمر الناس في سنة خمس وتسعين وثلثمائة بكتب سب الصحابة رضوان الله عليهم في حيطان المساجد والقياسر والشوارع، وكتب إلى سائر عمال الديار المصرية يأمرهم بالسب، ثم أمر بقطع ذلك ونهى عنه وعن فعله في سنة سبع وتسعين، ثم تقدم بعد ذلك بمدة يسيرة بضرب من يسب الصحابة وتأديبه ثم يشهره؛ ومنها أنه أمر بقتل الكلاب في سنة خمسة وتسعين وثلثمائة فلم ير كلب في الأسواق والأزقة والشوارع إلا قتل؛ ومنها أنه نهى عن بيع الفقاع والملوخيا وكبب الترمس المتخذة لها والجرجير والسمكة التي لا قشر لها، وأمر بالتشديد في ذلك والمبالغة في تأديب من يعترض لشيء منه، فظهر على جماعة أنهم باعوا أشياء منه، فضربوا بالسياط وطيف بهم، ثم ضربت أعناقهم، ومنها أنه في سنة اثنتين وأربعمائة نهى عن بيع الزبيب قليلة وكثيرة على اختلاف أنواعه، ونهى التجار عن حمله إلى مصر، ثم جمع بعد ذلك منه جملة كثيرة وأحرق جميعها، ويقال إن مقدار النفقة التي غرموها على إحراقه كانت خمسمائة دينار، وفي هذه السنة منع من بيع العنب وأنفذ الشهود إلى الجيزة حتى قطعوا كثيراً من كرومها ورموها في الأرض وداسوها بالبقر، وجمع ما كان في مخازنها من جرار العسل فكانت خمس آلاف جرة، وحملت إلى شاطيء النيل وكسرت وقلبت في بحر النيل؛ وفي هذه السنة أمر النصاري واليهود إلا الخيابرة يلبس العمائم السود، وأن يعمل النصارىفي أعناقهم الصلبان ما يكون طوله ذراعاً ووزنه خمسة أرطال.وأن تحمل اليهود في أعناقهم قرامي الخشن على وزن صلبان النصارى، ولا يركبوا شيئاً من المراكب المحلاة، وأن تكون ركبهم من الخشب، ولا يستخدمون أحداً من المسلمين، ولا يركبون حماراً لمكار مسلم ولا سفينة نوتيها مسلم، وأن يكون في أعناق النصاري إذا دخلوا الحمام الصلبان، وفي أعناق اليهود الجلاجل ليتميزوا عن المسلمين، ثم أفرد حمامات اليهود والنصارى والمسلمين وحط على حمامات النصارى الصلبان، وعلى حمامات الهود القرامي، وذلك في سنة ثمان وأربعمائة. وفيها أمر بهدم الكنيسة المعروفة بقمامة وجميع الكنائس بالديار المصرية، ووهب جميع ما فيها من الآلات وجميع ما لها من الأرباع والأحباس لجماعة من المسلمين، وتتابع إسلام جماعة من النصارى؛ وفي هذه السنة نهى عن تقبيل الأرض له وعن الدعاء له والصلاة عليه في الخطب والمكتبات، وأن يجعل عوض ذلك السلام على أمير المؤمنين. وفي سنة أربع وأربعمائة أمر أن لا ينجم أحد ولا يتكلم عن صناعة النجوم، وأن ينفي المنجمون من البلاد، فحضر جميعهم إلى القاضي مالك بن سعيد الحاكم بمصر كان وعقد عليهم توبة، وأعفو من النفي وكذلك أصحاب الغناء. وفي شعبان من هذه السنة منع النساء من الخرزج إلى الطرقات ليلاً ونهاراً، ومنع الأساكفة من عمل الخفاف للنساء، ومحيت صورهن من الحمامات، و لم تزل النساء ممنوعات عن الخروج إلى

أيام ولده الظاهر المقدم ذكره، وكانت مدة منعهن سبع سنين وسبعة أشهر، وفي شعبان سنة إحدى عشرة وأربعمائة تنصر جماعة ممن كان أسلم من النصارى، وأمر ببناء ما كان قد هدم من كنائسهم ورد ماكان في أحباسها، وبالجملة فهذه نبذة من أحواله، وإن كان شرحها يطول.

وكان أبو الحسن علي المعروف بابن يونس المنجم قد صنع له الزيج المشهور المعروف بالحاكمي، وهو زيج كبير مبسوط.

ونقلت من خط الحافظ أبي أحمد بن محمد السلفي، رحمه الله تعالى، أن الحاكم المذكور كان جالساً في مجلسه العام وهو حفل بأعيان دولته، فقرأبعض الحاضرين قوله تعالى" فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدون فيأنفسهم حرجا ممـاقضيت ويسلموا تسليما" "النساء:65 والقارىء في أثناء ذلك يشير إلى الحاكم، فلما فرغ من القراءة قرأ شخص آخر يعرف بابن المشجر وكان رجلاً صالحاً "يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له، إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه، ضعف الطالب والمطلوب، ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوي عزيز" الحج: 73 فلما أنهى قراءته تغير وجه الحاكم، ثم أمر لابن المشجر المذكور بمائة دينار، ولم يطلق للآخر شيئاً؛ ثم إن بعض أصحاب المشجر قال له: أنت تعرف خلق الحاكم، وكثرة استحالاته، وما نأمن أن يحقد عليك، وأنه لا يؤاخذك في هذا الوقت ثم يؤاخذك بعد هذا فتتأذى معه، ومن المصلحة عندي أن تغيب عنه، فتجهز ابن المشجرللحج، وركب في البحر فغرق، فرآه صاحبه في النوم، فسأله عن حاله، فقال: ما أقصر الربان معنا أرسى بنا على باب الجنة، رحمه الله تعالى؛ وذلك ببركة جميل نيته وحسن قصده.

ومن أخبار المستطرفة التي تدخل في أبواب الفرج بعد الشدة ما حدث به الرؤساء أن ولي الدولة ابن خيران استحضره الحاكم ذات يوم وقال له: يا ولي الدولة، إني أريد أن أزوج مملوكي فلاناً على جاريتي فلانة بعد عتقهما وكذلك آخر لأخرى فخذ هاتين الشقتين واخطب فيهما خطبتين حسنتين وانسق الصداق والمهر بعد ذلك ما تقتضيه صانعة الوراق، وبكر إلينا من الفجر ولا تتأخر. فقبل ذلك من الحاكم بالسمع والطاعة وانصرف، ووصل إلى داره بمصر وأسهر نفسه واستنتج قريحته وجود فكرته وعمل ما أشار له في الكتابين ولم يزل في السهر إلى وقت السحر، فاستحثه الرسل فقام ليتوضأ ويتهيأ إليه فعثرت رجله في المحبرة فتطرطش الكتابين، فلطم وجهه ووقع مغشياً عليه وانقبض أهله، وعلم أنه مقتول، فوصى أهله الوصية التامة وركب وأخذ الكتابين في كمه مطويين، ولم يزل إلى أن دخل من باب القاهرة ووصل إلى القصر مغلساً، والرسل والحجاب منتظرون قدومه، وحين وصل أذن له في الدخول، فوجد الحاكم في الإيوان الكبير جالساً على سرير، وبين يديه طشطان وعليهما قوارتان، فلما رأى الحاكم قبل الأرض ووقف صامتاً فقال له: يا ولي الدولة اكشف هذين الطشطين، فكشف عنهما فإذا في كل منهما رأس رجل ورأس امرأة، فقال: هؤلاء اطلعنا منهم على قضية منحوسة وفساد لا ينبغي الصبر، عليه ففعلنا بهم ما فعلناه، وتلك الثوبان خذهما فصلهما لأهلك، امض لشأنك، فخرج من بين يديه مغشياً عليه، فأقام في الديوان إلى أن سكنت نفسه وهدأ روعه، وكتب إلى أهله رقعة يأمرهم فيها بالسكون والسكوت إلى أن يجتمع بهم.

والحاكم المذكور هو الذي بنى الجامع الكبير بالقاهرة، بعد أن كان قد شرع فيه والده العزيز بالله كما سيأتي ذكره في ترجمته إن شاء الله تعالى وأكمله وأبده، وبنى جامع راشدة بظاهر مصر، وكان شروعه في عمارته يوم الاثنين سابع عشر شهر ربيع الأول سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة، وكان متولي بنائه الحافظ أبا محمد عبد الغني بن سعيد، والمصحح لمحرابه أبا الحسن علي بن يونس المنجم، وقد تقدم ذكرهما، وأنشأ عدة مساجد بالقرافة وغيرها، وحمل إلى الجوامع من المصاحف والآلات الفضية والستور والحصر السامان ما له قيمة طائلة.

وكان يفعل الشيء وينقضه.

وخرج عليه في سنة خمس وتسعين وثلثمائة أبو ركوة الوليد بن هشام العثماني الأندلسي، وكان خروجه في نواحي برقة، ومال إليه خلق عظيم، وسير إليه الحاكم المذكور جيشاً كبيراً وانتصر عليهم وملك، ثم تكاثروا عليه وأمسكوه، ويقال إنه قتل من أصحابه مقدار سبعين ألفاً، وكان قبضهم إياه في سنة سبع وتسعين، وحمل إلى الحاكم فشهره وقتله، يوم الأحد السابع والعشرين من جمادى الآخرة من السنة، وحديثه مستوفى في تاريخ ابن الصابي.

وكانت ولادته بالقاهرة ليلة الخميس الثالث والعشرين من شهر ربيع الأول سنة خمس وسبعين وثلثمائة.

وكانت يحب الانفراد والركوب على بهيمة وحده، فاتفق أنه خرج ليلة الاثنين السابع والعشرين من شوال سنة إحدى عشرة وأربعمائة إلى ظاهر مصر، وطاف ليلته كلها وأصبح عند قبر الفقاعي، ثم توجه إلى شرقي حلوان ومعه ركابيان، فأعاد أحدهما مع تسعة من العرب السويدين، ثم أعاد الركابي الآخر، وذكر هذا الركابي أنه خلفه عند القبر والمقصبة، وبقي الناس على رسمهم يخرجون يلتمسون رجوعه ومعهم دواب الموكب إلى يوم

الخميس سلخ الشهر المذكور،ثم خرج يوم الأحد ثاني ذي القعدة مظفر صاحب المظلة وخطي الصقلبي ونسيم متولي الستر وابن بشتكين التركي صاحب الرمح وجماعة من الأولياء الكتاميين والأتراك، فبلغوا دير القصير والموضع المعروف بسلوان، ثم أمعنوا في الدخول في الجبل فبينما هم كذلك إذ أبصروا حماره الأشهب الذي كان راكباً عليه المدعو بالقمر، وهو على قرنة

الجبل، وقد ضربت يداه بسيف فأثر فيهما، وعليه سرجه ولجامه، فتتبعوا الأثر فإذا أثر الحمار في الأرض وأثر راجل خلفه وراجل قدامه، فلم يزالوا يقصون هذا الأُثر حتى انتهوا إلى البركة التي في شرقي حلوان، فترل إليها بعض الرجالة فوجد فيها ثيابه، وهي سبع جباب، ووجدت مزررة لم تحل أزرارها، وفيها آثار السكاكين فأخذت وحملت إلى القصر بالقاهرة، و لم يشك في قتله، مع أن جماعة من المغالين في حبهم السخيفي العقول يظنون حياته، وأنه لا بد أن سيظهر، ويحلفون بغيبة الحاكم وتلك خيالات هذيانية، ويقال إن أخته دست عليه من يقتله لأمر يطول شرحه، والله أعلم.

وابن المشجر: بضم الميم وفتح الشين المعجمة والجيم المشددة وبعدها راء.

وحلوان: بضم الحاء المهملة وسكون الميم وفتح الواو وبعد الألف نون، وهي قرية مليحة كثيرة التره فوق مصر بمقدار خمسة أميال، كان يسكنها عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي لما كان والياً بمصر نيابة عن أخيه عبد الملك أيام خلافته، وبها توفي، وبها ولد ولده عمر بن عبد العزيز، رضي الله عنه.

الآمر بأحكام الله

أبو علي المنصور الملقب الآمر بأحكام الله بن المستعلي بن المستنصر بن الظاهر ابن الحاكم العبيدي المذكور قبله، وقد تقدم بقية نسبه، وسبق ذكر والده في الأحمدين في حرف الهمزة.

وبويع الآمر بالخلافة بالولاية يوم مات أبوه في التاريخ المذكور في ترجمته وقام بتدبير دولته الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش المذكور في حرف الشين وكان وزير والده، وقد ذكرنا في ترجمته طرفاً من الآمر المذكور، ولما اشتد الآمر وفطن لنفسه قتل الأفضل حسبما تقدم شرحه، واستوزر المأمون أبت عبيد الله بن أبي شجاع فاتك بن أبي الحسن مختار المعروف بابن فاتك البطائحي، فاستولى هذا الوزير عليه، وقبح سمعته وأساء السيرة، ولما كثر ذلك منه قبض عليه الآمر أيضاً ليلة السبت رابع شهر رمضان سنة تسع عشرة وخمسمائة واستطفى جميع أمواله، ثم قتله في رجب سنة إحدى وعشرين، وصلب بظاهر القاهرة وقتل معه خمسةً من إخوته، أحدهم يقال له المؤتمن، وكان متكبراً متجبراً خارجاً عن طوره، وله أخبار مشهورة.

ثم ظهر في مدة القبض على المأمون المصادرات على يد الراهب المسمى أبا شجاع بن قسا، فلم يبق أحد إلا وناله بمكروه من ضرب ونهب مال، وكان هذا الراهب الملعون في ابتداء حاله يخدم ولي الدولة أبا البركات ين يحيى بن أبي الليث ثم اتصل بالآمر وبذل في مصادرة قوم من النصارى مائة ألف دينار، فأطلق يده فيهم، وتسلسل الحال إلى أن عم البلاد جميع رؤساء مصر وقضاتها وكتابها وشهودها وسوقتها إلى أن صادر رجلاً حمالاً فأخذ عشرين ديناراً ثمن جمل باعه لم يكن يملك سواه، وارتفع عنده إلى أن كان يستعمل بتنس ودمياط ملابس مخصوصة من الصوف الأبيض معلمة بالذهب، فكان يلبسها ويلبس فوقها الدماقس والديباج، وكان يتطيب من المسك بعدة من المثاقيل كل يوم، وكان يشم رائحة طيبه من مكان بعيد، وكان يركب الحمر بالسروج المحلاة بالذهب والفضة، ويدخل إلى دهليز القاعة المعروفة بلباس الخطباء بالجامع العتيق بمصر، فيجلس هناك ويستدعي الناس للمصادرة، وأقام كذلك مدة إلى أن قتل في سنة ثلاث وعشرين، على يد المقداد الوالي بمصر ثم صلب عند الجسر. ذكر أنه لما قبض على دار الراهب وجد فيها مكان فيه ثمانمائة طراحة جدد لم تستعمل قدرت إلى السقف، هذا نوع واحد فيها مكان قليل الاستعمال فكيف ما عداه من الديباج وأنواع المتاع الفاخر.

وكان الآمر سيء الرأي جائر السيرة مستهتراً متظاهراً باللهو اللعب، وفي أيامه أخذ الفرنج مدينة عكا في شعبان سنة سبع وتسعين وأربعمائة، وأخذوا طرابلس الشام بالسيف يوم الاثنين لإحدى عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة اثنتين وخمسمائة، وكان أخذهم بالسيف، ونهبوا ما فيها، وأسروا رجالها وسبوا نساءها وأطفالها، وحصل في أيديهم من أمتعها وذخائرها وكتب دار علمها وما كان في خزائن أربابها ما لايحد عدده ولا يحصى، وعوقب من بقي من أهلها، واستصفيت أمواهم، ثم وصلتها نجدة المصريين بعد فوات الأمر فيها، وفي هذه السنة ملكوا عرقة وكان نزولهم عليها أول

شعبان من السنة المذكورة، وفيها ملكوا بانياس، وفيها جبيل بالأمان، وتسلموا قلعة تبنين يوم الجمعة لثمان بقين من ذي الحجة سنة إحدى عشرة وخمسمائة، وكان الوالي بها من جهة الأتابك ظهير الدين طغتكين المذكور في حرف التاء في ترجمة تتش بن ألب أرسلان وكان يومئذ صاحب دمشق وما والاها. ولما ملكوا صور ضربوا السكة باسم الآمر المذكور مدة ثلاث سنين، ثم قطعوا ذلك، وأخذوا بيروت يوم الجمعة الحادي والعشرين من شوال سنة ثلاث وخمسمائة بالسيف، وأخذوا صيدا لعشر بقين من جمادى الآخرة سنة أربع وخمسمائة.

وفي أيام الآمر أيضاً سنة أربع وخمسمائة، وقيل سنة إحدى عشرة، والله أعلم، قصد بردويل الافرنجي الديار المصرية ليأخذها، وانتهى إلى الفرما ودخلها وأحرقها وأحرق جامعها ومساجدها وأبواب البلد وقتل بها رجلاً مقعداً وابنته، فذبحها على صدره ورحل عنها وهو مريض، فهلك في الطريق قبل وصوله إلى العريش، فشق أصحابه بطنه ورموا حشوته هناك، فهي ترجم إلى اليوم، ورحلوا بجثته فدفنوها بقمامة. وسبخة بردويل التي في وسط الرمل على طريق الشام منسوبة إلى بردويل المذكور، والحجارة الملقاة هناك، والناس يقولون: هذا قبر بردويل وإنما هو هذه الحشوة، وكان بردويل صاحب البيت المقدس وعكا ويافا وعدة بلاد من ساحل الشام، وهو الذي أخذ هذه البلاد المذكور من المسلمين.

وفي هذه السنة أيضاً خرج المهدي محمد بن تومرت المقدم ذكره من مصر وصاحبها الآمر المذكور إلى بلاد المغرب في زي الفقهاء، وجرى له هناك ما سبق شرحه في ترجمته.

وكانت ولادة الآمر يوم الثلاثاء ثالث عشر المحرم وقيل ثاني المحرم سنة تسعين وأربعمائة بالقاهرة، وتولى وعمره خمس سنين. ولما انقضت أيامه خرج من القاهرة صبيحة يوم الثلاثاء ثالث ذي القعدة سنة أربع وعشرين وخمسمائة ونزل إلى مصر وعدى على الجسر إلى الجزيرة التي قباله مصر، فكمن له قوم بالأسلحة وتواعدوا على مقتله في السكة التي يمر فيها إلى فرن هناك، فلما مر بهم وثبوا عليه فلعبوا عليه بأسيافهم، وكان قد جاوز الجسر وحده مع عدة قليلة من غلمانه وبطانته وخاصته وشيعته، فحمل في النيل في زورق ولم يمت، وأدخل القاهرة وهو حي، وجيء به إلى القصر من ليلته فمات ولم يعقب، وهو العاشر من أولاد المهدي عبيد الله القائم بسجلماسة المقدم ذكره.

وانتقل الأمر إلى ابن عمه الحافظ عبد المجيد المقدم ذكره رحمهم الله تعالى؛ وكان قبيح السيرة ظلم للناس وأخذ أموالهم وسفك دماءهم، وارتكب المحذورات، واستحسن القبائح المحظورات، فابتهج الناس بقتله، وكان شديد الأدمة جاحظ العينين، حسن الخط والمعرفة والعقل.

وأما المأمون ابن البطائحي الوزير المذكور فهو الذي بنى الجامع الأقمر بالقاهرة سنة خمس عشرة وخمسمائة، وكان الأفضل ابن أمير الجيوش قد شرع في عمارة جامع النيل بظاهر مصر عند الرصد المطل على بركة حبش في سنة ثمان وتسعين وأربعمائة، ولم يكلمه، فأكمله بعده في مدة وزارته، والله أعلم بالصواب.

قطب الدين مودود

قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي بن آق سنقر، المعروف بالأعرج صاحب الموصل وقد تقدم طرف من خبره في ترجمة أخيه نور الدين محمود صاحب الشام، وذكر أولاده الثلاثة وهم: سيف الدين غازي الذي تولى السلطنة بعده، وعز الدين مسعود، وعماد الدين زنكي صاحب سنجار، واستوعبت في ترجمة غازي ما جرى من نور الدين عقيب موت قطب الدين المذكور وأنه قصد الموصل ثم قرر غازي المذكور فيها، ورتب أحوال أولاد أخيه كلهم.

وفي تلك السفرة بنى نور الدين الجامع النوري داخل الموصل، وهو مشهور هناك يقام فيه الجمعة، وكان سبب عمارته ما حكاه العماد الأصبهاني في البرق الشامي عند ذكره لوصول نور الدين إلى الموصل أنه كان بالموصل خربة متوسطة البلد واسعة، وقد أشاعوا عنها ما ينفر القلوب منها، وقالوا: ما شرع في عمارتها إلا من ذهب عمره، ولم يتم على مراده أمره، فأشار عليه الشيخ الزاهد معين الدين عمر الملا وكان من كبار الصالحين بابتياع الخربة وبنائها جامعاً؛ وأنفق فيها أموالاً جزيلة، ووقف على الجامع ضيعة من ضياع الموصل.

وكان قطب الدين قد تولى السلطنة بالموصل وتلك البلاد عقيب موت أخيه سيف الدين غازي الأكبر المقدم ذكره أيضاً وكان حسن السيرة، عادلاً في حكمه. وفي دولته عظم شأن جمال الدين محمد الوزير الأصبهاني المعروف بالجواد المقدم ذكره وهو الذي قبض عليه حسبما سبق شرحه، وكان مدبر

دولته وصاحب رأيه الأمير زين الدين علي كجك والد مظفر الدين صاحب إربل، وكان نعم المدبر والمشير لصلاحه وخيره وحسن مقاصده مع شجاعة تامة وفروسية مشهورة وقد تقدم ذكره في ترجمة ولده مظفر الدين في حرف الكاف. ولم يزل قطب الدين المذكور على سلطنته ونفاذ كلمته إلى أن توفي في شوال سنة خمس وستين وخمسمائة، وقيل في الثاني والعشرين من ذي الحجة من السنة المذكور.

وذكر أسامة بن منقذ في كتاب له صغير ذكر فيه من أدركه في عمره من ملوك البلاد أن قطب الدين المذكور توفي سلخ ربيع الآخر سنة ست ستين وخمسمائة، وليس بصحيح، فإن أخاه نور الدين كان بالموصل في شهر ربيع الآخر، وجاءته رسل الخليفة وهو مخيم على الموصل في الشهر المذكور، ولم يتوجه نور الدين إليها إلا بعد وفاة أخيه قطب الدين. وكانت وفاته بالموصل، ومدة عمره أكثر من أربعين سنة بقليل، وخلف عدة أولاد، وأكثرهم ملك البلاد.

وقد تقدم ذكر أبيه وجده وجماعة من أهل بيته، رحمهم الله تعالى.

مؤرج السدوسي

أبو فيد مؤرج بن عمرو بن الحارث بن ثور بن حرملة بن علقمة بن عمرو بن سدوس بن شيبان بن ذهل بن ثعلبة بن عكابة، السدوسي النحوي البصري؛ أخذ العربية عن الخليل بن أحمد، وروى الحديث عن شعبة بن الحجاج وأبي عمرو ابن العلاء وغيرهما، وكان يقول: قدمت من البادية ولا معرفة لي بالقياس في العربية، وإنما كانت معرفتي قريحة، وأول ما تعلمت القياس في حلقة أبي زيد الأنصاري بالبصرة.

ودخل الأخفش سعيد على محمد بن المهلب، فقال له محمد: من أين جئت؟ فقال الأخفش: من عند القاضي يحيى بن أكثم، قال: فما جرى عنده؟ قال: سألني عن الثقة المأمون المقدم من أصحاب الخليل بن أحمد من هو؟ ومن الذي كان يوثق بعلمه؟ فقلت: النضر بن شميل وسيبويه مؤرج السدوسي.

وكان الغالب على مؤرج المذكور اللغة والشعر، وله عدة تصانيف: منها كتاب الأنواء وهو كتاب حسن، وكتاب غريب القرآن وكتاب جماهير القبائل وكتاب المعاني وغير ذلك، واختصر نسب قريش في مجلد لطيف سماه حذف نسب قريش.

وكان قد رحل مع المأمون من العراق إلى خراسان، وسكن مدينة مرو، وقدم نيسابور وأقام بها وكتب عنه مشايخها، وكان له شعر، فمن ذلك مما أنشده هارون بن علي بن يحيى المنجم في كتابه المسمى ب البارع، وهو:

روعت بالبين حتى ما أروع له ... وبالمصائب من أهلي وجيراني
لم يترك الدهر لي علقاً أضن به ... إلا اصطفاه بنأيٍ أو بهجران

ثم قال ابن المنجم المذكور: وهذان البيتان من أملح ما قيل في معناهما، ومثلهما في معناهما لبعض المحدثين:

وفارقت حتى ما أروع من النوى ... وإن غاب جيران علي كرام
فقد جعلت نفسي على اليأس تنطوي ... وعيني على هجر الصديق تنام

ومن هاهنا أخذ ابن التعاويذي المقدم ذكره قوله:

وها أنا لا قلبي يراع لفائت ... فيأسى ولا يلهيه حظ فيفرح

وهذا البيت من جملة قصيدة يذكر فيها توجعه لذهاب بصره، فمنها قوله مشيراً إلى زوجته:

وباكية لم تشك فقداً ولا رمى ... بجيرتها الأدنين نأي مطوح
رمتها يد الأيام في ليث غابها ... بفادح خطبٍ والحوادث تفدح
رأت جللاً لا الصبر يجمل بالفتى ... على مثله يوماً، ولا الحزن يقبح

فلا غرو أن تبكي الدماء لكاسب لها كان يسعى في البلاد ويكدح
عزيز عليهما أن تراني جاثماً وما لي في الأرض البسيطة مسرح
وأن لا أقود العيش تنفح في البرى وجرد المذاكي في الأعنة تمرح
أظل حبيساً في قرارة منزل رهين أسى أمسى عليه وأصبح
مقامي منه مظلم الجو قاتم ومسعاي ضنك وهو صمحان أفيح
أقاد به قود الجنيبة مسمحاً وما كنت لولا غدرة الدهر أسمح
كأني ميت لا ضريح لجنبه وما كل ميت لا أبالك يضرح
وها أنا لا قلبي يراع لفائت فيأسى، ولا يلهيه خظ فيفرح
فلله نصل فل مني غراره وعود شباب عاد وهو مصوح
وسقياً لأيام ركبت بها الهوى جموحاً ومثلي في هوى الغيد يجمح
وماضي صبا قضيت منه لبانتي خلاساً وعين الدهر زرقاء تلمح
ليالي لي عند الغواني مكانة فألحاظها ترنو إلي وتطمح
وليلى بها أضعاف ما بي من الهوى أعرض بالشكوى لها فتصرح

دوهي طويلة طنانة يمدح بها الإمام الناصر لدين الله خليفة بغداد.

وقال المزرباني: وجدت بخط محمد بن العباس اليزيدي ما مثاله: أهدى أبو فيد مؤرج السلوسي إلى جدي محمد بن أبي كساء، فقال جدي فيه يمدحه:

سأشكر ما أولى ابن عمرو مؤرج وأمنحه حسن الثناء مع الود
أغر سدوسي نماه إلى العلى أب كان صباً بالمكارم والمجد
أتينا أبا فيد نؤمل سيبه ونقدح زنداً غير كابٍ ولا صلد
فأصدرنا بالري والبذل واللهى وما زال محمود المصادر والورد
كساني ولم أستكسه متبرعاً وذلك أهنى ما يكون من الرفد
كسانيه فضفاضاً إذا ما لبسته تروحت مختالاً وجرت عن القصد
كساء جمال إن أردت جمالة وثوب شتاء إن خشيت من البرد
ترى حبكاً فيه كأن اطرداها فرند حديث صقله سل من غمد
سأشكر ما عشت السدوسي بره وأوصي بشكرٍ للسدوسي من بعدي

وأخبار مؤرج كثيرة.

وقال ابن النديم: وجدت بخط عبد الله بن المعتز: مؤرج بن عمرو السدوسي كان من أصحاب الخليل بن أحمد، توفي سنة خمس وتسعين ومائة، في

اليوم الذي توفي فيه أبو نواس، وهذا يستقيم على قول من ذهب إلى أن أبا نواس توفي سنة خمس وتسعين ومائة، وقد سبق الخلاف فيه.
ورأيت في كتاب الأنوار في أوله ما مثاله، قال أبو علي إسماعيل بن يحيى بن المبارك اليزيدي: قرأنا هذا الكتاب على المؤرج بجرحان ثم قدمنا مع المأمون العراق، سنة أربع ومائتين، فخرج المؤرج إلى البصرة ثم مات بها رحمه الله تعالى. وهذا خلاف للأول، والله أعلم بالصواب. وأما المؤرج فلا خلاف أنه مات في هذه السنة. وقد ذكره ابن قتيبة في كتاب المعارف وغيره. وفيد: بفتح الفاء وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها دال مهملة، وهو في الأصل ورد الزعفران، وقيل هو الزعفران بعينه.
ومؤرج: بضم الميم وفتح الواو المهموزة وكسر الراء المشددة وبعدها جيم، وهو اسم فاعل من قولهم أرجت بين القوم إذا أغريت بينهم.
وقد تقدم الكلام على السدوسي في ترجمة قتادة في حرف القاف. وقيل: إن اسمه مرثد، ومؤرج لقب له، ومرثد: بفتح الميم والثاء المثلثة وراء ساكنة وفي الآخر دال مهملة، قال الجوهري في كتاب الصحاح: يقال رثدت المتاع: نضدته ووضعت بعضه على بعض أو إلى جنب بعض، ثم قال بعد ذلك: تركت بني فلان مرتثدين ما تحملوا بعد، أي ناضدين متاعهم، قال ابن السكيت: ومنه اشتق مرثد، وهو اسم رجل، والمرثد اسم من أسماء الأسد.
وكان مؤرج يقول: اسمي وكنيتي غريبان، اسمي مؤرج، والعرب تقول أرجت بي القوم وأرشت وأنا أبو فيد، والفيد: ورد الزعفران، ويقال: فاد الرجل يفيد فيداً، إذا مات، والله أعلم بالصواب.

موسى الكاظم

أبو الحسن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين ابن الحسين بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنهم، أحد الأئمة الاثني عشر، رضي الله عنهم أجمعين.
قال الخطيب في تاريخ بغداد: كان موسى يدعى العبد الصالح، من عبادته واجتهاده. روي أنه دخل مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فسجد سجدة في أول الليل، وسمع وهو يقول في سجوده: عظم الذنب عندي فليحسن العفو من عندك يا أهل التقوى ويأأهل المغفرة، فجعل يرددها حتى أصبح. وكان سخياً كريماً، وكان يبلغه عن الرجل أنه يؤذيه فيبعث إليه بصرة فيها ألف دينار، وكان يصر الصرر ثلثمائة دينار ومائتي دينار، ثم يقسمها بالمدينة. وكان يسكن المدينة فأقدمه المهدي بغداد وحبسه، فرأى في النوم علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو يقول: يا محمد "فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم" محمد:22 قال الربيع: فأرسل إلي ليلاً، فراعني ذلك، فجئته فإذا هو يقرأ هذه الآية، كان أحسن الناس صوتاً، وقال: علي بموسى بن جعفر، فجئته به فعانقه وأجلسه إلى جنبه وقال: يا أبا الحسن، إني رأيت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه في النوم يقرأ علي كذا، فتؤمنني أن تخرج علي أو على أحد من أولادي، فقال: والله لا فعلت ذلك ولا هو من شأني، قال: صدقت، أعطه ثلاثة آلاف دينار، ورده إلى أهله إلى المدينة، قال الربيع: فأحكمت أمره ليلا فما أصبح إلا وهو في الطريق خوف العوائق.
وأقام بالمدينة إلى أيام هارون الرشيد، فقدم هارون منصرفاً من عمرة شهر رمضان سنة تسع وسبعين ومائة، فحمل موسى معه إلى بغداد وحبسه بها إلى أن توفي محبسه. وذكر أيضاً أن هارون الرشيد حج فأتى قبر النبي صلى الله عليه وسلم زائراً وحوله قريش ورؤساء القبائل، ومعه موسى بن جعفر، فقال: السلام عليك يا رسول الله يا ابن عم، افتخاراً على من حوله، فقال موسى: السلام عليك يا أبت، فتغير وجه هارون الرشيد وقال: هذا هو الفخر يا أبا الحسن حقا؛ انتهى كلام الخطيب.
وقال أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي في كتاب مروج الذهب في أخبار هارون الرشيد: إن عبد الله بن مالك الخزاعي كان على دار هارون الرشيد وشرطته، فقال: أتأني رسول الرشيد وقتاً ما جاءني فيه قط،، فانتزعني من موضعي ومنعني من تغيير ثيابي، فراعني ذلك، فلما صرت إلى الدار سبقني الخادم فعرف الرشيد خبري، فأذن لي في الدخول عليه فدخلت فوجدته قاعداً على فراشه فسلمت عليه فسكت ساعة، فطار عقلي وتضاعف الجزع علي، ثم قال: يا عبد الله أتدري لما طلبتك في هذا الوقت؟ قلت: لا والله يأمير المؤمنين، قال: إني رأيت الساعة في منامي كأن حبيشاً قد أتاني ومعه حربة فقال: إن خليت عن موسى بن جعفر الساعة وإلا نحرتك بهذه الحربة، فاذهب فخل عنه، قال: فقلت: يا أمير المؤمنين، أطلق موسى بن جعفر؟ ثلاثاً، قال: نعم امض الساعة حتى تطلق موسى بن جعفر، وأعطه ثلاثين ألف درهم، وقل له: إن أحببت المقام قبلنا فلك عندي ما

تحب، وإن أحببت المضي إلى المدينة فالإذن في ذلك لك، قال: فمضيت إلى الحبس لأخرجه، فلما رآني موسى وثب إلي قائماً وظن أني قد أمرت فيه بمكروه، فقلت: لا تخف، فقد أمرني بإطلاقك وأن أدفع لك ثلاثين ألف درهم، وهو يقول لك إن أحببت المقام قبلنا، فلك كل ما تحب، وإن أحببت الانصراف إلى المدينة فالأمر في ذلك مطلق لك، وأعطيته ثلاثين ألف درهم، وخليت سبيله وقلت له: لقد رأيت من أمرك عجباً، قال: إني أخبرك، بينما أنا أنائم إذ أتاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا موسى، حبست مظلوماً فقل هذه الكلمات فإنك لا تبيت هذه الليلة في الحبس، فقلت: بأبي وأمي ما أقول؟ قال: قل يا سامع كل صوت، ويا سابق الفوت، ويا كاسي العظام لحماً ومنشرها بعد الموت، أسألك بأسمائك الحسنى وباسمك الأعظم الأكبر المخزون المكنون الذي لم يطلع عليه أحد من المخلوقين، يا حليماً ذا أناة لا يقوى على أناته، يا ذا المعروف الذي لا ينقطع أبداً ولا يحصى عدداً، فرج عني؛ فكان ما ترى.

وله أخبار ونوادر كثيرة. وكانت ولادته يوم الثلاثاء قبل طلوع الفجر سنة تسع وعشرين ومائة، وقال الخطيب: سنة ثمان وعشرين بالمدينة؛ وتوفي لخمس بقين من رجب سنة ثلاث وثمانين ومائة، وقيل سنة ست وثمانين ببغداد، وقيل إنه توفي مسموماً. وقال الخطيب: توفي في الحبس ودفن في مقابر الشونيزيين خارج القبة، وقبره هناك مشهور يزار، وعليه مشهد عظيم فيه قناديل الذهب والفضة وأنواع الآلات والفرش ما لايحد، وهو في الجانب الغربي، وقد سبق ذكر أبيه وأجداده وجماعة من أحفاده، رضي الله عنهم وأرضاهم، وكان الموكل به مدة حبسه السندي بن شاهك جد كشاجم الشاعر المشهور.

كمال الدين ابن يونس

أبو الفتح موسى بن أبي الفضل يونس بن محمد بن منعة بن مالك بن محمد، الملقب كمال الدين، الفقيه الشافعي؛ تفقه بالموصل على والده، ثم توجه إلى بغداد سنة إحدى وسبعين وخمسمائة، وأقام بالمدرسة النظامية يشتغل على المعيد بها السديد السلماسي المقدم ذكره وكان المدرس بها يومئذ الشيخ رضي الدين أبو الخير أحمد بن اسماعيل بن يوسف بن محمد بن العباس القزويني، فقرأ الخلاف والأصول وبحث الأدب على الكمال أبي البركات عبد الرحمن بن محمد الأنباري المقدم ذكره فتميز ومهر، وكان قد قرأ أولاً على الشيخ أبي بكر يحيى بن سعدون القرطبي الآتي ذكره إن شاء الله تعالى وهو بالموصل ثم أصعد إلى الموصل وعكف على الاشتغال، ودرس بعد وفاة والده في التاريخ الآتي ذكره في ترجمته إن شاء الله تعالى في موضعه بالمسجد المعروف بالأمير زين الدين صاحب إربل، وهذا المسجد رأيته وهو على وضع المدرسة، ويعرف الآن بالمدرسة الكمالية لأنه نسب إلى كمال الدين المذكور لطول إقامته به.

ولما اشتهر فضله انثال عليه الفقهاء، وتبحر في جمع الفنون، وجمع من العلوم ما لم يجمعه أحد، وتفرد بعلم الرياضة، ولقد رأيته بالموصل في شهر رمضان سنة ست وعشرين وستمائة، وترددت إليه دفعات عديدة لما كان بينه وبين الوالد رحمه الله من المؤانسة والمودة الأكيدة، ولم يتفق لي الأخذ عنه لعدم الإقامة وسرعة الحركة إلى الشام، وكان الفقهاء يقولون: إنه يدري أربعة وعشرين فناً دراية متقنة، فمن ذلك المذهب وكان فيه أوحد الزمان، وكان جماعة من الطائفة الحنفية يشتغلون عليه بمذهبهم، ويحل لهم مسائل الجامع الكبير أحسن حل مع ما هي عليه من الإشكال المشهور؛ وكان يتقن فني الخلاف العراقي والبخاري، وأصول الفقه وأصول الدين. ولما وصلت كتب فخر الدين الرازي إلى الموصل وكان بها إذ ذاك جماعة من الفضلاء لم يفهم أحد منهم اصطلاحة فيها سواه، وكذلك الإرشاد للعميدي لما وقف عليها حلها في ليلة واحدة وأقرأها على ما قالوه.

وكان يدري فن الحكمة: المنطق والطبيعي والإلهي، وكذلك الطب، ويعرف فنون الرياضة من اقليدس والهيئة والمخروطات والمتوسطات والمجسطي المجسطي لفظة يونانية معناها بالعربي الترتيب، ذكر ذلك الوكري في كتابه وأنواع الحساب: المفتوح منه والجبر والمقابلة والأرثماطيقي وطريق الخطأين، والموسيقى والمساحة، معرفة لا يشاركه فيها غيره إلا في ظواهر هذه العلوم دون دقائقها والوقوف على حقائقها، وبالجملة فلقد كان كما قال الشاعر:

وكان من العلوم بحيث يقضى ... له في كل فن بالجميع

واستخرج في علم الأوفاق طرقاً لم يهتد إليها أحد؛ وكان يبحث في العربية والتصريف بحثاً تاماً مستوفًى، حتى إنه كان يقرىء كتاب سيبويه والإيضاح والتكملة لأبي علي الفارسي، والمفصل للزمخشري، وكان له في التفسير والحديث وأسماء الرجال وما يتعلق به يدٌ جيدة؛ وكان يحفظ من التواريخ وأيام العرب ووقائعهم، والأشعار والمحاضرات، شيئاً كثيراً. وكان أهل الذمة يقرءون عليه التوراة والإنجيل، ويشرح لهما هذين الكتابين شرحاً يعترفون أنهم لا يجدون من يوضحهما لهم مثله. وكان في كل فن من هذه الفنون كأنه يعرف سواه لقوته فيه. وبالجملة فإن مجموع ما كان يعلمه من الفنون لم يسمع عن أحد ممن تقدمه أنه قد جمعه.

ولقد جاءنا الشيخ أثير الدين المفضل بن عمر بن المفضل الأبهري، صاحب التعليقة في الخلاف والزيج والتصانيف المشهورة، من الموصل إلى إربل في سنة ست وعشرين وستمائة وقبلها في خمس وعشرين وستمائة، ونزل بدار الحديث، وكنت أشتغل عليه بشيء من الخلاف، فبينما أنا يوماً عنده إذ دخل عليه بعض فقهاء بغداد، وكان فاضلاً، فتجاريا في الحديث زماناً، وجرى ذكر الشيخ كمال الدين في أثناء الحديث، فقال له الأثير: لما حج الشيخ كمال الدين ودخل بغداد كنت هناك؟ فقال: نعم، فقال: كيف كان إقبال الديوان العزيز عليه؟ فقال ذلك الفقيه: ما أنصفوه على قدر استحقاقه، فقال الأثير: ما هذا إلا عجب، والله ما دخل إلى بغداد مثل الشيخ، فاستعظمت منه هذا الكلام، وقلت له: يا سيدنا كيف تقول كذا؟ فقال: يا ولدي ما دخل إلى بغداد مثل أبي حامد الغزالي، ووالله ما بينه وبين الشيخ نسبة.

وكان الأثير على جلالة قدره في العلوم يأخذ الكتاب ويجلس بين يديه يقرأ عليه، والناس يوم ذاك يشتغلون في تصانيف الأثير. ولقد شاهدت هذا بعيني، وهو يقرأ عليه كتاب المجسطي. ولقد حكى لي بعض الفقهاء أنه سأل الشيخ كمال الدين عن الأثير ومترلته في العلوم فقال: ما أعلم، فقال: وكيف هذا يا مولانا. وهو في خدمتك منذ سنين عديدة، ويشتغل عليك؟ فقال: لأني مهما قلت له تلقاه بالقبول وقال: نعم يا مولانا، فما جاذبني في مبحث قط حتى أعلم حقيقة فضله، ولا شك أنه كان يعتمد هذا القدر مع الشيخ تأدباً، وكان معيداً عنده في المدرسة البدرية، وكان يقول: ما تركت بلادي وقصدت الموصل إلا للاشتغال على الشيخ.

وكان شيخنا تقي الدين أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن المعروف بابن الصلاح المقدم ذكره يبالغ في الثناء على فضائله وتعظيم شأنه وتوحده في العلوم؛ فذكره يوماً وسرع في وصفه على عادته، فقال له بعض الحاضرين: يا سيدنا، على من اشتغل؟ ومن كان شيخه؟ فقال: هذا الرجل خلقه الله تعالى عالماً إماماً في فنونه، لا يقال على من اشتغل ولا من شيخه، فإنه أكبر من هذا.

وحكى لي بعض الفقهاء بالموصل أن ابن الصلاح المذكور سأله أن يقرأ عليه شيئاً من المنطق سراً، فأجابه إلى ذلك، وتردد إليه مدة فلم يفتح عليه فيه بشيء فقال له: يا فقيه، المصلحة عندي أن تترك الاشتغال بهذا الفن، فقال له: و لم ذاك يا مولانا؟ فقال: لأن الناس يعتقدون فيك الخير، وهم ينسبون كل من اشتغل بهذا الفن إلى فساد الاعتقاد، فكأنك تفسد عقائدهم فيك ولا يحصل لك من هذا الفن شيء؛ فقبل إشارته وترك قراءته.

ومن يقف على هذه الترجمة فلا ينسبني إلى المغالاة في حق الشيخ. ومن كان من أهل تلك البلاد وعرف ما كان عليه الشيخ، عرف أني ما أعرته وصفاً ونعوذ بالله من الغلو والتساهل في النقل.

ولقد ذكره أبو البركات المبارك بن المستوفي المقدم ذكره في تاريخ إربل فقال: هو عالم مقدم، ضرب في كل علم، وهو في علم الأوائل: كالهندسة والمنطق وغيرهما ممن يشار إليه، حل اقليدس والمجسطي على الشيخ شرف الدين المظفر بن محمد المظفر الطوسي الفارابي، يعني صاحب الاصطرلاب الخطي المعروف بالعصا.

ثم قال ابن المستوفي: وردت عليه مسائل من بغداد في مشكلات هذا العلم، فحلها واستصغرها، ونبه على براهينها، بعد أن احتقرها، وهو في الفقه والعلوم الإسلامية نسيج وحده، ودرس في عدة مدارس بالموصل، وتخرج عليه خلق كثير في كل فن.

ثم قال: أنشدنا لنفسه، وأنفذها إلى صاحب الموصل يشفع عنده:

لئن شرفت أرضٌ بمالك رقها ... فمملكة الدنيا بكم تتشرف

بقيت بقاء الدهر أمرك نافذ ... وسعيك مشكور وحكمك منصف

ومكنت في حفظ البسيطة مثل ما　　　تمكن في أمصار فرعون يوسف

قلت أنا: ولقد أنشدني هذه الأبيات عنه أحد أصحابنا بمدينة حلب، وكنت بدمشق سنة ثلاث وثلاثين وستمائة، وبها رجل فاضل في علوم الرياضة، فأشكل عليه مواضع في مسائل الحساب والجبر والمقابلة والمساحة واقليدس، فكتب جميعها في درج وسيرها إلى الموصل، ثم بعد أشهر عاد جوابه، وقد كشف عن خفيها وأوضح غامضها وذكر ما يعجز الإنسان عن وصفه، ثم كتب في آخر الجواب: فليمهد العذر في التقصير في الأجوبة، فإن القريحة جامدة، والفطنة خامدة، قد استولى عليها كثرة النسيان، وشغلتها حوادث الزمان، وكثير مما استخرجناه وعرفناه نسيناه، بحيث صرنا كأنا ما عرفناه؛ وقال لي صاحب المسائل المذكورة: ما سمعت مثل هذا الكلام إلا للأوائل المتقنين لهذه العلوم، ما هذا من كلام أبناء هذا الزمان.

وحكى لي الشيخ الفقيه الرياضي علم الدين قيصر بن أبي القاسم عبد الغني بن مسافر الحنفي المصري المعروف بتعاسيف، وكان إماماً في علوم الرياضة، قال: لما أتقنت علوم الرياضة بالديار المصرية ودمشق، تاقت نفسي إلى الاجتماع بالشيخ كمال الدين لما كنت أسمعه من تفرده بهذه العلوم، فسافرت إلى الموصل قصد الاجتماع به، فلما حضرت في خدمته وجدته على حلية الحكماء المتقدمين، وكنت قد طالعت أخبارهم، فسلمت عليه وعرفته قصدي له للقراءة عليه، فقال لي: في أي العلوم تريد تشرع؟ فقلت: في الموسيقى، فقال: مصلحة هو، فلي زمان ما قرأه أحد عليّ، فأنا أوثر مذاكرته، وتجديد العهد به، فشرعت فيه ثم في غيره حتى شققت عليه أكثر من أربعين كتاباً في مقدار ستة أشهر، وكنت عارفاً بهذا الفن، لكن كان غرضي الانتساب في القراءة إليه، وكان إذا لم أعرف المسألة أوضحها لي، وما كنت أجد من يقوم مقامه في ذلك.

وقد أطلت الشرح في نشر علومه، ولعمري لقد اختصرت.

ولما توفي أخوه الشيخ عماد الدين محمد المقدم ذكره تولى الشيخ المدرسة العلائية موضع أخيه، ولما فتحت المدرسة القاهرية تولاها. ثم تولى المدرسة البدرية في ذي الحجة سنة عشرين وستمائة. وكان مواظباً على إلقاء الدروس والإفادة. وحضر في بعض الأيام دروسه جماعة من المدرسين أرباب الطيالس، وكان العماد أبو علي عمر بن عبد النور بن ماجوج بن يوسف الصنهاجي اللزني النحوي البجائي حاضراً، فأنشد على البديهة قوله:

كمال كمال الدين للعلم والعلى　　　فهيهات ساع في مساعيك يطمع

إذا اجتمع النظار في كل موطن　　　فغاية كلٍ أن تقول ويسمعوا

فلا تحسبوهم من غناء تطيلسوا　　　ولكن حياء واعترافاً تقنعوا

وللعماد المذكور فيه أيضاً:

تجر الموصل الأذيال فخراً　　　على كل المنازل والرسوم

بدجلة والكمال، هما شفاء　　　لهيمٍ أو لذي فهم سقيم

فذا بحرٌ تدفق وهو عذب　　　وذا بحر ولكن من علوم

وكان الشيخ سامحه الله تعالى يتهم في دينه لكون العلوم العقلية غالبة عليه، وكانت تعتريه غفلة في بعض الأحيان لاستيلاء الفكرة عليه بسبب هذه العلوم، فعمل فيه العماد المذكور:

أجدك أن قد جاد بعد التعبس　　　غزال بوصلٍ لي وأصبح مؤنسي

وعاطيته صهباء من فيه مزجها　　　كرقة شعري أو كدين ابن يونس

وقد خرجنا عن المقصود إلى ما لا حاجة بنا إليه.

وكانت ولادته يوم الخميس، خامس صفر إحدى وخمسين وخمسمائة، بالموصل. وتوفي بها رابع عشر شعبان سنة تسع وثلاثين وستمائة، ودفن في تربتهم المعروفة بهم عند تربة عناز، خارج باب العراق.

وقد سبق ذكر ولده شرف الدين أحمد في حرف الهمزة، وأخيه عماد الدين في حرف الميم، وسيأتي ذكر والده في حرف الياء إن شاء الله تعالى، رحمهم الله أجمعين.

ولما كنت أتردد إلى خدمته بالموصل أوقع الله في نفسي أنه إن رزقت ولداً ذكراً سميته باسمه، ثم سافرت في بقية السنة المذكورة إلى الشام وأقمت به عشر سنين، ثم سافرت إلى الديار المصرية في سنة ثلاث وثلاثين وستمائة وتقلبت الأحوال ثم حصل التأهل، فرزقني الله ولدي الأكبر في بكرة يوم السبت حادي عشر صفر سنة إحدى وخمسين وستمائة بالقاهرة المحروسة فسميته موسى، وعجبت من موافقته للشيخ في الولادة، في الشهر والسنة، فكان بين مولدهما سنة. وذكرت ذلك للشيخ الحافظ زكي الدين عبد العظيم المحدث فعجب من هذا الاتفاق، وجعل يكرر التعجب ويقول: والله إن هذا لشيء غريب.

وتوفي الشيخ رضي الدين القزويني مدرس المدرسة النظامية المذكور في أول هذه الترجمة، في الثالث والعشرين من المحرم سنة تسعين وخمسمائة. وكانت ولادته في شهر رمضان سنة اثنتي عشرة وخمسمائة بقزوين، وموته بها أيضاً.

ولولا خوف الإطالة لذكرت من مناقب الشيخ كمال الدين ما يستغرق الوصف. وقد تقدم الكلام على الصنهاجي.

وأما اللزني: فهو بفتح اللام وسكون الزاي وبعدها نون، هذه النسبة إلى لزنة، وهي قبيلة من البربر تسكن بالقرب من بجاية من عمل إفريقية.

وتوفي علم تعاسيف المذكور يوم الأحد ثالث عشر رجب من سنة تسع وأربعين وستمائة بدمشق، ودفن خارج باب شرقي، ثم نقل إلى باب الصغير. ومولده في سنة أربع وسبعين وخمسمائة بأصفون، من شرقي صعيد مصر، رحمه الله تعالى.

موسى بن نصير

أبو عبد الرحمن موسى بن نصير، اللخمي بالولاء، صاحب فتح الأندلس؛ كان من التابعين، رضي الله عنهم، وروى عن تميم الداري، رضي الله عنه، وكان عاقلاً كريماً شجاعاً ورعاً تقياً لله تعالى، لم يهزم له جيش قط.

وكان والده نصير على حرس معاوية بن أبي سفيان، ومترلته عنده مكينة. ولما خرج معاوية لقتال علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، لم يخرج معه، فقال له معاوية: ما منعك من الخروج معي ولي عندك يد لم تكافئني عليها؟ فقال: لم يمكني أن أشكرك بكفر من هو أولى بشكري، فقال: ومن هو؟ قال: الله عزوجل، فقال: وكيف لا أم لك؟ قال: وكيف لا أعلمك هذا، فأعض وأمص، قال: فأطرق معاوية ملياً، ثم قال: أستغفر الله، ورضي عنه.

وكان عبد الله بن مروان أخو عبد الملك بن مروان والياً على مصر وإفريقية، فبعث إليه ابن أخيه الوليد بن عبد الملك أيام خلافته يقول له: أرسل موسى بن نصير إلى إفريقية، وذلك في سنة تسع وثمانين للهجرة.

وقال الحافظ أبو عبد الله الحميدي في كتاب جذوة المقتبس: إن موسى ابن نصير تولى إفريقية والمغرب سنة سبع وسبعين، فأرسله إليها، فلما قدمها ومعه جماعة من الجند، بلغه أن بأطراف البلاد جماعة خارجين عن الطاعة، فوجه ولده عبد الله، فأتاه بمائة ألف رأس من السبايا، ثم وجه ولده مروان إلى جهة أخرى فأتاه بمائة ألف رأس.

قال الليث بن سعد: فبلغ الخمس ستين ألف رأس، وقال أبو شبيب الصدفي: لم يسمع في الإسلام بمثل سبايا موسى بن نصير. ووجد أكثر مدن إفريقية خالية لاختلاف أيدي البربر عليها، وكانت البلاد في قحط شديد، فأمر الناس بالصوم والصلاة وإصلاح ذات البين، وخرج بهم إلى الصحراء، ومعه سائر الحيوانات، وفرق بينها وبين أولادها، فوقع البكاء والصراخ والضجيج، وأقام على ذلك إلى منتصف النهار، ثم صلى وخطب بالناس، و لم يذكر الوليد بن عبد الملك، فقيل له: ألا تدعو لأمير المؤمنين؟ فقال: هذا مقام لا يدعى فيه لغير الله عزوجل، فسقوا حتى رووا. ثم خرج موسى غازياً، وتتبع البربر وقتل فيهم قتلاً ذريعاً، وسبى سبياً عظيماً، وسار حتى انتهى إلى السوس الأدنى لا يدافعه أحد. فلما رأى بقية البربر ما نزل بهم استأمنوا وبذلوا له الطاعة فقبل منهم، وولى عليهم والياً، واستعمل على طنجة وأعمالها مولاه طارق بن زياد البربري، ويقال إنه من الصدف، وترك عنده تسعة عشر ألف فارس من البربر بالأسلحة والعدد الكاملة، وكانوا قد أسموا وحسن إسلامهم، وترك موسى عندهم خلقاً يسيراً من العرب لتعليم القرآن وفرائض الإسلام، ورجع إلى إفريقية، و لم يبق بالبلاد من ينازعه من البربر ولا من الروم.

فلما استقرت له القواعد كتب إلى طارق وهو بطنجة يأمره بغزو بلاد الأندلس في جيش من البربر ليس فيه من العرب إلا قدر يسير، فامتثل طارق أمره، وركب البحر من سبتة إلى الجزيرة الخضراء من بر الأندلس، وصعد إلى جبل يعرف اليوم بجبل طارق لأنه نسب إليه لما حصل عليه، وكان صعوده إليه يوم الاثنين لخمس خلون من رجب سنة اثنتين وتسعين للهجرة في اثني عشر ألف فارس من البربر خلا اثني عشر رجلاً.
وذكر عن طارق أنه كان نائماً في المركب وقت التعدية، وأنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الأربعة رضي الله عنهم يمشون على الماء، حتى مروا به فبشره رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفتح؛ وأمره بالرفق بالمسلمين والوفاء بالعهد، ذكر ذلك ابن بشكوال – المقدم ذكره في حرف الخاء – في تاريخ الأندلس.
وكان صاحب طليطلة ومعظم بلاد الأندلس ملك يقال له لذريق. ولما احتل طارق بالجبل المذكور كتب إلى موسى بن نصير: إني فعلت ما أمرتني به، وسهل الله سبحانه وتعالى بالدخول. فلما وصل كتابه إلى نوسى بدم على تأخره، وعلم أنه إن فتح نسب الفتح إليه دونه، فأخذ في جمع العساكر، وولى على القيروان ولده عبد الله، وتبعه فلم يدركه إلا بعد الفتح. وكان لذريق المذكور قد قصد عدواً له، واستخلف في المملكة شخصاً يقال له تدمير، وإلى هذا الشخص تنتسب بلاد تدمير بالأندلس –وهي مرسية وما والاها، وهي خمس مواضع تسمى بهذا الاسم، واستولى الفرنج على مرسية سنة اثنتين وخمسين وستمائة –فلما نزل طارق من الجبل بالجيش الذي معه كتب تدمير إلى لذريق الملك إنه قد وقع بأرضنا قوم لا ندري من السماء هم أم من الأرض، فلما بلغ ذلك لذريق رجع عن مقصده في سبعين ألف فارس، ومعه العجل يحمل الأموال والمتاع، وهو على سريره بين دابتين عليه قبة مكللة بالدر والياقوت والزبرجد.
فلما بلغ طارقاً دنوه قام في أصحابه فحمد الله سبحانه وتعالى، وأثنى عليه بما هو أهله، ثم حث المسلمين على الجهاد ورغبهم في الشهادة، ثم قال: أيها الناس، أين المفر والبحر من ورائكم والعدو أمامكم؟ فليس لكم والله إلا الصدق والصبر، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مآدب اللئام، وقد استقبلتم عدو كم بجيشه وأسلحته، وأقواته موفورة، وأنتم لا وزر لكم غير سيوفكم، ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من أيدي أعدائكم، وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم، و لم تنجزوا لكم أمراً، ذهبت ريحكم وتعوضت القلوب برعبها منكم الجراءة عليكم، فافعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية، فقد ألقت إليكم مدينته المحصنة، وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن لكم إن سمحتم بأنفسكم للموت. وإني لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة، ولا حملتكم على خطة أرخص متاع فيها النفوس أبداً فيها بنفسي، واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلاً، استمتعتم بالأرفه الألذ طويلاً، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي، فيما حظكم فيه أوفر من حظي، وقد بلغكم نا أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان الرافلات في الدر والمرجان، والحلل المنسوجة بالعقيان، المقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان، وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك من الأبطال عرباناً، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً، ثقة منه بارتياحكم للطعان، واستماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان، ليكون حظه معكم ثواب الله على إعلاء كلمته، وإظهار دينه بهذه الجزيرة، ويكون مغنمها خالصاً لكم من دونه ومن دون المسلمين سواكم، والله تعالى ولي إنجادكم على ما يكون لكم ذكراً في الدارين. واعلموا أني أول مجيب إلى ما دعوتكم إليه، وأني عند ملتقى الجمعين حامل بنفسي على طاغية قومه لذريق فقاتله إن شاء الله تعالى، فاحملوا معي، فإن هلكت بعده فقد كفيتكم أمره ولن يعوزكم بطل عاقل تسندون أمركم إليه، وإن هلكت قلب وصولي إليه فاخلفوني في عزيمتي هذه، واحملوا بأنفسكم عليه، واكتفوا المهم من فتح هذه الجزيرة بقتله، فإنهم بعده يخذلون.

فلما فرغ طارق من تحريض أصحابه على الصبر في قتال لذريق وأصحابه وما وعدهم من النيل الجزيل، انبسطت نفوسهم وتحققت آمالهم وهبت ريح النصر عليهم وقالوا: قد قطعنا الآمال مما يخالف ما عزمت عليه، فاحضر إليه فأنا معك وبين يديك. فركب طارق وركبوا وقصدوا مناخ لذريق، وكان قد نزل بمتسع من الأرض، فلما تراءى الجمعان نزل طارق وأصحابه، فباتوا ليلتهم في حرس إلى الصبح.
فلما أصبح الفريقان تلببوا وعبوا كتائبهم وحمل لذريق على سريره، وقد رفع على رأسه رواق ديباج يظله، وهو مقبل في غاية من البنود والأعلام وبين يديه المقاتلة والسلاح، وأقبل طارق وأصحابه عليهم الزرد، ومن فوق رؤوسهم العمائم البيض وبأيديهم القسي العربية، وقد تقلدوا السيوف واعتقلوا

الرماح، فلما نظر إليهم لذريق قال: أما والله إن هذه الصور التي رأينا ببيت الحكمة ببلدنا، فداخله منهم رعب.
ونتكلم هاهنا على بيت الحكمة ماهو، ثم نتكلم على حديث هذه الواقعة: وأصل خبر بيت احكمة أن اليونان – وهم الطائفة المشهورة بالحكمة – كانوا يسكنون ببلاد المشرق قبل عهد الإسكندر، فلما ظهرت الفرس واستولت على البلاد، وزاحمت اليونان على ما كان بأيديهم من الممالك، انتقل اليونان إلى جزيرة الأندلس، لكونها طرفاً في آخر العمارة، و لم يكن لها ذكر يوم ذاك، ولا ملكها أحد من الملوك المعتبرةن ولاكانت عامرة، وكان أول من عمر فيها واختطها أندلس بن يافث بن نوح عليه السلام، فسميت باسمه، ولما عمرت الأرض بعد الطوفان كان صورة المعمور منها عندهم على شكل طائر رأسه المشرق والجنوب والشمال جناحاه، وما بينهما بطنه، والمغرب ذنبه، فكانوا يزدرون المغرب لنسبته إلى أخس أجزاء الطائر.
قلت: وجرى في مجلس الحافظ أبي طاهر السفلي نادرة تصلح أن نذكرها هاهنا وهي أن أبا إسحاق إبراهيم بن عبد الله المعروف بابن الجمش البلبيسي كان في مجلسه، وعبد العزيز الشريشي يقرأ حديث عمرو بن العاص: خلقت الدنيا على صورة طير... الحديث المذكور؛ فقال الشريشي لأبي إسحاق يمازحه: اسمع يا أبا إسحاق، وشر ما في الطير ذنبه، فقال أبو إسحاق: هيهات ما عرفت أنت ما كان ذلك الطائر المشبه؟ كان طاووساً، وما فيه أحسن من ذنبه.
وكانت اليونان لا ترى فناء الأمم بالحروب لما ترى فيه من الإضرار والاشتغال عن العلوم التي كان أمرها عندهم من أهم الأمور، فلذلك انحازوا من بين يدي الفرس إلى الأندلس. فلما صاروا إليها أقبلوا على عمارتها، فشقوا الأنهار وبنوا المعاقل، وغرسوا الجنات والكروم، وشيدوا الأمصار، وملؤوها حرثاً ونسلاً وبنياناً، فعظمت وطابت حتى قال قائلهم لما رأى بهجتها: إن الطائر الذي صورت العمارة على شكله، وكان المغرب ذنبه، كان طاوساً معظم جماله في ذنبه. فاغتبطوا بها أتم اغتباط واتخذوا دار الملك والحكمة بها مدينة طليطلة لأنها وسط البلاد، وكان أهم الأمور عندهم تحصينها عمن يتصل به خبرها من الأمم، فنظروا فإذا ليس ثم من يحسدهم على أرغد العيش إلا أرباب الشظف والشقاء، وهم يوم ذاك طائفتان: العرب والبربر، فخافوهم على جزيرتهم المعمورة، فعزموا أن يتخذوا لدفع هذين الجنسين من الناس طلمساً، فرصدوا لذلك أرصاداً.
ولما كان البربر بالقرب منهم، وليس بينهم سوى تعدية البحر، ويرد عليهم منهم طوائف منحرفة الطباع خارجة عن الأوضاع، وازدادوا منهم نفراً، وكثر تحذيرهم من مخالطتهم في نسب أو مجاورة، حتى انبث ذلك في طبائعهم، وصار بغضهم مركباً في غرائزهم، فلما علم البربر عداوة أهل الأندلس لهم وبغضهم، أبغضوهم وحسدوهم، فلا تجد أندلسياً إلا مبغضاً بربرياً ولا بربرياً إلا مبغضاً أندلسياً، إلا أن البربر أحوج إلى أهل الأندلس من أهل الأندلس إلى البربر، لكثرة وجود الأشياء بالأندلس وعدمها ببلاد البربر.

وكان بنواحي غرب جزيرة الأندلس ملك يوناني بجزيرة يقال لها قادس، وكانت له ابنة في غاية الجمال، فتسامع بها ملوك الأندلس، وكانت جزيرة الأندلس كثيرة الملوك، لكل بلدة أو بلدتين ملك تناصفاً منهم في ذلك، فخطبها كل واحد منهم، وكان أبوها يخشى من تزويجها لواحد منهم وإسخاط الباقين، فتحير في أمره، وأحضر ابنته المذكورة، وكانت الحكمة مركبة في طباع القوم ذكورهم وإناثهم – ولذلك قيل إن الحكمة نزلت من السماء على ثلاثة أعضاء من أهل الأرض: على أدمغة اليونان وأيدي أهل الصين وألسنة العرب –فلما حضرت بين يديه قال لها: يا بنية، وإني قد أصبحت في حيرة من أمري، قالت: وما حيرك؟ قال: قد خطبك جميع ملوك الأندلس، ومتى أرضيت واحداً أسخطت الباقين، فقالت: اجعل الأمر إلي تخلص من اللوم، قال: وما تصنعين؟ قالت: أقترح لنفسي أمراً من فعله كنت زوجته، ومن عجز عنه لم يحسن به السخط قال: وما الذي تقترحين؟ قالت: أقترح أن يكون ملكاً حكيماً، قال: نعم ما اخترتيه لنفسك، وكتب في أجوبة الملوك الخطاب: إني جعلت الأمر إليها فاختارت من الأزواج الملك الحكيم. فلما وقفوا على الأجوبة سكت عنها كل من لم يكن حكيماً.
وكان في الملوك رجلان حكيمان، فكتب كل واحد منهما إليه: أنا الرجل الحكيم. فلما وقف على كتابيهما قال: يا بنية بقي الأمر على إشكاله، وهذان ملكان حكيمان، أيهما أرضيته أسخطت الأخر قالت:سأقترح على كل واحد منهما أمراً يأتي به،فأيهما سبق إلى الفراغ مما التمسته تزوجت به، قال: وما الذي تقترحين عليهما؟ قالت: إننا ساكنون بهذه الجزيرة، ونحن محتاجون إلى رحى تدور بها، وإني مقترحة على أحدهما إدارتها بالماء العذب الجاري إليها من ذلك البر،ومقترحة على الآخر أن يتخذ طلسماً يحصن به جزيرة الأندلس من البربر، فاستظرف أبوها اقتراحها، وكتب إلى

الملكين بما قالته ابنته، فأجابا إلى ذلك، وتقاسماه على ما اختارا، وشرع كل واحد في عمل ما ندب إليه من ذلك. فأما صاحب الرحى فإنه عمد إلى خرز عظام اتخذها من الحجارة، ونضد بعضها في بعض في البحر المالح الذي بين جزيرة الأندلس والبر الكبير في الموضع المعروف بزقاق سبتة، وسد الفروج التي بين الحجارة بما اقتضته حكمته، وأوصل تلك الحجارة من البر إلى الجزيرة، وآثارها باقية إلى اليوم في الزقاق الذي بين سبتة والجزيرة الخضراء، وأكثر أهل الأندلس يزعمون أن هذا أثر قنطرة كان الإسكندر قد عملها ليعبر عليها الناس من سبتة إلى الجزيرة، والله أعلم أي القولين أصح. فلما تم تنضيد الحجارة للملك الحكيم، جلب إليها الماء العذب من موضع عال في الجبل بالبر الكبير، وسلطه في ساقية محكمة البناء، وبنى بجزيرة الأندلس رحى على هذه الساقية.

وأما صاحب الطلسم فإنه أبطأ عمله بسب انتظار الرصد الموافق لعمله، غير أنه أعمل أمره وأحكمه، وابتنى بنياناً مربعاً من حجر أبيض على ساحل البحر في رمل حفر أساسه إلى أن جعله تحت الأرض بمقدار ارتفاعه فوق الأرض ليثبت، فلما انتهى البناء المربع إلى حيث اختار صور من النحاس الأحمر والحديد المصفى المخلوطين بأحكم الخلط صورة رجل بربري له لحية، وفي رأسه ذؤابة من شعر جعد قائم في رأسه لجعودتها، متأبط بصورة بصورة كساء قد جمع طرفيه على يده اليسرى، بألطف تصوير وأحكمه، في رجليه نعل، وهو قائم في رأس البناء على مستدق بمقدار رجليه فقط، وهو شاهق في الهواء طوله نيف عن ستين ذراعاً أو سبعين، وهو محدد الأعلى إلى أن ينتهي إلى ما سعته قدر الذراع، وقد مد يده اليمنى بمفتاح قفل قابضاً عليه مشيراً إلى البحر كأنه يقول لاعبور. وكان من تأثير هذا الطلسم في البحر الذي تجاهله أنه لم ير قط ساكناً ولا كانت تجري فيه قط سفينة بربري حتى سقط المفتاح من يده.

وكان الملكان العاملان للرحى والطلسم يتسابقان إلى التمام من عملهما إذ كان بالسبق يستحق التزويج، وكان صاحب الرحى قد فرغ لكنه يخفي أمره عن صاحب الطلسم حتى لا يعلم به فيبطل عمل الطلسم، وكان يود عمل الطلسم حتى يحظى بالمرأة والرحى والطلسم، فلما علم اليوم الذي فرغ صاحب الطلسم في آخره أجرى الماء بالجزيرة من أوله وأدار الرحى، واشتهر ذلك واتصل الخبر بصاحب الطلسم وهو في أعلاه يصقل وجهه، وكان لطلسم مذهباً، فلما تحقق أنه مسبوق ضعفت نفسه فسقط من أعلى البناء ميتاً، وحصل صاحب الرحى على الرحى والمرأة والطلسم.

وكان من تقدم من ملوك اليونان يخشى على جزيرة الأندلس من البربر للسب الذي قدمنا ذكره، فاتفقوا وعملوا الطلسمات في أوقات اختاروا أرصادها، وأودعوا تلك الطلسمات تابوتاً من الرخام وتركوه في بيت بمدينة طليطلة، وركبوا على ذلك البيت باباً وأقفلوه، وتقدموا إلى كل من ملك منهم بعد صاحبه أن يلقي على ذلك الباب قفلاً، تأكيداً لحفظ ذلك البيت، فاستمر أمرهم على ذلك.

ولما كان وقت انقراض دولة اليونان ودخول العرب والبربر إلى جزيرة الأندلس، وذلك بعد مضي سنة وعشرين ملكاً من ملوك اليونان من يوم عملهم الطلسمات بمدينة طليطلة، وكان الملك لذريق المذكور السابع والعشرين من ملوكهم، فلما جلس في ملكه قال لوزارئه وأهل الرأي من دولته: قد وقع في نفسي من أمر هذا البيت الذي عليه سنة وعشرون قفلاً شيء، وأريد أن أفتحه لأنظر ما فيه، فإنه لم يعمل عبثاً، فقالوا: أيها الملك، صدقت لم يعمل عبثاً ولا أقفل سدى، بل المصلحة أن تلقي عليه قفلاً كما فعل من تقدمك من الملوك، وكانوا آباءك وأجدادك و لم يهملوا هذا فلا تهمله وسر سيرهم، فقال: إن نفسي تنازعني إلى فتحه، ولا بد لي منه، فقالوا: إن كنت تظن فيه مالاً فقدره ونحن نجمع لك من أموالنا نظيره، ولا تحدث علينا بفتحه حدثاً لا نعرف عاقبته، فأصر عل ذلك، وكان رجلاً مهيباً فلم يقدروا على مراجعته، وأمر بفتح الأقفال، وكان على كل قفل مفتاحه معلقاً، فلما فتح الباب لم ير في البيت شيئاً إلا مائدة عظيمة من ذهب وفضة مكللة بالجواهر، وعليها مكتوب: هذه مائدة سليمان بن داودعليهما السلام، ورأى في البيت ذلك التابوت، وعليه قفل ومفتاحه معلق، ففتحه فلم يجد فيه سوى رق، وفي جوانب التابوت صور فرسان مصورة بأصباغ محكمة التصوير على أشكال العرب، وعليهم الفراء وهم معممون على ذوائب جعد، ومن تحتهم الخيل العربية، وبأيديهم القسي العربية وهم متقلدون بالسيوف المحلاة، معتقون الرماح، فأمر بنشر ذلك الرق، فإذا فيه: متى فتح هذا الباب وهذا التابوت المقفلان بالحكمة دخل القوم الذين صورهم في التابوت إلى جزيرة الأندلس، وذهب ملك اليونان من أيديهم، ودرست حكمتهم، فهذا هو بيت الحكمة المقدم ذكره؛ فلما سمع لذريق ما في الرق ندم على ما فعل، وتحقق انقراض دولتهم، فلم يلبث إلا قليلاً حتى سمع أن جيشاً وصل من المشرق جهزه ملك العرب يستفتح بلاد الأندلس؛ انتهى الكلام على بيت

الحكمة.

ونعود الآن إلى تتمة حديث لذريق وجيش طارق بن زياد: فلما رأى طارق لذريق قال لأصحابه: هذا طاغية القوم، فحمل وحمل أصحابه معه، فتفرقت المقاتلة من بين يدي لذريق، فخلص إليه طارق، وضربه بالسيف على رأسه فقتله على سريره، فلما رأى أصحابه مصرع ملكهم اقتحم الجيشان، وكان النصر للمسلمين، و لم تقف هزيمة اليونان على موضع، بل كانوا يسلمون بلداً بلداً ومعقلاً معقلاً.

فلما سمع بذلك موسى بن نصير المذكور أولاً عبر الجزيرة بمن معه، ولحق بمولاه طارق، فقال له: يا طارق، إنه لن يجازيك الزليد بن عبد الملك عى بلائك بأكثر من أن يبيحك جزيرة الأندلس، فاستبحه هنيئاً مريئاً، فقال طارق: أيها الأمير، والله لا أرجع عن قصدي هذا ما لم أنته إلى البحر المحيط وأخوض فيه بفرسي، يعني البحر الشمالي الذي تحت بنات نعش، فلم يزل طارق يفتح وموسى معه إلى أن بلغ جليقية، وهي على ساحل البحر المحيط، ثم رجع.

قال الحميدي في "جذوة المقتبس": إن موسى بن بصير نقم على طارق إذ غزا بغير إذنه، وسجنه وهم بقتله، ثم ورد عليه كتاب الوليد بإطلاقه فأطلقه، وخرج معه إلى الشام. وكان خروج موسى من الأندلس وافداً على الوليد يخبره بما فتح الله سبحانه وتعالى على يديه وما معه من الأموال في سنة أربع وتسعين للهجرة، وكان معه مائدة سليمان بن داود عليهما السلام التي وجدت في طليطلة على ما حكاه بعض المؤرخين، فقال: كانت مصنوعة من الذهب والفضة، وكان عليها طوق لؤلؤ وطوق ياقوت وطوق زمرد، وكانت عظيمة بحيث إنها حملت على بغل قوي فما سار قليلاً حتى تفسخت قوائمه، وكان معه تيجان الملوك الذين تقدموا من اليونان، وكلها مكللة بالجواهر، واستصحب ثلاثين ألف رأس من الرقيق.

ويقال إن الوليد كان قد نقم عليه أمراً، فلما وصل إليه وهو بدمشق أقامه في الشمس يوماً كاملاً في يوم صائف حتى خر مغيشاً عليه.وقد أطلنا هذه الترجمة كثيراً لكن الكلام انتشر فلم يمكن قطعه، مع أني تركت الأكثر وأتيت بالمقصود.وقال الليث بن سعد: إن موسى بن نصير حين فتح الأندلس كتب إلى الوليد ابن عبد الملك، إنها ليست الفتوح ولكنها الجنة.

ولما وصل موسى إلى الشام ومات الوليد بن عيد الملك وقام من بعده سليمان أخوه، وحج في سنة سبع وتسعين للهجرة – وقيل سنة تسع وتسعين – حج معه موسى بن نصير، ومات في الطريق بوادي القرى، وقيل بمر الظهران، على اختلاف فيه. وكانت ولادته في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في سنة تسع عشرة للهجرة، رحمه الله تعالى.

الملك الأشرف موسى الأيوبي

أبو الفتح موسى ابن الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب، الملقب الملك الأشرف مظفر الدين؛ أول شيء ملكه من البلاد مدينة الرها، سيره إليها والده من الديار المصرية في سنة ثمان وتسعين وخمسمائة، ثم أضيفت إليه حران. وكان محبوباً إلى الناس مسعوداً مؤيداً في الحروب من يومه، لقي نور الدين أرسلان شاه صاحب الموصل – المذكور في حرف الهمزة – وكان يوم ذاك من الملوك المشاهير الكبار، وتواقعا في مصاف فكسره، وذلك في سنة ستمائة يوم السبت تاسع عشر شوال بموضع يقال له بين النهرين من أعمال الموصل وهي وقعة مشهورة فلا حاجة إلى تفصيلها؛ ولما توفي أخوه عبد الملك الأوحد نجم الدين أيوب صاحب خلاط وميافارقين وتلك النواحي، أخذ الملك الأشرف مملكته مضافة إلى ملكه، وتوفي الملك في شهر ربيع الأول سنة تسع وستمائة وكانت وفاته بملازكرد من أعمال خلاط ودفن بها، وكان الملك الأوحد قد ملك خلاط في سنة أربع وستمائة.

فاتسعت حينئذ مملكته وبسط العدل على الناس وأحسن إليهم إحسانا لم يعهدوه ممن كان قبله، وعظم وقعه في قلوب الناس، وبعد صيته، وكان قد ملك نصيبين الشرق في سنة ست وستمائة، وأخذ سنجار سنة سبع عشرة في رابع جمادى الأولى، ورأيت في موضع آخر أنه أخذها في مستهل صفر من السنة، والله أعلم، كذلك الخابور، وملك معظم بلاد الجزيرة، وكان يتنقل فيها، وأكثر إقامته بالرقة لكونها على الفرات.

ولما مات ابن عمه الملك الظاهر غازي صاحب حلب – في التاريخ المذكور في ترجمته في حرف الغين – عزم عز الدين كيكاوس بن غياث الدين كيسخرو بن قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان صاحب الروم على قصد حلب فسير أرباب الأمر بحلب إلى الملك الأشرف وسألوه الوصول إليهم لحفظ البلد، فأجابهم إلى شؤالهم وتوجه إليهم وأقام بالياروقية بظاهر حلب مدة ثلاث سنين، وجرت له مع صاحب الروم وابن عمه الملك

الأفضل بن صلاح صاحب سمسياط وقائع مشهورة لا حاجة إلى الإطالة في شرحها.

ولما أخذت الفرنج دمياط في سنة ست عشرة وستمائة – حسبما شرحناه في ترجمة الملك الكامل – توجهت جماعة من ملوك الشام إلى الديار المصرية، لإنجاد الملك الكامل، وتأخر عنه الملك الأشرف لمنافرة كانت بينهما، فجاءه أخوه الملك العظيم – المقدم ذكره في حرف العين – بنفسه، وأرضاه، و لم يزل بلاطفه حتى استصبحه معه، فصادف عقيب وصوله إليها بأشهر – كما ذكرناه في ترجمة الكامل محمد – انتصار المسلمين على الفرنج وانتزاع دمياط من أيديهم، وكانوا يرون ذلك بسبب يمن غرته. وكان وصوله إليها في المحرم سنة ثماني عشرة وستمائة، واستناب أخاه الملك المظفر شهاب الدين غازي ابن الملك العادل في خلاط، فعصى عليه، فقصده في عساكره وأخذها منه يوم الاثنين ثاني عشر جمادى الآخرة سنة إحدى وعشرين وستمائة.
ولما مات الملك المعظم – في التاريخ المذكور في ترجمته – قام بالأمر من بعده ولده الملك الناصر صلاح الدين داود، فقصده عمه الملك الكامل من الديار المصرية ليأخذ دمشق منه، فاستنجد بعمه الملاك الأشرف، وكان يومئذ ببلاد الشرق، فوصل إليه، واجتمع به في دمشق، ثم خرج منها متوجهاً إلى أخيه الملك الكامل، واجتمع به وجرى الاتفاق بينهما على أخذ دمشق من الملك الناصر وتسليمها إلى الملك الأشرف، ويبقى للملك الناصر الكرك والشوبك ونابلس وبيسان وتلك النواحي، ويترل الملك الأشرف عن حران والرها وسروج والرقة ورأس عين، ويسلمها إلى الملك الكامل، فاستتب الحال على ذلك. وتسلم الملك الكامل دمشق لاستقبال شعبان من السنة بنوابه، ورحل الناصر إلى بلاده التي عليه يوم الجمعة ثاني عشر شعبان، ثم دخل الملك الكامل إلى دمشق في سادس عشر الشهر المذكور وعاد وخرج إلى مكانه الذي كان فيه، ثم دخل هو الأشرف إلى القلعة في ثامن عشر شعبان ثم سلمها إلى أخيه الملك الأشرف على ما تقرر بينهما، في أواخر شعبان من سنة ست وعشرين وستمائة، وانتقل الملك الكامل إلى بلاده التي تسلمها بالشرق، ليكشف أحوالها ويرتب أمورها، واجتزت في التاريخ المذكور بحران وهو بها.
وانتقل الأشرف إلى دمشق واتخذها دار إقامة وأعرض عن بقية البلاد، ونزل جلال الدين خوارزم شاه على خلاط وحاصرها وضايقها أشد مضايقة، وأخذها في جمادى الآخرة من سنة ست وعشرين من نواب الملك الأشرف، وهو مقيم بدمشق، و لم يمكنه في ذلك الوقت قصدها للدفع عنها لأعذار كانت له. ثم عقيب ذلك دخل إلى بلاد الروم باتفاق مع سلطانها علاء الدين كيقباذ أخي عز الدين كيكاوس المذكور، وتعاقد على قصد خوارزم شاه، وضرب المصاف معه، فإن صاحب الروم أيضاً كان يخاف على بلاده منه. لكونه مجاوره، فتوجها نحوه في جيش عظيم من جهة الشام والشرق في خدمة الملك الأشرف، وعسكر صاحب الروم، والتقوا بين خلاط وأرزنكان، بموضع يقال له: يا للرحمان في يوم الجمعة ثاني عشر رمضان سنة سبع وعشرين وستمائة، وانكسر خوارزم شاه، وهي واقعة مشهورة، وعادت خلاط إلى الملك الأشرف وقد خربت.
ثم رجع إلى الشام وتوجه إلى الديار المصرية، وأقام عند أخيه الملك الكامل مدة، ثم خرج في خدمته قاصدين آمد، ونزلوا عليها وفتحوها في مدة يسيرة وذلك في سنة تسع وعشرين وستمائة، وأضافها الملك الكامل إلى ممالكها ببلاد الشرق، ورتب فيها ولده الملك الصالح نجم الدين أيوب – المذكور في ترجمة والده – وفي خدمته الطواشي شمس الدين صواب الخادم العادلي، ثم عاد كل واحد إلى بلاده.

ثم كانت واقعة ببلاد الروم والدربندات في أواخر سنة إحدى وثلاثين وستمائة وهي مشهورة، ورجع الكامل والأشرف ومن معهما من الملوك بغير حصول مقصود، ولما رجعا خرج عسكر صاحب الروم على بلاد الكامل بالشرق فأخذها وأخربها، ثم عاد الكامل والأشرف وأتباعهما ومن معهما من الملوك إلى بلاد الشرق، واستنقذوها من نواب صاحب الروم. ثم رجعوا إلى دمشق في سنة ثلاث وثلاثين وستمائة، وكنت يومئذ بدمشق، وفي تلك الواقعة رأيت الكامل والأشرف، وكانا يركبان معاً ويلعبان بالكرة في الميدان الأخضر الكبير كل يوم، وكان شهر رمضان، فكانا يقصدان بذلك تعبير النهار لأجل الصوم؛ ولقد كنت أرى من تأدب كل واحد منهما مع الآخر شيئاً كثيراً، ثم وقعت بينهما وحشة، وخرج الأشرف عن طاعة الكامل، ووافقته الملوك بأسرها، وتعاهد هو وصاحب الروم وصاحب حلب وصاحب حماة وصاحب حمص وأصحاب الشرق، على الخروج على الملك الكامل، و لم يبق مع الملك الكامل سوى ابن أخيه الملك الناصر صاحب الكرك، فإنه توجه إلى خدمته بالديار المصرية، فلما تحالفوا وتحزبوا واتفقوا وعزموا على الخروج على الملك الكامل، مرض الملك الأشرف مرضاً شديداً، وتوفي يوم الخميس رابع المحرم سنة خمس وثلاثين وستمائة

بدمشق، ودفن بقلعتها ثم نقل إلى التربة التي أنشئت له بالكلاسة في الجانب الشمالي من جامع دمشق. وكان ولادته سنة ثمان وسبعين وخمسمائة بالديار المصرية بالقاهرة، وقيل بقلعة الكرك، رحمه الله تعالى. وقد ذكرت في ترجمة أخيه الملك المعظم عيسى ما ذكره سبط ابن الجوزي في مولدهما؛ وتوفي أخوه شهاب الدين غازي صاحب ميافارقين في رجب سنة خمس وأربعين وستمائة بميافارقين.

هذه خلاصة أحواله؛ وكان سلطاناً كريماً حليماً واسع الصدر كريم الأخلاق كثير العطاء، لا يوجد في خزانته شيء من المال مع إتساع مملكته، ولا تزال عليه الديون للتجار وغيرهم. ولقد رأى يوماً في دواة كاتبه وشاعره الكمال أبي الحسن علي بن محمد المعروف بابن النبيه المصري قلماً واحداً، فأنكر عليه ذلك، فأنشده في الحال دوبيت:

قال الملك الأشرف قولاً رشدا — أقلامك يا كمال قلت عددا

جاوبت لعظم كتب ما تطلقه — تحفى فتقط فهي تفنى أبدا

ويقال إنه طرب ليلة في مجلس أنسه على بعض الملاهي، فقال لصاحب الملهى: تمن علي، فقال: تمنيت مدينة خلاط، فأعطاها له، وكان نائبه بها الأمين حسام الدين المعروف بالحاجب علي بن حماد الموصلي، فتوجه ذلك الشخص إليه ليتسلمها منه، فعوضه الحاجب عنها جملة كثيرة من المال وصالحه عنها، وكان له في ذلك غرائب.

وكان يميل إلى أهل الخير والصلاح ويحسن الاعتقاد فيهم، وبنى بدمشق دار حديث، فوض تدريسها إلى الشيخ تقي الدين عثمان المعروف بابن الصلاح، المقدم ذكره.

وكان بالعقيبة ظاهر دمشق خان يعرف بابن الزنجاري، قد أجمع أنواع أسباب الملاذ، ويجري فيه من الفسوق والفجور ما لايحد ولا يوصف، فقيل له عنه: إن مثل هذا لايليق أن يكون في بلاد المسلمين، فهدمه وعمره جامعاً غرم عليه جملة مستكثرة، وسماه الناس جامع التوبة كأنه تاب إلى الله تعالى وأناب مما كان فيه. وجرت في خطابته نكتة لطيفة، أحببت ذكرها، وهي: أنه كان بمدرسة ست الشام التي خارج البلد، إمام يعرف بالجمال السبتي، أعرفه شيخاً حسناً، ويقال كان في صباه بشيء من الملاهي، وهي التي تسمى الجغانة، ولما كبر حسنت طريقته وعاشر العلماء وأهل الصلاح، حتى صار معدوداً في الأخيار، فلما احتاج الجامع المذكور إلى خطيب ذكر للملك الأشرف جماعة، وشكر الجمال المذكور، فتولى خطابته، فلما توفي تولى موضعه العماد الواسطي الواعظ، وكان يتهم باستعمال الشراب، وكان صاحب دمشق يومئذ الصالح عماد الدين إسماعيل بن الملك العادل بن أيوب، فكتب إليه الجمال عبد الرحيم المعروف بابن زويتينة الرحبي أبياتاً، وهي:

يا مليكاً أوضح الحق لدينا وأبانه

جامع التوبة قد قلدني منه أمانه

قال قل للملك الصا — لح أعلى الله شانه

يا عماد الدين يامن — حمدالناس زمانه

كم إلى كم أنا في ضر — وبؤس وإهانه؟

لي خطيب واسطي — يعشق الشرب ديانه

والذي قد كان من قب — ل يغني بجغانه

فكما نحن فما زلن — ا وما نبرح حانه

ردني للنمط الأو — ل واستبق ضمانه

وهذه الأبيات في بابها في غاية الظرف، وكان ابن زويتينة المذكور قد وصل إلى الديار المصرية في رسالة من عند صاحب حمص، وأنشدني هذه الأبيات وحكى السبب الحامل عليها، وذلك في بعض شهور سنة سبع وأربعين وستمائة. ومدح الملك الأشرف أعيان شعراء عصره، وخلدوا مدائحه في دواوينهم فمنهم: شرف الديم محمد بن عنين وقد سبق ذكره.

والبهاء أسعد السنجاري وقد سبق ذكره أيضاً.

والشرف راجح الحلي وقد ذكرته في ترجمة الملك الظاهر.

والكمال ابن النبيه المذكرو وكانت وفاته سنة تسع عشرة وستمائة، بمدينة نصيبين الشرق، وعمره تقديراً مقدار ستين سنة كذا أخبرني صهره بالقاهرة.

والمهذب محمد بن أبي الحسين بن يمن بن علي بن أحمد بن محمد بن عثمان ابن عبد الحميد الأنصاري، المعروف بابن الأردخل الموصلي الشاعر المشهور، ومولده سنة سبع وسبعين وخمسمائة بالموصل، وتوفي في شهر رمضان، سنة ثمان وعشرين وستمائة بميافارقين، رحمه الله تعالى.

وغير هؤلاء خلق كثير، والله أعلم بالصواب.

موسى بن عبد الملك الأصبهاني

أبو عمران موسى بن عبد الملك بن هشام الأصبهاني صاحب ديوان الخراج؛ كان من جلة الرؤساء، وفضلاء الكتاب وأعيانهم، تنقل في الخدم في أيام جماعة من الخلفاء. وكان إليه ديوان السواد وغيره في أيام المتوكل، وكان مترسلاً، وله ديوان رسائل. وقد سبق طرف من خبره مع أبي العيناء في ترجمته، وما دار بينهما من المحاورة في قضية نجاح بن سلمة. وله شعر رقيق حسن فمن ذلك قوله:

ولما وردنا القادسية حيث مجتمع الرفاق

وشممت من أرض الحجا ... ز نسيم أنفاس العراق

أيقنت لي ولمن أحب بجمع شمل واتفاق

وضحكت من فرح اللقا ... ء كما بكيت من الفراق

لم يبق لي إلا تجشم ... هذه السبع الطباق

حتى يطول حديثنا ... بصفات ما كنا نلاقي

يروى: لما وردنا الثعلبية، وكلتاهما من منازل الحاج على طريق العراق، والثعلبية منسوبة إلى ثعلبة بن دودان بن أسد بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، قاله ابن الكلبي في جمهرة النسب.

ولهذه الأبيات حكاية مستطرفة أحببت ذكرها هاهنا وقد سردها الحافظ أبو عبد الله الحميدي، في كتاب جذوة المقتبس، وغيره من أرباب تواريخ المغاربة، وهي أن أبا علي الحسن بن الأشكري المصري قال: كنت رجلاً من جلاس الأمير تميم بن أبي تميم، وممن يخفف عليه جداً - وهذا تميم هو أبو العز بن باديس المذكور في حرف التاء - قال: فأرسلني إلى بغداد، فاتبعت له جارية رائقة فائقةالغناء، فلما وصلت إليه دعا جلساءه، قال: وكنت فيهم، ثم مدت الستارة، وأمرها بالغناء فغنت:

وبدا له من بعد ما اندمل الهوى ... برق تألق موهناً لمعانه

يبدو كحاشية الرداء ودونه ... صعب الذرا متمنع أركانه

فمضى لينظر كيف لاح فلم يطق ... نظراً إليه وصده سجانه

فالنار ما اشتملت عليه ضلوعه ... والماء ما سمحت به أجفانه

وهذه الأبيات ذكرها صاحب الأغاني للشريف أبي عبد الله محمد بن صالح الحسني، قال ابن الأشكري: فأحسنت الجارية ما شاءت، فطرب الأمير تميم ومن حضر، ثم غنت:

سيسليك عما فات دولة مفضل   أوائله محمودة وأواخره

ثنى الله عطفيه وألف شخصه   على البر مذ شدت عليه مآزره

قال: فطرب الأمير تميم ومن حضر طرباً شديداً، قال: ثم غنت:

أستودع الله في بغداد لي قمراً   بالكرخ من فلك الأزرار مطلعه

وهذا البيت لمحمد بن زريق الكاتب البغدادي، من جملة قصيدة طويلة.

قال الراوي: فاشتد طرب الأمير تميم وأفراط جداً، ثم قال لها: تمني ما شئت، فقال، أتمنى عافية الأمير وسلامته، فقال: والله لا بد أن تتمني، فقالت: على الوفاء أيها الأمير بما أتمنى؟ قال: نعم، فقالت:أتمنى أن أغني بهذه النوبة ببغدادفانتقع لون الأمير تميم وتغير وجهه وتكدر المجلس، وقام وقمنا.

وقال ابن الأشكري: فلقيني بعض خدمه وقال لي: ارجع فالأمير يدعوك، فوجدته جالساً ينتظرني، فسلمت عليه وقمت بين يديه، فقال لي: ويحك، ورأيت ما امتحنا به؟ فقلت: نعم أيها الأمير، فقال: لا بد من الوفاء لها، ولا أثق في هذا بغيرك، فتأهب لتحملها إلى بغداد، فإذا غنت هناك فاصرفها، فقلت: سمعاً وطاعة.

قال: ثم قمت فتأهبت، وأمرها بالتأهب، وأصحبها جارية سوداء له تعادلها وتخدمها، وأمر بناقة ةمحمل، فأدخلت فيه، وجعلتها معي، وصرت إلى مكة مع القافلة وقضينا حجنا، ثم دخلت في قافلة العراق وسرنا، فلما وردنا القادسية أتتني السوداء، وقالت لي: تقول لك سيدتي: أين نحن؟ فقلت لها: نزول القادسية، فانصرفت إليها وأخبرتها، فلم أنشب أن سمعت صوتهاقد ارتفع بالغناء، وغنت الأبيات المذكورة، قال: فتصايح الناس من أقطار القافلة: وأعيدي بالله أعيدي قال: فما سمع لها كلمة. قال: ثم نزلنا الياسرية، وبينها وبين بغداد نحو خمسة أميال في بساتين متصلة، ينزل بها فيبيتون ليلتهم، ثم يبكرون لدخول بغداد. فلما كان وقت الصباح وإذا بالسوداء قد أتتني مذعورة، فقلت: مالك؟ قالت: إن سيدتي ليست بحاضرة، فقلت: ويلك، وأين هي؟ قالت: والله ما أدري، قال: فلم أحس لها أثراً بعد ذلك، ودخلت بغداد وقضيت حوائجي منها، وانصرفت إلى الأمير تميم فأخبرته خبرها، فعظم ذلك عليه واغتم له غماً شديداً، ثم ما زال بعد ذلك ذاكراً لها واجماً عليها.

والقادسية: بفتح القاف وبعد الألف دال مهملة مكسورة وسين مكسورة أيضاً وبعدها ياء مثناة من تحتها مشدودة ثم هاء ساكنة، وهي قرية فوق الكوفة، وعندما كانت الوقعة المشهورة في زمن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه.

والياسرية: بفتح الياء المثناة من تحتها وبعد الألف سين مهملة مكسورة وراء مكسورة أيضاً وبعدها ياء مثناة من تحتها مشددة ثم هاء مشدودة ساكنة وقد ذكرنا أين هي، فلا حاجة إلى الإعادة.

وحكى إسحاق بن إبراهيم أخو زيد بن إبراهيم أنه كان يتقلد بلاد السيروان نيابة عن موسى بن عبد الملك المذكور، فاجتاز به إبراهيم بن العباس الصولي، – الشاعر المقدم ذكره – وهو يريد خراسان، والمأمون يوم ذاك بها، وقد بايع بالعهد علي بن موسى الرضا، وهي قضية مشهورة، وقد امتدحه إبراهيم المذكور بقصيدة ذكر فيها آل علي، وأنهم أحق بالخلافة من غيرهم. قال إسحاق بن إبراهيم المذكور: فاستحسنت القصيدة وسألت إبراهيم بن العباس أن ينسخها ففعل، ووهبته ألف درهم وحملته على دابة، وتوجه إلى خراسان. ثم تراخت الأيام إلى زمن المتوكل، فتولى إبراهيم المذكور موضع موسى بن عبد الملك المذكور، وكان يحب أن يكشف أسباب موسى، فعزلني وأمر أن تعمل مؤامرة، فعملت وحضرت للمناظرة عنها، فجعلت أحتج بما لايدفع فلا يقبله، ونحتكم إلى الكتاب فلا يلتفت إلى حكمهم، ويسمعني في خلال ذلك غليظ الكلام، إلى أن أوجب الكتاب اليمين على باب من الأبواب فحلفت، فقال: ليست يمين السلطان عندك يميناً لأنك رافضي، فقلت له: تأذن لي في الدنو منك؟ فأذن لي، فقلت له: ليس مع تعريضك بمهجتي للقتل صبر، وهذا المتوكل إن كتبت إليه بما أسمعه منك لم آمنه على نفسي، وقد احتملت كل ما جرى سوى الرفض. والرافضي من

زعم أن علي بن أبي طالب أفضل من العباس، وأن ولده أحق من ولد العباس بالخلافة. قال: ومن هو ذاك؟ قلت: أنت، وخطك عندي به. فأخبرته بالشعر الذي عنله في المأمون وذكر فيه علي بن موسى، فوالله ما هو إلا أن قلت له ذلك حتى سقط في يده ثم قال لي: أحضر الدفتر الذي بخطي، فقلت له: هيهات، لا والله أو توثق لي بما أسكن إليه أنك لا تطالبني بشيء مما جرى على يدي، وتخرق هذه المؤامرة ولا تنظر لي في حساب، فحلف لي على ذلك بما سكنت إليه وخرق العمل المعمول، فأحضرت له الدفتر فوضعه في خفه، وانصرفت وقد زالت عني المطالبة.

ولموسى المذكور أخبار كثيرة أضربت عن ذكرها طلباً للاختصار. وتوفي في شوال سنة ست وأربعين ومائتين، رحمه الله تعالى.

والسيروان: بكسر السين المهملة وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح الراء والواو وبعد الألف نون، وهي كورة ماسبذان من أعمال الجبل.

وماسبذان: بفتح الميم وبعد الألف سين مهملة وباء موحدة وذال معجمة والجميع مفتوح وبعد الألف نون، وهي قرية كان يسكنها المهدي بن المنصور أبي جعفر، والد هارون الرشيد، وبها توفي، وفي ذلك يقول مروان بن أبي حفصة الشاعر - المقدم ذكره:

وأكرم قبر بعد قبر محمد ... نبي الهدى قبر بماسبذان

عجبت لأيد هالت الترب فوقه ... ضحى كيف لم ترجع بغير بنان

والسيروان: اسم لأربعة مواضع هذا أحدها.

وبلاد الجبل عبارة عن عراق العجم الفاصل بين عراق العرب وخراسان، وبلاده المشهورة: أصبهان وهمذان والري وزنجان.

أبو منصور الجواليقي

أبو منصور موهوب بن أبي طاهر أحمد بن محمد بن الخضر، الجواليقي البغدادي الأديب اللغوي؛ كان إماماً في فنون الأدب، وهو من مفاخر بغداد قرأ الأدب على الخطيب أبي زكريا التبريزي - الآتي ذكره في حرف الياء إن شاء الله تعالى - ولازمه وتتلمذ له حتى برع في فنه.

وهو متدين ثقة غزير الفضل وافر العقل مليح الخط كثير الضبط، صنف التصانيف المفيدة وانتشرت عنه، مثل شرح أدب الكاتب والمعرب ولم يعمل في جنسه أكبر منه وتتمة درة الغواص تأليف الحريري صاحب المقامات سماه التكملة فيما يلحن فيه العامة إلى غير ذلك، وكان يختار في بعض مسائل النحو مذاهب غريبة. وكان في اللغة أمثل منه في النحو، وخطه مرغوب فيه، يتنافس الناس في تحصيله والمغالاة فيه.

وكان إماماً للإمام المقتفي بالله يصلي به الصلوات الخمس، وألف له كتاباً لطيفاً في علم العروض، وجرت له مع الطبيب هبة الله بن صاعد المعروف بابن التلميذ النصراني - الآتي ذكره إن شاء الله تعالى - واقعة عنده، وهي أنه لما حضر إليه للصلاة به ودخل عليه أول دخلة فما زاده على أن قال: السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله تعالى، فقال ابن التلميذ، وكان حاضراً قائماً بين يدي المقتفي، وله إدلال الخدمة والصحبة، ما هكذا يسلم على أمير المؤمنين يا شيخ؟ فلم يلتفت ابن الجواليقي إليه، وقال للمقتفي: يا أمير المؤمنين، سلامي هو ما جاءت به السنة النبوية، وروى له خبراً في صورة السلام ثم قال: يا أمير المؤمنين لو حلف حالف أن نصرانياً أو يهودياً لم يصل إلى قلبه نوع من أنواع العلم على الوجه المرضي لما لزمته كفارة الحنث لأن الله تالى ختم على قلوبهم، ولن يفك ختم الله إلا الإيمان، فقال له: صدقت وأحسنت فيما فعلت، وكأنما ألجم ابن التلميذ بحجر مع فضله وغزارة أدبه.

وسمع ابن الجواليقي من شيوخ زمانه وأكثر، أخذ الناس عنه علماً جماً، وينسب إليه من الشعر شيء قليل، فمن ذلك ما رأيته منسوباً إليه في بعض المجاميع ولم أتحققه له، وهو:

ورد الورى سلسال جودك فارتووا ... ووقفت خلف الورد وقفة حائم

حيران أطلب غفلة من وارد ... والورد لا يزداد غير تزاحم

ثم وجدت هذين البيتين لابن الخشاب من جملة أبيات.

وحكى ولده أبو محمد إسماعيل، وكان أنجب أولاده، قال: كنت في حلقة والدي يوم الجمعة بعد الصلاة بجامع القصر، والناس يقرؤون عليه، فوقف عليه شاب وقال: يا سيدي، قد سمعت بيتين من الشعر و لم أفهم معناهما، وأريد أن تسمعهما مني وتعرفني مهناهما، فقال: قل، فأنشده:

وصل الحبيب جنان الخلد أسكنها وهجره النار يصليني به النارا

فالشمس بالقوس أمست وهي نازلة إن لم يزرني، وبالجوزاء إن زارا

قال إسماعيل: فلما سمعهما والدي قال: يا بني، هذا شيء من معرفة علم النجوم وتسييرها لا من صنعة أهل الأدب، فانصرف الشاب من غير حصول فائدة، واستحيا والدي من أن يسأل عن شيء ليس عنده منه علم، وقام، وآلى على نفسه أن لا يجلس في حلقته حتى ينظر في علم النجوم ويعرف تسيير الشمس والقمر، فنظر في ذلك وحصل معرفته، ثم جلس.

ومعنى البيت المسئول عنه أن الشمس إذا كانت في آخر القوس كان الليل في غاية الطول، لأنه يكون آخر فصل الخريف، وإذا كانت في آخر الجوزاء كان الليل في غاية القصر، لأنه آخر فصل الربيع، فكأنه يقول: إذا لم يزرني فالليل عندي في غاية الطول، وإن زارني كان الليل عندي في غاية القصر، والله أعلم.

ولبعض شعراء عصره فيه وفي المغربي مفسر المنامات، وذكرها في الخريدة لحيص بيض، هكذا وجدتها في مختصر الخريدة للحافظ:

كل الذنوب ببلدتي مغفورة إلا اللذين تعاظما أن يغفرا

كون الجواليقي فيها ملقيا أدباً، وكون المغربي معبرا

فأسير لكنته يمل فصاحة وغفول يقظته يعبر عن كرى

ونوادره كثيرة.

وكانت ولادته سنة ست وستين وأربعمائة. وتوفي يوم الأحد منتصف المحرم سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ببغداد، ودفن بباب حرب، رحمه االله تعالى، بعد أن صلى عليه قاضي القضاة الزينبي بجامع القصر.

والجواليقي: نسبة إلى عمل الجوالق وبيعها، وهي نسبة شاذة لأن الجموع لا ينسب إليها، بل ينسب إلى آحادها إلا ما جاء شاذاً مسموعاً في كلمات محفوظة مثل قولهم: رجل أنصاري، في النسبة إلى الأنصار، والجواليق في جمع جوالق شاذ لأن الياء لم تكن موجودة في مفرده، والمسموع فيه جوالق بضم الجيم وجمعه جوالق بفتح الجيم، وهو باب مطرد، قالوا: رجل حلاحل، إذا كان وقوراً، وجمعه حلاحل، وشجر عدامل، إذا كان قديماً، وجمعه عدامل، ورجل عراعر،وهو السيد،وجمعه عراعر،ورجل علاكد،إذا كان شديداً، وجمعه علاكد،وله نظائر كثير. وهو اسم أعجمي معرب، والجيم والقاف لا يجتمعان في كلمة واحدة عربية ألبيتة.

رضي الدين النيسابوري

أبو الحسن المؤيد بن محمد بن علي الطوسي الأصل النيسابوري الدار المحدث الملقب رضي الدين؛ كان أعلى المتأخرين إسناداً، لقي جماعة من الأعيان وأخذ عنهم، وسمع صحيح مسلم من الفقيه أبي عبد الله محمد بن الفضل الفراوي - المقدم ذكره- وهو آخر من بقي من أصحابه، وسمع صحيح البخاري من أبي بكر وجيه بن طاهر بن محمد الشحامي وأبي الفتوح عبد الوهاب بن شاه ابن أحمد الشاذياخي، وسمع المؤطأ رواية أبي مصعب إلا ما استثني منه من أبي محمد هبة الله بن سهل بن عمر البسطامي المعروف بالسندي، وسمع "تفسير القرآن الكريم" تصنيف أبي إسحاق الثعلبي من أبي العباس محمد الطوسي المعروف بعباسة، وسمع أيضاً من جماعة من سيوخ نيسابور منهم الفقيه أبو محمد عبد الجبار ابن محمد الخواري وأم الخير فاطمة بنت أبي الحسن علي بن المظفر بن زعبل، وحدث بالكثير، ورحل إليه من القطار، ولنا منه إجازة كتبها من خراسان باستدعاء الوالد رحمه الله تعالى في جمادى الآخرة سنةعشروستمائة،وإنماذكرته لشهرته تفرده في آخر عصره؛وكانت ولادته سنة أربع وعشر وخمسمائة، ظنا. وتوفي ليلة العشرين من شوال سبع

عشرة وستمائة بنيسابور، ودفن من الغد، رحمه الله تعالى.

ثم بعد إثبات هذه الترجمة على هذه الصورة بسنين رأيت بخط الشيخ المؤيد المذكور في إجازة، وقد رفع نسبه فقال: كتبه المؤيد بن محمد بن علي بن الحسن ابن محمد بن أبي صالح الطوسي.

الألوسي

أبو سعيد المؤيد بن محمد بن علي بن محمد الألوسي، الشاعر المشهور؛ كان من أعيان شعراء عصره كثير الغزل والهجاء، ومدح جماعة من رؤساء العراق، وله ديوان شعر، وكان منقطعاً إلى الوزير عون الدين يحيى بن هبيرة، وله فيه مادئح جيدة.

ذكره محب الدبن ابن النجار في تاريخ بغداد فقال: هو عطاف بن محمد ابن علي بن أبي سعيد الشاعر المعروف بالمؤيد، ولد بألوس، قرية بقرب الحديثة، ونشأ بدجيل ودخل بغداد، وصار جاووشاً في أيام المسترشد بالله، وهجاه ابن الفضل الشاعر بأبيات؛ ثم إن المؤيد نظم الشعر فأكثر منه حتى عرف به ومدح وهجا، وكان قد لجأ إلى خدمة السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه – وقد تقد ذكره – قال: وتفسح في ذكر الإمام المقتفي وأصحابه بما لا ينبغي، فقبض عليه وسجن.

وذكره العماد الكاتب في كتاب الخريدة فقال: ترفع قدره وأثرى حاله، ونفق شعره، وكان له قبول حسن، واقتنى أملاكاً وعقاراً وكثر رياشه، وحسن معاشه، ثم عثر به الدهر عثرة صعب منها انتعاشه، وبقي في حبس الأمام المقتفي أكثر من عشر سنين إلى أن خرج في أول خلافة الإمام المستنجد سنة خمس وخمسين وخمسمائة، ولقيته حينئذ وقد غشي بصره من ظلمة المطمورة التي كان فيها محبوساً. وكان زيه زي الأجناد، وسافر إلى الموصل، وله شعر حسن غزل وأسلوب مطرب بنظم معجب، وقد يقع له في المعاني المبتكرة ما يندر، فمن ذلك قوله في صفة القلم:

ومثقف يغني ويفني دائماً ... في طوري الميعاد والإيعاد

قلم يفل الجيش وهو عرموم ... والبيض ما سلت من الأغماد

وهبت له الآجام حين نشأ بها ... كرم السيول وهيبة الآساد

قلت أنا: ولقد رأيت هذه الأبيات منسوبة إلى غيره، والله أعلم بالصواب.

و لم يقل في القلم أحسن من هذا المعنى. ولبعضهم في القلم أيضاً وهو في هذا المعنى:

وأرقش مرهوب الشباة مهفهف ... يشتت شمل الخطب وهو جميع

تدين له الآفاق شرقاً ومغربا ... وتعنو له أفلاكها وتطيع

حمى الملك مفطوماً كما كان يحتمي ... به الأسد في الآجام وهو رضيع

ولبعضم أيضاً في هذا المعنى:

له قلم كقضاء الإله ... بالسعد طوراً وبالنحس ماضي

فما فارق الأسد في حالتيه ... يبيساً وذا ورقات غضاض

ففي كف ليث الوغى في الندى ... وفي وجه ليث الشرى في الغياض

ومعنى البيت الثالث مأخوذ من قول بعضهم في وصف طنبور:

وطنبور مليح الشكل يحكي ... بنغمته الفصيحة عندليبا

روى لما ذوى نغماً فصاحاً ... حواها في تقلبه قضيبا

كذا من عاشر العلماء طفلاً يكون إذا نشأ شيخاً أديبا

وهذا معنى مطروق أكثرت الشعراء استعماله،فمن ذلك قول بعضهم وهو أبو محمد عبد الله بن قاضي ميلة:

جاءت بعود يناغيهايسعدها انظر بدائع ما يأتي به الشجر
غنت عليه ضروب الطير ساجعة حيناً فلما ذوى غنى به البشر
فلا يزال عليه الدهر مصطخب يهيجه الأعجمان: الطير والوتر

ولبعضهم في المعنى أيضاً:

وعود له نوعان من لذة المنى فبورك جان يجتنيه وغارس
تغنت عليه وهو رطب طيروها وغنت عليه قينة وهو يابس

ولولا خوف الإطالة والخروج عما نحن بصدده لذكرت عدة مقاطيع في هذا المعنى.

ولبهاء الدين زهير المقدم ذكره من قصيدة يمدح بها اقسيس بن الملك الكامل:

وتهتز أعواد المنابر اسمه فهل ذكرت أيامها وهي أغضان

ثم قال العماد في بقية الترجمة: وكان ولده محمد ذكياً، وله شعر حسن، هاجر إلى الملك العادل نور الدين بالشام سنة أربعة وستين وكان يومئذ بصرخد، فمرض فأنفذه إلى دمشق، فمات في الطريق بقرية يقال لها رشيدة؛ انتهى كلا العماد.

ومن شعر المؤيد المذكور من جملة قصيدة له، رحمه الله تعالى:

فيا بردها من نفحة حاجرية على حر صدر ليس تخبو سمائمه
ويا حسنه طيفاً وشى نور وجهه بطيفي فغطاني من الشعر فاحمه
يجول وشاحاه على غصن بانة سقاها الحيا فاخضر واهتز ناعمه
فلما رمى في شملنا الصبح بالنوى ولم يبق منها غير معنى ألازمه
وقفت بجزوى وهي منها معالم قواء وجسمي قد تعفت معالمه
وقوف بناني في يميني ولم أقف وقوف شحيح ضاع في الترب خاتمه
ولم يبق لي رسماً بجسمي صدوها فيشجى بدمعي كلما انهل طاسمه
ولا مقلة أبقت فتغرم نظرة بثانية والمتلف الشيء غارمه
فلله وجدي في الركاب كأنه دموعي وقد حنت بليل روازمه
وقد مد من كف الثريا هلالها فقبلته حتى تهاوت مناظمه

وهي قصيدة طويلة أجاد فيها، وقد وازن بها قصيدة المتنبي في سيف الدولة ابن حمدان التي أولها:

وفاؤكما كالربع أشجاه طاسمه بأن تسعدا والدمع أشفاه ساجمه

وقد استعمل في قصيدته أنصاف أبيات من قصيدة المتنبي على وجه التضمين وأكثر شعره جيد.

وله أيضاً من جملة أبيات قالها وهو محبوس:

رحلوا فأفنيت الدموع تشوقاً من بعدهم وعجبت إذ أنا باقي
وعلمت أن العود يقطر ماؤه عند الوقود لفرقة الأوراق
وأبيت مأسوراً وفرحة ذكركم عندي تعادل فرحة الإطلاق
لا تنكر البلوى سواد مفارقي فالحرق يحكم صنعة الحراق

وكانت ولادته سنة أربع وتسعين وأربعمائة بألوس، ونشأ بها. وتوفي الخميس الرابع والعشرين مم شهر رمضان سنة سبع وخمسين وخمسمائة بالموصل، وكان خروجه من بغداد سنة ست وخمسين وخمسمائة، رحمه الله تعالى.

ولما ذكرت تاريخ ولاية المستنجد ذكرت نكتة غريبة أحببت ذكرها، وهو ما أخبرني به بعض مشايخ العراق الفضلاء أن المستنجد رأى في منامه في حياة والده المقتفي كأن ملكاً نزل من السماء فكتب في كفه أربع خاءات، فلما استيقظ طلب معبر الرؤيا، فقص عليه مارآه، فقال له: تلي الخلافة في سنة خمس وخمسين وخمسمائة، فكان الأمر كذلك، وكان ذلك قبل وفاة والده بمدة.

والألوسي: بضم الهمزة واللام وبعدها واو ساكنة ثم سين مهملة، هذه النسبة إلى ألوس، وهي ناحية عند حديثة عانة على الفرات، هكذا ذكره عز الدين بن الأثير – المقدم ذكره –فيما استدركه على الحافظ ابن السمعاني، لأنه قال: ألوس موضع بالشام في الساحل عند طرسوس، وهو بغدادي الدار والمنشأ – لأنه دخل بغداد في صباه – وقيدها ابن النجار الآلسي ومد الهمزة وضم اللام، والله أعلم.

المهلب بن أبي صفرة

أبو سعيد المهلب بن أبي صفرة – كانت له بنت اسمها صفرة وبها كان يكنى – واسمه ظالم بن سراق بن صبح بن كندي بن عمرو بن عدي بن وائل بن الارث بن العتيك بن الأزد، ويقال الأسد بالسين الساكنة، ابن عمران بن عمرو مزيقياء ابن عامر ماء السماء بن امرىء القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد، الازدي العتكي البصري؛ قال الواقدي: كان أهل دبا أسلموا في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم ارتدوا بعده ومنعوا الصدقة، فوجه إليهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه عكرمة بن أبي جهل المخزومي رضي الله عنه، فقاتلهم فهزمهم وأثخن فيهم القتل، وتحصن فلهم في حصن لهم وحصرهم المسلمون، ثم نزلوا على حكم حذيفة بن اليمان، فقتل مائة من رؤسائهم، وسبى ذراريهم، وبعثهم إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وفيهم أبو صفرة غلام لم يبلغ، فأعتقهم أبو بكر رضي الله عنه وقال: اذهبوا حيث شئتم، فتفرقوا، فكان أبو صفرة ممن نزل البصرة.

وقال ابن قتيبة في كتاب المعارف: هذا الحديث باطل، أخطأ فيه الواقدي لأن أبا صفرة لم يكن في هؤلاء ولا رآه أبو بكر قط، وإنما وفد على عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو شيخ أبيض الرأس واللحية، فأمره أن يخضب فخضب، وكيف يكون غلاماً في زمن أبي بكر، وقد ولد المهلب وهو من أصاغر ولده قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بسنتين.وقد كان في ولده من قبل وفاةالنبي صلى الله عليه وسلم بثلاثين سنة أو أكثر.

وكان المهلب المذكور من أشجع الناس، وحمى البصرة من الخوارج، وله معهم وقائع مشهورة بالأهواز استقضى أبو العباس المبرد في كتابه الكامل أكثرها، فهي تسمى بصرة المهلب لذلك، ولولا طولها وانتشار وقائعها لذكرت طرفاً منها.

وكان سيداً جليلاً نبيلاً، روي أنه قدم على عبد الله بن الزبير أيام خلافته بالحجاز والعراق وتلك النواحي، وهو يومئذ بمكة، فخلا به عبد الله يشاوره، فدخل عليه عبد الله بن صفوان بن امية بن خلف بن وهب القرشي الجمحي فقال: من هذا الذي قد شغلك يا أمير المؤمنين يومك هذا؟ قال: أو ماتعرفه؟ قال: لا، قال: هذا سيد أهل العراق، قال: فهو المهلب بن أبي صفرة، قال: نعم، فقال المهلب: من هذا يا أمير المؤمنين؟ قال: هذا سيد قريش، فقال: فهو عبد الله بن صفوان، قال: نعم.

قال ابن قتيبة في المعارف: ولم يكن يعاب بشيء إلا بالكذب وفيه قيل: راح يكذب، ثم قال ابن قتيبة بعد هذا: وأنا أقول: كان المهلب أتقى الناس لله عزوجل، وأشرف وأنبل من أن يكذب، ولكنه كان محرباً، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: الحرب خدعة، وكان يعارض الخوارج بالكلمة فيوري بها من غيرها، يرهب بها الخوارج، وكانوا يسمونه الكذاب ويقولون: راح يكذب، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أراد حرباً ورى بغيرها.

وقال أبو العباس المبرد في الكامل في شرح أبيات رمي فيها المهلب بالكذب، ما صورته: وقوله الكذاب لأن المهلب كان فقيهاً، وكان يعلم ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله "كل كذب يكتب كذباً إلا ثلاثة: الكذب في الصلح بين الرجلين، وكذب الرجل لامرأته يعدها، وكذب الرجل في الحرب يتوعد ويتهدد". وكان المهلب ربما صنع الحديث ليشد به أمر المسلمين ويضعف به من أمر الخوارج، وكان حي من الأزد بقال لهم الندب إذا رأوا المهلب رائحاً قالوا: قد راح المهلب يكذب، وفيه يقول رجل منهم:

أنت الفتى كل الفتى | لوكنت تصدق ما تقول

وذكر المبرد في كتاب الكامل في أواخره في فصل قتال الخوارج وما جرى بين المهلب والأزارقة: وكانت ركب الناس قديماً من الخشب، فكان الرجل يضرب بركانه فينقطع، فإذا أراد الضرب والطعن لم يكن له معين أو معتمد، فأمر المهلب فضربت الركب من الحديد، فهو أول من أمر بطبعها وأخبار المهلب كثيرة.

وتقلبت به الأحوال، وآخر ما ولي خراسان من جهة الحجاج بن يوسف الثقفي – المقدم ذكره – فإنه كان أمير العراقين، وضم إليه عبد الملك بن مروان خراسان وسجستان، فاستعمل على خراسان المهلب المذكور، وعلى سجستان عبيد الله بن أبي بكرة، فورد المهلب خراسان والياً عليها سنة تسع وسبعين للهجرة.

وكان قد أصيب بعينه على سمرقند لما فتحها سعيد بن عثمان بن عفان رضي الله عنه، في خلافة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، فإنه كان معه في تلك الغزوة، وفي تلك الغزوة تلك قلعت عين سعيد أيضاً، وفيها قلعت أيضاً عين طلحة بن عبد الله بن خلف الخزاعي المعروف بطلحة الطلحات المشهور بالكرم والجود، وفي تلك يقول المهلب:

لئن ذهبت عيني لقد بقين نفسي | وفيها بحمد الله عن تلك ما ينسي
إذا ماجاء أمر الله أعيا خيولنا | ولا بد أن تعمى العيون لدى الرمس

وقيل إن المهلب قلعت عينه على الطالقان. ولم يزل المهلب والياً بخراسان حتى أدركته الوفاة هناك، ولما حضره أجله عهد إلى ولده يزيد – الآتي ذكره إن شاء الله تعالى – وأوصاه بقضايا وأسباب، ومن جملة ما قال له: يا بني، استعقل الحاجب، واستظرف الكاتب، فإن حاجب الرجل وجهه وكاتبه لسانه؛ ثم توفي في ذي الحجة سنة ثلاث وثمانين للهجرة، بقرية يقال لها زاغول من أعمال مرو الروذ من ولاية خراسان، رحمه الله تعالى.

وله كلمات لطيفة وإشارات مليحة تدل على مكارمه ورغبته في حسن السمعة والثناء الجميل، فمن ذلك قوله: الحياة خير من الموت، والثناء الحسن خير من الحياة، ولو أعطيت ما لم يعطه أحد لأحببت أن تكون لي أذن أسمع بها ما يقال في غداً إذا مت؛ وقد قيل إن هذا الكلام لولده يزيد، والله أعلم.

وكان المهلب يقول لبنيه: يا بني، أحسن ثيابكم ما كان على غيركم، وقد أشار إلى هذا أبو تمام الطائي فيما كتبه إلى من يطلب كسوة:

فأنت العليم الطب أي وصية | بها كان أوصى في الثياب المهلب

وقد ذكر الطبري في تاريخه أنه توفي سنة اثنتين وثمانين، والله أعلم، والكلام على وفاته مذكور في ترجمة ابنه يزيد، فلينظر هناك فإنه مستوفى.

ولما حضرته الوفاة جمع من حضره من بنيه ودعا بسهام فحزمت، ثم قال: أترونكم كاسريها مجمعة؟ قالوا لا، قال: أفترونكم كاسريها مفرقة؟ قالوا: نعم، قال: هكذا الجماعة، ثم مات.

ولما مات رثاه الشعراء وأكثروا، وفي ذلك يقول نهار بن توسعة الشاعر المشهور:

ألا ذهب الغزو المقرب للغنى | ومات الندى والجود بعد المهلب
أقاما بمرو الروذ لا يبرحانها | وقد قعدا من كل شرق ومغرب

وخلف المهلب عدة أولاد نجباء كرماء أجوادً أمجاداً، وقال ابن قتيبة في كتاب المعارف ويقال: إنه وقع إلى الأرض من صلب المهلب ثلثمائة ولد – وقد تقدم في حرف الراء ذكر حفيديه روح ويزيد ابني حاتم بن قبيصة بن المهلب، وسيأتي ذكر يزيد في حرف الياء إن شاء الله تعالى.

ومن سراة أولاده أبو فراس المغيرة، وكان أبوه يقدمه في قتال الخوارج، وله معهم وقائع مأثورة تضمنتها التواريخ أبلى فيها بلاء أبان عن نجدته وشهامته وصرامته، وتوجه صحبة أبيه إلى خراسان واستنابه عنه بمرو الشاهجان، وتوفي بها في حياة أبيه سنة اثنتين وثمانين في شهر رجب، ورثاه أبو أمامة زياد الأعجم وهو زياد بن سليمان، ويقال ابن جابر، وهو ابن عبد القيس الشاعر المشهور، بقصيدته الحائية السائرة التي أولها:

قل للقوافل والغزاة إذا غزو ... للباكرين وللمجد الرائح:
إن السماحة والمروءة ضمنا ... قبراً بمرو على الطريق الواضح
فإذا مررت بقبره فاعقر به ... كوم الهجان وكل طرف سابح
وانضح جوانب قبره بدمائها ... فلقد يكون أخا دم وذبائح
واظهر ببزته وعقد لوائه ... واهتف بدعوة مصلتين شرامح
آب الجنود معاقباً أو قافلاً ... وأقام رهن حفيرة وضرائح
وأرى المكارم يوم زيل بنعشه ... زالت بفضل فواضل ومدائح
رجفت لمصرعه البلاد وأصبحت ... منا القلوب لذاك غير صحائح
الآن لما كنت أكرم من مشى ... وافتر نابك عن شباة القارح
وتكاملت فيك المروءة كلها ... وأعنت ذلك بالفعال الصالح
وكفى بنا حزناً يبيت حله ... أخرى المنون فليس عنه بنازح
فعفت منابره وحط سروجه ... عن كل طامحة وطرف طامح
وإذا يناح على امرىء فلتعلمن ... أن المغيرة فوق نوح النائح
تبكي المغيرة خلينا ورماحنا ... والباكيات برنة وتصايح
مات المغيرة بعد طول تعرض ... للقتل بين أسنة وصفائح
وإذا الأمور على الرجال تشابهت ... وتنوزعت بمغالق ومفاتح
قتل السحيل بمبرم ذي مرة ... دون الرجال بفضل عقل راجح
وأرى الصعالك للمغيرة أصبحت ... تبكي على طلق اليدين مسامح
كان الربيع لهم إذا انتجعوا الندى ... وخبت لوامع كل برق لائح
كان المهلب بالمغيرة كالذي ... ألقى الدلاء إلى قليب المائح
فأصاب جمة ما استقى فسقى له ... في حوضه بنوازع وموانح

أيام لو يحتل وسط مفازة فاضت معاطشها بشرب سائح

إن المهلب لن يزال لها فتى يمري قوادم كل حرب لاقح

بالمقربات لواحقاً آطالها تجتاب سهل سباسب وصحاصح

متلبباً تهفو الكتائب حوله ملح المتون من النضيح الراشح

ملك أغر متوج يسمو له طرف الصديق بغض طرف الكاشح

رفاع ألوية الحروب إلى العدا بسعود طير سوانح وبوارح

وهذه القصيدة من غرر القصائد ونخبها، ولولا خوف الإطالة لأثبتها كلها وهي طويلة تزيد على خمسين بيتاً، وقد ذكرها أبو القالي– المقدم ذكره في حرف الهمزة –في كتابه الذي جعله ذيلاً على أماليه، وتكلم علي بعض أبياتها، وقال: إنها قد تنسب إلى الصلتان العبدي الشاعر المشهور، ولكن الأصح أنها لزياد الأعجم. والبيت الثاني منها تستشهد به النحاة في كتبهم على جواز تذكير المؤنث إذا لم يكن له فرج حقيقي، وهو أشهر بيت في هذه القصيدة لكثرة استعمالهم له، وقد أخذ بعض الشعراء معنى البيت الثالث والرابع فقال:

احملاني إن لم يكن لكما عق ر إلى جنب قبره فاعقراني

وانضحا من دمي عليه فقد كا ن دمي من نداه لو تعلمان

وصاحب هذين البيتين هو الشريف أبو محمد الحسن بن محمد بن علي بن أبي الضوء العلوي الحسيني نقيب مشهد باب التبن ببغداد، وهما من جملة قصيدة يرثي بها النقيب الطاهر والد عبيد الله، ذكر ذلك العماد الكاتب في كتاب الخريدة وقال أيضاً: إن الشريف أبا محمد المذكور توفي سنة سبع وثلاثين وخمسمائة ببغداد، رحمه الله تعالى.

ثم بعد وقوفي على ما ذكره العماد في الخريدة وجدت هذين البيتين في كتاب معجم الشعراء تأليف المرزباني لأحمد بن محمد الخثعمي، وكنيته أبو عبد الله، ويقال أبو العباس، ويقال إنه الحسن، وكان يتشيع ويهاجي البحتري.

وكان المغيرة بن المهلب المذكور قد مزق قباء ديباجاً كان على زياد الأعجم فقال زياد في ذلك:

لعمرك ما الديباج مزقت وحده ولكنما مزقت عرض المهلب

فبلغ ذلك المهلب فأرضاه واستعطفه.

وذكر أبو الحسين علي بن أحمد السلامي في كتاب تاريخ ولادة خراسان أن رجلاً سمع من زياد الأعجم هذه القصيدة قبل أن يسمعها المهلب فجاءإلى المهلب فأنشده إياها، فأعطاه مائة ألف درهم، ثم أتاه زياد الأعجم فأنشده إياها، فقال له: قد أنشدنيها رجل قبلك، فقال: إنما سمعها مني، فأعطاه مائة ألف درهم.

وللمهلب عقب كثير بخراسان يقال لهم المهالبة وفيهم يقول بعض شعراء الحماسة وهو الأخنس الطائي يمدح المهلب:

نزلت على آل المهلب شاتياً بعيداً عن الأوطان في الزمن المحل

فما زال بي معروفهم وافتقادهم وبرهم حتى حسبتهم أهلي

والوزير أبو محمد المهلب – المقدم ذكره في حرف الحاء – من نسله أيضاً، رحمهم الله أجمعين.

وفي أوائل هذه الترجمة أسماء تحتاج إلى الضبط والكلام عليها.

فأما العتيك والأزد فقد تقدم الكلام عليهما.

وأما مزيقياء فهو بضم الميم وفتح الزاي وسكون الياء المثناة من تحتها وكسر القاف وفتح الياء الثانية وبعدها همزة ممدودة، وهو لقب عمرو المذكور وكان من ملوك اليمن، وإنما لقب بذلك لأنه كان يلبس كل يوم حلتين منسوجتين بالذهب، فإذا أمسى مرفهما وخلعهما، وكان يكره أن يعود فيهما، ويأنف أن يلبسهما أحد غيره، وهو الذي انتقل من اليمن إلى الشام لقصة يطول شرحها، والأنصار من ولده، وهم الأوس والخزرج، وحكى أبو عمر ابن عبد البر صاحب كتاب الاستيعاب في كتابه الذي سماه القصد الأمم في أنساب العرب والعجم وهو كتاب لطيف الحجم أن الأكراد من نسل عمرو مزيقياء المذكور، وأنهم وقعوا إلى أرض العجم فتناسلوا بها وكثر ولدهم، فسموا الكرد، وقال بعض الشعراء في ذلك وهو يعضد ما قاله أبو عمر ابن عبد البر:

لعمرك ما الأكراد أبناء فارس ... ولكنه كرد بن عمرو بن عامر

وأما أبوه عامر فإنما لقب بماء السما لجوده وكثرة نفعه، فشبه بالغيث.

وأما المنذر بن ماء السماء اللخمي أحد ملوك الحيرة، فإن أباه امرؤ القيس ابن عمرو بن عدي، وماء السماء أمه، وهس بنت عوف بن جشم بن النمر بن قاسط، وإنما لها ماء السماء لحسنها وجمالها.

وأما دبا بفتح الدال المهملة والباء الموحدة وبعدها ألف مقصورة، وهو اسم موضع بين عمان والبحرين أضيفت جماعة من الأزد إليه لما نزلوه، وكان الأزد عند تفرقهم– حسبما ذكرناه في أول هذه الترجمة– أضيفت كل طائفة إلى شيء يميزها عن غيرها، فقيل أزد دبا، وأزد شنوءة، وأزد عمان، وأزد السراة، ومرجع الكل إلى الأزد المذكور، فلا يظن ظان أن الأزد مختلف باختلاف المضافين إليه، وقد قال الشاعر –وهو النجاشي، واسمه قيس بن عمرو بن مالك ابن حزن بن الحارث بن كعب بن الحارث الحارثي –:

وكنت كذي رجلين رجل صيحية ... ورجل بها ريب من الحدثان

فأما التي صحت فأزد شنوءة ... وأما التي شلت فأزد عمان

ولما هزم المهلب قطري بن الفجاءة – المقدم ذكره – بعث إلى مالك بن بشير فقال: إني موفدك إلى الحجاج فسر فإنما هو رجل مثلك، وبعث إليه بجائزة فردها وقال: لإنما الجائزة بعد الاستحقاق، وتوجه فلما دخل على الحجاج قال: ماسمك؟ قال: مالك من بشير، قال: ملك وبشارة، ثم قال: كيف تركت المهلب؟ قال: أدرك ما أمل وأمن ما خاف، قال: فكيف هو بجنده؟ قال: والد رءوف، قال: كيف رصاهم عنه؟ قال: وسعهم بالفضل وأقنعهم بالعدل، قال: كيف تصنعون إذا لقيتم عدوكم؟ قال: نلقاهم بجدنا فنقطع فيهم ويلقوننا بجدهم فيطمعون فينا، قال: فما حال قطري بن الفجاءة؟ قال: كادنا بمثل ماكدناه به، قال: فما منعكم من اتباعه؟ قال: رأينا المقام من ورائه خيراً من اتباعه؟ قال: فأخبرني عن ولد المهلب؟ قال: رعاة البيات حتى يؤمنوه وحماة السرح حتى يردوه، قال: أيهم أفضل؟ قال: ذلك إلى أبيهم، قال: لتقولن، قال: هم كحلقة مفرغة لا يعلم طرفاها، قال: أقسمت عليك هل رويت في هذا الكلام؟ قال: ما أطلع الله أحداً على غيبه. فقال الحجاج لجلسائه: هذا والله الكلام المصنوع، قلت: كان حق هذا الفضل أن يكون متقدماً، لكنه كذا وقع، والله تعالى أعلم بصوابه وصحته.

مهيار الديلمي

أبو الحسن مهيار بن مروزيه الكاتب الفارسي الديلمي الشاعر المشهور؛ كان مجوسياً فأسلم، ويقال إن سلامه كان على يد الشريف الرضي أبي الحسن محمد الموسوي – المقدم ذكره – وهو شيخه، وعليه تخرج في نظم الشعر، وقد وازن كثيراً من قصائده. وذكر شيخنا ابن الأثير الدزري في تاريخه أنه أسلم في سنة أربع وتسعين وثلثمائة، فقال له أبو القاسم ابن برهان: يا مهيار قد انتقلت بأسوبك في النار من زاوية إلى زاوية، فقال: وكيف ذاك؟ قال: كنت مجوسياً فصرت تسب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في شعرك.

وكان شاعراً جزل القول، مقدماً على أهل وقته، وله ديوان شعر كبير يدخل في أربع مجلدات، وهو رقيق الحاشية طويل النفس في قصائده.

ذكره الحافظ أبو بكر الخطيب في تاريخ بغداد وأثنى عليه وقال: كنت أراه يحضر جامع المنصور في أيام الجمعات، يعني ببغداد، ويقرأ عليه ديوان شعره

ولم يقدر لي أسمع منه شيئاً.

وذكره أبو الحسن الباخرزي – المقدم ذكره – في كتاب دمية القصر فقال في حقه: هو شاعر، له مناسك الفضل مشاعر، وكاتب، تجلى تحت كل كلمة من كلماته كاعب، وما في قصيدة من قصائده بيت، يتحكم عليه لو وليت، وهي مصبوبة في قوالب القلوب، وبمثلها يعتذر الزمان المذنب عن الذنوب؛ ثم عقب هذا الكلام بذكر مقاطيع من شعره وأبيات من جملة قصائده.

وذكره أبو الحسن علي بن بسام في كتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة وبالغ في الثناء عليه وذكر شيئاً من شعره. ومن نظمه المشهور قصيدته التي أولها:

سقى دارها بالرقمتين وحياها ... ملث يحيل الترب في الدار أموالها

ومنها:

وكيف بوصل الحبل من أم مالك ... وبين بلادينا زرود وحبلاها

يراها بعين الشوق قلبي على النوى ... فيحظى، ولكن من لعيني برؤياها

فلله ما أصفى وأكدر حبها ... وأبعدها مني الغداة وأدناها

إذا اسوحشت عيني أنست بأن أرى ... نظائر تصبيني إليها وأشباها

وأعتنق الغصن الرطيب لقدها ... وأرشف ثغر الكأس أحسبه فاها

ويوم الكئيب استرشقت لي ظبية ... مولهة قد ضل بالقاع خشفاها

يدله خوف الثكل حبة قلبها ... فتزداد حسناً مقلتاها وليتاها

فما ارتاب طرفي فيك يا أم مالك ... على صحة التشبيه أنك إياها

فإن لم تكوني خدها وجبينها ... فإنك أنت الجيد أو أنت عيناها

ألومه في حب دار عزيزة ... يشق على رجم المطامع مرماها

دعوه ونجداً إنها شأن قلبه ... فلو أن نجداً تلعة ما تعداها

وهبكم منعتم أن يراها بعينه ... فهل تمنعون القلب أن يتمناها

وليل بذات الأثل قصر طوله ... سرى طفيها، آها لذكرته آها

تخطت إلي مشياً على الهوى ... وأخطاره، لا يصغر الله ممشاها

وقد كاد أسداف الدجى أن تضلها ... فما دلها إلا وميض ثناياها

وله من أبيات:

إن التي علقت قلبك حبها ... احت بقلب منك غير علوق

عقدت ضمان وفائها من خصرها ... فوهى، كلا العقدين غير وثيق

ومن سائر شعره أيضاً قوله رحمه الله تعالى:

بكر العارض تحدوه النعامي فساقك الري يا دار أماما

وتمشت فيك أنفاس الصبا يتناجين بأنفاس الخزامى

ومنها:

وبجرعاء الحمى قلبي فعج بالحمى واقرأ على قلبي السلاما

وترجل فتحدث عجبا أن قلباً سار عن جسم أقاما

قل لجيران الغضى آها على طيب عيش بالغضى لو كان داما

نصل العام ولا ننساكم وقصارى الوجد أن تحمل شيحاً وثماما

وابعثوا أشباحكم في الكرى إن أذنتم لجفوني أن تناما

وهي قصيدة طويلة نقتصر من أطايبها على هذا القدر طلباً للاختصار. ومن رقيق شعره قصيدته التي منها:

أرقت فهل لها جعة بسلع على الأرقين أفئدة ترق

نشتك بالمودة يابن ودي فإنك بي من ابن أبي حق

أسل بالجزع دمعك إن عيني إذا استبررتها دمعا تعق

وإن شق البكاء على المعافى فلم أسألك إلا ما يشق

وله في القناعة، وقد أحسن فيها كل الاحسان:

يلحى علىالبخل الشحيح بماله أفلا تكون بماء وجهك أنجلا

أكرم يديك عن السؤال فإنما قدر الحياة أقل من أن تسألا

ولقد أضم إلي فضل قناعتي وأبيت مشتملاُ بها متزملا

وأري العدو على الخاصاصة شارة تصف الغنى فيخالني متمولا

وإذا امرؤ أفنى االليالي حسرة وأمانيا أفنيتهن توكلا

ومن بدبع مدائحه قوله من جملة قصيدة:

وإذا رأوك تفرقت أرواحهم فكأنما عرفتك قبل الأعين

وإذا أردت بأن تفل كتيبة لاقيتها فتسم فيها واكتن

وله من جملة قصيدة أبيات تتضمن العتب:

إذا صور الأشفاق لي كيف أنتم وكيف إذا ما عن ذكري صرتم

تنفست عن عتب، فؤادي مفصحٌ به، ولساني للحافظ يجمجم

وفي فيّ ماءٌ من بقايا ودادكم كثيراً به من ماء وجهي أرقتم

أضم فمي ضنا عليه وبينه وبين انسكاب ريثما أتكلم

وديوانه مشهور فلا حاجة إلى الإطالة في إيراد محاسنه.
ويعجبني كثيراً قوله من جملة قصيدة طويلة بيت واحد وهو:

بنا أنتم من ظاعنين وخلفوا قلوباً أبت أن تعرف الصبر عنهم

وتوفي ليلة الأحد لخمس خلون من جمادى الآخرة سنة ثمان وعشرين وأربعمائة.
وفي تلك السنة توفي الرئيس أبو علي ابن سينا الحكيم المشهور– حسبما تقدم ذكره في ترجمته – رحمهما الله تعالى؛ رأيت في بعض التواريخ أنه توفي سنة ست عشرين، والأول أصح، والله أعلم.
وذكر الباخرزي المذكور في كتابه "الدمية" أيضاً ولده الحسين بن المهيار، ونسب إليه القصيدة الحائية التي من جملتها:

يا نسيم الريح من كاظمة شد ما هجت البكاوالبرحا

وهي قصيدة طويلة، وهي من مشاهير قصائد مهيار، ولا أعلم من أين وقع له هذا الغلط.
ومهيار: بكسر الميم وسكون الهاء وفتح الياء المثناة من تحتها وبعد الألف راء.
ومرزويه: بفتح الميم وسكون الراء وفتح الزاي والواو وبعدها ياء مثناة من تحتها ثم هاء ساكنة، وهما اسمان فارسيان لا أعرف معناهما.

نافع مولى ابن عمر

أبو عبد الله نافع مولى عبد الله بن عمر، رضي الله عنهم؛ كان ديلمياً، وأصابه مولاه عبد الله بن عمر في غزاته، وهو من كبار الصالحين التابعين، سمع مولاه وأبا سعيد الخدري، وروى عنه الزهري وأيوب السختياني ومالك بن أنس، رضي الله عنهم. وهو من المشهورين بالحديث، ومن الثقات الذين يؤخذ عنهم ويجمع حديثهم ويعمل به، ومعظم حديث ابن عمر عليه دار. وقال مالك: كنت إذا سمعت حديث نافع عن ابن عمر لا أبالي ألا أسمعه من أحد؛ وأهل الحديث يقولون: رواية الشافعي عن مالك عن نافع عن ابن عمر سلسلة الذهب لجلالة كل واحد من هؤلاء الرواة.
وحكى الشيخ أبو إسحاق الشيرازي، رحمه الله تعالى، في كتاب "المهذب" في باب الوليمة والنثر عن نافع قال: كنت أسير مع عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما، فسمع زمارة راع، فوضع إصبعيه في أذنيه ثم عدل عن الطريق، فلم يزل يقول: يا نافع أتسمع؟ حتى قلت: لا، فأخرج إصبعيه عن أذنيه ثم رجع إلى الطريق، ثم قال: هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم صنع. وفي هذا الأثر إشكال تسأل عنه الفقهاء، وهو أن عمر كيف سد أذنيه عن استماع صوت الزمارة، ولم يأمر مولاه نافعاً بفعل ذلك بل مكنه منه، وكان يسأله كل وقت: هل انقطع الصوت أم لا؟ وقد أجابوا عن الإشكال بأن نافعاً حينئذ كان صبياً، فلم يكن مكلفاً حتى يمنعه من الاستماع، ويرد على هذا الجواب سؤال آخر، وهو أن الصحيح أن أخبار الصبي غير مقبول، فكيف ركن ابن عمر إلى إخباره في انقطاع الصوت؟ وهذا الأثر يعضد حجة من قال: إن رواية الصبي مقبولة، وفي ذلك خلاف مشهور، وليس هذا موضع الكلام عليه.
وأخبار نافع كثيرة؛ وتوفي سنة سبع عشرة، وقيل سنة عشرين ومائة، رضي الله عنه.

نافع المقرئ

أبو رويم نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم، مولى جعونة بن شعوب الشجعي، المقرئ المدني أحد القراء السبعة؛ كان إمام أهل المدينة والذي صاروا إلى قراءته ورجعوا إلى اختياره، وهو من الطبقة الثالثة بعد الصحابة، رضوان الله عليهم، وكان محتسباً فيه دعابة، وكان أسود شديد السواد، قال ابن أبي أويس، قال لي مالك رضي الله عنه: قرأت على نافع، وقال الأصمعي، قال لي نافع: أصلي من أصبهان، هكذا قاله الحافظ أبو نعيم في "تاريخ أصبهان" وكان قرأ على أبي ميمونة مولى أم سلمة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان له راويان: ورش، وقنبل، وقد سبق ذكرهما في حرف العين.
وتوفي نافع المذكور سنة تسع وخمسين، وقيل غير ذلك، بالمدينة، والأول أصح. وقيل إن كنيته أبو الحسن، وقيل أبو عبد الله، وقيل أبو عبد الرحمن، وقيل أبو نعيم، والله أعلم بالصواب.

وجعونة: بفتح الجيم وسكون العين المهملة وفتح الواو والنون وبعدها هاء ساكنة، وهو في الأصل اسم الرجل القصير، ثم سمي به الرجل وإن لم يكن قصيراً وجعل علماً عليه، وكان جعونة حليف حمزة بن عبد المطلب، وقيل حليف العباس بن عبد المطلب، رضي الله عنهما، وقيل حليف بني هاشم.

وشعوب: بفتح الشين المعجمة وضم العين المهملة وسكون الواو وبعدها باء موحدة، وهو في الأصل اسم المنية.

والشجعي: بكسر الشين المعجمة وسكون الجيم وبعدها عين المهملة، هذه النسبة إلى بني سجع، وهم من بني عامر بن ليث، و لم يتعرض السمعاني إلى ذكر هذه النسبة.

المطرزي

أبو الفتح ناصر بن أبي المكارم عبد السيد بن علي المطرزي الفقيه الحنفي النحوي الأديب الخوارزمي؛ كانت له معرفة تامة بالنحو واللغة والشعر وأنواع الأدب، قرأ ببلده على أبيه وعلى أبي المؤيد الموفق بن أحمد بن محمد المكي خطيب خوارزم وغيرها، وسمع الحديث من أبي عبد الله بن محمد بن علي بن أبي سعد التاجر وغيره وكان تام المعرفة بفنه، رأساً في الاعتزال داعياً إليه، ينتحل مذهب الإمام أبي حنيفة، رضي الله عنه في الفروع، فصيحاً، وكان في الفقه فاضلاً وله عدة تصانيف نافعة منها: "شرح المقامات" للحريري، وهو على وجازته مفيد محصل للمقصود، وله كتاب" المغرب" تكلم فيه الألفاظ التي يستعملها الفقهاء من الغريب، وهو للحنفية بمثابة كتاب الأزهري للشافعية، وما أقصر فيه، فإنه أتى جامعاً للمقاصد، وله " المعرب في شرح المغرب" وهو كبير وقليل الوجود، وله "الإقناع" في اللغة و" مختصر الإقناع" و"مختصر إصلاح المنطق" و" الصباح" في النحو و"المقدمة" المشهورة في النحو أيضاً، وله غير ذلك، وانتفع الناس به بكتبه.

ودخل بغداد حاجاً سنة إحدى وستمائة وكان معتزلي الاعتقاد، وجرى له هناك مباحث مع جماعة من الفقهاء، وأخذ أهل الأدب عنه. وكان سائر الذكر مشهور السمعة بعيد الصيت. وله شعر، فمن ذلك- وفيه صناعة:

وزند ندى فواضله وري ... ورند ربا فضائله نضير

ودر جلاله أبداً ثمين ... ودر نواله أبداً غزير

وله أيضاً:

وإني لأستحي من المجد أن أرى ... حليف غوانٍ أن أليف أغاني

وله أيضاً:

تعامى زماني عن حقوقي وإنه ... قبيح على الزرقاء تبدي تعاميا

فإن تنكروا فضلي فأن رغاءه ... كفى لذوي الأسماع منكم مناديا

وله أشعار كثيرة يستعمل فيها التجانيس.

وكانت ولادته في رجب سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة بخوارزم، وهو كما يقال خليقة الزمخشري، فإنه توفي في تلك السنة بتلك البلدة كما سبق في ترجمته.

وتوفي المطرزي يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من جمادى الأولى سنة عشر وستمائة بخوارزم أيضاً، رحمه الله تعالى، ورثي بأكثر من وثلثمائة قصيدة عربية وفارسية.

والمطرزي: بضم الميم وفتح الطاء المهملة وتشديد الراء وكسرها ة بعدها زاي، هذه النسبة إلى من يطرز الثياب ويرقمها، ولا أعلم هل كان يتعاطى ذلك بنفسه، أم كان في آبائه من يتعاطى ذلك فنسب له، والله أعلم.

"وتوفي شيخه الموفق بن أحمد الخطيب المذكور في حادي عشر صفر الخير سنة ثمان وستين وخمسمائة بخوارزم، رحمه الله تعالى"

نزار العبيدي

أبو المنصور نزار، الملقب العزيز بالله، ابن المعز بن منصور بن القائم بن المهدي سيدي، صاحب مصر وبلاد الغرب؛ قد تقدم ذكر والده وأجداده وولده وأحفاده. ولي العهد بمصر يوم الخميس رابع شهر ربيع الآخر سنة خمس وستين وثلثمائة واستقل بالأمر بعد وفاة أبيه، وكان يوم الجمعة حادي عشر الشهر المذكور- وفيه الخلاف المذكور في ترجمته- وسترت وفاة أبيه وسلم عليه بالخلافة. وكان كريماً شجاعاً حسن العفو عند المقدرة، وقصته مع أفتكين التركي غلام معز الدولة مشهورة، وعفا عنه لما ظفر به، وكان قد غرم في محاربته مالاً جزيلاً، ولم يؤاخذه بما صدر منه،- وقد سبق في ترجمة عضد الدولة بن بويه المقدم ذكره في حرف الفاء طرف من خبره فلا حاجة إلى إعادته -وهي قضية تدل على حلمه وحسن عفوه.

وذكر الأمير المختار المعروف بالمسبحي أنه الذي اختلط أساس الجامع بالقاهرة مما يلي باب الفتوح، وحفر وبني، وبدئ بعمارته سنة ثمانين وثلثمائة في شهر رمضان. ثم قال المسبحي أيضاً: وفي أيامه بني قصر بالقاهرة الذي لم ين مثله في شرق ولا غرب، وقصر الذهب وجامع القرافة والقصور بعين شمس. وكان أسمر أصهب الشعر أعين أشهل العين عريض المنكبين حسن الخلق قريباً من الناس لا يؤثر سفك الدماء، بصيراً بالخيل والجارح من الطير، محباً للصيد مغرى به وبصيد السباع ويعرف الجوهر والبز، وكان أديباً فاضلاً.

ذكره أبو منصور الثعالبي في كتاب "يتيمة الدهر" وأورد له شعراً قال في بعض الأعياد وقد وافق موت بعض أولاده وعقد عليه المآتم، وهو:

نحن بنو المصطفى ذوو محن ... يجرعها في الحياة كاظمنا

عجيبة في الأنام محنتنا ... أولنا مبتلى وخاتمنا

يفرح هذا الورى بعيدهم ... طراً وأعيادنا مآتمنا

ثم قال بعد فصل طويل: وسمعت الشيخ أبا الطيب يحكي أن المرواني صاحب الأندلس كتب إليه نزار صاحب مصر كتاباً يسبه فيه ويهجوه، فكتب إليه "أما بعد، فإنك قد عرفتنا فهجوتنا ولو عرفناك لأجبناك، والسلام" فاشتد على نزار وأفحمه عن الجواب.

وذكر أبو الحسن الروحي في كتاب "تحفة الظرفاء في تاريخ الخلفاء" أن هذه الواقعة كانت بين الحكم المستنصر بالله بن عبد الرحمن الناصر لدين الله، وهو المرواني صاحب الأندلس وبين العزيز المذكور، وأن المستنصر كتب إلى العزيز يسبه ويهجوه، فكتب إليه العزيز هذه الكلمات والله أعلم بالصواب.

وقد تقدم في ترجمة جده المهدي عبيد الله طرف من أخبار نسبهم والطعن فيه، وأكثر أهل العلم بالنسب لا يصححونه، وقد تقدم في ترجمة الشريف أبي محمد عبد الله بن طباطبا ما دار بينه وبين المعز والد هذا العزيز في أمر النسب وما أجاب به المعز، وصار هذا كالمستفيض بين الناس. وفي مبادي ولاية العزيز المذكور صعد المنبر يوم الجمعة فوجد هناك ورقة فيها مكتوب:

إنا سمعنا نسباً منكراً ... يتلى على المنبر في الجامع

إن كنت فيما تدعي صادقاً ... فاذكر أباً بعد الأب الرابع

وإن ترد تحقيق ما قلته ... فانسب لنا نفسك كالطائع

أو لا دع الأنساب مستورةً ... وادخل بنا في النسب الواسع

فإن انساب بني هاشم ... يقصر عنها طمع الطامع

وإنما قال: "فانسب لنا نفسك كالطائع" لأن هذه القضية جرت في خلافة الطائع لله خليفة بغداد.

وصعد العزيز يوماً آخر المنبر، فرأى ورقة فيها مكتوب:

بالظلم والجور قد رضينا وليس بالكفر والحماقه
إن كنت أعطيت علم غيبٍ فقل لنا كاتب البطاقه

وإنما كتب هذا لأنهم كانوا يدعون علم المغيبات، وأخبارهم في ذلك مشهورة.

ولأبي الرقعمق أحمد بن محمد الأنطاكي– المقدم ذكره – قصيدة رائية يمدح بها العزيز المذكور، وهي من أجود مدائحه فيه.

وزادت مملكته على مملكة أبيه، وفتحت له حمص وحماة وشيزر وحلب، وخطب له أبو الدواد محمد بن المسيب وهو أخو المقلد بن المسيب العقيلي، صاحب الموصل بالموصل وأعمالها في المحرم سنة اثنتين وثمانين وثلثمائة، وضرب اسمه على السكة والبنود، وخطب له باليمن، ولم يزل في سلطانه وعظم شأنه إلى أن خرج إلى بلبيس متوجهاً إلى الشام، فابتدأت به العلة في العشر الأخير من رجب سنة ست وثمانين وثلثمائة، ولم يزل مرضه يزيد وينقص، حتى ركب يوم الأحد لخمس بقين من شهر رمضان من السنة المذكورة إلى الحمام بمدينة بلبيس، وخرج منها إلى مترل الأستاذ أبي الفتوح برجوان– المقدم ذكره – وكان صاحب خزائنه بالقصر، فأقام عنده، وأصبح يوم الاثنين، فاشتد به الوجع يومه ذلك وصبيحة نهاره الثلاثاء، وكان مرضه من حصاة وقولنج فاستدعى القاضي محمد بن النعمان وأبا محمد الحسن بن عمارة الكتامي الملقب أمين الدولة، وهو أول من تلقب من المغاربة، وكان شيخ كتامة وسيدها، وخاطبهما بما خاطبهما به في أمر ولده الملقب الحاكم– المقدم ذكره –ثم استدعى ولده المذكور وخاطبه أيضاً بذلك، ولم يزل العزيز المذكور في الحمام والأمر يشتد به إلى بين الصلاتين من ذلك النهار، وهو الثلاثاء الثامن والعشرون من شهر رمضان سنة ست وثمانين وثلثمائة، فتوفي في مسلخ الحمام، هكذا قال المسبحي.

وقال صاحب "تاريخ القيروان": إن الطبيب وصف له دواء يشربه في حوض الحمام، وغلط فيه، فشربه فمات من ساعته، ولم ينكتم موته ساعة واحدة، وترتب موضعه ولده الحاكم أبو علي المنصور– المقدم ذكره – وبلغ الخبر أهل القاهرة، فخرج الناس غداة الأربعاء لتلقي الحاكم، فدخل البلد وبين يديه البنود والرايات وعلى رأسه المظلة، يحملها ريدان الصقلبي– المذكور في ترجمة برجوان – فدخل القصر بالقاهرة عند اصفرار الشمس، ووالده العزيز بين يديه في عمارية، وقد خرجت قدماه منها، وأدخلت العمارية القصر، وتولى غسله القاضي محمد بن النعمان، ودفن عند أبيه العز في حجرة من القصر، وكان دفنه عند العشاء الآخرة، وأصبح الناس يوم الخميس سلخ الشهر، والأحوال مستقيمة، وقد نودي في البلد: أن لا مؤنة ولا كلفة، وقد أمنكم الله تعالى على أموالكم وأرواحكم، فمن عارضكم أو نازعكم فقد حل ماله ودمه.

وكانت ولادة العزيز المذكور يوم الخميس رابع عشر المحرم سنة أربع وأربعين وثلثمائة بالمهدية من أرض افريقية " وقال الفرغاني في تاريخه الصغير: كان مولد العزيز بالله يوم الأحد لإحدى عشرة ليلة خلت من المحرم من السنة المذكور".

وقال المختار المسبحي صاحب التاريخ المشهور: قال لي الحاكم وقد جرى ذكر والده العزيز: يا مختار، استدعاني والدي قبل موته، وهو عاري الجسم، وعليه الخرق والضماد، فاستدناني وقبلني وضمني إليه وقال: وأغمي عليك يا حبيب قلبي، ودمعت عيناه. ثم قال: امض يا سيدي والعب فأنا في عافية، قال: فمضيت والتهيت بما يلتهي به الصبيان من اللعب إلى أن نقل الله سبحانه وتعالى العزيز إليه، قال: فبادر إلي برجوان وأنا على جميزة كانت في الدار فقال: انزل ويحك، الله الله فينا وفيك، قال: فترلت، فوضع العمامة بالجوهر على رأسي، وقبل لي الأرض وقال: السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله تعالى وبركاته، قال: وأخرجني حينئذ إلى الناس على تلك الهيئة، فقبل جميعهم لي الأرض، وسلموا علي بالخلافة.

وأخبار كثيرة، والاختصار أولى، رحمه الله تعالى.

نصر الخبزأرزي

أبو القاسم نصر بن أحمد بن نصر بن مأمون البصري، المعروف بالخبزأرزي الشاعر المشهور؛ كان أمياً لا يتهجى ولا يكتب، وكان يخبز خبز الأرز بمربد البصرة في دكان، وكان ينشد أشعاره المقصورة على الغزل والناس يزدحمون عليه ويتطرفون باستماع شعره ويتعجبون من حاله وأمره، وكان أبو الحسين محمد بن محمد المعروف بابن لنكك، البصري الشاعر المشهور– مع علو قدره عندهم – ينتاب دكانه ليسمع شعره، واعتنى به، وجمع له ديواناً،

وكان نصر المذكور قد وصل إلى بغداد وأقام بها دهراً طويلاً.

وذكره الخطيب في تاريخه وقال: قرأ عليه ديوانه، وروى عنه مقطعات من شعره المعافى بن زكريا الجريري، وأحمد بن منصور بن محمد بن حاتم النوشري، وعد جماعة رووا عنه.

وذكره الثعالبي في كتاب "اليتيمة" وأورد له مقاطيع، فمن ذلك قوله:

خليلي هل أبصرتما أو سمعتما ... بأكرم من مولىً تمشى إلى عبد
أتى زائراً من غير وعد وقال لي: ... أجلك عن تعليق قلبك بالوجد
فما زال نجم الوصل بيني وبينه ... يدور بأفلاك السعادة والسعد
فطوراً على تقبيل نرجس ناظر ... وطوراً على تعضيض تفاحة الخد

وأورد له أيضاً:

ألم يكفني ما نالني من هواكم ... إلى أن طفقتم بين لاه وضاحك
شماتتكم بي فوق ما قد أصابني ... وما بي دخول النار بي طنز ما لك

وذكر له أيضاً:

كم أناس وفوا لنا حين غابوا ... وأناس جفوا وهم حضار
عرضوا ثم أعرضوا، واستمالوا ... ثم مالوا، وجاوروا ثم جاروا
لا تلمهم على التجني فلو لم ... يتجنوا لم يحسن الاعتذار

ومن شعره أيضاً:

وكان الصديق يزور الصديق ... لشرب المدام وعزف القيان
فصار الصديق يزور الصديق ... لبث الهموم وشكوى الزمان

ومن شعره أيضاً:

كم أقاسي لديك قالاً وقيلا ... وعداتٍ تترى ومطلاً طويلا
جمعةٌ تنقضي وشهر يولي ... وأمانيك بكرة وأصيلا

إن يفتني منك الجميل من الفع ... ل تعاطيت عنك صبراً جميلا
والهوى يستزيد حالاً فحالاً ... وكذا ينسلي قليلاً قليلا
ويك لا تأمنن صروف الليالي ... إنها تترك العزيز ذليلا
فكأني بحسن وجهك قد صاح ... ت به اللحية الرحيل الرحيلا
فتبدلت حين بدلت بالنو ... ر ظلاماً، وساء ذاك بديلا
فكأن لم تكن قضيباً رطيباً ... وكأن لم تكن كثيباً مهيلا

عندها يشمت الذي لم تصله ويكون الذي وصلت خليلا

وله أيضاً:

رأيت الهلال ووجه الحبيب فكانا هلالين عند النظر
فلم أدر من حيرتي فيهما هلال الدجى من هلال البشر
ولولا التورد في الوجنتين وما راعني من سواد الشعر
لكنت أظن الهلال الحبيب وكنت أظن الحبيب القمر

وقال أحمد بن منصور بن محمد بن حاتم الموشري: أنشدنا أبو القاسم نصر ابن أحمد الخبرأرزي لنفسه:

بات الحبيب منامي والسكر يصبغ وجنتيه
ثم اغتدى وقد ابتداء صبغ الخمار بمقلتيه
وهبت له عيني الكرى وتعوضت نظراً إليه
شكراً لإحسان الزما ن كما يساعدني عليه

وذكر الخطيب في "تاريخ بغداد" ما مثاله: حكى أبو محمد عبد الله بن محمد الأكفاني النصري، قال: خرجت مع عمي أبي عبد الله الأكفاني الشاعر وأبي الحسين ابن لنكك وأبي عبد الله المفجع وأبي الحسن السباك، في بطالة عيد، وأنا يومئذ صبي أصحبهم، فمشوا حتى انتهوا إلى نصر بن أحمد الخبرأرزي، وهو جالس يخبز على طابقه، فجلست الجماعة عنده يهنونه بالعيد ويتعرفون خبره، وهو يوقد السعف تحت الطابق، فزاد في الوقود فدخنهم، فنهضت الجماعة عند تزايد الدخان، فقال نصر بن أحمد لأبي الحسن ابن لنكك: متى أراك يا أبا الحسين؟ فقال له أبو الحسين: إذا اتسخت ثيابي، وكانت ثيابه يومئذ جدداً على أنقى ما يكون من البياض للتجمل بها في العيد، فمشينا في سكة بني سمرة، حتى انتهينا إلى دار أبي أحمد ابن المثنى، فجلس أبو الحسين ابن لبكك، قال: يا أصحابنا إن نصراً لا يخلي هذا المجلس الذي مضى لنا معه من شيء يقوله فيه، ويجب أن نبدأه قبل أن يبدأنا، واستدعى دواة وكتب:

لنصر في فؤادي فرط حبٍ أنيف به على كل الصحاب
أتيناه فبخرنا بخوراً من السعف المدخر للثياب
فقمت مبادراً وظننت نصراً أراد بذاك طردي أو ذهابي
فقال :متى أراك أبا حسين؟ فقلت له: إذا اتسخت ثيابي

وأنفذ الأبيات إلى نصر، فأملى جوابها، فقرأناه فإذا هو قد أجاب:

منحت أبا الحسين صميم ودي فداعبني بألفاظ عذاب
أتى وثيابه كقتير شيب فعدن له كريعان الشباب
ظننت جلوسه عندي لعرس فجدت له بتمسيك الثياب
فقلت :متى أراك أبا حسين؟ فجوابني: إذا اتسخت ثيابي
فإن كان الترفه فيه خير فلم يكنى الوصي أبا تراب

وحكى أبو بكر محمد وأبو عثمان سعيد ابنا هاشم الخالديان الشاعران المشهوران في كتاب "الهدايا والتحف" أن الخبرأرزي أهدى إلى ابن يزداد والي البصرة فصاً وكتب معه:

أهديت ما لو أن أضعافه مطرحٌ عندك ما بانا
كمثل بلقيس التي لم يبن إهداؤها عند سليمانا
هذا امتحانٌ لك إن ترضه بان لنا أنك رضانا

والشيء بالشيء يذكر- وجدت في هذا الكتاب نادرة طريقة فأحببت ذكرها، وهي: كان بأصبهان رجل حسن النعمة واسع النفس كامل المروءة يقال له سماك بن النعمان، وكان يهوى مغنية من أهل أصبهان لها قدر ومعنى تعرف بأم عمرو. فلإفراط حبه إياها وصبابته بها وهبها عدةً من ضياعه، وكتب عليه بذلك كتباً، وحمل الكتب إليها على بغل، فشاع الخبر بذلك، وتحث الناس به واستعظموه؛ وكان بأصبهان رجل متخلف بين الركاكة يهوى مغنية أخرى فلما اتصل به ذلك ظن بجهله وقلة عقله أن سماكاً أهدى إلى أم عمرو جلوداً بيضاً لا كتابة فيها، وأن هذا من الهدايا التي تستحسن ويجل موقعها عند من تهدى إليه، فاتباع جلوداً كثيرة، وحملها على بغلين لتكون هديته ضعف هدية سماك، وأنفذها إلى التي يحب، فلما وصلت الجلود إليها ووقفت على الخبر فيها تغظيت عليه، وكتبت إليه رقعة تشتمه وتحلف أنها لا تكلمه أبداً، وسألت بعض الشعراء أن يعمل أبياتاً في هذا المعنى لتودعها الرقعة، ففعل، وكانت الأبيات:

لا عاد طوعك من عصاكا وحرمت من وصلٍ مناكا
فلقد فضحت العاشقي ن بقبح ما فعلت يداكا
أرأيت من يهدي الجلو د إلى عشيقته سواكا
وأظن أنك رمت أن تحكي بفعلك ذا سماكا
ذاك الذي أهدي الضيا ع لأم عمرو والصكاكا
فبعثت منتنةً كأن ك قد مسحت بهن فاكا
من لي بقربك يا رقي ع ولست أهوى أن أراكا
لكن لعلي أن أقط ع ما بعثت على قفاكا

ونقلت من هذا الكتاب أيضاً أن اللبادي الشاعر خرج من بعض مدن أذربيجان يريد أخرى، وتحته مهر له رائع، وكانت السنة مجدبة، فضمه الطريق وغلاماً حدثاً على حمار له، قال: فحادثته فرأيته أديباً راوية للشعر، خفيف الروح حاضر الجواب جيدة الحجة، فسرنا بقية يومنا، فأمسيا إلى خان على ظهر الطريق فطلبت من صاحبه شيئاً نأكله، فامتنع أن يكون عنده شيء، فرفقت به إلى أن جاءني برغيفين، فأخذت واحداً ودفعت إلى ذلك الغلام الآخر، وكان غمي على المهر أن يبيت بغير علف أعظم من غمي على نفسي، فسألت صاحب الخان عن الشعير فقال: ما أقدر منه على حبة واحدة، فقلت: فاطلب لي، وجعلت له جعيلة على ذلك، فمضى وجاءني بعد طويل وقال: قد وجدت مكوكين عند رجل حلف بالطلاق أنه لا ينقصهما عن مائة درهم، فقلت: ما بعد يمين الطلاق كلام، فدفعت إليه خمسين درهم، فجاءني بمكوك، فعلقته على دابتي وجلست أحادث الفتى، وحماره واقف بغير علف، فأطرق ملياً ثم قال: تسمع، أيدك الله، أبياتاً حضرت الساعة؟ فقلت: هاتها، فأنشد:

يا سيد شعري نفياية شعركا فلذاك نظمي ما يقوم بنثركا
وقد ابنسطت إليك في إنشاد ما هو في الحقيقة قطرةمن بحركا

آنستني وسررتني وبررتني وجعلت أمري من مقدم أمركا

وأريد أذكر حاجة إن تقضها أك عبد مدحك ما حييت وشكركا

أنا في ضيافتك العيشة ها هنا فاجعل حماري في ضيافة مهركا

فضحكت واعتذرت إليه من إغفالي أمر حماره، وابتعت المكوك الآخر بخمسين درهماً، ودفعته إليه.

وبالجملة فقد خرجنا عن المقصود.

وأخبار نصر المذكور ونوادره كثيرة. وتوفي سنة عشرة وثلثمائة، رحمه الله تعالى، وتاريخ وفاته فيه نظر، لأن الخطيب ذكر في تاريخه أن أحمد ابن منصور النوشري المذكور سمع منه سنة خمس وعشرين وثلثمائة"لكن نقلت تاريخ وفاته على هذه الصورة من تاريخ ابن أزرق الفارقي، والله أعلم".

والخبزأرزي: بضم الخاء المعجمة وسكون الباء الموحدة وفتح الزاي وبعدها همزة ثم راء ثم زاي؛ وفتح الهمزة وضمها وتشديد الزاي وتخفيفها في الأرز يختلف باختلاف اللغات في هذه الكلمة، وفيها ست لغات: الواحدة بضم الهمزة والراء وتشديد الزاي، والأخرى بفتح الهمزة والباقي مثل الأولى، والثالثة أرز: بضم الهمزة وسكون الراء وتخفيف الزاي، والرابعة مثل الثالثة لكن الراء مضمومة، والخامسة رز، بضم الراء وتشديد الزاي، والسادسة رنز، بضم الراء وسكون النون وتخفيف الزاي؛ وإنما نسب نصر المذكور هذه النسبة لأنه كان يتعاطى هذه الحرفة كما تقدم ذكره في أول هذه الترجمة.

ابن لنكك: بفتح اللام وسكون النون وكافين متواليين، وهو لفظ أعجمي، معناه بالعربي أعيرج، تصغير أعرج، لأن كلمة لنك معناها أعرج، وعادة العجم إذا صغروا اسماً ألحقوا في آخره كافاً.

ومربد البصرة: بكسر الميم وسكون الراء وفتح الباء الموحدة وبعدها دال مهملة، وهو اسم موضع بالبصرة مشهور، وهو في الأصل اسم لكل مكان تحبس فيه الإبل وغيرها، ثم صار علماً على الموضع المذكور.

أبو المرهف النميري

أبو المرهف نصر بن منصور بن الحسن بن جوشن بن منصور بن حميد بن أثال بن ورد بن عطاف بن بشر بن جندل بن عبيد الراعي بن الحصين بن معاوية بن جندل بن قطن بن ربيعة بن عبد الله بن الحارث بن نمير بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، النميري، الضرير الشاعر المشهور؛ قدم بغداد في صباه، وسكنها إلى حين وفاته، وحفظ القرآن المجيد، وتفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، رضي الله عنه، وسمع الحديث من القاضي أبي بكر محمد بن عبد الباقي الأنصاري وأبي البركات عبد الوهاب بن المبارك الأنماط وأبي الفضل محمد بن ناصر وغيرهم. وقرأ الأدب على أبي منصور ابن الجواليقي، وقال الشعر، ومدح الخلفاء والوزراء والأكابر، وحدث، وكان زاهداً ورعاً، حسن المقاصد في الشعر، له ديوان شعر.

وذكره العماد الأصبهاني في كتاب "الخريدة" وذكر شيئاً من شعره، وأورد نسبه على هذه الصورة وقال: هو الذي أملاه علي.

وعبيد الراعي المذكور في عمود نسبه هو الشعر المشهور، صاحب الديوان الشعر، وكان بينه وبين جرير مهاجاة.

وكان أبو المرهف المذكور قد كف بصره بالجدري وعمره أربه عشرة سنة، وذكر له العماد في "الخريدة" هذا المقطوع من شعره، وهو:

ترى يتألف الشمل الصديع وأمن من زماني ما يروع

وتأنس بعد وحشتنا بنجدٍ منازلنا القديمة والربوع

ذكرت بأيمن العلمين عصراً مضى والشمل ملتئمٌ جميع

فلم أملك لدمعي رد غربٍ وعند الشوق تعصيك الدموع

ينازعني إلى خنساء قلبي ودون لقائها بلدٌ شسوع

وأخوف ما أخاف على فؤادي إذا ما أنجد البرق اللموع
لقد حملت من طول التنائي عن الأحباب ما لا أستطيع

وشعره فيه رقة وجزالة، وكان ببغداد كثير الانقطاع إلى الوزير عون الدين ابن هبيرة– الآتي ذكره إن شاء الله تعالى – وله فيه مدائح. وكانت ولادته يوم الثلاثاء بعد العصر، ثالث عشر جمادى الآخرة سنة إحدى وخمسمائة بالرقة.

وتوفي يوم الثلاثاء الثامن والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة ثمان وثمانين وخمسمائة ببغداد، ودفن بباب حرب، رحمه الله تعالى.

والنميري: بضم النون وفتح الميم وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها راء، هذه النسبة إلى نمير بن عامر المذكور في عمود النسب في أول الترجمة، والباقي معروف.

ابن قلاقس

أبو الفتح نصر الله بن عبد الله بن مخلوف بن علي بن عبد القوي بن قلاقس، اللخمي الأزهري الإسكندري، الملقب القاضي الأعز، الشاعر المشهور؛ كان شاعراً مجيداً وفاضلاً نبيلاً"ولم يكن له لحية بل كان سناطاً، وقيل أشعار بسبب ذلك فأضربت عن ذكرها لفحشها". صحب الشيخ الحافظ أبا طاهر أحمد بن محمد السلفي– المقدم ذكره –وانتفع بصحبته، وله فيه غرر المدائح، وقد تضمنها ديوانه، وكان الحافظ المذكور كثيراً ما يثني عليه ويتقاضاه بمديحه، وقصد القاضي الفاضل عبد الرحيم– المقدم ذكره – بقصيدة موسومة أحسن فيها كل الإحسان، وأولها:

ما ضر ذاك الريم أن لا يريم لو كان يرثي لسليم سليم
وما على من وصله جنة ألا أرى من صه في جحيم
أعندما همت به روضةً أعل جسمي لأكون النسيم
رقيم خد نام عن ساهرٍ ما أجدر النوم بأهل الرقيم
وكيف لا يصرم ظبيٌ وقد سمعت في النسبة ظبي الصريم
وعاذلٍ دام ودوام الدجى بهيمة نادمتها في بهيم
يغظني وهو على رسله والمرء في غيظ سواه حليم

قلت له لما عدا طوره والقلب مني في العذاب الأليم
اعذر فؤادي إنه شاعرٌ من حبه في كل واد يهيم
يا رب خمر فمه كاسها لم أقتنع من شربها بالشيم
أتبعت رشفاً قبلاً عندها وقلت هذا زمزمٌ والحطيم
فافتر إما عن أقاحي الربا يضحك أو در العقود النظيم
أو كان قد قبل مستحسناً ما قبل الفاضل عبد الرحيم

وكان كثير الحركات والأسفار، وفي ذلك يقول:

والناس كثرٌ ولكن لا يقدر لي إلا مرافقة الملاح والحادي

وفي آخر وقته دخل بلاد اليمن، وامتدح بمدينة عدن أبا الفرج ياسر بن أبي الندى بلال بن جرير المحمدي وزير محمد وأبي السعود ولدي عمران بن محمد بن الداعي سبأ بن أبي السعود بن زريع بن العباس اليامي، صاحب بلاد اليمن، فأحسن إليه وأجزل صلته، وفارقه وقد أثرى من جهته، فركب البحر، فانكسر المركب به، وغرق جميع ما كان معه بجزيرة الناموس بالقرب من دهلك، وذلك يوم الجمعة خامس ذي القعدة سنة ثلاث وستين وخمسمائة، فعاد إليه وهو عريان، فلما دخل عليه أنشده قصيدته التي أولها:

صدرنا وقد نادى السماح بنا ردوا ... فعدنا إلى مغناك والعود أحمد

وهذه القصيدة من القصائد المختارة، ولو لم يكن فيها سوى هذا البيت لكفاه، ثم أنشده بعد ذلك قصيدة يصف فيها غرقه، وأولها:

سافر إذا حاولت قدرا ... سار الهلال فصار بدرا

والماء يكسب ما جرى ... طيباً ويخبث ما استقرا

وبنقلة الدر النفي ... سة بدلت بالبحر نحرا

ومنها:

يا راوياً عن ياسر ... خبراً ولم يعرفه خبرا

اقرأ بغرة وجهه ... صحف المنى إن كنت تقرا

والثم بنان يمينه ... وقل السلام عليك بحرا

وغلطت في تشبيه ... بالبحر، فاللهم غفرا

أو ليس نلت بذا غنى ... جماً ونلت بذاك فقرا

وعهدت هذا لم يزل ... مداً، وذاك يعود جزرا

وهي قصيدة طويلة أحسن فيها كل الإحسان، ومعنى البيت الثاني منها مأخوذ من قول بديع الزمان صاحب المقامات– المقدم ذكره في حرف الهمزة – في أول رسالة قد ذكرتها في ترجمته، وهي "الماء إذا طال مكثه، ظهر خبثه"، والبيت الثالث من هذه القصيدة أيضاً مأخوذ من قول صردر الشاعر– المقدم ذكره في حرف العين – وهو:

قلقل ركابك في الفلا ... ودع الغواني للخدور

فمحالفو أوطانهم ... أمثال سكان القبور

لولا التنقل ما ارتقت ... درر البحور إلى النحور

وله في جارية سوداء، وهو معنى غريب:

رب سوداء وهي بيضاء معنى ... نافس المسك عندها الكافور

مثل حب العيون يحسبه النا ... س سواداً، وإنما هو نور

ومحاسن ابن قلاقس نادرة. وكانت ولادته بثغر الإسكندرية يوم الأربعاء رابع شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة. وتوفي ثالث شوال سنة سبع وستين وخمسمائة بعيذاب، رحمه الله تعالى.

ودخل صقلية في شعبان سنة ثلاث وستين، وكان وصوله إلى اليمين سنة خمس وستين، وكان بصقلية بعض القواد، يقال له القائد أبو القاسم ابن

الحجر فاتصل به وأحسن إليه، وصنف له كتاباً سماه "الزهر الباسم في أوصاف أبي القاسم" وأجاد فيه، ولما فارق صقلية راجعاً إلى الديار المصرية، وكان زمن الشتاء، ردته الريح إلى صقلية، فكتب إلى أبي القاسم المذكور:

منع الشتاء من الوصو ... ل مع الرسول إلى دياري

فأعادني وعلى اختيا ... ري جاء من غير اختياري

ولربما وقع الحما ... ر وكان من غرض المكاري

وقلاقس: بقافين، الأولى مفتوحة والثانية مكسورة وبينهما لام ألف وفي آخره سين مهملة، وهو جمع قلقاس بضم القاف وهو معروف.
واللخمي: تقدم الكلام عليه وكذلك الأزهري.

وعيذاب: بفتح العين المهملة وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح الذال المعجمة وبعد الألف باء موحدة، وهي بليدة على شاطئ بحر جدة، يعدي منها الركب المصري المتوجه إلى الحجاز، على طريق قوص، في ليلة واحدة، في أغلب الأوقات، فيصل إلى جدة، ومنها إلى مكة- حرسها الله تعالى - مسفة يوم، وبجدة قبر أم البشر حواء، رضي الله عنها، على ما يقال، وقبرها هناك ظاهر يزار.
وياسر المذكور قتله شمس الدولة توران شاه- المقدم ذكره -عند دخوله اليمن.

ضياء الدين ابن الأثير

أبو الفتح نصر الله بن أبي بكر محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني، المعروف بابن الأثير الجزري، الملقب ضياء الدين؛ كان مولده بجزيرة ابني عمر، ونشأ بها، وانتقل مع والده إلى الموصل "في رجب سنة تسع وسبعين وخمسمائة" وبها اشتغل وحصل العلوم وحفظ كتاب الله الكريم وكثيراً من الأحاديث النبوية وطرفاً صالحاً من النحو واللغة وعلم البيان وشيئاً كثيراً من الأشعار حتى قال في أول كتابه الذي سماه "الوشي المرقوم" ما مثاله: "وكنت حفظت من الأشعار القديمة والمحدثة ما لا أحصيه كثيرة، ثم اقتصرت بعد ذلك على شعر الطائيين: حبيب بن أوس، يعني أبا تمام، وأبي عبادة البحتري، وشعر أبي الطيب المتنبي، فحفظت هذه الدواوين الثلاثة، وكنت أكرر عليها بالدرس مدة سنين، حتى تمكنت من صوغ المعاني، وصار الإدمان لي خلقاً وطبعاً" وإنما ذكر هذا الفضل في معرض أن المنشئ ينبغي أن يجعل دأبه في الترسل حل المنظوم، ويعتمد عليه في هذه الصناعة.
ولما كملت لضياء الدين المذكور الأدوات قصد جناب الملك الناصر صلاح الدين، تغمده الله برحمته، في شهر ربيع الأول سنة سبع وثمانين وخمسمائة، فوصله القاضي الفاضل لخدمة صلاح الدين في جمادى الآخرة من السنة، وأقام عنده إلى شوال من السنة، ثم طلبه ولده الملك الأفضل نور الدين من ولده، فخيره صلاح الدين بين الإقامة في خدمته، والانتقال إلى ولده ويبقى المعلوم الذي قرره له باقياً عليه، فاختار ولده، فمضى إليه، وكان يومئذ شاباً، فاستوزره ولده الملك الأفضل نور الدين علي- المقدم ذكره - رحمه الله تعالى، وحسنت حاله عنده.
ولما توفي السلطان صلاح الدين، واستقل ولده الملك الأفضل بمملكة دمشق، استقل ضياء الدين المذكور بالوزارة وردت أمور الناس إليه، وصار الاعتماد في جميع الأحوال عليه، ولما أخذت دمشق من الملك الأفضل وانتقل إلى صرخد - حسبما شرحناه في ترجمته - وكان ضياء الدين قد أساء العشرة مع أهلها، وهموا بقتله، فأخرجه الحاجب محاسن بن عجم مستخفياً في صندوق مقفل عليه، ثم صار إليه، وصحبه إلى مصر لما استدعي لنيابة ابن أخيه الملك المنصور - قد تقدم ذكر ذلك كله في ترجمة الملك الأفضل فأغنى عن الإعادة.
ولما قصد الملك العادل الديار المصرية، وأخذها من ابن أخيه- كما ذكرناه هناك - وتعوض الملك الأفضل البلاد الشرقية، وخرج من مصر، لم يخرج ضياء الدين في خدمته، لأنه خاف على نفسه من جماعة كانوا يقصدونه، فخرج منها مستتراً، وله في كيفية خروجه مستخفياً رسالة طويلة، شرح فيها حاله، وهي موجودة في ديوان رسائله، وغاب عن مخدومه الملك الأفضل مديدة، ولما استقر الأفضل في سميساط عاد إلى خدمته وأقام عنده مدة ثم فارقه في ذي القعدة من سنة سبع وستمائة، واتصل بخدمة أخيه الملك الظاهر صاحب حلب- المقدم ذكره - فلم يطل مقامه عنده ولا انتظم أمره، وخرج مغضباً وعاد إلى الموصل فلم يستقم حاله، فورد إربل فلم يستقم حاله، فسافر إلى سنجار ثم عاد إلى الموصل واتخذها دار إقامته واستقر، وكتب الإنشاء

لصاحبها ناصر الدين محمود ابن الملك القاهر عز الدين مسعود بن نور الدين أرسلان شاه– المقدم ذكره في حرف الهمزة – وأتابكه يومئذ الأمير بدر الدين لؤلؤ أبو الفضائل النوري، وذلك في سنة ثماني عشرة وستمائة.

ولقد ترددت إلى الموصل من إربل أكثر من عشر مرات، وهو مقيم بها، وكنت أود الاجتماع به لآخذ عنه شيئاً، ولما كان بينه وبين الوالد، رحمه الله تعالى، من المودة الأكيدة، فلم يتفق ذلك، ثم فارقت بلاد المشرق وانتقلت إلى الشام وأقمت به مقدار عشر سنين، ثم انتقلت إلى الديار المصرية وهو في قيد الحياة، ثم بلغني بعد ذلك خبر وفاته وأنا بالقاهرة، وسيأتي تاريخه في أواخر الترجمة إن شاء الله تعالى.

ولضياء الدين من التصانيف الدالة على غزارة فضله وتحقيق نبله، كتابه الذي سماه "المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر"، وهو في مجلدين، جمع فيه فأوعب، ولم يترك شيئاً يتعلق بفن الكتابة إلا ذكره، ولما فرغ من تصنيفه كتبه الناس عنه، فوصل إلى بغداد منه نسخة، فانتدب له الفقيه الأديب عز الدين أبو حامد عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن حسين بن أبي الحديد المدائني، وتصدى لمؤاخذته والرد عليه، وعنته في ذلك، وجمع هذه المؤاخذات في كتاب سماه "الفلك الدائر على المثل السائر" فلما أكمله وقف عليه أخوه موفق الدين أبو المعالي أحمد، ويدعى القاسم أيضاً، فكتب إلى أخيه المذكور قوله:

المثل السائر يا سيدي — صنفت فيه الفلك الدائرا

لكن هذا فلك دائر — تصير فيه المثل السائرا

وكانت ولادة عز الدين المذكور بالمدائن يوم السبت مستهل ذي الحجة سنة ست وثمانين وخمسمائة. وتوفي في بغداد سنة خمس وخمسين وستمائة.

وتوفي أخوه موفق الدين المذكور ببغداد، في سنة ست وخمسين وستمائة، بعد أن أخذها التتر بقليل. وكانا فقيهين أديبين فاضلين، لهما أشعار مليحة. ومولد الموفق المذكور في جمادى الآخرة، وقيل في شهر ربيع الأول، سنة تسعين وخمسمائة بالمدائن.

وله كتاب "الوشي المرقوم في حل المنظوم" وهو مع وجازته في غاية الحسن والإفادة، وله كتاب "المعاني المخترعة في صناعة الإنشاء"، وهو أيضاً نهاية في بابه، وله مجموع اختار فيه أبي تمام والبحتري وديك الجن والمتنبي، وهو في مجلد واحد كبير، وحفظه مفيد، وقال أبو البركات ابن المستوفي في "تاريخ إربل": نقلت من خطه، في آخر هذا الكتاب المختار ما مثاله:

تمتع بع علقاً نفيساً فإنه اخ — تيار بصير بالأمور حكيم

أطاعته أنواع البلاغة فاهتدى — إلى الشعر من نهجٍ إليه قويم

وله أيضاً ديوان ترسل في عدة مجلدات والمختار منه في مجلد واحد. ومن جملة رسائله، وكتبه إلى مخدومه وقد سافر في زمن الشتاء والبرد الشديد: "وينهي أنه سار عن الخدمة، وقد ضرب الدجن فيه مضاربه، وأسبل عليه ذوائبه، وجعل كل قرارة حفيراً، وكل ربوة غديراً، وخط كل أرض خطاً، وغادر كل جانب شطاً، كأنه يوازي يد مولانا في شيمة كرمها، والتثاث صوب ديمها، والمملوك يستغفر الله من هذا التمثيل، العاري عن فائدة التحصيل، وفرق بين ما يملأ الوادي بمائه، ومن يملأ النادي بنعمائه، وليس ما ينبت زهراً يذهبه المصيف، أو تمراً يأكله الخريف، كمن ينبت ثروة تغوث الأعطاف، ويأكل المرتبع والمصطاف، ثم استمر على مسير يقاسي الأرض ووحلها، والسماء ووبلها، ولقد جاد حتى ضجر، وأسرف حتى اتصل بره بالعقوق، وما خاف المملوك لمع البوارق كما خاف لمع البروق، ولم يزل من مواقع قطره في حرب، ومن شدة برده في كرب، والسلام". ولما سمع صاحبنا الحسام عيسى بن سنجر بن بهرام، المعروف بالحاجري الإربلي– المقدم ذكره – هذا المعنى، وهو قوله "ومن شدة بردة في كرب" أعجبه ونظم أبياتاً، ونت جملتها بيت أودعه هذا المعنى، وهو:

ويلاه من برد رضابٍ له — أشكو إلى العذال منه الحريق

ومن وقف على هذا البيت ربما يتشوق على بقية أبيات، وهي قليلة فلا بأس بذكرها، وهي:

بين لوي الجزع ووادي العقيق	من لا إلى السلوان عنه طريق
جانٍ جنى الخلة من ريقه	حلو التثني والثنايا رشيق
لو لم تكن وجنته جنةً	ما أنبتت ذاك العذار الأنيق
ويلاه من برد رضابٍ له	أشكو إلى العذال منه الحريق
واعجبا يفعل بي في الهوى	ما تفعل الأعداء وهو الصديق
روحي فدى الظبي الذي قده	يفعل فعل السمهري الدقيق

وقد سبق في ترجمة النفيس القطرسي– في حرف الهمزة – بيت من جملة أبياته الكافية يتضمن هذا المعنى، وهو قوله:

أحرقت يا ثغر الحبي	ب حشاي لما ذقت بردك

وأصل هذا المعنى لابن التعاويذي– المقدم ذكره – في بيت من جملة قصيدته النونية المشهورة، وهو:

يذكي الجوى بارد من ثغره شبمٌ	ويوقظ الوجد طرف منه وسنان

ومن رسائل ضياء الدين ما كتبه عن مخدومه إلى الديوان العزيز من جملة رسالة، وهي: "ودولته هي الضاحكة، وإن كان نسبها إلى العباس، فهي خير دولة أخرجت للزمن، كما أن رعاياها خير أمة أخرجت للناس، و لم يجعل شعارها من لون الشباب إلا تفاؤلاً بأنها لا تهرم، وأنها لا تزال محبوبة من أبكار السعادة بالحب الذي لا يسلى والوصل الذي لا يصرم، وهذا معنى اخترعه الخادم للدولة وشعارها، وهو مما لم تخطه الأقلام صحفها، ولا أجالته الخواطر في أفكارها".

ولعمري ما أنصف ضياء الدين في دعواه الاختراع لهذا المعنى، وقد سبقه إليه ابن التعاويذي في قصيدته السينية، التي مدح بها الإمام الناصر لدين الله أبا العباس أحمد أول يوم جلس في دست الخلافة، وهو يوم الأحد مستهل ذي القعدة سنة خمس وسبعين وخمسمائة، وأول القصيدة:

طاف يسعى بها على الجلاس	كقضيب الأراكة المياس

ومنها عند المخلص، وهو المقصود بالذكر هاهنا:

يا نهار المشيب من لي هيها	ت بليل الشبيبة الديماس
حال بيني وبين لهوي وأطرا	بي دهرٌ أحال صبغة راسي
ورأى الغانيات شيبي فأعرض	ن وقلن السواد خير لباس
كيف لا يفضل السواد وقد أضح	ى شعاراً على بني العباس

ولا شك أن ضياء الدين زاد على هذا المعنى، لكن ابن التعاويذي هو الذي فتح الباب وأوضح السبيل، فسهل على ضياء الدين سلوكه.

وله من جملة رسائله في ذكر العصا التي يتوكأ عليها الشيخ الكبير، وهو معنى غريب: "وهذا لمبتدأ ضعفي خبر، ولقوس ظهري وتر، وإن كان إلقاؤها دليلاً على الإقامة فإن حملها دليل على السفر". وله في وصف المسلوبين من جملة كتاب يتضمن البشرى بهزيمة الكفار وهو: "فسلبوا وعاضتهم الدماء عن اللباس، فهم في صورة عار وزيهم زي كاس، وما أسرع ما خيط لهم لباسها المحمر، غير أنه لم يجب عليهم و لم يزر، وما لبسوه حتى لبس الإسلام شعار النصر، الباقي على الدهر، وهو شعار نسجه السنان الخارق، لا الصنع الحاذق، و لم يغب عن لابسه إلا ريثما غابت البيض في الطلى والهام،

وألف الطعن بين ألف الخط واللام.

وأول هذا الفضل مأخوذ من قول البحتري:

سلبوا وأشرقت الدماء عليهم محمرة فكأنهم لم يسلبوا

وله رسالة يصف فيها الديار المصرية، وهي طويلة، ومن جملتها فصل صفة نيلها وقت زيادته، وهو معنى بديع غريب، ولم أقف لغيره على أسلوبه، وهو قوله: "وعذب رضابه فضاهى جنى النحل، واحمر صفيحة فعملت أنه قد قتل المحل". وهذا المعنى نهاية في الحسن، ثم إني وجدت هذا المعنى لبعض العرب، وقد أخذ ضياء الدين منه، وهو قوله:

لله قلب ما يزال يروعه برق الغمامة منجداً أو مغورا

ما احمر في الليل البهيم صفيحه متجرداً إلا وقد قتل الكرى

ولقد أحسن في أخذه وتلطف في نقله إلى هذا المعنى، ومثله قول عبد الله ابن المعتز المقدم ذكره في غلام أرمد:

قالوا اشتكت عينه فقلت لهم: من كثرة القتل مسها الوصب

حمرتها من دماء من قتلت والدم في النصل شاهد عجب

وله كل معنى مليح في الترسل، وكان يعارض القاضي الفاضل في رسائله، فإذا أنشأ رسالة أنشأ مثلها، وكان بينهما مكاتبات ومجاوبات، ولم يكن له في النظم شيء حسن، وسأذكر منه أنموذجاً:

ثلاثة تعطي الفرح كأس وكوب وقدح

ما ذبح الزق لها إلا وللهم ذبح

وكان كثيراً ما ينشد:

قلب كفاه من الصبابة أنه لبى دعاء الظاعنين وما دعي

ومن الظنون الفاسدات توهم بعد اليقين بقاؤه في أضلعي

وهذان البيتان من جملة أبيات للفقيه عمارة اليمني- المقدم ذكره.

ومحاسنه كثيرة، وقد طال الشرح.

وذكره أبو البركات ابن المستوفي في "تاريخ إربل" وبالغ في الثناء عليه وقال: ورد إربل في شهر ربيع الأول سنة إحدى عشرة وستمائة، وكانت ولادته بجزيرة ابن عمر في يوم الخميس العشرين من شعبان سنة ثمان وخمسين وخمسمائة؛ وتوفي في إحدى الجماديين سنة سبع وثلاثين وستمائة، ببغداد، وقد توجه إليها رسولاً من جهة صاحب الموصل، وصلي عليه من الغد بجامع القصر ودفن بمقابر قريش في الجانب الغربي بمشهد موسى بن جعفر، رضي الله عنهما. قال أبو عبد الله محمد بن النجار البغدادي في "تاريخ بغداد": توفي يوم الاثنين التاسع والعشرين من شهر ربيع الآخر من السنة، وهو أخبر، لأنه صاحب هذا الفن، وقد مات عندهم.وقد تقدم ذكر أخويه: مجد الدين أبي السعادات المبارك، وأبي الحسن علي الملقب عز الدين، وكان الأخوة الثلاثة فضلاء نجباء رؤساء، لكل واحد منهم تصانيف نافعة، رحمهم الله تعالى.

وكان لضياء الدين المذكور ولد نبيه له النظم والنثر الحسن، وصنف عدة تصانيف نافعة من مجاميع وغيرها، ورأيت له مجموعاً جمعه للملك الأشرف ابن الملك العادل بن أيوب، وأحسن فيه وذكر فيه جملة من نظمه ونثره ورسائل أبيه، ومولده بالموصل في شهر رمضان سنة خمس وثمانين وخمسمائة، وتوفي بكرة نهار الاثنين ثاني جمادى الأولى سنة اثنين وعشرين وستمائة، واسمه محمد، ولقبه الشرف، رحمه الله تعالى.

النضر بن شميل

أبو الحسن النضر بن شميل بن خرشة بن يزيد بن كلثوم بن عبدة بن زهير السكب، الشاعر، ابن عروة بن حليمة بن حجر حزاعي بن مازن ابن مالك بن عمرو بن تميم، التميمي المازني النحوي البصري؛ كان عالماً بفنون من العلم صدوقاً ثقة، صاحب غريب وفقه وشعر ومعرفة بأيام العرب ورواية الحديث، وهو من أصحاب الخليل بن أحمد؛ ذكره أبو عبيدة في كتاب"مثالب أهل البصرة" فقال: ضاقت المعيشة على النضر بن شميل البصري بالبصرة فخرج يريد خراسان، فشيعه من أهل البصرة نحو من ثلاثة آلاف رجل، ما فيهم إلا محدث أو نحوي أو لغوي أو عروضي أو أخباري، فلما صار بالمربد جلس فقال: يا أهل البصرة، يعز علي فراقكم، ووالله لو وجدت كل يوم كيلجة باقلى ما فارقتكم، قال: فلم يكن أحداً فيهم يتكلف له ذلك، فسار حتى وصل خراسان فأفاد بها مالاً عظيماً، وكانت إقامته بمرو. وقد سبق في أخبار القاضي عند الوهاب المالكي نظير هذه الحكاية لما خرج من بغداد.

وسمع بن هشام بن عروة وإسماعيل بن أبي خالد وحميد الطويل وعبد الله ابن عون وهشام بن حسان وغيرهم من التابعين، وروى عنه يحيى بن معين وعلي ابن المديني وكل من أدركه من أئمة عصره، ودخل نيسابور غير مرة وأقام بها رماناً وسمع منه أهلها.

وله مع المأمون بن هارون الرشيد لما كان مقيماً بمرو حكايات ونوادر، لأنه كان يجالسه، فمن ذلك ما حكاه الحريري في كتاب "درة الغواص في أوهام الخواص" في قوله: ويقولون هو سداد من عوز، فيلحنون في فتح السين، والصواب أن يقال بالكسر: وقد جاء في أخبار النحويين أن النضر بن شميل المازني استفاد بإفادة هذا الحرف ثمانين ألف درهم، وساق خبره، وذكر إسناداً انتهى فيه إلى محمد بن ناصح الأهوازي قال: حدثني النضر بن شميل قال: كنت أدخل على المأمون في سمره، فدخلت ذات ليلة وعلي ثوب مرقوع، فقال: يا نضر، ما هذا التقشف حتى تدخل على أمير المؤمنين في هذه الخلقان؟ قلت: يا أمير المؤمنين، أنا شيخ ضعيف وحر مرو شديد، فأتبرد بهذه الخلقان، قال: لا، ولكنك قشف، ثم أجرينا الحديث، فأجرى هو ذكر النساء فقال: حدثنا هشيم عن مجالد عن الشعبي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها كان فيه سداد من عوز" فأورده بفتح السين، قال: فقلت" صدق يا أمير المؤمنين هشيم، حدثنا عوف بن أبي جميلة عن الحسن عن علي بن أبي طالب رضوان الله عليه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها كان فيها سداد من عوز" قال: وكان المأمون متكئاً فاستوى جالساً، وقال: يا نضر، كيف قلت سداد؟ لأن السداد ها هنا لحن قال: أو تلحنني؟ قلت: إنما لحن هشيم وكان لحانة فتبع أمير المؤمنين لفظه، قال فما الفرق بينهما؟ قلت: السداد، بالفتح، القصد في الدين والسبيل، والسداد، بالكسر، البلغة، وكل ما سددت به شيئاً فهو سداد، قال: أو تعرف العرب ذلك؟ قلت: نعم، هذا العرجي يقول:

أضاعوني وأي فتىً أضاعوا	ليوم كريهة وسداد ثغر

فقال المأمون: قبح الله من لا أدب له، وأطرق ملياً ثم قال: ما مالك يا نضر؟ قلت: أريضة لي بمرو أتصاببها وأتمززها، قال: أفلا نفيدك مالا معها؟ قلت: إني إلى ذلك لمحتاج، قال: فأخذ القرطاس وأنا لا أدري ما يكتب. ثم قال: كيف يقول إذا أمرت أن يترب؟ قلت: أتربه، فهو ماذا، قلت: مترب، قال: فمن الطين؟ قلت: طنه، قال: فهو ماذا؟ قلت: مطين، هذه أحسن من الأولى، ثم قال: يا غلام، أتربه وطنه، ثم صلى بنا العشاء وقال لخادمه: تبلغ معه إلى الفضل بن سهل؛ قال: فلما قرأ الفضل الكتاب قال: يا نضر، إن أمير المؤمنين قد أمر لك بخمسين ألف درهم، فما كان السبب فيه؟ فأخبرته و لم أكذبه، فقال: لحنت أمير المؤمنين؟ فقلت: كلا إنما لحن هشيم وكان لحانة فتبع أمير المؤمنين لفظه، وقد تتبع ألفاظ الفقهاء ورواة الآثار، ثم أمر لي بثلاثين ألف درهم فأخذت ثمانين ألف درهم بحرف استفيد مني.

والبيت الذي استشهد به هو لعبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان الأموي العرجي الشاعر المشهور، وهو من جملة أبيات له، وهي هذه الأبيات:

أضاعوني وأي فتىً أضاعوا	ليوم كريهةٍ وسداد ثغر
وصبر عنه معترك المنايا	وقد شرعت أسنتها لنحري

أجرر في الجوامع كل يوم | فيا الله مظلمتي وقسري
كأني لم أكن فيهم وسيطاً | ولم تك نسبتي في آل عمرو
عسى الملك المجيب لمن دعاه | سينجيني فيعلم كيف شكري
فأجزي بالكرامة أهل ودي | وأجزي بالضغائن أهل وتري

والعرجي: بفتح العين وسكون الراء وفي آخرها جيم، هذه النسبة إلى العرج، وهو موضع بمكة سمي به؛ وقال ابن الأثير في كتاب "تهذيب النسب": العرج بين مكة والمدينة، وليس بمكة، والله أعلم.

وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلي: لما حبس المنصور عند الله بن علي كان يكثر التمثل بقول العرجي: أضاعوني وأي فتى أضاعوا فبلغ ذلك المنصور فقال: هو أضاع نفسه بسوء فعله، فكانت أنفسنا عندنا أبر من نفسه. قال إسحاق، وقال الأصمعي: مررت بكناس بالبصرة يكنس كنيفاً ويغني:

أضاعوني وأي فتىً أضاعوا | ليوم كريهةٍ وسداد ثغر

فقلت: أما سداد الكنيف فأنت ملي به، وأما الثغر فلا لنا كيف أنت فيه، وكنت حديث السن وأردت العبث به، فأعرض عني ملياً، ثم أقبل علي متمثلاً يقول:

وأكرم نفسي إنني إن أهنتها | وحقك لم تكرم على أحد بعدي

فقلت: والله ما يكون من الهوان شيء أكثر مما بذلتها له فقال لي: والله إن من الهوان لشراً مما أنا فيه، فقلت: وما هو؟ قال: الحاجة إليك وإلى أمثالك

وكان سبب عمله هذه الأبيات أن محمد بن هشام بن إسماعيل المخزومي خال هشام بن عبد الملك لما كان والي مكة حبس العرجي المذكور لأنه كان يشبب بأمه جيداء، وهي من بني الحارث بن كعب، ولم يكن ذلك لمحبته إياها، بل يفضح ولدها المذكور، وأقام في حبسه تسع سنين، ثم مات فيه بعد أن ضربه بالسياط وسهره بالأسواق، فعمل هذه الأبيات في السجن قال إسحاق: وكان الوليد بن يزيد مضغطاً على محمد بن هشام أشياء كانت تبلغه عنه في هشام، فلما ولي الخلافة قبض عليه وعلى أخيه إبراهيم بن هشام وأشخاص الشام، ثم دعا بالسياط، فقال له محمد: أسألك بالقرابة، فقال: وأي قرابة بيني وبينك، هل أنت من أشجع؟ قال: فأسألك بصهر عند الملك، قال: فلم تحفظه؛ قال: يا أمير المؤمنين قد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تضرب قريش بالسياط إلا في حد، قال: ففي حد أضربك وقود، "أنت ممن سن" ذلك على العرجي وهو ابن عمي وابن أمير المؤمنين عثمان فما راعيت حق جده ولا نسبته إلى هشام، ولا ذكرت حينئذ هذا الخبر، وأنا ولي ثأره، اضرب يا غلام، فضربهما ضرباً مبرحاً وأثقلا بالحديد ووجهها إلى يوسف بن عمرو بالكوفة وأمر باستقصائهما وتعذيبهما حتى يتلفا، وكتب إليه: احتبسهما مع ابن النصرانية، يعني خالداً القسري، إن عاش أحد منهما؛ فعذبهما عذاباً شديداً وأخذ منهما مالاً عظيماً، حتى لم يبق فيهما موضع للضرب، وكان محمد بن هشام مطروحاً فإذا أرادوا أن يقيموه أخذوا بلحيته فجذبوها بها، ولما اشتد الحال بهما تحامل إبراهيم لينظر في وجه محمد فوقع عليه فماتا جميعاً ومات خالد القسري معهما في يومٍ واحد قال إسحاق: غنيت الرشيد يوماً في عرض الغناء:

أضاعوني وأي فتى أضاعوا | ليوم كريهةٍ وسداد ثغر

فقال لي: ما كان سبب العرجي حتى قال الشعر؟ فأخبرته بخبره من أوله إلى آخره إلى أن مات فرأيته يتغير كلما مر به شيء، فأتبعه بحديث مقتل ابني هشام، فجعل وجهه يسفر وغضبه يسكن، فلما انقضى الحديث قال: يا إسحاق والله لولا ما حدثتني به من فعل الوليد لما تركت أحداً من بني مخزوم إلا قتلته في العرجي.

وقد خرجنا عن المقصود، ونرجع أن آن إلى تتمة أخبار النضر بن شميل. فمن ذلك ما حكاه الحريري "درة الغواص" أيضاً في أوائل الكتاب في قوله:

ويقولون للمريض: مسح الله ما بك، بالسين، والصواب فيه مصح، بالصاد، فقال: ويحكى أن النضر بن شميل المزني مرض فدخل عليه قوم يعودونه، فقال: له رجل منهم يكنى أبا صالح: مسح الله ما بك، فقال: لا تقل مسح بالسين ولكن قل مصح بالصاد، أي أذهبه وفرقه، أما سمعت قول الأعشى:

وإذا ما الخمر فيها أزبدت　　　أفل الإزباد فيها ومصح

فقال له الرجل: إن السين قد تبدل من الصاد، كما يقال الصراط والسراط، وسقر وصقر، فقال: له النضر: فإذا أنت أبو سالح؛ ويشبه هذه النادرة ما حكي أيضاً: أن بغض الأدباء جوز بحضرة الوزير أبي الحسن بن الفرات: أن تقام السين مقلم الصاد في كل موضع، فقال له الوزير: أتقرأ "جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم" "الرعد:23" أم من سلح؟ فخجل الرجل وانقطع؛ انتهى كلام الحريري.

قلت أنا: والذي ذكره أرباب اللغة في جواز إبدال الصاد من السين: أن كل كلمة فيها سين، وجاء بعدها أحد الحروف الأربعة – وهي الطاء والخاء والغين والفاء– فيجوز إبدال السين بالصاد، فنقول في "السراط" الصراط، وفي "سخر لكم" صخر، وفي "مسغبة" مصغبة، وفي "سيقل" صيقل، وقس على هذا كله. و لم أر في شيء من كتب اللغة من ذكر هذا وحكى فيه خلافاً، سوى الجوهري في كتاب "الصحاح" في لفظة صدغ، فإنه قال: وربما قالوا السدغ بالسين، قال قطرب محمد بن المستنير: إن قوماً من بني تميم يقال لهم بلعنبر يقلبون السين صاداً عند أربعة أحرف، الطاء والقاف ولغين والخاء، إذا كن بعد السين، ولا يبالي أثانية كانت أم ثالثة أم رابعة، بعد أن تكون بعدها، يقولون: سراط وصراط، وبسطة وبصطة، سيقل صيقل، وسرقت وصرقت، ومسغبة مصغبة، ومسدغة ومصدغة، وسخر لكم، وصخر لكم، والسخب والصخب؛ انتهى كلامه في هذا الفصل.

وأخبار النضر كثيرة، والاختصار أولى.

وله تصانيف كثيرة، فمن ذلك: كتاب في الأجناس على مثال "الغريب" وسماه: "كتاب الصفات". قال علي بن الكوفي: الجزء الأول منه يحتوي على خلق الإنسان والجود والكرم وصفات النساء. والجزء الثاني يحتوي الأخبية والبيوت وصفة الجبال والشعاب. والجزء الثالث يحتوي على الإبل فقط والجزء الرابع يحتوي على الغنم والطير والشمس والقمر والليل والنهار والألبان والكمأة والآبار والحياض والأرشية والدلاء وصفة الخمر. والجزء الخامس يحتوي على الزرع والكرم والعنب وأسماء البقول والأشجار والرياح والسحاب والأمطار. وله كتاب "السلاح"، وكتاب "خلق الفرس" وكتب " الأنواء" وكتاب "المعاني" وكتاب "غريب الحديث" وكتاب "المصادر" وكتاب "المدخل إلى كتاب العين للخليل بن أحمد"، وغير من التصانيف.

وتوفي في ساخ ذي الحجة سنة أربع ومائتين، وقيل في أولها، وقيل سنة ثلاث ومائتين بمدينة مرو من بلاد خراسان، وبها ولد، ونشأ بالبصرة فلذالك نسب إليها، رحمه الله تعالى.

والنضر: بفتح النون وسكون الضاد المعجمة وبعدها راء.

وشميل: بضم الشين المعجمة وفتح الميم وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها لام.

وخرشة: بفتح الخاء المعجمة والراء والشين المعجمة.

وكلثوم: بضم الكاف والثاء المثلثة وبينهما لام ساكنة.

وعبدة: بفتح العين والدال المهملة وبينهما باء موحدة وهاء ساكنة.

والسكب: بفتح السين المهملة وسكون الكاف وبعدها باء موحدة، وإنما قيل له "سكب" لقوله:

برقٌ يضيء خلال البيت أسكوب

وحليمة: بفتح الحاء المهملة وكسر اللام وسكون الياء المثناة من تحتها وقال ابن الجوزي في كتاب "الألقاب" في ترجمة السكب: هو زهير بن عروة بن جلهمة، والله أعلم بالصواب.

وجلهمة: بضم الجيم والهاء وبينهما لام ساكنة، وهو في أصل: اسم لجنب الوادي، يقال له: جلهمة، وجلهة: بفتح الجيم والهاء بغير ميم، وبه سمي الرجل.

وحجر: بضم الحاء المهملة وبعدها جيم ساكنة ثم راء.
وخزاعي: بضم الخاء المعجمة وفتح الزاي وبعد الألف عين مهملة مكسورة ثم ياء مشدودة تشبه ياء النسب.
والباقي معروف فلا حاجة إلى ضبطه.

الإمام أبو حنيفة

أبو حنيفة النعمان بن ثابت بن زوطي بن ماه الفقيه الكوفي، مولى تيم الله ابن ثعلبة، وهو من رهط حمزة الزيات؛ كان خزازاً يبيع الخز، وجده زوطي من أهل كابل، وقيل بابل، وقيل من أهل الأنبار، وقيل من أهل نسا، وقيل من أهل ترمذ، وهو الذي مسه الرق فأعتق، وولد ثابت على الإسلام.
وقال إسماعيل بن حماد بن أبي حنيفة: أنا إسماعيل بن حماد بن النعمان بن ثابت بن النعمان بن المرزبان، من أبناء فارس من الأحرار، والله ما وقع علينا رق قط. ولد جدي سنة ثمانين، وذهب ثابت إلى علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، وهو صغير، فدعا له بالبركة فيه وفي ذريته، ونحن نرجو أن يكون الله تعالى قد استجاب ذلك لعلي فينا، والنعمان بن المرزبان أبو ثابت هو الذي أهدى لعلي بن أبي طالب، رضي الله عنه، الفالوذج في المهرجان النيروز، فقال: مهرجونا كل يوم، هكذا قال الخطيب في تاريخه، والله تعالى أعلم.
وأدرك أبو حنيفة أربعة من الصحابة، رضوان الله عليهم وهم: أنس بن مالك وعبد الله بن أبي أوفى بالكوفة، وسهل بن سعد الساعدي بالمدينة، وأبو الطفيل عامر بن واثلة بكمة، و لم يلق أحداً منهم ولا أخذ عنه، وأصحابه يقولون: لقي جماعة من الصحابة وروى عنهم، و لم يثبت ذلك عند أهل النقل. وذكر الخطيب في "تاريخ بغداد" أنه رأى أنس بن مالك، رضي الله عنه. وأخذ الفقه عن حماد بن أبي سليمان وسمع عطاء بن أبي رباح وأبا إسحاق السبيعي ومحارب بن دثار والهيثم بن حبيب الصواف ومحمد بن المنكدر ونافعاً مولى عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما، وهشام بن عروة وسماك بن حرب؛ وروى عنه عبيد الله بن المبارك ووكيع بن الجراح والقاضي أبو يوسف ومحمد بن الحسن الشيباني وغيرهم.

وكان عاملاً زاهداً عابداً ورعاً تقياً كثير الخشوع دائم التضرع إلى الله تعالى، ونقله أبو جعفر المنصور من الكوفة إلى بغداد، فأراده على أن يوليه القضاء فأبى، فحلف أبو حنيفة أن لايفعل "فحلف المنصور لفعلن، فحلف أبو حنيفة أن لايفعل، وقال: إني لن أصلح إلى قضاء" فقال الربيع بن يونس الحاجب: ألا ترى أمير المؤمنين يحلف؟ فقال أبو حنيفة: أمير المؤمنين على كفارة أيمانه أقدر مني على كفارة أيماني، وأبى أن يلي، فأمر به إلى الحبس في الوقت، والعوام يدعون أنه تولى عدد اللبن أياماً ليكفر بذلك عن يمنه، و لم يصح هذا من جهة النقل. وقال الربيع: رأيت المنصور ينازل أبا حنيفة في أمر القضاء، وهو يقول: اتق الله، ولا ترعي أمانتك إلا من يخاف الله، والله ما أنا مأمون الرضا فكيف أكون مأمون الغضب؟ ولو اتجه الحكم عليك، ثم تهددتني أن تغرقني في الفرات أو تلي الحكم لاخترت أن أغرق، ولك حاشية يحتاجون إلى من يكرمهم لك، ولا أصلح لذلك، فقال له: كذبت أنت تصلح، فقال له: قد حكمت لي على نفسك، كيف يحل لك أن تولي قاضياً على أمانتك وهو كذاب؟ وحكى الخطيب أيضاً في بعض الرويات: أن المنصور لما بنى مدينته ونزلها، ونزل المهدي في الجانب الشرقي وبنى مسجد الرصافة، أرسل إلى أبي حنيفة فجيء به، فعرض عيله قضاء الرصافة فأبى، فقال له: إن لم تفعل ضربتك بالسياط، قال: أو تفعل؟ قال: نعم، فقعد في القضاء يومين فلم يأته أحد، فلما كان في اليوم الثالث أتاه رجل صفار ومعه آخر، فقال الصفار: لي على هذا درهمان وأربعة دوانيق ثمن تور صفر، فقال أبو حنيفة: اتق الله وانظر فيما يقول الصفار، قال: ليس له علي شيء، فقال أبو حنيفة للصفار: ما تقول؟ فقال: استحلفه لي، فقال أبو حنيفة للرجل: قل والله الذي لا إله إلا هو، فجعل يقول، فلما رآه أبو حنيفة معتمداً على أن يقول قطع عليه وضرب بيده إلى كمه، فحل صرة وأخرج درهمين ثقيلين للصفار: هذان الدرهمان عوض عن باقي تورك، فنظر الصفار إليهما وقال: نعم، فأخذ الدرهمين، فلما كان بعد يومين اشتكى أبو حنيفة فمرض ستة أيام ثم مات.
وان يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري أمير العراقين أراده أن يلي القدر بالكوفة أيام مروان بن محمد، آخر ملوك بني أمية، فأبى عليه فضربه مائة سوط وعشرة أسواط، كل يوم عشرة أسواط، وهو على الامتناع، فلما رأى ذلك خلى سبيله. وكان أحمد بن حنبل، رضي الله عنه، إذا ذكر ذلك بكى وترحم على أبي حنيفة، وذلك بعد أن ضرب أحمد على القول بخلق القرآن.
وقال إسماعيل بن حماد بن أبي حنيفة: مررت مع أبي بالكناسة فبكى، فقلت له: يا أبت ما يبكيك؟ فقال: يا بني، في هذا الموضع ضرب ابن هبيرة أبي

عشرة أيام، في كل يوم عشرة أسواط، على أن يلي القضاء، فلم يفعل.

والكناسة، بضم الكاف، موضع بالكوفة.

"قال الفضل بن غانم: كان أبو يوسف مريضاً شديد المرض فعاده أبو حنيفة مراراً، فصار إلى آخر مرة، فرآه ثقيلاً فاسترجع ثم قال: لقد كنت أؤملك بعدي للمسلمين ولئن أصيب الناس بك ليموتن معك علم كثير. ثم رزق العافية وخرج من الغد فأخبر أبو يوسف بقول أبي حنيفة فيه فاتفعت نفسه وانصرفت وجوه الناس إليه فعقد لنفسه مجلساً في الفقه، وقصر عن لزوم مجلس أبي حنيفة فسأل عنه فأخبر أنه عقد مجلساً وأنه يلقي كلامك فيه، فدعا رجلاً كان له عنده قدر فقال: سر إلى مجلس يعقوب فقل له: ما تقول في رجل دفع إلى قصار ثوباً ليقصره بدرهم إليه بعد أيام في طلب الثوب، فقال له القصار: ما لك عندي شيء وأنكره، ثم إن رب الثوب رجع إليه فدفع له الثوب مقصوراً، أله أجرة؟ فإن قال لك: له أجرة فقل له أخطأت، وإن قال: لا أجرة له فقل: أخطأت؛ فسار إليه وسأله، فقال أبو يوسف: له أجرة، فقال: أخطأت، فنظر ساعة ثم قال: لا أجرة له، فقال له: أخطأت، فقام أبو يوسف من ساعته فأتى أبا حنيفة فقال: ما جاء بك إلى مسألة القصار، قال: أجل، قال: سبحان الله، من قعد بفتي الناس وعقد مجلساً يتكلم في دين الله وهذا قدره، لا يحسن أن يجيب في مسألة من الاجارات؟ فقال: يا أبا حنيفة، علمني، فقال: إن كان قصره بعدما غصبه فلا أجرة لأنه قسر لصاحبه؛ ثم قال: من ظن أنه يستغني عن التعلم فلبيك على نفسه".

وكان أبو حنيفة حسن الوجه حسن المجلس، شديد الكرم حسن المواساة لإخوانه، وكان ربعة من الرجال، وقيل كان طوالا تعلوه سمرة، أحسن الناس منطقاً وأحلامهم نغمة.

وذكر الخطيب في تاريخه أن أبا حنيفة رأى في المنام كأنه ينبش قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، فبعث من سأل ابن سيرين، فقال ابن سيرين: صاحب هذه الرؤيا يثور علماً، لم يسبقه أحد قبله.

قال الشافعي، رضي الله عنه، قيل لمالك: هل رأيت أبا حنيفة؟ فقال: نعم، رأيت رجلاً لو كلمك في هذه السارية أن يجعلها ذهباً لقام بحجته.

وروى حرملة بن يحيى عن الشافعي رضي الله عنه أنه قال: الناس عيال على هؤلاء الخمسة، من أراد أن يتبحر في الفقه فهو عيال على أبي حنيفة، وكان أبو حنيفة ممن وفق له الفقه، ومن أراد أن يتبحر في الشعر فهو عيال على زهير بن أبي سلمى، ومن أراد أن يتبحر في المغازي فهو عيال على محمد بن إسحاق، ومن أراد أن يتبحر في النحو فهو عيال على الكسائي، ومن أراد أن يتبحر في التفسير فهو عيال على مقاتل بن سليمان، هكذا نقله الخطيب في تاريخه.

وقال يحيى بن معين: القراءة عندي قراءة حمزة، والفقه فقه أبي حنيفة على هذا أدركت الناس. وقال جعفر بن الربيع: أقمت على أبي حنيفة خمس سنين، فما رأيت أطول صمتاً منه، فإذا سئل عن الفقه تفتح وساهل كالوادي، وسمعت له دوياً وجهارة في الكلام.

وكان إماماً في القياس؛ قال علي بن عاصم: دخلت على أبي حنيفة وعنده حجام يأخذه من شعره، فقال للحجام: تتبع مواضع البياض، فقال الحجام: لا تزد، فقال: و لم؟ قال لأنه يكثر، قال فتتبع مواضع السواد لعله يكثر، وحكيت لشريك هذه الحكاية فضحك وقال: لو ترك أبو حنيفة قياسه لتركه مع الحجام.

وقال عبد الله بن رجاء: كان لأبي حنيفة جار بالكوفة إسكاف، يعمل نهاره أجمع، حتى إذا جنه الليل رجع إلى منزله، وقد حمل لحماً فطبخه أو سمكة فيشويها ثم لا يزال يشرب، حتى إذا دب الشراب فيه غرد بصوت، وهو يقول:

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ... ليوم كريهة وسداد ثغر

فلا يزال يشرب ويردد هذا البيت حتى يأخذه النوم، وكان أبو حنيفة يسمع جلبته كل ليلة، وأبو حنيفة كان يصلي الليل كله، ففقد أبو حنيفة صوته فسأل عنه، فقيل: أخذه العسس منذ ليال وهو محبوس، فصلى أبو حنيفة صلاة الفجر من غدٍ، وركب بغلته، واستأذن على الأمير، فقال الأمير: ايذنوا له وأقبلوا به راكباً ولا تدعوه يترل حتى يطأ البساط ببغلته، ففعل، و لم يزل الأمير يوسع له في مجلسه، وقال: ما حاجتك؟ فقال: لي جار إسكاف أخذه العسس منذ ليال، يأمر الأمير بتخليته، فقال: نعم، وكل من أخذ في تلك الليلة إلى يومنا هذا، فأمر بتخليتهم أجمعين، فركب أبو حنيفة والإسكاف

يمشي وراءه، فلما نزل أبو حنيفة مضى إليه وقال: يا فتى أضعناك؟ فقال: لا، بل حفظت ورعيت جزاك الله خيراً عن حرمة الجوار ورعاية الحق، وتاب الرجل و لم يعد إلى ما مان عليه.

وقال ابن المبارك: رأيت أبا حنيفة في طريق مكة، و شوي لهم فصيل سمين، فاشتهوا أن يأكلوه بخل فلم يجدوا شيئاً يصبون فيه الخل، فتحيروا، فرأيت أبا حنيفة وقد حفر في الرمل حفرة وبسط عليها السفرة، وسكب الخل على ذلك الموضع، فأكلوا الشواء بالخل، فقالوا: تحسن كل شيء، فقال: عليكم بالشكر، فإن هذا شيء ألهمته لكم فضلاً من الله عليكم.

"وحكى الحسن بن زياد قال: دفن رجل مالاً في موضع، ثم نسي في أي موضع دفنه فلم يقع عليه، فجاء إلى أبي حنيفة فشكا إليه فقال له أبو حنيفة: ما هذا فقه فأحتال لك، ولكن اذهب فصل الليلة، ففعل الرجل، و لم يقم إلا أقل من ربع الليل حتى ذكر الموضع، فجاء إلى أبي حنيفة فأخبره، فقال له: قد علمت أن الشيطان لا يدعك تصلي حتى يذكرك، فهلا أتممت ليلتك شكراً لله عزوجل.

وقال ابن شبرمة: كنت شديد الازراء على أبي حنيفة، فحضرالموسم وكنت حاجاً يومئذ، فاجتمع إليه قوم يسألونه، فوقفت من حيث لا يعلم من أنا، فجاءه رجل فقال: يا أبا حنيفة: قصدتك أسألك عن أمر أهمني وأزعجني قال: وما هو؟ قال: لي ولد وليس لي غيره، فإن زوجته طلق، وإن سريته أعتق، وقد عجزت عن هذا فهل من حيلة؟ قال له: نعم اشتر الجارية التي يرضاها لنفسه ثم زوجها منه، فإن طلق رجعت إليك مملوكتك وإن أعتق أعتق ما لايملك، وإن ولدت ثبت نسبه لك، فامت أن الرجل فقيه من يومئذ وكففت عن ذكره إلا بخير".

وقال ابن المبارك أيضاً: قلت لسفيان الثوري: يا أبا عبد الله، ما أبعد أبا حنيفة عن الغيبة، ما سمعته يغتاب عدواً له قط، فقال: هو أعقل من أن يسلط على حسناته ما يذهبها.

وقال أبو يوسف: دعا أبو جعفر المنصور أبا حنيفة، فقال الربيع صاحب المنصور، وكان يعادي أبا حنيفة: يا أمير المؤمنين، هذا أبو حنيفة يخالف جدك، كان عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يقول: إذا حلف على اليمين ثم استثنى بعد ذلك بيوم أو بيومين جاز الإستثناء، وقال أبو حنيفة: لا يجوز الاستثناء إلا متصلاً باليمين، فقال أبو حنيفة: يا أميرالمؤمنين، إن الربيع يزعم أنه ليس لك في رقاب جندك بيعة، قال: وكيف؟ قال: يحلفون لك ثم يرجعون إلى منازلهم فيستثنون فتبطل أيمانهم، فضحك المنصور وقال: يا ربيع، لا تتعرض لأبي حنيفة، فلما خرج أبو حنيفة قال له الربيع: أردت أن تشيط بدمي، قال: لا، ولكنك أردت أن تشيط بدمي فخلصتك وخلصت نفسي.

وكان أبو العباس الطوسي سيء الرأي في أبي حنيفة، وكان أبو حنيفة يعرف ذلك، فدخل أبو حنيفة على المنصور، وكثر الناس، فقال الطوسي: اليوم أقتل أبا حنيفة، فأقبل عليه فقال: يا أبا حنيفة، إن أمير المؤمنين يدعو الرجل فيأمره بضرب عنق الرجل لا يدري ما هو، أيسعه أن يضرب عنقه؟ فقال: يا أبا العباس أمير المؤمنين يأمر بالحق أم الباطل؟ فقال: بالحق، قال: أنفذ الحق حيث كان ولا تسأل عنه؛ ثم قال أبو حنيفة لمن قرب منه: إن هذا أراد أن يوثقني فربطته.

وقال يزيد بن الكميت: كان أبو حنيفة شديد الخوف من الله تعالى، فقرأ بنا علي بنالحسن المؤذن ليلة العشاء الأخيرة سورة "إذا زلزلت" وأبو حنيفة خلفه، فلما قضى الصلاة وخرج الناس نظرت إلى أبي حنيفة وهو جالس يتفكر ويتنفس، فقلت: أقوم لا يشتغل قلبه بي، فلما خرجت تركت القنديل و لم يكن فيه إلا زيت قليل، فجئت وقد طلع الفجر وهو قائم وقد أخذ بلحية نفسه، وهو يقول: يا من يجزي بمثقال ذرة خيرٍ خيراً، ويا من يجزي بمثقال ذرة شر شراً، أجر النعمان عبدك من النار، ومما يقرب منها من السوء، وأدخله في سعة رحمتك، قال: فأذنت وإذا القنديل يزهر وهو قائم، فلما دخلت قال لي: تريد أن تأخذ القنديل، قلت: قد أذنت لصلاة الغداة، فقال: اكتم علي ما رأيت، وركع ركعتين وجلس حتى أقمت الصلاة وصلى معنا الغداة على وضوء أول الليل.

وقال أسد بن عمرو: صلى أبو حنيفة فيما حفظ عليه صلاة الفجر بوضوء صلاة العشاء أربعين سنة، وكان عامة ليلة يقرأ جميع القرآن في ركعة واحدة وكان يسمع بكاؤه في الليل حتى يرحمه جيرانه، وحفظ عليه أنه ختم القرآن في الموضع الذي توفي فيه سبعة آلاف مرة.

وقال إسماعيل بن حماد بن أبي حنيفة عن أبيه: لما مات أبي سألنا الحسن ابن عمارة أن يتولى غسله ففعل، فلما غسله قال: رحمك الله وغفر لك! لم

تفطر منذ ثلاثين سنة، و لم تتوسد يمينك في الليل منذ أربعين سنة، وقد أتعبت من بعدك، وفضحت القراء.

ومناقبه وفضائله كثيرة، وقد ذكر الخطيب في تاريخه منها شيئاً كثيراً، ثم أعقب ذلك بذكر ما كان الأليق في تركه والإضراب عنه، فمثل هذا الإمام لا يشك في دينه، ولا في روعه وتحفظه، و لم يكن يعاب بشيء سوى قلة العربية، فمن ذلك ما روي أن أبا عمرو بن العلاء المقرىء النحوي- المقدم ذكره -سأله عن القتل بالمثل: هل يوجب القود أم لا؟ فقال: لا، كما هو قاعدة مذهبه خلافاً للإمام الشافعي رضي الله عنه، فقال له أبو عمرو: ولو قتله بحجر المنجنيق، فقال: ولو قتله بأبا قبيس، يعني الجبل المطل على مكة حرسها الله تعالى. وقد اعتذروا عن أبي حنيفة بأنه قال ذلك على لغة من يقول: إن الكلمات الست المعربة بالحروف- وهي أبوه وأخوه وحموه وهنوه وفوه وذو مال - أن إعرابها يكون في الأحوال الثلاث بالألف، وأنشدوا في ذلك:

إن أباها وأبا وأباها ... قد بلغنا في المجد غايتاها

وهي لغة الكوفيين، وأبو حنيفة من أهل الكوفة، فهي لغته، والله أعلم.

وهذا وإن كان خروجاً عن المقصود لكن الكلام ارتبط بعضه ببعض فانتشر.

وكانت ولادة أبي حنيفة سنة ثمانين للهجرة، وقيل سنة إحدى وستين، والأول أصح، وتوفي في رجب، وقيل في شعبان سنة خمسين ومائة، وقيل لأحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى من السنة، وقيل إحدى وخمسين وقيل ثلاث وخمسين، والأول أصح؛ وكانت وفاته في السجن ليلي القضاء فلم يفعل، هذا هو الصحيح، وقيل إنه لم يمت في السجن، وقيل توفي في اليوم الذي ولد فيه الإمام الشافعي رضي الله عنهما، ودفن بمقبرة الخيرزان، وقبره هناك مشهور يزار.

وزوطى: بضم الزاي وسكون الواو وفتح الطاء المهملة وبعدها ألف مقصورة، وهو اسم نبطي.

وكابل: بفتح الكاف وضم الباء الموحدة بعد الألف وبعدها لام، وهي ناحية معروفة من بلاد الهند ينسب إليها جماعة من العلماء وغيرهم.

وأما بابل والأنبار فهما معروفان فلا حاجة إلى الكلام عليهما.

وبنى شرف الملك أبو سعد محمد بن منصور الخوارزمي مستوفي مملكة السلطان ملك شاه السلجوقي على قبر الإمام أبي حنيفة مشهداً وقبة، وبنى عنده مدرسة كبيرة للحنيفة، ولما فرغ من عمارة ذلك ركب إليها في جماعة من الأعين ليشاهدوها، فبينما هم هناك إذ دخل عليهم الشريف أبو جعفر سعود المعروف بالبياض الشاعر- المقدم ذكره -وأنشده:

ألم تر أن العلم كان مبدداً ... فجمعه هذا المغيب في اللحد

كذلك كانت هذه الأرض ميتة ... فأنشرها فعل العميد أبي سعد

فأجازه أبو سعد جائزة سنية.

ولهذا أبي سعد مدرسة بمدينة مرو، وله عدة ربط وخانات في المفاوز، وكان كثير الخير وعمل المعروف، وانقطع في آخر عمره عن الخدمة ولزم بيته، وكانوا يراجعونه في الأمور، وتوفي في المحرم سنة أربع وستين وأربعمائة بأصبهان، رحمه الله تعالى.

وكان بناء المشهد والقبة في سنة تسع وخمسين وأربعمائة، وقد تقدم في ترجمة ألب أرسلان محمد والد السلطان ملك شاه أنه بنى مشهداً على قبر الإمام أبي حنيفة، وكذلك وجدته في بعض التواريخ، وقد غاب عني الآن من أين نقلته، ثم وجدت بعد ذلك أن الذي بنى مشهداً والقبة أبو سعد المذكور، والظاهر أن أبا سعد بناهما نيابة عن ألب أرسلان المذكور، وهو كان المباشر كما جرت عادة النواب مع ملوكهم، فتسبت العمارة إليه بهذه الطريق، ويدل على ذلك أن تاريخ العمارة في أيام ألب أرسلان، أبو سعد كان مستوفياً في أيامه، ثم استمر على وظيفته في أيام ولده ملك شاه، وهذا إنما ذكرته لنجمع بين النقلين، والله أعلم.

القاضي النعمان

أبو حنيفة النعمان بن أبي عبد الله محمد بن المنصور بن أحمد بن حيون، أحد الأئمة الفضلاء المشار إليهم، ذكره الأمير المختار المسبحي في تاريخه فقال: كان من أهل العلم والفقه والدين والنبل على ما لا مزيد عليه، وله عدة تصانيف: منها كتاب "اختلاف أصول المذاهب" وغيره، انتهى كلام المسبحي في هذا الموضع.

وكان مالكي المذهب ثم انتقل إلى مذهبه الإمامية، وصنف كتاب "ابتداء الدعوة للعبيديين" وكتاب "الأخبار" في الفقه، وكتاب "الاقتصار" في الفقه أيضاً.

وقال ابن زولاق في كتاب "أخبار قضاة مصر" في ترجمة أبي الحسن علي بن النعمان المذكور، ما مثاله: وكان أبوه النعمان بن محمد القاضي في غاية الفضل، من أهل القرآن والعلم بمعانيه، وعالماً بوجوه الفقه وعلم اختلاف الفقهاء واللغة والشعر الفحل والمعرفة بأيام الناس، مع عقل وإنصاف، وألف لأهل البيت من الكتب آلاف أوراق بأحسن تأليف وأملح سجع، وعمل في المناقب والمثالب كتاباً حسناً، وله ردود على المخالفين: له رد على أبي حنيفة وعلى مالك والشافعي وعلى ابن سريج، وكتاب "اختلاف الفقهاء" ينتصر فيه لأهل البيت رضي الله عنهم، وله القصيدة الفقيهة لقبها بالمنتخبة. زكان أبو حنيفة المذكور ملازماً صحبة المعز أبي تميم معد بن منصور– المقدم ذكره – ولما وصل من إفريقية إلى الديار المصرية كان معه، ولم تطل مدته، ومات فيمستهل رجب سنة ثلاث وستين وثلثمائة بمصر. وذكر أحمد بن محمد بن عبد الله الفرغاني في "سيرة القائد جوهر" أنه توفي في ليلة الجمعة سلخ جمادى الآخرة من السنة، وصلى عليه المعز، وذكر ابن زولاق في تاريخه بعد ذكر وفاة المعز وذكر أولاده وقضاة المعز فقال: قاضية الواصل معه من المغرب أبو حنيفة النعمان بن محمد الداعي، ولما وصل إلى مصر وجد جوهراً قد استخلف على القضاء أبا طاهر الذهلي النغدادي فأقره، انتهى كلام ابن زولاق.

وكان والده أبو عبد الله محمد قد عمر، ويكي أخباراً كثيرة نفيسة حفظها وعمره أربع سنين، وتوفي في رجب سنة إحدى وخمسين وثلثمائة، وصلى عليه ولده أبو حنيفة المذكور، ودفن في باب سلم، وهو أحد أبواب القيروان، وكان عمره مائة وأربع سنين.

وكان لأبي حنيفة أولاد نجباء سروات، فمنهم أبو الحسن علي بن النعمان، أشرك المعز المذكور بينه وبين أبي طاهر محمد بن أحمد بن عبد الله بن نصر بن يجير بن صالح بن أسامة الذهلي قاضي مصر في الحكم، ولم يزل مشتركين فيه إلى أن توفي المعز، وقام بالأمر ولده العزيز نزار– وقد تقدم ذكره أيضاً – فرد إلى القاضي أبي الحسن المذكور أمر الجامعين ودار الضرب، وهما على الاشتراك في الحكم، واستمروا على ذلك إلى أن لحقت القاضي أبا طاهر المذكور رطوبة عطلت شقه ومنعته من الحركة والسعي إلا محمولاً، فركب العزيز المذكور إلى الجزيرة التي بين مصر والجيزة في مستهل صفر سنة ست وستين وثلثمائة، فحمل أبو طاهر إليه، فلقيه الشهود معه عند باب الصناعة، فرآه نحيلاً، وسأله استخلاف ولده أبي العلاء بسب ما يجده من الضعف، فحكى عن العزيز أنه قال: ما بقي إلا أن تقددوه. ثم قلد العزيز ثالث هذا اليوم القاضي أبا الحسن علي بن النعمان المذكور القضاء مستقلاً فركب إلى الجامع القاهرة، وقرىء سجله، ثم عاد إلى الجامع العتيق بمصر وقرىء سجله، وكان القارىء أخاه أبا عبد الله محمد ابن النعمان، وكان في سجله القضاء بالديار المصرية والشام والحرمين والمغرب وجميع مملكة العزيز والخطابة والإمامة والعيار في الذهب والفضة، والموازين والمكاييل، ثم انصرف إلى داره في جمع عظيم، ولم يتأخر عنه أحد، وأقام القاضي أبو طاهر المذكور منقطعاً في بيته عليلاً، وأصحاب الحديث يترددون إليه ويسمعون عليه، إلى أن توفي سلخ ذي القعدة سنة سبع وسيتن وثلثمائة، وسنة ثمان وثمانون سنة، ومدة ولايته ست عشرة سنة وسبعة عشر يوماً، وأذن له العزيز أيضاً أن ينظر في الأحكام في هذه المدة، فلم يكن فيه فضل، وكان قد حكم في الجانب الغربي ببغداد أيضاً مدة ثم انتقل إلى مصر.

ثم إن القاضي أبا الحسن استخلف في الحكم أخاه أبا عبد الله محمداً، وفوض إليه الحكم بدمياط وتينس والفرما والجفار، فخرج إليها واستخلف بها ثم عاد، ثم سافر العزيز إلى الشام في سنة سبع وستين، وسافر معه القاضي أبو الحسن المذكور، وجلس أخوه محمد مكانه للحكم بين الناس.

وكان القاضي أبو الحسن المذكور مفنناً في عدة فنون، منها علم القضاء والقيام به بوقار وسكينة، وعلم الفقه والعربية والأدب والشعر وأيام الناس، وكان شاعراً مجيداً في الطبقة العليا، ومن شعره ما رواه له أبو منصور الثعالبي في كتاب "يتيمة الدهر" وهو قوله:

ولي صديق ما مني عدو ... مذ وقعت عينه على عدمي

أغنى وأقنى وما يكلفني تقبيل كف له ولا قدم

قام بأمري لما قعدت به ونمت عن حاجتي ولم ينم

وأورد له الثعالبي أيضاً في المعنى:

صديقٌ لي له أدب صداقة مثله نسب

رعى لي فوق ما يرعى وأوجب فوق ما يجب

فلو نقدت خلائقه لبهرج عندها الذهب

وأورد له أبو الحسن الباخزري- المقدم ذكره - في كتاب "دمية القصر" وأوردها أيضاً أبو محمد ابن زولاق في كتاب "أخبار قضاة مصر" في ترجمة أبي الحسن المذكور، أبياتاً أحسن فيها كل الإحسان، وهي:

رب خود عرفت في عرفات سلبتني بحسنها حسناتي

حرمت حين أحرمت نوم عيني واستباحت حماي باللحظات

وأفاضت مع الحجيج ففاضت من جفوني سوابق العبرات

ولقد أضرمت على القلب جمراً محرقاً إذ مشت إلى الجمرات

لم أنل من منى منى النفس حتى خفت بالخيف أن تكون وفاتي

و لم يزل أبو الحسن المذكور مستمراً على أحكامه، وافر الحرمة عند العزيز، حتى أصابته الحمى وهو بالجامع ينظر في الأحكام، فقام من وقته ومضى إلى داره، وأقام عليلاً أربعة عشر يوماً، وتوفي في الإثنين لست خلون من رجب سنة أربع وسبعين وثلثمائة، وأخرج تابوته من الغد إلى العزيز وهو معسكر بسطح الجب عند الموضع المعروف الآن بالبركة، فوضع التابوت بالمسجد المعروف بالبئر والجميزة، وسار العزيز إليه من مخيمه حتى وصل عليه في المسجد، وردت الجنازة إلى داره بالحمراء فدفن فيها.

والحمراء: محلة بمصر، وهي ثلاث حمراوات، وإنما قيل لها الحمراء لنزول الروم بها.

وأرسل العزيز إلى أخيه أبي عبد الله محمد- المذكور في هذه الترجمة -وكان ينوب عن أخيه أبي الحسن كما ذكرنا، فقال له: إن القضاء لك من بعد أخيك، ولا تخرجه عن هذا البيت.

وكانت مدة ولاية أبي الحسن تسع سنين وخمسة أشهر وأربعة أيام. وكانت ولادته بالمغرب، في شهر ربيع الأول سنة تسع وعشرين وثلثمائة، رحمه الله تعالى.

وأقامت مصر بغير قاض ينظر فيها ثمانية عشر يوماً لأن أبا عبد الله مان مريضاً، ثم أخف عنه المرض فركب في وقته إلى معسكر العزيز يوم الخميس لثمان بقين من رجب، ثم عاد من عنده إلى الجامع العتيق بمصر في يوم الجمعة وقد قلده العزيز القضاء وخلع عليه وقلده سفياً، فلم يقدر على النزول في الجامع لضعفه من العلة، فسار إلى داره، ونزل ولده وجماعة من أهل بيته إلى الجامع العتيق بمصر، وقرىء سجله بعد صلاة الجمعة، وكان مثل سجل أخيه أبي الحسن في جميع ولايته. وفي ذي القعدة سنة أربع وسبعين وثلثمائة استخلف ولده أبا القاسم عبد العزيز على القضاء بالإسكندرية بأمر العزيز، وخلع عليه العزيز.

وفي يوم الجمعة مستهل جمادى الأولى سنة خمس وسبعين عقد القاضي محمد بن النعمان المذكور نكاح ولده أبي القاسم عبد العزيز المذكور على ابنة القائد أبي الحسن جوهر- المقدم ذكره في حرف الجيم - وكان العقد في مجلس العزيز و لم يحضره إلا خواصه، وكان الصداق ثلاثة آلاف دينار،

والكتاب ثوباً مصمتاً.

وكان المعز أبو تميم معد والد العزيز المذكور قد تقدم وهو بالمغرب إلى القاضي أبي حنيفة النعمان المذكور في أول الترجمة بعمل اسطرلاب فضة، وأن يجلس مع الصائغ أحد ثقاته، فأجلس أبو حنيفة ولده المذكور محمداً، فلما فرغ الاسطرلاب حمله أبو حنيفة إلى المعز، فقال له: من أجلست معه؟ فقال: ولدي محمداً، فقال: هو قاضي مصر، فكان كما قال، لأن المعز كانت تحدثه نفسه أبداً بأخذ مصر، فلهذا تلفظ بهذا الكلام، ورافقته السعادة مع المقادير.

وقال القاضي محمد المذكور: كان المعز إذا رآني وأنا صبي بالمغرب يقول لولده العزيز: هذا قاضيك. وكان محمد جيد المعرفة بالأحكام مفنناً في علوم كثيرة حسن الأدب والدراية بالأخبار والشعر وأيام الناس، وله شعر، فمن ذلك قوله:

أيا مشبه البدر بدر السماء ... لسبع وخمسٍ مضت واثنتين

ويا كامل الحسن في نعته ... شغلت فؤادي وأسهرت عيني

فهل لي من مطمعٍ أرتجيه ... وإلا انصرفت بخفي حنين

ويشمت بي شامت في هواك ... ويفصح لي ظلت صفر اليدين

فإما مننت وإما قتلت ... فأنت القدير على الحالتين

وكتب إليه عبد الله بن الحسن الجعفري السمرقندي:

تعادلت القضاة علاً فأما ... أبو عبد الإله فلا عديل

وحيدٌ في فضائله غريبٌ ... خطيرٌ في مفاخرة جليل

تألق بهجةً ومضى اعتزاماً ... كما يتألق السيف الصقيل

فيقضي والسداد له حليف ... ويعطي والغمام له رسيل

لو اختبرت قضاياه لقالوا ... يؤيده عليها جبرئيل

إذا رقي المنابر فهو قس ... وأن حضر المشاهد فالخليل

فكتب إليه القاضي محمد المذكور:

قرأنا من قريضك ما يروق ... بدائع حاكها طبعٌ رقيق

كأن سطورها روضٌ أنيقٌ ... تضوع بينها مسكٌ فتيق

إذا ما أنشدت أرجت وطابت ... منازلها بها حتى الطريق

وإنا تائقون إليك فاعلم ... وأنت إلى زيارتنا تتوق

فواصلنا بها في كل يومٍ ... فأنت بكل مكرمةٍ حقيق

وقال ابن زولاق في "أخبار قضاة مصر": ولم نشاهد بمصر لقاض من القضاة من الرياسة ما شاهدناه لمحمد بن النعمان، ولا بلغنا ذلك عن قاض بالعراق، ووافق ذلك استحقاقاً، لما فيه من العلم والصيانة والتحفظ وإقامة الحق والهيبة.

وفي المحرم سنة ثلاث وثمانين وثلثمائة استخلف ولده أبا القاسم عبد العزيز المذكور في الأحكام بالقاهرة ومصر على الدوام، بعد أن كان ينظر فيها يوم

الإثنين والخميس لا غير، فصار يسمع البينات ويحكم ويسجل، وكان يخلفه أولاً ولد أخيه، وهو أبو عبد الله الحسين بن علي بن النعمان، فصرفه لعشر خلون من جمادى الأولى سنة سبع وسبعين، واستخلف ولده أبا القاسم عبد العزيز المذكور في الإثنين والخميس خاصة.

وارتفعت رتبة القاضي محمد عند العزيز حتى أصعده معه إلى المنبر يوم عيد النحر سنة خمي وثمانين، ولما توفي العزيز في الناريخ المذكور في ترجمته تولى غسله القاضي محمد المذكور، وقام بالأمر من بعده ولده الحاكم- المقدم ذكره - فأقر القاضي محمداً على أشغاله، وزادت مترلته عنده رفعة وبسط يده.

ولما حصلت له المترلة والمكنة من الدولة كثرت علله ولازمه النقرس والقولنج، فكان أكثر أوقاته عليلاً، والأستاذ أبو الفتوح براجوان- المقدم ذكره - على جلالته وعظم شأنه يعوده كل وقت، ثم تزايدت علته وتوفي ليلة الثلاثاء بعد العشاء الآخرة رابع صفر سنة تسع وثمانين وثلثمائة؛ وركب الحاكم إلى داره بالقاهرة، وصلى عليه فيها ووقف على دفنه ثم انصرف إلى قصره. كانت ولادته يوم الأحد لثلاث خلون من صفر سنة أربعين وثلثمائة بالمغرب.

ووهب الحاكم داره لبعض أصحابه، فنقل القاضي محمد المذكور إلى داره التي بمصر يوم الأربعاء لتسع خلون من شهر رمضان من هذه السنة، ثم نقل عيشة الجمعة لعشر خلون من شهر رمضان المذكور إلى مقبرة أخيه وأبيه بالقرافة، رحمهم الله تعالى.

ولما مات القاضي محمد أبو عبد الله المذكور أقامت مصر بغير قاض أكثر من شهر، ثم قلد الحاكم صاحب مصر القضاة أبا عبد الله الحسين بن علي بن النعمان الذي كان ينوب عن عمه القاضي محمد أبي عبد الله المذكور وصرفه واستخلف ولده أبا القاسم عبد العزيز- وقد تدم ذكر ذلك في هذه الترجمة -وكانت ولاية الحسين المذكور لست خلون من شهر ربيع الأول سنة تسع وثمانين وثلثمائة، واستمر في الحكم إلى يوم الخميس سادس عشر شهر رمضان سنة أربع وتسعين، فصرف بابن عمه أبي القاسم عبد العزيز بن محمد- المقدم ذكره - ثم ضربت عنق الحسين بن علي النعمان المذكور يوم الأحد سادس المحرم سنة خمس وتسعين في حجرته، وأحرقت جثته، وذلك بأمر الحاكم، لقصة يطول شرحها.

واستقل أبو القاسم في الأحكام، وضم إليه الحاكم النظر في المظالم، و لم يجتمعا قبله لأحد من أهله، وعلت رتبته عند الحاكم وأصعده معه علة المنبر يوم عيد الفطر بعد قائد القواد، وكذلك في عيد النحر، وتصلب في الأحكام، وتشدده على من عانده من روساء الدولة، ورسم على جماعة ممن وجب عليه حق فامتنع من الخروج منه. و لم يزل قاضياً في جميع ما فوضه إليه الحاكم، إلى أن صرفه عن ذلك جميعه يوم الجمعة سادس عشر رجب سنة ثمان وتسعين وثلثمائة. وفوض القضاء إلى أبي الحسن مالك بن سعيد بن مالك الفارقي، وأخرجه عن أهل بيت النعمان. ثم إن الحاكم أمر الأتراك بقتل القاضي أبي القاسم عبد العزيز المذكور والقائد أبي عبد الله الحسين بن جوهر وأبي علي إسماعيل أخي القائد فضل بن صالح، فقتلوهم ضرباً بالسيوف في ساعة واحدة، لأمر يطول شرحه، وذلك يوم الجمعة الثاني والعشرين منجمادى الآخرة سنة إحدى وأربعمائة، رحمهم الله تعالى؛ وكانت ولادة أبي القاسم عبد العزيز المذكور يوم الإثنين مستهل ربيع الأول سنة أربع وخمسين وثلثمائة.

وأما القاضي أبو طاهر المذكور، فقال أبو منصور أحمد عبد الله بن أحمد الفرغاني المصري في تتاريخه: إنه كان كثير الرواية حسن المجالسة، شيخ مع الشيوخ، كهل مع الكهول، شاب مع الشباب. وتوفي لليلة بقيت من ذي القعدة سنة سبع وستين وثلثمائة، رحمهم الله تعالى.

السيدة نفيسة

السيدة نفيسة ابنة أبي محمد الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنهم أجمعين؛ دخلت مصر مع زوجها إسحاق بن جعفر الصادق رضي الله عنه، وقيل بل دخلت مصر مع أبيها الحسن وإن قبره بمصر لكنه غير مشهور، وإنه كان والياً على المدينة من قبل أبي جعفر المنصور، وأقام بالولاية مدة خمس سنين، ثم غضب عليه فعزله واستصفى كل شيء له وحبسه ببغداد، فلم يزل محبوساً حتى مات المنصور وولي المهدي فأخرجه من محبسه ورد عليه كل شيء ذهب له، و لم يزل معه.

فلما حج المهدي كان في جملته، فلما انتهى إلى الحاجر مات هناك، وذلك في سنة ثمان وستين ومائة، وهو ابن خمس وثمانين سنة، وصلى عليه علي بن المهدي.- والحاجر على خمسة أميال من المدينة -وقيل إنه توفي ببغداد ودفن بقبرة الخيزران، والصحيح أنه مات بالحاجر، هكذا قال الخطيب في

تاريخه، والله أعلم.

وكانت نفيسة من النساء الصالحات التقيات، ويروى أن الإمام الشافعي، رضي الله عنه، لما دخل مصر في التاريخ المذكور في ترجمته حضر إليها، وسمع عليها الحديث وكان للمصريين فيها اعتقا عظيم، وهو إلى الآن باق كما كان.

ولما توفي الإمام الشافعي، رضي الله عنه، أدخلت جنازته إليها وصلت في دارها، وكانت "مقيمة" في موضع مشهدها اليوم، ولم تزل به إلى أن توفيت في شهر رمضان سنة ثمان ومائتين. ولما ماتت عزم زوجها المؤتمن إسحاق بن جعفر الصادق على حملها إلى المدينة ليدفنها هناك، فسأله المصريون بقاءها عندهم، فدفنت في الموضع كان يعرف به الآن ين القاهرة ومصر عند المشاهد، وهذا الموضع كان يعرف يومذاك بدرب السباع، فخرج الدرب ولم يبق هناك سوى المشهد، وقبرها معروف بإجابة الدعاء عنده، وهو مجرب، رضي الله عنها.

واصل بن عطاء

أبو حذيفة واصل بن عطاء المعتزلي، المعروف بالغزال، مولى بني ضبة، وقيل مولى بني مخزوم، كان أحد الأئمة البلغاء المتكلمين في علوم الكلام وغيره، وكان يلثغ بالراء فيجعلها غيناً، قال أبو العباس المبرد في حقه في كتاب " الكامل ": كان واصل بن عطاء أحد الأعاجيب، وذلك أنه كان ألثغ قبيح اللثغة في الراء، فكان يخلص كلامه من الراء ولا يفطن لذلك، لاقتداره على الكلام وسهولة ألفاظه ففي ذلك يقول الشاعر من المعتزلة وهو أبو الطروق الضبي يمدح بإطالة الخطب واجتنابه الراء على كثرة ترددها في الكلام، حتى كأنها ليست فيه:

عليم بإبدال الحروف وقامع لكل خطيبٍ يغلب الحق باطله

وقال آخر:

ويجعل البر قمحاً في تصرفه وخالف الراء حتى احتال للشعر

ولم يطق مطراً، والقول يعجله فعاذ بالغيث إشفاقاً من المطر

ومما يحكى عنه، وقد ذكر بشار بن برد فقال: أما لهذا الأعمى المكتني بأبي معاذ من يقتله؟ أما والله لولا أن الغيلة خلق من أخلاق الغالية لبعثت إليه من يبعج بطنه على مضجعه، ثم لا يكون إلا سدوسياً أو عقيلياً، فقال: هذا الأعمى، ولم يقل بشار ولا ابن برد ولا الضرير، وقال: من أخلاق الغالية، ولم يقل المغيرية ولا المنصورية، وقال: لبعثت، ولم يقل لأرسلت، وقال: على مضجعه، ولم يقل على مرقده ولا على فراشه، وقال: يبعج، ولم يقل يبقر، وذكر بني سدوس لأنه كان نازلاً فيهم.

وذكر السمعاني في كتاب " الأنساب " في ترجمة المعتزلي أن واصل بن عطاء كان يجلس إلى الحسن البصري رضي الله عنه، فلما ظهر الاختلاف وقالت الخوارج بتكفير مرتكبي الكبائر وقالت الجماعة بأنهم مؤمنون وإن فسقوا بالكبائر، فخرج واصل بن عطاء عن الفريقين وقال: إن من هذه الأمة لا مؤمن ولا كافر، منزلة بين منزلتين، فطرده الحسن عن مجلسه فاعتزل عنه، وجلس إليه عمرو بن عبيد، فقيل لهما ولأتباعهما: معتزلون – وقد أحلت في ترجمة عمرو بن عبيد على هذا الموضع في تبين الاعتزال ولأي معنى سموا بهذا الاسم، وقد ذكرت في ترجمة قتادة بن دعامة السدوسي أنه الذي سماهم بذلك.

وكان واصل بن عطاء المذكور يضرب به المثل في إسقاطه حرف الراء من كلامه، واستعمل الشعراء ذلك في شعرهم كثيراً، فمنه قول أبي محمد الخازن من جملة قصيدة طنانة طويلة يمدح بها الصاحب أبا القاسم إسماعيل بن عباد – المقدم ذكره – وهو:

نعم تجنب لا يوم العطاء كما تجنب ابن عطاء لفظة الراء

وقال آخر في محبوب له ألثغ:

أعد لثغة لو أن واصل حاضر ليسمعها ما أسقط الراء واصل

وقال آخر:

أجعلت وصلت الراء لم تنطق به وقطعتني حتى كأنك واصل

لله دره ما أحسن قوله: " وقطعتني حتى كأنك واصل " وقال آخر:

فلا تجعلني مثل همزة واصل فيلحقني ولا راء واصل

وقال أبو عمر يوسف بن هارون الكندي الأندلسي القرطبي الرمادي الشاعر المشهور، إلا أنه لم يتعرض إلى ذكر واصل، وكانت وفاته سنة ثلاث وأربعمائة:

لا الراء تطمع في الوصال ولا أنا الهجر يجمعنا فنحن سواء

فإذا خلوت كتبتها في راحتي وقعدت منتحباً أنا والراء

وهذا الباب متسع، فلا حاجة إلى الإطالة فيه، ويكفي هذا الأنموذج. وقد عمل الشعراء في اللثغة التي هي إبدال الثاء من السين شعراً كثيراً، فمن ذلك ما يعزى لأبي نواس، ولم أجدها في ديوانه، والله أعلم، إلا أن تكون رواية علي بن حمزة الأصبهاني، فإنها أكثر الروايات، ولم أكشف هذه الأبيات منها، وهي أبيات حلوة ظريفة:

وشادنٍ ساءلت عن اسمه فقال لي إثمي مرداث

بيات يعاطني سخاميةً وقال لي: قد هجع الناث

أما ترى حثن أكاليلنا زينها النثرين والآث

قعدت من لثغته ألثغا فقلت: أين الطاث والكاث

ولو شرعت في ذكر ما قيل على هذا النمط لطال الشرح. ولم أجد في لثغة الراء إلا قليلاً، فمن ذلك قول بعضهم:

أما وبياض الثغر ممن أحبه ونقطة خال الخد في عطفة الصدغ

لقد فتنتني لثغة موصلية رمتني في تيار بحر هوى اللثغ

ومستعجم الألفاظ عقرب حديثه مسلطة دون الأنام على لدغي

يكاد أصم الصم عند حديثه إلى اللثغة الغناء من لفظه يصغي

يقول وقد قبلت واضح ثغره وكان الذي أهوى ونلت الذي أبغي

وقد نفضت كأس الحمية وأظهرت على خده من لونها أحسن الصبغ

تغفق فغشف الخمع من كغم غيقتي يزيدك عند الشغب سكغاً على سكغ

ولقد أجاد هذا الشاعر وجمع في البيت الأخير راءات كثيرة وأبدلها بالغين، وللخبز أرزي الشاعر المقدم ذكره في غلام يلثغ بالراء أيضاً لكنه لم يستعمل اللثغة إلا في آخر البيت الأخير من الأربعة أبيات:

وشادن بالكرخ ذي لثغة وإنما شرطي في اللثغ

ما أشبه الزنبور في خصره حتى حكى العقرب في الصدغ

في فمه ترياق لدغٍ إذا أحرق قلبي شدة اللدغ

إن قلت في ضمي له أين هو تفديك روحي قال لا أدغي

وقد تسلسل الكلام وخرجنا عن المقصود من أخبار واصل بن عطاء.

وكان طويل العنق جداً بحيث كان يعاب به، وفيه يقول بشار بن برد الشاعر المشهور المقدم ذكره:

ماذا منيت بغزال له عنق كنقنق الدو إن ولى وإن مثلا

عنق الزرافة، ما أبالي وبالكم تكفرون رجالاً كفروا رجلا؟

وكانت بينهما منافسات وأحقاد، وقد تقدم كلام واصل في حق بشار.

وقال المبرد في كتاب " الكامل ": لم يكن واصل بن عطاء غزالاً، ولكنه كان يلقب بذلك لأنه كان يلازم الغزالين ليغرف المتعففات من النساء فيجعل صدقته لهن، ثم قال: وكان طويل العنق، ويروى عن عمرو بن عبيد أنه نظر إليه من قبل أن يكلمه فقال: لا يصلح هذا ما دامت عليه هذه العنق.

وله من التصانيف كتاب " أصناف المرجئة " وكتاب " التوبة "، وكتاب " المنزلة بين منزلتين " وكتاب خطبته التي أخرج منها الراء، وكتاب " معاني القرآن " وكتاب " الخطب في التوحيد والعدل " وكتاب ما جرى بينه وبين عمرو بن عبيد وكتاب " السبيل إلى معرفة الحق " وكتاب في " الدعوة " وكتاب " طبقات أهل العلم والجهل " وغير ذلك.

وأخباره كثيرة. وكانت ولادته سنة ثمانين للهجرة بمدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، وتوفي سنة إحدى وثمانين ومائة، رحمه الله.

وثيمة بن الفرات

أبو يزيد وثيمة بن موسى بن الفرات الوشاء، الفارسي الفسوي، كان قد خرج من بلده إلى البصرة ثم سافر إلى مصر، وارتحل منها إلى الأندلس تاجراً وكان يتجر في الوشي.

وصنف كتاباً في أخبار الردة، وذكر فيه القبائل التي ارتدت بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، والسرايا التي إليهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وصورة مقاتلتهم وما جرى بينهم وبين المسلمين في ذلك ومن عاد منهم إلى الإسلام، وقتال مانعي الزكاة، وما جرى لخالد بن الوليد المخزومي، رضي الله عنه مع مالك بن نويرة اليربوعي أخي متمم بن نويرة الشاعر المشهور صاحب المرائي المشهورة في أخيه مالك، وصورة قتله، وأم قاله متمم من الشعر في ذلك وما قاله غيره، وهو كتاب جيد يشتمل على فوائد كثيرة، وقد تقدم في ترجمة أبي عبد الله محمد الواقدي أنه صنف في الردة كتاباً أيضاً أجاد فيه، ولم أعرف لوثيمة المذكور من التصانيف سوى هذا الكتاب.

وهو رجل مشهور ذكره أبو الوليد بن الفرضي صاحب " تاريخ الأندلس " في كتابه، وذكره الحافظ أبو عبد الله الحميدي في كتاب " جذوة المقتبس " وأبو سعيد بن يونس في تاريخ مصر، وأبو سعد السمعاني في كتاب " الأنساب " في ترجمة الوشاء فقال: كان يتجر في الوشي، وهو نوع من الثياب المعمولة من الإبريسم، فعرف به جماعة منهم وثيمة المذكور.

ثم إن وثيمة عاد من الأندلس إلى مصر ومات بها يوم الاثنين لعشر خلون من جمادى الآخرة سنة سبع وثلاثين ومائتين، رحمه الله تعالى.

وقال أبو سعيد بن يونس المصري في تاريخه: كان لوثيمة ولد يقال له أبو رفاعة عمارة بن وثيمة، حدث عن أبي صالح كاتب الليث بن سعد وعن أبيه وثيمة وغيرهما، وصنف تاريخاً على السنين وحدث به، ومولده بمصر، وتوفي ليلة الخميس لست بقين من جمادى الآخرة سنة تسع وثمانين ومائتين.

ووثيمة بفتح الواو وكسر الثاء المثلثة وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح الميم وبعدها هاء ساكنة، والوثيمة في الأصل الجماعة من الحشيش والطعام، والوثيمة الصخرة، وبها سمي الرجل، والله أعلم بالصواب، والوثيمة أيضاً الحجر الذي يقدح النار. تقول العرب في أيمانها: والذي أخرج العذق من الجريمة، والنار من الوثيمة: العذق - بفتح العين المهملة - النخلة، والجريمة النواة.

وأم الفارسي والفسوي فقد تقدم الكلام عليهما في ترجمة الشيخ أبي علي الفارسي النحوي وأرسلان البساسيري فأغنى عن الإعادة.

وإذ ذكرنا متمم بن نويرة وأخاه فلا بد من ذكر طرف من أخبارهما، فإنهما مستملحة.

كان مالك بن نويرة المذكور رجلاً سرياً نبيلاً يردف الملوك، وللردافة موضعان أحدهما: أن يردفه الملك على دابته في صيد أو غيره من مواضع الأنس، والموضع الثاني أنبل، وهو أن يخلف الملك إذا قام عن مجلس الحكم فينظر بين الناس بعده. وهو الذي يضرب به المثل فيقال: مرعى ولا كالسعدان، وماء ولا كصداء، وفتى ولا كمالك. وكان فارساً شاعراً مطاعاً في قومه، وكان فيه خيلاء وتقدم، وكان ذا لمة كبيرة، وكان يقال له الجفول، وقدم النبي صلى الله عليه وسلم فيمن قدم من العرب فأسلم، فولاه النبي صلى الله عليه وسلم صدقه قومه. ولما ارتدت العرب بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم بمنع الزكاة كان مالك المذكور من جملتهم، ولما خرج خالد بن الوليد رضي الله عنه لقتالهم في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه نزل على مالك وهو مقدم قومه بني يربوع وقد أخذ زكاتهم وتصرف فيها، فكلمه خالد في معناها، فقال مالك: إني آتي الصلاة دون الزكاة، فقال له خالد: أما علمت أن الصلاة والزكاة معاً لا تقبل واحدة دون أخرى، فقال مالك: قد كان صاحبك يقول ذلك، قال خالد: وما تراه لك صاحباً؟ والله لقد هممت أن أضرب عنقك، ثم تجاولا في الكلام طويلاً فقال له خالد: إنني قاتلك، قال: أو بذلك أمرك صاحبك؟ قال: وهذه بعد تلك والله لأقتلنك. وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما وأبو قتادة الأنصاري رضي الله عنه حاضرين فكلما خالداً في أمره، فكره كلامهما، فقال مالك: يا خالد، ابعثنا إلى أبي بكر فيكون هو الذي يحكم فينا، فقد بعثت إليه غيرنا ممن جرمه أكبر من جرمنا، فقال خالد: لا أقالني الله إن أقلتك، وتقدم إلى ضرار بن الأزور الأسدي بضرب عنقه، فالتفت مالك إلى زوجته أم متمم وقال لخالد: هذه التي قتلتني، وكانت في غاية الجمال، فقال له خالد: بل الله قتلك برجوعك عن الإسلام، فقال مالك: أنا على الإسلام، فقال خالد: يا ضرار اضرب عنقه، فضرب عنقه وجعل رأسه أثفية لقدر، وكان من أكثر الناس شعراً – كما تقدم ذكره – فكانت القدر على رأسه حتى نضج الطعام، وما خلصت النار إلى شواه من كثرة شعره.

قال ابن الكلبي في جمهرة النسب: قتل مالك يوم البطاح، وجاء أخوه متمم فكان يرثيه.

وقبض خالد امرأته، فقيل إنه اشتراها من الفيء وتزوج بها، وقيل إنها اعتدت بثلاثة حيض ثم خطبها إلى نفسه فأجابته، فقال لابن عمر وأبي قتادة رضي الله عنهما يحضران النكاح فأبيا، وقال له ابن عمر رضي الله عنه: تكتب إلى أبي بكر رضي الله عنه وتذكر أمرها فأبى وتزوجها، فقال في ذلك أبو زهير السعدي:

ألا قل لحي أوطئوا بالسنابك ... تطاول هذا الليل من بعد مالك
قضى خالد بغياً عليه لعرسه ... وكان له فيها هوىً قبل ذلك
فأمضى هواه خالد غير عاطف ... عنان الهوى عنها ولا متمالك
وأصبح ذا أهل، وأصبح مالك ... إلى غير شيء هالكاً في الهوالك
فمن لليتامى والأرامل بعده ... ومن للرجال المعدمين الصعالك
أصيبت تميم غثها وسمينها ... بفارسها المرجو تحت الحوارك

ولما بلغ الخبر أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، قال عمر لأبي بكر رضي الله عنه: إن خالداً قد زنى فارجمه، قال: ما كنت لأرجمه فإنه تأول فأخطأ، قال: فإنه قتل مسلماً فاقتله به، قال: ما كنت لأقتله به، إنه تأول فأخطأ، قال فاعزله، قال: ما كنت لأشيم سيفاً سله الله عليهم أبداً، هكذا سرد هذه الواقعة وثيمة المذكور والواقدي في كتابيهما، والعهدة عليهما.

وكان أخوه متمم بن نويرة، وكنيته أبو نهشل الشاعر المشهور، كثير الانقطاع في بيته قليل التصرف في أمر نفسه اكتفاء بأخيه مالك، وكان أعور دميماً، فلما بلغه مقتل أخيه حضر إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصلى الصبح خلف أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فلما فرغ من صلاته واستند في محرابه قام متمم فوقف بحذائه واتكأ على سية قوسه ثم أنشد:

نعم القتيل إذا الرياح تناوحت ... خلف البيوت قتلت يا ابن الأزور

أدعوته بالله ثم غدرته لو هو دعاك بذمة لم يغدر

وأومأ إلى أبي بكر رضي الله عنه، فقال: والله ما دعوته ولا غدرته:

ولنعم حشو الدرع كان وحاسراً ولنعم مأوى الطارق المتنور

لا يمسك الفحشاء تحت ثيابه حلو شمائله عفيف المئزر

ثم بكى وانحط على سية قوسه، فما زال يبكي حتى دمعت عينه العوراء، فقام إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال: لوددت أنك رثيت زيداً أخي بمثل ما رثيت به مالكاً أخاك، فقال: يا أبا حفص، والله لو علمت أن أخي صار بحيث صار أخوك ما رثيته، فقال عمر رضي الله عنه: ما عزاني أحد عن أخي بمثل تعزيته. وكان زيد بن الخطاب رضي الله عنه قتل شهيداً يوم اليمامة، وكان عمر رضي الله عنه يقول: إني لأهش للصبا أنها تأتيني من ناحية أخي زيد، ويروى عن عمر رضي الله عنه أنه قال: لو كنت أقول الشعر كما تقول لرثيت أخي كما رثيت أخاك. ويروى أن متمماً رثى زيداً فلم يجد، فقال له عمر رضي الله عنه: لم ترث زيداً كما رثيت مالكاً، فقال: إنه والله ليحركني لمالك ما لا يحركني لزيد.

وقال له عمر رضي الله عنه يوماً: إنك لجزل فأين كان أخوك منك، فقال: كان أخي في الليلة ذات الأزيز والصراد يركب الجمل الثفال، ويجنب الفرس الجرور، وفي يده الرمح الثقيل، وعليه الشملة الفلوت، وهو بين المزادتين، حتى يصبح وهو متبسم.

والأزيز: بفتح الهمزة وزاءين الأولى منهما مكسورة وبينهما ياء مثناة من تحتها، صوت الرعد.

والصراد: بضم الصاد المهملة وتشديد الراء وفتحها وبعد الألف دال مهملة، غيم رقيق لا ماء فيه.

والثفال: بفتح الثاء المثلثة والفاء، وهو الجمل البطيء في سيره لا يكاد يمشي من ثقله.

والجرور: بفتح الجيم على وزن فعول، الفرس الذي يمنع القياد.

والشملة الفلوت: التي لا تكاد تثبت على لابسها.

والمزادة: الراوية، وهي معروفة.

وقال له عمر رضي الله عنه يوماً: خبرنا عن أخيك، قال: يا أمير المؤمنين، لقد أسرت مرة في حي من أحياء العرب، فأخبر أخي، فأقبل، فلما طلع على الحاضر ما كان أحد قاعداً إلا قام على رجليه، وما بقيت امرأة إلا وتطلعت من خلال البيوت، فما نزل عن جمله حتى لقوه بي برمتي فحلني هو، فقال عمر رضي الله عنه: إن هذا لهو الشرف.

والرمة: بضم الراء المهملة، الحبل البالي، ومنه قولهم " دفع إليه الشيء برمته " أصله: أن رجلاً دفع إلى رجل بعيراً بحبل في عنقه، فقيل ذلك لكل من دفع شيئاً بجملته.

وقال متمم أيضاً لعمر رضي الله عنه: أغار حي من أحياء العرب على حي أخي مالك وهو غائب، فجاءه الصريخ، فخرج في آثارهم على جمل يسوقه مرةً ويركبه أخرى، حتى أدركهم على مسيرة ثلاث وهم آمنون، فما هو إلا أن رأوه فأرسلوا ما في أيديهم من الأسرى والنعم وهربوا، فأدركهم أخي، فاستسلموا جميعاً حتى كتفهم، وصدر بهم إلى بلاده مكتوفين، فقال عمر رضي الله عنه: قد كنا نعلم سخاءه وشجاعته، ولم نعلم كل ما تذكره.

وله فيه المراثي النادرة، فمن ذلك أبياته الكافية، وهي في كتاب " الحماسة " في باب المراثي:

لقد لامني عند القبور على البكا رفيقي لتذراف الدموع السوافك

فقال أتبكي كل قبر رأيته لقبر ثوى بين اللوى والدكادك؟

فقلت له إن الشجا يبعث الشجا فدعني فهذا كله قبر مالك

وله فيه قصيدته العينية، وهي طويلة بديعة، ومن جملتها:

وكنا كندماني جذيمة حقبة من الدهر حتى قيل لن يتصدعا

وعشنا بخير في الحياة، وقبلنا أصاب المنايارهط كسرى وتبعا

فلما تفرقنا كأني ومالكا لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

وقد يتشوف الواقف على هذا الكتاب إلى الوقوف على شيء من أخبار جذيمة المذكور ونديميه – وهو بفتح الجيم وكسر الذال المعجمة وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح الميم وبعدها هاء ساكنة – وكنيته أبو مالك جذيمة بن مالك بن فهم بن دوس بن الأزد الأزدي، صاحب الحيرة وما والاها، وهو الأبرش والوضاح، وإنما قيل ذلك لأنه كان أبرص، فكانت العرب تهابه أن تنسبه إلى البرص فعرفته بأحد هذين الوصفين. وهو من ملوك الطوائف، وكان بعد عيسى عليه السلام بثلاثين سنة، وكان من تيهه لا ينادم إلا الفرقدين.

وكان له ابن أخت يقال له عمرو بن عدي بن نصر بن ربيعة بن الحارث بن مالك اللخمي، ويقال له عمم لأنه أول من اعتم، ابن تمارة بن لخم، وبقية النسب معروف، واسم الأخت المذكورة رقاش، وكان جذيمة شديد المحبة له، فاستهوته الجن، وأقام زماناً يتطلبه فلم يجده، فأقبل رجلان من بني القين يقال لأحدهما مالك والآخر عقيل ابنا فارح بن مالك بن كعب بن القين، واسمه النعمان، ابن جسر بن شيع بن أسد بن وبرة بن ثعلبة بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة، وسمي القين بعبد كان له فحضنه فاشتهر به فصادفا عمراً في البرية وهو أشعث الرأس طويل الأظفار سيء الحال، فعرفاه وحملاه إلى خاله جذيمة بعد أن لما شعثه وأصلحا حاله، فقال لهما جذيمة من فرط سروره به: احتكما علي، فقالا: منادمتك ما بقيت وبقينا، فقال: ذلك لكما، فهما نديماه اللذين يضرب بهما المثل، ويقال: إنهما نادماه أربعين سنة لم يعيدا عليه حديثاً حدثاه به، وإياهما عن أبو خراش الهذلي بقوله في مرثية أخيه عروة:

تقول أراه بعد عروة لاهياً وذلك رزء لو علمت جليل

فلا تحسبني أني تناسيت عهده ولكن صبري يا أميم جميل

ألم تعلمي أن قد تفرق قبلنا نديماً صفاء: مالك وعقيل

هذه خلاصة حديثهم، وإن كان فيه طول، وإنما قصدت الإيجاز.

وذكر أبو علي القالي في كتابه الذي جعله ذيلاً على أمياله أن متمماً المذكور قدم على عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكان به معجباً، فقال: يا متمم، ما يمنعك من الزواج لعل الله تعالى أن ينشر منك ولداً، فإنكم أهل بيت قد درجتم؟ فتزوج امرأة من أهل المدينة، فلم تحظ عنده و لم يحظ عندها، فطلقها ثم قال:

أقول لهند حين لم أرض عقلها أهذا دلال العشق، أم أنت فارك؟

أم الصرم تهوين فكل مفارق علي يسير بعد ما بان مالك

فقال له عمر رضي الله عنه: ما تنفك تذكر مالكاً على كل حال، فلم يمض على هذا الأمر إلا قليل حتى طعن عمر رضي الله عنه، ومتمم بالمدينة، فرثى عمر رضي الله عنه. وبالجملة فإنه لم ينقل عن أحد من العرب ولا غيرهم أنه بكى على ميته ما بكى متمم على أخيه مالك.

حكى الواقدي في كتاب " الردة " أن عمر رضي الله عنه قال لمتمم: ما بلغ من حزنك على أخيك؟ فقال له: لقد مكثت سنة لا أنام بليل حتى أصبح، ولا رأيت ناراً رفعت بليل إلا ظننت نفسي ستخرج، أذكر بها نار أخي، كان يأمر بالنار فتوقد حتى يصبح مخافة أن يبيت ضيفه قريباً منه، فمتى يرى النار يأوي إلى الرحل، ولهو بالضيف يأتي مجتهداً أسر من القوم يقدم عليهم القادم لهم من السفر البعيد، فقال عمر رضي الله عنه: أكرم به.

وحكى الواقدي أيضاً أنه قال له: ما لقيت على أخيك من الحزن والبكاء؟ قال: كانت عيني هذه قد ذهبت، وأشار إليها، فبكيت بالصحيحة وأكثرت

البكاء حت ى أسعدها العين الذاهبة وجرت بالدموع، فقال عمر رضي الله عنه: إن هذا لحزن شديد، ما يحزن هكذا أحد على هالكه.
وقد ضربت الشعراء الأمثال بمالك وأخيه متمم في أشعارهم، فمن ذلك قول ابن حيوس المقدم ذكره من جملة قصيدة:

وفجعة بين مثل صرعة مالك ويقبح بي أن لا أكون متمما

ومنه قول أبي بكر محمد بن عيسى الداني المعروف بابن اللبانة في قصيدته التي يرثي بها المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية لما قبض عليه يوسف بن تاشفين – حسبما شرحناه في ترجمة المعتمد – وهو قوله:

حكيت وقد فارقت ملكك مالكا ومن ولهي أحكي عليك متمما

ومن ذلك أيضاً قول بعضهم، وأظنه ابن منير – المذكور في حرف الهمزة – وهو أيضاً من جملة أبيات، ثم حققت قاءله وهو نجم الدين أبو الفتح يوسف بن الحسين بن محمد، عرف بابن المجاور الدمشقي:

أيا مالكي في القلب نويرة وإنسان عيني في هواك متمم

ومنه قول أبي الغنائم ابن المعلم الشاعر – المقدم ذكره – من جملة أبيات يصف فيها مترلاً ويدعو له بالسقيا، فقال:

سقاه الحيا قبلي وجئت متمما فلو مالك فيه دعيت متمما

ومنه قول القاضي السعيد ابن سناء الملك:

بكيت بكلتا مقلتي كأنني أتمم ما قد فات عين متمم

وهذا باب يطول شرحه، وقد جاوزنا الحد بالخروج عما نحن بصدده.

ومتمم: بضم الميم وفتح التاء المثناة من فوقها، وبعدها ميمان الأولى منما مشددة مكسورة.
وصداً في قولهم " ماء ولا كصداً " فيه ثلاث لغات: صدا: بضم الصاد المهملة وتشديد الدال المهملة وألف مقصورة، وصداء مثل الأول لكن الصاد مفتوحة والألف ممدودة، فمن ضم قصر ومن فتح مد، واللغة الثالثة صدءاء: بتخفيف الدال وهمزتين متواليتين والصاد مفتوحة، وهي بئر معروفة مشهورة ماؤها عذب نمير، والله أعلم.

البحتري

أبو عبادة الوليد بن عبيد بن يحيى بن عبيد بن شملال بن جابر بن سلمة بن مسهر بن الحارث بن خيثم بن أب حارثة بن جدي بن تدول بن بحتر بن عتود بن عنين بن سلامان بن ثعل بن عمرو بن الغوث بن جلهمة، وهو طيء بن ادد بن زيدان بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، الطائي البحتري الشاعر المشهور، ولد بمنبج، وقيل بزردفنة وهي قرية من قراها، ونشأ وتخرج بها، ثم خرج إلى العراق ومدح جماعة من الخلفاء أولهم المتوكل على الله، وخلقاً كثيراً من الأكابر والرؤساء، وأقام ببغداد دهراً طويلاً ثم عاد إلى الشام، وله أشعار كثيرة ذكر فيها حلب وضواحيها، وكان يتغزل بها، وقد روى عنه أشياء من شعره أبو العباس المبرد ومحمد بن خلف بن المرزبان والقاضي أبو عبد الله المحاملي ومحمد بن أحمد الحكيمي وأبو بكر الصولي وغيرهم.
قال صالح بن الأصبغ التنوخي المنبجي: رأيت البحتري هاهنا عندنا قبل أن يخرج إلى العراق، يجتاز بنا الجامع من هذا الباب، وأومأ إلى جنبتي المسجد، يمدح أصحاب البصل والباذنجان، وينشد الشعر في ذهابه ومجيئه، ثم كان منه ما كان، وعلوة التي شبب بها في كثير من أشعاره هي بنت زريقة الحلبية، وزريقة أمها.
وحكى أبو بكر الصولي في كتابه الذي وضعه في " أخبار أبي تمام الطائي " أن البحتري كان يقول: أول أمري في الشعر ونباهتي فيه أني صرت إلى أبي تمام وهو بحمص، فعرضت عليه شعري، وكان يجلس فلا يبقى شاعر إلا قصده وعرض عليه شعره، فلما سمع شعري أقبل علي وترك سائر الناس، فلما

تفرقوا قال لي: أنت أشعر من أنشدني، فكيف حالك؟ فشكوت خلة، فكتب إلى أهل معرة النعمان، وشهد لي بالحذق وشفع لي إليهم وقال لي: امتدحهم، فصرت إليهم فأكرموني بكتابه ووظفوا لي أربعة آلاف درهم، فكانت أول مال أصبته.

وقال أبو عبادة المذكور: أول ما رأيت أبا تمام، وما كنت رأيته قبلها، أني دخلت أبي سعيد محمد بن يوسف، فامتدحته بقصيدتي التي أولها:

أألاق صب من هوى فأفيقا ... أم خان عهداً أم اطاع شفيقا

فأنشدته إياها، فلما أتممتها سر بها، وقال لي: أحسن الله إليك يا فتى، فقال له رجل في المجلس: هذا، أعزك الله، شعري علقه هذا الفتى، فسبقني به إليك، فتغير أبو سعيد وقال لي: يا فتى، قد كان في نسبك وقرابتك ما يكفيك أن تمت به إلينا، ولا تحمل نفسك على هذا، فقلت: هذا شعري أعزك الله، فقال الرجل: سبحان الله يا فتى لا تقل هذا، ثم ابتدأ فأنشد من القصيدة أبياتاً، فقال لي أبو سعيد: نحن نبلغك ما تريد، ولا تحمل نفشك على هذا، فخرجت متحيراً لا أدري ما أقول، ونويت أن أسأل عن الرجل من هو، فما بعدت حتى ردني أبو سعيد ثم قال لي: جنيت عليك فاحتمل، أتدري من هذا؟ فقلت: لا، قال: هذا ابن عمك، حبيب بن أوس الطائي لأبو تمام، فقم إليه، فقمت إليه فعانقته. ثم أقبل علي يقرظني ويصف شعري وقال: إنما مزحت معك، فلزمته بعد ذلك وكثر عجبي من سرعة حفظه.

وروى الصولي أيضاً في كتابه المذكور أن أبا تمام راسل أم البحتري في التزوج بها، فأجابته وقالت له: اجمع الناس للإملاك، فقال: الله أجل من أن يذكر بيننا، ولكن نتصافح ونتسافح.

وقيل للبحتري: أيما أشعر أنت أم أبو تمام؟ فقال: جيده خير من جيدي ورديئي خير من رديئه.

وكان يقال لشعر البحتري: سلاسل الذهب، وهو في الطبقة العليا.

ويقال إنه قيل لأبي العلاء المعري: أي الثلاثة أشعر، أبو تمام أم البحتري أم المتنبي؟ فقال: حكيمان والشاعر البحتري. ولعمري ما أنصفه ابن الرومي في قوله:

والفتى البحتري يسرق ما قا ... ل ابن أوس في المدح والتشبيب

كل بيت له يجود معنا ... ه فمعناه لابن أوس حبيب

وقال البحتري: أنشدت أبا تمام شيئاً من شعري، فأنشدني بيت أوس بن حجر:

إذا مقرم منا ذرا حد نابه ... تخمط فينا ناب آخر مقرم

وقال: نعيت إلي نفسي، فقلت: أعيذك بالله من هذا، فقال: إن عمري ليس يطول وقد نشأ لطيءٍ مثلك، أما علمت أن خالد بن صفوان المنقري رأى شبيب بن شبيبة، وهو من رهطه وهو يتكلم فقال: يا بني، نعى نفسي إلي إحسانك في كلامك، لأنا أهل بيت ما نشأ فينا خطيب إلا مات من قبله، قال: فمات أبو تمام بعد سنة من هذا.

وقال البحتري: أنشدت أبا تمام شعراً لي في بعض بني حميد وصلت به إلى مال خطر،فقال لي: أحسنت، أنت أمير الشعر بعدي، فكان قوله هذا أحب إلي من جميع ما حويته.

وقال ميمون بن هارون: رأيت أبا جعفر أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البلاذري المؤرخ، وحاله متماسكة، فسألته، فقال: كنت من جلساء المستعين فقصده الشعراء، فقال: لست أقبل إلا ممن قال مثل قول البحتري في المتوكل:

ولو أن مشتاقاً تكلف فوق ما ... في وسعه لمشى إليك المنبر

فرجعت إلى داري وأتيته وقلت: قد قلت فيك أحسن مما قاله البحتري فقال: هاته، فأنشدته:

ولو أن برد المصطفى إذ لبسته ... يظن لظن البرد أنك صاحبه

وقال وقد أعطيته ولبسته:نعم، هذه أعطافه ومناكبه

فقال: ارجع إلى منزلك، وافعل ما آمرك به، فرجعت، فبعث إلي سبعة آلاف دينار، وقال: ادخر هذه للحوادث من بعدي، ولك علي الجراية والكفاية ما دمت حياً.

وللمتنبي في هذا المعنى:

لو تعقل الشجر التي قابلتها ... مدت محيية إليك الأغصنا

وسبقهما أبو تمام بقوله:

لو سعت بقعة لإعظام نعمى ... لسعى نحوها المكان الجديب

والبيت الذي للبحتري من جملة قصيدة طويلة أحسن فيها كل الإحسان، يمدح بها أبا الفضل جعفراً المتوكل على الله، ويذكر خروجه لصلاة عيد الفطر، وأولها:

أخفي هوى لك في الضلوع وأظهر ... وألام من كمد عليك وأعذر

والأبيات التي يرتبط بها البيت المقدم ذكره هي:

بالبر صمت وأنت أفضل صائم ... وبسنة الله الرضية تفطر
فانعم بيوم الفطر عيناً إنه ... يوم أغر من الزمان مشهر
أظهرت عز الملك فيه بجحفل ... لجبٍ يحاط الدين فيه وينصر
خلنا الجبال تسير فيه وقد غدت ... عدداً يسير به العديد الأكثر
فالخيل تصهل، والفوارس تدعي ... والبيض تلمع، والأسنة تزهر
والأرض خاشعة تميد بثقلها ... والجو معتكر الجوانب أغبر
والشمس طالعة توقد في الضحى ... طوراً ويطفيها العجاج الأكدر
حتى طلعت بضوء وجهك فانجلى ... ذاك الدجى وانجاب ذاك العثير
فافتن فيك الناظرون فإصبع ... يومى إليك بها وعين تنظر
يجدون رؤيتك التي فازوا بها ... من أنعم الله التي لا تكفر
ذكروا بطلعتك النبي فهللوا ... لما طلعت من الصفوف وكبروا
حتى انتهيت إلى المصلى لابساً ... نور الهدى يبدو عليك ويظهر
ومشيت مشياً خاشعٍ متواضعٍ ... لله لا يزهى ولا يتكبر
فلو أن مشتاقاً تكلف غير ما ... في وسعه لمشى إليك المنبر
أبدت من فصل الخطاب بحكمةٍ ... تنبي عن الحق المبين وتخبر
ووقفت في برد النبي مذكراً ... بالله تنذر تارةً وتبشر

هذا القدر هو المقصود مما نحن فيه، وهذا الشعر هو السحر الحلال على الحقيقة، والسهل الممتنع، فلله دره! ما أسلس قياده وأعذب ألفاظه، وأحسن سبكه وألطف مقاصده، وليس من الحشو شيء، بل جميعه نخب.

وديوانه موجود وشعره سائر، فلا حاجة إلى الإكثار منه هاهنا، لكن نذكر من وقائعه ما يستظرف: فمن ذلك أنه كان له غلام اسمه نسيم فباعه، فاشتراه أبو الفضل بن وهب الكاتب – وقد سبق ذكر أخيه سليمان في حرف السين – ثم إن البحتري ندم على بيعه وتتبعته نفسه، فكان يعمل فيه الشعر ويذكر أنه خدع وأن بيعه لم يكن من مراده، فمن ذلك قوله:

أنسيم هل للدهر وعد صادق ... فيما يؤمله المحب الوامق

ما لي فقدت في المنام ولم تزل ... عون المشوق إذا جفاه الشائق

أمنعت أنت من الزيارة رقبةً ... منهم فهل منع الخيال الطارق

اليوم جاز بي الهوى مقداره ... في أهله وعلمت أني عاشق

فليهنئ الحسن بن وهب أنه ... يلقى أحبته ونحن نفارق

وله فيه أشعار كثيرة.

ومن أخبار أنه كان لحلب شخص يقال له طاهر بن محمد الهاشمي، مات أبوه وخلف له مقدار مائة ألف دينار، فأنفقها على الشعراء والزوار في سبيل الله، فقصده البحتري من العراق، فلما وصل إلى حلب قيل له: إنه قد قعد في بيته لديون ركبته، فاغتم البحتري لذلك غماً شديداً وبعث المدحة إليه مع بعض مواليه، فلما وصلته ووقف عليه بكى، ودعا بغلام له وقال له: بع داري، فقال له: أتبيع دارك وتبقى على رؤوس الناس؟ فقال: لا بد من بيعها، فباعها بثلثمائة دينار فأخذ صرة وربط فيها مائة دينار، وأنفذها إلى البحتري، وكتب إليه معه رقعة فيها هذه الأبيات:

لو يكون الحباء حسب الذي أن ... ت لدينا به محل وأهل

لحبيب اللجين والدر واليا ... قوت حثواً وكان ذاك يقل

والأديب والأريب بالعذ ... ر إذا قصر الصديق المقل

فلما وصلت الرقعة إلى البحتري رد الدنانير، وكتب إليه:

بأبي أنت والله للبر أهل ... والمساعي بعد وسعيك قبل

والنوال القليل يكثر إن شا ... ء مرجيك والكثير يقل

غير أني رددت برك إذ كا ... ن رباً منك، والربا لا يحل

وإذا ما جزيت شعراً بشعر ... قضي الحق، والدنانير فضل

فلما عادت الدنانير إليه حل الصرة، وضم خمسين ديناراً أخرى، وحلف أنه لا يردها عليه، وسيرها، فلما وصلت إلى البحتري أنشأ يقول:

شكرتك إن الشكر للعبد نعمة ... ومن يشكر المعروف فالله زائده

لكل زمانٍ واحد يقتدى به ... وهذا زمان أنت لا شك واحده

وكان البحتري كثيراً ما ينشد لشاعر أنسي اسمه، ويعجبه قوله:

حمام الأراك ألا فاخبرينا ... لمن تندبين ومن تعولينا

فقد شقت بالنوح منا القلوب ... وأبكيت بالندب منا العيونا

تعالي نقم مأتماً للهموم ونعول إخواننا الظاعنينا

ونسعدكن وتسعدننافإن الحزين يواسي الحزينا

ثم إني وجدت هذه الأبيات لنبهان الفقعسي من العرب.

وكان البحتري قد اجتاز بالموصل، وقيل برأس عين، ومرض بها مرضاً شديداً، وكان الطبيب يختلف إليه ويداويه، فوصف له يوماً مزورة ولم يكن عنده من يخدمه سوى غلامه، فقال للغلام: اصنع هذه المزورة، وكان رؤساء البلد عنده حاضراً، وقد جاء يعوده، فقال ذاك الرئيس: هذا الغلام ما يحسن طبخها، وعندي طباخ من صفته وصفته، وبالغ في حسن صنعته، فترك الغلام عملها اعتماداً على ذلك الرئيس وقعد البحتري ينتظرها، واشتغل الرئيس عنها ونسي أمرها، فلما أبطأت عنه وفات وقت وصولها إليه، كتب إلى الرئيس:

وجدت وعدك زوراً في مزورة حلفت مجتهداً إحكام طاهيها

فلا شفى الله من يرجو الشفاء بها ولا علت كف ملق كفه فيها

فاحبس رسولك عني أن يجيء بها فقد حبست رسولي عن تقاضيها

وأخباره ومحاسنه كثيرة فلا حاجة إلى الإطالة. ولم يزل شعره غير مرتب حتى جمعه أبو بكر الصولي ورتبه على الحروف، وجمعه أيضاً علي بن حمزة الأصبهاني، ولم يرتبه على الحروف بل على الأنواع كما صنع بشعر أبي تمام.

وللبحتري أيضاً كتاب " حماسة " على مثال " حماسة أبي تمام " وله كتاب " معاني الشعر ": وكانت ولادته سنة ست وقيل خمس ومائتين، وتوفي سنة أربع وثمانين وقيل خمس وثمانين وقيل ثلاث وثمانين ومائتين، والأول أصح والله أعلم. وقال ابن الجوزي في كتاب " أعمار الأعيان ": توفي البحتري وهو ابن ثمانين سنة، والله أعلم بالصواب، وكان موته بمنبج، وقيل بحلب، والأول أصح.

وقال الخطيب في " تاريخ بغداد ": إنه كان يكنى أبا الحسن وأبا عبادة، فأشير عليه في أيام المتوكل أن يقتصر على أبي عبادة فإنها أشهر، ففعل.

وأهل الأدب كثيراً ما يسألون عن قول أبي العلاء المعري:

وقال الوليد: النبع ليس بمثمر وأخطأ، سرب الوحش من تمر النبع

فيقولون: من هو الوليد المذكور؟ وأين قال النبع ليس بمثمر؟ ولقد سألني عنه جماعة كثيرة، والمراد بالوليد هو البحتري المذكور، وله قصيدة طويلة يقول فيها:

وعيرتني سجال العدم جاهلة والنبع عريان ما في فرعه ثمر

وهذا البيت هو المشار إليه في بيت المعري، وإنما ذكرت هذا لأنه فائدة تستفاد.

وعبيد الله وأخوه أبو عبادة، ابنا يحيى بن الوليد البحتري، اللذان مدحهما المتنبي في قصائده، هما حفيدا البحتري الشاعر المذكور، وكانا رئيسين في زمانهما.

والبحتري: بضم الباء الموحدة وسكون الحاء المهملة وضم التاء المثناة من فوقها وبعدها راء، هذه النسبة إلى بحتر، وهو أحد أجداده، كما تقدم ذكره في عمود نسبه.

وزردفنة: بفتح الزاي وسكون الراء وفتح الدال المهملة، وسكون الفاء وفتح النون وبعدها هاء ساكنة، وهي قرية من قرى منبج، بالقرب منها.

ومنبج: بفتح الميم وسكون النون وكسر الباء الموحدة وبعدها جيم، وهي بلدة بالشام بين حلب والفرات بناها كسرى لما غلب على الشام، وسماها منبه، فعربت فقيل منبج، ولكونها وطن البحتري كان يذكرها في شعره كثيراً، فمن ذلك قوله في آخر قصيدة طويلة يخاطب بها الممدوح، وهو أبو جعفر محمد بن حميد بن عبد الحميد الطوسي:

لا أنسين زمناً لديك مهذباً وظلال عيش كان عندك سجسج

في نعمة أوطنتها وأقمت في أفيائها فكأنني في منبج

وكان البحتري مقيماً في العراق في خدمة المتوكل والفتح بن خاقان، وله الحرمة التامة، فلما قتلا، كما هو مشهور في أمرهما، رجع إلى منبج، وكان يحتاج للترداد إلى الوالي بسبب مصالح أملاكه، ويخاطبه بالأمير لحاجته إليه، ولا تطاوعه نفسه إلى ذلك، فقال منها:

مضى جعفر والفتح بين مرملٍ وبين صبيغ بالدماء مضرج

أأطلب أنصاراً على الدهر بعدما ثوى منهما في الترب أوسي وخزرجي

أولئك ساداتي الذين بفضلهم حلبت أفاويق الربيع المثجج

مضوا أمماً وخلفت بعدهم أخاطب بالتأمير والي منبج

وذكر المسعودي في " مروج الذهب " أن هارون الرشيد اجتاز ببلاد منبج ومعه عبد الملك بن صالح وكان أفصح ولد العباس في عصره، فنظر إلى قصر مشيد وبستان معتمر بالأشجار كثير الثمار، فقال: لمن هذا؟ فقال: هو لك ولي بك يا أمير المؤمنين، وقال: كيف بناء هذا القصر؟ قال: دون منازل أهلي، وفوق منازل الناس. قال: فكيف مدينتك؟ قال: عذبة الماء باردة الهواء، صلبة الموطأ قليلة الأدواء، قال: فكيف ليلها؟ قال: سحر كله، انتهى كلام المسعودي.

وعبد الملك المذكور هو أبو عبد الرحمن عبد الملك بن صالح بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، رضي الله عنه. وكانت منبج إقطاعاً له وكان مقيماً بها. وتوفي سنة تسع وتسعين ومائة بالرقة، رحمه الله تعالى. وله بلاغة وفصاحة أضربت عن ذكرها خوف الإطالة.

وذكر ياقوت الحموي في كتابه " المشترك ": باب السقيا خمسة مواضع، ثم قال في آخر هذا الباب: والخامس قرية على باب منبج ذات بساتين، وهي وقف على ولد البحتري الشاعر، وقد ذكرها أبو فراس بن حمدان في شعره.

الوليد بن طريف الشاري

الوليد بن طريف بن الصلت بن طارق بن سيحان بن عمرو" بن فدوكس ابن عمرو" بن مالك الشيباني – هكذا ذكره أبو سعد السمعاني في كتاب " الأنساب " في موضعين أحدهما في ترجمة الأراقم، والآخر في ترجمة السيحاني، بكسر السين المهملة – الشاري، أحد الشجعان الطغاة الأبطال، كان رأس الخوارج وكان مقيماً بنصيبين والخابور وتلك النواحي، وخرج في خلافة هارون الرشيد وبغى، وحشد جموعاً كثيرة فأرسل إليه هارون الرشيد جيشاً كثيفاً مقدمه أبو خالد يزيد بن مزيد بن زائدة الشيباني – وسيأتي ذكره في حرف الياء إن شاء الله تعالى – فجعل يخاتله ويماكره، وكانت البرامكة منحرفة عن يزيد فأغروا به الرشيد وقالوا: إنه يراعيه لأجل الرحم، وإلا فشوكة الوليد يسيرة، وهو يواعده وينتظر ما يكون من أمره، فوجه إليه الرشيد كتاب مغضب وقال: لو وجهت أحد الخدم لقام بأكثر مما تقوم به ولكنك مداهن متعصب، وأمير المؤمنين يقسم بالله لئن أخرت مناجزة الوليد ليبعثن إليك من يحمل رأسك إلى أمير المؤمنين، فلقي الوليد فظهر عليه فقتله، وذلك في سنة تسع وسبعين ومائة أول خميس في شهر رمضان، وهي واقعة مشهورة تضمنتها التواريخ.

وكان للوليد المذكور أخت تسمى الفارعة، وقيل فاطمة، تجيد الشعر وتسلك سبيل الخنساء في مراثيها لأخيها صخر، فرثت أخاها الوليد بقصيدة أجادت فيها، وهي قليلة الجود، و لم أجد في مجاميع كتب إلا بعضها، حتى إن أبا علي القالي لم يذكر منها في أماليه سوى أربعة أبيات، فاتفق أني ظفرت بها كاملة فأثبتها لغرابتها مع حسنها، وهي هذه:

بتل نهاكى رسم قبرٍ كأنه على جبلٍ فوق الجبال منيف

فيا شجر الخابور مالك مورقاً كأنك لم تحزن على ابن طريف

فتى لا يحب الزاد إلا من التقى و لا المال إلا من قناً وسيوف

ولا الذخر إلا كل جرداء صلدم | معاودةً للكر بين صفوف
كأنك لم تشهد هناك ولم تقم | مقاماً على الأعداء غير خفيف
ولم تستلم يوماً لورد كريهةٍ | من السرد في خضراء ذات رفيف
ولم تسع يوم الحرب، والحرب لاقح | وسمر القنا ينكزنها بأنوف
حليف الندى ما عاش يرضى به الندى | فإن مات لا يرضى الندى بحليف
فقدناك فقدان الشباب وليتنا | فديناك من فتياننا بألوف
وما زال حتى أزهق الموت نفسه | شجىً لعدوٍ أو لجاً لضعيف
ألا يا لقومي للحمام وللبلى | وللأرض همت بعده برجوف
ألا يا لقومي للنوائب والردى | ودهرٍ ملحٍ بالكرام عنيف
وللبدر من بين الكواكب إذ هوى | وللشمس لما أزمعت بكسوف
ولليث كل الليث إذ يحملونه | إلى حفرةٍ ملحودةٍ وسقيف
ألا قاتل الله الحشى حيث أضمرت | فتىً كان للمعروف غير عيوف
فإن يك أراده يزيد بن مزيد | فرب زحوف لفها بزحوف
عليه سلام الله وقفاً فإنني | أرى الموت وقاعاً بكل شريف

ولها فيه مراثٍ كثيرة، فمن ذلك قولها فيه أيضاً:

ذكرت الوليد وأيامه | إذ الأرض من شخصه بلقع
فأقبلت أطلبه في السماء | كما يبتغي أنفه الأجدع
أضاعك قومك فليطلبوا | إفادة مثل الذي ضيعوا
لو أن السيوف التي حدها | يصيبك تعلم ما تصنع
نبت عنك إذ جعلت هيبةً | وخوفاً لصولك لا تقطع

وكان الوليد يوم المصاف ينشد:

أنا الوليد بن طريف الشاري | قسورة لا يصطلى بناري
جوركم أخرجني من داري

ويقال إنه لما انكسر جيش الوليد وانهزم تبعه يزيد بنفسه حتى لحقه على مسافة بعيدة فقتله وأخذ رأسه، ولما قتله وعلمت بذلك أخته المذكورة لبست عدة حربها وحملت على جيش يزيد، فقال يزيد: دعوها، ثم خرج فضرب بالرمح فرسها وقال: اغربي غرب الله عينك فقد فضحت العشيرة، فاستحيت وانصرفت.

وطريف: بفتح الطاء المهملة وكسر الراء وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها فاء.

وتل هاكى – أظنه في بلد نصيبين – وهو موضع الواقعة المذكورة.
والخابور: نهر معروف أوله من رأس عين وآخره عند قرقيسيا، يصب في الفرات، وعلى هذا النهر مدن صغار تشبه الكبار في عمارة بلادها وأسواقها وكثرة خيراتها، وهو مشهور فلا حاجة إلى ضبطه.
والشاري: بفتح الشين المعجمة وبعد الألف راء وهو واحد الشراة، وهم الخوارج، وإنما سموا بذلك لقولهم: إنا شرينا أنفسنا في طاعة الله، أي بعناها بالجنة حين فارقنا الأئمة الجائرة.
والخنساء: اسمها تماضر، بضم التاء المثناة من فوقها وفتح الميم وبعد الألف ضاد مكسورة معجمة وبعدها راء، وهي ابنة عمرو بن الشريد السلمي.
والخنس: تأخر الأنف عن الوجه مع ارتفاع الأرنبة، ولذلك قيل لها الخنساء.، لأنها كانت على هذه الضفة، وأخبارها مع أخيها مشهورة في مراثيها وغيرها، – وقد سبق طرف من أخبار أخيها صخر في ترجمة أبي أحمد العسكري في حرف الحاء – وقد اختلف في موضع قبره، فقيل إنه مدفون عند عسيب، وهو جبل مشهور ببلاد الروم، وإن القبر الذي هناك ينسب إلى امرئ القيس بن حجر الكندي المشهور ليس لامرئ القيس، وإنما هو لصخر المذكور، وقيل إن كل واحد من امرئ القيس وصخر مدفون هناك، وقال الحافظ أبو بكر الحازمي المقدم ذكره في كتاب " ما اتفق لفظه وافترق مسماه ": إن عسيباً جبل حجازي، ودفن عنده صخر أخو الخنساء، فعلى هذا يكون عسيب اسماً لجبلين: أحدهما بالروم وهو الأشهر، والآخر بالحجاز، وكان من لوازم ياقوت الحموي أن يذكره في كتابه الذي وضعه في البلاد المشتركة السماء، و لم أجد ذكره فيه، والله أعلم.

وهب بن منبه

أبو عبد الله بن منبه اليماني، صاحب الأخبار والقصص، وكانت له معرفة بأخبار الأوائل وقيام الدنيا وأحوال الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه، وسير الملوك، وذكر عنه ابن قتيبة في كتاب " المعارف " أنه كان يقول: قرأت من كتب الله تعالى اثنين وسبعين كتاباً. ورأيت له تصنيفاً ترجمه بذكر الملوك المتوجة من حمير وأخبارهم وقصصهم وقبورهم وأشعارهم، في مجلد واحد، وهو من الكتب المفيدة. وكان له إخوة منهم: همام بن منبه، كان أكبر من وهب، وروى عن أبي هريرة رضي الله عنه، وهو معدود من حملة الأبناء.
ومعنى قولهم: " فلان من الأبناء " أن أبا مرة سيف بن ذي يزن الحميري صاحب اليمن، لما استولت الحبشة على مكة، توجه إلى كسرى أنوشروان ملك الفرس يستنجده عليهم، وقصته في ذلك مشهورة وخبره طويل، وخلاصة الأمر أنه سير معه سبعة آلاف وخمسمائة فارس من الفرس، جعل مقدمهم وهرز، هكذا قاله ابن قتيبة. وقال محمد بن إسحاق: لم يسير معه سوى ثمانمائة فارس، فغرق منهم في البحر مائتان، وسلم ستمائة. قال أبو القاسم السهيلي: والقول الأول أشبه بالصواب، إذ يبعد مقاومة الحبشة بستمائة فارس. فلما وصل الجيش إلى اليمن جرت الواقعة بينهم وبين الحبشة، فاستظهرت الفرس عليهم وأخرجوهم من البلاد، وملك سيف بن ذي يزن ووهرز، وأقاموا أربع سنين، وكان سيف بن ذي يزن قد اتخذ من أولئك الحبشة خدماً، فخلوا به يوماً وهو متصيد له فزرقوه بحرابهم فقتلوه وهربوا في رؤوس الجبال، وطلبهم أصحابه فقتلوهم جميعاً، وانتشر الأمر باليمن، و لم يملكوا عليهم أحداً، غير أن أهل كل ناحية ملكوا عليهم رجلاً من حمير، فكانوا كملوك الطوائف، حتى أتى الله بالإسلام. ويقال إنها بقيت في أيدي الفرس ونواب كسرى فيها، وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وباليمن من قواد أبرويز عاملان، أحدهما: فيروز الديلمي، والآخر داذويه، وأسلما، وهما اللذان دخلا على الأسود العنسي مع قيس بن المكشوح لما ادعى الأسود النبوة باليمن وقتلوه، والقصة في ذلك مشهورة، فلا حاجة إلى ذكرها. والمقصود من هذا كله أن جيش الفرس لما استوطن اليمن تأهلوا، ورزقوا الأولاد، فصار أولادهم وأولاد أولادهم يدعون الأبناء، لأنهم من أبناء أولئك الفرس. وكان طاوس العالم – المقدم ذكره – منهم أيضاً، وقد أومأت إلى ذلك في ترجمته، و لم أشرحه كما فعلت هاهنا.

وأخبار وهب شهيرة فلا حاجة إلى ذكر شيء منها، ويكفي في هذا الموضع ذكر هذه الفائدة. وتوفي وهب المذكور في المحرم سنة عشر وقيل أربعة عشر وقيل ست عشرة ومائة بصنعاء في اليمن، وعمره تسعون سنة، رضي الله عنه.
وقد نقدم الكلام على صنعاء في ترجمة عبد الرزاق الصنعاني.
وفي هذه الترجمة أسماء أعجمية، لو قيدتها لطال الشرح، وهي مشهورة فتركتها لذلك.

أبو البختري

أبو البختري وهب بن وهب بن وهب بن كثير بن عبد الله بن زمعة بن الأسود بن عبد المطلب بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب، القرشي الأسدي المدني، حدث عن عبيد الله بن عمر العمري وهشام بن عروة بن الزبير وجعفر بن محمد الصادق وغيرهم، وروى عنه رجاء بن سهل الصاغاني وأبو القاسم بن سعيد بن المسيب وغيرهما. وكان متروك الحديث مشهوراً بوضعه، انتقل من المدينة إلى بغداد في خلافة هارون الرشيد، فولاه القضاء بعسكر المهدي في شرقي بغداد – وقد تقدم الكلام على هذا الموضع في ترجمة الواقدي في حرف الميم – ثم عزله وولاه القضاء بمدينة الرسول صلى الله عليه وسلم بعد بكار بن عبد الله الزبيري، وجعل إليه ولاية حربها مع القضاء، ثم عزله فقدم بغداد وأقام بها إلى أن توفي.

وذكر الخطيب في " تاريخ بغداد " في ترجمة القاضي أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم الحنفي أنه كان قاضي القضاة في بغداد، فلما مات ولي الرشيد مكانه أبا البختري وهب بن وهب القرشي.

وكان فقيهاً أخبارياً ناسباً جواداً سرياً سخياً يحب المديح ويثيب عليه العطاء الجزيل، وكان إذا أعطى قليلاً أو كثيراً أتبعه عذراً إلى صاحبه، وكان يتهلل عند طلب الحاجة إليه حتى لو رآه من لا يعرفه لقال هذا الذي قضيت حاجته، وكان جعفر الصادق بن محمد الباقر – المقدم ذكره – قد تزوج بأمه بالمدينة، وله عنه روايات وأسانيد، واسم أمه عبدة بنت علي بن يزيد بن بركة بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف، وأمها بنت عقيل بن أبي طالب.

وقد ذكره الخطيب في " تاريخ بغداد " وبالغ في تقريظه والثناء عليه، وقال: دخل عليه شاعر فأنشده:

إذا افتر وهب خلته برق عارض ... تبعق في الأرضين أسعده السكب
وما ضر وهباً ذم من خالف الملا ... كما لا يضر البدر ينبحه الكلب
لكل أناسٍ من أبيهم ذخيرة ... وذخر بني فهرٍ عقيد الندى وهب

قال: فاستهل أبو البختري ضاحكاً وسر سروراً شديداً، ثم دعا عوناً له فأسر إليه شيئاً، فأتاه بصرة فيها خمسمائة دينار، فدفعها إليه.

وحكى أبو الفرج الأصبهاني في كتاب " الأغاني " في ترجمة أبي دلف العجلي، قال: أخبرني أحمد بن عبيد الله بن عمار، قال: كنا عند أبي العباس المبرد يوماً وعنده فتى من ولد أبي البختري وهب بن وهب القاضي أمرد حسن الوجه، وفتى من ولد أبي دلف العجلي شبيه به في الجمال، فقال المبرد لابن أبي البختري: أعرف لجدك قصة طريفة من الكرم حسنة لم يسبق إليها، فقال: وما هي؟ قال: دعي رجل من أهل الأدب إلى بعض المواضع فسقوه نبيذاً غير الذي كانوا يشربون منه، فقال فيهم:

نبيذان في مجلس واحد ... لإيثار مثر على مقتر
فلو كان فعلك ذا في الطعام ... لزمت قياسك في المسكر
ولو كنت تطلب شأو الكرام ... صنعت صنيعٍ أبي البختري
تتبع إخوانه في البلاد ... فأغنى المقل عن المكثر

فبلغت الأبيات أبا البختري فبعث إليه بثلثمائة دينار، قال ابن عمار: فقلت له: قد فعل جد هذا الفتى في مثل هذا المعنى ما هو أحسن من هذا، قال: وما فعل؟ قلت: بلغه أن رجلاً افتقر بعد ثروة، فقالت له امرأته: افترض في الجند، فقال:

إليك عني فقد كلفتني شططاً ... حمل السلاح وقول الدار عين قف
أمن رجال المنايا خلتني رجلاً ... أمسي وأصبح مشتاقاً إلى التلف
تمشي المنايا إلى غيري فأكرهها ... فكيف أمشي إليها بارز الكتف

حسبت أن نزال القرن من خلقي أو أن قلبي في جنبي أبي دلف

فأحضره أبو دلف ثم قال: كم أملت امرأتك أن يكون رزقك؟ قال: مائة دينار، قال: وكم أملت أن تعيش؟ قال: عشرين سنة، قال: فذلك على ما أملت امرأتك في مالنا دون مال السلطان، وأمر بإعطائه إياه، قال: فرأيت وجه ابن أبي دلف يتهلل، وانكسر ابن أبي البختري انكساراً شديداً، انتهى كلام صاحب الأغاني في هذا الفصل، وقد سبق في ترجمة أبي دلف القاسم بن عيسى العجلي ذكر هذه الأبيات وقائلها وصورة الحال، وبينها وبين هذه الرواية اختلاف يسير.

وأما الأبيات الأولى التي في أبي البختري، فهي لأبي عبد الرحمن محمد بن عبد الرحمن بن عطية العطوي الشاعر المشهور، ونسبته – بالعطوي – إلى جده عطية المذكور، وهو من البصرة من موالي بني ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة، وكان معتزلياً، وله ديوان شعر.

وروى الخطيب أيضاً في تاريخه أن أبا البختري، قال: لأن أكون في قوم أعلم مني أحب إلي من أن أكون في قوم أنا أعلم منهم لأني إن كنت أعلمهم لم أستفد وإن كنت مع من هم أعلم مني استفدت.

وروى أيضاً في تاريخه أن هارون الرشيد لما قدم المدينة أعظم أن يرقى منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم في قباء ومنطقة، فقال أبو البختري: حدثني جعفر بن محمد، يعني جعفر الصادق، عن أبيه قال: نزل جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم وعليه قباء ومنطقة مخنجراً بخنجر، فقال المعافى التميمي:

ويل وغول لأبي البختري إذا توافى الناس للمحشر
من قوله الزور وإعلانه بالكذب في الناس على جعفر
والله ما جالسه ساعةً للفقه في بدوٍ ولا محضر
ولا رآه الناس في دهره يمر بين القبر والمنبر
يا قاتل الله ابن وهبٍ لقد أعلن بالزور وبالمنكر
يزعم أن المصطفى أحمداً أتاه جبريل التقي البري
عليه خف وقبا أسود مخنجراً في الحقو بالخنجر

وحكى جعفر الطيالسي أن يحيى بن معين وقف على حلقته وهو يحدث بهذا الحديث عن جعفر الصادق، فقال له: كذبت يا عدو الله على رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: فأخذني الشرط، فقلت لهم: هذا يزعم أن رسول رب العالمين جبريل نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه قباء، قال: فقالوا لي: هذا والله قاضٍ كذاب، وأفرجوا عني.

وقال ابن قتيبة في كتاب " المعارف ": وكان أبو البختري ضعيفاً في الحديث، وقال الخطيب في تاريخه: قال إبراهيم الحربي: قيل لأحمد بن حنبل تعلم أحداً روى " لا سبق إلا في خف أو حافر أو جناح "؟ فقال: ما روى هذا إلا ذاك الكذاب أبو البختري.

وله من التصانيف كتاب " الروايات ". كتاب " طعسم وجديس ". كتاب " صفة النبي صلى الله عليه وسلم ". كتاب " فضائل الأنصار ". كتاب " الفضائل الكبير " ويحتوي على جميع الفضائل. كتاب " نسب ولد إسماعيل عليه السلام " ويحتوي على قطعة من الأحاديث والقصص. وأخباره ومحاسنه كثيرة، وتوفي سنة مائتين للهجرة ببغداد، في خلافة المأمون، رحمه الله تعالى. وقد ذكره ابن قتيبة في كتاب " المعارف " في موضعين، عقد له أولاً ترجمة وتكلم على حاله، ثم ذكره في ثلاثة أسماء في نسق: أبو البختري وهب بن وهب بن وهب، وعد معه في ملوك الفرس بهرام بن بهرام بن بهرام، وفي الطالبين حسن بن حسن بن حسن، وفي غسان الحرث الأصغر بن الحرث الأعرج بن الحرث الأكبر، هؤلاء الذين ذكرهم ابن قتيبة، وقد جاء في المتأخرين أبو حامد الغزالي وهو محمد بن محمد بن محمد، وقد سبق ذكره في المحمدين.

وأبو البختري: بفتح الباء الموحدة وسكون الخاء المعجمة وفتح التاء المثناة من فوقها وبعدها راء، وهو مأخوذ من البخترة التي هي الخيلاء، وهو

يتصحف على كثير من الناس بالبحتري وهو الشاعر المقدم ذكره.
وزمعة: بفتح الزاي والميم والعين المهملة وبعدها هاء ساكنة، وهي في الأصل اسم للهنة الزائدة من وراء الظلف، وبها سمي.
وقد تقدم الكلام على الأسدي والمدني.

قلت: وبعد الفراغ من هذه الترجمة ظفرت بنكتة ينبغي إلحاقها بها، وهي أن أبا البختري المذكور قال: كنت أدخل على هارون الرشيد وابنه القاسم الملقب بالمؤتمن بين يديه، فكنت أدمن النظر إليه عند دخولي وخروجي، فقال له بعض ندمائه: ما أرى أبا البختري إلا يحب رؤوس الحملان، ففطن الرشيد، فلما دخلت عليه قال: أراك تدمن النظر إلى أبي القاسم، تريد أن تجعل انقطاعك إليه، قلت: أعيذك بالله يا أمير المؤمنين أن ترميني بما ليس في، وأما إدماني النظر إليه فلأن جعفراً الصادق رضي الله تعالى عنه روى بإسناده عن آبائه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم " ثلاث يزدن في قوة النظر " النظر إلى الخضرة وإلى الماء الجاري، وإلى الوجه الحسن " نقلتها من خط القاضي كمال الدين بن العديم من مسودة تاريخه، والله تعالى أعلم.

ابن الشجري

الشريف أبو السعادات هبة الله بن علي بن محمد بن حمزة الحسني، المعروف بابن الشجري البغدادي، كان إماماً في النحو واللغة وأشعار العرب وأيامها وأحوالها كامل الفضائل، متضلعاً من الآداب صنف فيها عدة تصانيف، فمن ذلك كتاب " الأمالي "، وهو أكبر تواليفه وأكثرها إفادة، أملاه في أربعة وثمانين مجلساً، وهو يشتمل على فوائد جمة الأدب، وختمه بمجلس قصره على أبيات من شعر أبي الطيب المتنبي تكلم عليها وذكر ما قاله الشراح فيها وزاد من عنده ما سنح له، وهو من الكتب الممتعة، ولما فرغ من إملائه حضر إليه أبو محمد بن عبد الله المعروف بابن الخشاب – المقدم ذكره – والتمس منه سماعه عليه فلم يجبه إلى ذلك، فعاداه ورد عليه في مواضع من الكتاب ونسبه فيها إلى الخطأ، فوقف أبو السعادات المذكور على ذلك الرد، فرد عليه في رده وبين وجوه غلطه، وجمعه كتاباً سماه " الانتصار " وهو على صغر حجمه مفيد جداً، وسمعه عليه الناس، وجمع أيضاً كتاباً سماه " الحماسة " ضاهى به حماسة أبي تمام الطائي، وهو كتاب غريب مليح أحسن فيه، وله في النحو عدة تصانيف وله " ما اتفق لفظه واختلف معناه " وشرح " اللمع " لابن جني، وشرح " التصريف الملوكي ".
وكان حسن الكلام حلو الألفاظ فصيحاً جيد البيان والتفهيم، وقرأ الحديث بنفسه على جماعة من الشيوخ المتأخرين مثل أبي الحسن المبارك بن عبد الجبار بن أحمد بن القاسم الصيرفي، وأبي علي محمد بن سعيد بن نبهان الكاتب وغيرهما.
وذكره الحافظ أبو سعج بن السمعاني في كتاب " الذيل "، وقال: اجتمعنا في دار الوزير أبي القاسم علي بن طراد الزينبي وقت قراءتي عليه الحديث، وعلقت عنه شيئاً من الشعر في المدرسة، ثم مضيت إليه وقرأت عليه جزءاً من أمالي أبي العباس ثعلب النحوي.
وحكى أبو البركات عبد الرحمن بن الأنباري النحوي – المقدم ذكره – في كتابه الذي سماه " مناقب الأدباء " أن العلامة أبا القاسم محمود الزمخشري – المقدم ذكره – لما قدم بغداد قاصداً الحج في بعض أسفاره مضى إلى زيارة شيخنا أبي السعادات ابن الشجري ومضينا معه إليه، فلما اجتمع به أنشده قول المتنبي:

واستكبر الأخبار قبل لقائه	فلما التقينا صغر الخبر الخبر

ثم أنشده بعد ذلك:

كانت مساءلة الركبان تخبرنا	عن جعفر بن فلاح أحسن الخبر
ثم التقينا فلا والله ما سمعت	أذني بأحسن مما قد رأى بصري

وهذان البيتان قد تقدم ذكرهما في ترجمة جعفر بن فلاح، وهما منسوبان إلى أبي القاسم محمد ابن هانئ الأندلسي – وقد تقدم ذكره أيضاً – وينسبان إلى غيره أيضاً، والله أعلم.
قال ابن الأنباري، فقال العلامة الزمخشري: روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه لما قدم عليه زيد الخيل قال له: " يا زيد، ما وصف لي أحد في

الجاهلية فرأيته في الإسلام إلا دون ما وصف لي، غيرك ". قال ابن الأنباري، فخرجنا من عنده ونحن نعجب، كيف يستشهد الشريف بالشعر والزمخشري بالحديث وهو رجل عجمي؟ وهذا الكلام، وإن لم يكن عين كلام ابن الأنباري، فهو في معناه، لأني لم أنقله من الكتاب، بل وقفت عليه منذ زمان وعلق بخاطري، وإنما ذكرت هذا لأن الناظر قد يقف على كتاب ابن الأنباري فيجد بين الكلامين اختلافاً فيظن أني تسامحت في النقل.

وكان أبو السعادات المذكور نقيب الطالبيين بالكرخ نيابة عن والده الطاهر، وله شعر حسن فمن ذلك قصيدة يمدح بها الوزير نظام الدين أبا نصر المظفر بن علي بن محمد بن جهير، أولها:

هذي السديرة والغدير الطافح ... فاحفظ فؤادك إنني لك ناصح

يا سدرة الوادي الذي إن ضله ال ... ساري هداه نشره المتفاوح

هل عائد قبل الممات لمغرمٍ ... عيش تقضى في ظلالك صالح

ما أنصف الرشأ الضنين بنظرة ... لما دعا مصغي الصبابة طامح

شط المزار به وبوئ منزلاً ... بصميم قلبك فهو دانٍ نازح

غصن يعطفه النسيم وفوقه ... قمر يحف به ظلام جانح

وإذا العيون تساهمته لحاظها ... لم يرو منه الناظر المتراوح

ولقد مررنا بالعقيق فشاقنا ... فيه مراتع للمها ومسارح

ظلنا به نبكي فكم من مضمرٍ ... وجداً أذاع هواه دمع سافح

مرت الشؤون رسومها فكأنما ... تلك العراص المقفرات نواضح

يا صاحبي تأملا حييتما ... وسقى دياركما الملث الرائح

أدمى بدت لعيوننا أم ربرب ... أم خرد أكفالهن رواجح

أم هذه مقل الصوار رنت لنا ... خلل البراقع أم قنا وصفائح

لم يبق جارحة وقد واجهتنا ... إلا وهن لها بهن جوارح

كيف ارتجاع القلب من أسر الهوى ... ومن الشقاوة أن يراض القارح

لو بله من ماء ضارج شربة ... ما أثرت للوجد فيه لواقح

ومن هاهنا يخرج إلى المديح فأضربت عنه خوف الإطالة، ولم يكن المقصود إلا إثبات شيء من نظمه ليستدل به على طريقه فيه.
ومن شعره أيضاً:

هل الوجد خافٍ والدموع شهود ... وهل مكذب قول الوشاة جحود

وحتى متى تفي شؤونك بالبكا ... وقد حد حداً للبكاء لبيد

وإني وإن جفت قناتي كبرة ... لذو مرة في النائبات جليد

وفيه إشارة إلى أبيات لبيد بن ربيعة العامري:

تمنى ابنتاي أن يعيش أبوهما وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر

فقوما فنوحا بالذي تعلمانه ولا تخمشا وجهاً ولا تحلقا شعر

وقولا :هو المرء الذي لا صديقه أضاع، ولا خان العهود ولا غدر

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر

وإلى هذا أشار أبو تمام الطائي بقوله:

ظعنوا فكان بكاي حولاً بعدهم ثم ارعويت وذاك حكم لبيد

وقال الشريف أبو السعادات المذكور: أنشدني أبو إسماعيل الحسين الطغرائي – قلت: قد تقدم ذكره – لنفسه:

وإذا لم تكن ملكاً مطاعاً فكن عبداً لمالكه مطيعاً

وإن لم تملك الدنيا جميعاً كما تهواه فاتركها جميعا

هما سببان من ملك ونسكٍ ينيلان الفتى الشريف الرفيعا

فمن يقنع من الدنيا بشيء سوى هذين عاش بها وضيعا

وكان بين أبي السعادات المذكور وبين أبي محمد الحسن بن أحمد بن محمد بن جكينا البغدادي الحريمي الشاعر المشهور – وهو المذكور في ترجمة أبي محمد القاسم بن علي الحريري صاحب المقامات – تنافس جرت العادة بمثله بين أهل الفضائل، فلما وقف على شعره عمل فيه قوله:

يا سيدي والذي يعيذك من نظم قريض يصدا به الفكر

مالك من جدك النبي سوى أنك ما ينبغي لك الشعر

وشعره وماجراياته كثيرة، والاختصار أولى.

وكانت ولادته في شهر رمضان سنة خمسين وأربعمائة. وتوفي في يوم الخميس السادس والعشرين من شهر رمضان سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة، ودفن من الغد في داره بالكرخ من بغداد، رحمه الله تعالى.

والشجري: بفتح الشين المعجمة والجيم وبعدها راء، هذه النسبة إلى شجرة، وهي قرية من أعمال المدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، وشجرة أيضاً اسم رجل، وقد سمت به العرب ومن بعدها، وقد انتسب إليه خلق كثير من العلماء وغيرهم ولا أدري إلى من ينتسب الشريف المذكور منهما هل نسبته إلى القرية، أم إلى أحد أجداده كان اسمه شجرة، والله أعلم.

وقد تقدم الكلام على الكرخ في ترجمة معروف الكرخي، رضي الله عنه، فأغنى عن إعادته.

البديع الاسطرلابي

أبو القاسم هبة الله بن الحسين بن يوسف، وقيل أحمد، المنعوت بالبديع الاسطرلابي الشاعر المشهور، وأحد الأدباء الفضلاء، كان وحيد زمانه في عمل الآلات الفلكية، متقناً لهذه الصناعة، وحصل له من جهة عملها مال جزيل في خلافة الإمام المسترشد، ولما مات لم يخلفه في شغله مثله. وقد ذكره أبو المعالي الحظيري في كتابه الذي سماه " زينة الدهر " وذكره العماد الأصبهاني في كتاب " الخريدة " وكل منهما أثنى عليه، وأورد عدة مقاطيع من شعره، فمن ذلك قوله:

أهدي لمجلسه الكريم، وإنما أهدي له ما حزت من نعمائه

كالبحر يمطره السحاب وما له ... فضل عليه لأنه من مائه

وهذان البيتان من أسير شعره، وقد قيل إنهما لغيره.

وله أيضاً:

أذاقني حمرة المنايا ... لما اكتسى خضرة العذار

وقد تبدى السواد فيه ... وكارتي بعد في العيار

هكذا وجدت هذين البيتين في " زينة الدهر " تأليف أبي المعالي الحظيري منسوبين إلى البديع المذكور، ورأيت في موضع آخر أنهما لأبي محمد بن حكينا – في ترجمة الشريف أبي السعادات ابن الشجري – والله أعلم. وهذه العبارة من اصطلاح البغاددة يقولون: " كارتي في العيار " بمعنى أنه ناشب معه لم يتخلص منه، والكارة عندهم في الدقيق بمثابة الجملة في ديار مصر. ومن شعره:

قال قوم عشقته أمرد الخ ... د وقد قيل: إنه نكريش

قلت فرخ الطاووس أحسن ما كا ... ن إذا ما عملا عليه الريش

قوله " نكريش " لفظة عجمية، والأصل فيها نيك ريش، معناها لحية جيدة، وهو على ما تقرر من اصطلاح العجم أنهم يقدمون ويؤخرون في ألفاظهم المركبة، فنيك: جيد، وريش: لحية.

وكان كثير الخلاعة يستعمل المجون في أشعاره حتى يفضي به إلى الفحش في اللفظ، فلهذا اقتصرت على هذه النبذة مع كثرة شعره، وكان قد جمعه ودونه، واختار ابن حجاج ورتبه على مائة وأحد وأربعين باباً، وجعل كل بابا في فن من فنون شعره، وقفاه وسماه " درة التاج من شعر ابن حجاج " وكان ظريفاً في جميع حركاته، وتوفي سنة أربع وثلاثين وخمسمائة، بعلة الفالج، ودفن بمقبرة الوردية بالجانب الشرقي من بغداد، رحمه الله تعالى.

والأسطرلابي: بفتح الهمزة وسكون السين المهملة وضم الطاء المهملة وبعدها راء ثم لام ألف ثم باء موحدة، هذه النسبة إلى الأسطرلاب، وهو الآلة المعروفة، قال كوشيار بن لبابة بن باشهري الجيلي صاحب كتاب " الزيج " في رسالته التي وضعها في علم الأسطرلاب: إن الأسطرلاب كلمة يونانية معناها ميزان الشمس، وسمعت بعض المشايخ يقول: إن لاب اسم الشمس بلسان اليونان فكأنه قال: أسطر الشمس، إشارة إلى الخطوط التي فيه، وقيل إن أول من وضعه بطليموس صاحب المجسطي، وكان سبب وضعه له أنه كان معه كرة فلكية وهو راكب، فسقطت منه، فداستها دابته فخسفتها، فبقيت على هيئة الأسطرلاب، وكان أرباب علم الرياضة يعتقدون أن هذه الصورة لا ترسم إلا في جسم كري على هيئة الأفلاك، فلما رآه بطليموس على تلك الصورة علم أنه يرتسم في السطح ويكون نصف دائرة ويحصل منه ما يحصل من الكرة، فوضع الأسطرلاب، ولم يسبق إليه، وما اهتدى أحد من المتقدمين إلى أن هذا القدر يتأتى في الخط. ولم يزل الأمر مستمراً على استعمال الكرة والأسطرلاب إلى أن استنبط الشيخ شرف الدين الطوسي – المذكور في ترجمة الشيخ كمال الدين بن يونس رحمهما الله تعالى، وهو شيخه في فن الرياضة – أن يضع المقصود من الكرة والأسطرلاب في خط فوضعه وسماه " العصا " وعمل له رسالة بديعة. وكان قد أخطأ في بعض هذا الوضع، فأصلحه الشيخ كمال الدين المذكور، وهذبه، والطوسي أول من أظهر هذا في الوجود، ولم يكن أحد من القدماء يعرفه. فصارت الهيئة توجد في الكرة التي هي جسم لأنها تشتمل على الطول والعرض والعمق، وتوجد في السطح الذي هو مركب من الطول والعرض بغير عمق، وتوجد في الخط الذي هو عبارة عن الطول فقط بغير عرض ولا عمق، ولم يبق سوى النقطة، ولا يتصور أن يعمل فيها شيء لأنها ليست جسماً ولا سطحاً، ولا خطاً بل هي طرف السطح، والسطح طرف الجسم، والنقطة لا تتجزأ، فلا يتصور أن يرتسم فيها شيء، وهذا وإن كان خروجاً عما نحن بصدده لكنه أيضاً فائدة، والاطلاع عليه أولى من إهماله، وسياق الكلام جره والله تعالى أعلم.

ابن قطان البغدادي

أبو القاسم هبة الله بن الفضل بن القطان بن عبد العزيز بن محمد بن الحسين بن علي بن أحمد ابن الفضل بن يعقوب بن يوسف بن سالم، المعروف بابن قطان الشاعر المشهور البغدادي، وقد سبق شيء من شعره وطرف من خبره في ترجمة حيص بيص في حرف السين، وفي ترجمة ابن السوادي في أواخر حرف العين.

وكان أبو القاسم المذكور قد سمع الحديث من جماعة من المشايخ، وسمع عليه وكان غاية في الخلاعة والمجون، كثير المزاح والمداعبات، مغرى بالولوع بالمتعجرفين والهجاء لهم، وله في ذلك نوادر ووقائع وحكايات ظريفة، وله ديوان شعر. وقد ذكره أبو سعد السمعاني في كتاب " الذيل " فقال: شاعر مجود، مليح الشعر رقيق الطبع، إلا أن الغالب عليه الهجاء، وهو ممن يتقى لسانه، ثلاب، ثم قال: كتبت عنه حديثين لا غير، وعلقت عنه مقطعات من شعره.

وذكر الحافظ السلفي أباه أبا عبد اله الفضل بن عبد العزيز، وقال: إن بعض أولاد المحدثين سأله عن مولده فقال: سنة ثماني عشرة وأربعمائة ليلة الجمعة رابع عشر رجب. وقال أبو غالب شجاع بن فارس الذهلي: مات يوم الأربعاء، ودفن من الغد لست بقين من شهر ربيع الآخر سنة ثمان وتسعين وأربعمائة، بمقبرة معروف الكرخي، رضي الله عنه.

وذكر العماد الكاتب الأصبهاني في كتاب " الخريدة " أبا القاسم المذكور فقال: وكان مجمعاً على ظرفه ولطفه، وله ديوان شعر أكثره جيد، وعبث فيه بجماعة من الأعيان وثلبهم، ولم يسلم منه أحد لا الخليفة ولا غيره، وأخبرني بعض المشايخ أنه رآه وقال: كنت يومئذٍ صبياً فلم آخذ عنه شيئاً لكنني رأيته قاعداً على طرف دكان عطار ببغداد، والناس يقولون: هذا ابن الفضل الهجاء.

وسمع الحديث من جماعة منهم أبوه وأبو طاهر محمد بن الحسن الباقلاني وأبو الفضل أحمد بن الحسن بن خيرون الأمين وأبو عبد الله الحسين بن أحمد بن محمد بن طلحة بن محمد بن عثمان الكرخي وغيرهم.

وله مع حيص بيص ماجرايات، فمن ذلك أن حيص بيص خرج ليلة من دار الوزير شرف الدين أبي الحسن علي بن طراد الزينبي، فنبح عليه جرو كلب وكان متقلداً سيفاً، فوكزه بعقب السيف فمات، فبلغ ذلك ابن الفضل المذكور، فنظم أبياتاً وضمنها بيتين لبعض العرب قتل أخوه ابناً له، فقدم إليه ليقتاد منه فألقى السيف من يده وأنشدهما، والبيتان المذكوران يوجدان في الباب الأول من كتاب " الحماسة "، ثم إن ابن الفضل المذكور عمل الأبيات في ورقة وعلقها في عنق كلبة لها أجر ورتب معها من طردها وأولادها إلى باب دار الوزير كالمستغيثة، فأخذت الورقة من عنقها وعرضت على الوزير فإذا فيها:

يا أهل بغداد إن الحيص بيص أتى ... بفعلة أكسبته الخزي في البلد

هو الجبان الذي أبدى تشاجعه ... على جري ضعيف البطش والجلد

وليس في يده مال يديه به ... ولم يكن ببواء عنه في القود

فأنشدت جعدة من بعدما احتسبت ... دم الأبيلق عند الواحد الصمد

"أقول للنفس تأساء وتعزية ... إحدى يدي أصابتني ولم ترد"

"كلاهما خلف من فقد صاحبه ... هذا أخي حين أدعوه وذا ولدي"

والبيت الثالث مأخوذ من قول بعضهم:

قوم إذا ما جنى جانيهم أمنوا ... من لؤم أحسابهم أن يقتلوا قودا

"وهو من جملة أبيات في الكراس الذي أوله لقي بشار، وينظر في الحماسة" وهذا التضمين في غاية الحسن، ولم أسمع مثله مع كثرة ما يستعمل الشعراء التضمين في أشعارهم، إلا ما أنشدني الشيخ مهذب الدين أبو طالب محمد المعروف بابن الخيمي - المذكور في ترجمة الشيخ تاج الدين الكندي في

حرف الزاي –لنفسه وأخبرني أنه كان بدمشق وقد رسم السلطان بحلق لحية شخص له وجاهة بين الناس، فحلق نصفها، وحصلت فيه شفاعة، فعفا عنه في الباقي، فعمل فيه ولم يصرح باسمه، بل رمزه وستر، وهو:

زرت ابن آدم لما قيل قد حلقوا ... جميع لحيته من بعد ما ضربا

فلم أر النصف محلوقاً فعدت له ... مهنئاً بالذي منها له وهبا

فقام ينشدني والدمع يخنقه ... بيتين ما نظما ميناً ولا كذبا

إذا أتتك لحلق الذقون طائفة ... "فاخلع ثيابك منها ممعناً هربا "

"وإن أتوك وقالوا: إنها نصف ... فإن أطيب نصفيها الذي ذهبا"

والبيتان الأخيران منها في كتاب " الحماسة " أيضاً في باب مذمة النساء، لكن الأول منهما فيه تغيير، فإن بيت الحماسة:

لا تنكحن عجوزاً إن أتيت بها ... واخلع ثيابك منها ممعناً هربا

وحضر ليلة الحيص بيص وابن الفضل المذكور على السماط عند الوزير في شهر رمضان، فأخذ ابن الفضل قطاة مشوية، وقدمها إلى الحيص بيص، فقال الحيص بيص للوزير: يا مولانا هذا الرجل يؤذيني، فقال الوزير كيف ذلك؟ قال: لأنه يشير إلى قول الشاعر:

تميم بطرق اللؤم أهدى من القطا ... ولو سلكت سبل المكارم ضلت

وكان الحيص بيص تميمياً – كما تقدم في ترجمته – وهذا البيت للطرماح بن حكيم الشاعر، وهو من جملة أبيات، وبعد هذا البيت:

أرى الليل يجلوه النهار، ولا أرى ... خلال المخازي عن تميم تجلت

ولو أن برغوثاً على ظهر قملة ... يكر على صفي تميم لولت

ودخل ابن الفضل المذكور يوماً على الوزير المذكور الزينبي، وعنده الحيص فقال: قد عملت بيتين ولا يمكن أن يعمل لهما ثالث، لأنني قد استوفيت المعنى فيهما، فقال الوزير: هاتهما، فأنشده:

زار الخيال نحيلاً مثل مرسه ... فما شفاني منه الضم والقبل

ما زارني قط إلا لكي يوقظني ... على الرقاد فينفيه ويرتحل

فالتفت الوزير إلى الحيص وقال له: ما تقول في دعواه؟ فقال: إن أعادهما سمع الوزير لهما ثالثاً، فقال له الوزير: أعدهما، فأعادهما، فوقف الحيص بيص لحظ ثم أنشد:

وما درى أن نومي حيلة نصبت ... لطيفه حين أعيا اليقظة الحيل

فاستحسن الوزير ذلك منه.

وسمعت لبعض المعاصرين، ولم أتحقق أنها له حتى أعينه، وقد أخذ هذا المعنى ونظمه وأحسن فيه، وهو:

يا ضرة القمرين من لمتيمٍ ... أرديته وأحلت ذاك على القضا

وحياة حبك لم ينم عن سلوة ... بل كان ذلك للخيال تعرضا

لا تأسفي إن زار طيفك في الكرى ... ما كان إلا مثل شخصك معرضا

ثم وجدت هذه الأبيات لأبي العلاء بن أبي الندى المعروف.

ولما هجا قاضي القضاة جلال الدين الزينبي بالقصيدة الكافية – المقدم ذكرها في ترجمة ابن السوادي – ولولا طولها لذكرتها، سير إليه أحد الغلمان فأحضره وصفعه وحبسه، فلما طال حبسه كتب إلى مجد الدين ابن صاحب أستاذ الدار:

إليك أظل مجد الدين أشكو ... بلاء حل لست له طليقا

وقوموا بلغو عني محالا ... إلى قاضي القضاة الندب سيقا

فأحضرني بباب الحكم خصم ... غليظ جرني كما وزيقا

وأخفق نعله بالصفع رأسي ... إلى أن أوجس القلب الخفوقا

على الخصم الأداء وقد صفعنا ... إلى أن ما تهدينا الطريقا

فيا مولاي هب ذا الإفك حقا ... أيحبس بعد ما استوفى الحقوقا

ولما خرج من الحبس أنشد:

عند الذي طرف بي أنه ... قد غض من قدري وآذاني

فالحبس ما غير لي خاطراً ... والصفع ما لين آذاني

وقد سبق في ترجمة الحيص أبياته الميمية في هجوه، وجواب الحيص عنها.

ولما ولي الزينبي المذكور الوزارة دخل عليه ابن الفضل المذكور والمجلس محتفل بأعيان الرؤساء، وقد اجتمعوا للهناء، فوقف بين يديه ودعا له وأظهر الفرح والسرور ورقص، فقال الوزير لبعض من يفضي إليه بسره: قبح الله هذا الشيخ، فإنه يشير إلى ما تقول العامة في أمثالها " ارقص للقرد في زمانه ". وقد نظم هذا المعنى في أبيات وكتبها إلى بعض الرؤساء، وهي:

يا كمال الدين الذي ... هو شخص مشخص

والرئيس الذي به ... ذنب دهري يمحص

خذ حديثي فإنه ... بنأسوف يرخص

كلما قلت قد تبغ ... دد قومي تحمصصوا

ليس إلا ستر يشا ... ل وباب مجصص

وغواش على الرؤو ... س عليها المقرنص

والرواشين والمنا ... ظر والخيل ترقص

وأنا القرد كل يو ... م لكلب أبصبص

كل من صفق الزما ... ن له قمت أرقص

محن لا يفيد ذا النو ... ن منها التبرصص

فمتى أسمع الندا ... ء وقد جا مخلص

ومثل هذا قول بعضهم:

إذا رأيت امرءاً وضيعاً قد رفع الدهر من مكانه
فكن له سامعاً مطيعاً معظماً من عظيم شانه
فقد سمعنا بأن كسرى قد قال يوماً لترجمانه
إذا زمان السباع ولى فارقص للقرد في زمانه

وحكي أنه دخل على بعض بغداد وقد تولى ولاية كبيرة لم يكن من أهلها، فسلم عليه ودعا له وهنأه بالولاية، وأظهر الفرح والسرور، ثم خرج، فقال بعض الحاضرين: هذا يشير إلى قول الناس في أمثالهم: " ارقص للقرد في زمانه ".

وله القصيدة الرائية المشهورة التي جمع فيها خلقاً من الأكابر ونبز كل واحد منهم بشيء، وفيها يقول:

تكريت تعجزنا ونحن بجهلنا نمضي لنأخذ ترمذاً من سنجر

ومنها البيت السائر وهو:

نسب إلى العباس ليس شبيهه في الضعف غير الباقلاء الأخضر

وأنشدني له بعض أصحابنا المتأدبين قوله:

سعى إحسانه بيني وبين الدهر بالصلح
أياد ملأت بيتي على بيت من المدح

ودخل يوماً على الوزير ابن هبيرة وعنده نقيب الأشراف، وكان ينسب إلى البخل، وكان في شهر رمضان والحر شديد، فقال له الوزير: أين كنت؟ فقال: في مطبخ سيدي النقيب، فقال له: ويحك! أيش عملت في شهر رمضان في المطبخ؟ فقال: وحياة مولانا كسرت الحر، فتبسم الوزير وضحك الحاضرون وخجل النقيب. وهذا الكلام على اصطلاح أهل تلك البلاد، فإنهم يقولون: كسرت الحر في الموضع الفلاني، إذا اختار موضعاً بارداً يقيل فيه.

وقصد دار بعض الأكابر في بعض الأيام فلم يؤذن له في الدخول، فعز عليه فأخرجوا من الدار طعاماً وأطعموه كلاب الصيد وهو يبصره، فقال: مولانا يعمل بقول الناس: لعن الله شجرة لا تظل أهلها.

وقعد يوماً مع زوجته يأكل طعاماً، فقال لها: اكشفي رأسك، ففعلت، وقرأ "قل هو الله أحد" الإخلاص، فقالت له: ما الخبر؟ فقال: إن المرأة إذا كشفت رأسها لم تحضر الملائكة عليهم السلام، وإذا قرئ "قل هو الله أحد" هربت الشياطين، وأنا أكره الزحمة على المائدة.

وأخباره كثيرة، وكانت ولادته سنة سبع وسبعين وأربعمائة، وقال السمعاني: سألته عن مولده فقال: ولدت ضاحي نهار يوم الجمعة السابع من ذي الحجة سنة ثمان وسبعين. وتوفي يوم السبت الثامن والعشرين من رمضان سنة ثمان وخمسين وخمسمائة ببغداد، ودفن بمقبرة معروف الكرخي، رحمه الله تعالى، وقال السمعاني: توفي يوم عيد الفطر، والله أعلم.

ولولا إيثار الاختصار لذكرت من أحواله ومضحكاته شيئاً كثيراً، فإنه كان آية في هذا الباب.

وقوله في الأبيات الدالية " و لم يكن ببواء عنه في القود " فالبواء – بفتح الباء الموحدة وبعدها الواو والهمزة ممدودة – ومعناها السواء، ويقال: دم فلان بواء لدم فلان، إذا كان مكافئاً له.

وجعدة المذكورة في هذه الأبيات أيضاً – بفتح الجيم والدال المهملة وبينهما عين مهملة ساكنة وفي الأخير هاء ساكنة – وهو اسم من أسماء الكلبة، هكذا سمعته و لم أره في شيء من كتب اللغة، بل الذي قالاه أرباب اللغة إن " أبا جعدة " كنية الذئب، وجعدة " اسم النعجة "، كني الذئب بها لمحبته

إياها، والله أعلم.

"والمتوثي: بفتح الميم وتشديد التاء المثناة من فوقها وسكون الواو وبعدها ثاء مثلثة، هذه النسبة إلى متوث، وهي بلدة بين قرقوب وكورة الأهواز".

ابن سناء الملك

القاضي السعيد أبو القاسم هبة الله بن القاضي الرشيد أبي الفضل جعفر بن المعتمد سناء الملك أبي عبد الله محمد بن هبة الله بن محمد السعدي، الشاعر المشهور، المصري صاحب الديوان الشعر البديع والنظم الرائق، أحد الفضلاء الرؤساء النبلاء، وكان كثير التخصص والتنعم وافر السعادة محظوظاً من الدنيا، أخذ الحديث عن الحافظ أبي الطاهر أحمد بن محمد ابن أحمد السلفي الأصبهاني رحمه الله تعالى، واختصر كتاب " الحيوان " للجاحظ، وسمى المختصر " روح الحيوان " وهي تسمية لطيفة –وله كتاب مصايد الشوارد–، وله ديوان جميعه موشحات سماه " دار الطراز " وجمع شيئاً من الرسائل الدائرة بينه وبين القاضي الفاضل وفيه كل معنى مليح.

واتفق في عصره بمصر جماعة من الشعراء المجيدين، وكان لهم مجالس يجري بينهم فيها مفاكهات ومحاورات يروق سماعها. ودخل في ذلك الوقت إلى مصر شرف الدين بن عنين – المقدم ذكره في المحمدين – فاحتفلوا به وعملوا له وكانوا يجتمعون على أرغد عيش، وكانوا يقولون: هذا شاعر الشام، وجرت لهم محافل سطرت عنهم، ولولا خشية التطويل لذكرت بعضها.

ومن محاسن شعره بيتان من جملة قصيدة يمدح بها القاضي الفاضل رحمه الله تعالى، وهما:

ولو أبصر النظام جوهر ثغرها ... لما شك فيه أنه الجوهر الفرد
ومن قال إن الخيزرانة قدها ... فقولوا له إياك أن يسمع القد

ومن شعره أيضاً:

لا الغصن يحكيك ولا الجؤذر ... حسنك مما كثروا أكثر
يا باسماً أبدى لنا ثغره ... عقداً ولكن كله جوهر
قال لي اللاحي: أما تسمع ... فقلت :يا لاحي أما تبصر

وله يتغزل بجارية عمياء:

شمس بغير الشعر لم تحتجب ... وفي سوى العينين لم تكسف
مغمدة المرهف لكنها ... تجرح بالجفن بلا مرهف
رأيت منها الخلد في جؤذر ... ومقلتي يعقوب في يوسف

وله في غلام ضرب ثم حبس:

بنفسي من لم يضربوه لريبة ... ولكن ليبدو الورد في سائر الأغصان
ولم يودعوه السجن إلا مخافة ... من العين أن تعدو على ذلك الحسن
وقالوا له شاركت في الحسن يوسفا ... فشاركه أيضاً في الدخول إلى السجن

وله في غلام جميل الصورة حفر حومة التلاق فأصابه حجر فانكسرت أسنانه فقال:

نثر الجهر عقد ثغر حبيبي ... فدموعي عليه تحكي انتثاره

كل سن كالأقحوانة كانت فغدت بالدماء كالجلناره

كان في حومة التلاق وما كا ن بعيداً في جملة النظاره

فأتته الحجارة شوقاً وزارت ه فلا مرحباً بتلك الزياره

كيف ينسى الفؤاد ثغر حبيب حسدتني عليه تلك الحجاره

وله من جملة أبيات:

وما كان تركي حبه عن ملالة ولكن لأمر يوجب القول بالترك

أراد شريكاً في الذي كان بيننا وإيمان قلبي قد نهاني عن الشرك

وله أيضاً:

يا عاطل الجيد إلا من محاسنه عطلت فيك الحشا إلا من الحزن

في سلك جسمي در الدمع منتظم فهل لجيدك في عقد بلا ثمن

لا تخش مني فإنني ضنى وما النسيم بمخشيٍ على الغصن

وهذا البيت مأخوذ من قول ابن قلاقس – وقد تقدم ذكره في ترجمته – وهو:

أعندما همت به روضة أعل جسمي لأكون النسيم

ومن نثره في وصف النيل في سنة كان ناقصاً، ولم يوف الزيادة التي جرت بها العادة، يقال إنه كتبه من جملة رسالة إلى القاضي الفاضل، وهو: " وأما أمر الماء فإنه نضبت مشارعه، وتقطعت أصابعه، وتيمم العمود لصلاة الاستسقاء، وهم المقياس من الضعف بالاستلقاء " وهذا من أحسن ما يوصف به نقصان النيل.

وكان بمصر شاعر يقال له أبو المكارم هبة الله بن وزير بن مقلد الكاتب، فبلغ القاضي السعيد المذكور عنه أنه هجاه، فأحضره إليه وأدبه وشتمه، وكتب إليه نشو الملك أبو الحسن علي بن مفرج المعري الأصل، المصري الدار والوفاة، المعروف بابن المنجم، الشاعر المعروف:

قل للسعيد أدام الله نعمته صديقنا ابن وزير كيف تظلمه

صفعته إذ غدا يهجوك منتقماً فكيف من بعد هذا ظللت تشتمه

هجو بهجو، وهذا الصفع فيه رباً والشرع ما يقتضيه، بل يحرمه

فإن تقل ما لهجو عنده ألم فالصفع والله أيضاً ليس يؤلمه

ولما مدح السعيد المذكور شمس الدولة توران شاه أخا السلطان صلاح الدين – المقدم ذكره في حرف التاء – بقصيدته التي أولها:

تقنعت لكن بالحبيب المعمم وفارقت لكن كل عيش مذمم

تعصب عليه جماعة من شعراء مصر، وعابوا هذا الاستفتاح وهجنوه، فكتب إليه ابن الذروي الشاعر المذكور في ترجمة سيف الدولة المبارك بن منفذ:

قل للسعيد مقال من هو معجب منه بكل بديعةٍ ما أعجبا

لقصيدك الفضل المبين، وإنما شعراؤنا جهلوا به المستغربا

عابوا التقنع بالحبيب ولو رأى الطائي ما قد حكته لتعصبا

ونوادر القاضي السعيد كثيرة. وتوفي في العشر الأول من شهر رمضان، سنة ثمان وستمائة بالقاهرة، وذكر صاحبنا الكمال ابن الشعار في " عقود الجمال " أنه توفي يوم الأربعاء، رابع الشهر المذكور، رحمه الله تعالى.

وذكره العماد الكاتب، في كتاب " الخريدة " فقال: كنت عند القاضي الفاضل في حيمته بمرج الدلهمية، ثامن عشر ذي القعدة، سنة سبعين يعني وخمسمائة، فأطلعني على قصيدة له كتبها إليه من مصر، وذكر أن سنه لم يبلغ إلى عشرين سنة فأعجبت بنظمه، ثم ذكر القصيدة العينية، التي أولها:

فراق قضى للهم والقلب بالجمع ... وهجر تولى صلح عيني مع الدمع

وعلى هذا التقدير يكون مولده في حدود سنة خمسين وخمسمائة، وقيل إنه ولد سنة ثمان وأربعين، والله أعلم.

ثم قال العماد بعد الفراغ من ذكر هذه القصيدة: ثم وصل - يعني القاضي السعيد المذكور - إلى الشام، في شهر رمضان سنة إحدى وسبعين وخمسمائة في الخدمة الفاضلية، فوجدته في الذكاء آية، قد أحرز في صناعة النظم والنثر غاية تلقى عرابة العربية له باليمين راية، وقد أحلفه الإقبال الفاضلي في الفضل قبولا، وجعل طين خاطره على الفطنة مجبولاً، وانا أرجو أن ترقى في الصناعة رتبته، وتغزر عند تمادي أيامه في العلم نغبته، وتصفو من الصبا منقبته، وتروى بماء الدربة رويته، وتستكثر فوائده وتؤثر قلائده.

وتوفي والده جعفر في منتصف شهر رمضان سنة ثمانين وخمسمائة ثم رأيت بخط بعض أصحابنا ممن له عناية بهذا الفن أنه توفي يوم الثلاثاء خامس ذي الحجة سنة اثنتين وتسعين، ومولده منتصف شوال سنة خمس وعشرين وخمسمائة والله أعلم.

وأما أبو المكارم هبة الله بن وزير بن مقل، الشاعر المصر يالمذكور في هذه الترجمة، فإن عماد الدين الأصبهاني ذكره في كتاب " الخريدة " وقال: عدت إلى مصر في سنة ست وتسعين وخمسمائة فسألت عنه فأخبرت بوفاته، رحمه الله تعالى.

هبة الله البوصيري

أبو القاسم وابو الكرم، هبة الله بن علي بن مسعود بن ثابت بن هاشم بن غالب بن ثابت، الأنصاري الخزرجي، المنستيري الأصل، المصري المولد والدار، المعروف بالبوصيري، كان أديباً كاتباً له سماعات عالية وروايات تفرد بها وألحق الأصاغر بالأكابر في علو الإسناد، و لم يكن في آخر عصره في درجته مثله، وسمع بقراءة الحافظ أبي الطاهر السلفي وإبراهيم بن حاتم الأسدي على أبي صادق مرشد بن يحيى بن القاسم المديني إمام الجامع العتيق بمصر، رحمهم الله تعالى أجمعين - والبوصيري المذكور آخر من روى في الدنيا كلها عن أبي صادق مرشد بن يحيى بن القاسم المديني المذكور - وأبي الحسين علي بن الحسين بن عمر الفراء الموصلي وأبي عبد الله محمد بن بركات هلال السعيدي النحوي سماعاً، وروى أيضاً عن أبي الفتح سلطان بن إبراهيم بن المسلم المقدسي، وهو آخر من روى عنه سماعاً في الأرض كلها، وسمع عليه الناس وأكثروا، ورحلوا إليه من البلاد. وكان جده مسعود قدم من المنستير إلى بوصير، فأقام بها إلى أن عرف فضله في دولة المصريين، فطلب إلى مصر، وكتب في ديوان الإنشاء وولد له علي والد أبي القاسم المذكور بمصر، واستقروا بها وشهروا.

وكان أبو القاسم يسمى " سيد الأهل " أيضاً، لكن هبة الله أشهر، وكانت ولادته سنة ست وخمسمائة بمصر، وقيل بل ولد يوم الخميس خامس ذي القعدة سنة خمسمائة. وتوفي في الليلة الثانية من صفر سنة ثمان وتسعين وخمسمائة، ودفن بسفح المقطم، رحمه الله تعالى، وقال ياقوت الحموي في كتاب البلدان المشتركة الأسماء: إنه مات في شوال رحمه الله تعالى.

والخزرجي: بفتح الخاء المعجمة وسكون الزاي وفتح الراء وبعدها جيم، هذه نسبة إلى الخزرج، وهو أخو الأوس - بفتح الهمزة وسكون الواو وبعدها سين مهملة - وهما ابنا حارثة بن ثعلبة بن عمرو مزيقياء بن عامر ماء السماء، وتمام النسب معروف، وهما ابنا قيلة - بفتح القاف وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح اللام وبعدها هاء ساكنة - ومن ذريتهما أنصار النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة.

والمنستير: بضم الميم وفتح النون وسكون السين المهملة وكسر التاء المثناة من فوقها وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها راء، وهي بليدة بإفريقية، بناها هرثمة بن أعين الهاشمي في سنة ثمانين ومائة. وكان هارون الرشيد قد ولاه إفريقية، وقدم إليها يوم الخميس لثلاث خلون من شهر ربيع الآخر سنة تسع

وسبعين ومائة، وقد تقدمت الحوالة على هذا الموضع في ترجمة الأمير تميم بن المعز بن باديس.

وبوصير: بضم الباء الموحدة وسكون الواو وكسر الصاد المهملة وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها راء، وتعرف ببوصير قوريدس، يقال كوريدس وهي بليدة بأعمال البهنسا من صعيد مصر، وقد تقدم الكلام في ترجمة عبد الحميد الكاتب على بوصير الفيوم، وبالجيزة أيضاً بليدة يقال لها بوصير السدر، وبكورة السمنودية أيضاً بليدة يقال لها بوصير، فهذا الاسم يشترك فيه أربعة بلاد، والكل بالديار المصرية.

والمنستير معبد بين المهدية وسوسة يأوي إليه الصالحون المنقطعون للعبادة، وفيه قصور شبيهة بالخانقاهات وعلى تلك القصور سور واحد، ذكره ياقوت في كتابه، والله أعلم.

أمين الدولة ابن التلميذ

أبو الحسن هبة الله بن أبي الغنائم صاعد بن هبة الله بن إبراهيم بن علي، المعروف بابن التلميذ النصراني الطبيب، الملقب أمين الدولة البغدادي، ذكره العماد الأصبهاني في كتاب " الخريدة " فقال: سلطان الحكماء، وبالغ في الثناء عليه وقال: هو مقصد العالم في علم الطب، بقراط عصره وجالينوس زمانه، ختم به هذا العلم، ولم يكن في الماضين من بلغ مداه في الطب، عمر طويلاً وعاش نبيلاً جليلاً، ورأيته وهو شيخ بهي المنظر، حسن الرواء، عذب المجتلى والمجتنى، لطيف الروح ظريف الشخص، بعيد الهم عالي الهمة، ذكي الخاطر مصيب الفكر حازم الرأي، شيخ النصارى وقسيسهم ورأسهم ورئيسهم، وله في النظم كلمات رائقة، وحلاوة جنية، وغزارة بهية، ومن شعره في الميزان لغزاً:

ما واحد مختلف الأسماء ... يعدل في الأرض وفي السماء

يحكم بالقسط بلا رياء ... أعمى يري الإرشاد كل راء

أخرس لا من علةٍ ودواء ... يغني عن التصريح بالإيماء

يجيب إن ناداه ذو امتراء ... بالرفع والخفض عن النداء

يفصح إن علق في الهواء

فقوله " مختلف الأسماء " يعني ميزان الشمس، وهو الاسطرلاب، وسائر آلات الرصد، وهو معنى قوله " يحكم في الأرض وفي السماء "، وميزان الكلام النحو، وميزان الشعر العروض، وميزان المعاني المنطق، وهذه الميزان والمكيال والذراع وغير ذلك، ثم بعد ذلك جملة من مقاطيع شعره نأتي بذكر بعضها إن شاء الله تعالى.

وذكر في ترجمة الحكيم معتمد الملك أبي الفرج يحيى بن التلميذ النصراني الطبيب ما مثاله: وكان ابن صاعد حين توفي معتمد الملك أبو الفرج قام مقامه، وهو ابن بنته، فنسب إليه وعرف به.

وذكر في كتاب " أنموذج الأعيان من شعراء الزمان، فيمن أدرك بالسماع أو بالعيان " أن ابن التلميذ المذكور كان متفنناً في العلوم ذا رأي رصين وعقل متين، وطالت خدمته للخلفاء والملوك، وكانت منادمته أحسن من التبر المسبوك والدر في السلوك، اجتمعت به مراراً في آخر عمره، وكنت أعجب في أكره، كيف حرم الإسلام مع كمال فهمه، وغزارة عقله وعلمه، والله يهدي من يشاء بفضله، ويضل من يريد بحكمه. وكان إذا ترسل استطال وسطا، وإذا نظم وقع بين أرباب النظم وسطا، وأورد شيئاً من شعره أيضاً.

وذكره أبو المعالي الحظيري – المقدم ذكره في حرف السين – في كتابه " زينة الدهر " وأورد له مقاطيع، فمن ذلك قوله:

يا من رماني عن قوس فرقته ... بسهم هجر على تلافيه

ارض لمن غاب عنك غيبته ... فذاك ذنب عقابه فيه

وذكر العماد في " الخريدة " البيت الثاني منسوباً إلى أبي محمد بن حكينا البغدادي، وضم إليه بعده:

لو لم ينله من العقاب سوى	بعدك عنه لكان يكفيه

وذكر له الحظيري أيضاً:

عاتبت إذ لم يزر خيالك وال	نوم بشوقي إليك مسلوب
فزارني منعماً وعاتبني	كما يقال المنام مقلوب

ومما ذكر له العماد في " الخريدة " قال: وأنشدني أبو المعالي هبة الله بن الحسن بن محمد بن المطلب قال: أنشدني أبو الحسن ابن التلميذ لنفسه:

كانت بلهنية الشبيبة سكرة	فصحوت واستأنفت سيرة مجمل
وقعدت أرتقب الفناء كراكبٍ	عرف المحل فبات دون منزل

والثاني منهما ذكره ابن المنجم في كتاب " البارع " لمسلم بن الوليد الأنصاري.

وذكره أن أبا محمد ابن جكينا المذكور مرض فقصده ليعالجه فعالجه، فلما عوفي أعطاه دراهم، فعمل فيه:

لما تيممته وبي مرض	إلى التداوي والبرء محتاج
آسى وواسى فعدت أشكره	فعل امرئ للهموم فراج
فقلت إذ برني وأبرأني	هذا طبيب عليه زرباج

وعمل فيه أيضاً في المعنى:

جاد واستنقذ المريض وقد كا	د أن يلف ساقاً بساق
والذي يدفع المنون عن النف	س جدير بقسمة الأرزاق

وقصد مرة أن يعبر إليه ليداويه، فكتب إليه:

إن امرأ القيس الذي	هام بذات المحمل
كان شفاه عبرة	وعبرة تصلح لي

وكان ابن جكينا المذكور قد عمي في آخر عمره، وجرت بينهما منافرة في أمر واشتهى مصالحته، فكتب إليه:

وإذا شئت أن تصالح بشا	ر بن برد فاطرح عليه أباه

فسير إليه ما طلب واسترضاه، وكانت له معه وقائع كثيرة، وإنما كتب إليه هذا البيت لأن بشار بن برد كان أعمى، - كما تقدم ذكره في ترجمته - فلما عمي شبه نفسه به، وكان مطلوبه برداً.

ومعنى قوله " فاطرح عليه أباه " لأن عادة أهل بغداد إذا أراد الإنسان أن يصالح من خاصمه، والخصم ممتنع، يقال له: اطرح عليه فلاناً، بمعنى ادخل عليه به، ليشفع له، وقد حصلت له التورية في هذا البيت.

ومن الشعر المنسوب إليه وهو مشهور قوله، ثم وجدتهما للناصح ابن الدهان النحوي الموصلي:

تعس القياس فللغرام قضية	ليست على نهج الحجى تنقاد
منها بقاء الشوق وهو بزعمهم	عرض وتفنى دونه الأجساد

وقوله أيضاً، وذكر العماد في " الخريدة " أن هذين البيتين لأبي علي المهندس المصري، وهما:

تقسم قلبي في محبة معشرٍ بكل فتى منهم هواي منوط
كأن فؤادي مركز وهم له محيط وأهوائي إليه خطوط

وقوله أيضاً:

جوده كالطبيب فينا يداوي سوء أحوالنا بحسن الصنيع
فهو كالموميا إذا انكسر العظ م، ومثل الترياق للملسوع

ثم وجدت هذين البيتين في ديوان ابن حجاج الشاعر .

وقوله في ولده سعيد:

حبي سعيداً جوهر ثابت وحبه لي عرض زائل
به جهاتي الست مشغولة وهو إلى غيري بها ماثل

وكان أبو القاسم علي بن أفلح الشاعر – المقدم ذكره – قد نقه من المرض وهو يعالجه، فكتب إليه يشكو جوعه، وقد نهاه عن استعمال الغذاء إلا بأمره، والذي كتبه:

أنا جوعان فأنقذ ني من هذي المجاعه
فرجي في الكسرة الخب ز ولو كانت قطاعه
لا تقل لي ساعة تص بر، مالي صبر ساعه
فخواي اليوم لا يق بل في الخبز شفاعه

فوقف ابن التلميذ على هذه الأبيات وكتب إليه جوابها:

هكذا أضياف مثلي يتشاكون المجاعه
غير أني لست أعطي ك مضراً بشفاعه
فتعلل بسويقٍ فهو خير من قطاعه
بحياتي قل كما نر سمه سمعاً وطاعه

فلما وصلت الأبيات إلى ابن أفلح كتب:

إن مرسومك عندي قد توخيت استماعه
غير أني لم أقل من نيتي سمعاً وطاعه
ودفعت الجوع والل ه فلم أسطع دفاعه
فاكفني كلفته الآ ن وأربحني صداعه

فكتب إليه ابن التلميذ:

أنا في الشعر ضعيف الط بع منزور البضاعه

ولك الخاطر قد أو تي طبعاً وصناعه

ومتى لم تكف شر ال جوع لم أكف صداعه

فعلى اسم الله قدم أخذه من بعد ساعه

وكان بين ابن التلميذ المذكور وبين أوحد الزمان أبي البركات هبة الله بن علي بن ملكان الحكيم المشهور صاحب كتاب " المعتبر " في الحكمة تنافر وتنفس كما جرت العادة بمثله بين أهل كل فضيلة وصنعة، ولهما في ذلك أمور ومجالس مشهورة، وكان يهودياً ثم أسلم في آخر عمره، وأصابه الجذام فعالج نفسه بتسليط الأفاعي على جسده بعد أن جوعها، فبالغت في نهشه، فبرئ من الجذام وعمي، وقصته في ذلك مشهورة، فعمل فيه ابن التلميذ المذكور:

لنا صديق يهودي حماقته إذا تكلم تبدو فيه من فيه

يتيه والكلب أعلى منه منزلةً كأنه بعد لم يخرج من التيه

وكان ابن التلميذ كثير التواضع، وأوحد الزمان متكبراً، فعمل فيهما البديع الأسطرلابي المقدم ذكره:

أبو الحسن الطبيب ومقتفيه أبو البركات في طرفي نقي

فهذا التواضع في الثريا وهذا بالتكبر في الحضيض

ولابن التلميذ في الطب تصانيف مليحة، فمن ذلك كتاب " أقراباذين " وهو نافع في بابه، وبه عمل أطباء هذا الزمان، وله كناش وحواش على كليات ابن سينا، وغير ذلك.

وكان شيخه في الطب أبا الحسن هبة الله بن سعيد صاحب التصانيف المشهورة، منها كتاب " التلخيص " و" المغني " في الطب وهو جزء واحد، وكتاب " الإقناع " وهو اربعة أجزاء، وقد انتقدوا عليه هذه التسمية وقالوا: كان أن يكون الأمر بالعكس، لأن المغني هو الذي يغني عن غيره، فكان الكتاب الأكبر أولى بهذا الاسم، والإقناع هو الذي تقع القناعة به، فالمختصر أولى بهذا الاسم. وله كل شيء مليح من تصنيف في طب وأدب.

وكان حسن السمت كثير الوقار، حتى قيل أنه لم يسمع منه بدار الخلافة مدة تردده إليها من المجون سوى مرة واحدة بحضرة المقتفي الخليفة، وذلك أنه كان له راتب بدار القوارير ببغداد، فقطع و لم يعلم به الخليفة، فاتفق أنه كان عنده يوماً، فلما عزم على القيام لم يقدر عليه إلا بكلفة ومشقة من الكبر، فقال له المقتفي: كبرت يا حكيم، فقال: نعم يا مولانا، وتكسرت قواريري، وهذا في اصطلاح أهل بغداد أن الإنسان إذا كبر يقال " تكسرت قواريره " فلما قال الحكيم هذه اللفظة، قال الخليفة: هذا الحكيم لم أسمع منه هزلاً منذ خدمنا، فاكشفوا قضيته، فكشفوها راتبه بدار القوارير قد انقطع، فطالعو الخليفة بذلك فتقدم بردها عليه، وكان الذي قد قطعه الوزير عون الدين بن هبيرة، وزاده إقطاعاً آخر، وأخباره كثيرة.

وتوفي في صفر سنة ستين وخمسمائة ببغداد، وقد ناهز المائة من عمره، وقال ابن الأزرق الفارقي في تاريخه: مات ابن التلميذ في عيد النصارى. وكان قد جمع من سائر العلوم ما لم يجتمع في غيره، و لم يبق ببغداد من الجانبين من لم يحضر البيعة وشهد جنازته.

وليس في هذه الترجمة ما يحتاج إلى التقييد سوى ملكان جد أوحد الزمان – وهو بفتح الميم والكاف وبينهما لام ساكنة وبعد الألف نون.

وقد تقدم في الترجمة ابن الجواليقي ما دار بينهما بحضرة الإمام المقتفي.

قلت وبعد فراغي من ترجمة أمين الدولة ابن التلميذ المذكور وقفت على كتاب جمعه شيخنا موفق الدين أبو محمد عبد اللطيف بن يوسف البغدادي، وجعله سيرة لنفسه، وجميعه بخطه، وذكر في اوائله ابن التلميذ، ووصفه بالعلم في صناعة الطب وإصابته، ثم قال: ومنها أنه أحضرت إليه امرأة محمولة لا يعرف أهلها في الحياة هي أم في الممات، وكان الزمان شتاء، فأمر بتجريدها، وصب عليها الماء المبرد صباً متتابعاً كثيراً، ثم أمر بنقلها إلى مجلس دفيئ قد بخر بالعود والند، ودفئت بأصناف الفراء ساعة، فعطست وتحركت وقعدت وخرجت ماشية مع اهلها إلى منزلها.

ومنها: أنه أتي مرة بمريض يعرق دماً في زمن الصيف، فسأل تلاميذه قدر خمسين نفساً، فلم يعرفوا المرض، فأمره بأكل خبز شعير مع باذنجان مشوي، ففعل ذلك ثلاثة أيام، فبرئ، وسأله أصحابه عن العلة، فقال: إن دمه قد رق ومسامه قد انفتحت، وهذا الغذاء من شأنه تغليظ الدم وتكثيف المسام.

ومن مروءته أن ظهر داره كان يلي المدرسة النظامية، فإذا مرض فقيه نقله إليه وقام في مرضه عليه، فإذا أبل وهب له دينارين وصرفه.

وذكر شيخنا موفق الدين قبل هذا أن ولد أمين الدولة المذكور كان شيخه وانتفع به، وكان شيخاً قد ناهز ثمانين سنة، ولديه تجربة فاضلة وغوص على أسرار الطبيعة، يرى الأمراض كأنها من وراء زجاج، لا يعتريه فيها ولا في مداواتها شك، وكان أكثر ما يصف المفردات أو ما يقل تركيبه، و لم أر من يستحق اسم الطب غيره. وكن يقول: ينبغي للعاقل أن يختار من اللباس ما لا تحسده عليه العامة، ولا تحتقره فيه الخاصة، وكذا كان لباسه البيض الرفيع.

ثم قال: وخنق في دهليز داره اللث الأول من الليل، وكان قد أسلم قبل موته، وفي نفسي عليه حسرات، رحمه الله تعالى، نقلته ملخصاً.

هارون ابن المنجم

أبو عبد الله هارون بن علي بن يحيى بن أبي منصور، المنجم البغدادي الأديب الفاضل، – وقد تقدم ذكر ولده علي في حرف العين – وكان هارون المذكور حافظاً راوية الأشعار، حسن المنادمة لطيف المجالسة.

صنف كتاب " البارع " في أخبار الشعراء المولدين، وجمع فيه مائة وواحداً وستين شاعراً، وافتتحه بذكر بشار بن برد العقيلي، وختمه بمحمد بن عبد الملك بن صالح، واختار فيه من شعر كل واحد عيونه، وقال في أوله: إني لما عملت كتابي في أخبار الشعراء المولدين ذكرت ما اخترته من أشعارهم، وتحريت في ذلك الاختيار أقصى ما بلغته وانتهى إليه علمي، والعلماء تقول: دل على عاقل اختياره، وقالوا: اختيار الرجل من وفور عقله، وقال بعضهم: شعر الرجل قطعة من كلامه، وظنه قطعة من عقله، واختياره قطعة من علمه.

وطول الكلام في هذا، وذكر أن هذا الكتاب مختصر من كتاب ألفه قبل هذا في هذا الفن، وأنه كان طويلاً فحذف منه أشياء واقتصر على هذا القدر، وبالجملة فإنه من الكتب النفيسة، فإنه يغني عن دواوين الجماعة الذين ذكرهم، فإنه مخض أشعارهم وأثبت منها زبدها وترك زبدها، وهذا الكتاب هو الذي ذكرته في ترجمة العماد الكاتب الأصبهاني وقلت: إن كتاب " الخريدة " وكتاب الحظيري والثعالبي فروع عليه، وهو الصل الذي نسجوا على منواله. وله كتاب " النساء وما جاء من الخبر ومحاسن ما قيل فيهن من الشعر والكلام الحسن " و لم أظفر له بشيء من الشعر حتى أورده. وذكر هو في كتابه " البارع " المذكور أباه أبا الحسن علي بن يحيى بن أبي منصور، وسرد له مقاطيع – وقد ذكرته في حرف العين فلينظر هناك – ثم أردفه بذكر أخيه يحيى بن علي بن يحيى، وعد له جملة مقاطيع أوردها، ولا حاجة بنا إلى ذكرها في هذا الموضع، بل نذكرها في ترجمته، إن شاء الله تعالى.

وتوفي أبو عبد الله المذكور سنةثمان وثمانين ومائتين، وهو حدث السن، رحمه الله تعالى، وسيأتي ذكر أخيه يحيى بن علي في حرف الياء إن شاء الله تعالى.

وكان أبو منصور جد أبيه منجم أبي جعفر المنصور أمير المؤمنين، وكان مجوسياً.

وكان ابنه يحيى متصلاً بذي الرياستين الفضل بن سهل – المقدم ذكره – وكان الفضل يعمل برأيه في أحكام النجوم، فلما حدثت الكائنة على الفضل – حسبما ذكرناها في ترجمته – صار يحيى المذكور منجم المأمون ونديمه، فاجتباه واختص به، في الإسلام فأسلم على يده، فصار بذلك مولاه.

وهم اهل بيت منهم جماعة من الفضلاء والأدباء والشعراء، وجالسوا الخلفاء ونادموهم، وقد عقد لهم الثعالبي في كتاب " اليتيمة " باباً مستقلاً، وذكر فيه جماعة منهم، رحمهم الله تعالى.

وتوفي يحيى المذكور بحلب عند خروج المأمون إلى طرسوس، ودفن بها في مقابر قريش، فقبره هناك مكتوب عليه اسمه.

هشام بن عروة

أبو المنذر هشام بن عروة بن الزبير بن العوام، القرشي الأسدي، - قد تقدم ذكر أبيه في حرف العين، وكان هشام أحد تابعي المدينة المشهورين المكثرين في الحديث، المعدودين من أكابر العلماء وجلة التابعين، وهو معدود في الطبقة الرابعة من أهل المدينة، رضي الله عنهم.

وسمع عمه عبد الله بن الزبير وابن عمر، رضي الله عنهما، ورأى جابر بن عبد الله الأنصاري وأنس بن مالك وسهل بن سعد، وقيل أنه رأى ابن عمر و لم يسمع منه، وروى عنه يحيى بن سعيد الأنصاري وسفيان الثوري ومالك بن أنس وسفيان بن عيينة ويحيى بن سعيد القطان ووكيع وغيرهم. وقدم الكوفة أيام أبي جعفر المنصور فسمع منه الكوفيون.

وكانت ولادته سنة إحدى وستين للهجرة، وقال أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن محمد الذهلي: ولد عمر بن عمر بن عبد العزيز وهشام بن عروة والزهري وقتادة والأعمش ليالي قتل الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، وكان قتله يوم عاشوراء سنة إحدى وستين للهجرة. وقدم بغداد على المنصور، وتوفي بها سنة ست وأربعين ومائة، وقيل سنة خمس وأربعين، وقيل سنة سبع، رضي الله عنه، وصلى عليه المنصور، ودفن بمقبرة الخيزران بالجانب الشرقي، وقيل بل قبره بالجانب الغربي خارج السوق نحو باب قطربل وراء الخندق على مقابر باب حرب، وهو ظاهر هناك معروف، وعليه لوح منقوش أنه قبر هشام بن عروة، ومن قال إنه بالجانب الشرقي قال: إن القبر الذي بالجانب الغربي هو قبر هشام بن عروة المروزي صاحب عبد الله بن المبارك. والله أعلم.

وله عقب بالمدينة وبالبصرة.

وذكر الخطيب في " تاريخ بغداد " أن المنصور قال له يوماً: يا أبا المنذر، تذكر يوم دخلت عليك أنا وإخوتي الخلائف وأنت تشرب سويقاً بقصبة يراع، فلما خرجنا من عندك قال لنا أبونا: اعرفوا لهذا الشيخ حقه، فإنه لا يزال في قومكم بقية ما بقي، فقال: لا أذكر ذلك يا أمير المؤمنين. فلما خرج هشام قيل له: يذكرك أمير المؤمنين ما تمت به إليه فتقول لا أذكره! فقال: لم أكن أذكر ذلك، و لم يعودني الله في الصدق إلا خيراً.

وروي عنه أنه دخل على المنصور فقال: يا أمير المؤمنين، اقض عني ديني، قال: وكم دينك؟ قال: مائة ألف، قال: وأنت في فقهك وفضلك تأخذ ديناً مائة ألف ليس عندك قضاؤها؟ فقال: يا أمير المؤمنين شب فتيان من فتياننا، فأحببت أن أبوئهم، وخشيت أن ينتشر علي من أمرهم ما أكره، فبوأتهم واتخذت لهم وأولمت عنهم ثقة بالله وبأمير المؤمنين، قال: فردد عليه مائة ألف!! استعظاماً لها، ثم قال: قد أمرنا لك بعشرة آلاف، فقال: يا أمير المؤمنين، أعطني ما أعطيت وأنت طيب النفس، فإنني سمعت أبي يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال " من أعطى عطية وهو بها طيب النفس بورك للمعطي وللمعطى " قال: فإني طيب النفس بها، وأهوى إلى يد المنصور يريد أن يقبلها فمنعه وقال: يا بن عروة، إنا نكرمك عنها ونكرمها عن غيرك.

وأخباره كثيرة. رضي الله عنه.

هشام ابن الكلبي

أبو المنذر هشام بن أبي النضر محمد بن السائب بن بشر بن عمرو، الكلبي النسابة الكوفي، - قد تقدم ذكر أبيه في المحمدين وما جرى له مع الفرزدق الشاعر - وحدث هشام عن أبيه وروى عن ابنه العباس، وخليفة بن خياط، ومحمد بن سعد كاتب الواقدي، ومحمد بن أبي السري البغدادي، وأبو الأشعث أحمد بن المقدام وغيرهم. وكان من أعلم الناس علم الأنساب، وله كتاب " الجمهرة " في النسب وهو من محاسن الكتب في هذا الفن، وكان من الحفاظ المشاهير.

ذكر الخطيب في " تاريخ بغداد " عنه أنه دخل بغداد وحدث بها، وأنه قال: حفظت ما لم يحفظه أحد ونسيت ما لم ينسه أحد، كان لي عم يعاتبني على حفظ القرآن، فدخلت بيتاً وحلفت أن لا أخرج منه حتى أحفظ القرآن، فحفظته في ثلاثة أيام، ونظرت يوماً في المرآة فقبضت على لحيتي لآخذ ما دون القبضة فأخذت ما فوق القبضة.

وله من التصانيف شيء كثير، فمن ذلك كتاب " حلف عبد المطلب وخزاعة " وكتاب " حلف الفضول " وكتاب " حلف تميم وكلب " وكتاب " المنافرات " وكتاب " بيوتات قريش " وكتاب " فضائل قيس عيلان " وكتاب " الموءودات " وكتاب " بيوتات ربيعة " وكتاب " الكنى " وكتاب "

شرف قصي وولده الجاهلية والإسلام "، وكتاب " ألقاب قريش " وكتاب " ألقاب اليمن " وكتاب " ادعاء زياد معاوية "، وكتاب " أخبار زياد بن أبيه "، وكتاب " صنائع قريش "، وكتاب " المشاجرات "، وكتاب " المعاتبات "، وكتاب " ملوك الطوائف "، وكتاب " ملوك كندة "، وكتاب افتراق ولد نزار "، وكتاب " تفريق الأزد "، وكتاب " طسم وجديس " وتصانيفه تزيد على مائة وخمسين تصنيفاً، وأحسنها وأنفعها كتابه المعروف بالجمهرة في معرفة الأنساب، ولم يصنف في بابه مثله، وكتابه الذي سماه " المترل " في النسب أيضاً، وهو أكبر من الجمهرة، وكتاب " الموجز " في النسب، وكتاب " الفريد " صنفه للمأمون في الأنساب، وكتابه " الملوكي " صنفه لجعفر بن يحيى البرمكي في النسب أيضاً.

وكان واسع الرواية لأيام الناس وأخبارهم، فمن روايته أنه قال: اجتمعت بنو أمية عند معاوية بن أبي سفيان، فعاتبوه في تفضيل عمرو بن العاص وادعاء، زياد بن أبيه، فتكلم معاوية، ثم حرك عمراً الكلام، فقال في بعض كلامه: أنا الذي أقول في يوم صفين:

إذا تخازرت وما بي من خزر ثم كسرت العين من غير عور

ألفيتني ألوى بعيد المستمر ما حملت من خير وشر

كالحية الصماء في أصل الشجر

أما والله ما أنا بالواني ولا الفاني، وإني أنا الحية الصماء التي لا يسلم سليمها، ولا ينام كليمها، وإني أنا المرء إن همزت كسرت، وإن كويت أنضجت، فمن شاء فليشاور، ومن شاء فليؤامر، مع أنهم والله لو عاينوا من يوم الهرير ما عاينت أو لو ولوا ما وليت لضاق عليهم المخرج، ولتفاقم بهم المنهج، إذ شد علينا أبو الحسن وعن يمينه وشماله المباشرون من أهل البصائر وكرام العشائر، فهناك والله شخصت الأبصار، وارتفع الشرار، وتقلصت الخصى إلى مواضع الكلى، قارعت الأمهات عن ثكلها، وذهلت عن حملها، واحمرت الحدق واغبرت الأفق، وألجم العرق، وسال العلق، وثار القتام، وصبر الكرام، وخام اللثام، وذهب الكلام وأزبدت الأشداق، وكثر العناق، وقامت الحرب على ساق، وحضر الفراق، وتضاربت الرجال بأغماد سيوفها بعد فناء من نبلها وتقصفٍ من رماحها، فلا يسمع يومئذ إلا التغمغم من الرجال، والتحمحم من الخيل، ووقع السيوف على الهام كأنه دق غاسل بخشبته على منصبه، ندأب ذلك يوماً حتى ظعن الليل بغسقه، وأقبل الصبح بفلقه، ثم لم يبق من القتال إلا الهرير والزئير، لعلمتم أني أحسن بلاء، وأعظم غناء، وأصبر على اللأواء منكم، وإني وإياكم كما قال الشاعر:

وأغضي على أشياء لو شئت قلتها ولو قلتها لم أبق للصلح موضعا

وإن كان عودي من نضار فإنني لأكرمه من أن أخاطر خروعا

والمأثور عنه كثير.

وتوفي سنة أربع ومائتين، وقيل سنة ست، والأول أصح، والله أعلم بالصواب، رحمه الله تعالى.

هشام صاحب الكسائي

أبو عبد الله هشام بن معاوية الضرير، النحوي الكوفي، صاحب أبي الحسن علي بن حمزة الكسائي، أخذ عنه كثيراً من النحو، وله فيه مقالة تعزى إليه، وله فيه تصانيف عديدة، فمن ذلك كتاب " الحدود " وهو صغير، وكتاب " المختصر "، وكتاب " القياس " وغير ذلك.

وكان إسحاق بن إبراهيم بن مصعب قد كلم المأمون يوماً، فنحن في بعض كلامه، فنظر إليه المأمون ففطن لما أراد، فخرج من عنده، وجاء إلى هشام المذكور فتعلم عليه النحو.

قال أبو مالك الكندي: توفي هشام بن معاوية الضرير النجوي سنة تسع ومائتين، رحمه الله تعالى.

الفرزدق

أبو فراس همام – وقال ابن قتيبة في " طبقات الشعراء ": هميم بالتصغير – ابن غالب، وكنيته أبو الأخطل، ابن صعصعة بن ناجية بن عقال بن محمد بن سفيان بن مجاشع بن دارم، واسمه بحر، بن مالك، واسمه عوف سمي بذلك لجوده، ابن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم بن مر، التميمي، المعروف بالفرزدق، الشاعر المشهور صاحب جرير.

كان أبوه غالب من جلة قومه وسرواقم، وأمه ليلى بنت حابس أخت الأقرع بن حابس. ولأبيه مناقب مشهورة ومحامد مأثورة، فمن ذلك أنه أصاب أهل الكوفة مجاعة وهو بها فخرج أكثر الناس إلى البوادي، فكان هو رئيس قومه، وكان سحيم بن وثيل الرياحي رئيس قومه، واجتمعوا بمكان يقال له صوأر في أطراف السماوة من بلاد كلب على مسيرة يوم الكوفة – وهو بفتح الصاد المهملة وسكون الواو وفتح الهمزة وبعدها راء – فعقر غالب لأهله ناقة وصنع منها طعاماً، وأهدى إلى قوم من بني تميم لهم جلالة جفاناً من ثريد، ووجه إلى سحيم جفنة، فكفأها وضرب الذي أتاه بها وقال: أنا مفتقر إلى طعام غالب؟ إذا نحر هو ناقة نحرت أنا أخرى، فوقعت المنافرة بينهما، وعقر سحيم لأهله ناقة، فلما كان من الغد عقر لهم غالب ناقتين، فعقر سحيم لأهله ناقتين، فلما كان اليوم الثالث عقر غالب ثلاثاً، فعقر سحيم ثلاثاً، فلما كان اليوم الرابع عقر غالب مائة ناقة، فلم يكن عند سحيم هذا القدر، فلم يعقر شيئاً وأسرها في نفسه. فلما انقضت المجاعة ودخل الناس الكوفة قال بنو رياح لسحيم: جررت علينا عار الدهر، هلا نحرت مثل ما نحر، وكنا نعطيك مكان كل ناقة ناقتين؟ فاعتذر بأن إبله كانت غائبة، وعقر ثلثمائة ناقة، وقال للناس: شأنكم والأكل، وكان ذلك في خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فاستفتي في حل الأكل منها فقضى بحرمتها وقال: هذه ذبحت لغير مأكلة، ولك يكن المقصود منها إلا المفاخرة والمباهاة، فألقيت لحومها على كناسة الكوفة فأكلتها الكلاب والعقبان والرخم، وهي قصة مشهورة، وعمل فيها الشعراء أشعاراً كثيرة. فمن ذلك قول جرير يهجو الفرزدق، وهو بيت تستشهد به النحاة في كتبهم، وهو من جملة قصيدة:

تعدون عقر النيب أفضل مجدكم … بني ضوطرى لولا الكمي المقنعا

ومن ذلك قول المحل، أخي بني قطن بن نهشل:

وقد سرني أن لا تعد مجاشع … من المجد إلا عقر نابٍ بصوأر

وكان غالب المذكور أعور.

وسحيم المذكور، وهو ابن وثيل بن عمرو بن جوين بن وهيب بن حميري الشاعر الذي يقول:

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا … متى أضع العمامة تعرفوني

وهذا البيت من جملة أبيات، وله ديوان شعر صغير. والوثيل الرشاء الضعيف، وقيل الليف.

وكان الفرزدق كثير التعظيم لقبر أبيه، فما جاءه أحد واستجار به إلا نهض معه وساعده على بلوغ غرضه. فمن ذلك ما حكاه المبرد في كتاب " الكامل " أن الحجاج بن يوسف الثقفي لما ولى تميم بن زيد القيني بلاد السند دخل البصرة، فجعل يخرج من أهلها من شاء، فجاءت عجوز إلى الفرزدق فقالت: إني استجرت بقبر أبيك، وأتت منه بحصيات، فقال: ما شأنك؟ قالت: إن تميم بن زيد خرج بابن لي معه، ولا قرة لعيني ولا كاسب علي غيره، فقال لها: وما اسم ابنك؟ فقالت: خنيس، فكتب إلى تميم مع بعض من شخص:

تميم بن زيد لا تكونن حاجتي … بظهرٍ فلا يعيا علي جوابها

وهب لي خنيساً واحتسب فيه منة … لعبرة أم ما يسوغ شرابها

أتتني فعاذت يا تميم بغالبٍ … وبالحفرة السافي عليها تربها

وقد علم الأقوام أنك ماجد … وليث إذا ما الحرب شب شهابها

فلما ورد الكتاب على تميم تشكك في الاسم فلم يعرف أخنيس أم حبيش. ثم قال: انظروا من له مثل هذا الاسم في عسكرنا، فأصيب ستة ما بين خنيس وحبيش، فوجه بهم إليه.

وحضر يوماً الفرزدق ونصيب الشاعر المشهور، عند سليمان بن عبد الملك الأموي وهو يومئذ خليفة، فقال سليمان للفرزدق: أنشدني شيئاً، وإنما أراد سليمان أن ينشده مدحاً له، فأنشده في مدح أبيه:

وركب كأن الريح تطلب عندهم ... لها ترةً من جذبها بالعصائب

سروا يخبطون الريح وهي تلفهم ... إلى شعب الأكوار ذات الحقائب

إذا آنسوا ناراً يقولون إنها ... وقد حضرت أيديهم نار غالب

فأعرض سليمان عنه كالمغضب، فقال نصيب: يا أمير المؤمنين، ألا أنشدك في رويها ما لعلها لا يتضع عنها، قال: هات، فأنشده:

أقول لركبٍ صادرين لقيتهم ... قفا ذات أوشالٍ ومولاك قارب

قفوا خبروني عن سليمان إنني ... لمعروفه من أهل ودان طالب

فعاجوا فأثنوا بالذي أنت أهله ... ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب

فقال سليمان للفرزدق: كيف تراه؟ فقال: هو أشعر أهل جلدته، ثم قام وهو يقول:

وخير الشعر أشرفه رجالاً ... وشر الشعر ما قال العبيد

وكان نصيب عبداً أسود لرجل من أهل وادي القرى، فكاتب على نفسه ومدح عبد العزيز بن مروان، فاشترى ولاءه، وكنيته أبو الحجناء، وقيل أبو محجن.

وللفرزدق في مفاخر أبيه أشياء كثيرة.

وأما جده صعصعة بن ناجية فإنه كان عظيم القدر في الجاهلية، واشترى ثلاثين موءودة، منهن بنت لقيس بن عاصم المنقري، وفي ذلك يقول الفرزدق يفتخر به:

وجدي الذي منع الوائدات ... وأحيا الوئيد فلم يوأد

وهو أول من أسلم من أجداد الفرزدق، وقد ذكره في كتاب " الاستيعاب " في جملة الصحابة، رضوان الله عليهم اجمعين.

وقد اختلف العلماء أهل المعرفة بالشعر في الفرزدق وجرير والمفاضلة بينهما، والأكثرون على أن جريراً أشعر منه، وكان بينهما من المهاجاة والمعاداة ما هو مشهور، وقد جمع لهما كتاب يسمى " النقائض " وهو من الكتب المشهورة.

وكان جرير قد هجاه بقصيدته الرائية، التي من جملتها:

وكنت إذا حللت بدار قوم ... ظعنت بخزية وتركت عارا

فاتفق بعد ذلك أن الفرزدق نزل بامرأة من أهل المدينة، وجرى له معها قضية يطول شرحها. وخلاصة الأمر أنه راودها عن نفسها بعد أن كانت قد أضافته وأحسنت إليه فامتنعت عليه، فبلغ الخبر عمر بن عبد العزيز، رضي الله عنه وهو يومئذ والي المدينة، فأمر بإخراجه من المدينة، فلما أخرج وأركبوه ناقته ليسفروه قال: قاتل الله ابن المراغة - يعني جريراً - كأنه شاهد هذا الحال، حيث قال: وكنت إذا حللت بدار قوم... وأنشد البيت المذكور.

وشهد الفرزدق عند بعض القضاة شهادة فقال له: قد أجزنا شهادتك، ثم لأصحاب القضية: زيدونا في الشهود، فقيل للفرزدق حين انفصل عن مجلس القاضي: إنه لم يجز شهادتك، فقال: وما يمنعه من ذلك، وقد قذفت ألف محصنة؟ ومن شعره المشهور قوله، وهو مقيم بالمدينة:

هما دلتاني من ثمانين قامة ... كما انقض بازٍ أقتم الريش كاسره

فلما استوت رجلاي في الأرض قالتا ... أحي فيرجى أم قتيل نحاذره

فقلت: ارفعا الأسباب لا يشعروا بنا ... وأقبلت في أعجاز ليل أبادره

أحاذر بوابين قد وكلا بنا ... وأسود من ساجٍ تصر مسامره

فلما بلغت جريراً الأبيات عمل من جملة قصيدة طويلة:

لقد ولدت أم الفرزدق فاجراً ... فجاءت بوزوازٍ قصير القوادم

يوصل حبليه إذا جن ليله ... ليرقى إلى جاراته بالسلالم

تدليت تزني من ثمانين قامة ... وقصرت عن باع العلا والمكارم

هو الرجس يا أهل المدينة فاحذروا ... مداخل رجسٍ بالخبيثات عالم

لقد كان إخراج الفرزدق عنكم ... طهوراً لما بين المصلى وواقم

فلما وقف الفرزدق على هذه القصيدة جاوبه بقصيدة طويلة يقول في جملتها:

وإن حراماً أن أسب مقاعساً ... بآبائي الشم الكرام الخضارم

ولكن نصفاً لو سببت وسبني ... بنو عبد شمس من مناف وهاشم

أولئك أمثالي فجئني بمثلهم ... وأعبد أن أهجو كليباً بدارم

ولما سمع أهل المدينة أبيات الفرزدق المذكورة أولاً، اجتمعوا وجاءوا إلى مروان بن الحكم الأموي، واكن يومئذ والي المدينة من قبل معاوية بن أبي سفيان الأموي، فقالوا له: ما يصلح أن يقال مثل هذا الشعر بين أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد أوجب على نفسه الحد، فقال مروان: لست أحده أنا، ولكن أكتب إلى من يحده، ثم أمره بالخروج من المدينة وأجله ثلاثة أيام، وفي ذلك يقول الفرزدق:

توعدني وأجلني ثلاثاً ... كما وعدت لمهلكها ثمود

ثم كتب مروان إلى عامله يأمره فيه أن يحده ويسجنه، وأوهمه أنه قد كتب له بجائزة، ثم ندم مروان على ما فعل، فوجه عنه سفيراً، وقال: إني قلت شعراً فاسمعه، ثم أنشده:

قل للفرزدق والسفاهة كاسمها ... إن كنت تارك ما أمرتك فاجلس

ودع المدينة إنها مرخوبة ... واقصد لمكة أو لبيت مقدس

وإذا اجتنبت ممن الأمور عظيمة ... فخذن لنفسك بالزماع الأكيس

– قوله " فاجلس " أي اقصد الجلساء، وهي نجد، وسميت بذلك لارتفاعها، لأن الجلوس في اللغة هو الارتفاع، ولما وقف الفرزدق على الأبيات فطن لما أراد مروان، فرمى الصحيفة وقال:

يا مروان إن مطية محبوسة ترجو الحباء وربها لم يأس

وحبوتني بصحيفة محتومة يخشى علي بها حباء النقرس

ألق الصحيفة يا فرزدق لا تكن نكداً كمثل صحيفة المتلمس

وإذ ذكرنا صحيفة المتلمس فقد يتشوف الواقف على هذا الكتاب أن يعلم قصتها: ومن خبرها أن المتلمس، واسمه جرير بن عبد المسيح بن عبد الله بن زيد بن دوفن بن حرب بن وهب بن جلى بن احمس بن ضبيعة الأضجم بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان، وإنما لقب لقوله من جملة قصيدة:

فهذا أوان العرض حي ذبابه زنابير والأزر المتلمس

– وهو بضم الميم وفتح التاء المثناة من فوقها واللام وكسر الميم الثانية وتشديدها وبعدها سين مهملة – كان قد هجا عمرو بن هند اللخمي ملك الحيرة، وهجاه أيضاً طرفة بن العبد البكري الشاعر المشهور، وهو ابن أخت المتلمس المذكور، فاتصل هجوهما بعمرو بن هند، فلم يظهر لهما شيئاً من التغير، ثم مدحاه بعد ذلك فكتب لكل واحدٍ منهما كتاباً إلى عامله بالحيرة، وأمره بقتلهما إذا وصلا إليه، وأوهمهما أنه قد كيت لهما بصلة، فلما وصلا إلى الحيرة قال المتلمس لطرفة: كل منا قد هجا الملك، ولو أراد أن يعطينا لأعطاناو لم يكتب لنا إلى الحيرة، فهلم ندفع كتبنا إلى من يقرؤها، فإن كان فيها خير دخلنا الحيرة، وإن كان فيها شر فررنا قبل أن يعلم بمكاننا، فقال طرفة بن العبد: ما كنت لأفتح كتاب الملك، فقال المتلمس: والله لأفتحن كتابي ولأعلمن ما فيه ولا أكون كمن يحمل حتفه بيده، فنظر المتلمس فإذا غلام قد خرج من الحيرة، فقال له: أتقرأ يا غلام؟ فقال: نعم، فقال: هلم فاقرأ هذا الكتاب. فلما نظر إليه الغلام قال: ثكلت المتلمس أمه، فقال لطرفة: افتح كتابك فما فيه إلا مثل ما في كتابي، فقال: إن كان اجترأ عليك فلم يكن ليجترئ علي ويوغر صدور قومي بقتلي. فألقى المتلمس صحيفته في نهر الحيرة وفر إلى الشام، ودخل طرفة الحيرة فقتل، وقصته في ذلك مشهورة، فصار يضرب المثل بصحيفة المتلمس لكل من قرأ صحيفة فيها قتله، وإلى هذا أشار الحريري في المقامة العاشرة بقوله: " ففضضتها فعل المتلمس من مثل صحيفة المتلمس ". وللأبله الشاعر، – المقدم ذكره في المحمدين – قصيدة يقول فيها:

يقرا المتيم من صحيفة خده في الهجر مثل صحيفة المتلمس

رجعنا إلى تتمة خبر الفرزدق: ثم خرج هارباً حتى أتى سعيد بن العاص الأموي، وعنده الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر رضي الله عنهم، فأخبرهم الخبر، فأمر له كل واحد منهم بمائة دينار وراحلة، وتوجه إلى البصرة، وقيل لمروان: أخطأت فيما فعلت فإنك عرضت عرضك اشاعر مضر، فوجه وراءه رسولاً ومعه مائة دينار وراحلة، خوفاً من هجائه.

ومن أخبار الفرزدق أنه حكى أن نزل في بعض أسفاره في بادية وأوقد ناراً فرآها ذئب فأتاه فأطعمه من زاده وأنشد:

وأطلس عسال وما كان صاحباً دعوت بناري موهناً فأتاني

فلما أتى قلت ادن دونك إنني وإياك في زادي لمشتركان

فبت أقد الزاد بين وبينه على ضوء نارٍ مرةً ودخاني

وقلت له لما تكشر ضاحكاً وقائم سيفي في يدي بمكان

تعش، فإن عاهدتني لا تخونني نكن مثل من، يا ذئب، يصطحبان

وأنت امرؤ يا ذئب والغدر كنتما اخيين كانا أرضعا بلبان

ولو غيرنا بنهت تلتمس القرى رماك بسهم أو شباة سنان

وكان قد أنشد سليمان بن عبد الملك الأموي قصيدة ميمية، فلما انتهى منها إلى قوله:

ثلاث واثنتان فهن خمس — وسادسة تميل إلى شمام

فبتن بجانبي مصرعاتٍ — وبت أفض أغلاق الختام

كأن مفالق الرمان فيه — وجمر غضاً قعدن عليه حام

فقال له سليمان: قد أقررت عندي بالزنا وأنا إمام، ولا بد من إقامة الحد عليك، فقال الفرزدق: ومن أين أوجبت علي يا أمير المؤمنين؟ فقال: بقول الله تعالى: "الزانية والزاني فاجلدوا كل واحدٍ منهما مائة جلدة" النور: فقال الفرزدق: إن كتاب الله يدرؤه عني بقوله تعالى: "والشعراء يتبعهم الغاوون. ألم تر أنهم في كل واد يهيمون. وأنهم يقولون ما لا يفعلون" الشعراء: فأنا قلت ما لم أفعل، فتبسم سليمان، وقال: أولى ذلك.

وتنسب إليه مكرمة يرجى له بها الجنة، وهي أنه لما حج هشام بن عبد الملك في أيام أبيه، فطاف وجهد أن يصل إلى الحجر ليستلمه، فلم يقدر عليه لكثرة الزحام، فنصب له منبر وجلس عليه ينظر إلى الناس، ومعه جماعة من أعيان أهل الشام، فبينما هو كذلك إذ أقبل زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، وقد تقدم ذكره – وكان من أحسن الناس وجهاً وأطيبهم أرجاً، فطاف بالبيت، فلما انتهى إلى الحجر تنحى له الناس حتى استلم، فقال رجل من أهل الشام: من هذا الذي قد هابه الناس هذه الهيبة؟ فقال هشام: لا أعرفه، مخافة أن يرغب فيه أهل الشام، وكان الفرزدق حاضراً فقال: أنا أعرفه، فقال الشامي: من هذا يا أبا فراس؟ فقال:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته — والبيت يعرفه والحل والحرم

هذا ابن خير عباد الله كلهم — هذا التقي النقي الطاهر العلم

إذا رأته قريش قال قائلها: — إلى مكارم هذا ينتهي الكرم

ينمي إلى ذروة العز التي قصرت — عن نيلها عرب الإسلام والعجم

يكاد يمسكه عرفان راحته — ركن الحطيم إذا ما جاء يستلم

في كفه خيزران ريحه عبق — من كف أروع في عرنينه شمم

يغضي حياء ويغضى من مهابته — فما يكلم إلا حين يبتسم

ينشق نور الهدى عن نور غرته — كالشمس ينجاب عن إشراقها الظلم

مشتقة من رسول الله نبعته — طابت عناصره والخيم والشيم

هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله — بجده أنبياء الله قد ختموا

الله شرفه قدماً وعظمه — جرى بذاك له في لوحه القلم

فليس قولك من هذا بضائره — العرب تعرف من أنكرت والعجم

كلتا يديه غياث عم نفعها — تستوكفان ولا يعروهما عدم

سهل الخليقة لا تخشى بوادره — يزينه اثنان حسن الخلق والشيم

حمال أثقال أقوام إذا فدحوا — حلو الشمائل تحلو عنده نعم

ما قال إلا في تشهده — لولا التشهد كانت لاءه نعم

لا يخلف الوعد مأمون نقيبته رحب الفناء أريب حين يعتزم
عم البرية بالإحسان فانقشعت عنها الغياية والإملاق والعدم
من معشر حبهم دين وبغضهم كفر وقربهم منجى ومعتصم
إن عد أهل التقى كانوا أئمتهم أوقيل من خير أهل الأرض قيل هم
لا يستطيع جواد بعد غايتهم ولا يدانيهم قوم وإن كرموا
هم الغيوث إذا ما أزمة أزمت والأسد أسد الشرى والبأس محتدم
لا ينقص العسر بسطاً من أكفهم سيان ذلك إن ثروا وإن عدموا
مقدم بعد ذكر الله ذكرهم في كل بدء ومختوم به الكلم
يأبى أن يحل الذم ساحتهم خيم كريم وأيدٍ بالندى هضم
أي الخلائق ليست في رقابهم لأولية هذا أو له نعم
من يعرف الله يعرف أولية ذا والدين من بيت هذا ناله الأمم

فلما سمع هشام هذه القصيدة غضب وحبس الفرزدق، وأنفذ له زين العابدين اثني عشر ألف درهم، فردها وقال: مدحته لله تعالى لا للعطاء، فقال: إنا أهل بيت إذا وهبنا شيئاً لا نستعيده، فقبلها.

وقال محمد بن حبيب المقدم ذكره: صعد الوليد بن عبد الملك المنبر، فسمع صوت ناقوس فقال: ما هذا؟ قيل البيعة، فأمر بهدمها، وتولى بعض ذلك بيده، فتتابع الناس يهدمون، فكتب إليه الأخرم ملك الروم: إن هذه البيعة قد أقرها من قبلك، فإن يكونوا أصابوا فقد أخطأت وإن تكن أصبت فقد أخطأوا، فقال: من يجيبه؟ فقال الفرزدق: تكتب إليه: "وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيهم غنم القوم، وكنا لحكمهم شاهدين، ففهمناها سليمان، وكلا آتينا حكماً وعلماً – الآية".

وأخبار الفرزدق مثيرة والاختصار أولى.

وتوفي بالبصرة سنة عشر ومائة قبل جرير بأربعين يوماً، وقيل بثمانين يوماً، وقال أبو الفرج ابن الجوزي في كتاب " شذوذ العقود ": إنهما توفيا سنة إحدى عشرة ومائة. وقال السكري: إن الفرزدق لقي علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، وتوفي سنة عشر، وقيل اثنتي عشرة، قيل أربعة عشر ومائة.

وقال ابن قتيبة في " طبقات الشعراء ": إن الفرزدق أصابته الدبيلة، فقدم به البصرة، وأتى الطبيب فسقاه قاراً أبيض، فجعل يقول: أتعجلون لي القار وأنا في الدنيا، ومات وقد قارب المائة، والله أعلم. وقد سبق في ترجمة جرير ما قاله لما بلغه وفاة الفرزدق، فأغنى عن الإعادة، رحمهما الله تعالى.

وذكر المبرد في كتاب " الكامل " قال: التقى الحسن البصري والفرزدق في جنازة، فقال الفرزدق للحسن: أتدري ما يقول الناس يا أبا سعيد؟ يقولون: اجتمع في هذه الجنازة خير الناس وشر الناس، قال الحسن: ملا، لست بخيرهم ولست بشرهم، ولكن ما أعددت لهذا اليوم؟ قال: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله مذ ستون سنة. فيزعم بعض التميمية أن الفرزدق رؤي في المنام فقيل له: ما صنع بك ربك؟ فقال: غفر لي، فقيل: بأي شيء؟ فقال: بالكلمة التي نازعتها الحسن.

وهمام: بفتح الهاء وتشديد الميم الأولى.

وناجية: بالنون والجيم المكسورة وبعدها ياء مثناة من تحتها.

وعقال: بكسر العين المهملة وفتح القاف.

ومحمد بن سفيان: هو أحد الثلاثة الذين سموا بمحمد في الجاهلية، وذكرهم ابن قتيبة في كتاب " المعارف ". وقال السهيلي في كتاب " الروض الأنف ": لا يعرف في العرب من تسمى بهذا الاسم قبله صلى الله عليه وسلم، إلا ثلاثة طمع آباؤهم حين سمعوا بذكر محمد صلى الله عليه وسلم، وبقرب زمانه وأنه يبعث في الحجاز، أن يكون ولداً لهم، ذكرهم ابن فوزك في كتاب " الفصول " وهم: محمد بن سفيان بن مجاشع جد جد الفرزدق الشاعر، والآخر محمد بن أحيحة بن الجلاح، وهو أخو عبد المطلب جد رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمه، والآخر محمد بن حمران من ربيعة، وكان آباؤهم هؤلاء الثلاثة قد وفدوا على بعض الملوك، وكان عنده علم الكتاب الأول، فأخبرهم بمبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وباسمه، وكان كل واحد منهم قد خلف امرأته حاملاً، فنذر كل واحد منهم إن ولد له ذكر يسميه محمداً، ففعلوا ذلك.

وأما مجاشع: فهو بضم الميم وفتح الجيم وبعد الألف شين معجمة مكسورة ثم عين مهملة.

ودارم: بفتح الدال المهملة وبعد الألف راء مكسورة وبعدها ميم. وبقية النسب معروف.

والفرزدق: بفتح الفاء والراء وسكون الزاي وفتح الدال المهملة وبعدها قاف، وهو لقب عليه. واختلف كلام ابن قتيبة في تلقيبه به، فقال في " أدب الكاتب ": الفرزدق: قطع العجين، واحدها فرزدقة، وإنما لقب به لأنه كان جهم الوجه، وقال في كتاب " طبقات الشعراء ": إنما لقب بالفرزدق لغلظه وقصره، شبه بالفتيتة التي تشربها النساء، وهي الفرزدقة. والقول الأول أصح، لأنه كان أصابه الجدري في وجهه ثم برأ منه، فبقي وجهه جهماً متغضناً، ويروى أن رجلاً قال له: يا أبا فراس، كأن وجهك أحراح مجموعة، فقال له: تأمل، هل فيها حر أمك،. والأحراح – بحاءين مهملتين – جمع حرح، وهو الفرج، فحذفت في المفرد حاؤه الثانية، فبقي حراً، ومتى عادت الحاء الثانية، فقالوا: أحراح لأن الجموع ترد الأشياء إلى أصولها.

وكانت زوجة الفرزدق ابنة عمه، وهي النوار – بفتح النون – ابنة أعين بن ضبيعة بن عقال المجاشعي، وجدها ضبيعة الذي عقر الجمل الذي كانت عليه عائشة أم المؤمنين يوم وقعة الحمل، رضي الله عنها، وكان قد خطبها – يعني النوار – رجل من قريش، فبعثت إلى الفرزدق تسأله أن يكون وليها إذ كان ابن عمها، فقال: إن بالشام من هو أقرب من إليك، وما أنا آمن أن يقدم قادم منهم فينكر ذلك علي، فأشهدي أنك قد جعلت أمرك إلي، ففعلت، فخرج بالشهود، وقال لهم: قد أشهدتكم أنها جعلت أمرها لي، وأنا أشهدكم أني قد تزوجتها على مائة ناقة حمراء سود الحدق، فغضبت من ذلك واستعدت عليه، وخجي إلى عبد الله ابن الزبير، وأمر الحجاز والعراق يومئذ إليه، وخرج الفزردق أيضاً، فأما النوار فترلت على خولة بنت منظور بن زبان، الفزاري، امرأة عبد الله بن الزبير فرققتها وسألتها الشفاعة لها، وأما الفرزدق فترل على حمزة بن عبد الله بن الزبير، وهو ابن خولة المذكورة، ومدحه فوعده، الشفاعة، فتكلمت خولة في النوار وتكلم حمزة في الفرزدق، فأنجحت خولة، وأمر عبد الله بن الزبير أن لا يقربها، حتى يصيرا إلى البصرة، فيحتكما إلى عامله عليها، فخرجا، وقال الفرزدق في ذلك:

أما بنوه فلم تنجح شفاعتهم وشفعت بنت منظور بن زبانا
ليس الشفيع الذي يأتيك متزراً مثل الشفيع الذي يأتيك عريانا

ثم إن الفرزدق اتفق معها، وبقي زماناً لا يواد له ولد، ثم ولد له بعد ذلك عدة أولاد وهم: لبطة وسبطة وحبطة وركضة وزمعة وكلهم من النوار، وليس لواحد من ولده عقب إلا من النساء. وقال ابن خالويه: ومن أولاد الفرزدق: كلطة وجلطة، والله أعلم.

ثم إن الفرزدق طلق النوار لأمر يطول شرحه فندم على ذلك. وله فيها أشعار، فمنها قوله:

ندمت ندامة الكسعي لما غدت مني مطلقة نوار
وكانت جنتي فخرجت منها كآدم حين أخرجه الضرار

وله في ذلك أخبار ونوادر يطول شرحها، وليس هذا موضع استيفائه ومات للفرزدق ابن صغير، فصلى عليه، ثم التفت إلى الناس وقال:

وما نحن إلا مثلهم غير أننا أقمنا قليلاً بعدهم وترحلوا

فمات بعد ذلك بأيام قلائل.

هلال بن المحسن الصابئ

أبو الحسن هلال بن المحسن بن أبي إسحاق إبراهيم بن هلال بن إبراهيم بن زهرون بن حيون، الصابئ الحراني الكاتب، هو حفيد أبي إسحاق الصابئ صاحب الرسائل المشهورة –وقد سبق ذكر جده في حرف الهمزة، سمع هلال المذكور أبا علي الفارسي النحوي – المقدم ذكره – وعلي بن عيسى الرماني – المقدم ذكره أيضاً – وابا بكر أحمد بن محمد بن الجراح الحراز وغيرهم. وذكره الخطيب في " تاريخ بغداد " وقال: كتبنا عنه وكان صدوقاً، وكان أبوه المحسن صابئياً على دين جده إبراهيم، فأسلم هلال المذكور في آخر عمره، وسمع من العلماء في حال كفره، لأنه كان يطلب الأدب.

ورأيت له تصنيفاً جمع فيه حكايات مستملحة وأخباراً نادرة، وسماه كتاب " الأماثل والأعيان ومنتدى العواطف والإحسان " وهو مجلد واحد، ولا أعلم هل صنفوه سواه أم لا.

وكان ولده غرس النعمة أبو الحسن محمد بن هلال المذكور ذا فضائل جمة وتآليف نافعة، منها التاريخ الكبير المشهور، ومنها الكتاب الذي سماه: الهفوات النادرة من المغفلين الملحوظين، والسقطات الباردة من المغفلين المحظوظين " جمع فيه كثيراً من الحكايات التي تتعلق بهذا الباب، فمما نقلته منه أن عبد الله بن علي بن عبد الله بن العباس رضي الله عنه – وهو عم السفاح وأبي جعفر المنصور – أنفذ إلى ابن أخيه السفاح في أول ولايتهم مشيخةً من اهل الشام يطرفه بعقولهم واعتقادهم، وأنهم حلفوا أنهم ما علموا لرسول الله صلى الله عليه وسلم قرابة يرثونه غير بني أمية حتى وليتم أنتم.

ونقلت أيضاً حكاية وإن كانت سخيفة لكنها ظريفة، ولا بد في المجاميع من الأحماض، ومزج الهزل بالجد، والحكاية المذكورة هي: أن أبا سعيد ماهك بن بندار المجوسي الرازي كان من كبار كتاب الديلم المشهور تخفلهم، الشائعة فيه أخبارهم، وكان يكتب لعلي بن سامان أحد فواد الديلم، فأراد الوزير أبو محمد المهلبي أن ينفذ ماهك في بعض الخدم فقال له: وقد أراد الخروج من عنده: يا أبا سعيد، لا تبرح من الدار حتى أوقفك على شيء أريده معك، فقال: السمع والطاعة لأمر سيدنا الوزير، ونهض من بين يديه، فقال الوزير: هذا رجل مجنون، وربما طال بي الشغل وضاق صدره فانصرف، فتقدموا إلى البواب أن لا يدعه يخرج من الباب، فجلس ماهك طويلاً، وأراد دخول الخلاء، فقام يطلب ذلك فرأى الأخلية مقفلة، وكان قد تقدم الوزير بذلك، وقال: كانت دار أبي جعفر الصيمري، منتنة الرائحة لأجل خلاء كان بها لعامة الناس. فوجد ماهك الخلاء الخلاص غير مقفل، وعليه سر مسبل، فرفع الستر ليدخل، فجاء الفراش فمنعه ودفعه، فقال: يا هذا أليس هذا خلاء؟ فقال: بلى، فقال: أريد أن أعمل فيه حاجتي فلم تمنعني؟ قال: هذا خلاء خاص لا يدخله غير الوزير، قال: فبقية الأخلية مقفلة، فكيف أعمل وقد جئت أخرج فمنعني البواب فأخرى في ثيابي؟ فقال الفراش: استأذن في دخول الخلاء ليتقدم لك بذلك ويفتح لك أحد الأخلية فتقضي حاجتك، فاشتد به الأمر، فكتب إلى الوزير رقعة وقال فيها: قد احتاج عبد سيدنا الوزير ماهك إلى بعض ما يحتاج إليه الناس ولا يحسن ذكره، والفراش يقول لا تدخل، والبواب يقول لا تخرج، وقد تحير العبد في البين، والأمر في الشدة، فإن رأى سيدنا الوزير أن يفسح لعبده بان يعمل ما يحتاج إليه في خلائه فعل إن شاء الله تعالى، والسلام. ودفع الرقعة إلى بعض الحجاب، فأوصلها إلى الوزير، فلم يعلن ما أراد بالرقعة، فاستعلم ما الصورة فعرف بها، فضحك واستلقى على ظهره، ووقع على ظهر الرقعن: يخرى أبو سعيد أعزه الله بحيث يختار، إن شاء الله تعالى، فجاءه الحاجب بها فأخذه ودفعه إلى الفراش، وقال: هذا ما طلبت، وهو توقيع سيدنا الوزير، فقال الفراش: التوقيعات يقرؤها أبو العلاء ابن أبرونا كاتب ديوان الدار، وأنا لا أحسن أن أكتب ولا أقرأ، فصاح ماهك في الدار: هات من يقرأ في الدار صك الخرا!! فضحك فراش آخر وأخذ بيده، وحمله إلى بعض الحجر حتى قضى حاجته.

ونقلت من هذا الكتاب أيضاً: أن أرطأة بن سهية دخل على عبد الملك بن مروان، وكان قد أدرك الجاهلية والإسلام، فرآه عبد الملك شيخاً كبيراً، فاستنشده ما قاله في طول عمره فأنشده:

رأيت المرء تأكله الليالي ... كأكل الأرض ساقطة الحديد
وما تبغي المنية حين تأتي ... على نفس ابن آدم من مزيد
واعلم أنها ستكر حتى ... توفي نذرها بأبي الوليد

فارتاع عبد الملك وظن أنه عناه لأنه يكنى أبا الوليد، وعلم أرطأة بسهوه وزلته، فقال: يا أمير المؤمنين إني أكنى بأبي الوليد، وصدقه الحاضرون، فسري عن عبد الملك قليلاً.

ونقلت منه أيضاً أن أبا المعري صاعد بن مخلد كاتب الموفق قرأ على الموفق فلم يفهم معناه، وقرأه الموفق ففهمه، فقال فيه عيسى بن القاشي:

أرى الدهر يمنع من جانبه ... ويهدي الحظوظ على عائبه

وكم طالبٍ سبباً مجلباً ... فأعيا عناه على طالبه

ومن عجيب الدهر أن الأمي ... ر أصبح أكتب من كاتبه

والموفق المذكور هو ابن أحمد طلحة بن المتوكل، وهو والد المعتضد الخليفة العباسي.

ونقلت منه أيضاً أن إعرابياً شهد الموقف مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال الأعرابي: فصاح به صائح من خلفه: يا خليفة رسول الله ثم قال: يا أمير المؤمنين، فقال رجل من خلفي: دعاه باسم ميت، مات والله أمير المؤمنين، فالتفت إليه فإذا هو رجل من بني لهب – بكسر اللام – وهم من بني النضر بن الأزد، وهم أزجر قوم، وقد أشار كثير عزة إلى ذلك في قوله:

سألت أخا لهبٍ ليزجر زجره ... وقد صار زجر العالمين إلى لهب

قال الأعرابي: فلما وقفنا لرمي الجمار إذا حصاة قد صكت صلعة عمر رضي الله عنه فأدمته، فقال قائل: أشعر والله أمير المؤمنين، والله لا يقف هذا الموقف بعدها، فالتفت إليه فإذا هو اللهبي بعينه، فقتل عمر رضي الله عنه قبل الحول.

وهذه الحكاية في كتاب " الكامل " أيضاً.

وقوله " دعاه باسم ميت " إنما ذلك لأن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان يقال له " خليفة رسول الله " فلما توفي وتولى عمر رضي الله عنه قيل له: " خليفة خليفة رسول الله " فقال للصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين: هذا أمر يطول شرحه، فإن كل من يتولى يقال له خليفة من كان قبله حتى يتصل برسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنما أنتم المؤمنون وأنا أميركم، فقيل له: يا أمير المؤمنين، فهو أول من دعي بهذا الاسم، وكان لفظ الخليفة مختصاً بابي بكر الصديق رضي الله عنه، فلهذا قال " دعاه باسم ميت ".

وذكر عمر بن شبة – المقدم ذكره – في " أخبار البصرة " عن الشعبي أن أول من دعا لعمر رضي الله عنه على المنبر أبو موسى الأشعري بالبصرة، وهو أول من كتب " لعبد الله أمير المؤمنين " فقال عمر: إني لعبد الله، وإني لعمر، وإني لأمير المؤمنين.

وقال عوانة: أول من سماه أمير المؤمنين عدي بن حاتم الطائي وأول من سلم عليه بها المغيرة بن شعبة. وقال غيره: جلس عمر يوماً فقال: والله ما ندري كيف نقول: أبو بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنا خليفة أبي بكر، فأنا خليفة خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمن جاء بعدي يقال له: خليفة خليفة خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهل اسم؟ قالوا: الأمير، قال: كلكم أمير، قال المغيرة: نحن المؤمنون، وأنت أميرنا، فأنت أمير المؤمنين، قال: أنا أمير المؤمنين، والله أعلم، وخرجنا عن المقصود.

وكانت ولادة هلال المذكور في شوال سنة تسع وخمسين وثلثمائة. وتوفي ليلة الخميس سابع عشر شهر رمضان سنة ثمان وأربعين وأربعمائة، رحمه الله تعالى.

الهيثم بن عدي

أبو عبد الرحمن الهيثم بن عدي بن عبد الرحمن بن زيد بن أسيد بن جابر بن عدي بن خالد بن خيثم بن أبي حارثة بن جدي بن تدول بن بحتر بن عتود بن عنين بن سلامان بن ثعل بن عمرو بن الغوث بن جلهمة، وهو طيء، الطائي الثعلي البحتري الكوفي، كان راوية أخبارياً، نقل من كلام العرب وعلومها وأشعارها ولغاتها المثير، وكان أبوه نازلاً بواسط، وكان خيراً. وكان الهيثم يتعرض لمعرفة أصول الناس ونقل أخبارهم، فأورد معايبهم وأطهرها وكانت مستورة فكره لذلك، ونقل عنه أنه ذكر العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه بشيء، فحبس لذلك عدة سنين، ويقال إنه نقل زوراً،

ولبسوا عليه ما لم يقل، وكان قد صاهر قوماً فلم يرضوه، فأذاعوا ذلك عنه، وحرفوا الكلام. وكان يرى رأي الخوارج.
وله من الكتب المصنفة كتاب " المثالب "، وكتاب " المعمرين "، وكتاب " بيوتات العرب "، وكتاب " هبوط آدم عليه السلام "، و" افتراق العرب ونزول منازلها، وكتاب " نزول العرب بخراسان والسواد "، وكتاب " نسب طي "، وكتاب " مديح أهل الشام "، وكتاب " تاريخ العجم وبني أمية "، وكتاب " الوفود "، وكتاب " خطط الكوفة "، وكتاب " ولاة الكوفة "، وكتاب " تاريخ الأشراف الكبير "، وكتاب " تاريخ الأشراف الصغير "، وكتاب " طبقات الفقهاء والمحدثين "، وكتاب " كنى الأشراف "، وكتاب " خواتيم الخلفاء "، وكتاب " قضاة الكوفة والبصرة "، وكتاب " المواسم "، وكتاب " الخوارج "، وكتاب " النوادر "، وكتاب " التاريخ على السنين "، وكتاب " أخبار الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما ووفاته" وكتاب " أخبار الفرس "، وكتاب " عمال الشرط لأمراء العراق " وغير ذلك من التصانيف.
واختص بمجالسة المنصور والمهدي والهادي والرشيد وروى عنهم.

قال الهيثم: قال لي المهدي: ويحك يا هيثم، إن الناس يخبرون عن الأعراب شحاً ولؤماً وكرماً وسماحاً، وقد اختلفوا في ذلك، فما عندك؟ فقلت: على الخبير سقطت، خرجت من عند أهلي أريد ديار فرائد لي، ومعي ناقة أركبها، إذ ندت فذهبت، فجعلت أتبعها حتى أمسيت فأدركتها، ونظرت فإذا خيمة أعرابي فأتيتها، فقالت ربة الخباء: من أنت؟ فقلت: ضيف، فقالت: وما يصنع الضيف عندنا؟ إن الصحراء لواسعة، ثم قامت إلى بر فطحنته، ثم عجنته وخبزته وقعدت فأكلت، و لم ألبث أن أقبل زوجها ومعه لبن، فسلم ثم قال: من الرجل؟ فقلت: صيف، فقال: مرحباً حياك الله، فدخل الخباء وملأ قعباً من لبن، ثم أتاني به وقال: اشرب، فشربت شراباً هنيئاً، فقال: ما أراك أكلت شيئاً، وما أراها أطعمتك، فقلت: لا والله، فدخل إليها مغضباً وقال: ويلك أكلت وتركت ضيفك، فقالت: وما أصنع به؟ أطعمه طعامي؟ وجاراها في الكلام حتى شجها، ثم أخذ شفرة وخرج إلى ناقتي فنحرها فقلت: ما صنعت عافاك الله؟ لا والله لا يبيت ضيفي جائعاً، ثم جمع حطباً وأجج ناراً، وأقبل يكبب ويطعمني ويأكل ويلقي إليها ويقول: كلي لا أطعمك الله، حتى إذا أصبح تركني ومضى، فقعدت مغموماً، فلما تعالى النهار أقبل ومعه بعير ما يسأم الناظر أن ينظر إليه، فقال: هذا مكان ناقتك، ثم زودني من ذلك اللحم ومما حضره، وخرجت من عنده، فضمني الليل إلى خباء، فسلمت، فردت صاحبة الخباء السلام وقالت: من الرجل؟ فقلت: ضيف، فقالت: مرحباً بك وحياك الله وعافاك، فنزلت، ثم عمدت إلى بر فطحنته وعجنته، ثم خبزته خبزة روتها بالزبد واللبن، ثم وضعته بين يدي فقالت: كل واعذر، فلم ألبث أن أقبل أعرابي كريه الوجه، فسلم فرددت عليه السلام، فقال: من الرجل؟ قلت: ضيف، قال: وما يفعل الضيف عندنا، ثم دخل إلى أهله، فقال: أين طعامي؟ فقالت: أطعمته للضيف، فقال: أتطعمين الضيف طعامي؟ فتجاريا الكلام، فرفع عصاه وضرب بها رأسها فشجها، فجعلت أضحك، فخرج إلي فقال: ما يضحكك؟ قلت: خير، فقال: والله لتخبرني، فأخبرته بقضية المرأة والرجل اللذين نزلت عندهما قبله، فأقبل علي وقال: إن هذه التي عندي هي أخت ذلك الرجل، وتلك التي عنده أختي. فبت ليلتي متعجباً وانصرفت.
ويقرب من هذه الحكاية ما روي أن رجلاً من الأولين كان يأكل وبين يديه دجاجة مشوية، فجاءه سائل فرده خائباً، وكان الرجل مترفاً فوقع بينه وبين امرأته فرقة، وذهب ماله، وتزوجت امرأته، فبينما الزوج الثاني يأكل وبين يديه دجاجة مشوية جاءه سائل فقال لامرأته: ناوليه الدجاجة، فناولته، ونظرت إليه فإذا هو زوجها الأول، فأخبرته بالقصة، فقال الزوج الثاني: أنا والله ذلك المسكين الأول الذي خيبني، فحول الله نعمته وأهله إلي لقلة شكره.
وحكى الهيثم أيضاً قال: صار سيف عمرو بن معديكرب الزبيدي الذي يسمى بالصمصامة إلى موسى الهادي بن المهدي، وكان عمرو قد وهبه لسعيد بن العاص الأموي، فتوارثه ولده، إلى أن مات المهدي واشتراه موسى الهادي منهم بمال جليل، وكان من أوسع بني العباس كفا وأكثرهم عطاء، فجرد الصمصامة وجعلها بين يديه وأذن للشعراء فدخلوا عليه، ودعا بمكتل فيه بدرة، وقال: قولوا في هذا السيف، فبدر ابن يامين البصري وأنشد:

حاز صمصامة الزبيدي من بي ... ن جميع الأنام موسى الأمين
سيف عمرو وكان فيما سمعنا ... خير ما أغمدت عليه الجفون

أخضر اللون بين حديه برد — من ذباح تبين فيه المنون

أوقدت فوقه الصواعق ناراً — ثم شابت فيه الزعاف القيون

فإذا ما سللته بهر الشم — س ضياء فلم تكد تستبين

ما يبالي من انتضاه لضرب — أشمال به أم يمين

يستطير الأبصار كالقبس المش — عل ما تستقر فيه العيون

وكأن الفرند والجوهر الجا — ري في صفحتيه ماء معين

نعم مخراق ذي الحفيظة في الهي — جاء بعصى به ونعم القرين

فقال الهادي: أصبت والله ما في نفسي، واستخفه السرور، فأمر له بالمكتل والسيف، فلما خرج من عنده قال للشعراء: إنما حرمتم من أجلي، فشأنكم والمكتل، ففي السيف غنائي، فاشترى منه السيف بمال جزيل، وقال المسعودي في كتاب " مروج الذهب ": اشتراه منه بخمسين ألفاً، و لم يذكر هذه الأبيات إلا بعضها.

والذباح: بضم الذال المعجمة وفتح الباء الموحدة وبعد الألف حاء مهملة، وهو نبت قتال لسميته، وقد جاء كثيراً في الشعر.

ويعصى – بفتح الصاد – يقال: عصي بكسر الصاد يعصى إذا ضرب بالسيف، وهو خلاف عصى يعصي إذا ارتكب الذنب.

وحكى المسعود في " مروج الذهب " في ولاية هشام بن عبد الملك أن الهيثم بن عدي المذكور روى عن عمر بن هانئ الطائي قال: خرجت مع عبد الله بن علي، وهو عم السفاح والمنصور، فانتهينا إلى قبر هشام بن عبد الملك، فاستخرجناه صحيحاً ما فقد منه إلا خرمة أنفه، فضربه عبد الله ثمانين سوطاً، ثم أحرقه، واستخرجنا سليمان بن عبد الملك من أرض دابق، فلم نجد منه شيئاً إلا صلبه وأضلاعه ورأسه، فأحرقناه، وفعلنا ذلك بغيرهما من بني أمية، وكانت قبورهم بقنسرين. ثم انتهينا إلى دمشق فأخرجنا الوليد بن عبد الملك فما وجدنا في قبره لا قليلاً ولا كثيراً، وأحتفرنا عن عبد الملك فما وجدنا إلا رأسه، ثم احتفرنا عن يزيد بن معاوية فما وجدنا منه إلا عظماً واحداً، ووجدنا مع لحده خطاً أسود كأنما خط بالرماد بالطول في لحده، ثم تتبعنا قبورهم في جميع البلدان فأحرقنا ما وجدنا فيها منهم.

وكان سبب فعل عبد الله ببني أمية هذا الفعل أن زيد بن زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم – وقد سبق ذكره في ترجمة الوزير محمد بن بقية – خرج على هشام بن عبد الملك وسمت نفسه إلى طلب الخلافة، وتبعه خلق من الأشراف والقراء، فحاربه يوسف بن عمر الثقفي أمير العراقين – وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى – فانهزم أصحاب زيد وبقي في جماعة يسيرة، فقاتلهم أشد قتال وهو يقول متمثلاً:

ذل الحياة وعز الممات — وكلا أراه طعاماً وبيلا

فإن كان لا بد من واحد — فسيري إلى الموت سيراً جميلا

وحال المساء بين الفريقين، فانصرف زيد مثخناً بالجراح، وقد أصابه سهم في جبهته، فطلبوا من يترع النصل، فأتي بحجام من بعض القرى، فاستكتموه أمره فاستخرج النصل، فمات من ساعته، فدفنوه في ساقية ماء وجعلوا على قبره التراب والحشيش وأجروا الماء على ذلك، وحضر الحجام مواراته فعرف الموضع، فلما أصبح مضى إلى يوسف منتصحاً له، فدله على موضع قبره، فاستخرجه يوسف وبعث رأسه إلى هشام، فكتب إليه هشام: أن اصلبه عرياناً، فصلبه يوسف كذلك، ففي ذلك يقول بعض شعراء بني أمية يخاطب آل أبي طالب وشيعتهم من جملة أبيات:

صلبنا لكم زيداً على جذع نخلة — ولم أر مهدياً على الجذع يصلب

وبنى تحت خشبته عموداً، ثم كتب هشام إلى يوسف يأمره بإحراقه وتذريته في الرياح، وكان ذلك في سنة إحدى وعشرين، وقيل اثنتين وعشرين ومائة.

وذكر أبو بكر ابن عياش وجماعة من الأخباريين أن زيداً أقام مصلوباً خمس سنين فلم ير له عورة ستراً من الله سبحانه وتعالى له، وقال بعضهم: إن العنكبوت نسج على عورته، وذلك بالكناسة بالكوفة. فلما كان في أيام الوليد بن يزيد وظهر ولده يحيى بن زيد بخراسان، وهي واقعة مشهورة، كتب الوليد إلى عامله بالكوفة: أن أحرق زيداً بخشبته، ففعل ذلك، وأذرى رماده في الرياح على شاطئ الفرات، والله تعالى أعلم أي ذلك كان. فهذا الذي حمل عبد الله ابن علي على ما فعله ببني أمية، انتصاراً لبني عمه وانتقاماً لهم بنظير ما فعل بهم.

وقال الهيثم أيضاً: استعلمت على صدقات بني فزارة، فجاءني رجل منهم فقال: أريك عجباً؟ فقلت: بلى، فانطلق إلى جبل شاهق فإذا فيه صدع، فقال لي: ادخل، فقلت: إنما يدخل الدليل، قال: فدخل فاتبعته، ودخل معنا أناس، فكان ربما ضاق الجبل واتسع، فإذا نحن بضوء، فدنونا منه، وإذا خرق ذاهب في الأرض، وإذا عكاكيز في الجبل، فجذبناها فإذا هي سهام عاد، وإذا كتاب منقور في الجبل مقدار إصبعين أو أكثر، وإذا هو كتاب بالعربية، وهو:

ألا هل أبيات سفح بذي اللوى　　　لوى الرمل فاصدقن النفوس معاد

بلاد لنا كانت وكنا نحبها　　　إ للناس ناس، والبلاد بلاد

وروي أن أبا نواس الحسن بن هانئ الحكمي الشاعر - المقدم ذكره - حضر مجلس الهيثم بن عدي في حداثته، والهيثم لا يعرفه، فلم يستدنه ولا قرب مجلسه، فقام مغضباً، فسأل الهيثم عنه، فخبر باسمه، فقال: إنا لله! هذه والله بلية لم أجنها على نفسي، قوموا بنا إليه لنعتذر، فصاروا إليه، ودق الباب عليه وتسمى له، فقال: ادخل، فدخل هو قاعد يصفي نبيذاً له، وقد أصلح بيته بما يصلح به مثله، فقال: المعذرة إلى الله تعالى وإليك، والله ما عرفتك وما الذنب إلا لك حيث لم تعرفنا نفسك فنقضي حقك ونبلغ الواجب من برك، فأظهر له قبول العذر، فقال الهيثم: أستعهدك من قول يسبق منك في، فقال: ما قد مضى فلا حيلة فيه، ولك الأمان فيما استأنف، فقال: وما الذي مضى جعلت فداك؟ قال: بيت مر وأنا فيما ترى -يعني من الغضب- قال: فتنشدنيه، فدافعه، فألح عليه فأنشده:

يا هيثم بن عدي لست للعرب　　　ولست من طيئ إلا على شغب

إذا نسبت عدياً في بني ثعل　　　فقدم الدال قبل العين في النسب

فقام من عنده، ثم بلغه بعد ذلك بقية الأبيات وهي:

للهيثم بن عدي في تلونه　　　في كل يوم له رجل على خشب

فما زال أخا حل ومرتحل　　　إلى الموالي وأحيانا إلى العرب

له لسان يزجيه بجوهره　　　كأنه لم يزل يغدى على قتب

كأنني بك فوق الجسر منتصباً　　　على جواد قريب منك في الحسب

حتى نراك وقد درعته قمصاً　　　من الصديد مكان الليف والكرب

لله أنت فما قربى تهم بها　　　إلا اجتلبت لها النساب من كثب

فعاد الهيثم إلى أبي نواس، وقال له: يا سبحان الله! أليس قد أمنتني وجعلت لي عهداً أن لا تهجوني! فقال: إنهم يقولون ما لا يفعلون.

وأخبار الهيثم كثيرة وقد أطلنا الشرح.

وكانت ولادته قبل سنة ثلاثين ومائة. وتوفي غرة المحرم سنة ست، وقيل سبع ومائتين، وقال ابن قتيبة في كتاب " المعارف ": سنة تسع ومائتين، والله تعالى أعلم بالصواب، رحمه الله تعالى. وله عقب ببغداد. وقال السمعاني في كتاب " الأنساب " في ترجمة البحتري: إنه توفي سنة تسع ومائتين بفم الصلح، وله ثلاث وتسعون سنة، وزاد غيره أن وفاته كانت عند الحسن بن سهل، وقد تقدم في ترجمة بوران أن زواجها بالمأمون كان في هذا التاريخ بهذا الموضع، والظاهر أنه كان في جملة من حضر فتوفي هناك.

وقد تقدم الكلام على الطائي والبحتري.

والثعلي: بضم الثاء المثلثة وفتح العين المهملة وبعدها لام، هذه النسبة إلى ثعل بن عمرو بن الغوث بن طيء - وقد تقدم تتمة هذه النسبة في ترجمة البحتري في حرف الواو فلتنظر هناك - وتنسب إلى ثعل المذكور عدة بطون: منها بحتر وسلامان وغيرهما.

ومن هذه القبيلة عمرو بن المسبح الثعلي الذي قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم في وفود العرب، فأسلم بالمدينة وهو ابن مائة وخمسين سنة، وكان أرمى العرب وفيه يقول امرؤ القيس حندج بن حجر الكندي الشاعر المشهور:

رب رامٍ من بني ثعلٍ ... مخرج كفيه من ستره

وهذا من جملة ما استشهد به ابن قتيبة في كتاب " طبقات الشعراء " على قرب زمن امرئ القيس من زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنه كان قبله بمقدار أربعين سنة. هذا خلاصة ما قاله، والله أعلم.

ياروق التركماني

ياروق بن أرسلان التركماني، كان مقدماً جليل القدر في قومه، وإليه تنسب الطائفية الياروقية من التركمان، وكان عظيم الخلقة هائل المنظر، سكن بظاهر حلب في جهتها القبلية، وبنى على شاطئ قويق فوق تل مرتفع هو وأهله وأتباعه أبنية كثيرة مرتفعة وعمائر متسعة وتعرف الآن بالياروقية، وهي شبه القرية، وسكنها هو ومن معه، وهي إلى اليوم معمورة مسكونة آهلة يتردد إليها أهل حلب في أيام الربيع ويتنزهون هناك في الخضرة وعلى قويق وهو موضع كثير الانشراح والأنس.

وتوفي ياروق المذكور في المحرم سنة أربع وستين وخمسمائة، رحمه الله تعالى - هكذا ذكره بهاء الدين المعروف بابن شداد في " سيرة السلطان صلاح الدين " رحمهما الله تعالى.

وياروق: بفتح الياء المثناة من تحتها وبعد الألف راء مضمومة ثم واو ساكنة وفي الآخر قاف.

وقويق: بضم القاف وفتح الواو وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها قاف، وهو نهر صغير بظاهر حلب يجري في الشتاء والربيع وينقطع في الصيف، وقد ذكرته الشعراء في أشعارهم كثيراً، خصوصاً أبا عبادة البحتري فإنه كرر ذكره في عدة قصائد، فمن ذلك قوله في جملة قصيدة:

يا برق عن قويق فطرتي ... حلب فأعلى القصر بطياس

عن منبت الورد المعصفر صبغه ... في كل ناحيةٍ ومجرى الآس

أرض إذا استوحشت ثم أتيتها ... حشدت علي فأكثرت إيناسي

وبطياس: بفتح الباء الموحدة وسكون الطاء المهملة وفتح الياء المثناة من تحتها وبعد الألف سين مهملة، وهي قرية بظاهر حلب ودثرت، ولم يبق لها اليوم أثر. وكان صالح بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب، رضي الله عنهم، قد بنى بها قصر وسكنه هو وبنوه، وهو بين النيرب والصالحية، وهماقريتان في شرقي حلب، وكان القصر على الرابية المشرفة على النيرب، ولم يبق منه في هذا الزمان سوى آثار دارسة، هكذا وجدته مضبوطاً بخط بعض الفضلاء من أهل حلب، والله أعلم.

ياقوت الموصلي

أبو الدر ياقوت بن عبد الله الموصلي الكاتب، الملقب أمين الدين، المعروف بالملكي، نسبة إلى السلطان أبي الفتح ملكشاه بن سلجوق بن محمد بن ملكشاه الأكبر، نزل بالموصل، وأخذ النحو عن أبي محمد سعيد بن المبارك المعروف بابن الدهان النحوي، وقرأ عليه ديوان المتنبي والمقامات الحريرية وغير ذلك.

وكتب الكثير وانتشر خطه في الآفاق وكان في نهاية الحسن، ولم يكن في آخر زمانه من يقاربه في حسن الخط ولا يؤدي طريقة ابن البواب في النسخ مثله، مع فضل غزير ونباهة تامة، وكان مغرىً بنقل " الصحاح " للجوهري، فكتب منها نسخاً كثيرة، كل نسخة في مجلد واحد، رأيت منها عدة نسخ، وكل نسخة تباع بمائة دينار، وكتب عليه خلق كثير وانتفعوا به، وكانت له سمعة كبيرة في زمانه، وقصده الناس من البلاد، وسير إليه من بغداد النجيب أبو عبد الله الحسين بن علي بن أبي بكر الواسطي قصيدة مدحه بها ولم يكن رآه، بل على السماع به، وهي قصيدة جيدة في بابها، ووصف حسن خطه فأبلغ، وهي:

أين الغزلان عالج والمصلى ... من ظباء سكن نهر المعلى

أبتلك الكثبان أغصان بانٍ ... وبدور من أفقها تتجلى

أم لتلك الغزلان حسن وجوهٍ ... لو تراءت للحزن أصبح سهلا

أين حوذانها من النرجس الغ ... ض إذا ناجز النسيم استقلا

أين ذلك العرار من صبغة الور ... د إذا جاده الغمام وطلا

أبجرعائها كواكب نارن ... ج دنا في غصونه فتدلى

أنقيب لماء دجلة كفؤ ... كذب القاسطون حاشا وكلا

ألدار السلام في الأرض شبه ... معجز أن ترى لبغداد مثلا

كل يومٍ تبدي وجوهاً خلاف ال ... أمس حسناً كأنما هي حبلى

وصبايا يصبو الحليم إليه ... ن إذا ما خطرن شكلاً ودلا

يعتصبن العصائب الناصريا ... ت فيحللن منك عقداً وحلا

ليس يرقبن فيك إلا ولا يع ... رفن شيئاً غير " الصحاح " وإلا

مربع للقلوب فيه ربيع ... متوالٍ إذا الربيع تولى

بلدة يستفاد فيها المعالي ... والمعاني علماً وجداً وهزلا

لم يفتها من الكمال سوى يا ... قوت لو أنها به تتحلى

من لها أن يضوع النشر أمين الد ... ين فيها وحسبها ذاك فضلا

لو رجت أن يزورها لانبرى الصا ... مت فيها يقول: أهلا وسهلا

بحر جود له الأكارم تتلو ... وجواد عنه المكارم تتلى

جامع شارد العلوم ولولا ... ه لكانت أم الفضائل ثكلى

ذو يراع تخاف صولته الأس ... د وتعنو له الكتائب ذلا

وإذا افتر ثغره عن سوادٍ في بياضٍ فالبيض والسمر خجلى

يقظ في حراسة الملك لا يع مل سهماً ولا يجرد نصلا
إنما يبعث البلاغة أرسا لاً إذا كانت الصحائف رسلا
فيعيد الجبار ممتلئاً خو فاً لما قد أمل فيها وأملى
وتراه طوراً يجيل يديه بقداح العلوم فصلاً ففصلا
مثل وشي الرياض أو كنظيم ال در يزهى خطاً ولفظاً ونقلا
فاتئد يا مريد مثل أمين الدين مهلاً أتعبت نفسك مهلا
سيدي يا أخا السماح وظئر ال مجد وابن العلى ورب المعلى
أنت بدر والكاتب ابن هلال كأبيه لا خير فيمن تولى
إن يكن أولاً فإنكط بالتف ضيل أولى، لقد سبقت وصلى
يا أمين الدين الذي جمع الل ه به السماح والفضل شملا
أنا من قادة الثناء إلى حب ك حتى يظل لا يتسلى
وإذا أسجل الثناء بقاصٍ صار فيه أخو الشهادة عدلا
فارض بكراً ما راض قط أبوها فكره بابنة ليخطب بعلا
لا جزاء يريد عنها ولا أج راً ولكن رآك للمدح أهلا
ودعاه إليك داعي وداد جاء يبغي من حسن رأيك وصلا
وإذا ما تعذر القرب فالقل ب كفيل به ورأيك أعلى
فابق واسلم ما جرد الأفق جيشاً من ظلام وجرد الصبح نصلا

وتوفي أمين الدولة المذكور بالموصل سنة ثماني عشرة وستمائة، وقد أسن وتغير خطه من الكبر، رحمه الله تعالى.

ياقوت الرومي أبو الدر

أبو الدر ياقوت بن عبد الله الرومي، الملقب مهذب الدين، الشاعر المشهور، مولى أبي منصور الجيلي التاجر، اشتغل بالعلم وأكثر من الأدب، واستعمل قريحته في النظم فأجاد فيه، ولما تميز ومهر سمى نفسه عبد الرحمن، وكان مقيماً بالمدرسة النظامية ببغداد، وعده ابن الدبيثي في كتاب " الذيل " في جملة من اسمه عبد الرحمن، وذكر أنه نشأ ببغداد، وحفظ القرآن العزيز وقرأ شيئاً من الأدب وكتب خطاً حسناً وقال الشعر وأكثر النظم منه في الغزل والتصابي وذكر المحبة، وراق شعره وتحفظه الناس، وأورد له مقطوعاً من الشعر وذكر أنه أنشده إياه، وهو:

خليلي لا والله ما جن غاسق وأطلم إلا حن أو جن عاشق

وبقيته في المجموع الصغير وأشعاره سائرة يتغنى بها، وهي رقيقة لطيفة فمن ذلك قوله:

إن غاض دمعك والأحباب قد بانوا فكل ما تدعي زور وبهتان
وكيف تأنس أو تنسى خيالهم وقد خلا منهم ربع وأوطان
لا أوحش الله من قومٍ نأوا فنأى عن النواظر أقمار وأغصان
ساروا فسار فؤادي إثر ظعنهم وبان جيش اصطباري ساعة بانوا
لا افتر ثغر الثرى من بعد بعدهم ولا ترنح أيك لا ولا بان
أجرى دموعي وأذكى النار في كبدي غداة بينهم هم وأحزان
طوفان نوحٍ ثوى في مقلتي وفي طي الحشا لخليل الله نيران
لو كابد الصخر ما كابدت من كمدٍ فتكم لجاد له أحد ولبنان
وذاب يذبل من وجدي ورض على رضوى ولان لما ألقاه ثهلان
يا من تملك رقي حسن سلطان حسنك مالي منه إحسان
كن كيف شئت فمالي بدلاً عنك من بدلٍ أنت الزلال لقلبي وهو ظمآن

ومن شعره أيضاً:

ألا مبلغ وجدي بها وغرامي ومهدٍ إلى دار السلام سلامي
نسيم الصبا بلغ تحية مشئم إلى معرق لم يرع عهد ذمامي
وصف بعض أشواقي إليه لعله يرق لذلي في الهوى وهيامي
أيا رحبة الزوراء لي فيك شادن نفى بعده من مقلتي منامي
بديع جمالٍ بان صبري لبينه وعرضني إعراضه لحمامي
يصد إذا ما صد عن عيني الكرى ويمزج دمعي هجره بمدامي

حياتي وموتي في يديه وجنتي وناري وريي في الهوى وأوامي
ففي بعده عني وفاتي، وقربه حياتي وإسعادي ونيل مرامي
ومن وجنتيه نار وجدي، وخصره نحولي، ومن سقم الجفون سقامي
فكن عاذلي فدلاله دليل على وجدي به وغرامي

ورأيت كثيراً من الفقهاء بالشام وبلاد الشرق يحفظون له قصيدة أولها:

جسدي لبعدك يا مثير بلابلي دنف بحبك ما أبل، بلى بلي
يا من إذا ما لام فيه لوائمي أوضحت عذري بالعذار السائل
ألجيز قتلي في " الوجيز " لقاتلي أم حل في " التهذيب " أم في " الشامل "

أم في " المهذب " أن يعذب عاشق ذو مقلة عبرى ودمع هاطل

أم طرفك الفتاك قد أفتاك في تلف النفوس بسحر طرف بابلي

وهي أكثر من هذا، لكن هذا هو الذي أستحضره في هذا الوقت منها.

وأنشدني له بعض الأدباء بمدينة حلب أبياتاً، منها قوله:

ألست من الولدان أحلى شمائلا فكيف سكنت القلب وهو جهنم

ثم قال: وقد انتقدوا عليه في بغداد في هذا البيت، فأفكر فيه ثم قلت له: لعل الانتقاد من جهة أنه يلزم من كونه أحلى شمائل من الولدان أنه لا يكون في جهنم، فإنه قد يكون أحلى شمائل منهم، وليس الممتنع إلا لأن يكون الولدان في جهنم، فقال: نعم هذا هو الذي أخذ عليه.

وأخبرني بعض الأفاضل بمدينة أربل في سنة خمس وعشرين وستمائة، قال: كنت ببغداد ف سنة عشرين وستمائة بالمدرسة النظامية، فقعدت يوماً على بابها إلى جانب أبي الدر المذكور ونحن نتذاكر الأدب، إذ جاء شيخ ضعيف القوى والحال يتوكأ على عصا، فجلس قريباً منا، فقال لي أبو الدر: أتعرف هذا؟ فقلت: لا، فقال: هذا مملوك الحيص بيص، الذي يقول فيه:

تشرب أو تقمص أو تقبى فلن تزداد عندي قط حبا

تملك بعض حبك كل قلبي فإن ترد الزيادة هات قلبا

قال: فجعلت أنظر إليه، وأفكر فيما كان عليه، وما آل حاله إليه، ولقد طلبت أنا هذين البيتين في ديوان الحيص بيص فلم أجدهما فيه، والله أعلم.

ولأبي الدر المذكور ديوان شعر سمعت أنه صغير و لم أقف عليه، بل على مقاطيع كثيرة منه، وشعره متداول بالعراق وبلاد الشرق والشام، ويكفي منه هذا القدر – وقد تقدم في حرف الخاء في ترجمة الشيخ الخضر بن عقيل الإربلي له ثلاثة أبيات دالية – ثم إني ملكت من ديوانه نسختين في سنة سبع وستين بدمشق المحروسة، وهو صغير الحجم يدخل في عشر كراريس.

ورأيت في بعض التواريخ المتأخرة أن أبا الدر المذكور وجد ميتاً بمترله ببغداد في الثاني عشر من جمادى الأولى سنة اثنتين وعشرين وستمائة، وقال الناس: إنه توفي قبل ذلك بأيام، رحمه الله تعالى.

وقال ابن النجار في " تاريخ بغداد " وجد أبو الدر في داره ميتاً، يوم الأربعاء خامس عشر جمادى الأولى من السنة، وكان قد أخرج من النظامية فسكن في دار بدرب دينار الصغير، و لم يعلم متى مات، وأظنه ناطح الستين، والله أعلم.

والرومي: بضم الراء وسكون الواو وبعدها ميم، هذه النسبة إلى بلاد الروم، وهو إقليم مشهور متسع كثير البلاد.

وها هنا نكتة غريبة يحتاج إليها ويكثر السؤال عنها، وهي: أن أهل الروم يقال لهم " بنو الأصفر "، واستعملته الشعراء في أشعارهم، فمن ذلك قول عدي بن زيد العبادي من جملة قصيدته المشهورة:

وبنو الأصفر الكرام ملوك الرو م لم يبق منهم مذكور

ولقد تتبعت ذلك كثيراً فلم أجد ما يشفي الغليل، حتى ظفرت بكتاب قديم اسمه " اللفيف " و لم يكتب عليه اسم مؤلفه، فنقلت من ما صورته: عن العباس عن أبيه قال: انخرم ملك الروم في الزمان الأول، فبقيت منه امرأة، فتنافسوا في الملك حتى وقع بينهم شر، فاصطلحوا على أن يملكوا أول من يشرف عليهم، فجلسوا مجلساً لذلك، وأقبل رجل من اليمن معه عبد له حبشي يريد الروم، فأبق العبد منه، فأشرف عليهم فقالوا: انظروا في أي شيء وقعتم؟ فزوجوه تلك المرأة، فولدت غلاماً فسموه " الأصفر "، فخاصمهم المولى، فقال الغلام: صدق أنا عبده فارضوه، فأعطوه حتى رضي، فبسبب ذلك قيل للروم بنو الأصفر، لصفرة لون الولد، لكونه مولداً بين الحبشي والمرأة البيضاء، والله أعلم.

ياقوت الحموي

أو عبد الله ياقوت بن عبد الله، الرومي الجنس والمولد الحموي المولى البغدادي الدار، الملقب شهاب الدين، أسر من بلاده صغيراً، وابتاعه ببغداد رجل تاجر يعرف بعسكر بن أبي نصر إبراهيم الحموي، وجعله في الكتاب، لينتفع به في ضبط تجائره، وكان مولاه عسكر لا يحسن الخط ولا يعلم شيئاً سوى التجارة، وكان ساكناً ببغداد، وتزوج بها وأولد عدة أولاد، ولما كبر ياقوت المذكور قرأ شيئاً من النحو واللغة، وشغله مولاه بالأسفار في متاجره فكان يتردد إلى كيش وعمان وتلك النواحي ويعود إلى الشام. ثم جرت بينه وبين مولاه نبوة أوجبت عتقه فأبعده عنه، وذلك في سنة ست وتسعين وخمسمائة، فاشتغل بالنسخ بالأجرة، وحصلت له بالمطالعة فوائد، ثم إن مولاه بعد مديدة ألوى وأعطاه شيئاً وسفره إلى كيش، ولما عاد كان مولاه قد مات، فحصل شيئاً مما كان في يده وأعطى أولاد مولاه وزوجته ما أرضاهم به، وبقيت بيده بقية جعلها رأس ماله، وسافر بها وجعل بعض تجارته كتباً.

وكان متعصباً على علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، وكان قد طالع شيئاً من كتب الخوارج، فاشتبك في ذهنه منه طرف قوي، وتوجه إلى دمشق في سنة ثلاث عشرة وستمائة وقعد في بعض أسواقها، وناظر بعض من يتعصب لعلي رضي الله عنه، وجرى بينهما كلام أدى إلى ذكره علياً، رضي الله عنه، بما لا يسوغ، فثار الناس عليه ثورة كادوا يقتلونه، فسلم منهم، وخرج من دمشق منهزماً بعد أن بلغت القضية إلى والي البلد، فطلبه فلم يقدر عليه، ووصل إلى حلب خائفاً يترقب، وخرج عنها في العشر الأول أو الثاني من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة وستمائة، وتوصل إلى الموصل. ثم انتقل إلى إربل وسلك منها إلى خراسان وتحامى دخول بغداد، لأن المناظر له بدمش كان بغدادياً، وخشي أن ينقل قوله فيقتل فلما انتهى أمره إلى خراسان أقام بها يتجر في بلادها، واستوطن مدينة مرو مدة، وخرج عنها إلى أن نسا ومضى إلى خوارزم، وصادفه وهو بخوارزم خروج التتر، وذلك في سنة ست عشرة وستمائة، فانهزم بنفسه كبعثه يوم الحشر من رمسه، وقاسى في طريقه من المضايقة والتعب ما كان يكل عن شرحه إذا ذكره، ووصل إلى الموصل وقد تقطعت به الأسباب، وأعوزه دنيء المأكل وخشن الثياب، أقام بالموصل مدة مديدة، ثم انتقل إلى سنجار وارتحل منها إلى حلب، وأقام بظاهرها في الخان، إلى أن مات في التاريخ الآتي ذكره إن شاء الله تعالى.

ونقلت من " تاريخ إربل " الذي عني بجمعه أبو البركات ابن المستوفي – المقدم ذكره – أن ياقوتاً المذكور قدم إربل في رجب سنة سبع عشرة وستمائة، وكان مقيماً بخوارزم، وفارقها للواقعة التي جري فيها بين التتر والسلطان محمد بن تكش خوارزم شاه.

وكان قد تتبع التواريخ، وصنف كتاباً سماه " إرشاد الألباء إلى معرفة الأدباء " يدخل في أربعة جلود كبار، ذكر في أوله قال: " وجمعت في هذا الكتاب ما وقع إلي من أخبار النحويين واللغويين والنسابين والقراء المشهورين، والأخباريين والمؤرخين والوراقين العروفين والكتاب المشهورين وأصحاب الرسائل المدونة، وأرباب الخطوط للنسوبة المعينة، وكل من صنف في الأدب تصنيفاً أو جمع فيه تأليفاً، مع إيثار الاختصار والإعجاز في نهاية الإيجاز، ولم آل جهداً في إثبات الوفيات، وتبيين المواليد والأوقات، وذكر تصانيفهم ومستحسن أخبارهم، والإخبار بأنسابهم وشيء من أشعارهم، في تردادي إلى البلاد ومخالطتي للعباد، وحفت الأسانيد إلا ما قل رجاله وقرب مناله، مع الاستطاعة إثباتها سماعاً وإجازة، إلا أنني قصدت صغر الحجم وكبر النفع، وأثبت مواضع نقلي ومواطن أخذي من كتب العلماء المعول في هذا الشأن عليهم، والرجوع في صحة النقل إليهم ".

ثم ذكر أنه جمع كتاباً في أخبار الشعراء المتأخرين والقدماء. ومن تصانيفه أيضاً كتاب " معجم البلدان "، وكتاب " معجم الشعراء "، وكتاب " معجم الأدباء "، وكتاب " المشترك وضعاً المختلف صقعاً " وهو من الكتب النافعة، وكتاب " المبدأ والمآل " في التاريخ، وكتاب " الدول " و" مجموع كلام أبي علي الفارسي " و" عنوان كتاب الأغاني "، و" المقتضب في النسب " يذكر فيه أنساب العرب، وكتاب " أخبار المتنبي ".

وكانت له همة عالية في تحصيل المعارف.

وذكر القاضي الأكرم جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الواحد الشيباني القفطي، وزير صاحب حلب كان رحمه الله تعالى، في كتابه الذي سماه " إنباه الرواة على أنباه النحاة " أن ياقوتاً المذكور كتب إليه رسالة من الموصل إليها هارباً من التتر، يصف فيها حاله وما جرى له معهم، وهي بعد البسملة والحمدلة: " كان المملوك ياقوت بن عبد الله الحموي قد كتب هذه الرسالة من الموصل في سنة سبع عشرة وستمائة، وحين وصوله من خوارزم طريد التتر، أبادهم الله تعالى، إلى حضرة مالك رقه الوزير جمال الدين القاضي الأكرم أبي الحسن علي بن يوسف بن إبراهيم بن

عبد الواحد الشيباني، ثم التيمي تيم بني شيبان بن ثعلبة بن عكابة، أسبغ الله عليه ظله، وأعلى في درج السيادة محله، وهو يومئذ وزير صاحب حلب والعواصم، شرحاً لأحوال خراسان وأحواله، وإيماء إلى بدء أمره بعد ما فارقه ومآله، وأحجم عن عرضها على رأيه الشريف إعظاماً وتهيباً، وفراراً من قصورها عن طوله وتجنباً، إلى أن وقف عليها جماعة من منتحلي النظم والنثر، فوجدهم مسارعين إلى كتبها، متهافتين على نقلها، وما يشك أن محاسن مالك الرق حلتها، وفي أعلى درج الإحسان أحلتها، فشجعه ذلك على عرضها على مولاه، وللآراء علوها في تصفحها، والصفح عن زللها، فليس كل من لمس درهماً صيرفياً، ولا كل من اقتنى داراً جوهرياً. وها هي ذه: " بسم الله الرحمن الرحيم، أدام الله على العلم وأهليه، والإسلام وبني، ما سوغهم وحباهم، ومنحهم وأعطاهم، من سبوغ ظل المولى الوزير، أعز الله أنصاره، وضاعف مجده واقتداره، ونصر ألويته وأعلامه، وأجرى بإجراء الأرزاق في الآفاق أقلامه، وأطال بقاه، ورفع إلى عليين علاه، في نعمة لا يبلى جديدها، ولا يحصى عددها ولا عديدها، ولا ينتهي إلى غاية مديدها، ولا يفل حدها ولا حديدها، ولا يقل وادها ولا وديدها، وأدام دولته للدنيا والدين يلم شعثه، ويهزم كرثه، ويرفع مناره، ويحسن بحسن أثره آثاره، ويفتق نوره وأزهاره، وينير نواره، ويضاعف أنواره، وأسبغ ظله للعلوم وأهليها، والآداب ومنتحليها، والفضائل وحامليها، يشيد بمشيد فضله بنيانها، ويرصع بناصع مجده تيجانها، ويروض بيانع علائه زمانها، ويعظم بعلو همته الشريفة بين البرية شأنها، ويمكن في أعلى درج الاستحقاق إمكانها ومكانها، ويرفع بنفاذ الأمر قدره للدول الإسلامية والقواعد الدينية، يسوس قواعدها، ويعز مساعدها، ويهين معاندها، ويعضد بحسن الإيالة معاضدها، وينهج بجميل المقاصد مقاصدها، حتى تعود بحسن تدبيره غرة في جبهة الزمان، وسنة يقتدي بها من طبع على العدل والإحسان، يكون له أجرها ما دام الملوان وكر الجديدان، وما أشرقت من الشرق شمس، وارتاحت إلى مناجاة حضرته الباهرة نفس ".

" وبعد، فالمملوك ينهي إلى المقر العالي المولوي، والمحل الأكرم العلي – أدام الله سعادته مشرقة النور مبلغة السول، واضحة الغرر بادية الحجول – ما هو مكتف بالأريحية المولوية عن تبيانه، مستغن بما منحتها من صفاء الآراء عن إمضاء قلمه لإيضاحه وبيانه، قد أحسبه ما وصف به عليه الصلاة والسلام المؤمنين، وإن من أمتي لمكلمين، وهو شرح ما يعتقده من الولاء، ويفتخر به من التعبد للحضرة الشريفة والاعتزاء، قد كفته الألمعية، عن إظهار المشتبه بالملق مما تجنه الطوية، لأن دلائل غلو المملوك في دين ولائه في الآفاق واضحة، وطبعة سكة إخلاص الوداد باسمه الكريم على صفحات الدهر لائحة، وإيمانه بشرائع الفضل الذي طبق الآفاق حتى أصبح بها بناء المكارم متين، وتلاوته لأحاديث المجد القريبة الأسانيد بالمشاهدة لديه مبين، ودعاء أهل الآفاق إلى المغالاة في الإيمان بإمامة فضله الذي تلقاه باليمين، وتصديقه بملة سؤدده الذي تفرد بالتوخي لنظم شارده وضم متبدده بعرق الجبين، حتى لقد أصبح للفضل كعبة لم يفترض حجها على من استطاع إليها السبيل، ويقتصر بقصدها على ذوي القدرة دون المعتر وابن السبيل، فإن لكل منهم حظاً يستمده، ونصيباً يستعد به ويعتده، فللعظماء الشرف الضخم من معينه، وللعلماء اقتناء الفضائل من قطينه، وللفقراء توقيع الأمان من نوائب الدهر وغض جفونه، وفرضوا من مناسكه للجبهة الشريفة السلام والتبجيل، وللكف البسيطة الاستلام والتقبيل، وقد شهد الله تعالى للمملوك أنه في سفره وحضره، وسره وعلنه وخبره ومخبره، شعاره تعطير مجالس الفضلاء، ومحافل العلماء بفوائد حضرته، والفضائل المستفادة من فضلته، افتخاراً بذلك بين الأنام، وتطريزاً لما يأتي به في أثناء الكلام:

إذا أنا شرفت الورى بقصائدي ... على طمعٍ شرفت شعري بذكره

"يمنون عليك أن أسلموا، قل لا تمنوا علي إسلامكم، بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين" لا حرمنا الله معاشر أوليائه مواد فضائله المتتالية، ولا أخلانا كافة عبيده من أياديه المتوالية، اللهم رب الأرض المدحية، والسموات العلية، والبحار المسجرة، والرياح المسخرة، اسمع ندائي، واستجب دعائي، وبلغنا في معاليه، ما نؤمله ونرتجيه، بمحمد النبي وصحبه وذويه.

وقد كان المملوك لما فارق الجناب الشريف، وانفصل عن مقر العز اللباب والفضل المنيف، أراد استعتاب الدهر الكالح، واستدرار خلف الزمن الغشوم الجامح، اغتراراً بأن الحركة بركة، والاغتراب داعية الاكتساب، والمقام على الإقتار ذل وإسقام، وجلس البيت، في المحافل سكيت:

وقفت وقوف الشك ثم استمر بي ... يقيني بأن الموت خير من الفقر

فودعت من أهلي وبالقلب ما به وسرت عن الأوطان في طلب اليسر
وباكية للبين قلت لها اصبري فللموت خير من حياة على عسر
سأكسب مالاً أو أموت ببلدةٍ يقل بها فيض الدموع على قبري

فامتطى غارب الأمل إلى الغربة، وركب مركب التطواف مع كل صحبة، قاطعاً الأغوار والأنجاد، حتى بلغ السد أو كاد، فلم يصحب له دهره الحرون، ولا رق له زمانه المفتون:

إن الليالي والأيام لو سئلت عن عيب أنفسها لم تكتم الخبرا

فكأنه في جفن الدهر قذى، أو في حلقه شجاً، يدافعه نيل الأمنية، حتى أسلمه إلى ربقة المنية:

لا يستقر بأرضٍ أو يسير إلى أخرى بشخصٍ قريب عزمه نائي
يوماً بحزوى ويوماً بالعقيق ويو ماً بالعذيب ويوماً بالخليصاء
وتارة ينتحي نجداً وآونة شعب الحزون قصر تيماء

وهيهات مع حرفة الأدب، بلوغ وطر أو إدراك أرب، ومع عبوس الحظ، ابتسام الدهر الفظ و لم أزل مع الزمان في تفنيد وعتاب، حتى رضيت من الغنيمة بالإياب، والمملوك مع ذلك يدافع الأيام ويزجيها، ويعلل المعيشة ويرجيها، متقنعا بالقناعة والعفاف، مشتملاً بالنزاهة والكفاف، غير راض بذلك السمل، ولكن مكره أخاك لا بطل، متسلياً بإخوان قد ارتضى خلائقهم، وأمن بوائقهم، عاشرهم بالألطاف، ورضي منهم بالكفاف، لا خيرهم يرتجى، ولا شرهم يتقى:

إن كان لابد من أهل ومن وطن فحيث آمن من ألقى ويأمنني

قد زم نفسه أن يستعمل طرفاً طماحاً، وأن يركب طرفاً جماحاً وأن يلحف بيض طمع جناحاً، وأن يستقدح زنداً وارياً أو شحاحاً:

وأدبني الزمان فلا أبالي هجرت فلا أزار ولا أزور
ولست بقائل ما عشت يوماً أسار الجند أم رحل الأمير

وكان المقام بمرو الشاهجان، المفسر عندهم بنفس السلطان، فوجد بها من كتب العلوم والآداب، وصحائف أولى الأفهام والألباب، ما شغله عن الأهل والوطن، وأذهله عن كل خل صفي وسكن، فظفر منها بضالته المنشودة، وبغية نفسه المفقودة، فأقبل عليها إقبال النهم الحريص، وقابلها بمقام لا مزمع عنها ولا محيص، فجعل يرتع في حدائقها، ويستمتع بحسن خلقها وخلائقها، ويسرح طرفه في طرفها، ويتلذذ بمبسوطها ونتفها، واعتقد المقام بذاك الجناب، إلى أن يجاور التراب:

إذا ما الدهر بيتني بجيشٍ طليعته اغتمام واغتراب
شننت عليه من جهتي كميناً أميراه الذبالة والكتاب
وبت أنص من شيم الليالي عجائب من حقائقها ارتياب
بها أجلو همومي مستريحاً كما جلى همومهم الشراب

إلى أن حدث بخراسان ما حدث من الخراب، والويل المبير والتباب، وكانت لعمر الله بلاداً مونقة الرجاء، رائقة الأنحاء، ذات رياض أريضة، وأهوية صحيحة مريضة، قد تغنت أطيارها، فتمايلت طرباً أشجارها، وبكت أنهارها، فتضاحكت أزهارها، وطاب روح نسيمها، فصح مزاج إقليمها،

ولعهدي بتلك الرياض الأنيقة، والأشجار المتهدلة الوريقة، وقد ساقت إليها أرواح الجنائب، زقاق خمر السحائب، فسقت مروجها مدام الطل، فنشأ على أزهارها حباب كاللؤلؤ المنحل، فلما رويت من تلك الصهباء أشجاره، رنحها من النسيم خماره، فتدانت ولا تداني المحبين، وتعانقت ولا عناق العاشقين، يلوح من خلالها شقائق قد شابه اشتقاق الهوى بالعليل، فشابه شفتي غادتين دنتا للتقبيل، وربما اشتبه على التحرير بائتلاف الخمر، وقد انتابه رشاش القطر، ويريه بهاراً يبهر ناضره، فيرتاح إليه ناظره، كأنه صنوج من العسجد، أو دنانير من الإبريز تنقد، ويتخلل ذلك أقحوان تخاله ثغر المعشوق إذا عض خد عاشق، فلله درها من نزهة رامق ولون وامق، وجملة أمرها أنها كانت أنوذج الجنة بلا مين، فيها ما تشتهي النفس وتلذ العين قد اشتملت عليها المكارم، وارجحنت في أرجائها الخيرات الفائضة للعالم، فكم فيها من حبرٍ راقت حبره، ومن إمام توجت حياة الإسلام سيره، آثار علومهم على صفحات الدهر مكتوبة، وفضائلهم في محاسن الدنيا والدين محسوبة، وإلى كل قطرة مجلوبة، فما من متين علم وقويم رأي إلا ومن شرقهم مطلعه، ولا من مغوبة فضل إلا وعندهم مغربه وإليهم مترعه، وما نشأ من كرم أخلاق بلا اختلاق إلا وجدته فيهم، ولا أعراق في طيب أعراق إلا اجتليته من معانيهم، أطفالهم رجال، وشبابهم أبطال، مشايخهم أبدال، شواهد مناقبهم باهرة، ودلائل مجدهم ظاهرة، ومن العجب العجاب أن سلطانهم المالك، هان عليه ترك تلك الممالك، وقال لتفسه الهوى لك، وإلا فأنت في الهوالك، وأجفل إجفال الرال، وطفق إذا رأى غير شيء ظنه رجلاً بل رجال "كم تركوا من جناتٍ وعيون وزروعٍ ومقامٍ كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين" لكنه عز وجل لم يورثها قوماً آخرين، تتريهاً لأولئك الأبرار عن مقام المجرمين، بل ابتلاهم فوجدهم شاكرين، وبلاهم فألفاهم صابرين، فألحقهم بالشهداء الأبرار، ورفعهم إلى درجات المصطفين الأخبار "وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم، والله يعلم وأنتم لا تعلمون" البقرة: فجاس خلال تلك الديار أهل الكفر والإلحاد، وتحكم في تلك الأبشار أولو الزيغ والعناد، فأصبحت تلك القصور، كالممحو من السطور، وأمست تلك الأوطان مأوى الأصداء والغربان، تتجاوب في نواحيها البوم، وتتناوح في أراجيها الريح السموم، ويستوحش فيها الأنيس، ويرثي لمصابها إبليس:

كأن لم يكن فيها أوانس كالدمى — وأقيال ملك في بسالتهم أسد
فمن حاتم في وجوده وابن مامة — ومن أحنف إن عد حلم ومن سعد
تداعى بهم صرف الزمان فأصبحوا — لنا عبرة تدم الحشا ولمن بعد

فإنا لله وإنا إليه راجعون من حادثة تقصم الظهر، وتهدم العمر، وتفت في العضد، وتوهي الجلد، وتضاعف الكمد، وتشيب الوليد، وتنخب لب الجليد، وتسود القلب، وتذهل اللب، فحينئذ تقهقر المملوك على عقبه، ناكساً، ومن الأوبة إلى حيث تستقر في النفس بالأمن آيساً، بقلب واجب، ودمع ساكب، ولب عازب، وحلم غائب، وتوصل وما كاد حتى استقر بالموصل بعد مقاساة أخطار، وابتلاء واصطبار، وتمحيص الأوزار، وإشراف غير مرة على البوار والتبار، لأنه مر بين سيوف مسلولة، وعساكر مفلولة، ونظام عقود محلولة، ودماء مسكوبة مطلولة، وكان شعاره كلما علا قتبا، أو قطع سبسباً "لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا" الكهف: فالحمد لله الذي أقدرنا على الحمد، وأولانا نعماً تفوت الحصر والعد، وجملة الأمر أنه لولا فسحة في الأجل، لعز أن يقال سلم البائس أو وصل، ولصفق عليه أهل الوداد صفقة المغبون، وألحق بألف ألف ألف ألف ألف هالك بأيدي الكفار أو يزيدون، وخلف خلفه جل ذخيرته، ومستمد معيشته:

تنكر لي دهري ولم يدر أنني — أعز وأحداث الزمان تهون
وبات يريني الخطب كيف اعتداؤه — وبت أريه الصبر كيف يكون

وبعد، فليس للمملوك ما يسلي به خاطره، ويعزي به قلبه وناظره، إلا التعلل بإزاحة العلل، إذا هو بالحضرة الشريفة مثل:

فاسلم ودم وتمل العيش في دعة — ففي بقائك ما يسلي عن السلف
فأنت للمجد روح والورى جسد — وأنت در فلا تأسى على الصدف

والمملوك الآن بالموصل مقيم، يعالج لما حزبه من هذا الأمر المقعد المقيم، يزجي وقته، ويمارس حرفته، وبخته يكاد يقول له باللسان القويم "تالله إنك لفي ضلالك القديم""يوسف:" يذيب نفسه في تحصيل أغراض، هي لعمر الله أعراض، من صحف يكتبها، وأوراق يستصحبها، نصبه فيها طويل، واستمتاعه بها قليل، ثم الرحيل، وقد عزم بعد قضاء نهمته، وبلوغ بعض وطر قرونته، أن يستمد التوفيق، ويركب سنن الطريق، عساه أن يبلغ أمنيته، من المثول بالحضرة، وإتحاف بصره من خلالها ولو بنظرة، ويلقى عصا الترحال بفنائها الفسيح، ويقيم تحت ظل كنفها إلى أن يصادفه الأجل المريح، وينظم نفسه في سلك مماليكها بحضرتها، كما ينتمي إليها في غيبتها، إن مدت السعادة بضبعه، وسمح له الدهر بعد الخفض برفعه، فقد ضعفت قواه عن درك الآمال، وعجز عن معاركة الزمان والنزال، إذ ضمت البسيطة إخوانه، وحجب الجديدان أقرانه، ونزل المشيب بعذاره، وضعفت منة أوطاره، وانقض باز على غراب شبابه فقنصه، وأكب نهار الحلم على ليل الجهل فوقصه، وتبدلت محاسنه عند أحبابه مساوي وخصصه، واستعاض من حلة الشباب القشيب، خلق الكبر والمشيب:

وشباب بان مني وانقضى ... قبل أن أقضي منه أربي

ما أرجى بعده إلا الفن ... ضيق الشيب علي مطلبي

ولقد ندب المملوك أيام الشباب بهذه الأبيات، وما أقل غناء الباكي على من عد في الرفات:

تنكر لي مذ شبت دهري وأصبحت ... معارفه عندي من النكرات

إذا ذكرتها النفس حنت صبابةً ... وجادت شؤون العين بالعبرات

إلى أن أتى دهر يحسن ما مضى ... ويوسعني تذكاره حسرات

فكيف ولم يبق من كاس مشربي ... سوى جرع في قعره كدرات

وكل إناء صفوه في ابتدائه ... وفي القعر مزجاً حمأةٍ وقذاة

والمملوك يتيقن أنه لا ينفق هذا الهذر الذي مضى، إلا النظر إليه بعين الرضا، ولرأي المولى الوزير الصاحب، كهف الورى في المشارق والمغارب، فيما يلاحظه منه بعادة مجده، مزيد مناقب ومراتب، والسلام.

ولقد طالت هذه الترجمة بسبب طول الرسالة، ولم يمكن قطعها.

وقال صاحبنا الكمال بن الشعار الموصلي في كتاب " عقود الجمان ": أنشدني أبو عبد الله محمد بن محمود المعروف بابن النجار البغدادي صاحب " تاريخ بغداد " قال: أنشدني ياقوت المذكور لنفسه في غلامٍ تركي قد رمدت عينه وعليها وقاية سوداء:

ومولدٍ للترك تحسب وجهه ... بدراً يضيء سناه بالإشراق

أرخى على عينيه فضل وقاية ... ليرد فتنتها عن العشاق

تالله لو أن السوابغ دونها ... نفذت فهل لوقايةٍ من واق

وكانت ولادة ياقوت المذكور في سنة أربع أو خمس وسبعين وخمسمائة، ببلاد الروم، هكذا قاله. وتوفي يوم الأحد العشرين من شهر رمضان سنة ست وعشرين وستمائة، في الخان بظاهر مدينة حلب، حسبما قدمنا ذكره في أول الترجمة، رحمه الله تعالى.

وكان قد وقف كتبه على مسجد الزيدي الذي بدرب دينار ببغداد، وسلمها إلى الشيخ عز الدين أبي الحسن علي بن الأثير صاحب التاريخ الكبير، فحملها إلى هناك. ولما تميز ياقوت المذكور واشتهر سمى نفسه " يعقوب ".

وقدمت حلب للاشتغال بها في مستهل ذي القعدة سنة وفاته، ذلك عقيب موته والناس يثنون عليه ويذكرون فضله وأدبه. ولم يقدّر لي الاجتماع به.

الحافظ بن معين

أبو زكريا يحيى بن معين بن عون بن زياد بن بسطام بن عبد الرحمن المري البغدادي، الحافظ المشهور، كان إماماً عالماً حافظاً متقناً، قيل إنه من قرية نحو النبار تسمى نقياي. وكان أبوه كاتباً لعبد الله بن مالك، وقيل إنه كان على خراج الري فمات، فخلف لابنه يحيى المذكور ألف ألف درهم وخمسين ألف درهم، فأنفق جميع المال على الحديث حتى لم يبق له نعل يلبسه.

وسئل يحيى المذكور: كم كتبت من الحديث؟ فقال: كتبت بيدي هذه ستمائة ألف حديث، وقال راوي هذا الخبر، وهو أحمد بن عقبة: وإني أظن أن المحدثين قد كتبوا بأيديهم ستمائة ألف وستمائة ألف. وخلف م الكتب مائة قمطر وثلاثين قمطراً وأربعة حباب شرابية مملوءة كتباً، وهو صاحب الجرح والتعديل. وروى عنه الحديث كبار الأئمة منهم: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري وأبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري وأبو داود السجستاني، وغيرهم من الحفاظ، وكان بينه وبين الإمام أحمد بن حنبل، رضي الله عنه، من الصحبة والألفة والاشتراك في الاشتغال بعلوم الحديث ما هو مشهور، ولا حاجة إلى الإطالة فيه، وروى عنه هو وأبو خيثمة وكانا من أقرانه.

وقال علي بن المديني: انتهى العلم بالبصرة إلى يحيى بن أبي كثير وقتادة، وعلم الكوفة إلى أبي إسحاق والأعمش، وانتهى علم الحجاز إلى ابن شهاب وعمرو بن دينار، وصار علم هؤلاء الستة بالبصرة إلى سعيد بن أبي عروبة وشعبة ومعمر وحماد بن سلمة وأبي عوانة، ومن أهل الكوفة إلى سفيان الثوري وسفيان بن عيينة، ومن أهل الحجاز إلى مالك بن أنس، ومن أهل الشام إلى الوزاعي، وانتهى علو هؤلاء إلى محمد بن إسحاق وهشيم ويحيى بن سعيد وابن أبي زائدة ووكيع وابن المبارك وهو أوسع هؤلاء علماً، وابن مهدي ويحيى ابن آدم، وصار علم هؤلاء جميعاً إلى يحيى بن معين.

وقال أحمد بن حنبل: كل حديث لا يعرفه يحيى بن معين فليس هو بحديث. وكان يقول: صاحبنا رجل خلقه الله لها الشأن، ويظهر كذب الكذابين، يعني يحيى بن معين.

وقال ابن الرومي: ما سمعت أحداً قط يقول الحق في المشايخ، غير يحيى بن معين، وغيره كان يتحامل بالقول.

وقال يحيى: ما رأيت على رجل قط خطأ إلا سترته عليه وأحببت أن أبين أمره، وما استقبلت رحلاً في وجهه بأمر يكرهه، ولكن أبين له خطأه، فيما بيني وبينه، فإن قبل ذلك وإلا تركته وكان يقول: كتبنا عن الكذابين، وسجرنا به التنور، وأخرجنا به خبزاً نضيجاً، وكان ينشد:

المال يذهب حله وحرامه ... طراً وتبقى في غدٍ آثامه

ليس التقي بمتق لأهله ... حتى يطيب شرابه وطعامه

ويطيب ما يحوي وتكسب كفه ... ويكون في حسن الحديث كلامه

نطق النبي لنا به عن ربه ... فعلى النبي صلاته وسلامه

وقد ذكره الدارقطني فيمن روى عن الإمام الشافعي، رضي الله عنه، وقد سبق في ترجمة الشافعي خبره معه، وما جرى بينه وبين الإمام أحمد بن حنبل في ذلك، وسمع أيضاً من عبد الله بن المبارك وسفيان بن عيينة.

وكان يحج فيذهب إلى مكة على المدينة ويرجع إلى المدينة، فلما كان آخر حجة حجها خرج على المدينة، ورجع على المدينة فأقام بها ثلاثة أيام، ثم خرج حتى نزل المترل مع رفقائه، فباتوا فرأى في النوم هاتفاً يهتف به: يا أبا زكريا، أترغب في جواري؟ فلما أصبح قال لرفقائه: امضوا فإني راجع إلى المدينة، فمضوا ورجع، فأقام بها ثلاثاً، ثم مات فحمل على أعواد النبي صلى الله عليه وسلم.

وكانت وفاته لسبع ليال بقين من ذي القعدة سنة ثلاث وثلاثين ومائتين، هكذا قاله الخطيب في

" تاريخ بغداد "وهو غلط قطعاً، لما تقدم ذكره، وهو أنه خرج إلى مكة للحج، ثم رجع إلى المدينة ومات بها، ومن يكون قد حجج كيف يتصور أن يموت بذي القعدة من تلك السنة؟ فلو ذكر أنه توفي في ذي الحجة لأمكن، وكان يحتمل أن يكون هذا غلطاً من الناسخ، لكني وجدته في نسختين على هذا الصورة، فيبعد أن يكون من الناسخ، والله أعلم. ثم ذكر بعد ذلك أن الصحيح أنه مات قبل أن يحج، وعلى هذا يستقيم ما قاله من تاريخ الوفاة. ثم نظرت في كتاب " الإرشاد في معرفة علماء الحديث " – تأليف أبي يعلى الخليل بن عبد الله ابن أحمد بن إبراهيم بن الخليل الخليلي الحافظ – أن يحيى

بن معين المذكور توفي لسبع ليالٍ بقين من ذي الحجة من السنة المذكورة فعلى هذا يكون قد حج، وذكر الخطيب أيضاً أن مولده كان آخر سنة ثمان وخمسين ومائة، ثم قال بعد ذكر وفاته: إنه بلغ سبعاً وسبعين سنة إلا عشرة أيام، وهذا أيضاً لا يصح من جهة الحساب فتأمله. ورأيت في بعض التواريخ أنه عاش خمساً وسبعين سنة، والله أعلم بالصواب، وصلى عليه والي المدينة. ثم صلي عليه مراراً ودفن بالبقيع، وكان بين يدي جنازته رجلاً ينادي: هذا الذي كان ينفي الكذب عن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ورثاه بعض المحدثين فقال:

ذهب العليم بعيب كل محدثٍ ... وبكل مختلفٍ من الإسناد

وبكل وهمٍ في الحديث ومشكلٍ ... يعيا به علماء كل بلاد

رضي الله عنه.

ومعين: بفتح الميم وكسر العين المهملة وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها نون.

وبسطام: بكسر الباء الموحدة وسكون السين المهملة وفتح الطاء المهملة وبعد الألف ميم، والباقي معروف فلا حاجة إلى ضبطه.

ورأيت في بعض التواريخ أنه يحيى بن معين بن غياث بن زياد بن عون بن بسطام مولى الجنيد بن عبد الرحمن الغطفامي المري أمير خراسان من قبل هشام بن عبد الملك الأموي، والأول أشهر وأصح، أعني النسب.

والمري: بضم الميم وتشديد الراء، هذه النسبة إلى مرة غطفان، وهو مرة بن عوف بن سعد بن بغيض بن ريث بن غطفان، وهي قبيلة كبيرة مشهورة، وفي العرب عدة قبائل تنسب إليها يقال لكل واحدة منها مرة.

وأما نقياي: فقال ابن السمعاني في كتاب " الأنساب " إنها بفتح النون وكسر القاف أو فتحها وبعدها ياء مفتوحة تحتها نقطتان وبعد الألف ياء ثانية، وهي من قرى الأنبار منها يحيى بن معين النقيايي، قال الخطيب: ويقال إن فرعون كان من أهل هذه القرية. والله أعلم.

يحيى بن يحيى الليثي

أبو محمد يحيى بن يحيى بن كثير بن وسلاس – وقيل وسلاسن – ابن شمال بن منغايا الليثي، أصله من البربر من قبيلة يقال لها مصمودة، تولى بني ليث فنسب إليهم، وجده كثير يكنى أبا عيسى، وهو الداخل إلى الأندلس، وسكن قرطبة، وسمع بها من زياد بن عبد الرحمن بن زياد اللخمي المعروف بشبطون القرطبي " موطأ " مالك بن أنس رضي الله عنه، وسمع من يحيى بن مضر القيسي الأندلسي. ثم رحل إلى المشرق وهو ابن ثمان وعشرين سنة، فسمع من مالك بن أنس " الموطأ " غير أبواب في كتاب الاعتكاف، شك في سماعه فيها فأثبت فيها عن زياد، وسمع بمكة من سفيان بن عيينة، وبمصر من الليث بن سعد وعبد الله بن وهب وعبد الرحمن بن القاسم، وتفقه بالمدنيين والمصريين من أكابر أصحاب مالك بعد انتفاعه بمالك وملازمته له، وكان مال يسميه عاقل الأندلس، وسبب ذلك فيما يروى أنه كان في مجلس مالك مع جماعة من أصحابه، فقال قائل قد حضر الفيل، فخرج أصحاب مالك كلهم لينظروا إليه، ولم يخرج يحيى، فقال له مالك: مالك لا تخرج فتراه لأنه لا يكون بالأندلس؟ فقال: إنما جئت من بلدي لنظر إليك وأتعلم من هديك وعلمك، ولم أجئ لأنظر إلى الفيل، فأعجب به مالك وسماه عاقل أهل الأندلس.

ثم إن يحيى عاد إلى الأندلس وانتهت إليه الرياسة بها، وبه انتشر مذهب مالك في تلك البلاد، وتفقه به جماعة لا يحصون عدداً وروى عنه خلق كثير، وأشهر روايات " الموطأ " وأحسنها رواية يحيى المذكور، وكان مع إمامته ودينه معظماً عند المراء مكيناً، عفيفاً عن الولايات متنزهاً، جلت رتبته عن القضاء، فكان أعلى قدراً من القضاة عند ولاة الأمر هناك لزهده في القضاء وامتناعه عنه.

قال أبو محمد علي بن أحمد المعروف بابن حزم الأندلسي – المقدم ذكره: مذهبان انتشرا في مبدأ أمرهما بالرياسة والسلطان: مذهب أبي حنيفة، فإنه لما ولي قضاء القضاة أبو يوسف يعقوب صاحب أبي حنتفة – وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى – كانت القضاة من قبله، فكان لا يولي قضاء البلدان من أقصى المشرق إلى أقصى إفريقية إلا أصحابه والمنتمين إليه وإلى مذهبه، ومذهب مالك بن أنس عندنا في بلاد الأندلس، فإن يحيى بن يحيى كان مكيناً

عند السلطان مقبول القول في القضاة، فكان لا يلي قاض في أقطار بلاد الأندلس إلا بمشورته واختياره، ولا يشير إلا بأصحابه ومن كان على مذهبه، والناس سراع إلى الدنيا فأقبلوا على ما يرجون بلوغ أغراضهم به، على أن يحيى بن يحيى لم يل قضاء قط ولا أجاب إليه، وكان ذلك زائداً في جلالته عندهم وداعياً إلى قبول رأيه لديهم.

وحكى أحمد بن أبي الفياض في كتابه قال: كتب الأمير عبد الرحمن بن الحكم الأموي المعروف بالربضي صاحب الأندلس إلى الفقهاء يستدعيهم إليه، فاتوا إلى القصر، وكان عبد الرحمن المذكور قد نظر في شهر رمضان إلى جارية له كان يحبها حباً شديداً، فعبث بها، و لم يملك نفسه أن وقع عليها، ثم ندم ندماً شديداً، فسأل الفقهاء عن توبته من ذلك وكفارته، فقال يحيى بن يحيى: يكفر ذلك بصوم شهرين متتابعين، فلما بدر يحيى بهذه الفتيا سكت بقية الفقهاء حتى خرجوا من عنده، فقال بعضهم لبعض وقالوا ليحيى: ما لك لم تفته بمذهب مالك، فعنده أنه مخير بين العتق والطعام والصيام؟ فقال: لو فتحنا له هذا الباب سهل عليه أن يطأ كل ويعتق رقبة، ولكن حملته على أصعب الأمور لئلا يعود.

ولما انفصل يحيى عن مالك ليعود إلى بلاده ووصل إلى مصر، رأى عبد الرحمن بن القاسم يدون سماعه عن مالك، فنشط للرجوع إلى مالك ليسمع منه المسائل التي كان ابن القاسم دونها عنه، فرحل رحلة ثانية، فألفى مالكاً عليلاً، فأقام عنده إلى أن مات وحضر جنازته، فعاد إلى ابن القاسم، وسمع منه سماعه من مالك، ذكر ذلك أبو الوليد ابن الفرضي في تاريخه، وذكر أيضاً فيه ما مثاله: وانصرف يحيى بن يحيى إلى الأندلس، فكان إمام وقته، وواحد بلاده، وكان رجلاً عاقلاً. قال محمد بن عمر بن لبابة: فقيه الأندلس عيسى بن دينار، وعالمها عبد الملك بن حبيب، وعاقلها يحيى بن يحيى وكان يحيى ممن اتهم ببعض الأمر في الهيج، فخرج إلى طليطلة، ثم استأمن، فكتب الأمير الحكم أماناً، وانصرف إلى قرطبة. وكان أحمد بن خالد يقول: لم يعط أحد من أهل العلم بالأندلس، منذ دخلها الإسلام، من الحظوة وعظم القدر وجلالة الذكر ما أعطيه يحيى بن يحيى.

وقال ابن بشكوال في تاريخه: كان يحيى بن يحيى مجاب الدعوة، وكان قد أخذ في نفسه وهيئته ومقعده هيئة مالك.

وحكي عنه أنه قال: أخذت ركاب الليث بن سعد، فأراد غلامه أن يمنعني فقال: دعه، ثم قال لي الليث: خدمك أهل العلم، فلم تزل بي الأيام حتى رأيت ذلك. ثم قال: وتوفي يحيى بن يحيى في رجب سنة أربع وثلاثين ومائتين، وقبره بمقبرة ابن عياش يستسقى به، وهذه المقبرة بظاهر قرطبة، وزاد أبو عبد الله الحميدي في كتاب " جذوة المقتبس " أن وفاته كانت لثمان بقين من الشهر المذكور، وقال أبو الوليد ابن الفرضي في تاريخه: إنه سنة ثلاث وثلاثين، وقيل سنة أربع وثلاثين في رجب، والله أعلم بالصواب.

وأما وسلاس: فه بكسر الواو وسينين مهملتين الأولى منهما ساكنة وبينهما لام ألف، ويزاد فيه نون فيقال وسلاسن، ومعناه بالبربرية: يسمعهم.

وشمّال: بفتح الشين المعجمة وتشديد الميم وبعد الألف لام.

ومنغايا: بفتح الميم وسكون النون وفتح الغين المعجمة وبعد الألف ياء معجمة باثنتين من تحتها وبعدها ألف مقصورة ومعناه عندهم: قاتل هذا، والله أعلم.

وقد تقدم الكلام على الليثي والبربري ومصمودة، والله أعلم.

يحيى بن أكثم

أبو محمد يحيى بن أكثم بن محمد بن قطن بن سمعان بن مشنج، التميمي الأسيدي المروزي، من ولد أكثم بن صيفي التميمي حكيم العرب، وكان عالماً بالفقه بصيراً بالأحكام، ذكره الدارقطني في أصحاب الشافعي، رضي الله عنه.

وقال الخطيب في " تاريخ بغداد ": كان يحيى بن أكثم سليماً من البدعة، ينتحل مذهب أهل السنة، سمع عبد الله بن المبارك وسفيان بن عيينة وغيرهما – وقد مر ذكره في ترجمة سفيان وما دار بينهما – وروى عنه أبو عيسى الترمذي وغيره.

وقال طلحة بن محمد بن جعفر في حقه: يحي بن أكثم أحد أعلام الدنيا ومن قد اشتهر أمره وعرف خبره، ولم يستتر عن الكبير والصغير من الناس فضله وعلمه ورياسته لأمره وأمر أهل زمانه من الخلفاء والملوك، واسع العلم بالفقه كثير الأدب حسن العارضة قائم بكل معضلة، وغلب على المأمون حتى لم يتقدمه أحد عنده من الناس جميعاً. وكان المأمون ممن برع في العلوم، فعرف من حال يحيى بن أكثم وما هو عليه من العلم والعقل ما أخذ

بمجامع قلبه، حتى قلده قضاء القضاة وتدبير أهل مملكته فكانت الوزراء لا تعمل في تدبير الملك شيئاً إلا بعد مطالعة يحيى بن أكثم، ولا نعلم أحداً غلب على سلطانه في زمانه، إلا يحيى بن أكثم، وأحمد بن أبي داود.

وسئل رجل من البلغاء عن يحيى بن أكثم وابن أبي داود: أيهما أنبل؟ فقال: كان أحمد يجد مع جاريته وابنته، ويحيى يهزل مع خصمه وعدوه.

"وكان يحيى سليماً من البدعة ينتحل مذهب أهل السنة، بخلاف أحمد بن أبي داود، وقد تقدم في ترجمته طرف من اعتقاده وتعصبه للمعتزلة، وكان يحيى يقول: القرآن كلام الله، فمن قال إنه مخلوق يستتاب فإن تاب وإلا ضربت عنقه".

وذكر الفقيه أبو الفضل عبد العزيز بن علي بن عبد الرحمن الأشنهي، الملقب زين الدين، في كتاب " الفرائض " في آخر المسائل الملقبات وهي الرابعة عشرة المعروفة بالمأمونية، وهي: أبوان وابنتان لم تقسم التركة حتى ماتت إحدى البنتين وخلفت من في المسألة، سميت مأمونية لأن المأمون أراد أن يولي رجلاً على القضاء فوصف له يحيى بن أكثم فاستحضره، فلما حضر دخل عليه، وكان دميم الخلق، فاستحقره المأمون لذلك، فعلم ذلك يحيى فقال: يا أمير المؤمنين، سلني إن كان القصد علمي لا خلقي، فسأله عن هذه المسألة فقال: يا أمير المؤمنين الميت الأول رجل أم امرأة، فعرف المأمون أنه قد عرف المسألة، فقلده القضاء.

وهذه المسألة إن كان الميت الأول رجلاً تصح المسألتان من أربعة وخمسين، وإن كانت امرأة لم يرث الجد في المسألة الثانية شيئاً لأنه أبو أم، فتصح المسألتان من ثمانية عشر سهماً.

وذكر الخطيب في " تاريخ بغداد " أن يحيى بن أكثم ولي قضاء البصرة وسنه عشرون سنة ونحوها، فاستصغره أهل البصرة، فقالوا: كم سن القاضي؟ فعلم أنه استصغر، فقال: أنا أكبر من عتاب بن أسيد الذي وجه به النبي صلى الله عليه وسلم قاضياً على مكة يوم الفتح، وأنا أكبر من معاذ بن جبل الذي وجه به النبي صلى الله عليه وسلم قاضياً على أهل اليمن، وأنا أكبر من كعب بن سور الذي وجه به عمر بن الخطاب رضي الله عنه قاضياً على أهل البصرة، فجعل جوابه احتجاجاً.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ولى عتاب بن أسيد مكة بعد فتحها وله إحدى وعشرون سنة، وقيل ثلاث وعشرون، وكان إسلامه يوم فتح مكة، وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أصحبك وأكون معك، فقال: أو ما ترضى أن أستعملك على آل الله تعالى؟ فلم يزل عليهم حتى قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال: وبقي يحيى سنة لا يقبل شاهداً، فتقدم إليه أحد الأمناء فقال: أيها القاضي، قد وقفت الأمور وتريثت الأحوال، فقال: وما السبب؟ قال: في ترك القاضي قبول الشهود، فأجاز في ذلك اليوم منها سبعين شاهداً.

وقال غير الخطيب: كانت ولاية القاضي يحيى بن أكثم القضاء بالبصرة سنة اثنتين ومائتين. وقد سبق في ترجمة حماد بن أبي حنيفة أن يحيى المذكور ولي البصرة بعد إسماعيل بن حماد بن أبي حنيفة، وذكر عمر بن شبة في كتاب " أخبار البصرة " أن يحيى عزل عن قضاء البصرة في سنة عشرين ومائتين، وتولى إسماعيل بن حماد بن أبي حنيفة. وحدث محمد بن منصور قال: كنا مع المأمون في طريق الشام فأمر فنودي بتحليل المتعة، فقال يحي بن أكثم لي ولأبي العيناء: بكرا غداً إليه، فإن رأيتما للقول وجهاً فقولا، وإلا فاسكتا إلى أن أدخل، قال: فدخلنا عليه وهو يستاك ويقول وهو مغتاظ: متعتان كانتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى عهد أبي بكر رضي الله عنه وأنا أنهي عنهما، ومن أنت يا جعل حتى تنهي عما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رضي الله عنه؟ فأومأ أبو العيناء إلى محمد بن منصور وقال: رجل يقول في عمر بن الخطاب ما يقول نكلمه نحن؟ فأمسكنا، فجاء يحيى بن أكثم فجلس وجلسنا، فقال المأمون ليحيى: ما لي أراك متغيراً؟ فقال: هو غم يا أمير المؤمنين لما حدث في الإسلام، قال: وما حدث فيه؟ قال: النداء بتحليل الزنا، قال: الزنا؟ قال: نعم، المتعة زنا، قال: ومن أين قلت هذا؟ قال: من كتاب الله عز وجل، وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال الله تعالى: "قد أفلح المؤمنون" إلى قوله "والذين هم لفروجهم حافظون، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون" المؤمنون: يا أمير المؤمنين زوجة المتعة ملك يمين؟ قال: لا، قال: فهي الزوجة التي عند الله ترث وتورث وتلحق الولد ولها شرائطها؟ قال: لا، قال: فقد صار متجاوز هذين من العادين، وهذا الزهري يا أمير المؤمنين روى عن عبد الله والحسن ابني محمد بن الحنيفة عن

أبيهما عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أنادي بالنهي عن المتعة وتحريمها بعد أن كان أمر بها، فالتفت إلينا المأمون فقال: أمحفوظ هذا من حديث الزهري، فقلنا: نعم يا أمير المؤمنين، رواه جماعة منهم مالك رضي الله عنه، فقال: أستغفر الله، نادوا بتحريم المتعة، فنادوا بها. قال أبو إسحاق إسماعيل بن إسحاق بن إسماعيل بن حماد بن زيد بن درهم الزدي القاضي الفقيه المالكي البصري، وقد ذكر يحيى بن أكثم فعظم أمره وقال: كان له يوم في الإسلام لم يكن لأحد مثله، وذكر هذا اليوم.

وكانت كتب يحيى في الفقه أجل كتب، فتركها الناس لطولها، وله كتب في الأصول، وله كتاب أورده على العراقيين سماه " التنبيه " وبينه، وبين داود بن علي مناظرات كثيرة.

ولقيه رجل وهو يومئذ على القضاء فقال: أصلح الله القاضي كم آكل؟ قال فوق الجوع ودون الشبع، فقال: فكم أضحك؟ قال: حتى يسفر وجهك ولا يعلو صوتك، قال: فكم أبكي؟ قال: لا تمل من البكاء من خشية الله تعالى، قال فكم أخفي عملي؟ قال: ما استطعت، قال: فكم أظهر منه؟ قال: مقدار ما يقتدي بك البر الخير ويؤمن عليك قول الناس، قال الرجل: سبحان الله قول قاطن وعمل ظاعن.

وكان يحيى من أدهى الناس وأخبرهم بالأمور، رأيت في بعض المجاميع أن أحمد بن أبي خالد الأحول وزير المأمون وقف بين يدي المأمون وخرج يحيى بن أكثم من بعض المستراحات، فوقف، فقال له المأمون اصعد، فصعد وجلس على طرف السرير معه، فقال أحمد: يا أمير المؤمنين إن القاضي يحيى صديقي، وممن أثق به في جميع أموري، وقد تغير عما عهدته منه، فقال المأمون: يا يحيى إن فساد أمر الملوك بفساد خاصتهم، وما يعدلكما عندي أحد، فما هذه الوحشة بينكما؟ فقال له يحيى: يا أمير المؤمنين والله إنه ليعلم أني له على أكثر مما وصف، ولكنه لما رأى مترلتي منك هذه المترلة خشي أن أتغير له يوماً فأقدح فيه عندك، فأحب أن يقول لك هذا ليأمن مني، وإنه والله لو بلغ نهاية ماءتي ما ذكرته بسوء عندك أبداً، فقال المأمون: أكذلك هو يا أحمد؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، قال: أستعين بالله عليكما، فما رأيت أتم دهاء ولا أعظم فطنة منكما.

ولم يكن فيه ما يعاب به سوى ما كان يتهم به من الهنات المنسوبة إليه الشائعة عنه، والله أعلم بحاله فيها، وذكر الخطيب في تاريخه أنه ذكر لأحمد بن حنبل رضي الله عنه ما يرميه الناس به، فقال: سبحان الله، من يقول هذا؟ وأنكر ذلك إنكاراً شديداً. وذكر عنه أيضاً أنه كان يحسد حسداً شديداً، وكان مفنناً. فكان إذا نظر إلى رجل يحفظ الفقه سأله عن الحديث، وإذا رآه يحفظ الحديث سأله عن النحو، وإذا رآه يعلم النحو سأله عن الكلام، ليقطعه ويخجله، فدخل إليه رجل من خراسان ذكي حافظ، فناظره، فرآه مفنناً، فقال له: نظرت في الحديث؟ قال: نعم، قال: ما تحفظ من الأصول؟ قال: أحفظ عن شريك عن أبي إسحاق عن الحارث أن علياً رضي الله عنه رجم لوطياً، فأمسك ولم يكلمه.

ثم قال الخطيب أيضاً: ودخل على يحيى بن أكثم ابنا مسعدة، وكانا على نهاية الجمال، فلما رآهما يمشيان في الصحن أنشأ يقول:

يا زائرينا من الخيام | حياكم الله بالسلام
لم تأتياني وبي نهوض | إلى حلالٍ ولا حرام
يحزنني أن وقفتما بي | وليس عندي سوى الكلام

ثم أجلسهما بين يديه وجعل يمازحهما حتى انصرفا. ويقال إنه عزل عن الحكم بسبب هذه الأبيات.

ورأيت في بعض المجاميع أن يحيى بن أكثم مازح الحسن بن وهب المذكور في ترجمة أخيه سليمان بن وهب، وهو يومئذ صبي، فلاعبه ثم جمشه، فغضب الحسن، فأنشد يحيى:

أيا قمراً جمشته فتغضبا | وأصبح لي من تيهه متجنبا
إذا كنت للتجميش والعض كارهاً | فكن أبداً يا سيدي متنقباً
ولا تظهر الأصداغ للناس فتنةً | وتجعل منها فوق خديك عقربا

فتقتل مسكيناً وتفتن ناسكاً ... وتترك قاضي المسلمين معذبا

وقال أحمد بن يونس الضبي: كان زيدان الكاتب يكتب بين يدي يحيى بن أكثم القاضي، وكان غلاماً جميلاً متناهي الجمال، فقرص القاضي خده، فخجل الغلام واستحيا وطرح القلم من يده، فقال له يحيى: خذ القلم واكتب ما أملي عليك، ثم أملى الأبيات المذكورة، والله أعلم.

وقال إسماعيل بن محمد بن إسماعيل الصفار: سمعت أبا العيناء في مجلس أبي العباس المبرد يقول: كنت في مجلس أبي عاصم النبيل، وكان أبو بكر بن يحيى بن أكثم حاضراً، فنازع غلاماً فارتفع الصوت، فقال أبو عاصم: مهيم؟ فقالوا: هذا أبو بكر بن يحيى بن أكثم ينازع غلاماً، فقال: إن يسرق فقد سرق أب له من قبل، هكذا ذكره الخطيب في تاريخه.

وذكر الخطيب أيضاً في تاريخه أن المأمون قال ليحيى المذكور من الذي يقول؟:

قاضٍ يرى الحد في الزناء ولا ... يرى على من يلوط من باس

قال: أو ما يعرف أمير المؤمنين من القائل؟ قال: لا، قال: يقوله الفاجر أحمد بن أبي نعيم الذي يقول:

لا أحسب الجور ينقضي وعلى ال ... أمة والٍ من آل عباس

قال: فأفحم المأمون خجلاً، وقال ينبغي أن ينفى أحمد بن أبي نعيم إلى السند، وهذان البيتان من جملة أبيات أولها:

أنطقني الدهر بعد إخراس ... لنائبات أطلن وسواسي

يا بؤس للدهر لا يزال كما ... يرفع ناساً يحط من ناس

لا أفلحت أمة وحق لها ... بطول نكسٍ وطول إتعاس

ترضى بيحيى يكون سائسها ... وليس يحيى لها بسواس

قاضٍ يرى الحد في الزناء ولا ... يرى على من يلوط من باس

يحكم للأمرد الغرير على ... مثل جرير ومثل عباس

فالحمد لله كيف قد ذهب ال ... عدل وقل الوفاء في الناس

أميرنا يرتشي وحاكمنا ... يلوط والرأس شر ما راس

لو صلح الدين فاستقام لقد ... قام على الناس كل مقياس

لا أحسب الجور ينقضي وعلى ال ... أمة والٍ من آل عباس

وظني أنها أكثر من هذا، ولكن الخطيب لم يذكر إلا هذا القدر.

ونقلت من أمالي أبي بكر محمد بن القاسم الأنباري – المقدم ذكره – أن القاضي يحيى بن أكثم قال لرجل يأنس به ويمازحه: ما تسمع الناس يقولون في؟ قال: ما أسمع إلا خيراً، قال: ما أسألك لتزكيني، قال: أسمعهم يرمون القاضي بالأبنة، قال: فضحك وقال: اللهم غفراً! المشهور عنا غير هذا.

وحكى أبو الفرج الأصبهاني في كتاب " الأغاني " ليحيى المذكور وقائع في هذا الباب، وأن المأمون لما تواتر النقل عن يحيى بهذا أراد امتحانه، فأخلى له مجلساً واستدعاه، وأوصى مملوكاً حزرياً يقف عندهما وحده، فإذا خرج المأمون يقف المملوك ولا ينصرف، وكان المملوك في غاية الحسن، فلما اجتمعنا بالمجلس وتحادثا قام المأمون كأنه يقضي حاجة فوقف المملوك، فتجسس المأمون عليهما، وكان قرر معه أن يعبث بيحيى علماً منه أن يحيى لا يتجاسر عليه خوفاً من المأمون، فلما عبث به المملوك سمعه المأمون وهو يقول: لولا أنتم لكنا مؤمنين.

فدخل المأمون وهو ينشد:

وكنا نرجي أن نرى العدل ظاهراً فأعقبنا بعد الرجاء قنوط

متى تصلح الدنيا ويصلح أهلها وقاضي قضاة المسلمين يلوط

وهذان البيتان لأبي حكيمة راشد بن إسحاق الكاتب، وراشد له فيه مقاطيع كثيرة.

وذكر المسعودي في " مروج الذهب " في ترجمة المأمون جملة من أخبار يحيى في هذا الباب أضربنا عن ذكرها.

ومما يناسب حكاية المأمون مع يحيى بسؤاله عن البيت لمن هو وإجابة يحيى ببيت آخر من القصيدة ما يروى أن معاوية بن أبي سفيان الأموي لما مرض مرض موته واشتدت علته وحصل اليأس منه، دخل عليه بعض أولاد علي بن أبي طالب رضي الله عنه يعوده، ولا أستحضر الآن من هو، فوجده قد استند يتجلد له لئلا يشتفي به، فضعف عن القعود فاضطجع وأنشد:

وتجلدي للشامتين أريهم أني لريب الدهر لا أتضعضع

فقام العلوي من عنده وهو ينشد:

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمةٍ لا تنفع

فعجب الحاضرون من جوابه.

وهذا البيتان من جملة قصيدة طويلة لأبي ذؤيب خويلد بن خالد الهذلي يرثي بها بنيه، وكان قد هلك له خمس بنين في عام واحد، أصابهم الطاعون. وكانوا هاجروا معه إلى مصر، وهلك أبو ذؤيب المذكور في طريق مصر، وقيل في طريق إفريقية مع عبد الله بن الزبير.

ثم وجدت في كتاب " فلك المعاني " لابن الهبارية في الباب التاسع من الكتاب المذكور أن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما دخل على معاوية في علته فقال: اسندوني، ثم تمثل ببيت أبي ذؤيب، وأنشد البيت المذكور، فسلم الحسين ثم أنشد البيت الثاني، والله أعلم. وذكرها أبو بكر ابن داود الظاهري في كتاب " الزهرة " منسوبة إلى الحسين بن علي ابن أبي طالب رضي الله عنهما، والله أعلم.

قلت: و لم يذكر ابن الهبارية ولا الظاهري أنه كان في علة الموت، ولا يمكن ذلك، لأن الحسن توفي قبل معاوية، والحسين لم يحضر وفاة معاوية، لأنه كان بالحجاز ومعاوية توفي بدمشق.

ثم وجدت في أول كتاب " التعازي " تأليف أبي العباس المبرد هذه القصة جرت للحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ومعاوية بن أبي سفيان، والظاهر أن ابن الهبارية منه نقلها.

ومثل ذلك أيضاً ما يحكى أن عقيل بن أبي طالب هاجر أخاه علياً رضي الله عنه والتحق بمعاوية، فبالغ معاوية في بره؛ وزاد في إكرامه إرغاماً لعلي رضي الله عنه، فلما قتل علي واستقل معاوية بالأمر ثقل عليه أمر عقيل، فكان يسمعه ما يكره لينصرف عنه فبينما هو يوماً في مجلس حفل بأهل الشام إذ قال معاوية: أتعرفون أبا لهب الذي نزل في حقه قوله تعالى "تبت يدا أبي لهب" المسد: من هو؟ فقال أهل الشام: لا، فقال معاوية: هو عم هذا، وأشار إلى عقيل، فقال عقيل في الحال: أتعرفون امرأته التي قال الله في حقها "وامرأته حمالة الحطب في جيدها حبل من مسد" المسد: من هي؟ فقالوا: لا، قال: هي عمة هذا، وأشار إلى معاوية، وكانت عمته أم جميل بنت حرب بن أمية بن عبد مناف زوجة أبي لهب بن عبد العزى، وهي المشار إليها في هذه السورة، فكان ذلك من الأجوبة المسكتة.

ويقرب من هذا أيضاً أن بعض الملوك حاصر بعض البلاد، وكان معه عساكر عظيمة بكثرة الرجال والخيل والعدد، فكتب الملك المحاصر إلى صاحب البلد كتاباً يشير إليه بأنه يسلم البلد إليه ولا يقاتله، وذكر ما جاء به من الرجال والأموال والآلات، ومن جملة الكتاب قوله تعالى: "حتى إذا أتوا على وادي النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون" "النمل: " فلما وصل الكياب إلى صاحب البلد وتأمله وقرأه على خواصه قال: من يجاوب عن هذا؟ فقال بعض الكتاب: تكتب إليه فتبسم ضاحكاً من قولها "النمل: " فاستحسن الحاضرون جوابه.

ومثل هذا أيضاً ما حكاه ابن رشيق القيرواني في كتاب " النموذج " وهو أن عبد الله بن إبراهيم ابن المثنى الطوسي المعروف بابن المؤدب المهدوي

الأصل القيرواني البلد الشاعر المشهور، كان مغرى بالسياحة وطلب الكيمياء والأحجار، وكان محروماً مقتراً عليه متلافاً إذا أفاد شيئاً، فخرج مرة يريد جزيرة صقلية، فأسره الروم في البحر، وأقام مدة طويلة إلى أن هادن ثقة الدولة يوسف بن عبد الله بن محمد بن أبي الحسين القضاعي صاحب صقلية الروم وبعث إليه بالأسرى، فكان عبد الله فيمن بعث، فامتدح عبد الله المذكور ثقة الدولة بقصيدة شكره فيها على صنعه، ورجا صلته، فلم يصله بشيء أرضاه، وكانت فيه رغبة، فتكلم وطلب طلباً شديداً، وهو مستخف عند بعض م يعرف من أهل صناعته، وطالت المدة، فخرج سكران يشتري نقلاً، فما شعر إلا وقد أخذ، وحمله صاحب الشرطة حتى أدخله على ثقة الدولة، فقال له: ما الذي بلغني يا بائس؟ قال: المحال أيد الله سيدنا الأمير، قال: ومن هو الذي يقول في شعره:

فالحر ممتحن بأولاد الزنا

قال: هو الذي يقول:

وعداوة الشعراء بئس المقتنى

فتنمر ساعة ثم أمر له بمائة رباعي وأخرجه من المدينة كراهية أن تقوم عليه نفسه فيعاقبه بعد أن عفا عنه، فخرج منها.

وهذا المستشهد به عجزا بيتين من شعر المتنبي في قصيدته النونية التي يمدح بها بدر بن عمار، وأولها:

الحب ما منع الكلام الألسنا ... وألذ شكوى عاشقٍ ما أعلنا

وهي من مشاهير قصائده، وأول العجز الأول:

وأنه المشير عليك في بضلةٍ ... فالحر ممتحن بأولاد الزنا

وأول العجز الثاني:

ومكايد السفهاء واقعة بهم ... وعداوة الشعراء بئس المقتنى

وإذا قد ذكرنا ثقة الدولة المذكور فنذكر قصيدة أبي محمد عبد الله بن محمد التنوخي المعروف بابن قاضي ميلة التي مدحه بها في عيد النحر، وهي قصيدة بديعة لا توجد بكمالها في أيدي الناس، ولقد ظفرت بها في ظهر كتاب، و لم يكن عندي منها سوى البعض، ولا سمعت أحداً يروي منها إلا ذلك القدر، فأحببت إثباتها لحسنها وغرابتها وهي هذه:

يذيل الهوى دمعي وقلبي المعنف ... وتجني جفوني الوجد وهو المكلف

وإني ليدعوني إلى ما شنفته ... وفارقت مغناه الأغن المشنف

وأحور ساجي الطرف أما وشاحه ... فصفر وأما وقفه فموقف

يطيب أجاج الماء من نحو أرضه ... يحيي ويندى ريحه وهو حرجف

وأيأسني من وصله أن دونه ... متالف تسري الريح فيها فتتلف

وغير أن يجفو النوم كي لا يرى لنا ... إذا نام شملاً في الكرى يتألف

يظل على ما كان من قرب دارنا ... وغفلته عما مضى يتأسف

وجون بمزن الرعد يستن ودقه ... يرى برقه كالحية الصل تطرف

كأني إذا ما لاح والرعد معول ... وجفن السحاب الجون بالماء يذرف

سليم وصوت الرعد راقٍ وودقه ... كنفث الرقى من سوء ما أتكلف

ذكرت به ريا وما كنت ناسياً فأذكر لكن لوعة تتضعف
ولما التقينا محرمين وسيرنا بلبيك رباً والركائب تعسف
نظرت إليها والمطي كأنما غواربها منها معاطس رعف
فقالت أما منكن من يعرف الفتى فقد رابني من طول منا يتشوف
أراه إذا سرنا يسير حذاءنا ونوقف أخفاف المطي فيوقف

فقلت لتربيها أبلغاها بأنني بها مستهام قالتا نتلطف
وقولا لها يا أم عمرو أليس ذا منىً والمنى في خيفه ليس يخلف
تفاءلت في أن تبذلي طارف الوفا بأن عنّ لي منك البنان المطرف
وفي عرفات ما يخبر أنني بعارفةٍ من عطف قلبك أسعف
وأما دماء الهدي فهي هدىً لنا يدوم ورأي في الهوى يتألف
وتقبيل أركان البيت إقبال دولة لنا وزمان بالمودة يعطف
فأوصلتا ما قلته فتبسمت وقالت أحاديث العيافة زخرف
بعيشي ألم أخبركما أنه فتىً على لفظه برد الكلام المفوف
فلا تأمنا ما استطعتما كيد نطقه وقولا ستدري أينا اليوم أعيف
إذا كنت ترجو في منى الفوز بالمنى ففي الخيف من إعراضنا نتخوف
وقد أنذر الإحرام أن وصالنا حرام وأنا عن مزارك نصدف
وهذا وقذفي بالحصى لك مخبر بأن النوى بي عن ديارك تقذف
وحاذر نفارى ليلة النفر إنه سريع فقلل من بالعيافة أعرف
فلم أر مثيلنا خليلي مودةٍ لكلٍ لسان ذو غرارين مرهف
أما إنه لولا أغن مهفهف وأشنف براق وأحور أوطف
لراجع مشتاق ونام مسهد وأيقن مرتاب وأقصر مدنف
وعاذلةٍ في بذل ما ملكت يدي لراجٍ رجاني دون صحبي تعنف
تقول إذا أفنيت مالك كله وأحوجت من يعطيكه؟ قلت: يوسف
أغر قضاعي يكاد نواله لكثرة ما يدعو إلى الشكر يجحف
إذا نحن أخلفنا مخايل ديمة وجدنا حيا معروفه ليس يخلف

سعى وسعى الملاك في طلب العلا   ففاز وأكدوا إذ أخف وأقطفوا
ويقظان شاب البطش باللين والتقى   بكفيه ما يرجى وما يتخوف
حسام على من ناصب الدين مصلت   وستر على من راقب الله مغدف
يسايره جيشان: رأي وفيلق   ويصحبه سيفان: عزم ومرهف
مطل على من شاءه فكأنما   على حكمه صرف الردى يتصرف
يرى رأيه ما لا ترى عين غيره   ويفري به ما ليس يفري المثقف
رعى الله من ترعى حمى الدين عينه   ويحمي حمى الإسلام والليل أغضف
ومن وعده في مسرح الحمد مطلق   وإيعاده في ذمة الحلم موقف
ومن يضرب الأعداء هبراً فينثني   صناديدهم والبيض بالهام تقذف
رماهم بمجرٍ ضعضع الأرض رزة   كأن الروابي منه بالنبل تدلف
كأن الردينيات في رونق الضحى   أراقم في طامٍ من الآل تزحف
يعود الدجى من بيضه وهو أبيض   ويبدو الضحى من نفعه وهو أكلف
ويحجب نور الشمس بالنقع عنهم   ففعل الظبا في هامهم لا يكيف
لهم كل عام منك جاءوك فيلق   يسائل عنهم بالعوالي فيلحف
إذا ما طووا كشحاً على قرح عامهم   وبلوا من الآلام أنشأت تقرف
فكم من أغم الوجه غاوٍ تركته   وهاديه من عثنون لحييه أكثف
هوى المقضب الماضي بمهواه فانثنى   صريعاً تراه حبتراً وهو أسقف
لعمري لقد عاديت في الله طالباً   رضاه وقد أبليت ما الله يعرف
أطالبتهم في الأهل حتى تركتهم   فرادى وفي الأديان حتى تحنفوا
فيا ثقة الملك الذي الملك سهمه   يراش لأكباد العادي ويرصف
هنيئاً لك العيد الذي منك حسنه   يروق ومن أوصافك الغر يوصف
بدا معلم الرجاء يزهى كأنما   على عطفه وشي العراق المشفف

أتى بعد حول زائراً عن تشوق   وقد كان ذا طرف للقياك يطرف
فطوقته عزاً وشنفته به   فلاح لنا وهو المحلى المشنف
وقابله بالسعد نجلك جعفر   فيا لك من عيد بملكين تتحف

فلا زلت تستجدى فتولي، وترتجى فتكفي، وتستدعى لخطب فتكشف

نجزت القصيدة.

وكان لثقة الدولة المذكور ولد يدعى تاج الدولة جعفر بن ثقة الدولة، وكان أديباً شاعراً، وله من الأبيات السائرة في غلامين، على أحدهما ثوب ديباج أحمر، وعلى الآخر ثوب ديباج أسود، وهي:

أرى بدرين قد طلعا على غصنين في نسق

وفي ثوبين قد صبغا صباغ الخد والحدق

فهذا الشمس في شفق وهذا البدر في غسق

وكان عمله لهذه الأبيات في سنة سبع وعشرين وخمسمائة.

ولما توجه المأمون إلى مصر، وذلك في سنة سبع عشرة ومائتين، دخلها لعشر خلون من المحرم، وخرج منها سلخ صفر من السنة، كان معه القاضي يحيى بن أكثم، فولاه قضاء مصر، وحكم بها ثلاثة أيام، ثم خرج مع المأمون، وعده ابن زولاق في جملة قضاة مصر لذلك.

وروي عن يحيى بن أكثم أنه قال: اختصم إلي في الرصافة الجد الخامس يطلب ميراث ابن ابن ابن ابنه.

وكان عبد الصمد بن أبي مروة بن المعذل بن غيلان بن المحارب بن البحتري العبدي البصري الشاعر المشهور، يلازم الترداد إلى القاضي يحيى المذكور ويغشى مجلسه، وكان بعض الأحيان لا يقدر على الوصول إليه إلا بعد مشقة ومذلة يقاسيها، فانقطع عنه، فلامته زوجته في ذلك مراراً، فأنشدها:

تكلفني إذلال نفسي لعزها وهان عليها أن أهان لتكرما

تقول سل المعروف يحيى بن أكثم فقلت سليه رب يحيى بن أكثما

و لم تزل الأحوال تختلف عليه وتتقلب به إلى أيام المتوكل على الله، فلما عزل القاضي محمد بن القاضي أحمد بن أبي داود عن القضاء، فوض إليه الولاية إلى القاضي يحيى وخلع عليه خمس خلع، ثم عزله في سنة أربعين ومائتين وأخذ أمواله، وولى في رتبته جعفر بن عبد الواحد بن جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس الهاشمي. فجاء كاتبه إلى القاضي يحيى فقال له: سلم الديوان، فأبى، فقال: شاهدان عدلان على أمير المؤمنين أنه أمرني بذلك، فأخذ منه الديوان قهراً، وغضب عليه المتوكل فأمر بقبض أملاكه وألزم منزله، ثم حج وحمل أخته معه وعزم على أن يجاور، فلما اتصل به رجوع المتوكل له بدا له في المجاورة، ورجع يريد العراق، فلما وصل إلى الربذة توفي بها يوم الجمعة منتصف ذي الحجة سنة اثنتين وأربعين ومائتين، وقيل غرة سنة ثلاث وأربعين، ودفن هناك، رحمه الله تعالى، وعمره ثلاث وثمانون سنة.

وأكثم: بفتح الهمزة وسكون الكاف وفتح الثاء المثلثة وبعدها ميم، وهو العظيم البطن، والشبعان أيضاً، يقال بالثاء المثلثة والتاء المثناة من فوقها، ومعناهما واد، ذكره في كتاب " المحكم ".

وحكى أبو عبد الله الحسين بن عبد الله بن سعيد قال: كان يحيى بن أكثم القاضي صديقاً لي، وكان يودني وأوده، فمات يحيى، فكنت أشتهي أن أراه في المنام فأقول: ما فعل الله بك، فرأيته ليلة المنام فقلت: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي إلا أنه وبخني ثم قال لي: يا يحيى خلطت علي في الدنيا، فقلت: يا رب اتكلت على حديث حدثني به أبو معاوية الضرير عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إنك قلت " إني لأستحيي أن أعذب ذا شيبة بالنار " فقال: قد عفوت عنك يا يحيى، وصدق نبيي، إلا أنك خلطت علي في الدنيا، هكذا ذكره أبو القاسم القشيري في " الرسالة ".

وقطن: بفتح القاف والطاء المهملة وبعدها نون.

وسمعان: بفتح السين المهملة.

ومشنج: كشفت عنه كثيراً من الكتب وأرباب هذه الصناعة فلم أقف منه على حقيقة، ثم وجدت في نسخة من " تاريخ بغداد " للخطيب وهي

صحيحة مسموعة، وقد قيد هذا الاسم بضم الميم وفتح الشين المعجمة وفتح النون المشددة وفي آخره جيم، هذا أقصى ما قدرت عليه، والله أعلم بالصواب.

ثم وجدته في " المختلف والمؤتلف " لعبد الغني بن سعيد كما قيل هاهنا.

الأسيدي: بضم الهمزة وفتح السين المهملة وكسر الياء المثناة من تحتها وتشديدها وبعدها دال مهملة، هذه النسبة إلى أسيد، وهو بطن من تميم يقال له أسيد بن عمرو بن تميم.

وقد تقدم الكلام على التميمي والمروزي.

والربذة: بفتح الراء والباء الموحدة والذال المعجمة وبعدها هاء ساكنة، وهي قرية من قرى المدينة على طريق الحاج يترلوها عند عبورهم عليها، وهي التي نفى عثمان بن عفان أبا ذر الغفاري رضي الله عنهما إليها، وأقام بها حتى مات، وقبره ظاهر هناك يزار.

وميلة: بكسر الميم وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح اللام وبعدها هاء ساكنة، وهي بليدة من أعمال إفريقية.

وتوفي جعفر بن عبد الواحد القاضي المذكور، ويكنى أبا عبد الله، سنة ثمان وخمسين ومائتين، وقيل سنة ثمان وستين، وقيل سنة تسع وستين، بطرسوس رحمه الله تعالى.

يحيى بن معاذ الواعظ

أبو زكريا يحيى بن معاذ الواعظ، أحد رجال الطريقة، ذكره أبو القاسم القشيري في " الرسالة " وعده من جملة المشايخ وقال في حقه: " نسيج وحده في وقته، له لسان في الرجاء خصوصاً وكلام في المعرفة، خرج إلى بلخ وأقام بها مدة، ورجع إلى نيسابور ومات بها ".

ومن كلامه: كيف يكون زاهداً من لا ورع له؟ تورع عما ليس لك ثم ازهد فيما لك.

وكان يقول: الجوع للمريدين رياضة، وللتائبين تجربة، وللزهاد سياسة، وللعارفين مكرمة، والوحدة جليس الصديقين، والفوت أشد من الموت، لأن الفوت انقطاع عن الحق، والموت انقطاع عن الخلق. والزهد ثلاثة أشياء: القلة، والخلوة، والجوع. ومن خان الله في السر هتك ستره في العلانية.

وسمع إسحاق بن سليمان الرازي ومكي بن إبراهيم البلخي وعلي بن محمد الطنافسي، وروى عنه الغرباء من أهل الري وهمذان وخراسان أحاديث مسندة قليلة.

وذكره الخطيب في " تاريخ بغداد " فقال " قدم بغداد واجتمع إليه بها مشايخ الصوفية والنساك، ونصبوا له منصة وأقعدوه عليها وقعدوا بين يديه يتحاورون، فتكلم الجنيد فقال له يحيى: اسكت يا خروف، ما لك والكلام إذا تكلم الناس ".

وكان له إشارات وعبارات حسنة، فمن كلامه: الكلام الحسن حسن، وأحسن من الكلام معناه، وأحسن من معناه استعماله، وأحسن من استعماله ثوابه، وأحسن من ثوابه رضا من يعمل له.

ومن كلامه: حقيقة المحبة أن لا تزيد بالبر ولا تنقص بالجفاء. وكان يقول: من لم يكن ظاهره مع العوام فضة، ومع المريدين ذهباً، ومع العارفين المقربين دراً وياقوتاً، فليس من حكماء الله المريدين. وكان يقول: أحسن شيء كلام صحيح، من لسان فصيح، في وجه صبيح، كلام دقق، يستخرج من بحر عميق، على لسان رجل رفيق. وكان يقول: إلهي كيف أنساك وليس لي رب سواك؟ إلهي لا أقول لا أعود، لأنني أعرف من نفسي نقض العهود، ولكني أقول لا أعود لا أعود، لعلي أموت قبل أن أعود.

ومن دعائه: اللهم إن كان ذنبي قد أخافني، فإن حسن ظني بك قد أجارني، اللهم سترت علي في الدنيا ذنوباً إلى سترها في القيامة أحوج، وقد أحسنت بي إذا لم تظهرها لعصابة من المسلمين، فلا تفضحني في ذلك اليوم على رؤوس العالمين، يا أرحم الراحمين. ودخل على علوي ببلخ زائراً له ومسلماً عليه فقال له العلوي: أيد الله الأستاذ، ما تقول فينا أهل البيت؟ قال: ما أقول في طين عجن بماء الوحي، وغرس بماء الرسالة، فهل يفوح منهما إلا مسك الهدى وعنبر التقى؟ فحشى العلوي فاه بالدر، ثم زاره من الغد، فقال يحيى بن معاذ: إن زرتنا فبفضلك وإن زرناك فلفضلك، فلك الفضل زائراً ومزوراً.

ومن كلامه: ما بعد طريق إلى صديق، ولا استوحش في طريق من سلك فيه إلى حبيب. ومن كلامه: مسكين ابن آدم، لو خاف النار كما يخاف الفقر دخل الجنة.

وقال: ما صحت إرادة أحد قط فمات حتى حن إلى الموت واشتهاه اشتهاء الجائع إلى الطعام، لارتداف الآفات واستيحاشه من الأهل والإخوان، ووقوعه فيما يتحير فيه صريح عقله. وقال: من لم ينظر في الدقيق من الورع لم يتصل إلى الجليل من العطاء. وقال: ليكن حظ المؤمن منك ثلاث خصال: إن لم تنفعه فلا تضره، وإن لم تسره فلا تغمه، وإن لم تمدحه فلا تذمه.

وقال: عمل كالسراب، وقلب من التقوى خراب، وذنوب بعدد الرمل والتراب، ثم تطمع في الكواعب الأتراب، هيهات! أنت سكران بغير شراب ما أكملك لو بادرت أملك، ما أجلك لو بادرت أجلك، ما أقواك لو خالفت هواك.

وله في هذا الباب كل كلام مليح.

وتوفي سنة ثمان وخمسين ومائتين بنيسابور، رحمه الله تعالى؛ وقال محمد بن عبد الله: قرأت على اللوح في قبر يحيى بن معاذ الرازي: مات حكيم الزمان يحيى بن معاذ الرازي، رحمه الله تعالى وبيض وجهه وألحقه بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم، يوم الاثنين لست عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى سنة ثمان وخمسين ومائتين.

يحيى بن منده

أبو زكريا يحيى بن عبد الوهاب ابن الإمام أبي عبد الله محمد بن إسحاق بن محمد بن يحيى ابن منده بن الوليد بن منده بن بطه بن استندار بن جهار بخت بن فيرزان –واسم منده ابراهيم، ومنده لقب، وقيل إن اسم الفيرزان استندار، والله أعلم، العبدي؛ كان من من الحفاظ المشهورين وأحد أصحاب الحديث المبرزين – وقد سبق ذكر جده أبي عبد الله محمد في حرف الميم.

وهو أبو زكريا بن أبي عمرو بن أبي عبد الله بن أبي محمد بن أبي يعقوب من أهل أصبهان، وهو محدث ابن محدث ابن محدث ابن محدث. وكان جليل القدر وافر الفضل واسع الرواية، ثقة حافظاً فاضلاً مكثراً صدوقاً، كثير التصانيف، حسن السيرة بعيد التكلف، أوحد بيته في عصره. خرج التخاريج لنفسه ولجماعة من الشيوخ الأصبهانيين.

وسمع أبا بكر محمد بن عبد الله بن زيد الضبي وأبا طاهر محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الرحيم الكاتب وأبا منصور محمد بن عبد الله بن فضلويه الأصبهاني وأباه أبا عمرو وعميه أبا الحسن عبيد الله وأبا القاسم عبد الرحمن وأبا العباس أحمد بن محمد بن أحمد بن النعمان القضاعي وأبا عبد الله محمد بن علي بن محمد الجصاص وأبا بكر محمد بن علي بن الحسين الجوزداني وأبا طاهر أحمد بن محمود الثقفي، ورحل إلى نيسابور وسمع بها أبا بكر أحمد بن منصور بن خلف المقرئ وأبا بكر بن الحسين البيهقي، وبهمذان أبا بكر محمد بن عبد الرحمن بن محمد النهاوندي، وبالبصرة أبا القاسم إبراهيم بن محمد بن أحمد الشاهد وعبد الله بن الحسين السعداني وجماعة كثيرة سواهم، وصنف " تاريخ أصبهان " وغيره من الجموع. ودخل بغداد حاجاً وحدث بها، وأملى بجامع المنصور، وكتب عنه الشيوخ منهم أبو الفضل محمد بن ناصر وعبد القادر بن أبي الجيلي وأبو محمد عبد الله بن أحمد بن أحمد بن أحمد بن الخشاب النحوي، في خلق كثير لشهرته وبيته، وروى عنه أبو البركات عبد الوهاب بن المبارك النماطي الحافظ وأبو الحسن علي بن آبي تراب الزيكوني الخياط البغدادي وأبو طاهر يحيى بن عبد الغفار بن الصباغ وأبو الفضل محمد بن هبة بن العلاء الحافظ وجماعة كثيرة.

وذكره الحافظ ابن السمعاني في كتاب " الذيل " وقال: كتب الإجازة بجميع مسموعاته، ثم قال: سألت عنه أبا القاسم إسماعيل بن محمد الحافظ، فأثنى عليه ووصفه بالحفظ والمعرفة والدراية، ثم قال: سمعت أبا بكر محمد بن أبي النصر بن محمد اللفتواني الحافظ يقول: بيت ابن منده بدئ بيحيى وختم بيحيى، يريد في معرفة الحديث والعلم والفضل.

وذكره الحافظ عبد الغافر بن إسماعيل بن عبد الغافر الفارسي – المقدم ذكره – في " مساق تاريخ نيسابور " فقال: أبو زكريا يحيى بن عبد الوهاب بن منده رجل فاضل من بيت العلم والحديث المشهور في الدنيا، سافر وأدرك المشايخ وسمع منهم، وصنف على الصحيحين، وكان يروي بإسناده المتصل إلى بعض العلماء أنه قال: كثرة الضحك أمارة الحمق، والعجلة من ضعف العقل، وضعف العقل من قلة الرأي وقلة الرأي من سوء الأدب، وسوء

الأدب يورث المهانة، والمجون طرف من الجنون، والحسد داء لا دواء له، والنمائم تورث الضغائن. وكان يروي بالإسناد المتصل إلى الأصمعي أنه قال: دخلت في البادية إلى مسجد، فقام الإمام يصلي فقرأ: "إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه" نوح: وأرتج عليه، فجعل يرددها ويقول: "إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه" فقال إعرابي من ورائه، وهو قائم يصلي: يا هذا، إن لم يذهب نوح فأرسل غيره.

وكان يحيى المذكور كثيراً ما ينشد لبعضهم:

عجبت لمبتاع الضلالة بالهدى	وللمشتري دنياه بالدين أعجب
وأعجب من هذين من باع دينه	بدنيا سواه فهو من ذين أخيب

وكانت ولادته في غداة يوم الثلاثاء تاسع عشر شوال سنة أربع وثلاثين وأربعمائة وتوفي يوم عيد النحر سنة اثنتي عشرة وخمسمائة بأصبهان، ومولده بها أيضاً، رحمه الله تعالى؛ ولم يخلف في بيت ابن منده بعده مثله.

وقال ابن نقطة في كتابه " إكمال الأكمال " توفي يوم السبت ثاني عشر ذي الحجة من سنة إحدى عشرة وخمسمائة، وذكر أن مولد أبيه عبد الوهاب سنة ست وثمانين وثلثمائة، وتوفي في جمادى الآخرة من سنة خمس وسبعين وأربعمائة رحمه الله تعالى.

وقد سبق الكلام على ضبط أسماء أجداده في ترجمة جده أبي عبد الله محمد.

ابن سعدون القرطبي

أبو بكر يحيى بن سعدون بن تمام بن محمد الأزدي القرطبي، الملقب سابق الدين؛ أحد الأئمة المتأخرين في القراءات وعلوم القرآن الكريم والحديث والنحو واللغة وغير ذلك.

خرج من الأندلس في عنفوان شبابه وقدم ديار مصر، فسمع بالإسكندرية أبا عبد الله محمد بن أحمد بن إبراهيم الرازي، وبمصر أبا صادق مرشد بن يحيى بن القاسم المدني المصري وأبا طاهر أحمد بن محمد الأصبهاني المعروف بالسلفي وغيرهم. ودخل بغداد سنة سبع عشرة وخمسمائة، وقرأ به القرآن الكريم على الشيخ أبي محمد عبد الله بن علي المقرئ المعروف بابن بنت الشيخ أبي منصور الخياط، وسمع عليه كتباً كثيرة منها كتاب سيبويه، وقرأ الحديث على أبي بكر محمد بن عبد الباقي البزار المعروف بقاضي المارستان وأبي القاسم ابن الحصين وأبي العز ابن كادش وغيرهم.

وكان ديناً ورعاً عليه وقار وهيبة وسكينة، وكان ثقة صدوقاً ثبتاً نبيلاً قليل الكلام كثير الخير مفيداً، أقام بدمشق مدة، واستوطن الموصل ورحل عنها إلى أصبهان، ثم عاد إلى الموصل، وأخذ عنه شيوخ ذلك العصر؛ وذكره الحافظ ابن السمعاني في كتاب " الذيل " وقال: إنه اجتمع به بدمشق، وسمع منه مشيخة أبي عبد الله الرازي، وانتخب عليه أجزاء، وسأله عن مولده، فقال: ولدت في سنة ست وثمانين وأربعمائة بمدينة قرطبة من ديار الأندلس، ورأيت في بعض الكتب أن مولده سنة سبع وثمانين، والأول أصح.

وكان شيخنا القاضي بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم المعروف بابن شداد قاضي حلب رحمه الله تعالى يفتخر برؤيته وقراءته عليه – وسيأتي ذلك في ترجمته إن شاء الله تعالى – وقال: كنا نقرأ عليه بالموصل ونأخذ عنه.

وكنا نرى رجلاً يأتي إليه كل يوم فيسلم عليه وهو قائم، ثم يمد يده إلى الشيخ بشيء ملفوف، فيأخذه الشيخ من يده، ولا نعلم ما هو، ويتركه ذلك الرجل ويذهب، ثم تقفينا ذلك فعلمنا أنها دجاجة مسموطة، كانت برسم الشيخ في كل يوم يبتاعها له ذلك الرجل ويسمطها ويحضرها، وإذا دخل الشيخ إلى منزله تولى طبخها بيده. وذكر في كتابه الذي سماه " دلائل الأحكام " أنه لازم القراءة عليه إحدى عشرة سنة آخرها سنة سبع وستين وخمسمائة.

وكان الشيخ أبو بكر القرطبي المذكور كثيراً ما ينشد مسنداً إلى أبي الخير الكاتب الواسطي رواهما بالإسناد المتصل إليه أنهما له:

جرى قلم القضاء بما يكون	فسيان التحرك والسكون
جنون منك أن تسعى لرزقٍ	ويرزق في غشاوته الجنين

وقال: أنشدنا أبو الوفاء عبد الباقي بن وهب بن حسان قال: أنشدنا أبو عبد الله محمد بن منيع بمصر لنفسه:

لي حيلة فيمن ينم وليس في الكذاب حيله

من كان يخلق ما يقو ل فحيلتي فيه قليله

وتوفي الشيخ أبو بكر المذكور بالموصل في يوم عيد الفطر من سنة سبع وستين وخمسمائة، رحمه الله تعالى.

يحيى بن يعمر النحوي

أبو سليمان، وقيل أبو سعيد، يحيى بن يعمر العدواني الوشقي النحوي البصري؛ كان تابعياً، لقي عبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس، رضي الله عنهم، ولقي غيرهما، وروى عنه قتادة بن دعامة السدوسي وإسحاق بن سويد العدوي. وهو أحد قراء البصرة، وعنه أخذ عبد الله بن أبي إسحاق القراءة، وانتقل إلى خراسان، وتولى القضاء بمرو، وكان عالماً بالقرآن الكريم والنحو ولغات العرب وأخذ النحو عن أبي الأسود الدؤلي – المقدم ذكره – يقال إن أبا الأسود لما وضع باب الفاعل والمفعول به زاد فيه رجل من بني ليث أبواباً ثم نظر فإذا كلام العرب ما لا يدخل فيه فأقصر عنه، فيمكن أن يكون هو يحيى بن يعمر المذكور إذ كان عداده في بني ليث لأنه حليف لهم. وكان شيعياً من الشيعة الأولى القائلين بتفضيل أهل البيت من غير تنقيص لذي فضل من غيرهم.

حكى عاصم بن أبي النجود المقرئ – المقدم ذكره – أن الحجاج بن يوسف الثقفي بلغه أن يحيى بن يعمر يقول: إن الحسن والحسين رضي الله عنهما من ذرية رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان يحيى يومئذ بخراسان، فكتب الحجاج إلى قتيبة بن مسلم والي خراسان – وقد تقدم ذكره أيضاً – أن ابعث إلي بيحيى بن يعمر، فبعث إليه، فقام بين يديه، فقال: أنت الذي تزعم أن الحسن والحسين من ذرية رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ والله لألقين الأكثر منك شعراً أو لتخرجن من ذلك، قال: فهو أماني إن خرجت؟ قال: نعم، فإن الله جل ثناؤه يقول: "ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلا هدينا، ونوحاً هدينا من قبل، ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون، وكذلك نجزي المحسنين، وزكريا ويحيى وعيسى" الآية "الأنعام: قال: وما بين عيسى وإبراهيم أكثر مما بين الحسن والحسين ومحمد صلوات الله عليه وسلامه، فقال له الحجاج: ما أراك إلا قد خرجت، والله لقد قرأتها وما علمت بها قط، وهذا من الاستنباطات البديعة الغريبة العجيبة، فلله دره، ما أحسن ما استخرج وأدق ما استنبط! قال عاصم: ثم إن الحجاج قال له: أين ولدت؟ فقال: بالبصرة، قال: أين نشأت؟ قال: بخراسان، قال: فهذه العربية أنى هي لك؟ قال: رزق، قال: خبرني عني هل ألحن؟ فسكت، فقال: أقسمت عليك، فقال: أما إذ سألتني أيها الأمير فإنك ترفع ما يوضع وتضع ما يرفع، فقال: ذلك والله اللحن السيئ؛ قال: ثم كتب إلى قتيبة: إذا جاءك كتابي هذا فاجعل يحيى بن يعمر على قضائك والسلام.

وروى ابن سلام عن يونس بن حبيب قال: قال الحجاج ليحيى بن يعمر أتسمعني ألحن؟ قال: في حرف واحد، قال: في أي؟ قال: في القرآن، قال: ذلك أشنع، ثم قال: ما هو؟ قال تقول "قل إن كان آباؤكُم وأبناؤكُم – إلى قوله إليكُم" التوبة: فتقرؤها بالرفع، قال ابن سلام: كأنه لما طال الكلام نسي ما ابتدأ به، فقال الحجاج: لا جرم لا تسمع لي لحناً، قال يونس: فألحقه بخراسان وعليها يزيد بن المهلب بن أبي صفرة، والله أعلم أي ذلك كان. قال ابن الجوزي في كتاب " شذور العقود ": في سنة أربع وثمانين للهجرة نفى الحجاج يحيى ابن يعمر لأنه قال له: هل ألحن؟ فقال: تلحن لحناً خفياً، فقال: أجلتك ثلاثاً، فإن وجدتك بعد بأرض العراق قتلتك، فخرج.

وحكى أبو عمرو نصر بن علي بن نوح بن قيس قال: حدثنا عثمان بن محصن قال: خطب أمير البصرة فقال: اتقوا الله فإنه من يتق الله فلا هورات عليه، فلم يدروا ما قال الأمير، فسألوا يحيى بن يعمر فقال: الهورات الضياع، يقول: من اتقى الله فليس عليه ضياع، قال القزاز في كتاب " الجامع " الهورات المهالك، واحدها هورة، قال الراوي: فحدثت بهذا الحديث الأصمعي فقال: هذا شيء لم أسمع به قط حتى كان الساعة منك، ثم قال: إن كلام العرب لواسع، لم أسمع بذا قط.

وحكى الأصمعي قال: حدثنا أبي قال: كتب يزيد بن المهلب بن أبي صفرة وهو بخراسان إلى الحجاج بن يوسف كتاباً يقول فيه: إنا لقينا العدو

فاضطررناهم إلى عرعرة الجبل، ونحن بالحضيض، فقال الحجاج: ما لابن المهلب ولهذا الكلام؟ فقيل له: إن ابن يعمر عنده، فقال: فذاك إذا.
وكان يحيى بن يعمر يعمل الشعر وهو القائل:

أبى الأقوام إلا بغض قومي قديماً أبغض الناس السمينا

وقال خالد الحذاء: كان لابن سيرين منقوط نقطه يحيى بن يعمر، وكان ينطق بالعربية المحضة واللغة الفصحى طبيعة فيه غير متكلف؛ وأخباره ونوادره كثيرة؛ وتوفي سنة تسع وعشرين ومائة، رحمه الله تعالى.

ويعمر: بفتح الياء المثناة من تحتها والميم وبينهما عين مهملة وفي الأخير راء، وقيل بضم الميم، والأول أصح وأشهر، ويعمر - بفتح الميم - مضارع قولهم عمر الرجل، بفتح العين وكسر الميم، إذا عاش زمناً طويلاً، وإنما سمي بذلك تفاؤلاً بطول العمر، كما سمي يحيى بذلك أيضاً.

والعدواني: بفتح العين المهملة والواو وبينهما دال مهملة ساكنة وبعد الألف نون، هذه النسبة إلى عدوان، واسمه الحارث بن عمرو بن قيس عيلان وإنما قيل له " عدوان " لأنه عدا على أخيه فهم فقتله.

والوشقي: بفتح الواو وسكون الشين المعجمة وبعدها قاف، هذه النسبة إلى وشقة بن عوف بن بكر بن يشكر بن عدوان المذكور.

أبو زكريا الفراء

أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الأسلمي، المعروف بالفراء، الديلمي الكوفي مولى بن أسد، وقيل مولى بني منقر، كان أبرع الكوفيين وأعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب؛ حكي عن أبي العباس ثعلب أنه قال: لولا الفراء لما كانت عربية، لأنه خلصها وضبطها، ولولا الفراء لسقطت العربية لأنها كانت تتنازع ويدعيها كل من أراد ويتكلم الناس فيها على مقادير عقولهم وقرائحهم فتذهب.

وأخذ النحو عن أبي الحسن الكسائي، وهو الأحمر - المقدم ذكره - من أشهر أصحابه وأخصهم به.

ولما عزم الفراء على الاتصال بالمأمون، كان يتردد إلى الباب، فبينما هو ذات يوم على الباب إذ جاء أبو بشر ثمامة بن الأشرس النميري المعتزلي، وكان خصيصاً بالمأمون، قال ثمامة: فرأيت أبهة أديب، فجلست إليه، ففاتشته عن اللغة فوجدته بحراً وفاتشته عن النحو فشاهدته نسيج وحده وعن الفقه فوجدته رجلاً فقيهاً عارفاً باختلاف القوم، وبالنجوم ماهراً، وبالطب خبيراً، وبأيام العرب أشعارها حاذقاً، فقلت له: من تكون؟ وما أظنك إلا الفراء، فقال أنا هو، فدخلت فأعلمت أمير المؤمنين المأمون، فأمر بإحضاره لوقته، وكان سبب اتصاله به.

وقال قطرب: دخل الفراء على الرشيد فتكلم بكلام لحن فيه مرات، فقال جعفر بن يحيى البرمكي: إنه قد لحن يا أمير المؤمنين، فقال الرشيد للفراء: أتلحن؟ فقال الفراء: يا أمير المؤمنين إن طباع أهل البدو الإعراب، وطباع أهل الحضر اللحن، فإذا تحفظت لم ألحن، وإذا رجعت إلى الطبع لحنت، فاستحسن الرشيد قوله.

وقال الخطيب في " تاريخ بغداد ": إن الفراء لما اتصل بالمأمون أمره أن يؤلف ما يجمع به أصول النحو وما سمع من العربية، وأمر أن يفرد في حجرة من حجر الدار، ووكل به جواري وخدماً يقمن بما يحتاج إليه، حتى لا يتعلق قلبه ولا تتشوف نفسه إلى شيء، حتى إنهم كانوا يؤذنونه بأوقات الصلوات، وصير له الوراقين، وألزمه الأمناء والمنفقين، فكان يملي والوراقون يكتبون، حتى صنف " الحدود " في سنتين وأمر المأمون بكتبه في الخزائن، فبعد أن فرغ من ذلك إلى الناس، وابتدأ بكتاب " المعاني " قال الراوي: وأردنا أن نعد الناس الذين اجتمعوا لإملاء كتاب " المعاني "، فلم نضبطهم، فعددنا القضاة فكانوا ثمانين قاضياً، فلم يزل يمليه حتى أتمه. ولما فرغ من كتاب " المعاني " خزنه الوراقون عن الناس ليكسبوا به وقالوا: لا نخرجه إلا لمن أراد أن ننسخه له على خمس أوراق بدرهم، فشكا الناس إلى الفراء، فدعا الوراقين فقال لهم في ذلك، فقالوا: إنما صحبناك لننتفع بك، وكل ما صنفته فليس بالناس إليه من الحاجة ما بهم إلى هذا الكتاب، فدعنا نعيش به فقال: قاربوهم تنتفعوا وتنفعوا، فأبوا عليه فقال: سأريكم، وقال للناس: إنني مملٍ كتاب معانٍ أتم شرحاً وأبسط قولاً من الذي أمليت، فجلس يملي، فأملى الحمد في مائة ورقة، فجاء الوراقون إليه وقالوا: نحن نبلغ الناس ما يحبون، فنسخوا كل عشرة أوراق بدرهم.

وكان سبب إملائه كتاب " المعاني " أن أحد أصحابه، وهو عمر بن بكير، كان يصحب الحسن بن سهل – المقدم ذكره – فكتب إلى الفراء إن الأمير الحسن لا يزال يسألني عن أشياء من القرآن لا يحضرني عنها جواب، فإن رأيت أن تجمع لي أصولاً وتجعل ذلك كتاباً يرجع إليه فعلت، فلما قرأ الكتاب قال لأصحابه: اجتمعوا حتى أملي عليكم كتاباً في القرآن، وجعل لهم يوماً، فلما حضروا خرج إليهم، وكان في المسجد رجل يؤذن فيه وكان من القراء، فقال له: فقرأ فاتحة الكتاب، ففسرها، حتى مر في القرآن كله على ذلك، يقرأ الرجل والفراء يفسره. وكتابه هذا نحو ألف ورقة، وهو كتاب لم يعمل مثله، ولا يمكن أحداً أن يزيد عليه.

وكان المأمون قد وكل الفراء يلقن ابنيه النحو، فلما كان يوماً أراد الفراء أن ينهض إلى بعض حوائجه، فابتدرا إلى نعل الفراء يقدمانه له، فتنازعا أيهما يقدمه، فاصطلحا على أن يقدم كل واحد منهما فرداً فقدماها، وكان المأمون له على كل شيء صاحب خبر، فرفع ذلك الخبر إليه، فوجه إلى الفراء فاستدعاه، فلما دخل عليه قال: من أعز الناس؟ قال: ما أعرف أعز من أمير المؤمنين، قال: بلى من إذا نهض تقاتل على تقديم نعليه وليا عهد المسلمين حتى رضي كل واحد أن يقدم له فرداً، قال: يا أمير المؤمنين، لقد أردت منعهما عن ذلك، ولكن خشيت أن أدفعهما عن مكرمة سبقا إليها أو أكسر نفوسهما عن شريعةٍ حرصا عليها، فقال له المأمون: لو منعتهما عن ذلك لأوجعتك لوماً وعتباً وألزمتك ذنباً، وما وضع ما فعلاه من شرفهما، بل رفع من قدرهما وبين عن جوهرهما، ولقد ظهرت لي مخيلة الفراسة بفعلهما، فليس يكبر الرجل وإن كان كبيراً عن ثلاث: عن تواضعه لسلطانه ووالده ومعلمه العلم، وقد عوضتهما بما فعلاه عشرين ألف دينار، ولك عشرة آلاف درهم على حسن أدبك لهما.

وقد روي عن ابن عباس أنه أمسك للحسن والحسين رضي الله عنهم أجمعين ركابيهما، حين خرجا من عنده، فقال له بعض من حضر: أتمسك لهذين الحدثين ركابيهما وأنت أسن منهما؟ فقال له: اسكت يا جاهل، لا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا ذوو الفضل.

وقال الخطيب أيضاً: كان محمد بن الحسن الفقيه ابن خالة الفراء، وكان الفراء يوماً جالساً عنده، فقال الفراء: قل رجل أنعم النظر في باب من العلم فأراد غيره إلا سهل عليه، فقال له محمد: يا أبا زكريا قد أنعمت النظر في العربية، فنسألك عن باب من الفقه؟ فقال: هات على بركة الله تعالى، قال: ما تقول في رجل صلى فسها فسجد سجدتين فسها فيهما؟ ففكر الفراء ساعة ثم قال: لا شيء عليه، فقال له محمد: ولم؟ قال: لأن التصغير عندنا لا تصغير له، وإنما السجدتان تمام الصلاة، فليس للتمام تمام، فقال محمد: ما ظننت آدمياً يلد مثلك.

وقد سبقت هذه الحكاية في ترجمة الكسائي ونبهت عليها ثم بما ذكرته هاهنا.

وكان الفراء لا يميل إلى الاعتزال؛ وحكى سلمة بن عاصم عن الفراء قال: كنت أنا وبشر المريسي – المقدم ذكره – في بيت واحد عشرين سنة، ما تعلم مني شيئاً ولا تعلمت منه شيئاً؛ وقال الجاحظ: دخلت بغداد حين قدمها المأمون في سنة أربع ومائتين، وكان الفراء يحبني، وأشتهي أن يتعلم شيئاً من علم الكلام، فلم يكن له فيه طبع.

وقال أبو العباس ثعلب: كان الفراء يجلس الناس في مسجده إلى جانب منزله، وكان يتفلسف في تصانيفه حتى يسلك في ألفاظه كلام الفلاسفة.

وقال سلمة بن عاصم: إني لأعجب من الفراء كيف كان يعظم الكسائي وهو أعلم بالنحو منه.

وقال الفراء: أموت وفي نفسي شيء من " حتى "، لأنها تخفض وترفع وتنصب.

ولم ينقل من شعره غير هذه الأبيات وقد رواها أبو حنيفة الدينوري عن أبي بكر الطوال وهي:

يا أميراً على جريبٍ من الأر ... ض له تسعة من الحجاب

جالساً في الخراب يحجب فيه ... ما سمعنا بحاجب في خراب

لن تراني لك العيون بباب ... ليس مثلي يطيق رد الحجاب

ثم وجدت هذه الأبيات لابن موسى المكفوف، والله أعلم بالصواب.

ومولد الفراء بالكوفة، وانتقل إلى بغداد وجعل أكثر مقامه بها، وكان شديد طلب المعاش لا يستريح في بيته، وكان يجمع طوال السنة، فإذا كان في

آخرها خرج إلى الكوفة فأقام بها أربعين يوماً في أهله يفرق عليهم ما جمعه ويبرهم.

وله من التصانيف الكتابان المقدم ذكرهما، وهما " الحدود " و" المعاني " وكتابان في المشكل أحدهما أكبر من الآخر، وكتاب " البهي " وهو صغير الحجم ووقفت عليه بعد أن كتبت هذه الترجمة، ورأيت فيه أكثر الألفاظ التي استعملها أبو العباس في كتاب " الفصيح " وهو في حجم " الفصيح " غير أنه غيره ورتبه على صورة أخرى، وعلى الحقيقة ليس لثعلب في " الفصيح " سوى الترتيب وزيادة يسيرة، وفي كتاب " البهي " أيضاً ألفاظ ليست في الفصيح قليلة، وليس في الكتابين اختلاف إلا في شيء قليل لا غير. وله كتاب " اللغات "، وكتاب " المصادر في القرآن "، وكتاب " الجمع والتثنية في القرآن "، وكتاب " الوقف والابتداء "، وكتاب " آلة الكاتب "، وكتاب " النوادر "، وكتاب " الواو " وغير ذلك من الكتب.

وقال سلمة بن عاصم: أملى الفراء كتبه كلها حفظاً، لم يأخذ بيده نسخة إلا في كتابين: كتاب " ملازم "، وكتاب " يافع ويفعة "، قال أبو بكر الأنباري: ومقدار الكتابين خمسون ورقة، ومقدار كتب الفراء ثلاثة آلاف ورقة.

وقد مدحه محمد بن الجهم على روي الواو الموصولة بالهاء المكسورة أضربت عن ذكرها خوف الإطالة.

وتوفي الفراء سنة سبع ومائتين في طريق مكة، وعمره ثلاث وستون سنة، رحمه الله تعالى.

والفراء: بفتح الفاء وتشديد الراء وبعدها ألف ممدودة، وإنما قيل له فراء و لم يكن يعمل الفراء ولا يبيعها، لأنه كان يفري الكلام، ذكر ذلك الحافظ السمعاني في كتاب " الأنساب "، وعزاه إلى كتاب " الألقاب ".

وذكر أبو عبيد الله المرزباني في كتابه أن زياداً والد الفراء كان أقطع، لأنه حضر وقعة الحسين بن علي رضي الله عنهما فقطعت يده في تلك الحرب، وهذا عندي فيه نظر لأن الفراء عاش ثلاثاً وستين سنة فتكون ولادته سنة أربع وأربعين ومائة، وحرب الحسين كانت سنة إحدى وستين للهجرة، فبين حرب الحسين وولادة الفراء أربع وثمانون سنة، فكم قد عاش أبوه؟ فإن كان الأقطع جده فيمكن، والله أعلم.

ومنظور: بفتح الميم وسكون النون وضم الظاء المعجمة وسكون الواو وبعدها راء.

وقد تقدم الكلام عن الديلمي وبني أسد.

وأما بنو منقر: فهو بكسر الميم وسكون النون وفتح القاف وبعدها راء، وهو منقر بن عبيد بن مقاعس، واسمه الحارث بن عمرو بن كعب بن سعد بن زيد بن مناة بن تميم بن مر، وهي قبيلة كبيرة ينسب إليها خلق كثير من الصحابة رضوان الله عليهم وغيرهم، ومنها خالد بن صفوان وشبيب بن شيبة، وصفوان وشيبة ابنا عبد الله بن عمرو بن الأهتم المنقري، وهما – أعني خالداً وشبيباً – المشهوران بالفصاحة والبلاغة والخطابة، ولخالد مجالس مشهورة مع أمير المؤمنين السفاح، ولشبيب مع المنصور والمهدي وغيرهما – وقد تقدم ذكر خالد وشبيب في ترجمة البحتري في حرف الواو.

أبو محمد اليزيدي

أبو محمد يحيى بن المبارك بن المغيرة العدوي، المعروف باليزيدي، المقرئ النحوي اللغوي صاحب أبي عمرو بن العلاء المقرئ البصري، وهو الذي خلفه في القيام بالقراءة بعده، سكن بغداد وحدث بها عن أبي عمرو بن العلاء وابن جريح وغيرهما. وروى عنه ابنه محمد وأبو عبيد القاسم بن سلام وإسحاق بن إبراهيم الموصلي وجماعة من أولاده وحفدته وأبو عمرو الدوري وأبو حمدون الطيب بن إسماعيل وأبو شعيب السوسي وعامر بن عمر الموصلي وأبو خلاد سليمان بن خلاد وغيرهم، وخالف أبا عمرو في حروف يسيرة من القراءة اختارها لنفسه.

وكان يؤدب أولاد يزيد بن منصور بن عبد الله بن يزيد الحميري خال المهدي، وإليه كان ينتسب، ثم اتصل بهارون الرشيد فجعل ولده المأمون في حجره فكان يؤدبه.

وكان ثقة، وهو أحد القراء الفصحاء العالمين بلغات العرب والنحو، وكان صدوقاً، وله التصانيف الحسنة والنظم الجيد، وشعره مدون، وصنف كتاب " النوادر " في اللغة على مثال كتاب " نوادر " الأصمعي الذي صنفه لجعفر البرمكي، وفي مثل عدد ورقه، وأخذ علم العربية وأخبار الناس عن أبي عمرو والخليل بن أحمد، من ومن كان معاصرهما.

وحكى عن أبي حمدون الطيب بن إسماعيل قال: شهدت ابن أبي العتاهية وقد كتب عن أبي محمد اليزيدي قريباً من ألف جلد، عن أبي عمرو بن العلاء خاصة، ويكون ذلك عشرة آلاف ورقة، لأن تقدير الجلد عشر ورقات، وأخذ عن الخليل من اللغة أمراً عظيماً، وكتب عنه العروض في ابتداء وضعه له، إلا أن اعتماده على أبي عمرو لسعة علم أبي عمرو باللغة.

وكان أبو محمد المذكور يعلم الصبيان بحذاء دار أبي عمرو بن العلاء، وكان أبو عمرو يدنيه ويميل إليه لذكائه، وكان أبو محمد المذكور صحيح الرواية، وله من التصانيف كتاب " النوادر " - المقدم ذكره - وكتاب " المقصور والممدود " ومختصر في النحو، وكتاب " النقط والشكل ".

وقال ابن المنادي: أكثرت من السؤال عن أبي محمد اليزيدي ومحله من الصدق ومنزلته من الثقة، لعدة من شيوخنا بعضهم أهل عربية وبعضهم أهل قرآن وحديث، فقالوا: هو ثقة صدوق لا يدفع عن سماع ولا يرغب عنه في شيء، غير ما يتوهم عليه من الميل إلى المعتزلة، وقد روى عنه الغريب أبو عبيد القاسم بن سلام وكفى به، وما ذاك إلا عن معرفة منه به، وكان يجلس في أيام الرشيد مع الكسائي في مجلس واحد ويقرئان الناس، وكان الكسائي يؤدب الأمين وهو يؤدب المأمون، فأما الأمين فإن أباه أمر الكسائي أن يأخذ عليه بحرف حمزة، وأما المأمون فإن أباه أمر أبا محمد أن يأخذ عليه بحرف أبي عمرو.

وقال الأثرم: دخل اليزيدي يوماً على الخليل بن أحمد وهو جالس على وسادة، فأوسع له وأجلسه معه، فقال له اليزيدي: أحسبني ضيقت عليك، فقال الخليل: ما ضاق موضع على اثنين متحابين، والدنيا لا تسع متباغضين.

وسأل المأمون اليزيدي عن شيء فقال: لا وجعلني الله فداك يا أمير المؤمنين، فقال: لله درك! ما وضعت الواو قط في موضع أحسن من موضعها في لفظك هذا، ووصله وحمله.

وقال اليزيدي: دخلت على المأمون يوماً والدنيا غضة، وعنده نعم تغنيه، وكانت أجمل أهل دهرها، فأنشدت:

وزعمت أني ظالم فهجرتني ... ورميت في قلبي بسهم نافذ
فنعم هجرتك فاغفري وتجاوزي ... هذا مقام المستجير العائذ
هذا مقام فتىً أضر به الهوى ... قرح الجفون بحسن وجهك لائذ
ولقد أخذتم العلم من فؤادي أنسه ... لا شل ربي كف ذاك الآخذ

فاستعادها الصوت ثلاث مرات، ثم قال: يا يزيدي، أيكون شيء أحسن مما نحن فيه؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين، قال وما هو؟ قلت: الشكر لمن خولك هذا الإنعام العظيم الجليل، قال: أحسنت وصدقت، ووصلني وأمر بمائة ألف درهم يتصدق بها، فكأني أنظر إلى البِدَر وقد أخرجت والمال يفرق.

وشكا اليزيدي إلى المأمون حاجة أصابته وديناً لحقه، فقال: ما عندنا في هذه الأيام ما إن أعطيناكه بلغت به ما تريد، فقال: يا أمير المؤمنين، إن الأمر قد ضاق علي، وإن غرمائي قد أرهقوني، فاحتل لي، فأفكر المأمون، واستقر الأمر على أن يحضر اليزيدي إلى الباب إذ جلس المأمون في مجلس الأنس وعنده ندماؤه، ويكتب رقعة يطلب فيها الدخول أو إخراج بعض الندماء إليه، فلما جلس المأمون حضر اليزيدي إلى الباب ودفع للخادم رقعة مختومة فأدخلها إلى المأمون ففضها فإذا فيها مكتوب:

يا خير إخوان وأصحاب ... هذا الطفيلي على الباب
فصيروني واحداً منكم ... أو أخرجوني لي بعض أصحابي

فقرأها المأمون على من حضر وقال: ما ينبغي أن يدخل مثل هذا الطفيلي على مثل هذا الحال، فأرسل إليه المأمون يقول له: دخولك في مثل هذا الوقت متعذر، فاختر لنفسك من أحببت أن تنادمه، فلما وقف على الرسالة قال: ما أرى لنفسي اختياراً سوى عبد الله بن طاهر، فقال له المأمون: قد وقع الاختيار عليك فصر إليه، فقال: يا أمير المؤمنين، فأكون شريك الطفيلي؟ فقال: ما يمكنني رد أبي محمد عن أمره، فإن أحببت أن تخرج إليه وإلا

فافتد نفسك منه، فقال: على عشرة آلاف درهم، فقال: لا أحسب ذلك يقنعه منك ومن مجالستك، فلم يزل يزيده عشرة آلاف على عشرة آلاف والمأمون يقول: لا أرضى له بذلك، حتى بلغ مائة ألف درهم فقال له المأمون: فعجلها له، فكتب له بها إلى وكيله ووجه رسولاً، وأرسل إليه المأمون وهو يقول: قبض هذا المبلغ في مثل هذا الحال أصلح لك من منادمته على مثل حاله، فقبل ذلك منه، وكان ظريفاً في جميع أحواله.

وحكى أبو أحمد بن جعفر البلخي في كتابه أن اليزيدي المذكور سأل الكسائي عن قول الشاعر:

ما رأينا خرباً نق ... ر عنه البيض صفر

لا يكون العير مهراً ... لا يكون، المهر مهر

- الخرب: بفتح الخاء المعجمة والراء وفي آخرها الباء الموحدة، الذكر من الحبارى، والعير: بفتح العين المهملة وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها راء، وهو الذكر من حمر الوحش - فقال الكسائي: يجب أن يكون " مهر " منصوباً على أنه خبر كان، ففي البيت على هذا التقدير إقواء، فقال اليزيدي: الشعر صواب لأن الكلام قد تم عند قوله " لا يكون " الثانية وهي مؤكدة للأولى، ثم استأنف الكلام، فقال " المهر مهر " وضرب بقلنسوته الأرض، وقال: أنا أبو محمد، فقال له يحيى بن خالد البرمكي: أتكتني بحضرة أمير المؤمنين؟ والله إن خطأ الكسائي مع حسن أدبه من صوابك مع سوء أدبك، فقال اليزيدي: إن حلاوة الظفر أذهبت عني التحفظ.

قلت أنا: قول الكسائي في البيت إقواء ليس بجيد، فإن إصلاح أرباب علم القوافي أن الأقواء يختص باختلاف الإعراب في حرف الروي بالرفع والجر لا غير بأن يكون أحد البيتين مرفوعاً والآخر مجروراً، فأما إذا كان الاختلاف بالنصب مع الرفع والجر فإن ذلك يسمى إصرافاً لا أقواء، وإلى هذا أشار أبو العلاء المعري في قوله من جملة قصيد طويلة يرثي بها الشريف الطاهر والد الرضي والمرتضى - المقدم ذكرهما - وهو من صفة بعيب الغراب:

بنيت على الإيطاء سالمةً من ال ... إقواء والإكفاء والإصراف

وهذا البيت متعلق بما قبله ولا يظهر معناه إلا بذكر ما تقدم، ولا حاجة بنا إلى ذكره هاهنا بل ذكرنا موضع الاستشهاد لا غير. وقد قيل إن الإصراف من جملة أنواع الإقواء، فعلى هذا يستقيم ما قاله الكسائي. وهذا الفصل وإن كان دخيلاً لكنه ما خلا من فائدة.

وغالب شعر اليزيدي جيد، وقد ذكره هارون بن المنجم - المقدم ذكره - في كتلاب " البارع " وأورد له عدة مقاطيع، فمن ذلك قوله يهجو الأصمعي الباهلي المقدم ذكره:

أبِن لي دعي بني أصمعٍ ... متى كنت في الأسرة الفاضله؟

ومن أنت؟ هل أنت إلا امرؤ ... إذا صح أصلك من باهله

ثم قال ابن المنجم: وهذا البيت من نادر أبيات المحدثين في الهجاء.

قلت أنا: وهذا مأخوذ من قول حماد عجرد في بشار بن برد يهجوه:

نسبت إلى برد وأنت لغيره ... وهب أن برداً ناك أمك، من برد؟

وله في الهجاء أيضاً:

استبق ود أبي المقا ... تل حين تدنو من طعامه

سيان كسر رغيفه ... أو كسر عظمٍ من عظامه

ويصوم كرهاً ضيفه ... لم ينو أجراً في صيامه

وقد سبق في ترجمة أبي العباس المبرد مقطوع من شعره في شيبة بن الوليد.

وكان له أخبار ونوادر، فمن ذلك ما رواه أنه أخذ رجل ادعى النبوة فأتي به إلى المهدي فقال له: أنت نبي؟ فقال: نعم، فقال: وإلى من بعثت؟ فقال:

وهل تركتموني أذهب إلى أحد؟ ساعة بعثت وضعتموني في الحبس، فضحك المهدي واستتابه.
وكان لليزيدي خمسة بنين وكلهم علماء أدباء شعراء رواة لأخبار الناس، وهم: أبو عبد الله محمد وإبراهيم وأبو القاسم إسماعيل وأبو عبد الرحمن عبد الله وأبو يعقوب إسحاق، وكلهم ألف في اللغة والعربية.

وكان محمد أسنهم وأشعرهم، وهو القائل فيما رواه دعبل بن علي الخزاعي – المقدم ذكره – من جملة أبيات:

أتظعن والذي تهوى مقيم ... لعمرك إن ذا خطر عظيم
إذا ما كنت للحدثان عوناً ... علي مع الزمان فمن ألوم
شقيت به فما أنا عنه سالٍ ... ولا هو إذ شقيت به رحيم

وهو القائل:

يا بعيد الدار موصو ... لاً بقلبي ولساني
ربما باعدك الده ... ر فأدنتك الأماني

وله أشعار كثيرة جيدة، وكان يؤدب المأمون مع أبيه، وثقل سمعه في آخر عمره "انقطع، فاستحضره المأمون فقال: لم أرك منذ أيام فقال: وجدت في سمعي ثقلاً وأنا أكره أن أتعبك استفهاماً إذا سمعت عن غير فهم، فقال: أنت الآن أطيب ما تكون، فما شئت أن نسمعك أسمعناك، وما احتشمناك فيه أسررناه عنك، فأنت غائب شاهد" وكان قد خرج مع المأمون إلى خراسان وأقام بخدمته في مدينة مرو، ثم بقي إلى أيام المعتصم وخرج معه إلى مصر فتوفي بها، رحمه الله تعالى.
واما والده أبو محمد المذكور فإنه توفي سنة اثنتين ومائتين، رحمه الله تعالى، بخراسان، والظاهر أنه كان بمرو فإنه كان خرج في صحبة المأمون في بغداد، وكانت إقامة المأمون بمرو، ثم وجدت في " طبقات القراء " لأبي عمرو الداني أنه توفي في التاريخ المذكور بمرو، ثم قال بعد ذلك، وقال ابن المنادي: وقيل إنه لما بلغ من السن دون المائة بأعوام يسيرة، ومات بالبصرة ودفن بها، والأول أصح، والله أعلم.
وقد تقم في حرف الميم ذكر حفيده أبي عبد الله محمد بن العباس بن أبي محمد اليزيدي المذكور، وشرح طرف من أخباره وفضله وتاريخ وفاته.
والعدوي: بفتح العين والدال المهملتين والواو، هذه النسبة إلى عدي بن عبد مناة بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، وهي قبيلة كبيرة مشهورة، ولم يكن أبو محمد المذكور منهم، وإنما كان من مواليهم، كان جده المغيرة مولى لامرأة من بني عدي فنسب إليهم. وقد سبق في أول هذه الترجمة ذكر سبب نسبته إلى يزيد فأغنى عن الإعادة.
وفي ذريته جماعة كثيرة أفاضل مشاهير أصحاب تصانيف. وأشعاره رائقة مشهورة، ولولا خوف الإطالة لذكرت شيئاً منها.
واليزيديون يفتخرون بالكتاب الذي وضعه إبراهيم بن أبي محمد المذكور في اللغة وسماه كتاب " ما اتفق لفظه وافترق معناه " جمع فيه كل الألفاظ المشتركة في الاسم المختلفة في المسمى، ورأيته في أربع مجلدات، وهو من الكتب النفيسة، يدل على غزارة علم مؤلفه وسعة اطلاعه، وله غير كذلك تواليف حسنة نافعة، وكذلك بقية اليزيديين صنفوا كتباً مشهورة مشكورة.
وكان يزيد الحميري خال المهدي مقدماً في دولة بني العباس، ولي للمنصور البصرة واليمن، ومات في سنة خمس وستين ومائة بالبصرة، وفيه قال بشار بن برد – المقدم ذكره:

أبا خالد قد كنت سباح غمرةٍ ... صغيراً فلما شبت خيمت بالشاطي
وكنت جواداً سابقاً ثم لم تزل ... تأخر حتى جئت تخطو مع الخاطي
فأنت بما تزداد من طول رفعةٍ ... وتنقص من مجدٍ كذاك بإفراط

كسنور عبد الله بيع بدرهمٍ صغيراً، فلما شب بيع بقيراط

قلت: لقد كشفت عن سنور عبد الله المظان، وسألت أهل المعرفة بهذا الشأن، فما عرفت الخبر عن ذلك، ولا عثرت له على أثر، والله أعلم، ثم ظفرت بقول الفرزدق، وهو:

ناس يزدادون يوماً ويوماً في الجميل وأنت

ر في صغرٍ يغالى به حتى إذا ما شب ب

هنا أخذ بشار بقوله، وليس المراد هراً بعينه، بل كل هر تكون قيمته في صغره، وينقص منها في كبره، والله أعلم .

الخطيب التبريزي اللغوي

أبو زكريا يحيى بن علي بن محمد بن الحسن بن بسطام الشيباني التبريزي المعروف بالخطيب؛ أحد أئمة اللغة، كانت له معرفة تامة بالأدب من النحو واللغة وغيرهما، قرأ على الشيخ أبي العلاء المعري وأبي القاسم عبيد الله بن علي الرقي وأبي محمد الدهان اللغوي وغيرهم من أهل الدب. وسمع الحديث بمدينة صور من الفقيه أبي الفتح سليم بن أيوب الرازي ومن أبي القاسم عبد الكريم بن محمد بن عبد الله بن يوسف الدلال البغدادي وأبي القاسم عبيد الله بن ثابت علي، وغيرهم. وروى عنه الخطيب الحافظ أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت صاحب " تاريخ بغداد "، والحافظ أبو الفضل محمد بن ناصر وأبو منصور موهوب بن أحمد الجواليقي وأبو الحسن سعد الخير بن محمد بن سهل الأندلسي، وغيرهم من الأعيان، وتخرج عليه خلق كثير وتتلمذوا له. وذكره الحافظ أبو سعد السمعاني في كتاب " الذيل "، وكتاب " الأنساب "، وعدد فضائله، ثم قال: سمعت أبا منصور محمد بن عبد الملك بن الحسن بن خيرون المقرئ يقول: أبو زكريا يحيى بن علي التبريزي ما كان بمرضي الطريقة، وذكر عنه أشياء ثم قال: وذاكرت أنا مع أبي الفضل محمد بن ناصر الحافظ بما ذكره ابن خيرون، فسكت وكأنه ما أنكر ما قال، ثم قال: ولكن كان ثقة في اللغة وما كان ينقله.

وصنف في الأدب كتباً مفيدة، منها " شرح الحماسة " وكتاب " شرح ديوان المتنبي "، وكتاب " شرح سقط الزند " وهو ديوان أبي العلاء المعري، و" شرح المعلقات السبع " و" شرح المفضليات " وله " تهذيب غريب الحديث " و" تهذيب إصلاح المنطق "، وله في النحو مقدمة حسنة، والمقصود منها أسرار الصنعة وهي عزيزة الوجود، وله كتاب " الكافي في علم العروض والقوافي " وكتاب في إعراب القرآن سماه " الملخص " رأيته في أربع مجلدات، وشروحه لكتاب الحماسة ثلاثة: أكبر وأوسط وأصغر، وله غير ذلك من التواليف، وقد سبق في ترجمة الخطيب أب بكر أحمد بن علي بن ثابت الحافظ ذكره وما دار بينهما عند قراءته عليه بدمشق، فلينظر هناك ودرس الأدب بالمدرسة النظامية ببغداد.

وكان سبب توجهه إلى أبي العلاء المعري أنه حصلت له نسخة من كتاب " التهذيب " في اللغة، تأليف أبي منصور الأزهري في عدة مجلدات لطاف، وأراد تحقيق ما فيها وأخذها عن رجل عالم باللغة، فدل على المعري، فجعل الكتاب في مخلاة وحملها على كتفه من تبريز إلى المعرة، و لم يكن له ما يستأجر به مركوباً، فنفذ العرق من ظهره إليها فأثر فيها البلل، وهي ببعض الوقوف ببغداد، وإذ رآها من لا يعرف صورة الحال فيها ظن أنها غريقة، وليس بها سوى عرق الخطيب المذكور، هكذا وجدت هذه الحكاية مسطورة في كتاب " أخبار النحاة " الذي ألفه القاضي الأكرم ابن القفطي الوزير بمدينة حلب، كان، رحمه الله تعالى، والله أعلم بصحة ذلك.

وكان الخطيب المذكور قد دخل مصر في عنفوانه شبابه، فقرأ عليه بها الشيخ أبو الحسن طاهر بن بابشاذ النحوي – المقدم ذكره – شيئاً من اللغة، ثم عاد إلى بغداد واستوطنها إلى الممات، وكان يروي عن أبي الحسن محمد بن المظفر بن نحرير البغدادي جملة من شعره، فمن ذلك قوله على ما حكاه السمعاني في كتاب " الذيل " في ترجمة الخطيب، وهي من أشهر أشعاره:

خليلي ما أحلى صبوحي بدجلةٍ وأطيب منه بالصراة غبوقي

شربت على الماءين من ماء كرمةٍ فكانا كدر ذائب وعقيق

على قمري أفقٍ وأرض تقابلا فمن شائق حلو الهوى ومشوق

فما زلت أسقيه وأشرب ريقه وما زال يسقيني ويشرب ريقي

وقلت لبدر التم: تعرف ذا الفتى؟ فقال :نعم، هذا أخي وشقيقي

وهذه الأبيات من أملح الشعر وأطرفه، والبيت الأخير منها يستمد من معنى قول أبي بكر محمد بن عيسى الداني المعروف بابن اللبانة الأندلسي في مدح المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية – المقدم ذكره – من جملة قصيدة طويلة:

سألت أخاه البحر عنه فقال لي شقيقي إلا أنه الساكن العذب

ما كفاه أنه جعله شقيق البحر حتى رجحه عليه، فقال " الساكن العذب " والبحر مضطرب ملح، وهذا من خالص المدح وأبدعه، وأول هذه القصيدة:

بكت عن توديعي فما علم الركب أذاك سقيط الطل أم لؤلؤ رطب

وتابعها سرب، وإني لمخطئ نجوم الدياجي لا يقال لها سرب

وهي قصيدة طويلة ولولا خوف الإطالة والخروج عما نحن بصدده لذكرنا كلها، ولكن يكفي منها هذا الأنموذج.

وكان الخطيب أيضاً يروي عن ابن نحرير المذكور من شعره قوله:

يا نساء الحي من مضر إن سلمى ضرة القمر

إن سلمى لا فجعت بها أسلمت طرفي إلى السهر

فهي إن صدت وإن وصلت مهجتي منها على خطر

وبياض الشعر أسكنها من سواد القلب والبصر

وللخطيب المذكور شعر فمن ذلك قوله:

فمن يسأم من الأسفار يوماً فإني قد سئمت من المقام

أقمنا بالعراق على رجالٍ لئامٍ ينتمون إلى لئام

وقال الخطيب المذكور: كتب إلي العميد الفياض:

قل ليحيى بن عليٍ والأقاويل فنون

غير أني لست من يك ذب فيها ويخون

أنت عين الفضل إن م د إلى الفضل عيون

أنت من عز به الفض ل وقد كاد يهون

فقت من كان واتعب ت لعمري من يكون

قد مضى فيك قران ومضت فيه قرون

وإذا قيس بك الك ل فصحو ودجون

وإذا فتش عنهم فالأحاديث شجون

قد سمعنا ورأينا ... فسهول وحزون
ووزنا بك من كا ... ن فقيل وقيون
أين شيبان وأزد ... كل ما زال ظنون
إنك الأصل ومن دو ... نك في العلم غصون
إنك البحر وأعيا ... ن ذوي الفضل عيون
ليس كالسيف وإن حل ... ي في الحكم الجفون
ليس كالفذ المعلى ... ليس كالبيت الحجون
ليس كالجد وإن آ ... نس هزل ومجون
ليس في الحسن سواءً ... أبداً بيض وجون
ليس كالأبكار في اللط ... ف وإن راقتك عون
قلت للحساد كونوا ... كيف شئتم أن تكونوا
سبق الزائد بالفض ... ل فعزوا أو فهونوا
دمت ما خالف في الح ... د حراك وسكون
وتلقاك المنى ما ... قر بالطير الوكون
إن ودي لك عما ... يصم الود مصون
ليس لي فيه ظهور ... تتنافى أو بطون
بل لقلبي فيك صب ... بالمصافاة يكون
غلق الرهن وقد تغل ... ق في الحب رهون
ومن الناس أمين ... في هواه وخؤون

وقال ابن الجواليقي: قال لنا شيخنا الخطيب أبو زكريا: فكتبت أنا إلى العميد الفياض المذكور هذه الأبيات:

قل للعميد أخي العلا الفياض ... أنا قطرة من بحرك الفياض
شرفتني ورفعت ذكرى بالذي ... ألبستنيه من الثنا الفضفاض
ألبستني حلل القريض تفضلاً ... فرفلت منها في علا ورياض
إني أتيتك بالحصى عن لؤلؤ ... أبرزته من خاطر مرتاض
وبخاطري عن مثل ذاك توقف ... ما إن يكاد يجود بالأبعاض
أيعارض البحر الغطامط جدول ... أو درة تنقاس بالرضراض

يا فارس النظم المرصع جوهراً والنثر يكشف غنة الأمراض
يرمي بع الغرض البعيد وقد غدا فكري يقصر عن مدى الأغراض
لا تلزمني من ثنائك موجباً حقاً فلست لحقه بالقاضي
فلقد عجزت عن القريض وربما أعرضت عنه أيما إعراض
أنعم علي ببسط عذري إنني أقررت عند نداك بالإنفاض

وكانت ولادته سنة إحدى وعشرين وأربعمائة، وتوفي فجأة يوم الثلاثاء لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة سنة اثنتين وخمسمائة ببغداد، ودفن في مقبرة باب أبرز، رحمه الله تعالى.

وبسطام: بكسر الباء الموحدة وسكون السين المهملة وفتح الطاء المهملة وبعد الألف ميم.

وقد تقدم الكلام على الشيباني والتبريزي فأغنى عن الإعادة.

الزواوي

أبو الحسين يحيى بن عبد المعطي بن عبد النور الوزواوي، الملقب زين الدين، النحوي الحنفي؛ كان أحد أئمة عصره في النحو واللغة، وسكن دمشق زماناً طويلاً، واشتغل عليه خلق كثير وانتفعوا به، وصنف تصانيف مفيدة "منها الألفية في النحو ومنها " الفصول " وفي النحو أيضاً" ثم إن الملك الكامل أرغبه في الانتقال إلى مصر فسافر إليها، وتصدر بالجامع العتيق بمصر لإقراء الأدب، وقرر له على ذلك جارٍ. و لم يزل إلى أن توفي سلخ ذي القعدة سنة ثمان وعشرين وستمائة، بالقاهرة، ودفن من الغد على شفير الخندق بقرب تربة الإمام الشافعي رضي الله عنه، وقبره هناك ظاهر، ومولده سنة أربع وستين وخمسمائة، رحمه الله تعالى.

والزواوي: بفتح الزاي وبين الواوين ألف، هذه النسبة إلى زواوة، وهي قبيلة كبيرة بظاهر بجاية من أعمال إفريقية ذات بطون وأفخاذ، والله أعلم.

يحيى بن المنجم النديم

أبو أحمد يحيى بن علي بن أبي منصور، المعروف بالمنجم واسمه أبان حسيس بن وريد بن كاد بن مهابنداد حسيس بن فروخ داد بن أساد بن مهرحسيس بن يزدجرد؛ وكان في أول أمره نديم الموفق أبي أحمد طلحة ابن المتوكل على الله، والموفق المذكور هو والد المعتضد بالله، و لم يل الموفق الخلافة بل كان نائباً عن أخيه المعتمد على الله، و لم يزل في محاربة القرامطة، وأمره في ذلك مشهور وقصته طويلة وليس هذا موضع ذكرها.

ثم إن يحيى المذكور نادم الخلفاء بعد الموفق واختص بمنادمة المكتفي بالله ابن المعتضد، وعلت رتبته على خواصه وجلسائه، وكان متكلماً معتزلي الاعتقاد وله في ذلك كتب كثيرة، وكان له مجلس يحضره جماعة من المتكلمين بحضرة المكتفي، وصنف كتباً كثيرة، فمن ذلك كتاب " الباهر " في أخبار شعراء مخضرمي الدولتين، ابتدأ فيه ببشار بن برد، وآخر من أثبت فيه مروان بن أبي حفصة، و لم يتمه، وتممه ولده أبو الحسن أحمد بن يحيى، وعزم على أن يضيف إلى كتاب أبيه سائر الشعراء المحدثين فذكر منهم أبا دلامة ووالبة بن الحباب ويحيى بن زياد ومطيع بن إياس وأبا علي البصير.

وكان أبو الحسن أحمد المذكور متكلماً فقيهاً على مذهب أبي جعفر الطبري، وله كتب صنفها منها كتب أخبار أهله ونسبهم في الفرس، وكتاب " الإجماع في الفقه " على مذهب أبي جعفر الطبري، وكتاب " المدخل إلى مذهب الطبري ونصرة مذهبه " وكتاب " الأوقات " وغير ذلك وليحيى المذكور مع المعتضد وقائع ونوادر، فمن ذلك ما حكاه أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي في كتاب " مروج الذهب " عن يحيى المذكور أنه قال: كنت يوماً بين يدي المعتضد وهو مغضب، فأقبل بدر مولاه، وكان شديد الغرام به، فلما رآه من بعيد ضحك وقال: يا يحيى، من الذي يقول من الشعراء:

في وجهه شافع يمحو إساءته من القلوب وجيه حيثما شفعا

فقلت: يقوله الحكم بن عمرو الشاري، فقال: لله دره! أنشدني هذا الشعر، فأنشدته:

ويلي على من أطار النوم فامتنعا وزاد قلبي على أوجاعه وجعا
كأنما الشمس من أعطافه لمعت حسناً أو البدر من أزراره طلعا
مستقبل بالذي يهوى وإن كثرت منه الذنوب ومعذور بما صنعا
في وجهه شافع يمحو إساءته من القلوب وجيه حيثما شفعا

وذكر أبو الفتح كشاجم الشاعر المشهور في كتابه الذي سماه " المصايد والمطارد " في الفصل الذي يذكر فيه صيد الأسد بالنشاب، ما مثاله: حدث أبو أحمد يحيى بن علي بن يحيى المنجم النديم نديم المكتفي بالله قال: وجد علي أمير المؤمنين المكتفي بالله منصرفه من الرقة لركوبي الماء منها إلى المرحلة الأولى قبل أن يركبه هو، وذلك أن أبا العباس أحمد بن عبد الصمد حملني على ذلك، وسألني أن أكون معه في سفينة، ففعلت، ولم أظن أن المكتفي ينكر ذلك، ولا يحتمل تأخيري عنه وإخلالي به، فلما صرنا إلى الدالية أمر بأن أرد منها إلى قرقيسيا وأقيم بها حتى أصيد سبعاً وأحدره إليه، فردني ورد معي عدة من المغنين كانوا قد ركبوا الماء، فكتب إليه بأبيات فلم تعطفه، فرجعت إلى الرحبة، وأقمت عند أبي محمد عبد الله بن الحسين بن سعد القطربلي في قصف وشرب وصبوح وغبوق، وهو على غاية السرور بمقامي عنده، وكان معنا أبو جعفر محمد بن سليمان بن محمد بن عبد الملك الزيات، فكتبت من الرحبة كتاباً إلى الوزير أبي الحسين القاسم بن عبيد الله، وأنفذت فيه شعراً أسأله أن يقرأه على المكتفي، وهو:

نفس الدهر أن نسر وأن يس عدنا، بالأحبة الاجتماع
فرماني وإخوةً لي بسهم نفر النفس فهي منه شعاع
فرددنا إلى وراءٍ ومر ال ناس قدماً فاشتدت الأوجاع
لو سمعنا بمثل ما نالنا أف زعنا منه في سوانا السماع
كلفونا صيد السباع وإنا لبخيرٍ إن لم تصدنا السباع
إن عصينا فواجب، أي قومٍ كلفوا فوق طوقهم فأطاعوا؟
كل شيء يجوز تكليفه الإنسان إلا ما كان لا يستطاع
لم تزل تمزح الملوك ولكن مع ذاك المزاح جود وساع
وتوانى الوزير عنا فضعنا في سبيل الإله حق مضاع
قد مددنا الأيدي إليه وأضحت عائذاتٍ بفضله الأطماع
شافع لا يخاف رداً إذا ما رد عما تريده الشفاع
عبثات الملوك ينبعها الأن س وأثمارها عطايا تباع
أولنا يا ولي دولته خي راً لديه فالخير النفاع

وأنفذ الكتاب مع محمد بن سليمان الخرائطي في الخرائط، فلم يضعه القاسم من يده حتى دخل على المكتفي، فقرأه عليه وأنشده الأبيات، فاستحسنها وقال: يكتب الساعة بتخلية سبيله وحمله إلينا، فلم يكن أسرع من أن وافاني الرسول، فوافيت وأنشدت المكتفي ببغداد:

عاد ليلي القصير في كرخ بغدا د بقرقيسيا علي طويلا
أجميلاً أن تتركوني وتمضو ن رهيناً بها غريباً ذليلاً؟
مفرداً بالعقاب مشترك الذن ب فصبراً حسبي بربي وكيلا
إن قضى الله لي رجوعاً إلى بغ داد لا هالكاً بغمي قتيلا
وأراني الخليفة المكتفي بالله وابن الخلائف المأمولا
كالذي قد عهدت لا معرضاً عن ي ولا واجداً ولا مستحيلا
كل شيء أسامه هين عن دي إذا الرأي منه كان جميلا

فاستحسنها ورق لشكواي بها حتى تبينت ذلك في وجهه وكلامه.

وأخبار يحيى ومحاسنه كثيرة. وكانت ولادته سنة إحدى وأربعين ومائتين؛ وتوفي ليلة الاثنين لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول سنة ثلثمائة رحمه الله تعالى.

وقد تقدم ذكر والده علي وأخيه هارون وابن أخيه علي، ولم أرفع في نسبهم إلا في هذه الترجمة لأني لم أظفر بالنسب على هذه الصورة إلا لما وصلت إلى هذا الموضع فنقلته كما وجدته من كتاب " الفهرست " لأبي الفرج محمد بن إسحاق النديم، ولم أضبط شيئاً من أسماء أجداده، لأني لم أتحقق فيها شيئاً فنقلتها كما وجدتها.

أبو بكر ابن بقي الشاعر

أبو بكر يحيى بن محمد بن عبد الرحمن بن بقي الأندلسي القرطبي الشاعر المشهور صاحب الموشحات البديعة؛ قال الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي في كتاب " مطمح الأنفس " في حق أبي بكر المذكور: أنه كان نبيل النثر والنظام، كثير الارتباط في سلكه والانتظام، وأحرز خصالاً، وطرز محاسنه بكراً وآصالاً، وجرى في ميدان الإحسان إلى أبعد أمد، وبنى من المعارف على أثبت عمد، إلا أن الأيام حرمته، وقطعت حبل رعايته وصرمته، ولم تتم له وطراً، ولم تسجم عليه من الحظوة مطراً، ولا نولته من الحرمة نصيباً، ولا أنزلته مرعى خصيباً، فصار راكب صهوات، وقاطع فلوات، لا يستقر يوماً ولا يستحسن قوماً، مع توهم لا يظفره بأمان، وتقلب ذهن كواهي الجمان، إلا أن يحيى بن علي بن القاسم نزعه عن ذلك الطيش، وأقطعه جانباً من العيش، وأرقاه إلى سمائه، وسقاه صوب نعمائه، وفيأه ظلاله، وبوأه أثر النعمة يجوس خلاله، فصرف فيه أقواله، وشرف بقوافيه نواله، وأفرده منها بأنفس در، وقلد لبته منها بقصائد غر.

وذكر الفتح بن مدح بن عبيد الله القيسي المذكور في حقه أيضاً في كتاب " قلائد العقيان ": هو رافع راية القريض، وصاحب آية التصريح فيه والتعريض، أقام شرائعه، وأظهر روائعه، وصار عصيه طائعاً، إذا نظم أزرى بنظم العقود، وأتى بأحسن من رقم البرود، ضفا عليه حرمانه، وما صفا له زمانه، انتهى كلام الفتح.

وقد أثبت لأبي بكر المذكور هذا المقطوع من الشعر، ولم أر الفتح ذكره في واحد من كتابيه المذكورين مع أنه من أحسن شعره وأشهره، وهو:

بأبي غزال غازلته مقلتي بين العذيب وبين شطي بارق
وسألت منه زيارة تشفي الجوى فأجابني منها بوعد صادق
بتنا ونحن من الدجى في خيمةٍ ومن النجوم الزهر تحت سرادق
عاطيته والليل يسحب ذيله صهباء كالمسك الفتيق لناشق

وضممته ضم الكمي لسيفه وذؤابتاه حمائل في عاتقي
حتى إذا مالت به سنة الكرى زحزحته عني وكان معانقي
أبعدته عن أضلع تشتاقه كي لا ينام على وساد خافق
لما رأيت الليل آخر عمره قد شاب في لمم له ومفارق
ودعت من أهوى وقلت تأسفاً أعزز علي بأن أراك مفارقي

وقد ذكر بعض هذه الأبيات الحافظ أبو الخطاب ابن دحية في كتابه الذي سماه " المطرب من أشعار أهل المغرب ".

ومن شعره قصيدة يمدح بها يحيى بن علي بن القاسم المذكور في هذه الترجمة، وهي طويلة، ومن مديحها قوله:

نوران ليسا يحجبان عن الورى كرم الطباع ولا جمال المنظر
وكلاهما جمعا ليحيى فليدع كتمان نور علائه المتشهر
في كل أفق من جميل ثنائه عرف يزيد على دخان المجمر
رد في شمائله ورد في جوده بين الحديقة والغمام الممطر
ندب عليه من الوقار سكينة فيها حفيظة كل ليثٍ مخدر
مثل الحسام إذا انطوى في غمده ألقى المهابة في نفوس الحضر
أربى على الغيث الملث لأنه أعطى كما أعطى ولم يستعبر
أزرى على البحر الخضم لأنه في كل كف منه خمسة أبحر
أقبلت مرتاداً لجودك إنه صوب الغمامة بل زلال الكوثر
ورأيت وجه النجح عندك أبيضاً فركبت نحوك كل لج أخضر
يجري إليك بنا سفين أتلع مثل البعير مخزم في المنخر
وبنات أعوج قد برمن بصحبتي مما قطعن من اليباب المقفر

وأورد له صاحب " قلائد العقيان " مقطوعاً:

يا أقتل الناس ألحاظاً وأطيبهم ريقاً متى كان فيك الصاب والعسل
في صحن خدك وهو الشمس طالعة ورد يزيدك فيه الراح والخجل
إيمان حبك في قلبي يجدده من خدك الكتب أو من لحظك الرسل
إن كنت تجهل أني عبد مملكةٍ مرني بما شئت آتيه وامتثل
لو اطلعت على قلبي وجدت فيه من فعل عينيك جرحاً ليس يندمل

وذكره العماد الكاتب في " الخريدة " وأورد له عدة مقاطيع، ثم أعاد ذكره في آخر الكتاب وأورد له:

ومشمولةٍ في الكأس تحسب أنها سماء عقيقٍ رصعت بالكواكب

بنت كعبة اللذات في حرم الصبا فحج إليها اللهو من كل جانب

محاسنه في الشعر كثيرة. وتوفي سنة أربعين وخمسمائة، رحمه الله تعالى.

وبقي: بفتح الباء الموحدة وكسر القاف وتشديد الياء.

الخطيب الحصكفي

أبو الفضل يحيى بن سلامة بن الحسين بن محمد، الملقب معين الدين، المعروف بالخطيب الحصكفي؛ صاحب الديوان الشعر والخطب والرسائل، ولد بطترة ونشأ بحصن كيفا، وقدم بغداد فاشتغل بالأدب على الخطيب أبي زكريا التبريزي – المقدم ذكره – وأتقنه حتى مهر فيه، وقرأ الفقه على مذهب الإمام الشافعي، رضي الله عنه، وأجاد فيه، ثم رحل عن بغداد راجعاً إلى بلاده ونزل ميافارقين واستوطنها، وتولى بها الخطابة، وكان إليه أمر الفتوى بها، واشتغل عليه الناس وانتفعوا بصحبته.

وذكره العماد الأصبهاني في كتاب " الخريدة "فقال في حقه": كان علامة الزمان في علمه، ومعري العصر في نثره ونظمه، له الترصيع البديع والتجنيس النفيس، والتطبيق والتحقيق، واللفظ الجزل الرقيق، والمعنى السهل العميق، والتقسيم المستقيم، والفضل السائر المقيم. "ثم قال العماد بعد كثرة الثناء عليه وتعداد محاسنه: "وكنت أحب لقاءه، وأحدث نفسي عند وصولي إلى الموصل به، وأنا شغف بالاستفادة، كلف بمجالسة الفضلاء للاستزادة، فعاق دون لقائه بعد الشقة، وضعفي عن تحمل المشقة " ثم ذكر له عدة مقاطيع، فمن ذلك قوله:

وخليعٍ بت أعذله ويرى عذلي من العبث

قلت :إن الخمر مخبئة قال :حاشاها من الخبث

قلت :فالأرفاث تتبعها قال: طيب العيش في الرفث

قلت :منها القيء، قال: أجل شرفت عن مخرج الحدث

وسأجفوها، فقلت: متى؟ قال: عند الكون في الجدث

قلت أنا: ولقد أخذ الخطيب المذكور قوله: شرفت عن مخرج الحدث من قول بعضهم ولا أعرفه، لكنها أبيات سائرة، وهي:

ولائم لامني في الخمر، قلت له إني سأشربها حياً وفي جدثي

فأسقني قهوةً حمراء صافيةً صرفاً حراماً فإنني غير مكترث

فإن يكن حللوها بالطبيخ ففي حشاي نار تبقيها على الثلث

قالوا :فلم تتقاياها؟ فقلت لهم إني أنزهها عن مخرج الحدث

ثم قال العماد الأصبهاني: وأنشدني له بعض الفضلاء ببغداد خمسة أبيات كالخمسة السيارات مستحسنات مطبوعات مصنوعات، وهي:

أشكو الله من نارين: واحدة في وجنتيه وأخرى منه في كبدي

ومن سقامين: سقم قد أحل دمي من الجفون وسقم حل في جسدي

ومن نمومين: دمعي حين أذكره يذيع سرى، وواشٍ منه بالرصد

ومن ضعيفين: صبري حين أذكره ووده ويراه الناس طوع يدي

مهفهف رق حتى قلت من عجبٍ أخصره خنصري أم جلده جلدي

ومن مليح شعره أبيات في هجو مغن وهي:

ومسمع غناؤه يبدل بالفقر الغنى
شهدته في عصبةٍ رضيتهم لي قرنا
أبصرته فلم تخب فراستي لما دنا
وقلت من ذا وجهه كيف يكون محسنا
ورمت أن أروح لل ظن به ممتحنا
فقلت من بينهم هات أخي غن لنا
ويوم سلعٍ لم يكن يومي بسلعٍ هينا
فانشال منه حاجب وحلجب منه انحنى
وامتلأ المجلس من فيه نسيماً منتنا
أوقع إذ وقع في الأن فس أسباب العنا
وقال لما قال من يسمع في ظل الفنا
وما اكتفى باللحن وال تخليط حتى لحنا
هذا وكم تكشخن ال وغد وكم تقرننا
يوهم زمراً أنه قطعه ودندنا

وصاح صوتاً نافراً يخرج عن حد البنا
وما درى محضره ماذا على القوم جنى
فذا يسد أنفه وذا يسد الأذنا
ومنهم جماعة تستر عنه الأعينا
فاغتظت حتى كدت من غيظٍ أبث الشجنا
وقلت يا قوم اسمعوا إما المغني أو أنا
أقسمت لا أجلس أو يخرج هذا من هنا
جروا برجل الكلب إن السقم هذا والضنا
قالوا لقد رحمتنا وذدت عنا المحنا
فحزت في إخراجه راحة نفسي والثنا

وحين ولى شخصه قرأت فيهم معلنا

الحمد لله الذي أذهب عنا الحزنا

ولم أسمع، مع كثرة ما قيل في هذا الباب مثل هذا المقطوع في هذا المعنى.

وللخطيب المذكور أيضاً في هذا المعنى:

ومسمعٍ قوله بالكره مسموع محجب عن بيوت الناس ممنوع

غنى فبرق عينيه وحرك لح ييه فقلنا الفتى لا شك مصروع

وقطع الشعر حتى ود أكثرنا أن اللسان الذي في فيه مقطوع

لم يأت دعوة أقوامٍ بأمرهم ولا مضى قط إلا وهو مصفوع

وقد سبق له في ترجمة الشيخ الشاطبي في حرف القاف مقطوع لغز في نعش وهو معنى مليح، وأكثر شعره على هذا الأسلوب في اللطافة وجودة المقاصد، وكان يتشيع وهو في شعره ظاهر.

وكان بمدينة آمد شابان بينهما مودة أكيدة ومعاشر كثيرة، فركب أحدهما ظاهر البلد وطرد فرسه فتقنطر فمات، وقعد الآخر يستعمل الشراب، فشرق فمات في ذلك النهار، فعمل فيهما بعض الأدباء:

تقاسما العيش صفواً والردى كدراً وما عهدنا المنايا قط تقتسم

وحافظا الود حتى في حمامهما وقلما في المنايا تحفظ الذمم

فلما وقف الخطيب المذكور على البيتين قال: هذا الشاعر قصر إذ لم يذكر سبب موتهما، وقد قلت فيهما:

بنفسي أخيان من آمدٍ أصيبا بيوم مشوم عبوس

دهى ذا كميت من الصافنات وهذا كميت من الخندريس

قلت: ولو قال:

دهى ذا كميت من الصافنات وهذا كميت من الصافيات

لكان أحسن لأجل المجانسة، وكان يجعل البيت الأول:

بنفسي أخيان من آمدٍ أصيبا بيوم شديد الأذاة

أو ما يناسب هذا، ثم وجدت البيتين الأولين في كتاب " الجنان " تأليف القاضي الرشيد ابن الزبير – المقدم ذكره في حرف الهمزة – وقد نسبهما إلى الفقيه أبي علي الحسن بن أحمد المعلم المعري، لكن هذا وجدت الحكاية بخط بعض المتأدبين، والله أعلم.

وللخطيب المذكور الخطب المليحة والرسائل المنتقاة. ولم يزل على رياسته وجلالته وإفادته إلى أن توفي سنة إحدى، وقيل ثلاث، وخمسين وخمسمائة. وكانت ولادته في حدود سنة ستين وأربعمائة، رحمه الله تعالى.

والحصكفي: بفتح الحاء وسكون الصاد المهملة وفتح الكاف وفي آخرها فاء، هذه النسبة إلى حصن كيفا، وهي قلعة حصينة شاهقة بين جزيرة ابني عمر وميافارقين، وكان القياس أن ينسبوا إليه الحصني، وقد نسبوا إليه أيضاً كذلك، لكن إذا نسبوا إلى اسمين أضيف أحدهما إلى الآخر ركبوا من مجموع الاسمين اسماً واحداً ونسبوا إليه كما فعلوا هاهنا، وكذلك نسبوا إلى رأس عين " رسعني " وإلى عبد الله وعبد شمس وعبد الدار: عبدلي وعبشمي وعبدري، وكذلك كل ما هو نظيره.

وأما طنزة: بفتح الطاء المهملة وسكون النون وفتح الزاي في آخرها هاء ساكنة، فهي بليدة صغيرة بديار بكر فوق الجزيرة العمرية، خرج منها جماعة

من المحدثين وغيرهم، ونسبوا إليها.

قال عماد الدين الأصبهاني الكاتب في كتاب " الخريدة ": منها إبراهيم بن عبد الله إبراهيم الطتري، وهو القائل:

وإني لمشتاق إلى أرض طنزة ... وإن خانني بعد التفرق إخواني

سقى الله أرضاً لو ظفرت بتربتها ... كحلت به من شدة الشوق أجفاني

ثم قال عماد الدين المذكور بعد هذا: كان الشاعر حياً في شهر رمضان سنة ثمان وستين وخمسمائة.

يحيى بن تميم الصنهاجي

أبو طاهر يحيى بن تميم بن المعز بن باديس الحميري الصنهاجي صاحب إفريقية وما والاها – قد تقدم ذكر والده ورفعت نسبه هناك، وتقدم ذكر جماعة من أجداده في هذا الكتاب.

وكانت ولاية الأمير يحيى المذكور بالمهدية خلافةً عن أبيه تميم يوم الجمعة لأربع بقين من شهر ذي الحجة سنة سبع وتسعين وأربعمائة والطالع الدرجة السابعة من الجدي، ثم استقل بالأمر يوم وفاة والده، وقد سبق ذلك في ترجمته.

وكان عمر الأمير يحيى يوم الاستقلال ثلاثاً وأربعين سنة وستة أشهر وعشرين يوماً، وركب على العادة، وأهل دولته محتفون به، ورجع إلى قصره فغير لباس أهل الدولة من الخواص والجند بخلع سنية، وكانوا قد غيروا لباسهم لموت أبيه، ووهب للأجناد والعبيد أموالاً كثيرة، ووعدهم مواعد سارة.

ورأيت في كتاب " الجمع والبيان في أخبار القيروان " الذي ألفه ولد أخيه عز الدين أبو محمد عبد العزيز بن شداد بن تميم بن المعز بن بادي، أن الأمير تميماً قبل وفاته بمدة يسيرة ودعا ولده يحيى المذكور، وكان في دار الإمارة مع خاصته وجلسائه، فمضى يحيى ومن معه إليه، فوجدوا تميماً في بيت المال، فأمرهم بالجلوس ثم قال لأحدهم: قم فادخل ذلك البيت وخذ منه الكتاب الذي صفته كذا في مكان كذا، فقام وأتى به، فإذا هو كتاب ملحمة، فقال له: عد من أوله كذا وكذا ورقة، واقرأ الصفحة التي تنتهي إليها، فقرأها وإذا فيها " الملك المغدور، وهو الطويل القامة الذي على ورطه الأيمن خال وفي جنبه الأيسر شامة " فقال الأمير تميم: أطبق الكتاب واردده إلى موضعه، ففعل، ثم قال تميم: أما العلامتان فقد رأيتهما، وبقيت علي الثالثة، قم أنت يا شريف وأنت يا فلان حتى تحققا عندي خبر العلامة الثالثة، فقاموا وقام يحيى معهم إلى موضع مستور عن تميم، فكشف لهم عن جسمه، فرأوا شامة على جنبه الأيسر هلالية الشكل، فأتوا تميماً فعرفوه، فقال: لم أعطه أنا شيئاً، الله تعالى الذي أعطاه، ثم قال: إني أخبركم بحديث عجيب، وذلك أنه عرض علي النخاس والدته، فاستحسنتها ومالت نفس إليها فاشتريتها، وسلمتها إلى خدام القصر، وأمرت النخاس أن يرجع إلى قبض الثمن، ثم دبرت في مال طيب حلال أخرج ثمنها منه، فبينما أنا مفكر في ذلك إذ سمعت السائل يصيح ويرفع صوته في الإذن على مطالعتي، فأخرجت رأسي من الطاق وقلت له: ما شأنك؟ فقال: كنت الساعة أحفر في قصر المهدي إذ وجدت صندوقاً عليه قفل، فتركته على حاله وجئت مطالعاً بأمره، فأنفذت معه من أثق به، فإذا فيه أثواب مذهبات الأعلام قد أفناها الدهر، فأمرت بسبك أعلامها، فلم تزد و لم تنقص عن ثمن الجارية، فتعجب الحاضرون من ذلك ودعوا له، ثم أمر لهم بدنانير وكساء وانصرفوا. قال عبد العزيز المذكور: وقد أدركت هذا الكتاب المشار إليه عند السلطان الحسن، رحمه الله تعالى، يعني الحسن بن علي بن يحيى المذكور.

وحكى عن الكتاب أموراً وقضايا ذكر أنها ستكون، وكانت كما ذكر.

رجعنا إلى حديث يحيى: ولما جلس الملك قام بالأمر وعدل في الرعية وفتح قلاعاً لم يتمكن أبوه من فتحها، قال عبد العزيز المذكور في تاريخه: وفي أيامه – يعني يحيى – وصل إلى المهدية محمد بن تومرت – المقدم ذكره – قادماً من الحج، فنزل بمسجد قبلي مسجد السبت، فاجتمع إليه جماعة من أهل المهدية وقرأوا عليه كتباً في علم أصول الدين، وشرع في تغيير المنكر، فرفع أمره إلى يحيى فأحضره وجماعة من الفقهاء، فرأى ما هو عليه من الخشوع والتقشف والعلم، فسأله الدعاء فقال له: أصلحك الله لرعيتك، ونفع بها ذريتك، وأقام مدة يسيرة بالمهدية ثم انتقل إلى المنستير فأقام بها مدة، ثم انتقل إلى بجاية –وقد تقدم في ترجمة والده الأمير تميم أن محمد بن تومرت المذكور اجتاز بتلك البلاد في أيامه، والله تعالى أعلم أي ذلك كان.

ثم قال عبد العزيز: وفي سنة سبع وخمسمائة أتى إلى المهدية قوم غرباء، فقصدوا يحيى بمطالعة زعموا فيها أنهم من أهل الصناعة الكبيرة من الواصلين إلى نهايتها، فأذن لهم بالدخول عليه، فلما مثلوا بين يديه طالبهم بأن يظهروا له من الصناعة ما يقف عليه فقالوا: نحن نزيل من القصدير التدخين والصرير حتى يرجع لا فرق بينه وبين الفضة، لمولانا من السروج والقصب والبنود والأواني قناطير من الفضة يجعل عوضاً منها ما يريده ويستعمل جميع ذلك في مهماته، وسألوه أن يكون ذلك في خلوة، فأجابهم وأحضرهم للعمل، و لم يكن عند الأمير يحيى سوى الشريف أبي الحسن علي والقائد إبراهيم قائد الأعنة، وكانوا هم ثلاثة، وكانت بينهم أمارة، فأمكنتهم الفرصة، فقال أحدهم: دارت البوتقة، فتواثبوا وقصد كل واحد منهم واحداً بسكاكينهم، فأما الذي قصد الأمير يحيى فقال: أنا سراج، وكان يحيى جالساً على مصطبة، فضربه فجاءت على أم رأسه، فقطعت طاقات في العمامة، و لم تؤثر في رأسه، واسترخت يده بالسكين على صدره فخدشته، وضربه يحيى برجله، فألقاه على ظهره، فسمع الخدم الجلبة ففتحوا باب القصر من عندهم، فدخل يحيى وأغلق الباب دونهم، وأما الشريف فلم يزل به الذي قصده حتى قتله، وأما القائد إبراهيم فإنه شهر سيفه، و لم يزل يقاتل الثلاثة، وكسر الجند الباب الذي كان بينهم، ودخلوا فقتلوهم، وكان زيهم زي أهل الأندلس، فقتل في البلد جماعة ممن يلبس ذلك الزي، وخرج الأمير يحيى في الحال ومشى في البلد وسكن الفتنة.

وكان يحيى عادلاً في دولته ضابطاً لأمور رعيته عارفاً بخرجه ودخله، مدبراً في جميع ذلك على ما يوجبه النظر العقلي ويقتضيه الرأي الحكمي، ونعته في الملاحم " الملك المغدور " وتحقق له هذا النعت بهذه الواقعة التي ذكرناها. وكان كثير المطالعة لكتب الأخبار والسير عارفاً بها، رحيماً للضعفاء شفيقاً على الفقراء، يطعمهم في الشدائد فيرفق بهم، ويقرب أهل العلم والفضل من نفسه، وساس العرب في بلاده فهابوه وانكفت أطماعهم، وكان له نظر حسن في صناعة النجوم والأحكام، وكان حسن الوجه على حاجبه شامة، أشهل العينين مائلاً في قده إلى الطول دقيق الساقين، وكان عنده جماعة من الشعراء قصدوه ومدحوه، وخلدوا مديحه في دواوينهم، ومن جملة شعرائه أبو الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت الشاعر – المقدم ذكره – أقام تحت كنفه بعد أن جاب الأرض، وتقاذفت به البلدان، وله صنف الرسالة المشهورة التي وصف فيها مصر وعجائبها وشعراءها وغير ذلك، وله فيه مدائح كثيرة أجاد فيها وأحسن، وله أيضاً مدائح في ولده أبي الحسن علي وولد ولده الحسن بن علي، ومن جملة قوله من مديحه قصيدة:

وارغب بنفسك إلا عن ندىً وغنىً	فالمجد أجمع بين البأس والجود
كدأب يحيى الذي أحيت مواهبه	ميت الرجاء بإنجاز المواعيد
معطي الصوارم والهيف النواعم وال	جرد الصلادم والبزل الجلاعيد
أشم أشوس مضروب سرادقه	على أشم بفرع النجم معقود
إذا بدا بسرير الملك محتبياً	رأيت يوسف في محراب داوود
من أسرةٍ تخذوا الماذي لبسهم	واستوطنوا صهوات الضمر القود
محسدون على أن لا نظير لهم	وهل رأيت عظيماً غير محسود
وإن تكن جمعتكم أسرة كرمت	فليس في كل عود نفحة العود
أقول للراكب المزجي مطيته	يطوي به الأرض من بيد إلى بيد
لا تترك الماء عداً في مشارعه	وتطلب الري من صم الجلاميد
هذي موارد يحيى غير ناضبة	وذا الطريق إليها غير مسدود
حكم سيوفك فيما أنت طالبه	فللسيوف قضاء غير مردود

وله فيه غير ذلك.

ولما كان يوم الأربعاء، وهو عيد النحر سنة تسع وخمسمائة، توفي يحيى فجأة، وذلك أن منجمه قال يوماً له: إن تسيير مولدك في هذا النهار عليك عكساً فلا تركب، فامتنع عن الركوب، وخرج أولاده ورجال دولته إلى المصلى، فلما انقضت الصلاة حضر رجال الدولة على ما جرت به العادة للسلام، وقرأ القرآن وأنشد الشعراء، وانصرفوا إلى الإيوان فأكل الناس، وقام يحيى إلى مجلس الطعام، فلما وصل إلى باب المجلس أشار إلى جارية من حظاياه فاتكأ عليها، فما خطا من باب البيت سوى ثلاث خطوات حتى وقع ميتاً.

وكان ولده علي نائبه على سفاقس، وهي بلدة من أعمال إفريقية، "وللشعراء فيها شعر فمن ذلك قول بعضهم وهو علي بن حبيب يصف بحرها في مده وجزره:

سقياً لأرض سفاقس	ذات المصانع والمصلى
بلد يكاد يقول حي	ن وروده أهلاً وسهلا
وكأن ماء البئر حي	ن تراه ينضب ثم يملا
صب يريد زيارة	فإذا رأى الرقباء ولى"

فأحضر وعقدت له الولاية، ودفن يحيى في القصر على ما جرت به العادة، ثم نقل بعد سنة إلى قصر السيدة بالمنستير– وهي بلدة إفريقية أيضاً – وخلف ثلاثين ولداً ذكوراً.

وأما علي المذكور القائم مقام أبيه يحيى فإن مولده بمدينة المهدية صبيحة يوم الأحد لخمس عشرة ليلة خلت من صفر سنة تسع وتسعين وأربعمائة، وكان أبوه قد ولاه سفاقس، فلما مات أبوه اجتمع أعيان دولته على كتاب كتبوه عن أبيه يأمره بالوصول إليه مسرعاً، فوصله الكتاب ليلاً فخرج لوقته ومعه طائفة من أمراء العرب، وجد في السير فوصل الظهر من يوم الخميس الثاني من العيد، ودخل القصر و لم يقدم شيئاً على تجهيز أبيه والصلاة عليه ودفنه، وفي صبيحة يوم الجمعة ثالث عشر ذي الحجة جلس للناس، فدخلوا عليه وسلموا بالإمارة، ثم ركب في جيوشه وجموعه ثم عاد إلى قصره.

وفي أيامه توجه أخوه أبو الفتوح ابن يحيى إلى الديار المصرية ومعه زوجته بلارة بنت القاسم وولده العباس الصغير على الثدي، فوصل إلى الإسكندرية، فأنزل وأكرم بأمر الآمر صاحب مصر يومئذ، فأقام بها مدة يسيرة وتوفي، فتزوجت بعده زوجته بلارة بالعادل بن السلار واسمه علي – المقدم ذكره في هذا الكتاب في حرف العين – وشب العباس وقدمه الحافظ صاحب مصر، وولي الوزارة بعد العادل المذكور.

وذكر شيخنا ابن الأثير في تاريخه في حوادث سنة اثنتين وخمسمائة حديث الثلاثة الذين جاؤوا إلى يحيى في معنى الكيمياء، فقال: كان مجيئهم في هذه السنة، وأنهم لما وثبوا على يحيى وجرى ما ذكرته قبل هذا صادف ذلك مجيء أبي الفتوح المذكور وأصحابه إلى القصر وعليهم السلاح، فمنعوا من الدخول، وثبت عند يحيى أن ذلك كان باتفاق بينهم، فأخرج أبو الفتوح وزوجته وهي ابنة عمه إلى قصر زياد، ووكل بهما إلى أن مات يحيى وملك ابنه علي فسيرهما في البحر إلى الديار المصرية، فوصلا إلى الإسكندرية. انتهى كلامه.

و لم تزل أمور علي بن يحيى جارية على السداد، إلى أن توفي يوم الثلاثاء لسبع بقين من شهر ربيع الآخر سنة خمس عشرة وخمسمائة، ودفن في القصر بعد أن فوض الأمر من بعده إلى ولده أبي يحيى الحسن بن علي بن يحيى.

ومولد الحسن المذكور بمدينة سوسة في رجب سنة اثنتين وخمسمائة، فكان عمره يوم ولايته اثنتي عشرة سنة وتسعة أشهر، ولما كان ثاني يوم وفاة أبيه خرج للناس فسلموا عليه وهنئوه بما صار إليه، ثم ركب والجيوش محتفة به.

صاحب صقلية أخذ طرابلس الغرب عنوة بالسيف في يوم الثلاثاء سادس المحرم سنة إحدى وأربعين وخمسمائة، وقتل أهلها وسبى الحريم والأطفال وأخذ الأموال، ثم شرع في عمارتها وتحصينها بالرجال والعدد، ثم أخذ المهدية يوم الاثنين ثاني عشر صفر سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة، وذلك أن الحسن بن علي لما علم عجزه عن مقاومته خرج من المهدية هارباً، وقد استصحب ما خف عليه حمله من النفائس، وخرج أهل البلد أيضاً هاربين، إلا

من أقعده العجز عن الهرب، فدخل إليه الفرج وملكوه، وصادفوا فيه من الأموال والذخائر ما لا يعد ولا يحصى.

وكان عدة من ملك من أهل بيتهم، وأولهم زيري - المقدم ذكره في حرف الزاي - إلى هذا الحسن بن علي تسعة ملوك، ومدة ولايتهم مائتا سنة وثمان سنين، وانقرضت دولة بني باديس. ثم إن الحسن بن علي توجه نحو المعلقة - وهي قلعة حصينة بإفريقية تجاور تونس، وكان صاحبها أبا محفوظ محرز بن زياد أحد أمراء العرب، فأقام عنده قليلاً ثم ظهر له منه الضجر والسآمة، فعزم على قصد الديار المصرية ليكون عند الحافظ العبيدي صاحبها يومئذ، فنمي خبره إلى نائب رجار بالمهدية، فجعل عليه العيون وعمل عشرين شينياً ليمسكه في البحر، فبلغ الحسن ذلك، فرجع عن هذا الرأي ثم قصد أن يتوجه إلى جهة عبد المؤمن بن علي بمراكش، وأنفذ ثلاثة من أولاده إلى صاحب بجاية، وهي آخر أعمال إفريقية، ليستأذنه في الوصول إليه، وبعد ذلك يتوجه إلى عبد المؤمن، فأضمر له الغدر وخاف من اجتماعه بعبد المؤمن أن يتفقا على ما فيه ضرره، فكتب إليه كتاباً على يد أولاده يقول له: لا حاجة لك في الرواح إلى عبد المؤمن، ونحن نفعل معك ونصنع، وأجزل له من المواعيد الحسنة، فتوجه إليه، فلما قرب من بجاية لم يخرج للقائه وعدل به إلى الجزائر، وهي بلدة فوق بجاية من جهة الغرب، وأنزلوه بها في مكان لا يليق بمثله، ورتبوا له من الإقامة ما لا يصلح لبعض أتباعه، ومنعوه من التصرف، وكان وصوله إلى الجزائر في المحرم سنة أربع وأربعين وخمسمائة.

ثم إن عبد المؤمن فتح بجاية في سنة سبع وأربعين وهرب صاحبها إلى القسطنطينية.

ثم إن رجار صاحب صقلية هلك في العشر الأخير من ذي الحجة سنة ثمان وأربعين وخمسمائة.

ولما هلك رجار ملك بعده ابنه غنيم بن رجار، وعليه قدم أبو الفتوح نصر الله بن قلاقس الشاعر - المقدم ذكره - ومدحه وأجازه، وذلك في سنة ثلاث وستين وخمسمائة.

ولما هلك غنيم ملكت ابنته، وهي أم الأنبرور ملك ألمانية في زماننا، ثم هلكت أم الأنبرور وخلفته صغيراً فملك واستمر ملكه، وكان عاقلاً فاضلاً، وبينه وبين الملك الكامل صاحب مصر مراسلات وغيرها.

ثم إن عبد المؤمن وصل إلى المهدية وملكها بعد جهد جهيد، وكان دخوله إليها بكرة يوم عاشوراء سنة خمس وخمسين وخمسمائة، فولى بها نائباً، وكان الحسن بن علي قد وصل صحبته، فرتبه مع النائب لتدبير أمورها لكونه عارفاً بأحواله وأقطعه بها ضيعتين وأعطاه دوراً سكنها هو وأولاده وأتباعه. و لم أقف على تاريخ وفاة الحسن بن علي المذكور.

ثم قتل محرز بن زياد في وقعة سطيف يوم الخميس في العشر الأوسط من ربيع الآخر سنة خمس وخمسين وخمسمائة.

وهذا الحسن بن علي هو الذي صنف له أبو الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت كتاب " الحديقة ".

يحيى بن خالد البرمكي

أبو الفضل يحيى بن خالد بن برمك وزير هارون الرشيد - وقد تقدم ذكر ولديه جعفر والفضل كل واحد منهما في بابه؛ وكان جدهم برمك من مجوس بلخ، وكان يخدم النوبهار وهو معبد كان للمجوس بمدينة بلخ توقد فيه النيران، واشتهر برمك المذكور وبنوه بسدانته، وكان برمك عظيم المقدار عندهم، و لم أعلم هل أسلم أم لا.

وساد ابنه خالد وتقدم في الدولة العباسية، وتولى الوزارة لأبي العباس بعد أبي سلمة حفص الخلال - المقدم ذكره - وقد ذكرته في ترجمة جعفر وذكرت هناك تاريخ وفاته، وقال أبو الحسن المسعودي في كتاب " مروج الذهب ": لم يبلغ مبلغ خالد بن برمك أحد من ولده في جوده ورأيه وبأسه وعلمه وجميع خلاله، لا يحيى في رأيه ووفور عقله، ولا الفضل بن يحيى في جوده ونزاهته، ولا جعفر بن يحيى في كتابته وفصاحة لسانه، ولا محمد بن يحيى في سروه وبعد همته، ولا موسى بن يحيى في شجاعته وبأسه.

ولما بعث أبو مسلم الخراساني قحطبة بن شبيب الطائي لمحاربة يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري عامل مروان بن محمد على العراقين، وكان خالد بن برمك في جملة من كان معه، فنزلوا في طريقهم بقرية، فبينما هم على سطح بعض دورها يتغدون إذ نظروا إلى الصحراء وقد أقبلت منها أقاطيع

الوحش من الظباء وغيرها، حتى كادت تخالط العسكر، فقال خالد لقحطبة: أيها الأمير، ناد في الناس ومرهم أن يسرجوا ويلجموا قبل أن تهجم عليهم الخيل، فقام قحطبة مذعوراً، فلم ير شيئاً يروعه، فقال: يا خالد ما هذا الرأي؟ إن وراءها لجمعاً كثيفاً، فما ركبوا حتى رأوا الغبار، ولولا خالد لهلكوا.
وأما يحيى فإنه كان من النبل والعقل وجميع الخلال على أكمل حال، وكان المهدي بن أبي جعفر المنصور قد ضم إليه ولده هارون الرشيد، وجعله في حجره، فلما استخلف هارون عرف له حقه، وقال له: يا أبت، أنت أجلستني في هذا المجلس ببركتك ويمنك وحسن تدبيرك، وقد قلدتك الأمر، ودفع له خاتمه، وفي ذلك يقول الموصلي، وأظنه إبراهيم النديم أو ابنه إسحاق:

ألم تر أن الشمس كانت سقيمةً ... فلما ولي هارون أشرق نورها

بيمن أمين الله هارون ذي الندى ... فهارون واليها ويحيى وزيرها

وكان يعظمه، وإذا ذكره قال " أبي " وجعل إصدار الأمور وإيرادها إليه، إلى أن نكب البرامكة فغضب عليه، وخلده في الحبس إلى أن مات فيه، وقتل ابنه جعفراً – حسبما تقدم شرحه في ترجمته.
وكان من العقلاء الكرماء البلغاء، ومن كلامه: ثلاثة أشياء تدل على عقول أربابها: الهدية والكتاب والرسول. وكان يقول لولده: اكتبوا أحسن ما تسمعون، واحفظوا أحسن ما تكتبون، وتحدثوا بأحسن ما تحفظون. وكان يقول: الدنيا دول والمال عارية، ولنا بمن قبلنا أسوة، وبمن بعدنا عبرة.
وقال الفضل بن مروان – المقدم ذكره: سمعت يحيى بن خالد يقول: من لم أحسن إليه فأنا مخير فيه، ومن أحسنت إليه فأنا مرتهن به.
وقال القاضي يحيى بن أكثم، سمعت المأمون يقول: لم يكن كيحيى بن خالد وكولده أحد في الكفاية والبلاغة والجود والشجاعة، ولقد صدق القائل حيث يقول:

أولاد يحيى أربع ... كأربع الطبائع

فهم إذا اختبرتهم ... طبائع الصنائع

قال القاضي: فقلت له يا أمير المؤمنين، أما الكفاية والبلاغة والسماحة فنعرفها فيهم، ففي من الشجاعة؟ فقال: في موسى بن يحيى، وقد رأيت أن أوليه ثغر السند.

وقال إسحاق بن إبراهيم النديم الموصلي – المقدم ذكره: حدثني أبي قال: أتيت يحيى بن خالد بن برمك فشكوت إليه ضيقة فقال: ويحك، ما أصنع بك؟ ليس عندنا في هذا الوقت شيء، ولكن هاهنا أمر أدلك عليه فكن فيه رجلاً، قد جاءني خليفة صاحب مصر يسألني أن أستهدي صاحبه شيئاً، وقد أبيت ذلك عليه، فألح علي، وقد بلغني أنك قد أعطيت بجاريتك فلانة ثلاثة آلاف دينار، فهو ذا أستهديه إياها وأخبره أنها قد أعجبتني فإياك أن تنقصها من ثلاثين ألف دينار وانظر كيف تكون، قال: فوالله ما شعرت إلا بالرجل وافاني فساومني بالجارية، فقلت له: لا أنقصها من ثلاثين ألف دينار، فلم يزل يساومني حتى بذل لي عشرين ألف دينار، فلما سمعتها ضعف قلبي عن ردها، فبعتها وقبضت العشرين ألفاً، ثم صرت إلى يحيى بن خالد فقال لي: كيف صنعت في بيعك الجارية؟ فأخبرته وقلت: والله ما ملكت نفسي أن أجبت إلى العرين ألفاً حين سمعتها، فقال: إنك لخسيس فخذ جاريتك بارك الله لك فيها، وهذا خليفة صاحب فارس قد جاءني في مثل هذا، فإذا ساومك بها فلا تنقصها من خمسين ألف دينار، فإنه لا بد أن يشتريها منك بذلك، فجاءني الرجل فاستمت عليه خمسين ألف دينار، فلم يزل يساومني حتى أعطاني ثلاثين ألف دينار، فضعف قلبي عن ردها و لم أصدق بها، فأوجبتها ثم صرت إلى يحيى بن خالد فقال لي: بكم بعت الجارية؟ فأخبرته، فقال: ويحك! ألم تؤدبك الأولى عن الثانية، قال: فقلت: والله ضعفت عن رد شيء لم أطمع فيه، قال فقال: هذه جاريتك فخذها إليك، قال: فقلت: جارية أفدت بها خمسين ألف دينار، ثم أملكها، أشهدك أنها حرة، أني قد تزوجتها. هكذا رأيت هذه الحكاية، ثم نظرت في كتاب " أخبار الوزراء " تأليف الجهشياري فقال: إن يحيى قال لإبراهيم الموصلي: لا تقبل أقل من مائة ألف دينار، وأنه باعها بخمسين ألف دينار، وقال له في المرة الثانية لا تقبل أقل من خمسين ألف دينار فباعها بثلاثين ألف دينار.
وقال الأصمعي: دخلت على يحيى يوماً فقال: يا أصمعي، هل لك زوجة؟ فقلت: لا، فقال: فجارية؟ فقلت: لكم منة، فأمر بإخراج جارية غاية في

الحسن والجمال والظروف، فقال لها قد وهبتك لهذا، وقال: يا أصمعي، خذها فشكرته ودعوت له، فلما رأت الجارية ذلك بكت وقالت: يا سيدي، تدفعني إلى هذا، فما ترى سماجته وقبحه؟ فقال لي: هل لك أن أعوضك عنها ألفي دينار؟ قلت: ما أكره ذلك، ودخلت الجارية إلى داره فقال لي: أنكرت على هذه الجارية أمراً فأردت أن أعاقبها بك ثم رحمتها، فقلت له: هلا أعلمتني حتى كنت لحق بالباب على صورتي الأصلية من غير أن أسرح لحيتي وأصلح عمتي وأتطيب وأتجمل، فضحك، وأمر لي بألف دينار أخرى.

وحكى إسحاق النديم أيضاً قال: كانت صلات يحيى بن خالد إذا ركب لمن تعرض له مائتي درهم، فركب ذات يوم فتعرض لد أديب شاعر وأنشده:

يا سمي الحصور يحيى أتيحت ... لك من فضل ربنا جنتان

كل من مر في الطريق عليكم ... فله من نوالكم مائتان

مائتا درهم لمثلي قليل ... هي منكم للقابس العجلان

قال له يحيى: صدقت، وأمر بحمله إلى داره، فلما رجع من دار الخلافة سأله عن حاله، فذكر أنه تزوج وقد أخذ بواحدة من ثلاث: إما أن يؤدي المهر وهو أربعة آلاف، وإما أن يطلق، وإما أن يقيم جارياً للمرأة يكفيها إلى أن يتهيأ له نقلها، فأمر يحيى بأربعة آلاف للمهر، وبأربعة آلاف لثمن مترل، وبأربعة آلاف لما يحتاج إليه المترل، وبأربعة آلاف للبنية، وبأربعة آلاف يستظهر بها، فأخذ عشرين ألفاً وانصرف.

وقال محمد بن مناذر الشاعر: حج هارون الرشيد ومعه ابناه الأمين محمد والمأمون عبد الله، وحج معه يحيى بن خالد وابناه الفضل وجعفر، فلما صاروا بالمدينة جلس الرشيد ومعه يحيى بن خالد، فأعطى الناس عطاءهم، ثم جلس الأمين ومعه الفضل فأعطاهم العطاء، ثم جلس المأمون ومعه جعفر بن يحيى فأعطاهم عطاياهم، ثم جلس المأمون ومعه جعفر بن يحيى فأعطاهم عطاياهم، وكان أهل المدينة يسمون ذاك العام عام الأعطية الثلاثة، و لم يروا مثل ذلك قط، فقلت في ذلك:

أتانا بنو الأملاك من آل برمكٍ ... فيا طيب أخبارٍ ويا حسن منظر

لهم رحلة في كل عام إلى العدى ... وأخرى إلى البيت العتيق المطهر

إذا نزلوا بطحاء مكة أشرقت ... بيحيى وبالفضل بن يحيى وجعفر

فتظلم بغداد وتجلو لنا الدجى ... بمكة ما حجوا ثلاثة أقمر

فما خلقت إلا لجود أكفهم ... وأقدامهم إلا لأعواد منير

إذا راض يحيى ذلت صعابه ... فناهيك من راعٍ له ومدبر

ترى الناس إجلالاً له وكأنهم ... غرانيق ماء تحت باز مصرصر

وذكر الخطيب في " تاريخ بغداد "، في ترجمة أبي عبد الله محمد بن عمر الواقدي أنه قال: كنت حناطاً بالمدينة في يدي مائة ألف درهم للناس أضارب بها، فتلفت الدراهم، فشخصت إلى العراق فقصدت يحيى بن خالد، فجلست في دهليزه وأنست بالخدم والحجاب وسألتهم أن يوصلوني إليه، فقالوا: إذا قدم الطعام إليه لم يحجب عنه أحد، ونحن ندخلك عليه ذلك الوقت، فلما حضر طعامه أدخلوني فأجلسوني على المائدة، فسألني: من أنت؛ وما قصتك؟ فأخبرته، فلما رفع الطعام وغسلنا أيدينا دنوت منه لأقبل رأسه، فاشمأز من ذلك، فلما صرت إلى الموضع الذي يركب منه لحقني خادم معه كيس فيه ألف دينار، فقال: الوزير يقرأ عليك السلام ويقول لك: استعن بهذا على أمرك وعد إلينا في اليوم الثاني، فأخذته وانصرفت، وعدت في اليوم الثاني فجلست معه على المائدة، فأنشأ يسألني كما يسألني في اليوم الأول، فلما رفع الطعام دنوت منه لأقبل رأسه فاشمأز مني، فلما صرت إلى الموضع الذي يركب منه لحقني خادم معه كيس فيه ألف دينار، فقال لي: الوزير يقرأ عليك السلام، ويقول لك: استعن بهذا على أمرك وعد إلينا في غد،

فأخذته وانصرفت وعدت في اليوم الثالث كما أمر، فأعطيت مثل الذي أعطيت في اليوم الأول والثاني، فلما كان في اليوم الرابع أعطيت الكيس كما أعطيت قبل ذلك، وتركني بعد ذلك أقبل رأسه، وقال: إنما منعتك ذلك لأنه لم يكن وصل إليك من معروفي ما يوجب هذا، فالآن قد لحقك بعض النفع مني، يا غلام أعطه الدار الفلانية، يا غلام افرش له الفرش الفلاني، يا غلام أعطه مائتي ألف درهم يقضي دينه بمائة ألف ويصلح شأنه بمائة ألف، ثم قال لي: الزمني وكن في داري، فقلت: أعز الله الوزير، لو أذنت لي بالشخوص إلى المدينة لأقضي الناس أموالهم ثم أعود إلى حضرتك كان ذلك أرفق بي، قال: قد فعلت، وأمر بتجهيزي، فشخصت إلى المدينة، فقضيت ديني ثم رجعت إليه فلم أزل في ناحيته.

ودخل عليه يوماً أبو قابوس الحميري فأنشده:

رأيت يحيى أتم الله نعمته	عليه يأتي الذي لم يأته أحد
ينسى الذي كان من معروفه أبداً	إلى الرجال ولا ينسى الذي بعد

فقضى حوائجه ووصله بجملة من المال.

قلت: قد حل هذا البيت الثاني شرف الدولة مسلم بن قريش، وقد قال له رجل: لا تنس أيها الأمير حاجتي، فقال: إذا قضيتها أنسيتها.

ولمسلم بن الوليد الأنصاري في يحيى بن خالد:

أجدك هل تدرين إن رب ليلة	كأن دجاها من قرونك ينشر
صبرت لها حتى تجلت بغرةٍ	كغرة يحيى حين يذكر جعفر

وكان يحيى يقول: إذا أقبلت الدنيا فأنفق فغنها لا تفنى، وإذا أدبرت فأنفق فإنها لا تبقى، وقال: ذكر النعمة من المنعم تكدير، ونسيان المنعم عليه كفر وتقصير؛ وقال: النية الحسنة مع العذر الصادق يقومان مقام النجح؛ وقال: إذا أدبر الأمر كان العطب في الحيلة.

وقال الحسن بن سهل – المقدم ذكره: ومن غيرته الولاية لإخوانه علمنا أن الولاية أكبر منه، أخذنا ذلك عن صاحب ديوان المكارم أبي علي يحيى بن خالد بن برمك.

ولما عزم جعفر على بناء قصره شاور أباه يحيى بن خالد فيه فقال: هو قميصك إن شئت فوسعه وإن شئت فضيقه؛ وأتاه وهو يبني داره فإذا الصناع يبيضون حيطانها فقال: إنك تعطي بالفضة، فقال جعفر: ليس كل أوان يكون ظهور الذهب أصلح، ولكن هل ترى عيباً؟ قال: نعم، فخالطتها لدور السفل والسوقة.

وكان ليحيى كاتب يختص بخدمته ويقرب من حضرته، فعزم على ختان ولده، فاحتفل له الناس على طبقاتهم، وهاداه أعيان الدولة ووجوه الكتاب والرؤساء على اختلاف منازلهم، وكان له صديق قد اختلت أحواله وضاقت يده عما يريده مما دخل فيه غيره، فعمد إلى كيسين كبيرين نظيفين، فجعل في أحدهما ملحاً وفي الآخر أشناناً مكفراً، وكتب معهما رقعة نسختها: لو تمت الإرادة لأسعفت بالعادة، ولو ساعدت المكنة على بلوغ الهمة لاتبعت السابقين إلى برك وتقدمت المجتهدين في كرامتك، لكن قعدت القدرة عن البغية وقصرت الجدة عن مباراة أهل النعمة، وخفت أن تطوى صحائف البر وليس لي فيها ذكر، فأنفذت المبتدأ بيمنه وبركته والمختتم بطيبه ونظافته، صابراً على ألم التقصير، ومتجرعاً غصص الاقتصار على اليسير، فأما ما لم أجد إليه السبيل في قضاء حقك فالقائم فيه بعذري قول الله عز وجل "ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج" "التوبة: " والسلام. فلما حضر يحيى بن خالد الوليمة عرض عليه كاتبه الخدايا جميعها، حتى الكيسين والرقعة فاستظرفها، وأمر أن يملأ الكيسان مالاً ويردا عليه، فكان ذلك أربعة آلاف دينار.

وقال رجل ليحيى: والله لأنت أحلم من الأحنف بن قيس، فقال له: لا تقرب إلي من أعطاني فوق حقي.

ونادى إسحاق بن إبراهيم الموصلي أحد غلمانه فلم يجبه، فقال: سمعت يحيى بن خالد يقول: يدل على حلم الرجل سوء أدب غلمانه.

وكان يحيى يساير الرشيد يوماً فوقف له رجل فقال: يا أمير المؤمنين عطبت دابتي، فقال الرشيد: يعطى خمسمائة درهم، فغمزه يحيى، فلما نزلوا قال له

الرشيد: يا أبت أومأت إلي بشيء ولو أعرفه، فقال: مثلك لا يجري هذا القدر على لسانه، إنما يذكر مثلك خمسة آلاف ألف، عشرة آلاف ألف، فقال: إذا سئلت مثل هذا كيف أقول؟ فقال: تقول: يشترى له دابة.

وبالجملة فإن أخبارهم كثيرة، ولا يحتمل هذا المختصر الإطالة أكثر من هذا.

ولما قتل هارون الرشيد جعفر بن يحيى البرمكي - كما ذكرناه في حرف الجيم من هذا الكتاب - نكب البرامكة وحبس يحيى وابنه الفضل - كما ذكرناه في حرف الفاء من هذا الكتاب - وكان حبسهما في الرافقة، وهي الرقة القديمة تجاور الرقة الجديدة، وهي البلد المشهور الآن على شاطئ الفرات، ويقال لهما الرقتان، تغليباً لأحد الاسمين على الآخر، كما قيل العمران والقمران وغير ذلك.

وحكى الجهشياري في كتاب " أخبار الوزراء " أن يحيى بن خالد اشتهى في وقت من الأوقات في محبسه وهو مضيق عليه سكباجة، فلم يطلق له اتخاذها إلا بمشقة، فلما فرغ من يد المتخذ لها فانكسرت، فأنشد يحيى أبياتاً يخاطب بها الدنيا، ومضمونها اليأس وقطع الأطماع.

و لم يزل يحيى في حبس الرافقة إلى أن مات في الثالث من المحرم سنة تسعين ومائة فجأة من غير علة، وهو ابن سبعين سنة، وقيل أربع وسبعين، وصلى عليه ابنه الفضل، ودفن في شاطئ الفرات في ربض هرثمة، ووجد في جيبه رقعة مكتوب فيها بخطه: قد تقدم الخصم، والمدعي عليه في الأثر، والقاضي هو الحكم العدل الذي لا يجور ولا يحتاج إلى بينة. فحملت الرقعة إلى الرشيد، فلم يزل يبكي يومه وبقي أياماً يتبين الأسى في وجهه، رحمهم الله تعالى.

وكان يحيى يجري على سفيان الثوري، رضي الله عنه، في كل شهر ألف درهم، وكان سفيان يقول في سجوده: اللهم إن يحيى كفاني أمر دنياي، فاكفه أمر آخرته، فلما مات يحيى رآه بعض إخوانه في النوم فقال له: ما صنع الله بك؟ قال: غفر لي بدعاء سفيان، وقيل إن صاحب هذه القضية هو سفيان بن عيينة لا سفيان الثوري، والله تعالى أعلم.

قال الجهشياري: ندم الرشيد على ما كان منه في أمر البرامكة وتحسر على ما فرط منه في أمرهم، وخاطب جماعة من إخوانه بأنه لو وثق منهم بصفاء النية منهم لأعادهم إلى حالهم. وكان الرشيد كثيراً ما يقول: حملونا على نصحائنا وكفاتنا، وأوهمونا أنهم يقومون مقامهم، فلما صرنا إلى ما أرادوا لم يغنوا عنا، وأنشد:

أقلوا علينا لا أبا لأبيكم ... من اللوم أو سدوا المكان الذي سدوا

قلت: هذا البيت للحطيئة الشاعر، وبعده:

أولئك قوم إن بنوا أحسنوا البنا ... وإن عاهدوا أوفوا وإن عقدوا شدوا

قلت: وذكر الزمخشري في كتاب " ربيع الأبرار " ما مثاله: إنه وجد تحت فراش يحيى بن خالد البرمكي رقعة فيها مكتوب:

وحق الله إن الظلم لوم ... وإن الظلم مرتعه وخيم

إلى ديان يوم الدين نمضي ... وعند الله تجتمع الخصوم

الوزير ابن هبيرة

أبو المظفر الوزير عون الدين يحيى بن هبيرة بن محمد بن هبيرة بن سعد بن الحسين بن أحمد بن الحسن بن جهم بن عمرو بن هبيرة بن علوان بن الحوفزان - وهو الحارث - بن شريك بن عمرو بن قيس بن شرحبيل بن مرة بن همام بن ذهل بن شيبان بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل بن قاسط بن هنب بن أفصى بن دعمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان، الشيباني، الملقب عون الدين، هكذا ساق نسبه جماعة منهم ابن الدبيي في تاريخه وابن القادسي في كتاب " الوزراء " وغيرهما، وإنما أخرج له هذا النسب بعد سنين من وزارته، وذكره الشعراء في مدائحهم.

وهو من قرية من بلاد العراق تعرف بقرية بني أوقر، بالقاف، من أعمال دجيل، وهي دور عرمانيا، بالعين المهملة والياء المثناة من تحت، وتعرف الآن

بدور الوزير نسبة إليه، وكان والده من أجنادها.

ودخل بغداد في صباه، واشتغل بالعلم، وجالس الفقهاء والأدباء وكان على مذهب الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه، وسمع الحديث، وحصل من كل فن طرفاً، وقرأ الكتاب العزيز وختمه بالقراءات والروايات، وقرأ النحو، واطلع على أيام العرب وأحوال الناس، ولازم الكتابة، وحفظ ألفاظ البلغاء وتعلم على أيام صناعة الإنشاء، وكانت قراءته الأدب على أبي منصور ابن الجواليقي، وتفقه على أبي الحسين محمد بن محمد الفراء، وصحب الشيخ أبا عبد الله محمد بن يحيى بن علي بن مسلم بن موسى بن عمران الزبيدي الواعظ، وسمع الحديث النبوي من أبي عثمان إسماعيل بن محمد بن قيلة الأصبهاني ومن أبي القاسم هبة الله بن محمد بن الحسين الكاتب ومن بعدهما، وحدث عن الإمام المقتفي لأمر الله أمير المؤمنين وعن غيره، وسمع منه خلق كثير منهم الحافظ أبو الفرج ابن الجوزي.

وأول ولايته الإشراف بالأقرحة الغربية، ثم نقل إلى الأشراف على الإقامات المخزنية، ثم قلد الإشراف بالمخزن، و لم يطل في ذلك مكثه حتى قلد في سنة اثنتين وأربعين كتابة ديوان الزمام، ثم ترقى إلى الوزارة، وكان سبب توليته الوزارة ما حكاه الذي جمع سيرته أنه قال: من جملة ما رفع قدر الوزير ونقله إلى الوزارة ما جرى من مسعود البلالي شحنة بغداد نيابة عن السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي – وكان مسعود أحد الخدم الخصيان الحبشيين الكبار من أمراء دولته – من سوء أدبه في الحضرة وخروجه عن معتاد الواجب وانتشار مفسدي أصحابه، وكان وزير الخليفة إذ ذاك قوام الدين أبو القاسم علي بن صدقة بن علي بن صدقة قد كتب عن الخليفة إلى السلطان مسعود عدة كتب يعتمد الإنكار على مسعود البلالي على ما صدر منه، فلم يرجع بجواب، فلما قلد عون الدين ابن هبيرة كتابة ديوان الزمام خاطب الخليفة في مكاتبة السلطان مسعود بالقضية فوقع إليه: قد كان الوزير كتب في ذلك عدة كتب فلم يجيبوه، فراجع عون الدين في ذلك سؤاله إلى أن أجيب، فكتب من إنشائه رسالة، وهي طويلة فأضربت عن ذكرها، وحاصل الأمر فيها أنه دعا له، وأذكره ما كان أسلافه يعاملون الخلفاء به من حسن الطاعة والتأدب معهم والذب عنهم ممن يفتات عليهم، وشكا من مسعود البلالي، وأنه كاتب في ذلك عدة دفعات وما جاءه جواب، وأطال القول في ذلك، وكان هذا في سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة في شهر ربيع الآخر، فما مضى على هذا إلا قليل حتى عاد الجواب بالاعتذار والذم لمسعود البلالي والإنكار لما اعتمده، فاستبشر المقتفي بإشارة عون الدين وعظم سروره بذلك وحسن موقع عون الدين من قلبه، و لم يزل عنده مكيناً حتى استوزره.

قال مصنف السيرة: وكان أيضاً من جملة أسباب وزارته أنه في سنة ثلاث وأربعين وصل إلى بغداد الأمير ابن ألقش المسعودي صاحب اللحف، وهو صقع بالعراق، ويلدكز السلطاني، وقصداها في جموع كثيرة، وصدر منهم فتن عظيمة تضمنتها التواريخ، فشرع الوزير قوام الدين بن صدقة في تدبير الحال، فأخفق مسعاه، فحينئذ استأذن عون الدين في أمرهم فأذن له في ذلك، فخاطب هؤلاء الخارجين على الخليفة، وأحسن التدبير في ذلك حتى كف شرهم، ثم قوي عليهم حتى نهبت العامة أموالهم، وجرت المقادير بهذه الأحوال لرفع ابن هبيرة ووضع الوزير ابن صدقة، فإنه عند انقضاء هذا المهم استدعى الخليفة المقتفي عون الدين بمطالعة على يد أميرين من أمراء الدولة فتبين بقراءته لها التباشير في أسرته، فركب إلى دار الخليفة في جماعته، وتسامع الناس بوزارته، ولما وصل إلى باب الحجرة استدعي فدخل وقد جلس له المقتفي بميمنة التاج، فقبل الأرض وسلم، وتحدثا ساعة بما لم يحط به غيرهما علماً، ثم خرج وقد جهزوا له التشريف على عادة الوزراء، فلبسه، ثم استدعي ثانياً فقبل الأرض، ودعا بدعاء أعجب الخليفة، ثم أنشده:

سأشكر عمراً ما تراخت منيتي ... أيادي لم تمنن وإن هي جلت

رأى خلتي من حيث يخفى مكانها ... فكانت بمرأىً منه حتى تجلت

قلت: وهذان البيتان لإبراهيم بن العباس الصولي – المقدم ذكره – وهي ثلاثة أبيات، والثاني منهما بعد الأول:

فتى غير محجوب الغنى عن صديقه ... ولا مظهر الشكوى إذا النعل زلت

ولما أنشد عون الدين هذين البيتين غير نصف البيت الثاني منهما فإن الشاعر قال:

فكانت قذى عينيه حتى تجلت

فلما رأى أنه يخاطب الخليفة بهذه العبارة فغيره تأدباً.

ثم إن عون الدين خرج فقدم له حصان أدهم سائل الغرة محجل، وعليه من الحلي ما جرت به عادتهم مع الوزراء، والشرح ذلك يطول فاختصرته، وخرج بين يديه أرباب المناصب وأعيان الدولة وأمراء الحضرة وجميع خدام الخلافة وسائر حجاب الديوان، والطبول تضرب أمامه، والمسند وراءه محمول على عادتهم في ذلك، حتى دخل الديوان ونزل على طرف الديوان وجلس في الدست، وقام لقراءة عهده الشيخ سديد الدولة أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم بن الأنباري، ولولا خوف الإطالة لذكرت العهد فإنه بديع في بابه، لكن قصدي الاقتصار فأعرضت عن ذكره، وهو مشهور في أيدي الناس، فلما فرغ من قراءته قرأ القراء وأنشد الشعراء، وتولى الوزارة يوم الأربعاء ثالث عشر ربيع الآخر من سنة أربع وأربعين وخمسمائة، وكان لقبه جلال الدين، فلما ولي الوزارة لقبوه عون الدين.

وكان عالماً فاضلاً ذا رأي صائب وسريرة صالحة، وظهر منه في أيام ولايته ما شهد له بكفايته وحصن مناصحته، فشكر له ذلك ولحظه بعين الرعاية وتوفرت له أسباب السعادة، وكان مكرماً لأهل العلم يحضر مجلسه الفضلاء على اختلاف فنونهم، ويقرأ عنده الحديث عليه وعلى الشيوخ بحضوره، ويجري من البحث والفوائد ما يكثر ذكره.

وصنف كتباً، فمن ذلك كتاب " الإفصاح عن شرح معاني الصحاح " وهو يشتمل على تسعة عشر كتاباً، شرح الجمع بين الصحيحين وكشف عما فيه من الحكم النبوية، وكتاب " المقتصد " بكسر الصاد المهملة، وشرحه أبو محمد ابن الخشاب النحوي المشهور في أربع مجلدات شرحاً مستوفىً، واختصر كتاب " إصلاح المنطق " لابن السكيت، وله كتاب " العبادات في الفقه على مذهب الإمام أحمد " وأرجوزة في المقصور والممدود، وأرجوزة في علم الخط، وغير ذلك.

وذكر شيخنا عز الدين أبو الحسن علي بن محمد المعروف بابن الأثير الجزري في تاريخه الصغير الأتابكي في فصل حصار الملك محمد وزين الدين بغداد، وذلك في ذي القعدة من سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة، أن المقتفي لأمر الله جد في حفظ بغداد، وقام وزيره عون الدين بن هبيرة في هذا الأمر المقام الذي يعجز عنه غيره قال: وأمر المقتفي فنودي ببغداد: من جرح وقت القتال فله خمسة دنانير، فكان كل من جرح يوصل ذلك إليه، فحضر بعض العامة عند الوزير مجروحاً فقال الوزير: هذا جرح صغير لا تستحق عليه شيئاً، فعاد إلى القتال فضرب في جوفه فخرجت أمعاؤه، فعاد إلى الوزير فقال: يا مولانا الوزير يرضيك هذا؟ فضحك منه وأمر له بصلة، وأحضر من يعالجه، انتهى كلام ابن الأثير.

قلت: وهذا محمد هو ابن محمود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي، وزين الدين هو أبو الحسن علي بن بكتكين المعروف بكجك والد مظفر الدين صاحب إربل.

وقال غير ابن الأثير: إن الملك اسمه محمد شاه وإن هذه القضية كانت في سنة اثنتين وخمسين، والله أعلم، ذكر ذلك ابن الجوزي في كتاب " شذور العقود " وهو أخبر، لأنها بلده وهو بها، وقد ذكرت محمد شاه في ترجمة أبيه.

وتوفي الإمام المقتفي لأمر الله أبو عبد الله محمد بن المستظهر ليلة الأحد ثاني ربيع الأول سنة خمس وخمسين وخمسمائة، وبويع ولده المستنجد بالله أبو المظفر يوسف، فدخل عليه وبايعه وأقره على وزارته وأكرمه، وكان خائفاً منه أن يعزله فلم يعزله ولم يتعرض له، ولم يزل مستمراً في وزارته إلى حين وفاته.

ومدحه جماعة من أماثل شعراء عصره: منهم أبو الفوارس سعد بن محمد المعروف بابن صيفي الملقب حيص بيص - المقدم ذكره - وله فيه مدائح منتخبة، فمن ذلك قوله:

يهز حديث الجود ساكن عطفه	كما هز شرب الحي صهباء قرقف
ويرسو إذا طاشت حبا القوم واغتدت	صعاب الذرا من زعزع الخطب ترجف
صروم الدنايا هاجر كل سنة	ولكنه بالمجد صب مكلف

يضيق بأدنى العار ذرعاً وصدره
بأهوال ما يدني من الحمد نفنف

إذا قيل عون الدين يحيى تألق ال
غمام وماس السمهري المثقف

وكانت عوائدهم في بغداد في شهر رمضان أن الأعيان يحضرون سماط الخليفة عند الوزير، وهم يسمون السماط " الطبق " وكان حيص بيص في جملة من يحضر الطبق، وكانت نفسه أبية وهمته عربية، وإذا أحضروا الطبق تخطاه وقعد فوقه من أرباب المراتب جماعة ليس فيهم فضل، فيجد في نفسه لذلك مشقة عظيمة فكتب إلى الوزير عون الدين يستعفيه عن الحضور:

يا باذل المال في عدمٍ وفي سعةٍ
ومطعم الزاد في صبحٍ وفي غسق

وحاشر الناس أغنتهم فواضله
إلى مزيدٍ من النعماء مندفق

في كل بيت خوان من مكارمه
يميرهم وهو يدعمهم إلى الطبق

فاض النوال فلولا خوف منعمةٍ
من بأس عدلك نادى الناس بالغرق

وكل أرض بها صوب وساكبة
حتى الوغى من نجيع الخيل والعرق

صن منكبي عن زحامٍ إن غضبت له
تمكن الطعن من عرضي ومن خلقي

وإن رضيت به فالذل منقصة
فكم تكلفته حملاً فلم أطق

أنا المريض بأحداث وسورتها
وليس غير إبائي حافظ رمقي

وهبه لي كعطاياك التي كثرت
فالجود بالعز فوق الجود بالورق

إن اصفرار مجن الشمس من حزنٍ
على علاها لمرماها إلى الأفق

وإن توهم قوم أنه حمق
فربما اشتبه التوقير بالحمق

وأهدي الوزير عون الدين دواة بلور مرصعة بمرجان، وفي مجلسه جماعة منهم حيص بيص، فقال الوزير: يحسن أن يقال في هذه الدواة شيء من الشعر، فقال بعض الحاضرين، وكان ضريراً، ولم أقف على اسمه:

ألين لداود الحديد كرامةً
يقدره في السرد كيف يريد

ولان لك البلور وهي حجارة
ومعطفه صعب المرام شديد

فقال حيص بيص: إنما وصفت صانع الدواة ولم تصفها، فقال الوزير: من عير غير، فقال الحيص بيص:

صيغت دواتك من يوميك فاشتبها
على الأنام ببلور ومرجان

فيوم سلمك مبيض بفيض ندى
ويوم حربك قانٍ بالدم القاني

ثم وجدت البيتين الأولين في كتاب " الجنان " تأليف القاضي الرشيد أحمد بن الزبير – المذكور في أوائل هذا الكتاب – ونسبهما إلى القاضي الرشيد أحمد بن قاسم الصقلي قاضي مصر، وذكر أنه دخل على الأفضل شاهان شاه أمير الجيوش بمصر – وقد تقدم ذكره أيضاً – فرأى بين يديه دواة من عاج محلاة بمرجان، فقال بديهاً:

ألين لداود الحديد كرامةً
يقدره في السرد كيف يريد

ولان لك البلور وهي حجارة
ومعطفه صعب المرام شديد

ومدحه أبو عبد الله محمد بن بختيار المعروف بالأبله الشاعر – المقدم ذكره – بقصائد عديدة: منها وهي أحسنها فلهذا ذكرتها:

ولع النسيم وبانة الجرعا وصفاك إلا الحلي والودعا
يا دمية ضاقت خلاخلها عنها وضقت بحبها ذرعا
قد كنت ذا دمعٍ وذا جلد فبقيت لا جلدا ولا دمعا
صيرت جسمي للضنى سكنا وسكنت بعد تبالة الجزعا
يا من رأى أدماء سانحةً قلبي لها لا المنحنى مرعى
لاثت بمثل الغصن مئزرها وجلت بعود أراكةٍ طلعا
وإذا تراجعك الكلام فلا تعدد لأيام الصبا رجعى
ولقد سمعت بالكأس تصبحني سكرى اللواحظ وعثة المسعى
في مستنير الزهر ما صنعت أبراده عدن ولا صنعا
باكرت مفترعاً ثراه وما ركب الحمام لبانةٍ فرعا
سلت عليه البارقات ظباً لبس الغدير لخوفها درعا
يا عاذلي إن شئت تسمعني عذلاً فشق لصخرة سمعا
طبعاً جبلت على الغرام كما جبل الوزير على الندى طبعا

وخرج بعد هذا إلى المديح فأضربت عنه، ولولا خوف الإطالة لذكرته.

ومدحه أبو الفتح بن عبد الله سبط ابن التعاويذي – المقدم ذكره – بقصيدة واحدة وهي:

سقاها الحيا من أربعٍ وطلول حكت دنفي من بعدهم ونجولي
ضمنت لها أجفان عينٍ قريحةٍ من الدمع مدرار الشؤون همول
لئن حال رسم الدار عما عهدته فعهد الهوى في القلب غير محيل
خليلي قد هاج الغرام وشاقني سنا بارقٍ بالأجرعين كليل
ووكل طرفي بالسهاد تنظري قضاء مليٍ بالديون مطول
إذا قلت أنحلت جسمي صبابة تقول وهل حب بغير نحول
وإن قلت دمعي بالأسى فيك شاهدي تقول شهود الدمع غير عدول
فلا تعذلاني إن بكيت صبابةً على ناقضٍ عهد الوفاء ملول
فأبرح ما يمنى به الصب في الهوى ملال حبيب أو ملام عذول
ودون الكثيب بيض عقائل لعبن بألباب لنا وعقول

غداة التقت ألحاظها وقلوبنا فلم تجل إلا عن دمٍ وقتيل

ألا حبذا وادي الأراك وقد وشت برياك ريحاً شمألٍ وقبول

وفي أبرديه كلما اعتلت الصبا شفاء فؤاد بالغرام عليل

دعوت سلواً فيك غير مساعدي وحاولت صبرا عنك غير جميل

تعرفت أسباب الهوى وحملته على كاهلٍ للنائبات حمول

فلم ألحظ في حب الغواني بطائلٍ سوى رعي ليلٍ بالغرام طويل

ومنها:

إلى كم تمنيني الليالي بماجدٍ رزين وقار الحلم غير عجول

أهز اختيالاً في هواه معاطفي وأسحب تيهاً في ثراه ذيولي

لقد طال عهدي بالنوال وإنني لصب إلى تقبيل كف منيل

وإن ندى يحيى الوزير لكافل بها لي، وعون الدين خير كفيل

وكان عون الدين كثيراً ما ينشد:

ما ناصحتك خبايا الود من أحد ما لم ينلك بمكروهٍ من العذل

مودتي لك تأبى أن تسامحني بأن أراك على شيءٍ من الزلل

وذكر الشيخ شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزغلي بن عبد الله سبط الشيخ جمال الدين أبي الفرج ابن الجوزي في تاريخه الذي سماه " مرآة الزمان " ورأيته في أربعين مجلداً وجميعه بخطه –وكان أبوه قزغلي مملوك عون الدين بن هبيرة المذكور، وزوجه بنت الشيخ جمال الدين أبي الفرج المذكور، فأولدها شمس الدين فولاؤه له – إنه سمع مشايخه ببغداد يحكون أن عون الدين قال: كان سبب ولايتي المخزن أنني ضاق ما بيدي حتى فقدت القوت أياماً، فأشار علي بعض أهلي أن أمضي إلى قبر معروف الكرخي رضي الله عنه، فأسأل الله تعالى عنده، فإن الدعاء عنده مستجاب، قال: فأتيت قبر معروف فصليت عنده ودعوت، ثم خرجت لأقصد البلد، يعني بغداد، فاجتزت بقطفتا – قلت: وهي محلة من محال بغداد – قال: فرأيت مسجداً مهجوراً فدخلت لأصلي فيه ركعتين، وإذا بمريض ملقى على بارية، فقعدت عند رأسه وقلت: ما تشتهي؟ فقال: سفرجلة، قال: فخرجت إلى بقال هناك فرهنت عنده مئزري على سفرجلتين وتفاحة وأتيته بذلك، فأكل من السفرجلة، ثم قال: أغلق باب المسجد، فأغلقته، فتنحى عن البارية وقال: احفر هاهنا، فحفرت وإذا بكوز، فقال خذ هذا فأنت أحق به، فقلت: أما لك وارث؟ فقال: لا، وإنما كان لي أخ وعهدي بعيد وبلغني أنه مات، ونحن من الرصافة، قال: وبينما هو يحدثني إذ قضى نحبه، فغسلته وكفنته ودفنته، ثم أخذت الكوز وفيه مقدار خمسمائة دينار وأتيت إلى دجلة لأعبرها، وإذا بملاح في سفينة عتيقة وعليه ثياب رثة، فقال: معي معي، فنزلت معه، وإذا به من أكثر الناس شبهاً بذلك الرجل، فقلت: من أين أنت؟ فقال: من الرصافة، ولي بنات، وأنا صعلوك، قلت: فما لك أحد؟ قال: لا، كان لي أخ ولي عنه زمان ما أدري ما فعل الله به، فقلت: ابسط حجرك، فبسطه فصببت المال فيه، فبهت، فحدثته الحديث، فسألني أن آخذ نصفه فقلت: لا والله ولا حبة، ثم صعدت إلى دار الخليفة وكتبت رقعة فخرج عليها إشراف المخزن، ثم تدرجت إلى الوزارة.

وقال جدي الشيخ أبو الفرج في كتاب " المنتظم ": وكان الوزير يسأل الله تعالى الشهادة ويتعرض لأسبابها، وكان صحيحاً يوم السبت ثاني عشر جمادى الأولى من سنة ستين وخمسمائة، فنام ليلة الأحد في عافية، فلما كان في وقت السحر قاء، فأحضر طبيباً كان يخدمه فسقاه شيئاً، فيقال إنه سمه

فمات، وسقي الطبيب بعده بنحو ستة أشهرٍ سماً فكان يقول: سقيت كما سقيت، ومات الطبيب. وقال في " المنتظم " أيضاً: وكنت ليلة مات الوزير نائماً على سطح مع أصحابي، فرأيت في المنام كأني في دار الوزير وهو جالس، فدخل رجل بيده حربة قصيرة فضربه بها بين أنثييه فخرج الدم كالفوارة فضرب الحائط، فالتفت فإذا بخاتم من ذهب ملقى، فأخذته وقلت: لمن أعطيه؟ أنتظر خادماً يخرج فأعطيه إياه، وانتبهت وحدثت أصحابي بالرؤيا، فلم أستتم الحديث حتى جاء رجل فقال: مات الوزير، فقال بعض الحاضرين: هذا محال، أنا فارقته أمس العصر وهو في كل عافية، وجاء آخر وصح الحديث، وقال لي ولده: لا بد أن تغسله، فأخذت في غسله ورفعت يده لأغسل مغابنه - قلت: المغابن: مطاوي البدن مثل الإبط وغيره، واحدها مغبن، بفتح الميم وكسر الباء الموحدة وسكون الغين المعجمة - قال: فسقط الخاتم من يده، فحين رأيت الخاتم تعجبت من المنام، قال: ورأيت في وقت غسله آثاراً في وجهه وجسده تدل على أنه مسموم، فلما خرجت جنازته غلقت أسواق بغداد، ولم يتخلف عن جنازته أحد، وصلي عليه في جامع القصر، وحمل إلى باب البصرة، فدفن في مدرسته التي أنشأها، وقد دثرت الآن، ورثاه جماعة من الشعراء؛ انتهى كلام أبي الفرج ابن الجوزي.

وقال مؤلف سيرة الوزير المذكور: إن سبب موته كان بلغماً ثار بمزاجه وقد خرج مع المستنجد للصيد، فسقي مسهلاً فقصر عن استفراغه، فدخل إلى بغداد يوم الجمعة سادس جمادى الأولى راكباً متحاملاً إلى المقصورة لصلاة الجمعة فصلى بها وعاد إلى داره، فلما كان وقت صلاة الصبح عاوده الصبح عاوده البلغم، فوقع مغشياً عليه، فصرخ الجواري فأفاق فسكتهن، وبلغ الخبر ولده عز الدين أبا عبد الله محمداً، واكن ينوب عنه في الوزارة، فبادر إليه، فلما دخل عليه قال له: قد بث أستاذ الدار عضد الدين أبو الفرج محمد بن عبد الله بن هبة الله بن المظفر بن رئيس الرؤساء المعروف بابن سلمة جماعة ليستعلم ما هذا الصياح، فتبسم الوزير على ما هو عليه من تلك الحال وأنشد:

وكم شامتٍ بي عند موتي جهالةً ... بظلمٍ يسل السيف بعد وفاتي
ولو علم المسكين ما ذا يناله ... من الضر بعدي مات قبل مماتي

ثم تناول مشروباً فاستفرغ به، ثم استدعى بماء فتوضأ للصلاة وصلى قاعداً فسجد فأبطأ عن القعود من السجود فحركوه فإذا هو ميت، فطولع به الإمام المستنجد فأمر بدفنه.

وخلف ولدين: أحدهما عز الدين المذكور والآخر شرف الدين أبو الوليد مظفر.

وأما مولده فقد ذكر أبو عبد الله محمد بن القادسي في " تاريخ الوزراء " أنه ولد في سنة وتسعين وأربعمائة على ما ذكره من لفظه، رحمه الله تعالى.

قال بعضهم: رأيته في المنام بعد موته، فسألته عن حاله، فقال:

قد سئلنا عن حالنا فأجبنا ... بعد ما حال حالنا وحجبنا
فوجدنا مضاعفاً ما كسبنا ... ووجدنا ممحصاً ما اكتسبنا

ولما بلغ خبر موته عضد الدين ابن المظفر أستاذ الدار المذكور كان بحضرته سبط ابن التعاويذي - المذكور قبل هذا - وهو من موالي بني المظفر فإن أباه كان مملوكاً لبعض بني المظفر، واسمه نشتكين فسماه ابنه عبد الله، فأراد سبط بن التعاويذي أن يتقرب إلى عضد الدولة لعلمه ما بينه وبين الوزير، فأنشد مرتجلاً:

قال لي، والوزير قد مات، قوم ... قم لنبكي أبا المظفر يحيى
قلت أهون عندي بذلك رزأً ... ومصاباً وابن المظفر يحيا

وقال آخر، ولا أذكر اسمه الآن، لكنه من الشعراء المشاهير:

أيا رب مثل الماجد ابن هبيرة ... يموت ويحيا مثل يحيى بن جعفر
يموت بيحيى كل فضلٍ وسؤدد ... ويحيا بيحيى كل جهل ومنكر

والمقصود أن محاسنه كانت كثيرة، وقد أطلت هذه الترجمة حتى استوفيت مقاصدها.
ورأيت في كتاب " النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس " تأليف أبي الخطاب ابن دحية غلطة أحببت التنبيه عليها في هذا الكتاب كي لا يقف عليها أحد فيظنه مصيباً فيما ذكره، وهو أنه قال في خلافة المقتفي لأمر الله ما مثاله: وسعد بوزيره أبي المظفر عون الدين يحيى بن محمد بن هبيرة من ولد الأمير الكبير أبي حفص عمر بن هبيرة، وقد ذكر المؤرخون فصائل جده، التي حازها عون الدين من بعده، ثم ذكرت مكرمة لعمر بن هبيرة الفزاري أمير العراقين في دولة بني أمية، وظن ابن دحية أن الوزير المذكور من ذرية ذلك المتقدم، وعجبت منه من ذلك، فإن الوزير شيباني – كما شرحناه في أول الترجمة – وذاك فزاري النسب – كما يأتي في ترجمة ولده يزيد بن عمر بن هبيرة إن شاء الله تعالى – وأين شيبان من فزارة؟ ولا شك أنه ما أوقعه في هذا الأمر إلا ما أراه في نسب الوزير، فقد جاء فيه عمر بن هبيرة، فتوهم أن هذا هو ذاك، وليس الأمر كما توهمه، ومثل ابن دحية لا يعذر فقد كان حافظاً ومطلعاً على أمور الناس، وهذا الأمر واضح لكن الخطأ موكل بالإنسان.

قلت: وأكثر من جرى ذكره في هذه الترجمة قد تقدم ذكره في هذا التاريخ، وأفردت لكل واحد منهم بترجمة مستقلة، سوى الشيخ الزبيدي، فإنه كان كبير القدر يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وما انتفع الوزير إلا بصحبته، وما ذكرته في هذا التاريخ، فينبغي التنبيه عليه، إذ مثله لا يهمل، وكان دخوله بغداد في سنة تسع وخمسمائة، وتوفي في شهر ربيع الأول سنة خمس وخمسين وخمسمائة، رحمه الله تعالى. وقال أبو عبد الله بن النجار في " تاريخ بغداد ": كان مولده بزبيد في ليلة الأربعاء الثاني والعشرين من المحرم سنة ستين وأربعمائة، وتوفي ليلة الاثنين مستهل شهر ربيع الآخر سنة خمس وخمسين وخمسمائة، ودفن بمقبرة جامع المنصور ببغداد، رحمه الله تعالى.
وقول الآخر:

أيا رب مثل الماجد ابن هبيرة ... يموت ويحيا مثل يحيى بن جعفر !

فالمراد به أبو الفضل يحيى بن أبي القاسم عبد الله بن محمد بن المعمر بن جعفر الملقب زعيم الدين، تولى النظر بالمخزن في جمادى الآخرة سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة إلى سنة سبع وستين، ففيها ناب في الوزارة بعد عزل أبي الفرج ابن المظفر، و لم يزل على ذلك إلى أن توفي، وكان على ذلك إلى أن توفي، وكان مشكوراً محمود الطريقة محباً لأهل العلم، وكانت ولادته ليلة الجمعة بعد العشاء الأخير التاسع والعشرين من صفر سنة إحدى عشر وخمسمائة، وتوفي ليلة العشرين من شهر ربيع الأول سنة سبعين وخمسمائة ببغداد، ودفن من الغد في الحربية بتربة له، رحمه الله تعالى.

ابن زبادة

أبو طالب يحيى بن أبي الفرج سعيد بن أبي القاسم هبة الله بن علي بن فرغلي بن زبادة الشيباني، الكاتب المنشيء الواسطي الأصل، البغدادي المولد والدار والوفاة، الملقب قوام الدين، وقيل عميد الدين، كان من الأعيان الماثل والصدور الأفاضل، انتهت إليه المعرفة بأمور الكتابة والإنشاء والحساب مع مشاركته في الفقه وعلم الكلام والأصول وغير ذلك، وله النظم الجيد. جالس أبا منصور ابن الجواليقي وقرأ عليه من بعده، وسمع الحديث من جماعة، وخدم الديوان من صباه إلى أن توفي عدة خدمات، وكان مليح العبارة في الإنشاء، جيد الفكرة حلو الترصيع لطيف الإشارة، وكان الغالب عليه في رسائله العناية بالمعاني أكثر من طلب التسجيع، وله رسائل بليغة وشعر رائق، وفضله أشهر من أن يذكر.
وتولى النظر بديوان البصرة وواسط والحلة، و لم يزل على ذلك إلى أن طلب من واسط والحلة، و لم يزل على ذلك إلى المحرم سنة خمس وسبعين وخمسمائة، ورتب حاجباً بباب النوبي، وقلد النظر في المظالم، ثم عزل عن ذلك في شهر ربيع الأول سنة سبع وسبعين، ثم أعيد إليه في جمادى الأولى سنة اثنتين وثمانين، فلما قتل أستاذ الدار –وهو مجد الدين أبو الفضل هبة الله بن علي بن هبة الله بن محمد بن محمد بن الحسن المعروف بابن الصاحب، وكان قتله يوم السبت تاسع عشر ربيع الأول سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، ترتب ابن زبادة المذكور مكانه، ثم عزل في سنة خمس وثمانين، وعاد إلى واسط فأقام بها إلى أن استدعي في شهر رمضان سنة اثنتين وتسعين، وقلد ديوان الإنشاء في يوم الاثنين والعشرين من شهر رمضان، ثم رد إليه النظر في

ديوان المقاطعات، فكان على ذلك إلى حين وفاته.

وكان حسن السيرة محمود الطريقة متدنياً، حدث بشيء يسير وكتب الناس عنه كثيراً من نظمه ونثره، فمن ذلك قوله:

باضطراب الزمان ترتفع الأنذال فيه حتى يعم البلاء
وكذا الماء ساكناً فإذا حرك ثارت من قعره الأقذاء

وله أيضاً:

إني لأعظم ما تلقونني جلدا إذا توسطت هول الحادث النكد
كذلك الشمس لا تزداد قوتها إلا إذا حصلت في زبرة الأسد

وكتب إلى الإمام المستنجد يهنيه بالعيد:

يا ماجداً قدراً أن نهنيه لنا الهناء بظلٍ منك ممدود
الدهر أنت ويوم العيد منك وما في العرف أنا نهني الدهر بالعيد

وله أيضاً:

إن كنت تسعى للسعادة فاستقم تنل المراد ولو سموت إلى السما
ألف الكتابة وهو بعض حروفها لما استقام على الجميع تقدما

وله أيضاً:

لا تغبطن وزيراً للملوك وإن أناله الدهر منهم فوق همته

واعلم بأن له يوماً تمور به ال أرض الوقور كما مرت لهيبته
هرون وهو أخو موسى الشقيق له لولا الوزارة لم يأخذ بلحيته

وله كل معنى مليح، وله ديوان رسائل وقفت عليه في بلادنا، ولم يحضرني شيء منه كي أثبته هاهنا.

وقال أبو عبد الله محمد بن سعيد الدبيثي في تاريخه، أنشدنا أبو طالب يحيى بن سعيد ابن هبة الله، يعني ابن زبادة المذكور، من حفظه، قال: أنشدني أبو بكر أحمد بن محمد الأرجاني لما قدم بغداد علينا في سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة لنفسه – قلت: وهو ناصح الدين أبو بكر أحمد الأرجاني المقدم ذكره – قوله:

ومقسومة العينين من دهش النوى وقد راعها بالعيس رجع حداء
تجيب بإحدى مقلتيها تحيتي وأخرى تراعي أعين الرقباء
رأت حولها الواشين طافوا فغيضت لهم دمعها واستعصمت بحياء
فلما بكت عيني غداة وداعهم وقد روعتني فرقة القرناء
بدت في محياها خيالات أدمعي فغاروا وظنوا أن بكت لبكائي

وكتب إليه أبو الغنائم محمد بن علي المعروف بابن المعلم الهرثي الشاعر – المقدم ذكره – وقد عزل عن نظر واسط:

ولأنت إن لم يبلل الغيث الثرى تروي الورى بسماحك الهتان

لم يعزلوك عن البلاد لحالةٍ تدعو إلى النقصان والشنآن

بل مذ رأوا آثار جودك زاخراً حفظوا بلادهم من الطوفان

قلت: وحكى لي الوجيه أبو عبد الله محمد بن علي بن أبي طالب المعروف بابن سويد التاجر التكريتي قال: كان الشيخ محيي الدين أبو المظفر يوسف بن الحافظ جمال الدين أبي الفرج بن الجوزي الواعظ المشهور قد توجه رسولاً من بغداد إلى الملك العادل ابن الملك الكامل ابن الملك العادل بن أيوب سلطان مصر في ذلك الوقت، وكان أخوه الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل محبوساً في قلعة الكرك يومئذ – وقد شرحت ذلك في ترجمة الكامل في هذا التاريخ – قال الوجيه: فلما عاد محيي الدين راجعاً إلى بغداد وقدم دمشق، كنت بها، فدخلت عليه أنا والشيخ أصيل الدين أبو الفضل عباس بن عثمان بن نبهان الإربلي، وكان رئيس التجار في عصره، وجلسنا نتحدث معه فقال: قد حلفت الملك الناصر داود صاحب الكرك أن لا يخرج الملك الصالح من الحبس إلا بأمر أخيه الملك العادل، قال: فقال له الأصيل: مولانا، هذا بأمر الديوان العزيز؟ فقال محيي الدين: وهل يحتاج إلى إذن؟ هذا اقتضته المصلحة، ولكن أنت تاريخ يا أصيل، فقال: يعني مولانا أني قد كبرت وما أدري ما أقول، وأنا أحكي لمولانا حكاية في هذا المعنى أعرفها من غرائب الحكايات، قال: هات، فقال: كان ابن رئيس الرؤساء ناظر واسط يحمل في كل شهر حمل واسط وهو ثلاثون ألف دينار لا يمكن أن يتأخر يوماً واحداً عن العادة، فتعذر في بعض الأشهر كمال الحمل، فضاق صدره لذلك وذكره لنوابه، فقالوا له: يا مولانا هذا ابن زبادة عليه من الحقوق أضعاف ذلك، ومتى حاسبته قام بما يتم الحمل وزيادة، فاستدعاه وقال له: لم لا تؤدي كما يؤدي الناس؟ فقال: أنا معي خط الإمام المستنجد بالمسامحة، قال: هل معك خط مولانا الإمام الناصر؟ قال: لا، قال: قم واحمل ما يجب عليك، قال: ما ألتفت إلى أحد ولا أحمل شيئاً. ونهض من المجلس، فقال النواب لابن رئيس الرؤساء: أنت صاحب الوسادتين وناظر النظار، وما على يدك يد، ومن هو هذا حتى يقابلك بمثل هذا القول؟ ولو كبست داره وأخذت ما فيها ما قال لك أحد شيئاً، وحملوه عليه حتى ركب بنفسه وأجناده، وكان ابن زبادة يسكن قبالة واسط، وقدموا إلى ابن رؤساء السفن حتى يعبر إليه، وإذا بزبزب قد قدم من بغداد، فقال: ما قدم هذا إلا في مهم، ننظر ما هو ثم نعود إلى ما نحن بسببه، فلما دنا من الزبزب فإذا فيه خدم من خدام الخليفة، فصاحوا به: الأرض الأرض، فقبل الأرض وناولوه مطالعة، وفيها: قد بعثنا خلعة ودواة لابن زبادة، فتحمل الخلعة على رأسك والدواة على صدرك، وتمشي راجلاً إليه وتلبسه الخلعة وتجهزه إلينا وزيراً، فحمل الخلعة على رأسه والدواة على صدره ومشى إليه راجلاً، فلما رآه ابن زبادة أنشده ابن رئيس الرؤساء:

إذا المرء حي فهو يرجي ويتقي وما يعلم الإنسان ما في المغيب

وأخذ يعتذر إليه، فقال له ابن زبادة: لا تثريب عليكم اليوم، وركب في الزيزب إلى بغداد، وما علموا أن أحداً أرسلت إليه الوزارة غيره، فلما وصل إلى بغداد كان أول ما نظر فيه أن عزل ابن رئيس الرؤساء عن نظر واسط قال: هذا ما يصلح لهذا المنصب، ثم قال الأصيل: ولا يأمن مولانا أن يخرج الملك الصالح ويملك ويعود إليه رسولاً ويقع وجهك في وجهه وتستحيي منه، فأنشده محيي الدين قوله:

وحتى يؤوب القارظان كلاهما وينشر في الموتى كليب لوائل

فما كان إلا مديدة حتى خرج الملك الصالح من حبس الكرك وملك مصر وكان ما كان. وقلت: وكنت بمصر ومحيي الدين بها رسول إلى الملك العادل، وقبض العادل، وجاء الصالح فخرج محيي الدين التقاه، وشاهدت ذلك.

هكذا ذكر لي الوجيه هذه الحكاية، وفيها غلط إما في الوجيه أو من الأصيل، فإن ابن ما ولي الوزارة ولا تولى إلا ما ذكرته في أوائل ترجمته، فإن كان هذا صحيحاً فيكون ذلك لما طلب للإنشاء كما شرحته، والله أعلم بالصواب.

قال ابن الدبيثي المذكور: سألت أبا طالب ابن زبادة عن مولده فقال: ولدت يوم الثلاثاء الخامس والعشرين من صفر سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة، وتوفي ليلة الجمعة السابع والعشرين من ذي الحجة سنة أربع وتسعين وخمسمائة وصلي عليه بجامع القصر، ودفن بالجانب الغربي بمشهد الإمام موسى

بن جعفر رضي الله عنهما، يعني ببغداد.

وزبادة: بفتح الزاي، هو القطعة من الزباد الذي يتطيب النسوان به، والله أعلم.

يحيى بن نزار المنبجي

أبو الفضل يحيى بن نزار بن سعيد المنبجي، ذكره الحافظ أبو سعد عبد الكريم السمعاني في كتاب " الذيل على تاريخ الخطيب " المختص ببغداد، فقال: له شعر مطبوع غير متكلف، وكتب لي أبياتاً من شعره، وسمعت منه، وسألته عن مولده فقال: ولدت في المحرم من سنة ست وثمانين وأربعمائة بمنبج. وأورد له مقاطيع أنشده إياها، فمكن ذلك قوله:

وأغيد غضٍ زاد خط عذاره ... لعاشقه في همه والبلابل

تموج بحار الحسن في وجناته ... فتقذف منها عنبراً في السواحل

وتجري بخديه الشبيبة ماءها ... فتنبت ريحاناً جنوب الجداول

قلت: وقد خطر لي على هذا مأخذ وهو أنه جعل البيت الثاني بحار الحسن تموج في وجناته، فكيف يقول في البيت الثالث " وتجري بخديه الشبيبة ماءها "وما مقدار ماء الشبيبة بالنسبة إلى بحار الحسن؟ وما كفى هذا حتى جعلها جداول، والجداول والنهار، وأين النهار من البحار؟ ثم إنه في البيت الثاني قد شبه العذار بالعنبر، فكيف يجعله في البيت الثالث ريحاناً؟ وأين العنبر من الريحان؟ وإن كان كل واحد من العنبر والريحان قد جرت عادة الشعراء أن يشبهوا به العذار، ولكن في مقطوع واحد من الشعر ما لهم عادة يجمعون بينهما.

وكنت قد سمعت في زمن الاشتغال بالأدب بيتين استحسنتهما و لم أعرف قائلهما، وهما:

يا عاذلي في حب ذي عارضٍ ... ما البلد المخصب كالماحل

يموج بحر الحسن في خده ... فيقذف العنبر في الساحل

فلما كان في أوائل سنة اثنتين وسبعين وستمائة وقفت بالقاهرة المحروسة على مجلد من كتاب " السيل والذيل " تأليف عماد الدين الكاتب الأصبهاني، وقد جعله ذيلاً على كتابه " خريدة القصر "، فرأيت فيه ترجمة يحيى بن نزار المنبجي المذكور، وقد ذكر له مقدار عشرة أبيات يمدح فيها السلطان نور الدين محمود بن الزنكي رحمه الله تعالى، وفي جملة الأبيات البيت الثاني من هذين البيتين، فعلمت أن الذي نظم ذلك المعنى في البيت الثاني من الثلاثة هو الذي نظم هذين البيتين في هذه الأبيات التي ذكرها في كتاب " السيل ". ثم بعد ذلك بقليل جاءني صاحبنا جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن أحمد المعروف بالحافظ اليغموري فتذاكرنا وجرى ذكر البيتين وقال: إنهما لعماد الدين أبي المناقب حسام بن عوى بن يونس المحلي نزيل دمشق. وذكر أنه سمعهما منه نزار المنبجي ويكون العماد المحلي قد نظم البيت الأول وجعله توطئة للثاني، واستعمله على وجه التضمين كما جرت العادة في مثله، لكنه كان ينبغي أن ينبه على أنه تضمين كي لا يعتقد من يقف عليهما أنهما له، فأن البيت الأول ليس في جملة أبيات يحيى المنبجي التي مدح بها نور الدين رحمه الله تعالى. ثم من بعد ذلك خطرت لي مؤاخذة على العماد المحلي فإنه قال في بيته الذي جعله توطئة للثاني:

ما البلد المخصب كالماحل

والخصب والمحل إنما يكون بسبب النبات وعدمه، والبيت الثاني الذي هو التضمين شبه العذار بالعنبر، وأين النبات من العنبر؟ فالتوطئة بين البيتين ليست بملائمة، وهذه المؤاخذة مثل المؤاخذة المتقدمة على الأبيات الثلاثة.

وكنت وقفت على بيتين للعماد المحلي المذكور أيضاً أنشدنيهما عنه جماعة وهما:

قيل لي من هويت قد عبث الشع ... ر بخديه قلت ما ذاك عاره

جمرة الخد أحرقت عنبر الخ ... ل فمن ذلك الدخان عذاره

وسنح لي عليهما مؤاخذة مثل المؤاخذة المذكورة، وهي أنه لما قيل له إن الشعر عبث بخديه ما أنكر ذلك بل قال " ما ذاك عذاره " فقد وافق على أنه شعر، غاية ما في الباب أنه قال هذا الشعر ما هو عاره، فكيف يقول بعد هذا " جمرة الخد أحرقت عنبر الخال " إلى آخره، فجعل العذار دخان العنبر، وأين دخان العنبر من الشعر؟ بل كان ينبغي أن يقول لهم: هذا ما هو شعر، بل هو دخان العنبر حتى يتم له المعنى.

وقد نظم صاحبنا ورفيقنا في الاشتغال بحلب عون الدين أبو الربيع سليمان بن بهاء الدين عبد المجيد بن العجمي الحلبي بيتين ألم فيهما بهذا المعنى وهما:

لهيب الخد حين بدا لعيني ... هوى قلبي عليه كالفراش

فأحرقه فصار عليه خالاً ... وها أثر الدخان على الحواشي

وقد أحسن في هذا المعنى وخلص من تلك المؤاخذة، لكن وقع في مؤاخذة أخرى، وهي أنه جعل العذار احتراق قلبه، والعماد جعله دخان عنبر الخال، وبين الدخانين بون كبير، فهذا طيب الرائحة وذاك كريه الرائحة.

وقد سبق ترجمة عبد الله بن صارة الشنتريني بيتان أبدع فيهما، وهما:

ومهفهف رقت حواشي حسنه ... فقلوبنا وجداً عليه رقاق

لم يكس سالفه العذار وإنما ... نفضت عليه صباغها الأحداق

والأصل في هذا الباب كله قوله أبي إسحاق إبراهيم الصابي الكاتب في غلامه الأسود واسمه يمن – وقد سبق ذكر الأبيات في ترجمته من هذا الكتاب، والمقصود منها هاهنا قوله في أولها:

لك وجه كأن يمناي خطت ... ه بلفظ تمله آمالي

فيه معنى من البدور ولكن ... نفضت صبغها عليه الليالي

وبيتا عون الدين فيهما إلمام بقول أبي الحسين أحمد بن منير الطرابلسي – المقدم ذكره:

لا تخالوا الخال يعلو خده ... قطرةً من دم جفني نطفت

ذاك من نار فؤادي جذوة ... فيه ساخت وانطفت ثم طفت

قلت: وقد خرجنا عن المقصود وانتشر الكلام، لكن ما خلا من فائدة.

وقال أبو سعد السمعاني أيضاً: أنشدني يحيى بن نزار المنبجي لنفسه:

لو صد عني دلالاً أو معاتبة ... لكنت أرجو تلافيه وأعتذر

لكن ملالاً فلا أرجو تعطفه ... جبر الزجاج عسير حين ينكسر

وله غير هذا نظم مليح ومعان لطيفة.

وقال أبو الفرج صدقة بن الحسين بن الحداد في تاريخه المرتب على السنين ما مثاله: سنة أربع وخمسين وخمسمائة، في ليلة الجمعة سادس ذي الحجة مات يحيى بن نزار المنبجي ببغداد، ودفن بالوردية، قيل إنه وجد في أذنه ثقلاً فاستدعى إنساناً من الطرقية، فامتص أذنه فخرج شيء من مخه، فكان سبب موته، رحمه الله تعالى.

وقال السمعاني: هو أخو أبي الغنائم التاجر المعروف، وذكر أبا الغنائم ووصفه وأثنى عليه في ترجمة مستقلة في كتاب " الذيل " أيضاً، رحمه الله تعالى.

وأما العماد المحلي فإنه كان أديباً لطيفاً على ما يحكى عنه من النوادر وله نظم مليح في المقطعات دون القصائد، وكان يحفظ المقامات وشرحها، وتوفي

ليلة الأربعاء عاشر شهر ربيع الأول سنة تسع وستمائة بدمشق، ودفن بمقابر الصوفية، وعرف بابن الجمال، وولد في سنة ستين وخمسمائة تقديراً بقوص، ونشأ بالمحلة، فنسب إليها.

ثم وجدت في مسوداتي بخطي بيتاً منسوباً إلى الوجيه أبي الحسن علي بن يحيى بن الحسين بن أحمد المعروف بابن الذروي الأديب الشاعر وهو.

عذاره دخان ندٍ خاله ... وريقه من ماء ورد خده

ثم وجدت منسوباً إلى ابن سناء الملك - المقدم ذكره - والصحيح أنها لأسعد بن مماتي - المقدم ذكره أيضاً:

سمراء قد أزرت بكل أسمرٍ ... بلونها ولينها وقدها

أنفاسها دخان ند خالها ... وريقها من ماء ورد خدها

لو كتب البدر إلى خدمتها ... ملطفاً ترجمه بعبدها

ورأيت للمهذب أبي نصر محمد بن إبراهيم بن الخضر الحلبي المعروف بابن البرهان الحاسب المنجم الطبري:

ومهفهفٍ راقت نضارة وجهه ... فالعين تنظر منه أحسن منظر

أصلى بنار الخد عنبر خاله ... فبدا العذار دخان ذاك العنبر

فعلمت أن العماد المحلى إنما أخذ ذلك المعنى من أحد هؤلاء، والله سبحانه وتعالى أعلم.

تاج الدين ابن الجراح

أبو الحسين يحيى بن أبي علي منصور بن الجراح بن الحسين بن محمد بن داود بن الجراح المصري، وهذه الزيادة في نسبه وجدها بخط بعض الأدباء ولا أتحققها، والأول أصح، الكاتب المنعوت تاج الدين؛ كتب في ديوان الإنشاء بالديار المصرية مدة طويلة. وكتب الكثير، وكان خطه في غاية الجودة، وكان فاضلاً أديباً متقناً، له فطرة حسنة وشعر فائق ورسائل أنيقة، وسنع الحديث بثغر الإسكندرية المحروسة على الحافظ أبي طاهر السلفي وأبي الثناء حماد بن هبة الله الحراني، وحدث وسمع الناس عليه.

وله لغز في الدملج الذي تلبسه النساء، وهو بديع في بابه فأحببت ذكره، وهو نثر: ما شيء قلبه حجر، ووجهه قمر، إن نبذته صبر، واعتزل البشر وإن أجعته رضي بالنوى، وانطوى على الخوى، وإن أشبعته قبل قدمك، وصحب خدمك، وإن غلفته ضاع، وإن أدخلته السوق أبي أن يباع، وإن أظهرته جمل المتاع، وأحسن الإمتاع، وإن شددت ثانيه، وحذفت منه القافية، كدر الحياة وأوجب التخفيف في الصلاة، وأحدث في وقت العصر الضجر، ووقت الفجر الخدر، وجمع بين حسن العقبى وقبح الأثر، هذا وإن فصلته دعا لك، وأبقى ما إن ركبته هالك، وربما بلغك آمالك، وكثر مالك، وأحسن بعون المساكين مآلك، والسلام.

قلت: وهذا اللغز قد يقف عليه من لا يعرف طريق حله، فيعسر عليه تفسيره، فيحتاج إلى الإيضاح، فأقول: أما قوله " ما شيء قلبه حجر " فمراده قلب حروف دملج، فإنا إذا قلبنا هذه الحروف يخرج منها " جلمد " وهو الحجر، وقوله " ووجهه قمر " يريد أنه مستدير كالقمر، وقوله " إن نبذته صبر واعتزل البشر " فالبشر جمع بشرة، فالإنسان إذا ألقى الدملج عنه صبر واعتزل بشرته إذ ليس فيه أهلية المنع فهو يصبر ويعتزل المكان الذي كان فيه. وقوله " وإن أجعته رضي بالنوى " فالنوى لفظ مشترك يقع على البعد وعلى نوى التمر، وعادتهم في بلاد العراق أن يطحنوا نوى التمر والرطب والبسر ويعلفوا به البقر، وقصد هاهنا هذه التورية، فإن الدملج إذ أخرج من العضد أو من الساق فقد جاع، لأنه يكون فارغ الجوف، ويرضى بالنوى الذي هو البعد عن عضو صاحبه، ويقولون: فلان يرضى بالنوى، إذا كان فقيراً لا يجد ما يتبلغ به، فهو يجتزئ بمص النوى، وهذا يفعله أهل الحجاز والبلاد المجدية، لقلة الأقوات عندهم، فقد استعمل صاحب هذا اللغز لفظة النوى في هذين المعنيين، وهذه هي التورية، وقوله " وانطوى على الخوى " فالخوى هو الخلو، وإذا كان فارغ الجوف فهو خاوٍ، وقوله " وإن أشبعته قبل قدمك " مراده بالإشباع هنا لبس الدملج، فإن صاحبه إذا لبسه فقد ملأ

جوفه، ويكون فوق القدم فكأنه يقبله. وقوله " وصحب خدمك " فيه تورية أيضاً فإن الخدم جمع خادم، وهذا الجمع قليل الاستعمال لهذا الواحد فإنه لا يقال فاعل وجمعه فعل إلا في ألفاظ مسموعة مثل خادم وخدم وغائب وغيب، وحارس وحرس، وجامد وجمد، وغير ذلك، فهو موقوف على السماع، وخدم جمع خدمة أيضاً، وهو سير يشد في رسغ البعير تشد إليه سريحة النعل وبه سمي الخلخال خدمة لأنه ربما كان من سيور يركب فيه الذهب والفضة ويجمع على خدام أيضاً. وقوله " وإن غلفته ضاع " هذا فيه تورية أيضاً، فإن التغليف أن يجعل للشيء غلافاً، والتغليف استعمال الطيب أيضاً. وقوله " ضاع " فيه تورية أيضاً، فإنه يقال ضاع الشيء من الضياع، وضاع الطيب إذا عبقت رائحته. وقوله " وإن أدخلته السوق أبى أن يباع "فالسوق جمع ساق، وفيه التورية أيضاً لأن السوق موضع البيع والشراء، والسوق كما ذكرناه. وقوله " أبى أن يباع " لأن العادة أنه لا يباع إلا إذا أخرج من العضو الذي هو فيه، ولا يباع قبل إخراجه، فكأنه قبل الإخراج أبى البيع، وقوله " وإن أظهرته جمل المتاع، وأحسن الإمتاع " فهذا ظاهر لا حاجة له إلى تفسير. وقوله " وإن شددت ثانيه " وهو الميم، و" حذفت منه القافية " وهي الجيم، فيبقى الدمل، وهو يكدر الحياة بألمه، ويوجب التخفيف في الصلاة للألم أيضاً. وقوله " وأحدث في وقت العصر الضجر " فالعصر فيه التورية أيضاً، لأنه اسم الصلاة، وهو مصدر لفعل عصر، وكذلك الفجر، لأنه اسم للصبح وهو مصدر لفعل فجر، فالإنسان في وقت عصر الدمل يحصل له الضجر والقلق وإذا فجره وخلص منه حصل له الخدر والراحة. وقوله " وجمع بين حسن العقبى وقبح الأثر " فقصد المقابلة بين الحسن والقبح، ولا شك أن عقبى انفجار الدمل حسنة، وإن كان الأثر الذي يبقى في المكان قبيحاً. وقوله " وإن فصلته دعا لك " معناه أنك إذا فصلت أحد النصفين من لفظ الدملج من النصف الآخر، فالنصف منه " دُم " وهو الدعاء للإنسان بالدوام، وقوله " وأبقى ما إن ركبته هالك " فالباقي منه " لج " واللج هو لج البحر، وإن كان النصف من الدملج مخففاً، ولج البحر مشدداً، لكنهم يغتفرون مثل هذا في الألغاز والتصاحيف والأحاجي، ولا يبالون به، ولا شك أن ركوب البحر أمر هائل، فلهذا قال " هالك وربما بلغك آمالك " لأنه يوصل الإنسان إلى الموضع الذي يقصده. وقوله " وكثر مالك " معناه إذا ركبه الإنسان للتجارة، وقوله " وأحسن بعون المساكين مآلك "، فعون المساكين هو السفينة، كما قال الله تعالى "أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر" "الكهف: " فهي عون لهم على حاجتهم وسد خلتهم، ومآل الشيء عاقبة أمره، والله تعالى أعلم.

قلت: وفي اللغز ثماني لغات، لغز بضم اللام وسكون الغين، ولغز بضمهما، ولغز بضم اللام وفتح الغين، ولغز بفتح اللام وسكون الغين، ولغز بفتحهما، وألغوزة الهمزة وسكون اللام وضم الغين، ولغيزي بضم اللام وتشديد الغين مع القصر، ولغيزاء مثل الأول إلا أن الغين مخففة ومفتوحة والألف ممدودة، والله أعلم.

وقد طال الكلام لكن الحاجة دعت إليه كي لا يبقى فيه التباس على سامعه، ورأيت في مجموع بخط بعض الفضلاء بيتين منسوبين إليه، وهما هذان:

أمد كفي إلى البيضاء أقلعها ... من لحيتي فتفديها بسوداء

هذي يدي وهي مني لا تطاوعني ... على مرادي فما ظني بأعدائي

وكانت ولادة المذكور في ليلة السبت خامس عشر شعبان سنة إحدى وأربعين وخمسمائة. وتوفي في خامس شعبان سنة ست عشرة وستمائة بدمياط، والعدو المخذول محاصرها، رحمه الله تعالى.

وجراح: بفتح الجيم وتشديد الراء وبعد الألف حاء مهملة.

ثم إن العدو ملك دمياط يوم الثلاثاء السابع والعشرين من الشهر المذكور، والله أعلم.

ونقلت من خط الشيخ مهذب الدين أبي طالب محمد بن علي اللغوي المعروف بابن الخيمي الحلي نزيل مصر أن العدو نزل قبالة دمياط يوم الثلاثاء ثاني عشر ربيع الأول سنة خمس عشرة وستمائة، ونزل البر الشرقي يوم الثلاثاء سادس عشر ذي القعدة من السنة، وأخذ الثغر يوم الثلاثاء السادس والعشرين من شعبان سنة ست عشرة وستمائة، واستعيدت منهم يوم الأربعاء تاسع عشر رجب سنة ثماني عشرة وستمائة، ومدة نزولهم عليها إلى أن انفصلوا عنها ثلاث سنين وثلاثة أشهر وسبعة عشر يوماً، ومن الاتفاق العجيب نزولهم عليها يوم الثلاثاء وإحاطتهم بها يوم الثلاثاء وملكهم لها يوم

الثلاثاء، وقد جاء في الخبر أن الله تعالى خلق المكروه يوم الثلاثاء.

ولفظة دمياط سريانية، وأصلها بالذال المعجمة، ويقولونه ذمط، وتفسيره القدرة الربانية، وكأنه إشارة إلى مجمع البحرين العذب والملح، والله تعالى أعلم.

جمال الدين ابن مطروح

أبو الحسن يحيى بن عيسى بن إبراهيم بن الحسين بن علي بن حمزة بن إبراهيم بن الحسين بن مطروح، الملقب جمال الدين، من أهل الصعيد مصر، ونشأ هناك وأقام بقوص مدة، وتنقلت به الأحوال في الخدم والولايات، ثم اتصل بخدمة السلطان الملك الصالح أبي الفتح أيوب الملقب نجم الدين ابن السلطان الملك الكامل ابن السلطان الملك العادل بن أيوب وكان إذ ذاك نائباً عن أبيه الملك الكامل بالديار المصرية، ولما اتسعت مملكة الكامل بالبلاد المصرية بل بالبلاد الشرقية، فصار له آمد وحصن كيفا وحران والرها والرقة ورأس عين وسروج وما انضم إلى ذلك، سير إليها ولده الملك الصالح المذكور نائباً عنه، وذلك في سنة تسع وعشرين وستمائة، فكان ابن مطروح المذكور في خدمته، ولم يزل يتنقل في تلك البلاد إلى أن وصل الملك الصالح إلى مصر مالكاً لها، وكان دخوله القاهرة يوم الأحد السابع والعشرين من ذي القعدة سنة سبع وثلاثين وستمائة، ثم وصل ابن مطروح بعد ذلك إلى الديار المصرية في أوائل سنة تسع وثلاثين وستمائة، فرتبه ناظراً في الخزانة، ولم يزل يقرب منه ويحظى عنده إلى أن ملك الملك الصالح دمشق في الدفعة الثانية، وكان ذلك في جمادى الأولى من سنة ثلاث وأربعين وستمائة.

ثم إن السلطان بعد ذلك رتب لدمشق نواباً، فكان ابن مطروح في صورة وزير لها، ومضى إليها وحسنت حالته وارتفعت مترلته.

ثم إن الملك الصالح توجه إلى دمشق فوصلها في شعبان سنة ست وأربعين، وجهز عسكراً إلى حمص لاستنقاذها من يدي نواب الملك الناصر أبي المظفر يوسف الملقب صلاح الدين بن الملك العزيز بن الملك الظاهر ابن السلطان صلاح الدين صاحب حلب، فإنه قد انتزعها من صاحبها الملك الأشرف مظفر الدين أبي الفتح موسى ابن الملك المنصور إبراهيم ابن الملك المجاهد أسد الدين شيركوه عنوة، وكان منتمياً إلى الملك الصالح، فخرج من مصر لاسترداد حمص له، فعزل ابن مطروح عن ولايته بدمشق، وسيره مع العسكر المتوجه إلى حمص، وأقام الملك الصالح بدمشق إلى أن ينكشف له ما يكون من أمر حمص، فبلغه أن الفرنج قد اجتمعوا بجزيرة قبرص على عزم قصد الديار المصرية، فسير إلى عسكره المحاصرين بحمص وأمرهم أن يتركوا ذلك المقصد ويعودوا إلى لحفظ الديار المصرية، فعاد بالعسكر وابن مطروح في الخدمة، والملك الصالح متغير عليه متنكر له لأمور نقمها عليه، وطرق الفرنج البلاد في أوائل سنة سبع وأربعين، وملكوا دمياط يوم الأحد الثاني والعشرين من صفر من السنة، وخيم الملك الصالح بعسكره على المنصورة، وابن مطروح مواظب على الخدمة مع الإعراض عنه، ولما مات الملك الصالح ليلة النصف من شعبان سنة سبع وأربعين بالمنصورة وصل ابن مطروح إلى مصر وأقام في داره إلى أن مات.

هذه جملة حاله على الإجمال.

وكانت أدواته جميلة وخلاله حميدة، جمع بين الفضل والمروءة والأخلاق الرضية، وكان بيني وبينه مودة أكيدة ومكاتبات في الغيبة، ومجالس في الحضرة تجري فيها مذاكرات أدبية لطيفة، وله ديوان شعر أنشدني أكثره، فمن ذلك قوله في أول قصيدة طويلة:

هي رامة فخذوا يمين الوادي ... وذروا السيوف تقر في الأغماد
وحذار من لحظات أعين عينها ... فلكم صرعن بها من الآساد
من كان منكم واثقاً بفؤاده ... فهناك ما أنا واثق بفؤادي
يا صاحبي ولي بجرعاء الحمى ... قل أسير ما له من فادي
سلبته مني يوم بانوا مقلة ... مكحولة أجفانها بسواد

وبحي من أنا في هواه ميت | عين على العشاق بالمرصاد
وأغن مسكي اللمى معسوله | لولا الرقيب بلغت منه مرادي
كيف السبيل إلى وصال محجبٍ | ما بين بيض ظباً وسمر صعاد
في بيت شعرٍ نازل من شعره | فالحسن منه عاكف في بادي
حرسوا مهفهف قده بمثقف | فتشابه المياس بالمياد
قالت لنا ألف العار بخده | في ميم مبسمه شفاء الصادي

وهي طويلة اقتصرت منها على هذا القدر للاختصار.

ومن ذلك قوله:

علقته من آل يعرب لحظه | أمضى وأفتك من سيوف عريبه
أسكنته في المنحنى من أضلعي | شوقاً لبارق ثغره وعذيبه
يا عائبي ذاك الفتور بطرفه | خلوه ليه أنا قد رضيت بعيبه
لدن وما مر النسيم بعطفه | أرج وما نفح العبير بجيبه

وكان في بعض أسفاره قد نزل في طريقه بمسجد وهو مريض فقال:

يا رب إن عجز الطبيب فداوني | بلطيف صنعك واشفني يا شافي
أنا من ضيوفك قد حسبت وإن من | شيم الكرام البر بالأضياف

ووجدت بعد موته رقعة فيها مكتوب هذان البيتان.

وأخبرني أنه جرى بينه وبين أبي الفضل جعفر بن شمس الخلافة الشاعر - المقدم ذكره - منازعة في بيت هو من جملة قصيدته التي أولها:

من لي بغصنٍ باللحاظ ممنطق | حلو الشمائل واللمى والمنطق
مثري الروادف مملق من خصره | أسمعت في الدنيا بمثر مملق

والبيت الذي قد وقع فيه النزاع قوله:

وأقول يا أخت الغزال ملاحةً | فتقول لا عاش الغزال ولا بقي

فزعم ابن شمس الخلافة أن هذا البيت له من جملة قصيدة هي في ديوانه، وعمل كل واحد منهما محضراً شهد فيه جماعة بأن البيت له، وحلف لي ابن مطروح أن البيت له، وكان محترزاً في أقواله، ولم تعرف منه الدعوى بما ليس له، والله المطلع على السرائر.

وأنشدني له بعض أصحابنا قال: أنشدني لنفسه:

يا من لبست عليه أثواب الضنى | صفراً موشعةً بحمر الأدمع
أدرك بقية مهجة لو لم تذب | أسفاً عليك نفيتها عن أضلعي

وكان في مدة انقطاعه في داره وضيق صدره بسبب عطلته وكثرة كلفه قد حدث في عينيه ألم انتهى به إلى مقاربة العمى، وكنت أجتمع به في كل وقت، فتأخرت عنه مديدة لعذر أوجب ذلك، وكنت في ذلك الوقت أنوب في الحكم بالقاهرة المحروسة عن قاضي القضاة بدر الدين أبي المحاسن يوسف بن الحسن بن علي الحاكم بالديار المصرية المعروف بقاضي سنجار، فكتب إلي ابن مطروح يقول:

يا من إذا استوحش طرفي له | لم يخل قلبي منه من أنس

والطرف والقلب، على ما هما | عليه، مأوى البدر والشمس

وله من جملة قصيدة طويلة:

ملك الملاح ترى العيو | ن عليه دائرة يطق

ومخيم بين الضلو | ع وفي الفؤاد له سبق

والبيت الأول مأخوذ من قول المتنبي:

وخصر تثبت الأبصار فيه | كأن عليه من حدقٍ نطاقا

واليطق: بفتح الياء المثناة من تحتها والطاء المهملة وبعدها قاف، وهو عبارة عن جماعة من الجند يبيتون كل ليلة حول خيمة الملك محيطين به يحرسونه إذا كان مسافراً، وهو لفظ تركي والسبق: بفتح السين المهملة والباء الموحدة وبعدها قاف، وهي خيمة الملك إذا كان مسافراً، فإنه تقدم له خيمة إلى المترلة التي يتوجه إليها، حتى إذا جاءها له يترل فيها، ولا يتوقف على انتظار وصول الخيمة التي كان بها في تلك المترلة التي رحل منها.

وله بيتان ضمنهما بيت المتنبي وأحسن فيهما، وهما:

إذا ما سقاني ريقه وهو باسم | "تذكرت ما بين العذيب وبارق"

ويذكرني من قده ومدامعي | "مجر عوالينا ومجرى السوابق "

وهذا المعنى للمتنبي في أول قصيدة بديعة طويلة، وهي:

تذكرت ما بين العذيب وبارق | مجر عوالينا ومجرى السوابق

وكانت بينه وبين بهاء الدين زهير – المقدم ذكره في حرف الزاي – صحبة قديمة من زمن الصبا، وإقامتهما ببلاد الصعيد، حتى كانا كالأخوين، وليس بينهما فرق في أمور الدنيا، ثم اتصلا بخدمة الملك الصالح وهما على تلك المودة، وبينهما مكاتبات بالأشعار فيما يجري لهما، فأخبرني بهاء الدين زهير أن جمال الدين ابن مطروح كتب إليه بعض الأيام يطلب منه درج ورق، وكان قد ضاق به الوقت، وأظنهما كانا ببلاد الشرق معاً:

أفلست يا سيدي من الورق | فجد بدرج كعرضك اليقق

وإن أتى بالمداد مقترناً | فمرحباً بالخدود والحدق

قال بهاء الدين زهير، وقد فتح الراء من " الورق " وكسرها تنبيهاً على حاله، فكتبت إليه:

مولاي سيرت ما رسمت به | وهو يسير المداد والورق

وعز عندي تسيير ذاك وقد | شبهته بالخدود والحدق

وقد سبق في ترجمة بهاء الدين ذكر بيتين كتبهما ابن مطروح إلى بهاء الدين وذكرت السبب في نظم ذينك البيتين على ما حكاه لي بهاء الدين، ثم بعد ذلك وصل إلى الديار المصرية من الموصل بعض الأدباء وجرى حديث ما ذكره لي بهاء الدين زهير وأنه أنشدني بيت ابن الحلاوي وهو قوله:

تجيزها وتجيز المادحين بها | فقل لنا أزهير أنت أم هرم

فقال ذلك الأديب: هذه القصيدة أنشدنيها ناظمها ابن الحلاوي ونحن بالموصل، وأروي عنه هذا البيت على خلاف هذه الرواية فإنه أنشدني:

تجيدها ثم تجدو من أتاك بها فقل لنا أزهير أنت أم هرم

فما أدري: هل ابن الحلاوي أنشدها أولاً كما رواه بهاء الدين زهير ثم غير البيت كما رواه هذا الأديب أم حصل الغلط لأحدهما؟ والله تعالى أعلم، مع أن كل واحد من الطريقين حسن.

وقصة زهير بن أبي سلمى المزني الشاعر الجاهلي المشهور معلومة فلا حاجة إلى شرحها والخروج عما نحن بصدده، فإنه كان يمدح هرم بن سنان المري أحد أمراء العرب في الجاهلية، وكان هرم كثير العطاء له، حتى آلى على نفسه أنه لا يسلم عليه زهير إلا أعطاه غرة من ماله فرساً أو بعيراً أو عبداً أو أمة، فأجحف ذلك بهرم، فجعل زهير يمر بالجماعة فيهم هرم فيقول: عموا صباحاً خلا هرماً، وخيركم تركت.

ونعود إلى ما كنا فيه من حديث ابن مطروح:

بلغني أنه كتب قبل ارتفاع درجته رقعة تتضمن شفاعة في قضاء شغل بعض أصحابه، أرسلها إلى بعض الرؤساء، فكتب ذلك الرئيس في جوابه " هذا الأمر فيه علي مشقة " فكتب جوابه ثانية " لولا المشقة " فلما وقف عليها ذلك الرئيس قضى شغله وفهم قصده، وهو قول المتنبي:

لولا المشقة ساد الناس كلهم الجود يفقر والإقدام قتال

وهذا من لطيف الإشارات.

وأنشدني الأديب الفاضل جمال الدين أبو الحسين يحيى بن عبد العظيم بن يحيى بن محمد بن علي المعروف بالجزار المصري قصيدة بديعة مدح بها جمال الدين ابن مطروح المذكور، وهي بديعة فاقتصرت منها على ذكر غزلها، وهو هذا:

هو ذا الربيع ولي نفس مشوقه فاحبس الركب عسى أقضي حقوقه
فقبيح بي في شرع الهوى بعد ذلك البر أن أرضى عقوقه
لست أنسى فيه ليلاتٍ مضت مع من أهوى وساعاتٍ أنيقه
ولئن أضحى مجازاً بعدهم فغرامي فيه ما زال حقيقه
يا صديقي والكريم الحر في مثل هذا الوقت لا ينسى صديقه
ضع يداً منك على قلبي عسى أن تهدي بين جنبي خفوقه
فاض دمعي مذ رأى ربع الهوى ولكم فاض وقد شام بروقه
نفد اللؤلؤ من أدمعه فغدا ينثر في الترب عقيقه
قف معي واستوقف الركب فإن لم يقف فاتركه يمضي وطريقه
فهي أرض قلما يلحقها آمل والركب لم أعدم لحوقه
طالما استجليت في أرجائها من يتيه البدر إذ يدعى شقيقه
يفضح الورد احمراراً خده وتود الخمر لو تشبه ريقه
فبه الحسن خليق لم يزل والمعالي بابن مطروح خليقه

وكانت ولادته يوم الاثنين ثامن رجب سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة بأسيوط، وتوفي ليلة الأربعاء مستهل شعبان سنة تسع وأربعين وستمائة بمصر، ودفن بسفح الجبل المقطم، وحضرت الصلاة عليه ودفنه، وأوصى أن يكتب عند رأسه دوبيت نظمه في مرضه، وهو:

أصبحت بقعر حفرةٍ مرتهناً لا أملك من دنياي إلا كفنا

يا من وسعت عبادة رحمته من بعض عبادك المسيئين أنا

ومما ذكر أنه وجد في رقعة مكتوبة تحت رأسه بعد موته:

أتجزع مِ الموت هذا الجزع ورحمة ربك فيها الطمع

ولو بذنوب الورى جئته فرحمته كل شيء تسع

رحمه الله تعالى.

وتوفي قاضي القضاة بدر الدين يوسف المذكور يوم السبت رابع عشر رجب سنة ثلاث وستين وستمائة بالقاهرة، ودفن في تربته المجاورة لمدرسته بالقرافة الصغرى. وأخبرني مراراً عديدة أنه ولد في شهر ربيع الأول سنة ثمان وخمسمائة في جبال إربل، وهو زرزاري النسب، رحمه الله تعالى.

وأسيوط: بضم الهمزة وسكون السين المهملة وضم الياء المثناة من تحتها وبعدها واو ساكنة ثم طاء مهملة، وهي بليدة بالصعيد الأعلى من ديار مصر ومنهم من يسقط الهمزة ويضم السين فيقول: سيوط، والله تعالى أعلم.

ابن جزلة صاحب المنهاج

أبو علي يحيى بن جزلة الطبيب، صاحب كتاب " المنهاج " الذي رتبه على الحروف، وجمع فيه أسماء الحشائش والعقاقير والأدوية وغير ذلك شيئاً كثيراً، كان نصرانياً ثم أسلم وصنف رسالة في الرد على النصارى وبيان عوار مذاهبهم، ومدح فيها الإسلام وأقام الحجة على أنه الدين الحق، وذكر فيها ما قرأه في التوراة والإنجيل من ظهور النبي صلى الله عليه وسلم، وأنه نبي مبعوث وأن اليهود والنصارى أخفوا ذلك و لم يظهروه، ثم ذكروا فيها معايب اليهود والنصارى. وهي رسالة حسنة أجاد فيها وقرئت عليه في ذي الحجة سنة خمس وثمانين وأربعمائة. وكان سبب إسلامه أنه كان يقرأ على أبي علي ابن الوليد المعتزلي ويلازمه، فلم يزل يدعوه إلى الإسلام ويذكر له الدلائل الواضحة حتى هداه الله تعالى، وحسن إسلامه، وهو تلميذ أبي الحسن سعيد بن هبة الله بن الحسن، وبه انتفع في الطب، وكان له نظر في علم الأدب، وكتب الخط الجيد.

وصنف للإمام المقتدي بأمر الله كثيراً من الكتب، فمن ذلك كتاب " تقويم الأبدان " وكتاب " منهاج البيان فيما يستعمله الإنسان "، وكتاب " الإشارة في تلخيص العبارة " ورسالة في مدح الطب وموافقته للشرع والرد على من طعن عليه، ورسالة كتبها إلى إليا القس لما أسلم، وغير ذلك من التصانيف. وهو من المشاهير في علم الطب وعمله، وذكره أبو المظفر يوسف سبط أبي الفرج ابن الجوزي في تاريخه الذي سماه " مرآة الزمان " فقال: إنه لما أسلم استخلفه أبو الحسن القاضي ببغداد في كتب السجلات، وكان يطبب أهل محلته ومعارفه بغير أجرة، ويحمل إليهم الأشربة والأدوية بغير عوض، ويتفقد الفقراء ويحسن إليهم. ووقف كتبه قبل وفاته، وجعلها في مشهد أبي حنيفة رضي الله عنه، ذكر هذا كله في سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة، وعادته أن يذكر الإنسان ويشرح أحواله في سنة وفاته، فإن كتابه مرتب على السنين.

وذكر صاحب كتاب " البستان الجامع لتواريخ الزمان " أن ابن جزلة مات سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة، وزاد أبو الحسن الهمذاني: في أواخر شعبان، نقله عنه ابن النجار في " تاريخ بغداد "، وذكره غيره أن إسلامه كان في سنة ست وستين وأربعمائة، زاد ابن النجار في تاريخ: يوم الثلاثاء حادي عشر جمادى الآخر، رحمه الله تعالى.

وجزلة: بفتح الجيم وسكون الزاي وفتح اللام وبعدها هاء ساكنة، والله تعالى أعلم.

السهروردي المقتول

أبو الفتوح يحيى بن حبش بن أميرك، الملقب شهاب الدين، السهروردي الحكيم المقتول بحلب، وقيل اسمه أحمد، وقيل كنيته اسمه وهو أبو الفتوح، وذكر أبو العباس أحمد بن أبي أصيبعة الخزرجي الحكيم في كتاب " طبقات الأطباء " أن اسم السهروردي المذكور عمر، و لم يذكر اسم أبيه،

والصحيح الذي ذكرته أولاً، فلهذا بنيت الترجمة عليه، فإني وجدته بخط جماعة من أهل المعرفة بهذا الفن وأخبرني به جماعة أخرى لا أشك في معرفتهم، فقوي عندي ذلك، فترجمت عليه، والله أعلم.

كان المذكور من علماء عصره، قرأ الحكمة وأصول الفقه على الشيخ مجد الدين الجيلي بمدينة المراغة من أعمال أذربيجان، إلى أن برع فيهما وهذا مجد الدين الجيلي هو شيخ فخر الدين الرازي، وعليه تخرج وبصحبته انتفع، وكان إماماً في فنونه.

وقال في " طبقات الأطباء ": كان السهروردي المذكور أوحد أهل زمانه في العلوم الحكمية، جامعاً للفنون الفلسفية بارعاً في الأصول الفقهية، مفرط الذكاء فصيح العبارة، وكان علمه أكثر من عقله، ثم ذكر أنه قتل في أواخر سنة ست وثمانين وخمسمائة، والصحيح ما سنذكره في أواخر هذه الترجمة إن شاء الله تعالى، وعمره نحو ست وثلاثين سنة، ثم قال: ويقال إنه كان يعرف علم السيمياء.

وحكى بعض فقهاء العجم: أنه كان في صحبته، وقد خرجوا من دمشق، قال: فلما وصلنا إلى القابون، القرية التي على باب دمشق في طريق من يتوجه إلى حلب، لقينا قطيع غنم مع تركماني، فقلنا للشيخ: يا مولانا نريد من هذه الغنم رأساً نأكله، فقال: معي عشرة دراهم، خذوها واشتروا بها رأس غنم، وكان هناك تركماني فاشترينا منه رأساً بها، ومشينا قليلاً فلحقنا رفيق له وقال: ردوا هذا الرأس، خذوا أصغر منه، فإن هذا ما عرف يبيعكم، يساوي هذا الرأس أكثر من ذلك، وتقاولنا نحن وإياه، فلما عرف الشيخ ذلك قال لنا: خذوا الرأس وامشوا وأنا أقف معه وأرضيه، فتقدمنا نحن، وبقي الشيخ يتحدث معه ويطيب قلبه، فلما أبعدنا قليلاً تركه وتبعنا، وبقي التركماني يمشي خلفه ويصيح به، وهو لا يلتفت إليه، فلما لم يكلمه لحقه بغيظ وجذب يده اليسرى، وقال: أين تروح وتخليني؟ وإذا بيد الشيخ قد انخلعت من عند كتفه وبقيت في يد التركماني ودمها يجري، فبهت التركماني وتحير في أمره، فرمى اليد وخاف، فرجع الشيخ وأخذ تلك اليد بيده اليمنى ولحقنا، وبقي التركماني راجعاً وهو يتلفت إليه حتى غاب عنه، ولما وصل الشيخ إلينا رأينا في يده اليمنى منديلاً لا غير.

قلت: ويحكى عنه مثل هذا أشياء كثيرة، والله أعلم بصحتها.

وله تصانيف، فمن ذلك كتاب " التنقيحات " في أصول الفقه، وكتاب " التلويحات "، وكتاب " الهياكل "، وكتاب " حكمة الإشراق "، وله الرسالة المعروفة " بالغربة الغريبة " على مثال " رسالة الطير "لأبي علي ابن سينا، ورسالة " حي بن يقظان " لابن سينا أيضاً، وفيها بلاغة تامة أشار فيها إلى حديث النفس وما يتعلق بها اصطلاح الحكماء.

ومن كلامه: الفكر في صورة قدسية، يتلطف بها طالب الأريحية، ونواحي القدس دار لا يطؤها القوم الجاهلون، وحرام على الأجساد المظلمة أن تلج ملكوت السموات، فوحد الله وأنت بتعظيمه ملآن، واذكره وأنت من ملابس الأكوان عريان، ولو كان في الوجود شمسان لانطمست الأركان، فأبى النظام أن يكون غير ما كان:

فخفيت حتى قلت لست بظاهر ... وظهرت من سعتي على الأكوان

آخر:

لو علمنا أننا ما نلتقي ... لقضينا من سليمى وطرا

اللهم خلص لطيفي من هذا العالم الكثيف.

وتنسب إليه أشعار: فمن ذلك ما قاله في النفس على مثال أبيات ابن سينا العينية، وهي مذكورة في ترجمته في حرف الحاء، واسمه الحسين، فقال هذا الحكيم:

خلعت هياكلها بجرعاء الحمى ... وصبت لمغناها القديم تشوقا

وتلفتت نحو الديار فشاقها ... ربع عفت أطلاله فتمزقا

وقفت تسائله فرد جوابها ... رجع الصدى أن لا سبيل إلى اللقا

فكأنما برق تألق بالحمى ثم انطوى فكأنه ما أبرقا

ومن شعره المشهور:

أبداً تحن إليكم الأرواح ووصالكم ريحانها والراح
وقلوب أهل ودادكم تشتاقكم وإلى لذيذ لقائكم ترتاح
وارحمة للعاشقين تكلفوا ستر المحبة والهوى فضاح
بالسر إن باحوا تباح دماؤهم وكذا دماء البائحين تباح
وإذا هم كتموا تحدث عنهم عند الوشاة المدمع السفاح
وبدت شواهد للسقام عليهم فيها لمشكل أمرهم إيضاح
خفض الجناح لكم وليس عليكم للصب في خفض الجناح جناح
فإلى لقاكم نفسه مرتاحة وإلى رضاكم طرفه طماح
عودوا بنور الوصل من غسق الجفا فالهجر ليل والوصال صباح
صافاهم فصفوا له فقلوبهم في نورها المشكاة والمصباح
وتمتعوا فالوقت طاب بقربكم راق الشراب ورقت الأقداح
يا صاح ليس على المحب ملامة إن لاح في أفقٍ الوصال صباح
لا ذنب للعشاق إن غلب الهوى كتمانهم فنما الغرام وباحوا
سمحوا بأنفسهم وما بخلوا بها لما دروا أن السماح رباح
ودعاهم داعي الحقائق دعوة فغدوا بها مستأنسين وراحوا
ركبوا على سنن الوفا فدموعهم بحر وشدة شوقهم ملاح
والله ما طلبوا الوقوف ببابه حتى دعوا وأتاهم المفتاح
لا يطربون بغير ذكر حبيبهم أبداً فكل زمانهم أفراح
حضروا وقد غابت شواهد ذاتهم فتهتكوا لما رأوه وصاحوا
أفناهم عنهم وقد كشفت لهم حجب البقا فتلاشت الأرواح
فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالكرام فلاح
قم يا نديم إلى المدام فهاتها في كاسها قد دارت الأقداح
من كرم إكرام بِدنّ ديانة لا خمرة قد داسها الفلاح

وله في النظم والنثر أشياء لطيفة لا حاجة إلى الإطالة بذكرها. وكان شافعي المذهب، ويلقب بالمؤيد بالملكوت، وكان يتهم بانحلال العقيدة والتعطيل ويعتقد مذهب الحكماء المتقدمين، واشتهر ذلك عنه، فلما وصل إلى حلب أفتى علماؤها بإباحة قتله بسبب اعتقاده وما ظهر لهم من سوء مذهبه،

وكان أشد الجماعة عليه الشيخين: زين الدين ومجد الدين ابني جهبل.

وقال الشيخ سيف الدين الآمدي – المقدم ذكره في حرف العين: اجتمعت بالسهروردي في حلب، فقال لي: لا بد أن أملك الأرض، فقلت له: من أين لك هذا؟ قال: رأيت في المنام كأني شربت ماء البحر، فقلت: لعل هذا يكون اشتهار العلم وما يناسب هذا، فرأيته لا يرجع عما وقع في نفسه، ورأيته كثير العلم قليل العقل، ويقال: إنه لما تحقق القتل كان كثيراً ما ينشد:

أرى قدمي أراق دمي — وهان دمي فها ندمي

والأول مأخوذ من قول أبي الفتح علي بن محمد السبتي – المقدم ذكره:

إلى حتفي مشى قدمي — أرى قدمي أراق دمي

فلم أنفك من ندم — وليس بنافعي ندمي

وكان ذلك في دولة الملك الظاهر ابن السلطان صلاح الدين رحمه الله، فحبسه ثم خنقه بإشارة والده السلطان صلاح الدين، وكان ذلك في خامس رجب سنة سبع وثمانين وخمسمائة بقلعة حلب، وعمره ثمان وثلاثون سنة.

وذكره القاضي بهاء الدين المعروف بابن شداد قاضي حلب في أوائل سيرة صلاح الدين، وقد ذكر حسن عقيدته فقال: كان كثير التعظيم لشعائر الدين، وأطال الكلام في ذلك، ثم قال: ولقد أمر ولده صاحب حلب بقتل شاب نشأ يقال له " السهروردي " قيل عنه: إنه معاند للشرائع، وكان قد قبض عليه ولده المذكور لما بلغه خبره، وعرف السلطان به فأمر بقتله، فقتله وصلبه أياماً.

ونقل سبط ابن الجوزي في تاريخه عن ابن شداد المذكور أنه قال: لما كان يوم الجمعة بعد الصلاة سلخ ذي الحجة سنة سبع وثمانين وخمسمائة أخرج الشهاب السهروردي ميتاً من الحبس بحلب فتفرق عنه أصحابه.

قلت: وأقمت بحلب سنين للاشتغال بالعلم الشريف، ورأيت أهلها مختلفين في أمره، وكل واحد يتكلم على قدر هواه: فمنهم من ينسبه إلى الزندقة والإلحاد، ومنهم من يعتقد فيه الصلاح وأنه من أهل الكرامات، ويقولون: ظهر لهم بعد قتله ما يشهد له بذلك، وأكثر الناس على أنه كان ملحداً لا يعتقد شيئاً، نسأل الله تعالى العفو والمعافاة الدائمة في الدين والدنيا والآخرة، وأن يتوفانا على مذهب أهل الحق والرشاد، وهذا الذي ذكرته في تاريخ قتله هو الصحيح، وهو خلاف ما نقلته في أول هذه الترجمة، وقد قيل إن ذلك كان في سنة ثمان وثمانين، وليس بشيء أيضاً.

وحبش: بفتح الحاء المهملة والباء الموحدة وبالشين المعجمة.

وأميرك: بفتح الهمزة وبعدها ميم مكسورة ثم ياء مثناة من تحتها ساكنة وبعدها راء مفتوحة ثم كاف، وهو اسم أعجمي معناه أمير تصغير أمير، وهم يلحقون الكاف في آخر الاسم للتصغير.

وقد تقدم الكلام على سهرورد في ترجمة الشيخ أبي النجيب عبد القاهر السهروردي فليطلب منه، إن شاء الله تعالى.

يزيد بن القعقاع القارئ

أبو جعفر يزيد بن القعقاع القارئ، مولى عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة المخزومي عتاقة، ويعرف أبو جعفر المذكور بالمدني؛ أخذ القراءة عرضاً عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، وعن مولاه عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة، وعن أبي هريرة رضي الله عنه؛ وسمع عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، ومروان بن الحكم، ويقال قرأ على زيد بن ثابت رضي الله عنه، وروى القراءة عنه عرضاً نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم وسليمان بن مسلم بن جماز وعيسى بن وردان الحذاء وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وله قراءة.

قال أبو عبد الرحمن النائي: يزيد بن القعقاع ثقة، وكان يقرئ الناس بالمدينة قبل وقعة الحرة، وقال محمد بن القاسم المالكي: أبو جعفر يزيد بن القعقاع مولى أم سلمة رضي الله عنها، زوج النبي صلى الله عليه وسلم، وقال: ويقال إنه جندب بن فيروز مولى عبد الله بن عياش المخزومي، وكان من أفضل

الناس، وقال سليمان بن مسلم: أخبرني أبو جعفر يزيد بن القعقاع أنه كان يقرئ في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الحرة، وكانت الحرة على رأس ثلاث وستين سنة من مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، وأخبرني أنه كان يمسك المصحف على مولاه عبد الله بن عياش، وكان من أقرأ الناس وكنت أرى كل يومٍ ما يقرأ وأخذت عنه قراءته، وأخبرني أنه أتى به إلى أم سلمة رضي الله عنها وهو صغير، فمسحت على رأسه ودعت له بالبركة، قال سليمان المذكور: وسألته متى أقرأت القرآن؟ فقال: أقرأت أو أقرأت؟ فقلت: لا بل أقرأت، فقال: هيهات قبل الحرة في زمان يزيد بن معاوية، وكانت الحرة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بثلاث وخمسين سنة.

وقال نافع بن أبي نعيم: لما غسل أبو جعفر يزيد بن القعقاع القارئ بعد وفاته نظروا ما بين نحره إلى فؤاده مثل ورقة المصحف، فما شك أحد ممن حضره أنه نور القرآن.

وقال سليمان بن مسلم: أخبرني أبو جعفر يزيد بن القعقاع حين كان نافع يمر به فيقول: أترى هذا؟ كان يأتيني وهو غلام له ذؤابة فيقرأ علي ثم كفرني، وهو يضحك. قال سليمان، وقالت أم ولد أبي جعفر: إن ذلك البياض الذي كان بين نحره وفؤاده صار غرة بين عينيه. وقال سليمان: رأيت أبا جعفر بعد موته في المنام وهو على الكعبة فقلت له: أبا جعفر؟ قال: نعم اقرئ إخواني عني السلام، وأخبرهم أن الله تعالى جعلني من الشهداء الأحياء المرزوقين، واقرئ أبا حازم السلام وقل له: يقول لك أبو جعفر: الكيس الكيس، فإن الله عز وجل وملائكته يتراءون مجلسك بالعشيات.

وقال مالك بن أنس رحمه الله تعالى: كان أبو جعفر القارئ رجلاً صالحاً يفتي الناس بالمدينة.

وقال خليفة بن خياط: مات أبو جعفر يزيد بن القعقاع سنة اثنتين وثلاثين ومائة بالمدينة، وقال غيره: مات سنة ثمان وعشرين ومائة، وقال أبو علي الأهوازي في أول كتاب " الإقناع " في القراءات، قال ابن جماز: و لم يزل أبو جعفر إمام الناس في القراءة إلى أن توفي سنة ثلاث وثلاثين ومائة بالمدينة، وقيل إنه توفي في سنة ثلاثين ومائة، والله أعلم.

قلت: وقد تكرر ذكر الحرة في هذه الترجمة في مواضع، وقد يتشوف إلى الوقوف على معرفة ذلك من لا علم له به.

والحرة في الأصل اسم لكل أرض ذات حجارة سود، فمتى كانت بهذه الصفة قيل لها حرة، والحرار كثيرة، والمراد بهذه الحرة حرة واقم، بالقاف المكسورة، وهي بالقرب من المدينة في جهتها – كان يزيد بن معاوية بن أبي سفيان في مدة ولايته قد سير إلى المدينة جيشاً مقدمه مسلم بن عقبة المري فنهبها، وخرج أهلها إلى هذه الحرة، فكانت الواقعة بها، وجرى فيها ما يطول شرحه وهو مسطور في التواريخ، حتى قيل إنه بعد وقعة الحرة ولدت أكثر من ألف بكر من أهل المدينة، ممن ليس لهن أزواج، بسبب ما جرى فيها من الفجور.

ثم إن مسلم بن عقبة المري لما قتل أهل المدينة وتوجه إلى مكة، نزل به الموت بموضع يقال له: ثنية هرشى، فدعا حصين بن نمير السكوني وقال له: يا برذعة الحمار، إن أمير المؤمنين عهد إلي إن نزل بي الموت أن أوليك، وأكره خلافه عند الموت. ثم إنه أوصى إليه بأمور يعتمدها ثم قال: لئن دخلت النار بعد قتلي أهل الحرة إني إذاً لشقي.

وأما واقم فإنه اسم أطم من آطام المدينة، والأطم: بضم الهمزة والطاء المهملة، شبيه بالقصر، وكان مبنياً عند هذه الحرة فأضيفت الحرة إليه، فقيل حرة واقم، والله أعلم.

يزيد بن رومان

أبو روح يزيد بن رومان القارئ مولى آل الزبير بن العوام المدني، أخذ القراءة عوضاً عن عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة المخزومي، وسمع ابن عباس وعروة بن الزبير رضي الله عنهم، وروى القراءة عنه نافع ابن أبي نعيم، قال يحيى بن معين: يزيد بن رومان ثقة، وقال وهب بن جرير: حدثنا أبي قال: رأيت محمد بن سيرين ويزيد بن رومان يعقدان الآي في الصلاة.

وقال يزيد بن رومان: كنت أصلي إلى جانب نافع بن جبير بن مطعم، فيغمزني فأفتح عليه ونحن نصلي.

وروى يزيد أنه كان الناس يقومون في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه بثلاث وعشرين ركعة في شهر رمضان. وتوفي يزيد في سنة ثلاثين ومائة،

رحمه الله تعالى.

ورومان: بضم الراء وسكون الواو وبعدها ميم ثم ألف ونون.

يزيد بن المهلب

أبو خالد يزيد بن المهلب بن أبي صفرة الأزدي – قد تقدم ذكر أبيه في حرف الميم ورفعت نسبه وتكلمت عليه فأغنى عن الإعادة هاهنا؛ ذكر ابن قتيبة في كتاب " المعارف " وجماعة من المؤرخين: أنه لما مات أبوه – في التاريخ المذكور في ترجمته – كان قد استخلف ولده يزيد مكانه، ويزيد ابن ثلاثين سنة يومئذ، فعزله عبد الملك بن مروان برأي الحجاج بن يوسف الثقفي، وولى مكانه في خراسان قتيبة بن مسلم الباهلي – قلت: وقد تقدم ذكره في حرف القاف – وصار يزيد في يد الحجاج – قلت: وكان الحجاج زوج أخته هند بنت المهلب – وكان الحجاج يكره يزيد لما يرى فيه من النجابة فيخشى منه لا يترتب مكانه، فكان يقصده بالمكروه في كل وقت كي لا يثب عليه، وكان الحجاج في كل وقت يسأل المنجمين ومن يعاني هذه الصناعة عمن يكون مكانه، فيقولون: رجل اسمه يزيد، فلا يرى من هو أهل لذلك سوى يزيد المذكور، والحجاج يومئذ أمير العراقين، وكذا وقع، فإنه لما مات الحجاج ولي يزيد مكانه، هذا قول المؤرخين.

نعود إلى تتمة ما ذكره في " المعارف " – قال: فعذبه الحجاج، وهرب يزيد من حبسه إلى الشام يريد سليمان بن عبد الملك، فأتاه فشفع له إلى أخيه الوليد بن عبد الملك، فأمنه وكف عنه، ثم ولاه سليمان خراسان حين أفضت إليه الخلافة، ففتتح جرجان ودهستان وأقبل يريد العراق، فتلقاه موت سليمان بن عبد الملك، فصار إلى البصرة، فأخذ عدي بن أرطأة، فأوثقه وبعث به إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، فحبسه عمر، فهرب من حبسه وأتى البصرة، ومات عمر، فخالف يزيد –وخلع يزيد– بن عبد الملك، فوجه إليه أخاه مسلمة فقتله.

وقال الحافظ أبو القاسم المعروف بابن عساكر في تاريخه الكبير: يزيد بن المهلب ولي إمرة البصرة لسليمان بن عبد الملك، ثم نزعه عمر بن عبد العزيز وولى عدي بن أرطأة، وقدم به إلى عمر مسخوطاً عليه، حكى عن أنس بن مالك وعمر بن عبد العزيز وأبيه المهلب، وروى عنه ابنه عبد الرحمن وأبو عيينة ابن المهلب وأبو إسحاق السبيعي وغيرهم، وقال الأصمعي: إن الحجاج قبض على يزيد وأخذه بسوء العذاب، فسأله أن يخفف العذاب عنه على أن يعطيه كل يوم مائة ألف درهم ليشتري بها عذابه، فإن أداها وإلا عذبه إلى الليل، قال: فجمع يوماً مائة ألف درهم ليشتري بها عذابه، فدخل عليه الأخطل الشاعر فقال:

أبا خالد بادت خراسان بعدكم ... وصاح ذوو الحاجات أين يزيد

فلا مطر المروان بعدك مطرةً ... ولا اخضر بالمروين بعدك عود

فما لسرير الملك بعدك بهجة ... ولا لجواد بعد جودك جود

– قوله في البيت الثاني " فلا مطر لمروان، ولا اخضر بالمروين " هما تثنية مرو، إحداهما مرو الشاهجان، وهي العظمى، والأخرى مرو الروذ، وهي الصغرى، وكلتاهما مدينتان مشهورتان بخراسان، وقد تكرر ذكرهما في هذا الكتاب – قال: فأعطاه مائة الألف، فبلغ ذلك الحجاج، فدعا به وقال: يا مروزي، أكل هذا الكرم وأنت بهذه الحالة؟ قد وهبت لك عذاب اليوم، قلت: هكذا ذكر ابن عساكر، والمشهور أن صاحب هذه الواقعة والأبيات هو الفرزدق، ثم إني رأيت هذه الأبيات في ديوان زياد الأعجم، والله أعلم بالصواب.

وذكر الحافظ أيضاً أن يزيد لما هرب من الحجاج قاصداً سليمان بن عبد الملك، وهو يومئذ بالرملة، فاجتاز في طريقه بالشام على أبيات عرب، فقال لغلامه: استقنا هؤلاء لبناً، فأتاه بلبن فشربه، فقال: أعطهم ألف درهم، فأعطاهم.

وقال الحافظ أيضاً: حج يزيد بن المهلب فطلب حلاقاً، فجاء فحلق رأسه، فأمر له بألف درهم، فتحير ودهش، وقال: هذا الألف أمضي إلى أمي فلانة وأشتريها، فقال: أعطوه ألفاً آخر، فقال: امرأتي طالق إن حلقت رأس أحد بعدك، فقال: أعطوه ألفين آخرين.

وقال المدائني: وكان سعيد بن عمر بن العاص مؤاخياً ليزيد بن المهلب، فلما حبس عمر بن عبد العزيز يزيد منع الناس من الدخول إليه، فأتاه سعيد

فقال: يا أمير المؤمنين، لي على يزيد خمسون ألف درهم، وقد حلت بيني وبينه، فإن رأيت أن تأذن لي فأقتضيه، فأذن له، فدخل عليه، فسر به يزيد وقال: كيف دخلت إلي؟ فأخبره سعيد، فقال: والله لا تخرج إلا وهي معك، فامتنع سعيد، فحلف يزيد ليقبضها، فوجه إلى مترله، حتى حمل إلى سعيد خمسون ألف درهم.

وزاد ابن عساكر فقال: وفي ذلك قال بعضهم:

فلم أر محبوساً من الناس ماجداً حبا زائراً في السجن غير يزيد
سعيد بن عمرو إذ أتاه أجازه بخمسين ألفاً عجلت لسعيد

–وذكر أبو الفرج المعافى بن زكريا النهرواني في كتاب " الجليس والأنيس " عن عبد الله الكوفي قال: أغرم سليمان بن عبد الملك عمر بن هبيرة عن غزاة في البحر ألف ألف درهم، فمشى إلى يزيد بن المهلب، وقد ولي العراق، عثمان بن حيان المري والقعقاع بن خالد العبسي والهذيل بن زفر بن الحارث الكلابي وغيرهم من قيس، فلما انتهوا إلى باب سرادق يزيد أذن لهم الحاجب في دخولهم وأعلمهم أنه يغسل رأسه، فلما فرغ خرج في مستقة فألقى نفسه على فراشه ثم قال: ما ألف بينكم؟ فقال عثمان: هذا ابن هبيرة شيخنا وسيدنا، كان الوليد حمل معه مالاً حيث وجهه إلى البحر فأعطاه جنده فخرج عليه من غرمه ألف ألف درهم، فقلنا يزيد سيد أهل اليمن ووزير لسليمان وصاحب العراق ومن قد يحمل أمثالها عمن ليس بأمثالنا، ووالله لو وسعتها أموال قيس لاحتملناها. ثم تكلم القعقاع فقال: –يا– ابن المهلب، هذا خير ساقه إليك وليس أحد أولى به منك، فافعل به كبعض فعلاتك الأولى، فلن يصدك عن قضاء هذا الحق ضيق، ولا تبخل وقد أتيناك مع ابن هبيرة فيما حمل، فهب لنا أموالنا واستر في العرب عورتنا، ثم تكلم الهذيل بن زفر فقال: يا ابن المهلب، إني لو وجدت من الممشى إليك بداً لما مشيت إليك، لأن أموالك بالعراق، وإنما اتيتنا خائفاً ثم أقمت فينا ضعيفاً، ثم تخرج من عندنا محروساً، وايم الله لئن تركناك بالشام لنأتينك بالعراق، وما هاهنا أقرب في الحظوة واوجب للذمام؛ ثم تكلم ابن خيثمة فقال: إني لأقول لك يا ابن المهلب ما قال هؤلاء، أخبرني إن أنت عجزت عن احتمال ما على ابن هبيرة فعلى من المعول؟ لا والله ما عند قيس له مكيال، ولا في أموالهم متسع، ولا عند الخليفة له فرج، ثم تكلم ابن الهبيرة فقال: أما أنا فقد قضيت حاجتي، رددت أم نجحت، لأنه ليس لي أمامك متقدم ولا خلفك متأخر، وهذه حاجة كانت في نفسي فقضيتها. فضحك يزيد بن المهلب وقال: إن التعذر أخو البخل، ولا اعتذار فاحتكموا، فقال القعقاع: نصف المال، فقال يزيد: قد فعلت، يا غلام: يا غلام غداءك، قال: فجيء بالطعام فأبقينا أكثر مما أفرغنا، فلما فرغنا أمر بتطييبنا وأجاد الكسوة لنا، وقال: ثم خرجنا حتى إذا مررنا، قال ابن هبيرة، فأخبروني عما بقي، من يحمله بعد ابن المهلب، لقد صغر الله قدركم وأخطاركم، والله ما يدري يزيد ما بين النصف والتمام، وما هما عنده سواء، ارجعوا إليه فكلموه في الباقي، قال: وقد كان يزيد ظن بهم أن سيرجعون إليه في التمام، فقال للحاجب: إذا عادوا أدخلهم، فقال لهم يزيد، إن ندمتم أقلناكم وإن استقللتم زدناكم، فقال له ابن هبيرة: يا ابن المهلب، إن البعير إذا أوقر أثقلته أذناه، وأنا بما بقي مثقل، فقال: قد حملتها عنك، ثم ركب إلى سليمان فقال: يا أمير المؤمنين، إنك إنما رشحتني لتبلغ بي، وإني لا أضيق عن شيء اتسع له مالك، وما في أيدينا فواضلك يصطنع بها الناس وتبنى بها المكارم، ولولا مكانك قلقنا بالصغير، ثم قال له إنه أتاني ابن هبيرة بوجوه أصحابه، فقال له سليمان: أمسك اياك في مال الله عنده، خب ضب، جموع منوع، جزوع هلوع، هيه، فصنعت ماذا؟ قال: حملتها عنه، قال: احملها إذن إلى بيت مال المسلمين، قال: والله ما حملتها خدعة وأنا حاملها بالغداة، ثم حملها، فلما خبر سليمان بذلك دعا يزيد فلما رآه ضحك وقال: ذكت بك ناري، ووريت بك زنادي، غرمها علي وحمدها لك، قد وفت لي يميني، فأرجع المال إليك، ففعل–.

وقال يزيد يوماً: والله للحياة أحب من الموت، ولثناء حسن أحب إلي من الحياة، ولو أنني أعطيت ما لم يعطه أحد لأحببت أن يكون لي أذن أسمع غداً ما يقال في إذا أنا مت كريماً، وقد سبق ذكر هذا الكلام في ترجمة أبيه المهلب وأنه من كلامه، لا من كلام ابنه يزيد، والله أعلم.

وقال أبو الحسن المدائني: باع وكيل ليزيد بن المهلب بطيخاً جاءه من مغل بعض أملاكه بأربعين ألف درهم، فبلغ ذلك يزيد فقال له: تركتنا بقالين، أما كان في عجائز الأزد من تقسمه فيهن؟ ومدحه عمر بن لجأ بشعر يقول فيه:

آل المهلب قوم إن نسبتهم كانوا الأكارم آباء وأجدادا
كم حاسدٍ لهم يعيا بفضلهم وما دنا من مساعيهم ولا كادا
إن العرانين تلقاها محسدةً ولا ترى للئام الناس حسادا
لو قيل للمجد حد عنهم وخلهم بما احتكمت من الدنيا لما حادا
إن المكارم أرواح يكون لها آل المهلب دون الناس أجسادا

وقال الأصمعي: قدم على يزيد بن المهلب قوم من قضاعة، فقال رجل منهم:

والله ما ندري إذا ما فاتنا طلب لديك من الذي نتطلب
ولقد ضربنا في البلاد فلم نجد أحداً سواك إلى المكارم ينسب
فاصبر لعادتك التي عودتنا أو لا فأرشدنا إلى من نذهب

فأمر له بألف دينار، فلما كان في العام المقبل وفد عليه فأنشده:

ما لي أرى أبوابهم مهجورةً وكأن بابك مجمع الأسواق
حابوك أم هابوك أم شاموا الندى بيديك فانتجعوا من الآفاق
إني رأيتك للمكارم عاشقاً والمكرمات قليلة العشاق

فأمر له بعشرة آلاف درهم.

وأجمع علماء التاريخ على أنه لم يكن في دولة بني أمية أكرم من بني المهلب، كما لم يكن في دولة بني العباس أكرم من البرامكة، والله أعلم، وكان لهم في الشجاعة أيضاً مواقف مشهورة.

وحكى ابن الجوزي في كتاب " الأذكياء " أن يزيد بن المهلب وقعت عليه حية فلم يدفعها عن نفسه، فقال له أبوه: ضيعت العقل من حيث حفظت الشجاعة.

ولما خرج عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندي على الحجاج، وقصته المشهورة، أتى تستر فاجتمع إليه جماعة، فذكروا يوماً آل المهلب ووقعوا فيهم، فقال عبد الرحمن لحريش بن هلال القريعي، وكان في القوم: ما لك يا أبا قدامة لا تتكلم؟ فقال: والله ما أعلم أحداً أصون لنفسه في الرخاء ولا أبذل لها في الشدة منهم.

وقدم عبد الرحمن بن سليم الكلبي على المهلب، فرأى بنيه قد ركبوا عن آخرهم، فقال: أنس الله الإسلام بتلاحقكم، أما والله لئن لم تكونوا أسباط نبوة إنكم أسباط ملحمة.

ومات ابن لحبيب بن المهلب بن أبي صفرة، فقدم أخاه يزيد ليصلي عليه، فقيل له: أتقدمه وأنت أسن منه والميت ابنك؟ فقال: إن أخي قد شرفه الناس وشاع فيهم له الصيت، ورمته العرب بأبصارها، فكرهت أن أضع منه ما رفعه الله تعالى.

ونظر مطرف بن عبد الله بن الشخير إلى يزيد بن المهلب وهو يمشي وعليه حلة يسحبها، فقال له: ما هذه المشية التي يبغضها الله ورسوله؟ فقال يزيد: أما تعرفني؟ فقال: بلى، أولك نطفة مذرة، وآخرك جيفة قذرة، وأنت بين ذلك حامل عذرة، قلت: وقد نظم هذا المعنى أبو محمد عبد الله بن محمد البسامي الخوارزمي فقال:

عجبت من معجبٍ بصورته وكان من قبل نطفة مذره
وفي غدٍ بعد حسن صورته يصير في الأرض جيفة قذره

وهو على عجبه ونخوته ما بين ثوبيه يحمل العذره

وذكر الحافظ المعروف بابن عساكر في تاريخه الكبير في ترجمة أبي خداش مخلد بن يزيد بن المهلب أن مخلداً أحد الأسخياء الممدوحين، وفد على عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يكلمه في أمر أبيه يزيد، وقد حبسه عمر، وكان أبوه قد ولاه جرجان، فاجتاز في طريقه بالكوفة، فأتاه حمزة بن بيض الحنفي الشاعر المشهور في جماعة من أهل الكوفة فقام بين يديه وأنشده:

أتيناك في حاجة فاقضها وقل مرحباً يجب المرحب

ولا لا تكلنا إلى معشرٍ متى يعدوا عدة يكذبوا

فإنك في الفرع من أسرةٍ لهم خضع الشرق والغرب

وفي أدبٍ فيهم ما نشأت فنعم لعمرك ما أدبوا

بلغت لعشرٍ مضت من سنيك ما بلغ السيد الأشيب

فهمك فيها جسا الأمور وهم لداتك أن يلعبوا

وجدت فقلت ألا سائل فيسأل أو راغب يرغب

فمنك العطية للسائلين وممن ببابك أن يطلبوا

فقال له: هات حاجتك، فقضاها، وقيل أمر له بمائة ألف درهم.

وقدم على مخلد رجل كان قد زاره قبل ذلك فأجازه وقضى حقه، فلما عاد إليه قال له مخلد: ألم تكن أتيتنا فأجزناك؟ قال: بلى، قال: فماذا ردك؟ قال: قول الكميت فيك:

سألناه الجزيل فما تلكا وأعطى فوق منيتنا وزادا

فأعطى ثم أعطى ثم عدنا فأعطى ثم عدت له فعادا

مراراً ما أعود إليه إلا تبسم ضاحكاً وثنى الوسادا

فأضعف له ما كان أعطاه.

وقال قبيصة بن عمر المهلبي: كان يزيد بن المهلب قد فتح جرجان وطبرستان وأخذ صول، وهو رئيس من رؤسائهم – قلت: كان صاحب جرجان، وهو جد إبراهيم بن العباس الصولي وأبي بكر محمد بن يحيى الصولي الأديبين الشاعرين المشهورين – قال: فأصاب يزيد أموالاً كثيرة وعروضاً كثيرة، فكتب إلى سليمان بن عبد الملك: إني قد فتحت طبرستان وجرجان، ولم يفتحهما أحد من الأكاسرة ولا أحد ممن كان بعدهم غيري، وإني باعث إليك بقطران عليها الأموال والهدايا يكون أولها عنك وآخرها عني. فلما مات سليمان وأفضت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه بعده، أخذه عمر بهذه العدة لسليمان فحبسه، فقدم ابنه مخلد على عمر – قال قبيضة المهلبي: وهب مخلد من لدن خروجه من مرو الشاهجان إلى أن ورد دمشق ألف ألف درهم – فلما أراد مخلد الدخول على عمر لبس ثياباً مستنكرة وقلنسوة لاطية، فقال له عمر: لقد شمرت، فقال له: إذا شمرتم شمرنا وإذا أسبلتم أسبلنا، ثم قال له: ما بالك قد وسع الناس عفوك حبست هذا الشيخ، فإن تكن عليه بينة عادلة فاحكم عليه وإلا فيمينه، أو فصالحه على ضياعه، فقال يزيد: أما اليمين فلا تتحدث العرب أن يزيد صبر عليها، ولكن ضياعي فيها وفاء لما يطلب.

ومات مخلد وهو ابن سبع وعشرين سنة، فقال عمر: لو أراد الله بهذا الشيخ خيراً لأبقى هذا الفتى. ويقال إن مخلد بن يزيد أصابه الطاعون فمات، وصلى عليه عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، ثم قال: اليوم مات فتى العرب، وأنشد متمثلاً:

على مثل عمرو تذهب النفس حسرةً وتضحي وجوه القوم مغبرةً سودا

ورثاه حمزة بن بيض الحنفي – المقدم ذكره – بأبيات منها:

وعطلت الأسرة منك إلا سريرك يوم تحجب بالثياب
وآخر عهدنا بك يوم يحثى عليك بدابقٍ سهل التراب

وقال الفرزدق يرثيه:

وما حملت أيديهم من جنازةٍ ولا ألبست أثوابها مثل مخلد
أبوك الذي تستهزم الخيل باسمه وإن كان فيها قيد شهر مطرد
وقد علموا إذ شهد حقويه أنه هو الليث ليث الغاب لا بالمعرد

قلت: وهذا يدل على أن مخلد بن يزيد مات في حدود سنة مائة للهجرة لأن عمر بن عبد العزيز ولي الخلافة في صفر سنة تسع وتسعين وتوفي في رجب سنة إحدى ومائة، وقد مات عنده وصلى عليه، ويدل على أن موت مخلد كان بدابق ما تقدم من مرثية حمزة بن بيض، ودابق: قرية من أعمال حلب من جانبها الشمالي، وإليها ينسب المرج الذي يقال له " مرج دابق " وبه كانت وفاة سليمان بن عبد الملك، وقبره هناك مشهور.

ونعود إلى ذكر يزيد: قال أبو جعفر الطبري في تاريخ الكبير: إن المغيرة بن المهلب كان نائباً عن أبيه وعمله كله، ومات في رجب سنة اثنتين وثمانين – كما ذكرناه في ترجمة المهلب– فأتى الخبر يزيد، وعلم أهل المعسكر و لم يعلموا المهلب، وأحب يزيد أن يعلمه من النساء فصرخن، فقال المهلب: ما هذا؟ فقيل: مات المغيرة، فاسترجع وجزع حتى ظهر عليه، فلامه بعض خاصته، فدعا يزيد فوجهه إلى مرو وجعل يوصيه بما يعمل ودموعه تنحدر على لحيته، وكتب الحجاج إلى المهلب يعزيه عن المغيرة، وكان سيداً.

قلت: وكان للمغيرة ابن اسمه بشر ذكره أبو تمام الطائي في كتاب " الحماسة " في الباب الأول، وأورد من شعره قوله في يزيد:

جفاني يزيد والمغيرة قد جفا وأمسى يزيد لي قد أزور جانبه
وكلهم قد نال شبعاً لبطنه وشبع الفتى لؤم إذا جاع صاحبه
فيا عمِّ مهلاً واتخذني لنوبة تنوب فإن الدهر جمٌّ نوائبه
أنا السيف إلا أن للسيف نبوةً ومثلي لا تنبو عليك مضاربه
على أي بابٍ الإذن بعد ما حجبت عن الباب الذي أنا حاجبه

رجعنا إلى تتمة كلام الطبري: وكان المهلب يوم مات المغيرة مقيماً بكش وراء النهر لحرب أهلها، فسار يزيد في ستين فارساً، فلقيهم خمسمائة من الترك في المفازة، وحاصل الأمر أنه بينهم قتال شديد، ورمي يزيد في ساقه، ثم إن المهلب صالح أهل كش على فدية وانصرف عنهم متوجهاً إلى مرو، فلما وصل إلى زاغول، قرية من أعمال مرو الروذ، أصابته الشوصة، فدعا ولده حبيباً ومن حضر من ولده، ودعا بسهام فحزمت، وقال: أفترونكم كاسريها مجتمعة؟ فقالوا: لا، قال: أفترونكم كاسريها مفترقة، قالوا: نعم، قال: هكذا الجماعة، ثم أوصاهم وصية طويلة لا حاجة إلى ذكرها، ثم قال في آخرها: وقد استخلفت يزيد، وجعلت حبيباً على الجند حتى يقدم بهم على يزيد، فلا تخالفوا يزيد، فقال له ولده المفضل: لو لم تقدمه لقدمناه، ومات المهلب – حسبما شرحناه في ترجمته –وأوصى إلى حبيب، فصلى عليه حبيب ثم ساروا إلى مرو، فكتب يزيد إلى عبد الملك بوفاة المهلب واستخلافه إياه، فأقره الحجاج، ثم إنه عزله في سنة خمس وثمانين واستعمل أخاه المفضل.

وكان سبب ذلك أن الحجاج وفد على عبد الملك فمر في منصرفه بدير فتزله، فقيل له: إن بهذا الدير شيخاً من أهل الكتب عالماً فدعا به وقال: يا

شيخ، هل تجدون في كتبكم ما أنتم فيه ونحن؟ فقال: نعم، نجد ما مضى من أمركم وما أنتم فيه وما هو كائن، قال: أفمسمى أم موصوفاً؟ قال: كل ذلك موصوف بغير اسم واسم بغير صفة، قال: فما تجدون صفة أمير المؤمنين قال: نجده في زماننا الذي نحن فيه أنه ملك أقرع، من يقم لسبيله يصرع، قال: ثم من؟ قال: رجل يقال له الوليد، قال: ثم ماذا؟ قال: رجل اسمه نبي يفتح به على الناس – قلت: وهو سليمان بن عبد الملك – قال: أفتعلم ما ألي؟ قال: نعم، قال: فمن يليه بعدي؟ قال: رجل يقال له يزيد، قال: في حياتي أم بعد موتي؟ قال: لا أدري، قال: أفتعرف صفته؟ قال: يغدر غدرة، لا أعرف غير هذا.

قال: فوقع في نفسه أنه يزيد بن المهلب، وارتحل فسار سبعاً وهو وجل من قول الشيخ، وقدم فكتب إلى عبد الملك يستعفيه من العراق، فكتب إليه: قد علمت الذي تغزو، وأنك تريد أن تعلم رأيي فيك. ثم إن الحجاج أجمع على عزل يزيد فلم يجد لذلك سبباً، حتى قدم الخيار ابن سبرة، وكان من فرسان المهلب، وكان مع يزيد، فقال له الحجاج: أخبرني عن يزيد، فقال: حسن الطاعة لين السيرة، قال: كذبت، اصدقني عنه، فقال: الله أجل وأعظم، قد أسرج و لم يلجم، قال: صدقت، واستعمل الخيار على عمان بعد ذلك.

ثم كتب إلى عبد الملك يذم يزيد وآل المهلب، وخلاصة الأمر أنه كرر القول مع عبد الملك في ذلك إلى أن كتب إليه عبد الملك: قد أكثرت في يزيد وآل المهلب، فسم لي رجلاً يصلح خراسان، فسمى له مجاعة بن سعد السعدي، فكتب إليه عبد الملك: إن رأيك الذي دعاك إلى استفساد آل المهلب هو الذي دعاك إلى مجاعة بن سعد السعدي، فانظر لي رجلاً حازماً ماضياً لأمرك، فسمى قتيبة بن مسلم الباهلي، فكتب إليه وله، فبلغ يزيد أن الحجاج عزله فقال لأهل بيته: من ترون الحجاج يولي خراسان؟ قالوا: رجلاً من ثقيف، قال: كلا والله، ولكنه يكتب إلى رجل منكم بعهده، فإذا قدمت عليه ولى غيره، وأخلق بقتيبة بن مسلم.

قال: فلما أذن عبد الملك للحجاج في عزل يزيد كره أن يكتب بعزله فكتب إليه أن استخلف أخاك المفضل وأقبل، فاستشار يزيد حصين بن المنذر، فقال له: أقم واعتل فإن أمير المؤمنين حسن الرأي فيك، وإنما أتيت من الحجاج، فإن أقمت و لم تعجل رجوت إليه أن يقر يزيد، فقال: إنا أهل بيت بورك لنا في الطاعة، وأنا أكره المعصية والخلاف، وأخذ في الجهاز فأبطأ ذلك على الحجاج، فكتب إلى أخيه المفضل: إني قد وليتك خراسان، فجعل المفضل يستحث يزيد، فقال له يزيد: إن الحجاج لا يقرك بعدي، وإنما دعاه إلى ما صنع مخافة أن أمتنع عليه، قال: بل حسدتني، قال يزيد: أنا لا أحسدك ولكن ستعلم. وخرج يزيد في شهر ربيع الآخر سنة خمس وثمانين، فعزل الحجاج المفضل وولى قتيبة بن مسلم الباهلي، وقيل فيروز بن حصين، وقال حصين بن المنذر ليزيد المذكور:

أمرتك أمراً حازماً فعصيتني ... فأصبحت مسلوب الإمارة نادما

فما أنا بالباكي عليك صبابة ... وما أنا بالداعي لترجع سالما

فلما قدم قتيبة خراسان قال لحصين: كيف قلت ليزيد؟ قال قلت:

أمرتك أمراً حازماً فعصيتني ... فنفسك ولِّ اللوم إن كنت لائما

فإن يبلغ الحجاج أن قد عصيته ... فإنك تلقى أمره متفاقما

قال: فماذا أمرته به فعصاك؟ قال: أمرته أن لا يدع صفراء ولا بيضاء إلا حملها إلى الأمير.

وفي تولية قتيبة وعزل يزيد قال عبد الله بن همام السلولي:

أقتيب قد قلنا غداة أتيتنا ... بدل لعمرك من يزيد أعور

إن المهلب لم يكن كأبيكم ... هيهات شأنكم أدق وأحقر

شتان من بالصنج أدرك والذي ... بالسيف شمر والحروب تسعر

فوله " بدل أعور " هذا مثل يضرب للمذموم يتولى بعد الرجل المحمود، يقال بدل أعور، وخلف أعور، وقوله " من بالصنج أدرك " يقال: إن قتيبة كان يضرب بالصنج في بدء أمره؛ وقوله " حولان باهلة " جمع أحول، وكان قتيبة أحول، وهذا بالجمع مثل قولهم: أسود وسودان، وأحمر وحمران، وغير ذلك.

وقد قيل: إن هذه الأبيات ليست لعبد الله بن همام، وإنها لنهار بن توسعة اليشكري، والله أعلم.

ثم ذكر الطبري في سنة تسعين أن الحجاج خرج إلى الأكراد الذين غلبوا على عامة أرض فارس، فخرج بيزيد معه وأخويه المفضل وعبد الملك، وجعل عليهم في العسكر كهيئة الخندق وجعلهم في فسطاط قريباً منه، وجعل عليهم حرساً من أهل الشام، وأغرمهم ستة آلاف ألف، وأخذ يعذبهم، وكان يزيد يصبر صبراً حسناً، وكان الحجاج يغيظه ذلك، فقيل له أنه رمي بنشابة فثبت أصلها في ساقه، فهو لا يمسها شيء إلا صاح، فإن حركت أدنى شيء سمعت صوته، فأمر أن يعذب به ويرهق ساقه، فلما فعل به ذلك صاح، وأخته هند عند الحجاج، فلما سمعت صياح يزيد صاحت وناحت فطلقها.

ثم إنه كف عنهم وأقبل يستأديهم، فأخذوا يؤدون وهم يعملون في المخلص من مكانهم، فبعثوا إلى مروان بن المهلب وهو بالبصرة يأمرونه أن يضمر لهم الخيل ويري الناس أنه إنما يريد بيعها ويعرضها على البيع ويغلي بها كي لا تشترى، فتكون لنا عدةً إن نحن قدرنا أن ننجو من هاهنا، ففعل ذلك مروان بن المهلب، وحبيب بالبصرة يعذب أيضاً، فأمر يزيد بالحرس فصنع لهم طعام كثير فأكلوا، وأمر لهم بشراب فسقوا، وكانوا متشاغلين به، ولبس يزيد ثياب طباخه، ووضع على لحيته لحية بيضاء وخرج، فرآه بعض الحرس فقال: كأن هذه مشية يزيد، فجاء حتى استعرض وجهه ليلاً فرأى بياض اللحية فانصرف عنه، وقال: هذا شيخ. وخرج المفضل على أثره ولم يفطن له، فجاؤوا إلى سفينة وقد هيؤوها في البطائح وبينهم وبين البصرة ثمانية عشر فرسخاً، فلم انتهوا إلى السفينة أبطأ عليهم عبد الملك وشغل عنهم، فقال يزيد للمفضل: اركب، فإنه لاحق، فقال المفضل، وكان عبد الملك أخاه لأمه: لا والله لا أبرح حتى يجيء عبد الملك ولو رجعت إلى السجن، فأقام يزيد حتى جاءهم عبد الملك، وركبوا في السفينة، وساروا ليلتهم حتى أصبحوا.

ولما أصبح الحرس علموا بذهابهم، فرفع ذلك إلى الحجاج، ففزع لذلك الحجاج وذهب وهمه أنهم ذهبوا قبل خراسان، وبعث البريد إلى قتيبة بن مسلم يحذره قدومهم ويأمره أن يستعد لهم، وبعث إلى أمراء الثغور والكور أن يرصدهم ويستعدوا، وبعث إلى الوليد بن عبد الملك يخبره بهم، وأنه لا يراهم أرادوا إلا خراسان. ولم يزل الحجاج يظن بيزيد ما صنع، كان يقول: إني لأظنه يحدث نفسه بمثل الذي صنع ابن الأشعث – قلت: ابن الأشعث هو عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندي، وكان قد خرج على عبد الملك بن مروان، وقصته مشهورة مذكورة في التواريخ – قال الطبري: ولما دنا يزيد من البطائح استقبلته الخيل، وقد هيئت لهم، فخرجوا عليهم ومعهم دليل، فأخذ بهم على السماوة، وأتي الحجاج بعد يومين فقيل له: إنما أخذ الرجل طريق الشام، وهذه الخيل حسرى في الطريق، وقد أتى من رآهم متوجهين في البر، فبعث إلى الوليد يعلمه بذلك، ومضى يزيد حتى قدم فلسطين، فنزل على وهيب بن عبد الرحمن الأزدي، وكان كريماً على سليمان بن عبد الملك، وجاء وهيب حتى دخل على سليمان فقال: إن يزيد واخوته عندي، وقد أتوا هراباً من الحجاج متعوذين بك، فقال: آتني بهم فهم آمنون لا يوصل إليهم أبداً وأنا حي، فجاء بهم حتى دخلوا عليه، فكانوا في مكان أمنٍ.

وكتب الحجاج إلى الوليد بن عبد الملك: إن آل المهلب خانوا مال الله، وهربوا مني ولحقوا بسليمان، فلما بلغ الوليد مكانه عند سليمان أخيه هون عليه بعض ما كان في نفسه، وطار غضباً للمال الذي ذهبوا به، وكتب سليمان إلى أخيه الوليد: إن يزيد بن المهلب عندي وقد آمنته، وإنما عليه ثلاثة آلاف ألف، كان الحجاج أغرمهم ستة آلاف ألف، فأدى ثلاثة آلاف ألف، وبقيت ثلاثة آلاف ألف، فهن علي، فكتب إليه: لا والله لا أؤمنه حتى تبعث به إلي، فكتب إليه: لئن أنا بعثت به لأجيئن معه، فانشدك الله أن لا تفضحني ولا أن تخفرني، فكتب إليه الوليد: والله لئن جئتني به لا أؤمنه، فقال

يزيد: ابعثني إليه، فوالله ما أحب أن أوقع بينك وبينه عداوةً وحرباً، ولا أن يتشاءم بي لكما الناس، ابعث إليه بي وأرسل معي ابنك، واكتب إليه بألطف ما قدرت عليه، فأرسل ابنه أيوب معه، وكان الوليد أمره أن يبعث به إليه في وثاق، فبعثه إليه وقال لابنه: إذا أردت أن تدخل عليه فادخل أنت ويزيد في سلسلة على الوليد، ففعل ذلك حتى انتهيا إلى الوليد فدخلا عليه، فلما رأى الوليد ابن أخيه مع يزيد في سلسلة قال: والله لقد بلغنا من سليمان. ثم إن الغلام دفع كتاب أبيه إلى عمه وقال: يا أمير المؤمنين، نفسي فداؤك، لا تخفر ذمة أبي وأنت أحق من منعها، ولا تقطع منا رجاء من رجا السلامة في جوارنا لمكاننا منك، ولا تذل من رجا العز في الانقطاع إلينا لعزنا بك، وقرأ الكتاب: " لعبد الله الوليد أمير المؤمنين من سليمان بن عبد الملك، أما بعد يا أمير المؤمنين فوالله إني لأظن لو استجار بي عدو قد نابذك وجاهدك فأنزلته وأجرته، فإنك لا تذل جاري ولا تخفر جواري، بل إني لم أجر إلا سامعاً مطيعاً حسن البلاء والأثر في الإسلام هو وأبوه وأهل بيته، وبعد فقد بعثت به إليك، فإن كنت إنما تعزو قطيعتي والإخفار لذمتي والإبلاغ في مساءتي، فقد قدرت إن أنت فعلت ذلك، وأنا أعيذك بالله من احترار قطيعتي وانتهاك حرمتي وترك يدي وصلتي، فوالله يا أمير المؤمنين ما تدري مل بقائي وبقاؤك، ولا متى يفرق الموت بيني وبينك، فإن استطاع أمير المؤمنين، أدام الله سروره أن لا يأتي علينا أجل الوفاة إلا وهو لي واصل ولحقي مؤد وعن مساءتي نازع، فليفعل؛ والله يا أمير المؤمنين ما أصبحت لشيء من أمور الدنيا بعد تقوى الله تعالى فيها بأسر مني برضاك وسرورك، ولرضاك مما ألتمس به رضوان الله، فإن كنت يا أمير المؤمنين تريد يوماً من الدهر مسرتي وصلتي وكرامتي وإعظام حقي فتجاوز لي عن يزيد، وكل ما طلبته به فهو علي "، فلما قرأ كتابه قال: لقد شققنا على سليمان، ثم دعا ابن أخيه فأدناه منه، ثم تكلم يزيد فحمد الله تعالى وأثنى عليه وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم، ثم قال: يا أمير المؤمنين، إن بلاءكم عندنا أحسن البلاء، فمن ذلك فلسنا ناسيه، ومن يكفر فلسنا كافريه، وقد كان من بلائنا، أهل البيت، في طاعتكم والطعن في أعين أعدائكم في المواطن العظام في المشارق والمغارب ما إن المنة فيه عظيمة، فقال له: اجلس، فجلس فآمنه وكف عنه، ورجع إلى سليمان، وسعى إخوته في المال الذي عليه، وكتب إلى الحجاج: إني لم أصل إلى يزيد وأهل بيته مع سليمان، فاكفف عنهم، واله عن الكتاب إلي فيهم، فلما رأى ذلك الحجاج كف عنهم،. وكان أبو عيينة عند الحجاج عليه ألف ألف درهم فتركها له، وكف عن حبيب بن المهلب، وأقام يزيد عند سليمان تسعة أشهر في أرغد عيش وأنعم بال لا تأتي سليمان هدية إلا أرسل نصفها إليه.

وقال بعض جلساء يزيد له: لم لا تتخذ لك داراً؟ فقال: وما أصنع بها ولي دار حاصلة مجهزة على الدوام؟ فقال له: وأين هي؟ قال: إن كنت متولياً فدار الإمارة، وإن كنت معزولاً فالسجن.

ومن كلام يزيد: ما يسرني أن أكفى أمور دنياي كلها ولي الدنيا بحذافيرها، فقيل له: و لم ذاك؟ فقال: لأني أكره عادة العجز.

ثم إن الحجاج مات في شوال سنة خمس وتسعين للهجرة، وقيل كانت وفاته لخمس ليال بقين من شهر رمضان من السنة، وعمره ثلاث وخمسون سنة، وقيل أربع وخمسون. ولما حضرته الوفاة استخلف يزيد بن أبي كبشة على الحرب والصلاة بالمصرين: البصرة والكوفة، وولى خراجهما يزيد بن أبي مسلم، فأقرهما الوليد، وكذلك فعل بكل من استخلف الحجاج، وقيل بل الوليد هو الذي ولاهما، وكانت ولاية الحجاج بالعراقين عشرين سنة.

ثم توفي الوليد بن عبد الملك يوم السبت النصف من جمادى الآخرة سنة ست وتسعين للهجرة، بدير مران – قلت: وهو بسفح جبل قاسيون ظاهر دمشق –ودفن في مقابر باب الصغير ظاهر دمشق، وبويع سليمان بن عبد الملك في اليوم الذي مات فيه أخوه الوليد.

وفي هذه السنة أعني سنة ست وتسعين، عزل سليمان بن عبد الملك يزيد بن أبي مسلم عن العراق، وأمر عليه يزيد بن المهلب، وقال خليفة بن خياط: جمع ليزيد المصران، يعني الكوفة والبصرة، سنة سبع وتسعين، والله أعلم.

وجعل صالح بن عبد الرحمن على الخراج، وأمره أن يعذب آل أبي عقيل – قلت: هم رهط الحجاج – قال: ويبسط عليهم العذاب، فأخذ صالح آل أبي عقيل فكان يعذبهم، وكان يلي عذابهم عبد الملك بن المهلب.

وكان الوليد قد عزم على خلع أخيه سليمان عن ولاية العهد، ويجعل ولي عهده ولده عبد العزيز –بن الوليد– وتابعه على ذلك الحجاج وقتيبة بن مسلم الباهلي والي خراسان الذي تولى بعد يزيد بن المهلب – كما سبق ذكره قبل هذا – فلما ولي سليمان الخلافة خافه قتيبة بن مسلم، وتوهم أن يعزله ويولي خراسان يزيد بن المهلب، فكتب إلى سليمان كتاباً يهنئه بالخلافة ويعزيه عن الوليد، ويعلمه بلاءه وطاعته لعبد الملك والوليد، وأنه على

مثل ما كان لهما عليه من الطاعة والنصيحة إن لم يعزله عن خراسان، وكتب إليه كتاباً آخر يعلمه فيه فتوحه ومكانه وعظم قدره عند ملوك العجم وهيبته في صدورهم، ويذم المهلب وآل المهلب، ويحلف بالله لئن استعمل يزيد على خراسان ليخلعنه، وكتب كتاباً ثالثا فيه خلعه، وبعث بالكتب الثلاثة مع رجل من باهلة وقال له: ادفع إليه هذا الكتاب، فإن كان يزيد بن المهلب حاضراً فقرأه ثم ألقاه إليه فادفع إليه هذا الكتاب، وإن قرأ الأول فاحتبسه و لم يدفعه إلى يزيد فاحتبس الكتابين الآخرين، قال: فقدم رسول قتيبة بن مسلم على سليمان وعنده يزيد بن المهلب، فدفع إليه الكتاب فقرأه ثم ألقاه إلى يزيد، فدفع إليه الكتاب الآخر، فقرأه ثم رماه إلى يزيد، فأعطاه الكتاب الثالث، فقرأه، فتمعر لونه، ثم دعا بطين فختمه ثم أمسكه بيده.

وقال أبو عبيدة معمر بن المثنى: كان في الكتاب الأول وقيعة في يزيد بن المهلب وذكر غدره وكفره وقلة شكره، وفي الكتاب الثاني ثناء على يزيد، وفي الكتاب الثالث: لئن لم تقرني على ما كنت عليه وتؤمنني لأخلعنك خلع النعل، ولأملأنها عليك خيلاً ورجلاً.

ثم إن سليمان أمر برسول قتيبة أن يترل بدار الضيافة، فلما أمسى دعا به سليمان وأعطاه صرة فيها دنانير وقال: هذه جائزتك وهذا عهد صاحبك على خراسان فسر وهذا رسول معك بعهده. فخرج الباهلي ومعه رسول سليمان، فلما كان بحلوان تلقاهم الناس بخلع قتيبة، فرجع رسول سليمان ودفع العهد إلى رسول قتيبة، فوصل به إليه، فاستشار اخوته فقالوا: لا يثق بك سليمان بعد هذا.

ثم إن قتيبة قتل - كما ذكرته في ترجمته في حرف القاف مع الاختصار لأن الشرح في ذلك يطول-.

ثم إن يزيد بن المهلب نظر في نفسه لما تولى العراق فقال: إن العراق قد أخربها الحجاج، وأنا اليوم رها أهل العراق، ومتى قدمتها وأخذت الناس بالخراج وعذبتهم عليه صرت مثل الحجاج أدخل على الناس الحرب وأعيد عليهم تلك الشجون التي قد عافاهم الله منها، ومتى لم آت سليمان بمثل ما جاء به الحجاج لم يقبل مني. فأتى يزيد سليمان فقال: أدلك على رجل بصير بالخراج توليه إياه وهو صالح بن عبد الرحمن مولى بني تميم. فقال: قد قبلنا رأيك، فأقبل يزيد إلى العراق، وكان صالح قدم العراق قبل قدوم يزيد ونزل واسطاً، ولما قدم يزيد خرج الناس يتلقونه، فلم يخرج صالح حتى قرب يزيد من المدينة، ثم خرج إليه وبين يديه أربعمائة من أهل الشام، فلقي يزيد وسايره، فلما دخل المدينة قال له صالح: قد فرغت لك هذه الدار، فترل يزيد، ومضى صالح حتى أتى مترله، وضيق صالح على يزيد فلم يملكه شيئاً، واتخذ يزيد ألف خوان يطعم الناس عليها فأخذها صالح، فقال له يزيد: اكتب ثمنها علي؛ واشترى متاعاً كثيرة وصك صكاكاً إلى صالح لباعتها منه، فلم ينفذه، فرجعوا إلى يزيد فغضب وقال: هذا عملي بنفسي، فلم يلبث أن جاء صالح فأوسع له يزيد فجلس وقال ليزيد: ما هذه الصكاك؟ إن الخراج لا يقوم لها، ولقد أنفذت لك منذ أيام صكاكاً بمائة ألف وعجلت لك أرزاقك وسألت مالاً فأعطيتك، فهذا لا يقوم له شيء، ولا يرضي أمير المؤمنين، وتؤخذ به، فقال له يزيد: يا أبا الوليد أجز هذه الصكاك هذه المرة، وضاحكه فقال: إني أجيزه فلا تكثرن علي، قال: لا.

ولما ولى سليمان يزيد العراق لم يوله خراسان، فقال سليمان لعبد الملك بن المهلب: كيف أنت يا عبد الملك إن وليتك خراسان؟ قال: يجدني أمير المؤمنين حيث يحب، ثم أعرض سليمان عن ذلك، وكتب عبد الملك إلى رجال من خاصته بخراسان: إن أمير المؤمنين عرض علي ولاية خراسان، فبلغ الخبر إلى أخيه يزيد وقد ضجر بالعراق، وقد ضيق عليه صالح بن عبد الرحمن، فليس يصل معه إلى شيء، فدعا يزيد عبد الله بن الأهتم فقال: غني أريدك لأمر قد أهمني، وقد أحببت أن تكفينيه، قال: مرني بما أحببت، قال: أنا فيما ترى من الضيق وقد أضجرني ذلك، وخراسان شاغرة، وقد بلغني أن أمير المؤمنين ذكرها لعبد الملك بن المهلب، فهل من حيلة؟ قال: نعم سرحني إلى أمير المؤمنين فإني أرجو أن آتيك بعهده عليها، قال: فاكتم ما أخبرتك به، وكتب إلى سليمان كتابين: أحدهما يذكر له فيه أمر العراق، وأثنى فيه على ابن الأهتم، وذكر له علمه بها، ووجه ابن الأهتم وحمله على البريد، وأعطاه ثلاثين ألفاً وسار سبعاً فقدم بكتاب يزيد على سليمان، فدخل عليه وهو يتغدى، فجلس ناحية فأتي له بدجاجتين فاكلهما، ثم قال له سليمان: لك مجلس بعد هذا تعود إليه، ثم دعا به بعد ثالثة، فقال له سليمان: إن يزيد بن المهلب كتب إلي يذكر علمك بالعراق وبخراسان ويثني عليك، فكيف علمك بها؟ قال: أنا أعلم الناس بها، بها ولدت، وبها نشأت، قال: ما أحوج أمير المؤمنين إلى مثلك يشاوره في أمرها، فأشر علي برجل أوليه خراسان، قال: أمير المؤمنين أعلم بمن يريد يولي، فإن ذكر منهم أحداً أخبرته برأيي فيه هل يصلح أم لا؟ فسمى سليمان رجلاً من قريش، فقال: ليس من رجال خراسان، فسمى عبد الملك بن المهلب، فقال: لا، حتى عدد رجالاً، فكان آخر من ذكر وكيع بن أبي سود، فقال: يا أمير المؤمنين

وكيع رجل شجاع صارم مقدان وليس بصاحبها، ومع هذا إنه لم يقد ثلثمائة قط فرأى لأحد عليه طاعة، قال: صدقت ويحك! فمن لها؟ قال: رجل أعلمه لم تسمه، قال: فمن هو؟ قال: لا أبوح باسمه إلا أن يضمن لي أمير المؤمنين ستر ذلك وأن يجيرني منه إن علم، قال: نعم، سمه لي، قال: يزيد بن المهلب، قال: ذلك بالعراق والمقام بها أحب إليه من المقام بخراسان، قال: قد علمت يا أمير المؤمنين، ولكن تكرهه فيستخلف على العراق رجلاً ويسير، قال: أصبت الرأي، فكتب عهد يزيد بن المهلب على خراسان، وكتب إليه إن ابن الأهتم كما ذكرت من عقله ودينه وفضله ورايه، ودفع الكتاب وعهد يزيد إليه، فسار سبعاً فقدم على يزيد فقال له: ما وراءك فأعطاه الكتاب فقال: ويحك! خبر، فأعطاه العهد، فأمر يزيد بالجهاز للمسير من ساعته ودعا ابنه مخلداً فقدمه إلى خراسان فسار من يومه.

ثم سار يزيد إلى خراسان فأقام بها ثلاثة أشهر أو أربعة، ثم غزا جرجان وطبرستان ودهستان وفتحها، وذلك في سنة ثمان وتسعين. وقتل من أصحاب يزيد على حصار بعض قلاع جرجان خمسة آلاف رجل، فحلف يزيد يميناً مغلظة أنه ليقتلهم حتى تطحن الرحى بدمائهم، فأكثر من قتلهم، وكانت الدماء لا تجري حتى صب عليها الماء فجرت فطحنت، وأكل مما طحنت بدمائهم.

ثم مات سليمان بن عبد الملك يوم الجمعة لشعر ليال بقين من صفر سنة تسع وتسعين للهجرة، وقيل لعشر ليال مضين من صفر، والله أعلم بالصواب، بدابق، قرية شمالي حلب، وعهد إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، فعزل عمر في هذه السنة يزيد بن المهلب عن العراق، وجعل مكانه عدي بن أرطاة الفزاري، فأخذ يزيد وأوثقه، وبعث به إلى عمر بن عبد العزيز، وقد كان عمر يبغض يزيد وأهل بيته، ويقول: هؤلاء جبابرة ولا أحب أمثالهم، وكان يزيد يبغض عمر ويقول: إني لأظنه مرائياً. ولما وصل يزيد سأله عمر عن الموال التي كتب بها إلى سليمان فقال: كنت من سليمان بالمكان الذي قد رأيت، وإنما كتبت إلى سليمان لأسمع الناس به، وقد علمت أن سليمان لم يكن ليأخذني بشيء مما سمعت، ولا بأمر أكرهه، فقال عمر: ما أجد في أمرك إلا حبسك، فاتق الله وأد ما قبلك فإنها حقوق المسلمين ولا يسعني تركها، فرده إلى محبسه.

وذكر البلاذري في كتاب " فتوح البلدان " في الفصل المتضمن حديث جرجان وطبرستان، أن يزيد بن المهلب لما فرغ من أمر جرجان سار إلى خراسان فتلقته الهدايا، ثم ولى ابنه مخلداً خراسان، وانصرف إلى سليمان، فكتب إليه إن معه خمسة وعشرين ألف ألف درهم، فوقع الكتاب في يد عمر بن عبد العزيز، فأخذ يزيد به وحبسه، والله أعلم.

وبعث عمر إلى الجراح بن عبد الملك الحكمي فسرحه إلى خراسان، ثم قدم مخلد بن يزيد على عمر، وجرى بينهما ما سبق ذكره، فلما خرج مخلد بن يزيد على قال عمر: هذا عندي خير من أبيه، فلم يلبث مخلد إلا قليلاً حتى مات. ولما أبى يزيد أن يؤدي المال إلى عمر ألبسه جبة صوف وحمله على جمل، ثم قال: سيروا به إلى دهلك – قلت: وهي جزيرة في بحر عيذاب بالقرب من سواكن كان الخلفاء يحبسون بها من نقموا عليه – قال: فلما أخرج يزيد مروا به على الناس، فجعل يزيد يقول: ما لي عشيرة؟ يذهب بي إلى دهلك؟ إنما يذهب إلى دهلك بالفاسق المريب، سبحان الله، أما لي عشيرة؟ فدخل على عمر سلامة بن نعيم الخولاني، وقال يا أمير المؤمنين، أردد يزيد إلى محبسه، فإني أخاف إن أمضيته أن ينتزعه قومه، فإني رأيت قومه قد غضبوا له، فرده إلى محبسه و لم يزل في محبسه حتى بلغه مرض عمر.

وقيل إن عدي بن أرطأة سلمه إلى وكيع بن حسان بن أبي سود التميمي مغلولاً مقيداً في سفينة ليوصله إلى عين التمر حتى يحمل إلى عمر، فعرض لوكيع ناس من الأزد لينتزعوه منه، فوثب وكيع وانتضى سيفه وقطع قلس السفينة، وأخذ سيف يزيد بن المهلب، وحلف بطلاق امرأته ليضربن عنقه إن لم يتفرقوا عنه، فناداهم يزيد وأعلمهم يمين وكيع، فتفرقوا، ومضى به حتى سلمه إلى الجند بعي التمر، وحمله الجند إلى عمر فحبسه.

ولما كان يزيد في حبس عمر دخل عليه الفرزدق، فرآه مقيداً فأنشده:

أصبح في قيدك السماحة وال ... جود وحمل الدايات والحسب

لا بطر إن ترادفت نعم ... وصابر في البلاء محتسب

فقال له يزيد: ويحك ماذا صنعت؟ أسأت إلي، قال: و لم ذاك؟ قال: تمدحني وأنا على هذه الحالة؟ فقال له الفرزدق: رأيتك رخيصاً فأحببت أن أسلف فيك بضاعتي، فرمى يزيد إليه بخاتمه وقال: شراؤه ألف دينار، وهو ربحك إلى أن يأتيك رأس المال.

واستمر في حبسه إلى أن مرض عمر في سنة إحدى ومائة، فخاف يزيد بن المهلب من يزيد بن عبد الملك بن مروان أن يلي الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز، وكان يزيد بن المهلب لما ولي العراق قد عذب آل أبي عقيل، – وهم رهط الحجاج كما سبق ذكره – وكانت أم الحجاج بنت محمد بن يوسف بن الحكم بن أبي عقيل عند يزيد بن عبد الملك، وهي أم الوليد بن يزيد فاسق بني أمية، وهي بنت أخي الحجاج، وكان يزيد بن عبد الملك قد عاهدها لئن أمكنه الله من يزيد بن المهلب ليقطعن منه طابقاً، فكان يخشى ذلك، فأخذ يعمل في المهرب، فبعث إلى مواليه فأعدوا له إبلاً، وكان مرض عمر في دير سمعان، فلما اشتد مرض عمر نزل يزيد من محبسه وخرج حتى أتى المكان الذي فيه إبله، وقد واعدهم إليه، فاحتمل وخرج، فلما جاز كتب إلى عمر: إني والله لو علمت أنك تبقى ما خرجت من محبسي، ولكني لم آمن يزيد بن عبد الملك، فقال عمر: اللهم إن كان يريد بهذه الأمة شراً فاكفهم شره واردد كيده في نحره.

ومضى يزيد بن المهلب، وزعم الواقدي أن يزيد بن المهلب: إنما هرب من سجن عمر بعد موت عمر – قلت: وجدت في مسودة تاريخ القاضي كمال الدين بن العديم الحلبي، أن عمر حبس يزيد بن المهلب وابنه معاوية بحلب وهربا منها، والله أعلم.

ثم توفي عمر بن عبد العزيز يوم الجمعة، وقيل الأربعاء، لخمس بقين من رجب سنة إحدى ومائة، رحمه الله تعالى، بدير سمعان، وقل أنه مات لعشر بقين من رجب من السنة، وهو ابن تسع وثلاثين سنة وأشهر، وقيل أنه مات بخناصرة. وأمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وكان يقال له " أشج بني أمية "، وذلك أن دابة من دواب أبيه كانت شجته. قال نافع مولى ابن عمر: كنت أسمع ابن عمر كثيراً يقول: ليت شعري من هذا الذي من ولد عمر في وجهه علامة يملأ الأرض عدلاً، قال سال الأفطس: إن عمر بن عبد العزيز رمحته دابة وهو غلام بدمشق، فأتى أمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فضمته إليها وجعلت تمسح الدم عن وجهه، ودخل أبوه عليها على تلك الحال، فأقبلت عليه تعذله وتلومه وتقول: ضيعت ابني، و لم تضم إليه خادماً ولا حاضناً يحفظه من مثل هذا، فقال لها: اسكتي يا أم عاصم، فطوبى لك إن كان أشج بني أمية.

وقال حماد بن زيد: إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مر بعجوز تبيع لبناً معها في سوق اللبن، فقال لها: يا عجوز لا تغشي المسلمين وزوار بيت الله تعالى ولا تشوبي اللبن بالماء، فقالت: نعم يا أمير المؤمنين، ثم مر بها بعد ذلك، فقال لها: يا عجوز، ألم أتقدم إليك أن لا تشوبي اللبن بالماء؟ فقالت: والله ما فعلت، فقالت ابنة لها من داخل الخباء: أغشاً وكذباً جمعت على نفسك؟ فسمعها عمر رضي الله عنه فهم بمعاقبة العجوز، فتركها لكلام ابنتها، ثم التفت إلى بنيه فقال: أيكم يتزوج هذه، فلعل الله عز وجل يخرج منها نسمة طيبة مثلها؟ فقال عاصم بن عمر: أنا أتزوجها، فزوجها إياه، فولدت له أم عاصم، فتزوج أم عاصم عبد العزيز بن مروان، فولدت، فولدت له عمر بن عبد العزيز. ثم تزوج بعدها حفصة وفيها قيل: ليست حفصة من نساء أم عاصم.

–وذكر الشيخ شمس الدين أبو المظفر بن قزغلي بن عبد الله، سبط الشيخ جمال الدين أبي الفرج ابن الجوزي في كتاب " جوهرة الزمان في تذكرة السلطان " عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: بينما أبي يعس بالمدينة إذ سمع امرأة وهي تقول لابنتها: يا بنية، قومي فشوبي اللبن بالماء، فقالت: يا أماه أما سمعت منادي أمير المؤمنين أنه نادى: أن لا يشاب اللبن بالماء؟ فقالت: وأين أنت من مناديه الساعة؟ فقالت: إذا لم يرني مناديه ألم يرني رب مناديه؟ – وفي رواية أخرى، قالت: والله ما كنت لأطيعه في الملا وأعصيه في الخلا، قال: فبكى عمر رضي الله عنه. فلما أصبح دعا بالمرأة وبابنتها وسأل: هل لها زوج؟ فقالت: ليس لها زوج، فقال: يا عبد الله، تزوج هذه، فلو كانت بي حاجة إلى النساء لتزوجتها، فقلت: أنا في غنى عنها، فقال: يا عاصم تزوجها فتزوجها، فجاءت بابنة فحملت بعمر بن عبد العزيز–.

ولما مات عمر بن عبد العزيز، رضي الله عنه، ولي مكانه يزيد بن عبد الملك بن مروان. ثم إن يزيد بن المهلب لحق بالبصرة فغلب عليها، وأخذ عامل

يزيد بن عبد الملك وهو عدي بن أرطأة الفزاري فحبسه، وخلع يزيد بن عبد الملك ورام الخلافة لنفسه، فجاءته إحدى حظاياه وقبلت الأرض بين يديه وقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين، فأنشدها:

رويدك حتى تنظري عم تنجلي ... عماية هذا العارض المتألق

قلت: وهذا البيت من جملة أبيات لبشر بن قطية الأسدي.

قلت: ولا حاجة إلى تفصيل الحال فيه فإن شرحه يطول، وهذه خلاصته، ثم إن يزيد بن عبد الملك جهز لقتاله أخاه مسلمة بن عبد الملك، وابن أخيه العباس بن الوليد بن عبد الملك، ومعهما الجيش، وخرج يزيد بن المهلب للقائهم، واستخلف على البصرة ولده معاوية بن يزيد وعنده الرجال والأموال والأسرى، وقدم بين يديه أخاه عبد الملك بن المهلب وسار حتى نزل العقر – قلت: هي عقر بابل، وهي عند الكوفة بالقرب من كربلاء، الموضع الذي قتل فيه الحسين، رضي الله عنه، والعقر: بفتح العين المهملة وسكون القاف وبعدها راء، وهو في الأصل اسم القصر، والمواضع المسماة بالعقر أربعة: أحدها هذا ولا حاجة إلى ذكر الباقي، وقد ذكرها ياقوت الحموي في كتابه الذي سماه " المشترك وضعاً ".

قال الطبري: ثم أقبل مسلمة بن عبد الملك حتى نزل على يزيد بن المهلب فاصطفوا، ثم اقتتل القوم، فشد أهل البصرة على أهل الشام فكشفوهم، ثم إن أهل الشام كروا عليهم فكشفوهم، وكان على مقدمة جيش بن يزيد أخوه عبد الملك، فلما انكشف جاء إلى أخيه يزيد، وكان الناس يبايعون يزيد بن المهلب، وكانت مبايعته على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وأن لا تطأ الجنود بلادهم ولا بيضتهم، ولا تعاد عليهم سيرة الفاسق الحجاج، وكان مروان بن الملهب بالبصرة يحرض الناس على حرب أهل الشام ويسرح الناس إلى أخيه يزيد.

وكان الحسن البصري، رضي الله عنه يثبط الناس عن يزيد بن المهلب، فقال يوماً في مجلسه: يا عجباً لفاسق من الفاسقين ومارق من المارقين غير برهة من دهره، يهتك الله في هؤلاء القوم كل حرمة، ويركب له فيهم كل معصية ويأكل ما أكلوا ويقتل ما قتلوا، حتى إذا منعوه لماظةً كان يتلمظها قال: أنا لله غضبان فاغضبوا، ونصب قصباً عليها خرق، وتبعه رجراجة رعاع هباء ما لهم أفئدة وقال: أدعوكم إلى سنة عمر بن عبد العزيز، ألا وإن من سنة عمر أن توضع رجلاه في قيد ثم يوضع حيث وضعه عمر، فقال له رجل: أتعذر أهل الشام يا أبا سعيد؟ يعني بني أمية، فقال: أنا أعذرهم؟ لا عذرهم الله! والله لقد حدث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " اللهم إني حرمت المدينة بما حرمت به بلدك مكة " فدخلها أهل الشام ثلاثاً لا يغلق لها باب إلا أحرق بما فيه، حتى إن الأقباط والأنباط ليدخلون على نساء قريش فينتزعون خمرهن من رؤوسهن وخلاخلهن من أرجلهن، سيوفهم على عواتقهم، وكتاب الله تحت أرجلهم، أنا أقتل نفسي لفاسقين تنازعا هذا الأمر؟ والله لوددت أن الأرض أخذهما خسفاً جميعاً.

فبلغ ذلك يزيد بن المهلب فأتى الحسن، هو وبعض بني عمه إلى حلقته في المسجد متنكرين، فسلما عليه ثم خلوا به، فاشرأب الناس ينظرون إليهم، فلاحاه يزيد، فدخل في ملاحاهما ابن عم يزيد، فقال له الحسن: وما أنت وذاك يا ابن اللخناء؟ فاخترط سيفه ليضربه به، فقال يزيد: ما تصنع؟ قال: أقتله، فقال له يزيد: اغمد سيفك فوالله لو فعلت لانقلب من معنا علينا.

قلت: ويزيد بن المهلب المذكور، هو الذي عناه بن دريد في مقصورته المعروفة بالدريدية بقوله:

وقد سما قبلي يزيد طالباً ... شأو العلا فما وهى ولا وّنى

وكل من شرح الدريدية تكلم على هذا البيت وشرح قصته.

وكانت إقامة يزيد بن المهلب منذ اجتمع هو ومسلمة بن عبد الملك ثمانية أيام، حتى إذا كان يوم الجمعة لأربع عشرة مضت من صفر سنة اثنتين ومائة أمر مسلمة أن تحرق السف فأحرقت، والتقى الجمعان وشبت الحرب، فلما رأى الناس الدخان قيل لهم: أحرق الجسر، انهزموا، فقيل ليزيد: قد انهزم الناس، فقال: مم انهزموا؟ فقيل له: أحرق الجسر فلم يلبث أحد، فقال: قبحهم الله بقٌّ دخّن عليه فطار. وكان يزيد لا يحدث نفسه بالفرار، وجاءه من أخبره أن أخيه حبيباً قد قتل فقال: لا خير في العيش بعد حبيب، قد كنت والله أبغض الحياة بعد الهزيمة فوالله ما ازددت لها إلا بغضاً، امضوا قدماً،

قال: أصحابه: فعلمنا أن الرجل قد استقتل. وأخذ من يكره القتال ينكص، وأخذوا يتسالون، وبقيت معه جماعة حسنة، وهو يزدلف، فكلما مر بخيل كشفها أو جماعة من أهل الشام عدلوا عنه وعن سنن أصحابه، فجاء أبو رؤبة المرجئ وقال: ذهب الناس، فهل لك أن تنصرف إلى واسط فإنها حصن تنزلها ويأتيك أهل البصرة ويأتيك أهل عمان والبحرين في السفن وتضرب خندقاً؟ فقال له: قبح الله رأيك، ألي تقول ذا؟ الموت أيسر علي من ذلك، فقال له: فغني أتخوف عليك، أما ترى ما حولك من جبال الحديد؟ فقال له: فأنا أباليها أجبال حديد كانت أم جبال نار؟ اذهب عنا إن كنت لا تريد قتالاً معنا.

وأقبل على مسلمة لا يريد غيره، حتى إذا دنا منه دعا مسلمة بفرسه ليركبه، فعطفت عليه خيول أهل الشام وعلى أصحابه، فقتل يزيد بن المهلب، وقتل معه أخوه محمد وجماعة من أصحابه، وقال القحل - بفتح القاف وسكون الحاء المهملة وآخره لام - ابن عياش الكلبي، لما نظر إلى يزيد: يا أهل الشام هذا والله يزيد، لأقتلنه أو ليقتلني، إن دونه ناساً، فمن يحمل معي يكفيني أصحابه حتى أصل إليه؟ فقال له ناس من أصحابه: نحن نكمل معط، فحملوا بأجمعهم، فاضطربوا ساعة وسطع الغبار وانفرج الفريقان عن يزيد قتيلاً، وعن القحل بن عياش بآخر رمق، فأومأ إلى أصحابه يريهم مكان يزيد، وجاء برأس يزيد مولى لبني مرة، فقيل له: أنت قتلته؟ فقال: لا. وفي أثناء الوقعة نظر الحواري بن زياد إلى برذون عائر فقال: الله أكبر، هذا برذون الفاسق ابن المهلب، قد قتله الله إن شاء الله، فطلبوه، فأتي مسلمة برأسه، فلم يعرف الرأس، فقال حسان النبطي: مهما ظننتم فلا تظنوا أن الرجل هرب، ولقد قتل، فقال مسلمة وما علامة ذلك؟ فقال: إني سمعته أيام ابن الأشعث يقول: قبح الله ابن الأشعث، هبوه غلب على أمره أكان يغلب على الموت؟ ألا مات كريماً؟ قلت: ذكر الأمير أبو نصر ابن ماكولا في باب " الفحل والقحل والعجل " ما مثاله: وأما القحل فمثل الفحل إلا أن أوله قاف فهو القحل بن عياش بن حسان بن عثمير بن شراحيل بن عزيز، قتل يزيد بن المهلب وقتله يزيد، ضرب كل واحدٍ منهما صاحبه فقتله. فلما أتي به إلى مسلمة لم يعرف ولم ينكر، فقيل له: مر برأسه فليغسل ثم ليعمم، ففعل ذلك به فعرفه، فبعث به إلى أخيه يزيد بن عبد الملك مع خالد بن الوليد بن عقبة بن أبي معيط.

وقال خليفة بن خياط: ولد يزيد بن المهلب سنة ثلاث وخمسين وتوفي مقتولاً يوم الجمعة لاثنتي عشرة ليلة خلت من صفر سنة اثنتين ومائة، والله أعلم بالصواب.

ولما جاءت هزيمة يزيد واسط أخرج معاوية بن يزيد بن المهلب اثنين وثلاثين أسيراً كانوا في يديه فضربوا أعناقهم، منهم عدي بن أرطأة، ثم خرج وقد قال له القوم: ويحك، إنا لا نراك تقتلنا إلا أن أباك قد قتل، ثم أقبل حتى أتى البصرة معه المال والخزائن، وجاء المفضل بن المهلب، واجتمع جميع أهل المهلب بالبصرة وقد كانوا يتخوفون الذي كان، فأعدوا السفن البحرية وتجهزوا بكل الجهاز. وأراد معاوية بن يزيد أن يتأمر على آل المهلب، فاجتمعوا وأمروا عليهم المفضل بن المهلب. وقالوا: المفضل أكبرنا سناً، وإنما أنت غلام حدث السن كبعض فتيان أهلك، فلم يزل المفضل عليهم حتى خرجوا إلى كرمان، وبكرمان فلول كثيرة، فاجتمعوا إلى المفضل، وبعث مسلمة بن عبد الملك في طلب آل المهلب وطلب الفلول، فأدركوهم في عقبة بفارس، فاشتد قتالهم، فقتل المفضل وجماعة من خواصه، ثم قتل آل المهلب من عند آخرهم، إلا أبا عيينة وعثمان بن المفضل فإنهما نجوا ولحقا بخاقان ورتبيل، وبعث مسلمة برؤوسهم إلى أخيه يزيد وهو على حلب، فلما نصبوا خرج لينظر إليهم، فقال لأصحابه: هذا رأس عبد الملك، هذا رأس المفضل، والله لكأنه جالس معي يحدثني.

وقال غير الطبري: لما حمل رأس يزيد بن المهلب إلى يزيد بن عبد الملك نال منه بعض جلسائه، فقال له: مه إن يزيد طلب جسيماً، وركب عظيماً، ومات كريماً.

ولما فرغ مسلمة من حرب آل المهلب جمع له أخوه يزيد ولاية الكوفة والبصرة وخراسان في هذه السنة.

ولما قتل يزيد بن المهلب رثاه شاعره ثابت قطنة بمراثٍ كثيرة حسنة، منها قوله:

كل القبائل بايعوك على الذي ... تدعو إليه وتابعوك وساروا

حتى إذا اشتجر القنا وتركتهم ... وهن الأسنة أسلموك وطاروا

إن يقتلوك فإن قتلك لم يكن ... عاراً عليك، ورب قتلٍ عار

قلت: وهذا ثابت قطنة من شعراء خراسان وفرسانهم، وذهبت عينه فكان يحشوها قطنة، وقد كان يزيد بن المهلب استعمله على بعض كور خراسان فلما علا المنبر أرتج عليه، فلم ينطق حتى نزل فدخل عليه الناس فقال:

فإن لا أقم فيكم خطيباً فإنني ... بسيفي إذا جد الوغى لخطيب

فقالوا: لو كنت قلت هذا على المنبر لكنت أخطب الناس، ذكره ابن قتيبة في كتاب " طبقات الشعراء " وقال ابن الكلبي في " جمهرة النسب ": هو ثابت بن كعب بن جابر بن كعب بن كزمان بن طرفة بن وهب بن مازن بن يم بن الأسد بن الحارث بن العتيك بن الأسد بن عمران بن عمرو مزيقياء بن عامر ماء السماء "وفيه يقول صاحب الفيل الحنفي، وكانا يتهاجيان:

أبا العلاء لقد لاقيت معضلةً ... يوم العروبة من كرب وتخنيق

تلوي اللسان إذا رمت الكلام به ... كما هوى زلق من شاهق النيق

لما رمتك عيون الناس ضاحيةً ... أنشأت تجرض لما قمت بالريق "

وقال غير الطبري: إن الذي قتل يزيد بن المهلب هو الهذيل بن زفر بن الحارث الكلابي.

وقال الكلبي: نشأت والناس يقولون: ضحى بنو أمية بالدين يوم كربلاء وبالكرم يوم العقر، وقال محمد بن واسع لما جاء نعي يزيد: أشتهي باكية عمانية تندب لي قتلى آل المهلب، وقال عباد بن عباد: مكثنا نيفاً وعشرين سنة بعد قتلى آل المهلب لا تولد فينا جارية ولا يموت منا غلام.

وقال خليفة بن خياط، سنة اثنتين ومائة: فيها قتل يزيد بن المهلب يوم الجمعة لاثنّتي عشرة ليلة خلت من صفر، وهو ابن تسع وأربعين سنة، رحمه الله تعالى، فلقد كان من النجباء الكرماء العظماء الفرسان.

وروي أن مسلمة بن عبد الملك دخل على أخيه يزيد بن عبد الملك حين خلعه يزيد، فرآه في ثوب مصبوغ فقال له: أتلبس مثل هذا وأنت ممن قال فيه:

قوم إذا حاربوا شدوا مآزرهم ... دون النساء ولو باتت بأطهار

فقال مسلمة: ذاك ونحن نحارب أكفاءنا من قريش، فأما إن نعق ناعق فلا ولا كرامة.

قلت: وهذا البيت للأخطل التغلبي النصراني الشاعر المشهور.

يزيد بن أبس مسلم الثقفي مولاهم

أبو العلاء يزيد بن مسلم دينار الثقفي، مولاهم، كان مولى الحجاج بن يوسف الثقفي وكاتبه، وكان فيه كفاية ونهضة، قدمه الحجاج بسببهما – وقد تقدم في ترجمة يزيد بن المهلب أن الحجاج لما حضرته الوفاة استخلفه على الخراج بالعراق – فلما مات الحجاج أقره الوليد بن عبد الملك على حاله و لم يغير عليه شيئاً. وقيل إن الوليد هو الذي ولاه بعد موت الحجاج، وقال الوليد يوماً: مثلي ومثل الحجاج وابن أبي مسلم كرجل ضاع منه درهم فوجد ديناراً.

ولما مات الوليد وتولى أخوه سليمان عزل يزيد بن أبي مسلم وبعث مكانه يزيد بن المهلب بن أبي صفرة الأزدي المذكور قبله، وأحضر إليه يزيد بن أبي مسلم في جامعة، وكان رجلاً قصيراً دميماً قبيح الوجه عظيم البطن تحتقره العين، فلما نظر إليه سليمان قال: أنت يزيد بن أبي مسلم؟ قال: نعم أصلح الله أمير المؤمنين قال: لعن الله من أشركك في أمانته وحكمك في دينه، قال: لا تفعل يا أمير المؤمنين، فإنك رأيتني والأمور مدبرة عني، ولو رأيتني والأمور مقبلة علي لاستعظمت ما استصغرت ولاستجللت ما احتقرت، فقال سليمان: قاتله الله، فما أسد عقله وأعضب لسانه! ثم قال سليمان: يا يزيد، أترى صاحبك الحجاج يهوي بعد في نار جهنم أم قد استقر في قعرها؟ فقال يزيد: لا تقل ذلك يا أمير المؤمنين، فإن الحجاج عادى عدوكم

ووالى وليكم، وبذل مهجته لكم، فهو يوم القيامة عن يمين عبد الملك وعن يسار الوليد، فاجعله حيث أحببت. وفي رواية أخرى: إنه يحشر غداً بين أبيك وأخيك، فضعهما حيث شئت، قال سليمان: قاتله الله، فما أوفاه لصاحبه! إذا اصطنعت الرجال فلتصطنع مثل هذا، فقال رجل من جلساء سليمان: يا أمير المؤمنين، اقتل يزيد ولا تستبقه، فقال يزيد: من هذا؟ فقالوا: فلان بن فلان، قال يزيد: والله لقد بلغني أن أمه ما كان شعرها يوازي أذنيها، فما تمالك سليمان أن ضحك وأمر بتخليته. ثم كشف عنه سليمان فلم يجد عليه خيانة ديناراً ولا درهماً، فهم باستكتابه، فقال له عمر بن عبد العزيز: أنشدك الله يا أمير المؤمنين أن تحيي ذكر الحجاج باستكتابك كاتبه، فقال: يا أبا حفص، إني كشفت عنه فلم أجد عليه خيانة، فقال عمر: أنا أوجدك من هو أعف عن الدينار والدرهم منه، فقال سليمان: من هذا؟ فقال: إبليس، ما مس ديناراً ولا درهماً بيده وقد أهلك هذا الخلق. فتركه سليمان.

وحدث جورية بن أسماء أن عمر بن عبد العزيز بلغه أن يزيد بن أبي مسلم في جيش من جيوش المسلمين، فكتب إلى عامل الجيش أن يرده وقال: إني لأكره أن أستنصر بجيش هو فيهم.

ونقل الحافظ أبو القاسم المعروف بابن عساكر في " تاريخ دمشق " في ترجمة يزيد المذكور عن يعقوب أنه قال: في سنة إحدى ومائة أمر يزيد بن أبي مسلم على إفريقية، ونزع إسماعيل بن عبيد بن أبي المهاجر مولى بني مخزوم، فسار أحسن سيرة، وفي سنة اثنتين ومائة قتل يزيد.

وقال الطبري في تاريخه الكبير: وكان سبب ذلك أنه كان فيما ذكر عزم أن يسير فيهم بسيرة الحجاج بن يوسف في أهل الإسلام الذين سكنوا الأمصار ممن كان أصله من السواد من أهل الذمة فأسلم بالعراق، ممن ردهم إلى قرارهم ورساتيقهم، ووضع على رقابهم على نحو ما كانت تؤخذ منهم وهم على كفرهم، فلما عزم على ذلك توامروا، فأجمع رأيهم على قتله فقتلوه، وولوا على أنفسهم الوالي الذي كان قبل يزيد بن أبي مسلم، وكتبوا إلى يزيد بن عبد الملك: إنا لم نخلع أيدينا عن الطاعة، ولكن يزيد بن أبي مسلم سامنا ما لا يرضى به الله والمسلمون فقتلناه وأعدنا عاملك، فكتب إليهم يزيد بن عبد الملك: إنني لم أرض ما صنع يزيد بن أبي مسلم. وأقر محمد بن يزيد على إفريقية، وكان ذلك في سنة اثنتين ومائة.

قال الوضاح بن خيثمة: أمرني عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى بإخراج قوم من السجن، وفيهم يزيد بن أبي مسلم، فأخرجتهم وتركته فحقد علي، وإني بإفريقية إذ قيل قدم يزيد والياً، فهربت منه، وعلم بمكاني وأمر بطلبي، فظفر بي وحملت إليه، فلما رآني قال: طالما سألت الله تعالى أن يمكنني منك، فقلت: وأنا والله لطالما سألت الله أن يعيذني منك، فقال: ما أعاذك الله، والله لأقتلنك والله لأقتلنك ولو سابقني فيك ملك الموت لسبقته. ثم دعا بالسيف والنطع فأتي بهما، وأمر بالوضاح فأقيم على النطع وكتف، وقام وراءه رجل بالسيف؛ وأقيمت الصلاة فخرج يزيد إليها، فلما سجد أخذته السيوف. ودخل إلى الوضاح من قطع كتافه وأطلقه، وأعيد إلى الولاية محمد بن يزيد مولى الأنصار، والله أعلم.

قلت: كان الوضاح حاجب عمر بن عبد العزيز، فلما مرض أمر الوضاح بإخراج المحابيس، فأخرجهم سوى يزيد المذكور، فلما مات عمر هرب الوضاح إلى إفريقية خوفاً من يزيد، وجرى ما جرى، وكان مرض عمر بخناصرة.

هكذا قاله الطبري: محمد بن يزيد، وابن عساكر قال: إسماعيل بن عبيد الله، والله أعلم بالصواب؛ وقوله " وأحضر إليه يزيد بن أبي مسلم في جامعة " فالجامعة: الغل، لأنها تجمع اليدين إلى العنق، وقوله " وكان رجلاً قصيراً دميماً " الدميم: بالدال المهملة، القبيح المنظر، ومنه قول عمر رضي الله عنه " لا تزوجوا بناتكم من الرجل الدميم فإنه يعجبهن منهم ما يعجبهم منهن " وأما الذميم بالذال المعجمة فإنه المذموم، وكذا قول ابن الرومي الشاعر المشهور:

كضرائر الحسناء قلن لوجهها ... حسداً وبغياً إنه لدميم

- بالدال المهملة أيضاً - وإنما قيدته بالضبط لأنه يتصحف على الناس كثيراً.

وخناصرة: بضم الخاء المعجمة ثم نون وبعد الألف صاد مهملة مكسورة ثم راء بعدها هاء، وهي بلدة قديمة من أعمال الأحص من ولاية حلب من جهتها القبلية بشرق، بالقرب من قنسرين، كان عمر بن عبد العزيز أميراً بها من جهة عبد الملك بن مروان ثم من جهة سليمان بن عبد الملك، وهي التي عناها المتنبي بقوله:

أحب حمصاً إلى خناصرة وكل نفس تحب محياها

وذكرها عدي بن الرقاع العاملي الشاعر المشهور في قصيدته الدالية المشهورة فقال:

وإذا الربيع تتابعت أنواؤه فسقى خناصرة الأحص وجادها

يزيد بن عمر بن هبيرة

أبو خالد يزيد بن أبي المثنى عمر بن هبيرة بن معية بن سكين بن خديج بن بغيض بن مالك بن سعد بن عدي بن فزارة؛ ونسب فزارة معروف فلا حاجة إلى الإطالة بذكره.

قال ابن دريد: معية تصغير معيً، وهو الواحد من أمعاء البطن، وقد ردوا على ابن دريد هذا القول فقالوا: بل صوابه أنه تصغير معاوية.

وسكين: بضم السين المهملة وفتح الكاف؛ وخديج: بفتح الخاء المعجمة؛ وبغيض: بفتح الباء الموحدة؛ والباقي معلوم لا حاجة إلى ضبطه.

ذكر الحافظ أبو القاسم ابن عساكر في تاريخ الكبير أن أصله من الشام، وأنه ولي قنسرين للوليد بن يزيد بن عبد الملك، وكان مع مروان بن محمد آخر ملوك بني أمية يوم غلب على دمشق وجمع له ولاية العراق.

مولده سنة سبع وثمانين. وذكره ابن عياش في تسمية من ولي العراق وجمع له المصران، وهما البصرة والكوفة، وكذلك ذكره ابن قتيبة في كتاب " المعارف " في تسمية من ولي العراقين، وعد الولاة الذين جمع لهم العراقان فكان أولهم زياد بن أبيه الذي استلحقه معاوية بن أبي سفيان، وآخرهم يزيد بن عمر بن هبيرة صاحب هذه الترجمة؛ ثم قال: و لم يجمع العراقان لأحد بعد هؤلاء، وذكره أيضاً قبل هذا في ترجمة أبيه عمر، فقال: وكان أبو جعفر المنصور حصر يزيد بواسط شهوراً ثم آمنه، وافتتح البلد صلحاً، وركب إليه يزيد في أهل بيته، وكان جعفر يقول: لا يعز ملك هذا فيه، وقال خليفة بن خياط: وفي سنة ثمان وعشرين ومائة وجه مروان بن محمد يزيد بن عمر بن هبيرة والياً على العراق، وذلك قبل قتل الضحاك – يعني ابن قيس الشيباني الخارجي – فسار حتى نزل هيت.

وكان سخياً جسيماً طويلاً خطيباً أكولاً شجاعاً وكان فيه حسد؛ وذكره أبو جعفر الطبري في تاريخه في سنة ثمان وعشرين ومائة، فقال: وفي هذه السنة وجه مروان بن محمد يزيد بن عمر بن هبيرة إلى العراق لحرب من بها من الخوارج، ثم ذكر في سنة اثنتين وثلاثين ومائة خروج قحطبة بن شبيب أحد دعاة بني العباس لما ظهروا أمرهم بخراسان وتلك النواحي، وكان أبو مسلم الخراساني – المقدم ذكره في حرف العين – أعظم الأعوان وأصل تلك القضية حتى انتظمت أمورها كما هو مشهور، وقد سبق في ترجمة أبي مسلم طرف من هذا الحديث، ولا حاجة إلى التطويل فيه. وكان خروج قحطبة بأرض العراق وقصد محاربة يزيد بن عمر بن هبيرة، وجرت وقائع يطول شرحها، وحاصل الأمر أن قحطبة خاض الفرات عند الفلوجة القرية المشهورة بالعراق، ليقاتل ابن هبيرة، وكان في قبالته، فغرق قحطبة في عشية الأربعاء عند غروب الشمس لثمان خلون من المحرم من هذه السنة، وقام ولده الحسن بن قحطبة مقامه في تقدمة الجيش، وهي واقعة مشهورة طويلة وليس هذا موضع ذكرها.

وكان معن بن زائدة الشيباني – المقدم ذكره – من أتباع يزيد بن هبيرة المذكور ومن أكبر أعوانه في الحروب وغيرها، فيقال إنه في تلك الليلة ضرب قحطبة بن شبيب بالسيف على رأسه، وقيل على عاتقه، فوقع في الماء، فأخرجوه حياً فقال: إن مت فادفنوني في الماء لئلا يقف أحد على خبري وقيل في غرقه غير ذلك، والله أعلم.

عدنا إلى حديث ابن هبيرة: وكان من خبره أن جيوش خراسان التي كان مقدمها قحطبة ثم ولده الحسن من بعد استظهرت عليه فهزمت عسكره، ولحق ابن هبيرة بمدينة واسط فتحصن فيها ثم وصل أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه الملقب بالسفاح وأخوه أبو جعفر عبد الله بن محمد الملقب بالمنصور من الحميمة، بضم الحاء المهملة، القرية التي كانت مسكن بني العباس في أطراف الشام من أرض البلقاء إلى الكوفة، وبها جماعة من أشياعهم ونوابهم ومن قام معهم بإقامة دولتهم وإزالة دولة بني أمية التي أميرها إذ ذاك مروان بن محمد بن الحكم الأموي المعروف بالجعدي والمنبوز بالحمار آخر ملوكهم، فلما وصلوا إلى الكوفة بويع أبو العباس السفاح بها يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة

مضت من شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وثلاثين ومائة، وقيل إن المبايعة كانت في شهر ربيع الأول، والأول أصح.
وظهر أمر بني العباس وقويت شوكتهم، وأدبرت دولة بني مروان، فعند ذلك وجه السفاح أخاه أبا جعفر إلى واسط لحرب يزيد بن عمر بن هبيرة، فجاء المنصور إلى المعسكر الذي مقدمه الحسن بن قحطبة، وهو مقابل يزيد بن هبيرة بواسط، فترل فيه.

قال أبو جعفر الطبري في تاريخ الكبير: وجرت السفراء بين أبي جعفر المنصور وبين ابن هبيرة، حتى جعل له أماناً وكتب به كتاباً، فمكث يشاور فيه العلماء أربعين ليلة حتى رضيه ابن هبيرة، ثم أخذه إلى أبي جعفر، فأنفذه أبو جعفر إلى أبي العباس السفاح فأمر بإمضائه له، وكان رأى أبي جعفر الوفاء له بما أعطاه. وكان أبو العباس السفاح لا يقطع أمراً دون أبي مسلم الخراساني صاحب الدعوة، وكان لأبي مسلم عين على السفاح يكتب إليه بأخباره كلها، فكتب أبو مسلم إلى السفاح: إن الطريق السهل إذا ألقيت فيه الحجارة فسد، لا والله لا صلح طريق فيه ابن هبيرة. ولما تم الكتاب خرج ابن هبيرة إلى أبي جعفر في ألف وثلثمائة من البخارية، فأرارد أن يدخل الحجرة على دابته، فقام إليه الحاجب فقال: مرحباً با أبا خالد، انزل راشداً، وقد أطاف بالحجرة عشرة آلاف من أهل خراسان، فترل ودعا له بوسادة ليجلس عليها، ثم دعا له بالقواد فدخلوا، ثم قال له الحاجب: ادخل أبا خالد، فقال: أنا ومن معي؟ فقال: إنما استأذنت لك وحدك، فقام فدخل، ووضعت له وسادة وحادثه ساعة، ثم قام وأتبعه أبو جعفر بصره حتى غاب عنه، ثم مكث يقيم عنه يوماً ويأتيه يوماً في خمسمائة فارس وثلثمائة راجل، فقال يزيد بن حاتم لأبي جعفر: أيها المير، إن ابن هبيرة ليأتي فيتضعضع له العسكر وما نقص من سلطانه شيء، فقال أبو جعفر للحاجب: قل لابن هبيرة يدع الجماعة ويأتينا في حاشيته، فقال له الحاجب ذلك، فتغير وجهه، وجاء في حاشيته نحواً من ثلاثين، فقال له الحاجب: كأنك تأتي متأهباً فقال: إن أمرتم أن نمشي إليكم مشينا، فقال: ما أردنا بك استخفافاً ولا أمر الأمير بما أمر به إلا نظراً لك، فكان بعد ذلك يأتي في ثلاثة.
وقال محمد بن كثير: كلم ابن هبيرة يوماً أبا جعفر فقال: يا هياه، أو يا أيها المرء، ثم رجع فقال: أيها الأمير إن عهدي بكلام الناس بمثل ما خاطبتك به حديث فسبقني لساني بما لم أرده وألح أبو العباس السفاح على أبي جعفر يأمره بقتله، وهو يراجعه، فكتب إليه: والله لتقتلنه أو لأرسلن إليه من يخرجنه من حجرتك ثم يقتله، فأزمع على قتله، فبعث أبو جعفر من ختم بيوت المال، ثم بعث إلى وجوه من مع ابن هبيرة فحضروا، وخرج الحاجب من عند أبي جعفر وطلب ابن الحوثرة ومحمد بن نباتة وهما من العيان، فقاما فدخلا، وقد أجلس أبو جعفر ثلاثة من خواصه في مائة من خواصه من جماعته في حجرة، فترعت سيوفهما وكتفا، ثم أدخلوا بعدهما اثنين ففعل بهما كذلك، وبعدهم جماعة أخرى فعل بهم كذلك، فقال موسى بن عقيل: أعطيتمونا عهد الله ثم خستم به، إنا لنرجوا أن يدركك الله، وجعل ابن نباتة يضرط في لحية نفسه، فقال له: -ابن- الحوثرة: إن هذا لا يغني عنك شيئاً، فقال: كأني كنت أنظر إلى هذا، فقتلوا وأخذت خواتيمهم. وانطلق حازم والهيثم بن شعبة والأغلب بن سالم في نحو من مائة، فأرسلوا إلى ابن هبيرة: إنا نريد هذا المال، فقال ابن هبيرة لحاجبه: انطلق فدلهم عليه، فأقاموا عند كل بيت نفراً ثم جعلوا ينظرون من نواحي الدار، ومع ابن هبيرة ابنه داود وكاتبه عمرو بن أيوب وحاجبه وعدة من مواليه وبني صغير له في حجره، فجعل ينكر نظرهم، فقال: أقسم بالله إن في وجوه القوم لشراً، فأقبلوا نحوه، فقام حاجبه في وجوههم فقال: وراءكم، فضربه الهيثم بن شعبة على حبل عاتقه فصرعه، وقاتل ابنه داود فقتل، وقتل مواليه، ونحى الصبي من حجره، وقال: دونكم هذا الصبي، وخر ساجداً فقتل وهو ساجد، ومضوا برؤوسهم إلى أبي جعفر فنادى بالأمان للناس.
وقال أبو العطاء السندي، واسمه مرزوق، وقيل أفلح، مولى بني أسد يرثي ابن هبيرة:

ألا إن عيناً لم تجد يوم واسطٍ … عليك بجاري دمعها لجمود

عشية قام النائحات وشققت … جيوب بأيدي مأتم وخدود

فإن تمس مهجور الفناء فربما … أقام به بعد الوفود وفود

وإنك لم تبعد على متعهدٍ … بل كلٌّ من تحت التراب بعيد

قلت: وهذه المرثية ذكرها أبو تمام الطائي في كتاب " الحماسة " في باب المراثي.

قلت: إلى هنا انتهى ما نقلته من تاريخ الطبري مقتضباً فإنني جمعته من عدة مواضع حتى انتظم على هذه الصورة.

وأما غير الطبري فإنه قال: لما قدم أبو جعفر على الحسن بن قحطبة تحول له الحسن من سرادقه فأنزله فيه، وأقاموا يقتتلون أياماً، وثبت معن بن زائدة مع ابن هبيرة، وطال الحصار عليهم، وكان أبو جعفر المنصور يقول: ابن هبيرة يخندق على نفسه مثل النساء، وبلغ ابن هبيرة ذلك، فأرسل إليه: أنت القائل كذا؟ ابرز إلي لترى، فأرسل إليه المنصور: ما أجد لك ولي مثلاً إلا كأسد لقي خنزيراً، فقال له الخنزير: بارزني، فقال الأسد: ما أنت لي بكفؤ فإن بارزتك فنالني منك سوء كان عاراً، وإن قتلتك قتلت خنزيراً، فلم أحصل على حمد، ولا في قتلك فخر، فقال له الخنزير: لئن لم تبارزني لأعرفن السباع أنك جبنت عني، فقال الأسد: احتمال عار كذبك أيسر من تلطيخ براثني بدمك. ثم إن المنصور كاتب القواد، وفهم ابن هبيرة فطلب الصلح، فأجابه المنصور، وكتبوا كتاب الصلح والأمان، وبعثه المنصور إلى أخيه السفاح فأمضاه، وكتب فيه: فإن غدر ابن هبيرة أو نكث فلا عهد له ولا أمان، وكان من رأي المنصور الوفاء له.

وقال أبو الحسن المدائني: لما كتب المنصور بينه وبين ابن هبيرة كتاب الصلح خرج إلى المنصور وبينه وبينه ستر، فقال ابن هبيرة: أيها الأمير إن دولتكم بكر فأذيقوا الناس حلاوتها وجنبوهم مرارتها، تصل محبتكم إلى قلوبهم ويعذب ذكركم على ألسنتهم، وما زلنا منتظرين لدعوتكم، قال: فرفع المنصور الستر بينه وبينه وقال في نفسه: عجباً لمن يأمرني بقتل مثل هذا. وصار ابن هبيرة يخرج إلى المنصور في آخر أمره في ثلاثة من أصحابه يتغدى ويتعشى عنده وكان يثني له وساده.

فيقال إنه كان يكاتب عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ويدعو إليهم وإلى خلع السفاح، وجاءه كتاب أبي مسلم يحثه على قتل ابن هبيرة، فكتب السفاح إلى المنصور يأمره بقتله، فقال: لا أفعل وله في عنقي بيعة وأيمان فلا أضيعها بقول أبي مسلم، فكتب السفاح: ما أقتله بقول أبي مسلم بل بنكثه وغدره ودسيسه إلى آل أبي طالب، وقد أبيح لنا دمه، فلم يجبه المنصور وقال: هذا فساد الملك، فكتب إليه السفاح: لست مني ولست منك إن لم تقتله، فقال المنصور للحسن بن قحطبة: اقتله أنت، فامتنع، فقال خازم بن خزيمة: أنا أقتله، فدخل عليه في جماعة من قواد خراسان، وهو في القصر وعنده ابنه داود وكاتبه ومواليه، وعليه قميص مصري وملاءة موردة، وعنده الحجام وهو يريد أن يحجمه، فلما رآهم سجد، فقتلوه وقتلوا ابنه وكاتبه ومن كان معه، وحملوا رأسه إلى المنصور. وكان معن بن زائدة غائباً عند السفاح فسلم. وبعث المنصور برأسه إلى السفاح، وكان ذلك في سنة اثنتين وثلاثين ومائة.

قال الهيثم بن عدي: لما قتل ابن هبيرة قال بعض الخراسانيين لبعض أصحاب ابن هبيرة: ما كان أكبر رأس صاحبكم، فقال له الرجل: أمانكم له كان أكبر.

وذكر الخطيب أبو زكريا التبريزي، في كتاب " شرح الحماسة " في باب المراثي، عند ذكره أبيات أبي عطاء السندي الدالية – المقدم ذكرها – التي رثى بها يزيد المذكور، فقال: وكان المنصور قد حلف له وأكد الأيمان، فلما قتله وحمل رأسه إليه قال المنصور للحرسي: أترى طينة رأسه ما أعظمها! فقال الحرسي: طينة أيمانه من طينة رأسه.

وهدم المنصور قصر واسط.

وقال الحافظ ابن عساكر في تاريخه الكبير: كان ابن هبيرة إذا أصبح أتي بعس – قلت: العس، بضم العين المهملة وبعدها سين مهملة مشددة، هو القدح الكبير – قال: وفيه لبن قد حلب على عسل وأحياناً سكر فيشربه، فإذا صلى الغداة جلس في مصلاه حتى تحل الصلاة فيصلي، ثم يدخل، فيحركه اللبن فيدعو بالغداء فيأكل دجاجتين وناهضتين ونصف جدي وألواناً من اللحم – والناهض، بالنون وبعد الهاء المكسورة ضاد معجمة، وهو الفرخ من الحمام – قال: ثم يخرج فينظر في أمور الناس إلى نصف النهار، ثم يدخل فيدعم جماعة من خواصه وأعيان الناس، ويدعو بالغداء فيتغدى ويضع منديلاً على صدره، ويعظم اللقم ويتابع، فإذا فرغ من الغداء تفرق من كان عنده، ودخل إلى نسائه، حتى يخرج إلى صلاة الظهر، ثم ينظر بعد

الظهر في أمور الناس، فإذا صلى العصر وضع له سرير ووضعت الكراسي للناس، فإذا أخذ الناس مجالسهم أتوهم بعساس اللبن والعسل وألوان الأشربة – قلت: والعساس، بكسر العين، جمع عس، وقد تقدم الكلام عليه – ثم توضع السفرة والطعام للعامة ويوضع له ولأصحابه خوان مرتفع، فيأكل معه الوجوه إلى المغرب، ثم يفرقون للصلاة، ثم تأتيه سماره فيحضرون مجلساً يجلسون فيه حتى يدعوهم فيسامروه حتى يذهب عامة الليل. وكان يسأل في كل ليلة عشر حوائج، فإذا أصبحوا قضيت، وكان رزقه ستمائة ألف درهم، فكان يقسم كل شهر في أصحابه من قومه ومن الفقهاء والوجوه وأهل البيوتات، فقال عبد الله بن شبرمة الضبي القاضي الفقيه الكوفي وكان من سماره:

إذا نحن أعتمنا ومال بنا الكرى ... أتانا بإحدى الراحتين عياض

وعياض بوابه، وإحدى الراحتين: الدخول أو الانصراف، ولم يكن له منديل، فكان إذا دعا بالمنديل قام الناس.

وقال شيخ من قريش: أذن يزيد بن عمر بن هبيرة في يوم صائف شديد الحر للناس، فدخل عليه وعليه قميص خلق مرقوع الجيب، فجعلوا ينظرون إليه ويعجبون منه، ففطن لهم، فتمثل بقول إبراهيم بن هرمة:

قد يدرك الشرف الفتى ورداؤه ... خلق وجيب قميصه مرقوع

–وحكي أن شريك بن عبد الله النميري سايره يوماً فبدرت دابة شريك فقال له يزيد: غض من لجامها، فقال شريك: إنها مكتوبة أصلح الله الأمير، فقال له يزيد: ذهبت حيث أردت؛ قول يزيد " غض من لجامها " يشير إلى قول جرير:

فغض الطرف إنك من نمير ... فلا كعباً بلغت ولا كلابا

فعرض له شريك بقول ابن دارة:

لا تأمنن فزارياً خلوت به ... على قلوصك واكتبها بأسيار

وكان بنو فزارة في العرب يرمون بإتيان الإبل–.

وأخباره ومحاسنه كثيرة مشهورة.

وقال خليفة بن خياط: قتل ابن هبيرة بواسط يوم الاثنين لثلاث عشرة ليلة بقيت من ذي القعدة سنة اثنتين وثلاثين ومائة، رحمه الله تعالى.

وقال أبو جعفر الطبري في تاريخه: توفي الحسن بن قحطبة في سنة إحدى وثمانين ومائة.

يزيد بن حاتم المهلبي

أبو خالد يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة الآزدي. قد سبق ذكر بقية نسبه في ترجمة جده المهلب بن أب صفرة، قد ذكرت أخاه روح بن حاتم في حرف الراء، وعم أبيه يزيد بن المهلب، ومن ولده الوزير أبو محمد الحسن بن محمد المهلبي – المقدم ذكره – وهم أهل بيت كبير، اجتمع فيه خلق كثير من الأعيان الأمجاد النجباء.

ذكر ابن جرير الطبري في تاريخه أن الخليفة أبا جعفر المنصور عزل حميد بن قحطبة عن ولاية مصر، فولاها نوفل بن الفرات، ثم عزله وولى يزيد بن حاتم، وذلك في سنة ثلاث وأربعين ومائة، ثم إن المنصور عزله عن مصر في سنة اثنتين وخمسين ومائة، وجعل مكانه محمد بن سعيد؛ وقال أبو سعيد بن يونس في تاريخه: ولي يزيد بن حاتم مصر في سنة أربع وأربعين ومائة، وزاد غيره: في منتصف ذي القعدة.

ثم إن المنصور خرج إلى الشام وزيارة بيت المقدس في سنة أربع وخمسين ومن هناك سير يزيد بن حاتم إلى إفريقية لحرب الخوارج الذين قتلوا عامله عمر بن حفص، وجهز معه خمسين ألف مقاتل، واستقر يزيد المذكور والياً بإفريقية من يومئذ، وكان وصوله إليها واستظهاره على الخوارج في سنة خمس وخمسين، ودخل مدينة القيروان في هذا التاريخ.

وكان جوادا سرياً مقصوداً ممدحاً، قصده جماعة من الشعراء فأحسن جوائزهم، وكان أبو أسامة ربيعة بن ثابت الأسدي الرقي، وقيل أنه إنه من موالي

سليم، قد قصد يزيد بن أسيد، بضم الهمزة وفتح السين المهملة، ابن زافر ابن أسماء بن أسيد بن قنفذ بن جابر بن مالك بن عوف بن امرئ القيس بن بهثة بن سليم بن منصور عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، وهو يومئذ والٍ على أرمينية، وكان قد وليها زماناً طويلاً لأبي جعفر المنصور، ثم من بعده لولده المهدي، وكان يزيد المذكور من أشراف قيس وشجعانهم، ومن ذوي الآراء الصائبة، ومدحه ربيعة المذكور بشعر أجاد فيه، فقصر في حقه، ومدح يزيد بن حاتم المذكور، فبالغ في الإحسان إليه، فقال ربيعة قصيدة يفضل فيها يزيد بن حاتم على يزيد بن أسيد، وكان في لسان يزيد بن أسيد تمتعة، فعوض بذكرها في هذه الأبيات، فقال:

حلفت يميناً غير ذي مثنوية ... يمين امرئ آل بها غير آثم
لشتان ما بين اليزيدين في الندى ... يزيد بن سليم والأغر ابن حاتم
يزيد سليم سالم المال، والفتى ... أخو الأزد للأموال غير مسالم
فهم الفتى الأزدي إتلاف ماله ... وهم الفتى القيسي جمع الدراهم
فلا يحسب التمتام أني هجوته ... ولكنني فضلت أهل المكارم
فيا أيها الساعي الذي ليس مدركاً ... بمسعاته سعي البحور الخضارم
سعيت ولم تدرك نوال ابن حاتم ... لفكِّ أسير واحتمال العظائم
كفاك بناء المكرمات ابن حاتم ... ونمت وما الأزدي بنائم
فيا ابن أسيد لا تساهم ابن حاتم ... فتقرع إن ساميته سنَّ نادم
هو البحر إن كلفت نفسك خوضه ... تهالكت في آذيّه المتلاطم
تمنيت مجداً في سليمٍ سفاهة ... أماني خالٍ أو أماني حالم
ألا إنما آل المهلب غرة ... وفي الحرب قادات لكم بالخزائم
هم الأنف في الخرطوم والناس بعدهم ... مناسم. والخرطوم فوق المناسم
قضيت لكم آل المهلب بالعلا ... وتفضيلكم حتى على كل حالم
لكم شيم ليست لخلقٍ سواكم ... سماح وصدق البأس عن الملاحم
مهينون للأموال فيما بينكم ... مناعيش دفاعون عن كل جارم

قال دعبل بن علي الخزاعي – المقدم ذكره: قلت لمروان بن أبي حفصة الشاعر – وقد تقدم ذكره أيضاً–: يا أبا السمط، من أشعركم جماعة المحدثين؟ قال: أسيرنا بيتاً، قلت: ومن هو؟ قال: الذي يقول:

لشتان ما بين اليزيدين في الندى ... يزيد بن سليمٍ والأغر ابن حاتم

وكنت قد ذكرت بعض هذه الأبيات في ترجمة أخيه روح بن حاتم، ثم إني ظفرت بها أكمل من تلك فأحببت أن أفرد له ترجمة وأذكر ما جرى له، أن مثله لا يصلح لأن يكون ضميمة في ترجمة أخيه.

وكان ربيعة بن ثابت الرقي قد قصده قبل هذه المرة، فلم ير منه من الإحسان ما كان يرجوه، فنظم أبياتاً من جملتها:

أراني ولا كفران للّه راجعاً ... بخفي حنينٍ من نوال ابن حاتم

ولما عقد أبو جعفر المنصور ليزيد المهلبي المذكور على بلاد إفريقية وليزيد السلمي المذكور على ديار مصر خرجا معاً، فكان يزيد المهلبي يقوم بكفاية الجيشين فقال ربيعة الرقي المذكور:

يزيد الخير، إن يزيد قومي ... سميك لا يجود كما تجود

تقود كتيبةً ويقود أخرى ... فترزق من تقود ومن يقود

قلت: وهذا يدل على أن ربيعة المذكور مولى بني سليم لقوله: " يزيد قومي "، والله أعلم.

وقدم أشعب المشهور بالطمع على يزيد وهو بمصر، فجلس في مجلسه، ودعا بغلامه فساره، فقام أشعب فقبل يده، فقال له يزيد: لم فعلت هذا؟ فقال: إني رأيتك تسار غلامك فظننت أنك أمرت لي بشيء، فضحك منه وقال: ما فعلت هذا ولكني أفعل، ووصله وأحسن إليه.

وقال الطرطوشي في كتاب " سراج الملوك " قال سحنون بن سعيد: كان يزيد بن حاتم حكيماً يقول: والله ما هبت شيئاً قط هيبتي لرجل ظلمته وأنا أعلم أنه لا ناصر له إلا الله تعالى، فيقول: حسبك الله، الله بيني وبينك.

وذكر أبو سعد السمعاني في كتاب " الأنساب " أن المشهر التميمي الشاعر وفد على يزيد بن حاتم بإفريقية فأنشده:

إليك قصرنا النصف من صلواتنا ... مسيرة شهر ثم شهرٍ نواصله

فلا نحن نخشى أن يخيب رجاؤنا ... لديك، ولكن أهنأ البرِّ عاجله

فأمر يزيد بوضع العطاء في جنده وكان معه خمسون ألف مرتزق، فقال: من أحب أن يسرني فليضع هذا من عطائه درهمين، فاجتمع له مائة ألف درهم، وضم يزيد إلى ذلك مائة ألف درهم أخرى ودفعها إليه.

قلت: ثم وجدت البيتين المذكورين لمروان بن أبي حفصة، والله أعلم.

وقد ذكره الحافظ أبو القاسم المعروف بابن عساكر في " تاريخ دمشق " فقال بعد ذكر أحواله وولاياته: إن يزيد بن حاتم قال لجلسائه: استنقوا لي ثلاثة أبيات، فقال صفوان بن صفوان من بني الحارث بن الخزرج: أفيك؟ فقال: فيمن شئتم، فكأنها كانت في كمه:

لم أدر ما الجود إلا ما سمعت به ... حتى لقيت يزيداً عصمة الناس

لقيت أجود من يمشي على قدمٍ ... مفضلاً برداء الجود والباس

لو نيل بالجود مجد كنت صاحبه ... وكنت أولى به:

ثم كففت، فقال: أتمم، من آل عباس، فقلت: لا يصلح، فقال: لا يسمعن هذا منك أحد.

وقال يموت بن المزرع: قال لي الأصمعي يوماً، وقد جئته مسلماً إلى أن ذكر الشعراء المحسنين المداحين من المولدين، فقال لي: يا أبا عثمان، ابن المولى من المحسنين المداحين، ولقد أسهرني في ليلتي هذه حسن مديحه يزيد بن حاتم حيث يقول:

وإذا تباع كريمة أو تشترى ... فسواك بائعها وأنت المشتري

وإذا تخيل من سحابك لامع ... سبقت مخيلته يد المستمطر

وإذا صنعت صنيعةً اتممتها ... بيدين ليس نداهما بمكدر

وإذا الفوارس عددت أبطالها ... عدوك في أبطالهم بالخنصر

ولما قدم عليه ابن المولى المذكور أنشده وهو أمير مصر:

يا واحد العرب الذي ... أضحى وليس له نظير

لو كان مثلك آخر — ما كان في الدنيا فقير

فدعا يزيد بخازنه وقال: كم في بيت مالي؟ قال: فيه من العين والورق ما مبلغه عشرون ألف دينار، فقال: ادفعها إليه، ثم قال: يا أخي، المعذرة إلى الله تعالى وإليك، والله لو أن في ملكي غيرها لما ادخرتها عنك، وهذا ابن المولى هو أبو عبد الله محمد بن مسلم، وعرف بابن المولى.

وروى الأصمعي أيضاً أن يزيد لما كان بإفريقية جاءه البشير يخبره أنه ولد له مولود بالبصرة، فقال: قد سميته المغيرة، وكان عنده المشهر التميمي فقال: بارك الله لك أيها الأمير فيه وبارك له في بنيه كما بارك لجده في أبيه.

و لم يزل والياً بإفريقية إلى أن توفي بها يوم الثلاثاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان سنة سبعين ومائة بالقيروان، ودفن بباب سلم، واستخلف على إفريقية ولده داود بن يزيد فعزله هارون الرشيد في سنة اثنتين وسبعين ومائة، وولاها عمه روح بن حاتم – المقدم ذكره–.

يزيد بن مزيد الشيباني

أبو خالد وأبو الزبير، يزيد بن مزيد بن زائدة، وهو ابن أخي معن بن زائدة الشيباني – المقدم ذكره–، وقد استوفيت ذكر نسبه هناك فلا حاجة إلى إعادته هاهنا.

كان يزيد المذكور من المراء المشهورين والشجعان المعروفين، كان والياً بأرمينية فعزله عنها هارون الرشيد سنة اثنتين وسبعين ومائة، ثم ولاه إياها وضم إليها أذربيجان في سنة ثلاث وثمانين.

وقد سبق طرف من خبره في ترجمة الوليد بن طريف الشيباني الخارجي فإنه الذي تولى محاربته وقتله: ذكر أرباب التاريخ أن الوليد بن طريف الشيباني لما خرج على هارون الرشيد ببلاد الجزيرة، وهي فيما بين الفرات وشط الموصل، وذلك في سنة ثمان وسبعين ومائة، وكثر جمعه من الشراة حتى انتشروا في تلك البلاد، ونهض إليهم عامل ديار ربيعة فقتلوه، وصاروا إلى ديار مصر، فحصروا عبد الملك بن صالح بن علي العباسي بالرقة، فاستشار هارون الرشيد يحيى بن خالد البرمكي فيمن يوجهه لحرب الوليد بن طريف، فقال له يحيى بن خالد البرمكي: وجه موسى بن حازم التميمي، فإن فرعون كان اسمه الوليد فغرقه موسى عليه السلام، فوجهه إليه الرشيد في جيش كثيف، فلاقاه الوليد في أصحابه فهزمه الوليد وقتله، فلما بلغ الرشيد ذلك وجه إليه معمر بن عيسى العبدي، فكانت بينهما عدة وقائع بناحية دارا من ديار ربيعة، فلما اتصل ذلك وكثرت جموع الوليد وظهر هذا الظهور العظيم، قال الرشيد: ليس لها إلا الأعرابي يزيد بن مزيد الشيباني، فقال بكر بن النطاح:

لاتبعثن إلى ربيعة غيرها — إن الحديد بغيره لا يفلح

فوجه الرشيد إليه يزيد المذكور في عسكر ضخم وأمره بمناجزته، فقصده يزيد وجعل الوليد يراوغه ويزيد يتبعه، وكان الوليد ذا مكر ودهاء. ثم كانت بينهما حرب صعبة، وبلغ الرشيد مماطلة يزيد بن مزيد له، فوجه إليه خيلاً بعد خيل، ثم بعث إليه من يعنفه، فسار يزيد في طلبه، ثم نزل يصلي الصبح، فلم يستتم صلاته حتى طلع الوليد عليه في عسكره، واصطفت الخيلان وتزاحف الناس؛ فلما شبت الحرب ناداه يزيد: يا وليد، ما حاجتك إلى التستر بالرجال؟ ابرز إلي، قال: نعم والله، فبرز الوليد وبرز إليه يزيد، ووقف العسكران فلم يتحرك منهما أحد، فتطاردا ساعة، وكل واحد منهما لا يقدر على صاحبه، حتى مضت ساعات من النهار، فأمكنت يزيد فيه الفرصة فضرب رجله فسقط، وصاح بخيله فسقطوا عليه واحتزوا رأسه.

ذكر أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم المعروف بابن القراب الهروي في تاريخه أن الوليد بن طريف قتله يزيد بن مزيد بالحديثة من أرض الجزيرة، قلت: وهذه الجزيرة هي الجزيرة الفراتية، والحديثة بالقرب من عانة، وتعرف بحديثة النورة، وهي على فراسخ من الأنبار، وهي غير حديثة الموصل.

ووجه يزيد برأس الوليد إلى الرشيد، وبكتاب الفتح مع ابنه أسد بن يزيد، وفي ذلك يقول أبو الوليد مسلم بن الوليد الأنصاري الشاعر المشهور، وكان منقطعاً إلى يزيد ومختصاً به:

سل الخليفة سيفاً من بني مطرٍ — يمضي فيخترق الأجسام والهاما

لولا يزيد ومقدار له سبب — عاش الوليد مع العامين أعواما

أكرم به وبآباءٍ له سلفوا أبقوا من المجد أياماً وأياما

ولما انصرف يزيد إلى باب الرشيد قدمه ورفع مرتبته وقال له: يا يزيد، ما أكثر أمراء المؤمنين في قومك؟ قال: نعم، إلا أن منابرهم الجذوع، يعني الجذوع التي يصلبون عليها إذا قتلوا.

وكان قتل الوليد في سنة تسع وسبعين ومائة – كما سبق ذكره في ترجمته – ورثته أخته بتلك البيات الفائية المذكورة هناك، وقال أخته الفارعة فيه أيضاً:

يا بني وائلٍ لقد فجعتكم من يزيدٍ سيوفه بالوليد

لو سيوف سوى سيوف يزيد قاتلته لاقت خلاف السعود

وائل بعضها يقتل بعضاً لا يفل الحديد غير الحديد

وقد روي أن هارون الرشيد لما جهز يزيد بن مزيد إلى حرب الوليد بن طريف أعطاه ذا الفقار سيف النبي صلى الله عليه وسلم، وقال له: خذه يا يزيد فإنك ستنصر به، فأخذه ومضى، وكان من هزيمة الوليد وقتله ما قد شرحناه، وفي ذلك يقول مسلم بن الوليد الأنصاري من جملة قصيدة يمدح بها يزيد بن مزيد المذكور:

أذكرت سيف رسول الله سنته وبأس أوّل من صلى وصاما

يعني بأس علي بن أبي طالب رضي الله عنه إذ كان هو الضارب به.

وقد ذكر هشام بن الكلبي في كتاب " جمهرة النسب " شيئاً يتعلق بذي الفقار، وهي فائدة يحسن ذكرها هاهنا، فإنه قال في نسب قريش: منبه ونبيه ابنا الحجاج بن عامر بن حذيفة بن سعد بن سهم القرشي، كانا سيدي بني سهم في الجاهلية قتلا يوم بدر كافرين، وكانا من المطعمين، والعاص ابن نبيه قتل مع أبيه، وكان له ذو الفقار، قتله علي بن أبي طالب رضي الله عنه يوم بدر وأخذه منه، وقال غير –ابن– الكلبي: إن ذا الفقار أعطاه النبي صلى الله عليه وسلم لعلي رضي الله عنه.

والفقار: بفتح الفاء، جمع فقارة الظهر، يقال في جمعها فقار، وفقارات، ويقال ذو الفقار، بكسر الفاء أيضاً، والفقار: جمع فقرة، بكسر الفاء وسكون القاف، ولم يات مثله في الجموع إلا قولهم إبرة وإبار.

رجعنا إلى حديث ذي الفقار: وكان سبب وصوله إلى هارون الرشيد فيما ذكره أبو جعفر الطبري بإسناد متصل إلى عمر بن المتوكل –عن أمه– وكانت أمه تخدم فاطمة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، قالت: كان ذو الفقار مع محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه يوم قتل في محاربته لجيش أبي جعفر المنصور العباسي، والواقعة مشهورة، فلما أحس محمد بالموت دفع ذا الفقار إلى رجل من التجار كان معه، وكان عليه أربعمائة دينار، وقال له: خذ هذا السيف فإنك لا تلقى أحداً من آل أبي طالب إلا أخذه منك وأعطاك حقك، فكان السيف عند ذلك التاجر حتى ولي جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله ابن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه اليمن والمدينة، فأخبر عنه، فدعا بالرجل فأخذ منه السيف وأعطاه أربعمائة دينار، فلم يزل عنده حتى قام المهدي بن منصور، واتصل خبره به فأخذه، ثم صار إلى موسى الهادي ثم إلى أخيه هارون الرشيد. وقال الأصمعي: رأيت الرشيد بطوس متقلداً سيفاً، فقال: يا أصمعي، ألا أريك ذا الفقار؟ قلت: بلى جعلني الله فداك، فقال: استل سيفي هذا، فاستللته، فرأيت فيه ثماني عشرة فقارة.

قلت: خرجنا عن المقصود، فلنرجع إلى تتمة حديث يزيد بن مزيد: ذكر الخطيب أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت البغدادي في " تاريخ بغداد " أن يزيد المذكور دخل على الرشيد، فقال له الرشيد: يا يزيد، من الذي يقول فيك:

لا يعبق الطيب كفيه ومفرقه ولا يمسح عينيه من الكحل

قد عوّد الطير عادات وثقن بها فهن يتبعنه في كل مرتحل

فقال: لا أدري يا أمير المؤمنين، قال: أفيقال فيك مثل هذا الشعر ولا تعرف قائله؟ فانصرف خجلاً، فقال لحاجبه من بالباب من الشعراء؟ فقال: مسلم بن الوليد الأنصاري، قال: ومنذ كم هو مقيم بالباب؟ قال: منذ زمان طويل منعته من الوصول إليك لما عرفته من إضاقتك، قال: أدخله فأدخله، فأنشده هذه القصيدة حتى ختمها، فقال للوكيل: بع ضيعتي الفلانية وأعطه نصف ثمنها واحتبس نصفاً لنفقتنا، فباعها بمائة ألف درهم، فأعطى مسلماً خمسين ألفاً، ورفع الخبر إلى الرشيد فاستحضر يزيد وسأله عن الخبر فأعلمه الحديث، فقال: قد أمرت لك بمائتي ألف درهم لتسترجع الضيعة بمائة ألف درهم وتزيد الشاعر خمسين ألفاً وخمسين ألفاً لنفسك.

قال أبو بكر ابن الأنباري، قال أبي: سرق مسلم بن الوليد هذا المعنى من قول النابغة الذبياني حيث يقول:

إذا غزوا بالجيش حلق فوقهم عصائب طير تهتدي بعصائب

يصاحبنهم حتى يغرن مغارهم من الضاريات بالدماء الدوارب

جوانح قد أيقن أن قبيله إذا ما التقى الجمعان أول غالب

لهن عليهم عادة قد عرفنها إذا عرض الخطي فوق الكواثب

الكواثب: بالثاء المثلثة وبعدها الباء الموحدة، جمع كاثبة، وهي ما يقرب من منسج الفرس أمام قربوس السرج.

قلت: وأول قصيدة مسلم بن الوليد الأنصاري:

أجررت حبل خليعٍ في الصبا غزل وقصرت همم العذال عن عذلي

ومن مديحها:

حاط الخلافة سيف من بني مطر أقام قائمه من كان ذا ميل

كم صائلٍ في ذرا علياء مملكةٍ لولا يزيد بني شيبان لم يصل

ناب الإمام الذي يفتر عنه إذا ما افترت الحرب عن أنيابها العصل

يفتر عند افترار الحرب مبتسماً إذا تغير وجه الفارس البطل

ينال بالرفق ما يعيا الرجال به كالموت مستعجلاً يأتي على مهل

لا يرحل الناس إلا عند حجرته كالبيت يضحي إليه ملتقى السبل

يكسو نفوس الناكثين به ويجعل الهام تيجان القنا الذبل

يغدو فتغدو المنايا في أسنته شوارعاً تتحدى الناس بالأجل

إذا طغت فئة عن عبّ طاعته عبّا لها الموت بين البيض والأسل

تراه في الأمن في درعٍ مضاعفةٍ لا يأمن الدهر أن يدعى على عجل

وذكر أبو الفرج الأصبهاني في كتاب " الأغاني " في ترجمة مسلم بن الوليد الأنصاري، قال يزيد بن مزيد: أرسل إلي الرشيد يوماً في وقت لا يرسل فيه إلى مثلي، فأتيته لابساً سلاحي مستعداً لأمرٍ إن أراده، فلما رآني ضحك إلي وقال: من الذي يقول فيك:

تراه في الأمن في درع مضاعفة　　لا يأمن الدهر أن يدعى على عجل

لله من هاشم في أرضه جبل　　وأنت وابنك ركنا ذلك الجبل

فقلت: لا أعرفه يا أمير المؤمنين، فقال: سوأةً لك من سيد قوم يمدح بمثل هذا الشعر ولا يعرف قائله، وقد بلغ أمير المؤمنين فرواه ووصل قائله، هو مسلم بن الوليد، فانصرفت ودعوت به ووصلته ووليته.

قلت: وهذان البيتان من جملة القصيدة التي ذكرت منها الأبيات قبلها.

وقد روي أن عمه معن بن زائدة كان يقدمه على أولاده، فعاتبته امرأته في ذلك وقالت له: كم تقدم يزيد ابن أخيك وتؤخر بنيك، ولو قدمتهم لتقدموا ولو رفعتهم لارتفعوا، فقال لها: إن يزيد قريب مني وله علي حق الولد إذ كنت عمه، وبعد فإن بني ألوط بقلبي وأدنى من نفسي، ولكني لا أجد عندهم من الغناء ما عنده، ولو كان ما يضطلع به يزيد في بعيد لصار قريباً أو عدم لصار حبيباً، وسأريك في هذه الليلة ما تبسطين به عذري، يا غلام اذهب فادع جساساً وزائدة وعبد الله وفلاناً وفلاناً، حتى أتى على جميع أولاده، فلم يلبثوا أن جاؤوا في الغلائل المطيبة والنعال السندية، وذلك بعد هدأة من الليل، فسلموا وجلسوا، ثم قال معن: يا غلام ادع يزيد، فلم يلبث أن دخل عجلاً وعليه سلاحه، فوضع رمحه بباب المجلس ثم دخل، فقال له معن: ما هذه الهيئة يا أبا الزبير؟ فقال: جاءني رسول الأمير فيبق وهمي إلى أنه يريدني لمهم، فلبست سلاحي وقلت: إن كان الأمر كذلك مضيت و لم أعرج، وإن كان على غير ذلك فنزع هذه الآلة عني من أيسر شيء، فقال معن: انصرفوا في حفظ الله، فلما خرجوا قالت زوجته: قد تبين لي عذرك، فأنشد متمثلاً:

نفس عصامٍ سودت عصاما　　وعلمته الكر والأقداما

وصيرته ملكاً هماماً

وإلى هذه الحالة أشار مسلم بن الوليد بقوله:

تراه في الأمن في درع مضاعفة ....

وقد روي أن مسلم بن الوليد لما انتهى في إنشاء هذه القصيدة إلى هذا البيت قال له يزيد بن مزيد الممدوح: هلا قلت كما قال أعشى بكر بن وائل في مديح قيس بن معدي كرب:

وإذا تجيء كتيبة ملمومة　　شهباء تجتنب الكماة نزالها

كنت المقدم غير لابس جنّة　　بالسيف تضرب معلماً أبطالها

فقال مسلم: قولي أحسن من قوله، لأنه وصفه بالخرق وأنا وصفتك بالحزم.

الخرق: بضم الخاء المعجمة وسكون الراء وبعدها قاف، وهو الاسم من عدم معرفة العمل.

قلت: وقيس الذي مدحه الأعشى هو والد الأشعث بن قيس الكندي أحد الصحابة رضوان الله عليهم.

قلت: وقد تقدم الكلام على قوله:

قد عود الطير عادات وثقن بها

وأنه أخذ هذا المعنى من أبيات النابغة البائية التي تقدم ذكرها، وقد وافقه في أخذ هذا المعنى جماعة منهم أبو فراس، قال عمر الوراق: سمعت أبا نواس ينشد قصيدته الرائية التي أولها:

أيها المنتاب من عفره　　لست من ليلي ولا سمره

لا أذود الطير عن شجرٍ　　قد بلوت المر من ثمره

فحسدته عليها، فلما بلغ إلى قوله:

وإذا مج القنا علقاً ... وتراءى الموت في صوره

راح في ثنيي مفاضته ... أسد يدمى شبا ظفره

تتأي الطير غدوته ... ثقة بالشبع من جزره

قلت له: ما تركت للنابغة شيئاً حيث يقول:

إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم ... عصائب طيرٍ تهتدي بعصائب

فقال: اسكت، فلئن أحسن الاختراع لما أسأت الاتباع.

وأخذ هذا المعنى أبو تمام حبيب بن أوس الطائي فقال:

وقد ظللت عقبان أعلامه ضحىً ... بعقبان طيرٍ في الدماء نواهل

أقامت على الرايات حتى كأنها ... من الجيش إلا أنها لم تقاتل

وقال المتنبي أيضاً:

يطمع الطير فيهم طول أكلهم ... حتى تكاد على أحيائهم تقع

وللمتنبي أيضاً في صفة جيش وقد ألم بهذا المعنى:

وذي لجب لا ذو الجناح أمامه ... بناجٍ ولا الوحش المثار بسالم

تمر عليه الشمس وهي ضعيفة ... تطالعه من بين ريش القشاعم

إذا ضوءها لاقى من الطير فرجة ... تدور فوق البيض مثل الدراهم

ولما كان يزيد والياً على اليمن قصده أبو الشمقمق مروان بن محمد - مولى مروان بن محمد الجعدي آخر ملوك بني أمية - الشاعر المشهور الكوفي، وكنيته أبو محمد، وكان مشهوراً بأبي الشمقمق، وهو في حال رثة، وكان راجلاً، فمدحه وشرح حاله بقوله:

رحل المطي إليك طلاب الندى ... ورحلت نحوك ناقةً نعليه

إذا لم تكن لي يا يزيد مطية ... فجعلتها لي في السفار مطيه

تخدي أمام اليعملات وتغتلي ... في السير تترك خلفها المهريه

من كل طاوية الصوى مزورةٍ ... قطعاً لكل تنوفةٍ دويه

ومنها:

تنتاب أكرم وائل في بيتها ... حسباً وقبة مجدها مبنيه

أعني يزيداً سيف آل محمد ... فرّاج كل شديدة مخشيه

يوماه يوم للمواهب والجدا ... خضل ويوم دمٍ وخطف منيه

ولقد أتيتك واثقاً بك عالماً ... أن لست تسمع مدحة بنسيه

فقال: صدقت يا شمقمقي ولست أقبل مدحة بسيئة، أعطوه ألف دينار ومدحه أبو الفضل منصور بن سلمة النمري الشاعر المشهور بقصيدة طويلةٍ بائية أحسن فيها كل الإحسان منها قوله:

لو لم يكن لبني شيبان من حسبٍ سوى يزيد لفاتوا الناس بالحسب

ما أعرف الناس أن الجود مدفعة للذم لكنه يأتي على النشب

وذكر أبو العباس المبرد في كتاب " الكامل " أن يزيد بن مزيد المذكور نظر إلى رجل ذي لحية عظيمة وقد تلففت على صدره، وإذا هو خاضب، فقال له: إنك من لحيتك في مؤنة، فقال: أجل ولذلك أقول:

لها درهم للدهن في كل ليلةٍ وآخر للحناء يبتدران

ولولا نوال من يزيد بن مزيد لصوّت في حافاتها الجلمان

قلت، الجلمان: بفتح الجيم واللام، تثنية جلم، وهو المقص.

وقال له هارون الرشيد يوماً: يا يزيد، إني قد أعددتك لأمر كبير، فقال: يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى قد أعد لك مني قلباً معقوداً بنصيحتك، ويداً مبسوطة لطاعتك، وسيفاً مشحوذاً على عدوك، فإذا شئت فقل. وذكر المسعودي في كتاب " مروج الذهب ومعادن الجوهر " أن هذه المقالة دارت بين هارون الرشيد ومعن بن زائدة عم يزيد المذكور، ثم قال بعد هذا: وقيل إن هذا الكلام من كلام يزيد بن مزيد.

قلت أنا: وهذا لا يمكن أن يكون بين الرشيد ومعن أصلاً، لأن معناً قتل في خلافة أبي جعفر المنصور – حسبما تقدم ذكره في ترجمته – على الاختلاف في السنة، وهو بعد الخمسين ومائة، فكيف يمكن أن يقول له الرشيد ذلك والرشيد ولي الخلافة في سنة سبعين ومائة؟ وذكر ابن أبي عون في كتاب " الأجوبة المسكتة " أن الرشيد قال ليزيد المذكور في لعب الصوالجة: كن مع عيسى بن جعفر، فأبى يزيد فغضب الرشيد وقال: تأنف أن تكون معه؟ فقال: قد حلفت لأمير المؤمنين أن لا أكون عليه في جد ولا هزل.

ورأيت في بعض المجاميع حكاية عن بعضهم أنه قال: كنت مع يزيد بن مزيد، فإذا صائح في الليل: يا يزيد بن مزيد، فقال يزيد: علي بهذا الصائح، فلما جيء به قال له: ما حملك على أن ناديت بهذا الاسم؟ فقال: نفقت دابتي ونفدت نفقتي، وسمعت قول الشاعر فتيمنت به، فقال: وما قال الشاعر؟ فأنشد:

إذا قيل من للمجد والجود والندى فناد بصوتٍ يا يزيد بن مزيد

فلما سمع يزيد مقالته هش له وقال له: أتعرف يزيد بن مزيد؟ قال: لا والله، قال: أنا هو، وأمر له بفرسٍ أبلق كان معجباً به وبمائة دينار.

وقد أطلنا القول في هذه الترجمة، لكن الكلام شجون يتعلق بعضه ببعض، ومحاسن يزيد كثيرة، وتوفي في سنة خمس وثمانين ومائة، ورثاه أبو محمد عبد الله بن أيوب التيمي الشاعر المشهور، وقيل بل هذه المرثية لأبي الوليد مسلم بن الوليد الأنصاري الشاعر المذكور، والصحيح أنها للتيمي المذكور، وهي:

أحقاً أنه أودى يزيد تبيّن أيها الناعي المشيد

أتدري من نعيت وكيف فاهت به شفتاك؟ كان بها الصعيد

أحامي المجد والإسلام أودى فما للأرض ويحك لا تميد

تأمل هل ترى الإسلام مالت دعائمه وهل شاب الوليد

وهل شيحت سيوف بني نزار وهل وضعت عن الخيل اللبود

وهل تسقي البلاد ثقال مزن بدرتها وهل يخضر عود
أما هدُت لمصرعه نزار بلى، وتقوض المجد المشيد
وحل ضريحه إذا حل فيه طريف المجد والحسب التليد
أما والله ما تنفك عيني عليك بدمعها أبداً تجود
وإن تجمد دموع لئيم قوم فليس لدمع ذي حسب جمود
أبعد يزيد تحزن البواكي دموعاً أو يصان لها حدود
لتبكك قبة الإسلام لما وهت أطنابها ووهى العمود
ويبكي شاعر لم يبق دهر له نشباً وقد كسد القصيد
فإن يهلك يزيد فكل حي فريس للمنية أو طريد
لقد عزى ربيعة أن يوماً عليها مثل يومك لا يعود

قلت: وهذا البيت الأخير قد استعمله الشعراء كثيراً، فمن ذلك قول مطيع بن إياس يرثي يحيى بن زياد الحارثي من جملة أبيات:

فاذهب بمن شئت إذ ذهبت به ما بعد يحيى في الرزء من ألم

وقول أبي النواس يرثي الأمين:

وكنت عليه أحذر الموت وحده فلم يبق لي شيء عليه أحاذر

وقول إبراهيم بن العباس الصولي يرثي ابنه:

أنت السواد لمقلة تبكي عليك وناظر
من شاء بعدك فليمت فعليك كنت أحاذر

وذكر أبو الفرج الأصبهاني في كتاب " الأغاني " في ترجمة مسلم بن الوليد بإسناد متصل إلى أحمد بن أبي سعد قال: أهديت إلى يزيد بن مزيد جارية وهو يأكل، فلما رفع يده من الكعام وطئها فلم يترل عنها إلا ميتاً، وهو ببردعة، فدفن في مقابر بردعة، وكان مسلم بن الوليد معه في جملة أصحاب فقال يرثيه:

قبر ببردعة استمر ضريحه خطراً تقاصر دونه الخطار
أبقى الزمان على ربيعة بعده حزناً لعمر الله ليس يعار
سلكت بك العرب السبيل إلى العلا حتى إذا سبق الردى بك حاروا
نفضت بك الأحلام آمال الغنى واسترجعت زوارها المصار
فاذهب كما ذهبت غوادي مزنةٍ أثني عليها السهل والأوعار

قد قيل إن هذا البيت الأخير أبلغ شيء في المراثي، وهذه الأبيات في كتاب " الحماسة " في باب المراثي.

وبردعة: بفتح الباء الموحدة وسكون الراء وبعدها دال مهملة ثم عين مهملة، وهي مدينة من أقصى بلاد أذربيجان. قلت: هكذا رأيته في التواريخ،

وأهل تلك البلاد يقولون بردعة من إقليم إران، والله أعلم؛ ويقال برذعة أيضاً، بالذال المعجمة، وكذلك بردعة الدابة يقال بالدال والذال.
وقد قيل إن مسلم بن الوليد إنما رثى بهذه الأبيات يزيد بن أحمد السلمي، وقيل بل رثى بها مالك بن علي الخزاعي، وإن أول الأبيات:

قبر بحلوان استسر ضريحه

لأن الذي قيلت فيه مات بحلوان، بضم الحاء المهملة، وهي آخر مدينة بأرض السواد من أعمال العراق، والله أعلم بالصواب في ذلك كله.
وذكر أبو عبيد الله المرزباني في كتاب " معجم الشعراء " أن أبا البلهاء عمير بن عامر مولى يزيد بن مزيد الشيباني هو القائل:

نعم الفتى به إخواني يوم البقيع حوادث الأيام

سهل الفناء إذا حللت ببابه طلق اليدين مؤدب الخدام

وإذا رأيت صديقه وشقيقه لم تدر أيهما ذوو الأرحام

وذكر أبو تمام الطائي هذه الأبيات في كتاب " الحماسة " في باب المراثي لمحمد بن بشير الخارجي، وقيل ابن يسير بالسين المهملة وهو فعل من اليسر، وبشير من البشارة، وهو من خارجة عدوان، قبيلة، وليس من الخوارج، والله أعلم بالصواب في ذلك كله.
ورثاه منصور النمري، وهي في كتاب " الحماسة " بقوله:

أبا خالد، ما كان أدهى مصيبةً أصابت معداً يوم أصبحت ثاويا

لعمري لئن سر الأعادي فأظهروا شماتاً لقد مروا بربعك خاليا

فإن يك أفنته الليالي وأوشكت فإن له ذكر سيفني اللياليا

وكان ليزيد ولدان نجيبان جليلان سيدان: أحدهما خالد بن يزيد وهو ممدوح أبي تمام الطائي، وله فيه أحسن المدائح، وقد تضمنها ديوانه، فلا حاجة إلى ذكر شيء منها لشهرة ديوانه.
والآخر محمد بن يزيد، كان موصوفاً بالكرم وأنه لا يرد طالباً، فإن لم يحضره مال لم يقل لا، بل يعد ثم يعجل العدة، ومدحه أحمد بن أبي فنن صالح بن سعيد بقوله، ثم وجدت هذه الأبيات لأبي الشيص الخزاعي في كتاب " البارع ":

عشق المكارم فهو مشتغل بها والمكرمات قليلة العشاق

وأقام سوقاً للثناء ولم تكن سوق الثناء تعد في الأسواق

بث الصنائع في البلاد فأصبحت تجنى إليه محامد الآفاق

وكان خالد بن يزيد قد تولى الموصل من جهة المأمون، فوصل إليها وفي صحبته أبو الشمقمق الشاعر الذي ذكرته في هذه الترجمة، فلما دخل خالد إلى الموصل نشب اللواء الذي لخالد في سقف باب المدينة فاندق، فتطير خالد من ذلك، فأنشده أبو الشمقمق ارتجالاً:

ما كان مندق اللواء لريبةٍ تخشى ولا سوءٍ يكون معجلا

لكن هذا الرمح أضعف متنه صغر الولاية فاستقل الموصلا

فبلغ الخليفة ما جرى، فكتب إلى خالد بن يزيد: قد زدنا في ولايتك ديار ربيعة كلها لكون رمحك استقل الموصل، ففرح بذلك وأجزل جائزة أبي الشمقمق.
ولما انتفض أمر أرمينية في أيام الواثق جهز إليها خالد بن يزيد المذكور في جيش عظيم فاعتل في الطريق ومات في سنة ثلاثين ومائتين، ودفن بمدينة دبيل أرمينية، رحمهم الله أجمعين.

يزيد بن مفرغ الحميري

أبو عثمان يزيد بن زياد بن ربيعة بن مفرغ بن ذي العشيرة بن الحارث بن دلال بن عوف بن عمرو بن يزيد بن مرة بن مرثد بن مسروق بن يزيد بن يحصب الحميري – وبقية النسب من يحصب معروفة فلا حاجة إلى ذكرها – هكذا ساق هذا النسب ابن الكلبي في كتاب " جمهرة النسب " غير أنه لم يذكر كنية يزيد، بل ذكرها صاحب " الأغاني "، وأكثر العلماء يقولون: هو يزيد بن ربيعة بن مفرغ ويسقطون زياداً.

وقال صاحب " الأغاني ": إنما لقب جده مفرغاً لأنه راهن على سقاء من لبن يشربه كله، فشربه حتى فرغه فسمي مفرغاً. وذكر في ترجمة حفيده السيد الحميري في كتاب " الأغاني " أيضاً أن ابن عائشة قال: مفرغ هو ربيعة، ومفرغ لقبه، ومن قال ربيعة بن مفرغ فقد أخطأ، والله أعلم. وقال الفضل بن عبد الرحمن النوفلي: كان مفرغ المذكور حداداً باليمن، فعمل لامرأة قفلاً وشرط عليها عند فراغه منه أن تجيئه بلبن كرش، ففعلت، فشرب منه ووضعه، فقالت له: رد علي الكرش، فقال: ما عندي شيء أفرغه فيه، قالت: لا بد منه، ففرغه في جوفه فقالت: إنك لمفرغ، فعرف به، وهو من حمير فيما يزعم أهله. وذكر ابن الكلبي وأبو عبيدة أن مفرغاً كان شعاباً بتبالة.

قلت، تبالة: بفتح التاء المثناة من فوقها وبعدها باء موحدة ثم ألف ولام وفي آخرها هاء، وهي بليدة على طريق اليمن للخارج من مكة، وهذا المكان كثير الخصب، له ذكر في الأخبار والأمثال والأشعار، وهي أول ولاية وليها الحجاج بن يوسف الثقفي، و لم يكن رآها قبل ذلك، فخرج إليها، فلما قرب منها سأله عنها، فقيل له إنها وراء تلك الأكمة، فقال: لا خير في ولاية تسترها أكمة، ورجع عنها محتقراً لها وتركها، فضربت العرب بها المثل وقالت للشيء الحقير: أهون من تبالة على الحجاج.

قال الراوي: فادعى يزيد أنه من حمير، وهو حليف آل خالد بن أسيد بن أبي العيص الأموي، وقيل إنه كان عبداً للضحاك بن عوف الهلالي، فأنعم عليه.

وكان يزيد شاعراً غزلاً محسناً.

والسيد الحميري الشاعر المشهور من ولده، وهو إسماعيل بن محمد بن بكار بن يزيد المذكور، كذا ذكره ابن ماكولا في كتاب " الإكمال " ولقبه السيد وكنيته أبو هاشم، وهو من كبار الشيعة، وله في ذلك أخبار وأشعار مشهورة.

ومن محاسن شعر يزيد المذكور قوله من جملة قصيدة يمدح بها مروان بن الحكم الأموي، وكان قد أحسن مروان إليه:

وأقمتم سوق الثناء ولم تكن	سوق الثناء تقام في الأسواق
فكأنما جعل الإله إليكم	قبض النفوس وقسمة الأرزاق

والبيت الأول من هذين البيتين تقدم ذكره في ترجمة يزيد بن مزيد بن زائدة الشيباني منسوباً إلى أحمد بن أبي فنن يمدح به خالد بن يزيد بن مزيد المذكور من جملة أبيات، والله أعلم بالصواب في ذلك.

ولما ولي سعيد بن عثمان بن عفان، رضي الله عنه، خراسان عرض على يزيد بن مفرغ أن يصحبه فأبى ذلك، وصحب عباد بن زياد بن أبيه، فقال له سعيد: أما إذ أبيت أن تصحبني وآثرت صحبة عباد فاحفظ ما أوصيتك به: إن عباداً رجل لئيم فإياك والدالة عليه وإن دعاك إليها من نفسه، فإنها خدعة منه لك عن نفسك، وأقلل زيارته فإنه ملول، ولا تفاخره وإن فاخرك فإنه لا يحتمل لك ما كنت أحتمله. ثم دعا سعيد بمال فدفعه له وقال له: استعن به على سفرك فإن صح لك مكانك من عباد، وإلا فمكانك عندي ممهد فائتني.

ثم سار إلى خراسان وخرج ابن مفرغ مع عباد، فلما بلغ عبيد الله بن زياد العراقين أمير العراقين صحبة يزيد أخاه عباداً شق عليه، فلما سار عباد شيعه أخوه عبيد الله وشيعه الناس وجعلوا يودعونه، فلما أراد عبد الله أن يودع أخاه دعا ابن مفرغ فقال له: إنك سألت عباداً أن يصحبك فأجابك، وقد شق علي، فقال له: و لم أصلحك الله؟ قال: لأن الشاعر لا يقنعه من الناس ما يقنع بعضهم من بعض، لأنه يظن فيجعل الظن يقيناً ولا يعذر في موضع العذر، وإن عباداً يقدم على أرض حرب فيشتغل بحروبه وخراجه عنك، فلا تعذره أنت وتكسونا شراً وعاراً، فقال له: لست كما ظن المير، وإن

لمعروفه عندي لشكراً كثيراً، وإن عندي إن أغفل أمري عذراً ممهداً، فقال: لا، ولكن تضمن لي إن أبطأ عنك ما تحبه أن لا تعجل عليه حتى تكتب إلي، قال: نعم، قال: امض إذاً على الطائر الميمون. قال: فقدم عباد خراسان، وقيل سجستان، فاشتغل بحروبه وخراجه، فاستبطأه ابن مفرغ ولم يكتب لأخيه عبيد الله بن زياد يشكوه كما ضمن له، ولكنه بسط لسانه فذمه وهجاه.

وكان عباد كبير اللحية كأنها جوالق، فسار ابن مفرغ مع عباد فدخلت الريح فيها فنفشتها، فضحك ابن مفرغ وقال لرجل من لخم كان إلى جانبه:

ألا ليت اللحى كانت حشيشا فنعلفها خيول المسلمينا

فسعى به اللخمي إلى عباد، فغضب من ذلك غضباً شديداً، وقال: لا تجمل بي عقوبته في هذه الساعة مع صحبته لي، وما أؤخرها إلا لأشفي نفسي منه، فإنه كان يقوم فيشتم أبي في عدة مواضع.

وبلغ الخبر ابن مفرغ فقال: إني لأجد ريح الموت من عباد، ثم دخل عليه فقال: أيها الأمير، إني قد كنت مع سعيد بن عثمان، وقد بلغك رأيه في وجميل أثره علي، وقد اخترتك عليه فلم أحظ منك بطائل، وأريد أن تأذن لي بالرجوع فلا حاجة لي في صحبتك، فقال له: أما اختيارك إياي فقد اخترتك كما اخترتني، واستصحبتك حين سألتني، وقد أعجلتني عن بلوغ حجتي فيك، وطلبت الإذن لترجع إلى قومك فتفضحني فيهم وأنت على الإذن قادر بعد أن أقضي حقك.

وبلغ عباداً أنه يسبه ويذكره وينال من عرضه، فدس إلى قوم كان لهم عليه دين أن يقدموه إليه، ففعلوا فحبسه وأضر به، ثم بعث إليه بعني الراكة وبرداً، وكانت الراكة قينة لابن مفرغ، وبرد غلامه، رباهما وكان شديد الضن بهما، فبعث إليه ابن مفرغ مع الرسول: أيبيع المرء نفسه وولده؟ فأخذهما عباد منه، وقيل أنه باعهما عليه، فاشتراهما رجل من أهل خراسان. فلما دخلا منزله قال له برد، وكانت داهية أديباً: أتدري ما اشتريت؟ قال: نعم اشتريتك وهذه الجارية، قال: لا والله، ما اشتريت إلا العار والدمار والفضيحة أبداً ما حييت، فجزع الرجل وقال له: كيف ذاك ويلك؟ قال: نحن ليزيد بن مفرغ، ووالله ما أصاره إلى هذه الحال إلا لسانه وشره، أفتراه يهجو عباداً وهو أمير خراسان، وأخوه عبيد الله أمير العراقين، وعمه الخليفة معاوية بن أبي سفيان في أن استبطأوه، ويمسك عنك وقد ابتعتني وابتعت هذه الجارية وهي نفسه التي بين جنبيه؟ ووالله ما أرى أحداً أدخل بيته أشأم على نفسه وأهله ما أدخلته منزلك، فقال: أشهدك أنك وإياها له، فإن شئتما أن تمضيا إليه فامضيا، وعلى أني أخاف على نفسي إن بلف ذلك ابن زياد، وإن شئتما أن تكونا له عندي فافعلا، قال: فاكتب إليه بذلك، فكتب الرجل إلى ابن مفرغ إلى الحبس بما فعله، فكتب إليه يشكر فعله، وسأله أن يكونا عنده حتى يفرج الله عنه.

وقال عباد لحاجبه: ما أرى هذا، يعني ابن مفرغ، يبالي بالمقام في الحبس، فبع فرسه وسلاحه وأثاثه واقسم ثمنها بين غرمائه، ففعل ذلك وبقيت عليه بقية حبسه بها، فقال ابن مفرغ في بيعهما:

شريت برداً ولو ملكت صفقته لما تطلبت في بيعٍ له رشدا

لولا الدعي ولولا ما تعرض لي من الحوادث ما فارقته أبدا

يا برد ما مسنا دهر أضر بنا من قبل هذا ولا بعنا له ولدا

معنى شريت: بعت، وهو من الأضداد يقع على الشراء والبيع. والأبيات أكثر من هذا فتركت الباقي.

وعلم ابن مفرغ أنه إن أقام على ذم عباد وهجائه وهو في حبسه زاد في نفسه شراً، فكان يقول للناس إذا سألوه عن حبسه ما سببه: رجل أدبه أميره ليقوم من أوده ويكف من غربه، وهذا لعمري خير من جر الأمير ذيله على مداهنة صاحبه. فلما بلغ ذلك عباد رق له وأخرجه من السجن، فهرب حتى أتى البصرة ثم خرج منها إلى الشام، وجعل يتنقل في مدنها هارباً ويهجو زياداً وولده، فمن ذلك قوله في ترك سعيد بن عثمان بن عفان، رضي الله عنه، وأتباعه عباد بن زياد ويذكر بيع برد عليه:

أصرمت حبلك من أمامه من بعد أيامٍ برامه

فالريح تبكي شجوها	والبرق يضحك في الغمامه
لهفي على الأمر الذي	كانت عواقبه ندامه
تركي سعيداً ذا الندى	والبيت ترفعه الدعامه
ليثاً إذا شهد الوغى	ترك الهوى ومضى أمامه
فتحت سمرقند له	وبنى بعرصتها خيامه
وتبعت عبد بني علا	جٍ، تلك أشراط القيامه
جاءت به حبشية	سكاء تحسبها نعامه
من نسوةٍ سود الوجو	ه ترى عليهن الدمامه
وشريت برداً ليتني	من بعد بردٍ كنت هامه
هامة إذ تدعو صدى	بين المشقر واليمامه
فالهول يركبه الفتى	حذر المخازي والمآمه
والعبد يقرع بالعصا	والحر تكفيه الملامه

قلت، قوله: وتبعت عبد بني علاج، بنو علاج بطن من ثقيف – وسيأتي ذكره عند ذكر الحارث بن كلدة في هذه الترجمة إن شاء الله – قاله أبو بكر بن دريد في كتاب " الاشتقاق " وأنشد عليه:

آل أب بكارة استفيقوا	هل تعدل الشمس بالسراج
إن ولاء النبي أعلى	من دعوةٍ في بني علاج

وهذا القول له سبب يذكر عند أبي بكرة نفيع بن الحارث في هذه الترجمة، إن شاء الله تعالى.

وقوله في البيت الآخر: سكاء تحسبها نعامة، يقال أذن سكاء، إذا كانت صغيرة، والسكاء أيضاً التي لا أذن لها، والعرب تقول: كل سكاء تبيض، وكل شرفاء تلد، والشرفاء: التي لها أذن طويلة، والسكاء، بفتح السين المهملة وتشديد الكاف، والشرفاء، بفتح الشين المعجمة وسكون الراء وبعدها فاء، والضابط عندهم فيه أن كل حيوان له أذن ظاهرة فإنه يلد، وكل حيوان ليست له أذن ظاهرة فإنه يبيض.

قال الراوي: ثم إن ابن مفرغ في هجاء بني زياد، حتى تغنى أهل البصرة في أشعاره، فطلبه عبيد الله طلباً شديداً حتى كاد يؤخذ، فلحق بالشام واختلف الرواة فيمن رده إلى ابن زياد، فقال بعضهم: رده معاوية بن أبي سفيان، وقال بعضهم: بل رده زيد بن معاوية، والصحيح أنه يزيد لأن عباداً إنما ولي سجستان في أيام يزيد.

قلت: ثم ذكر صاحب " الأغاني " عقيب هذا الفصل أن سعيد بن عثمان بن عفان، رضي الله عنه، دخل على معاوية بن أبي سفيان فقال له: علام جعلت ولدك يزيد ولي عهدك دوني؟ فوالله لأبي خير من أبيه وأمي خير من أمه وأنا خير منه، وقد وليناك فما عزلناك وبنا نلت ما نلت، فقال له معاوية: أما قولك إن أباك خير من أبيه فقد صدقت، لعمر الله إن عثمان لخير مني، وأما قولك إن أمك خير من أمه فحسب المرأة أن تكون في بيت قومها وأن يرضاها بعلها وينجب ولدها، وأما قولك إنك خر من يزيد، فوالله يا بني ما يسرني أن لي بيزيد ملء الغوطة مثلك، وأما قولك: إنكم وليتموني فما عزلتموني، فما وليتموني وإنما ولاني من هو خير منكم عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فأقررتموني، وما كنت بئس الوالي لكم، لقد

قمت بثأركم وقتلت قتلة أبيكم وجعلت الأمر فيكم، وأغنيت فقيركم ورفعت الوضيع منكم، فكلمه يزيد في أمره فولاه خراسان.

رجعنا إلى حديث ابن مفرغ: قال الراوي: و لم يزل يتنقل في قرى الشام ويهجو بني زياد، وأشعاره تنقل إلى البصرة. فكتب عبيد الله بن زياد أمير العراقين إلى معاوية – وقيل يزيد وهو الأصح – يقول: إن ابن مفرغ هجا زياداً وبني زياد بما هتكه في قبره وفضح بنية طول الدهر، وتعدى إلى أبي سفيان فقذفه بالزنا وسب ولده، وهرب من سجستان وطلبته حتى لفظته الأرض، وهرب من الشام يتمضغ لحومنا ويهتك أعراضنا، وقد بعثت إليك بما هجانا به لتنتصف لنا منه. ثم بعث بجميع ما قاله ابن مفرغ فيهم، فأمر يزيد بطلبه، فجعل يتنقل في البلاد حتى لفظته الشام، فأتى البصرة ونزل على الأحنف بن قيس – قلت: وهو الذي يضرب به المثل في الحلم، وقد سبق ذكره واسمه الضحاك – قال: فاستجار به، فقال له الأحنف: إني لا أجير على ابن سمية فأغرك، وإنما يجير الرجل على عشيرته وأما على سلطانه فلا. ثم إنه مشى على غيره فلم يجره أحد، فأجاره المنذر بن الجارود العبدي، وكانت ابنته تحت عبيد الله بن زياد، وكان المنذر من أكرم الناس عليه، فاغتر بذلك وأدل بموضعه منه، وطلبه عبيد الله وقد بلغه وروده من البصرة، فقيل له: أجاره المنذر بن الجارود، فبعث عبيد الله إلى المنذر فأتاه، فلما دخل عليه بعث عبيد الله بالشرط فكبسوا داره وأتوه بابن مفرغ، فلم يشعر ابن الجارود إلا بابن مفرغ قد أقيم على رأسه، فقام ابن الجارودي إلى عبيد الله فكلمه فيه، فقال: أذكرك الله أيها الأمير أن تخفر جواري فإني قد أجرته، فقال عبيد الله: يا منذر، الله، ليمدحن أباك ويمدحنك وقد هجاني وهجا آبي ثم تجيره علي!! لاها الله، لا يكون ذلك أبداً ولا أغفرها له، فغضب المنذر، فقال له: لعلك تدلي بكريمتك عندي، إن شئت والله لأبيتها بتطليق البتة؛ فخرج المنذر من عنده.

وأقبل عبيد الله على ابن مفرغ فقال له: بئس ما صحبت به عباداً، فقال: بل بئس ما صحبني عباد، اخترته على سعيد بن عثمان وأنفقت على صحبته جميع ما أملكه، وظننت أنه لا يخلو من عقل زياد وحلم معاوية وسماحة قريش، فعدل عن ظني كله، ثم عاملني بكل قبيح وتناولتني بكل مكروه من حبس وغرم وشتم وضرب، فكنت كمن شام برقاً خلباً في سحاب جهام فأراق ماءه طمعاً فيه فمات عطشاً، وما هربت من أخيك إلا لما خفت أن يجري في ما يندم عليه، وقد صرت الآن في يديك فشأنك فاصنع بي ما شئت. فأمر بحبسه وكتب إلى يزيد بن معاوية يسأله أن يأذن له في قتله، فكتب إليه يزيد: إياك وقتله، ولكن تناوله بما ينكله ويشد سلطانك ولا يبلغ نفسه، فإن له عشيرة هي جندي وبطانتي ولا ترضى بقتله مني ولا تقنع إلا بالقود منك، فاحذر ذلك واعلم أنه الجد منهم ومني وأنك مرتهن بنفسه، ولك في دون تلفها مندوحة تشفي من الغيظ. فورد الكتاب على عبيد الله، فأمر بابن مفرغ فسقي نبيذاً حلواً قد خلط معه الشبرم، وقيل التربذ فأسهل بطنه فطيف به وهو على تلك الحال، وقرن بهرة وختريرة، فجعل يسلح والصبيان يتبعونه ويصيحون، وألح عليه ما يخرج منه حتى أضعفه فسقط، فقيل لعبيد الله: لا نأمن أن يموت، فأمر به أن يغسل، ففعلوا، فلما اغتسل قال:

يغسل الماء ما فعلت وقولي	راسخ منك في العظام البوالي

فرده عبيد الله إلى الحبس، وقيل لعبيد الله: كيف اخترت له هذه العقوبة؟ فقال: لأنه سلح علينا، فأحببت أن تسلح الختريرة عليه.

وكان مما قال ابن مفرغ في عباد بن زياد من جملة أبيات عديدة:

إذا أودى معاوية بن حرب	فبشر شعب تغبك بالصداع
فأشهد أن أمك لم تباشر	أبا سفيان واضعة القناع
ولكن كان أمراً فيه لبس	على وجلس شديدٍ وارتياع

وقال أيضاً:

ألا أبلغ معاوية بن صخر	مغلغلة عن الرجل اليماني
أتغضب أن يقال أبوك عف	وترضى أن يقال أبوك زاني

فأشهد أن رحمك من زياد كرحم الفيل من ولد الأتان

وأشهد أنها ولدت زياداً وصخر من سمية غير دان

قلت، قوله: فأشهد أن رحمك من زياد، البيت الثالث، أخذه من قول أبي الوليد، وقيل أبي عبد الرحمن، حسان بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه، في بيت من جملة أبيات وهي قوله:

لعمرك إن إلك من قريشٍ كإل السقب من رأل النعام

الإل: بكسر الهمزة وتشديد اللام، وهو الرحم، والسقب: بفتح السين المهملة وسكون القاف وبعدها باء موحدة، وهو الذكر من ولد الناقة، والرأل: بفتح الراء وبعدها همزة وفي آخره لام، وهو ولد النعام.

وهذه الأبيات قالها حسان في أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب بن الهاشم، وهو ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم، وكان أخاه من الرضاعة، أرضعتهما حليمة ابنة أبي ذؤيب السعدية، وكان من أكثر الناس شبهاً برسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان له فيه هجاء، وكان حسان يجاوب عنه، فمن ذلك الأبيات الميمية – المقدم ذكرها – ومنها قوله:

ألا أبلغ أبا سفيان عني مغلغلةً فقد برح الخفاء

هجوت محمداً فأجبت عنه وعند الله في ذاك الجزاء

أتهجوه ولست له بكفءٍ فشركما لخيركما الفداء

فإن أبي ووالده وعرضي لعرض محمدٍ منكم وقاء

وقوله: فشركما لخيركما الفداء، فيه كلام لأهل العلم لأجل شر وخير لأنهما من أداة التفضيل، وتقتضي المشاركة.

وإنما أجابه حسان بأمر النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك.

قلت: والجماعة الذين كانوا يشبهون رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهله خمسة: أبو سفيان المذكور والحسن بن علي بن أبي طالب وجعفر بن أبي طالب وقثم بن العباس بن عبد المطلب والسائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف، وهو جد الإمام الشافعي، رضي الله عنهم أجمعين.

ثم إن أبا سفيان أسلم عام الفتح، وكان ذلك في السنة الثامنة من الهجرة، وحسن إسلامه، وخرج مع النبي صلى الله عليه وسلم إلى الطائف وحنين.

ولما انهزم المسلمون يوم حنين كان أبو سفيان أحد السبعة الذين ثبتوا مع النبي صلى الله عليه وسلم حتى رجع إليهم المسلمون وكانت النصرة لهم وكسبوا من الغنائم ستة آلاف رأس من الرقيق. ثم منّ النبي صلى الله عليه وسلم عليهم فأطلقهم، والشرح في ذلك يطول وليس هذا موضعه. وكان أبو سفيان المذكور يومئذ ممسكاً لجام بغلة النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يفارقها، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: إني لأرجو أن يكون فيه خلف من حمزة بن عبد المطلب، وشهد له بالجنة فقال: أبو سفيان بن الحارث من شباب أهل الجنة، أو سيد فتيان أهل الجنة، والله أعلم. وأكثر العلماء يقولون: اسمه كنيته ليس له اسم سواها، وقيل إن اسمه المغيرة، وقيل المغيرة أخوه، وهو أبو سفيان لا غير. ويقال إنه ما رفع رأسه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ أسلم حياء منه لما تقدم من هجائه.

رجعنا إلى حديث ابن مفرغ: وهو من شعراء الحماسة، وهو القائل:

ألا طرقتنا آخر الليل زينب عليك سلام هل لما فات مطلب

قيل أراد بالليل الشباب.

وقالت تجنبنا و لا تقربننا | فكيف وأنتم حاجتي أتجنب
يقولون :هل بعد الثلاثين ملعب | فقلت :وهل قبل الثلاثين ملعب
لقد جل خطب الشيب إن كان كلما | بدت شيبة يعرى من اللهو مركب

وذكر المظفري الأندلسي في تاريخه الكبير في جملة هذه الأبيات:

فلو أن لحمي إذ وهى لعبت به | كرام ملوكٍ أو أسود وأذؤب
لهون من وجدي وسلى مصيبتي | ولكنما أودى بلحمي أكلب

ولما بلغ الحسين بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنهما، وفاة معاوية بن أبي سفيان وبيعة ولده يزيد بن معاوية عزم على قصد الكوفة بمكاتبة جماعة من أهلها كما هو مشهور في هذه الواقعة التي قتل فيها الحسين رضي الله عنه، فكان في تلك المدة يتمثل كثيراً بقول يزيد بن مفرغ المذكور من جملة أبيات:

لا ذعرت السوام في غلس الصب | ح مغيراً ولا دعيت يزيدا
يوم أعطي على مخافة ضيماً | والمنايا يرصدنني أن أحيدا

فعلم من سمع ذلك منه أنه سينازع يزيد بن معاوية في الأمر. فخرج الحسين إلى الكوفة وأميرها يومئذ عبيد الله بن زياد، فلما قرب منها سير إليه جيشاً مقدمه عمر بن سعد بن أبي وقاص، رضي الله عنه فقتل الحسين رضي الله عنه بالطف، وجرى ما جرى.

وروي أن معاوية بن أبي سفيان كتب إلى الحسين رضي الله عنه: إني لأظن في رأسك نزوة، ولا بد لك من إظهارها، وددت لو أدركتها فأغتفرها لك.

وروي عن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أنه قال: لو كنت من قتلة الحسين وغفر الله لي وأدخلني الجنة لما دخلتها حياء من رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقال عبيد الله بن زياد لحارثة بن بدر الغداني: ما تقول فيّ وفي الحسين يوم القيامة، قال: يشفع له أبوه وجده صلى الله عليه وسلم، ويشفع لك أبوك وجدك، فاعرف من هاهنا ما تريد.

نقلت من كتاب تاريخ شمس الدين أبي المظفر يوسف بن قزعلي المعروف بسبط الحافظ جمال الدين أبي الفرج ابن الجوزي الواعظ الذي سماه " مرآة الزمان " ورأيته بخطه في أربعين مجلداً بدمشق، وقد رتبه على السنين فقال، في السنة التاسعة والخمسين للهجرة، بعد أن قص حديث يزيد بن مفرغ مع بني زياد، فقال في آخر الحديث: ومات يزيد بن مفرغ في سنة تسع وستين يعني للهجرة، والله أعلم.

وقال أبو اليقظان في كتاب " النسب ": مات عباد بن زياد في سنة مائة للهجرة بجرود.

قلت، وجرود: بفتح الجيم وضم الراء وسكون الواو وبعدها دال مهملة، وهي قرية من أعمال دمشق من جهة حمص، ويكون في أرضها من حمير الوحش شيء كثير يجاوز الحصر، ولما وصل بعض عسكر الديار المصرية إلى الشام في أثناء سنة ستين وستمائة وتوجهوا بعسكر الشام إلى أنطاكية، وكنت يومئذ بدمشق، أقاموا عليها قليلاً، ثم عادوا فدخلوا دمشق في سلخ شعبان من السنة، وأخبرني بعضهم بقضية غريبة يصلح أن تذكر هاهنا لغرابتها، وهي أنهم نزلوا على جرود المذكورة، واصطادوا من الحمر الوحشية شيئاً كثيراً على ما قالوا، فذبح واحد من الجماعة حماراً وطبخ لحمه الطبخ المعتاد، فلم ينضج ولا قارب النضج، فزاد في الحطب والإيقاد فلم يؤثر فيه شيئاً، ومكث يوماً كاملاً يفعل ذلك وهو لا يفيد، فقام شخص من الجند واخذ الرأس يقلبه فوجد على أذنه وسماً فقرأه، فإذا هو " بهرام جور" فلما وصلوا إلى دمشق أحضروا تلك الأذن عندي، فوجدت الوسم ظاهراً، وقد رق شعر الأذن إلى أن بقي كالهباء وبقي موضع الوسم أسود، وهو بالقلم الكوفي.

وهذا بهرام جور من ملوك الفرس، وكان قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم بزمان طويل، وكان من عاداته أنه إذا كثر عليه ما يصطاده وسمه وأطلقه، والله أعلم كم كان عمر ذلك الحمار لما وسمه، والله يعلم لو تركوه و لم يذبحوه كم كان يعيش. وعلى الجملة فإن حمار الوحش من الحيوانات

المعمرة، وهذا الحمار لعله عاش ثمانمائة سنة أو أكثر.

وهذه جرود في أرضها جبا المدخن المشهور، وقد ذكره أبو نواس في قصيدته التي ذكر فيها المنازل لما قصد الخصيب بمصر فقال:

ووافين إشراقاً كنائس تدمرٍ وهن إل رعن المدخن صور

والمدخن: بضم الميم وبالدال المهملة وفتح الخاء المعجمة المشددة وبعدها نون، وسمي المدخن لأنه لا يزال عليه مثل الدخان من الضباب.

ثم بعد هذا وجدت في كتاب " مفاتيح العلوم " تأليف محمد بن أحمد بن محمد بن يوسف الخوارزمي بن بهرام بن سابور الجنود بن سابور ذو الأكتاف، سمي بهرام حور لأنه كان مولعاً بصيد العير، وهو الحمار الوحشي والأهلي أيضاً، انتهى كلامه، ثم إني حسبت مدة ملكهم بعد هذا فكانت إلى سنة الهجرة النبوية مقدار مائتين وست عشرة سنة، فقد عاش هذا الحمار منذ وسمه بهرام جور إلى أن ذبح في سنة ستين وستمائة مقدار ثمانمائة وأكثر، والله أعلم.

قلت: وقد تكرر في هذه الترجمة حديث زياد وبنيه وسمية وأبي سفيان ومعاوية، وهذه الأشعار التي قالها يزيد بن مفرغ فيهم، ومن لا يعرف هذه الأسباب قد يتشوف إلى الاطلاع عليها، فنورد منها شيئاً مختصراً، فأقول: إن أبا الجبر الملك الذي ذكره أبو بكر ابن دريد في المقصورة المشهورة في البيت الذي يقوله فيها، وهو:

وخامرت نفس أبي الجبر الجوى حتى حواه الحتف فيمن قد حوى

كان أحد ملوك اليمن واسمه كنيته، وقيل هو أبو الجبر يزيد بن شرحبيل الكندي، وقيل أبو الجبر بن عمرو، وتغلب عليه قومه فخرج إلى بلاد فارس يستجيش كسرى عليهم فبعث معهم جيشاً من الساورة، فلما صاروا إلى كاظمة ونظروا إلى وحشة بلاد العرب وقلة خيرها قالوا: إلى أين نمضي مع هذا؟ فعمدوا إلى سم فدفعوه إلى طباخه، ووعدوه بالإحسان إليه إن ألقى ذلك السم في طعام الملك ففعل ذلك، فما استقر الطعام في جوفه حتى اشتد وجعه، فلما علم الأساورة ذلك دخلوا عليه فقالوا له: إنك قد بلغت إلى هذه الحالة، فاكتب لنا إلى الملك كسرى أنك قد أذنت لنا في الرجوع، فكتب لهم بذلك؟.

ثم إن أبا الجبر خف ما به، فخرج إلى الطائف، البليدة التي بالقرب من مكة، وكان بها الحارث بن كلدة طبيب العرب الثقفي، فعالجه فأبرأه، فأعطاه سمية – بضم السين المهملة وفتح الميم وتشديد الياء المثناة من تحتها وفي آخره هاء – وعبيداً – بضم العين المهملة تصغير عبد – وكان كسرى قد أعطاهما أبا الجبر في جملة ما أعطاه، ثم ارتحل أبو الجبر يريد اليمن، فانتفضت عليه العلة فمات في الطريق.

ثم إن الحارث بن كلدة الثقفي زوج عبيداً المذكور سمية المذكورة فولدت سمية زياداً على فراش عبيد، وكان يقال له زياد بن عبيد، وزياد بن سمية، وزياد بن أبيه، وزياد بن أمه، وذلك قبل أن يستلحقه معاوية – كما سيأتي إن شاء الله تعالى – وولدت سمية أيضاً أبا بكرة نفيع بن الحارث بن كلدة المذكور، ويقال نفيع بن مسروح، وهو الصحابي المشهور بكنيته رضي الله عنه، وولدت أيضاً شبل بن معبد ونافع بن الحارث، وهؤلاء الإخوة الأربعة هم الذين شهدوا على المغيرة بن شعبة بالزنا – وسيأتي خبر ذلك بعد الفراغ من حديث زياد إن شاء الله تعالى، وكان أبو سفيان صخر بن حرب الأموي والد معاوية بن أبي سفيان يتهم في الجاهلية بالترداد إلى سمية المذكورة، فولدت سمية زياداً في تلك المدة، لكنها ولدته على فراش زوجها عبيد.

ثم إن زياداً كبر وظهرت منه النجابة والبلاغة، وهو أحد الخطباء المشهورين في العرب بالفصاحة والدهاء والعقل الكثير حتى إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان قد استعمل أبا موسى الأشعري رضي الله عنه على البصرة، فاستكتب زياد ابن أبيه ثم إن زياداً قدم على عمر رضي الله عنه من عند أبي موسى، فأعجب به عمر رضي الله عنه، فأمر له بألف درهم، ثم تذكرها بعدما مضى فقال: لقد ضاع ألف أخذها زياد، فلما قدم عليه بعد ذلك قال له: ما فعل ألفك يا زياد؟ قال: اشتريت بها عبيداً فأعتقته، يعني أباه، قال: ما ضاع ألفك يا زياد، هل أنت حامل كتابي إلى أبي موسى في عزلك عن كتابته؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، إن لم يكن ذلك عن سخطة، قال: ليس عن سخطة، قال: فلم تأمره بذلك؟ قال: كرهت أن أحمل على الناس فضل عقلك.

واستكتب أبو موسى بعد زياد أبا الحصين ابن أبي الحر العنبري، فكتب إلى عمر رضي الله عنه كتاباً فلحن في حرف منه، فكتب إليه أن قنع كاتبك سوطاً.

وكان عمر رضي الله عنه إذا وفد إليه من البصرة رجل أحب أن يكون زياداً ليشفيه من الخبر. وكان عمر رضي الله عنه قد بعثه في إصلاح فساد وقع باليمن، فرجع من وجهه، وخطب خطبة لم يسمع الناس مثلها، فقال عمرو بن العاص: أما والله لو كان هذا الغلام من قريش لساق العرب بعصاه، فقال أبو سفيان: والله إني لأعرف الذي وضعه في رحم أمه، فقال له علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ومن هو يا أبا سفيان؟ قال: أنا، قال: مهلاً أبا سفيان، فقال أبو سفيان:

أما والله لولا خوف شخصٍ	يراني يا علي من الأعادي
لأظهر سره صخر بن حربٍ	ولم يكن المقالة عن زياد
وقد طالت مجاملتي ثقيفاً	وتركي فيهم ثمر الفؤاد

فلما صار الأمر إلى علي رضي الله عنه وجه زياداً إلى فارس، فضبط البلاد وحمى وجبى وأصلح الفساد، فكاتبه معاوية يروم إفساده على علي، رضي الله عنه، فلم يفعل ووجه بكتابه إلى علي وفيه شعر تركته، فكتب إليه علي: إنما وليتك ما وليتك وأنت أهل لذلك عندي، ولن تدرك ما تريده مما أنت فيه إلا بالصبر واليقين، وإنما كانت من أبي سفيان فلتة زمن عمر رضي الله عنه لا تستحق بها نسباً ولا ميراثاً، وإن معاوية يأتي المرء من بين يديه ومن خلفه فاحذره ثم احذره، والسلام. فلما قرأ زياد الكتاب قال: شهد لي أبو الحسن ورب الكعبة، فذلك الذي جرأ زياداً ومعاوية على ما صنعا.

فلما قتل علي رضي الله عنه، وتولى ولده الحسن رضي الله عنه، ثم فوض الأمر إلى معاوية كما هو مشهور، أراد معاوية استمالة زياد إليه وقصد تأليف قلبه ليكون معه كما كان مع علي، رضي الله عنه، فتعلق بذلك القول الذي صدر من أبيه بحضرة علي وعمرو بن العاص، فاستلحق زياداً في سنة أربع وأربعين للهجرة، فصار يقال له زياد بن أبي سفيان. فلما بلغ أخاه أبا بكرة أن معاوية استلحقه وأنه رضي ذلك حلف يميناً أن لا يكلمه أبداً، وقال: هذا زنى أمه وانتفى أبيه، والله ما علمت سمية رأت أبا سفيان قط، ويله ما يصنع بأم حبيبة بنت أبي سفيان زوج النبي صلى الله عليه وسلم، أيريد أن يراها، فإن حجبته فضحته وإن رآها فيا لها مصيبة، يهتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم حرمةً عظيمة. وحج زياد في زمن معاوية ودخل المدينة، فأراد الدخول على أم حبيبة لأنها أخته على زعمه وزعم معاوية، ثم ذكر قول أخيه أبي بكرة، فانصرف عن ذلك. وقيل إن أم حبيبة حجبته و لم تأذن له في الدخول عليها، وقيل إنه حج و لم يزر من أجل قول أبي بكرة، وقال: جزى الله أبا بكرة خيراً، فما يدع النصيحة على حال. وقدم زياد على معاوية وهو نائب عنه وحمل معه هدايا جليلة، من جملتها عقد نفيس، فأعجب به معاوية، فقال زياد: يا أمير المؤمنين، دوخت لك العراق، وجبيت لك برها وبحرها وحملت إليك لبها وسرها، وكان يزيد بن معاوية جالساً فقال له: أما إنك إذ فعلت فإنا نقلناك من ثقيف إلى قريش، ومن عبيد إلى أبي سفيان، ومن القلم إلى المنابر، فقال له معاوية: وريت بك زنادي.

وقال أبو الحسن المدائني: أخبرنا أبو الزبير الكاتب عن ابن إسحاق قال: اشترى زياد أباه عبيداً، فقدم زياد على عمر رضي الله عنه، فقال له: ما صنعت بأول شيء أخذت من عطائك؟ قال: اشتريت به أبي، قال: فأعجب ذلك عمر رضي الله عنه، وهذا ينافي استلحاق معاوية إياه، والله أعلم.

ولما ادعى معاوية زياداً دخل عليه بنو أمية، وفيهم عبد الرحمن بن الحكم أخو مروان بن الحكم الأموي، فقال: يا معاوية، لو لم تجد إلا الزنج لاستكثرت بهم علينا قلةً وذلة، فأقبل معاوية على أخيه مروان بن الحكم وقال: أخرج عنا هذا الخليع، فقال مروان: والله إنه لخليع ما يطاق، قال معاوية: والله لولا حلمي وتجاوزي لعلمت أنه يطاق، ألم يبلغني شعره فيّ وفي زياد؟ ثم قال لمروان: أسمعنيه، فقال:

ألا أبلغ معاوية بن صخر	لقد ضاقت بما تأتي اليدان
أتغضب أن يقال أبوك عف	وترضى أن يقال أبوك زان

وقد تقدم ذكر بقية هذه الأبيات منسوبةً إلى يزيد بن مفرغ، وفيها خلاف هل هي ليزيد بن مفرغ أم لعبد الرحمن بن الحكم، فمن رواها لابن مفرغ روى البيت الأول على تلك الصورة، ومن رواها لعبد الرحمن بن الحكم رواها على هذه الصورة.

ولما استلحق معاوية زيداً وقربه وأحسن إليه وولاه، صار من أكبر الأعوان على بني علي ابن أبي طالب، رضي الله عنه، حتى قيل إنه لما كان أمير العراقين طلب رجلاً من أصحاب الحسن بن علي رضي الله عنهما يعرف بابن سرح وكان في الأمان الذي كتب لأصحاب الحسن رضي الله عنه لما نزل عن الخلافة لمعاوية، فكتب الحسن إلى زياد: من الحسن إلى زياد، أما بعد، فقد علمت ما كنا أخذنا لأصحابنا من الأمان، وقد ذكر لي ابن سرح أنك عرضت له فأحب أن لا تعرض له إلا بخير، والسلام. فلما أتاه الكتاب وقد بدأ فيه بنفسه، و لم ينسبه إلى أبي سفيان غضب وكتب إليه: من زياد بن أبي سفيان إلى الحسن، أما بعد، فإنه أتاني كتابك في فاسق تؤويه الفساق من شيعتك وشيعة أبيك، وايم الله لأطلبنه ولو كان بين جلدك ولحمك، وإن أحب الناس إلي لحماً أن آكله للحم أنت منه. فلما قرأه الحسن رضي الله عنه بعث به إلى معاوية، فلما قرأه غضب وكتب إلى زياد: من معاوية بن أبي سفيان إلى زياد، أما بعد، فإن الحسن بن علي بعث إلي كتابك إليه، جواب كتابه إليك في ابن سرح، فأكثرت التعجب منه، وقد علمت أن لك رأيين: رأي من أبي سفيان، ورأي من سمية، فأما رأيك من أبي سفيان فحلم وحزم، وأما رأيك من سمية فكما يكون رأي مثلها، ومن ذلك كتابك إلى الحسن تسميه وتعرض له بالفسق، ولعمري لأنت أولى بذلك منه، فإن كان الحسن بدأ بنفسه ارتفاعاً عنك فإن ذلك لن يضعك، وأما تركك تشفيعه فيما شفع فيه إليك فحظ دفعته عن نفسك إلى من هو أولى به منك، فإذا أتاك كتابي فخل ما بيدك لابن سرح ولا تعرض له فيه، فقد كتبت إلى الحسن يخيره: إن شاء أقام عنده وإن شاء رجع إلى بلده، وإنه ليس لك عليه سبيل بيد ولا لسان. وأما كتابك إلى الحسن باسمه ولا تنسبه إلى أبيه، فإن الحسن ويحك ممن لا يرمى به الرجوان، أفاستصغرت أباه، وهو علي بن أبي طالب؟ أم إلى أمه وكلته وهي فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فذلك أفخر له إن كنت عقلت، والسلام.

قوله: لا يرمى به الرجوان، بفتح الراء والجيم، وهو لفظ مثنى، ومعناه المهالك.

قلت: وقد رويت هذه الحكاية على صورة أخرى وهي: كان سعيد بن سرح مولى كريز بن حبيب بن عبد شمس من شيعة علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، فلما قدم زياد بن أبيه الكوفة والياً عليها أخافه وطلبه، فأتى المدينة ونزل على الحسين بن علي، رضي الله عنه، فقال له الحسين: ما السبب الذي أشخصك وأزعجك؟ فذكر له قضيته وصنيع زياد به، فكتب إليه الحسين: أما بعد فإنك عمدت إلى رجل من المسلمين، له ما لهم وعليه ما عليهم، فهدمت داره وأخذت ماله وعياله، فإذا أتاك كتابي هذا فابن له داره واردد عليه ماله وعياله، فإني قد أجرته فشفعني فيه، فكتب إليه زياد: من زياد بن أبي سفيان إلى الحسين بن فاطمة، أما بعد، فقد أتاني كتابك تبدأ فيه باسمك قبل اسمي وأنت طالب حاجة، وأنا سلطان وأنت سوقة، وكتابك إلي في فاسق لا يؤويه إلا فاسق مثله، وشر من ذلك توليه أباك، وقد آويته إقامةً منك على سوء الرأي ورضىً بذلك، وايم الله لا تسبقني إليه ولو كان بين جلدك ولحمك، فإن أحب لحم إلي أن آكله للحم أنت منه، فأسلمه بجريرته إلى من هو أولى به منك، فإن عفوت عنه لم أكن في شفعتك، وإن قتلته لم أقتله إلا بحبه أباك.

فلما قرأ الحسين، رضي الله عنه الكتاب كتب إلى معاوية يذكر له حال ابن سرح وكتابه إلى زياد فيه وإجابة زياد إياه، ولف كتابه في كتابه وبعث به إليه، وكتب الحسين إلى زياد: من الحسين بن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى زياد بن سمية عبد بني ثقيف " الولد للفراش وللعاهر الحجر ".

فلما قرأ معاوية كتاب الحسين، رضي الله عنه، ضاقت به الشام، وكتب إلى زياد: أما بعد، فإن الحسين بن علي بعث إلي بكتابك جواب كتابه إليك في ابن سرح، فأكثرت التعجب، وعلمت أن لك رأيين: أحدهما من أبي سفيان، وآخر من سمية، فأما الذي من أبي سفيان فحلم وحزم، وأما الذي من سمية فكما يكون رأي مثلها، ومن ذلك كتابك إلى الحسين تشتم أباه وتعرض له بالفسق، ولعمري لأنت أولى بالفسق من الحسين، ولأبوك إذا كنت تنسب إلى عبيد أولى بالفسق من أبيه، وإن كان الحسن بدأ بنفسه ارتفاعاً عنك فإن ذلك لم يضعك، وأما تشفيعه فيما شفع إليك فيه فحظ دفعته عن

نفسك إلى من هو أولى به منك، فإذا قدم عليك كتابي هذا فخل ما في يدك لسعيد بن سرح وابن له داره ولا تعذر له واردد عليه ماله، فقد كتبت إلى الحسين أن يخبر صاحبه بذلك، فإن شاء أقام عنده وإن شاء رجع إلى بلده، فليس لك عليه سلطان بيد ولا لسان. وأما كتابك إلى الحسين باسمه واسم أمه، لا تنسبه إلى أبيه، فإن الحسين ويلك ممن لا يرمى به الرجوان، إلى أمه وكلته لا أم لك؟ فهي فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فتلك أفخر له إن كنت تعقل، والسلام.

وقال عبيد الله بن زياد: ما هجيت بشيء أشد علي من قول ابن مفرغ:

فكر ففي ذاك إن فكرت معتبر ... هل نلت مكرمةً إلا بتأمير

عاشت سمية ما عاشت وما علمت ... أن ابنها من قريشٍ في الجماهير

وقال قتادة، قال زياد لبنيه وقد احتضر: ليت أباكم كان راعياً في أدناها وأقصاها و لم يقع بالذي وقع به.

قلت: فبهذا الطريق كان ينظم ابن مفرغ هذه الأشعار في زياد وبينه ويقول إنهم أدعياء، حتى قال في زياد وأبي بكرة ونافع أولاد سمية:

إن زياداً ونافعاً وأبا ... بكرة عندي من اعجب العجب

هم رجال ثلاثة خلقوا ... في رحم أنثى وكلهم لأب

ذا قرشي كما يقول، وذا ... مولى، وهذا بزعمه عربي

وهذه الأبيات تحتاج إلى زيادة إيضاح فأقول، قال أهل العلم بالأخبار: إن الحارث بن كلدة بن عمرو بن علاج بن أبي سلمة بن عبد العزى بن غيرة بن عوف بن قسي، وهو ثقيف - هكذا النسب ابن الكلبي في كتاب " الجمهرة " - وهو طبيب العرب المشهور، ومات في أول الإسلام، وليس يصح إسلامه؛ وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر سعد بن أبي وقاص أن يأتي الحارث يستوصفه في مرض نزل به، فدل ذلك على أنه جائز أن يشاور أهل الكفر في الطب إذا كانوا من أهله. وكان ولده الحارث بن الحارث من المؤلفة قلوبهم، وهو معدود في جملة الصحابة، رضي الله عنهم؛ ويقال، الحارث بن كلدة كان رجلاً عقيماً لا يولد له، وإنه مات في خلافة عمر رضي الله عنه.

ولما حاصر رسول الله صلى الله عليه وسلم الطائف، قال: أيما عبد تدلى إلي فهو حر، فتدلى أبو بكرة رضي الله عنه من الحصن في بكرة.

قلت: وهي بفتح الباء الموحدة وسكون الكاف وبعدها راء ثم هاء، وهي التي تكون على البئر، وفيها الحبل يستقى به، والناس يسمون بكرة، بفتح الكاف، وهو غلط، إلا أن صاحب كتاب " مختصر العين " حكاها بالفتح أيضاً، وهي لغة ضعيفة لم يحكها غيره؛ قال: فكناه رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكرة لذلك، وكان يقول: أنا مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وأراد أخوه نافع أن يدلي نفسه في البكرة أيضاً، فقال له الحارث بن كلدة: أنت ابني فأقم، فأقام ونسب إلى الحارث، وكان أبو بكرة قبل أن يحسن إسلامه ينسب إلى الحارث أيضاً. فلما حسن إسلامه ترك الانتساب إليه. ولما هلك الحارث بن كلدة لم يقبض أبو بكرة من ميراثه شيئاً تورعاً، هذا عند من يقول: إن الحارث أسلم، وإلا فهو محروم من الميراث لاختلاف الدين.

فلهذا قال ابن مفرغ الأبيات الثلاثة البائية، لأن زياداً ادعى أنه قرشي باستلحاق معاوية له، وأبو بكرة اعترف بولاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونافع كان يقول إنه ابن الحارث بن كلدة الثقفي، وأمهم واحدة، وهي سمية المذكورة. وهذا سبب نظم البيتين في آل أبي بكرة - كما تقدم ذكره - وعلاج جد الحارث بن كلدة كما ذكرته.

هذه قصة زياد وأولاده ذكرتها مختصرة. قلت: إلا أن قول ابن مفرغ في البيت الثاني " وكلهم لأب "، ليس بجيد، فإن زياداً ما نسبه أحد إلى الحارث بن كلدة، بل هو ولد عبيد، لأنه ولد على فراشه. وأما أبو بكرة ونافع فقد نسبا إلى الحارث، فكيف يقول: " وكلهم لأب " فتأمله.

وذكر ابن النديم في كتابه الذي سماه " الفهرست ": أن أول من ألف كتاباً في المثالب زياد ابن أبيه، فإنه لما طعن عليه وعلى نسبه عمل ذلك لولده، وقال لهم: استظهروا به على العرب فإنهم يكفون عنكم.

وأما حديث المغيرة بن شعبة الثقفي والشهادة عليه، فإن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان قد رتب المغيرة أميراً على البصرة، وكان يخرج من دار الإمارة نصف النهار، وكان أبو بكرة المذكور يلقاه فيقول: أين يذهب الأمير؟ فيقول: في حاجة، فيقول: إن الأمير يزار ولا يزور.
قالوا: وكان يذهب إلى امرأة يقال لها أم جميل بنت عمرو، وزوجها الحجاج بن عتيك بن الحارث بن وهب الجشمي. وقال ابن الكلبي في كتاب " جمهرة النسب ": هي أم جميل بنت الأفقم بن محجن بن أبي عمرو بن شعيثة بن الهزم، وعدادهم في الأنصار. وزاد غير ابن الكلبي فقال: الهزم بن رؤيبة بن عبد الله بن هلال بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن، والله أعلم.
قال الراوي: فبينما أبو بكرة في غرفة مع إخوته، وهم نافع وزياد المذكوران وشبل بن معبد، والجميع أولاد سمية المذكورة فهم إخوة لأم، وكانت أم جميل المذكورة في غرفة أخرى قبالة هذه الغرفة، فضربت الريح باب غرفة أم جميل ففتحته، ونظر القوم فإذا هم بالمغيرة مع المرأة على هيئة الجماع، فقال أبو بكرة: هذه بلية قد ابتليتم بها فانظروا، فنظروا حتى أثبتوا، فنزل أبو بكرة فجلس حتى خرج عليه المغيرة من بيت المرأة فقال له: إنه قد كان أمرك ما قد علمت فاعتزلنا، قال: وذهب المغيرة ليصلي بالناس الظهر، ومضى أبو بكرة فقال: لا والله لا تصلي بنا وقد فعلت ما فعلت، فقال الناس: دعوه فليصل فإنه الأمير، واكتبوا بذلك إلى عمر رضي الله عنه، فكتبوا إليه، فأمرهم أن يقدموا عليه جميعاً المغيرة والشهود، فلما قدموا عليه جلس عمر رضي الله عنه، فدعا بالشهود والمغيرة فتقدم أبو بكرة فقال له: رأيته بين فخذيها؟ قال: نعم والله لكأني أنظر إلى تشريم جدري فخذيها، فقال له المغيرة: لقد ألطفت في النظر، فقال له أبو بكرة: لم آل أن أثبت ما يخزيك الله به، فقال عمر رضي الله عنه: لا والله حتى تشهد لقد رأيته يلج فيها ولوج المرود في المكحلة، فقال: نعم أشهد على ذلك، فقال: فاذهب عنك مغيرة ذهب ربعك، ثم دعا نافعاً فقال له: علام تشهد؟ قال: على مثل شهادة أبي بكرة، قال: لا، حتى تشهد أنه ولج فيها ولوج الميل في المكحلة، قال: نعم حتى بلغ قذذه – قلت، القذذ بالقاف المضمومة وبعدها ذالان معجمتان وهي ريش السهم – قال الراوي: فقال له عمر رضي الله عنه: اذهب مغيرة ذهب نصفك، ثم دعا الثالث فقال له: على ما تشهد؟ فقال: على مثل شهادة صاحبي، فقال له عمر رضي الله عنه: اذهب عنك مغيرة ذهب ثلاث أرباعك.

ثم كتب إلى زياد، وكان غائباً فقدم، فلما رآه جلس له في المسجد واجتمع عنده رؤوس المهاجرين والأنصار، فلما رآه مقبلاً قال: إني أرى رجلاً لا يخزي الله على لسانه رجلاً من المهاجرين. ثم إن عمر رضي الله عنه رفع رأسه إليه فقال: ما عندك يا سلح الحبارى؟ فقيل إن المغيرة قام إلى زياد فقال: لا مخبأ لعطر بعد عروس – قلت: وهذا مثل للعرب لا حاجة إلى الكلام عليه، فقد طالت هذه الترجمة كثيراً، قال الراوي: فقال له المغيرة: يا زياد، اذكر الله تعالى واذكر موقف يوم القيامة، فإن الله تعالى وكتابه ورسوله وأمير المؤمنين قد حقنوا دمي، إلا أن تتجاوز إلى ما لم تر مما رأيت، فلا يحملنك سوء منظر رأيته على أن تتجاوز إلى ما لم تر، فوالله لو كنت بين بطني وبطنها ما رأيت أن يسلك ذكري فيها، قال فدمعت عينا زياد واحمر وجهه وقال: يا أمير المؤمنين أما إن أحق ما حق القوم فليس عندي، وكن رأيت مجلساً وسمعت نفساً حثيثاً وانتهازاً ورأيته مستبطنها، فقال عمر رضي الله عنه: رأيته يدخل كالميل في المكحلة؟ فقال: لا، وقيل قال زياد: رأيته رافعاً رجليها فرأيت رجليها خصبيه تتردد إلى بين فخذيها ورأيت حفزاً شديداً وسمعت نفساً عالياً، فقال عمر رضي الله عنه رأيت يدخله ويخرجه كالميل في المكحلة؟ فقال: لا، فقال عمر رضي الله عنه: الله أكبر قم إليهم فاضربهم، فقام إلى أبي بكرة فضربه ثمانين وضرب الباقين، وأعجبه قول زياد، ودرأ الحد عن المغيرة. فقال أبو بكرة بعد أن ضرب: أشهد أن المغيرة فعل كذا وكذا، فهم عمر رضي الله عنه أن يضربه حداً ثانياً، فقال له علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إن ضربته فارجم صاحبك، فتركه. واستتاب عمر أبا بكرة فقال: إنما تستتيبني لتقبل شهادتي، فقال: أجل، فقال: لا أشهد بين اثنين ما بقيت في الدنيا. فلما ضربوا الحد قال المغيرة: الله أكبر، الحمد لله الذي أخزاكم، فقال عمر رضي الله عنه: بل أخزى الله مكاناً رأوك فيه.
وذكر عمر بن شبة في كتاب " أخبار البصرة " أن أبا بكرة لما جلد أمرت أمه بشاة فذبحت وجعلت جلدها على ظهره، فكان يقال ما ذاك إلا من ضرب شديد. وحكى عبد الرحمن بن أبي بكرة أن أباه حلف لا يكلم زياداً ما عاش، فلما مات أبو بكرة كان قد أوصى أن لا يصلي عليه زياد وان يصلي عليه أبو برزة الأسلمي، وكان النبي صلى الله عليه وسلم آخى بينهما، وبلغ ذلك زياداً فخرج إلى الكوفة. وحفظ المغيرة بن شعبة ذلك لزياد وشكره.

ثم إن أم جميل وافقت عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالموسم، والمغيرة هناك فقال له عمر: أتعرف هذه المرأة يا مغيرة؟ قال: نعم هذه أم كلثوم بنت علي، فقال له عمر: أتتجاهل علي؟ والله ما أظن أبا بكرة كذب عليك، وما رأيتك إلا خفت أن أرمى بحجارة من السماء.

قلت: ذكر الشيخ أبو إسحاق الشيرازي في أول باب عدد الشهود في كتاب " المهذب ": وشهد على المغيرة ثلاثة: أبو بكرة ونافع وشبل بن معبد، وقال زياد: رأيت استاً تنبو ونفساً يعلو ورجلين كأنهما أذنا حمار، ولا أدري ما وراء ذلك، فجلد عمر الثلاثة و لم يحد المغيرة.

قلت: وقد تكلم الفقهاء على قول علي رضي الله عنه لعمر رضي الله عنه إن ضربته فارجم صاحبك، فقال أبو نصر ابن الصباغ – المقدم ذكره – وهو صاحب كتاب " الشامل " في المذهب: يريد أن هذا القول إن كان شهادة أخرى فقد تم العدد، وإن كان هو الأول فقد جلدته عليه، والله أعلم.

وذكر عمر بن شبة في " أخبار البصرة " أن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقطعني البحرين، فقال: ومن يشهد لك بذلك؟ قال: المغيرة بن شعبة، فأبى أن يجيز شهادته.

قلت وقد طالت هذه الترجمة، وسببه أنها اشتملت على عدة وقائع، فدعت الحاجة إلى الكلام على كل واحدة منها فانتشر القول لأجل ذلك، ما خلا عن فوائد.

يزيد بن الطثرية الشاعر المشهور

أبو المكشوح يزيد بن سلمة بن سمرة بن سلمة الخير بن قشير بن كعب بن ربيعة بن عامر، المعروف بابن الطثرية، الشاعر المشهور؛ هكذا ساق نسبه أبو عمرو الشيباني، وإنما قيل لجده " سلمة الخير " لأنه كان لقشير ولد آخر يقال له سلمة الشر، قال: وقد قيل إنه يزيد بن المنتشر بن سلمة. وذكر ابن الكلبي أنه يزيد بن الصمة أحد بني سلمة الخير بن قشير.

وذكر البصريون أنه من ولد الأعور بن قشير.

ذكر أبو الحسن علي بن عبد الله الطوسي في أول ديوان يزيد بن الطثرية المذكور، وكان الطوسي قد اعتنى به وجمعه، فقال: كان ابن الطثرية شاعراً مطبوعاً عاقلاً فصيحاً كامل الأدب وافر المروءة لا يعاب ولا يطعن عليه، وكان سخياً شجاعاً له أصل ومحل في قومه من قشير، وكان من شعراء بني أمية مقدماً عندهم.

وقال غير الطوسي: كان يزيد بن الطثرية يسمى مودقا، سمي بذلك لحسن وجهه وحسن شعره وحلاوة حديثه، فكانوا يقولون إنه إذا جلس بين النساء ودقهن – يقال استودقت المرأة وودقت إذا مالت إلى الفحل لأجل الجماع – والأصل في هذه اللفظة أن تكون لذوات الحافر، ثم نقلت إلى بني آدم، وهي بالدال المهملة والقاف، والمودق: هو الذي يجعل النساء يملن عليه – وكان يزيد كثيراً ما يجلس عند النساء ويتحدث معهن، ويقال إنه كان عنيناً لا يأتي النساء. وليس له عقب، وهو من أعيان الشعراء، ذكره أبو تمام الطائي في كتاب " الحماسة " في عدة مواضع، فمن ذلك قوله في باب النسيب:

عقيلية أما ملاث إزارها	فدعص وأما خصرها فبتيل
تقيظ أكناف الحمى ويظلها	بنعمان من وادي الأراك مقيل
أليس قليلاً نظرة إن نظرتها	إليك؟ وكل ليس منك قليل
فيا خلة النفس التي ليس دونها	لنا من أخلاء الصفاء خليل
ويا من كتمنا حبه لم يطع به	عدو ولم يؤمن عليه دخيل
أما من مقام أشتكي غربة النوى	وخوف العدا فيه إليك سبيل
فديتك أعدائي كثير، وشقتي	بعيد، وأشياعي لديك قليل
فلا تحمل ذنبي وأنت ضعيفة	فحمل دمي يوم الحساب ثقيل

وكنت إذا ما جئت جئت بعلة | فأفنيت علاتي فكيف أقول
فما كل يوم لي بأرضك حاجة | ولا كل يوم لي إليك رسول

وكان أبو الفرج الأصبهاني صاحب كتاب " الأغاني " قد جمع شعر يزيد بن الطثرية أيضاً في ديوان، وأورد له قوله.

ألا بأبي قد برى الجسم حبه | ومن هو موموق إلى حبيب
ومن هو لا يزداد إلا تشوقاً | وليس يرى عليه رقيب
وإني وإن أحموا علي كلامها | وحالت أعادٍ دوننا وحروب
لمثنٍ على ليلى ثناءً يزينها | قوافٍ بأفواه الرجال تطيب
أليلى أحذري نقض القوى لا يزل لنا | على النأي والهجران منك نصيب
وكوني على الواشين لداء شغبةً | كما أنا للواشي ألد شغوب
فإن خفت ألا تحكمي مرة الهوى | فردي فؤادي والمزار قريب

وأورد له أيضاً:

بنفسي من لو مر برد بنانه | على كبدي كانت شفاءً أنامله
ومن هابني في كل شيء وهبته | فلا هو يعطيني ولا أنا سائله

أما أبو الحسن الطوسي فإنه أورد له:

وإني لأستحيي من الله أن أرى | رديفاً لوصل أو علي رديف
وأن أرد الماء الموطا حنيه | وأتبع وصلاً منك وهو ضعيف

قلت: ورأيت في موضع آخر بعد البيت الأول:

وإني للماء المخالطه القذى | وإن كثرت وراده لعيوف

وأورد له الطوسي أيضاً:

ألا رب راج حاجةً لا ينالها | وآخر قد تقضى له وهو جالس
يجول لها هذا وتقضى لغيره | وتأتي الذي تقضى له وهو آيس

وأورد له أيضاً من جملة أبيات:

برغمي أطيل الصد عنها إذا نأت | أحاذر أسماعاً عليها وأعينا
أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى | فصادف قلباً خالياً فتمكنا

وأورد له أيضاً أبياتاً منها قوله:

وقولا إذا عدت ذنوباً كثيرة | علينا تجناها ذري ما تغيبا
هبيني امرأ إما بريئاً ظلمته | وإما مسيئاً تاب بعد وأعتبا

فلما أبت لا تقبل العذر وارتمى بها كذب الواشين شأوا مغربا

تعزيت عنها بالسلو ولم أكن لمن ضن عني بالمودة أقربا

وكنت كذي داء تبغى لدائه طبيباً فلما لم يجده تطببا

وأورد له أبو عبد الله المرزباني في كتاب " معجم الشعراء " وهي في " الحماسة " أيضاً، وقد رويت أيضاً لعبد الله بن الدمينة الخثعمي، والله أعلم:

بنفسي وأهلي من إذا عرضوا له ببعض الأذى لم يدر كيف يجيب

ولم يعتذر عذر البرئ ولم تزل به رعدة حتى يقال مريب

وأورد له المرزباني في " المعجم " أيضاً:

حننت إلى ريا ونفسك باعدت مزارك من ريا وشعباكما معا

فما حسن أن تأتي الأمر طائعا وتجزع أن داعى الصبابة أسمعا

قفا ودعا نجداً ومن حل بالحمى وقل لنجد عندنا أن يودعا

ولما رأيت البشر أعرض دوننا وجالت بنات الشوق يحنن نزعا

بكت عيني اليمنى فلما زجرتها عن الجهل بعد الحلم أسبلتا معا

تلفت نحو الحي حتى وجدتني وجعت من الإصغاء ليتا وأخدعا

وأذكر أيام الحمى ثم أنثني على كبدي من خشية أن تقطعا

وليست عشيات الحمى برواجع عليك ولكن خل عينيك تدمعا

قلت: وهي أبيات في غاية الرقة واللطافة، وذكرها أبو تمام الطائي في كتاب " الحماسة " في أول باب النسيب وقال إنها للصمة بن عبد الله القشيري، والله أعلم بالصواب في ذلك.

وقال أبو عمر يوسف بن عبد البر - صاحب كتاب " الاستيعاب " في أخبار الصحابة رضي الله عنهم، وقد تقدم ذكره - في كتاب " بهجة المجالس " ما مثاله: للصمة بن عبد الله القشيري:

أما وجلال الله لو تذكرينني كذكريك ما كفكفت للعين مدمعا

فقالت بلى والله ذكراً لو أنه يصب على الصخر الأصم تصدعا

ثم قال بعد ذلك: وأكثرهم ينسبون إليه في هذا الشعر:

حننت إلى ريا ونفسك باعدت مزارك من ريا وشعباكما معا

وذكر الأبيات بكمالها كما ذكرها في " الحماسة " وبعد الفراغ منها قال: ومنهم من ينسبها إلى قيس بن ذريح وإلى المجنون أيضاً، والأكثر أنها للصمة، والله أعلم.

قلت: فقد وقع الاختلاف في أن هذه الأبيات العينية هل هي ليزيد بن الطثرية أم للصمة بن عبد الله القشيري أم لقيس بن ذريح أم للمجنون، والله أعلم.

قلت: وذكره المرزباني أيضاً في كتاب " المونق " فقال: أنشدني أبو الخنبش لابن الطثرية:

وحنت قلوصي بعد هذا صبابةً فيا روعةً ما راع قلبي حنينها
فقلت لها صبراً فكل قرينة مفارقها، لا بد يوماً، قرينها

وأورد له أيضاً:

كيف العزاء وأنت أومق من مشى والنفس معولة ودارك نائيه
بيديك قتلي إن أردت منيتي وشفاء نفسي إن أردت شفائيه
ولقد عرفت فما أويت لمدنفٍ ما النفس عنك وإن نأيت بساليه

وأورد له أيضاً:

إذا نحن جئنا لم تجمل بزينة حذار العادي وهي بادٍ جمالها
ولا نبتديها بالسلام ولم نقل لهم من توقي شرهم: كيف حالها

وأورد له أشياء كثيرة غير هذا فنقتصر على هذا القدر.

وقال أبو بكر أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري في كتاب " أنساب الأشراف " بعد ما ذكر مقتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان الأموي الحكمي ووقائع جرت في سنة ست وعشرين ومائة: فكان في أثناء ذلك وقعة قتل فيها المندلث بن إدريس الحنفي، وقتل معه يزيد بن الطثرية المذكور على قرية يقال لها الفلج – بفتح الفاء واللام وفي آخره – وأظنها من قرى اليمامة.

ثم وجدت في كتاب أبي بكر الحازمي الذي صنفه في أسماء المواضع أن فلج بفتح الفاء واللام وآخره جيم قرية عظيمة لبني جعدة بها منبر يقال لها فلج الأفلاج من ناحية اليمامة، وقال غيره: فلج بينها وبين هجر التي هي قصبة البحرين ستة أيام وبينها وبين مكة تسعة أيام، والله أعلم.

وذكر أبو إسحاق الزجاج في كتاب " معاني القرآن الكريم " في سورة الفرقان أن الرس قرية باليمامة يقال لها فلج، فتكون وهي هذه القرية على ما قال، وأما الذي جاء في قول الشاعر:

وإن الذي حانت بفلج دماؤهم هم القوم كل القوم يا أم خالد

فإنه بفتح الفاء وسكون اللام، وهو واد بين البصرة وحمى ضرية، وضرية قرية على القرب من مكة شرفها الله تعالى. وأما فلجة الذي جاء في شعر بعض العرب:

ألا حبذا أعلام فلجة بالضحى وخيم روابي جلهتيها المنصب
يقولون ملح ماء قلجة آجن أجل هو مملوح إلى القلب طيب

فهذا الاسم يقع على موضعين، أحدهما مترل بين مكة والبصرة، والثاني موضع بالعقيق، وكانت به الواقعة في السنة التي قتل فيها الوليد بن يزيد الأموي المذكور.

رجعنا إلى ما كنا فيه: وكان قتل الوليد في جمادى الآخرة يوم الخميس لليلتين بقيتا منها من سنة ست وعشرين ومائة بالبخراء – بفتح الباء الموحدة وسكون الخاء المعجمة وبعد الراء ألف ممدودة. وذكر أبو الحسن الطوسي المذكور في هذه الواقعة أن الراية كانت مع يزيد بن الطثرية، فلما قتل المندلث وهر بأصحابه ثبت يزيد بن الطثرية بالراية، وكانت عليه جبة خز فتشبثت في عشرة – قلت: وهي بضم العين المهملة وفتح الشين وبعدها راء مفتوحة ثم هاء، وهي الشجرة لها صمغ من شجر العضاه – قال: فعثر فضربه بنو حنيفة حتى قتلوه.

قلت: وذكر هذه الواقعة بعد قتل الوليد في التاريخ المذكور، فيكون قتل يزيد بن الطثرية بين تاريخ قتل الوليد بن يزيد وبين آخر سنة ست وعشرين ومائة والله أعلم.

وذكر أبو الفرج الأصبهاني في أول الديوان الذي جمعه من شعر يزيد بن الطثرية أن بني حنيفة قتلته في خلافة بني العباس، والأول أصح.
ولما قتل ابن الطثرية رثاه القحيف بن حمير بن سليم الندى بن عبد الله العقيلي بقوله:

ألا تبكي سراة بني قشيرٍ ... على صنديدها وعلى فتاها
أبا المكشوح بعدك من يحامي ... ومن يرجي المطي على وجاها

ورثى القحيف أيضاً الوليد بن زياد.
ورثاه أخوه ثور بن سلمة بقوله:

أرى الأثل من بطن العقيق مجاوري ... مقيماً وقد غالت يزيد غوائله

وهي من الشعر المختار. وذكر أبو تمام الطائي في " الحماسة " أن هذه الأبيات لأخته زينب بنت الطثرية وقيل إنها لأمه، والله أعلم.
وذكر الطوسي المذكور أن هذه الواقعة كانت بالعقيق، وقال ياقوت الحموي في كتاب " المشترك وضعاً ": إن العقيق عشرة مواضع، قال الأصمعي: الأعقة الأودية التي تشقها السيول، ثم عد المواضع فقال: الثالث " عقيق عارض " بأرض اليمامة، وهو واد واسع مما يلي العرمة تندفق فيه شعاب العارض، وفيه عيون وقرى، ثم قال: والعقيق من قرى اليمامة لبني عقيل، وهو عقيق نمرة في طريق اليمن من اليمامة.
قلت: فيحتمل أن يكون المراد بقوله " بطن العقيق " في هذا البيت العقيق الأول، ويحتمل العقيق الثاني، والله أعلم.
وإنما كني ابن الطثرية بأبي المكشوح لأنه كان على كشحه كي نار، والكشح - بفتح الكاف وسكون الشين المعجمة وبعدها الحاء المهملة - وهي الخاصرية.
والطثرية: بفتح الطاء المهملة وسكون الثاء المثلثة وبعدها راء ثم ياء النسب وهاء التأنيث، وهي أمه، ينسب يزيد المذكور إليها، وهي من بني طثر بن عتر بن وائل، والطثر: الخصب وكثرة اللبن يقال إن أمه ولدت في عام هذا وصفه، وقيل بل ولدته في عام هذا شأنه، ويقال إن أمه كانت مولعة بإخراج زبد اللبن، فسميت الطثرية، وطثرة اللبن زبدته، والله أعلم.
قلت: وهذا الكلام في النفس منه شيء، فإنهم قالوا: إن أمه من بني طثر بن عتر بن وائل، فعلى هذا تكون أمه منسوبة إلى هذه القبيلة، في معنى حينئذ لقولهم: إن أمه ولدت في عام هذا وصفه، أو ولد هو في عام هذا شأنه، أو كانت أمه تخرج الزبد من اللبن، فتأمله، إلا أن يكون عندهم فيه خلاف: هل هو منسوب إلى القبيلة أم إلى هذا المعنى الثاني، والله أعلم بالصواب في ذلك.
ويروى لزينب بنت الطثرية أخت يزيد المذكور شيء كثير من الشعر، فمن ذلك قولها في المديح:

أشم إذا ما جئت للعرف طالباً ... حباك بما تحنو عليه أنامله
ولو لم يكن في كفه غير روحه ... لجاد بها فليتق الله سائله

وينسب هذان البيتان إلى زياد الأعجم أيضاً، والبيت الثاني منهما يوجد في ديوان أبي تمام الطائي أيضاً في قصيدته التي أولها:

أجل أيها الربع الذي خف آهله ... لقد أدركت فيك النوى ما تحاوله

الماجشون

أبو يوسف يعقوب بن أبي سلمة دينار، وقيل ميمون، الملقب بالماجشون القرشي التيمي، من موالي آل المكندر من أهل المدينة، سمع ابن عمر رضي الله عنهما، وعمر بن عبد العزيز ومحمد بن المنكدر وعبد الرحمن بن هرمز الأعرج؛ روى عنه أباه: يوسف وعبد العزيز، وابن أخيه عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة. وقال يعقوب بن شيبة: الماجشون يعقوب بن أبي سلمة مولى آل الهدير. وكان يعقوب مع عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه في ولاية عمر المدينة يحدثه ويأنس به، فلما استخلف عمر رضي الله عنه قدم عليه الماجشون فقال له عمر: إنا تركناك حيث تركنا لبس الخز، فانصرف عنه.
وذكره محمد بن سعد في كتاب " الطبقات ". وقال يعقوب بن شيبة، قال مصعب: وكان الماجشون يعين ربيعة الرأي على أبي الزناد، لأن أبا الزناد

كان معادياً لربيعة الرأي، فكان أبو الزناد يقول: مثلي ومثل الماجشون مثل ذئب كان يلح على أهل قرية فيأكل صبيانهم، فاجتمعوا له وخرجوا في طلبه، فهرب منهم فانقطعوا عنه، إلا صاحب فخار، فإنه ألح في طلبه، فوقف له الذئب فقال: هؤلاء أعذرهم، فأنت ما لي ولك؟ ما كسرت لك فخارة قط، والماجشون ما كسرت له كبراً ولا بربطاً قط.

وقال ابن الماجشون: عرج بروح الماجشون، فوضعناه على سرير الغسل وقلنا للناس: نروح به، فدخل غاسل إليه يغسله، فرأى عرقاً يتحرك في أسفل قدمه فأقبل علينا وقال: أرى عرقاً يتحرك ولا أرى أن أعجل عليه، فاعتللنا على الناس بالمر الذي رأيناه، وفي الغد جاء الناس وغدا الغاسل عليه فرأى العرق على حاله، فاعتذرنا إلى الناس، فمكث ثلاثاً على حاله، ثم إنه استوى جالساً فقال: آتوني بسويق، فأتي به فشربه، فقلنا له: خبرنا ما رأيت، قال: نعم عرج بروحي، فصعد بي الملك حتى أتى سماء الدنيا فاستفتح ففتح له، ثم هكذا في السموات حتى انتهى بي إلى السماء السابعة، فقيل له: من معك؟ قال: الماجشون، فقيل له: لم يأن له بعد، بقي من عمره كذا كذا سنة وكذا كذا شهراً وكذا كذا يوماً وكذا كذا ساعة، ثم هبط فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكر على يمينه وعمر عن يساره وعمر بن عبد العزيز بين يديه، فقلت للملك الذي معي: من هذا؟ قال: هذا عمر بن عبد العزيز، قلت: إنه لقريب المقعد من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إنه عمل بالحق في زمن الجور، وإنهما عملا بالحق في زمن الحق، ذكر هذا يعقوب بن شيبة في ترجمة الماجشون. وذكر أبو الحسن محمد بن القواس الوراق أن يعقوب الماجشون مات سنة أربع وستين ومائة، رحمه الله تعالى؛ هذا كله نقلته من تاريخ الحافظ أبي القاسم المعروف بابن عساكر الذي جعله تاريخاً لدمشق.

وذكر ابن قتيبة في كتاب " المعارف " في ترجمة محمد بن المنكدر أن الماجشون من مواليه، واسمه يعقوب، وكان فقيهاً؛ ثم قال بعد ذلك: وكان للماجشون أخ يقال له عبد الله بن أبي سلمة.

وابنه عبد العزيز بن عبد الله يكنى أبا عبد الله، توفي ببغداد وصلى عليه المهدي، ودفنه في مقابر قريش، وذلك في سنة أربع وستين ومائة – قلت: وقد تقدم في هذا الكتاب ترجمة ولده عبد الملك بن عبد العزيز بن عبد الله، وذكرت ما قاله العلماء في معنى الماجشون، فأغنى عن الإعادة هاهنا والله أعلم.

قوله ما كسرت له كبراً ولا بربطاً، الكبر بفتح الكاف والباء الموحدة، وبعدها راء، وهو طبل ذو وجه واحد، والبربط: بفتح الباءين الموحدتين بينهما راء ساكنة، وفي آخره طاء مهملة، وهو نوع من العود الذي للغناء، وأصله بر، وهو الصدر بالفارسي، وبط، الطائر المعروف، فلما كان هذا الملهى يشبه صدر البط سمي به، واسمه بالعربي العود. والمزهر أيضاً: بكسر الميم وسكون الزاي وفتح الهاء وبعدها راء، وبالعجمي البربط كما ذكرناه.

القاضي أبو يوسف صاحب أبي حنيفة

القاضي أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن خنيس بن سعد بن حبتة الأنصاري – وسعد بن حبتة أحد الصحابة رضي الله عنهم، وهو مشهور في الأنصار بأمه، وهي حبتة بنت مالك من بني عمرو بن عوف.

وأما أبو سعد ابن حبتة: فهو عوف بن بحير بن معاوية بن سلمى بن بجيلة، حليف بني عمرو بن عوف الأنصاري، هكذا ساق نسب سعد بن حبتة في " الاستيعاب "؛ وأما الخطيب أبو بكر البغدادي فإنه قال في تاريخه: هو سعد بن بجير بن معاوية بن قحافة بن بليل بن سدوس بن عبد مناف بن أبي أسامة بن سحمة بن سعد بن عبد اله بن قداد بن ثعلبة بن معاوية بن زيد بن الغوث بن بجيلة.

كان القاضي أبو يوسف المذكور من أهل الكوفة، وهو صاحب أبي حنيفة رضي الله عنه، كان فقيهاً عالماً حافظاً، سمع أبا إسحاق الشيباني وسليمان التيمي ويحيى بن سعيد الأنصاري والأعمش وهشام بن عروة وعطاء بن السائب ومحمد بن إسحاق بن يسار، وتلك الطبقة. وجالس محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى ثم جالس أبا حنيفة النعمان بن ثابت، وكان الغالب عليه مذهب أبي حنيفة وخالفه في موضع كثيرة. روى عنه محمد بن الحسن الشيباني الحنفي وبشر بن الوليد الكندي وعلي بن الجعد وأحمد بن حنبل ويحيى بن معين في آخرين.

وكان قد سكن بغداد وتولى القضاء بها لثلاثة من الخلفاء: المهدي وابنه الهادي ثم هارون الرشيد، وكان الرشيد يكرمه ويجله، وكان عنده حظياً مكيناً، وهو أول من دعي بقاضي القضاة، ويقال إنه أول من غير لباس العلماء إلى هذه الهيئة التي هم عليها في هذا الزمان، وكان ملبوس الناس قبل ذلك شيئاً واحداً، لا يتميز أحد عن أحد بلباسه. و لم يختلف يحيى بن معين وأحمد بن حنبل وعلي بن المديني في ثقته في النقل.

وذكر أبو عمر ابن عبد البر صاحب كتاب " الاستيعاب " في كتابه الذي سماه كتاب " الانتقاء في فضائل الثلاثة الفقهاء "أن أبا يوسف المذكور كان حافظاً وأنه كان يحضر المحدث ويحفظ خمسين ستين حديثاً، ثم يقوم فيمليها على الناس، وكان كثير الحديث. وقال محمد بن جرير الطبري: وتحامى حديثه قوم من أهل الحديث من أجل غلبة الرأي عليه وتفريعه الفروع والأحكام، مع صحبة السلطان وتقلده القضاء.

وحكى أبو بكر الخطيب البغدادي في " تاريخ بغداد " أن أبا يوسف قال: كنت أطلب الحديث والفقه وأنا مقل رث الحال، فجاء أبي يوماً وأنا عند أبي حنيفة، فانصرفت معه، فقال: يا بني، لا تمد رجلك مع أبي حنيفة، فإن أبا حنيفة خبزه مشوي، وأنت تحتاج إلى المعاش، فقصرت عن كثير من الطلب وآثرت طاعة أبي، فتفقدني أبو حنيفة وسأل عني، فجعلت أتعاهد مجلسه، فلما كان أول يوم أتيته بعد تأخري عنه قال لي: ما شغلك عنا؟ قلت: الشغل بالمعاش وطاعة والدي، فجلست، فلما انصرف الناس دفع إلي صرة وقال: استمتع بها، فنظرت فغذا فيها مائة درهم، فقال لي: الزم الحلقة وإذا فرغت هذه فأعلمني، فلزمت الحلقة، فلما مضت مدة يسيرة دفع إلي مائة أخرى، ثم كان يتعاهدني، وما أعلمته بخلة قط ولا أخبرته بنفاد شيء، وكأنه كان يخبر بنفادها، حتى استغنيت وتمولت.

ثم قال الخطيب: وحكي أن والد أبي يوسف مات وخلف أبا يوسف طفلاً صغيراً، وأن أمه هي التي أنكرت عليه حضور حلقة أبي حنيفة، ثم روى الخطيب أيضاً بإسناد متصل إلى علي بن الجعد قال: أخبرني أبو يوسف القاضي قال: توفي أبي وخلفني صغيراً في حجر أمي، فأسلمتني إلى قصار أخدمه، فكنت أدع القصار وأمر إلى حلقة حلقة أبي حنيفة فأجلس أستمع، فكانت أمي تجيء خلفي فتأخذ بيدي فتذهب –بي– إلى القصار، وكان أبو حنيفة يعنى بي، لما يرى من حضوري وحرصي على التعلم، فلما كثر ذلك على أمي وكطال عليها هربي قالت لأبي حنيفة: ما لهذا الصبي فساد غيرك، هذا صبي يتيم لا شيء له وإنما أطعمه من مغزلي، وآمل أن يكسب دانقاً يعود به على نفسه، فقال لها أبو حنيفة: مري يا رعناء، ها هو ذا يتعلم أكل الفالوذج بدهن الفستق، فانصرفت عنه وقالت له: أنت شيخ قد خرفت وذهب عقلك.

ثم لزمته فنفعني الله تعالى بالعلم، ورفعني حتى تقلدت القضاء، وكنت أجالس الرشيد وآكل معه على مائدته، فلما كان في بعض الأيام قدم إلى هارون فالوذجة، فقال لي: يا يعقوب كل منها فليس في كل يوم يعمل لنا مثلها، فقلت: وما هذه يا أمير المؤمنين؟ فقال: هذه فالوذجة بدهن الفستق، فضحكت، فقال لي: مم ضحكك! فقلت: خيراً، أبقى الله أمير المؤمنين، قال: لتخبرني، وألح علي، فأخبرته بالقصة من أولها إلى آخرها، فعجب من ذلك وقال: لعمري إن العلم لينفع دنيا وديناً، وترحم على أبي حنيفة وقال: كان ينظر بعين عقله ما لا يراه بعين رأسه.

وحكى علي بن المحسن التنوخي عن أبي عن جده قال: كان سبب اتصال أبي يوسف بالرشيد أنه كان قدم بغداد بعد موت أبي حنيفة رحمه الله تعالى فحنث بعض القواد في يمين، فطلب فقيهاً يستفتيه، فجيء بأبي يوسف فأفتاه أنه لم يحنث، فوهب له دنانير وأخذ له داراً بالقرب منه. ودخل القائد يوماً على الرشيد فوجده مغموماً، فسأله عن سبب غمه فقال: شيء من أمر الدين قد حزنني فاطلب فقيهاً كي أستفتيه، فجاءه بأبي يوسف. قال أبو يوسف: فلما دخلت إلى ممر بين الدور رأيت فتى حسناً عليه أثر الملك، وهو في حجرة محبوس، فأومأ إلي بأصبعه مستغيثاً فلم أفهم منه إرادته، وأدخلت إلى الرشيد، فلما مثلت بين يديه سلمت ووقفت فقال لي: ما اسمك؟ فقلت: يعقوب أصلح الله أمير المؤمنين، قال: ما تقول في إمام شاهد رجلاً يزني هل يحده؟ قلت: لا، فحين قلتها سجد الرشيد، فوقع لي أنه قد رأى بعض أهله على ذلك وأن الذي أشار إلي بالاستغاثة هو الزاني. ثم قال الرشيد: من أين قلت هذا؟ قلت: لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " ادرأوا لهاالحدود بالشبهات " وهذه شبهة يسقط الحد معها، قال: وأي شبهة في المعاينة؟ قلت: ليس توجب المعاينة لذلك أكثر من العلم بما جرى، والحدود لا تكون إلا بالعلم، وليس لأحد أخذ حقه بعلمه، فسجد مرة أخرى، وأمر لي بمال جزيل وأن ألزم الدار، فما خرجت حتى جاءتني هدية الفتى وهدية أمه وجماعته، وصار ذلك أصلاً للنعمة، ولزمت الدار، فكان هذا الخادم يستفتيني وهذا يشاورني، ولم يزل حالي يقوى عند الرشيد حتى قلدني القضاء.

قلت: وهذا يخالف ما نقلته قبل هذا من أنه ولي القضاء لثلاثة من الخلفاء، وقال طلحة بن محمد بن جعفر: أبو يوسف مشهور الأمر ظاهر الفضل، وهو صاحب أبي حنيفة، وأفقه أهل عصره، ولم يتقدمه أحد في زمانه، وكان النهاية في العلم والحكم والرياسة والقدر، وأول من وضع الكتب في أصول الفقه على مذهب أبي حنيفة، وأملى المسائل ونشرها، وبث على أبي حنيفة في أقطار الأرض.

وقال عمار بن أبي مالك: ما كان في أصحاب أبي حنيفة مثل أبي يوسف، لولا أبو يوسف ما ذكر أبو حنيفة ولا محمد بن أبي ليلى، ولكنه هو نشر قولهما وبث علمهما.

وقال محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة: مرض أبو يوسف في زمن أبي حنيفة مرضاً خيف عليه منه، فعاده أبو حنيفة ونحن معه، فلما خرج من عنده وضع يده على عتبة بابه وقال: إن يمت هذا الفتى فإنه أعلم من عليها، وأومأ إلى الأرض.

وقال أبو يوسف: سألني الأعمش عن مسألة، فأجبته فيها فقال لي: من أين لك هذا؟ فقللت: من حديثك الذي حدثتنا أنت، ثم ذكرت له الحديث، فقال لي: يا يعقوب إني لأحفظ هذا الحديث قبل أن يجتمع أبواك وما عرفت تأويله حتى الآن.

وقال هلال بن يحيى: كان أبو يوسف يحفظ التفسير والمغازي وأيام العرب، وكان أقل علومه الفقه، و لم يكن في أصحاب أبي حنيفة مثل أبي يوسف.

وذكر أبو الفرج المعافى بن زكريا النهرواني في كتاب " الجليس والأنيس " عن الشافعي رضي الله عنه أنه قال: مضى أبو يوسف ليسمع المغازي من محمد بن إسحاق أو من غيره، وأخل بمجلس أبي حنيفة أياماً، فلما أتاه قال له أبو حنيفة: يا أبا يوسف، من كان صاحب راية جالوت؟ فقال له أبو يوسف: إنك إمام وإن لم تمسك عن هذا سألتك والله على رؤوس الملأ أيما كان أولاً وقعة بدر أو أحد؟ فإنك لا تدري أيهما كان قبل الآخر، فأمسك عنه.

وذكر في الكتاب المذكور أيضاً عن علي بن الجعد أن القاضي أبا يوسف كتب يوماً كتاباً، وعن يمينه إنسان يلاحظ ما يكتبه، ففطن له أبو يوسف، فلما فرغ من الكتابة التفت إليه وقال له: هل وقفت على شيء من خطأ؟ فقال: لا والله ولا حرف واحد، فقال له أبو يوسف: جزيت خيراً حيث كفيتنا مؤونة قراءته، ثم أنشد:

كأنه من سوء تأديبه أسلم في كتاب سوء الأدب

وقال حماد بن أبي حنيفة: رأيت أبا حنيفة يوماً وعن يمينه أبو يوسف وعن يساره زفر، وهما يتجادلان في مسألة، فلا يقول أبو يوسف قولاً إلا أفسده زفر، ولا يقول زفر قولاً إلا أفسده أبو يوسف، إلى وقت الظهر، فلما أذن المؤذن رفع أبو حنيفة يده فضرب بها فخذ زفر، وقال: لا تطمع في رياسة ببلدة فيها أبو يوسف، وقضى لأبي يوسف على زفر، و لم يكن بعد أبي يوسف في أصحاب أبي حنيفة مثل زفر.

وقال طاهر بن أحمد الزبيري: كان يجلس إلى أبي يوسف رجل فيطيل الصمت، فقال له أبو يوسف: ألا تتكلم، فقال: بلى، متى يفطر الصائم؟ فقال: إذا غابت الشمس، فقال: فإن لم تغب إلى نصف الليل، فضحك أبو يوسف وقال: أصبت في صميك وأخطأت أنا في استدعاء نطقك، ثم تمثل:

عجبت إزراء الغبي بنفسه وصمت الذي قد كان بالقول أعلما

وفي الصمت ستر للغبي وإنما صحيفة لب المرء أن يتكلما

ومن كلام أبي يوسف: صحبة من لا يخشى العار عار يوم القيامة. وكان يقول: رؤوس النعم ثلاثة: فأولها نعمة الإسلام التي لا تتم نعمة إلا بها، والثانية: نعمة العافية التي لا تطيب الحياة إلا بها، والثالثة نعمة الغنى التي لا يتم العيش إلا بها.

وقال علي بن الجعد: سمعت أبا يوسف يقول: العلم شيء لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كذلك، وأنت إذا أعطيته كذلك من إعطائه البعض كنت على غرر.

وكان أبو يوسف راكباً وغلامه يعدو وراءه، فقال له رجل: أتستحل أن تعدي غلامك وراءك؟ لم لا تركبه؟ فقال له: أيجوز عندك أن أسلم غلامي مكارباً؟ قال: نعم، قال أبو يوسف: فيعدو معي كما كان يعدو لو كان مكارباً.

وقال يحيى بن عبد الصمد: خوصم أمير المؤمنين الهادي إلى القاضي أبي يوسف في بستانه، وكان الحكم في الظاهر للهادي وفي الباطن خلاف ذلك، فقال الهادي للقاضي أبي يوسف: ما صنعت في الأمر الذي نتنازع إليك فيه؟ فقال: خصم أمير المؤمنين يسألني أن أحلف أمير المؤمنين أن شهوده

شهدوا على حق، فقال له الهادي: وترى ذلك؟ قال: فقد كان ابن أبي ليلى يراه، فقال: اردد البستان عليه، وإنما احتال عليه أبو يوسف لعلمه أن الهادي لا يحلف وقال بشر بن الوليد الكندي، قال لي القاضي أبو يوسف: بينا أنا البارحة قد أويت إلى فراشي فإذا داق يدق الباب دقاً شديداً، فأخذت علي إزاري وخرجت، فإذا هرثمة بن أعين، فسلمت عليه، فقال: أجب أمير المؤمنين، فقلت: يا أبا حاتم، لي بك رحمة، وهذا وقت كما ترى، ولست آمن أن يكون أمير المؤمنين قد دعاني لأمر من الأمور، فإن أمكنك أن تدفع بذلك إلى غد فلعله أن يحدث له رأي، فقال: ما لي إلى ذلك سبيل، قلت: كيف كان السبب؟ قال: خرج إلي مسرور فامرني أن آتي بك أمير المؤمنين، فقلت: تأذن لي أن أصب علي ماء وأتحنط؟ فإن كان أمر من الأمور كنت قد أحكمت شأني وإن رزق الله العافية فلن يضرني، فأذن لي، فدخلت فلبست ثياباً جدداً، وتطيبت بما أمكن من الطيب، ثم خرجنا فمضينا حتى أتينا دار أمير المؤمنين هارون الرشيد فإذا مسرور واقف، فقال له هرثمة: قد جئت به، فقلت لمسرور: يا أبا هاشم خدمتي وحرمتي وميلي، وهذا وقت ضيق، فتدري لم طلبني أمير المؤمنين؟ قال: لا، فقلت: فمن عنده؟ قال: عيسى بن جعفر، قلت: ومن؟ قال: ما عندهما ثالث، ثم قال لي: مر، فإذا صرت في الصحن فإنه في الرواق، وهو ذاك جالس فحرك رجلك بالأرض، فإنه سيسألك فقل: أنا. قال أبو يوسف: فجئت ففعلت ذلك فقال: من هذا، فقلت: يعقوب، فقال: ادخل، فدخلت فإذا هو جال وعن يمينه عيسى بن جعفر، فسلمت فرد السلام علي وقال: أظننا روعناك؟ فقلت: إي والله وكذلك من خلفي، فقال: اجلس، فجلست حتى سكن روعي، ثم التفت إلي وقال: يا يعقوب، تدري لم دعوتك؟ قلت: لا، قال: دعوتك لأشهدك على هذا إن عنده جارية سألته أن يهبها لي فامتنع، وسألته أن يبيعها فأبى، والله لئن لم يفعل لأقتلنه، قال أبو يوسف: فالتفت إلى عيسى فقلت له: وما بلغ الله بجارية تمنعها أمير المؤمنين وتنزل نفسك هذه المنزلة؟ قال فقال لي: عجلت علي في القول قبل أن تعرف ما عندي، قلت: وما في هذا من الجواب؟ قال: إن علي يميناً بالطلاق والعتاق وصدقة ما أملك أن لا أبيع في هذه الجارية ولا أهبها، فالتفت إلي الرشيد فقال: هل له في ذلك من مخرج؟ قلت: نعم، قال: وما هو؟ قلت: يهب لك نصفها ويبيعك نصفها، فيكون لم يهب و لم يبع، فقال عيسى: ويجوز ذلك؟ قلت: نعم، قال: فأشهدك أني قد وهبت له نصفها وبعته نصفها الباقي بمائة ألف دينار، فقال له الرشيد: قبلت الهبة واشتريت نصفها بمائة ألف دينار، ثم طلب منه الجارية، فأتى بالجارية وبالمال، فقال: خذها يا أمير المؤمنين بارك الله لك فيها، فقال الرشيد: يا يعقوب بقيت واحدة، فقلت: وما هي؟ فقال: هي مملوكة ولا بد أن تستبرأ، ووالله لئن لم أبت معها ليلتي هذه إني لأظن أن نفسي ستخرج، فقلت: يا أمير المؤمنين تعتقها وتتزوجها، فإن الحرة لا تستبرأ، قال: فإني قد أعتقتها فمن يزوجنيها؟ فقلت: أنا. فدعا بمسرور وحسين، فخطبت وحمدت الله تعالى ثم زوجته إياها على عشرين ألف دينار، ودعا بالمال فدفعه إليها، ثم قال لي: يا يعقوب انصرف، ورفع رأسه إلى مسرور فقال: يا مسرور، فقال: لبيك، فقال: احمل إلى يعقوب مائتي ألف درهم وعشرين تختاً ثياباً، فحمل ذلك معي.

قال بشر بن الوليد: فالتفت إلي أبو يوسف وقال: هل رأيت بأساً فيما فعلت؟ فقلت: لا، فقال: خذ حقك منها، قلت: وما حقي؟ فقال: العشر، قال بشر: فشكرته ودعوت له وذهبت لأقوم، فإذا بعجوز قد دخلت فقالت: يا أبا يوسف إن بنتك تقرئك السلام وتقول لك: والله ما وصل إلي في ليلتي هذه من أمير المؤمنين إلا المهر الذي قد عرفته، وقد حملت إليك النصف منه وخلفت الباق لما أحتاج إليه، فقال: رديه فوالله لا قبلتها؛ أخرجتها من الرق وزوجتها أمير المؤمنين وترضى لي بهذا! قال بشر: فلم نزل نطلب إليه أنا وعمومتي حتى قبلها، وأمر لي منها بألف دينار.

وقال أبو عبد الله اليوسفي: إن أم جعفر زبيدة ابنة جعفر زوجة الرشيد كتبت إلى أبي يوسف: ما ترى في كذا، وأحب الأشياء إلي أن يكون الحق فيع كذا، فأفتاها بما أحبت، فبعثت إليه بحق فضة فيه حقاق فضة مطبقات، في كل واحد لون من الطيب، وفي جام دراهم وسطها جام فيه دنانير، فقال له جليس له: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من أهديت له هدية فجلساؤه شركاؤه فيها، فقال أبو يوسف: ذاك حين كانت الهدايا اللبن والتمر.
وقال يحيى بن معين: كنت عند أبي يوسف القاضي وعنده جماعة من أصحاب الحديث وغيرهم، فوافته هدية أم جعفر احتوت على تخوت دبيقي ومصمتٍ وشرب وطيب وتماثيل ند وغير ذلك، فذاكرني رجل بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: من أتته هدية وعنده قوم جلوس فهم شركاؤه فيها، فسمعه أبو يوسف فقال: أبي تعرّض؟ ذاك إنما قاله النبي صلى الله عليه وسلم والهدايا يومئذ القط والتمر والزبيب، و لم تكن الهدايا ما ترون، يا غلام أشل إلى الخزاين.

ونقلت من كتاب اسمه " اللفيف " و لم يذكر فيه من هو منصفه قال: كان عبد الرحمن بن مسهر أخو علي بن مسهر قاضياً على المبارك – قلت: وهي بضم الميم وبعدها باء موحدة وبعد الألف راء مفتوحة وبعدها كاف، وهي بليدة بين بغداد وواسط على شاطئ دجلة – قال: فبلغ القاضي خروج الرشيد إلى البصرة ومعه أبو يوسف القاضي في الحراقة، فقال عبد الرحمن القاضي لأهل ذلك، فلبس ثيابه وقلنسوة طويلة وطيلساناً أسود، وجاء إلى الشريعة، فلما صدق، ثم مضى إلى شريعة أخرى فقال مثل مقالته الأولى، فالتفت هارون إلى أبي يوسف وقال: يا يعقوب هذا شر قاض في الأرض، قاض في موضع لا يثني عليه إلا رجل واحد! فقال له أبو يوسف: وأعجب من هذا يا أمير المؤمنين هو القاضي يثني على نفسه، قال: فضحك هارون وقال: هذا أظرف الناس، هذا لا يعزل أبداً، وكان الرشيد إذا ذكره يقول: هذا لا يعزل أبداً. وقيل لأبي يوسف: أتولي مثل هذا القضاء؟ فقال: إنه أقام ببابي مدة وشكا إلي الحاجة فوليته.

وقال أبو العباس أحمد بن يحيى المعروف بثعلب، صاحب كتاب " الفصاحة ": أخبرني بعض أصحابنا قال، قال الرشيد لأبي يوسف: بلغني أنك تقول: إن هؤلاء الذين يشهدون عندك وتقبل أقوالهم متصنعة، فقال: نعم يا أمير المؤمنين، قال: وكيف ذاك؟ قال: لأن من صح ستره وخلصت أمانته لم يعرفنا و لم نعرفه، ومن ظهر أمره وانكشف خبره لم يأتنا و لم نقبله، وبقيت هذه الطبقة وهم هؤلاء المتصنعة الذين أظهروا الستر وأبطنوا غيره، فتبسم الرشيد وقال: صدقت.

وقال محمد بن سماعة: سمعت أبا يوسف في اليوم الذي مات فيه يقول: اللهم إنك تعلم أني لم أجر في حكم حكمت فيه بين اثنين من عبادك تعمداً، ولقد اجتهدت في الحكم بما وافق كتابك وسنة نبيك صلى الله عليه وسلم، وكل ما أشكل علي جعلت أبا حنيفة بيني وبينك، وكان عندي والله ممن يعرف أمرك ولا يخرج عن الحق وهو يعلمه.

قلت: وهذا الكلام مأخوذ من قول أبي محمد عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد رؤي يمسح على خفيه، فقيل له: تمسح؟ قال: نعم، قد مسح عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ومن جعل عمر بينه وبين الله فقد استوثق، ذكر هذا ابن قيبة في كتاب " المعارف " في ترجمة علي رضي الله عنه.

وأخبار أبي يوسف كثيرة، وأكثر الناس من العلماء على تفضيله وتعظيمه.

وقد نقل الخطيب البغدادي في تاريخه الكبير ألفاظاً عن عبد الله بن المبارك ووكيع بن الجراح ويزيد بن هارون ومحمد بن إسماعيل البخاري وأبي الحسن الدارقطني وغيرهم، ينبو السمع عنها، فتركت ذكرها، والله أعلم بحاله.

وكانت ولادة القاضي أبي يوسف سنة ثلاث عشرة ومائة. وتوفي يوم الخميس أو لوقت الظهر لخمس خلون من شهر ربيع الأول سنة اثنتين وثمانين ومائة ببغداد. وقيل إنه توفي سنة اثنتين وسبعين ومائة، والأول أصح. وولي القضاء سنة ست وستين ومائة، ومات وهو على القضاء، رحمه الله تعالى.

وأما ولده يوسف، فإنه كان قد نظر في الرأي وفقه وسمع الحديث من يونس بن أبي إسحاق السبيعي والسري بن يحيى وغيرهما. وولي القضاء بالجانب الغربي من بغداد في حياة أبيه، وصلى بالناس الجمعة في مدينة المنصور بأمر هارون الرشيد، و لم يزل على القضاء إلى أن مات في رجب سنة اثنتين وتسعين ومائة ببغداد.

وذكر الخطيب أن أبا يوسف القاضي لما مات ولى الرشيد مكانه أبا البختري وهب بن وهب القرشي، قلت: وقد تقدم ذكره في حرف الواو.

وكان أبو يعقوب الخريمي الشاعر المشهور صديقاً لأبي يوسف ولابنه يوسف، فلما توفي أبو يوسف سمع الخريمي رجلاً يقول: اليوم مات الفقه، فانشد الخريمي:

يا ناعي الفقه إلى أهله — أن مات يعقوب ولا يدري

لم يمت الفقه ولكنه — حول من صدر إلى صدر

ألقاه يعقوب إلى يوسفٍ — فزال من طيبٍ إلى طهر

رحمهما الله تعالى.

وخنيس: بضم الخاء المعجمة، تصغير أخنس، وهو الذي تأخر أنفه عن وجهه مع ارتفاع قليل في الأرنبة، فالرجل أخنس والمرأة خنساء، وهذا التصغير يسمى تصغير ترخيم، وحقيقته أن تحذف منه الحروف الزوائد، ويصغر الباقي، كما قالوا أزهر وزهير، وأسود وسويد، وأحمد وحميد، وغير ذلك.

وحبتة: بفتح الحاء المهملة وسكون الباء الموحدة وبعدها تاء مثناة من فوقها ثم هاء ساكنة، واكتشفت عن معنى هذا الاسم في عدة مواضع من كتب اللغة وغيرها فلم أجده.

وبحير: بفتح الباء الموحدة وكسر الحاء المهملة وقيل هو بضم الباء وبالجيم المفتوحة، والأول أصح؛ والباقي معروف لا حاجة إلى ضبطه.

وسعد بن حبتة من جملة من استصغر يوم أحد هو والبراء بن عازب وأبو سعيد الخدري رضي الله عنهم، فردهم النبي صلى الله عليه وسلم، ورآه النبي صلى الله عليه وسلم يوم الخندق وهو يقاتل قتالاً شديداً مع حداثة سنه، فدعاه وقال له: من أنت؟ فقال: سعد بن حبتة، فقال: أسعد الله جدك، ومسح على رأسه، رضي الله عنه.

وخنيس هو صاحب جهار سوج خنيس بالكوفة، وهو لفظ أعجمي تفسيره بالعربي أربع طرق، لن هذا المكان رحبة مربعة تفترق إلى أربع جهات، والله تعالى أعلم.

يعقوب الحضرمي

أبو محمد يعقوب بن إسحاق بن يزيد بن عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي بالولاء، البصري المقرئ المشهور، وهو أحد القراء العشرة، وهو المقرئ الثامن وله في القراءات رواية مشهورة منقولة عنه، وهو من أهل بيت العلم بالقراءات والعربية وكلام العرب والروايات الكثيرة للحروف والفقه، وكان من أقرأ القراء، وأخذ عنه عامة حروف القرآن مسنداً وغير مسند من قراة الحرميين والعراقيين وأهل الشام وغيرهم، وأخذ هو القراءة عرضاً عن سلام بن سليمان الطويل ومهدي بن ميمون وأبي الأشهب العطاردي وغيرهم. وروى عن حمزة حروفاً، وسمع الحروف من أبي الحسن الكسائي، وسمع من جده زيد بن عبد الله وشعبة. وأما إسناده في القراءة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنه قرأ على سلام المذكور، وقرأ سلام على عاصم بن أبي النجود، وقرأ عاصم على أبي عبد الرحمن السلمي، وقرأ أبو عبد الرحمن على علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقرأ علي على رسول الله صلى الله عليه وسلم. وروى القراءة عن يعقوب المذكور عرضاً جماعة: منهم روح بن عبد المؤمن ومحمد بن المتوكل وأوب حاتم السجستاني وغيرهم، ومع منه الزعفراني، واقتدى به في اختياره عامة البصريين بعد أبي عمرو بن العلاء، فهم أو أكثرهم على مذهبه، وكان طاهر بن عبد المنعم بن غلبون إمام الجامع بالبصرة لا يقرأ إلا بقراءة يعقوب.

وقال أبو الحسين ابن المنادي: قرأ يعقوب على أبي عمرو، وغلط في ذلك، وقال عبد الرحمن بن أبي حاتم: سئل أحمد بن حنبل رضي الله عنه عن يعقوب الحضرمي فقال: صدوق؛ وسئل أبو حاتم الرازي عنه فقال: صدوق.

وقال أبو حاتم السجستاني: كان يعقوب الحضرمي أعلم من أدركنا ورأينا بالحروف والاختلاف في القرآن الكريم وتعليله ومذاهبه ومذاهب النحو في القرآن الكري.

وله كتاب سماه " الجامع " جمع فيه عامة اختلاف وجوه القراءات، ونسب كل حرف إلى من قرأ به. وبالجملة فإنه كان إمام أهل البصرة في عصره في القراءات، وكان يأخذ أصحابه بعدد آي القرآن العزيز، فإذا أخطأ أحدهم في العدد أقامه.

وتوفي يعقوب المذكور في ذي الحجة، وقيل في جمادى الأولى، سنة خمس مائتين، وهو الأصح. وعاش هو وأبوه إسحاق وجده زيد، كل واحد منهم ثمانياً وثمانين سنة رحمهم الله أجمعين.

وأما جد أبيه عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي فإنه كان من الأئمة العلام المشار إليه في علومهم.

قال أبو عبيدة معمر بن المثنى: أو ل من وضع العربية أبو الأسود الدؤلي ثم ميمون الأقرن ثم عنبسة الفيل ثم عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي. وقد جاء في رواية أخرى أن عنبسة قبل ميمون، والله أعلم بالصواب. وكان في زمان عبد الله بن أبي إسحاق بن عمر الثقفي وأبو عمرو بن العلاء، ومات عبد الله قبلهما.

وذكر أبو عبيد الله المرزباني في كتاب " المقتبس في أخبار النحويين " أن المبرد قال: أجمعت العلماء باللغة أن أول من وضع العربية أبو الأسود الدؤلي وأنه لقن ذلك عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ثم أخذ النحو عن أبي الأسود عنبسة بن معدان المهري، وأخذه عنه ميمون الأقرن، وأخذه عنه عبد الله الحضرمي، وأخذه عنه عيسى بن عمر، وأخذه عنه الخليل بن أحمد، وأخذه عنه سيبويه، وأخذه عنه الأخفش.

وكان بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قد جمع بين عبد الله وأبي عمرو بن العلاء، وبلال يومئذ متولي البصرة، قال أبو عمرو: فغلبني ابن أبي إسحاق بالهمز، فنظرت فيه بعد ذلك وبالغت فيه.

وكان عبد الله كثيراً ما يأخذ على الفرزدق الغلط في شعره، فقال الفرزدق: والله لأهجونه ببيت يسير بين أهل الدب ويتمثلون به، فعمل:

فلو كان عبد الله مولى هجوته ... ولكن عبد الله مولى مواليا

وإنما قال الفرزدق ذلك أن عبد الله مولى الحضرميين، وهم حلفاء بني عبد شمس بن عبد مناف، والحليف عند العرب مولى، ولهم على ذلك شواهد، ولولا خوف الإطالة لذكرت طرفاً من ذلك، لكن ليس هذا موضع ذكره.

أبو عوانة الحافظ

أبو عوانة يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم يزيد النيسابوري ثم الإسفراييني، الحافظ، صاحب المسند الصحيح المخرج على كتاب مسلم ين الحجاج، كان أبو عوانة أحد الحفاظ الحوالين والمحدثين المكثرين، طاف الشام ومصر والبصرة والكوفة وواسط والحجاز والجزيرة واليمن وأصبهان والري وفارس.

قال الحافظ أبو القاسم المعروف بابن عساكر في " تاريخ دمشق ": سمع أبو عوانة بدمشق يزيد بن محمد بن عبد الصمد وإسماعيل بن محمد بن قيراط وشعيب بن شعيب بن إسحاق وغيرهم، وبمصر يونس بن عبد الأعلى وابن أخي بن وهب والمزني والربيع، ومحمداً وسعداً ابني عبد الحكم، وبالعراق سعدان بن نصر والحسن الزعفراني وعمر بن شبة وغيرهم، وبخراسان محمد بن يحيى الذهلي ومسلم بن الحجاج ومحمد بن رجاء السندي وغيرهم؛ وبالجزيرة علي بن حرب وغيره. روى عنه أبو بكر الإسماعيلي وأحمد بن علي الرازي وأبو علي الحسين بن علي وأبو أحمد ابن علي وسليمان الطبراني ومحمد بن يعقوب بن إسماعيل الحفاظ وأبو الوليد الفقيه وابنه أبو مصعب محمد بن أبي عوانة.

وحج خمس مرات. وقال: كنت بالمصيصة، فكتب إلي أخي محمد بن إسحاق، فكان في كتابه:

فإن نحن التقينا قبل موتٍ ... شفينا النفس من مضض العتاب

وإن سبقت بنا أيدي المنايا ... فكم من عاتبٍ تحت التراب

وقال أبو عبد الله الحاكم: أبو عوانة من علماء الحديث وأثباتهم، ومن الرحالة في أقطار الأرض لطلب الحديث. توفي سنة ست عشرة وثلثمائة.

وقال حمزة بن يوسف السهمي: روى بجرجان سنة اثنتين وتسعين ومائتين.

قال الحافظ أبو القاسم ابن عساكر: حدثني الشيخ الصالح الأصيل أبو عبد الله محمد بن محمد بن عمر بن الصفار الإسفراييني قال: قبر أبي عوانة بإسفرايين مزار العالم، ومتبرك الخلق، وبجنب قبره قبر الراوية عنه أبي نعيم عبد الملك بن الحسن الأزهري الإسفراييني في مشهد واحد داخل المدينة، على يسار الداخل من باب نيسابور من إسفرايين، وقريب من مشهده الإمام الأستاذ أبي إسحاق الإسفراييني على اليمين الداخل من باب نيسابور، وبجنب قبره قبر الأستاذ أبي منصور البغدادي الإمام الفقيه المتكلم صاحبه، الصاحب بالجنب حياً وميتاً، المتظاهرين لنصرة الدين بالحجج والبراهين. سمعت جدي الإمام عمر بن الصفار رحمه الله تعالى، ونظر إلى القبور حول قبر الإمام الأستاذ أبي إسحاق، وأشار إلى المشهد وخارج المشهد وقال: قد قيل هاهنا من الأئمة والفقهاء على مذهب الإمام الشافعي، رضي الله عنه، أربعون إماماً، كل واحد منهم لو تصرف في المذهب وافتى برأيه واجتهاده –

يعني على مذهب الشافعي -لكان حقيقاً بذلك، والعوام يتقربون إلى مشهد الإستاذ أبي إسحاق أكثر مما يتقربون إلى أبي عوانة، وهم لا يعرفون قدر هذا الإمام الكبير المحدث أبي عوانة لبعد العهد بوفاته، وقرب العهد بوفاة الأستاذ أبي إسحاق، وأبو عوانة هو الذي أظهر لهم الإمام الشافعي رضي الله عنه بإسفرايين بعد ما رجع عن مصر وأخذ العلم عن أبي إبراهيم المزني رحمه الله تعالى، وكان جدي إذا وصل إلى مشهد الأستاذ رأيته لا يدخله احتراماً، بل كان يقبل عتبة المشهد وهي مرتفعة بدرجات، ويقف ساعة على هيئة التعظيم والتوقير ثم يعبر عنه كالمودع لعظيم عظيم الهيبة، وإذا وصل إلى مشهد أبي عوانة كان أشد تعظيماً له وإجلالاً وتوقيراً ويقف أكثر من ذلك، رحمهم الله تعالى أجمعين.

وعوانة: بفتح العين المهملة وبعد الألف نون.

وقد تقدم الكلام على النيسابوري والإسفراييني فلا حاجة إلى الإعادة.

ابن السكيت

أبو يوسف يعقوب بن إسحاق، المعروف بابن السكيت، صاحب كتاب " إصلاح المنطق " وغيره، ذكره الحافظ ابن عساكر في " تاريخ دمشق " فقال: حكى عن ابي عمرو إسحاق بن مرار الشيباني ومحمد بن مهنا ومحمد بن صبح بن السماك الواعظ، حكى عنه أحمد بن فرح المقرئ ومحمد بن عجلان الأخباري وأبو عكرمة الضبي وأبو سعيد السكري وميمون بن هارون الكاتب وغيرهم. وكان يؤدب أولاد المتوكل. وقال، قال محمد بن السماك: من عرف الناس داراهم ومن جهلهم ماراهم ورأس المداراة ترك المماراة. وروى ابن السكيت أيضاً عن الأصمعي وأبي عبيدة والفراء وجماعة غيرهم.

وكتبه جيدة صحيحة منها: " إصلاح المنطق " وكتاب " اللفاظ " وكتاب في " معاني الشعر " وكتاب " القلب والإبدال " ولم يكن له نفاذ في علم النحو، وكان يميل في رأيه واعتقاده إلى مذهب من يرى تقديم علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

قال أحمد بن عبيد: شاورني ابن السكيت في منادمة المتوكل فنهيته، فحمل قولي على الحسد، واجاب إلى ما دعي إليه من المنادمة، فبنا هو مع المتوكل يوماً جاء المعتز والمؤيد، فقال المتوكل: يا يعقوب أيما أحب إليك، ابناي هذا أم الحسن والحسين؟ فغض ابن السكيت من ابنيه وذكر الحسن والحسين رضي الله عنهما ما هما أهله، فأمر التراك فداسوا بطنه، فحمل إلى داره، فمات بعد غد ذلك اليوم، وكان ذلك في سنة أربع وأربعين ومائتين.

وقال عبد اللع بن عبد العزيز، وكان نهى يعقوب عن اتصاله بالمتوكل:

نهيتك يا يعقوب عن قرب شادن ... إذا ما سطا أربى على كل ضيغم
فذق واحس ما استحسيته لا أقول إذ ... عثرت: لعاً، بل: لليدين وللفم

وحكي أن الفراء سأل ابن السكيت عن نسبه فقال: خوزي أصلحك الله من دورق – قلت: بفتح الدال المهملة وبعد الواو الساكنة راء ثم قاف، وهي بليدة من أعمال خوزستان، قال: من كور الأهواز – قلت: والأهواز من خوزستان أيضاً – قال: فبقي الفراء أربعين يوماً في بيته لا يظهر لأحد من أصحابه، فسئل عن ذلك، فقال: سبحان الله، أستحي أن أرى السكيت، لأنني سألته عن نسبه فصدقني، وفيه بعض القبح.

قال أبو الحسن الطوسي: كنا في مجلس أبي الحسن علي اللحياني، وكان عازماً على أن يملي نوادره ضعف ما أملى، فقال يوماً: تقول العرب " مثقل استعان بذقنه " فقام إليه ابن السكيت وهو حدث فقال: يا أبا الحسن إنما هو " مثقل استعان بدفيه " يريدون الجمل إذا نهض بحمله استعان بجنبيه، فقطعا الإملاء. فلما كان المجلس الثاني أملى فقال: تقول العرب " وهو جاري مكاشري " فقام له ابن السكيت فقال: أعزك الله وما معنى مكاشري؟ إنما هو " هو مكاسري، كسر بيتي إلى كسر بيته " قال: فقطع اللحياني الإملاء فما أملى بعد ذلك شيئاً.

وقال أبو العباس المبرد: ما رأيت للبغداديين كتاباً أحسن من كتاب ابن السكيت في المنطق.

وقال أحمد بن محمد بن أبي شداد: شكوت إلى ابن السكيت ضائقة مالية فقال: هل قلت شيئاً؟ قلت: لا، قال: فأقول أنا، ثم انشدني:

نفست تروم أموراً لست مدركها ... ما دمت أحذر ما يأتي به القدر

ليس ارتحالك في كسب الغنى سفراً لكن مقامك في ضر هو السفر

وقال ابن السكيت: كتب رجل إلى صديق له: قد عرضت لي قبلك حاجة، فإن نجحت فالفاني منها حظي والباقي حطك، وإن تعذرت فالخير مظنون بك، والعذر مقدم لك، والسلام.

ونقل من خطه ما مثاله: عرض سلمان بن ربيعة الباهلي الخيل، فمر عمرو بن معدي كرب الزبيدي على فرس له، فقال سلمان: هذا الفرس هجين، فقال: بل هو عتيق، فقال سليمان: هو هجين، فقال عمرو: هو عتيق، فأمر سلمان فعطش، ثم دعا بطست فيه ماء، ودعا بخيل عتاق فشربت، وجاء فرس عمرو فثنى يده وشرب، وهذا صنيع الهجين، فقال له سلمان: أترى؟ فقال عمرو: أجل، الهجين يعرف الهجين، فبلغ عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فكتب إلى عمرو: قد بلغني ما قلت لأميرك، وبلغني أن لك سيفاً تسميه الصمصامة، وعندي سيف أسميه مصمماً، وايم الله لئن وضعته على هامتك لا أقلع حتى أبلغ به رهابتك، فإن سرك أن تعلم أحق ما أقول حتى أبلغ به رهابتك، فإن سرك أن تعلم أحق ما أقول فعد، والسلام.

الرهابة: على وزن السحابة، عظم في الصدر مشرف على البطن مثل اللسان، والله أعلم.

وقال أبوعثمان المازني: اجتمعت بابن السكيت عند محمد بن عبد الملك الزيات الوزير، فقال محمد بن عبد الملك: سل أبا يوسف عن مسألة، فكرهت ذلك وجعلت أتباطأ وأدافع مخافة أن أوحشه لأنه كان لي صديقاً، فألح علي محمد بن عبد الملك وقال: لم لا تسأله؟ فاجتهدت في اختيار مسألة سهلة لأقارب يعقوب، فقالت له: ما وزن نكتل من الفعل من قول الله تعالى: "فأرسل معنا أخانا نكتل" يوسف: قفال لي: نفعل، قلت: ينبغي أن يكون ماضيه كتل، فقال: لا، ليس هذا وزنه إنما هو نفتعل، فقلت له: نفتعل كم حرف هو؟ قال: خمسة أحرف، قلت: فنكتل كم حرفاً هو؟ قال: أربعة أحرف، فقلت: أيكون أربعة أحرف بوزن خمسة أحرف؟ فانقطع وخجل وسكت، فقال محمد بن عبد الملك: فإنما تأخذ كل شهر ألفي درهم على أنك لا تحسن وزن نكتل؟! قال: فلما خرجنا قال لي يعقوب: يا أبا عثمان هل تدري ما صنعت؟ فقلت له: والله لقد قاربتك جهدي، وما لي في هذا ذنب.

قلت: وذكر أبو الحسن ابن سيده هذه الحكاية في أول خطبة كتابه " المحكم في اللغة " لكنه قال: إن ذلك كان بين يدي المتوكل، والله أعلم.

وقال غير ابن عساكر: كان يعقوب بن السكيت يؤدب مع أبيه بمدينة السلام في دار القنطرة صبيان العامة، حتى احتاج إلى الكسب، فجعل يتعلم النحو. وحكى عن أبيه قد حج فطاف بالبيت وسعى وسأل الله تعالى أن يعلم ابنه النحو فتعلم بالنحو واللغة، وجعل يختلف إلى قوم من أهل القنطرة فأجروا له كل دفعة عشرة دراهم وأكثر حتى اختلف إلى بشر وهارون ابني هارون، أخوين كانا يكتبان لمحمد بن عبد الله بن طاهر الخزاعي، فما زال يختلف إليهما وإلى أولادهما دهراً، فاحتاج ابن طاهر إلى رجل يعلم أولاده، وجعل ولده في حجر إبراهيم بن إسحاق المصعبي، فرتب يعقوب وجعل له رزقاً خمسمائة درهم، ثم جعلها ألف درهم.

وقال أبو العباس ثعلب: كان ابن السكيت يتصرف في أنواع العلوم، وكان أبوه رجلاً صالحاً، وكان من أصحاب الكسائي حسن المعرفة بالعربية.

وكان سبب قعود يعقوب للناس وقصدهم إياه أنه عمل شعر أبي النجم العجلي وجرده فقال: ادفعه لي لأنسخه فقال: يا أبا العباس، حلفت بالطلاق أنه لا يخرج من يدي، ولكنه بين يديك فانسخه، واحضر يوم الخميس، فلما وصلت إليه عرف بي، فحضر بحضوري قوم، ثم انتشر ذلك فحضر الناس.

وقال ثعلب أيضاً: أجمع أصحابنا أنه لم يكن بعد ابن الأعرابي أعلم باللغة من ابن السكيت، وكان المتوكل قد ألزمه تأديب ولده المعتز بالله، فلما جلس عنده قال له: بأي شيء يحب الأمير أن نبدأ – يريد من العلوم – فقال المعتز: بالانصراف، قال يعقوب: فأقوم، قال المعتز: فأنا أخف نهوضاً منك، وقام فاستعجل فعثر بسراويله فسقط، والتفت إلى يعقوب خجلاً وقد احمر وجهه، فانشد يعقوب:

يصاب الفتى من عثرةٍ بلسانه وليس يصاب المرء من عثرة الرجل

فعثرته في القول تذهب رأسه وعثرته بالرجل تبرأ على مهل

فلما كان من الغد دخل يعقوب على المتوكل فأخبره بما جرى، فأمر له بخمسين ألف درهم وقال: قد بلغني البيتان.

وكان يعقوب يقول: أنا أعلم من أبي بالنحو، وأبي أعلم مني بالشعر واللغة.

وقال الحسين بن عبد المجيب الموصلي: سمعت ابن السكيت يقول في مجلس أبي بكر بن أبي شيبة:

ومن الناس من يحبك حباً ... ظاهر الحب ليس بالتقصير

فإذا ما سألته عشر فلس ... ألحق الحب باللطيف الخبير

وكان لابن السكيت شعر وهو مما تثق النفس به، فمن ذلك قوله:

إذا اشتملت على اليأس القلوب ... وضاق لما به الصدر الحبيب

وأوطنت المكاره واستقرت ... وأرست في أماكنها الخطوب

ولم تر لانكشاف الضر وجهاً ... ولا أغنى بحيلته الأريب

أتاك على قنوطٍ منك غوث ... يمن به اللطيف المستجيب

وكل الحادثات إذا تناهت ... فموصول بها فرج قريب

وكان العلماء يقولون: " إصلاح المنطق " كتاب بلا خطبة، " أدب الكاتب " تأليف ابن قتيبة خطبة بلا كتاب، لأنه طول الخطبة وأودعها فوائد.

وقال بعض العلماء: ما عر على جسر بغداد كتاب في اللغة مثل " إصلاح المنطق "، ولا شك أنه من الكتب النافعة الممتعة الجامعة لكثير من اللغة، ولا نعرف في حجمه مثله في بابه، وقد عني به جماعة، فاختصره الوزير أبو القاسم الحسين المعروف بابن المغربي – المقدم ذكره – وهذبه الخطيب أبو زكريا التبريزي، وتكلم على الأبيات المودعة فيه ابن السيرافي، وهو كتاب مفيد.

ولابن السكيت من التصانيف أيضاً كتاب " الزبرج "، وكتاب " الألفاظ "، وكتاب " المثال " وكتاب " المقصور والممدود "، وكتاب " المذكر والمؤنث "، وكتاب " الأجناس "، وهو كبير وكتاب " الفرق "، وكتاب " السرج واللجام "، وكتاب " فعل وأفعل "، وكتاب " الحشرات " وكتاب " الأصوات "، وكتاب " الأضداد "، وكتاب " الشجر والنبات "، وكتاب " الوحوش " وكتاب " الإبل "، وكتاب " النوادر "، وكتاب " معاني الشعر الكبير "، وكتاب " معاني الشعر الصغير "، وكتاب " سرقات الشعراء وما اتفقوا عليه " وغير ذلك من الكتب، ومع شهرته لا حاجة إلى الإطالة في ذكر فضله.

وقد روي في قتله غير ما ذكرته أولاً، فقيل إن المتوكل كان كثير التحامل على علي بن أبي طالب وأبيه الحسن والحسين رضي الله عنهم أجمعين – وقد تقدم في ترجمة أبي الحسن علي بن معروف بابن بسام أبيات تدل على هذا أيضاً – وكان ابن السكيت من المغالين في محبتهم والتوالي لهم، فلما قال له المتوكل تلك المقالة قال ابن السكيت: والله إن قنبر خادم علي رضي الله عنه خير منك ومن ابنيك، فقال المتوكل: سلوا لسانه من قفاه، ففعلوا ذلك به فمات، وذلك في ليلة الاثنين لخمس خلون من رجب سنة أربع وأربعين ومائتين، وقيل سنة ست وأربعين، وقيل سنة ثلاث وأربعين، والله أعلم بالصواب. وبلغ عمره ثمانياً وخمسين سنة، ولما مات سير المتوكل لولده يوسف عشرة آلاف درهم وقال: هذه دية والدك، رحمه الله تعالى.

وقال أبو جعفر أحمد بن محمد المعروف بابن النحاس النحوي: كان أول أمره كلام المتوكل مع ابن السكيت مزاحاً ثم صار جداً؛ وقيل إن المتوكل أمره أن يشتم رجلاً من قريش وأن ينال منه فلم يفعل، فأمر القرشي أن ينال منه، فأجابه ابن السكيت، فقال له المتوكل: أمرتك فلم تفعل، فلما شتمك فعلت، وأمر به فضرب وحمل من عنده قيذاً صريعاً، والله أعلم أي ذلك كان. – وقد تقدم في ترجمة عبد الله بن المبارك مثل هذه القضية لما سئل عن معاوية وعمر بن عبد العزيز وأيهما أفضل.

والسكيت: بكسر السين المهملة والكاف المشددة وبعدها ياء مثناة من تحتها ثم تاء من فوقها، وعرف بذلك لأنه كان كثير السكوت طويل الصمت.

وكل ما كان على وزن فعيل أو فعليل فإنه مكسور الأول.

وقوله: خوزي بضم الخاء المعجمة وبعد الواو زاي، هذه النسبة إلى خوزستان، وهو إقليم بين البصرة وبلاد فارس.

يعقوب الصفار

أبو يوسف يعقوب بن الليث الصفار الخارجي؛ وقد أكثر أهل التاريخ من ذكر هذا الرجل وذكر أخيه عمرو وما ملكا من البلاد وقتلا من العباد، وما جرى للخلفاء معهما من الوقائع، وقد اخترت من ذلك ما أودعته في هذه الأوراق فأقول: قال أبو عبد الله بن محمد الأزهر الأخباري: حدثني علي بن محمد، وكان عالماً بأمور يعقوب بن الليث الصفار ومحاربته، وأول أمره أنه وأخاه عمراً كانا صفارين في حداثتهما، وكانا يظهران الزهد، وأن رجلاً من أهل سجستان كان مشهوراً بالتطوع في قتال الخوارج، يقال له صالح بن النضر الكناني المطوعي من أهل بست، فصحباه وحظيا به، فقتلت الخوارج الذين يقال لهم الشراة أخا يعقوب المذكور، وأقام صالح المذكور يعقوب المذكور مقام الخليفة، ثم هلك صالح فتولى مكانه درهم بن الحسين من المطوعة أيضاً، فصار يعقوب مع درهم كما كان مع صالح. ثم إن صاحب خراسان احتال لدرهم حتى ظفر به، فحمل إلى بغداد فحبس بها ثم أطلق وخدم السلطان، ثم لزم بيته يظهر النسك والحج والاقتصاد، حتى غلظ أمر يعقوب.

وذكر شيخنا عز الدين أبو الحسن علي بن محمد المعروف بابن الأثير في تاريخه في سنة سبع وثلاثين ومائتين ابتداء أمر يعقوب المذكور، فقال: في هذه السنة تغلب إنسان من أهل بست اسمه صالح بن النضر الكناني على سجستان ومعه يعقوب بن الليث، فعاد طاهر بن عبد الله بن طاهر بن الحسين، أمير خراسان، واستنقذها منه، ثم ظهر بها إنسان اسمه درهم بن الحسين من المطوعة فغلب عليها، وكان غير ضابط لأمور عسكره، وكان يعقوب بن الليث قائد عسكره، فلما رأى أصحاب درهم ضعفه وعجزه اجتمعوا على يعقوب بن الليث، وملكوه أمرهم، لما رأوا من تدبيره وحسن سياسته وقيامه بأمرهم، فلما تبين ذلك له لم ينازعه في الأمر وسلمه إليه، واعتزل عنه، فاستبد يعقوب بالمر وضبط البلاد وقويت شوكته، وقصدته العساكر من كل ناحية، فصار من أمره ما سنذكره.

رجعنا إلى تمام ما ذكره علي بن محمد بن أحمد:

قال: فلما دخل درهم بن الحسين بغداد تولى يعقوب أمر المطوعة، وحارب الخوارج الشراة فرزق الظفر بهم حتى أفناهم وأخرب ضياعهم، وأطاعه أصحابه بمكره ودهائه طاعة لم يطيعوها أحدها كان قبله. ثم اشتدت شوكته وزادت صولته، فغلب على سجستان وهراة وبوشنج وما والاها. وكان الترك بتخوم سجستان وملكهم رتبيل، ويسمى هذا القبيل من الترك الدراري، فحرضه أهل سجستان على قتالهم، وأعلموه أنهم أضر من الشراة الخوارج وأوجب محاربة، فغزا الترك فقتل رتبيل ملكهم، وقتل ثلاثة من ملوكهم بعد رتبيل، ويسمى كل ملك لهم رتبيل، وانصرف يعقوب إلى سجستان، وقد حمل رؤوسهم مع رؤوس ألوف منهم، فرهبته الملوك الذين حوله، منهم ملك المولتان وملك الرخج وملك الطبسين وملك زابلستان، وملك السند ومكران وغيرهم، وأذعنوا له. وكان قصده هراة وبوشنج في سنة ثلاث وخمسين ومائتين، وأمير خراسان يومئذ محمد بن طاهر بن عبد الله بن طاهر بن الحسين الخزاعي، وعامله عليها محمد بن أوس الأنباري، فخرج لمحاربته في تعبئة وبأس شديد وزي جميل، فحاربه مقاومته حتى احتال له يعقوب، فحال بينه وبين دخول المدينة، وهي بوشنج، وانحاز ابن أوس منهزماً، فقيل إنه لم يقاتله أحد أحسن موافقته كما أحسنها ابن أوس، ودخل يعقوب بوشنج وهراة، وصارت المدينتان في يده، وظفر بجماعة من الطاهرية، وهم المنسوبون إلى طاهر بن الحسين الخزاعي، فحملهم إلى سجستان، حتى وجه المعتز بالله الخليفة إليه المعروف بابن بلعم، وهو رجل من الشيعة، برسالة وكتاب، فأطلقهم.

قال ابن الأزهر الأخباري المذكور: حدثني محمد بن عبد الله بن مروان، قال: حدثني ابن بلعم المذكور قال: صرت إليه بكتاب أمير المؤمنين المعتز بالله زرنج – قلت: بفتح الزاي والراء وسكون النون وبعدها جيم، وهي كرسي بلاد سجستان – قال ابن بلعم: فاستأذنت عليه فأذن لي، فدخلت و لم أسلم عليه، وجلست بين يديه من غير أمره، ودفعت الكتاب إليه فلما أخذه قلت له: قبل كتاب أمير المؤمنين فلم يقبله، وفضه، فتراجعت القهقرى إلى باب مجلسه الذي كان فيه ثم قلت: السلام عليك أيها الأمير ورحمة الله، فأعجبه ذلك، وأحسن مثواي ووصلني، وأطلق الطاهرية.

وقال ابن بلعم المذكور أيضاً: دخلت على يعقوب الصفار يوماً فقال لي: ينبغي أن يجيئنا رجل من ناحية فارس مستأمن، ومعه ثلاثة أنفس أو أربعة، بل هو تمام الخمسة، قال: فأنكرت هذا منه، وأمسك، فما علمت إلا وحاجبه قد دخل فسلم، وقال: أيها الأمير، بالباب رجل مستأمن ومعه أربعة أنفس،

فقال: أدخله، فدخل وسلم وقال: أيها الأمير، معي أربعة أنفس، فأذن لهم فدخلوا عليه، فالتفت إلى الحاجب وقلت: قد أخذتم في المخازيق، فحلف لي أيماناً مغلظة أنهم جاءوا بغتة ما علم بهم أحد من الناس، وسألت يعقوب بعد ذلك، وقلت له: أيها الأمير، لقد رأيت منك عجباً في أمر المستأمنة فكيف علمت بهم؟ فقال: أخبرك أني فكرت في أمر فارس، ورأيت غراباً واقفاً بإزاء طريقها، واختلجت إحدى أصابع رجلي، ثم تبع بعضها بعضاً، فعلمت أنه عضو غير شريف، وأنه سيأتينا من ذلك الصقع قوم مستأمنة، أو رسل ليسوا بأجلة، فكانوا هؤلاء.

وقال علي بن الحكم: سألت يعقوب بن الليث الصفار عن الضربة التي على وجهه، وهي منكرة على قصبة أنفه ووجنته، فذكر أن ذلك أصابه في بعض وقائع الشراة، وأنه طعن رجلاً منهم، فرجع عليه فضربه هذه الضربة، فسقط نصف وجهه حتى رد وخيط، قال: فمكثت عشرين يوماً في فمي أنبوبة قصب، وفمي مفتوح لئلا يتقرح رأسي، وكان يصب في حلقي الشيء بعد الشيء من الغذاء، قال حاجبه: وقد كان مع هذه الضربة يخرج ويعبي أصحابه للحرب ويقاتل.

وأرسل يعقوب إلى المعتز بالله هدية سنية، من جملتها مسجد فضة مخلع يصلي فيه خمسة عشر إنساناً، وسأل أن يعطى بلاد فارس، ويقرر عليه خمسة عشر ألف ألف درهم، على أن يتولى إخراج علي بن الحسين بن قريش، وكان على فارس، ثم شخص يعقوب من سجستان في أثر كتابه إلى المعتز، يريد كرمان، ثم نزل بم – قلت: وهي بالباء الموحدة المفتوحة وبعدها ميم مخففة، وهي الحد الفاصل بين سجستان وكرمان – قال: وكان بكرمان العباس بن الحسين بن قريش، أخو علي بن الحسين المذكور، ومعه أحمد بن الليث الكردي، فخرجا عن كرمان يريدان شيراز، وقدم يعقوب أخاه علي بن إلى السيرجان – قلت: وهي بكسر السين المهملة وسكون الياء المثناة من تحتها ثم راء وجيم وبعد الألف نون، وهي مدينة كرمان – قال: وضم إليه جماعة فأقام هو على بم، فرد أحمد بن الليث الكردي إليه من الطريق في جمع كثير من الأكراد وغيرهم، فصاروا إلى درابجرد – قلت: وهي بفتح الدال المهملة ثم راء وألف وبعدها دال مهملة، وهذا الاسم يقع بالاشتراك على ثلاثة مواضع: الأول: كورة عظيمة مشهورة بفارس، قصبتها درابجرد، والثاني قرية بفارس أيضاً من أعمال اصطخر فيها معدن الزئبق، فيحتمل أن يكون مصيرهم إلى الأولى أو إلى الثانية، وأما الثالثة: فهو موضع بنيسابور، ولا يحتمل مصيرهم إليه، لأنه بخراسان فلا تعلق له بفارس.

قال الراوي: فظفر أحمد بن الليث بجماعة من أصحاب يعقوب يطلبون العلف، فقتل بعضهم وهرب منهم جماعة، ووجه أحمد بن الليث برؤوس من قتل من أصحاب يعقوب إلى فارس، فنصب علي بن الحسين رؤوسهم، فبلغ الخبر يعقوب، فدخل كرمان، فندب علي بن الحسين لمحاربته طوق بن المغلس في خمسة آلاف من الأكراد، سوى من تقدم مع أحمد بن الليث الكردي، وسار طوق حتى نزل على مدينة إياس من عمل كرمان، فورد عليه كتاب يعقوب يعلمه أنه أخطأ إذ دخل عملاً ليس إليه، فرد عليه طوق: أنت بعمل الصفر أعلم منك بعمل الحروب، فعظم ذلك على يعقوب، وكان في عسكر طوق ثلثمائة رجل من الأبناء، فوافى يعقوب مدينة إياس فأوقع بطوق وقتل أصحابه وهزم من بقي منهم، وصبر الأبناء الثلثمائة حتى أشجوا يعقوب فأعطاهم الأمان، فلم يقبلوا حتى قتلوا عن آخرهم، وقتل يعقوب في هذه الوقعة ألفي رجل وأسر ألفاً، وأسر طوق بن المغلس وقيده بقيد خفيف، ووسع عليه في مطعمه وغيره، واستخرج منه الأموال، ورحل يعقوب عن إياس ودخل عمل فارس، فخندق علي بن الحسين على نفسه بشيراز، وذلك في يوم الثلاثاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الآخر سنة خمس وخمسين ومائتين.

وكتب علي بن الحسين إلى يعقوب يعلمه أن طوق بن المغلس فعل ما فعل من غير أمره، وانه لم يأمره بمحاربته وقال له: إن كنت تطلب كرمان فقد خلفها وراءك، وإن كنت من أمير المؤمنين بتسليم العمل لأنصرف. فرد عليه يعقوب: إن كتاباً من السلطان معه لا يتهيأ أن يوصله حتى يدخل البلد فقد ودع وأزاح علته، وإلا فالسيف بيننا والموعد مرج سنكان، وهو مرج واسع بينه وبين شيراز ثلاثة فراسخ، وكتب صاحب البريد ووجوه البلد إلى يعقوب يعلمونه أنه ما ينبغي له. مع ما وهب له الله تعالى من التطوع والديانة وقتل الخوارج ونفيهم عن بلاد خراسان وسجستان، التسرع إلى سفك الدماء، لأن علي بن الحسين لن يسلم البلد إلا بكتاب الخليفة، واعتد أهل شيراز للحصار، وقد كانت المنهزمة من أصحاب طوق ثلاثة أنفس من أصحاب يعقوب، فحبسهم علي بن الحسين. وقد كان طوق خروجه إلى يعقوب اشترى داراً بشيراز بسبعين ألف درهم، وقد للنفقة عليها مالاً، فكتب طوق إلى ابنه: لا تقطع البناء عن الدار، فإن الأمير يعقوب قد أكرمني وأحسن إلي، وسأل في إطلاق الثلاثة المأسورين من أصحاب يعقوب،

وكان يعقوب سأله ذلك ليطلقه إذا وافوا إليه، فقال علي بن الحسين: اكتبوا إلى يعقوب ليصلب طوق بن المغلس، وإن أقل عبد من عبيده أكبر عنده منه، وسأل يعقوب طوق بن المغلس عن أمور علي بن الحسين، فضعف أمره عنده، فتقرب طوق إلى يعقوب بمال عنده بشيراز، وأنه كتب إلى أهله إليه ليقوى به على حربه، فأمره يعقوب أن يفعل ذلك، فكتب إلى ابنه فوقع الكتاب في يد علي بن الحسين، فأخذ المال وغيره من دار طوق، وحمله إلى داره، وزحف يعقوب، واحتشد علي بن الحسين.

قال أحمد بن الحكم، قال لي يعقوب: أخبرني عن علي بن الحسين أمسلم هو؟ قلت: نعم، قال: أفرأيت مسلماً يوجه بالأكراد الكفار إلى بلاد المسلمين فيقتلونهم ويحملون نساءهم ويأخذون أموالهم؟ ألم تعلم أن أحمد بن الليث الكردي قتل بكرمان سبعمائة إنسان على دم واحد، وافتض الأكراد مائتي بكر من أهل البيوتات، وحملوا معهم نحو ألفي امرأة إلى بلادهم؟ أفرأيت مسلماً يرضى بهذا؟ قال:، قلت: فعل أحمد هذا من غير أمره. ثم قال له يعقوب في بعض مناظراته: قل لعلي بن الحسين: إن معي قوماً أحراراً جئت بهم ليس يتأتى لي درهم إلا بما يحبون، فوجه إلي بما يرضيهم ووجه لي في نفسي ما يشبه مثلي من البر، فإذا فعلت فأنا أخوك وعونك على من حاربك وأدفع لك كرمان تأكلها، وأنصرف إلى عملي. وارتحل يعقوب، فنزل قرية يقال لها خوزاستان، ووافى أحمد بن الحكم إلى علي بن أبي الحسين يوم الثلاثاء لثمان خلون من جمادى الأولى من السنة، وعلى يده كتاب يعقوب.

قال ابن الحكم: فلم يفهم علي بن الحسين شيئاً مما جئت به من الدهش، وحاصل الكتاب بعد الدعاء له: فهمت كتابك، وذكرك ورودي هذا البلد العظيم خطره بغير، إذن أمير المؤمنين، فإني لست ممن تطمع نفسه في محاولة ظلم، ولا ممن يمكنه ذلك، وقد أسقطت عنك مؤونة الاهتمام في هذا الباب، فإن البلد لأمير المؤمنين، ونحن عبيده بأمره في أرضه وسلطانه، وفي طاعة الله وطاعته، وقد استمعت من رسولك، ورجعت إليه في جواب ما عملته وأدائه ما يورده عليك لنا ولك فيه صلاحاً، فإن استعملته ففيه السلامة إن شاء الله تعالى، وإن أبيت فإن قدر الله تعالى نافذ لا محيص عنه، ونحن نعتصم بالله من الهلكة، ونعوذ به من دواعي البغي ومصارع الخذلان، ونرغب إليه في السلامة ديناً ودنيا بلطفه، مد الله في عمرك؛ وكتب يوم الاثنين، لليلة خلت من جمادى الأولى، سنة خمس وخمسين ومائتين.

ثم تزاحف الفريقان، وقد اجتمع في عسكر علي بن الحسين خمسة عشر ألف إنسان، ووجه أحمد بن الليث الطلائع، وذلك في غداة الأربعاء لأربع خلون من الشهر المذكور. ولما كان يوم الخميس وافت طلائع يعقوب، ثم التقى الجيشان، فحملوا حملة، وفي الثانية أزالوا أصحاب علي بن الحسين عن مواضعهم، وصدقت المجالدة، فانهزموا ومروا على وجوههم لا يلوي أحد على أحد، وعلي بن الحسين يتبع أصحابه ويصيح فيهم: أن ارجعوا وقفوا، يناشدهم الله تعالى، فلم يلتفتوا إليه، وبقي في عدة من أصحابه، فوافت المنهزمة أبواب شيراز مع العصر يوم الخميس المذكور، وكانت الوقعة بعد الظهر، فضاقت عليهم الأبواب، فمروا على وجوههم في نواحي شيراز، وبلغت هزيمتهم الأهواز، وكانت القتلى معهم منهم مقدار خمسة آلاف.

وأصابت علي بن الحسين ثلاث ضربات، واعتورته أسياف أصحاب يعقوب، وسقط عن دابته فأرادوا قتله، فاعلمهم أنه علي بن الحسين، فأخذوا عمامته ووضعوها في وسطه، وقادره إلى يعقوب، وطلب الذي أسره الثواب من يعقوب، فأمر له بعشرة آلاف درهم، فأبى أن يأخذها، فقال: إنما جئتيني، بكلب أسرته، مالك عندي غيرها، فانصرف الرجل. وقنع يعقوب علياً عشرة أسواط بيده، وأخذ حاجبه بلحيته فنتف أكثرها، وأمر يعقوب أن يقيد بقيد فيه عشرون رطلاً، وصيره مع طوق بن المغلس في الخيمة، وكان قد أنفذ إلى ابن المغلس وقيده أيضاً؛ وصار يعقوب من فوره إلى شيراز، وتفرق أصحاب علي بن الحسين في النواحي. ثم دخل يعقوب إلى شيراز والطبول تضرب بين يديه، وظن أهل شيراز يؤذيهم ويستحل دماءهم وأموالهم بحربهم. فلم ينطق أحد لأنه كان وعد أصحابه إن هو ظفر أن يطلقهم وينهب شيراز، وبلغ القوم ذلك فلزموا بيوتهم، ورجع يعقوب من ليلته إلى عسكره بعد أن طاف شيراز، فلما أصبح نادى بالأمان ليخرجوا إلى الأسواق، فخرج الناس، ونادى في كتاب علي بن الحسين: أن برئت الذمة ممن آواهم، وحضرت الجمعة فأمر الخطيب، فدعا للإمام المعتز بالله و لم يدع لنفسه، فقيل في ذلك فقال: الأمير لم يقدم بعد، وقال: إنما مقامي عندكم عشرة أيام، ثم أرجع إلى عمل سجستان؛ وبعث أخاه إلى مترل علي بن الحسين فأحضر الفرش والأثاث، وفتش على الموال فلم يقف عليها، فأحضر علياً فتهدده وتوعده، فذكر أنه يدلهم على المال، فحمل إلى مترله فاستخرج أربعمائة بدرة، وقيل إنه أخذ منه ألف بدرة، وعوض يعقوب أصحابه من

نهب شيراز كل رجل ثلثمائة درهم.

ثم عذب يعقوب علياً بأنواع العذاب، وعصر أنثييه وشد الجوزتين على صدغيه، فقال علي: قد أخذت ما أخذت، أخذت مني فرشي وقيمته أربعون ألف دينار، وألح عليه بالعذاب وأعلمه أنه لا يقنعه منه دون ثلاثين ألف ألف دينار، وخلط ووسوس من شدة العذاب وقيده بأربعين رطلاً، فدلهم على موضع في داره، فاستخرجوا أربعة آلاف ألف درهم، وجوهراً كثيراً، ثم ألح عليه بالعذاب وسلمه إلى الحسن بن درهم فضربه وعذبه وشتمه، وعذب طوق بن المغلس أيضاً، وحبسهما في بيت واحد. وارتحل يعقوب من شيراز يوم السبت لليلتين بقيتا من جمادى الأولى من السنة إلى بلاده، وحمل علي بن الحسين وطوق بن المغلس معه، فلما أتى كرمان ألبسهما المصبغ من الثياب، وقنعهما بمقانع، ونادى عليهما وحبسهما، ومضى إلى سجستان.
وخلع الخليفة المعتز بالله لثلاث خلون من رجب من هذه السنة وتولى الخلافة الإمام المهتدي بالله في ذلك اليوم وخلع المهتدي بالله مع صلاة الظهر من يوم الثلاثاء لأربع عشرة بقيت من رجب سنة ست وخمسين ومائتين، وبويع المعتمد على الله. ولم يكن ليعقوب الصفار في خلافة المهتدي كبير أمر، بل كان يغزو ويحارب من يليه من الملوك بسجستان وأعمالها، ويتطرف كور خراسان وما قرب من قوهستان ونواحي هراة وبوشنج وما اتصل بسجستان. ثم عاد يعقوب إلى بلاد فارس وجبى غلاتها ورجع بثلاثين ألف ألف درهم، وصار إلى سجستان وأقام محمد بن واصل بفارس يتولى الحرب والخراج، ويكاتب الخليفة، ويحمل ما يجبى من الأموال، فكان مقدار ما يحمل في السنة خمسة آلاف ألف درهم من الخراج ببلاد فارس، وكان مقيماً بها غلبة عليها، ولو أمكن الخليفة صرفه عنها ببعض أوليائه لما أقره.
ثم ورد الخبر في جمادى الآخرة من سنة ثمان وخمسين ومائتين بدخول يعقوب مدينة بلخ، ثم خرج منه ودخل نيسابور في ذي القعدة من سنة تسع وخمسين ومائتين، واحتاط على محمد بن طاهر الخزاعي أمير خراسان وجميع الطاهرية، ثم خرج عنها في المحرم من سنة ستين ومائتين ومعه محمد بن طاهر مقيداً ونيف وستون من أهله. وتوجه نحو جرجان للقاء الحسن بن زيد العلوي أمير طبرستان وجرجان، ولما بلغ الحسن بن زيد أن يعقوب يقصده أخذ من أموال الخراج ثلاثة عشر ألف ألف درهم بقايا وسلفاً، وتخلص من جرجان إلى طبرستان، ودخل يعقوب جرجان، ووجه من أصحابه من أخذ سارية طبرستان، وكان بجرجان يعلق على دوابه كل يوم ألف قفيز شعيراً، ثم خرج يعقوب إلى طبرستان وخرج إليه الحسن بن زيد في خلق كثير، وأعلم يعقوب أصحابه أنه يقتل من انهزم منهم، وتقدم بنفسه للحرب، فتبعه خمسمائة من عبيده، فحمل على الحسن وأصحابه حملة واحدة فكانت الهزيمة على القوم، وكان الحسن بن زيد قد أعد في كل قرية في طريقه لانهزامه برذوناً وبغلاً لأنه كان رجلاً ثقيلاً كثير اللحم، وتلاحق أصحاب يعقوب به فتبع الحسن بن زيد في خمسة آلاف خيل جريدة، وأخذ يعقوب مما كان مع الحسن بن زيد ثلثمائة وقر مالاً أكثرها عين، وظفر بجماعة من آل أبي طالب فأساء إليهم وأسرهم، وكانت الوقعة يوم الاثنين لأربع بقين من رجب سنة ستين ومائتين.
ثم تقدم يعقوب فدخل آمل – قلت: وهي بالهمزة الممدودة والميم المضمومة وبعدها لام، وهي كرسي بلاد طبرستان – قال: وهرب الحسن بن زيد إلى مدينة يقال لها سالوس، فلم يجد من أهلها ما كان يعرفه منهم، فتنحى عنهم، ثم خرج يعقوب من آمل فطلب الحسن بن زيد، فرحل مرحلة واحدة، وبلغه الخبر أن الحسين بن طاهر بن عبد الله قد دخل مرو الروذ ومعه صاحب خوارزم في ألفي تركي، فانزعج يعقوب لذلك، وقصر من الإيغال في طلب الحسن بن زيد، فرجه وكتب إلى أمير الري في ذي الحجة من سنة ستين يأمره أن يخرج من الري، ويعلمه أن أمير المؤمنين قد ولاه إياه، فبلغ ذلك الخليفة فأنكره وعاقب غلمانه الذين كانوا ببغداد بالحبس وأخذ الأموال.

ثم دخلت سنة إحدى وستين ومائتين ويعقوب ببلاد طبرستان، فخرج في المحرم يريد جرجان، فلحقه الحسن بن زيد من ناحية البحر فيمن اجتمع إليه من الديلم وأهل الجبال وطبرستان فشعث من يعقوب وقتل من لحق من أصحابه، فانهزم يعقوب إلى جرجان، فجاءت بها زلزلة عظيمة قتلت من أصحابه ألفي إنسان ورجعت طبرستان إلى الحسن بن زيد، وهي آمل وسارية وما يتصل بهما، وأقام يعقوب بجرجان يعسف أهلها بالخراج، ويأخذ أموال الناس، ودامت الزلزلة ثلاثة أيام، وأتى جماعة من أهل جرجان إلى بغداد فسئلوا عن يعقوب الصفار، فذكروه بالجبروت والعسف، فعزم الخليفة على النهوض إليه واستعد لذلك، ولما رجع الصفار إلى جوار الري ورجع عن الموسم كتب الخليفة المعتم على الله إلى عبيد الله بن عبد الله بن طاهر بن

الحسين وهو يومئذ متولي العراق بأن يجمع الحاج من أهل خراسان وطبرستان وجرجان والري يقرأ عليهم كتاباً منه إليه، فجمع الحاج القادمين من أقاصي البلاد، وقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين بالوقوع في الصفار، وعمل ثلاثين نسخة، ودفع إلى أهل كل كورة نسخة لتذيع الأخبار بهذه النسخ في الآفاق. ونمي الخبر إلى يعقوب الصفار بما كان من حنس غلمانه، وما كان من جمع الحاج في دار عبيد الله، وما دفع إليه من النسخ، وانكشف له رأي الخليفة في قصده، فرجع إلى نيسابور، وإنما رجع لأنه لم يجد عدة تصلح للقاء الخليفة، ولما دخل إلى نيسابور أساء إلى أهلها بأخذ الأموال ورجع يريد جهة سجستان في جمادى الأولى من سنة إحدى وستين ومائتين.

ولما رجع إلى سجستان خرجت كتب الخليفة إلى أصحاب الممالك بخراسان وذوي الجاه بتولية كل رجل ناحية، فوردت الكتب وأصحاب الصفار متفرقون في كور خراسان. ثم إن الصفار وصل إلى عسكر مكرم من أعمال خوزستان وكاتب الخليفة، وسأله ولاية خراسان وبلاد فارس وما كان مضموماً إلى آل طاهر بن الحسين الخزاعي من الكور وشرطتي بغداد وسر من رأى، وأن يعقد له على طبرستان وجرجان والري وأذربيجان وقزوين، وأن يعقد له على كرمان وسجستان والسند، وأن يحضر من قرئت عليهم الكتب التي نسخت في دار عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ويقرأ عليهم خلاف ما قرئ عليهم أولاً من ذكره، ليبطل ذلك الكتاب بهذا الكتاب، ففعل ذلك الموفق بالله أبو أحمد طلحة بن المتوكل على الله، وهو أخو الخليفة المعتمد على الله والد المهتضد بالله الخليفة القائم بعد عمه المعتمد على الله، وكان الموفق مستولياً على الأمور كلها وليس للمعتمد معه سوى اسم الخلافة لا غير، وأجابه إلى ما طلب، وجمع الناس وقرأ عليهم ما أحبه الصفار، وأجيب إلى الولاية التي طلبها، واضطربت الموالي بسر من رأى من إجابة الخليفة إلى ما طلبه الصفار، وتحركوا. ثم إن الصفار لم يلتفت إلى ما أجيب إليه من ذلك، ودخل السوس وهي أيضاً مدينة من أعمال خوزستان بالقرب من عسكر مكرم، ولما دخلها عزم على محاربة الخليفة المعتمد وتأهب له الخليفة لينحدر إليه في دجلة، ثم تقدم الصفار وتقدم إليه عسكر الخليفة، وقد كانت الموالي ارتابت واتهمت المير الموفق، وتوهمت أن إقبال الصفار بسبب ما أنفذ إليه من الكتب، وإلا فأي عجيب أعجب من خارج قصد من زرنج كرسي سجستان، وهي الحد الفاصل بين السند والترك وخراسان، والوصول إلى بلاد العراق لمحاربة الخليفة، وهو في جيوشه وعدده وتقادم مملكته في شرق الأرض وغربها، والصفار منفرد بجيشه ليس معه من يعضده ولا يشاركه في هذا الأمر؟! ولما بلغ الخليفة ذلك دعا ببرد النبي صلى الله عليه وسلم وقضيبه، وأخذ القوس ليكون أول من رمى، ولعن الصفار، فطابت أنفس الموالي.

ولما كان صبيحة الأحد لتسع خلون من رجب وردت عساكر الصفار في التعبية إلى موضع يقال له اصطربند، وهي قرية بين السيب ودير العاقول من النهروان الأوسط، وجمع أصحابه ليحمل بهم، وتقدم بنفسه كما كان يفعل قبل ذلك، وأقبل وعليه دراعة ديباج سوداء، ولما تواقف الصفان خرج من الموالي خشتج القائد فقام بين الصفين وقال لأصحاب الصفار: يا أهل خراسان وسجستان، ما عرفناكم إلا بطاعة السلطان وتلاوة القرآن وحج البيت وطلب الإنكار، وإن دينكم لا يتك إلا باتباع الإمام، وما نشك أن هذا الملعون قدموه عليكم، وقال لكم: إن السلطان قد كتب إليه بالحضور، وهذا السلطان قد خرج لمحاربته، فمن آثر منكم الحق بدينه وشرائع الإسلام فلينفرد عنه إذ كان شاقاً للعصا محارباً للسلطان، فلم يجيبوه عن كلامه، وكان هذا خشتج شجاعاً مقداماً.

ولما تخلص محمد بن طاهر بن عبد الله بن طاهر بن الحسين أمير خراسان من أسر الصفار – وقد تقدم ذكر أسره وحمله مقيداً – قال له خشتج: يا آل طاهر، اشتريتمونا بأموالكم وأهديتمونا إلى ولد العباس، فاستخلفونا وملكونا الضياع والأموال، حتى قدنا الجيوش وحاربنا عن بيضة الإسلام، فلم نخرج من الدنيا حتى حاربنا الصفار عنك يا والي خراسان مع مولانا أمير المؤمنين، وخلصناك بعد الأسر والقيد الثقيل من مدينة إلى مدينة على بغل إكاف ورددناك من العراق إلى خراسان، فالحمد لله على ما تفضل به مولانا من خلاصك، وأولانا هذا الفعل الجميل فيك.

رجعنا إلى تتمة خبر الصفار: قال الراوي: وحزر عسكر الصفار فكانت مساحة معسكره ميلاً في ميل وكانت دوابهم في غاية الفراهة، وقيل إن جمعهم كان يزيد على عشرة آلاف إنسان، ووضع الخليفة العطاء في الجند وقطع ما في الطريق من الشجر والدغل، واستعدوا للحرب وجدوا فيها وشمروا، وقيل ما هو إلا أن تنصروا أو تنهزموا فلا ترجع دولتكم إليكم، ووقف الخليفة المعتمد بنفسه وإلى جانب ركابه محمد بن يزيد بن مزيد بن زائدة الشيباني – وقد تقدم ذكر جده يزيد بن مزيد – ووقف معه جماعة واكتنفوا من أهل البأس والنجدة، وتقدم بين يديه الرماة بالنشاب، وكشف الموفق

أخو الخليفة رأسه وقال: أنا الغلام الهاشمي، وحمل على أصحاب الصفار، وقتل بين الطائفتين خلق كثير، فلما رأى الصفار تلك الحال ولى راجعاً تاركاً أمواله وخزائنه وذخائره، ومر على وجهه فلم تتبعه العساكر، وما أفلت من أصحابه رجل إلا بسهم أصابه، وأدركهم الليل فتساقطوا في النهار لازدحامهم وثقل الجراح بهم، قال أبو الساج داود ابن دوست الذي تنسب إليه الأجناد الساجية ببغداد للصفار لما انهزم: ما رأيت معك شيئاً من تدبير الحروب، وكيف كنت تغلب الناس، فإنك جعلت ثقلك وأموالك وأسراك أمامك وقصدت بلداً على قلة المعرفة منك به وبمغايصه وأنهاره بغير دليل، وقاتلت يوم الأحد والريح عليك، وسرت من السوس إلى واسط في أربعين يوماً، وأحوال العساكر مختلة، فلما توافت عددهم، وجاءتهم أموالهم واستحكم أمرهم عليك أقبلت من واسط إلى دير العاقول في يومين، وتأخرت عند إمكان الفرصة وأقبلت تعدو في موضع التثبت، فقال الصفار: لم اعلم أني أحار و لم أشك في الظفر، وتوهمت أن الرسل ترد علي، فبدروا الأمر فأتيت بما قدرت عليه.

قلت: هذا آخر ما نقلته من كلام ابن الزهر مع الاختصار.

ونقلت من تاريخ أبي الحسين عبيد الله بن أحمد بن أبي طاهر الذي جعله ذيلاً على تاريخ أبيه في " أخبار بغداد " وقد أطال القول فيه فاختصرته وحذفت ما تكرر منه، فقال: كان وثوب يعقوب بن الليث على درهم وغلبته على سجستان يوم السبت لخمس خلون من المحرم سنة سبع وأربعين ومائتين، وكانت ولاية درهم بن نضر كذا ثلاث سنين بعد إخراجه صالح بن النضر، وهو رجل من بني كنانة، من سجستان في ذي الحجة سنة سبع وثلاثين ومائتين، و لم يزل يعقوب الصفار مقيماً بسجستان يحارب الشراة والتراك ويظهر أنه متطوعي، حتى كانت سنة ثلاث وخمسين ومائتين، فخرج إلى هراة ثم قصد بوشنج وحاصرها وأخذها عنوة، وكان ذلك في خلافة المعتز ومات المعتز ويعقوب على حاله، و لم يزل على ذلك إلى أيام المعتمد على الله، ثم دخل بلخ وخرج منها، ثم وصل إلى رامهرمز وهو يظهر الطاعة للخليفة المعتمد، وذلك في المحرم من سنة اثنتين وستين ومائتين، ثم أرسل رسله إلى المعتمد فدخلوا بغداد لأربع عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة من السنة المذكورة، ثم صار إلى واسط، وأقام بها نائباً عنه ثم صار إلى دير العاقول يوم السبت لثمان خلون من رجب، ثم صار إلى اصطربند فترل بها، ولما اتصل خبره بالمعتمد وأنه يقصد بغداد جمع أصحابه من الأطراف، وخرج من سر من رأى قاصداً لمحاربته، ودخل بغداد يوم الأحد لخمس بقين من ذي الحجة من السنة.

قال أبو الفرج كاتب القاضي أبي عمر: لما نهض الخليفة لمحاربة الصفار لم تزل كتبه تسير إليه من الطريق يؤمر بالانصراف، ويحذر سوء عاقبة فعله، وأن أمير المؤمنين قد نهض إليه في العدد والعدد، وكتب الصفار واردة بأني قد علمت نهوض أمير المؤمنين ليشرفني وينبه على موقعي منه، ثم عبر الخليفة جيشه للقتال على القرية المذكورة، وأرسلوا الماء على طريق الصفار، فكان سبب هزيمته، فإنهم أخذوا عليه الطريق وهو لا يدري، واصطف الفريقان، و لم يزل القوم يحمل بعضهم على بعض حتى انهزم الصفار، فغنم الناس من أثقاله غنيمة عظيمة، وتوهموا أن ذلك حيلة منه مكر، ولولا ذلك لاتبعوه، ولقد حدثني من حضر ذلك أن رشق الجند الموالي كان في ذلك الوقت عشرين ألف سهم، وانصرف الخليفة مسروراً بما فتح الله عليه.

وكان ممن تخلص من أسره ذلك اليوم أبو عبد الله محمد بن طاهر أمير خراسان وجاء إلى الخليفة وهو في قيده، ففك الخليفة عنه القيد، وخلع عليه خلعة سلطانية. وذكر المعتمد ذلك النهار أنه رأى تلك الليلة في المنام كأن إنساناً كتب على صدره "إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً" "الفتح: " وقص الرؤيا على خواصه، وقال لهم: قد وثقت بنصر الله تعالى.

وقبل الواقعة وردت كتب الصفار إلى الخليفة وفيها خضوع وتضرع، ويخبر بأنه لم يجئ إلا لخدمة أمير المؤمنين، والتشرف بالمثول بين يديه، والنظر إليه، وأن يموت تحت ركابه، فقال المعتمد: نحن في مخاريق الصفار بعد، أعلموه أنه ما له عندي إلا السيف. وأمر الخليفة بالكتاب إلى أبي أحمد عبيد الله بن عبد الله بن طاهر، وهو عم محمد بن طاهر بن عبد الله بن طاهر، يخبره بالفتح وخلاص ابن أخيه محمد بن طاهر، فكتب إليه وهو يومئذٍ يتولى الشرطة ببغداد نيابة عن ابن أخيه المذكور، فإنه يتولى خراسان وشرطتي بغداد وسر من رأى وفي الكتاب فصول طويلة، وحاصله أنه عدد ذنوب الصفار، وما قابله به الخليفة من الإحسان والإنعام، وأنه قلده خراسان والبلاد التي تقدم ذكرها قبل هذا، وأنه رفع مرتبته وأمر بتكنيته في كتبه وأقطعه الضياع السنية، و لم يبق شيء مما يقدر فيه استصلاحه إلا فعله، فما زاده ذلك إلا البغي والطغيان، والتمس أشياء إن رد عنها قصد أبواب أمير المؤمنين لإثارة

الفتنة وابتغاء الغلبة، فلم ير أمير المؤمنين إجابته إلى ما التمسه، وتابع الكتب بالرجوع إلى أعماله الجليلة التي ولاه إياها، وحذره التعرض لزوال النعم التي أنعم الله عليه بها، فقد خالفه وعصاه وخرج عن طاعته، وعرفه أنه إن أقام على المصير إلى الباب فقد عصاه وخرج عن طاعته، ثم وجه إليه في ذلك مرة بعد أخرى مع جماعة من القضاة والفقهاء والقواد، وقدر بتوجههم إليه أنه يرجع إلى ما هو ألزم به وأوجب عليه، فأقام على سبيل واحد في البغي والعناد والعصيان، ولم يثنه الإرشاد، ولم يزل استحواذ الشيطان عليه يقوده إلى الحين ويصده عن سبيل النجاة إلى مهاوي الهلكة، فلما تبين أيم المؤمنين ذلك منه رأى أن يقضي عليه في أمر مثله، فنهض متوكلاً على الله تعالى معتمداً على كفايته لدفع الملعون عما يحاوله، وهو يغذ السير إلى المصرع الذي سبق به قضاء الله تعالى فيه، حتى توسط الطريق بين مدينة السلام وواسط، وأظهر أعلاماً على بعضها الصلبان، واستنجد أهل الشرك على أهل الإيمان، وبارز الله بسريرته ليسلمه بجريرته، وفارق شرائع الإسلام وأحكامه، نقضاً للعهود ونكثاً وخفراً للذمة وإعلاناً للمشاقة، فقدم أمير المؤمنين أخاه الموفق بالله أحمد ولي عهد المسلمين ومعه جماعة من موالي أمير المؤمنين الذين أخلصوا لله طاعتهم وثبت في المحاماة عن دولته بصائرهم، وأتبعهم أمير المؤمنين الرغبة إلى الله تعالى في تأييدهم ونصرهم على عدوهم، ولعنه أمير المؤمنين في الأوقات والمواقف التي علم الله صدق نيته فيها، وألحقه وبالها، ووقف أمير المؤمنين يتأمل ما يكون من أخيه ومواليه وأوليائه، ويواصل الإمداد والجيوش إليهم، وكان الموفق بالله في قلب العسكر، وظهر الملعون عدو الله في أشياع ضلالته قد ادرع العصيان، وتسربل البغي واعتمد على وفور حشده وكثرة أتباعه، فلما تراءى الجمعان شهر عدو الله وأشياع ضلالته السلاح، وأسرعوا إلى موالي أمير المؤمنين وأوليائه، وشرعت في الملعون وضلاله سيوف الحق باترة ورماحه طاعنة وسهامه نافذة، حتى أثخن الملعون بالجراح، ورأى أتباع ضلالته ما حل به، فبادروا بالويل والثبور، وأكب عليهم موالي أمير المؤمنين وأوليائه، يقتلون فيهم ويأسرون منهم، وعجل الله إلى النار من جماعته من لا يحصى عدده، ولم يزل الأمر كذلك حتى انتزع أبو عبد الله محمد بن طاهر مولى أمير المؤمنين سالماً من أيديهم، وحسروا عن مستقرهم، فولى الباقون منهزمين مفلولين، لا يلوون على شيء، وأسلم الله تعالى الملعون، وهم وما كانوا حووه وملكوه في سالف الأيام التي أملى الله تعالى لهم فيها أقطار الأرض من الأموال والأمتعة والأثاث والإبل والدواب والبغال والحمير، فأفاءه الله على الموالي وسائر الأولياء وملكهم إياه، وصاروا به إلى رحالهم.

وعلى الجملة فإن هذا الكاتب أطال القول في ذلك فاختصرته، ثم كتب في آخره: وكتبه عبيد الله بن يحيى يوم الأربعاء لاثنتي عشرة ليلة خلت من رجب سنة اثنتين وستين ومائتين.

ثم قال هذا المؤرخ بعد هذا: ومضى الصفار منهزماً إلى واسط يتخطف أهل القرى، وتؤخذ أسلحتهم وأسلابهم، ولم تتبعه الموالي مخافة رجعته ولاشتغالهم بالكسب والنهب، فأمسكوا عنه، ورجع الخليفة إلى معسكره، ثم رجع الصفار إلى السوس وجبى الأموال، ثم قصد تستر وحاصرها وأخذها ورتب فيها نائباً، وكثر جمعه، ثم رحل إلى فارس في شوال، وكان الخليفة قد رجع إلى المدائن وأقام بها يومين، ثم رحل إلى بغداد ومنها إلى سر من رأى، ودخلها يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من شعبان.

ثم ذكر المؤرخ هذا: وورد الخبر على الخليفة بوفاة يعقوب بن الليث الصفار يوم الثلاثاء لأربع عشرة ليلة خلت من شوال، والذي أصيب في بيوت أمواله من العين أربعة آلاف ألف دينار، ومن الورق خمسون ألف ألف درهم، ووافى أحمد بن أبي الأصبغ يوم الخميس لسبع بقين من شوال، وقد كان الخليفة أنفذه ليصلح أمر يعقوب، فانصرف من عند يعقوب، فلما قرب من واسط اتصل به وفاة يعقوب، وقد كان قلد خراسان وفارس وكرمان والري وقم وأصبهان، وصيرت إليه الشرطتان ببغداد وسر من رأى، على أن يوليها من أحب، وعلى أن يوجه ثلثي ما يجبى من خراج البلاد التي يتولاها من جميع الأعمال.

وتولى أخوه عمرو بن الليث مكانه باجتماع عسكر يعقوب عليه، ووردت كتب عمرو إلى الموفق أخي الخليفة المعتمد على الله بالسمع والطاعة، وأن يتولى ما كان أخوه يتولاه، فاجيب إلى سؤاله، وولاه في ذي القعدة من السنة.

قلت: سياقة هذا التاريخ يدل على أن يعقوب الصفار توفي في بقية سنة اثنتين وستين ومائتين، لأنه حكى الوقعة في هذه السنة، وأن يعقوب انهزم. ثم قال عقيب هذا: وورد الخبر بوفاة يعقوب في شوال، ولم يذكر السنة، فيدل على موته في تلك السنة. والذي أعرفه من عدة تواريخ خلاف هذا،

فإن أبا الحسين السلامي ذكر في كتاب " تاريخ أخبار ولاة خراسان "، في أول الفصل المختص بعمرو بن الليث الصفار فقال: كان سبب وفاة يعقوب بن الليث أنه أصابه القولنج، فأشير عليه بالعلاج فامتنع منه واختار الموت عليه، فمات بجنديسابور من خوزستان يوم الثلاثاء لأربع عشرة ليلة خلت من شوال من سنة خمس وستين ومائتين.

قال أبو الوفاء الفارسي: رأيت على قبر يعقوب بن الليث صحيفة، وقد كتبوا عليها:

ملكت خراسانا وأكناف فارس ... وما كنت من ملك العراق بآيس

سلام على الدنيا وطيب نسيمها ... إذا لم يكن يعقوب فيها بجالس

ورأيت بخطي في جملة مسوداتي: أن يعقوب بن الليث الصفار توفي سنة خمس وستين ومائتين بالأهواز، وحمل تابوته إلى جنديسابور فدفن بها، وكتب على قبره: هذا قبر يعقوب المسكين، وكتب بعده:

أحسنت الأيام إذ حسنت ... ولم تخف سوء ما يأتي به القدر

وسالمتك الليالي فاغتررت بها ... وعند صفو الليالي يحدث الكدر

ورأيت بخطي أيضاً في موضع آخر أنه توفي بجنديسابور ودفن بميدانه، واله أعلم، وهو قاصد العراق في التاريخ المذكور. وكانت وفاته بعلة القولنج، وأخبره طبيبه أن لا دواء له إلا الحقنة، فامتنع منها واختار الموت عليها، وكانت مدة علته بالقولنج والفواق ستة عشر يوماً. ومدة تغلبه على سجستان وتلك النواحي أربع عشرة سنة وشهوراً.

وذكر شيخنا ابن الأثير في تاريخه في سنة خمس وستين ومائتين أنه مات فيها يعقوب بن الليث في تاسع عشر شوال من السنة، وذكر حديث القولنج وامتناعه من الحقنة، وأنه مات بجنديسابور من كور الأهواز – قلت: وهي من أعمال خوزستان بين العراق وبلاد فارس – وقال شيخنا أيضاً: وكان الخليفة المعتمد قد أنفذ إليه رسولاً يترضاه ويستميله ويقلده أعمال فارس، فوصل الرسول إليه ويعقوب مريض، فجلس له، وجعل عنده سيفاً ورغيفاً من خبز الخشكار ومعه بصل. وأحضر الرسول، فأدى الرسالة، وقال له: قل للخليفة إني عليل، فإن مت فقد استرحت منك واسترحت مني، وإن عوفيت فليس بيني وبينك إلا هذا السيف حتى آخذ بثأري أو تكسرني وتفقرني، فأعود إلى هذا الخبز والبصل، وعاد الرسول، فلم يلبث يعقوب أن مات.

وقال ابن حوقل في كتاب " المسالك والممالك " إن جنديسابور مدينة حصينة واسعة الخير، وبها نخل وزروع كثيرة ومياه، وقطنها يعقوب بن الليث الصفار لخصبها واتصالها بالمير الكثيرة.

وكان الحسن بن يزيد العلوي يسمى يعقوب " السندان " لثباته، وكان قل أن يرى متبسماً، وكان عاقلاً حازماً، وكان يقول: كل من عاشرته أربعين يوماً ولا تعرف أخلاقه لا تعرفها في أربعين سنة.

ولما تولى عمرو أحسن في التدابير والسياسة غاية الإحسان، حتى يقال ما أدرك في حسن السياسة للجنود والهداية إلى قوانين المملكة منذ زمن طويل مثل عمرو بن الليث. وذكر السلامي في كتاب " أخبار خراسان " شيئاً كثيراً من كفايته ونهضته، وقيامه بقواعد الولاية، فتركته طلباً للاختصار.

وذكر أنه كان ينفق في الجند في كل ثلاثة أشهر مرة، ويحضر بنفسه على ذلك، وأن عارض الجيش يقعد والأموال بين يديه، والجند بأسرهم حاضرون وينادي المنادي أولاً باسم عمرو بن الليث، فتقدم دابته إلى العارض بجميع آلة الفارس، فيفتقدها ويأمر بوزن ثلثمائة درهم باسم عمرو، فتحمل إليه في صرة فيأخذ الصرة ويأمر بوزن ثلثمائة درهم باسم عمرو، فتحمل إليه في صرة فيأخذ الصرة فيقبلها ويقول: الحمد لله الذي وفقني لطاعة أمير المؤمنين حتى استوجبت منه الرزق، ثم يضعها في خفه، فتكون لمن يترع خفه، ثم يدعى بعد ذلك بأصحاب الرسوم على مراتبهم، فيستعرضون بآلاتهم التامة وبدوابهم الفره، ويطالبون بجميع ما يحتاج إليه الفارس والراجل من صغير آلة وكبيرها، فمن أخل بإحضار شيء منها حرموه رزقه، فاعترض يوماً فارساً كانت دابته غاية الهزال، فقال له عمرو: يا هذا تأخذ مالنا تنفقه على امرأتك فتسمنها، وتهزل دابتك التي عليها تحارب وبها تجد الأرزاق؟ امض فليس

لك عندي شيء، فقال له الجندي: جعلت لك الفداء، لو اعترضت امرأتي لاستسمنت دابتي، فضحك عمرو وأمر بإعطائه وقال: استبدل بدابتك.
قلت: ذكر القاضي كمال الدين، المعروف بابن العديم الحلبي رحمه الله تعالى، في " تاريخ حلب "حكاية يليق أن أذمرها هاهنا، لأنها مثل هذه الحكاية، وهي: كان كسرى أنوشروان بن قباذ قد ولى رجلاً من الكتاب نبيهاً، معروفاً بالعقل والكفاية، يقال له بابك بن البهروان، ديوان الجند، فقال لكسرى: أيها الملك إنك قد قلدتني آمراً من صلاحه أن تحتمل لي بعض الغلظة في الأمور وهي عرض الجنود في كل أربعة أشهر، وآخ كل طبقة بكمال آلتها ومحاسبة المؤدبين على ما يأخذون على تأديب الرجال بالفروسية والرمي والنظر في مبالغتهم في ذلك وتقصيرهم، فإن ذلك ذريعة إلى إجراء السياسة مجاريها، فقال كسرى: ما المجاب بما سأل بأحظى من المجيب، لاشتراكهما في فضله، وانفراد المجيب بعد الراحة، حق مقالتك، فأمر فبنيت له موضع العرض مصطبة، وبسط له عليها الفرش الفاخرة، ثم جلس ونادى مناديه: لا يبقين أحد من المقاتلة إلا حضر للعرض، فاجتمعوا و لم ير كسرى، فأمرهم فانصرفوا، وفعل ذلك في اليوم الثاني، و لم ير كسرى فيهم فأمرهم فانصرفوا، فنادى في اليوم الثالث: أيها الناس لا يتخلفن من المقاتلة أحد، ولا من أكرم بالتاج والسرير، فإنه عرض لا رخصة فيه ولا محاباة، وبلغ كسرى ذلك، فتسلح بسلاحه ثم ركب فاعترض على بابك، وكان الذي يؤخذ به الفارس تجفافاً ودرعاً وجوشناً وبيضة ومغفراً وساعدين وساقين ورمحاً وترساً وجرزاً تلزمه منطقة وطبرزيناً وعموداً، وجعبة فيها قوسان بوتريهما وثلاثة نشابة، ووترين ملفوفين يعلقهما الفارس في مغفره ظهرياً، فاعترض كسرى على بابك بسلاح تام، خلا الوترين اللذين يستظهر بهما، فلم يجز بابك على اسمه، فذكر كسرى الوترين فعلقهما في مغفره، واعترض على بابك، فاجاز على اسمه، وقال: لسيد الكماة أربعة آلاف درهم ودرهم، وكان أكثر ماله من الروق أربعة آلاف درهم، ففضل كسرى بدرهم.
فلما قام بابك من مجلسه دخل على كسرى فقال: أيها الملك، لا تلمني على ما كان من إغلاظي، فما أردت به إلا الدربة للمعدلة والإنصاف، وحسم مادة المحاباة، قال كسرى: ما أغلظ علينا أحد فيما يريد به إقامة أودنا وصلاح ملكنا إلا احتملنا له غلطته، كاحتمال الرجل شرب الدواء الكريه، لما يرجوه من منفعته.
رجعنا إلى تتمة أخبار عمرو بن الليث الصفار:
قال السلامي أيضاً: كان رافع بن هرثمة تبعاً لأبي ثور، وكان أبو ثور أحد قواد محمد بن طاهر الخزاعي، فلما وافى يعقوب الصفار نيسابور كان أبو ثور من جملة من مايل يعقوب على محمد بن طاهر، فلما انصرف يعقوب إلى سجستان صحبه أبو ثور، ومعه رافع بن هرثمة، وكان رجلاً طويل اللحية كريه الوجه قليل الطلاقة، فدخل يوماً إلى يعقوب، فما خرج من عنده قال يعقوب: إني لا أميل إلى هذا الرجل فليلحق بحيث يشاء، فباع رافع جميع آلاته ثم انصرف إلى مترله بيامين، وهي من قرى كنج رستاق، وأقام هناك إلى أن استقدمه أحمد بن عبد الله الخجستاني – وخجستان: من جبل هراة، من قرى بادغيس؛ وكان الحجستاني من أتباع يعقوب الصفار، ثم خلع طاعته وتغلب على نيسابور وبسطام في سنة إحدى وستين ومائتين، وكان يظهر الميل إلى الطاهرية مستميلاً بذلك قلوب أهل نيسابور إليه، حتى إنه كان يكتب في كتبه: أحمد بن عبد الله الطاهري.
ثم كتب الخجستاني إلى رافع بن هرثمة، وهو في يلده، يستقدمه، فقدم عليه، فجعله صاحب جيشه، وللخجستاني حروب ومواقف مشهورة، وليس الغرض ذكر شيء منها هاهنا. ثم إن غلامين من غلمانه اتفقا عليه وقتلاه، وقد سكر ونام، وذلك في ليلة الأربعاء لست بقين من شوال سنة ثمان وستين ومائتين. وكان رافع بن هرثمة غائباً، فقدم بعد ذلك على جيش الخجستاني، فقدموه عليهم وبايعوه بمدينة هراة، وقيل بنيسابور.
ثم عزل الموفق بالله عمرو بن الليث الصفار عن ولاية خراسان، وجعلها لأبي عبد الله محمد بن طاهر الخزاعي في سنة إحدى وسبعين ومائتين، وهو مقيم ببغداد، فاستخلف محمد بن طاهر عليها رافع بن هرثمة، ما خلا أعمال ما وراء النهر فإن الموفق بالله أقر عليها نصر بن أحمد بن أسد الساماني خليفة لمحمد بن طاهر.
ثم وردت كتب الموفق على رافع بقصد جرجان وطبرستان، وكانتا للحسن بن زيد العلوي، وتوفي سنة سبعين ومائتين، واستولى عليهما أخوه محمد بن زيد، فجاءه رافع في سنة أربع وسبعين، ففارقها محمد بن زيد إلى استراباذ فحاصره بها رافع مدة سنتين، ثم فارقها ليلاً في نفر يسير إلى بلاد الديلم. واستولى رافع على طبرستان في سنة سبع وسبعين ومائتين.
ثم توفي الخليفة المعتم على الله في رجب سنة تسع وسبعين ومائتين وتولى الخلافة بعده المعتضد بالله أبو العباس أحمد بن الموفق المذكور، وولى المعتضد أبا

إبراهيم إسماعيل بن أحمد الساماني ما وراء النهر بعد وفاة أخيه نصر بن أحمد المذكور – قلت: وكانت وفاة نصر لسبع بقين من جمادى الآخرة، سنة تسع وسبعين بسمرقند – قال: وعزل رافع بن هرثمة عن خراسان وولاها عمرو بن الليث، وبقي رافع بالري، ثم إنه هادن الملوك المجاورين له ليستعين بهم على عمرو بن الليث، فلكا تم له ذلك خرج إلى نيسابور، فواقعه عمرو بن الليث في شهر ربيع الآخر من سنة ثلاث وثمانين، وهزمه عمرو وتبعه إلى أبيورد، وقصد رافع أن يخرج منها إلى هراة أو مرو، فعلم عمرو أن مقصده سرخس، فقصدها عمرو ليأخذ عليه الطريق، فعلم رافع ذلك، فخرج من أبيورد ومعه دليل، فأخذ به على جبال طوس حتى أورده باب نيسابور فدخلها، فعاد عمرو إليها، وحاصره بها فانهزم رافع وأصحابه ووصل إلى نواحي خوارزم على الجمازات، وحمل ما كان معه من آلة ومال في شرذمة قليلة، وذلك يوم السبت لخمس بقين من شهر رمضان سنة ثلاث وثمانين ومائتين، فوجه إليه أمير خوارزم نائباً يقوم بخدمته وما يحتاج إليه إلى أن يصل خوارزم، فوجده النائب في خف من أصحابه، فقتله لسبع خلون من شوال يوم الجمعة سنة ثلاث وثمانين، وحز رأسه، وحمله إلى عمرو بن الليث وهو بنيسابور، فأنفذ عمرو رأسه إلى المعتضد بالله، و لم يكن رافع ابن هرثمة، وإنما هرثمة زوج أمه، فانتسب رافع إليه لأنه أشهر، ورافع ابن تومرد.

وقال ابن جرير الطبري في تاريخه في سنة ثلاث وثمانين: وفي يوم الجمعة لثمان بقين من ذي القعدة قرئت الكتب على المنابر بقتل رافع بن هرثمة، وقدم رسول عمرو بن الليث برأس رافع إلى بغداد يوم الخميس لأربع خلون من المحرم سنة أربع وثمانين ومائتين على المعتضد، فأمر بنصبه في الجانب الشرقي إلى الظهر، ثم تحويله إلى الجانب الغربي بقية النهار إلى الليل، ثم ردوه إلى دار السلطان، قال السلامي: وصفت خراسان إلى شط جيحون لعمرو بن الليث.

قلت: وقد مدح البحتري الشاعر المشهور رافع بن هرثمة، وكناه أبا يوسف في مديحه، وأرسلها إليه، فأرسل إليه عشرين ألف درهم وهو بالعراق.

قال السلامي: ولما وجه عمرو بن الليث برأس رافع بن هرثمة إلى المعتضد سأل أن يولوه عمل ما وراء النهر مثل ما كان برسم عبد الله بن طاهر، فوعدوه بذلك ثم أرسل إليه المعتضد فوصلته وهو في نيسابور، فأبى أن يقبلها دون الوفاء بما وعدوه من تولية أعمال ما وراء النهر، فكتب الرسول إلى المكتفي بالله بن المعتضد، وكان بالري وعنده جماعة من خواص أبيه، بما سأله عمرو، فأنفذوا إليه العهد بها، فحمل إليه العهد والهدايا التي سيرها له المعتضد بالله وامتنع من أخذها، وكان في الهدايا سبع دسوت خلع، فوضعت بين يديه، وأفاض عليه الرسول الخلع واحدة بعد أخرى، وكلما لبس خلعة صلى ركعتين، ثم وضع العهد قدامه، فقال: ما هذا؟ قال: الذي سألته، فقال عمرو: ما أصنع به؟ فإن إسماعيل بن أحمد لا يسلم إلي ذلك إلا بمائة ألف سيف، فقال: أنت سألته فشمر الآن لتتولى العمل في ناحيته، فاخذ العهد وقبله ووضعه بين يديه، ثم أنفذ عمرو إلى الرسول ومن معه سبعمائة ألف درهم وصرفهم، ثم جهز عمرو جيشاً إلى إسماعيل بن أحمد، فعبر إسماعيل إليهم نهر جيحون وقاتلهم، فقتل بعضهم وهزم الباقين، وعمرو بن الليث الصفار في نيسابور، وكانت الوقعة يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة بقيت من شوال سنة ست وثمانين ومائتين، وعاد إسماعيل إلى بخارا، وهي من أعمال ما وراء النهر.

قال السلامي: انتدب عمرو بن الليث لمحاربة إسماعيل، محمد بن بشر، فلما عبر إسماعيل جيحون دخل موسى السجزي على محمد بن بشر وهو يحلق رأسه فقال له: هل استأذنت إسماعيل في حلق رأسك؟ يعني أن رأسه لإسماعيل لأنه انتصب لمحاربته، فقال له محمد: اغرب عني لعنك الله، ثم تحاربوا من الغد، فانكشف أصحاب بشر وقبضوا عليه وحز رأسه في جملة من سائر الرؤوس وحملوها إلى إسماعيل، وأدخلوا جماعة من أصحابه ليميزوا الرؤوس عن رأس ابن بشر، فأعلم بعضهم إسماعيل بما قال موسى السجزي لابن بشر، فتعجب مما جرى الفأل به.

وذكر الطبري في تاريخه في سنة سبع وثمانين ومائتين ما مثاله: وفي يوم الأربعاء لخمس بقين من جمادى الأولى ورد كتاب فيما ذكر على السلطان أنه كانت بين إسماعيل بن أحمد وبين عمرو بن الليث وقعة، فأسر عمراً واستباح عسكره. وكان من خبر عمرو وإسماعيل أن عمراً سأل السلطان أن يوليه ما وراء النهر فولاه ذلك، ووجه إليه وهو مقيم بنيسابور بالخلع واللواء على ما وراء النهر، لمحاربة إسماعيل بن أحمد، فكتب إليه إسماعيل: إنك قد وليت دنيا عريضة، وأنا في يدي ما وراء النهر، وأنا في ثغر، فاقنع بما في يدك، واتركني مقيماً بهذا الثغر، فأبى إجابته إلى ذلك، وذكر له من أمر نهر بلخ وشدة عبوره، فقال عمرو: لو أشاء أن أسكره ببدر الأموال وأعبر لفعلت.

فلما يئس إسماعيل من انصرافه عنه جمع من معه من التناء والدهاقين وعبر النهر إلى الجانب الغربي، وجاء عمرو بن الليث فنزل بلخ، وأخذ إسماعيل عليه النواحي، فصار كالمحاصر، وندم على ما فعل، وطلب المحاجزة فيما ذكر، فأبى إسماعيل عليه ذلك، ولم يكن بينهم قتال كثير حتى هزم عمرو، فولى هارباً، ومر بأجمة في طريقه قيل إنها أقرب، فقال لعامة من معه: امضوا في الطريق الواضح، ومضى في نفر يسير، فدخل الأجمة، ووحلت به دابته فوقعت، ولم يكن له في نفسه حيلة، ومضى من معه ولم يلووا عليه، وجاء أصحاب إسماعيل فأخذوه أسيراً، فلما بلغ المعتضد ما جرى مدح إسماعيل وذم عمراً، وقال: يقلد أبو إبراهيم إسماعيل كل ما في يد عمرو، ويوجه إليه بالخلع.

ثم ذكر الطبري أيضاً في سنة ثمان وثمانين ما مثاله: وفي أول جمادى الأولى يوم الخميس أدخل عمرو بن الليث بغداد، وذكر لي أن إسماعيل بن أحمد خيره بين المقام عنده أسيراً وبين توجيهه إلى أمير المؤمنين، فاختار توجيهه إلى أمير المؤمنين، فوجهه.

وقال السلامي في " أخبار خراسان ": ثم خرج عمرو إلى بلخ فلاقاه بها إسماعيل فهزمه وقبض عليه، وذلك يوم الثلاثاء النصف من ربيع الأول سنة سبع وثمانين ومائتين، وأنفذه مقيداً إلى سمرقند – قلت: وهي من بلاد ما وراء النهر أيضاً، وهذا النهر هو جيحون – قال: وضم إليه أخاه أبا يوسف ليخدمه، إلى أن ورد عليه من عند المعتضد عبد الله بن الفتح بعهد خراسان واللواء والتاج والخلع في سنة ثمان وثمانين، وقدم معه إنسان ليتولى حمل عمرو بن الليث إلى بغداد فسلمه إسماعيل إليه، فحمله.

وقال ابن طاهر المذكور قبل هذا في تاريخه: إن عمرو بن الليث الصفار انهزم وقتل خلق كثير من أصحابه. وكانت الوقعة على باب بلخ يوم الأربعاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من ربيع الآخر سنة سبع وثمانين ومائتين، وقبل ذلك هرب ابن أبي ربيعة كاتب عمرو بن الليث إلى إسماعيل بن أحمد، ومعه قائد من قواده في خلق كثير، فأصبح عمرو في يوم الوقعة وقد عرف الخبر، ثم كثر هرب أصحابه إلى إسماعيل، فضعف قلب عمرو وهرب، واشتغل بالعسكر، وبعث في طلب عمرو جيشاً، فوجدوه واقفاً على فرس، فقبضوا عليه، وسره إسماعيل إلى المعتضد، وأخبره بما جرى، وانه سيره إلى سمرقند، حتى يرد عليه أمر أمير المؤمنين، فاشتد سرور الخليفة بذلك، وقلد الخليفة إسماعيل ما كان مقلده مضافاً إلى عمله. وتوجه عبد الله بن الفتح إلى إسماعيل في طلب عمرو، فلما وصل إلى إسماعيل وجه إليه، فقيده وأرسله، وإلى جانبه رجل من أصحاب إسماعيل بيده سيف مشهور، وقيل لعمرو: إن تحرك في أمرك أحد رمينا رأسك إليهم، فلم يتحرك أحد، ووصلوا إلى النهروان يوم الثلاثاء لثلاث بقين من شهر ربيع الآخر سنة ثمان وثمانين، وحل قيد عمرو، فلما كان يوم الخميس مستهل جمادى الأولى ركب الجند للقائه وعمرو في القبة قد أرخى جلالها عليه، فلما بلغ باب السلامة أنزل عمرو من القبة، وألبس دراعة ديباج وبرنس السخط، وحمل على جمل له سنامان، يقال له إذا كان ضخماً على هذه الصورة " الفالج "، في غاية الارتفاع، وكان عمرو قد أهداه فيما أهدى للخليفة، وقد ألبس الجمل الديباج وحلي بذوائب وأرسان مفضضة، وأدخل بغداد فاشتقها في الشارع العظم إلى دار الخليفة بقصر الحسني، وعمرو رافع يديه يدعو ويتضرع دهاء منه، فرقت له العامة، وأمسكت عن الدعاء عليه، ثم أدخل على الخليفة وقد جلس له واحتفل به، فوقف بين يديه ساعة، وبينهما قدر خمسين ذراعاً، وقال له: هذا ببغيك يا عمرو، ثم أخرج من بين يديه إلى حجرة قد أعدت له، وكان أخوه يعقوب الصفار قد تزوج امرأة من العرب من بلد سجستان، فلما توفي يعقوب تزوجها أخوه عمرو، ثم توفيت ولم تخلف ولداً، وكان لها ألف وسبعمائة جارية.

قال بعضهم: كنت عند أبي علي الحسين بن محمد بن الفهم المحدث، فدخل رجل من أصحاب الحديث فقال له: يا أبا علي، رأيت عمرو بن الصفار أمس على جمل فالج من الجمال التي كان أهداها عمرو منذ ثلاث سنين للخليفة فأنشد أبو علي:

وحسبك بالصفار نبلاً وعزة ... يروح ويغدو في الجيوش أميرا

حباهم بأجمالٍ ولم يدر أنه ... على جملٍ منها يقاد أسيرا

وعمل في ذلك علي بن محمد بن نصر بن بسام الشاعر – المقدم ذكره:

أيها المغتر بالدن ... يا أما أبصرت عمرا

أركب الفالج بعد ال ملك والعزة القسرا

وعليه برنس للسخ ط إذلالاً وقهرا

رافعاً كفيه يدعو الله إسراراً وجهرا

أن ينجيه من القت ل وأن يعمل صفرا

قال الطبري: وتوفي المعتضد بالله ليلة الاثنين لثمان بقين من شهر ربيع الآخر تسع وثمانين ومائتين. وتولى الخلافة ولده المكتفي بالله أبو محمد علي، وكان غائباً في الرقة عند موت أبيه، فقدم بغداد، وأمر يوم الثلاثاء لثمان خلون من جمادى الآخرة من السنة المذكورة بهدم المطامير التي كان أبوه احتفرها لأهل الجرائم. ومات عمرو بن الليث الصفار في غد هذا اليوم ودفن بالقرب من القصر الحسني، وقد كان المعتضد عند موته لما امتنع من الكلام أمر بقتل عمرو بالإيماء والإشارة ووضع يده على رقبته وعلى عينيه: أي اذبحوا الأعور، وكان عمرو أعور فلم يفعل صافي الحرمي ذلك، وهو الذي أمره المعتضد بقتله، وإنما امتنع من قتله لعلمه بحال المعتضد وقرب وفاته، وكره قتل عمرو. ولما دخل المكتفي بغداد سأل، فيما قيل، القاسم بن عبيد الله عن عمرو: أحي هو؟ فقال: نعم، فسر بحياته وقال: أريد أن أحسن إليه. وكان عمرو يهدي إلى المكتفي ويبره براً كثيراً أيام مقامه بالري في حياة أبيه المعتضد، فذكر أن القاسم كره سؤاله عنه، ودس إليه من قتله. وكانت مدة مملكته اثنتين وعشرين سنة تقريباً.

قلت: وإنما قيل ليعقوب: الصفار، لأنه كان يعمل الصفر، وهو النحاس وهو بضم الصاد المهملة وسكون الفاء وبعدها راء. وكان أخوه عمرو بكري الحمير.

حكى شيخ من الصفارين قال: كان يعقوب وهو غلام في دكانه يتعلم عمل الصفر، ولم أزل أتأمل بين عينيه وهو صغير ما آل أمره إليه، قيل له: وكيف ذلك؟ قال: ما تأملته قط من حيث لا يعلم بتأملي إياه وجدته مطرقاً إطراق ذي همة وروية، فكان من أمره ما كان.

وقال علي بن المرزبان الأصفهاني الكاتب: سألت بعض أصحاب بني الصفار عن عمرو بن الليث أخي يعقوب بن الليث الصفار وصناعته، وعمر يومئذ محبوس بمدينة السلام، فسكت عني، فلما توفي عمرو قال لي: كنت سألتني عن عمرو وصناعته، ولم يكن من الحزم إخبارك وهو يرجى ويخشى، فاعلم الآن أنه لم يزل مكارياً إلى أن عظم شأن أخيه يعقوب وتمكن من خراسان، فلحق به وترك إكراء الحمير.

قلت: ذكر جماعة من أرباب التواريخ في كتبهم أن أبا أحمد عبيد الله بن عبد الله بن طاهر بن الحسين الخزاعي – المقدم ذكره في هذا الكتاب – كان يقول: عجائب الدنيا ثلاث: جيش العباس بن عمرو الغنوي يؤسر العباس وحده وينجو من القتل ثم يطلق ويقتل جميع جيشه، وكانوا عشرة آلاف. وجيش عمرو بن الليث يؤسر عمرو وحده ويموت في السجن ويسلم جميع جيشه وكانوا خمسين ألفاً، وأنا أترك في بيتي بطالاً ويتولى ابني أبو العباس الجسرين ببغداد.

قلت: وكان من حديث العباس بن عمرو الغنوي أن القرامطة لما اشتد أمرهم وانتشروا في البلاد وبالغوا في الفتك أرسل إليهم المعتضد بالله في سنة سبع وثمانين ومائتين جيشاً مقدمه العباس المذكور، فاسره أبو سعيد القرمطي رئيس القرامطة في الوقعة، وأسر جميع من معه من الجيش. وفي اليوم الثاني من الوقعة أحضر أبو سعيد القرمطي الأسرى فقتلهم بأسرهم وأحرقهم، وأطلق العباس، فجاء إلى المعتضد وحده، وكان ذلك في آخر شعبان من السنة، وكانت الوقعة بين البصرة والبحرين. وهي قصة طويلة مشهورة، وهذا خلاصتها إذ ليس هذا موضع التطويل في شرحها – وسيأتي ذكرها مع الاستقصاء ف التاريخ الكبير إن شاء الله تعالى.

قلت: والبيتان المذكوران قبل هذا، وأنهما مكتوبان على قبر يعقوب الصفار، وآخر البيت الأول منهما:

وما كنت من ملك العراق بآيس

هذا نصف بيت من جملة أبيات ترنم بها معاوية بن أبي سفيان الأموي لما تغلب على الشام، وجاءه جرير بن عبد الله البجلي برسالة من علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، وكان علي إذ ذاك مقيماً بالكوفة، فلما أدى جرير الرسالة إلى معاوية وانفض المجلس أمر معاوية بنزول جرير في مكان قريب منه، وجعل يترنم بهذه الأبيات تلك الليلة ليسمع جرير، فيعيد ذلك على علي رضي الله عنه، والأبيات المشار إليها هي:

تطاول ليلي واعتراني وساوسي ... لآتٍ أتى بالترّهات البسابس

أتاني جرير والحوادث جمة ... بتلك التي فيها اجتداع المعاطس

أكايده والسيف بيني وبينه ... ولست لأثواب الدني بلابس

إن الشام أعطت طاعةً يمنيةً ... تواصفها أشياخها في المجالس

فإن يفعلوا أصدم علياً بجبهةٍ ... تفت عليه كل رطبٍ ويآبس

وإني لأرجو خير ما نال نائل ... وما أنا من ملك العراق بآيس

قلت: " الترهات " بضم التاء المثناة من فوقها وتشديد الراء وبعد الهاء والألفتاء ثانية. والبسابس: بفتح الباء الموحدة وبعدها سين مهملة وبعد الألف باء ثانية مكسورة ثم سين، وهي الباطل. وأصل الترهات: الطرقات الصغار غير الجادة تتشعب عنها، الواحدة: ترهة فارسي معرب، ثم استعير في الباطل، فقيل: الترهات البسابس، والجبهة: الجماعة من الناس أيضاً، فكأنه قال: أصدره بالخيل والرجال، والباقي معروف لا حاجة إلى تفسيره.

ورأيت بخط بعض أهل هذا الفن أن عمرو بن الليث لما أسر ملك بعده بلاد فارس حفيده طاهر بن محمد بن عمرو بن الليث المذكور لاثنتي عشرة ليلة بقيت من صفر ثمان وثمانين ومائتين، ثم قبض عليه غلام جده شبك السبكري في سنة ست وتسعين ومائتين ومعه أخوه يعقوب بن محمد، وبعث بهما إلى مدينة السلام.

ثم ولي بعده الليث بن علي بن الليث، وهو ابن أخي يعقوب وعمرو بن الليث المذكورين، كان تغلب على بلاد سجستان في سنة ست وتسعين ومائتين، وجرى بين سبك السبكري وطاهر بن محمد المذكور ما جرى، واستقرت البلاد بيد السبكري، فاستخلف الليث المذكور على سجستان أخاه المعدل بن الليث، وسار إلى بلاد فارس، فهرب السبكري منه يطلب من الخليفة النجدة، فجرد المقتدر بالله الجيوش في شهر رمضان سنة ست وتسعين، وقدم عليها مؤنساً المظفر وبدراً الكبير والحسين بن حمدان، والتقوا مع الليث بن علي، فانهزم جيشه وأسر هو وأخوه محمد وابنه إسماعيل، وعاد مؤنس إلى بغداد ومعه الأسرى في المحرم سنة سبع وتسعين، وشهر بن علي على الفيل، وولي المعدل بن علي بن الليث على سجستان، فسار إليه أحمد بن إسماعيل الساماني في خلق كثير من الفارس والراجل، فأخذ منه البلاد. ثم ملك سبك السبكري الصفار مدة، ثم حمل معه محمد بن علي بن الليث إلى بغداد، وانقضى أمر الصفارية، والله أعلم.

المنصور الواحدي

أبو يوسف يعقوب بن أبي يوسف بن أبي محمد عبد المؤمن بن علي، القيسي الكومي صاحب بلاد المغرب قد تقدم ذكر جده عبد المؤمن، وسيأتي ذكر أبيه يوسف إن شاء الله تعالى.

كان صافي السمرة جداً، إلى الطول ما هو، جميل الوجه أفوه أعين شديد الكحل ضخم الأعضاء جهوري الصوت جزل الألفاظ، من أصدق الناس لهجة وأحسنهم حديثاً وأكثرهم إصابة بالظن، مجرباً للأمور، ولي وزارة أبيه، فبحث عن الأحوال بحثاً شافياً وطالع مقاصد العمال والولاة وغيرهم مطالعة أفادته معرفة جزئيات الأمور. ولما مات أبوه في التاريخ الآتي في ترجمته إن شاء الله تعالى اجتمع رأي أشياخ الموحدين وبني عبد المؤمن على تقديمه فبايعوه وعقدوا له الولاية ودعوه أمير المؤمنين كأبيه وجده ولقبوه بالمنصور، فقام الأمر أحسن قيام، وهو الذي أظهر أبهة ملكهم ورفع راية الجهاد ونصب ميزان العدل وبسط أحكام الناس على حقيقة الشرع ونظر في أمور الدين والورع والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأقام الحدود

حتى في أهله وعشيرته الأقربين كما أقامها في سائر الناس أجمعين، فاستقامت الأحوال في أيامه وعظمت الفتوحات.
ولما مات أبوه كان معه في الصحبة، فباشر تدبير المملكة من هناك، وأول ما رتب قواعد بلاد الأندلس، فأصلح شأنها وقرر المقاتلين في مراكزها ومهد مصالحها في مدة شهرين. وأمر بقراءة البسملة في أول الفاتحة في الصلوات وأرسل بذلك إلى سائر بلاد الشام التي في مملكته. فأجاب قوم وامتنع آخرون. ثم عاد إلى مراكش التي هي كرسي ملكهم، فخرج عليه علي بن إسحاق بن محمد بن علي بن غانية الملثم من جزيرة ميورقة في شعبان سنة ثمانين وملك بجاية وما حولها، فجهز إليه الأمير يعقوب عشرين ألف فارس وأسطولاً في البحر ثم خرج بنفسه في أول سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، فاستعاد ما أخذ من البلاد ثم عاد إلى مراكش.
وفي سنة ست وثمانين بلغه أن الفرنج ملكوا مدينة شلب وهي في غرب جزيرة الأندلس، فتجهز إليها بنفسه وحاصرها وأخذها، وأنفذ في الوقت جيشاً من الموحدين ومعه جماعة من العرب، ففتحوا أربع مدن من بلاد الفرنج كانوا قد أخذوها من المسلمين قبل ذلك
بأربعين سنة، وخافه صاحب طليطلة وسأله الصلح، فصالحه خمس سنين وعاد إلى مراكش. فلما انقضت مدة الهدنة و لم يبق منها سوى القليل خرجت طائفة من الفرنج في جيش كثيف إلى بلاد المسلمين فنهبوا وسبوا وعاثوا عيثاً فظيعاً، فانتهى الخبر إلى الأمير يعقوب وهو بمراكش، فتجهز لقصدهم في جحفل عرمرم من قبائل الموحدين والعرب، واحتفل وجاز إلى الأندلس، وذلك في سنة إحدى وتسعين وخمسمائة. فعلم الفرنج به، فجمعوا خلقاً كثيراً من أقاصي بلادهم وأدانيها. وأقبلوا نحوه.
قلت: ورأيت بدمشق في أواخر سنة ثمان وستين وستمائة جزءاً بخط الشيخ تاج الدين عبد الله بن حمويه شيخ الشيوخ كان بها، وكان قد سافر إلى مراكش وأقام بها مدة، وكتب فصولاً تتعلق بتلك الدولة فمن ذلك فصل يتعلق بهذه الوقعة فينبغي ذكره ها هنا، فقال: لما انقضت الهدنة بين الأمير أبي يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن صاحب المملكة الغربية وبين الأذفونش الفرنجي صاحب غرب جزيرة الأندلس، وقاعدة مملكته يومئذ طليطلة، وذلك في أواخر سنة تسعين وخمسمائة، عزم الأمير يعقوب وهو حينئذ بمراكش على التوجه إلى جزيرة الأندلس لمحاربة الفرنج وكتب إلى ولاة الأطراف، وقواد الجيوش بالحضور، وخرج إلى مدينة سلا ليكون اجتماع العساكر بظاهرها،. فاتفق أنه مرض مرضاً شديداً حتى أيس منه أطباؤه، فتوقف الحال عن تدبير ذلك الجيش. فحمل الأمير يعقوب إلى مراكش، فطمع المجاورون له من العرب وغيرهم في البلاد وعاثوا فيها وأغاروا على النواحي والأطراف. وكذلك فعل الأذفونش فيما يليه من بلاد المسلمين بالأندلس، واقتضى الحال تفرقه جيوش الأمير يعقوب شرقاً وغرباً، واشتغلوا بالمدافعة والممانعة، فكثر طمع الأذفونش في البلاد، وبعث رسولاً إلى الأمير يعقوب يتهدد ويتوعد، ويطلب بعض الحصون المتاخمة له من بلاد الأندلس، وكتب إليه رسالة من إنشاء وزير له يعرف بابن الفخار، وهي: باسمك اللهم فاطر السموات والأرض، وصلى الله على السيد المسيح روح الله وكلمته الرسول الفصيح، أما بعد فإنه لا يخفى على ذي ذهن ثاقب ولا ذي عقل لازب، أنك أمير الملة الحنيفية كما أني أمير الملة النصرانية، وقد علمت الآن ما عليه رؤساء أهل الأندلس من التخاذل والتواكل وإهمال الرعية، وإخلادهم إلى الراحة، وأنا أسومهم بحكم القهر وجلاء الديار وأسبي الذراري وأمثل بالرجال، ولا عذر لك في التخلف عن نصرهم إذا أمكنتك يد القدرة، وأنتم تزعمون أن الله تعالى فرض عليكم قتال عشرة منا بواحد منكم، فالآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً، ونحن الآن نقاتل عشرة منكم بواحد منا لا تستطيعون دفاعاً ولا تملكون امتناعاً، وقد حكي لي عنك أنك أخذت في الاحتفال وأشرفت على ربوة القتال، وتماطل نفسك عاماً بعد عام، تقدم رجلاً وتؤخر أخرى، فلا أدري أكان الجبن أبطأ بك أم التكذيب بما وعد ربك، ثم قيل لي إنك لا تجد إلى جواز البحر سبيلاً لعلة لا يسوغ لك التقحم معها، وها أنا أقول لك ما فيه الراحة لك وأعتذر لك وعنك، على أن تفي بالعهود والمواثيق والاستكثار من الرهان، وترسل إليّ جملة من عبيدك بالمراكب والشواني والطرائد والمسطحات، وأجوز بجملتي إليك، وأقاتلك في أعز الأماكن لديك، فإن كانت لك فغنيمة كبيرة جلبت إليك وهدية عظيمة مثلت بين يديك، وإن كانت لي كانت يدي العليا عليك، واستحقيت إمارة الملتين والحكم على البرين، والله تعالى يوفق للسعادة ويسهل الإدراة، لارب غيره ولا خير إلا خيره، إن شاء الله تعالى.
فلما وصل كتابه إلى الأمير يعقوب مزقه وكتب على ظهر قطعة منه: "ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها، ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون". النمل: 37، الجواب ما ترى لا ما تسمع:

ولا كتب إلا المشرفية عنده ... ولا رسل إلا الخميس العرمرم

قلت: وهذا البيت للمتنبي.

ثم أمر بكتب الاستنفار واستدعى الجيوش من الأمصار، وضرب السرادقات بظاهر البلد من يومه وجمع العساكر، وسار إلى البحر المعروف بزقاق سبتة فعبر فيه إلى الأندلس، وسار إلى أن دخل بلاد الفرنج، وقد أعتدوا واحتشدوا وتأهبوا، فكسرهم كسرة شنيعة، وذلك في سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة، انتهى ما نقلته من الجزء المذكور.

قلت: ثم وجدت في كتاب تذكير العاقل وتنبيه الغافل تأليف أبي الحجاج يوسف بن محمد بن إبراهيم الأنصاري البياسي هذه المكاتبة وجوابها، قد كتبها الأذفونش بن فرذلند إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين الآتي ذكره بعد هذا إن شاء الله تعالى وجواب يوسف على هذه الصورة أيضاً، والله أعلم.

قلت: وذكر البياسي بعد هذا ما يدل على أنه نقلها من خط ابن الصيرفي الكاتب المصري، فإن كان كذلك فما يمكن أن تكون هذه الرسالة إلى يعقوب ابن يوسف، لأن ابن الصيرفي متقدم التاريخ على زمان يعقوب بكثير، والله أعلم.

ورأيت جماعة من فضلاء المغاربة ينكرون هذا التاريخ ويذكرون ما نشرحه إن شاء الله تعالى: وهو أن الفرنج جمعوا جمعاً عظيماً وقصدوه، وبلغ الأمير يعقوب خبر مسيرهم وكثرة جموعهم، فما هاله ذلك، وجدّ في السير نحوهم حتى التقوا في شمال قرطبة على قرب قلعة رباح في مرج الحديد، وفيه نهر يشقه، فعبر إلى منزلة الفرنج وصافهم، وذلك يوم الخميس التاسع من شعبان سنة إحدى وتسعين وخمسمائة، واقتفى في ذلك طريقة أبيه وجده فإنهما أكثر ما كانوا يصافون يوم الخميس، ومعظم حركاتهم في صفر، ووقع القتال وبرزت الأبطال وصبرت الرجال، فأمر الأمير يعقوب فرسان الموحدين وأمراء العرب أن يحملوا ففعلوا، وانهزم الفرنج وعمل فيهم السيف فاستأصلهم قتلاً، وما نجا ملكهم إلا في نفر يسير، ولولا دخول الليل لم يبق منهم أحد، وغنم المسلمون أموالهم، حتى قيل إن الذي حصل لبيت المال من دروعهم ستون ألف درع، وأما الدواب على اختلاف أنواعها فلم يحصرها لها عدد، و لم يسمع في بلاد الأندلس بكسرة مثلها.

ومن عادة الموحدين أنهم لا يأسرون مشركاً محارباً إن ظفروا به ولو كان ملكاً عظيماً، بل تضرب رقابهم كثروا أو قلوا، فلما أصبح جيش المسلمين اتبعوهم فألفوهم قد أخلوا قلعة رباح لما داخلهم من الرعب، فملكها الأمير يعقوب وجعل فيها والياً وجيشاً. ولكثرة ما حصل له من الغنائم لم يمكنه الدخول إلى بلاد الفرنج في ذلك الوقت، فعاد إلى مدينة طليطلة وحاصرها وقاتلها أشد قتال وقطع أشجارها وشن الغارات على بلادها، وأخذ من أعمالها حصوناً كثيرة وقتل رجالها وسبى حريمها وخرب مبانيها وهدم أسوارها، وترك الفرنج في أسوأ حال، و لم يبرز إليه أحد من المقاتلة.

ثم رجع إلى إشبيلية وأقام إلى أثناء سنة ثلاث وتسعين، فعاد إلى بلاد الفرنج مرة ثالثة وفعل فيها كفعله المتقدم، فلم يبق للفرنج قدرة على لقائه وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، فأرسلوا إليه يلتمسون منه الصلح، فأجابهم إلى ذلك لما اتصل به من أخبار علي بن إسحاق الميورقي المقدم ذكره في هذه الترجمة فإنه كان قد خرج على بلاد إفريقية وخرب أكثر بلادها وتوجه نحو الغرب، وسولت له نفسه الترول على بجاية لما علمه من اشتغال الأمير يعقوب بجزيرة الأندلس والجهاد فيها وتأخره عن بلاد المغرب مدة ثلاث سنين. فأوقع الصلح بينه وبين ملوك الأندلس جميعاً على ما اختاره لمدة خمس سنين، ثم عاد إلى مراكش في أواخر سنة ثلاث وتسعين ولما وصل إليها أمر باتخاذ الأحواض والروايا وآلات السفر للتوجه إلى بلاد إفريفية، فاجتمع إليه مشايخ الموحدين وقالوا له: يا سيدنا قد طالت غيبتنا بالأندلس، فمنا من له خمس سنين ومنا من له ثلاث سنين وغير ذلك، فتنعم علينا بالمهلة هذا العام وتكون الحركة في أول سنة خمس وتسعين، فأجابهم إلى سؤالهم وانتقل إلى مدينة سلا وشاهد ما فيها من المتترهات المعدة له، وكان قد بنى بالقرب من المدينة المذكورة مدينة عظيمة، سماها رباط الفتح على هيئة الإسكندرية في اتساع الشوارع وحسن التقسيم وإتقان البناء وتحسينه وتحصينه، وبناها على البحر المحيط الذي هناك، وهي على نهر سلا مقابلة لها من البر القبلي، وطاف تلك البلاد وتتره فيها ثم رجع إلى مراكش.

قلت: وبعد هذا اختلفت الروايات في أمره، فمن الناس من يقول: إنه ترك ما كان فيه وتجرد وساح في الأرض حتى انتهى إلى بلاد الشرق وهو مستخفٍ لا يعرف، ومات خاملاً، ومنهم من يقول: إنه لما رجع إلى مراكش كما ذكرناه توفي في غرة جمادى الأولى، وقيل في شهر ربيع الآخر في

سابع عشره، وقيل في غرة صفر، سنة خمس وتسعين وخمسمائة بمراكش، وقيل إنه مات بمدينة سلا، والله أعلم. وكانت ولادته على ما ذكر هو ليلة الأربعاء رابع شهر ربيع الأول سنة أربع وخمسين وخمسمائة، رحمه الله تعالى، و لم ينقل شيء من أحواله بعد ذلك إلى حين وفاته.

قلت: ثم حكى لي جمع كثير بدمشق في شهر شوال سنة ثمانين وستمائة أن بالقرب من المجدل، البليدة التي من أعمال البقاع العزيزي، قرية يقال لها حمّارة، وإلى جانبها مشهد يعرف بقبر الأمير يعقوب ملك المغرب، وكل أهل تلك النواحي متفقون على ذلك وليس عندهم فيه خلاف، وهذا القبر بينه وبين المجدل مقدار فرسخين من جهتها القبلية بغرب، والله أعلم.

وكان ملكاً جواداً عادلاً متمسكاً بالشرع المطهر، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر كما ينبغي من غير محاباة ويصلي بالناس الصلوات الخمس، ويلبس الصوف، ويقف للمرأة وللضعيف ويأخذ لهم بالحق. وأوصى أن يدفن على قارعة الطريق ليترحم عليه من يمر به.

وسمعت عنه حكاية يليق أن نذكرها ها هنا وهي: أن الأمير الشيخ أبا محمد عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص عمر والد الأمير أبي زكريا يحيى بن عبد الواحد صاحب إفريقية كان قد تزوج أخت الأمير يعقوب المذكور وأقامت عنده، ثم جرت بينهما منافرة فجاءت إلى بيت أخيها الأمير يعقوب، فسير الأمير عبد الواحد طلبها فامتنعت عليه، فشكا الأمير عبد الواحد ذلك إلى قاضي الجماعة بمراكش، وهو القاضي أبو عبد الله محمد بن علي بن مروان، فاجتمع القاضي المذكور بالأمير يعقوب وقال له: إن الشيخ أبا محمد عبد الواحد يطلب أهله، فسكت الأمير يعقوب، ومضى على ذلك أيام، ثم إن الشيخ عبد الواحد اجتمع بالقاضي المذكور في قصر الأمير يعقوب بمراكش، وقال له: أنت قاضي المسلمين، وقد طلبت أهلي فما جاءوني، فاجتمع القاضي بالأمير يعقوب وقال له: يا أمير المؤمنين، الشيخ عبد الواحد قد طلب أهله مرة وهذه الثانية، فسكت الأمير يعقوب؛ ثم بعد ذلك بمدة لقي الشيخ عبد الواحد القاضي بالقصر المذكور وقد جاء إلى خدمة الأمير يعقوب فقال له: يا قاضي المسلمين، قد قلت لك مرتين وهذه الثالثة: أنا أطلب أهلي وقد منعوني عنهم، فاجتمع القاضي بالأمير يعقوب وقال له: يا مولانا إن الشيخ عبد الواحد قد تكرر طلبه لأهله، فأما أن تسير إليه أهله وإلا فاعزلني عن القضاء، فسكت الأمير يعقوب، وقيل إنه قال له: يا أبا عبد الله ما هذا إلا جد كبير. ثم استدعى خادماً وقال له في السر: تحمل أهل الشيخ عبد الواحد إليه، فحملت إليه في ذلك النهار، و لم يتغير على القاضي ولا قال له شيئاً يكرهه، وتبع في ذلك حكم الشرع المطهر وانقاد لأوامره، وهذه حسنة تعد له وللقاضي أيضاً، فإنه بالغ في إقامة منار العدل.

وكان الأمير أبو يوسف يعقوب المذكور يشدد في إلزام الرعية بإقامة الصلوات الخمس، وقتل في بعض الأحيان على شرب الخمر، وقتل العمال الذين تشكو الرعايا منهم، وأمر برفض فروع الفقه، وأن العلماء لا يفتون إلا بالكتاب العزيز والسنة النبوية، ولا يقلدون أحداً من الأئمة المجتهدين المتقدمين، بل تكون أحكامهم بما يؤدي إليه اجتهادهم من استنباطهم القضايا من الكتاب والحديث والإجماع والقياس. ولقد أدركنا جماعة من مشايخ المغرب وصلوا إلينا إلى البلاد وهم على ذلك الطريق: مثل أبي الخطاب بن دحية وأخيه أبي عمر ومحيي الدين ابن العربي نزيل دمشق وغيرهم.

وكان يعاقب على ترك الصلاة ويأمر بالنداء في الأسواق بالمبادرة إليها، فمن غفل عنها أو اشتغل بمعيشته عزره تعزيراً بليغاً.

وكان قد عظم ملكه واتسعت دائرة سلطنته حتى إنه لم يبق بجميع أقطار بلاد المغرب من البحر المحيط إلى برقة إلا من هو في طاعته وداخلٌ في ولايته، إلى غير ذلك من جزيرة الأندلس. وكان محسناً محباً للعلماء مقرباً للأدباء مصغياً إلى المدح مثيباً عليه، وله ألف أبو العباس أحمد بن عبد السلام الجراوي كتابه الذي سماه صفوة الأدب وديوان العرب في مختار الشعر، وهو مجموع مليح أحسن في اختياره كل الإحسان.

وإلى الأمير يعقوب تنسب الدنانير اليعقوبية المغربية.

وكان قد أرسل إليه السلطان صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن أيوب الآتي ذكره إن شاء الله تعالى رسولاً من بني منقذ في سنة سبع وثمانين وخمسمائة ليستنجده على الفرنج الواصلين من بلاد المغرب إلى الديار المصرية وساحل الشام، و لم يخاطبه بأمير المؤمنين بل خاطبه بأمير المسلمين، فعز ذلك عليه، و لم يجبه إلى ما طلبه منه.

والرسول المذكور هو شمس الدولة أبو الحارث عبد الرحمن بن نجم الدولة أبي عبد الله محمد بن مرشد وقد سبق في ترجمة عمه أسامة بن منقذ تتمة نسبه هكذا ذكره الحافظ زكي الدين عبد العظيم المنذري في كتاب الوفات وقال: توفي في سنة ستمائة بالقاهرة، ومولده في شيزر سنة ثلاث وعشرين

وخمسمائة، وله نظم ونثر.

رجعنا إلى حديث يعقوب.

وكان من شعراء دولته أبو بكر يحيى بن عبد الجليل بن عبد الرحمن بن مجبر الأندلسي المرسي. ولقد نظرت في ديوانه فوجدت أكثر مدائحه في الأمير يعقوب، فمن ذلك قوله:

أتراه يترك الغزلا ... وعليه شب واكتهلا
كلفٌ بالغيد ما عقلت ... نفسه السلوان مذ عقلا
غير راض عن سجية من ... ذاق طعم الحب ثم سلا
أيها اللوام ويحكم ... إن لي عن لومكم شغلا
ثقلت عن لومكم أذن ... لم يجد فيها الهوى ثقلا
تسمع النجوى وإن خفيت ... وهي ليست تسمع العذلا
نظرت عيني لشقوتها ... نظرات وافقت أجلا
غادةً لما مثلت لها ... تركتني في الهوى مثلا
هي بزّتني الشباب فقد ... صار في أجفانها كحلا
أبطل الحق الذي بيدي ... سحر عينيها وما بطلا
عرضت دلاً فإذ فطنت ... بولوعي أعرضت خجلا
وبدا لي أنها وجلت ... من هناتٍ تبعث الوجلا
حسبت أني سأحرقها ... إذ رأت رأسي قد اشتعلا
يا سراة الحي مثلكم ... يتلافى الحادث الجللا
قد نزلنا في جواركم ... فشكرنا ذلك النزلا
ثم واجهنا ظباءكم ... فلقينا الهول والوهلا
أضمنتم أمن جيرتكم ... ثم ما آمنتم السبلا
وأردتم غصب أنفسهم ... فبثثتم بينها المقلا
ليتنا خضنا السيوف ولم ... نلق تلك الأعين النجلا
عارضتنا منكم فئة ... أحدثت في عهدنا دخلا
ثُعَليّاتٌ جفونهم ... وهم لم يعرفوا ثُعلا
أشرعوا الأعطاف ناعمة ... حين أشرعنا القنا الذبلا
واستفزتنا عيونهم ... فخلعنا البيض والأسلا

ورمتنا بالسهام فلم ... نر إلا الحلي والحللا

نصروا بالحسن فانتبهوا ... كل قلب بالهوى جذلا

عطلتني الغيد من جلدي ... وأنا حليتها الغزلا

حملت نفسي على فتن ... سمتها صبراً فما احتملا

ثم قالت سوف نتركها ... سلباً للحب أو نفلا

قلت أما وهي قد علقت ... بأمير المؤمنين فلا

ما عدا تأميلها ملكاً ... من رأه أدرك الأملا

أودع الإحسان صفحته ... ماء بشر ينقع الغللا

فإذا ما الجود حركه ... فاض من يمناه فانهملا

قلت: وهي قصيدة طويلة عدد أبياها مائة وسبعة أبيات، فنقتصر منها على هذا المقدار.

وكانت وفاة الشاعر في سنة سبع وثمانين وخمسمائة بمراكش. وهو ابن ثلاث وخمسين سنة.

ودخل الأديب أبو إسحاق إبراهيم بن يعقوب الكانمي الأسود الشاعر على الأمير يعقوب فأنشده:

أزال حجابه عني وعيني ... تراه من المهابة في حجاب

وقربني تفضله ولكن ... بعدت مهابةً عند اقترابي

وكانم: بكسر النون، جنس من السودان وهم بنو عم تكرور، وكل واحدة من هاتين القبيلتين لا تنسب إلى أب ولا أم، وإنما كانم اسم بلدة بنواحي غانة، وهي دار ملك السودان الذين بجنوب الغرب، فسمي هذا الجنس باسم هذه البلدة، وتكرور اسم للأرض التي هم فيها، وسمي جنسهم باسم أرضهم، والجميع من بني كوش بن حام بن نوح عليه السلام، والله أعلم.

ولما حضرت الوفاة الأمير يعقوب المذكور وقضى نحبه بايع الناس ولده أبا عبد الله محمد بن يعقوب وتلقب بالناصر، ونهض إلى إفريقية فهزم الميورقي المذكور وارتجع المهدية من نوابه، وقد كان استولى عليها في مدة اشتغال الأمير يعقوب بالأعداء، ثم تحرك محمد بن يعقوب إلى جزيرة الأندلس، فكانت وقعة العقاب في سنة تسع وستمائة. وتوفي محمد سنة ست عشرة وستمائة " لعشر خلون من شعبان " ومولده في سنة ست وسبعين وخمسمائة

والمغاربة يقولون: إن محمد بن يعقوب المذكور أوصى عبيده المشتغلين بحراسة بستانه بمراكش أن كل من ظهر لهم بالليل فهو مباح الدم لهم. ثم أراد أن يختبر قدر أمره لهم، فتنكر وجعل يمشي في البستان ليلاً، فعندما رأوه جعلوه غرضاً لرماحهم، فجعل يقول: أنا الخليفة، أنا الخليفة، فما تحققوه حتى هلك،والله أعلم بصحة ذلك.

ثم ولي بعده ولده أبو يعقوب يوسف بن محمد بن الأمير يعقوب، وتلقب المستنصر بالله، ومولده أول شوال سنة أربع وتسعين، ولم يكن في بني عبد المؤمن أحسن وجهاً منه ولا أبلغ في المخاطبة، إلا أنه كان مشغوفاً براحته، فلم يبرح عن حضرته، فضعفت الدولة في أيامه. ومات في شوال أو ذي القعدة سنة عشرين وستمائة، ولم يخلف ولداً.

فاتفق أراب الدولة على تولية أبي محمد عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن لكبر سنه ووفور عقله، فلم يحسن التدبير،ولا دارى أهل دولته فخلعوه وخنقوه بعد تسعة أشهر من ولايته. ولما تولى عبد الواحد بمراكش كان بالأندلس أبو محمد عبد الله بن الأمير يعقوب المذكور، فامتنع بمرسية، ورأى أنه أحق بالأمر من عبد الواحد، وخرج إلى ما في جهته من بلاد الأندلس فاستولى عليها بغير كلفة وتلقب بالعادل، فلما خنق عبد الواحد بمراكش،

ثارت الفرنج بالأندلس على عبد الله المذكور وتواقعوا، وانهزم أصحابه هزيمة شنيعة وهرب هو وركب البحر يريد مراكش، وترك بإشبيلية أخاه أبا العلا إدريس بن الأمير يعقوب، وقاسى عبد الله شدائد في طريقه إلى مراكش من العربان، فلما وصلها اضطربت أحواله وقبض عليه أهل مراكش.
وتفاوضوا فيمن يقدمونه، فوقع اختيارهم على أبي زكريا يحيى بن الناصر محمد بن يعقوب، وهو إذ ذاك كما بقل وجهه غرّ لم يجرب الأمور، فلم يلبث إلا أياماً قلائل حتى ورد الخبر من الأندلس أن أبا العلا إدريس بن الأمير يعقوب ادعى الخلافة باشبيلية وبايعه أهل الأندلس، ثم آل أمره إلى أن حصره العرب بمراكش وهزموا عسكره مرة بعد أخرى، حتى ضجر منه أهل مراكش وتشاءموا به وأخرجوه عنهم، فهرب إلى جبل درن، ثم راسل في الباطن جماعة من أهل مراكش ليعود إليها ويقتل من بها من أعوان أبي العلا إدريس، فحضر إليها وقتل المذكورين.
وجاء أبو العلا من الأندلس، وقد خرج عليه بها الأمير محمد بن يوسف ابن هود الجذامي، ودعا إلى بني العباس فمال إليه الناس ورجعوا عن أبي العلا إدريس، فانتهى إلى مراكش، ويحيى بها، فتواقعوا وانهزم يحيى من أبي العلاء إلى الجبل، واستولى أبو العلا على مراكش.
وجمع يحيى رجالاً وقصد أبا العلا بمراكش فهزمه أبو العلا مراراً وأضعف جماعته، فألجأته الضرورة إلى الاستجارة بقوم في حصن بجهة تلمسان، وكان لغلام منهم عنده ثأر بأبيه، فرصده يوماً وهو راكب فطعنه فقتله، واستبد أبو العلا بالأمر وتلقب بالمأمون وكان شجاعاً جازماً صارماً فتاكاً. ثم إن أبا العلا مات في الغزة حتف أنفه، ولم أتحقق تاريخ وفاته ثم أخبرني بعض أهل بلادهم أنه توفي سنة ثلاثين وستمائة، والله أعلم.

وأخفى ولده موته حتى دبر أمره وبلغ مأمنه، وهو أبو محمد عبد الواحد بن أبي العلا إدريس، وتلقب بالرشيد، وتقدم بعد موت أبيه وغلب على أخيه الأكبر واستبد بالأمر. وكان أبوه أبو العلاء قد أزال اسم المهدي أبي عبد الله محمد بن تومرت المقدم ذكره من الخطبة يوم الجمعة، فأعاده ولده الرشيد المذكور، واستمال به قلوب جماعته وتحبب إليهم.
وكان إلى سنة إحدى وأربعين وستمائة ملك المغرب الأقصى وبعض الأندلس، ولم أعلم ما وراء ذلك حتى أذكره.
وبعد تسطير هذه الترجمة كتب لي بعض أهل مراكش ممن عنده فضيلة ومعرفة، وكان قريب عهدٍ ببلاده، فأخبرني أن الرشيد المذكور توفي غريقاً في صهريج بستان له بحضرة مراكش في سنة أربعين وستمائة، وكتم حاجبه أمره مدة فجعل لذلك شهر وفاته.
وولي بعده أخوه لأبيه المعتضد ويعرف بالسعيد، وهو أبو الحسن علي ابن إدريس. ثم خرج إلى ناحية تلمسان، وحاصر قلعة بينها وبين تلمسان مسافة يوم واحد، وقتل هناك على ظهر فرسه في صفر سنة ست وأربعين وستمائة.
وللي بعده المرتضى أبو حفص عمر بن أبي إبراهيم بن يوسف في شهر ربيع الآخر من السنة. وفي الحادي والعشرين من المحرم سنة خمس وستين وستمائة دخل الواثق أبو العلا إدريس بن أبي عبد الله يوسف بن عبد المؤمن المعروف بأبي دبوس، مراكش وهرب المرتضى إلى آزمور، وهي من نواحي مراكش، فقبض عليه عامله بها وبعث إلى الواثق بذلك، فأمره الواثق بقتله، فقتله في العشر الأخير من شهر ربيع الآخر سنة خمس وستين وستمائة بموضع يقال له كتامة، بُعده عن مراكش ثلاثة أيام.
وأقام الواثق ثلاث سنين وقتل في الحرب التي كانت بينه وبين نبي مرين ملوك تلمسان، وانقرضت دولة بني عبد المؤمن، وكان قتل الواثق في المحرم سنة ثمان وستين، بموضع بينه وبين مراكش مسيرة ثلاثة أيام في جهتها الشمالية. واستولى بنو مرين على ملكهم، وملكهم الآن أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق بن حمامة، والله تعالى أعلم.
وأما علي بن إسحاق الميورقي فقد تكرر ذكره في هذه الترجمة، وكان أبوه أبو إبراهيم إسحاق بن حمو، بفتح الحاء المهملة وبعدها ميم مشددة مضمومة ثم واو، ابن علي، ويعرف بابن غانية الصنهاجي صاحب ميورقة ومنورقة ويابسة، وهي ثلاث جزائر متجاورة في البحر الغربي، فتوفي في سنة ثمانين وخمسمائة، وخلف أربعة بنين، وهم: أبو عبد الله محمد، توجه بعد موت أبيه إلى الموحدين بالأندلس فأعطوه مدينة دانية وأحسنوا إليه غاية الإحسان، وأبو الحسن علي وأبو زكريا يحيى، خرجا إلى بلاد إفريقية وفعلا الأفاعيل العجيبة المشهورة بين الناس من الحروب والعيث في البلاد، فمات عليّ ولا أعلم تاريخ وفاته، لكنه كان حياً في سنة إحدى وتسعين.
واستمر يحيى علي فطالت مدته، وذكره الحافظ زكي الدين عبد العظيم المنذري في كتاب الوفيات فقال: خرج من ميورقة في شعبان سنة ثمانين

وخمسمائة واستولى على بلاد كثيرة، وكان مشهوراً بالشجاعة والإقدام وتوفي في أواخر شوال سنة ثلاث وثلاثين وستمائة في البرية من قطر تلمسان، وكان خروجه على بني عبد المؤمن.

وبقي أصغر الاخوة، وهو أبو محمد عبد الله ملك ميورقة إلى سنة تسع وتسعين وخمسمائة، فجهز إليه الناصر محمد بن يعقوب المذكور أسطولاً نزل بساحل ميورقة، فبرز إليهم وكان شجاعاً كريماً، فعثر به فرسه فسقط إلى الأرض فقتلوه، وحملوا رأسه إلى مراكش، وعلقوا جثته على السور، وأخذوا ميورقة وبقيت بأيديهم إلى أن تغلب الفرنج عليها في سنة سبع وعشرين وستمائة، وفعلوا فيها العظائم من القتل والأسر، وغير ذلك.

والأذفونش: بضم الهمزة وسكون الذال المعجمة وضم الفاء وسكون الواو وبعدها نون ثم شين معجمة، وهو اسم لأكبر ملوك الفرنج، وهو صاحب طليطلة.

يعقوب بن داود

أبو عبد الله يعقوب بن داود بن عمر بن طهمان، السلمي بالولاء، مولى أبي صالح عبد الله بن خازم السلمي والي خراسان؛ كان يعقوب المذكور كاتب إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه الذي خرج هو وأخوه محمد على أبي جعفر المنصور بالبصرة ونواحيها وقتلا في سنة خمس وأربعين ومائة، وقصتهما مشهورة في التواريخ وليس هذا موضع ذكرها.

وكان أبوه داود بن طهمان وإخوته كتاباً لنصر بن سيار عامل خراسان من جهة بني أمية، ولما مات داود نشأ ولداه علي ويعقوب المذكور أهل أدب وفضل وافتنان في صنوف العلوم. ولما ظهر المنصور على إبراهيم بن عبد الله المذكور ظفر بيعقوب بن داود فحبسه في المطبق في سنة أربع وأربعين ومائة، وقيل في سنة ست وأربعين ومائة.

قلت: ولعله الأصح، لن إبراهيم قتل في سنة خمس وأربعين كما ذكرناه، إلا أن يكون قد ظفر بيعقوب قبل قتل إبراهيم، وذلك في أول خروجه، والله أعلم.

وكان يعقوب سمحاً جواداً كثير البر والصدقة واصطناع المعروف، وذكره دعبل بن علي الخزاعي الشاعر المشهور في كتابه الذي جمع فيه أسماء الشعراء، وكان مقصوداً ممدحاً، مدحه أعيان شعراء عصره، مثل أبي الشيص الخزاعي وسلم الخاسر وأبي حنش، وغيرهم ولما مات المنصور وقام بالأمر ولده المهدي جعل يعقوب يتقرب إليه حتى أدناه، واعتمد عليه وعلت مترلته عنده وعظم شأنه، حتى خرج كتابه إلى الدواوين أن أمير المؤمنين المهدي قد آخى يعقوب بن داود، فقال في ذلك سلم بن عمرو المعروف بالخاسر:

قل للإمام الذي جاءت خلافته ... تهدى إليه بحقٍّ غير مردود

نعم القرين على التقوى أعنت به ... أخوك في الله يعقوب بن داود

وحج المهدي في سنة ستين ومائة ويعقوب معه، وفي سنة إحدى وستين تقدم إليه بتوجيه الأمناء إلى العمال في جميع الآفاق ففعل ذلك، فلم يكن ينفذ شيء من الكتب للمهدي حتى يرد كتاب من يعقوب إلى أمينه بإنفاذه، وكان وزير المهدي أبا عبيد الله معاوية بن عبد الله بن يسار الأشعري الطبراني صاحب مربعة عبيد الله ببغداد، وكان جده يسار مولى عبد الله بن عضاه الأشعري، فلم يزل الربيع بن يونس المقدم ذكره في حرف الراء يسعى به إلى المهدي وصحح على ابنه الزندقة فقتله المهدي، وكان الربيع بعد ذلك يقبح أمره عنده ويقول له: لا تثق به بعد قتلك ابنه، ويذكر كفاية يعقوب ابن داود، حتى عزله عن الوزارة وأفرده في ديوان الرسائل. واستوزر يعقوب في سنة ثلاث وستين.

ثم إن المهدي عزل أبا عبيد الله عن ديوان الرسائل في سنة سبع وستين، ورتب فيه الربيع بن يونس المذكور، وكان أبو عبيد الله يصل إلى المهدي على عادته رعايةً منه لخدمته، فقال في ذلك علي بن الخليل الكوفي من جملة أبيات:

قل للوزير أبي عبيد ... الله هل من باقية

يعقوب يلعب بالأمو ... ر وأنت تنظر ناحيه

أدخلته فعلا علي ك كذاك شؤم الناصية
وأخذت حتفك جاهداً بيمينك المتراخية

وغلب يعقوب على أمور المهدي كلها، وكان المنصور قد خلف في بيوت المال تسعمائة ألف ألف درهم وستين ألف درهم، وكان الوزير أبو عبيد الله يشير على المهدي بالاقتصاد في الإنفاق وحفظ الأموال، فلما عزل وولي يعقوب زين له هواه، فأنفق الأموال وأكبّ على اللذات والشرب وسماع الغناء، واشتغل يعقوب بالتدبير، ففي ذلك يقول بشر بن برد الشاعر المشهور المقدم ذكره في حرف الباء:

بني أمية هبّطوا طال نومكم إن الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا خليفة الله بين الزق والعود

وكان أبو حارثة النهدي يتقلد خزن بيوت الأموال، فلما خلت من المال دخل إلى المهدي ومعه المفاتيح وقال له: إذا كنت قد أنفقت جميع الأموال فما معنى هذه المفاتيح معي؟ مر من يقبضها مني، فقال له المهدي: دعها معك فإن الأموال تأتيك. ثم سير في استحثاث الأموال فوردت عليه في مدة يسيرة، وقصر في النفقات قليلاً فتوفرت الأموال، وتشاغل أبو حارثة في قبض ما ورد عليه وتصحيحه، فلم يدخل إلى المهدي ثلاثة أيام، فقال المهدي: ما فعل هذا الأعرابي الأحمق؟ فخبر بالسبب في تأخره، فدعا به وقال له: ما أخرك عنا؟ فقال: ورود الأموال، فقال: يا أحمق توهمت أن الأموال لا تأتينا؟. فقال: يا أمير المؤمنين، إن الحادث لو حدث واحتيج إلى المال ولم يصلح إلا به لم ينتظر حتى يوجه في حمل الأموال.

وروي أن المهدي حج في بعض السنين فمر بميلٍ وعليه كتابة، فوقف وقرأه فإذا هو:

لله درك يا مهدي من رجلٍ لولا اتخاذك يعقوب بن داود

فقال لمن معه: اكتب تحته على رغم أنف الكاتب لهذا وتعساً لجده! فلما انصرف وقف على الميل فقلنا: لم يقف عليه إلا لشيء قد علق بقلبه من ذلك الشعر، فكان كذلك لأنه أوقع بيعقوب بعد قليل.

وكثرت الأقوال في يعقوب ووجد أعداؤه مقالاً فيه وذكروا خروجه على المنصور مع إبراهيم بن عبد الله العلوي، وعرفه بعض خدمه أنه سمعه يقول: بنى هذا الرجل مستتزهاً أنفق عليه خمسين ألف ألف درهم من أموال المسلمين، وكان المهدي قد بنى عيسى باد. وأراد المهدي أمراً فقال له يعقوب: هذا يا أمير المؤمنين من السرف، فقال له: ويلك، وهل يحسن السرف إلا بأهل الشرف؟ وكان يعقوب قد ضجر مما كان فيه وسأل المهدي الإقالة وهو يمتنع.

ثم إن المهدي أراد أن يمتحنه في ميله إلى العلوية. فدعا به يوماً وهو في مجلسٍ فرشه موردة وعليه ثياب موردة وعلى رأسه جارية على رأسها ثياب موردة وهو مشرف على بستان فيه شجر فيه صنوف الأوراد. فقال له: يا يعقوب، كيف ترى مجلسنا هذا؟ قال: على غاية الحسن، فمتع الله أمير المؤمنين به، فقال له: جميع ما فيه لك وهذه الجارية لك ليتم سرورك، وقد أمرت لك بمائة ألف درهم، فدعا له، فقال له المهدي: ولي إليك حاجة، فقام يعقوب قائماً وقال: يا أمير المؤمنين ما هذا القول إلا لموجدة وأنا أستعيذ بالله من سخطك، فقال: أحب أن تضمن لي قضاءها، فقال: السمع والطاعة، فقال له: الله، فقال: والله، ثلاثاً، فقال له: ضع يدك على رأسي واحلف به، ففعل ذلك، فلما استوثق منه قال له: هذا فلان بن فلان، رجل من العلوية، أحب أن تكفيني مؤونته، وتريحني منه فخذه إليك، فحوله إليه وحول إليه الجارية ما كان في المجلس والمال، فلشدة سروره بالجارية جعلها في مجلس تقرب منه ليصل إليها، ووجه فأحضر العلوي فوجده لبيباً فهماً فقال له ويحك يا يعقوب تلقى الله تعالى بدمي وأنا رجل من ولد فاطمة رضي الله عنها بنت محمد صلى الله عليه وسلم، فقال له يعقوب: يا هذا أفيك خير؟ فقال: إن فعلت خيراً معي شكرت ودعوت لك، فقال له: خذ هذا المال وخذ أي طريق شئت، فقال: طريق كذا وكذا آمن لي، فقال له امض مصاحباً. وسمعت الجارية الكلام كله، فوجهت مع بعض خدمها به وقالت: قل له: هذا فعل الذي آثرته على نفسك بي، وهذا جزاؤك منه؛ فوجه المهدي فشحن الطريق حتى ظفر بالعلوي وبالمال، ثم وجه إلى يعقوب فأحضره، فلما رآه قال: ما حال الرجل؟ قال: قد أراحك الله منه، قال: مات؟ قال: نعم، قال: والله؟ قال: والله، قال: فضع يدك على رأسي، فوضع

يده على رأسه وحلف له به، فقال: يا غلام أخرج إلينا من في ذها البيت، ففتح بابه عن العلوي والمال بعينه، فبقي يعقوب متحيراً وامتنع الكلام عليه فما درى ما يقول، فقال له المهدي: لقد حل دمك، ولو آثرت إراقته لأرقته، ولكن احبسوه في المطبق، فحبسوه وأمر بأن يطوى عنه خبره وعن كل أحد. فأقام فيه سنتين وشهوراً في أيام المهدي وجميع أيام الهادي موسى بن المهدي وخمس سنين وشهوراً من أيام هارون الرشيد، ثم ذكر يحيى بن خالد البرمكي أمره وشفع فيه فأمر بإخراجه، فأخرج وقد ذهب بصره. فأحسن إليه الرشيد، وردّ ماله، وخيره المقام حيث يريد فاختار مكة، فأذن له في ذلك، فأقام بها حتى مات في سنة سبع وثمانين ومائة.

ولما أطلق يعقوب سأل عن جماعة من إخوانه فأخبر بموتهم فقال:

لكل أناس مقبرٌ بفنائهم فهم ينقصون والقبور تزيد

هم جيرة الأحياء أما محلهم فدانٍ، وأما الملتقى فبعيد

قلت: هذان البيتان في باب المرائي في كتاب الحماسة.

قلت: هكذا ذكر تاريخ وفاته بن عبدوس الكوفي المعروف بالجهشياري في كتابه تاريخ الوزراء وذكر غيره أن يعقوب بن داود مات في سنة اثنتين وثمانين ومائة، والله أعلم بالصواب.

وقال عبد الله بن يعقوب بن داود: أخبرني أبي أن المهدي حبسه في بئر وبني عليها قبة، قال: فمكثت فيها خمس عشرة سنة، وكان يدلى لي فيها كل يوم رغيف خبز وكوز ماء وأوذن بأوقات الصلوات، فلما كان في رأس ثلاث عشرة سنة أتاني آت في منامي فقال:

حنا على يوسف رب فأخرجه من قعر جبٍ وبيتٍ حوله غمم

قال: فحمدت الله تعالى وقلت: أتاني الفرج، ثم مكثت حولاً لا أرى شيئاً، فلما كان رأس الحول الثاني أتاني ذلك الآتي فأنشدني:

عسى فرج يأتي به الله إنه له كل يوم في خليقته أمر

قال: ثم أقمت حولاً آخر لا أرى شيئاً، ثم أتاني ذلك الآتي بعد الحول فقال:

عسى الكرب الذي أمسيت فيه يكون وراءه فرجٌ قريب

فيأمن خائفٌ ويفك عانٍ ويأتي أهله النائي الغريب

فلما أصبحت نوديت، فظننت أني أوذن بالصلاة، فدلي لي حبل أسود وقيل لي: اشدد به وسطك، ففعلت وأخرجت، فلما قابلت الضوء عشي بصري، فانطلقوا بي، فأدخلت على الرشيد فقيل لي: سلم على أمير المؤمنين فقلت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، المهدي، فقال الرشيد: لست به، فقلت: السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، الهادي، فقال: لست به فقلت: السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، فقال: الرشيد، فقلت: الرشيد، فقال: يا يعقوب بن داود، إنه والله ما شفع فيك أليّ أحد، غير أني حملت الليلة صبية لي على عنقي فذكرت حملك إياي على عنقك، فرثيت لك من المحل الذي كنت به فأخرجتك، وكان يعقوب يحمل الرشيد وهو صغير يلاعبه.

ولما حبس المهدي يعقوب وتب في الوزارة أبا جعفر الفيض بن أبي صالح، وكان من غلمان عبد الله بن المقفع، وكان شديد الكبر، وكان أبوه نصرانياً، وفيه يقول الشاعر:

يا حابسي عن حاجتي ظالماً أحوجك الله إلى الفيض

ذاك الذي يأتيك معروفه كأنما يمشي على البيض

وطهمان: بفتح الطاء المهملة وسكون الهاء وبعدها ميم وبعد الألف نون.

وكانت ولادة أبي عبيد الله معاوية الأشعري في سنة مائة، وتوفي سنة سبعين ومائة، وقيل في سنة تسع وستين، وقيل مات في الوقت الذي مات فيه موسى الهادي، وكانت وفاته ببغداد، ودفن في مقابر قريش، وتوفي الفيض في سنة ثلاث وسبعين ومائة.

وتولى الوزارة بعده الربيع بن يونس وقد سبق ذكره في ترجمة بشار بن برد الشاعر وذكر أن يعقوب بن داود أعان على قتله.
ولما مات يعقوب رثاه أبو حنش الهلالي، وقيل النميري، واسمه حضير ابن قيس البصري وعاش مائة سنة، بأبيات هي في كتاب الحماسة أولها:

يعقوب لا تبعد وجنّبت الردى فليبكين زمانك الرطب الثرى

يعقوب بن كلّس

أبو الفرج يعقوب بن يوسف بن إبراهيم بن هارون بن داود بن كلس، وزير العزيز نزار بن المعز العبيدي صاحب مصر المقدم ذكرهما، كان يعقوب أولاً يهودياً يزعم أنه من ولد هارون بن عمران أخي موسى بن عمران، عليهما السلام، وقيل إنه كان يزعم أنه من ولد السموأل بن عاديا اليهودي صاحب الحصن المعروف بالأبلق، وهو المشهور بالوفاء، وقصته مع امرئ القيس الكندي الشاعر المشهور مشهورة مستفيضة بين العلماء في الوفاء له في ودائعه.

وكان يعقوب المذكور قد ولد ببغداد ونشأ بها عند باب القز، وتعلم الكتابة والحساب، وسافر به أبوه من بغداد إلى الشام، وأنقذه إلى مصر سنة إحدى وثلاثين وثلثمائة فانقطع إلى بعض خواص الأستاذ كافور الإخشيدي المقدم ذكره فجعله كافور على عمارة داره، ثم صار ملازماً لباب داره، فرأى كافور من نجابته وشهامته وصيانته ونزاهته وحسن إدراكه ما نفق عليه، فاستحضره وأجلسه في ديوانه الخاص، وكان يقف بين يديه ويخدم ويستوفي الأعمال والحسابات، ويدخل يده في كل شيء، ثم لم تزل أحواله تتزايد مع كافور حتى صار الحجاب والأشراف يقومون له ويكرمونه، و لم تتطلع نفسه إلى اكتساب مال، وأرسل له كافور شيئاً فرده عليه وأخذ منه القوت خاصة، وتقدم كافور إلى سائر الدواوين أن لا يمضي دينار ولا درهم إلا بتوقيعه، فوقع في كل شيء. وكان يبر ويصل من اليسير الذي أخذه، هذا كله وهو على دينه. ثم إنه أسلم يوم الاثنين لثماني عشرة ليلة خلت من شعبان سنة ست وخمسين وثلثمائة، ولزم الصلاة ودراسة القرآن الكريم، ورتب لنفسه رجلاً من أهل العلم شيخاً عارفاً بالقرآن المجيد والنحو حافظاً لكتاب السيرافي، فكان يبيت عنده ويصلي به ويقرأ عليه، و لم تزل حاله تزيد وتنمي مع كافور إلى أن توفي كافور في التاريخ المذكور في ترجمته.

وكان أبو الفضل جعفر بن الفرات المقدم ذكره في حرف الجيم وزير كافور يحسده ويعاديه، فلما مات كافور قبض ابن الفرات على جميع الكتاب وأصحاب الدواوين، وقبض على يعقوب بن كلّس في جملتهم، فلم يزل يتوصل ويبذل الأموال حتى أفرج عنه، فلما خرج من الاعتقال اقترض من أخيه ومن غيره مالاً وتجمل به وسار مستخفياً قاصداً بلاد المغرب فلقي القائد جوهر بن عبد الله الرومي مولى المعز العبيدي المقدم ذكره في الطريق، وهو متوجه بالعساكر والخزائن إلى الديار المصرية ليملكها، فرجع في الصحبة، وقيل إنه استمر على قصده وانتهى إلى إفريقية وتعلق بخدمة المعز العبيدي المقدم ذكره ثم رجع إلى الديار المصرية، و لم يزل يترقى إلى أن ولي الوزارة للعزيز نزار بن المعز معد، وعظمت مترلته عنده وأقبلت عليه الدنيا، وانثال الناس عليه ولازموا بابه، ومهّد قواعد الدوله وساس أمورها أحسن سياسة، و لم يبق لأحد معه كلام. وكان في أيام المعز يتصرف في الخدم الديوانية، ثم انتقل إلى العزيز من بعده وتولى وزارة العزيز يوم الجمعة ثامن عشر رمضان سنة ثمان وستين ثلثمائة.

وقال ابن زولاق في تاريخه، بعد ذكر المعز وتاريخ وفاته، ما مثاله: وممن وزر للمعز الوزير يعقوب بن كلّس، وهو أول من وزر للدولة الفاطمية في الديار المصرية، وكان من جملة كتاب كافور، فلما وصل المعز أحسن في خدمته وبالغ في طاعته إلى أن استوزره؛ هذا آخر كلام ابن زولاق.

وقال غيره: كان يعقوب يحب أهل العلم ويجمع عنده العلماء، ورتب لنفسه مجلساً في كل ليلة جمعة يقرأ فيه لنفسه مصنفاته على الناس، وتحضره القضاة والفقهاء والقراء والنحاة وجميع أرباب الفضائل وأعيان العدول وغيرهم من وجوه الدولة وأصحاب الحديث، فإذا فرغ من مجلسه قام الشعراء ينشدونه المدائح.

وكان في داره قوم يكتبون القرآن الكريم وآخرون يكتبون كتب الحديث والفقه والأدب، حتى الطب، ويعارضون ويشكلون المصاحف وينقطونها.
وكان من جملة جلسائه الحسين بن عبد الرحيم المعروف بالزلازلي مصنف كتاب الأسجاع. ورتب في داره القراء والأئمة يصلون في مسجد اتخذه في

داره؛ وأقام في داره مطابخ لنفسه ولجلسائه، ومطابخ لغلمانه وحاشيته وأتباعه، وكان ينصب كل يوم خواناً لخاصته من أهل العلم والكتاب وخواص أتباعه ومن يستدعيه، وينصب موائد عديدة يأكل عليها الحجاب وبقية الكتاب والحاشية. وصنع في داره ميضأة للطهور بثمانية بيوت تختص بمن يدخل داره من الغرباء. وكان يجلس كل يوم عقب صلاة الصبح ويدخل عليه الناس للسلام. وتعرض عليه رقاع الناس في الحوائج والظلامات. وقرر عند مخدومه العزيز جماعة جعلهم قواداً يركبون بالمواكب والعبيد، ولا يخاطب واحد منهم إلا بالقائد، وكان من جملة هؤلاء القواد القائد أبو الفتوح فضل بن صالح الذي تنسب إليه منية القائد فضل، وهي بليدة بالأعمال الجيزية من الديار المصرية.

ثم إن الوزير المذكور شرع في تحصين داره ودور غلمانه بالدروب والحرس والسلاح والعدد، وعمرت ناحيته بالأسواق وأصناف ما يباع من الأمتعة ومن المطعوم والمشروب والملبوس. ويقال إن داره كانت بالقاهرة في موضع مدرسة الوزير صفي الدين أبي محمد عبد الله بن علي المعروف بابن شكر المختصة بالطائفة المالكية، وإن الحارة المعروفة بالوزيرية التي بالقاهرة داخل باب سعادة منسوبة إلى أصحابه، لأنهم كانوا يسكنونها.

وكان الوزير أبو الفضل ابن الفرات المقدم ذكره يغدو إليه ويروح ويعرض عليه محاسبات القوم الذين يريد محاسبتهم ويعول عليه فيها ويجلس معه في مجلسه وربما حبسه لمؤاكلته فيأكل معه بعد أن جرى عليه منه ما سبق ذكره.

وكانت هيبته عظيمة وجوده وافراً، وأكثر الشعراء من مدائحه. ولقد نظرت في ديوان أبي حامد أحمد بن محمد الأنطاكي المنبوز بأبي الرقعمق الشاعر المقدم ذكره فوجدت أكثر مديحه في الوزير المذكور، والقصيدة التي نقلت بعضها في ترجمته مدح بها الوزير المذكور. ورأيت في تاريخ الأمير المختار عز الملك محمد بن أبي القاسم المعروف بالمسبحي المقدم ذكره فضلاً طويلاً يتعلق بشرح حال الوزير المذكور، معظم ما ذكرته ها هنا نقلته منه.

وصنف الوزير المذكور كتاباً في الفقه مما سمعه من المعز وولده العزيز، وجلس في شهر رمضان سنة تسعة وستين وثلثمائة مجلساً حضره العام والخاص وقرأ فيه الكتاب بنفسه على الناس، وحضر هذا المجلس الوزير أبو الفضل ابن الفرات المذكور، وجلس في الجامع العتيق جماعة يفتون الناس من هذا الكتاب.

وسمعت من جماعة من المصريين يقولون: إن الوزير المذكور كانت له طيور فائقة أصيلة مختارة تسبق كل طائر يسابقها، وكان لمخدومه العزيز طيور أيضاً سابقة فاخرة، فسابقه العزيز يوماً ببعض الطيور فسبق طائر الوزير، فعز ذلك على العزيز، ووجد أعداؤه سبيلاً إلى الطعن فيه، فقالوا للعزيز: إنه قد اختار من كل صنف أجوده وأعلاه و لم يبق منه إلا أدناه، حتى الحمام، وقصدوا بذلك الإغراء به حسداً منهم لعله يتغير عليه، فاتصل ذلك بالوزير فكتب إلى العزيز:

قل لأمير المؤمنين الذي ... له العلا والنسب الثاقب

طائرك السابق لكنه ... جاء وفي خدمته حاجب

فأعجبه ذلك منه وسرّي عنه ما كان وجده عليه؛ هكذا ذكره القاضي الرشيد ابن الزبير المقدم ذكره في كتاب الجنان وذكر غيره أن هذين البيتين لولي الدولة أبي محمد أحمد بن علي المعروف بابن خيران الكاتب الشاعر المصري، وقد سبق ذكره في ترجمة أبي الحسن علي بن أحمد بن نوبخت الشاعر وإنما لم أفرده بترجمة لأني لم أظفر بتاريخ وفاته، وقد التزمت في هذا الكتاب أني لا أذكر إلا من وقفت على تاريخ وفاته.

وذكر أبو القاسم علي بن منجب بن سليمان الكاتب المعروف بابن الصيرفي المصري في جزء سماه الإشارة إلى من نال الوزارة ذكر فيه وزراء المصريين إلى عصره، وابتدأ بذكر يعقوب المذكور فقال: كان كاتباً يهودياً صائناً لنفسه محافظاً على دينه، جميل المعاملة مع التجار فيما تولاه، واتصل بخدمة كافور الإخشيدي فحمد خدمته، وردّ إليه زمام ديوانه بمصر والشام فضبطه له على حساب إرادته. وكان سبب حظوته عنده أن يهودياً قال له: إن في دار ابن البلدي بالرملة ثلاثين ألف دينار مدفونة، وقد توفي، فكتب يعقوب إلى كافور رقعة يقول فيها: إن في دار ابن البلدي بالرملة عشرين ألف دينار مدفونة في موضع أعرفه وأنا أخرج أحملها، فأجابه إلى ذلك، وأنفذ معه البغال لحملها، وورد الخبر بموت بكير بن هرواز التاجر، فجعل إليه النظر في تركته. واتفق موت يهودي بالفرما ومعه أحمال كتان، فأخذها وفتحها فوجد فيها عشرين ألف دينار، فكتب إلى كافور بذلك، فتبرك به وكتب

إليه بحملها، فباع الكتان وحمل الجميع وسار إلى الرملة، فحفر الدار التي لابن البلدي وأخرج المال، وهو ثلاثون ألف دينار، فكتب إلى كافور: عرفت الأستاذ أنها عشرون ألف دينار ووجدت ثلاثين ألف دينار، فازداد محله من قلبه، وتصوره بالثقة، ونظر في تركة ابن هرواز واستقصى وحمل منها مالاً كثيراً، فأرسل إليه كافور صلةً كثيرة، فأخذ منها ألف درهم ورد الباقي وقال: هذه كفايتي، فزاد أمره عنده، حتى إنه كان يشاوره في أكثر أموره.

وقال عبد الله أخو مسلم العلوي: "رأيت يعقوب قائماً يسار كافور، فلما مضى قال لي: أيّ وزير بين جنبيه؟! ".

وسار إلى المغرب وخدم المعز، وتولى أمور العزيز في مستهل شهر رمضان سنة ثمان وستين وثلثمائة، ولقبه بالوزارة وأمر أن لا يخاطبه أحد إلا بها، ولا يكاتب إلا بذلك. ثم اعتقله في سنة ثلاث وسبعين وثلثمائة في القصر، فأقام معتقلاً شهوراً ثم أطلقه في سنة أربع وسبعين ورده إلى ما كان عليه.

ووجدت رقعة في دار الوزير المذكور في سنة ثمانين وثلثمائة، وهي السنة التي توفي فيها، ونسختها:

احذروا من حوادث الأزمان ... وتوقوا طوارق الحدثان

قد أمنتم من الزمان ونمتم ... رب خوف مكمن في أمان

فلما قرأها قال: لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم، واجتهد أن يعرف كاتبها فلم يقدر على ذلك.

ولما اعتل علة الوفاة آخر السنة المذكورة ركب إليه العزيز عائداً وقال له: وددت أنك تباع فأبتاعك بملكي أو تفدي فأفديك بولدي، فهل من حاجة توصي بها يا يعقوب؟ فبكى وقبل يده وقال: أما فيما يخصني فأنت أرعى لحقي من أن أسترعيك إياه، وأرأف على من أخلفه من أن أوصيك به، ولكني أنصح لك فيما يتعلق بدولتك: سالم الروم ما سالموك، واقنع من الحمدانية بالدعوة والسكة، ولا تُبق على مفرج بن دغفل بن جراح إن عرضت لك فيه فرصة. ومات فأمر العزيز أن يدفن في داره، وهي المعروفة بدار الوزارة بالقاهرة داخل باب النصر، في قبة كان بناها، وصلى عليه وألحده بيده في قبره، وانصرف حزيناً لفقده، وأمر بغلق الدواوين أياماً بعده.

وكان إقطاعه من العزيز في كل سنة مائة ألف دينار، ووجد له من العبيد والمماليك أربعة آلاف غلام، ووجد له جوهر بأربعمائة ألف دينار، وبزّ من كل صنف بخمسمائة ألف دينار. وكان عليه للتجار ستة عشر ألف دينار فقضاها عنه العزيز من بيت المال وفرقت على قبره.

وذكره الحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق فقال: كان يهودياً من أهل بغداد خبيثاً ذا مكر، وله حيل ودهاء وفيه فطنة وذكاء. وكان في قديم أمره خرج إلى الشام فنزل الرملة، وصار بها وكيلاً، فكسر أموال التجار وهرب إلى مصر، فتاجر كافوراً الإخشيدي، فرأى منه فطنة وسياسة ومعرفة بأمر الضياع فقال: لو كان مسلماً لصلح أن يكون وزيراً، فطمع في الوزارة، فأسلم يوم جمعة في جامع مصر، فلما عرف الوزير أبو الفضل جعفر بن الفرات أمره قصده فهرب إلى المغرب، واتصل بيهود كانوا مع الملقب بالمعز، وخرج معه إلى مصر، فلما مات الملقب بالمعز وقام ولده الملقب بالعزيز استوزر ابن كلّس في سنة خمس وستين وثلثمائة، فلم يزل مدبر أمره إلى أن هلك في ذي الحجة سنة ثمانين وثلثمائة.

وقال غيره: ابتدأ المرض بالوزير المذكور يوم الأحد الحادي والعشرين من ذي القعدة سنة ثمانين وثلثمائة، وأخذته سكتة، ثم تزايد به المرض واشتد، وانطلق لسانه، ثم توفي ليلة الأحد على صباح الاثنين لخمس خلون من ذي الحجة من السنة المذكورة، وكفن في خمسين ثوباً، واجتمع الناس كلهم من القصر إلى داره. وخرج العزيز وعليه الحزن ظاهر، وركب بغلته بغير مظلة، وكانت عادته أنه لا يركب إلا بها، وصلى عليه وبكى، وحضر مواراته.

ويقال إنه كفن وحنط بما مبلغه عشرة آلاف دينار، وذكر من سمع العزيز وهو يقول: واطول أسفي عليك يا وزير، وبكى عليه القائد جوهر بكاء شديداً، وإنما كان بكاؤه على نفسه لأنه عاش بعده سنة واحدة، وغدا الشعراء إلى قبره، ويقال إنه رثاه مائة شاعر، وأخذت قصائدهم وأجيزوا.

وقيل إنه مات على دينه، وكان يظهر الإسلام والصحيح أنه أسلم وحسن إسلامه. وقال يوماً وقد ذكر اليهود في مجلسه كلاماً يسوء اليهود سماعه، ثم بين عوراتهم وفساد مذهبهم، وأنهم على غير شيء، وأن اسم النبي صلى الله عليه وسلم في التوراة وهم يجحدونه.

وكانت ولادته في سنة ثماني عشرة وثلثمائة ببغداد، عند باب القز، رحمه الله تعالى.

وكلس: بكسر الكاف واللام المشددة وبعدها سين مهملة.

والسموأل بن عادياء: بفتح السين المهملة والميم وسكون الواو وبعدها همزة مفتوحة ثم لام.

وعادياء: بعين مهملة وبعد الألف دال مهملة مكسورة ثم ياء مثناة من تحتها وبعدها همزة ممدودة.

وأما القائد جوهر فقد تقدم ذكره في ترجمته وأما القائد فضل فإنه كان رجلاً نبيلاً كريماً ممدحاً وإليه تنسب منية القائد فضل البليدة التي في أعمال الجيزة التي قبالة مصر، وفيه يقول أبو القاسم عبيد الغفار شاعر دولة الحاكم بن العزيز المذكور:

إنما الفضل غُرّةٌ ... في وجوه المدائح

أريحي رياحه ... عبقات الروائح

كعبة الجود كفه ... بين غادٍ ورائح

إنما تصلح الأمو ... ر برأي ابن صالح

وكان مكيناً في دولة الحاكم المذكور، ثم نقم عليه وحبسه وضربت عنقه في محبسه يوم السبت عشية لإحدى وعشرين ليلة خلت من ذي القعدة سنة تسع وتسعين وثلثمائة، ولم يظهر منه جزع، ولفّ في حصير، وأُخرج من الحجرة التي كان محبوساً بها، رحمه الله تعالى.

وأما أبو القاسم الشاعر المذكور، فإن الحاكم قتله مع جماعة من الأعيان في يوم الأحد السادس والعشرين من المحرم سنة خمس وتسعين وثلثمائة، وأحرقهم بالنار وكان قتل الجميع في حجرة واحدة، والله أعلم.

يعقوب بن صابر المنجنيقي

أبو يوسف يعقوب بن صابر بن بركات بن عمار بن علي بن الحسين بن علي بن حوثرة، الحراني الأصل البغدادي المولد والدار المنجنيقي، الملقب نجم الدين، الشاعر المشهور، ذكره أبو عبد الله محمد بن سعيد المعروف بابن الدبيثي في تاريخه الذي جعله ذيلاً لتاريخ الحافظ أبي سعد عبد الكريم بن السمعاني الذي ذيله على تاريخ بغداد تأليف الحافظ أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت البغدادي وقد سبق ذكر كل واحد من هؤلاء الثلاثة في هذا التاريخ فقال ابن الدبيثي: كان يعقوب المذكور متقدماً على أهل صناعته، يعني في صنعة المنجنيق وما يتعلق به، وكان فيه فضل ويقول الشعر، سمع شيئاً من الحديث من أبي المظفر ابن السمرقندي وأبي منصور ابن الشطرنجي، علقت عنه شيئاً من شعره، أنشدني أبو يوسف يعقوب بن صابر لنفسه:

قبلت وجنته فألفت جيده ... خجلاً ومال بعطفه المياس

فانهل من خديه فوق عذاره ... عرق يحاكي الطل فوق الآس

فكأنني استقطرت ورد خدوده ... بتصاعد الزفرات من أنفاسي

سألته عن مولده فقال: في ضحى نهار الاثنين رابع محرم سنة أربع وخمسين وخمسمائة.

وقال غير ابن الدبيثي: كان صابر المنجنيقي جندياً في ابتداء أمره مقدماً على المنجنيقيين بمدينة السلام ببغداد، ولم يزل مغرى بآداب السيف والقلم وصناعة السلاح والرياضة، واشتهر بذلك، ولم يلحقه –أحد من أبناء زمانه في درايته وفهمه لذلك، وصنف فيه كتاباً سماه عمدة السالك في سياسة الممالك ولم يتممه وهو مليح في معناه، يتضمن أحوال الحروب وتعبيتها وفتح الثغور، وبناء المعاقل وأحوال الفروسية والهندسة والمصابرة على القلاع والحصار والرياضة الميدانية والحيل الحربية، وفنون العلاج بالسلاح وعمل أداة الحرب والكفاح، وصنوف الخيل وصفتها، وقد قسم هذا الكتاب ورتبه أبواباً، كل باب منه يشتمل على فصول.

وكان شيخاً هشاً مليحاً لطيفاً فكهاً طيب المحاورة، شريف النفس متواضعاً، فيه تودد وبشر وسكون، وهو مع ذلك شاعر مكثر مجيد ذو معان مبتكرة، يقصد الشعر ويعمل المقاطيع، وجمع من شعره كتاباً مختصراً سماه مغاني المعاني ومدح الخلفاء، وكانت له منزلة لطيفة عند الإمام الناصر لدين الله أبي العباس أحمد خليفة العصر ذلك الوقت.

قلت: وكانت أخباره في حياته متواصلة إلينا وأشعاره تنقلها الرواة عنه، ويحكون وقائعه وما جراياته وما ينظم في ذلك من الأشعار الرائقة والمعاني البديعة، ولم تتفق لي رؤيته مع المجاورة وقرب الدار من الدار، لأنه كان ببغداد ونحن بمدينة إربل، وهما متجاورتان، لكن لكثرة اطلاعي على أخباره وما يتفق له من النظم المنقول عنه في وقته كأني كنت معاشره، وما زلت مشغوفاً بشعره مستعذباً أسلوبه فيه. واجتمعت بخلق كثير من أصحابه والناقلين عنه، منهم صاحبنا الشيخ عفيف الدين أبو الحسن علي بن عدلان المعروف بالمترجم الموصلي، فإنه أنشدني له شيئاً كثيراً، فمن ذلك قوله:

كلفت بعلم المنجنيق ورميه — لهدم الصياصي وافتتاح المرابط

وعدت إلى نظم القريض لشقوتي — فلم أخل في الحالين من قصد حائط

وأنشدني عنه أيضاً وذكر أنه لم يسبق إليه:

لا تكن واثقاً بمن كظم الغي — ظ اغتيالاً وخف غرار الغرور

فالظبا المرهفات أقتل ما كا — نت إذا غاض ماؤها في الصدور

وأنشدني له أيضاً في جارية سوداء كان يهواها، وهي حبشية:

وجارية من بنات الحبوش — بذات جفون صحاح مراض

تعشقتها للتصابي فشبت — غراماً ولم أك بالشيب راض

وكنت أعيّرها بالسواد — فصارت تعيرني بالبياض

وأنشدني عنه أيضاً:

وجارية عبرت للطواف — وعبرتها حذراً تدمع

فقلت ادخلي البيت لا تجزعي — ففيه الأمان لمن يجزع

سدانته لبني شيبة — فقالت :ومن شيبة أفزع

وأنشدني عنه في غلامٍ يتعلم السباحة في دجلة بغداد، وقد لبس تباناً أزرق وشد على ظهره شكوة منفوخة كما جرت عادة من يتعلم العوم. فقال في ذلك:

يا للرجال شكايتي من شكوة — أضحت تعانق من أحب وأعشق

جمعت هوىً كهواي إلا أنها — تطفو ويثقلني الغرام فأغرق

ويغيرني التبان عند عناق — أردافه فهو العدو الأزرق

وقال صاحبنا الكمال ابن الشعار الموصلي صاحب كتاب عقود الجمان: أنشدني ابن صابر لنفسه هذه الأبيات، لكنه روى البيت الثاني منها على صورة أخرى فقال:

حملت هوى كهواي فهي بوصله — تطفو ويبكيني الغرام فأغرق

وهذا من المعاني النادرة، فإن العرب إذا وصفت العدو بشدة العداوة قالت: هو عدو أزرق، وقد جاء هذا في كلامهم وأشعارهم كثيراً، واستعمله الحريري في المقامة الرابعة عشرة فقال: فمذ اغبرّ العيش الأخضر، وازور المحبوب الأصفر، اسودَّ يومي الأبيض، وابيضَّ فودي الأسود، حتى رثى لي العدو الأزرق، فحبذا الموت الأحمر. ورأيت في بعض الرسائل، ولا أتحقق الآن صاحبها: قد أوردنا ظبا الحديد الأخضر، في ماء الوريد الأحمر، من عدو

الله الأزرق، من بني الأصفر، وهو باب متسع فلا حاجة إلى الإطالة في ذكر شواهده.

وأنشدني عنه أيضاً في جماعة من الصوفية أضافهم فأكلوا جميع ما قدمه لهم فكتب إلى شيخهم يذكر حاله معهم:

مولاي يا شيخ الرباط الذي ... أبان عن فضل وعلياء

إليك أشكو جور صوفية ... باتوا ضيوفي وأودائي

أتيتهم بالزاد مستأثراً ... وبت تشكو الجوع أحشائي

مشوا على الخبز ومن عادة ... الزهاد أن يمشوا على الماء

وهم إلى الآن ضيوفي فجد ... لهم بخبز وبحلواء

أولا فخذهم واكفنيهم فما ... يحسن في مثلهم رائي

وأنشدني عنه في الصوفية أيضاً:

قد لبس الصوف لترك الصفا ... مشايخ العصر لشرب العصير

الرقص والشاهد من شأنهم ... شر طويل تحت ذيل قصير

وأنشدني عنه أيضاً، وهو من المعاني المستطرفة:

قالوا نراه يسل شعر عذاره ... وسباله مستهتراً بزواله

فتسل عنه وخذ حبيباً غيره ... فأجبتهم لازلت عبد وصاله

هل يحسن السلوان عن حب يرى ... أن لا يفارقني بنتف سباله

وأنشدني له غير ابن عدلان وقال: لما كبر ابن صابر وضعفت حركته صار إذا مشى يتوكأ على عصا، فقال في ذلك:

ألقيت عن يدي العصا ... زمن الشبيبة للنزول

وحملتها لما دعا ... داعي المشيب إلى الرحيل

وكان ببغداد شخص يقال له ابن بشران، وكان كثير الأراجيف، فمنع من ذلك، فقعد على الطريق ينجم، فقال فيه ابن صابر:

إن ابن بشران ولست ألومه ... من خيفة السلطان صار منجماً

طبع المشوم على الفضول فلم يطق ... في الأرض إرجافاً فأرجف في السما

قلت: وأنشدني الأديب شهاب الدين أبو عبد الله محمد بن يوسف بن سالم المعروف بابن التلعفري لنفسه في بعض ليالي شهر رمضان سنة ثمان وثلاثين وستمائة بالقاهرة المحروسة، وهو من شعراء العصر المجيدين:

يا شيب كيف وما انقضى زمن الصبا ... عاجلت مني اللمة السوداء

لا تعجلن فوالذي جعل الدجى ... من ليل طرّتي البهيم ضياء

لو أنها يوم الحساب صحيفتي ... ما سرّ قلبي كونها بيضاء

فقلت له: قد أغرت على بيت نجم الدين ابن صابر، حتى إنك قد أخذت معظم لفظه وجميع معناه والوزن والروي، وهو قوله:

لو أن لحية من يشيب صحيفة ... لمعاده ما اختارها بيضاء

فحلف أنه لم يسمع هذا البيت إلا بعد عمله للأبيات المذكورة، والله أعلم بذلك. وهذا البيت لابن صابر من جملة أبيات وهي:

قالوا بياض الشيب نور ساطع ... يكسو الوجوه مهابة وضياء

حتى سرت وخطاته في مفرقي ... فوددت أن لا أفقد الظلماء

وعدلت أستبقي الشباب تعللا ... بخضابها فصبغتها سوداء

لو أن لحية من يشيب صحيفة ... لمعاده ما اختارها بيضاء

وأخبرني بعض الأدباء أن ابن صابر كتب إلى بعض الرؤساء ببغداد:

ما جئت أسألك المواهب مادحاً ... إني لما أوليتني لشكور

لكن أتيت عن المعالي مخبراً ... لك أن سعيك عندها مشكور

ووقفت بالقاهرة على كراريس فيها شعره، وقد أجاد في كل ما نظمه، ورأيت فيها البيتين المشهورين المنسوبين إلى جماعة من الشعراء، ولا يعرف قائلهما على الحقيقة، وهما:

ألقني في لظىً فإن أحرقتني ... فتيقن أن لست بالياقوت

جمع النسج كل من حاك لكن ... ليس داود فيه كالعنكبوت

فعمل ابن صابر جوابهما:

أيها المدعي الفخار دع الفخ ... ر لذي الكبرياء والجبروت

نسج داود لم يفسد ليلة الغا ... ر وكان الفخار للعنكبوت

وبقاء السمند في لهب النا ... ر مزيل فضيلة الياقوت

وكذاك النعام يلتقم الجم ... ر وما الجمر للنعام بقوت

قلت: وعلى البيتين الأولين نظم جماعة من الشعراء المعاصرين لنا أبياتاً، فمن ذلك قول الكمال أبي محمد القاسم بن القاسم بن عمرو بن منصور الواسطي نزيل حلب صاحب شرح المقامات:

حق دود القز يبني ... فوقه ثم يموت

بعد ما سدى وقد صا ... ر يسدي العنكبوت

وقول المهذب أبي عبد الله محمد بن أبي الحسن بن يمن الأنصاري المعروف بابن الأردخل الموصلي نزيل ميافارقين:

أقول وقد قالوا نراك مقطباً ... إذا ما ادّعى دين الهوى غير أهله

يحق لدود القز يقتل نفسه ... إذا جاء بيت العنكبوت بمثله

وهذا ينظر إلى قول بعضهم:

إذا شوركت في أمر بدون ... فلا يلحقك عار أو نفور

ففي الحيوان يشترك اضطراراً ... أرسطاليس والكلب العقور

وقول الآخر:

وللزنبور والبازي جميعاً لدى الطيران أجنحة وخفق
ولكن بين ما يصطاد باز وما يصطاده الزنبور فرق

قلت: وعلى ذكر دود القز ينبغي أن يذكر ما يقال عن السرفة، بضم السين المهملة وبعدها راء ساكنة ثم فاء، قال الجوهري في كتاب الصحاح هي دويبة لنفسها بيتاً مربعاً من دقاق العيدان تضم بعضها إلى بعض بلعابها على مثال الناووس، ثم تدخل فيه وتموت، يقال في المثل: هو أصنع من سرفة، وذكر لي بعض الفضلاء أن السرفة هي الأرضة، والله أعلم.
ومما ينبغي أن يلحق بالأبيات المقدم ذكرها قول بعضهم:

إن أعوز الحاذق فاستبدلوا مكانه أخرق لم يحذق
فلاعب الشرنج من دأبه وضع حصاة موضع البيدق

والأصل في هذا كله قول المتنبي:

وشر ما قنصته راحتي قنص شهب البزاة سواء فيه والرخم

ويقرب منه قول أبي العلاء المعري أيضاً:

وهل يدخر الضرغام قوتاً ليومه إذا ادخر النمل الطعام لعامه

قلت: وفي هذه الأبيات الأوائل ما يحتاج إلى زيادة إيضاح، فليس كل من يقف عليها يفهم معناها: أما البيت الأول وما ذكره من أمر الياقوت فإن لياقوت من خاصيته أن النار لا تؤثر فيه، وإلى هذا أشار الحريري في المقامة السابعة والأربعين بقوله من جملة ثلاثة أبيات:

وطالما أصلي الياقوت جمر غضاً ثم انطفا الجمر والياقوت ياقوت

وقال آخر في غلام له اسمه ياقوت:

ياقوت ياقوت قلبي المستهام به من المروءة أن لا يمنع القوت
سكنت قلبي وما تخشى تلهبه وكيف يخشى لهيب النار ياقوت

وقد جاء هذا كثيراً في الشعر، لكن الاختصار أولى.

وأما قول ابن صابر في الجواب في البيت الثاني: نسج داود لم يفد ليلة الغار إلى آخره، فهذا إشارة إلى مهاجرة النبي صلى الله عليه وسلم، معه أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فإنهما خافا من مشركي مكة أن يتبعوهما فدخلا غار ثور، بالثاء المثلثة وثور جبل بين مكة والمدينة وبالقرب من مكة ونسج العنكبوت في الحال على باب الغار، فلما وصل المشركون إليه ورأوا أثر العنكبوت على الباب قالوا: ليس ها هنا أحد؛ فإنه لو دخله أحد ما كان العنكبوت نسج عليه في الحال؛ لأن المشركين بادروا إليهما ليلحقوهما، فأخفى الله سبحانه وتعالى أمرهما، وهي من جملة معجزات النبي صلى الله عليه وسلم.
وقوله في البيت الثالث: وبقاء السمند في لهب النار إلى آخره: السمند، بفتح السين المهملة والميم وبعد النون الساكنة دال مهملة، ويقال السمندل أيضاً بزيادة اللام، ذكروا أنه طائر يقع في النار فلا تؤثر فيه، ويعمل من ريشه مناديل وتحمل إلى هذه البلاد، فإذا اتسخت المنديل طرحت في النار فتأكل النار الوسخ الذي عليها، ولا تحترق المنديل ولا تؤثر النار فيها، ولقد رأيت منه قطعة ثخينة منسوجة على هيئة حزام الدابة، وهي في طول الحزام وعرضه، فجعلوها على النار فما عملت فيه، فغمسوا أحد جوانبه في الزيت ثم تركوه على فتيلة السراج فاشتعل وبقي زماناً طويلاً يشتعل ثم اطفأوه

وهو على حاله ما تغير فيه شيء، ويقولون إنه يجلب من بلاد الهند، وإن هذا الطائر يكون هناك، وفيه نكتة ينبغي أن تذكر ها هنا، وهي أن طرف تلك القطعة لما وضعوه على السراج تركوه زماناً طويلاً والنار لا تعلق فيه، فقال بعض الحاضرين: هذا ما تعمل فيه النار، ولكن اغمسوا هذا الطرف في الزيت ثم اجعلوه على النار، ففعلوا ذلك فاشتعل؛ فظهر من هذا أن النار لا تؤثر فيه على تجرده بل لابد من غمسه في شيء من الأدهان.

ثم رأيت بخط شيخنا موفق الدين عبد اللطيف بن يوسف البغدادي في كتابه الذي جعله لنفسه سيرة أنه قدم للملك الظاهر بن صلاح الدين صاحب حلب قطعة سمندل، عرض ذراع في طول ذراعين، فصاروا يغمسونها في الزيت ويوقدونها حتى يتقد الزيت وترجع بيضاء كما كانت، والله أعلم.

ومثله السرفوت: دويدة تعشش في كور الزجاج في حال توقده واضطرامه وتبيض فيه وتفرخ، ولا تعمل بيتها إلا في موضع النار المستمرة الدائمة، فسبحان خالق كل شيء وهي بفتح السين المهملة والراء وضم الفاء وسكون الواو وبعدها تاء مثناة من فوقها.

وأما البيت الرابع الذي ذكر فيه النعام وأنه يلتقم الجمر، فهذا شيء شاهدناه كثيراً، وهو معروف بين الناس وليس بغريب. وبالجملة فقد خرجنا عن المقصود، لكن الكلام اتصل بعضه ببعض فانتشر.

وتوفي ابن صابر المذكور في ليلة الثامن والعشرين من صفر من سنة ست وعشرين وستمائة ببغداد، ودفن يوم الجمعة غربيها بالمقبرة الجديدة، بباب المشهد المعروف بموسى بن جعفر، رضي الله عنهما.

وأخبرني الشهاب ابن التلعفري المذكور أن مولده في الخامس والعشرين من جمادى الآخرة بالموصل سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة، وتوفي في عاشر شوال سنة خمس وسبعين وستمائة بمدينة حماة، وأنشد قبيل موته لنفسه وهو آخر شعره:

إذا ما بات من ترب فراشي ... وبتُّ مجاور الرب الكريم
فهنوني أصيحابي وقولوا ... لك البشرى قدمت على رحيم

وحوثرة: بفتح الحاء المهملة وسكون الواو وفتح الثاء المثلثة وبعدها راء ثم هاء، وهي في الأصل اسم لحشفة الذكر، وبها سمي الإنسان. قال ابن الكلبي في كتاب جمهرة النسب: سمي ربيعة بن عمرو بن عوف بن بكر بن وائل حوثرة لأنه حج فمر بامرأة معها قعب لها، فاستامها فأكثرت فقال: والله لو أدخلت حوثرتي فيه، يعني كمرته، لملأته، فسمي حوثرة.

والمنجنيقي: بفتح الميم وسكون النون وفتح الجيم وكسر النون الثانية وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها قاف، هذه النسبة إلى المنجنيق، وهو معروف. وإذ قد جرى ذكره ينبغي الكلام عليه ففيه أشياء غريبة: منها: انه من جملة الآلات المنقولة المستعملة، والقاعدة في هذا الباب: أن تكون ميمه مكسورة، إلا ما شذَّ عن ذلك في ألفاظٍ قليلة مثل منخل ومدهن ومسعط، وغير ذلك، مع أن ابن الجواليقي في كتاب المعرب حكى فيه أربع لغات: فتح الميم، وكسرها على القاعدة، ومنجنوق بالواو بدل الياء، ومنجليق باللام عوض النون الثانية، وحكى في الميم والنون الأولى ثلاثة أقوال، قيل إنهما أصليتان، وقيل زائدتان، وقيل الميم أصلية والنون زائدة، والله أعلم. وهو اسم أعجمي، فإن الجيم والقاف لا يجتمعان في كلمة عربية، مثل الجرموق والجردق والجوسق والجلاهق والقبج وغير ذلك، وهذا باب مطرد، وكذلك الجيم والصاد لا يجتمعان في كلمة عربية مثل الصهريج والجص والصاج والجصطل وغير ذلك، وهو أيضاً باب مطرد. وإذا جمعناه حذفنا إحدى النونين، فإن حذفنا النون الأولى قلنا: مجانيق، وإن حذفنا النون الثانية قلنا مناجيق، وقال الجوهري في كتاب الصحاح الأصل في المنجنيق: من جي نيك تفسيره بالعربي: ما أجودني؛ قلت: فتفسير "من" أنا، وتفسير "جي" أيش، وتفسير "نيك" جيد، أي أنا أيش جيد. قال الجوهري: ثم عرب فقيل منجنيق.

وذكر ابن قتيبة في كتاب المعارف وأبو هلال العسكري في كتاب الأوائل أن أول من وضع المنجنيق جذيمة الأبرش ملك العرب وبلد الحيرة في ذلك الزمان. وقال الواحدي في تفسيره الوسيط في سورة الأنبياء: إن المشركين لما عزموا على إحراق إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام وأضرموا النار، لم يدروا كيف يلقونه فيها، فجاءهم إبليس لعنه الله تعالى، فدلهم على المنجنيق، وهو أول منجنيق وضع، فوضعوه فيه ثم رموه، والله أعلم.

وهذا الفصل كله وإن كان خارجاً عن المقصود لكنه ما يخلو عن فائدة، فلذلك بسطت القول فيه.

موفق الدين ابن يعيش

أبو البقاء يعيش بن علي بن يعيش بن أبي السرايا بن محمد بن محمد بن علي بن المفضل بن عبد الكريم بن محمد بن يحيى بن حيّان القاضي بن بشر بن حيان الأسدي، الموصلي الأصل، الحلبي المولد والمنشأ، الملقب موفق الدين النحوي ويعرف بابن الصائغ؛ قرأ النحو على أبي السخاء فتيان الحلبي، وأبي العباس المغربي النيروزي وسمع الحديث على أبي الفضل عبد الله بن أحمد الخطيب الطوسي بالموصل، وعلى أبي محمد بن عبد الله بن عمر بن سويدة التكريتي، وبحلب من أبي الفرج يحيى بن محمود الثقفي والقاضي أبي الحسن أحمد بن محمد بن الطرسوسي وخالد بن محمد بن نصر بن صغير القيسراني، وبدمشق على تاج الدين الكندي، وغيرهم، وحدث بحلب وكان فاضلاً ماهراً في النحو والتصريف.

رحل من حلب في صدر عمره قاصداً بغداد ليدرك أبا البركات عبد الرحمن بن محمد المعروف بابن الأنباري المقدم ذكره وتلك الطبقة بالعراق وبلاد الجزيرة، فلما وصل إلى الموصل بلغه خبر وفاته، وقد ذكرت تاريخ موته في ترجمته، فأقام بالموصل مديدة وسمع الحديث بها، ثم رجع إلى حلب. ولما عزم على التصدر للإقراء سافر إلى دمشق واجتمع بالشيخ تاج الدين أبي اليمن زيد بن الحسن الكندي الإمام المشهور وقد تقدم ذكره في حرف الزاي وسأله عن مواضع مشكلة في العربية، وعن إعراب ما ذكره أبو محمد الحريري في المقامة العاشرة المعروفة بالرحبية، وهو قوله في أواخرها – حتى إذا لألأ الأفق ذنب السرحان، وآن انبلاج الفجر وحان – فاستبهم جواب هذا المكان على الكندي: هل الأفق وذنب السرحان مرفوعان أو منصوبان، أو الأفق مرفوع وذنب السرحان منصوب، أو على العكس؟ وقال له: قد علمت قصدك، وأنك أردت إعلامي بمكانتك من هذا العلم، وكتب له خطه بمدحه والثناء عليه، ووصف تقدمه في الفن الأدبي.

قلت: وهذه المسألة يجوز فيها الأمور الأربعة، والمختار منها نصب الأفق ورفع ذنب السرحان، وقد ذكر ذلك تاج الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن المقدم ذكره المعروف بالبندهي في كتاب – شرح المقامات – ولولا خوف الإطالة لبينت ذلك.

ولما وصلت إلى حلب لأجل الاشتغال بالعلم الشريف، وكان دخولي إليها يوم الثلاثاء مستهل ذي القعدة سنة ست وعشرين وستمائة، وهي إذ ذاك أم البلاد مشحونة بالعلماء والمشتغلين، وكان الشيخ موفق الدين المذكور شيخ الجماعة في الأدب، لم يكن فيهم مثله، فشرعت في القراءة عليه، وكان يقرئ بجامعها في المقصورة الشمالية بعد العصر، وبين الصلاتين بالمدرسة الرواحية، وكان عنده جماعة قد تنبهوا وتميزوا به، وهم ملازمون مجلسه لا يفارقونه في وقت الإقراء وابتدأت بكتاب – اللمع – لابن جني، فقرأت عليه معظمها مع سماعي لدروس الجماعة الحاضرين، وذلك في أواخر سنة سبع وعشرين، وما أتممتها إلا على غيره لعذر اقتضى ذلك.

وكان حسن التفهيم لطيف الكلام طويل الروح على المبتدئ والمنتهي، وكان خفيف الروح ظريف الشمائل كثير المجون، مع سكينة ووقار، ولقد حضرت يوماً حلقته، وبعض الفقهاء يقرأ عليه – اللمع – لابن جني، فقرأ بيت ذي الرمة في باب النداء:

أيا ظبية الوعساء بين جلاجل ... وبين النقا آأنت أم أمّ سالم

فقال له الشيخ: إن هذا الشاعر لشدة وله في المحبة وعظم وجده بهذه المحبوبة أم سالم وكثرة مشابهتها للغزال كما جرت عادة الشعراء في تشبيههم النساء الصباح الوجوه بالغزلان والمها، اشتبه عليه الحال، فلم يدر هل هي امرأة أم ظبية، فقال: آأنت أم أمّ سالم؛ وأطال الشيخ موفق الدين القول في ذلك وبسطه بأحسن عبارة، بحيث يفهمه البليد البعيد الذهن، وذلك الفقيه منصت مقبل على كلامه بكليته، حتى يتوهم من يراه على تلك الصورة أنه قد تعقل جميع ما قاله، فلما فرغ الشيخ من شرحه قال له الفقيه: يا مولانا أيش في المرأة الحسناء يشبه الظبية؟ فقال له الشيخ قول منبسط: تشبهها في ذنبها وقرونها، فضحك الحاضرون، وخجل الفقيه، وما عدت رأيته حضر مجليه.

قلت: وجلاجل، بفتح الجيم وضمها، اسم مكان والثانية جيم أيضاً. وكنا يوماً نقرأ عليه بالمدرسة الرواحية، فجاءه رجل من الأجناد وبيده مسطور بدين، وكان الشيخ له عادة بالشهادة في المكاتيب الشرعية، فقال له: يا مولانا اشهد عليّ في هذا المسطور، فأخذه الشيخ من يده وقرأ أوله: أقرت فاطمة، فقال له الشيخ: أنت فاطمة؟ فقال له الجندي: لا يا مولانا، الساعة تحضر، وخرج إلى باب المدرسة، فأحضرها وهو يتبسم من كلام الشيخ. ويقرب من هذا ما تقدم ذكره في ترجمة عامر الشعبي أن شخصاً دخل عليه وعنده امرأة، فقال: أيكما الشعبي؟ فقال له هذه.

وكنا يوماً نقرأ عليه في داره، فعطش بعض الحاضرين وطلب من الغلام ماء فأحضره له، فلما شرب قال: ما هذا إلا ماء بارد، فقال له الشيخ: لو كان خبزاً حاراً كان أحب إليك.

وكنا يوماً عنده بالمدرسة الرواحية، فجاء المؤذن وأذن قبل العصر بساعة جيدة، فقال له الحاضرون: أيش هذا يا شيخ وأين وقت العصر؟ فقال الشيخ موفق الدين: دعوه عسى أن يكون له شغل فهو مستعجل.

وكان يوماً عند القاضي بهاء الدين المعروف بابن شداد قاضي حلب الآتي ذكره إن شاء الله تعالى فجرى ذكر زرقاء اليمامة، وأنها كانت ترى الشيء من المسافة البعيدة، حتى قيل تراه من مسيرة ثلاثة أيام، فجعل الحاضرون يقولون ما علموه من ذلك، فقال الشيخ موفق الدين: أنا أرى الشيء من مسافة شهرين، فتعجب الكل من قوله وما أمكنهم أن يقولوا شيئاً، فقال له القاضي: كيف هذا يا موفق الدين؟ فقال: لأني أرى الهلال، فقال له: كان قلت مسافة كذا كذا سنة، قال: لو قلت هذا عرف الجماعة الحاضرون غرضي، وكان قصدي الإبهام عليهم. وله نوادر كثيرة يطول ذكرها.

وكنت يوماً عنده وقد قدم من الموصل رجل من فضلاء المغاربة في علم الأدب، فحضر حلقته وبحث في دروسه بحث رجل فاضل، وجرى ذكر مباحث جرت له في الموصل مع جماعة من أدبائها وقال: كنت عند ضياء الدين نصر الله بن الأثير الجزري قلت: وقد سبق ذكره قال فتحاورنا وتناشدنا، فأنشدته قول بعض المغاربة قلت: هذه الأبيات ذكر أبو اسحاق الحصري أنها لبعض مشايخ القيروان، رواها عنه و لم يعينه؛ وهي:

ومعذرين كأن نبت خدودهم ... أقلام مسك تستمد خلوقا
قرنوا البنفسج بالشقيق ونضدوا ... تحت الزبرجد لؤلؤاً وعقيقا
فهم الذين إذا الخليّ رآهم ... وجد الهوى بهم إليه طريقا

قلت: ونصف البيت الثاني مثل قول ابن الذروي المصري في أبياته التي سبق ذكرها في ترجمة المبارك بن منقذ وهو قوله:

جلا تحت ياقوت اللمى ثغر لؤلؤ ... رطيبا وأبدى شارباً من زمرذ

ومن المنسوب إلى أبي محمد الحسن بن علي المعروف بابن وكيع التنيسي المقدم ذكره في حرف الحاء:

جوهري الأوصاف يقصر عنه ... كلّ فهم وكل ذهن دقيق
شارب من زمرذ وثنايا ... لؤلؤ فوقها فم من عقيق

وذكرت بهذه الأبيات بيتين كنت أحفظهما، ويحسن ذكرهما بعد هذا وهما:

لما وقفنا للوداع وصار ما ... كنا نظنّ من النوى تحقيقا
نثروا على ورق الشقائق لؤلؤاً ... ونثرت من فوق البهار عقيقا

وكذلك بيت الوأواء الدمشقي:

فأمطرت لؤلؤاً من نرجس فسقت ... ورداً وعضت على العناب بالبرد

وكذا قول محمد بن سعيد العامري الدمشقي، وقيل إنها لابن كيغلغ:

لما اعتنقنا للوداع وأعربت ... عبراتنا عنا بدمع ناطق
فرّقن بين معاجر ومحاجر ... وجمعن بين بنفسج وشقائق
وأنا الفداء لظبية أحداقنا ... موصولة من وجهها بحدائق

وينسب إلى أبي الفتح الحسن بن أبي حصينة الحلبي الشاعر المشهور من هذا أيضاً:

ولما وقفنا للوداع وقلبها وقلبي يفيضان الصبابة والوجدا
بكت لؤلؤاً رطباً وفاضت مدامعي عقيقاً فصار الكل في نحرها عقدا

وأنشدني صاحبنا الحسام عيسى بن سنجر بن بهرام الحاجري الإربلي المقدم ذكره لنفسه:

ولما التقينا ومنّ الزمان رأى دمع عيني دماً في المآقي
فقال وعهدي به لؤلؤاً أيجري عقيقاً وهذا التلاقي
فقلت حبيبي لا تعجبن جعلت فدى لك ميتاً وباقي
فتلك أوائل دمع الوداع وهذي أواخر دمع الفراق

وكان الشيخ موفق الدين المذكور كثيراً ما ينشد منسوباً إلى أبي علي الحسن ابن رشيق المقدم ذكره ثم كشفت ديوانه، فلم أجد هذه الأبيات فيه، والله أعلم وهي:

وقد كنت لا آتي إليك مخاتلاً لديك ولا أثني عليك تصنعا
ولكن رأيت المدح فيك فريضة عليّ إذا كان المديح تطوعا
فقمت بما لم يخف عنك مكانه من القول حتى ضاق مما توسعا
فلا تتخالجك الظنون فإنها مآثم واترك فيّ للصلح موضعا
فلو غيرك الموسوم عندي بريبة لأعطيت فيه مدعي للقول ما ادعى
فوالله ما طولت بالقول فيكم لساناً ولا عرضت للذم مسمعا
ولكنني أكرمت نفسي فلم تهن وأجللتها من أن تذلّ وتخضعا
فباينت لا أن العداوة باينت وقاطعت لا أن الوفاء تقطعا

قلت: وقد قيل في هذا الباب شيء كثير ولا حاجة إلى الإطالة.

وشرح الشيخ موفق الدين كتاب – المفصل – لأبي القاسم الزمخشري شرحاً مستوفىً، وليس في جملة الشروح مثله، وشرح – تصريف الملوكي – لابن جني شرحاً مليحاً، وانتفع به خلق كثير من أهل حلب وغيرها، حتى إن الرؤساء الذين كانوا بحلب ذلك الزمان كانوا تلامذته.

وكانت ولادته لثلاث خلون من شهر رمضان سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة بحلب؛ وتوفي بها في سحر الخامس والعشرين من جمادى الأولى سنة ثلاث وأربعين وستمائة، ودفن من يومه بتربته بالمقام المنسوب إلى إبراهيم الخليل، صلوات الله عليه وسلامه، ورحمه الله تعالى

يموت بن المزرّع

أبو بكر يموت بن المزرع بن يموت بن عيسى بن موسى بن سيّار بن حكيم بن جبلة بن حصن بن أسود بن كعب بن عامر بن عدي بن الحارث بن الديل بن عمرو بن غنم بن وديعة بن لكيز بن أفصى بن عبد القيس بن أفصى بن دعمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان، العبدي البصري.

قلت: وجدت في كتاب – جمهرة النسب – تأليف ابن الكلبي عند ذكره حكيم بن جبلة المذكور، وقد ساق نسبه على هذه الصورة، وفي الحاشية مكتوب ما مثاله: من ولد حكيم بن جبلة المذكور يموت بن المزرع ابن يموت، وقد ساق نسبه على هذه الصورة حتى ألحقه بحكيم بن جبلة المذكور،

والعهدة عليه في ذلك. ورأيت بخطي في مسوداتي: يموت بن المزرع بن يموت بن عدس بن سيار بن المزرع بن الحارث بن ثعلبة بن عمرو بن ضمرة بن دلهاث بن وديعة بن بكر بن وديعة بن لكيز بن أفصى المذكور، والله أعلم بالصواب في ذلك وكان يموت قد سمى نفسه محمداً، وذكره الخطيب البغدادي في تاريخه الكبير في المحمدين، ثم ذكره في حرف الياء وقال، هو يموت وهو ابن أخت أبي عثمان الجاحظ، وقد وتقدم ذكره.

قدم يموت بن المزرع بغداد في سنة إحدى وثلثمائة وهو شيخ كبير، وحدث بها عن أبي عثمان المازني وأبي حاتم السجستاني وأبي الفضل الرياشي ونصر بن علي الجهضمي، وعبد الرحمن ابن أخي الأصمعي، ومحمد بن يحيى الأزدي وأبي إسحاق إبراهيم بن سفيان الزيادي وغيرهم؛ روى عنه أبو بكر الخرائطي وأبو الميمون ابن راشد، وأبو الفضل العباس بن محمد الرقي، وأبو بكر ابن مجاهد المقرئ وأبو بكر ابن الأنباري وغيرهم.

وكان أديباً أخبارياً، وله ملح ونوادر، وكان لا يعود مريضاً خوفاً أن يتطير من اسمه، وكان يقول: بليت بالاسم الذي سماني أبي به، فإني إذا عدت مريضاً فاستأذنت عليه، فقيل من هذا؟ قلت أنا ابن المزرع، وأسقطت اسمي.

ومدحه منصور الفقيه الضرير الشاعر المشهور بقوله:

أنت تحيا والذي يك ... ره أن تحيا يموت
أنت صنو النفس أن ... ت لروح النفس قوت
أنت للحكمة بيت ... لا خلت منك البيوت

فمن أخباره أنه قال، أخبرني أبو الفضل الرياشي قال، سمعت الأصمعي يقول: كان سخط هارون الرشيد على عبد الملك بن صالح بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، رضي الله عنه، في سنة ثمان وثمانين ومائة، ولقد كنت عند الرشيد وقد أتي بعبد الملك يرفل في قيوده، فلما نظر الرشيد إليه قال له: هيه يا عبد الملك، كأني والله أنظر إلى شؤبوبها قد همع، وإلى عارضها قد لمع، وكأني بالوعيد قد أقلع عن براجم بلا معاصم، ورؤوس بلا غلاصم، مهلا مهلا بني هاشم، فبي والله سهل لكم الوعر وصفا لكم الكدر، وألقت إليكم الأمور أثناء أزمتها، فخذوا حذاركم مني قبل حلول داهية خبوطٍ باليد والرجل، فقال له عبد الملك: أفذاً أتكلم أم وتوأما، فقال: بل توأما، فقال: اتق الله يا أمير المؤمنين فيما ولاك، وراقبه في رعاياك التي استرعاك، فقد سهلت والله لك الوعور، وجمعت على خوفك ورجائك الصدور، وكنت كما قال أخو بني جعفر بن كلاب:

ومقامٍ ضيقٍ فرجته ... بلسانٍ وبيانٍ وجدل
لو يقوم الفيل أو فيّاله ... زلّ عن مثل مقامي وزحل

قال: فأراد يحيى بن خالد البرمكي أن يضع من مقدار عبد الملك عند الرشيد، فقال له: يا عبد الملك بلغني أنك حقود، فقال له: أصلح الله الوزير، إن يكن الحقد هو بقاء الخير والشر عندي فإنهما لباقيان في قلبي.

قال الأصمعي: فالتفت الرشيد إليّ وقال: يا أصمعي حررها، فوالله ما احتج أحد للحقد بمثل ما احتج به عبد الملك، ثم أمر به فرد إلى محبسه.

قال الأصمعي: ثم التفت الرشيد إلي وقال: يا أصمعي والله لقد نظرت إلى موضع السيف من عنقه مراراً، ويمنعني من ذلك إبقائي على قومي في مثله.

قلت: وعبد الله بن صالح قد ذكرته في ترجمة أبي عبادة الوليد البحتري الشاعر المشهور ونبهت على تاريخ وفاته.

وروى يموت بن المزرع أيضاً أن أحمد بن محمد بن عبيد الله أبا الحسن الكاتب المعروف بابن المدبرّ الضبي الرستيساني، كان إذا مدحه شاعر فلم يرض شعره قال لغلامه: امض به إلى المسجد الجامع ولا تفارقه حتى يصلي مائة ركعة ثم أطلقه، فتحاماه الشعراء إلا الأفراد المجيدين، فجاءه أبو عبد الله الحسين بن عبد السلام المصري المعروف بالجمل، فاستأذنه في النشيد فقال له: قد عرفت الشرط؟ قال: نعم، ثم أنشده:

أردنا في أبي حسنٍ مديحاً ... كما بالمدح تنتجع الولاة
وقلنا أكرم الثقلين طرا ... ومن كفاه دجلة والفرات

فقالوا يقبل المدحات لكن — جوائزه عليهن الصلاة
فقلت لهم وما تغني صلاتي — عيالي، إنما الشأن الزكاة
فيأمر لي بكسر الصاد منها — فتصبح لي الصلاة هي الصلات

فضحك ابن المدير واستظرفه، وقال: من أين أخذت هذا؟ فقال: من قول أبي تمام الطائي:

هن الحمام فإن كسرت عيافةً — من حائهن فإنهن حمام

فاستحسن ذلك وأحسن صلته.

وكان أحمد بن المدبر يتولى الخراج بمصر، فحبسه أحمد بن طولون في سنة خمس وستين ومائتين، ومات في حبسه في صفر سنة سبعين ومائتين، وقيل بل قتله ابن طولون، والله أعلم، والمدبر: بكسر الباء الموحدة المشدة.

وحدث ابن المزرع أيضاً عن خاله أبي عثمان الجاحظ أنه قال: طلب المعتصم جاريةً كانت لمحمود بن الحسن الشاعر المشهور المعروف بالوراق، وكانت تسمى نشوى وكان شديد الغرام بها، وبذل في ثمنها سبعة آلاف دينار، فامتنع محمود من بيعها لأنه كان يهواها أيضاً، فلما مات محمود اشتريت الجارية للمعتصم من تركته بسبعمائة دينار، فلما دخلت عليه قال لها: كيف رأيت؟ تركتك حتى اشتريتك من سبعة آلاف بسبعمائة، قالت: أجل إذا كان الخليفة ينتظر لشهواته المواريث، فإن سبعين ديناراً لكثيرة في ثمني فضلاً عن سبعمائة، فخجل المعتصم من كلامها.

وقال ابن المزرع: حدثني من رأى قبراً بالشام عليه مكتوب: لا يغترن أحد بالدنيا فإني ابن من كان يطلق الريح إذا شاء ويحبسها إذا شاء، وبحذائه قبر عليه مكتوب: كذب الماص بظر أمه، لا يظن أحد أنه ابن سليمان بن داود عليهما السلام،إنما هو ابن حداد يجمع الريح في الزق ثم ينفخ بها الجمر، قال: فما رأيت قبلها قبرين يتشاتمان، والله أعلم.

لابن المزروع أخبار وحكايات ونوادر، ولسنا نقصد الإطالة بل الإيجاز حسب الإمكان إلا أن ينتشر الكلام.

وكان له ولد، يدعى أبا نضلة مهلهل بن يموت بن المزرع، وكان شاعراً مجيداً، ذكره المسعودي في كتاب – مروج الذهب ومعادن الجوهر – فقال في حقه: هو من شعراء هذا الزمان، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة، وفيه يقول أبوه مخاطباً له:

مهلهل قد حلبت شطور دهري — وكافحني بها الزمن العنوت
وحاربت الرجال بكل ريع — فأذعن لي الحثالة والرتوت
فأوجع ما أُجنّ عليه قلبي — كريمٌ غنته زمن غتوت
كفى حزناً بضيعة ذي قديم — وأبناء العبيد لها البخوت
وقد أسهرت عيني بعد غمض — مخافة أن تضيع إذا فنيت
وفي لطف المهيمن لي عزاء — بمثلك إن فنيت وإن بقيت
فجب في الأرض وابغ بها علوماً — ولا تقطعك جائحة سبوت
وإن بخل العليم عليك يوماً — فذل له وديدنك السكوت
وقل بالعلم كان أبي جواداً — يقال ومن أبوك فقل يموت
يقرّ لك الأباعد والأداني — بعلمٍ ليس يجحده البهوت

وكان يموت قد قدم مصر مراراً، وآخر قدومه إليها في سنة ثلاث وثلثمائة، وخرج في سنة أربع وثلثمائة. قال أبو سعيد ابن يونس الصدفي المصري في تاريخه المختص بالغرباء: مات يموت بن المزرع سنة أربع وثلثمائة بدمشق؛ وقال أبو سليمان بن زبر في تاريخه: إنه مات في سنة ثلاث وثلثمائة بطبرية الشام، والله أعلم.

وأما ولده مهلهل فإن الخطيب ذكره في - تاريخ بغداد - وقال: هو شاعر مليح الشعر في الغزل وغيره، وسكن بغداد وسمع منه، وكتب عنه شعره أبو بعضة إبراهيم بن محمد المعروف بتوزون. ثم قال الخطيب: أخبرني التنوخي قال، قتا لنا أبو الحسين أحمد بن محمد بن العباس الأخباري: حضرت في سنة ست وعشرين وثلثمائة مجلس تحفة القوّالة جارية أبي عبد الله ابن عمر البازيار، وإلى جانبي عن يسرتي أبو نضلة مهلهل بن يموت بن المزرع، وعن يميني أبو القاسم بن أبي الحسن البغدادي، فغنت تحفة من وراء الستارة بهذه الأبيات:

بي شغلٌ به عن الشغل عنه ... بهواه وإن تشاغل عني
ظن بي جفوةً فأعرض عني ... وبدا منه ما تخوف مني
سره أن أكون فيه حزيناً ... فسروري إذا تضاعف حزني

فقال لي أبو نضلة: هذا الشعر لي، فسمعه أبو القاسم، وكان ينحرف عن أبي نضلة فقال: قل له: إن كان هذا الشعر له يزيد فيه بيتاً، فقلت له ذلك على وجه جميل فقال:

هو في الحسن فتنةٌ قد أصارت ... فتنتي في هواه من كل فن

ومن المنسوب إلى مهلهل أيضاً:

جلت محاسنه عن كل تشبيه ... وجل عن واصفٍ في الناس يحكيه
انظر إلى حسنه واستغن عن صفتي ... سبحان خالقه، سبحان باريه
النرجس الغض والورد الجني له ... والأقحوان النضير النضر في فيه
دعا بألحاظه قلبي إلى عطبي ... فجاءه مسرعاً طوعاً يلبيه
مثل الفراشة تأتي إذ ترى لهبا ... إلى السراج فتلقي نفسها فيه

وذكر له الخطيب شعراً غير هذا فأضربت عن ذكره.

والمزرع: بضم الميم وفتح الزاي وبعدها راء مشددة مفتوحة ثم عين مهملة، هكذا قاله لي الشيخ الحافظ زكي الدين أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوي بن عبد الله المنذري، رحمه الله تعالى.

وأما حكيم بن جبلة المذكور في عمود هذا النسب فإنه بفتح الحاء المهملة وكسر الكاف، ويقال أيضاً بضم الحاء وفتح الكاف، ويقال جبلة وجبل، وكان من أعوان علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ولما بويع علي الخلافة بايعه طلحة بن عبيد الله التيمي والزبير بن العوام الأسدي رضي الله عنهما، فعزم علي رضي الله عنه على تولية الزبير البصرة وتولية طلحة اليمن، فخرجت مولاة لعلي فسمعتهما يقولان: ما بايعناه إلا بألسنتنا وما بايعناه بقلوبنا، فأخبرت مولاها بذلك، فقال: أبعدهما الله تعالى، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه، وبعث إلى البصرة عثمان بن حنيف الأنصاري، وإلى اليمن عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، فاستعمل ابن حنيف حكيم بن جبلة المذكور على شرطة البصرة.

ثم إن طلحة والزبير لحقا بمكة وفيها عائشة رضي الله تعالى عنها، فاتفقوا وقصدوا البصرة، وفيها ابن حنيف المذكور، فأتى حكيم بن جبلة إلى ابن حنيف، وأشار عليه بمنعهم من دخول البصرة، فأبى وقال: ما أدري ما رأي أمير المؤمنين في ذلك، فدخلوها وتلقاهم الناس، فوقفوا في مربد البصرة وتكلموا في قتل عثمان بن عفان رضي الله عنه وبيعة علي رضي الله تعالى عنه، فرد عليهم رجل من عبد القيس، فنالوا منه ونتفوا لحيته، وترامى الناس

بالحجارة واضطربوا، فجاء حكيم بن جبلة إلى ابن حنيف ودعاه إلى قتالهم فأبى، ثم أتى عبد الله بن الزبير إلى مدينة الرزق ليرزق أصحابه من الطعام الذي فيها، وغدا حكيم بن جبلة في سبعمائة من عبد القيس فقاتله فقتل حكيم وسبعون رجلاً من أصحابه.

وروي أن ابن جبلة قال لامرأته وكانت من الأزد: لأعملنّ بقومك اليوم عملاً يكونون به حديثاً للناس، فقالت له: أظن قومي سيضربونك اليوم ضربة تكون حديثاً للناس، فلقيه رجل يقال له سُحيم فضرب عنقه، فبقي معلقاً بجلدة، فاستدار رأسه، فبقي مقبلاً بوجهه على دبره، وكان ذلك قبل وصول علي رضي الله عنه بجيوشه إليهم، ثم قدم عليهم وتقابل الجيشان يوم الخميس النصف من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين للهجرة عند موضع قصر عبيد الله بن زياد، ثم كانت الوقعة العظمى المشهورة بوقعة الجمل يوم الخميس لعشر بقين من الشهر المذكور، وكان أول قدومهم، وقتل حكيم بن جبلة قبل ذلك بأيام في هذا الشهر أيضاً، وقتل بين الفريقين مقدار عشرة آلاف، وقتل طلحة والزبير رضي الله عنهما في ذلك اليوم، لكنه بغير قتال، ولولا خوف الإطالة لشرحته.

وقال المأموني في تاريخه: وقيل إن أهل المدينة علموا بيوم الجمل يوم الخميس قبل أن تغرب الشمس، وفيه كان القتال، وذلك أن نسراً مر بما حول المدينة ومعه شيء معلق، فتأمله الناس فوقع فإذا كف فيها خاتم نقشه: عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد. ثم إن كل من بين مكة والمدينة ممن قرب من البصرة أو بعد علموا بالوقعة مما نقلت النسور إليهم من الأيدي والأقدام. قلت: وذكر كشاجم في كتاب – المصايد والمطارد – أن العقاب ألقت كف عبد الرحمن بمكة، وكذلك ذكره في كتاب – المهذب – في الفقه في باب الصلاة على الميت، وذكر ابن الكلبي وأبو اليقظان في كتابيهما أن العُقاب ألقتها باليمامة، والله أعلم بالصواب.

أبو يعقوب البويطي

أبو يعقوب يوسف بن يحيى المصري البويطي، صاحب الشافعي رضي الله عنه؛ كان واسطة عقد جماعته وأظهرهم نجابةً، اختص به في حياته، وقام مقامه في الدرس والفتوى بعد وفاته، سمع الأحاديث النبوية من عبد الله بن وهب الفقيه المالكي المقدم ذكره ومن الإمام الشافعي، وروى عنه أبو إسماعيل الترمذي وإبراهيم بن إسحاق الحربي والقاسم بن المغيرة الجوهري وأحمد بن منصور الرمادي وغيرهم. وكان قد حمل في أيام الواثق بالله من مصر إلى بغداد في مدة المحنة وأريد على القول بخلق القرآن الكريم فامتنع من الإجابة إلى ذلك، فحبس ببغداد، ولم يزل في السجن والقيد حتى مات، وكان صالحاً متنسكاً عابداً زاهداً.

قال الربيع بن سليمان: رأيت البويطي على بغل، في عنقه غل وفي رجليه قيد، وبين الغل والقيد سلسلة من حديد فيها طوبة وزنها أربعون رطلاً، وهو يقول: إنما خلق الله سبحانه الخلق بِكُنْ، فإذا كانت كن مخلوقة فكأن مخلوقاً خلق مخلوقاً، فوالله لأموتن في حديدي حتى يأتي من بعدي قوم يعلمون أنه مات في هذا الشأن قوم في حديدهم، ولئن أدخلت عليه لأصدقنه يعني الواثق.

وقال أبو عمر ابن عبد البر الحافظ في كتاب – الانتقاء في فضائل الثلاثة الفقهاء –: إن ابن أبي الليث الحنيفي قاضي مصر كان يحسده ويعاديه، فأخرجه في وقت المحنة في القرآن العظيم فيمن أخرج من مصر إلى بغداد، ولم يُخرج من أصحاب الشافعي غيره، وحمل إلى بغداد وحبس، فلم يجب إلى ما دعي إليه في القرآن، وقال: هو كلام الله غير مخلوق، وحبس ومات في السجن.

وقال الشيخ أبو إسحاق الشيرازي في كتاب – طبقات الفقهاء –: كان أبو يعقوب البويطي إذا سمع المؤذن وهو في السجن يوم الجمعة اغتسل ولبس ثيابه ومشى حتى يبلغ باب السجن، فيقول له السجان: أين تريد؟ فيقول: أجيب داعي الله، فيقول: ارجع عافاك الله، فيقول أبو يعقوب: اللهم إنك تعلم أني قد أجبت داعيك فمنعوني.

وقال أبو الوليد ابن أبي الجارود: كان البويطي جاري فما كنت أنتبه ساعة من الليل إلا سمعته يقرأ ويصلي.

وقال الربيع: كان أبو يعقوب أبداً يحرك شفتيه بذكر الله تعالى، وما رأيت أحداً أنزع بحجة من كتاب الله تعالى من أبي يعقوب البويطي. وقال الربيع أيضاً: كان لأبي يعقوب منزلة من الشافعي، وكان الرجل ربما يسأله عن المسألة فيقول له: سل أبا يعقوب، فإذا أجابه أخبره فيقول: هو كما قال.

وقال أيضاً: ربما جاء رسول صاحب الشرطة إلى الشافعي فيوجه أبا يعقوب البويطي ويقول: هذا لساني.

وقال الخطيب البغدادي في تاريخه: لما مرض الشافعي مرضه الذي مات فيه جاء محمد بن عبد الحكم ينازع البويطي في مجلس الشافعي، فقال البويطي: أنا أحق به منك، وقال ابن عبد الحكم: أنا أحق بمجلسه منك، فجاء أبو بكر الحميدي، وكان في تلك الأيام بمصر، فقال: قال الشافعي: ليس أحد أحق بمجلسي من يوسف بن يحيى وليس أحد من أصحابي أعلم منه، فقال له ابن عبد الحكم: كذبت، فقال الحميدي: كذبت أنت وكذب أبوك وكذبت أمك، وغضب ابن عبد الحكم، فترك مجلس الشافعي وتقدم فجلس في الطاق، وترك طاقاً بين مجلس الشافعي ومجلسه، وجلس البويطي في مجلس الشافعي في الطاق الذي كان يجلس فيه.

وقال أبو العباس محمد بن يعقوب الأصم: رأيت أبي في المنام فقال لي: يا بني عليك بكتاب البويطي فليس في الكتب أقل خطأ منه.

وقال الربيع بن سليمان: كنت عند الشافعي أنا والمزني وأبو يعقوب البويطي، فنظر إلينا فقال لي: أنت تموت في الحديث، وقال للمزني: هذا لو ناظره الشيطان قطعه أو جدّله، وقال للبويطي: أنت تموت في الحديد، قال الربيع: فدخلت على البويطي أيم المحنة فرأيته مقيداً إلى أنصاف ساقيه مغلولة يداه إلى عنقه.

وقال الربيع أيضاً: كتب إليّ أبو يعقوب من السجن: إنه ليأتي علي أوقات لا أحس بالحديد أنه على بدني حتى تمسه يدي، فإذا قرأت كتابي هذا فأحسن خلقك مع أهل حلقتك، واستوص بالغرباء خاصة خيراً، فكثيراً ما كنت أسمع الشافعي رضي الله عنه يتمثل بهذا البيت:

أهين لهم نفسي لأكرمها بهم ... ولن تكرم النفس التي لا تهينها

وأخباره كثيرة؛ وتوفي يوم الجمعة قبل الصلاة في رجب سنة إحدى وثلاثين ومائتين، في القيد والسجن ببغداد، وقيل إنه توفي سنة اثنتين وثلاثين، والأول أصح، رحمه الله تعالى؛ وقال ابن القرّاب في تاريخه: توفي يوم الثلاثاء في رجب، والله أعلم.

والبويطي، بضم الباء الموحدة وفتح الواو وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها طاء مهملة، هذه النسبة إلى بويط، وهي قرية من أعمال الصعيد الأدنى من ديار مصر.

ويوسف: فيه ست لغات، ضمّ السين وفتحها وكسرها مع الواو وضم السين وفتحها وكسرها مع الهمزة عوض الواو، فالمجموع ست لغات، والياء أوله مضمومة في اللغات الست، وسيأتي نظيره في يونس.

أبو القاسم ابن كجّ القاضي

أبو القاسم يوسف بن أحمد بن يوسف بن كج الكجي الدينوري؛ كان أحد أئمة الشافعية، صحب أبا الحسين ابن القطان، وحضر مجلس أبي القاسم عبد العزيز الداركي، وجمع بين رياسة العلم والدنيا، وارتحل الناس إليه من الآفاق للاشتغال عليه بالدينور رغبة في علمه وجودة نظره، وله وجه في مذهب الشافعي رضي الله عنه، وصنف كتباً كثيرة انتفع بها الفقهاء.

قال أبو سعد ابن السمعاني: لما انصرف أبو علي الحسين بن شعيب السنجي من عند الشيخ أبي حامد الإسفراييني اجتاز به فرأى علمه وفضله، فقال له: يا أستاذ، الاسم لأبي حامد والعلم لك، فقال: ذاك رفعته بغداد وحطتني الدينور.

وتولى القضاء ببلده، وكانت له نعمة كثيرة. وقتله العيارون بالدينور في ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان سنة خمس وأربعمائة، رحمه الله تعالى.

وكج: بكاف مفتوحه وجيم مشددة. وقد تقدم الكلام على الدينور فأغنى عن الإعادة، والكجي: نسبة إلى جده المذكور.

ابن عبد البرّ

أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي؛ إمام عصره في الحديث والأثر وما يتعلق بهما، روى بقرطبة عن أبي القاسم خلف بن القاسم الحافظ وعبد الوارث بن سفيان وسعيد نصر وأبي محمد ابن عبد المؤمن وأبي عمر الباجي وأبي عمر الكلمنكي وأبي الوليد ابن الفرضي وغيرهم. وكتب إليه من أهل المشرق أبو القاسم السقطي المكي وعبد الغني بن سعيد الحافظ وأبو ذر الهروي وأبو محمد ابن النحاس المصري وغيرهم.

قال القاضي أبو علي ابن سكرة: سمعت شيخنا القاضي أبا الوليد الباجي يقول: لم يكن بالأندلس مثل أبي عمر ابن عبد البر في الحديث؛ وقال الباجي أيضاً: أبو عمر أحفظ أهل المغرب.

وقال أبو علي الحسين بن أحمد بن محمد الغساني الأندلسي الجياني المقدم ذكره: ابن عبد البر شيخنا من أهل قرطبة، بها طلب الفقه ولزم أبا عمر أحمد بن عبد الملك بن هاشم الفقيه الإشبيلي وكتب بين يديه، ولزم أبا الوليد ابن الفرضي الحافظ وعنه أخذ كثيراً من علم الحديث، ودأب في طلب العلم وافتنّ فيه، وبرع براعة فاق فيها من تقدمه من رجال الأندلس. وألف في – الموطأ – كتباً مفيدة. منها كتاب – التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد –ورتبه على أسماء شيوخ مالك على حروف المعجم، وهو كتاب لم يتقدمه أحد إلى مثله، وهو سبعون جزءاً؛ قال أبو محمد ابن حزم: لا أعلم في الكلام على فقه الحديث مثله، فكيف أحسن منه؟ ثم صنع كتاب – الاستذكار لمذاهب علماء الأمصار فيما تضمنه الموطأ من معاني الرأي والآثار – شرح فيه الموطأ على وجهه ونسق أبوابه، وجمع في أسماء الصحابة رضي الله عنهم كتاباً جليلاً مفيداً سماه – الاستيعاب – وله كتاب – جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله – وكتاب – الدرر في اختصار المغازي والسير – وكتاب – العقل والعقلاء وما جاء في أوصافهم – وله كتاب صغير في قبائل العرب وأنسابهم وغير ذلك من تواليفه. وكان موفقاً في التأليف معاناً عليه، ونفع الله به. وكان مع تقدمه في علم الأثر وبصره بالفقه ومعاني الحديث، له بسطة كبيرة في علم النسب.

وفارق قرطبة وجال في غرب الأندلس مدةً، ثم تحول إلى شرق الأندلس وسكن دانية من بلادها، وبلنسية وشاطبة، في أوقات مختلفة. وتولى قضاء الأشبونة وشنترين في أيام ملكها المظفر بن الأفطس؛ وصنف كتاب – بهجة المجالس وأنس المجالس – في ثلاثة أسفار، جمع فيه أشياء مستحسنة تصلح للمذاكرة والمحاضرة:

من ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى في منامه أنه دخل الجنة ورأى فيها عذقاً مدلى فأعجبه وقال: لمن هذا؟ فقيل: لأبي جهل، فشقّ ذلك عليه وقال: ما لأبي جهل والجنة؟ والله لا يدخلها أبداً، فإنها لا تدخلها إلا نفس مؤمنة، فلما أتاه عكرمة بن أبي جهل مسلماً فرح به وقام إليه، وتأول ذلك العذق عكرمة ابنه.

ومنه أيضاً أنه قيل لجعفر بن محمد، يعني الصادق: كم تتأخر الرؤيا؟ قال: رأى النبي صلى الله عليه وسلم كأن كلباً أبقع يلغ في دمه، فكان شمر ابن ذي الجوشن قاتل الحسين بن علي رضي الله عنه إنه، وكان أبرص، فكان تأخير الرؤيا بعد خمسين سنة.

ومن ذلك أيضاً أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى رؤيا فقصها على أبي بكر الصديق رضي الله عنه فقال: أبا بكر، رأيت كأني أنا وأنت نرقى درجةً، فسبقتك بمرقاتين ونصف، فقال: يا رسول الله، يقبضك الله تعالى إلى رحمته ومغفرته وأعيش بعدك سنتين ونصفا.

ومن ذلك أن بعض أهل الشام قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: رأيت كأن الشمس والقمر اقتتلا، ومع كل واحد منهما فريق من النجوم، قال: مع أيهما كنت؟ قال: مع القمر، قال: مع الآية الممحوة، لا عملت لي عملاً أبداً، فعزله، وقتل مع معاوية بن أبي سفيان بصفين.

وقالت عائشة رضي الله عنها: رأيت كأن ثلاثة أقمار سقطن في حجري، فقال لها أبوها أبو بكر الصديق رضي الله عنه: إن صدقت رؤياك دفن في بيتك ثلاثة من خير أهل الأرض، فلما دفن النبي صلى الله عليه وسلم في بيتها قال لها أبو بكر: هذا أحد أقمارك، وهو خيرها.

ومنه أيضاً أن أعرابياً وقيل هو الحطيئة الشاعر أراد سفراً، فقال لامرأته:

عدي السنين لغيبتي وتصبري   وذري الشهور فإنهن قصار

فأجابته:

اذكر صبابتنا إليك وشوقنا   وارحم بناتك إنهن صغار

فأقام وترك سفره.

وقال الهيثم بن عدي قال لي صالح بن حيان: مَنْ أفقه الشعراء؟ فقلت: اختلف في ذلك، فقال: أفقه الشعراء وضاح اليمن حيث يقول:

إذا قلت هاتي نوليني تبسمت   وقالت: معاذ الله من فعل ما حرم

فما نولت حتى تضرعت عندها وأعلمتها ما أرخص الله في اللمم

ومنه أيضاً: قيل لأسلم بن زرعة: إن الهزمت من أصحاب مرداس غضب عليك الأمير عبيد الله بن زياد، فقال: لأن يغضب علي وأنا حي خير من أن يرضى عني وأنا ميت.

ومنه أيضاً: سبّ أعرابي أعرابياً فسكت، فقيل له لم سكت عنه؟ فقال: ليس لي علم بمساويه، وكرهت أن أبهته بما ليس فيه.

ثالبني عمرو وثالبته قد أثم المثلوب والثالب

قلت له خيراً وقال الخنا كلّ على صاحبه

وقال علي بن الحسين رضي الله عنهما: إذا قال فيك رجل ما لا يعلم من الخير أوشك أن يقول فيك ما لا يعلم من الشر.

ومنه أيضاً: ذكر المغيرة بن شعبة عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: كان والله أفضل من أن يخدع، وأعقل من أن يخدع.

ومنه أيضاً: روي أنه لما أهبط الله تعالى آدم عليه السلام إلى الأرض أتاه جبريل عليه السلام فقال: يا آدم إن الله عز وجل قد أحضرك ثلاث خصال لتختار منهن واحدة وتتخلى عن ثنتين، قال: وما هن؟ قال: الحياء والدين والعقل، قال آدم: إني اخترت العقل، فقال جبريل للحياء والدين: ارتفعا فقد اختار العقل، قالا: لا، لا نرتفع، قال: ولَم؟ أعصيتما؟ قالا: لا ولكن أمرنا أن لا نفارق العقل حيث كان.

وقال عبد الملك بن عبد الحميد من أبيات:

الماء في دار عثمان له ثمن والخبز فيها له شأن من الشان

عثمان يعلم أن الحمد ذو ثمن لكنه يشتهي حمداً بمجان

والناس أكيس من أن يحمدوا أحداً حتى يروا عنده آثار إحسان

ومن كتاب – بهجة المجالس – أيضاً قال الرياشي: خرج الناس بالبصرة ينظرون هلال شهر رمضان، فرآه رجلٌ واحد منهم، ولم يزل يومئ إليه حتى رآه معه غيره وعاينوه، فلما كان هلال الفطر جاز الجماز صاحب النوادر إلى ذلك الرجل، فدّق عليه الباب فقال: قم أخرجنا مما أدخلتنا فيه.

قلت: وهذا الجماز هو أبو عبد الله محمد بن عمرو بن حماد بن عطاء ابن ريان، مولى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وهو ابن أخت سلم الخاسر؛ قال السمعاني في حقه: كان خبيث اللسان حسن النادرة، وكان أكبر من أبي نواس، وقيل في نسبه غير ذلك، والجماز لقبه، وهو بفتح الجيم وتشديد الميم وبعد الألف زاي. فمن نوادره أنه قال: أصبحت في يوم مطير، فقالت لي امرأتي: أي شيء يطيب في هذا اليوم؟ فقلت لها: الطلاق، فسكتت عني. ودخل يوماً بعض إخوانه وقد طبخ وغرف الطعام، فقال الداخل: سبحان الله ما أعجب أسباب الرزق! فقال الجماز؛ الحرمان والله أعجب منه، امرأته طالق إن ذقته. وقال له السروي الشاعر: ولدت امرأتي البارحة ولداً كأنه دينار منقوش، فقال له الجماز: لاعن أمه. وللجماز شعر أيضاً ذكره في كتاب – الورقة –، فمن ذلك ما كتبه إلى صاحب له، وكان يلازم الجامع ثم انقطع عنه:

هجرت المسجد الجام ع والهجر له ريبه

فلا نافلةً تأتي ولا تشهد مكتوبه

وأخبارك تأتينا على الأعلام منصوبه

فإن زدت من الغيب ة زدناك من الغيبه

ومنه أيضاً: قال أردشير: احذروا صولة الكريم إذا جاع، واللئيم إذا شبع، واعلموا أن الكرام أصبر نفوساً، واللئام أصبر أجساماً.

قلت: هذا كله نقلته من – بهجة المجالس – وفيه كفاية فلا حاجة إلى الإطالة.

وتوفي الحافظ أبو عمر المذكور يوم الجمعة آخر يوم من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وستين وأربعمائة، بمدينة شاطبة من شرق الأندلس. وقال صاحبه أبو الحسن طاهر بن مفوّز المعافري، وهو الذي صلى عليه: سمعت أبا عمر ابن عبد البر يقول: ولدت يوم الجمعة والإمام يخطب لخمس بقين من شهر ربيع الآخر سنة ثمان وستين وثلثمائة رحمه الله تعالى؛ وقد تقدم في ترجمة الخطيب أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت البغدادي الحافظ أنه كان حافظ الشرق، وابن عبد البر حافظ الغرب، وماتا في سنة واحدة، وهما إمامان في هذا الفن.

والنمري: بفتح النون والميم بعدها راء، هذه النسبة إلى النمر بن قاسط، بفتح النون وكسر الميم، وإنما تفتح الميم في النسبة خاصة، وهي قبيلة كبيرة مشهورة، وقد تقدم الكلام على القرطبي وشاطبة، فأغنى عن الإعادة.

وذكر أبو عمر المذكور أن والده أبا محمد عبد الله بن محمد بن عبد البر توفي في شهر ربيع الآخر سنة ثمانين وثلثمائة ومولده سنة ثلاثين وثلثمائة، رحمه الله تعالى.

وكان ولده أبو محمد عبد الله بن يوسف من أهل الأدب البارع والبلاغة، وله رسائل وشعر، فمن شعره قوله:

لا تكثرن تأملا ... واحبس عليك عنان طرفك

فلربما أرسلته ... فرماك في ميدان حتفك

قيل إنه مات سنة ثمان وخمسين وأربعمائة.

أبو محمد يوسف بن الحسن السيرافي

أبو محمد يوسف بن أبي سعيد الحسن بن عبد الله بن المرزبان السيرافي، النحوي اللغوي الأخباري، الفاضل ابن الفاضل، قد تقدم ذكر أبيه الحسن في حرف الحاء؛ كان أبو محمد المذكور عالماً بالنحو، وتصدر في مجلس أبيه بعد موته في التاريخ المذكور في ترجمته وخلفه على ما كان عليه، وقد كان يفيد الطلبة في حياة أبيه، وأكمل كتاب أبيه الذي سماه – الإقناع – وهو كتاب جليل نافع في بابه، فإن أباه كان قد شرح كتاب سيبويه كما تقدم في ترجمته وظهر له بالإطلاع والبحث في حال التصنيف ما لم يظهر لغيره ممن يعاني هذا الشأن، وصنف بعد ذلك – الإقناع – فكأنه ثمرة استفادته حال البحث والتصنيف، ومات قبل إتمامه فكمله ولده يوسف المذكور، وإذا تأمله المنصف لم يجد بين اللفظين والقصدين تفاوتاً كثيراً. ثم صنف يوسف المذكور عدة كتب في شرح أبيات استشهادات كتب مشهورة، مثل – شرح أبيات كتاب سيبويه – وهو الغاية في بابه وبسطه وشرح أبيات إصلاح المنطق وأجاد فيه، و"شرح أبيات المجاز لأبي عبيدة وأبيات معاني الزجاج"، وشرح أبيات غريب المصنف لأبي عبيد القاسم بن سلام، إلى غير ذلك.

وكانت كتب اللغة تقرأ عليه مرة رواية ومرة دراية، وقرئ عليه كتاب – البارع – للمفضل بن سلمة، وهو كتاب كبير في عدة مجلدات هذب به كتاب – العين – في اللغة المنسوب إلى الخليل بن أحمد المقدم ذكره وأضاف إليه من اللغة طرفاً صالحاً.

ونقل من ظهر نسخة بكتاب – إصلاح المنطق –، قال أبو العلاء المعري: حدثني عبد السلام البصري خازن دار العلم ببغداد وكان لي صديقاً صدوقاً، قال: كنت في مجلس أبي سعيد السيرافي وبعض أصحابه يقرأ عليه – إصلاح المنطق – لابن السكيت، فمضى بيت حميد بن ثور:

ومطوية الأقراب، أما نهارها ... فسبت، وأما ليلها فذميل

فقال أبو سعيد – ومطوية – أصلحه بالخفض، ثم التفت إلينا فقال: هذه واو رب، فقلت: أطال الله بقاء القاضي، إن قبله ما يدل على الرفع، فقال: ما هو؟ فقلت:

أتاك بي الله أنزل الهدى ... ونورٌ وإسلامٌ عليك دليل

ومطوية الأقراب...

فعاد وأصلحه، وكان ابنه أبو محمد حاضراً فتغير وجهه لذلك فنهض لساعته ووقته والغضب يستطير في شمائله إلى دكانه، وكان سماناً، فباعها واشتغل

بالعلم إلى أن برع فيه وبلغ الغاية، فعمل – شرح إصلاح المنطق –. قال أبو العلاء: وحدثني من رآه وبين يديه أربعمائة ديوان، وهو يعمل هذا الكتاب.

و لم يزل أمره على سداد واشتغال وإفادة إلى أن توفي ليلة الأربعاء لثلاث بقين من شهر ربيع الأول سنة خمس وثمانين وثلثمائة، وعمره خمس وخمسون سنة وشهور، ودفن من الغد، وصلى عليه أبو بكر محمد بن موسى الخوارزمي، ذكر ذلك هلال بن المحسن ابن الصابي الكاتب في تاريخه، وقال غيره: مولده في سنة ثلاثين وثلثمائة، وتوفي يوم الاثنين لثلاث بقين من الشهر المذكور، والله أعلم، رحمه الله تعالى.

وكان ديناً صالحاً ورعاً متقشفاً، وكان بينه وبين أبي طالب أحمد بن بكر العبدي النحوي المقدم ذكره مباحث ومناظرات منقولة بين الناس، وليس هذا موضع ذكرها.

وقد تقدم الكلام في ترجمة أبيه علي السيرافي فلا حاجة إلى إعادته ها هنا، وقال ابن حوقل في كتاب – المسالك والممالك –: سيراف فرضة عظيمة لفارس، وهي مدينة جليلة، وأبنيتها ساج متصل إلى جبل يطل على البحر، وليس بها ماء ولا زرع ولا ضرع، وهي من أغنى بلاد فارس، بالقرب من جنابة ونجيرم، والله أعلم. ومن سيراف ينتهي الإنسان على ساحل البحر إلى حصن ابن عمارة، وهو حصن منيع على نحر البحر، وليس بجميع فارس حصن أمنع منه. ويقال إن صاحبه هو الذي قال الله تعالى في حقه "وكان وراءهم ملكٌ يأخذ كل سفينة غصبا" – الكهف: 79 –.

وقال غير ابن حوقل: كان اسم هذا الملك الجلندى، بضم الجيم واللام وسكون النون وفتح الدال المهملة وبعدها ألف، وإليه أشار بعضهم يخاطب بعض الظلمة:

كان الجلندي ظالماً ... وأنت منه أظلم

وقيل غير ذلك، والله أعلم.

يوسف النجيرمي

أبو يعقوب يوسف بن يعقوب بن إسماعيل بن خرزاذ النّجيرمي، اللغوي البصري نزيل مصر؛ هو من أهل بيت فيه جماعة من الفضلاء الأدباء ما منهم إلا من هو ماهر في اللغة كامل الأدوات متقن لها. روى أبو يعقوب المذكور عن أبي يحيى زكريا بن يحيى بن خلّاد الساجي وطبقته، وروى عنه أبو الفضل محمد بن جعفر الخزاعي وغيره.

وكان يوسف أمثل أهل بيته، وله خط ليس بالجيد في الصورة، وهو في غاية الصحة، وكذلك خطوط جماعته قريبة منه، ولأهل مصر رغبة وتنافس كثير في خطه، حتى بلغت نسخة من – ديوان جرير – بخطه عشرة دنانير، وأكثر ما تروى الكتب القديمة في اللغة والأشعار العربية وأيام العرب في الديار المصرية من طريقه، فإنه كان راوية لها عارفاً بها. وكان أهل بيته يرتزقون بمصر من التجارة في الخشب.

وكان أبو عبد الله محمد بن بركات بن هلال السعيدي النحوي المصري قد أخذ اللغة من أصحاب أبي يعقوب المذكور، وأدرك أبا يعقوب و لم يأخذ عنه شيئاً لأنه رآه وهو صبي، قال الموفق أبو الحجاج يوسف بن الخلال المصري كاتب الإنشاء الآتي ذكره إن شاء الله تعالى قال لي ابن بركات: رأيت أبا يعقوب وهو ماش في طريق القرافة، وهو شيخ أسمر اللون كث اللحية مدور العمامة بيده كتاب وهو يطالع فيه في مشيته. وهذا الذي ذكره ابن بركات فيه نظر، فإن الحافظ أبا إسحاق إبراهيم بن سعيد بن عبد الله المعروف بالحبال ذكره في كتاب "الوفيات" الذيجمعه فقال: توفي أبو يعقوب بن خرزاذ النجيرمي يوم الثلاثاء رابع المحرم سنة ثلاث وعشرين وأربعمائة. وقال غيره: ولد أبو يعقوب يوسف النجيرمي يوم عرفة من سنة خمس وأربعين وثلثمائة، رحمه الله تعالى؛ وابن بركات المذكور ولد بمصر في سنة عشرين وأربعمائة وتوفي بها في سنة عشرين وخمسمائة وكان نحوي مصر، هكذا قاله الموفق ابن الخلال المذكور، فكيف يمكن أن يرى أبا يعقوب، وقد كان ابن بركات في تاريخ وفاة النجيرمي في السنة الثالثة من عمره، لكن لعله رأى ولده، والله أعلم.

وقال القاضي الفاضل: ليس في شعر ابن بركات المذكور أحسن من هذين البيتين، وعملهما في مسافر العطار:

يا عنق الإبريق من فضةٍ ويا قوام الغصن الرطب

هبك تجافيت فأقصيتني تقدر أن تخرج من قلبي؟

وكان ابن بركات قد أخذ النحو عن ابن بابشاذ النحوي - المقدم ذكره في حرف الطاء - وذكره القاضي الرشيد بن الزبير في كتاب "الجنان" وأثنى عليه.

وخرّزاذ: بضم الخاء المعجمة والراء المشددة وبعدها زاي وبعد الألف ذال معجمة. قلت: هكذا يضبط أهل الحديث هذا الاسم، وهو لفظ أعجمي، وتفسير زاذ بالعربي ابن، وأما خرّ بتشديد الراء فليس له معنى، إلا أن يكون أهل العربية قد غيروه كما جرت عادتهم في ذلك، فيكون أصله خار بالألف وهو الشوك فيكون خارزاذ معناه ابن الشوك، وخرشيذ أيضاً الشمس، فإن كانوا أرادوا هذا وحذفوا - شيذ - فيحتمل، وعلى الجملة فإنهم يتلاعبون بالأسماء العجمية، والله أعلم بالصواب.

ثم وجدت في كتاب - البلدان - تأليف البلاذري في الفصل المتضمن حديث بلاد فارس وأعمالها أرض أردشير خره ثم قال: ومعنى أردشير خره ولد أردشير بها. قلت: وأردشير بن بابك بن ساسان أول ملوك الفرس كما هو مشهور بين الناس وعلى هذا يكون معنى خرزاذ: بها ولد، كما هو عادتهم في التقديم والتأخير، وتقدير الكلام ولد بها أي بالناحية أو غير ذلك، والله أعلم.

والنجيرمي: بفتح النون وكسر الجيم وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح الراء وفي آخرها ميم، هذه النسبة إلى نجيرم، ويقال نجارم، قال أبو سعد السمعاني في كتاب - الأنساب - هي محلة بالبصرة؛ وقال غيره: هي قرية في برّ البصرة في طريق فارس عند سيراف، والله أعلم بالصواب، وكذا هي في كتب - المسالك والممالك - وهي على بحر فارس، وظاهر الحال أن جماعة من أهلها دخلوا البصرة وسكنوا هذا المحلة، فسميت باسم بلدهم، والله أعلم.

يوسف بن وهرة الهمذاني

يوسف بن أيوب بن يوسف بن الحسين بن وهرة، أبو يعقوب الهمذاني الفقيه العالم الزاهد الجليل الرباني صاحب المقامات والكرامات؛ قدم بغداد في صباه بعد لستين وأربعمائة، ولازم الشيخ أبا إسحاق الشيرازي المقدم ذكره وتفقه عليه حتى برع في أصول الفقه والمذهب والخلاف، وسمع الحديث من القاضي أبي الحسين محمد بن علي ابن المهتدي بالله وأبي الغنائم عبد الصمد بن علي بن المأمون، وأبي جعفر محمد بن أحمد بن المسلمة وطبقتهم، وسمع بأصبهان وسمرقند، وكتب أكثر ما سمعه ثم زهد في ذلك ورفضه، واشتغل بالزهد والعبادة والرياضة والمجاهدة حتى صار علماً من أعلام الدين يهتدي به الخلق إلى الله تعالى.

وقدم بغداد في سنة خمس عشرة وخمسمائة وحدث بها، وعقد بها مجلس الوعظ بالمدرسة النظامية وصادف بها قبولاً عظيماً من الناس، قال أبو الفضل صافي بن عبد الله الصوفي الشيخ الصالح: حضرت مجلس شيخنا يوسف الهمذاني في النظامية، وكان قد اجتمع العالم فقام فقيه يعرف بابن السقاء وآذاه وسأله عن مسألة، فقال له الإمام يوسف: اجلس فإني أجد من كلامك رائحة الكفر، ولعلك تموت على غير دين الإسلام؛ قال أبو الفضل: فاتفق أنه بعد هذا القول بمدة قدم رسول نصراني من ملك الروم إلى الخليفة، فمضى إليه ابن السقاء وسأله أن يستصحبه وقال له: يقع لي أن أترك دين الإسلام وأدخل في دينكم، فقبله النصراني، وخرج معه إلى القسطنطينية والتحق بملك الروم، وتنصر ومات على النصرانية.

قال الحافظ أبو عبد الله محمد بن محمود المعروف بابن النجار البغدادي في - تاريخ بغداد - في ترجمة يوسف الهمذاني المذكور: سمعت أبا الكرم عبد السلام بن أحمد المقرئ يقول: كان ابن السقاء قارئاً للقرآن الكريم مجوداً في تلاوته، حدثني من رآه بالقسطنطينية ملقىً على دكة مريضاً، وبيده خلق مروحة يدفع بها الذباب عن وجهه، قال فسألته: هل القرآن باق على حفظك؟ فقال: ما أذكر منه إلا آية واحدة " ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين" الحجر - 2 - والباقي أنسيته، نعوذ بالله من سوء القضاء وزوال نعمته وحلول نقمته، ونسأله الثبات على دين الإسلام، آمين آمين آمين.

قال أبو سعد ابن السمعاني: يوسف بن أيوب الهمذاني من أهل بوزنجرد، قرية من قرى همذان مما يلي الري، الإمام الورع التقي المتنسك العامل بعلمه

والقائم بحقه، صاحب الأحوال والمقامات الجليلة، وإليه انتهت تربية المريدين الصادقين، واجتمع برباطه بمدينة مرو جماعة من المنقطعين إلى الله تعالى ما لا يتصور أن يكون في غيره من الربط مثلهم، وكان من صغره إلى كبره على طريقة مرضية وسداد واستقامة، خرج من قريته إلى بغداد وقصد الإمام أبا إسحاق الشيرازي وتفقه عليه ولازمه مدة مقامه ببغداد حتى برع في الفقه وفاق أقرانه خصوصاً في علم النظر، وكان الشيرازي يقدمه على جماعة كثيرة من أصحابه مع صغر سنه، لعلمه بزهده وحسن سيرته واشتغاله بما يعينه. ثم ترك كل ما كان فيه من المناظرة وخلا بنفسه، واشتغل بما هو الأهم من عبادة الله تعالى ودعوة الخلق إليها وإرشاد الأصحاب إلى الطريق المستقيم، نزل مرو وسكنها، وخرج إلى هراة وأقام بها مدة، ثم سئل الرجوع إلى مرو في آخر عمره فأجاب ورجع إليها، وخرج إلى هراة ثانياً، وعزم على الرجوع إلى مرو في آخر عمره وخرج منها متوجهاً إلى مرو، فأدركته منيته بباميين بين هراة وبغشور في شهر ربيع الأول سنة خمس وثلاثين وخمسمائة ودفن، ثم نقل بعد ذلك إلى مرو؛ وكان مولده تقديراً لا تحقيقاً في سنة أربعين أو إحدى وأربعين وأربعمائة ببوزنجرد، رحمه الله تعالى.

قلت: هذا كله نقلته من تاريخ ابن النجار المذكور مقتضباً، وفيه ألفاظ تحتاج إلى إيضاح.

أما وهرة: فهو بفتح الواو والهاء والراء وفي آخره هاء ثانية، وهو اسم جده المذكور ولا أعرف معناه العربي.

والقسطنطينية: بضم القاف وسكون السين المهملة وفتح الطاء المهملة وسكون النون وكسر الطاء الثانية وسكون الياء المثناة من تحتها وكسر النون وفتح الياء الثانية وفي آخرها هاء ساكنة، وهي أعظم مدائن الروم، بناها قسطنطين ملك الروم، وهو أول من تنصر من ملوك الروم، فنسبت المدينة إليه.

وأما بوزنجرد: فهو بضم الباء الموحدة وسكون الواو وفتح الزاي والنون وكسر الجيم وسكون الراء وبعدها دال مهملة، وهي قرية من قرى همذان على مرحلة منها مما يلي ساوة، كذا قال أبو سعد السمعاني في كتاب – الأنساب –.

وأما مرو فقد تقدم الكلام عليها.

وأما بامبين: بالباء الموحدة وبعد الألف ميم مفتوحة ثم ياء مثناة من تحتها مكسورة وبعدها ياء ثانية ساكنة ثم نون، فهي بليدة بخراسان كما ذكرها.

وهراة قد تقدم الكلام عليها وأنها إحدى كراسي خراسان فإنها أربعة: نيسابور وهراة ومرو وبلخ.

وبغشور: بفتح الباء الموحدة وسكون الغين المعجمة وضم الشين المعجمة وبعد الواو الساكنة راء، وهي بليدة بخراسان أيضاً بين مرو وهراة، وقد تقدم في ترجمة الحسين بن مسعود الفراء الفقيه البغوي أنه منسوب إليها.

الأعلم الشنتمري

أبو الحجاج يوسف بن سليمان بن عيسى النحوي، المعروف بالأعلم من أهل شنتمرية الغرب؛ رحل إلى قرطبة في سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة وأقام بها مدة، وأخذ عن أبي القاسم إبراهيم بن محمد بن زكريا الإفليلي وأبي سهل الحراني وأبي بكر مسلم بن أحمد الأديب.

وكان عالماً بالعربية واللغة ومعاني الأشعار، حافظاً لجميعها، كثير العناية بها حسن الضبط لها مشهوراً بمعرفتها وإتقانها، أخذ الناس عنه كثيراً، وكانت الرحلة في وقته إليه؛ وقد أخذ عنه أبو علي الحسين بن محمد بن أحمد الغساني الجياني المقدم ذكره وغيره.

وكُفّ بصره في آخر عمره؛ وشرح كتاب – الجمل – في النحو لأبي القاسم الزجاجي، وشرح أبيات الجمل في كتاب مفرد، وساعد شيخه ابن الإفليلي المذكور على شرح ديوان المتنبي، وغالب ظني أنه شرح – الحماسة – فقد كان عندي – شرح الحماسة – للشنتمري في خمس مجلدات، وقد غاب عني الآن من كان مصنفه، وأظنه هو، والله أعلم، وقد أجاد فيه.

وتوفي سنة ست وسبعين وأربعمائة بمدينة إشبيلية من جزيرة الأندلس، وكانت ولادته في سنة عشر وأربعمائة، رحمه الله تعالى.

وذكر أبو الحسن شريح بن محمد بن شريح الرعيني الإشبيلي خطيب جامعها، قال: مات أبي أبو عبد الله محمد بن شريح يوم الجمعة منتصف شوال سنة ست وسبعين وأربعمائة، فسرت إلى الشيخ الأستاذ أبي الحجاج الأعلم، فأعلمته بوفاته فإنهما كانا كالأخوين محبة ووداداً، فلما أعلمته انتحب وبكى كثيراً واسترجع ثم قال: لا أعيش بعده إلا شهراً، فكان كذلك.

ورأيت بخط الرجل الصالح العالم محمد بن خير المقرئ الأندلسي، رحمه الله تعالى، أن أبا الحجاج المذكور إنما قيل له – الأعلم – لأنه كان مشقوق الشفة العليا شقاً فاحشاً. قلت: ومن كان مشقوق الشفة العليا يقال له أعلم، والفعل الماضي منه علم بكسر اللام يعلم بفتحها علماً أيضاً والمرأة علماء إذا كانت كذلك، فإن كان مشقوق الشفة السفلى يقال له أفلح، بالفاء والحاء المهملة والفعل منه كما تقدم في الأعلم يقال: فلح بكسر اللام يفلح فلحاً بفتحها فيهما، وهذه القاعدة مطردة في العيوب والعاهات كلها أن تكون عين الفعل الماضي مكسورة وفي المضارع والمصدر مفتوحة تقول خرس يخرس خرساً، وبرص يبرص برصاً، وعمي يعمى عمى، وكذلك جميعه، واسم الفاعل منه على أفعل مثل أخرس وأبرص وأعمى، وكذلك أعلم وأفلح.
وكان أبو يزيد سهيل بن عمرو القرشي العامري رضي الله عنه أعلم، فلما أسر يوم بدر قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم: دعني أنزع ثنيته فلا يقوم عليك خطيباً أبداً، قال صلى الله عليه وسلم: دعه فعسى أن يقوم مقاماً تحمده، وكان سهيل من الخطباء الفصحاء البلغاء، وهو الذي جاء في صلح الحديبية وعلى يده انبرم الصلح، ثم إنه أسلم وحسن إسلامه. والمقام الذي وعد به صلى الله عليه وسلم لسهيل هو أنه لما قبض صلى الله عليه وسلم كان سهيل بمكة فارتدت جماعة من العرب وحصل عندهم اختلاف، فقام سهيل خطيباً وسكّن الناس ومنعهم من الاختلاف فكان هذا هو المقام المحمود. وقول عمر رضي الله عنه: – دعني أنزع ثنيته فلا يقوم عليك خطيباً أبداً – فإنما قال ذلك لأنه كان مشقوق الشفة العليا ونزعت ثنيته تعذر عليه الكلام إلا بمشقة وكلفة، فهذا الذي قصده عمر رضي الله عنه.
وكان عنترة بن شداد العبسي الفارس المشهور أفلح، فكان يقال له الفلحاء لفلحة كانت به، وإنما ذهبوا به إلى تأنيث الشفة والله أعلم.
وشنتمرية: بفتح الشين المعجمة وسكون النون وفتح التاء المثناة من فوقها والميم وكسر الراء وبعدها ياء مشددة مثناة من تحتها وبعدها هاء ساكنة، وهي مدينة بالأندلس في غربها.
والحديبية: بضم الحاء المهملة وفتح الدال المهملة وبعدها ياء ساكنة مثناة من تحتها ثم باء موحدة مكسورة ثم ياء ثانية مفتوحة وفي آخرها هاء ساكنة، وهو موضع بين مكة والمدينة كانت به بيعة الرضوان، ويروى بتشديد الياء الأخيرة أيضاً.

بهاء الدين عرف بابن شداد

أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم بن عتبة بن محمد بن عتاب الأسدي، قاضي حلب، المعروف بابن شداد، الملقب بهاء الدين، الفقيه الشافعي، توفي أبوه وهو صغير السن، فنشأ عند أخواله بني شداد فنسب إليهم، وكان شداد جده لأمه، وكان يكنى أولاً أبا العز، ثم غير كنيته وجعلها أبا المحاسن كما ذكرته.
ولد بالموصل ليلة العاشر من شهر رمضان سنة تسع وثلاثين وخمسمائة وحفظ بها القرآن الكريم في صغره، ثم قدم الشيخ أبو بكر يحيى بن سعدون القرطبي المقدم ذكره إلى الموصل فلازمه وقرأ عليه بالطرق السبع، وأتقن عليه فن القراءات. وقال أبو المحاسن المذكور في بعض تواليفه: أول من أخذت عنه شيخي الحافظ صائن الدين أبو بكر يحيى بن سعدون بن تمام بن محمد الأزدي القرطبي، رحمه الله تعالى، فإني لازمت القراءة عليه إحدى عشرة سنة، فقرأت عليه معظم ما رواه من كتب القراءات، وقراءة القرآن العظيم، ورواية الحديث وشروحه، والتفسير، حتى كتب لي خطه، شهد لي بأنه ما قرأ عليه أحد أكثر مما قرأت، وعندي خطه بجميع ما قرأت عليه في قريب من كراسين، وفهرست ما رواه جميعه عندي وأنا أرويه عنه. ومما يشتمل عليه فهرست البخاري ومسلم من عدة طرق، وغالب كتب الحديث، وغالب كتب الأدب وغيره، وآخر روايتي عنه – شرح الغريب – لأبي عبيد القاسم بن سلام، قرأته عليه في مجالس، آخرها في العشر الأخير من شعبان سنة سبع وستين وخمسمائة قلت: وهي السنة التي مات فيها الشيخ القرطبي، حسبما ذكرته في ترجمته.
ثم قال: ومنهم الشيخ أبو البركات عبد الله بن الخضر بن الحسين بن المعروف بابن الشيرجي، سمعت عليه بعض تفسير الثعلبي، وأجازني أن أروي عنه جميع ما رواه على اختلاف أنواع الروايات، وكتب لي خطه بذلك في فهرست سماعي مؤرخاً بخامس جمادى الأولى سنة ست وستين وخمسمائة، وكان مشهوراً بعلمي الحديث والفقه، ولي قضاء البصرة ودرس بالأتابكية القديمة، يعني بالموصل.
ومنهم الشيخ مجد الدين أبو الفضل عبد الله بن أحمد بن محمد بن عبد القاهر الطوسي الخطيب بالموصل، وهو مشهور بالرواية حتى يقصد لها من

الآفاق، وعاش نيفاً وتسعين سنة قلت: وكانت ولادة أبي الفضل ابن الطوسي الخطيب المذكور في منتصف صفر سنة سبع وثمانين وأربعمائة ببغداد بباب المراتب، وتوفي ليلة الثلاثاء رابع عشر شهر رمضان سنة ثمان وسبعين وخمسمائة بالموصل، ودفن بمقبرة باب الميدان، رحمه الله تعالى.

رجعنا إلى تتمة كلام أبي المحاسن ابن شداد

وسمعت عليه يعني على الخطيب المذكور كثيراً من مسموعاته، وأجاز لي جميع ما رواه في السادس والعشرين من رجب، سنة ثمان وخمسين وخمسمائة.

ومنهم القاضي فخر الدين أبو الرضا سعيد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري، سمعت عليه مسند الشافعي رضي الله عنه، ومسند أبي عوانة، ومسند أبي يعلى الموصلي، وسنن أبي داود،وكتب لي خطه بذلك، وهو في فهرستي، وسمعت عليه – الجامع – لأبي عيسى الترمذي، وأجاز لي رواية ما رواه، وكتب لي خطه بذلك في شوال سنة سبع وستين وخمسمائة.

ومنهم الحافظ مجد الدين أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الله بن علي الأشيري الصنهاجي، أجاز لي جميع ما يرويه على اختلاف أنواعه، وفي فهرستي خطه بذلك مؤرخاً بشهر رمضان سنة تسع وخمسين وخمسمائة، وفهرسته عندي بذلك قلت: توفي أبو محمد عبد الله الأشيري المذكور في شوال سنة إحدى وستين وخمسمائة بالشام، ودفن ببعلبك رحمه الله تعالى ظاهر باب حمص شمالي البلد.

ومنهم الحافظ سراج الدين أبو بكر محمد بن علي الجياني، قرأت عليه – صحيح مسلم – من أوله إلى آخره بالموصل، و– الوسيط – للواحدي، وأجاز لي رواية ما يرويه في تاريخ سنة تسع وخمسين وخمسمائة.

فهذه أسماء من حضر في خاطري، وقد سمعت من جماعة لم يحضرني روايتهم عند جمع هذا الكتاب، كشهدة الكاتبة في بغداد وأبي المغيث في الحربية، والشيخ رضي الدين القزويني المدرس بالنظامية وجماعة شذت عني طرقهم، فلم أذكرهم، إذ كان في هؤلاء غنية؛ هذا آخر ما ذكره عن نفسه.

وقال غيره: إنه قرأ الفقه على أبي البركات عبد الله ابن الشيرجي المذكور فقيه الموصل، وكان عالماً زاهداً متقشفاً، وتوفي في جمادى الأولى سنة أربع وسبعين وخمسمائة بالموصل ودفن بظاهرها.

ثم اشتغل بالخلاف على الضياء ابن أبي حازم صاحب محمد بن يحيى الشهيد النيسابوري. ثم باحث في الخلاف متفنني أصحابه، كالفخر النوقاني والبروي والعماد النوقاني والسيف الخواري والعماد الميانجي.

ثم انحدر إلى بغداد بعد التأهل التام ونزل بالمدرسة النظامية وترتب فيها معيداً بعد وصوله إليها بقليل، وأقام معيداً نحو أربع سنين، والمدرس بها يوم ذاك أبو نصر أحمد بن عبد الله بن محمد الشاشي. وكانت ولاية ابن الشاشي المذكور التدريس بالنظامية في شهر ربيع الآخر من سنة ست وستين وخمسمائة، وعزل عنها في سلخ شهر رجب سنة تسع وستين، وتولاها بعده رضي الدين أبو الخير أحمد بن إسماعيل القزويني في التاريخ المذكور، وأبو المحاسن المذكور مستمر بها على الإعادة. وكان رفيقه في الإعادة السديد محمد السلماسي وقد تقدم ذكره ثم أصعد إلى الموصل في سنة تسع وستين فترتب مدرساً في المدرسة التي أنشأها القاضي كمال الدين أبو الفضل محمد بن الشهرزوري المقدم ذكره ولازم الاشتغال، وانتفع به جماعة.

وله كتاب في الأقضية سماه – ملجأ الحكام عند التباس الأحكام – ذكر في أوائله أنه حج في سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة وزار البيت المقدس والخليل عليه أفضل الصلاة والسلام، بعد الحج والزيارة للرسول صلى الله عليه وسلم. ثم دخل دمشق والسلطان صلاح الدين محاصر قلعة كوكب، فذكر أنه سمع بوصوله فاستدعاه إليه، فظن أنه يسأله عن كيفية قتل الأمير شمس الدين ابن المقدم، فإنه كان أمير الحاج في تلك السنة من جهة صلاح الدين، وقتل على جبل عرفات لأمر يطول شرحه، وليس هذا موضع ذكره. فلما دخل عليه ذكر أنه قابله بالإكرام التام، وما زاد على السؤال عن الطريق، ومن كان فيه من مشايخ العلم والعمل، وسأله عن جزء من الحديث ليسمعه عليه، فأخرج له جزءاً جمع فيه أذكار البخاري، وأنه قرأه عليه بنفسه، فلما خرج من عنده تبعه عماد الدين الكاتب الأصفهاني وقال له: السلطان يقول لك: إذا عدت من الزيارة وعزمت على العود تعرفنا بذلك فلنا إليك مهم، فأجابه بالسمع والطاعة، فلما عاد عرفه بوصوله فاستدعاه، وجمع له في تلك المدة كتاباً يشتمل على فضائل الجهاد وما أعد الله سبحانه وتعالى للمجاهدين، يحتوي على مقدار ثلاثين كراسة، فخرج إليه واجتمع به على بقيعة حصن الأكراد، وقدم له الكتاب الذي جمعه، وقال إنه كان عزم على

الانقطاع في مشهد بظاهر الموصل إذا وصل إليها.

ثم إنه اتصل بخدمة صلاح الدين في مستهل جمادى الأولى سنة أربع وثمانين وخمسمائة، ثم ولاه قضاء العسكر والحكم بالقدس الشريف.

ولما كنت متولي الحكم بدمشق المحروسة جاءني في بعض شهور سنة ست وستين وستمائة إسجال قد ثبت مضمونه عند القاضي أبي المحاسن المذكور، وهو يومئذ قاضي العسكر الصلاحي، وقد انقطع ثبوته بموت شهوده، فتعذر إثباته عندي لذلك، وتأملته إلى آخره، لأنني استغربته، فقد كان شيخنا وأخذنا عنه كثيراً وحصل الانتفاع بصحبته.

عدنا إلى بقية ما ذكره أبو المحاسن المذكور فقال: إنه كان قد حضر إلى خدمة صلاح الدين في صحبة شيخ الشيوخ صدر الدين عبد الرحيم بن إسماعيل والقاضي محيي الدين ابن الشهرزوري لما وصلا إليه في رسالة، واتفق في تلك الدفعة وفاة البهاء الدمشقي المدرس كان بمصر في مدرسة منازل العز وخطيب مصر، وأن صلاح الدين عرض عليه تدريس المدرسة المذكورة فلم يفعل، وأنه حضر عند السلطان دفعة ثانية في رسالة من الموصل وهو على حران، وكان صلاح الدين مريضاً يومئذ.

وذكر أنه لما توفي صلاح الدين كان حاضراً، وتوجه إلى حلب لجمع كلمة الإخوة أولاد صلاح الدين وتحليف بعضهم لبعض، وأن الملك الظاهر غياث الدين بن صلاح صاحب حلب كتب إلى أخيه الملك الأفضل نور الدين علي بن صلاح الدين صاحب دمشق، يطلبه منه، فأجابه إلى ذلك، فأرسله الظاهر إلى مصر لاستحلاف أخيه الملك العزيز عماد الدين عثمان بن صلاح الدين، وعرض عليه الظاهر الحكم بحلب فلم يوافق على ذلك، فلما عاد من هذه الرسالة كان القاضي بحلب قد مات، فعرض عليه فأجاب، هكذا ذكره في كتابه – ملجأ الحكام –

وذكر القاضي كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد المعروف بابن العديم في تاريخه الصغير الذي سماه – زبدة الحلب في تاريخ حلب – ما مثاله: وفي سنة إحدى وتسعين، يعني وخمسمائة، اتصل القاضي بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم بخدمة الملك الظاهر، وقدم إليه إلى حلب وولاه قضاءها ووقوفها، وعزل عن قضائها زين الدين أبا البيان نبا ابن البانياسي، نائب محيي الدين ابن الزكي، وحل عنده بهاء الدين في رتبة الوزارة والمشاورة؛ انتهى كلامه.

قلت: وهذا القاضي نبا هو ابن الفضل بن سليمان الحميري، ويعرف بيتهم بدمشق ببيت البانياسي، وكان السلطان صلاح الدين قد ولى القاضي محيي الدين أبا المعالي محمد بن الزكي الدمشقي المقدم ذكره القضاء بحلب فاستناب فيها زين الدين نبا ابن البانياسي المذكور، واستمر بها إلى التاريخ المذكور.

وكانت حلب في ذلك الزمان قليلة المدارس، وليس بها من العلماء إلا نفر يسير، فاعتنى أبو المحاسن المذكور بترتيب أمورها وجمع الفقهاء بها، وعمرت في أيامه المدارس الكثيرة. وكان الملك الظاهر قد قرر له إقطاعاً جيداً يحصل منه جملة مستكثرة، ولم يكن له خرجٌ كثير، فإنه لم يولد له ولا كان له أقارب، فتوفر له شيء كثير، فعمر مدرسة بالقرب من باب العراق قبالة مدرسة نور الدين محمود بن زنكي، رحمه الله تعالى، الشافعية. ورأيت تاريخ عمارتها مكتوباً على سقف مسجدها، وهو الموضع المعد لإلقاء الدروس، وذلك في سنة إحدى وستمائة. ثم عمر في جوارها داراً للحديث النبوي، وجعل بين المكانين تربة برسم دفنه فيها، ولها بابان: باب إلى المدرسة وباب إلى دار الحديث،، وشباكان إلى الجهتين، وهما متقابلان بحيث إن الذي يقف في أحد المكانين يرى من يكون في المكان الآخر.

ولما صارت حلب على هذه الصورة قصدها الفقهاء من البلاد وحصل بها الاشتغال والاستفادة، وكثر الجمع بها.

وكان بين والدي، رحمه الله تعالى، وبين القاضي أبي المحاسن المذكور مؤانسة كثيرة وصحبة صحيحة المودة من زمن الاشتغال بالموصل، فجئت إليه، وكان أخي قد سبقني بمدة قليلة، وكتب سلطان بلدنا الملك المعظم مظفر الدين أبو سعيد كوكبوري بن علي بن بكتكين، رحمه الله تعالى المقدم ذكره في حرف الكاف كتاباً بليغاً في حقنا يقول فيه: أنت تعلم ما يلزم من أمر هذين الولدين، وأنهما ولدا أخي وولدا أخيك، ولا حاجة مع هذا إلى تأكيد وصية، وأطال القول في ذلك، فتفضل القاضي أبو المحاسن وتلقانا بالقبول والإكرام وأحسن حسب الإمكان وعمل ما يليق بمثله، وأنزلنا في مدرسته ورتب لنا أعلى الوظائف، وألحقنا بالكبار، مع الشبيبة في السن والابتداء في الاشتغال وقد تقدم في ترجمة الشيخ موفق الدين ابن يعيش النحوي تاريخ دخولي إلى حلب فأغنى عن الإعادة ولم نزل عنده إلى أن توفي في التاريخ الآتي ذكره، ولم يكن بمدرسته في ذلك الزمان درس عام، لأنه كان المدرس

بنفسه، وكان قد طعن في السن وضعف عن الحركة وحفظ الدروس وإلقائها، فرتب أربعة من الفقهاء الفضلاء برسم الإعادة، والجماعة يشتغلون عليهم. وكنت أنا وأخي نقرأ على الشيخ جمال الدين أبي بكر الماهاني، لأنه كان من بلدنا، ورفيق والدنا في الاشتغال عند الشيخ عماد الدين أبي حامد محمد بن يونس للقدم ذكره فمات في ثالث شوال سنة سبع وعشرين وستمائة، وقد نيف على ثمانين سنة، فترددت إلى الشيخ نجم الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن علي المعروف بابن الخباز الموصلي الفقيه الإمام، وهو إذ ذاك مدرس المدرسة السيفية، فقرأت عليه من أول كتاب – الوجيز – للغزالي إلى الإقرار.

وعلى الجملة فقد خرجنا عما نحن بصدده بسبب اتصال الكلام.

وكان القاضي أبو المحاسن المذكور بيده حل الأمور وعقدها، لم يكن لأحد معه في الدولة كلام، وكان سلطانها الملك العزيز أبا المظفر محمد بن الملك الظاهر بن السلطان صلاح الدين، وهو صغر السن، تحت حجر الطواشي شهاب الدين أبي سعيد طغرل، وهو أتابكه ومتولي تدبير الدولة بإشارة القاضي أبي المحاسن لا يخرج عنهما شيء من الأمور.

وكان للفقهاء في أيامه حرمة تامة ورعاية كبيرة خصوصاً جماعة مدرسته فإنهم كانوا يحضرون مجالس السلطان ويفطرون في شهر رمضان على سماطه، وكنا نسمع عليه الحديث ونتردد إليه في داره فقد كانت له قبة تختص به، وهي شتوية لا يجلس في الصيف والشتاء إلا فيها، لأن الهرم كان قد أثر فيه حتى صار كفرخ الطائر من الضعف، لا يقدر على الحركة للصلاة وغيرها إلا بمشقة عظيمة؛ وكانت النزلات تعتريه في دماغه فلا يفارق تلك القبة، وفي الشتاء يكون عنده منقلٌ كبير عليه من الفحم والنار شيء كثير، ومع هذا كله فلا يزال مزكوماً وعليه الفرجية البرطاسي والثياب الكثيرة، وتحته الطراحة الوثيرة فوق البسط ذوات الخمائل الثخينة، بحيث إنا كنا نجد عنده الحر والكرب، وهو لا يشعر به لكثرة استيلاء البرودة عليه من الضعف. وكان لا يخرج لصلاة الجمعة إلا في شدة القيظ، وإذا قام إلى الصلاة بعد الجهد يكاد يسقط، ولقد كنت أنظر إلى ساقيه إذا وقف للصلاة وكأنهما عودان رقيقان لا لحم عليهما. وكان عقيب صلاة الجمعة يسمع المصلون عنده الحديث عليه، وكان يعجبه ذلك. وكان حسن المحاضرة جميل المذاكرة، والأدب غالب عليه، وكان كثيراً ما ينشد في مجالسه:

إن السلامة من ليلى وجارتها ... أن لا تمر على حال بناديها

وكان يتمثل أيضاً كثيراً بقول صردر الشاعر المقدم ذكره في حرف العين وهذا البيت من جملة قصيدة طويلة وهو:

وعهودهم بالرمل قد نقضت ... وكذاك ما يبنى على الرمل

فأنشده في بعض الأيام، فقال له بعض أصحابنا الحاضرين: يا مولانا قد استعمل ابن المعلم العراقي هذا المعنى استعمالاً مليحاً، فقال: ابن المعلم هو أبو الغنائم؟ فقال: نعم، فقال: صاحبنا كان، كيف قال؟ فأنشده:

نقضوا العهود، وحق ما يبنى على ... رمل اللوى بيد الهوى أن ينقضا

فقال: ما أقصر، ولقد تلطف في قوله – بيد الهوى –،فقال له: يا مولانا وقد استعمله في قصيدة أخرى، فقال: هات، فأنشده:

ولم يبن على الرمل ... فكيف انتقض العهد

فاستحسنه وكان كثيراً ما ينشد أبيات أبي الفوارس سعد بن محمد المعروف بحيص بيص المقدم ذكره وكان يقول إنه سمعها منه ويرويها عنه، وقد تقدم ذكرها في ترجمة الحيص بيص، فأغنى عن الإعادة، وأولها:

لا تضع من عظيم قدر وإن كن ... ت مشاراً إليه بالتعظيم

وكان يقول: أنشدني القاضي الفاضل لبعضهم، ونحن نزول على قلعة صفد:

قلت للنزلة لما ... أن ألمت بلهاتي

بحياتي خلّ حلقي فهو دهليز حياتي

قلت: هذان البيتان منسوبان إلى ابن الهبارية المقدم ذكره والله أعلم.

وكان كلما نظر إلى نفسه على تلك الحال من الضعف والعجز عن القيام والقعود والصلاة وسائر الحركات، ينشد:

من يتمن العمر فليدرع صبراً على فقد أحبائه

ومن يعمر يسر في نفسه ما يتمناه لأعدائه

ثم وجدت هذين البيتين للظهير أبي إسحاق إبراهيم بن نصر بن عسكر، قاضي السلامية المقدم ذكره في هذا الكتاب، والله أعلم؛ ذكر ذلك صاحبنا الكمال ابن الشعار الموصلي في كتابه – عقود الجمان – في ترجمة الظهير المذكور. وهذا ينظر إلى قول أبي العلاء المعري.

تدعو بطول العمر أفواهنا لما تناهى القلب في وده

يسر إن مدّ بقاء له وكلّ ما يُكره في مده

والأصل في هذا قول لبيد بن ربيعة العامري:

كانت قناتي لا تلين لغامزٍ فألانها الإصباح والإمساء

ودعوت ربي بالسلامة جاهداً ليصحّني فإذا السلامة داء

ودخل عليه يوماً رجل من أهل الغرب يقال له أبو الحجاج يوسف، ووكان قريب العهد ببلاده، ورد حلب في تلك الأيام، وكان فاضلاً في الأدب والحكمة، فلما رآه على تلك الهيئة من الهزال والنحافة أنشده:

لو يعلم الناس ما في أن تعيش لهم بكوا لانك من ثوب الصبا عاري

ولو أطاقوا انتقاصاً من حياتهم لما فدوك بشيء غير أعمار

فأعجبه ذلك ودمعت عيناه وشكر له.

وقال لي بعض أصحابنا: سمعته يوماً وهو يحكي للجماعة الحاضرين عنده، قال: لما كنا في المدرسة النظامية ببغداد اتفق أربعة خمسة من الفقهاء المشتغلين على استعمال حب البلاذر، لأجل سرعة الحفظ والفهم، فاجتمعوا ببعض الأطباء، وسألوه عن مقدار ما يستعمل الإنسان منه وكيف يستعمله ثم اشتروا القدر الذي قال لهم الطبيب وشربوه في موضع خارج عن المدرسة، فحصل لهم الجنون، وتفرقوا وتشتتوا ولم يعلم ما جرى عليهم، وبعد أيام جاء إلى المدرسة واحد منهم، وكان طويلاً، وهو عريان ليس عليه شيء يستر عورته، وعلى رأسه بقيار كبير له عذبة طويلة خارجة عن العادة، وقد ألقاها وراءه فوصلت إلى كعبه، وهو ساكت عليه السكينة والوقار لا يتكلم ولا يعبث، فقام إليه من كان حاضراً من الفقهاء وسألوه عن الحال، فقال لهم: كنا قد اجتمعنا وشربنا حبّ البلاذر، فأما أصحابي فإنهم جنوا وما سلم منهم إلا أنا وحدي، وصار يظهر العقل العظيم والسكون، وهو يضحكون منه وهو لا يشعر بهم، ويعتقد أنه سالم مما أصاب أصحابه، وهو على تلك الحالة لا يفكر فيهم ولا يلتفت إليهم.

وأخبرني جماعة مما كانوا عنده قبل وصولنا إليه أنه قدم عليه الأديب نظام الدين أبو الحسن علي بن محمد بن يوسف بن مسعود القيسي القرطبي المعروف بابن خروف الشاعر المعروف، فكتب إليه رسالة، وفي أولها أبيات يستجديه فروة قرظ، وهي:

بهاء الدين والدينا ونور المجد والحسب

طلبت مخافة الأنوا ء من نعماك جلد أبي

وفضلك عالمٌ أني خروفٌ بارع الأدب

حلبت الدهر أشطره وفي حلبٍ صفا حلبي

-ذو الحسب الباهر، والنسب الزاهر، يسحب ذيول سيراء السراء، ويحب النحاة من أجل الفراء، ويمن على الخروف النبيه، بجلد أبيه، قانىء الصباغ، قريب عهدٍ بالدباغ، ما ضل طلب قرظه ولا ضاع، بل ذاع ثناء صانعه وضاع، أثيث خمائل الصوف، يهزأ من الرياح بكل هو جاء عصوف، إذا طهر إهابه، يخافه البرد ويهابه، ما في الثياب له ضريب، إذا نزل الجليد والضريب، ولا في اللباس له نظير، إذا عري من ورقه الغصن النضير، لا كطيلسان ابن حرب، ولا جلد عمرو الممزق بالضرب، كأنه من جلد حمل الجرباء، الذي يراعي البدر والنجم، لا من جلد السخلة الجرباء التي ترعى الشجر والنجم، فرجيّ النوع، أرجي الضوع، ليكون تارة لحافاً وتارة برداً، وهو في الحالين يحيى حراً ويميت برداً، لازال مهديه سعيداً، ينجز للأولياء وعداً وللأعداء عيداً، إن شاء الله تعالى، والسلام -.

قلت: وقد ذكرت في ترجمة أبي الفتح محمد سبط ابن التعاويذي رسالة كتبها إلى عماد الدين الكاتب الأصفهاني المقدم ذكره يطلب منه فروة قرظ أيضاً، وكل واحدةٍ من الرسالتين بديعة في بابها.

وفي هذه الرسالة كلام يحتاج إلى إيضاح، وهو قوله - لا كطيلسان ابن حرب - وهو مثل مشهور بين الأدباء، فإذا كان الشيء بالياً شبهوه بطيلسان ابن حرب، ولذلك سبب لابد من ذكره، وهو أن أحمد بن حرب ابن أخي يزيد المهلبي أعطى أبا علي إسماعيل بن إبراهيم بن حمدويه البصري الحمدوي، الشاعر الأديب، طيلساناً خليعاً، فعمل فيه الحمدوي مقاطيع عديدة ظريفة سارت عنه وتناقلتها الرواة، فمن ذلك قوله من أبيات:

يا بن حرب كسوتني طيلساناً ملّ من صحبة الزمان فصدّا
طال ترداده إلى الرفو حتى لو بعثناه وحده لتهدى

وقوله أيضاً من أبيات:

لقد حالف الرفاء حتى كأنه يحاول منه أن يعلمه الرفوا

وقوله أيضاً:

يا ابن حرب كسوتني طيلساناً أنحلته الأزمان فهو سقيم
فإذا ما رفوته قال سبحا نك محيي العظام وهي رميم

وقوله أيضاً:

يا ابن حرب أطلت وتري برفوى طيلساناً قد كنت عنه غنيا
فهو في الرفو آل فرعون في العر ض على النار بكرة وعشيا

وله فيه أيضاً:

رأينا طيلسانك يا ابن حرب يزيد المرء ذا الضعة اتضاعا
إذا الرفاء أصلح منه بعضاً تداعى بعضه الباقي انصداعا
يسلّم صاحبي فيقدّ شبراً به وأقدّ في ردّي ذراعا

أجيل الطرف في طرفيه طولاً وعرضاً ما أرى إلا رقاعا
فلست أشك أن قد كان دهراً لنوحٍ في سفينته شراعا

وقد غنيت إذ أبصرت منه		بقاياه على كتفي تداعى

قفي قبل التفرق يا ضباعاولا يك موقف منك الوداعا

وقال فيه أيضاً، وكتبها إلى بعض الرؤساء:

دعني أبكي كسوتي إذا ودّعت		فلأزمعن على البكا إذ أزمعت

يا ابن الحسين أما ترى دراعتي		سملاً تردّت بالبلى وتدرعت

فيها من التمزق ما لو أنه		مرت بها ريح الصبا لتقشعت

تحكي تخرق طيلساني إنها		منه تعلمت البلى فتضعضعت

لا فرّج الرحمن عنه إنه		أعدى ثيابي كلها فتقطعت

فلتحمد الله الجبال فإنها		لو قارنته تخشعت وتصدعت

وله فيه أيضاً:

يا ابن حرب كسوتني طيلسانا		يُزرع الرفو فيه وهو سباخ

مات رفاؤه ومات بفوه		وبدا الشيب في بينهم وشاخوا

وقال فيه أيضاً:

طيلسانٌ لو كان لفظاً إذن ما		شك خلقٌ في أنه بهتان

فهو كالطور إذا تجلى له الله		فدكت قواه والأركان

كم رفوناه إذ تمزق حتى		بقي الرفو وانقضى الطيلسان

وله فيه أيضاً:

يا ابن حرب إني أرى في زوايا		بيتنا مثل من كسوت جماعه

طيلسانٌ رفوته ورفوت الر		فو منه وقد رقعت رقاعه

فأطاع البلى فصار خليعاً		ليس يعطي الرفاء في الرفو طاعه

فإذا سائلٌ رآني فيه		ظن أني فتىً من أهل الصناعه

وله فيه أيضاً:

قل لابن حربٍ طيلسا		نك قوم نوح منه أحدث

هو طيلسانٌ لم يزل		عمن مضى من قبل يورث

فإذا العيون لحظته		فكأنه باللحظ يحرث

يودي إذا لم أرفه		فإذا رفوت فليس يلبث

كالكلب إن تحمل علي		ه الدهر أو تتركه يلهث

ويقال إنه عمل في هذا الطيلسان مائتي مقطوع، في كل مقطوعة معنى بديع.

وكان الأصل الذي حمل الحمدوي المذكور على عمل هذه المقاطيع، أنه وقف على أبيات عملها أبو حمران السلمي، بضم الحاء المهملة، في طيلسانه، وكان قد أخلق حتى بلي، فقال فيه:

يا طيلسان أبي حمران قد برمت ... منك الحياة فما تلتذ بالعمر

في كل يومين رفاء يجدده ... هيهات يتفع تجديدٌ مع الكبر

إذا ارتداه لعيدٍ أو لجمعته ... تتكب الناس لا يبلى من النظر

وهذا البيت الثالث أخذه من قول النظام، بفتح النون وتشديد الظاء المعجمة، أبي إسحاق إبراهيم بن سيار البلخي المتكلم المعتزلي في وصف غلام رقيق البشرة:

رقّ فلو بُزت سرابيله ... علقه الجو من اللطف

يجرحه الناس بألحاظهم ... ويشتكي الإيماء بالكف

وأنشدني بعض الأدباء بمدينة الموصل في شهر رمضان سنة ست وعشرين وستمائة في هذا المعنى لبعض الشعراء:

توهمها طرفي فأصبح خدها ... وفيه مكان الوهم من نظري أثر

وصافحها قلبي فأدمى بنانها ... فمن لمس قلبي في أناملها عقر

وأنشدني الشيخ أيدمر الصوفي المسمّى إبراهيم لنفسه دوبيت في هذا المعنى:

كلفت صبا العراق لما خطرت ... أن تحمل لي تحيةً ما قدرت

قالت لي خيفتي على وجنتيه ... إن جزت بها جرحتها فاعتذرت

ولبعض الأدباء الفقراء من جملة أبيات شكا فيها رقة حاله ورثاثة ثيابه، ما يقرب من هذا المعنى، وهو قوله:

ولي ثيابٌ رثاثٌ لست أغسلها ... أخاف أعصرها تجري مع الماء

وقد قيل في هذا المعنى شيء كبير، والاختصار أولى والله أعلم.

وأما قوله: ولا جلد عمرو الممزق بالضرب، فيريد قول النحاة: ضرب زيداً عمراً، فإنهم أبداً يستعملون هذا المثال ولا يمثلون بغيره، فكأنهم يمزقون جلده بكثرة الضرب.

عدنا إلى ما كنا عليه

وكان القاضي أبو المحاسن المذكور يسلك طريق البغاددة في ترتيبهم وأوضاعهم وحتى إنه كان يلبس ملبوسهم، والرؤساء الذين يترددون إليه كانوا يترلون عن دوابهم على قدر أقدارهم، لكل واحد منهم مكان معين لا يتعداه.

ثم إنه تجهز إلى الديار المصرية لإحضار ابنة الملك الكامل ابن الملك العادل للملك العزيز صاحب حلب، وكان قد عقد نكاحه عليها، فسافر في أول سنة تسع وعشرين أواخر سنة ثمان وعشرين وستمائة، وعاد وقد جاء بها في شهر رمضان من السنة. ولما وصل كان قد استقل الملك العزيز بنفسه ورفعوا عنه الحجر، ونزل الأتابك طغرل من القلعة إلى داره تحت القلعة، واستولى على الملك العزيز جماعة من الشباب الذين كانوا يعاشرونه ويجالسونه، فاشتغل بهم، ولم ير القاضي أبو المحاسن وجهاً يرتضيه، فلازم داره إلى حين وفاته، وهو باقٍ على الحكم وإقطاعه جارٍ عليه، غاية ما في الباب أنه لم يبق له حديث في الدولة، ولا كانوا يراجعونه في الأمور، فصار يفتح بابه لإسماع الحديث كل يوم بين الصلاتين، وظهر عليه الخرف بحيث

إنه صار إذا جاءه الإنسان لا يعرفه، وإذا عاد قام يسأل عنه ولا يعرفه، واستمر على هذه الحال مديدة، ثم مرض أياماً قلائل وتوفي يوم الأربعاء رابع عشر صفر سنة اثنتين وثلاثين وستمائة، رحمه الله تعالى، بحلب، ودفن في التربة المقدم ذكرها، وحضرت الصلاة عليه ودفنه وما جرى بعد ذلك.

وصنف كتاب – ملجأ الحكام عند التباس الأحكام – يتعلق بالأقضية في مجلدين، وكتاب – دلائل الأحكام – تكلم فيه على الأحاديث المستنبط منها الأحكام في مجلدين، وكتاب – الموجز الباهر – في الفقه، وغير ذلك، وكتاب – سيرة صلاح الدين ابن أيوب –، رحمه الله تعالى.

وجعل داره خانقاه للصوفية، لأنه لم يكن له وارث، ولازم الفقهاء والقراء تربته مدة طويلة، يقرأون عند قبره. وكان قد قرر قدام كلّ واحدٍ من الشباكين المذكورين اللذين للتربة سبة قراء، وكان غرضه أن يقرأ عنده كل ليلة ختمة كاملة، فكان كل واحد من القراء الأربعة عشر يقرأ نصف سبع بعد صلاة العشاء الآخرة. وفارقت حلب متوجهاً إلى الديار المصرية في الثالث والعشرين من جمادى الآخرة سنة خمس وثلاثين وستمائة، والأمور جارية على هذه الأوضاع، ثم بعد ذلك تغيرت تلك الأمور وانتفضت قواعدها وزال جميع ذلك على ما بلغني.

وتوفي الشيخ نجم الدين ابن الخباز المذكور في السابع من ذي الحجة سنة إحدى وثلاثين وستمائة بحلب، ودفن ظاهرها خارج باب أربعين، وحضرت الصلاة عليه ودفنه، رحمه الله تعالى. وكان مولده في التاسع والعشرين من شهر ربيع الأول سنة سبع وخمسين وخمسمائة بالموصل.

وتوفي الأتابك شهاب الدين طغرل المذكور ليلة الاثنين الحادية عشرة من محرم سنة إحدى وثلاثين وستمائة بحلب، ودفن بمدرسته الحنفية خارج باب أربعين، وكان خادماً أرمني الجنس أبيض، حسن السيرة محمود الطريقة، وحضرت الصلاة عليه ودفنه. رحمه الله تعالى.

وتوفي أبو الحسن ابن خروف الأديب المذكور بحلب في سنة أربع وستمائة متردياً في جبٍّ.

يوسف بن عمر الثقفي

أبو عبد الله يوسف بن عمر بن محمد بن الحكم بن أبي عقيل بن مسعود الثقفي وقد تقدم ذكر بقية نسبه في ترجمة الحجاج بن يوسف الثقفي، فإنه ابن ابن عم الحجاج، يجتمعان في الحكم بن أبي عقيل؛ قال خليفة بن خياط: ولى هشام بن عبد الملك يوسف بن عمر اليمن، فقدمها لثلاث بقين من شهر رمضان سنة ست ومائة، فلم يزل والياً بها حتى كتب إليه هشام في سنة عشرين ومائة بولايته على العراق، فاستخلف على اليمن ابنه الصلت ابن يوسف.

وقال البخاري: كانت ولاية يوسف بن عمر العراق سنة إحدى وعشرين ومائة إلى سنة أربع وعشرين. وقال غيره: لما أراد هشام بن عبد الملك صرف خالد بن عبد الله القسري عن العراق، وكان قد جاءه رسول يوسف ابن عمر الثقفي من اليمن، فدعا هشام بالرسول وقال له: إن صاحبك قد تعدى طوره وسأل فوق قدره. وأمر بتخريق ثيابه وضربه أسواطاً، وقال له: امض إلى صاحبك، فعل الله به وصنع، ودعا بسالم اليمامي مولى سالم بن عنبسة بن عبد الملك، وكان على ديوان الرسائل وقال له: اكتب إلى يوسف ابن عمر، بشيء أمره به، واعرض الكتاب علي، فمضى سالم ليكتب ما أمره به، وخلا هشام بنفسه، وكتب كتاباً صغيراً بخطه إلى يوسف بن عمر وفيه: – سر إلى العراق فقد وليتك إياه، وإياك أن يعلم بك أحد، واشفني من ابن النصرانية، يعني خالداً، ومن عماله – وأمسك الكتاب بيده، وحضر سالم بالكتاب الذي كتبه وعرضه عليه، فغافله وجعل الكتاب الصغير في طيه، وختمه ودفعه إلى سالم وقال له: ادفعه إلى رسول يوسف، ففعل ذلك، وانفصل الرسول. فلما وصل إلى يوسف قال له: ما وراءك؟ قال: الشر، أمير المؤمنين ساخط عليك، وقد أمر بتخريق ثيابي وضربي، ولم يكتب جواب كتبك، وهذا كتاب بخط صاحب الديوان، ففض الكتاب وقرأه، فلما بلغ إلى آخره وقف على الكتاب الصغير، فاستخلف ابنه الصلت وسار إلى العراق.

وقد كان يخلف سالماً الكاتب على ديوان الرسائل بشير بن أبي طلحة من أهل الأردن، وكان فطناً، فلما وقف على ما كان من هشام قال: هذه حيلة، وقد ولى يوسف بن عمر العراق، فكتب إلى عياض عامل أجمة سالم، وكان واداً له: إن أهلك قد بعثوا إليك بالثوب اليماني، فإذا أتاك فالبسه واحمد الله تعالى، وأعلم طارقاً بذلك، وكان عامل خالد بن عبد الله القسري على الكوفة وما يليها، ثم ندم بشير على ما كان منه فكتب إلى عياض: إن القوم قد بدا لهم في البعثة إليك بالثوب اليماني، فعرّف عياض أيضاً طارقاً بذلك، فقال طارق: الخبر في الكتاب الأول، ولكن صاحبك ندم وخاف أن يظهر أمره، وركب من ساعته إلى خالد فخبره الخبر، فقال له: فما ترى؟ قال: أرى أن تركب من ساعتك هذه إلى أمير المؤمنين، فإنه إذا رآك استحيا منك

وزال شيء إن كان في نفسه عليك، فلم يقبل ذلك، فقال له: فتأذن لي أن أصير إلى حضرته وأضمن له مال جميع هذه السنة؟ قال: وما مبلغ ذلك؟ قال: مائة ألف ألف درهم، وآتيك بعهدك قال: ومن أين هذه الأموال؟ والله ما أملك عشرة آلاف درهم، فقال: أتحمل أنا وسعيد بن راشد أربعين ألف ألف درهم وكان سعيد يتقلد سقي الفرات والزنيبي وأبان بن الوليد عشرين ألف ألف درهم ونفرق الباقي على باقي العمال، فقال له: إني إذاً للئيم أن أسوغ قوماً شيئاً ثم أرجع عليهم به، فقال له: إنما نقيك ونقي أنفسنا ببعض أموالنا، وتبقى النعمة عليك وعلينا بك ونستأنف طلب الدنيا، خيرٌ من أن نطالب بالأموال، وقد حصلت عند تجار أهل الكوفة فيتقاعسوا عنا ويتربصوا بنا فنقتل وتذهب أنفسنا، وتحصل الأموال لهم يأكلونها، فأبى خالد ذلك عليه، فودعه وقال: هذا آخر العهد بك. ووافاهم يوسف بن عمر، فمات طارق في العذاب، ولقي خالد وجميع عماله كل شر، ومات منهم في العذاب بشرٌ كثير، وكان ما استخرج يوسف من خالد وأسبابه تسعين ألف ألف درهم.

قلت: وقد تقدم طرف من خبر خالد بن عبد الله القسري في ترجمته، فتطلب منه، وقد تقدم في ترجمة عيسى بن عمر الثقفي النحوي ذكر يوسف ابن عمر المذكور، وما جرى له معه في الوديعة.

وقال أبو بكر أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري في كتاب – أنساب الأشراف وأخبارهم –: إن هشام بن عبد الملك كان قد تغير على خالد بن عبد الله القسري أمير العراق لأمور نقلت عنه، فحقد عليه، منها: كثرة أمواله وأملاكه؛ ومنها: أنه كان يطلق لسانه في حق هشام بما يكرهه، وغير ذلك من الأسباب، فعزم على عزله وأخفى ذلك. وكان يوسف بن عمر الثقفي عامله على اليمن، فكتب هشام إليه بخطه يأمره أن يقبل في ثلاثين من أصحابه إلى الكوفة، وكتب مع الكتاب بعهده على العراق، فخرج يوسف حتى صار إلى الكوفة في سبعة عشر يوماً، فعرس قريباً منها، وقد ختن طارقٌ خليفة خالد القسري على الخراج ولده، فأهدي إليه ألف عتيق وألف وصيف وألف وصيفة سوى المال والثياب وغير ذلك، فجاء رجل إلى طارق فقال له: إني رأيت قوماً أنكرتهم وزعموا أنهم سُفّار. وصار يوسف بن عمر إلى دور بني ثقيف، فأمر بعض الثقفيين، فجمع له من قدر عليه من مضر، ففعل، فدخل يوسف المسجد مع الفجر فأمر المؤذن بالإقامة فقال: حتى يأتي الإمام، فانتهره، فأقام، وتقدم يوسف فصلى، وقرأ " إذا وقعت الواقعة" – الواقعة: 1 – و" سأل سائل " – المعارج: 1 – ثم أرسل إلى خالد وطارق وأصحابهما فأخذوا وإن القدور لتغلي.

وقال أبو عبيدة: حبس يوسف خالداً، فصالحه أبان بن الوليد عنه وعن أصحابه على تسعة آلاف ألف درهم، ثم ندم يوسف، وقيل له لو لم تقبل هذا المال لأخذت منه مائة ألف ألف درهم، فقال: ما كنت لأرجع عن شيء رهنت به لساني وأخبر أصحاب خالد خالداً فقال: أسأتم حين أعطيتموه هذا المال في أول وهلة، ما يؤمنني أن يأخذها ثم يرجع عليكم؟ فارجعوا إليه، فأتوه فقالوا: إنا أخبرنا خالداً بما فارقناك عليه من المال، فذكر أنه ليس عنده، فقال: أنتم أعلم وصاحبكم، فأما أنا فلا أرجع عليكم وإن رجعتم لم أمنعكم، قالوا: فإنا قد رجعنا، قال: فوا لله لا أرضى بتسعة آلاف "ألف" ولا بمثلها ومثلها، فذكر ثلاثين ألف ألف، ويقال مائة ألف ألف.

وقال أشرس مولى بني أسد، وكان تاجراً ليوسف بن عمر: أتانا كتاب هشام، فقرأه يوسف، فكتمنا ما فيه وقال: أريد العمرة، فخرج وأنا معه، واستخلف ابنه الصلت على اليمن، فما كلم أحداً منا بكلمة واحدة حتى انتهى إلى العذيب فأناخ وقال: يا أشرس أين دليلك؟ فقلت: هوذا، فسأله عن الطريق، فقال: هذه طريق المدينة وهذه طريق العراق، فقلت: والله ما هي بأيام عمرة، فلم يتكلم حتى أناخ بين الحيرة والكوفة في بعض الليل، ثم استلقى على ظهره ورفع إحدى رجليه على الأخرى وقال:

فما لبثتنا العيس أن قذفت بنا نوى غربةٍ والعهد غير قديم

ثم قال: يا أشرس ابغني إنساناً أسائله، فأتيته برجل فقال: سله عن ابن النصرانية، يعني خالداً القسري، فقلت: ما فعل خالد؟ قال: في الحمة، اشتكى فخرج إليها، فقال: سله عن طارق، فقال: ختن بنيه فهو يطعم الناس بالحيرة، وخليفته عطية بن مقلاص يطعم الناس بالكوفة، قال: خل عن الرحل، ثم ركب فأناخ بالرحبة، ودخل المسجد فصلى يوسف ثم استلقى على ظهره، فمكثنا ليلاً طويلاً، ثم جاء المؤذنون وزياد بن عبيد الله الحارثي يومئذ على الكوفة خليفة لخالد، فأذنوا ثم سلموا، وخرج زياد فأقيمت الصلاة، فذهب زياد ليتقدم فقال يوسف، يا أشرس نحه، فقلت: يا زياد تأخر، الأمير، فتأخر زياد وتقدم يوسف، وكان حسن القراءة فصيحاً، فقرأ "إذا وقعت الواقعة" و" سال سائل بعذاب واقع" فصلى الفجر، وتقدم القاضي فحمد الله

وأثنى عليه ودعا للخليفة وقال: ما اسم أميركم؟ فأخبر، فدعا له بالصلاح، فما تفرق أهل الصلاة حتى جاء الناس، و لم يبرح يوسف حتى بعث إلى خالد وإلى أبان ابن الوليد بفارس، وإلى بلال بن أبي بردة بالبصرة، وإلى عبد الله بن أبي بردة بسجستان، وأمر هشام أن تعزل عمال خالد جميعهم، إلا الحكم بن عوانة، وكان على السند، فأقره حتى قتل هو وزيد بن علي في يوم واحد، فقتله ناكهر.

ولما أتى خالد قيل له: الأمير يوسف، قال: دعوني من أميركم، أحي هو أمير المؤمنين؟ قيل نعم، فقال: لا بأس علي. فلما قدم بخالد على يوسف حبسه، وضرب يزيد بن خالد ثلاثين سوطاً، فكتب هشام إلى يوسف: أعطي الله عهداً لئن شاكت خالداً شوكة لأضربن عنقك، فخلّ سبيله بثقله وعياله، فأتى الشام فلم يزل مقيماً به يغزو الصوائف حتى مات هشام

وقيل إن يوسف استأذن هشاماً في بسط العذاب على خالد فلم يأذن له، حتى ألح عليه بالرسل واعتل بانكسار الخراج لما صار إليه وإلى عماله منه، فأذن له فيه مرةً واحدة وبعث حرسياً يشهد ذلك، وحلف لئن أتى على خالد أجله ليقتلنه به، فدعا به يوسف وجلس على دكان بالحيرة وحضر الناس، وبسط عليه العذاب، فلم يكلمه خالد حتى شتمه يوسف وقال: يا ابن الكاهن، يعني شقاً أحد أجداد خالد وهو الكاهن المشهور قلت: كما تقدم في ترجمة خالد قال فقال له خالد: إنك لأحمق، تعيرني بشرفي، لكنك ابن السباء، إنما كان أبوك يسبأ الخمر قلت: معناه يبيع الخمر قال: ثم رد خالداً إلى محبسه فأقام ثمانية عشر شهراً، ثم كتب إليه هشام يأمره بتخلية سبيله في شوال سنة إحدى وعشرين ومائة، وخرج خالد ومعه جماعة من أهله وغيرهم حتى أتى القرية، وهي من أرض الرصافة، فأقام بها بقية شوال وذا القعدة وذا الحجة والمحرم وصفر، لا يأذن له هشام في القدوم عليه.

قال الهيثم بن عدي: وخرج زيد بن زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه على يوسف بن عمر، فكتب يوسف إلى هشام: إن أهل هذا البيت من بني هاشم قد كانوا هلكوا جوعاً، حتى كانت همة أحدهم قوت يومه، فلما ولي خالد العراق قواهم بالأموال حتى تاقت أنفسهم إلى طلب الخلافة، وما خرج زيد إلا بإذن خالد، وما مقامه بالقُرية إلا لأنها مدرجة الطريق، فهو يسأل عن أخباره، فقال هشام للرسول: كذبت وكذب صاحبك، ومهما اتهمنا به خالداً فإنا لا نتهمه في طاعته، وأمر بالرسول فوجئت عنقه، وبلغ الخبر خالداً فصار إلى دمشق.

وقال أبو الحسن المدائني: أمر يوسف بن عمر ببلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، وكان بلال عامل خالد القسري على البصرة، فعذب، فضمن ثلاثمائة ألف درهم، وأخذ منه كفلاء، فأخفرهم وهرب إلى الشام، فيقال إن غلامه أراد أن يشتري له دراجاً فعرف، ويقال بل شوى له غلامه دراجاً فأحرقه، فضربه فسعى به، فأتي به يوسف بن عمر، فأمر به فأقيم في الشمس فقال: أدنوني من أمير المؤمنين فله عليّ ما طلب، فأبى ورده إلى يوسف فعذبه حتى قتله، وقال أخوه عبد الله بن أبي بردة للسجان: ارفع اسمي في الموتى فرفعه، فقال يوسف: أرنيه ميتاً، فغمه السجان حتى مات؛ ويقال بل كان بلال الذي سأل السجان رفع اسمه في الموتى، والمقتول في العذاب عبد الله، والله أعلم بذلك. وقال يونس النحوي: وما قتل بلالاً إلا دهاؤه، سأل السجان أن يرفع اسمه في الموتى ويعطيه مالاً، فقال يوسف: اعرض الموتى علي، فغمه حتى مات وعرضه عليه ميتاً.

وقال المدائني: ولي يوسف بن عمر صالح بن كريز ولاية، فخرجت عليه ثلاثون ألفاً فحبس بها، وبلال بن أبي بردة يومئذ محبوس، فقال له بلال: إنّ على العذاب سالماً، ويلقب رتبيل، فإياك أن تقول له رتبيل فإنه يكره ذلك، وجعل بلال يردد عليه القول في ذلك، فعذبه سالم، فنسي اسمه وكنيته وجعل يقول له: يا رتبيل اتق الله، وكرر عليه القول في ذلك من ألم العذاب، وهو يقول اقتل، من غيظه عليه، فلما خلي عنه قال له بلال: ألم أنهك عن رتبيل؟ فقال: وهل أوقعني في رتبيل غيرك!! أنا ما كنت أعرف رتبيل لولا أنت، وما تدع شرك في سراء ولا ضراء.

وقال المدائني أيضاً: كان على شرط يوسف بن عمر العباس بن سعد المري، وكان كاتبه قحذم بن سليمان بن ذكوان وزياد بن عبد الرحمن مولى ثقيف، وعلى حرسه وحجابته جندب، وفيه يقول الشاعر:

أتانا أمير شديد النكال ... لحاجب حاجبه حاجب

وقال الحافظ أبو القاسم ابن عساكر في – تاريخ دمشق –: بلغني أن يوسف بن عمر كان قد أخذ مع آل الحجاج بن يوسف الثقفي ليعذب، ويطلب منه المال، فقال: أخرجوني لأسأل، فدفع إلى الحارث بن مالك الجهضمي يطوف به، وكان مغفلاً، فانتهى به إلى دار لها بابان، فقال يوسف: دعني أدخل هذه الدار فإن فيها عمة لي أساءلها، فأذن له، فدخل وخرج من الباب الآخر وهرب، وذلك في خلافة سليمان بن عبد الملك. وكان يوسف يسلك طرائق ابن عم أبيه الحجاج بن يوسف في الصرامة والشدة في الأمور وأخذ الناس بالمشاق، و لم يزل على ذلك إلى حين عزله.

وذكر عمر بن شبة النميري في كتاب – أخبار البصرة – أن يوسف بن عمر وزن درهماً فنقص حبة، فكتب إلى دور الضرب بالعراق فضرب أهلها، فأحصي في تلك الحبة مائة ألف سوط ضربها الناس. وكان يوسف مذموماً في عمله أخرق سيء السيرة، وكان جواداً، فكان يطعم الناس على خمسمائة خوان، أقصاها وأدناها سواء، يأكل منها الشامي والعراقي، وعلى كل خوان مزينة عليها السكر، فنفد السكر من فرنية، فتكلم أهلها، فضرب الخباز ثلثمائة سوط والناس يأكلون، فكان الخباز يتخذ الخرائط فيها السكر، فكلما نفد زادوا.

وروى الحكم بن عوانة الكلبي عن أبيه قال: لم يؤيد الملك بمثل كلب، و لم تعل المنابر بمثل قريش، و لم تطلب الترات بمثل تميم، و لم ترع الرعايا بمثل ثقيف، و لم تسد الثغور بمثل قيس، و لم تهج الفتن بمثل ربيعة، و لم يجب الخراج بمثل اليمن.

وقال الأصمعي: قال يوسف بن عمر لرجل ولاه عملاً: يا عدو الله، أكلت مال الله، فقال له: فمال من آكل منذ خلقت وإلى الساعة؟ والله لو سألت الشيطان درهماً واحداً ما أعطانيه.

وكان يوسف بن عمر قد استعمل على خراسان نصر بن سيار الليثي، وبقي إلى آخر أيام بني أمية، وقضاياه ووقائعه مع أبي مسلم الخراساني مشهورة في مواضعها، وفيه وفي يوسف يقول سوار بن الأشعر:

أضحت خراسان بعد الخوف آمنة — من ظلم كل غشوم الحكم جبار

لما أتى يوسفاً أخبار ما لقيت — اختار نصراً لها، نصر بن سيار

وقال سماك بن حرب: بعث إليّ يوسف بن عمر وهو أمير العراق، أن عاملاً لي كتب إليّ: إني قد زرعت لك كل حُق ولُق، فما هما؟ فقلت: إن الحق: ما اطمأن من الأرض، واللق: ما ارتفع منها، انتهى كلامه؛ قلت: وذكر الجوهري في كتاب – الصحاح –: أن الحق الغدير، إذا جف وتقلع، واللق: الشق المستطيل، وقيل: الحق حفرة غامضة في الأرض، والحق: بضم الخاء المعجمة وتشديد القاف، واللق: بضم اللام وتشديد القاف، والله أعلم.

وكان يوسف بن عمر من أعظم الناس لحية، وأصغرهم قامة، كانت لحيته تجوز سرته.

وكان يُضرب به المثل في التيه والحمق، ذكر ذلك حمزة الأصبهاني في كتاب – الأمثال –، فقال: قولهم – أتيه من أحمق ثقيف – هو يوسف ابن عمر، كان أتيه وأحمق عربي أمر ونهى في دولة الإسلام، فمن حمقه أن حجاماً أراد أن يحجمه فارتعدت يده، فقال لحاجبه: قل لهذا البائس، لا تخف، وما رضي أن يقول له بنفسه. وكان الخياط إذا أراد أن يفصل ثيابه فإن قال: يحتاج إلى زيادة ثوب آخر، أكرمه وحباه، وإن فضل شيء أهانه وأقصاه، لأنه يكون قد نبه على قصره ودمامته.

واستمر يوسف على ولاية العراق بقية مدة هشام بن عبد الملك، فلما توفي في يوم الأربعاء لست خلون من ربيع الآخر سنة خمس وعشرين ومائة بالرصافة من أرض قنسرين وبها قبره، وكان عمره خمساً وخمسين سنة، وقيل أربعاً وخمسين، وقيل اثنتين وخمسين سنه، والله أعلم، وكنيته أبو الوليد، تولى ابن أخيه الوليد بن يزيد بن عبد الملك بعده فأقر يوسف ابن عمر على ولايته بالعراق. وقتل الوليد المذكور يوم الخميس لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة سنة ست وعشرين ومائة، وكان قد عزم على عزل يوسف ابن عمر وتولية عبد الملك بن محمد بن الحجاج بن يوسف الثقفي.

وكانت أم الوليد بن يزيد المذكور أم الحجاج بنت محمد بن يوسف، فالحجاج عمها، فكتب الوليد إلى يوسف بن عمر: إنك قد كنت كتبت إليّ تذكر أن خالد بن عبد الله القسري أخرب العراق، وكنت مع ذلك تحمل إلى هشام ما تحمل، وينبغي أن تكون قد عمرت البلاد حتى رددتها إلى ما كانت عليه، فاشخص إلينا وصدق ظننا بك فيما تحمله إلينا بعمارتك البلاد حتى نعرف فضلك على غيرك لما بينا وبينك من القرابة، فإنك خالنا وأحق الناس بالتوفير علينا، وقد علمت ما زدنا لأهل الشام في العطاء، وما وصلنا أهل بيتنا به لجفوة هشام إياهم، حتى أضر ذلك ببيوت الأموال؛ فخرج يوسف بن عمر بنفسه إلى الوليد بن يزيد وحمل من الأموال والأمتعة والآنية ما لم يحمل من العراق مثله، فقدم وخالد بن عبد الله القسري محبوس، فلقيه حسان النبطي ليلاً وأخبره أن الوليد قد عزم على تولية عبد الملك بن محمد بن الحجاج، وأنه لابد له من إصلاح أمر وزرائه، فقال يوسف ليس

عندي شيء، فقال له حسان: عندي خمسمائة ألف درهم فإن شئت فهي لك، وإن شئت فارددها إذا تيسرت، فقال له يوسف: أنت أعلم بالقوم ومنازلهم من الوليد، ففرقها على قدر علمك فيهم، ففعل، فقدم يوسف والقوم يعظمونه، وقرر يوسف بن عمر مع أبان بن عبد الرحمن النميري أن يشتري خالد بن عبد الله القسري بأربعين ألف ألف درهم، فقال الوليد ليوسف، ارجع إلى عملك، فقال أبان له: ادفع إليّ خالداً وادفع إليك أربعين ألف ألف درهم، فقال الوليد، ومن يضمن عنك هذا المال؟ فقال: يوسف، فقال ليوسف: أتضمن عنه؟ فقال يوسف: ادفعه إلي فأنا أستأديه خمسين ألف ألف درهم، فدفعه إليه، فحمله في محمل بغير وطاء، وقدم به إلى العراق فقتله، كما شرحته في ترجمته.

ولما قتل الوليد بن يزيد وتولى بعده ابن عمه يزيد بن الوليد بن عبد الملك وأطاعه أهل الشام وانبرم له الأمر، ندب لولاية العراق عبد العزيز بن هارون ابن عبد الملك بن دحية بن خليفة الكلبي، فقال له عبد العزيز: لو كان معي جند لقبلت، فتركه وولاها منصور بن جمهور. وأما أبو مخنف فإنه قال: قتل الوليد بن يزيد بالبخراء في التاريخ المذكور، وبويع يزيد بن الوليد بدمشق، وسار منصور بن جمهور من البخراء في اليوم الذي قتل فيه الوليد إلى العراق، وهو سابع سبعة، فبلغ خبره يوسف بن عمر فهرب، وقدم منصور بن جمهور الحيرة في أيام خلت من رجب، فأخذ بيوت الأموال وأخرج العطاء لأهل العطاء والأرزاق، وولى العمال بالعراق، وأقام بقية أيام رجب وشعبان ورمضان، وانصرف لأيام بقيت منه.

ولما هرب يوسف بن عمر سلك طريق السماوة حتى أتى إلى البلقاء فاستخفى بها، وكان أهله مقيمين فيها، فلبس زي النساء وجلس بينهن، وبلغ يزيد بن الوليد خبره فأرسل إليه من يحضره، فوصلوا إليه فوجدوه بعد أن فتشوا عليه كثيراً جالساً على تلك الهيئة بين نسائه وبناته، فجاء به في وثاق، فحبسه يزيد عند الحكم وعثمان ابني الوليد بن يزيد، وكان يزيد ابن الوليد قد حبسهما عند قتله أباهما في الخضراء، وهي دار بدمشق مشهورة قبلي جامعها وقد خربت الآن ومكانها معروف عندهم. ثم إن يزيد بن الوليد عزل منصور بن جمهور عن ولاية العراق وولاها عبد الله بن عمر بن عبد العزيز، فأقام يوسف بن عمر في السجن بقية مدة يزيد بن الوليد إلى أن مات في ذي الحجة على الخلاف الكثير فيه: هل مات في أول الشهر أو في عاشره أو بعد العاشر أو في سلخ ذي القعدة سنة ست وعشرين ومائة، وجعل ولي عهده أخاه إبراهيم بن الوليد، ومن بعده عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك. واستمر يوسف بن عمر في سجنه مدة ولاية إبراهيم بن الوليد، فجاء مروان بن محمد آخر ملوك بني آمية بأهل الجزيرة الفراتية وقنسرين وغلب على الأمر وخلع إبراهيم بن الوليد وتولى مكانه، وقتل عبد العزيز بن الحجاج ابن عبد الملك، وكانت ولاية إبراهيم أربعة أشهر، وخلع في شهر ربيع الآخر سنة سبع وعشرين ومائة، وقيل كانت ولايته سبعين يوماً لا غير، وكان يزيد بن خالد بن عبد الله القسري مع إبراهيم بن الوليد.

فلما ظهر أمر مروان بن محمد والتقى عسكره وعسكر إبراهيم، وهرب عسكر إبراهيم ودخلوا دمشق، ومروان وراءهم، خافت جماعة إبراهيم أن يدخل مروان فيخرج الحكم وعثمان ابني الوليد من السجن ويجعل لهما الأمر فلا يستبقيا أحداً ممن أعان على قتل أبيهما، فأجمع رأيهم على قتلهما، فأرسلوا يزيد بن خالد القسري ليتولى ذلك فانتدب يزيد المذكور مولى أبيه، وهو أبو الأسد، في جماعة من أصحابه، فدخلوا السجن وشدخوا الغلامين بالعمد وأخرجوا يوسف بن عمر فضربوا عنقه، لكونه قتل خالد ابن عبد الله القسري والد يزيد المذكور كما شرحناه في ترجمة خالد وذلك في سنة سبع وعشرين ومائة، وهو ابن نيف وستين سنة. ولما قتل أخذوا رأسه عن جسده وشدوا في رجليه حبلاً، فجعل الصبيان يجرونه في شوارع دمشق، فتمر المرأة به فترة جسداً صغيراً فتقول: في أي شيء قتل هذا الصبي المسكين؟ لما ترى من صغر جثته.

قال بعضهم: رأيت يوسف بن عمر وفي مذاكيره حبل وهو يجر بدمشق، ثم رأيت بعد ذلك يزيد بن خالد القسري قاتله وفي مذاكيره حبل وهو يجر في ذلك الموضع. وقد قيل إنه قتل في العشر الوسط من ذي الحجة سنة ست وعشرين ومائة، والله أعلم.

يوسف بن تاشفين

أبو يعقوب بن تاشفين اللمتوني أمير المسلمين وملك الملثمين، وهو الذي اختط مدينة مراكش وقد تقدم في ترجمة المعتمد محمد بن عباد والمعتصم محمد بن صمادح الملكين ببلاد الأندلس طرف من أخباره وما جرى لهما معه وكيف أخذ بلادهما، واستأسر ابن عباد وحبسه في أغمات، وقد استوفيت الكلام عليه هناك، ونبهت عليه الآن ليعلم الواقف عليه أن هذا الملك هو ذلك، وأنه عظيم الشان كبير السلطان.

ذكر أرباب التواريخ شيئاً من أحواله فاخترت في هذا الكتاب ما وجدته في كتاب – المعرب عن سيرة ملك المغرب – لأنه أوعب في حديثه من غيره

لكنه لم يذكر مؤلفه حتى أذكره، غير أنه قال في أول النسخة التي نقلت منها هذا الفصل: إنه كتبها في سنة تسع وسبعين وخمسمائة وفرغ منها في غرة ذي القعدة من السنة بالموصل، وهو في مجلد واحد لطيف، فاخترت منه مقتضباً ما مثاله: كان بر المغاربة الجنوبي لقبيلة تسمى زناتة برابر فخرج عليهم من جنوبي المغرب من البلاد المتاخمة لبلاد السودان الملثمون يقدمهم أبو بكر ابن عمر منهم، وكان رجلاً ساذجاً خير الطباع مؤثراً لبلاده على بلاد المغرب غير ميال إلى الرفاهية، وكانت ولاة المغرب من زناتة ضعفاء لم يقاوموا الملثمين، فأخذوا البلاد من أيديهم من باب تلمسان إلى ساحل البحر المحيط. فلما حصلت البلاد لأبي بكر ابن عمر المذكور سمع أن عجوزاً في بلاده ذهبت لها ناقة في غارة فبكت وقالت: ضيعنا أبو بكر ابن عمر بدخوله إلى بلاد المغرب، فحمله ذلك على أن استخلف على بلاد المغرب رجلاً من أصحابه اسمه يوسف بن تاشفين ورجع إلى بلاده الجنوبية.

وكان يوسف هذا رجلاً شجاعاً عادلاً مقداماً، اختط بالمغرب مدينة مراكش، وكان موضعها مكمناً للصوص، وكان ملكاً لعجوز مصمودية تمدنه منها؛ فلما تمهدت له البلاد تاق إلى العبور إلى جزيرة الأندلس، وكانت محصنة بالبحر، فأنشأ شواني ومراكب وأراد العبور إليها، فلما علم ملوك الأندلس بما يروم من ذلك أعدوا له عدة من المراكب والمقاتلة وكرهوا إلمامه بجزيرتهم، إلا أنهم استهولوا جمعه واستصعبوا مدافعته وكرهوا أن يصبحوا بين عدوين: الفرنج من شماليهم والملثمون من جنوبيهم. وكانت الفرنج تشد وطأتها عليهم، إلا أن ملوك الأندلس كانت ترهب الفرنج بإظهار موالاتهم لملك المغرب يوسف بن تاشفين، وكان له اسم كبير لنقله دولة زناتة وملك الغرب إليه في أسرع وقت، وكان قد ظهر لأبطال الملثمين في المعارك ضربات بالسيوف تقد الفارس وطعنات تنظم الكلى، فكان لهم بذلك ناموس ورعب في قلوب المنتدبين لقتالهم. وكان ملوك الأندلس يفيئون إلى ظل يوسف بن تاشفين ويحذرونه على ملكهم مهما عبر إليهم وعاين بلادهم، فلما رأوا عزيمته متقدمة على العبور أرسل بعضهم إلى بعض، وكاتبوهم يستنجدون آراءهم في أمره، وكان مفزعهم في ذلك إلى المعتمد بن عباد لأنه كان أشجع القوم وأكبرهم مملكة، فوقع اتفاقهم على مكاتبته، وقد تحققوا أنه يقصدهم، يسألونه الإعراض عنهم وأنهم تحت طاعته، فكتب عنهم كاتب من أهل الأندلس كتاباً هو: – أما بعد، فإنك إن أعرضت عنا نُسبت إلى كرم ولم تنسب إلى عجز، وإن أجبنا داعيك نسبنا إلى عقل ولم ننسب إلى وهن، وقد اخترنا لأنفسنا أجمل نسبتينا، فاختر لنفسك أكرم نسبتيك، فإنك بالمحل الذي لا يجب أن تسبق فيه إلى مكرمة، وإن في إستبقائك ذوي البيوت ما شئت من دوام لأمرك وثبوت، والسلام –.

فلما جاءه الكتاب مع تحف وهدايا وكان يوسف بن تاشفين لا يعرف اللسان العربي لكنه كان يجيد فهم المقاصد، وكان له كاتب يعرف اللغتين العربية والمرابطية فقال له: أيها الملك، هذا الكتاب من ملوك الأندلس يعظمونك فيه ويعرفونك أنهم أهل دعوتك وتحت طاعتك، ويلتمسون منك ألا تجعلهم في منزلة الأعادي، فإنهم مسلمون، وهم من ذوي البيوتات؛ فلا تغير بهم، وكفى بهم من وراءهم من الأعداء الكفار، وبلدهم ضيق لا يحتمل العساكر، فأعرض عنهم إعراضك عمن أطاعك من أهل المغرب؛ فقال يوسف بن تاشفين لكاتبه: فما ترى أنت؟ فقال: أيها الملك، اعلم أن تاج الملك وبهجته وشاهده الذي لا يرد بابه خليق بما حصل في يده من الملك أن يعفو إذا استعفى وأن يهب إذا استوهب، وكلما وهب جزيلاً كان أعظم لقدره فإذا عظم قدره تأصل ملكه، وإذا تأصل ملكه تشرف الناس بطاعته، وإذا كانت طاعته شرفاً جاءه الناس ولم يتجشم المشقة إليهم، وكان وارث الملك من غير إهلاك لآخرته؛ واعلم أن بعض الملوك الأكابر والحكماء البصراء بطريق تحصيل الملك قال: من جاد ساد ومن ساد قاد ومن قاد ملك البلاد. فلما ألقى الكاتب هذا الكلام إلى يوسف بن تاشفين بلغته فهمه وعلم أنه صحيح، فقال للكاتب: أجب القوم، واكتب بما يجب في ذلك، واقرأ علي كتابك، فكتب الكاتب: "بسم الله الرحمن الرحيم" من يوسف بن تاشفين، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، تحية من سالمكم، وسلم إليكم، وحكّمه التأييد والنصر فيما حكم عليكم، وإنكم مما بأيدكم من الملك في أوسع إباحة، مخصوصون منا بأكرم إيثار وسماحة، فاستديموا وفاءنا بوفائكم، واستصلحوا إخاءنا بإصلاح إخائكم، والله ولي التوفيق لنا ولكم، والسلام –. فلما فرغ من كتابه قرأه على يوسف بن تاشفين بلسانه فاستحسنه، وقرن به يوسف بن تاشفين درقاً لمطية مما لايكون إلا في بلاده. قلت: اللمطية، بفتح اللام وسكون الميم وبعدها طاء مهملة ثم ياء مشددة مثناة من تحتها وبعدها هاء ساكنة، هذه النسبة إلى لمطة، وهي بليدة عند السوس الأقصى، بينها وبين سجلماسة عشرون يوماً، قاله ابن حوقل في كتاب – المسالك والممالك – وهي معدن الدرق اللمطية، ولا يوجد مثلها في الدنيا على ما يقال، والله أعلم قال: وأنفذ ذلك إليهم. فلما وصلهم كتابه أحبوه

وعظموه وفرحوا بولايته ملك المغرب، وتقوت نفوسهم على دفع الفرنج، وأزمعوا إن رأوا من ملك الفرنج ما يريبهم أن يجيزوا إليه يوسف بن تاشفين ويكونوا من أعوانه على ملك الفرنج، فتحصل ليوسف بن تاشفين برأي وزيره ما أراد من محبة أهل الأندلس له، وكفاه الحرب لهم.
وإن الأذفونش بن فرذلند صاحب طليطلة قاعدة ملك الفرنج أخذ يجوس خلال الديار ويفتتح بلاد الأندلس ويشتط على ملوكهم بطلب البلاد منهم، وخصوصاً المعتمد بن عباد، فإنه كان مقصوداً فيه وقد تقدم في ترجمة المعتمد ذكر تاريخ أخذه طليطلة والأبيات التي قيلت في ذلك فنظر المعتمد في أمره فرأى أن الأذفونش قد داخله طمع فيما يلي بلاده، فأجمع أمره على استدعاء يوسف بن تاشفين على العبور، على ما فيه من الخطر، وعلم أن مجاورة غير الجنس مؤذنة بالبوار، وأن الفرنج والملثمين ضدان له، إلا أنه قال: إن دهينا من مداخلة الأضداد لنا فأهون الأمرين أمر الملثمين، ولأن يرعى أولادنا جمالهم أحب إليهم من أن يرعوا خنازير الفرنج، ولم يزل هذا الرأي نصب عينيه مهما اضطر إليه.

وإن الأذفونش خرج في بعض السنين يتخلل بلاد الأندلس في جمع كبير من الفرنج، فخافه ملوك الأندلس على البلاد، وأجفل أهل القرى والرساتيق من ين يديه ولجؤوا إلى المعاقل، فكتب المعتمد بن عباد إلى يوسف بن تاشفين يقول له: إن كنت مؤثراً للجهاد فهذا أوانه، فقد خرج الأذفونش إلى البلاد، فأسرع في العبور إليه، ونحن معاشر أهل الجزيرة بين يديك؛ وكان يوسف بن تاشفين على أتم أهبة، فشرع في عبور عساكره، فلما أبصر ملوك الأندلس عبور أهل المغرب يطلبون الجهاد، وكانوا قد وعدوا من أنفسهم بالمساعدة، أعدوا أيضاً للخروج، فلما رأى الاذفونش اجتماع العزائم على مناجزته علم أنه عام نطاح، فاستنفر الفرنجية للخروج فخرجوا في عدد لا يحصيه إلا الله تعالى. ولم تزل الجموع تتألف وتتدارك إلى أن امتلأت جزيرة الأندلس خيلاً ورجلاً من الفريقين، كل أناس قد التفوا على ملكهم. فلما عبرت جيوش يوسف بن تاشفين عبر في آخرها وأمر بعبور الجمال، فعبر منها ما أغص الجزيرة وارتفع رغاؤها إلى عنان السماء، ولم يكن أهل الجزيرة رأوا قط جملاً ولا كانت خيلهم قد رأت صورها ولا سمعت أصواتها، وكانت تذعر منها وتقلق، وكان ليوسف بن تاشفين في عبورها رأيٌ مصيب، كان يحدق بها معسكره، وكان يحضرها الحرب، فكانت خيل الفرنج تحجم عنها. فلما تكاملت العساكر بالجزيرة قصدت الأذفونش، وكان نازلاً بمكان أفيح من الأرض يسمى الزلاّقة بالقرب من بطليوس قال البياسي: بين المكانين أربعة فراسخ؛ وقال أيضاً: إن يوسف بن تاشفين قدم بين يدي حربه كتاباً على مقتضى السنة يعرض عليه الدخول في الإسلام أو الحرب أو الجزية، ومن فصول كتابه: وبلغنا يا أذفونش أنك دعوت في الاجتماع بك، وتمنيت أن يكون لك فلكٌ تعبر البحر عليها إلينا، فقد أجزناه إليك، وجمع الله في هذه العرصة بيننا وبينك، وسترى عاقبة دعائك "وما دعاء الكافرين إلا في ضلال" – غافر: 50 – فلما سمع الأذفونش ما كتب إليه جاش بحر غيظه وزاد في طغيانه وأقسم أنه لا يبرح من موضعه حتى يلقاه.
ثم إن ابن تاشفين ومن معه قصدوا الزلاقة، فلما وافاها المسلمون نزلوا تجاه الفرنج بها، فاختار المعتمد بن عباد أن يكون هو المصادم لهم أولاً، وأن يكون يوسف بن تاشفين إذا انهزم المعتمد بعسكره بين أيديهم وتبعوه، يميل عليهم بعساكره، وتتألف معه عساكر الأندلس، فلما عزموا على ذلك وفعلوه خذل الفرنج وخالطتهم عساكر المسلمين واستحر القتل فيهم، فلم يفلت منهم غير الأذفونش في دون الثلاثين من أصحابه، فلحق ببلده على أسوأ حال، فغنم المسلمون من أسلحته وخيله وأثاثه ما ملأ أيديهم خيراً.
قلت: وكانت الوقعة في يوم الجمعة الخامس عشر من رجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة، وقيل في شهر رمضان في العشر الأواخر من السنة، والله أعلم. وقال البياسي: كان حلول العساكر الإسلامية بالجزيرة الخضراء في المحرم سنة تسع وسبعين وأربعمائة.
فحكي أن موضع المعترك على اتساعه ما كان فيه موضع قدم إلا على جسد أو دم، وأقامت العساكر بالموضع أربعة أيام حتى جمعت الغنائم، فلما حصلت عف عنها يوسف بن تاشفين وآثر بها ملوك الأندلس، وعرفهم أن مقصوده إنما كان الغزو لا النهب، فلما رأت ملوك الأندلس إيثار يوسف ابن تاشفين لهم بالمغانم استكرموه وأحبوه وشكروا له.

ثم إن يوسف بن تاشفين أزمع الرجوع إلى بلاده، وكان عند قصده ملاقاة الأذفونش تحرى المسير بالعراء من غير أن يمر بمدينة أو رستاق حتى نزل الزلاقة تجاه الأذفونش وهناك اجتمع بعساكر الأندلس؛ وذكر أبو الحجاج يوسف بن محمد البياسي في كتاب – تذكير العاقل وتنبيه الغافل – أن ابن

تاشفين نزل على أقل من فرسخ من عسكر العدو في يوم الأربعاء، وكان الموعد في المناجزة يوم السبت الأدنى فغدر الأذفونش ومكر، فلما كان سحر يوم الجمعة منتصف رجب من العام أقبلت طلائع ابن عباد والروم في أثرها والناس على طمأنينة، فبادر ابن عباد للركوب، وانبث الخبر في العساكر فماجت بأهلها، ووقع البهت ورجفت الأرض، وصارت الناس فوضى على غير تعبية ولا أهبة، ودهمتهم خيل العدو، فقمرت ابن عباد وحطمت ما تعرض لها، وتركت الأرض حصيداً خلفها، وصرع ابن عباد وأصابه جرح أشواه؛ وفر رؤساء الأندلس وأسلموا محلاتهم، وظنوا أنها وهية لا ترقع ونازلة لا تدفع، وظن الأذفونش أن أمير المسلمين في المنهزمين و لم يعلم أن العاقبة للمتقين، فركب أمير المسلمين أحدق به أنجاد خيله ورجاله من صنهاجة ورؤساء القبائل، فعمدوا إلى محلة الأذفونش فاقتحموها ودخلوها وقتلوا حاميتها، وضربت الطبول فاهتزت الأرض وتجاوبت الآفاق، وتراجع الروم إلى محلتهم بعد أن علموا أن أمير المسلمين فيها، فصدموا أمير المسلمين فأفرج لهم عنها، ثم كر فأخرجهم منها، ثم كروا عليه فأفرج لهم عنها، و لم تزل الكرات بينهم تتوالى إلى أن أمر أمير المسلمين حشمه السودان فترجل منهم زهاء أربعة آلاف ودخلوا المعترك بدرق اللمط وسيوف الهند ومزاريق الزان، فطعنوا الخيل فرمحت بفرسانها وأحجمت عن أقرانها، وتلاحق الأذفونش بأسود نفدت مزاريقه بالقذف، فأهوى ليضربه بالسيف، فلصق به الأسود وقبض على أعنته وانتضى خنجراً كان منتطقاً به، فأثبته في فخذه فهتك حلق درعه وشك فخذه مع بداد سرجه، وكان وقت الزوال من ذلك اليوم فهبت ريح النصر وأنزل الله سكينته على المسلمين ونصر دينه، وصدقوا الحملة على الأذفونش وأصحابه، فأخرجوهم عن محلتهم، فولوا ظهورهم وأعطوا أعناقهم، والسيوف تصفعهم إلى أن لحقوا بربوة لجأوا إليها واعتصموا بها، وأحدقت بهم الخيل؛ فلما أظلم الليل انساب الأذفونش وأصحابه من الربوة، وأفلتوا بعدما نشبت فيهم أظفارهم، واستولى المسلمون على ما كان في محلتهم من الأثاث والآنية والمضارب والأسلحة، وأمر ابن عباد بضم رءوس قتلى الروم، فنشر منها أمامه كالتل العظيم، ثم كتب ابن عباد إلى ولده الرشيد كتاباً وأطار به الحمام يوم السبت سادس عشر المحرم يخبره بالنصر.

وقد روي أيضاً أن أمير المسلمين طلب من أهل البلاد المعونة على ما هو بصدده، فوصل كتابه إلى المرية في هذا المعنى، وذكر فيه أن جماعة أفتوه بجواز طلب ذلك اقتداء بعمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال أهل المرية لقاضي بلدهم وهو أبو عبد الله ابن الفراء أن يكتب جوابه، وكان هذا القاضي من الدين والورع على ما ينبغي، فكتب إليه: أما بعد ما ذكره أمير المسلمين من اقتضاء المعونة وتأخري عن ذلك، وأن أبا الوليد الباجي وجميع القضاة والفقهاء بالعدوة والأندلس أفتوا بأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه اقتضاها، وكان صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وضجيعه في قبره ولا يشك في عدله، فليس أمير المسلمين بصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا بضجيعه في قبره، ولا من لا يشك في عدله، فإن كان الفقهاء والقضاة أنزلوك بمترلته في العدل فالله سائلهم عن تقلدهم فيك، وما اقتضاها عمر حتى دخل مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وحلف أن ليس عنده درهم واحد من بيت مال المسلمين ينفقه عليهم، فلتدخل المسجد الجامع هنالك بحضرة أهل العلم، وتحلف أن ليس عندك درهم واحد، ولا في بيت مال المسلمين، وحينئذ تستوجب ذلك، والسلام.

ولما قضى أمير المسلمين من هذه الوقعة ما قضى، أمر عساكره بالمقام وأن تشن الغارات على بلاد الفرنج، وأمرّ عليهم سير ابن أبي بكر، وطلب الرجوع في طريقه، فتكرم له المعتمد بن عباد، فعرج به إلى بلاده وسأله أن يترل عنده، فأجابه يوسف إلى ذلك. فلما انتهى إلى إشبيلية مدينة المعتمد، وكانت من أجمل المدن منظراً ونظر إلى موضوعها على نهر عظيم مستبحر تجري فيه السفن بالبضائع جالبة من بر المغرب وحاملة إليه، في غربيه رستاق عظيم مسيره عشرين فرسخاً يشتمل على آلاف من الضياع كلها تين وعنب وزيتون، وهذا الموضع هو المسمى شرف إشبيلية، وتمير بلاد المغرب كلها من هذه الأصناف، وفي جانب المدينة قصور المعتمد وأبيه المعتضد في غاية الحسن والبهاء، وفيها أنواع ما يحتاج إليه من المطعوم والمشروب والملبوس والمفروش وغير ذلك، فأنزل المعتمد يوسف بن تاشفين في أحدها، وتولى من إكرامه وخدمته ما أوسع شكر ابن تاشفين له، وكان مع ابن تاشفين أصحاب له ينبهونه على تأمل تلك الحال وما هي عليه من النعمة والإتراف، ويغرونه باتخاذ مثلها لنفسه ويقولون له: إن فائدة الملك قطع العيش فيه بالتنعم واللذة كما هو المعتمد وأصحابه؛ وكان يوسف بن تاشفين مقتصداً في أموره غير متطاول ولا مبذر متنوق في صنوف الملاذ بالأطعمة وغيرها، وكان قد ذهب صدر عمره في بلاده في شظف العيش، فأنكر على مغريه بذلك الإسراف وقال: الذي يلوح من أمر هذا الرجل، يعني المعتمد، أنه

مضيع لما في يده من الملك، لأن هذه الأموال التي تعينه على هذه الأحوال لابد أن يكون لها أرباب لا يمكن أخذ هذا القدر منهم على وجه العدل أبداً، فأخذه بالظلم وأخرجه في هذه الترهات،و هذا من أفحش الاستهتار، ومن كانت همته في هذا الحد من التصرف فيما لا يعدو الاجوفين متى يستجد همة في حفظ بلاده وضبطها وحفظ رعيته والتوفر على مصالحها؟!!

ثم إن يوسف بن تاشفين سأل عن أحوال المعتمد في لذاته: هل تختلف فتنقص عما هي عليه في بعض الأوقات؟ فقيل له: بل كان زمانه على هذا، قال: أفكل أصحابه وأنصاره على عدوه ومنجديه على الملك ينال حظاً من ذلك؟ قالوا: لا، قال: فكيف ترون رضاهم عنه؟ قالوا: لا رضا لهم عنه، فأطرق يوسف وسكت. فأقام يوسف عند المعتمد على تلك الحال أياماً. وفي بعض تلك الأيام استأذن رجل على المعتمد، فدخل وهو ذو هيئة رثة، وكان من أهل البصائر، فلما دخل عليه قال: أصلحك الله أيها الملك، إن من أوجب الواجبات شكر النعمة، وإن من شكر النعمة إهداء النصائح، وإني رجل من رعيتك، حالي في دولتك إلى الاختلال أقرب منها إلى الاعتدال، لكنني ملتزم لك من النصيحة ما يستوجبه الملك على رعيته، فمن ذلك خبر وقع في أذني من بعض أصحاب ضيفك هذا يوسف بن تاشفين يدل على أنهم يرون أنفسهم وملكهم أحق بهذه النعمة منك، وقد رأيت رأيا فإن آثرت الإصغاء إليه قلته، قال له المعتمد: قله، قال: رأيت أن هذا الرجل الذي أطلعته على ملكك رجل مستأسد على الملوك، قد حطم ببر العدوة زناتة وأخذ الملك من أيديهم و لم يبق على أحد منهم، ولا يؤمن أن يطمح إلى الطماعية في ملكك، بل في ملك جزيرة الأندلس كلها بما قد عاينه من بلهنية عيشك، وإنه لمتخيل في مثل حالك سائر ملوك الأندلس، وإن له من الولد والأقارب ممن يؤثر مسراهم من يودّ له الحلول بما أنت فيه من خصب الجناب، وقد أودى الأذفونش وجيشه واستأصل شأفتهم وأعدمك منه أقوى ناصر عليه لو احتجت إليه، فقد كان لك منه أقوى عضد وأوقى مجن، وبعد أن فات الأمر في الأذفونش لا يفتك الحزم فيما هو ممكن اليوم، قال له المعتمد: وما هو الحزم اليوم؟ قال: إن تجمع أمرك على قبض ضيفك هذا واعتقاله في قصرك، وتجزم أنك لا تطلقه حتى يأمر كل من بجزيرة الأندلس من عسكره أن يرجع من حيث جاء حتى لا يبقى منهم بالجزيرة طفل، ثم تتفق أنت وملوك الجزيرة على حراسة هذا البحر من سفينة تجري فيه بغزاة له، ثم بعد ذلك تستعطفه بأغلظ الإيمان ألا يضمر في نفسه عوداً إلى هذه الجزيرة إلا باتفاق منكم ومنه، وتأخذ منه على ذلك، هائن، فإنه يعطيك من ذلك ما تشاء، فنفسه أعز عليه من جميع ما تلتمس منه، فعند ذلك يقنع هذا الرجل ببلاده التي لا تصلح إلا له، وتكون قد استرحت منه بعدما استرحت من الأذفونش، وتقيم في موضعك على خير حال، ويرتفع ذكرك عند ملوك الأندلس وأهل الجزيرة، ويتسع ملكك وتنسب بهذا الاتفاق لك إلى سعادة وحزم، وتهابك الملوك، ثم اعمل بعد هذا ما يقتضيه حزمك في محاورة من عاملته هذه المعاملة واعلم أنه قد تهيأ لك من هذا أمر سماوي تتفانى الأمم وتجري بحار الدم دون حصول مثله.

فلما سمع المعتمد كلام الرجل استصوبه وجعل يفكر في انتهاز هذه الفرصة. وكان للمعتمد ندماء قد انهمكوا معه في اللذات، فقال أحدهم لهذا الرجل الناصح: ما كان المعتمد على الله، وهو إمام أهل المكرمات، ممن يعامل بالحيف ويغدر بالضيف، فقال له الرجل، إنما الغدر أخذ الحق من يد صاحبه لا دفع الرجل عن نفسه المحذور إذا ضاق به؛ قال ذلك النديم: لضيمٌ مع وفاء خير من حزم مع جفاء. ثم إن ذلك الناصح استدرك الأمر وتلافاه، فشكر له المعتمد ووصله بصلة، وانصرف. واتصل هذا الخبر بيوسف بن تاشفين فأصبح غادياً، فقدم له المعتمد الهدايا السنية والتحف الفاخرة فقبلها، ثم رحل فعبر من الجزيرة الخضراء إلى سبتة قلت: وهو المكان المعروف بزقاق سبتة يعدي الناس فيه من أحد البرين إلى الآخر، أعني بر الأندلس وبر العدوة، وقد تقدم الكلام على هذا المكان.

قال: ولما عبر يوسف إلى بر العدوة أقام عسكره بجزيرة الأندلس ريثما استراح ثم تبع آثار الأذفونش فتوغل في بلاده. ولما رجع الأذفونش إلى موضعه سأل عن أصحابه وشجعانه وأبطال عسكره فوجد أكثرهم قد قتلوا، و لم يسمع إلا نياح الثكالى عليهم، فلم يأكل و لم يشرب حتى مات هماً وغماً و لم يخلف إلا بنتا جعل الأمر إليها، فتحصنت بمدينة طليطلة.

وأما عسكر ابن تاشفين فإنهم في غارتهم هذه كسبوا من المغانم ما لم يحد ولا يوصف وأنفذوا ذلك إلى بر العدوة، واستأذن أميرهم سير ابن أبي بكر يوسف بن تاشفين في المقام بجزيرة الأندلس وأعلمه أنه قد افتتح معاقل في الثغور ورتب بها مستحفظين ورجالاً يغنون فيها، وأنه لا يستقيم لهذه الجيوش أن تقيم بالثغور في ضنك من العيش تصابح العدو وتماسيه، وتحظى ملوك الأندلس من الأرياف برغد العيش، فكتب إليه ابن تاشفين يأمره

بإخراج ملوك الأندلس من بلادهم وإلحاقهم بالعدوة، فمن استعصى عليه منهم قاتله ولا ينفسّ عنه حتى يخرجه، وليبدأ منهم بمجاوري الثغور، ولا يتعرض للمعتمد بن عباد ما لم يستولِ على البلاد، ثم يولي تلك البلاد أمراء عسكره وأكابرهم. فابتدأ سير ابن أبي بكر بملوك بني هود من ملوك الأندلس ليستنزلهم من معقلهم وهي ورطة قلت: هي بضم الراء وسكون الواو ثم طاء مهملة بعدها هاء، قلعة منيعة من عاصمات الذرا، ماؤها ينبوع في أعلاها، وكان بها من الأقوات والذخائر المختلفات ما لا تفنيه الأزمان فلم يقدر عليها فرحل عنها، ثم جند أجناداً على صور الفرنج وأمرهم أن يقصدوا هذه القلعة مغيرين عليها، ويكمن هو وأصحابه بالقرب منها، ففعلوا ذلك، فرآهم صاحب القلعة فاستضعفهم ونزل في طلبهم، فخرج سير ابن أبي بكر فقبض عليه وتسلم القلعة. ثم نازل بني طاهر بشرق الأندلس، فسلموا إليه ولحقوا بالعدوة. ثم نازل بني صمادح بالمرية وكانت قلعتهم حصينة، إلا أنهم لم يكن عندهم أجناد ولا أنجاد من الرجال فزحفوا عليهم وغلبوهم، فلما علم المعتصم بن صمادح أنه مغلوب دخل قصره فأدركه أسف قضى عليه، فمات من ليلته فاشتغل أهله به. فسلموا المدينة. ثم نازلوا المتوكل عمر بن الأفطس ببطليوس، وكان رجلاً شجاعاً عظيم القدر كبير البيت وكان أبوه المظفر بالله أبو بكر محمد بن عبد الله بن مسلمة التجيبي من فحول العلماء، وكان ملكاً له تصانيف أعظمها وأشهرها الكتاب المنسوب إليه وهو – المظفري – في علم التاريخ، "وكانت" مدينته بطليوس من أجمل البلاد لم يذعن ولا أقبل على غير المدافعة والقتال إلى أن خامر عليه أصحابه فقبض عليه باليد وعلى ولدين له، فقتلوا صبراً، وحملوا أولاده الأصاغر إلى مراكش؛ وسائر ملوك الجزيرة سلموا وتحولوا إلى بر العدوة إلا ما كان من المعتمد بن عباد، فإن سير ابن أبي بكر لما فرغ من ملوك الجزيرة، كتب إلى يوسف بن تاشفين أنه لم يبق بالجزيرة من ملوكها غير المعتمد بن عباد، فارسم في أمره بما تراه، فأمره بقصده وأن يعرض عليه التحول إلى بر العدوة بأهله وماله، فإن فعل فبها ونعمت، وإن أبى فنازله، فلما عرض عليه سير ابن أبي بكر ذلك لم يعطه جواباً، فنازله وحاصره أشهراً ثم دخل عليه البلد قهراً واستخرجه من قصره قسراً، فحمل إلى العدوة مقيداً، فأنزل بأغمات وأقام بها إلى أن مات، ولم يعتقل من ملوك الأندلس غيره. وتسلم سير ابن أبي بكر الجزيرة كلها واستحوذ عليها، فمات يوسف بن تاشفين في التاريخ الآتي ذكره إن شاء الله تعالى.

وأفضى الملك إلى ولده أبي الحسن علي بن يوسف، وكان رجلاً حليماً وقوراً صالحاً عدلاً منقاداً للحق والعلماء، تجبى إليه الأموال من البلاد، لم يزعزعه عن سريره قط حادث ولا طاف به مكروه قلت: قد تقدم في ترجمة أبي نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله بن خاقان القيسي صاحب – قلائد العقيان – أنه جمع الكتاب المذكور باسم إبراهيم بن يوسف بن تاشفين، وأن الذي أشار بقتل الفتح المذكور هو علي بن يوسف بن تاشفين المذكور.

ثم ولي بعده ولده تاشفين بن علي بن يوسف وعلى يده انقرض ملكهم، وسيأتي شرح ذلك مفصلاً إن شاء الله تعالى. وقد تقدم في أوائل هذه الترجمة أن يوسف بن تاشفين هو الذي اختطّ مدينة مراكش؛ قال صاحب هذا الكتاب الذي نقلت منه هذه الترجمة في آخر الكتاب: إن مراكش مدينة عظيمة بناها الأمير يوسف بن تاشفين بموضع كان اسمه مراكش معناه: امش مسرعاً بلغة المصامدة كان ذلك الموضع مأوى اللصوص وكان المارون فيه يقولون لرفقائهم هذه الكلمة، فعرف الموضع بها. وقال غير مؤلف هذا الكتاب: بنى ابن تاشفين مدينة مراكش في سنة خمس وستين وأربعمائة، قاله أبو الخطاب ابن دحية في كتابه الذي سماه – النبراس – في خلافة القائم بأمر الله، قال: وكانت مزرعة لأهل نفيس، فاشتراها منهم بماله الذي خرج به من الصحراء ونفيس: بفتح النون وتشديد الفاء وسكون الياء المثناة من تحتها، جبل مطل على مراكش، قلت: وهي بنواحي أغمات في المغرب الأقصى. وذلك أنه لما توطنت نفسه على الملك، وأطاعته قبائل البربر وذهب من يخالفه من لمتونة سمت همته إلى بناء هذه المدينة، وكان في موضعها قرية صغيرة في غابة من الشجر، وبها قوم من البربر، فاختطها يوسف وبنى بها القصور والمساكن الأنيقة، وهي في مرج فسيح، وحولها جبال على فراسخ منها، وبالقرب منها جبل لا يزال عليه الثلج وهو الذي يعدل مزاجها وحرها.

وفي سنة أربع وستين وأربعمائة نزل يوسف على مدينة فاس، وكانت إذ ذاك من قواعد بلاد المغرب العظام، وضيق على أهلها ثم أخذها فأقر العامة بها، ونفى البربر والجند، بعد أن حبس بعضهم وقتل بعضهم، فعند ذلك قوي شأنه وتمكن بالمغرب الأقصى والأدنى سلطانه، مع ما صار بيده من بلاد جزيرة الأندلس كما شرحناه. وكان حازماً سائساً للأمور ضابطاً لمصالح مملكته، مؤثراً لأهل العلم والدين كثير المشورة لهم، وبلغني أن الإمام حجة الإسلام أبا حامد الغزالي، تغمده الله تعالى برحمته، لما سمع ما هو عليه من الأوصاف الحميدة وميله إلى أهل العلم عزم على التوجه إليه، فوصل إلى

الإسكندرية وشرع في تجهيز ما يحتاج إليه فوصله خبر وفاته، فرجع عن ذلك العزم، وكنت وقفت على هذا الفصل في بعض الكتب، وقد ذهب عني في هذا الوقت أين وجدته.

وكان يوسف معتدل القامة أسمر اللون نحيف الجسم خفيف العارضين دقيق الصوت، وكان يخطب لبني العباس، وهو أول من تسمى بأمير المسلمين، و لم يزل على حاله وعزه وسلطانه إلى أن توفي يوم الاثنين لثلاث خلون من المحرم سنة خمسمائة، وعاش تسعين سنة ملك منها مدة خمسين سنة، رحمه الله تعالى.

وذكر شيخنا عز الدين بن الأثير في تاريخه الكبير ما مثاله: سنة خمسمائة فيها توفي أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ملك المغرب والأندلس، وكان حسن السيرة خيراً عادلاً، يميل إلى أهل العلم والدين ويكرمهم ويحكمهم في بلاده ويصدر عن آرائهم، وكان يحب العفو والصفح عن الذنوب العظام، فمن ذلك أن ثلاثة نفر اجتمعوا، فتمنى أحدهم ألف دينار يتجر بها، وتمنى الآخر عملاً يعمل فيه لأمير المسلمين، وتمنى الآخر زوجته، وكانت من أحسن النساء، ولها الحكم في بلاده، فبلغه الخبر، فأحضرهم وأعطى متمني المال ألف دينار، واستعمل الآخر، وقال للذي تمنى زوجته: يا جاهل، ما حملك على هذا الذي لا تصل إليه؟ ثم أرسله إليها، فتركته في خيمة ثلاثة أيام تحمل إليه في كل يوم طعاماً واحداً، ثم أحضرته وقالت له: ما أكلت في هذه الأيام؟ قال: طعاماً واحداً، فقالت له: كل النساء شيء واحد؛ وأمرت له بمال وكسوة وأطلقته.

وأما ولده علي المذكور فإنه توفي لسبع خلون من رجب سنة سبع وثلاثين وخمسمائة ومولده في حادي عشر رجب سنة ست وسبعين وأربعمائة، وقد سبق ذكر طرف من حديثه في ترجمة محمد بن تومرت المهدي، فيكشف عنه.

ولما خرج عبد المؤمن بن علي المقدم ذكره قاصداً جهة البلاد المغربية ليأخذها من علي بن يوسف بن تاشفين المذكور، كان مسيره على طريق الجبال فسير علي بن يوسف ولده تاشفين ليكون في قبالة عبد المؤمن، ومعه جيش فساروا في السهل وأقاموا على هذا مدة، فتوفي علي بن يوسف في أثنائها في التاريخ المذكور، فقدم أصحابه ولده إسحاق بن علي وجعلوه نائب أخيه تاشفين على مراكش، وكان صبياً وظهر أمر عبد المؤمن ودانت له الجبال، وفيها غمارة وتالدة والمصامدة، وهم أمم لا تحصى، فخاف تاشفين بن علي واستشعر القهر، وتيقن أن دولتهم ستزول، فأتى مدينة وهران، وهي على البحر، وقصد أن يجعلها مقره، فإن غلب عن الأمر ركب منها في البحر إلى بر الأندلس يقيم بها كما أقامت بنو أمية بالأندلس عند انقراض دولتهم بالشام وبقية البلاد، وفي ظاهر وهران ربوة على البحر تسمى صلب الكلب، وبأعلاها رباط يأوي إليه المتعبدون. وفي ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان سنة تسع وثلاثين وخمسمائة صعد تاشفين إلى ذلك الرباط ليحضر الختم في جماعة يسيرة من خواصه، وكان عبد المؤمن بجمعه في تاجرة وهي وطنه كما ذكرته في ترجمته واتفق أنه أرسل منسراً إلى وهران فوصلوها في اليوم السادس والعشرين من شهر رمضان، ومقدمهم الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى صاحب المهدي، فكمنوا عشية، وأعلموا بانفراد تاشفين في ذلك الرباط، فقصدوه وأحاطوا به، وأحرقوا بابه، فأيقن الذين فيه بالهلاك، فخرج تاشفين راكباً فرسه، وشد الركض عليه ليثب الفرس النار وينجو، فترامى الفرس نازيا لروعته، و لم يملكه اللجام حتى تردى من جرف هنالك إلى جهة البحر على حجارة في وعر، فتكسر تاشفين وهلك في الوقت، وقتل الخواص الذين كانوا معه، وكان عسكره في ناحية أخرى لا علم لهم بما جرى في الليل.

وجاء الخبر بذلك إلى عبد المؤمن، فوصل إلى وهران، وسمى ذلك الموضع الذي فيه الرباط صلب الفتح، ومن ذلك الوقت نزل عبد المؤمن من الجبل إلى السهل. ثم توجه إلى تلمسان وهي مدينتان قديمة ومحدثة بينهما شوط فرس، ثم توجه إلى فاس فحاصرها، وأخذها في سنة أربعين وخمسمائة، ثم قصد مراكش في سنة إحدى وأربعين فحاصرها أحد عشر شهراً وفيها إسحاق بن علي وجماعة من مشايخ دولتهم قدموه بعد موت أبيه علي بن يوسف بن تاشفين نائباً عن أخيه تاشفين، فأخذها وقد بلغ القحط من أهلها الجهد، وأُخرج إليه اسحاق بن علي ومعه سير بن الحاج وكان من الشجعان وخواص دولتهم، وكانا مكتوفين، واسحاق دون البلوغ، فعزم عبد المؤمن أن يعفو عن إسحاق لصغر سنه فلم يوافقه خواصه، وكان لا يخالفهم، فخلى بينهم وبينهما فقتلوهما، ثم نزل عبد المؤمن في القصر، وذلك في سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة، وانقرضت دولة بني تاشفين.

قلت: وقد ذكرت في ترجمة المعتمد بن عباد أن يوسف بن تاشفين عاد إلى الأندلس في العام الثاني من وقعة الزلاقة، وذكرت ها هنا ما يدل على أنه ما

عاد إليها، وإنما نوابه هم الذين أخذوا بلاد الأندلس له، فقد يعتقد الواقف على هذا الكتاب أن هذا متناقض، والعذر في هذا أنني وجدته في ترجمة ابن عباد على تلك الصورة ووجدته في هذه الترجمة على هذه الصورة، والله أعلم بالصواب.

ثم رأيت في كتاب – تذكير العاقل – تأليف أبي الحجاج يوسف البياسي أن ابن تاشفين لما جاز البحر قصد إشبيلية، فخرج ابن عباد إلى لقائه ومعه الضيافة والإقامة، ثم خرج من إشبيلية بقضه وقضيضه قاصداً بطليوس، وجرت الواقعة المذكورة، ثم عاد ابن تاشفين إلى بلاده، وان ابن عباد جاز البحر ومضى إليه في سنة إحدى وثمانين واستنجده على ما يجاوره من بلاد العدو، فأكرمه ابن تاشفين وأجابه إلى إنجاده، ثم عاد ابن عباد إلى بلاده واستعد للعدو، ولحقه ابن تاشفين في رجب من سنة إحدى وثمانين، ثم خرج الأذفونش في جيش كثيف، وكان ملوك الأندلس قد اجتمعوا عند ابن تاشفين فلما رأى ما فعله من الاستعداد بالجمع الكثير رحل عن مكانه وأوهمه خواصه أن ملوك الأندلس يفرون عنه ويخلون بينه وبين الأذفونش فأصغى إلى كلامهم وعمل في نفسه قولهم، فأخذ في الحركة إلى البرية، وتحرك الجميع بحركته وجاز البحر عائداً إلى بلاده، وقد وغر صدره على ملوك الأندلس، وتبين لهم تغيره عليهم وخافوه، فشرعوا في تحصين بلادهم وتحصيل الأقوات، وراسل بعضهم الأذفونش ليكون عوناً له خوفاً من ابن تاشفين، فأجابه الأذفونش بالإعانة والمساعدة، وكان قد سير له هدايا وألطافاً كثيرة فقبلها منه، وحلف له على جميع ما التمس منه، واتصل ذلك بابن تاشفين فاستشاط غيظاً.

ثم إن ابن تاشفين جاز البحر مرة ثالثة وقصد قرطبة وهي لابن عباد، فوصلها في جمادى الأولى سنة ثلاث وثمانين، وقد سبقه إليها ابن عباد، فخرج إليه بالضيافة وجرى معه على عادته. ثم إن ابن تاشفين أخذ غرناطة من صاحبها عبد الله بن بلكين بن باديس بن حبوس وحبسه، فطمع ابن عباد في غرناطة وأن ابن تاشفين يعطيه إياها. فعرّض له بذلك، فأعرض عنه ابن تاشفين، وخاف ابن عباد منه، وعمل على الخروج عنه فقال له: إنه جاءته كتب من إشبيلية، وهم خائفون من العدو المجاور لهم واستأذنه في العود إليها، فأذن له فعاد. ثم رجع ابن تاشفين إلى بلاده وجاز البحر في شهر رمضان من سنة ثلاث وثمانين، وأقام ببلاده إلى أن دخلت سنة أربع وثمانين، ثم عزم على العبور إلى الأندلس لمنازلة ابن عباد، وبلغ ذلك ابن عباد فأخذ في التأهب والاستعداد، ووصل ابن تاشفين إلى سبتة وجمع العساكر الكثيرة وقدّم عليهم سير بن أبي بكر فجاوزا البحر وضايقوا بلاد ابن عباد، فاستصرخ بالأذفونش فلم يلتفت إليه، وكان ما ذكرته، والله أعلم.

وفي هذه الترجمة ذكر الملثمين فيحتاج إلى الكلام عليه، والذي وجدته أن أصل هؤلاء القوم من حمير بن سبأ، وهم أصحاب خيل وإبل وشاء، ويسكنون الصحارى الجنوبية وينتقلون من ماء إلى ماء كالعرب، وبيوتهم من الشعر والوبر، وأول من جمعهم وحرضهم على القتال وأطمعهم في تملك البلاد عبد الله بن ياسين الفقيه، وقتل في حرب جرت مع برغواطة، وقام مقامه أبو بكر ابن عمر الصنهاجي الصحراوي المقدم ذكره ومات في حرب السودان، وقد ذكرنا حديث يوسف بن تاشفين وسبب تقدمه، وهو الذي سمى أصحابه المرابطين، وهم قوم يتلثمون ولا يكشفون وجوههم، فلذلك سموهم الملثمين، وذلك سنة لهم يتوارثونها خلفاً عن سلف، وسبب ذلك على ما قيل أن حمير كانت تتلثم لشدة الحر والبرد يفعله الخواص منهم، فكثر ذلك حتى صار يفعله عامتهم. وقيل كان سببه أن قوماً من أعدائهم كانوا يقصدون غفلتهم إذا غابوا عن بيوتهم فيطرقون الحي فيأخذون المال والحريم، فأشار عليهم بعض مشايخهم أن يبعثوا النساء في زي الرجال إلى ناحية ويقعدوا هم في البيوت ملثمين في زي النساء، فإذا أتاهم العدو ظنوهم النساء فيخرجون عليهم، ففعلوا ذلك وثاروا عليهم بالسيوف فقتلوهم، فلزموا اللثام تبركاً بما حصل لهم من الظفر بالعدو.

وقال شيخنا الحافظ عز الدين ابن الأثير في تاريخه الكبير ما مثاله: وقيل إن سبب اللثام لهم أن طائفة من لمتونة خرجوا مغيرين على عدو لهم فخالفهم العدو إلى بيوتهم، ولم يكن بها إلا المشايخ والصبيان والنساء، فلما تحقق المشايخ أنه العدو أمروا النساء أن تلبس ثياب الرجال ويتلثمن ويضيقنه حتى لا يعرفن، ويلبسن السلاح، ففعلن ذلك، وتقدم المشايخ والصبيان أمامهن واستدار النساء بالبيوت، فلما أشرف العدو رأى جمعاً عظيماً فظنه رجالاً وقالوا: هؤلاء عند حريمهم يقاتلون عنهن قتال الموت، والرأي أن نسوق النعم ونمضي، فإن اتبعونا قاتلناهم خارجاً عن حريمهم، فبينما هم في جمع النعم من المراعي إذ أقبل رجال الحي، فبقي العدو بينهم وبين النساء، فقتلوا من العدو وأكثروا وكان من قبل النساء أكثر، فمن ذلك الوقت جعلوا اللثام سنة

يلازمونه فلا يعرف الشيخ من الشاب ولا يزيلونه ليلاً ولا نهاراً.
ومما قيل في اللثام:

قومٌ لهم درك العلا في حمير	وإن انتموا صنهاجة فهم هم
لما حووا إحراز كل فضيلة	غلب الحياء عليهم فتلثموا

وكان يوسف بن تاشفين مقدم جيش أبي بكر ابن عمر الصنهاجي، وخرج من سجلماسة في سنة أربع وخمسين وأربعمائة، وكان أبو بكر ابن عمر قد أتى سجلماسة في سنة ثلاث وخمسين وحاصرها، وقاتل أهلها أشد قتال وأخذها، ثم رتب عليها يوسف بن تاشفين فكان ما كان.

يوسف بن عبد المؤمن صاحب المغرب

أبو يعقوب يوسف بن أبي محمد عبد المؤمن بن علي القيسي الكومي صاحب المغرب وقد تقدم ذكر أبيه عبد المؤمن في حرف العين، وذكر ولده يعقوب قبل هذا؛ ولما توفي والده في التاريخ المذكور في ترجمته وخلع محمد بن عبد المؤمن استقل ولده يوسف بالملك، وكان ولي العهد قبله أخوه محمد بن عبد المؤمن، ونقش على الدنانير اسمه، وكان ذلك باستخلاف أبيه وتحليفه الجند له، فظهرت منه اشتغال بالراحة وانهماك في البطالة فخلعه يوسف، وكان له أخ آخر اسمه أبوحفص عمر ولاه جزيرة الأندلس.

وكان يوسف المذكور فقيهاً حافظاً متقناً لأن أباه هذبه وقرن به وباخوته أكمل رجال الحرب والمعارف، فنشأوا في ظهور الخيل بين أبطال الفرسان، وفي قراءة العلم بين أفاضل العلماء. وكان ميله إلى الحكمة والفلسفة أكثر من ميله إلى الأدب وبقية العلوم، وكان جمّاعاً مناعاً ضابطاً لخراج مملكته عارفاً بسياسة رعيته، وكان ربما يحضر حتى لا يكاد يغيب ويغيب حتى لا يكاد يحضر، وله في غيبته نواب وخلفاء وحكام قد فوض الأمور إليهم لما علم من صلاحهم لذلك، والدنانير اليوسفية المغربية منسوبة إليه.

فلما مهدت له الأمور واستقرت قواعد ملكه، دخل إلى جزيرة الأندلس لكشف مصالح دولته وتفقد أحوالها. وكان ذلك في سنة ست وستين وخمسمائة وفي صحبته مائة ألف فارس من العرب والموحدين، فنزل باشبيلية.

فخافه الأمير أبو عبد الله محمد بن سعد بن محمد بن سعد المعروف بابن مردنيش صاحب شرق الأندلس: مرسية وما انضاف إليها، وحمل على قلبه فمرض مرضاً شديداً ومات، وقيل إن أمه سقته السم، لأنه كان قد أساء العشرة مع أهله وخواصه وكبراء دولته، فنصحته وأغلظت عليه في القول فتهددها وخافت بطشه، فعملت عليه فقتلته بالسم. وكان موته في التاسع والعشرين من رجب سنة سبع وستين وخمسمائة باشبيلية، ومولده في سنة ثماني عشرة وخمسمائة في قلعة أعمال من طرطوشة يقال لها بنشكله، وهي من الحصون المنيعة. ولما مات محمد بن سعد جاء أولاده، وقيل إخوته، إلى الأمير يوسف ابن عبد المؤمن وهو باشبيلية فسلموا إليه جميع بلاد شرق الأندلس التي كانت لأبيهم وقيل لأخيهم، فأحسن إليهم الأمير يوسف وتزوج أختهم، وأصبحوا عنده في أعز مكان.

ثم إن الأمير يوسف شرع في استرجاع بلاد المسلمين من أيدي الفرنج، وكانوا قد استولوا عليها، فاتسعت مملكته بالأندلس وصارت سراياه تصل مغيرة إلى باب طليطلة، وهي كرسي بلادهم وأعظم قواعدهم. ثم إنه حاصرها، فاجتمع الفرنج كافة عليه واشتد الغلاء في عسكره، فرجع عنها وعاد إلى مراكش.

وفي سنة خمس وسبعين قصد بلاد إفريقية وفتح مدينة قفصة، ثم دخل جزيرة الأندلس في سنة ثمانين ومعه جمع كثيف، وقصد غربي بلادها فحاصر مدينة شنترين شهراً فأصابه مرض فمات منه في شهر ربيع الأول سنة ثمانين وخمسمائة، وحمل في تابوت إلى إشبيلية، رحمه الله تعالى، وكان قد استخلف ولده أبا يوسف يعقوب بن يوسف المقدم ذكره.

وذكر شيخنا ابن الأثير في تاريخه أن يوسف مات من غير وصية بالملك لأحد من أولاده، فاتفق رأي قواد الموحدين وأولاد عبد المؤمن على تمليك ولده يعقوب، فملكوه في الوقت الذي مات فيه أبوه، لئلا يكونوا بغير ملك يجمع كلمتهم لقربهم من بلاد العدو.

وكان خلع أخيه أبي عبد الله محمد بن عبد المؤمن في شعبان سنة ثمان وخمسين، واستبد يوسف حينئذ بالأمر، واجتمع أكابر أصحابهم على خلعه وتولية الأمير يوسف، وقد روي له شعر لكنه ليس بالجيد، فلم أذكر منه شيئاً.

وأما محمد بن سعد ابن مردنيش المذكور فيروى له:

وحقها إنها جفون ... تسل من لحظها المنون

لا صبر عنها ولا عليها ... الموت من دونها يهون

لأركبن الهوى إليها ... يكون في ذاك ما يكون

قلت: ثم وجدت هذه الأبيات في كتاب – الملح – لابن القطاع وقد نسبها إلى أبي جعفر أحمد بن صمادح البني، والله أعلم. وقال البياسي في – حماسته –: هو أبو جعفر أحمد بن الحسين بن خلف بن البني اليعمري الأبدي، والله أعلم، إلا أنه لم يذكر هذه الأبيات، ثم أورد البياسي لأبي جعفر المذكور:

صدني عن حلاوة التشييع ... اجتنابي مرارة التوديع

لم يقم أنس ذا بوحشة هذا ... فرأيت الصواب ترك الجميع

وله في صفة قنديل:

وقنديل كأن الضوء فيه ... محاسن من أحب وقد تجلى

أشار إلى الدجى بلسان أفعى ... فشمر ذيله فرقاً وولى

ولما مات أبو يعقوب المذكور رثاه الأديب أبو بكر يحيى بن مجبر الشاعر المقدم ذكره في ترجمة يعقوب بن يوسف هذا بقصيدة طويلة أجاد فيها، وأولها:

جل الأسى فأسل دم الأجفان ... ما ذي الشؤون لغير هذا الشان

ومردنيش: بفتح الميم وسكون الراء وفتح الدال المهملة وكسر النون وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها شين معجمة وهو بلغة الفرنج اسم العذرة.

وبُنْشْكُله: بضم الباء الموحدة والنون وسكون الشين المعجمة وضم الكاف وفتح اللام، وبعدها هاء؛ والباقي معروف لا حاجة إلى ضبطه.

والبني في نسب الشاعر المذكور: بكسر الياء الواحدة وتشديد النون.

والأبدي: بضم الهمزة وتشديد الباء الموحدة وبعدها دال مهملة، هذه النسبة إلى بلدة بالأندلس من كورة جيان، بناها عبد الرحمن بن الحكم وجددها ابنه محمد.

قلت: ولما فرغت من ترجمة يوسف بن عبد المؤمن صاحب هذه الترجمة وجدت مجموعاً بخط العماد بن جبريل أخي العلم المصري ناظر بيت المال بالديار المصرية وقد تقدم ذكره في ترجمة أبي إسحاق العراقي الفقيه المذكور في أوائل هذا الكتاب وفيه فوائد من أخبار المغاربة وغيرهم، فنقلت منه ما يضاف إلى هذه الترجمة، وهو: أن عبد المؤمن كان في حياته قد عهد إلى أكبر أولاده وهو محمد، وبايعه الناس وكتب ببيعته إلى البلاد، فلما مات عبد المؤمن لم يتم له الأمر لأنه كان على أمور لا يصلح معها للمملكة من إدمان شرب الخمر واختلال الرأي وكثرة الطيش وجبن النفس ويقال إنه مع هذا كله كان به ضرب من الجذام. واضطرب أمره واختلف الناس عليه فخلع، وكانت مدة ولايته خمسة وأربعين يوماً، وذلك في شعبان من سنة ثمان وخمسين وخمسمائة، وكان الذي سعى في خلعه أخويه يوسف وعمر ابني عبد المؤمن. ولما تم خلعه دار الأمر بين الأخوين المذكورين، وهما من نجباء أولاد عبد المؤمن ومن ذوي الرأي وتأخر عنهما أبو حفص عمر، وسلم الأمر إلى أخيه يوسف فبايعه الناس واتفقت عليه الكلمة.

وكان أبيض تعلوه حمرة، شديد سواد الشعر مستدير الوجه أفوه أعين، إلى الطول ما هو، في صوته جهارة، رقيق حواشي اللسان حلو الألفاظ حسن الحديث طيب المجالسة أعرف الناس كيف تكلمت العرب وأحفظهم لأيامها في الجاهلية والإسلام، صرف عنايته إلى ذلك، ولقي فضلاء إشبيلية أيام

ولايته لها، ويقال إنه كان يحفظ صحيح البخاري. كان شديد الملوكية بعيد الهمة سخياً جواداً استغنى الناس في أيامه، وكان يحفظ القرآن العظيم مع جملة من الفقه، ثم طمح إلى علم الحكمة وبدأ من ذلك بعلم الطب وجمع من كتب الحكمة شيئاً كثيراً.

وكان ممن صحبه من العلماء بهذا الشأن أبو بكر محمد بن الطفيل، كان متحققاً لجميع أجزاء الحكمة، قرأ على جماعة من أهلها منهم أبو بكر ابن الصائغ المعروف بابن باجة وغيره. ولابن الطفيل هذا تصانيف كثيرة، وكان حريصاً على الجمع بين علم الشريعة والحكمة وكان مفنناً.

و لم يزل يجمع إليه العلماء من كل فن من جميع الأقطار ومن جملتهم أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد الأندلسي.

ولما استوثق ليوسف الأمر وملك بلاد مردنيش من الأندلس خرج من إشبيلية قاصداً بلاد الأذفونش من الأندلس أيضاً فترل على مدينة له تسمى وبذة فأقام محاصراً لها شهوراً إلى أن اشتد عليهم الحصار وعطشوا، فراسلوه في تسليم المدينة وأن يعطيهم الأمان على نفوسهم، فامتنع من ذلك فلما اشتد بهم العطش سمع لهم في بعض الليالي لغط عظيم وأصوات هائلة، وذلك أنهم اجتمعوا بأسرهم ودعوا الله تعالى، فجاءهم مطر عظيم ملأ ما كان عندهم من الصهاريج، فارتووا وتقووا على المسلمين، فانصرف عنهم إلى إشبيلية بعد أن هادنهم مدة سبع سنين.

وكان يرتفع إليه في كل سنة من خراج إشبيلية وقر مائة وخمسين بغلاً، خارجاً عما يرتفع إليه من خراج بقية البلاد في بر العدوة وفي بر الأندلس.

وفي سنة تسع وسبعين تجهز للغزو في جيش عظيم وعبر إلى جزيرة الأندلس ونزل إشبيلية كعادتهم في إصلاح شأنهم، ثم رحل إلى شنترين، وهي بليدة في غرب الأندلس، وهي في غاية المنعة والحصانة، فحاصرها وضيق عليها، فلم يقدر عليها، وهجم الشتاء، وخاف المسلمون من البرد وزيادة مد النهر فلا يقدرون على العبور وتنقطع عنهم المادة، فأشاروا عليه بالرجوع إلى إشبيلية، فإذا طاب الزمان عاد إليها، فقبل ذلك منهم وقال: نحن راحلون غداً إن شاء الله تعالى، و لم ينتشر هذا الحديث لأنه قاله في مجلس الخاصة، فكان أول من قوض ورحل أبو الحسن علي بن عبد الله بن عبد الرحمن الخطيب المالقي، وكان من أهل العلم والفضل، فلما رآه الناس قد قوض خباءه قوضوا أيضاً ثقة به، لمكانه من الدولة ومعرفته بأسرارها، فعبر تلك الليلة أكثر العسكر على النهر خشية الزحام وطلباً لجيد المنازل، و لم يبق إلا من كان بقرب خباء الأمير يوسف بن عبد المؤمن، ولا علم له بذلك، فلما رأى الروم عبور العسكر وبلغهم من جواسيسهم ما عزم عليه الأمير يوسف وأصحابه خرجوا منتهزين الفرصة وحملوا حتى انتهوا إلى جهة الأمير يوسف، فقتل على بابه خلق كثير من أعيان الجند، وخلصوا إلى الأمير يوسف فطعنوه تحت سرته طعنة كانت سبب منيته، وتداركهم الناس، فانهزم الروم، وجعل الأمير يوسف في محفة، وعبر به النهر، و لم يسر به سوى ليلتين ومات في الثالثة، فلما وصلوا به إلى إشبيلية صبروه وصيروه في تابوت وحملوه إلى تين مل، ودفن هناك عند أبيه عبد المؤمن والمهدي محمد بن تومرت.

وكانت وفاته يوم السبت لسبع خلون من رجب سنة ثمانين وخمسمائة، وكان قبل موته بأشهر ينشد هذا البيت ويردده في أوقات كثيرة:

طوى الجديدان ماقد كنت أنشره ... وأنكرتني ذوات الأعين النجل

وقام بعده بالأمر ولده أبو يوسف يعقوب، بويع في حياة أبيه، وقيل إن أشياخ الدولة اتفقوا على تقديمه بعد وفاة أبيه، والله أعلم.

وكان الأديب أبو العباس أحمد بن عبد السلام الكورايي وكورايا قبيلة من البربر منازلهم بضواحي مدينة فاس، وقيل إن هذه القبيلة إنما يقال لها جراوة: بفتح الجيم وقد تبدل الجيم كافاً فيقال لها كرواة، والنسبة إليها جراوي وكراوي وكان هذا الأديب نهاية في حفظ الأشعار القديمة والمحدثة، وتقدم في هذا الشأن وجالس به عبد المؤمن، ثم ولده يوسف ثم ولده يعقوب، وجمع كتاباً يحتوي على فنون الشعر على وضع – الحماسة – لأبي تمام الطائي، وسماه – صفوة الأدب وديوان العرب – وهو كثير الوجود بأيدي الناس، وهو عند أهل المغرب كالحماسة عند أهل المشرق. والمقصود من ذكر هذا الأديب أنه كانت له نوادر نادرة وملح مستظرفة عند أهل الأدب، فمن ذلك أنه حضر يوماً إلى باب دار الأمير يوسف المذكور، وهناك الطبيب سعيد الغماري وغمارة، بضم الغين المعجمة، قبيلة من البربر أيضاً فقال الأمير يوسف لبعض خدمه: انظر من الباب من الأصحاب، فخرج الخادم إلى الباب ثم عاد إليه فقال: أحمد الكورايي وسعيد الغماري، فقال الأمير يوسف: من عجائب الدنيا شاعر من كواريا وطبيب من غمارة، فبلغ ذلك الكورايي فقال "وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه" – يس: 78 – أعجب منهما والله خليفة من كومية، فيقال إن الأمير يوسف لما بلغه ذلك قال: أعاقبه بالحلم عنه

والعفو ففيه تكذيبه.

ومن شعره من جملة قصيدة مدح بها الأمير يوسف المذكور، وهو بديع غريب:

إن الإمام هو الطبيب وقد شفى ... علل البرية ظاهراً ودخيلا

حمل البسيطة وهي تحمل شخصه ... كالروح توجد حاملاً محمولا

ومن شعره أيضاً في ذم أهل فاس، وهي مدينة بالمغرب فيما بين سبتة ومراكش:

مشى اللؤم في الدنيا طريداً مشرداً ... يجوب بلاد الله شرقاً ومغربا

فلما أتى فاساً تلقاه أهلها ... وقالوا له: أهلا وسهلا ومرحبا

وله كل شعر مليح. وكان شيخاً مسناً جاوز الثمانين سنة، وتوفي في آخر أيام الأمير يعقوب ابن الأمير يوسف وقد ذكرت وفاة الأمير يعقوب في ترجمته فيكشف منه وله مديح في الأمير عبد المؤمن بن علي وأولاده إلى آخر زمنه، رحمه الله تعالى.

وأما شنترين: بفتح الشين المعجمة وسكون النون وفتح التاء المثناة من فوقها وكسر الراء وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها نون، فهي مدينة في غرب الأندلس؛ وذكر ابن حوقل في كتاب – المسالك والممالك – أن شنترين على البحر المحيط، وبها يقع العنبر، ولا يعلم ببلد الروم والمحيط عنبر يقع في غير هذا الموضع وشيء وقع بالشام. ويقع بشنترين في وقت من السنة دابة تحك الحجارة في وسط البحر، فيقع بها وبرة في لين الخز ولون الذهب، فيجمع منه ما يغزل وينسج ثياباً، ويتلون الثوب ألواناً، وتحجر عليه ملوك بني أمية بالأندلس، فلا ينقل ولا يشترى، فتزيد قيمة الثوب على ألف دينار لعزته وحسنه، والله أعلم.

قلت: وحكى لي بعض الفضلاء من أهل الأندلس أنه رأى قطعة من هذه الثياب هناك، وأراد أن يصفها لي فما قدر أن يعبر عنها، ثم قال: لكنها أرفع وأنعم من نسج العنكبوت، فتعالى الله ما أجل قدرته وألطف حكمته وأحسن صنعته، وكيف خص كل صقع بنوع من الغرائب سبحانه وتعالى، ولله در أبي نواس حيث قال:

وفي كل شيء له آية ... تدلّ على أنه واحد

السلطان صلاح الدين

أبو المظفر يوسف بن أيوب بن شاذي، الملقب الملك الناصر صلاح الدين صاحب الديار المصرية والبلاد الشامية والفراتية واليمنية؛ وقد تقدم في هذا الكتاب ذكر أبيه أيوب وجماعة من أولاده وعمه أسد الدين شيركوه أخيه الملك العادل أبي بكر محمد، وجماعة من أولاده وغيرهم من أهل بيته؛ وصلاح الدين كان واسطة العقد، وشهرته أكبر من أن تحتاج إلى التنبيه عليه.

اتفق أهل التاريخ على أن أباه وأهله من دوين، بضم الدال المهملة وكسر الواو وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها نون، وهي بلدة في آخر عمل أذربيجان من جهة أران وبلاد الكرج، وأنهم أكراد روادية، بفتح الراء والواو وبعد الألف دال مهملة ثم ياء مثناة من تحتها مشددة وبعدها هاء والروادية: بطن من الهذبانية بفتح الهاء والذال المعجمة وبعد الألف نون مكسورة ثم ياء مشددة مثناة من تحتها وبعدها هاء، وهي قبيلة كبيرة من الأكراد. وقال لي رجل فقيه عارف بما يقول، وهو من أهل دوين: إن على باب دوين قرية يقال لها أجدانقان، بفتح الهمزة وسكون الجيم وفتح الدال المهملة وبعد الألف نون مفتوحة وقاف مفتوحة وبعد الألف الثانية نون أخرى، وجميع أهلها أكراد روادية، ومولد أيوب والد صلاح الدين بها، وشاذي أخذ ولديه أسد الدين شيركوه ونجم الدين أيوب وخرج بهما إلى بغداد، ومن هناك نزلوا تكريت، ومات شاذي بها، وعلى قبره قبة داخل البلد.

ولقد تتبعت نسبتهم كثيراً فلم أجد أحداً ذكر بعد شاذي أبا آخر، حتى إني وقفت على كتب كثيرة بأوقاف وأملاك باسم شيركوه وأيوب، فلم أر

فيها سوى شيركوه بن شاذي، وأيوب بن شاذي، لا غير؛ وقال لي بعض كبراء بيتهم: هو شاذي بن مروان، وقد ذكرت ذلك في ترجمة أيوب وشيركوه؛ ورأيت مدرجاً رتبه الحسن بن غريب بن عمران الحرشي يتضمن أن أيوب بن شاذي بن مروان بن أبي علي بن عنترة بن الحسن بن علي بن أحمد بن أبي علي بن عبد العزيز بن هدبة بن الحصين بن الحارث بن سنان بن عمرو بن مرة بن عوف بن أسامة بن بيهس بن الحارث صاحب الحمالة ابن عوف بن أبي حارثة بن مرة بن نشبة بن غيظ بن مرة بن عوف بن سعد ابن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس عيلان بن الياس ابن مضر بن نزار معد بن عدنان. ثم رفع بعد هذا في النسب حتى انتهى إلى آدم عليه السلام. ثم ذكر بعد ذلك أن علي بن أحمد بن أبي علي بن عبد العزيز يقال إنه ممدوح المتنبي، ويعرف بالخراساني، وفيه يقول من جملة قصيدته:

شرق الجو بالغبار إذا سا ... ر علي بن أحمد القمقام

وأما حارثة بن عوف بن أبي حارثة صاحب الحمالة، فهو الذي حمل الدماء بين عبس وذبيان، وشاركه في الحمالة خارجة بن سنان أخو هرم بن سنان، وفيهما قال زهير بن أبي سلمى المزني قصائد منها قوله:

على مكثريهم حق من يعتريهم ... وعند المقلين السماحة والبذل

وهل ينبت الخطي إلا وشيجه ... وتغرس إلا في منابتها النخل

هذا آخر ما ذكره في المدرج، وكان قد قدمه إلى الملك المعظم شرف الدين عيسى بن الملك العادل صاحب دمشق، وسمعه عليه هو وولده الملك الناصر صلاح الدين أبو المفاخر داود ابن الملك المعظم، وكتب لهما بسماعهما عليه في آخر رجب سنة تسع عشرة وستمائة، والله أعلم؛ انتهى ما نقلته من المدرج.

ورأيت في – تاريخ حلب – الذي جمعه القاضي كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد المعروف بابن العديم الحلبي بعد أن ذكر الاختلاف في نسبهم فقال: وقد كان المعز إسماعيل بن سيف الإسلام ابن أيوب ملك اليمن ادعى نسباً في بني أمية وادعى الخلافة. وسمعت شيخنا القاضي بهاء الدين عرف بابن شداد يحكي عن السلطان صلاح الدين أنه أنكر ذلك وقال: ليس لهذا أصل أصلاً.

قلت: ذكر شيخنا الحافظ عز الدين أبو الحسن علي بن محمد المعروف بابن الأثير الجزري صاحب التاريخ الكبير في تاريخه الصغير الذي صنفه للدولة الأتابكية ملوك الموصل، في فصل يتعلق بأسد الدين شيركوه، ومسيره إلى الديار المصرية فقال: كان أسد الدين شيركوه ونجم الدين أيوب، وهو الأكبر، ابنا شاذي من بلد دوين، وأصلهما من الأكراد الروادية قد قدما العراق، وخدما مجاهد الدين بهروز بن عبد الله الغياثي شحنة بالعراق.

قلت: وهذا مجاهد الدين كان خادماً رومياً أبيض اللون تولى شحنة بالعراق من جهة السلطان مسعود بن غياث الدين محمد بن ملكشاه السجلوقي المقدم ذكره وذكر والده وجماعة من أهل بيته وكان صاحب همة في عمل المصالح الجليلة وعمارة البلاد، واسع الصدر والصبر في البذول والإنفاقات والمطاولة والمراجعة إذا امتنع عليه الغرض، وكانت تكريت إقطاعاً له، وكان خادم السلطان محمد والد مسعود المذكور، وبنى في بغداد رباطاً وقف عليه وقفاً جيداً، ومات يوم الأربعاء الثالث والعشرين من رجب سنة أربعين وخمسمائة. وبهروز: بكسر الباء الموحدة وسكون الهاء وضم الراء وسكون الواو وبعدها زاي، وهو لفظ عجمي، معناه يوم جيد، على التقديم والتأخير على عادة كلام العجم.

قال شيخنا ابن الأثير: فرأى مجاهد الدين في نجم الدين أيوب عقلاً ورأياً حسناً وحسن سيرة، فجعله دزدار تكريت إذ هي له قلت دزدار، بضم الدال المهملة وسكون الزاي وفتح الدال المهملة وبعد الألف راء، وهو لفظ عجمي معناه حافظ القلعة، وهو الوالي، ودزه بالعجمي القلعة، ودار: الحافظ فسار إليها ومعه أخوه أسد الدين شيركوه، فلما انهزم أتابك الشهيد عماد الدين زنكي بالعراق من قراجا قلت: وهي وقعة مشهورة خلاصتها أن مسعود بن محمد بن ملكشاه السجلوقي، المقدم ذكره، وعماد الدين زنكي صاحب الموصل قصدا حصار بغداد في أيام الإمام المسترشد، فأرسل إلى قراجا الساقي واسمه برس صاحب بلاد فارس وخوزستان، يستنجد به، فأتاه وكبس عسكرهما وانهزما بين يديه وانكسرا. وذكر في تاريخ الدولة السلجوقية أنها كانت في شهر ربيع الآخر يوم الخميس ثاني عشر الشهر المذكور من سنة ست وعشرين وخمسمائة على تكريت. وقال أسامة بن منقذ

المقدم ذكره في كتابه الذي ذكر فيه البلاد وملوكها الذين كانوا في زمانه: إنه حضر هذه الوقعة مع زنكي في التاريخ المذكور، ذكر ذلك في موضعين أحدهما في ترجمة إربل، والثاني في ترجمة تكريت رجعنا إلى ما كنا فيه: فوصل زنكي إلى تكريت، فخدمه نجم الدين أيوب وأقام له السفن؛ فعبر دجلة هناك وتبعه أصحابه، فأحسن نجم الدين إليهم وسيرهم، وبلغ ذلك بهروز، فسير إليه وأنكر عليه وقال له: كيف ظفرت بعدونا فأحسنت إليه وأطلقته!! ثم إن أسد الدين قتل إنساناً بتكريت لكلام جرى بينهما، فأرسل مجاهد الدين إليهما فأخرجهما من تكريت، فقصدا عماد الدين زنكي قلت: وكان إذ ذاك صاحب الموصل قال: فأحسن عماد الدين إليهما وعرف لهما خدمتهما، وأقطعهما إقطاعاً حسناً وصارا من جملة جنده. فلما فتح عماد الدين زنكي بعلبك جعل نجم الدين دزدارها، فلما قتل زنكي قلت: وقد سبق ذكر ذلك في ترجمته قال: فحصره عسكر دمشق قلت: وكان صاحب دمشق يومئذ مجير االدين أبق بن محمد بن بوري ابن الأتابك ظهير الدين طغتكين، وهو الذي حاصره نور الدين محمود بن زنكي في دمشق، وأخذها منه قال شيخنا ابن الأثير: فأرسل نجم الدين أيوب إلى سيف الدين غازي بن زنكي صاحب الموصل، وقد قام بالملك بعد والده ينهي إليه الحال، ويطلب منه عسكراً ليرحل صاحب دمشق عنه، وكان سيف الدين في ذلك الوقت في أول ملكه، وهو مشغول بإصلاح ملوك الأطراف المجاورين له، فلم يتفرغ له، وضاق الأمر على من في بعلبك من الحصار، فلما رأى نجم الدين أيوب الحال وخاف أن تؤخذ قهراً أرسل في تسليم القلعة، وطلب إقطاعاً ذكره، فأجيب إلى ذلك، وحلف له صاحب دمشق عليه وسلم القلعة، ووفى له صاحب دمشق بما حلف عليه من الإقطاع والتقدم وصار عنده من أكبر الأمراء، واتصل أخوه أسد الدين شيركوه بالخدمة النورية بعد قتل أبيه زنكي.

قلت: هو نور الدين محمود بن زنكي صاحب حلب، وكان يخدمه في أيام والده، فقربه نور الدين وأقطعه، وكان يرى منه في الحروب آثاراً يعجز عنها غيره لشجاعته وجرأته، فصارت له حمص والرحبة وغيرهما، وجعله مقدم عسكره.

قلت: ثم خرج شيخنا ابن الأثير بعد هذا إلى حديث سفر أسد الدين إلى الديار المصرية، وما تجدد لهم هناك، وليس هذا موضع هذا الفصل، بل نتم حديث صلاح الدين هذه الترجمة من مبدأ أمره حتى نصير إلى آخره إن شاء الله تعالى، ويندرج فيه حديث المملكة وما صار حالهم إليه، وإن كان قد سبق في ترجمة أسد الدين شيركوه طرف من أخبارهم، لكن ما استوفيته هناك اعتماداً على استيفائه ها هنا إن شاء الله تعالى.

قلت: اتفق أرباب التواريخ أن صلاح الدين مولده سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة بقلعة تكريت لما كان أبوه وعمه بها، والظاهر أنهم ما أقاموا بها بعد ولادة صلاح الدين إلا مدة يسيرة، لأنه قد سبق القول أن نجم الدين وأسد الدين لما خرجا من تكريت، كما شرحناه، وصلا إلى عماد الدين زنكي فأكرمهما وأقبل عليهما، ثم إن عماد الدين زنكي قصد حصار دمشق فلم تحصل له، فرجع إلى بعلبك فحصرها أشهراً، وملكها في رابع عشر صفر سنة أربع وثلاثين وخمسمائة، كما ذكره أسامة بن منقذ المقدم ذكره في كتابه الذي ذكر فيه البلاد وملوكها. وذكر أبو يعلى حمزة بن أسد المعروف بابن القلانسي الدمشقي في تاريخه الذي جعله ذيلاً على تاريخ أبي الحسين هلال ابن الصابي: أن عماد الدين حاصر بعلبك يوم الخميس العشرين من ذي الحجة سنة ثلاث وثلاثين ثم ذكر في مستهل سنة أربع وثلاثين أنه ورد الخبر بفراغ عماد الدين من ترتيب بعلبك وقلعتها وترميم ما تشعث منها، والله أعلم. وإذا كان كذلك فيكون قد خرجوا من تكريت في بقية سنة اثنتين وثلاثين التي ولد فيها صلاح الدين، أو في سنة ثلاث وثلاثين؛ لأنهما أقاما عند عماد الدين بالموصل، ثم لما حاصر دمشق وبعدها بعلبك وأخذها رتب فيها نجم الدين أيوب، وذلك في أوائل سنة أربع وثلاثين، كما شرحته فيتعين أن يكون خروجهم من تكريت في المدة المذكورة تقديراً، والله أعلم قلت: ثم أخبرني بعض أهل بيتهم، وقد سألته: هل تعرف متى خرجوا من تكريت؟ فقال: سمعت جماعة من أهلنا يقولون: إنهم أخرجوا منها في الليلة التي ولد فيها صلاح الدين، فتشاءموا به وتطيروا منه، فقال بعضهم: لعل فيه الخيرة وما تعلمون، فكان كما قال، والله أعلم.

ولم يزل صلاح الدين تحت كنف أبيه حتى ترعرع. ولما ملك نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي دمشق في التاريخ المذكور في ترجمته لازم نجم الدين أيوب خدمته، وكذلك ولده صلاح الدين، وكانت مخايل السعادة عليه لائحة، والنجابة تقدمه من حالة إلى حالة، ونور الدين يرى له ويؤثره، ومنه تعلم صلاح الدين طرائق الخير وفعل المعروف والاجتهاد في أمور الجهاد، حتى تجهز للمسير مع عمه شيركوه إلى الديار المصرية، كما سنشرحه إن شاء الله تعالى.

وجدت في بعض تواريخ المصريين أن شاور المقدم ذكره هرب من الديار المصرية من الملك المنصور أبي الأشبال ضرغام بن عامر بن سوار الملقب فارس المسلمين اللخمي المنذري لما استولى على الدولة المصرية وقهره وأخذ مكانه في الوزارة كعادتهم في ذلك، وقتل ولده الأكبر طي بن شاور، فتوجه شاور إلى الشام مستغيثاً بالملك العادل نور الدين أبي القاسم محمود بن زنكي، وذلك في شهر رمضان سنة ثمان وخمسين وخمسمائة، ودخل دمشق في الثالث والعشرين من ذي القعدة من السنة، فوجه نور الدين معه الأمير أسد الدين شيركوه بن شاذي في جماعة من عسكره كان صلاح الدين في جملتهم في خدمة عمه، وهو كاره للسفر معهم. وكان لنور الدين في إرسال هذا الجيش غرضان: أحدهما قضاء حق شاور لكونه قصده ودخل عليه مستصرخاً، والثاني أنه أراد استعلام أحوال مصر فإنه كان يبلغه أنها ضعيفة من جهة الجند وأحوالها في غاية الاختلال، فقصد الكشف عن حقيقة ذلك، وكان كثير الاعتماد على شيركوه لشجاعته ومعرفته وأمانته، فانتدبه لذلك، وجعل أسد الدين شيركوه ابن أخيه صلاح الدين مقدم عسكره، وشاور معهم، فخرجوا من دمشق في جمادى الأولى سنة تسع وخمسين فدخلوا مصر واستولوا على الأمر في رجب من السنة.

وقال شيخنا القاضي بهاء الدين أبو المحاسن يوسف المعروف بابن شداد المقدم ذكره في كتابه الذي وسمه ب – سيرة صلاح الدين –: إنهم دخلوا مصر في ثاني جمادى الآخرة سنة ثمان وخمسين وخمسمائة، والقول الأول أصح؛ لأن الحافظ أبا طاهر السلفي ذكر في – معجم السفر – أن الضرغام بن سوار قتل في سنة تسع وخمسين وخمسمائة، وزاد غيره فقال: يوم الجمعة الثامن والعشرين من جمادى الآخرة من السنة عند مشهد السيدة نفيسة رضي الله عنها، فيما بين القاهرة ومصر، واحتز رأسه وطيف به على رمح، وبقيت جثته هناك ثلاثة أيام تأكل منها الكلاب، ثم دفن عند بركة الفيل، وعمرت عليه قبة قلت: والقبة إلى الآن باقية في موضعها تحت الكبش المستجد بناؤه، ورأيت فيها جماعة من الفقراء الجوالقية مقيمين. وقد قيل إن الضرغام إنما قتل في رجب من سنة تسع وخمسين، وقد اتفقوا على أن الضرغام إنما قتل عند قدوم أسد الدين شيركوه وشاور إلى مصر، فما يمكن أن يكون دخولهم مصر في سنة ثمان وخمسين. لأن الضرغام لاخلاف في قتله في سنة تسع وخمسين، وأنه كان في أول وصولهم، والحافظ السلفي أخبر بذلك لأنه كان مقيماً في البلاد أول وصولهم، وهو أضبط لهذه الأمور من غيره، لأن هذا فنه، وهو من أقعد الناس به.

ولما وصل أسد الدين وشاور إلى الديار المصرية واستولوا عليها وقتلوا الضرغام، وحصل لشاور مقصوده وعاد إلى منصبه وتمهدت قواعده واستمرت أموره، غدر بأسد الدين شيركوه واستنجد بالفرنج عليه، وحصروه في بلبيس. وكان أسد الدين قد شاهد البلاد وعرف أحوالها، وأنها مملكة بغير رجال، تمشي الأمور فيها بمجرد الإيهام والمحال، فطمع فيها، وعاد إلى الشام في الرابع والعشرين من ذي الحجة سنة تسع وخمسين، وقال شيخنا ابن شداد: في السابع والعشرين من ذي الحجة سنة ثمان وخمسين، بناء على ما قرره أولاً أن دخولهم البلاد كان في سنة ثمان وخمسين. وأقام أسد الدين بالشام مدة مفكراً في تدبير عوده إلى مصر، محدثاً نفسه بالملك لها، مقرراً قواعد ذلك مع نور الدين، إلى سنة اثنتين وستين وخمسمائة، وبلغ شاور حديثه وطمعه في البلاد فخاف عليها، وعلم أن أسد الدين لابد له من قصدها، فكاتب الفرنج وقرر معهم أنهم يجيئون إلى البلاد ويمكنهم منها تمكيناً كلياً ليعينوه على استئصال أعدائه.

وبلغ نور الدين وأسد الدين مكاتبة شاور للفرنج وما تقرر بينهم، فخافا على الديار المصرية أن يملكوها ويملكوا بطريقها جميع البلاد، فتجهز أسد الدين، وأنفذ معه نور الدين العساكر، وصلاح الدين في خدمة عمه أسد الدين. وكان توجههم من الشام في شهر ربيع الأول سنة اثنتين وستين وخمسمائة، وكان وصول أسد الدين إلى البلاد مقارناً لوصول الفرنج إليها. واتفق شاور والمصريين بأسرهم والفرنج على أسد الدين، وجرت حروب كثيرة ووقعات شديدة، وانفصل الفرنج عن البلاد، وانفصل أسد الدين أيضاً راجعاً إلى الشام.

وكان سبب عود الفرنج أن نور الدين جرد العساكر إلى بلادهم، وأخذ المنيطرة منهم في رجب من هذه السنة، وعلم الفرنج ذلك فخافوا على بلادهم فعادوا إليها. وكان سبب عود أسد الدين إلى الشام ضعف عسكره بسبب مواقعة الفرنج والمصريين وما عانوه من الشدائد، وعاينوه من الأهوال، وما عاد حتى صالح الفرنج على أن ينصرفوا كلهم عن مصر. وعاد إلى الشام في بقية السنة، وقد انضاف إلى قوة الطمع في الديار المصرية شدة الخوف عليها من الفرنج لعلمه بأنهم قد كشفوها كما قد كشفها وعرفوها كما عرفها، فأقام بالشام على مضض وقلبه قلق، والقضاء يقوده إلى شيء قدر لغيره وهو لا يشعر بذلك، وكان عوده في ذي القعدة من هذه السنة إلى الشام، وقيل إنه عاد في ثامن عشر شوال من السنة، والله أعلم.

ورأيت في بعض المسودات التي بخطي، ولا أعلم من أين نقلته، أن أسد الدين لما طمع في الديار المصرية توجه إليها في سنة اثنتين وستين، وسلك طريق وادي الغزلان، وخرج عند إطفيح، فكانت فيها وقعه البابين عند الأشمونين، وتوجه صلاح الدين إلى الإسكندرية فاحتمى بها، وحاصره شاور في جمادى الآخرة من السنة، ثم عاد أسد الدين من جهة الصعيد إلى بلبيس، وتم الصلح بينه وبين المصريين، وسيروا له صلاح الدين، فساروا إلى الشام.

ثم إن أسد الدين عاد إلى مصر مرة ثالثة، قال شيخنا ابن شداد: – وكان سبب ذلك أن الفرنج جمعوا فارسهم وراجلهم، وخرجوا يريدون الديار المصرية ناكثين لجميع ما استقر مع المصريين وأسد الدين طمعاً في البلاد فلما بلغ ذلك أسد الدين ونور الدين لم يسعهما الصبر دون أن سارعا إلى قصد البلاد، أما نور الدين فبالمال والرجال، ولم يمكنه المسير بنفسه خوفاً على البلاد من الفرنج، ولأنه كان قد حدث له نظر إلى جانب الموصل بسبب وفاة علي بن بكتكين – قلت: هو زين الدين والد السلطان مظفر الدين كوكبوري صاحب إربل وقد تقدم ذكره في ترجمة ولده كوكبوري قال: فإنه توفي في ذي الحجة سنة ثلاث وستين وخمسمائة، وسلم ما كان في يده من الحصون لقطب الدين أتابك ما عدا إربل فإنها كانت له من أتابك زنكي؛ وأما أسد الدين فبنفسه وماله وإخوته وأهله ورجاله. ولقد قال لي السلطان صلاح الدين قدس الله روحه: كنت أكره الناس للخروج في هذه الدفعة وما خرجت مع عمي باختياري، وهذا معنى قوله تعالى"وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم" – البقرة: 216 – وكان شاور لما أحس بخروج الفرنج إلى مصر على تلك القاعدة سير إلى أسد الدين يستصرخه ويستنجده، فخرج مسرعاً، وكان وصوله إلى مصر في شهر ربيع الأول سنة أربع وستين وخمسمائة. ولما علم الفرنج بوصول أسد الدين إلى مصر على اتفاق بينه وبين أهلها رحلوا راجعين على أعقابهم ناكصين، وأقام أسد الدين بها يتردد إليه شاور في الأحيان، وكان وعدهم بمال في مقابلة ما خسروه من النفقة، فلم يوصل إليهم شيئاً وعلقت مخاليب أسد الدين في البلاد، وعلم أنه متى وجد الفرنج رخصة أخذوا البلاد، وأن شاور يلعب به تارة وبالفرنج أخرى، وملاكها فقد كانوا على البدعة المشهورة، وتحقق أسد الدين أنه لا سبيل إلى الاستيلاء على البلاد مع بقاء شاور، فأجمع رأيه على القبض عليه إذا خرج إليه. وكان الأمراء الواصلون مع أسد الدين يترددون إلى خدمة شاور، وهو يخرج في الأحيان إلى أسد الدين يجتمع به، وكان يركب على عادة وزرائهم بالطبل والبوق والعلم، ولم يتجاسر على قبضه أحد من الجماعة إلا السلطان بنفسه، وذلك أنه لما سار إليهم تلقاه راكباً. وسار إلى جانبه وأخذ بتلابيبه. وأمر العسكر بأن قصدوا أصحابه، ففروا ونهبهم العسكر. وأنزل شاور إلى خيمة مفردة، وفي الحال ورد توقيع على يد خادم خاص من جهة المصريين يقول: لابد من رأسه، جرياً على عادتهم في وزرائهم. فحز رأسه وأرسل إليهم، وسيروا إلى أسد الدين خلع الوزارة فلبسها، وسار ودخل القصر وترتب وزيراً، وذلك في سابع عشر ربيع الأول سنة أربع وستين وخمسمائة، ودام آمراً وناهياً، والسلطان صلاح الدين رحمه الله تعالى مباشر الأمور مقرر لها لمكان كفايته ودرايته وحسن رأيه وسياسته، إلى الثاني والعشرين من جمادى الآخرة من السنة المذكورة. فمات أسد الدين – قلت: وقد تقدم حديث أسد الدين وصورة موته، فلا حاجة إلى شرحها ها هنا، وكذلك وفاة شاور، وهذا كله نقلته من كلام شيخنا ابن شداد في – سيرة صلاح الدين – ولكنني أتيت منه بالمقصود وحذفت الباقي.

ورأيت بخطي في جملة مسوداتي أن أسد الدين دخل القاهرة يوم الأربعاء سابع شهر ربيع الآخر من سنة أربع وستين وخمسمائة، وخرج إليه العاضد عبد الله العبيدي آخر ملوك مصر المقدم ذكره وتلقاه، وحضر يوم الجمعة التاسع من الشهر إلى الإيوان، وجلس إلى جانب العاضد وخلع عليه، وأظهر له شاور وداً كثيراً، فطلب منه أسد الدين مالاً ينفقه في عسكره، فدافعه، فأرسل إليه أن الجند تغيرت قلوبهم عليه بسبب عدم النفقة، فإذا خرجت فكن على حذر منهم، فلم يكترث شاور بكلامه، وعزم أن يعمل دعوة يستدعي إليها أسد الدين والعساكر الشامية ويقبض عليهم، فأحس أسد الدين بذلك، فاتفق صلاح الدين وعز الدين جورديك النوري وغيرهما على قتل شاور، وأعلموا أسد الدين فنهاهم عنه. وخرج شاور إلى أسد الدين، وكانت خيامهم على شاطئ النيل بالمقس، فلم يجده في جهته، وكان قد راح إلى زيارة تربة الإمام الشافعي رضي الله عنه بالقرافة، فقال شاور: نمضي إليه، فالتقوه فساروا جميعاً، فاكتنفه صلاح الدين وجورديك وأنزلاه عن فرسه وكتفوه، فهرب أصحابه، فأخذوه أسيراً، ولم يمكنهم قتله بغير إذن نور الدين، وجعلوه في خيمة ورسموا عليه جماعة، فأرسل العاضد يأمرهم بقتله فقتلوه، وسيروا رأسه على رمح إلى العاضد، وذلك يوم السبت لسبع عشرة

ليلة خلت من شهر ربيع الآخر من السنة المذكورة. وقيل إن أسد الدين لم يحضر ذلك، بل لما قصد شاور جهة أسد الدين لقيه صلاح الدين وجورديك ومعهما بعض العسكر، فسلم بعضهم على بعض وساروا، ثم فعلا به هذه الفعلة، والله أعلم.
ثم إن العاضد استدعى أسد الدين عقيب قتل شاور، وكان في الخيم فدخل القاهرة، فرأى جمعاً كبيراً من العامة فخافهم فقال لهم: إن مولانا العاضد أمركم بنهب دار شاور، فتفرقوا ومضوا لنهبها، ودخل على العاضد فتلقاه وأفاض عليه خلع الوزارة، ولقبه الملك المنصور أمير الجيوش. ثم إنه مات يوم الأحد لسبع بقين من جمادى الآخرة من السنة المذكورة بعلة الخوانيق، وقيل إنه سم في حنك الوزارة لما خلع عليه. وكانت وفاته بالقاهرة ودفن بدار الوزارة، ثم نقل إلى المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، فكانت مدة وزارته شهرين وخمسة أيام. وقيل إن أسد الدين دخل على العاضد يوم الاثنين التاسع عشر من شهر ربيع الآخر من السنة المذكورة، والله أعلم.
قلت: وقد تقدم في ترجمة كل واحد من شاور وأسد الدين ذكر شيء من هذه الأمور التي ذكرتها ها هنا، وإنما أعدت الكلام فيها لأني استوفيتها ها هنا أكثر من هناك، وأيضاً فإن المقصود في هذا كله ذكر سيرة صلاح الدين وتنقلاته وما جرى له من أول أمره إلى آخره، فأحببت ذكر ذلك على سياقة واحدة كي لا ينقطع الكلام فيبقى أبتر، فأقول: ذكر المؤرخون أن أسد الدين لما مات استقرت الأمور بعده للسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، وتمهدت القواعد ومشى الحال على أحسن الأوضاع، وبذل الأموال وملك قلوب الرجال، وهانت عنده الدنيا فملكها، وشكر نعمة الله تعالى عليه، فتاب عن الخمر وأعرض عن أسباب اللهو، وتقمص بقميص الجد والاجتهاد، ومازال على قدم الخير وفعل ما يقربه إلى الله تعالى، إلى أن مات.
قال شيخنا ابن شداد: – سمعته يقول رحمه الله تعالى: لما يسر لي الله الديار المصرية علمت أنه أراد فتح الساحل لأنه أوقع ذلك في نفسي. ومن حين استتب له الأمر ما زال يشن الغارات على الفرنج إلى الكرك والشوبك وبلادهما وغشي الناس من سحائب الإفضال والإنعام ما لم يؤرخ من غير تلك الأيام، وهذا كله وهو وزير متابع القوم، لكنه يقول بمذهب أهل السنة، غارس في البلاد أهل الفقه والعلم والتصوف والدين، والناس يهرعون إليه من كل صوب ويفدون عليه من كل جانب، وهو لا يخيب قاصداً ولا يعدم وافداً إلى سنة خمس وستين وخمسمائة –.
–ولما عرف نور الدين استقرار أمر السلطان بمصر أخذ حمص من نواب أسد الدين وذلك في رجب سنة أربع وستين –.

– ولما علم الفرنج ما جرى من المسلمين وعساكرهم وما تم للسلطان من استقامة الأمر بالديار المصرية، علموا أنه يملك بلادهم ويخرب ديارهم ويقلع آثارهم، لما حدث له من القوة والملك؛ واجتمع الفرنج والروم جميعاً وقصدوا الديار المصرية، فقصدوا دمياط ومعهم آلات الحصار وما يحتاجون إليه من العدد. ولما سمع فرنج الشام ذلك اشتد أمرهم، فسرقوا حصن عكار من المسلمين وأسروا صاحبها وكان مملوكاً لنور الدين ويقال له خطلخ العلم دار، وذلك في شهر ربيع الآخر من سنة خمس وستين. ولما رأى نور الدين ظهور الفرنج ونزولهم على دمياط قصد شغل قلوبهم، فنزل على الكرك محاصراً لها في شعبان من السنة المذكورة، فقصده فرنج الساحل فرحل عنها وقصد لقاءهم فلم يقفوا له، ثم بلغه وفاة مجد الدين ابن الداية، وكانت وفاته بحلب في شهر رمضان سنة خمس وستين، فاشتغل قلبه لأنه كان صاحب أمره، وعاد يطلب الشام، فبلغه أمر الزلازل بحلب التي أخربت كثيراً من البلاد، وكانت في ثاني عشر شوال منها، فسار يطلب حلب، فبلغه خبر موت أخيه قطب الدين بالموصل قلت: وقد ذكرت ذلك في ترجمته واسمه مودود قال: وبلغه الخبر وهو بتل باشر، فسار من ليلته طالباً بلاد الموصل –.
– ولما بلغ صلاح الدين قصد الفرنج دمياط واستعد لهم بتجهيز الرجال وجميع الآلات إليها، ووعدهم بالإمداد بالرجال إن نزلوا عليهم، وبالغ في العطايا والهبات، وكان وزيراً متحكماً لا يرد أمره في شيء. ثم نزل الفرنج عليها واشتد زحفهم وقتالهم عليها، وهو رحمه الله يشن عليهم الغارات من خارج، والعسكر يقاتلهم من داخل، ونصر الله تعالى المسلمين به وبحسن تدبيره، فرحلوا عنها خائبين، فأحرقت مناجيقهم ونهبت آلاتهم، وقتل من رجالهم خلق كثير، واستقرت قواعد صلاح الدين، وسير طلب والده نجم الدين أيوب ليتم له السرور وتكون قصته مشاكلة لقصة يوسف الصديق عليه السلام، فوصل والده إليه في جمادى الآخرة من سنة خمس وستين قلت: هكذا ذكر ابن شداد تاريخ وصوله إلى مصر، والصواب فيه هو الذي ذكرته في ترجمته وسلك معه من الأدب ما جرت به عادته، وألبسه الأمر كله، فأبى أن يلبسه وقال: يا ولدي ما اختارك الله لهذا الأمر إلا وأنت كفء له، ولا ينبغي أن يغير موضع السعادة، فحكّمه في الخزائن كلها، و لم يزل وزيراً حتى مات العاضد في التاريخ المقدم ذكره – قلت أكثر ما ذكرته في

هذا الفصل منقول من كلام شيخنا ابن شداد في – سيرة صلاح الدين –، وفيه زوائد من غيرها.
والذي ذكره شيخنا الحافظ عز الدين ابن الأثير المذكور قبل هذا في تاريخه الأتابكي أن كيفية ولاية صلاح الدين – أن جماعة من الأمراء النورية الذين كانوا بمصر طلبوا التقدم على العساكر وولاية الوزارة، يعني بعد موت أسد الدين، منهم الأمير عين الدولة الياروقي، وقطب الدين خروا بن تليل وهو ابن أخي أبي الهيجاء الهذباني الذي كان صاحب إربل قلت: وهو صاحب المدرسة القطبية التي بالقاهرة ومنهم سيف الدين علي بن أحمد الهكاري، وجده كان صاحب القلاع الهكارية قلت: وهو المعروف بالمشطوب والد عماد الدين أحمد بن المشطوب، وقد تقدم ذكره في ترجمة مستقلة قال: ومنهم شهاب الدين محمود الحارمي، وهو خال صلاح الدين، وكل واحد من هؤلاء يخطبها لنفسه، وقد جمع ليغالب عليها، فأرسل العاضد صاحب مصر إلى صلاح الدين، وأمره بالحضور في قصره ليخلع عليه خلع الوزارة ويوليه الأمر بعد عمه، وكان الذي حمل العاضد على ذلك ضعف صلاح الدين، فإنه ظن أنه إذا ولي صلاح الدين وليس له عسكر ولا رجال كان في ولايته مستضعفاً يحكم عليه ولا يجسر على المخالفة، وأنه يضع على العسكر الشامي من يستميلهم إليه، فإذا صار معه البعض أخرج الباقين، وتعود البلاد إليه، وعنده من العساكر الشامية من يحميها من الفرنج ونور الدين، والقصة مشهورة، أردت عمراً وأراد الله خارجة – قلت: هذا المثل مشهور بين العلماء وسيأتي الكلام عليه بعد الفراغ من هذه الترجمة إن شاء الله تعالى.
عدنا إلى تمام الكلام الأول:
–فامتنع صلاح الدين وضعفت نفسه عن هذا المقتم فألزمه وأخذ كارهاً، إن الله ليعجب من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل. فلما حضر في القصر خلع عليه خلع الوزارة: الجبة والعمامة وغيرهما، ولقب الملك الناصر وعاد إلى دار أسد الدين فأقام بها، و لم يلتفت إليه أحد من أؤلئك الأمراء الذين يريدون الأمر لأنفسهم ولا خدموه، وكان الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري معه – قلت: وقد سبق ذكره في ترجمة مفردة قال ابن الأثير: – فسعى مع سيف الدين علي بن أحمد حتى أماله إليه، وقال له: إن هذا الأمر لا يصل إليك مع وجود عين الدولة والحارمي وابن تليل، فمال إلى صلاح الدين.
ثم قصد شهاب الدين الحارمي وقال له: إن هذا صلاح الدين هو ابن أختك وملكه لك، وقد استقام الأمر له، فلا تكن أول من يسعى في إخراجه عنه، ولا يصل إليك، و لم يزل به حتى أحضره أيضاً عنده وحلفه له؛ ثم عدل إلى قطب الدين وقال له: إن صلاح الدين قد أطاعه الناس، و لم يبق غيرك وغير الياروقي، وعلى كل حال فيجمع بينك وبين صلاح الدين أن أصله من الأكراد فلا يخرج الأمر عنه إلى الأتراك، ووعده وزاد في إقطاعه فأطاع صلاح الدين أيضاً؛ وعدل إلى عين الدولة الياروقي، وكان أكبر الجماعة وأكثرهم جمعاً، فلم تنفعه رقاه ولا نفذ فيه سحره، وقال: أنا لا أخدم يوسف أبداً، وعاد إلى نور الدين ومعه غيره، فأنكر عليهم فراقه، وقد فات الأمر ليقضي الله أمراً كان مفعولاً –.
–وثبت قدم صلاح الدين ورسخ ملكه، وهو نائب عن الملك العادل نور الدين، والخطبة لنور الدين في البلاد كلها، ولا يتصرفون إلا عن أمره، وكان نور الدين يكاتب صلاح الدين بالأمير الاصفهسلار، ويكتب علامته في الكتب تعظماً أن يكتب اسمه، وكان لا يفرده في كتاب، بل يكتب: الأمير الإصفهسلار صلاح الدين وكافة الأمراء بالديار المصرية يفعلون كذا وكذا. واستمال صلاح الدين قلوب الناس، وبذل الأموال مما كان أسد الدين قد جمعه، وطلب من العاضد شيئاً يخرجه فلم يمكنه منعه، فمال الناس إليه وأحبوه، وقويت نفسه على القيام بهذا الأمر والثبات فيه، وضعف أمر العاضد، فكان كالباحث عن حتفه بظلفه –.
قال ابن الأثير في تاريخه الكبير: –وقد اعتبرت التواريخ، ورأيت كثيراً من التورايخ الإسلامية فرأيت كثيراً ممن يبتدئ الملك تنتقل الدولة عن صلبه إلى بعض أهله وأقاربه، منهم في أول الإسلام معاوية بن أبي سفيان أول من ملك من أهل بيته، فانتقل الملك عن أعقابه إلى بني مروان من بني عمه، ثم من بعده السفاح أول من ملك من بني العباس انتقل الملك من أعقابه إلى أخيه المنصور، ثم السامانية أول من استبد فيهم نصر بن أحمد فانتقل الملك عنه إلى أخيه إسماعيل بن أحمد وأعقابه، ثم يعقوب بن الليث الصفار وهو أول من ملك من أهل بيته وانتقل الملك عنه إلى أخيه عمرو وأعقابه، ثم عماد الدولة بن بويه أول من ملك من أهل بيته، ثم انتقل الملك عنه إلى أخويه معز الدولة وركن الدولة، ثم السلجوقية أول من ملك منهم طغرل بك ثم انتقل الملك إلى أولاد أخيه داود، ثم هذا شيركوه كما ذكرناه انتقل الملك إلى ولد أخيه نجم الدين أيوب، ولولا خوف الإطاله لذكرنا أكثر من هذا، والذي أظنه السبب في ذلك أن الذي يكون أول دولته يكثر القتل فيأخذ الملك وقلوب من كان فيه متعلقة به، فلهذا يحرم الله أعقابه، ويفعل ذلك لأجلهم عقوبة له

-.

نعود إلى ذكر صلاح الدين.

- وأرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين أن يرسل إليه إخوته فلم يجبه إلى ذلك، وقال: أخاف أن يخالف أحد منهم عليك فتفسد البلاد -.

- ثم إن الفرنج اجتمعوا ليسيروا إلى مصر، فسير نور الدين العساكر وفيهم اخوة صلاح الدين، منهم شمس الدولة توران شاه بن أيوب - قلت: وقد تقدم ذكره في ترجمة مستقلة قال: - وهو أكبر من صلاح الدين، فلما أراد أن يسير قال له نور الدين: إن كنت تسير إلى مصر وتنظر إلى أخيك أنه يوسف الذي كان يقوم في خدمتك وأنت قاعد، فلا تسر فإنك تفسد البلاد، وأحضرك حينئذ وأعاقبك بما تستحقه، وإن كنت تنظر إليه صاحب مصر وقائم مقامي وتخدمه بنفسك كما تخدمني، فسر إليه واشدد أزره وساعده على ما هو بصدده، فقال: أفعل معه من الخدمة والطاعة ما يتصل بك إن شاء الله تعالى، فكان معه كما قال -.

ثم قال شيخنا ابن الأثير بعد هذا بأوراق في فصل يتعلق بانقراض الدولة المصرية وإقامة الدولة الدولة العباسية بها في المحرم سنة سبع وستين وخمسمائة فقال: -قطعت خطبة العاضد صاحب مصر، وخطب فيها للإمام المستضيئ بأمر الله أمير المؤمنين، وكان السبب في ذلك أن صلاح الدين يوسف بن أيوب لما ثبت قدمه في مصر وزال المخالفون له، وضعف أمر العاضد، و لم يبق من العساكر المصرية أحد، كتب إليه الملك العادل نور الدين محمود يأمره بقطع الخطبة العاضدية وإقامة الخطبة العباسية، فاعتذر صلاح الدين بالخوف من وثوب أهل مصر، وامتناعهم من الإجابة إلى ذلك لميلهم إلى دولة المصريين، فلم يصغ نور الدين إلى قوله، وأرسل إليه يلزمه بذلك إلزاماً لا فسحة له فيه، واتفق أن العاضد مرض؛ وكان صلاح الدين قد عزم على قطع الخطبة، فاستشار أمراءه كيف الابتداء بالخطبة العباسية، فمنهم من أقدم على المساعدة وأشار بها، ومنهم من خاف ذلك، إلا أنه لا يمكنه إلا امتثال أمر نور الدين. وكان قد دخل إلى مصر إنسان عجمي يعرف بالأمير العالم، وقد رأيناه بالموصل كثيراً، فلما رأى ما هم فيه من الإحجام قال: أنا أبتدئ بها، فلما كان أول جمعة من المحرم صعد المنبر قبل الخطيب، ودعا للمستضيئ بأمر الله فلم ينكر أحد ذلك، فلما كان الجمعة الثانية أمر صلاح الدين الخطباء بمصر والقاهرة بقطع خطبة العاضد وإقامة الخطبة للمستضيئ بأمر الله، ففعلوا ذلك، و لم يتنطح فيها عتزان، وكتب بذلك إلى سائر ديار المصرية. وكان العاضد قد اشتد مرضه فلم يعلمه أهله وأصحابه بذلك، وقالوا: إن سلم فهو يعلم وإن توفي فلا ينبغي أن ننعض عليه هذه الأيام التي بقيت من أجله، فتوفي يوم عاشوراء و لم يعلم. ولما توفي جلس صلاح الدين للعزاء، واستولى على قصره وجميع ما فيه، وكان قد رتب فيه قبل وفاة العاضد بهاء الدين قراقوش وهو خصي يحفظه - قلت: وقد تقدم ذكره في ترجمة أيضاً قال: - وجعله كأستاذ دار العاضد، فحفظ ما فيه حتى تسلمه صلاح الدين، ونقل أهل العاضد إلى مكان منفرد ووكل بحفظهم، وجعل أولاده وعمومته وأبناءهم في إيوان في القصر وجعل عندهم من يحفظهم، وأخرج من كان من العبيد والإماء، فأعتق البعض ووهب البعض وباع البعض، وأخلى القصر من أهله وسكانه، فسبحان من لا يزول ملكه، ولا يغيره ممر الأيام وتعاقب الدهور، ولما اشتد مرض العاضد أرسل يستدعي صلاح الدين، فظن أن ذلك خديعة فلم يمض إليه، فلما توفي علم صدقه، فندم على تخلفه عنه -.

- وكان ابتداء الدولة العبيدية بإفريقية والمغرب في ذي الحجة سنة تسع وتسعين ومائتين، وأول من ظهر منهم المهدي أبو محمد عبيد الله وبنى المهدية وملك إفريقية كلها - قلت: هكذا ذكر شيخنا ابن الأثير تاريخ استيلاء المهدي عبيد الله على إفريقية، والصواب فيه هو الذي ذكرته في ترجمته فيكشف منه ثم إنه قال: - ولما مات المهدي عبيد الله قام بالأمر بعده ولده القائم أبو القاسم محمد - ثم ذكرهم واحداً واحداً حتى انتهى إلى العاضد المذكور فقال: -وانقرضت دولتهم، فكانت مدة دولتهم مائتي سنة وستاً وستين سنة، وكان مقامهم بمصر مائتي سنة وثماني سنين، وملك منهم أربعة عشر وهم: المهدي والقائم والمنصور والمعز والعزيز والحاكم والظاهر والمستنصر والمستعلي والآمر والحافظ والظافر والفائز والعاضد آخرهم - قلت: وقد ذكرت كل واحد من هؤلاء بترجمة مستقلة في هذا الكتاب فمن اختار الوقوف على أحوالهم فليطلبه في اسمه، ولا حاجة إلى ذكره ها هنا قال شيخنا ابن الأثير: - وقد أتينا على ذكر ما أجملناه مستقصى في التاريخ الكبير - يعني كتابه الذي سماه - الكامل - وهو مشهور، ومن أنفع الكتب في بابه.

قال: –ولما استولى صلاح الدين على القصر وأمواله وذخائره اختار منه ما أراد ووهب أهله وأمراءه، وباع منه كثيراً، وكان فيه من الجواهر والأعلاق النفيسة ما لم يكن عند ملك من الملوك، قد جمع على طول السنين وممر الدهور، فمنه القضيب الزمرذ، طوله نحو قبضة ونصف، والجبل الياقوت وغيرهما، ومن الكتب المنتخبة بالخطوط المنسوبة والخطوط الجيدة نحو مائة ألف مجلد.

" ولما خطب للمستضيء بأمر الله بمصر أرسل نور الدين إليه يعرفه ذلك، فحل عنده أعظم محل، وسير إليه الخلع الكاملة مع عماد الدين صندل المقتفوي إكراماً له، لأن عماد الدين كان كبير المحل في الدولة العباسية، وكذلك أيضاً سير خلعاً لصلاح الدين، إلا أنها أقل من خلع نور الدين، وسيرت الأعلام السود لتنصب على المنابر، وكانت هذه أول أهبة عباسية دخلت مصر بعد استيلاء العبيديين عليها"؛ انتهى ما قاله شيخنا ابن الأثير.
قلت: ولما وصل الخبر إلى الإمام المستضيء بأمر الله أبي محمد الحسن بن الإمام المستنجد، وهو والد الإمام الناصر لدين الله، بما تجدد من أمر مصر وعود الخطبة والسكة بها باسمه، بعد انقطاعها بمصر هذه المدة الطويلة، نظم أبو الفتح محمد سبط ابن التعاويذي – المقدم ذكره – قصيدة طنانة مدح بها الإمام المستضيء، وذكر هذا الفتوح المتجدد له، وفتوح بلاد اليمن أيضاً، وهلاك الخارجي بها الذي سمى نفسه المهدي وذلك في سنة إحدى وسبعين وخمسمائة، وكان صلاح الدين قد أرسل له من ذخائر مصر وأسلاب المصريين شيئاً كثيراً، وأولها:

قل للسحاب إذا مرت ... ه يد الجنائب فارجحن
عج باللوى فاسمح بدم ... عك للمعاهد والدمن
يا منزل الأنس الجمي ... ع وملعب الحي الأغن
سكنت بك الآرام من ... بعد الأحبة والسكن
أين استقلت بالحبي ... ب ركابه ومتى ظعن
شوقي إلى زمن الحمى ... سقي الغوادي من زمن
شوق المغرب شردت ... ه يد البعاد عن الوطن
ولقد عهدتك والزما ... ن بشملنا بك ما فطن
وثراك ما اغبرت مسا ... رحه وماؤك ما أجن
وظباؤك الأتراب لي ... وطر، وتربك لي وطن
لام العذول وما درى ... وجدي وبلبالي بمن
وجدي بمن فضح القضي ... ب وأخجل الرشأ الأغن
ما ضر من هو فتني ... لو كان يرحم من فتن
دمعي طليق في محب ... ته وقلبي مرتهن
يا محنتي أودى الصدو ... د بعاشق بك ممتحن
غادرته وقفاً على ال ... عبرات بعدك والحزن
كلف الفؤاد معذباً ... بين الإقامة والظعن

عطفاً على قرح الجفو ن بعيد عهد بالوسن
لاتبخلي فالبخل يذ هب بهجة الوجه الحسن
ولرب ليل بت في ه صريع باطية ودن
أختال من مرح وأس حب فضل ذيلي والردن
مع مخطف لدن القوا م إذا انثنى رخص البدن
لكنني كفرت ليلة زرته عني وعن
بمدائحي للمستضي ء أبي محمد الحسن
المستقر من الخلا فة في الشواهق والقنن

ومنها:

يا جارياً في العدل من سنن النبي على سنن
يا جامعاً خلق النبو ة والخلافة في قرن
دانت لهيبتك المما لك والمعاقل والمدن
بالمشرفيات الصوا رم والمثقفة اللدن
وأتتك أسلاب الملو ك من الصعيد إلى عدن
سلب الدعي بأرض مص ر والمضلل في اليمن
مما اقتناه ذو رع ين في القديم وذو يزن
وشفيت منهم بالظبا تلك الضغائن والاحن
لم تغن عنهم حين رع تهم الحصون ولا الجنن
أمست سباياهم تقا د أذلة قود البدن
غادرت عرض بلادهم غرض النوائب والمحن
في كل يوم من جيو شك غارة فيها تشن
وأعدت سر الأوليا ء المؤمنين بها علن
ورحضت ما أبقته آ ثار الخوارج من درن
فكأن دعوتهم على تلك المنابر لم تكن

وهي طويلة فنقتصر منها على هذا القدر ففيه كفاية. ومدحه أيضاً بقصيدة أخرى أشار فيها إلى هذا المعنى، وليس على خاطري من هذه القصيدة سوى غزلها فأحببت ذكره لكونه في غاية الحسن واللطافة، وهو:

أهلا بطلعة زائر فضح الدجى بضيائها
سمح الزمان بوصلها فدنت على عدوائها
باتت تعاطيني المدا م وكنت من أكفائها
فسكرت من ألحاظها وغنيت عن صهبائها
بيضاء قتلي دأبها في نأيها وثوائها
فإذا دنت بجفونها وإذا نأت بجفائها
لا تلتقي أبداً موا عدها بيوم وفائها
الشمس من ضراتها والبدر من رقبائها
والصبح فوق لثامها والليل تحت ردائها
مضرية تنمى إذا ان تسبت إلى حمرائها
باتت وأطراف الرما ح تجول حول خبائها
فالموت دون فراقها والموت دون لقائها
ولقد مررت بربعها بعد النوى وفنائها
والعين في الأطلال سا كنة على أطلائها
فوقفت أنشد في مطا لعها بدور سمائها
وبكيت حتى كدت أع طف بانتي جرعائها
يا موحش العين التي أنست بطول بكائها
غادرت بين جوانحي نفساً تموت بدائها
تشتاق عيني أن ترا ك وأنت في سودائها
فإذا بخلت بنظرة سمحت بجمة مائها
فكأنها كف الخلي فة أسبلت بعطائها

وبعد هذا شرع في المديح وأبدع فيها جميعها. وسأذكر بعد هذا عند أواخر هذه الترجمة شيئاً من مدائحه في صلاح الدين إن شاء الله تعالى، فقد كان يسير قصائده إليه من بغداد فتصل أولاً إلى القاضي الفاضل، ومعها مديح للفاضل، وهو الذي يعرض قصائده على صلاح الدين، رحمه الله تعالى.

ثم ذكر شيخنا ابن الأثير بعد هذا فصلاً يتضمن حصول الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين باطناً فقال: "وفي سنة سبع وستين أيضاً حدث ما أوجب نفرة نور الدين عن صلاح الدين، وكان الحادث أن نور الدين أرسل إلى صلاح الدين يأمره بجمع العساكر المصرية والمسير بها إلى بلد الفرنج والنزول على الكرك ومحاصرته ليجمع هو أيضاً عساكره ويسير إليه، ويجتمعا هناك على حرب الفرنج والاستيلاء على بلادهم؛ فبرز صلاح الدين من القاهرة في العشرين من المحرم، وكتب إلى نور الدين يعرفه أن رحيله لا يتأخر. وكان نور الدين قد جمع عساكره وتجهز، وأقام ينتظر ورود الخبر من

صلاح الدين برحيله ليرحل هو، فلما أتاه الخبر بذلك رحل من دمشق عازماً على قصد الكرك، فوصل إليه وأقام ينتظر وصول صلاح الدين إليه، فأرسل كتابه يعتذر فيه عن الوصول باختلال البلاد المصرية لأمور بلغته عن بعض شيعة العلويين، وأنهم عازمون على الوثوب بها وأنه يخاف عليها مع البعد عنها فعاد إليها، فلم يقبل نور الدين عذره. وكان سبب تقاعده أن أصحابه وخواصه خوفوه من الاجتماع بنور الدين. فحيث لم يمتثل فحيث لم يمتثل أمر نور الدين شق ذلك عليه وعظم عنده، وعزم على الدخول إلى مصر وإخراج صلاح الدين عنها، فبلغ الخبر إلى صلاح الدين، فجمع أهله، وفيهم والده نجم الدين أيوب وخاله شهاب الدين الحارمي، ومعهم سائر الأمراء، وأعلمهم ما بلغه عن عزم نور الدين على قصده وأخذ مصر منه، واستشارهم فلم يجبه أحد منهم بشيء، فقام تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين – قلت: وقد تقدم ذكره في ترجمة مستقلة – قال: وقال: إذا جاء قاتلناه وصددناه عن البلاد، ووافقه غيره من أهله، فشتمهم نجم الدين أيوب وأنكر ذلك واستعظمه، وكان ذا رأي ومكر وعقل، وقال لتقي الدين: اقعد، وسبه، وقال لصلاح الدين: أنا أبوك وهذا شهاب الدين خالك، أتظن أن في هؤلاء كلهم من يحبك ويريد لك الخير مثلنا؟ فقال: لا، فقال: والله لو رأيت أنا وهذا خالك شهاب الدين نور الدين لم يمكنا إلا أن نترجل له ونقبل الأرض بين يديه، ولو أمرنا أن نضرب عنقك بالسيف لفعلنا، فإذا كنا نحن هكذا كيف يكون غيرنا؟ وكل من تراه من الأمراء والعساكر لو رأى نور الدين وحده لم يتجاسر على الثبات على سرجه، ولا وسعه إلا النزول وتقبيل الأرض بين يديه. وهذه البلاد له وقد أقامك فيها، وإن أراد عزلك فأي حاجة له إلى المجيء؟ يأمرك بكتاب مع نجاب حتى تقصد خدمته ويولي بلاده من يريد، وقال للجماعة كلهم: قوموا عنا، ونحن مماليك نور الدين وعبيده يفعل بنا ما يريد، فتفرقوا على هذا. وكتب أكثرهم إلى نور الدين بالخبر.

ولما خلا أيوب بابنه صلاح الدين قال له: أنت جاهل قليل المعرفة، تجمع هذا الجمع الكثير وتطلعهم على ما في نفسك، فإذا سمع نور الدين أنك عازم على منعه عن البلاد جعلك أهم الأمور إليه، وأولاها بالقصد، ولو قصدك لم تر معك أحداً من هذا العسكر وكانوا أسلموك إليه، وأما الآن بعد هذا المجلس فسيكتبون إليه ويعرفونه قولي، وتكتب أنت إليه وترسل في المعنى، وتقول: أي حاجة إلى قصدي؟ يجيء نجاب يأخذني بحبل يضعه في عنقي، فهو إذا سمع هذا عدل عن قصدك واستعمل ما هو أهم عنده، والأيام تندرج، والله في كل وقت في شان والله لو أراد نور الدين قصبة من قصب سكرنا لقاتلته أنا عليها حتى أمنعه أو أقتل ففعل صلاح الدين ما أشار به والده. فلما رأى نور الدين الأمر هكذا عدل عن قصده، وكان الأمر كما قال نجم الدين أيوب. وتوفي نور الدين و لم يقصده، وهذا كان من أحسن الآراء وأجودها "؛ انتهى ما ذكره ابن الأثير.

وقال شيخنا ابن شداد في السيرة: لم يزل صلاح الدين على قدم بسط العدل ونشر الإحسان، وإفاضة الإنعام على الناس إلى سنة ثمان وستين وخمسمائة، فعند ذلك خرج بالعسكر يريد بلاد الكرك والشوبك، وإنما بدأ بها لأنها كانت أقرب إليه، وكانت في الطريق تمنع من يقصد الديار المصرية، وكان لا يمكن أن تعبر قافلة حتى يخرج هو بنفسه يعبرها، فأراد توسيع الطريق وتسهيلها، فحاصرها في هذه السنة، وجرى بينه وبين الفرنج وقعات، وعاد و لم يظفر منها بشيء، ولما عاد بلغه خبر وفاة والده نجم الدين أيوب قبل وصوله إليه" – قلت: وقد ذكرت تاريخ وفاته في ترجمته – قال: ولما كانت سنة تسع وستين رأى قوة عسكره وكثرة عدده، وكان بلغه أن باليمن إنساناً استولى عليها وملك حصونها، يسمى عبد النبي بن مهدي، فسير أخاه توران شاه، فقتله وأخذ البلاد منه – وقد بسطت القول في ذلك في ترجمته – ثم توفي نور الدين في سنة تسع وستين حسبما شرحته في ترجمته فلا حاجة إلى الإعادة.

وبلغ صلاح الدين أن إنساناً يقال له "الكنز" جمع بأسوان خلقاً عظيماً من السودان، وزعم أنه يعيد الدولة المصرية، وكان أهل مصر يؤثرون عودهم، فانضافوا إلى الكنز المذكور، فجهز صلاح الدين إليه جيشاً كثيفاً وجعل مقدمه أخاه الملك العادل، وساروا فالتقوا وكسروهم، وذلك في السابع من صفر سنة سبعين وخمسمائة، واستقرت له قواعد الملك.

وكان نور الدين رحمه الله قد خلف والده الملك الصالح إسماعيل – المذكور في ترجمة أبيه – وكان بدمشق عند وفاة أبيه، وكان بقلعة حلب شمس الدين علي بن الداية وشاذبخت، وكان ابن الداية قد حدث نفسه بأمور، فسار الملك الصالح من دمشق إلى حلب، فوصل إلى ظاهرها في المحرم من سنة سبعين، ومعه سابق الدين، فخرج بدر الدين حسن بن الداية فقبض على سابق الدين، ولما دخل الملك الصالح القلعة قبض على شمس الدين وأخيه

حسن المذكور وأودع الثلاثة السجن، وفي ذلك اليوم قتل أبو الفضل بن الخشاب لفتنة جرت بحلب، وقيل بل قتل قبل قبض أولاد الداية بيوم، لأنهم تولوا تدبير ذلك.

ثم إن صلاح الدين بعد وفاة نور الدين علم أن والده الملك الصالح صبي لا يستقل بالأمر ولا ينهض بأعباء الملك، واختلفت الأحوال بالشام، وكاتب شمس الدين بن المقدم صلاح الدين، فتجهز من مصر في جيش كثيف، وترك بها من يحفظها، وقصد دمشق مظهراً أنه يتولى مصالح الملك الصالح، فدخلها بالتسليم في يوم الثلاثاء سلخ شهر ربيع الآخر سنة سبعين وخمسمائة وتسلم قلعتها، وكان أول دخوله دار أبيه – قلت: وهي الدار المعروفة بالشريف العقيقي، وهي اليوم في قبالة المدرسة العادلية مشهورة هناك بالعقيقي – قال: واجتمع الناس إليه وفرحوا به، وأنفق في ذلك اليوم مالاً جليلاً وأظهر السرور بالدمشقيين، وصعد القلعة، وسار إلى حلب فنازل حمص وأخذ مدينتها في جمادى الأولى من السنة ولم يشتغل بقلعتها، وتوجه إلى حلب ونازلها في يوم الجمعة سلخ جمادى الأولى من السنة، وهي الوقعة الأولى.

ثم إن سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي صاحب الموصل لما أحس بما جرى علم أن الرجل قد استفحل أمره وعظم شأنه، وخاف إن غفل عنه استحوذ على البلاد واستقرت قدمه في الملك وتعدى الأمر إليه، فأنفذ عسكراً وافراً وجيشاً عظيماً وقدم عليه أخاه عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود، وساروا يريدون لقاءه ليردوه عن البلاد، فلما بلغ صلاح الدين ذلك رحل عن حلب في مستهل رجب من السنة عائداً إلى حماة، ورجع إلى حمص فأخذ قلعتها، ووصل عز الدين مسعود إلى حلب وأخذ عسكر معه ابن عمه الملك الصالح بن نور الدين صاحب حلب يومئذ، وخرجوا في جمع عظيم، فلما عرف صلاح الدين بمسيرهم سار حتى وافاهم على قرون حماة، وراسلهم وراسلوه واجتهد أن يصالحوه فما صالحوه، ورأوا أن ضرب المصاف معه ربما نالوا به غرضهم، والقضاء يجر إلى أمور وهم بها لا يشعرون، فتلاقوا فقضى الله تعالى أن انكسروا بين يديه، وأسر جماعة منهم فمن عليهم، وذلك في تاسع شهر رمضان من السنة عند قرون حماة. ثم سار عقيب كسرهم ونزل على حلب، وهي الدفعة الثانية، فصالحوه على أخذ المعرة وكفر طاب وبارين، ولما جرت هذه الوقعة كان سيف الدين غازي يحاصر أخاه عماد الدين زنكي صاحب سنجار، وعزم على أخذها منه، لأنه كان قد انتمى إلى صلاح الدين، وكان قد قارب أخذها، فلما بلغه الخبر وأن عسكره انكسر خاف أن يبلغ أخاه عماد الدين الخبر فيشتد أمره ويقوى جأشه، فراسله وصالحه. ثم سار من وقته إلى نصيبين واهتم بجمع العساكر والإنفاق فيها،وسار إلى البيرة وعبر الفرات، وخيم على الجانب الشامي، وراسل ابن عمه الصالح بن نور الدين صاحب حلب حتى تستقر له قاعدة يصل عليها، ثم إنه وصل إلى حلب وخرج الملك الصالح إلى لقائه، وأقام على حلب مدة وصعد قلعتها جريدة، ثم نزل وسار إلى تل السلطان – قلت: وهي منزلة بين حماة وحلب – قال: ومعه جمع كبير، وأرسل صلاح الدين إلى مصر طلب عسكرها، فوصل إليه، وسار به حتى نزل على قرون حماة، ثم تصافوا بكرة نهار الخميس العاشر من شوال سنة إحدى وسبعين، وجرى قتال عظيم وانكسرت ميسرة صلاح الدين بمظفر الدين بن زين الدين – قلت: هو صاحب إربل المقدم ذكره – قال: فإنه كان على ميمنة سيف الدين، فحمل صلاح الدين بنفسه فانكسر القوم، وأسر منهم جمعاً من كبار الأمراء فمن عليهم وأطلقهم، وعاد سيف الدين إلى حلب فأخذ منها خزائنه وسار حتى عبر الفرات وعاد إلى بلاده. ومنع صلاح الدين من تتبع القوم، ونزل في بقية ذلك اليوم في خيامهم، فإنهم تركوا أثقالهم وانهزموا، ففرق صلاح الدين الاصطبلات ووهب الخزائن وأعطى خيمة سيف الدين لابن أخيه عز الدين فرخشاه – قلت: هو ابن شاهان شاه بن أيوب، وهو أخو تقي الدين عمر صاحب حماة وفرخشاه صاحب بعلبك وهو والد الملك الأمجد بهرام شاه، صاحب بعلبك –.

قال: وسار إلى منبج فتسلمها، ثم سار إلى قلعة عزاز يحاصرها، وذلك في رابع ذي القعدة من سنة إحدى وسبعين، وعليها وثب جماعة من الإسماعيلية على صلاح الدين فنجاه الله سبحانه منهم وظفره بهم، وأقام عليها حتى أخذها في رابع عشر ذي الحجة من السنة، ثم سار فنزل على حلب في سادس عشر الشهر المذكور، وأقام عليها مدة ثم رحل عنها، وكانوا قد اخرجوا له ابنة صغيرة لنور الدين سألته عزاز فوهبها لها، ثم عاد صلاح الدين إلى مصر ليتفقد أحوالها، وكان مسيره إليها في شهر ربيع الأول من سنة اثنتين وسبعين، وكان أخوه شمس الدولة توران شاه قد وصل إليه من اليمن فاستخلفه بدمشق. ثم تأهب للغزاة وخرج يطلب الساحل حتى وافى الفرنج على الرملة، وذلك في أوائل جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين، وكانت الكسرة على المسلمين في ذلك اليوم – قلت: وذلك لأمر يطول شرحه – قال: فلما انهزموا لم يكن لهم حصن قريب يأوون إليه، فطلبوا جهة الديار المصرية وضلوا

في الطريق، وتبددوا وأسر منهم جماعة منهم الفقيه عيسى الهكاري وكان ذلك وهناً عظيماً جبره الله تعالى بوقعة حطين المشهورة.

وأما الملك الصالح صاحب حلب فإنه تخبط أمره، وقبض على كمشتكين صاحب دولته، وطلب منه تسليم حارم إليه فلم يفعل، فقتله، فلما سمع الفرنج بقتله نزلوا على حارم طمعاً فيها، وذلك في جمادى الآخرة من السنة، فلما رأى أهل قلعتها الخطر من جهة الفرنج سلموها إلى الملك الصالح في العشر الأواخر من شهر رمضان من السنة، فرحل الفرنج عنها.

وأقام صلاح الدين بمصر حتى لم شعثه وشعث أصحابه من أثر كسرة الرملة، ثم بلغه تخبط الشام فعزم على العود إليه، واهتم بالغزاة فوصله رسول قليج أرسلان صاحب الروم يلتمس الصلح ويتضرر من الأرمن، فعزم على قصد بلاد ابن لاون – قلت: وهي بلاد سيس الفاضلة بين حلب والروم من جهة الساحل – قال: لينصر قليج أرسلان عليه، فتوجه إليه واستدعى عسكر حلب لأنه كان في الصلح أنه متى استدعاه حضر إليه، ودخل بلد ابن لاون، وأخذ في طريقه حصناً وأخربه، ورغبوا إليه في الصلح فصالحهم ورجع عنهم. ثم سأله قليج أرسلان في صلح الشرقيين بأسرهم فأجاب إلى ذلك، وحلف صلاح الدين في عاشر جمادى الأولى سنة ست وسبعين وخمسمائة، ودخل في الصلح قليج أرسلان والمواصلة وعاد بعد تمام الصلح إلى دمشق ثم منها إلى مصر.

ثم توفي الملك الصالح بن نور الدين في التاريخ المذكور في ترجمة والده، وكان قد استحلف أمراء حلب وأجنادها لابن عمه عز الدين مسعود صاحب الموصل – قلت: وقد تقدم ذكره، وهو ابن قطب الدين مودود – فلما مات سيف الدين في التاريخ المذكور في ترجمته قام مقامه أخوه عز الدين مسعود المذكور – قال: فلما بلغ عز الدين خبر موت الملك الصالح وأنه أوصى له بحلب بادر إلى التوجه إليها خوفاً أن يسبقه صلاح الدين فيأخذها، فكان أول قادم إليها مظفر الدين بن زين الدين – قلت: هو صاحب إربل، وكان إذ ذاك صاحب حران، وهو مضاف إلى المواصلة لأن تلك البلاد كانت لهم – قال: فوصلها مظفر الدين في ثالث شعبان سنة سبع وسبعين، وفي العشرين منه وصلها عز الدين مسعود وصعد إلى القلعة فاستولى على ما فيها من الحواصل، وتزوج أم الملك الصالح في خامس شوال من السنة.

قلت: ثم إن شيخنا ابن شداد ذكر بعد هذا أموراً ذكرتها في ترجمة عز الدين مسعود بن مودود وترجمة أخيه عماد الدين زنكي وترجمة تاج الملوك بوري أخي صلاح الدين، فلا حاجة إلى إعادتها ها هنا، فمن أراد الوقوف عليها يكشفها في هذه التراجم.

قلت: وحاصل الأمر أن عز الدين مسعوداً قايض أخاه عماد الدين زنكي صاحب سنجار عن حلب بسنجار، وخرج عز الدين عن حلب ودخلها عماد الدين زنكي فجاءه صلاح الدين وحاصره، فلم يقدر عماد الدين على حفظ حلب، وكان نزول صلاح الدين على حلب في السادس والعشرين من المحرم سنة تسع وسبعين وخمسمائة. وقال ابن شداد: نزل عليها في سادس عشر المحرم، والله أعلم. فتحدث عماد الدين زنكي مع الأمير حسام الدين طمان بن غازي بن يلمي بن تنجول من جبل سلور بحلب في السر بما يفعله، فأشار عليه بأن يطلب منه بلاداً ويترل له عن حلب، بشرط أن يكون له جميع ما في القلعة من الأموال، فقال له عماد الدين: وهذا كان في نفسي. ثم اجتمع حسام الدين طمان بصلاح الدين في السر على تقرير القاعدة في ذلك، فأجابه صلاح الدين إلى ما طلب، ودفع له سنجار والخابور ونصيبين وسروج، ودفع لطمان الرقة لسفارته بينهما، وحلف صلاح الدين على ذلك في سابع عشر صفر من السنة. وكان صلاح الدين قد نزل على سنجار وأخذها في ثامن شهر رمضان سنة ثمان وسبعين وأعطاها لابن أخيه تقي الدين عمر، فلما جرى الصلح على هذه الصورة أعطاها عماد الدين، وتسلم صلاح الدين قلعة حلب وصعد إليها يوم الاثنين السابع والعشرين من صفر سنة تسع وسبعين وخمسمائة، وأقام بها حتى رتب أمورها ثم رحل عنها في الثاني والعشرين من شهر ربيع الآخر من السنة، وجعل فيها ولده الملك الظاهر – المقدم ذكره في ترجمة مستقلة – وكان صبياً، وولى القلعة سيف الدين يازكوج الأسدي وجعله يرتب مصالح ولده.

ثم سار صلاح الدين إلى دمشق في التاريخ المذكور؛ قال ابن شداد: وتوجه من دمشق لقصد محاصرة الكرك في الثالث من رجب من السنة، وسير إلى أخيه الملك العادل وهو بمصر يستدعيه ليجتمع به على الكرك، فسار إليه بجمع كثير وجيش عظيم، واجتمع به على الكرك في رابع شعبان من السنة، فلما بلغ الفرنج الخبر حشدوا خلقاً كثيراً، وجاءوا إلى الكرك ليكونوا في قبالة عسكر المسلمين، فخاف صلاح الدين على الديار المصرية، فسير إليها

ابن أخيه تقي الدين عمر. ورحل عن الكرك في سادس عشر شعبان من السنة، واستصحب أخاه الملك العادل معه، ودخل دمشق في الرابع والعشرين من شعبان من السنة، وأعطاه حلب، ودخلها في يوم الجمعة الثاني والعشرين من شهر رمضان من السنة، وخرج الملك الظاهر ويازكوج ودخلا دمشق في يوم الإثنين الثامن والعشرين من شوال من السنة. وكان الملك الظاهر أحب أولاده إليه لما فيه من الخلال الحميدة، و لم يأخذ منه حلب إلا لمصلحة رآها في ذلك الوقت، وقيل إن العادل أعطاه على أخذ حلب ثلثمائة ألف دينار يستعين بها على الجهاد، والله أعلم.

ثم إن صلاح الدين رأى أن عود الملك العادل إلى مصر وعود الملك الظاهر إلى حلب أصلح؛ قيل كان سبب ذلك أن الأمير علم الدين سليمان بن جندر قال لصلاح الدين – وكان بينهما مؤانسة قبل أن يتملك البلاد، وقد سايره يوماً، وكان من أمراء حلب، والملك العادل لا ينصفه ويقدم عليه غيره، وكان صلاح الدين قد مرض على حصار الموصل وحمل إلى حران وأشفى على الهلاك، فلما عوفي رجع إلى الشام، واجتمعا على المسير، قال له وكان صلاح الدين، قد أوصى لكل واحد من أولاده بشيء من البلاد –: بأي رأي كنت تظن أن وصيتك تمضى، كأنك كنت خارجاً إلى الصيد وتعود فلا يخالفونك؟ أما تستحي أن يكون الطائر أهدى منك إلى المصلحة؟ قال: وكيف ذاك؟ وهو يضحك، قال: إذا أراد الطائر أن يعمل عشاً لفراخه قصد أعالي الشجر ليحمي فراخه، وأنت سلمت الحصون إلى أهلك، وجعلت أولادك على الأرض: هذه حلب، وهي أم البلاد، بيد أخيك، وحماة بيد ابن أخيك تقي الدين، وحمص بيد ابن أسد الدين، وابنك الأفضل مع تقي الدين بمصر يخرجه متى شاء، وابنك الآخر مع أخيك في خيمة يفعل به ما أراد، فقال له: صدقت، واكتم هذا الأمر، ثم أخذ حلب من أخيه وأعطاها ابنه الملك الظاهر، وأعطى الملك العادل بعد ذلك حران والرها وميافارقين ليخرجه من الشام ويتوفر الشام على أولاده، فكان ما كان.

قلت: وقد تقدم في ترجمة عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود صاحب الموصل فصل يتعلق بنزول صلاح الدين على الموصل وحصارها ثلاث مرار، و لم يقدر عليها. قال شيخنا ابن الاثير في تاريخه: إنه نزل عليها في الدفعة الثالثة وكان زمن الشتاء، وعزم على المقام وإقطاع جميع بلاد الموصل، وكان نزوله في شعبان من سنة إحدى وثمانين وخمسمائة، فأقام شعبان وشهر رمضان، وترددت الرسل بينه وبين صاحبها. فبينما هو كذلك مرض صلاح الدين فعاد إلى حران. ولحقته الرسل بالإجابة إلى ما طلب. وتم الصلح على أن يسلم إليه صاحب الموصل شهرزور وأعمالها وولاية القرابلي وما وراء الزاب من الأعمال، وأن يخطب له على المنابر وينقش اسمه على السكة، فلما حلف أرسل صلاح الدين نوابه وتسلم البلاد التي استقرت القاعدة على تسليمها. وطال المرض على صلاح الدين بحران. واشتد به. حتى أيسوا منه، فحلف الناس لأولاده، وكان عنده منهم الملك العزيز عماد الدين عثمان، وأخوه العادل جاءه من حلب وهو ملكها يومئذ. وجعل لكل واحد شيئاً من البلاد، وجعل الملك العادل وصياً على الجميع. ثم إنه عوفي وعاد إلى دمشق في المحرم من سنة اثنتين وثمانين، ولما كان مريضاً بحران، كان عنده ناصر الدين محمد ابن عمه "شيركوه" وله من الإقطاع حمص والرحبة، فسار من عنده إلى حمص واجتاز بحلب. وأحضر جماعة من الأحداث ووعدهم وأعطاهم مالاً. ولما وصل إلى حمص راسل جماعة من أهل دمشق ووعدهم على تسليم دمشق إليه إذا مات صلاح الدين. فعوفي و لم يمض قليل حتى مات ناصر الدين ليلة عيد النحر من السنة، فإنه شرب الخمر فأكثر منه فأصبح ميتاً، وقيل إن صلاح الدين وضع عليه إنساناً فحضر عنده، ونادمه وسقاه سماً، فلما أصبحوا من الغد لم يروا ذلك الشخص، وكان يقال له الناصح بن العميد، فسألوا عنه، فقالوا إنه سار من ليلته، وكان هذا مما قوى الظن، والله أعلم. فلما توفي أعطى إقطاعه لولده شيركوه وعمره اثنتا عشرة سنة، وخلف من الأموال والدواب والأثاث شيئاً كثيراً، فحضر صلاح الدين إلى حمص واستعرض تركته وأخذ أكثرها، و لم يترك إلا ما لا خير فيه. ثم قال شيخنا بعد هذا كله: وبلغني أن شيركوه حضر عند صلاح الدين بعد موت أبيه بسنة فقال له: إلى أين بلغت في القرآن؟ فقال له: إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً "النساء:10" فعجب الجماعة وصلاح الدين من ذكائه، والله اعلم بصحة ذلك.

قال ابن شداد: ولما وصل صلاح الدين إلى دمشق عقيب مرضه وإبلاله سير طلب أخاه الملك العادل، فخرج من حلب جريدة ليلة السبت الرابع والعشرين من شهر ربيع الأول من سنة اثنتين وثمانين، ومضى إلى دمشق فأقام في خدمة السلطان صلاح الدين، وجرت بينهما أحاديث ومراجعات وقواعد تتقرر إلى جمادى الآخرة من السنة، فاستقر الأمر على عود الملك العادل إلى مصر، وأخذت حلب منه وسار الملك الظاهر إليها فدخل قلعتها يوم السبت سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة؛ وقد ذكرت في ترجمة الملك الظاهر أنه دخل حلب مالكاً لها في مثل يوم وفاته، وعينت هناك التاريخ واسم

اليوم، وهكذا وجدته، وما أدري من أين نقلته.

وسلم السلطان ولده الملك العزيز إلى العادل وجعله أتابكه، وقال ابن شداد قال لي الملك العادل: لما استقرت هذه القاعدة اجتمعت بخدمة الملك العزيز والملك الظاهر وجلست بينهما، وقلت للملك العزيز: اعلم يا مولاي أن السلطان أمرني أن أسير في خدمتك إلى مصر، وأنا أعلم أن المقدمين كثير، وما يخلو أن يقال عني ما لا يجوز، ويخوفوك مني، فإن كان لك عزم أن تسمع منهم فقل لي حتى لا أجيء، فقال: كيف يتهيأ لي أن أسمع منهم أو أرجع إلى رأيهم؟ ثم التفت إلى الملك الظاهر وقلت له: أنا أعرف أن أخاك ربما سمع في أقوال المقدمين، وأنا فما لي إلا أنت، وقد قنعت منك بمنبج متى ضاق صدري من جانبه، فقال: مبارك، وذكر لي كل خير.

وزوج السلطان ولده الملك الظاهر غازية خاتون ابنة أخيه الملك العادل، ودخل بها يوم الأربعاء السادس والعشرين من شهر رمضان من السنة.

ثم كانت وقعة حطين المباركة على المسلمين، قال: وكانت في يوم السبت رابع عشر شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة في وسط نهار الجمعة، وكان كثيراً ما يقصد لقاء العدو في يوم الجمعة عند الصلاة تبركاً بدعاء المسلمين والخطباء على المنابر، فسار في ذلك الوقت بمن اجتمع له من العساكر الإسلامية، وكانت تجوز العد والحصر، على تعبية حسنة وهيئة جميلة، وكان قد بلغه عن العدو أنه اجتمع في عدة كثيرة بمرج صفورية بأرض عكا عندما بلغهم اجتماع العساكر الإسلامية، فسار ونزل على بحيرة طبرية ثم رحل ونزل على طبرية على سطح الجبل ينتظر قصد الفرنج له، إذا بلغهم نزوله بالموضع المذكور، فلم يتحركوا ولا خرجوا من مترلتهم، وكان نزولهم بالموضع المذكور يوم الأربعاء الحادي والعشرين من شهر ربيع الآخر، فلما رآهم لا يتحركون نزل جريدة على طبرية، وترك الأطلاب على حالها قبالة العدو، ونازل طبرية وهجمها وأخذها في ساعة واحدة، وانتهب الناس ما بها وأخذوا في القتل والسبي والحريق، وبقيت القلعة محتمية بمن فيها.

ولما بلغ العدو ما جرى على طبرية قلقوا لذلك ورحلوا نحوها، فبلغ السلطان ذلك فترك على طبرية من يحاصر قلعتها ولحق بالعسكر، فالتقى بالعدو على سطح جبل طبرية الغربي منها، وذلك في يوم الخميس الثاني والعشرين من شهر ربيع الآخر، وحال الليل بين العسكرين قياماً على مصاف إلى بكرة يوم الجمعة الثالث والعشرين منه، فركب العسكران وتصادما، والتحم القتال واشتد الأمر، وذلك بأرض قرية تعرف بلوبيا، وضاق الخناق بالعدو وهم سائرون كأنهم يساقون إلى الموت وهم ينظرون، وقد أيقنوا بالويل والثبور، وأحسن نفوسهم أنهم في غد يومهم ذلك من زوار القبور، ولم تزل الحرب تضطرم، والفارس مع قرنه يصطدم، ولم يبق إلا الظفر، ووقع الوبال على من كفر، فحال بينهم الليل بظلامه، وبات كل واحد من الفريقين في سلاحه إلى صبيحة يوم السبت، فطلب كل من الفريقين مقامه، وتحقق المسلمون أن ورائهم الأردن ومن بين أيديهم بلاد العدو، وأنهم لا ينجيهم إلا الاجتهاد في الجهاد، فحملت أطلاب المسلمين من جميع الجوانب، وحمل القلب، وصاحوا صيحة رجل واحد، فألقى الله الرعب في قلوب الكافرين، وكان حقاً عليه نصر المؤمنين، ولما أحس القومص بالخذلان هرب منهم في أوائل الأمر وقصد جهة صور، وتبعه جماعة من المسلمين، فنجا منهم وكفى الله شره، وأحاط المسلمون بالكافرين من كل جانب، وأطلقوا عليهم السهام، وحكموا فيهم السيوف وسقوهم كأس الحمام، وانهزمت طائفة منهم فتبعها أبطال المسلمين فلم ينج منها أحد، واعتصمت طائفة منهم بتل يقال له تل حطين، وهي قرية عندها قبر النبي شعيب عليه السلام، فضايقهم المسلمون وأشعلوا حولهم النيران، واشتد بهم العطش وضاق بهم الأمر، حتى كانوا يستسلمون للأسر خوفاً من القتل، لما مر بهم، فأسر مقدموهم وقتل الباقون، وكان ممن سلم من مقدميهم الملك جفري، وأخوه، والبرنس أرناط صاحب الكرك والشوبك، وابن الهنفري وابن صاحبة طبرية، ومقدم الديوية، وصاحب جبيل، ومقدم الاسبتار، قال ابن شداد: ولقد حكى لي من أثق به أنه رأى بحوران شخصاً واحداً معه نيف وثلاثون أسيراً قد ربطهم بطنب خيمة لما وقع عليهم من الخذلان.

ثم إن القومص الذي هرب في أول الأمر وصل إلى طرابلس، فأصابه ذات الجنب فهلك منها، وأما مقدما الاسبتار والديوية فإن السلطان قتلهما وقتل من بقي من صنفهما حياً، وأما البرنس أرناط فإن السلطان كان قد نذر أنه إن ظفر به قتله، وذلك لأنه كان قد به عبر عند الشوبك قوم من الديار المصرية في حال الصلح فغدر بهم وقتلهم، فناشدوه الصلح الذي بينه وبين المسلمين، فقال ما يتضمن الاستخفاف بالنبي صلى الله عليه وسلم، وبلغ السلطان فحملته حميته ودينه على أن يهدر دمه.

ولما فتح الله تعالى عليه بنصره جلس في دهليز الخيمة لأنها لم تكن نصبت بعد، وعرضت عليه الأسارى، وسار الناس يتقربون إليه بمن في أيديهم منهم، وهو فرح بما فتح الله تعالى على يده للمسلمين، ونصبت له الخيمة فجلس فيها شاكراً لله تعالى على ما أنعم به عليه. واستحضر الملك جفري وأخاه البرنس أرناط، وناول السلطان جفري شربة من جلاب وثلج فشرب منها، وكان على أشد حال من العطش، ثم ناولها البرنس؛ وقال السلطان للترجمان: قل للملك أنت الذي سقيته، وإلا أنا فما سقيته. وكان من جميل عادة العرب وكريم أخلاقهم أن الأسير إذا أكل أو شرب من مال من أسره أمن، فقصد السلطان بقوله ذلك، ثم أمر بمسيرهم إلى موضع عينه لهم، فمضوا بهم إليه فأكلوا شيئاً، ثم عادوا بهم، و لم يبق عنده سوى بعض الخدم فاستحضرهم، وأقعد الملك في دهليز الخيمة، واستحضر البرنس أرناط وأوقفه بين يديه وقال له: ها أنا أنتصر لمحمد منك، ثم عرض عليه الإسلام فلم يفعل، فسل النيمجاه فضربه بها فحل كتفه وتمم قتله من حضر، وأخرجت جثته ورميت على باب الخيمة. فلما رآه الملك على تلك الحال لم يشك في أنه يلحقه به، فاستحضره وطيب قلبه وقال له: لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك. وأما هذا فإنه تجاوز الحد وتجرأ على الأنبياء صلوات الله عليهم، وبات الناس في تلك الليلة على أتم سرور، ترتفع أصواتهم بحمد الله وشكره وتهليله وتكبيره، حتى طلع الفجر. ثم نزل السلطان على طبرية يوم الأحد الخامس والعشرين من شهر ربيع الآخر، وتسلم قلعتها في ذلك النهار وأقام عليها إلى يوم الثلاثاء.

ثم رحل طالباً عكا فكان نزوله عليها يوم الأربعاء سلخ شهر ربيع الآخر، وقاتلها بكرة يوم الخميس مستهل جمادى الأولى سنة ثلاث وثمانين فأخذها، واستنقذ من كان بها من أسارى المسلمين وكانوا أكثر من أربعة آلاف نفس، واستولى على ما فيها من الأموال والذخائر والبضائع لأنها كانت مظنة التجار، وتفرقت العساكر في بلاد الساحل يأخذون الحصون والقلاع والأماكن المنيعة، فأخذوا نابلس وحيفا وقيسارية وصفورية والناصرة، وكان ذلك لخلوها من الرجال لأن القتل والأسر أفنى كثيراً منهم. ولما استقرت قواعد عكا وقسم أموالها وأساراها، سار يطلب تبنين، فترل عليها يوم الأحد حادي عشر جمادى الأولى، وهي قلعة منيعة، فنصب عليها المناجيق وضيق بالزحف خناق من فيها، وكان فيها أبطال معدودون وفي دينهم متشددون، فقاتلوا قتالاً شديداً، ونصره الله سبحانه عليهم، فتسلمها منهم يوم الأحد ثامن عشره عنوة، وأسر من بقي فيها بعد القتل. ثم رحل عنها إلى صيدا فترل عليها، وتسلمها في غد يوم نزوله عليها، وهو يوم الأربعاء العشرون من جمادى الأولى، وأقام عليها ريثما قرر قواعدها. وسار حتى أتى بيروت فنازلها ليلة الخميس الثاني والعشرين من جمادى الأولى وركب عليها المجانيق، وداوم الزحف والقتال حتى أخذها في يوم الخميس التاسع والعشرين من الشهر المذكور وتسلم أصحابه جبيل، وهو على بيروت.

ولما فرغ باله من هذا الجانب رأى قصد عسقلان، و لم ير الاشتغال بصور بعد أن نزل عليها. ثم رأى ابن العسكر قد تفرق في الساحل وذهب كل واحد يحصل لنفسه، وكانوا قد ضرسوا من القتال وملازمة الحرب والترال، وكان قد اجتمع في صور من بقي في الساحل من الفرنج، فرأى أن قصده عسقلان أولى لأنها أيسر من صور، فأتى عسقلان ونزل عليها يوم الأحد السادس عشر من جمادى الآخرة من السنة، وتسلم في طريقه إليها مواضع كثيرة كالرملة والداروم، وأقام في عسقلان المناجيق وقاتلها قتالاً شديداً، وتسلمها في يوم السبت سلخ جمادى الآخرة من السنة، وأقام عليها إلى أن تسلم أصحابه غزة وبيت جبريل والنطرون بغير قتال، وكان بين فتح عسقلان وأخذ الفرنج لها من المسلمين خمس وثلاثون سنة، فإنهم كانوا أخذوها من المسلمين في السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمسمائة، هكذا ذكره شيخنا ابن شداد في "السيرة"، وذكر الشهاب ياقوت الحموي في كتابه الذي سماه "المشترك وضعا المختلف صقعا" أنهم أخذوها من المسلمين في رابع عشر جمادى الآخرة من السنة.

قال ابن شداد: لما تسلم عسقلان والاماكن المحيطة بالقدس شمر عن ساق الجد والاجتهاد في قصد القدس المبارك. واجتمعت إليه العساكر التي كانت متفرقة في الساحل، فسار نحوه معتمداً على الله تعالى مفوضاً أمره إليه، منتهزاً الفرصة في فتح باب الخير الذي حث على انتهازه بقوله صلى الله عليه وسلم " من فتح له باب خير فلينتهزه فإنه لا يعلم متى يغلق دونه"؛ وكان نزوله عليه في يوم الأحد الخامس عشر من رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، وكان نزوله بالجانب الغربي، وكان مشحوناً بالمقاتلة من الخيالة والرجالة، وحزر أهل الخبرة ممن كان معه من كان فيه من المقاتلة فكانوا يزيدون على ستين ألفاً خارجاً عن النساء والصبيان، ثم انتقل لمصلحة رآها إلى الجانب الشمالي في يوم الجمعة العشرين من رجب ونصب المناجيق،

وضايق البلد بالزحف والقتال حتى أخذ النقب في السور مما يلي وادي جهنم. ولما رأى أعداء الله ما نزل بهم من الأمر الذي لا مدفع له عنهم، وظهرت لهم أمارات فتح المدينة وظهور المسلمين عليهم، وكان قد اشتد روعهم لما جرى على أبطالهم وحماتهم من القتل والأسر وعلى حصونهم من التخريب والهدم، وتحققوا أنهم صائرون إلى ما صار أولئك إليه، فاستكانوا واخلدوا إلى طلب الأمان، واستقرت القاعدة بالمراسلة من الطائفتين، وكان تسلمه في يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب، وليلته كانت ليلة المعراج المنصوص عليها في القرآن الكريم، فانظر إلى هذا الاتفاق العجيب. كيف يسر الله تعالى عوده إلى المسلمين في مثل زمان الإسراء بنبيهم صلى الله عليه وسلم، وهذه علامة قبول هذه الطاعة من الله تعالى. وكان فتحه عظيماً شهده من أهل العلم خلق، ومن أرباب الخرق والزهد عالم، وذلك أن الناس لما بلغهم ما يسره الله تعالى على يده من فتوح الساحل وقصده القدس، قصده العلماء من مصر والشام، بحيث لم يتخلف أحد منهم، وارتفعت الأصوات بالضجيج بالدعاء والتهليل والتكبير، وصليت فيه الجمعة يوم فتحه وخطب الخطيب – قلت: وقد تقدم في ترجمة القاضي محيي الدين محمد بن علي المعروف بابن الزكي ذكر الخطبة التي خطب بها ذلك اليوم، فيكشف منه. ورأيت في رسالة القاضي الفاضل المعروفة بالقدسية أن الخطبة أقيمت يوم الجمعة رابع شعبان، والله أعلم.

وإذ قد ذكرنا فتوح القدس، وقد تقدم ذكر الخطبة التي خطب يوم الجمعة بها، يليق أن نذكر الرسالة التي كتبها القاضي الفاضل إلى الإمام الناصر لدين الله أبي العباس أحمد ابن الإمام المستضيء بأمر الله، تتضمن الفتوح فإنها بديعة بليغة في بابها، و لم اذكرها بكمالها بل اخترت منها أحسنها، وتركت الباقي لأنها طويلة، وهي: أدام الله تعالى أيام الديوان العزيز النبوي، ولا زال مظفر الجد بكل جاحد، غنياً بالتوفيق عن رأي كل رائد، موقوف المساعي على اقتناء مطلقات المحامد، مستيقظ النصر والنصل في جفنه راقد، وارد الجود والسحاب على الأرض غير وارد، متعدد مساعي الفضل وإن كان لا يلقى إلا بشكر واحد، ماضي حكم العدل بعزم لا يمضي إلا بنبل غوي وريش راشد، لا زالت غيوث فضله إلى الأولياء أنواء إلى المراتع وأنواراً إلى المساجد، وبعوث رعبه إلى الأعداء خيلاً إلى المراقب وخيالاً إلى المراقد.

كتب الخادم هذه الخدمة، تلو ما صدر عنه مما كان يجري التباشير لصبح هذه العزمة، والعنوان لكتاب وصف النعمة، فإنها بحر للأقلام فيه سبح طويل، ولطف لحمل الشكر فيه عبء ثقيل، وبشرى للخواطر في شرحها مآرب، ويسرى للأسرار في إظهارها مسارب، ولله تعالى في إعادة شكره رضا، وللنعمة الراهنة به دوام لا يقال معه: هذا مضى. ولقد صارت أمور الإسلام إلى أحسن مصايرها، وقد استتبت عقائد أهله على أبين بصائرها، وتقلص ظل رجاء الكافر المبسوط، وصدق الله أهل دينه فلما وقع الشرط وقع المشروط، وكان الدين غريباً فهو الآن في وطنه، والفوز معروضاً فقد بذلت الأنفس في ثمنه، وأمر أمرٌ الحق وكان مستضعفاً، وأهل ربعه وكان قد عيف حين عفا، وجاء أمر الله وأنوف أهل الشرك راغمة، وأدلجت السيوف إلى الآجال وهي نائمة، وصدق وعد الله في إظهار دينه على كل دين، واستطارت له أنوار أبانت أن الصباح عندها جنان الجنين، واسترد المسلمون تراثاً كان عنهم آبقاً، وظفروا يقظة بما لم يصدقوا أنهم يظفرون به طيفاً على النأي طارقاً، واستقرت على الأعلى أقدامهم، وخفقت على الأقصى أعلامهم، وتلاقت على الصخرة قبلهم، وشفيت بها وإن كانت صخرة كما تشفى بالماء غللهم، ولما قدم الدين عليها عرف منها سويداء قلبه، وهنأ كفؤها الحجر الأسود بيت عصمتها من الكافر بحربه.

وكان الخادم لا يسعى سعيه إلا لهذه العظمى، ولا يقاسي تلك البؤسى إلا رجاء هذه النعمى، ولا يناجز من يستمطله في حربه، ولا يعاتب بأطراف القنا من يتعادى في عتبه، إلا لتكون الكلمة مجموعة فتكون كلمة الله هي العليا، وليفوز بجوهر الآخرة لا بالعرض الأدنى من الدنيا، وكانت الألسن ربما سلقته فأنضج قلوبها بالاحتقار، وكانت الخواطر ربما غلت عليه مراجلها فأطفأها بالاحتمال والاصطبار، ومن طلب خطيراً خاطر، ومن رام صفقة رابحة جاسر، ومن سما لأن يجلي غمرة غامر، وإلا فإن القعود يلين تحت نيوب الأعداء المعاجم فيعضها، ويضعف في أيديها مهز القوائم فيفضها، هذا إلى كون القعود لا يقضى به فرض الله في الجهاد، ولا يرعى به حقه في العباد، ولا يوفى به واجب التقليد الذي يطوقه الخادم من أئمة قضوا بالحق وبه كانوا يعدلون، وخلفاء كانوا في مثل هذا اليوم يسألون، لا جرم أنهم أورثوا سرهم وسريرهم خلفهم الأطهر، ونجلهم الأكبر، وبقيتهم الشريفة، وطليعتهم المنيفة، وعنوان صحيفة فضلهم لا عدم سواد القلم وبياض الصحيفة. فما غابوا لما حضر، ولا غضوا لما نظر، بل وصلهم الأجر لما كان به موصولاً. وشاطروه العمل لما كان عنه منقولاً، ومنه مقبولاً، وخلص إليهم إلى المضاجع فاطمأنت به جنوبها، وإلى الصحائف ما عبقت به جيوبها، وفاز

منها بذكر لا يزال الليل به سميراً، والنهار به بصيراً، والشرق يهتدي بأنواره، بل إن بدا نور من ذاته هتف به الغرب بأن واره، فإنه نور لا تكنه أغساق السدف، وذكر لا توازيه أوراق الصحف.

وكتب الخادم هذا وقد أظفر الله بالعدو الذي تشظت قناته شققا، وطارت فرقه فرقاً، وفل سيفه فصار عصا، وصدعت حصاته وكان الأكثر عدداً وحصى، وكلت حملاته وكان قدراً يضرب فيه العنان بالعنان، وعقوبة من الله ليس لصاحب يديها يدان، وعثرت قدمه وكانت الأرض لها حليفة، وغضت عينه وكانت عيون السيوف دونها كثيفة، ونام جفن سيفه وكانت يقظته تريق نطف الكرى من الجفون، وجدعت أنوف رماحه وطالما كانت شامخة بالمنى أو راعفة بالمنون، وأصبحت الأرض المقدسة الطاهرة وكانت الطامث، والرب الفرد الواحد وكان عندهم الثالث، وبيوت الكفر مهدومة، ونيوب الشرك مهتومة، وطوائفه المحامية، مجمعة على تسليم القلاع الحامية، وشجعانه المتوافية، مذعنة لبذل القطائع الوافية، لا يرون في ماء الحديد لهم عصرة، ولا في نار الأنفة لهم نصرة، قد ضربت عليهم الذلة والمسكنة، وبدل الله مكان السيئة الحسنة، ونقل بيت عبادته من أيدي أصحاب المشأمة إلى أيدي أصحاب الميمنة.

وقد كان الخادم لقيهم اللقاة الأولى فأمده الله بمداركته، وأنجده بملائكته، فكسرهم كسرة ما بعدها جبر، وصرعهم صرعة لا ينتعش بعدها بمشيئة الله كفر، وأسر منهم من أسرت به السلاسل، وقتل منهم من قتلت به المناصل، وأجلت المعركة عن صرعى من الخيل والسلاح والكفار، وعن أصناف يخيل بأنه قتلهم بالسيوف الأفلاق والرماح الأكسار، فنيلوا بثار من السلاح ونالوه أيضاً بثار، فكم أهلة سيوف تقارضن الضراب بها حتى عادت كالعراجين، وكم أنجم قنا تبادلت الطعان حتى صارت كالمطاعين، وكم فارسية ركض عليها فارسها الشهم إلى أجل فاختلسه، وفغرت تلك القوس فاها فإذا فوها قد نهش القرن على بعد المسافة وافترسه، فكان اليوم مشهوداً وكانت الملائكة شهوداً، وكان الضلال صارخاً وكان الإسلام مولوداً، وكانت ضلوع الكفار لنار جهنم وقوداً، وأسر الملك وبيده أوثق وثائقه، وآكد وصله بالدين وعلائقه، وهو صليب الصلبوت، وقائد أهل الجبروت، ما دهموا قط بأمر إلا وقام بين دهمائهم يبسط لهم باعه، وكان مد اليدين في هذه الدفعة وداعه، لا جرم أنهم يتهافت على ناره فراشهم، ويجتمع في ظل ضلاله خشاشهم، ويقاتلون تحت ذلك الصليب أصلب قتال وأصدقه، ويرونه ميثاقاً يبنون عليه أشد عهد وأوثقه، ويعدونه سوراً تحفر حوافر الخيل خندقه، وفي هذا اليوم أسرت سراهم، ودهيت دهاتهم، ولم يفلت منهم معروف إلا القومص، وكان لعنه الله ملياً يوم الظفر بالقتال، وملياً يوم الخذلان بالاحتيال، فنجا ولكن كيف، وطار خوفاً من أن يلحقه منسر الرمح أو جناح السيف، ثم أخذه الله تعالى بعد أيام بيده، وأهلكه لموعده، فكان لعدتهم فذلك، وانتقل من ملك الموت إلى مالك.

وبعد الكسرة مر الخادم على البلاد فطواها بما نشر عليها من الراية العباسية السوداء صبغاً، والبيضاء صنعاً، الخافقة هي وقلوب أعدائها، الغالبة هي وعزائم أوليائها، المستضاء بأنوارها إذا فتح عينها النشر، وأشارت بأنامل العذبات إلى وجه النصر، فافتتح بلاد كذا وكذا، وهذه كلها أمصار ومدن، وقد تسمى البلاد بلاداً وهي مزارع وفدن، كل هذه ذوات معاقل ومعاقر، وبحار وجزائر، وجوامع ومنابر، وجموع وعساكر، يتجاوزها الخادم بعد أن يحرزها، ويتركها وراءه بعد أن ينتهزها، ويحصد منها كفراً ويزرع إيماناً. ويحط من جوامعها صلباً ويرفع أذاناً، ويبدل المذابح منابر والكنائس مساجد، ويبوىء أهل القرآن بعد أهل الصلبان للقتال عن دين الله مقاعد، ويقر عينه وعيون أهل الإسلام أن يعلق النصر منه ومن عسكره بجار ومجرور، وأن يظفر بكل سور، ما كان يخاف زلزاله ولا زياله إلى يوم النفخ في الصور.

ولما يبق إلا القدس وقد اجتمع إليه كل طريد منهم وشريد، واعتصم بمنعتها كل قريب منهم وبعيد، وظنوا أنها من الله مانعتهم، وان كنيستها إلى الله شافعتهم، فلما نزلها الخادم رأى بلداً كبلاد، وجمعاً كيوم التناد، وعزائم قد تألبت وتألفت على الموت فنزلت بعرصته، وهان عليها مورد السيف وأن تموت بغصته، فزاول البلد من كل جانب، فإذا أودية عميقة، ولجج وعر غريقة، وسور قد انعطف عطف السوار، وأبرجة قد نزلت مكان الواسطة من عقر الدار، فعدل إلى جهة أخرى كان للطالع عليها معرج، وللخيل فيها متولج، فنزل عليها وأحاط بها وقرب منها، وضرب خيمته بحيث يناله السلاح بأطرافه، ويزاحمه السور بأكتافه، وقابلها ثم قاتلها، ونزلها ثم نازلها "وبرز إليها ثم بارزها"، وحاجزها ثم ناجزها، وضمها ضمة ارتقب بعدها الفتح،

وصدع جمعها فإذا هم لا يصبرون على عبودية الحد عن عنق الصفح، فراسلوه ببذل قطيعة إلى مدة، وقصدوا نظرة من شدة وانتظاراً لنجدة، فعرفهم الخادم في لحن القول، وأجابهم بلسان الطول، وقدم المنجنيقات التي تتولى عقوبات الحصون عصيها وحبالها، وأوتر لهم قسيها التي ترمي ولا تفارقها سهامها ولكن تفارق سهامها نصالها، فصافحت السور فإذا سهمها في ثنايا شرفاتها سواك، وقدم النصر نسراً من المنجنيق يخلد اخلاده إلى الأرض ويعلو علوه إلى السماك، فشج مرادع أبراجها، وأسمع صوت عجيجها صم اعلاجها، ورفع منار عجاجها، فأخلى السور من السيارة، والحرب من النظارة، وأمكن النقاب، أن يسفر للحرب النقاب، وان يعيد الحجر إلى سيرته الأولى من التراب، فتقدم إلى الصخر فمضغ سرده بأنياب معوله، وحل عقده بضربه الأخرق الدال على لطافة أنمله، وأسمع الصخرة الشريفة أنينه واستغاثته إلى أن كادت ترق لمقتله، وتبرأ بعض الحجارة من بعض، وأخذ الخراب عليها موثقاً فلن تبرح الأرض، وفتح من السور باباً سد من نجاتهم أبواباً، وأخذ ينقب في حجره فقال عنده الكافر: يا ليتني كنت تراباً، فحينئذ يئس الكفار من أصحاب الدور، كما يئس الكفار من أصحاب القبور، وجاء أمر الله وغرهم بالله الغرور، وفي الحال خرج طاغية كفرهم، وزمام أمرهم، ابن بارزان سائلاً أن يؤخذ البلد بالسلم لا بالعنوة، وبالأمان لا بالسطوة، وألقى بيده إلى التهلكة، وعلاه ذل الهلكة بعد عز المملكة، وطرح جنبه على التراب وكان جنباً لا يتعاطاه طارح، وبذل مبلغاً من القطيعة لا يطمح إليها أمل طامح، وقال: ها هنا أسارى مسلمون يتجاوزون الألوف، وقد تعاقد الفرنج على أنهم إن هجمت عليهم الدار، وحملت الحرب على ظهورهم الأوزار، بدىء بهم فعجلوا، وثني بنساء الفرنج وأطفالهم فقتلوا، ثم استقتلوا بعد ذلك، فلا يقتل خصم إلا بعد أن ينتصف، ولا يفل سيف من يد إلا بعد أن تقطع أو ينقصف، فأشار الأمراء بأخذ الميسور، من البلد المأسور، فإنه لو أخذ حرباً فلا بد أن يتقحم الرجال الأنجاد، ويقال كفوا عنها في آخر أمر قد نيل من أوله المراد، وكانت الجراح في العساكر قد تقدم منها ما اعتقل الفتكات، وأثقل الحركات، فقبل منهم المبذول عن يد وهم صاغرون، وانصرف أهل الحرب عن قدرة وهم ظاهرون، وملك الإسلام خطة كان عهده بها دمنة سكان، فخدمها الكفر إلى أن صارت روضة جنان، لا جرم أن الله تعالى أخرجهم منها وأهبطهم، وأرضى أهل الحق وأسخطهم، فإنهم، خذلهم الله، حموها بالأسل والصفاح، وبنوها بالعمد والصفاح، وأودعوا الكنائس بها وبيوت الديوية والاستبارية فيها بكل غريبة من الرخام الذي يطرد ماؤه، ولا ينطرد لألاؤه، وقد لطف الحديد في تجزيعه، وتفنن في توشيعه، إلى أن صار الحديد الذي في بأس شديد، كالذهب الذي فيه نعيم عتيد، فما ترى إلا مقاعد كالرياض لها من بياض الترخيم رقراق، وعمداً كالأشجار لها من التنبيت أوراق.

وأوعز الخادم برد الأقصى إلى عهده المعهود، وأقام له من الأئمة من يوفيه ورده المورود، وأقيمت الخطبة يوم الجمعة رابع شعبان فكادت السموات يتفطرن للسجود لا للوجوم، والكواكب منها تنتثر للطرب لا للرجوم، ورفعت إلى الله كلمة التوحيد وكانت طريقها مسدودة، وطهرت قبور الأنبياء وكانت النجاسات مكدودة، وأقيمت الخمس وكان التثليث يقعدها، وجهرت الألسنة بالله أكبر وكان سحر الكفر يعقدها، وجهر اسم أمير المؤمنين في وطنه الأشرف من المنبر، فرحب به ترحيب من بر بمن بر، وخفق علماه في حفافيه، فلو طار سروراً لطار بجناحيه.

وكتاب الخادم وهو مجد في استفتاح بقية الثغور، واستشراح ما ضاق بتمادي الحرب من الصدور، فإن قوى العساكر قد استنفدت مواردها، وأيام الشقاء قد مردت مواردها، والبلاد المأخوذة المشار إليها قد جاست العساكر خلالها، ونهبت ذخائرها وأكلت غلالها، فهي بلاد ترفد ولا تسترفد، وتجم ولا تستنفد، ينفق عليها ولا ينفق منها، وتجهز الأساطيل لبحرها، وتقام المرابط بساحلها، وبدأب في عمارة أسوارها ومرمات معاقلها، وكل مشقة بالإضافة إلى نعمة الفتح محتملة، وأطماع الفرنج بعد ذلك غير مرجئة ولا معتزلة، فإن يدعوا دعوة يرجو الخادم من الله أنها لا تسمع، ولن يكفوا أيديهم من أطراف البلاد حتى تقطع، وهذه البشائر لها تفاصيل لا تكاد من غير الألسنة تتشخص، ولا بما سوى المشافهة تتخلص، فلذلك نفذ الخادم لساناً شارحاً، ومبشراً صادحاً، يطالع الخبر على سياقته، ويعرض جيش المسرة من طليعته إلى ساقته، وهو فلان، والله الموفق.

هذا آخر الرسالة الفاضلية، وكان في عزمي اختصارها والاقتصار على محاسنها فلما شرعت فيها قلت في نفسي: عسى أن يقف عليها من يؤثر الوقوف على جميعها فأكملتها ورجعت عن الرأي الأول، وهي قليلة الوجود في أيدي الناس، وكانت النسخة التي نقلتها منها سقيمة، ولقد اجتهدت في تحريرها حتى صحت عل هذه الصورة حسب الإمكان.

وقد عمل عماد الدين الأصبهاني الكاتب رسالة في فتح القدس أيضاً فلم أر التطويل بكتابتها فتركتها، وجمع كتاباً سماه "الفتح القسي في الفتح

القدسي" وهو في مجلدين ذكر فيه جميع ما جرى في هذه الواقعة. ورأيت منذ زمان رسالة مليحة أنشأها ضياء الدين أبو الفتح نصر الله المعروف بابن الأثير الجزري رحمه الله تعالى – المقدم ذكره في حرف النون – تتضمن فتح القدس أيضاً، وكل واحد من أرباب صناعة الإنشاء كان يريد يمتحن خاطره بما يعمل في ذلك، والقاضي الفاضل رئيس هذا الفن، وإذا شرع في شيء من هذا الباب لا يستطيع أحد أن يجاريه ولا يباريه، فلهذا أثبت رسالته ورفضت غيرها خوف الإطالة.

وكان قد حضر الرشيد أبو محمد عبد الرحمن بن بدر بن الحسن بن مفرج النبلسي الشاعر المشهور، هذا الفتح، فأنشد السلطان صلاح الدين قصيدته التي أولها:

هذا الذي كانت الآمال تنتظر فليوف لله أقوام بما نذروا

وهي طويلة تزيد على مائة بيت، يمدحه ويهنيه بالفتح.

وإذ قد نجز المطلوب من هذا الامر فلنرجع إلى تتمة ما ذكره شيخنا بهاء الدين بن شداد في "السيرة الصلاحية" قال: ونكس الصليب الذي كان على قبة الصخرة، وكان شكلاً عظيماً، ونصر الله الإسلام على يده نصراً عزيزاً.

قلت: وقد تقدم في ترجمة أرتق طرف من أخبار القدس وأن الأفضل أمير الجيوش بمصر أخذه من ولديه سقمان وإيل غازي، ثم إن الفرنج استولوا عليه يوم الجمعة الثالث والعشرين من شعبان سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة، وقيل في ثاني شعبان، وقيل يوم الجمعة السادس والعشرين من شهر رمضان من السنة؛ و لم يزل بأيديهم حتى استنقذه منهم صلاح الدين في التاريخ المذكور.

نعود إلى كلام ابن شداد: وكانت قاعدة الصلح أنهم قطعوا على نفسهم عن كل رجل عشرين ديناراً، وعن كل امرأة خمسة دنانير صورية، عن كل صغير ذكر أو انثى ديناراً واحداً، فمن أحضر قطيعته نجا بنفسه، وإلا أخذ أسيراً، وأفرج عمن كان بالقدس من أسارى المسلمين، وكانوا خلقاً عظيماً، وأقام به يجمع الأموال ويفرقها على الأمراء والرجال، ويحبو بها الفقهاء والعلماء والزهاد والوافدين عليه، وتقدم بإيصال من قام بقطيعته إلى مأمنه، وهي مدينة صور، و لم يرحل عنه ومعه من المال الذي جبي له شيء، وكان يقارب مائتي ألف دينار وعشرين ألفاً، وكان رحيله عنه يوم الجمعة الخامس والعشرين من شعبان من السنة.

ولما فتح القدس حُسن عنده قصد صور، وعلم أنه إن أخر أمرها ربما عسر عليه، فسار نحوها حتى أتى عكا فترل عليها ونظر في أمورها، ثم رحل عنها متوجهاً إلى صور في يوم الجمعة خامس شهر رمضان من السنة، فترل قريباً منها، وسير لإحضار آلات القتال، ولما تكاملت عنده نزل عليها في ثاني عشر الشهر المذكور، وقاتلها وضايقها قتالاً عظيماً، واستدعى أصطول مصر، فكان يقاتلها في البر والبحر، ثم سير من حاصر هونين فسلمت في الثالث والعشرين من شوال من السنة.

ثم خرج أصطول صور في الليل، فكبس أصطول المسلمين، وأخذوا المقدم والريس وخمس قطع للمسلمين، وقتلوا خلقاً كثيراً من رجال المسلمين، وذلك في السابع والعشرين من الشهر المذكور، وعظم ذلك على السلطان وضاق صدره، وكان الشتاء قد هجم وتراكمت الأمطار وامتنع الناس من القتال لكثرة الأمطار، فجمع الأمراء واستشارهم فيما يفعل فأشاروا عليه بالرحيل لتستريح الرجال ويجتمعوا للقتال، فرحل عنها. وحملوا من آلات الحصار ما أمكن وأحرقوا الباقي الذي عجزوا عن حمله لكثرة الوحل والمطر، وكان رحيله يوم الأحد ثاني ذي القعدة من السنة، وتفرقت العساكر، أعطى كل طائفة منها دستوراً، وسار كل قوم إلى بلادهم وأقام هو مع جماعة من خواصه بمدينة عكا إلى أن دخلت سنة أربع وثمانين وخمسمائة.

ثم نزل على كوكب في أوائل المحرم من السنة، و لم يبق معه من العسكر إلا القليل، وكان حصناً حصيناً وفيه الرجال والأقوات، فعلم أنه لا يؤخذ إلا بقتال شديد، فرجع إلى دمشق ودخلها في سادس عشر شهر ربيع الأول من السنة. قال ابن شداد: ولما كان على كوكب وصلت إلى خدمته، ثم فارقته ومضيت لزيارة القدس والخليل عليه أفضل الصلاة والسلام، ودخلت دمشق يوم دخول السلطان إليها – قلت: وقد ذكرت هذا في ترجمته.

قال: وأقام بدمشق خمسة أيام ثم بلغه أن الفرنج قصدوا جبيل واغتالوها، فخرج مسرعاً، وكان قد سير يستدعي العساكر من جميع المواضع وسار يطلب جبيل، فلما عرف الفرنج بخروجه كفوا عن ذلك.

وكان بلغه وصول عماد الدين صاحب سنجار ومظفر الدين بن زين الدين وعسكر الموصل إلى حلب قاصدين خدمته والغزاة معه، فسار نحو حصن الأكراد.
قال ابن شداد في السيرة: إنه اتصل بخدمة السلطان في مستهل جمادى الأولى من سنة أربع وثمانين، وجميع ما ذكرته فهو برواييتي عمن أثق به، ومن ها هنا ما أسطر إلا ما شاهدته أو أخبرني به من أثق إليه خبراً يقارب العيان.
قال: لما كان يوم الجمعة رابع جمادى الأولى دخل السلطان بلاد العدو على تعبية حسنة ورتب الأطلاب، وسارت الميمنة أولاً ومقدمها عماد الدين زنكي والقلب في الوسط، والميسرة في الأخير ومقدمها مظفر الدين ابن زين الدين، فوصل إلى انطرسوس ضاحي نهار الأحد سادس جمادى الأولى، فوقف قبالتها ينظر إليها لأن قصده كان جبلة، فاستهان بأمرها وعزم على قتالها، فسير من رد الميمنة وأمرها بالنزول على جانب البحر، والميسرة على الجانب الآخر، ونزل هو موضعه، والعساكر محدقة بها من البحر إلى البحر، وهي مدينة راكبة على البحر ولها برجان كالقلعتين، فركبوا وقاربوا البلد وزحفوا واشتد القتال وباغتوها، فما استتم نصب الخيام حتى صعد المسلمون سورها، وأخذوها بالسيف، وغنم المسلمون جميع من بها وما بها، وأحرق البلد، وأقام عليها إلى رابع عشر جمادى الأولى، وسلم أحد البرجين إلى مظفر الدين، فما زال يحاربه حتى أخربه، واجتمع به ولده الملك الظاهر لأنه كان قد طلبه، فجاءه في عسكر عظيم.

ثم سار يريد جبلة، وكان وصوله إليها في ثاني عشر جمادى الأولى، وما استتم نزول العسكر عليها حتى أخذ البلد، وكان فيه مسلمون مقيمون وقاض يحكم بينهم، وقوتلت القلعة قتالاً شديداً، ثم سلمت بالأمان في يوم السبت تاسع عشر جمادى الأولى من السنة، وأقام عليها إلى الثالث والعشرين منه.
ثم سار عنها إلى اللاذقية، وكان نزوله عليها يوم الخميس الرابع والعشرين من جمادى الأولى، وهو بلد مليح خفيف على القلب، غير مسور، وله ميناء مشهور، وله قلعتان متصلتان على تل يشرف على البلد. واشتد القتال إلى آخر النهار، فأخذ البلد دون القلعتين، وغنم الناس منه غنيمة عظيمة لأنه كان بلد التجار، وجدوا في أمر القلعتين بالقتال والنقوب حتى بلغ طول النقب ستين ذراعاً وعرضه أربعة أذرع، فلما رأى أهل القلعتين الغلبة لاذوا بطلب الأمان، وذلك في عشية يوم الجمعة الخامس والعشرين من الشهر، والتمسوا الصلح على سلامة نفوسهم وذراريهم ونسائهم وأموالهم، ما خلا الغلال والذخائر والسلاح وآلات الحرب، فأجابهم إلى ذلك، ورفع العلم الإسلامي عليها يوم السبت، وأقام عليها إلى يوم الأحد السابع والعشربن من الشهر.
فرحل عنها إلى صهيون، فنزل عليها يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من الشهر واجتهد في القتال، فأخذ البلد يوم الجمعة ثاني جمادة الآخرة، ثم تقدموا إلى القلعة، وصدقوا القتال، فلما عاينوا الهلاك طلبوا الأمان، فأجابهم إليه بحيث يؤخذ من الرجل عشرة دنانير ومن المرأة خمسة دنانير ومن كل صغير ديناران، الذكر والأنثى سواء. وأقام السلطان بهذه الجهة حتى أخذ عدة قلاع منها بلاطنس وغيرها من الحصون المنيعة المتعلقة بصهيون.
ثم رحل عنها وأتى بكاس وهي قلعة حصينة على العاصي ولها نهر يخرج من تحتها، وكان النزول عليها يوم الثلاثاء سادس جمادى الآخرة، وقاتلوها قتالاً شديداً إلى يوم الجمعة تاسع الشهر، ثم يسر الله فتحها عنوة، فقتل أكثر من بها وأسر الباقون، وغنم المسلمون جميع ما كان فيها، ولها قليعة تسمى الشغر، وهي في غاية المنعة يعبر إليها منها بجسر وليس عليها طريق، فسلطت المجانيق عليها من جميع الجوانب، ورأوا أنهم لا ناصر لهم فطلبوا الأمان، وذلك يوم الثلاثاء ثالث عشر الشهر، ثم سألوا المهلة ثلاثة أيام فأمهلوا، وكان تمام فتحها وصعود العلم السلطاني على قلتها يوم الجمعة سادس عشر الشهر.
ثم سار إلى برزيه، وهي من الحصون المنيعة في غاية القوة يضرب بها المثل في بلاد الفرنج تحيط بها أودية من جميع جوانبها، وعلوها خمسمائة ونيف وسبعون ذراعاً، وكان نزوله عليها يوم السبت الرابع والعشرين من الشهر، ثم أخذها عنوة يوم الثلاثاء السابع والعشرين منه.
ثم سار إلى دربساك فنزل عليها يوم الجمعة ثامن رجب، وهي قلعة منيعة، وقاتلها قتالاً شديداً، ورقي العلم الإسلامي عليها يوم الجمعة الثاني والعشرين من رجب، وأعطاها الأمير علم الدين سليمان بن جندر، وسار عنها بكرة يوم السبت الثالث والعشرين من الشهر.
ونزل على بغراس، وهي قلعة حصينة بالقرب من أنطاكية، وقاتلها مقاتلة شديدة، وصعد العلم الإسلامي عليها في ثاني شعبان. وراسله أهل أنطاكية في

طلب الصلح، فصالحهم لشدة ضجر العسكر من البيكار، وكان الصلح معهم لا غير، على أن يطلقوا كل أسير عندهم، والصلح إلى سبعة أشهر، فإن جاءهم من ينصرهم، وإلا سلموا البلد.

ثم رحل السلطان، فسأله ولده الملك الظاهر صاحب حلب أن يجتاز به، فأجابه إلى ذلك، فوصل حلب في حادي عشر شعبان وأقام بالقلعة ثلاثة أيام، وولده يقوم بالضيافة حق القيام.

وسار من حلب، فاعترضه تقي الدين عمر ابن أخيه وأصعده إلى قلعة حماة وصنع له طعاماً، وأحضر له سماعاً من جنس ما تعمل الصوفية، وبات فيها ليلة واحدة، وأعطاه جبلة واللاذقية.

وسار على طريق بعلبك ودخل دمشق قبل شهر رمضان بأيام يسيرة.

ثم سار في أوائل شهر رمضان يريد صفد فنزل عليها، و لم يزل القتال حتى تسلمها بالأمان في رابع عشر شوال.

وفي شهر رمضان المذكور سلمت الكرك، سلمها نواب صاحبها، وخلصوه بذلك، لأنه كان في الأسر من نوبة حطين.

قلت: هكذا ذكره، وهذا لا ينتظم مع ما قبله، فقد تقدم قبل هذا أن البرنس أرناط صاحب الكرك والشوبك أسر في وقعة حطين، ثم قتله السلطان بيده، فيكشف عن ذلك في مكان آخر ليحقق.

"قال": ثم سار إلى كوكب وضايقوها وقاتلوها مقاتلة شديدة، والأمطار متواترة والوحول متضاعفة والرياح عاصفة، والعدو متسلط بعلو مكانه، فلما تيقنوا أَنهم مأخوذون طلبوا الأمان فأجابهم إليه، وتسلمها منهم في منتصف ذي القعدة من السنة.

ثم نزل إلى الغور، وأقام بالمخيم بقية الشهر وأعطى الجماعة دستوراً، وسار مع أخيه العادل يريد زيارة القدس ووداع أخيه لأنه كان متوجهاً إلى مصر، ودخل القدس في ثامن ذي الحجة وصلى بها العيد.

وتوجه في حادي عشر ذي الحجة إلى عسقلان لينظر في أمورها، وأخذها من أخيه العادل، وعوضه عنها الكرك.

ثم مر على بلاد الساحل يتفقد أحوالها، ثم دخل عكا فأقام بها معظم المحرم من سنة خمس وثمانين يصلح أمورها، ورتب بها الأمير بهاء الدين قراقوش والياً وأمره بعمارة سورها.

وسار إلى دمشق فدخلها في مستهل صفر من السنة، واقام بها إلى شهر ربيع الأول من السنة.

ثم خرج إلى شقيف أرنون، وهو موضع حصين فخيك في مرج عيون بالقرب من الشقيف، في سابع عشر شهر ربيع الأول، وأقام أياماً يباشر قتاله كل يوم، والعساكر تتواصل إليه، فلما تحقق صاحب الشقيف أنه لا طاقة له به نزل إليه بنفسه، فلم يشعر به إلا وهو قائم على باب خيمته، فأذن له في دخوله إليه وأكرمه واحترمه، وكان من أكبر الفرنج وعقلائهم، وكان يعرف بالعربية وعنده اطلاع على شيء من التواريخ والاحاديث، وكان حسن التأتي لما حضر بين يدي السلطان وأكل معه الطعام، ثم خلا به وذكر أنه مملوكه وتحت طاعته، وأنه يسلم إليه المكان من غير تعب، واشترط أن يعطى موضعاً يسكنه بدمشق فإنه بعد ذلك لا يقدر على مساكنة الفرنج، وإقطاعاً يقوم به وبأهله، وشروطاً غير ذلك، فأجابه إلى ذلك.

وفي أثناء شهر ربيع الاول وصله الخبر بتسليم الشوبك، وكان السلطان قد أقام عليه جمعاً يحاصرونه مدة سنة كاملة إلى أن نفذ زاد من كان فيه، فسلموه بالأمان.

ثم ظهر للسلطان بعد ذلك أن جميع ما قاله صاحب الشقيف كان خديعة، فرسم عليه.

ثم بلغه أن الفرنج قصدوا عكا، ونزلوا عليها يوم الإثنين ثالث عشر رجب سنة خمس وثمانين. وفي ذلك اليوم سير صاحب الشقيف إلى دمشق بعد الإهانة الشديدة.

وأتى عكا، ودخلها بغتة لتقوى قلوب من بها، وسير استدعى العساكر من كل ناحية فجاءته، وكان العدو بمقدار ألفي فارس وثلاثين ألف راجل، ثم تكاثر الفرنج واستفحل أمرهم وأحاطوا بعكا، ومنعوا من يدخل إليها ويخرج، وذلك يوم الخميس سلخ رجب، فضاق صدر السلطان لذلك، ثم اجتهد في فتح الطريق إليها لتستمر السابلة بالميرة والنجدة، وشاور الامراء فاتفقوا على مضايقة العدو لينفتح الطريق، ففعلوا ذلك، وانفتح الطريق وسلكه

المسلمون، ودخل السلطان عكا فأشرف على أمورها، ثم جرى بين الفريقين مناوشات في عدة أيام، وتأخر الناس إلى تل العياضية، وهو مشرف على عكا. وهي هذه المترلة توفي الأمير حسام الدين طمان – المقدم ذكره في هذه الترجمة – وذلك في ليلة نصف شعبان من سنة خمس وثمانين وخمسمائة، وكان من الشجعان.

ثم إن شيخنا ابن شداد ذكر بعد هذا وقعات ليس لنا غرض في ذكرها، وتطول هذه الترجمة باستيفاء الكلام فيها، إذ ليس الغرض سوى المقاصد لا غير، وإنما ذكرت فتوحات هذه الحصون لأن الحاجة قد تدعو إلى الوقوف على تواريخها، مع أني لم أذكر إلا ما يكثر التطلع إلى الوقوف عليه وأضربت إن الباقي.

قال ابن شداد: سمعت السلطان ينشد وقد قيل له: أن الوخم قد عظم بمرج عكا وإن الموت قد فشا في الطائفتين:

اقتلاني ومالكا واقتلا مالكا معي

يريد بذلك أن قد رضي أن يتلف إذا أتلف اللّه أعداءه.

قلت: وهذا البيت له سبب يحتاج إلى شرح، وذلك أن مالك بن الحارث المعروف بالأشتر النخعي، كان من الشجعان والأبطال المشهورين، وهو من خواص أصحاب علي بن أبي طالب رضي الله عنه، تماسك في يوم وقعة الجمل المشهورة وهو وعبد الله بن الزبير بن العوام، وكان أيضاً من الأبطال، وابن الزبير يومئذ مع خالته عائشة أم المؤمنين وطلحة والزبير رضي الله عنهم أجمعين، وكانوا يحاربون علياً رضي الله عنه، فلما تماسكا صار كل واحد منهما إذا قوي على صاحبه جعله تحته وركب صدره، وفعلا ذلك مراراً، وابن الزبير ينشد:

اقتلاني ومالكا واقتلا مالكا معي

يريد الأشتر النخعي، هذه خلاصة القول في ذلك وإن كانت القصة طويلة، وهي في التواريخ مبسوطة.

وقال عبد الله بن الزبير: لاقيت الأشتر النخعي يوم الجمل. فما ضربته ضربة حتى ضربني ستاً أو سبعاً، ثم أخذ برجلي فألقاني في الخندق وقال: والله لولا قرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما اجتمع منك عضو إلى عضو أبداً.

وقال أبو بكر بن أبي شيبة: أعطت عائشة رضي الله عنها الذي بشرها بسلامة ابن الزبير لما لاقى الأشتر عشرة آلاف درهم.

وقيل أيضاً إن الأشتر دخل على عائشة رضي اللّه عنها بعد وقعة الجمل، فقالت له: يا أشتر أنت الذي أردت قتل ابن أختي يوم الوقعة، فأنشدها:

أعائش، لولا أنني كنت طاويا ثلاثا لألفيت ابن أختك هالكا

غداة ينادي والرماح تنوشه بآخر صوتٍ اقتلوني ومالكا

فنجاه مني أكله وشبابه وخلوة جوف لم يكن متماسكا

وقال زجر بن قيس: دخلت مع عبد الله بن الزبير الحمام، فإذا في رأسه ضربة لو صب فيها قارورة دهن لاستقر، فقال لي: أتدري من ضربني هذه الضربة؟ قلت: لا، قال: ابن عمك الأشتر النخعي.

رجعنا إلى ما كنا عليه: قال ابن شداد: ثم إن الفرنج جاءهم الأمداد من داخل البحر واستظهروا على الجماعة الإسلامية بعكا، وكان فيهم الأمير سيف الدين علي بن أحمد المعروف بالمشطوب الهكاري، والأمير بهاء الدين قراقوش الخادم الصلاحي، وضايقوهم أشد مضايقة إلى أن غلبوا عن حفظ البلد. فلما كان يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة من سنة سبع وثمانين وخمسمائة خرج من عكا رجل عوام، ومعه كتب من المسلمين يذكرون حالهم وما هم فيه، وأنهم قد تيقنوا الهلاك، ومتى أخذوا البلد عنوةً ضربت رقابهم، وأنهم صالحوا على أن يسلموا البلد وجميع ما فيه من الآلات والعدة والأسلحة والمراكب ومائتي ألف دينار، وخمسمائة أسير مجاهيل ومائة أسير معينين من جهتهم وصليب الصلبوت، على أن يخرجوا بأنفسهم سالمين، وما معهم من الأموال والأقمشة المختصة بهم وذراريهم ونسائهم، وضمنوا للمركيس – لأنه كان الواسطة في هذا الأمر – أربعة آلاف دينار، ولما وقف السلطان على الكتب المشار إليها انكر ذلك إنكاراً عظيماً وعظم عليه الأمر، وجمع أهل الرأي من أكابر دولته وشاورهم فيما يصنع، واضطربت آراؤه

وتقسم فكره وتشوش حاله، وعزم على أن يكتب في تلك الليلة مع العوام وينكر عليهم المصالحة على هذا الوجه، وهو يتردد في هذا، فلم يشعر إلا وقد ارتفعت اعلام العدو وصلبانه وناره وشعاره على سور البلد، وذلك في ظهيرة يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة من السنة، وصاح الفرنج صيحة عظيمة واحدة، وعظمت المصيبة على المسلمين واشتد حزنهم، ووقع فيهم الصياح والعويل والبكاء والنحيب.

ثم ذكر ابن شداد بعد هذا أن الفرنج خرجوا من عكا قاصدين عسقلان ليأخذوها، وساروا على الساحل، والسلطان وعساكره في قبالتهم، إلى أن وصلوا إلى أرسوف، فكان بينهما قتال عظيم، ونال المسلمين منه وهن شديد، ثم ساروا على تلك الهيئة تتمة عشر منازل من مسيرهم من عكا، فأتى السلطان الرملة، وأتاه من اخبره بأن القوم على عزم عمارة يافا وتقويتها بالرجال والعدد والآلات، فأحضر السلطان أرباب مشورته وشاورهم في أمر عسقلان وهل الصواب خرابها ام بقاؤها؟ فاتفقت آراؤهم أن يبقى الملك العادل في قبالة العدو، ويتوجه هو بنفسه ويخربها خوفاً من أن يصل العدو إليها ويستولي عليها وهي عامرة، ويأخذ بها القدس وتنقطع بها طريق مصر. وامتنع العسكر من الدخول وخافوا مما جرى على المسلمين بعكا، ورأوا أن حفظ القدس أولى، فتعين خرابها من عدة جهات، وكان هذا الاجتماع يوم الثلاثاء سابع عشر شعبان سنة سبع وثمانين وخمسمائة، فسار إليها سحرة الأربعاء ثامن عشر الشهر. قال ابن شداد: وتحدث معي في معنى خرابها بعد أن تحدث مع ولده الملك الأفضل في أمرها أيضاً ثم قال: لأن أفقد ولدي جميعهم أحب إلي من أن أهدم منها حجراً، ولكن إذا قضى الله تعالى ذلك وكان فيه مصلحة للمسلمين فما الحيلة في ذلك؟ قال: ولما اتفق الرأي على إخرابها أوقع الله تعالى في نفسه ذلك، وان المصلحة فيه، لعجز المسلمين عن حفظها. وشرع في إخرابها سحرة يوم الخميس التاسع عشر من شعبان من السنة، وقسم السور على الناس، وجعل لكل أمير وطائفة من العسكر بدنةً معلومة وبرجاً معيناً يخربونه، ودخل الناس البلد ووقع فيهم الضجيج والبكاء، وكان بلداً خفيفاً على القلب محكم الأسوار عظيم البناء، مرغوباً في سكنه، فلحق الناس على خرابه حزن عظيم، وعظم عويل أهل البلد عليه لفراق أوطانهم، وشرعوا في بيع ما لا يقدرون على حمله، فباعوا ما يساوي عشرة دراهم بدرهم واحد وباعوا اثني عشر طير دجاج بدرهم واحد، واختبط البلد، وخرج الناس بأهلهم وأولادهم إلى المخيم وتشتتوا، فذهب قوم منهم إلى مصر وقوم إلى الشام، وجرت عليهم أمور عظيمة، واجتهد السلطان وأولاده في خراب البلد كي لا يسمع العدو فيسرع إليه ولا يمكن من إخرابه، وبات الناس على أصعب حال وأشد تعب مما قاسوه في خرابها. وفي تلك الليلة وصل من جانب الملك العادل من أخبر أن الفرنج تحدثوا معه في الصلح وطلبوا جميع البلاد الساحلية، فرأى السلطان أن ذلك مصلحة لما علم من نفس الناس من الضجر من القتال وكثرة ما عليهم من الديون، وكتب إليه يأذن له في ذلك، وفوض الأمر إلى رأيه، وأصبح يوم الجمعة العشرين من شعبان وهو مصرٌّ على الخراب، واستعمل الناس عليه وحثهم على العجلة فيه، وأباحهم ما في الهري الذي كان مدخراً للميرة خوفاً من هجوم الفرنج والعجز عن نقله. وأمر بإحراق البلد فأضرمت النيران في بيوته. وكان سورها عظيماً، ولم يزل الخراب يعمل في البلد إلى سلخ شعبان من السنة، وأصبح يوم الإثنين مستهل شهر رمضان أمر ولده الملك الأفضل أن يباشر ذلك بنفسه وخواصه، ولقد رأيته يحمل الخشب بنفسه لأجل الإحراق.

وفي يوم الأربعاء ثالث شهر رمضان أتى الرملة ثم خرج إلى لد، وأشرف عليها وأمر بإخرابها وإخراب قلعة الرملة، ففعل ذلك، وفي يوم السبت ثالث عشر شهر رمضان تأخر السلطان بالعسكر إلى جهة الجبل ليتمكن الناس من تسيير دوابهم لإحضار ما يحتاجون إليه، ودار السلطان حول النطرون، وهي قلعة منيعة، فأمر بإخرابها، وشرع الناس في ذلك.

ثم ذكر ابن شداد بعد هذا أن الانكتار، وهو من أكابر ملوك الفرنج، سير رسوله إلى الملك العادل يطلب الاجتماع به، فأجابه إلى ذلك واجتمعا يوم الجمعة ثامن عشر شوال من السنة وتحادثا معظم ذلك النهار، وانفصلا عن مودة اكيدة، والتمس الانكتار من العادل أن يسأل السلطان أن يجتمع به، فذكر العادل ذلك للسلطان، فاستشار أكابر دولته في ذلك، ووقع الاتفاق على انه جرى الصلح بيننا يكون الاجتماع بعد ذلك، ثم وصل رسول الانكتار، وقال: إن الملك يقول: إني أحب صداقتك ومودتك، وأنت تذكر أنك أعطيت هذه البلاد الساحلية لأخيك، فأريد أن تكون حكماً بيني وبينه وتقسم البلاد بيني وبينه ولا بد أن يكون لنا علقة بالقدس، وأطال الحديث في ذلك، فأجابه السلطان بوعد جميل، وأذن له في العود في الحال

وتأثر لذلك تأثراً عظيماً.
قال ابن شداد: وبعد انفصال الرسول قال لي السلطان: متى صالحناهم لم تؤمن غائلتهم، ولو حدث بي حادث الموت ما كانت تجتمع هذه العساكر، وتقوى الفرنج، والمصلحة أن لا نزول عن الجهاد حتى نخرجهم من الساحل أو يأتينا الموت، هذا كان رأيه وإنما غلب على الصلح.
قال ابن شداد: ثم ترددت الرسل بينهم في الصلح، وأطال القول في ذلك فتركته إذ لا حاجة إليه، وجرت بعد ذلك وقعات أضربت عن ذكرها لطول الكلام فيها، وحاصل الأمر أنه تم الصلح بينهم، وكانت الأيمان يوم الأربعاء الثاني والعشرين من شعبان سنة ثمان وثمانين وخمسمائة، ونادى المنادي بانتظام الصلح، وان البلاد الإسلامية والنصرانية واحدة في الأمن والمسالمة، فمن شاء من كل طائفة يتردد إلى بلاد الطائفة الأخرى من غير خوف ولا محذور، وكان يوماً مشهوداً نال الطائفتين فيه من المسرة ما لا يعلمه إلا الله تعالى. وقد علم الله تعالى أن الصلح لم يكن عن مرضاته وإيثاره، ولكنه رأى المصلحة في الصلح لسآمة العسكر ومظاهرتهم بالمخالفة، وكان مصلحةً في علم الله تعالى، فإنه اتفقت وفاته بعد الصلح، فلو اتفق ذلك في أثناء وقعاته كان الإسلام على خطر.
ثم أعطى للعساكر الواردة عليه من البلاد البعيدة برسم النجدة دستوراً فساروا عليه، وعزم على الحج لما فرغ باله من هذه الجهة. وتردد المسلمون إلى بلادهم، وجاءوا هم إلى بلاد المسلمين، وحملت البضائع والمتاجر إلى البلاد، وحضر منهم خلق كثير لزيارة القدس.
وتوجه السلطان إلى القدس ليتفقد احوالها، واخوه الملك العادل إلى الكرك، وابنه الملك الظاهر إلى حلب، وابنه الأفضل إلى دمشق. وأقام السلطان بالقدس يقطع الناس ويعطيهم دستوراً، ويتأهب للمسير إلى الديار المصرية، وانقطع شوقه عن الحج، و لم يزل كذلك إلى أن صح عنده مسير مركب الانكتار متوجها إلى بلاده في مستهل شوال، فعند ذلك قوي عزمه أن يدخل الساحل جريدة يتفقد القلاع البحرية إلى بانياس، ويدخل دمشق ويقيم بها أياماً قلائل، ويعود إلى القدس ومنه إلى الديار المصرية.
قال شيخنا ابن شداد: وأمرني بالمقام في القدس إلى حين عوده لعمارة مارستان أنشأه به، وتكميل المدرسة التي أنشأها فيه. وسار منه ضاحي نهار الخميس السادس من شوال سنة ثمان وثمانين وخمسمائة. ولما فرغ من افتقاد أحوال القلاع وإزاحة خللها دخل دمشق بكرة الأربعاء سادس عشر شوال، وفيها أولاده: الملك الأفضل، والملك الظاهر، والملك الظافر مظفر الدين الخضر المعروف بالمشمر، وأولاده الصغار. وكان يحب البلد ويؤثر الإقامة فيه على سائر البلاد. وجلس للناس في بكرة يوم الخميس السابع والعشرين منه، وحضروا عندهم وبلوا شوقهم منه، وأنشده الشعراء، و لم يتخلف أحد عنه من الخاص والعام، وأقام ينشر جناح عدله ويهطل سحاب إنعامه وفضله، ويكشف مظالم الرعايا. فلما كان يوم الاثنين مستهل ذي القعدة عمل الملك الأفضل دعوة للملك الظاهر، لانه لما وصل إلى دمشق وبلغه حركة السلطان أقام بها ليتملى بالنظر إليه ثانياً، وكأن نفسه كانت قد أحست بدنو أجله، فودعه في تلك الدفعة مراراً متعددة. ولما عمل الملك الأفضل الدعوة أظهر فيها من الهمم العالية ما يليق بهمته، وكأنه أراد بذلك مجازاته عما خدمه به حين وصل إلى بلده، وحضر الدعوة المذكورة أرباب الدنيا والآخرة،وسأل السلطان الحضور فحضر جبراً لقلبه، وكان يوماً مشهوداً على ما بلغني.

ولما تصفح الملك العادل أحوال الكرك وأصلح ما قصد إصلاحه فيه، سار قاصداً إلى البلاد الفراتية، فوصل إلى دمشق في يوم الأربعاء سابع عشر ذي القعدة وخرج السلطان إلى لقائه، وأقام يتصيد حوالي غباغب إلى الكسوة حتى لقيه،وسارا جميعاً يتصيدان. وكان دخولهما إلى دمشق آخر نهار يوم الأحد حادي عشر ذي الحجة سنة ثمان وثمانين، وأقام السلطان بدمشق يتصيد هو وأخوه وأولاده، ويتفرجون في أراضي دمشق ومواطن الصبا، وكأنه وجد راحة مما كان به من ملازمة التعب والنصب وسهر الليل، وكان ذلك كالوداع لأولاده ومراتع نزهه، ونسي عزمه إلى مصر، وعرضت له أمور أخرى وعزمات غير ما تقدم.
قال ابن شداد: ووصلني كتابه إلى القدس يستدعيني لخدمته، وكان شتاء شديداً ووحلاً عظيماً، فخرجت من القدس في يوم الجمعة الثالث والعشرين من المحرم سنة تسع وثمانين، وكان الوصول إلى دمشق في يوم الثلاثاء ثاني عشر صفر من السنة. وركب السلطان لملتقى الحاج يوم الجمعة خامس عشر صفر، وكان ذلك آخر ركوبه.

ولما كان ليلة السبت وجد كسلاً عظيماً، وما تنصف الليل حتى غشيته حمى صفراوية، وكانت في باطنه أكثر منها في ظاهره، وأصبح يوم السبت متكسلاً عليه أثر الحمى، ولم يظهر ذلك للناس، لكن حضرت عنده أنا والقاضي الفاضل، ودخل ولده الملك الأفضل وطال جلوسنا عنده، وأخذ يشكو قلقه في الليل، وطاب له الحديث إلى قريب الظهر، ثم انصرفنا وقلوبنا عنده، فتقدم إلينا بالحضور على الطعام في خدمة ولده الملك الأفضل ولم تكن للقاضي الفاضل في ذلك عادة فانصرف، ودخلت إلى الإيوان القبلي وقد مد السماط، وابنه الملك الأفضل قد جلس في موضعه، فانصرفت. وما كانت لي قوة في الجلوس استيحاشاً له، وبكى في ذلك اليوم جماعة تفاؤلاً لجلوس ولده في موضعه. ثم أخذ المرض يتزيد من حينئذ ونحن نلازم التردد طرفي النهار، وندخل إليه أنا والقاضي الفاضل في النهار مراراً، وكان مرضه في رأسه، وكان من أمارات انتهاء العمر غيبة طبيبه الذي كان قد عرف مزاجه سفراً وحضرا، ورأى الأطباء فصده ففصدوه في الرابع فاشتد مرضه وقلت رطوبات بدنه، وكان يغلب عليه اليبس، ولم يزل المرض يتزايد حتى انتهى إلى غاية الضعف. واشتد مرضه في السادس والسابع والثامن، ولم يزل يتزايد ويغيب ذهنه. ولما كان التاسع حدثت له غشية وامتنع من تناول المشروب واشتد الخوف في البلد، وخاف الناس ونقلوا أقمشتهم من الأسواق، وعلا الناس من الكآبة والحزن ما لا تمكن حكايته. ولما كان العاشر من مرضه حقن دفعتين، وحصل من الحقن بعض الراحة وفرح الناس بذلك، ثم اشتد مرضه وأيس منه الأطباء،ثم شرع الملك الأفضل في تحليف الناس.

ثم إنه توفي بعد صلاة الصبح من يوم الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة. وكان يوم موته يوماً لم يصب الإسلام والمسلمون بمثله منذ فقد الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم، وغشي القلعة والملك والدنيا وحشة لا يعلمها إلا الله تعالى. وبالله لقد كنت أسمع من الناس أنهم يتمنون فداء من يعز عليهم بنفوسهم، وكنت أتوهم أن هذا الحديث على ضرب من التجوز والترخص، إلى ذلك اليوم فإني علمت من نفسي ومن غيري أنه لو قبل الفداء لفدي بالأنفس.

ثم جلس ولده الملك الأفضل للعزاء، وغسله الدولعي.

قلت: الدولعي المذكور، هو ضياء الدين أبو القاسم عبد الملك بن زيد بن ياسين بن زيد بن قائد بن جميل التغلبي الأرقمي الدولعي الشافعي، خطيب جامع دمشق. توفي في ثاني عشر شهر ربيع الأول سنة ثمان وتسعين وخمسمائة وسئل عن مولده فقال: في سنة سبع وخمسمائة، ثم ذكر غير هذا، والله أعلم؛ ودفن بمقابر الشهداء بباب الصغير.

قال: وأخرج بعد صلاة الظهر، رحمه الله، في تابوت مسجى بثوب فوط، فارتفعت الأصوات عند مشاهدته وعظم الضجيج وأخذ الناس في البكاء والعويل، وصلوا عليه أرسالاً، ثم أعيد إلى الدار التي في البستان، وهي التي كان متمرضاً بها، ودفن في الضفة الغربيةمنها، وكان نزوله في حفرته قريباً من صلاة العصر.

ثم أطال ابن شداد القول في ذلك فحذفته خوفاً من الملالة، وأنشد في آخر "السيرة" بيت أبي تمام الطائي، وهو:

ثم انقضت تلك السنون وأهلها ... فكأنها وكأنهم أحلام

رحمه الله تعالى وقدس روحه، فلقد كان من محاسن الدنيا وغرائبها.

وذكر سبط ابن الجوزي في تاريخه في سنة ثمان وسبعين وخمسمائة ما مثاله: وفي خامس المحرم خرج صلاح الدين من مصر، فنزل البركة قاصداً الشام، وخرج أعيان الدولة لوداعه، وانشده الشعراء أبياتاً في الوداع، فسمع قائلاً يقول في ظاهر الخيمة:

تمتع من شميم عرار نجد ... فما بعد العشية من عرار

فطلب القائل فلم يوجد، فوجم السلطان وتطير الحاضرون، فكان كما قال، فإنه اشتغل ببلاد الشرق والفرنج، ولم يعد بعدها إلى مصر.

قلت: وهذا البيت من جملة أبيات في "الحماسة" في باب النسيب.

وذكر شيخنا عز الدين ابن الأثير في تاريخه الكبير هذه القضية على صورة أخرى، فقال: ومن عجيب ما يحكى من التطير أنه لما برز عن القاهرة أقام بخيمته حتى تجتمع العساكر، وعنده أعيان دولته والعلماء وأرباب الآداب، فمن بين مودع له وسائر معه، وكل واحد منهم يقول شيئاً في الوداع

والفراق، وفي الحاضرين معلم لبعض أولاده، فأخرج رأسه من بين الحاضرين، وأنشد هذا البيت، فانقبض صلاح الدين وتطير بعد انبساطه وتنكد المجلس على الحاضرين، فلم يعد إليها إلى أن مات مع طول المدة.

وذكر ابن شداد أيضاً في أوائل "السيرة" أنه مات و لم يخلف في خزانته من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهماً ناصرية، وجرماً واحداً ذهباً صورياً، و لم يخلف ملكا: لا داراً ولا عقاراً ولا بستاناً ولا قرية ولامزرعة.

وفي ساعة موته كتب القاضي الفاضل إلى ولده الملك الظاهر صاحب حلب بطاقة مضمونها "لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة" –الأحزاب 21 – "إن زلزلة الساعة شيء عظيم" –الحج: 1 – كتبت إلى مولانا السلطان الملك الظاهر أحسن الله عزاءه وجبر مصابه، وجعل فيه الخلف في الساعة المذكورة، وقد زلزل المسلمون زلزالاً شديداً، وقد حفرت الدموع المحاجر، وبلغت القلوب الحناجر، وقد ودعت أباك ومخدومي وداعاً لا تلاقي بعده، وقد قبلت وجهه عني وعنك، وأسلمته إلى الله تعالى مغلوب الحيلة ضعيف القوة، راضياً عن الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وبالباب من الجنود المجندة والأسلحة المعدة ما لم يدفع البلاء، ولا ملك يرد القضاء، وتدمع العين ويخشع القلب، ولا نقول إلا ما يرضي الرب وإنا عليك لمحزونون يا يوسف.

وأما الوصايا فما تحتاج إليها، والآراء فقد شغلني المصاب عنها، وأما لائح الأمر فإنه إن وقع اتفاق فما عدمتم إلا شخصه الكريم، وإن كان غيره فالمصائب المستقبلة أهونها موته وهو الهول العظيم، والسلام ".

قلت: لله دره، فلقد أبدع في هذه الرسالة الوجيزة، مع ما تضمنته من المقاصد السديدة، في مثل تلك الحالة التي يذهل فيها الإنسان عن نفسه.

قلت: وقد ذكرت كل واحد من أولاده المذكورين، وهم الأفضل والظاهر والعزيز في ترجمة مستقلة، وعينت تاريخ مولده وموته، سوى الملك الظافر المشهور بالمشمر، فإني لم أذكر له ترجمة مستقلة، وقد ذكرته ها هنا فيحتاج إلى ذكر شيء من أحواله، فأقول: لقبه مظفر الدين وكنيته أبو الدوام، وأبو العباس الخضر، وإنما قيل له المشمر لأن أباه، رحمه الله تعالى، لما قسم البلاد بين أولاده الكبار قال: وأنا مشمر، فغلب عليه هذا اللقب. وكان مولده بالقاهرة في سنة ثمان وستين وخمسمائة، في خامس شعبان، وهو شقيق الملك الأفضل، وتوفي في جمادى الأولى سنة سبع وعشرين وستمائة بحران، عند ابن عمه الملك الأشرف ابن الملك العادل، و لم يكن الأشرف يومئذ ملكاً وإنما كان مجتازاً بها عند دخوله بلاد الروم لأجل الخوارزمية.

قال غير ابن شداد: ثم إن السلطان صلاح الدين، رحمه الله تعالى، بقي مدفوناً بقلعة دمشق إلى أن بنيت له قبة في شمالي الكلاسة التي هي شمالي جامع دمشق، ولها بابان أحدهما إلى الكلاسة والآخر في زقاق غير نافذ، وهو مجاور المدرسة العزيزية – قلت: ولقد دخلت إلى هذه القبة من الباب الذي في الكلاسة، وقرأت عنده وترحمت عليه، وأحضر لي القيم ومتولي القبة بقجة فيها ملبوس بدنه وكان في جملته قباء أصفر قصير ورأس كميه بأسود فتبركت به – قال: ثم نقل من مدفنه بالقلعة إلى هذه القبة في يوم عاشوراء، وكان الخميس من سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة، ورتب عنده القراء ومن يخدم المكان. ثم إن ولده الملك العزيز عماد الدين عثمان – المقدم ذكره – لما أخذ دمشق من أخيه الملك الأفضل بنى إلى جانب هذه القبة المدرسة العزيزية، ووقف عليها وقفاً جيداً. وللقبة المذكورة شباك إلى هذه المدرسة، وهي من أعيان مدارس دمشق.

وزرت قبره في أول جمعة من شهر رمضان سنة ثمانين وستمائة فقرأت على صندوق قبره بعد تاريخ وفاته ما مثاله: اللهم فارض عن تلك الروح، وافتح له أبوب الجنة فهي آخر ما كان يرجوه من الفتوح، وذكر قيم المكان أن هذا من كلام القاضي الفاضل.

قلت: ولما ملك السلطان صلاح الدين الديار المصرية لم يكن بها شيء من المدارس، فإن الدولة المصرية كان مذهبها مذهب الإمامية، فلم يكونوا يقولون بهذه الأشياء، فعمر في القرافة الصغرى المدرسة المجاورة لضريح الإمام الشافعي رضي الله عنه – وقد تقدم ذكرها في ترجمة نجم الدين الخبوشاني –وبنى مدرسة بالقاهرة في جوار المشهد المنسوب إلى الحسين بن علي رضي الله عنهما، وجعل عليها وقفاً كبيراً، وجعل دار سعيد السعداء خادم المصريين خانقاه، ووقف عليها وقفاً طائلاً، وجعل دار عباس المذكور في ترجمة الظافر العبيدي والعادل ابن السلار مدرسة للحنفية، وعليها وقف جيد أيضاً، والمدرسة التي بمصر المعروفة بزين التجار وقفاً على الشافعية ووقفها جيد أيضاً، وبنى بالقاهرة داخل القصر مارستانا، وله وقف جيد، وله بالقدس مدرسة أيضاً، وقفها كثير، وخانقاه بها أيضاً، وله بمصر مدرسة للمالكية.

ولقد فكرت في نفسي في أمور هذا الرجل وقلت: إنه سعيد في الدنيا والآخرة، فإنه فعل في الدنيا هذه الأفعال المشهورة من الفتوحات الكبيرة وغيرها،

ورتب هذه الأوقاف العظيمة، وليس فيها شيء منسوباً إليه في الظاهر، فإن المدرسة التي في القرافة ما يسميها الناس إلا بالشافعي، والمجاورة للمشهد لا يقولون إلا المشهد، والخانقاه لا يقولون إلا خانقاه سعيد السعداء، والمدرسة الحنفية لا يقولون أيضاً إلا مدرسة السيوفية، والتي بمصر لا يقولون إلا مدرسة زين التجار، والتي بمصر مدرسة المالكية، وهذه صدقة السر على الحقيقة. والعجب أن له بدمشق في جوار البيمارستان النوري مدرسة يقال لها الصلاحية فهي منسوبة إليه وليس لها وقف، وله بها مدرسة للمالكية أيضاً ولا تعرف به، وهذه النعم من ألطاف الله تعالى به.

وكان، مع هذه المملكة المتسعة والسلطنة العظيمة، كثير التواضع واللطف قريباً من الناس رحيم القلب كثير الاحتمال والمداراة، وكان يحب العلماء وأهل الخير ويقربهم ويحسن إليهم، وكان يميل إلى الفضائل، ويستحسن الأشعار الجيدة، ويرددها في مجالسه، حتى قيل إنه كان كثيراً ما ينشد قول أبي منصور محمد بن الحسين بن أحمد بن الحسين بن إسحاق الحميري، وقيل إنها لأبي محمد أحمد بن علي بن خيران العامري، وكان أميراً بالمرية من بلاد الأندلس، وكان جده خيران من سبي المنصور بن أبي عامر فنسب إليه، والله أعلم، وهي هذه:

وزارني طيف من أهوى على حذر ... من الوشاة وداعي الصبح قد هتفا

فكدت أوقظ من حولي به فرحاً ... وكاد يهتك ستر الحب بي شغفا

ثم انتبهت وآمالي تخيل لي ... نيل المنى فاستحالت غبطتي أسفا

وقيل إنه كان أيضاً يعجبه قول نشؤ الملك أبي الحسن علي بن مفرج المعروف بابن المنجم المعري الأصل المصري الدار والوفاة، وهو في خضاب الشيب، ولقد أحسن فيه:

وما خضب الناس البياض لقبحه ... وأقبح منه حين يظهر ناصله

ولكنه مات الشباب فسودت ... على الرسم من حزن عليه منازله

قالوا: فكان إذا قال ولكنه مات الشباب يمسك كريمته وينظر إليها ويقول: أي والله مات الشباب.

وذكر العماد الكاتب الأصبهاني في كتاب "الخريدة" أن السلطان صلاح الدين في أول ملكه كتب إلى بعض أصحابه بدمشق هذين البيتين:

أيها الغائبون عنا وإن كن ... تم لقلبي بذكركم جيرانا

إنني مذ فقدتكم لأراكم ... بعيون الضمير عندي عيانا

وأما القصيدتان اللتان ذكرت أن سبط ابن التعاويذي أنفذهما إليه من بغداد، فإن إحداهما وازن بها قصيدة صردر - المقدم ذكره - وقد ذكرت منا أبياتاً في ترجمة الوزير الكندري، وأولها:

أكذا يجازى ود كل قرين

وقصيدة سبط ابن التعاويذي أولها:

إن كان دينك في الصبابة ديني ... فقف المطي برملتي يبرين

والثم ثرى لو شارفت بي هضبه ... أيدي المطي لثمته بجفوني

وانشد فؤادي في الظباء معرضاً ... فبغير غزلان الصريم جنوني

ونشيدتي بين الخيام، وإنما ... غالطت عنها بالظباء العين

لولا العدا لم أكن عن ألحاظها ... وقدودها بجوازىءٍ وغصون

لله ما اشتملت عليه قبابهم يوم النوى من لؤلؤ مكنون
من كل تائهة على أترابها في الحسن غانية عن التحسين
خود ترى قمر السماء إذا بدت ما بين سالفة لها وجبين
غادين ما لمعت بروق ثغورهم إلا استهلت بالدموع شؤوني
إن تنكروا نفس الصبا فلأنها مرت بزفرة قلبي المحزون
وإذا الركائب في الحبال تلفتت فحنينها لتلفتي وحنيني
يا سلم إن ضاعت عهودي عندكم فأنا الذي استودعت غير أمين
أو عدت مغبوناً فما أنا في الهوى لكم بأول عاشق مغبون
رفقاً فقد عسف الفراق بمطلق ال عبرات في أسر الغرام رهين
ما لي ووصل الغانيات أرومه ولقد بخلن علي بالماعون
وعلام أشكو والدماء مطاحة بلحاظهن إذا لوين ديوني
هيهات ما للبيض في ود امرىء أرب وقد أربى على الخمسين
ومن البلية أن تكون مطالبي جدوى بخيل أو وفاء خؤون
ليت الضنين على المحب بوصله لقن السماحة من صلاح الدين

وأما القصيدة الثانية فهي:

حتام أرضى في هواك وتغضب وإلى متى تجني علي وتعتب
ما كان لي لولا ملالك زلة لما مللت زعمت أني مذنب
خذ في أفانين الصدود فإن لي قلباً على العلات لا يتقلب
أتظنني أضمرت بعدك سلوة هيهات عطفك من سلوي أقرب
لي فيك نار جوانح ما تنطفي حرقاً وماء مدامع ما تنضب
أنسيت أياماً لنا ولياليا للهو فيها والبطالة ملعب
أيام لا الواشي يعد ضلالة ولهي عليك ولا العذول يؤنب
قد كنت تنصفني المودة راكباً في الحب من اخطاره ما أركب
واليوم أقنع أن يمر بمضجعي في النوم طيف خيالك المتأوب
ما خلت أن جديد أيام الصبا يبلى ولا ثوب الشبيبة يسلب
حتى انجلى ليل الغواية واهتدى ساري الدجى وانجاب ذاك الغيهب

وتنافر البيض الحسان فأعرضت عني سعاد وأنكرتني زينب
قالت وريعت من بياض مفارقي ونحول جسمي: بان منك الأطيب
إن تنقمي سقمي فخصرك ناحل أو تنكري شيبي فثغرك أشنب

قلت: لله دره، فلقد أجاد في هذا المعنى كل الإجادة، غير أنه قد ظن أن الشنب بياض الثغر، وعليه بنى هذا المعنى حتى تم له مقصوده، فإنها لما عيرته بالسقم قابلها بنحول الخصر، فقال لها: إن كنت نحيلاً فخصرك أيضاً نحيل، فلما أنكرت شيبه قابلها بأن ثغرها أشنب، فكأنه قال لها: بياض شيبي في مقابلة ثغرك الأشنب، وليس الأمر كما ظن، فإن الشنب في اللغة ليس البياض، وإنما هو حدة الأسنان، ويقال: بردها وعذوبتها، والصحيح أنه حدتها، وهو دليل على الحداثة، لأن الأسنان في أول طلوعها تكون حادة، فإذا مرت عليها السنون احتكت وذهبت حدتها. وهذا المعنى ينظر إلى قول النابغة الذبياني في جملة قصيدته المشهورة وهو:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

وقد تقدم ذكر هذا البيت في ترجمة عروة بن الزبير فيكشف هناك. ومثله أيضاً ما أنشدني بهاء الدين زهير بن محمد الكاتب – المقدم ذكره – لنفسه من جملة أبيات، وهو قوله:

ما فيه من عيب سوى فتور عينيه فقط

رجع:

يا طالباً بعد المشيب غضارة من عيشه ذهب الزمان المذهب
أتروم بعد الأربعين تعدها وصل الدمى؟ هيهات عز المطلب
ومن السفاه وقد شآك طلابه يفعاً تطلبه وفودك أشيب
لولا الهوى العذري يا دار الهوى ما هاج لي طرباً وميض خلب
كلا ولا استجديت أخلاف الحيا وندى صلاح الدين هام صيب

وقد مدحه جميع شعراء عصره وانتجعوه من البلاد؛ فمنهم العلم الشاتاني، واسمه الحسن – وقد تقدم ذكره – مدحه بقصيدته الرائية التي أولها:

أرى النصر مقروناً برايتك الصفرا فسر واملك الدنيا فأنت بها أحرى

ومدحه المهذب أبو حفص عمر بن محمد بن علي بن أبي نصر المعروف بابن الشحنة الموصلي الشاعر المشهور بقصيدته التي أولها:

سلام مشوق قد براه التشوق على جيرة الحي الذين تفرقوا

وعدة أبياتها مائة وثلاثة عشر بيتاً، وفيها البيتان السائران، أحدهما:

وإني امرؤ أحببتكم لمكارم سمعت بها، والأذن كالعين تعشق

وقد أخذه من قول بشار بن برد – المقدم ذكره – وهو:

يا قوم أذني لبعض الحي عاشقة والأذن تعشق قبل العين أحيانا

والبيت الثاني من قصيدة ابن الشحنة قوله:

وقالت لي الآمال إن كنت لاحقاً بأبناء أيوب فأنت الموفق

"ومما قيل فيه لبعض أهل المشرق:

الله اكبر، جاء القوس باريها	ورام أسهم دين الله راميها
فكم لمصر على الأمصار من شرف	باليوسفين فهل أرض تدانيها
فبإبن يعقوب هزت جيدها طربا	وبابن أيوب هزت عطفها تيها
قل للملوك تخلى عن ممالكها	فقد أتي آخذ الدنيا ومعطيها

فلما أنشدها إياه أعطاه ألف دينار".

ومدحه ابن قلاقس وابن الذروي وابن المنجم وابن سناء الملك وابن الساعاتي والبحراني الإربلي، وابن دهن الحصى الموصلي، ومحمد بن إسماعيل بن حمدان الحيزاني وغير هؤلاء، وقد ذكرت أكثر هذه الجماعة في هذا التاريخ. وعذري في تطويل هذه الترجمة قول المتنبي:

وقد أطال ثنائي طول لابسه	إن الثناء على التنبال تنبال

التنبال: الرجل القصير، وهو بكسر التاء المثناة من فوقها وبعدها نون ساكنة وباء موحدة وبعد الألف لام.

قلت: قد تقدم في هذه الترجمة عند ذكر إرسال العاضد إلى صلاح الدين وطلبه إياه ليخلع عليه ويوليه الوزارة ذكر المثل المشهور، وهو "أردت عمراً وأراد الله خارجة" وقد يقف عليه من لا يعرف سبب هذا المثل، ولا المراد منه، فأحببت أن أشرحه كيلا يحتاج من يقف عليه إلى كشفه من مكان آخر، فأقول:

عمرو المذكور هو عمرو بن العاصي بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سعد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي القرشي السهمي، كنيته أبو عبد الله، وقيل أبو محمد، أحد الصحابة رضي الله عنهم، أسلم سنة ثمان من الهجرة قبل فتح مكة، ومكة فتحها رسول الله صلى الله عليه وسلم في شهر رمضان من هذه السنة، وقيل بل أسلم بين الحديبية وخيبر، والأول أصح، وقدم هو وخالد بن الوليد المخزومي وعثمان بن طلحة بن أبي طلحة القرشي العبدري على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة مسلمين، فلما دخلوا عليه ونظر إليهم قال لهم: قد رمتكم مكة بأفلاذ كبدها. وقال الواقدي: قدم عمرو بن العاصي مسلماً على رسول الله صلى اله عليه وسلم، قد أسلم عند النجاشي ملك الحبشة، وقدم معه عثمان بن طلحة وخالد بن الوليد، فقدموا المدينة في صفر سنة ثمان من الهجرة، وقيل إنه لم يأت من أرض الحبشة إلا معتقداً الإسلام، وذلك أن النجاشي قال له: يا عمرو، كيف يعزب عنك أمر ابن عمك؟ فوالله إنه لرسول الله حقاً، قال: أتحقق ذلك؟ قال: أي والله، فأطعني، فخرج من عنده مهاجراً إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

وبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم على سرية إلى الشام يدعو أخوال أبيه إلى الإسلام، فبلغ السلاسل من بلاد قضاعة، وهو ماء بأرض جذام، وبذلك سميت تلك الغزوة "ذات السلاسل" وكان معه ثلثمائة رجل، فخاف عمرو، فكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستمده، فأمده بجيش مائتي فارس من المهاجرين والأنصار أهل الشرف، فيهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، وأمر عليهم أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه، فلما قدموا على عمرو بن العاصي قال: أنا أميركم وإنما أنتم مددي، فقال أبو عبيدة: بل أنت أمير من معك وأنا أمير من معي، فأبى عمرو، فقال أبو عبيدة، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد إلي إذا قدمت على عمرو فتطاوعا ولا تختلفا، فإن خالفتني أطعتك، قال عمرو: فإني أخالفك، فسلم إليه أبو عبيدة، وصلى خلفه في الجيش كله، وكانوا خمسمائة. وولى رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن العاصي على عمان، فلم يزل عليها حتى قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وفي سنة اثنتي عشرة بعث أبو بكر رضي الله عنه عمرو بن العاصي ويزيد بن أبي سفيان الأموي، وأبا عبيدة بن الجراح، وشرحبيل بن حسنة، إلى الشام، وسار إليهم خالد بن الوليد رضي الله عنه من العراق، وأول شيء فتحوا من الشام بصرى صلحاً. وتوفي أبو بكر رضي الله عنه، واستخلف عمر رضي الله عنه فولى أبو عبيدة على الجيش، وفتح الله تعالى عليه الشام، فولى يزيد بن أبي سفيان على فلسطين، وهي كورة قصبتها الرملة. ولما مات أبو عبيدة استخلف معاذ بن جبل، ومات معاذ فاستخلف يزيد بن أبي سفيان، ومات يزيد فاستخلف أخاه معاوية بن أبي سفيان، وكتب إليه

عمر رضي الله عنه بعهده على ما كان عليه أخوه يزيد، وكان موت هؤلاء كلهم في طاعون عمواس، في سنة ثماني عشرة للهجرة.
وعمواس: بفتح العين المهملة والميم وفي آخرها سين مهملة، وهي قرية بالشام بين نابلس والرملة، وكان الطاعون بها في العام المذكور. وقيل بل مات يزيد بن أبي سفيان في ذي الحجة من سنة تسع عشرة بدمشق، والله أعلم، وذلك بعد فتح قيسارية.
وكان عمر رضي الله عنه قد ولى عمرو بن العاصي بعد موت يزيد بن أبي سفيان فلسطين والأردن، وولى معاوية دمشق وبعلبك والبلقاء، وولى سعيد بن عامر بن حذيم حمص، ثم جمع الشام كلها لمعاوية، وكتب إلى عمرو فسار إلى مصر فافتتحها في سنة عشرين للهجرة، فلم يزل عليها والياً حتى مات عمر رضي الله عنه، فأقره عثمان رضي الله عنه عليها أربع سنين أو نحوها، ثم عزله وولى عبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري، وكان أخا عثمان رضي الله عنه من الرضاعة، فاعتزل عمرو بن العاصي في ناحية فلسطين وكان يأتي المدينة أحياناً.
فلما قتل عثمان رضي الله عنه سار إلى معاوية باستجلاب معاوية إياه، وشهد صفين مع معاوية وكان منه في صفين وقضية التحكيم ما هو مشهور عند أهل العلم بهذا الفن، وكان قد طلب من معاوية أنه إذا تم له الأمر يوليه مصر، وكتب إليه في بعض أيام طلبه:

معاوي لا أعطيك ديني ولم أنل ... به منك دنيا فانظرن كيف تصنع
فإن تعطني مصراً فأربح بصفقة ... أخذت بها شيخاً يضر وينفع

ثم ولاه معاوية مصر، فلم يزل بها أميراً إلى أن مات يوم عيد الفطر من سنة ثلاث وأربعين للهجرة، وقيل سنة اثنتين وأربعين، وقيل سنة ثمان وأربعين، وقيل سنة إحدى وخمسين، والأول أصح، وعمره تسعون سنة، ودفن بسفح المقطم، وصلى عليه ابنه عبد الله. ولما رجع صلى بالناس العيد، ثم عزل معاوية عبد الله بن عمرو بن العاصي، وولى أخاه عتبة بن أبي سفيان، فمات عتبة بعد سنة أو نحوها فولى معاوية مسلمة بن مخلد.
وكان عمرو بن العاصي من فرسان قريش وأبطالهم في الجاهلية، وكان من الدهاة في أمور الدنيا المقدمين في الرأي، وكان عمر رضي الله عنه إذا استضعف رجلاً في رأيه قال: أشهد أن خالقك وخالق عمرو واحد، يريد خالق الأضداد.
وذكر أبو العباس المبرد في كتاب – الكامل – أن عمرو بن العاصي لما حضرته الوفاة دخل عليه ابن عباس رضي الله عنهما، فقال له: يا أبا عبد الله، كنت أسمعك كثيراً ما تقول: وددت لو رأيت رجلاً عاقلاً حضرته الوفاة حتى أسأله عما يجد، فكيف تجد؟ فقال: أجد كأن السماء مطبقة على الأرض وكأني بينهما، وكأنما أتنفس من خرت إبرة، ثم قال: اللهم خذ مني حتى ترضى. فدخل عليه ولده عبد الله فقال له: يا ولدي، خذ ذلك الصندوق قال: لا حاجة لي به، فقال: إنه مملوء مالاً، فقال: لا حاجة لي به، فقال: ليته مملوء بعراً، ثم رفع يديه وقال: اللهم إنك أمرت فعصينا، ونهيت فارتكبنا، فلا بريء فأعتذر، ولا قوي فأنتصر، ولكن لا إله إلا أنت، ثم فاظ.
قلت: يقال فاظ وفاض، بالظاء والضاد، أي مات، قال الشاعر:

لا يدفنون منهم من فاظا

وأما خارجة المذكور في هذا المثل فإنه خارجة بن حذافة بن غانم بن عبد الله بن عوف بن عبيد بن عويج بن عدي بن كعب القرشي العدوي، شهد فتح مصر واختط بمصر، وكان أمير ربع المدد الذين أمد بهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه عمرو بن العاصي في فتح مصر، وكان على شرط مصر في إمرة عمرو بن العاصي لمعاوية بن أبي سفيان الأموي. قتله خارجي بمصر سنة أربعين للهجرة، وهو يحسب انه عمرو بن العاصي، هكذا قاله ابن يونس في " تاريخ مصر ".
وذكره في كتاب "الاستيعاب" لابن عبد البر، وساق نسبه على هذه الصورة. ثم قال: يقال إنه كان يعد بألف فارس؛ ذكر بعض أهل النسب والأخبار أن عمرو بن العاصي كتب إلى عمر رضي الله عنه يستمده بثلاثة آلاف فارس، فأمده بخارجة بن حذافة والزبير بن العوام والمقداد بن الأسود الكندي، وشهد خارجة فتح مصر، وقيل إنه كان قاضياً لعمرو بن العاصي بها، وقيل إنه كان على شرطة عمرو، ولم يزل بها إلى أن قتل، قتله أحد الخوارج الثلاثة الذين كانوا انتدبوا لقتل علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، ومعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاصي، فأراد الخارجي قتل عمرو فقتل خارجة

هذا وهو يظنه عمراً، وذلك أنه كان استخلفه عمرو بن العاصي على صلاة الصبح ذلك اليوم، فلما قتله أخذ وأدخل على عمرو، فقال: من هذا الذي أدخلتموني عليه، فقالوا عمرو بن العاص، فقال: ومن قتلت؟ فقالوا: خارجة، فقال: أردت عمراً وأراد الله خارجة. وقد قيل إن الخارجي الذي قتله لما أدخل على عمرو، قال له عمرو: أردت عمراً وأراد الله خارجة، والله أعلم من قال ذلك منهما. والذي قتل خارجة هذا رجل من بني العنبر بن عمرو بن تميم، يقال له داذويه. وقيل إنه مولى لبني العنبر. وقد قيل إن خارجة الذي قتله الخارجي بمصر، على أنه عمرو بن العاصي، رجل يسمى خارجة من بني سهم رهط عمرو بن العاصي، وليس بشيء؛ انتهى ما قاله صاحب "الاستيعاب".

وقال غيره: إن عمرو بن العاصي أصابه شيء في بطنه فتخلف في منزله تلك الليلة. وكان خارجة يعشي الناس، فضربه الخارجي، وكان عمرو يقول: ما نفعني بطني قط إلا تلك الليلة.

قلت: فهذا أصل المثل في قولهم "أردت عمراً وأراد الله خارجة". وإلى هذا أشار أبو محمد عبد المجيد بن عبدون الأندلسي في قصيدته التي رثى بها بني الأفطس ملوك بطليوس وأولها:

الدهر يفجع بعد العين بالأثر

بقوله:

وليتها إذا فدت عمراً بخارجة ... فدت علياً بمن شاءت من البشر

وهي من غرر القصائد جمعت تاريخاً كثيراً، وشرحها الأديب أبو مروان عبد الملك بن عبد الله بن بدرون الحضرمي الشلبي، شرحاً مستوفى.

وهذا البيت يحتاج إلى شرح أيضاً وهو من تتمة الكلام على المثل المذكور لكني أذكره مختصراً فإنه طويل: ذكر أهل علم التاريخ أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه لما بويع بالخلافة في اليوم الذي قتل فيه عثمان بن عفان رضي الله عنه خرج عليه من قاتله في وقعة الجمل – وقد ذكرت طرفاً من هذه الوقعة في ترجمة يموت بن المزرع، ساقها الكلام هناك فذكرت المقصود منه – ثم كانت وقعة صفين عند خروج معاوية بن أبي سفيان الأموي، وعمرو بن العاصي، على علي بن أبي طالب، رضي الله عنه فتوجه إليهم من العراق، وجاءوه من الشام، والتقوا على صفين، وهو موضع على شاطىء الفرات بالقرب من الرحبة، وهي واقعة مشهورة، وكانت في سنة سبع وثلاثين من الهجرة. ولما غلب أهل الشام طلبوا من علي بن أبي طالب رضي الله عنه التحكيم، فأجابهم إليه بعد معاودات كثيرة، فخرج على علي جماعة من أصحابه، وقالوا حكمت في دين الله، ولا حكم إلا لله، ورحلوا إلى النهروان، فمضى إليهم وقاتلهم واستأصلهم إلا اليسير منهم، وهي أيضاً واقعة مشهورة بقتال الخوارج. ولما طال الأمر في ذلك اجتمعوا وقالوا: إن علياً ومعاوية وعمرو بن العاصي قد أفسدوا أمر هذه الأمة، فلو قتلناهم لعاد الأمر إلى حقه، فقال عبد الرحمن بن ملجم المرادي: أنا أقتل علياً قالوا فكيف لك بذلك؟ قال: أغتاله، وقال الحجاج بن عبد الله الصريمي: أنا أقتل معاوية ويعرف هذا الصريمي بالبرك، وقال داذويه، وقيل زاذويه – وقد تقدم الكلام عليه في الكلام على خارجة بن حذافة –: أنا أقتل عمراً، وأجمعوا آرائهم على أن يكون ذلك في ليلة واحدة، فدخل ابن ملجم الكوفة، وعلي رضي الله عنه بها، فاشترى سيفاً بألف درهم وسقاه السم حتى لفظه. فلما خرج علي لصلاة الصبح كان ابن ملجم قد كمن له فضربه على رأسه وقال: الحكم لله يا علي، لا لك، وقيل إنه ضربه وهو في صلاة الصبح، وذلك في صبيحة الجمعة لسبع عشرة ليلة مضت من شهر رمضان من سنة أربعين للهجرة، وقيل غير هذا التاريخ. وقدم البرك الصريمي على معاوية بدمشق فضربه فجرح أليته، وهو في الصلاة، ويقال إنه قطع عرق النسل، فما أحبل بعدها وأما عمرو فقد سبق الكلام عليه عند قتل خارجة وهذا تفسير المثل والبيت الشعر على سبيل الاختصار، والله أعلم.

الموفق بن الخلال الكاتب

أبو الحجاج يوسف بن محمد المعروف بابن الخلال، الملقب بالموفق، صاحب ديوان الإنشاء بمصر في دولة الحافظ أبي الميمون عبد المجيد العبيدي – المقدم ذكره – ومن بعده؛ قال عماد الدين الكاتب الأصبهاني في كتاب "الخريدة" في حقه: "هو ناظر مصر وإنسان ناظره، وجامع مفاخره، وكان إليه الإنشاء، وله قوة على الترسل يكتب كما يشاء، عاش كثيراً وعطل في آخر عمره وأضر، ولزم بيته إلى أن تعوض منه القبر، وتوفي بعد ملك الملك

الناصر مصر بثلاث أو أربع سنين" وذكر له عدة مقاطيع من الشعر نورد شيئاً منها بعد هذا إن شاء الله تعالى.

وذكره ضياء الدين أبو الفتح نصر الله المعروف بابن الأثير الجزري ثم الموصلي – المقدم ذكره – في الفصل الأول من كتابه الذي سماه "الوشي المرقوم في حل المنظوم" فقال: حدثني القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني، رحمه الله تعالى، بمدينة دمشق في سنة ثمان وثمانين وخمسمائة، وكان إذ ذاك كاتب الدولة الصلاحية فقال: كان فن الكتابة بمصر في زمن الدولة العلوية غضاً طرياً، وكان لا يخلو ديوان المكاتبات من رأس يرأس مكاناً وبياناً، ويقيم لسلطانه بقلمه سلطاناً، وكان من العادة أن كلا من أرباب الدواوين إذا نشأ له ولد وشدا شيئاً من علم الأدب أحضره إلى ديوان المكاتبات ليتعلم فن الكتابة ويتدرب ويرى ويسمع قال: فأرسلني والدي، وكان إذ ذاك قاضياً بثغر عسقلان، إلى الديار المصرية في أيام الحافظ، وهو أحد خلفائها، وأمرني بالمصير إلى ديوان المكاتبات، وكان الذي يرأس به في تلك الأيام رجلاً يقال له "ابن الخلال"؛ فلما حضرت الديوان ومثلت بين يديه وعرفته من أنا وما طلبتي، رحب بي وسهل، ثم قال لي: ما الذي أعددت لفن الكتابة من الآلات؟ فقلت: ليس عندي شيء سوى أني أحفظ القرآن الكريم، وكتاب " الحماسة " فقال: في هذا بلاغ، ثم أمرني بملازمته، فلما ترددت إليه وتدربت بين يديه، أمرني بعد ذلك أن أحل شعر الحماسة، فحللته من أوله إلى آخره، ثم أمرني أن أحله مرة ثانية فحللته؛ انتهى ما ذكره ابن الأثير.

قلت: وبعد أن نقلت ما قاله ضياء الدين بن الأثير على هذه الصورة، اجتمع بي من له عناية بالأدب خصوصاً هذا الفن. وهو من أعرف الناس بأحوال القاضي الفاضل، وقال لي: هذا الذي ذكره ابن الأثير ما يمكن تصحيحه ولعله قد غلط في النقل، فإن القاضي الفاضل لم يدخل إلى الديار المصرية إلا في أيام الظافر ابن الحافظ، وكان وصوله إليها مع أبيه في أمر يختص بهم. ثم إني وجدت في بعض تعاليقي بخطي، وما أدري من أين نقلته، أن القاضي الأشرف والد القاضي الفاضل كان من أهل عسقلان، وكان ينوب في الحكم والنظر بمدينة بيسان، فدخل إلى مصر في زمان الظافر بن الحافظ لكلام جرى بينه وبين والي الناحية من أجل كند كبير كان عندهم له قيمة كبيرة، فداجى الوالي في حقه واطلقه، فاستدعي الوالي إلى مصر لذلك وطولب بمال طائل، فاحتمى ببعض أمراء الدولة، وجعلوا الأقاويل في حق القاضي الأشرف، فاستدعي وصودر إلى أن لم يبق له شي، و لم يكن معه من الأولاد سوى القاضي الفاضل، فحمل على قلبه وتوفي بالقاهرة ليلة الأحد حادي عشر شهر ربيع الأول من سنة ست وأربعين وخمسمائة، ودفن بسفح المقطم. ثم توجه القاضي الفاضل إلى ثغر الإسكندرية، وحضر عند ابن حديد قاضي البلد وناظره، فعرفه بوالده، فعرفه بالسمعة واستكتبه، وأخذ الفرنج عسقلان فحضر إخوته إليه. وكانت مكاتبات ابن حديد ترد إلى مصر بخطه، وهي في غاية البلاغة، فحسده كتاب الإنشاء بها على فضله وخافوا من تقدمه عليهم، فسعوا إلى الظافر به فقالوا: إنه قصر في المكاتبة، وكان صاحب ديوان الإنشاء القاضي الأثير ابن بنان، فيحكى أنه دخل على الظافر فقال له: تكتب إلى ابن حديد بقطع يد كاتبه، فتعصب له ابن بنان وقال: يا مولانا هذا الرجل ما منه تقصير، وإنما حسده هؤلاء الكتاب فسعوا به ليؤذيه مولانا، قال له الظافر: فتكتب إلى ابن حديد ليرسله إلينا ويكتب لنا.

قال ابن بنان: وكنت بعد ذلك في مجلس الظافر، فرأيت القاضي الفاضل وقد حضر وهو قائم بين يديه، ثم استخدمه، والله أعلم.

وقال العماد في – الخريدة –؛ أنشدني مرهف بن أسامة بن منقذ قال، أنشدني الموفق بن الخلال لنفسه من قصيدة:

عذبت ليال بالعذيب حوالي	وخلت مواقف بالوصال خوالي
ومضت لذاذات تقضى ذكرها	تصبي الخلي وتستهيم السالي
وجلت موردة الخدود فأوثقت	في الصبوة الخالي بحسن الخال
قالوا سراة بني هلال أصلها	صدقوا كذاك البدر فرع هلال

قال العماد في "الخريدة" أيضاً: ونقلت من كتاب "جنان الجنان ورياض الأذهان" – قلت: وهو تأليف الرشيد بن الزبير المقدم ذكره – من شعر ابن الخلال قوله:

وأغن سيف لحاظه	يفري الحسام بحده

فضح الصوارم واللدا ... ن بقده وبقده

عجب الورى لما حيي ... ت وقد منيت ببعده
وبقاء جسمي ناحلاً ... يصلى بوقدة صده
كبقاء عنبر خاله ... في نار صفحة خده

وقوله:

أما اللسان فقد أخفى وقد كتما ... لو أمكن الجفن كف الدمع حين همى
أصبتم بسهام اللحظ مهجته ... فهل يلام إذا أجرى الدموع دما؟
قد صار بالسقم من تعذيبكم علماً ... ولم يبح بالذي من جوركم علما
فما على صامت أبدى لصدكم ... في كل جارحة منه السقام فما

وأورد له في الشمعة:

وصحيحة بيضاء تطلع في الدجى ... صبحاً وتشفي الناظرين بدائها
شابت ذوائبها أوان شبابها ... واسود مفرقها أوان فنائها
كالعين في طبقاتها ودموعها ... وسوادها وبياضها وضيائها

وذكر العماد في "الخريدة" أيضاً في ترجمة القاضي أبي المعالي عبد العزيز بن الحسين بن الجباب أبياتاً كتبها ابن الجباب المذكور إلى الرشيد بن الزبير في نكبة جرت للموفق بن الخلال المذكور، وقال العماد: كان خاله – و لم يذكر أيهما خال الآخر – وكان ابن الجباب قد حصل له بسبب نكبة ابن الخلال صداع، والأبيات المشار إليها:

تسمع مقالي يا ابن الزبير ... فأنت خليق بأن تسمعه
بلينا بذي نسب شابك ... قليل الجدى في زمان الدعه
إذا ناله الخير لم نرجه ... وإن صفعوه صفعنا معه

وهذا من قول حصين بن خصفة السعدي الخارجي يخاطب قطري بن الفجاءة رئيس الخوارج – المقدم ذكره –:

وأنت الذي لا نستطيع فراقه ... حياتك لا نفع وموتك ضائر

ثم إني كشفت عن قول العماد: كان خاله، و لم يبينه، فوجدت ابن الخلال المذكور خال ابن الجباب المذكور. وذكر العماد أيضاً في كتاب "السيل والذيل" الذي جعله ذيلاً على كتاب "الخريدة" ابن الخلال أيضاً، وأورد له:

وغزال نار وجنته ... أذكت النيران في كبدي
وله طرف لواحظه ... نصرت شوقي على جلدي
قذفت عيني سوالفه ... فتوارت منه بالزرد

والبيت الأخير مأخوذ من قول أبي محمد الحسن بن جكينا البغدادي الشاعر المشهور:

طرفك يرمي قلبي بأسهمه | فما لخديك تلبس الزردا

وقد روي لغيره أيضاً، والله اعلم.

ثم وجدت في كتاب "خريدة القصر" تأليف عماد الدين الكاتب الأصفهاني لعبد السلام بن الجكر المعروف بابن الصواف الواسطي:

لو كان أمري إلي أو بيدي | أعددت لي قبل بينك العددا

طرفك يرمي قلبي بأسهمه | فما لخديك تلبس الزردا

ريقته الشهد والدليل على | ذلك نمل بخده صعدا

وذكر أبو الحسن علي بن ظافر الأزدي المصري في كتاب "بدائع البدائه" أن أبا القاسم بن هانيء الشاعر المتأخر هجا ابن الخلال المذكور، وبلغه هجوه فأضمر له حقداً، واتفق بعض المواسم التي جرت عادة ملوك مصر بالحضور فيه لاستماع المدائح، فجلس الحافظ أبو الميمون عبد المجيد ملك مصر إذ ذاك، فأنشده الشعراء، وانتهت النوبة إلى ابن هانيء المذكور، فأنشد وأجاد فيما قاله، فقال الحافظ للموفق المذكور: كيف تسمع؟ فأثنى عليه واستجاد شعره وبالغ في وصفه، ثم قال له: ولو لم يكن له ما يمت به إلا انتسابه إلى أبي القاسم بن هانيء شاعر هذه الدولة ومظهر مفاخرها وناظم مآثرها، لولا بيت أظهره منه الضجر عند دخوله هذه البلاد، فقال له الحافظ: ما هو؟ فتحرج من إنشاده، فأبى الحافظ إلا أن ينشده، وفي أثناء ذلك صنع بيتاً، وهو:

تباً لمصر فقد صارت خلافتها | عظماً تنقل من كلب إلى كلب

فعظم ذلك على الحافظ، وقطع صلته وكاد يفرط في عقوبته، والله أعلم.

ولم يزل ابن الخلال بديوان الإنشاء إلى أن طعن في السن وعجز عن الحركة، فانقطع في بيته. ويقال إن القاضي كان يرعى له حق الصحبة والتعليم، فكان يجري عليه ما يحتاج إليه إلى أن مات في الثالث والعشرين من جمادى الآخرة سنة ست وستين وخمسمائة، رحمه الله تعالى.

الرمادي الشاعر

أبو عمر يوسف بن هارون الكندي، المعروف بالرمادي، الشاعر المشهور؛ ذكره الحافظ أبو عبد الله الحميدي في كتاب "جذوة المقتبس" فقال: أظن أحد آبائه كان من أهل رمادة، موضع بالمغرب؛ شاعر قرطبي كثير الشعر سريع القول مشهور عند الخاصة والعامة هنالك لسلوكه في فنون من المنظوم مسالك تنفق عند الكل، حتى كان كثير من شيوخ الأدب في وقته يقولون: فتح الشعر بكندة وختم بكندة، يعنون امرأ القيس والمتنبي ويوسف بن هارون، وكانا متعاصرين، واستدللت على ذلك بمدحه أبا علي إسماعيل بن القاسم القالي عند دخوله الأندلس بالقصيدة التي أولها:

من حاكم بيني وبين عذولي | الشجو شجوي والعويل عويلي

وكان وصول أبي علي القالي إلى الأندلس في سنة ثلاثين وثلثمائة – قلت: وقد سبق ذكر ذلك في ترجمته – ثم ذكر له الحميدي وقائع وعدة مقاطيع من الشعر، وأنه ألف كتاباً في الطير، وسجن مدة.

قلت: وقد ذكر أبو منصور الثعالبي في كتاب "يتيمة الدهر" الأبيات التي مدح بها يوسف بن هرون أبا علي القالي، وأورد له بعد البيت المذكور قوله:

في أي جارحة أصون معذبي | سلمت من التعذيب والتنكيل

إن قلت في بصري فثم مدامعي | أو قلت في كبدي فثم غليلي

وثلاث شيبات نزلن بمفرقي | فعلمت أن نزولهن رحيلي

طلعت ثلاثاً في نزول ثلاثة | واش ووجه مراقب وثقيل

فعزلنني عن صبوتي فلئن ذلل | ت لقد سمعت بذلة المعزول

قلت: ثم خرج بعد هذا إلى المدح، وكان قد وصف الصيد والروض فقال:

روض تعاهده السحاب كأنه — متعاهد من عهد إسماعيل
قسه إلى الأعراب تعلم أنه — أولى من الأعراب بالتفضيل
حازت قبائلهم لغات فرقت — فيهم، وحاز لغات كل قبيل
فالشرق خال بعده فكأنما — نزل الخراب بربعه المأهول
وكأنه الشمس بدت في غربنا — وتغييت عن شرقهم بأفول
يا سيدي هذا ثنائي لم أقل — زوراً ولا عرضت بالتنويل
من كان يأمل نائلاً فأنا امرؤ — لم أرج غير القرب في تأميلي

وله في غلام ألثغ من جملة أبيات:

لا الراء تطمع في الوصال ولا أنا — الهجر يجمعنا فنحن سواء
فإذا خلوت كتبتها في راحتي — وبكيت منتحباً أنا والراء

وله فيه أيضاً:

أعد لثغة في الراء لو أن واصلاً — تسمعها ما أسقط الراء واصل

قلت: وهذا واصل هو واصل بن عطاء – المقدم ذكره في حرف الواو وقد ذكرت هناك هذا الشاعر وشيئاً من شعره.

قلت: وذكره ابن بشكوال في كتاب "الصلة"، فقال: "يوسف بن هرون الرمادي الشاعر من أهل قرطبة، يكنى أبا عمر، كان شاعر أهل الأندلس المشهور المقدم على الشعراء، روى عن أبي علي البغدادي – يعني القالي – كتاب "النوادر" من تأليفه، وقد أخذ عنه أبو عمر بن عبد البر قطعة من شعره رواها عنه وضمنها بعض تواليفه. قال ابن حيان: وتوفي سنة ثلاث وأربعمائة يوم العنصرة، فقيراً معدماً، ودفن بمقبرة كلع". انتهى كلامه.

قلت: يوم العنصرة يوم مشهور ببلاد الأندلس، وهو موسم للنصارى، كالميلاد وغيره، وهو اليوم الرابع والعشرون من حزيران، فيه ولد يحيى بن زكريا عليهما السلام – والعنصرة: بفتح العين المهملة وسكون النون وفتح الصاد المهملة والراء وفي آخرها هاء – وفي هذا اليوم حبس الله تعالى الشمس على يوشع بن نون عليه السلام حين بعثه موسى عليه الصلاة والسلام، وكان يوشع ابن أخته، إلى أريحا لقتال الجبابرة فقتلهم وبقيت منهم بقية، فخشي أن يحول الليل بينه وبينهم، فسأل الله تعالى أن يحبس عليهم الشمس حتى يفرغ، فحبسها بدعائه، وقد ذكر الشعراء ذلك في أشعارهم كثيراً، فقال أبو تمام الطائي الشاعر المشهور من جملة قصيدة طويلة:

فردت علينا الشمس والليل راغم — بشمس لهم من جانب الخدر تطلع
نضا ضوءها صبغ الدجنة وانطوى — لبهجتها ثوب السماء المجزع
فوالله ما أدري أأحلام نائم — ألمت بنا أم كان في الركب يوشع

وقال أبو العلاء المعري من جملة قصيدة طويلة أيضاً:

ويوشع رد بوحا بعض يوم — وأنت مني سفرت رددت بوحا

وبوح: بالباء الموحدة وسكون الواو وبعدها حاء مهملة، اسم من أسماء الشمس، وكذلك "يوح" بالياء المثناة من تحتها.

وأريحا: بفتح الهمزة وكسر الراء ثم ياء ساكنة وبعدها حاء مهملة ثم ألف مقصورة، بلدة بين القدس والشريعة من أرض الشام، وهي قريبة من مدائن

لوط عليه السلام.

والرمادي: بفتح الراء والميم وبعد الألف دال مهملة وبعدها ياء النسب، هذه النسبة إلى الرمادة، قال ياقوت الحموي في كتابه الذي سماه "المشترك وضعا المختلف صقعا" في باب الرمادة: الرمادة عشرة مواضع، وعدها فقال: الثالث رمادة المغرب، ينسب إليها يوسف بن هارون الكندي الرمادي الشاعر القرطبي.

وكلع: بفتح الكاف واللام وبعدها عين مهملة، وهي مقبرة قرطبة والله أعلم.

وذكر ابن سعيد في كتاب "المغرب في أشعار أهل المغرب" أن الرمادي المذكور اكتسب صناعة الأدب من شيخه أبي بكر يحيى بن هذيل الكفيف علم أدباء الأندلس، وهو القائل:

لا تلمني على الوقوف بدار	أهلها صيروا السقام ضجيعي
جعلوا لي إلى هواهم سبيلاً	ثم سدوا علي باب الرجوع

ثم قال: وتوفي يحيى بن هذيل المذكور في سنة ست أو خمس وثمانين وثلثمائة وهو ابن ست وثمانين، رحمه الله تعالى.

ابن الدرى

يوسف بن درة، الشاعر المعروف بابن الدري، الموصلي الأصل؛ كان شاباً ذكياً، ذكره أبو شجاع محمد بن علي بن الدهان في تاريخه وقال: إنه هلك مع الحاج سنة خمس وأربعين وخمسمائة لما خرجت عليهم زعب، وقد ذكره عماد الدين الكاتب الأصبهاني في كتاب "خريدة القصر" وذكره أبو المعالي سعد بن علي الحظيري – المقدم ذكره – في كتاب "زينة الدهر" ومن مشهور شعره قوله في رجل أرجل وقد أحسن فيه:

مدور الكعب فاتخذه	لتل غرس وثل عرش
لو نظرت عينه الثريا	أخرجها في بنات نعش

وله غير هذا أشياء حسنة.

قال شيخنا الحافظ عز الدين أبو الحسن علي بن محمد المعروف بابن الأثير الجزري في مختصر كتاب الحافظ أبي سعد عبد الكريم بن السمعاني الذي عمله في الأنساب، ما مثاله: قلت: الزعبي: بكسر الزاي وسكون العين المهملة وآخره باء موحدة، نسبة إلى زعب بن مالك بن خفاف بن امرىء القيس بن بهثة بن سليم، بطن مشهور من سليم، وهذه زعب هي التي أخذت الحاج سنة خمس وأربعين وخمسمائة، فهلك منهم خلق كثير قتلا وجوعاً وعطشاً، ثم إن الله تعالى رمى زعباً بالقلة والذلة بعده إلى الآن.

ودرة: بضم الدال المهملة، والدرى: بفتحها وتشديد الراء وبعدها ألف مقصورة.

أبو المحاسن الشواء

أبو المحاسن يوسف بن إسماعيل بن علي بن أحمد بن الحسين بن إبراهيم المعروف بالشواء، الملقب شهاب الدين، الكوفي الأصل الحلبي المولد والمنشأ والوفاة؛ كان أديباً فاضلاً متقناً لعلم العروض والقوافي شاعراً، يقع له في النظم معان بديعة في البيتين والثلاثة، وله ديوان شعر كبير يدخل في أربع مجلدات، وكان زيه على زي الحلبيين الأوائل في اللباس والعمامة المشقوقة. وكان كثير الملازمة لحلقة الشيخ تاج الدين أبي القاسم أحمد بن هبة الله بن سعد الله بن سعيد بن سعد بن مقلد المعروف بابن الجبراني الحلبي النحوي اللغوي الفاضل، وأكثر ما أخذ الأدب عنه وبصحبته انتفع، وعاشر التاج أبا الفتح مسعود بن أبي الفضل النقاش الحلبي الشاعر المشهور زماناً، وتخرج عليه في عمل الشعر.

وكان بيني وبين الشهاب الشواء مودة اكيده ومؤانسة كثيرة، ولنا اجتماعات في مجالس نتذاكر فيها الأدب، وأنشدني كثيراً من شعره، وما زال صاحبي منذ أواخر سنة ثلاث وثلاثين وستمائة إلى حين وفاته، وقبل ذلك كنت أراه قاعداً عند ابن الجبراني المذكور في موضع تصدره بجامع حلب، وكان

يكثر التمشي في الجامع أيضاً على جاري عادتهم في ذلك كما يعملون في جامع دمشق، و لم يكن بيننا إذ ذاك معرفة. وكان حسن المحاورة مليح الإيراد مع السكون والتاني وجميل التأتي، وأول شيء أنشدني من شعره قوله:

هاتيك يا صاح ربا لعلع ناشدتك الله فعرج معي
وانزل بنا بين بيوت النقا فقد غدت آهلة المربع
حتى نطيل اليوم وقفاً على ال ساكن أو عطفاً على الموضع

وأنشدني لنفسه أيضاً:

ومهفهف عني الزمان بخده فكساه ثوبي ليله ونهاره
لا مهدت عذري محاسن وجهه إن غض عندي منه غض عذاره

وأنشدته يوماً في أثناء مناشدة جرت بيننا قول شرف الدين أبي المحاسن محمد المعروف بابن عنين الدمشقي - المقدم ذكره - في صدر جهان المعروف بابن مازه البخاري وقيل السرخسي:

مال ابن مازه دونه لعفاته خرط القتادة أو منال الفرقد
مالٌ لزوم الجمع يمنع صرفه في راحةٍ مثل المنادى المفرد

فقال: هذا ليس بجيد، فقلت له: و لم ذاك؟ فقال: ليس من شرط المنادى المفرد أن يكون مضموماً، ولابد، فقد يكون المنادى مفرداً ولا يكون مضموماً بأن يكون نكرة غير معين كما تقول: يا رجلاً، ولكن أنا أعمل في هذا شيئاً. ثم إننا اجتمعنا بعد ذلك في الجامع فقال: قد عملت في ذلك المعنى شيئاً فاسمعه، ثم أنشد:

لنا خليل له خلال تعرب عن أصله الأخس
أضحت له مثل حيث كف وددت لو أنها كأمس

فقلت له: وهذا أيضاً فيه كلام، فقال: وما هو؟ فقلت: حيث فيها لغات، فمن العرب من يبنيها على الضم، ومنهم من يبنيها على الفتح، ومنهم من يبنيها على الكسر، وفيها لغات أخر غير هذه، وأما أمس فمنهم من يبنيها على الكسر، ومنهم من يقول: إنها اسم معرب لكنه لا ينصرف، وأنشدوا على هذه اللغة:

لقد رأيت عجباً مذ أمسا عجائزاً مثل السعالي خمساً

هذا إذا كانت معرفة، فأما إذا كانت نكرة فإنها معربة قولاً واحداً، فسكت.

وكان كثيراً ما يستعمل العربية في شعره، فمن ذلك قوله، ولا أدري هل أنشدنيه أم لا، فإنه أنشدني شيئاً كثيراً من شعره وما ضبطت كل ما أنشدني، وكذلك كل شيء أذكره بعد هذا لا أتحقق الحال في سماعي منه، فأورد مهملاً فمنه:

وكنا خمس عشرة في التئامٍ على رغم الحسود بغير آفه
فقد أصبحت تنويناً وأضحى حبيبي لا تفارقه الإضافه

وله أيضاً في غلام أرسل أحد صدغيه وعقد الآخر:

أرسل صدغاً ولوى قاتلي صدغاً فأعيا بهما واصفه

فخلت ذا في خده حيةً تسعى وهذا عقرباً واقفه

ذا ألفٌ ليس لوصلٍ، وذا واوٌ ولكن ليس العاطفه

ومن هذا النمط ما أنشدنيه بهاء الدين زهير بن محمد الكاتب – المقدم ذكره – رحمه الله تعالى، لنفسه من جملة أبيات وهو:

عسى عطفة بالوصل يا واو صدغه علي فإني أعرف الواو تعطف

ولأبي المحاسن الشواء أيضاً قوله:

ناديت وهو الشمس في شهرة والجسم للخفية كالفيء

يا زاهياً أعرف من مضمرٍ صل واهياً أنكر من شيء

وله في المديح:

فتىً فاق الورى كرماً وبأساً عزيز الجار مخضر الجناب

ترى في السلم منه غيث جود وفي يوم الكريهة ليث غاب

إذا ما سل صارمه لحربٍ أراك البرق في كف السحاب

وله أيضاً في شخص لا يكتم السر:

لي صديقٌ غدا وإن كان لا ينطق إلا بغيبةٍ أو محال

أشبه الناس بالصدى إن تحدثه حديثاً أعاده في الحال

وله أيضاً:

قالوا حبيبك قد تضوع نشره حتى غدا منه الفضاء معطرا

فأجبتهم والخال يعلو خده أو ما ترون النار تحرق عنبرا

قلت: وقد تقدم في ترجمة يحيى بن نزار المنبجي عدة مقاطيع من شعر العماد المحلي وغيره وفيها إلمام بهذا المعنى. ولأبي المحاسن أيضاً:

هواك يا من له اختيال ما لي على مثله احتيال

قسمة أفعاله لحيني ثلاثةُ ما لها انتقال

وعدك مستقبل، وصبري ماضٍ، وشوقي إليك حال

وله أيضاً:

فديت بنفسي رأس عينٍ ومن فيها وبيض السواقي حول زرق سواقيها

إذا راقني منها جواري عيونها أراتق دمي منها عيون جواريها

وله أيضاً:

إن كان قد حجبوه عني غيرةً منهم عليه فقد قنعت بذكره

كالمسك ضاع لنا وضاع مكانه عنا فأغنى نشره عن نشره

وله في غلام قد ختن:

هنأت من أهواه عند ختانه فرحاً وقلبي قد عراه وجوم

يفديك من ألم ألمّ بك امرؤ يخشى عليك إذا ثناك نسيم

أمعذبي كيف استطعت على الأذى جلداً، وأجزع ما يكون الريم؟

لو لم تكن هذي الطهارة سنةً قد سنها من قبل إبراهيم

لفتكت جهدي بالمزين إذ غدا في كفه موسى وأنت كليم

ومعظم شعره على هذا الأسلوب، وقد أوردت منه أنموذجاً فيه كفاية. وكان من المغالين في التشيع.

وأكثر أهل حلب ما كانوا يعرفونه إلا بمحاسن الشواء. والصواب فيه هو الذي ذكرته هاهنا، وأن اسمه يوسف، وكنيته أبو المحاسن. وبعد هذا رأيت في كتاب " عقود الجمان " الذي وضعه صاحبنا الكمال بن الشعار الموصلي، وقد بنى ترجمة المذكور على يوسف، وكنيته أبو المحاسن، وكان صاحبه وأخذ عنه كثيراً من شعره، وهو من أخبر الناس بحاله وأعلم ذلك في وقته.

وكان مولده تقديراً في سنة اثنتين وستين وخمسمائة، فإنه كان لا يحقق مولده. وتوفي يوم الجمعة تاسع عشر المحرم سنة خمس وثلاثين وستمائة، بحلب، ودفن ظاهرها بمقبرة باب إنطاكية غربي البلد، ولم أحضر الصلاة عليه لعذر عرض لي في ذلك الوقت، رحمه الله تعالى، فلقد كان نعم الصاحب.

وأما شيخه ابن الجبراني المذكور: فهو طائي بحتري، وكان من قرية من أعمال عزاز، يقال لها جبرين قورسطايا. نسب إليها، هكذا أخبر عن نفسه، وكان متضلعاً من علم الأدب، خصوصاً اللغة فإنها كانت غالبة عليه، وكان متبحراً فيها، وكان له تصدر في جامع حلب في المقصورة الشرقية على صحن الجامع قبالة المقصورة التي يصلي فيها قضاة حلب يوم الجمعة. ولقد كنت يوماً قاعداً في هذه المقصورة، عند الدرابزين الذي إلى جهة الصحن، وإذا به قد حضر ومعه جماعة من أصحابه، وفيهم الشهاب أبو المحاسن الشواء المذكور، وجلس إلى المحراب الصغير الذي في هذه المقصورة، وهو موضع تصدره، فجعلت بالي من كلامه، وأنا في ذلك الوقت مشتغل بالأدب، فسمعته يتكلم في قاعدة الأفعال الثلاثية التي أولها واو، وهي على فعل، بكسر العين، مثل وجل وغيره، وأن مضارعه فيه أربع لغات: يوجل، ويَيجل، وياجل، وييجل، إلا ما شذ من الأفعال الثمانية التي هي: ورم، وورث، وورع، وورى، وومق، ووثق، ووفق، وولي، فإن مضارعها أيضاً بالكسر كماضيها، وشذ من ذلك قولهم: وسع يسع، ووطئ يطأ، وإنما انفتح هذان الفعلان في المضارع لآجل حرفي الحلق، وأطال الكلام في ذلك بما لم أقدر على حفظه في ذلك الوقت، ولم أسمع منه غير هذا الفصل.

وكان مولده يوم الأربعاء الثاني والعشرين من شوال سنة إحدى وستين وخمسمائة، وتوفي يوم الاثنين سابع رجب من سنة ثمان وعشرين وستمائة بحلب، ودفن في سفح جبل جوشن، رحمه الله تعالى.

البياسي صاحب الحماسة

أبو الحجاج يوسف بن محمد بن إبراهيم الأنصاري البياسي، أحد فضلاء الأندلس وحفاظها المتقنين؛ كان أديباً بارعاً فاضلاً، مطلعاً على أقسام كلام العرب من النظم والنثر، وراوياً لوقائعها وحروبها وأيامها، بلغني أنه كان يحفظ كتاب " الحماسة " تأليف أبي تمام الطائي، والأشعار الستة، وديوان أبي تمام المذكور، وديوان أبي الطيب المتنبي، و" سقط الزند " ديوان أبي العلاء المعري، إلى غير ذلك من الأشعار من شعراء الجاهلية والإسلام.

وتنقل في بلاد الأندلس وطاف بأكثرها. ولما قدم من جزيرة الأندلس إلى مدينة تونس، جمع للأمير أبي زكريا يحيى بن أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص عمر، صاحب إفريقية، رحمهم الله أجمعين، كتاباً سماه " الإعلام بالحروب الواقعة في صدر الإسلام " ابتدأ فيه بمقتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وختمه بخروج الوليد بن طريف الشاري على هارون الرشيد ببلاد الجزيرة الفراتية – وقد ذكرت ترجمة الوليد المذكور وخبره وما جرى له ومقتله على يد يزيد بن مزيد بن زائدة الشيباني وذكرت يزيد المذكور في ترجمة مستقلة أيضاً قبل هذا، واستوفيت القصة في الترجمتين – ورأيت هذا الكتاب وطالعته، وهو في مجلدين، أجاد في تصنيفه وكلامه فيه كلام عارف بهذا الفن.

ورأيت له أيضاً كتاب " الحماسة " في مجلدين، وقد قرئت النسخة عليه وعليها خطه، كتبه في أواخر شهر ربيع الآخر سنة خمسين وستمائة، وقال في آخر الكتاب: وكان الفراغ من تأليفه وترتيبه بمدينة تونس، حرسها الله تعالى،في شوال سنة ست وأربعين وستمائة؛ ونقلت من أوله بعد الحمدلة ما مثاله: أما بعد فإني قد كنت في أوان حداثتي وزمان شبيبتي، ذا ولوع بالأدب ومحبة في كلام العرب، و لم أزل متتبعاً لمعانيه، ومفتشاً عن قواعده ومبانيه، إلى أن حصلت لي جملة منه لا يسع الطالب المجتهد جهلها، ولا يصلح بالناظر في هذا العلم إلا أن يكون عنده مثلها، وحملتني المحبة في ذلك العلم والولوع به على أن جمعت مما اخترته واستحسنته من أشعار العرب: جاهليها ومخضرميها وإسلاميها ومولدها، ومن أشعار المحدثين من أهل المشرق والأندلس وغيرهم، ما تحسن به المحاضرة وتجمل عليه المناظرة. ثم إني رأيت أن بقاءها دون أن تدخل تحت قانون يجمعها، وديوان يؤلفها، مؤذن بذهابها ومؤدٍ إلى فسادها، فرأيت أن أضم مختارها وأجمع مستحسنها، تحت أبواب تقيد نافرها وتضم نادرها، ونظرت في ذلك، فلم أجد أقرب تبويبٍ، ولا أحسن ترتيبٍ، مما بوبه ورتبه أبو تمام حبيب بن أوس رحمه الله تعالى في كتابه المعروف بكتاب "الحماسة" وحسن الإقتداء به والتوخي لمذهبه، لتقدمه في هذه الصناعة، وانفراده منها بأوفر حظ وأنفس بضاعة، فاتبعت في ذلك مذهبه ونزعت مترعه، وقرنت الشعر بما يجانسه، ووصلته بما يناسبه ونقحت ذلك، واخترته على قدر استطاعتي، وبلوغ جهدي وطاقتي.

قلت: وأطال القول بعد هذا بما لا حاجة بنا إلى ذكره. ونقلت منه شيئاً، فمن ذلك ما ذكره في باب المراثي: قال أبو علي القالي البغدادي، أنشدنا أبو بكر بن دريد قال: أنشدنا أبو حاتم السجستاني:

ألا في سبيل الله ماذا تضمنت ... بطون الثرى واستودع البلد القفر

بدور إذا الدنيا دجت أشرقت بهم ... وإن أجدبت يوماً فأيديهم القطر

فيا شامتاً بالموت لا تشتمن بهم ... حياتهم فخرٌ وموتهم ذكر

حياتهم كانت لأعدائهم عمى ... وموتهم للفاخرين بهم فخر

أقاموا بظهر الأرض فاخضر عودها ... وصاروا ببطن الأرض فاستوحش الطهر

ونقلت من باب النسيب قول العباس بن الأحنف – المقدم ذكره –:

تحمل عظيم الذنب ممن تحبه ... وإن كنت مظلوماً فقل أنا ظالم

فإنك إن لم تغفر الذنب في الهوى ... يفارقك من تهوى وأنفك راغم

وقول الوأواء الدمشقي، هكذا قال، وغالب ظني أنها لأبي فراس بن حمدان، والله أعلم:

بالله ربكما عوجا على سكني ... وعاتباه لعل العتب يعطفه

وعرضا بي وقولا في حديثكما ... ما بال عبدك بالهجران تتلفه

فإن تبسم قولاً في ملاطفةٍ ... ما ضر لو بوصالٍ منك تسعفه

وإن بدا لكما من سيدي غضبٌ ... فغالطاه وقولا ليس نعرفه

وقول المجنون:

تعلقت ليلى وهي بكرٌ صغيرة ... ولم يبد للأتراب من ثديها حجم

صغيرين نرعى البهم يا ليت أننا ... إلى اليوم لم نكبر ولم تكبر البهم

البهم: الصغار من أولاد الضأن، الواحدة بهمة، بفتح الباء الموحدة وسكون الهاء، وهذان البيتان يستدل بهما النحاة على انتصاب الحال من الفاعل والمفعول به معاً بلفظ واحد، فإن "صغيرين" انتصب على الحال من التاء في قوله "تعلقت" وهي فاعلة، ومن ليلى، وهي مفعولة، ومثله قول عنترة العبسي:

متى ما تلقني فردين ترجف ... روانف أليتيك وتستطارا

نصب "فردين" على الحال من ضمير الفاعل والمفعول في "تلقني"، ذكره ابن الأنباري في كتاب "أسرار العربية" في باب الحال.

وقال الوأواء الدمشقي أيضاً، ذكره في حماسته البياسي المذكور أيضاً:

وزائرٍ راع كل الناس منظره ... أحلى من الأمن عند الخائف الوجل

ألقى على الليل ليلاً من ذوائبه ... فهابه الصبح أن يبدو من الخجل

أراد بالقتل هجري فاستجرت به ... فاستل بالوصل روحي من يدي أجلي

فصرت فيه أمير العاشقين فقد ... صارت ولاية أهل العشق من قبلي

وقال علي بن عطية البلنسي ابن الزقاق:

ومرتجة الأعطاف أما قوامها ... فلدنٌ وأما ردفها فرداح

ألمت فبات الليل من قصرٍ بها ... يطير وما غير السرور جناح

وبت وقد زارت بأنعم ليلةٍ ... تعانقني حتى الصباح صباح

على عاتقي من ساعديها حمائلٌ ... وفي خصرها من ساعديَّ وشاح

وقال أحمد بن الحسين بن خلف المعروف بابن البني اليعمري – قلت: هو المقدم ذكره في ترجمة يوسف بن عبد المؤمن صاحب المغرب – وكان قد أخرجه صاحب ميورقة،وسير في البحر، فساروا يومهم، فهبت عليهم الريح فردتهم فقال:

أحبتنا الأولى عتبوا علينا ... فأقصونا وقد أزف الوداع

لقد كنتم لنا جذلاً وأنساً ... فهل في العيش بعدكم انتفاع؟

أقول وقد صدرنا بعد يومٍ ... أشوقٌ بالسفينة أم نزاع

إذا طارت لنا حامت عليكم ... كأن قلوبنا فيها شراع

وقال الواثق بالله وله فيه غناء:

ما كنت أعرف ما في البين من حزن ... حتى تنادوا بأن قد جيء بالسفن

قامت تودعني والدمع يغلبها ... فجمجمت بعض ما قالت ولم تبن

مالت علي تفديني وترشفني ... كما يميل نسيم الريح بالغصن

فأعرضت ثم قالت وهي باكية: ... يا ليت معرفتي إياك لم تكن

وأورد في باب القرى والأضياف والفخر والمديح قول أبي الحسن جعفر بن إبراهيم بن الحاج اللورقي:

عجباً لمن طلب المحا مد وهو يمنع ما لديه
ولباسطٍ آماله للمجد لم يبسط يديه
لم لا أحب الضيف أو أرتاح من طرب إليه
والضيف يأكل رزقه عندي ويحمدني عليه

ومما ينسب إلى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال حين كف بصره:

إن يأخذ الله من عيني نورهما ففي لساني وقلبي منهما نور
قلبي ذكي وذهني غير ذي دخلٍ وفي فمي صارمٌ كالسيف مطرور

وذكر في باب الهجاء والعتاب وما يتعلق بهما لأبي العالية أحمد بن مالك الشامي:

أذم بغداد والمقام بها من بعد ما خبرةٍ وتجريب
ما عند أملاكها لمرتقبٍ رفد ولا فرجةٌ لمكروب
خلوا سبيل العلى لغيرهم ونازعوا في الفسوق والحوب
يحتاج راجي النجاح عندهم إلى ثلاثٍ من بعد تقريب
كنوز قارون أن تكون له وعمر نوح وصبر أيوب

وأنشد أبو بكر محمد بن يحيى الصولي لأبي العطاف الكوفي صالح بن عبد الرحمن بن نشيط:

يابن الوليد أبن لنا إن البيان له حدود
مالي أراك مسيباً أين السلاسل والقيود
أغلا الحديد بأرضكم أم ليس يضبطك الحديد

قلت: إلى هنا نقلت من كتاب " الحماسة " المذكور، وفيه كفاية، إذ كان الغرض إيراد شيء من أخبار هذا الرجل ليستدل به على معرفته بالشعر.
وكان مولده يوم الخميس الرابع عشر من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة. وتوفي يوم الأحد الرابع من ذي القعدة سنة ثلاث وخمسين وستمائة، بمدينة تونس، رحمه الله تعالى.
والبياسي: بفتح الباء الموحدة والياء المشددة المثناة من تحتها، هذه النسبة إلى بياسة، وهي مدينة كبيرة بالأندلس معدودة في كورة جيان، هكذا قاله ياقوت الحموي في كتابه " المشترك وضعا ".

يونس بن حبيب

أبو عبد الرحمن يونس بن حبيب النحوي؛ قال أبو عبيد الله المرزباني في كتابه " المقتبس في أخبار النحويين ": هو مولى ضبة، وقيل هو مولى بني ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة، وقيل مولى بلال بن هرمي من بني ضبيعة بن بجالة، وهو من أهل جبل، ومولده سنة تسعين ومات سنة اثنتين وثمانين ومائة، وكان يقول: أذكر موت الحجاج، وقيل مولده سنة ثمانين وأنه رأى الحجاج وعاش مائة سنة وسنتين، وقيل عاش ثمانيا وتسعين سنة.

وقال غير المرزباني: أخذ يونس الأدب عن أبي عمرو بن العلاء وحماد بن سلمة، وكان النحو أغلب عليه، وسمع من العرب، وروى سيبويه عنه كثيراً، وسمع منه الكسائي والفراء، وله قياس في النحو ومذاهب ينفرد بها، وكان من الطبقة الخامسة في الأدب، وكانت حلقته بالبصرة ينتابها الأدباء وفصحاء

العرب وأهل البادية.

قال أبو عبيدة معمر بن المثنى: اختلفت إلى يونس أربعين سنة أملأ كل يوم ألواحي من حفظه. وقال أبو زيد الأنصاري النحوي: جلست إلى يونس بن حبيب عشر سنين، وجلس إليه قبلي خلف الأحمر عشرين سنة. وقال يونس، قال لي رؤبة بن العجاج: حتام تسألني عن هذه البواطل. وأزخرفها لك؟ أما ترى الشيب قد بلغ في لحيتك؟ وليونس من الكتب التي صنفها كتاب " معاني القرآن الكريم " وكتاب " اللغات " وكتاب " الأمثال " وكتاب " النوادر " الصغير. وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلي: عاش يونس مائة سنة وستين. وقيل عاش ثمانياً وتسعين سنة، وقيل ثمانياً وثمانين سنة، لم يتزوج و لم يتسر. و لم تكن له همة إلا طلب العلم ومحادثة الرجال.

وقال يونس: لو تمنيت أن أقول الشعر لما تمنيت أن أقول إلا مثل قول عدي بن زيد العبادي:

أيها الشامت المعير بالدهر ... أأنت المبرأ الموفور

قلت: وهذا البيت من جملة أبيات سائرة بين الأدباء فيها مواعظ وعبر، وبعد هذا البيت:

أم لديك العهد القديم من الأي ... ام بل أنت جاهلٌ مغرور

من رأيت المنون أخلدن أم من ... ذا عليه أن يضام خفير

أين كسرى كسرى الملوك أنو شر ... وان أم أين قبله سابور

وبنو الأصفر الكرام ملوك ال ... روم لم يبق منهم مذكور

وأخو الحضر إذ بناه وإذ دج ... لة تجبى إليه والخابور

شاده مرمراً وجلله كل ... ساً فللطير في ذراه وكور

لم يهبه صرف الزمان فباد الم ... لك عنه فبابه مهجور

وتفكر رب الخورنق إذا أش ... رف يوماً وللهدى تفكير

سره ملكه وكثرة ما يم ... لك والبحر معرض والسدير

فارعوى قلبه فقال: وما غب ... طة حي إلى الممات يصير

ثم بعد الفلاح والملك والأم ... ة وارتهم هناك القبور

ثم صاروا كأنهم ورقٌ جف ... فألوت به الصبا والدبور

قلت: وهذه الأبيات تحتاج إلى تفسير طويل. ولو شرعت فيه لطال الكلام وخرجنا عن المقصود، فإن أكثرها يتعلق بالتاريخ، وفيها شيء يتعلق بالأدب، فاقتصرت على الإتيان بالغرض وتركت الباقي خوفاً من الإطالة، فلعل الشرح يدخل في أربع خمس كراريس، وليس هذا موضعه.

وروى محمد بن سلام الجمحي عن يونس أنه قال: ما بكت العرب على شيء في أشعارها كبكائها على الشباب، وما بلغت كنهه، فاتبع هذا الكلام منصور النمري فقال من جملة قصيدة طويلة يمدح بها هارون الرشيد بيتاً وهو:

ما كنت أوفي شبابي كنه غرته ... حتى انقضى فإذا الدنيا له تبع

وقال يونس: تقول العرب: فرقة الأحباب سقم الألباب، وأنشد:

شيئان لو بكت الدماء عليهما ... عيناي حتى يؤذنا بذهاب

لم يبلغا المعشار من حقيهما ... شرخ الشباب وفرقة الأحباب

وقال يونس: لم يقل لبيد في الإسلام سوى بيت واحد وهو:

الحمد لله إذ لم يأتني أجلي حتى لبست من الإسلام سربالا

قال أبو عبيدة معمر بن المثنى: قدم جعفر بن سليمان العباسي من عند المهدي الخليفة، فبعث إلى يونس بن حبيب فقال له: أنا وأمير المؤمنين اختلفنا في هذا البيت:

والشيب ينهض في السواد كأنه ليلٌ يصيح بجانبيه نهار

فما الليل والنهار؟ فقال يونس: الليل الليل الذي تعرف، والنهار النهار الذي تعرف، فقال: زعم المهدي أن الليل فرخ الكروان والنهار فرخ الحبارى، فقال أبو عبيدة: القول في البيت ما قاله يونس، والذي قاله المهدي معروف في الغريب من اللغة.

وقال يونس: كان جبلة بن عبد الرحمن يخرج إلى طباخه الرقاع يستدعي بها الطعام، وفيها الألفاظ الغريبة الحوشية، فلا يدري الطباخ ما فيها، حتى يمضي بها إلى ابن أبي إسحاق ويحيى بن يعمر وغيرهما يفسرون له ما فيها من الألفاظ، فإذا عرف الطباخ ما فيها أتاه بما استدعاه. فقال له يوماً: ويحك، إني أصوم معك، فقال له الطباخ: سهل كلامك حتى يسهل طعامك، فيقول: يا بن اللخناء أفأدع عربيتي لعيك؟ وكان يونس من أهل جبل، وهي بليدة على دجلة بين بغداد وواسط، وكان لايؤثر أن ينسب إليها، فلقيه رجل من بني أبي عمير فقال له: يا أبا عبد الرحمن، ما تقول في جبل أتنصرف أم لا؟ فشتمه يونس. فالتفت العميري فلم ير أحداً يشهده عليه. حتى إذا كان الغد مجلس للناس أتاه العميري فقال: يا أبا عبد الرحمن، ما تقول في جبل. أتنصرف أم لا؟ فقال له يونس: الجواب ما قلته لك أمس.

وجبل: بفتح الجيم وضم الباء الموحدة المشددة، كذا قال الحافظ بن السمعاني في كتاب " الأنساب ".

وهذه جبل منها أبو الخطاب الجبلي الشاعر المشهور، ومن شعره قوله:

كم جبت نحوك مهمهاً لو لم يعن شوقي عليه لما قدرت أجوبه

وركبت أخطاراً إليك مخوفة ولحبذا خطرٌ إليك ركوبه

قال السمعاني: وتوفي أبو الخطاب المذكور في ذي القعدة سنة تسع وثلاثين وأربعمائة، وكان بينه وبين أبو العلاء المعري مشاعرة، وكتب إليه أبو العلاء قصيدته التي أولها:

غير مجد في ملتي واعتقادي

قلت: وهذا غلط منه، بل كتبها أبو العلاء المعري إلى أبي حمزة الحسن بن عبد الله الفقيه الحنفي قاضي منبج، كان، وقد ذكر ذلك الفقيه القاضي كمال الدين عرف بابن العديم الحلبي.

وحبيب: اسم أمه ولهذا لا يصرفونه، فإنه لا يعرف له أب، ويقال إنه ولد ملاعنة، ويقال إنه اسم أبيه فينصرف، والله أعلم، وكذلك محمد بن حبيب النسابة أيضاً.

ودخل يونس المسجد يوماً وهو يتهادى بين اثنين من الكبر، فقال له رجل كان يتهمه في مودته: بلغت ما أرى يا أبا عبد الرحمن، فقال: هو الذي ترى، لا بلغته، فأخذ هذا المعنى جماعة من الشعراء فنظموه.

وقال أبو الخطاب زياد بن يحيى: مثل يونس كمثل كوز ضيق الرأس لا يدخله شيء إلا بعسر، فإذا دخله لم يخرج منه، يعني أنه لا ينسى شيئاً.

وقد ذكرت تاريخ مولده وموته في أول الترجمة، وقيل إنه توفي سنة ثلاث وثمانين، وقيل خمس وثمانين، وقال عبد الباقي بن قانع، سنة أربع وثمانين ومائة، والله أعلم. وقيل إنه عاش ثمانياً وتسعين سنة، رحمه الله تعالى.

يونس بن عبد الأعلى الصدفي

أبو موسى يونس بن عبد الأعلى بن موسى بن ميسرة بن حفص بن حيان، الصدفي المصري الفقيه الشافعي؛ أحد أصحاب الشافعي رضي الله عنه، والمكثرين في الرواية عنه والملازمة له، وكان كثير الورع متين الدين، وكان علامة في علم الأخبار والصحيح والسقيم، لم يشاركه في زمانه في هذا أحد –وقد سبق في هذا الكتاب ذكر حفيده أبي سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس، وهو المنجم المشهور، صاحب الزيج، وكل واحد منهما إمام في فنه –.

وأخذ يونس القراءة عرضا عن ورش وسقلاب بن شيبة ومعلى بن دحية، عن نافع وعن علي بن أبي كيسة عن سليم عن حمزة بن حبيب الزيات.
وسمع سفيان بن عيينة وعبد الله بن وهب المصري. وروى القراءة عنه مواس بن سهل ومحمد بن الربيع وأسامة بن أحمد ومحمد بن إسحاق بن خزيمة ومحمد بن جرير الطبري وغيرهم. وكان محدثاً جليلاً.

وذكره أبو عبد الله القضاعي في كتاب "خطط مصر"، فقال: كان من أفضل أهل زمانه وكان من العقلاء، يروى عن الشافعي رضي الله عنه أنه قال: ما رأيت بمصر أعقل من يونس بن عبد الأعلى. وصحب الشافعي وأخذ عنه الحديث والفقه، وحدث بهما عنه جماعة، وله حبس في ديوان الحكم وعقب، وله دار مشهورة في خطة الصدف مكتوب عليها اسمه، وتاريخها سنة خمس عشرة ومائتين، وكان أحد الشهود بمصر، أقام شاهداً ستين سنة.
وذكر غير القضاعي أن يونس بن عبد الأعلى روى عنه الإمام مسلم بن الحجاج القشيري وأبو عبد الرحمن النسائي وأبو عبد الله بن ماجه وغيرهم.

وقال أبو الحسن ابن زولاق في كتاب "أخبار قضاة مصر": إن القاضي بكار بن قتيبة لما تولى قضاء مصر وتوجه إليها من بغداد لقي في طريقه محمد بن الليث، قاضي مصر كان قبله، بالحفار خارجاً من مصر إلى العراق مصروفاً، فقال له بكار: أنا رجل غريب، وأنت قد عرفت البلد فدلني على من أشاوره وأسكن إليه، فقال له: عليك برجلين: أحدهما عاقل وهو يونس بن عبد الأعلى، فإني سعيت في دمه فقدر علي فحقن دمي، والآخر أبو هارون موسى بن عبد الرحمن بن القاسم فإنه رجل زاهد. فقال له بكار: صف لي الرجلين فقال له: أما يونس فرجل طوال أبيض، ووصفه ووصف موسى.
فلما دخل بكار مصر ودخل الناس إليه دخل شيخ فيه صفة يونس، فرفعه بكار وأقبل يحدثه، ويقول: يا أبا موسى في كل حديثه، فبينا بكار كذلك إذ قيل له: قد جاء يونس، فأقبل على الرجل وقال له: يا هذا من أنت؟ وما سكوتك كذا لو أفشيت إليك سراً لي! ثم دخل يونس فأكرمه ورفعه، وأتاه موسى بن عبد الرحمن فاختص بهما وأخذ رأيهما.
وقيل أن موسى المذكور اختص به القاضي بكار، وكان يتبرك به لزهده، فقال له يوماً: يا أبا هارون من أين المعيشة؟ قال: من وقف وقفة أبي، فقال له بكار: أيكفيك؟ قال: قد تكفيت به، وقد سألني القاضي فأريد أن أسأله، قال: سل، قال: هل ركب القاضي دينٌ بالبصرة حتى تولى بسببه القضاء؟ قال: لا، قال: فهل رزق ولداً أحوجه إلى ذلك، قال: لا، ما نكحت قط، قال: فهل لك عيال كثيرة؟ قال: لا، قال: فهل أجبرك السلطان وعرض عليك العذاب وخوفك؟ قال: لا، قال: فضربت آباط الإبل من البصرة إلى مصر لغير حاجة ولا ضرورة، لله علي لا دخلت عليك أبداً. فقال: يا أبا هارون أقلني، قال: أنت بدأت بالمسألة، ولو سكت لسكت. ثم انصرف عنه و لم يعد إليه بعدها.
وقال يونس: رأيت في المنام قائلاً يقول لي: إن اسم الله الأكبر "لا إله إلا الله".
ونقلت من كتاب "المنتظم في أخبار من سكن المقطم" قال في ترجمة يونس المذكور: ومن حكاياته التي حكاها عن غيره، أن رجلاً جاء إلى نحاس، فقال له: أسلفني ألف دينار إلى أجل، فقال له النحاس: من يضمن المبلغ؟ قال: الله تعالى، فأعطاه ألف دينار، فسافر بها الرجل يتجر، فلما بلغ الأجل أراد الخروج إليه، فحبسه عدم الريح، فعمل تابوتاً وجعل فيه ألف دينار، وأغلقه وسمره وألقاه في البحر، فقال: اللهم هذا الذي ضمنته لي، فخرج صاحب المال ينتظر قدوم الذي معه المال، فرأى سواداً في البحر فقال: ايتوني بهذا، فأتي بالتابوت ففتحه، فإذا فيه ألف دينار.
ثم إن الرجل جمع ألفاً بعد ذلك، وطابت الريح، فجاء إلى النحاس وسلم عليه، فقال له النحاس: من أنت؟ فقال: أنا صاحب الألف، هذه ألفك، فقال النحاس: لا أقبلها منك حتى تخبرني ما صنعت بها، فأخبره بالذي صنع، وأن الريح لم تطب، فقال له النحاس: قد أدى الله عز وجل عنك الألف ووصلت.
وله أخبار كثيرة، وروايات مأثورة. وكان يونس يروي للشافعي رضي الله عنه:

ما حك جلدك مثل ظفرك فتول أنت جميع أمرك

وإذا قصدت لحاجةٍ فاقصد لمعترفٍ بقدرك

وقال يونس: قال لي الشافعي رضي الله عنه: يا يونس، دخلت بغداد؟ قلت: لا، قال: ما رأيت الدنيا ولا رأيت الناس.

وقال يونس: سمعت من الشافعي كلمة لا تسمع إلا من مثله، وهي "رضى الناس غاية لا تدرك، فانظر ما فيه صلاح نفسك في أمر دينك ودنياك فالزمه".

وقال علي بن قديد: كان يونس بن عبد الأعلى يحفظ الحديث ويقوم به. وذكره أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسوي فقال: هو ثقة؛ وقال غيره: ولد يونس في ذي الحجة سنة سبعين ومائة، وتوفي يوم الثلاثاء ليومين بقيا من شهر ربيع الآخر سنة أربع وستين ومائتين، وهي السنة التي مات فيها المزني رحمه الله تعالى، وكانت وفاته بمصر، ودفن بمقابر الصدف، وقبره مشهور بالقرافة.

وأما أبوه عبد الأعلى فإنه يكنى أبا سلمة، وكان رجلاً صالحاً، ومن كلامه: من اشترى ما لا يحتاج إليه باع ما يحتاج إليه، وقال ولده يونس: والأمر عندي كما قال. وتوفي عبد الأعلى المذكور في المحرم سنة إحدى ومائتين، ومولده سنة إحدى وعشرين ومائة.

وأما ابنه أبو الحسن أحمد بن يونس، والد أبي سعيد عبد الرحمن بن أحمد صاحب "تاريخ مصر"، فإن ابنه أبا سعيد عبد الرحمن بن أحمد ذكر في تاريخه أنه ولد في ذي القعدة سنة أربعين ومائتين، وتوفي يوم الجمعة أول يوم من رجب سنة اثنتين وثلثمائة، وقال: هو عديد للصدف، وليس من أنفس الصدف، ولا من مواليهم.

والصدفي: بفتح الصاد والدال المهملتين وبعدهما فاء. هذه النسبة إلى الصدف، بكسر الدال، وذكر السهيلي أنه بكسر الدال وفتحها، وإنما فتحوا الدال قي النسب مع كسرها في غير النسب كي لا يوالوا بين كسرتين قبل ياءين كما قالوا في النسبة إلى النمر نمري وغير ذلك. واختلفوا في اسم الصدف فقيل: هو مالك بن سهيل بن عمرو بن قيس، هكذا قاله القضاعي في كتاب –الخطط – وزاد السمعاني في كتاب "الأنساب" على هذا النسب، فقال: الصدف بن سهيل بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جشم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن حيدان بن قطن بن عريب بن زهير بن أيمن بن هميسع بن حمير بن سبأ، وقال الدارقطني: واسم الصدف شهال بن دعمي بن زياد بن حضرموت، وقال الحازمي في كتاب "العجالة في النسب": هو عمرو بن مالك والله أعلم. وقال القضاعي: دعوتهم مع كندة، وإنما سمي الصدف لأنه صدف بوجهه عن قومه حين أتاهم سيل العرم، فأجمعوا على ردمه، فصدف عنهم بوجهه تلقاء حضرموت فسمي الصدف. وقيل إنما سمي الصدف لأنه كان رجلاً شجاعاً لا يذعن لأحد من العرب، فبعث إليه بعض ملوك غسان رسولاً ليقدم به عليه. فعدا على الرسول فقتله وخرج هارباً، فبعث الملك إليه رجلاً في خيل عظيمة، فكان كلما جاء حياً من أحياء العرب سأل عن الصدف، فيقولون: صدف عنا، وما رأينا له وجهاً، فسمي الصدف من يومئذ، ثم لحق بكندة فنزل فيهم. قال أرباب علم النسب: أكثر الصدف بمصر وبلاد المغرب، والله أعلم.

قلت: قد خرجنا عن المقصود لكنه ما يخلو عن فائدة.

رضي الدين الإربلي

أبو الفضل يونس بن محمد بن منعة بن مالك بن محمد بن سعد بن سعيد بن عاصم بن عائد بن كعب بن قيس، الملقب رضي الدين الإربلي، والد الشيخين عماد الدين أبي حامد محمد، وكمال الدين أبي الفتح موسى – وقد تقدم ذكرهما – قلت: هكذا وجدت نسبه بخط بعض أصحابنا المتأدبين، ولم أعلم من أين له هذه الزيادة، والذي أعرفه من نسبه هو الذي ذكرته في ترجمة ولديه، والله أعلم.

كان الشيخ يونس المذكور من أهل إربل ومولده بها، وقدم الموصل فتفقه بها على تاج الإسلام أبي عبد الله الحسين بن نصر المعروف بابن خميس الكعبي الجهني – المقدم ذكره – وسمع عليه كثيراً من كتبه ومسموعاته، ثم انحدر إلى بغداد وتفقه بها على الشيخ أبي منصور سعيد بن محمد بن عمر المعروف بابن الرزاز مدرس النظامية، ثم أصعد إلى الموصل وتديرها وصادف بها قبولاً تاماً عند المتولي بها الأمير زين الدين أبي الحسن علي بن بكتكين والد الملك

المعظم مظفر الدين صاحب إربل – المقدم ذكره في حرف الكاف – وفوض له تدريس مسجده المعروف به وجعل نظره إليه، فكان يدرس ويفتي ويناظر، وتقصده الطلبة للاشتغال عليه والمباحثة مع ولديه المذكورين، و لم يزل على قدم الفتوى والتدريس والمناظرة إلى أن توفي بالموصل يوم الإثنين سادس المحرم سنة ست وسبعين وخمسمائة. وسمعت بعض خواصهم يقول: توفي سنة خمس وسبعين. وأما ولده الشيخ كمال الدين فكان يقول: بل توفي سنة ست وسبعين، وهو أعلم بذلك. ودفن بتربته المجاورة لمسجد زين الدين المذكور، رحمه الله تعالى، وكان عمره ثمانيا وستين سنة.

وقد تقدم ذكر حفيده أيضاً شرف الدين أحمد بن الشيخ كمال الدين موسى بن يونس المذكور، رحمهم الله تعالى. وعلى الجملة فإنه خرج من بيتهم جماعة من الفضلاء، وانتفع بهم أهل تلك البلاد وغيرهم، وكانوا مقصودين من بلاد العراق والعجم وغيرها. رحمهم الله تعالى أجمعين.

وله شعر، فمن ذلك قوله:

لها زورةٌ في كل عامٍ وتارةً ... تمر شهور الحول لا نتجمع

وصالٌ وصدٌ لا لشيءٍ سوى أنها ... على خلق الدنيا تجود وتمنع

وله غير ذلك، والله أعلم.

يونس المخارقي

يونس بن يوسف بن مساعد الشيباني ثم المخارقي، شيخ الفقراء اليونسية، وهم منسوبون إليه ومعروفون به، كان رجلاً صالحاً وسألت جماعة من أصحابه عن شيخه من كان فقالوا: لم يكن له شيخ، بل كان مجذوباً، وهم يسمون من لا شيخ له بالمجذوب، يريدون بذلك أنه جذب إلى طريق الخير والصلاح، ويذكرون له كرامات.

أخبرني الشيخ محمد بن أحمد بن عبيد، كان قد رآه وهو صغير، وذكر أن أباه أحمد كان صاحبه، فقال: كنا مسافرين والشيخ يونس معنا، فترلنا في الطريق على عين بوار، وهي التي يجلب منها الملح البواري، وهي بين سنجار وعانة، قال: وكانت الطريق مخوفة، فلم يقدر أحد منا أن ينام من شدة الخوف ونام الشيخ يونس، فلما انتبه قلت له: كيف قدرت تنام؟ فقال لي: والله مانمت حتى جاء إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام وتدرك القفل. فلما أصبحنا رحلنا سالمين ببركة الشيخ يونس.

قال: وعزمت مرة على دخول نصيبين، وكنت عند الشيخ يونس في قريته، فقال: إذا دخلت البلد فاشتر لأم مساعد كفناً، قال: وكانت في عافية، وهي أم ولده، فقلت له: وما بها حتى نشتري لها كفناً؟ فقال: ما يضر، فذكر أنه لما عاد وجدها قد ماتت. وذكر له غير هذا من الأحوال والكرامات.

وأنشد له مواليا، وهو:

أنا حميت الحمى وانا سكنتو فيه ... وأنا رميت الخلايق في بحار التيه

من كان يبغي العطا مني أنا أعطيه ... أنا فتى ما أداني من به تشبيه

وذكر لي الشيخ محمد المذكور أن الشيخ يونس توفي سنة تسع عشرة وستمائة في قريته، وهي القنية من أعمال دارا، وهي بضم القاف وفتح النون وتشديد الياء المثناة من تحتها، تصغير قناة، وقبره مشهور بها يزار، وكان قد ناهز تسعين سنة من عمره، رحمه الله تعالى.

قال المصنف ما مثاله: نجز الكتاب الذي سميته "وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان" بحمد الله ومنه، وذلك في يوم الإثنين العشرين من جمادى الآخرة سنة اثنتين وسبعين وستمائة بالقاهرة المحروسة.

يقول الفقير إلى الله تعالى أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلكان مؤلف هذا الكتاب: إنني كنت قد شرعت في هذا الكتاب في التاريخ المذكور في أوله على الصورة التي شرحتها هناك، مع استغراق الأوقات في فصل القضايا الشرعية والأحكام الدينية بالقاهرة المحروسة، فلما انتهيت فيه إلى آخر ترجمة يحيى بن خالد بن برمك حصلت لي حركة إلى الشام المحروس في خدمة الركاب العالي المولوي السلطاني المجاهدي المرابطي المفاخري المؤيدي المنصوري الغيائي المنعمي المحسني الملكي الظاهري، ركن الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، أبي الفتح بيبرس قسيم أمير المؤمنين، خلد

الله سلطانه، وشيد بدوام دولته قواعد الملك وثبت أركانه، وكان الخروج من القاهرة المحروسة يوم الأحد سابع شوال سنة تسع وخمسين وستمائة، ودخلنا دمشق يوم الإثنين سابع ذي القعدة من السنة المذكورة، وقلدني الأحكام بالبلاد الشامية يوم الخميس ثامن ذي الحجة من السنة المذكورة، فتراكمت الأشغال، وكثرت الموانع الصارفة عن إتمام هذا الكتاب، فاقتصرت على ما كنت قد أثبته من ذلك، وختمت الكتاب، واعتذرت في آخره بهذه الشواغل عن إكماله وقلت: إن قدر الله تعالى مهلة في الأجل وتسهيلاً في العمل، أستأنف كتاباً يكون جامعاً لجميع ما تدعو الحاجة إليه في هذا الكتاب.

ثم حصل الانفصال عن الشام والرجوع إلى الديار المصرية، وكان مدة المقام بدمشق المحروسة مدة عشر سنين كوامل لا تزيد يوماً ولا تنقص يوماً، فإني دخلتها في التاريخ المذكور، وخرجت منها بكرة نهار الخميس ثامن ذي القعدة من سنة تسع وستين وستمائة. فلما وصلت إلى القاهرة صادفت بها كتباً كنت أوثر الوقوف عليها، وما كنت أتفرغ لها، فلما صرت أفرغ من حجام ساباط بعد أن كنت أشغل من ذات النحيين، كما يقال في هذين المثلين، طالعت تلك الكتب، وأخذت منها حاجتي ثم تصديت لإتمام هذا الكتاب حتى كمل على هذه الصورة، وأنا على عزم الشروع في الكتاب الذي وعدت به إن قدر الله تعالى ذلك، والله يعين عليه ويسهل الطرق المؤدية إليه، فمن وقف على هذا الكتاب من أهل العلم، ورأى فيه شيئاً من الخلل، فلا يعجل بالمؤاخذة فيه، فإني توخيت فيه الصحة حسبما ظهر لي، مع أنه كما يقال: أبى الله أن يصح إلا كتابه، لكن هذا جهد المقل، وبذل الاستطاعة، وما يكلف الإنسان إلا ما تصل قدرته إليه، وفوق كل ذي علم عليم، وقد تقدم في أول هذا الكتاب الاعتذار عن الدخول في هذا الأمر والحامل عليه، فأغنى عن إعادته ها هنا، والله يستر عيوبنا بستر كرمه الضافي، ولا يكدر علينا ما منحنا من مشرع اغضائه النمير الصافي، إن شاء الله تعالى.

الفهرس